

سلسلة المريخ

برسوم

12 قصة

11 جزء

جون كارتر

ترجمة: شهرت العالم





أميرة المريخ

إدجار رايس بوروز

ترجمة: شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

مقدمة المؤلف

إلى قارئ هذا العمل:

أعتقد يجدر التحدث قليلاً عن شخصية كابتن كارتر الرائعة، قبل تقديم مخطوطه الغريب على شكل كتاب.

تعود ذاكرتي الأولى عن كابتن كارتر إلى تلك الأشهر القليلة التي أمضاها في منزل والدي في فرجينيا، قبل بداية الحرب الأهلية مباشرة. كنت آنذاك طفلاً، أبلغ من العُمر خمس سنوات، لكنني أتذكر جيدًا ذلك الرجل الرياضي الطويل، ذا الوجه المكفهر الأملس، الذي كنت أدعوه العم جاك.

كان يبدو ضاحكًا على الدوام. يشارك الأطفال في ألعابهم الرياضية بروح الزمالة القلبية الطيبة نفسها التي يشارك بها الرجال والنساء من نفس عُمره في التسلية والترفيه، أو يجلس لمدة ساعة للترفيه عن جدتي العجوز بسرد قصص حياته الغريبة الجامحة في أنحاء العالم كافة. كنا جميعًا نحبه، وكان العبيد الذين يعملون لدينا يقدسون الأرض التي تطأها قدماه.

كان نموذجًا رائعًا للرجولة؛ يبلغ طوله ستة أقدام وبوصتين، عريض الكتفين، أوراكه نحيلة، ويحمل سمات الرجل المُدرَّب على القتال. كانت ملامحه واضحة ومحددة، وشعره قصيراً أسود، بينما كانت عيناه من اللون الرمادي الداكن وتعكس شخصية قوية ومُخلصة، ومليئة بالحماس والمبادرة. كما كان على خُلُق، ويتصف بأعلى درجات اللطفَ والود التي يتسم بها سيد مهذب من الجنوب.

تمتع بقدرة مدهشة على ركوب الخيل، لا سيما في تتبع كلاب الصيد، حتى في هذا البلد الذي يضم نخبة من أروع الفرسان. وكثيراً ما سمعت أبي وهو يحذره من تهوره الجامح، لكنه كان يضحك وهو يقول: «لم يولد بعد ذلك الحصان الذي يقتلني السقوط من فوق ظهره».

لقد تركنا عندما اندلعت الحرب، ولم أره مرة أخرى لحوالي 15 أو 16 سنة تقريبًا، ثم عاد دون سابق إنذار. فوجئت كثيراً عندما شاهدته؛ كان يبدو كما هو دون أن يشيخ ولو للحظة، كما لم يطرأ عليه أي تغيير. وخلال وجود الآخرين معه، كان نفس الزميل اللطيف السعيد الذي نعرفه منذ زمن. لكنني رأيته، متصوراً أنه بمفرده، يجلس لساعات

يحدق نحو الفضاء وعلى وجهه نظرة شوق حزين وبؤس يائس؛ وفي الليل يجلس ناظرًا إلى السماء، باحثًا عن شيء لم أعرفه، إلى أن قرأت هذا المخطوط بعد ذلك بسنوات.

أخبرنا أنه قام في فترة ما بالتنقيب والتعدين في أريزونا منذ الحرب، وأنه حقق نجاحًا كبيرًا تجلى في تلك الكمية غير المحدودة من المال التي حصل عليها. أما عن تفاصيل حياته خلال تلك السنوات، فقد كان شديد التحفظ، وفي الواقع لم يتحدث عنها إطلاقًا.

استمر وجوده معنا لمدة عام تقريبًا ثم ذهب إلى نيويورك، حيث اشترى مكانًا صغيرًا يطل على نهر هدسون. واعتدت زيارته مرة في السنة خلال رحلاتي إلى سوق نيويورك – فقد كنت ووالدي نمتلك سلسلة من المتاجر العامة في جميع أنحاء فرجينيا في ذلك الوقت. اقتنى كابتن كارتر كوخًا صغيرًا، لكنه جميل، يقع على منحدر يطل على النهر. وخلال إحدى زياراتي الأخيرة، في شتاء عام 1885، لاحظت انشغاله الشديد بالكتابة؛ والآن أعتقد أنه كان منشغلاً بكتابة هذا المخطوط.

قال لي في تلك المرة إنه يسعده أن أتولى مسؤولية ممتلكاته إذا حدث له أي شيء، وأعطاني مفتاحًا لدرج صغير في خزنة بغرفة مكتبه وهو يقول إنني سأجد فيه وصيته وبعض التعليمات الشخصية التي جعلني أتعهد بتنفيذها بنفسي بإخلاص مطلق.

بعد ذلك اليوم، كنت أراه ليلاً من نافذتي وهو يقف في ضوء القمر على حافة المنحدر المُطل على نهر هدسون وذراعاه ممدودتان إلى السماء كأنما في حالة مناجاة. تصورت حينذاك أنه يُصلي، على الرغم من معرفتي أنه لم يكن أبدًا متدينًا بالمعنى الحرفي للمصطلح.

بعد عدة أشهر من عودتي لمنزلي بعد زيارتي الأخيرة له، تسلمت منه في أول مارس 1886، على ما أعتقد، برقية يطلب مني فيها أن أذهب إليه على الفور. لقد كنت دومًا مُفضَّلاً لديه من بين جيل كارتر الأصغر، ولذا أسرعت إلى تنفيذ طلبه.

وصلت في صباح يوم 4 مارس 1886 إلى المحطة الصغيرة التي تبعد نحو ميل من موقع سكنه. وعندما طلبت من سائق عربة الخيول أن يأخذني إلى كابتن كارتر، أخبرني أنني إذا كنت صديقًا للكابتن، فهناك

أنباء سيئة للغاية تنتظرني؛ فقد وُجِد الكابتن ميتًا بعد طلوع النهار بفترة قصيرة هذا الصباح؛ وجده حارس العقار المجاور.

ولسبب ما لم يكن هذا الخبر مفاجئًا لي، لكنني توجهت إلى سكنه بأسرع ما يمكن لكي أقوم بما يلزم لجثمانه، وأتولى باقي شؤونه.

وجدت الحارس الذي اكتشف موت كابتن كارتر واقفًا مع رئيس الشرطة المحلية والعديد من سكان البلدة مجتمعين في غرفة مكتب الكابتن. حكى الحارس بعض التفاصيل المرتبطة بالعثور عليه، وقال إن جثمانه كان دافئًا عندما وصل إليه، ممددًا وسط الجليد، وذراعاه ممدودتان فوق رأسه في اتجاه حافة المنحدر. وعندما أخذني لأرى الموقع، تذكرت أنه المكان نفسه تحديدًا الذي رأيت فيه كابتن كارتر في إحدى تلك الليالي رافعًا ذراعيه إلى السماء متضرعًا.

لم يحمل جثمانه أي علامات على العنف. وتمكن المحققون الشرعيون، بمساعدة الطبيب المحلي، من التوصل إلى قرار بأن سبب الوفاة هو السكتة القلبية. بقيت بمفردي في غرفة المكتب، فتحت الخزنة وأخرجت محتويات الدرج الذي أخبرني أنني سأجد فيه التعليمات التي تركها لي. كانت غريبة إلى حد ما بالفعل، لكني اتبعتها بكل تفاصيلها وبكل ما أمكنني من إخلاص.

طلب مني نقل جثمانه إلى فرجينيا دون تحنيط، وأن يوضع في نعش مفتوح داخل القبر الذي بناه سابقًا، والذي كان - كما عرفت في ما بعد - جيد التهوية. أجبرتني التعليمات أن أتولى بنفسي الإشراف على التنفيذ على النحو الذي أراده تمامًا، حتى سرًّا إن لزم الأمر.

لقد ترك ممتلكاته بطريقة تجعلني أحصل على كامل دخلها لمدة 25 سنة، وعندئذ أصبح المالك. أما تعليماته الأخرى، فكانت تتعلق بهذا المخطوط الذي كان يجب أن أحتفظ به مختومًا ودون قراءة، أي كما وجدته تمامًا، لمدة 11 سنة؛ ولا أكشف عن محتوياته إلا بعد مرور 21 سنة على وفاته.

هناك ملمح غريب يتعلق بقبره، حيث لا يزال جثمانه راقدًا، وهو أن بابه الكبير كان مُجهزًا بقفل زنبركي ضخم منفرد، مطلي بالذهب، ولا يمكن فتحه إلا من الداخل.

المخلص،

إدجار رايس بوروز

* * *

(1)
فوق تلال أريزونا

أنا رجل عجوز جدًّا، لكنني لا أعرف كم بلغت من العُمر. ربما مائة عام، ربما أكثر؛ لا أستطيع التحديد، فلم أصبح شيخًا أبدًا مثل باقي الرجال، كما لا أتذكر طفولتي. وبقدر ما يمكنني أن أتذكر، كنت دائمًا رجلاً، رجلاً في حوالي الثلاثين من العمر. وأنا أبدو اليوم كما كنت أبدو منذ أربعين سنة وأكثر، ومع ذلك أشعر أنني لا يمكن أن أعيش إلى الأبد، وأنني سأموت في يوم ما موتًا حقيقيًّا، حيث لا تتجدد الحياة. لا أعرف لماذا أخشى الموت، وأنا الذي توفيت مرتين ولا زلت على قيد الحياة؛ لكن شعوري بالرعب من الموت هو نفس شعور أولئك الذين لم يموتوا بعد، وأعتقد أنني بسبب هذا الرعب من الموت أثق تمامًا أنني سأموت.

وبسبب هذه الثقة، قررت كتابة قصة فترات حياتي وموتي المثيرة. لا يمكنني شرح هذه الظواهر، وإنما يمكنني هنا أن أدون فقط -بكلمات جندي مرتزق عادي- تسجيلاً للأحداث الغريبة التي مررت بها خلال السنوات العشر التي ظل فيها جسدي الميت غير مُكتَشَف في كهف بأريزونا.

لم أخبر أحدًا بهذه القصة أبدًا، كما لن يطلع أي إنسان على هذا المخطوط إلا بعد أن أنتقل إلى الحياة الأبدية. أعرف أن العقل البشري المتوسط لن يصدق ما لا يستطيع فهمه، ولذا لا أود أن أصبح مثارًا لسخرية الناس وموضوعًا لمنابر الوعظ والصحافة، ويعتبرونني كاذبًا كبير، وأنا لا أحكي سوى حقائق بسيطة سوف يثبتها العِلم في يوم ما. ربما تساعد الأفكار التي اكتسبتها على كوكب المريخ، والمعرفة التي يمكنني إيرادها في هذا التسجيل للوقائع، على فهم مبكر لألغاز ذلك الكوكب الشقيق؛ ألغاز بالنسبة لكم، لكنها لم تعُد ألغازًا بالنسبة لي.

اسمي جون كارتر، ومعروف باسم الكابتن جاك كارتر من فيرجينيا. بعد نهاية الحرب الأهلية، وجدت نفسي أمتلك مئات الآلاف من الدولارات (الكونفدرالية)، وحاصل على رتبة كابتن في سلاح الفرسان بجيش لم يعد موجودًا؛ خادم لدولة تلاشت مع تلاشي آمال الجنوب. كنت بلا قائد، ومُفلس، وانتهت وسيلتي الوحيدة لكسب العيش - أي القتال. فقررت أن أتخذ طريقي إلى الجنوب الغربي في محاولة لاستعادة ثروتي عن طريق البحث عن الذهب.

قضيت ما يقرب من سنة في أعمال التنقيب مع ضابط كونفدرالي آخر: الكابتن جيمس ك. باول من ريتشموند. كنا محظوظين جدًّا؛ ففي أواخر شتاء عام 1865، وبعد العديد من المصاعب والحرمان، توصلنا إلى عِرق كوارتز مُحمل بذهب أفضل مما كان يمكن أن تتصوره أقصى أحلامنا على الإطلاق. قال باول، وكان مهندس تعدين بحكم دراسته، إننا وجدنا ما قيمته أكثر من مليون دولار من الخام خلال فترة تزيد قليلاً على ثلاثة أشهر.

ونظرًا لأن معداتنا كانت شديدة البساطة، فقد قررنا أن يعود أحدنا إلى المدينة ويشتري الآلات اللازمة ثم يرجع ومعه قوة كافية من الرجال المناسبين للعمل في المنجم.

ولأن باول كان على دراية بالبلد، فضلاً عن درايته بمتطلبات التعدين الميكانيكية، قررنا أنه الأفضل للقيام بهذه الرحلة. واتفقنا أن أبقى لمواجهة أي احتمال بعيد لأن يقفز علينا أي مُنقب متجول.

في 3 مارس 1866، جمعت مع باول المؤن اللازمة ووضعناها فوق حمارين صغيرين، ثم ودعني باول وهو يمتطي حصانه، وبدأ رحلته أسفل سفح الجبل متجهًا نحو الوادي الذي بدأ منه المرحلة الأولى من رحلته.

كان صباح يوم رحيله صافيًا وجميلاً، مثل كل صباح تقريبًا في أريزونا. رأيته، والدواب التي تحمل أمتعته، يختار طريقه أسفل سفح الجبل نحو الوادي؛ وطوال الصباح كنت ألمحهم بين الفينة والفينة عن بُعد وهم يصعدون إلى قمة تل أو يصلون إلى هضبة مستوية. آخر مرة رأيت فيها باول كانت حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، وبعدها غاب في ظلال سلسلة الجبال التي تقع على الجانب الآخر من الوادي.

وبعد حوالي نصف ساعة، لمحتهم مصادفة عبر الوادي؛ وأدهشني كثيرًا ملاحظة وجود ثلاث نقاط صغيرة في نفس المكان تقريبًا الذي رأيت فيه صديقي ودابتيه آخر مرة. لم أستسلم لقلق لا داع له، لكنني كلما حاولت إقناع نفسي أن الأمور تسير بشكل جيد مع باول وأن النقاط التي رأيتها على طريق مسيرته ليست سوى ظباء أو خيول برية، تقلصت قدرتي على طمأنة نفسي.

لم نشهد أي هندي عدائي منذ أن دخلنا المنطقة، ولذا أصبحنا في أقصى حالات اللامبالاة، واعتدنا على السخرية من القصص التي سمعناها عن الأعداد الكبيرة من أولئك اللصوص الأشرار الذين من المفترض أنهم يطاردون مسارات الطرق، ويوقعون خسائر في الأرواح، ويعذبون كل شخص أبيض يسقط في براثنهم التي لا ترحم.

كنت أعرف أن باول مسلح بشكل جيد، كما أنه مقاتل هندي يتمتع بالخبرة. لكني عشت وحاربت أيضًا لسنوات مع الهنود الحُمر من قبيلة سيوكس في الشمال، ولذا كنت أعرف أن فرصه ضئيلة في مواجهة قبائل الأباتشي الماكرين الذين يتابعون مسارات الطرق. على أنني في النهاية لم أعُد قادرًا على تحمُّل القلق، فسلحت نفسي بمسدسين كولت وبندقية قصيرة، وربطت حول خصري حزامين من الأعيرة النارية وامتطيت حصاني، وبدأت أهبط في نفس المسار الذي اتخذه باول صباح اليوم.

ما إن وصلت إلى أرض مستوية نسبيًّا، دفعت حصاني للاستمرار في الاتجاه الذي يتيحه المسار إلى أن حل المساء، حيث اكتشفت البقعة التي اختلطت فيها آثار مسارات أخرى مع آثار مسار باول. كانت آثار لمسارات ثلاثة مهور تركض بلا حدوات.

واصلت سريعًا إلى أن حل الظلام، حيث كنت مضطرًّا إلى انتظار صعود القمر؛ مما أتاح لي فرصة التأمل في مدى حكمة هذه الملاحقة. ربما استحضرت في ذهني أخطارًا مستحيلة، مثلما تفعل ربة منزل عصبية عجوز، ثم أعود وأقول لنفسي سوف أضحك من قلقي كثيرًا عندما ألحق بباول. على أنني لست سريع التأثر، واتباعي للشعور بالواجب - بغض النظر عما قد يؤدي إليه – كان دومًا نوعًا من الطيف الذي يلازمني طوال حياتي؛ وربما هو سبب التكريم الذي منحته لي ثلاث جمهوريات، فضلًا عن الأوسمة والصداقات مع إمبراطور عجوز وقوي والعديد من الملوك الأدنى مرتبة، الذين خدمهم سيفي في أحيان كثيرة.

أشرق القمر، في حوالي الساعة التاسعة، بما يكفي كي أمضي قدمًا في طريقي. لم أجد أي صعوبة في اتباع الدرب بخطوات سريعة، وفي بعض الأماكن بهرولة منعشة، حتى وصلت في حوالي منتصف الليل إلى منخفض يتجمع فيه الماء حيث كان من المتوقع أن يُعسكر باول بجواره. وصلت إلى هذه البقعة بشكل غير متوقع، ووجدتها مهجورة تمامًا، دون أي علامات على إقامة معسكر فيها مؤخرًا.

لفت نظري أن مسارات الفرسان، الذين أصبحت مقتنعًا بمتابعتهم لباول، استمرت وراءه بعد مجرد توقف قصير عند منخفض الماء؛ ودائمًا بنفس معدل سرعته.

تأكدت الآن أن هؤلاء المتابعين لمساره كانوا من الأباتشي، وأنهم يرغبون في الإمساك به حيًّا لإشباع متعتهم الوحشية في التعذيب. ولذا قمت بحث حصاني على المضي بخطوات محفوفة بالخطر، على أمل اللحاق بالأوغاد الحُمر قبل أن يهاجموه.

وفجأة توقفت عن مزيد من التكهنات بعد سماعي صوتًا ضعيفًا لطلقتين من على بُعد. أدركت أن باول يحتاجني الآن أكثر من أي وقت، فانطلقت بحصاني على الفور بأقصى سرعة صعودًا في مسار جبلي ضيق ووعر.

واصلت طريقي ربما لمسافة ميل أو أكثر دون سماع أصوات أخرى، وفجأة وجدتني أخرج من الممر الضيق إلى هضبة صغيرة مفتوحة بالقرب من قمة الطريق. عبرتُ ممرًا مُعلقًا ضيقًا قبل دخولي مباشرة وفجأة إلى أرض هذا السهل الواسع، وأصابني المشهد الذي رأته عيناي بالذعر والفزع.

كان الامتداد القليل للأرض المستوية أبيض اللون وعليه خيام هندية، وهناك ربما نصف ألف محارب أحمر يتجمعون حول شيء ما بالقرب من وسط المخيم. لم يلحظني أحد لأن اهتمامهم كان منصبًّا تمامًا على ذلك الشيء. كان يمكنني بسهولة أن أعود أدراجي في تجاويف ظلام الممر الضيق وألوذ بفرار آمن تمامًا. على أن هذا التفكير لم يطرأ على ذهني في الحقيقة، إلى أن أزال اليوم التالي أي حق ممكن لادعاء البطولة وإلا ربما لم يكن يحق لي سرد هذه القصة.

لا أعتقد أنني مصنوع من المادة التي يتشكل منها الأبطال؛ ففي مئات الحالات جميعها التي وضعتني فيها تصرفاتي الطوعية وجهًا لوجه مع الموت، لا أستطيع أن أتذكر حالة واحدة تمكنت خلالها من اتخاذ أي خطوة بديلة إلا بعد عدة ساعات. يبدو أن تكوين عقلي يجبرني لاشعوريًّا على اتخاذ المسار الواجب دون اللجوء إلى العمليات العقلية المملة. ربما كان الأمر على هذا النحو، لكنني لم أندم أبدًا أن الجُبن ليس اختيارًا بالنسبة لي .

كنت في هذا الوضع على يقين أن باول هو مركز اهتمامهم بطبيعة الحال. لا أعرف هل فكرت أولاً أم تصرفت مباشرة، لكنني منذ لحظة رؤيتي للمشهد أخرجت مسدساتي وانطلقت منقضًّا على جيش كامل من المحاربين، وأنا أطلق النار بسرعة وأصيح بأعلى صوت. ونظرًا لأنني بمفردي، لم يكن بإمكاني اتباع تكتيكات أفضل. بيد أن هول المفاجأة جعل الرجال الحُمر يتصورون أن ما لا يقل عن كتيبة من الجيش النظامي تهاجمهم، فتراجعوا فارين في كل اتجاه خشية الإصابة بأقواس وسهام وبنادق الكتيبة.

أصابني المشهد الذي كشف عنه فرارهم السريع بالتخوف والغضب. كان باول يرقد تحت أشعة قمر أريزونا الصافية، وجسده مُعذب بأسهم الهنود الحُمر المعادية. كنت مقتنعًا أنه مات بالفعل، لكن سرعتي لإنقاذ جسده من التشويه على أيدي الأباتشي كانت تماثل سرعتي لإنقاذه من الموت.

اقتربت منه وأنا فوق حصاني، وتمكنت من الوصول إلى السرج والإمساك بحزام خرطوشه ورفعته أعلى حصاني. أقنعتني نظرة إلى الخلف بأن العودة من الطريق الذي أتيت منه ستكون أكثر خطورة من الاستمرار عبر الهضبة، ولذلك ضغطت على حصاني البائس بالمهماز وانطلقت متجهًا إلى الطريق الذي أمكنني تمييزه على الجانب البعيد من أرض سهل الهضبة.

اكتشف الهنود في ذلك الوقت أنني كنت بمفردي، فتابعوني باللعنات والسهام ورصاص البنادق. كانت صعوبة استهدافهم أي شيء، إلا اللعنات، تحت ضوء القمر وغضبهم من ظهوري المفاجئ غير المتوقع، فضلاً عن أنني كنت هدفًا سريع التحرك، قد أنقذني من مختلف قذائف العدو المميتة وأتاح لي الوصول إلى ظلال القمم المحيطة قبل أن يتمكنوا من إعداد مطاردة منظمة.

كان حصاني يسير عمليًّا دون توجيه، فمعرفتي بالموقع الدقيق للمسار المؤدي إلى الطريق ربما أقل من معرفته، ومن ثم حدث أنه دخل إلى ممر ضيق قادنا إلى قمة الجبل وليس إلى الطريق الذي كنت آمل أن يأخذني إلى الوادي والأمان. بيد أنني ربما أدين بحياتي لهذه الحقيقة، وبالخبرات والمغامرات الرائعة التي عشتها خلال السنوات العشر التالية.

عرفت بداية أنني أمضي في مسار خاطئ عندما تزايد على يساري فجأة خفوت صيحات المتوحشين الذين يطاردونني.

أدركت أنهم ذهبوا إلى يسار تشكيلات من الصخور الخشنة على حافة الهضبة، أي إلى يمين الاتجاه الذي اتخذه حصاني لي ولجثمان باول.

وجهت لجام الحصان نحو بقعة مرتفعة مستوية قليلاً تطل على مسار أدناها يقع على يساري، فرأيت مجموعة المتوحشين التي تطاردني تختفي وراء ذروة مجاورة.

كنت أعرف أن الهنود سرعان ما سيكتشفون أنهم ساروا على درب خاطئ وسيجدون البحث عني في الاتجاه الصحيح بمجرد أن يحددوا مساراتي.

تحركت مسافة قصيرة ثم رأيت ما بدا دربًا ممتازًا ينفتح على بداية منحدر عال. كان الدرب مستويًا ومتسعًا إلى حد كبير وقادني إلى أعلى، نحو الاتجاه العام الذي كنت أرغب في الوصول إليه. ارتفع المنحدر على يميني لعدة مئات من الأقدام، ورأيت على يساري هاوية على قدم المساواة وتهبط عموديًّا تقريبًا إلى وادٍ صخري.

تابعت هذا الدرب ربما لمائة متر، ثم أخذني منعطف حاد على اليمين إلى مدخل كهف كبير، بلغ ارتفاع فتحته حوالي أربعة أقدام، واتساعه من ثلاثة إلى أربعة أقدام. وانتهى الدرب عند هذه الفتحة.

حل الصباح الآن. ولأن غياب الفجر هو سمة مذهلة معتادة في أريزونا، فقد ظهر ضوء النهار دون سابق إنذار تقريبًا.

ترجلت ووضعت باول على الأرض. لكن فحصي الدقيق لجثمانه فشل في الكشف عن أضعف شرارة حياة. حاولت إدخال المياه من قربة الماء بين شفتيه الميتتين، وغسلت وجهه، وفركت يديه، واستمرت محاولاتي لما يقرب من ساعة في مواجهة حقيقة أعرفها وهي أنه ميت.

كنت شديد الارتباط بباول؛ كان رجلاً دقيقًا في جميع الجوانب، رجلاً جنوبيًّا مهذبًا، صديقًا مخلصًا وحقيقيًّا. ومع شعوري بالحزن العميق، استسلمت أخيراً وتوقفت عن محاولاتي المتواضعة لإنعاشه.

تركت جسد باول حيث يرقد على الحافة، وتسللت إلى الكهف لاستطلاعه. وجدت غرفة كبيرة، ربما يصل قطرها إلى مائة قدم وارتفاعها إلى ثلاثين أو أربعين قدم؛ وأرضيتها ملساء وبالية، فضلاً عن العديد من الأدلة الأخرى التي توضح أن الكهف كان مأهولاً بالسكان في فترة ما مضت منذ زمن بعيد. اختفى الجزء الخلفي من الكهف تمامًا في الظل الكثيف، بحيث لم أستطع تمييز ما إذا كانت هناك فتحات تُفضي إلى غرف أخرى أم لا.

وخلال مواصلتي للاستطلاع، بدأت أشعر بنعاس لطيف ينتابني، عزوته إلى الإرهاق من رحلتي الطويلة والمضنية، واستجابتي لانفعالات القتال والمطاردة. شعرت بالأمان نسبيًّا في موقعي الحالي، إذ كنت أعرف أن رجلاً واحدًا يمكنه الدفاع عن الدرب المؤدي إلى الكهف ضد جيش كامل.

سرعان ما غلبني النعاس حتى أنني بالكاد ما استطعت مقاومة الرغبة القوية في إلقاء نفسي على أرضية الكهف للحصول على عدة دقائق من الراحة. لكنني كنت أعرف أنني لن أفعل، إذ يعني ذلك الموت المحقق على أيدي أصدقائي الحُمر، الذين قد يصلون في أي لحظة. بذلت جهدًا للتحرك نحو فتحة الكهف، لكنني ترنحت وصولاً إلى جدار جانبي، وهناك انزلقت خائر القوى مستلقيًا على الأرض.

* * *

(2)

الميت يهرب

تغلب علي شعور لذيذ بالكسل، واسترخت عضلاتي، وكنت على وشك تلبية رغبتي في النوم عندما سمعت صوت خيول تقترب. حاولت النهوض على قدماي لكنني فزعت من اكتشافي أن عضلاتي رفضت الاستجابة. أنا الآن مستيقظ تمامًا، لكنني غير قادر على تحريك عضلاتي، كأنها تحولت إلى حجر. وعندئذ لاحظت، للمرة الأولى، وجود بخار طفيف يملأ الكهف. كان ضعيفًا جدًّا وغير ملحوظ إلا في مواجهة الفتحة التي تقود إلى ضوء النهار. وصلت إلى أنفي أيضًا رائحة نفاذة ضعيفة. لا يمكنني سوى الافتراض أن غازًا سامًّا هو ما تغلب علي. لكنني لم أفهم لماذا أحتفظ بقدراتي العقلية، ومع ذلك لا أقدر على الحركة.

استلقيت في مواجهة فتحة الكهف، حيث يمكنني رؤية امتداد الدرب القصير الذي يقع بين الكهف ودوران المنحدر الذي يقود إليه الدرب. توقف ضجيج الخيول المقتربة، فتصورت أن الهنود يزحفون خلسة على طول الحافة الصغيرة التي تقود إلى مقبرتي الحية. أتذكر أنني تمنيت أن ينتهوا مني سريعًا؛ إذ لم أكن مستريحًا بوجه خاص بالتفكير في الأشياء التي لا تُعد ولا تُحصى التي يمكن أن يفعلوها بي إذا دفعتهم الأرواح على القيام بها.

لم أنتظر طويلاً قبل أن يصلني صوت خفي ينذر باقترابهم. ثم أطل وجه بحذر من جانب المنحدر، وجه ملطخ بالطلاء ويرتدي قلنسوة الحرب، ونظرت عينان وحشيتان إلى عيناي. كنت على يقين أن بإمكانه رؤيتي في ضوء الكهف الخافت، فأشعة شمس الصباح الباكر كانت تهبط علي بالكامل من خلال الفتحة.

لكن الزميل لم يقترب، بل مجرد وقف يحدق؛ عيناه منتفختان وفكه متدلٍّ. ثم ظهر وجه همجي آخر، ثم وجه ثالث ورابع وخامس، يمدون أعناقهم فوق أكتاف زملائهم الذين لم يتمكنوا من المرور عبر الحافة الضيقة. كان كل وجه عبارة عن صورة للرعب والخوف لسبب ما لم أعرفه، ولم أدركه إلا بعد عشر سنوات. أدركت من الهمسات التي مررها القادة إلى من يقفون خلفهم أن هناك محاربين هنود آخرين خلف أولئك الذين ينظرون نحوي.

وفجأة صدر خلفي، من تجاويف الكهف، صوت أنين منخفض وإن كان متميزًا، وعندما وصل إلى آذان الهنود، استداروا فارين وهم في حالة رعب وذعر. بذلوا جهودًا محمومة للهروب من الشيء غير المرئي خلفي، حتى أن أحدهم وقع بتهور من المنحدر

وسقط على الصخور أدناه. تردد صدى صرخاتهم المسعورة في الوادي لفترة قصيرة، ثم عاد السكون مرة أخرى.

لم يتكرر الصوت الذي أخافهم، لكنه كان كافيًا؛ إذ جعلني أبدأ التفكير في احتمالات الرعب المختفي في الظلال وراء ظهري. ولأن الخوف مصطلح نسبي، فلا يمكنني قياس مشاعري حينذاك إلا بخبراتي السابقة في المواقف المحفوفة بالمخاطر والمواقف التي مررت بها مؤخرًا؛ لكنني أستطيع القول دون خجل إن الشعور الذي عانيته خلال الدقائق القليلة التي تلت كان شعورًا بالخوف؛ فليساعد الله الجبناء، فالجُبن في حد ذاته هو العقوبة.

تصورت، كرجل اعتاد القتال حفاظًا على حياته بكل طاقة لياقته البدنية القوية، أن كلمة النهاية في هذا المأزق المخيف هي إصابتي بالشلل ووراء ظهري خطر فظيع ومجهول قادم من الصوت نفسه الذي جعل محاربي الأباتشي الأشداء يتدافعون بقوة فارين بجنون كقطيع من الأغنام يفر من مجموعة ذئاب.

أعتقد أنني سمعت لعدة مرات أصواتًا خافتة تصدر من خلفي كأنما لشخص يتحرك بحذر، لكنها توقفت في النهاية وتركتني أتأمل وضعي دون أن تقاطعني. لم يكن بإمكاني سوى التخمين بشكل تقريبي عن سبب إصابتي بالشلل، وكان أملي الوحيد يكمن في أنه قد ينتهي فجأة مثلما أصابني فجأة.

وقف حصاني بلجامه الطويل أمام الكهف، وبدأ في وقت متأخر من بعد الظهيرة يتحرك ببطء إلى أسفل الدرب، ومن الواضح أنه كان يبحث عن الغذاء والماء. بقيت وحيدًا مع رفيقي المجهول الغامض، وجثمان صديقي الذي يرقد في نطاق مجال بصري فوق الحافة حيث وضعته في الصباح الباكر.

منذ ذلك الحين وحتى ربما منتصف الليل كان الصمت يلف المكان، صمت الموتى؛ ثم فجأة نفذ الأنين المخيف الذي سمعته في الصباح إلى أذناي، وصدر من الظلال السوداء مرة أخرى صوت شيء يتحرك، وحفيف ضعيف كحفيف أوراق الشجر الميتة. كانت الصدمة رهيبة إلى أقصى حد لجهازي العصبي شديد الإنهاك، فسعيت بجهد خارق إلى تحطيم قيودي الفظيعة. كان جهدًا للعقل والإرادة والأعصاب وليس للعضلات، إذ لم أتمكن حتى من تحريك إصبعي الصغير، على الرغم من قوتي. ثم انتابني شعور لحظي بالغثيان، ونقر شيء بحدة تماثل نقر أسلاك الفولاذ، فوقفت وظهري إلى جدار الكهف أواجه عدوي المجهول.

أغرق ضوء القمر الكهف. أرى أمامي جسدي يرقد كما كان طوال تلك الساعات، العينان تحدقان نحو الحافة المفتوحة، واليدان مستريحتان بشكل هزيل على الأرض. نظرت بداية إلى هيئتي الهامدة بلا حياة على أرضية الكهف، ثم إلى أسفل نحو نفسي وأنا في حيرة مطلقة؛ فقد كنت أرقد مرتديًا ملابسي، لكنني أقف هنا عاريًا تمامًا كما في لحظة مولدي.

كان الانتقال مفاجئًا وعلى غير توقع، إلى حد أنني نسيت للحظة أي شيء آخر غير هذا التحول الغريب. وأول ما طرأ على ذهني أن هذا هو الموت إذن! هل انتقلت بالفعل وإلى الأبد إلى تلك الحياة الأخرى! لكني لم أصدق ذلك، إذ أشعر بضربات قلبي بين ضلوعي نتيجة الجهد الذي بذلته لتحرير نفسي من المخدر الذي قيدني. كانت أنفاسي تخرج قصيرة متسارعة، ويتصبب العرق البارد من كل مسام جسدي، وكشفت تلك المحاولة القديمة لقرص نفسي عن حقيقة أنني أي شيء غير أن أكون شبحًا.

وفجأة تذكرت مرة أخرى الوسط المحيط بي، حيث تكرر الأنين الغريب صادرًا من أعماق الكهف. كنت عاريًا وبلا سلاح، ولم تكن لدي أي رغبة في مواجهة الشيء غير المرئي الذي يتهددني.

كانت مسدساتي مربوطة بجسدي الراقد بلا حياة، ولسبب ما يتعذر فهمه لم أكن قادرًا على التحرك للمسها. وكانت بندقيتي القصيرة في جرابها مربوطة بالسرج، ولأن حصاني تركني ليتجول، فقد أصبحت دون وسيلة للدفاع. البديل الوحيد أمامي هو الهروب، وتبلور قراري نتيجة لتكرار صوت الحفيف من الشيء الذي تصورت الآن - في ظلام الكهف ومخيلتي مشوهة – أنه يزحف خلسة فوقي.

لم أعد قادرًا على مقاومة إغراء الفرار من هذا المكان الرهيب، فقفزت بسرعة عبر الفتحة إلى ضوء النجوم في ليلة صافية من ليالي أريزونا. كان هواء الجبال النضر النقي خارج الكهف بمثابة مُنشط فوري، وشعرت بحياة جديدة وشجاعة جديدة تسري خلالي. توقفت عند شفا الحافة، ووبخت نفسي لما ظهر الآن كمخاوف لا مبرر لها إطلاقًا. فكرت أنني رقدت عاجزًا لعدة ساعات داخل الكهف، ومع ذلك لم يتحرش بي أي شيء. وأقنعني اتجاه تفكيري، عندما أصبح أكثر صفاء ومنطقية، أن الأصوات التي سمعتها نتجت عن أسباب طبيعية بحتة وغير ضارة؛ فربما أتاح تكوين الكهف وجود نسيم طفيف تسبب في تلك الأصوات.

قررت بحث الأمر، لكني رفعت رأسي أولاً لأملأ رئتي بهواء الجبال الليلي النقي المنعش. وعندئذ رأيت مشهدًا جميلاً من الممرات الصخرية يمتد بعيدًا تحتي، وسهلاً

مستويًا من الصبار المرصع، أحاله ضوء القمر إلى معجزة من الروعة الناعمة والسحر العجيب.

إن العجائب الغربية القليلة أكثر إلهامًا من جمال المشهد الطبيعي الذي يضيئه القمر في الأريزونا؛ الجبال فضية اللون على بُعد، والأضواء والظلال الغريبة التي تسقط على إحدى الهضاب وأحد الروافد النهرية الصخرية، والتفاصيل المتنافرة لنبات الصبار الصارم وإن كان جميلاً - كل ذلك يُشكل صورة ساحرة وملهمة على الفور، كما لو أن المرء يلمح للمرة الأولى بعضًا من عالم ميت ومنسي، تختلف تمامًا عن جوانب أي بقعة أخرى على الأرض.

وقفت متأملاً، وحولت بصري من المناظر الطبيعية إلى السماء حيث تُشكل آلاف النجوم قبة ملائمة وفائقة الجمال لعجائب المشهد الأرضي. وسرعان ما لفت انتباهي نجمة حمراء كبيرة قريبة من الأفق البعيد. وعندما حدقت فيها، شعرت بموجة طاغية من فتنة السحر - إنه المريخ، إله الحرب، وهو بالنسبة لي رجل مقاتل، يمتلك دومًا قوة السحر الذي لا يقاوَم. وعندما نظرت إليه محدقًا في تلك الليلة البعيدة، كان يبدو أنه يناديني عبر الفراغ غير المتُصور، ويُغريني بالذهاب إليه، بل يجذبني كما يجذب حجر المغناطيس جُزيئًا من الحديد.

كان شوقي يتجاوز قوة المعارضة. أغلقت عيناي، ومددت ذراعاي تجاه إله مهنتي، وشعرت بنفسي منجذبًا بتلك الفكرة المفاجئة عبر اتساع الفضاء غير المطروق. مرت لحظة من البرد الشديد والظلام الدامس.

* * *

(3)

وصولي إلى المريخ

فتحت عيناي على منظر طبيعي غريب وعجيب. كنت أعرف أنني على كوكب المريخ؛ تشككت أكثر من مرة، إما في صحتي العقلية أو في الأرق الذي أعاني منه. لست في حاجة لقرص نفسي هنا، فلم أكن نائمًا؛ دلني وعيي الداخلي بوضوح أنني على سطح المريخ، بمثل ما يدلك عقلك الواعي أنك على كوكب الأرض. فأنت لا تتشكك في هذه الحقيقة، وأنا أيضًا لم أتشكك أنني على المريخ.

لقد وجدت نفسي مستلقيًا خائر القوى على سرير من النباتات الصفراء التي تشبه الطحالب، امتدت من حولي في جميع الاتجاهات لأميال بلا نهاية. يبدو أنني كنت مستلقيًا في حوض عميق مستدير، على طول الحافة الخارجية التي كان يمكنني منها تمييز التباين بين التلال المنخفضة.

الوقت الآن منتصف النهار، والشمس مشرقة بالكامل فوقي وحرارتها شديدة نوعًا ما على جسدي العاري، على أنها ليست أشد حرارة مما قد تكون عليه في ظروف مماثلة في صحراء الأريزونا. تناثرت هنا وهناك نتوءات طفيفة من الصخور المُحملة بالكوارتز تلمع في ضوء الشمس؛ وبالقرب من يساري، ربما على بعد مائة ياردة، ظهرت حظيرة ذات سياج منخفض يبلغ ارتفاعه حوالي أربعة أقدام. لا يوجد ماء ولا أي نباتات غير الطحالب. ولشعوري بالعطش إلى حد ما، قررت القيام ببعض الاستكشاف.

تلقيت أول مفاجأة مريخية عندما وقفت على قدماي؛ فالجهد الذي أبذله على كوكب الأرض لأقف منتصبًا، حملني في هواء المريخ إلى ارتفاع ثلاثة ياردات تقريبًا. على أنني نزلت بهدوء على الأرض دون اصطدام أو تصادم ملحوظ. والآن بدأت سلسلة من التطورات التي بدت، حتى حينذاك، مثيرة للسخرية إلى أقصى حد. أدركت أنني يجب أن أتعلم المشي من جديد؛ فالجهد العضلي الذي أبذله للسير بسهولة وأمان على كوكب الأرض، كان يُسفر عن سلوك غريب على المريخ.

فبدلًا من التقدم بطريقة عاقلة وكريمة، أسفرت محاولاتي للسير عن مجموعة متنوعة من القفزات التي ترفعني بوضوح من على الأرض بضعة أقدام في كل خطوة وتهبط بي منبطحًا على وجهي أو ظهري في نهاية كل ثاني أو ثالث قفزة. أما عضلاتي التي كانت منسجمة ومعتادة تمامًا على قوة الجاذبية على كوكب الأرض، فقد سببت لي

الأذى عندما حاولت للمرة الأولى التأقلم مع الجاذبية الأقل والضغط الجوي المنخفض على سطح المريخ.

ومع ذلك، عقدت العزم على استكشاف تلك البنية المنخفضة التي تُعد الدليل الوحيد على وجود أماكن مأهولة على مرأى البصر، وبالتالي توصلت إلى خطة فريدة تتمثل في العودة إلى المبادئ الأولى في الحركة، أي الزحف. قمت بذلك بشكل جيد إلى حد ما، ووصلت خلال دقائق قليلة إلى السور المنخفض الذي يُطوق الحظيرة.

لا توجد أبواب أو نوافذ على الجانب الأقرب لي. على أن ارتفاع الجدار بلغ حوالي أربعة أقدام فقط، فتمكنت من الاقتراب بحذر ونظرت عبر الجزء العلوي لأرى أغرب مشهد أُتيح لي على الإطلاق أن أراه.

كان سقف الحظيرة من الزجاج الصلب الذي يصل سُمكه إلى حوالي أربع أو خمس بوصات، ويوجد أسفله عدة مئات من البيض الكبير المستدير تمامًا ولونه أبيض كالثلج. كان حجم البيض موحدًا تقريبًا، ويبلغ قطر البيضة حوالي قدمين ونصف.

لقد فقست بالفعل خمس أو ست بيضات، والكائنات الكاريكاتورية الغريبة التي جلست لامعة في ضوء الشمس كانت كافية لتجعلني أتشكك في صحتي العقلية. فالجزء الأكبر منها يبدو رأسًا، مع جسد هزيل قليلاً ورقبة طويلة وستة سيقان - أو كما علمت فيما بعد، ساقان وذراعان، مع زوج وسيط من الأطراف التي يمكن استخدامها حسب الرغبة كذراعين أو ساقين. عيونهم صغيرة وتقع كل عين على أحد أقصى جانبي الرأس فوق المركز، وبرزتا على نحو يتيح توجيههما إلى الأمام أو إلى الوراء، كما كانتا أيضًا مستقلتين عن بعضهما، مما يسمح لهذا الحيوان الغريب النظر في أي اتجاه، أو في اتجاهين في الوقت نفسه، دون الحاجة إلى تحريك رأسه.

أما الأذنان، تقع كل منهما أعلى العين قليلاً وأقرب لبعضهما. وكانتا بمثابة هوائيات صغيرة، على شكل كأس، ولم يزد بروزهما أكثر من شبر واحد على هذه العينة الشابة من الكائنات. وكانت أنوفهم مجرد شقوق طولية في وسط وجوههم، في منتصف المسافة بين الأفواه والآذان.

خلت أجسادهم، ذات اللون الأخضر المِصفر قليلاً، من الشعر. على أن هذا اللون لدى البالغين منهم، كما سأعرف قريبًا، يزداد عَمقًا إلى الأخضر الزيتوني وهو أكثر قتامة لدى الذكور عنه لدى الإناث. علاوة على ذلك، تتناسب رؤوس البالغين منهم مع أجسادهم ولا تتنافر كما في حالة الصغار.

أما لون قزحية العين فهو الأحمر الدموي، كما لدى المصابين بداء البرَص، بينما بؤبؤ العين داكن اللون. مقلة العين نفسها شديدة البياض، وأيضًا الأسنان؛ وهما يضيفان مظهرًا أكثر شراسة لملامح تبدو، على خلاف ذلك، مخيفة ورهيبة، حيث الأنياب السُفلى تنحني لأعلى مُشكلة نقاطًا حادة تنتهي تقريبًا حيث توجد عيون البشر على كوكب الأرض. بياض الأسنان ليس مثل بياض العاج، وإنما يماثل البياض الثلجي اللامع مثل الخزف الصيني. وعلى خلفية اللون الزيتوني الداكن لجلودهم، تبرز أنيابهم بطريقة لافتة للنظر، حيث تقدم هذه الأسلحة مظهرًا هائلاً متفردًا.

لاحظت معظم هذه التفاصيل في وقت لاحق، إذ لم يكن لدي سوى وقت قليل للتفكير في عجائب اكتشافي الجديد. رأيت البيض وهو يفقس، ونظرًا لأنني وقفت أشاهد الوحوش الصغيرة البشعة وهي تكسر قشر البيض، فقد أخفقت في ملاحظة اقتراب مجموعة من المريخيين البالغين الذين أتوا من خلفي.

جاءوا على الطحلب اللين الصامت، الذي يغطي عمليًّا كامل سطح المريخ باستثناء المساحات المتجمدة عند القطبين والمناطق المزروعة المتناثرة. كان يمكنهم إمساكي بسهولة، لكن نواياهم كانت أكثر شرًّا بكثير. لقد كان الصخب الذي أحدثته مُعدات المحارب الأول هو ما حذرني.

تعلقت حياتي على شيء صغير، بحيث كثيراً ما كنت أتعجب من فراري بسهولة. فإن لم تتأرجح بندقية قائد المجموعة في أربطتها بجوار سرجه، على نحو جعلها تضرب مؤخرة رمحه المعدني الكبير، لكنت انتهيت دون أن أعرف حتى أن الموت كان قريبًا مني. لكن هذا الصوت البسيط جعلني ألتفت، ووجدت فوقي – على بُعد أقل من عشرة أقدام من صدري - الرأس المدبب لذلك الرمح الضخم؛ رمح بلغ طوله أربعين قدمًا، مُشذب بمعدن لامع، ومحمول على نحو منخفض على أحد جوانب كائن عبارة عن نسخة طبق الأصل من الشياطين الصغيرة التي شاهدتها.

لكن مظهرهم الآن يبدو ضئيلاً وغير مؤذ بجوار هذا التجسد الهائل والمرعب للكراهية والانتقام والموت. بلغ طول الرجل نفسه - وسأدعوه رجلاً - خمس عشرة قدمًا، وكان وزنه ليصبح حوالي أربعمائة باوند على كوكب الأرض. كان يجلس على ركوبته كما نجلس نحن فوق حصان، ويمسك جذع الحيوان بأطرافه السفلى، بينما تمسك يدا ذراعاه اليمنى الرمح الهائل منخفضًا على جانب ركوبته؛ أما ذراعاه اليسرى فقد امتدت أفقيًّا للمساعدة في الحفاظ على توازنه،؛ والشيء الذي كان يركبه، لم يكن به لجام أو زمام أو أي شيء للتوجيه.

أما ركوبته! كيف يمكن لكلمات كوكب الأرض أن تصفها! فقد بلغ ارتفاعها عشرة أقدام عند الكتف؛ ولديها أربعة أرجل على كل جانب؛ وذيلها عريض مُسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد مباشرة خلفها عندما تجري؛ وفمها مفتوح يقسم رأسها من أنفها إلى عنقها الطويل الضخم.

ومثلها مثل سيدها، كانت خالية تمامًا من الشعر، لكن لونها الداكن كان الرمادي الذي تشوبه الزُرقة وشديد السلاسة واللمعان. كان بطنها أبيض، وتدرج لون سيقانها بظلال من لون كتفيها فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامها. والأقدام نفسها شديدة الامتلاء وبلا أظافر، مما أسهم أيضًا في اقترابها بلا ضوضاء؛ وهو الأمر الذي يشكل -إضافة إلى تعدد سيقانها- سمة مميزة لحيوانات المريخ. إن أعلى نوع من البشر وحيوان واحد آخر – نوع الثدييات الوحيدة الموجودة على المريخ - هما فقط من لديهما أظافر جيدة التشكيل، ولا توجد إطلاقًا حيوانات ذات حوافر.

ظهر وراء هذا الشيطان المهاجم 19 مهاجمًا آخر متشابهين من جميع الجوانب؛ لكن كلاً منهم - كما عرفت لاحقًا – يتسم بخصائص فردية تميزه؛ تمامًا مثلنا، حيث لا يتطابق أي اثنين منّا على الرغم من أننا خرجنا جميعًا من قالب متماثل. إن هذه الصورة التي وصفتها بالتفصيل، أو بالأحرى الكابوس المتحقق، تركت عندي انطباعًا واحدًا سريعًا ورهيبًا عندما استدرت لمواجهتها.

كنت عاريًا وبلا سلاح، وتبين أن أول قانون للطبيعة هو الحل الوحيد الممكن لمشكلتي العاجلة، أي الخروج من المنطقة المجاورة لسِن الرمح المُهاجم. وبناء على ذلك، قمت بقفزة على نمط قفزات كوكب الأرض، وفي الوقت نفسه قفزة جبارة، للوصول إلى الجزء العلوي من الحاضنة المريخية، إذ قررت أنها بالضرورة حاضنة.

تُوِج جهدي بنجاح أفزعني بقدر لا يقل عن مدى مفاجأته للمحاربين المريخيين، إذ رفعتني القفزة ثلاثين قدمًا بالكامل في الهواء، وهبطت بي على بُعد مائة قدم ممن يطاردونني، وعلى الجانب الآخر من الحظيرة.

هبطت بسهولة دون حوادث مزعجة على أرض مغطاة بالطحالب اللينة، وعندما استدرت رأيت أعدائي يصطفون على طول الجدار المواجه. كان بعضهم يتفحصني بتعبيرات يشوبها الاستغراب الشديد، كما اكتشفت بعد ذلك، وكانت لدى البعض الآخر نظرات رِضا واضحة لأنني لم أتعرض بالأذى لصغارهم.

كانوا يتحدثون معًا بنبرات منخفضة، وهم يلوحون ويشيرون نحوي. من المؤكد أن اكتشافهم أنني لم ألحق الأذى بالمريخيين الصغار وأنني لم أكن مسلحًا، قد جعلهم

ينظرون لي نظرة أقل وحشية؛ لكن الشيء الذي كان له أكبر الأثر لصالحي - كما علمت في وقت لاحق - كان عرض القفزة التي قمت بها.

يتسم المريخيون بالضخامة، عظامهم كبيرة جدًّا، وتتناسب عضلاتهم فحسب والجاذبية التي يجب أن يتغلبوا عليها. والنتيجة أنهم أقل رشاقة وأقل قوة بما لا يُقاس، على نحو يتناسب مع ثقلهم، من البشر على كوكب الأرض. فإذا انتقل أي منهم فجأة إلى كوكب الأرض، أشك أنه يستطيع أن يرفع وزنه من على الأرض؛ وفي الواقع، أنا مقتنع بأنه لن يتمكن من القيام بذلك.

ومن ثم كانت قدماي على المريخ بنفس روعتهما على كوكب الأرض، ولذا بعد أن كان المريخيون يرغبون في إبادتي، بدأوا فجأة يعتبرونني اكتشافًا رائعًا يجب الإمساك به وعرضه على زملائهم.

المهلة التي أتاحتها خفة حركتي غير المتوقعة سمحت لي بوضع خطط للمستقبل القريب، وأن ألاحظ عن كثب مظهر المحاربين؛ ذلك أن ذهني لم يكن قادرًا على إلغاء اقتران هؤلاء الناس بأولئك المحاربين الآخرين الذين كانوا يطاردونني في اليوم السابق مباشرة.

فقد لاحظت أن كلاً منهم كان مدججًا بالعديد من الأسلحة الأخرى، بالإضافة إلى الرمح الضخم الذي وصفته. أما الأسلحة التي تسببت في قراري بعدم محاولة الفرار، فهي ما كان واضحًا أنه بندقية ذات أوصاف معينة، وشعرت لسبب ما أنهم أكفاء على نحو مميز في استخدامها.

كانت هذه البنادق مصنوعة من معدن أبيض مملوء بخشب، علمت لاحقًا أنه خشب خفيف للغاية وينمو بصعوبة شديدة وقيمته كبيرة على المريخ، وهو غير معروف على الإطلاق لنا نحن سكان كوكب الأرض. وكان معدن ماسورة البندقية عبارة عن سبيكة تتكون أساسًا من الألومنيوم والفولاذ الذي تعلموا تخفيف صلابته إلى درجة تتجاوز بكثير صلابة الفولاذ المألوف لدينا. أما وزن هذه البنادق فخفيف نسبيًّا، والعيارات والمتفجرات ومقذوفات الراديوم التي يستخدمونها صغيرة، وماسورة البندقية طويلة جدًّا، وهي بنادق قاتلة إلى أقصى حد، وعلى نطاقات لا يمكن تصورها على كوكب الأرض. يبلغ طول نصف قطرها الفعال نظريًّا 300 ميل، لكن أفضل ما يمكنها عمله خلال الخدمة الفعلية - عند تزويدها بأجهزة الاستكشاف والاستهداف اللاسلكية – يزيد قليلاً على 200 ميل.

هذا كاف تمامًا ليغمرني احترام كبير للسلاح الناري المريخي، ويبدو أن بعض قوى التخاطر حذرتني من محاولة الفرار في وضح النهار تحت فوهات بنادق عشرين من الآلات الموت هذه.

تحدث المريخيون لفترة قصيرة، ثم استداروا مبتعدين في الاتجاه الذي أتوا منه، تاركين واحدًا منهم بمفرده في الحظيرة. لكنهم توقفوا بعد أن قطعوا ربما 200 ياردة، وحولوا ركوباتهم نحونا ثم جلسوا يراقبون المحارب الموجود بالحظيرة.

إنه المحارب الذي كاد رمحه أن يطعنني، ويبدو واضحًا أنه قائد المجموعة، حيث لاحظت أنهم تحركوا إلى موقعهم الحالي بناء على توجيهاته. لقد ترجل عندما توقفت قواته، وألقى رمحه وأسلحته الصغيرة، وتوجه إلى طرف الحاضنة نحوي وهو أعزل وعار تمامًا مثلي، باستثناء بعض الحلي المربوطة على رأسه وأطرافه وثدييه.

وعندما أصبح على مسافة 50 قدمًا تقريبًا مني، فك شريط سوار معدني ضخم وحمله ناحيتي في كف يده المفتوح، وخاطبني بصوت واضح ورنان ولكن بلغة - غني عن القول – أنني لا أفهمها. ثم توقف وكأنما ينتظر ردي، رافعًا أذنيه التي تشبه الهوائيات وموجهًا عينيه ذات النظرات الغريبة نحوي.

ولما أصبح الصمت مؤلماً، قررت المجازفة بإجراء محادثة صغيرة من جانبي، حيث خمنت أنه يقدم مبادرات سلام. فإلقاؤه لأسلحته وسحب قواته قبل أن يتقدم نحوي يدل في أي مكان بكوكب الأرض على مهمة سلمية، إذن فلم لا على المريخ!

وضعت يدي على قلبي وانحيت أمام المريخي وأوضحت له أنني رغم عدم فهمي للغته، فإن أفعاله تتحدث عن السلام والصداقة وهما في هذه اللحظة أعز شيء إلى قلبي. ربما اعتبرني ثرثارًا يهذي، بطبيعة الحال، لكنه فهم السلوك الذي مارسته بعد كلماتي مباشرة.

تقدمت نحوه وأنا أمد يدي وأخذت السوار من راحة يده، وشبكته حول ذراعي فوق الكوع؛ ثم ابتسمت له ووقفت منتظرًا. جاء رده بابتسامة من فمه الواسع، وأمسك يدي مستخدمًا أحد أذرعه الوسيطة، ثم استدرنا وسرنا إلى الخلف نحو ركوبته. وأشار، في الوقت نفسه، إلى أتباعه للمضي قدمًا. بدأوا يركضون نحونا بشكل جامح، لكنهم تريثوا بإشارة منه. فمن الواضح أنه كان يخشى أن أشعر بالخوف مرة أخرى وأقفز قفزة تخرجني تمامًا من المشهد.

تبادل بعض الكلمات مع رجاله، وأشار لي بأن أركب خلف أحدهم، ثم امتطى ظهر حيوانه. مد الزميل المحدد اثنين أو ثلاثة من يديه إلى أسفل ورفعني وراءه على ظهر

دابته اللامع، حيث تشبثت قدر استطاعتي بالأحزمة والشرائط التي كانت تحمل أسلحة المريخي وحُليه.

وعندئذ استدار الموكب بأكمله وتحرك مندفعًا نحو مجموعة التلال التي تقع على بُعد.

* * *

(4)

أصبحت سجينًا

سرنا ربما عشرة أميال، ثم بدأت الأرض في الارتفاع بسرعة. وعرفت لاحقًا أننا كنا نقترب من حافة أحد بحار المريخ التي ماتت منذ زمن طويل، والتقيت في قاع هذا البحر مع المريخيين.

وصلنا بعد فترة قصيرة إلى سفح الجبل، وبعد عبور ممر ضيق دخلنا إلى وادٍ مفتوح تقع في أقصاه أرض منخفضة لمحت فيها مدينة هائلة. ركضنا نحوها، ودخلناهاً عبر ما بدا طريقًا محطمًا يؤدي إلى الخروج من المدينة، لكنه لم يؤد بنا سوى إلى حافة الأرض المنخفضة، التي انتهت فجأة بعد رحلة من خطوات واسعة.

عندما نظرت عن كثب، رأيت خلال مرورنا أن المباني مهجورة. وبينما لم تكن شديدة التدهور، فقد كان مظهرها ينم عن عدم سكناها لسنوات، ربما لعصور. توجد ساحة كبيرة في اتجاه وسط المدينة. في هذه الساحة وفي المباني المحيطة بها مباشرة، كان يُخيم حوالي 900 أو 1000 من نفس سلالة المخلوقات التي أسرتني، هكذا أصبحت أنظر إليهم الآن بغض النظر عن الطريقة الرقيقة التي أمسكوني بها.

كانوا جميعًا عراة، باستثناء ارتداء تلك الحُلي. اختلف مظهر النساء قليلاً عن الرجال، إلا أن أنيابهن كانت أكبر كثيراً بالنسبة لأطوالهن، وكانت مقوسة في بعض الحالات بحيث تصل تقريبًا إلى آذانهن العالية. أما أجسادهن، فكانت أصغر حجمًا وأفتح لونًا؛ وتحمل أصابع أيديهن وأقدامهن أظافر بدائية، لا توجد على الإطلاق لدى الذكور. يتراوح طول الإناث البالغات من 10 إلى 12 قدمًا.

أما الأطفال، فلونهم فاتح، أفتح حتى من لون النساء؛ وبدوا لي متشابهين تمامًا، في ما عدا أن بعضهم كان أطول، أعتقد لأنهم أكبر سنًّا.

لم ألحظ أي علامات على كبر السن بينهم، كما لا يوجد أي اختلاف ملحوظ في مظهرهم من سن النضج - حوالي الأربعين – حتى الألف سنة من العُمر؛ فهم يذهبون طواعية بطريقتهم الغريبة للحج إلى نهر «إيس»، الذي يقودهم إلى حيث لا يعرف أي مريخي حي إلى أين، ولم يعُد من هذه الرحلة أي مريخي على الإطلاق، أو كان يمكن أن يُسمح له بالعيش إذا عاد بعد مجرد النزول لمرة واحدة في مياهه الباردة والمظلمة.

لا يموت من المريخيين سوى حوالي واحد في الألف بسبب المرض أو اعتلال الصحة، وربما يتوجه حوالي عشرين مريخيًّا إلى الحج الطوعي. ويواجه الـ 970 الآخرين الموت العنيف في المبارزات، وفي الصيد، وفي الملاحة الجوية، وفي الحرب. ولكن ربما تحدث أكبر خسائر في الأرواح خلال فترة الطفولة، حيث تقع أعداد هائلة من صغار المريخيين ضحايا لقرود المريخ البيضاء الكبيرة.

يبلغ متوسط العمر المتوقع للمريخي بعد سن النضج حوالي 300 سنة، على أنه قد يقترب كثيراً إلى 1000 عام إذا لم يتعرض لأساليب الموت العنيف المختلفة. ونظرًا لتناقص موارد الكوكب، أصبح من الواضح ضرورة التصدي لتزايد طول العمر الذي نتج عن مهاراتهم الرائعة في المداواة والجراحة، ومن هنا أصبحت حياة الإنسان لا تؤخذ كثيراً في الحسبان على المريخ، كما يتضح من رياضاتهم الخطيرة والحروب المستمرة تقريبًا بين مختلف جماعاتهم.

هناك أسباب طبيعية وغيرها تميل نحو تقليص عدد السكان، ولكن لا يوجد شيء يسهم كثيراً في تحقيق هذه الغاية، حيث لا يوجد طواعية أي مريخي - سواء ذكر أو أنثى - دون سلاح للدمار.

عندما اقتربنا من الساحة واكتشفوا وجودي، وأحاطت بنا على الفور مئات المخلوقات التي بدت متشوقة لاقتلاعي من مقعدي خلف حارسي. لكن كلمة من قائد المجموعة هدأت ضجتهم، ومضينا مهرولين عبر الساحة إلى مدخل أروع صرح يمكن أن تقع عليه عين بشرية.

كان المبنى منخفضًا، لكنه يغطي مساحة هائلة. وكان مشيدًا من الرخام الأبيض اللامع المُطعم بالذهب والأحجار الرائعة التي تتلألأ وتتألق في ضوء الشمس. يبلغ عرض مدخلة الرئيسي عدة مئات من الأقدام، ويبرز من المبنى بشكل مناسب بحيث يشكل مظلة ضخمة فوق مدخل القاعة. لا توجد سلالم، ولكن هناك ميل طفيف يؤدي إلى الطابق الأول من المبنى وينفتح على غرفة ضخمة تحيط بها أروقة.

امتلأت القاعة بموائد ومقاعد خشبية منحوتة، حيث تجمع حوالي 40أو 50 مريخيًّا من الذكور حول سلالم منصة. وعلى المنبر، جلس القرفصاء محارب ضخم مُثقل بالحلي المعدنية، والريش الملون المُبهج، ويكتسي بغطاء جلدي جميل مشغول ومرصع بالأحجار الكريمة. ومن كتفيه تتدلى عباءة قصيرة من الفراء الأبيض المبطن بالحرير القرمزي الرائع.

كان أبرز ما أدهشني في هذا التجمع والقاعة التي يحتشدون فيها هو انعدام التناسب تمامًا بين تلك المخلوقات والموائد والمقاعد والمفروشات الأخرى؛ فحجم هذه المفروشات يتلاءم مع حجم البشر أمثالي، بينما الأحجام الضخمة للمريخيين بالكاد ما يمكن حشرها في المقاعد، كما لا توجد مساحة أسفل الموائد لأرجلهم الطويلة. يبدو واضحًا إذن وجود سكان آخرين على المريخ غير تلك المخلوقات الهمجية البشعة التي وقعتُ في أيديها، لكن أدلة العصور القديمة التي تظهر حولي تشير إلى أن هذه المباني ربما كانت تنتمي إلى عِرق ما منقرض ومنسي منذ فترة طويلة عاش في عصور المريخ القديمة الغامضة.

توقف ركبنا عند مدخل المبنى، وأنزلوني إلى الأرض بإشارة من القائد. ومرة أخرى شبك ذراعه بذراعي ومضينا إلى قاعة الجمهور. لاحظت بعض الشكليات عند الاقتراب من الزعيم المريخي. خطا من أسرني نحو المنصة، بينما كان الآخرون يوسعون له الطريق. وقف الزعيم ونطق اسم مرافقه الذي وقف بدوره، وكرر اسم الحاكم متبوعًا بلقبه.

لم يكن هذا الحفل أو الكلمات التي تفوهوا بها يعني شيئًا بالنسبة لي حينذاك، لكنني عرفت لاحقًا أن هذا هو الترحيب المعتاد بين المريخيين الخُضر. فإذا كان الرجال من الغرباء وبالتالي غير قادرين على تبادل الأسماء، فإنهم يتبادلون الحُلي في صمت إن كانت مهمتهم سلمية – وعلى خلاف ذلك يتبادلون الطلقات أو يقاتلون ببعض أسلحتهم الأخرى المختلفة.

كان اسم القائد الذي أسرني تارس تاركاس، ويبدو أنه كان نائب زعيم الجماعة، ويتمتع بقدرة كبيرة كرجل دولة ومحارب. وقد شرح بوضوح وإيجاز الأحداث المرتبطة برحلته، بما فيها أسري. وعندما انتهى خاطبني الزعيم مطولاً.

أجبت بلغتنا الإنجليزية الجيدة القديمة لإقناعه فقط بأن أيًّا منا لا يستطيع أن يفهم الآخر؛ لكنني لاحظت أنني عندما ابتسمت قليلاً في نهاية حديثي، ابتسم بالمثل. وهو ما أقنعني، بالإضافة إلى حدث مماثل أثناء حديثي الأول مع تارس تاركاس، أن لدينا على الأقل شيء مشترك؛ أي القدرة على الابتسام وبالتالي الضحك، مما يدل على روح الدعابة. على أنني عرفت لاحقًا أن ابتسامة المريخي ليست سوى شيء سطحي، وأن ضحكه يجعل الرجل القوى يشحب من الرعب.

تختلف أفكار الفكاهة بين رجال المريخ الخُضر مع مفاهيمنا تمامًا في ما يتعلق بأسباب البهجة. فسكرات الموت التي يعاني منها أي زميل تثير مرحًا صاخبًا بين هذه

المخلوقات الغريبة، بينما شكل زعيمهم المضحك يلحق الموت بأسرى الحرب بمختلف الطرق المبتكرة والرهيبة.

فحصني هؤلاء المحاربون والزعماء عن قرب، تحسسوا عضلاتي وملمس جلدي. ومن الواضح أن الزعيم الرئيسي أبدى رغبة في رؤية أدائي. وبعد أن أشار لي لأتبعه، سار مع تارس تاركاس إلى الساحة المفتوحة.

لم أعد أبذل الآن أي محاولة للسير، منذ فشلت محاولتي الأولى، باستثناء وأنا ممسك بقوة بذراع تارس تاركاس؛ وبالتالي أخذت الآن أتنقل وثبًا وتحليقًا بين الموائد والمقاعد كجرادة ضخمة. وبعد أن أُصبت بكدمات شديدة – وهو ما كان أمرًا كثير التسلية للمريخيين – لجأت مرة أخرى إلى الزحف. لكن ذلك لم يكن مناسبًا لهم، ورفعني زميل فارع الطول بخشونة لأقف على قدمي، وهو الزميل الذي كان أكثرهم ضحكًا على محنتي.

مال بوجهه مقتربًا من وجهي وهو يضرب على قدمي بعنف. وقمت بالشيء الوحيد الذي يمكن أن يقوم به سيد مهذب في ظل هذه الظروف من القسوة والفظاظة، وعدم إيلاء الاعتبار لحقوق شخص غريب؛ وجهت قبضة يدي مباشرة نحو فكه، فسقط مثل ثور شرس. وعندما هوى على الأرض، أدرت ظهري تجاه أقرب مائدة، متوقعًا أن يقهرني انتقام زملاءه، لكنني صممت أن أخوض معهم أفضل ما يمكن أن يتيحها نزاع غير متكافئ قبل أن أفقد حياتي .

بيد أن مخاوفي كانت بلا أساس، حيث أخرس الانبهار المريخيين الآخرين في البداية، ثم انفجروا في ضحكات مجلجلة وتصفيق. لم أدرك معنى تصفيقهم، لكنني عندما تعرفت فيما بعد على عاداتهم، فهمت أنني فزت بشيء نادرًا ما يحققونه، وأن التصفيق تعبير عن الاستحسان.

ظل الزميل الذي لكمته ممددًا في موقع سقوطه، ولم يقترب منه أي من أصحابه. تقدم تارس تاركاس نحوي وهو ممسك بإحدى ذراعيه، وتحركنا إلى الساحة دون حوادث أخرى. لم أعرف، بطبيعة الحال، سبب توجهنا الي الساحة المفتوحة، لكني سرعان ما فهمت. كرروا بداية كلمة «ساك» عدة مرات، ثم قفز تارس تاركاس عدة قفزات وهو يكرر نفس الكلمة قبل كل قفزة؛ وبعدها التفت نحوي قائلاً «ساك!». عرفت ماذا يريدون، وجمعت قواي وقمت بالـ «ساك» بنجاح مبهر حيث قطعت قفزتي حوالي 150 قدم؛ ولم أفقد توازني هذه المرة، بل هبطت مباشرة على قدمي دون أن أسقط. عُدت بعد ذلك بسهولة إلى مجموعة المحاربين الصغيرة عبر قفزات يسيرة امتدت كل منها لحوالي 25 أو 30 قدمًا.

شاهد عرضي عدة مئات من المريخيين الصغار، وعلى الفور طالبوا بتكراره، فأمرني الزعيم بذلك؛ لكنني كنت أشعر بالجوع والعطش، وصممت على الفور أن طريقتي الوحيدة للخلاص هي مطالبة هذه المخلوقات بالمراعاة، حيث يبدو أنهم لن يفعلون ذلك طواعية. ولذلك، تجاهلت مطالبهم المتكررة بإعادة «ساك»، وفي كل يطالبون فيها كنت أشير إلى فمي وأحك معدتي.

تبادل تارس تاركاس والزعيم بضع كلمات، ثم نادى تارس تاركاس على امرأة بين الجموع وأعطاها تعليمات وأشار لي أن أرافقها. أمسكت بيدها الممدودة، وعبرنا الساحة معًا في اتجاه مبنى كبير على الجانب الآخر.

بلغ طول رفيقتي اللطيفة حوالي ثمانية أقدام، وكانت في بداية مرحلة النضج، لكن طولها لم يصل بعد إلى أقصاه. كانت بشرتها من اللون الأخضر الزيتوني الفاتح، وتتسم بالنعومة واللمعان. علمت في ما بعد أن اسمها سولا، وأنها تنتمي إلى حاشية تارس تاركاس. قادتني إلى غرفة واسعة في أحد المباني المواجهة للساحة، مُلقى على أرضها ركام مبعثر من الحرير والفراء، ولذا اعتبرتها مكانًا لنوم العديد من الأهالي.

كانت الغرفة مضاءة جيدًا بعدد من النوافذ الكبيرة، ومزدانة بشكل جميل باللوحات الجدارية والفسيفساء. ولكن فوق كل ذلك، كان هناك ما يبدو أنه لمسة لأصابع العصور القديمة يصعب وصفها، بما أقنعتني أن المهندسين المعماريين والبنائين لهذه الإبداعات المدهشة ليس لديهم أي شيء مشترك مع هؤلاء المتوحشين أنصاف الحيوانات الذين يحتلونها الآن.

أشارت لي سولا أن أجلس فوق كومة من الحرير بالقرب من وسط الغرفة، واستدارت وهي تُطلق صوت هسهسة غريبة كما لو أنها تشير إلى شخص ما في غرفة مجاورة. وردًّا على دعوتها، رأيت أول مشهد لأعجوبة مريخية جديدة. كان شيئًا يتهادى على سيقانه العشرة القصيرة، ثم جلس القرفصاء أمام الفتاة كجرو مطيع. كان حجم هذا الشيء يماثل تقريبًا حجم مُهر من جزر شتلاند، لكن رأسه يشبه بدرجة طفيفة رأس الضفدع، ما عدا أن فكيه كانا مسلحين بثلاثة صفوف من الأنياب الحادة الطويلة.

* * *

(5)

التملُص من كلب الحراسة

حدقت سولا في عيون المتوحش الشريرة، وتمتمت بكلمة أو كلمتين آمرتين وهي تشير نحوي، ثم تركت الغرفة. لم يكن بمقدوري إلا أن أتشكك في ما قد يفعله هذا المسخ، شرس المظهر، عند تركه بمفرده في مكان قريب كهذا من قطعة لحم طرية نسبيًّا. بيد أن مخاوفي كانت بلا أساس؛ فالوحش، بعد أن تفحصني باهتمام للحظة، سار عبر الغرفة إلى باب الخروج الوحيد الذي يؤدى إلى الشارع، واستلقى بكامل طوله على العتبة.

كانت هذه أول تجربة لي مع كلب حراسة مريخي، على أنه لم يكن مُقدرًا أن تكون الأخيرة؛ فقد حرسني بعناية طوال الوقت الذي بقيت فيه أسيراً لدى هؤلاء الرجال الخُضر، كما أنقذ حياتي مرتين، ولم يبعد عني طواعية أبدًا للحظة.

عندما ابتعدت سولا، اقتنصت الفرصة لفحص الغرفة التي وجدت نفسي أسيراً فيها فحصًا دقيقًا. كانت اللوحة الجدارية تصور مشاهد نادرة ورائعة الجمال: جبال، وأنهار، وبحيرة، ومحيط، ومرج، وأشجار، وزهور، وطرقات متعرجة، وحدائق مشمسة – مشاهد ربما تصور مناظر من كوكب الأرض ولكن بألوان مختلفة للحياة النباتية. يبدو واضحًا أن يدًا خبيرة هي التي صنعت هذا العمل، فقد كان شديد الإتقان بشكل عام، وشديد الكمال من حيث التقنية؛ ومع ذلك لم يضم أي تمثيل لحيوان حي - سواء بشري أو وحشي – بحيث يمكنني تخمين الشبه بين هؤلاء الآخرين وسكان المريخ الذين ربما انقرضوا.

وبينما سمحت لخيالي بتجاوز الحدود في تخمينات جامحة حول التفسير المحتمل للغرائب التي التقيتها حتى الآن على المريخ، عادت سولا حاملة الطعام والشراب. وضعت ما حملته على الأرض بجواري، وجلست أمامي على مسافة قصيرة وهي تنظر نحوي باهتمام. كان الطعام عبارة عن رطل تقريبًا من مادة صلبة متماسكة من الجُبن وبلا مذاق تقريبًا، بالإضافة إلى سائل يبدو أنه لبن حيوان ما. لم يكن مذاقه سيئًا، لكنه حمضيّ بعض الشيء، على أنني تعلمت خلال فترة زمنية قصيرة أن أتذوقه جيدًا. واكتشفت لاحقًا أنه ليس لبن أي حيوان - حيث لا يوجد في المريخ سوى حيوان ثديي واحد فقط، ونادر جدًّا في الواقع - لكنه مأخوذ من نبات كبير ينمو عمليًّا دون ماء؛ ويبدو أنهم يقومون بتقطير إمدادات اللبن الوفيرة من منتجات التربة، ورطوبة الهواء، وأشعة

الشمس. ويعطي النبات الواحد من هذا النوع ثمانية أو عشرة كوارت[1] من اللبن في اليوم الواحد.

انتابني نشاط كبير بعد أن أكلت، لكن شعوري بالحاجة إلى الراحة جعلني استلقي فوق الحرير وسرعان ما غلبني النوم. ربما بقيت نائمًا لعدة ساعات، فعندما استيقظت كان الظلام قد حل، وشعرت ببرودة شديدة. لاحظت أن شخصًا ما قد ألقى الفراء فوقي، لكنه انزاح جزئيًّا ولم أستطع أن أرى عبر الظلام كيف يمكنني إعادته إلى مكانه. وفجأة امتدت يد وسحبت الفراء فوقي، ثم بعد فترة قصيرة أضافت فراء آخر لغطائي.

افترضت أنها سولا، راعيتي الحارسة، ولم أكن مخطئًا. هذه الفتاة وحدها، من بين جميع المريخيين الخُضر الذين تواصلت معهم، كشفت عن سمات التعاطف والطيبة والمودة؛ إسعافاتها لجروحي الجسدية كانت دائمة، واهتمامها برعايتي أنقذني من الكثير من المعاناة والمصاعب.

أدركت لاحقًا أن ليالي المريخ باردة للغاية، ولا يوجد عمليًّا أي شفق أو فجر، وأن التغيرات في درجة الحرارة مفاجئة وغير مريحة على الإطلاق، وكذلك الانتقال من ضوء النهار الرائع إلى الظلام. فالليالي إما مضاءة ببراعة أو مظلمة جدًّا، ذلك أن الظلام الدامس يسود إذا لم يظهر قمرا المريخ في السماء، حيث إن غياب الغلاف الجوي، أو بالأحرى رقته الشديدة، يحول دون نشر ضوء النجوم إلى حد كبير. ومن ناحية أخرى، إذا ظهر القمران في السماء ليلاً، يصبح الضوء على سطح أرض المريخ ساطعًا.

القمران أقرب إلى المريخ بدرجة كبيرة جدًّا مقارنة بقرب قمرنا إلى

كوكب الأرض. يبعُد القمر الأقرب عن المريخ بحوالي 5 آلاف ميل فقط، بينما يقع القمر الآخر على بعد يزيد قليلاً على 14 ألف ميل؛ في مقابل قمرنا الذي يبعُد عن كوكب الأرض بحوالي ربع مليون ميل. يستغرق القمر الأقرب للمريخ في دورته الكاملة حول الكوكب فترة تزيد قليلاً على سبع ساعات ونصف، وبالتالي يمكن رؤيته مندفعًا عبر السماء مثل نيزك ضخم مرتين أو ثلاث مرات كل ليلة، كاشفًا عن جميع مراحله أثناء عبوره.

أما القمر الآخر، فتستغرق دورته حول المريخ فترة تزيد قليلاً على ثلاثين ساعة وربع، ويجعل مع شقيقه الآخر مشهد المريخ الليلي واحدًا من أعظم المشاهد روعة وغرابة. ومن الجيد أن الطبيعة تضيء ليالي المريخ بسخاء ووفرة؛ فرجال المريخ الخُضر - نظرًا لأنهم جنس بدوي يفتقر إلى التطور الفكري المرتفع - ليس لديهم سوى وسائل

(1) وحدة قياس إنجليزية، والكوارت هو رُبع جالون - المترجمة.

بدائية للإضاءة الاصطناعية، إذ يعتمدون أساسًا على المشاعل ونوع من الشموع ومصباح زيتي غريب يولد غازاً ويحترق دون فتيل.

يُصدر هذا الجهاز الأخير ضوءًا أبيض بعيد المدى ويتألق بكثافة، لكن النفط الطبيعي الذَي يحتاجه لا يمكن الحصول عليه إلا باستخراجه من أحد المواقع العديدة التي تفصل بينها مساحات شاسعة، ولذا يندر أن تستخدمه تلك المخلوقات التي يقتصر تفكيرها على اليوم الواحد، كما أن كراهيتها للعمل اليدوي أبقت عليها في حالة شبه همجية لعصور لا تُعد ولا تُحصى.

استغرقت في النوم مرة أخرى بعد أن أضافت سولا غطاء إلى أغطيتي، ولم أستيقظ إلى أن حل ضوء النهار. كان جميع شاغلي الغرفة الآخرين من النساء، وعددهن خمسة، ولا زلن نائمات، تتكدس فوقهن مجموعة مختلفة الألوان من الحرير والفراء. وعلى العتبة، كان الحارس الوحشي مستلقيًا بمثل ما رأيته تمامًا في اليوم السابق؛ يبدو أنه لم يتحرك على الإطلاق؛ كانت عيناه موجهتين نحوي إلى حد ما، وسألت نفسي عما قد يصيبني إذا حاولت الهرب.

كنت مُعرضًا على الدوام للبحث عن مغامرة، واستكشاف وتجربة ما يبتعد عنه عقلاء الرجال. ولذا طرأ إلى ذهني أن أفضل طريقة مضمونة لمعرفة الموقف الدقيق لهذا الوحش تجاهي هو أن أحاول مغادرة الغرفة. شعرت بالأمان إلى حد ما تجاه اعتقادي أن بإمكاني الهرب منه إذا طاردني متى كنت خارج المبنى، إذ بدأت أفخر كثيراً بقدرتي على القفز. علاوة على ذلك، أدركت من سيقانه القصيرة أنه غير قادر على القفز وربما الركض أيضًا.

ولذا وقفت ببطء وعناية، فرأيت حارسي يفعل الشيء نفسه؛ تقدمت بحذر نحوه، ووجدت أنني إذا مشيت متثاقلاً يمكنني الاحتفاظ بتوازني، فضلاً عن إحراز تقدم سريع معقول. عندما اقتربت من الوحش، ابتعد عني بحذر؛ وعندما وصلت إلى الفتحة، انتقل إلى الجانب ليسمح لي بالمرور. ثم سار خلفي وتبعني حوالي عشر خطوات وأنا أشق طريقي نحو الشارع المهجور.

تصورت أن مهمته تقتصر على حمايتي، لكنه ظهر فجأة أمامي عندما وصلنا إلى حافة المدينة، وأطلق أصواتًا غريبة وهو يكشف عن أنيابه الشرسة القبيحة. فكرت في التسلية على حسابه، فهرعت نحوه، وعندما كدت أصل إليه قفزت عاليًا بحيث تجاوزته كثيراً وهبطت في موقع بعيد عن المدينة. اندفع على الفور، وهاجمني بسرعة مروعة لم أشهد لها نظيراً من قبل. كنت أعتقد أن سيقانه القصيرة تعوق سرعته، لكنه إذا تسابق مع كلاب الصيد لكانت تلك الكلاب ستبدو كما لو أنها نائمة على سجادة مدخل باب.

عرفت لاحقًا أنه أسرع حيوان على المريخ، ونظرًا لذكائه وولائه وضراوته يُستخدم في الصيد وفي الحرب كحامٍ للرجل المريخي.

سرعان ما أدركت مدى صعوبة الفرار من أنياب الوحش إذا تحركت على مسار مستقيم، ولذا واجهت هجومه بالتحرك في مسارات ملتفة والقفز من فوقه عندما يكاد أن يمسك بي. منحتني هذه المناورة ميزة كبيرة، إذ تمكنت من الوصول إلى المدينة قبله بقليل. وعندما اندفع خلفي، قفزت إلى نافذة ترتفع عن الأرض بحوالي ثلاثين قدمًا في مواجهة أحد المباني المطلة على الوادي.

أمسكت بحافة النافذة وسحبت نفسي إلى أن تمكنت من الجلوس دون النظر إلى المبنى، ونظرت إلى أسفل محدقًا في الحيوان المرتبك. على أن ابتهاجي لم يدم طويلاً؛ فما أن وجدت بصعوبة مقعدًا آمنًا عند

حافة النافذة، أمسكت يد ضخمة برقبتي من الخلف وجرتني بعنف إلى داخل الغرفة، وألقتني على ظهري. رأيت مخلوقًا ضخمًا يشبه القرد يقف أمامي، لونه أبيض وبدون شعر، ما عدا كتلة هائلة من الشعر الخشن على رأسه.

* * *

(6)

معركة الفوز بأصدقاء

كان الشيء الذي رأيته يشبه رجال كوكب الأرض تقريبًا أكثر مما يشبه المريخيين. لقد تمكن من تثبيتي على الأرض بقدم ضخمة واحدة، بينما يثرثر ويومئ إلى مخلوق خلفي، من الواضح أنه رفيقه الذي سرعان ما جاء نحونا وهو يحمل هراوة حجرية قوية يعتزمان على ما يبدو ضرب رأسي بها.

بلغ طول كل من هذين المخلوقين حوالي 15-10 قدم، يقفان منتصبين، ولديهم - مثل المريخيين الخُضر - مجموعة وسيطة من الأذرع أو السيقان، تقع في منتصف المسافة بين أطرافهم العليا والسفلى. كانت عيونهم قريبة من بعضها وغير جاحظة؛ وآذانهم مرتفعة لكن وضعها أفقي أكثر من وضع آذان المريخيين، بينما أنوفهم الحيوانية الطويلة وأسنانهم تشبه بشكل مذهل تلك لدى الغوريلا الأفريقية على كوكب الأرض. على أن مظهرهم، في مجمله، لم يكن قبيحًا مقارنة بالمريخيين الخُضر.

كانت الهراوة تتأرجح في القوس الذي انتهى عند وجهي المقلوب، وفجأة ألقت صاعقة من الرعب متعدد السيقان بنفسها بالكامل عبر المدخل فوق صدر جلادي. قفز القرد الذي يمسكني عبر النافذة المفتوحة وهو يصرخ من الخوف، لكن رفيقه اقترب ليخوض صراعًا مميتًا مذهلاً مع مُنقذي، الذي لم يكن سوى حارسي المُخلِص، لأنني لا أستطيع أن أجبر نفسي على إطلاق تسمية كلب على هذا المخلوق البشع.

وقفت بسرعة قدر الإمكان وظهري للجدار، وشهدت معركة لم يرها من قبل سوى عدد محدود من الكائنات. كانت قوة وخفة حركة هذين المخلوقين وشراستهما العمياء لا تشبه أي شيء يعرفه الإنسان على كوكب الأرض. تميز وحشي الحارس بقبضته الأولى، حيث غرز أنيابه القوية في صدر خصمه؛ لكن أذرع وأقدام القرد الكبيرة، مدعومة بعضلات تتجاوز نظيرتها لدى رجال المريخ الذين رأيتهم، التفت حول رقبة حارسي لتخنقه ببطء حتى الموت، وتميل برأسه ورقبته إلى الوراء فوق جسده، وهنا توقعت للحظة أن حارسي سينهار مع كسر رقبته.

ونتيجة لهذا الإنجاز، أخذ القرد يمزق صدره كله، الذي كان يمسكه بقبضة فكيه القوية التي تشبه ملزمة الحداد. تدحرجا على الأرض ذهابًا وإيابًا، دون أن يصدر أي منهما صوت الخوف أو الألم. ثم رأيت عيون الوحش الكبيرة تبرز تمامًا من محجريهما

والدم يتدفق من أنفه. كان ضعفه التدريجي يبدو بوضوح؛ لكن ذلك كان ينطبق أيضًا على القرد، حيث أخذت قدراته الصراعية تفتر.

انتبهت فجأة، واندفعت بغريزة غريبة للقيام بواجبي، وأمسكت بالهراوة التي سقطت على الأرض في بداية المعركة، وحركتها بكل قوة ذراعي لأحطم رأس القرد بالكامل، سحقت جمجمته كما لو أنها قشرة بيض.

وما أن ضربت ضربتي حتى واجهت خطرًا جديدًا؛ فقد تعافى رفيق القرد من صدمة الرعب الأولى وعاد إلى ساحة المواجهة عبر طريق من داخل المبنى. لمحته قبل وصوله إلى المدخل مباشرة، ورأيته يزأر وهو ينظر إلى زميله جثة هامدة ممددة على الأرض، والزُبد يكسو فمه. كان في قمة غضبه، ويجب أن أعترف أن حالته أشعرتني بنُذُر شؤم رهيبة.

أنا على استعداد دومًا للصمود والقتال عندما لا تكون الاحتمالات ساحقة ضدي، لكنني في هذه الحالة لم أنظر إلى المجد أو الربح عند وضع قوتي الضئيلة نسبيًّا في مواجهة العضلات الحديدية والضراوة الوحشية لهذا الساكن الغاضب في عالم مجهول بالنسبة لي. وفي الواقع، كانت النتيجة الوحيدة لهذه المواجهة، بقدر ما يمكن أن يعنيني الأمر، هي الموت المفاجئ.

كنت أقف بالقرب من النافذة وأعرف أنني بمجرد استعادة قوتي يمكنني الوصول إلى الساحة والفوز بالسلامة قبل أن يدركني هذا المخلوق؛ فعلى الأقل هناك فرصة للسلامة من خلال الفرار من مواجهة موت محقق تقريبًا إذا بقيت وحاربت يائسًا.

صحيح أنني ممسك بالهراوة فعلاً، ولكن ماذا يمكن أن أفعل بها ضد أذرعه الأربعة الكبيرة؟ فحتى إذا كسرت إحداهما بضربتي الأولى – إذ تصورت أنه سيحاول صد الهراوة - يمكنه أن يمد أذرعه الأخرى ويبيدني قبل أن أتمكن من شن هجوم ثان.

في اللحظة التي مرت فيها هذه الأفكار بذهني، نظرت إلى النافذة في محاولة للوصول إليها، لكن عيني وقعت على حارسي السابق، وهو المشهد الذي ألقى كل أفكار الفرار إلى أدراج الرياح. كان يرقد لاهثًا على أرض الغرفة، وعيناه الكبيرتان مثبتتان نحوي في ما يبدو مناشدة تثير الشفقة طلبًا للحماية. لم أستطع مقاومة تلك النظرة، كما لم أستطع -بعد إعادة التفكير- أن أهجر مُنقذي دون أن أقدم له صورة جيدة عن نفسي كما فعل معي.

لذلك، ودون مزيد من اللغط، استدرت لمواجهة غضبة القرد الضخم. لقد أصبح قريبًا مني، بحيث يمكن أن تُثبت الهراوة مساعدتها الفعالة. وبالتالي ألقيت بها نحو

جسده الضخم بأقصى ما يمكنني من قوة. ارتطمت بساقه أسفل الرُكبة، فصرخ من الألم والغضب واختل توازنه بحيث سقط مندفعًا وهو يمد أذرعه بغية تخفيف حدة سقوطه.

مرة أخرى، كما حدث في اليوم السابق، لجأت إلى تكتيكات كوكب الأرض، ووجهت كامل قبضتي اليمنى إلى طرف ذقنه وتبعتها بضربة رهيبة بقبضتي اليسرى في بطنه. كان التأثير رائعًا، فعندما تجاوزته قليلاً بعد الضربة الثانية، تمايل وسقط على الأرض وهو يتألم لاهثًا. قفزت من فوق جسده الممدد، وأمسكت الهراوة وأنهيت على الوحش قبل أن يتمكن من الوقوف.

رنت ضحكة خافتة خلفي عندما سددت ضربتي، فاستدرت لأرى تارس تاركاس وسولا وثلاثة أو أربعة محاربين يقفون في مدخل الغرفة. وعندما التقت عيوننا، حصلت للمرة الثانية على تصفيق حماسي حذر.

لقد لاحظت سولا غيابي عندما استيقظت، وسرعان ما أبلغت تارس تاركاس الذي تحرك على الفور مع عدد قليل من المحاربين للبحث عني. وشاهدوا، عند اقترابهم من حدود المدينة، أفعال القرد الضخم عند دخوله إلى المبنى وهو في حالة غضب محموم.

ساروا وراءه على الفور، متصورين أن أفعاله بالكاد ما يمكن أن تساعدهم على تحديد مكاني، ثم شاهدوا معركتي القصيرة الحاسمة معه. هذه المواجهة، إضافة إلى قتالي مع المحارب المريخي في اليوم السابق وبطولتي في القفز، وضعتني في ذروة عالية من وجهة نظرهم. كان واضحًا أنهم يفتقرون إلى أسمى مشاعر الصداقة أو الحب أو المودة، لكنهم يقدسون كثيراً القوة البدنية والشجاعة؛ ولا يوجد شيء يضاهي تحقيق شغفهم، ما دام المرء يحافظ على موقعه عبر تكرار الأمثلة الدالة على مهارته، وقوته، وشجاعته.

سولا، التي صاحبت مجموعة البحث بمحض إرادتها، كانت المريخية الوحيدة في المجموعة التي لم تتلوى ضحكًا وأنا أقاتل لأنقذ حياتي. بل على العكس، كانت متزنة في قلقها الظاهر، وبمجرد ما أن أجهزت على الوحش، اندفعت نحوي وفحصت جسدي بعناية لمعرفة مدى الجروح أو الإصابات المحتملة. وكانت سعيدة لأنني خرجت من المعركة سالماً، فابتسمت في هدوء، وأمسكت بيدي وبدأنا نتجه نحو باب الغرفة.

دخل تارس تاركاس والمحاربون الآخرون ووقفوا بجوار الوحش الذي أخذ يتعافى سريعًا؛ الوحش الذي أنقذ حياتي، وقمت بدوري بإنقاذ حياته. من الواضح أنهم يديرون نقاشًا عميقًا، وأخيراً توجه نحوي أحدهم لكنه تذكر جهلي بلغته فعاد إلى تراس تاركاس، الذي بكلمة وإيماءة أعطى أمرًا للزميل ثم استدار ليتابعنا خروجًا من الغرفة.

يبدو أن هناك شيئًا يثير التهديد في موقفهم تجاه الوحش. ترددت في المغادرة إلى أن علمت النتيجة. وحسنًا فعلت؛ فقد سحب المحارب مسدسًا شرير المظهر من جرابه، وكان على وشك إنهاء حياة المخلوق، وهنا اندفعت نحوه وسددت ضربة قوية على ذراعه فارتطمت الرصاصة بالإطار الخشبي للنافذة وانفجرت، تاركة فجوة امتدت كاملاً خلال الخشب والبناء.

وعندئذ ركعت بجوار هذا الكائن مخيف المظهر، ورفعته ليقف على أقدامه وأشرت له أن يتبعني. كانت نظرات الدهشة التي أثارتها أفعالي لدى المريخيين تبعث على الضحك؛ فلم يكن بإمكانهم أن يفهموا – إلا على نحو ضئيل وطفولي - صفات مثل الامتنان والرحمة. أما المحارب الذي غيرت اتجاه مسدسه بضربتي، فقد نظر مستفسرًا إلى تارس تاركاس، لكن هذا الأخير أشار له أن يتركني أفعل ما أريد. وهكذا عدنا إلى الساحة مع وحشي الكبير يسير في أعقابي، وسولا ممسكة بذراعي بإحكام.

لدي الآن صديقين على الأقل في المريخ؛ امرأة تهتم بي بحنان الأم، ووحش أبكم عرفت لاحقًا أنه رغم قبحه الشديد يحمل من الحب والولاء والامتنان أكثر مما يمكن أن يوجد لدى كل الخمسة ملايين من المريخيين الخُضر، الذين يطوفون في مدن المريخ المهجورة وقيعان بحره الميت.

* * *

(7)

تربية الأطفال على المريخ

تناولت الإفطار وكان مماثلاً لوجبة اليوم السابق، بل هو عمليًّا قائمة طعام كل وجبة أخرى خلال وجودي مع رجال المريخ الخُضر. اصطحبتني سولا إلى الساحة، حيث وجدت المجموعة كلها تشاهد أو تساعد في ربط حيوانات المستودون[2] الضخمة بالمركبات الكبيرة ذات العجلات الثلاث. هناك حوالي 250 من هذه المركبات، يجر كل منها حيوان واحد يبدو من مظهره أن بمقدوره أن يجر بسهولة عربة قطار كاملة التحميل.

كانت المركبات نفسها كبيرة ومتسعة ومُزينة بشكل رائع؛ وتجلس في كل منها امرأة مريخية ترتدي الحلي المعدنية، فضلاً عن الجواهر والحرير والفراء؛ ويجلس سائق مريخي شاب على ظهر كل وحش مربوط بالمركبة. ومثل الحيوانات التي يركبها المحاربون، لم تكن أثقل حيوانات الجر ترتدى شكامًا أو لجامًا، لكنها كانت تُوجَّه تمامًا عن طريق التخاطر.

كانت قوة التخاطر متطورة بشكل رائع لدى جميع المريخيين، وهي السبب إلى حد كبير في بساطة لغتهم وقلة الكلمات المنطوقة نسبيًّا التي يتبادلونها حتى في الحوارات الطويلة. التخاطر هو لغة المريخ العالمية، فمن خلالها تتمكن الحيوانات العليا والسفلى - في هذا العالم المليء بالمفارقات - من التواصل بدرجة أكبر أو أقل تبعًا للسياق الفكري لنوع الحيوان وتطور أفراده.

عندما بدأ الموكب يتحرك صفًّا واحدًا على خط المسيرة، أخذتني سولا إلى مركَبة فارغة ومضينا مع الموكب نحو النقطة التي دخلت منها إلى المدينة في اليوم السابق. كان على رأس القافلة حوالي مائتي محارب، خمسة منهم على جانب واحد، وعدد مماثل في الخلف، بينما يحيط بنا من الجانبين حوالي 25 أو 30 محاربًا مرافقًا.

وباستثنائي، كان الجميع – الرجال والنساء والأطفال – مدججًا بالسلاح، وفي أعقاب كل عربة يهرول كلب صيد مريخي. سار الوحش خاصتي خلف عربتنا عن كثب؛ وفي واقع الأمر، لم يتركني هذا المخلوق المخلص طواعية أبدًا خلال مجمل السنوات العشر التي قضيتها على المريخ. قادنا الطريق عبر الوادي الصغير الذي يقع أمام المدينة،

---

(2) حيوان منقرض شبيه بالفيل - المترجمة.

وسرنا عبر التلال، حيث هبط بنا الطريق في اتجاه قاع البحر الميت الذي اجتزته في رحلتي من الحاضنة إلى الساحة. وقد اتضح أن الحاضنة هي المحطة النهائية لرحلتنا اليوم. وبمجرد وصولنا إلى مستوى رقعة فسيحة في قاع البحر، انطلق الموكب بأسره يعدو في سرعة شديدة، وأصبح هدفنا على مرمى البصر.

وعندما وصلنا، توقفت العربات بدقة عسكرية عند جوانب الحظيرة الأربعة، وترجل حوالي عشرة محاربين يرأسهم الزعيم الضخم، ومن بينهم تارس تاركاس والعديد من الزعماء الآخرين الأقل مرتبة، وتقدموا نحو الهدف. كان بإمكاني أن أرى تارس تاركاس يشرح شيئًا للزعيم الرئيسي - وبالمناسبة كان اسمه، بقدر ما أمكنني ترجمته إلى اللغة الإنكليزية، لوركواس بتوميل، جِد؛ حيث جِد هو اسم منصبه.

سرعان ما خمنت موضوع حديثهما، حيث نادى تارس تاركاس على سولا وأشار لها أن ترسلني له. كنت قد تمكنت من إتقان تعقيدات السير في ظروف المريخ، واستجبت سريعًا لأمره وتقدمت نحو جانب الحاضنة حيث يقف المحاربون.

وعندما وصلت إلى الجانب الذي يقفون عنده، لمحت أن البيض كله قد فقس باستثناء عدد محدود، وأن الحياة تدب في الحاضنة بوجود هؤلاء الشياطين الصغيرة البشعة. كان طول كل منهم يتراوح بين ثلاثة وأربعة أقدام، ويتحركون بلا هوادة في الحظيرة كما لو أنهم يبحثون عن الطعام.

عندما وقفت أمامه، أشار تارس تاركاس إلى الحاضنة وقال «ساك». فهمت أنه يريدني أن أكرر أداء الأمس أمام لوركواس بتوميل. ويجب أن أعترف أن براعتي منحتني قدرًا غير قليل من الرضا، ولذا استجبت بسرعة وقفزت فوق العربات المتوقفة وصولاً إلى الجانب الآخر من الحاضنة. وعندما عدت، قال لوركواس بتوميل شيئًا لي، ثم انتقل إلى محاربيه قائلاً بضع كلمات آمرة تتعلق بالحاضنة. كف اهتمامهم بي، وسُمِح لي أن أبقى قريبًا وأراقب عملياتهم التي تمثلت في كسر فتحة في جدار الحاضنة كبيرة بما يكفي للسماح بخروج المريخيين الصغار.

شكّلت النساء والمريخيون الأصغر سنًّا، من الذكور والإناث، جدارين ثابتين على جانبي هذه الفتحة، بحيث أصبح هناك ممر عبر العربات يصل إلى سهل بعيد إلى حد ما. كان المريخيون الصغار يركضون بجموح كالغزلان بين هذين الجدارين؛ وقد سُمح لهم بالركض عبر طول الممر كاملاً، حيث تتولى النساء والأطفال الأكبر سنًّا الإمساك بواحد في كل مرة؛ والأخير في الصف يمُسك بأول صغير يصل إلى نهاية السباق، ثم يمُسك الشخص الواقف في الصف المقابل بالصغير الثاني، وهكذا حتى يغادر جميع الصغار الحظيرة عن طريق إمساك بعض الشباب أو الإناث بهم. تخرج النساء من الصف عندما

يمسكن بالصغار، وتعدن إلى عرباتهن، بينما الصغار الذين يسقطون في أيدي الشبان يتم تسليمهم في وقت لاحق إلى بعض النساء.

انتهت المراسم - إن أمكن تكريمها بهذا الاسم - فبحثت عن سولا ووجدتها في عربتنا ومعها مخلوق ضئيل بشع تحمله بين ذراعيها بإحكام.

تقتصر تربية المريخيين الصغار الخُضر على تعليمهم الكلام، واستخدام الأسلحة الحربية التي يحملونها من السنة الأولى في حياتهم. يخرج الصغار من البيض بعد خمس سنوات من وضعه - فترة الحضانة – ويمضون قدمًا في العالم وهم في حالة نمو كامل ما عدا في الحجم. لا تعرف الأمهات على الإطلاق من هم أبنائها، كما تواجهن بدورهن صعوبة في تحديد الآباء بأي درجة من الدقة؛ وبالتالي فالصغار هم أطفال الجماعة، وتعليمهم مُوكل إلى النساء اللاتي يُمسكن بهم عند مغادرة الحاضنة.

ربما لم يكن للأم المربية بيض في الحاضنة، كما هو الحال مع سولا التي لم تبدأ في وضع البيض حتى أقل من سنة قبل أن تصبح أمًّا لذرية امرأة أخرى. لكن ذلك لا يعني كثيراً بين المريخيين الخُضر، فحب الوالدين والأبناء غير معروف لهم بمثل ما هو شائع لدينا. أعتقد أن هذا النظام الفظيع الذي استمر لعصور هو السبب المباشر لافتقار هذه المخلوقات البائسة لجميع المشاعر الرقيقة والغرائز الإنسانية السامية. فهم لا يعرفون منذ الولادة حب الأب أو الأم، ولا يعرفون معنى كلمة بيت؛ بل يتعلمون أنهم يعانون فقط من أجل العيش، إلى أن يثبتون بلياقتهم البدنية وضراوتهم بأنهم قادرين على العيش. وإذا تبين أنهم مشوهين أو معيوبين بأي شكل، يُطلق عليهم النار دون إبطاء؛ ولا تدمع عين أي منهم من جراء المصاعب العديدة القاسية التي يمرون بها منذ مرحلة الطفولة المبكرة.

لا أعني بكلامي أن المريخيين البالغين يقسون على الصغار دون داع أو عمدًا، لكن كفاحهم شاق وعديم الرحمة من أجل العيش على كوكب يحتضر، كوكب تضاءلت موارده الطبيعية إلى حد أصبح معه دعم كل حياة جديدة يعني ضريبة إضافية على المجتمع الذي يضم هذه الحياة.

يتولى المريخيون تربية أقوى الأفراد فقط من كل نوع، من خلال اختيار دقيق. كما ينظمون معدل المواليد من خلال بصيرة تكاد أن تكون خارقة، بما يعوض عن الخسائر في الأرواح.

تضع كل امرأة مريخية بالغة حوالي 13 بيضة سنويًّا؛ ويجري إخفاء البيض الذي يفي بالحجم والوزن واختبارات الثقل النوعي في تجاويف قبو تحت الأرض، ذلك أن

درجة الحرارة شديدة الانخفاض وبالتالي تحول دون عملية الحضانة. يتولى مجلس مكون من 20 زعيمًا اختبار هذا البيض بدقة سنويًّا، ويدمرونه جميعًا ما عدا حوالي أجود مائة بيضة. وبعد انتهاء خمس سنوات، يجري اختيار حوالي خمسمائة بيضة أقرب إلى الكمال من بين آلاف البيض الذي وضعته الإناث. يوضع هذا البيض بعد ذلك في حاضنات محكمة الإغلاق ليفقس عن طريق أشعة الشمس بعد خمس سنوات أخرى. لقد كان الفقس الذي شاهدناه اليوم حدثًا يمثل هذه العملية، حيث فقس كل البيض باستثناء حوالي 1% خلال يومين. وإذا فقس البيض المتبقي في أي وقت، لن نعرف شيئًا عن مصير المريخيين الصغار؛ إذ ليس مرغوبًا فيهم، لأن ذريتهم قد ترث الميل إلى فترة حضانة طويلة وتنقله إلى ذريتها وبالتالي يضطرب النظام الذي استمر لعصور طويلة، والذي يتيح للمريخيين الكبار معرفة الوقت المناسب للعودة إلى الحاضنات، تقريبًا ما يصل إلى ساعة.

تُبنى الحاضنات في أماكن نائية منعزلة، حيث يوجد أو لا يوجد احتمال ضئيل لأن تكتشفها القبائل الأخرى. فكارثة اكتشافها تعني عدم وجود أطفال لدى الجماعة لمدة خمس سنوات أخرى. وقد شهدت في وقت لاحق نتائج اكتشاف حاضنة غريبة عنهم.

ضمت جماعة المريخيين الخُضر، التي وجدت نفسي فيها، حوالي ثلاثين ألف نسمة. يطوفون عبر مسالك هائلة من الأراضي القاحلة وشبه القاحلة، بين أربعين وثمانين درجة جنوب خط العرض، ويحدهم من الشرق والغرب مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة. ويقع مقرهم في الركن الجنوبي الغربي من هذه المنطقة، قرب تقاطع اثنين مما يُطلق عليه قنوات المريخ.

ونظرًا لأن الحاضنة تقع بعيدًا شمال أراضيهم، في منطقة يُفترض أنها غير مطروقة وغير مأهولة بالسكان، فقد كان أمامنا رحلة هائلة لا أعرف عنها شيئًا بطبيعة الحال.

وبعد عودتنا إلى المدينة الميتة، أمضيت عدة أيام في حالة كسل نسبي. في اليوم التالي لعودتنا، انطلق جميع المحاربين في الصباح الباكر ولم يعودوا إلا قبل حلول الظلام. وقد عرفت في ما بعد أنهم توجهوا إلى أقبية تحت الأرض، حيث يحتفظون بالبيض، ونقلوه إلى الحاضنة التي أحاطوها بأسوار ليبقى خمس سنوات أخرى دون زيارته مرة أخرى، في جميع الاحتمالات، خلال تلك الفترة.

كانت الأقبية التي يخفون فيها البيض إلى أن يصبح جاهزًا للحاضنة تقع على بُعد عدة أميال جنوب الحاضنة، ويزورها سنويًّا مجلس الزعماء العشرين. ظل عدم بنائهم لأقبيتهم وحاضناتهم بالقرب منهم لغزًا على الدوام بالنسبة لي، مثله مثل الألغاز المريخية العديدة الأخرى غير المحلولة والمستعصية على الحل بمنطق وعادات كوكب الأرض.

تضاعفت واجبات سولا الآن، حيث أصبحت مضطرة لرعاية المريخي الصغير بالإضافة إلى رعايتي، لكن كلانا لم يتطلب قدرًا كبيراً من الاهتمام؛ ونظرًا لأن معرفتنا بالتعليم المريخي كانت على قدم المساواة، أخذت سولا على عاتقها تدريبنا معًا.

كان صغيرها ذكرًا يبلغ طوله حوالي أربعة أقدام، يتسم بالقوة والكمال الجسدي. كما كان أيضًا سريع التعلُّم، واستمتعنا كثيراً - على الأقل أنا استمتعت - بتنافسنا الشديد. قلت سابقًا إن لغة المريخ بسيطة للغاية؛ فتمكنت في غضون أسبوع أن أُعبر عن جميع رغباتي وأن أفهم تقريبًا كل شيء يقال لي. وبالمثل، تمكنت تحت إرشاد سولا من تطوير التخاطر لدي بحيث سرعان ما أصبحت قادرًا عمليًّا على الشعور بكل شيء يجري حولي.

كان أكثر ما فاجأ سولا هو قدرتي على فهم رسائل تخاطر الآخرين بسهولة، وغالبًا عندما لا تكون موجهة لي، بينما لا يمكن لأحد أن يقرأ مثقال ذرة من ذهني تحت أي الظروف. ضايقني ذلك في البداية، لكنني سعدت به لاحقًا لأنه أعطاني ميزة مؤكدة على المريخ.

* * *

(8)

أسيرة جميلة من السماء

تحركنا للعودة في اليوم الثالث بعد مراسم الحاضنة. وبمجرد خروج قائد الموكب بشق الأنفس من الوادي الضيق إلى الأرض المفتوحة أمام المدينة، صدرت الأوامر بالعودة الفورية السريعة. ولأن المريخيين الخُضر تدربوا لسنوات على هذا النوع من التغيير السريع، فقد ذابوا كالضباب في المداخل المتسعة للمباني القريبة، بحيث أصبح الموكب بأسره غير مرئي على الإطلاق في أقل من ثلاث دقائق - بعرباته وحيواناته المستودون ومحاربيه الراكبين.

دخلت مع سولا إلى مبنى يقع في مقدمة المدينة، وفي الواقع هو نفس المبنى الذي واجهت فيه القرود. ونظرًا لأنني كنت أرغب في معرفة سبب التراجع المفاجئ، فقد صعدت إلى طابق أعلى وألقيت نظرة من النافذة على الوادي والتلال التي تقع خلفه؛ وهنا رأيت سبب سرعتهم المفاجئة للاختباء. إنها سفينة فضائية ضخمة، طويلة ومنخفضة، ومطلية باللون الرمادي، تتمايل ببطء فوق قمة أقرب تل. وصلت بعدها سفينة فضائية أخرى، وتوالى وصول تلك السفن حتى وصل عددها إلى عشرين سفينة تتمايل منخفضة فوق سطح الأرض، وتتحرك ببطء ومهابة تجاهنا.

كانت كل منها تحمل راية غريبة تتأرجح من الجذع إلى المؤخرة فوق الأجزاء العلوية، ومرسومًا على مقدمة كل منها شعار غريب يلمع في ضوء الشمس، ويظهر بوضوح حتى من المسافة التي تبعدنا عنها. تمكنت من رؤية أشخاص يتجمهرون على الأسطح الأمامية والأجزاء العلوية لسفينة الفضاء. لا أعرف ما إذا اكتشفوا وجودنا، أو ينظرون ببساطة إلى المدينة المهجورة، لكنهم على أية حال تلقوا استقبالاً فظًّا، حيث أطلق المحاربون المريخيون الخُضر فجأة ودون سابق إنذار وابلاً هائلاً من الرصاص من نوافذ المباني التي تواجه الوادي الصغير الذي تتقدم خلاله سلميًّا تلك السفن الفضائية الكبيرة.

وعلى الفور تغيرت الساحة كأنما بالسحر؛ فقد حركت السفينة الأمامية مقدمتها تجاهنا، وردت بإطلاق النار علينا، وتحركت في الوقت نفسه موازية لجبهتنا لمسافة قصيرة ثم عادت إلى الوراء مع نية واضحة لإكمال دائرة كبرى تجعلها في موقع معاكس مرة أخرى لخط نيراننا. جاءت السفن الأخرى في أعقابها، وفتحت جميعها النيران علينا وهي تتخذ موقعها. لم نقلل أبدًا من نيراننا، وأشك أن خمسة وعشرين في المائة من

طلقاتنا ذهبت هباء. لم يُتح لي من قبل رؤية مثل هذه الدقة القاتلة للهدف، ويبدو أن عددًا قليلاً على أحد هذه السفن كان يسقط مع انفجار كل رصاصة، بينما كانت اللافتات والأجزاء العلوية تذوب في تدفقات اللهب، إذ كانت قذائف المحاربين العصية على المقاومة تتحرك خلالها.

لم تكن نيران السفن فعالة في أغلبها، ويرجع ذلك - كما عرفت لاحقًا – إلى وابل الرصاص الأول المفاجئ على نحو غير متوقع، مما جعل أطقمها غير مستعدين تمامًا، وأجهزة الرؤية بالبنادق غير محمية من تصويب محاربينا القاتل.

ويبدو أن كل محارب من المحاربين الخُضر كان يصوب على أهداف محددة في ظل ظروف الحرب المتطابقة نسبيًّا. فعلى سبيل المثال، كانت نسبة منهم - ودائمًا أفضل الرماة - توجه نيرانها كلية على جهاز الكشف والرؤية اللاسلكي الموجود في الأسلحة النارية الكبيرة لدى القوة البحرية المهاجمة؛ وتوجه مجموعة أخرى نيرانها بنفس الطريقة على البنادق الأصغر؛ ويصوب آخرون نَحو المدفعية؛ وغيرهم نحو الضباط؛ بينما تركز مجموعات أخرى اهتمامها على باقي أفراد الطاقم في الجزء العلوي، وعلى معدات القيادة والمراوح.

بعد عشرين دقيقة من الهجمة الأولى، تحرك الأسطول الكبير متأرجحًا في الاتجاه الذي ظهر منه في البداية. تحركت العديد من السفن الفضائية متداعية بوضوح، وبالكاد تحت سيطرة طواقمها المستنفدة. توقف تمامًا إطلاقهم للنار، تركزت كل طاقاتهم على الهروب. وهنا هرع محاربونا إلى أسطح المباني التي نحتلها، وتابعوا الأسطول الحربي المنسحب بوابل مستمر من النيران القاتلة.

على أن السفن نجحت في الانخفاض، واحدة تلو الأخرى، أسفل قمم التلال البعيدة حتى أصبحت بالكاد سفينة متحركة واحدة في مرمى

البصر. وقد تلقت أشرس نيراننا، ويبدو أنها كانت خالية تمامًا من الرجال، حيث لم يكن مرئيًّا أي شخص يتحرك على سطحها. تمايلت ببطء في مسارها، وحلقت نحونا مرة أخرى بطريقة غير منتظمة وبائسة. وعلى الفور أوقف المحاربون إطلاق النار، حيث كان واضحًا تمامًا أن السفينة عاجزة بالكامل؛ فبعيدًا عن أنها لم تكن في وضع يمكنها من إلحاق الأذى بنا، لم تكن قادرة حتى على التحكم في نفسها بما يكفي للفرار.

وعندما اقتربت السفينة من المدينة، اندفع المحاربون مسرعين نحو الأرض المنبسطة لملاقاتها، لكنها كانت لا تزال مرتفعة بحيث يمكنهم الأمل في الوصول إلى سطحها. تمكنت من موقع مراقبتي عند النافذة من رؤية أجساد طاقمها متناثرة، على

الرغم من أنني لم أستطع تحديد نوع وطبيعة هذه المخلوقات. لم تظهر أي علامة على الحياة في السفينة، حيث جنحت ببطء مع النسيم الخفيف في اتجاه الجنوب الشرقي.

كانت تنجرف مرتفعة عن الأرض بحوالي خمسين قدمًا، ويتبعها جميع المحاربين ما عدا بعض مئات منهم، الذين صدرت إليهم الأوامر بالعودة إلى الأسطح لتغطية إمكانية عودة الأسطول، أو لتقوية التعزيزات. وسرعان ما أصبح واضحًا أن السفينة سترتطم بواجهات المباني التي تبعد عن موقعنا بحوالي ميل جنوبًا. وخلال مشاهدتي للتقدم المحرز في المطاردة، رأيت عددًا من المحاربين يركضون للأمام ويترجلون ثم يدخلون إلى المبنى الذي بدت السفينة متجهة نحوه.

عندما اقتربت السفينة من المبنى، وقبل أن ترتطم به مباشرة، هرع نحو نوافذها المحاربون المريخيون، وتمكنوا برماحهم الكبيرة من تخفيف صدمة الارتطام، ونجحوا خلال لحظات قليلة في إلقاء خُطافات للإمساك بالسفينة بإحكام، وبالتالي تمكن الزملاء من سحبها إلى الأرض.

اندفعوا بعد ذلك نحو جانبي السفينة وقاموا بتفتيشها كاملاً. رأيتهم وهم يتفحصون البحارة القتلى، من الواضح أنهم يختبرون علامات الحياة عليهم. والآن، ظهرت مجموعة منهم من أسفل، تسحب معها شخصًا صغيرًا. كان طول هذا المخلوق أقل بكثير من نصف طول المحارب المريخي الأخضر؛ وتمكنت أن أرى من شرفة النافذة أنه يسير منتصب القامة على قدمين، وخمنت أنه مسخ مريخي جديد وغريب لم أتعرف عليه بعد.

ألقوا بسجينهم على الأرض، ثم بدأوا سرقة منتظمة للسفينة. تطلبت هذه العملية عدة ساعات، وخصصوا عددًا من العربات لنقل المسروقات التي تضمنت أسلحة، وذخيرة، وحريرًا، وفراء، ومجوهرات، وأوعية حجرية منحوتة بشكل غريب، وكمية من الأطعمة الصلبة والسوائل، بما فيها العديد من براميل المياه التي أراها للمرة الأولى منذ وصولي إلى المريخ.

بعد إنزال آخر حمولة، اصطف المحاربون وسحبوا السفينة نحو الوادي في اتجاه الجنوب الغربي؛ ثم صعد عليها عدد قليل منهم وانخرطوا، كما يبدو من موقعي البعيد، في إفراغ محتويات قوارير مختلفة فوق جثث البحارة وعلى أسطح السفينة وأجزائها العلوية.

وبانتهاء هذه العملية، تسلقوا جانبيها بسرعة وانزلقوا على أسفل الحبال إلى الأرض. استدار آخر محارب يغادر السفينة وألقى شيئًا عليها، وانتظر لحظة ليعرف نتائج عمله. وبمجرد أن انطلقت شرارة لهب ضعيفة من النقطة التي أصابها الصاروخ، تأرجح

المحارب على الجانب وسرعان ما كان على الأرض، وفي الوقت نفسه جرى تفكيك الحبال. أما السفينة الحربية الكبيرة، فقد خف وزنها بإزالة المسروقات، فارتفعت بمهابة في الهواء، بينما أصبحت أسطحها وأجزاؤها العلوية كتلة طافية من اللهب.

جنحت السفينة ببطء ناحية الجنوب الشرقي وهي ترتفع تدريجيًّا، حيث التهمت النيران أجزاءها الخشبية وقلصت من وزنها. صعدت إلى سطح المبنى وبقيت أشاهدها لساعات، حتى غابت أخيراً عن نظري واختفت في قتامة بُعد المسافة. كان المشهد مذهلاً إلى أقصى حد؛ تأملت هذه المحرقة الجنائزية القوية العائمة، حيث تنجرف السفينة دون توجيه ودون أشخاص عبر الامتداد اللانهائي المنعزل لسماء المريخ؛ سفينة مهجورة يلفها الموت والدمار، تُجسد قصة حياة هذه المخلوقات الغريبة الشرسة التي حملني مصيري إلى أياديهم غير الودودة.

شعرت باكتئاب شديد لم أتبين أسبابه، فنزلت ببطء إلى الشارع. يبدو أن المشهد الذي رأيته كان علامة على هزيمة وإبادة قوات شعب من أصل واحد، أكثر منه تحديدًا من جانب المحاربين الخُضر لمسار جحافل من مخلوقات مماثلة، وإن كانت غير ودودة. لم أتمكن من سبر أغوار هذه الهلوسة الظاهرة، كما لم أتمكن من تحرير نفسي منها؛ لكنني شعرت في مكان ما في أعماق روحي بشوق غريب تجاه هؤلاء الخصوم المجهولين، وسرى داخلي أمل قوي أن يعود الأسطول لتصفية حسابه مع المحاربين الخُضر الذين هاجموه بلا شفقة أو رحمة.

سار كلب الصيد وولا في أعقابي، فهو الآن في مكانه المعتاد. وعندما وصلت إلى الشارع، هرعت سولا نحوي كأنما تبحث عني. كان على الموكب أن يعود إلى الساحة، حيث كانت مسيرة العودة قد توقفت في ذلك اليوم؛ كلا، لم تُستأنف المسيرة في الواقع إلا بعد أكثر من أسبوع، نظرًا للخوف من هجوم مضاد من السفينة الفضائية.

كان لوركواس بتوميل محاربًا قديمًا شديد الذكاء، تحول حكمته دون الإمساك به في السهول المنبسطة ومعه قافلة تضم عربات وأطفال؛ ولذا بقينا في المدينة المهجورة إلى أن تأكد زوال الخطر.

ما إن دخلت الساحة مع سولا، حتى رأيت مشهدًا ملأ كياني كله بموجة كبيرة من مشاعر الأمل والخوف والابتهاج والاكتئاب المختلطة. على أن الشعور المهيمن كان إحساسًا خفيًّا بالارتياح والسعادة؛ فبمجرد اقترابنا من جمهور المريخيين، اقتنصت لمحة إلى أسير سفينة المعركة الذي سحبته بقسوة امرأتان من المريخيات الخُضر إلى مبنى قريب.

أما المشهد الذي رأيته، فكان لشخصية نسائية نحيلة، تشبه في كل التفاصيل نساء كوكب الأرض في حياتي الماضية. لم ترني بداية، لكنها استدارت قبل أن تختفي عبر بوابة المبنى الذي سيصبح سجنها، والتقت عيناها بعيناي. كان وجهها بيضاويًّا وجميلاً إلى أقصى درجة، وكان كل ملمح من ملامحها مرسومًا بنعومة وبديعًا؛ عيناها كبيرتان ولامعتان، ويعلو رأسها كتلة من الشعر الأسود الفاحم المموج، مربوط بشكل فضفاض على هيئة تسريحة غريبة وإن كانت لائقة. وبشرتها من اللون النحاسي الضارب إلى الحمرة الخفيفة، بحيث يشرق الوهج القرمزي لخديها والأحمر الياقوتي لشفتيها الجميلتين على نحو يبعث بتأثير غريب غامر.

لم تكن ترتدي شيئًا، مثلها مثل المريخيات الخُضر اللاتي رافقنها؛ ففي ما عدا حُليها جيدة الصنع، كانت في واقع الأمر عارية تمامًا، ولم يكن ممكنًا لأي ملابس أن تعزز جمال قوامها الكامل المتناسق.

عندما التقت نظراتها بنظراتي، اتسعت عيناها مدهوشة، وأشارت بيدها غير المقيدة إشارة صغيرة لم أفهمها بطبيعة الحال. حدقنا تجاه بعضنا لمجرد لحظة، ثم خفت نظرة الأمل والشجاعة المتجددة التي كللت وجهها عندما اكتشفتني، وتحولت إلى اكتئاب تام مختلط بالتقزز والاحتقار. أدركت أنني لم أجب على إشارتها؛ ونظرًا لأنني كنت أجهل العادات المريخية، شعرت بحدسي أنها كانت تنشد العون والحماية لكن جهلي المؤسف حال دون ردي عليها. ثم سحبوها، وغابت عن نظري حيث دخلت إلى أعماق الصرح المهجور.

* * *

(9)
أتعلم اللغة

عندما عدت إلى نفسي، ألقيت نظرة على سولا التي شهدت هذا اللقاء؛ وفوجئت بملاحظة تعبير غريب على ملامحها التي كانت عادة دون تعبير. لا أعرف فيما كانت تفكر، فلم أكن قد تعلمت سوى القليل من اللغة المريخية؛ ما يكفي فقط لتلبية احتياجاتي اليومية.

وجدت عند وصولي إلى مدخل المبنى مفاجأة غريبة في انتظاري. اقترب محارب يحمل الأسلحة والحُلي بكامل ملحقاتها. قدم لي هذه الأشياء وهو ينطق ببضع كلمات غير مفهومة، تحمل الاحترام والتهديد في آن.

قامت سولا في وقت لاحق، بمساعدة العديد من النساء الأخريات، بإعادة ضبط الأغطية المزركشة لتتناسب وحجمي الأصغر. وبعد انتهاء عملهن، أصبحت أتجول مرتديًا زي الحرب.

منذ ذلك اليوم فصاعدًا، بدأت سولا تعلمني أسرار الأسلحة المختلفة. وكنت أمضي مع الشباب المريخي عدة ساعات يوميًّا للتمرين في الساحة. لم أكن قد أتقنت بعد جميع الأسلحة، لكن معرفتي الهائلة بالأسلحة المماثلة على كوكب الأرض جعلتني تلميذًا ماهرًا بشكل غير عادي، وتقدمت بطريقة مُرضية للغاية.

كان تدريبي وتدريب المريخيين الشباب لا تقوم به سوى النساء، اللاتي لم يقتصر عملهن على تعليم الشباب فنون الدفاع والهجوم الفردي، بل امتد ليشمل أيضًا تعليم الحرفيين الذين ينتجون كل البنود التي يصنعها المريخيون الخُضر. فهم يصنعون البارود، والأعيرة النارية، والأسلحة. وفي واقع الأمر، تتولى النساء إنتاج كل شيء ذا قيمة. كما تشكل النساء في زمن الحرب الفعلية جزءًا من الاحتياطي، وعند الضرورة يحاربن بذكاء وضراوة أكثر حتى من الرجال.

يتدرب الرجال على الفروع العليا من فن الحرب؛ في مجال الاستراتيجية والمناورة التي تمارسها مجموعة كبيرة من القوات. وهم يضعون القوانين حسب احتياجاتهم؛ قانون جديد لكل حالة طارئة. ولا تقيدهم السوابق في مجال إقامة العدل. انتقلت الأعراف والتقاليد إليهم عبر تكرارها لعصور، لكن عقوبة تجاهل أحد التقاليد تُعد شأنًا من شؤون العلاج الفردي عن طريق هيئة محلفين من أقران الجاني. ويمكنني القول إن

العدالة نادرًا ما تخطئ التصويب، بل يبدو بالأحرى أنها تحكم بنسبة عكسية لسطوة القانون. هناك جانب واحد على الأقل لسعادة المريخيين؛ ليس لديهم محامين.

لم أتمكن من رؤية الأسيرة مرة أخرى لعدة أيام بعد أول لقاء لنا، لكنني لمحتها بشكل عابر فقط عندما أخذوها إلى القاعة العامة الكبرى، التي التقيت فيها للمرة الأولى مع لوركواس بتوميل. يجب أن أشير إلى القسوة والوحشية غير الضرورية التي تعاملها بها حارساتها؛ ما يختلف كثيرًا عن عطف الأم تقريبًا الذي أظهرته سولا تجاهي، والموقف المحترم للمريخيين الخُضر القليلين الذين تكبدوا عناء مراقبتي.

وقد لاحظت في مناسبتين، عندما رأيتها، أن الأسيرة تبادلت كلمات مع حارساتها، وهو ما أقنعني أنهن يتحدثن لغة مشتركة، أو على الأقل يمكنهن فهمها. وبهذا الحافز الإضافي، أربكت سولا تقريبًا بإلحاحي على الإسراع في تعليمي، وفي غضون بضعة أيام أخرى أتقنت اللغة المريخية بما يكفي لإجراء محادثة مقبولة، وأن أفهم بالكامل عمليًّا كل ما أسمعه.

في ذلك الوقت، كان يشغل مكان إقامتنا ثلاث أو أربع نساء، وصغيران خرجا من البيض مؤخرًا، هذا بالإضافة لي، وسولا وجناحها من الشباب، وكلب الصيد وولا. وبعد خلودهم للراحة ليلاً، اعتاد البالغون أن يثرثروا لفترة قصيرة قبل النوم. وقد أصبحت الآن أحرص دائمًا على الإصغاء باهتمام، نظرًا لفهمي لغتهم، على الرغم من عدم مشاركتي في الحديث.

في الليلة التي تلت زيارة الأسيرة للقاعة العامة، دارت المحادثة حول هذا الموضوع، وكنت في هذه اللحظة كلي آذان صاغية. خشيت أن أسأل سولا عن الأسيرة الجميلة، فلا يمكنني أن أنسى التعبير الغريب الذي لاحظته على وجهها بعد لقائي الأول مع الأسيرة. لا أستطع القول إنه ينم عن الغيرة، لكني لا زلت حتى الآن أحكم على كل الأمور بمعايير كوكب الأرض، ولذا شعرت من الأفضل التظاهر باللامبالاة في هذه المسألة

إلى أن تأكدت بمزيد من اليقين أن موقف سولا كان ينم عن العناية.

كانت ساركوجا – وهي إحدى النساء الأكبر سنًّا اللاتي يشاركننا مسكننا - موجودة بين الحضور وهي إحدى حارسات الأسيرة، ولذا توجهت الأسئلة إليها.

تساءلت امرأة: «متى سنستمتع بسكرات موت هذه الحمراء؟ أم ينوي لوركواس بتوميل، جِد، أن يحتفظ بها للحصول على فدية؟»

أجابت ساركوجا: «لقد قرروا أن نأخذها معنا عند عودتنا مرة أخرى إلى ثارك، وعرض عذاباتها الأخيرة في المباريات الكبرى أمام تال هاجوس».

واستفسرت سولا: «كيف سيتخلصون منها؟ إنها صغيرة جدًّا وجميلة جدًّا؛ وكنت آمل أن يحافظوا عليها مقابل الحصول على فدية».

زمجرت ساركوجا والنساء الأخريات غضبًا من ضعف سولا الواضح.

واندفعت ساركوجا قائلة: «من المحزن، سولا، أنك لم تولدي من مليون سنة، عندما كانت جميع تجاويف الأرض مليئة بالمياه، وكان الناس بنفس نعومة المادة التي يبحرون فوقها. لقد تقدمنا في عالم اليوم إلى حيث تُعتبر هذه المشاعر علامة ضعف وارتداد. ليس جيدًا بالنسبة لك أن تتيحي الفرصة لتارس تاركاس أن يعرف أنك تحملين مثل هذه المشاعر الفاسدة، كما أنني أشك في أنه سيكلفك بمسؤوليات الأمومة الجسيمة».

ردت سولا: «لا أرى أي خطأ في تعبيري عن الاهتمام بهذه المرأة الحمراء، فلم تضرنا أبدًا، ولم تكن لتضرنا إذا سقطنا في أيديها. إنهم فقط الرجال من جنسها هم من يشنون الحرب علينا، وكنت أفكر دائمًا أن موقفهم تجاهنا ليس سوى انعكاس لموقفنا تجاههم. إنهم يعيشون في سلام مع جميع رفاقهم، إلا عندما يدعوهم واجب الحرب، بينما نحن لسنا في سلام مع أي شيء؛ نحن في حرب أبدية مع جنسنا نفسه، وكذلك مع الرجل الأحمر، وحتى في جماعاتنا يتحارب الأفراد فيما بينهم. أوه، إنها فترة مستمرة وفظيعة من سفك الدماء، من لحظة كسر قشرة البيضة إلى أن نلقي بأنفسنا سعداء في حضن نهر الغموض، نهر الإيس المظلم القديم الذي يحملنا إلى المجهول، ولكن على الأقل إلى وجود خال من الخوف والرعب! إنه لمحظوظ بالفعل من يصل إلى نهايته في موت مبكر. قولي ما يحلو لك لتارس تاركاس، فهو لن يعاقبني بمصير أسوأ من استمرار هذا الوجود المرعب المفروض علينا في هذه الحياة».

فوجئت بثورة سولا إلى حد كبير، كما صُدِمت النساء الأخريات اللاتي صمتن تمامًا بعد توبيخها ببضع كلمات وسرعان ما غلبهنَ النعاس. أكدت لي هذه الواقعة شيئًا واحدًا، وهو مشاعر سولا الودودة تجاه الفتاة البائسة، كما أقنعتني أنني كنت محظوظًا بالوقوع في أيديها وليس في أيادي بعض أولئك النساء الأخريات. كنت أعرف أنها مغرمة بي، لكنني أثق الآن وبعد أن اكتشفت أنها تكره القسوة والوحشية، أن بإمكاني الاعتماد عليها لمساعدتي ومساعدة الفتاة الأسيرة على الهرب، شريطة بالطبع أن يحدث ذلك في إطار الإمكانيات المتاحة.

لا أعرف حتى إن كانت هناك أي ظروف أفضل للهرب، لكن استعدادي لتجربة فرصتي بين أناس يشبهونني كان أكبر من استمراري لفترة أطول بين هؤلاء الرجال المريخيين الخُضر البشعين والمتعطشين للدماء. ولكن، إلى أين أذهب، وكيف. شغل هذا اللغز المُحير تفكيري، بقدر ما كان البحث من قديم الأزل عن ربيع الحياة الأبدية يشغل تفكير رجال كوكب الأرض منذ بدء الزمان.

وقررت اقتناص أول فرصة لأطلب من سولا سرًّا وبصراحة مساعدتي. وباتخاذي هذا القرار القوي، تقلبت بين الحرير والفراء ونمت نومًا منعشًا بلا أضغاث أحلام لأول مرة على المريخ.

* * *

(10)

بطل وزعيم

استيقظت مبكرًا في صباح اليوم التالي. أتاحت لي سولا قدرًا كبيرًا من الحرية، حيث أبلغتني أنني حر في التحرك كما يحلو لي ما دمت لا أحاول مغادرة المدينة. على أنها حذرتني من مغامرة التجول دون سلاح، حيث إن هذه المدينة، مثلها مثل جميع مدن المريخ الكبرى الأخرى المهجورة، يسكنها القرود البيض الكبار الذين رأيتهم خلال مغامرة يومي الثاني.

وأوضحت سولا، وهي تنصحني بضرورة عدم مغادرة حدود المدينة، أن وولا سيمنعني على أي حال إذا ما حاولت ذلك؛ وألحت في تحذيري من إثارة طبيعة وولا الشرسة بتجاهل تحذيراته إذا غامرت بالاقتراب من الأراضي المحظورة. وقالت إن طبيعته هذه ستجعله يعيدني إلى المدينة حيًّا أو ميتًا إذا ما واصلت معارضته؛ وأضافت «من الأفضل ميتًا».

اخترت في هذا الصباح طريقًا جديدًا لاستكشافه، ووجدت نفسي فجأة عند حدود المدينة. كانت الوديان الضيقة الجذابة تخترق التلال المنخفضة أمامي. ومثلي مثل الرواد الذين أنتمي إليهم، كنت مشتاقًا لاستكشاف البلد الذي يقع أمامي لأرى ما قد يكشف عنه المشهد الطبيعي خلف التلال التي تحيط به وتحجب قممها إمكانية الرؤية.

تبادر إلى ذهني أيضًا أنها فرصة ممتازة لاختبار صفات وولا. كنت مقتنعًا أن الوحش يحبني؛ فقد رأيت أدلة عديدة على مودته أكثر من أي حيوان مريخي آخر، رجلًا كان أو وحشًا، كما كنت على يقين من أن امتنانه لإنقاذي حياته مرتين سيفوق ولاءه لواجب يفرضه عليه سادة قساة لا يعرفون الحب.

عندما اقتربت من خط الحدود، ركض وولا أمامي بقلق، ودفع جسده في مواجهة ساقي. كان تعبيره مناشدة وليس شراسة، حيث لم يكشف عن أنيابه الكبيرة أو يطلق زمجراته التحذيرية المخيفة. ونظرًا لافتقاري إلى الصداقة والرفقة مع نوع بشري مثلي، فقد شعرت بمودة كبيرة تجاه وولا وسولا؛ فالإنسان العادي بكوكب الأرض يجب أن يتمتع بمنفذ لمشاعره الطبيعية، ولذا قررت مناشدة غريزة مماثلة لدى هذا الوحش الضخم، موقنًا أنه لن يصيبني بخيبة أمل.

لم ألاطفه أو أداعبه أبدًا، لكنني جلست الآن على الأرض ووضعت ذراعي حول عنقه الضخم وأنا أمرر يدي على شعره وألاطفه، متحدثًا إليه بلُغتي المريخية التي اكتسبتها حديثًا كما لو كنت أتحدث مع كلبي في البيت، أو مع أي حيوان من الحيوانات الصديقة الأخرى. كانت استجابته لإظهاري مشاعري لافتة للنظر إلى حد كبير؛ فتح فمه الكبير إلى أقصى اتساعه، كاشفًا عن جميع أنيابه العليا، وتجعد أنفه حتى أخفت طيات اللحم تقريبًا عينيه الكبيرتين. من رأى كلبًا من نوع الكولي يبتسم، ربما تكون لديه فكرة عن قدر القبح المشوه الذي ظهر على وجه وولا.

ألقى وولا بنفسه على ظهره متمرغًا عند قدمي؛ وقفز فوقي ليدحرجني على الأرض بوزنه الكبير؛ ثم أخذ يتلوى حولي مثل جرو مرح يعرض ظهره التماسًا للملاطفة. لم أستطع مقاومة طرافة المشهد، وأخذت أهتز من الضحك، وكانت المرة الأولى التي يلمس فيها الضحك شفتي منذ أيام عديدة؛ بل في الواقع هي المرة الأولى التي أضحك فيها منذ صباح اليوم الذي غادر فيه باول المخيم عندما اندفع حصانه، الذي لم يكن يستخدمه منذ فترة طويلة، وأوقعه بسرعة ودون توقع بحيث سقط على رأسه في وعاء للفاصوليا.

أخافت ضحكاتي وولا، فتوقف عن سلوكه الغريب وتقدم بائسًا ببطء نحوي، ودس رأسه القبيح في حضني. وهنا تذكرت أن الضحك في المريخ دلالة على التعذيب والمعاناة والموت. هدأت، ومسحت على رأس وظهر الزميل القديم البائس، وتحدثت معه لبضع دقائق، ثم في لهجة سلطوية أمرته أن يتبعني، وبدأنا صعودنا إلى التل.

انتهت مسألة تحديد السلطة بيننا؛ فقد أصبح وولا من الآن فصاعدًا عبدي المخلص، وأصبحت أنا سيده الوحيد بلا منازع. استغرق سيري نحو التلال مجرد بضع دقائق، ولم أجد شيئًا يتسم بأهمية خاصة تعوضني عن الرحلة. تناثرت العديد من الزهور البرية ذات الألوان الرائعة والأشكال الغريبة في الوديان، ورأيت من قمة التل الأول تلالًا أخرى تمتد نحو الشمال، وترتفع مجموعة فوق الأخرى، حتى اختفت في جبال هائلة الأبعاد؛ على أنني وجدت بعد ذلك أن ارتفاع بضعة قمم فقط على المريخ يتجاوز أربعة آلاف قدم؛ وبالتالي كان تصوري عن الضخامة مجرد تصور نسبي.

كانت مسيرتي الصباحية تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لي؛ لأنها أسفرت عن تفاهم مثالي مع وولا، الذي اعتمد عليه تارس تاركاس لحراستي. أصبحت أعرف الآن أنني سجين نظريًّا، بينما أتمتع عمليًّا بحريتي؛ فأسرعت إلى العودة لحدود المدينة قبل اكتشاف أسياد وولا السابقين انشقاقه عنهم. وقررت بعد هذه المغامرة ألا أغادر مرة

أخرى أبدًا الحدود المرسومة لحركتي إلى أن أصبح مستعدًّا لمغامرة الهروب النهائي؛ فقد يسفر ذلك عن تقليص حريتي، فضلاً عن احتمال قتل وولا إذا كشفونا.

عند العودة إلى الساحة، لمحت للمرة الثالثة الفتاة الأسيرة. كانت تقف مع حارساتها أمام مدخل القاعة العامة؛ وعندما اقتربت، رمقتني بنظرة متعجرفة وحولت ظهرها كاملاً عني. كان سلوكها أنثويًّا تمامًا، يماثل سلوك نساء كوكب الأرض؛ وعلى الرغم من أنه أهان كرامتي، فقد ملأ قلبي دفئًا بمشاعر الرفقة. من الجيد أن أعرف أن هناك شخصًا آخر غيري على كوكب المريخ يمتلك غرائز بشرية متحضرة، حتى وإن كان التعبير عنها مؤلماً ومُهينًا.

إذا رغبت امرأة مريخية خضراء في إظهار كراهيتها أو احتقارها، فعلى الأرجح ستفعل ذلك بطعنة سيف أو بضغطة من إصبعها على الزناد؛ ولكن نظرًا لأن مشاعرهم أصابها الضمور، يتطلب الأمر جرح خطير لإثارة هذه المشاعر في نفوسهم. واسمحوا لي أن أضيف أن سولا كانت استثناء؛ فلم أشاهدها أبدًا تقوم بفعل قاس أو فظ، أو تفشل في إبداء طبيعة عطوف وطيبة. لقد كانت في الواقع، كما قالت لها زميلاتها المريخيات، مرتدة؛ ارتدادًا عزيزاً وثمينًا إلى نوع سابق من سلف محبوب ومُحب.

عندما رأيت أن الأسيرة هي مركز الاهتمام، توقفت لمشاهدة الوقائع. لم يمض وقت طويل حتى اقترب لوركواس بتوميل والزعماء وحاشيته من المبنى، وأشار إلى الحارستين أن يتبعاه ومعهما الأسيرة إلى داخل القاعة العامة. ولإدراكي أنني شخصية مفضلة إلى حد ما، وأيضًا لاقتناعي أن المحاربين لا يعرفون إجادتي للغتهم – حيث ناشدت سولا الحفاظ على ذلك سرًّا، على أساس أنني لا أرغب في الاضطرار إلى الحديث مع الرجال إلى أن أتقن لغة المريخ تمامًا – فقد جازفت بمحاولة دخول القاعة العامة والاستماع إلى المحاكمة.

جلس أعضاء المجلس القرفصاء فوق سلالم المنصة، بينما وقفت الأسيرة في مكان أدنى مع الحارستين. كانت ساركوجا إحدى الحارستين، وهكذا فهمت كيف حضرت جلسة اليوم السابق وعرفت النتائج التي قالتها لسكان غرفة نومنا في الليلة الماضية. كان موقفها تجاه الأسيرة أكثر قسوة ووحشية. فعندما تمسك بها، تغرز أظافرها البدائية في لحم الفتاة البائسة، أو تلوي ذراعها بطريقة شديدة الإيلام. وعندما يتطلب الأمر الانتقال من موقع إلى آخر، كانت إما تهزها بخشونة أو تدفعها بتهور. يبدو أنها تعكس على هذه المخلوقة الضعيفة كل الكراهية والقسوة والوحشية - رغم سنواتها التسعمائة – التي تدعمها عصور يتعذر تخمين عددها من أسلاف شرسة ووحشية.

كانت المرأة الأخرى أقل قسوة لأنها غير مبالية على الإطلاق؛ فإذا كانت الأسيرة قد تُركت لها وحدها، ولحسن الحظ كانت نوبتها في الليل، لم تكن لتلقى معاملة قاسية، وعلى نفس المنوال لم تكن لتلقى أي اهتمام على الإطلاق.

عندما رفع لوركواس بتوميل عينيه لمواجهة الأسيرة، سقط بصره عليّ والتفت إلى تارس تاركاس بكلمة وإيماءة تنم عن نفاد الصبر. لم أتمكن من سماع إجابة تارس تاركاس، لكنها جعلت لوركواس بتوميل يبتسم؛ وبعد ذلك لم يعيراني مزيدًا من الاهتمام.

سأل لوركواس بتوميل الأسيرة: «ما اسمك؟»

أجابت: «ديجاه ثوريس، ابنه مورس كاجاك من هيليوم».

تابع أسئلته: «وما طبيعة الحملة التي جئت معها؟»

أجابت الأسيرة الجميلة، بصوت منخفض قوي: «إنها رحلة بحوث علمية محضة، أرسلها والد والدي، جيداك هيليوم، لإعادة رسم خريطة التيارات الهوائية، وإجراء اختبارات لكثافة الغلاف الجوي».

«لم نكن مستعدين لمعركة»، أضافت الأسيرة، «لأننا كنا في مهمة سلمية، كما دلت على ذلك راياتنا وألوان مركباتنا. والعمل الذي كنا نقوم به يصب في مصلحتكم بقدر ما يصب في مصلحتنا؛ فأنتم تعرفون تمامًا أنه لولا جهدنا وثمار عملياتنا العلمية، لم يكن ليوجد على المريخ ما يكفي من الهواء أو الماء لدعم حياة بشرية واحدة. لقد حافظنا لعصور على استمرار الهواء وإمدادات المياه على المستوى نفسه تقريبًا دون خسائر، وقد قمنا بذالك في مواجهة وحشية وجهل تدخل رجالك الخُضر».

«لماذا، أوه، لماذا لا تتعلمون العيش في وئام مع رفاقكم. هل عليكم دائمًا الانحدار عبر العصور نحو انقراضكم النهائي ويبقى قليلون منكم على الكوكب مع الوحوش الأغبياء الذين يخدمونكم! شعب بلا لغة مكتوبة، وبلا فن، وبلا منازل، وبلا حب؛ ضحايا عصور فكرة مجتمع الرعب. لقد أسفر امتلاككم المشترك لكل شيء، حتى لنسائكم وأطفالكم، إلى عدم امتلاككم أي شيء مشترك. إنكم تكرهون بعضكم بعضًا، كما تكرهون كل شيء إلا أنفسكم. عودوا إلى طرق أسلافنا المشتركين، عودوا إلى نور التعاطف والمودة. الطريق مفتوح أمامكم، وسوف تجد أيادي الرجال الحُمر ممدودة لمساعدتكم. ولا يزال بإمكاننا معًا أن نفعل الكثير لإحياء كوكبنا الذي يحتضر. إن حفيدة أكبر وأقوى الجيداك الحُمر تطلب منكم ذلك. فهل ستلبون؟»

جلس لوركواس بتوميل والمحاربون ينظرون في صمت واهتمام إلى المرأة الشابة لعدة دقائق بعد أن توقفت عن الكلام. لا يعرف أحد ماذا كان يدور في عقولهم، لكنني أعتقد بحق أنهم تأثروا؛ وإن كان بينهم رجلاً واحدًا رفيع المقام وقويًّا بما يكفي لتجاوز الأعراف، لكانت تلك قد أصبحت علامة على بداية حقبة جديدة وقوية للمريخ.

رأيت تارس تاركاس ينهض ليتحدث، وعلى وجهه تعبير لم يسبق أن رأيته أبدًا على ملامح أي محارب مريخي أخضر؛ تعبير يدل على معركة داخلية وقوية مع النفس، مع الموروث، مع العُرف القديم. وعندما فتح فمه ليتكلم، أضاءت في تلك اللحظة نظرة من اللطف والعطف ملامحه الشرسة والمرعبة.

لم تخرج من شفتيه أبدًا الكلمات التي كان يود قولها في تلك اللحظة، حيث قفز محارب شاب من سلالم المنصة - ومن الواضح أنه استشعر اتجاه تفكير الرجال الأكبر سنًّا - ووجه للأسيرة الضعيفة ضربة قوية على وجهها أسقطتها على الأرض، ووضع عليها قدمه، ثم استدار في اتجاه المجلس المجتمع وهو يطلق وابلاً من الضحك البشع بلا رحمة.

تصورت للحظة أن تارس تاركاس سيرديه قتيلاً، ولم يكن مظهر لوركواس بتوميل يدل على استحسانه للسلوك الغاشم، لكن هذا المِزاج انتهى، وأكدت نفوسهم القديمة أفضليتهم مجددًا، وابتسموا. غير أن عدم ضحكهم بصوت عال كان مبشرًا، فوفقًا للأخلاقيات التي تحكم فكاهة المريخيين الخُضر، يعتبر المتوحشون أن هذا السلوك يُشكّل فكاهة مسلية.

استغرقتني كتابة هذا الجزء مما حدث لحظات، لكن تلك اللطمة لا تعني أنني بقيت متراخيًا لأي فترة زمنية. وأعتقد أنني شعرت بما هو قادم، ذلك أنني أدرك الآن أنني قفزت بمجرد ما رأيت اللطمة موجهة إلى وجهها الجميل المنقلب والمتضرع، وقبل أن تهبط اليد على وجهها كنت قد وصلت إلى منتصف الطريق ناحيتها عبر القاعة.

لم تجلجل ضحكته البشعة إلا مرة واحدة، إذ قفزت فوقه. كان طول المتوحش 12 قدمًا ومدججًا بالسلاح، لكنني أعتقد أن قفزتي الغاضبة الهائلة استأثرت بانتباه جميع حضور القاعة. بهذه القفزة العالية أصبته كاملاً بضربة في وجهه وهو يستدير نحو صرختي التحذيرية، فاستل سيفه القصير، وفعلت الشيء نفسه وأصبته بضربة أخرى في صدره. شبكت إحدى أرجلي بمؤخرة مسدسه وأمسكت أحد أنيابه الضخمة بيدي اليسرى، بينما أواصل ضرب صدره الضخم.

لم يتمكن من استخدام سيفه القصير لأنني كنت على مقربة منه، كما لم يتمكن من سحب مسدسه - الذي حاول سحبه بما يتعارض مباشرة مع العادات المريخية التي تقول بعدم مقاتلة محارب زميل في عراك شخصي بأي سلاح غير السلاح الذي هوجمت به. وفي واقع الأمر، لم يكن بإمكانه أن يفعل أي شيء غير القيام بمحاول جامحة غير مجدية لإزاحتي. ومع كل كتلته الضخمة، لم يكن أقوى مني كثيراً، وكانت المسألة مجرد لحظة أو لحظتين قبل أن يسقط على الأرض هامدًا وهو ينزف.

رفعت ديجاه ثوريس نفسها على كوع إحدى يديها وأخذت ترقب المعركة بعيون واسعة محدقة. وعندما وقفت على قدمي، رفعتها بذراعي وحملتها إلى أحد المقاعد في جانب الغرفة.

ومرة أخرى لم يتدخل أي مريخي. مزقت قطعة حرير من معطفي واستخدمتها في محاولة وقف تدفق الدم من أنفها، وسرعان ما نجحت لأن جراحها لم تزد كثيراً عن نزف أنفي عادي. وعندما أصبحت قادرة على الكلام، وضعت يدها على ذراعي ونظرت في عيني وقالت:

«لماذا فعلت ذلك؟ لقد رفضت حتى مجرد التعامل الودي معي في الساعة الأولى لتعرضي للخطر! والآن تخاطر بحياتك وتقتل أحد رفاقك من أجلي. أنا لا أفهم. يا لغرابة سلوكك؛ فأنت من أقران الرجال الخُضر، على الرغم من أن هيئتك مثل هيئة جنسي، بينما لونك أغمق قليلاً من لون القرد الأبيض؟ قل لي، هل أنت من البشر، أم أكثر من البشر؟»

قلت لها: «إنها قصة غريبة، ويصعب أن أحكيها لك الآن لأنها طويلة، كما أشك كثيراً أن يصدقني الآخرون، وأخشى أن تتأثر مصداقيتي. ويكفي في الوقت الحاضر أن تعرفي أنني صديقك وحاميك وخادمك بقدر ما يسمح من أسرونا».

«إذن أنت أسير أيضًا؟ ولكن لماذا لديك أسلحة وشعارات زعيم ثاركي؟ ما اسمك؟ وما بلدك؟»

«نعم، ديجاه ثوريس، أنا أيضًا أسير. اسمي جون كارتر، وأنا من فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية، من كوكب الأرض، وطني. لكنني لا أعرف لماذا سمحوا لي بهذه الأسلحة، كما لم أكن أعرف أنني أرتدي شعارات الزعماء».

انقطع حديثنا هنا باقتراب أحد المحاربين، محملاً بالأسلحة والتجهيزات والحلي، وفي لحظة تمت الإجابة على أسئلتها وتم حل لغز بالنسبة لي. رأيت أنهم جردوا خصمي الميت من أشيائه، وقرأت في موقف المحارب الذي قد جلب لي غنائم المعركة نفس السلوك التهديدي المختلط بالاحترام الذي أظهره الآخرون الذين جلبوا لي المعدات

الأصلية. وقد أدركت الآن للمرة الأولى أن ضربتي في أول معركة بالقاعة العامة أسفرت عن وفاة خصمي.

اتضح الآن سبب الموقف كله تجاهي؛ فقد انتصرت على خصمي، وفي مفهوم العدالة البدائية - التي تشكل دائمًا تعاملات المريخيين، وجعلتني، من بين أمور أخرى، أن أدعوه كوكب المفارقات – يجب منحي الشرف الواجب للمنتصر، أي حاجيات الرجل الذي قتلته والموقع الذي يشغله. لقد أصبحت في الحقيقة زعيمًا مريخيًّا، ولم أعرف سوى لاحقًا أن هذا كان سبب الحرية الكبيرة التي أتمتع بها والتسامح معي في القاعة العامة.

عندما استدرت لتلقي حاجيات المحارب الميت، لاحظت أن تارس تاركاس والعديد غيره يتقدمون نحونا، وعيون تارس تاركاس مستقرة نحوي بطريقة ساخرة. وأخيرًا خاطبني:

«تتحدث لغة برسوم بسهولة بالنسبة لشخص كان أصمًّا وأبكمًا قبل أيام قليلة. أين تعلمتها، جون كارتر؟»

أجبته: «أنت نفسك المسؤول عن ذلك، تارس تاركاس، فقد منحتني مُدربة ذات قدرة رائعة؛ يجب أن أشكر سولا على تعليمي».

قال: «لقد أحسنت، لكن تعليمك في نواح أخرى يحتاج إلى صقل كبير. هل تعرف ماذا كانت ستكلفك جرأتك غير المسبوقة في حالة فشلك في قتل أي من الزعيمين اللذين ترتدي حاجياتهما الآن؟».

أجبته مبتسمًا: «أفترض أن من أخفقت في قتله، كان ليقتلني».

«كلا ، أنت مخطئ. لا يقتل المحارب المريخي أسيرًا إلا في أقصى حالات الدفاع عن النفس؛ فنحن نحتفظ بالأسرى لأغراض أخرى»؛ وكان وجهه ينم عن احتمالات لا يسرني التفكير فيها.

وتابع قائلاً: «لكن هناك شيئًا واحدًا يمكن أن ينقذك الآن. إذا اعتبرك تال هاجوس جديرًا بخدمته، اعترافًا ببسالتك وضراوتك وبطولتك الرائعة، يمكن إدخالك في الجماعة وتصبح ثاركيًّا بالكامل. وحتى نصل إلى مقر تال هاجوس، يريد لوركواس بتوميل منحك الاحترام الذي تستحقه أفعالك. لن نعاملك كزعيم ثاركي، لكن عليك ألا تنسى أن كل زعيم في مرتبتك مسؤول عن وصولك بأمان إلى حاكمنا القوي والأكثر شراسة. انتهى كلامي».

أجبته: «أفهمك تارس تاركاس. أنت تعلم أنني لست من برسوم؛ وأساليبي ليست أساليبكم، ولا يمكنني العمل في المستقبل إلا كما كنت أعمل في الماضي، وفقًا لما يمليه ضميري واسترشادًا بمعايير شعبي. إذا تركتني لحالي، سوف أغادر في سلام؛ وإذا لم تفعل، دع البارسوميين الأفراد الذين يجب أن أتعامل معهم إما يحترمون حقوقي كشخص غريب بينكم، أو يتحملون تبعات ما قد يحدث. لكن هناك شيئًا واحدًا يجب أن نؤكده هنا، مهما تكن نواياكم النهائية نحو هذه الشابة البائسة، فإن كل من يسبب لها إصابة أو إهانة في المستقبل يجب أن أتولى محاسبته كاملاً. أنا أعرف أنكم تقللون من شأن جميع مشاعر الكرم والتعاطف، لكنني لا أقلل من شأنها؛ ويمكنني أن أقنع أشجع محارب لديكم أن هذه الصفات لا تتنافى والقدرة على القتال».

لا ألقي عادة خطبًا طويلة، ولم أنحدر أبدًا إلى الكلام المنمق، لكنني خمنت أن خطابي هذا يمكن أن يضرب وترًا في صدور المريخيين الخُضر. ولم أكن مخطئًا، فقد كان لخطبتي أعمق الأثر عليهم، واستمر موقفهم تجاهي محترمًا.

بدا تارس تاركاس نفسه سعيدًا بردي، لكن تعليقه الوحيد كان غامضًا بعض الشيء: «وأعتقد أنني أعرف تال هاجوس، جيداك ثارك».

حولت انتباهي الآن إلى ديجاه ثوريس، وساعدتها على الوقوف على قدميها واستدرنا معًا نحو باب الخروج، متجاهلين حارستيها المزعجتين اللتين تحومان حولها، فضلاً عن نظرات الاستفسار لدى الزعماء. أنا الآن زعيم أيضًا! حسنًا، إذن يمكنني أن أتولى إحدى مسؤولياتهم. لم يتحرشوا بنا، وبالتالي سارت ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، وجون كارتر، السيد المحترم من فرجينيا، وتابعهما وولا المُخلص بين ثاركيي برسوم، في ظل الصمت المطلق للقاعة العامة للوركواس بتوميل، جِد.

* * *

(11)

مع ديجاه ثوريس

عندما وصلنا إلى المخرج، أسرعت الحارستان المكلفتان بمراقبة ديجاه ثوريس وتصرفتا كما لو أنهما تريدان استعادة رعايتها مرة أخرى. انكمشت الطفلة البائسة متمسكة بي، وشعرت بيديها الصغيرتين تحكمان الإمساك بذراعي. لوحت للمرأتين كي تبتعدا، وأبلغتهما أن سولا سوف تتولى رعاية الأسيرة من الآن فصاعدًا، كما حذرت ساركوجا من موت مفاجئ مؤلم إذا مارست أي سلوك قاس مع ديجاه ثوريس.

كان تهديدي غير ملائم وأضر بديجاه ثوريس أكثر مما نفعها، فكما علمت لاحقًا أن الرجال في المريخ لا يقتلون النساء، والنساء لا يقتلن الرجال. نظرت إلينا ساركوجا نظرة قبيحة، وغادرت لتحيك المكائد ضدنا.

سرعان ما وجدت سولا وشرحت لها رغبتي في أن تحرس ديجاه ثوريس كما كانت تحرسني؛ ورغبتي في أن تجد مسكنًا آخر لا يتعرضان فيه لمضايقات ساركوجا، وفي النهاية أبلغتها أنني سأسكن مع الرجال.

ألقت سولا نظرة إلى الأغطية المزركشة التي أحملها وتتدلى من كتفي.

قالت: «أنت زعيم عظيم الآن، جون كارتر. ويجب أن أطيع أوامرك، على أني سعيدة في الواقع للقيام بذلك تحت أي ظرف من الظروف. إن الرجل الذي تحمل حاجياته المعدنية كان شابًّا، لكنه كان محاربًا عظيمًا، وتمكن بترقياته وقتلاه من شق طريقه بنجاح ليقترب من رتبة تارس تاركاس، الذي كما تعرف يُعد الرجل الثاني بعد لوركواس بتوميل لوركواس. أنت الحادي عشر، وهناك عشرة زعماء فقط في هذه الجماعة على مرتبة من البراعة الفائقة تماثل براعتك».

فسألتها: «وماذا إن قتلت لوركواس بتوميل؟»

«ستصبح الأول، جون كارتر؛ لكنك لن تفوز بهذا الشرف إلا بإرادة المجلس كله بأن تواجه لوركواس بتوميل في قتال، أو تقتله دفاعًا عن نفسك إذا هاجمك، وهكذا تفوز بالمرتبة الأولى».

ضحكت وغيرت الموضوع. فلم تكن لدي أي رغبة لقتل لوركواس بتوميل، ولا أن أنال رتبة جِد بين الثاركيين.

رافقت سولا وديجاه ثوريس بحثًا عن مسكن جديد، ووجدناه في مبنى قريب من القاعة العامة وأكثر فخامة من مسكننا السابق. كما وجدنا في هذا المبنى حجرات حقيقية للنوم، تضم سرائر قديمة من معدن جيد الصنع وتتأرجح من سلاسل ذهبية هائلة تتدلى من الأسقف الرخام. كانت زخارف الجدران شديدة الدقة؛ وعلى خلاف اللوحات الجدارية في المباني الأخرى، توجد صور للعديد من الشخصيات البشرية من حيث تكوينها. كانت صورًا لأناس مثلي، ولون بشرتهم أفتح كثيراً من لون بشرة ديجاه ثوريس. وكانوا يرتدون ملابس جميلة فضفاضة، مزخرفة بالمعادن والمجوهرات، وشعورهم الغزيرة من لون جميل ذهبي وبرونزي محمر. كان الرجال بلا لحى ومعهم عدد قليل فقط من الأسلحة. كانت أغلب مشاهد الصور لأناس من بشرة فاتحة اللون وشعرهم أشقر، ويمضون وقتهم في التسلية.

شبكت ديجاه ثوريس يديها متعجبة في سعادة وهي تحدق في هذه الأعمال الفنية الرائعة، التي أنتجها أناس انقرضوا منذ فترة طويلة؛ ومن ناحية أخرى، يبدو أن سولا لم ترهم.

قررنا أن تستخدم ديجاه ثوريس وسولا هذه الغرفة التي تقع في الطابق الثاني وتطل على الساحة، وهناك غرفة أخرى خلفية مجاورة للطبخ والمؤن. ثم أرسلت سولا لإحضار أغطية الفراش والطعام والأواني التي تحتاج إليها، وقلت لها إنني سأتولى حراسة ديجاه ثوريس حتى عودتها.

عندما غادرت سولا، نظرت ديجاه ثوريس نحوي بابتسامة خفيفة.

«وإلى أين يمكن أن تهرب أسيرتك إذا تركتها، إلا إذا كان لمتابعتك والتماس حمايتك، وطلب عفوك لأفكارها القاسية عنك خلال الأيام القليلة الماضية؟».

أجبت: « أنت على حق، فلا مهرب لأي منا ما لم نذهب معًا».

«سمعت تحديك للمخلوق الذي تسميه تارس تاركاس، وأعتقد أنني أفهم موقفك بين هؤلاء الناس، ولكن ما لا أستطيع فهمه هو عبارتك بأنك لست من برسوم».

ثم واصلت قائلة: «باسم سلفي الأولى، من أين أتيت؟ أنت مثل أناس موطني، ومع ذلك مختلف عنهم. تتحدث لغتنا، لكنني سمعتك تقول لتارس تاركاس إنك تعلمتها مؤخرًا. يتحدث البرسوميون جميعًا نفس اللغة، من الغطاء الجليدي في الجنوب إلى الغطاء الجليدي في الشمال، على الرغم من اختلاف لغاتهم المكتوبة. ومن المفترض أن توجد لغة حديث مختلفة في وادي دور فقط، حيث يصب نهر إيس في بحر كوراس المفقود؛ وما عدا في أساطير أجدادنا، لا يوجد تسجيل لأي بارسومي عاد من

نهر إيس، من شواطئ كوراس في وادي دور. لا تقل لي إنك عدت! سيقتلونك بفظاعة في أي مكان على سطح برسوم إن كان ذلك صحيحًا؛ قل لي إنه غير صحيح.«!

امتلأت عيناها بضوء غريب عجيب؛ وكان صوتها متضرعًا، ووضعت يديها الصغيرتين على صدري وهي تضغط كما لو كانت تريد انتزاع ردي بالنفي من قلبي ذاته.

«أنا لا أعرف عاداتكم، ديجاه ثوريس؛ لكن الرجل المحترم في فرجينيا موطني لا يكذب لإنقاذ نفسه؛ أنا لست من دور؛ ولم أشهد أبدًا نهر إيس الغامض؛ وبحر كوراس المفقود لا يزال مفقودًا بقدر ما أعرف. هل تصدقيني؟».

وطرأ إلى ذهني فجأة مدى حرصي الشديد على أن تصدقني. ليس لأنني أخشى النتائج التي ستترتب على اعتقادها بأنني عدت من جنة أو جحيم برسومي، أو أيًّا ما كان. لماذا إذن! لماذا أهتم بما تتصوره؟ نظرت إليها؛ تغير وجهها الجميل، واتسعت عيناها الرائعتين موضحة عمق روحها؛ وعرفت السبب عندما التقت عينانا – فارتجفت.

يبدو أن موجة مماثلة من الشعور كانت تحركها؛ وابتعدت عني وهي تتنهد، ثم همست وهي تنظر نحوي بوجهها الجميل المخلص: «أصدقك جون كارتر؛ لا أعرف معنى ’رجل محترم‘ كما لم أسمع من قبل عن فرجينيا؛ ولكن في برسوم، لا يوجد رجل يكذب؛ بل يصمت إذا كان لا يرغب في قول الحقيقة. أين تقع فرجينيا هذه، موطنك، جون كارتر؟». عندما سألتني، بدا لي أن هذا الاسم الجميل لموطني الجميل لم يكن أبدًا أكثر جمالاً من اليوم عندما نطقت به تلك الشفاه الرائعة.

أجبتها: «أنا من عالم آخر، من كوكب الأرض، وهو كوكب يدور حول شمسنا المشتركة في مدار يلي مدار برسوم الذي نعرفه باسم كوكب المريخ. كيف جئت إلى هنا، لا أستطيع أن أقول لك، لأنني لا أعرف؛ لكنني هنا، وما دام حضوري قد أتاح لي أن أخدم ديجاه ثوريس فأنا سعيد أنني هنا».

حدقت في وجهي لفترة طويلة بعيون مضطربة مستفسرة. فقد كنت أعرف جيدًا مدى صعوبة تصديق كلامي، كما لم يكن لدي أمل في أن تصدقني مهما التمست ثقتها واحترامها. ربما كان من الأفضل ألا أخبرها بأي شيء عن أسلافي، ولكن لا يوجد إنسان يمكن أن ينظر في عمق تلك العيون ويرفض لها أدنى طلب.

ابتسمت أخيراً، وقالت وهي تنهض: «سوف أصدقك على الرغم من أنني لا أفهم. يمكنني أن أتصور بسهولة أنك لست من برسوم الموجودة اليوم؛ فأنت مثلنا، لكنك مختلف - ولكن لماذا يجب أن أرهق رأسي العليل بهذه المشكلة وقلبي يقول لي إنني أصدق لأنني أريد أن أصدق!».

كان منطقًا جيدًا، منطق أنثوي جيد يماثل نظيره على كوكب الأرض، وإذا كان أقنعها فهو بالتأكيد بلا أخطاء. لقد كان، في واقع الأمر، النوع الوحيد تقريبًا من المنطق الذي يمكن تحميله على مشكلتي. أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، نسأل ونجيب بعضنا بعضًا على العديد من الأسئلة. وكانت متشوقة لمعرفة عادات وتقاليد شعبي، وأظهَرت معرفة رائعة بالأحداث على كوكب الأرض. وعندما سألتها عن ألفتها الظاهرة هذه بشؤون كوكب الأرض، ضحكت وصاحت قائلة:

«لماذا، لأن كل طالب في المدرسة في برسوم يعرف الجغرافيا، كما يعرف الكثير عن الحيوانات والنباتات، فضلاً عن معرفته تاريخ كوكبك بمثل ما يعرف كوكبه تمامًا. ألا يمكننا أن نرى كل شيء يحدث على كوكب الأرض، كما تسمونه؛ أليس معلقًا هناك في السماء على مرأى منا؟».

يجب أن أعترف أن كلامها أثار حيرتي تمامًا بقدر ما أربكها حديثي؛ وقلت لها ذلك. فأوضحت بشكل عام الأدوات التي استخدمها شعبها وطورها عبر العصور، وتتيح لهم الاستعانة بشاشة لرؤية صورة مثالية لما يحدث على أي كوكب وعلى العديد من النجوم. وهذه الصور مثالية من حيث التفاصيل، فعند تصوير الأشياء وتكبيرها، يمكن التعرف بوضوح على أي شيء لا يزيد حجمه كثيراً عن ورقة عشب. وبعد ذلك، رأيت في هيليوم عندما ذهبت إليها في ما بعد، العديد من هذه الصور، فضلاً عن الأدوات التي تُنتجها.

سألتها: «إذا كنت إذن على هذه الدراية بشؤون كوكب الأرض، لماذا لا تدركين تطابقي مع سكانه؟».

ابتسمت مرة أخرى كمن ضجر متسامحًا من طفل كثير الأسئلة، وأجابت:

«يرجع ذلك جون كارتر إلى أن جميع الكواكب أو النجوم تقريبًا التي تشبه ظروفها الجوية ظروف برسوم لديها أشكال من الحياة الحيوانية تكاد تتطابق معك ومعي؛ وعلاوة على ذلك، يغطي رجال كوكب الأرض، دون استثناء تقريبًا، أجسادهم بقطع غريبة وقبيحة من القماش، ويغطون رؤوسهم بأشياء بشعة عجزنا عن فهم الغرض منها؛ بينما أنت، عندما وجدك محاربو ثارك، لم تكن مشوهًا أو مزينًا على الإطلاق».

«وحقيقة أنك لم تكن ترتدي أي حُلي هي دليل قوي على أنك لست من أصل برسومي، بينما قد يسبب عدم ارتدائك أغطية بشعة شكًّا في أنك من كوكب الأرض».

حكيت لها عندئذ تفاصيل مغادرتي كوكب الأرض، موضحًا أن جسدي يرقد هناك مرتديًا كامل ملابس سكان الكوكب التي تعتبرها ملابس غريبة. وهنا عادت سولا ومعها

أمتعتنا الضئيلة وربيبها المريخي الصغير الذي يتعين، بطبيعة الحال، أن يشاركهما السكن.

سألتنا سولا عما إذا كان قد جاءنا زائر أثناء غيابها، وبدت شديدة الدهشة عندما أجبناها بالنفي. يبدو أنها صعدت إلى الطوابق العليا التي توجد فيها غرف نومنا والتقت بساركوجا وهي تهبط إلى أسفل. قلنا إنها كانت تتنصت بالتأكيد، لكننا لم نتذكر أننا تحادثنا حول شيء مهم، ولذا تجاهلنا هذه المسألة، لكننا اتفقنا على توخي أقصى درجات الحذر في المستقبل.

بعد ذلك أخذت أنا وديجاه ثوريس نفحص معمار الغرف الجميلة وزخارفها بالمبنى الذي نشغله. وقد أخبرتني أن هؤلاء الناس من المفترض أنهم ازدهروا لأكثر من مائة ألف سنة. كانوا أسلاف جنسها الأوائل، لكنهم اختلطوا مع الجنس الآخر الكبير من المريخيين الأوائل، الذين كانت بشرتهم داكنة جدًّا، سوداء تقريبًا؛ كما اختلطوا أيضًا مع الجنس الأصفر المحمر الذي ازدهر في الوقت نفسه.

اضطرت هذه الأقسام الثلاثة الكبرى من المريخيين الأوائل إلى الدخول في تحالف قوي، حيث أجبرهم جفاف بحار المريخ إلى السعي نحو المناطق الخصبة القليلة نسبيًّا ودائمة التقلص، فضلاً عن الدفاع عن أنفسهم في ظل ظروف الحياة الجديدة ضد جحافل الرجال الخُضر الهمجية.

وأسفرت العلاقات الوثيقة والتزاوج فيما بينهم عن جنس الرجال الحُمر، الذي كانت ديجاه ثوريس ابنته الجميلة. وخلال عصور المصاعب والحروب المتواصلة بين أعراقهم المختلفة، وكذلك مع الرجال الخُضر، وقبل تكييف أنفسهم مع الظروف المتغيرة، ضاع الكثير من الحضارة السامية والعديد من فنون المريخيين الشُقر؛ لكن الجنس الأحمر الموجود اليوم وصل إلى مرحلة يشعر فيها أنه عوّض بالاكتشافات الجديدة وبالحضارة الأكثر عملية كل ما دُفن إلى غير رجعة مع البرسوميين القدماء تحت عدد لا يُحصى من العصور التي تخللت ذلك التاريخ.

ينتمي المريخيون القدماء إلى جنس يتسم بثقافته العالية واتساع اطلاعه. وخلال تقلبات القرون التي شهدت محاولات إعادة التكيُّف مع الظروف الجديدة، لم يقتصر الأمر على توقف تقدمهم وإنتاجهم تمامًا، وإنما ضاعت عمليًّا أيضًا جميع أرشيفاتهم وسجلاتهم وأدبياتهم.

ربطت ديجاه ثوريس العديد من الحقائق والأساطير المهمة بهذا الضياع للشعب النبيل الطيب. وقالت إن المدينة التي نخيم فيها من المفترض أنها كانت مركزاً للتجارة

والثقافة يعرف باسم كوراد. وكانت مبنية على ميناء طبيعي جميل، تحيط به تلال رائعة. وشرحت أن الوادي الصغير الذي يقع على الجبهة الغربية للمدينة هو كل ما تبقى من الميناء، بينما كان الممر عبر التلال إلى قاع البحر القديم بمثابة قناة لمرور السفن إلى بوابات المدينة.

تناثرت المدن على شواطئ البحار القديمة، وكان يمكن العثور على مدن أصغر وبأعداد أقل، تتقارب في اتجاه وسط المحيطات، حيث وجد الناس من الضروري اتباع انحسار المياه إلى أن فرضت عليهم الضرورة خلاصهم النهائي، ما يُسمى القنوات المريخية.

لقد انهمكنا في استكشاف المبنى وفي حديثنا، بحيث لم ندرك ذلك إلا في فترة متأخرة بعد الظهر. عدنا إلى ظروفنا الحالية بوصول رسول يحمل أمر استدعاء من لوركواس بتوميل كي أمثل أمامه على الفور. ودعت ديجاه ثوريس وسولا وأمرت وولا بالبقاء للحراسة. أسرعت إلى القاعة العامة، حيث وجدت لوركواس بتوميل وتارس تاركاس يجلسان على المنصة.

* * *

(12)

أسير يتمتع بالسلطة

دخلت إلى القاعة العامة وقدمت التحية، ثم أشار لي لوركواس بتوميل بالمضي قدمًا وخاطبني، وعيناه الكبيرتان البشعتان مثبتتان نحوي، قائلاً:

«أنت معنا منذ بضعة أيام، تمكنت خلالها نتيجة لشجاعتك من الفوز بمكانة عالية بيننا. وأيًّا ما كان ذلك، فأنت لست واحدًا منا؛ أنت لا تدين لنا بالولاء».

وتابع قائلاً: «موقفك غريب؛ فأنت أسير ومع ذلك تُعطي أوامر يجب أن تُطاع؛ أنت أجنبي ومع ذلك أنت زعيم ثاركي؛ أنت قزم ومع ذلك يمكنك قتل محارب قوي بضربه واحدة من قبضة يدك. والآن تم الإبلاغ عنك إنك تخطط للهرب مع أسيرة أخرى من جنس آخر؛ أسيرة تعتقد إلى حد ما، وفقًا لتصورها، أنك عدت من وادي دور. إذا ثبتت أي من هذه الاتهامات، ستكون سببًا كافيًا لإعدامك، لكننا شعب عادل وسوف تُحاكم لدى عودتنا إلى ثارك، إذا ما أمر تال هاجوس بذلك».

«ولكن»، واصل بنبراته المزمجرة الشرسة، «إذا هربت مع الفتاة الحمراء، سأكون أنا من يتعين عليه إبلاغ تال هاجوس؛ وسأكون أنا من يتعين عليه مواجهة تارس تاركاس، فإما أن أثبت حقي في القيادة، أو ستؤول حاجياتي المعدنية من جسدي الميت إلى أفضل رجل، فهذا هو العُرف في ثارك».

«ليس لدي أي خلاف مع تارس تاركاس؛ فنحن نحكم معًا أعظم الجماعات الصغيرة بين الرجال الخُضر؛ نحن لا نريد محاربة بعصنا بعضًا؛ وبالتالي، سأكون سعيدًا بموتك جون كارتر. على أننا يمكننا قتلك تحت هذين الشرطين فقط، ودون أوامر من تال هاجوس: في قتال شخصي دفاعًا عن النفس إذا هاجمت أحدنا، أو إذا تم القبض عليك في محاولة للهرب».

«وانطلاقًا من العدالة، يجب أن أحذرك أننا ننتظر حدوث أي من هذين العذرين لنُخلص أنفسنا من مسؤولية ضخمة جدًّا. إن تسليم الفتاة الحمراء آمنة إلى تال هاجوس يُمثل أهمية قصوى. فلم يحقق الثاركيون مثل هذا الأسر خلال ألف عام؛ فهي حفيدة أعظم جيداك أحمر، يُعد أيضًا ألد أعدائنا. لقد أنهيت حديثي. قالت لنا الفتاة الحمراء إننا نفتقر إلى أبسط مشاعر الإنسانية، لكننا جنس عادل وصادق. يمكنك أن تنصرف».

غادرت القاعة العامة. هذا إذن بداية اضطهاد ساركوجا لنا! كنت أعرف أنه ما من شخص آخر يمكنه أن يكون مسؤولاً عن هذا التقرير الذي بلغ آذان لوركواس بتوميل بهذه السرعة، وتذكرت الآن تلك الأجزاء من حديثنا الذي تطرقنا فيه إلى الهروب وإلى الأصول التي انحدر منها.

كانت ساركوجا في ذلك الوقت أقدم امرأة وأكثرهن ثقة لدى تارس تاركاس. وعلى هذا النحو كانت سلطة قوية خلف العرش؛ إذ لم ينل أي محارب ثقة لوركواس بتوميل إلى هذا الحد كما فعل أبرع محاربية المُلازم تارس تاركاس.

مع ذلك، وبدلاً من استبعاد أفكار الهروب الممكنة من ذهني، لم تؤد مقابلتي مع لوركواس بتوميل إلا إلى تركيز كل قدراتي على هذا الموضوع. والآن، أكثر من ذي قبل، أصبحت الضرورة المطلقة للهروب ملقاة على عاتقي، بقدر ما يتعلق الأمر بديجاه ثوريس؛ فقد كنت على اقتناع بأن مصيراً رهيبًا ينتظرها في مقر تال هاجوس.

كان هذا الوحش، كما وصفته سولا، تجسيدا مفرطًا لجميع عصور القسوة والضراوة والوحشية التي انحدر منها. كان باردًا، وماكرًا، وحريصًا؛ كما كان أيضًا يتناقض بشكل ملحوظ مع معظم زملائه، إذ كان عبدًا لمطالب تلك الشهوة البهيمية للتناسل، التي تضاءلت وتكاد أن تكون قد هدأت في صدور المريخيين على كوكبهم الآخذ في الفناء.

بدأ العرق البارد يتصبب مني عندما أفكر في أن ديجاه ثوريس المقدسة قد تقع في براثن هذا الارتداد السحيق. من الأفضل كثيراً أن نحافظ على الرصاص الصديق لأنفسنا حتى آخر لحظة، كما فعلت نساء الحدود الشجعان في وطني المفقود، اللاتي قتلن أنفسهن بدلاً من الوقوع في أيدي الشجعان الهنود.

كنت أتجول في الساحة وأفكر في هواجسي الكئيبة عندما اقترب مني تارس تاركاس وهو في طريقة إلى القاعة العامة. لم يتغير سلوكه تجاهي، وحيّاني كما لو أننا لم نفترق منذ لحظات قليلة فقط.

سألني: «أين مسكنك، جون كارتر؟».

فقلت: «لم أختر مسكنًا. ويبدو من الأفضل أن أسكن بمفردي أو مع المحاربين الآخرين، وكنت أنتظر الفرصة لأسألك المشورة». ثم ابتسمت قائلاً: «فكما تعلم أنا لست على دراية بعد بجميع عادات وتقاليد ثارك».

«تعال معي»، أشار لي وتوجهنا معًا عبر الساحة إلى مبنى أسعدني أنه مجاور للمبنى الذي تشغله سولا والمسؤولين منها.

قال: «يقع مسكني في الطابق الأول من هذا المبنى، ويشغل المحاربون الطابق الثاني كله، لكن الطابق الثالث والطوابق الأعلى شاغرة؛ ويمكنك أن تختار منها».

وتابع حديثه قائلاً: «أنا أفهم تخليك عن امرأتك لأسيرة حمراء. حسنًا، فكما قلت أساليبكم تختلف عن أساليبنا، لكنك قادر على القتال بشكل جيد بما يكفي لتفعل ما يحلو لك؛ وبالتالي إذا رغبت في إعطاء امرأتك لأسيرة، فهذا شأن يخصك؛ لكنك كزعيم يجب أن يوجد من يخدمك، ووفقًا لعاداتنا يمكنك اختيار أي من الإناث، أو جميعهن، من حاشية الزعماء الذين ترتدي معادنهم الآن».

شكرته وأكدت له أنني أستطيع تدبر أموري جيدًا دون مساعدة، إلا فيما يتعلق بإعداد الطعام؛ وبالتالي وعدني بإرسال نساء لهذا الغرض، وأيضًا للعناية بذراعي وتصنيع ذخائري، وهو الأمر الذي اعتبره ضروريًّا. طلبت منه أن يحضرن أيضًا بعض أغطية الحرير والفراء اللازمة للنوم وتُعتبر من الغنائم التي أصبحت ملكي بعد القتال، فالليل بارد، وليس لدي أي أغطية.

وعدني بذلك وغادر. أصبحت بمفردي، صعدت الممر المتعرج المُفْضي إلى الطوابق العليا بحثًا عن مكان مناسب. تكرر جمال المباني الأخرى في هذا المبنى، وكالعادة شردت خلال جولة للبحث والاكتشاف.

اخترت أخيراً غرفة أمامية في الطابق الثالث، لأنها تجعلني أقرب إلى ديجاه ثوريس التي تشغل مكانًا في الطابق الثاني من المبنى المجاور، وبدر إلى ذهني أنني قد أتمكن من ابتكار وسيلة اتصال تستطيع بمقتضاها الإشارة لي إذا ما كانت في حاجة إلى خدماتي أو حمايتي.

كان مجاورًا لغرفة نومي حمامات، وغرف لخلع الملابس، وغرف أخرى للنوم والمعيشة؛ في مجموعها حوالي 10 غرف في هذا الطابق. وكانت نوافذ الغرف الخلفية تطل على فناء هائل يُشكل مركز الميدان الذي تصنعه المباني التي تواجه الشوارع الأربعة المتجاورة، والتي خُصِّصت الآن لإيواء الحيوانات المختلفة التي تنتمي إلى المحاربين الذين يشغلون المباني المجاورة.

اكتسى الفناء كلية بالنباتات الصفراء الشبيهة بالطحالب التي تغطي عمليًّا سطح المريخ كله، إضافة إلى وجود العديد من النافورات، والتماثيل، والمقاعد الطويلة، والأشياء الغريبة الشبيهة بالبرجولا وتشهد جميعها على جمال ذلك الفناء في أزمنة

ماضية، عندما زينها شعب أشقر ضحوك، دفعته قوانينه الكونية الصارمة الراسخة ليس فقط خارج بيته، وإنما خارج كل شيء ما عدا أساطير أحفادهم الغامضة.

يمكن للمرء أن يتصور بسهولة أوراق الشجر فائقة الجمال لنباتات المريخ وافرة النماء التي ملأت في يوم ما هذا المشهد بالحياة والألوان؛ القامات الرشيقة للنساء الجميلات، والرجال الذين يتصفون بطول القامة والوسامة؛ والأطفال يرقصون فرحًا - الجميع، في ظل أشعة الشمس والسعادة والسلام. يصعب إدراك انتهائهم خلال عصور الظلام والقسوة والجهل، إلى أن نهضت مواهبهم الثقافية والإنسانية مرة أخرى في تركيبة نهائية لجنس أصبح الآن مُهيمنًا على المريخ.

انقطع حبل أفكاري بظهور عدة نساء شابات يحملن كميات من الأسلحة، والحرير، والفراء، والجواهر، وأواني الطبخ، وبراميل الأغذية والمشروبات، بما في ذلك قدر كبير من الغنيمة المنهوبة من المركبة الفضائية. يبدو أن هذا كله كان ملكًا للزعيمين اللذين قتلتهما، وأصبح ملكي الآن بموجب عادات وتقاليد الثاركيين. وضعت النساء هذه الأشياء في إحدى الغرف الخلفية ثم غادرن، وإنما فقط ليعدن بحمولة ثانية، وقلن لي إن هذا يمثل رصيدي من السلع. رافقهن في الرحلة الثانية حوالي عشرة أو خمسة عشر من النساء والشباب، ويبدو أنهم يشكلون حاشية الزعيمين.

ليسوا من أفراد أسرهم، ولا زوجاتهم ولا خدمهم؛ كانت العلاقة غريبة وتختلف تمامًا عن أي شيء معروف لنا، ويصعب بشدة وصفها. جميع ممتلكات المريخيين الخُضر مشتركة على المشاع في الجماعة ما عدا الأسلحة الشخصية، وحاجيات الأفراد من الحُلي، والحرير والفراء اللازمين للنوم. وهذه الأشياء هي فقط التي يمكن للمرء أن يطالب بحقه فيها بلا منازع، كما لا يجوز له مراكمة أكثر مما يلزم لاحتياجاته الفعلية. ويحتفظ بالفائض بوصفه وصيًّا عليه فقط، ويعطيه إلى الأفراد الأصغر سنًّا في الجماعة حسب الضرورة.

يمكن تشبيه النساء والأطفال في حاشية الرجل بوحدة عسكرية يتولى الرجل مسؤوليتها بطرق مختلفة مثل أمور التعليم، والانضباط، والإعاشة، ومقتضيات تجوالهم المستمر، ومعاركهم التي لا تنتهي مع الجماعات الأخرى ومع المريخيين الحُمر. نساؤه لسن زوجات بأي معنى. لا يستخدم المريخيون الخُضر كلمة مناظرة في معناها مع هذه الكلمة المستخدمة على كوكب الأرض. فالتزاوج لديهم هو مسألة تهم الجماعة فقط، ومُوجه دون مرجعية نحو الانتقاء الطبيعي. يتولى مجلس زعماء كل جماعة توجيه هذه المسألة بمثل ما يتولى مالك سباق كنتاكي للخيول توجيه تناسل سلالته بشكل علمي لتحسينها.

قد يبدو الأمر جيدًا من الناحية النظرية - كما هو الحال مع النظريات - لكن نتائج الأعمار التي تسفر عنها هذه الممارسة غير الطبيعية، مقترنة بأن مصلحة المجتمع في الذرية تمثل أهمية قصوى مقارنة بمصلحة الأم، تبدو واضحة في برودة وقسوة تلك المخلوقات، ووجودها المتجهم الكئيب الذي يفتقر إلى الحب.

صحيح أن المريخيين الخُضر يتسمون بالفضيلة تمامًا، سواء الرجال أو النساء، باستثناء أفراد منحطين مثل تال هاجوس؛ لكن الأفضل هو تحقيق توازن أسمى للصفات البشرية حتى على حساب خسارة طفيفة للعفة أحيانًا.

عندما أدركت أنني يجب أن أتحمل مسؤولية هذه المخلوقات، سواء فعلت ذلك أم لم أفعل، قمت بأفضل ما أمكنني بأن وجهتهم للبحث عن مساكن في الطوابق العليا، بحيث يتركون الطابق الثالث لي. كلفت إحدى الفتيات بواجبات إعداد طعامي البسيط، ووجهت الآخرين بتولي الأنشطة المختلفة التي كانت تشكل سابقًا المهن التي يقومون بها. وبعد ذلك رأيت عددًا قليلاً منهم، ولم أهتم بهم.

* * *

(13)

الحب على المريخ

بعد انتهاء معركة السفن الفضائية، ظلت الجماعة داخل المدينة لعدة أيام وتخلت عن مسيرة العودة للديار إلى أن تتأكد من عدم عودة السفن؛ فلم تكن الجماعة - حتى وإن كانت جماعة حربية مثل المريخيين الخُضر - ترغب في أن يتم القبض عليها في سهول مفتوحة وبصحبتها موكب يضم عربات وأطفال.

علمني تارس تاركاس خلال فترة تعطلنا العديد من عادات وفنون الحرب المألوفة لدى الثاركيين، بما في ذلك دروس في ركوب وتوجيه الوحوش الضخمة التي تحمل المحاربين. هذه المخلوقات، المعروفة باسم ثوات، خطيرة وشرسة كأسيادها؛ لكنها ما إن تُهزم، تصبح سهلة الانقياد بما يكفي لأغراض المريخيين الخُضر.

حصلت على اثنين من هذه الحيوانات من المحاربين اللذين أرتدي معادنهما، وتمكنت في فترة قصيرة من التعامل معهما بنفس مهارة تعامل محاربي المريخ. لم يكن الأسلوب معقدًا على الإطلاق. إذا لم يستجب الثوات بسرعة كافية لتعليمات فرسانهم عبر التخاطر، يُضربون بقوة بين الأذنين بمؤخرة مسدس، وإذا أظهروا مقاومة، تستمر هذه المعاملة إلى أن يُهزم الوحش أو يطيح براكبه أرضًا.

وفي الحالة الأخيرة يصبح صراع الحياة والموت بين الرجل والوحش. فإذا كان الرجل سريعًا في استخدام مسدسه، قد يعيش ليركب مرة أخرى وإن كان على وحش آخر؛ أما إذا لم يكن سريعًا، تجمع نساؤه جثته الممزقة المشوهة ويحرقنها وفقًا لعادات ثارك.

جعلتني خبرتي مع وولا أن أحاول تجربة اللطف في معاملة الثوات. علمتهم أولاً عدم الإطاحة بي أرضًا، وكنت حتى أضربهم بحدة بين الأذنين لأطبع في أذهانهم سلطتي وقيادتي. وتدريجيًّا فزت بثقتهم بنفس الطريقة التي مارستها مرات لا تحصى مع حيوانات الركوب على كوكب الأرض. كنت دائمًا جيد التعامل مع الحيوانات، كما كنت أيضًا بحكم ميولي أتعامل بعطف وإنسانية مع كائنات المرتبة الأدنى، إلى جانب أن طريقتي تسفر دومًا عن نتائج مستمرة وتبعث على الرضا. يمكنني أن أقتل إنسانًا، إذا لزم الأمر، بقدر من تأنيب الضمير أقل بكثير مما أشعر به تجاه وحش بائس وغير عاقل وغير مسؤول.

وخلال بضعة أيام، أصبحت حيواناتي الثوات أعجوبة الجماعة بأكملها. فهم يتبعونني مثل الكلاب، ويحكون أنوفهم الخرطومية الكبيرة في جسدي كدليل أخرق على المودة، ويستجيبون لكل أوامري بسرعة وطاعة؛ مما جعل المحاربين المريخيين ينسبون لي امتلاكي لقوة موجودة على كوكب الأرض وغير معروفة على المريخ.

«هل سحرتهم؟» سألني تارس تاركاس بعد ظهر أحد الأيام عندما شاهدني أُدخل ذراعي بين الفكين الكبيرين لأحد الثوات الذي انحشرت قطعة حجر بين اثنين من أسنانه وهو يتغذى على النباتات شبيهة الطحالب داخل فنائي.

«بالعطف»، أجبته، ثم واصلت قائلاً: «هكذا ترى، تارس تاركاس، أن لطف المشاعر له قيمته، حتى لمحارب. أعرف أن الثوات سيطيعون كل أوامري، في ذروة المعركة وأيضًا خلال المسيرة، ولذا تتعزز كفاءتي القتالية، وأنا محارب أفضل لأنني سيد عطوف. قد يجد محاربوك الآخرون أن من صالحهم وأيضًا من مصلحة الجماعة اعتماد أساليبي في هذا الصدد. أنت نفسك قلت لي منذ بضعة أيام إن هذه الوحوش الضخمة، ونتيجة لعدم اليقين تجاه انفعالاتها، كثيراً ما تكون وسيلة لتحويل النصر إلى هزيمة، لأنها قد تختار في لحظة حاسمة الإطاحة براكبها أرضًا وتمزيقه».

اقتصر رد تاركس تاركاس على التعليق التالي: «أرني كيف يمكنك تحقيق هذه النتائج».

وهكذا شرحت له بعناية مجمل أسلوب التدريب الذي اعتمدته لوحوشي، ثم طلب مني في وقت لاحق أن أكرره أمام لوركواس بتوميل والمحاربين المجتمعين. كانت تلك اللحظة بمثابة بداية وجود جديد للثوات البائسين، وقبل أن أغادر جماعة لوركواس بتوميل، سعدت بمشاهدة فوج يمتطي وحوش سهلة الانقياد ومطيعة على النحو الذي أرغب في رؤيته. كان التأثير على دقة وسرعة الحركات العسكرية ملحوظًا، حتى أن لوركواس بتوميل قدم لي خلخالاً ضخمًا من الذهب

كان يرتديه على ساقه كعلامة على تقديره لخدمة الجماعة.

بدأنا مرة أخرى مسيرتنا نحو ثارك في اليوم السابع بعد المعركة مع المركبة الفضائية، حيث استبعد لوركواس بتوميل جميع احتمالات هجوم آخر.

لم أرى ديجاه ثوريس كثيراً خلال الأيام التي سبقت رحيلنا مباشرة، إذ شغلني تمامًا تارس تاركاس في إعطائي دروس فن الحرب في المريخ، كما انشغلت في تدريب حيواناتي الثوات. وفي المرات القليلة التي زرت فيها مسكنها كانت غائبة، كانت تسير في الشوارع مع سولا، أو تتدارس المباني في الجوار القريب من الساحة. وقد حذرتهما من

مغامرة الابتعاد عن الساحة، خوفًا من القرود البيضاء الكبيرة التي أعرف شراستها جيدًا. ومع ذلك، لم تكن هناك نسبيًّا أي مدعاة للخوف، حيث رافقهم وولا في جميع تلك الرحلات، كما كانت سولا مُسلحة.

في المساء، وقبل رحيلنا، رأيتهما تقتربان من أحد الطرق الكبيرة التي تؤدي إلى الساحة من جهة الشرق. تقدمت لمقابلتهما وقلت لسولا إنني سأتولى مسؤولية الحفاظ على أمان ديجاه ثوريس، وطلبت منها العودة إلى مسكنها لإنجاز بعض المهمات التافهة. كنت معجبًا بسولا وأثق فيها، ولكني لسبب ما رغبت في الانفراد برفقة مريحة ولطيفة مع ديجاه ثوريس التي تمثل بالنسبة لي كل ما تركته ورائي على كوكب الأرض. هناك روابط اهتمام مشترك بيننا، روابط قوية كما لو أننا ولدنا تحت سقف واحد وليس على كوكبين مختلفين ينطلقان عبر الفضاء وتفصل بينهما مسافة تبلغ حوالي 48 مليون ميل.

كنت على يقين من أنها تشاطرني مشاعري، فعندما اقتربت منها غادرت وجهها الجميل نظرة اليأس البائس لتحل محلها ابتسامة ترحيب فرِح وهي تضع يدها اليمنى الصغيرة على كتفي الأيسر كتحية المريخيين الحُمر الحقيقية.

قالت: «ساركوجا أخبرت سولا أنك أصبحت ثاركيًّا بحق، وأنني لن أراك الآن أكثر مما أرى أي محارب آخر».

أجبتها: «ساركوجا كاذبة من الدرجة الأولى، على الرغم من فخر الثاركيين بأنهم لا يقولون سوى الحقيقة المطلقة».

ضحكت ديجاه ثوريس.

«رغم أنك أصبحت عضوًا في الجماعة، فأنا أعرف أنك لن تتوقف عن صداقتي؛ ’فقد يُغير المحارب معادنه، لكنه لا يغير قلبه‘، كما يقولون في برسوم».

ثم واصلت قائلة: «أعتقد أنهم يحاولون إبعادنا عن بعضنا؛ فعندما لا يكون لديك مهام، تقوم دائمًا إحدى النساء الأكبر سنًّا من حاشية تارس تاركاس بتلفيق عذر لإبعادي أنا وسولا عن الأنظار. لقد أخذوني إلى التجويفات الموجودة أسفل المباني لمساعدتهم في خلط مسحوق الراديوم المفزع، وصُنع مقذوفاتهم الرهيبة. فكما تعرف أن صنع هذه الأشياء يجب أن يتم في ضوء اصطناعي، حيث يسفر دومًا تعرضها لأشعة الشمس عن انفجار. هل لاحظت أن رصاصاتهم تنفجر عندما تصيب هدفًا؟ حسنًا، ينكسر الغلاف الخارجي المعتم من تأثير التصادم، كاشفًا عن أسطوانة زجاجية شبه صلبة توجد في نهايتها الأمامية جسيمات دقيقة من مسحوق الراديوم. وفي اللحظة التي تصطدم فيها أشعة الشمس - رغم تشتتها - بهذا المسحوق، فإنه ينفجر بعنف لا يصمد أمامه أي شيء.

فإذا شهدت معركة ليلية، ستلاحظ عدم وجود هذه الانفجارات، بينما سيمتلئ صباح اليوم التالي للمعركة عند شروق الشمس بتفجيرات حادة نظرًا لانفجار الصواريخ التي أُطلقت في الليلة السابقة. ولكن، كقاعدة عامة، تُستخدم في الليل المقذوفات غير المتفجرة». [لقد استخدمت كلمة الراديوم لوصف هذا المسحوق، حيث أعتقد على ضوء الاكتشافات الأخيرة في كوكب الأرض أن هذا المسحوق عبارة عن خليط يشكل الراديوم أساسه. أما في مخطوط كابتن كارتر، فهو مذكور دائمًا بالاسم المستخدم في لغة هيليوم المكتوبة، ويُنطق بالهيروغليفية التي سيكون من الصعب ومن غير المُجد نسخها].

على الرغم من اهتمامي الشديد بشرح ديجاه ثوريس لهذه الطريقة المُساعِدة الرائعة في الحرب المريخية، كنت أكثر انشغالاً بمشكلة معاملتهم لها. لم يكن إبعَادها عني مدعاة للدهشة، لكن تعريضها للأعمال الخطرة والشاقة أثار غضبي.

«هل تعرضتِ للقسوة والهوان، ديجاه ثوريس؟»، سألتها وأنا أشعر بدماء أجدادي المحاربين الساخنةَ تقفز في عروقي وأنا انتظر ردها.

أجابت: «قليلاً فقط، جون كارتر، ليس بأي طريقة يمكن أن تؤذي كرامتي. فهم يعرفون إنني ابنة عشرة آلاف جيداك، وأن أصولي تمتد دون انقطاع إلى مُنشئ أول مجرى مائي عظيم. أما هم، الذين لا يعرفون حتى أمهاتهم، فيشعرون بالغيرة مني. إنهم يكرهون في أعماق قلوبهم مصائرهم الفظيعة، وبالتالي يصبون حقدهم البائس فوقي لأنني أفهم كل ما لا يفهمونه، ولأنهم لم يحققوا أبدًا كل ما يطمحون إلى تحقيقه. لنشفق عليهم يا زعيمي؛ فحتى إن متنا على أيديهم، يمكننا أن نشفق عليهم لأننا أعظم منهم وهم يعرفون ذلك».

إذا كنت أعرف دلالة تلك الكلمة «زعيمي»، عندما تقولها امرأة مريخية حمراء لرجل، لكانت ستصبح مفاجأة حياتي؛ لكنني لم أكن أعرف في ذلك الوقت، ولا حتى لعدة أشهر تالية. نعم، لا يزال هناك الكثير الذي يجب أن أعرفه عن برسوم.

«أفترض أن أفضل جزء من الحكمة أننا نرضى بمصيرنا بشرف قدر ما يمكننا، ديجاه ثوريس؛ على أني آمل أن أكون موجودًا في المرة القادمة التي يتجرأ فيها أي مريخي أخضر أو أحمر أو وردي أو بنفسجي، على مضايقتك يا أميرتي».

حبست ديجاه ثوريس أنفاسها مع كلماتي الأخيرة، ثم حدقت ناحيتي بعيون متسعة وأنفاس متسارعة، وبضحكة صغيرة غريبة أظهرت غمازات خبيثة عند طرفي فمها، ثم هزت رأسها وصاحت:

«يا لك من طفل! محارب عظيم، ومع ذلك طفل صغير يتعثر».

«ماذا فعلت الآن؟»، سألتها في حيرة وألم.

أنهت حديثها مناجية نفسها وهي تقول: «ستعرف في يوم ما، جون كارتر، إذا عشنا؛ لكني لا أستطيع أن أخبرك. وأنا، ابنة مورس كاجاك ابن تاردوس مورس، استمعت إليك دون غضب».

ثم انطلقت مرة أخرى في حالة من حالاتها المزاجية المرحة، السعيدة، الضاحكة؛ وأخذت تمزح معي عن براعتي كمحارب ثاركي بما يتناقض مع رقة قلبي اللينة وطبيعتي الطيبة.

قالت ضاحكة: «أتصور أنك إذا جرحت خصمًا بطريق الخطأ، فستأخذه إلى بيتك وتتولى تمريضه حتى يسترد صحته».

أجبتها: «هذا تحديدًا ما نقوم به على كوكب الأرض. يقوم به على الأقل الرجال المتحضرون».

ضحكت مرة أخرى من كلماتي، لم تستطع أن تفهمها. فمع كل ما لديها من رقة وعذوبة أنثوية، لا تزال مريخية؛ وبالنسبة للمريخيين، العدو الجيد الوحيد هو العدو الميت؛ فموت رجل يعني وجود الكثير الذي يجب تقسيمه بين الأحياء.

كنت متلهفًا لأن أعرف ما قلته أو فعلته وسبب لها هذا الاضطراب منذ لحظة، وهكذا واصلت إلحاحي لتخبرني.

صاحت بقوة «كلا، يكفي أنك قلته وأنني أصغيت. وعندما تعرف، جون كارتر، وإذا كنت ميتة، كما هو محتمل قبل أن يحلق القمر القادم حول برسوم اثني عشر مرة أخرى، عليك أن تذكر أنني استمعت وأنني ... ابتسمت».

لم أفهم كلامها؛ وكلما توسلت لها أن تشرح، كلما أكدت أكثر رفضها، بالتالي توقفت يائسًا.

ولى النهار مفسحًا الطريق أمام الليل. تجولنا على طول الطريق الكبير الذي يضيئه قمرا برسوم؛ ومع كوكب الأرض ينظر إلينا بعينه الخضراء المضيئة، كان يبدو أننا وحدنا في الكون، وأنا، على الأقل، سعيد بذلك.

شعرنا ببرودة الليلة المريخية، نزعت عني أغطيتي الحريرية ووضعتها على أكتاف ديجاه ثوريس. عندما استقر ذراعي للحظة عليها، شعرت بقشعريرة تسري في كل جزء من كياني على نحو لم يحدث لي أبدًا عند التواصل مع أي بشري آخر؛ ويبدو أنها انحنت

قليلاً نحوي، لكنني لم أكن متأكدًا. عرفت فقط أنها لم تُبعِد ذراعي عندما استقر على كتفيها لفترة أطول مما يقتضيه تعديل وضع الغطاء الحريري، كما لم تتكلم. وهكذا مشينا في صمت على سطح عالم يحتضر، ولكن في صدر واحد منا على الأقل وُلِد أقدم شيء وإن كان جديدًا دائمًا.

أحببت ديجاه ثوريس. كانت لمسة ذراعي على كتفها العاري تحدثني بكلمات لا أُخطئها، وعرفت أنني أحببتها منذ اللحظة الأولى التي التقت فيها عينانا لأول مرة في ساحة مدينة كوراد الميتة.

* * *

(14)

مبارزة حتى الموت

كنت أرغب بشدة في أن أبوح لها بحبي، ثم فكرت في وضعها الضعيف حيث يمكنني تخفيف أعباء أسرِها وحمايتها بطريقتي البائسة ضد آلاف الأعداء الموروثين الذين يجب أن تواجههم عِند وصولنا إلى ثارك. لا يمكنني المخاطرة بالتسبب لها في ألم أو حزن إضافي بإعلان حب لا تبادله في جميع الاحتمالات. إذا لم أكن حكيمًا، ستزداد صعوبة وضعها؛ واعتقادي بأنها قد تشعر أنني انتهزت فرصة ضعفها للتأثير على قرارها، كانت الحجة النهائية التي جعلتني أصمت.

سألتها: «لماذا أنت صامتة، ديجاه ثوريس؟ من الأرجح أنك ستعودين إلى سولا وإلى مسكنك».

غمغمت قائلة: «كلا، أنا سعيدة هنا. لا أعرف لماذا أشعر دائمًا بالسعادة والرضا عندما تكون معي، جون كارتر، وأنت الغريب؛ وأشعر في مثل هذه الأوقات بالأمان وأنني سأعود قريبا معك إلى بلاط والدي وأشعر بذراعيه القويتين تلتفان حولي ودموع أمي وقبلاتها على خدي».

سألتها: «يُقبل الناس بعضهم بعضًا إذن في برسوم؟»، وردًّا على سؤالي، شرحت معنى الكلمة التي استخدمتها.

«نعم؛ الآباء والإخوة والأخوات»، ثم أضافت بنبرة منخفضة وعميقة التفكير «والعشاق».

«وأنت ديجاه ثوريس، هل لديك والدين وإخوة وأخوات؟»

«نعم».

«و ... عاشق؟»

صمتت، ولم أغامر بتكرار السؤال.

وأخيراً تجرأت على القول: «الرجل في برسوم لا يسأل المرأة أسئلة شخصية، ما عدا والدته والمرأة التي حارب من أجلها وفاز».

«لكني حاربت ...»، بدأت كلامي ثم تمنيت أن أقطع لساني؛ فقد استدارت رغم أنني أمسكت عن الكلام، وأزاحت الأغطية الحريرية من على كتفها وأعطتها لي، وتحركت كملكة دون كلمة واحدة نحو الساحة ومدخل مسكنها.

لم أحاول أن أتتبعها إلا لأرى أنها وصلت إلى المبنى بأمان، ووجهت وولا إلى مرافقتها ثم استدرت بائسًا ودخلت بيتي. جلست متربعًا لساعات معتل المزاج على أغطيتي الحريرية أتأمل الفرص الغريبة التي تلهو بنا نحن شياطين البشر الفانين البائسين.

إذن هذا هو الحب! لقد بقيت أهرب منه طوال السنوات وأنا أجوب القارات الخمس والبحار المحيطة بها. وعلى الرغم من النساء الجميلات والفرص الواعدة، وعلى الرغم من شبه الرغبة في الحب والبحث المستمر عن المثال الذي أنشده، وقعت الآن بقوة ويأس في الحب مع مخلوقة من عالم آخر، من نوع ربما مشابه لنوعنا لكنه غير متطابق معه. إنها امرأة فقستها بيضة، وقد تمتد حياتها آلاف السنين، ولشعبها عادات وأفكار غريبة؛ إنها امرأة تختلف اختلافًا كبيرًا عني من حيث آمالها ومتعها ومعاييرها في الفضيلة والصواب والخطأ، كما هو حال اختلافاتي مع المريخيين الخُضر.

نعم، كنت أحمقًا، لكني وقعت في الحب. وعلى الرغم من معاناتي من أكبر بؤس شعرت به في حياتي، لم أكن لأتخلى عنها مقابل جميع ثروات برسوم. هذا هو الحب، وهؤلاء هم العشاق في أي مكان يُعرف فيه الحب.

كانت ديجاه ثوريس بالنسبة لي هي كل ما هو كمال، وكل ما هو حميد وجميل ونبيل وطيب. لقد كنت أؤمن بذلك من أعماق قلبي ومن أعماق روحي في تلك الليلة التي جلست فيها متربعًا على أغطيتي الحريرية في كوراد، بينما أقرب قمر في برسوم يحلق عبر السماء الغربية نحو الأفق، وينير الذهب والرخام والفسيفساء المرصعة بالجواهر التي تنتمي لغرفة عالمي القديم، كما أؤمن بذلك اليوم وأنا جالس على مكتبي في غرفة صغيرة تطل على نهر هدسون. مرت عشرين سنة؛ أمضيت عشرة منها أعيش وأقاتل من أجل ديجاه ثوريس وشعبها، وأمضيت العشرة الأخرى أحيا على ذكراها.

بزغ صباح يوم رحيلنا إلى ثارك صافيًا وحارًّا، مثل كل صباح مريخي باستثناء الأسابيع الستة عندما يذوب الجليد في القطبين.

بحثت عن ديجاه ثوريس بين ازدحام العربات المغادرة، لكنها أدارت كتفها عني، واستطعت أن أرى حمرة الدماء تصعد إلى خديها. مع الاضطراب الأحمق الذي يثيره الحب، آثرت السلامة لربما أجهل طبيعة جريمتي أو على الأقل خطورتها، وبالتالي قمت، في أسوأ الأحوال، بشبه تسوية.

يمُلي واجبي أن أتأكد أنها مستريحة، ولذا ألقيت نظرة داخل عربتها وأعدت ترتيب الحرير والفراء. وعند قيامي بذلك، لاحظت برعب أنها مقيدة بسلاسل كثيرة من إحدى كاحليها إلى جانب العربة.

صحت متوجهًا إلى سولا: «ما معنى ذلك؟»

أجابت ووجهها ينم عن عدم موافقتها على هذا الإجراء: «ساركوجا تعتقد أن هذا أفضل».

فحصت القيود ووجدت أنها مُثبتة بقفل زنبركي ضخم.

«أين المفتاح، سولا؟ أريد المفتاح».

أجابت: «ساركوجا ترتديه، جون كارتر».

استدرت دون أي كلمة أخرى وذهبت إلى تارس تاركاس واعترضت بشدة على الإهانة والقسوة غير الضرورية – كما كانت تراهما عيوني المُحبة – التي تنهال على ديجاه ثوريس.

«جون كارتر»، أجابني، «إذا حدث أن هربت أنت وديجاه ثوريس من ثارك، فسيكون خلال هذه الرحلة. نحن نعرف أنك لن تذهب بدونها. لقد أظهرت قوتك كمحارب، ونحن لا نريد أن نقيدك بالأغلال، وبالتالي نضمن الأمن بأسهل طريقة. انتهى حديثي».

أدركت على الفور قوة منطقه، وعرفت أنه من غير المجدي مناشدته تغيير قراره، لكنني طلبت منه استبعاد ساركوجا من مهمة الاحتفاظ بالمفتاح وتوجيهها إلى ترك الأسيرة لحالها في المستقبل.

«يمكنك تارس تاركاس القيام بذلك من أجلي مقابل الصداقة، التي يجب أن أعترف أنني أشعر بها تجاهك».

أجاب: «الصداقة؟ لا يوجد شيء من هذا القبيل، جون كارتر؛ لكنني سأنفذ رغبتك. سوف أوجه ساركوجا مباشرة أن تتوقف عن إزعاج الفتاة، وسأتولى بنفسي مسؤولية المفتاح».

ثم أضاف مبتسمًا: «إلا إذا كنت ترغب في أن تتولى هذه المسؤولية».

تطلع في وجهي طويلاً وجديًّا قبل أن يتحدث.

«إذا أعطيتني كلمتك بأنك وديجاه ثوريس لن تحاولا الهرب حتى نصل بأمان إلى بلاط تال هاجوس، يمكنني أن أعطيك المفتاح وألقي بالسلاسل في نهر إيس».

أجبته: «من الأفضل أن تحمل أنت المفتاح، تارس تاركاس».

ابتسم ولم يقل شيئًا آخر. لكننا في تلك الليلة رأيناه، ونحن نُعد مخيمنا، ينزع أغلال ديجاه ثوريس بنفسه.

مع كل وحشيته القاسية وبروده، كان هناك شعور ما خفي لدى تارس تاركاس، يكافح من أجل كبته. قد يكون بقايا غريزة إنسانية تعود إلى أحد أجداده القدماء، لكن رعب أساليب شعبه يطارده!

مررت بساركوجا وأنا في طريقي إلى عربة ديجاه ثوريس. كانت نظرتها القاتمة الحقود نحوي بمثابة أحلى بلسم شعرت به لعدة ساعات. يا إلهي، كم تكرهني! إن كراهيتها تبرز منها بجلاء بحيث يمكن للمرء أن يقطعها بسيف.

وبعد لحظات قليلة رأيت ما في أعماقها خلال محادثتها مع محارب اسمه زاد؛ وحش قوي، كبير، ضخم الجثة، لكنه لم يقتل قط أي من الزعماء، ولذلك لا يزال ’أو ماد‘، أو رجل بلا اسم. فلا يمكنه الفوز باسم ثان إلا بحصوله على معادن أحد الزعماء. كان هذا هو العُرف الذي منحني الحق في أي اسم من اسميّ الزعيمين اللذين قتلتهما. وفي واقع الأمر، كان بعض المحاربين يخاطبونني باسم دوتار سوجات، وهو اسم يمزج بين لقبي المحاربين الزعيمين اللذين أخذت معادنهما أو، بعبارة أخرى، قتلتهما في معركة عادلة.

عندما تحدثت ساركوجا مع زاد، أخذ يرمقني من حين لآخر بنظراته، بينما بدا أنها تحثه بقوة على القيام ببعض الأفعال. لم أهتم بالأمر في ذلك الوقت، لكنني وجدت في اليوم التالي سببًا وجيهًا ذكرني بتلك الظروف، وتمكنت في الوقت نفسه من اكتساب بصيرة طفيفة لأعماق كراهية ساركوجا ومدى قدرتها على الانتقام مني بشكل مروع.

لم تعرني ديجاه ثوريس أي اهتمام مرة أخرى هذا المساء، فإذا ذكرت اسمها لا ترد، ولم تمنحني حتى رمشة عين تدل على أنها أدركت وجودي. لقد فعلت أقصى ما يمكن أن يفعله معظم العشاق الآخرين؛ سعيت إلى كلمة منها من خلال شخص حميم. وفي هذه اللحظة لجأت إلى سولا التي كانت في مكان آخر من المخيم.

اندفعت قائلاً: «ما الأمر مع ديجاه ثوريس؟ لماذا لا تتحدث معي؟»

ارتبكت سولا، كما لو أن مثل هذه الأفعال الغريبة من جانب اثنين من البشر تتجاوز إدراكها تمامًا، وهذا هو الواقع بالفعل لدى هذه الطفلة البائسة.

«تقول إنك أغضبتها. هذا كل ما قالته، ما عدا أنها ابنة جد وحفيدة جيداك وأنها تعرضت للإهانة من مخلوق لا يمكنه تلميع أسنان سوراك جدتها».

تأملت هذا الكلام لبعض الوقت، وأخيراً سألت: «ما السوراك، سولا؟»

أوضحت سولا: «هو حيوان صغير، حجمه تقريبًا مثل حجم يدي، وتلهو به النساء الحُمر المريخيات».

لا يصلح لتلميع أسنان قط جدتها! لا بد أن مرتبتي منخفضة جدًّا في نظر ديجاه ثوريس، هكذا فكرت؛ لكنني لم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك على هذا التشبيه الغريب، فهو عائلي جدًّا ويشبه في هذا الصدد التشبيهات على كوكب الأرض. لقد أثار حنيني إلى الوطن، فهو يشبه كثيراً تعبير ’لا يصلح لتلميع حذائها‘. انتابتني سلسلة من الأفكار جديدة تمامًا بالنسبة لي. بدأت أتساءل عما يفعله قومي في البيت، فلم أرهم لسنوات. توجد عائلة كارتر في فرجينيا، وتزعم أنها على علاقة وثيقة بي؛ فمن المفترض أنني العم الكبير، أو شيء من هذا النوع على نفس القدر من السخف. يمكنني قضاء 25 أو 30 سنة في أي مكان، ولكن أن أكون العم الكبير، هذه تبدو دائمًا ذروة التعارض؛ فأفكاري ومشاعري كانت مثل أفكار ومشاعر صبي. ضمت عائلة كارتر طفلين صغيرين أحببتهما كثيراً وكانا يعتقدان أنه لا يوجد على كوكب الأرض مثل العم جاك. يمكنني رؤيتهما بوضوح كلما وقفت هناك تحت سماء برسوم التي يضيئها القمر، وأشتاق إليهما كما لم أتُق أبدًا لأي بشر من قبل. أنا جوال بطبيعتي، ولم أعرف أبدًا المعني الحقيقي لكلمة بيت، لكن القاعة الكبيرة لدى آل كارتر أعطت دائمًا لهذه الكلمة كل ما تعنيه بالنسبة لي، والآن يتجه قلبي ناحيتها، وأنا بين أناس يتسمون بالبرود وعدم الود. حتى ديجاه ثوريس تحتقرني! كنت مخلوقًا متدنيًا، متدنيًا إلى حد أنني لا أصلح حتى لتلميع أسنان قط جدتها؛ ثم أنقذتني روح الدعابة لدي، واستدرت ضاحكًا إلى أغطيتي الحريرية والفراء، ونمت على الأرض التي ينيرها القمر نوم محارب منهك وإن كان بصحة جيدة.

فككنا المخيم في اليوم التالي في ساعة مبكرة، وسرنا دون توقف إلا قبل حلول الظلام مباشرة. كسرت حادثتان ملل المسيرة. ففي حوالي الظهيرة، لمحنا من بعيد على يميننا ما كان يبدو واضحًا أنه حاضنة، فأصدر لوركواس بتوميل توجيهاته إلى تارس تاركاس للتحقق منها. أخذ الأخير عشرات المحاربين، كنت من بينهم، وأسرعنا عبر بساط الطحلب الناعم نحو الحظيرة الصغيرة.

لقد كانت حاضنة بالفعل، لكن البيض كان صغيراً جدًّا مقارنة بذلك الذي رأيته يفقس في حاضنتنا يوم وصولي إلى المريخ.

ترجل تارس تاركاس وتفحص الحظيرة بدقة، وأعلن أخيراً أنها تنتمي إلى رجال وارهون الخُضر، وأن أسمنت السياج كان بالكاد جافًّا.

«لا يمكن أن يكونوا أمامنا بأكثر من مسيرة يوم»، قال ذلك صائحًا ووميض المعركة يقفز إلى وجهه الشرس.

استغرق العمل في الحاضنة وقتًا قصيراً في الواقع. حطم المحاربون المدخل، وزحف بعضهم إلى الداخل وسرعان ما حطموا جميع البيض بسيوفهم القصيرة. ثم امتطينا ركوباتنا واندفعنا لننضم مرة أخرى إلى الموكب. خلال سيرنا انتهزت الفرصة لأسأل تارس تاركاس عن هؤلاء الوارهون الذين حطمنا بيضهم، وعما إذا كانوا شعبًا أصغر من شعبه الثاركي.

وأضفت: «لاحظت أن بيضهم أصغر كثيراً من البيض الذي رأيته يفقس في حاضنتكم».

أوضح أن البيض كان قد وُضع لتوِّه؛ لكنه، مثل كل بيض المريخيين الخُضر، سوف ينمو خلال فترة خمس سنوات من الحضانة إلى أن يكتسب حجم البيض الذي رأيته يفقس يوم وصولي إلى برسوم. هذه في الواقع معلومات مثيرة للاهتمام، فقد كان يلفت نظري دائمًا أن النساء المريخيات الخُضر، اللاتي يتسمن بكبر حجمهن، قادرات على إنتاج مثل هذا البيض الضخم الذي رأيت الصغار بأرجلهم الأربعة يخرجون منه. في واقع الأمر، كان البيض الجديد أكبر قليلاً من بيضة إوزة عادية؛

ونظرًا لأنه لا يبدأ في النمو إلا بعد تعرضه لضوء الشمس، لا يجد الزعماء صعوبة تذكر في نقل عدة مئات منه مرة واحدة من سراديب التخزين إلى الحاضنات.

بعد فترة قصيرة من واقعة بيض الوارهون، توقفنا كي تحصل الحيوانات على الراحة. وفي أثناء هذا التوقف، جرت ثاني أحداث اليوم المثيرة. كنت منشغلاً في نقل ملابسي الخاصة بالركوب من أحد حيواناتي الثوات إلى الآخر، حيث قسّمت عمل اليوم بينهما، عندما اقترب مني زاد، ودون أن ينبس بكلمه وجه ضربة هائلة إلى أحد حيواناتي بسيفه الطويل.

لم أكن في حاجة إلى دليل لآداب المريخيين الخُضر لأعرف الرد المناسب، لأنني في الواقع كنت أتفجر غضبًا بحيث بالكاد ما منعت نفسي من إخراج مسدسي وقتله

لوحشيته؛ لكنه وقف منتظرًا بسيفه الطويل، ولم يكن أمامي أي خيار سوى سحب سيفي ومواجهته في قتال عادل بالأسلحة التي يختارها أو الأقل منها.

هذا البديل الأخير متاح دائمًا، ولذا كان يمكنني إذا أردت أن أستخدم سيفي القصير، أو خنجري، أو بلطتي الصغيرة، أو قبضات يدي؛ وهذا من حقي تمامًا، وإنما لا يمكنني استخدام الأسلحة النارية أو الرمح ما دام لا يحمل هو سوى سيفه الطويل.

اخترت نفس سلاحه لأنني كنت أعرف أنه يفتخر بقدرته على استخدامه، وتمنيت إذا هزمته أن أهزمه بالسلاح الذي اختاره. بدأت المعركة وكانت طويلة، بما أدى إلى تأخير استئناف المسيرة لمدة ساعة. أحاطت بنا المجموعة كلها، مع ترك مسافة واضحة لمعركتنا تبلغ نحو مائة قدم من حيث قطرها.

حاول زاد بداية أن يندفع للانقضاض علي، كما يفعل ثور يركض وراء ذئب، لكن سرعتي كانت هائلة بالنسبة له؛ وفي كل مرة أتجنب فيها هجماته، يحاول الاندفاع نحوي لكنه يتلقى جرحًا من سيفي على ذراعه أو ظهره. وسرعان ما أخذ الدم يتدفق من عشرات جروحه الطفيفة، على أنني لم أتمكن من الحصول على فرصة توجيه طعنة فعالة. ثم قام بتغيير تكتيكاته، وقاتل بحذر وبأقصى مهارة في محاولة لاستخدام العِلم للقيام بما لم يتمكن من عمله بالقوة الوحشية. يجب أن أعترف أنه كان مبارزًا رائعًا، ولو لم يكن لدي هذا القدر من قوة التحمل وخفة الحركة نتيجة لجاذبية المريخ المنخفضة، لربما لم أكن لأقدر على قتاله في المعركة المُشرفة كما فعلت.

قمنا بمراوغات لبعض الوقت دون أن يلحق بأي منا الكثير من الضرر؛ كانت السيوف الطويلة المستقيمة الشبيهة بالإبرة تومض في ضوء الشمس، وترن في الصمت وهي تتصادم مع كل حركة دفاعية فعالة. وأخيرًا أدرك زاد أنه أكثر تعبًا مني، ويبدو أنه قرر إنهاء المعركة بتألق نهائي لمجده؛ إذ هاجمني خلال ومضة ضوء مسببة للعمى ارتطمت بالكامل في عيني، بحيث لم أتمكن من رؤيته وهو يقترب، تمكنت فقط من القفز غير مبصر إلى أحد الجوانب في محاولة لتجنب النصل القوي الذي بدأت أشعر به بالفعل في جسدي. لم أحقق سوى نجاح جزئي، كما يشهد على ذلك شعوري بألم حاد في كتفي الأيسر. وخلال نظراتي الخاطفة لتحديد موقع خصمي مرة ثانية، التقت نظراتي المندهشة بمشهد أفادني كثيرًا يتعلق بالجرح الذي سببه العمى المؤقت. هناك، فوق عربة ديجاه ثوريس، وقف ثلاثة أشخاص، بغرض واضح وهو مشاهدة المعركة من فوق رؤوس الثاركيين. هؤلاء الأشخاص هم: ديجاه ثوريس، وسولا، وساركوجا. وعندما لمحتهم بنظرتي العابرة، تمثلت أمامي صورة ستظل محفورة في ذاكرتي إلى يوم مماتي.

لقد شاهدت ديجاه ثوريس تلتفت إلى ساركوجا بغضب نمرة شابة، وتصيب شيئًا في يدها المرفوعة؛ شيء يومض في ضوء الشمس وهو يدور ساقطًا على الأرض. وهنا عرفت ما سبّب لي العمى في تلك اللحظة الحاسمة من المعركة، وكيف وجدت ساركوجا طريقة لقتلي دون إقحام نفسها. رأيت شيئًا آخر أيضًا كاد أن يفقدني حياتي، حيث أخذ ذهني تمامًا لجزء من لحظة بعيدًا عن خصمي؛ فعندما أصابت ديجاه ثوريس المرآة الصغيرة في يد ساركوجا، شحب وجه ساركوجا وهو مملوء بكراهية وغضب مرتبك، وسحبت خنجرها لتوجه طعنة مرعبة إلى ديجاه ثوريس؛ لكن سولا، صديقتنا العزيزة المخلصة، وقفت بينهما؛ وكان آخر ما رأيته هو السكين الكبير يقع على صدرها المغطى بالدروع.

تعافى خصمي من طعنته، وجعل الوضع شيقًا للغاية بالنسبة لي.

ولذا اهتممت على مضض بالعمل المطروح أمامي دون أن يركز ذهني على المعركة.

تبادلنا الهجمات بشراسة تكرارًا ومرارًا، إلى أن شعرت فجأة بحد سيفه في صدري خلال هجمة لم أستطع تجنبها أو تفاديها، فألقيت نفسي عليه بسيفي الممدود، وبكل ثقل جسدي عزمت ألا أموت بمفردي إن لم أتمكن من منع الموت. شعرت بتمزق شديد في صدري، وأصبح كل شيء أسود أمامي، وأصبت بدوار في رأسي، وشعرت بركبتيّ تسقطان مستسلمتين أسفل جسدي.

* * *

(15)

سولا تخبرني بقصتها

سرعان ما عرفت، بعد استعادتي للوعي، أنني سقطت ولكن للحظة ثم وقفت بسرعة على قدماي بحثًا عن سيفي ووجدته، وأغمدته حتى مقبضه في صدر زاد الأخضر، الذي سقط ميتًا فوق طحلب نحاسي اللون في قاع البحر القديم. وعندما استعدت حواسي كاملة وجدت سلاحه نافذًا في صدري الأيسر، وإنما فقط في اللحم والعضلات التي تغطي ضلوعي، فقد نفذ قرب وسط صدري وخرج أسفل الكتف. عندما هاجمته مندفعًا، استدرت بحيث مر سيفه تحت عضلاتي وألحق بي جرحًا مؤلماً وإن لم يكن خطيراً.

بعد إزالة النصل من جسدي، استعدت نصلي أيضًا، وأدرت ظهري لجثته القبيحة ثم تحركت مجروحًا ومتألماً ومشمئزاً نحو العربات التي تحمل حاشيتي وممتلكاتي. كانت همهمة تصفيق المريخيين في استقبالي، لكنني لم أهتم بها.

وصلت وأنا أنزف وضعيف إلى نسائي اللاتي اعتدن على مثل هذه الأحداث، فقمن بتطبيب جروحي باستخدام مواد علاجية رائعة لا تُستخدم إلا في حالات ضربات الموت اللحظية القاتلة. أعط للمرأة المريخية فرصة، وسيتوارى الموت في مقعد خلفي. سرعان ما تحسنت على أيديهن، باستثناء شعوري بالضعف نتيجة للنزف وبعض الألم حول الجرح. لم أشعر بمعاناة شديدة من هذه الطعنة التي كانت لتجعلني دون شك، في ظل علاجات كوكب الأرض، أرقد على ظهري لأيام.

بمجرد انتهائهن من تطبيبي، سارعت إلى عربة ديجاه ثوريس حيث وجدت سولا البائسة تلف الضمادات حول صدرها، ولكن على ما يبدو أن معركتها مع ساركوجا لم تلحق بها الكثير من الأذى، حيث أصابت طعنة خنجر ساركوجا أحد حواف الحلي المعدنية بصدر سولا، فانحرف عن مساره ولم يسبب سوى جرح طفيف.

عندما اقتربت، وجدت ديجاه ثوريس مضجعة فوق أغطيتها الحريرية والفراء، وهيئتها الرشيقة منهارة في البكاء. لم تلحظ وجودي، كما لم تسمع حديثي مع سولا التي كانت تقف على مسافة قصيرة من العربة.

سألت سولا، وأنا أشير برأسي إلى ديجاه ثوريس: «هل أصيبت بجراح؟»

أجابت: «كلا، لكنها تعتقد أنك ميت».

تساءلت مبتسمًا: «وأن قط جدتها لن يجد الآن من يُلمع أسنانه؟»

«أعتقد أنك مخطئ، جون كارتر»، قالت سولا، «أنا لا أفهم طريقتها أو طريقتك، لكني على يقين أن حفيدة عشرة آلاف جيداك لا تحزن أبدًا على أي شخص إلا من يشغل أعلى مكانة في عواطفها. إنهم جنس متفاخر، لكنهم عادلون، مثل البرسوميين كافة، ومن المؤكد أنك أسأت إليها أو جرحتها على نحو أحزنها بشدة بحيث أنها لن تقبل بوجودك حيًّا، رغم أنها تندب على قتلك».

ثم واصلت قائلة: «الدموع هي مشهد غريب في برسوم، ولذا يصعب علي تفسيرها. لم يسبق أن رأيت في حياتي كلها سوى شخصين يبكيان، غير ديجاه ثوريس؛ كان أحدهما يبكي من الحزن، والآخر من الغضب المتحير. أولهما كانت والدتي، قبل أن يقتلوها بسنوات، والثانية هي ساركوجا، عندما أبعدوها عني اليوم».

قلت صائحًا: «والدتك! لكنك، سولا، لا يمكن أن تعرفي والدتك».

«لكني أعرفها. وأعرف والدي أيضًا»، ثم أضافت: «إذا كنت ترغب في الاستماع إلى قصة غريبة وغير برسومية، تعال إلى عربتي الليلة، جون كارتر، وسأحكي لك ما لم أقله من قبل لأحد أبدًا طوال حياتي. أما الآن، فقد أُعطيت الإشارة لاستئناف المسيرة، يجب أن تذهب».

وعدتها: «سوف آتي الليلة، سولا. تأكدي إبلاغ ديجاه ثوريس أنني على قيد الحياة وبصحة جيدة. لن أفرض نفسي عليها، وتأكدي من عدم معرفتها أنني رأيت دموعها. إذا أرادت أن تتكلم معي، فأنا في انتظار أوامرها».

ركبت سولا العربة، التي كانت تتأرجح في مكانها في الصف. أما أنا فقد سارعت إلى حيواناتي الثوات التي تنتظرني، وتحركت مسرعًا إلى موقعي بجوار تارس تاركاس في الجزء الخلفي من الطابور.

كان مشهدنا مذهلاً ومهيبًا ونحن نتحرك عبر المناظر الطبيعية الصفراء؛ مائتان وخمسون عربة مزخرفة ذات ألوان زاهية، تتقدمها حراسة من حوالي مائتي من المحاربين والزعماء، يمتطون حيواناتهم،

وكل خمسة متجاورين وعلى بعد مائة ياردة عن بعضهم بعضًا، ويتبعهم رقم مماثل بنفس التشكيل، مع مجموعة أو أكثر من المحاربين الذين يحمون أجنحة الموكب على الجانبين؛ وعلاوة على ذلك هناك خمسون من حيوانات الماستودون، أو حيوانات الجر الثقيلة المعروفة باسم زيتيدار، بالإضافة إلى 500 أو 600 من حيوانات الثوات الخاصة

بالمحاربين ويتحركون بحرية داخل المربع الفارغ الذي شكله المحاربون المحيطون. أما المعادن والمجوهرات اللامعة في الحلي الرائعة لدى الرجال والنساء، وكذلك في أغطية الزيتيدار والثوات المزخرفة، والتي تتخللها ألوان ساطعة من أفخم أنواع الحرير والفراء والريش، فقد أضفت رونقًا بربريًّا على القافلة من شأنه أن يثير غيرة ملك هندي شرقي.

لم يصدر عن العجلات العريضة الضخمة للعربات والأقدام السميكة المبطنة لدى الحيوانات أي صوت فوق قاع البحر المغطى بالطحالب؛ وبالتالي تحركنا في صمت مطلق - مثل حُلم ضخم - لا يكسره أحيانًا إلا زمجرة الزيتيدار الأجشة عندما نحثها على السير، أو صخب الثوات وهي تتقاتل. لا يتحدث المريخيون الخُضر سوى قليلاً، وعادة بكلمات من مقطع واحد وبصوت منخفض يشبه الهدير الخافت لرعد بعيد.

اجتزنا امتداد واسع من الطحالب، ينحنى مع ضغط العجلات العريضة أو الأقدام السميكة المبطنة، ثم يرتفع مرة أخرى وراءنا دون ترك أي دليل على سيرنا فوقه. ربما كنا في الواقع أشباح الموتى الذين رحلوا في البحر الميت لهذا الكوكب الفاني، لكل الأصوات والعلامات التي تركناها عند مرورنا. كانت أول مسيرة أشهدها لمجموعة كبيرة من الرجال والحيوانات ولا ينتج عنها أي غبار وتغادر دون أن تترك أثرًا؛ فلا يوجد غبار على المريخ ما عدا في المناطق التي تُزرع خلال أشهر الشتاء، وحتى ذلك الحين فإن غياب الرياح العاتية يجعله غير ملحوظ تقريبًا.

أقمنا مخيمنا في تلك الليلة عند سفح التلال التي سرنا يومين لنصل إليها، وكانت علامة على الحدود الجنوبية لهذا البحر تحديدًا. لم تشرب حيواناتنا منذ يومين، كما لم تحصل على المياه لمدة شهرين تقريبًا، ولا حتى بعد وقت قصير من مغادرة ثارك؛ لكنها، كما شرح لي تارس تاركاس، لا تحتاج إلا إلى قدر قليل من الماء، ويمكنها أن تعيش إلى الأبد تقريبًا على الطحلب الذي يغطي برسوم ويحمل في سيقانه بالغة الصغر – كما قال لي - قدرًا من الرطوبة يكفي لتلبية الاحتياجات المحدودة للحيوانات.

بعد تناول وجبتي المسائية المكونة من الحليب النباتي وطعام يشبه الجُبن، بحثت عن سولا ووجدتها تعمل على ضوء شعلة في بعض أغطية تارس تاركاس المزخرفة. نظرت نحوي، وأضاء وجهها بالسرور والترحيب.

قالت: «أنا سعيدة بمجيئك. ديجاه ثوريس نائمة وأنا بمفردي. لا يهتم بي قومي، جون كارتر؛ كما أنني أيضًا أختلف عنهم. إنه مصير حزين، إذ يجب أن أعيش حياتي بينهم، وكثيراً ما رغبت أن أكون امرأة مريخية خضراء حقيقية، بلا حب وبلا أمل؛ لكنني عرفت الحب، ولذا أنا ضائعة».

«لقد وعدتك أن أحكي لك قصتي، أو بالأحرى قصة والداي. من ما عرفته عنك وطرق شعبك، أنا متأكدة أن حكايتي لن تبدو لك غريبة، لكنها بين المريخيين الخُضر لا يوجد ما يوازيها في ذاكرة أقدم ثاركي حي، كما لا تضم أساطيرنا العديد من الحكايات المماثلة».

«كانت والدتي صغيرة الحجم إلى حد ما، وفي الواقع أصغر حجمًا من أن يُسمح لها بتولي مسؤوليات الأمومة، ذلك أن زعماءنا يتناسلون أساسًا من أجل الحجم. كما كانت أيضًا أقل برودة وقسوة من معظم النساء الخُضر المريخيات، ولم تهتم بجماعتها كثيراً، وكانت غالبًا ما تجوب الطرقات المهجورة في ثارك بمفردها، أو تذهب لتجلس بين الزهور البرية على سطح التلال القريبة، وتنتابها أفكار وتأمل في رغبات أعتقد أنني أنا وحدي بين نساء ثارك اليوم التي أفهمها، ألست ابنة أمي؟»

«وهناك بين التلال التقت بمحارب شباب، كان واجبه حراسة غذاء حيوانات الزيتيدار والثوات والتأكد من عدم تجوالهم إلى ما يتجاوز التلال. تحدثا في البداية عن أمور تهم جماعة ثارك، لكن لقاءاتهما زادت تدريجيًّا وأصبح واضحًا تمامًا لهما أن هذه اللقاءات لم تعُد من قبيل الصدفة. تحدثا عن نفسيهما، وعن ما يحبانه، وعن طموحاتهما

وآمالهما. لقد وثقت به وأخبرته بما تشعر به من اشمئزاز فظيع تجاه قسوة جنسهما، وتجاه الحياة البشعة الفاقدة للحب التي يحياها جنسهما، ثم انتظرت انطلاق عاصفة من الاستنكار من بين شفتيه الباردتين الصارمتين؛ لكنه بدلاً من ذلك أخذها بين ذراعيه وقبّلها».

«استمر حبهما سرًّا لمدة ست سنوات طوال. كانت أمي من حاشية تال هاجوس العظيم، بينما كان حبيبها محاربًا بسيطًا، لا يرتدي سوى معادنه. إذا كان ارتدادهما عن تقاليد ثارك قد اكتُشف، كان كلاهما سينال العقوبة في الساحة الكبرى أمام تال هاجوس وجحافله المحتشدة».

«البيضة التي خرجت أنا منها، كانت مخبأة تحت وعاء زجاجي كبير فوق أعلى برج وأكثرهم صعوبة من حيث الوصول إليه من الأبراج المهدمة جزئيًّا في ثارك القديمة. كانت أمي تزورها مرة واحدة كل سنة طوال السنوات الخمس التي ظلت فيها البيضة هناك في عملية الاحتضان. لم تكن تتجرأ على زيارتها أكثر من ذلك، فنتيجة لشعورها القوي بالذنب كانت تخشى أن تكون كل تحركاتها مراقبة. وخلال تلك الفترة اكتسب والدي امتيازاً كبيراً كمحارب ونال معادن عدة زعماء. لم يتضاءل أبدًا حبه لوالدتي، وكان طموحه في الحياة أن يتمكن من انتزاع معادن تال هاجوس نفسه، وبالتالي يصبح حاكم

ثارك ومن حقه أن يطالب بها لنفسه، هذا بالإضافة إلى أن يحمي، بسطوة سلطته، الطفل الذي على خلاف ذلك سرعان ما سيُعدم إذا عُرفت الحقيقة».

«كان حلمًا جامحًا، أن ينتزع المعدن من تال هاجوس خلال خمس سنوات، لكن تقدمه كان سريعًا بحيث تمكن من شغل مكانة عالية في مجالس ثارك. بيد أن الفرصة ضاعت إلى الأبد في أحد الأيام، بقدر ما كان يمكن أن تأتي في الوقت المناسب لإنقاذ أحبائه؛ فقد صدرت الأوامر بأن يرحل في حملة طويلة إلى الغطاء الجليدي في الجنوب لشن الحرب على قاطنيه وسلب فرائهم، فهذه هي طريقة البرسوميين الخُضر: لا يكدحون للحصول على ما يمكن انتزاعه من الآخرين في معركة».

«غاب أربع سنوات، وعندما عاد كان كل شيء قد انتهى منذ ثلاث سنوات. فبعد حوالي عام من رحيله، وقبل فترة وجيزة من عودة بعثة استكشافية ذهبت لجلب ثمار حاضنة الجماعة، فقست البيضة. ومنذ ذلك الحين، استمرت والدتي تحتفظ بي في البرج القديم، وتزورني ليلاً وتغمرني بالحب الذي كان يمكن تحرمنا منه حياة الجماعة. وكانت تأمل، لدى عودة البعثة من الحاضنة، أن تضعني مع الصغار الآخرين المُعينين بمقر تال هاجوس، وبالتالي تتجنب المصير الذي كان سيتبع بالتأكيد اكتشاف خطيئتها ضد تقاليد الرجال الخُضر القديمة».

«علمتني بسرعة لغة وعادات جنسنا، وفي إحدى الليالي أخبرتني بالقصة التي حكيتها لك حتى الآن، وفرضت علي ضرورة السرية المطلقة والحذر الشديد بعد أن وضعتني مع صغار ثارك الآخرين حتى لا تسمح لأي شخص أن يخمن أنني أفضل تقدمًا في التعليم، ولا أن أكشف في وجود الآخرين عن أي شيء يدل على عاطفتي تجاهها؛ ثم قربتني منها وهمست في أذني باسم والدي».

«ثم ومض ضوء في ظلام غرفتها بالبرج، وهناك وقفت ساركوجا وعينيها اللامعتين المشوهتين مثبتتين في نوبة من الغضب والاحتقار على أمي. سيل الكراهية والإيذاء الذي صبته على أمي جعل قلبي الشاب يتجمد رعبًا. كان من الواضح أنها سمعت القصة بأكملها، وأن تشككها في وجود شيء خاطئ نتيجة لغياب أمي الطويل ليلاً عن مقرها هو ما تسبب في وجودها هناك في تلك الليلة المشؤومة».

«هناك شيء واحد لم تسمعه ولم تعرفه، وهو اسم والدي الذي همست به أمي. كان هذا واضحًا من تكرار مطالبتها لأمي بالكشف عن اسم شريك حياتها في الخطيئة، على أنه لم يكن أي قدر من سوء المعاملة أو التهديدات يمكن أن ينتزع الاسم من أمي. كذبت أمي لكي تنقذني من تعذيب بلا داع، وقالت لساركوجا إنها وحدها تعرفه ومن المستحيل أن تخبر ابنتها به».

«وبعد أن انتهت ساركوجا من لعناتها، أسرعت إلى تال هاجوس لتخبره باكتشافها. وفي أثناء ذلك، لفتني أمي في أغطيتها الليلية من الحرير والفراء بحيث يصعب رؤيتي، وهبطت إلى الشارع وجرت بعنف في اتجاه ضواحي المدينة، الاتجاه الذي يقود إلى أقصى الجنوب، في اتجاه الرجل الذي لا يمكنها أن تطالب بحمايته لكنها ترغب في رؤية وجهه مرة أخرى قبل أن تموت».

«وعندما اقتربنا من أقصى جنوب المدينة، جاءنا صوت عبر السهل المغطى بالطحلب، من اتجاه الممر الوحيد عبر التلال الذي يقود إلى البوابات، الممر الذي تدخل من خلاله القوافل الآتية من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب إلى المدينة. كانت الأصوات التي سمعناها هي صخب الثوات وتذمر الزيتيدار، مع قعقعة الأسلحة التي تعلن عن اقتراب مجموعة من المحاربين. تصورت أمي أنه والدي ومجموعته يعودون من حملتهم، لكن مكر الثاركيين حال دون اندفاعها بتهور وعجلة لتحيته».

«تراجعت إلى ظلال المدخل في انتظار قدوم الموكب الذي سرعان ما دخل إلى الطريق، مخالفًا تشكيله ومحتشدًا في الطريق من الجدار إلى الجدار. وعندما مر بنا قائد الموكب، تمايل القمر الأصغر جليًّا فوق الأسقف المعلقة وأضاء المشهد بكل تألق ضوءه المدهش. تراجعت أمي مرة أخرى داخل الظلال الودودة، ورأت من مخبأها أن هذه ليست رحلة والدي، لكن القافلة العائدة كانت تحمل الثاركيين الصغار. وعلى الفور رسمت خطتها، فعندما اقتربت عربة كبيرة متأرجحة من مكان مخبأنا، تسللت خلسة إلى لوح الجر الخلفي بالعربة وهي منحية في ظل الجانب العلوي، وتضمني بقوة إلى حضنها في فورة من الحب».

«لقد كانت تعرف، ما لم أكن أعرفه، أنها لن تستطيع أبدًا أن تحملني مرة أخرى على صدرها بعد هذه الليلة، كما لم يكن من المحتمل أن ننظر إلى وجهينا مرة أخرى. جعلتني أمي أختلط بالأطفال الآخرين في فوضى الساحة، الذين أصبح رعاتهم خلال الرحلة أحرارًا الآن في التخلي عن مسؤوليتهم. اقتادونا إلى غرفة كبيرة تضم النساء اللاتي لم ترافقن الرحلة، وفي اليوم التالي وزعونا على حاشية الزعماء».

«لم أر أمي أبدًا بعد تلك الليلة. سجنها تال هاجوس، ومارسوا عليها كل الضغوط الممكنة، بما في ذلك أكثر أنواع التعذيب المروعة والمخزية، لانتزاع اسم والدي من شفتيها؛ لكنها بقيت صامدة ووفية حتى ماتت أخيراً وسط ضحك تال هاجوس وقادته خلال ممارسة تعذيب وحشي عليها».

«علمت فيما بعد أنها أخبرتهم بأنها قتلتني، وذلك لإنقاذي من مصير مماثل على أيديهم، وأنها ألقت جسدي إلى القرود البيضاء. كانت ساركوجا هي الوحيدة التي لم

تصدقها، وأشعر حتى يومنا هذا أنها تشتبه في أصلي الحقيقي، لكنها لا تجرؤ على مواجهتي في الوقت الحاضر وفي جميع الأحوال لأنها تخمن أيضًا، وأنا متأكدة من ذلك، هوية والدي».

«عندما عاد أبي من رحلته وعلم بمصير أمي، كنت موجودة وتال هاجوس يخبره؛ لكنه لم يخن أبدًا أدنى عواطفه ولا برعشة في عضلاته، إلا أنه لم يضحك عندما كان تال هاجوس يصف في ابتهاج كفاحها حتى الموت. واعتبارًا من تلك اللحظة، أصبح أبي أقسى القساة، وأنا في انتظار اليوم الذي يحقق فيه هدفه الطموح، ويتحسس بقدمه جثة تال هاجوس، لأنني على ثقة أنه ينتظر الفرصة ليشفي غليله بانتقام رهيب، وأن حُبه الكبير لا يزال قويًّا في صدره كما غمره منذ ما يقرب من أربعين عامًا، كما أشعر به أنا أيضًا ونحن نجلس هنا عند حافة أقدم محيط في العالم بينما الناس نيام، جون كارتر».

سألتها: «ووالدك، سولا، هل هو معنا الآن؟».

أجابت: «نعم، لكنه لا يعرفني ولا يعرف الذين خانوا والدتي وأخبروا تال هاجوس. أنا فقط أعرف اسم والدي، وأنا وتال هاجوس وساركوجا فقط نعرف أنها هي من نقلت القصة التي جلبت الموت والتعذيب على حبيبته».

جلسنا صامتين لبضع لحظات. تدثرت بقتامة أفكار ماضيها الرهيب، وتدثرت بشفقتي على تلك المخلوقات البائسة التي حكمت عليهم عادات جنسهم القاسية الخرقاء بحياة بلا حب، حياة من القسوة والكراهية. ثم أخذت سولا تتحدث.

«جون كارتر، إذا كان هناك رجل حقيقي نجح في الإفلات من برودة حضن برسوم الميت، فهو أنت. أعرف أنني يمكنني أن أثق بك، ونظرًا لأن المعرفة قد تساعدك أو تساعده أو تساعد ديجاه ثوريس أو تساعدني في يوم ما، فسوف أخبرك باسم والدي، ولن أضع أي قيود أو شروط على لسانك. وعندما يحين الوقت، قل الحقيقة إذا كانت تبدو أفضل بالنسبة لك. أثق بك لأنني أعرف أن لعنة تلك السمة الرهيبة من الصدق المطلق والمخلص لم تصبك، وأن بإمكانك أن تكذب كأحد سادة

فرجينيا الأفاضل إذا كان الكذب سينقذ الآخرين من الحزن أو المعاناة. والدي هو تارس تاركاس «.

***

(16)

نخطط للهروب

كانت الفترة التي تبقت من رحلتنا إلى ثارك هادئة. باقي عشرين يومًا على الطريق، وعبور قيعان بحرين، والمرور عبر عدد من المدن المُدمَّرة أو الالتفاف حولها، ومعظمها أصغر من كوراد. عبرنا مرتين المجاري المائية المريخية الشهيرة، أو القنوات كما يسميها علماء الفلك في كوكب الأرض. عند اقترابنا من تلك النقاط، كانوا يرسلون محاربًا ومعه منظار ميداني قوي يصل مداه إلى مسافة بعيدة، فإذا لم تظهر في الأفق مجموعة كبيرة من القوات المريخية الحمراء، نتحرك قدمًا متجاورين إلى أقرب حد ممكن دون أن نترك فرصة لأن يرانا أحد، ثم نخيم حتى حلول الظلام، وعندئذ نقترب ببطء من الدروب المزروعة ونحدد موقع أحد الطرق السريعة الواسعة العديدة التي تخترق هذه المناطق على فترات منتظمة، ونزحف بصمت وخلسة عبر الأراضي القاحلة على الجانب الآخر. يتطلب اجتياز أحد هذه المعابر دون توقف خمس ساعات، في حين يستغرق المعبر الآخر ليلة كاملة، وبالتالي كنا على وشك مغادرة حدود الحقول ذات الجدران المرتفعة عندما أشرقت الشمس علينا.

خلال عبورنا في الظلام، لم أتمكن من الرؤية سوى قليلاً، إلا عندما كان القمر الأقرب - في اندفاعه الجامح بلا توقف خلال سماء برسوم - يُضيء من وقت لآخر قِطعًا صغيرة من المناظر الطبيعية، كاشفًا عن حقول مسورة ومبان منخفضة متزاحمة، تشبه كثيرًا مظهر مزارع كوكب الأرض. هناك أيضًا العديد من الأشجار منتظمة الترتيب، التي يصل بعضها إلى ارتفاعات هائلة؛ كما توجد حيوانات في بعض الحظائر، أعلنت عن وجودها بصيحاتها الطويلة وشخيرها المرعب عندما وصلت إليها رائحتنا الغريبة، رائحة الحيوانات الوحشية والبشر الأكثر وحشية.

شاهدت إنسانًا مرة واحدة فقط، عند تقاطع مفترق طريقنا مع حاجز أبيض واسع يقطع طوليًّا كل منطقة مزروعة في مركزها بالضبط. أعتقد أن الزميل كان نائمًا على جانب الطريق، ونهض متكئًا على كوعه عندما اقتربت منه. وما إن لمح بنظرة واحدة اقتراب قافلة، قفز على قدميه صارخًا وفر بجنون على الطريق، ثم تسلق جدارًا قريبًا برشاقة قط مذعور. لم يعره الثاركيون أدنى اهتمام؛ فهم ليسوا على طريق الحرب، والعلامة الوحيدة التي تدل على رؤيتهم له هو التعجيل بوتيرة القافلة ونحن نسرع نحو الصحراء المتاخمة التي تميز مدخلنا إلى عالم تال هاجوس.

لم أتحدث ولو مرة واحدة مع ديجاه ثوريس، إذ لم ترسل لي أي كلمة تعني أنني موضع ترحيب في عربتها، وحال كبريائي الأحمق دون أن أقوم بأي مبادرة. أعتقد حقًّا أن طريقة الرجل مع المرأة تتناسب عكسيًّا مع مهارته بين الرجال. يمتلك الرجل الضعيف والساذج قدرة كبيرة غالبًا على فتنة الجنس الجميل، في حين أن الرجل المقاتل الذي يمكنه مواجهة ألف خطر حقيقي دون خوف يجلس مختبئًا في الظل مثل طفل خائف.

بعد وصولي إلى برسوم بثلاثين يومًا فقط، دخلنا إلى مدينة ثارك القديمة التي سرق هؤلاء الرجال الخُضر شعبها الذي طواه النسيان منذ زمن بعيد، سرقوا حتى أسماءهم. يبلغ عدد جحافل ثارك حوالي ثلاثين ألف نسمة، ينقسمون إلى 25 جماعة. ولكل جماعة جد خاص بها وزعماء أقل مرتبة، لكنهم جميعًا تحت حكم تال هاجوس، جيداك ثارك. أَقامت خمسة جماعات مقارها في مدينة ثارك، وتناثرت باقي الجماعات على نحو متوازن بين المدن المهجورة الأخرى بالمريخ القديم في جميع المناطق التي يحكمها تال هاجوس.

دخلنا إلى الساحة المركزية الكبيرة في فترة مبكرة من بعد الظهيرة. لم تلق البعثة العائدة ترحيبًا حماسيًّا وديًّا. نادى من تصادف وجودهم على أسماء المحاربين أو النساء الذين كانوا على صلة مباشرة بهم، كتحية رسمية، لكنهم اهتموا كثيراً عندما اكتشفوا وجود أسيرين، وأصبحت أنا وديجاه ثوريس مركزاً للمجموعات المستفسرة.

سرعان ما تحددت لنا أماكن إقامة جديدة، مع تخصيص باقي اليوم للتأقلم مع الظروف المتغيرة. يقع بيتي الآن على الطريق المؤدي إلى الساحة من الجنوب - الشريان الرئيسي الذي سرنا خلاله من بوابات المدينة - عند النهاية الطرفية للساحة، وكان المبنى بأكمله لي. لاحظت نفس عظمة المعمار التي اتسمت بها كوراد، وإنما على نطاق أوسع وأكثر ثراء. كان مكان إقامتي يصلح لسكن أعظم أباطرة كوكب الأرض، لكن هذه المخلوقات الغريبة لا يجذبها شيء في أي مبنى إلا حجمه وضخامة حجراته؛ فكلما كان المبنى أكبر، كلما كان مرغوبًا أكثر؛ وبالتالي شغل تال هاجوس أضخم مبنى عام، الأكبر في المدينة، رغم أنه لا يصلح إطلاقًا لأغراض الإقامة. خُصص ثاني أكبر مبنى إلى لوركواس بتوميل، حيث رتبته هي الأقل مباشرة بعد الجد، وهلم جرا إلى قاعدة قائمة الجِد الخمسة. شغل المحاربون مباني زعماءهم؛ أو سعواَ، في حالة تفضيلهم، إلى مأوى بينَ أي من آلاف المباني غير المسكونة في الجزء الخاص بهم من المدينة؛ حيث تتحدد لكل جماعة قسم معين من المدينة. ويجب اختيار المبنى وفقًا لهذه التقسيمات، إلا بقدر ما يتعلق الأمر بالجِد المعنيين، فهم يشغلون جميعًا المباني الضخمة التي تطل على الساحة.

عندما انتهيت أخيراً من ترتيب بيتي، أو بالأحرى اعتبرته مرتبًا، كان الوقت تقريبًا عند غروب الشمس، فخرجت مسرعًا لمعرفة موقع سولا والمسؤولين منها، وقد عزمت على التحدث مع ديجاه ثوريس ومحاولة إقناعها بضرورة الهدنة بيننا، أو على الأقل إصلاح ما حدث، إلى أن أتمكن من إيجاد طريقة ما لمساعدتها على الهرب. بحثت دون جدوى إلى أن بدأت الحافة العلوية للشمس الحمراء العظمى تختفي وراء الأفق، ثم لمحت رأس وولا القبيحة تطل من نافذة الطابق الثاني على الجانب المقابل من نفس الشارع الذي أقيم فيه، ولكن الأقرب إلى الساحة.

ودون انتظار للحصول على دعوة أخرى، صعدت متسللاً على المدرج المتعرج الذي يؤدي إلى الطابق الثاني، ودخلت غرفة كبيرة في الجزء الأمامي من المبنى حيث كان وولا المهووس في استقبالي مُرحبًا، مُلقيًا بجثته الكبيرة نحوي وهو يكاد يلقي بي أرضًا. كان زميلي القديم البائس سعيدًا للغاية برؤيتي إلى حد أنني تصورت أنه سيفترسني، فغر فاه من الأذن إلى الأذن، مبينًا الصفوف الثلاثة من أنيابه في ابتسامة بشعة.

قمت بتهدئته بكلمة آمرة وبعض الملاطفة، ثم نظرت على عجل خلال الظلام المقترب عن دليل لوجود ديجاه ثوريس، وعندما لم أرها ناديت عليها. سمعت ردًا كالهمهمة يأتي من زاوية بعيدة، ومع بضع خطوات سريعة كنت أقف بجانبها حيث تضطجع بين الفراء والحرير على مقعد خشبي قديم منحوت. انتظرت حتى وقفت تمامًا ونظرت في عيناي مباشرة قائلة:

«ماذا سيفعل دوتار سوجات، الثاركي، بديجاه ثوريس أسيرته؟»

«ديجاه ثوريس، لا أعرف كيف أغضبتك. أبعد ما يكون عن رغبتي أن أضرك أو أسيء لك، وأنت من آمل في حمايتها وراحتها. يمكنك رفضي إذا كانت هذه هي رغبتك، لكنك يجب أن تساعدينني في تحقيق هروبك، فإذا أمكننا ذلك، لن يكون طلبًا مني، بل أمر. عندما تصبحين آمنة مرة أخرى في بلاط والدك، يمكنك أن تفعلي بي ما يرضيك، ولكن من الآن فصاعدًا وحتى ذلك اليوم، أنا قائدك وعليك طاعتي ومعونتي».

تطلعت نحوي في وجهي طويلاً وبجدية، وأعتقد أنها كانت تلين تجاهي.

أجابت: «أفهم كلماتك، دوتار سوجات، لكني لا أفهمك أنت. أنت خليط غريب لطفل ورجل، شرس ونبيل. أود فقط أن أقرأ قلبك».

«انظري أين توجد قدميك، ديجاه ثوريس؛ إنها هناك الآن حيث كانت منذ تلك الليلة الأخرى في كوراد، وحيث ستتخبط وحيدة دائمًا حتى يُسكتها الموت الى الأبد».

خطت خطوة صغيرة باتجاهي، ويداها الجميلتان ممدودتان تلاطفني.

همست قائلة: «ماذا تقصد، جون كارتر؟ ماذا تقول لي؟»

«أقول ما وعدت نفسي ألا أقوله لك، على الأقل حتى ينتهي أسرك لدى الرجال الخُضر؛ أقول ما فكرت عدم قوله لك أبدًا بسبب موقفك تجاهي خلال العشرين يومًا الماضية؛ أقول، ديجاه ثوريس، إنني لك، جسدًا وروحًا، لخدمتك، للقتال من أجلك، والموت من أجلك. ولا أطلب منك في المقابل سوى شيء واحد وهو أنك لا تُظهرين أي علامة، سواء لاستنكار أو استحسان كلماتي، حتى تصبحين آمنة بين قومك؛ وأيًّا كانت مشاعرك تجاهي، فيجب ألا تتأثر أو تصطبغ بالامتنان؛ فأي شيء قد أفعله لخدمتك، لا يحثه سوى دوافع أنانية، نظرًا لأن خدمتك تمنحني المزيد من السعادة».

«أحترم رغباتك، جون كارتر، لأنني أتفهم دوافعك، وأقبل خدماتك طواعية أكثر منها خضوعًا لسلطتك؛ كلمتك ستكون قانوني. لقد ظلمتك أفكاري مرتين، وأطلب منك مرة أخرى أن تغفر لي».

حال دخول سولا دون مواصلة محادثتنا ذات الطابع الشخصي. كانت سولا شديدة الاضطراب، وعلى غير عادتها تمامًا من حيث الهدوء والرزانة.

صاحت: «كانت ساركوجا الرهيبة في حضرة تال هاجوس، ومما سمعته في الساحة، لا يوجد سوى أمل ضئيل لكل منكما».

استفسرت ديجاه ثوريس: «ماذا يقولون؟»

«سيلقون بكما إلى الكالوتات المتوحشة [الكلاب] في الساحة الكبرى، بمجرد تجمُّع القوم للمباريات السنوية».

قلت: «سولا، أنت ثاركية، لكنك تكرهين وتستنكرين عادات قومك قدر ما نفعل. ألن ترافقينا في جهدنا من أجل الهرب؟ أنا على يقين أن ديجاه ثوريس يمكنها منحك البيت والحماية لدى شعبها، ومصيرك بينهم لن يكون أسوأ من مصيرك هنا على الإطلاق».

صاحت ديجاه ثوريس: «نعم، تعالي معنا، سولا، ستكونين بين رجال هيليوم الحُمر أفضل حالاً من هنا، وأنا لا أعدك ببيت معنا فقط، وإنما أيضًا بالمحبة والمودة التي تتسم بها طبيعتك والتي لن تجديها أبدًا في ظل عادات جنسك. تعالي معنا، سولا. يمكننا أن نذهب بدونك، لكن مصيرك سيكون رهيبًا إذا ظنوا أنك تواطأت لمساعدتنا. أعرف أن هذا الخوف حتى لن يغريك للتدخل وإعاقة هروبنا، لكننا نريدك معنا، نريدك

أن تأتي إلى أرض السعادة والشمس المشرقة، بين الناس الذين يعرفون معنى الحب والتعاطف، والامتنان. قولي إنك ستأتين، سولا؛ قولي إنك ستأتين».

غمغمت سولا لنفسها جزئيًّا: «المجرى المائي العظيم الذي يؤدي إلى هيليوم يبعد مسافة خمسين ميلاً إلى الجنوب؛ يمكن أن يقطعها ثوات سريع في ثلاث ساعات؛ ثم تبلغ المسافة إلى هيليوم بعد ذلك حوالي خمسمائة ميل، وأغلب الطريق يمر خلال مقاطعات ضعيفة الاستقرار. سيعرفون وسيتتبعونا. قد نختبئ بين الأشجار الضخمة لفترة، لكن احتمالات الهروب ضئيلة جدًّا في الواقع. سيتتبعونا إلى بوابات هيليوم نفسها، وسوف يزهقون الأرواح في كل خطوة؛ أنتم لا تعرفونهم».

توجهتُ بسؤال إلى ديجاه ثوريس: «ألا توجد طريقة أخرى للوصول إلى هيليوم؟ ألا يمكنك رسم خريطة تقريبية للبلد الذي يجب أن نجتازه، ديجاه ثوريس؟»

أجابتني: «نعم». وأخرجت ماسة كبيرة من شعرها ورسمت على رخام الأرضية أول خريطة أراها على الإطلاق لإقليم برسوم. كانت تتقاطع في جميع الاتجاهات بخطوط مستقيمة طويلة، أحيانًا متوازية وأحيانًا تتقارب في اتجاه دائرة كبرى. قالت إن الخطوط تمثل المجاري المائية، والدوائر تمثل المدن؛ وأشارت إلى دائرة بعيدة في جهة شمالنا الغربي وقالت إنها هيليوم. كانت هناك مدن أخرى أقرب، لكنها قالت إنها تخشى دخول العديد منها لأنهم ليسوا جميعًا ودودين تجاه هيليوم.

أخيراً، وبعد أن درست الخريطة بعناية على ضوء القمر الذي أغرق الغرفة الآن، أشرت إلى ممر مائي يقع بعيدًا شمالنا، ويبدو أيضًا أنه يقود إلى هيليوم.

سألت ديجاه ثوريس: «ألا يخترق هذا أراضي جدك؟»

أجابت: «نعم، لكنه يبعد مسافة مائتي ميل شمالنا؛ إنه أحد الممرات المائية التي عبرناها في رحلتنا إلى ثارك».

قلت: «لن يشكوا أبدًا أننا سنحاول استخدام هذا الممر المائي البعيد، ولهذا أعتقد أنه أفضل مسار لهروبنا».

وافقتني سولا، وقررنا ضرورة مغادرة ثارك هذه الليلة نفسها؛ وبأقصى سرعة يمكنني خلالها أن أجد حيواناتي الثوات وأسرجها. كانت سولا ستركب واحدًا ونركب أنا وديجاه ثوريس الثاني؛ ويحمل كل منا ما يكفي من الطعام والشراب لمدة يومين، حيث لا يمكن حث الحيوانات على الركض بسرعة كبيرة لمسافة طويلة هكذا.

وجهت سولا أن تمضي قدمًا مع ديجاه ثوريس على أحد الطرق التي يقل ارتيادها إلى الحدود الجنوبية للمدينة، حيث ألحق بهم مع الثوات في أسرع وقت ممكن؛ ثم تركتهما لجمع ما نحتاجه من غذاء وحرير وفراء، وتسللت بهدوء إلى الجزء الخلفي من الطابق الأول، ودخلت الفناء حيث كانت حيواناتنا تتحرك مضطربة كعادتها، قبل أن تستقر ليلاً.

في ظلال المباني، وفي الخارج تحت بهاء أقمار المريخ، كان قطيع الثوات والزيتيدار الكبير يتحرك، وكان الزيتيدار يصدر نخيره المنخفض والثوات يصدر أحيانًا صياحه الحاد الذي يشير إلى حالة الغضب المألوفة التي تعيش فيها هذه المخلوقات. لقد أصبحوا أكثر هدوءًا الآن، نظرًا لغياب الأشخاص، لكنهم عندما تشمموا رائحتي أصبحوا أكثر اضطرابًا وزاد ضجيجهم البشع. إنه عمل محفوف بالمخاطر، هذا الدخول إلى حلبة الثوات بمفردي وفي الليل: أولاً، لأن ضجيجهم المتزايد قد يُحذر المحاربين القريبين أن شيئًا ما يحدث، وأيضًا لأنه لأي سبب بسيط أو بلا سبب على الإطلاق يمكن أن يقرر أي ثوات ضخم أن يتولى قيادتي.

كان عدم إثارة انفعالاتهم المزاجية الكريهة في مثل هذه الليلة يتوقف كثيراً على السرية والسرعة، ولذا تشبثت بظلال المباني، بحيث أكون مستعدًّا عند أي تحذير للقفز إلى مكان آمن بجوار أي باب أو شباك قريب. وهكذا تحركت بصمت إلى البوابات الكبرى التي تفتح على الشارع خلف الفناء، وبمجرد أن اقتربت من المخرج ناديت برفق على الحيوانين. وشكرت العناية الإلهية الكريمة التي منحتني البصيرة للفوز بحب وثقة هذين المتوحشين الأحمقين، حيث رأيت من الجانب الآخر للفناء جسدين عملاقين يشقان طريقهما نحوي عبر جبال اللحم الصاخبة.

اقتربا جدًّا مني وأخذا يفركان كمامتي وجهيهما بجسدي، ويتشممان قطع الطعام التي اعتدت دائمًا مكافأتهما بها. فتحت البوابات وأمرت الوحشين الكبيرين بالمرور خلالها، ثم تسللت بهدوء بعدهما وأغلقت البوابات خلفي.

لم أسرج أو أركب الحيوانات هناك، وإنما مشيت بهدوء في ظلال المباني نحو طريق غير مطروق يؤدي إلى الموقع الذي اتفقت مع ديجاه ثوريس وسولا على مقابلتهما عنده. تحركنا خلسة متحررين في صمت على طول الشوارع المهجورة، لكنني لم أبدأ في التنفس بحرية إلا عندما أصبح السهل الذي يقع خارج المدينة على مرمى البصر. كنت على يقين أن سولا و ديجاه ثوريس لن تجدا صعوبة في الوصول دون انكشاف إلى موقع لقائنا، لكنني مع الثوات الضخمة لم أكن متأكدًا من أنني سأحقق ذلك لنفسي، إذ ليس

معتادًا على الإطلاق أن يغادر المحاربون المدينة بعد حلول الظلام؛ فلا يوجد مكان يمكنهم الذهاب إليه إلا رحلة طويلة.

وصلت إلى موقع اللقاء بأمان. ونظرًا لأنني لم أجد ديجاه ثوريس وسولا، قمت بقيادة حيواناتي إلى قاعة مدخل أحد المباني الكبيرة. افترضت أن إحدى النساء الأخريات من نفس سكان البيت جاءت لتتحدث مع سولا، وبالتالي تأخرت مغادرتهما. لم أشعر بأي مخاوف لا مبرر لها حتى مرت ساعة تقريبًا دون إشارة منهما. ومع مرور نصف ساعة أخرى، غمرني قلق شديد. ثم انشق سكون الليل عن صوت مجموعة تقترب، عرفت من ضجيجها أنها لا يمكن أن تكون لهاربين يتسللان خلسة نحو الحرية. سرعان ما اقتربت مني المجموعة، ولاحظت عبر ظلال المدخل السوداء أنها مجموعة من المحاربين غير المترجلين، وتساقطت منهم بشكل عابر عدة كلمات خلعت قلبي وأثارت الرعب في نفسي.

«من المرجح أنه رتب للقائهم خارج المدينة، وبالتالي .....»، لم أسمع أكثر من ذلك، فقد مشوا، لكن ما سمعته كان كافيًا. لقد انكشفت خطتنا، وفرص هروبنا من الآن فصاعدًا وصولاً إلى النهاية المخيفة ستكون ضئيلة في الواقع. أصبح أملي الوحيد الآن هو العودة دون انكشاف إلى مسكن ديجاه ثوريس ومعرفة مصيرها. ولكن، كيف أفعل ذلك مع هذه الثوات المتوحشة الضخمة معي، فمعرفة المدينة الآن لهروبي ربما أثارها، وهذه مشكلة ذات أبعاد غير بسيطة.

وفجأة طرأت لدي فكرة. اعتمادًا على معرفتي بأن هيكل المباني في هذه المدن المريخية القديمة يضم فناء مجوفًا في مركز كل ميدان، التمست طريقي كالضرير خلال الغرف الداكنة، وناديت على الثوات الضخمة لتتبعني. وجدت الحيوانات صعوبة في المرور عبر بعض المداخل، ولكن لما كان تصميم جميع المباني التي تطل على الواجهات الرئيسية للمدينة يتسم باتساع نطاقه، تمكن الحيوانان من التملص بسرعة؛ وهكذا وصلنا أخيراً إلى الفناء الداخلي حيث وجدت، كما كنت أتوقع، البساط المعتاد من النبات الشبيه بالطحلب الذي سيوفر للحيوانين الطعام والشراب حتى يمكنني إعادتهما إلى حظيرتهما. كنت على يقين أنهما سيكونان هادئين وقانعين هنا، كما في أماكن أخرى، فإمكانية اكتشافهما كان أبعد احتمال، إذ لا يرغب الرجال الخُضر كثيراً في دخول هذه المباني الخارجية التي كان يتردد عليها الشيء الوحيد، على ما أعتقد، الذي يسبب لهم الإحساس بالخوف – القرود البيضاء الكبيرة في برسوم.

أزلت أغطية السرج وأخفيتها بالمدخل الخلفي للمبنى الذي دخلنا من خلاله إلى الفناء، وتركت الوحوش تتجول بحرية ثم اتخذت طريقي بسرعة عبر الفناء إلى الجزء

خلفي للمباني القائمة على الجانب الآخر، ومنها إلى الطريق الذي يقع خلفها. انتظرت في مدخل المبنى حتى تأكدت من عدم اقتراب أي شخص ثم أسرعت إلى الجانب الآخر، ومن خلال المدخل الأول إلى الفناء وما بعده؛ وهكذا، عبرت من فناء إلى آخر مع قلة فرص اكتشافي التي تترتب على عبور الطرق اللازمة، ووصلت بأمان إلى ساحة الفناء في الجزء الخلفي من مسكن ديجاه ثوريس.

وجدت هنا، بطبيعة الحال، وحوش المحاربين الذين تم إيواؤهم في المباني المجاورة، وتوقعت أن ألتقي بالمحاربين أنفسهم في الداخل إذا دخلت؛ لكنني، لحسن حظي، كان لدي أسلوب آخر أكثر أمانًا للوصول إلى الطابق العلوي حيث يجب أن أجد ديجاه ثوريس. وبعد أن حددت تقريبيًّا المبنى الذي تشغله، إذ لم ألحظهم من جهة الفناء، اقتنصت فرصة قوتي وخفة حركتي الكبيرتين نسبيًّا وقفزت لأعلى إلى أن أدركت حافة نافذة الطابق الثاني التي اعتقدت أنها تقع في الجزء الخلفي من شقتها. سحبت نفسي داخل الغرفة وتحركت خلسة نحو الجزء الأمامي للمبنى. لم تدلني الأصوات على أن الغرفة مشغولة إلا عندما وصلت تمامًا إلى مدخل غرفتها.

لم أندفع داخل الغرفة بتهور، لكنني توقفت لأستمع حتى أتأكد أنه صوت ديجاه ثوريس وأن مخاطرة الدخول آمنة. وحسنًا فعلت واتخذت هذه الاحتياطات، فالمحادثة التي سمعتها كانت دمدمة منخفضة لرجال، والكلمات التي وصلتني أخيراً كانت بمثابة تحذير جاء في الوقت المناسب. كان المتكلم هو أحد الزعماء الذي يعطي أوامره لأربعة من محاربيه.

كان يقول: «وعندما يعود إلى هذه الغرفة - فهو سيعود بالتأكيد عندما يجد أنها لم تقابله عند حافة المدينة - عليكم أنتم الأربعة أن تنقضوا عليه وتجردوه من أسلحته. سوف يتطلب الأمر قواكم مجتمعة للقيام بذلك، إذا كانت التقارير التي أحضروها معهم من كوراد صحيحة. وبعد تقييده بسرعة، عليكم أن تحملوه إلى السراديب الموجودة أسفل مقر الجيداك، وتكبلوه جيدًا بالسلاسل بحيث يمكن إيجاده عندما يرغب تال هاجوس. لا تسمحوا له بالتحدث مع أحد، ولا تسمحوا لأحد بالدخول إلى هذه الشقة قبل أن يأتي. لا يوجد خطر أن تعود الفتاة، فهي ستكون آمنة خلال هذا الوقت بين أيدي تال هاجوس. ربما يجب أن يشفق عليها جميع أسلافها، لأن تال هاجوس لن يرحمها؛ لقد قامت ساركوجا العظيمة بعمل نبيل ليلاً. سوف أذهب، وإذا فشلتم في إلقاء القبض عليه عندما يأتي، سأوصي بإلقاء جثثكم إلى حضن نهر إيس البارد».

* * *

(17)

إعادة احتجاز باهظة التكلفة

بعد أن كف المتكلم عن حديثه، استدار ليغادر الشقة من الباب الذي أقف عنده. لكنني لم أكن في حاجة إلى مزيد من الانتظار؛ فقد سمعت ما يكفي لملء روحي بالرهبة، فتسللت بهدوء عائدًا إلى ساحة الفناء من الطريق الذي أتيت منه. تشكلت خطة عملي في هذه اللحظة. عبرت الميدان والشارع المتاخم على الجانب الآخر، وسرعان ما وقفت داخل فناء تال هاجوس.

ألهمتني الشقق المضاءة ببراعة في الطابق الأول إلى تحديد توجهي بداية، فذهبت إلى النوافذ كي أطل على ما يوجد بالداخل. وسرعان ما اكتشفت أن توجهي لم يكن يسيرًا كما تمنيت، فالغرف الخلفية المتاخمة للفناء كانت ممتلئة بالمحاربين والنساء. عندئذ ألقيت نظرة إلى الطوابق العليا، ولاحظت أن الطابق الثالث لم يكن مضيئًا، فقررت أن أجعل من تلك النقطة مدخلي إلى المبنى. تحركت ووصلت خلال دقيقة إلى النوافذ العليا، وسرعان ما سحبت نفسي عبر غطاء من ظلال الطابق الثالث غير المضيء.

ولحسن الحظ أن الغرفة التي اخترتها كانت شاغرة. زحفت بهدوء إلى الرواق، ورأيت خلفه ضوءًا في الشقق الموجودة أمامي. وصلت إلى ما بدا مدخلاً، واكتشفت أنه ليس سوى فتحة إلى غرفة داخلية هائلة تعلو من الطابق الأول، أي من طابقين أسفلي، إلى سطح المبنى بما يشبه القبة، عالية فوق رأسي. احتشد الزعماء، والمحاربون، والنساء على أرضية هذه القاعة الدائرية الكبيرة. ارتفعت في إحدى أطرافها منصة كبيرة، جثم فوقها أبشع وحش رأيته على الإطلاق. لديه كافة سمات المحاربين الخُضر من حيث البرودة، والصرامة، والقسوة، والفظاعة؛ لكنه أكثر بروزًا وانحطاطًا بالشهوات البهيمية التي منحها لنفسه على مدى سنوات عديدة. لم يكن في مظهره الوحشي أي علامة على الكرامة أو الكبرياء، وتمددت كتلته الضخمة على المنصة حيث تكوم مثل بعض الأسماك الشيطانية الضخمة، مع أطرافه الستة تُبرِز هذا التشابه بطريقة مذهلة ومروعة.

لكن المشهد الذي أصابني بجمود متوجس كان لديجاه ثوريس وسولا الواقفتين هناك أمامه، ونظراته الشهوانية الوحشية عندما يترك عينيه الجاحظتين تتأملان خطوط جسدها الجميل. كانت تتحدث، لكنني لم أستطع سماع ما تقوله، كما لم أستطع تبيان دمدمة رده المنخفضة. وقفت هناك منتصبة أمامه، رأسها عالية، وحتى من على بُعد مسافتي عنهما كان بإمكاني قراءة الاحتقار والاشمئزاز على وجهها وهي تلقي نظرتها

المتعجرفة عليه دون أي علامة على الخوف. إنها حقًّا الابنة الفخورة لألف جيداك، كل شبر من جسدها العزيز الصغير الثمين؛ كانت صغيرة الحجم جدًّا وهزيلة جدًّا بجانب المحاربين شاهقي الطول من حولها، لكنها في جلالها تُقزمهم إلى مجرد شيء تافه؛ كانت أقوى شخصية بينهم، وأعتقد حقًّا أنهم شعروا بذلك.

أشار الآن تال هاجوس إلى إخلاء الغرفة، وترك السجينتين بمفردهما أمامه. ذاب الزعماء والمحاربين والنساء ببطء في ظلال الغرف المحيطة، ووقفت ديجاه ثوريس وسولا وحدهما أمام جيداك الثاركيين.

تردد زعيم واحد فقط قبل أن يغادر؛ رأيته واقفًا في ظلال عمود قوي، تعبث أصابعه في مقبض سيفه العظيم، وتتجه عيناه القاسيتين بكراهية عنيدة نحو تال هاجوس. كان تارس تاركاس، وقد قرأت أفكاره كما لو كانت كتابًا مفتوحًا حيث بدا البغض السافر على وجهه. كان يفكر في تلك المرأة الأخرى التي وقفت قبل أربعين عامًا أمام هذا الوحش، ولو كنت قد تحدثت بكلمة في أذنه في تلك اللحظة، لكان عهد تال هاجوس قد انتهى؛ لكنه أخيراً خطا أيضًا بخطوات كبيرة خارج الغرفة، دون أن يعرف أنه ترك ابنته نفسها تحت رحمة أكثر مخلوق يكرهه.

نهض تال هاجوس. فهرعت متخوفًا من نواياه ومتوقعها إلى الدرج المتعرج الذي يقود إلى الطوابق السفلى، ولم يكن هناك أحد بالقرب مني ليعترض طريقي. وصلت إلى المنصة الرئيسية بالغرفة دون أن يلحظني أحد، واتخذت موقعي في ظل نفس العمود الذي تركه تارس تاركاس من لحظات. عندما وصلت إلى المنصة، كان تال هاجوس يتحدث.

«أميرة هيليوم، يمكنني انتزاع فدية هائلة من شعبك إذا أعدتك لهم دون أن يصيبك أذى، لكنني أُفضل ألف مرة أن أشاهد هذا الوجه جميل يتلوي من آلام التعذيب؛ وأنا أتعهد لك أنها ستكون فترة طويلة، فعشرة أيام من المتعة قصيرة جدًّا لإظهار حبي لجنسك. فأهوال موتك سوف تقلق مضاجع الرجال الحُمر طوال جميع العصور القادمة؛ سيرتجفون في ظلال الليل، عندما يخبرهم آباؤهم عن انتقام الرجال الخُضر المرعب؛ عن سلطة وقوة وكراهية وقسوة تال هاجوس. لكنك قبل التعذيب ستكونين ملكي لمدة ساعة واحدة قصيرة، وسيصل ذلك أيضًا إلى جدك تاردوس مورس، جيداك هيليوم، بحيث يزحف على الأرض في عذاب حزنه. سيبدأ التعذيب غدًا، أما الليلة فأنت مِلك تال هاجوس، تعالي!».

قفز من المنصة وأمسكها بخشونة من ذراعها. لكنه ما إن لمسها إلا ووجدني أقفز بينهما. كان سيفي القصير، بحدته ولمعانه، في يدي اليمنى ويمكنني أن أغرزه في قلبه

المتعفن قبل أن يدرك أنني فوقه. لكنني ما إن رفعت ذراعي لأسدد ضربتي، فكرت في تارس تاركاس. ورغم كل غضبي وكراهيتي، لم أكن لأسلبه تلك اللحظة الرائعة التي عاش من أجلها وتمناها كل تلك السنوات الطويلة المضجرة، ولذا حولت قبضتي اليمنى القوية بالكامل نحو فكه. سقط دون صوت على الأرض كشخص ميت.

في هذا الصمت المميت نفسه، أمسكت يد ديجاه ثوريس وأشرت إلى سولا لتتبعنا. أسرعنا صامتين خارج الغرفة واتجهنا إلى الطابق الأعلى. وصلنا دون أن يرانا أحد إلى نافذة خلفية، واستعنت بأشرطة وجلود أغطيتي لإنزال سولا أولاً ثم ديجاه ثوريس على الأرض. نزلت بخفة بعدهما، وتحركنا سريعًا حول الفناء في ظلال المباني، وبالتالي عُدنا إلى نفس المسار الذي اتبعته مؤخرًا عند عودتي من الحدود البعيدة للمدينة.

وصلنا أخيراً إلى حيواناتي الثوات في ساحة الفناء حيث تركتهم، ووضعت الأغطية عليهم، ثم أسرعنا خلال المبنى إلى الطريق. ركبت سولا فوق أحد الوحشين، وركبت أنا وورائي ديجاه ثوريس فوق الوحش الآخر، وتحركنا من مدينة ثارك عبر التلال إلى الجنوب.

كان يمكننا الدوران حول المدينة والتوجه نحو الشمال الغربي، حيث يقع أقرب مجرى مائي على مسافة قصيرة جدًّا من موقعنا. لكننا اتجهنا نحو الشمال الشرقي وسرنا على الامتداد الطحلبي، حيث يقع على بعد مائتي ميل - يتسمان بالخطورة والصعوبة - شريان رئيسي آخر يؤدي إلى هيليوم.

لم ننبس ببنت شفة إلا بعد أن أصبحت المدينة بعيدة وراءنا. لكنني سمعت بكاء ديجاه ثوريس الصامت وهي متشبثة بي ورأسها الحبيب مستقر على كتفي.

«إذا نجحنا، يا زعيمي، ستصبح ديون هيليوم كبيرة؛ أكبر مما يمكن أن تدفعه لك على الإطلاق؛ وإذا لم ننجح»، أضافت، «لن تقل الديون، على الرغم من أن هيليوم لن تعرف أبدًا أنك أنقذت آخر سلالتنا من خطر أسوأ من الموت».

لم أجب، لكنني مددت يدي إلى جانبي وضغط على أصابعها الصغيرة التي أحببتها حيث كانت تتشبث بي لتشعر بالدعم. ثم أسرعنا سيرنا، في ظل صمت متواصل، فوق الطحلب الأصفر الذي يضيئه القمر؛ وكل منا منشغل بأفكاره الخاصة. من جانبي، لا يسعني أن أكون أكثر سعادة مهما حاولت، وجسد ديجاه ثوريس الدافئ بالقرب مني. ومع كل المخاطر التي لم تنته، كان قلبي يغني مبتهجًا كما لو أننا ندخل بالفعل بوابات هيليوم.

لقد اختلت خططنا السابقة مع الأسف، وها نحن نجد أنفسنا الآن دون طعام أو شراب، وأنا الوحيد المُسلح. ولذلك قمنا بحث وحوشنا على التحرك بسرعة قد تصيبهم بإرهاق شديد قبل أن نأمل في رؤية نهاية المرحلة الأولى من رحلتنا.

واصلنا تحركنا طوال الليل واليوم التالي كله، مع فترات قصيرة من الراحة. وفي الليلة الثانية، كنا وحيواناتنا مستنفدين تمامًا، فاستلقينا على الطحلب ونمنا لحوالي خمس أو ست ساعات، ثم استأنفنا رحلتنا مرة أخرى قبل طلوع النهار. واصلنا رحلتنا فوق حيواناتنا طوال اليوم التالي. وفي فترة متأخرة من بعد الظهيرة، وعندما لم نشهد أي أشجار على بُعد – وهي علامة على الممرات المائية الكبيرة التي تمر عبر مجمل برسوم – اكتشفنا الحقيقة الرهيبة، أننا تائهون.

ومن الواضح أننا تحركنا دائريًّا، وإنما يصعب تحديد الطريق الذي اتخذناه، كما لم يكن ممكنًا أن ترشدنا الشمس نهارًا والأقمار والنجوم ليلاً. على أي حال لم يكن أي ممر مائي يلوح في الأفق، وكنا جميعًا على وشك السقوط من الجوع والعطش والتعب. كان بإمكاننا أن نُميز أمامنا، على اليمين قليلاً، الخطوط العريضة لجبال منخفضة. فقررنا محاولة الوصول إليها على أمل أن نتبين من قمتها المجرى المائي المفقود. هبط الليل علينا قبل أن نصل إلى هدفنا، ولأننا كنا في حالة إغماء تقريبًا من التعب والضعف، فقد استلقينا ونمنا.

أيقظني في الصباح الباكر جسم ضخم يضغط بالقرب من جسمي، وعندما فتحت عيني لمحت وولا القديم المبارك مكومًا بالقرب مني. لقد تبعنا الحيوان المخلص عبر ذلك الامتداد القفر غير المطروق ليتقاسم معنا مصيرنا، مهما كان. وضعت ذراعي حول عنقه، وضغطت بخدي على خده. لا أشعر بالخجل لأنني فعلت ذلك، ولا أخجل من الدموع التي طفرت من عيني وأنا أفكر في مدى حبه لي. استيقظت ديجاه ثوريس وسولا بعد فترة قصيرة، وقررنا أن ننطلق على الفور في محاولة للوصول إلى التلال.

سرنا حوالي ميل عندما لاحظت أن الثوات الذي أمتطيه بدأ يتعثر ويترنح بطريقة تثير الشفقة، على الرغم من أننا لم نحاول إجبار الحيوانين على السير من حوالي ظهر اليوم السابق. وفجأة مال بقوة إلى أحد الجوانب، وسقط بعنف على الأرض. وقعت أنا وديجاه ثوريس على الطحلب الناعم دون اصطدام يُذكر؛ لكن الوحش البائس كان في حالة جديرة الشفقة، حيث لم يكن قادرًا حتى على النهوض، على الرغم من تحرره من ثقل أوزاننا. أخبرتني سولا أن برودة الليل، عندما يهبط، فضلاً عن الراحة، ستجعله يستعيد قواه دون شك. وبالتالي قررت عدم قتله، كما كانت نيتي الأولى، فقد كنت أعتقد أنه من القسوة أن نتركه وحيدًا ليموت من الجوع والعطش. أزلت أغطيته، وألقيتها

بجواره، ثم تركنا الزميل البائس لمصيره، وواصلنا السير بأفضل ما أمكننا مع ثوات واحد. مشيت أنا وسولا، بحيث تركب ديجاه ثوريس الثوات وهو ما كان ضد رغبتها. تقدمنا على هذا النحو لمسافة ميل تقريبًا إلى التلال التي كنا نسعى للوصول إليها، ثم صرخت ديجاه ثوريس لأنها شاهدت من أفضلية مكانها فوق الثوات مجموعة كبيرة من الرجال الراكبين يخرجون من ممر في التلال على بعد عدة أميال. نظرت أنا وسولا في الاتجاه الذي أشارت إليه، حيث شاهدنا بوضوح عدة مئات من المحاربين غير المترجلين. ويبدو أنهم كانوا يسيرون في اتجاه الجنوب الغربي، وهو ما سيأخذهم بعيدًا عنا.

مما لا شك فيه أنهم محاربين من ثارك تم إرسالهم للإمساك بنا. تنفسنا الصعداء لأنهم كانوا يتحركون في الاتجاه المعاكس. وبسرعة أنزلت ديجاه ثوريس من فوق الثوات، وأمرته بالاستلقاء، وفعلنا نحن الثلاثة الشيء نفسه، حتى نبدو شيئًا صغيراً قدر الإمكان، خشية جذب انتباه المحاربين تجاهنا.

كان يمكننا رؤيتهم لمجرد لحظة وهم يخرجون من الممر، قبل أن يغيبوا عن النظر خلف نتوء جبلي ودود، كان بالنسبة لنا نتوءًا من العناية الإلهية؛ فلو استمر ظهورهم لأي فترة زمنية أطول، لاكتشفوا وجودنا. على أن آخر محارب ظهر من الممر توقف، وأثار ذعرنا عندما وضع منظاره المقرب على عينيه ومسح قاع البحر في جميع الاتجاهات. من الواضح أنه أحد الزعماء، ففي بعض تشكيلات المشاة لدى الرجال الخُضر يُعزز الزعيم خلفية الطابور الطرفية. وعندما اتجهت عدسة المنظار ناحيتنا، توقفت قلوبنا في صدورنا، وشعرت بعرق بارد يتصبب من كل مسام جسدي.

والآن مال المنظار بالكامل نحونا و... توقف. كان توتر أعصابنا يقترب من نقطة الانهيار، وأشك أن أحدًا منا تنفس خلال اللحظات القليلة التي غطانا فيها زجاج منظاره؛ ثم أنزل المنظار من عينيه، ورأيناه يصيح بأوامره للمحاربين الذين اختفوا عن أنظارنا خلف التلال. لم ينتظر عودتهم للانضمام إليه، وإنما حث ثواته واندفع بسرعة جنونية في اتجاهنا.

لم يكن لدينا سوى فرصة واحدة ضعيفة، ويجب أن نقتنصها بسرعة. رفعت بندقيتي المريخية الغريبة على كتفي، ولمست الزر الذي يسيطر على الزناد. حدث انفجار حاد، حيث وصل الصاروخ إلى هدفه، وسقط الزعيم من فوق ركوبته السريعة.

نهضت على قدمي وحثثت الثوات لينهض، وطلبت من سولا أن تأخذ ديجاه ثوريس معها على الثوات وأن يبذلا جهدًا عظيمًا للوصول إلى التلال قبل أن يدركنا المحاربون الخُضر. كنت أعرف أن بإمكانهما أن يجدا في الوديان والأخاديد مكانًا للاختباء مؤقتًا، وحتى إذا ماتوا هناك من الجوع والعطش فهو أفضل من وقوعهما في

أيدي الثاركيين. أجبرتهما على أخذ المسدسين اللذين كانا معي، كوسيلة بسيطة للحماية وأيضًا كملاذ أخير؛ أي كمهرب لهما من موت مروع في حال الإمساك بهما. حملت ديجاه ثوريس بذراعي، وأجلستها على الثوات وراء سولا التي كانت قد امتطه بالفعل امتثالاً لأمري.

همست: «وداعًا أميرتي، ربما نلتقي في هيليوم. لقد سبق أن تمكنت من الفرار من محن أسوأ من ذلك»، وحاولت أن أبتسم وأنا أكذب.

صرخت: «ماذا، ألن تأتي معنا؟»

«كيف يمكنني ذلك، ديجاه ثوريس؟ يجب أن يعطل شخص هؤلاء الزملاء لفترة، ويمكنني الهروب منهم بمفردي أفضل مما يمكننا نحن الثلاثة معًا».

قفزت بسرعة من فوق الثوات، وألقت ذراعيها الحبيبتين حول عنقي، ثم نظرت إلى سولا وقالت بوقار عذب: «أسرعي، سولا! ديجاه ثوريس سوف تبقى لتموت مع الرجل الذي تحبه».

هذه الكلمات محفورة في قلبي. آه، يمكنني بكل سرور أن أتخلى عن حياتي ألف مرة لأسمعها مرة أخرى فقط؛ لكنني عندئذ لن أستطيع أن أعطي حتى ثانية لأستمتع بحضنها العذب، وضغط شفتي بشفتيها للمرة الأولى. أمسكت بجسدها، وأجلستها على مقعدها خلف سولا مرة أخرى، وأمرت سولا بنبرة حاسمة أن تمسكها بقوة، ثم ضربت الثوات على خاصرته، وشاهدتهما وهما يتحركان بعيدًا، وديجاه ثوريس تحاول جاهدة حتى اللحظة الأخيرة أن تحرر نفسها من قبضة سولا.

استدرت، ولمحت المحاربين الخُضر يبحثون عن زعيمهم. وخلال لحظة شاهدوه، ثم شاهدوني؛ لكنني بدأت، ما إن اكتشفوني، في إطلاق النار وأنا راقد على بطني فوق الطحلب. كان لدي مائة رصاصة في مخزن بندقيتي، ومائة أخرى في الحزام على ظهري، وواصلت إطلاق النار حتى رأيت جميع المحاربين الذين كانوا أول من عادوا من خلف النتوء الجبلي إما أمواتًا أو يهرعون للاختباء.

بيد أن فترة الراحة لم تدم طويلاً، فسرعان ما بدأ ظهور المجموعة كلها، حوالي ألف رجل، يتسابقون بجنون نحوي. واصلت إطلاق النار حتى فرغت بندقيتي، وأصبحوا على مقربة مني. تبينت بلمحة بصر اختفاء ديجاه ثوريس وسولا بين التلال، فوقفت وألقيت بندقيتي عديمة الفائدة، وبدأت أتحرك في اتجاه معاكس للاتجاه الذي اتخذته سولا وديجاه ثوريس.

إذا كان للمريخيين مشاهدة أي استعراض للقفز، فقد منحته اليوم لهؤلاء المحاربين المندهشين الذين لم يشاهدوا مثله منذ سنوات طوال. وفي حين أدى بهم هذا الاستعراض إلى الابتعاد عن ديجاه ثوريس، فلم يصرف انتباههم عن السعي للإمساك بي.

تسابقوا بجنون ورائي، إلى أن ارتطمت قدمي في النهاية بقطعة كوارتز ناتئة، فوقعت على الطحلب متمددًا. وعندما نظرت لأعلى، وجدتهم بجواري. وعلى الرغم من أنني سحبت سيفي الطويل في محاولة لبيع حياتي بأغلى ثمن ممكن، انتهت المعركة سريعًا. تهاويت أسفل ضرباتهم التي انهالت فوقي كالسيل؛ شعرت بدوار، وأصبح كل ما حولي أسود، وسقطت في غياهب النسيان.

* * *

(18)

مقيد بالسلاسل في وارهون

من المؤكد أنني غبت عن الوعي عدة ساعات، وأتذكر جيدًا شعوري بالمفاجأة التي غمرتني عندما أدركت أنني لم أمت.

كنت مستلقيًا بين كومة من الحرير والفراء المخصصين للنوم، في ركن من غرفة صغيرة تضم العديد من المحاربين الخُضر، وتنحني أمامي امرأة عجوز قبيحة.

عندما فتحت عيني، استدارت إلى أحد المحاربين، قائلة:

«سوف يعيش، أو جِد».

«هذا جيد»، أجاب المحارب الذي خاطبته، وهو ينهض مقتربًا من أريكتي، «عليه أن يقدم عرضًا استثنائيًّا في المباريات الكبرى».

وقعت عيناي عليه الآن، ورأيت أنه ليس ثاركيًّا، فالحلي والمعادن التي يرتديها ليست للثاركيين. كان ضخمًا، ولديه جروح فظيعة في وجهه وصدره، وأحد أنيابه مكسور، إحدى أذنيه مفقودة. وكان مثبت على ثدييه جماجم بشرية، يتدلى منها عدد من الأيدي البشرية المجففة.

أقنعتني إشارته إلى المباريات الكبرى، التي سمعت عنها الكثير خلال وجودي مع الثاركيين، أنني لم أقفز سوى من المطهر إلى جهنم.

بعد بضع كلمات أخرى، أكدت له المرأة أنني الآن قادر تمامًا على السفر، وأن الجِد أمر بأن نركب ونتحرك خلف الطابور الرئيسي.

كنت مقيدًا بقوة فوق أكثر حيوانات الثوات جموحًا التي رأيتها من قبل، ويوجد محارب في كل جانب لمنع الوحش من الانشقاق عن المجموعة، وتحركنا بوتيرة جنونية سعيًا للحاق بالطابور. لم تكن جروحي تؤلمني كثيرًا، وسرعان ما أثبتت العلاجات والحقن التي استخدمتها المرأة جودتها وصلاحياتها العلاجية، قد كانت تلك المرأة ماهرة في ربط الجراح ووضع الضمادات عليها.

وصلنا إلى الموقع الرئيسي للقوات قبل حلول الظلام مباشرة، وبعد وقت قصير من إعدادهم المخيم لقضاء الليل. أخذوني على الفور إلى القائد، الذي اتضح أنه جيداك جحافل جماعات وارهون.

كان – مثله مثل الجد الذي أحضرني - مشوهًا بجروح مخيفة، ومزين أيضًا بدرع صدري من الجماجم البشرِية والأيدي الميتة المجففة، التي يبدو أنها علامة يضعها أعظم المحاربين في وارهون، فضلاً عن أنها تدل على وحشية فظيعة تتجاوز إلى حد كبير حتى وحشية الثاركيين.

كان الجيداك بار كوماس، وهو أصغر سنًّا نسبيًّا، يُعتبر مثالاً للكراهية والغيرة الشرسة من الملازم القديم، داك كوفا - الجد الذي أمسك بي، ولا يمكنني إلا أن أشير إلى الجهود المدروسة تقريبًا التي قام بها الأَخير لإهانة رئيسه.

لقد أغفل تمامًا التحية الرسمية المعتادة عند دخولنا في حضرة الجيداك، كما دفعني بخشونة أمام الحاكم وهو يعلن بصوت عال متوعد:

«لقد أحضرت مخلوقًا غريبًا يرتدي معادن ثارك، ومن دواعي سروري أن يخوض معركة مع ثوات وحشي في المباريات الكبرى».

أجاب الحاكم الشاب بنبرة تأكيد ومهابة: «سوف يموت على النحو الذي يراه جيداك بار كوماس مناسبًا؛ إن كان موته مناسبًا على الإطلاق».

قال داك كوفا هادرًا: «إن كان موته مناسبًا على الإطلاق؟ على جثتي، لكنه سيموت بار كوماس». لن ينقذه بكاؤك الضعيف. آه، لو كانت وارهون يحكمها جيداك حقيقي وليس شخصًا ضعيف القلب، يستطيع حتى داك كوفا العجوز أن يمزق معدنه بيديه العاريتين!».

نظر بار كوماس محدقًا للحظة نحو الزعيم الجريء المتمرد، واكتسى وجهه بتعبيرات العجرفة والازدراء الجسور والكراهية، ثم ألقى بنفسه نحو رقبة من شوه سمعته دون أن يسحب سلاحًا أو يتفوه بكلمة.

لم أشهد من قبل معركة بين اثنين من المحاربين المريخيين الخُضر لا يستخدمان فيها سوى طبيعتهما الوحشية كسلاح، وكان استعراض هذه الضراوة الحيوانية مخيفًا بمثل ما يمكن أن يتصوره أكثر خيال اضطرابًا. مزقا عيون وآذان بعضهما بعضًا بأياديهما، وجرحا ونطحا بعضهما بوحشية بأنيابهما اللامعة مرارًا وتكرارًا إلى أن تقطع جسديهما مثل الشرائط من الرأس إلى القدم.

كان بار كوماس أفضل في المعركة، حيث كان أقوى وأسرع وأكثر ذكاء. وسرعان ما بدا أن المعركة انتهت ولم يبق فقط سوى ضربة الموت النهائية، وهنا انزلق بار كوماس متجنبًا ضربة قوية. وكانت هذه هي الفرصة الصغيرة التي احتاجها داك كوفا، فألقى نفسه على جسم خصمه ودفن نابه الوحيد القوي في فخذ بار كوماس، ثم بكل ما تبقى له من قوة جهده مزق جسد الجيداك الشاب طوليًّا بالكامل، وأخيراً أقحم نابه الكبير في عظام فك بار كوماس. تكوم كل من المنتصر والمهزوم ضعيفًا وهامدًا على الطحلب، كتلة ضخمة من اللحم الممزق الذي تغطيه الدماء.

مات بار كوماس. أما داك كوفاك، فلم تنقذه سوى جهود نسائه الخارقة من المصير الذي يستحقه. وقد تمكن بعد ثلاثة أيام من السير دون مساعدة إلى جسد بار كوماس الذي، بحكم العرف، لم يتم نقله من موقع سقوطه. وضع رجله على عنق حاكمه السابق، وحاز لقب جيداك وارهون.

أُزيلت أيدي ورأس الجيداك الميت لإضافتها إلى حلي المنتصر، ثم أحرقت نساؤه ما تبقى من جسده وسط ضحكات وحشية ومرعبة.

أدت إصابات داك كوفا إلى تأخير المسيرة كثيراً، إلى حد أنه تقرر التخلي عن الرحلة - التي كانت غارة على مجتمع ثاركي صغير انتقامًا لتدمير الحاضنة – إلى ما بعد المباريات الكبرى، ثم يعود المحاربون جميعًا، وعددهم عشرة آلاف، إلى وارهون.

كان تعريفي بهؤلاء القوم القساة المتعطشين للدماء بمثابة فهرس للمشاهد التي رأيتها يوميًّا تقريبًا خلال فترة وجودي معهم. هم جماعة أصغر من الثاركيين، لكنهم أشرس بكثير. لم يمر يوم إلا والتقى بعض أفراد جماعات وارهون المختلفة في قتال مميت. رأيت ما يصل إلى ثمانية مبارزات مميتة خلال يوم واحد.

وصلنا إلى مدينة وارهون بعد مسيرة ثلاثة أيام تقريبًا، وألقوني على الفور في قبو وكبلوني بسلاسل كثيرة مثبتة على الأرض والجدران. كانوا يحضرون لي الطعام على فترات، ولكن بسبب الظلام الدامس في المكان لم أعرف كم من الوقت أمضيت هناك: أيام، أم أسابيع، أم أشهر. كانت أبشع تجربة مررت بها طوال حياتي، وقد أذهلني عدم استسلام عقلي لأهوال ذلك السواد كالحِبر. كان المكان مليئًا بأشياء زاحفة متسلقة، وتمر فوقي أجسام باردة وملتوية عندما أرقد. وكنت ألمح أحيانًا في الظلام عيونًا نارية لامعة، تحدق ناحيتي بنوايا مروعة. لم يصلني أي صوت من العالم أعلاه، ولم ينبس سجاني بكلمة عند إحضار طعامي، على الرغم من أنني أمطرته في البداية بوابل من الأسئلة.

وأخيراً ركز عقلي المترنح كل الكراهية والاشمئزاز المهووس تجاه هذه المخلوقات الفظيعة، التي وضعتني في هذا المكان الرهيب، على هذا المبعوث الوحيد الذي مثّل بالنسبة لي كامل قوم وارهون.

لاحظت أنه يتقدم دائمًا ومعه شعلة خافتة بحيث يتمكن من وضع الطعام في متناول يدي. وعندما ينحني لوضعه على الأرض، تصبح رأسه عند مستوى صدري تقريبًا. بالتالي، وبمكر رجل مجنون، تراجعت إلى الركن البعيد من زنزانتي عندما سمعته يقترب. جمعت بعض أطراف السلسلة الكبيرة التي تقيد يدي وانتظرت مجيئه، رابضًا كالوحش الذي ينتظر فريسته. وعندما انحنى لوضع الطعام على الأرض، حركت السلسلة فوق رأسي على نحو متأرجح، وحطمت حلقاتها بكل قوتي على جمجمته. سقط دون صوت ميتًا على الأرض.

أخذت أضحك وأثرثر كالأبله، ثم جلست على جثته الممددة أتحسس بأصابعي رقبته الميتة. لمست أصابعي سلسلة صغيرة يتدلى في نهايتها عدد من المفاتيح. أعادت لمسة أصابعي على هذه المفاتيح عقلي، وطرأت لي فكرة مفاجئة. لم أعُد الأبله الثرثار، وإنما الرجل العاقل المنطقي الذي يمتلك وسائل هروبه في يده.

ألقيت نظرة في الظلام، وأنا أبحث عن طريقة لإزالة السلسلة من حول رقبة ضحيتي، فرأيت ستة أزواج من العيون اللامعة مثبتة ناحيتي دون أن تطرف. اقتربوا ببطء، انكمشت مرة أخرى ببطء من حالتهم المرعبة الفظيعة. عدت إلى ركني، جلست قابضًا على راحة يدي، تسللت العيون البشعة حتى وصلت إلى الجثة عند قدماي. ثم تراجعت ببطء، وإنما هذه المرة كانت تصدر صوتًا غريبًا مزعجًا، وأخيراً اختفت في تجويف أسود يقع على بُعد في زنزانتي.

* * *

(19)

القتال في الحلبة

استعدت رباطة جأشي ببطء، وأخيراً سعيت مرة أخرى لمحاولة إزالة المفاتيح من جثة سجاني السابق. وعندما تحركت في الظلام الدامس لتحديد موقعه، هالني أنني لم أجده. ثم أدركت الحقيقة، لقد جر أصحاب تلك العيون اللامعة غنيمتي بعيدًا عني لافتراسه في العرين المجاور؛ إذن كانوا ينتظرون لأيام وأسابيع وأشهر، طوال سجني الأبدي، لجر جسدي الميت إلى وليمتهم.

لم يحضروا لي أي طعام لمدة يومين، ثم ظهر مرسال جديد واستمر سجني كما كان من قبل، لكنني لم أسمح لعقلي مرة أخرى أن يغمره رعب حالتي.

بعد وقت قصير من هذه الواقعة، أحضروا سجينًا آخر مقيد بالسلاسل بالقرب مني. رأيت على ضوء الشعلة الخافت أنه مريخي أحمر، وكنت متلهفًا على رحيل حُراسه حتى أخاطبه. وعندما غابت أصوات خطاهم مبتعدة، قلت بدماثة كلمة التحية المريخية: كاور.

أجاب: «من أنت يا من تتحدث في الظلام؟»

«أنا جون كارتر، صديق لرجال هيليوم الحُمر».

فقال «أنا من هيليوم، لكني لا أذكر اسمك».

وعندئذ حكيت له قصتي كما كتبتها هنا، لكني حذفت فقط أي إشارة لحبي لديجاه ثوريس. ابتهج كثيراً بأخبار أميرة هيليوم، وبدا متأكدًا أنها وسولا يمكنهما بسهولة الوصول إلى بر الأمان من الموقع الذي تركتهما فيه. قال إنه يعرف المكان جيدًا لأن الممر الضيق الذي اتخذه محاربو وارهون عندما اكتشفونا هو الطريق الوحيد الذي يستخدمونه دائمًا عندما يسيرون نحو الجنوب.

وأكد لي قائلاً: «دخلت ديجاه ثوريس وسولا إلى التلال التي لا تبعد سوى خمسة أميال عن ممر مائي كبير، وربما هما الآن آمنتين تمامًا».

كان اسم زميلي السجين كانتوس كان، ورتبته بادوار (أي ملازم) في سلاح البحرية بهيليوم. وكان أحد أفراد الرحلة المنكوبة التي سقطت في أيدي الثاركيين عندما أسروا ديجاه ثوريس، وحكى بإيجاز الأحداث التي أعقبت هزيمة السفن الحربية.

لقد تحركوا ببطء نحو هيليوم، نظرًا لشدة إصاباتهم وعددهم القليل جزئيًّا. وأثناء مرورهم بالقرب من مدينة زودانجا - عاصمة أعداء هيليوم التاريخيين بين رجال برسوم الحُمر – هاجمتهم قوة كبيرة من سفن الحرب الفضائية، ودمرت أو استولت على جميع سفنهم ما عدا السفينة التي ينتمي إليها كانتوس كان. ظل ثلاث من السفن الفضائية الحربية التابعة لزودانجا تطارد سفينته لعدة أيام، لكنه فر أخيراً خلال ظلام ليلة بلا قمر.

بعد ثلاثين يومًا من القبض على ديجاه ثوريس، أو حوالي وقت مجيئنا إلى ثارك، وصلت سفينته الفضائية إلى هيليوم وبها حوالي عشرة ناجين من أفراد الطاقم الأصلي الذي ضم 700 ضابط ورجل. وعلى الفور أُرسلت سبعة أساطيل كبرى، يضم كل منها 100 سفينة فضائية حربية قوية، للبحث عن ديجاه ثوريس؛ ومن هذه السفن واصلت 2000 سفينة فضائية أصغر بحثها دون جدوى عن الأميرة المفقودة.

محت أساطيل الثأر جماعتين من جماعات المريخيين الخُضر من على وجه برسوم، ولكن دون العثور على أي أثر لديجاه ثوريس. استمر البحث بين الجماعات الشمالية، ولم يمتد البحث إلى الجنوب إلا خلال الأيام القليلة الماضية.

تم اختيار كانتوس كان للتحليق بإحدى الطائرات الصغيرة ذات الراكب الواحد، ومن سوء حظه أن الوارهون اكتشفوه خلال استطلاعه لمدينتهم. فاز الرجل، نظرًا لشجاعته وجرأته، بأكبر قدر من الاحترام والإعجاب. فقد هبط وحده عند حدود المدينة، واخترق المباني المحيطة بالساحة سيراً على الأقدام. ظل لمدة يومين بلياليهم يستكشف مساكنهم وأقبيتهم بحثًا عن أميرته المحبوبة، إلى أن وقع في أيدي مجموعة من وارهون وهو على وشك المغادرة بعد أن تأكد أن ديجاه ثوريس ليست أسيرة هناك.

تعارفنا جيدًا أنا وكانتوس كان خلال فترة سجننا، وتكونت بيننا صداقة شخصية دافئة. ولم تمر سوى بضعة أيام قبل أن يأخذونا من محبسنا في القبو إلى المباريات الكبرى. ساقونا في الصباح المبكر لأحد الأيام إلى مدرج هائل، لم يكن مبنيًّا فوق سطح الأرض وإنما محفور تحت سطحها. كان يمتلئ جزئيًّا بالأنقاض، بحيث يصعب تحديد ضخامة حجمه الأصلي. وقد ضم في حالته هذه كل العشرين ألف وارهوني من الجماعات المتجمعة.

كانت الحلبة ضخمة، لكنها غير متساوية وغير مشذبة على الإطلاق. وقد كدس الوارهونيون حولها أحجار بناء من بعض حطام مباني المدينة القديمة لمنع الحيوانات والأسرى من الهرب نحو الجمهور، كما شُيدت أقفاص في نهاية كل طرف من أطرافها للاحتفاظ بهم حتى يأتي دور كل منهم ليلقى موتًا رهيبًا في الحلبة.

كنت محتجزاً مع كانتوس كان في أحد الأقفاص. وضمت الأقفاص الأخرى عددًا من حيوانات الكالوت الوحشية، والثوات، والزيتيدار المجنونة، بالإضافة إلى محاربين خُضر ونساء من جماعات أخرى، وكثير من الوحوش البرية الغريبة والشرسة من برسوم التي لم أرها أبدًا من قبل. كان ضجيج زئيرهم ودمدمتهم وصريرهم يصم الآذان، كما كان المظهر الهائل لأي منهم كافيًا لجعل أشجع قلب يشعر بنُذُر خطيرة.

شرح لي كانتوس كان أن أحد السجناء سيحصل على حريته في نهاية اليوم، بينما يرقد الآخرون موتى في الحلبة. سوف يتقاتل الفائزون في المباريات المختلفة لهذا اليوم ضد بعضهم بعضًا حتى يبقى اثنين فقط على قيد الحياة؛ ويحصل المنتصر في آخر لقاء على حريته، سواء كان حيوانًا أو رجلاً. وفي صباح اليوم التالي، تمتلئ الأقفاص بشحنة جديدة من الضحايا، وهكذا دواليك طوال الأيام العشرة للمباريات.

بعد وقت قصير من وضعنا في القفص، بدأ المدرج يمتلئ، وفي غضون ساعة امتلأ كل جزء متاح من مساحة للجلوس. جلس داك كوفا، مع الجِد والشيوخ، عند مركز أحد جوانب الحلبة فوق منبر كبير مرتفع.

فُتحت أبواب قفصين بعد إشارة من داك كوفا، وسيقت عشرات النساء المريخيات الخُضر إلى وسط الحلبة. تسلمت كل واحدة منهن خنجرًا، ثم أُطلقت عليهن من طرف بعيد مجموعة من 12 حيوانًا من حيوانات الكالوت أو الكلاب الوحشية.

عندما هرع المتوحشون، مدمدمين وهادرين نحو النساء شبه العُزل، أدرت رأسي حتى لا أرى هذا المشهد المروع. كانت صيحات وضحكات الجماعة الخضراء تشهد على النوعية الممتازة لهذه الرياضة. التفتُّ مرة أخرى إلى الحلبة عندما أخبرني كانتوس كان بانتهاء الأمر، فرأيت ثلاثة من حيوانات الكالوت المنتصرة تزمجر وتهدر فوق جثث ضحاياها. لقد قدمت النساء أنفسهن بشكل جيد.

أطلقوا بعد ذلك حيوان زيتيدار مجنون على الكلاب المتبقية، واستمر ذلك طوال اليوم الطويل، الحار الرهيب.

خلال اليوم صارعت رجالاً أولاً ثم وحوشًا، لكنني كنت مسلحًا بسيف طويل، وتفوقت دائمًا على خصمي بخفة حركتي وأيضًا قوتي، وقد ثبت أنها ليست سوى لعبة أطفال بالنسبة لي. ومرة بعد مرة، فزت بتصفيق الجمهور المتعطش للدماء. وقرب النهاية، كانت هناك صيحات تطالب بإخراجي من الحلبة واعتباري عضوًا في جماعات وارهون.

وفي نهاية المطاف، لم يتبق سوى ثلاثة منّا: محارب أخضر عظيم من إحدى جماعات الشمال البعيدة، وكانتوس كان، وأنا.

دخل الاثنان الآخران إلى المعركة، وبعدها كان من المفترض أن أقاتل المنتصر، ثم يحصل الفائز النهائي على حريته.

قاتل كانتوس كان عدة مرات خلال اليوم، ودائمًا ما ينتصر مثلي، وأحيانًا بفارق صغير، وخاصة في مواجهة المحاربين الخُضر. كان لدي أمل قليل أن يتفوق على خصمه العملاق الذي انهزم أمامه خلال اليوم. بلغ طول خصمه قرابة 16 قدمًا، بينما كان طول كانتوس كان يقل بعض بوصات عن ستة أقدام. عندما تقدما للمواجهة، رأيت للمرة الأولى إحدى خدع مهارات المبارزة المريخية التي تركزت عليها جميع آمال كانتوس كان للانتصار والحياة بضربة حظ واحدة؛ ذلك أنه عندما أصبح على بعد عشرين قدم تقريبًا من الزميل الضخم، ألقي بذراع سيفه بعيدًا وراءه على كتفه، وبقوة كاسحة رشق رأس سلاحه في المحارب الأخضر. طار كسهم بحق وثقب قلب الشيطان البائس وأرداه قتيلاً في الحلبة.

أصبحت أواجه كانتوس كان الآن. عندما اقتربنا همست له لإطالة أمد المعركة حتى الظلام تقريبًا على أمل أن نجد وسيلة ما للهرب. ومن الواضح أن الجماعة خمنت أن قلوبنا ضعيفة في قتالنا لبعضنا بعضًا، حتى أنها أطلقت صيحات غاضبة لأن أيًّا منا لم يسدد ضربة قاتلة. وما إن رأيت حلول الظلام المفاجئ، همست إلى كانتوس كان أن يوجه سيفه

بين ذراعي الأيسر وجسدي. وعندما فعل ذلك، تمايلت للخلف وأنا قابض بذراعي على السيف بإحكام ووقعت على الأرض وسلاحه يبدو ظاهريًّا بارزًا من صدري. أدرك كانتوس حركتي المفاجئة وانتقل بسرعة إلى جانبي ووضع قدمه على رقبتي وسحب سيفه من جسدي وأعطاني طعنة الموت النهائية في رقبتي، وهي الطعنة التي من المفترض أن تقطع حبل الوريد بعنقي، لكن النصل البارد انغرز في هذه اللحظة دون إلحاق ضرر في رمال الحلبة. ليس بمقدور أحد أن يقول، في هذا الظلام الذي هبط الآن، إلا أنه أجهز علي بالفعل. همست له أن يذهب للفوز بحريته، ثم يبحث عني في التلال التي تقع شرق المدينة، وهكذا تركني.

عندما أصبح المدرج شاغرًا، تسللت خلسة إلى أعلى. ونظرًا لوجود تجويف كبير يقع بعيدًا عن الساحة في جزء غير مأهول بالسكان من المدينة الكبيرة الميتة، لم أجد صعوبة تذكر للوصول إلى التلال.

* * *

(20)

في مصنع الغلاف الجوي

انتظرت كانتوس كان هناك لمدة يومين، ولما لم يأت بدأت اتجه سيراً على الأقدام نحو الجنوب الغربي إلى موقع أقرب مجرى مائي كما قال لي. كان طعامي الوحيد يتكون من الحليب النباتي المشتق من النباتات، وهو ما منحني قدرًا وفيراً من هذا السائل الذي لا يُقدر بثمن.

تجولت طوال أسبوعين طويلين، متعثراً خلال الليل ومسترشدًا فقط بالنجوم، ومختبئًا خلال النهار وراء بعض الصخور الناتئة أو بين التلال التي أشق طريقي خلالها أحيانًا. تعرضت عدة مرات لهجوم وحوش همجية؛ مسوخ فظة غريبة تقفز فوقي في الظلام، فبقيت دائمًا قابضًا على سيفي الطويل في يدي لأكون مستعدًّا لها. كانت تحذرني في الوقت المناسب عادة قوة التخاطر الغريبة التي اكتسبتها مؤخرًا، لكنني متى أجد هذه الأنياب الخبيثة بالقرب من أوردة رقبتي ووجه مملوء بالشعر يضغط بالقرب مني، كنت أعرف أنني تحت التهديد.

لم أكن أعرف نوع الكائن الذي يهاجمني، وإنما كنت أشعر بضخامته وثقله وأرجله العديدة. كانت يداي تصل إلى حلقه قبل أن تجد أنيابه فرصة لتنغرز في رقبتي، وببطء كنت أُجبر الوجه المُشعِر على الابتعاد عني وأغلق أصابعي، مثل القبضة، على قصبته الهوائية.

استلقينا هناك دون صوت، بذل الوحش كل جهد ممكن لتصلني أنيابه الفظيعة، وجاهدت للحفاظ على قبضة يدي حول عنقه وخنقه. استسلم ذراعي ببطء في هذا الصراع غير المتكافئ، وزحفت عيون خصمي المشتعلة وأنيابه اللامعة نحوي بوصة بعد بوصة، إلى أن لمس وجهه المُشعر وجهي مرة أخرى، وعندئذ أدركت أن كل شيء قد انتهى. وهنا انطلقت من الظلمة المحيطة كتلة تدميرية حية بكاملها فوق المخلوق الذي طرحني أرضًا. تدحرج الاثنان هادرين فوق الطحلب، يمزقان ويضربان بعضهما بعضًا بطريقة مخيفة، لكن المعركة انتهت بسرعة ووقف من قام بحمايتي وهو يخفض رأسه فوق حلق الشيء الميت الذي كاد أن يقتلني.

انطلق فوق الأفق فجأة القمر الأقرب وأضاء ساحة برسوم، وهنا تبين لي أن وولا هو من حماني؛ لكني كنت تواقًا لأن أعرف متى جاء أو كيف وجدني. وغني عن القول إنني كنت سعيدًا برفقته، لكن سروري لرؤيته تقلص نتيجة لقلقي من سبب تركه ديجاه

ثوريس. كنت أشعر واثقًا أن وفاتها فقط هي سبب ابتعاده عنها، لأني أعرف يقينًا أنه يمتثل لأوامري.

على ضوء الأقمار التي أصبحت تبدو رائعة الآن، رأيت أنه ليس سوى ظل لنفسه السابقة، فعندما ترك ملاطفتي له وبدأ يلتهم بشراهة الذبيحة الميتة أمام قدماي أدركت أن هذا الزميل البائس كان أكثر من نصف جوعان. ولم أكن أنا نفسي في وضع أفضل كثيراً، لكني لا أستطيع أن آكل اللحم النيئ، وليست لدي أي وسيلة لإشعال النار. عندما انتهى وولا من وجبته، استأنفت مرة أخرى تجوالي المضجِر الذي يبدو بلا نهاية، بحثًا عن المجرى المائي بعيد المنال.

في فجر اليوم الخامس عشر من بحثي، شعرت بسعادة غامرة لرؤية الأشجار العالية التي يدل وجودها على هدف بحثي. وفي حوالي الظهيرة، جررت نفسي مرهقًا إلى بوابات مبنى ضخم يغطي مساحة ربما تصل إلى أربعة أميال مربعة ويرتفع مائتي قدم في الهواء. لم تظهر أي فتحة في جدرانه القوية باستثناء الباب الصغير الذي انهرت أمامه منهكًا، كما لم تظهر أي علامة على الحياة هناك.

لم أجد أي جرس أو أي طريقة أخرى يعرف بها نزلاء المكاني وجودي، ما لم يكن الثقب الصغير بالجدار القريب من الباب مخصصًا لهذا الغرض. كان الثقب بحجم قلم رصاص، وفكرت أنه قد يكون من حيث طبيعته أنبوبًا يمكن الحديث من خلاله، فوضعت فمي عليه وكنت على وشك أن أنادي، لكن صوتًا صدر منه يطلب مني أن أحدد من أنا، ومن أين أتيت، وما طبيعة مهمتي.

أوضحت أنني هربت من الوارهونيين، وأكاد أن أموت من الجوع والإرهاق.

«أنت ترتدي معدن محارب أخضر ويتبعك حيوان الكالوت، ومع ذلك فهيئتك هيئة رجل أحمر. من حيث اللون، أنت لست أخضر ولا أحمر. باسم الشعاع التاسع، من أي نوع أنت أيها المخلوق؟».

أجبت: «أنا صديق رجال برسوم الحُمر، وأكاد أموت جوعًا. باسم الإنسانية، افتحوا لنا».

بدأ الباب ينحسر أمامي حتى غاص مسافة خمسين قدم داخل الجدار ثم توقف وانزلق بسهولة نحو اليسار، كاشفًا عن ممر قصير وضيق من الخرسانة يوجد في نهايته الأخرى باب آخر مماثل تمامًا للباب الذي دخلت منه. لم يكن هناك أحد على مرمى البصر، لكننا بمجرد مرورنا على الباب الأول، انزلق برفق خلفنا عائدًا إلى مكانة وانحسر سريعًا إلى موضعه الأصلي في الجدار الأمامي من المبنى. عندما انزلق الباب جانبًا،

لاحظت سُمكه المهول، عشرون قدمًا بالكامل، وعندما عاد إلى مكانه مرة أخرى بعد أن أُغلق وراءنا، هبطت أسطوانات فولاذية كبيرة من السقف خلفه، ودخلت نهاياتها السفلى في فتحات غاطسة على الأرض.

انحسر باب ثان وثالث أمامي وانزلقا إلى جانب واحد مثل الباب الأول، قبل أن أصل إلى غرفة داخلية كبيرة حيث وجدت الطعام والشراب مُعدًّا على مائدة حجرية كبيرة. وجهني صوت إلى تلبية نداء معدتي وإطعام حيواني الكالوت. وفي هذه الأثناء، اختبرني مضيفي غير المرئي عبر استجواب صارم ودقيق.

«كلامك لافت للنظر»، قال الصوت في ختام استجوابه، «لكنك من الواضح تقول الحقيقة، ومن الواضح أيضًا أنك لست من برسوم. يمكنني معرفة ذلك من تكوين عقلك والموقع الغريب لأجهزتك الداخلية، وشكل قلبك وحجمه».

صحت قائلًا: «أيمكنك أن ترى خلالي؟»

«نعم، يمكنني رؤية كل شيء إلا أفكارك، ولو أنك من برسوم لكنت استطعت قراءة أفكارك».

ثم فُتح باب في الجانب الآخر من الغرفة وتوجهت نحوي مومياء صغيرة وغريبة وجافة لرجل. لم يكن يرتدي سوى قطعة واحدة من الملابس أو الزينة؛ قلادة صغيرة من الذهب تتدلى منها على صدره قطعة حلي كبيرة الحجم بمثل حجم طبق عشاء مُثبتة بقوة بألماس ضخم، باستثناء وسطها تحديدًا حيث يشغله حجر غريب يبلغ قطره بوصة، وتتألق فيه 9 أشعات مختلفة ومميزة: ألوان المنشور السبعة في كوكب الأرض، وأشعتين جميلتين كانتا، بالنسبة لي، جديدتين ومجهولتين. لا يمكنني أن أصفهما بأكثر مما يمكنك وصف اللون الأحمر لرجل أعمى. أعرف فقط أنهما جميلتان إلى أقصى حد ممكن.

جلس الرجل العجوز وتحدث معي لساعات، وأغرب جزء في تواصلنا أنني كنت قادر على قراءة أفكاره في حين أنه لم يتمكن أن يسبر غور مقدار ذرة من عقلي إلا عندما أتكلم.

لم أخبره بقدرتي على استشعار عملياته العقلية، وهكذا عرفت الكثير الذي ثبتت قيمته الهائلة بالنسبة لي في وقت لاحق، والذي لم أكن لأعرفه أبدًا إذا شك في امتلاكي هذه القوة الغريبة؛ ذلك أن المريخيين لديهم سيطرة كاملة على جهازهم العقلي بحيث يمكنهم توجيه أفكارهم بدقة مطلقة.

كان المبنى الذي وجدت نفسي فيه يحتوي على الماكينات التي تُنتِج ذلك الجو المصطنع الذي يديم الحياة على المريخ. يتوقف سر العملية بأكملها على استخدام الشعاع التاسع، إحدى الومضات الجميلة التي لاحظت انبعاثها من حجر كبير في إكليل مضيفي.

يتم فصل هذا الشعاع من باقي أشعة الشمس الأخرى عن طريق أدوات مُعدلة بدقة موضوعة على سطح المبنى الضخم، الذي يُستخدم ثلاثة أرباعه للخزّانات اللازمة لتخزين الشعاع التاسع. يُعالج بعد ذلك هذا المُنتَج كهربائيًّا، أو بالأحرى تُدرَج معه نسب معينة من الاهتزازات الكهربائية المُصفاة، ثم يجري ضخ الناتج إلى المراكز الهوائية الرئيسية الخمسة في الكوكب، حيث يتلامس عند تحريره مع أثير الفضاء ويحوله إلى غلاف جوي.

وهناك دائمًا احتياطيات كافية من الشعاع التاسع، مُخزنة في مبنى كبير للحفاظ على جو المريخ الحالي لألف سنة. وأخبرني صديقي الجديد أن خوفهم الوحيد يكمن في وقوع أي حادث من شأنه أن يصيب جهاز الضخ.

قادني إلى غرفة داخلية حيث رأيت بطارية ذات عشرين مضخة راديوم، تعادل أي واحدة منها مهمة إمداد المريخ كله بمُركب الغلاف الجوي. وأخبرني أنه على مدى 800 سنة ظل يراقب هذه المضخات

التي تُستخدَم بالتناوب يوميًّا ولكل منها امتداده، أو ما يزيد قليلاً على أربعة وعشرين ونصف ساعة بزمن كوكب الأرض. لديه مساعد واحد، ويقسمان المراقبة بينهما. يمضي كل رجل منهما بمفرده في هذا المصنع الضخم المعزول نصف سنة مريخية – أي حوالي 344 يومًا من أيام كوكب الأرض.

يتعلم كل مريخي أحمر خلال مرحلة طفولته المبكرة مبادئ تصنيع الجو. ولكن لا يعرف أبدًا إلا شخصين فقط في وقت واحد سر الدخول إلى المبنى الكبير الذي يبلغ سُمك جدرانه 150 قدمًا، وبالتالي منيع تمامًا؛ حتى السقف يحرسه زجاج يبلغ سُمكه خمسة أقدام من اعتداء أي مركبة جوية.

والخوف الوحيد الذين يعيرونه اهتمامًا هو هجوم من المريخيين الخُضر أو بعض المختلين من الرجال الحُمر؛ إذ يدرك جميع البرسوميين أن وجود كل شكل من أشكال حياة المريخ مرهون بعمل هذا المصنع دون انقطاع.

اكتشفت وأنا أقرأ أفكاره حقيقة مثيرة، وهي أن الأبواب الخارجية تُعالج بوسائل التخاطر، وأن الأقفال مُعدة بدقة بالغة بحيث تنفتح الأبواب بفعل تركيبة معينة من

موجات الفكر. ولتجربة لعبتي الجديدة، فكرت في مفاجأته بالكشف عن هذه التركيبة. فسألته بطريقة عارضة كيف تمكن من فتح الأبواب الضخمة من الغرف الداخلية للمبنى. وبسرعة الوميض قفزت إلى ذهنه تسعة أصوات مريخية، لكنها سرعان ما تلاشت عندما أجاب قائلاً إنه سر لا يجب أن يفصح عنه.

منذ ذلك الحين تغيرت طريقته تجاهي، كما لو كان يخشى من إفشاء سره العظيم، كما قرأت الشك والخوف في نظراته وأفكاره على الرغم من استمرار كلماته اللطيفة.

قبل أن أغادر لحلول الليل، وعدني أن يعطيني رسالة إلى مسؤول زراعي قريب يمكنه مساعدتي في طريقي إلى زودانجا، التي قال إنها أقرب مدينة مريخية.

وأضاف: «ولكن، تأكد من عدم إخبارهم أنك متجه إلى هيليوم، لأنهم في حالة حرب مع ذلك البلد. أنا ومساعدي لا ننتمي إلى أي بلد، إننا ننتمي إلى برسوم كلها، وهذا الطلسم الذي نرتديه يحمينا في جميع الأراضي، حتى بين الرجال الخُضر - على الرغم من أننا لا نثق في وجودنا بين أيديهم».

وتابع قائلاً: «ليلة سعيدة يا صديقي، أتمنى أن تحظى بنوم طويل ومريح - نعم، نوم طويل».

وعلى الرغم من ابتسامته اللطيفة، رأيت في أفكاره الرغبة التي لم يعترف بها أبدًا لي، ثم صورته وهو يقف أمامي خلال الليل، وطعنة سريعة من خنجر طويل، وعبارة مرتبة جزئيًّا «أنا آسف، لكن ذلك من أجل أفضل مصلحة لبرسوم».

عندما أغلق باب غرفتي وراءه، انقطعت أفكاره عني لأنه لم يعد على مرأى مني، وهو ما بدا غريبًا بالنسبة لي في حدود معرفتي القليلة بعملية انتقال التفكير.

ماذا أفعل؟ كيف يمكنني الهرب خلال هذه الجدران القوية؟ يمكنني الآن أن أقتله بسهولة بعد هذا التحذير، ولكن بمجرد موته لن أتمكن أبدًا من الهرب؛ ومع توقف جهاز المصنع الكبير، سوف أموت مع جميع سكان الكوكب الآخرين - كلهم، حتى ديجاه ثوريس إن لم تكن قد ماتت بالفعل. لم أكن مهتمًّا بالآخرين، لكن تفكيري في ديجاه ثوريس طرد من عقلي كل رغبة في قتل مضيفي المخطئ.

فتحت باب غرفتي بحذر وتبعني وولا، وبحثت عن الباب الداخلي للأبواب الكبيرة. واتتني خطة جامحة؛ أن أحاول فتح الأقفال الكبيرة عن طريق موجات الفكر التسعة التي قرأتها في عقل مضيفي.

زحفت خلسة من ممر بعد ممر، وهبط أسفل مسارات متعرجة تلتف هنا وهناك إلى أن وصلت أخيراً إلى القاعة الكبرى التي كسرت فيها صومي الطويل صباح ذلك اليوم. لم أجد مضيفي في أي مكان، كما لم أكن أعرف أين يستقر ليلاً.

كنت على وشك أن أخطو بجرأة إلى الغرفة، عندما حذرتني ضوضاء طفيفة خلفي جعلتني أنسحب إلى ظلال تجويف في الممر. سحبت وولا ورائي وأنا جاثم على نحو منخفض في الظلام.

مر بي حاليًا الرجل العجوز، وما إن دخل الغرفة خافتة الإضاءة التي كنت على وشك أن أمر خلالها، رأيته يحمل خنجرًا رفيعًا طويلاً في يده ويشحذه على حجر. قرأت في ذهنه قراره بتفقد مضخات الراديوم، وهو ما يستغرق حوالي ثلاثين دقيقة، ثم العودة إلى غرفة نومي والإجهاز عليّ.

عندما مر خلال القاعة الكبرى واختفى أسفل المسار الذي يؤدي إلى غرفة المضخة، تحركت خلسة من مكان اختبائي وعبرت إلى الباب الكبير، وهو الباب الداخلي من الأبواب الثلاثة التي تحول بيني وبين الحرية.

بتركيز ذهني على القفل الضخم، قذفت موجات الفكر التسعة ناحيته. انتظرت لاهثًا وكلي أمل، وأخيراً تحرك الباب الكبير برفق نحوي وانزلق بهدوء إلى أحد الجوانب. انفتحت البوابات الجبارة المتبقية واحدة بعد الأخرى طبقًا لأمري، وخرجت أنا ووولا نحو الظلام أحرارًا، وأفضل حالاً عما كنا عليه من قبل، بالإضافة إلى امتلاء بطوننا.

أسرعت بعيدًا عن ظلال مجموعة المباني الهائلة إلى أول مفترق طرق، عازمًا على الوصول إلى الطريق الرئيسي في أسرع وقت ممكن. وقد وصلت هناك في حوالي صباح اليوم، ودخلت أول حظيرة وجدتها لأبحث عن أي أدلة على وجود سكان.

وجدت مبان خرسانية منخفضة متناثرة، ذات أبواب ثقيلة يتعذر اجتيازها، ولم يسفر أي قدر من الطرق والنداء بصوت عال عن أي استجابة. شعرت بالضجر وكنت مرهقًا من الأرق، فألقيت نفسي على الأرض وأمرت وولا أن يقف ليحرسني.

أيقظني في وقت لاحق هديره المخيف، ففتحت عيني لأرى ثلاثة من المريخيين الحُمر يقفون على مسافة قصيرة منّا وبنادقهم تغطيني.

أسرعت شارحًا: «أنا لست مسلحًا ولست عدوًا. لقد كنت سجينًا لدى الرجال الخُضر، وأنا الآن في طريقي إلى زودانجا. كل ما أطلبه هو الغذاء والراحة لنفسي ولحيواني الكالوت، وإرشادات مناسبة للوصول إلى وجهتي».

قاموا بخفض بنادقهم وتقدموا بلطف نحوي، ووضعوا أياديهم اليُمنى على كتفي الأيسر، وفقًا لعادات التحية لديهم. سألوني أسئلة كثيرة عن نفسي وعن ترحالي، ثم أخذوني إلى بيت أحدهم الذي يبعد مسافة قصيرة.

كانت المباني التي طرقتها في الصباح الباكر مخصصة فقط للتخزين والمنتجات الزراعية. يشغل البيت موقعًا مناسبًا في بستان للأشجار الضخمة؛ ومثله مثل جميع بيوت المريخيين الحُمر، يرفعونه في الليل حوالي أربعين أو خمسين قدمًا أعلى سطح الأرض على محور معدني كبير ينزلق لأعلى أو لأسفل عبر ذراع مغروس في الأرض، يجري تشغيله بواسطة محرك صغير من الراديوم في قاعة مدخل المبنى. هكذا يحمي المريخيون الحُمر مساكنهم ببساطة من الأذى أثناء الليل، بدلًا من عناء استخدام المسامير وقضبان الحماية. لديهم أيضًا وسائل خاصة لخفض مساكنهم أو رفعها عن الأرض إذا رغبوا في المغادرة وتركها.

يشغل هؤلاء الإخوة، مع زوجاتهم وأطفالهم، ثلاثة بيوت متشابهة في هذه المزرعة. لكنهم لا يعملون بأنفسهم، لأنهم موظفو حكومة مسؤولين. يتم أداء العمل عن طريق المحكوم عليهم، وأسرى الحرب، والمَدينين المتأخرين عن سداد ديونهم، والعُزاب الذين يحول فقرهم الشديد دون دفع ضريبة العزوبية الباهظة التي تفرضها جميع الحكومات المريخية الحمراء.

كانوا تجسيدًا للمودة وكرم الضيافة، وأمضيت معهم عدة أيام، أستريح وأتعافى من خبراتي الطويلة والشاقة.

عندما سمعوا قصتي –وقد حذفت أي إشارة إلى ديجاه ثوريس والرجل العجوز في مصنع الغلاف الجوي– نصحوني بتلوين جسمي ليشبه تقريبًا جنسهم، ثم أحاول العثور على عمل في زودانجا، إما في الجيش أو البحرية.

شرح لي أحدهم: «احتمالات تصديق حكايتك قليلة، إلى أن تثبت أنك جدير بالثقة وتفوز بأصدقاء بين أعلى النبلاء في البلاط. وهذا يمكنك تحقيقه بسهولة من خلال الخدمة العسكرية، فنحن شعب محب للحرب في برسوم، ونحتفظ بأغنى عطايانا للرجل المقاتل».

عندما أصبحت مستعدًا للرحيل، أمدوني بثوات محلي صغير شديد القوة مماثل لذلك الذي يستخدمه جميع المريخيين الحُمر لأغراض السرج. يقترب حجم الحيوان من حجم حصان، ولطيف جدًا، لكنه من حيث اللون والشكل نسخة طبق الأصل من عمه الضخم الشرس في البراري.

كما أمدني الإخوة بزيت ضارب إلى الحُمرة، دهنت جسمي كله به؛ وقص أحدهم شعري الذي أصبح طويلاً، بحيث يناسب الشكل السائد حينذاك، أي مُربع من الخلف وقصير من الأمام، حتى يمكنني التحرك في أي مكان في برسوم كمريخي أحمر بالكامل. قاموا أيضًا بتجديد كل ما لدي من معادن وحلي، بحيث تصبح على نمط رجل محترم من زودانجا، مرتبط ببيت بتور، وهو اسم عائلة الإخوة الذين أنعموا علي بكل هذا.

أحضروا أيضًا كيسًا صغيراً يمتلئ بالعملات المُستخدمة في زودانجا وثبتوه جانبي. لا تختلف العُملة المريخية عن عملتنا في كوكب الأرض، إلا من حيث شكلها البيضاوي. أما النقود الورقية، فيمكن أن يأخذ الأفراد على عاتقهم تحرير أوراق تفي باحتياجهم، على أن يتم سدادها مرتين سنويًّا. وإذا حرر رجل أوراقًا أكثر مما يمكنه سداده، تتولى الحكومة السداد بالكامل لدائنيه، على أن يعمل المدين بقيمة المبلغ في المزارع أو المناجم المملوكة جميعها للحكومة. يناسب هذا النظام الجميع ما عدا الشخص المَدين، حيث يضطر للعمل في أراضي المزارع الكبرى المعزولة بالمريخ، التي تمتد كشرائط ضيقة من القطب إلى القطب، عبر اتساعات برية مأهولة بالحيوانات المتوحشة والرجال الأكثر توحشًا.

عندما ذكرت لهم عدم قدرتي على رد ما غمروني به من عطف، أكدوا لي أن فرصتي للرد كبيرة إذا استمر وجودي فترة طويلة في برسوم. قاموا بتوديعي وانتظروا حتى غبت عن أنظارهم عند الطريق الأبيض الواسع.

* * *

(21)

استطلاع جوي لزودانجا

عندما شرعت في رحلتي نحو زودانجا، لفتت انتباهي العديد من المشاهد الغريبة والمثيرة. وتعلمت في بيوت المزارع العديدة التي توقفت عندها عددًا من الأشياء الجديدة والمفيدة المتعلقة بأساليب وعادات برسوم.

تُجمع المياه التي تزود مزارع المريخ في خزانات جوفية هائلة بأي من القطبين من ذوبان القمم الثلجية، وتُضخ عبر قنوات طويلة إلى مختلف المراكز المأهولة بالسكان. تقع المناطق المزروعة على طول جانبي هذه القنوات، وعلى امتداد طولها كله. وهي مقسمة إلى مساحات من الحجم نفسه تقريبًا، وكل مساحة منها تخضع لإشراف واحد أو أكثر من موظفي الحكومة.

وبدلاً من غمر أسطح الحقول بالماء، وبالتالي إهدار كميات هائلة من المياه بالتبخر، يُنقل السائل الثمين تحت الأرض خلال شبكة واسعة من الأنابيب الصغيرة إلى جذور النباتات مباشرة. تتشابه دائمًا المحاصيل على المريخ، حيث لا يوجد جفاف ولا أمطار، ولا رياح عاتية، ولا حشرات، كما لا توجد طيور تخرب المحاصيل.

تذوقت في هذه الرحلة أول لحم آكله منذ أن غادرت كوكب الأرض - شرائح وقطع من اللحم كبيرة غضة من حيوانات المزارع جيدة التغذية. كما استمتعت أيضًا بفواكه وخضراوات شهية، لكنني لم أجد أي نوع من الطعام يشبه تمامًا أي شيء على كوكب الأرض. لقد أدخلوا تحسينات على كل نبات وزهرة وخضار وحيوان عبر سنوات طويلة من الزراعة والتربية العلمية الدقيقة، بينما بالمقارنة نجد أن ما يماثلهم على كوكب الأرض قد تضاءل إلى اللاشيء الباهت الرمادي، بلا أي شخصية.

قابلت في توقف ثان أناسًا على درجة عالية من التهذيب ينتمون إلى طبقة النبلاء، وتصادف خلال حديثنا أن تطرقنا إلى هيليوم. كان أحدهم، وهو من كبار السن، هناك في بعثة دبلوماسية قبل عدة سنوات، وتحدث بأسى عن الظروف التي يبدو أنها تتجه نحو استمرار الحرب بين هذين البلدين.

قال: «تفتخر هيليوم عن حق بأن نساءها أجمل نساء برسوم، ومن بين كل كنوزها لديها ابنة مورس كاجاك الرائعة - ديجاه ثوريس - أكثر الزهور تألقًا».

«لماذا»، أضاف قائلاً، «الشعب يقدس الأرض التي تمشي عليها، ومنذ فقدانها في تلك الحملة الفاشلة، تكتسي هيليوم جميعها بالحداد».

«إن مهاجمة حاكمنا للأسطول العاجز عند عودته إلى هيليوم لم يكن سوى خطأ آخر من أخطائه الفظيعة، وأخشى أن تضطر زودانجا عاجلاً أم آجلاً إلى تنصيب رجل أكثر حكمة مكانه».

«بل حتى الآن، وعلى الرغم من أن جيوشنا المنتصرة تحيط بهيليوم، فإن شعب زودانجا يعرب عن استيائه؛ فالحرب ليست مقبولة شعبيًّا، لأنها لا تستند إلى الحق أو العدل. اقتنصت قواتنا فرصة غياب أسطول هيليوم الرئيسي الذي خرج يبحث عن الأميرة، وتمكنت بسهولة من تقليص المدينة إلى محنة مؤسفة. ويقال إنها سوف تسقط خلال فترات المرور القصيرة للقمر التالي».

فسألته عرضًا قدر الإمكان: «وماذا تعتقد قد حدث للأميرة ديجاه ثوريس؟».

أجاب: «لقد ماتت. عرفنا ذلك من محارب أخضر قبضت عليه مؤخرًا قواتنا في الجنوب. قال إنها هربت من جماعات ثارك مع مخلوق غريب من عالم آخر، لكنها وقعت في أيدي الوارهونيين. وقد عُثر على حيوانات الثوات خاصتهما وهي تتجول فوق قاع البحر، كما اكتُشفت أدلة حدوث قتال دموي في موقع قريب».

على الرغم من أن هذه المعلومات لم تكن تبعث على الاطمئنان بأي حال، فلم تكن أيضًا دليلاً قاطعًا على موت ديجاه ثوريس، ولذا صممت أن أبذل كل جهد ممكن للوصول إلى هيليوم بأسرع ما يمكنني، لأحمل إلى تاردوس مورس أخبار مكان حفيدته المحتمل عندما كانت معي.

وصلت إلى زودانجا بعد أن تركت الأشقاء بتور بعشرة أيام. منذ اللحظة التي بدأت فيها التواصل مع سكان المريخ الحُمر لاحظت أن وولا تسبب في توجيه قدر كبير من الاهتمام نحوي بشكل غير مرغوب؛ فهذا الوحش الضخم ينتمي إلى نوع لا يتولى الرجال الحُمر تدجينه أبدًا.

وأعني أن المرء إذا تنزه على سيراً على الأقدام في برودواي مع أسد من مملكة نوميديا القديمة، سيكون التأثير إلى حد ما مماثلاً لذلك التأثير الذي أحدثته عندما دخلتُ زودانجا مع وولا.

إن مجرد التفكير في الافتراق عن زميل مخلص قد سبب لي أسفًا شديدًا وحزنًا حقيقيًّا، تجنبته إلى أن وصلنا لبوابات المدينة؛ وعندئذ أصبح من المحتم أن أصده. ولأن

سلامتي أو سعادتي كانت في خطر، لم تكن لأي حجة أخرى أن تغلبني لأبعد المخلوق الوحيد في برسوم الذي لم يخفق أبدًا في إظهار مودته وولائه. لكني كما قدمت حياتي عن طيب خاطر لخدمتها، والتي بحثًا عنها كنت على وشك مواجهة تحديات أخطار مجهولة بالنسبة لي في هذه المدينة الغامضة، فإنني لن أسمح حتى لحياة وولا أن تهدد نجاح مشروعي، ناهيك عن سعادته اللحظية، إذ لم أشك في أنه سرعان ما سينساني. وبالتالي قمت بتوديع الوحش البائس بحنان، ووعدته أنني إذا نجحت في مغامرتي وخرجت منها سالماً فسأجد طريقة للبحث عنه والعثور عليه.

يبدو أنه فهمني تمامًا، فعندما أشرت له بالعودة إلى الخلف في اتجاه ثارك، استدار بحسرة. لم أتحمل مشاهدته وهو يغادر، لكنني تحركت بحزم في اتجاه زودانجا، واقتربت من جدرانها الخانقة يائسًا.

أتاحت الرسالة التي أعطوها لي أن أفوز على الفور بدخول المدينة الشاسعة المسورة. كان الوقت لا يزال في الصباح المبكر، والشوارع مهجورة عمليًّا، والمساكن ترتفع عاليًا فوق أعمدة معدنية وتشبه عششًا ضخمة للغربان، بينما كانت الأعمدة نفسها تتخذ مظهر جذوع الأشجار الصلبة. أما المحال التجارية، فهي كقاعدة لم تكن مرتفعة عن الأرض، كما لم تكن أبوابها مغلقة أو ذات قضبان، فالسرقة غير معروفة عمليًّا في برسوم. الاغتيال هو الخوف الدائم لجميع البرسوميين، ولهذا السبب وحده يرفعون منازلهم عاليًا فوق سطح الأرض في الليل، أو في أوقات الخطر.

أعطاني الإخوة بتور توجيهات صريحة بالوصول إلى موقع في المدينة حيث يمكنني العثور على أماكن الإقامة ويكون بالقرب من مكاتب موظفي الحكومة الذين كانت الرسائل موجهة لهم. قادني طريقي إلى الميدان أو الساحة المركزية، الذي يُعد سمة من سمات جميع المدن المريخية.

تغطي ساحة زودانجا مساحة ميل مربع، وتحدها قصور الجيداك والجِد وأعضاء آخرين من العائلات الملكية وعائلات النبلاء في زودانجا، بالإضافة إلى المَباني العامة الرئيسية، والمقاهي، والمحال التجارية.

وخلال عبوري الساحة الكبيرة، شاهدت بتعجب وإعجاب المعمار الرائع والغطاء النباتي القرمزي فائق الجمال الذي كسا المروج الواسعة، واكتشفت مريخيًّا أحمر يمشي بخفة نحوي قادمًا من أحد الطرق. لم يعرني أدنى اهتمام، لكنه عندما اقترب مني عرفته، فاستدرت ووضعت يدي على كتفه وناديته:

«كاور، كانتوس كان!»

استدار بسرعة البرق، وقبل أن أتمكن من خفض يدي، كان رأس سيفه الطويل في صدري.

زمجر قائلاً: «من أنت؟»، قفزت إلى الوراء قفزة أبعدتني خمسين قدمًا عن سيفه، فوضع رأس سيفه على الأرض وصاح ضاحكًا:

«لست بحاجة إلى رد أفضل، فلا يوجد سوى رجل واحد في برسوم كلها يمكنه أن يرتد واثبًا مثل كرة مطاطية. باسم أم القمر القادم، جون كارتر، كيف جئت إلى هنا، وهل أصبحت دارسينًا[3] بحيث يمكنك تغيير لونك حسب رغبتك؟».

«لقد منحتني نصف دقيقة سيئة يا صديقي»، هكذا تابع حديثه بعد أن حكيت له باختصار مغامراتي منذ أن افترقنا في ساحة وارهون. «إذا كان اسمي ومدينتي معروفين لدى الزودانجيين، لسرعان ما سأجلس على ضفاف بحر كوراس المفقود مع أجدادي الموقرين الراحلين. أنا هنا لمصلحة تاردوس مورس، جيداك هيليوم، لاكتشاف مكان ديجاه ثوريس، أميرتنا. فقد وقع صاب ثان، أمير زودانجا، في حبها بجنون ويخفيها في المدينة. أما والده، ثان كوسيس، جيداك زودانجا، فقد جعل زواجها طواعية لابنه ثمنًا للسلام بين بلدينا، لكن تاردوس مورس لن يوافق على المطالب وبعث برسالة أنه وشعبه يفضلان بالأحرى النظر إلى وجه أميرتهم الميت على رؤيتها تُزف إلى أي شخص ليس من اختيارها، وأنه شخصيًّا يفضل الغرق في رماد هيليوم المفقودة والمحترقة على ضم معادن منزله إلى معادن ثان كوسيس. كان رده أفظع إهانة يمكن توجيهها إلى ثان كوسيس والزودانجيين، لكن حب قومه له زاد لموقفه وأصبحت قوته في هيليوم اليوم أكبر من أي وقت مضى».

«أنا هنا منذ ثلاثة أيام»، واصل كانتوس كان، «لكنني لم أعثر بعد على مكان حبس ديجاه ثوريس. واليوم أنضم إلى بحرية زودانجا في الاستطلاع الجوي، وآمل بهذه الطريقة أن أكسب ثقة صاب ثان، الأمير، الذي يقود هذه الفرقة البحرية، وبالتالي أعرف مكان ديجاه ثوريس. أنا سعيد لأنك هنا، جون كارتر، فأنا أعرف ولاءك لأميرتي، ويمكننا معًا أن ننجز الكثير».

بدأت الساحة الآن تمتلئ بالناس ذهابًا وإيابًا على الأنشطة اليومية لواجباتهم. وبدأت المحال التجارية تفتح والمقاهي تمتلئ بزبائن الصباح الباكر. قادني كانتوس كان إلى أحد أماكن الطعام الرائعة، حيث تولت الأجهزة الميكانيكية خدمتنا بالكامل. لم تلمس أي يد الطعام من لحظة دخوله إلى المبنى في حالته النيئة إلى أن ظهر ساخنًا

(3) دارسين: هو الاسم الذي يطلقه البرسوميين على الزواحف القادرة على تغيير لون بشرتها لتتسق والبيئة المحيطة بها – المترجمة.

ولذيذًا على الموائد أمام الضيوف، استجابة للمس أزرار صغيرة يشيرون خلالها إلى رغباتهم.

بعد أن انتهينا من وجبتنا، أخذني كانتوس كان معه إلى مقر أسطول الاستطلاع الجوي وقدمني إلى رئيسه وطلب منه إلحاقي عضوًا بالفيلق. وفقًا للعُرف، يُعد الفحص ضروريًّا. لكن كانتوس كان قال لي ألا أخشى النتيجة حيث سيهتم بهذا الجزء من الموضوع. وقد أنجز الأمر بأن أخذ طلبي للفحص إلى المسؤول وقدم نفسه باعتباره جون كارتر.

قال بمرح: «سيتم اكتشاف هذه الخدعة لاحقًا، عندما يفحصون أوزاني وقياساتي، وبياناتي الشخصية الأخرى؛ لكن ذلك لن يحدث قبل عدة أشهر، ويجب أن نكون قد أنجزنا أو أخفقنا في مهمتنا قبل ذلك بكثير».

أنفق كانتوس كان الأيام القليلة التالية في تعليمي تعقيدات الطيران والحيل الصغيرة الظريفة التي يستخدمها المريخيون لتدارك أي مشكلات. يصل طول جسم المركبة الجوية التي تتسع لرجل واحد حوالي 16 قدمًا، ويبلغ اتساعها قدمين، وسُمكها ثلاث بوصات، ومستدقة إلى نقطة في نهاية كل طرف. يجلس السائق على رأس هذه الطائرة فوق مقعد مُشيد على محرك صغير يدفعها، مصنوع من الراديوم ولا يصدر ضوضاء. أداة الطفو محتواة داخل جدران معدنية رقيقة من جسمها، وتتكون من الشعاع البارسومي الثامن، أو شعاع الدفع، كما يمكن تسميته نظرًا لخواصه.

هذا الشعاع، مثله مثل الشعاع التاسع، غير معروف على كوكب الأرض، لكن المريخيين اكتشفوا أنه خاصية ملازمة لكل الضوء بغض النظر عن مصدر انبعاثه. وقد تعلموا أن هذا الشعاع الشمسي الثامن هو الذي يدفع ضوء الشمس إلى الكواكب المختلفة، وأن الشعاع الثامن بمفرده لدى كل كوكب هو الذي «يعكس»، أو يدفع الضوء وبالتالي يخرج إلى الفضاء مرة أخرى. يمتص سطح برسوم الشعاع الشمسي الثامن، لكن الشعاع البرسومي الثامن - الذي يميل إلى دفع الضوء من المريخ إلى الفضاء – يتدفق باستمرار من الكوكب مشكلاً قوة تنافر الجاذبية، التي عند حبسها تكون قادرة على رفع أثقال هائلة من على سطح الأرض.

إنه الشعاع الذي أتاح لهم الطيران على نحو مثالي، بحيث أن السفن الفضائية الحربية التي تفوق وزنًا أي شيء معروف على كوكب الأرض تبحر برشاقة وخفة عبر هواء برسوم الرقيق كبالون يطير في جو كوكب الأرض الثقيل.

خلال السنوات الأولى لاكتشاف هذا الشعاع، وقعت العديد من الحوادث الغريبة قبل أن يتعلم المريخيون قياس القوة الرائعة التي اكتشفوها والسيطرة عليها. ففي إحدى الحالات، منذ حوالي 900 سنة، كانت أول سفينة فضائية حربية كبيرة سيتم بناؤها من احتياطيات الشعاع الثامن مُزودة بكمية هائلة من الأشعة وأبحرت في الجو من هيليوم وبها خمسمائة ضابط ورجل، ولم تعد أبدًا.

كانت قوة تنافرها مع الكوكب كبيرة جدًّا إلى حد أنها حملتها إلى الفضاء، حيث يمكن رؤيتها اليوم، بمساعدة تلسكوبات قوية، تندفع عبر السماء على بعد عشرة آلاف ميل من المريخ؛ وبالتالي أصبحت بمثابة

تابع صغير يحيط ببرسوم إلى نهاية الزمن.

قمت برحلتي الأولى في اليوم الرابع بعد وصولي إلى زودانجا، ونتيجة لذلك فزت بترقية ضمت مكانًا للسكن في قصر ثان كوسيس.

قمت بالدوران عدة مرات خلال تحليقي فوق المدينة، حيث رأيت كانتوس كان يفعل ذلك، ثم أدرت محرك سفينتي إلى أقصى سرعة متحركًا بسرعة هائلة نحو الجنوب، متتبعًا أحد المجاري المائية الكبرى التي تدخل زودانجا من هذا الاتجاه.

قطعت ربما مائتي ميل في أقل قليلاً من ساعة، وعندها رأيت في أسفل عن بعد مجموعة من ثلاثة محاربين خُضر يتسابقون بجنون نحو شخص صغير يسير على الأقدام ويبدو أنه يحاول الوصول إلى حدود أحد الحقول المسورة.

هبط بآلتي بسرعة تجاههم، ودرت حول الجزء الخلفي للمحاربين، وسرعان ما رأيت أن الشيء الذي يطاردونه هو مريخي أحمر يرتدي معدن سرب الاستطلاع الذي التحقت به. وعلى بعد قصير تقع طائرته الصغيرة، محاطة بالأدوات التي يبدو أنه كان يستخدمها لإصلاح عطل بها عندما فأجأه المحاربون الخُضر.

إنهم الآن عنده تقريبًا؛ تركض الحيوانات التي يركبونها بسرعة مهولة نحو هذا الشخص الضئيل نسبيًّا، بينما ينحني المحاربون إلى اليمين برماحهم المعدنية الكبيرة. يبدو كل منهم ساعيًا إلى أن يكون أول من يطعن الزودانجي البائس، وفي آخر لحظة كان يمكن أن يجهزوا عليه لولا وصولي في الوقت المناسب.

قدت طائرتي الجوية بسرعة عالية خلف المحاربين مباشرة، وسرعان ما تفوقت عليهم، ودون إنقاص سرعتي صدمت مقدمة طائرتي الصغيرة بين أكتاف أقربهم. الاصطدام الذي كان يكفي لتحطيم عدة بوصات من الفولاذ الصلب، أسفر عن قذف

جثته مقطوعة الرأس في الهواء فوق رأس حيوانه الثوات، حيث سقطت مبعثرة على الطحلب. استدار الحيوانان الآخران وهما يصيحان من الرعب، وانسحبا في اتجاهين معاكسين.

قللت سرعتي محلقًا وهبطت إلى الأرض أمام أقدام الزودانجي المندهش. كان حميمًا في شكره لمساعدتي التي جاءت في الوقت المناسب، ووعدني بمكافأة مستحقة عن العمل الذي قمت به اليوم، فقد كان ابن عم جيداك زودانجا هو من أنقذت حياته.

لم نضع وقتًا في الحديث لأننا كنا نعرف أن المحاربين سيعودان بالتأكيد بمجرد استعادتهم السيطرة على حيواناتهم. أسرعنا إلى آلته التالفة، وبذلنا كل جهد للانتهاء من الإصلاحات المطلوبة، وكنا على وشك الانتهاء عندما شاهدنا وحشين خُضر يعودان بأقصى سرعة من جانبين معاكسين. وعندما اقتربا لمسافة مائة ياردة، أصبحت حيوانات الثوات هوجاء مرة أخرى ورفضت تمامًا المضي قدمًا تجاه المركبة الجوية التي أخافتهم.

ترجل المحاربان أخيرًا، وجذبا حيواناتهما نحونا سيرًا على الأقدام وهما يسحبان سيفيهما الطويلين.

تقدمت لمواجهة أضخمهما، وقلت للزودانجي أن يقوم بأفضل ما يمكنه مع الآخر. أجهزت على المحارب دون جهد تقريبًا، إذ اعتدت عليهم الآن من ممارساتي العديدة، ثم سارعت إلى زميلي الجديد ووجدت وضعه يائسًا في الواقع.

كان مصابًا بجروح وسقط على الأرض وقدم خصمه الضخمة على رقبته، والسيف الطويل الكبير مرفوع ليجهز عليه بطعنة أخيرة. قطعت بقفزة واحدة مسافة الخمسين قدم التي تفصل بيننا، وبزاوية ممتدة حركت سيفي كاملاً خلال جسد المحارب الأخضر. سقط سيفه على الأرض دون إحداث أضرار، ثم سقط هو هزيلاً فوق الزودانجي الممدد على الأرض.

كشفت نظرة عابرة على الزودانجي أنه مصاب بجراح مميتة، وبعد استراحة قصيرة أكد أنه أصبح مستعدًّا لمحاولة رحلة العودة. لقد كان عليه أن يقود طائرته، لأن هذه السفن الضعيفة مصممة لنقل شخص واحد فقط.

أكملنا الإصلاحات بسرعة، وارتفعنا معًا في سماء المريخ الساكنة الصافية. وعدنا بسرعة كبيرة ودون المزيد من الحوادث المؤسفة إلى زودانجا.

ومع اقترابنا إلى المدينة، اكتشفنا حشدًا قويًّا من المدنيين والجنود متجمعين على الأرض المنبسطة أمام المدينة. كانت السماء سوداء من السفن البحرية، وكانت طائرات

التنزه العامة والخاصة ترفع شرائط طويلة من الحرير الملون بألوان بهيجة، فضلاً عن لافتات وإعلام من تصميمات غريبة وخلابة.

أشار لي رفيقي أن أبطئ، وقاد آلته إلى جواري مقترحًا أن نقترب ونشاهد الحفل، الذي قال إنه بغرض منح أوسمة للضباط والرجال لشجاعتهم وغير ذلك من خدماتهم المتميزة. ثم رفع راية صغيرة تشير إلى أن طائرته تحمل فردًا من العائلة الملكية في زودانجا، وشققنا معًا طريقنا خلال متاهة السفن الجوية المنخفضة إلى أن أصبحنا نحلق مباشرة فوق جيداك زودانجا وموظفيه. كان الجميع يمتطون حيوانات الثوات القوية المحلية الصغيرة التي يستخدمها المريخيون الحُمر، وكانت أغطيتهم المزركشة وحليهم تضم كمية من الريش الملون الرائع أذهلتني بتشابهها المذهل بحشود فريق من الهنود الأحمر على كوكب الأرض.

لفت أحد الموظفين انتباه ثان كوسيس بوجود رفيقي فوقهم، فأشار له الحاكم بالهبوط. وخلال انتظار انتقال القوات إلى موقع يواجه الجيداك، تحدث الاثنين بجدية معًا، وكان الجيداك وموظفوه ينظرون نحوي أحيانًا. لم أستطع سماع حديثهما، والآن توقف الحديث وترجل الجميع، حيث وصلت آخر مجموعة من القوات إلى موقعها أمام الإمبراطور. تقدم أحد الموظفين تجاه القوات، ونادى على اسم جندي وأمره بالتقدم. سرد الضابط بعد ذلك طبيعة العمل البطولي الذي حظي بقبول الجيداك، الذي تقدم بدوره ووضع حلية معدنية على الذراع الأيسر للرجل المحظوظ.

تقلد عشرة رجال هذه الأوسمة، ثم نادى المساعد قائلاً:

«جون كارتر، الاستطلاع الجوي!»

لم أُدهش أبدًا في حياتي مثل هذه المرة، لكن عادة الانضباط العسكري قوية داخلي، فهبطُّ بآلتي الصغيرة برفق على الأرض، وتقدمت مترجلاً كما رأيت الآخرين يفعلون. وعندما توقفت أمام المسؤول، خاطبني بصوت مسموع لكافة القوات والمشاهدين.

قال: «جون كارتر، اعترافًا بشجاعتك ومهارتك الرائعة في الدفاع عن شخص ابن عم الجيداك ثان كوسيس، وتغلبك بمفردك على المحاربين الخُضر الثلاثة، من دواعي سرور جيداكنا أن يمنحك علامة تقديره».

ثم تقدم ثان كوسيس نحوي ومنحني حلية، قائلاً:

«روى لي ابن عمي تفاصيل إنجازك الرائع، الذي لا يقل كثيراً عن معجزة، وإذا كنت قادرًا على الدفاع بهذا الشكل الجيد عن ابن عم الجيداك، فيمكنك الدفاع بأفضل من ذلك عن شخص الجيداك نفسه. ولذا عينتك في منصب «بادوار» الحراس، وستقيم من الآن فصاعدًا في قصري».

شكرته، وانضممت بناء على توجيهه إلى موظفيه. بعد المراسم، أعدت آلتي إلى مقرها على سطح ثكنات سرب الاستطلاع الجوي، ومعي وصيف من القصر ليرشدني إلى رئيسي، الموظف المسؤول عن القصر.

* * *

(22)

العثور على ديجاه ثوريس

تلقى الوصيف الأكبر، الذي أصبح رئيسي، تعليمات بوضعي بالقرب من شخص الجيداك الذي يتعرض دومًا في زمن الحرب إلى خطر الاغتيال، حيث يبدو أن قاعدة «كل شيء مسموح به في الحرب» تشكل مجمل أخلاقيات الصراع المريخي.

ولذلك اصطحبني فورًا إلى الشقة التي كان يوجد فيها عندئذ ثان كوسيس. كان الحاكم منخرطًا في محادثة مع ابنه صاب ثان وعدد من حاشية بيته، ولم يدرك دخولي.

ازدانت جدران الشقة كاملاً بمفروشات رائعة تخفي أي نافذة أو باب يمكن اختراقها خلالهم. وكانت الغرفة مضاءة بأشعة ضوء الشمس الحبيسة بين السقف الفعلي وما كان يبدو سقفًا كاذبًا من الزجاج الباهت أدناه ببضع بوصات.

جذب مرشدي جانبًا من إحدى الستائر، فانكشف ممر يطوق الغرفة، يقع بين الستائر والجدران. قال إنني يجب أن أبقى داخل هذا الممر ما دام ثان كوسيس في الشقة. وعندما يغادر يجب أن أتبعه. كان واجبي الوحيد هو حراسة الحاكم والبقاء بعيدًا عن الأنظار قدر الإمكان. وأبلغني قبل أن يغادر أن مدة مهمتي أربع ساعات.

كانت الستائر مصنوعة من نسيج غريب يعطي مظهر الصلابة الشديدة من أحد الجوانب، على أنني كنت قادرًا من مكان اختبائي على تمييز كل ما يحدث داخل الغرفة بسهولة كما لو أن الستار الفاصل غير موجود.

ما إن حصلت على موقعي، انفتح الستار من الطرف الآخر من الغرفة ودخل أربعة جنود من الحرس يحيطون بامرأة. وعند اقترابهم من ثان كوسيس، تحرك الجنود مبتعدين إلى الجانبين، وهناك كانت تقف ديجاه ثوريس أمام الجيداك وعلى بعد أقل من عشرة أقدام عني، وكان وجهها الجميل يشع بالابتسامات.

تقدم صاب ثان، أمير زودانجا، لمقابلتها، واقتربا يدًا بيد من الجيداك. نظر ثان كوسيس في دهشة، وقام لتحيتها.

«لمن أدين بهذه الزيارة من أميرة هيليوم التي أكدت لي قبل يومين، دون اعتبار لكرامتي، أنها تفضل تال هاجوس، الثاركي الأخضر على ابني؟»

زادت ابتسامة ديجاه ثوريس، ثم أجابت وغمازاتها الخبيثة تتحرك في زوايا فمها:

«منذ بدء الزمن على برسوم كان يحق للمرأة تغيير رأيها كما يحلو لها وأن تخفي مشاعرها في الأمور المتعلقة بقلبها. سوف تغفر لي، ثان كوسيس، كما فعل ابنك. قبل يومين لم أكن متأكدة من حبه لي، لكنني تأكدت الآن، وقد جئت ألتمس منك أن تنسى كلماتي المتهورة وتقبل تأكيد أميرة هيليوم أنها عندما يحين الوقت سوف تتزوج صاب ثان، أمير زودانجا».

أجاب ثان كوسيس: «أنا سعيد بقرارك هذا. فلا أرغب على الإطلاق في شن حرب أخرى ضد شعب هيليوم، وسوف يُسجَّل وعدك ويصدر إعلانًا لشعبي على الفور».

قاطعته ديجاه ثوريس قائلة: «من الأفضل، ثان كوسيس، أن ينتظر الإعلان إلى حين إنهاء هذه الحرب. فسوف يبدو غريبًا في الواقع لشعبي وشعبك أن أميرة هيليوم تمنح نفسها لعدو بلدها في خضم القتال».

تحدث صاب ثان قائلاً: «ألا يمكن إنهاء الحرب على الفور؟ لا يتطلب الأمر سوى كلمة من ثان كوسيس لإحلال السلام. قلها يا والدي، قل الكلمة التي سوف تُعجل من سعادتي، وتضع نهاية لهذا الصراع الذي لا يحظى بشعبية».

أجاب ثان كوسيس: «سوف نرى كيف يريد شعب هيليوم السلام. يجب على الأقل أن أعرضه عليهم».

استدارت ديجاه ثوريس بعد بضع كلمات، ثم غادرت الشقة وخلفها الحراس.

وهكذا تحطم حلم سعادتي القصير على أرض الواقع. فالمرأة التي منحتها حياتي، والتي سمعت من شفتيها مؤخرًا إعلان حبها لي، قد نسيت وجودي ببساطة ومنحت نفسها مبتسمة إلى ابن أبغض عدو لشعبها.

على الرغم من أنني سمعتها بأذناي، فلم أصدق ذلك. يجب أن أعثر

على شقتها وأجبرها على تكرار الحقيقة القاسية أمامي بمفردي قبل أن أقتنع. وبالتالي تركت موقعي وأسرعت خلال الممر خلف الستائر في اتجاه الباب الذي غادرت منه الغرفة. تسللت بهدوء من خلال هذه الفتحة، واكتشفت متاهة من الأروقة المتعرجة، التي تتفرع إلى كل اتجاه.

هرولت سريعًا في أولها ثم غيره، وسرعان ما وجدتني تائهًا بلا أمل. وقفت لاهثًا مستندًا إلى جدار عندما سمعت أصواتًا بالقرب مني. يبدو أنها كانت قادمة من الجانب الآخر للقسم الذي أستند إلى جداره، وتمكنت من تمييز نبرات صوت ديجاه ثوريس. لم أستطع سماع الكلمات ولكنني كنت أعرف أنني لا يمكن أن أخطئ في الصوت.

بتحركي خطوات قليلة، اكتشفت دهليزاً آخر يوجد باب في نهايته. مشيت بجرأة إلى الأمام، واندفعت إلى الغرفة لأجد نفسي في غرفة انتظار صغيرة تضم الحراس الأربعة الذين كانوا يرافقونها. نهض أحدهم على الفور وبادرني بالسؤال عن طبيعة عملي.

أجبته: «أنا من طرف ثان كوسيس، وأرغب في التحدث على انفراد مع ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم».

فسألني: «أين الأمر الخاص بك؟».

لم أكن أعرف ما يقصده، لكنني أجبته بأنني عضو بالحرس؛ ودون انتظار رده، خطوت بخطوات كبيرة نحو باب غرفة الانتظار المقابل، الذي استمعت خلفه إلى ديجاه ثوريس تتحدث.

لكن دخولي لم يتحقق بسهولة. فقد خطا الحارس أمامي قائلاً:

«لا أحد يأتي من طرف ثان كوسيس دون أن يحمل أمرًا أو كلمة مرور. يجب أن تعطيني واحدًا منهما قبل أن تمر».

أجبته وأنا أنقر على سيفي الطويل: «الأمر الوحيد الذي أحتاجه يا صديقي للدخول إلى المكان الذي أريده مُعلق جانبي؛ هل ستتركني أمر في سلام أم لا؟»

كان رده أن أخرج سيفه، ودعا الآخرين للانضمام إليه، وهكذا وقف الأربعة بأسلحتهم لمنعي من التقدم مزيدًا.

«أنت لست هنا بأمر من ثان كوسيس»، صاح الحارس الذي خاطبني في البداية، «ولن يقتصر الأمر على عدم دخولك غرف أميرة هيليوم، بل ستعود إلى ثان كوسيس تحت الحراسة لتشرح هذا التهور غير المُبرَّر». ثم أضاف بابتسامة قاتمة: «ألق سيفك؛ فلا يمكنك أن تأمل في التغلب على أربعة منا».

كان ردي مبارزة سريعة أجهزت على خصومي الثلاثة، ويمكنني أن أؤكد أنهم كانوا يستحقون معادني. ففي لمح البصر جعلوني أتراجع إلى الجدار، مقاتلاً من أجل حياتي. نجحت في شق طريقي ببطء إلى أحد أركان الغرفة حيث يمكنني إجبارهم على التقدم نحوي وإنما فقط واحدًا تلو الآخر، وهكذا تقاتلنا لأكثر من عشرين دقيقة؛ وأحدث رنين تصادم السيوف هرجًا ومرجًا حقيقيًّا في الغرفة الصغيرة.

أدت الضوضاء إلى حضور ديجاه ثوريس إلى باب شقتها، حيث وقفت طوال فترة القتال وسولا خلفها تطل من فوق كتفها. كان وجهها ثابتًا وبلا مشاعر، فأدركت أنها لم تتعرف هي وسولا علي.

وأخيراً سقط الحارس الثاني بجرح جاء في حينه. وفي مواجهة خصمين فقط، غيرت تكتيكاتي واندفعت نحوهما وأسقطتهما بالاستعانة بإحدى طرقي القتالية التي حققت لي العديد من الانتصارات. سقط الثالث خلال عشر ثوان من سقوط الثاني، وبعد عدة لحظات سقط الأخير ميتًا فوق الأرض التي تملأها الدماء. كانوا رجالاً شجعانًا ومقاتلين نبلاء، وأحزنني أنني كنت مضطرًّا إلى قتلهم، لكنني كنت مستعدًّا عن طيب خاطر لإخلاء برسوم كلها من سكانها إن لم تكن هناك طريقة أخرى أصل بها إلى ديجاه ثوريس.

أغمدت سيفي الدموي، وتقدمت نحو أميرتي المريخية، التي كانت لا تزال واقفة صامتة تحدق في وجهي دون أي علامة على التعرف علي.

همست: «من أنت أيها الزودانجي؟ عدو آخر جاء لمضايقتي في بؤسي؟»

أجبتها: «أخشى أنني كنت في يوم ما صديقًا عزيزاً».

فأجابت: «لا صديق لأميرة هيليوم يرتدي هذا المعدن، لكن الصوت! لقد سمعته من قبل؛ ليس … لا يمكن … كلا، لأنه مات».

قلت: «نعم، أميرتي، لست سوى جون كارتر، ألا تتعرفين، خلال الطلاء والمعادن الغريبة، على قلب زعيمك؟»

اقتربت منها، تمايلت نحوي ويداها ممدودتان، لكنها تراجعت مرتجفة عندما حاولت ضمها بين ذراعي، وتنهدت في بؤس.

قالت بحزن: «بعد فوات الأوان، بعد فوات الأوان. أوه يا زعيمي، يا من تصورت أنه مات، ليتك عدت قبل ساعة واحدة … أما الآن، فقد فات الأوان، فات الأوان».

قلت صائحًا: «ماذا تقصدين، ديجاه ثوريس. أنك كنت لتحجمي عن وعدك للأمير الزودانجي إذا عرفت أنني لم أمت؟»

«هل تعتقد، جون كارتر، أن أمنحك قلبي بالأمس وأمنحه اليوم إلى شخص آخر؟ اعتقدت أن قلبي قد دُفن مع رمادك في أحد أقبية وارهون، ولذا وعدت شخصًا آخر اليوم بجسدي لأنقذ شعبي من لعنة انتصار الجيش الزودانجي».

«لكنني لست ميتًا، أميرتي. لقد جئت للمطالبة بك، ولن يتمكن جميع الزودانجيين من منعي».

«لقد فات الأوان، جون كارتر، فقد أعطيت وعدًا، وفي برسوم يُعتبر هذا نهائيًّا. والمراسم الاحتفالية التي تلي لاحقًا ليست سوى شكليات بلا معنى. فهي لا تجعل الزواج حقيقة بأكثر مما يفعله موكب جنازة جيداك من مجرد وضع ختم الموت. وسوف أكون في حالة جيدة وأنا متزوجة، جون كارتر. لم يعد يجوز أن تدعوني أميرتك. لم تعد زعيمي».

«أنا لا أعرف سوى القليل عن عاداتكم هنا في برسوم، ديجاه ثوريس، لكنني أعرف أنني أحبك، وإذا كنت تعنين كلماتك الأخيرة لي عندما هاجمتنا جحافل وارهون، فلا يجوز أن يطالب بك رجل آخر كعروس. كنت تعنين كلماتك أميرتي، ولا تزالين! قولي إن هذا صحيح».

قالت همسًا: «كنت أعني ما قلت، جون كارتر. لكنني لا أستطيع تكراره الآن لأنني وهبت نفسي إلى آخر. آه، لو كنت تعرف فقط أساليبنا يا صديقي»، واصلت كلامها كأنما تحدث نفسها، «كان من المفترض أن يكون الوعد لك منذ أشهر طوال، وحينها كان يمكنك المطالبة بي قبل جميع الآخرين. ربما كان ذلك سيؤدي إلى سقوط هيليوم، لكنني كنت لأمنح إمبراطوريتي لزعيمي الثاركي».

ثم قالت بصوت عال: «هل تذكر ليلة إهانتك لي؟ لقد ناديتني أميرتك دون أن تطلب يدي، ثم تفاخرت أنك قاتلت من أجلي. لم تكن تعرف عاداتنا، وما كان ينبغي أن أشعر بالإهانة؛ أعرف ذلك الآن. ولكن لم يكن هناك أحد يقول لك ما لم أستطع قوله. يوجد في برسوم نوعين من النساء في مدن الرجال الحُمر. نوع يقاتلون من أجله ويطلبون الزواج منهن؛ ونوع آخر يقاتلون من أجله أيضًا، لكنهم لا يطلبون منهن أبدًا الزواج. وعندما يفوز رجل بامرأة، يمكنه مخاطبتها بكلمة أميرتي، أو بالعديد من الكلمات التي تدل على الامتلاك. أنت قاتلت من أجلي، لكنك لم تطلب مني الزواج، ولذا عندما ناديتني أميرتك ...»، قالت متلعثمة، «... جرحتني، ولكن حتى حينذاك، جون كارتر، لم أصدك كما ينبغي أن أفعل، إلى أن ضاعفت الأمر سوءًا بسبب تهكمك بأنك فزت بي من خلال القتال».

صحت قائلاً: «لست بحاجة لأن أطلب مغفرتك الآن، ديجاه ثوريس. يجب أن تعرفي أن خطئي كان لجهلي بعادات برسوم. إن ما أخفقت في القيام به، من خلال اعتقادي الضمني أن طلبي قد يكون وقحًا وغير مرحب به، أقوم به الآن، ديجاه ثوريس؛

أطلب منك أن تكوني زوجتي، وأقسم بكل دم القتال الفيرجيني الذي يتدفق في عروقي أنك ستكونين زوجتي».

بكت في يأس: «كلا، جون كارتر، هذا لا طائل منه، لن أكون زوجتك أبدًا ما دام صاب ثان حيًّا».

«إذن هذا أمر منك بموته، أميرتي – صاب ثان يموت».

سارعت شارحة: «ولا هذا أيضًا. فلا يجوز أن أتزوج الرجل الذي يذبح زوجي، حتى دفاعًا عن النفس. هذا هو العُرف. نحن تحكمنا الأعراف في برسوم. هذا غير مُجد يا صديقي. يجب أن تتحمل الحزن معي. هذا ما يمكننا أن نتقاسمه على الأقل. هذا، وأيضًا ذكرى أيام قصيرة لدى الثاركيين. يجب أن تذهب الآن، ولا تراني أبدًا مرة أخرى. وداعًا يا من كنت زعيمي».

انسحبت من الغرفة محبطًا وحزينًا، لكني لم أكن محبطًا تمامًا، كما لن أعترف أنني خسرت ديجاه ثوريس إلا بعد إقامة الحفل بالفعل.

تجولت خلال الدهاليز، وفقدت طريقي تمامًا في متاهات من الممرات المتعرجة كما حدث قبل أن أكتشف شقق ديجاه ثوريس.

كنت أعرف أن أملي الوحيد يكمن في الهروب من مدينة زودانجا، فمسألة قتل الحراس الأربعة يجب تفسيرها، ونظرًا لعدم إمكانية وصولي أبدًا إلى موقعي الأصلي دون مرشد، فإن الشك سيقع على عاتقي بالتأكيد بمجرد اكتشافي وأنا أسير بلا هدف خلال القصر.

وصلت الآن إلى طريق حلزوني يقود إلى طابق سفلي، فواصلت الهبوط لعدة طوابق حتى وصلت إلى مدخل شقة كبيرة بها عدد من أفراد الحرس. كان معلق على جدران هذه الغرفة ستائر شفافة، أخفيت نفسي خلفها دون أن يراني أحد.

كانت المحادثة بين أفراد الحرس عامة، ولم تثر لدي أي اهتمام إلى أن دخل ضابط إلى الغرفة وأمر أربعة رجال بحراسة أميرة هيليوم حيث الآن وقت راحة حراسها. عرفت الآن أن متاعبي ستبدأ بجدية وسرعان ما سيجدونني؛ فما إن غادرت الفرقة غرفة الحرس، اندفع أحد أفرادها عائدًا مرة أخرى لاهثًا وهو يصيح أنهم عثروا على رفاقهم الأربعة مذبوحين في غرفة الانتظار.

في لحظة كان القصر بأكمله يمتلئ بالناس. الحراس، والضباط، والحاشية، والخدم، والعبيد، يركضون في اضطراب عبر الدهاليز والشقق وهم يحملون رسائل وأوامر، ويبحثون عن علامات للقاتل.

كانت هذه فرصتي، واغتنمتها رغم ضآلتها، فما إن مر عدد من الجنود مسرعين بجوار مكان اختبائي، خرجت وراءهم واتبعتهم خلال متاهات القصر حتى رأيت - عند مروري خلال قاعة كبيرة - ضوء النهارك المبارك قادمًا من خلال سلسلة من النوافذ الأكبر.

هنا تركت مرشديني، وانزلقت إلى أقرب نافذة بحثًا عن وسيلة للهروب. كانت النوافذ تفتح على شرفة عظيمة تطل على أحد الطرق الواسعة في زودانجا. تقع الأرض على مسافة ثلاثين قدم تقريبًا أسفل الشرفة، ويوجد على مسافة مماثلة من المبنى جدار يبلغ ارتفاعه عشرين قدمًا، ومصنوع من الزجاج المصقول يبلغ سُمكه حوالي قدم. يبدو الهروب خلال هذا المسار مستحيلاً بالنسبة لأي مريخي أحمر، أما بالنسبة لي، وفي ظل قوتي وخفة حركتي، بدا اختيار هذا المسار يسيراً. كان خوفي الوحيد يكمن في اكتشافي قبل هبوط الظلام، إذ لا يمكنني القيام بقفزتي في وضح النهار، لأن الساحة أدناه والطريق وراءها كانا مزدحمين بالزودانجيين.

وبناء على ذلك بحثت عن مكان اختباء، وأخيراً وجدته، مصادفة، داخل زينات ضخمة مُعلقة تتدلى من سقف القاعة وترتفع عن الأرض بحوالي عشرة أقدام. قفزت بسهولة داخل إناء مجوف مثل صحن رحيب، وما إن أصبحت مستقرًّا داخله، سمعت عددًا من الناس يدخلون الشقة. توقفت المجموعة أسفل مكان اختبائي، وتمكنتُ من سماع كل كلمة بوضوح شديد.

قال أحدهم: «هذا من عمل الهيليوميين».

«نعم، أوه جيداك، ولكن كيف نفذوا إلى القصر؟ أعتقد أنه حتى مع العناية الدؤوبة لأفراد حرسك، قد يتمكن عدو منفرد أن يصل إلى الغرف الداخلية، لكنني لا أتصور كيف يمكن لقوة من ستة أو ثمانية مقاتلين الدخول دون أن يلاحظهم أحد. سنعرف قريبًا، أما الآن فقد جاء الطبيب النفسي الملكي».

انضم الآن رجل آخر إلى المجموعة، وبعد أن قدم تحيته الرسمية إلى حاكمه قال:

«أوه جيداك العظيم، إنها قصة غريبة قرأتها في عقول القتلى من حراسك المخلصين. لم يهزمهم عدد من المقاتلين، بل كان خصمًا واحدًا».

صمت ليرى وقع تأثير تصريحه على السامعين، وتجلى عدم تصديق عبارته في استفهام متشكك نافذ الصدر من شفاه ثان كوسيس.

صاح: «ما هذه الحكاية الغريبة التي تسردها، نوتان؟»

أجاب الطبيب النفسي: «إنها الحقيقة، جيداك. كانت الانطباعات ملحوظة في الواقع بشدة في مخ كل حارس من الحراس الأربعة. كان خصمهم رجلاً طويل القامة جدًّا، يرتدي معدن أحد أفراد حراسك، وقدرته القتالية لا تقل عن رائعة، لأنه قاتل معركة عادلة ضد الأربعة كلهم وهزمهم بمهارته الفائقة وقوته الخارقة وقدرته على التحمل. وعلى الرغم من أنه يرتدى معدن زودانجا، جيداك، فإن هذا الرجل ليس له مثيل في هذا البلد أو أي بلد آخر في برسوم».

«أما عقل أميرة هيليوم، الذي اختبرته واستجوبته، فقد كان صفحة فارغة بالنسبة لي، لديها قدرة مثالية على التحكم في عقلها ولم أتمكن من قراءة ذرة واحدة منه. لقد قالت إنها شهدت جزءًا من اللقاء، وأنها عندما نظرت لم يكن هناك سوى رجل واحد مشتبك مع الحراس؛ رجل لم تتعرف عليه لأنها لم تشاهده من قبل».

«أين منقذي السابق؟»، تكلم شخص آخر من المجموعة، وهنا تعرفت على صوت ابن عم ثان كوسيس الذي أنقذته من المحاربين الخُضر. ثم واصل قائلاً: «باسم معدن جدي الأول، هذا الوصف ينطبق عليه تمامًا، لا سيما قدراته القتالية».

صاح ثان كوسيس: «أين هذا الرجل؟ أحضروه في الحال. ماذا تعرف عنه يا ابن عمي؟ يبدو غريبًا لي الآن عندما أفكر فيه، أن يوجد مثل هذا المقاتل في زودانجا بهذا الاسم ولا نعرفه قبل اليوم. وحتى اسمه أيضًا، جون كارتر، لم نسمع هذا الاسم من قبل في برسوم!».

وسرعان ما وصل بلاغ بعدم العثور عني في أي مكان، سواء في القصر أو في مسكني السابق بثكنات سرب الاستطلاع الجوي. عثروا على كانتوس كان واستجوبوه، لكنه لا يعرف شيئًا عن مكاني، أما في ما يتعلق بالفترة السابقة، فقد قال لهم إنه لا يعرف سوى القليل، لأنه لم يقابلني سوى مؤخرًا خلال حبسنا في وارهون.

قال ثان كوسيس آمرًا: «افتحوا عيونكم على هذا الآخر، فهو أيضًا شخص غريب ويرجح أن كلاهما ينحدر من هيليوم، وحيثما يوجد أحدهما، سوف نجد الآخر عاجلاً أم آجلاً. ضاعفوا الدوريات الجوية لأربعة أضعاف، مع إخضاع كل رجل يترك المدينة بطريق الجو أو البر لأدق فحص».

دخل رسول آخر الآن يقول إنني لا أزال داخل جدران القصر.

واختتم كلامه قائلاً: «فحصنا بعناية أوجه الشبه مع كل شخص دخل أو غادر القصر اليوم، ولم نجد من يقترب مظهره بهذا البادوار الجديد بين الحراس، غير ما تم تسجيله عنه وقت دخوله».

علق ثان كوسيس باقتناع: «إذن سنمسك به قريبًا، وفي الوقت نفسه سوف نحمي شقق أميرة هيليوم ونسألها في ما يتعلق بهذا الموضوع. ربما تعرف أكثر مما تهتم أن تبوح لك به، نوتان. تعال».

غادروا القاعة، وعندما هبط الظلام، تسللت بخفة من مكان اختبائي وأسرعت إلى الشرفة. لم يكن على مرمى البصر سوى نفر قليل، اخترت لحظة خلو الموقع القريب وانطلقت بسرعة إلى الجزء العلوي من الجدار الزجاجي، ومن هناك إلى الشارع خارج القصر.

* * *

(23)

تائه في السماء

سارعت دون بذل جهد في التمويه إلى المناطق المحيطة لمسكننا، حيث شعرت أنني سأجد بالتأكيد كانتوس كان. عندما اقتربت من المبنى أصبحت أكثر حذرًا؛ فقد تصورت، وكنت على حق، أن الحراس يراقبون المكان. لمحت العديد من الرجال الذين يرتدون معدن مدني يتحركون متسكعين قرب المدخل الأمامي، وآخرين عند الجزء الخلفي. وكانت الوسيلة الوحيدة لوصولي إلى الطابق العلوي حيث تقع الشقق، دون أن يراني أحد، هي عن طريق أحد المباني المجاورة. ونجحت بعد مناورات هائلة في بلوغ سقف متجر على بعد عدة أبواب.

أخذت أقفز من سقف إلى سقف، وسرعان ما وصلت إلى نافذة مفتوحة في المبنى الذي كنت آمل أن أجد فيه الهيليومي، وفي لحظة تالية كنت أقف في الغرفة أمامه. كان بمفرده ولم يندهش من قدومي قائلاً إنه كان يتوقع حضوري قبل ذلك بكثير، حيث انتهت ورديتي منذ فترة.

أدركت أنه لا يعرف شيئًا عن الأحداث التي وقعت اليوم في القصر، وعندما أخبرته انفعل بشدة. فقد أفزعته أخبار وعد ديجاه ثوريس بالزواج من صاب ثان.

هتف قائلاً: «لا يمكن، هذا مستحيل! لا يوجد رجل في هيليوم كلها إلا ويُفضل الموت على بيع أميرتنا المحبوبة إلى البيت الحاكم في زودانجا. من المؤكد أنها فقدت عقلها لكي توافق على مثل هذه الصفقة الفظيعة. أنت لا تعرف كيف نحب أفراد بيتنا الحاكم في هيليوم، وبالتالي لا يمكنك تقدير الرعب الذي ينتابني وأنا أفكر في هذا التحالف غير المقدس».

وتابع: «ماذا يمكن أن نفعل، جون كارتر؟ أنت رجل واسع الحيلة. ألا يمكنك التفكير في طريقة لإنقاذ هيليوم من هذا العار؟»

أجبت: «إذا أمكنني مبارزة صاب ثان، يمكنني حل المعضلة بقدر ما يتعلق الأمر بهيليوم، ولكني لأسباب شخصية أُفضل أن يسدد شخص آخر الضربة التي تحرر ديجاه ثوريس».

حدق كانتوس كان في وجهي قبل أن يتحدث.

قال: «أنت تحبها! وهل تعرف هي ذلك؟».

«تعرف ذلك، كانتوس كان، وصدتني فقط لأنها وعدت صاب ثان».

وقف الزميل الرائع على قدميه، وأمسكني من كتفي، وأشهر سيفه عاليًا، وقال صائحًا:

«إذا كان الخيار لي، لم أكن لأختار زوجًا أكثر ملاءمة منك لأميرة برسوم الأولى. ها هي يدي على كتفك، جون كارتر، وكلمتي أن صاب ثان سوف ينتهي بحد سيفي من أجل حبي لهيليوم، ولديجاه ثوريس، ولك. سأحاول هذه الليلة نفسها الوصول إلى مقره في القصر».

سألته: «كيف؟ أنت تحت حراسة قوية، وهناك قوة رباعية تقوم بدوريات في السماء».

أحنى رأسه مفكرًا للحظة، ثم رفعه بثقة.

قال أخيرًا: «أنا بحاجة فقط إلى اجتياز هؤلاء الحراس، ويمكنني القيام بذلك. أنا أعرف مدخلاً سريًّا إلى القصر من خلال قمة أعلى برج. لقد سقطتُ فوقه مصادفة في أحد الأيام خلال إحدى دورياتي فوق القصر. يتطلب هذا العمل أن نتدارس وقوع أي حدث غير عادي، فوجود وجه ينعم النظر من قمة البرج العالي بالقصر كان بالنسبة لي هو الأكثر غرابة. ولذلك اقتربت واكتشفت أن صاحب الوجه المحدق ليس سوى صاب ثان. لقد انزعج قليلاً لانكشافه، وأمرني بإبقاء هذه المسألة لنفسي، موضحًا أن طريق المرور من البرج يؤدي مباشرة إلى شققه، وهو الوحيد الذي يعرف هذا الطريق. فإذا أمكنني الوصول إلى سطح الثكنات والحصول على آلتي، يمكنني أن أصل إلى مقر صاب ثان في خمس دقائق؛ ولكن كيف يمكنني الهروب من هذا المبنى الذي تقول إن عليه حراسة؟»

سألته: «ما مدى جودة حراسة حظائر الآلات في الثكنات؟»

«هناك عادة رجل واحد في الخدمة ليلاً على السطح».

«اذهب إلى سطح هذا المبنى، كانتوس كان، وانتظرني هناك».

دون التوقف لشرح خططي، عدت من نفس الطريق إلى الشارع، وسارعت إلى الثكنات. لم أجرؤ على الدخول إلى المبنى، حيث امتلأ بأفراد سرب الاستطلاع الجوي، الذين كانوا، مثلهم مثل زودانجا كلها، يبحثون عني.

كان المبنى ضخمًا، يرتفع رأسه الشامخ عاليًّا لمسافة ألف قدم في الهواء. هناك القليل من المباني في زودانجا أعلى من هذه الثكنات، على الرغم من أن ارتفاع العديد منها لم يزد سوى بمئات الأمتار. أما أرصفة السفن الحربية الفضائية الكبيرة المصطفة فقد وصل ارتفاعها حوالي 1500 قدم من الأرض، بينما كانت محطات الشحن والركاب من أساطيل التجارة على نفس الارتفاع تقريبًا.

كان التسلق طويلاً إلى أعلى واجهة المبنى ومحفوفًا بكثير من المخاطر، ولكن ما من طريقة أخرى، وبالتالي حاولت إنجاز المهمة. ساهمت كثرة زخارف العمارة البرسومية في تيسير تسلقي أكثر مما توقعت؛ إذ شكلت الحواف والبروزات الزخرفية إلى حد ما سُلمًا مثاليًّا طوال الطريق إلى إفريز المبنى. وهنا قابلت أول عقبة حقيقية. كان الإفريز بارزًا ما يقرب من عشرين قدم عن الجدار الذي تشبثت به، وعلى الرغم من أنني طوقت المبنى الضخم، لم أستطع أن أجد فتحه خلاله.

كان الطابق العلوي مزدحمًا بجنود يمارسون أنواع التسلية التي يحبونها؛ ولذا لم أتمكن من الوصول إلى السطح من خلال المبنى.

بقيت أمامي فرصة واحدة ضئيلة يائسة، وقررت اقتناصها - من أجل ديجاه ثوريس، فأي رجل كان ليخاطر بالموت ألف مرة لامرأة مثلها.

تشبثت بالجدار بقدماي ويد واحدة، وفككت إحدى الشرائط الجلدية الطويلة لأغطيتي التي يتدلى من نهايتها خُطاف كبير يستخدمه البحارة الفضائيين للتعلق بجوانب وقيعان طائراتهم لأغراض الإصلاح المختلفة، وبواسطته يجري إنزال الفرق هبوطًا من السفن الحربية الفضائية إلى الأرض.

قمت بأرجحة هذا الخُطاف بحذر نحو السطح عدة مرات إلى أن وجد مستقره أخيرًا، وشددت عليه بلطف لتعزيز قبضته؛ على أنني لم أعرف ما إذا كان سيتحمل وزن جسمي. ربما سيتحمله بالكاد إلى الحافة الخارجية للسطح، ولذا إذا تأرجح جسدي في نهاية الشريط، فإنه سينزلق ويقذفني إلى الرصيف الذي يقع ألف قدم أدناه.

ترددت للحظة، ثم أزلت قبضتي من على الزخارف الداعمة، وتأرجحت في الفضاء حتى نهاية الشريط. تقع الشوارع المضاءة ببراعة والأرصفة الصلبة، والموت، على بعد كبير تحتي. اهتزت قليلاً قمة الإفريز الداعم، فانزلقت بشكل ملتوٍ، مُصدِرًا صوتًا مزعجًا جعل البرودة تسري داخلي خوفًا؛ ثم اشتبك الخطاف وأصبحت آمنًا.

تسلقت إلى أعلى بسرعة وأمسكت بحافة الإفريز وسحبت نفسي إلى سطح السقف. وعندما وقفت، وجدتني أوجه خفير الوردية، كما وجدتني أنظر إلى فوهة مسدسه.

صاح: «من أنت ومن أين جئت؟»

أجبته: «أنا من سرب الاستطلاع الجوي، صديق، ومن فترة قصيرة كنت على وشك الموت، إذ تمكنت بمحض الصدفة من الفرار وسقطت في الشارع أدناه».

«ولكن كيف وصلت إلى السطح يا رجل؟ لم يهبط أو يصعد أحد خلال الساعة الماضية إلى المبنى. وضح موقفك بسرعة، وإلا أنادي على الحرس».

«اسمع أيها الحارس الخفير، سوف ترى كيف جئت وكيف نجوت بأعجوبة»، أجبته وأنا أستدير نحو حافة السطح، حيث توجد على بعد عشرين قدم أدناه جميع أسلحتي معلقة في نهاية حزامي.

وبدافع الفضول، خطا الزميل إلى جانبي ليلقى حتفه؛ إذ عندما انحنى لإنعام النظر من فوق الإفريز، أمسكته من رقبته وذراع مسدسه وألقيت به إلى السطح. سقط السلاح من قبضته، وخنقت أصابعي محاولته للصراخ طلبًا للمساعدة. كممت فمه وقيدته، ثم علقته على حافة السطح مثلما علقت نفسي قبل لحظات قليلة. كنت أعرف أن الصباح سيأتي قبل أن يتم اكتشافه، وكنت بحاجة إلى كل ما يمكن من وقت.

ارتديت أغطيتي وأسلحتي وأسرعت إلى حظائر الطائرات، وسرعان ما أخرجت آلتي وآلة كانتوس كان. وبعد أن أحكمت وضع آلته خلف آلتي، قمت بتشغيل محرك آلتي. تحركت بسرعة وخفة فوق حافة السطح، وطرت إلى أسفل نحو شوارع المدينة على ارتفاع أدنى بكثير من مستوى طيران الدوريات الجوية عادة. وفي أقل من دقيقة، كنت أستقر بأمان على سطح شقتنا بجوار كانتوس كان وهو في حالة اندهاش.

لم أضع أي وقت في التفسير، ولكني انخرطت فورًا في مناقشة خططنا للمستقبل القريب. قررنا أن أحاول الوصول إلى هيليوم، بينما يدخل كانتوس كان القصر ويقتل صاب ثان. وإذا نجح، سوف يتبعني. تولى ضبط بوصلتي، وهي جهاز صغير ذكي يظل ثابتًا بحزم في أي مكان في برسوم. بعد وداعنا، ارتفعنا معًا مسرعين في اتجاه القصر الذي يقع على الطريق الذي يتعين أن اتخذه للوصول إلى هيليوم.

عندما اقتربنا من البرج المرتفع، أطلقت دورية نارها من أعلى، ملقية كشافها الضوئي الحاد بالكامل على طائرتي، وزأر صوت يأمر بالتوقف، تلاه بإطلاق النار لأنني

لم ألق بالاً بأوامره. هبط كانتوس كان بسرعة في الظلام، بينما أخذت ارتفع باطراد وسرعة هائلة عبر سماء المريخ، تطاردني العشرات من مركبات الاستطلاع الجوي، وفي وقت لاحق طراد سريع يحمل مئات الرجال وبطارية مدفع سريع الطلقات. قمت بالالتفاف والاستدارة بآلتي الصغيرة، أرتفع حينًا وأنخفض حينًا آخر، ونجحت أغلب الوقت في التملص من ضوء كشاف البحث. لكن هذه التكتيكات كانت تعيقني أيضًا، ولذا قررت المخاطرة بكل شيء والتحرك على مسار مستقيم وترك النتيجة للقدر وسرعة آلتي.

علمني كانتوس كان خدعة تعشيق التروس التي لا يعرفها سوى سلاح البحرية في هيليوم، وهي تزيد سرعة آلاتنا، بحيث أنني كنت على يقين بإمكانية الابتعاد عن المطاردين إذا أمكنني تفادي قذائفهم لبضع دقائق.

ومع سرعة طيراني، أقنعني صوت الرصاص حولي بأنني لن أتمكن من الهرب إلا بمعجزة، لكن الموت قدر، فانطلقت بكامل سرعتي عبر مسار مستقيم تجاه هيليوم. وتدريجيًّا زادت المسافة بيني وبين المطاردين خلفي، وما إن أخذت تهنئة نفسي على حسن حظي في الهروب، انطلقت من الطراد قذيفة جيدة التوجيه وانفجرت في مقدمة طائرتي الصغيرة. أدت الصدمة إلى انقلابها تقريبًا، وسقطت إلى أسفل خلال الليل المظلم.

لا أعرف إلى أي مدى ابتعدت عند سقوطي قبل أن أستعيد السيطرة على الطائرة، لكني أعتقد أنني كنت قريبًا جدًّا من الأرض عندما بدأت في الارتفاع مرة أخرى، حيث سمعت بوضوح أصوات زمجرة الحيوانات أدناي. ارتفعت مرة أخرى، وتفحصت السماء بدقة بحثًا عن المطاردين، وأخيراً وجدت أضواءهم خلفي، فأدركت أنهم كانوا يهبطون، ومن الواضح بحثًا عني.

لم أجرؤ على فتح ضوء مصباحي فوق البوصلة إلا بعد أن أصبحت أضواءهم غير مرئية؛ ثم أصابني الذعر لأن شظية من القذيفة دمرت بوصلتي تمامًا، وهي مرشدي الوحيد، فضلاً عن تدمير جهاز عداد السرعة. صحيح كان يمكنني متابعة النجوم في الاتجاه العام نحو هيليوم، ولكن دون معرفة الموقع الدقيق للمدينة أو سرعة طيراني، كانت فرصي لإيجادها ضئيلة.

تقع هيليوم على بعد ألف ميل جنوب غرب زودانجا، وفي حالة أن كانت بوصلتي سليمة كنت لأقطع الرحلة، باستثناء وقوع حوادث، بين أربع وخمس ساعات. على أنني في الصباح، كما اتضح فيما بعد، وجدتني أتحرك مسرعًا عبر مدى شاسع من قاع البحر الميت بعد حوالي ست ساعات من الطيران المتواصل بسرعة عالية. والآن بدت لي مدينة كبيرة في أسفل، لكنها لم تكن هيليوم، إذ إن هيليوم هي المدينة الوحيدة من جميع المدن

الكبرى في برسوم التي تتكون من مدينتين دائريتين مسورتين تبعدان عن بعضهما حوالي 75 ميلاً، وكان يمكن تمييزها بسهولة من الارتفاع الذي أحلق به.

واعتقادًا بأنني ابتعدت كثيراً ناحية الشمال والغرب، حولت المسار نحو الجنوب الشرقي، حيث حلقت أثناء النهار فوق عدة مدن كبيرة أخرى، دون أن تتشابه أي منها ووصف كانتوس كان لهيليوم. هناك سمة مميزة أخرى لهيليوم، علاوة على أنها تتكون من مدينتين توأم، وهي البرجين الهائلين، أحدهما من اللون القرمزي المتألق ويرتفع لحوالي ميل تقريبًا من وسط إحدى المدينتين، بينما الآخر من اللون الأصفر الساطع وبنفس الارتفاع، كعلامة على المدينة التوأم الأخرى.

* * *

(24)

تارس تاركاس يجد صديقًا

حوالي فترة الظهيرة، حلقت منخفضًا فوق مدينة ميتة كبيرة من مدن المريخ القديم. وخلال مروري عبر السهل الذي يتعداها، رأيت عدة آلاف من المحاربين الخُضر مشتبكين في معركة هائلة. وما أن رأيتهم حتى وجهوا نحوي وابلاً من الرصاص، ومع دقة التصويب الثابتة تقريبًا تحطمت سفينتي على الفور، وسقطت عشوائيًّا على الأرض.

سقطت مباشرة في وسط القتال العنيف، بين المحاربين الذين لم يروا اقترابي لانشغالهم الشديد في صراع الحياة والموت. كان الرجال يحاربون مترجلين بسيوف طويلة، بينما طلقة عرضية من قناص على أطراف النزاع كان يمكنها أن تُسقط محاربًا قد ينفصل للحظة عن الكتلة المشتبكة في الصراع.

ولأن آلتي سقطت بينهم، أدركت أن الوضع هو القتال أو الموت، مع فرص جيدة للموت على أي حال. وبالتالي ضربت الأرض بسيفي الطويل مستعدًّا للدفاع عن نفسي بقدر ما يمكنني.

سقطتُ بجوار وحش ضخم كان مشتبكًا مع ثلاثة خصوم؛ وعندما حدقت في وجهه الشرس، المليء بضوء المعركة، تعرفت فيه على تارس تاركاس الثاركي. لم يرني، إذ كنت ضئيلاً خلفه، وعندئذ فقط هاجمه خصومه الثلاثة في وقت واحد، وعرفت أنهم وارهونيين. تخلص الزميل العزيز بسرعة من أحدهم وتراجع خطوة إلى الوراء ليوجه طعنة أخرى، لكنه تعثر فوق جثة هامدة وراءه وأصبح في لحظة تحت رحمة خصومه، الذين انقضوا عليه بسرعة البرق. كان يمكن أن يلحق تارس تاركاس بوالده في وقت قصير إن لم أقفز أمامه وهو منبطح وأشتبك مع خصومه. استأثرت بأحدهم، وعندما وقف الثاركي القوي على قدميه مرة أخرى أجهز على الآخر.

نظر نحوي نظرة واحدة، وبدت ابتسامة طفيفة على شفتيه المتجهمتين، ولمس كتفي قائلاً:

«بالكاد ما تعرفت عليك، جون كارتر، ولكن لا يوجد أي بشري آخر في برسوم يمكنه أن يفعل ما فعلته لي. أعتقد أنني تعلمت أن هناك شيء اسمه الصداقة، يا صديقي».

لم يقل أكثر من ذلك، فلم تكن هناك فرصة، إذ كان الوارهونيون يقتربون منا. قاتلناهم معًا، كتفًا إلى كتف، على امتداد فترة بعد الظهيرة الطويلة الحارة، إلى أن تحول

مجرى المعركة وامتطت بقايا جحافل وارهون الشرسة حيواناتهم الثوات وفروا في الظلام الذي أخذ يخيم.

لقد شارك عشرة آلاف رجل في هذا الصراع الضاري، ويرقد على أرض المعركة ثلاثة آلاف من القتلى. لم يطلب أي من الجانبين الرحمة، كما لم يحاول أيهما أخذ أسرى من الآخر.

عند عودتنا إلى المدينة بعد المعركة، توجهنا مباشرة إلى مقر تارس تاركاس، حيث تركني بمفردي بينما ذهب ليحضر المجلس العرفي الذي يجتمع مباشرة بعد أي اشتباك.

في أثناء انتظاري عودة المحارب الأخضر، سمعت شيئًا يتحرك في شقة مجاورة، وعندما ألقيت نظرة هرع فجأة ناحيتي مخلوق ضخم وبشع، وألقاني إلى الخلف على كومة الحرير والفراء التي كنت متكئًا عليها. لقد كان وولا – المخلص المحب وولا. فقد وجد طريقه إلى ثارك، وذهب مباشرة إلى مقري السابق - كما أخبرني تارس تاركاس لاحقًا - وواصل مراقبته المثيرة للشفقة في انتظار عودتي التي بدت ميؤوسًا منها.

قال تارس تاركاس بعد عودته من مقر الجيداك: «تال هاجوس يعرف أنك هنا، جون كارتر، فقد رأتك ساركوجا وتعرفت عليك خلال عودتنا. وقد أمرني تال هاجوس أن أحضرك أمامه الليلة. عندي 10 حيوانات ثوات، جون كارتر؛ يمكنك أن تختار من بينهم، وسوف أصحبك إلى أقرب مجرى مائي يؤدي إلى هيليوم. تارس تاركاس قد يكون محاربًا أخضر قاس، لكنه يمكن أيضًا أن يكون صديقًا. هيا، يجب أن نبدأ».

سألته: «وعندما تعود، تارس تاركاس؟»

فأجاب: «مصيري مواجهة الكالوت الوحشية، ربما، أو أسوأ. إلا إذا واتتني الفرصة التي انتظرتها طويلاً لقتال تال هاجوس».

«سوف نبقى، تارس تاركاس، ونلتقي مع تال هاجوس الليلة. لن تضحي بنفسك، وربما تكون الليلة هي الفرصة التي تنتظرها».

اعترض بشدة قائلاً إن تال هاجوس يعاني أحيانًا من نوبات غضب لمجرد التفكير في الضربة التي سددتها له، ولذا إذا وضع يديه عليّ فسوف أتعرض لأفظع تعذيب .

وفي أثناء تناولنا الطعام، حكيت لتارس تاركاس القصة التي أخبرتني بها سولا في تلك الليلة عند قاع البحر خلال المسيرة إلى ثارك.

لم يقل الكثير، لكن علامات العاطفة والغضب ظهرت على عضلات وجهه الكبيرة وهو يتذكر الفظائع التي انهالت على الشيء الوحيد الذي أحبه طوال وجوده البارد والقاسي والرهيب.

لم يعارض مرة أخرى عندما اقترحت أن نذهب إلى تال هاجوس، بل اكتفى بالقول إنه يود التحدث إلى ساركوجا أولاً. رافقته، بناء على طلبه، إلى مقر ساركوجا، وكانت نظرة الكراهية السامة التي رمقتني بها تعويضًا كافيًا لأي محن مقبلة قد تسفر عنها عودتي مصادفة إلى ثارك.

قال تارس تاركاس: «ساركوجا، منذ أربعين عامًا قمتِ بدور أساسي في تعذيب وموت سيدة تُدعى جوزافا. وقد اكتشفت الآن أن المحاربَ الذي أحب تلك المرأة قد عرف دورك في الصفقة. قد لا يقتلك، ساركوجا، فهذا ليس من عاداتنا، ولكن لا يوجد شيء يمنعه من ربط أحد طرفي رباط حول عنقك وربط الطرف الآخر بحيوان ثوات وحشي، لمجرد اختبار مدى قدرتك على البقاء على قيد الحياة، والمساعدة على إدامة جنسنا. ولأنني سمعت أنه سيفعل ذلك غدًا، فقد رأيت ضرورة تحذيرك فقط، لأنني رجل عادل. نهر إيس ليس سوى حج قصير، ساركوجا. هيا بنا، جون كارتر».

اختفت ساركوجا في صباح اليوم التالي، ولم يرها أحد بعد ذلك.

سارعنا في صمت إلى قصر الجيداك، حيث سُمح لنا فورًا بالدخول إلى حضرته. في واقع الأمر، كان ينتظرني بصبر نافذ وهو يقف فوق منبره يحملق بسخط نحو المدخل.

صرخ بصوت عال: «اربطوه بهذا العمود، سنرى من الذي يجرؤ على ضرب تال هاجوس الجبار. سخنوا الحديد؛ سوف أحرق بيداي عيني رأسه حتى لا يقدر على تلويث شخصي بنظرته الخسيسة».

قلت صائحًا وأنا أستدير نحو المجلس المجتمع ومتجاهلاً تال هاجوس: «يا زعماء ثارك، لقد كنت زعيمًا بينكم، واليوم قاتلت من أجل ثارك كتفًا إلى كتف أعظم محاربيها. أنتم تدينون لي بجلسة استماع على الأقل. اليوم أنا أستحق ذلك. وأنتم تزعمون أنكم شعب عادل ...»

زأر تال هاجوس: «صمتًا، أسكِتوا هذا المخلوق واربطوه كما أمرتكم».

هتف لوركواس بتوميل: «العدالة، تال هاجوس، من أنت لتلغي عادات وتقاليد ثارك التي تمتد لعصور؟!».

رددت عشرات الأصوات: «نعم، العدالة!» وهكذا، واصلت حديثي بينما تال هاجوس يستشيط غضبًا وغليانًا:

«أنتم شعب شجاع وتحبون الشجاعة، ولكن أين كان الجيداك الجبار أثناء القتال اليوم؟ لم أره في خضم المعركة؛ لم يكن هناك. إنه يمزق النساء والأطفال الصغار المسالمين في عرينه، ولكن كم مرة رآه أحدكم مؤخرًا يقاتل مع الرجال؟ لماذا، حتى أنا، قزم بجانبه، أسقطته بضربة واحدة من قبضتي. هل هذا هو نمط الجيداك الذي يريده الثاركيون؟ يقف بجواري الآن تاركي عظيم، محارب قوي ورجل نبيل. يا قادة، ما رأيكم في تارس تاركاس جيداكًا لثارك؟»

استُقبِل هذا الاقتراح بهدير من التصفيق الحاد العميق.

«ولكن يبقى لهذا المجلس أن يأمر، وتال هاجوس يجب أن يثبت صلاحيته للحُكم. إذا كان رجلاً شجاعًا، عليه أن يدعو تارس تاركاس للقتال، لأنه لا يحبه، ولكن تال هاجوس خائف؛ تال هاجوس، جيداككم، جبان. يمكنني قتله بيداي العاريتين، وهو يعرف ذلك».

بعد أن توقفت، ساد صمت متوتر، حيث التفتت كل العيون بإحكام إلى تال هاجوس. لم يتكلم أو يتحرك، لكن وجهه الأخضر المبقع امتلأ بالغضب، وتجمد الزبد على شفتيه.

قال لوركواس بتوميل بصوته الهادئ العنيد: «تال هاجوس، لم أشهد طوال حياتي أبدًا أي جيداك للثاركيين يتعرض لمثل هذا الإذلال. لا توجد سوى إجابة واحدة على هذا الاتهام. ونحن ننتظرها». ومع ذلك، ظل تال هاجوس واقفًا كما لو كان قد تحجر.

فواصل لوركواس: «يا زعماء، هل سيثبت الجيداك تال هاجوس أنه أكثر صلاحية للحكم من تارس تاركاس؟»

ضمت المنصة 20 زعيمًا، وارتفع 20 سيفًا دليلاً على الموافقة.

ليس هناك بديل. كان الأمر نهائيًّا، وبالتالي سحب تال هاجوس سيفه الطويل وتقدم لملاقاة تارس تاركاس».

سرعان ما انتهى القتال، ووضع تاركس تاركاس قدمه فوق رقبة الوحش الميت، وأصبح جيداك ثارك.

كان أول أمر له أن يجعلني زعيمًا كامل الصلاحيات بالرتبة التي فزت بها في المعارك التي خضتها في الأسابيع القليلة الأولى عندما أخذوني أسيراً.

وعندما رأيت موقف المحاربين الإيجابي تجاه تارس تاركاس وكذلك تجاهي، اغتنمت الفرصة لتعبئتهم لنصرة قضيتي ضد زودانجا. حكيت لتارس تاركاس قصة مغامراتي، وشرحت له في بضع كلمات ما كان يدور في ذهني.

قال مخاطبًا المجلس: «لقد قدم جون كارتر اقتراحًا يلق قبولي، سأطرحه عليكم بإيجاز. ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، التي كانت أسيرتنا، يحتجزها الآن جيداك زودانجا كي تتزوج ابنه لإنقاذ بلدها من الدمار على أيدي قوات زودانجا».

«يقترح علينا جون كارتر أن ننقذها ونعود بها إلى هيليوم. يمكننا الحصول على غنائم عظيمة من زودانجا، وكثيراً ما فكرت أننا إذا أقمنا تحالفًا مع شعب هيليوم يمكننا الحصول على ضمانات كافية لمصادر رزق تتيح لنا زيادة حجم بيضنا ومعدل تواتره، وهكذا نتبوأ دون شك مكانة عُليا بين جميع الرجال الخضر في برسوم. ما قولكم؟»

إنها فرصة للقتال وفرصة للحصول على غنائم، وهكذا التقطوا الطُعم كرغبة سمك السلمون المرقط في الطيران.

تحمس الثاركيون بشدة، وقبل مرور نصف ساعة أخرى أسرع عشرون رسولاً على دوابهم عبر قيعان البحر الميت لاستدعاء مختلف الجماعات تحضيراً للحملة.

بدأنا مسيرتنا بعد ثلاثة أيام إلى زودانجا، مائة ألف محارب قوي، حيث تمكن تارس تاركاس من جذب ثلاث جماعات صغيرة على وعد بأن يمنحهم غنيمة كبيرة من زودانجا.

ركبت في بداية الطابور بجوار الثاركي العظيم، بينما هرول وولا الحبيب في أعقاب دابتي.

سافرنا مع هبوط الليل، على أن نقيم مخيمنا خلال النهار في مدن مهجورة بحيث نبقى جميعًا، حتى الحيوانات، في داخل المخيم خلال ساعات النهار. تمكن تارس تاركاس خلال المسيرة، نتيجة لقدراته الرائعة وحنكته السياسية، من تجنيد 50 ألف محارب إضافي من جماعات مختلفة. وبعد أن انطلقنا بعشرة أيام، توقفنا في منتصف الليل خارج أسوار مدينة زودانجا الكبيرة وقد أصبح عددنا 150 ألف محارب قوي.

كانت قوة هذا الحشد من الوحوش الخضراء الشرسة وكفاءته القتالية تعادل عشرة أضعاف قوة وكفاءة الرجال الحُمر. لم يحدث أبدًا في تاريخ برسوم، كما أخبرني تارس

تاركاس، أن خرجت مثل هذه القوة من المحاربين الخُضر في مسيرة إلى المعركة معًا. لقد كانت مهمته في الحفاظ حتى على مظهر الانسجام فيما بينهم مهمة ضخمة، واعتبرتها معجزة أنه وصل بهم إلى المدينة دون اندلاع معارك شرسة بينهم.

مع اقترابنا من زودانجا، كانت مشاجراتهم الشخصية تفيض بكراهيتهم الشديدة للرجال الحُمر، لا سيما تجاه الزودانجيين، الذين ظلوا لسنوات يشنون حملة إبادة شرسة ضد الرجال الخُضر، مع الاهتمام بوجه خاص بسلب حاضناتهم.

الآن، ونحن أمام زودانجا، انتقلت مهمة دخول المدينة إلى مسؤوليتي. وجهت تارس تاركاس إلى تقسيم قواته إلى كتيبتين بعيدًا عن مسامع المدينة، على أن تقف كل كتيبة أمام بوابة كبيرة. وأخذت 20 محاربًا من المُشاة واقتربت من إحدى البوابات الصغيرة التي تخترق الجدران على مسافات قصيرة. لا توجد حراسة منتظمة عند تلك البوابات، لكنها مشمولة بحراسة الخفراء، الذين يقومون بدوريات في الطرقات التي تحيط بالمدينة داخل جدرانها فقط، مثلما تحرس دوريات الشرطة طرقات مدننا الكبيرة.

يبلغ ارتفاع جدران زودانجا 75 قدمًا، ويبلغ سُمكها 50 قدمًا، وهي مبنية من كتل ضخمة من الكربورندم(4) . بدت مهمة دخول المدينة، بالنسبة لمن رافقوني من المحاربين الخُضر، مهمة مستحيلة. كان الزملاء الذين تم تخصيصهم لمرافقتي ينتمون إلى إحدى الجماعات الصغيرة، ولذلك لم يكونوا على معرفة بي.

أوقفت ثلاثة منهم بحيث تكون وجوههم نحو الحائط وأسلحتهم مؤمَّنة، وأمرت اثنين آخرين بالصعود على أكتافهم، أما السادس فأمرته بالتسلق على كتف الاثنين العلويين. ارتفع رأس أعلى محارب أكثر من أربعين قدمًا من الأرض.

بهذه الطريقة، ومع عشرة محاربين، بنيت سلسلة من ثلاث درجات ترتفع من الأرض إلى كتف أعلى رجل. ثم ابتداء من مسافة قصيرة وراءهم، جريت سرعة من مستوى إلى التالي، وبقفزة نهائية من الأكتاف العريضة لأعلاهم، أمسكت بإحكام بقمة الجدار الكبير، ثم تسللت بهدوء إلى سطحه المتسع. سحبت ورائي ستة أطوال من الجلود من عدد متساو من المحاربين برفقتي. كنا قد سبق أن ربطنا هذه الأطوال معًا، والآن قمنا تمرير نهاية إحداها إلى أعلى محارب، وقمت أنا بخفض الطرف الآخر بحذر على الجانب الآخر من الجدار في اتجاه الشارع أدناه. لم يكن هناك أحد على مرمى البصر، لذلك قمت بخفض نفسي إلى نهاية حزامي الجلدي، وألقيت الثلاثين قدمًا المتبقية على الرصيف أدناه.

(4) الكربورندم هو كربيد السيليكون، وهو مُركب من السيليكون والكربون يتميز بصلابته الشديدة – المترجمة.

كنت قد تعلمت من كانتوس كان سر فتح هذه البوابات؛ وبالتالي سرعان ما وقف العشرون محارب العظماء داخل مدينة زودانجا المحكوم عليها بالموت.

ولسعادتي وجدت أنني دخلت من جهة الحدود المنخفضة لأراضي القصر الهائلة. ظهر المبنى نفسه عن بُعد متألقًا بضوئه البهي، وفي نفس اللحظة قررت قيادة كتيبة المحاربين مباشرة داخل القصر نفسه، بينما كانت قوة الحشد الكبيرة تهاجم الثكنات العسكرية.

أرسلت أحد رجالي إلى تارس تاركاس لتخصيص خمسين محارب ثاركي، وأخبرته بنواياي، ثم أمرت المحاربين العشرة بالاستيلاء على إحدى البوابات الكبيرة وفتحها، بينما توليت مع المحاربين التسعة المتبقين البوابة الأخرى. كان علينا أن نؤدي عملنا بهدوء، دون إطلاق نيران ودون أي تقدم إلى أن أصل إلى القصر مع الخمسين ثاركي. نجحت خططنا تمامًا. أرسنا الخفيرين اللذين قابلناهما إلى آبائهما على ضفاف بحر كوراس المفقود، وتبعهم حراس البوابتين في صمت.

* * *

(25)

نهب زودانجا

كانت البوابة الكبيرة التي وقفت عندها تتأرجح مفتوحة، ودخلها الثاركيون الخمسون، بقيادة تارس تاركاس نفسه، وهم يمتطون حيواناتهم الثوات القوية. قمت بقيادتهم إلى جدران القصر، التي تغلبت عليها بسهولة دون مساعدة. واجهنا مشكلة كبيرة لفتح البوابة، على أنني كوفئت في النهاية برؤيتها تتأرجح على مفصلاتها الضخمة، وسرعان ما كان المرافقون الأقوياء يركضون بدوابهم عبر حدائق جيداك زودانجا.

مع اقترابنا من القصر، رأيت من خلال نوافذ طابقه الأول الكبيرة غرفة ثان كوسيس العامة مضاءة ببراعة. كانت القاعة الضخمة مكتظة بالنبلاء والنساء، كأنهم يتولون إعداد شيء مهم. لم يكن هناك أي حارس على مرمى البصر خارج القصر، وأعتقد أن ذلك يرجع إلى أن أسوار المدينة والقصر كانت تُعتبر منيعة، ولذا اقتربت ونظرت إلى الداخل محدقًا.

في إحدى نهايات الغرفة، وفوق عروش ذهبية ضخمة مرصعة بالماس، جلس ثان كوسيس وأسرته ورفاقه، محاطًا بالضباط وكبار شخصيات الدولة. امتد أمامهم ممشى واسع اصطف الجنود على جانبيه. وعندما نظرت، دخل إلى هذا الممشى من نهاية القاعة رأس الموكب متقدمًا نحو العرش.

سار أولاً أربعة ضباط من حرس الجيداك وهم يحملون صينية ضخمة من الفضة عليها وسادة من الحرير القرمزي، تستقر فوقها سلسلة ذهبية كبيرة يوجد في نهاية كل طرف منها قلادة وقِفل. وبعد هؤلاء الضباط مباشرة جاء أربعة آخرون يحملون صينية فضية مماثلة تضم الحَلي الرائع لأمير وأميرة البيت الملكي في زودانجا.

انفصلت هاتان المجموعتان أمام العرش وتوقفتا متواجهتين على جانبي الممشى المتقابلين. ثم جاء المزيد من كبار الشخصيات، وموظفو القصر والجيش، وأخيراً دخل شخصان متدثران تمامًا بالحرير القرمزي، بحيث لم يظهر أي من ملامحهما. توقف هذان أمام العرش، في مواجهة ثان كوسيس. عندما دخل الموكب واتخذ مواقعه، خاطب ثان كوسيس الشخصين الواقفين أمامه. لم أستطع سماع كلماته، ولكن تقدم الآن ضابطان وأزاحا الرداء القرمزي من إحدى الشخصيتين، فعرفت أن كانتوس كان قد فشل في مهمته، إذ كان صاب ثان، أمير زودانجا، هو تلك الشخصية التي انكشفت أمامي.

أخذ الآن ثان كوسيس مجموعة من الحلي من إحدي الصينيتين ووضع قلادة ذهبية حول عنق ابنه، وأغلق القفل بسرعة. وبعد أن وجه بضع كلمات أخرى إلى صاب ثان، التفت إلى الشخصية الأخرى، التي أزاح عنها الضباط الآن الأغطية الحريرية التي كشفت عن ديجاه ثوريس أميرة هيليوم.

كان هدف الحفل واضحًا بالنسبة لي؛ ففي اللحظة التالية سوف ترتبط ديجاه ثوريس إلى الأبد بأمير زودانجا. أتصور أنه كان حفلاً جميلاً ومثيراً للإعجاب، لكنه بالنسبة لي أقسى مشهد رأيته في حياتي. وعندما وُضعت الحلي على جسمها الجميل، وتأرجحت قلادتها الذهبية مفتوحة في أيدي ثان كوسيس، رفعت سيفي الطويل فوق رأسي، وحطمت بمقبضة الثقيل زجاج النافذة الكبيرة، وقفزت وسط الحشد المندهش. وبقفزة واحدة أصبحت فوق سلالم المنبر بجانب ثان كوسيس، الذي وقف متجمدًا من هول المفاجأة، وحطمت بسيفي الطويل السلسلة الذهبية التي من شأنها أن تربط ديجاه ثوريس بشخص آخر.

عمت الفوضى في لحظة؛ توجه نحوي ألف سيف يتهددني من كل جانب، واندفع صاب ثان نحوي بخنجر مُرصع استله من حُلي الزواج. كان يمكنني قتله بسهولة كما أقتل ذبابة، لكن عُرف برسوم القديم ظل باقيًّا في ذهني؛ طار خنجره نحو قلبي وأنا ممسك بمعصمه في قبضتي كملزمة الحداد وسيفي الطويل يشير إلى نهاية القاعة.

صحت قائلاً: « سقطت زودانجا، انظروا!»

تحولت كل العيون إلى الاتجاه الذي أشرت إليه، وهناك كان تارس تاركاس ومحاربيه الخمسين يدخلون بثبات فوق حيوانات الثوات عبر بوابات المدخل.

أطلق المتجمعون صيحات الإنذار والدهشة، ولكن دون أي كلمة تنم عن الخوف. وعلى الفور بدأ جنود ونبلاء زودانجا يهاجمون الثاركيين المتقدمين.

دفعت صاب ثان بغير تردد عن المنبر، وأخذت ديجاه ثوريس إلى جانبي. يوجد وراء العرش مدخل ضيق يقف فيه الآن ثان كوسيس في مواجهتي بسيفه الطويل الممشوق. اشتبكنا على الفور، ولم أجده خصمًا ضعيفًا.

ونحن ندور على منصة واسعة، رأيت صاب ثان يسرع خطاه لمساعدة والده. لكنه ما إن رفع يده ليضرب، انطلقت ديجاه ثوريس أمامه، وعندئذ وجد سيفي النقطة التي جعلت صاب ثان جيداك زودانجا. عندما تدحرج والده ميتًا على الأرض، أبعد الجيداك الجديد نفسه عن قبضة ديجاه ثوريس، وتواجهنا مرة أخرى. وسرعان ما انضم إليه أربعة ضباط، وحاربت مرة أخرى وظهري للعرش الذهبي من أجل ديجاه ثوريس. جاهدت

للدفاع عن نفسي دون أن أقتل صاب ثان، فمعه فرصتي الأخيرة للفوز بالمرأة التي أحببتها. كان سيفي يتأرجح بسرعة البرق خلال محاولتي تفادي ضربات وطعنات خصومي. جردت اثنين من سلاحهما وقتلت الثالث، عندما هرع عدد أكبر لمعونة حاكمهم الجديد وانتقامًا لموت حاكمهم القديم.

في أثناء تقدمهم، علت صيحات: «المرأة! المرأة! اقتلوها؛ هي من دبرت المؤامرة. اقتلوها! اقتلوها!».

ناديت على ديجاه ثوريس لتقف خلفي، وشققت طريقي نحو المدخل الصغير خلف العرش، لكن الضباط أدركوا نواياي، فاندفع ثلاثة منهم خلفي ومنعوا فرصي للفوز بموقع كان يمكنني منه الدفاع عن ديجاه ثوريس ضد جيش من حاملي السيوف.

كان الثاركيون منشغلين بالكامل في وسط الغرفة، وبدأت أدرك أن لا شيء أقل من معجزة هو ما يمكن أن ينقذ ديجاه ثوريس وينقذني شخصيًّا، وهنا رأيت تارس تاركاس يندفع خلال حشد الأقزام الذين احتشدوا حوله. وبضربة واحدة من سيفه الطويل الجبار، أسقط عشرات الجثث تحت قدميه، وهكذا شق الطريق أمامه حتى أصبح في لحظة يقف على المنصة بجواري، يوقع الموت والدمار يمينًا ويسارًا.

كانت شجاعة الزودانجيين مذهلة، فلم يحاول أحد الفرار؛ ولم يتوقف القتال إلا عندما أصبح الباقون على يد الحياة في القاعة الكبرى هم الثاركيون فقط، إضافة إلى ديجاه ثوريس ونفسي.

رقد صاب ثان ميتًا بجوار والده، وغطت جثث صفوة نبلاء وفرسان زودانجا أرض القاعة التي امتلأت بفوضى دموية.

أول من فكرت فيه عند انتهاء المعركة هو كانتوس كان، فتركت ديجاه ثوريس تحت مسؤولية تارس تاركاس وأخذت عشرات من المحاربين وسارعت إلى الأقبية أسفل القصر. كان السجانون جميعًا قد غادروا مواقعهم للانضمام إلى المقاتلين في قاعة العرش، ولذا بحثنا في متاهات السجن دون أن يعترضنا أحد.

ناديت على كانتوس كان بصوت عال في كل دهليز وقسم جديد، وأخيرًا كوفئت بسماع رد خافت. استرشادًا بالصوت، سرعان ما وجدناه واهنًا في تجويف مظلم.

شعر بسعادة غامرة عند رؤيتي، وقد عرف بوجود قتال من الأصداء الباهتة التي وصلت إلى زنزانته في السجن. قال لي إن الدوريات الجوية ألقت القبض عليه قبل وصوله إلى البرج العالي بالقصر، ولذا فهو لم ير حتى صاب ثان.

اكتشفنا عبث محاولاتنا قطع القضبان والسلاسل التي تكبله سجينًا، وبناء على اقتراحه عُدت للبحث في الجثث الملقاة على الأرض عن مفاتيح أقفال زنزانته وسلاسله.

ولحسن الحظ وجدت السجان بين أول مجموعة فحصتها، وسرعان ما انضم إلينا كانتوس كان في قاعة العرش.

اختلطت أصوات إطلاق النار الكثيفة بصيحات وصرخات وصلت إلينا من شوارع المدينة، وأسرع تارس تاركاس لقيادة القتال هناك. رافقه كانتوس كان ليعمل بمثابة دليل، وبدأ المحاربون الخُضر في بحث شامل داخل القصر عن زودانجيين آخرين وعن الغنائم، وديجاه ثوريس التي تركتها بمفردها.

لقد اختفت في أحد العروش الذهبية، وعندما التفت نحوها استقبلتني بابتسامة شاحبة.

صاحت: «لا يوجد رجل مثلك! أعرف أن برسوم لم تشهد أبدًا من قبل شخصًا مثلك. هل كل رجال كوكب الأرض مثلك؟ فأنت وحيد، وأجنبي، ومطارد، ومهدد، ومضطهد، وفعلت في أشهر قليلة ما لم يفعله في برسوم عبر جميع العصور الماضية أي رجل آخر من قبل: جمعت معًا الجماعات الوحشية من قيعان البحار وأحضرتهم للقتال كحلفاء للشعب المريخي الأحمر».

أجبتها مبتسمًا: «الإجابة سهلة، ديجاه ثوريس، لم أكن أنا من فعل ذلك، بل كان الحب، الحب لديجاه ثوريس، وهو قوة يمكنها أن تصنع معجزات أكبر مما شاهدته».

غمر وجهها تورد جميل، وأجابت:

«يمكنك أن تقول ذلك الآن، جون كارتر، ويمكنني أن أستمع، فقد أصبحت حرة».

أجبتها: «لا يزال هناك المزيد الذي أود أن أقوله، قبل فوات الأوان مرة أخرى. لقد فعلت الكثير من الأشياء الغريبة في حياتي، العديد من الأشياء التي لا يجرؤ أكثر الرجال حكمة على القيام بها، لكنني لم أحلم أبدًا في أقصى أحلامي بالفوز بديجاه ثوريس - إذ لم أحلم أبدًا أنه في الكون كله توجد امرأة مثل أميرة هيليوم. إن كونك أميرة لا يجعلني أخجل من نفسي، وإنما كونك أنت هو ما يكفي ليجعلني أشك في عقلي وأنا أطلب منك، يا أميرتي، أن تكوني لي».

«يجب ألا يخجل من يعرف جيدًا ردي على طلبه قبل أن يقدمه»، أجابت وهي ترفع يديها الجميلتين وتضعهما على كتفي، فأخذتها بين ذراعيّ، وقبّلتها.

وهكذا في وسط مدينة تموج بقتال وحشي، وتمتلئ بنذر الحرب؛ حيث يجني الموت والدمار محصولهما الرهيب، قدمت ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم والابنة الحقة للمريخ، إلة الحرب، وعدها بالزواج من جون كارتر، السيد المحترم من فرجينيا.

* * *

(26)

من المذبحة إلى الفرح

عاد تارس تاركاس وكانتوس كان في وقت لاحق، وأبلغانا بهزيمة زودانجا بالكامل. فقد دُمرت قواتها تمامًا أو تم إلقاء القبض عليهم، ومن غير المتوقع وجود أي مقاومة أخرى بينهم. وقد فرت عدة سفن حربية، لكن هناك الآلاف من سفن الحرب والتجارة تحت حراسة المحاربين الثاركيين.

بدأت الجماعات الصغيرة في سلب الغنائم والتشاجر فيما بينهم، ولذا تقرر أن نقوم بجمع ما نستطيع من محاربين، وأن نزود أكبر عدد ممكن من السفن بالسجناء الزودانجيين ونتوجه إلى هيليوم دون إضاعة المزيد من الوقت.

أبحرنا بعد خمس ساعات من أسطح أرصفة المباني بأسطول يتكون من مائتين وخمسين سفينة فضائية حربية، تحمل قرابة مائة ألف محارب أخضر، يليه أسطول لنقل حيواناتنا الثوات.

وتركنا المدينة المنكوبة خلفنا، في براثن حوالي 40 ألف من أشرس المحاربين الخُضر وأكثرهم وحشية من الجماعات الصغيرة. كانوا يسلبون ويقتلون ويتقاتلون فيما بينهم. استعملوا الشعلات في مائة مكان، وارتفعت أعمدة الدخان الكثيف فوق المدينة كأنما تمحو من عين السماء ذلك المشهد البشع أدناه.

شاهدنا أبراج هيليوم القرمزية والصفراء في منتصف بعد ظهر اليوم، وبعد وقت قصير ارتفع أسطول كبير من السفن الفضائية الحربية الزودانجية من مخيمات حصارهم خارج المدينة، وتقدمت لملاقاتنا.

امتدت رايات هيليوم من قمة إلى قاعدة كل سفينة من سفننا الجبارة، لكن الزودانجيين لم يكونوا في حاجة إلى هذه العلامة ليدركوا أننا أعداء؛ ذلك أن محاربينا المريخيين الخُضر فتحوا عليهم النار بمجرد مغادرتهم الأرض. ومع تصويبهم الخارق، أسقطوا الأسطول المقبل طائرة بعد الأخرى.

أدركت مدينتنا هيليوم التوأم أننا أصدقاء، فأرسلت مئات السفن لمساعدتنا، وهنا بدأت أول معركة جوية حقيقية لم أشهدها من قبل.

ظلت السفن التي تحمل محاربينا الخُضر تحلق أعلى أساطيل هيليوم وزودانجا المتنازعة؛ ذلك أن مدفعيتهم كانت عديمة الفائدة في أيدي الثاركيين الذين ليس لديهم سلاح للبحرية، ولا أي مهارة في المدفعية البحرية. بيد أن نيران أسلحتهم الصغيرة كانت أكثر فاعلية، وأثرت مشاركتهم كثيراً في النتيجة النهائية، إن لم تكن تحددت كليًّا بوجودهم.

حلقت القوتان في البداية على نفس الارتفاع، تشن كل منها هجومًا تلو الآخر في مواجهة بعضهما بعضًا. والآن حدثت فجوة كبيرة في هيكل إحدى الطائرات الحربية الهائلة من المعسكر الزودانجي؛ فتمايلت ودارت بالكامل بحيث تدافع أفراد طاقمها الصغير وهم يقفزون، وهوت ملتفة نحو الأرض على بعد ألف قدم أدناه؛ وسرعان ما تحطمت، ودفنت نفسها تمامًا في التربة اللينة بقاع البحر القديم.

ارتفعت صرخات ابتهاج عاصفة من سرب هيليوم، فانقضوا بضراوة مضاعفة على الأسطول الزودانجي. وبمناورة حاذقة، اكتسبت سفينتين من سفن هيليوم موقعًا أعلى خصومهم، حيث تمكنت سفنهم منه من استخدام مدفعيتهم لإطلاق وابل من القذائف.

وتدريجيًّا نجحت السفن الحربية التابعة لهيليوم في الارتفاع أعلى السفن الزودانجية، وخلال وقت قصير أخذ عدد من السفن الحربية المحاصِرة يجرف حطام السفن الميؤوس منها نحو البرج القرمزي العالي لهيليوم الكبرى. حاولت العديد من السفن الأخرى الهرب، لكن آلاف الطائرات الصغيرة المنفردة سرعان ما أحاطت بهم، وفوق كل منها حلقت سفينة حربية ضخمة تابعة لهيليوم وجاهزة لإنزال ركابها على أسطح سفنهم.

انتهت المعركة خلال ما يزيد قليلاً على ساعة من لحظة تحليق الأسطول الزودانجي المنتصر لملاقاتنا من معسكر حصارهم، وتوجهت سفن الزودانجيين المهزومين المتبقية نحو مدن هيليوم تحت قيادة الأطقم الظافرة.

هناك جانب يثير الشفقة بدرجة كبيرة يتعلق باستسلام هذه الطائرات القوية، وهو ناتج عن عادة قديمة تتطلب أن يتم الاستسلام عن طريق قيام قائد السفينة المهزوم بالغطس الطوعي قفزاً إلى الأرض. وهكذا، قام الزملاء الشجعان، واحدًا تلو الآخر، وهم يحملون راياتهم عالية فوق رؤوسهم، بالقفز من الانحناءات الشاهقة بسفنهم القوية إلى الأرض ليلقوا حتفهم بفظاعة.

لا يتوقف القتال قبل أن يقوم القائد العام للأسطول بممارسة هذا الغطس المخيف، وهو بمثابة إشارة إلى استسلام السفن المتبقية، وهنا تنتهي تضحية الرجال الشجعان التي لا طائل منها.

أشرنا الآن إلى سفينة القيادة التابعة لهيليوم كي تقترب. وعندما أصبحت على مسافة قريبة، ناديت معلنًا عن وجود الأميرة ديجاه ثوريس على متن الطائرة، وأننا نريد نقلها إلى سفينة القيادة كي تأخذها فورًا إلى المدينة.

عندما وصلهم إعلاني بالكامل، ارتفعت صيحات هائلة من أسطح سفينة القيادة، وبعد ثوان قليلة انطلقت رايات أميرة هيليوم من مائة موقع فوق الجزء العلوي من السفينة. ولما أدركت السفن الأخرى بالأسطول معنى الإشارات التي أخذت تومض نحوهم، أخذوا يهللون ورفعوا رايتها في ضوء الشمس الساطع.

اتجهت سفينة القيادة نحونا، وما إن تمايلت بأمان إلى أن لمست جانبنا، تدفق عشرات الضباط نحو أسطحنا. لكنهم توقفوا مذعورين عندما وقعت نظراتهم المندهشة على مئات المحاربين الخُضر، الذين خرجوا الآن من مواقعهم القتالية، وهنا تقدم كانتوس كان لمقابلتهم، فتحركوا نحوه متزاحمين.

ثم تقدمت ديجاه ثوريس وأنا معها، لكن عيونهم لم تقع على أحد غيرها. استقبلتهم بلطف، منادية على كل منهم باسمه، إذ كانوا رجالًا يتمتعون بمواقع عالية التقدير لدى جدها، وكانت تعرفهم جيدًا.

«ضعوا أياديكم على كتف جون كارتر»، قالت لهم وهي تستدير ناحيتي، «الرجل الذي تدين له هيليوم بأميرتها، فضلًا عن النصر الذي تحقق اليوم».

كانوا في شدة التهذيب معي، وقالوا العديد من الكلمات الطيبة والمديح، لكن ما أثار إعجابهم أكثر هو أنني فزت بمساعدة الثاركيين الشرسين في حملتي لتحرير ديجاه ثوريس وتحرير هيليوم.

قلت: «أنتم تدينون بالشكر لرجل آخر أكثر مني، وها هو. قابلوا واحدًا من أعظم الجنود ورجال الدولة في برسوم، تارس تاركاس، جيداك ثارك».

أعربوا عن تحياتهم إلى الثاركي العظيم بنفس المجاملة المهذبة التي تميزت بها طريقتهم نحوي، ولم أندهش أنه لم يقل عنهم في سهولة موقفه أو في كلمته اللطيفة. على الرغم من أن الثاركيين ليسوا عِرقًا ثرثارًا، فهم رسميون للغاية، وطرقهم تساعدهم بشكل مثير للدهشة على الأخلاق الكريمة واللطيفة.

ذهبت ديجاه ثوريس إلى متن سفينة القيادة، وكانت شديدة الارتباك. شرحت لها أن المعركة ليست سوى انتصار جزئي؛ فلا زال أمامنا القوات البرية الزودانجية التي تفرض الحصار ويجب أن نحسب حسابها، وأوضحت لها أنني لن أترك تارس تاركاس يغادر إلا بعد إنجاز ذلك.

وعد قائد القوات البحرية في هيليوم بإجراء الترتيبات اللازمة كي تقوم جيوش هيليوم بالهجوم من المدينة بالتزامن مع هجومنا البري، وبالتالي انفصلت السفن وعادت ديجاه ثوريس منتصرة إلى بلاط جدها، تاردوس مورس، جيداك هيليوم.

كان أسطولنا المخصص للنقل يقع على بعد، ويضم حيوانات الثوات الخاصة بالمحاربين الخُضر، حيث بقى في مكانه خلال المعركة. كان يصعب إنزال هذه الحيوانات فوق السهل المفتوح دون اتباع مراحل معينة لهبوطهم، ولكن لم يكن أمامنا شيء آخر، فحلقنا إلى نقطة تبعد حوالي عشرة أميال عن المدينة وبدأنا المهمة.

كان من الضروري إنزال الحيوانات على الأرض في حبال، واستغرق هذا العمل ما تبقى من النهار ونصف الليل. هوجمنا مرتين من جانب مجموعات من فرسان زودانجا، لكنهم انسحبوا مع القليل من الخسارة وبعد هبوط الظلام.

بمجرد الانتهاء من إنزال آخر ثوات، أعطى تارس تاركاس الأمر بالتقدم، وتسللنا في ثلاث مجموعات إلى مخيم الزودانجيين من الشمال والجنوب والشرق.

واجهنا نقاط تمركزهم على بعد حوالي كيلومترين من المعسكر الرئيسي. واعتبرناه إشارة للهجوم، كما سبق أن رتبنا. انقضضنا على الزودانجيين في ظل صرخات جامحة شرسة، ووسط صيحات حيوانات الثوات المقززة التي أثارت المعركة غضبها.

لم نمُسك بهم نائمين، وإنما وجدنا خطًّا حربيًّا راسخًا يواجهنا. نجحوا في صدنا أكثر من مرة، إلى أن بدأت، نحو الظهيرة، أتخوف من نتيجة المعركة.

بلغ عدد الزودانجيين قرابة مليون مقاتل، متجمعين من القطب إلى القطب، حيثما امتدت مجاريهم المائية التي تشبه الشريط، بينما يواجههم أقل من مائة ألف محارب أخضر. لم تصل قوات من هيليوم، كما لم نحصل على أي كلمة منهم.

وفقط عند الظهيرة سمعنا إطلاق كثيف للنيران على طول الخط الفاصل بين الزودانجيين والمدن، وعندئذ عرفنا أن التعزيزات التي كنا في حاجة إليها قد وصلت.

ومرة أخرى أمر تارس تاركاس بالهجوم، ومرة أخرى تحمل الثوات القوية فرسانها المرعبين في مواجهة استحكامات العدو. وفي اللحظة نفسها، انطلق الخط الحربي

لهيليوم مندفعًا فوق المتاريس المقابلة للزودانجيين، وفي لحظة أخرى سُحِقوا كأنما بين حجري رحى. لقد قاتلوا بنُبل، لكن دون جدوى.

أصبح السهل الذي يقع أمام المدينة في حالة من الفوضى الحقيقية قبل أن يستسلم آخر زودانجي. توقفت المذبحة أخيراً، وسار الأسرى إلى هيليوم. دخلنا بوابات المدينة الكبرى، موكب ظافر ضخم من الأبطال المنتصرين.

اصطفت النساء والأطفال في الشوارع الواسعة، بالإضافة إلى عدد قليل من الرجال اقتضت مهماتهم البقاء داخل المدينة أثناء المعركة. استقبلونا بجولات لا تنتهي من التصفيق؛ وأمطرونا بالحلي المصنوعة من الذهب والبلاتين، والفضة، علاوة على المجوهرات الثمينة. أصيبت المدينة بجنون الفرح.

أثار الثاركيون الأقوياء الكثير من الانفعال والحماس. لم يحدث أبدًا من قبل أن دخلت جماعة مسلحة من المحاربين الخُضر بوابات هيليوم؛ وكونها تأتي الآن كأصدقاء وحلفاء، ملأ الرجال الحُمر بالابتهاج.

تجلت معرفة الهيليوميين لخدماتي البسيطة لديجاه ثوريس في هتافهم باسمي بصوت عال، وبالحلي التي وضعوها حولي وحول حيواني الثوات الضخم خلال مرورنا عبر الطرقات المؤدية إلى القصر. وعلى الرغم من مظهر وولا الشرس، كان الناس يتزاحمون للتجمع حولي.

مع اقترابنا من هذه المجموعة الرائعة من المباني، التقت بنا مجموعة من الضباط الذين استقبلونا بحرارة وطلبوا أن أترجل أنا وتارس تاركاس ومن معه من جِد بالإضافة إلى الجيداك والجَد من حلفائه الأقوياء، ونرافقهم كي نحصل من تاردوس مورس على ما يُعبر عن امتنانه لخَدماتنا.

وقفت الزمرة الملكية في الجزء العلوي من السلالم الكبيرة المؤدية إلى البوابات الرئيسية للقصر؛ ونزل أحدهم لمقابلتنا عندما وصلنا إلى أسفل السلم.

كان نموذجًا مثاليًّا للرجولة؛ طويل القامة، مستقيمًا كالسهم، لديه عضلات رائعة، يتمتع بهيئة وطريقة حاكم. لم أكن في حاجة إلى أن يقال لي إنه تاردوس مورس، جيداك هيليوم.

كان أول عضو في مجموعتنا يلتقي به هو تارس تاركاس، وحددت أولى كلماته إلى الأبد الصداقة الجديدة بين الأجناس.

قال مخلصًا: «أن يلتقي تاردوس مورس بأعظم محارب حي في برسوم لهو شرف لا يُقدر بمال، ولكن أن يضع يده على كتف صديق وحليف لهي نعمة أكبر بكثير».

أجاب تارس تاركاس: «جيداك هيليوم، هناك رجل من عالم آخر قد علّم محاربي برسوم الخُضر معنى الصداقة؛ نحن مدينون له بحقيقة أن جماعات ثارك أصبحت تفهمك؛ وهم يُقدرون ويردون بالمثل على المشاعر التي أعربت عنها بلطف».

قام تاردوس مورس بعد ذلك بتحية كل جيداك وجِد أخضر، معربًا لكل منهم عن الكلمات التي تنم عن الصداقة والتقدير.

وعندما اقترب مني، وضع كلتا يديه على كتفيّ.

قال: «أرحب بك يا بني؛ إن منحك، وبكل سرور، ودون كلمة معارضة واحدة، أثمن جوهرة في كل هيليوم، نعم، في كل برسوم، لهو دليل كاف على تقديري».

تم تقديمنا بعد ذلك إلى مورس كاجاك، جِد هيليوم الصغرى، وهو والد ديجاه ثوريس. لقد كان يتبع عن قرب تاردوس مورس، يبدو حتى أكثر تأثرًا باللقاء من والده.

حاول عشرات المرات أن يُعرب لي عن امتنانه، لكن صوته اختنق انفعالاً ولم يستطع أن يتكلم. وقد عرفت لاحقًا أنه يتمتع، حتى في برسوم المولعة بالحرب، بسمعة مقاتل شرس لا يعرف الخوف. وكان يشترك مع جميع هيليوم في حب ابنته حتى العبادة، ولم يكن بمقدوره التفكير في ما نجت منه دون أن يشعر بهذا الانفعال العاطفي العميق.

* * *

(27)
من الفرح إلى الموت

ظلت جماعات ثارك وحلفاؤها الأشداء لعشرة أيام ينعمون بالاحتفال والترفيه، ثم بدأوا في رحلة العودة إلى أراضيهم وهم محملون بالهدايا الغالية وتحت حراسة 10 آلاف جندي من هيليوم بقيادة مورس كاجاك. رافقهم جِد هيليوم الصغرى مع مجموعة صغيرة من النبلاء طوال الطريق إلى ثارك، بغية تعزيز روابط السلام والصداقة الجديدة بشكل أوثق.

رافقت سولا والدها تارس تاركس، الذي اعترف بها كابنته أمام جميع الزعماء.

وبعد ثلاثة أسابيع، عاد مورس كاجاك وضباطه، وبرفقته تارس تاركاس وسولا، على السفينة الفضائية الحربية التي كانت قد أُرسلت إلى ثارك لإحضارهم لحضور زواج جون كارتر وديجاه ثوريس.

استمرت خدمتي تسع سنوات في المجالس، وحاربت في جيوش هيليوم بوصفي أميراً في بيت تاردوس مورس. لم يكل الناس أبدًا من إغراقي بالتكريم، ولم يمر يوم إلا ويجلب أدلة جديدة على حبهم لأميرتي، ديجاه ثوريس، التي ليس لها مثيل.

في حاضنة ذهبية على سطح قصرنا ترقد بيضة لونها أبيض ثلجي. واصل عشرة جنود من حرس الجيداك حراستها لما يقرب من خمس سنوات، ولم يمر يوم خلال وجودي في المدينة إلا ووقفت أنا وديجاه ثوريس جنبًا إلى جنب أمام مزارنا الصغير نخطط للمستقبل عندما يحين أوان كسر القشرة الرقيقة للبيضة.

كان حيًّا في ذاكرتي صورة آخر ليلة جلسنا معًا هناك نتحدث بنبرات منخفضة من الرومانسية الغريبة التي نسجت حياتنا معًا، وهذه المعجزة التي كانت قادمة لإضافة مزيد من السعادة وتُحقق آمالنا.

شاهدنا عن بعد نور أبيض ساطع لسفينة فضائية تقترب، لكننا لم نعلق أهمية خاصة لأنه مشهد مألوف. أسرعت السفينة مثل حزام البرق نحو هيليوم، إلى أن تجاوزت سرعتها الشديدة ما لم نعتاده من قبل.

أطلقت إشارات ومضية تعلن أنها تحمل رسالة إلى الجيداك، وأخذت تحلق بنفاد صبر في انتظار سفينة الدورية البطيئة التي يجب أن تصحبها إلى أرصفة القصر.

وبعد وصولها إلى القصر بعشر دقائق، دعتني رسالة إلى قاعة المجلس، التي وجدتها تكتظ بأفراد تلك السفينة.

كان تاردوس مورس فوق منصة العرش المرتفعة، يتحرك ذهابًا وإيابًا وترتسم على وجهه علامات التوتر. عندما جلس الجميع في مقاعدهم، التفت نحونا.

قال: «هذا الصباح، وصل خبر إلى حكومات برسوم العديدة أن أمين مصنع الجو لم يقدم أي تقرير لاسلكي لمدة يومين، كما أن جميع المحاولات التي لا تنقطع من عشرات العواصم للتواصل معه لم تصلها أي علامة على الاستجابة».

«وقد طلب منا سفراء الأمم الأخرى تولي هذه المسألة واستعجال الأمين المساعد للذهاب إلى المصنع. ظلت ألف سفينة فضائية تبحث عنه طوال اليوم، إلى أن عادت إحداها الآن فقط وهي تحمل جثته التي عثرت عليها في الأقبية الموجودة تحت منزله، وقد شوهها قاتل بفظاعة».

«لا أحتاج أن أقول لكم ماذا يعني هذا إلى برسوم. يستغرق الأمر شهورًا لاختراق تلك الجدران القوية، وقد بدأنا العمل بالفعل. ليس هناك ما نخشاه بشأن تشغيل مُحرك محطة الضخ كما يجب، وكما كانت تعمل جميعها لمئات السنين؛ لكن الأسوأ الذي نخشاه قد حدث. فالأدوات تُظهر تناقصًا سريعًا في ضغط الهواء في جميع أنحاء برسوم ... لقد توقف المحرك».

واختتم قائلًا: «أيها السادة، لدينا في أحسن الأحوال ثلاثة أيام نعيشها».

ساد صمت مطلق لعدة دقائق، ثم نهض شاب نبيل ورفع سيفه عاليًا فوق رأسه وقال مخاطبًا تاردوس مورس:

«يفتخر رجال هيليوم بأنفسهم أنهم كانوا يُظهرون دومًا لبرسوم كيف يجب أن تعيش أمة الرجال الحُمر، والآن هي فرصتنا لنُظهر لَهم كيف يجب أن يموتوا. فلنقم بواجباتنا كما لو أن ألف سنة مقبلة لا تزال أمامنا».

اهتزت الغرفة بالتصفيق، فلم يكن هناك شيء يمكن القيام به أفضل من تهدئة مخاوف الناس بتقديم مثال بأنفسنا وأن نذهب إلى سُبلنا بالابتسامات على وجوهنا والحزن يقرض في قلوبنا.

عندما عدت إلى قصري وجدت أن الإشاعة وصلت فعلًا إلى ديجاه ثوريس، فقلت لها كل ما سمعته.

قالت: «كنا سعداء جدًّا، جون كارتر، وأرحب بأي مصير يلحق بنا ويسمح لنا بالموت معًا».

لم يجلب اليومين التاليين أي تغيير ملحوظ في إمدادات بالهواء، ولكن في صباح يوم الثالث أصبح التنفس صعبًا على ارتفاعات أسطح المنازل. امتلأت طرقات وساحات هيليوم بالناس. توقفت جميع الأعمال التجارية. كان الجزء الأكبر من الناس يواجه بشجاعة موته المحقق. على أن الرجال والنساء، هنا وهناك، أفسحوا المجال أمام حزنهم الهادئ.

ونحو منتصف النهار، بدأ العديد من الضعفاء في الاستسلام. وفي غضون ساعة كان شعب برسوم يغرق بالآلاف في اللاوعي الذي يسبق الموت اختناقًا.

تجمعنا أنا وديجاه ثوريس وسائر أعضاء الأسرة المالكة في حديقة غائرة في فناء داخلي بالقصر. تحادثنا بنبرات منخفضة، هذا إن تحدثنا على الإطلاق، حيث كانت رهبة ظلال الموت القاتمة تتسلل إلينا. حتى وولا بدا أنه يشعر بثقل الكارثة الوشيكة، إذ تكوم بالقرب من ديجاه ثوريس ومني وأنينه يدعو إلى الرثاء.

تم إحضار الحاضنة الصغيرة من سطح قصرنا بناء على طلب ديجاه ثوريس، التي جلست تحدق بشوق إلى الحياة الصغيرة المجهولة التي لن تعرفها أبدًا الآن.

وعندما أصبحت صعوبة التنفس ملموسة، نهض تاردوس مورس قائلاً:

«لنودع بعضنا بعضًا. لقد ولت أيام برسوم العظيمة. وسوف تطل شمس الغد على عالم ميت، سيظل إلى الأبد متأرجحًا عبر السماء التي لا تسكنها حتى الذكريات. إنها النهاية».

انحنى وقبّل نساء أسرته، ووضع يده قوية على أكتاف الرجال.

عندما أدرت وجهي عنه في حزن، سقطت عيني على ديجاه ثوريس. كانت رأسها تتدلى على صدرها، بدت بلا حياة. اندفعت نحوها صائحًا، وحملتها بين ذراعيّ.

فتحت عينيها ونظرت في عيني.

غمغمت قائلة: «قبلني، جون كارتر، أنا أحبك! أحبك! من القسوة أن نفترق وقد بدأنا لتونا حياة الحب والسعادة».

عندما ضغطت شفتيها العزيزتين بشفتاي، نهض بداخلي الشعور القديم بالقوة والطاقة التي لا تقهر. واندفع دم مقاتل فيرجينيا حيًّا في عروقي.

صحت: «لن يحدث، أميرتي. لا بد أن هناك طريقة ما، وسيجدها جون كارتر الذي قاتل ليشق طريقه خلال عالم غريب من أجل حبك».

ومع كلماتي، تسللت إلى ذهني الواعي سلسلة من تسعة أصوات طويلة طواها النسيان. ومثل ومضة البرق في الظلام، برز مغزاهم كاملاً أمامي - مفتاح الأبواب الكبيرة الثلاثة لمصنع الجو!

استدرت فجأة نحو تاردوس مورس، وأنا لا أزال احتضن في صدري حبي الذي يحتضر، وصحت:

أحتاج «طائرة، جيداك! بسرعة! أصدر أمرك بأن تتجه إلى أعلى القصر. يمكنني أن أنقذ برسوم».

لم ينتظر ليستفسر، وفي لحظة أسرع أحد الحراس إلى أقرب رصيف. وعلى الرغم من أن الهواء كان ضئيلاً وانتهى تقريبًا عند السطح، فقد تمكنوا من إطلاق أسرع آلة استطلاع فضائية جاهزة ليركبها رجل واحد، وكانت أكثر الآلات التي أنتجتها برسوم مهارة.

قمت بتقبيل ديجاه ثوريس عشرات المرات وأمرت وولا، الذي كان يمكن أن يتبعني، بأن يبقى ويحرسها. قفزت بخفتي حركتي وقوتي القديمة إلى أسوار القصر العالية، ثم توجهت في اللحظة التالية نحو الهدف الذي يحقق آمال برسوم كلها.

كان يجب أن أطير منخفضًا للحصول على الهواء الكافي للتنفس، لكنني اتخذت مسارًا مستقيمًا عبر قاع البحر القديم، وبالتالي كان يجب أن أرتفع مجرد بضعة أقدام فوق الأرض.

طرت بسرعة مروعة، فمهمتي ليست سوى سباق زمني مع الموت. وكان وجه ديجاه ثوريس أمامي دائمًا. وعندما التفتُّ لألقي نظرة أخيرة، بعد أن تركت حديقة القصر، وجدتها تتمايل وتغوص على الأرض بجوار

الحاضنة الصغيرة. كانت لتسقط في غيبوبتها الأخيرة التي تنتهي بالموت، إذا لم يمتلأ مُزود الهواء مجددًا. كنت أعرف ذلك جيدًا، ولذا أخذت حذري من الرياح، وقذفت من الطائرة كل شيء ماعدا المحرك والبوصلة، قذفت حتى الحلي، واستلقيت على بطني بطول سطح السفينة وإحدى يداي على عجلة القيادة واليد الأخرى تدفع رافعة السرعة إلى أقصاها، فقسمت الهواء الضئيل للمريخ الذي يحتضر بسرعة نيزك.

قبل حلول الظلام بساعة، لاحت أمامي فجأة جدران مصنع الجو الكبيرة. سقطت على الأرض بصوت مجلجل كريه أمام الباب الصغير الذي كان يحجب شرارة الحياة عن سكان كوكب كامل.

رأيت بجانب الباب طاقمًا كبيراً من الرجال يحاولو اختراق الجدار، لكنهم بالكاد ما خدشوا سطحه الذي يماثل حجر الصوان، والآن يرقد معظمهم في نومه الأخير الذي لن يوقظهم منه حتى الهواء.

بدت الأوضاع هنا أسوأ بكثير من هيليوم، وكنت أتنفس بصعوبة شديدة. كان هناك عدد قليل من الرجال لا يزال في وعيه، فتحدثت إلى أحدهم.

سألته: «إذا أمكنني فتح هذه الأبواب، هل يوجد رجل يمكنه تشغيل المحركات؟»

أجاب: «أنا أستطيع، إذا فتحتها بسرعة. لن يستغرق الأمر مني سوى بضع دقائق. ولكن ما الجدوى، فكلاهما مات ولا يوجد أحد آخر في برسوم يعرف سر هذه الأقفال الفظيعة. لقد هرع الرجال بجنون الخوف لمدة ثلاثة أيام لدفع هذا المدخل في محاولات لحل لغزه، وإنما دون جدوى».

لم يكن لدي وقت للحديث، فقد بدأت أصبح ضعيفًا جدًّا، وأسيطر على عقلي بصعوبة شديدة.

لكنني تمكنت، بجهد أخير وأنا أسقط ضعيفًا على ركبتيّ، أن ألقي موجات الفكر التسع نحو هذا الشيء الرهيب أمامي. زحف المريخي إلى جانبي، مثبتًا عيونه المحدقة على اللوحة الوحيدة أمامنا وانتظرنا في صمت الموت.

انحسر الباب القوي أمامنا. حاولت أن أنهض وأتبعه لكنني كنت ضعيفًا جدًّا.

«اتبعه»، قلت لرفيقي صائحًا، «وإذا وصلت إلى غرفة المضخة، عليك فتح جميع المضخات. إنها الفرصة الوحيدة أمام برسوم لكي توجد غدًا!».

من المكان الذي أرقد فيه، فتحت الباب الثاني، ثم الثالث؛ وعندما رأيت أمل برسوم يزحف ضعيفًا على يديه وركبتيه خلال المدخل الأخير، انهرت فاقد الوعي على الأرض.

* * *

(28)

في كهف أريزونا

كان ظلام يسود عندما فتحت عيني مرة أخرى. كنت أرتدي ملابس غريبة وخشنة؛ ملابس تشققت وتحولت إلى مسحوق عندما اتخذت وضع الجلوس.

تحسست نفسي من الرأس إلى القدم. كنت مكسوًّا من الرأس إلى القدم، على الرغم من أنني عندما سقطت فاقد الوعي أمام المدخل الصغير كنت عاريًا. رأيت أمامي قطعة صغيرة من السماء يضيئها القمر، ظهرت من خلال فتحة ممزقة.

عندما تلمست جسمي بيدي وجدت جيوبًا، وفي أحدها حزمة صغيرة من أعواد الثقاب ملفوفة في ورقة ملوثة بالزيت. أشعلت إحدى أعواد الثقاب، وأضاء لهبها الخافت ما ظهر أنه كهف ضخم، اكتشفت في الجزء الخلفي منه وجود شخص غريب مكوم بلا حراك على مقعد طولي بالغ الصغر. وعندما اقتربت منه، رأيت أنه البقايا الميتة والمحنطة لامرأة عجوز صغيرة الحجم ذات شعر أسود طويل، تنحني فوق موقد فحمي صغير يستقر فوقه وعاء نحاسي مستدير يحتوي على كمية صغيرة من مسحوق أخضر.

تدلت من السقف خلفها سيور جلدية، كما امتد صف من الهياكل العظمية البشرية عبر الكهف بالكامل. ومن السير الذي يحملهم، امتد سير آخر إلى اليد الميتة للمرأة العجوز ضئيلة الحجم. عندما لمست الحبل، تأرجحت الهياكل العظمية محدثة ضوضاء تشبه حفيف أوراق الشجر الجافة.

لقد كان مشهدًا بمثابة لوحة حية بشعة ومروعة، فسارعت بالخروج إلى الهواء الطلق؛ سعيدًا بالهروب من مثل هذا المكان الرهيب.

المشهد الذي التقطته عيناي عندما خطوت على الحافة الصغيرة قبل مدخل الكهف، ملأني بالذعر.

رأيت سماء جديدة ومناظر طبيعية جديدة. تبدو على بُعد جبال فضية اللون، والقمر الثابت تقريبًا معلق في السماء، والوادي المرصع بالصبار أدناه ليس على المريخ. لم أصدق عيناي، ولكن الحقيقة فرضت نفسها ببطء - كنت أنظر إلى أريزونا من الحافة نفسها التي حدقت منها منذ عشر سنوات بشوق إلى المريخ.

دفنت رأسي بين ذراعيّ، واستدرت مُحطَّمًا وحزينًا خارج الكهف متجهًا نحو الدرب.

سطعت فوقي عين المريخ الحمراء وهي تحمل سرها الرهيب على بعد 48 مليون ميل.

هل وصل المريخي إلى غرفة المضخة؟ هل وصل الهواء المفعم بالحياة إلى سكان هذا الكوكب البعيد في الوقت المناسب لإنقاذهم؟ هل ديجاه ثوريس على قيد الحياة، أم يرقد جسدها الجميل باردًا في الموت بجوار حاضنة ذهبية صغيرة في الحديقة الغائرة بالفناء الداخلي لقصر تاردوس مورس، جيداك هيليوم؟

انتظرت وصلّيت طوال عشر سنوات لأحصل على إجابة على أسئلتي. انتظرت وصليت طوال عشر سنوات كي أؤخذ مرة أخرى إلى عالم حبي الضائع. كنت أفضل الموت بجوارها هناك على أن أعيش على كوكب الأرض بعيدًا عنها كل تلك الملايين الرهيبة من الأميال.

أما الكنز القديم، الذي وجدته كما هو دون مساس، فقد جعلني ثريًّا بشكل لا يُصدق؛ ولكن ما أهمية الثروة بالنسبة لي!

والآن، أجلس هنا الليلة في غرفة مكتبي الصغيرة التي تطل على نهر هدسون، أجد أن عشرين سنة قد انقضت منذ فتحت عيني لأول مرة على المريخ.

أستطيع أن أراه مشرقًا في السماء خلال نافذة مكتبي الصغيرة. والليلة، يبدو أنه يناديني مرة أخرى كما لم يفعل منذ ليلة الموت الطويلة تلك. وأعتقد أنني أستطيع أن أرى، عبر تلك الهاوية الضخمة في الفضاء، امرأة جميلة سوداء الشعر تقف في حديقة قصر، وبجانبها صبي صغير يضع ذراعه حولها وهي تشير إلى السماء نحو كوكب الأرض، بينما بجوار أقدامهما مخلوق ضخم وقبيح لكن قلبه من الذهب.

أعتقد أنهم ينتظرونني هناك، وشيء يقول لي إنني سرعان ما سأعرف.

* * *

انتهى الكتاب الأول:

أميرة المريخ

آلهة المريخ

ادجار رايس بوروز

ترجمة شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

مقدمة المؤلف

مرت اثنا عشر عامًا منذ أن أخذت جثمان عمي الرائع، كابتن جون كارتر من فرجينيا، بعيدًا عن أعين الرجال لأضعه في تلك المقبرة الغريبة في جبانة ريتشموند القديمة.

كثيرًا ما فكرت في التعليمات العجيبة التي تركها لي بشأن بنية قبره الفريد، لا سيما توجيهاته بوضع جثمانه في نعش مفتوح، واختيار آلية للتحكم في مزلاج باب القبو الضخم، لا يمكن فتحها إلا من الداخل.

مرت اثنا عشر عامًا منذ أن قرأت المخطوط الرائع الذي تركه هذا الرجل الفريد. هذا الرجل الذي لا يتذكر مرحلة طفولته ولا يمكنه حتى تخمين عُمره؛ فقد كان دائم الشباب، ومع ذلك أجلس جد جدي فوق ركبته لتدليله. هذا الرجل الذي أمضى عشر سنوات على كوكب المريخ، وقاتل من أجل رجال برسوم[5] الخُضر كما قاتل ضدهم، وقاتل من أجل الرجال الحُمر وضدهم وفاز بالجميلة ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم[6] ، زوجة له، وظل لما يقرب من عشر سنوات أميرًا في بيت تاردوس مورس، جيداك[7] هيليوم.

مرت اثنا عشر عامًا منذ العثور على جثته فوق المنحدر الذي يقع أمام بيته المُطل على نهر هدسون. وكثيرًا ما تساءلت خلال تلك السنوات الطويلة ما إذا كان جون كارتر قد مات بالفعل، أو ما إذا كان يجوب مرة أخرى قيعان البحر الميت لذلك الكوكب المُحتضر؛ وما إذا كان قد عاد إلى برسوم ليجد أنه تمكن من فتح تلك البوابات المتجهمة لمصنع الغلاف الجوي في الوقت المناسب لإنقاذ ملايين لا تُعد ولا تُحصى يموتون اختناقًا في ذلك اليوم الذي ولى منذ زمن بعيد، ثم اندفع ثانية بلا رحمة عبر 48 مليون ميل في الفضاء نحو كوكب الأرض. تساءلت عما إذا كان قد وجد أميرته ذات الشعر الأسود وابنه الصغير الذي كان يحلم به، ينتظران عودته في حدائق تاردوس مورس الملكية.

---

(5) برسوم: كوكب يسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom المترجمة.

(6) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium المترجمة.

(7) جيداك: ما يعادل الإمبراطور – http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query =Jeddak المترجمة.

أو ربما وجد أنه وصل متأخرًا، فعاد مرة أخرى إلى وفاة حية فوق عالم ميت؟ أو ... هل مات حقًّا، ولم يعُد أبدًا إلى كوكبه الأم، كوكب الأرض، ولا إلى كوكبه الحبيب، كوكب المريخ؟

كنت ضائعًا في تكهنات لا طائل منها، في أمسية شديدة الحرارة بشهر أغسطس، عندما سلمني بِن العجوز – خادمي - برقية. فتحتها وقرأت:

«قابلني غدًا في فندق رالي ريتشموند».

«جون كارتر».

أخذت أول قطار إلى ريتشموند في فترة مبكرة من صباح اليوم التالي، وخلال ساعتين كنت أدخل غرفة الفندق التي يشغلها جون كارتر.

نهض لتحيتي، وابتسامة الترحيب الودية القديمة تضيء وجهه الوسيم. لم يكبر في العُمر ولا لدقيقة واحدة، بل كان كما هو... مقاتل في الثلاثين من عمره، ممشوق القوام، وفي صحة جيدة. تشرق عيناه الرماديتان متوهجة، ولا توجد أي خطوط على وجهه سوى تلك الدالة على العزم والشخصية الحديدية التي كانت موجودة دائمًا عندما تذكرته أول مرة، أي ما يقرب من خمسة وثلاثين عامًا.

«حسنًا يا ابن أخي»، قال مُرَحِّبًا، «هل تشعر كأنك ترى شبحًا، أم تعاني تأثير الإكثار من شراب العم بن؟».

فقلت: «أعتقد أنه الشراب، فأنا أشعر أنني في حالة جيدة، ولكن ربما تأثرت من مجرد رؤيتك مرة أخرى. هل عُدت إلى المريخ؟ أخبرني. وماذا عن ديجاه ثوريس؟ هل وجدتها في حالة جيدة، وتنتظرك؟».

«نعم، لقد ذهبت إلى برسوم مرة أخرى؛ لكنها قصة طويلة، طويلة جدًّا بحيث يصعب أن أقصها عليك خلال هذه الفترة القصيرة قبل أن أعود. لقد عرفت السر، يا ابن أخي، ويمكنني اجتياز الفراغ غير المطروق حسب إرادتي، ذهابًا وإيابًا بين كواكب لا حصر لها. لكن قلبي دائمًا في برسوم، وما دام قلبي هناك في حفظ أميرتي المريخية، أشك أنني سأترك ثانية هذا العالم المُحتضِر الذي أصبح بمثابة حياتي».

«وقد جئت الآن لأن محبتي لك دفعتني أن أراك مرة أخرى قبل أن تنتقل نهائيًّا إلى تلك الحياة الأخرى التي لن أعرفها أبدًا. فعلى الرغم من أنني مُت ثلاث مرات، وسوف أموت مرة أخرى الليلة، فلا يمكنني أن أعرف الموت كما تعرفه أنت».

«بل يجهله مثلنا أيضًا الثيرنيون[8] الذين يتسمون بالغموض ويتمتعون بالحكمة في برسوم؛ فهم أتباع تلك العبادة القديمة التي كان يُعزى إليها لعدد لا يُحصى من العصور معرفة سر الحياة والموت، ويعيشون في معاقلهم المنيعة عند سفوح جبال أوتز. لقد تمكنت من إثبات ذلك، على الرغم من أنني كدت أن أفقد حياتي خلال هذه العملية؛ لكنك سوف تقرأ كل شيء في المذكرات التي كتبتها خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة منذ عودتي إلى كوكب الأرض».

ربت بيده فوق حافظة منتفخة على مائدة بجواره، يسند كوعه عليها.

«أعرف أنك مُهتم ومُقتنع، وأعرف أن العالَم مهتم أيضًا، على الرغم من أنهم لن يقتنعون بذلك لسنوات عديدة؛ نعم، لعصور عديدة، لصعوبة فهم الأمر. فتقدُّم رجال كوكب الأرض لم يصل حتى الآن إلى إمكانية إدراك الأشياء التي كتبتها في تلك المذكرات».

«يمكنك أن تعطيهم ما تشاء من هذه المذكرات، ما تعتقد أنه لن يضرهم، لكن دون أن تشعر بالضيق إذا ضحكوا عليك».

مشيت معه في تلك الليلة إلى المقبرة. وعند باب المدفن، استدار نحوي وضغط على يدي.

قال: «وداعًا يا ابن أخي. ربما لن أراك مرة أخرى، لأنني أشك في قدرتي على ترك زوجتي وابني ما داما على قيد الحياة، وفترة الحياة في برسوم تمتد غالبًا لما يزيد على ألف عام».

دخل المدفن، تأرجح الباب الكبير ببطء. عاد المزلاج الثقيل إلى مكانه، وطقطق القِفل منغلقًا. ومنذ ذلك الحين، لم أرَ كابتن جون كارتر من فرجينيا.

وها هي قصة عودته إلى المريخ، كما استقيتها من كتلة كبيرة من المذكرات التي تركها لي فوق مائدة غرفته بالفندق في ريتشموند.

هناك الكثير الذي تركته؛ والكثير الذي لم أجرؤ على سرده؛ لكنكم ستجدون قصة بحثه للمرة الثانية عن ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، أكثر روعة مما اشتمل عليه مخطوطه

---

(8) الثيرنيون أو الثيرن: هم عِرق مريخي أبيض البشرة وأصلع، يرتدون باروكات شقراء، ويتمتعون بقوى عقلية خارقة http://barsoom.wikia.com/wiki/Thern - المترجمة.

الأول الذي قدمته منذ فترة قصيرة إلى عالَم متشكك، وحيث تابعنا رحلة المقاتل الفيرجيني عبر قيعان البحر الميت تحت أقمار كوكب المريخ.

إدجار رايس بوروز

* * *

(1)
رجال النبات

عندما وقفت على المنحدر أمام كوخي في تلك الليلة الباردة في مطلع شهر مارس 1886، حيث يتدفق نهر هدسون النبيل كطيف رمادي صامت لنهر ميت، شعرت مرة أخرى بذلك التأثير القهري الغريب لإله الحرب، المريخ المحبوب، الذي ناشدته بأذرع ممدودة لعشر سنوات طويلة موحشة أن يحملني مرة أخرى إلى حبي المفقود.

لم أشعر بهذه الجاذبية التي لا تقاوَم لإله مهنتي منذ تلك الليلة في مارس 1866، عندما وقفت خارج كهف في أريزونا، وجسدي يرقد هامدًا بلا حياة ملفوفًا في لفائف الموت على كوكب الأرض.

وقفت ويداي ممدودتان نحو عين النجم العظيم الحمراء، وقفت أصلي راجيًا عودة تلك القوة الغريبة التي سحبتني مرتين عبر اتساع الفضاء، وقفت أصلي كما صليت لألف ليلة من قبل خلال السنوات العشر الطوال التي بقيت فيها أنتظر وآمل.

وفجأة اجتاحني وخز الغثيان، وتراخت حواسي، وتهاوت ركبتاي، وتأرجحت وأنا أسقط على الأرض عند حافة المنحدر مصابًا بدوار.

وعلى الفور شعرت بصفاء ذهني، واستدعت ذاكرتي تلك الصورة الحية لأهوال كهف أريزونا الشبحي. ومرة أخرى، كما حدث في تلك الليلة البعيدة، رفضت عضلاتي الاستجابة لإرادتي. ومرة أخرى، حتى هنا على ضفاف نهر هدسون الهادئ، سمعت الحفيف والأنين المروع لذلك الشيء المخيف الذي كان يترصدني ويهددني من تجاويف الكهف المظلمة. بذلتُ نفس الجهد الجبار الخارق للتغلب على هذا الخدر الغريب الذي انتابني، ومرة أخرى سمعت تلك النقرة الحادة، كأنما سلك مشدود يتمزق فجأة؛ ووقفت عاريًا ومتحررًا بجوار الجسد المحدق بلا حياة، الذي كان حتى وقت قصير نابضًا بشريان الحياة الدافئ لجون كارتر.

وبنظرة فراق، حولت عيني مرة أخرى نحو المريخ رافعًا يديَّ نحو أشعته المتوجهة، وانتظرت.

لم يطل انتظاري؛ فما إن استدرت مرة أخرى، حتى وجدتني انطلق بسرعة الفِكر عبر الفراغ المرعب أمامي. مررت بنفس لحظة البرد القارص والظلام المطلق التي خبرتها

منذ عشرين عامًا، ثم فتحت عيني في عالم آخر، تحت أشعة شمس حارة تنفذ خلال فتحه صغيرة في قبة الغابة الهائلة التي أرقد على أرضها.

بيد أن المشهد الذي رأته عيناي لم يكن مريخيًّا على الإطلاق، فشعرت أن قلبي ينخلع من مكانه حيث انتابني خوف مفاجئ من أن يكون مصيري القاسي قد قذف بي إلى كوكب آخر غريب.

ولم لا؟ فماذا يرشدني خلال امتداد الفضاء اللانهائي غير المطروق بين الكواكب؟ وماذا يضمن أنني أنا لم أندفع نحو نجم بعيد لنظام شمسي آخر، كما اندفعت نحو المريخ؟

أنا راقد الآن فوق مرجة عشب قصير أحمر اللون، ويمتد أمامي بستان من أشجار غريبة وجميلة، مُغطاة بأزهار ضخمة فائقة الجمال، ومملوءة بطيور رائعة لا صوت لها. وقد أطلقت عليها اسم طيور لأن لديها أجنحة، لكن العين البشرية لم تقع أبدًا على مثل هذه الأشكال المتفردة التي لا تنتمي إلى كوكب الأرض.

كانت النباتات تماثل تلك التي تغطي مروج الممرات المائية الكبرى لدى المريخيين الحُمر، لكن الأشجار والطيور كانت تختلف عن أي شيء رأيته من قبل على المريخ. كما رأيت من خلال الأشجار البعيدة مشهدًا غير مريخي على الإطلاق: مشهد بحر مفتوح، تلمع مياهه الزرقاء تحت الشمس المتوهجة.

وما إن نهضت لاستكشاف المزيد، حتى واجهت نفس الكارثة السخيفة التي واجهتني عندما حاولت السير لأول مرة في ظروف المريخ. فانخفاض الجاذبية على هذا الكوكب الصغير، فضلاً عن انخفاض ضغط الهواء في جو مخلخل إلى حد كبير، لم يتح لعضلاتي سوى القليل من المقاومة، بحيث إن المجهود العادي لمجرد النهوض رفعني عدة أقدام في الهواء، وقذفني لأسقط على وجهي فوق العشب الناعم الرائع في هذا العالم الغريب.

على أن هذه التجربة أكدت أنني ربما وصلت إلى موقع مجهول على كوكب المريخ، وهذا ممكن؛ فخلال إقامتي لعشر سنوات على هذا الكوكب لم أستكشف سوى مناطق قليلة نسبيًّا من مساحته الشاسعة.

نهضت مرة أخرى ضاحكًا؛ لأني نسيت، وسرعان ما أتقنت ثانية فن مواءمة عضلاتي مع هذه الظروف المتغيرة.

مشيت ببطء أسفل المنحدر التدريجي نحو البحر، ولاحظت مظهر المروج والأشجار الذي يشبه الحديقة. كان العشب مقصوصًا وممتدًّا كالبساط مثل المروج الإنجليزية القديمة، وبدت الأشجار نفسها مشذبة بعناية إلى ارتفاع موحد يبلغ حوالي خمس عشرة قدمًا عن الأرض، بحيث إذا التفت المرء ببصره في أي اتجاه يبدو مظهر الغابة من على بعد قصير كغرفة شاسعة ذات سقف مرتفع.

أقنعتني كل هذه الأدلة على الزراعة الدقيقة والمنهجية بأنني محظوظ لأن دخولي إلى المريخ هذه المرة الثانية أوصلني إلى موقع شعب متحضر، وعندما أجدهم سيمنحونني الاحترام والحماية التي أستحقها كأمير في بيت تاردوس مورس.

وخلال توجهي نحو البحر، أثارت أشجار الغابات إعجابي العميق. فجذوعها الضخمة، التي يبلغ قطر بعضها مائة قدم، تشهد على ارتفاعها المذهل الذي لا يمكنني سوى تخمينه؛ إذ لم أتمكن عند أي نقطة من اختراق أوراقها الكثيفة العلوية لأكثر من ستين أو ثمانين قدمًا.

وبقدر ما يمكنني أن أصل ببصري عاليًا، رأيت السيقان والفروع والأغصان في غاية السلاسة والتشذيب المصقول كأحدث بيانو أمريكي الصنع. كانت أخشاب بعض الأشجار سوداء كالأبنوس، بينما تلمع الأشجار القريبة منها، ربما في ضوء الغابة الخافت واضحة وبيضاء كأجود أواني الخزف الصيني؛ أو أنها كانت، مرة أخرى، زرقاء أو قرمزية أو صفراء أو من اللون الأرجواني الغامق.

وكانت أوراق الشجر بهيجة ومتنوعة مثلها مثل الجذوع، بينما يصعب وصف الأزهار التي تتجمع فوقها بأي لغة من لغات كوكب الأرض، بل ربما تتحدى في الواقع لغة الآلهة.

عندما اقتربت من حدود الغابة، رأيت أمامي رقعة واسعة من الأرض العشبية تقع بين البستان والبحر المفتوح. وعندما هممت للخروج من ظلال الأشجار، التقت عيناي بمشهد ألغى جميع تصوراتي الرومانسية والشاعرية حول جمال المنظر الطبيعي الغريب.

امتد البحر على يساري بقدر ما يمكن أن تصل العين، ولا يوجد أمامي سوى خط مبهم قاتم يشير إلى شاطئه الآخر؛ بينما يقع على يميني نهر جبار يتسم بالاتساع والهدوء والمهابة، ويتدفق بين الضفاف القرمزية ليصب في البحر الهادئ أمامي.

وعلى بُعد قليل من النهر، ترتفع منحدرات عمودية جبارة من نفس قاعدة انطلاق النهر.

على أن هذه الأدلة الرائعة والملهمة لعظمة الطبيعة لم تكن هي التي خطفت انتباهي فورًا بعيدًا عن جمال الغابة؛ بل كان مشهد عشرات من الأشخاص يتحركون ببطء نحو المرج العشبي القريب من ضفة النهر الهائل.

كانت أشكالهم غريبة وبشعة، تختلف عن أي شيء سبق أن رأيته على كوكب المريخ. على أن مظهرهم كان يبدو عن بُعد أنهم أشبه بالرجال. بدا طول أكبرهم، يتراوح بين 12-10 قدمًا عند وقوفهم منتصبين، بحيث يتناسب الطول مع الجذع والأطراف السفلية مثل رجال كوكب الأرض تمامًا.

ومع ذلك، كانت أذرعهم قصيرة للغاية. ومن حيث وقفت، بدا جسم الواحد منهم كجسم الفيل، ويتحرك حركة متموجة متعرجة كالثعبان كأنما دون هيكل عظمي على الإطلاق، أو إذا كانت هناك عظام فهي فقارية من حيث طبيعتها.

وخلال مشاهدتي لهم من خلف جذع شجرة ضخمة، تحرك أحد هذه المخلوقات ببطء في اتجاهي، مشاركًا في المهمة التي بدت شغلهم الشاغل، وهي تمرير أيديهم غريبة الشكل على سطح المرج لغرض لم أتمكن من تحديده.

رأيته جيدًا عندما اقترب مني. وعلى الرغم من أنني أصبحت في وقت لاحق أفضل معرفة بهذا النوع من الكائنات، يمكنني القول إن مجرد نظرة سريعة واحدة لهذا التشوه الفظيع للطبيعة، تكفي تمامًا لتأكيد رغبتي في أن أتمكن من التحليق طليقًا. إن أسرع طيار في بحرية هيليوم لا يمكنه أن يحملني بعيدًا بسرعة كافية عن هذا المخلوق البشع.

كان جسده خاليًا من الشَّعر، ولونه أزرق غريبًا كالغول، باستثناء شريط عريض أبيض يحيط بعينه الوحيدة الجاحظة: عين بيضاء ميتة بكل مكوناتها – الحدقة، والقزحية، والمُقلة.

وكان أنفه عبارة عن ثقب خشن مستدير ينفث غضبًا، يقع في وسط وجهه الفارغ؛ ثقب لا يشبه أي شيء يمكنني التفكير فيه، إلا جرح سببته رصاصة حديثة الإطلاق، ولم يبدأ بعد في النزف.

وأسفل هذه الفتحة الكريهة، كان الوجه فارغًا تمامًا إلى الذقن؛ إذ لم أتمكن من اكتشاف فم هذا الشيء.

أما الرأس، باستثناء الوجه، فهو مُغطى بكتلة متشابكة من شعر أسود كالفحم، يبلغ طوله حوالي ثماني أو عشر بوصات؛ وتماثل كل شعرة في ضخامتها حجم دودة الأرض.

وعندما يُحرك هذا الشيء عضلات رأسه، يبدو غطاء رأسه الفظيع هذا متلويًا متموجًا وزاحفًا حول الوجه المخيف كأنما لكل شعرة منفصلة حياة مستقلة.

كان الجسم والساقان يماثلان نظائرهم البشرية على نحو ما صاغته الطبيعة؛ كما كانت القدمان أيضًا بشريتين من حيث الشكل، ولكن بأبعاد وحشية: يبلغ طولها ثلاثة أقدام من الكعب حتى أخمص القدم، ومسطحة للغاية وعريضة جدًّا.

اكتشفت، عندما اقترب مني، أن حركاته العجيبة –تحريك يديه الغريبتين على سطح العشب– هي نتيجة لطريقته الغريبة في التغذية؛ حيث يجز النباتات الطرية بمخالبه التي تشبه موس الحلاقة، ثم يمتصها بفميه -الذي يقع كل منهما في كف إحدى يديه- عن طريق حلقه الشبيه بالذراع.

وبالإضافة إلى الملامح التي وصفتها، يمتلك الوحش ذيلاً ضخمًا يبلغ طوله حوالي ستة أقدام، ومستدير تمامًا عند موقع التحاقة بالجسد، لكنه يصبح نصلاً مسطحًا رفيعًا في نهايته التي تتخذ مع الأرض زاوية قائمة.

بيد أن السمة الأكثر بروزًا حتى الآن لهذا المخلوق اللافت للنظر هي نسختاه المتماثلتان الصغيرتان، التي تتدلى كل منهما من إحدى إبطيه ويبلغ طول الواحدة حوالي ست بوصات. كانتا معلقتين من جذع صغير يبدو أنه ينمو من قمم رؤوسهم تحديدًا إلى حيث يرتبطان بجسمه.

هل هما طفلاه الصغيران، أم مجرد أجزاء من مخلوق مُركّب ... لا أعرف.

خلال تفحصي لهذا المسخ الغريب، زاد اقتراب القطيع مني وهو يتغذى، فرأيت الآن أن العديد منهم لديهم هذه العينات الصغيرة ومع ذلك فهي لا تتدلى منهم جميعًا؛ كما لاحظت أيضًا أن أحجام هؤلاء الصغار تختلف بين ما يبدو براعم صغيرة غير مفتوحة يبلغ قطرها بوصة واحدة إلى مراحل مختلفة من النمو، وصولاً إلى مخلوق كامل النمو والتشكيل يتراوح طوله من عشر إلى اثنتي عشرة بوصة.

كان يتغذى مع القطيع العديد من الصغار الذين لم تزد أحجامهم كثيرًا عن الصغار المُلحقين بآبائهم؛ وقد تدرج القطيع من صغار بهذا الحجم إلى بالغين بحجم ضخم.

وعلى الرغم من منظرهم المخيف، لم أتمكن من تحديد ما إذا يجب أن أخاف منهم؛ فلم يكن يبدو أنهم مجهزون جيدًا للقتال. وعندما أوشكت على الخروج من مخبئي والكشف عن نفسي أمامهم، لأتبين تأثير رؤية رجل عليهم، انطلقت صرخة عويل غريبة من ناحية المنحدرات على يميني، وألغت لحسن حظي قراري المتهور.

فقد كنت عاريًا وغير مسلح، ولذا ربما كانت نهايتي لتصبح سريعة ورهيبة على أيدي هذه المخلوقات القاسية إذا كان لدي وقت لتنفيذ قراري بالظهور. مع انطلاق الصرخة، استدار كل فرد في القطيع نحو اتجاه صدور الصوت؛ وفي اللحظة نفسها ارتفعت كل شعرة ثعبانية على رؤوسهم عموديًّا، كأنما كل منها عبارة عن كائن حي واع ينظر أو يستمع إلى مصدر العويل أو معناه. وقد ثبت في الواقع أن هذا صحيح؛ إذ إن هذا النمو الغريب على جماجم رجال النبات في برسوم يمثل ألف أُذن لهذه المخلوقات البشعة - البقايا الأخيرة للجنس الغريب الذي انطلق من شجرة الحياة الأصلية.

تحولت كل الأعين على الفور نحو فرد بعينه في القطيع؛ شخص ضخم ومن الواضح أنه الزعيم. أصدر صوت خرير غريبًا من فم يوجد في راحة إحدى يديه، وبدأ في الوقت نفسه يتحرك بسرعة نحو المنحدر، ويتبعه القطيع بأكمله.

لفتت نظري سرعتهم وطريقة حركتهم، فهم يتحركون بقفزات كبيرة تصل إلى عشرين أو ثلاثين قدمًا، وتشبه كثيراً طريقة الكانجارو.

تصورت أنهم يتحركون متتابعين، بيد أنهم كانوا يختفون بسرعة. لذا، وتوخيًا للحذر، انطلقت في أعقابهم عبر المرج بقفزات مذهلة تفوقت حتى عليهم؛ فعضلات رجل رياضي من كوكب الأرض تسفر عن نتائج رائعة في ظل ظروف انخفاض ضغط الجاذبية والهواء على المريخ.

قاد طريقهم مباشرة إلى منبع النهر عند قاعدة المنحدرات. وعندما اقتربت إلى هذه النقطة، وجدت المرج مليئًا بصخور ضخمة، يبدو واضحًا أن آثار الزمن أزاحتها من الجرف الشاهق أعلاه.

ولذا اقتربت كثيراً لمعرفة سبب الاضطراب، قبل أن ينكشف المشهد أمام نظرتي المذعورة. صعدت فوق صخرة كبيرة، ورأيت قطيع رجال النبات يحيط بمجموعة صغيرة من أربعة أو خمسة رجال ونساء برسوم الخُضر.

لم يعُد لدي شك أنني على المريخ بالفعل، فها هم أفراد الجماعات الوحشية التي تسكن قيعان البحر الميت والمدن المهجورة في هذا الكوكب المحتضر.

ها هم الذكور العظماء فارعو الطول بكل جلال طول قامتهم المهيب؛ وها هي أنيابهم البيضاء اللامعة تبرز من الفك الأسفل الضخم، وصولاً إلى نقطة قريبة من مركز جباههم؛ وأعينهم الأفقية الجاحظة التي ينظرون بها إلى الأمام أو إلى الخلف، أو إلى أي من الجانبين دون أن يُديروا رؤوسهم؛ وآذانهم الغريبة التي تشبه الهوائيات ترتفع من قمة

جباههم؛ والزوج الإضافي من الأذرع التي تمتد من منتصف المسافة بين الكتفين والوركين.

لقد عرفتهم على الفور، حتى من دون البشرة الخضراء اللامعة والحلي المعدنية التي تشير إلى القبائل التي ينتمون إليها؛ فأين يمكن أن يتكرر أشباههم في جميع أنحاء الكون؟

ضمت المجموعة رجلين وأربع إناث، ودلت حليهم على انتمائهم لجماعات مختلفة. وهو الأمر الذي أثار حيرتي الشديدة؛ لأن مختلف جماعات برسوم الخُضر في حرب مميتة دائمة مع بعضهم بعضًا، ولم أشهد أبدًا مريخيين خُضرًا ينتمون إلى جماعات مختلفة يرتبطون مًعا في أي شيء غير قتال دموي، باستثناء تلك الواقعة التاريخية الوحيدة عندما جمع تاركاس تاركاس من ثارك[9] مائة وخمسين ألف محارب أخضر من عدة جماعات في مسيرة إلى مدينة زودانجا سيئة المصير؛ لإنقاذ ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، من براثن ثان كوسيس.

لكنهم يقفون الآن ظهرًا بظهر، يواجهون بأعين متسعة في ذهول تجليات العداء الواضح من عدو مشترك.

كان الرجال والنساء مسلحين بسيوف طويلة وخناجر، وليس لديهم أي أسلحة نارية، وإلا لكانوا سرعان ما أجهزوا على رجال النبات البشعين في برسوم.

انقض الآن زعيم رجال النبات على المجموعة الصغيرة بأسلوب في الهجوم لافت للنظر وفعال، تكمن قوته في غرابته. ولأن علوم المحاربين الخُضر لا تضم دفاعات في مواجهة هذه الطريقة الفريدة في الهجوم، فسرعان ما تبينت أنها طريقة غير مألوفة لهم كما كانت المسوخ التي يواجهونها غير مألوفة لهم أيضًا.

هجم رجل النبات من على بُعد اثني عشر قدمًا من المجموعة، ثم ارتفع بقفزة هائلة فوق رؤوسهم مباشرة. كان يرفع ذيله القوي جانبًا، وأنزله خلال مروره فوقهم في اكتساح هائل سحق جمجمة محارب أخضر كأنها قشرة بيضة.

تحرك القطيع المخيف الآن بسرعة مذهلة متحلقًا حول زمرة الضحايا صغيرة العدد. وكانت قفزاتهم وصيحاتهم الجبارة، التي تنطلق كالأزيز من أفواههم الغريبة، محسوبة جيدًا لإرباك وإرهاب فرائسهم، بحيث عندما قفز اثنان منهم في وقت واحد من الجانبين،

---

(9) ثارك: جماعة المريخيين الخُضر – http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query =Thark المترجمة.

لم يلق اكتساح ذيولهم القوية البشعة أي مقاومة، ومات بخِسة اثنان من المريخيين الخُضر.

لم يتبق الآن سوى محارب واحد وامرأتين، وبدا أن ثلاثتهم سيموتون خلال بضع ثوان أيضًا بالسيف القرمزي.

ولكن مع هجوم اثنين آخرين من رجال النبات، فإن المحارب الذي أصبح الآن مستعدًّا بعد خبرة الدقائق القليلة الماضية، قام بأرجحة سيفه الطويل القوي عاليًا وسدد ضربة نحو الأجساد الضخمة المندفعة نحوه فأصاب أحدهما بقطع حاد من الذقن إلى الفخذ.

بيد أن الثاني سدد ضربة واحدة بذيله القاسي، مما أدى إلى سحق جسدي المرأتين وسقوطهما على الأرض.

وعندما شاهد المحارب الأخضر سقوط آخر رفاقه، وأدرك في الوقت نفسه أن القطيع بأكمله يهاجمه كتلة واحدة، اندفع بجرأة لمواجهتهم وسيفه الطويل يتأرجح على نحو مرعب، كثيراً ما رأيت الرجال من جنسه يمارسونه ببراعة في حربهم الشرسة الدائمة تقريبًا بينهم.

ظل المحارب يسدد الضربات يمينًا ويسارًا إلى أن شق مسارًا مفتوحًا عبر رجال النبات المتقدمين، ثم بدأ في سباق مجنون نحو الغابة - المأوى الذي كان يأمل بوضوح أن يجد فيه ملاذًا آمنًا يلجأ إليه.

اتجه نحو ذلك الجزء من الغابة الذي يتاخم المنحدرات. وهكذا أخذ السباق المجنون القطيع بأكمله بعيدًا عن الصخرة التي رقدت خلفها مختبئًا.

عندما شاهدت القتال النبيل الذي خاضه المحارب العظيم في مواجهة هذه الصعاب الهائلة، خفق قلبي إعجابًا به، وتصرفت حسبما تعودت، أي اعتمادًا على دوافعي أكثر منه على مناقشة ناضجة؛ فانطلقت على الفور من وراء الصخرة التي تأويني، وقفزت بسرعة في اتجاه أجساد المريخيين الخُضر الأموات، وقد تشكلت لدي بالفعل خطة عمل جيدة.

أوصلتني عدة قفزات كبيرة إلى الموقع المطلوب، وبعد لحظات قليلة كنت أخطو خطوات واسعة في مطاردة سريعة للوحوش البشعة التي كانت تقترب بسرعة من المحارب الهارب. أمسكت في يدي هذه المرة بسيف طويل قوي، وشهوة الدم القديمة

للمقاتل تتدفق في قلبي، والضباب الأحمر يحوم أمام عيني، وشعرت أن شفتي تستجيبان لقلبي في تلك الابتسامة القديمة التي كانت تميزني دائمًا في خضم بهجة المعركة.

لم أصل في الوقت المناسب رغم سرعتي؛ إذ لحقوا بالمحارب الأخضر بعد أن قطع نصف المسافة إلى الغابة. وهو يقف الآن وظهره إلى صخرة، في حين توقف القطيع مؤقتًا، يهسهسون ويصرخون حوله.

ونظرًا لأن لكل منهم عينًا واحدة في وسط رأسه، وكل أعينهم تحولت نحو فريستهم، لم يلحظوا اقترابي الصامت. وبالتالي انقضضت عليهم بسيفي الطويل العظيم وقتلت أربعة منهم، وبعدها فقط أدركوا وجودي بينهم.

تراجعوا للحظة أمام هجومي الهائل، وفي الوقت نفسه انتهز المحارب الأخضر هذه الفرصة وقفز إلى جانبي، وهو يضرب بسيفه يمينًا ويسارًا على نحو لم أشهد أحدًا يفعله من قبل سوى محارب واحد. وبضرباته الدائرية الكبيرة، التي اتخذت شكل الرقم 8 حوله، أخذ نصله الحاد يمر خلال اللحم والعظم والمعادن كما لو كانت بمثابة هواء رقيق، ولم يتوقف إلا بعد أن أجهز على أي خصم حي واجهه.

وخلال انشغالنا بالمذبحة، ارتفعت فوقنا من على بُعد تلك الصرخة الحادة الغريبة التي سمعتها من قبل، واستدعت القطيع للهجوم على ضحاياهم. ارتفعت مرارًا وتكرارًا، لكننا كنا منشغلين تمامًا في مواجهة المخلوقات الشرسة القوية حولنا بحيث يصعب علينا محاولة للبحث، حتى بأعيننا، عن صاحب تلك الصرخات المروعة.

أخذت الذيول الكبيرة تضربنا في غضب محموم؛ وجرحت مخالبهم الشبيهة بالأمواس أطرافنا وأجسادنا؛ وتلوثنا من الرأس إلى القدم بسائل أخضر لزج، مثل السائل المتسرب من سحق يرقة فراشة؛ فكل جرح أو طعنة من سيوفنا الطويلة كان يغمرنا بهذه المادة التي تسري بلزوجة بطيئة -بدلاً من الدماء- في شرايين رجال النبات.

وما إن شعرت بثقل أحد الوحوش الكبيرة على ظهري، وغُرزت مخالبه الحادة في جسدي، حتى واجهت إحساسًا مخيفًا بشفاه رطبة تمص دماء الحياة من الجروح التي لا تزال المخالب تتشبث بها.

كنت مشتبكًا مع مخلوق شرس يحاول الوصول إلى حلقي من الأمام، بينما كان اثنان آخران، واحد من كل جانب، يجلداني بذيليهما بشراسة.

كان المحارب الأخضر منخرطًا في قتاله، وشعرت بأن الصراع غير المتكافئ يمكن أن ينتهي. لكن زميلي الضخم اكتشف محنتي بعد فترة قصيرة، وتملص ممزقًا نفسه من

أولئك الذين يحيطون به، وأبعد المعتدي عن ظهري بضربة واحدة من نصله؛ وما إن تخففت من هذا العبء، حتى لم أواجه صعوبات تُذكر في مواجهة الآخرين.

ما إن أصبحنا معًا، حتى وقفنا ظهرًا بظهر مستندين على الصخرة الكبيرة، وهو ما حال دون قفز المخلوقات فوقنا لتسديد ضرباتهم القاتلة. كنا دون ريب أندادًا لهم ما داموا على الأرض ولا يقفزون، ولذا أحرزنا تقدمًا كبيرًا في قتل من تبقى منهم، إلى أن جذبت انتباهنا مرة أخرى صيحات العويل الحادة فوق رؤوسنا.

ألقيت هذه المرة نظرة إلى أعلى، فرأيت على مسافة بعيدة فوقنا شرفة طبيعية صغيرة في مواجهة الجرف، يقف فيها مخلوق غريب بهيئة رجل يصدر صيحات إشاراته الحادة، بينما يلوح بإحدى يديه في اتجاه مصب النهر كأنما يشير إلى شخص ما هناك، ويشير بيده الأخرى نحونا.

إن لمحة خاطفة في الاتجاه الذي ينظر إليه كانت كافية لأن أدرك أهدافه، وأن تملأني في الوقت نفسه بالرهبة من مخاوف شديدة؛ إذ كان يتدفق نحونا من جميع الاتجاهات عبر المرج، من خارج الغابة ومن الأرض المنبسطة عبر النهر التي تقع على مسافة بعيدة، مائة خط مختلف لمخلوقات تقفز بوحشية مثل تلك المخلوقات التي نواجهها الآن، وبصحبتهم وحوش جديدة غريبة تركض بسرعة هائلة، تتحرك منتصبة أحيانًا ثم على أربع في أحيان أخرى.

«سيكون موتًا عظيمًا»، قلت لرفيقي. «انظر!».

ابتسم، وهو يلقي نظرة سريعة في الاتجاه الذي أشرت إليه.

وأجاب: «على الأقل سنموت ونحن نقاتل، وكما يجب أن يموت المحاربون العظام، جون كارتر».

جاءت كلماته بعد أن انتهينا للتو من آخر خصومنا المباشرين، واستدرت مندهشًا عندما سمعت اسمي.

وأمام عيني المندهشة، رأيت أعظم رجال برسوم الخُضر؛ أكثر رجال الدولة بصيرة، وأعتى جنرالاتها، إنه صديقي العظيم الطيب تارس تاركاس، جيداك ثارك.

* * *

(2)
معركة الغابة

لم نجد أنا وتارس تاركاس وقتًا لتبادل الخبرات ونحن نقف هناك أمام صخرة كبيرة وتحيط بنا جثث مهاجمينا البشعين؛ فقد كان يتدفق من جميع اتجاهات الوادي الفسيح تيار جارف من مخلوقات مرعبة، استجابة للدعوة العجيبة التي أطلقها ذلك الشخص الغريب القابع على مسافة فوقنا.

صاح تارس تاركاس: «تعال، علينا أن نصل إلى المنحدرات. هناك يكمن أملنا الوحيد للهروب حتى وإن كان مؤقتًا؛ فقد نجد كهفًا أو نتوءًا ضيقًا يمكننا منه أن ندافع عن أنفسنا إلى الأبد في مواجهة هذا الحشد المتعدد غير المسلح».

ركضنا معًا عبر المرج القرمزي، وضبطت سرعتي بحيث لا أتجاوز سرعة رفيقي الأبطأ. ربما علينا أن نقطع ثلاثمائة ياردة بين صخرتنا والمنحدرات، ثم نبحث عن مأوى مناسب لمواجهة تلك الأشياء المرعبة التي تطاردنا.

كانوا يلحقون بنا سريعًا. وعندئذ صاح تارس تاركاس طالبًا مني أن أسرع إلى الأمام وأكتشف، إن أمكن، الملاذ الذي ننشده. كان اقتراحه جيدًا، إذ يمكننا بذلك توفير بضع دقائق ذات قيمة. استعنت بكل ما أمكنني من عضلات كوكب الأرض، وقطعت المسافة المتبقية بيني وبين المنحدرات بقفزات جبارة أوصلتني في لحظة إلى قاعدة المنحدرات.

ترتفع المنحدرات عموديًّا مباشرة من المرج المستوي تقريبًا في الوادي. وعلى عكس جميع المنحدرات الأخرى تقريبًا التي رأيتها من قبل، لم أجد هناك أي تراكمات لحطام ساقط، مما جعل صعودي عسيراً إلى حد ما. كانت الصخور المتناثرة التي سقطت من أعلى تستقر على العشب أو تُدفن فيه جزئيًّا، وهي العلامة الوحيدة على حدوث تحطم سابق لكومة الصخور الضخمة الشاهقة.

أول فحص سريع قمت به لسطح المنحدرات أثار في قلبي نذر الشر، إذ لم أجد مكانًا يمكنني أن أستشف منه أي إشارة ضعيفة لمجرد موطئ قدم على الجرف الشاهق، إلا حيث وقف ذلك المُنادي الغريب يطلق الدعوة الصارخة.

اختفى قاع المنحدر على يميني بين كثافة أوراق أشجار الغابة، التي انتهت عند سفحه، وارتفعت أوراقها الرائعة إلى ألف قدم في مواجهة صرامة الأشجار المجاورة المنيعة.

امتد الجرف على اليسار، دون انقطاع واضح، عبر الوادي الفسيح، إلى أن اختفى في خطوط عريضة لمجموعة من الجبال الهائلة التي تحيط بالوادي وتطوقه من جميع الاتجاهات.

ويبدو أن مسار النهر تعرج على بُعد ربما يصل إلى ألف قدم، عند قاعدة المنحدرات مباشرة. ونظرًا لعدم وجود أي فرصة ولو بعيدة للهروب في هذا الاتجاه، فقد حولت انتباهي مرة أخرى نحو الغابة.

ارتفعت المنحدرات فوقي بحوالي خمسة آلاف قدم. لم تكن الشمس فوقها تمامًا، ولاح لون المنحدرات أصفر باهتًا في ظلها. وكانت تقطعها، هنا وهناك، خطوط وبُقع باللونين الأحمر الداكن والأخضر، وأحيانًا مساحات متباعدة من الكوارتز الأبيض.

كانت في مجملها رائعة الجمال، وأخشى أنني لم أنظر إليها بعين تُقدرها بصفة خاصة عند أول تفحصي لها.

فقد كنت مستغرقًا فيها كمجرد وسيلة للهرب. وهكذا عندما طافت نظرتي سريعًا مرة أخرى على هذه الرقعة الشاسعة بحثًا عن صدع أو فجوة، شعرت فجأة بالكراهية تجاهها كما يشعر السجين بالاشمئزاز من جدران زنزانته القاسية المنيعة.

كان تارس تاركاس يقترب مني سريعًا، وفي أعقابه حشد فظيع أكثر سرعة.

يبدو الآن أنها الغابة أو لا شيء. كنت على وشك الإشارة إلى تارس تاركاس ليتبعني في ذلك الاتجاه، عندما مرت الشمس فوق قمة الجرف ومست أشعتها الساطعة سطحه المعتم، فتوهجت مليون بقعة ضوء متلألئة من الذهب المصقول، والأحمر المتوهج، ودرجات الأخضر الفاتح والأبيض اللامع – أروع مشهد وأكثرها إلهامًا يمكن أن تقع عليه عين بشرية.

كان سطح الجرف بأكمله -كما أثبت بشكل قاطع تفحصي اللاحق-

مملوءًا بعروق وبقع من الذهب الخالص بحيث يُعطي مظهر جدار متين من هذا المعدن الثمين، باستثناء المواضع التي تتخللها بروزات من الياقوت، والزمرد، وصخور

الألماس- وهي إشارة ضعيفة ومغرية لثروات هائلة غير معروفة، مدفونة عميقًا تحت هذا السطح الرائع.

على أن أكثر ما أثار انتباهي في لحظة تلألؤ سطح الجرف بفِعل أشعة الشمس، هو البقع السوداء العديدة التي تبدو عالية الآن بوضوح شديد عبر الجِدار الرائع القريب من أعلى الغابة، وتمتد على ما يبدو أدناه ووراء الفروع.

أدركت على الفور أنها الفتحات المظلمة لكهوف الدخول عبر الجدران الصلبة - تبدو سُبُلاً ممكنة للهرب أو ملاذًا مؤقتًا، إذا أمكننا الوصول إليها.

لم يكن هناك سوى طريق واحد، يمر خلال الأشجار الضخمة الشاهقة على يميننا. كنت أعرف أن بإمكاني تسلقها، لكن تارس تاركاس، بجسده الضخم ووزنه الكبير، ربما يجدها مهمة تتجاوز بسالته أو مهارته؛ فالمريخيون في أحسن الأحوال لا يجيدون التسلق. لم أشهد أبدًا من قبل على سطح هذا الكوكب القديم بأكمله تلالاً أو جبالاً يتجاوز ارتفاعها أربعة آلاف قدم فوق قيعان البحر الميت؛ ولما كان يصعدون عادة إلى قمتها تدريجيًّا، فلم تكن تمُثل سوى فرص قليلة لممارسة التسلق. كما أن المريخيين لم يقتنصوا أبدًا حتى تلك الفرص؛ لأنهم يجدون دومًا مسارًا ملتويًا حول قاعدة أي ربوة، وهم يفضلون اتباع هذه المسارات عن اتباع طرق أقصر ولكن أكثر صعوبة.

ومع ذلك، لم يكن أمامنا شيء آخر سوى محاولة تسلق الأشجار المجاورة للجرف، بغية الوصول إلى الكهوف العلوية.

أدرك الثاركي على الفور الإمكانيات والصعوبات التي تكتنف هذه الخطة، ولكن ما من بديل؛ فانطلقنا بسرعة نحو الأشجار الأقرب إلى الجرف.

اقترب منا الآن مطاردونا المثابرون إلى حد أنه بدا من المستحيل على الإطلاق أن يصل جيداك ثارك إلى الغابة قبلهم، كما لم تكن هناك أي إرادة كبيرة في الجهود التي يبذلها تارس تاركاس؛ فرجال برسوم الخُضر لا يلجأون إلى الهروب، ولم أشهد أبدًا من قبل أيًّا منهم يهرب من الموت مهما كان الشكل الذي يواجهه به. وتارس تاركاس هو أشجع الشجعان، كما أثبت آلاف المرات؛ نعم، عشرات الآلاف من المرات في عدد لا يُحصى من المعارك المميتة مع الرجال والوحوش. ولذلك كنت أعرف أن هناك سببًا آخر وليس الخوف من الموت وراء هروبه؛ لأنه يعرف أن قوة أكبر من كبرياء أو الشرف هي حافزي للهروب من هذه الكائنات التدميرية الشرسة. في حالتي كان الحب - حب ديجاه ثوريس؛ لكنني لم أستطع فهم سبب حب الثاركي المفاجئ الكبير للحياة؛ لأنهم يسعون

غالبًا إلى الموت أكثر من الحياة – هؤلاء الناس القساة، غريبو الأطوار، الذين يعيشون بلا حب، وبلا سعادة.

بيد أننا وصلنا إلى ظلال الغابة بعد فترة، بينما انطلق وراءنا أسرع المطاردين، أحد عمالقة رجال النبات، الذي يمد مخالبه كي يتمكن من تثبيت أفواهه الماصة للدماء في أجسادنا.

لقد كان متقدمًا عن أقرب رفيق له بمائة ياردة، ولذا دعوت تارس تاركاس أن يصعد فوق شجرة كبيرة تلمس سطح الجرف بينما أقتل مطارده، مما يعطي الثاركي الأقل رشاقة فرصة للوصول إلى الفروع العلوية قبل أن يدركنا الحشد بأكمله ويضيع ما تبقى من إمكانية للهروب.

لكنني اعتمدت، دون تقدير عادل، على مكر خصمي المباشر أو سرعة زملائه في قطع المسافة التي تفصلهم عني.

وعندما رفعت سيفي الطويل لقتل هذا المخلوق بطعنة النهاية، توقف ولم يهاجمني. وعندما انخفض سيفي في الهواء دون إلحاق أذى، دفع ذيله الكبير سيفي بقوة ذراعه وألقاني من قدمي إلى الأرض. وفي لحظة كان الوحش جاثمًا فوقي، لكنني أمسكت بمجسات اللمس في كلتا يديه قبل أن يتمكن من إحكام أفواهه البشعة على صدري وحلقي.

كانت عضلات رجل النبات ثقيلة وقوية، لكن عضلاتي ورشاقتي الكبيرة لانتمائي لكوكب الأرض، علاوة على قبضتي الخانقة المميتة، كان يمكن أن تمنحني -كما أعتقد- نصرًا في نهاية المطاف؛ هذا إن كان لدينا وقت لمناقشة مزايا براعتنا النسبية. على أننا كنا نجاهد ونكافح عند الشجرة التي يتسلقها تارس تاركاس بصعوبة شديدة، ولمحت فجأة من فوق كتف خصمي أن سرب المطاردين الكبير أصبح الآن على وشك الوصول والهجوم.

وأخيراً رأيت طبيعة الوحوش الأخرى التي صاحبت رجال النبات استجابة للاستدعاء الغريب من الرجل الذي يقف على سطح الجرف. كانت أفظع مخلوقات المريخ - القرود البيضاء الكبيرة في برسوم.

كنت أعرفهم وأعرف أساليبهم تمامًا من خلال تجاربي السابقة على المريخ. ويمكنني القول إن القرود البيضاء هم أكثر سكان هذا العالم الغريب ترويعًا وفظاعة، وغرابة، وبشاعة، بما يجعلني أقرب إلى معرفة الإحساس بالخوف.

وأعتقد أن سبب هذا الشعور الذي تولده هذه القرود داخلي يرجع إلى تشابهها الملحوظ من حيث الشكل برجال كوكب الأرض، مما يعطيهم مظهرًا بشريًّا شديد الغرابة مع اقترنه بحجمهم الضخم.

يبلغ طول الواحد منهم خمسة عشر قدمًا، ويسيرون منتصبين على قدميهم الخلفيتين. ومثلهم مثل المريخيين الخُضر، لديهم مجموعة وسيطة من الأذرع في منتصف المسافة بين أطرافهم العليا والسفلى. أعينهم شديدة التقارب، لكنها ليست بارزة كأعين رجال المريخ الخُضر؛ وآذانهم عالية، لكن موقعها جانبي أكثر من موقع آذان الرجال الخُضر؛ بينما أنوفهم البارزة وأسنانهم تشبه كثيراً نظيرتها لدى الغوريلا الأفريقية على كوكب الأرض. وينمو على رؤوسهم كومة هائلة من الشعر الخشن.

حدقت من فوق كتف عدوي في أعينهم وأعين رجال النبات المرعبين؛ ثم في موجة قوية من الزمجرة، والزجر، والصراخ، وخرخرة الغضب، انقضّوا نحوي – ومن بين جميع الأصوات التي هاجمت أذني وأنا أسقط تحتهم، كانت أبشعها خرخرة رجال النبات المروعة.

وعلى الفور انغرست أنياب قاسية ومخالب حادة في جسدي؛ وثبتت شفاه باردة ماصة نفسها فوق شراييني. كافحت لتحرير نفسي؛ وعلى الرغم من أنني كنت مثقلاً بأجسادهم الضخمة فوقي، فقد نجحت في النهوض على قدمي وأنا قابض على سيفي الطويل، ومُقلصًا قبضتي عليه حتى يمكنني استخدامه كخنجر، فأوقعت الفوضى بينهم ووقفت للحظة متحررًا.

إن ما استغرق مني دقائق في كتابته، قد حدث في بضع ثوان. شهد تارس تاركاس محنتي خلال تلك الفترة وقفز من الفروع السفلي التي وصل إليها بجهد شاق؛ وما إن طرحت خصومي المباشرين أرضًا، حتى قفز الثاركي العظيم إلى جانبي وقاتلنا مرة أخرى ظهرًا بظهر، كما فعلنا مئات المرات من قبل.

هاجمتنا القرود الشرسة مرارًا وتكرارًا، وأبعدناهم بسيوفنا مرارًا وتكرارًا. كانت ذيول رجال النبات الكبيرة تجلدنا بقوة هائلة وهم يهاجموننا من اتجاهات مختلفة، أو يقفزون بخفة كلاب الصيد فوق رؤوسنا؛ لكن كل هجوم كان يواجه سيفين لامعين في أيدي من اشتهرا لعشرين عامًا بأنهما أفضل من عرفهما المريخ؛ إذ كان تارس تاركاس وجون كارتر اسمين يحب المقاتلون في عالم الحرب الكلام عنهما.

ولكن حتى أفضل المبارزين في عالم المقاتلين لا يمكنهم الاستمرار إلى الأبد ضد هذه الأعداد الساحقة من الوحوش الشرسة الهمجية التي لا تعرف معنى الهزيمة إلى أن

يصل النصل البارد إلى قلوبهم ويوقفها عن الخفقان؛ وهكذا، اضطررنا للتراجع خطوة خطوة. وقفنا مطولاً مستندين إلى الشجرة العملاقة التي اخترناها للصعود، ومع اشتداد الهجمات واحدة تلو الأخرى، تراجعنا ثانية، إلى أن اضطررنا للتراجع إلى منتصف الطريق حول قاعدة الجذع الهائل الضخمة.

كان تارس تاركاس في الصدارة، وفجأة سمعته يطلق صيحة ابتهاج.

قال: «هنا يوجد مأوى لشخص واحد على الأقل، جون كارتر». ألقيت نظرة ورأيت فتحه يبلغ قطرها حوالي ثلاثة أقدام تقع أسفل قاعدة الشجرة.

صحت قائلاً: «لندخل معًا، تارس تاركاس»؛ لكنه قال إنه لن يدخل؛ لأن حجمه كبير بالنسبة للفتحة الصغيرة، بينما يمكنني أن أنزلق داخلها بسهولة.

«سيموت كلانا إذا بقينا في الخارج، جون كارتر؛ هذه فرصة ضئيلة لأحدنا. انتهزها، ويمكنك أن تعيش لتنتقم لي. ليس مُجديًا أن أحاول شق طريقي داخل فتحه صغيرة، وهذا الحشد من الشياطين يحيط بنا من جميع الجوانب».

أجبته: «إذن نموت معًا، تارس تاركاس، لأنني لن أذهب أولاً. بل سأدافع عن هذه الفتحة بينما تدخل، ثم ستتيح لي قامتي الأصغر أن

أنزلق داخلها معك قبل أن يتمكنوا من منعي».

كنا نقاتل بشراسة ونحن نتحدث جملاً متقطعة، تتخللها جروح وضربات وحشية من أعدائنا المحتشدين.

وافق أخيرًا، فهذا هو السبيل الوحيد أمامنا لينجو أحدنا من أعداد مهاجمينا المتزايدين، إذ لا يزالون يحتشدون من جميع الاتجاهات عبر الوادي الواسع.

قال: «إنها طريقتك دائمًا، جون كارتر، أن تكون حياتك هي آخر ما تفكر فيه، وهي أيضًا طريقتك أن تقود حياة الآخرين وأفعالهم، بما ينطبق حتى على أعظم الجيداك الذين يحكمون برسوم».

بدت على وجهه الصلب القاسي ابتسامة قاتمة، إذ اضطر وهو أعظم جيداك في برسوم إلى الانصياع لما يمليه مخلوق من عالم آخر... رجل لا يتمتع بنصف مكانته.

ثم قال: «إذا فشلت، جون كارتر، عليك أن تعرف أن الثاركي القاسي عديم الرحمة، الذي علمته معنى الصداقة، سوف يخرج ليموت بجوارك».

أجبته: «كما تشاء يا صديقي، ولكن أسرع الآن، ادخل أولاً بينما أغطي انسحابك».

تردد قليلاً عند هذه الكلمة، فلم ينسحب أبدًا من قبل في حياته كلها - وهي حياة من القتال المتواصل – إلا أمام عدو ميت أو مهزوم.

استعجلته قائلاً: «أسرع، تارس تاركاس، أو ستحيق بنا هزيمة بلا طائل؛ فلا يمكنني أن أمنعهم بمفردي إلى الأبد».

عندما هبط إلى الأرض لشق طريقه داخل الشجرة، تكالبت كل مجموعة الشياطين البشعة فوقي وهي تعوي. كان نصل سيفي اللامع يتحرك يمينًا ويسارًا، يتلون الآن بالأخضر من السائل اللزج لرجل النبات، والآن بالأحمر من الدم القرمزي للقرد الأبيض الكبير؛ لكنه ينطلق دائمًا من خصم إلى آخر، مترددًا لجزء من الثانية لشُرب دماء الحياة من بعض القلوب المتوحشة.

وهكذا قاتلت كما لم أقاتل أبدًا ضد هذه الكائنات المخيفة. ولا أعرف حتى الآن كيف صمدت عضلات الإنسان أمام ذلك الانقضاض المروع، وذلك الوزن الهائل لأطنان من اللحم تندفع مقاتلة بشراسة.

ضاعفت تلك المخلوقات جهودها لتنال مني، خشية أن نتمكن من الهرب منها. وعلى الرغم من أن الأرض حولي كانت مكدسة بكومة عالية من رفاقهم الموتى والمحتضرين في الرمق الأخير، فقد نجحوا أخيراً في هزيمتي وبدأت أسقط تحتهم للمرة الثانية اليوم، ومرة أخرى شعرت بتلك الشفاه الماصة الشنيعة تنغرس في لحمي.

ولكن قبل سقوطي مباشرة، شعرت بأيد قوية تمسكني من الكاحلين، وفي الثانية التالية تجرني إلى المأوى داخل الشجرة. كان صراعًا عنيفًا امتد للحظة بين تارس تاركاس ورجل ضخم من رجال النبات الذي تشبث بصدري في عناد، لكنني تمكنت الآن من الوصول إلى سيفي الطويل أسفله وفتكت به بطعنة قوية اخترقته.

رقدت لاهثًا على الأرض داخل تجويف الشجرة، وأنا ممزق وأنزف من جروح شديدة كثيرة، بينما يدافع تارس تاركاس عن فتحة التجويف ضد الغوغاء الغاضبين في الخارج.

استمر عواؤهم ساعة حول الشجرة. وبعد بضع محاولات للوصول إلينا، اقتصرت جهودهم على الصيحات والصرخات الترويعية، والهدير الفظيع من جانب القرود البيضاء الكبيرة، وخرخرة رجال النبات المخيفة التي لا توصف.

غادروا بعد فترة طويلة، تاركين مجموعة منهم لمنع هروبنا. يبدو أن مغامرتنا كان مقدرًا لها أن تسفر عن حصارنا، والنتيجة الوحيدة التي يمكن أن تنتظرنا هي الموت جوعًا؛ فحتى إذا أمكننا الخروج خلسة بعد حلول الظلام، فإلى أين في هذا الوادي المجهول العدائي يمكن أن نأمل أن تتجه خطواتنا نحو هروب ممكن؟

عندما توقفت هجمات أعدائنا واعتادت أعيننا على شبه الظلام داخل مأوانا الغريب، انتهزت الفرصة لاستكشاف هذا المأوى.

يصل قُطر تجويف الشجرة إلى حوالي خمسين قدمًا، واستنتجت من أرضيته المسطحة الصلبة أن سكانًا آخرين سبق لهم استخدامه قبلنا. وعندما رفعت عيني نحو السقف لمعرفة ارتفاعه، رأيت فوقي توهجًا لضوء خافت.

هناك فتحه علوية. إذا أمكننا الوصول إليها، قد نأمل في الوصول إلى كهوف الجرف. اعتادت عيني تمامًا الآن على الضوء الداخلي الخافت.

وخلال متابعتي الاستكشافية، وجدت الآن سلمًا خشنًا في الجانب الآخر من الكهف.

صعدت السلم بسرعة، ووجدت جزءه العلوي مرتبطًا بجزئه السفلي عبر سلسلة من قضبان أفقية خشبية تمتد عبر باطن جذع الشجرة الذي أصبح الآن ضيقًا كالبئر. لقد وُضِعت هذه القضبان واحدة فوق الأخرى على مسافة ثلاثة أقدام تقريبًا من بعضها بعضًا، لتُشَكل سلمًا نموذجيًّا يرتفع عاليًا بقدر ما يمكنني أن أرى.

هبطت إلى الأرض مرة أخرى، وتحدثت مع تارس تاركاس عن اكتشافي بالتفصيل؛ فاقترح أن أواصل الارتفاع مُستكشفًا إلى أعلى قدر يمكنني الوصول إليه بأمان، بينما يتولى هو حراسة المدخل ضد أي هجوم محتمل.

أسرعت أعلى السلم لاستكشاف البئر الغريب، ووجدت أن السلم ذا القضبان الأفقية يرتفع دائمًا فوقي بقدر ما يمكن أن ترى عيناي، وكلما صعدت تنامى الضوء القادم من أعلى ليصبح أكثر وأكثر إشراقًا.

واصلت الصعود لمسافة خمسمائة قدم كاملة، حتى وصلت بعد فترة طويلة إلى الفتحة الموجودة في الجذع وتسمح بدخول الضوء. كان قطرها يماثل تقريبًا قطر فتحة المدخل عند قاعدة الشجرة، وتفتح مباشرة على فرع مُسطح كبير، يشهد سطحه البالي على استخدامه المستمر منذ فترة طويلة كطريق لبعض المخلوقات للدخول إلى هذا البئر والخروج منه.

لم أغامر بالخروج إلى الفرع خشية أن يكتشفوني وتتوقف جهودنا للتراجع في هذا الاتجاه؛ لكنني هرعت بخطواتي عائدًا إلى تارس تاركاس.

سرعان ما وصلت إليه، والآن يصعد كلانا السلم الطويل نحو الفتحة أعلاه.

صعد تارس تاركاس أولاً، وعندما وصلت إلى أول قضيب أفقي سحبت السلم لأعلى ورائي وسلمته له، وقد حمله مائة قدم لأعلى حيث ثبته بأمان بين أحد القضبان وجانب البئر. وعلى نفس المنوال، أزحت القضبان الأدنى خلال مروري بها، بحيث سرعان ما يصبح باطن الشجرة خاليًا من أي وسيلة ممكنة للصعود لمسافة مائة قدم من القاعدة؛ وبالتالي استبعدنا أي مطاردة ممكنة والهجوم علينا من الخلف.

وقد عرفنا لاحقًا أن هذا التدبير الوقائي أنقذنا من مأزق خطير، وكان في نهاية المطاف وسيلة خلاصنا.

عندما وصلنا إلى الفتحة في القمة، أشار تارس تاركاس إلى أحد الجوانب التي يمكنني المرور منها للاستكشاف، نظرًا لأن وزني أقل ورشاقتي أكبر، ولذا فأنا أصلُح أكثر لشق هذا الطريق المحفوف بالمخاطر عبر هذا المسار الدوار المعلق.

كان الفرع الذي وجدت نفسي فوقه يرتفع بزاوية طفيفة نحو الجرف. وعندما واصلت، وجدت أنني أنهيت بضعة أقدام فوق نتوء ضيق يبرز من سطح الجرف عند مدخل كهف ضيق.

وعندما اقتربت من طرف بعيد من الفرع ونحيل نسبيًّا، وجدته يميل تحت تأثير وزني، إلى أن تمكنت في ظل هذا الخطر أن أتوازن عند طرفه الخارجي، وهو يتأرجح بلطف على مستوى النتوء على مسافة بضعة أقدام.

وعلى بعد خمسمائة قدم أدناي، كان يرقد البساط القرمزي المشرق للوادي؛ وعلى مسافة خمسة آلاف قدم تقريبًا فوقي، رأيت السطح الهائل اللامع للمنحدرات فائقة الجمال.

لم يكن الكهف الذي واجهته يشبه تلك الكهوف التي رأيتها من أسفل، وكان يقع أعلى بكثير، ربما بألف قدم. لكنه، بقدر علمي، كان جيدًا لغرضنا؛ ولذا عدت إلى الشجرة من أجل تارس تاركاس.

تحركنا معًا كالديدان عبر المسار الملتوي، وعندما وصلنا إلى نهاية الفرع وجدنا أن ثقلنا مجتمعًا ضغط بشدة على الفرع بحيث أصبح مدخل الكهف الآن بعيدًا جدًّا فوقنا على نحو يصعب معه أن نتمكن من الوصول إليه.

وأخيراً اتفقنا على أن يعود تارس تاركاس على طول الفرع، تاركًا الحزام الجلدي الطويل لعتاده الحربي معي، وعندما يرتفع الفرع إلى مسافة تتيح لي دخول الكهف سأدخله، وعندما يبدأ تارس تاركاس طريق عودته، سأقوم بإنزال الحزام له ثم أرفعه إلى الجزء الآمن من الحافة.

قمنا بذلك دون أي حوادث مؤسفة، وسرعان ما وجدنا أنفسنا معًا على حافة شرفة دائرية صغيرة، ذات إطلالة رائعة على وادٍ، يمتد أسفلنا.

وبقدر ما يمكن أن تصل العين، كان مشهد الغابة البديعة والمرجة القرمزية يطوق البحر الصامت، وترتفع المنحدرات المخيفة الرائعة حارسة ذلك كله. تصورنا أننا نرى مئذنة مطلية بالذهب تلمع في الشمس وسط قمم الأشجار المموجة البعيدة، لكننا سرعان ما نبذنا هذا الفكرة على اعتبار أنها مجرد هلوسة تولدت من رغبتنا الكبيرة في اكتشاف المواقع التي يتردد عليها الرجال المتحضرون في هذه البقعة الجميلة، وإن كانت محظورة.

على ضفة النهر أسفلنا، كانت القرود البيضاء الكبيرة تلتهم آخر بقايا رفاق تارس تاركاس السابقين، بينما ترعى قطعان كبيرة من رجال النبات في دوائر ممتدة الاتساع حول المرجة التي أبقوا عليها مقصوصة مثل المروج العشبية الملساء.

ولمعرفتنا أن الهجوم من الشجرة غير مرجح الآن، صممنا على استكشاف الكهف الذي كانت لدينا كل الأسباب للاعتقاد أنه ليس سوى استمرار للمسار الذي اجتزناه بالفعل، والآلهة وحدها تعرف إلى أين يقود، ولكن من الواضح تمامًا أنه يقود بعيدًا عن هذا الوادي المملوء بالوحشية الشرسة.

ومع تقدمنا وجدنا نفقًا بأبعاد متناسبة مُقتطعًا من الجرف الصلب. ترتفع جدرانه حوالي عشرين قدمًا فوق الأرض، ويبلغ عرضه حوالي خمسة أقدام، وسطحه مقوس. لم تكن لدينا أي وسيلة لإشعال ضوء، ولذا تلمسنا طريقنا ببطء في الظلام المتزايد. ظل تارس تاركاس لامسًا أحد الجدارين بينما تلمست أنا الجدار الآخر، وشبكنا أيدينا حتى نحول دون أن نتحرك في تجوالنا نحو مسارات متباعدة وننفصل أو نضيع في متاهة معقدة وملتوية.

لا أعرف مدى ما اجتزناه في النفق بهذه الطريقة، لكننا الآن نواجه عائقًا يسد طريق تقدمنا. كان يشبه الحاجز أكثر منه نهاية مفاجئة للكهف؛ فلم يكن مبنيًّا بمادة الجرف، وإنما من شيء يشبه الخشب شديد الصلابة.

تحسست بصمت على سطحه بيدي، وشعرت بالزر الذي يشير عادة في المريخ إلى باب، مثل مقبض الباب على كوكب الأرض.

ضغطت عليه بلطف، ولسعادتي شعرت بالباب ينفتح أمامي ببطء، وفي اللحظة التالية كنا ننظر إلى شقة ذات إضاءة خافتة، كانت -بقدر ما أمكننا أن نرى- غير مأهولة.

هززت الباب دون ضجة، فتأرجح وهو ينفتح واسعًا، دخلت وتبعني الثاركي الضخم، إلى الغرفة. وقفنا للحظة صامتين نحدق حول الغرفة، وجعلتني ضوضاء طفيفة خلفي أستدير بسرعة، حيث رأيت لدهشتي، الباب ينغلق بنقرة حادة كأنما بيد غير مرئية.

وعلى الفور انطلقت نحو الباب لفتحه مرة أخرى، فشيء ما في حركة إغلاقه الغريبة، فضلاً عن التوتر وصمت الغرفة المحسوس تقريبًا، كان ينذر بشر كامن يختبئ في هذه الغرفة الصخرية في باطن المنحدرات الذهبية.

خدشت بأصابعي عبثًا في المدخل العنيد، بينما سعت عيناي دون جدوى بحثًا عن نسخة مكررة من الزر الذي أتاح لنا الدخول.

وعندئذ، جلجل من شفاه غير مرئية رنين ضحكة قاسية ساخرة خلال المكان المقفر.

* * *

(3)

الغرفة الغامضة

بعد لحظات من توقف دوي الضحكة الفظيعة خلال الغرفة الصخرية، وقفتُ وتارس تاركاس في توتر وصمت مترقب. ولكن لم ينبعث أي صوت آخر في السكون، ولم نشهد أي تحرك على الإطلاق في نطاق رؤيتنا.

ضحك تارس تاركاس طويلاً بهدوء، على طريقة جنسه الغريب في مواجهة أي شيء رهيب أو مرعب. ليس ضحكًا هستيريًّا، وإنما بالأحرى تعبير صادق عن المتعة التي يستمدونها من الأشياء التي تثير اشمئزاز رجال كوكب الأرض وتحرك دموعهم.

لقد رأيتهم مرارًا وتكرارًا يتدحرجون على الأرض في نوبات جنون من المرح، يتعذر السيطرة عليها، عندما يشهدون سكرات موت النساء والأطفال الصغار تحت التعذيب في ذلك الاحتفال الشيطاني لدى المريخيين الخُضر- المباريات الكبرى.

نظرت إلى الثاركي ورأيت ابتسامة على شفتيه، فهنا حقًّا كانت هناك حاجة ماسة لوجه مبتسم أكثر من ذقن مرتجف.

سألته: «ماذا تستنتج من هذا كله؟ في أين مكان شيطاني نحن؟».

نظر لي مندهشًا.

وقال مكررًا: «أين نحن؟ أتقول لي، جون كارتر، أنك لا تعرف أين أنت؟».

«كل ما يمكنني تخمينه أننا في برسوم. لكن وجودك ووجود القرود البيضاء الكبيرة يجعلني أستبعد حتى هذا التخمين؛ فالمشاهد التي رأيتها اليوم تختلف عن أشياء برسوم الحبيبة كما عرفتها من عشر سنوات طوال، بمثل ما تختلف عن عالم مسقط رأسي.

«كلا، تارس تاركاس، لا أعرف أين نحن»

«أين كنت منذ أن فتحت بوابات مصنع الجو الجبارة منذ سنوات، بعد أن مات الحارس وتوقفت المحركات وكانت برسوم كلها تحتضر، إضافة إلى من مات بالفعل من الاختناق؟ لم نعثر حتى على جثمانك أبدًا، على الرغم من أن رجال عالَم برمته ظلوا

يبحثون عنك لسنوات، وعلى الرغم من أن جيداك هيليوم وحفيدته، أميرتك، رصدت مكافآت سخية إلى حد أنه حتى الأمراء من الدم الملكي انضموا إلى البحث عنك.

«وعندما فشلت جميع الجهود الرامية إلى تحديد موقعك، لم يكن هناك سوى استنتاج واحد وهو أنك اتخذت رحلة الحج الطويلة النهائية نحو نهر إيس الغامض في انتظار ديجاه ثوريس الجميلة، أميرتك، في وادي دور عند شواطئ بحر كوراس المفقود.

لم يتمكن أحد من تخمين سبب ذهابك، فأميرتك لا تزال حية...».

قاطعته قائلاً: «شكرًا للرب. لم أجرؤ على سؤالك عنها خشية أن أكون قد تأخرت في إنقاذ حياتها؛ فقد كانت ضعيفة للغاية عندما تركتها في حدائق تاردوس مورس الملكية في تلك الليلة البعيدة؛ كانت على درجة من الضعف إلى حد أنني بالكاد ما كنت آمل حينذاك أن أصل إلى مصنع الجو قبل أن تضيع مني روحها الحبيبة إلى الأبد. هي تعيش حتى الآن؟».

«تعيش، جون كارتر».

ذكّرته: «لم تقل لي أين نحن».

«نحن حيث توقعت أن أجدك جون كارتر، وأن أجد شخصًا آخر. أنت تعرف منذ سنوات عديدة قصة المرأة التي علمتني الشيء الذي تربى المريخيون الخُضر على كراهيته، المرأة التي علمتني الحُب. وتعرف التعذيب القاسي والموت الفظيع اللذين جلبهما لها حُبها على يد الوحش تال هاجوس.

«كنت أعتقد أنها تنتظرني عند بحر كوراس المفقود.

وأنت تعرف أيضًا أن رجلاً من عالم آخر، أنت جون كارتر، قد علمت هذا الثاركي القاسي معنى الصداقة؛ وكنت أعتقد أنك أنت أيضًا تجوب وادي دور الخالي من الهموم.

وهكذا، كنتما أنتما الاثنان أكثر من أشتاق إليهما عند نهاية الحج الطويل الذي يتعين أن أتخذها في يوم ما. ونظرًا لانقضاء الوقت الذي كانت تأمل خلاله ديجاه ثوريس أن تأتي مرة أخرى إلى جانبها -فقد حاولت دومًا الاعتقاد أنك عدت مؤقتًا إلى كوكبك- فقد أطلقت العنان لاشتياقي الهائل وبدأت منذ شهر الرحلة، التي يشهد يومنا هذا على نهايتها. هل تدرك الآن أين أنت، جون كارتر؟»

سألته: «هل هذا هو نهر إيس، الذي يصب في بحر كوراس المفقود

في وادي دور؟».

أجابني: «هذا هو وادي الحب والسلام والراحة، الذي يتوق كل برسومي منذ زمن سحيق إلى الحج إليه في نهاية حياة من الكراهية والقتال وإراقة الدماء. هذا هو الفردوس، جون كارتر».

كانت نبرة صوته باردة وساخرة؛ فلم تكن مرارته تعكس سوى خيبة الأمل الرهيبة التي يعانيها. وربما كان سبب غياب أي مظهر تعبيري لدى الثاركي يرجع إلى خيبة الأمل المخيفة تلك، وإلى هذا النسف لآماله وتطلعاته في حياة طويلة، وإلى هذا الاجتثاث لتقاليد عريقة قديمة، ربما كانت لتعذُّر ظهور أي مظاهر لدى الثاركي.

وضعت يدي على كتفه.

قلت: «أنا آسف»، فلم يكن هناك أي شيء آخر يمكنني قوله.

«يمكنك أن تفكر، جون كارتر، في هذه البلايين التي لا تُعد ولا تُحصى من سكان برسوم الذين يتخذون طواعية رحلة الحج إلى هذا النهر القاسي منذ بداية الزمن، وفقط ليقعوا في براثن تلك المخلوقات الرهيبة الشرسة التي هاجمتنا اليوم.

هناك أسطورة قديمة تقول إن رجلاً أحمر عاد في يوم ما من ضفاف بحر كوراس المفقود، عاد من وادي دور، عبر نهر إيس الغامض. وتقول الأسطورة إنه نطق كُفرًا مخيفًا بروايته عن المتوحشين البشعين الذين يسكنون واديًا مملوءًا بالمحبة المدهشة، متوحشين ينقضون على كل برسومي عندما ينهي رحلة حجه ويفترسونه على ضفاف البحر المفقود حيث كان يتطلع إلى العثور على الحب والسلام والسعادة. لكن القدماء قتلوا الكافر، حيث تقضي التقاليد بقتل من يعود من حضن نهر الغموض.

«لكننا نعلم الآن أنه لم يكن كافرًا، وأن الأسطورة حقيقية، وأن الرجل لم يقل سوى ما رآه. ولكن، ماذا يفيدنا هذا، جون كارتر؛ فإذا نجحنا حتى في الهروب، ألن يتعاملون

معنا أيضًا بوصفنا كفارًا؟ نحن بين يقينية حيونات الثوات[10] الوحشية وحقيقة حيوانات الزيتيدار[11] المجنونة – ولا يمكننا الهرب من أي منهما».

أجبته: «كما يقول رجال كوكب الأرض، تارس تاركاس، نحن بين الشيطان والبحر العميق». ولم أتمكن من منع ابتسامة على مأزقنا.

«لا يوجد شيء يمكننا القيام به، دعنا نأخذ الأمور كما تأتي، ويمكنك على الأقل أن تشعر بالرضا لمعرفة أن أيًّا كان من يقتلنا سوف يُحصي في نهاية المطاف أعدادًا من قتلاه أكبر كثيراً مما سيحصل عليه في المقابل. فالقرود البيضاء، أو رجال النبات، أو البرسوميون الخُضر أو الحُمر -أي من كان سيتمكن من قتلنا في النهاية- سوف يعرف مدى ما تكلفه من أرواح لقتل جون كارتر، أمير بيت تاردوس مورس، وتارس تاركاس، جيداك ثارك، في وقت واحد».

لم يسعني سوى الضحك على فكاهته المتجهمة، وشاركني في إحدى تلك الضحكات النادرة التي تتسم بمتعة حقيقية؛ وهي أحد سمات هذا القائد الثاركي الشرس التي تمُيزه عن الآخرين من جنسه.

وأخيراً صاح قائلاً: «ولكن ماذا عنك، جون كارتر، إذا لم تكن هنا طوال هذه السنوات فأين كنت، وكيف وجدتك هنا اليوم؟».

أجبته: «لقد عدت إلى كوكب الأرض. بقيت لعشر سنوات طوال، بحساب سنوات كوكب الأرض، أُصلي وأتمنى اليوم الذي يحملني مرة أخرى إلى كوكبكم هذا المتجهم القديم، الذي مع كل تقاليده القاسية والفظيعة، أشعر تجاهه برابطة من التعاطف والحب أكبر حتى من تلك التي تربطني بالعالم الذي ولدت فيه.

بقيت لعشر سنوات متحملاً الموت حيًّا نتيجة عدم اليقين والشك بشأن ما إذا كانت ديجاه ثوريس قد عاشت، والآن ولأول مرة خلال تلك السنوات تُستجاب صلواتي وينزاح الشك من على كاهلي وأجد نفسي، ويا لغرابة قدري القاسي، مُلقًى في بقعة صغيرة من برسوم حيث لا يلوح أي مهرب؛ وإذا وجدت مهربًا، فسيكون بتكلفة تخمد

---

(10) الثوات: حيوان مريخي يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام، ولديه أربعة أرجل على كل جانب، وذيله عريض مُسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد مباشرة خلفه عندما يجري؛ وفمه مفتوح يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم. وهو خال تمامًا من الشعر، ولون بشرته هو الرمادي الذي تشوبه الزُرقة. أما بطنه فلونه أبيض، ويتدرج لون سيقانه بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامه. والأقدام نفسها شديدة الامتلاء وبلا أظافر، مما يسهم أيضًا في تحركه دون ضوضاء؛ وهو الأمر الذي يُشكل، إضافة إلى تعدد سيقانه، سمة مميزة لحيوانات المريخ – http://barsoom.wikia.com/wiki/Thoat المترجمة.

(11) الزيتيدار: حيوان مريخي يشبه الفيل، ويُعتبر من حيوانات الجر الثقيلة حيث يُستخدمه المريخيون غالبًا في حمل الأحمال الكبيرة لمسافات شاسعة وجر المركبات الضخمة – http://barsoom.wikia.com/wiki/Zitidar المترجمة.

إلى الأبد بصيص الأمل الأخير الذي أتشبث به لرؤية أميرتي مرة أخرى في هذه الحياة - وأنت شهدت اليوم بأي عجز بائس يتوق رجل إلى حياة مادية في الآخرة.

قبل أن أراك بمجرد نصف ساعة وأنت تقاتل رجال النبات، كنت أقف تحت ضوء القمر على ضفاف نهر واسع على الشاطئ الشرقي لأجمل بقاع كوكب الأرض. لقد أجبتك يا صديقي. هل تصدقني؟».

«أصدقك»، أجاب تارس تاركاس، «على الرغم من عدم قدرتي على الفهم».

خلال حديثنا كنت أبحث بعيني داخل الغرفة. كان طولها ربما مائتي قدم ونصفًا من حيث الاتساع، مع ما بدا مدخلاً في وسط الجدار يقع مباشرة في مقابل المدخل الذي دخلنا من خلاله.

كان المكان محفورًا من مادة الجرف، التي تبدو كالذهب المعتم في ظل الضوء الخافت الذي يشع من مصدر ضوء ضئيل من الراديوم يقع في منتصف السقف وينتشر عبر أبعاد المكان الكبيرة. كما تتناثر هنا وهناك أسطح مصقولة من الياقوت والزمرد والماس، كمساحات على ذهب الجدران والسقف. أما الأرضية، فهي من مادة أخرى شديدة الصلابة، وبالية من كثرة الاستخدام بحيث أصبحت بنعومة الزجاج. وباستثناء البابين، لم أتمكن من تمييز أي علامة على الفتحة الأخرى. ونظرًا لأن الباب الذي عرفناه كان مغلقًا أمامنا، فقد اقتربت من الباب الآخر.

ما إن مددت يدي للبحث عن زر التحكم، حتى رنت ثانية تلك الضحكة القاسية الساخرة، وكانت قريبة جدًّا مني هذه المرة بحيث إنني تراجعت للخلف لاإراديًّا، وشددت قبضتي بأقصى طاقتها على مقبض سيفي الكبير.

وعندئذ ردد صوت أجوف من الزاوية البعيدة للغرفة الكبيرة مترنمًا: «ليس هناك أمل، ليس هناك أمل؛ الموتى لا يعودون، الموتى لا يعودون؛ ولن يُبعث الموتى. لا تأمل، فليس هناك أمل».

تحولت أعيننا على الفور نحو مصدر الصوت، لكننا لم نتمكن من رؤية أحد على مرمى البصر. ويجب أن أعترف أن قشعريرة باردة أخذت تسري على طول عمودي الفقري، وتصلب الشعر القصير في قاعدة رأسي وارتفع، كما يحدث لشعر رقبة الكلب عندما ترى عيناه في الليل تلك الأشياء الخارقة للطبيعة التي تخفى عن نظر الرجل.

سرت مسرعًا نحو الصوت الحزين، لكنه توقف قبل أن أصل إلى الجدار الآخر، ثم انبعث من الطرف الآخر للغرفة صوت آخر حاد وثاقب.

صرخ الصوت قائلاً: «حمقى! حمقى! أتتصورون أن بإمكانكم هزيمة قوانين الحياة والموت الأبدية؟ أتريدون الاحتيال على إيسوس الغامضة، إلهة الموت، ولا تعطونها مستحقاتها العادلة؟ ألم يأخذكم مبعوثها الجبار، نهر إيس القديم، في حضنه الداكن ويحملكم بناء على طلبكم إلى وادي دور؟

أتتصورون أيها الحمقى أن إيسوس ستتخلى عن حقها؟ أتتصورون أن بإمكانكم الهرب من المكان الذي لم تهرب منه روح واحدة عبر جميع العصور التي لا تُعد ولا تُحصى؟

عودوا من الطريق الذي جئتم منه، إلى الوجوه الرحيمة لأطفال شجرة الحياة أو الأنياب اللامعة للقرود البيضاء الضخمة، فهناك تكمن النهاية السريع من المعاناة؛ لكنكم ستكابدون في سبيل غرضكم المتهور شق طرق متاهات المنحدرات الذهبية في جبال أوتز، والمرور عبر أسوار قلاع الثيرن المقدسين المنيعة، وعلى طول طريقكم سيدرككم الموت بأكثر أشكاله رعبًا- موت رهيب إلى حد أن الثيرن المقدسين أنفسهم، الذين يدركون الحياة والموت، سيديرون عيونهم لتجنُّب وحشيته ويغلقون آذانهم لتجنُّب سماع صرخات ضحاياه البشعة.

عودوا أيها الحمقى من الطريق الذي جئتم منه».

ثم تفجرت الضحكة الفظيعة من جزء آخر من الغرفة.

قلت وأنا أستدير نحو تارس تاركاس: «شيء شديد الغرابة».

سألني: «ماذا سنفعل؟ لا يمكننا أن نقاتل الهواء. ربما أفضل العودة ومواجهة أعداء يمكنني أن أشعر بنصلي وهو ينغرز في أجسادهم، وأعرف أنني أبيع حياتي غاليًا قبل أن ينتهي بي المطاف إلى النسيان الأبدي الذي يبدو من الواضح أنه هو الخلود الأكثر عدلاً والأكثر رغبة الذي يحق للمرء الفاني أن يأمل فيه».

أجبته: «إذا لم يكن بإمكاننا أن نقاتل الهواء، كما تقول تارس

تاركاس، فلا يمكن من ناحية أخرى أن يقاتلنا الهواء. لقد واجهت في حياتي آلاف المحاربين الأشداء والسيوف الحادة وتغلبت عليهم، ولن تجعلني الرياح أتراجع؛ ولا يجوز أنت تفعل أيها الثاركي».

أجاب المحارب الأخضر: «لكن الأصوات غير المرئية قد تنبعث من مخلوقات غير مرئية وخفية، تستخدم سيوفًا غير مرئية».

صحت قائلاً: «هذا هراء، تارس تاركاس، فتلك الأصوات تأتي من كائنات حقيقية مثلك أو مثلي. وتتدفق في عروقها دماء الحياة، التي ربما يمكن إراقتها بنفس السهولة مثل دماءنا. أما عن كونها غير مرئية بالنسبة لنا، فهذا أفضل دليل في رأيي على أنها كائنات فانية؛ ولا تتحلى حتى بالشجاعة. أتعتقد، تارس تاركاس، أن جون كارتر سوف يفر من أول صيحة يطلقها عدو جبان لا يجرؤ على الخروج إلى العلن ومواجهة نصل قوي؟».

تحدثت بصوت عال بحيث سمعني دون شك خصومنا المحتملون، فقد كنت مجهدا من هذا الفشل الذريع المرهق للأعصاب. كما تبادر إلى ذهني أيضًا أن العملية برمتها ليست سوى خطة لتخويفنا من العودة مرة أخرى إلى وادي الموت الذي هربنا منه، وإيهامنا أن المخلوقات الوحشية هناك يمكن أن تجهز علينا بسرعة.

ساد الصمت لفترة، ثم صدر فجأة صوت خافت حذر من ورائي جعلني أستدير فجأة لأرى حيوان البانث متعدد الأرجل يتسلل متلويًا نحوي.

والبانث حيوان مفترس شرس، يطوف في التلال المنخفضة المحيطة ببحار المريخ القديم الميتة. وهو مثل جميع الحيوانات المريخية أصلع تقريبًا، إلا من شعر كثيف خشن كبير -كالأسد- حول رقبته السميكة.

جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشرة أرجل قوية؛ وفكاه الضخمان مجهزان بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية؛ وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراء هائلة وجاحظة وتضيف لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع.

خلال تسلله نحوي كان يضرب بذيله القوي جانبيه الأصفرين؛ وعندما أدرك أنني اكتشفته، أصدر هديره المرعب الذي غالبًا ما يُجمّد فريسته إلى شلل مؤقت في اللحظة التي ينقض فيها مهاجمًا.

وهكذا شرع في اندفاعه بكتلته الضخمة نحوي، لكن صوته الجبار لم يصبني بشلل الرعب، بل واجه سلاحي الفولاذي البارد بدلاً من لحمي اللين الذي فغر فكيه القاسيين باتساع لالتهامه.

وخلال لحظة سحبت نصلي من قلب هذا الأسد البرسومي الضخم بعد أن همد، واستدرت نحو تارس تاركاس وفوجئت لرؤيته يواجه وحشًا مماثلاً.

ما إن أجهز على خصمه بسرعة، حتى استدرت -كأنما بفعل غريزة عقلي الباطن حارسي- فرأيت وحشًا آخر من قاطني براري المريخ الهمجيين يقفزون عبر الغرفة في اتجاهي.

ومن تلك اللحظة ولمدة ساعة تقريبًا، تعاقب هجوم تلك المخلوقات القبيحة علينا واحدًا بعد الآخر، قافزين من الهواء الخالي حولنا.

كان تارس تاركاس راضيًا؛ فهذا شيء ملموس يمكنه جرحه وطعنه بنصله الكبير، بينما شعرت من جانبي أن هذا التحول كان تحسنًا ملحوظًا أفضل كثيرًا من مجرد أصوات غريبة تصدر من شفاه غير مرئية.

لم يكن هناك أي شيء خارق للطبيعة في أعدائنا الجدد، وهو ما تجلى واضحًا من عوائهم من الغضب والألم عندما شعروا بالفولاذ الحاد يفتك بهم، فضلاً عن الدماء الحقيقية التي أخذت تتدفق من شرايينهم المقطوعة لموتهم موتًا حقيقيًّا.

لاحظت خلال فترة هذا التنمر الجديد أن الوحوش لا تظهر إلا عندما ندير ظهورنا؛ فنحن لم نشهد مطلقًا أي منهم يتجسد من الهواء، كما أنني لم أفقد للحظة قدراتي العقلية الممتازة بحيث أنخدع ولو مرة واحدة بالاعتقاد بأن الوحوش جاءت إلى الغرفة بأي طريقة أخرى غير مدخل خفي مُغلق بإحكام.

من بين حلي عتاد تارس تاركاس الجلدي - وهي طريقة الملبس الوحيدة التي يرتديها المريخيون، إضافة إلى غطاء الرأس الحريري وأغطية الحرير والفراء للحماية من البرد بعد حلول الظلام - كانت هناك مرآة صغيرة بحجم مرآة اليد التي تستخدمها النساء، وكانت معلقة على ظهره العريض في منتصف المسافة بين كتفيه ووسطه.

وما إن وقف ينظر إلى خصمه الذي سقط الآن، حتى وقعت عيناي

على هذه المرآة ورأيت على سطحها اللامع صورة مشهد جعلني أهمس:

«لا تتحرك، تارس تاركاس! لا تُحرك أي عضلة من عضلاتك!».

لم يسألني عن السبب، لكنه وقف كصورة منحوتة، بينما ظلت عيني تراقب ذلك الشيء الغريب الذي كان يعني لنا الكثير.

ما رأيته كان حركة سريعة لجزء من الجدار ورائي. كان يدور مستندًا إلى محاور، ويدور معه جزء من الأرضية يقع أمامه مباشرة. كأنك قمت بتثبيت بطاقة زائر من نهايتها

فوق دولار فضي وضعته مسطحًا على مائدة، بحيث إن حافة البطاقة تقسم سطح العملة تمامًا.

تمُثل البطاقة الجزء الدوار من الجدار، ويمُثل الدولار الفضي جزء الأرضية. وكلاهما مثبت بإحكام داخل أجزاء الأرضية والجدار المتجاورة، بحيث يصعب ملاحظة وجود أي صدع أو شق في ضوء الغرفة الخافت.

كشف اكتمال نصف الاستدارة عن وحش هائل يجلس فوق ذلك الجزء من الأرضية الدوارة التي تقع على الجانب الآخر، قبل أن يبدأ الجدار في التحرك. وعندما توقفت حركة هذا القسم، أصبح الوحش في مواجهتي وكل منا في جانب – كان الأمر في منتهى البساطة.

على أن أكثر ما أثار اهتمامي هو أن الفتحة التي نتجت عن دوران القسم لنصفه قد أظهرته. كانت غرفة كبيرة، جيدة الإضاءة، تضم العديد من الرجال والنساء مقيدين بالسلاسل إلى الجدار، وأمامهم رجل شرير الوجه، بشرته ليست حمراء كرجال المريخ الحُمر، ولا خضراء كالرجال الخُضر، لكنه أبيض، مثلي، ولديه كتلة كبيرة من الشعر الأصفر المتدفق؛ ومن الواضح أنه يتولى توجيه وتشغيل حركة المدخل السري.

كان السجناء وراءه من المريخيين الحُمر. ومقيد بالسلاسل معهم عدد من الوحوش الشرسة مثل تلك التي هاجمتنا، وعدد آخر على نفس الدرجة من الشراسة.

استدرت بقلب مستريح إلى حد كبير لمواجهة عدوي الجديد.

قلت لرفيقي: «راقب جدار الغرفة ناحيتك، تارس تاركاس، فهم يُطلقون الكائنات الوحشية علينا من خلال المداخل السرية في الجدار». كنت قريبًا جدًّا منه، وتحدثت هامسًا حتى لا يكتشف جلادونا أنني عرفت سرهم.

لم يهاجمونا طوال مدة بقائنا متواجهين؛ وهكذا اتضح لي تمامًا أن تلك القواطع كانت مثقوبة على نحو ما بحيث يمكنهم مراقبتنا منها.

وبعد فترة طرأت في ذهني خطة عمل. اقتربت من تارس تاركاس، وكشفت له خطتي هامسًا مع إبقاء عيني مركزة على ناحيتي من الغرفة.

أبدى الثاركي العظيم موافقته على اقتراحي، ووفقًا لخطتي بدأ يتراجع للوراء في اتجاه الجدار الذي أواجهه، بينما أتقدم أنا ببطء أمام الثاركي.

عندما وصلنا إلى مسافة حوالي عشرة أقدام من المدخل السري أوقفت رفيقي، وطلبت منه محذرًا أن يبق بلا حركة على الإطلاق إلى أن أعطيه الإشارة المتفق عليها. ثم أسرعت مُديرًا ظهري إلى الباب الذي أكاد أن أشعر من خلاله بأعين جلادينا المحتملين المشتعلة المؤذية.

وعلى الفور سعيت بعيني إلى المرآة المعلقة على ظهر تارس تاركاس، وفي اللحظة التالية كنت أراقب عن كثب ذلك القسم من الجدار الذي يقذف بأهواله الوحشية علينا.

لم أنتظر طويلاً، إذ بدأ الآن السطح الذهبي يتحرك بسرعة. وما إن بدأ في الحركة، حتى أعطيت الإشارة إلى تارس تاركاس، وانطلقنا في وقت واحد نحو النصف المنحسر من الباب الدائري. وبالطريقة نفسها، اندفع الثاركي وقفز نحو الفتحة التي أحدثها القسم المتأرجح.

حملتني قفزة واحدة إلى الغرفة المجاورة، وجلبتني وجهًا لوجه مع الشخص الذي سبق أن رأيت وجهه القاسي. كان في مثل طولي تقريبًا، وعضلاته قوية، ويشبه في كل التفاصيل الخارجية رجال كوكب الأرض بشكل دقيق.

كان مُعلقًا إلى جانبه سيفًا طويلاً، وسيفًا قصيرًا، وخنجرًا، وأحد مسدسات الراديوم المدمرة الشائعة في المريخ.

لم أكن مسلحًا في واقع الأمر سوى بسيف طويل. وبالتالي، وفقًا لقوانين وأخلاقيات المعركة في أي مكان على برسوم، يجب ألا يقابلني سوى سلاح مماثل أو أقل. ولكن يبدو أن هذه القاعدة لا تسري على الحس الأخلاقي لعدوي؛ فقد سحب مسدسه قبل أن أكاد ألمس الأرضية بجانبه، بيد أن ضربة من سيفي الطويل أطارت المسدس من قبضته قبل أنه يتمكن من إطلاقه.

وعلى الفور سحب سيفه الطويل، وهكذا تساوت أسلحتنا وشرعنا بجدية في واحدة من أصعب المعارك التي خضتها من قبل.

كان مبارزًا رائعًا، ومن الواضح أنه متمرس؛ بينما أنا لم أمسك قبل صباح هذا اليوم بمقبض سيف لعشر سنوات طوال.

لكنني لم أستغرق وقتًا طويلاً لأستعيد مهاراتي القتالية بسهولة؛ ففي خلال بضع دقائق بدأ الرجل يدرك أنه التقى أخيرًا بنظير له.

تلون وجهه غضبًا لما وجد سيفي الحارس منيعًا، بينما كان الدم يتدفق من عشرات الجروح الطفيفة على وجهه وجسمه.

قال وهو يصدر صوتًا كالهسهسة: «من أنت أيها الرجل الأبيض؟ يبدو واضحًا من لون بشرتك أنك من العالم الخارجي ولست من برسوم. وأنت لست منا».

كانت عبارته الأخيرة بمثابة سؤال.

جازفت بتخمين جامح: «ماذا لو كنت من معبد إيسوس؟».

قال مصيحًا: «أنت في حماية الإلهة إذن»، ووجهه يتحول إلى اللون الأبيض تحت الدماء التي أصبحت تغطي وجهه الآن تقريبًا.

لم أكن أعرف كيف أواصل ما قلته، لكنني أبعدت الفكرة بحرص لاستخدامها في المستقبل إذا ما اقتضت الظروف. ولأن كل ما عرفه عني أنني من معبد إيسوس، فقد أشار رده إلى وجود رجال مثلي هناك، وأن هذا الرجل إما يخشى سكان المعبد أو يحمل لأشخاصهم أو سلطتهم تبجيلاً بحيث ارتعد من مجرد التفكير في الضرر والإذلال الذي أنزله على أحدهم.

على أن طبيعة شغلي الشاغل معه حاليًا مختلفة ولا تتطلب أي قدر كبير من التفكير المجرد؛ أي المطلوب أن أضع سيفي بين ضلوعه، وقد نجحت في ذلك خلال عدة ثوان، وليس على الفور.

شاهد السجناء المقيدون بالسلاسل القتال في صمت متوتر؛ لم يصدر صوت في الغرفة عدا أصوات تصادم سيوفنا المتقاتلة، ودبيب أقدامنا العارية، وبضع كلمات همسنا بها لبعضنا بعضًا من خلال أسناننا المطبقة بإحكام، بينما واصلنا مبارزتنا المميتة.

وعندما سقط جسد خصمي كتلة هامدة على الأرض، انطلقت صرخة تحذير من إحدى السجينات.

صاحت: «دُر! دُر! إنه خلفك!». استدرت مع سماعي أول نبرة في صرختها المدوية، ووجدت نفسي في مواجهة رجل ثان من نفس جنس الرجل الراقد أمام قدمي.

لقد تسلل الرجل خلسة من ممر مظلم، وكاد أن ينقض فوقي بسيفه المرفوع قبل أن أراه. لم يكن تارس تاركاس على مرأى مني، وكان اللوح السري في الجدار الذي دخلت منه قد أُغلِق.

كم تمنيت أن يكون بجانبي الآن! لقد قاتلت بشكل مستمر تقريبًا لساعات طوال؛ ومررت بتجارب ومغامرات تستنزف حيوية أي رجل، هذا بالإضافة إلى أنني لم آكل ولم أنم لما يقرب من أربع وعشرين ساعة.

قاتلت إلى حد الاستنفاد، وللمرة الأولى من سنوات أتساءل حول قدرتي في التعامل مع خصم. لم يكن أمامي سوى الاشتباك بسرعة وشراسة؛ فقد كان خلاصي الوحيد يكمن في إبعاده عبر هجومي العنيف - فلم أكن آمل في الفوز بمعركة طال أمدها.

لكن الواضح أن الرجل كان لديه تصور آخر؛ إذ تراجع وتصدى وتجنب وتفادى، إلى أن استنفدني تمامًا خلال الجهد الذي بذلته في محاولة القضاء عليه.

كان مبارزًا بارعًا، أفضل من عدوي السابق. ويجب أن أعترف أنه قادني إلى مطاردة بارعة، اقتربت في النهاية من جعلي أحمق مثيرًا للشفقة - وشخصًا ميتًا في الصفقة.

شعرت بتزايد ضعفي، إلى أن بدأت الكائنات تصبح ضبابية أمام عيني، وأنا أترنح وأتخبط كنائم أكثر مني مستيقظ؛ وبعدها قام بخطوته المفاجئة الصغيرة التي كادت أن تفقدني حياتي.

جعلني أتراجع بحيث وقفت أمام جثة زميله، ثم هاجمني فجأة بحيث اضطررت للتراجع والسقوط على الجثمان؛ وعندما اصطدم به كعبي، طرحتني قوة جسدي إلى الوراء عبر الرجل القتيل.

اصطدم رأسي بالرصيف الصلب بضربة مدوية، ولها وحدها أدين بحياتي؛ إذ أنعشت ذهني وأثار الألم أعصابي، بحيث أصبحت الآن قادرًا على تمزيق عدوي إلى قِطع بيدي العاريتين، وأعتقد حقًّا أنني كان يجب أن أفعل، إلا أن يدي اليمنى لمست قَطعة من معدن بارد وأنا أرفع جسدي من الأرض.

تماثل أيدي الرجل المقاتل أعين الشخص العادي عند أدائه لوظيفته، وهكذا لم أكن في حاجة إلى النظر أو التفكير لأعرف أنه مسدس الرجل القتيل، وأنه لا يزال في موقعه حيث أسقطته من قبضته- والآن أصبح في حوزتي.

كان الرجل الذي أسقطتني حيلته يقفز نحوي، ورأس نصله اللامع موجه مباشرة إلى قلبي، وترن من شفتيه جلجلة قاسية وساخرة من الضحك كالتي سمعتها داخل الغرفة الغامضة.

وهكذا مات، التوَت شفتيه الرفيعتين في زمجرة ضحكته البغيضة، وانفجرت رصاصة من مسدس زميله القتيل في قلبه.

سقط جسده فوقي، بقوة اندفاعه المتهور. ويبدو أن مقبض سيفه أصاب رأسي، ذلك أنني فقدت الوعي تحت تأثير سقوط الجثة فوقي.

* * *

(4)
ثوفيا

أعادني صوت النزاع إلى واقع الحياة مرة أخرى. لم أتمكن للحظة من تحديد البيئة المحيطة بي أو الأصوات التي أفاقتني. ومن وراء الجدار الفارغ الذي وضعت رأسي بجواره، سمعت دبيب أقدام، وزمجرة وحوش شرسة، وصليل التجهيزات المعدنية، وتنفس ثقيل لرجل.

وقفت وألقيت نظرة سريعة حول الغرفة، فوجدت استقبالاً حارًّا. كان السجناء والمتوحشون الأفظاظ مقيدين في سلاسلهم بالجدار المقابل، ويتطلعون نحوي بتعبيرات مختلفة من الفضول، والغضب العنيد، والمفاجأة، والأمل.

بدا الأمل واضحًا بجلاء على وجه الشابة المريخية الحمراء، الذي يشع وسامة وذكاء، ولعبت صرختها التحذيرية دورًا فاعلاً في إنقاذ حياتي.

كانت النمط المثالي لذلك العِرق الرائع الذي يتطابق مظهره الخارجي مع الأعراق التقية في كوكب الأرض، في ما عدا أن هذا العِرق الأعلى من المريخيين تتخذ بشرته اللون النحاسي الذي يميل إلى الحُمرة الخفيفة. ونظرًا لأنها لم تكن ترتدي أي زينات على الإطلاق، لم أستطع حتى تخمين مكانتها في الحياة، على الرغم من أنها الآن إما سجينة أو عبدة في ظل الظروف الحالية.

مرت عدة ثوان قبل أن تثير الأصوات على الجانب المقابل من القاطع قدراتي، التي تعود ببطء إلى وضعها المرجح، ثم أدركت فجأة أن تارس تاركاس هو من تسبب في هذه الأصوات خلال ما يبدو واضحًا أنه قتال يائس مع حيوانات الرجال الهمج الوحشية.

وبصيحة تشجيع ألقيت بثقلي على الباب السري، لكنني اصطدمت بمادة المنحدرات نفسها. فبدأت في بحث محموم عن سر اللوح الدوار، لكن بحثي كان بلا جدوى. وعندما أوشكت أن أرفع سيفي الطويل في مواجهة الذهب الصلب، نادتني السجينة الشابة.

«أخفض سيفك أيها المحارب الجبار، فسوف تحتاج إليه لأغراض أخرى- لا تحطمه على معدن أخرق، يمكنك الحصول على نتيجة أفضل مع أخف لمسة إصبع ممن يعرف سره».

سألتها: «تعرفين سره إذن؟».

«نعم؛ أطلق سراحي وسأساعدك على الدخول إلى غرفة الرعب الأخرى، إذا كنت ترغب. مفاتيح أغلالي عند أول خصم قتلته. ولكن لماذا تود العودة لتواجه مرة أخرى حيوان البانث الشرس، أو أي شكل آخر من أشكال التدمير التي يطلقونها داخل هذا الفخ المرعب؟».

أجبتها: «لأن صديقي يقاتل هناك بمفرده»؛ وأسرعت نحو جثة حارس غرفة الرعب القاتمة الميت وعثرت على المفاتيح.

كانت هناك العديد من المفاتيح في حلقة بيضاوية، لكن الفتاة المريخية الجميلة انتقت بسرعة المفتاح الذي يفتح القفل الكبير في خصرها؛ وما إن تحررت، حتى أسرعت نحو اللوح السري.

بحثت الفتاة عن مفتاح آخر في الحلقة. كان هذه المرة شيئًا نحيلاً كالإبرة، أدخلته في ثقب يكاد يكون غير مرئي في الجدار. وعلى الفور تأرجح الباب على محوره، وحملني معه القسم المجاور من الأرضية التي كنت أقف عليها إلى الغرفة التي يقاتل فيها تارس تاركاس.

وقف الثاركي العظيم وظهره إلى زاوية في الجدران، بينما يواجهه في شبه دائرة حوالي نصف دزينة من الوحوش الضخمة رابضة في انتظار فتحة. كانت رؤوسهم وأكتافهم التي تغمرها الدماء تشهد على سبب حذرهم، فضلاً عن براعة مبارزة المحارب الأخضر الذي حملت بشرته اللامعة نفس الشهادة الصامتة البليغة على ضراوة الهجمات التي صمد أمامها حتى الآن.

لقد مزقت المخالب الحادة والأنياب القاسية ساقه وذراعه وصدره كالشرائط. وأصبح شديد الضعف نتيجة لجهده المتواصل وفقدان الدم، بحيث أشك أنه لولا الجدار الداعم كان يمكنه أن يقف منتصبًا. بيد أنه لا يزال يواجه خصومه القساة الأشداء بالمثابرة وشجاعة عِرقه التي لا تُقهر- كان تجسيدًا لذلك المثل القديم في قبيلته: «اترك للثاركي رأسه ويدًا واحدة، ومع ذلك سوف ينتصر».

عندما رآني أدخل، مست ابتسامة قاتمة شفتيه المتجهمتين، لكنني لا أعرف ما إذا كانت ابتسامته تدل على الارتياح أم مجرد المزاح على مشهدي، فالدماء تغطيني وحالتي فظيعة.

وما إن أوشكت الدخول إلى الصراع بسيفي الطويل الحاد، حتى شعرت بيد لطيفة على كتفي؛ فاستدرت ووجدت لدهشتي أن المرأة الشابه قد تبعتني إلى داخل الغرفة.

قالت هامسة: «انتظر، اتركهم لي»، ثم دفعتني وتقدمت دون سلاح لمواجهة حيوانات البانث المزمجرة.

عندما اقتربت منهم، قالت كلمة واحدة مريخية بنبرة منخفضة، وإن كانت آمرة. ومثل البرق انقضت عليها الوحوش الضخمة، فتصورت أنني سأراها ممزقة قبل أن أتمكن من الوصول إلى جانبها، لكن تلك الكائنات سكنت بالأحرى أمام قدميها مثل الجِراء التي تتوقع عقوبة جلد مستحقة.

تحدثت الفتاة إليهم مرة أخرى بنبرة منخفضة جدًّا، بحيث لم أتمكن من سماع أي كلمة، ثم انطلقت نحو الجانب الآخر من الغرفة وفي أعقابها الوحوش الستة الجبارة. أرسلتهم واحدًا تلو الآخر خلال اللوح السري إلى الغرفة الأخرى. وعندما مر آخرهم من الغرفة التي نقف فيها مذهولين، استدارت وابتسمت لنا، ثم مرت هي نفسها وتركتنا بمفردنا.

لم ينبس أي منا ببنت شفة للحظة، ثم قال تارس تاركاس:

«سمعت القتال خلف القاطع الذي مررت أنت من خلاله، لكنني لم أخش عليك، جون كارتر، إلى أن سمعت صوت إطلاق النار من المسدس. أعرف أن برسوم كلها لم تشهد أي رجل يمكنه أن يواجهك بأسلحة معدنية ويعيش، لكن إطلاق النار نزع ما تبقى لدي من أمل؛ لأنني أعرف أنك لا تحمل أسلحة نارية. قل لي ماذا حدث».

فعلت ما طلبه، ثم توجهنا معًا نحو اللوح السري الذي دخلت لتوي إلى الشقة من خلاله - اللوح الذي يقع في الطرف الآخر من الغرفة الذي قادت الفتاة خلاله رفاقها المتوحشين.

ولخيبة أملنا استعصى اللوح أمام كل جهد بذلناه لفتح قفله السري. وشعرنا أننا ما إن نتمكن من تجاوزه، حتى سيصبح لدينا أمل ضئيل للنجاح في الخروج إلى العالم الخارجي.

لقد أدى بنا وجود السجناء مقيدين بالسلاسل في الداخل إلى الاعتقاد أن هناك قطعًا وسيلة للهرب من المخلوقات الرهيبة التي تسكن هذا المكان الذي لا يوصف.

انتقلنا مرارًا من باب إلى باب، من اللوح الذهبي المُحير في إحدى أطراف الغرفة إلى نظيره المُحير أيضًا في طرفها الآخر.

وعندما أوشكنا على فقدان أي أمل، دار أحد الألواح بصمت نحونا، وبجانبنا كانت تقف مرة أخرى المرأة الشابة التي قادت البانث بعيدًا عنا.

سألتنا: «من أنتما؟ وما مهمتكما، وكيف تتحليان بتلك الجرأة ومحاولة الهرب من وادي دور والموت الذي اخترتماه؟».

قلت: «لم أختر الموت يا فتاة. أنا لست من برسوم، ولم أتخذ بعد طريق الحج الطوعي إلى نهر إيس. صديقي هنا هو جيداك جميع الثاركيين، وعلى الرغم من أنه لم يُعبر بعد عن رغبته في العودة إلى عالم الأحياء، فإنني أصطحبه معي من الكذبة الحية التي أغرته بالذهاب إلى هذا المكان المخيف.

أنا من عالم آخر. أنا جون كارتر، أمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم. ربما تسربت بالمصادفة بعض الشائعات عني داخل حدود مكان إقامتك الشيطاني».

ابتسمت الفتاة.

وأجابت: «نعم، لا شيء يحدث في العالم الذي تركناه ولا نعرفه هنا. لقد سمعت عنك منذ سنوات عديدة. كثيراً ما يتساءل الثرنيون إلى أين ارتحلت ما دمت لم تأخذ وجهة الحج، ولم يمكن العثور عليك في برسوم».

قلت لها: «أخبريني من أنت، ولماذا أنت سجينة رغم ما تملكين من قوة تدل على ألفتك وسلطتك على تلك الوحوش الشرسة في هذا المكان، بما يتجاوز كثيراً ما يمكن توقعه من سجينة أو عبدة؟».

أجابت: «أنا من العبيد. لقد بقيت عبدة لخمسة عشر عامًا في هذا المكان الرهيب. والآن بعد أن تعبوا مني وأصبحوا يخشون القوة التي

منحتني إياها معرفتي بطرقهم، حكموا علي مؤخرًا بالموت الفعلي».

ارتجفت.

وسألتها: «أي موت؟».

أجابتني: «يأكل الثيرن المقدسون اللحم البشري، وإنما فقط لحم من مات بشفاه رجال النبات الماصة – اللحم الذي يُستمد منه دم الحياة المُدنس. وتحقيقًا لهذه الغاية القاسية أدانوني. كان ذلك سيحدث في غضون ساعات قليلة، لكن ظهورك تسبب في عرقلة خططهم».

سألتها: «هل كان الثرنيون المقدسون هم من شعروا بثِقل يد جون كارتر؟».

«أوه، كلا؛ أولئك الذين هزمتهم هم في مرتبة أقل من الثيرن؛ لكنهم من نفس العِرق القاسي البغيض. يلتزم الثيرنيون المقدسون بالبقاء عند المنحدرات الخارجية لهذه التلال المتجهمة، التي تواجه العالم الواسع، ومن هناك يحصدون ضحاياهم وغنائمهم.

تربط هذه الكهوف بقصور الثيرن المقدسين الفاخرة عبر متاهات من الممرات، ومن خلالها يبعثون أوامرهم إلى الثرنيين الأدنى، وجحافل العبيد، والسجناء، والوحوش الضارية – القتلة، سكان هذا العالم الذي يفتقر إلى الشمس.

ويوجد داخل هذه الشبكة الواسعة من الممرات المتعرجة والغرف التي لا تُعد ولا تُحصى، رجال ونساء ووحوش؛ الذين وُلدوا داخل هذا العالم السفلي البشع القاتم، ولم يروا ضوء النهار إطلاقًا- ولن يروه أبدًا».

ويتم الإبقاء عليهم لتقديم العطايا للعِرق الثيرني، وتزويدهم دومًا بما يفي باحتياجات رياضاتهم وقوتهم.

ودائمًا ما ينجرف حاج تعيس خارج البحر الصامت من نهر إيس البارد، ويهرب من رجال النبات والقرود البيضاء الكبيرة التي تحرس معبد إيسوس، ويقع في براثن الثيرن القاسية؛ أو، كما كان سوء حظي، يطمع فيه الثيرن المقدسون الذين يتصادف وجودهم يراقبون من شرفة فوق النهر، حيث ينحدر من باطن الجبال عن طريق منحدرات الذهب ليصب في بحر كوراس المفقود.

وبحكم العُرف، يصبح كل من يصل إلى وادي دور فريسة شرعية لرجال النبات والقرود، بينما تصبح أسلحته وحليه من نصيب الثيرن. ولكن إذا هرب أحد من سكان الوادي المرعبين ولو لساعات قليلة، يعتبره الثيرن من حقهم. ومرة أخرى، أي ثيرني مقدس يقوم بواجبه في المراقبة ويرى ضحية يشتهيها، فإنه غالبًا ما يتغاضى عن حقوق المتوحشين اللاعقلانيين في الوادي ويظفر بغنيمته بوسائل كريهة، إن لم يتمكن من الفوز بها بوسائل عادلة.

ويُقال إن بعض الضحايا المخدوعين بالخرافات البرسومية يهربون أحيانًا من براثن هذا العدد الذي لا يُحصى من الأعداء المتربصين بدربهم من لحظة خروجهم من الممر تحت الأرضي، الذي يتدفق خلاله نهر إيس لمسافة ألف ميل قبل أن يدخل وادي دور للوصول إلى جدران معبد إيسوس. أما عن المصير الذي ينتظرهم، فلا يمكن حتى للثيرن المقدسين أن يخمنوه؛ فمن مر خلال تلك الجدران المذهبة لم يعُد أبدًا ليكشف الأسرار التي تحملها منذ بداية الزمن.

إن معبد إيسوس بالنسبة للثيرن يماثل ما يتخيله أناس العالم الخارجي عن وادي دور؛ أي المرفأ النهائي للسلام والملاذ والسعادة، الذي يذهبون إليه بعد هذه الحياة ويعيشون الخلود الأبدي وسط مباهج اللحم الذي يغري بشدة هذا العِرق من عمالقة العقل وأقزام الأخلاق».

قلت: «إذن يُعتبر معبد إيسوس فردوسًا داخل الفردوس. لنأمل أنه سيُطبق على الثيرن هناك ما يُطبقه الثيرن هنا على الآخرين».

غمغمت الفتاة: «من يدري؟».

«الثيرن، بناءً على ما قلتيه، فانون مثلنا؛ ومع ذلك أسمع دومًا حديث أهل برسوم عنهم بأقصى رهبة وتبجيل، بمثل ما يمكن أن يتحدث المرء عن الآلهة».

أجابت: «الثيرن فانون. إنهم يموتون لنفس الأسباب مثلي أو مثلك: عندما يتخذ من لا يعيش منهم فترة الحياة المخصصة، وهي ألف سنة، طريقه بقوة الأعراف في سعادة عبر نفق طويل يؤدي إلى إيسوس.

ومن المفترض أن من يموتون قبل ذلك يقضون الوقت المتبقي المخصص لهم على صورة رجال النبات. ولهذا السبب يتصور الثيرن أن

رجال النبات مقدسون؛ لأنهم يعتقدون أن كل واحد من هذه المخلوقات البشعة كان ثرنيًّا في السابق».

سألتها: «وهل يموت رجل النبات؟».

«إذ مات قبل انقضاء الألف سنة من مولد الثيرني الذي خلوده متضمَّن داخله، تنتقل الروح إلى قرد أبيض كبير. ولكن إذا مات القرد قبل الموعد الدقيق لنهاية الألف سنة، فإن الروح تضيع إلى الأبد وتنتقل إلى جثة أكثر سيليان[12] غروي ومخيف، الذي

---

(12) السيليان هو مخلوق مائي في بحر كوراس المفقود، وينشط ليلاً -http://barsoom.wikia.com/wiki/Silian .المترجمة.

تنزلق الآلاف منه متلوية إلى بحر الصمت في ظل الأقمار المندفعة، عندما تغيب الشمس وتتحرك أشكال غريبة عبر وادي دور».

ضحك تارس تاركاس قائلاً: «إذن فقد أرسلنا اليوم العديد من الثيرن المقدسين إلى السيليان».

قالت الفتاة: «وبالتالي سيكون موتك أكثر رعبًا عندما يأتي، وسوف يأتي- لا يمكنك الهرب».

قمت بتذكيرها: «لقد نجا منه شخص منذ قرون، ويمكننا إعادة ما قام به مرة أخرى».

أجابت يائسة: «لا جدوى من المحاولة».

قلت صائحًا: «لكننا سنحاول، وسوف تأتين معنا، إذا كنت ترغبين».

«كي أموت على يد أُناسي، وأجعل ذكراي عارًا على عائلتي وأمتي؟ أمير من بيت تاردوس مورس يجب أن يعرف أفضل من أن يقترح شيئًا من هذا القبيل».

استمع تارس تاركاس في صمت، وكان يمكنني أن أشعر بعينيه مثبتتين بإحكام نحوي، وكنت أعرف أنه ينتظر جوابي كأنما ينتظر سماع عقوبته من رئيس هيئة المحلفين.

كانت نصيحتي للفتاة تعني نهايتنا أيضًا؛ فإذا خضعنا للخرافات القديمة قدم الدهر، علينا جميعًا البقاء ومواجهة مصيرنا بأحد الأشكال الفظيعة داخل هذه البقعة المريعة من الرعب والقسوة.

أجبت: «لدينا الحق في الهرب إن استطعنا. لن تتضرر أحاسيسنا الأخلاقية إذا نجحنا؛ فنحن نعرف أن حياة الحب والسلام الأسطورية في وادي دور السعيد ليست سوى نوع من الخداع الشرير. ونعرف أن الوادي ليس مقدسًا؛ ونعرف أن الثيرن المقدسين ليسوا مقدسين؛ وأنهم جنس فانٍ يتسم بالقسوة وتحجر القلب، ولا يعرفون عن حياة الفعلية القادمة أكثر مما نعرف».

كما لا يقتصر حقنا على أن نبذل كل جهد جدي ممكن للهرب، بل هو واجب جليل يجب ألا نتملص منه، حتى مع معرفتنا أننا سنواجه اللعنات والتعذيب على أيدي أناسنا عندما نعود إليهم.

علينا فقط أن نحمل الحقيقة إلى أولئك في الخارج. وعلى الرغم من أنني أؤكد أن احتمال أن تحظى قصتنا بالمصداقية هو احتمال بعيد، لأن الفانين يتشبثون بشدة بالافتتان الغبي بالخرافات المستحيلة، فإننا نصبح جبناء حقًّا إن تنصلنا من الواجب الواضح الذي يواجهنا.

مرة أخرى، وفي ظل أهمية شهادة العديد منا، لدينا فرصة قبولهم الحقيقة التي تحملها عباراتنا، أو على الأقل يمكننا التوصل إلى حل وسط يقضي بإرسال بعثة استقصائية للتحقق من هذه السخرية البشعة بشأن الفردوس».

صمتت الفتاة والمحارب الأخضر وهما يفكران لعدة دقائق. وكانت الفتاة هي من كسرت حاجز الصمت أخيراً.

قالت: «لم أفكر أبدًا في هذه المسألة بهذه الطريقة. يمكنني بالفعل أن أهب حياتي ألف مرة لأنقذ روحًا واحدة من الحياة الفظيعة التي عشتها في هذا المكان القاسي. نعم، أنت على حق، وسوف أذهب معك بقدر ما يمكننا أن نصل؛ لكنني أشك في أننا سنتمكن أصلاً من الهرب».

نظرت إلى الثاركي مستفسرًا.

تحدث المحارب الأخضر قائلاً: «سواء إلى بوابات إيسوس أو إلى قاع كوراس، إلى الثلوج في الشمال أو في الجنوب، سيتبع تارس تاركاس أي مكان يقودنا إليه جون كارتر. لقد أنهيت حديثي».

صحت: «هيا إذن، علينا أن نبدأ، فنحن لا يمكن أن نكون أبعد من الهروب أكثر مما نحن عليه الآن في قلب هذا الجبل وداخل الجدران

الأربعة لغرفة الموت هذه».

قالت الفتاة: «هيا إذن، ولكن دون أن تأمل في أنه لا يمكن إيجاد مكان أسوأ من هذا داخل أراضي الثيرن».

وبعد أن قالت ذلك، قامت بأرجحة اللوح السري الذي يفصلنا عن الشقة التي وجدتها فيها، ودخلناها مرة أخرى إلى الغرفة التي تضم السجناء الآخرين.

كانوا في مجموعهم عشرة من المريخيين الحُمر، رجالاً ونساءً، وعندما شرحنا خطتنا بإيجاز قرروا الانضمام إلينا، على الرغم من أن انضمامهم كان مصحوبًا بقدر لا

بأس به من الشكوك بأنهم على هذا النحو قاموا بإغواء القدر بمعارضتهم للخرافات القديمة، مع أن كلاًّ منهم كان يعرف من خلال تجربته القاسية زيف هذه البنية بأكملها.

ثوفيا، الفتاة التي حررتها أولاً، سرعان ما أطلقت سراح الآخرين. وتوليت مع تارس تاركاس تجريد جثتي الثيرنيين من أسلحتهما، وضمت السيوف والخناجر ومسدسين من النوع الغريب المميت الذي يقوم المريخيون الحُمر بتصنيعه.

وزعنا الأسلحة بقدر ما يمكن بين أتباعنا، مع إعطاء الأسلحة النارية إلى امرأتين؛ حيث كانت ثوفيا تحمل سلاحًا.

انطلقنا سريعًا وبحذر، وكانت ثوفيا دليلنا، من خلال متاهة الممرات. عبرنا غرفًا كبيرة محفورة في معادن الجرف الصلبة، ومرقنا في ممرات متعرجة، وصعدنا منحدرات شديدة الانحدار، وكثيراً ما كنا نخفي أنفسنا في تجاويف مظلمة عند سماع صوت وقع أقدام تقترب.

قالت ثوفيا إن مقصدنا هو مخزن بعيد يمكننا أن نجد فيه الكثير من الأسلحة والذخيرة. ومن هناك يمكنها أن تقودنا إلى قمة المنحدرات، وعندما يتطلب الأمر ذكاء مدهشًا وقتالاً جبارًا كي ننجح في خوض طريقنا من خلال قلب معقل الثيرن المقدسين نفسه لنصل إلى العالم الخارجي.

«وحتى عندئذ أيها الأمير»، قالت صائحة، «فإن ذراع الثيرن المقدسين طويلة، وتصل إلى كل موقع في برسوم. فمعابدهم السرية مخفية في قلب كل مجتمع. أينما نذهب، إن هربنا، سنجد أن خبر وصولنا قد سبقنا، وأن الموت ينتظرنا قبل أن نلوث الهواء بخيانتنا».

مضينا ربما لساعة دون معوقات جدية، وهمست ثوفيا لي أننا نقترب من هدفنا الأول. وعندما دخلنا غرفة كبيرة وجدنا رجلاً، من الواضح أنه ثيرني.

كان يرتدي، بالإضافة إلى أغطيته الجلدية والحلي المرصعة بالجواهر، طوقًا ذهبيًّا كبيراً حول جبينه توجد جوهرة هائلة في منتصفه تحديدًا، تماثل بدقة تلك التي رأيتها منذ عشرين عامًا على صدر الرجل الصغير العجوز في مصنع الجو.

إنها جوهرة برسوم التي لا تُقدر بثمن. لا توجد سوى جوهرتين فقط من هذا النوع، ويتم ارتداؤها كعلامة مميزة على رتبة ومركز الرجلين العجوزين اللذين كانا يتوليان مهمة تشغيل المحركات الهائلة التي تضخ الجو المصطنع من مصنع الجو الضخم إلى جميع

أنحاء المريخ، هذا المصنع الذي وضع سر بواباته الجبارة في حوزتي القدرة على إنقاذ حياة عالم بأسره من الانقراض الفوري.

كان حجم الجوهرة التي يرتديها الثيرني الذي مماثلاً لحجم تلك التي رأيتها من قبل؛ ويمكنني القول إن قطرها يبلغ بوصة. كانت تطلق تسعة أشعة مختلفة ومتميزة؛ الألوان السبع الأساسية التي يطلقها المنشور في كوكب الأرض، وشعاعين غير معروفين على كوكب الأرض، لكن جمالها الرائع لا يوصف.

عندما رآنا الثيرني، ضاقت عيناه إلى شقين مقززين.

صاح: «توقفوا! ما معنى هذا، ثوفيا؟».

أجابت الفتاة بأن رفعت مسدسها وأطلقت عليه النار مباشرة. سقط دون صوت على الأرض ميتًا.

همست قائلة: «وحش! أخيراً انتقمت بعد كل هذه السنوات».

ثم التفتت نحوي، في رغبة لتفسير الموقف. اتسعت عيناها فجأة عندما نظرت نحوي، وبدأت تحدثني بألم غاضب.

«أيها الأمير، القدر رحيم بنا. لا يزال الطريق صعبًا أمامنا، ولكن بسقوط هذا الشيء الخسيس على الأرض، يمكننا أن نفوز بالعالم

الخارجي. ألم تلحظ الشبه الواضح بين هذا الثيرني المقدس وبينك؟».

كان الرجل في الواقع بنفس قامتي بدقة، لكن عينيه وملامحه كانت مختلفة عني؛ وشعره كان كتلة من الخُصل الصفراء المتدفقة، مثل شعر الاثنين الذين قتلتهما، بينما شعري أسود وقصير.

سألت ثوفيا: «ما وجه التشابه؟ هل تريديني بشعري الأسود القصير أن أشبه كاهن هذه العبادة الشيطانية بشعره الأصفر؟».

ابتسمت، وردت على سؤالي بأن اقتربت من جسد الرجل الذي قتلته، وجلست على ركبتيها بجواره وأبعدت الطوق الذهبي من جبهته، ولدهشتي المطلقة أزالت شعره كاملاً من رأس جثته.

نهضت، وتقدمت إلى جانبي ووضعت الشعر الأصفر المستعار فوق شعري الأسود، وتوجتني بالطوق الذهبي ذي الجوهرة الرائعة.

قالت: «يمكنك الآن أن تستخدم عتاده أيها الأمير، وأن تسير أينما شئت في عوالم الثيرن، ذلك أن ساتور ثروج كان ثرنيًّا مقدسًا من العصر العاشر، وجبارًا بين جنسه».

عندما انحنيت نحو الرجل الميت تلبية لرغبتها، لاحظت عدم نمو ولو شعره واحدة على رأسه، كان أصلع تمامًا كبيضة.

شرحت ثوفيا عند ملاحظتها لدهشتي: «كلهم هكذا منذ الولادة. إن العِرق الذي ينحدرون منه كان متوجًا بنمو وافر للشعر الذهبي، لكن العِرق الحالي أصلع تمامًا منذ عصور عديدة. على أن الشعر المستعار أصبح جزءًا من ملابسهم، ويعتبرونه جزءًا شديد الأهمية بحيث إنها مدعاة للعار الشديد أن يظهر ثيرني في الأماكن العامة من دونه».

وفي اللحظة التالية، كنت أقف مرتديًا ثوبًا ثرنيًّا مقدسًا.

وبناء على اقتراح ثوفيا، حمل اثنان من السجناء المطلق سراحهم جثة الثيرني الميت على أكتافهم وواصلنا رحلتنا نحو المخزن، الذي وصلنا إليه دون أي أحداث مؤسفة.

وهنا كانت المفاتيح التي حملتها ثوفيا من الثيرني الميت في قبو السجن بمثابة وسيلة لدخولنا الفوري إلى الغرفة، وبسرعة شديدة تسلحنا جيدًا بالأسلحة والذخيرة.

وبحلول هذا الوقت كنت أشعر بإرهاق شديد بحيث لم أكن قادرًا على الاستمرار، فألقيت بنفسي على الأرض وطلبت من تارس تاركاس أن يحذو حذوي، وأبلغت اثنين من السجناء المطلق سراحهم القيام بمراقبة دقيقة.

وفي لحظة، كنت نائمًا.

* * *

(5)

دهاليز الخطر

لا أعرف كم استغرقت من الوقت نائمًا على أرضية المخزن، وأعتقد أنها عدة ساعات.

أيقظتني بداية صيحات إنذار. وما إن فتحت عيني، ولم أكن حتى جمعت شتات ذهني لأدرك أين كنت، حتى دوى سيل من الطلقات النارية عبر الدهاليز والممرات تحت الأرضية في سلسلة من الأصداء تصم الآذان.

نهضت في لحظة. كان عشرات من الثيرن الأدنى مرتبة في مواجهتنا من مدخل كبير يقع في الطرف المقابل للمدخل الذي دلفنا منه إلى المخزن. وجدت جثث رفاقي ملقاة حولي، باستثناء ثوفيا وتارس تاركاس، اللذين كانا مثلي نائمين على الأرض وبالتالي نجا ثلاثتنا من أول دورة لإطلاق النيران.

عندما وقفت على قدمي، أخفض الثيرن بنادقهم الشريرة، وتغيرت وجوههم في خليط من الكدر، والذعر، والإنذار بالخطر.

وعلى الفور أدركت الأمر، وتعاملت على أساسه.

صحت بنبرات من الغضب العنيف: «ما معنى هذا؟ هل يُقتل ساتور ثروج على يد خدمه؟».

هتف أحدهم: «رحماك يا سيد العصر العاشر!»؛ بينما توجه الآخرون تدريجيًّا نحو المدخل كأنما يحاولون الهرب خلسة من حضرة الرجل القوي.

همست لي ثوفيا قائلة: «سلهم عن مهمتهم هنا».

صحت: «ماذا تفعلون هنا، أيها الزملاء؟».

«هناك اثنان من العالم الخارجي يتحركان بحرية داخل أملاك الثيرن. ونحن نطاردهم بأمر من الأب الثيرني الأعلى. أحدهم أبيض البشرة وشعره أسود، والآخر محارب أخضر ضخم»؛ وهنا ألقى الزميل لمحة شك مريبة تجاه تارس تاركاس.

قالت ثوفيا وهي تشير إلى الثاركي: «هنا، إذن، واحد منهم؛ وإذا نظرتم إلى هذا الرجل الميت بجوار الباب ستتعرفون على الآخر. وكان الأمر متروكًا إلى ساتور ثروج

وعبيده البؤساء لإنجاز ما لم يقدر الثرنيون الحراس الأدنى مرتبة على القيام به – قتلنا أحدهم وأسرنا الآخر؛ ولهذا منحنا ساتور ثروج حريتنا. والآن، لغبائكم، تأتون وتقتلون الجميع ماعداي وتريدون قتل ساتور ثروج القوي نفسه».

بدا الرجال في شدة الخجل والخوف.

توجهت ثوفيا نحوي وسألتني: «أيها الرجل القوي، أليس من الأفضل أن يلقوا هذه الجثث إلى رجال النبات، ثم يعودون أدراجهم إلى مساكنهم».

قلت: «نعم؛ قوموا بما طلبته ثوفيا».

عندما بدأ الرجال يحملون الجثث، لاحظت أن الشخص الذي انحنى لحمل جثة ساتور ثروج بدأ يتفحص عن كثب وجهه المقلوب، ثم استرق لمحة ماكرة متسللة بطرف عينه في اتجاهي.

أعتقد أنه اشتبه في شيء من الحقيقة؛ لكن صمته أوضح أنه كان مجرد شك لم يجرؤ قط على التعبير عنه.

على أنه أطلق نحوي مرة أخرى لمحة سريعة فاحصة، وهو يحمل الجثة من الغرفة، ثم سقطت عيناه ثانية على الرأس الأصلع اللامع للرجل الميت بين ذراعيه. وقد كشفت اللمحة العابرة الأخيرة التي رأيتها على وجهه، وهو يمر مبتعدًا عني خارجًا من الغرفة، عن ابتسامة انتصار ماكرة على شفتيه.

بقيت أنا وتارس تاركاس وثوفيا فقط. انتزعت دقة تصويب الثيرن القاتل من رفاقنا أي فرصة ضئيلة للفوز بالحرية المحفوفة بالمخاطر في العالم الخارجي.

وبمجرد أن اختفت نهاية الموكب البشع، حثتنا الفتاة على مواصلة رحلتنا مرة أخرى.

كما أشارت أيضًا إلى السلوك المتشكك لدى الثيرني الذي حمل جثة ساتور ثروج.

قالت: «هذا لا يبشر بالخير، يا أمير. فحتى لو لم يتجرأ هذا الزميل على اتهامك بطريق الخطأ، فهناك من هم أعلى منه ولديهم سلطة كافية للمطالبة بتمحيص أكثر دقة، وهذه يا أمير، كارثة بالفعل».

هززت كتفي. يبدو أن نتائج محنتنا يجب أن تنتهي بالموت على أي حال. انتعشت لأنني نمت، لكني ما زلت ضعيفًا من فقدان الدماء. كانت جروحي تؤلمني، وتعذر

الحصول على معونة طبية. كم أتوق إلى قوة الشفاء الإعجازية من المراهم والمستحضرات السائلة الغريبة لدى نساء المريخ الخُضر. بإمكانهم علاجي تمامًا خلال ساعة واحدة.

كنت مُحبطًا. لم أشعر من قبل بمثل هذا الشعور باليأس المطلق في مواجهة الخطر. ثم تحركت على وجهي خصل شعر الثيرن المقدسين الصفراء، الطويلة المتدفقة، التي أثارها هبوب بعض الرياح.

هل الطريق إلى الحرية لا يزال مفتوحًا؟ وإذا تصرفنا في الوقت المناسب، ألا يمكننا حتى الهرب قبل أن يدق ناقوس الإنذار العام؟ يمكننا المحاولة على الأقل.

سألت: «ثوفيا، ما أول شيء سيفعله الزميل الذي ذهب؟ وكم يستغرق الوقت قبل عودته إلينا؟».

«سيتوجه مباشرة إلى الأب الثيرني الأعلى، ماتاي شانج العجوز. وقد يضطر إلى انتظار مقابلة، ولكن نظرًا لارتفاع رتبته بين الثيرن الأدنى مرتبة، فهو في الواقع مثل ثوريان[13] بينهم، فلن يجعله ماتاي شانج ينتظر طويلاً».

«ثم إذا صدق الأب الثيرني الأعلى قصته، فبعد ساعة أخرى سنرى القاعات والغرف، والساحات والحدائق، مملوءة بالباحثين عنا».

«إذن ما علينا القيام به يجب أن يتم في غضون ساعة. وما أفضل وسيلة، ثوفيا، ما أقصر طريق للخروج من متاهات مملكة الموت السفلية هذه؟».

أجابت: «نمضي مباشرة إلى الجزء العلوي من المنحدرات، يا أمير، وبعد ذلك نتجه عبر الحدائق إلى الساحات الداخلية. وهناك يكمن طريقنا داخل معابد الثيرن وعبرها إلى الفناء الخارجي. ثم الأسوار – أوه يا أمير، إنها محاولة يائسة. لا يمكن لعشرة آلاف محارب شق الطريق للحرية خارج هذا المكان الشنيع.

منذ بداية الزمن يضيف الثيرن، شيئًا فشيئًا وحجرًا بحجر، وسائل للدفاع عن معقلهم. هناك خط متواصل من التحصينات المنيعة يحيط بالمنحدرات الخارجية لجبال أوتز.

---

(13) الثوريان: هو مخلوق فريد من نوعه، ولديه قدرة عالية على التخاطر والسيطرة على العقل، فضلاً عن شبكة حسية عالية .
- http://masseffect.wikia.com/wiki/Thorianالمترجمة.

وداخل المعابد التي تكمن وراء الأسوار، يوجد مليون مقاتل على استعداد دائم. وتمتلئ الساحات والحدائق بالعبيد، والنساء، والأطفال.

لا شيء يمكنه التحرك على بعد مرمى حجر دون اكتشافه».

«إن لم تكن هناك وسيلة أخرى، ثوفيا، لماذا نسهب التفكير في الصعوبات التي تكتنفها. يجب أن نواجه تلك الصعوبات».

سأل تارس تاركاس: «أليس من الأفضل المحاولة بعد حلول الظلام؟ فلا تبدو هناك أي فرصة نهارًا».

قالت ثوفيا: «الفرصة ليلاً أفضل قليلاً، ولكن حتى عندئذ تحظ الأسوار بحراسة قوية؛ ربما أفضل من الحراسة نهارًا. كما يقل عدد الناس في الساحات والحدائق».

سألتها: «ما الوقت الآن؟»

قالت: «كنا في منتصف الليل عندما حررتني من السلاسل. وبعد ساعتين وصلنا إلى المخزن. وهناك أنت نمت لمدة أربع عشرة ساعة. وبالتالي أعتقد أن الوقت الآن يقترب من الغروب مرة أخرى. تعال، سنذهب إلى النافذة القريبة من الجرف ونتأكد».

قادت الطريق بعد ذلك خلال ممرات متعرجة، إلى أن وجدنا أنفسنا بعد منعطف مفاجئ عند فتحت تطل على وادي دور.

على يميننا كانت الشمس تغرب، جرم سماوي أحمر ضخم، أسفل السلسلة الغربية لجبال أوتز. وأسفلنا بمسافة قصيرة، يقف الثيرني المقدس مراقبًا في شرفته. كانت عباءته الرسمية القرمزية شديدة الإحكام عليه، تحسبًا من البرد الذي يأتي فجأة مع الظلام عندما تغرب الشمس. يمتص جو المريخ قدرًا قليلاً من حرارة الشمس. فهو شديد الحرارة خلال ساعات النهار، وشديد البرودة في الليل. كما لا يعكس الغلاف الجوي الرقيق أشعة الشمس أو ينشر ضوءها كما يحدث على

كوكب الأرض. لا يوجد شفق على المريخ. عندما يختفي جرم النهار السماوي العظيم وراء الأفق، يترك تأثيراً يماثل تحديدًا ذلك التأثير الذي يُحدِثه إطفاء مصباح وحيد داخل غرفة. فمن الضوء الساطع، يغوص المرء دون سابق إنذار في الظلام المطلق. ثم تأتي الأقمار؛ أقمار المريخ السحرية الغامضة، تندفع منخفضة مثل النيازك الضخمة أعلى سطح هذا الكوكب.

تضيء الشمس بتألق الضفاف الشرقية لبحر كوراس، والمرج القرمزي، والغابة الرائعة. شاهدنا تحت الأشجار قطعانًا كثيرة من رجال النبات وهم يأكلون. وقف الكبار على أصابع أقدامهم، وكانت ذيولهم القوية ومخالبهم تتولى تشذيب كل ورقة شجر أو غصن متاح. وعندئذ فهمت التقليم الدقيق للأشجار الذي دفعني إلى تكوين فكرة خاطئة عندما فتحت عيني أول ما وصلت على بستان وتصورت أنه ملعب لشعب متحضر.

خلال مشاهداتنا، تجولت أعيننا على نهر إيس المتموج، الذي ينبع من قاعدة المنحدرات أسفلنا. وها هو زورق يظهر من الجبل، محمل بأرواح تائهة من العالم الخارجي. هناك عشرات منهم. وجميعهم من جنس الرجال الحُمر المتحضرين والمثقفين الذين يهيمنون على المريخ.

ومثلنا، سقطت أعين المراقب على الشرفة أسفلنا على المجموعة المحكوم عليها بالهلاك. رفع رأسه، وأخذ يميل بعيدًا فوق الحاجز المنخفض الذي يحيط بموقعه الدائري، وأطلق عويله الصاخب الغريب الذي يستدعي شياطين هذا الجحيم إلى الهجوم.

وقف المتوحشون للحظة وارتفعت آذانهم يصغون، ثم تدفقوا من البستان تجاه ضفة النهر، وهم يقطعون المسافة بقفزات كبيرة خرقاء.

كانت المجموعة قد وصلت إلى اليابسة ويقفون على المرج، عندما ظهر الحشد الفظيع على مرمى أبصارهم. كان جهد الدفاع قصيراً ودون جدوى. ثم ساد الصمت، حيث غطت المخلوقات الضخمة المثيرة للاشمئزاز أجساد ضحاياها، وغرزت عشرات من الأفواه الماصة نفسها إلى لحم فرائسها.

التفتُ بعيدًا في اشمئزاز.

قالت ثوفيا: «سرعان ما سينتهي دورهم. فالقرود البيضاء الكبيرة تحصل على اللحم عندما ينتهي رجال النبات من استنزاف الشرايين. انظروا، ها هم قادمون».

عندما أدرت عيني في الاتجاه الذي أشارت إليه الفتاة، رأيت العشرات من الوحوش البيضاء الكبيرة تركض عبر الوادي تجاه ضفة النهر. ثم غربت الشمس، وابتلعنا الظلام.

لم تضع ثوفيا الوقت، وقادتنا نحو الممر الذي يتعرج ذهابًا وإيابًا عبر المنحدرات في اتجاه السطح الذي يرتفع آلاف الأقدام عن المستوى الذي كنا فيه.

أعاقت حيوانات البانث الضخمة تقدمنا مرتين، وهي تتجول بحرية خلال الممرات. لكن ثوفيا كانت تتحدث إليهم في كل مرة بكلمة آمرة هامسة، وعندها تتسلل الوحوش المزمجرة المتجهمة مبتعدة.

قلت للفتاة مبتسمًا: «إذا كان بإمكانك حل كافة عقباتنا بسهولة بقدرتك على التحكم في هؤلاء المتوحشين الشرسين، فلا أرى أي صعوبات في طريقنا. كيف تفعلين ذلك؟».

ضحكت، ثم انتابتها رجفة.

قالت: «لا أعرف تمامًا. عندما جئت إلى هنا أول مرة، أثرت غضب ساتور ثروج؛ لأنني رفضته. فأصدر أوامره بإلقائي في إحدى الحُفر الكبيرة بالحدائق الداخلية. كانت الحفرة مملوءة بحيوانات البانث. في بلدي، كنت معتادة على إصدار الأوامر والقيادة. شيء ما في صوتي، لا أعرف ما هو، يروع الوحوش عندما تنطلق لمهاجمتي».

«وبدلًا من أن تمزقني إلى قطع، كما كان ساتور ثروج يرغب، جثت الحيوانات أمام قدمي. استمتع ساتور ثروج وأصدقاؤه كثيراً بهذا المشهد إلى حد أنهم أبقوا علي لتدريب المخلوقات الرهيبة والتعامل معها. أنا أعرفهم جميعًا بالاسم. يجوب العديد منهم هذه المناطق المنخفضة، وينبشون الفضلات. فالعديد من السجناء يموتون هنا في قيودهم، وتحل حيوانات البانث مشكلة التنظيف، على الأقل في هذا الصدد».

«ويتم الاحتفاظ بهذه الحيوانات في الحفر بالحدائق والمعابد التي تعلونا؛ فالثرن يخافونهم، وبسبب البانث نادرًا ما يغامرون بالنزول تحت

الأرض إلا إذا استدعت مهماتهم ذلك».

خطرت لي فكرة مما قالته ثوفيا الآن.

سألتها: «لماذا لا نأخذ عددًا من البانث ونحررهم قبل أن نصعد فوق الأرض؟»

ضحكت ثوفيا.

وقالت: «هذا سوف يصرف الانتباه عنا، أنا واثقة من ذلك».

وبدأت تناديهم بصوت رخيم منخفض، كأنه شبه خرخرة. وواصلت ذلك ونحن نشق طريقنا الوعر عبر متاهة الدهاليز والغرف تحت الأرض.

سمعت الآن صوت أقدام مبطنة طرية ناعمة قريبة وراءنا، فاستدرت ورأيت زوجين من أعين كبيرة خضراء تلمع في الظلال الداكنة خلفنا. لقد تسللت خلسة نحونا، من نفق متشعب، هيئة صفراء مسمرة متلوية.

اقتحم هدير منخفض وزمجرة غاضبة آذاننا من كل جانب ونحن نمضي مسارعين، استجابت المخلوقات الشرسة واحدًا تلو الآخر لنداء سيدته.

نطقت ثوفيا بكلمة لكل منهم عند انضمامه إلينا. ومثل الكلاب جيدة التدريب، تحركت الحيوانات عبر الممرات معنا. لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من ملاحظة أفواههم المليئة بالرغاوي، أو نظرات الجوع التي وجهتها نحو تارس تاركاس ونحوي.

وسرعان ما أصبحنا محاطين كلية بحوالي خمسين من تلك الحيوانات المتوحشة. سار اثنان على كل جانب من ثوفيا، كما يسير الحراس. والآن تمس الجوانب الملساء لبعض الحيوانات أطرافي العارية. كانت تجربة غريبة؛ مسار صامت تقريبًا لأقدام إنسان عار وكفوف مبطنة. كانت الجدران الذهبية مرصعة بالجواهر؛ وهناك ضوء خافت من مصابيح الراديوم الصغيرة الموجودة على مسافات كبيرة على طول السقف؛ والوحوش المفترسة الضخمة ذات العُرف، تتزاحم بهدير منخفض حولنا؛ والمحارب الأخضر القوي أطول منا جميعًا؛ وأنا متوج بإكليل ثمين أخذته من الثيرني المقدس؛ وتقود الموكب فتاة جميلة، ثوفيا.

لن أنسى ذلك.

اقتربنا الآن من غرفة كبيرة أكثر إضاءة من الممرات. أوقفتنا ثوفيا، وتسللت بهدوء نحو المدخل، وألقت نظرة محدقة، ثم أشارت لنا أن نتبعها.

كانت الغرفة مملوءة بأنواع من تلك الكائنات الغريبة التي تسكن هذا العالم السفلي؛ مجموعة غير متجانسة من الكائنات الهجين - أبناء السجناء القادمين من العالم الخارجي، مريخيين حُمر وخُضر، وجنس الثيرن الأبيض.

لقد صنع منهم استمرار حبسهم تحت الأرض كائنات غريبة؛ فهم أكثر شبهًا بالجثث عن الكائنات الحية. كثير منهم مشوهون، وآخرون مبتورون، بينما الأغلبية، كما أوضحت ثوفيا، لا يبصرون.

كانوا ممدين على الأرض، أحيانًا على نحو متداخل فوق بعضهم بعضًا في أكوام من عدة أجساد، مما أثار في ذاكرتي على الفور الصور التوضيحية المتنافرة التي رأيتها في

نسخ كتاب دانتي «الجحيم»[14]، وهل هناك مقارنة أكثر ملاءمة؟ أليس هذا جحيم حقيقي حقًّا، تسكنه أرواح مفقودة، ميتة وملعونة بما يتجاوز أي أمل؟

اخترنا طريقنا بعناية، وسرنا خلال دهليز متعرج عبر الغرفة، وحيوانات البانث الكبيرة تتشمم بجوع الفرائس المغرية المتناثرة بغزارة أمامها بلا دفاع.

مررنا عدة مرات على المداخل المفضية إلى الغرف الأخرى المأهولة بنفس الطريقة، واضطررنا مرتين أن نعبر مباشرة من خلالهم. وفي حالات أخرى وجدنا سجناء ووحوش مقيدين بالسلاسل.

سألتُ ثوفيا: «لماذا لا نرى أي ثيرني؟».

«نادرًا ما يأتي الثيرن ليلاً إلى العالم السفلي، فحيوانات البانث الكبيرة تطوف خلسة في الممرات القاتمة سعيًا لفرائسها. يخاف الثيرن من القاطنين البشعين لهذا العالم القاسي اليائس الذي أقاموه وسمحوا له بالنمو تحت أقدامهم. وأحيانًا ينقلب عليهم حتى السجناء ويمزقونهم. لا يعرف الثرني أبدًا من أي ظلال قاتمة يمكن أن ينقض قاتل على ظهره».

أما في النهار، فالوضع مختلف؛ حيث تمتلئ الممرات والغرف بحراس

يمرون ذهابًا وإيابًا، ويأتي العبيد بالمئات من المعابد في أعلى إلى صوامع الحبوب وغرف التخزين. تدب الحياة في كل شيء. وأنتم لم تروا هذا لأنني لم أقدكم عبر مسارات مطروقة، وإنما من خلال ممرات ملتوية يند استخدامها. ومع ذلك، قد نلتقي بثرني. فأحيانًا يجدون من الضروري أن يأتوا هنا بعد غروب الشمس. ولهذا السبب فإنني أتحرك بحذر شديد».

وصلنا إلى القاعات العلوية دون أن نُكتشف. أوقفتنا ثوفيا الآن عند سفح مطلع قصير وحاد.

قالت: «يوجد فوقنا مدخل يفتح على الحدائق الداخلية. لقد أوصلتكم إلى هذه المسافة. من هنا أمامنا أربعة أميال لنصل إلى الأسوار الخارجية، وطريقنا تكتنفه مخاطر لا حصر لها. يقوم الحراس بدوريات في الساحات، والمعابد، والحدائق. كل شبر من الأسوار نفسها يقع تحت عين أحد الحراس».

---

(14) » الجحيم»: الجزء الأول من «الكوميديا الإلهية» لدانتي في القرن الرابع عشر - المترجمة.

لم أفهم ضرورة وجود هذه القوة الهائلة من الرجال المسلحين حول بقعة محاطة بالغموض والخرافات، لا تجرؤ أي روح في برسوم على الاقتراب منها حتى ولو كانوا يعرفون موقعها الدقيق. وسألت ثوفيا متشككًا عن طبيعة الأعداء الذين يمكن أن يخشاهم الثيرن في قلعتهم المنيعة.

وصلنا إلى المدخل الآن، وفتحته ثوفيا.

وقالت: «إنهم يخشون قراصنة برسوم السود، يا أمير، الذين يحفظنا منهم أسلافنا الأوائل».

تأرجح الباب مفتوحًا؛ استقبلتني رائحة أشياء نابتة؛ ولمس الهواء الليلي البارد خدودي. تشممت حيوانات البانث الكبيرة الروائح غير المألوفة، ثم اندفعت خلالنا بهدير منخفض، متدفقة عبر الحدائق تحت الضوء الخفيف للقمر الأقرب.

دوت فجأة صيحة هائلة من فوق أسطح المعابد؛ صيحة إنذار وتحذير، تنتقل من نقطة لأخرى، وتعبر إلى الشرق وإلى الغرب، من المعبد والساحة والسور، إلى أن بدت كصدى خافت على البُعد.

قفز السيف الطويل لدى الثاركي العظيم من غمده؛ وانكمشت ثوفيا فزعًا إلى جانبي.

* * *

(6)

قراصنة برسوم السود

سألتها: «ما هذا؟».

أجابت بأن أشارت إلى السماء.

توجهت ببصري، وهناك، فوقنا، رأيت أجسامًا غامضة ترفرف عاليًا هنا وهناك فوق المعبد، والساحة، والحديقة.

وعلى الفور أصدرت هذه الكائنات الغريبة ومضات من الضوء. سمعت دويًّا لطلقات مجموعة بنادق مجتمعة، ثم ظهرت ومضات ودوي ردًّا عليها من المعبد والسور.

قالت ثوفيا: «يا أمير، إنهم قراصنة برسوم».

انخفضت مركبة اللصوص الجوية في دوائر كبيرة في اتجاه قوات الدفاع الثيرنية.

قذفت طائرة بعد الأخرى وابلاً من القذائف على حراس المعبد؛ وتحطمت طائرة تلو الأخرى عبر الهواء الرقيق وهي تتجه نحو الطائرات العابرة المراوغة.

وعندما انقض القراصنة مقتربين نحو الأرض، تدفق جنود الثيرن من المعابد إلى الحدائق والساحات. وعندما شاهدتهم في العراء عشرات الطائرات، أخذت تلقي بقذائفها من جميع الاتجاهات.

فتح الثيرن نيران الدروع المثبتة ببنادقهم، لكن الطائرات السوداء الكئيبة توافدت على نحو مطرد. كانت طائرات صغيرة في معظمها، مُصممة لتحمل رجلين أو ثلاثة. وهناك عدد قليل من الطائرات أكبر حجمًا، لكنها ظلت محلقة عاليًا تقصف بمدفعيتها المعابد.

وباندفاع منسق، من الواضح أنه استجابة لإشارة آمرة، انطلق القراصنة بتهور نحو الأرض في وسط جنود الثيرن.

وما إن لمست الطائرات الأرض، حتى قفزت المخلوقات التي بداخلها بغضب الشياطين نحو الثيرن. يا له من قتال! لم أشهد مثله من قبل أبدًا. كنت أتصور أن

المريخيين الخُضر هم أشرس محاربين في الكون، لكن طريقة انقضاض القراصنة السود على خصومهم، في تخلٍّ فظيع عن حياتهم، كان يتجاوز أي شيء رأيته من قبل.

تجلى المشهد بأكمله متميزاً بحيوية، تحت ضوء قمري المريخ المجيدين اللامع. قاتل الثيرن أصحاب الشعر الذهبي والبشرة البيضاء بشجاعة يائسة في مواجهة مباشرة مع أعدائهم أصحاب البشرة الأبنوسية.

هنا، سحقت زمرة قليلة من المحاربين المقاتلين نوعًا من أشجار البيماليا[15] الرائعة؛ وهناك، وجد السيف المنحني لرجل أسود طريقه إلى قلب ثرني وتركه ميتًا أسفل تمثال عجيب منحوت من ياقوت مفعم بالحياة؛ وهنالك أجبر عشرة من الثيرن قرصان واحد على السقوط فوق مقعد طولي من الزمرد، سطحه مُزين بتصميمات برسومية جميلة غريبة بألوان قوس قزح ومطعمة بالماس.

وقفت أنا وثوفيا والثاركي على أحد الجوانب. لم يصل إلينا وطيس المعركة، لكن المقاتلين كانوا يميلون من حين لآخر بالقرب منا بحيث كان يمكننا تمييزهم.

أثار القراصنة السود اهتمامي كثيراً. لقد سمعت عنهم شائعات غامضة، أكثر قليلاً من كونها أساطير، خلال حياتي السابقة على المريخ؛ ولكن لم يسبق أن رأيتهم أو تحدثت مع أي شخص رآهم.

كان من الشائع أنهم يسكنون القمر الأصغر، ونزلوا منه إلى برسوم خلال فترات طويلة. ومن المعروف أنهم يقومون بأفظع الأعمال الوحشية في المكان الذي يزورونه، وعندما يغادرون يحملون معهم الأسلحة النارية والذخائر، فضلاً عن الفتيات الصغيرات كأسيرات. وتقول الشائعات إنهم كانوا يضحون بهؤلاء الفتيات لإله رهيب في طقوس العربدة التي تنتهي بالتهام ضحاياهم.

تمتعت بفرصة ممتازة لدراستهم، فالقتال كان يأتي بأحدهم بين الفينة والفينة بالقرب من المكان الذي أقف فيه. كانت أحجامهم كبيرة، يبلغ طول الرجل ربما ستة أقدام وأكثر. وملامحهم محددة ووسيمة إلى أقصى حد؛ وأعينهم أيضًا جيدة التحديد وكبيرة، على الرغم من ضيق طفيف يعطيهم مظهرًا ماكرًا؛ وقزحية العين التي كان يمكنني أيضًا تحديدها بواسطة ضوء القمر، كانت سوداء تمامًا، بينما كانت مقلة العين نفسها

بيضاء وشديدة الوضوح. أما هيكلهم البدني، فيبدو مطابقًا لأبدان الثيرن، والرجال الحُمر، وبدني. بيد أن لون بشرتهم فقط هو ما يختلف تمامًا عنا؛ فقد كانت البشرة تشبه

(15) شجرة بيماليا: شجرة مزهرة كبيرة في حدائق المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Pimalia المترجمة.

مظهر الأبنوس المصقول وتتسم بالغرابة، بمثل ما يمكن أن يقوله شخص جنوبي، مما يضيف ولا ينتقص من جمالهم الرائع.

ولكن، إذا كانت أجسادهم مقدسة، فإن قلوبهم، على ما يبدو، هي عكس ذلك تمامًا. لم أشهد أبدًا مثل هذه الشهوة الخبيثة للدم كهؤلاء الشياطين القادمين من الهواء الخارجي تتجلى في معركتهم المجنونة مع الثيرن.

كل شيء حولنا في الحديقة يوضح قدراتهم الشريرة، ولم يبذل الثيرن لسبب ما -لم أكن أعرفه حينذاك- أي جهد للإضرار بهم. مرارًا وتكرارًا، كان يندفع محارب أسود من أحد المعابد القريبة وهو يحمل امرأة شابة بين ذراعيه. ويتجه مباشرة نحو طائرته ويقفز داخلها، بينما رفاقه الذين يقاتلون بالقرب منه يهرعون لتغطية هروبه.

ويسارع الثيرن من جانبهم لإنقاذ الفتاة، وفي لحظة يتم ابتلاع الاثنين في دوامة غضب عارم من الشياطين التي تصرخ، ويقطعون بعضهم أربًا، مثل الشياطين المتجسدة.

ولكن يبدو أن قراصنة برسوم السود ينتصرون دائمًا؛ أما الفتاة التي أسروها خلال النزاع وخرجت منه سالمة بأعجوبة، فيحملونها بعيدًا في الظلام الخارجي إلى سطح السفينة الفضائية السريعة.

وبقدر ما يمكن أن يصل الصوت، سمعنا أصوات معارك مماثلة لتلك التي تحيط بنا من الاتجاهين. وأخبرتني ثوفيا أن هجمات القراصنة السود تحدث عادة في وقت واحد في مجمل منطقة الثيرن التي تشبه الشريط وتحيط بوادي دور عند المنحدرات الخارجية لجبال أوتز.

عندما انحسر القتال عن موقعنا لدقيقة، توجهت ثوفيا نحوي بسؤال:

قالت «هل تدرك الآن، يا أمير، لماذا يحرس مليون محارب مناطق الثيرن المقدسين ليلاً ونهارًا؟».

«المشهد الذي نشهده الآن ليس سوى تكرار لما رأيته يحدث عشرات المرات خلال الخمسة عشر عامًا التي أمضيتها سجينة هنا. قراصنة برسوم السود يفترسون منذ زمن سحيق الثيرن المقدسين.

ومع ذلك فهم لا يصلون أبدًا بحملاتهم إلى النقطة التي يكون فيها الثيرن مهددين بالإبادة- وهو ما يمكنهم القيام به بسهولة. يبدو الأمر كما لو أنهم يستخدمون هذا العِرق

الثيرني كمجرد دُمى يلعبون بها، لتلبية شهوتهم الشرسة في القتال؛ ومن هذا العِرق يجمعون حصيلة من الأسلحة والذخائر والأسرى».

سألتها: «لماذا لا يقفزون ويدمرون هذه الطائرات؟ فهذا سرعان ما سيضع نهاية للهجمات، أو على الأقل سيقلل جرأة السود. انظري كيف يتركون طائراتهم تمامًا دون حراسة جيدة، كأنما تقف آمنة في حظائرها».

«لا يجرؤ الثيرن على ذلك. فقد حاولوا مرة واحدة، من عصور طويلة، ولكن في الليلة التالية، ولفترة استمرت لقمر كامل، أحاطت ألف سفينة فضائية حربية سوداء كبيرة بجبال أوتز، وألقت أطنانًا من القذائف على المعابد والحدائق والساحات، إلى أن اضطر كل ثيرني لم يُقتل إلى اللجوء للقاعات تحت الأرضية حفاظًا على سلامته.

يعرف الثيرن أنهم لا يعيشون إلا لأنهم يتحملون المعاناة على يد الرجال السود. فقد كانت الإبادة قريبة منهم تلك المرة، ولن يخاطروا مرة أخرى».

عندما توقفت عن الكلام، دخل عنصر جديد إلى الصراع. جاء من مصدر لم يكن في حسبان الثيرن أو القراصنة. يبدو أن حيوانات البانث الضخمة التي تركناها حرة في الحديقة قد ارتعبت بداية من صوت المعركة، وصراخ المحاربين، وارتفاع أصوات طلقات البنادق والقنابل.

لكن الضجيج المستمر أثار غضبها الآن، كما أثارتها رائحة الدماء الجديدة؛ فقد برزت على نحو مفاجئ هيئة ضخمة من بين أجمة الشجيرات المنخفضة وانطلقت وسط تلك الكتلة البشرية المتقاتلة. انطلقت صرخة غضب وحشي مروع من البانث، عندما شعر باللحم الدافئ تحت مخالبه القوية.

كانت صرخته كأنما إشارة إلى الآخرين، فقد ألقت مجموعة كبيرة بأكملها أنفسهم بين المقاتلين. سادت حالة من الذعر في لحظة. تحول الثيرن والرجال السود، على حد سواء، ضد العدو المشترك، إذ لم يُظهِر البانث تحيزًا تجاه أي منهما.

اندفعت الوحوش الضارية إلى القتال الدائر، وأسقطت مائة رجل

بمجرد وزن أجسامها الضخمة. كانت الوحوش تقفز وتخدش، وأسقطت المحاربين بكفوفها القوية، وتحولت للحظة نحو تمزيق ضحاياها بأنيابها المخيفة.

كان المشهد مبهرًا في فظاعته؛ وفجأة تبادر إلى ذهني أننا نضيع وقتنا الثمين في مشاهدة هذا الصراع، الذي قد يمثل في حد ذاته وسيلة لهروبنا.

كان الثيرن منشغلين في اشتباكهم مع المهاجمين المرعبين بحيث قد يسهل الآن نسبيًّا هروبنا. تلفتُ باحثًا عن فتحه خلال الجحافل المتنازعة. إذا أمكننا فقط الوصول إلى الأسوار، فقد نجد أن قوات القراصنة قد أضعفوا في مكان ما قوات الحراسة وتركوا طريقًا مفتوحًا لنا إلى العالم الخارجي.

تجولت بعيني في أنحاء الحديقة، وفتح مرأى مئات المركبات الفضائية المتروكة دون حراسة حولنا أبسط طريق للحرية. لماذا لم يطرأ ذلك إلى ذهني من قبل! أنا على دراية وافية بآلية كل طائرة معروفة في برسوم. لمدة تسع سنوات وأن أُبحِر وأقاتل مع قوات هيليوم البحرية. كما طرت عبر الفضاء في سفينة استطلاع فضائية صغيرة لا تسع سوى رجل واحد، وقدت أكبر سفينة فضائية حربية عبر الهواء الرقيق للمريخ المحتضر.

التفكير، بالنسبة لي، هو التصرف. أمسكت بذراع ثوفيا وهمست إلى تارس تاركاس لمتابعتي. سرعان ما وصلنا متسللين إلى طائرة صغيرة تقع بعيدة عن المحاربين المتقاتلين. وفي اللحظة التالية كنا متجمعين على سطحها الصغير. وضعت يدي على ذراع الانطلاق. ضغطت بأصبعي على الزر الذي يتحكم في شعاع الدفع - وهو اكتشاف المريخيين الرائع الذي يتيح لهم الملاحة عبر الغلاف الجوي الرقيق لكوكبهم بسفن ضخمة، تجعل المدرعات البحرية لدى القوات البحرية على كوب الأرض شيئًا هزيلاً تافهًا.

تمايلت الطائرة قليلاً، لكنها لم تتحرك، ثم شقت آذاننا صرخة تحذير جديدة. استدرت، فرأيت عشرات القراصنة السود يندفعون نحونا من المعركة، لقد اكتشفونا. اندفع الشياطين نحونا وهم يطلقون صيحات غاضبة. واصلت بإصرار مسعور الضغط على الزر الصغير الذي ينبغي أن يرسلنا إلى الفضاء، لكن السفينة الفضائية ترفض التزحزح. ثم خطر لي سبب عدم ارتفاعها.

لقد عثرنا على طائرة تسع شخصين. كانت خزانات أشعتها محملة بكمية كافية من طاقة الدفع لرفع اثنين فقط من الرجال العاديين. وكان وزن الثاركي الكبير يُثبِّتنا لنلقى حتفنا.

كان السود على وشك الوصول إلينا. ولم تكن هناك لحظة لتضيع في أي تردد أو شك.

قمت بالضغط على الزر عميقًا بقوة مع تثبيته، ثم وضعت الذراع على سرعة عالية. وما إن وصل السود صائحين، حتى انزلقت من سطح الطائرة، وواجهت الهجوم بسيفي الطويل.

وفي اللحظة نفسها رنت صرخة فتاة خلفي، وفي اللحظة التالية سقط السود فوقي. سمعت الآن على بعد فوق رأسي، صوت ثوفيا الخافت: «يا أميري، أوه يا أميري؛ كنت أفضل أن أبقى وأموت معك ...» لكن بقية كلامها ضاع في ضجيج المهاجمين.

عرفت أن حيلتي نجحت، وأن ثوفيا وتارس تاركاس في أمان على الأقل مؤقتًا، وأن وسيلة الهرب كانت لهما.

بدا لوهلة أنني غير قادر على الصمود أمام حجم الأعداد التي تواجهني؛ ومرة أخرى، كما حدث في مناسبات كثيرة أخرى عندما تطلب الأمر مواجهة الغرائب المخيفة على هذا الكوكب من المحاربين والوحوش ضارية، وجدت أن قوتي كشخص من كوكب الأرض تفوق حتى الآن قوة أعدائي الذين لم يكونوا ضدي بدرجة كبيرة كما تصورت.

نسج نصل سيفي الغاضب شبكة من الموت حولي. ضغط السود للحظة ليتمكنوا من استخدام سيوفهم الأقصر، لكنهم تراجعوا الآن، وظهر على ملامحهم بجلاء الاحترام الذي شعروا به تجاه سيفي.

مع ذلك كنت أعرف أنها مجرد دقائق قبل أن تمزقني أعدادهم المتزايدة، أو يتمكنوا من التغلب على سيفي الحارس. يجب أن أموت موتًا حقيقيًّا في نهاية المطاف قبلهم. ارتجفت عندما فكرت في هذا، أموت هكذا في هذا المكان الرهيب حيث لا يمكن أن تصل أبدًا أي كلمة عن نهايتي إلى ديجاه ثوريس. أموت على يد رجال سود مجهولين في حدائق الثيرن القساة.

ثم أكدت روحي القديمة نفسها. دم القتال لأجدادي من فيرجينيا يجري ساخنًا في عروقي. شهوة الدم الشرسة ومتعة المعركة تصاعدت. ابتسامة القتال التي جلبت الذعر إلى ألف عدو لمست شفتيَّ. أبعدت فكرة الموت عن ذهني، وهجمت على خصومي بغضب سوف يتذكره إلى يوم مماته كل من تمكن من الفرار.

وكنت أعرف أن الآخرين سيضغطون لدعم من واجهوني، ولذا أبقيت عقلي يعمل بحثًا عن وسيلة للهروب حتى وأنا أقاتل.

حدث شيء غير متوقع، جاء من ظلمة الليل خلفي. تمكنت الآن من نزع سلاح شخص ضخم واجهني في قتال يائس، وتوقف السود للحظات يلتقطون أنفاسهم.

نظروا نحوي بغضب خبيث، على أن سلوكهم كان ينم عن لمسة من الاحترام.

قال أحدهم: «يا ثيرني، أنت تقاتل مثل داتور[16] . ولكن، نظرًا لشعرك الأصفر الكريه وبشرتك البيضاء، فإنك ستكون شرفًا لأبناء برسوم الأوائل».

قلت: «أنا لست ثيرنيًّا»؛ وكنت على وشك أن أشرح لهم أنني من عالم آخر، متصورًا أنه بالتوصل إلى هدنة مع هؤلاء الزملاء والقتال معهم ضد الثيرن يمكنني حثهم على مساعدتي لاستعادة حريتي. لكن جسمًا ثقيلاً أصابني في تلك اللحظة بضربة مدوية بين كتفي، أسقطتني تقريبًا على الأرض.

وعندما استدرت لمواجهة هذا العدو الجديد، مر شيء فوق كتفي، وضرب أحد المهاجمين مباشرة في وجهه بلكمة أسقطته فاقد الوعي على المرج. وفي اللحظة نفسها رأيت أن الشيء الذي ضربنا هو مرساة جرارة لسفينة فضائية كبيرة الحجم، ربما تتسع لعشرة أشخاص.

كانت السفينة تطفو ببطء فوقنا، بما لا يزيد على خمسين قدمًا فوق رؤوسنا. إنها فرصة الهرب الوحيدة التي قدمت نفسها لي. كانت السفينة ترتفع ببطء، وهي الآن وراء الرجال السود الذين واجهوني وفوق رؤوسهم بعدة أقدام.

انطلقت فوقهم بالكامل بقفزة واحدة، وهم يحدقون بأعين متسعة من الدهشة؛ ثم حملتني القفزة الثانية إلى ارتفاع يكفي للإمساك بالمرساة التي أخذت الآن تتراجع بسرعة.

لكنني نجحت، وتعلقت بها بيد واحدة، منطلقًا خلال أغصان أعلى نباتات الحدائق، بينما يصرخ أعدائي ويعوون في أسفل.

غيرت السفينة اتجاهها الآن غربًا، ثم مالت برشاقة نحو الجنوب. وفي لحظة أخرى وجدت السفينة تحملني إلى ما وراء قمة المنحدرات الذهبية، خارج وادي دور، حيث كان بحر كوراس المفقود يلمع في ضوء القمر على بُعد ستة آلاف قدم في أسفل.

تسلقت بعناية لأجلس بين أذرع المرساة. تساءلت عما إذا كانت السفينة مهجورة مصادفة. كنت آمل ذلك. أو ربما تنتمي إلى أناس ودودين، وقعوا مصادفة خلال تجوالهم في مجال براثن القراصنة والثيرن. وكان تراجعها عن مشهد المعركة يعزز هذه الفرضية.

لكنني قررت بحزم أن أعرف وعلى الفور، ولذا بدأت بأكبر قدر من الحذر في تسلق سلسلة المرساة ببطء إلى سطح السفينة.

---

(16) داتور: هو لقب الأمير بين المريخيين السود في وادي دور، - http://barsoom.wikia.com/wiki/Datorالمترجمة.

حاولت الوصول إلى قضيب السفينة بيد واحدة ونجحت، وعندئذ مال وجه أسود شرس إلى الجانب، وعيناه المملوءتان بكراهية منتصرة تنظر نحوي.

* * *

(7)

الإلهة الجميلة

بقيت والقرصان الأسود للحظة بلا حراك، نحدق في أعين بعضنا بعضًا. ثم ارتسمت ابتسامة قاتمة فوق شفاهه الوسيمة، وتحركت يد أبنوسية ببطء فوق حافة سطح السفينة، وصوبت عين مسدس باردة جوفاء نحو مركز جبهتي.

مددت يدي الحرة نحو رقبته السوداء التي كانت في المتناول، وفي الوقت نفسه شدد أصبعه الأبنوسي على الزناد. همس القرصان «مُت، أيها الثيرني اللعين»، وقصبته الهوائية شبه مختنقة بأصابعي المحكمة حولها. سقط المسدس بعد ضغطة عقيمة على تجويف فارغ.

وقبل أنه يتمكن من إطلاق النار مرة أخرى، جذبته بعيدًا نحو حافة سطح السفينة بحيث اضطر إلى إسقاط سلاحه الناري والتشبث بالدرابزين بكلتا يديه.

حالت قبضتي على رقبته دون أن يصدر فعليًّا أي صيحة، وهكذا اشتبكنا في صمت قاتم؛ كان يحاول الإفلات من قبضتي، وكنت أحاول قتله.

كان وجهه يتخذ مسحة شاحبة، وعيناه تبرزان من محجريهما. أدرك أنه سيموت إلا إذا أفلت من الأصابع الحديدية التي تنتزع الحياة منه خنقًا. وفي محاولة أخيرة ألقى بنفسه بعيدًا إلى الوراء على سطح السفينة، وحرر في نفس اللحظة قبضته على القضيب ليفلت بشكل محموم بكلتا يديه من أصابعي في محاولة لإبعادها عن رقبته.

كانت هذه الثانية الضئيلة هي كل ما انتظره. فقد تمكنت من إسقاطه على سطح السفينة بدفعة واحدة قوية لأسفل. اقترب جسده خلال سقوطه من قبضة يدي الحرة الضعيفة على سلسلة المرساة، ودفعني معه نحو مياه البحر أدناه.

مع ذلك لم أتخلَ عن قبضتي عليه؛ لأنني كنت أعرف أن صرخة واحدة من تلك الشفاه وهو يهوي نحو موته في مياه البحر الصامت سوف تجلب رفاقه من أعلى لتنتقم له.

ولذا أحكمت قبضتي عليه في غضب وواصلت خنقه، بينما زاد كفاحه المحموم من جذبي نحو نهاية السلسلة.

أخذت حركاته الملتوية تصبح متقطعة، وتقل تدريجيًّا حتى توقفت تمامًا. حررت قبضتي عليه، وفي لحظة ابتلعته الظلال السوداء بعيدًا في أسفل.

تسلقت ثانية صاعدًا إلى السفينة. ونجحت هذه المرة في رفع عيني على مستوى سطح السفينة، حيث أمكنني إلقاء نظرة ماسحة دقيقة للأوضاع التي تواجهني مباشرة.

كان القمر الأقرب قد مر تحت الأفق، لكن تألق القمر الآخر قد غمر سطح السفينة، موضحًا بجلاء أجسام ستة أو ثمانية من الرجال السود ممددين ونائمين.

جلست فتاة بيضاء شابة، وهي مُقيدة على نحو صارم، بالقرب من قاعدة مسدس سريع الطلقات. كانت عيناها متسعتين في تعبير ينم عن ترقب الفزع، ومثبتتين نحوي مباشرة، بمجرد أن رأتني فوق حافة سطح السفينة.

امتلأت على الفور براحة لا توصف، عندما وقع بصرها على الجوهرة الغامضة التي تتلألأ في منتصف خوذتي المسروقة. لم تتكلم، لكن عينيها حذرتني من الأشخاص النائمين حولها.

فزت بالوصول إلى سطح السفينة دون ضجة. أومأت لي الفتاة أن أقترب منها. وعندما انحنيت نحوها، همست طالبة إطلاق سراحها.

قالت: «يمكنني أن أساعدك، وسوف تحتاج كل المعونة المتاحة عندما يستيقظون».

أجبتها مبتسمًا: «سوف يستيقظ بعضهم في كوراس».

أدركت الفتاة معنى كلماتي، وأرعبتني قسوة ابتسامتها كإجابة. لا يستغرب المرء من قسوة وجه قبيح، ولكن عند ظهور القسوة على سيماء إلهة ملامحها منقوشة بحلاوة على نحو ينم عن الحب والجمال، يصبح التناقض من مرعبًا.

أسرعت بإطلاق سراحها.

همست قائلة: «أعطني مسدسًا. يمكنني استخدامه ضد من لا يُسكتهم سيفك في الوقت المناسب».

فعلت ما طلبته. ثم استدرت لأداء عمل كريه. لا يوجد وقت لوخز الضمير، ولا للفروسية التي لن تُقدرها هذه الشياطين القاسية أو تردها بالمثل.

اقتربت خلسة من أقرب نائم. وعندما استيقظ، كان في رحلته إلى حضن كوراس. وسمعنا من الأعماق السوداء تحتنا الصرخة الحادة التي أطلقها عندما عاد إليه وعيه، لكنها كانت ضعيفة.

استيقظ الثاني بمجرد أن لمسته. وعلى الرغم من أنني نجحت في إلقائه من سطح السفينة، فقد أدت صرخة الإنذار الوحشية التي أطلقها إلى نهوض القراصنة الباقين. كانوا خمسة.

عند نهوضهم، انطلق مسدس الفتاة بطلقات متقطعة حادة، وسقط أحدهم على سطح السفينة ولم ينهض مرة أخرى.

هرع الآخرون بجنون نحوي وهم يرفعون سيوفهم. ومن الواضح أن الفتاة لم تجرؤ على إطلاق النار خوفًا من إصابتي، لكنني رأيتها تتسلل خلسة مثل القط نحو جناح المهاجمين. ثم كانوا فوقي.

خضت خلال بضع دقائق واحدة من أكثر معاركي شراسة على الإطلاق. كان المكان صغيراً جدًّا لحركة أقدامنا. ليس هناك سوى أن تقف بثبات على الأرض وتتبادل الأخذ والعطاء. أخذت في البداية أكثر كثيراً مما أعطيت، وأجهزت الآن على حارس أحد الزملاء، وشعرت بالارتياح لرؤيته ينهار على سطح السفينة.

ضاعف الآخرون جهودهم. أثار تحطُّم سيوفهم فوق سيفي جلبة هائلة، ربما يمكن سماعها لأميال خلال الليل الصامت. تطاير الشرر من ضرب الفولاذ بالفولاذ، ثم صدر صوت خافت ومقزز لعظام كتف تتحطم تحت حافة سيفي المريخي الحادة.

ثلاثة يواجهونني الآن، لكن الفتاة كانت تشق طريقها إلى موقع سرعان ما سيسمح لها بتقليص عددهم بواحد على الأقل. ثم حدثت أشياء بسرعة مذهلة إلى حد أنني بالكاد ما يمكنني أن أدرك حتى الآن كل ما وقع في تلك اللحظة القصيرة.

هاجمني الثلاثة بغرض واضح هو إجباري على التراجع لبضع خطوات من شأنها أن تلقي بجسمي عبر درابزين السفينة نحو الفراغ أدناه. وفي اللحظة نفسها أطلقت الفتاة النار، وقام ذراع سيفي بحركتين. سقط رجل برصاصة في رأسه؛ طار سيف مصلصلاً عبر سطح السفينة وسقط من فوق الحافة خلفها؛ ونزعت سلاح أحد خصومي؛ وذهب الثالث إلى أسفل بسيفي مدفونًا حتى مقبضه في صدره، وثلاثة أقدام منه تبرز من ظهره، وسقط وهو يسحب السيف من قبضتي.

أواجه الآن بلا سلاح عدوي المتبقي، الذي يرقد سيفه في مكان ما على بعد آلاف الأقدام أدناه في البحر المفقود.

يبد أن الظروف الجديدة أسعدت خصمي، إذ كشفت ابتسامة رضا عن أسنانه اللامعة وهو يهرع نحوي وأنا أعزل. من الواضح أن عضلاته الكبيرة المكورة تحت بشرته السوداء اللامعة أكدت له أن يواجه فريسة سهلة لا تستحق عناء سحب الخنجر من جرابه.

تركته يأتي فوقي تقريبًا. ثم انحنيت تحت ذراعيه الممدودتين، مع التفافي في الوقت نفسه نحو اليمين. درت على إصبع قدمي اليسرى، وسددت لكمة هائلة بيميني لفكه، فسقط في مكانه كالثور الجريح.

رنت ضحكة فضية خافتة ورائي.

قال صوت رفيقتي العذب: «أنت لست ثيرنيًّا، رغم شعرك الذهبي وعتاد ساتور ثروج. لم يعش أبدًا من قبل على جميع أراضي برسوم من يمكنه القتال كما قاتلت هذه الليلة. من أنت؟».

قلت: «أنا جون كارتر، أمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم». وأضفت: «ومن التي منحتني شرف خدمتها؟».

ترددت للحظة قبل أن تتحدث. ثم سألت:

«أنت لست ثيرنيًّا. هل أنت عدو للثيرن؟».

«أنا موجود في إقليم الثيرن منذ يوم ونصف. وخلال هذا الوقت كله تعرضت حياتي لخطر دائم. تعرضت للتحرش والملاحقة. تعرضت لهجمات من رجال مسلحين وحيوانات شرسة. لم يكن لدي أي خلاف مع الثيرن من قبل، ولكن هل تتعجبين الآن من عدم شعوري بأي حب كبير لهم؟ لقد أنهيت حديثي».

تطلعت في وجهي بإمعان لعدة دقائق قبل أن تجيب؛ كأنما تحاول بهذه النظرة الطويلة الباحثة المحدقة قراءة أعماق روحي، للحكم على شخصيتي ومعايير فروسيتي.

ويبدو أن المخزون أشعرها بالراحة.

«أنا فايدور، ابنة ماتاي شانج، الهيكادور[17] المقدس للثيرن المقدسين، الأب الثيرني الأعلى، سيد الحياة والموت على برسوم، شقيق إيسوس، أمير الحياة الأبدية».

انتبهت في تلك اللحظة إلى أن الرجل الأسود الذي أسقطته أرضًا بلكمتي، بدأت تظهر عليه علامات عودة الوعي. قفزت إلى جانبه. جردته من عتاده، وقمت بتقييد يديه خلف ظهره بإحكام، وبالمثل قمت بتقييد قدميه وربطها بعربة مدفع ثقيل.

سألتني فايدور: «لماذا لا تستخدم أبسط طريقة؟».

أجبتها: «أنا لا أفهم. ما هي أبسط طريقة؟».

هزت كتفيها الجميلين وأشارت بيديها بما يدل على إلقاء شيء من السفينة.

قلت: «أنا لست بقاتل. وإنما أقتل دفاعًا عن النفس فقط».

نظرت لي محدقة، ثم جعدت حواجبها الإلهية، وهزت رأسها. لم تستطع أن تستوعب.

حسنًا، لم تتمكن ديجاه ثوريس أيضًا من استيعاب ما بدا لها سياسة حمقاء وخطرة تجاه الأعداء. ففي برسوم، الرحمة لا تُطلب ولا تمُنح، وكل موت لشخص يعني تقسيم الموارد الضيلة لهذا الكوكب المحتضر بين الباقين على قيد الحياة.

ولكن هناك فارقًا طفيفًا بين الطريقة التي تفكر بها هذه الفتاة للتخلص من خصم، وأسى رقة قلب أميرتي للضرورة الصارمة التي يتطلبها ذلك.

وأعتقد أن فايدور كانت تأسف على التشويق الذي يمكن أن يتيحه لها المشهد أكثر من أسفها على قراري بترك عدو آخر على قيد الحياة بما يمُثله ذلك من تهديد لنا.

استعاد الرجل الآن كامل قواه، وأخذ يتطلع إلينا باهتمام وهو يرقد مقيدًا على سطح السفينة. كان وسيمًا، ورشيقًا، وقويًا. يبدو الذكاء على وجهه وملامحه رائعة، ربما يحسده عليها حتى أدونيس[18] نفسه.

كانت السفينة تتحرك ببطء دون توجيه عبر الوادي؛ وأعتقد أن الوقت قد حان للإمساك بالدفة وتوجيه المسار. لم يكن بإمكاني تخمين موقع وادي دور إلا بشكل عام. كان واضحًا من مجموعات النجوم أنه يقع جنوب خط الاستواء، لكنني لست فلكيًّا

(17) هيكادور: لقب زعيم الثيرن المقدسين - http://barsoom.wikia.com/wiki/Hekkador المترجمة.

(18) أدونيس هو إله الجمال والرغبة في الأساطير اليونانية – المترجمة.

متخصصًا في المريخ بالقدر الذي يكفي حتى لافتراض تخمين عام دون الاستعانة بالخرائط الرائعة والأدوات الحساسة التي كنت أحسب بموجبها سابقًا، كضابط في بحرية هيليوم، مواقع السفن التي أبحر عليها.

قررت اتجاهي على الفور، اعتمادًا على أن المسار نحو الشمال يمكن أن يقودني بسرعة نحو أكثر أجزاء الكوكب استقرارًا. تمايلت السفينة الفضائية تحت يدي برشاقة. وبضغطة على الزر الذي يتحكم في أشعة الدفع، ارتفعنا عاليًا في الفضاء؛ ثم بجذب رافعة السرعة إلى أقصى درجة، انطلقنا نحو الشمال مع تزايد ارتفاعنا أكثر وأكثر فوق وادي الموت الرهيب هذا.

ومع مرورنا فوق مناطق الثيرن الضيقة على ارتفاع يسبب الدوار، كان وميض بارود المدافع على بعد كبير أسفلنا شاهدًا أخرس على ضراوة المعركة التي لا تزال محتدمة على طول تلك الحدود القاسية. لم تصل إلى آذاننا أصوات الاشتباكات، إذ لا يمكن أن تخترق أي موجة صوتية هذا الغلاف الجوي الرقيق لارتفاعنا الهائل؛ بل تتبدد في الهواء الرقيق على مسافة بعيدة أسفلنا.

أصبح البرد قارسًا، والتنفس صعبًا. أبقت الفتاة، فايدور، والقرصان الأسود أعينهم محدقة نحوي. تحدثت الفتاة مطولاً.

قالت بهدوء: «يحدث فقدان الوعي بسرعة عند هذا الارتفاع. أفضل ما يمكنك القيم به هو الهبوط وبسرعة، إلا إذا كنت تدعو الموت ليأتي إلينا».

لم ينمَّ صوتها عن الخوف، كأنما يقول المرء: «من الأفضل أن تحمل مظلة. فسوف تمطر».

هبطت بالسفينة بسرعة إلى مستوى أدنى. لم أسرع هكذا من قبل. أصيبت الفتاة بالإغماء.

كان القرصان الأسود أيضًا فاقدًا للوعي، بينما احتفظت أنا بحواسي، وأعتقد أن ذلك لم يكن إلا بمحض الإرادة. فالشخص الذي تقع على عاتقه كل المسؤولية يقدر على التحمُّل أكثر من غيره.

كنا نتمايل على ارتفاع منخفض فوق سفوح أوتز. كان الجو دافئًا

نسبيًّا، وهناك الكثير من الهواء للرئات الجوعى، ولذا لم أفاجأ لرؤية القرصان الأسود يفتح عينيه، وبعده بلحظة الفتاة أيضًا.

قالت: «أفلتنا بصعوبة».

أجبتها: «مع ذلك، فهذا علمني شيئين».

«ماذا؟»

قلت مبتسمًا: «حتى فايدور، ابنه سيد الحياة والموت، فانية».

فأجابت: «لا يوجد الخلود إلا لدى إيسوس. وإيسوس لعِرق الثيرن فقط. وهكذا أنا خالدة».

رأيت ابتسامة عابرة على ملامح القرصان الأسود وهو يستمع إلى كلماتها. لم أفهم حينذاك سبب ابتسامته. لكني عرفت السبب لاحقًا، وعرفته هي أيضًا، وإن كان بأبشع طريقة.

واصلت حديثها: «إذا كان الشيء الثاني الذي تعلمته الآن قد أدى إلى استنتاجات خاطئة كالشيء الأول، فإن ثراءك في المعلومات لم يزد كثيراً عما كان عليه».

أجبتها: «الشيء الثاني هو أن صديقنا المكفهر هنا لا ينحدر من القمر الأقرب- كان كأنما مات على بعد بضعة آلاف من الأميال فوق برسوم. وإذا كنا واصلنا الخمسة آلاف ميل التي تقع بين ثوريا[19] والكوكب، كان ليصبح مجرد ذكرى متجمدة لرجل».

نظرت فايدور إلى الرجل الأسود في دهشة واضحة.

وسألته: «إن لم تكن من ثوريا، فمن أين إذن؟».

هز كتفيه، وحول بصره إلى ناحية أخرى، لكنه لم يرد.

ضربت الفتاة قدمها الصغيرة على الأرض بصورة آمرة.

وقالت: «إن ابنة ماتاي شانج ليست معتادة أن تظل أسئلتها دون إجابة. من ينتمي إلى سلالة أقل يتشرف بأن عضوًا من العِرق المقدس الذي وُلِد ليرث الحياة الأبدية قد تفضل حتى بملاحظته».

ابتسم القرصان الأسود ثانية تلك الابتسامة الشريرة التي تنم عن معرفة ما.

---

(19) ثوريا: القمر الأقرب للمريخ من قمرين يدوران حوله؛ ومعروف في كوكب الأرض باسم فوبوس – http://barsoom.wikia.com/wiki/Thuriaالمترجمة.

وأجاب: «زودار، داتور أبناء برسوم الأوائل، مُعتاد أن يعطي الأوامر، لا أن يستقبلها». ثم تحول ناحيتي قائلاً: «ما نواياك بشأني؟»

قلت: «أعتزم أخذكما إلى هيليوم. لن يمسكما أي ضرر. سوف تجدون رجال هيليوم الحُمر عِرقًا عطوفًا ورحب الصدر. وإذا استمعوا لي، سيتوقف الحج الطوعي إلى نهر إيس، وسيتحطم اعتقادهم المستحيل الذي تعلق في أذهانهم لعصور إلى ألف قطعة».

سألني: «هل أنت من هيليوم؟».

أجبته: «أنا أمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم، لكنني لست من برسوم. أنا من عالم آخر».

نظر زودار نحوي باهتمام لبضع لحظات.

وقال مطولاً: «أعتقد أيضًا أنك لست من برسوم. لا يوجد في هذا العالم من يمكنه بيد واحدة هزيمة ثمانية من الأبناء الأوائل. ولكن، كيف ترتدي الشعر الذهبي والطوق المرصع بالجواهر للثيرني المقدس؟» وشدد على كلمة المقدس مع لمسة من السخرية.

قلت له: «لقد نسيتهم. إنهم غنائم النصر»، وأزلت بمسحة من يدي الشعر التنكري من رأسي.

اتسعت عينا القرصان الأسود في دهشة، عندما سقطت على شعري الأسود القصير. من الواضح أنه كان ينتظر رؤية رأس ثيرني أصلع.

أضاف بمسحة من الرهبة في صوته: «من المؤكد أنك من عالم آخر. لديك بشرة الثيرن، والشعر الأسود للأبناء الأوائل، وعضلات عشرات الداتور. ليس عارًا حتى على زودار الاعتراف بتفوقك، فلم تكن لتقدر أبدًا على القيام بما فعلته إذا كنت من برسوم».

قاطعته قائلاً: «أنت تسبقني بمراحل عديدة، يا صديقي. فهمت أن اسمك زودار، ولكن من هم الأبناء الأوائل، وماذا يعني داتور، و لماذا - إذا هزمك برسومي- لا تعترف بذلك؟».

قال شارحًا: «الأبناء الأوائل في برسوم هم عِرق الرجال السود، وأنا داتور بينهم، أو أمير– كما يقول البرسوميين الأقل مرتبة. إن عِرقي هو الأقدم على هذا الكوكب. ونحن نقتفي أثر نسلنا مباشرة ودون انقطاع إلى شجرة الحياة التي ازدهرت في وادي دور قبل 23 مليون سنة.

خضعت ثمرة هذه الشجرة، لعدد لا يُحصى من العصور، إلى تغييرات تدريجية في تطورها؛ مرت بدرجات من حياة نباتية حقيقية إلى مزيج من النبات والحيوان. لم تمتلك ثمرة الشجرة في مراحلها الأولى سوى قوة العمل العضلي المستقل، بينما ظل الجذع مرتبطًا بالنبات الأصلي. وفي

وقت لاحق تطور المخ في الثمرة؛ وبالتالي أخذت -وهي معلقة هناك عن طريق سيقانها الطويلة- تفكر وتتنقل كأفراد.

ثم مع تطور الإدراك جاءت المقارنة؛ فقد توصلت إلى الأحكام ومقارنتها، وهكذا وُلِد في برسوم العقل والسلطة.

مرت العصور. وظهرت العديد من أشكال الحياة على شجرة الحياة، إلا أنها ظلت ملحقة بالنبات الأب عن طريق سيقان ذات أطوال مختلفة. ومع الوقت أصبحت شجرة الفاكهة تتكون من حجم صغير من رجال النبات، كما نراهم الآن يتوالدون بأبعاد ضخمة في وادي دور، لكنهم لا يزالون معلقين في أغصان وفروع الشجرة عن طريق السيقان التي نمت من قمم رؤوسهم.

والبراعم التي أزهرت رجال النبات تشبه حبات الجوز الكبيرة التي يصل قطرها إلى حوالي قدم، تفصلها جدران من قواطع مزدوجة إلى أربعة أقسام. نما في أحد الأقسام رجل النبات، ونمت في قسم آخر دودة ذات ستة عشرة رِجلاً، وفي القسم الثالث الجد الأعلى للقرد الأبيض، وفي الرابع الرجل الأسود الأول في برسوم.

وعندما انفجر البرعم، ظل رجل النبات معلقًا في نهاية الساق الذي يحمله، لكن الأقسام الثلاثة الأخرى سقطت على الأرض، حيث أدت جهود شاغليها المحبوسين للهرب إلى التنقل في جميع الاتجاهات.

وهكذا، مع مرور الزمن، أصبحت برسوم كلها مغطاة بهذه المخلوقات الحبيسة -التي عاشت حياتها لعدد لا يُحصى من العصور داخل هياكلهم الصلبة- وأخذت تتجول وتقفز عبر أنحاء الكوكب الواسع، وتقع في الأنهار والبحيرات والبحار؛ ولا يزال انتشارهم يتزايد على سطح العالم الجديد.

مات عدد لا يُحصى من المليارات قبل أن يخترق أول رجل أسود جدران محبسه ويخرج إلى ضوء النهار. وبدافع الفضول، كسر الهياكل الأخرى وفتحها، وبدأ شعب برسوم.

ظلت السلالة النقية من دم هذا الرجل الأسود الأول غير ملوثة بالاختلاط مع المخلوقات الأخرى في العِرق الذي أنتمي إليه. ولكن من الدودة ذات الستة عشر قدمًا، ومن أول قرد ومن الرجل الأسود المارق، نشأت كل أشكال الحياة الحيوانية الأخرى في برسوم».

ابتسم بخبث وهو يقول: «الثيرن ليسوا سوى نتيجة لعصور من تطور القرد الأبيض النقي في العصور القديمة. ولا يزالون ينتمون إلى مرتبة أدنى. لا يوجد سوى عِرق واحد من البشر الحقيقيين والخالدين في برسوم. إنه عِرق الرجال السود.

لقد ماتت شجرة الحياة، لكن رجال النبات تعلموا قبل موتها فصل أنفسهم عنها، والتجول على سطح برسوم مع غيرهم من الأطفال من الأب الأول.

والآن تتيح لهم ازدواجيتهم الجنسية إعادة إنتاج أنفسهم على نمط النباتات الحقيقية، وعلى خلاف ذلك لم يكونوا ليحققوا تقدمًا كبيرًا في جميع عصور وجودهم. إن أفعالهم وتحركاتهم تنطلق بدرجة كبيرة من الغريزة ولا تسترشد بالعقل، نظرًا لأن حجم مخ رجل النبات لا يزيد سوى قليلاً على نهاية إصبعك الأصغر. إنهم يعيشون اعتمادًا على النباتات ودم الحيوانات، وحجم أمخاخهم يكفي فقط لتوجيه تحركاتهم في اتجاه الغذاء وترجمة أحاسيس الغذاء المحمولة إلى المخ من أعينهم وآذانهم. ليس لديهم إحساس بالحفاظ على الذات، ولذلك فهم لا يشعرون بأي خوف في مواجهة الخطر. وهذا هو السبب في أنهم خصوم شرسون في القتال».

كنت أتساءل لماذا تكبد الرجل الأسود مشقة توجيه هذا الخطاب المطول لنا، ونحن خصومه، عن نشأة الحياة في برسوم. فقد بدت لحظة غير مواتية بغرابة لفرد فخور من عِرق فخور أن يسترخي في محادثة عفوية مع آسره، لا سيما وهو لا يزال مقيدًا بإحكام على سطح السفينة.

على أن شرود بصره الخفيف خلفي لجزء ضئيل من الثانية هو ما فسر لي دافعه لجذب اهتمامي إلى قصته التي تستحوذ الانتباه حقًّا.

كان يرقد إلى الأمام قليلاً حيث أقف عند الروافع، وهكذا كان يواجه مؤخرة السفينة وهو يخاطبني. وفي نهاية وصفه لرجال النبات، لمحت عينيه مثبتتين لحظيًّا على شيء ورائي.

لا يمكن أن أكون مخطئًا في ومضة الانتصار السريعة التي أضاءت تلك الأجرام السماوية الداكنة للحظة.

كنت قد قللت السرعة من فترة؛ لأننا تركنا وادي دور بعدة أميال

وشعرت بالأمان نسبيًّا.

ألقيت نظرة خاطفة ورائي، والمشهد الذي رأيته أدى إلى تجميد أمل الحرية الجديد الذي أخذ ينمو داخلي.

تلوح خلفنا مقتربة سفينة حربية كبيرة، تمضي قدمًا بصمت ودون إضاءة خلال الليل المظلم.

* * *

(8)

أعماق أوميان

أدركت الآن لماذا أبقاني القرصان الأسود منهمكًا بحكايته الغريبة. لقد أحس من أميال باقتراب المعونة، وباستثناء تلك اللمحة المنذرة لكانت السفينة الفضائية الحربية فوقنا مباشرة في اللحظة التالية، وتندفع حشود الطرف الموجود على متنها ويتأرجحون الآن دون شك في عتادهم من عارضة السفينة، متدفقين على سطح سفينتنا، واضعين أملي المتنامي في الهروب أمام عنصر المفاجئة ونهايته بالكامل.

حالت خبرتي ومهارتي في الحرب الجوية دون أي حيرة الآن للقيام بالمناورة الصحيحة. فعكست المحركات وانخفضت في الوقت نفسه بالسفينة الصغيرة مجرد مائة قدم.

كان يمكنني أن أرى فوق رأسي أشكالاً معلقة من طرف السفينة الحربية وهي تحلق فوقنا. فارتفعت بزاوية حادة، دافعًا ذراع السرعة إلى أقصاه.

ومثل مزلاج القوس والنشاب، اصطدمت مباشرة المقدمة الحديدية لسفينتنا الرائعة في المراوح الطنانة للعملاق فوقنا. إذا تمكنت فقط من لمسهم، فسوف تتعطل الكتلة الضخمة لساعات ويصبح الهرب ممكنًا مرة أخرى.

وفي اللحظة نفسها، أشرقت الشمس فوق الأفق، كاشفة عن مائة وجه أسود متجهم، يحدقون نحونا من مؤخرة سفينتهم الحربية.

على مرأى منا، انطلقت من مائة حلق صرخة غضب. وصدرت أوامر، لكنها كان متأخرة لإنقاذ المراوح العملاقة التي تحطمت مع اصطدامنا.

في ظل تأثير الصدمة، عكست على الفور محرك سفينتنا، لكن مقدمتها كانت محشورة في الثقب الذي تسببت فيه بمؤخرة السفينة الحربية. علقت هناك لثانية فقط قبل أن أنطلق سريعًا، لكن هذه الثانية كانت طويلة بحيث نفذ خلالها بعض الشياطين السود إلى سطح سفينتنا.

لم ينشب قتال. لا يوجد عمليًّا مكان للقتال، حيث غمرتنا ببساطة أعدادهم الغفيرة. وفي ظل السيوف التي تتهددني، أبعد أمر من زودار أيدي زملائه.

قال: «قيدوهما، ولكن لا تؤذوهما».

كان العديد من القراصنة قد أطلقوا سراح زودار بالفعل. وحضر بنفسه الآن ليشهد نزع سلاحي ويتأكد من تقييدي بشكل صحيح. تصور، على الأقل، أن الوثاق محكم. وهو يُعتبر مُحكمًا إذا كنت مريخيًّا، لكنني ابتسمت على ضعف الجدائل التي قيدت معصمي. يمكنني قضمها، في الوقت المناسب؛ لأنها خيوط قطنية.

قيدوا الفتاة أيضًا، ثم ربطونا معًا. وفي الوقت نفسه أحضروا سفينتنا جنبًا إلى جنب مع السفينة الحربية المعطوبة، وسرعان ما نقلونا إلى سطحها.

ضمت سفينة الدمار الضخمة ألف رجل أسود. وازدحمت أسطحها بهم وهم يشقون طريقهم للأمام، بقدر ما يتيحه الممر؛ ليلقوا لمحة على أسراهم.

أثار جمال الفتاة العديد من التعليقات الوحشية والدعابات المبتذلة. فمن الواضح أن هؤلاء الرجال الذين يتصورون أنفسهم خارقين كانوا أقل شأنًا من رجال برسوم الحُمر من حيث الكياسة والفروسية.

كان شعري الأسود القصير ومظهري الثيرني مثار الكثير من التعليقات. عندما أخبر زودار زملاءه النبلاء عن قدراتي القتالية وأصلي الغريب، تزاحموا حولي مع العديد من الأسئلة.

حقيقة أنني أرتدي عتاد ومعادن الثيرني الذي قُتِل على يد أحد أفراد مجموعتي، أقنعتهم أنني عدو لخصومهم المتوارثين، ووضعتني على مستوى أفضل في تقديرهم.

كان الرجال السود يتسمون، دون استثناء، بالوسامة وهيئاتهم جيدة البنية. برز الضباط منهم بوضوح من خلال فخامة زخارف أغطيتهم المتألقة. وكان الكثير من عتادهم مرصعًا بالذهب، والبلاتين، والفضة، والأحجار الثمينة، بحيث تخفي البشرة تمامًا أدناها.

أما عتاد الضابط القيادي، فهو عبارة عن كتلة صلبة من الماس. وفي مقابل الخلفية الأبنوسية لبشرته، توهج عتاده بتألق شديد وغريب. كان المشهد بأكمله ساحرًا. الرجال الوُسَماء؛ الرونق البربري للتجهيزات؛ السطل الخشبي المصقول في سطح السفينة؛

خشب السورابوس[20] الرائع في الكبائن، المُطعَّم بالجواهر والمعادن الثمينة في تصميم أنيق

وجميل؛ والدرابزين المصنوع من الذهب المصقول؛ والبنادق المصنوعة من معدن برّاق.

أنزلوني أنا وفايدور أسفل سطح السفينة، حيث ألقونا -ونحن لا نزال مقيدين- في مقصورة صغيرة تضم نافذة دائرية واحدة. أغلق الحراس الباب وراءهم بعد أن تروكنا.

كان يمكننا سماع الرجال يعملون على إصلاح المراوح المحطمة، وأمكننا من النافذة الدائرية أن نرى السفينة تتحرك متكاسلة نحو الجنوب.

بقينا لبعض الوقت دون حديث، حيث انشغل كل منا بأفكاره. من ناحيتي، كنت أتساءل عن مصير تارس تاركاس والفتاة، ثوفيا.

حتى إذا نجحوا في تجنب المطاردة، فقد يقعون في نهاية المطاف في أيدي الرجال الحُمر أو الرجال الخُضر؛ وكونهم هاربين من وادي دور، لن يلقوا أي مصير آخر يختلف قليلاً عن وفاة سريعة ورهيبة.

كم تمنيت مرافقتهم. أعتقد أنني لم أكن لأفشل في إقناع رجال برسوم الحُمر الأذكياء بالخدعة الشريرة التي دستها عليهم تلك الخرافات القاسية والخرقاء.

كان تاردوس مورس سيصدقني. كنت متأكدًا من ذلك. وأنه سيمتلك شجاعة معتقداته، فمعرفتي بشخصيته أكدت لي ذلك. وديجاه ثوريس سوف تصدقني. لم يساورني أي شك في ذلك. ثم هناك ألف من أصدقائي المحاربين الحُمر والخُضر الذين أعرف أنهم سيواجهون اللعنة الأبدية بكل سرور من أجلي؛ مثل تارس تاركاس، أينما أقود سيتبعونني.

يكمن الخطر الوحيد أمامي في أنني إذا تمكنت من الهرب من القراصنة السود، قد أقع في أيدي رجال حُمر أو خُضر غير ودودين. عندئذ سألقى معاملة فظة.

حسنًا، لا يوجد ما يدعو إلى القلق كثيراً في هذا الصدد، فاحتمال هروبي أصلاً من السود يبدو بعيد المنال.

---

(20) سورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بثمارة النضره المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapusالمترجمة.

كنت والفتاة مربوطين معًا بحبل لا يسمح لنا بالحركة إلا لمسافة ثلاثة أو أربعة أقدام عن بعضنا. عندما دخلنا المقصورة، جلسنا على مقعد منخفض تحت النافذة الدائرية. كان المقعد الطويل بمثابة قطعة الأثاث الوحيدة في الغرفة. كان من خشب السورابوس، والأرض والسقف والجدران من كربورندم[21] الألومنيوم، وهو تركيبة خفيفة لا يمكن اختراقها، وتُستخدم على نطاق واسع في بناء سفن المريخ القتالية.

وأنا جالس أفكر في المستقبل، تسمرت عيناي على النافذة المستديرة التي تقع وأنا جالس على مستوى عيني. نظرت فجأة نحو فايدور؛ ورأيتها تنظر نحوي بتعبير غريب لم أره من قبل على وجهها. كانت جميلة جدًّا.

وعلى الفور حجبت جفونها البيضاء عينيها، وظننت أنني اكتشفت مسحة من تورد رقيق على خديها. من الواضح أنها شعرت بالحرج لاكتشافها وهي تحدق في مخلوق أقل مرتبة، هكذا تصورت.

سألتها ضاحكًا: «هل تجدين دراسة المراتب الأدنى مثيرة للاهتمام؟».

تطلعت نحوي مرة أخرى بضحكة صغيرة عصبية، وإن كانت ينم على الارتياح.

قالت: «أوه، جدًّا؛ لا سيما عندما تكون لديهم تلك الملامح الممتازة».

كان دوري لأحمر خجلاً، ولكن لم يحدث. شعرت أنها تمازحني، وأُعجبت بالقلب الشجاع الذي يمكن أن يبحث عن روح الدعابة وهو على طريق الموت، وبالتالي ضحكت معها.

أضافت: «هل تعرف إلى أين نحن ذاهبون؟».

أجبتها: «لحل لغز الآخرة الأبدية، كما أتصور».

قالت برجفة قليلة: «أنا ذاهبة لمصير أسوأ من ذلك».

«ماذا تقصدين؟».

أجابت: «لا يمكنني سوى التخمين؛ حيث لا توجد فتاة ثيرنية، من بين الملايين من الفتيات التي سرقها القراصنة السود خلال عصور غاراتهم على مناطقنا، قد عادت من قبل لتروي خبراتها بينهم. كونهم لا يأسرون رجلاً أبدًا، يعزز الاعتقاد بأن مصير الفتيات التي يسرقونهم أسوأ من الموت».

---

(21) الكربورندم هو كربيد السيليكون، وهو مُركب من السيليكون والكربون يتميز بصلابته الشديدة – المترجمة.

لم يسعني إلا أن أسألها: «أليس قصاصًا عادلاً؟».

«ماذا تقصد؟».

«ألا يفعل الثيرن أنفسهم الشيء نفسه مع المخلوقات المسكينة التي تحج طواعية إلى نهر الغموض؟ ألم تكن ثوفيا لخمسة عشر عامًا ألعوبة وعبدة؟ أليس من العدل أن تعانين مثلما تسببت في المعاناة لآخرين؟».

أجابت: «أنت لا تفهم. نحن الثيرن عِرق مقدس. وهو شرف لمخلوق أدنى أن يكون عبدًا بيننا. ألسنا ننقذ أحيانًا عددًا من مخلوقات المراتب الأدنى التي تطفو بغباء على نهر غير معروف إلى نهاية غير معروفة، ويمكن أن تصبح فريسة لرجال النبات والقرود».

جادلتها: «ولكن ألستم تشجعون بكل الوسائل الخرافات لدى أناس العالم الخارجي؟ هذه أكثر أعمالكم شرًا. هل يمكنك أن تقولي لي لماذا تعززون الخداع القاسي؟».

قالت: «لقد نشأت جميع أشكال الحياة على برسوم من أجل دعم العِرق الثيرني فقط. وإلا كيف يمكننا أن نعيش إذا لم يزودنا العالم الخارجي بالعِمالة والغذاء؟ هل تعتقد أن الثيرني عليه أن يحط من قدره بأن يعمل؟».

سألتها في رعب: «هل صحيح أنكم تأكلون لحوم البشر؟».

نظرت لي في نظرة شفقة ورثاء لجهلي.

«حقًا، نحن نأكل لحم الكائنات الأقل مرتبة. ألا تفعلون ذلك أنتم أيضًا؟».

أجبتها: «لحم الحيوانات، نعم، ولكن ليس لحم البشر».

«بمثل ما يمكن للبشر أكل لحم الحيوانات، يمكن بالتالي للآلهة أن تأكل لحم البشر. الثيرن المقدسون هم آلهة برسوم».

شعرت بالاشمئزاز، وأتصور أنني أوضحته.

واصلت كلامها بلطف: «أنت الآن غير مؤمن، ولكن إذا حالفنا الحظ بما يكفي للهروب من براثن القراصنة السود ووصلنا مرة أخرى إلى ساحة ماتاي شانج، أعتقد أننا

سنجد حجة لإقناعك بخطأ سبيلك. و....»، قالت مترددة، «ربما سنجد وسيلة لإبقائك كـ ... كـ .. كواحد منا».

نظرت إلى الأرض مرة أخرى، واكتسى خديها بلون خفيف. لم أستطع أن أفهم معنى كلامها؛ ولمدة طويلة أيضًا. اعتادت ديجاه ثوريس أن تقول عني في بعض الأشياء أنني ساذج حقيقي، وأعتقد أنها كانت على حق.

أجبتها: «أخشى أنني لن أحظى بضيافة والدك، حيث أول شيء سأقوم به وأنا ثيرني هو تعيين حراس مسلحين عند مصب النهر لمرافقة المسافرين المساكين المخدوعين في رحلة عودتهم ثانية إلى العالم الخارجي. كما أنني سأكرس حياتي لإبادة رجال النبات البشعين ورفقاهم المرُوعين، القرود البيضاء الكبيرة».

تطلعت في وجهي برعب حقيقي.

صاحت: «كلا، كلا، يجب ألا تقول مثل هذه الأشياء الرهيبة المدنسة ... يجب ألا تفكر فيها حتى. إذا خمنوا أنك تعتنق مثل هذه الأفكار المخيفة، وإذا واتتنا الفرصة لاستعادة معابد الثيرن، فسوف يعاقبونك بموت مروع. لن أتمكن حتى يا ... يا ...»، مرة أخرى تورد خديها ثم قالت مجددًا: «لن أتمكن حتى من إنقاذك».

لم أقل أي شيء آخر. فمن الواضح أنه لا طائل من الكلام. فهي مُشبعة بالخرافات أكثر حتى من مريخي العالم الخارجي الذين يقدسون أملاً جميلاً في حياة من الحب والسلام والسعادة في الآخرة. أما الثيرن، فهم يقدسون رجال النبات البشعين والقرود، أو على الأقل يبجلونهم كمساكن لأرواح غادرت موتاهم.

وهنا فُتِح باب محبسنا، ودخل زودار.

ابتسم بدماثة لي، وعندما ابتسم كانت تعبيراته لطيفة- أي شيء إلا القسوة أو الرغبة في الانتقام.

قال: «نظرًا لأنك لا تستطيع الهرب تحت أي ظرف من الظروف، فلا أرى ضرورة للإبقاء عليك مقيدًا هنا في أسفل. سوف أفك قيودك ويمكنك أن تصعد معي إلى سطح السفينة. ستشهد شيئًا مثيراً للاهتمام، ولأنك لن تعود أبدًا إلى العالم الخارجي، فما من ضرر أن أسمح لك بمشاهدته. سوف تشاهد ما لا يعرف بوجوده إلا الأبناء الأوائل وعبيدهم- أعني المدخل تحت الأرضي للأرض المقدسة، إلى السماء الحقيقية لبرسوم».

وأضاف: «سيكون درسًا ممتازًا لابنة الثيرن هذه؛ لأنها سترى معبد إيسوس، ومن المحتمل أن تحتضنها إيسوس».

ارتفعت رأس فايدور.

وصاحت: «ما هذا الكُفر، يا كلب القراصنة؟ إيسوس سوف تمحو سلالتك كلها قبل أن تصل إلى معبدها».

أجابها زودار بابتسامة قبيحة: «هناك الكثير لتتعلميه يا ثيرنية، ولن أحسدك على الطريقة التي ستتعلمين بها».

صعدنا إلى سطح السفينة، ولدهشتي رأيت السفينة تمر فوق حقل كبير من الثلج والجليد. وبقدر ما يمكن أن تصل عيناي في أي اتجاه، لم يكن هناك أي شيء آخر مرئيًّا.

لا يمكن أن يوجد سوى حل واحد للغز. كنا فوق الغطاء الجليدي القطبي الجنوبي. لا يوجد على هذا الكوكب أي جليد أو ثلوج إلا عند قطبي المريخ. لا تظهر أي علامة على الحياة تحتنا. من الواضح أننا في أقصى الجنوب، حتى بالنسبة للحيوانات ذات الفراء الكبير التي يستمتع المريخيون بصيدها.

وقف زودار بجانبي وأنا أطل من فوق درابزين السفينة.

سألته: «ما المسار؟».

فأجاب: «قليلاً نحو غرب الجنوب. سوف تشاهد وادي أوتز مباشرة. سنطوف حوله خلال بضع مئات من الأميال».

صحت: «وادي أوتز! ولكن يا رجل، ألا تكمن هناك مناطق الثيرن التي هربت منها مؤخرًا؟».

أجاب زودار: «نعم. أنت عبرت هذا الحقل الجليدي الليلة الماضية في المطاردة الطويلة التي قدتنا فيها. يقع وادي أوتز في منخفض جبار بالقطب الجنوبي. إنه غاطس لآلاف الأقدام تحت مستوى القطاع المحيط به، مثل وعاء دائري هائل. وعلى بعد مائة ميل من حدوده الشمالية، ترتفع جبال أوتز التي تحيط وادي دور الداخلي، وفي مركزه تحديدًا يقع بحر كوراس المفقود. وعلى شاطئ هذا البحر يقف المعبد الذهبي لإيسوس في أرض الأبناء الأوائل. نحن نتجه إلى هناك».

عندما نظرت، بدأت أدرك لماذا لم يتمكن من الهرب من وادي دور في جميع العصور سوى شخص واحد فقط. تعجُّبي الوحيد هو نجاح هذا الشخص الوحيد في الهرب؛ إذ يبدو من ضروب المستحيل العبور، وسيراً على الأقدام، خلال هذه المساحة القفر المتجمدة التي تجتاحها الرياح، ولا يوجد بها سوى الجليد والصقيع.

أنهيت كلامي قائلاً بصوت عال: «لا يمكن القيام بهذه الرحلة إلا عن طريق زورق فضائي».

قال زودار، وصوته يحمل لمسة فخر: «وعلى هذا النحو، تمكن شخص من الهروب من الثيرن في العصور الغابرة؛ ولكن لم يتمكن أحد من قبل الهروب من الأبناء الأوائل».

وصلنا الآن إلى أقصى جنوب الحاجز الجليدي الكبير. انتهى فجأة عند جدار عمودي يرتفع آلاف الأقدام ويمتد عند قاعدته وادٍ مستوٍ، تتناثر فيه هنا وهناك تلال منخفضة متموجة وكتل صغيرة من الغابات، بالإضافة إلى أنهار بالغة الصغر تشكلت بفعل ذوبان الحاجز الجليدي عند قاعدته.

طرنا عاليًا فوق ما بدا صدعًا عميقًا يشبه الأخدود ويمتد من الجدار الجليدي في الشمال عبر الوادي، بقدر ما يمكن أن تصل العين. قال زودار: «هذا هو قاع نهر إيس. يمتد على عمق أسفل الحقل الجليدي، وأدنى من مستوى وادي أوتز، لكن أخدوده مفتوح هنا».

أنا أصف الآن ما اعتبرته قرية، وأشرت نحوه، وسألت زودار عما قد يكون.

فأجاب ضاحكًا: «إنها قرية الأرواح الضائعة. يُعتبر هذا الشريط، بين الحاجز الجليدي والجبال، أرضًا محايدة. ينعطف البعض في طريق جانبي خلال حجهم الطوعي إلى نهر إيس، وبعد تسلقهم الجدران الفظيعة أسفلنا، يتوقفون في الوادي. وأحيانًا يهرب أيضًا عبد من الثيرن ويشق طريقة إلى هنا.

ولا يحاول الثيرن استعادتهم، حيث لا مهرب من هذا الوادي الخارجي، ويخشون في واقع الأمر دوريات السفن الفضائية التابعة للأبناء الأوائل، وبالتالي لا يخاطرون بالخروج من مناطقهم.

نحن لا نعتدي على مخلوقات هذا الوادي الخارجي الضعيفة، فليس لديهم أي شيء نريده، ولا هم أقوياء عدديًّا بما يكفي لمنحنا معركة مثيرة – ولذا نحن أيضًا نتركهم لحالهم.

هناك عدة قرى مماثلة، وقد زاد عددها وإنما بقدر ضئيل خلال سنوات عديدة؛ لأنهم يتحاربون دائمًا فيما بينهم».

نحن نتأرجح قليلاً الآن في شمال الغرب، تاركين وادي الأرواح الضائعة. وبعد فترة قصيرة، رأيت عبر ميمنة مقدمة السفينة ما بدا أنه جبل أسود يرتفع من الامتداد الجليدي المقفر. لم يكن عاليًا، وبدت قمته مستوية.

تركنا زودار ليهتم ببعض الواجبات على متن السفينة. وقفت مع فايدور وحدنا بجانب الدرابزين. لم تتحدث الفتاة ولا لمرة واحدة منذ أن أحضرونا إلى سطح السفينة.

سألتها: «هل ما قاله لي صحيح؟».

أجابت: «نعم، جزئيًّا. ما قاله عن الوادي الخارجي صحيح، أما ما قاله عن موقع معبد إيسوس في وسط مقاطعته فهو كذب». ترددت ثم قالت: «وإذا لم يكن كذبًا ... أوه لا يمكن أن يكون صحيحًا، لا يمكن أن يكون صحيحًا. فإذا كان صحيحًا، فهذا يعني أن شعبي ظل يذهب لعدد لا يُحصى من العصور إلى التعذيب والموت المشين على أيدي أعدائه القاسين، وليس إلى الحياة الأبدية الجميلة التي تربينا على الاعتقاد بأن إيسوس تحتفظ بها لنا».

قلت لها: «كما خدعتم البرسوميين الأقل مرتبة من العالم الخارجي للتوجه إلى وادي دور الرهيب، فربما خدع الأبناء الأوائل الثيرن للتوجه إلى مصير مروع مماثل. سيكون عقابًا صارمًا وفظيعًا، فايدور، وإن كان عادلاً».

قالت: «لا أستطيع أن أصدق ذلك».

أجبتها: «سنرى»، ثم صمتنا مرة أخرى؛ لأننا كنا نقترب بسرعة من الجبال السوداء، التي بدت بطريقة يصعب تحديدها مرتبطة بالإجابة على مشكلتنا.

عندما بدأنا نقترب من القمة المخروطية المبتورة المظلمة، تقلصت سرعة سفينتنا حتى أصبحت بالكاد ما تتحرك. أصبحنا الآن فوق قمة الجبل ورأيت أسفلنا فتحة دائرية ضخمة لحفرة تبدو كفم يتثاءب، ويختفي قاعه في السواد الحبري.

يبلغ قطر هذه الحفرة الهائلة ألف قدم بالكامل، جدرانها ناعمة، ويبدو أنها مؤلفة من صخور بازلتية سوداء.

تأرجحت السفينة للحظة بلا حراك فوق مركز الفراغ مباشرة الذي يفتح فاهه، ثم بدأت تستقر ببطء داخل الهوة السوداء. أخذت تهبط تدريجيًّا إلى أن غرقت في الظلام

الذي أصبح يلفها، وهنا فتحت أضواءها، ثم بدأت تهبط في الهالة الخافتة من شعاعها داخل ما بدا لي أنه باطن برسوم.

ظللنا نهبط لحوالي نصف ساعة، وفجأة انتهى البئر عند قبة عالَم جبار تحت الأرض. كانت دوامات بحر مدفون ترتفع وتنخفض أسفلنا. أضاء شعاع فوسفوري المشهد. تناثرت آلاف السفن في حضن المحيط. وارتفعت جزر صغيرة هنا وهناك لدعم الحياة النباتية الغريبة عديمة اللون في هذا العالم الغريب.

هبطت السفينة الحربية ببطء ورشاقة مهيبة، إلى أن استقرت فوق الماء. كانت مراوحها الكبيرة قد تم سحبها وإعادتها لمكانها خلال هبوطنا البئر، وحلت محلها مراوح مائية أصغر حجمًا لكنها أكثر قوة. وعندما بدأت هذه المراوح تدور، واصلت السفينة رحلتها ثانية، طافية بهذا العنصر الجديد بأمان كما كانت في الهواء.

صُعِقنا أنا وفايدور. لم يكن أي منا قد سمع أو حلم بوجود مثل هذا العالَم تحت سطح برسوم.

كانت كل السفن التي رأيناها تقريبًا سفنًا فضائية حربية. وهناك عدد قليل من الزوارق والصنادل، لكنها جميعًا ليست سفنًا تجارية كبيرة.

قال صوت خلفنا: «هنا ميناء بحرية الأبناء الأوائل». استدرنا، فرأينا زودار يرقبنا بابتسامة مستمتعة على شفتيه.

تابع قائلاً: «هذا البحر أكبر من كوراس، وهو يستقبل مياه البحر الأدنى فوقه. ومن أجل منعه من الامتلاء فوق مستوى معين، لدينا أربع محطات ضخ كبيرة تُجبر المياه الزائدة على العودة إلى الخزانات شمالاً، حيث يأخذ الرجال الحُمر الماء الذي يروي أراضيهم الزراعية».

لمع في ذهني فجأة ضوء جديد مع تفسيره هذا. كان الرجال الحُمر دائمًا يعتبرون أن معجزة هي التي تسببت في اندفاع أعمدة كبيرة من المياه من الصخور الصلبة من جانبي خزانهم لزيادة إمدادات السائل الثمين الذي يندر وجوده في العالم الخارجي من المريخ.

لم يتمكن أبدًا رجالهم المتعلمين من فهم سر مصدر هذا الحجم الهائل من المياه. ومع مر العصور، أصبحوا ببساطة يقبلونه كأمر طبيعي وتوقفوا عن التساؤل حول مصدره.

مررنا على العديد من الجزر التي توجد فوقها مبان دائرية غريبة الشكل، من الواضح أنها بلا أسقف، وتخترقها في منتصف المسافة بين الأرض وقممها نوافذ صغيرة ذات قضبان منيعة. كانت تشبه السجون، وهو ما أكده وجود حراس مسلحين جاثمين فوق مقاعد طولية منخفضة في الخارج، أو يقومون بدوريات على خطوط الشاطئ القصيرة.

كان عدد قليل من هذه الجزر الصغيرة يحتوي على أكثر من فدان من الأرض، لكننا نشاهد حاليًا جزيرة أكبر بكثير أمامنا مباشرة. وقد ثبت أن هذا هو مقصدنا، وأسرعت السفينة الكبيرة في مواجهة الشاطئ المنحدر.

أشار لنا زودار أن نتبعه. غادرنا السفينة الحربية معه ومع نصف دزينة من الضباط والرجال، واقتربنا من بنية بيضاوية كبيرة تبعد بضع مئات من الياردات عن الشاطئ.

قال زودار لفايدور: «سوف ترين إيسوس قريبًا. نقدم إليها القليل من السجناء الذين نأسرهم. تختار من بينهم أحيانًا العبيدات لسد النقص في صفوف وصيفاتها. لا أحد يخدم إيسوس أكثر من سنة واحدة»، وهنا ظهرت هناك ابتسامة قاتمة على شفتي القرصان الأسود أضفت معنى قاسيًا وشريرًا على عبارته البسيطة.

فايدور، على الرغم من أنها كارهة للاعتقاد بأن إيسوس تتحالف مع مثل هؤلاء، فقد بدأت تعبر عن بعض الشكوك والمخاوف. تشبثت بي على نحو وثيق، لم تعُد الابنة الفخورة لسيد الحياة والموت في برسوم، وإنما فتاة شابة خائفة في قبضة أعداء لا يرحمون.

دخلنا الآن مبنى بلا سقف على الإطلاق. يوجد في مركزه خزان طويل للمياه، يقع أدنى من مستوى الأرض مثل حوض سباحة داخلي، ويطفو كائن أسود غريب الشكل بالقرب من أحد جوانبه. سواء كان وحشًا غريبًا من هذه المياه المدفونة، أو كان طوفًا عجيبًا، لم أتمكن من إدراك ذلك على الفور.

على أي حال سرعان ما عرفنا؛ إذ عند وصولنا إلى حافة الحوض، وفوق هذا الشيء مباشرة، قال زودار بضع كلمات بصوت عال في لغة غريبة. وعلى الفور، ارتفع غطاء باب فتحة صغيرة على سطح الشيء، وانطلق بحار أسود من باطن المركبة الغريبة.

خاطب زودار البحار.

قال: «أبلغ ضابطك أوامر داتور زودار. قل له إن داتور زودار، مع الضباط والرجال، ويرافقه أسيرين، سوف يتم نقلهم إلى حدائق إيسوس بجوار المعبد الذهبي».

أجاب الرجل: «فلتحل بركة سلفك الأول، يا أنبل داتور. سيحدث ما قلته»، ثم رفع كلتا يديه، وراحتهما إلى الوراء فوق رأسه، وفقًا لطريقة التحية المشتركة بين جميع أعراق برسوم، واختفى مرة أخرى داخل جوف سفينته.

بعد ذلك بدقائق ظهر على سطح السفينة ضابط متألق بأغطيته الزخرفية الرائعة الخاصة برتبته، ورحب بزودار للدخول إلى السفينة، وفي أعقاب ذلك صعدنا على متنها، ثم هبطنا داخلها.

كانت المقصورة التي وجدنا أنفسنا فيها تمتد كاملاً عبر السفينة، وعلى جانبيها نوافذ دائرية تقع على مستوى أسفل سطح المياه. لم نكد نصل، حتى صدر عدد من الأوامر أُغلق بموجبها باب الفتحة، وتم تأمينه بإحكام، وبدأت السفينة تهتز على صوت خرخرة أجهزتها الإيقاعي.

سألتني فايدور: «إلى أين يمكن أن نذهب في مثل هذه البركة الصغيرة من المياه».

أجبتها: «ليس إلى أعلى، لا سيما أنني لاحظت أن البناء رغم أنه مكشوف بلا سقف، فهو مُغطى بحاجز معدني صلب».

سألتني مرة أخرى: «إذن إلى أين؟».

أجبتها: «من مظهر السفينة، أتصور أننا نغوص لأسفل».

ارتجفت فايدور. لعصور طويلة كانت مياه بحار برسوم بمثابة شيء تراثي فحسب. فحتى ابنة الثيرن هذه، التي وُلدت على مرأى البحر الوحيد المتبقي في المريخ، كانت تشعر بنفس الرعب من المياه العميقة الذي يشعر به جميع المريخين.

أصبح الإحساس بالغرق شديد الوضوح الآن. كنا نهبط بسرعة. والآن يمكننا أن نسمع اندفاع المياه من النوافذ المستديرة. وفي الضوء الخافت الذي تسرب من خلالها إلى الماء، ظهرت الدوامات بوضوح.

تشبثت فايدور بذراعي.

همست لي قائلة: «أنقذني! وسوف أمنحك كل رغباتك. أي شيء

ممكن إعطاؤه لك في إطار سلطة الثيرن المقدسين سوف تحصل عليه. فايدور ...» تلعثمت قليلاً هنا، ثم قالت بصوت منخفض جدًّا: «فايدور لك بالفعل».

شعرت بأسف شديد للطفلة المسكينة، ووضعت يدي فوق يدها المستقرة على ذراعي. أتصور أنها أساءت فهم دوافعي؛ إذ بلمحة سريعة حول المكان، لتؤكد لنفسها أننا وحدنا، ألقت ذراعيها حول عنقي وجذبت وجهي إلى وجهها.

* * *

(9)

إيسوس ،إلهة الحياة الأبدية

إن الاعتراف بالحب الذي انبثق منه رعب الفتاة، لمس مشاعري بعمق؛ لكنه أهانني أيضًا، حيث شعرت أنني بكلماتي وتصرفاتي العفوية أعطيتها سببًا للاعتقاد أنني أبادلها العاطفة.

لم أكن أبدًا رجلاً يهتم بالنساء، بل كان اهتمامي ينصب أساسًا على القتال والفنون المماثلة التي بدت لي دومًا أنها تليق برجل أكثر من التجوال حول قفازات معطرة أصغر من قياسه بأربعة مقاسات، أو تقبيل زهرة ميتة بدأت رائحتها تشبه رائحة الكرنب. ولذا كنت في حيرة شديدة بشأن ما أفعل أو أقول. إنني أفضل ألف مرة مواجهة الجحافل الوحشية في قيعان البحر الميت على الالتقاء بأعين هذه الفتاة الشابة الجميلة وأقول لها الشيء الذي يجب أن أقوله لها.

ولكن ليس أمامي شيء آخر، وبالتالي فعلت ذلك. وأخشى أنني فعلته بشكل أخرق.

أبعدت يديها من حول عنقي، وأبقيتهما في يدي وأخبرتها بقصة حبي لديجاه ثوريس؛ وأنها الوحيدة التي أحببتها، من بين جميع النساء اللاتي عرفتهن وأُعجبت بهن في العالمين خلال حياتي الطويلة.

لم تنل الحكاية إعجابها. انطلقت لاهثة كالنمرة. تشوه وجهها الجميل بتعبير ينم عن حقد رهيب. واتقدت عيناها وهي تنظر نحوي.

هسهست قائلة: «كلب، كلب كافر!». قالت آمرة: «أتعتقد أن فايدور، ابنه ماتاي شانج، تتوسل؟ ماذا تعني لها عاطفتك السقيمة في العالم الخارجي للمخلوقة الخسيسة التي اخترتها في حياتك الأخرى؟

لقد منحتك فايدور مجدًا بحبها، وأنت رفضتها بازدراء. لا يمكن أن تعوض عشرة آلاف من الوفيات الفظيعة التي لا يمكنك تصورها عن الإهانة التي وجهتها لي. الشيء الذي تسميه ديجاه ثوريس سوف يموت أفظع موت. أنت أصدرت الأمر بموتها.

وأنت! أنت ستكون أحقر عبد في خدمة الإلهة التي حاولت إذلالها. سينهال عليك التعذيب والهوان إلى أن تنبطح أمام قدمي متذللاً تطلب نعمة الموت.

وأقصى كرمي أن أقبل توسلاتك، وأشاهد من الشرفة العالية في المنحدرات الذهبية القرود البيضاء الكبيرة تمزقك إربًا».

كان كل شيء محددًا لديها. البرنامج الجميل كله من البداية إلى النهاية. أدهشني أن شخصًا بهذا القدر من الجمال الإلهي وفي الوقت نفسه على هذا القدر من الانتقامية الشريرة. بيد أنه تبادر إلى ذهني أنها أغفلت عاملاً واحدًا صغيراً في انتقامها، وهكذا، ودون أي نية لزيادة حرجها، وإنما بالأحرى السماح لها بإعادة ترتيب خططها عبر خطوط أكثر عملية، أشرت إلى أقرب نافذة دائرية.

ومن الواضح أنها نست تمامًا محيطها وظروفها الراهنة، إذ بلمحة إلى السطح في الظلام، أرسلتها دوامات المياه في الخارج مكومة على مقعد طويل منخفض، حيث اندفن وجهها بين ذراعيها، وأجهشت بالبكاء كفتاة صغيرة تعيسة أكثر منها إلهة فخورة كاملة السلطة.

واصلت السفينة هبوطها إلى أن أصبح زجاج النوافذ الدائرية الثقيل دافئًا بشكل ملحوظ من حرارة الماء خارجه. من الواضح أننا هبطنا إلى مسافة بعيدة جدًّا تحت قشرة سطح المريخ.

توقفت حركة الهبوط الآن، وأمكنني أن أسمع دوران المراوح خلال المياه في مؤخرة السفينة بما يدفعنا قدمًا بسرعة عالية. كان الظلام حالكًا هنا في أسفل، لكن الضوء القادم من النوافذ الدائرية، وانعكاس ما يبدو ضوء كشاف قوي على مقدمة الغواصة، أوضح أننا نمضي قدمًا من خلال ممر ضيق، محاط بالصخور، ويشبه النفق.

وبعد بضع دقائق توقفت المراوح عن الطنين. توقفنا بالكامل، ثم بدأنا في الارتفاع بسرعة نحو السطح. وسرعان ما تزايد الضوء في الخارج، ثم توقفنا.

دخل زودار المقصورة مع رجاله.

قال: «هيا»، تابعناه خلال الباب الأرضي الذي كان قد فتحه أحد البحارة.

وجدنا أنفسنا في قبو صغير تحت الأرض، توجد في منتصفه بركة صغيرة تطفو فوقها غواصتنا، كانت طافية بمثل ما رأيناها بداية، لا يظهر سوى ظهرها.

توجد حول حافة الحوض منصة مستوية، وترتفع جدران الكهف عموديًّا لبضعة أقدام إلى قوس في اتجاه وسط سقف منخفض. وتتناثر على الجدران حول الحافة عدد من المداخل المؤدية إلى ممرات خافتة الإضاءة.

قادنا خاطفونا في اتجاه أحدها، وبعد مسيرة قصيرة توقفنا أمام قفص فولاذي يقع في قاع بئر مصعد يرتفع فوقنا بقدر ما يمكن أن يرى المرء.

ثبت أن القفص هو أحد الأنواع الشائعة من عربات الرفع التي رأيتها في أجزاء أخرى من برسوم. وهي تُدار عن طريق مغناطيسات هائلة مُعلقة في الجزء العلوي من البئر. وباستخدام جهاز كهربائي، يتم تنظيم حجم المغناطيسية المتولدة، وبالتالي تختلف سرعة العربة.

تتحرك العربة عبر امتدادات طويلة بسرعة تثير الغثيان، لا سيما في رحلة الصعود؛ ذلك أن صغر قوة الجاذبية الكامنة في المريخ تسفر عن معارضة محدودة جدًّا للقوة الجبارة في أعلى.

ما إن أُغلق باب العربة وراءنا، حتى بدأنا نصعد ببطء وتوقفنا عند رصيف المرفأ أعلاه، وكان صعودنا سريعًا جدًّا عبر البئر الطويل.

عندما خرجنا من المبنى الصغير الذي يضم المحطة العلوية للمصعد، وجدنا أنفسنا في وسط دنيا الجمال الخيالي الحقيقية. لا تضم جميع لغات كوكب الأرض مجتمعة أي كلمة تنقل إلى العقل جمال هذا المشهد الفاتن.

يمكن أن يتكلم المرء عن المرج القرمزي والأشجار ذات الجذوع العاجية والمزينة بزهور أرجوانية رائعة؛ والدروب المتعرجة المرصوفة بالياقوت المسحوق، والزمرد، والفيروز، وحتى بالألماس نفسه؛ وعن معبد مهيب من الذهب المصقول، بتصميمات بديعة يدوية الصنع؛ ولكن أين الكلمات التي يمكن أن تصف الألوان المتألقة غير المعروفة لأعين سكان كوكب الأرض؟ وأين العقل أو الخيال الذي يمكن أن يستوعب ذلك التألق فائق الجمال لإشاعات لم يسمع عنها أحد، تنبعث من آلاف الجواهر مجهولة الاسم في برسوم؟

حتى عيناي، التي اعتادت لسنوات طويلة على العجائب البربرية في ساحات الجيداك المريخيين، كانت في دهشة من عظمة المشهد.

اتسعت عينا فايدور في ذهول.

همست، لنفسها تقريبًا: «معبد إيسوس».

كان زودار يرقبنا بابتسامته القاتمة، مستمتعًا جزئيًّا وبشماتة خبيثة جزئيًّا.

احتشد في الحدائق رجال ونساء سود يرتدون أغطية رائعة. وتتحرك بينهم إناث حُمر وبيض يلبون رغباتهم. لقد سرق الرجال السود الأميرات والآلهة من العالم الخارجي ومعابد الثيرن ليصبحن إماء لهم.

تحركنا خلال هذا المشهد نحو المعبد. أوقفتنا حلقة من الحراس المسلحين عند المدخل الرئيس. تحدث زودار ببضع كلمات لأحد الضباط الذين جاءوا يستفسرون. دخلوا إلى المعبد، حيث بقوا لبعض الوقت.

عادوا لإبلاغنا أن إيسوس ترغب في رؤية ابنة ماتاي شانج، والمخلوق الغريب القادم من عالم آخر، وكان أمير هيليوم.

تحركنا ببطء عبر الممرات اللانهائية ذات الجمال الذي لا يمكن تصوره؛ وخلال شقق رائعة، وقاعات نبيلة. أوقفونا طويلاً في غرفة واسعة في وسط المعبد. تقدم أحد الضباط الذين صحبونا إلى باب كبير في نهاية الغرفة؛ ومن المؤكد أنه أشار بشكل ما، إذ فُتح الباب فورًا وظهر أحد رجال الحاشية متدثرًا بأغطية ثمينة.

قادنا إلى الباب، ووجهنا إلى الانخفاض على اليدين والركبتين وظهورنا نحو الغرفة التي كنا سندخلها. تأرجحت الأبواب مفتوحة، بعد أن حذرونا ألا ندير رؤوسنا وإلا نقع تحت عقوبة الإعدام الفوري، ثم أمرونا بالدخل بظهورنا إلى حضرة إيسوس.

لم أتعرض أبدًا لمثل هذا الموقف المُذل في حياتي؛ وفقط حبي لديجاه ثوريس والأمل الذي ما زلت أتشبث به في أن أراها مرة أخرى، هو ما منعني من النهوض لمواجهة إلهة الأبناء الأوائل وأن أمضي نحو حتفي كرجل شهم، أواجه أعدائي وتختلط دمائهم بدمائي.

بعد أن زحفنا بهذه الطريقة المقززة لبضع مئات من الأقدام، أوقفنا مرافقنا.

«دعهما ينهضان»، قال صوت وراءنا؛ صوت رقيق متدفق، إلا أنه صوت اعتاد بوضوح على إعطاء الأوامر لسنوات عديدة.

قال مرافقنا: «انهضا، ولكن لا توجها وجهيكما نحو إيسوس».

بعد بضع لحظات من الصمت، تكلم الصوت الرقيق المتدفق مرة أخرى: «المرأة تسرني. سوف تخدمني في الوقت المخصص. أما الرجل، فيمكنك العودة إلى جزيرة شادور التي تقع قبالة الشاطئ الشمالي لبحر أوميان. دعوا المرأة تستدير وتنظر إلى إيسوس، مع العلم بأن من ينتمون إلى مراتب أدنى ويحدقون في المرأى المقدس لوجهها المشع لا يعيشون المجد إلا لسنة واحدة».

شاهدت فايدور من طرف عيني. شحب لونها بدرجة مروعة. وببطء، ببطء شديد، استدارت، كما لو كانت تسحبها قوة غير مرئية يتعذر مقاومتها. كانت تقف بالقرب مني، قريبة جدًّا إلى حد أن ذراعها العاري لمسني وهي تواجه إيسوس، إلهة الحياة الأبدية.

لم أتمكن من رؤية وجه الفتاة، حيث استقرت عيناها للمرة الأولى على الإلهة الأعلى للمريخ، لكنني شعرت بالقشعريرة التي تخللت الذراع المرتجف التي لمسني.

قلت لنفسي: «من المؤكد أنه جمال مبهر، ذلك الذي أثار هذه العاطفة في صدر جمال مشع مثل فايدور، ابنه ماتاي شانج».

«المرأة تبقى، والرجل يذهب»، هكذا تكلمت إيسوس؛ فوضع الضابط يده الثقيلة على كتفي. ووفقًا لتعليماته، انخفضت على يدي وركبتي مرة أخرى، وزحفت من حضور إيسوس. كان أول لقاء لي مع إله، لكنني حر في الاعتراف بأن اللقاء لم يثر إعجابي.

خرجنا من الغرفة، وأغلقوا الأبواب خلفنا، وحاولت الوقوف. انضم لي زودار، وعدنا بخطواتنا نحو الحدائق ببطء.

وبعد أن سرنا قليلاً في صمت، قال: «أنت حافظت على حياتي بينما كان بإمكانك قتلي بسهولة. وسوف أساعدك إن أمكنني. يمكنني مساعدتك في جعل حياتك هنا أكثر احتمالاً، لكن مصيرك حتمي. لا يمكنك أن تأمل في العودة إلى العالم الخارجي».

سألته: «ما مصيري؟»

«هذا يعتمد إلى حد كبير على إيسوس. ما دامت لا ترسل في طلبك وتكشف عن وجهها لك، يمكنك أن تعيش لمدة سنة بشكل معتدل من أشكال العبودية يمكنني ترتيبه لك».

سألته: «لماذا ترسل في طلبي؟».

«إنها كثيراً ما تستخدم رجال المراتب الأدنى في أغراض التسلية المختلفة. فمقاتل مثلك، على سبيل المثال، يمكنه تقديم عرض رياضي رائع في طقوس المعبد الشهرية؛

حيث يتبارى الرجال مع رجال، ومع وحوش، لتطهير إيسوس وتجديد خزانة اللحم خاصتها».

«هل تأكل لحم البشر؟» سألته، وإن لم أكن مرتعبًا، فمنذ معرفتي المكتسبة مؤخرًا بالثيرن المقدسين وأنا مستعد لأي شيء في هذه السماء الذي لا يزال الوصول إليها عسيرًا، حيث من الواضح أن كل شيء تمليه قوة كلية منفردة؛ وحيث عصور التعصب الضيق وعبادة الذات قد استئصلت جميع الغرائز الإنسانية الأوسع نطاقًا التي ربما كان هذا العِرق يمتلكها يومًا ما.

كانوا شعبًا ينتشي بالقوة والنجاح، وينظرون إلى سكان المريخ الآخرين كما ننظر نحن إلى وحوش الغابة والحقل. إذن لماذا لا يأكلون لحم المراتب الدنيا التي لا يفهمون حياتها وسماتها بأكثر مما نفعل نحن مع أفكار وأحاسيس الماشية التي نذبحها ونأكلها على كوكب الأرض.

«إنها لا تأكل سوى لحم السلالة الأفضل من الثيرن المقدسين والبرسوميين الحُمر. وتذهب اللحوم الأخرى إلى مجالسنا. والعبيد يأكلون الحيوانات. وهي تأكل أيضًا كل ما هو طيب المذاق».

لم أفهم حينذاك أن هناك أي دلالة خاصة في إشارته إلى الأشياء الأخرى طيبة المذاق. تصورت أنه وصل إلى أقصى حدود البشاعة في كلامه عن قائمة طعام إيسوس. لا يزال أمامي الكثير لأعرفه عن أعماق القسوة والبهيمية التي تمارسها تلك القوة الكلية على ممتلكاتها.

كنا قد وصلنا تقريبًا إلى آخر الغرف والممرات العديدة التي تؤدي إلى الحدائق، عندما فاجأنا ضابط.

قال: «تود إيسوس أن تنظر مرة أخرى إلى هذا الرجل. فقد أخبرتها الفتاة أنه رائع وبارع إلى درجة أنه قتل بمفرده سبعة من الآباء الأوائل، وأسر بيديه العارية زودار، وقيده بعتاده».

بدا زودار غير مستريح. ومن الواضح أنه انزعج من معرفة إيسوس بهزيمته الشائنة.

استدار دون كلمة، وتبعنا الضابط ثانية إلى الأبواب المغلقة أمام الغرفة العامة لإيسوس، إلهة الحياة الأبدية.

تكررت هنا مراسم الدخول. ومرة أخرى أمرتني إيسوس بالنهوض. ولعدة دقائق ظل الجميع صامتين كالقبر. كانت أعين الإلهة تُقيمني.

والآن قطع الصوت الرقيق المتدفق السكون، مُكرِّرًا في دندنة رخيمة الكلمات التي كانت تقرر، لعدد لا يُحصى من العصور، قتل عدد لا يُحصى من الضحايا.

«دعوا الرجل يستدير وينظر إلى إيسوس، مع العلم بأن من ينتمون إلى مراتب أدنى ويحدقون في المرأى المقدس لوجهها المشع لا يعيشون المجد الذي يُغشي الأبصار إلا لسنة واحدة».

استدرت وفقًا للأمر، متوقعًا متعة لا يماثلها سوى انكشاف مجد إلهي بقدر ما يمكن أن تراه أعين فانية. رأيت كتيبة متماسكة من الرجال المسلحين بيني وبين منصة تدعم مقعدًا طويلاً كبيراً من خشب السورابوس المنحوت. وفوق هذا المقعد، أو العرش، تجثم امرأة سوداء ويبدو بوضوح أنها عجوز. لم تبق شعرة واحدة على جمجمتها المجعدة. وباستثناء نابين صفراوين، كان فمها خاليًا تمامًا من الأسنان. وعلى جانبي أنفها الرفيعة كأنف الصقر، اتقدت عيناها من أعماق محجريهما الغائرين الفظيعين. هذا بالإضافة إلى تشقق وتجعُّد بشرة وجهها مشققة، وامتلائها بمليون جرح أخدودي. وكان جسدها مجعدًا كوجهها، ومثيراً للاشمئزاز.

كان الذراعان والساقان الهزيلان متصلان بجذع يبدو على الأغلب بطنًا مشوهة تستكمل 'الرؤية المقدسة لجمالها الإشعاعي'.

أحاط بها عدد من النساء العبيدات من بينهن فايدور، بيضاء مرتجفة.

سألت إيسوس: «هل هذا هو الرجل الذي قتل سبعة من الأبناء الأوائل بيديه العاريتين، وقيد داتور زودار بعتاده؟».

أجاب الضابط الذي وقف بجانبي: «يا أعظم مرأى للروعة الإلهية، إنه هو».

أصدرت أمرًا: «أحضِروا داتور زودار».

تم إحضار زودار من الغرفة المجاورة.

حدقت نحوه إيسوس، وضوء متوعد في عينيها البشعتين.

صرخت بصوت عال: «أأنت داتور الأبناء الأوائل؟ للعار الذي جلبته على العِرق الخالد، ستنخفض رتبتك إلى أقل من الأدنى. لم تعد الداتور، لكنك للأبد عبد العبيد،

تؤدي مهامًا ثانوية لذوي المراتب الدنيا الذين يخدمون في حدائق إيسوس. أزيلوا عتاده. فالجبناء والعبيد لا يرتدون أغطية».

وقف زودار منتصبًا بجمود. لم تنتفض أي عضلة من عضلاته، ولم تهز رجفة هيئته العملاقة كجندي من الحرس جُرد بفظاظة من أغطيته.

«انصرف»، صرخت المرأة العجوز بغضب. «انصرف، لكنك لن تنعم بضوء حدائق إيسوس، بل سوف تخدم كعبد لهذا العبد الذي هزمك، في سجن جزيرة شادور في بحر أوميان. أبعدوه عن مرأى عيني الإلهية».

ببطء وبرأس مرتفعة، استدار زودار الفخور شامخًا خارج الغرفة. نهضت إيسوس واستدارت لمغادرة القاعة من مخرج آخر.

التفتت نحوي قائلة: «سوف تعود إلى شادور في الوقت الحاضر. وفي ما بعد سوف ترى إيسوس طريقتك في القتال. اذهب». ثم اختفت، تتبعها حاشيتها. تخلفت فايدور فقط عن الركب، وعندما بدأت متابعة حارسي نحو الحدائق، جاءت الفتاة راكضة ورائي.

توسلت قائلة: «أوه، لا تتركني في هذا المكان الرهيب. اغفر لي الأشياء التي قلتها لك، يا أميري. لم أكن أقصدها. فقط خذني معك. دعني أشاركك سجنك في شادور». كانت كلماتها عبارة عن أفكار غير مترابطة، تنطلق دفعة واحدة بسرعة وهي تتحدث. «أنت لا تفهم الشرف الذي أضفيته عليك. لا يوجد زواج بين الثيرن، كما بين المراتب الدنيا في العالم الخارجي. يمكننا أن نعيش معًا إلى الأبد في حب وسعادة. لقد نظر كلانا إلى إيسوس وسنموت بعد سنة. دعنا نعيش تلك السنة على الأقل معًا بأي قدر من السعادة متاح للمحكوم عليهم بالموت».

أجبتها: «إذا كان يصعب بالنسبة لي أن أفهمك، فايدور، ألا يمكنك أن تفهمي أنه ربما يصعب عليك أنت أيضًا فهم الدوافع والعادات والقوانين الاجتماعية التي توجهني؟ لا أريد أن أجرحك، ولا أن أقلل من الشرف الذي منحتيني إياه، لكن الشيء الذي ترغبين فيه لن يحدث. فبغض النظر عن الاعتقاد الأحمق لشعوب العالم الخارجي، أو الثيرن المقدسين، أو الأبناء الأوائل ذوي البشرة الأبنوسية، أنا لست ميتًا. وما دمت حيًّا، فإن قلبي يخفق لامرأة واحدة - ديجاه ثوريس التي لا يضاهيها أحد، أميرة هيليوم. عندما يدركني الموت، سيتوقف قلبي عن الخفقان؛ ولكن ماذا يحدث بعد ذلك، أنا لا أعرف. وفي هذا أنا بمثل حكمة ماتاي شانج، سيد الحياة والموت في برسوم؛ أو إيسوس، إلهة

الحياة الأبدية».

وقفت فايدور تنظر نحوي باهتمام للحظة. لم يظهر غضب في عينيها هذه المرة، وإنما فقط تعبير مثير للشفقة عن حزن يائس.

قالت: «أنا لا أفهم»، واستدارت ببطء في اتجاه الباب الذي مرت منه إيسوس وحاشيتها. وخلال لحظة غابت عن بصري.

* * *

(10)

سجن جزيرة شادور

اصطحبني الحراس إلى الحدائق الخارجية، ووجدت زودار محاطًا بحشد من النبلاء السود يسبونه ويلعنونه. صفع الرجال وجهه، وبصقت عليه النساء.

عندما ظهرت، حولوا اهتمامهم نحوي.

صاح أحدهم: «آه، هذا إذن المخلوق الذي تغلب بيديه على زودار العظيم. دعونا نرى كيف قام بذلك».

قالت امرأة جميلة وهي تضحك: «دعوه يقيد ثورفيد. ثورفيد هو داتور نبيل. فليوضح ثوريد للكلب معنى مواجهة رجل حقيقي».

هتفت عشرات الأصوات: «نعم، ثوريد! ثوريد!».

هتف شخص آخر: «ها هو ثوريد». استدرت في الاتجاه الذي أشار إليه، فرأيت رجلاً أسود ضخمًا ينوء بحِمل من الحلي والأسلحة المتألقة ويتجه نحونا بطريقة نبيلة وشجاعة.

صاح: «ماذا الآن؟ ما تريدون من ثوريد؟».

وسرعان ما أوضحت عشرة الأصوات.

التفت ثوريد نحو زودار، وضاقت عيناه متحولة إلى فتحتين طوليتين شريرتين.

هسهس قائلاً: «كالوت! تصورت دائمًا أنك تحمل قلب سوراك[22] في صدرك العفن. كثيراً ما تفوقت علي في مجالس إيسوس السرية، أما الآن، في ميدان الحرب حيث يُقاس الرجال حقًّا، فقد كشف قلبك الأجرب عن قروحه إلى العالم كله. يا كالوت، إني أطردك بقدمي»، ومع هذه العبارة التفت ليركل زودار.

كان دمي يفور. ظل يغلي لدقائق عند مشاهدتي معاملتهم الجبانة لزميلهم بعد أن خرج من خدمة إيسوس، وكان صاحب سلطة من قبل. لم أكن أحب زودار، لكنني لم

(22) سوراك: هو مخلوق صغير الحجم جدًّا من ستة أرجل، وتحتفظ به نساء المريخ كحيوان أليف http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorak - المترجمة.

أستطع تحمل مشهد الظلم والقمع الجبان دون رؤية اللون الأحمر في غيمة من الضباب الدموي، ودون القيام بالأشياء وفقًا لنبض اللحظة، رغم أنني يجب ألا أقوم بها أبدًا إذا فكرت بترو.

كنت أقف بالقرب من زودار عندما حرك ثوريد قدمه للركلة الجبانة. وقف داتور، المجرد من مرتبته، منتصبًا بلا حراك كصورة منحوتة. كان مستعدًّا لتحمُل كل ما سيمنحه له رفاقه السابقين من إهانات وتوبيخات، ويتحمله في صمت رجولي ورزانة.

ولكن ما إن تحركت قدم ثوريد، حتى تحركت قدمي أيضًا، وسددت إليه ضربة مؤلمة على قصبة ساقه، أنقذت زودار من هوان إضافي.

ساد للحظة صمت متوتر، ثم اندفع ثوريد هادرًا في غضب نحو حلقي؛ كما فعل زودار من قبل على سطح السفينة. وكانت النتائج مماثلة. تواريت تحت ذراعيه الممدودتين، ولكمته بقوة بيميني وهو مندفع، على جانب فكه.

دار الزميل الضخم كأنما حول محور، وسقطت ركبتيه تحته، وتكوم على الأرض أمام قدمي.

حدق السود في دهشة، أولاً في الهيئة الجامدة للداتور الفخور الذي يرقد هناك في تراب الممر ياقوتي اللون، ثم في وجهي كأنما لا يستطيعون تصديق ما حدث.

قلت صائحًا: «طلبتم مني تقييد ثوريد؛ انظروا!»، ثم انحنيت بجانب الجسد الممدد، ومزقت أربطته، وقيدت ذراعي وساقي الزميل بإحكام».

«كما فعلتم بزودار، قوموا بالمثل مع ثوريد. خذوه أمام إيسوس، مقيدًا في أربطته، بحيث ترى بعينيها أنه يوجد بينكم واحد أعظم من الأبناء الأوائل».

«من أنت؟»، همست المرأة التي كانت أول من اقترح أن أحاول تقييد ثوريد.

«أنا مواطن من عالمين: الكابتن جون كارتر من فرجينيا، وأمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم. خذوا هذا الرجل إلى إلهتكم، كما قلت، وقولوا لها أيضًا إنني كما فعلت مع زودار وثوريد، يمكنني أيضًا أن أفعل مع أقوى داتور لديها. بيدي العاريتين، بسيف طويل أو قصير، أتحدى زهرة مقاتليها لمعركة».

«هيا»، قال الضابط الذي كان يحرسني خلال عودتي إلى شادور، «الأوامر التي صدرت لي إلزامية؛ يجب تنفيذها دون تأخير. زودار، تعال أنت أيضًا».

كان هناك قدر قليل من عدم الاحترام في لهجة الرجل عند مخاطبتي أنا وزودار. من الواضح أنه يشعر بازدراء أقل للداتور السابق، نظرًا لأنه شهد السهولة التي هزمت بها ثوريد القوي.

كان احترامه لي أكبر مما ينبغي أن يكون لعبد، وهو ما اتضح بجلاء خلال ما تبقى من رحلة العودة، حيث كان يسير أو يقف ورائي دائمًا، وسيفه القصير في يده.

خلت رحلة العودة إلى بحر أوميان من الأحداث. هبطنا أسفل البئر الفظيع في نفس العربة التي أوصلتنا إلى السطح. وهناك دخلنا الغواصة، التي غطست بعمق لفترة طويلة إلى النفق الذي يقع تحت العالم العلوي، ثم اتخذنا سبيلنا عبر النفق وإلى أعلى مرة أخرى إلى الحوض الذي تعرفنا من خلاله على الممر الرائع من أوميان إلى معبد إيسوس.

نقلونا على سفينة صغيرة من الجزيرة التي ترسو عندها الغواصة إلى جزيرة شادور البعيدة. وهناك وجدنا سجنًا حجريًّا صغيرًا، وحوالي نصف دزينة من الحراس السود. لم يضع الوقت في استكمال أي مراسم لاحتجازنا. فتح أحد الرجال السود باب السجن بمفتاح ضخم، مشينا وأغلق الباب خلفنا، أصدر القفل صريرًا، ومع صوته تملكني مرة أخرى ذلك الشعور الرهيب باليأس الذي شعرته في غرفة الغموض في المنحدرات الذهبية أسفل حدائق الثيرن المقدسين.

كان معي حينذاك تارس تاركاس، لكنني الآن وحدي تمامًا بقدر ما يتعلق الأمر برفقة ودودة. أخذت أتساءل عن مصير الثاركي العظيم، ورفيقته الجميلة، الفتاة، ثوفيا. حتى إذا تمكنوا بمعجزة من الهرب واستقبلتهم وحافظت عليهم أمة صديقة، فليس لدي أمل للحصول على العون الذي أعرف أنهما سيقدمانه بكل سرور إذا أمكنهما.

لا يمكنهما تخمين مكاني أو مصيري، إذ لا يوجد في برسوم كلها من يحلم حتى بوجود مكان كهذا. كما لم يكن ليفيدني معرفتهم بالموقع الدقيق لسجني، فمن الذي يمكنه أن يأمل في اختراق هذا البحر المدفون في مواجهة الأسطول البحري القوي للأبناء الأوائل؟ كلا، حالتي ميؤوس منها.

حسنًا، يمكنني تحقيق أفضل ما يمكن في هذا الوضع. نهضت ونحيت جانبًا اليأس المكتئب الذي كان يسعى إلى أن يتملكني. بدأت أنظر حولي لاستكشاف سجني.

جلس زودار، وهو يحني رأسه، على مقعد حجري منخفض قرب منتصف غرفتنا. لم يتحدث منذ أن جردته إيسوس من مرتبته.

كان المبنى بلا سقف، وترتفع جدرانه لحوالي ثلاثين قدمًا، وتوجد نافذتان صغيرتان محكمتا الإغلاق في منتصف الطريق لأعلى. ينقسم السجن إلى عدة غرف عبر قواطع يصل ارتفاعها إلى عشرين قدمًا. لا يوجد أحد في الغرفة التي شغلناها، على أن البابين المؤديين إلى الغرف الأخرى كان مفتوحًا. دخلت إحدى هذه الغرف، ووجدتها شاغرة. وهكذا واصلت خلال عدد من الغرف إلى أن وجدت في آخر غرفة شابًّا مريخيًّا أحمر ينام على المقعد الحجري الذي يُشكل الأثاث الوحيد لأي من زنزانات السجن.

ومن الواضح أنه السجين الوحيد الآخر. انحنيت نحوه وهو نائم وتطلعت إليه. هناك شيء مألوف بشكل غريب في وجهه، إلا أنني لم أستطع تحديده.

كانت ملامحه منتظمة للغاية، مثل نِسب رشاقة أطرافه وجسمه، كان وسيمًا إلى أقصى درجة، ولون بشرته فاتحًا بالنسبة لَرجل أحمر، لكنه بدا في نواح أخرى عينة نموذجية من العِرق الأحمر الوسيم.

لم أوقظه، فالنوم في السجن نعمة لا تقدر بثمن؛ فقد رأيت رجالاً يتحولون إلى وحوش هائجة عندما يسرق منهم أحد زملائهم المساجين بضع لحظات ثمينة منه.

عدت إلى زنزانتي، وجدت زودار لا يزال جالسًا في نفس الوضع الذي تركته عليه.

صحت: «يا رجل، لن تربح شيئًا من اكتئابك هكذا. إنه ليس عارًا أن يتفوق عليك جون كارتر. فأنت رأيت السهولة التي هزمت بها ثوريد. كنت تعرف ذلك من قبل، عندما شاهدتني على سطح السفينة أقتل ثلاثة من رفاقك».

قال: «كنت أفضل أن تقتلني أيضًا».

قلت صائحًا: «هيا! هيا!. لا يزال هناك أمل، فلم يمت أي منا. نحن مقاتلون عظماء. لماذا لا نفوز بالحرية؟».

نظر نحوي في ذهول.

وأجاب: «أنت لا تعرف ما تقوله. إيسوس كلية القدرة. إيسوس كلية المعرفة. إنها تسمع الآن الكلمات التي تفوهت بها، وتعرف الأفكار التي تدور في ذهنك. إنه تدنيس للمقدسات أن تحلم حتى بعدم إطاعة أوامرها».

هتفتُ بصبر نافذ: «هذه حماقة، زودار».

وقف على قدميه في رعب.

صرخ قائلاً: «ستحل عليك لعنة إيسوس. قد تنجذب في لحظة إلى أسفل، متلويًا نحو موتك في عذاب رهيب».

سألته: «هل تعتقد ذلك، زودار؟».

«بالطبع؛ من يجرؤ على الشك؟».

قلت: «أنا أشك؛ نعم، وعلاوة على ذلك، أرفض. لماذا؛ أنت تقول لي، زودار، أنها تعرف حتى أفكاري. لقد امتلك كل الرجال الحُمر هذه القوة لعصور. وقوة رائعة أخرى. إن بإمكانهم إغلاق عقولهم بحيث تتعذر قراءة أفكارهم. تعلمت سر القوة الأولى منذ سنوات؛ أما الثانية فلم أكن في حاجة إلى تعلمها، ذلك أنه في برسوم كلها لا يوجد من يستطيع قراءة ما يدور في غُرف مخي السرية.

إن إلهتك لا يمكنها قراءة أفكاري؛ ولا يمكنها قراءة أفكارك عندما تكون بعيدًا عن نظرها، إلا إذا رغبت أنت في ذلك. إذا كانت قد تمكنت من قراءة أفكاري، أخشى أن كبرياءها قد عانى من صدمة حادة عندما استدرت بناء على أوامرها من أجل 'التحديق في الرؤية المقدسة لوجهها المشع».

«ماذا تقصد؟»، همس بصوت مفزوع، ومنخفض لدرجة أنني بالكاد ما سمعته.

«أقصد أنني كنت أفكر حينذاك أنها أكثر مخلوقة مثيرة للاشمئزاز وحقارة بشعة وقعت عليها عيني من قبل».

للحظة أخذ ينظر نحوي في ذهول مشوب بالرعب، ثم صرخ «أنت كافر» وهو يهاجمني.

لم أرغب في ضربه مرة أخرى، كما لم يكن ذلك ضروريًّا، نظرًا لأنه أعزل وبالتالي غير مؤذ على الإطلاق بالنسبة لي.

عندما هاجمني، أمسكت معصمه الأيسر بيدي اليسرى، وأرجحت ذراعي اليمنى حول كتفه الأيسر، وأمسكته من تحت ذقنه بكوعي ودفعته إلى الوراء بفخذي.

ظل معلقًا هناك بعجز للحظة، صارخًا في وجهي بغضب عاجز.

قلت: «زودار، دعنا نكن أصدقاء. لمدة سنة، ربما قد نضطر إلى العيش معًا في الحدود الضيقة لهذه الغرفة الصغيرة. أعتذر لإساءتي لك، ولكن ليس بإمكاني أن أتصور أن من عانى من ظلم إيسوس القاسي لا يزال يصدق أنها إلهة.

سوف أقول بضع كلمات أخرى، زودار، دون أي نية لجرح مشاعرك أكثر، وإنما قد تعطيك بالأحرى فكرة عن أننا نعيش، ولذا ما زلنا نتحكم في مصيرنا أكثر من أي إله.

إيسوس، كما ترى، لم تقتلني، ولم تنقذ زودار المؤمن من براثن كافر شهّر بجمالها. كلا، زودار، إن إيسوس ليست سوى امرأة عجوز فانية. ما أن تخرج من براثنها، لا يمكنها أن تضرَّ بك.

مع معرفتك بهذه الأرض الغريبة ومعرفتي بالعالم الخارجي، فإن رجلين مقاتلين مثلي ومثلك ينبغي أن يكونا قادرين على الفوز بالطريق نحو الحرية. وحتى إذا متنا في المحاولة، أليست ذكرانا ستكون أفضل مما لو بقينا في خوف ذليل من أن تذبحنا طاغية قاسية وظالمة- أطلق عليها إلهة أو بشر، كما تريد».

عندما انتهيت، أوقفت زودار على قدميه، وأطلقت سراحه. لم يهاجمني ثانية، كما لم يتكلم. بل سار نحو المقعد وغاص فيه، وظل ضائعًا في تفكير عميق لساعات.

بعد فترة طويلة، سمعت صوتًا منخفضًا عند المدخل المؤدي إلى إحدى الشقق الأخرى، وعندما نظرت رأيت الشباب المريخي الأحمر يحدق بإمعان فينا.

«كاور»، صحت وفقًا لطريقة التحية لدى المريخيين الحُمر.

فأجاب: «كاور. ماذا تفعل هنا؟».

«أنا في انتظار موتي، كما أفترض»، أجبته بابتسامة ساخرة.

ابتسم أيضًا، ابتسامة شجاعة منتصرة.

وقال: «وأنا أيضًا. لكن موتي سوف يأتي قريبًا. فقد نظرت إلى جمال إيسوس المشع منذ عام تقريبًا. كان دائمًا مصدر عجب شديد بالنسبة

لي أنني لم أسقط ميتًا من أول نظرة لتلك الملامح البشعة. وبطنها! بحق سلفي الأول، لا يوجد أبدًا مثل هذا المظهر البشع في الكون كله. لا أتصور أبدًا كيف يطلقون عليها إلهة الحياة الأبدية، وإلهة الموت، وأم القمر الأقرب، والأسماء الخمسين المستحيلة الأخرى».

سألته: «كيف جئت إلى هنا؟».

«الأمر في منتهى البساطة. كنت أطير في طائرة تتسع لرجل واحد في استطلاع جوي إلى الجنوب عندما تبادرت إلى ذهني فكرة عبقرية، وهي رغبتي في البحث عن بحر كوراس المفقود، الذي تقول التقاليد إنه يقع بالقرب من القطب الجنوبي. لابد أنني ورثت من والدي شهوته الجامحة للمغامرة.

وصلت منطقة الجليد الأبدي، وعندها تعطل باب المروحة، فهبطت إلى الأرض لإجراء بعض الإصلاحات. وقبل أن أدرك، تحول الهواء إلى اللون الأسود من الطائرات، وقفز مائة من هؤلاء الأبناء الأوائل الشياطين على الأرض متجمعين حولي».

«وصلوا عندي وسيوفهم مرفوعة، ولكن قبل أن أنخفض تحتها ذاقوا طعم فولاذ سيف أبي، وقد أبليت بلاء حسنًا، أعرف أنه كان ليُسعِد والدي لو كان قد عاش ليشهده».

سألته: «هل مات والدك؟».

«توفي قبل أن تنكسر قشرة البيضة لتسمح لي بالخروج إلى عالم كان جيدًا جدًّا بالنسبة لي. ولولا حزني، لأنني لم أتشرف بمعرفة والدي، لكنت سعيدًا جدًّا. حزني الوحيد الآن هو أن والدتي سوف تندبني كما ندبت على والدي لعشر سنوات طوال».

سألته: «من كان والدك؟».

كان على وشك الرد عندما فُتح الباب الخارجي للسجن ودخل حارس قوي البنية وأمره بالذهاب إلى زنزانته ليلاً، وقفل الباب خلفه بعد أن ذهب إليها.

قال الحارس عندما عاد إلى زنزانتنا: «إنها رغبة إيسوس أن تبقيا أنتما الاثنان في نفس الغرفة». ثم قال لي، وهو يلوح بيده مشيراً إلى زودار: «على هذا الجبان، عبد العبد، أن يخدمك بشكل جيد. وإذا لم يفعل، يمكنك أن تضربه إلى أن يخضع. إنها رغبة إيسوس أن تهيل عليه كل مهانة وانحطاط يمكنك أن تتصوره».

وبعد هذه الكلمات تركنا.

لا يزال زودار جالسًا ووجهه مدفون بين يديه. مشيت نحوه، ووضعت يدي على كتفه.

قلت: «زودار، أنت سمعت أوامر إيسوس، لكني لن أحاول حتى تنفيذها. أنت رجل شجاع، زودار. إنه شأنك إذا كنت ترغب في الاضطهاد والإذلال؛ ولو كنت مكانك لكنت أكدت رجولتي وتحديت أعدائي».

قال: «لقد كنت أفكر جديًّا، جون كارتر، في جميع الأفكار الجديدة التي أعطيتها لي منذ بضع ساعات. وقمت تدريجيًّا بتجميع الأشياء التي قلتها، وبدت لي حينذاك كُفرًا، مع الأشياء التي رأيتها في حياتي الماضية ولم أكن أجرؤ حتى في التفكير فيها خوفًا من غضب إيسوس.

والآن أعتقد أنها مزيفة؛ ليست إلهة، بل مثلي أو مثلك. أنا أكثر استعدادًا للاعتراف ... أن الأبناء الأوائل ليسوا أكثر قداسة من الثيرن المقدسين، ولا الثيرن المقدسين أكثر قداسة من الرجال الحُمر.

إن نسيج ديننا كله يستند إلى اعتقاد خرافي في أكاذيب دسها علينا لعصور أولئك الذين فوقنا مباشرة، الذين كانت فائدتهم وعظمتهم الشخصية وراء جعلنا نستمر في الاعتقاد بما يريدوننا أن نعتقده.

أنا مستعد للتخلص من الروابط التي كانت تقيدني. أنا مستعد لتحدي إيسوس نفسها؛ ولكن ما جدوى ذلك لنا؟ سواء كان الأبناء الأوائل آلهة أو بشر فانين، فإنهم عِرق قوي، ووجودنا في براثنهم يعني أننا ميتين بالفعل. فلا مهرب».

أجبته: «لقد هربت من محن سيئة في الماضي، يا صديقي؛ وما دمت حيًّا، لن أيأس من الهرب من جزيرة شادور وبحر أوميان».

تابع زودار قائلاً: «لكننا لا نستطيع الهرب حتى من جدران سجننا الأربعة». وأضاف صائحًا، وهو يضرف بعنف الصخر الصلب لمحبسنا: «اختبر هذا السطح الشبيه بالحجر الصوان، وانظر إلى هذا السطح المصقول؛ لا يمكن التشبث به للوصول إلى أعلى».

ابتسمت.

أجبته: «هذه أقل مشاكلنا، زودار. سوف أضمن لك تسلق الجدار وآخذك معي، إذا ساعدتني بمعرفتك للأعراف والعادات هنا على تحديد

أفضل وقت للمحاولة، وأرشدتني إلى البئر الذي يُخرجنا من قبة هذا البحر السحيق لضوء الهواء النقي في أعلى».

«وقت الليل هو الأفضل، ويمنحنا الفرصة الضئيلة الوحيدة التي لدينا، حيث يكون الرجال نيامًا، ولا يوجد سوى حراس المراقبة الذين يغلبهم النعاس في السفن الحربية. لا

توجد مراقبة على السفن والطائرات الصغيرة. فمراقبو السفن الكبيرة يراقبون جميع السفن. إنه الليل الآن».

صحت قائلًا: «لكن، ليس ظلامًا! كيف نكون في الليل إذن؟»

ابتسم.

وقال: «أنسيت أننا تحت الأرض بمسافة كبيرة. ضوء الشمس لا يخترق إلى هنا أبدًا. لا تنعكس الأقمار والنجوم في حضن أوميان. أما الضوء الفوسفوري الذي تراه الآن متخللًا هذا السرداب تحت الأرضي، فهو ينبعث من الصخور التي تشكل قبته؛ هذا هو الحال دائمًا في أوميان، تمامًا مثلما ترى الدوامات- تدور، دائمًا تدور في بحر هادئ».

«عندما تحل ساعة الليل في العالم أعلاه، ينام الرجال الذين يقومون بواجباتهم هنا، لكن الضوء يظل كما هو على الدوام».

قلت: «هذا سوف يزيد من صعوبة الهرب»، ثم هززت كتفي؛ ما المتعة في القيام بأمر سهل؟

قال زودار: «فلننم الليلة، قد تأتينا خطة مع استيقاظنا».

وهكذا، ألقينا أنفسنا على حجر الأرضية الصلب لمحبسنا، ونمنا نوم رجال متعَبين.

* * *

(11)

عندما انفتح الجحيم على مصراعيه

بدأت مع وزودار العمل، في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، على خططنا للهروب. طلبت منه أولاً أن يرسم على أرضية زنزانتنا الحجرية خريطة دقيقة بقدر الإمكان لمناطق القطب الجنوبي بالأدوات البسيطة المتوفرة لدينا- مشبك من عتادي، وحافة حادة من الجوهرة العجيبة التي كنت قد أخذتها من ساتور ثروج.

ومن الخريطة، حسبت الاتجاه العام لهيليوم ومدى بُعدها عن الفتحة المؤدية إلى أوميان.

ثم طلبت منه أن يرسم خريطة لأوميان، تشير بوضوح إلى موقع شادور وفتحة القبة التي تؤدي إلى العالم الخارجي.

درست هذه الخرائط حتى انطبعت في ذاكرتي. وعرفت من زودار واجبات وعادات حراس الدوريات في شادور. يبقى رجل واحد فقط في الخدمة كل مرة خلال الساعات المخصصة للنوم، ويسير بخطى سريعة حول السجن، على مسافة حوالي مائة قدم من المبنى.

أما خطوات الخفر، كما قال زودار، فهي بطيئة جدًّا؛ حيث تستغرق ما يقرب من عشر دقائق في الجولة الواحدة. وهذا يعني أنه لمدة خمس دقائق عمليًّا، كل مرة، يكون كل جانب من السجن دون حراسة، عندما يواصل بعدها الخفير حركته الحلزونية على الجانب الآخر.

قال زودار: «هذه المعلومات التي طلبتها ستكون ذات قيمة كبيرة بعد أن نخرج، لكنك لم تطلب أي شيء يؤثر على الاعتبار الأول والأهم».

أجبته ضاحكًا: «سوف نخرج، اترك لي ذلك».

ثم سألني: «متى سنقوم بمحاولتنا؟».

أجبته: «في أول ليلة نجد فيها طائرة فضائية صغيرة ترسو قرب شاطئ شادور».

«لكن كيف سيمكنك معرفة أن أي طائرة قد رست بالقرب من شادور؟ النوافذ بعيدة عن متناول أيدينا».

«غير صحيح، يا صديقي زودار؛ انظر!».

اندفعت بقفزة إلى قضبان النافذة المقابلة لنا، وألقيت نظرة سريعة على المشهد في الخارج.

كانت عدة طائرات صغيرة وسفينتان حربيتان كبيرتان تقع على مسافة مائة ياردة من شادور.

«الليلة»، هكذا فكرت وكنت على وشك إبلاغ قراري لزودار عندما، دون سابق إنذار، انفتح باب محبسنا ودخل حارس.

إذا رآني الحارس عند النافذة، سرعان ما ستلمع في ذهنه فرصة هروبنا، وعندئذ سيكبلونني في الحديد إذا كان لديهم أدنى تصور عن خفة حركتي الرائعة التي أعطتني إياها على المريخ عضلاتي المنتمية إلى كوكب الأرض.

دخل الرجل وكان يقف مواجهًا منتصف الغرفة، بحيث كان ظهره ناحيتي. كانت تقع فوقي بخمسة أقدام قمة الجدار القاطع الذي يفصل زنزانتنا عن الزنزانة التالية.

هذه هي فرصتي الوحيدة لتفادي الانكشاف. إذا استدار الزميل، سأضيع. وليس بإمكاني الهبوط إلى الأرض دون أن يكشفني، فهو يقف أدناي بمسافة قريبة بحيث يمكن أن أصطدم به.

قال الحارس لزودار صائحًا: «أين الرجل الأبيض؟ إيسوس أمرت بإحضاره». ثم استدار ليرى ما إذا كنت في جزء آخر من الزنزانة.

تسلقت إلى حاجز النافذة الحديدي حتى تمكنت من إيجاد موقع جيد لقدم واحدة على حافة النافذة؛ ثم أفلت قبضتي وقفزت نحو قمة القاطع.

«ما هذا؟»، سمعت الصوت العميق للرجل الأسود عندما أحدث معدني صريرًا باصطدامه بالجدار الحجر وأنا أنزلق من فوقه. ثم هبطت بخفة إلى أرضية الزنزانة المجاورة.

صاح الحارس ثانية: «أين العبد الأبيض؟».

أجاب زودار: «لا أعرف. كان هنا حتى عندما دخلت. أنا لست حارسه .. اذهب لتعثر عليه».

دمدم الرجل الأسود بشيء لم أستطع فهمه، ثم سمعته يفتح باب إحدى الزنازين الأخرى في الجهة المقابلة ويدخلها. استمعت بإمعان، ووصلني صوت الباب وهو يغلقه وراءه. ثم قفزت مرة أخرى إلى قمة القاطع، وهبط في زنزانتي بجوار زودار المندهش.

سألته هامسًا: «أرأيت الآن كيف سنهرب؟».

أجاب: «رأيت كيف يمكنك أنت، لكني لا أعرف كيف يمكنني المرور من هذه الجدران. بالتأكيد لا يمكنني القفز فوقها كما تفعل أنت».

سمعنا الحارس يتحرك من زنزانة إلى زنزانة، وأخيرًا اكتملت جولاته، ومرة أخرى دخل زنزانتنا. برزت عيناه عندما شاهدني.

زأر قائلاً: «باسم صَدَفة جدي الأول! أين كنت؟».

أجبته: «أنا في السجن منذ أن وضعتوني هنا أمس. كنت في هذه الغرفة عندما دخلت. من الأفضل أن تهتم ببصرك».

حدق نحوي بنظرة تمزج بين الغضب والارتياح.

قال: «تعال. أمرت إيسوس بإحضارك».

قادني إلى خارج السجن، تاركًا زودار خلفي. وهناك وجدنا عدة حراس آخرين، ومعهم الشاب المريخي الأحمر الذين كان يشغل زنزانة أخرى في شادور.

تكررت الرحلة التي قطعتها إلى معبد إيسوس في اليوم السابق. أبقانا الحراس، أنا والفتى الأحمر، منفصلين، وبالتالي لم تتوفر لنا أي فرصة لمواصلة الحديث الذي انقطع في الليلة السابقة.

تملكني وجه الشاب. أين رأيته من قبل؟ كان هناك شيء مألوف بشكل غريب في كل خط من خطوطه؛ في طريقة كلامه، وفي إيماءاته. يمكنني أن أقسم أنني أعرفه، ومع ذلك كنت أعرف أيضًا أنني لم أره أبدًا من قبل.

عندما وصلنا إلى حدائق إيسوس، قادونا بعيدًا عن المعبد بدلاً من أن نتوجه إليه. سرنا في طريق يمر خلال الحدائق الساحرة، وصولاً إلى جدار جبار يرتفع مائة قدم في الهواء.

أخرجتنا بوابات ضخمة إلى سهل صغير، محاط بالغابات الرائعة نفسها التي كنت قد رأيتها عند سفح المنحدرات الذهبية.

كانت حشود من السود تتجول في نفس الاتجاه الذي يقودنا إليه حراسنا، واختلط معهم أصدقائي القدامى: رجال النبات والقرود البيضاء الكبيرة.

تحركت الوحوش الشرسة بين الحشد كالكلاب الأليفة. وإذا ظهروا في طريق الرجال السود، يدفعهم السود إلى أحد الجوانب، أو يضربونهم بعنف بسطح السيف، فتتسلل الحيوانات بعيدًا كأنما في خوف عظيم.

وصلنا الآن إلى وجهتنا، مدرج كبير يقع على حافة السهل الأخرى، ويبعد عن أسوار الحديقة بحوالي نصف ميل.

تدفق السود إلى مقاعدهم من خلال بوابة ضخمة مقوسة، بينما قادنا حراسنا إلى مدخل أصغر بالقرب من إحدى نهايتي المبنى.

مررنا من المدخل إلى حظيرة تقع أسفل المقاعد، حيث وجدنا عددًا من السجناء الآخرين مُساقين كالقطيع بقيادة الحراس. كان بعضهم مكبلاً بالحديد، لكن معظمهم بدا مرعوبًا بما يكفي لوجود حراسة للحيلولة دون أي إمكانية لمحاولة الهرب.

لم تتح لي أي فرصة خلال الرحلة من شادور للتحدث مع زميلي السجين، لكننا الآن بأمان داخل حلبة مغلقة، وخفت رقابة الحراس، وبالتالي وجدت نفسي قادرًا على الاقتراب من الفتى المريخي الأحمر الذين شعرت نحوه بجاذبية غريبة.

سألته: «ما هدف هذا التجمع؟ هل سنقاتل من أجل تطهير الأبناء الأوائل، أم هناك ما هو أسوأ؟».

فأجاب: «هذا جزء من طقوس إيسوس الشهرية، حيث يغسل الرجال السود الآثام من نفوسهم في دماء رجال العالم الخارجي. وإذا تصادف وقُتل الرجل الأسود، فهذا دليل على عدم ولائه لإيسوس، وهي خطيئة لا تغتفر. وإذا عاش خلال المسابقة، يتم تبرئته من التهمة التي فرضها حكم الطقوس عليه، كما يسمونها.

تختلف أشكال القتال. قد يتبارى عدد منا معًا ضد عدد متساو من السود أو ضعفه؛ أو يمكن إرسالنا بشكل منفرد لمواجهة الحيوانات المتوحشة، أو أحد المحاربين السود المشهورين».

سألته: «وإذا انتصرنا، ماذا يحدث ... الحرية؟».

ضحك.

«الحرية، بالطبع! الموت هو حريتنا الوحيدة. أي شخص دخل مناطق الآباء الأوائل، لم يغادرها أبدًا. إذا أثبتنا أننا مقاتلين متمكنين، فإنه يُسمح لنا كثيراً بالقتال. وإذا لم نكن مقاتلين أشداء ....»، هز كتفيه، «سنموت عاجلاً أو أجلاً في الحلبة».

سألته: «وأنت، هل قاتلت كثيراً؟».

فأجاب: «كثيراً جدًّا. إنها سعادتي الوحيدة. لقد قتلت بعض مئات من الشياطين السود خلال ما يقرب من عام في طقوس إيسوس. ستفتخر

بي والدتي ستكون إذا عرفت فقط كيف حافظت جيدًا على تقاليد براعة والدي».

قلت: «من المؤكد أن والدك كان محاربًا عظيمًا!، لقد عرفت معظم المحاربين في برسوم في فترة وجودي بها؛ ومما لا شك فيه أنني عرفته. من هو؟».

«والدي هو ....».

ارتفع صوت الحارس الأجش: «تعالا، يا كالوت!، إلى الذبح معك»، ودفعانا بخشونة إلى الانحدار الحاد الذي يؤدي إلى غرفة سفلية تفتح على الحلبة.

كان المدرج، مثل كل شيء رأيته في برسوم، مبنيًّا في تجويف كبير. ولا يوجد فوق مستوى الأرض سوى المقاعد الأعلى، التي شكلت الجدار المنخفض المحيط بالحفرة. والحلبة نفسها كانت تحت سطح الأرض.

وهناك سلسلة من الأقفاص ذات القضبان على مستوى سطح الحلبة توجد مباشرة تحت المستوى الأدنى من المقاعد. اقتادونا كقطيع إلى هذه الأقفاص. لكن صديقي الشاب لم يكن، مع الأسف، من بين أولئك الذين شغلوا القفص معي.

كان عرش إيسوس يقع أمام قفصي مباشرة. هنا تربض المخلوقة البشعة، محاطة بمائة من النساء العبيد اللاتي يتألقن بأغطية مرصعة. وشكلت الأقمشة الرائعة ذات

الألوان المختلفة والأنماط الغريبة، الوسادة الناعمة التي تغطي المنصة التي يتكئون عليها.

في جوانب العرش الأربعة، وأدناه بعدة أقدام، وقفت كوعًا بكوع ثلاثة صفوف متماسكة من العساكر المدججين بالأسلحة. وهناك، في مواجهة العرش، موقع كبار شخصيات هذه السماء الوهمية - أشخاص سود يلمعون بزينة الأحجار الكريمة، وعلى جباههم شارات دائرية من الذهب تحدد رتبهم.

وعلى جانبي العرش، امتدت كتلة صلبة من البشر من أعلى المدرج إلى أسفله. هناك العديد من النساء والرجال، يكتسي كل منهم بعتاد رائع الصُّنع من محل سكنه وبيته. ومع كل شخص أسود، يوجد عدد من العبيد، يتراوح ما بين عبد واحد إلى ثلاثة، ينتمون إلى مناطق الثيرن ومن العالم الخارجي. السود جميعهم «نبلاء». لا يوجد فلاحون بين الأبناء الأوائل. حتى أقل جندي كان إلهًا، وعلى عبيده أن ينتظروه.

لا يمارس الأبناء الأوائل أي عمل. الرجال يقاتلون، وهذا امتياز مقدس وواجب؛ يقاتلون ويموتون من أجل إيسوس. أما النساء فلا يفعلن أي شيء، لا شيء على الإطلاق. تتولى الإماء حمايتهن، وإلباسهن، وإطعامهن. هناك حتى البعض اللاتي لديهن إماءٌ يتحدثن بدلاً منهن، وقد رأيت امرأة جلست أثناء الطقوس وعيناها مغلقتان بينما تروي لها أَمَةٌ الأحداث التي تجري داخل الحلبة.

كانت أول فعاليات اليوم هي تقديم التحية إلى إيسوس؛ وهذه علامة على نهاية هؤلاء البائسين المساكين الذين نظروا إلى المجد الإلهي المقدس منذ عام كامل. كانوا عشر نساء- جمال باهر من الساحات الفخورة للجيداك الأقوياء ومعابد ثيرن المقدسة. لقد خدمن لمدة سنة في حاشية إيسوس؛ واليوم يدفعن حياتهن ثمنًا لهذه الحظوة الإلهية؛ وغدًا تزين أجسادهن موائد موظفي البلاط.

دخل رجل أسود ضخم إلى الحلبة مع الشابات. قام بفحصهن بعناية، تلمس أطرافهن ونكز ضلوعهن. واختار الآن واحدة من بين الفتيات اللاتي قادهن أمام عرش إيسوس. قال بضع كلمات أمام الإلهة، لكنني لم أستطع سماعها. أومأت إيسوس برأسها. رفع الرجل الأسود يديه فوق رأسه رمزًا للتحية، وأمسك الفتاة من رسغها، وجرها من الحلبة خلال مدخل صغير تحت العرش.

قال سجين بجواري: «إيسوس ستتناول طعامًا جيدًا الليلة».

سألته: «ماذا تقصد؟».

«كان هذا عشاءها الذي أخذه ثابيس العجوز إلى المطابخ. ألم تلحظ كيف اختار بعناية أكثرهن نعومة وامتلاء؟».

زمجرت بلعناتي على الوحش الجالس أمامي على العرش الفاخر.

نصحني رفيقي: «لا تستشيط غضبًا؛ سوف تشاهد أسوأ من ذلك بكثير إذا عشت ولو شهر واحد بين الأبناء الأوائل».

التفتُّ مرة أخرى في الوقت المناسب لأرى بوابة قفص قريب ملقاة مفتوحة وثلاثة من القرود البيض المتوحشين ينطلقون إلى الحلبة. انكمشت الفتيات متجمعات بخوف في وسط الحظيرة.

جثت إحداهن على ركبتيها ومدت يديها في توسل تجاه إيسوس؛ لكن الإلهة البشعة لم تفعل سوى أن انحنت مزيدًا إلى الأمام في توقع متحمس للترفيه القادم. تطلعت القرود مطولاً إلى الزمرة المرتعبة من بنات مكروبات، ثم هجمت عليهن وهي تُصدر صرخات شيطانية من الجنون الوحشي.

تدفقت داخلي موجه غضب مجنون. إنها مخلوقة جبانة قاسية أسكرتها السلطة، هي التي يتصور عقلها الخبيث تلك الأشكال المخيفة للتعذيب التي أثارت استيائي ورجولتي. وطافت أمام عيني غيمة الدماء الحمراء التي تنذر بالموت لأعدائي.

استرخى الحارس أمام البوابة خالية القضبان للقفص الذي يحتجزني. ما الحاجة إلى قضبان لمنع هؤلاء الضحايا المساكين من الاندفاع إلى الحلبة التي حددها أمر الإلهة كمكان للموت!

بضربة واحدة، أوقعت الحارس الأسود فاقد الوعي على الأرض. انتزعت سيفه الطويل، وقفزت إلى الحلبة. كانت القرود تنقض على الفتيات، لكن عضلاتي القوية كبشري من كوكب الأرض لم تتطلب سوى قفزتين هائلتين لأصل إلى وسط الأرضية المكسية بالرمل.

سادت لحظة صمت في المدرج الكبير، ثم ارتفع صراخ جامح من أقفاص المحكوم عليهم بالموت. طاف سيفي الطويل محلقًا في الهواء وهو يجلجل، فسقط قرد ممددًا مقطوع الرأس تحت أقدام الفتيات اللاتي أصبن بإغماء.

تحولت القرود الأخرى نحوي الآن، وعندما وقفت في مواجهتهم، واستجاب هدير الجمهور الغاضب للهتافات الجامحة الصادرة من داخل الأقفاص. رأيت من طرف عيني

مجموعة من الحراس تندفع عبر الرمال اللامعة في اتجاهي؛ ثم اندفع شخص من أحد الأقفاص ورائي. كان الشاب الذي سحرتني شخصيته.

توقف للحظة أمام الأقفاص، مع سيف مرفوع.

صاح: «هيا يا رجال العالم الخارجي! فلنجعل من موتنا قيمة، هيا وراء هذا المحارب غير المعروف لنحول ذكرى يوم تحية إيسوس إلى انتقام وحشي يتردد صداه عبر العصور ويؤدي إلى شحوب بشرة الرجال السود كلما يكررون طقوس إيسوس. هيا! توجد خارج أقفاصكم رفوف مملوءة بالسيوف».

ودون أن ينتظر معرفة نتائج دعوته، استدار وقفز نحوي. ارتفعت من كل قفص يضم الرجال الحمر صيحات مدوية استجابة لدعوته. سقط الحراس الداخليون تحت الحشود العاصفة، وانطلق نزلاء الأقفاص متحمسين بشهوة القتل.

تولى السجناء تجريد الرفوف الخارجية من السيوف، وتسلحوا بها لخوض معاركهم، وأسرع سرب من المحاربين عاقدي العزم إلى دعمنا.

سقطت أمام سيفي القرود الكبيرة، بطولها الشاهق الذي يصل إلى خمسة عشر قدمًا، بينما كان الحراس المسؤولون لا يزالون على مسافة بعيدة. طاردهم الشاب مقتربًا منهم. وقفت الفتيات الشابات خلف ظهري؛ ونظرًا لأنني كنت أقاتل من أجلهن، بقيت واقفًا لملاقاة موتي المحتوم، ولكن مع تصميمي على إعلاء قيمتي التي سيتذكرونها طويلاً في مناطق الأبناء الأوائل.

لاحظت سرعة الشاب الأحمر المدهشة وهو يطارد الحراس. لم أشهد أبدًا مثل هذه السرعة لدى أي مريخي. كانت قفزاته ووثباته أقصر قليلاً من تلك التي أنتجتها عضلاتي كبشري من كوكب الأرض، ومنحتني هيبة واحترامًا عند المريخيين الخُضر الذين وقعت بين أيديهم في ذلك اليوم البعيد الذي شهد أول خطواتي على المريخ.

لم يكن الحراس قد وصلوا عندي بعد، عندما انقض عليهم من الخلف. وقد دفعتهم من جانبي، بعد أن استداروا متصورين من ضراوة الهجوم أن أكثر من عشرة كانوا يهاجمونهم.

وخلال القتال السريع الذي أعقب ذلك، لم تكن هناك فرصة لملاحظة أي شيء آخر غير تحركات خصومي الفوريين؛ والآن ألقيت لمحة خاطفة أخرى إلى الشخص ذي العضلات الصلبة الذي ينطلق بخفة بصليل سيفه، وملأ قلبي بحنين غريب وفخر عظيم غير قابل للتفسير.

ظهرت ابتسامة قاتمة على وجه الفتى الوسيم، متحديًا في تهكم أحيانًا الأعداء الذين يواجههم. كان في هذا وغيره من طريقته في القتال مماثلاً لتلك التي ميزتني دائمًا في ميدان المعركة.

ربما هذا التشابه المبهم هو ما جعلني أحب الفتى، بينما ملأت روحي الفوضى الفظيعة التي أوقعها سيفه بين السود باحترام هائل له.

ومن جانبي، كنت أقاتل كما قاتلت ألف مرة من قبل: أتجنب الآن طعنة شريرة، وأخطو الآن بسرعة لأتيح لرأس سيفي أن يشرب من أعماق قلب أحد خصومي، قبل أن أدفنها في حلق رفيقه.

كان وقتًا مرحًا لكلينا، عندما صدرت الأوامر إلى مجموعة كبيرة من حرس إيسوس الخاص بالدخول إلى الحلبة. اندفعوا يطلقون صيحات عنيفة، بينما تدفق عليهم السجناء المسلحون من كل جانب.

لمدة نصف ساعة بدا كأنما انفتح الجحيم كله على مصراعيه. قاتلنا ككتلة واحدة لا تنفصم داخل حدود أسوار الحلبة - شياطين ملطخة بالدماء، تعوي وتلعن؛ وسيف الشاب الأحمر يومض دائمًا بجانبي.

نجحت ببطء وأوامر متكررة، في جذب السجناء إلى تشكيل غير منظم حولنا، بحيث أصبحنا نقاتل أخيراً على شكل دائرة عنيفة تقع في مركزها الفتيات المحكوم عليهن بالموت.

سقط كثيرون على الجانبين، لكن الخسائر الأكبر لا تزال حتى الآن في صفوف حراس إيسوس. رأيت مبعوثون يركضون بسرعة خلال الحضور، وعند مرورهم يستل النبلاء سيوفهم وينطلقون إلى الحلبة. كانوا يريدون إبادتنا بقوة عددهم، هذه هي خطتهم التي اتضحت بجلاء.

لمحت إيسوس متكئة إلى الأمام على عرشها، وقد تشوهت ملامحها البشعة في تكشيرة مروعة من الكراهية والغضب، وأعتقد أنني تمكنت من أن أميز فيها تعبيراً عن الخوف. وهذا الوجه هو ما أوحى لي بما يجب أن أقوم به.

وبسرعة أمرت خمسين سجينًا بالتراجع خلفنا وتشكيل دائرة جديدة حول الفتيات.

أصدرت أمرًا: «ابقوا لحمايتهن حتى أعود».

ثم تحولت إلى المجموعة التي تُشكل الخط الخارجي، وقلت صائحًا: «لتسقط إيسوس! اتبعوني إلى العرش؛ سوف نجني الانتقام حيث يُستَحق الانتقام».

كان الشاب بجانبي هو أول من هتف صائحًا: «لتسقط إيسوس!»، ثم ارتفع من خلفي ومن جميع الجوانب صياح أجش «إلى العرش! إلى العرش!»

تحركنا كرجل واحد، كتلة قتالية ساحقة، فوق أجساد الخصوم الموتى والمحتضرين تجاه العرش الرائع للإلهة المريخية. تدفقت جحافل مقاتلي الأبناء الأوائل البواسل من بين الجمهور للتحقق من التقدم الذي أحرزناه. نحيناهم جانبًا من أمامنا؛ لأنهم كانوا رجالًا من ورق.

«فليذهب بعضكم إلى المقاعد!»، صحت مع اقترابنا لجدار الحلبة الحاجز. «يمكن أن يستولى عشرة منا على العرش»، فقد رأيت أن الجزء الأكبر من حراس إيسوس قد دخلوا في معمعة الحلبة.

انقسم السجناء بجانبي يمينًا ويسارًا نحو المقاعد، يقفزون فوق الجدار المنخفض بسيوف نازفة تشتهي الضحايا المحتشدين الذي ينتظروهم.

وفي لحظة أخرى امتلأ المدرج كله بصرخات سكرات الموت والجِراح، التي اختلطت بأصوات تصادم الأسلحة وصيحات المنتصرين المظفرة.

جنبًا إلى جنب، شققنا أنا والشاب الأحمر ومعنا ربما أكثر من عشرة آخرين، طريقنا بالقتال إلى أسفل العرش. كان الحراس الباقون، الذين انضم إليهم كبار الشخصيات والنبلاء من الأبناء الأوائل، يسدون الطريق بيننا وبين إيسوس التي جلست متكئة إلى الأمام على مقعدها من خشب السورابوس المنحوت، وتُصدر الأوامر بصوت عالي النبرة لأتباعها وتصب لعنات مدمرة على هؤلاء الذين يسعون إلى تدنيس ألوهيتها.

اتسعت مرتعدة أعين الإماء الخائفات حولها، لا يعرفن هل يُصلين لنصرنا أم هزيمتنا. انتزعت الكثيرات، وهن بنات فخورات دون شك لبعض محاربين برسوم النبلاء، السيوف من أيدي حراس إيسوس الذين سقطوا ويسقطون، لكنهن سرعان ما سقطن قتلى؛ شهيدات مجيدات لقضية يائسة.

حارب الرجال معنا جيدًا. لم يحدث أبدًا -منذ أن قاتلنا أنا وتارس تاركاس بعد ظهر ذلك اليوم الحار من فترة طويل كتفًا إلى كتف ضد جحافل وارهون في قاع البحر الميت أمام ثارك- أن رأيت رجلين يقاتلان من أجل هدف نبيل وبهذه الوحشية التي لا تُقهر، كما قاتلت أنا والشاب الأحمر في ذلك اليوم أمام عرش إيسوس، إلهة الموت والحياة الأبدية.

سقط أمام سيوفنا الرجال الذين وقفوا بيننا وبين مقاعد خشب السورابوس المنحوت. تدفق آخرون لسد الفجوة، لكننا تقدمنا بوصة ببوصة وخطوة بخطوة، واقتربنا تدريجيًّا من هدفنا.

ارتفعت الآن صرخة من قسم قريب من المدرجات - «انهضن يا عبيد!»، «انهضن يا إماء!»- ارتفعت وانخفضت الصرخة إلى أن تضخمت متحولة إلى صوت قوي جهير اجتاح المدرج بالكامل في موجات هائلة.

للحظة، وكأنما بموافقة مشتركة، أوقفنا قتالنا للبحث عن معنى هذه الرسالة الجديدة التي لم يستغرق الأمر سوى لحظة لترجمة دلالتها. انطلقت الإماء، في جميع أجزاء المبنى، في هجوم على أسيادهن بأي سلاح يصل أولاً إلى أياديهن. لوحت عبدة جميلة بخنجر انتزعته من أربطة عتاد سيدتها، بعد أن تحول نصله اللامع إلى اللون القرمزي لدماء مالكته؛ واقتلعت نساء أخريات السيوف من جثث القتلى حولهن؛ واستخدمت بعضهن الحلي الثقيلة التي يمكن تحويلها إلى هراوات- هذه هي الأدوات التي شفت بها النساء الجميلات غليلهن في انتقامهن المكبوت طويلاً والذي يمكن في أحسن الأحوال أن يعوضهن، وإن يكن جزئيًّا، عن الفظائع والإهانات التي لا توصف التي تعرضن لها من جانب أسيادهن السود. واستخدمت الفتيات اللاتي لم يستطعن إيجاد أي أسلحة أخرى، أصابعهن القوية وأسنانهن اللامعة.

كان مشهدًا يجعل المرء يرتجف ويهتف؛ ثم اشتبكنا بعد برهة قصيرة في معركتنا ثانية مع صيحة المعركة العطشى التي أطلقتها النساء لتذكيرنا بأنهن ما زلن يقاتلن – «انهضن يا إماء!» «انهضن يا إماء!».

لا يقف بيننا وبين إيسوس الآن سوى صف واحد ضئيل من الرجال. اصطبغ وجهها باللون الأزرق رعبًا. تساقط الزبد من شفتيها. بدت كأنما أصابها الخوف بشلل يمنعها من الحركة. أنا والشاب فقط نحارب الآن. سقط الآخرون جميعًا، وكنت على وشك أن أسقط أيضًا من طعنة سيف طويل بغيضة، إن لم تمتد يد من وراء خصمي وتمسك بكوعه عندما كاد النصل يسقط فوقي. قفز الشخص إلى جانبي، وأغمد سيفه في ذلك الزميل قبل أن يتمكن من التعافي وتوجيه ضربة أخرى.

كان يجب أن أموت حتى حينذاك، فسيفي كان مثبتًا في عظمة صدر داتور من الأبناء الأوائل. وعندما سقطت الرجل، انتزعت سيفه ونظرت من فوق جسده الممدد إلى عيني الشخص الذي أنقذتني سرعة يده من أول طعنه من سيفه- كانت فايدور، ابنة ماتاي شانج.

صاحت: «اهرب يا أميري!، لا جدوى من الاستمرار في قتالهم. كلهم موتى في الحلبة. كل من هاجموا العرش ماتوا إلا أنت وهذا الشباب. لم يبق بين المقاعد هناك سوى القليل من رجالك المقاتلين، وسرعان ما سيُقتلون هم والإماء. استمع! بالكاد ما يمكنك أن تسمع صيحة المعركة من النساء الآن، فكلهن تقريبًا موتى. وأمام كل واحد منكم يوجد عشرة آلاف رجل أسود في مناطق الأبناء الأوائل. شق طريقك نحو العراء وبحر كوراس. يمكنك بذراع سيفك الجبار أن تنجح في الوصول إلى المنحدرات الذهبية وحدائق معابد الثيرن المقدسين. وهناك أخبر ماتاي شانج، والدي، بقصتك. سيحافظ عليك، ويمكنكما معًا إيجاد طريقة لإنقاذي. اهرب حيث لا تزال هناك فرصة ضئيلة للهرب».

لكن هذه لم تكن مهمتي، كما لا أرى ما يمكن أن أفضله في ضيافة الثيرن المقدسين القساة على الأبناء الأوائل.

هتفت «فلتسقط إيسوس!»، وانطلقت مع الصبي للقتال مرة أخرى. سقط اثنان من السود بسيوفنا، ووقفنا وجهًا لوجه مع إيسوس. وما إن ارتفع سيفي لإنهاء حياتها البغيضة، حتى غادرها الشلل، وبصرخة تثقب الأذن استدارت لتهرب. انفتحت خلفها مباشرة هوة سوداء فجأة في أرضية المنصة. وانطلقت نحو الفتحة، وأنا والشباب في أعقابها. احتشد حراسها المتناثرون عند سماع صرختها، وهرعوا نحونا. سقطت ضربة على رأس الشاب. ترنح وكاد أن يسقط، لكنني أمسكته بذراعي الأيسر، واستدرت لمواجهة الغوغاء الغاضبين من المتعصبين الدينيين الذين مسهم جنون من إهانتي لإلاهتهم، وفي الوقت نفسه اختفت إيسوس تمامًا في الأعماق السوداء أسفلنا.

* * *

(12)

الحكم بالإعدام

وقفت للحظة قبل أن ينقضوا عليَّ، لكن هجمتهم الأولى أجبرتني إلى التراجع للوراء خطوة أو خطوتين. تحسست الأرضية بقدمي، لكنني لم أعثر إلا على مساحة فارغة. لقد تراجعت إلى الهوة التي استقبلت إيسوس. ولثانية انقلبت من فوق الحافة، وتأرجحت للخلف، والصبي لا يزال متشبثًا بذراعي بإحكام ونحن نسقط إلى الهاوية السوداء.

ارتطمنا بمنحدر مصقول، وانغلقت الفتحة فوقنا بشكل سحري، كما حدث عندما انفتحت؛ وسقطنا، دون أن نُصاب بأذى، إلى شقة خافتة الإضاءة أدنى كثيراً من الحلبة.

كان أول شيء رأيته عندما وقفت هو وجه إيسوس الخبيث يحملق في وجهي من خلال قضبان الباب الحديدي الضخمة في أحد جوانب الغرفة.

قالت بصوت جهوري: «بشري مجازف! ستنال عقوبة فظيعة على كفرك في هذه الزنزانة السرية. سترقد هنا وحدك في الظلام بجانب جثة شريكك، تتقيحان في عفونتها، حتى تصلان إلى الجنون من الوحدة والجوع، فتأكلان الديدان الزاحفة التي كانت رجالاً في يوم ما».

هذا كل ما قالته ثم ذهبت، وشحب الضوء الخافت الذي كان يملأ الزنزانة متحولاً إلى سواد دامس.

قال صوت بجواري: «سيدة عجوز لطيفة».

سألت: «من الذي يتحدث؟».

«إنه أنا، رفيقك، الذي نال شرف القتال اليوم كتفًا إلى كتف أعظم محارب على الإطلاق ارتدى معدنًا في برسوم».

قلت: «أشكر الرب أنك لم تمت. خشيت من تلك الطعنة الشريرة على رأسك».

أجاب: «إنما أدارت رأسي فقط، مجرد خدش».

قلت: «ربما كانت كذلك. يبدو أننا في ورطة شديدة هنا، لدينا فرصة رائعة للموت من الجوع والعطش».

«أين نحن؟».

أجبت: «تحت الحلبة. فقد هوينا أسفل البئر الذي ابتلع إيسوس عندما كانت تقريبًا تحت رحمتنا».

ضحك ضحكة سرور وارتياح منخفضة، ثم مد يده عبر السواد الحبري وصولاً إلى كتفي، وسحب أذني بالقرب من فمه.

همس قائلاً: «لا يوجد أفضل من ذلك. هناك أسرار داخل أسرار إيسوس، لا تحلم بها إيسوس».

«ماذا تقصد؟».

«لقد اشتغلت مع العبيد الآخرين منذ عام في تجديد هذه الدهاليز تحت الأرضية، ووجدنا حينذاك أسفلها نظامًا قديمًا من الممرات والغرف ظلت مغلقة لعصور. استكشفها السود المسؤولون عن العمل، وأخذوا العديد منا للقيام بأي عمل قد يكون مطلوبًا. وأنا أعرف النظام بأكمله تمامًا.

هناك أميال من الممرات تشبه خلية النحل أسفل الحدائق والمعبد نفسه، وهناك ممر واحد يؤدي إلى أسفل ويرتبط بالمناطق السفلية التي تفتح على بئر الماء الذي يُعد ممرًّا إلى أوميان.

إذا أمكننا الوصل إلى الغواصة دون انكشاف، يمكننا عندئذ الوصول إلى البحر حيث توجد العديد من الجزر التي لا يذهب السود إليها أبدًا. وهناك يمكننا أن نعيش لفترة، ومن يدري ما قد يحدث لمساعدتنا على الهرب؟».

كان حديثه كله بهمس منخفض، خوفًا من آذان التجسس حتى هنا؛ وبالتالي أجبته بنفس النبرة الخافتة.

همست: «قدنا إلى شادور يا صديقي. هناك زودار، الرجل الأسود. كنا سنحاول الهرب معًا، ولذا لا يمكنني أن أتخلى عنه».

قال الصبي: «كلا، لا يمكن أن يتخلى المرء عن صديقه. فالقبض علينا أفضل من ترك صديق».

بدأ يتلمس طريقه حول أرضية الغرفة المظلمة بحثًا عن الكمين الذي يؤدي إلى الممرات السفلية. وبعد فترة طويلة، ناداني بصوت خفيض «سـ..سـ..تـ»، فزحفت نحو صوته لأجده راكعًا على حافة فتحه في الأرضية.

همس: «يوجد مهبط هنا لحوالي عشرة أقدام. تعلق بيديك وسوف يمكنك النزول بأمان إلى طابق أدنى من الرمال الناعمة».

أنزلت نفسي بهدوء شديد من الزنزانة العلوية حبرية السواد إلى الحفرة حبرية السواد أدناه. كانت مظلمة تمامًا بحيث لم نتمكن حتى من رؤية

أيدينا على بُعد شبر واحد من أنوفنا. لم أتصور أبدًا وجود مثل هذا الغياب الكامل للضوء كما كان في حفرة إيسوس.

ظللت للحظة معلقًا في الهواء. هناك إحساس غريب يرتبط بتجربة من هذا النوع يصعب تمامًا وصفه. عندما تتدلى الأقدام في الهواء الفارغ، والمسافة أدناه يكتنفها الظلام، هناك شعور أشبه بحالة من الذعر من فكرة إفلات القبضة والغوص في أعماق مجهولة.

على الرغم من أن الصبي أخبرني أن المسافة إلى الأرضية أدناه تبلغ عشرة أقدام، فقد خضت تجربة مثيرة كـأنما كنت متدليًا فوق حفرة بلا قاع؛ ثم أفلت قبضتي وهبطت لمسافة أربعة أقدام إلى وسادة لينة من الرمال.

تبعني الصبي.

قال: «ارفعني على كتفيك، وأنا سوف أعيد الكمين إلى مكانه».

وبعد ذلك أمسك بيدي وقادني ببطء شديد، وهو يتحسس حوله كثيراً ومع وقفات متكررة؛ ليؤكد لنفسه أنه لم يدخل دهاليز خاطئة.

بدأنا الآن هبوط منحدر حاد.

قال: «لن يطول الوقت قبل أن نرى الضوء. تضم المستويات المختلفة نفس الطبقة الصخور الفسفورية التي تُضيء أوميان».

لن أنس أبدًا تلك الرحلة خلال حُفر إيسوس. فعلى الرغم من خلوها من أي أحداث مهمة، فقد امتلأت بسحر غريب من الإثارة والمغامرة الذي أعتقد أنه كان يرتبط أساسًا بمدى القِدم الذي لا يمكن تخليه لهذه الممرات التي طواها النسيان منذ عصور

طوال. فالأشياء التي أخفاها الظلام الجهنمي عن عيني لا يمكن أن تصل إلى نصف روعة الصور التي صنعتها مخيلتي عندما تستحضر حياة شعوب هذا العالم المحتضر القديمة، وتُحييها مرة أخرى: الدسائس، والأسرار، والقسوة التي مارسوها في وقفتهم الأخيرة ضد الجحافل المحتشدة من قيعان البحر الميت التي دفعتهم خطوة بخطوة إلى أقصى ذروة العالم حيث يتحصنون الآن خلف حاجز منيع من الخرافات.

علاوة على الرجال الخُضر، هناك ثلاثة أعراق رئيسة في برسوم: السود، والبيض، وعِرق الرجال الصُفر. عندما جفت مياه الكوكب وانحسرت البحار، تضاءلت جميع الموارد الأخرى حتى أصبحت الحياة على هذا الكوكب معركة مستمرة للبقاء.

ظلت الأعراق المختلفة تحارب بعضها بعضًا لعصور، وتفوقت الأنواع الثلاثة الأعلى بسهولة على المتوحشين الخُضر في الأماكن المائية بهذا العالم. أما الآن، وقد تطلب انحسار البحار رحيلهم المستمر من مدنهم الحصينة، وفرض عليهم بشكل أو آخر حياة بدوية انفصلوا خلالها إلى مجتمعات أصغر، سرعان ما وقعوا فريسة لجحافل الرجال الخُضر الشرسة. والنتيجة هي دمج جزئي للسود والبيض والصُّفر، مما أسفر عن إنتاج ما يظهر الآن في عِرق الرجال الحُمر الرائع.

كنت أفترض دائمًا أن آثار الأعراق الأصلية قد اختفت تمامًا من على وجه المريخ، لكني وجدت خلال الأيام الأربعة الماضية جموعًا غفيرة من البيض والسود. هل لا تزال بعض الأركان البعيدة بالكوكب تضم بقايا لعرق الرجال الصُّفر القديم؟

أفاقني صياح خافت للصبي من تأملاتي.

صاح: «أخيرًا، الطريق المضاء». نظرت إلى أعلى ورأيت بريقًا خافتًا على مسافة بعيدة أمامنا.

كان الضوء يتزايد مع تقدمنا، إلى أن خرجنا الآن إلى دهاليز جيدة الإضاءة. تسارع تقدمنا إلى أن وصلنا فجأة إلى نهاية ممر يفتح مباشرة عند الحافة المحيطة بحوض الغواصة.

كانت المركَبة تقف عند مرساتها، وبابها دون غطاء. رفع الفتى إصبعه على شفتيه ثم نقر على سيفه بطريقة دالة، وتسلل تجاه السفينة دون صوت. وكنت في أعقابه.

نزلنا بصمت على سطحها المهجور، وزحفنا على أيدينا وركبنا نحو بابها. كشفت لمحة خفية إلى أسفل عن عدم وجود حراس على مرمى البصر؛ بالتالي، وبأسرع حركة

دون صوت كالقطط، هبطنا معًا إلى المقصورة الرئيسة للغواصة. وحتى هنا لا توجد أي علامة على الحياة. وبسرعة أغلقنا فتحة الباب بإحكام.

صعد الصبي إلى حجرة القيادة، ولمس زرًّا؛ فغاصت السفينة وسط دوامات المياه متجهة نحو قاع البئر. وحتى ذلك الحين لم نسمع هرولة أقدام كما كنا نتوقع. وبينما ظل الصبي يوجه السفينة، تسللت من مقصورة إلى أخرى في بحث عقيم عن بعض أفراد الطاقم. السفينة

مهجورة تمامًا؛ يا له من حسن حظ يكاد لا يُصدَّق.

عندما عدت إلى غرفة القيادة لإبلاغ الأخبار الجيدة إلى رفيقي، سلمني ورقة.

وقال: «هذا قد يفسر غياب أفراد الطاقم».

كانت رسالة لاسلكية إلى قائد الغواصة:

«لقد تحرك العبيد. تعال مع ما لديك من رجال ومن يمكنك جمعهم في الطريق. فات أوان الحصول على مساعدات من أوميان. إنهم يذبحون الجميع داخل المدرج. إيسوس مهددة. أسرع.

زيثاد».

أوضح الشاب: «زيثاد هو داتور حراس إيسوس. لقد أدخلنا إليهم ذعرًا، لن ينسوه سريعًا».

قلت: «دعنا نأمل أن هذه ليست سوى بداية نهاية إيسوس».

أجاب: «لا أحد يعرف سوى جدنا الأول».

وصلنا إلى حوض الغواصة في أوميان دون وقوع أي حادث. وهنا ناقشنا مدى حصافة فكرة إغراق السفينة قبل مغادرتها، لكننا قررنا أخيراً أن إغراقها لن يضيف شيئًا إلى فرص هروبنا. هناك الكثير من السود في أوميان يمكنهم إحباط خططنا إذا قبضوا علينا؛ على أنه قدوم المزيد من معابد وحدائق إيسوس لن يُقلص بأي حال من فرصنا.

كنا الآن في مأزق بشأن كيفية تجنب الحراس الذين يقومون بدوريات في الجزيرة حول الحوض. وفي النهاية توصلت إلى خطة.

سألت الصبي: «ما اسم أو لقب الموظف المسؤول عن هؤلاء الحراس؟».

فأجاب: «زميل يُدعى توريث، كان في الخدمة عندما دخلنا هذا الصباح».

«جيدة. وما اسم قائد الغواصة؟».

«يرستد».

وجدت ورقة فارغة مخصصة للرسائل في المقصورة، فكتبت الأمر التالي:

«داتور توريث: أعد هذين العبدين إلى شادور على الفور.

يرستد»

قلت: «هذه أبسط طريقة للعودة»، وابتسمت وأنا أسلم الأمر المزور للصبي. «تعال، سنرى الآن مدى نجاحها».

استفهم قائلاً: «لكن سيوفنا! ماذا سنقول لنشرح وجودهم معنا؟».

أجبته: «نظرًا لأننا لا نستطيع تفسير وجودهم، يتعين علينا أن نتركهم خلفنا».

«أليس من أقصى التهور أن نضع أنفسنا مرة أخرى، غير مسلحين، في قبضة الأبناء الأوائل؟».

أجبت: «إنها الطريقة الوحيدة. ثق أنني سأجد وسيلة للخروج من سجن شادور، وأعتقد أننا بمجرد خروجنا لن نجد صعوبة كبيرة في تسليح أنفسنا مرة أخرى في هذا البلد الذي يزخر بهذا القدر الوفير من الرجال المسلحين».

«كما تقول»، أجاب بابتسامة وهز كتفيه، «لا أثق في أتباع زعيم ملهم آخر أكثر منك. تعال، فلنختبر حيلتك».

خرجنا بجرأة من كوة باب المركبة المسحور، تاركين سيوفنا وراءنا. وخطونا إلى المخرج الرئيس الذي يقود إلى موقع المخفر ومكتب داتور الحراس.

على مرأى منا، انطلق أفراد الحرس إلى الأمام متفاجئين، وأوقفتنا بنادقهم المصوبة ضدنا. سلمت الرسالة لواحد منهم. أخذها وعندما رأى لمن هي موجهة، استدار وسلمها إلى توريث الذي كان خارجًا من مكتبة لمعرفة سبب الفوضى.

قرأ الأسود الأمر، وللحظة نظر إلينا بارتياب واضح.

تساءل: «أين داتور يرستد؟»، غاص قلبي داخلي، كما لعنت نفسي لحماقتي في عدم إغراق الغواصة حتى يبدو كذبي معقولاً.

قلت: «كانت أوامره أن نعود فورًا إلى أرض المعبد».

أخذ توريث نصف خطوة باتجاه مدخل الحوض كأنما ليتأكد من قصتي. في تلك اللحظة كان كل شيء معلقًا في الميزان، فإذا كان قد فعل ذلك وعثر على الغواصة الفارغة لا تزال راسية عند الرصيف الميناء، لتهاوت فوق رؤوسنا تلك البنية الضعيفة لتدبيري؛ ولكن من الواضح أنه قرر أن الرسالة حقيقية، فما من سبب وجيه للشك فيها حيث، إذ كيف يقدم اثنان من العبيد نفسيهما طوعًا للحبس بمثل هذه الطريقة. لقد كانت جرأة الخطة هي ما أنجحها.

توجه إلينا توريث بسؤال: «هل كنتما على علاقة بثورة العبيد؟ لم

تصلنا سوى تقارير هزيلة عن هذا الحدث».

أجبته: «الجميع كان منخرطًا. لكنها لم تحقق الكثير. تغلب الحراس بسرعة وقتل غالبيتنا».

بدا راضيًا عن هذا الرد. والتفت إلى أحد مرؤوسيه آمرًا: «خذهما إلى شادور». دخلنا سفينة صغيرة راسية بجوار الجزيرة، وخلال بضع دقائق كنا نترجل من المركبة إلى شادور. عدنا إلى زنازيننا؛ أنا مع زودار والصبي بمفرده؛ وخلف الأبواب المغلقة أصبحنا مرة أخرى سجناء لدى الأبناء الأوائل.

* * *

(13)

فرصة الحرية

استمع زودار في دهشة متشككة لسردي للأحداث التي جرت داخل الحلبة في طقوس إيسوس. وعلى الرغم من إعلانه سابقًا شكه في أن إيسوس إلهة، فبالكاد ما أمكنه إدراك أن يهددها أحد بسيف في يده دون أن ينفجر إلى ألف شظية من غضبة عقابها الإلهي.

قال: «هذا هو البرهان النهائي أخيراً. ما من حاجة إلى المزيد لتتحطم تمامًا بقايا معتقداتي الخرافية السابقة في إلوهية إيسوس. إنها ليست سوى امرأة عجوز شريرة، تستخدم ببراعة سلطة شريرة قوية بالمكائد التي أبقت شعبها وكل برسوم في جهل ديني لعصور».

أجبته: «لكنها لا تزال هنا بكل قوة. ولذا علينا أن نغادر عند أول لحظة تبدو مواتية».

قال ضاحكًا: «آمل أن تجد لحظة مواتية، فمن المؤكد أنني في كل حياتي لم أشهد أبدًا سجينًا لدى الأبناء الأوائل تمكن من الهرب».

أجبته: «سنفعل هذا الليلة».

قال زودار: «سيحل الليل قريبًا. كيف يمكنني المساعدة في المغامرة؟».

سألته: «هل يمكنك السباحة؟».

فأجاب: «لا يوجد سيليان غروي يتردد كثيراً على أعماق كوراس، ويألف المياه، أكثر من زودار».

قلت: «جيد. من الأرجح أن الفتى الأحمر لا يمكنه السباحة، نظرًا لعدم وجود ما يكفي من المياه في كافة مناطقهم لتطفو عليها أصغر سفينة. ولذا سيكون على أحدنا دعمه خلال البحر إلى أن نصل للسفينة التي نختارها. كنت أتمنى أن نقطع المسافة بأكملها تحت السطح، لكنني أخشى أن الشاب الأحمر يتعذر عليه تنفيذ تلك الرحلة. فحتى أشجع شجعانهم يفزعون من مجرد التفكير في المياه العميقة، فلم يشهد أسلافهم بحيرة أو نهرًا أو بحرًا منذ عصور».

تساءل زودار: «هل سيرافقنا الفتى الأحمر؟»

«نعم».

«هذا جيد. ثلاثة سيوف أفضل من سيفين. وخاصة عندما يكون الثالث قويًّا كهذا الزميل. لقد رأيته يقاتل في الحلبة خلال طقوس إيسوس مرات عديدة. ولم أشهد أبدًا محاربًا مثله، يبدو أنه لا يُقهر حتى في مواجهة صعاب كبيرة، إلى أن رأيتك. يمكن للمرء أن يتصور أنكما المعلم وتلميذه، أو الأب وابنه. تذكّر وجهه، هناك تشابه بينكما. وهو ملحوظ جدًّا عند القتال- نفس الابتسامة المتجهمة ونفس الازدراء الغاضب تجاه خصمك يبدو واضحًا في كل حركة من أجسامكما وفي كل تعبير يتغير في وجهيكما».

«أيًّا ما كان، زودار، إنه مقاتل عظيم. أعتقد أننا نشكل ثلاثيًّا يصعب التغلب عليه. وإذا كان صديقي تارس تاركاس، جيداك ثارك، واحدًا منا، كان يمكننا أن نشق طريقنا من أحد أطراف برسوم إلى الطرف الآخر حتى لو كان العالم كله ضدنا».

قال زودار: «سوف يكون، عندما يعرفون من أين أتيت. هذه ليست سوى إحدى الخرافات التي دستها إيسوس على البشرية الساذجة. وهي تنجح من خلال الثيرن المقدسين الذين يجهلون ذاتها الحقيقية، مثلهم مثل البرسوميين في العالم الخارجي. إنها ترسل أوامرها إلى الثيرن مكتوبة بالدم على مخطوطة غريبة. ويعتقد الحمقى المساكين المخدوعين أنهم يتلقون وحي إلهة عبر قوى خارقة للطبيعة، فنهم يجدون هذه الرسائل فوق هياكل معابدهم المحروسة التي لا يمكن أن يصل إليها أحد دون كشفه. وأنا شخصيًّا قد حملت رسائل إيسوس هذه لسنوات عديدة. هناك نفق طويل من معبد إيسوس إلى المعبد الرئيس لماتاي شانج. لقد حفره منذ زمن بعيد عبيد الأبناء الأوائل في سرية مطلقة بحيث لم يخمن أي ثيرني أبدًا وجوده».

«والثيرن من جانبهم، لديهم معابد منتشرة حول العالم المتحضر بأسره. ويتناقل الكهنة هنا، الذين لا يراهم الناس أبدًا، تعاليم نهر إيس الغامض ووادي دور وبحر كوراس المفقود لإقناع المخلوقات المسكينة المخدوعة باتخاذ الحج الطوعي الذي يُضخم ثروات الثيرن المقدسين، ويُزيد أعداد عبيدهم».

«وهكذا يتم استخدام الثيرن كوسيلة رئيسة لجمع الثروة والعمالة التي ينتزعها منهم الأبناء الأوائل عندما يحتاجون إليها. وأحيانًا يشن الأبناء

الأوائل أنفسهم غارات على العالم الخارجي. وعندئذ يأسرون العديد من نساء بيوت الرجال الحُمر الملكية، ويأخذون أحدث السفن الفضائية الحربية والصُناع المهرة المدربين الذين يبنوها، بحيث يمكنهم محاكاة ما لا يمكنهم إنشاءه».

«نحن عِرق غير منتج، نفتخر بعدم إنتاجيتنا. إنها جريمة لدى الأبناء الأوائل أن تعمل أو تبتكر. فهذا هو عمل أفراد المراتب الدنيا، الذين يعيشون فقط من أجل أن ينعم الأبناء الأوائل بحياة طويلة من الرفاهية والبطالة. كل ما يهمنا هو القتال؛ فمن دونه سيكون الأبناء الأوائل أكبر عددًا من كل ما يمكن أن تدعمه مخلوقات برسوم، فبقدر ما أعرف لم يمت أي منا من قبل موتًا طبيعيًّا. يمكن أن تعيش نساؤنا إلى الأبد لو لم نسأم منهن ونتخلص منهن لنوجد مكانًا لآخرين. إيسوس وحدها هي المحمية كلية من الموت. وقد عاشت لعدد لا يحصى من العصور».

سألته: «ألم يكن ممكنًا أن يعيش البرسوميون الآخرون إلى الأبد لولا تعاليم الحج الطوعي التي تسحبهم إلى حضن إيس عند، أو قبل، انتهاء عامهم الألف؟».

«أشعر الآن أنهم دون شك من نوع مخلوقات الأبناء الأوائل، وآمل أن أعيش للقتال من أجلهم تعويضًا عن الخطايا التي ارتكبتها ضدهم نتيجة الجهل الذي امتد لأجيال من التعاليم الكاذبة».

عندما توقف عن الكلام، رن نداء غريب عبر مياه أومیان. سمعته في نفس التوقيت مساء اليوم السابق، وعرفت أنه علامة على انتهاء اليوم، حيث فرش رجال أومیان حريرهم على ظهر السفينة الحربية والسفينة الصغيرة، وراحوا في نوم مريخي خال من الأحلام.

دخل حارسنا لتفقدنا للمرة الأخيرة قبل انبلاج اليوم الجديد على العالم العلوي. أنجز مهمته بسرعة، وأغلق باب سجننا الضخم وراءه- كنا وحدنا في الليل.

أعطيته وقتًا للعودة إلى مقره، إذ قال زودار أنه ربما سيفعل ذلك؛ ثم انطلقت إلى النافذة الحديدية، وألقيت نظرة فاحصة على المياه القريبة. على مسافة صغيرة من الجزيرة، ربما رُبع ميل، ترسو سفينة حربية ضخمة؛ بينما يوجد بينها وبين الشاطئ عدد من السفن الأصغر وطائرات استطلاع لراكب واحد. يوجد حارس فوق السفينة الحربية فقط. يمكنني رؤيته بوضوح في الأجزاء العلوية من السفينة؛ وشاهدته خلال مراقبتي وهو يفرد حرير نومه فوق المنصة الصغيرة التي يتمركز عليها. وسرعان ما ألقى نفسه متمددًا على مضجعه. في واقع الأمر، كان الانضباط في أوميان متراخيًّا، ولا عجب في ذلك، حيث لا يتخيل خصم وجود مثل هذا الأسطول في برسوم، أو حتى وجود الأبناء الأوائل، أو بحر أوميان. لماذا إذن يحافظون على وجود حارس؟

هبطت الآن إلى الأرض ثانية وتحدث مع زودار، ووصفت له المركبات المختلفة التي رأيتها.

قال: «توجد واحدة هناك من ممتلكاتي الشخصية، بُنيت لتحمل خمسة رجال، وهي أسرع من أسرع مركبة. إذا وصلنا إليها، يمكننا على الأقل أن نفوز بسعي لا يمكن نسيانه من أجل الحرية»؛ ثم أخذ يصف لي تجهزات السفينة الفضائية: محركاتها، وكل ما يجعلها ما هي عليه.

تعرفت في شرحه على خدعة تعشيق التروس التي علّمها لي كانتوس كان من قبل، عندما أبحرنا بأسماء مزورة في بحرية زودانجا بقيادة الأمير صاب ثان. وهكذا عرفت الآن أن الأبناء الأوائل سرقوها من سفن هيليوم؛ لأنها السفن الوحيدة التي يجري توجيهها على هذا النحو. وعرفت أيضًا أن زودار قال الحقيقة عندما أشاد بسرعة سفينته الصغيرة، فلا شيء يخترق هواء المريخ الرقيق يمكن أن يقترب من سرعة سفن هيليوم.

قررنا الانتظار لمدة ساعة على الأقل إلى أن يفرش جميع الحراس المتجولين حريرهم. وفي الوقت نفسه، يجب إحضار الشاب الأحمر إلى زنزانتنا، حتى نكون على أهبة الاستعداد للقيام بمجازفتنا نحو الحرية معًا.

انطلقت إلى الجزء العلوي من الجدار الفاصل بين الزنازين، وسحبت نفسي إلى قمته. هناك وجدت سطحًا مسطحًا يبلغ عرضه حوالي قدم، سرت عبره إلى أن وصلت إلى الزنزانة التي رأيت فيها الصبي يجلس على مقعده الطويل. كان يميل إلى الخلف مستندًا إلى الجدار وينظر إلى أعلى، إلى القبة المتوهجة فوق أوميان، وعندما لمحني أتوازن فوق الجدار الفاصل فوقه، اتسعت عيناه في دهشة. ثم ظهرت على ملامحه ابتسامة عريضة تنم عن فهمه وامتنانه.

عندما انحنيت لأهبط على الأرض بجانبه، أشار لي أن انتظر، وأقترب مني في أسفل هامسًا: «أمسك يدي؛ بإمكاني أن أقفز إلى قمة ذلك الجدار بنفسي. لقد حاولت ذلك عدة مرات، وفي كل مرة أقترب أكثر. سأتمكن في يوم ما من القيام بذلك».

استلقيت على بطني عبر الجدار، ومددت يدي إلى أسفل نحوه. ركض مسافة قصيرة من وسط الزنزانة قافزًا إلى أعلى حتى أمسكت يده الممدودة ثم قمت بجره إلى قمة الجدار بجواري.

قلت: «أنت أول قافز أراه على الإطلاق بين رجال برسوم الحُمر».

ابتسم. «هذا ليس غريبًا. وسوف أقول لك السبب عندما يتوفر لدينا المزيد من الوقت».

عدنا معًا إلى الزنزانة التي جلس فيها زودار؛ وهبطنا وأخذنا نتحدث إلى أن مرت ساعة.

وضعنا خططنا للمستقبل القريب، وألزمنا أنفسنا بقسم رسمي أن نقاتل من أجل بعضنا بعضًا حتى الموت ضد أي خصم يواجهنا، ذلك أننا إذا نجحنا في الإفلات من الأبناء الأوائل، فلا يزال أمامنا عالم كامل ضدنا - سلطة الخرافات الدينية لا تزال قوية.

اتفقنا على أنني سأتولى قيادة المركبة بعد أن نصل إليها، وأننا إذا وصلنا إلى العالم الخارجي بأمان سوف نحاول الوصول إلى هيليوم دون توقف.

سأل الشاب الأحمر: «لماذا هيليوم؟».

أجبته: «أنا أمير هيليوم».

رمقني بنظرة غريبة لكنه لم يقل أي شيء آخر حول هذا الموضوع. تساءلت في ذلك الوقت عما تكون دلالة نظرته، لكن التساؤل سرعان ما غادر ذهني في ظل ضغوط المسائل الأخرى، كما لم تتوفر لدي الفرصة للتفكير في الأمر مرة أخرى حتى وقت لاحق.

قلت مطولاً: «هيا، الآن وقت مناسب. فلنذهب».

في اللحظة التالية أصبحت فوق الجزء العلوي من الجدار الفاصل ثانية والصبي بجواري. فككت أربطة عتادي وقمت بتقطيعها وربطها معًا كحزام طويل واحد، وأنزلته إلى زودار المنتظر أدناه. أمسك بطرفه، وسرعان ما كان يجلس بجوارنا.

ضحك قائلاً: «كم هي بسيطة».

أجبته: «ينبغي أن يكون التوازن أبسط». ثم رفعت نفسي إلى قمة الجدار الخارجي للسجن، بحيث يمكنني إنعام النظر وتحديد موقع الخفر المارين. انتظرت لخمس دقائق تقريبًا، ثم شاهدته على مرمى البصر في وقع أقدامه وسيره البطيء كالحلزون حول البناء.

راقبته إلى أن أنهى دورته في نهاية المبنى الذي أخفاه عن بصري من جانب السجن الذي كان سيشهد انطلاقنا نحو الحرية. وفي اللحظة التي اختفى فيها، أمسكت زودار

وسحبته إلى قمة الجدار. وضعت أحد طرفي حزام عتادي في يديه وأنزلته بسرعة على الأرض أدناه. ثم أمسك الصبي الحزام وانزلق وصولاً إلى الجانب الذي يوجد فيه زودار.

وفقًا لترتيبنا لم ينتظراني، لكنهما سارا ببطء نحو المياه، حوالي مائة ياردة، ومرا مباشرة عبر بيت الحراس المملوء بالجنود النيام.

سارا عشرات الخطوات، وهبطت أنا أيضًا إلى الأرض وتبعتهما على مهل نحو الشاطئ. عندما مررت ببيت الحرس، أوقفتني فكرة احتوائه على جميع السيوف الجيدة؛ فنحن نحتاج بشدة إلى سيوف في رحلتنا المحفوفة بالمخاطر التي نوشك على البدء فيها.

حدقت نحو زودار والشاب، ورأيت أنهما انزلقا من حافة الرصيف إلى الماء. وفقًا لخطتنا، عليهما أن يبقيا هناك متشبثين بالحلقات المعدنية التي تُرصِع مادة الرصيف الشبيهة بالخرسانة على مستوى الماء، على أن تظل أفواههم وأنوفهم فقط فوق سطح البحر إلى أن أصل إليهما.

جذبني بقوة إغراء السيوف داخل مسكن الحراس. ترددت لحظة، نصف ميال إلى المجازفة بمحاولة أخذ العدد القليل الذي نحتاجه. أثبت القول المأثور «من يتردد، يضعْ» أنه صحيح في هذه الحالة، ولذا زحفت خلسة في اللحظة التالية نحو باب مسكن الحرس.

ضغطت بلطف على الباب وفتحته قليلاً، لأكتشف عشرات السود ممددين على الحرير في سبات عميق. يوجد رف في الجانب الآخر من الغرفة، يضم سيوف الرجال وأسلحتهم النارية. دفعت الباب بحذر ليتسع قليلاً بحيث أتمكن من الدخول. أصدر مفصل الباب صريرًا حانقًا. تحرك أحد الرجال، وتوقف قلبي. لعنت نفسي لتلك الحماقة التي أضرت بفرصنا للهروب؛ ولكن ما من شيء أمامي الآن إلا خوض المغامرة.

وصلت بقفزة سريعة وصامتة كالنمر إلى جوار الحارس الذي تحرك. حامت يدي حول عنقه في انتظار اللحظة التي يفتح فيها عينيه. بقيت مستعدًّا لفترة بدت لأعصابي المُجهدة كأنها أبدية. استدار الزميل مرة أخرى على جانبه، واستأنف تنفسه المنتظم في سباته العميق.

اخترت طريقي بعناية بين الجنود إلى أن وصلت للرف في الجانب الآخر من الغرفة. وهنا استدرت لألقي نظرة على الرجال النيام. كانوا جميعًا هادئين، يرتفع وينخفض تنفسهم المنتظم في إيقاع هادئ، بدا كأعذب موسيقى سمعتها على الإطلاق.

سحبت بحذر شديد سيفًا طويلاً من على الرف. احتكاك الغمد بمقبض السيف وأنا أسحبه كان يشبه كشط الحديد الزهر بمبرد كبير، فنظرت متصورًا أن أرى الغرفة امتلأت على الفور بالحراس الجزعين والمهاجمين. لكن أحدًا لم يحرك ساكنًا.

سحبت السيف الثاني دون صوت، لكن الثالث صلصل في غمده بضجة مخيفة. كنت أعرف أنها ستوقظ بعض الرجال على الأقل، وكنت مستعدًّا لتجنب هجومهم بانقضاض سريع نحو المدخل؛ لكن لدهشتي الشديدة مرة أخرى، لم يتحرك أي رجل أسود. إما أنهم يغطون في نوم عميق عجيب، وإما أن الضوضاء التي أحدثتها كانت حقًّا أقل بكثير مما تصورتها.

كنت على وشك مغادرة الرف عندما جذبت المسدسات انتباهي. أعرف أنني لا أستطيع أن أحمل أكثر من واحد معي، فقد كنت مثقلاً بأحمالي، بحيث يصعب تحركي بهدوء وسلامة أو سرعة. عندما أخذت مسدسًا من مشبكه، وقعت عيني للمرة الأولى على نافذة مفتوحة بجانب الرف. آه، هنا وسيلة رائعة للهرب؛ لأنها تفتح مباشرة على الرصيف، تبعد أقل من عشرين قدمًا من حافة المياه.

وعندما هنأت نفسي، سمعت الباب المقابل يُفتح، وهناك وقف ضابط الحرس ينظر نحوي في مواجهتي تمامًا. يبدو أنه فهم الموقف بلمحة، وأدرك خطورته بنفس سرعة إدراكي له؛ فقد انطلق مسدسينا في وقت واحد، وكان صوت الرصاصتين كأنما صوت واحد صدر بضغطنا على أزرار التحكم في إطلاق الأعيرة النارية.

شعرت بريح رصاصته عندما مر أزيزها في أذني، ورأيته ينهار في اللحظة نفسها على الأرض. لا أعرف أين أصابته طلقتي، أو إذا كانت قتلته؛ فما إن بدأ ينهار، حتى عبرت من النافذة خلفي. وفي اللحظة التالية، كانت مياه أوميان فوق رأسي، ونجاهد ثلاثتنا للوصول إلى السفينة الفضائية الصغيرة على بعد مائة ياردة.

كان زودار يحمل الصبي، وأنا مُثقل بالسيوف الطويلة الثلاثة، أما المسدس فقد وقع. لذا، ورغم أنني وزودار نسبح بقوة، فقد بدا أننا نتحرك بوتيرة بطيئة خلال المياه. كنت أسبح تحت السطح تمامًا، لكن زودار كان مضطرًّا للارتفاع تكرارًا ليسمح للشاب بالتنفس، ومن الغريب أننا لم نُكتشف قبل فترة طويلة.

وصلنا في واقع الأمر إلى جانب السفينة، وصعدنا جميعًا على متنها قبل أن تكشفنا دورية حراسة السفينة الحربية، التي أيقظتها الطلقات. انطلقت بندقية إنذار من مقدمة إحدى السفن، وتردد هديرها عميقًا بصوت يصم الأذان تحت قبة أوميان الصخرية.

وعلى الفور استيقظ النائمون، وعددهم بالآلاف. امتلأت أسطح ألف سفينة ضخمة بالرجال المقاتلين، ذلك أن صدور إنذار من أوميان كان شيئًا نادر الحدوث.

انطلقنا قبل أن يزول صوت البندقية الأولى، وخرجنا من البحر في اللحظة التالية، إلى سطح سفينتنا. تمددت بكامل طولي على سطح السفينة وأمامي الروافع وأزرار التحكم. وتمدد زودار والصبي خلفي مباشرة.

همس زودار: «ارتفِع عاليًا. إنهم لا يجرؤن على إطلاق أسلحتهم الثقيلة تجاه القبة – فشظايا القذائف ستسقط مرة أخرى على سفنهم. إذا ارتفعنا بما يكفي، ستحمينا ألواح عارضة السفينة من نيران البنادق».

فعلت كما قال. كان بإمكاننا أن نرى أسفلنا الرجال يقفزون في الماء بالمئات، ويجاهدون للوصول إلى السفن الصغيرة والطائرات التي تتسع لرجل واحد وترسو حول السفن الكبيرة. تحركت السفينة الكبيرة في أعقابنا بسرعة، لكن دون أن ترتفع عن الماء.

صاح زودار: «قليلاً إلى اليمين، فلا توجد أي مؤشرات للبوصلة فوق أوميان حيث كل اتجاه مقرر هو نحو الشمال».

كان الهرج والمرج الذي اندلع أسفلنا يصم الآذان. البنادق تتفجر ،

والضباط يطلقون الأوامر، والرجال يصيحون للإشارة إلى الاتجاهات لبعضهم بعضًا من الماء ومن أسطح السفن العديدة، بينما نسمع خلال ذلك كله خرخرة عدد لا يحصى من المراوح تشق الماء والهواء.

لم أجرؤ على جذب ذراع السرعة إلى أقصاها خشية أن أتجاوز فتحة البئر الذي يمر من قبة أوميان إلى العالم أعلاه، ومع ذلك كنا نتحرك بسرعة مذهلة أشك أن هناك مثلها على الإطلاق فوق البحر الهادئ.

بدأت الطائرات الصغيرة ترتفع في اتجاهنا. صاح زودار: «البئر! البئر! أمامنا مباشرة». رأيت الفتحة، سوداء في القبة المتوهجة لهذا العالم السفلي.

ارتفعت أمامنا مباشرة سفينة فضائية تضم عشرة رجال، في محاولة لقطع طريق هروبنا. كانت السفينة الوحيدة التي وقفت في طريقنا، لكنها بمعدل حركتها ستأتي بيننا وبين البئر في وقت كاف لإحباط خططنا.

ارتفعت السفينة أمامنا بزاوية مقدارها خمسٍ وأربعين درجة تقريبًا، بنية واضحة لتصفيتنا بخطافاتها المثبتة من أعلى، وهي تزأر منخفضة على سطح سفينتنا.

لم يكن أمامنا سوى فرصة أمل واحد بائس، واقتنصتها. ليس مُجديًا محاولة المرور فوقها، فذلك سيسمح لها إجبارنا على الاصطدام بالقبة الصخرية في أعلى، حيث كنا قريبين جدًّا منها الفعل. أما محاولة الغوص أدنى السفينة، فسوف تضعنا بالكامل تحت رحمتها، وهذا تحديدًا ما تريده. تتهددنا على الجانبين مائة سفينة أخرى تسرع في اتجاهنا. وكان البديل محفوفًا بالمخاطر من جميع الجوانب، وفرصة نجاحه ضئيلة.

ارتفعت عندما اقتربنا من السفينة، كأنما سأطير فوقها، فقامت بما توقعته بالفعل وهو الارتفاع بزاوية أكثر انحدارًا لإجباري على البقاء مرتفعًا. وعندما أصبحنا فوقها تقريبًا، طلبت من رفاقي التشبث جيدًا، وانطلقت بسفينتنا الصغيرة بأقصى سرعتها، مع الانحراف بمقدمتها في نفس اللحظة إلى أن أصبحنا نطير أفقيًّا بسرعة مذهلة نحو عارضة السفينة الكبيرة مباشرة.

ربما أدرك قائدها الآن نواياي، ولكن بعد فوات الأوان. وفي لحظة التصادم، أدرت مقدمة سفينتنا إلى أعلى، فتصادمنا باهتزاز ساحق. حدث ما كنت أتمناه. فالسفينة الكبيرة، التي انحرفت بالفعل بزاوية خطرة، ارتدت تمامًا إلى الخلف على أثر اصطدامها بسفينتي الصغيرة. سقط طاقمها متلويًا وصارخًا في الهواء على مسافة بعيدة لأسفل؛ ثم غاصت مقدمة سفينتهم، التي لا تزال مراوحها تدور بجنون، إلى قاع بحر أوميان.

سحق الاصطدام مقدمة سفينتنا الصلبة، وكان كل جهد نبذله يقترب من وقوعنا من على سطح السفينة. سقطنا ككومة متشبثة بعنف في أقصى السفينة، إذ نجحت أنا وزودار في الإمساك بالدرابزين، وكاد الصبي أن يسقط من متنها، إلا أنني أمسكت بكاحله لحسن الحظ، حيث كان بالفعل خارجها جزئيًّا.

انحرفت سفينتنا بعنف في طيرانها الجنوني، دون توجيه، وزاد ارتفاعها مقتربة من الصخور أعلاه. على أن الأمر لم يستغرق سوى ثانية كي أستعيد الروافع؛ ومع السقف أعلانا بخمسين قدمًا، أدرت مقدمة السفينة مرة أخرى إلى مستوى أفقي ووجهتها ثانية نحو فتحة البئر السوداء.

أدى الاصطدام إلى تأخير تقدمنا، واقتربت منا الآن مئات من سفن الاستطلاع السريعة. أخبرني زودار أن صعود البئر بفضل أشعة الارتداد وحدها سوف يعطي خصومنا فرصة أفضل للحاق بنا؛ إذ ستتعطل مراوحنا، وعند ارتفاعنا سيتفوق علينا الكثير من مطاردينا. إن أسرع سفينة نادرًا ما تكون مجهزة بخزانات طفو كبيرة؛ نظرًا لأن الجزء الأكبر منها يميل إلى الحد من سرعة السفينة.

ولأن العديد من الزوارق أصبحت الآن قريبة جدًّا منا، فمن المحتم أن تلحق بنا بسرعة في البئر، وتأسرنا أو تقتلنا بأمر سريع.

بيد أنني أنظر دائمًا إلى الفوز بالجانب الآخر من المشكلة. إذا لم نتمكن من المرور أعلاها أو أسفلها أو حولها، لماذا إذن لا يوجد سوى بديل واحد، وهو المرور من خلالها؛ لا أستطيع الالتفاف حول حقيقة أن العديد من هذه السفن الأخرى قادرة على الارتفاع أسرع من سفينتنا نظرًا لقدرة طفوها الأكبر، لكنني صممت الوصول إلى العالم الخارجي قبلهم أو الموت ميتة اختارها في حالة الفشل.

صرخ زودار خلفي: «اعكس الاتجاه؟ باسم حب جدك الأول، اعكس الاتجاه. نحن في البئر».

أجبته صارخًا: «تشبثا جيدًا! أمسِك الصبي وتشبثا جيدًا- نحن نصعد مباشرة أعلى البئر».

كانت الكلمات تخرج من فمي بشق الأنفس، ونحن ننزلق تحت الفتحة شديدة السواد. وجهت مقدمة السفينة بقوة إلى أعلى، وسحبت ذراع السرعة إلى درجته الأخيرة، وتشبثت بعمود بيد واحدة وبعجلة القيادة باليد الأخرى، مُعلقًا مثل الموت القاتم ومُودِّعًا روحي إلى خالقها.

سمعت صيحة صغيرة تنم عن المفاجأة أطلقها زودار، تلتها ضحكة متجهمة. ضحك الصبي أيضًا، وقال شيئًا لم أسمعه بسبب صفير الريح نتيجة لسرعتنا المخيفة.

رفعت رأسي ناظرًا إلى أعلى، على أمل اللحاق بومضات النجوم التي يمكن أن توجه مسارنا وتحمل الشيء المندفع الذي يحملنا نحو مركز مدخل البئر بدقة. إذا لمسنا جانب البئر بالسرعة التي نتحرك بها، سنموت جميعًا على الفور دون شك. لم يظهر أي نجم في أعلى، فقط الظلام الغامض المطلق.

ألقيت نظرة إلى أسفل، ورأيت دائرة من الضوء تتناقص بسرعة- فم الفتحة فوق توهج أوميان الفوسفوري. قدت السفينة بناء على ذلك، ساعيًا إلى إبقاء دائرة الضوء أدناي بدقة مطلقة. كانت في أحسن الأحوال بمثابة حبل نحيل يقينا من الدمار، وأعتقد أنني قدت السفينة في تلك الليلة اعتمادًا على الحدس والإيمان الأعمى أكثر منه على المهارة أو العقل.

لم نستغرق وقتًا طويلاً في البئر، وربما أنقذتنا سرعتنا الهائلة، فمن الواضح أننا بدأنا في الاتجاه الصحيح؛ ولأننا خرجنا بسرعة، لم يكن لدينا أي وقت لتغيير مسارنا. ربما يقع

أوميان على عمق ميلين تحت القشرة السطحية للمريخ. ومن المؤكد أن سرعتنا اقتربت من مائتي ميل في الساعة، فالسفن الفضائية المريخية سريعة، فلم نستغرق في البئر أكثر من أربعين ثانية.

من المؤكد أننا خرجنا من البئر منذ بضع ثوان، قبل أن أدرك أننا أنجزنا المستحيل. كان الظلام الأسود يلفنا. لا توجد أقمار أو نجوم. لم أشهد أبدًا من قبل شيئًا مماثلاً على المريخ، وارتبكت للحظة، ثم جاءني التفسير. كنا في فصل الصيف، في القطب الجنوبي، والغطاء الجليدي يذوب؛ وكانت تلك الظواهر النيزكية والغيوم، غير المعروفة لدى الجزء الأكبر من برسوم، تحجب ضوء السماء عن هذا الجزء من الكوكب.

يا له من حسن الحظ؛ ولم أستغرق وقتًا طويلاً لإدراك فرصة الهرب التي منحتنا إياها هذه الظروف السعيدة. حافظت على مقدمة السفينة بزاوية ثابتة، وأسرعت بها نحو الستار المبهم الذي علقته الطبيعة فوق هذا العالم المحتضر لإبعادنا من مرمى بصر مطاردينا الأعداء.

غطسنا خلال الضباب البارد الرطب دون إنقاص سرعتنا، وبعد لحظة خرجنا إلى الضوء المجيد للقمرين وملايين النجوم. انخفضت إلى مسار أفقي، واتجهت نحو الشمال. كان خصومنا على بعد نصف ساعة وراءنا دون تصور لاتجاهنا. لقد حققنا معجزة وخرجنا سالمين من آلاف الأخطار- هربنا من أرض الأبناء الأوائل. لم ينجح في ذلك أي سجين عبر جميع العصور في برسوم. وعندما أتذكر الأمر الآن، لا يبدو بهذه الصعوبة.

قلت ذلك لزودار، من فوق كتفي.

فأجاب: «هذا رائع جدًّا؛ ومع ذلك، لم يكن بإمكان أي شخص إنجاز ذلك سوى جون كارتر».

قفز الفتى واقفًا على قدميه عند سماعه الاسم.

صاح: «جون كارتر! جون كارتر! لماذا، يا رجل، جون كارتر، أمير هيليوم، توفى منذ سنوات. أنا ابنه».

* * *

(14)

أعين في الظلام

ابني! لم أستطع تصديق أذني. نهضت ببطء، ونظرت إلى الشاب الوسيم. الآن، وبعد أن نظرت إليه عن كثب، بدأت أعرف لماذا جذبتني ملامح وجهه وشخصيته بقوة. تحمل ملامحه المحددة قدرًا كبيراً من جمال والدته الذي لا يُضاهى؛ لكن جماله ذكوري، أما عيناه الرماديتان وتعبيرهما فهي مثل عينيَّ.

وقف الصبي أمامي، ونظرته نصفها أمل ونصفها عدم يقين.

قلت: «أخبرني عن والدتك. قل لي جميع ما يمكنك قوله عن السنوات التي سرقني فيها مصيري الصارم من رفقتها العزيزة».

انطلق نحوي صائحًا في سرور، وألقى ذراعيه حول رقبتي. ولدقائق وجيزة وأنا أحتضن ابني، انهمرت الدموع من عيني، وشعرت أنني أختنق كأحمق يجهش بالبكاء- لكني لست نادمًا على ذلك، ولست خجلا. لقد علمتني الحياة الطويلة أن الرجل قد يبدو ضعيفًا عندما يتعلق الأمر بالنساء والأطفال، لكنه قد يتصف بأي شيء إلا الضعف في طريق الحياة الصارم.

قال الصبي: «إن قامتك، وطريقتك، وضراوة مهارتك الرهيبة في المبارزة، هي كما وصفتها والدتي لي ألف مرة- ولكن حتى مع هذه الأدلة، بالكاد ما يمكنني تصديق حقيقة تبدو بعيدة الاحتمال، وإن كنت أرغب كثيراً أن تكون صحيحة. هل تعرف ما الشيء الذي أقنعني أكثر من كل الأشياء الأخرى؟».

سألته: «ما هو يا بني؟».

«أول كلمات قلتها لي – هي كلمات أمي».

«لسنوات طويلة، يا بني، لا أتذكر لحظة لم يكن فيها رؤية وجه أمك المُضيء أمامي. أخبرني عنها».

«يقول من عرفوها لفترة أطول إنها لم تتغير، لكنها أصبحت أكثر جمالاً. وفقط عندما تُفكر أنني لست على وشك رؤيتها، يصبح وجهها شديد الحزن، أوه، بل شديد

الكآبة. وهي دائمة التفكير فيك يا أبي، وهيليوم كلها تحزن معها ولها. شعب جدها يحبها. أحبوك أنت أيضًا، ويقدسون ذكراك كمنقذ برسوم».

«يُقام احتفال كبير على شرفك سنويًّا، في ذكرى اليوم الذي شهد سعيك، عبر عالم على وشك الموت، لحل سر تلك البوابة النكراء التي تكمن وراءها قوة جبارة لحياة ملايين لا تُحصى. وخلال الاحتفال، تختلط الدموع بالشكر؛ دموع أسف حقيقي؛ لأن من حقق هذه السعادة ليس معهم ليشاركهم متعة الحياة التي مات ليمنحها لهم. لا يوجد في برسوم كلها اسم أعظم من جون كارتر».

سألته: «وما الاسم الذي سمتك به أمك يا بني؟».

«طلب شعب هيليوم تسميتي باسم أبي، لكن أمي لم توافق؛ لأنكما اخترتما معًا اسمًا لي، ويجب احترام رغبتك قبل أي شيء آخر، وبالتالي سمتني بالاسم الذي رغبت أنت فيه، وهو مزيج من اسمها واسمك- كارثوريس».

كان زودار على عجلة القيادة، خلال حديثي مع ابني، والآن يناديني.

قال: «تنخفض رأس السفينة بشكل سيئ، جون كارتر. لم نلحظ ذلك طوال ارتفاعنا بزاوية ثابتة، لكن الأمر الآن مختلف وأنا أحاول الحفاظ على مسار أفقي. لقد أدت الإصابة في مقدمتها إلى فتح إحدى الخزانات الأمامية للأشعة».

كان ما قاله صحيح؛ وقد وجدت، بعد أن فحصت الأضرار، أن الوضع أخطر مما توقعت. لم يقتصر الأمر على أن الزاوية القسرية التي اضطررنا إليها للحفاظ على مقدمة السفينة في مسار أفقي كانت تعوق سرعتنا كثيرًا؛ بل أيضًا بهذا المعدل من فقد الأشعة الارتدادية من الخزانات الأمامية، لم تكن إلا مسألة ساعة أو أكثر ونطفو بصرامة وبلا حيلة لنا.

لقد خفضنا سرعتنا قليلاً مع بداية الشعور بالأمن. توليت الآن دفة القيادة مرة أخرى، وفتحت المحرك الصغير الممتاز واسعًا لنتمكن من الانطلاق ثانية نحو الشمال في سرعة هائلة. وفي الوقت نفسه، كان كارثوريس وزودار يعملان بتفان، بالأدوات المتاحة، لإصلاح الشق الكبير بالمقدمة في محاولة يائسة لوقف مد الأشعة الهاربة.

كان الظلام لا يزال مخيمًا عندما مررنا عبر الحدود الشمالية للغطاء الجليدي ومنطقة السُّحب. وكان المشهد في أسفل مريخيًّا نموذجيًّا:

اللون الأصفر المتموج لقيعان البحار التي ماتت منذ زمن طويل، والتلال المنخفضة المحيطة، ومدن الماضي الميت الصامتة القاتمة تتناثر هنا وهناك؛ وأكوام كبيرة من الأبنية الجبارة التي لا تسكنها سوى ذكريات عتيقة لِعِرق كان قويًّا في يوم ما، فضلاً عن قرود برسوم البيضاء الكبيرة.

زادت تدريجيًّا صعوبة الحفاظ على سفينتنا الصغيرة في وضع أفقي. زاد انخفاض المقدمة حتى أصبح من الضروري وقف المحرك لمنع رحلتنا من أن تنتهي غوص سريع نحو الأرض.

ارتفعت الشمس واكتسح نور يوم جديد ظلام الليل، مما منح سفينتنا اندفاعة متقطعة نهائية وانقلب نصفها على جانبه، ثم مال سطحها بزاوية جعلتها تتأرجح في دائرة بطيئة، وشهدت كل لحظة زياد سقوط مقدمتها.

تشبثنا بالدرابزين والأعمدة، وأخيراً رأينا النهاية تقترب، فنزعت مشابك عتادنا عن الحلقات الجانبية. وفي لحظة تالية أخرى ارتفع سطح السفينة بزاوية مقدارها 90 درجة، وتعلقنا في جلود عتادنا وأقدامنا تتدلى على مسافة تبعد عن الأرض بألف ياردة.

كنت أتأرجح بالقرب من أجهزة التحكم، فمددت يدي إلى الذراع الذي يوجه أشعة الارتداد. استجابت السفينة للمسة الضغط، وبدأنا نغوص بلطف شديد في اتجاه الأرض.

مرت نصف ساعة كاملة قبل أن نصل. ارتفعت مباشرة من الشمال مجموعة تلال شامخة، وقررنا التوجه إليها لأنها تتيح فرصة أكبر للاختباء من مطاردينا الذين كنا على ثقة أنهم قد يسيرون في هذا الاتجاه.

وبعد ساعة وجدنا وديانًا دائرية قديمة تمر بالتلال، وسط النباتات المزهرة الجميلة التي تكثر في الأماكن القاحلة الجافة في برسوم. كما وجدنا أعدادًا ضخمة من الشجيرات المنتجة للبن - هذا النبات الغريب الذي يقوم بدرجة كبيرة مقام الطعام والشراب لجماعات الرجال الخُضر المتوحشة. لقد كانت نعمة بحق، فقد كنا جميعًا على وشك الموت جوعًا.

استلقينا للنوم تحت مجموعة من تلك الأشجار التي توفر غطاء مثاليًّا يقينا طائرات الاستطلاع الجوي؛ أول مرة أنام منذ ساعات عديدة. هذه هي بداية يومي الخامس على برسوم منذ أن وجدت نفسي أنتقل فجأة من كوخي على نهر هدسون إلى دور، الوادي الجميل والبشع. وخلال كل هذا الوقت لم أنم سوى مرتين، رغم أن مرة منهما كانت على مدار الساعة داخل مخزن الثيرن.

أيقظني شخص يمسك بيدي ويغطيني بالقبلات، في منتصف بعد ظهر اليوم. وعندما فتحت عيني، وجدتني أنظر إلى وجه ثوفيا الجميل.

صاحت في سعادة غامرة: «يا أميري! يا أميري! لقد بكيتك باعتبارك مُت. لقد أكرمني أجدادي؛ لم أعش عبثًا».

أيقظ صوت الفتاة زودار وكارثوريس. حدق الصبي في المرأة متفاجئًا. لكنها لم تدرك وجود آخرين غيري؛ إذ كادت أن تلقي ذراعيها حول رقبتي وتغمرني بالمداعبات، إن لم أبعدها عني بلطف ولكن بحزم.

قلت بهدوء: «تعالي، تعالي، ثوفيا؛ أنت مُجهدة من المخاطر والمصاعب التي مررت خلالها. لقد نسيتِ نفسكِ، كما نسيتِ أنَني زوج أميرة هيليوم».

أجابت: «لم أنس شيئًا يا أميري. أنت لم تخاطبني بأي كلمة حب، كما لم أتوقع أبدًا أن تقوم بذلك؛ ولكن ما من شيء يمكن أن يحول دون محبتي لك. لن آخذ مكان ديجاه ثوريس. طموحي الأكبر أن أخدمك إلى الأبد، يا أميري، كأَمَة لك. لا يمكنني أن أطلب نعمة أكبر، ولا يمكنني أن أتوق لشرف أكبر، أو آمل في سعادة أكبر».

أنا لست رجلًا مولعًا بالنساء، كما ذكرت قلت من قبل. ويجب أن أعترف أنني نادرًا ما شعرت بعدم الراحة والحرج كما شعرت في تلك اللحظة. وعلى الرغم من أنني على دراية تامة بالعادات المريخية التي تسمح بالإماء لرجال المريخ، الذين يُعد دائمًا سمو شرفهم وشهامتهم حماية وافية لكل امرأة في بيته، فإنني أختار الرجال لخدمتي.

قلت: «ثوفيا، ستأتين معي عندما أعود إلى هيليوم، ولكن ليس كعبدة وإنما كشخص كريم على قدم المساواة. وهناك ستجدين الكثير من الشباب الوسيم من النبلاء القادرين على مواجهة إيسوس نفسها للفوز بابتسامة منك، وسرعان ما سنزوجك إلى أفضلهم. عليك نسيان إعجابك الأحمق الناتج عن امتنانك، وصورته لك براءتك بالخطأ أنه حب. أنا

أحب صداقتك أفضل، ثوفيا».

أجابت ببساطة، وإن كان بمسحة حزن في صوتها: «أنت سيدي؛ والأمر كما تقول».

سألتها: «كيف جئت هنا، ثوفيا؟ وأين تارس تاركاس؟».

أجابت بأسف: «أخشى أن الثاركي العظيم قد مات. كان مقاتلاً قويًّا، لكن حشدًا من المحاربين الخُضر من جماعة أخرى غير جماعته قهرته. المرة الأخيرة التي رأيته فيها كانوا يحملونه، مجروحًا وينزف، إلى المدينة المهجورة التي ارتحلوا منها لمهاجمتنا».

سألتها: «إذن أنت لست متأكدة من موته؟ وأين تلك المدينة التي تتحدثين عنها؟».

«إنها خارج نطاق هذه التلال مباشرة. إن السفينة التي تركتها بنُبلك لتخلي لنا مكانًا لنجد مهربًا، قد تحدت مهارتنا القليلة في الملاحة، ونتيجة لذلك انجرفنا على غير هدى لمدة يومين. قررنا بعد ذلك التخلي عنها ومحاولة شق طريقنا سيراً على الأقدام إلى أقرب مجرى مائي. عبرنا أمس هذه التلال، ووصلنا إلى مدينة ميتة وراءها. سرنا في شوارعها متجهين نحو وسطها، عندما شاهدنا عند طريق متقاطع مجموعة من المحاربين الخُضر يقتربون.

كان تارس تاركاس متقدمًا، فشاهدوه، لكنهم لم يروني. انطلق الثاركي إلى الخلف بجانبي، وأجبرني على الدخول إلى مدخل مجاور، وطلب مني أن أبقى مختبئة حتى أتمكن من الهرب، وأشق طريقي إلى هيليوم إذا أمكنني.

قال: 'ليس لدي مهرب الآن، فهؤلاء هم الوارهونيون الجنوبيون. وعندما يرون معادني، فهذا موتي'.

ثم خرج لملاقاتهم. آه يا أميري، يا له من قتال! تكاثروا حوله لمدة ساعة، إلى أن شكل القتلى الوارهونيين تلة حيث كان واقفًا. لكنهم تغلبوا عليه في النهاية، فقد أخذت المجموعة التي تقف في الخلف تدفع المجموعة الأمامية نحوه إلى أن تعذر وجود مساحة يهز فيها سيفه العظيم؛ ثم تعثر وسقط، فانقضوا فوقه كموجة ضخمة. عندما حملوه بعيدًا نحو قلب المدينة، كان ميتًا، على ما أعتقد، فلم أره يتحرك».

قلت: «قبل أن نذهب أبعد، يجب أن نتأكد. لا يمكن أن أترك تارس تاركاس على قيد الحياة بين الوارهونيين. سوف أدخل المدينة الليلة وأتأكد».

قال كارثوريس: «وسوف أذهب معك».

قال زودار: «وأنا».

قلت: «لن يذهب أي منكما. هذا عمل يتطلب تسللاً واستراتيجية، وليس قوة. قد ينجح رجل واحد بمفرده، بينما قد يتسبب أكثر من رجل في كارثة. سأذهب بمفردي. وإذا احتجت إلى مساعدتكما، سأعود إليكما».

لم يعجبهما ذلك، لكنهما كانا جنديين جيدين، واتفقنا على ضرورة أن أتولى القيادة. كانت الشمس منخفضة فعلاً، وبالتالي لم يتطلب الأمر أن أنتظر طويلاً قبل أن يبتلعنا ظلام برسوم المفاجئ.

أعطيت قبل ذهابي تعليمات أخيرة لكارثوريس وزودار في حالة عدم عودتي، وودعتهما، ثم انطلقت في هرولة سريعة نحو المدينة.

عندما خرجت من التلال، كان القمر الأقرب يحلق في رحلتة الجامحة خلال السماوات، وأشعته المتألقة تُحول الروعة البربرية للمدينة القديمة إلى فضة مصقولة. لقد بُنيت المدينة على سفوح الجبال المتموجة بلطف، التي انحدرت في الماضي البعيد القاتم لتلتقي بالبحر. وبسبب هذه الحقيقة، لم أجد صعوبة في دخول الشوارع دون أن يلحظني أحد.

يندر أن تشغل الجماعات الخضراء التي تستخدم هذه المدن المهجورة أكثر من بضعة مساحات مربعة حول الساحة المركزية؛ ونظرًا لأنهم يتحركون دائمًا ذهابًا وإيابًا عبر قيعان البحر الميت التي تواجه المدن، فمن اليسير نسبيًّا الدخول من جانب التل.

وصلت إلى شوارع المدينة، وبقيت قريبًا من الظلال الكثيفة للجدران. كنت أتوقف للحظة عند التقاطعات للتأكد من عدم وجود أي شخص على مرمى البصر قبل أن أنطلق مسرعًا إلى ظلال الجانب الآخر. وهكذا نجحت رحلتي دون انكشاف إلى المنطقة المجاورة للساحة. وعندما اقتربت من الأحياء المجاورة للجزء المأهول بالسكان من المدينة، أدركت أنني اقتربت من أحياء المحاربين؛ لأنني سمعت صياح وشخير حيوانات الثوات والزيتيدار المتجمعة في الساحات الفارغة التي شكلتها المباني المحيطة بكل ساحة.

تدفقت داخلي رعشة سرور عندما سمعت هذه الأصوات القديمة المألوفة، التي تمُيز حياة المريخيين الخُضر؛ مثلما يشعر المرء عند عودته إلى الوطن بعد غياب طويل. لقد توددت للمرة الأولى إلى ديجاه ثوريس التي لا تُضاهى وسط هذه الأصوات في القاعات الرخامية القديمة لمدينة كوراد الميتة.

عندما وقفت في الظلال، عند الزاوية البعيدة من أول مسكن يضم أفرادًا من الجماعة، رأيت محاربين يخرجون من مبانٍ عديدة، ويذهبون جميعًا في نفس الاتجاه، نحو مبنى ضخم في وسط الساحة. أقنعتنيً معرفتي بعادات المريخيين الخُضر أن هذا المبنى هو مقر الزعيم الرئيس أو يضم القاعة العامة التي يجتمع فيها الجيداك مع الجِد

والزعماء الأقل. وفي الحالتين، من الواضح أن شيئًا ما كان يجري على قدم وساق، وربما يتعلق بالقبض مؤخرًا على تارس تاركاس.

شعرت بضرورة الوصول إلى هذا المبنى، وهو ما يتطلب اجتياز طول أحد المقرات بالكامل وعبور طريق عريض وجزء من الساحة. عرفت من أصوات الحيوانات التي تأتي من كل فناء حولي، أن المباني المحيطة تضم أناسًا كثيرين- ربما عدة مجتمعات من جماعة وارهون الجنوبية الكبيرة.

كان المرور دون انكشاف بين جميع هؤلاء يُعد في حد ذاته مهمة صعبة. ولكن إذا كنت لأجد الثاركي العظيم وأنقذه، فيجب أن أتوقع عقبات هائلة قبل تحقيق النجاح. لقد دخلت المدينة من الجنوب، وأقف الآن على ناصية الشارع الذي مررت من خلاله، وهو أول شارع متقاطع جنوب الساحة. تبدو المباني في هذه الناحية الجنوبية غير مأهولة؛ إذ لا توجد أي أضواء، ولذا قررت الوصول إلى الفناء الداخلي عن طريق إحداها.

لم يحدث أي شيء يعرقل تقدمي خلال الكومة المهجورة التي اخترتها، ووصلت إلى الفناء الداخلي القريب لجدران المباني الشرقية الخلفية دون انكشاف. رأيت داخل الفناء قطيعًا كبيراً من حيوانات الثوات والزيتيدار، يتحركون في اضطراب وهم يلتهمون النباتات الصفراء التي تشبه الطحالب وتغطي عمليًّا كامل المنطقة غير المزروعة في المريخ. هب نسيم من الشمال الغربي، وبالتالي هناك خطر ضئيل أن تشم الحيوانات رائحتي. فإذا حدث، سيرتفع أنينهم وشخيرهم على نحو يجذب انتباه المحاربين داخل المباني.

بالقرب من الجدار الشرقي، وتحت شرفات الطوابق الثانية المتدلية، تسللت متواريًا في الظلال الكثيفة على طول الفناء، إلى أن وصلت إلى مباني الجهة الشمالية. كانت ثلاثة طوابق منها مضاءة، ولكن كل شيء كان مظلمًا أعلى الطابق الثالث.

لم تكن فكرة المرور من خلال الغرف المضاءة مطروحة، بطبيعة الحال؛ نظرًا لاحتشاد رجال ونساء المريخ الخُضر. وكان مساري الوحيد من خلال الطوابق العليا، التي يتطلب الوصول إليها تسلق سطح الجدار. تمكنت بسهولة من الوصول إلى شرفة الطابق الثاني؛ فقد أتاحت قفزة رشيقة أن تقبض يداي على الدرابزين الحجري أعلاه. وفي اللحظة التالية سحبت نفسي إلى الشرفة.

وهنا رأيت، من خلال النوافذ المفتوحة، القوم الخُضر جاثمين على حرير وفراء النوم. وعندما اقتربت للاستماع إلى كلماتهم، دخل محارب الغرفة من خارج القاعة.

صاح: «هيا، تان جاما، علينا أن نأخذ الثاركي أمام كاب كادجا. عليك إحضار شخص آخر معك».

نهض المحارب، وأومأ إلى زميل يجلس القرفصاء، واستدار الثلاثة، وغادروا الشقة.

إذا تمكنت من متابعتهم، قد تأتي الفرصة لتحرير تارس تاركاس على الفور؛ أو يمكنني على الأقل أن أعرف مكان سجنه.

يوجد على يميني باب يقود من الشرفة إلى المبنى، ويقع في نهاية قاعة غير مضيئة؛ وانطلاقًا من حماس اللحظة، خطوت إلى الداخل. كانت القاعة واسعة وتقود مباشرة إلى الجزء الأمامي من المبنى، وتوجد على الجانبين مداخل العديد من الشقق المصطفة.

دخلت إلى الممر ورأيت المحاربين الثلاثة في طرفه الآخر - الذين رأيتهم للتو يغادرون الشقة. أبعدهم انعطافهم إلى اليمين عن مرمى بصري ثانية. سارعت على طول الممر للحاق بهم. كنت أسير بتهور، لكنني شعرت أن القدر كان كريمًا معي بأن ألقى فرصة كهذه في متناول يدي، ولا يمكن أن أسمح لها بالإفلات مني الآن.

وجدت في أقصى نهاية الممر سلمًا حلزونيًّا يؤدي إلى الطوابق العليا والدنيا. يبدو أن الثلاثة غادروا الطابق من هذا الطريق. أكدت لي معرفتي بهذه المباني القديمة وأساليب الوارهون، أنهم توجهوا إلى أسفل وليس إلى أعلى.

لقد كنت مرة سجينًا لدى جحافل وارهون الشمالية، ولا تزال ذكرى القبو تحت الأرض الذي وضعوني فيه حية في ذاكرتي. ولذا شعرت أن تارس تاركاس يوجد بالتأكيد في حُفر مظلمة تحت مبنى قريب، وأنني يجب أن أعثر في هذا الاتجاه على مسار المحاربين الثلاثة المؤدي إلى زنزانته.

لم أكن مخطئًا. ففي الجزء السفلي من الطريق، أو بالأحرى عند الهبوط إلى الطابق الأدنى، رأيت البئر يهبط نحو الحفر السفلية، وكشفت ومضات ضوء شعلة عن الثلاثة الذين أتبعهم.

توجهوا إلى الحُفر تحت المبنى، وتابعت وميض الشعلة على مسافة آمنة خلفهم. أدى الطريق إلى متاهة من الممرات المتعرجة، لا ينيرها سوى الضوء المرتعش الذي يحملوه. سرنا ربما مائة ياردة، ثم استدارت المجموعة فجأة نحو مدخل على يمينهم. أسرعت بقدر ما أجرؤ خلال الظلام إلى أن وصلت إلى النقطة التي غادروا عندها الممر.

هناك، ومن خلال باب مفتوح، رأيتهم يزيلون السلاسل التي تربط الثاركي العظيم تارس تاركاس بالجدار.

حشروه بخشونة بينهم وخرجوا من الغرفة على الفور بسرعة شديدة، بحيث إنني كنت أقرب إلى أن يدركوا وجودي. لكنني تمكنت من الإسراع على طول الممر في الاتجاه الذي سرت فيه خلال مطاردتي لهم، وابتعدت مسافة كافية لأكون خارج شعاع الضوء الضئيل وهم يخرجون من الزنزانة.

افترضت بطبيعة الحال أنهم سيعودون مع تارس تاركاس من نفس الطريق الذي جاءوا منه، وهو ما كان سيحملهم بعيدًا عني؛ لكنهم، مع الأسف، انعطفوا مباشرة في اتجاهي وهم يغادرون الغرفة. لم يكن أمامي إلا أن أسرع قبلهم وأبتعد عن ضوء شعلتهم. لم أجرؤ على محاولة الوقوف في الظلام في أي من الممرات العديدة المتقاطعة، فلم أكن أعرف شيئًا عن الاتجاه الذي سيتخذونه، ومن المرجح أنه قد لا يأخذني إلى ذات الممر الذي يختارون دخوله.

كان إحساس التحرك بسرعة خلال هذه الممرات مظلمة لا يبعث على الاطمئنان إطلاقًا. ولم أكن أعرف في أي لحظة يمكن أن أهوى إلى إحدى تلك الحفر الرهيبة، أو أقابل بعض المخلوقات الشنيعة كالغيلان التي تسكن هذه العوالم السفلية تحت مدن المريخ المحتضر. تسرب شعاع باهت من شعلة الرجال خلفي- ما يكفي للسماح بتتبع اتجاه الممرات المتعرجة أمامي مباشرة، وبالتالي يبعدني عن الاصطدام بالجدران في المنعطفات.

وصلت الآن إلى مكان يتشعب من نقطة مشتركة بين خمسة ممرات. سارعت على طول إحداها لمسافة قصيرة، ثم اختفى فجأة ضوء الشعلة الخافت ورائي. توقفت لأستمع إلى أصوات المجموعة خلفي، لكن الصمت كان مطلقًا، كصمت القبور.

أدركت بسرعة أن المحاربين اتخذوا أحد الممرات الأخرى مع سجينهم، ولذا أسرعت عائدًا مرة أخرى ويخامرني شعورٌ براحة كبيرة لاتخاذ موقع أفضل وأكثر أمانًا وراءهم. على أن طريق العودة كان أبطأ كثيراً، فالظلام الآن مطلق كالصمت.

كان من الضروري أن أتلمس كل خطوة على الطريق ويدي على الجدار الجانبي، حتى لا أتجاوز نقطة تشعب الطرق الخمسة. وبعد ما بدا كأنه الأبدية، وصلت إلى المكان، وتعرفت عليه بتلمس طريقي عبر مداخل عدة ممرات إلى أن أحصيت خمسة منهم. مع ذلك، لم تظهر في أي منهم أضعف علامة ضوء.

أصغيت باهتمام، لكن أقدام الرجال الخُضر العارية لم تبعث أي أصداء إرشادية. أعتقد أنني تبينت الآن قعقعة الأسلحة الجانبية على مسافة بعيدة في الممر الأوسط. سارعت بحثًا عن الضوء، وكنت أتوقف أحيانًا لأستمع إلى تكرار الصوت؛ لكنني سرعان ما اضطررت إلى الاعتراف أنني أسير كالأعمى، إذ كانت المكافأة الوحيدة على جهودي هي الظلام والصمت.

عدت مرة أخرى إلى مفترق الطرق، ولدهشتي وجدتني عند مدخل ثلاثة ممرات مختلفة، ربما اجتزت أيًّا منها خلال اندفاعي المتعجل وراء الفكرة الخاطئة التي كنت أتبعها. يا له من مأزق كبير بالفعل! إذا عدت إلى نقطة التقاء الممرات الخمسة، يمكنني انتظار عودة المحاربين مع تارس تاركاس. معرفتي بعاداتهم جعلتني أعتقد أنهم اصطحبوه إلى القاعة العامة لإصدار الحكم عليه. لم يكن لدي أدنى شك في أنهم سيحافظون على محارب شجاع كالثاركي العظيم للمشاركة في الرياضة النادرة التي يمكنه تقديمها في المباريات الكبرى.

ولكن إن لم أجد طريقي إلى تلك النقطة، حيث الفرص ممتازة، فسوف أتجول لأيام خلال هذا السواد الفظيع إلى أن أموت بعد أن يهزمني العطش والجوع، أو .... ما هذا!

سمعت أقدامًا خافتة خلفي، فألقيت نظرة خاطفة سريعة جمدت الدم في عروقي لما رأيته. لم يكن الخوف من الخطر الحالي، بمثل ما كانت الذكريات المروعة التي استدعاها المشهد عن تلك الفترة التي اقتربت فيها من حافة الجنون وأنا بجوار جثة الرجل الذي قتلته في زنازين الوارهونيين، وظهرت أعين متوهجة من التجاويف المظلمة وسحبت الشيء الذي كان رجلاً من براثني وسمعتهم يشقون طريقهم وهم يحملونه إلى احتفالهم الرهيب.

أنظر الآن، في هذه الحفر السوداء لدى الوارهون الآخرين، إلى تلك العيون النارية نفسها، متوهجة في وجهي خلال الظلام الرهيب، دون أن تكشف عن أي علامة على الوحش وراءها. أعتقد أن أكثر سمة مخيفة لهذه المخلوقات هي صمتهم الرهيب، وحقيقة أن أحدًا لا يراهم أبدًا - لا شيء سوى تلك الأعين المؤذية، تلمع دون أن ترف في الظلام الفارغ خلفها.

أحكمت تشبثي بسيفي الطويل في يدي، وتراجعت ببطء على طول الممر بعيدًا عن الشيء الذي شاهدني. لكنني كلما تراجعت، تتقدم العيون؛ لم يكن هناك أي صوت، ولا

حتى صوت التنفس، ما عدا صوت جرجرة الأرجل أحيانًا الناجمة عن سحب ميت من أطرافه، والتي كانت أول ما جذب انتباهي.

واصلت تحركي دون أن أتمكن من الفرار من مطاردي الشرير. وفجأة سمعت ضوضاء جرجرة الأقدام على يميني. نظرت، فرأيت زوجًا آخر من الأعين، من الواضح أنه يقترب من ممر التقاطع. عندما بدأت أتراجع ببطء ثانية، سمعت الضوضاء تتكرر ورائي، وقبل أن استدير سمعتها مرة أخرى على يساري.

أحاطت بي كل تلك الأشياء، وحاصرتني عند تقاطع ممرين. انقطع التراجع في كل الاتجاهات، إلا إذا اخترت مهاجمة أحد الوحوش. حتى ذلك الحين لم يكن لدي شك أن الآخرين سوف يلقون أنفسهم فوق ظهري. لم أستطع حتى تخمين حجم أو طبيعة هذه المخلوقات الغريبة. خمنت أنها ذات أبعاد ضخمة؛ لأن الأعين كانت على مستوى عينيَّ.

لماذا يؤدي الظلام إلى تضخيم الأخطار التي نواجهها؟ في النهار، كنت لأهاجم البانث الكبير نفسه عند الضرورة، لكنني ترددت أمام زوج الأعين وأنا محاط بظلام هذه الحفر الصامتة.

سرعان ما أدركت أن المسألة ستفلت تمامًا من يدي؛ فالأعين على يميني تتحرك ببطء مقتربة مني، كما كان حال الأعين على يساري وورائي وأمامي. كانوا يقتربون مني تدريجيًّا- ولا يزال هذا الصمت الخفي فظيعًا!

أخذت الأعين تقترب تدريجيًّا أكثر وأكثر، لفترة بدت عدة ساعات، حتى شعرت أنني سأجن رعبًا. كنت أنعطف باستمرار في هذا الطريق لمنع أي اندفاع مفاجئ من الخلف، إلى أن تهالكت. لم أكن قادرًا على التحمل أكثر، فقبضت بقوة على سيفي الطويل واستدرت فجأة مهاجمًا أحد مُعذبيَّ.

عندما كنت فوقه تقريبًا، تراجع الشيء أمامي؛ لكن صوتًا من خلفي جعلني أستدير في الوقت المناسب، لأرى ثلاثة أزواج من الأعين تندفع نحوي من الخلف. التفتُّ صارخًا في غضب لمواجهة الوحوش الجبناء، وعندما تقدمت تراجعوا كما فعل زميلهم. اكتشفت بنظرة أخرى أن الأعين الأولى تتسلل نحوي مرة أخرى، هاجمتها ثانية ووجدتها تتراجع أمامي وسمعت الاندفاع المكتوم للثلاثة خلفي.

واصلنا على هذا النحو، والأعين تقترب تدريجيًّا حتى ظننت أنني أكاد أن أُجن من ضغط هذه المحنة الرهيب. من الواضح أنهم في انتظار القفز على ظهري، ومن الواضح أيضًا أن الوقت لن يطول قبل أن ينجحوا في

ذلك؛ إذ لم أكن قادرًا على تحمل تكرار هذا الهجوم والهجوم المضاد إلى أجل غير مسمى. وفي الواقع، كنت أشعر أنني بدأت أضعف من هذا الإجهاد الذهني والبدني.

ألقيت في تلك اللحظة لمحة أخرى من طرف عيني على زوج من الأعين في ظهري يستعد للاندفاع المفاجئ ناحيتي، فاستدرت لمواجهة الهجمة. اندفع ثلاثة بسرعة من الاتجاه الآخر، لكني صممت على متابعة زوج الأعين لأسوي حسابي على الأقل مع أحد الوحوش، وبالتالي استريح من ضغط مواجهة الهجمات من الاتجاهين.

لم أسمع أي صوت في الممر إلا صوت تنفسي، لكني أعرف أن تلك المخلوقات الخارقة الثلاثة على وشك أن تنقض علي. لم تعُد الأعين التي تواجهني تتراجع بسرعة الآن، وبإمكاني أن أصل إليه بسيفي. رفعت سيفي لأضربه ضربة تحررني، وعندئذ شعرت بجسم ثقيل فوق ظهري. شيء بارد ورطب وغروي، انقض على حلقي. تعثرت، وسقطُ.

* * *

(15)
الفراروالمطاردة

لم أفقد الوعي أكثر من بضع ثوان، ومع ذلك كنت أعرف أنني فقدت الوعي؛ فالشيء التالي الذي أدركته أن شعاعًا متزايدًا ينير الممر حولي، والأعين اختفت.

لم أُصب بأي أذى باستثناء كدمة طفيفة على جبهتي، حيث اصطدمت بالحجر عندما سقطت واهنًا.

وقفت للتأكد من مصدر الضوء. جاء من شعلة في يد واحد من مجموعة من أربعة محاربين خُضر، يسرعون عبر الممر في اتجاهي. لم يروني بعد، ولذا لم أضع أي وقت وتسللت إلى أول ممر وجدته في التقاطع. لكنني هذه المرة لم أتقدم بعيدًا عن الممر الرئيس كما حدث في المرة السابقة التي أسفرت عن فقداني تارس تاركاس وحراسه.

أسرعت المجموعة تجاه فتحة الممر حيث كنت منحنيًا على الجدار. تنفست الصعداء بعد مرورهم. لم يكتشفوني، والأفضل من ذلك كله أن هذه المجموعة هي نفسها التي تبعتها إلى الحُفر. وكانت تضم تارس تاركاس وحراسه الثلاثة.

سرت خلفهم، وسرعان ما وصلنا إلى الزنزانة التي كان الثاركي العظيم مقيدًا فيها بالسلاسل. ظل اثنان من المحاربين في الخارج، بينما دخل الرجل الذي يحمل المفاتيح مع الثاركي ليشد وثاقه الحديدي مرة أخرى. أخذ الاثنان في الخارج يتجولان ببطء في اتجاه المسار اللولبي الذي يقود إلى الطوابق العليا، وفي لحظة اختفيا لإلقاء نظرة إلى منعطف الممر.

كانت الشعلة معلقة في تجويف بجانب الباب، بحيث تنير أشعتها الممر والزنزانة في وقت واحد. ما إن اختفى المحاربان، حتى اقتربت من مدخل الزنزانة، وقد وضعت بالفعل خطة محكمة.

على الرغم من أنني لم أكن سعيدًا بما قررت القيام به، فما من بديل إذا أردنا أنا وتارس تاركاس أن نعود معًا إلى مخيمي الصغير في التلال.

اقتربت من باب زنزانة تارس تاركاس، محتفظًا بمكاني قرب الجدار، حيث وقفت وسيفي الطويل فوق رأسي. أمسكته بكلتا يدي لأتمكن من إسقاطه بضربة واحدة سريعة على جمجمة السجان عند خروجه.

أكره أن أحكي بإسهاب ما حدث بعد أن سمعت خطوات الرجل وهو يقترب من المدخل. يكفي القول إنه خلال دقيقة أو دقيقتين، كان تارس تاركاس يرتدي معدن زعيم وارهوني، ويسرع أسفل الممر نحو الطريق اللولبي، حاملاً شعلة الوارهوني لتضيء طريقه. وخلفه بعشر خطوات يتبعه جون كارتر، أمير هيليوم.

أما رفيقا الرجل الذي يرقد حاليًا بجوار باب زنزانة تارس تاركاس، فقد بدأ الآن يصعدا السلم وشاهدا الثاركي.

صاح أحدهما: «لماذا تأخرت، تان جاما؟».

أجاب تارس تاركاس: «واجهت مشكلة مع القفل. واكتشف الآن أنني تركت سيفي القصير في الزنزانة. اذهبا، وسوف ألحق بكما».

أجاب الحارس الذي تكلم من قبل: «كما تشاء، تان جاما. سوف نراك في الطابق الأعلى مباشرة».

أجاب تارس تاركاس: «نعم»، واستدار كأنما يعود بخطواته إلى الزنزانة، لكنه انتظر فقط حتى اختفى الاثنان في الطابق العلوي. ثم انضممت له وأطفأنا الشعلة، وتسللنا معًا نحو المنحدر اللولبي الذي يقود إلى الطوابق العليا من المبنى.

في الطابق الأول وجدنا أن الرواق ينتهي عند منتصف الطريق، مما يستلزم عبور الغرفة الخلفية المملوءة بالقوم الخُضر قبل أن نصل إلى الفناء الداخلي، ولذا لم يكن أمامنا سوى شيء واحد وهو الوصول إلى الطابق الثاني وعبور الرواق الذي سبق أن اجتزته على طول المبنى.

صعدنا بحذر. كان يمكننا سماع أصوات المحادثة القادمة من الغرفة العلوية، لكن القاعة لا تزال غير مضيئة، ولم يكن هناك أحد على مرمى البصر ونحن نصل إلى الجزء العلوي من السلم. شققنا طريقنا معًا بحذر عبر القاعة الطويلة، ووصلنا إلى شرفة تطل على الفناء، دون انكشاف.

تقع على يميننا نافذة الغرفة التي سبق أن رأيت فيها تان جاما والمحاربين الآخرين عندما خرجوا متجهين نحو زنزانة تارس تاركاس في وقت سابق من مساء اليوم. لقد عاد رفاقه، وسمعنا الآن جزءًا من حديثهما.

سأل أحدهما: «ماذا يؤخر تان جاما؟».

قال آخر: «من المؤكد أنه يستغرق كل هذا الوقت لإحضار سيفه القصير من زنزانة الثاركي».

سألت امرأة: «سيفه القصير؟، ماذا تعني؟»

أوضح المتحدث الأول: «ترك تان جاما سيفه القصير في زنزانة الثاركي، وتركنا عند السلم وعاد، لإحضاره».

قالت المرأة: «تان جاما ليس معه سيفه القصير هذه الليلة. فقد تحطم في معركة اليوم مع الثاركي، وأعطاه لي تان جاما لإصلاحه. انظر، ها هو»؛ وجذبت سيف تان جاما القصير من تحت الحرير والفراء المخصص لنومها.

انطلق المحاربان على الفور.

صاح أحدهم: «هناك شيء خاطئ».

قال الآخر: «هذا ما تصورته عندما تركنا تان جاما عند السلم. فقد تصورت حينذاك أن صوته بدا غريبًا».

«هيا! فلنسرع إلى الحُفر».

لم ننتظر لنسمع المزيد. حوّلت شرائط عتادي إلى حزام واحد طويل بعد ربطها، وأنزلت تارس تاركاس إلى الفناء، وبعد لحظة نزلت إلى جانبه.

بالكاد ما قلنا عدة كلمات منذ أن أجهزت على تان جاما عند باب الزنزانة، ورأيت على ضوء الشعلة تعبير الذهول المطلق على وجه الثاركي العظيم.

وهنا قال: «كان يجب أن أتعلم ألا أتعجب من أي شيء يقوم به جون كارتر». هذا كل ما قاله. لم يكن بحاجة إلى أن يخبرني أنه يعرب عن تقديره للصداقة التي دفعتني للمخاطرة بحياتي لإنقاذه، كما لم يكن بحاجة إلى القول إنه سعيد لرؤيتي.

لقد كان هذا المحارب الأخضر الشرس أول من حيّاني ذلك اليوم الذي شهد وصولي للمرة الأولى إلى كوكب المريخ، والآن مضت عشرون سنة. لقد استقبلني برمح مصوب وكراهية قاسية في قلبه وهو يميل على جانب حيوانه الثوات القوي وأنا أقف بجانب حاضنة جماعته عند قاع البحر الميت وراء كوراد. والآن لا أجد بين سكان العالمين صديقًا أفضل من تارس تاركاس، جيداك ثارك.

عندما وصلنا إلى الفناء، وقفنا لحظة في الظلال تحت الشرفة لمناقشة خططنا.

قلت: « تضم مجموعتنا الآن خمسة، تارس تاركاس: ثوفيا، زودار، كارثوريس، ونحن. سنحتاج إلى خمسة حيوانات ثوات لتحملنا».

صاح: «كارثوريس! ابنك؟».

«نعم. لقد وجدته في سجن شادور على بحر أوميان، في أرض الأبناء الأوائل».

«لا أعرف أي من هذه الأماكن، جون كارتر، هل هي في برسوم؟».

«على برسوم وتحتها يا صديقي؛ انتظر حتى ينجح هروبنا، وسوف تستمع إلى أغرب قصة سمعها على الإطلاق أي برسومي في العالم الخارجي. علينا الآن أن نسرق الثوات ونبتعد أيضًا نحو الشمال قبل أن يكتشف هؤلاء الزملاء كيف خدعناهم».

وصلنا بأمان إلى البوابات الكبيرة في أقصى الفناء، والتي كان من الضروري أن نأخذ الثوات من خلالها إلى الشارع وراءها. يصعب التعامل مع خمسة من هذه الوحوش الكبيرة العنيفة، التي بطبيعتها جامحة وشرسة كأسيادها الذين لا يُخضعونها إلا بالقسوة والقوة الغاشمة.

شمت الثوات رائحتنا غير المألوفة، عند اقترابنا، وتحلقت حولنا بشخير غاضب. ارتفعت أعناقهم الطويلة الضخمة، فاغرة أفواهها عاليًا فوق رؤوسنا. إنهم في أحسن الأحوال وحوش مخيفة المظهر، ولكن عند استثارتهم يصبحون تمامًا بمثل خطورة مظهرهم. يرتفع الثوات أعلى من كتفي بحوالي عشرة أقدام. بشرته ملساء وخالية من الشعر، ويوجد على ظهره وجانبيه ما يشبه اللوح الاردوازي داكن اللون، ويظلل لونه سيقانه الثماني وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي في أقدامه الضخمة، المبطنة، دون أظافر. أما بطنه فلونها أبيض ناصع؛ وذيله العريض المسطح، وهو عند طرفه أكبر منه عند منبته، يُكمل صورة هذه البهيمة الشرسة لدى المريخيين الخُضر- حصان حرب مناسب لهؤلاء الناس المحبون للحرب.

ونظرًا لأن الثوات لا يسترشد إلا بوسيلة التخاطر، لم تكن هناك حاجة لكبح جماحها أو لجامها؛ وبالتالي أصبح هدفنا الآن هو العثور على اثنين منهما يطيعان أوامرنا غير المنطوقة. عندما هاجمتنا الحيوانات، نجحنا في السيطرة عليها بما يكفي لمنع أي هجوم مشترك علينا، لكن ضجيج أنينهم كان يمكن أن يجلب محاربين إلى الفناء لاستطلاع الأمر إذا استمر لفترة أطول.

نجحت أخيراً في الوصول إلى جانب أحد الوحوش الكبيرة. وقبل أن يعرف ما سأفعله، كنت أجلس بحزم منفرج الساقين فوق ظهره اللامع. وبعد لحظة أخرى، أمسك تارس تاركاس بحيوان آخر وامتطاه، وقدنا معًا ثلاثة أو أربعة آخرين نحو البوابات الكبيرة.

سار تارس تاركاس أمامي، وانحنى ليصل إلى المزلاج، وفتح الحواجز، بينما أمسكت أنا بالثوات الطليقة حتى لا تعود مرة أخرى إلى القطيع. سرنا معًا إلى الطريق بالحيوانات المسروقة، دون انتظار لإغلاق البوابات، وأسرعنا نحو الحدود الجنوبية للمدينة.

لم يكن هروبنا حتى الآن أقل من الرائع، ولم يخذلنا حظنا؛ فقد مررنا بالمناطق الخارجية للمدينة الميتة، ووصلنا إلى مخيمنا دون سماع أي صوت ضعيف حتى لمطاردة.

وهنا الصفير الخافت، والإشارة المتفق عليها مسبقًا، أخبرت مجموعتنا بعودتي، واستقبلنا الثلاثة بكل مظاهر الابتهاج المتحمس.

لم يضع سوى القليل من الوقت في سرد مغامرتنا. تبادل تارس تاركاس وكارثوريس التحيات الكريمة غير الرسمية في برسوم، ويمكنني القول بحدسي إن الثاركي أحب ابني وأن كارثوريس بادله المحبة.

قمت بتقديم زودار والجيداك الأخضر رسميًّا لبعضهما. أجلسنا ثوفيا فوق أقل ثوات عِندًا، وامتطى زودار وكارثوريس اثنين آخرين، وانطلقنا بخطى سريعة نحو الشرق. اتخذنا عند أقصى حدود المدينة طريقًا دائريًّا نحو الشمال، وأسرعنا دون صوت تحت أشعة القمرين المجيدة عبر قاع البحر الميت، بعيدًا عن الوارهون والأبناء الأوائل، لكننا لم نكن نعرف المخاطر والمغامرات الجديدة التي قد تواجهنا.

توقفنا في ظهر اليوم التالي لنستريح وتستريح بهائمنا، التي أخذت تتحرك ببطء وهي تتناول النباتات الصفراء شبيه الطحالب، وشكلت طعامها وشرابها خلال المسيرة. تطوعت ثوفيا أن تتولى المراقبة، بينما تنام باقي المجموعة لمدة ساعة.

يبدو أنني كنت على وشك أن أغلق عيني، عندما شعرت بيدها على كتفي وسمعت صوتها الناعم يحذرني من خطر جديد.

قالت همسًا: «انهض يا أميري. هناك من أتوا خلفنا، ويدل مظهرهم أنهم مجموعة كبيرة من المطاردين».

وقفت الفتاة تشير إلى الاتجاه الذي جئنا منه، وعندما نظرت تصورت أيضًا أنني أرى خطًّا داكنًا رفيعًا يلوح في الأفق البعيد. أيقظت الآخرين. كان بإمكان تارس تاركاس أن يرى أبعد، حيث كانت قامته العملاقة تعلونا جميعًا.

وقال: «إنها مجموعة كبيرة من الرجال الراكبين، ويتحركون بسرعة عالية».

لم يكن هناك وقت لنضيعه. انطلقنا إلى حيواناتنا المكبلة، وأطلقنا سراحها وأمتطيناها، ثم أدرنا وجوهنا مرة أخرى نحو الشمال، وأخذت رحلتنا مرة أخرى أعلى سرعة لأبطأ وحوشنا.

ركضنا عبر البرية الصفراء، لما تبقى من اليوم والليلة التالية كلها، ومطاردونا خلفنا ويزداد اقترابهم منا. كانوا يقللون المسافة بيننا وبينهم ببطء، ولكن بيقين. وفقط قبل حلول الظلام، أصبحوا قريبين بما يكفي لأن نميز بوضوح أنهم من المريخيين الخُضر، وفي أثناء الليل الطويل سمعنا بوضوح قعقعة تجهيزاتهم خلفنا.

كشف ارتفاع الشمس، في اليوم الثاني من رحلتنا، عن وجود جحافل المطاردين على بُعد أقل من نصف ميل خلفنا. ولما رأونا، ارتفعت من بين صفوفهم صرخات النصر الوحشية.

توجد أمامنا بعدة أميال مجموعة من التلال، على شاطئ البحر الميت الذي عبرناه. إذا أمكننا فقط أن نصل إلى هذه التلال، ستتعزز إلى حد كبير فرصنا في الهرب. لكن ركوبة ثوفيا، على الرغم من أنها تحمل أخف عبء، بدأت تتضح عليها علامات الإنهاك. كنت أركب بالقرب منها عندما ترنح فجأة حيوانها ومال ناحيتي. رأيت أنه سوف يسقط، لكني حملتُ الفتاة من فوق ظهره قبل أن يسقط، وأرجحتها إلى مكان خلفي فوق حيواني، حيث تشبثت بذراعيها حولي.

سرعان ما أثبت هذا العبء المزدوج أنه ثقيل جدًّا على حيواني المرهق أصلاً. وهكذا تضاءلت سرعتنا بشدة، ذلك أن الآخرين لا يمكن أن يسيروا أسرع من سرعة أبطأنا. ما من أحد في هذه المجموعة الصغيرة يمكن أن يتخلى عن آخر؛ رغم أننا من

بلدان مختلفة، وألوان مختلفة، وأعراق مختلفة، وأديان مختلفة، بل وأحدنا من عالم مختلف.

كنا نقترب من التلال، لكن الوارهون كانوا مسرعين إلى حد أننا فقدنا

كل أمل في الوصول إلى التلال في الوقت المناسب. كنت وثوفيا في الخلف، ذلك أن حيواننا كان يتخلف أكثر وأكثر. وفجأة شعرت بالشفاه الحارة للفتاة تضغط قبلة على كتفي، وغمغمت قائلة: «من أجلك يا أميري»، ثم تركت ذراعيها ينزلقان من حول خصري، وسقطت.

استدرت وعرفت أنها انزلقت عمدًا على الأرض في نفس مسار الشياطين القساة الذين يطاردوننا، متصورة أنها بتخفيف الحِمل على دابتي يمكن للدابة أن تحملني إلى الأمان في التلال. يا لها من طفلة مسكينة! كان يجب أن تعرف جون كارتر أفضل من ذلك.

أدرت اتجاه حيواني الثوات، وقمت بحثّه أملاً في الوصول إليها وحملها مرة أخرى في رحلتنا اليائسة. ألقى كارثوريس نظرة وراءه في نفس الوقت تقريبًا وأدرك الموقف؛ إذ في الوقت الذي وصلت فيه إلى جانب ثوفيا كان هو هناك أيضًا، وقفز من دابته وألقى ثوفيا على ظهرها، وأدار رأس الحيوان نحو التلال بعد أن غز الوحش بحدة في ردفه بسطح سيفه. ثم حاول أن يفعل الشيء نفسه معي.

امتلأت فخرًا بشجاعة الصبي وفروسيته في التضحية بالنفس، ولم يهمني أن تصرفه انتزع فرصة هروبنا الأخيرة الواهية. اقترب الآن الوارهون كثيرًا. اكتشف تارس تاركاس وزودار غيابنا، فأسرعا لدعمنا. كان كل شيء يشير إلى نهاية رائعة لرحلتي الثانية إلى برسوم. كرهت أن أذهب دون أن أرى أميرتي الإلهية، وأحملها بين ذراعي مرة أخرى؛ ولكن إذا لم يكن مُقدرًا لنا ذلك، فسوف أقوم بأقصى ما أستطيع. وفي هذه اللحظات القليلة الأخيرة المالحة قبل أن أنتقل إلى ذلك المستقبل المجهول، يمكنني على الأقل تقدير نفسي في مهنتي المختارة بما سأتركه لوارهوني الجنوب من غذاء لأحاديث عشرين جيلاً قادمًا.

ولما كان كارثوريس مترجلاً، انزلقت من الجزء الخلفي من دابتي، وأخذت مكاني بجواره لمواجهة هجوم الشياطين الذين ينقضون علينا صارخين. وبعد لحظة، كان تاركس تاركاس وزودار يرتبان نفسيهما من الجانبين، مع إطلاق حيواناتهما الثوات لنكون جميعًا على قدم المساواة.

كان الوارهون ربما على بُعد مائة ياردة منا عندما دوى انفجار قوي من فوقنا ووراء ظهورنا، وفي نفس اللحظة تقريبًا انفجرت قذيفة في صفوفهم المتقدمة. وعلى الفور، ساد ارتباك. سقط مئات المحاربين على الأرض. واندفعت الثوات الطليقة بلا ركاب هنا وهناك بين الموتى والمحتضرين. سُحق المحاربون المترجلون تحت الأقدام في التدافع الجماعي الذي حدث في أعقاب ذلك. انتهت جميع مظاهر النظام في صفوف الرجال الخُضر، وعندما نظروا عاليًا فوق رؤوسنا لتتبع منشأ هذا الهجوم غير المتوقع، تحول الاضطراب إلى التراجع، وتحول التراجع إلى حالة من الذعر الجامح. وفي لحظة أخرى كانوا يبتعدون بجنون، بمثل ما كانوا يهجمونه علينا من قبل.

استدرنا للنظر في الاتجاه الذي صدر منه الانفجار الأول، وهناك شاهدنا، عند قمم التلال القريبة، سفينة فضائية حربية كبيرة تتمايل بمهابة في الهواء. انطلقت ثانية بندقية مقدمتها حتى ونحن ننظر، وانفجرت قذيفة أخرى بين الوارهون الفارين.

مع اقتراب السفينة، لم أتمكن من إخفاء صرخة ابتهاج جامحة، إذ رأيت شعار هيليوم فوق مقدمتها.

* * *

(16)
في الأسر

وقفت مع كارثوريس وزودار وتارس تاركاس نحدق في السفينة الرائعة التي تعني لنا جميعًا الكثير؛ رأينا سفينة ثانية ثم ثالثة أعلى قمة التلال، تتهادى برشاقة بعد السفينة الأولى.

انطلقت الآن عشرات من طائرات الراكب الواحد الاستطلاعية من الأسطح العليا للسفينة الأقرب، وبعد دقيقة كان عدد أكبر يسرع في غطس طويل وسريع إلى الأرض حولنا.

وفي لحظة أخرى، أصبحنا محاطين ببحارة مسلحين وتقدم ضابط لمخاطبتنا، عندما سقطت عيناه على كارثوريس. انطلق إلى الأمام وعلى وجهه علامات السعادة والاندهاش، ووضع يديه على كتف الصبي، وناداه بالاسم.

هتف: «كارثوريس، أميري، كاور! كاور! إن هور فاستوس يُحيي ابن ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، وزوجها جون كارتر. أين كنت يا أميري؟ لقد انغمست هيليوم كلها في الحزن. لقد حلت مصائب رهيبة ببلد جدك الأكبر منذ ذلك اليوم الكارثي الذي شهد مغادرتك من بيننا».

صاح كارثوريس: «لا تحزن، هور فاستوس الطيب، فأنا لن أعود بمفردي فقط لأسعد قلب أمي وقلوب شعبي الحبيب، لكن معي أيضًا أكثر من تحبه برسوم كلها، أعظم محاربيها ومنقذها، جون كارتر، أمير هيليوم!».

استدار هور فستوس في الاتجاه الذي يشير إليه كارثوريس، ولما رآني كان كأنما انهار من هول المفاجأة.

صاح متعجبًا: «جون كارتر!»، ثم لاحت في عينيه نظرة مضطربة مفاجئة. قال: «يا أميري، أين ...»، ثم توقف؛ لكنني كنت أعرف السؤال الذي لم تجرؤ شفتاه على النطق به. فالزميل الوفي لن يكون من سيجبرني على الاعتراف بالحقيقة المروعة أنني عدت من حضن إيس، نهر الغموض، عائدًا من شاطئ بحر كوراس المفقود، ووادي دور.

«آه، يا أميري»، واصل حديثه كأنما لم تقطع أي فكرة تحيته، «يكفي أنك عدت، وسيف هور فاستوس له عظيم الشرف أن يكون تحت أقدامك». مع هذه الكلمات، فك الزميل النبيل غمد سيفه ووضعه أمامي على الأرض.

من يعرف عادات وطبائع المريخيين الحُمر، سوف يُقدر عمق المعنى الذي نقله هذا التصرف البسيط لي ولنا جميعًا- نحن من شهدناه. عبارته كانت تعادل القول: «سيفي، جسدي، حياتي، روحي، كلها لك تفعل بها ما تشاء. وإلى أن أموت وبعد الموت، أعتبرك أنت فقط سلطة كل فِعل من أفعالي. سواء كنت أنت على صواب أو خطأ، فإن كلمتك ستكون بالنسبة لي الحقيقة الوحيدة. وكل من يرفع يده ضدك، سيرد عليه سيفي».

إنه يمين الولاء الذي يقسم به الرجال أحيانًا أمام الجيداك الذي سمو شخصيته وشهامة أفعاله تلهم اتباعه بحب حماسي. لم أعرف أبدًا مثل هذه الإشادة الرفيعة لبشري أقل من جيداك. لم يكن هناك سوى رد واحد ممكن. انحنيت، ورفعت السيف من الأرض، ورفعت المقبض إلى شفتي، ثم خطوت إلى هور فاستوس، وشبكت السلاح عليه بيدي.

«هور فاستوس»، قلت وأنا أضع يدي على كتفه، «أنت أعلم بما في قلبك. ليس لدي شك أنني سأحتاج سيفك، وأرجو أن تقبل من جون كارتر وبشرفه المقدس تأكيده أنه لن يدعوك أبدًا إلى استخدام هذا السيف إلا دفاعًا عن الحق والعدل والإنصاف».

أجاب: «أعرف هذا، يا أميري، قبل أن ألقي بسيفي الحبيب تحت أقدامك».

خلال حديثنا، كانت هناك طائرات أخرى تحلق جيئة وذهابًا بين الأرض والسفينة الحربية. وانطلقت الآن من السفينة الحربية طائرة كبيرة، تسع ربما عشرات الأشخاص، وهبطت بالقرب منا. وما إن لمست الأرض، حتى انطلق ضابط من سطحها متقدمًا إلى هور فاستوس لتحيته.

وقال: «يود كانتوس كان أن تتوجه هذه المجموعة التي أنقذناها إلى سطح سفينة زافاريان على الفور».

مع اقترابنا من السفينة الصغيرة، نظرت نحو أفراد مجموعتي، ولاحظت للمرة الأولى أن ثوفيا لم تكن بينها. أوضح سؤالي حقيقة أن أحدًا لم يرها منذ أن نغز كارثوريس حيوانها الثوات بحيث أخذ يركض بجنون نحو التلال، أملاً في إبعادها عن طريق الأذى.

أرسل هور فاستوس على الفور عشرات من طائرات الاستطلاع الجوي في العديد من الاتجاهات للبحث عنها. لا يمكن أن تبتعد كثيراً منذ أن رأيناها آخر مرة. صعدنا إلى سطح المركبة التي أُرسلت لإحضارنا، وخلال لحظة كنا على سطح زافاريان.

كان أول رجل يتقدم لتحيتي هو كانتوس كان نفسه. لقد ارتقى صديقي القديم إلى أعلى مكان في سلاح بحرية هيليوم، لكنه لا يزال رفيقي الشجاع نفسه الذي شاركني الحرمان في زنزانة وارهون، والفظائع الرهيبة في المباريات الكبرى، ثم لاحقًا في مخاطر بحثنا عن ديجاه ثوريس داخل مدينة زودانجا المعادية.

هذا إضافة إلى أنني كنت جوالاً مجهولاً على كوكب غريب، وكان هو بادوار[23] بسيطًا في سلاح البحرية بهيليوم. واليوم، يقود جميع أهوال هيليوم الكبيرة في الفضاء، وأنا كنت أمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم.

لم يسألني أين كنت. مثله مثل هور فاستوس، كان يُخمن أيضًا الحقيقة، ولن يكون هو من ينتزعها مني. كان على يقين أنه سيعرف في وقت ما، وإلى أن يحين هذا الوقت، كان يشعر بالارتياح لمجرد معرفته أنني معه مرة أخرى. استقبل كارثوريس وتاركس تاركاس بسعادة كبيرة، ولم يسأل أيًّا منهما أين كان. ونادرًا ما كان يبعد يديه عن الصبي.

قال لي: «أنت لا تعرف، جون كارتر، مدى حب هيليوم لابنك. كأنما كل الحب الكبير الذي حملناه لوالده النبيل ووالدته المسكينة قد تركز فيه. وعندما عرفنا أنه مفقود، بكى 10 مليون شخص».

همست: «ماذا تعني، كانتوس كان، بقولك 'والدته المسكينة'؟»، إذ بدت الكلمات محملة بمعنى شرير لم أستطع فهمه.

أخذني جانبًا.

وقال: «منذ سنة، أي منذ أن اختفى كارثوريس، حزنت ديجاه ثوريس وندبت ابنها المفقود. لقد صُدمت منذ سنوات طوال، عندما لم تعُد من مصنع الجو، لكن الصدمة خفت إلى حد ما بواجبات الأمومة، عندما حطم ابنك قشرته البيضاء في تلك الليلة نفسها.

عرفت هيليوم كلها أن معاناتها رهيبة، ألم تكن هيليوم كلها تعاني معها فقدان أميرها! ومع فقدان الصبي، لم يبق شيء. وبعد أن عادت بعثة وراء الأخرى بنفس القصة

---

(23) بادوار: رتبة مريخية تُعادل رتبة مُلازم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Padwar المترجمة.

اليائسة حول عدم معرفة أي دليل عن مكان وجوده، زاد ذبول أميرتنا المحبوبة أكثر فأكثر، إلى أن أصبح كل من يراها يشعر أنها مسألة أيام قبل أن تذهب لتنضم إلى أحبائها داخل حدود وادي دور.

وكملاذ أخير، تولى والدها مورس كاجاك وجدها تاردوس مورس قيادة حملتين قويتين، وأبحرا منذ شهر لاستكشاف كل شبر من الأرض في نصف الكرة الشمالي من برسوم. لم تصلنا منهما أي كلمة لمدة أسبوعين، وانتشرت شائعات أنهما واجها كارثة مروعة، وأن الجميع لقي حتفه.

في حوالي ذلك الوقت، جدد زات أراس إلحاحه بطلب يدها للزواج. كان دائم الإلحاح عليها بعد اختفائك. هي تكرهه وتخشاه، ولكن مع فقدان والدها وجدها، أصبح زات أراس قويًّا جدًّا؛ لأنه لا يزال جد[24] زودانجا، الموقع الذي تاردوس مور عينه فيه، لعلك تتذكر، بعد أن رفضت أنت هذَا الشرف.

كانت لديه مقابلة سرية معها منذ ستة أيام. لا يعرف أحد ماذا حدث، لكن ديجاه ثوريس اختفت في اليوم التالي ومعها عشرات من حراس منزلها وحرسها الشخصي، بمن فيهم سولا، المرأة الخضراء ابنة تارس تاركاس، كما تذكر. لم يتركوا أي كلمة تشير إلى نواياهم، لكن هذه دائمًا هي عادة من يذهبون إلى الحج الطوعي الذي لم يعُد منه أحد. لا يمكننا التفكير في أي شيء آخر سوى أن ديجاه ثوريس سعت إلى أن الحضن الجليدي لنهر إيس، وأن خدمها المخلصين اختاروا مرافقتها.

كان زات أراس في هيليوم عندما اختفت. وأمر هذا الأسطول بالبحث عنها، ونحن نبحث عنها منذ ذلك الحين، ولم نعثر لها على أثر، وأخشى أن يكون سعينا دون جدوى».

بينما كنا نتحدث، عادت طائرات هور فاستوس إلى زافاريان. لم يعثر أحد على أثر لثوفيا. كنت مكتئبًا من خبر اختفاء ديجاه ثوريس، والآن أضيف عبء آخر من المخاوف بشأن مصير هذه الفتاة التي أعتقد أنها ابنة من بيت أحد نبلاء برسوم، وكانت نيتي أن أبذل كل جهدي لإعادتها إلى أهلها.

كنت على وشك أن أطلب من كانتوس كان إرسال بعثة أخرى للبحث عنها، عندما وصلت طائرة من سفن الأسطول الرئيسة إلى زافاريان وبها ضابط يحمل رسالة من زات أراس إلى كانتوس كان.

---

(24) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed المترجمة.

قرأ صديقي الرسالة ثم استدار ناحيتي.

«يأمرني زات أراس أن أحضر ’السجناء‘ للمثول أمامه. لا يوجد شيء آخر يمكن القيام به. إنه قائد أعلى في هيليوم، على أن تقاليد الفروسية والذوق السليم تقتضي أن يحضر هو إلى هنا ويقدم التحية لمنقذ برسوم مع مرتبة الشرف التي يستحقها».

قلت مبتسمًا: «تعرف جيدًا يا صديقي أن زات أراس لديه سبب وجيه لكراهيتي. لا شيء سوف يسعده أكثر من إذلالي ثم قتلي. والآن لديه عذر ممتاز، فلنذهب ونرى إن كانت لديه الشجاعة للاستفادة من هذه الفرصة».

استدعيت كارثوريس وتارس تاركاس وزودار، ودخلنا الطائرة الصغيرة مع كانتوس كان والضابط الذي أرسله زات أراس، وخلال دقيقة كنا نخطو إلى ظهر السفينة الرئيسة التي تحمل زات أراس.

لم تظهر على وجه جد زودانجا، عندما اقتربنا منه، أي علامة على الترحيب أو الامتنان؛ ولم يوجه حتى إلى كارثوريس كلمة ودية. كان موقفه باردًا ومتعجرفًا ومتصلبًا.

«كاور، زات أراس»، قلت مُرحبًا، لكنه لم يرد.

سأل كانتوس كان: «لماذا لم تنزع سلاح هؤلاء الأسرى؟».

أجاب الضابط: «إنهم ليسوا أسرى، زات أراس».

«اثنان منهم من أنبل أسرة في هيليوم. وتارس تاركاس، جيداك ثارك، هو أفضل حليف أحبه تاردوس مورس. والآخر هو صديق ورفيق أمير هيليوم، وهذا كاف بالنسبة لي».

رد زات أراس بحسم: «لكنه غير كاف بالنسبة لي. يجب أن أسمع أكثر من مجرد أسماء من ذهبوا إلى الحج. أين كنت، جون كارتر؟».

أجبته: «لقد عدت توًّا من وادي دور وأرض الأبناء الأوائل، زات أراس».

صاح بسرور واضح: «آه! أنت لا تنكر إذن؟ أنت عائد من حضن نهر إيس؟».

«لقد عدت من أرض أمل زائف، من وادي التعذيب والموت؛ وتمكنت مع رفاقي من الفرار من براثن شياطين الكذب البشعة. وأعود إلى برسوم التي أنقذتها من موت مؤلم لأنقذها مرة أخرى، ولكن هذه المرة من أكثر أشكال الموت رعبًا».

صاح زات أراس: «توقف، أيها الكافر! لا تأمل في إنقاذ نفسك يا جبان باختلاق أكاذيب مروعة .....» لكنه لم يواصل. لا أحد يصف جون كارتر بأنه ‘جبان’ و‘كاذب’ بهذه البساطة، وكان يجب أن يعرف زات أراس ذلك. وقبل أن تتمكن يد من وقفي، كنت بجانبه وقبضت على رقبته بيد واحدة.

«سواء أتيت من السماء أو الجحيم، زات أراس، سوف تجدني جون كارتر نفسه دائمًا؛ لم يَدْعُني أحد من قبل بمثل هذه الصفات وعاش- دون أن يعتذر». وبعد ذلك، بدأت أميله للخلف بركبتي وأشدد قبضتي حول رقبته.

صاح زات أراس: «أمسكوه!»، وانطلق أكثر من عشرة ضباط نحوه لمساعدته.

اقترب مني كانتوس كان، وقال هامسًا:

«كف عن ذلك أرجوك. سوف يشملنا هذا جميعًا، فلا يمكنني مشاهدة هؤلاء الرجال يضعون أيديهم عليك دون أن أساعدك. سوف ينضم لي ضباطي ورجالي وسيحدث تمرد، وقد يؤدي إلى الثورة. من أجل تاردوس مورس وهيليوم، كف عن ذلك».

ونتيجة لكلماته، أطلقت سراح زات أراس وأدرت ظهري له، وسرت نحو درابزين السفينة.

قلت: «هيا، كانتوس كان، أمير هيليوم سيعود إلى زافاريان».

لم يتدخل أحد. وقف زات أراس ولونه تحول إلى الأبيض، ويرتجف وسط ضباطه. نظر إليه البعض بازدراء وتوجهوا نحوي؛ بينما رجل، كان في خدمة تاردوس مورس لفترة طويلة وحظي بثقته، تحدث معي بنبرة منخفضة عندما مررت به.

قال: «يمكنك أن تحسب معدني بين مقاتليك، جون كارتر».

شكرته، وواصلت طريقي. تحركنا في صمت، وبعد فترة وجيزة وصلنا ثانية إلى ظهر السفينة زافاريان. وبعد خمس عشرة دقيقة تلقينا أوامر من السفينة الرئيسة بالمضي قدمًا نحو هيليوم.

كانت رحلتنا هادئة. كنت وكارثوريس نتصور أكثر الأفكار تشاؤمًا. واستغرق كانتوس كان متجهمًا في تأمل مصيبة أخرى قد تقع على هيليوم إن حاول زات أراس اتباع السابقة قديمة العهد التي تخصص موتًا رهيبًا للهاربين من وادي دور. وتارس تاركاس

كان حزينًا لفقدان ابنته. أما زودار، فقد كان وحده هو الهارب والخارج عن القانون، والخالي من الهموم، فلا يمكن أن يكون في هيليوم أسوأ حالاً من أي مكان آخر.

وقال: «دعونا نأمل أننا على الأقل نخرج بدم أحمر جيد على سيوفنا». كانت رغبة بسيطة، والأرجح أنها تُرضيه.

فكرت أن أستشف تقسيم فصائل ضباط زافاريان قبل وصولنا إلى هيليوم. هناك من يتجمعون حولي أنا وكارثوريس كلما حانت فرصة، بينما هناك عدد متساو تقريبًا يبتعد عنا. يعاملوننا فقط بتهذيب شديد، لكنهم يلتزمون بمعتقداتهم الخرافية في تعاليم دور وإيس وكوراس. لا يمكنني لومهم، فأنا أعرف مدى قوة العقيدة، مهما كان سخفها، على أشخاص مثلهم.

بعودتنا من دور ارتكبنا تدنيسًا للمقدسات؛ وبسرد مغامراتنا هناك وذكر الحقائق كما توجد، انتهكنا دين آبائهم. نحن كفرة- هراطقة كاذبون. وحتى من لا يزالون يتشبثون بنا انطلاقًا من الحب الشخصي والولاء، أعتقد أنهم يفعلون ذلك في مواجهة حقيقة أنهم يتشككون في قلوبهم من صدقنا- فمن الصعب قبول دين جديد بدلاً من دين قديم، بغض النظر عن مدى إغراء الوعود الجديدة؛ وإنما رفض القديم كنسيج من الأكاذيب دون منحهم أي شيء بدلاً منه، هو في الواقع أصعب شيء يمكن أن تطلبه من أي شخص.

لم يرغب كانتوس كان في التحدث عن تجاربنا بين الثيرن والأبناء الأوائل.

وقال: «يكفي أنني عرضت حياتي للخطر هنا وفي الآخرة بمساندتكم- لا تطلبوا مني أن أضيف المزيد إلى آثامي بالاستماع إلى ما تعلمت دائمًا أنه هرطقة صارخة».

كنت أعرف أنه عاجلاً أو أجلاً سيحين وقت يضطر فيه الأصدقاء والأعداء الإعلان عن أنفسهم علنًا. عندما نصل إلى هيليوم، يجب محاسبتنا، وإذا لم يكن تاردوس مورس قد عاد أخشى أن عداوة زات أراس ستزداد ثقلاً ضدنا؛ لأنه يمثل حكومة هيليوم. واتخاذ موقف ضده يماثل الخيانة. ومما لا شك فيه أن غالبية القوات ستحذو حذو ضباطهم، وأعرف أن الكثير من الرجال في أعلى وأقوى المناصب بالقوات البرية والجوية سوف تنحاز إلى جون كارتر في مواجهة هذا الإله، رجلاً كان أو شيطانًا.

ومن ناحية أخرى، ما من شك في أن غالبية السكان ستطلب الحكم علينا بعقوبة تدنيس المقدسات. تبدو التوقعات مظلمة من أي زاوية أنظر منها، لكن ذهني يمزقه

الكرب من التفكير في ديجاه ثوريس التي أدرك الآن أنني لم أعط محنة هيليوم الرهيبة سوى اهتمام ضئيل في ذلك الوقت.

كان يلازمني دائمًا، ليلاً ونهارًا، كابوس فظيع من مشاهد مخيفة أعرف أن أميرتي قد تعانيها الآن- رجال النبات المرعبين، والقرود البيضاء الشرسة. وفي بعض الأحيان كنت أغطي وجهي بيدي في محاولة عقيمة لإبعاد هذا التفكير المخيف من ذهني.

وصلنا في صدر النهار إلى أعلى البرج القرمزي الذي يبلغ ارتفاعه ميلاً ويُعد علامة على هيليوم الكبرى، مُميزا إياها عن شقيقتها التوأم. وخلال هبوطنا في دوائر كبرى على الأرصفة البحرية، رأيت حشودًا ضخمة تتدافع في الشوارع تحتنا. لقد عرفت هيليوم باقترابنا عن طريق رسالة جوية لاسلكية.

من على سطح السفينة الفضائية زافاريان، نقلونا نحن الأربعة- كارثوريس، تاركس تاركاس، زودار، وأنا- إلى طائرة أصغر تطير بنا إلى مقرنا داخل معبد الجزاء، حيث تتحقق في هذا المكان العدالة المريخية لفاعل الخير وفاعل الشر. هنا يُقلد البطل وسامًا. وهنا يُدان المجرم. أخذونا إلى المعبد من منصة الهبوط على السطح، حتى لا نمر بين الناس على الإطلاق، كما هي العادة. رأيت من قبل السجناء السياسيين،

أو المتجولين رفيعي المقام العائدين، يسيرون في موكب من بوابة الجيداك إلى معبد الجزاء عبر شارع الأجداد الواسع خلال حشود كثيفة من المواطنين الذين يهتفون إما ازدراء وإما فرحًا.

كنت أعرف أن زات أراس لا يجرؤ على الوثوق في الناس القريبة منا؛ لأنه يخشى أن حبهم لكارثوريس ولي قد يتفجر في مظاهرة من شأنها أن تمحو الرعب الخرافي من الجريمة الموجهة لنا. لم أستطع إلا تخمين ما كان يخطط له، لكن الشر كان واضحًا من اختياره لمن صاحبونا على الطائرة المتجهة إلى معبد الجزاء، فقط خدمه الأكثر ثقة.

أودعونا في غرفة عند الجانب الجنوبي من المعبد تطل على شارع الأجداد، حيث يمكننا أن نرى كامل الطريق إلى بوابة الجيداك، مسافة خمسة أميال. كان الناس في ساحة المعبد، وفي الشوارع لمسافة ميل كامل، يقفون متزاحمين إلى أقرب موقع يمكنهم الوصول إليه. كانوا منظمين جدًّا- لا يسخرون أو يستحسنون، وعندما رأونا في النافذة أعلاهم، دفن العديد منهم وجوههم في أذرعتهم وبكوا.

في وقت متأخر بعد ظهر اليوم، وصل رسول من زات أراس ليبلغنا أننا سنُحاكم أمام هيئة غير متحيزة من النبلاء في القاعة الكبرى للمعبد في الزود[25] الأول من اليوم التالي، أو حاولي الساعة 08:40 صباحًا بتوقيت كوكب الأرض.

* * *

(25) أينما استخدم كابتن كارتر القياسات المريخية للزمن، والمسافة، والوزن، وما شابهها، كنت أترجمها إلى ما يعادلها تقريبًا بالقيم المناظرة في كوكب الأرض قدر الإمكان. تضم مذكراته العديد من الجداول المريخية، وكمية كبيرة من البيانات العلمية، ولكن نظرًا لأن الجمعية الفلكية الدولية منشغلة حاليًا في التصنيف والتقصي والتحقق من هذا الصندوق الضخم من المعلومات الرائعة والقيمة، فقد شعرت بأنه لن يضيف شيئًا لمصلحة قصة كابتن كارتر أو لمجموع المعرفة البشرية الحفاظ على التزام صارم بهذه المخطوطة الأصلية في هذه المسائل، حيث إنه قد يُسهل الخلط لدى القارئ ويبعده عن أهمية التاريخ. مع ذلك، وللمهتمين، سأشرح أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على مدة 24 ساعة و37 دقيقة المدة (بتوقيت كوكب الأرض). وهذا يقسمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية، حيث يبدأ اليوم في حوالي الساعة السادسة صباحًا بتوقيت كوكب الأرض. ينقسم الزود إلى خمسين فترة أقصر، يتكون كل منها بدوره من 200 فترة زمنية قصيرة تعادل تقريبًا الثانية في كوكب الأرض. الجدول البرسومي للزمن الذي أعرضه هنا ليس سوى جزء من الجدول الكامل الوارد في مذكرات كابتن كارتر.

الجدول

200 تال .... 1 شات

50 زات .... 1 زود

10 زود .... 1 دورة للمريخ على محوره.

(17)

عقوبة الإعدام

قبل لحظات قليلة من الوقت المحدد في صباح اليوم التالي، ظهر حارس قوي من ضباط زات أراس أمام مسكننا؛ لقيادتنا إلى قاعة المعبد الكبرى.

دخلنا الغرفة اثنين اثنين، وسرنا عبر ممر واسع يُسمى ممر الأمل، إلى أن وصلنا إلى المنصة في وسط القاعة. سار أمامنا وخلفنا حراس مسلحون، بينما اصطفت ثلاثة صفوف من جنود زودانجا على جانبي الممر من المدخل المؤدي إلى المنصة.

عندما وصلنا إلى موقعنا المرتفع، رأيت قضاتنا؛ 31 قاضيًا كما هو العرف في برسوم، ومن المفترض أنهم مختارون من جانب الكثير من رجال الطبقة النبيلة، إذ لا يتعرض النبلاء للمحاكمة. واندهشت أني حين رأيت لم أشهد أي وجه ودود واحد بينهم. كانوا جميعهم عمليًّا من الزودانجيين، وكنت أنا من ألحق بزودانجا الهزيمة على يد جماعات الخُضر وأخضعتها لاحقًا بهيليوم. ما من عدالة هنا لجون كارتر، أو ابنه، أو للثاركي الكبير الذي قد قاد رجال القبائل الهمجية الذين اجتاحوا الطرق الواسعة في زودانجا، ونهبوا وحرقوا وقتلوا.

اكتظ المدرج الدائري الواسع حولنا بكامل طاقته. كانت جميع الفئات- جميع الإعمار ومن الجنسين. بدخولنا القاعة، توقفت همهمة المحادثات إلى أن وقفنا على المنصة، أو عرش الحق، وكان صمت الموت يلف العشرة آلاف متفرج.

جلس القضاة في دائرة كبيرة حول محيط المنصة الدائرية. خُصصت لنا مقاعد مع ظهورنا نحو منصة صغيرة تقع بالدقة في وسط المنصة الأكبر. هذا وضعنا في مواجهة القضاة والجمهور. يأخذ كل شخص مكانه عند المنصة الأصغر خلال الاستماع إلى قضيته.

جلس زات أراس نفسه على الكرسي الذهبي لرئيس المحكمة. جلسنا وحراسنا بعيدًا، أسفل السلم المؤدي إلى المنصة. نهض زات أراس ونادى على اسمي.

صاح: «جون كارتر، خذ مكانك عند قاعدة تمثال الحقيقة ليتم الحكم عليك دون تحيز وفقًا لأفعالك وهنا لتعرف الجزاء الذي تستحقه»، ثم تحرك ذهابًا وإيابًا نحو الجمهور، وهو يروي الأفعال التي بناء على قيمتها سيتحدد جزائي.

قال: «تعرفون أيها القضاة ويعرف شعب هيليوم أن جون كارتر، الذي كان في يوم ما أمير هيليوم، قد عاد كما قال هو نفسه من وادي دور وحتى من معبد إيسوس نفسها. أي أنه في حضور العديد من رجال هيليوم قد نطق كُفرًا ضد إيس المقدس، وضد وادي دور، وبحر كوراس المفقود، والثيرن المقدسين أنفسهم، وحتى ضد إيسوس، إلهة الموت والحياة الأبدية. وكما تشهد أعينكم أيضًا، ترونه هنا الآن عند قاعدة تمثال الحقيقة، وقد عاد بالفعل من تلك المناطق المقدسة بما يخالف عاداتنا القديمة، وينتهك حرمة ديننا القديم».

«إن من يموت مرة لا يحيا مرة أخرى. ومن يحاول ذلك يجب أن يموت إلى الأبد. أيها القضاة، واجبكم يكمن واضحًا أمامكم- لا يمكن أن توجد هنا شهادة تخالف الحقيقة. ما الجزاء الذي يجب أن يلقاه جون كارتر وفقًا للأفعال التي ارتكبها؟».

صاح أحد القضاة: «الموت!».

ثم وقف رجل من الحضور على قدميه، ورفع يده عاليًا وهتف: «العدالة! العدالة! العدالة!». إنه كانتوس كان، وتوجهت جميع الأعين نحوه، فقفز عبر جنود زودانجا، وانطلق إلى المنصة.

صاح موجهًا كلامه إلى زات أراس: ما هذه الطريقة للعدالة؟ لم نستمع إلى المُدعى عليه، ولم تُتح له فرصة لاستدعاء آخرين. باسم شعب هيليوم، أنا أطالب بمعاملة عادلة وغير متحيزة لأمير هيليوم».

ارتفع هتاف الجمهور عاليًا: «العدالة! العدالة! العدالة!»، ولم يجرؤ زات أراس على الرفض.

زمجر موجهًا كلامه لي: «تحدث إذن؛ لكن دون أن تنطق كفرًا ضد مقدسات برسوم».

«يا رجال هيليوم»، صحت مستديرًا نحو الجمهور، ومتحدثًا من فوق رؤوس قضاتي، «كيف يمكن أن يتوقع جون كارتر العدالة من رجال زودانجا؟ لا يمكنه، ولا يطلبه. لكنه سيطرح قضيته لرجال هيليوم، ولن يلتمس الرحمة. إنه لا يتحدث الآن عن قضيته الخاصة - بل هي

قضيتكم. إنها قضية زوجاتكم وبناتكم، والزوجات والبنات اللاتي لم يولدن بعد. إنها قضية إنقاذهن من الإهانات البشعة التي لا يمكن تصورها التي رأيتها تنهال على نساء برسوم الجميلات في المكان الذي يسميه الرجال معبد إيسوس. إنها قضية إنقاذهن من

الأحضان الماصة لرجال النبات، ومن أنياب القرود البيضاء الكبيرة في دور، ومن الشهوة القاسية للثيرن المقدسين، ومن كل ما يحملهن إليه نهر إيس الميت البارد، من بيوت الحب والحياة والسعادة.

لا يجلس هنا أي رجل لا يعرف تاريخ جون كارتر. كيف جاء بينكم من عالم آخر وارتفع من أسير بين الرجال الخُضر، خلال التعذيب والاضطهاد، إلى مكانة عالية بين أعلى أناس برسوم. كما تعرفون أن جون كارتر لا يمكن أن يكذب لمصلحته، أو يقول أي شيء قد يلحق الضرر بشعب برسوم، أو يتحدث بخفة عن الدين الغريب الذي يحترمه دون أن يفهمه.

لا يوجد أي رجل هنا أو في أي مكان آخر، يعيش اليوم على برسوم، لا يدين بحياته مباشرة إلى عمل واحد من أعمالي، حيث ضحيت بنفسي وبسعادة أميرتي. وهكذا يا رجال هيليوم، أعتقد أنه يحق لي المطالبة بأن تسمعوني، وتصدقوني، وأن تسمحوا لي بخدمتكم وإنقاذكم من آخرة دور وإيسوس الزائفة كما أنقذتكم من الموت الحقيقي في ذلك اليوم البعيد.

إنني أتحدث الآن إليكم يا شعب هيليوم. وعندما أنتهي، فلينفذ رجال زودانجا إرادتهم معي. لقد أخذ مني زات أراس سيفي، بحيث لم يعُد رجال زودانجا يخشونني. هل ستستمعون؟».

هتف نبيل جليل من بين الجمهور: «تكلم جون كارتر، أمير هيليوم»، وردد الحشد هتافه حتى هز المبنى بضجيج مظاهرتهم.

كان زات أراس يعرف أنه من الأفضل ألا يتدخل في مثل تلك المشاعر التي أعرب عنها الناس ذلك اليوم في معبد الجزاء، ولذلك بقيت أتحدث لمدة ساعتين مع شعب هيليوم.

وعندما انتهيت، نهض زات أراس وتحول إلى القضاة، وقال بنبرة منخفضة: «يا نبلاء، سمعتم حجة جون كارتر؛ لقد أُعطي كل فرصة لإثبات براءته إن لم يكن مذنبًا؛ لكنه بدلاً من ذلك استخدم الوقت في مزيد من الكفر. ما حكمكم، أيها السادة؟».

«الموت للكافر!»، صاح شخص وهو ينهض على قدميه. وفي لحظة وقف القضاة الواحد والثلاثون جميعهم وسيوفهم مرفوعة رمزًا على إجماع حكمهم.

إذا لم يكن الناس قد سمعوا الاتهام الذي وجهه زات أراس، فقد سمعوا بالتأكيد الحكم الصادر عن المحكمة. ارتفعت همهمة غاضبة أكثر وأكثر في كافة أنحاء المدرج

المزدحم، ورفع كانتوس كان يده كي يصمت الجميع - ولم يكن قد غادر المنصة منذ أن اتخذ مكانه بالقرب مني. وعندما ساد الصمت، تحدث إلى الناس بصوت هادئ ورزين.

«لقد سمعتم المصير الذي سيفرضه رجال زودانجا على أنبل بطل في هيليوم. وقد يكون من واجب رجال هيليوم قبول الحكم باعتباره نهائيًّا. ولكن، ليتصرف كل رجل وفقًا لما يمليه قلبه. هذا هو رد كانتوس كان، رئيس القوات البحرية لهيليوم، على زات أراس وقضاته»، وفك جراب سيفه، وألقى بسيفه عند قدمي.

وفي لحظة، تزاحم المواطنون والضباط والنبلاء عبر جنود زودانجا لشق طريقهم إلى عرش الحق. اندفع مئات الرجال إلى المنصة، واهتزت وصلصلت مئات السيوف على الأرض أمام قدمي. استشاط زات أراس وضباطه غضبًا، لكنهم كانوا بلا حيلة. رفعت السيوف واحدًا تلو الآخر إلى شفتي وأعدتهم مرة أخرى إلى أصحابها.

قال كانتوس كان: «هيا، سوف نصطحب جون كارتر ومجموعته المرافقة إلى قصره»؛ ثم كونوا تشكيلاً حولنا، وبدأنا نتحرك نحو السلم المؤدي إلى ممر الأمل».

صاح زات أراس: «توقفوا! جنود هيليوم لا يسمحون لأي سجين أن يغادر عرش الحق».

كان جنود زودانجا هم الكيان المنظم الوحيد لقوات هيليوم داخل المعبد، ولذا كان زات أراس واثقًا من أنهم سيطيعون أوامره، لكنني لا أعتقد أنه نظر إلى المعارضة التي أُثيرت في اللحظة التي تقدم فيها جنوده نحو العرش.

ومضت السيوف من كل أنحاء المدرج، وهرع الرجال يتوعدون الزودانجيين. صرخ شخص: «تاردوس مورس مات- فليعش جون كارتر، جيداك هيليوم، ألف عام». عندما سمعت ذلك، ورأيت موقف رجال

هيليوم القبيح تجاه جنود زات أراس، عرفت أن معجزة فقط هي التي يمكن أن تحول دون اشتباك قد ينتهي إلى حرب أهلية.

«توقفوا!»، صرخت وأنا أقفز إلى قاعدة تمثال الحقيقة مرة أخرى. «لا يتحرك أي منكم حتى أنتهي. إن طعنة سيف واحدة هنا اليوم قد تُغرق هيليوم في حرب دموية مريرة لا يمكن لأحد أن يتوقع نتائجها. سوف تؤدي إلى تحويل الأخ ضد أخيه والأب ضد ابنه. لا تستحق حياة أي إنسان تلك التضحية. إنني أُفضل أن أخضع بالأحرى لحكم زات أراس المتحيز عن أن أكون سببًا في حرب أهلية في هيليوم.

لنهدأ جميعًا، ولندع هذه المسألة برمتها تهدأ إلى أن يعود تاردوس مورس، أو ابنه مورس كاجاك. وإذا لم يعُد أي منهما في نهاية العام، تُعقد محاكمة ثانية - وهناك سابقة». ثم تحولت إلى زات أراس، وقلت بصوت منخفض: «إلا إذا كنت أكثر حماقة ممَّا أعتبرك، اغتنم الفرصة التي أعرضها لك قبل فوات الأوان. فما إن يتجه هذا الحشد من السيوف نحو جندك، حتى لن يمكن لأي رجل على برسوم - ولا حتى تاردوس مورس نفسه - أن يتجنب العواقب. ما قولك؟ تكلم بسرعة».

رفع جِد هيليوم الزودانجي صوته إلى البحر الغاضب في القاعة أدنى المنصة.

صاح وصوته يرتجف من الغضب: «أبعدوا أيديكم يا رجال هيليوم. لقد صدر حكم المحكمة، لكن يوم القصاص لم يتحدد بعد. وأنا، زات أراس، جِد زودانجا، تقديرًا للروابط الملكية للسجين وخدماته السابقة لهيليوم وبرسوم، أمنح فترَة تأجيل لمدة سنة واحدة، أو إلى حين عودة مورس كاجاك، أو تاردوس مورس إلى هيليوم. تفرقوا بهدوء إلى بيوتكم.

لم يتحرك أحد. بل وقفوا في صمت متوتر وأعينهم مثبتة نحوي كأنما ينتظرون إشارة الهجوم.

«عليكم إخلاء المعبد»، أمر زات أراس أحد ضباطه بنبرة منخفضة.

وخوفًا من نتيجة محاولة تنفيذ هذا الأمر بالقوة، صعدت إلى حافة المنصة مُشيرًا إلى المدخل الرئيس، وطلبت منهم الخروج. استداروا كرجل واحد بناء على طلبي، وساروا في صمت تهديدي عبر جنود زات أراس، جِد زودانجا، الذي وقف متذمرًا في غضب عاجز.

أما كانتوس كان والآخرون الذين قد أقسموا الولاء لي، فقد كانوا لا يزالون يقفون على عرش الحق معي.

قال لي كانتوس كان: «هيا، سوف نرافقك لقصرك يا أميري. هيا كارثوريس وزودار. هيا تارس تاركاس». ومع سخرية متعجرفة على شفتيه الوسيمتين تجاه زات أراس، استدار وخطا بخطوات كبيرة نحو سلالم العرش وإلى ممر الأمل. وسرنا وراءه نحن الأربعة، والمائة من أنصاره؛ ولم ترتفع يد واحدة لتبقينا، على الرغم من أن أعينًا متوهجة كانت تتابع مسيرتنا المنتصرة عبر المعبد.

وجدنا في الطرقات أعدادًا غفيرة من الناس، لكنهم فتحوا لنا الطريق، وعديدة هي السيوف التي كانت تُلقى أمام قدمي كلما مررت خلال مدينة هيليوم تجاه قصري عند

مشارفها. وهنا، في القصر، جلس عبيدي القدامى على ركبهم وقبلوا يدي وأنا أحييهم. لم يهتموا أين كنت. كان يكفي أنني عدت إليهم.

صاح أحدهم: «آه، يا سيدي، إذا كانت أميرتنا الإلهية هنا، لكان هذا اليوم ليصبح يومًا بالفعل».

طفرت الدموع إلى عيني، حتى اضطررت إلى الابتعاد لأخفي مشاعري. بكى كارثوريس علنًا عندما ضغط عليه العبيد بعبارات المودة، وكلمات الحزن لخسارتنا المشتركة. والآن عرف تارس تاركاس للمرة الأولى أن ابنته، سولا، صاحبت ديجاه ثوريس في رحلة الحج الطويل الأخير. لم يسمح لي قلبي أن أقول له ما أخبرني به كانتوس كان. وبرزانة المريخيين الخُضر، لم يُظهر أي علامة على المعاناة، لكني أعرف أن حزنه كان حادًّا كحزني؛ فلديه شكل متطور من السمات البشرية الرقيقة من الحب والصداقة وعمل الخير، تتناقض بوضوح مع سمات عِرقه.

كنا مجموعة حزينة وكئيبة، تلك التي جلست في وليمة الترحيب بقاعة الطعام الكبيرة بقصر أمير هيليوم في ذلك اليوم. أكثر من مائة رجل قوي، دون حساب عدد أفراد بلاطي الصغير، فقد حافظنا أنا وديجاه ثوريس على أسرة تتسق ومرتبتنا الملكية.

تتخذ المائدة، ووفقًا للعُرف المريخي الأحمر، شكلاً مثلثًا؛ فأسرتنا تتكون من ثلاثة أفراد. جلست أنا وكارثوريس في وسط جانبي المائدة - في منتصف الجانب الثالث، كان كرسي ديجاه ثوريس المنحوت عالي الظهر شاغرًا، باستثناء الأغطية ومجوهرات زفافها الرائعة التي تكسوه. وقف عبد في الخلف كما كان الحال في تلك الأيام عندما كانت سيدته تحتل مكانها على المائدة، مستعدًّا لتلبية أوامرها. هذه هي الطريقة في برسوم، ولذا تحملت الكرب، فقد اعتصر قلبي رؤية هذا الكرسي الصامت، بينما كانت أميرتي الضحوك المرحة تجعل القاعة كبيرة ترن ببهجتها المرحة.

جلس كانتوس كان على يميني، بينما جلس تارس تاركاس على يمين مكان ديجاه ثوريس الفارغ، على كرسي ضخم أمام قسم مرتفع من المائدة، بنيته منذ سنوات ليلبي متطلبات جسمه الضخم. يوجد دائمًا موقع الشرف على المائدة المريخية على يمين المضيف، واحتفظت ديجاه ثوريس به دومًا للثاركي العظيم خلال مناسبات وجوده في هيليوم.

جلس هور فاستوس في مقعد الشرف عند جانب كارثوريس من المائدة. كان حديثنا العام قليلاً. كانت وليمة هادئة وحزينة. ففقدان ديجاه ثوريس لا يزال ماثلاً في أذهان الجميع، ويُضاف إليه الخوف على سلامة تاردوس مورس ومورس كاجاك، فضلاً

عن الشك وعدم اليقين بشأن مصير هيليوم، إذا ثبت بالفعل أنها حُرمت بشكل دائم من جيداكها العظيم.

وفجأة جذب اهتمامنا صوت صياح بعيد لأناس عديدين يرفعون أصواتهم في وقت واحد، ولكن هل من الغضب أو السرور، لا نعرف. اقتربت الضوضاء أكثر وأكثر. هرع عبد إلى قاعة الطعام وهو يصيح أن تجمعًا كبيراً من الناس يتزاحمون عند بوابات القصر. حدث تفجر ثان في أعقاب الأول متناوبًا بين الضحك والصراخ كالمجانين.

هتف: «ديجاه ثوريس وُجِدت! وصل رسول من ديجاه ثوريس!».

لم أنتظر لأسمع أكثر. كانت النوافذ الكبيرة لقاعة الطعام تطل على الطريق المؤدي إلى البوابات الرئيسة- كانوا على الجانب الآخر من القاعة، والمائدة تعترضني. لم أُضِع الوقت في الدوران حول المائدة الكبيرة؛ تخطيت بقفزة واحدة المائدة والجالسين حولها منطلقًا إلى الشرفة. على بعد ثلاثين قدمًا أدناه، امتدت مرجة العشب القرمزية وتزاحم وراءها العديد من الناس حول ثوات ضخم يحمل راكبًا يتجه نحو القصر. قفزت إلى الأرض أدناه، وركضت سريعًا نحو الجمع المتقدم.

عندما اقتربت منهم، رأيت أن الشخص الذي يمتطي الثوات هو سولا.

صرخت: «أين أميرة هيليوم؟».

انزلقت الفتاة الخضراء من دابتها القوية، وركضت نحوي.

بكت قائلة: «أوه يا أميري!، لقد ذهبت إلى الأبد. فهي الآن قد تكون أسيرة عند القمر الأصغر. لقد سرقها قراصنة برسوم السود».

* * *

(18)

قصة سولا

ما إن دخلنا القصر، حتى أخذت سولا إلى قاعة الطعام؛ وبعد أن قدمت التحية لوالدها على الطريقة الرسمية للرجال الخُضر، حكت قصة الحج والقبض على ديجاه ثوريس.

«منذ سبعة أيام، بعد مقابلتها مع زات أراس، حاولت ديجاه ثوريس التسلل من القصر في عتمة الليل. على الرغم من أنني لم أعرف نتيجة مقابلتها مع زات أراس، فقد أدركت أن شيئًا قد حدث وسبب لها أشد معاناة عقلية، وعندما اكتشفت أنها تسللت من القصر لم أكن في حاجة إلى أن يُقال لي وجهتها.

أيقظت على عجل ما يزيد على عشرة من أكثر حراسها إخلاصًا، وشرحت لهم مخاوفي، وخرجنا معًا لتتبع أميرتنا المحبوبة في ترحالها، حتى إلى نهر إيس المقدس ووادي دور. وصلنا إليها على مسافة قصيرة من القصر. كان معها الكلب وولا المخلص، ولكن لا شيء آخر. عندما لحقنا بها، تظاهرت بالغضب وأمرتنا بالعودة إلى القصر، لكننا ولأول مرة عصيناها، وعندما وجدت أننا لن نتركها تذهب إلى رحلة الحج الطويلة الأخيرة بمفردها، بكت وعانقتنا، وخرجنا معًا في الليل نحو الجنوب».

«وصلنا في اليوم التالي إلى قطيع من الثوات الصغيرة، فامتطيناها في الوقت المناسب. تحركنا بسرعة كبيرة ولمسافة بعيدة نحو الجنوب إلى أن شاهدنا في صباح اليوم الخامس أسطولاً كبيراً من السفن الحربية يبحر نحو الشمال. شاهدونا قبل أن نجد مأوى، وسرعان ما أصبحنا محاطين بحشد من الرجال السود. قاتَل حارس الأميرة بنبل حتى النهاية، لكنهم سرعان ما تغلبوا علينا وشرعوا في القتل. لم يبقوا إلا علينا أنا وديجاه ثوريس.

عندما أدركت أنها وقعت في براثن القراصنة السود، حاولت أن تقتل نفسها، لكن أحد السود انتزع منها خنجرها، ثم قيدونا نحن الاثنتين بحيث لا يمكننا أن نستخدم أيدينا.

واصل الأسطول طريقه نحو الشمال بعد أسرنا. كان يضم حوالي عشرين سفينة حربية كبيرة، إلى جانب عدد من السفن السريعة الصغيرة. وفي ذلك المساء عادت إحدى السفن الصغيرة التي كانت متقدمة كثيراً عن الأسطول، عادت ومعها أسيرة - فتاة حمراء

وجدوها في مجموعة من التلال القريبة، كما قالوا، أسفل مقدمة أسطول من ثلاث سفن حربية تابعة للمريخيين الحُمر.

من نُبذ المحادثة التي تمكنا من سماعها، فهمنا أن القراصنة السود يبحثون عن مجموعة من الهاربين الفارين قبل عدة أيام. كان واضحا من المقابلة الطويلة والجادة التي أجراها معها قائد الأسطول عند إحضارها له، أنهم يعتبرون أن القبض على المرأة الشابة مهمًّا. وفي وقت لاحق قيدوها ووضعوها في مقصورة معي أنا وديجاه ثوريس.

كانت الأسيرة الجديدة فتاة جميلة جدًّا. وقد أخبرت ديجاه ثوريس أنها منذ سنوات عديدة اتخذت الحج الطوعي من بلاط والدها، جيداك بتارث. كانت ثوفيا، أميرة بتارث. ثم سألت ديجاه ثوريس من هي، وعندما سمعت، جلست على ركبتيها وقبلت يدي ديجاه ثوريس المقيدتين، وأخبرتها أنها هذا الصباح بالذات كانت مع جون كارتر أمير هيليوم، وكارثوريس ابنها».

«لم تصدقها ديجاه ثوريس في البداية، وأخيراً عندما روت الفتاة جميع المغامرات الغريبة التي صادفتها منذ أن التقت بجون كارتر، وأخبرتها بالأشياء التي حكاها جون كارتر وكارثوريس وزودار عن مغامراتهم في أرض الأبناء الأوائل، عرفت ديجاه ثوريس أنه لا يمكن إلا أن يكون أمير هيليوم؛ وقالت: 'لا يوجد على برسوم كلها أحد غير جون كارتر يمكنه أن يفعل الأشياء التي ترويها'. وعندما حكت ثوفيا لديجاه ثوريس عن حبها لجون كارتر، وولاءه وإخلاصه للأميرة التي اختارها، انهارت ديجاه ثوريس وبكت، وهي تلعن زات أراس والمصير القاسي الذي دفعها خارج هيليوم قبل بضعة أيام قصيرة من عودة أميرها الحبيب.

وقالت: 'لا ألومك على حبِّك له، ثوفيا، ويمكنني من صراحتك في المجاهرة بذلك لي تصديق أن عاطفتك تجاهه نقية ومخلصة'.

تابع الأسطول طريقه شمالاً إلى هيليوم تقريبًا، لكنهم أدركوا الليلة الماضية أن جون كارتر هرب منهم بالفعل، وبالتالي حولوا اتجاههم نحو الجنوب مرة أخرى. وبعد ذلك بوقت قصير، دخل حارس إلى مقصورتنا وأخذني إلى سطح السفينة.

وقال: 'لا يوجد مكان في أرض الأبناء الأوائل لشخص أخضر'، ثم دفعني بقوة هائلة أطاحتني من على ظهر السفينة الحربية. يبدو أنها أسهل طريقة لتخليص السفينة من وجودي وقتلي في الوقت نفسه.

لكن القدر الكريم تدخل، وتمكنت من الفرار بمعجزة مع بعض الكدمات الطفيفة. كانت السفينة تتحرك ببطء في ذلك الوقت، ولذا عندما اندفعت من سطحها نحو الظلام أدناه ارتجفت خوفًا من الغوص الفظيع الذي ظننت أنه ينتظرني؛ فقد أبحر الأسطول طوال اليوم آلاف الأقدام فوق سطح الأرض. ولكني، لدهشتي الشديدة، وقعت على كتلة ناعمة من الغطاء النباتي لا يقل بُعدها عن عشرين قدمًا من سطح السفينة. يبدو في الواقع أن عارضة السفينة كانت تمس سطح الأرض في ذلك الوقت.

استلقيت الليل كله حيث سقطتُ، وجلب لي صباح اليوم التالي تفسيراً للمصادفة المحظوظة التي أنقذتني من موت رهيب. عندما ارتفعت الشمس، رأيت بانوراما واسعة لقاع البحر والتلال البعيدة التي تقع أسفلي بكثير. كنت عند أعلى قمة لسلسلة جبال شامخة. ففي ظلام الليلة السابقة كاد الأسطول أن يمس قمة التلال، وفي غضون فترة وجيزة طاف بالقرب من السطح الذي ألقاني منه الحارس الأسود إلى حتفي، كما كان يفترض.

كان يوجد ممر مائي كبير على بعد بضعة أميال غربًا. وعندما وصلت إليه، وجدت أنه، لسعادتي، ينتمي إلى هيليوم. وهنا حصلت على الثوات- وأنتم تعرفون البقية».

صمت الجميع لعدة دقائق. ديجاه ثوريس في براثن الأبناء الأوائل! ارتعدت من هذا التفكير، ولكن فجأة تدفقت خلالي تلك النار القديمة بالثقة بالنفس التي لا تُقهر. قفزت واقفًا، ورفعت كتفي وتعهدت رسميًّا وأنا أرفع سيفي أن أصل إلى أميرتي، وأنقذها، وأنتقم لها.

انطلق مائة سيف من غمده، وقفز مائة مقاتل إلى أعلى المائدة وتعهدوا لي بحياتهم ومصائرهم في الحملة. وضعت خططي بالفعل. وشكرت كل صديق مخلص، وتركتهم في ضيافة كارثوريس، وانسحبت إلى غرفتي العامة ومعي كانتوس كان وتارس تاركاس وزودار وهور فاستوس.

ناقشنا مطولاً تفاصيل حملتنا إلى ما بعد حلول الظلام. كان زودار على يقين أن إيسوس ستختار كلاًّ من ديجاه ثوريس وثوفيا لخدمتها لمدة سنة.

وقال: «ستكونان طوال هذه المدة على الأقل في أمان نسبيًّا، وسنعرف أين نبحث عنهما».

تركت لكانتوس كان وزودار تفاصيل تجهيز أسطول ليدخل أوميان. وافق كانتوس كان على أن نأخذ ما نريده من سفن إلى الرصيف بأسرع ما يمكن، حيث يتولى زودار توجيه معداتها مع مراوح المياه.

لقد ظل السود لسنوات يتولون مسؤولية ترميم السفن الفضائية الحربية التي يجري الاستيلاء عليها ويمكنها الإبحار في أوميان، وبالتالي كانوا على دراية ببنية المراوح، والمعدات، والتروس الإضافية المطلوبة.

كان تقديرنا أننا نحتاج إلى ستة أشهر لاستكمال استعداداتنا، على ضوء ضرورة العمل بسرية تامة للحفاظ على المشروع بعيدًا عن آذان زات أراس. فقد استثرنا طموحاته، حسبما يرى كانتوس كان، ولن يُرضيه أي شيء أقل من لقب جيداك هيليوم.

وقال: «أشك أنه حتى سيرحب بعودة ديجاه ثوريس؛ لأن ذلك سيعني أن هناك شخصًا آخر أقرب منه إلى العرش. بإبعادك أنت وكارثوريس عن الطريق، لا يوجد ما يمنعه من اتخاذ لقب جيداك، ويجب أن تعلم عن يقين أنه ما دام هو الأعلى هنا، لا يوجد أمان لأي منكما».

صاح هور فاستوس: «هناك طريقة لمنعه بشكل فعال وإلى الأبد».

سألت: «ما هي؟».

«سوف أهمس بها هنا، ولكن في يوم ما سوف أقف فوق قبة معبد الجزاء، وأهتف بها للجموع الحاشدة أدناه».

سأل كانتوس كان: «ماذا تقصد؟».

قال هور فاستوس بصوت منخفض «جون كارتر، جيداك هيليوم».

أضاءت أعين مرافقيَّ، وملأت ابتسامات قاتمة من السرور والترقب وجوههم، وتحولت كل الأعين نحوي متساءلة. لكني هززت رأسي.

قلت مبتسمًا: «كلا يا أصدقائي، أشكركم، ولكن هذا لا يمكن أن

يحدث. ليس بعد، على الأقل. عندما نعرف أن تاردوس مورس ومورس كاجاك لن يعودا مرة أخرى؛ إذا كنت هنا، فسوف أنضم لكم جميعًا لنرى شعب هيليوم متاحًا له أن يختار بإنصاف الجيداك المقبل. ومن يختارونه يمكنه أن يعتمد على ولاء سيفي، ولن

أسعى إلى هذا الشرف لنفسي. وإلى ذلك الحين، فإن تاردوس مورس هو جيداك هيليوم، وزات أراس ممثل له».

قال هور فاستوس: «كما تشاء جون كارتر، ولكن ... ما هذا؟»، همس مشيراً نحو نافذة تطل على الحدائق.

كانت الكلمات تخرج بشق الأنفس من فمه قبل أن يقفز إلى الشرفة الخارجية.

صاح منفعلاً: «ها هو يذهب! يا حراس! هناك، أدناه! يا حراس!».

اقتربنا وراءه، وشهدنا جميعًا هيئة رجل يركض بسرعة عبر مساحة صغيرة من المرجة، واختفى في الشجيرات خلفها.

صاح هور فاستوس: «كان على الشرفة عندما رأيته أولاً. فلنسرع! لنتتبعه!».

ركضنا معًا إلى الحدائق، وعلى الرغم من أننا قمنا بتمشيط الحديقة مع الحرس كاملاً لمدة ساعة، لم نتمكن من اقتفاء أي أثر لهذا المُغير الليلي.

سأل تارس تاركاس: «ما رأيك في هذا، كانتوس كان؟».

فأجاب: «جاسوس أرسله زات أراس. هذه هي طريقته دائمًا».

ضحك هور فاستوس قائلاً: «لديه شيء مثير للاهتمام يخبر به سيده إذن».

قلت: «أتمنى أنه لم يسمع سوى إشاراتنا إلى جيداك جديد. فإذا كان قد سمع خططنا لإنقاذ ديجاه ثوريس، فهذا معناه حرب أهلية لأنه سيحاول إحباطنا، وهنا لن يمنعني أحد. عندئذ قد أتحول ضد تاردوس مورس نفسه، إن تطلب الأمر. وإذا ألقى ذلك هيليوم كلها في صراع دموي، سوف أستمر في هذه الخطط لإنقاذ أميرتي. لن يوقفني شيء الآن أقل من الموت، وإذا مت يا أصدقائي، فهل تقسمون على مواصلة البحث عنها وإعادتها بأمان إلى بلاط جدها؟».

أقسم كل منهم، عند مقبض سيفه، بأن يفعل ما طلبته.

اتفقنا على أن تتوجه السفن الفضائية الحربية التي من المقرر تجديدها إلى هاستور- مدينة هيليومية أخرى، تقع في الجنوب الغربي. وعرفنا من كانتوس كان أن أحواض السفن هناك، بالإضافة إلى عملها العادي، سوف تستوعب على الأقل ست سفن حربية في وقت واحد. ونظرًا لأنه القائد الأعلى للقوات البحرية، يمكنه ببساطة أن يأمر

بنقل السفن إلى هناك وتجديدها، ثم الحفاظ على الأسطول المُجدّد في الأجزاء النائية من الإمبراطورية إلى أن نصبح مستعدين لتجميعه للانطلاق على أوميان.

كان الوقت متأخرًا في تلك الليلة قبل أن ينفض اجتماعنا، لكننا رسمنا تفاصيل الخطة بكاملها وتحدد لكل رجل مهامه الخاصة المحددة.

تمثلت مهمة كانتوس كان وزودار في متابعة تجديد السفن. وتمثلت مهمة تارس تاركاس في التواصل مع الثاركيين ومعرفة مشاعر شعبه تجاه عودته من دور. فإذا كانت مواتية، عليه أن يعود على الفور إلى ثارك ويُكرس وقته لتجميع حشد ضخم من المحاربين الخُضر الذين كانت خطتنا تقضي بإرسالهم بسفن نقل إلى وادي دور ومعبد إيسوس مباشرة، بينما يدخل الأسطول أوميان ويدمر سفن الأبناء الأوائل.

عهدنا إلى هور فاستوس مهمة دقيقة تتمثل في تنظيم قوة سرية من المقاتلين الذين أقسموا على اتباع جون كارتر بغض النظر عما يؤول إليه ذلك. وحسب تقديرنا أن الأمر سيتطلب أكثر من مليون رجل لتزويد الألف سفينة الكبيرة التي ننوي استخدامها في أوميان وسفن نقل الرجال الخُضر والسفن التي سترافقها؛ لم تكن مهمة هور فاستوس بسيطة.

بعد أن غادروا، تمنيت لكارثوريس ليلة طيبة، فقد كنت شديد الإرهاق. ذهبت إلى شقتي، وتحممت، واستلقيت على الحرير والفراء المخصص للنوم، في أول ليلة من النوم الجيد كنت أتطلع إليها منذ أن عدت إلى برسوم. على أنني أصبت أيضًا بخيبة أمل.

لا أعرف كم من الوقت نمت. وعندما استيقظت، وجدت فجأة نصف دزينة من الرجال الأقوياء ينقضون فوقي، وفمي مكمم بالفعل، وفي اللحظة التالية قيدوا ذراعي وساقي بإحكام. قاموا بعملهم بسرعة وبطريقة تفي بغرضهم، بحيث لم أكن قادرًا على مقاومتهم إطلاقًا عندما استيقظت تمامًا.

لم يقل أي منهم كلمة واحدة، ومنعتني الكمامة من التحدث. رفعوني

بصمت وحملوني تجاه باب غرفتي. وعندما مروا من النافذة التي يلقي من خلالها القمر الأبعد أشعته الرائعة، رأيت أن وجه كل فرد في المجموعة ملفوف في طبقات من الحرير، ولم أتمكن من التعرف على أي منهم.

عند وصولهم إلى الممر وهم يحملوني، استداروا نحو لوح سري في الجدار يقود إلى ممر ينتهي إلى الحُفر أسفل القصر. أشك أن هناك من خارج أسرتي من يعلم بهذا

اللوح. لم يتردد قائد الفريق لحظة؛ خطا مباشرة إلى اللوح، ولمس الزر الخفي، فتأرجح الباب مفتوحًا. وقف جانبًا بينما دخل رفاقه معي. ثم أغلق اللوح وراءه وتبعنا.

سرنا من خلال الممرات إلى الحُفر. طرق عليها القائد بمقبض سيفه - ثلاث ضربات حادة سريعة ثم توقف، ثم ثلاث ضربات أخرى ثم توقف ثانية، ثم ضربتين. تأرجح الجدار منفتحًا خلال ثانية، ودفعوني إلى غرفة مضاءة ببراعة يجلس فيها ثلاثة رجال يرتدون أغطية ثمينة.

التفت أحدهم نحوي بابتسامة تهكمية على شفتيه الرفيعتين القاسيتين- كان زات أراس.

* * *

(19)
اليأس الأسود

قال زات أراس: «آها، لأي ظرف حسن أدين بسعادة هذه الزيارة غير المتوقعة من أمير هيليوم؟».

وبينما كان يتحدث، أزال أحد حُراسي الكمامة من فمي، لكني لم أرد على زات أراس. وقفت هناك ببساطة في صمت، بنظر محدقة رزينة ثابتة نحو جِد زودانجا. ولا أشك أن تعبيري كان مشوبًا بالازدراء الذي شعرت به تجاه الرجل.

كانت عيون الموجودين في الغرفة مثبتة أولاً نحوي، ثم نحو زات أراس، إلى أن زحف الغضب ببطء أخيراً فوق وجهه.

«يمكنكم الذهاب»، قال موجهًا كلامه إلى الحُراس الذين أحضروني. وعندما لم يبق في الغرفة سوانا ومرافقيه، حدثني مرة أخرى بصوت كالجليد- ببطء شديد وتأن، مع توقفات كثيرة، كأنما يختار كلماته بحذر.

قال: «جون كارتر، لقد حُكم عليك بالموت، بموجب العُرف، وبموجب قانون ديننا، وبموجب حُكم من محكمة غير متحيزة. لا يمكن أن ينقذك الشعب - أنا وحدي يمكنني إنقاذك. أنت في قبضتي تمامًا الآن لأفعل بك ما يحلو لي - يمكنني قتلك، أو تحريرك؛ وإذا اخترت أن أقتلك، لا شيء سيكون أكثر حكمة».

«إذا أطلقت سراحك في هيليوم لمدة عام، وفقًا لشروطك في التأجيل، أخشى ألا يستمر إصرار الناس على تنفيذ العقوبة المفروضة عليك».

«يمكنني إطلاق سراحك خلال دقيقتين، بشرط واحد: ألا يعود تاردوس مورس إلى هيليوم أبدًا، ولا يعود مورس كاجاك، ولا ديجاه ثوريس. يجب أن تختار هيليوم الجيداك الجديد خلال السنة. وسيكون زات أراس جيداك هيليوم. قل إنك ستتبنى قضيتي. هذا هو ثمن حريتك. أنا أنهيت كلامي».

كنت أعرف أن زات أراس يرغب في أعماق قلبه القاسي أن يدمرني. وإذا مُت، لا يوجد أي سبب وجيه للشك في أنه سيصبح بسهولة جيداك هيليوم. يمكنني وأنا متمع بحريتي مواصلة البحث عن ديجاه ثوريس. وإذا مت، قد لا يتمكن رفاقي الشجعان من

تنفيذ خططنا. وبالتالي، برفضي الموافقة على طلبه، من المحتمل تمامًا ألا يقتصر الأمر على منعه من أن يصبح جيداك هيليوم، وإنما سأكون أيضًا وسيلة إنهاء حياة ديجاه ثوريس - بتعريضها، من خلال رفضي، لفظائع ساحة إيسوس.

شعرت بالحيرة للحظة، وفقط للحظة. إن الابنة الفخورة لألف جيداك ستختار الموت عن تحالف غير شريف مثل هذا، ولا يمكن أن يفعل جون كارتر لهيليوم أقل مما تفعله الأميرة.

عندئذ التفتُ إلى زات أراس.

وقلت: «لا يمكن أن يوجد تحالف بين خائن لهيليوم وأمير في بيت تاردوس مورس. لا أعتقد، زات أراس، أن الجيداك العظيم قد مات».

هز زات أراس كتفيه مستهجنًا.

وقال: «لن يمر وقت طويل، جون كارتر، قبل أن تنعدم فائدة آرائك حتى لنفسك، فاستفد منها بأفضل ما يمكنك ما دمت قادرًا. سوف يتيح لك زات أراس وقتًا مناسبًا للتفكير مليًّا في عرضه الكريم. سوف تدخل في صمت وظلام الحُفر وأنت تفكر هذه الليلة، مع العلم بأنك إذا أخفقت في غضون فترة زمنية معقولة في الموافقة على البديل الذي عرضته عليك، فلن تخرج أبدًا من الظلام والصمت مرة أخرى. ولن تعرف متى ستصل إليك يد تحمل خنجرًا حادًّا، خلال الظلام والصمت، ليسلبك آخر فرصة للفوز مرة أخرى بالدفء والحرية والبهجة في العالم الخارجي».

صفق زات أراس بيديه عندما توقف عن الكلام. وعاد الحراس.

لوح زات أراس بيده في اتجاهي.

وقال: «إلى الحُفر». هذا كل ما حدث. رافقني أربعة رجال إلى خارج الغرفة، وأضاءوا الطريق بضوء يدوي من الراديوم. اصطحبوني خلال أنفاق بدت بلا نهاية، إلى أسفل، أدنى من أي مكان على الإطلاق تحت مدينة هيليوم.

توقفوا طويلاً داخل غرفة مقبولة الحجم، ضمت حلقات مثبتة في الجدران الصخرية ومُثبت بها سلاسل، وتوجد في نهايات العديد من السلاسل هياكل عظمية بشرية. ركلوا أحدها جانبًا، وفتحوا القفل الضخم الذي كان يحمل سلسلة حول ما كان كاحلاً بشريًّا، وأغلقوا الرباط الحديدي حول ساقي. ثم تركوني، آخذين الضوء معهم.

ساد الظلام التام. سمعت قعقعة التجهيزات لبضع دقائق، ثم بدأت هي الأخرى تخف تدريجيًّا إلى أن ساد الصمت كاملاً مثل الظلام. بقيت وحيدًا مع رفقتي البشعة – عظام الموتى الذين لا يدل مصيرهم على الأرجح إلا على مصيري.

لا أعرف قدر الوقت الذي بقيت فيه واقفًا أستمع في الظلام، لكن الصمت لم يكن متقطعًا، وفي النهاية غُصت على أرض زنزانتي الصلبة، وملت برأسي على الجدار الحجري ونمت.

من المؤكد أن عدة ساعات مرت قبل أن أستيقظ لأجد شابًّا يقف أمامي. يحمل في إحدى يديه ضوءًا، وفي الأخرى وعاء يحتوي على خليط مثل عصيدة – طعام السجن المعتاد في برسوم.

قال الشاب: «زات أراس يرسل لك تحياته، وأمرني أن أخبرك أنه وصلته بالكامل مؤامرة تنصيبك جيداك هيليوم، ومع ذلك لا يميل إلى سحب العرض الذي قدمه لك. وللحصول على حريتك، ليس عليك إلا أن تطلب مني إبلاغ زات أراس أنك قبلت شروط عرضه».

هززت رأسي. لم يقل الشاب أي شيء آخر، وبعد أن وضع الطعام على الأرض بجانبي، عاد إلى الممر، آخذًا الضوء معه.

للعديد من الأيام، ظل هذا الشاب يأتي مرتين يوميًّا إلى زنزانتي حاملاً الطعام، ويبلغني بتحيات زات أراس نفسها. حاولت لفترة طويلة الدخول معه في حديث حول مسائل أخرى، لكنه لم يتحدث، وبعد فترة طويلة كففت عن ذلك.

سعيت لشهور إلى ابتكار أساليب لإعلام كارثوريس بمكاني. وظللت لشهور أكشط وأخدش رابطة إحدى السلاسل الضخمة التي تقيدني، على أمل أن أخلعها وأتابع الشاب خلال الأنفاق المتعرجة إلى نقطة يمكنني فيها نيل حريتي.

كنت قلقًا لمعرفة التقدم المحرز في حملة إنقاذ ديجاه ثوريس. شعرت بأن كارثوريس لن يسمح بإهمال هذه المسألة. سينجز الحملة إذا كان يتمتع بحريته، ولكن ربما يكون سجينًا أيضًا في حُفر زات أراس.

عرفت أن جاسوس زات أراس سمع حديثنا عن اختيار الجيداك الجديد، وقبلها بدقائق ناقشنا تفاصيل خطة إنقاذ ديجاه ثوريس. ومن المحتمل أنه يعرف هذه المسألة أيضًا. قد يكون الآن حتى كارثوريس، وكانتوس كان، وتاركس تاركاس، وهور فاستوس، وزودار، ضحايا لقتلة زات أراس، أو في سجنه.

لقد عقدت العزم على بذل جهد واحد آخر على الأقل لأعرف أي شيء. وتحقيقًا لهذه الغاية اعتمدت استراتيجية لتنفيذها عندما يأتي الشاب إلى زنزانتي ثانية. لاحظت أنه وسيم، في حجم وَسِن كارثوريس تقريبًا. كما لاحظت أيضًا أنه يتصرف كرجل كريم ونبيل، رغم أغطيته البالية.

اعتمدت هذه الملاحظات أساسًا لبدء مفاوضاتي معه عند زيارته التالية.

قلت له: «أنت ودود جدًّا معي أثناء سجني هنا، وأشعر أنني في أحسن الأحوال لن أظل على قيد الحياة طويلاً هنا. ولذا أود، قبل فوات الأوان، تقديم ما يُعبر عن تقديري الكبير لكل ما تقوم به لتجعل سجني مُحتمَلاً».

«فأنت تحضر طعامي يوميًّا دون إبطاء، وتتأكد من نقائه وكفاية كميته. لم تحاول أبدًا سواء بالكلمة أو الفعل أن تنتهز حالتي الضعيفة لتهينني أو تعذبني. كما أنك تتحلى دومًا بالتهذيب والمراعاة- وهذا أكثر من أي شيء آخر يحرك شعوري بالامتنان ورغبتي في أن أعطيك رمزًا بسيطًا يعبر عن ذلك».

«في غرفة الحرس بقصري، توجد أغطية جميلة كثيرة. اذهب إلى هناك واختر العتاد الذي يحلو لك- سيكون ملكك. كل ما أطلبه منك أن ترتديه، بحيث أعلم أن أمنيتي قد تحققت. قل لي أنك ستفعل ذلك».

أضاءت عينا الصبي بالسرور خلال حديثي، ورأيته يحول بصره بنظرة خاطفة من أغطيته الصدئة إلى روعة أغطيتي. وقف دقيقة يفكر قبل أن يتكلم، وفي هذه الدقيقة توقف قلبي عن الخفقان - كان الكثير بالنسبة لي يتعلق بمضمون إجابته.

«ولكن إذا ذهبت إلى قصر أمير هيليوم بطلب من هذا القبيل، سوف يضحكون. وفي هذه الصفقة، من الأكثر ترجيحًا أنهم سيلقون بي إلى الشارع. كلا، لا يمكن، على الرغم من أنني أشكرك على هذا العرض. كما أن زات أراس، لو مجرد حلم بأنني فكرت في شيء من هذا القبيل، فسوف ينتزع قلبي».

ألححت قائلاً: «لا يوجد أي ضرر يا بني. يمكنك الذهاب ليلاً إلى قصري مع مذكرة مني إلى ابني كارثوريس. ويمكنك قراءة الورقة قبل تسليمها لتعرف أنها لا تحتوي على أي شيء يضر بزات أراس. ابني كتوم، وبالتالي لن يعرف إلا ثلاثتنا. المسألة بسيطة جدًّا، وهذا العمل عديم الضرر ولا يمكن أن يدينه أحد».

مرة أخرى وقف صامتًا في تفكير عميق.

«وهناك سيف قصير مرصع أخذته من جثة جيداك الشمال. عندما تحصل على العتاد، تأكد من أن كارثوريس سيمنحك ذلك أيضًا. بهذا السيف، إضافة إلى العتاد الذي تختاره، لن يوجد في زودانجا كلها محارب آخر أكثر وسامة منك».

«أحضرْ معك مواد للكتابة عندما تأتي إلى زنزانتي المرة القادمة، وفي غضون ساعات قليلة سنراك مكسوًّا بأسلوب يليق بك».

ظل يفكر، ثم استدار وتركني دون كلمة. لم أستطع تخمين قراره، وجلست لساعات قلقًا على نتائج هذه المسألة.

إذا وافق على حمل رسالة إلى كارثوريس، فهذا يعني أن كارثوريس لا يزال يعيش وحرًّا. وإذا عاد مرتديًا العتاد والسيف، سأعرف أن كارثوريس قد تسلم رسالتي وعرف أنني لا أزال حيًّا. ويكفي أن حامل الرسالة زودانجي كي يعرف كارثوريس أنني سجين زات أراس.

مع مشاعر الإثارة التي يثيرها التوقع، والتي بالكاد ما أمكنني إخفاؤها، سمعت اقتراب الشاب في زيارته العادية التالية. لم أقل شيئًا خارج تحيتي المعتادة له. وعندما وضع الطعام على الأرض بجانبي، وضع أيضًا مواد الكتابة.

خفق قلبي فرحًا. لقد فزت بوجهة نظري. نظرت للحظة إلى هذه المواد متظاهرًا بالمفاجأة، وسرعان ما سمحت بتعبير ينم عن الفهم أن يظهر على وجهي، ثم أخذت الأدوات وكتبت أمرًا مختصرًا إلى كارثوريس بتسليم بارثاك العتاد الذي يختاره والسيف القصير الذي وصفته. كان هذا هو كتبته فقط، لكنه يعني كل شيء بالنسبة لي ولكارثوريس.

وضعت الرسالة مفتوحة على الأرض. التقطها بارثاك، وغادر دون كلمة.

أمضيت في الحُفر حتى الآن ثلاثمائة يوم، بقدر ما أمكنني التقدير. يجب إذن القيام الآن وبسرعة بأي شيء ممكن لإنقاذ ديجاه ثوريس؛ فنهايتها تقترب، إن لم تكن ماتت بالفعل؛ لأن من تختارهم إيسوس لا يعيشون إلا سنة واحدة.

في المرة التالية التي سمعت فيها اقتراب خطوات، انتظرت متشوقًا لأرى ما إذا كان بارثاك يرتدي العتاد والسيف. ولكن، لك أن تتخيل إن استطعت، مدى غمي وخيبة أملي عندما رأيت أن من حمل طعامي لم يكن بارثاك.

سألته: «ماذا حدث لبارثاك؟»، لكنه لم يجب، واستدار بمجرد أن وضع طعامي عائدًا إلى العالم العلوي.

مرت الأيام، ولا يزال سجاني الجديد يواصل الواجب الموكل إليه، ولا يوجه لي أي كلمة على الإطلاق، سواء ردًّا على أبسط سؤال أو من تلقاء نفسه.

لم يكن بإمكاني إلا أن أتكهن سبب إبعاد بارثاك، من الواضح أن السبب يتعلق بشكل ما بالرسالة التي أعطيتها له. بعد كل فرحي، لم أكن أفضل حالاً من ذي قبل، فلا أعرف حتى ما إذا كان كارثوريس حيًّا؛ فإذا كان بارثاك قد رغب في الحصول على تقدير زات أراس، كان سيستمر في مجاراتي بحيث يمكنه أن يحمل رسالتي إلى سيده دليلاً على الولاء والإخلاص.

مر ثلاثون يومًا منذ أعطيت الشباب الرسالة. ومرت ثلاثمائة وثلاثون يومًا منذ حبسي. وبأقرب تقدير يمكنني حسابه، يتبقى فقط ثلاثون يومًا قبل أن يصدر أمر إلى ديجاه ثوريس بالذهاب إلى الحلبة في طقوس إيسوس.

عندما فرضت هذه الصورة الرهيبة نفسها حية على مخيلتي، دفنت وجهي في ذراعي، وتمكنت بصعوبة بالغة من كبت الدموع التي فرت من عيني على الرغم من كل جهد. فكرت في هذه المخلوقة الجميلة تمزقها الأنياب القاسية للقرود البيضاء البشعة! هذا لا يمكن تصوره. لا يمكن أن تحدث هذه الحقيقة البشعة؛ ومع ذلك قال لي عقلي إن أميرتي التي لا تُضاهى سوف تقتلها هذه الحيوانات شديدة الشراسة في غضون ثلاثين يومًا في حلبة الأبناء الأوائل، وسيجرون جثمانها النازف خلال التراب والغبار، إلى أن يتم تخليص جزء منه في نهاية المطاف ليُقدم بمثابة غذاء على مائدة النبلاء السود.

كنت على وشك الجنون. سمعت صوت سجاني يقترب، مما صرف انتباهي عن الأفكار الرهيبة التي كانت شغلي الشاغل تمامًا. تبادرت إلى ذهني الآن فكرة جديد قاتمة. يجب أن أقوم بجهد بشري خارق حتى أتمكن من الهرب؛ أقتل سجاني بحيلة، وأثق أن قدري سيقودني إلى العالم الخارجي سالماً.

مع الفكر، بدأ العمل الفوري. ألقيت نفسي على أرض زنزانتي بالقرب من الجدار، في وضع متوتر ومشوه، كأنما سقط ميتًا بعد صراع أو تشنجات. وعندما ينحني فوقي، سأقبض رقبته بيد واحدة وأضربه ضربة هائلة بسلاسلي التي أمسك بها بقوة في يدي اليمنى لهذا الغرض.

زاد اقتراب الرجل الذي قررت قتله. والآن أسمعه يقف أمامي. سمعت همهمة متعجبة، ثم خطوات وهو يأتي إلى جانبي. شعرت به يركع بجواري. شددت قبضتي على السلسلة. انحنى قريبًا مني. يجب أن أفتح عيني لأعثر على رقبته، وأمسك بها وأضربه ضربة قوية واحدة في اللحظة نفسها.

تحقق الهدف كما خططت له تمامًا. كان الفاصل الزمني بين فتح عيني وسقوط السلسلة قصيراً جدًّا بحيث لم أتمكن من التحقق من الشخص، لكنني تعرفت في هذه الدقيقة الفاصلة على الوجه القريب جدًّا مني … كان ابني، كارثوريس.

يا إلهي! ما هذا المصير القاسي والخبيث الذي أوصلني إلى هذه النهاية المخيفة! أي سلسلة ملتوية من الظروف قادت ابني إلى جانبي في هذه اللحظة تحديدًا من حياتنا، لأضربه وأقتله، وأنا أجهل هويته! أغشت عناية إلهية كريمة بصري وعقلي، وأنا أغرق فاقد الوعي عند جسد ابني الوحيد.

عندما استعدت الوعي، شعرت بيد هادئة قوية تضغط على جبهتي. للحظة لم أفتح عيني. كنت أحاول جمع النهايات المفككة للعديد من الأفكار والذكريات التي طافت مراوغة عبر ذهني المتعب والمجهد.

تذكرت بالتفصيل قسوة ما فعلته في آخر تصرف واع لي، وعندئذ لم أجرؤ على فتح عيني خشية أن أرى الجسد المُلقى بجواري. تساءلت عن من أسعفني. من المؤكد أن كارثوريس كان بصحبته رفيق لم أره. حسنًا، يجب أن أواجه المحتوم في وقت ما، إذن لماذا ليس الآن، وفتحت عيني متنهدًا.

كان الذي يميل ناحيتي هو كارثوريس، وتوجد كدمة كبيرة على جبهته حيث ضربته السلسلة، لكنه على قيد الحياة، شكرًا يا إلهي، على قيد الحياة! لم يكن أحد معه. مددت ذراعي، وأخذت ابني داخلهما، فإذا كانت قد صدرت من أي كوكب صلاة امتنان حارة، فهي صلاتي هناك تحت قشرة المريخ المحتضر عندما شكرت السر الأبدي للحفاظ على حياة ابني.

كانت اللحظة القصيرة لرؤيتي كارثوريس، والتعرُّف عليه قبل سقوط السلسلة، كافية للتحقق من قوة الضربة. قال لي إنه سقط فاقد الوعي لفترة، لكنه لا يعرف لكم من الوقت.

«كيف وصلت إلى هنا أساسًا؟»، سألته مندهشًا من أنه وجدني دون مرشد.

«إنها فطنتك التي أبلغتني بوجودك وحبسك، من خلال الشاب بارثاك. كنا نتصور أنك ميت، إلى أن جاء من أجل عتاده وسيفه. عندما قرأت رسالتك، فعلت ما طلبته مني وأعطيت بارثاك ما اختاره من عتاد في غرفة الحرس، وبعد ذلك جلبت له السيف القصير المرصع. ولكني في اللحظة التي أوفيت فيها بوعدك له، توقف التزامي تجاهه. وشرعت بعد ذلك في استجوابه، لكنه لم يعطني أي معلومات عن مكان وجودك. كان شديد الولاء لزات أراس.

وفي النهاية، أعطيته خيارًا عادلاً بين الحرية والحُفر تحت القصر - ثمن الحرية هو معلومات كاملة حول مكان سجنك والاتجاهات التي تقودنا إليك؛ لكنه حافظ على تشدده العنيد. ولأني كنت يائسًا، أبعدته إلى الحفر، حيث لا يزال هناك.

لم تُحركه أي تهديدات بالتعذيب أو الموت، ولا الرشاوى مهما كانت فاخرة. كان رده الوحيد على إلحاحنا هو أنه عندما يموت بارثاك، سواء غدًا أو بعد ألف سنة، لن يقول أي رجل بحق 'خائن ذهب إلى بيداءه'.

وأخيراً، وضع زودار، وهو بارع في المكر، خطة يمكن بمقتضاها أن نستنبط المعلومات منه. وهكذا، ارتدى هور فاستوس عتاد معدن جندي زودانجي، وقيدناه بالسلاسل في زنزانة بارثاك بجواره. ولمدة خمسة

عشر يومًا، وقد ضعف هور فاستوس النبيل في ظلام الحفر، ولكن لم يكن ذلك دون جدوى. فقد فاز شيئًا فشيئًا بثقة وصداقة الزودانجي، إلى أن تحدث بارثاك اليوم فقط، متصورًا أنه لا يتكلم مع ابن بلده فحسب، وإنما مع صديق عزيز، وكشف لهور فاستوس عن موقع الزنزانة الدقيق التي توجد أنت فيها.

لم يستغرق الأمر مني سوى وقت قصير لتحديد خرائط حُفر هيليوم في الأوراق الرسمية. مع ذلك، كان الوصول إليك مسألة صعبة. فكما تعرف، بينما ترتبط جميع الحُفر ببعضها تحت المدينة، فلا يوجد سوى مدخل واحدة من تلك المداخل الموجودة تحت كل قسم وما يجاوره، وهذا عند المستوى الأعلى الموجود تحت الأرض مباشرة.

وهناك، بطبيعة الحال، حراسة دائمة للفتحات التي تؤدي من الحفر المتجاورة إلى تلك الموجودة تحت المباني الحكومية. وبالتالي، وصلت بسهولة إلى مدخل الحُفر تحت القصر الذي يشغله زات أراس، ووجدته تحت حراسة جندي زودانجي. تركته عندما مررت به، لكن روحه لم تعد معه».

أنهى كلامه ضاحكًا: «وها أنا الآن، فقط في الوقت المناسب لتقتلني».

كان كارثوريس خلال حديثه يحاول فك القفل الذي يقيدني؛ والآن، وبصيحة سعادة، أسقط نهاية السلسلة على الأرض. وقفت مرة أخرى، مطلق السراح من القيود الحديدية المزعجة التي أغضبتني لمدة سنة تقريبًا.

أحضر لي كارثوريس معه سيفًا طويلاً وخنجرًا، وانطلقنا مُسلحين في رحلة العودة إلى قصري.

عند موقع مغادرتنا حُفر زات أراس، وجدنا جثة الحارس الذي قتله كارثوريس. لم تُكتشف بعد. وبغية تأخير البحث وإيقاع الحيرة في أناس الجِد، حملنا جثة الحارس معنا لمسافة قصيرة، وأخفيناها في زنزانة صغيرة قبالة الممر الرئيس للحُفر أسفل عقارات مجاورة.

وصلنا إلى الحُفر تحت قصرنا بعد حوالي نصف ساعة، وسرعان ما وصلنا إلى القاعة العامة بالقصر، حيث وجدنا كانتوس كان وتارس تاركاس وهور فاستوس وزودار ينتظروننا بفارغ الصبر.

لم نضيع الوقت في سرد عقيم لسجني؛ فقد كنت أرغب في معرفة مدى تنفيذ الخطط التي وضعناها منذ عام تقريبًا.

قال كانتوس كان: «لقد استغرق الأمر منا وقتًا أطول بكثير مما كنا نتوقع. فقد أعاقنا كثيرًا اضطرارنا إلى الحفاظ على السرية المطلقة. جواسيس زات أراس في كل مكان. مع ذلك، وعلى حد علمي، لم تصل أي كلمة من خططنا الحقيقية إلى أذن الشرير.

يوجد الليلة، حول أحواض السفن الكبيرة في هاستور، أسطول يضم ألفًا من أعتى السفن الفضائية الحربية التي أبحرت على الإطلاق فوق برسوم، وكل منها مجهزة للإبحار في هواء ومياه أوميان نفسه. وتحمل كل سفينة حربية خمس عشرة سفينة أصغر تضم كُلٌّ منها عشرة رجال، هذا بالإضافة إلى عشر طائرات استطلاع تحمل كل منها خمسة عشر رجلًا؛ أي في المجمل مائة وستة عشر ألف قطعة مزودة بمراوح الهواء والماء على حد سواء.

«وفي ثارك، توجد سفن لنقل المحاربين الخُضر التابعين لتارس تاركاس، تسعمائة سفينة جند كبيرة بقوافلها. ونحن جميعًا على أهبة الاستعداد منذ سبعة أيام، وانتظرنا على أمل أن نتمكن من إنقاذك في الوقت المناسب لكي تقود الحملة. ومن الجيد أننا انتظرنا، يا أميري».

سألت: « تارس تاركاس، كيف لم يتخذ رجال ثارك الإجراءات المعتادة ضد شخص عاد من حضن إيس؟»ـ.

أجاب الثاركي: «أرسلوا مجلسًا يضم خمسين زعيمًا للتحدث معي هنا. نحن شعب عادل. وعندما أخبرتهم القصة بأكملها، وافقوا كرجل واحد على أن التصرف تجاهي سوف يسترشد بتصرف هيليوم تجاه جون كارتر. وفي الوقت نفسه، وبناء على طلبهم، كان يتعين أن أستعيد عرشي كجيداك لثارك، حتى يمكنني التفاوض مع جحافل المحاربين المجاورة لتشكيل القوات البرية للحملة. وقد فعلت. جمعت مائتين وخمسين ألف مقاتل من الغطاء الجليدي في الشمال إلى الغطاء الجليدي في الجنوب، يمثلون ألف جماعة مختلفة، من مائة من الجحافل الشرسة المحبة للحرب، ويحتشدون الليلة في مدينة ثارك الكبيرة، وهم على أهبة الاستعداد للإبحار إلى أرض الأبناء الأوائل عندما أعطيهم الإشارة، وسيحاربون هناك إلى أن أطلب منهم التوقف. كل ما يطلبونه هو الغنائم التي يحصلون عليها، ونقلهم إلى أراضيهم عند انتهاء القتال وأخذ الغنائم. انتهى حديثي».

سألت: «وأنت، هور فستوس، ما النجاح الذي حققته؟».

أجاب: «هناك مليون مقاتل متمرس من الممرات المائية الصغيرة في هيليوم يشكلون أطقم السفن الحربية، وسفن النقل، والقوافل. أقسم كل منهم على الولاء والسرية، ولم نُجند عددًا كبيراً من المنطقة الواحدة حتى لا نثير الشك».

صحت: «جيد! قام كل بواجبه. والآن، كانتوس كان، أليس علينا أن نتجه على الفور إلى هاستور ونبدأ طريقنا قبل شمس الغد؟».

أجاب كانتوس كان: «يجب ألا نضيع أي وقت يا أميري. شعب هاستور يتساءل بالفعل عن غرض أسطول ضخم كهذا بأطقم كاملة من المقاتلين. وأتساءل كثيراً عما إذا كان أي خبر قد وصل إلى زات أراس. هناك سفينة تنتظر في أعلى، في حوض السفن الخاص بك؛ فلنغادر في...» – قطع وابل من الطلقات من حدائق القصر كلماته.

هرعنا جميعًا إلى الشرفة في الوقت المناسب لنرى أكثر من عشرة من أفراد حرس قصري يختفون في ظلال بعض الشجيرات البعيدة، كأنما يطاردون شخصًا يفر. وأسفلنا مباشرة، فوق المرجة القرمزية، انحنت حفنة من رجال الحرس فوق شخص منبطح هامد.

أمرتهم بحمل الشخص وإحضاره إلى القاعة العامة حيث نجتمع. عندما مددوا الجسد أمام أقدامنا، رأينا أنه لرجل أحمر في مقتبل العمر- معادنه كانت عادية، مثل ملابس الجنود العاديين، أو من يرغبون في إخفاء هويتهم.

قال هور فاستوس: «جاسوس آخر من جواسيس زات أراس».

قلت: «يبدو ذلك»، ثم قلت للحارس: «يمكنك إخراج الجثة».

قال زودار: «انتظر!. بعد إذنك يا أمير، أطلب إحضار قطعة قماش، وقليلاً من زيت الثوات».

أشرت إلى أحد الجنود، فغادر الغرفة وعادة بالأشياء التي طلبها زودار. ركع الرجل الأسود بجانب الجثة، وغمس طرف القماش في زيت الثوات، وحك للحظة وجه الميت أمامه. ثم التفت لي بابتسامة، مُشيراً إلى عمله. نظرت ورأيت أن زيت الثوات الذي وضعه زودار كشف عن وجه أبيض، أبيض كوجهي، ثم أمسك زودار الشعر الأسود من الجثة، وسحبه بشده على نحو مفاجئ، كاشفًا عن رأس أصلع تحته.

تزاحم الحرس والنبلاء مقتربين حول الشاهد الصامت على الأرض الرخامية. كثيرة كانت هتافات الدهشة والتساؤلات العجيبة، حيث أكدت أفعال زودار شكوكه.

همس تارس تاركاس: «ثيرني!».

أجاب زودار: «أخشى أنه أسوأ من ذلك. ولكن دعونا نرى».

سحب خنجره ومزق الحقيبة المقفلة التي كانت تتدلى من عتاد الثيرني، ومنها أخرج طوق ذهبي مرصع بجوهره كبيرة- كانت مماثلة لتلك التي أخذتها من ساتور ثروج.

قال زودار: «كان ثرنيًا مقدسًا. من حسن حظنا بالفعل أنه لم يهرب».

دخل ضابط الحرس إلى الغرفة في هذه اللحظة.

قال: «يا أميري، يجب أن أبلغك أن رفيق هذا الزميل هرب منا. وأعتقد أن ذلك كان بالتواطؤ من واحد أو أكثر من الرجال عند البوابة. وقد أمرت باعتقالهم جميعًا».

سلمه زودار زيت الثوات وقطعة القماش.

وقال: «بهذا يمكنك اكتشاف الجاسوس بينكم».

أمرت على الفور بإجراء بحث سري داخل المدينة لكل نبيل مريخي يحتفظ بخدمة سرية خاصة به.

بعد نصف ساعة، جاء ضابط الحرس مرة أخرى بتقريره. وهذه المرة كان لتأكيد أسوأ مخاوفنا- نصف الحراس عند البوابة في تلك الليلة كانوا من الثيرن المتنكرين في زي الرجال الحُمر.

صحت: «هيا! يجب ألا نضيع أي وقت. إلى هاستور على الفور. وإذا حاول الثيرن التحقق منا عند الحافة الجنوبية للغطاء الجليدي، فقد يؤدي هذا إلى تدمير جميع خططنا وتدمير الحملة بالكامل».

وبعد عشر دقائق كنا نسرع خلال الليل نحو هاستور، على أهبة الاستعداد لتوجيه الضربة الأولى لحماية ديجاه ثوريس.

* * *

(20)
المعركة الجوية

بعد أن تركنا قصري في هيليوم بساعتين، أو في حوالي منتصف الليل، وصلت مع كانتوس كان وزودار إلى هاستور. توجه كارثوريس وتارس تاركاس وهور فاستوس مباشرة إلى ثارك على سفينة فضائية أخرى.

بدأت سفن النقل تتحرك على الفور، متجهة ببطء نحو الجنوب. وسوف يلحق بها أسطول السفن الحربية في صباح اليوم الثاني.

في هاستور، وجدنا الجميع على أهبة الاستعداد. لقد خطط كانتوس كان بدقة كافة تفاصيل الحملة، بحيث حلق عاليًا أول جزء من الأسطول من رصيفه في غضون عشر دقائق من وصولنا، وبعد ذلك بثانية واحدة، طفت السفن الكبيرة برشاقة خلال الليل لتُشكل خطًّا رفيعًا طويلاً امتد لأميال نحو الجنوب.

لم أُفكر في السؤال عن تاريخ اليوم إلا بعد دخولنا مقصورة كانتوس كان، فحتى الآن لم أكن متيقنًا من المدة التي قضيتها في حُفر زات أراس. وعندما أخبرني كانتوس كان، أدركت بفزع أنني أخطأت في حساب الوقت الذي قضيته في ظلام زنزانتي المطلق. لقد مرت ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا- تأخر الوقت كثيراً لإنقاذ ديجاه ثوريس.

لم تعُد الحملة للإنقاذ، وإنما للانتقام. لم أُخبر تذكير كانتوس كان بهذه الحقيقة المروعة: أننا قبل أن نأمل في دخول معبد إيسوس، لن تكون أميرة هيليوم موجودة. وبقدر ما كنت أعرف، قد تكون ميتة بالفعل، إذ لا أعرف التاريخ الدقيق الذي شاهدت فيه إيسوس للمرة الأولى.

ما قيمة إثقال أصدقائي الآن بعبء أحزاني الشخصية الإضافية- لقد شاركوني تمامًا ما يكفي منها في الماضي. ومن الآن فصاعدًا، سوف أحتفظ بأحزاني لنفسي؛ ولذا لم أقل شيئًا لأي شخص عن حقيقة أننا تأخرنا جدًّا. على أن الحملة يمكن أن تفعل الكثير، إذا نجحت فقط في تعريف شعب برسوم بحقائق الخداع القاسية التي عاشوها لعدد لا يُحصى من العصور، وبالتالي إنقاذ آلاف سنويًّا من المصير المروع الذي ينتظرهم في نهاية الحج الطوعي.

إذا أمكن أن تفتح الحملة للرجال الحُمر وادي دور الجميل، تكون قد أنجزت الكثير؛ ففي أرض الأرواح الضائعة بين جبال أوتز والحاجز الجليدي، هناك العديد من الفدادين الواسعة التي لا تحتاج إلى الري لتثمر محاصيل غنية.

وهنا في الجزء السفلي من العالم المحتضر، توجد المساحة الإنتاجية الطبيعية الوحيدة على سطحه. وهنا فقط توجد النداوة والأمطار، وهنا فقط يوجد بحر مفتوح، وهنا يوجد الماء بوفرة؛ وكل هذا الآن ليس سوى منتجع مُفضل للمتوحشين الشرسين، ومن هذه الرقعة الفسيحة الجميلة والخصبة منعت الفلول الشريرة لعِرقين كانا قويين في يوم ما جميع الملايين الأخرى في برسوم. إذا أمكنني أن أنجح فقَط في كسر حاجز الخرافات الدينية التي أبقت الأعراق الحمراء عن هذه الأرض الثرية الرائعة، سيكون هذا نصبًا تذكاريًّا ملائمًا للفضائل الخالدة لأميرتي- يجب أن أخدم برسوم مرة أخرى، وعندئذ لن يكون استشهاد ديجاه ثوريس قد ضاع سدى.

مع أول إطلالة للفجر في صباح اليوم الثاني، جمعنا أسطول النقل الكبير والسفن المرافقة له، وسرعان ما اقتربت السفن بما يكفي لتبادل الإشارات. وجدير بالذكر أن الرسائل الجوية اللاسلكية يندر استخدامها، هذا إن استُخدمت أصلاً في وقت الحرب، أو لإرسال رسائل سرية في أي وقت؛ فبمجرد أن يضع بلد شفرة جديدة، أو يخترع أداة جديدة للأغراض اللاسلكية، يبذل جيرانه كل جهد حتى يتمكنوا من اعتراض الرسائل وترجمتها. وقد استمر ذلك لفترة طويلة بحيث استُنفدت عمليًّا كل إمكانية للاتصال اللاسلكي، ولم تعد أي أمة تجرؤ على بث رسائل مهمة عبر هذا السبيل.

أفاد تارس تاركاس أن الأمور جيدة في سفن النقل. تحركت السفن الحربية لتتخذ موقفًا متقدمًا، وتحركت الأساطيل مجتمعة ببطء عبر الغطاء الجليدي، وهي تعانق السطح عن كثب حتى لا يكتشف الثيرن أننا نقترب من أراضيهم.

بعيدًا، ومتقدمًا عن الجميع، كان الخط الرفيع من طائرات الاستطلاع الجوي ذات الراكب الواحد تحمينا من المفاجأة. كانت تحيط بنا على

الجانبين، بينما يتولى عدد أصغر الحماية خلف سفن النقل بحوالي عشرين ميلاً. أحرز تشكيلنا هذا تقدمًا نحو مدخل أوميان لعدة ساعات، ثم عادت إحدى طائرات الاستطلاع من المقدمة لتفيد بأن قمة المدخل المخروطية أصبحت على مرمى البصر. وفي اللحظة نفسها تقريبًا، اتجهت طائرة استطلاع أخرى من الجناح الأيسر نحو السفينة الرئيسة.

دلت سرعتها الشديدة على أهمية معلوماتها. انتظرناها أنا وكانتوس كان على سطح السفينة الأمامي الصغير، الذي يناظر جسر السفن على كوكب الأرض. وقبل أن تستقر الطائرة الصغيرة على سطح الهبوط الواسع للسفينة الرئيسة، قفز الطيار متجهًا إلى حيث وقفنا مباشرة.

صاح: «هناك أسطول كبير من السفن الحربية جنوب الجنوب الشرقي، يا أميري. من المؤكد أنهم عدة آلاف، وأنهم يتجهون نحونا مباشرة».

قال لي كانتوس كان: «لم يكن وجود جواسيس الثيرن في قصر جون كارتر عبثًا. أوامرك، يا أمير».

«أرسل عشر سفن حربية لحراسة مدخل أوميان، مع أوامر بعدم السماح لأي عدو بالدخول أو الخروج من البئر. هذا سوف يسحق أسطول الأبناء الأوائل الضخم.

قم بتشكل السفن الحربية على شكل علامة V كبيرة، على أن تشير قمتها مباشرة نحو جنوب الجنوب الشرقي. وأصدر أمرًا إلى سفن النقل المحاطة بقوافلها بأن تتحرك عن كثب في أعقاب السفن الحربية إلى أن تدخل قمة العلامة V خط الأعداء، وعندئذ يجب فتح العلامة من عند قمتها نحو الخارج، وتنخرط السفن الحربية بكل ساق من سيقان العلامة مع العدو بشراسة وتجبره على العودة لتشكيل ممر خلال خطه، ويجب أن تدخله سفن النقل وقوافلها بأقصى سرعة بحيث يمكنهم الفوز بموقع فوق معابد وحدائق الثيرن.

وهنا اسمح لهم بالهبوط وإعطاء الثيرن المقدسين درسًا في الحرب الشرسة لن ينسوه لعدد لا يُحصى من العصور. لم تكن نيتي صرف انتباهي عن القضية الرئيسة الخاصة بالحملة، لكننا يجب أن نُخمِد هذا الهجوم مع الثيرن مرة وإلى الأبد، أو لن يتحقق لنا أي سلام بينما لا يزال أسطولَنا بالقرب من دور، وستتقلص كثيراً فرص عودتنا على الإطلاق إلى العالم الخارجي».

قدم كانتوس كان التحية، واستدار لإيصال تعليماتي إلى مساعديه المنتظرين. وخلال فترة زمنية قصيرة جدًّا، تغير تشكيل السفن الحربية وفقًا لأوامري؛ أسرعت السفن العشرة المكلفة بحراسة الطريق إلى أوميان نحو وجهتها، واقتربت سفن نقل الجنود وقوافلها استعدادًا للتدفق من خلال الممر.

صدر الأمر باتخاذ السرعة الكاملة، وانطلق الأسطول عبر الهواء مثل مطاردات كلاب الصيد، وفي لحظة تالية أصبحت سفن العدو على مرمى البصر بالكامل. لقد

شكلت خطًّا غير منتظم، بقدر ما يمكن أن تصل العين في الاتجاهين، وعلى عمق ثلاث سفن تقريبًا. كان هجومنا مفاجئًا بحيث لم يكن لديهم وقت للاستعداد له. كان غير متوقع، كالبرق من سماء صافية.

نجحت كل مرحلة من خطتي نجاحًا رائعًا. شقت سفننا الضخمة طريقها بالكامل خلال خط طائرات الثيرن الحربية؛ ثم انفتحت علامة V وظهر ممر واسع، قفزت خلاله سفن النقل متجهة نحو معابد الثيرن التي أصبحنا الآن نراها بوضوح تلمع في ضوء الشمس. وخلال الفترة التي استغرقها الثيرن للتجمع ثانية بعد هجومنا، كان مائة ألف محارب أخضر يتدفقون بالفعل عبر الساحات والحدائق، بينما مائة وخمسين ألف آخرين يميلون من سفن النقل التي تتأرجح منخفضة لتسديد طلقات الرماة الخارقة نحو جنود الثيرن الرابضين عند الأسوار أو يحاولون الدفاع عن المعابد.

انخرط الآن الأسطولان الكبيران في صراع جبار فوق الجلبة الشيطانية للمعركة في حدائق الثيرن الرائعة. انضمت ببطء نهاية هذين الخطين من سفن هيليوم الحربية، ثم بدأت في التحليق داخل خط العدو بما يُعد سمة من سمات الحرب البحرية البرسومية.

دارت السفن هنا وهناك في مسارات بعضها بعضًا بقيادة كانتوس كان، إلى أن شكلت دائرة كاملة تقريبًا. وأخذت تتحرك بسرعة عالية بحيث كانت هدفًا صعبًا للعدو. قامت بهجمات مركزة واحدة تلو الأخرى، مع وصول كل سفينة إلى صفوف الثيرن. حاولت سفن الثيرن الاندفاع وتفريق التشكيل، لكن الأمر كان يماثل وقف منشار دائري بيد عارية.

من موقعي على سطح السفينة بجانب كانتوس كان، رأيت سفينة تلو الأخرى من سفن العدو تغطس بشكل مقزز فظيع، بما يعلن عن تدميرها الكامل. تحركنا ببطء في دائرة الموت التي شيدناها، إلى أن أصبحنا فوق الحدائق حيث يشتبك محاربونا الخُضر. أصدرنا لهم الأمر بالبدء، وعندئذ ارتفعوا ببطء إلى موقع مركز الدائرة.

وفي الوقت نفسه، توقفت نيران الثيرن عمليًّا. نال الثيرن ما فيه الكفاية، وكأنهم يرغبون في تركنا نمضي في طريقنا بسلام. لكن هروبنا لم يكن ليحدث بهذه السهولة، فبمجرد أن واصلنا طريقنا ثانية في اتجاه مدخل أوميان، رأينا بعيدًا في الشمال خطًّا أسود كبير يتصدر الأفق. لا يمكن أن يكون أي شيء سوى أسطول حربي.

لم نتمكن حتى من تخمين انتماء هذا الأسطول أو إلى أين يتجه. ومع اقتربه، استقبل عامل اللاسلكي عند كانتوس كان رسالة جوية لاسلكية وسلمها فورًا إلى رفيقي، الذي قرأها وسلمها لي.

تقول الرسالة: «كانتوس كان، استسلم، باسم جيداك هيليوم؛ لأنك لن تتمكن من الهرب»، وكانت الرسالة بتوقيع «زات أراس».

من المؤكد أن الثيرن استقبلوا الرسالة وترجموها في نفس الوقت مثلنا؛ لأنهم جددوا على الفور الأعمال العدائية عندما أدركوا أن أعداء آخرين سيهاجموننا.

قبل أن يقترب زات أراس بما يكفي لإطلاق النار، اشتبكنا مرة أخرى بضراوة مع أسطول الثيرن، وما إن زاد اقتراب زات أراس، حتى بدأ في إطلاق وابل رهيب من النيران الكثيفة ضدنا. ترنحت سفينة بعد الأخرى وتهاوت متعطلة تحت النيران القاسية التي نتعرض لها.

كان يصعب استمرار هذا الوضع لفترة أطول؛ فأمرت سفن النقل بالهبوط مرة أخرى إلى حدائق الثيرن.

كانت رسالتي إلى الحلفاء الخُضر: «اشفوا غليل انتقامكم إلى أقصى حد، فلن يتبق بعد الليلة من يثأر لعدوانكم».

رأيت الآن السفن الحربية العشرة التي أمرتها بحراسة بئر أوميان. كانت عائدة بأقصى سرعة، وتطلق مدفعيتها الشديدة بشكل مستمر تقريبًا. لا يمكن أن يوجد إلا تفسير واحد: هناك أسطول مُعاد آخر يطاردها. حسنًا، لا يمكن أن يسوء الوضع أكثر من ذلك؛ حملتنا محكوم عليها بالفَشل. لا يوجد إنسان شرع فيها سيعود عبر هذا الغطاء الجليدي الكئيب. كم تمنيت أن أواجه زات أراس بسيفي الطويل لمجرد لحظة قبل أن أموت! فهو سبب فشلنا.

بمثل ما شاهدت السفن العشرة قادمة، رأيت مطارديهم مسرعين على مرمى البصر. كان أسطولاً ضخمًا آخر. للحظة لم أصدق عيني، لكنني في النهاية اضطررت للاعتراف بأن الكارثة الأكثر فداحة قد حلت بالحملة. فالأسطول الذي رأيته لم يكن سوى أسطول الأبناء الأوائل، الذين من المفترض أننا عرقلنا تحركاتهم في أوميان. يا لها من سلسلة من المحن والكوارث! ما هذا المصير الفظيع الذي يحلق فوقي، ويواجهني بشكل رهيب في كل زاوية من بحثي عن حبي المفقود! هل هي لعنة إيسوس! أهناك، بالفعل، إله خبيث في ذلك الجسد البشع! لا أعتقد. رفعت كتفي، وركضت إلى السطح الأدنى للسفينة للانضمام إلى رجالي في صد من يحاولون الصعود إلى سفينتنا من إحدى مركبات الثيرن التي اشتبكت معنا في هجوم مُركز. عاد أملي القديم الشجاع، مع الشهوة الجامحة للقتال وجهًا لوجه،. ومع سقوط الثيرن واحدًا تلو الآخر تحت ضربات سيفي، كدت أشعر أننا سنحقق النجاح في نهاية المطاف، حتى من هذا الفشل الظاهر.

وجودي بين الرجال شجعهم إلى حد كبير، فانقضوا على البيض قليلي الحظ بضراوة رهيبة جعلتنا خلال لحظات قليلة نقلب المائدة عليهم، وبعد ثانية، ونحن نتدفق إلى أسطح مركباتهم، شعرت بالارتياح لرؤية قائدهم يقفز قفزة طويلة من مقدمة سفينته رمزًا للاستسلام والهزيمة.

انضممت إلى كانتوس كان، الذي يشاهد ما حدث على سطح السفينة أدناه، ويبدو أن هذا أعطاه فكرة جديدة. أصدر على الفور أمرًا لأحد ضباطه، وعلى الفور انطلقت رايات أمير هيليوم من كل نقطة في السفينة الرئيسة. ارتفع هتاف كبير من رجال سفينتنا، هتاف رددته كل سفينة أخرى في حملتنا وهي تُطلِق راياتي من الأجزاء العلوية بسفنهم.

ثم أطلق كانتوس كان ضربته المفاجئة. ارتفعت عاليًا على السفينة الرئيسة إشارة واضحة لكل بحار بجميع الأساطيل المشتبكة في هذا الصراع العنيف.

كانت تُقرأ: «رجال هيليوم، من أجل أمير هيليوم، وضد جميع أعدائه». تنطلق الآن راياتي من إحدى سفن زات أراس، ثم من سفينة آخرى، ثم أخرى. رأينا في بعض سفنهم معارك شرسة بين جنود زودانجا وأطقم هيليوم، لكن رايات أمير هيليوم طافت عمليًّا فوق جميع السفن التابعة لزات أراس- فقط سفينته الرئيسة لم ترفع الرايات.

لقد جلب زات أراس خمسة آلاف سفينة. وكانت السماء سوداء بثلاثة أساطيل ضخمة. أصبحت هيليوم في ساحة المعركة الآن، وانتهى القتال بعدد لا يحصى من المبارزات الفردية. تصعب مناورات الأساطيل في تلك السماء مزدحمة التي يمزقها النيران.

كانت سفينة زات أراس الرئيسة قريبة من سفينتي. وتبينت بوضوح، من حيث أقف، ملامح الرجل الرفيعة. شن طاقمه الزودانجي هجمات مركزة متتالية نحونا، وكنا نرد على نيرانهم بضراوة متساوية. زاد اقتراب السفينتين إلى أن تواجهتا على بُعد بضعة ياردات. قام المقاتلون بصف القضبان المتلامسة للسفينتين. كنا نستعد لقتال حتى الموت مع عدونا المكروه.

لم تكن تفصلنا سوى ياردة واحدة. هرعت إلى سطح السفينة لأكون بجانب رجالي وهم يصعدون. وبمجرد أن اصطدمت السفينتان صدمة طفيفة، شققت طريقي، وكنت أول من قفز إلى سطح سفينة زات أراس. تدفق بعدي صراخ وهتاف ولعنات غفيرة من أفضل مقاتلي هيليوم. لا شيء يمكن أن يوقفهم في حمى شهوة المعركة التي تفتنهم.

تساقط الزودانجيون أمام هذا المد المتزايد للحرب، وبعد أن أخلى رجالي الطوابق السفلية، انطلقت إلى سطح السفينة الأمامي حيث وقف زات أراس.

صحت: «أنت أسيري، زات أراس. استسلم وسوف أرحمك».

لم أتمكن للحظة من تحديد تفكيره؛ يوافق على طلبي أم يواجهني بالسيف. وقف مترددًا للحظة، ثم ألقى ذراعيه واستدار مندفعًا إلى الجانب الآخر من سطح السفينة. وقبل أنا أتمكن من اللحاق به، قفز عبر الدرابزين، وألقى بنفسه إلى الأعماق الفظيعة أدناه.

وهكذا وصل زات أراس، جِد زودانجا، إلى نهايته.

استمرت تلك المعركة الغريبة. لم يتحد الثيرن والسود ضدنا. أينما تلتقي سفينة ثيرنية مع سفينة للأبناء الأوائل، تكون المعركة شرسة؛ وفكرت أن هذا ربما خلاصنا. عندما كانت تُتاح فرصة تمرير رسائل بيننا دون أن يعترضها أعداؤنا، كنت أرسل كلمة بأن تنسحب جميع سفننا من المعركة بأسرع ما يمكن، وأن تتخذ وجهتها غرب وجنوب المقاتلين. كما أرسلت طائرة استطلاع جوي للمقاتلين الخُضر في الحدائق أدناه للاستعداد، ولسفن النقل لتنضم إلينا.

كما أصدرت تعليمات أيضًا إلى القادة بسرعة سحب الخصم، عند الاشتباك، نحو سفينة خصومه المتوارثين، وإجبار الاثنين عبر مناورة دقيقة على الاشتباك معًا، مما يتيح لهذا القائد وجنوده فرصة الانسحاب. نجحت هذه الخدعة إلى حد الكمال، وقبل غروب الشمس مباشرة، كنت مستريحًا لرؤية أن كل ما تبقى من أسطولي الذي كان قويًّا قد تجمع على بعد حوالي عشرين ميلاً جنوب غرب المعركة التي لا تزال مشتعلة بين السود والبيض.

نقلت الآن زودار إلى سفينة حربية أخرى، وأرسلت معه جميع سفن النقل وخمسة آلاف سفينة حربية للتوجه مباشرة إلى معبد إيسوس. وأخذت أنا وكارثوريس وكانتوس كان، السفن المتبقية وتوجهنا نحو مدخل أوميان.

خطتنا الآن هي محاولة شن هجوم مشترك على إيسوس فجر اليوم التالي: تارس تاركاس مع المحاربين الخُضر، وهور فاستوس مع الرجال الحُمر يهبطون، مسترشدين بزودار، داخل حديقة إيسوس أو السهول المحيطة بها؛ بينما أتولى ومعي كارثوريس وكانتوس كان، قيادة قوة أصغر من بحر أوميان عن طريق الحُفر تحت المعبد، التي يعرفها كارثوريس جيدًا.

علمت الآن للمرة الأولى سبب تراجع سفني العشرة من فوهة مدخل البئر. يبدو أنها عندما وصلت فوق البئر، كانت بحرية الأبناء الأوائل تتدفق بالفعل من فوهته. برزت عشرون سفينة، وعلى الرغم من أنها شنت معركة على الفور في محاولة لوقف المد التي توالى من الحفرة السوداء، فلم تكن فرصهم كبيرة جدًّا، وأُجبروا على الفرار.

اقتربنا بحذر شديد من البئر، تحت جنح الظلام. وعلى مسافة عدة أميال، أمرت الأسطول بالتوقف، ومن هناك تقدم كارثوريس بمفرده في طيارة لراكب واحد من أجل الاستطلاع. عاد بعد حوالي نصف ساعة، عاد ليخبرنا بعدم وجود أي علامة على قارب دورية أو عدو بأي شكل من الأشكال، وبالتالي تحركنا سريعًا في صمت إلى الأمام مرة أخرى نحو أوميان.

توقفنا ثانية عند فوهة البئر قليلاً حتى تصل جميع السفن إلى مواقعها المحددة مسبقًا، ثم هبطت بسرعة بالسفينة الرئيسة إلى الأعماق السوداء، بينما تبعتني السفن الأخرى واحدة تلو الأخرى في تتابع سريع.

قررنا المغامرة، واقتناص الفرصة للوصول إلى المعبد من الطريق تحت الأرضي، ولذا لم نترك أي سفن حراسة في مدخل البئر. كما أنها لم تكن لتفيدنا إذا تركناها؛ فقواتنا ليست كافية؛ لأننا أبلغناها أن تصد أسطول الأبناء الأوائل البحري الهائل إذا عادوا للاشتباك معنا.

لسلامة دخولنا إلى أوميان، اعتمدنا إلى حد كبير على الجرأة، اعتقادًا بأن الأمر لن يستغرق سوى القليل من الوقت قبل أن يدرك حراس الأبناء الأوائل أن العدو وليس أسطولهم العائد هو الذي يدخل قبو البحر المدفون.

ثبتت صحة ذلك. ففي واقع الأمر، استقرت بأمان أربعمائة سفينة من أسطولي، المكون من خمسمائة سفينة، في حضن أوميان قبل إطلاق الطلقة الأولى. كانت المعركة قصيرة وحامية الوطيس، على أني لم أتوقع سوى نتيجة واحدة؛ ذلك أن الأبناء الأوائل، في ظل تصوراتهم الخيالية بأن أمنهم حصين، لم يتركوا سوى حفنة من سفن ثقيلة قديمة وبالية لحراسة ميناءهم الجبار.

وبناء على اقتراح كارثوريس، أخذنا أسرانا تحت حراسة إلى جزيرتين من أكبر الجزر، ثم سحبنا سفن الأبناء الأوائل إلى البئر، حيث نجحنا في حشر عدد منها بشكل آمن داخل البئر الكبير. ثم قمنا بتشغيل أشعة الطفو نحو باقي سفنهم، وسمحنا لهم بالارتفاع بغية زيادة عرقلة المرور إلى أوميان عند ملامستهم للسفن التي سبق أن استقرت هناك.

شعرنا الآن أن أمامنا بعض الوقت على الأقل قبل أن يتمكن الأبناء الأوائل من الوصول إلى سطح أوميان، وأن أمامنا فرصة كبيرة للوصول إلى الممرات تحت الأرضية التي تؤدي إلى إيسوس. كانت أول خطوة اتخذها هي الإسراع شخصيًّا بقوة ذات حجم جيد إلى جزيرة الغواصة، وقد استوليت عليها دون مقاومة من جانب قوات الحرس صغيرة العدد هناك.

وجدت الغواصة في الحوض، وعلى الفور وضعت حراسة قوية عليها وعلى الجزيرة، وانتظرت قدوم كارثوريس والآخرين.

كان يرستيد، قائد الغواصة، من بين الأسرى. وقد تعرف علي من الرحلات الثلاث التي كنت معه فيها خلال أسري لدى الأبناء الأوائل.

سألته: «كيف يبدو الأمر بعد أن انقلبت الموائد؟ أن تكون سجينًا لدى أسيرك السابق؟».

ابتسم، ابتسامة قاتمة جدًّا محملة بمعان خفية.

أجاب: «لن يستمر ذلك لفترة طويلة، جون كارتر. كنا نتوقعكم، ونحن مستعدون».

أجبته: «هذا ما يبدو، فقد كنتم جميعًا مستعدين للوقوع في الأسر بمجرد هجمة تضرب من الجانبين».

قال: «من المؤكد أن الأسطول لم يدركك، لكنه سيعود إلى أوميان وعندئذ سيختلف الأمر كثيراً بالنسبة إلى جون كارتر».

قلت: «لا أعرف أن الأسطول لم يدركني حتى الآن»، لكنه بالطبع لم يدرك معنى كلامي، وإنما بدا متحيراً فقط.

سألته: «هل يسافر العديد من السجناء إلى إيسوس في مركبتك القاتمة، يرستيد؟».

قال موافقًا: «كثير جدًّا».

«هل تتذكر من بينهم شخصًا يدعوه الرجال ديجاه ثوريس؟».

«حسنا، أتذكرها في الواقع، لجمالها الرائع، وأيضًا لأنها كانت زوجة أول بشري يهرب على الإطلاق من إيسوس عبر جميع عصور ألوهيتها؛ وأيضًا بالطريقة التي تتذكرها

بها إيسوس أكثر، فإنها زوجة شخص وأم شخص آخر رفع كلاهما إيديهم ضد إلهة الحياة الأبدية».

ارتعدت خوفًا من الانتقام الجبان الذي أعرف أن إيسوس قد تمارسه على ديجاه ثوريس البريئة لتدنيس ابنها وزوجها للمقدسات.

«وأين ديجاه ثوريس الآن؟»، سألته مع علمي أنه سيقول الكلمات التي تُعد أكثر ما يفزعني، لكني أحببتها لدرجة أنني لم استطع أن أمتنع عن الاستماع حتى إلى الأسوأ بشأن مصيرها. فالكلمات التي سقطت من شفاه أحد الذين شاهدوها مؤخرًا، كانت كأنما تجلبها بالقرب مني.

أجاب يرستيد: «عُقدت أمس الطقوس الشهرية لإيسوس، ورأيتها تجلس في مكانها المعتاد عند قدم إيسوس».

صحت: «ماذا، إنها ليست ميتة إذن؟».

أجاب الأسود: «لماذا؟ كلا، لم تمر سنة منذ أن حدقت في المجد الإلهي للوجه المشع لـ...».

قاطعته: «لم تمر سنة!».

أصر يرستيد: «لماذا، كلا. فالفترة لم تزد على ثلاثمائة وسبعين أو ثمانين يومًا».

تفجر ضوء كبير فوقي. كم كنت غبيًّا! بالكاد ما أمكنني الاحتفاظ بمظهر خارجي لفرحي العظيم. لماذا نسيت الفارق الكبير بين طول سنوات مريخ وكوكب الأرض! فالسنوات العشر بمقياس كوكب الأرض التي قضيتها في برسوم لم تكن سوى خمس سنوات وستة وتسعين يومًا بمقياس المريخ الذي يزيد طول يومه بمقدار 41 دقيقة على طول يوم كوكب الأرض، ويبلغ عدد أيام السنة فيه ستمائة وسبعة وثمانين يومًا.

وصلت في الوقت المناسب! وصلت في الوقت المناسب! اندفعت الكلمات من خلال ذهني مرارًا وتكرارًا، ومن المؤكد أنني في النهاية قلتها بصوت مسموع، ذلك أن يرستيد هز رأسه.

«في الوقت المناسب لإنقاذ أميرتك؟»، سألني ثم قال دون انتظار إجابتي: «كلا، جون كارتر، إيسوس لن تتخلى عنها؛ فهي تعرف أنك قادم، وقبل أن يضع أي مُخرّب قدمه داخل حرم معبد إيسوس، إن حدثت مثل هذه الكارثة، ستبتعد ديجاه ثوريس إلى الأبد وينتهي آخر أمل طفيف لإنقاذها».

سألته: «تعني أنهم سيقتلونها فقط لصد تقدمي؟».

أجاب: «هذا ليس سوى الملاذ الأخير. هل سمعت من قبل عن معبد الشمس؟ سوف يضعونها هناك، حيث يقع بعيدًا داخل الساحة الداخلية لمعبد إيسوس. إنه معبد صغير يرتفع بُرجه الرفيع أعلى كثيراً من أبراج ومنارات المعبد العظيم الذي يحيط به. وأسفله، تحت الأرض، يقع الجسم الرئيس للمعبد ويتكون من ستمائة وسبعة وثمانين غرفة دائرية، واحد تحت الأخرى. وهناك ممر واحد ملحق بكل غرفة، يقود من خلال الصخور الصلبة إلى خارج حُفر إيسوس».

«يدور معبد الشمس كله مرة واحدة مع كل دورة لبرسوم حول الشمس. ومرة واحدة كل سنة، يأتي مدخل كل غرفة منفصلة أمام فتحة الممر الذي يُشكل صلته الوحيدة بالعالم الخارجي».

«هناك تضع إيسوس من يثيرون غضبها أو استياءها، لكنها لا تهتم بإعدامهم على الفور، أو تضع أحد نبلاء الأبناء الأوائل داخل غرفة في معبد الشمس لمدة سنة لمعاقبته. وكثيراً ما تسجن الجلاد مع المُدان، بحيث يأتي الموت بفظاعة في يوم معين، أو لا تضع من الغذاء في الغرفة إلا ما يكفي للإبقاء على الحياة لعدد الأيام التي خصصتها إيسوس للعذاب النفسي».

«وهكذا سوف تموت ديجاه ثوريس، وسيتقرر مصيرها نهائيًّا مع خطوة أول قدم غريبة على عتبة إيسوس».

إذن سوف أُحبط في نهاية المطاف؛ فعلى الرغم من أنني قمت بمعجزة ولم يكن يفصلني عن أميرتي الإلهية سوى بضع دقائق قصيرة، فقد كنت بعيدًا عنها بمثل ما وقفت عند ضفاف هدسون على بعد 48 مليون ميل.

* * *

(21)

عبر الفيضان واللهيب

أقنعتني معلومات يرستيد بأن الوقت المتبقي قصير. يجب أن أصل إلى معبد إيسوس سرًّا قبل أن تهاجمة القوات بقيادة تارس تاركاس عند الفجر. كنت على يقين أنني بمجرد أن أخطو داخل جدرانه الكريهة، سأتمكن من التغلب على حراس إيسوس وأحمل أميرتي بعيدًا، حيث ستأتي خلفي قوة كافية لهذه الفرصة.

انضم لي كارثوريس والآخرون، وبدأنا نقل رجالنا خلال الممر المغمور بالمياه إلى فوهة المسارات التي تؤدي من حوض الغواصة عند النفق المائي في نهاية المعبد إلى حُفر إيسوس.

تطلب الأمر عدة رحلات، لكننا وقفنا أخيراً بأمان معًا مرة أخرى عند بداية نهاية مسعانا. كنا خمسة آلاف من المقاتلين الأقوياء المتمرسين، من أكثر عِرق مولع بالحرب من رجال برسوم الحُمر.

ونظرًا لأن كارثوريس فقط هو من يعرف الطرق الخفية بالأنفاق، لم نتمكن من أن نقسم مجموعتنا ونهاجم المعبد من عدة نقاط في نفس الوقت كما كنا نأمل، وهكذا قررنا أن يقودنا جميعًا في أسرع وقت ممكن إلى نقطة قريبة من وسط المعبد.

عندما كنا على وشك مغادرة الحوض ودخول الممر، لفت ضابط انتباهي إلى المياه التي تطفو فوقها الغواصة. بدت المياه تتحرك في البداية لمجرد وجود جسم ما ضخم أسفل سطحها، وتوقعت على الفور أن غواصة أخرى ترتفع إلى السطح لمطاردتنا. على أنه اتضح الآن أن مستوى المياه آخذ في الارتفاع، ليس بسرعة قصوى، وإنما بسرعة كبيرة بالتأكيد، وأنها في أقرب وقت سوف تتجاوز جانبي الحوض وتُغرِق أرض الغرفة.

للحظة لم أستوعب تمامًا المغزى الرهيب لارتفاع المياه ببطء. بيد أن كارثوريس هو من أدرك المعني كاملاً- دوافعه وأسبابه.

صرخ: «فلنسرع! سنضيع جميعًا إذا تأخرنا. فقد أوقفوا مضخات أوميان، سيغرقوننا كفئران في فخ. يجب أن نصل إلى المستويات العليا للحفر قبل الفيضان أو لن نصل إليها أبدًا. هيا».

صحت: «عليك أن تقود الطريق، كارثوريس. وسوف نتبعك».

بناء على أمري، قفز الشاب إلى أحد الممرات، وفي أعقابه الجنود بنظام جيد - اثنين اثنين في عمود، ولا تدخل كل مجموعة إلى الممر إلا بأمر من الدوار، أي الكابتن.

وصلت إلى الكاحل قبل خروج آخر مجموعة من الغرفة؛ وبدا واضحًا توتر الرجال العصبي. لم يكن الرجال الحُمر معتادين على المياه إطلاقًا إلا بالكميات التي تكفي لأغراض الشرب والاستحمام، ولذا انكمشوا غريزيًّا بعيدًا عنها في هذه الأعماق الهائلة والنشاط التهديدي. كانت شجاعتهم والمياه تلتف وتدور حول الكاحلين تنم عن جرأتهم وانضباطهم.

كنت آخر من يغادر غرفة الغواصة، متحركًا في الجزء الخلفي من العمود نحو الممر خلال المياه التي وصلت إلى ركبتي. كان الممر أيضًا مغمورًا إلى العمق نفسه؛ فأرضيته تقع على نفس مستوى أرضية الغرفة التي تؤدي إليه، كما لا يوجد أي ارتفاع ملحوظ للعديد من الياردات.

كانت سرعة مسيرة القوات خلال الممر تتسق مع عدد الرجال الذين يتحركون عبر ممر ضيق على هذا النحو، لكنه لم يكن متسعًا ليسمح لنا تحقيق نجاح سريع ملموس في مسعانا. ومع ارتفاع مستوى الممر، ارتفعت المياه أيضًا بحيث أصبح واضحًا لي، أنا الذي كنت أعزز الخلفية، أن المياه تكتسب سرعة علينا. يمكنني أن أفهم السبب؛ فمع ضيق اتساع أوميان، وعندما ترتفع المياه نحو قمة قبته، تزيد سرعة ارتفاعها بنسبة عكسية لملء المساحة الآخذة في النقصان.

كنت مقتنعًا، لفترة طويلة قبل أن يأمل العمود الأخير الوصول إلى الحُفر العليا التي تقع فوق نقطة الخطر، بأن المياه ستندفع وراءنا بحجم ساحق، وأن نصف أفراد الحملة بالكامل سيموتون.

ألقيت نظري بحثًا عن بعض الوسائل لإنقاذ أكبر عدد ممكن من الرجال، رأيت ممرًّا متشعبًا يرتفع بزاوية حادة على يميني. كانت المياه تدور الآن حول خصري، وسرعان ما أصاب الذعر الرجال الموجودين أمامي مباشرة. يجب أن أتصرف على الفور، وإلا سيتدافعون بجنون إلى الأمام على زملائهم ويدوسون على المئات منهم تحت الفيضان، وفي النهاية يسدون الممر وراء أي أمل في انسحاب مسبق.

رفعت صوتي إلى أقصاه، وأصدرت أمرًا إلى الدوار أمامي.

صرخت: «استدعوا آخر خمسة وعشرين رجلاً. تبدو هنا وسيلة للهرب. عودوا واتبعوني».

أطاع أوامري أقرب ثلاثين رجلاً، بحيث أسرع حوالي ثلاثة آلاف رجل إلى مطحنة الفيضان للوصول إلى الممر الذي وجهتهم إليه.

عندما مر أول دوار وزميله، نبهته أن يستمع جيدًا لأوامري، ولا يخاطر تحت أي ظرف من الظروف بالخروج إلى العراء، أو ترك الحُفر للتوجه إلى المعبد إلى أن أصعد معه: «أو تعرف أنني مت قبل أن أصل إليك».

تقدم الضابط لتحيتي ثم تحرك. ابتعد الرجال عني سريعًا، ودخلوا الممر المتشعب الذي كنت آمل أنه يؤدي إلى الأمان. ارتفع الماء عاليًا. تخبط الرجال، وتعثروا، وسقطوا. تمكنت من الإمساك بالعديد منهم وإيقافهم على أقدامهم مرة أخرى، لكن العمل بمفردي كان أكبر من قدرتي على مواجهته. كان الجنود يسقطون تحت سيل المياه الجارف ولا ينهضون ثانية. بعد فترة اتخذ دوار المجموعة العاشرة موقعًا بجواري. كان جنديًّا شجاعًا، اسمه جور تاس، ومعًا أبقينا القوات التي أصبحت الآن خائفة تمامًا، في مظهر نظامي وأنقذنا العديد من الغرق.

انضم إلينا داجور كانتوس، بادوار المجموعة الخامسة وابن كانتوس كان، عندما وصلت مجموعته إلى الفتحة التي يفر الرجال من خلالها. وبعد ذلك، لم نفقد أي رجل من بين المئات التي بقيت لتعبر من الممر الرئيس إلى الفرعي.

وصل ارتفاع المياه إلى أعناقنا مع مرور آخر مجموعة أمامنا. شبكنا أيدينا ووقفنا ثابتين إلى أن مر آخر رجل إلى الأمان النسبي في الممر الجديد. وهنا وجدنا مطلعًا فوريًّا وحادًّا، بحيث استطعنا بعد مسافة مائة ياردة الوصول إلى نقطة فوق المياه.

واصلنا سريعًا صعودنا إلى المستوى الحاد في بضع دقائق، وكنت آمل أنه سيصل بنا إلى الحُفر العلوية ويتيح لنا دخول معبد إيسوس. لكنني واجهت خيبة أمل قاسية.

سمعت فجأة عن بعد أمامنا صيحة «إطلاق النار»، تلتها على الفور تقريبًا صرخات رعب وأوامر بصوت عال من الدوار والبادوار في محاولة، كما يبدو، لتوجيه رجالهم بعيدًا عن خطر جسيم. وأخيراً جاء من يخبرنا: «لقد أطلقوا النيران على الحُفر. تحيط بنا النيران من الأمام، والفيضان من الخلف. النجدة، جون كارتر؛ نحن نختنق». ثم اجتاحتنا من الخلف موجة من دخان كثيف، جعلتنا نتعثر عميانًا في تراجع خانق.

ليس أمامنا أي شيء سوى التماس سبيل جديد للهروب. الخوف من النار والدخان أكثر ألف مرة من الخوف من الماء، ولذا توجهت إلى أول دهليز يقودنا خارج الدخان الخانق الذي يجتاحنا.

وقفت على الجانب مرة أخرى، بينما يسرع الجنود خلال الطريق الجديد. من المؤكد أن ألفي رجل تقريبًا يركضون سريعًا، ثم توقف تدفقهم. لم أكن على يقين من إنقاذ جميع من اجتازوا نقطة منشأ اللهيب. وبالتالي، وللتأكد شخصيًّا أننا لم نترك أيًّا من هؤلاء الشياطين المساكين ليموت بفظاعة دون أن يحصل على مساعدة، جريت بسرعة إلى الدهليز في اتجاه النيران التي أراها الآن مشتعلة على بعد.

كان الجو ساخنًا وخانقًا، لكنني وصلت أخيراً إلى نقطة أضاءت فيها النيران الممر بما يكفي لأتأكد من عدم وجود أي جندي من هيليوم بيني وبين الحريق- لم أتمكن من معرفة ما كان في الحريق أو على الجانب الآخر منه، كما لم يتمكن أن يعرف أي رجل مر من خلال ذلك الجحيم الهائج من المواد الكيميائية وعاش.

وبعد أن أرضيت شعوري بالواجب، استدرت وركضت بسرعة عائدًا إلى الممر الذي عبره رجالي. لكنني، ويا له من رعب، وجدت أن تراجعي في هذا الاتجاه قد أصبح مسدودًا؛ إذ رأيت حاجزاً حديديًّا ضخمًا يسد فتحة الممر، ومن الواضح أنه قد تم إنزاله من موقعه العلوي بغرض قطع طريق هروبي بشكل فعال.

ما من شك أن الأبناء الأوائل يتابعون تحركاتنا الرئيسة: فليس ممكنًا أن يكون هجوم الأسطول علينا في اليوم السابق، ووقف مضخات أوميان في لحظة نفسية بعينها، هو محض صدفة؛ ولا كان بدء الاحتراق الكيميائي داخل الممر الذي يقودنا إلى معبد إيسوس بسبب أي شيء إلا تخطيط محسوب جيدًا.

ويبدو الآن أن إسقاط البوابة الحديدية لاحتجازي بين الحريق والفيضان يشير إلى أن أعينًا غير مرئية تراقبنا في كل لحظة. ما فرصي إذن لإنقاذ ديجاه ثوريس، وأنا مضطر لمحاربة أعداء لا يُظهرون أنفسهم أبدًا. وبخت نفسي ألف مرة للانجرار إلى فخ من هذا القبيل، وكان يجب أن

أعرف بسهولة طبيعة هذه الحُفر. أدركت الآن أنه كان من الأفضل بكثير أن أحافظ على قوتنا دون مساس، وأقوم بهجوم منسق على المعبد من جانب الوادي، مع الثقة في أن الفرصة وقدرتنا العظيمة على القتال كان يمكن أن تسحق الأبناء الأوائل وتجبرهم على تسليمي ديجاه ثوريس آمنة.

أجبرني دخان النيران على المزيد والمزيد من التراجع عبر الممر نحو المياه، التي أسمع ارتفاعها خلال الظلام. ذهبت الشعلة الأخيرة مع رجالي، ولم يكن هذا الممر مضاء بشعاع الصخر الفوسفوري مثل ممرات المستويات الأدنى. وهذا ما أكد لي أنني لست بعيدًا عن الحُفر العليا التي تقع تحت المعبد مباشرة.

شعرت أخيراً بالمياه تلتف حول قدمي. كان الدخان كثيفًا خلفي. وكانت معاناتي شديدة. بدا أمامي شيء واحد فقط، وهو اختيار الموت الأسهل الذي يحيط بي. وبالتالي تحركت خلال الممر، وأصبحت مياه أوميان الباردة قريبة مني، فسبحت خلال السواد المطلق تجاه ... ماذا؟

إن غريزة الحفاظ على الذات قوية حتى عندما يعرف المرء -دون خوف وهو قابض على أعلى ملكاته العقلية- أن الموت المؤكد وغير القابل للتغيير يقع أمامه مباشرة. وهكذا سبحت ببطء، في انتظار أن يلمس رأسي قمة الممر، مما يعني وصولي إلى الحد الأقصى من رحلتي وإلى نقطة الغوص إلى الأبد في قبر بلا معالم.

وصلت، لدهشتي، إلى جدار أجوف قبل أن أصل إلى نقطة وصول المياه إلى سقف الممر. هل أنا مخطئ؟ تحسست حولي. كلا، لقد وصلت إلى الممر الرئيس، ولا تزال هناك مساحة للتنفس بين سطح الماء والسقف الصخري أعلاه. استدرت إلى الممر الرئيس في الاتجاه الذي اجتازه كارثوريس ورأس عمود الجنود منذ نصف ساعة. سبحت، وازداد قلبي خفة خلال السباحة. عرفت أنني أقترب تدريجيًّا من نقطة، حيث لا توجد أي فرصة للمياه أمامي لتكون أعمق مما كانت عليه حولي. كنت على يقين بأنني سرعان ما سأشعر بالأرض الصلبة تحت قدمي ثانية، وأن فرصتي ستأتي مرة أخرى للوصول إلى معبد إيسوس، وإلى السجينة الجميلة هناك.

ولكن حتى والأمل في قمته، شعرت بصدمة التلامس المفاجئة عندما اصطدم رأسي بالصخور أعلاها. وهنا حدث لي الأسوأ. لقد وصلت إلى إحدى تلك الأماكن النادرة حيث ينخفض فجأة النفق المريخي إلى مستوى أدنى. أعرف أنه سيرتفع ثانية في مكان ما، ولكن ما قيمة ذلك، ما دمت لا أعرف مدى المسافة التي يحافظ فيها على مستوى تحت سطح الماء تمامًا!

ليس أمامي سوى أمل واحد يائس، وتعلقت به. ملأت رئتي بالهواء، وغطست تحت السطح سابحًا عبر السواد الحبري الجليدي على طول الدهليز المغمور. كنت أرتفع تكرارًا ويدي ممدودة لأعلى، لأتحسس الصخور القريبة المخيبة للآمال فوقي.

لن تتحمل رئتي الضغط عليها لفترة أطول. شعرت أنني سأستسلم قريبًا، فلا يوجد أي مجال للتراجع الآن بعد أن مضيت كل هذا الطريق. كنت أعرف عن يقين أنني لن أقدر أبدًا على تحمل اقتفاء طريقي الآن إلى الموضع الذي شعرت فيه أن المياه قريبة فوق رأسي. كان الموت يحدق في وجهي، ولم أقدر حتى على أن أتذكر وقتًا شعرت فيه بتنفسه الجليدي من شفتيه الميتتين على جبيني.

بذلت جهدًا محمومًا آخر بقوتي التي أخذت تضعف. ارتفعت بضعف للمرة الأخيرة. تطلعت رئتاي المعذبتان إلى النسيم الذي يمكن أن يملأهما بعنصر غريب ومخدِر، ولكن أنفي شعرت بالأحرى بنسيم منعش من الهواء الواهب للحياة، وتتوق إليه ليدخلَ إلى رئتي المحتضرة. لقد أُنقِذت.

جلبتني عدة أشواط قليلة من السباحة إلى موضع لمست فيه قدمي الأرض، وسرعان ما أصبحت أعلى من مستوى المياه تمامًا، فركضت كالمجنون على طول الممر بحثًا عن أول مدخل يمكن أن يقودني إلى إيسوس. إذا لم أتمكن من استعادة ديجاه ثوريس، سوف أنتقم على الأقل من وفاتها؛ ولن تُرضيني أي حياة سوى حياة الشر المتجسدة التي كانت سببًا في هذه المعاناة غير المحدودة في برسوم.

وصلت في وقت أسرع مما توقعته إلى مخرج غير متوقع إلى المعبد أعلاه. كان يقع على الجانب الأيمن من الممر، واستمر، على الأرجح، إلى مداخل أخرى إلى الكومة أعلاه.

كنت أعتبر أن أي موضع لا يختلف عن غيره. لا أعرف إلى أين يقودني! وبالتالي، دون انتظار لاكتشافي وإحباطي مرة أخرى، ركضت بسرعة عبر منحدر قصير وحاد، ودفعت المدخل فانفتح لنهايته.

تأرجحت البوابة ببطء، فانطلقت داخل القاعة قبل أن تُغلق في وجهي. على الرغم من أن الفجر لم يبزغ بعد، فقد كانت الغرفة مضاءة ببراعة. استلقى شاغلها الوحيد ممددًا على أريكة منخفضة في الجانب الآخر، وعلى ما يبدو نائمًا. من الستائر والأثاث الفخم للغرفة، حكمت أنها غرفة معيشة إحدى الكاهنات، ربما إيسوس نفسها.

أصابتني هذه الفكرة بوخز الدم في عروقي. ربما ابتسم لي الحظ ووضع هذه المخلوقة البشعة وحدها ودون حراسة بين يدي. بوجودها معي رهينة، يمكنني إجبارهم على الإذعان لكل طلباتي. اقتربت بحذر من الشخص المستلقي، دون إحداث صوت. اقتربت تدريجيًّا أكثر فأكثر، ولم أكن قد عبرت إلا أكثر قليلاً من نصف الغرفة عندما تحرك هذا الشخص، وعندما قفزت، نهض وواجهني.

في البداية غطى تعبير الرعب ملامح المرأة التي واجهتني، ثم التشكك الذاهل، فالأمل، ثم الشكر والامتنان.

خفق قلبي في صدري وأنا أتقدم نحوها، وفرت الدموع من عيني، واختنقت الكلمات التي كانت لتتدفق في سيل كامل، وأنا أفتح ذراعي وآخذ بينهما مرة أخرى المرأة التي أحببتها - ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم.

* * *

(22)

النصر والهزيمة

«جون كارتر، جون كارتر»، أجهشت بالبكاء وهي تضع رأسها الحبيبة على كتفي. «بالكاد ما يمكنني أن أصدق حتى الآن ما تشهده عيناي. عندما أخبرتني الفتاة، ثوفيا، أنك عدت إلى برسوم، استمعت، لكنني لم أستطيع أن أفهم، فهذه السعادة تبدو مستحيلة لمن عانى في وحدة صامتة طوال هذه السنوات الطويلة. وأخيراً عندما أدركت أنها الحقيقة، ثم عرفت بعد ذلك المكان الفظيع الذي سُجَنت فيه، تشككت في أنه حتى أنت لن تتمكن من الوصول إلى هنا».

«ومع مرور الأيام، وذهاب القمر مرة بعد أخرى دون أن يحمل حتى أضعف شائعة عنك، استسلمت لقدري. والآن بعد أن جئت، بالكاد ما يمكنني أن أصدق. لقد سمعت أصوات القتال داخل القصر لمدة ساعة. لم أكن أعلم ماذا تعني، لكني تمنيت، ربما هم رجال هيليوم برئاسة أميري».

«قل لي، ماذا عن كارثوريس، ابننا؟»

أجبتها: «كان معي منذ أقل من ساعة، ديجاه ثوريس. من المؤكد أنه هو الذي سمعت رجاله يقاتلون داخل حرم المعبد».

سألت فجأة: «أين إيسوس؟».

هزت ديجاه ثوريس كتفيها.

«لقد أرسلتني تحت الحراسة إلى هذه القاعة قبل بدء القتال مباشرة داخل قاعات المعبد. وقالت إنها سترسل في طلبي لاحقًا. بدت غاضبة جدًّا ومخيفة إلى حد ما. لم يسبق أبدًا أن رأيتها تتصرف بهذه الطريقة من عدم اليقين وتقريبًا الهلع. أعرف الآن أن ذلك كان يرجع بالتأكيد إلى علمها بأن جون كارتر، أمير هيليوم، قادم لمحاسبتها على سجنها لأميرته».

وصلت إلينا من أجزاء المعبد المختلفة أصوات القتال، واشتباك الأسلحة، والصراخ، وسرعة حركة الأقدام العديدة. كنت أعرف أنهم يحتاجونني هناك، لكني لا

أجرؤ على ترك ديجاه ثوريس، ولا أجرؤ على أخذها معي إلى اضطراب المعركة ومخاطرها.

وأخيراً فكرت في الحُفر التي خرجت منها لتوي. لماذا لا أخفيها هناك إلى أن أتمكن من العودة وإخراجها بأمان وإلى الأبد من هذا المكان الفظيع. شرحت لها خطتي.

للحظة زاد تشبثها بي.

قالت: «لا أتحمل أن أفترق عنك الآن، حتى ولو للحظة، جون كارتر. أنا أرتعد من فكرة البقاء بمفردي مرة أخرى، حيث يمكن أن تكتشف تلك المخلوقة الرهيبة وجودي. أنت لا تعرفها. لا يمكن أن يتخيل شراسة قسوتها من لم يشهد تصرفاتها اليومية لأكثر من نصف عام. لقد استغرق الأمر مني كل هذا الوقت تقريبًا لأدرك حتى الأشياء التي رأيتها بعيني».

فقلت لها: «لن أتركك إذن يا أميرتي».

صمتت للحظة، ثم جذبت وجهي لوجهها وقبلتني.

قالت: «اذهب، جون كارتر. ابننا هناك مع جنود هيليوم يقاتلون من أجل أميرة هيليوم. يجب أن توجد معهم أينما كانوا. يجب ألا أفكر في نفسي الآن، ولكن فيهم وفي واجب زوجي. أنا لن أقف في طريق ذلك. اخفني في الحُفر، واذهب».

قدتها إلى الباب الذي دخلت خلاله إلى الغرفة من الأسفل. وهناك ضممتها إلى صدري بقوة. بعد ذلك، وعلى الرغم من أن ما أفعله كان يمزق قلبي ويغمرني بأكثر ظلال نُذر الرهبة سوادًا، قدتها عبر العتبة، وقبلتها مرة أخرى، وأغلقت الباب عليها.

ودون أن أتردد أطول من ذلك، أسرعت خارج الغرفة في اتجاه الاضطراب الأعظم. اجتزت بشق الأنفس نصف دزينة من الغرف قبل أن أصل إلى مسرح الصراع الشرس. احتشد السود عند مدخل غرفة كبيرة، في محاولة لمنع المزيد من تقدم مجموعة من الرجال الحُمر نحو الحرم الداخلي المقدس للمعبد.

ولأنني كنت قادمًا من الداخل، فقد وجدت نفسي خلف السود. ودون انتظار حتى لحساب أعدادهم أو مدى تهور مغامرتي، هاجمت سريعًا عبر الغرفة، وانقضضت عليهم من الخلف بسيفي الطويل الحاد.

وأنا أسدد أول ضربة، هتفت بصوت عال، «من أجل هيليوم!». ثم أمطرت المحاربين الذاهلين بهجماتي وهم يتساقطون واحدًا تلو الآخر،

بينما تشجع الحُمر في الخارج بصوتي، وبصيحاتهم «جون كارتر! جون كارتر!» ضاعفوا جهودهم بفعالية بحيث قبل أن يتمكن السود من التعافي من ارتباكهم المؤقت، كانت صفوفهم قد تحطمت، واقتحم الرجال الحُمر القاعة.

إذا شهد مؤرخ متخصص المعركة التي دارت داخل تلك الغرفة، كانت لتُكتب في حوليات برسوم كذكرى تاريخية عن ضراوة وشراسة شعبها المحب للحرب. لقد حارب في ذلك اليوم خمسمائة رجل، الرجال السود ضد الحُمر. لم يطلب أي رجل الرحمة أو يمنحها. قاتلوا كأنما باتفاق مشترك، قاتلوا كأنما يقررون لمرة واحدة وإلى الأبد حقهم في العيش، وفقًا لقانون البقاء للأصلح.

كنا نعلم جميعًا أن المواضع النسبية لهذين العِرقين في برسوم سوف تتحدد وإلى الأبد على نتائج هذه المعركة. إنها معركة بين القديم والجديد، لكني لم أشك ولو لمرة واحدة في نتيجتها. حاربت وكارثوريس إلى جانبي، من أجل رجال برسوم الحُمر وتحررهم الكامل من العبودية الخانقة لخرافة بشعة.

انطلقنا ذهابًا وإيابًا عبر الغرفة، إلى أن غاص الكاحل عميقًا في الدم على الأرض، وتساقط الرجال الموتى بغزارة، حتى أننا كنا نقف أحيانًا على أجسادهم ونحن نقاتل. وخلال تأرجحنا نحو النوافذ الكبيرة التي تطل على حدائق إيسوس، التقى بصري بمشهد أثار موجه من الابتهاج الداخلي.

صحت: «انظروا!، يا رجال الأبناء الأوائل، انظروا!».

توقف القتال للحظة، وتحولت كل الأعين في الاتجاه الذي أشرت إليه. لم يكن بإمكان أي رجل من الأبناء الأوائل أن يتخيل أبدًا المشهد الذي رآه.

وقف عبر الحدائق، من جانب إلى جانب، خط مرتعش من المحاربين السود، بينما يتجاوزهم ويجبرهم على العودة للوراء حشدًا كبيراً من المحاربين الخُضر يمتطون منفرجي الساقين حيوانات الثوات القوية. ثم رأينا محاربًا أكثر شراسة وتجهمًا من زملائه، يتقدم راكبًا من الخلف إلى الأمام، وعندما وصل أطلق بعض الأوامر الشرسة لفيلقه الرهيب.

كان تارس تاركاس، جيداك ثارك. وعندما أخفض رمحه العظيم ذي الأربعين قدمًا المعدنية، شاهدنا محاربيه يحذون حذوه. وعندئذ فهمنا أمره. تفصل عشرون ياردة الآن الرجال الخُضر عن الخط الأسود. وبكلمة أخرى من الثاركي العظيم، وانطلاق صرخة المعركة مدوية مرعبة، بدأ المحاربون الخُضر هجومهم. تماسك الخط الأسود لدقيقة،

ولكن لدقيقة فقط- ثم اخترقت الوحوش المخيفة التي تحمل فرسانًا مرعبين الخط بالكامل.

بعدهم جاء جندي تلو الآخر من الرجال الحُمر. انطلق الحشد الأخضر لتطويق المعبد. وتولى الرجال الحُمر ما بداخل المعبد، ثم واصلنا معركتنا المتقطعة؛ لكن أعداءنا تلاشوا.

كانت ديجاه ثوريس أول ما تبادر إلى ذهني. ناديت كارثوريس وأخبرته أنني عثرت على والدته، وانطلقت وابني بالقرب مني نحو الغرفة التي تركتها فيها. وتبعتنا قوة صغيرة ممن نجوا من الصراع الدموي.

لحظة أن دخلت الغرفة، عرفت أن شخصًا كان فيها بعد أن غادرتها. كان الحرير ملقى على الأرض، في موضع مختلف عن موضعه السابق. تناثر أيضًا خنجر وبعض الحلي المعدنية، كأنما تم تمزيقها ممن كان يرتديها خلال قتال. لكن الأسوأ من ذلك كله، أن الباب المؤدي إلى الحفر حيث أخفيت أميرتي، كان مفتوحًا جزئيًّا.

قفزت نحوه، وفتحته بقوة، وهرعت داخله. اختفت ديجاه ثوريس. ناديت اسمها بصوت عال مرارًا وتكرارًا، ولكن دون استجابة. أعتقد أنني في تلك اللحظة كنت على وشك الجنون. لا أتذكر ما قلته أو فعلته، لكنني أعرف أن غضبًا مجنونًا استبد بي للحظة.

صرخت: «إيسوس! إيسوس! أين إيسوس؟ ابحثوا عن معبدها، على ألا يصيبها أي رجل بضرر إلا جون كارتر. كارثوريس، أين شقق إيسوس؟».

صاح الصبي: «من هذا الطريق». ودون انتظار لمعرفة أنني سمعته، انطلق بسرعة فائقة متوجهًا إلى الأجزاء الداخلية من المعبد. بقدر ما كان يسرع، كنت إلى جواره أحثه على زيادة السرعة.

وصلنا أخيراً إلى باب ضخم منحوت، ومن خلاله اندفع قبلي كارثوريس. رأينا في الداخل مشهدًا مثل ذلك الذي رأيته من قبل داخل المعبد - عرش إيسوس، والإماء مضجعات، وحول العرش صفوف من

الجنود.

لم نعط للرجال حتى فرصة للحركة، فقد انقضضنا عليهم بسرعة. بضربة واحدة أجهزت على اثنين من الصف الأمامي. ثم بمجرد وزن وقوة جسدي، أسرعت مخترقًا

الصفين الباقيين بالكامل، وقفزت إلى المنصة بجوار العرش المنحوت من خشب السورابوس.

كانت المخلوقة المثيرة للاشمئزاز تجلس القرفصاء مرتعبة، وحاولت الهروب مني والقفز إلى الفخ وراء ظهرها. لكنها هذه المرة لم تكن لتخدعني بأي حيلة تافهة مثل هذه. أمسكت ذراعها بقوة قبل أن تنهض كاملاً، وعندما رأيت الحرس يبدأون في هجوم منظم ضدي من جميع الجوانب، سحبت خنجري وأمسكته بالقرب من ذلك الصدر الخسيس، وأمرتهم بالتوقف.

«تراجعوا!»، صحت عاليًا. «تراجعوا! أول قدم سوداء ستوضع على هذا المنبر ستتسبب في إرسال خنجري إلى قلب إيسوس».

ترددوا للحظة، ثم أمرهم ضابط بالتراجع. من الممر الخارجي، اجتاحت قاعة العرش في أعقابي مجموعتي الصغيرة من الناجين، ألف رجل أحمر بقيادة كانتوس كان وهور فستوس وزودار.

صرخت للشيء بين يدي: «أين ديجاه ثوريس؟».

لدقيقة طافت عيناها بعنف حول المشهد أسفلها. أعتقد أن الأمر استغرق منها دقيقة؛ لكي يترك الوضع الفعلي أي انطباع عليها- لم تستطع في البداية إدراك أن المعبد قد سقط قبل هجوم رجال العالم الخارجي. ثم أدركت بفظاعة أيضًا، ماذا يعني ذلك بالنسبة لها- فقدان السلطة، الإذلال، كشف الغش والخداع الذي مارسته لفترة طويلة على شعبها.

كان هناك شيء واحد فقط مطلوبًا لاستكمال حقيقة الصورة التي كانت تراها، وقد أضافه أعلى نبلاء مملكتها -أعلى كاهن في دينها- رئيس وزراء حكومتها.

صاح: «إيسوس، إلهة الموت والحياة الأبدية، انهضي بغضبك المقدس الجبار، وسددي بموجة واحدة من يدك كلية القدرة ضربة الموت لهؤلاء الكفار! لا تسمحي لأي منهم بالهرب. إيسوس، إن شعبك يعتمد عليك. يا ابنة القمر الأصغر، أنت فقط من تملكين كل القوة. أنت فقط تستطيعين إنقاذ شعبك. انتهى كلامي. ونحن ننتظر إرادتك. وجهي ضربتك!».

وعندئذ أصابها مس من الجنون. مجنونة تصرخ وتتمتم وهي تتلوى في قبضتي. عضت وخدشت وحفرت بمخالبها في غضب عاجز. ثم ضحكت ضحكة غريبة ورهيبة

تُجمد الدماء. صرخت الفتيات الإماء على المنصة وانكمشن مرتعدات. قفزت إليهن وصرت بأسنانها، ثم بصقت عليهن من شفاهها المزبدة. يا ربي، كان مشهدًا مروعًا.

وأخيراً، هززتها، على أمل أن أعيدها للحظة إلى العقلانية.

صحت مرة أخرة: «أين ديجاه ثوريس؟».

تمتمت هذه المخلوقة الشنيعة وهي في قبضتي بكلمات غير مفهومة، ثم ظهر وميض مفاجئ ماكر في تلك الأعين المتقاربة البشعة.

«ديجاه ثوريس؟ ديجاه ثوريس؟»، ثم ثقبت آذاننا مرة أخرى تلك الضحكة الغريبة الحادة.

«نعم، ديجاه ثوريس- أعرف. وثوفيا، وفايدور ابنة ماتاي شانج. كلهن أحببن جون كارتر. ها-آه! هذا مضحك. إنهن معًا، سوف يستغرقن في التأمل لمدة سنة داخل معبد الشمس، ولكن قبل أن تنتهي السنة تمامًا لن يحصلن على مزيد من الطعام. هو-أوه! يا له من ترفيه إلهي»، ثم لعقت الزبد المتساقط من شفتيها القاسيتين. «لن يحصلن على مزيد من الطعام - باستثناء بعضهن بعضًا. ها-آه! ها-آه!».

أصابني رعب الفكرة بالشلل تقريبًا. بهذا المصير الفظيع حكمت المخلوقة في قبضتي على أميرتي. ارتعدت من ضراوة غضبي. وهززت إيسوس، إلهة الحياة الأبدية، كأنما أهز جحر فئران.

صرخت: «الغِ أوامرك! أطلقي سراح الفتيات اللاتي حكمتِ عليهن بهذا المصير، وإلا ستموتين!».

«فات الأوان. ها-آه! ها-آه!»، ثم بدأت في تمتمتها وصراخها مرة أخرى.

طار خنجري، من تلقاء نفسه تقريبًا، نحو ذلك القلب العفن. لكن شيئًا أبقى يدي، وهذا ما أسعدني. فمن الفظاعة أن أقتل امرأة بيدي. لكن مصيراً أكثر ملاءمة أصاب هذه الإلهة الكاذبة.

«أيها الأبناء الأوائل»، صرخت، متحولاً إلى من يقفون داخل الغرفة، «لقد رأيتم اليوم عجز إيسوس- الإلهة عاجزة. إيسوس ليست إلهةً. إنها

امرأة عجوز قاسية وشريرة، خدعتكم وتلاعبت بكم لعصور. خذوها. لن يلوث جون كارتر، أمير هيليوم، يده بدمها»؛ وبهذه الكلمات دفعت المتوحشة الجامحة من

منصة عرشها- وهي التي كانت قبل أقل من نصف ساعة تحظ بتقديس عالم كامل كأنها إلهة- إلى براثن شعبها الذي خانته ويتطلع إلى الانتقام منها.

بحثت عن زودار بين ضباط الرجال الحُمر، وطلبت منه أن يقودني بسرعة إلى معبد الشمس. ودون انتظار لمعرفة المصير الذي سيسفر عنه انتقام الأبناء الأوائل من تلك الإلهة، اندفعت من القاعة مع زودار وكارثوريس وهور فستوس وكانتوس كان، وعشرات من النبلاء الحُمر الآخرين.

قادنا الرجل الأسود سريعًا خلال غرف المعبد الداخلية، إلى أن وقفنا داخل الفناء المركزي- وهو مساحة دائرية كبيرة، مرصوفة برخام شفاف ناصع البياض. ارتفع أمامنا معبد ذهبي مُشيد بأغرب تصميم وأكثرها خيالية، ومُطعم بالماس والياقوت الأحمر والأزرق، والفيروز، والزمرد، وآلاف الجواهر المريخية مجهولة الاسم، التي تتجاوز في رقة ونقاء آشعتها أثمن جوهرة على كوكب الأرض.

«من هذا الطريق»، صاح زودار وهو يقودنا نحو مدخل نفق يفتح على فناء بجوار المعبد. وما إن وصلنا إلى نقطة الهبوط، حتى سمعنا دويًّا عميقًا لانفجار من معبد إيسوس الذي غادرناه لتونا، ثم دخل رجل أحمر - داجور كانتوس، بادوار المجموعة الخامسة- من بوابة قريبة، وطلب منا أن نعود.

صاح: «أحرق السود المعبد. وهو يحترق الآن في آلاف من الأماكن. أسرعوا إلى الحدائق الخارجية، أو ستضيعون».

وهو يتحدث رأينا الدخان ينطلق من عشرات النوافذ المطلة على فناء معبد الشمس، وتطوف بعيدًا فوق أعلى مئذنة لدى إيسوس ظلال متنامية من الدخان.

صحت للرجال الذين رافقوني: «عودوا! عودوا! الطريق! زودار؛ أشر إلى الطريق واتركني. سوف أصل إلى أميرتي».

«اتبعني، جون كارتر»، أجاب زودار، ودون انتظار ردي انطلق إلى داخل النفق تحت أقدامنا. وفي أعقابه جريت إلى أسفل خلال نصف دزينة مستويات من الدهاليز، إلى أن قادني أخيراً عبر طابق مستوي رأيت في نهايته غرفة مضاءة.

منعتنا قضبان ضخمة من المزيد من التقدم. رأيت خلفها أميرتي التي لا تُضاهى، ومعها ثوفيا وفايدور. عندما رأتني هرعت نحو القضبان التي تفصلنا. كانت الغرفة قد دارت بالفعل في طريقها البطيء بحيث كان جزء فقط من فتحة جدار المعبد هو ما يواجه القضبان في نهاية الممر. كان الفاصل ينغلق ببطء. وخلال فترة زمنية قصيرة، لن يوجد

سوى شق صغير، ثم سيُغلق هذا أيضًا، وستدور الغرفة ببطء لمدة سنة برسومية طويلة إلى أن تمر الفتحة بجدارها مرة أخرى بنهاية الممر لمدة يوم قصير.

ولكن، في الوقت نفسه، ما الأشياء الرهيبة التي قد تحدث داخل تلك الغرفة!

صرخت: «زودار! ألا توجد أي قوة لوقف هذا الشيء الفظيع الدائر؟ ألا يوجد من يحمل سر هذه القضبان الرهيبة؟».

«أخشى أننا لن نتمكن من إحضارهم في الوقت المناسب، ومع ذلك سأذهب وأحاول. انتظرني هنا».

بعد أن غادر، وقفت وتحدثت مع ديجاه ثوريس. مدت يدها الحبيبة عبر تلك القضبان القاسية بحيث يمكنني الإمساك بها حتى آخر لحظة.

اقتربت ثوفيا وفايدور أيضًا. وعندما رأت ثوفيا أننا نرغب في البقاء وحدنا، انسحبت إلى الجانب الآخر من الغرفة. لكن ابنة ماتاي شانج لم تفعل ذلك.

قالت: «جون كارتر، هذا هي المرة الأخيرة التي ستشاهدني فيها. قل أنك تحبني، فأموت سعيدة».

أجبتها بهدوء: «أنا لا أحب سوى أميرة هيليوم. أنا آسف، فايدور، ولكن هذا ما قلته لك منذ البداية».

عضت شفتيها واستدارت بعيدًا، ولكن ليس قبل أن أرى عبوسها الأسود والقبيح تجاه ديجاه ثوريس. ابتعدت قليلاً، وإن لم يكن بالقدر الذي أرغبه، فلدي الكثير من الأسرار التي أود قولها إلى حبي الضائع منذ فترة طويلة.

وقفنا لبضع دقائق نتحدث بنبرات منخفضة. أخذت الفتحة تزداد

تقلصًا. وستصبح خلال فترة زمنية قصيرة صغيرة جدًّا حتى لتسمح بمرور جسد أميرتي النحيل. أوه، لماذا لم يسرع زودار. كنا نسمع فوقنا أصداء باهتة لاضطراب كبير. كان العديد من الرجال السود والحُمر والخُضر يشقون طريقهم خلال حريق معبد إيسوس المشتعل.

جلب تيار هوائي من أعلى أبخرة الدخان إلى أنوفنا. زاد الدخان سُمكًا خلال وقوفنا في انتظار زودار. والآن نسمع صياحًا في نهاية الممر البعيدة، وأقدامًا تسرع.

«تراجع، جون كارتر، تراجع!»، صاح صوت، «حتى الحُفر مشتعلة».

وفي لحظة اخترق عشرات الرجال الآن الدخان الذي يُعمي الأبصار إلى جانبي. رأيت كارثوريس، وكانتوس كان، وهور فاستوس، وزودار، مع عدد قليل آخر ممن تبعوني إلى فناء المعبد.

صاح زودار: «لم يعُد هناك أمل، جون كارتر. حارس المفاتيح مات، والمفاتيح ليست معه. وأملنا الوحيد هو إخماد هذا الحريق، والثقة في أنك بعد سنة سوف تجد أميرتك على قيد الحياة وبصحة جيدة. لقد أحضرت قدرًا كافيًا من الطعام لهن. عندما ينغلق هذا الشق، لن يصل الدخان إليهن، وإذا سارعنا إلى إخماد النيران، سيصبحن في أمان».

أجبته: «اذهب أنت إذن، وخذ الآخرين معك. سأظل أنا هنا بجوار أميرتي إلى أن يحررني موت رحيم من كربي. لست حريصًا على العيش».

عندما كنت أتكلم، كان زودار يقذف بعدد كبير من علب صغيرة داخل زنزانة السجن. لم تعد فتحة الشق المتبقي أكبر من بوصة في العرض. وقفت ديجاه ثوريس بالقرب من الشق بأقرب ما يمكن، تهمس بكلمات الأمل والتشجيع لي، وتحثني على إنقاذ نفسي.

وفجأة رأيت وراءها وجه فايدور الجميل يلتوي في تعبير عن الكراهية الخبيثة. وتحدثت عندما التقت عيني بعينيها.

«لا تتصور، جون كارتر، أنك تستطيع أن ترفض بهذه البساطة حب فايدور، ابنة ماتاي شانج. ولا تأمل أبدًا أنك ستستطيع حمل ديجاه ثوريس بين ذراعيك مرة أخرى. سوف تنتظر السنة الطويلة؛ ولكن عليك أن تعرف أنك بعد انتظارك ستجد ذراعي فايدور يرحبان بك- وليس ذراعي أميرة هيليوم. انظر، إنها ستموت!».

وعندما أنهت حديثها رأيتها ترفع خنجرًا، ثم رأيت شخصية أخرى. كانت ثوفيا. وعندما سقط الخنجر تجاه صدر حبيبتي غير المحمي، كانت ثوفيا بينهما تقريبًا. عاصفة من الدخان تمنع الرؤية طمست المأساة داخل تلك الزنزانة المخيفة- رنت صرخة، صرخة واحدة، مع سقوط الخنجر.

انقشع الدخان، لكننا وقفنا محدقين نحو جدار مصمت. فقد أُغلِق آخر شق، ولسنة طويلة سوف تحتفظ تلك الزنزانة البشعة بسرها عن أعين الرجال.

حثوني على المغادرة.

صاح زودار: «في لحظة سيكون الأوان قد فات. ولكن أمامنا، في الواقع، فرصة ضئيلة لكي نصل إلى الحديقة الخارجية أحياء حتى الآن. لقد أمرت ببدء المضخات، وبعد خمس دقائق ستكون الحُفر مغمورة بالمياه. إذا لم نكن نود الغرق مثل الفئران في فخ، علينا التعجيل بالصعود والوصول إلى بر السلامة من خلال المعبد المحترق».

«اذهبوا»، قمت بحثهم، «دعوني أموت هنا بجوار أميرتي- ليس لدي أمل أو سعادة في مكان آخر. عندما يحملون جسدها الحبيب من ذلك المكان الرهيب بعد سنة، دعوهم يجدون جسد أميرها ينتظرها».

أما ما حدث بعد ذلك، فليس لدي سوى ذاكرة مختلطة. ويبدو كأنما كافحت مع العديد من الرجال، ثم أخذوا جسدي من الأرض وحملوه بعيدًا. لا أعرف. ولم أسأل أبدًا، ولم يتطفل أي شخص ممن كانوا هناك ذلك اليوم على حزني أو يُذكرني بالأحداث التي يعرفون أنها لن تؤدي في أحسن الأحوال إلا إعادة فتح الجرح الرهيب في قلبي.

آه! لو أمكنني فقط أن أعرف شيئًا واحدًا، يا له من عبء، عبء القلق الذي سيزيحه عن كاهلي! ولكن سواء وصل خنجر القاتلة إلى حضن جميل واحد أو آخر، لن يفصح عن ذلك سوى الوقت.

* * *

انتهى الكتاب الثاني:

آلهة المريخ

أمير حرب المريخ

ادجار رايس بوروز

ترجمة شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

(1)

عند نهر إيس[26]

في ظلال الغابة التي تحيط بالسهل القرمزي، على جانب بحر كوراس المفقود في وادي دور، وتحت أقمار كوكب المريخ التي تندفع مسرعة عبر طريقها النيزكي فوق الكوكب الآخذ في الاحتضار، تسللتُ خلسةً متبعًا أثر شيء ضبابي يتشبث بأكثر الأماكن قتامة، وبعناد ينم عن طبيعة مهمته الشريرة.

لقد بقيتُ ستة أشهر مريخية طويلة تطاردني الأشباح بالقرب من معبد الشمس الكريه، حيث توجد أميرتي مدفونة في بئره الذي يدور ببطء على مسافة بعيدة تحت سطح المريخ- دون أن أعرف إنْ كانت حيةً أو ميتةً. هل وجد سكين فايدور الصغير طريقه إلى قلب أميرتي الحبيبة؟ الزمن وحده سيكشف الحقيقة.

كان يجب أن يمر 687 يومًا مريخيًّا قبل أن يأتي باب الزنزانة مرةً أخرى أمام نهاية النفق، حيث كانت آخر مرة أرى فيها أميرتي الجميلة دائمًا ديجاه ثوريس.

ينتهي نصف هذه الأيام المريخية اليوم، أو ربما غدًا، لكن المشهد الأخير لا يزال حيًّا في ذاكرتي بعد أن طمس كل ما حدث قبله أو بعده. لا يزال المشهد الأخير حيًّا أمامي، وعاصفة الدخان تعمي عيني. والشق الضيق الذي منحني نظرة داخل زنزانتها، ينغلق بيني وبين أميرة هيليوم[27] لمدة سنة مريخية طويلة.

كأنما حدث ذلك كله بالأمس. لا أزال أرى وجه فايدور الجميل، ابنة ماتاي شانج، مشوهًا بغضب الغيره والكراهية وهي تنطلق بخنجرها نحو المرأة التي أحببتها.

رأيتُ أيضًا الفتاة الحمراء ثوفيا، من بتارث، وهي تقفز نحوهما لتحول دون هذا الفِعل البشع.

ثم امتد الدخان المنبعث من المعبد المحترق ليخفي هذه المأساة، لكن أذني التقطت رنين صرخة واحدة مع سقوط السكين. ثم ساد صمت، وعندما انقشع الدخان،

---

(26) نهر إيس: النهر الوحيد المتبقي على المريخ، ولعصور طويلة ظلت الأعراق المريخية الخضراء والحمراء تتخذ طواعية رحلة الحج إلى نهر إيس عند بلوغ سن ألف عام، حيث يعتقدون أنهم سيجدون عنده الحياة الأخرى - http://barsoom.wikia.com/wiki/River_Iss. (المترجمة).

(27) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/ المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium. (المترجمة).

كان المعبد الدوار قد حجب أي رؤية أو صوت من الغرفة التي سُجنت فيها النساء الثلاث الجميلات.

كان هناك الكثير الذي يمكن أن يشغل انتباهي منذ تلك اللحظة الرهيبة؛ لكن ذكرى ذلك الموقف لم تغب أبدًا للحظة عن ذهني، وكل الوقت الذي كان يمكنني توفيره من الواجبات العديدة التي آلت إليَّ لإعادة بناء حكومة «الأبناء الأوائل»[28] ، منذ أن انتصر عليهم أسطولنا وقواتنا الأرضية، قد أنفقته بالقرب من البئر القاتم الذي احتجز أم ابني كارثوريس من هيليوم.

لقد كان عِرق السود يعبد إيسوس، إلهة المريخ الزائفة، لعصور طويلة. وقد كان موطنهم في حالة من الفوضى بعد أن كشفت لهم أنها ليست أكثر من امرأة عجوز شريرة. وفي فورة غضبهم، مزقوها إلى أشلاء.

انجرف الأبناء الأوائل من ذروة غرورهم إلى أعماق المهانة. فقد انتهت هذه الإلهة، وانتهى معها كل نسيج دينهم المزيف. سقط أسطولهم البحري المتبجح بعد هزيمته أمام سفن هيليوم المتفوقة ومقاتليها من الرجال الحُمر.

امتطى المحاربون الخُضر الأشداء، من قيعان البحر الأصفر الشاحب بالجزء السطحي من المريخ، حيوانات الثوات[29] الجامحة عبر حدائق معبد إيسوس المقدسة؛ وجلس تارس تاركاس، جيداك[30] ثارك، وهو أشدهم وأشرسهم، على عرش إيسوس حاكمًا على الأبناء الأوائل، بينما كان الحلفاء يقررون مصير الأمة المهزومة.

اتفق الجميع تقريبًا على أن أجلس على عرش الرجال السود القديم، حتى الأبناء الأوائل نفسهم كانوا يؤيدون ذلك؛ لكنني لم أستطع تلبية طلبهم. فلا يمكن أبدًا أن يوجد قلبي مع العِرق الذي ذاقت أميرتي وابني الإهانات على يديه.

---

(28) الأبناء الأوائل هم العِرق الأسود في المريخ - +http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=First+Born . (المترجمة).

(29) الثوات: حيوان مريخي يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام، ولديه أربع أرجل على كل جانب، وذيله عريض مُسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد مباشرة خلفه عندما يجري؛ وفمه مفتوح يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم .
وهو خال تمامًا من الشعر، ولون بشرته هو الرمادي الذي تشوبه الزُرقة. أما بطنه فلونه أبيض، ويتدرج لون سيقانه بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامه. والأقدام نفسها شديدة الامتلاء وبلا أظافر، مما يسهم أيضًا في تحركه دون ضوضاء؛ وهو الأمر الذي يُشكل، إضافة إلى تعدُد سيقانه وهي سمة مميزة لحيوانات المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Thoat.
(المترجمة).

(30) جيداك: ما يعادل الإمبراطور http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak. (المترجمة).

وبناء على اقتراحي، أصبح زودار هو جيداك الأبناء الأوائل. فقد كان يشغل منصب داتور، أو أمير، إلى أن جردته إيسوس من رتبته؛ ولذا كانت صلاحيته لهذا المنصب الرفيع لا جدال فيها.

وهكذا أمكن ضمان السلام في وادي دور؛ إذ تفرق المحاربون الخُضر في قيعان بحارهم المقفرة، بينما عدنا -نحن أهل هيليوم- إلى بلدنا. وهنا في هيليوم، طُلِب مني مرة أخرى أن أجلس على العرش، فلم تصل أي كلمة من الزعماء المفقودين: جيداك هيليوم، أو تاردوس مورس (جد ديجاه ثوريس)، أو ابنه مورس كاجاك، أو جِد[31] هيليوم (والد ديجاه ثوريس).

مضى أكثر من عام منذ خروج هؤلاء الزعماء لاستكشاف نصف الكرة الشمالي للمريخ بحثًا عن كارثوريس، وفي النهاية لم يكن أمام شعبهم المكلوم سوى قبول الشائعات الغامضة حول وفاتهم باعتبارها حقيقة، تلك الشائعات التي تسربت من المنطقة المتجمدة في القطب.

رفضتُ العرش مرة أخرى؛ ذلك أنني لم أكن أعتقد أن أيًّا من تاردوس مورس الجبار أو ابنه الذي لا يقل مهابة، قد مات.

قلتُ لنبلاء هيليوم المجتمعين: «فليحكمهم واحدٌ من دمهم إلى حين عودتهم»، وكنت أخاطب النبلاء وأنا أقف عند منصة الحقيقة بجوار عرش الحق في معبد الجزاء، من الموقع نفسه الذي وقفتُ فيه منذ عام عندما أعلن زات أراس حكم الإعدام ضدي.

خطوتُ خلال حديثي إلى الأمام، ووضعتُ يدي على كتف كارثوريس الذي كان يقف في صدارة دائرة النبلاء التي تحيط بي.

رفع النبلاء والناس أصواتهم معًا في هتاف طويل من الاستحسان. وانطلق عشرة آلاف سيف من غمده، وقدم مقاتلو هيليوم القديمة العظماء التحية لكارثوريس، جيداك هيليوم.

كان توليه للمنصب إما لمدى الحياة، وإما لحين عودة جده الأكبر، أو جده المباشر. وبعد أن انتهيتُ راضيًا من ترتيب هذا الواجب المهم لهيليوم، بدأتُ رحلتي في اليوم التالي إلى وادي دور؛ لكي أبقى قريبًا من معبد الشمس إلى أن يحين اليوم المصيري الذي يشهد فتح زنزانة السجن المدفونة فيه حبيبتي المفقودة.

---

(31) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed. (المترجمة).

تركتُ هور فاستوس وكانتوس كان، فضلاً عن المفوضين النبلاء الآخرين، مع كارثوريس في هيليوم؛ بغية أن يفيد من حكمتهم وشجاعتهم وإخلاصهم في أداء المهام الشاقة التي انتقلت إليه. ولم يرافقني سوى وولا، كلبي المريخي.

انطلق في أعقابي ليلاً بهدوء حيواني الشرس المخلص. كان كبيراً مثل فرس شتلاند، ورأسه بشعٌ وأنيابه مخيفة. كان مشهدًا رائعًا بحق، حيث تسلل ورائي على سيقانه العشر القصيرة ذات العضلات؛ لكنه بالنسبة لي كان تجسيدًا للحب والولاء.

رأيت الشيء الضبابي الذي اقتفى أثره، واتضح أنه الداتور[32] الأسود ثوريد، من الأبناء الأوائل، الذي اكتسبت عداءه الأبدي عندما أسقطته ذلك اليوم بيدي العاريتين في فناء معبد إيسوس، وقيدته بعتاده الحربي أمام النبلاء من الرجال والنساء الذين كانوا قبلها بلحظة يمجدون بسالته.

وقد بدا قابلاً -مثله مثل العديد من زملائه- النظام الجديد بطيب خاطر، وأقسم الولاء لزودار، حاكمه الجديد. لكني كنتُ أعرف أنه يكرهني، وكنت على يقين أن قلبه مملوءٌ بالحسد والكراهية لزودار.

ولذا، بقيت أراقب تحركاته ذهابًا وإيابًا، إلى أن أصبحت مقتنعًا في النهاية أنه منشغل بنوع ما من الدسائس.

لاحظتُ عدة مرات أنه يغادر مدينة الأبناء الأوائل ذات الأسوار بعد حلول الظلام، متخذًا طريقه إلى وادي دور القاسي والمروع، حيث لا يوجد أي عمل شريف يمكن أن يؤديه أي رجل.

والليلة، تحرك بسرعة على طول حافة الغابة حتى تجاوز بصر المدينة أو صوتها، ثم استدار عند المرجة القرمزية متجهًا نحو شاطئ بحر كوراس المفقود.

تأرجحت أشعة القمر القريب منخفضة عبر الوادي، ولمست عتاده المرصع بالجواهر التي تبعث بألف ضوء مختلف، وبشرته الملساء ذات اللون الأبنوسي اللامع. أدار رأسه مرتين إلى الوراء نحو الغابة، كمَن يتحسس طريقة نحو أداء مهمة شريرة، مع شعوره بالاطمئنان الكامل من عدم وجود مَن يلاحقه.

(32) داتور: هو لقب الأمير بين المريخيين السود في وادي دور، http://barsoom.wikia.com/wiki/Dator. (المترجمة).

لم أخاطر بتتبعه تحت ضوء القمر؛ فأفضل ما يناسب خططي ألَّا أقاطع مهمته. تمنيتُ أن يصل إلى وجهته مطمئنًا، وأن أعرف أين تقع وجهته هذه، وما المهمة التي تنتظر هذا الجوال الليلي.

ولذا بقيتُ مختبئًا حتى اختفى ثوريد وراء حافة الضفة المنحدرة بجوار البحر، على بُعد رُبع ميل. ثم أسرعت، يتبعني وولا، في العراء خلف الداتور الأسود.

كان صمت القبور يخيم على وادي الموت الغامض، يربض بعمق في عشه الدافئ رابضًا في المنطقة الغائرة بالقطب الجنوبي للكوكب الآخذ في الاحتضار. وعلى مسافة بعيدة، رفعت المنحدرات الذهبية وجوهها الحاجزة القوية نحو السماء التي تضيئُها النجوم؛ وتألقت معادنها ومجوهراتها الثمينة تحت ذلك الضوء الرائع لقمري المريخ الرائعين.

وكانت الغابات خلفي مشذبةً ومقلمةً مثل المرجة الـمُنسقة كالحديقة، بفِعل تغذية رجال النبات[33] الغيلان عليها.

يمتد أمامي بحر كوراس المفقود، بينما يلمح بصري على مسافة أبعد شريط نهر إيس اللامع، نهر الغموض، الذي ينبع من أسفل المنحدرات الذهبية ليصب في بحر كوراس الذي ظل لعدد لا يُحصى من العصور ينقل المريخيين المخدوعين المستائين من العالم الخارجي عبر رحلة الحج الطوعي إلى هذه السماء الوهمية.

كان رجال النبات بأيديهم الماصة للدماء، والقرود البيضاء الوحشية التي تجعل وادي دور بشعًا خلال النهار، تختفي في مخابئها ليلاً.

لم يعُد هناك أي ثيرني مقدس[34] يطل من الشرفة عند المنحدرات الذهبية فوق نهر إيس لاستدعاء زملائه بصرخته الغريبة لالتهام الضحايا القادمين عبر نهر إيس وحضنه البارد الواسع.

أزالت القوات البحرية لهليوم والأبناء الأوائل قلاع ومعابد الثيرن، بعدما رفضوا الاستسلام وقبول النظام الجديد الذي قد اقتلع دينهم المزيف من المريخ الذي طالت معاناته.

---

(33) رجال النبات: هم عِرق شبيه بمصاصي الدماء، يقتاتون على النباتات ودماء الحيوانات، يسكنون في وادي دور، ولونهم أزرق، ويسيرون على قدمين - http://barsoom.wikia.com/wiki/Plant_Men. (المترجمة).

(34) الثيرنيون أو الثيرن المقدسون: هم عِرق مريخي أبيض البشرة وأصلع، يرتدون باروكات شقراء، ويتمتعون بقوى عقلية خارقة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Thern. (المترجمة).

لقد ظلوا يحتفظون بقوتهم القديمة في عدد قليل من البلدان المنعزلة؛ لكن هيكادورهم[35] ماتاي شانج -الأب الثيرني- طُرِد من معبده. بذلنا محاولات مضنية للإمساك به؛ لكنه تمكن من الهرب مع عدد قليل من المخلصين له، واختبأ في مكان لم نعرفه.

اقتربتُ بحذر من حافة الهاوية المنخفضة المطلة على بحر كوراس المفقود، ورأيت ثوريد يندفع فوق حضن الماء المتلألئ في قارب صغير -أحد تلك المصنوعات الغريبة من العصر الذي لا يمكن تصوره، حيث اعتاد الثيرن المقدسون، ومعهم مجموعة الكهنة والثيرن الأقل مرتبة، على الانتشار على طول ضفاف نهر إيس؛ لتيسير رحلة ضحاياهم الطويلة.

توجد على الشاطئ عدة قوارب مماثلة، يضم كل منها عند أحد أطرافه سارية طويلة، ومجدافًا عند الطرف الآخر. وصل ثوريد إلى الشاطئ، وعندما غاب عن النظر وراء صخرة شاطئية قريبة، دفعت أحد القوارب

إلى الماء، وناديت على وولا ليأتي معي، وابتعدت عن الشاطئ.

حملتني مطاردتي لثوريد على طول حافة البحر إلى مصب نهر إيس. كان القمر البعيد يقع بالقرب من الأفق، ويُلقي بظلال كثيفة أسفل المنحدرات عند أطراف الماء. أما ثوريا، القمر القريب، فقد غرُب ولن يرتفع مرة أخرى قبل أربع ساعات تقريبًا، ولذا كنت على يقين أن الظلام سيخفيني طوال ذلك الوقت على الأقل.

استمر المحارب الأسود يتحرك إلى أن وصل أمام مصب نهر إيس. استدار، دون أن يتردد للحظة، عبر النهر القاتم، وأخذ يجدف بثبات ضد التيار القوي.

تحركت خلفه ومعي وولا مقتربين منه. كان الرجل شديد العزم على إجبار قاربه على الحركة أعلى النهر؛ ليكشف ما إذا كانت هناك أعين وراءه، ثم انطلق إلى الشاطئ عندما انخفضت قوة التيار.

وصل الآن إلى مدخل كهف مظلم في مواجهة المنحدرات الذهبية، التي يصب النهر خلالها. ودفع بقاربه داخل الظلام الجهنمي.

---

(35) هيكادور: لقب زعيم الثيرن المقدسين - http://barsoom.wikia.com/wiki/Hekkador. (المترجمة).

بدت محاولة تتبعه ميؤوسًا منها، حيث لم أكن قادرًا على رؤية يدي عندما أرفعها أمام وجهي. وكنت على وشك التخلي عن مطاردته والعودة إلى مصب النهر انتظارًا لعودته، عندما أظهر منعطفٌ مفاجئٌ لمعانًا باهتًا في الأمام.

أصبح طريقي مرئيًّا بوضوح مرة أخرى. ومع زيادة ضوء الصخر الفسفوري المطمور في قطع كبيرة بسقف الكهف المقوس تقريبًا، لم أجد أي صعوبة في متابعته.

إنها زيارتي الأولى إلى حضن نهر إيس، والأشياء التي رأيتها هناك ستعيش إلى الأبد في ذاكرتي.

كانت أشياء رهيبة، لكنها لا يمكن أن تقترب من تلك الظروف الرهيبة التي جعلتني ومعي تارس تاركاس، المحارب الأخضر العظيم، وزودار، الداتور الأسود، نجلب ضوء الحقيقة إلى العالم الخارجي ونوقف اندفاع الملايين المجنون إلى رحلة الحج الطوعي، التي كانوا يعتقدون أنها تنتهي بهم في أحد الأودية الجميلة المملوءة بالسلام والسعادة والحب.

وإلى الآن لا تزال الجزر المنخفضة الممتدة عبر المجرى الواسع تختنق بالهياكل العظمية والجثث نصف الـمُلتَهَمة لأولئك الذين توقفوا عن إكمال رحلتهم، إما من خوفهم، وإما لصحوة مفاجئة أدركوا خلالها الحقيقة.

في ظل الرائحة الفظيعة لجزر الموت المخيفة هذه، كان المتعجرفون يصرخون ويهدرون ويقاتلون بين البقايا الممزقة في أعيادهم المروعة. وبينما يشتبكون مع بعضهم البعض للفوز بالجثث التي تضم عظامًا نظيفةً، كان الضعفاء غذاءً للأقوياء؛ أو يمسكون بأيدٍ تشبه المخالب الأجسادَ المتضخمة التي جرفها التيار.

لم يلق ثوريد بالاً على الإطلاق للأشياء التي تصرخ مهدِدةً أو متوسلةً، حسبما يوجهها مزاجها- من الواضح أنه كان معتادًا على المشاهد البشعة التي تحيط به. تابع طريقه أعلى النهر، ربما لمسافة ميل؛ ثم عبر إلى الضفة اليسرى، ووضع قاربه على نتوء منخفض يقع تقريبًا على نفس مستوى المياه.

لم أخاطرْ بمتابعته عبر التيار؛ لأنه كان سيراني بالتأكيد. ولذا وقفتُ بالقرب من الجدار المقابل، أسفل كتلة متدلية من الصخور التي تُلقي بظلال كثيفة. فمن هنا يمكنني مشاهدة ثوريد دون المخاطرة بأن يكتشف وجودي.

كان الرجل الأسود يقف على الحافة بجوار قاربه، ينظر إلى أعلى النهر كأنما يتوقع وصول شخص من هذا الاتجاه.

لاحظت خلال وجودي أسفل الصخور الداكنة أن تيارًا قويًّا بدأ يتدفق مباشرة نحو وسط النهر، بحيث أصبح من العسير أن أحافظ على قاربي في موقعه. توغلت أبعد في الظلال علَّني أجد دعامةً على الشط؛ لكني لم أجد شيئًا على الرغم من أنني مشيت لعدة ياردات. وعندما أدركتُ أنني سرعان ما سأصل إلى نقطة لا يمكنني منها رؤية الرجل الأسود، اضطررت إلى البقاء حيث كنت، متمسكًا بموقعي قدر ما أستطيع عن طريق التجديف بقوة ضد التيار الذي يتدفق تحت الكتلة الصخرية ورائي.

لم أستطع أن أتخيل ما قد يسبب هذا التدفق الجانبي القوي؛ ذلك أن المجرى الرئيس للنهر كان مرئيًّا بوضوحٍ أمامي حيث جلست، ويمكنني رؤية تقاطعه المتموج والتيار الغامض الذي أثار فضوليّ.

وبينما أتأمل هذه الظاهرة، لفت انتباهي فجأة ثوريد الذي رفع راحة يديه إلى الأمام فوق رأسه مؤديًّا التحية المريخية العامة، وبعدها بلحظة قال كلمة الترحيب البرسومية "كاور!"، بصوت منخفض وإن كان بنبرة متميزة.

أدرتُ بصري نحو أعلى النهر في اتجاه بصره. والآن، ظهر في نطاق مجال بصري المحدود قارب طويل يضم ستة رجال؛ يمسك خمسة منهم بالمجاديف، بينما يجلس السادس في مقعد الشرف.

كانت بشرتهم بيضاء، ويغطي الشَّعر الأصفر المتدفق المستعار رؤوسهم الصلعاء، وتلتف الأكاليل الذهبية الرائعة حول جباههم علامة على أنهم من الثيرن المقدسين.

وعندما توقفوا بجوار الحافة التي ينتظرهم ثوريد عندها، نهض الرجل الذي يجلس عند مقدمة القارب وخطا نحو الشاطئ. وعندئذٍ رأيت أنه لم يكن سوى ماتاي شانج، الأب الثيرني الأعلى.

تعجبتُ من الود الواضح الذي تبادل به الرجلان التحايا، فرجال برسوم السود والبيض يتوارثون العداء- لم أعرف أبدًا من قبل أي لقاءٍ يجمع بينهما إلا معركة.

من الواضح أن الانتكاسات التي ألمت مؤخرًا بالشعبين أدت إلى تحالف بين هذين الشخصين -على الأقل ضد العدو المشترك-، والآن رأيت لماذا كان ثوريد يخرج في كثير من الأحيان إلى وادي دور ليلاً، وعرفتُ أن طبيعة تآمره ربما تستهدف توجيه ضربة لي أو لأصدقائي.

تمنيت أن أجد بقعة أقرب إلى الرجلين يمكنني منها الاستماع إلى حديثهما؛ لكن محاولة عبور النهر ليست واردةً الآن، ولذا بقيت كامنًا أرقبهم بهدوء، بما لا يتيح لهما معرفة مدى قربي منهما، وهزيمتي وقتلي بسهولة بقوتهما المتفوقة.

أشار ثوريد عدة مرات عبر النهر في اتجاهي، لكنني لم أعتقد للحظة أن إيماءاته تتعلق بي. دخل الآن هو وماتاي شانج إلى قارب الأخير، وأخذ القارب يتأرجح في النهر في اتجاهي.

ومع اقترابهما، أبعدتُ قاربي إلى أسفل الجدار المتدلي. واتضح أخيراً أن قاربهم يتخذ المسار نفسه. قاد المجدفون الخمسة القارب الأكبر للأمام بسرعة ليس بمقدور طاقاتي مساواتها.

كنت أتوقع في كل لحظة أن أشعر بتحطم مقدمة قاربي على الصخور الصلبة. لم يعُد الضوء القادم من النهر مرئيًّا، لكني رأيت أمامي مسحة باهتة من إشعاع بعيد، والمياه أمامي لا تزال مفتوحة.

وأخيرًا، بزغ فجر الحقيقة: كنتُ أتبع نهرًا جوفيًّا يصب في نهر إيس، في نفس البقعة التي أختبئ فيها.

اقترب المجدفون كثيراً مني. غطَّى ضجيج المجاديف على صوت وجودي، لكن الضوء القادم المتزايد يمكن أن يكشفني في أي لحظة.

ليس لديَّ وقت أضيعه. ومهما كان الإجراء الذي سأتخذه، يجب أن أتخذه على الفور. قمت بأرجحة مقدمة قاربي نحو اليمين، ساعيًا نحو الجانب الصخري من النهر. وهناك استلقيتُ، بينما اقترب ماتاي شانج وثوريد من منتصف الجدول، الذي كان أضيق كثيراً من نهر إيس.

عندما اقتربا، سمعتُ صوت جدال ثوريد والأب الثيرني.

كان الداتور الأسود يقول: "لا أرغب سوى في الانتقام من جون كارتر، أمير هيليوم. أنا لا أنصب لك فخًّا. فما الذي يمكنني أن أكسبه بخيانتك، وهم مَن دمروا أُمَّتي وبيتي؟».

أجاب الهيكادور: "لنتوقف هنا للحظة كي أسمع خططك، ثم نصل إلى فهم أفضل لواجباتنا والتزاماتنا".

وأصدر أمره إلى الـمُجدفين، فأحضروا القارب في اتجاه الشاطئ على مسافة لا تزيد على عشر خطوات خلف الموقع الذي أكمن فيه.

لو توقفوا أسفل موقعي، لكانوا رأوني بالتأكيد في هذا التوهج الخافت للضوء؛ لكنهم توقفوا أخيراً في موقع يجعلني في مأمن من الكشف، كأن أميالاً تفصل بيننا.

أثارت الكلمات القليلة التي سمعتها فضولي، وكنت متلهفًا إلى معرفة طريقة الانتقام مني التي يخطط لها ثوريد. ولم تطل فترة انتظاري. أصغيتُ باهتمام.

قال ثوريد: "ليس هناك أي التزامات أيها الأب الثيرني. ثوريد، داتور إيسوس، ليس له ثمن. عند إنجاز المهمة، يسعدني أن تعد لي استقبالاً جيدًا يليق بنسبي العريق ورتبتي النبيلة، في بلاط لا يزال مواليًا لعقيدتك القديمة؛ إذ لا يمكنني العودة إلى وادي دور أو أي مكان آخر يخضع لسلطة أمير هيليوم. على أنني لا أطلب ذلك حتى- بل سأترك الأمر وفقًا لرغبتك».

أجاب ماتاي شانج: "لك ما تريد يا داتور. وهذا ليس كل شيء؛

ستتمتع بالسُّلطة والثروات إذا استعدت لي ابنتي فايدور، ووضعت بين سلطتي ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم».

"آه"، تابع بزمجرة خبيثة، "لكن الرجل القادم من كوكب الأرض يجب أن يعاني لما سببه من إهانات لمقدساتنا، يجب ألاَّ يُلحق أي خسيس بالأميرة أي إيذاء. أريدها تحت سلطتي لأجبره على أن يشهد إذلال وإهانة المرأة الحمراء».

قال ثوريد: "سوف تشق طريقك معها قبل أن يمر يوم آخر، ماتاي شانج، ما إن تقول كلمتك".

أجاب ماتاي شانج: "لقد سمعت عن معبد الشمس يا داتور، لكنني لم أسمع أبدًا عن إطلاق سراح سجنائه قبل انقضاء العام المخصص لسجنهم. كيف يمكنك إذنْ إنجاز المستحيل؟".

قال ثوريد: "يمكن الوصول إلى أي زنزانة في المعبد في أي وقت. لم يكن أحد يعرف الطريق سوى إيسوس؛ لكنها لم تكن لتكشف أبدًا أيًّا من أسرارها أكثر من الضروري. وقد عثرت بالصدفة، بعد وفاتها، على مخطط قديم للمعبد، وهناك وجدت مستندًا شديد الوضوح يحدد أكثر الاتجاهات دقة للوصول إلى الزنازين في أي وقت. وقد عرفت أكثر من ذلك؛ عرفت أن العديد من الرجال كانوا يذهبون في الماضي إلى

هناك بناء على طلب إيسوس، في مهمات دائمة لقتل وتعذيب السجناء. لكن أولئك الذين تعرفوا على ذلك الطريق السري، كان المعتاد أنهم يموتون في ظروف غامضة بمجرد عودتهم وتقديم تقاريرهم إلى إيسوس القاسية».

وأخيراً قال ماتاي شانج: "فلنشرع إذنْ. يجب أن أثق بك، لكنك في الوقت نفسه يجب أن تثق بي، فنحن ستة وأنت شخص واحد".

أجاب ثوريد: "أنا لا أخاف، ولا حاجة لك للخوف. فكراهيتنا لعدو مشترك تكفي لضمان ولائنا لبعضنا البعض. وبعد أن ندمر أميرة هيليوم، سيظل هناك سبب أكبر للحفاظ على ولائنا- ما لم أكن قد أخطأت كثيراً في انفعال سيدها".

تحدث ماتاي شانج مع المجدفين. وتحرك القارب في اتجاه أعلى الرافد.

منعتُ نفسي بصعوبة من الانقضاض على هذين المتآمرين الخسيسين وذبحهما، فسرعان ما أدركتُ مدى تهور وجنون هذا الهجوم الذي كان يمكن أن يقضي على الرجل الوحيد الذي يمكن أن يقود الطريق إلى سجن ديجاه ثوريس قبل أن تدور السنة المريخ الطويلة في دائرتها اللا نهائية.

إذا كان عليه أن يقود ماتاي شانج إلى تلك البقعة المقدسة، إذنْ عليه أيضًا أن يقود جون كارتر، أمير هيليوم.

تأرجحتُ ببطء بمجداف صامت في أعقاب ذلك القارب الكبير.

* * *

(2)

أسفل الجبال

مع تقدمنا أعلى النهر الذي يتجه أسفل المنحدرات الذهبية، منطلقًا من أحشاء جبال أوتز لتختلط مياهه الداكنة بالمياه القاتمة لنهر إيس الغامض، تنامى التوهج الخافت الذي ظهر أمامنا وتحول تدريجيًّا إلى تألق يلف كل شيء.

أخذ النهر يتسع إلى أن ظهر جانب بحيرة كبيرة ذات قبة محدبة، ومضاءة بصخور فسفورية لامعة، وتتناثر فوقها أشعة مشرقة من الماس والياقوت الأزرق والأحمر، وعدد لا حصر له من مجوهرات مجهولة في برسوم، مغروزة في الذهب النقي الذي يشكل الجزء الأكبر من هذه المنحدرات الرائعة.

خيم الظلام خارج تجويف البحيرة المضاء. ولم أستطع أن أخمن حتى ما يكمن وراء هذا الظلام.

كانت متابعة قارب الثيرني عبر المياه اللامعة بمثابة دعوة للكشف عن وجودي على الفور. لذا، وعلى الرغم من كراهيتي للسماح بمرور ثوريد حتى ولو للحظة بعيدًا عن بصري، فقد اضطررت للانتظار في الظل إلى أن يغيب القارب الآخر بعيدًا عن بصري على بُعدٍ يقع في أقصى البحيرة.

وعندئذٍ بدأت أجدف فوق السطح اللامع في الاتجاه الذي اتخذوه.

بعد فترة وكأنها أبدية، وصلت إلى الظلال عند النهاية العلوية من البحيرة، ووجدت أن النهر ينبع من فتحة منخفضة، ثم يمر أسفل سطح يتطلب أن أجبر وولا على الاستلقاء فوق أرضية القارب، واحتجت أنا شخصيًّا إلى الانحناء مرتين قبل أن يقطع السطح المنخفض رأسي.

ارتفع السطح فورًا مرة أخرى على الجانب الآخر، لكن الطريق لم يعُد مُضاء ببراعة. انبعث بالأحرى مجرد توهج واهن من بقع صغيرة ومتناثرة في الصخر الفسفوري بالجدران والسطح.

جرى النهر أمامي مباشرة نحو تجويف أصغر من خلال ثلاث فتحات مقوسة منفصلة.

لم أتمكن من رؤية ثوريد والثيرن في أي مكان. تُرى في أي من هذه الفتحات السوداء اختفوا؟ لم تكن هناك وسيلة تساعدني على المعرفة، وبالتالي اخترت الفتحة التي تقع في المنتصف، وكانت احتمالات أن تقودني إلى الاتجاه الصحيح مماثلةً لاحتمالات الفتحات الأخرى.

يمر الطريق هنا عبر ظلام تام. كان الجدول ضيقًا إلى حد أنني كنت أرتطم باستمرار، خلال السواد، بجدار صخري تلو الآخر، وتصيبني جراح هنا وهناك على طول المسار الحجري للنهر.

سمعتُ الآن من بعيد هديرًا عميقًا وغاضبًا يتزايد مع تقدمي للأمام، ثم خرقت شدة غضبه الجنوني أذنيَّ وأنا أستدير حول منحنى حاد داخل امتداد المياه المضاءة بقتامة.

هدرت مياه النهر أمامي مباشرة، من أعلى إلى أسفل في شلال جبار يملأ الوادي الضيق من جانب إلى آخر، وارتفعت الآن فوقي عدة مئات من الأقدام. يا له من مشهد رائع لم يسبق أن رأيته.

لكن هذا الهدير الفظيع الذي يصم الآذان، هدير تلك المياه المتدفقة، احتجزه قبو صخري تحت الأرض! إن لم يغلق الشلال استمرار مروري تمامًا ويُبين لي أنني اتبعت مسارًا خاطئًا، أعتقد أنني كنت سأهرب على أي حال أمام هذا الاضطراب المجنون.

من المحال أن يكون ثوريد والثيرن قد ساروا في هذا الطريق. وباختياري لهذا المسار الخاطئ، فقدتُ أثرهم وفازوا بمسافة كبيرة، بحيث ربما لا أتمكن من العثور عليهم قبل فوات الأوان، هذا إن تمكنت أصلاً من العثور عليهم.

استغرقتُ عدة ساعات لشق طريقي لأعلى ضد التيار القوي إلى منطقة الشلالات، وسأحتاج عدة ساعات أخرى للهبوط على الرغم من أن الوتيرة ستكون أسرع كثيرًا.

تنهدتُ وأنا أحول مقدمة قاربي في اتجاه أسفل الجدول؛ وبضربات قوية بالمجداف، تحركت بسرعة متهورة عبر قناة مظلمة ومتعرجة إلى أن وصلت ثانية إلى التجويف الذي تتدفق منه فروع النهر الثلاثة.

لا تزال أمامي قناتان لم أستكشفهما. أيهما أختار؛ لا توجد أي وسيلة تساعدني على اتخاذ القناة التي من المحتمل أن تقودني إلى المتآمرين.

لا أذكر أنني عانيتُ في حياتي على الإطلاق من عذاب الحيرة هذا. يتوقف الكثير على الاختيار الصحيح، ويتوقف الكثير على التسرع.

ربما حددت الساعاتُ التي أضعتُها مصيرَ ديجاه ثوريس التي لا يضاهيها أحد، إن لم تكن قد ماتت بالفعل. والتضحية بساعات أخرى، وربما أيام، في استكشاف عقيم لدرب خادع آخر سيسفر دون شك عن كارثة.

حاولت عدة مرات في المدخل الأيمن، لكنني كنت أعود كأنما يحذرني حدس غريب بأنه ليس الطريق. وأخيراً، مع اقتناعي بهذه الظاهرة المتكررة، دخلت إلى الممر الأيسر المقوس؛ على أنني نظرتُ إلى الخلف، بعد فترة من الشك، لألقي نظرة فراق على المياه الكئيبة التي تتدفق داكنة مانعة، أسفل الممر المقوس القاتم المنخفض على اليمين.

وعندما نظرتُ، رأيت قشرة إحدى الثمار الكبيرة النضرة لشجرة السورابوس[36] ، تتمايل فوق التيار وهي تخرج من جوف ذلك الظلام الجهنمي.

بالكاد منعتُ نفسي من الصياح فرحًا وهذا المبعوث الصامت عديم الشعور يمر بي وهو يطفو متجهًا نحو إيس وكوراس، فقد أبلغني أن الرحالة المريخيين كانوا أعلى هذا الجدول تحديدًا، أي فوقي تمامًا.

فقد أكلوا هذه الثمار الرائعة، التي وضعتها الطبيعة داخل القشرة الصلبة لجوز السورابوس، ثم ألقوا القشر في البحر. فهي لا يمكن أن تأتي من أي جهة أخرى.

أبعدتُ على الفور أي تفكير في الممر الأيسر، وبعد لحظة كنتُ داخل الممر الأيمن. سرعان ما اتسع الجدول المائي، وأضاءت المناطق المتواترة من الصخر الفسفوري طريقي.

تحركتُ بسرعة، لكنني كنت مقتنعًا بأن مَن أتتبعهم يسبقونني بيوم تقريبًا. لم نأكل أنا أو وولا أي شيء منذ اليوم السابق؛ على أن الأمر لم يمثل أهمية كبيرة لوولا، فجميع حيوانات قيعان البحر الميت في المريخ قادرة عمليًّا على البقاء لفترات مذهلة دون غذاء.

ولم أشعر أنا أيضًا بأي معاناة؛ إذ كانت مياه النهر حلوة وباردة؛ لأن الجثث المتحللة لم تلوثها مثلما لوثت نهر إيس. أما بالنسبة للغذاء، فمجرد التفكير في أنني أقترب من أميرتي الحبيبة جعلني أسمو فوق كل عوز مادي.

---

(36) شجر السورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بثماره النضرة المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapus. (المترجمة).

ومع مواصلة تحركي، أصبح النهر أضيق والتيار سريعًا ومضطربًا إلى حد صعوبة إجبار قاربي على التحرك لأعلى. لم أتجاوز مائة ياردة في الساعة عندما واجهت -عند منعطف- سلسلة من المنحدرات، كان معدل رغوة النهر وغليانه خلالها مذهلاً.

غاص قلبي داخلي. ثبت أن قشر جوز السورابوس مبعوث زائف، على أن حدسي كان صحيحًا؛ كان يجب أن أتبع القناة اليسرى.

لو أنني امرأة، لبكيتُ. رأيتُ على يميني دوامة كبيرة بطيئة الحركة، تدور إلى أسفل تحت الجانب المتدلي من الجرف. ولكي أُريح عضلاتي المتعبة قبل أن أعود بقاربي إلى الخلف، سمحتُ لقاربي أن ينجرف مع التيار.

أصابتني خيبة أمل. فالأمر يعني فقدان نصف يومٍ آخر لأعود من حيث أتيت، وأتخذ الممر الوحيد الذي لم أستكتشفه بعد. ما المصيِّر الشيطاني الذي دفعني إلى اختيار طريقين خاطئين من بين ثلاثة طرق ممكنة؟

حملني تيار الدوامة الكسول ببطء بالقرب من محيط الدائرة المائية، ولمس قاربي مرتين الجانب الصخري من النهر في التجويف المظلم أسفل الجرف. واصطدم في مرة ثالثة بلطف كما حدث من قبل، لكن التلامس أسفر عن صوت مختلف، صوت كشط الخشب على الخشب.

وفي لحظة أصبحت في حالة تأهب، فلا يوجد خشب في هذا النهر المدفون إلا إذا كان رجلٌ قد أحضره. وبالتزامن تقريبًا مع إدراكي الأول للضوضاء، تحركت يدي عبر جانب القارب، وبعد ثانية شعرتُ بأصابعي تتلمس الحافة العليا لجانب قارب آخر.

جلست في صمت متوتر صارم كأنما تحولت إلى حجر، وأجهدت عيني في الظلام المطلق أمامي محاولاً اكتشاف ما إذا كان هناك أحد على القارب.

فمن الممكن تمامًا أن هناك رجلاً على متنه لا يزال يجهل بحضوري؛ ذلك أن القارب كان يحتك بلطف بأحد جوانب الصخور، بحيث إن لمسة قاربي الرقيقة للقارب الآخر ربما لم يلحظها أحد.

دققت النظر بقدر ما أمكنني، لكني عيني لم تستطع اختراق الظلام، ثم سمعت باهتمام صوت تنفس بالقرب مني؛ ولكن باستثناء ضجيج منحدرات النهر، واحتكاك القاربين برفق، والتفاف المياه على جانبيهما، لم أتمكن من تميز أي صوت. وكالعادة، فكرتُ سريعًا.

يوجد حبل ملفوف في قاع قاربي. أمسكته بهدوء شديد، وقمت بربط إحدى نهايتيه بسرعة بالحلقة البرونزية في مقدمة قاربي، وخطوت بحذر شديد إلى القارب الآخر بجواري. أمسكت الحبل بإحدى يدي، وأمسكت باليد الأخرى سيفي الطويل الحاد.

وقفت بلا حراك، ربما لدقيقة كاملة، بعد دخول القارب الغريب. اهتز قليلاً نتيجة وزني، ولكن احتكاك جانبه بجانب قاربي كان يبدو أكثر احتمالاً لتنبيه راكبيه، إن كان هناك مَن يركبه.

لم يكن هناك أي صوت، وبعد أن فتشت كل جزء من هذا القارب، وجدت أنه مهجور.

تلمست بيدي على طول سطح الصخور التي كان القارب يرسو عندها، واكتشفت حافة ضيقة، عرفت أنها قطعًا الطريق الذي اتخذه مَن جاؤوا قبلي. أقنعني حجم وبنية القارب الذي وجدته، أنهم ليسوا سوى ثوريد وجماعته.

ناديت وولا ليتبعني، وخرجت عند الحافة. وتحرك الحيوان الضخم المتوحش الشرس متسللاً خلفي برشاقة كالقط.

عندما مر بالقارب الذي كان يشغله ثوريد والثيرن، أصدر هديرًا منخفضًا لمرة واحدة؛ وعندما جاء بجواري فوق الحافة واستقرت يدي على رقبته، شعرت بعرفه القصير ينتصب غضبًا. أعتقد أنه شعر عن طريق التخاطر بوجود عدو مؤخرًا، إذ لم أبذل أي جهد لأنقل له طبيعة مسعانا ووضع مَن نتعقبهم.

يجب أن أصحح هذا الإغفال على الفور. وعلى طريقة المريخيين الخُضر مع حيواناتهم، تمكنت أن أنقل له -جزئيًّا عن طريق توارد الخواطر الغريب والخارق في برسوم، وجزئيًّا عن طريق الكلام- أننا على درب أولئك الذين شغلوا مؤخرًا القارب الذي مررنا به لتونا.

أشار أزيز وولا المنخفض، بما يشبه أزيز قط كبير، إلى أنه فهم الأمر، فأمرته أن يتبعني واستدرت يمينًا على طول الحافة. وما إن فعلت ذلك، حتى شعرت بأنيابه القوية تجذب عتادي الجلدي.

التفتُّ لأعرف سبب تصرفه، لكنه استمر يجذبني إلى الاتجاه المعاكس، ولم يتوقف إلا عندما استدرت وأشرت له أنني سوف أتبعه طوعًا.

لم يسبق أن أخطأ أبدًا في أي مطاردة، ولذا تحركت بحذر ولدي شعور بالأمان الكامل في أعقاب الوحش الضخم. تحرك خلال الظلام الدامس على طول الحافة الضيقة بجوار المنحدر الذي يغلي.

ومع تقدمنا، أخذنا الطريق من أسفل المنحدرات المتدلية إلى موقع يخيم عليه ضوء خافت، وعندئذ رأيت أن الدرب كان مشقوقًا عبر الصخور المنحوتة، ويتواصل على طول جانب النهر بماً يتجاوز المنحدرات.

تابعنا النهر القاتم المظلم لساعات طوال داخل باطن المريخ. عرفت من الاتجاه والمسافة أننا قطعًا أسفل وادي دور، وربما تحت بحر أوميان أيضًا. لا يمكن أن يقع معبد الشمس الآن على مسافة أبعد كثيراً. وعندما كان ذهني منشغلاً بهذه الفكرة، توقف وولا فجأة أمام مدخل ضيق مقوس عند الجرف على جانب الدرب. وسرعان ما جثم إلى الوراء بعيدًا عن المدخل، وفي الوقت نفسه تحولت عيناه نحوي.

لا يمكن أن تُعبر الكلمات بأوضح من ذلك عن وجود نوع من خطر على مقربة، ولذا شققت طريقي بهدوء إلى جانبه، ونظرت خلال الفتحة التي تقع على يميننا.

رأيتُ أمامي غرفة متوسطة الحجم، عرفت من تجهيزاتها أنها كانت في وقت ما غرفة للحراس. هناك رفوف للأسلحة، ومنابر مرتفعة قليلاً عليها أغطية النوم الحريرية والفراء للمحاربين. لكن الغرفة لا يشغلها الآن سوى اثنين من الثيرن، وهما مَن كانا ضمن المجموعة التي صاحبت ثوريد وماتاي شانج.

كانت تدور بين الرجلين محادثة جادة، وبدا من نبرتهما عدم إدراكهما على الإطلاق بأن هناك مَن يسمعهما.

قال أحدهما: «أود أن أخبرك أنني لا أثق في الرجل الأسود. فما من ضرورة لتركنا هنا لحراسة الطريق. ماذا نحرس في هذا المسار السحيق الذي طواه النسيان؟ إنها مجرد حيلة لتقسيمنا عدديًّا. وسوف يجعل ماتاي شانج يترك عددًا آخر في مكان آخر بذريعة أو أخرى، ثم أخيراً سينقض علينا مع شركائه ويذبحوننا جميعًا».

أجاب الآخر: «أوافقك الرأي يا لاكور. فلا يمكن أن يوجد أي شيء البتة سوى الكراهية القاتلة بين الثيرن والأبناء الأوائل. وما رأيك حول مسألة الضوء المثيرة للسخرية؟ -'اتركوا الضوء يلمع بشدة ثلاث وحدات من الراديوم لمدة خمسين تالاً، واتركوه يلمع بشدة وحدة راديوم واحدة لمدة زات واحد، ثم لمدة 25 تالاً بشدة تسع

وحدات،[37] - تلك كانت كلماته، ولك أن تعتقد أن الكهل ماتاي شانج الحكيم يجب أن يستمع إلى مثل هذه الحماقة».

قال لاكور: «إنها سخافة بالفعل. ولن ينفتح أي شيء سوى الطريق نحو موتنا السريع جميعًا. عليه أن يقدم بعض إجابات لماتاي شانج عندما يسأله صراحة عما يجب أن يفعله عند الوصول إلى معبد الشمس، وعندئذ يجيب بسرعة من مخيلته. وأراهن بإكليل الهيكادور أنه لن يستطيع تكرار ما قاله بنفسه».

قال الثيرني الآخر: «دعنا لا نبقى هنا لفترة أطول يا لاكور. ربما إذا أسرعنا خلفهم، نصل في الوقت المناسب لإنقاذ ماتاي شانج، ونتقم من الداتور الأسود. ما قولك؟؟».

أجاب لاكور: «لم يحدث أبدًا في حياتي الطويلة أن عصيتُ أمرًا واحدًا للأب الثيرني. سوف أبقى هنا إلى أن أتعفن، إذا لم يرجع ليأمرني بالذهاب إلى مكان آخر».

هز رفيق لاكور رأسه.

قال: «أنت أعلى مني في الرتبة، ولا يمكنني مخالفتك، رغم أنني لا زلت أعتقد أن استمرارنا هنا حماقة».

كنتُ أنا أيضًا أعتقد أن استمرارهم في هذا المكان حماقة، فقد عرفت من تصرفات وولا أن الدرب يمر خلال الغرفة التي يجلس فيها الثيرنيان كحراس. ليس لدي سبب للشعور بأي قدر من الحب لهذا العِرق من الشياطين الذي يؤله نفسه، على أنني كنت أود المرور من أي مكان ممكن دون الاعتداء عليهم.

كان الأمر يستحق المحاولة على أي حال؛ فالقتال قد يؤخرنا كثيرًا، أو حتى ينهي بحثي تمامًا، فقد سقط رجال أفضل مني أمام مقاتلين أقل قدرة من تلك التي يمتلكها المحاربان الثيرنيان الشرسان.

أشرت إلى وولا أن يتبعني، ثم خطوت فجأة إلى الغرفة أمام الرجلين. عند رؤيتي، انطلقت بسرعة سيوفهم الطويلة من جانب عتادهما. لكنني رفعت يدي في بادرة لضبط النفس.

(37) ورد في قصة «آلهة المريخ» أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على 24 ساعة و37 دقيقة (بتوقيت كوكب الأرض). ويقسمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية تُسمى زود (أي أن دورة المريخ حول محوره تساوي 10 زود)، وينقسم الزود إلى خمسين فترة أقصر تُسمى زات (أي أن الزود يعادل 50 زاتًا)، يتكون كل منها بدوره من 200 فترة زمنية قصيرة تعادل تقريبًا الثانية في كوكب الأرض وتُسمى تال (أي 200 تال يعادل 1 زات). (المترجمة).

قلت: «أنا أسعى خلف ثوريد، الداتور الأسود. فمعركتي معه، وليست معكم. اتركوني أمر في سلام؛ وأعتقد أنني لا أخطئ بقولي إنه عدوكما بقدر ما هو عدوي، وليس لديكما أي سبب لحمايته».

أنزلا سيفيهما، وتكلم لاكور.

«أنا لا أعرف مَن أنت. بشرتك بيضاء مثل الثيرن، وشعرك أسود مثل الرجال الحُمر. وإذا كانت سلامة ثوريد هي فقط الـمُعرضة للخطر، يمكنك المرور ونرحب بك، بقدر ما يتعلق الأمر بنا».

«قل لنا مَن أنت، وما المهمة التي جلبتك إلى هذا العالم المجهول أسفل وادي دور، وعندئذٍ ربما يمكننا أن نسمح لك بالمرور لتقوم بالمهمة التي كنا نود القيام بها إن كانت أوامرناً تسمح».

فوجئت أن الرجلين لم يتعرفا عليَّ؛ إذ كنت أعتقد أنني معروفٌ تمامًا، إما عن طريق خبرة شخصية، أو بسُمعتي لكل ثيرني في برسوم التي تجعل هويتي واضحة على الفور على أي جزء من هذا الكوكب. ففي واقع الأمر، كنت الرجل الأبيض الوحيد في المريخ - باستثناء ابني كارثوريس- الذي لديه شعر أسود وعينان رماديتان.

قد يؤدي الكشف عن هويتي إلى التعجيل بالهجوم؛ فكل ثيرني في برسوم يعرف أنني سبب سقوط تفوقهم الروحي القديم. ومن ناحية أخرى، قد تكفي سُمعتي كمقاتل بالمرور عبر غرفة الرجلين إذا لم يكن في نيتهما الترحيب بمعركة حتى الموت.

وفي الحقيقة لم أحاول أن أخدع نفسي بهذه السفسطة؛ لأنني أعرف جيدًا أن على المريخ الذي يشبه ميدان الحرب لا يوجد سوى عدد قليل

من الجبناء، وأن لكل رجل -سواء كان أميراً أو كاهنًا أو فلاحًا- أمجاد في الصراع المميت. ولذا أمسكت جيدًا بقبضة سيفي الطويل وأنا أرد على لاكور.

قلت له: «أعتقد أنك تدرك حكمة السماح لي بالمرور بسلام؛ لأنك لن تستفيد شيئًا من الموت دون جدوى في جوف برسوم الصخري لمجرد حماية عدو متوارث، مثل ثوريد، داتور الأبناء الأوائل. سوف تموت إذا اخترت منعي، وموتك تؤكده جثث العديد من أعظم محاربي برسوم الذين انتهت حياتهم بنصل سيفي؛ أنا جون كارتر، أمير هيليوم».

بدا للحظة أن الاسم أصاب الرجلين بالشلل، ولكن للحظة فقط؛ ثم اندفع أصغرهما سنًّا نحوي شاهرًا سيفه وهو يتفوه بكلمات خسيسة.

كان يقف خلف رفيقه لاكور أثناء حديثنا. والآن، أمسك الرجل الأكبر سنًّا بعتاد زميله قبل أن يتمكن من الاشتباك معي، وجذبه إلى الخلف.

«قف!»، أمره لاكور، «سيكون لدينا متسع من الوقت للقتال، إذا وجدنا من الحكمة أن نقاتل على الإطلاق. هناك أسباب لأن يتوق كل ثيرني في برسوم إلى سفك دماء هذا الكافر المدنس؛ ولكن دعنا نمزج الحكمة بالكراهية المبرَرة. يود أمير هيليوم إنجاز مهمة كنا نرغب نحن أنفسنا منذ دقائق في القيام بها. فلنسمح له بالذهاب ليقتل الرجل الأسود. وعندما يعود، سنكون هنا لمنع طريقه إلى العالم الخارجي. وهكذا نتخلص من خصمين، دون أن نثير استياء الأب الثيرني».

لاحظت وهو يتحدث بريقًا ماكرًا في عينيه الشريرة. وفي حين أدركت منطقه الواضح، فقد أحسست -ربما لا شعوريًّا- أن كلماته تخفي بعض النوايا الشريرة. استدار الثيرني الآخر نحوه في مفاجأة واضحة؛ ولكن عندما همس لاكور بضع كلمات موجزة في أذنه، عاد إلى الوراء وأومأ بالموافقة على ما قاله قائده.

قال لاكور: «يمكنك الـمُضي يا جون كارتر؛ ولكن اعلم أنه إن لم يقتلك ثوريد، ستجد مَن ينتظرونك عند عودتك ليتأكدوا أنك لن تمر مرة أخرى لتصل إلى ضوء الشمس في العالم العلوي. اذهب!».

كان وولا يهدر ويزمجر بالقرب مني أثناء حديثنا. كان ينظر إلى وجهي بين الحين والآخر في أنين متوسل، كأنما يتسول الكلمة التي سوف تجعله ينطلق متهورًا نحو الرقبتين العاريتين أمامه. كما شعر وولا بالخسة أيضًا وراء سلاسة الكلمات.

انفتحت خلف الرجلين عدة بوابات في غرفة الحراسة، وأشار لاكور في اتجاه البوابة التي تقع في أقصى اليمين.

وقال: «هذا الطريق يؤدي إلى ثوريد».

لكنني عندما ناديت وولا ليتبعني، زام الوحش وتراجع للخلف، وأخيرًا ركض بسرعة إلى أول فتحة على اليسار ووقف ينبح بقوة، كأنما يحثني على متابعته على الطريق الصحيح.

التفتُّ بنظرة تساؤل نحو لاكور.

قلت: «هذا الوحش نادرًا ما يُخطئ. ومع أنني لا أشك في معرفتك يا ثيرني، أعتقد أن الأفضل هو الاستماع إلى صوت الغريزة التي يدعمها الحب والولاء».

ابتسمت بتجهم وأنا أتحدث، ربما يعرف دون أن أقولها صراحة أنني لا أثق فيه.

أجاب وهو يهز كتفيه: «كما تريد، ففي نهاية المطاف لن يغير ذلك من الأمر شيئًا».

استدرتُ وتابعت وولا إلى الممر الأيسر. كان ظهري تجاه خصومي، وأذناي في حالة تأهب؛ ولم أسمع أي صوت لمطاردة. أضاءت مصابيح الراديوم المتناثرة الممر إضاءة خافتة، فهذه هي وسيلة الإضاءة الشائعة في برسوم.

ربما استمر أداء هذه المصابيح نفسها لواجبها في هذه الغرف تحت الأرضية لسنوات طويلة؛ فهي لا تتطلب أي اهتمام، كما أن تركيبها المـُعقد يجعلها لا تُطلِق سوى جزء ضئيل من مادتها، وتمتد لسنوات من اللمعان خلال أجيال.

مضينا في طريقنا لمسافة قصيرة، ثم بدأنا نمر بفتحات ممرات متشعبة، لكن وولا لم يتردد لمرة واحدة. وعند فتحة أحد هذه الممرات على يميني، سمعت صوتًا يعرفه جيدًا جون كارتر، رجل القتال، يوضح الكثير أكثر مما يمكن أن تُعبر به كلمات لغتي الأصلية – كان صوت قعقعة المعادن، معادن عتاد المحارب– وجاء من مسافة غير بعيدة، فوق الممر الذي يقع على يميني.

سمع وولا الصوت أيضًا، واندفع كالبرق مسرعًا ووقف يواجه خطر التهديد وعُرفه منتصب، وجميع صفوف أنيابه اللامعة تكشفها زمجرة شفاهه. أسكتُّه بإيماءة، وتنحينا جانبًا في ممر آخر على بُعد عدة خطوات.

انتظرنا هنا. لكنَّ انتظارنا لم يطل؛ فقد رأينا الآن ظل رجلين على أرضية الممر الرئيس، بعرض مدخل مكان اختبائنا. يتحركان الآن بحذر شديد، لم تتكرر القعقعة العَرَضية التي نبهتني.

وصلا الآن إلى موقع مقابل لموقعنا؛ ولم أندهش عندما تبينت أن الاثنين هما لاكور ورفيقه في الحراسة.

لقد سارا بهدوء شديد، وفي اليد اليمنى لكل منهما يلمع سيف طويل حاد. وقفا يتهامسان بالقرب من مدخل ملجئنا.

قال لاكور: «هل ابتعدنا عنهما فعلاً؟».

أجاب زميله: «إما هذا، وإما أن الوحش قاد الرجل إلى درب خاطئ؛ فالطريق الذي اتخذناه هو أقصر الطرق للوصول إلى هذه النقطة! مَن يدري؟ لكان جون كارتر قد وجد طريقًا قصيراً للموت إذا اتخذ المسار الذي اقترحته له».

قال لاكور: «نعم، فأي قدرة على القتال لم تكن لتنقذه من الحجر اللوحي الدوَّار. لكان صعد فوقه بالتأكيد، وإذا كان للحفرة الواقعة أسفله قاع، وهو ما ينفيه ثوريد، لكان يهوي مسرعًا نحوها الآن. اللعنة على حيوانه الكالوت[38] ؛ فقد حذره وأخذه إلى المسار الأكثر أمنًا!».

قال زميل لاكور: «لكنه سيواجه أخطارًا أخرى، ربما لا يتمكن من الهرب منها بسهولة، إذا نجح في الفرار من سيفينا القويين. وعلى سبيل المثال، ما فرصة أن يأتي بشكل غير متوقع إلى غرفة...».

كنت أودُّ أن أواصل الاستماع إلى تلك المحادثة كي آخذ حذري من المخاطر التي تنتظري، لكن القدر تدخل؛ ففي هذه اللحظة تحديدًا من بين كل اللحظات الأخرى التي لم أكن لأود القيام بذلك... عطستُ.

* * *

(38) الكالوت: الكلب المريخي. (المترجمة).

(3)
معبد الشَّمس

ليس أمامي الآن سوى القتال. لم يكن بمقدوري أن أقفز وسيفي في يدي إلى الممر قبل الثيرنيين، فعطستي المفاجئة حذرتهما من وجودي، وكانا مستعدين لمواجهتي.

لم ينطق أحد بكلمة؛ فالكلمات تهدر الوقت، كما أن وجود الاثنين دليلٌ على غدرهما. فقد اتضحت خطتهما بجلاء؛ أن يتبعاني لمهاجمتي على حين غرة، لكنهما أدركا بالطبع أنني فهمت خطتهما.

اشتبكتُ معهما في لحظة. وعلى الرغم من كراهيتي لاسم الثيرن نفسه، يجب أن أعترف بكل إنصاف أنهم مبارزون أقوياء، وأن هذين الاثنين ليسا استثناء بين عِرقهما إلا في كونهما أكثر مهارة وشجاعة من المبارز المتوسط.

كنت مستمتعًا بالاشتباك أكثر من أي صراع آخر سابق. أنقذت صدري مرتين على الأقل من طعنة مميتة من فولاذ السيف الثاقب، وذلك بخفة الحركة الرائعة التي تتمتع بها عضلاتي كإنسان من كوكب الأرض في ظل ظروف نقص الجاذبية وضغط الهواء على المريخ.

على أنني اقتربتُ من تذوق الموت ذلك اليوم في الممر القاتم أسفل القطب الجنوبي للمريخ، فقد قام لاكور بخدعة لم أشهد مثلها في حياتي من قبل طوال مجمل خبرتي في القتال على الكوكبين.

كان الثيرني الآخر مشتبكًا معي في ذلك الوقت. وكنتُ أُجبره على التراجع إلى الخلف؛ حيث ألمسه بسن سيفي هنا وهناك إلى أن أخذ ينزف من عشرات الجروح، لكنني لم أتمكن من اختراق وضعه الدفاعي الرائع للوصول إلى نقطة ضعيفة للحظة تكفي لإرساله إلى أسلافه.

وعندئذ أخرج لاكور بسرعة حزامًا من عتاده؛ وعندما تراجعتُ خطوة لأتجنب هجومًا شرسًا، ضرب كاحلي الأيسر بأحد أطراف حزامه فأصابه بجرح، بينما قفز فجأة على الطرف الآخر وألقاني بشدة على ظهري.

ثم قفز الاثنان فوقي كفهدين، لكنهما لم يحسبا حساب وولا. وقبل أن يلمسني نصل أي سيف، هوى تجسيد لألف شيطان يزأر فوق جسدي الممدد وهجم عليهما كلبي المريخي الوفي.

تخيل -إن استطعتَ- دبًّا ضخمًا بعشر سيقان مسلحة بمخالب قوية، وفم كبير يشبه فم الضفدعة، ويمتد من الأذن إلى الأذن كاشفًا عن ثلاثة صفوف من أنياب بيضاء طويلة؛ ثم امنح هذا المخلوق الخيالي خفة حركة وضراوة نمر بنغالي نصف جائع، وقوة مجموعة من الثيران، وعندئذٍ سيتكون لديك تصور ضعيف عن وولا وهو يشتبك في معركة.

وقبل أن أتمكن من إبعاده، كان قد سحق لاكور إلى هلام بضربة واحدة من مخلب قوي، ومزق الثيرني الآخر حرفيًّا إلى شرائط؛ لكنني عندما تحدثتُ إليه بشدة، تراجع خجلاً كأنما فعل شيئًا يستحق اللوم والعقاب.

لم يسمح لي قلبي أبدًا معاقبة وولا خلال السنوات الطوال التي مرت منذ يومي الأول على المريخ، عندما وضعه جد الثاركيين الخُضر ليحرسني، وفزت بحبه وولائه بعد معاناته من قسوة سادته في حياته السابقة الذين لا يعرفون الحب. مع ذلك، أعتقد أنه قد يخضع لأي قسوة من جانبي، يا لها من عاطفة مدهشة يُكنُّها لي.

أوضح الإكليل في مركز الشريط الذهبي على جبين لاكور أنه ثيرني مقدس، بينما رفيقه الذي لا يرتدي زينة مماثلة كان ثيرنيًّا من مرتبة أقل، على أنني أدركت من عتاده أنه وصل إلى «الدورة التاسعة»، وهي أدنى بدرجة واحدة رتبة ثيرني مقدس.

وقفتُ للحظة أنظر إلى الخراب البشع الذي تسبب فيه وولا، وهنا تذكرت حادثة أخرى عندما تنكرت مرتديًّا الشَّعر المستعار والإكليل والعتاد الذي يخص ساتور ثروج، الثيرني المقدس الذي قتلته ثوفيا البتارثية؛ والآن تبادر إلى ذهني أنه ربما يجب أن استخدم زخارف لاكور لنفس الغرض.

انتهيت خلال دقيقة من إزالة الشَّعر الأصفر المستعار من رأسه الأصلع، ونقلته مع الشريط الدائري إلى رأسي، فضلاً عن ارتداء عتاده.

لم يوافق وولا على تغييري لشكلي. أخذ يتشممني ويتذمر هادرًا. وعندما حادثته وربت على رأسه الضخم، أصبح متوافقًا مع التغيير. وهرول بناءً على أوامري نحو الممر في الاتجاه الذي كنَّا ذاهبين إليه عندما أعاق الثيرنيان تقدمنا.

أخذنا الآن نتحرك بحذر نتيجة للمحادثة التي سمعتُها. سرت بجوار وولا، حتى يمكننا استخدام أعيننا لنرى أي تهديد قد يظهر أمامنا فجأة، وقد حدث ما توقعناه.

في الجزء السفلي من رحلتنا عبر الدرجات الضيقة، التف الممر بحدة مرة أخرى للخلف، ثم التف على الفور مرة أخرى في الاتجاه الأصلي، بحيث أصبح عند هذه النقطة على شكل حرف S، ساقه الأعلى ينفتح فجأة على غرفة كبيرة سيئة الإضاءة وأرضيتها مغطاة تمامًا بثعابين سامة وزواحف كريهة.

كانت محاولة عبور تلك الأرضية تعني الحكم بالموت الفوري، وشعرت للحظة بإحباط تام. ثم تبادر إلى ذهني أن ثوريد وماتاي شانج قد عبرا مع مجموعتهما من هنا، فمن المؤكد أن هناك طريقة.

لو لم يكن من حسن الحظ أنني استمعتُ مصادفة إلى جزء صغير من حديث الثيرن، لكنا تعثرنا خطوة أو خطوتين على الأقل في تلك الكتلة الهائلة من الدمار؛ فخطوة واحدة كانت تكفي تمامًا لموتنا.

كانت هذه الزواحف هي الوحيدة التي رأيتُها على الإطلاق في برسوم. لكنني عرفت من تشابهها مع البقايا المتحجرة للأنواع التي من المفترض أنها انقرضت، ورأيتها في متاحف هيليوم، أنها تضم العديد من أجناس الزواحف المعروفة في عصور ما قبل التاريخ، فضلاً عن الزواحف الأخرى غير الـمُكتشفة.

لم أشهد أبدًا من قبل تجمعًا أكثر بشاعة للوحوش. ومن العبث محاولة وصفهم لسكان كوكب الأرض، حيث الجوهر هو الشيء الوحيد الذي يتقاسمونه مع أي مخلوق مألوف من الماضي أو الحاضر، حتى سمومهم أكثر خطرًا، بحيث إن مقارنتها بسموم زواحف كوكب الأرض تجعل أفعى الكوبرا دي كابيلو غير ضارة، كأنها دودة الأرض.

وخلال مراقبتهم لي، اندفعت المجموعة الأقرب من المدخل الذي نقف عنده، لكن صفًّا من مصابيح الراديوم على طول عتبة غرفتهم جعلتهم يتوقفون فجأةً. ومن الواضح أنهم لا يجرؤون على عبور هذا الصف من الضوء.

كنتُ على يقين أنهم لن يغامروا بالخروج من الغرفة التي اكتشفتْ وجودهم فيها، على الرغم من أنني لم أُخمن ما ردعهم. على أن الحقيقة البسيطة أننا لم نجد أي زواحف في الممر الذي وصلنا من خلاله إلى هنا كانت تأكيدًا كافيًا أنهم لم يغامروا للذهاب إلى هناك.

أبعدتُ وولا عن طريق الأذى، ثم بدأت دراسة متأنية لمعرفة الحجم الذي يمكنني رؤيته من غرفة الزواحف من حيث أقف. وعندما اعتادت عيناي على الضوء الداخلي الخافت، بدأت ألمح تدريجيًّا قاعةً منخفضةً في نهاية الشقة التي ينفتح منها عدد من المخارج.

اقتربتُ من العتبة بقدر ما تجرأتُ، وتابعتُ هذه القاعة بعينيَّ، واكتشفت -بقدر ما أمكنني أن أرى- أنها تطوق الغرفة. ثم ألقيت نظرة فوقي، على طول الحافة العلوية من المدخل الذي أتينا منه، ولسعادتي رأيتُ إحدى نهايات القاعة على ارتفاع لا يزيد على قدم فوق رأسي. قفزت إليها في لحظة ودعوت وولا أن يتبعني.

لا يوجد هنا زواحف؛ فالطريق كان واضحًا على الجانب الآخر من الغرفة البشعة. وبعد لحظة هبطنا أنا ووولا إلى بر الأمان في الممر الخارجي.

وصلنا بعد أقل من عشر دقائق إلى شقة دائرية واسعة من الرخام الأبيض، وجدرانها مُطعمة بالذهب بكتابة هيروغليفية غريبة تخص الأبناء الأوائل.

من القبة العالية لهذه الشقة القوية، امتد عمود دائري ضخم إلى الأرضية. وقفت أشاهده، ورأيته يدور ببطء.

لقد وصلت إلى قاعدة معبد الشمس!

في مكان ما فوقي توجد ديجاه ثوريس، ومعها فايدور ابنه ماتاي شانج، وثوفيا البتارثية. لكن كيفية الوصول إليهن لا تزال لغزًا مُحيرًا، رغم عثوري على البقعة الضعيفة الوحيدة في سجنهن القوي.

درتُ ببطءٍ حول البئر الضخم باحثًا عن وسيلة دخول. وجدتُ في جزء من الطريق شعلة صغيرة من الراديوم تبعث ضوءًا خاطفًا، ففحصتها بفضول لأعرف سبب وجودها في هذه البقعة المجهولة التي يكاد يكون الوصول إليها مستحيلاً، وعثرت فجأةً على شعار العلبة المعدنية لجواهر بيت ثوريد.

فكرتُ في أنني على الطريق الصحيح، ووضعتُ قطعة الحلي في جيب الحقيبة المعلقة في عتادي، ثم واصلتُ البحث عن المدخل الذي يجب أن يوجد في مكان ما هنا. لم أحتجْ إلى أن أبحث طويلاً؛ إذ وصلت على الفور إلى باب صغير مُطعم بكياسة في قاعدة البئر، بحيث ربما

يمر عليه دون أن يلحظه أي مراقب أقل عناية أو أقل حذرًا.

وجدتُ بابًا، ربما يؤدي بي إلى داخل السجن، ولكن ما وسيلة فتحه؟ لا يوجد زر أو قفل. تحسست بعناية تكرارًا ومرارًا كل بوصة مربعة من سطحه، لكن أقصى ما أمكنني إيجاده هو ثقب صغير أعلى قليلاً على يمين مركز الباب، ثقب بدا ناتجًا من مجرد سوء الصُّنع أو نقص في المواد.

حاولتُ التحديق عبر هذه الفتحة الدقيقة، لكني لم أستطع أن أحدد ما إذا كان عمقها مجرد جزء من البوصة أو أنها تخترق الباب بالكامل، فلم يكن هناك أي ضوء يُظهر أبعد من ذلك. وضعت أُذني لاستمع، لكن جهودي لم تسفر مرة أخرى عن نتائج تُذكر.

خلال هذه التجارب، كان وولا يقف إلى جواري محدقًا بإمعان في الباب. وعندما وقع بصري عليه، تبادر إلى ذهني أن أختبر صحة فرضيتي بأن هذا المدخل كان وسيلة دخول المعبد التي استخدمها ثوريد، والداتور الأسود، والأب الثيرني ماتاي شانج.

ابتعدت فجأةً، وناديته ليتبعني. تردد للحظة، ثم قفز خلفي وهو يئن ويشد عتادي ليعود بي إلى الوراء. على أنني مشيت لمسافة قصيرة من الباب قبل أن أتركه يحدد الطريق لأرى بدقة ماذا سيفعل؛ ثم سمحت له أن يقودني أينما شاء.

عاد بي مباشرة إلى هذا المدخل الـمُحير، واتخذ مرةً أخرى وضعًا يواجه الحجر الأجوف، مع التحديق مباشرة في سطحه اللامع. حاولت لمدة ساعة حل لغز التركيبة التي قد تفتح الطريق أمامي.

تذكرتُ بعناية كل جزء من ظروف مطاردتي لثوريد، وخلُصت إلى استنتاج يتطابق واعتقادي الأصلي: أن ثوريد قد أتى عبر هذا الطريق دون أي مساعدة أخرى غير معرفته، وعبر من خلال الباب -الذي يمنع تقدمي- دون مساعدة من داخل. ولكن، كيف أنجز ذلك؟

تذكرتُ واقعة غرفة الغموض في المنحدرات الذهبية، عندما تمكنتُ من تحرير ثوفيا البتارثية من زنزانة الثيرن، وأنها أخذت مفتاحًا هزيلاً يشبه الإبرة من حلقة مفاتيح السجان الميت لفتح الباب الذي يؤدي للعودة إلى غرفة الغموض، حيث كان تارس تاركاس يقاتل للحفاظ على حياته في مواجهة أحد حيوانات البانث[39] الضخمة. إن ثقب مفتاح ضئيل يتحداني الآن، قد فتح قفل مُعقد في ذلك الباب الآخر حينذاك.

(39) البانث: حيوان مفترس شرس متعدد الأرجل، أصلع تقريبًا مثل جميع الحيوانات المريخية إلا من شعر كثيف خشن كبير كالأسد حول رقبته السميكة. جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشرة أرجل قوية؛ وفكاه الضخمان مجهزان بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية؛ وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراء هائلتان وجاحظتان وتضيفان لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع. http://barsoom.wikia.com/wiki/Banth - (المترجمة).

ألقيتُ على عجل محتويات جيب حقيبتي على الأرض أمامي؛ علني أجد قطعة رفيعة من الفولاذ، وأقوم بابتكار مفتاح يتيح لي الدخول إلى سجن المعبد.

فحصتُ تلك المجموعة غير المتجانسة من الأشياء المختلفة التي توجد دائمًا في جيب حقيبة المحارب المريخي، ووقعت يدي على شعلة الراديوم المنمقة للداتور الأسود.

كنت على وشك إلقاء الأشياء جانبًا على أساس أنها بلا قيمة في مأزقي الحالي، عندما وقعت عيني مصادفة على بضعة أحرف غريبة محفورة حديثًا بخشونة على ذهب الحقيبة الناعم.

دفعني الفضول إلى فك شفرتها، لكن ما قرأته لم يحمل إلى ذهني أي معنى على الفور. كانت هناك ثلاث مجموعات من الأحرف، مجموعة أسفل الأخرى:

3 I-I 50 T

1 I-I 1 X

9 I-I 25 T

أثار الأمر فضولي لمجرد لحظة، ثم أبدلتُ الشعلة في جيب حقيبتي؛ وقبل أن أبعد أصابعي عنها، تذكرت المحادثة بين لاكور ورفيقه عندما كرر الثيرني الأدنى مرتبة كلمات ثوريد ساخرًا: "وما رأيك حول مسألة الضوء المثيرة للسخرية؟ اتركوا الضوء يلمع بشدة ثلاث وحدات من الراديوم لمدة خمسين تالاً"- آه، هذا هو السطر الأول 3-50 T على صندوق الشعلة المعدني؛ "واتركوه يلمع بشدة وحدة راديوم واحدة لمدة زات واحد"- وهذا هو السطر الثاني؛ "ثم لمدة 25 تالاً بشدة تسع وحدات».

وهكذا، لديَّ الصيغة كاملة؛ ولكن، ماذا تعني؟

أعتقد أنني أعرف. أخذتُ عدسة مكبرة قوية من الأشياء المبعثرة في جراب جيبي، وبدأت على الفور في فحص دقيق للرخام بحثًا عن ثقب الباب. كنت أود أن أصبح

مبتهجًا بصوت عال عندما كشف فحصي الدقيق عن طبقة خارجية غير مرئية تقريبًا من جزيئات الإلكترونات المتفحمة التي سقطت من هذه المشاعل المريخية.

كان واضحًا أن مشاعل الراديوم ظلت تُستخدم لعدد لا يُحصى من العصور عند هذا الثقب، أما سبب استخدامها، فلا يمكن أن توجد سوى إجابة واحدة: أشعة الضوء تُحرك آلية القفل؛ وأنا، جون كارتر أمير هيليوم، أمسك في يدي بالتركيبة التي حفرها خصمي على جراب شعلته.

في سوار أسطواني من الذهب حول معصمي، كان يوجد الكرونومتر البارسومي، وهو أداة دقيقة تسجل التال والزات والزود للزمن في المريخ، بعرضهم أسفل بلورة قوية على غرار عداد المسافات في كوكب الأرض.

حددت توقيت عملياتي بعناية، ثم وجهت الشعلة نحو الثقب الصغير في الباب مع تنظيم شدة الضوء رافعة الإبهام على جانب الحقيبة.

سمحتُ لثلاث وحدات من الضوء أن تلمع بالكامل لمدة خمسين تالاً في الثقب، ثم وحدة واحدة لمدة زات واًحد، وتسع وحدات لمدة 25 تالاً؛ التي كانت بمثابة أطول 25 ثانية في حياتي. هل سينفتح القفل في نهاية هذه الفترات الزمنية التي تبدو بلا نهاية؟

ثلاثة وعشرون! أربعة وعشرون! خمسة وعشرون!

أغلقت الضوء فجأةً، وانتظرتُ لمدة 7 تالات، لم يظهر أي تأثير ملموس على آلية القفل. هل نظريتي خاطئة تمامًا؟

ماذا! هل أدى التوتر العصبي إلى هلوسة، أم أن الباب يتحرك فعلاً؟ غرق الحجر الصلب ببطء داخل الجدار بلا ضجيج- هذه ليست هلوسة.

أخذ الحجر ينزلق للخلف، وبعد مسافة عشر أقدام كشف عن وجود مدخل ضيق على اليمين يؤدي إلى ممر مظلم وضيق يوازي الجدار الخارجي. وبمجرد انكشاف المدخل، قفزت داخله ومعي وولا، ثم تراجع الباب بهدوء مرة أخرى إلى مكانه.

رأيت أسفل الممر، على بُعد، انعكاسًا خافتًا للضوء، واتخذنا طريقنا نحوه. ظهر مُنحنى حاد عند نقطة سطوع الضوء، ورأيت بعدها بمسافة صغيرة غرفة مضاءة ببراعة.

وهنا اكتشفنا سُلمًا حلزونيًا يقع في وسط الغرفة الدائرية.

عرفت على الفور أننا وصلنا إلى مركز قاعدة معبد الشمس- يقود المدرج الحلزوني إلى أعلى، ماراً بالجدران الداخلية لزنازين السجن. من المؤكد أن زنزانة ديجاه ثوريس تقع في مكان ما في الأعلى، ما لم يكن ثوريد وماتاي شانج قد نجحا بالفعل في سرقتها.

وبالكاد ما إن بدأنا نصعد المدرج، حتى أظهر وولا فجأة حالة من الهياج العنيف. أخذ يقفز جيئةً وذهابًا، ويعض ساقي وعتادي، حتى ظننت أنه أُصيب بالجنون. وأخيراً، عندما أبعدته عني وبدأت الصعود مرة أخرى، أمسك ذراع سيفي بين فكيه وأخذ يسحبني إلى الوراء.

لم يكن هناك أي قدر من التوبيخ أو الزجر يكفي لحمله على الابتعاد عني، كنت تحت رحمة قوته الغاشمة تمامًا، إلا إذا استخدمت خنجري ضده بيدي اليسرى. ولكن، سواء أُصيب أو لم يصب بالجنون، لا يطاوعني قلبي على غرز خنجري الحاد في جسد هذا الحيوان الوفي.

سحبني إلى الأسفل، إلى داخل الغرفة، وأخذني عبرها إلى الجانب المعاكس الذي دخلنا منه. وهنا وجدت مدخلاً آخر يقود إلى ممر يتجه مباشرة أسفل منحدر حاد. ودون لحظة تردد، جذبني وولا نحو هذا الممر الصخري.

توقف وولا الآن وأطلق سراحي، ووقف بيني وبين الطريق الذي أتينا منه وهو ينظر في وجهي كأنما يسألني ما إذا كنتُ سأتبعه طواعيةً الآن أم لا يزال عليه اللجوء إلى القوة.

نظرتُ بأسى إلى علامات أسنانه الضخمة على ذراعي العاري، وقررت أن أفعل ما يريد. فقبل كل شيء، يمكن الاعتماد على غريزته الغريبة أكثر من وجهة نظري كإنسان يخطئ.

وكان من الجيد أنني اضطرتُ إلى متابعته. وبعد مسافة قصيرة من الغرفة الدائرية، وصلنا فجأة إلى متاهة مضاءة ببراعة تتكون من ممرات يقسم بينها زجاج الكريستال.

اعتقدت في البداية أنها غرفة واسعة متصلة، وكانت جدران ممراتها المتعرجة شديدة الوضوح وشفافة. ولكن بعد أن أجهدت نفسي عدة مرات في محاولة المرور عبر الجدران الزجاجية الصلبة دون جدوى، بدأت أتحرك بحرص أكبر.

سرنا بضعة ياردات على طول الممر الذي منحنا الدخول إلى هذه المتاهة الغريبة، ثم زأر وولا زئيراً مخيفًا، واندفع في الوقت نفسه ضد القسم الواضح على يسارنا.

كانت الأصداء المدوية لهذه الصرخات المخيفة لا تزال تتردد عبر الغرف تحت الأرضية، عندما رأيت الشيء الذي أذهل وحشي الـمُخلص.

على البُعد، ومن خلال عتمة سُمك العديد من ألواح البلور الفاصلة، كأنما هناك ضباب يجعلها تبدو غير واقعية وشبحية، تبينت أشكال ثمانية أشخاص؛ ثلاث نساء وخمسة رجال.

توقف الأشخاص الثمانية في اللحظة نفسها وهم ينظرون حولهم، فمن الواضح أن صرخة وولا العنيفة أذهلتهم. وفجأةً تحرك أحدهم، كانت امرأة، مدت ذراعيها نحوي. ومن هذه المسافة الكبيرة تمكنت من رؤية شفتيها تتحركان. كانت ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم الشابة الجميلة دائمًا.

كانت معها ثوفيا البتارثية، وفايدور ابنه ماتاي شانج، وثوريد، والأب الثيرني، بالإضافة إلى مرافقيهم الثيرنيين الثلاثة الأقل رتبةً.

هز ثوريد قبضته في وجهي، ثم أمسك ثيرنيان بذراعَي ديجاه ثوريس وثوفيا بخشونة وأسرعا الخُطى؛ واختفوا خلال لحظة داخل ممر حجري يقع خلف المتاهة الزجاجية.

يقولون إن الحب أعمى؛ لكن حبًّا عظيمًا مثل حب ديجاه ثوريس الذي جعلها تعرفني حتى وأنا متنكر في ثياب ثيرني، وعبر المشهد الضبابي للمتاهة الكريستالية، يستحيل أن يكون أعمى.

* * *

(4)

البرج السِّري

ليست لديَّ رغبة في سرد الأحداث الرتيبة في تلك الأيام المملة التي قضيتُها مع وولا نستكشف طريقنا عبر المتاهة الزجاجية، من خلال الطرق المظلمة والملتوية التي تقع أسفل وادي دور والمنحدرات الذهبية إلى أن ظهرنا أخيراً فوق جانب جبال أوتز، تمامًا فوق وادي الأرواح الضائعة، هؤلاء الناس البؤساء بحظهم العاثر، الذين لا يجرؤون على الاستمرار في حجهم إلى دور، أو العودة إلى أراضي العالم الخارجي المختلفة التي أتوا منها.

اقتفيت هنا أثر خاطفي ديجاه ثوريس على طول قاعدة الجبال، عبر الوديان الوعرة شديدة الانحدار بجوار منحدرات مروعة، وأحيانًا في الخارج عند الوادي، حيث تقاتلنا كثيراً مع أفراد القبائل المختلفة التي تشكل سكان وادي اليأس هذا.

خضنا ذلك كله، ووصلنا أخيراً إلى طريق قادنا إلى ممر ضيق يزداد انحدارًا وصعوبة مع كل خطوة، حتى لاحت أمامنا قلعة قوية مدفونة تحت الجانب المتدلي من المنحدر.

هنا كان مكان الاختباء السري للأب الثيرني ماتاي شانج. هنا كان هيكادور العقيدة القديمة مُحاطًا بعدد قليل من الأتباع الأوفياء، بعد أن كان يخدمه ذات يوم الملايين من الخدم والأتباع، يلقي بكلمات روحانية أمام العشرات من أمم برسوم التي لا تزال تتشبث بعناد بعقيدته المزيفة التي فقدت مصداقيتها.

بدأ الظلام يهبط ونحن نقترب من مرأى جدران هذا المعقل الجبلي المنيع. وخشية أن يرانا أحد، تراجعت مع وولا خلف صخرة ناتئة من الجرانيت، إلى أجمة من أشجار منخفضة قوية أرجوانية اللون، تزدهر على جانبي أوتز القاحلين.

بقينا هنا إلى انتهى ذلك الانتقال السريع من ضوء النهار إلى الظلام، ثم تسللت مقتربًا من أسوار القلعة للبحث عن طريقة للدخول.

وجدنا البوابة ذات الحواجز الثلاثة مفتوحة جزئيًّا؛ إما نتيجة للإهمال أو الثقة المفرطة في صعوبة الوصول إلى مكان الاختباء هذا. وقف وراءها حفنة من الحراس، يضحكون ويتحدثون عن إحدى مبارياتهم البرسومية الغامضة.

رأيتُ أن هؤلاء الحراس جميعًا لم يكونوا من بين المجموعة التي رافقت ثوريد وماتاي شانج؛ ولذا اعتمدت كليًّا على تنكري ومشيت بجرأة من خلال البوابة نحو الحراس الثيرنيين.

توقف الرجال عن المباراة ونظروا نحوي، ولم تبد عليهم أي علامة تشكك. كما نظروا إلى وولا وهو يهدر في أعقابي.

قلت التحية المريخية: «كاور!»، ونهض المحاربون لتحيتي. واصلتُ قائلاً: «وجدتُ طريقي أخيراً إلى هنا، قادمًا من المنحدرات الذهبية، وأسعى لمقابلة الهيكادور، ماتاي شانج، الأب الثيرني. أين يمكنني أن أجده؟».

قال أحد الحراس: «اتبعني»، واستدار ليقودني عبر الفناء الخارجي تجاه جدار ثان مدعوم.

لا أعرف لماذا لم تثر سهولة خداعهم الواضحة شكوكي، ما لم يكن إلا لأن ذهني كان لا يزال مملوءًا بتلك اللمحة العابرة لأميرتي الحبيبة وليس به مكان لشيء آخر. لكنني، على أي حال، سرت منشرحًا خلف الحارس نحو فكي الموت مباشرة.

عرفتُ لاحقًا أن جواسيس الثيرن كانوا على دراية بقدومي قبل وصولي بساعة إلى القلعة الخفية.

لقد تُركت البوابة مفتوحة جزئيًّا عن عمد لإغرائي، كما تدرب الحراس جيدًا على دورهم في المؤامرة. أما أنا، فقد اندفعت متهورًا -كتلميذ وليس كمحارب محنك- نحو الفخ.

في الجانب الآخر من الفناء الخارجي، يوجد باب ضيق في الزاوية التي صنعتها أحد الدعامات مع الجدار. وهنا أخرج مرشدي مفتاحًا وفتح الطريق إلى الداخل؛ ثم أشار لي بالدخول وهو يتراجع إلى الخلف.

وقال: «ستجد ماتاي شانج في فناء المعبد هناك». وعندما دخلت ومعي وولا، أغلق الزميل الباب بسرعة.

الضحكة الكريهة التي وصلت إلى أذني من خلال ألواح الباب الخشبية الثقيلة بعد صوت قفل الإغلاق، كانت أول تنبيه لي أن الأمور ليست كما يجب.

وجدتُ نفسي في غرفة دائرية صغيرة داخل الدعامة. انفتح باب أمامي، من المفترض أنه يؤدي إلى الفناء الداخلي. ترددت للحظة، فقد ثارت الآن كل شكوكي فجأةً،

وإن كانت متأخرةً. هززتُ كتفي ثم فتحت الباب، وخرجتُ على ضوء وهج المشاعل الذي يضيء الفناء الداخلي.

رأيتُ أمامي مباشرةً برجًا ضخمًا بارتفاع ثلاثمائة قدم. كان على النمط المعماري البرسومي الحديث الذي يتسم بالجمال والغرابة، إذ كان سطحه منحوتًا بالكامل بنتوءات جريئة وتصميمات معقدة وخيالية. كان يرتفع ثلاثين قدمًا فوق الفناء، وتطل عليه شرفة واسعة، حيث يوجد ماتاي شانج ومعه ثوريد، وفايدور، وثوفيا، وديجاه ثوريس- وكانت الأخيرتان مكبلتين بالأصفاد الحديدية. كما وقف عدد من المحاربين الثيرن وراء هذا الجمع الصغير.

وما إن دخلت، حتى توجهت أعين كل مَن في الشرفة نحوي بالكامل.

شوهت ابتسامة قبيحة شفاه ماتاي شانج القاسية. وسخر مني ثوريد وهو يضع يده المألوفة على كتف أميرتي. لكنها التفتت نحو هذا الوحش كالنمرة، وضربته ضربة قوية بالأغلال التي تُقيد معصمها.

كان يمكنه أن يرد لها الضربة لولا تدخُل ماتاي شانج، وعندئذ أدركت أن الرجلين ليسا صديقين؛ ذلك أن طريقة الثيرني كانت متعجرفة ومستبدة وهو يوضح لثوريد أن أميرة هيليوم من ممتلكات الأب الثيرني الشخصية. كما أن سلوك ثوريد تجاه الهيكادور الكهل لم يحمل على الإطلاق أي ود أو احترام.

وعندما هدأت المشاجرة التي وقعت في الشرفة، تحول ماتاي شانج نحوي مرة أخرى.

صاح: «يا رجل كوكب الأرض، أنت تستحق موتًا أكثر بشاعة مما يمكن أن تلحقه بك الآن قدرتنا التي ضعفت؛ لكن مرارة موتك الليلة ستكون مضاعفةً. عليك أن تعلم أن أرملتك ستصبح لمدة سنة مريخية زوجة ماتاي شانج، هيكادور الثيرن المقدسين. وسوف أهجرها في نهاية تلك الفترة، كما تعرف قانوننا. لكنها لن تحيا كالمعتاد حياة هادئة وكريمة ككاهنة في ضريح مقدس، بل ستصبح ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، ألعوبة نوابي- ربما لأبغض خصومك، ثوريد.. الداتور الأسود».

وعندما توقف عن الحديث، انتظر في صمت اندلاع غضبي الذي سيكون نكهة إضافية إلى انتقامه. لكنني لم أمنحه الرضى الذي يشتهيه.

وفي المقابل، قمتُ بعمل الشيء الوحيد من بين جميع الأشياء التي قد تثير غضبه وتزيد من كراهيته نحوي؛ فقد كنت أعرف أنني إذا مُت، ستجد أيضًا ديجاه ثوريس طريقة لموتها قبل أن يلحقوا بها أي عذاب أو إهانات.

من بين قدس الأقداس جميعها التي يبجلها ويعبدها الثيرن، لا يوقرون أكثر من الشعر الأصفر المستعار الذي يغطي رؤوسهم الصلعاء، وبعده يأتي الإطار الذهبي الدائري والإكليل العظيم الذي تحدد أشعته المتألقة بلوغ الدورة العاشرة.

ولأنني أعرف ذلك، أزلت الشَّعر المستعار والإطار الدائري من رأسي وألقيتهما بإهمال على ممشى الفناء، ثمَّ مسحت قدمي فوق خُصل الشَّعر الأصفر. وعندما ارتفعت صيحات الغضب من الشرفة، بصقتُ على الإكليل المقدس.

استشاط ماتاي شانج غضبًا، على أنني رأيتُ على شفاه ثوريد ابتسامة مرحة قاتمة؛ فهذه الأشياء ليست مقدسة بالنسبة له. وحتى لا يتسلى كثيرًا بأفعالي، صحت قائلًا: «وهذا ما فعلته أيضًا بمقدسات إيسوس، إلهة الحياة الأبدية، قبل أن ألقي بها إلى الغوغاء، الذين كانوا يعبدونها ذات يوم، كي يمزقوها إربًا في معبدها».

وبهذا انتهت ابتسامة ثوريد؛ لأنه كان من أكبر أنصار إيسوس.

صرخ ثوريد: «علينا أن نضع حدًّا لهذا الكُفر!»، ثم استدار نحو الأب الثيرني.

نهض ماتاي شانج، ومال على حافة الشرفة، ثم أطلق صوت النداء الغريب الذي سمعته سابقًا ينطلق من شفاه الكهنة من شرفة صغيرة عند سطح المنحدرات الذهبية المطلة على وادي دور، وهم ينادون القرود البيضاء المخيفة ورجال النبات البشعين للاحتفال بالضحايا القادمين عبر حضن نهر إيس الغامض في اتجاه مياه بحر كوراس المفقود التي ينتشر فيها السيليان[40] . صاح: «أطلقوا الموت!»، وعلى الفور انفتحت متأرجحة عشرات الأبواب في قاعدة البرج، واندفعت نحو الساحة عشرات من حيوانات البانث الكئيبة الرهيبة.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أُواجه فيها أسد برسوم الشرس، لكنني لم أُواجه بمفردي من قبل العشرات منهم. وحتى مع مساعدة وولا الشرس، لا يمكن أن تسفر هذه المعركة غير المتكافئة إلا عن نتيجة واحدة.

---

(40) السيليان هو مخلوق مائي في بحر كوراس المفقود، وينشط ليلًا. http://barsoom.wikia.com/wiki/Silian -(المترجمة).

ترددت الوحوش للحظة تحت وهج المشاعل الباهر. وبعد أن اعتادت أعينهم على الضوء، انقضوا علينا أنا ووولا، وهم يتقدمون بأعرافهم المنتصبة وزئيرهم الصادر من أعماق حناجرهم، وذيولهم القوية تتحرك ضاربة على جوانبهم السمراء المصفرة.

في الفترة القصيرة من الحياة التي تُركت لي، ألقيتُ نظرة وداع أخيرة إلى ديجاه ثوريس. كان تعبير وجهها الجميل ينمُّ عن الرعب. وعندما التقت أعيننا، مدَّت ذراعيها نحوي وحاولت، وهي تتعارك مع الحراس الذين أمسكوها الآن، أن تلقي بنفسها من الشرفة إلى الهوة في أسفل لتشاركني الموت. لكنها، عندما أوشكت حيوانات البانث على الانقضاض عليَّ، استدارت ودفنت وجهها العزيز بين ذراعيها.

وفجأةً استرعى انتباهي سلوك ثوفيا البتارثية. كانت الفتاة الجميلة تميل الآن على حافة الشرفة، وتتألق عيناها من الإثارة.

وعلى الرغم من أن حيوانات البانث كانت تقترب من الانقضاض فوقي، لم أتمكن من تحويل بصري بعيدًا عن ملامح الفتاة الحمراء؛ فقد كنتُ أعرف أن تعبير وجهها يمكن أن يعني أي شيء إلا الاستمتاع بالمأساة المروعة التي سرعان ما ستحدث أدنى الشرفة التي تقف عليها. هناك معنى خفي أعمق، حاولت أن أفهمه.

فكرت للحظة في الاعتماد على عضلاتي وخفة حركتي، كرجل من كوكب الأرض، للهروب من البانث والوصول إلى الشرفة –وهو ما كان يمكنني القيام به بسهولة-، لكنني لا أستطيع أن أهجر وولا الوفي وأتركه ليموت وحده تحت أنياب البانث القاسية الجائعة؛ فهذه ليست الطريقة في برسوم، كما أنها لم تكن أبدًا طريقة جون كارتر.

ثم أدركتُ سر إثارة ثوفيا؛ فمن بين شفتيها صدر صوت الخرير الذي سمعته مرة من قبل، سمعتُه في تلك الفترة داخل المنحدرات الذهبية عندما نادت على حيوانات البانث الشرسة لتتجمع حولها، وقادتهم كما تقود راعية الأغنام قطيعها الوديع غير المؤذي.

توقفت البانث في مساراتها مع سماع أول نغمة في هذا الصوت المريح، ورفعت رؤوسها الشرسة نحو مصدر النداء المألوف. وعندما اكتشفت وجود الفتاة الحمراء في الشرفة فوقها، أصدرت هديرًا ينم عن التقدير والترحاب.

انطلق الحراس لسحب ثوفيا بعيدًا، لكنها كانت قد ألقت -قبل أن ينجحوا في سحبها- وابلاً من الأوامر إلى الحيوانات المتوحشة، بحيث أخذت تتراجع متجهة نحو أوكارها.

صاحت ثوفيا، قبل أن يتمكن الحراس من إسكاتها: «لا تخشَهم الآن يا جون كارتر! فهذه البانث لن تُلحق بك الآن أو بوولا أي ضرر أبدًا».

كان هذا كل ما كنت مهتمًّا بمعرفته. لم يعُد هناك ما يمنعني من الوصول إلى الشرفة الآن، ركضت ثم قفزت قفزة هائلة بحيث أمسكت بيدي الحافة السفلية للشرفة.

وفي لحظة، ساد ارتباك شديد بين الجميع. انكمش ماتاي شانج وهو يتراجع إلى الوراء. وانطلق ثوريد نحوي وهو يمتشق سيفه.

استخدمت ديجاه ثوريس أغلالها الحديدية الثقيلة مرة أخرى لضربه. وعندئذ أمسكها ماتاي شانج من خصرها وجرها بعيدًا، وخرجا من باب يؤدي إلى داخل البرج.

تردد ثوريد للحظة، ثم انطلق في أعقابهما خشية أن يهرب الأب الثيرني مع أميرة هيليوم.

فايدور وحدها هي التي احتفظت بذهنها حاضرًا. أمرت اثنين من الحراس بإبعاد ثوفيا البتارثية، وأمرت الحراس الآخرين بالبقاء ومنعي من المتابعة. ثم التفتت نحوي.

وقالت: «جون كارتر، للمرة الأخيرة أقدم لكم حب فايدور، ابنه الهيكادور المقدس. إذا قبلت، ستعود أميرتك إلى بلاط جدها، وأنت ستعيش في سلام وسعادة. وإذا رفضت، ستلقى ديجاه ثوريس المصير الذي هدد به والدي. لم يعُد في إمكانك إنقاذها، فقد وصلوا بها الآن

إلى مكان ليس في استطاعتك تتبعه. إذا رفضت، لن ينقذك أي شيء. فعلى الرغم من أن طريقك إلى آخر معاقل الثيرن المقدسين كان يسيرًا، فقد أصبح الآن مستحيلاً. فما قولك؟».

أجبتها: «فايدور، أنت تعرفين ردي»؛ ثم توجهت نحو الحرس صائحًا: «أفسحوا الطريق على الفور، سوف يسير جون كارتر أمير هيليوم!».

قلت ذلك، ثم قفزت فوق الدرابزين المنخفض الذي يحيط بالشرفة، وأنا أواجه أعدائي بسيفي الطويل.

كانوا ثلاثةً؛ ويبدو أن فايدور خمنت نتيجة المعركة؛ لأنها استدارت وهربت من الشرفة في اللحظة التي أدركت فيها موقفي من عرضِها.

لم ينتظر الحراس الثلاثة هجومي، بل هرعوا نحوي، الثلاثة في وقت واحد؛ وهو ما أعطاني ميزةً؛ لأنهم تعثروا في حيز الشرفة الضيق، بحيث سقط أولهم بنصل سيفي عند أول هجوم.

بقعة الدم الحمراء على نصل سيفي أيقظت بالكامل شهوة الدم القديمة للمحارب، التي لم تعتمل أبدًا بهذه القوة من قبل داخل صدري؛ فحلق النصل في الهواء بسرعة ودقة قاتلة ألقت الثيرنيين المتبقيين إلى مصيرهما البائس.

عندما وجد النصل الحديدي الحاد طريقه أخيراً إلى قلب أحدهما، جرى الآخر هربًا. خمنت أن خطواته ستقوده إلى الطريق الذي اتخذه مَن أسعى إليهم، ولذا سمحتُ له بالابتعاد بقدر كاف يجعله يعتقد أنه في أمان من سيفي.

ركض عبر عدة غرف داخلية حتى وصل إلى مدرج حلزوني، اندفع نحوه وأنا أطارده عن قرب. وصلنا في نهايته العلوية إلى غرفة صغيرة، جدرانها فارغة باستثناء نافذة واحدة تطل على منحدرات أوتز وخلفها وادي الأرواح الضائعة.

وهنا مزق الحارس بشكل محموم ما كان يبدو أنه مجرد قطعة من الجدار الفارغ أمام النافذة الوحيدة. خمنت على الفور أنه مخرج سري من الغرفة، ولذا توقفت لأتيح له فرصة لإيجاد هذا المخرج؛ فلم أكن مهتمًّا بقتل هذا الخادم المسكين، بل كل ما كنت أسعى إليه هو معرفة طريق واضح يصل بي إلى ديجاه ثوريس، أميرتي التي فقدتها منذ فترة طويلة.

حاول كثيراً، لكن اللوح لم ينفتح سواء بالخداع أو بالقوة. وفي النهاية، استدار الحارس ليجدني في مواجهته.

قلت له وأنا أشير إلى مدخل المدرج الذي قادنا إلى هنا: «اذهب من هذا الطريق يا ثيرني، ليس لديَّ أي خلاف معك، ولا أسعى إلى قتلك. اذهب!».

أجاب بأن هاجمني بسيفه فجأةً، فتراجعت قبل اندفاعه الأول، ولم يكن أمامي سوى أن أمنحه ما يسعى إليه وبأسرع ما يمكن، حتى لا أستغرق وقتًا طويلاً في هذه الغرفة بينما ماتاي شانج وثوريد يشقان طريقهما مع ديجاه ثوريس وثوفيا البتارثية.

كان الزميل مبارزًا ماهرًا، واسع الحيلة ومخادعًا. ويبدو أنه لم يسمع من قبل عن وجود شيءٍ يُسمى ميثاق الشرف، فقد انتهك مرارًا وتكرارًا العشرات من قواعد برسوم القتالية التي يُفضل أي رجل شريف الموت على أن يتجاهلها.

ووصل به الأمر حتى إلى انتزاع شعره المستعار المقدس من رأسه وإلقائه في وجهي، ليعميني للحظة يتمكن خلالها من أن يطعنني في صدري غير المحمي.

على أنه لم يجدني عندما وجه طعنته، فقد قاتلت الثيرن من قبل وأعرفهم جيدًا. وعلى الرغم من أنني لم أشهد أيًّا منهم يلجأ من قبل إلى مثل هذه الحيلة تحديدًا، فقد كنتُ أعرف أنهم أقل المقاتلين شرفًا وأكثرهم غدرًا على المريخ؛ لذا أحذر دومًا من حيلهم الجديدة والشيطانية عندما أواجه واحدًا من عِرقهم.

لكنه بالغ كثيراً في خدعته؛ إذ سحب سيفه القصير وقذف به إلى جسدي، بينما اندفع في اللحظة نفسها يهاجمني بسيفه الطويل. على أن دائرة كاسحة واحدة من نصلي اصطدمت بسلاحه الطائر وقذفته بعيدًا ليرتطم مصلصلاً بالجدار، وعندئذ تجنبت اندفاعه العدائي المتهور، وأنا أغرز رأس نصلي بكامله في معدته خلال اندفاعه السريع.

اخترق سلاحي كله إلى مقبضه جسدَهُ؛ فسقط على الأرض ميتًا وهو يطلق صرخة مخيفة.

توقفتُ لبرهة كي أجذب سيفي من جثة خصمي الراحل، ثم انطلقت عبر الغرفة إلى الجدار الفارغ الذي حاول الثيرني المرور من خلاله. حاولت معرفة سر القفل، لكن جميع محاولاتي باءت بالفشل.

حاولت يائسًا استخدام القوة، لكنني شعرتُ أن الحجر البارد الصلب ربما يضحك الآن ساخرًا من محاولاتي الخائبة العقيمة. لكنني في الواقع كنت مستعدًّا أن أقسم بأنني اقتنصتُ إيحاء ضعيفًا من الضحكات الساخرة القادمة من وراء هذا اللوح المثير للحيرة.

توقفتُ عن جهودي عديمة الفائدة وأنا في حالة اشمئزاز، وصعدت إلى النافذة الوحيدة الموجودة بالغرفة.

لم يكن في منحدرات أوز ووادي الأرواح الضائعة البعيد أي شيء يثير اهتمامي حينذاك؛ لكن الجدار المنحوت للبرج الذي يرتفع فوقي شاهقًا استحوذ على كل اهتمامي.

ففي مكان ما داخل تلك الكومة الضخمة توجد ديجاه ثوريس. رأيت فوقي بعض النوافذ. ربما هناك توجد الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تأخذني إليها. كانت المخاطر كبيرة، لكنها ليست كبيرة عندما يكون مصير أروع امرأة في هذا العالم على المحك.

ألقيتُ نظرة إلى أسفل. تقع على بعد مائة قدم صخور خشنة من الجرانيت عند حافة هوة مخيفة يرتكز عليها البرج. وإذا انزلقت القدم لمرة واحدة فقط، أو فقدت الأصابع قبضتها لمجرد جزء من الثانية، يموت المرء على الفور إما على الصخور أو في قاع الهوة.

ولكن، لا توجد أي طريقة أخرى. هززت كتفي، وأعترف أنني كنت نصف مرتعش، ثم صعدت إلى العتبة الخارجية للنافذة، وبدأت تسلقي المحفوف بالمخاطر.

ومما أثار فزعي أنني وجدت، خلافًا للزخارف على معظم الأبنية في هيليوم، أن حواف المنحوتات كانت مستديرة عمومًا، ولذا كانت قبضتي عليها -في أحسن الأحوال- أكثر خطورة.

بدأتُ سلسلة من الأحجار الأسطوانية، التي يبلغ قطر كل منها حوالي 6 بوصات، تتساقط من على ارتفاع خمسين قدمًا. يبدو أنها تطوق البرج على مسافات تبلغ كل منها حوالي ست أقدام؛ وكلما برز حجر أسطواني لحوالي أربع أو خمس بوصات وراء سطح الزخرفة الأخرى، أتاح أمامي طريقة سهلة نسبيًّا للصعود إذا تمكنت من الوصول إليهم.

تسلقتُ نحوهم بمشقة عن طريق بعض النوافذ التي تقع أسفلهم، على أمل أن أجد مدخلاً إلى البرج خلال إحداها، ومن ثم أجد طريقًا أسهل لمواصلة بحثي.

كانت قبضتي تلين أحيانًا على الأسطح المستديرة للحواف المنحوتة، بحيث كان يمكن لأي عطس أو سعال، أو حتى عاصفة طفيفة من الرياح، أن تدفع بي إلى الأعماق أدناه.

لكني وصلتُ أخيراً إلى موقع، حيث يمكن لأصابعي أن تتشبث بحافة أدنى نافذة. وكنت على وشك تنفس الصعداء عندما تناهت إلى سمعي أصوات من أعلى عبر النافذة المفتوحة.

كان صوت ماتاي شانج: «لن يتمكن أبدًا من حل سر ذلك القفل. علينا أن نتحرك نحو حظيرة السفن الفضائية في الأعلى؛ كي نتمكن من الابتعاد نحو الجنوب قبل أن يجد طريقة أخرى- إذا تمكن أن يجدها أصلاً».

أجاب شخص آخر، تعرفتُ فيه على صوت ثوريد: «كل شيء يبدو ممكنًا بالنسبة لهذا الكالوت الخسيس».

قال ماتاي شانج: «فلنسرع إذنْ. ولكن لزيادة التأكيد، سأترك هنا شخصين ليقوما بدوريات حراسة في هذا المدرج. ويمكنهما اللحاق بنا في ما بعد إلى كاول بسفينة أخرى».

لم تصل أبدًا أصابعي الممدودة إلى حافة النافذة. فمع سماعي لأول صوت، سحبت يدي إلى الوراء وتشبث بموقعي المحفوف بالمخاطر، ملتصقًا بالجدار العمودي، لا أكاد أجرؤ على التنفس.

يا له من وضع رهيب، إن اكتشف ثوريد مكاني! عندئذ سيميل من النافذة ليدفعني برأس سيفه إلى موت أبدي.

خفتت الأصوات الآن؛ فواصلتُ صعودي الخطير الذي أخذ يزداد صعوبةً والتواءً؛ لأنني يجب أن أتفادى النوافذ خلال تسلقي.

أشار كلام ماتاي شانج عن التوجه نحو حظيرة الطائرات ،إلى أن وجهتي ليست سوى سطح البرج، ولذا تحركت نحو هذا الهدف البعيد.

أنجزتُ أخيراً الجزء الأكثر صعوبةً وخطورةً من الرحلة، وغمرني شعور بالراحة وأصابعي تقترب من أدنى الأسطوانات الحجرية.

صحيح أن هذه النتوءات كانت شديدة البُعد عن بعضها البعض لتحقيق التوازن المرجو خلال التسلق، لكن نقطة الأمان كانت على الأقل في متناول يدي بحيث يمكنني التشبث في حالة وقوع حادث.

وعلى مسافة حوالي عشر أقدام تحت السطح، كان الجدار يميل قليلاً إلى الداخل، وربما لقدم واحدة في الأقدام العشر الأخيرة. وهنا كان التسلق في الواقع أسهل بما لا يقاس، وأمسكت أًصابعي بالإفريز.

وعندما وجهتُ عيني فوق مستوى قمة البرج، رأيت سفينةً فضائيةً تستعد للإقلاع.

كان على سطح السفينة ماتاي شانج، وفايدور، وديجاه ثوريس، وثوفيا البتارثية، وعدد من المحاربين الثيرنيين؛ وبالقرب كان ثوريد يصعد على متن السفينة الفضائية.

كان يبعد عني بأقل من عشر خطوات في الاتجاه المعاكس. ويا له من قدر غريب قاس، جعله يلتفت عندما كانت عيناي تتصدران حافة السطح.

وعندما التقت عيناه بعينيَّ؛ أضاء وجهه الشرير بابتسامة خبيثة وهو يقفز نحوي، حيث كنت أتعجل بالتسلق لأجد موقع قدم آمن على السطح.

من المؤكد أن ديجاه ثوريس شاهدتني في اللحظة نفسها، إذ أطلقت صرخة تحذير دون جدوى، فقد كانت قدم ثوريد تتأرجح استعدادًا لركلة قوية استقرت الكامل على وجهي.

تمايلتُ مثل ثور جريح ملفوف، وتراجعت إلى الخلف على جانب البرج.

* * *

(5)

على الطَّريق إلى كاول

إذا كان مصيري قاسيًا في بعض الأحيان، فهناك بالتأكيد نوع من العناية الإلهية الرحيمة التي تحرسني دائمًا.

مع سقوطي من البرج إلى الهاوية المروعة أدناه، اعتبرتُ نفسي ميتًا بالفعل؛ وبالقطع تصور ثوريد ذلك أيضًا؛ لأنه لم يكلف نفسه عناء النظر، وإنما استدار وصعد على الفور إلى السفينة الفضائية التي كانت تنتظره.

سقطتُ مسافة عشر أقدامٍ فقط، ثم شبكتْ حلقة من عتادي الجلدي القوي في إحدى نتوءات حجر أسطوانيٍ في سطح البرج. وعندما توقف سقوطي، لم أصدق المعجزة التي حمتني من موت فوري، وبقيت معلقًا للحظات والعرق البارد يتصبب من كل مسام جسدي.

وعندما نجحت في استعادة وضع جيد، ترددت في الصعود؛ فكيف لي أن أعرف ما إذا كان ثوريد لا يزال ينتظرني في الأعلى.

على أني أسمع الآن أزيز مراوح السفينة، وكلما تنامى خفوت صوتها أُدرك أن المجموعة تبتعد نحو الجنوب دون التأكد من مصيري.

اتخذت طريقي ثانيةً بحذر نحو السطح. ويجب أن أعترف أنني عندما رفعتُ عيني مرة أخرى فوق حافة السطح، كانت مشاعري مضطربة؛ ولراحتي لم يكن هناك أحد على مرمى البصر، وبعد لحظات كنت أقف بأمان على السطح الواسع.

لم يستغرق وصولي إلى حظيرة الطائرات وسحب السفينة الفضائية الوحيدة الأخرى أكثر من عدة ثوان. وما إن خرج المحاربان الثيرنيان اللذان تركهما ماتاي شانج لمنع أي طارئ من داخل البرج إلى السطح، حتى كنت أطير فوقهما ضاحكًا في سخرية.

انخفضت سريعًا إلى الفناء الداخلي، حيث رأيت وولا آخر مرة، ولسعادتي الشديدة وجدتُ الوحش الوفي لا يزال هناك.

كانت حيوانات البانث الضخمة، البالغ عددها 12 حيوانًا، ترقد أمام مدخل عرينها وهي تتطلع إليه وتهدر على نحو ينذر بالسوء، دون أن تخالف أوامر ثوفيا. وشكرتُ القَدَر

الذي جعل ثوفيا حارسًا لتلك الحيوانات في المنحدرات الذهبية، ووهبها طبيعة طيبة ومتعاطفة بحيث فازت بولاء ومودة هذه الحيوانات الشرسة.

قفز وولا في فرح محموم عندما شاهدني. وما إن لمست سفينة الفضاء رصيف الفناء للحظة وجيزة، حتى انطلق إلى سطحها بجواري. وعندما اندفع وولا نحوي لإبداء مظاهر سعادته الشديدة، تسبب في ميل السفينة واصطدامها قليلاً بالجدار الصخري للفناء.

وفي وسط صراخ الحارسين الثيرنيين الغاضب، ارتفعنا عاليًا فوق آخر حصن من حصون الثيرن المقدسين، ثم أسرعنا على الفور نحو الشمال الشرقي ومدينة كاول، الوجهة التي سمعت ماتاي شانج يقول إنهم متجهون إليها.

لاحظت على بُعد أمامنا بقعة صغيرة، أدركت لاحقًا في فترة متأخرة من بعد ظهر اليوم أنها سفينة أخرى. لا يمكن إلا أن تكون السفينة التي تحمل حبي المفقود وأعدائي.

قطعتُ مسافةً كبيرةً بالسفينة ليلاً. ولأنني كنت أعرف أنهم ربما لمحوني ولن يُظهِروا أي أضواء بعد حلول الظلام، قمت بإعداد بوصلة السفينة نحو وجهتي، وهذه البوَصلة هي آلة مريخية صغيرة رائعة، ما إن تضبطها نحو شيء أو وجهة، فإنها تشير إليه بغض النظر عن أي تغيير في موقعه.

مضينا سريعًا طوال تلك الليلة عبر الفراغ البرسومي، مررنا فوق تلال منخفضة وفوق قيعان البحر الميت، فوق مدن مهجورة منذ فترة طويلة ومراكز مزدحمة من السكان المريخيين الحُمر على خطوط مثل شريط من الأراضي المزروعة التي تحدها ممرات مائية تطوق هذا العالم، ويُطلق عليها رجال كوكب الأرض قنوات المريخ.

أظهر انبلاج الفجر أنني سبقت السفينة التي كانت أمامي. كان حجمها أكبر من حجم سفينتي، لكنها ليست سريعة؛ ومع ذلك قطعتُ مسافة هائلة منذ بدء الرحلة.

تبينتُ من تغيرُ الحياة النباتية أدناه أننا نقترب بسرعة من خط الاستواء. أقتربُ الآن ممن أطاردهم، بما يكفي لاستخدام بندقية القوس. لكنني خشيت أن أطلق النار على السفينة التي تحمل ديجاه ثوريس، على الرغم من أنني لم أرها على سطح السفينة.

لم تردع وساوس من هذا النوع ثوريد. فعلى الرغم من صعوبة تصديقه أنني مَن أتبعهم بالفعل، فلم يشكك في ما شهدته عيناه. وهكذا، صوَّب بندقية قوية نحوي بيديه، وبعد لحظة انطلقت قذيفة راديوم متفجرة خطيرة فوق سطح سفينتي.

كانت طلقته التالية أكثر دقةً، ضربت مقدمة سفينتي وانفجرت في لحظة التلامس، وأحدثت فتحة واسعة في خزانات الطفو المقوسة، وعطلت المحرك.

سرعان ما سقط القوس بعد الطلقة، وبالكاد كان لديَّ وقت لربط وولا على سطح السفينة وشبك عتادي بالحافة العليا لحلقة السفينة قبل أن تصبح مؤخرة السفينة مُعلقة علويًّا وهي تهوي نحو الأرض.

حالت خزانات الطفو القوية دون سقوطها بسرعة كبيرة؛ لكن ثوريد أخذ يطلق النار بسرعة في محاولة لتفجيرها، بحيث يدفعني نحو الموت خلال السقوط السريع الذي سيتبع على الفور نجاحه في إطلاق النار.

انهمرت الطلقات واحدة تلو الأخرى، لكنها بمعجزة لم تصبني أو تصب وولا، كما لم تثقب الخزانات. على أن هذا الحظ لا يمكن أن يستمر إلى الأبد. كنت متأكدًا أن ثوريد لن يتركني حيًّا مرة أخرى، ولذا انتظرتُ انفجار القذيفة التالية، ثم وضعتُ يدي فوق رأسي بعد أن أفلتُّ قبضتي، وتكومت متدليًا من عتادي كالجثة.

نجحت الحيلة، وتوقف ثوريد عن إطلاق النار. ولما بدأ صوت المراوح الطنانة يخفتُ، أدركتُ أنني أصبحتُ آمنًا مرةً أخرى.

سقطت السفينة المنكوبة على الأرض ببطء. وبعد أن حررتُ نفسي ووولا من الحطام المتشابك، وجدتُ أننا عند حافة غابة طبيعية، وهذا شيء يندر أن تجده على كوكب المريخ الـمُحتَضِر، خارج وادي دور وبجوار بحر كوراس المفقود. لم أشهد لهذا مثيلاً من قبل على هذا الكوكب.

عرفتُ من الكتب والمسافرين بعض الأشياء عن أرض كاول غير المعروفة جيدًا، التي تقع على طول خط الاستواء، في منتصف الطريق تقريبًا حول الكوكب إلى شرق هيليوم.

وهي تضم منطقة غائرة من الحرارة المدارية الشديدة، وتسكنها أمة من الرجال الحُمر يختلفون قليلاً من حيث الأخلاق والعادات والمظهر عن باقي رجال برسوم الحُمر.

كنتُ أعرف أنهم من بين أناس العالم الخارجي الذين لا يزالون يتشبثون بعناد بدين الثيرن المقدسين الذي فقد مصداقيته، وبالتالي سوف يجد ماتاي شانج بينهم ترحيبًا وملاذ آمنًا؛ في حين لن يجد جون كارتر أفضل من موت خسيس على أيديهم.

ترجع عزلة الكاوليين الكاملة تقريبًا إلى عدم وجود مجرى مائي يربط أراضيهم بأي أمة آخرى، فضلاً عن عدم حاجتهم إلى ممر مائي نظرًا لأن الأراضي المنخفضة والمستنقعية التي تشمل منطقتهم بأكملها ترويها ذاتيًّا محاصيلهم الاستوائية الوفيرة.

لا تُشجع التلال الوعرة والمناطق القاحلة من قاع البحر الميت، التي تمتد لمسافات كبيرة في جميع الاتجاهات، على التواصل معهم. ونظرًا لأنه لا يوجد عمليًّا شيء على شاكلة التجارة الخارجية في برسوم المولعة بالحرب، فعندما تكتفي كل أمة ذاتيًّا لا يُعرف سوى القليل بالفعل عن بلاط جيداك كاول وعن هذا العدد الكبير من الناس الغريبة، المثيرين للاهتمام، الذين يتولى الجيداك حكمهم.

كانت مجموعات الصيد تسافر أحيانًا إلى هذه البقعة النائية من العالم، لكن عداء المواطنين كثيراً ما أسفر عن كوارث. وحتى رياضة صيد المخلوقات الغريبة والوحشية التي تحوم في معاقل غابة كاول في السنوات الأخيرة، ثبت أنها إغراء غير كافٍ حتى لأشجع المحاربين.

عرفتُ أين أنا، عندما وصلتُ إلى حافة أرض كاول. ولكن ليس لديَّ أي فكرة عن اتجاه بحثي عن ديجاه ثوريس، أو إلى أي مدى يجب أن أخترق داخل قلب هذه الغابة الكبيرة.

على أن الأمر كان مختلفًا بالنسبة إلى وولا.

فما إن فككت رباطه، حتى رفع رأسه عاليًا في الهواء وبدأ يحوم حول حافة الغابة، ثم توقف واستدار ليتأكد أنني أتبعه، وبعدها انطلق مباشرة إلى متاهة الأشجار في الاتجاه الذي كنا نسير فيه قبل أن تضع طلقات ثوريد نهاية لسفينتنا الفضائية.

مشيتُ متعثراً خلفه قدر استطاعتي، عبر منحدر حاد على حافة الغابة.

ارتفعت فوقنا قمم الأشجار الضخمة، وحجبت تمامًا أوراقها العريضة أدنى لمحة من السماء. كان من السهل أن أعرف لماذا لا يحتاج الكاوليين إلى أسطول بحري؛ فمدنهم الـمُختفية في وسط هذه الغابات الشاهقة يستحيل رؤيتها من أعلى، كما لا يمكن هبوط أي سفينة فضائية إلا إذا كانت صغيرة الحجم، وإلا تخاطر بوقوع حادث.

لا أتصور كيف يمكن أن يهبط ثوريد وماتاي شانج. لكنني عرفت لاحقًا أن هناك برج مراقبة صغيراً يرتفع على مستوى قمة الغابة في كل مدينة في كاول لحراسة الكاوليين في النهار، وفي الليل ضد أي اقتراب سري لأسطول عدائي. لم يجد هيكادور الثيرن

المقدسين أي صعوبة في الاقتراب من أي برج منها، ثم هبط مع مجموعته بأمان على الأرض.

عندما اقتربت ومعي وولا من قاع الانحدار، وجدنا الأرض لينة وطرية، حتى إننا كنا نحقق بصعوبة شديدة أي تقدم للأمام.

نمتْ متقاربةً حولنا أعشاب أرجوانية نحيلة، تعتليها أوراق حمراء وصفراء تشبه السرخس، على ارتفاع عدة أقدام فوق رأسي.

وتعلق عدد لا يحصى من الأزهار الزاحفة في حلقات رشيقة من شجرة إلى شجرة، وبينها عدة أصناف من نبات الزهرة القناصة المريخي[41] ، الذي توجد في براعمه أعين وأيدٍ يستخدمها في رؤية وصيد الحشرات التي يتكون منها نظامه الغذائي.

كانت تنتشر أيضًا شجرة الكالوت، المثيرة للاشمئزاز. وهو نبات آكل للحوم، يبلغ في ضخامته شجرة المريمية التي تنتشر في سهولنا الغربية. ينتهي كل فرع بأكثر من فك قوي، معروف أنه يسحب ويلتهم الوحوش الضارية الكبيرة والهائلة.

كان أمامنا، أنا ووولا، العديد من الطرق الضيقة للهروب من هذه الوحوش الجشعة، كثيرة الأشجار.

منحتنا مساحات متباعدة من العشب الصارم فترات للراحة من مشقة عبور هذا المستنقع الرائع الظليل. وقررتُ أخيراً إقامة مخيم فوق إحدى تلك المساحات لقضاء الليل، حيث أنذرني الكرونومتر أنه سيحل قريبًا.

نمت بوفرة حولنا العديد من أصناف الفاكهة. ونظرًا لأن الكالوت المريخي يتغذى على اللحوم والنباتات، لم يجد وولا أي صعوبة في صنع وجبة دسمة بعد أن جلبت له المؤن. وبعد أن أكلنا، استلقيتُ وظهري في مواجهة ظهر وولا الوفي، وذهبت في نوم عميق بلا أحلام.

اكتنف الظلام الدامس الغابة، ثم أيقظني هدير منخفض من وولا. سمعت حركةً خفيةً من أقدام ضخمة مبطنة، وكنت أرى بين الفينة والفينة بريقًا شريرًا من أعين خضراء تنظر نحونا. نهضت، وامتشقت سيفي الطويل، وانتظرت.

(41) نبات زاحف يشكل كرمة، توجد منه عدة أنواع في برسوم. ويوجد لأزهار هذا النبات أيدٍ وأعين تستخدمها في رؤية واصطياد الحشرات الصغيرة التي يتكون منها غذاؤها. http://barsoom.wikia.com/wiki/Man-flower - (المترجمة).

وفجأة انطلق زئير مروع عميق النبرة من حنجرة وحشية بجانبي تقريبًا. كم أنا أحمق؛ لأنني لم أجد مكانًا للإقامة أكثر أمانًا لنا بين فروع إحدى تلك الأشجار التي لا تُعد ولا تُحصى المحيطة بنا!

كان من اليسير نسبيًّا في ضوء النهار أن أرفع وولا عاليًا بطريقة أو أخرى، لكن الأوان فات الآن. ليس أمامنا الآن سوى الثبات على الأرض، وأن نتجرع واقع الدواء المر. على أنني من هذا الضجيج البشع الذي هاجم آذاننا الآن، حيث يبدو أن الزئير الأول كان مجرد إشارة، أدركت أننا في وسط مئات، وربما آلاف، من ساكني غابة كاول الشرسين آكلي البشر.

استمر ضجيجهم الجهنمي لما تبقى من الليل؛ لكنني لم أستطع تخمين سبب عدم هجومهم علينا، ولستُ متأكدًا حتى يومنا هذا، ما لم يكن السبب يرجع إلى أنهم لم يجرؤوا على المجازفة نحو المروج القرمزية التي تنتشر في المستنقع.

ومع حلول الصباح، كانوا لا يزالون موجودين، يتجولون كأنهم في دائرة وإنما دائمًا خارج حافة المرجة. ويصعب تخيُّل مجموعة أكثر رعبًا من الوحوش الضارية المتعطشة للدماء.

بدؤوا يتجولون فرادى وفي أزواج نحو الغابة بعد شروق الشمس بفترة قصيرة. وعندما غادر آخرهم، استأنفت رحلتي ومعي وولا.

كنا نلمح، بين الفينة والأخرى، وحوشًا مروعة خلال النهار؛ ومن حسن الحظ أننا لم نبعد أبدًا عن جزيرة المرجة. وعندما يرونا، ينتهي بهم المطاف دائمًا عند حافة العشب الصلبة.

عثرنا في حوالي ظهر اليوم على طريق مرصوف بشكل جيد يتخذ نفس الاتجاه العام الذي نتبعه. كان كل شيء في هذا الطريق السريع يدل على أنه من صُنع مهندسين مهرة. وكنت واثقًا -من الدلائل التي تشير إلى العصور القديمة وكذلك من العلامات الواضحة على استخدامه اليومي- أنه يجب أن يؤدي إلى إحدى المدن الرئيسة في كاول.

وما إن دخلنا إلى هذا الطريق من أحد جوانبه، حتى ظهر وحش طائر ضخم تلو الآخر من الغابة؛ وعندما شاهدونا، غيروا وجهتهم بجنون نحونا.

تخيل -إن استطعتَ- أن دبورًا أجرد في كوكب الأرض أصبح بحجم ثور ضخم، عندئذ يُمكنك تكوين صورة باهتة للمظهر الشرس والصلابة الرهيبة التي يتمتع بها الوحشُ الـمُجنح الذي يحلِّقُ فوقي مهاجمًا.

فكَّأن مخيفان من الأمام، ولدغات قوية مسمومة من الخلف، جعلت سيفي الطويلة الضئيل نسبيًّا يبدو سلاحًا دفاعيًّا يُرثى له. كما لا يمكنني أن آمل في الفرار من حركاته السريعة كالبرق، أو الاختباء من تلك الأعين الكثيرة التي تملأ وجهه وتغطي ثلاثة أرباع رأسه البشع، وتُتيح لهذا المخلوق النظر في جميع الاتجاهات في وقت واحد.

حتى وولا القوي الشرس كان عاجزًا كهرة صغيرة أمام هذا الشيء المخيف. كان الفرار عديم الفائدة، كما لم يسبق لي أبدًا أن أدرتُ ظهري عند الخطر؛ ولذا وقفتُ ثابتًا، ووولا يزمجر إلى جانبي، وأملي الوحيد أن أموت كما عشت دائمًا؛ مقاتلاً.

بدأ المخلوق يهجم علينا الآن، وفي هذه اللحظة بدت أمامي فرصة وحيدة ضئيلة للانتصار عليه. فإذا تمكنت من إزالة خطر الموت المحقق الرهيب الـمُخبأ في أكياس السموم التي تُغذي لدغة المخلوق، سيتقلص عدم تكافؤ المعركة.

ومع هذه الفكرة في ذهني، دعوت وولا للقفز نحو هذا المخلوق والتعلق برأسه. وعندما أغلق وولا فكيه القويين في وجه الوحش ودفنت أنيابه اللامعة نفسها في عظام وغضاريف الجزء السفلي من أعينه الضخمة، انزلقت تحت جسد المخلوق الضخم وهو ينهض، وسحبت وولا، بحيث يمد المخلوق أنبوب السم ليلدغ جسم الشيء الـمُعلق برأسه.

كان وضع نفسي في مسار ذلك الأنبوب الـمُحمل بالسم يعني موتًا فوريًّا، لكنها الطريقة الوحيدة المتاحة. وعندما أطلق المخلوق سمه بسرعة البرق تجاهي، حركت سيفي الطويل بحيث قطع بشكل رائع ذلك الأنبوب القاتل في نقطة قريبة من جسد المخلوق.

وهنا استشاط المخلوق غاضبًا وأمسكني من صدري بقدميه الخلفيتين القويتين وقذفني وأنا نصف مذهول، عبر الطريق الواسع نحو شجيرات الغابة على حدود الطريق.

ومن حسن الحظ أنني مررت بين جذوع الأشجار؛ فلو كنتُ ارتطمت بأحدها لكانت إصابتي بالغة، إن لم أمت على الفور، نتيجة لقدميه الخلفيتين الهائلتين اللتين قذفتاني كالمنجنيق.

وعلى الرغم من ذهولي وإصابتي بالدوار، سرتُ على قدمي متعثرًا وعدتُ لمساعدة وولا. وجدتُ الخصم الوحشي، الذي يبلغ طوله حوالي عشر أقدامٍ، يضرب وولا بجنون بأرجله الست القوية جميعها.

لم أترك أبدًا قبضتي على سيفي الطويل حتى خلال رحلتي المفاجئة عبر الهواء. ركضتُ أسفل الوحشين المتقاتلين، وأنا أنغز الرعب المجنح مرارًا وتكرارًا برأس سيفي الحاد.

كان يمكن أن يبتعد المخلوق عني بسهولة، ولكن من الواضح أنه لا يعرف التراجع في مواجهة الخطر، مثلي ومثل وولا؛ فقد انحنى بسرعة نحوي، وقبل أن أتمكن من الهروب أمسك كتفي بين فكيه القويين.

التصق بحسدي، مرارًا وتكرارًا، ما تبقى أنبوب اللدغ العملاق، ولكن دون جدوى. على أن ضرباته وحدها كانت تماثل تقريبًا فعالية ركلة الحصان. لذا، عندما أقول دون جدوى، فإنني لا أعني سوى الوظيفة الطبيعية للعضو الـمُعاق- فعمليًّا كان يمكن أن يدقني المخلوق كالمطرقة ويحولني إلى بذرة لب. ولم يكن بعيدًا عن تحقيق ذلك عندما وقع حدث أنهى إلى الأبد أعماله العدائية.

من حيث كنت معلقًا على مسافة بضعة أقدام فوق الطريق، كان بإمكاني الرؤية على بعد عدة مئات من الياردات على طول استدارة الطريق نحو الشرق. وعندما كنت على وشك فقدان أي أمل في النجاة من هذا الموقف المحفوف بالمخاطر، رأيت محاربًا أحمر يأتي من خلف المنعطف.

كان يمتطي حيوان الثوات الرائع -أحد أصغر الأنواع التي يستخدمها الرجال الحُمر- وفي يده حربة مدهشة، خفيفة وطويلة.

كان حيوانه يسير برزانة عندما رأيته بداية. ولكن ما إن وقعت عينا الرجل الأحمر علينا، حتى أدت كلمة منه للثوات إلى أن يصل إلينا في لحظة. وجه المحارب حربته نحو المخلوق، وهاجم المحارب ودابته المخلوق بقوة وغرس حربته بحيث اخترقت جسد خصمنا.

تصلب المخلوق بقشعريرة تشنجية، وارتخى فكاه وأسقطني على الأرض، ثم دار مترنحًا وهوى برأسه على الطريق فوق وولا، الذين كان لا يزال متشبثًا بعناد برأس المخلوق الملطخ بالدماء.

تمكنت من الوقوف على قدمي، والرجل الأحمر يستدير نحونا. وجد وولا عدوه جثة هامدة بلا حياة، فأمرته أن يرخي قبضته ويتملص من تحت الجثة التي غطته تمامًا، وواجهنا معًا المحارب وهو يتطلع إلينا.

بدأتُ أشكر الغريب على مساعدته التي جاءت في الوقت المناسب، لكنه قاطعني.

سألني: «مَن أنت لتجرؤ على دخول أراضي كاول وتصطاد في غابة الجيداك الملكية؟».

وعندما لاحظ بشرتي البيضاء تحت طلاء الأوساخ والدماء التي غطتني، اتسعت عيناه وقال هامسًا بعد أن تغيرت نبرة صوته: «هل يمكن أن تكون من الثيرنيين المقدسين؟».

ربما خدعت الرجل لبعض الوقت، كما خدعت آخرين. لكنني ألقيت الشَّعر الأصفر المستعار والإكليل المقدس في حضور ماتاي شانج، وكنتُ أعرف أن الأمر لن يطول قبل أن يكتشف مُحدثي أنني لست ثيرنيًّا على الإطلاق.

أجبته: «أنا لست ثيرنيًّا»، ثم خاطرت بالقول: «أنا جون كارتر، أمير هيليوم، وربما اسمي غير معروف لديكم».

إذا كانت عيناه اتسعتا عندما تصور أنني من الثيرنيين المقدسين، فقد جحظتا الآن عندما عرف أنني جون كارتر. قبضتُ على سيفي الطويل بقوة أكبر وأنا أتفوه بالكلمات التي كنت على يقين أنها قد تُعجل بالهجوم، لكنها لدهشته لم تُعجل بأي شيء من هذا النوع.

«جون كارتر، أمير هيليوم»، كرر ببطء كأنه لم يتمكن تمامًا من استيعاب حقيقة العبارة. «جون كارتر، أقوى محارب في برسوم!».

وعندئذٍ ترجل، ووضع يده على كتفي على طريقة أكثر تحية ودية على المريخ.

قال: «إن من واجبي، ويجب أن يكون من دواعي سروري، أن أقتلك يا جون كارتر. لكنني أُكِنُّ لك في أعماق قلبي إعجابًا شديدًا ببراعتك، وأعتقد أنك صادق ومخلص، بينما أتشكك في الثيرن ودينهم ولا أعتقد في صدقهم».

«إن الاشتباه في هرطقتي سوف يعني موتي الفوري في بلاط كولان تيث، جيداك كاول. لكني أود مساعدتك يا أمير، فإذا أردت أي شيء يمكنك أن تأمر توركار بار، دوار[42] طريق كاول».

بدت الحقيقة والصدق بوضوح على ملامح المحارب النبيل، ولذا لا يمكنني إلا أن أثق به، رغم أنه كان يجب أن يكون عدوي. فسّرت رتبته -كابتن طريق كاولين- حضوره في الوقت المناسب إلى قلب الغابة المتوحشة؛ فهناك دوريات بكل طريق عام في برسوم

---

(42) دوار: رتبة مريخية تعادل رتبة كابتن (نقيب. http://barsoom.wikia.com/wiki/Dwar - ((المترجمة).

من بواسل المحاربين الذين ينتمون إلى الطبقة النبيلة، ولا توجد أي خدمة أكثر شرفًا من هذا الواجب الخطير في الأجزاء التي يندر تردد الناس عليها من مناطق الرجال الحُمر في برسوم.

قلت له، وأنا أشير إلى جثة المخلوق الذي كان المحارب يسحب رمحه الطويل من قلبه: «توركار بار قد وضع بالفعل دينًا عظيمًا من الامتنان على كتفي».

ابتسم الرجل الأحمر.

وقال: «كان من حسن الطالع أنني جئت في الوقت المناسب. فهذا الرمح المسموم الذي يثقب قلب هذا السيث[43] هو فقط ما يمكن أن يقتله بسرعة كافية لإنقاذ فريسته. نتسلح جميعًا -في هذا الجزء من كاول- برماح طويلة رؤوسها مدهونة بسم المخلوق الذي تستهدف قتله؛ لا يوجد أي فيروس آخر يؤثر بسرعة على الوحش أكثر من سمه نفسه».

واصل قائلاً: «انظر»، ثم سحب خنجره وشق الجثة في موضع يقع على مسافة قدم فوق جذر أنبوب اللدغ، حيث استخرج كيسين يضم كل منهما جالونًا كاملاً من السائل القاتل.

«وهكذا نحافظ على إمداداتنا؛ فحتى إن لم تكن لبعض الاستخدامات التجارية التي تحتاج إلى الفيروس، فهي ضرورية لإضافتها إلى مخزننا الحالي؛ لأن السيث يكاد ينقرض. لا نعثر إلا لمامًا على هذه الحشرات. على أن كاول القديمة كانت تتعرض لاجتياحات من هذه الوحوش المخيفة التي تأتي عادة في قطعان من عشرين أو ثلاثين منها، تنقضُّ مندفعة من أعلى لأسفل إلى مدننا، وتذهب وهي تحمل معها النساء والأطفال، وحتى المحاربين».

خلال حديثه، كنت أفكر في مدى أمان أن أخبر هذا الرجل بالمهمة التي أتت بي إلى أرضه، لكن كلماته التالية توقعت أن أفتح هذا الموضوع من جانبي، وجعلتني شاكرًا أنني لم أتسرع في هذا الحديث.

قال: «والآن بالنسبة لك يا جون كارتر. لن أسألك عن سبب مجيئك هنا، كما أنني لا أود أن أسمعه. إن لديَّ أعينًا وآذانًا وذكاء عاديًّا، ورأيت صباح أمس المجموعة التي جاءت إلى مدينة كاول من الشمال في سفينة فضائية صغيرة. لكن هناك شيئًا واحدًا أطلبه

(43) سيث: حشرة مفترسة ضخمة موطنها منطقة كاول على المريخ، ويستخدم الرجال الحُمر في كاول أكياسها المسممة في الأسلحة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sith.(المترجمة).

منك، وهو: كلمة من جون كارتر أنه لن يفكر في القيام بأي تصرف سافر ضد أمة كاول أو جيداك كاول».

أجبته: «أعطيك كلمتي في هذا الشأن توركار بار».

قال: «وجهتي تمر على طول طريق كاول، بعيدًا عن مدينة كاول. لم أرَ أحدًا، وتحديدًا جون كارتر. وأنت لم ترَ توركار بار، ولم تسمع عنه من قبل. أتفهمني؟».

أجبتُ: «تمامًا».

وضع يده على كتفي.

وقال: «هذا الطريق يقود مباشرة إلى مدينة كاول. أتمنى لك حظًّا سعيدًا»، ثم وثب إلى ظهر حيوانه الثوات، وهرول سريعًا دون أن يُلقي حتى نظرة إلى الوراء.

وعندما حلَّ الظلام، استطلعتُ عبر الغابة القوية ومعي وولا السور العظيم الذي يحيط بمدينة كاول.

اجتزنا الطريق بأكمله دون أي سوء حظ أو مغامرة. وعلى الرغم من أن العدد القليل الذي صادفناه من الناس قد نظر إلى حيواني الكالوت الضخم بتعجب، فلم تخترق عين أي منهم الصبغة الحمراء التي كان دُهنت بها كل بوصة مربعة من جسدي.

بيد أن اجتياز البلد والدخول إلى مدينة كولان تيث التي تحميها الحراسة، كانا شيئين مختلفين تمامًا. لا يدخل أي شخص إلى مدينة مريخية دون أن يعطي تقريرًا مفصلاً ومُرضيًا عن نفسه، ولن أخدع نفسي بأن أتصور للحظة أن بإمكاني التغلب على فطنة ضباط الحرس الذين سأتقدم إليهم بطلبي عند أي من البوابات.

يبدو أن أملي الوحيد يكمن في دخول المدينة خلسة تحت جنح الظلام؛ وما إن أدخل، حتى أعتقد أن بإمكاني الثقة في ذكائي للاختباء في بعض الأحياء المزدحمة حيث تقل احتمالات كشفي.

وبهذه الفكرة في ذهني، درت حول السور الكبير مع استمرار محاذاتي لحافة الغابة التي تبعد بمسافة عن السور حول المدينة كلها، بحيث لا يتمكن أي عدو من استخدام الأشجار كوسيلة للدخول.

حاولت قياس الحاجز عدة مرات عند نقاط مختلفة، ولكن حتى عضلاتي كإنسان من كوكب الأرض لم تستطع التغلب على السور الواقي المبني بذكاء. كان سطح السور

يميل إلى ارتفاع ثلاثين قدمًا نحو الخارج، ثم يصبح عموديًّا لمسافة متساوية تقريبًا، يميل في أعلاها مرة أخرى خمس عشرة قدمًا نحو القمة.

كما كان أملسًا! لا يمكن أن يزيد الزجاج المصقول ذلك. وفي النهاية، يجب أن أعترف أنني اكتشفت أخيراً تحصينات برسومية لا أستطيع تجاوزها.

شعرت بالإحباط، فانسحبت إلى الغابة بجانب أحدى الطرق الرئيسة الواسعة التي تدخل المدينة من الشرق، واستلقيت للنوم وبجانبي وولا.

* * *

(6)

بطل في كاول

كان الوقت نهارًا عندما أيقظني صوت حركة خفية قريبة.

وعندما فتحت عينيَّ، تحرك وولا أيضًا ووقف يحدق عبر الأغصان المتدخلة نحو الطريق، وكان شعر رقبته منتصبًا بقوة.

لم أتمكن من رؤية أي شيء في البداية، ثم لمحتُ شيئًا أملسًا ولامعًا أخضر اللون يتحرك بين الغطاء النباتي بألوانه القرمزية والأرجوانية والصفراء.

أومأت إلى وولا أن يظل هادئًا في مكانه، وتسللت إلى الأمام للتحقق مما يحدث. رأيت من وراء جذع شجرة كبيرة طابورًا طويلاً من المحاربين الخُضر البشعين من قيعان البحر الميت يختبئون في الأدغال الكثيفة على جانب الطريق.

وبقدر ما أمكنني أن أرى، امتد طابور الدمار والموت الصامت بعيدًا عن مدينة كاول. لا يمكن أن يوجد سوى تفسير واحد. كان الرجال الخُضر يتوقعون خروج مجموعة من قوات الرجال الحُمر من أقرب بوابة للمدينة، وكانوا يرقدون في كمين نصبوه لينطلقوا منه.

أنا لا أدين بالولاء لجيداك كاول، لكنه كان من نفس عِرق النبلاء الأحمر الذي تنتمي إليه أميرتي، ولن أقف مكتوف الأيدي لأرى أولئك الشياطين القساة القادمين من أماكن برسوم القاحلة يذبحون محاربيه.

عدتُ بحذر حيث تركت وولا، وأشرت له أن يتبعني صامتًا. اتخذت منعطفًا كبيرًا لتجنب الوقوع في أيدي الرجال الخُضر، وأخيرًا وصلت إلى السور الكبير.

تقع البوابة التي من المتوقع أن تخرج منها القوات على بُعد عدة ياردات على يميني، لكن الوصول إليها يتطلب أن أجتاز جناح المحاربين الخُضر الذي يقع على مرمى البصر. وخشية أن تُحبَط خطتي لتحذير الكاوليين، قررت الإسراع نحو اليسار، حيث توجد بوابة أخرى على بُعد ميل قد تتيح لي الدخول إلى المدينة.

كنت أعرف أن ما سأُخبرهم به هو جواز مرور رائع إلى كاول. ويجب أن أعترف أن حذري يرجع إلى رغبتي العارمة في دخول المدينة أكثر من تجنب أي مناوشات مع

الرجال الخُضر. فبقدر ما أستمتع بالقتال، لا يمكنني أن أشبع رغبتي دائمًا، والآن أمامي أمور أكثر أهمية لشغل وقتي من إراقة دماء محاربين غرباء.

إذا نجحت في اجتياز سور المدينة، قد تتوفر فرصة -في ظل الارتباك والانفعال الذي سوف يلي حتمًا إعلاني عن غزو قوة من المحاربين الخُضر- أن أجد طريقي داخل قصر الجيداك، حيث يقطن يقينًا ماتاي شانج ومجموعته.

ما إن سرت مائة خطوة في اتجاه البوابة البعيدة، حتى سمعت صوت سير القوات، وقعقعة الأسلحة المعدنية، وأنين حيوانات الثوات من داخل المدينة. وهنا أدركت أن الكاوليين يتحركون بالفعل نحو البوابة الأخرى.

لا يوجد وقت أضيعه. فالبوابة ستُفتح في لحظة أخرى ويمر خلالها رأس الطابور على الطريق العام الذي يحده الموت.

عدتُ إلى البوابة المصيرية، وجريتُ سريعًا على طول حافة الأرض الجرداء وأنا أقفز بقوة تلك القفزات التي كانت وراء شهرتي في برسوم. لا تُعد مسافة ثلاثين، خمسين، أو مائة قدم في القفزة شيئًا بالنسبة لعضلات رجل رياضي من كوكب الأرض على المريخ.

عندما مررت بجناح المحاربين الخُضر المنتظرين، رأوا عيني تتحول ناحيتهم. وفي لحظة، مع معرفتهم انكشاف سر وجودهم، نهض أقربهم مني في محاولة لقتلي قبل أن أصل إلى البوابة.

وفي اللحظة نفسها، تأرجحت البوابة الجبارة مفتوحة باتساع، وظهر رأس طابور الكاوليين. نجح عشرات المحاربين الخُضر في الوصول إلى نقطة تقع بيني وبين البوابة، ولكن لم تكن لديهم فكرة عمَّن قرروا احتجازه.

لم أقلل سرعتي مثقال ذرة وأنا أندفع بينهم. وعندما أخذوا يتساقطون أمام نصلي، لم أستطع إلا أن أتذكر تلك الذكرى السعيدة للمعارك الأخرى عندما وقف تارس تاركاس، جيداك ثارك وأقوى رجال المريخ الخُضر، جنبا إلى جنب معي في أيام المريخ الحارة لنواجه معًا أعداءنا الذين تساقطوا حتى ارتفعت كومة الجثث أعلى من رأس رجل طويل القامة.

وعندما زاد ضغط عدد منهم، قبل بوابة كاول المنحوتة، قفزت فوق رؤوسهم وخططت تكتيكاتي على نحو مماثل لما استخدمته ضد رجال النبات البشعين في دور، وبالتالي كنت أصطدم برؤوس أعدائي وأنا أمر فوقها.

كان المحاربون الحُمر يهرعون من المدينة تجاهنا، وكان حشد الرجال الخُضر المتوحشين ينطلق من الغابة لملاقاتهم. وفي لحظة أصبحت في القلب من معركة شرسة ودموية كالمعارك التي خضتها سابقًا.

الكاوليون هم أكثر المقاتلين نُبلاً، بينما رجال خط الاستواء الخُضر لا يقل ولعهم بالحرب مثقال ذرة واحدة عن أبناء عمومتهم الباردين القساة من المنطقة المعتدلة. كانت هناك أوقات كثيرة يمكن أن ينسحب خلالها أي من الطرفين دون خزي، وبالتالي تنتهي الأعمال القتالية، لكن القتال كان يتجدد دائمًا من انغماسهم المجنون فيه. ولذا سرعان ما أدركت أن ما كان متصورًا أنه مناوشات تافهة قد ينتهي بإبادة كاملة لإحدى القوى على يد القوة الأخرى.

ومع استيقاظ روح المعركة داخلي، شاركت في المعمعة بقوة. وتجلت ملاحظة الكاوليين لدوري القتالي في صيحات التصفيق الموجة لي.

إذا بدوتُ أحيانًا شديد الفخر بقدرتي القتالية، فيجب التذكُر دائمًا أن القتال هو مهنتي. إذا كانت مهنتك تركيب حدوات الخيول أو رسم الصور، ويمكنك القيام بواحدة أو أخرى أفضل من زملائك، فإنك أحمق إن لم تكن فخورًا بقدرتك. ولذا أشعر بالفخر لأن على الكوكبين -الأرض والمريخ- لم يعش من قبل مقاتل أعظم من جون كارتر، أمير هيليوم.

ولقد تفوقت على نفسي ذلك اليوم، بغية ترك انطباع على سكان كاول؛ لأنني كنت أرغب في الفوز بطريق نحو قلوبهم ومدينتهم. ولم أكن أود أن أصاب بخيبة أمل وألاَّ أحقق رغبتي.

قاتلنا طوال اليوم، اصطبغ الطريق بلون الدم الأحمر وسدته الجثث. ارتفع مد المعركة ذهابًا وإيابًا على طول الطريق الزلق، لكن بوابة كاول لم تتعرض ولا مرة واحدة لخطر فعلي.

كانت هناك فترات توقف، للتنفس قليلاً، أتاحت لي فرصة التحدث مع الرجال الحُمر الذين قاتلت إلى جوارهم. ثم وضع الجيداك كولان تيث بنفسه يده على كتفي وسألني عن اسمي.

أجبته: «دوتار سوجات»؛ وهو الاسم الذي منحني إياه الثاركيون منذ سنوات عديدة، ويتكون من لقبي أول اثنين قتلتهم من المحاربين، وهذه هو العُرف بينهم.

قال: «أنت محارب عظيم، دوتار سوجات. عندما ننتهي اليوم، سوف أتحدث معك ثانية في القاعة العامة الكبرى».

ثم اشتد القتال مرة أخرى وافترقنا بعد أن تحققت رغبتي. عدت إلى القتال بنشاط متجدد وروح فرحة، حاملاً سيفي الطويل إلى أن اكتفى آخر الرجال الخُضر من المعركة، وانسحبوا متجهين نحو قاع بحرهم البعيد.

لم أعرف أسباب هجوم القوات الحمراء ذلك اليوم إلا بعد انتهاء المعركة. يبدو أن كولان تيث كان يتوقع زيارة من جيداك الشمال العظيم- الحليف القوي والوحيد للكاوليين، وكانت رغبته أن يقابل ضيفه على مسافة تبعد رحلة يوم كامل من كاول.

لكن مسيرة المضيف للترحيب تأخرت حتى صباح اليوم التالي، عندما بدأت القوات تتحرك من كاول مرة أخرى. لم أُدْعَ إلى حضرة كولان تيث بعد المعركة، لكنه أرسل أحد ضباطه ليجدني ويرافقني إلى مقره المريح في ذلك الجزء من القصر الموجود جانبًا والمخصص لضباط الحرس الملكي.

أمضيتُ هناك مع وولا ليلة مريحة، وصحوت منتعشًا بعد جهد الأيام القليلة الماضية الشاق. قاتل وولا معي خلال معركة اليوم السابق، وفيًّا لغرائزه ومُدربًا ككلب حرب مريخي؛ فهذه الكلاب يمكن إيجاد أعداد كبيرة منها مع جحافل الرجال الخُضر الوحشية في قيعان البحر الميت.

لم يخرج أي منا سالـمًا من المعركة، لكن مراهم برسوم العلاجية الرائعة كانت تكفي لتحقيق الشفاء بين عشية وضحاها.

تناولت إفطاري مع عدد من ضباط كاول، ووجدتهم مضيفين مهذبين ومحبوبين مثلهم مثل نبلاء هيليوم المعروفين بحسن الخلق والتربية الممتازة. وما إن أنهينا وجبتنا، حتى وصل رسول من كولان تيث يستدعيني للمثول أمامه.

عندما دخلت الحضرة الملكية، نهض الجيداك وسار من المنصة التي تدعم عرشه العظيم متقدمًا لمقابلتي- وهي علامة تميُّز نادرًا ما تمُنح لغير حاكم زائر.

حيّاني قائلاً: «كاور، دوتار سوجات! لقد استدعيتُك لأبلغك شكر وامتنان شعب كاول؛ فلولا شجاعتك البطولية وجرأتك لتحذيرنا من الكمين، لكنا وقعنا بالتأكيد في الفخ المنصوب لنا. حدثني أكثر عن نفسك- من أي بلد أتيت، وما المهمة التي جئت من أجلها إلى بلاط كولان تيث».

قلت: «أنا من هاستور. وفي الحقيقة، لدي قصر صغير في تلك المدينة الجنوبية التي تقع داخل تلك المناطق النائية من هيليوم. ويرجع وجودي في أرض كاول جزئيًّا إلى تعرضي لحادث؛ إذ تحطمت طائرتي عند الحافة الجنوبية لغابتكم العظيمة. وعندما كنت أسعى إلى الوصول لمدخل مدينة كاول، اكتشفت تلك الحشود الخضراء ترقد متربصة بقواتك».

على الرغم من سؤال كولان تيث عن المهمة التي جلبتني في طائرة إلى حافة غابته، فمن الجيد أنه لم يمارس أي ضغط كي أوضح المزيد، إذ عندئذ كنت سأواجه في الواقع صعوبة في الإجابة.

خلال مقابلتي مع الجيداك، دخلت مجموعة أخرى إلى الغرفة من خلفي، ولذا لم أشهد وجوههم إلا عندما سار كولان تيث نحوهم لاستقبالهم، وأمرني أن أتبعه.

عندما استدرت نحوهم، سيطرت بصعوبة على ملامحي؛ إذ وقف خصومي الأساسيين- ماتاي شانج وثوريد، يستمعان إلى كلمات كولان تيث التي تمدحني.

كان الجيداك يقول: «أيها الهيكادور المقدس للثيرن المقدسين، أغدق دوتار سوجات ببركاتك؛ فهو الغريب الشجاع من هاستور البعيدة، التي أنقذت بطولته العجيبة وضراوته الرائعة كاول بالأمس».

خطا ماتاي شانج إلى الأمام، ووضع يده على كتفي. لم تظهر على ملامحة أدنى إشارة على أنه عرفني- من الواضح أن طريقة تنكري كانت مكتملة.

تحدث معي بلطف، ثم قدمني إلى ثوريد، الذي لم يعرفني أيضًا، ويبدو أنني خدعتهما تمامًا. وأخذ كولان تيث يحدثهم عن تفاصيل إنجازاتي في ميدان المعركة.

ويبدو أن الشيء الوحيد الذي أثار إعجابه هو خفة حركتي الملحوظة، فقد أخذ يكرر وصف طريقتي الرائعة في القفز على الخصم، وشق جمجمته بسيفي الطويل خلال قفزتي.

أعتقد أنني رأيت عينَي ثوريد تتسع قليلاً أثناء السرد، وفاجأته عدة مرات وهو يحدق بإمعان في وجهي من خلال تضييق جفونه. هل بدأ يتشكك؟ ثم حكى كولان تيث عن حيوان الكالوت الوحشي الذي قاتل إلى جانبي، وبعدها رأيت الشك في عيون ماتاي شانج- أم أنني تخيلت ذلك؟

أعلن كولان تيث في نهاية اللقاء أنني سأرافقه على الطريق لمقابلة ضيفه الملكي. وخلال مغادرتي مع أحد ضباط المكلفين بشراء أغطية وركوبة مناسبين لي، بدا كل من ماتاي شانج وثوريد مخلصًا في الإعراب عن سروره بفرصة معرفتي. تنفست الصعداء وأنا أغادر الغرفة، مقتنعًا بأن مجرد الشعور بالإثم هو ما أثار اعتقادي بأن خصميَّ يشتبهان في هويتي الحقيقية.

ركبتُ بعد نصف ساعة خارجًا من بوابة المدينة مع الطابور الذي رافق كولان تيث على الطريق لمقابلة صديقه وحليفه. وعلى الرغم من أن عينيَّ وأذنيَّ كانتا مفتوحتين باتساع خلال مقابلتي مع الجيداك، وخلال سيري عبر ممرات القصر المختلفة، لم ألمح أو أسمع أي شيء عن ديجاه ثوريس أو ثوفيا البتارثية. كنت على يقين أنهما في مكان ما داخل هذا الصرح العظيم المتشعب، وكان يجب أن أجد طريقة للبقاء أثناء غياب كولان تيث لأبحث عنهما.

وصلنا، نحو ظهر اليوم، إلى رأس طابور من ذهبنا لمقابلتهم.

كانت قافلة رائعة تلك التي صاحبت الجيداك الزائر. امتدت لأميال على طول الطريق الأبيض الواسع إلى كاول. كانت القوات الراكبة، التي تلمع تحت أشعة الشمس بأغطيتها وزخارفها من الجواهر والجلود المرصعة بالمعادن، تشكل طليعة القافلة، وبعدها جاءت ألف عربة فائقة الجمال عليها رسوم لحيوان الزيتيدار الضخم[44] .

تحركت كل عربتين من هذه العربات المنخفضة لحمل السلع متجاورتين، وسارت على كل جانب منهما صفوف قوية من المحاربين الراكبين؛ فالعربات كانت تحمل نساء وأطفال البلاط الملكي، وركب شاب مريخي على ظهر كل زيتيدار وحشي. ذكّرني المشهد كله بأيامي الأولى في برسوم؛ منذ اثنين وعشرين عامًا عندما شاهدتُ للمرة الأولى ذلك المشهد الرائع لقافلة قبيلة خضراء من الثاركيين.

لم أشهد قط قبل اليوم حيوانات الزيتيدار في خدمة الرجل الأحمر. هذه الوحوش هي حيوانات مستودونية[45] ضخمة تبلغ ارتفاعًا هائلاً، حتى بجوار الرجل الأخضر العملاق وحيواناته الثوات العملاقة؛ ولكن عند مقارنتها بالرجال الحُمر القصيرين نسبيًّا وسلالة حيواناته الثوات، نجدها تتخذ أبعادًا عملاقة مروعة حقًّا.

---

(44) الزيتيدار: حيوان مريخي يشبه الفيل، ويُعتبر من حيوانات الجر الثقيلة حيث يُستخدمه المريخيون غالبًا في حمل الأحمال الكبيرة لمسافات شاسعة وجر المركبات الضخمة. http://barsoom.wikia.com/wiki/Zitidar - (المترجمة).

(45) حيوان منقرض شبيه بالفيل. (المترجمة).

كانت الوحوش ترتدي أغطية مزخرفة بالجواهر وعلى كل منها سرج من الحرير المُبهج المطرز بتصاميم خيالية مع سلاسل من الماس، واللؤلؤ والياقوت، والزمرد، وعدد لا يُحصى من المجوهرات المريخية التي لا أعرف اسمها؛ بينما ارتفعت من كل عربة عشرات الحوامل التي ترفرف فوقها اللافتات والأعلام والرايات.

أمام العربات مباشرة، كان الجيداك الزائر يركب بمفرده فوق ثوات أبيض اللون – وهو مشهد آخر غير مألوف في برسوم–، وامتدت بعد العربات صفوف لا نهاية لها من حاملي الرماح والرماة والسيافين. كان بالفعل مشهدًا مهيبًا.

وباستثناء قعقعة العتاد والزخارف والأنين الذي يطلقه أحيانًا ثوات غاضب أو الهدير الأجش المنخفض من زيتيدار، كانت مسيرة الموكب صامتة تقريبًا؛ فحيوانات الثوات والزيتيدار بلا حوافر، وعجل العربات العريض مصنوع من مواد مرنة لا تُصدر أي صوت.

ويمكن بين الفينة والفينة سماع ضحكة امرأة مرحة أو ثرثرة الأطفال، فالمريخيون الحُمر شعب اجتماعي، محب للاستمتاع– على النقيض مباشرة من العرق المريخي الأخضر الذي يتسم بالبرود والكآبة.

استغرقت المظاهر والاحتفالات المتصلة بلقاء الجيداكين حوالي ساعة، ثم عدنا إلى طريقنا نحو مدينة كاول، التي وصلت إليها مقدمة الطابور قبل حلول الظلام، على الرغم من أن الحرس الخلفي قد غادر البوابة في الصباح المبكر اليوم.

ولحسن الحظ، كنت قريبًا من مقدمة الطابور. وبعد مأدبة كبيرة، حضرتها مع ضباط الحرس الملكي، كنت حرًّا للبحث عن الراحة. امتد قدر كبير من النشاط والصخب حول القصر طوال الليل، مع استمرار وصول الضباط النبلاء من حاشية الجيداك الزائر، ولذا لم أجرؤ على محاولة البحث عن ديجاه ثوريس، وبالتالي عدت أدراجي إلى مقري بعد أن كنت متصورًا أن الوقت مناسب للبحث عنها.

خلال مروري عبر الممرات التي تقع بين قاعة المأدبة والشقق المخصصة لي، انتابني شعور مفاجئ أنني تحت المراقبة. لمحت وأنا أسرع بالعودة إلى مساراتي هيئة شخص يندفع إلى مدخل مفتوح بمجرد أن استدرت.

وعلى الرغم من أنني ركضت مسرعًا إلى الموقع الذي اختفى عنده الشخص الذي يتعقبني، فلم أعثر له على أي أثر. على أنني أكاد أن أقسم أنني رأيت في تلك اللمحة السريعة وجهًا أبيض تعلوه كتلة من الشَّعر الأصفر.

غذت هذه الواقعة تأملاتي إلى حد كبير. فإذا كانت النتيجة التي توصلت إليها بعد لمحتي الخاطفة لجاسوس صحيحة، فهذا يعني أن ماتاي شانج وثوريد يتشككان في هويتي؛ وإذا صح ذلك، فلن تنقذني حتى الخدمة التي قدمتها إلى كولان تيث؛ لأنه متعصب لعقيدته.

ولكن لم يحدث أبدًا أن حالت أي تخمينات غامضة أو مخاوف عقيمة عن المستقبل، تلقي بثقلها على ذهني، دون أن آخذ قسطًا من الراحة. فألقيت نفسي على حرير وفراء النوم، وخلدت إلى نوم فوري بلا أحلام.

غير مسموح لحيوانات الكالوت أن توجد داخل جدران القصر، ولذا كنت مضطرًا إلى إحالة وولا المسكين إلى مقرات الإسطبلات حيث يحتفظون بحيوانات الثوات الملكية. كان مقره مريحًا، بل فاخرًا، لكنني كنت على استعداد أن أفعل أي شيء ليبقى معي. ولو كان معي، لم يكن ما حدث تلك الليلة ليمر ببساطة.

لم أنم أكثر من ربع ساعة عندما أيقظني فجأة مرور شيء بارد وندي على جبهتي. نهضت واقفًا على الفور، ومددت يدي في الاتجاه الذي تصورته محاولاً الإمساك بمَن يفعل ذلك. للحظة لمست يدي لحمًا بشريًّا. وعندما اندفعت للأمام عبر الظلام للإمساك بالزائر الليلي، تعثرت قدمي في حرير النوم، ثم وقعت منبطحًا على الأرض.

عندما وقفت وعثرت على الزر الذي يتحكم في الضوء، كان الزائر قد اختفى. لم يكشف بحثي الدقيق للغرفة عن أي شيء يوضح هوية أو مهمة الشخص الذي سعى نحوي سرًّا في عتمة الليل.

لا أصدق أن غرضه كان السرقة؛ حيث لا تعرف برسوم عمليًّا اللصوص. ومع أن الاغتيال منتشر، لكن حتى هذا لم يكن الدافع وراء صديقي المتسلل؛ لأنه كان يمكنه قتلي بسهولة إن أراد.

نبذتُ كل التخمينات العقيمة، وكنت على وشك العودة إلى النوم عندما دخل عشرات الحراس الكاوليين شقتي. كان الضابط المسؤول واحدًا من المضيفين اللطفاء في الصباح، لكن وجهه يخلو الآن من أي علامة على الصداقة.

وقال: «كولان تيث يأمر بالمثول أمامه، هيا!».

* * *

(7)
حلفاء جدد

سرتُ ثانيةً، مُحاطًا بالحرس، عبر ممرات قصر كولان تيث، جيداك كاول، إلى قاعة عامة كبيرة تقع في وسط البناء الضخم.

عندما دخلت القاعة المضاءة ببراعة، والمملوءة بنبلاء كاول وضباط الجيداك الزائر، تحولت نحوي جميع الأنظار. كانت توجد ثلاثة عروش على المنصة الكبرى في نهاية القاعة، حيث جلس كولان تيث وضيفاه: ماتاي شانج، والجيداك الزائر.

سرنا عبر ممر المركز الواسع في ظل صمت قاتل، وتوقفنا أمام العروش.

«تفضل واعرض التهمة»، قال كولان وهو يستدير نحو أحد الذين وقفوا على يمينه بين النبلاء؛ وعندئذ تقدم ثوريد، الداتور الأسود للأبناء الأوائل، وواجهني.

قال مخاطبًا كولان تيث: «يا أنبل جيداك، اشتبهت منذ البداية في وجود هذا الغريب داخل قصرك. إن وصفك لبراعته الشيطانية يماثل براعة عدو الحقيقة اللدود في برسوم».

«وتجنبًا للخطأ، أرسلت كاهنًا من عبادتك المقدسة ليقوم بالاختبار الذي يمكن أن خترق تنكره ويكشف عن حقيقته. وها هي النتيجة!»، ثم أشار ثوريد بأصبعه الصارم على جبهتي.

اتجهت كل الأعين نحو أصبع الاتهام- بقيت أنا وحدي في حيرة لتخمين العلامة القاتلة التي تستقر على جبيني.

خمن الضابط الواقف بجواري حيرتي. قطب كولان تيث حاجبيه واكفهر وجهه تهديدًا وهو ينظر نحوي، حيث أخرج النبيل مرآة صغيرة من جيب حقيبته ووضعها أمام وجهي.

كانت لمحة واحدة إلى الانعكاس الذي منحته المرآة كافيًا بالنسبة لي.

لقد تسلل الثيرني إلى غرفة نومي، مختفيًّا في الظلام، ومد يده إلى جبيني ومسح جزءًا بحجم راحة اليد من صبغة تنكري الحمراء، وظهرت تحتها بشرتي البيضاء.

توقف ثوريد للحظة عن الكلام، أعتقد لتعزيز التأثير الدرامي لكشفه، ثم استأنف حديثه.

صاح: «إنه، يا كولان تيث، من دنَّس معابد آلهة المريخ، وانتهك أشخاص الثيرن المقدسين أنفسهم، وقلب العالم ضد دينهم العريق. أمامكم وفي سلطتكم، يا جيداك كاول المدافع عن المقدسات، يقف جون كارتر أمير هيليوم!».

نظر كولان تيث إلى ماتاي شانج كأنما ليتثبت من هذه التهم، وأومأ الثيرني المقدس رأسه.

وقال: «إنه في الواقع عدو كافر. والآن تبعني إلى قلب قصرك، كولان تيث، لغرض وحيد هو اغتيالي. إنه...».

قلتُ صائحًا: «إنه يكذب! يجب أن تسمعني يا كولان تيث؛ لكي تعرف الحقيقة. استمع لأقول لك سبب متابعة جون كارتر لماتاي شانج إلى قلب قصرك. استمع إليَّ، واستمع لهم أيضًا، ثم احكم ما إذا كانت أفعالي لا تزيد عن اتساقها مع فروسية وشرف برسوم الحقيقي وليست كأفعال هؤلاء المتعصبين الانتقاميين للعقائد الزائفة التي حررت كوكبكم منها».

«صمتًا!»، زأر الجيداك وهو يثب على قدميه ويضع يده على مقبض سيفه، «صمتًا أيها الكافر! لا يحتاج كولان تيث إلى السماح بتدنيس هواء القاعة العامة بالهرطقة التي تصدر من حلقك كي أحكم عليك».

«لقد أدنت نفسك بالفعل. ويبقى تحديد طريقة موتك. وحتى الخدمة التي قدمتها إلى مقاتلي كاول لن تفيدك؛ فلم تكن سوى حيلة خسيسة لتجد بمقتضاها وسيلة لتحظ برعايتي والوصول إلى هذا الرجل المقدس الذي تبغي قتله. خذوه إلى الحُفر!» أنهى كلامه وهو يخاطب ضابط الحرس.

يا له من موقف! ما فرصتي ضد أمة بأكملها؟ ما أملي في الرحمة على أيدي كولان تيث المتعصب ومستشاريه ماتاي شانج وثوريد. ابتسم الرجل الأسود بخبث ابتسامة عريضة في وجهي.

وقال ساخرًا: «لن تهرب هذه المرة، يا رجل كوكب الأرض».

اقترب الحراس مني. غشي ضباب أحمر بصري. تدفقت دماء القتال ساخنة في عروقي، باعتباري فيرجيني المولد، كما شعرت بشهوة المعركة، بكل غضبها المجنون.

حملتني قفزة واحدة إلى جوار ثوريد، وتلاشت الابتسامة الشيطانية من وجهة الوسيم بعد أن أمسكت فمه كاملاً بقبضة يدي الـمُحكمة. وعندما استقرت عليه ضربتي الأمريكية القديمة، اندفع الداتور الأسود للوراء لحوالي عشر أقدام، وسقط متكومًا أسفل عرش كولان تيث وهو يبصق دمًا وأسنانًا من فمه المصاب.

ثم امتشقتُ سيفي، واستدرت وأنا على أهبة الاستعداد لمواجهة أمة كاملة.

في لحظة هاجمني الحرس. ولكن قبل توجيه أي ضربة، ارتفع صوت قوي أعلى من كل ضجيج صياح المحاربين، ووثب شخص عملاق من المنصة بجوار كولان تيث وألقى بنفسه وهو يمتشق سيفه الطويل بيني وبين خصومي.

لقد كان الجيداك الزائر.

صاح قائلاً: «توقفوا! إذا كانت صداقتي والسلام القديم بين شعبينا لهما قيمة بالنسبة لك يا كولان تيث، عليك أن تأمر حراسك بإنزال السيوف؛ فأينما يحارب جون كارتر، أمير هليوم، أو ضد أي من كان، فسيحارب إلى جواره وحتى الموت ثوفان ديهن، جيداك بتارث».

توقف الصياح وهبطت السيوف، حيث تحولت بداية ألف عين مندهشة نحو ثوفان ديهن، ثم نحو كولان تيث متسائلة. في البداية، تحول وجه جيداك كاول إلى اللون الأبيض غضبًا، لكنه سيطر على نفسه قبل أن يتحدث، فجاءت نبرة صوته هادئة تليق بلقاء جيداكين عظيمين.

قال ببطء: «ثوفان ديهن، إن تدنيس العادات القديمة هو سلوك استفزازي كبير من جانب ضيف داخل قصر مضيفه. وحتى لا أنسى نفسي أنا أيضًا، كما فعل صديقي الملكي، فإنني أفضل البقاء صامتًا إلى أن يحظ جيداك بتارث باستحساني لتصرفه بأن يخبرني بالأسباب التي أثارته».

كان يمكنني أن أرى غضب جيداك بتارث وكأنه على وشك أن يلقي بمعادنه في وجه كولان تيث، لكنه سيطر على نفسه كما فعل مضيفه.

قال: «لا أحد يعرف أفضل من ثوفان ديهن القوانين التي تحكم سلوك الرجال في مناطق الأمم المجاورة. لكن ثوفان ديهن يدين بالولاء لقانون أعلى من تلك القوانين - قانون العرفان بالفضل. لا يدين أي رجل في برسوم بأكبر عرفان بالفضل لأحد أكثر من جون كارتر، أمير هيليوم».

ثم واصل قائلاً: «قبل سنوات يا كولان تيث، في زيارتك الأخيرة لي، تذكر أنك أُعجبت بسحر ورقة ابنتي الوحيدة ثوفيا. ورأيت كيف أعشقها، ثم عرفت لاحقًا أنها اتخذت طريقها الطويل الأخير للحج الطوعي، بناء على نزوة مبهمة، إلى حضن إيس البارد الغامض، وتركتني بائسًا.

«ومنذ بضعة أشهر، سمعت بداية عن الحملة التي قادها جون كارتر ضد إيسوس والثيرن المقدسين. وتناهى إلى سمعي بعض الشائعات عن الفظائع التي ارتكبها الثيرن ضد مَن كانوا يصلون إلى إيس القوي.

«سمعت عن إطلاق سراح آلاف السجناء، وتجرأ عدد قليل منهم على محاولة العودة إلى بلدانهم رغم أوامر الموت الرهيب التي تصدر ضد كل مَن يعود من وادي دور.

«بقيت لفترة لا أصدق الهرطقات التي سمعتها، وصلّيت متمنيًّا أن تكون ابنتي ثوفيا قد ماتت قبل أن ترتكب خطيئة العودة إلى العالم الخارجي. لكن حبي الأبوي أكد نفسه، وقلت إني أفضل اللعنة الأبدية على الانفصال عنها إن أمكن العثور عليها.

«ولذا أرسلتُ مبعوثين إلى هيليوم وإلى بلاط زودار، جيداك الأبناء الأوائل، وإليه هو الذي يحكم الآن أمة الثيرن التي تخلت عن دينها. وسمعت من الجميع نفس قصة الوحشية التي لا توصف، والفظائع التي ارتكبها الثيرن المقدسون ضد المساكين العُزل ضحايا دينهم.

«هناك العديدون الذين رأى ابنتي أو عرفها. وعرفت من الثيرنين الذين كانوا قريبين من ماتاي شانج قدر الإهانات التي وجهها لها هو شخصيًّا. وسعدت عندما جئت إلى هنا لأجد أن ماتاي شانج ضيفك أيضًا؛ لأني أسعى له وإن استغرق ذلك عُمرًا.

«والأكثر من ذلك، أنني سمعت أيضًا عن عطف جون كارتر وشهامته مع ابنتي. قالوا لي كيف حارب من أجلها وأنقذها، وكيف أنه رفض بازدراء الهرب من الوارهونين الوحشيين في الجنوب، وأرسلها بأمان فوق حيوانه الثوات وواصل طريقه سيراً على الأقدام لمواجهة المحاربين الخُضر.

«هل تتساءل الآن يا كولان تيث، لماذا أنا على استعداد لتعريض حياتي وسلام أمتي للخطر، أو حتى صداقتي بك التي أعتز بها أكثر من أي شيء آخر، لنصرة أمير هيليوم؟»

ظل كولان تيث صامتًا للحظة. وكان بإمكاني أن أرى، من تعبيرات وجهه، أنه في حيرة شديدة. ثم تحدث.

قال بنبرة ودية، وإن كانت حزينة: «ثوفان ديهن، مَن أنا لأحكم على زميلي؟ لا يزال الأب الثيرني مقدسًا في عيني، ولا لأزال أرى أن الدين الذي علمه لنا هو الدين الصحيح الوحيد. لكني إذا واجهت نفس المشكلة التي كدرتك، لا أشك أنني سأشعر بما تشعر وأفعل تمامًا ما قمت به.

«يمكنني أن أتصرف بقدر ما يتعلق الأمر بأمير هيليوم. أما بينك وبين ماتاي شانج، فإن مسعاي الوحيد هو الصلح بينكما. سوف يجري اصطحاب أمير هيليوم بأمان إلى حدود منطقتي بعد غروب الشمس، حيث يصبح حرًّا في الذهاب إلى أين مكان؛ لكنه سيذوق ألم الموت إذا دخل مرة أخرى إلى أراضي كاول.

«وإذا كانت هناك مشاجرة بينك وبين الأب الثيرني، فإنني أطلب إرجاء تسويتها إلى أن يخرج كلاكما خارج حدود سلطاتي. هل أنت مرتاح يا ثوفان ديهن؟».

أومأ جيداك بتارث بموافقته، لكن تجهمه القبيح تجاه ماتاي شانج كان يعني أنه يضمر له السوء.

«أمير هيليوم ليس مرتاحًا»، صحت بصوت عال، مقتحمًا بوقاحة بدايات السلام؛ فلست مستعدًّا لقبول السلام بالثمن المذكور.

«لقد نجوت من الموت بأشكال عديدة؛ كي أتابع ماتاي شانج وأصل إليه، ولست على استعداد لأن أُساق مثل ثوات عاجز إلى الذبح بعيدًا عن الهدف الذي فزت به ببراعة سيفي وقوة عضلاتي.

«كما أن ثوفان ديهن، جيداك بتارث، لن يكون راضيًّا عندما يسمع ما سأقوله. هل تعرف لماذا اتبعت ماتاي شانج وثوريد، الداتور الأسود، من غابات وادي دور عبر نصف عالم، مارًّا بصعوبات لا تُقهر؟

«هل تعتقد أن جون كارتر، أمير هيليوم، يمكن أن ينحدر إلى الاغتيال؟ هل كولان تيث بمثل هذا الحُمق ليصدق تلك الكذبة التي همس بها في أذنه الثيرني المقدس أو الداتور ثوريد؟

«أنا لم أتابع ماتاي شانج لأقتله، على الرغم من أن رب كوكبي يعرف أن يدي تشتهي الإمساك برقبته. لقد تابعته يا ثوفان ديهن؛ لأن معه سجينتين: زوجتي ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، وابنتك ثوفيا البتارثية.

«والآن، هل تعتقد أنني سأسمح لهم باقتيادي خارج جدران كاول ما لم ترافقني والدة ابني، واستعادتك لابنتك؟».

تحول ثوفان ديهن نحو كولان تيث، ولهيب الغضب يتطاير من عينيه. لكنه سيطر على نفسه ببراعة، محتفظًا بمستوى نبرات صوته وهو يتحدث.

وقال متسائلاً: «هل تعرف ذلك، كولان تيث؟ هل تعرف أن ابنتي سجينة في قصرك؟».

«كيف له أن يعرف»، قاطعه ماتاي شانج، وقد تحول لونه إلى الأبيض من الخوف أكثر من الغضب. «كيف له أن يعرف وهي كذبة».

كان بإمكاني قتله على الفور لما قاله. ولكن ما إن انطلقت نحوه، حتى وضع ثوفان يده الثقيلة على كتفي.

قال لي: «انتظر»، ثم توجه إلى كولان تيث قائلاً: «إنها ليست كذبة. فأنا أعرف أن أمير هيليوم لا يكذب أبدًا. أجبني، كولان تيث، لقد وجهت لك سؤالاً».

أجاب كولان تيث: «جاءت ثلاث نساء مع الأب الثيرني. ابنته فايدور، واثنتان قال إنهما عبيدتاها. فإذا كانتا ثوفيا البتارثية وديجاه ثوريس، فأنا لا أعرف- لم أرَ أيًّا منهما. ولكن إذا كانتا هما، فسوف تعودان لكما غدًا».

كان ينظر مباشرةً، خلال حديثه، نحو ماتاي شانج؛ ليس كما ينظر المتدين إلى الكاهن الأعلى، وإنما كما ينظر حاكم إلى رجل يصدر له أمرًا.

من المؤكد أنه اتضح للأب الثيرني، كما اتضح لي، أن هذا الكشف الأخير عن شخصيته الحقيقية قد أدى بالفعل إلى إضعاف عقيدة كولان تيث، وأن الأمر لا يتطلب الكثير لتحويل الجيداك القوي إلى عدو صريح. لكن بذور الخرافة لا تزال قوية، فحتى الكاوليني العظيم لا يزال مترددًا في قطع الحبل النهائي الذي يربطه بعقيدته الدينية القديمة.

وكان ماتاي شانج يتمتع بحِكمة كافية، بحيث بدا قابلاً لأوامر تابعه ووعد بجلب العبيدتين إلى القاعة العامة غدًا.

قال: «إنه الصباح تقريبًا الآن، وأكره أن أوقظ ابنتي، إلا إذا أردتم أن أصدر أوامري فورًا حتى ترون أن أمير هيليوم على خطأ»، وشدد على الكلمة الأخيرة في محاولة لإهانتي بحذق حتى لا أجد فرصة للهجوم.

كنت على وشك الاعتراض على أي تأخير، والمطالبة بإحضار أميرة هيليوم على الفور، لكن إصرار ثوفان ديهن جعل ذلك يبدو غير ضروري.

قال: «أود رؤية ابنتي على الفور، لكنني لن أصر على ذلك إذا أعطاني كولان تيث تأكيده بأنه لن يسمح لأحد بمغادرة القصر الليلة، ولن تُصاب ديجاه ثوريس أو ثوفيا البتارثية بأي ضرر من الآن، وحتى لحظة إحضارهما إلينا في هذه القاعة عند طلوع النهار».

أجاب جيداك كاول: «لن يغادر أحد القصر الليلة. وماتاي شانج، سيعطينا تأكيدًا بعدم إلحاق ضرر بالمرأتين؟».

وافق الثيرني بإيماءة. بعد بضع لحظات، أعلن كولان تيث نهاية اللقاء. رافقت ثوفان ديهن، جيداك بتارث، إلى شقته بناء على دعوته، حيث جلسنا حتى طلوع النهار. كان يستمع إلى تقييمي لخبراتي على كوكبه، وإلى كل ما حدث لابنته خلال الوقت الذي كنا فيه معًا.

دخل والد ثوفيا قلبي، وشهدت تلك الليلة بداية الصداقة التي نمت بحيث أصبح الثاني بالنسبة لي بعد تارس تاركاس، الجيداك الثاركي الأخضر.

مع ظهور أولى خيوط الفجر على المريخ، حضر مبعوثون من عند كولان تيث لاستدعاءنا إلى القاعة العامة؛ حيث كان ثوفان تيث سيلتقي بابنته بعد سنوات من الانفصال، وكان شملي سيجتمع مع ابنة هيليوم الجليلة بعد انفصال لحوالي اثني عشر عامًا متصلة.

كان قلبي يخفق بقوة في صدري، حتى أنني نظرت حولي في حرج لشعوري أن كل من بالغرفة يسمع دقاته. وكانت ذراعاي تتوقان مرة أخرى إلى معانقة حبيبتي التي كان شبابها الأبدي وجمالها الأخاذ بمثابة تجليات خارجية لكمال روحها.

عاد أخيراً الرسول الموفد لإحضار ماتاي شانج. مددت رقبتي لأسترق أول لمحة على مَن سيأتون بعده، لكن الرسول أتى بمفرده.

توقف أمام العرش وخاطب الجيداك بصوت مسموع بوضوح لكل مَن في القاعة.

قال على النمط المتبع في البلاط: «كولان تيث، أقوى جيداك»، ثم واصل: «رسولك يعود بمفرده؛ إذ عند وصوله إلى شقق الأب الثيرني وجدها فارغة، وكذلك الشقق التي تشغلها حاشيته».

تحول لون كولان تيث إلى الأبيض.

انطلق تأوه منخفض من شفاه ثوفان ديهن الذين كان يقف بجواري، حيث لم يصعد إلى العرش بجانب مضيفه. ساد صمت الموت للحظة في القاعة العامة الكبيرة لكولان تيث، جيداك كاول. وكان هو مَن كسر الصمت.

نهض من عرشه ونزل من المنصة ووقف بجانب ثوفان ديهن. أخفت الدموع عينيه وهو يضع يديه على كتف صديقه.

قال: «أوه ثوفان ديهن، أن يحدث هذا في قصر أفضل صديق لك! لكنت انتزعت بيدي رقبة ماتاي شانج إن خمنت ما في قلبه الكريه. لقد ضعفت في الليلة الماضية عقيدتي التي اعتنقتها طوال حياتي، وهذا الصباح تحطمت؛ ولكن بعد فوات الأوان، بعد فوات الأوان.

«لانتزاع ابنتك، وكذا زوجة هذا المحارب الملكي، من براثن هؤلاء الشياطين، ليس عليك سوى استخدام جميع موارد أمتنا القوية، كاول كلها تحت تصرفك. ما الذي يمكن عمله؟ قل كلمتك!».

قلتُ مقترحًا: «لنعثر أولاً عن مَن يتحملون مسؤولية هروب ماتاي شانج وأتباعه. فلم يكن بإمكانهم الخروج دون مساعدة من حرس القصر. لنبحث عن المذنبين، ونجبرهم على إخبارنا بطريقة خروجهم والاتجاه الذي اتخذوه».

وقبل أن يصدر كولان تيث أوامره بالبدء في التحقيق، تقدم ضابط وسيم شاب ووجه حديثه إلى الجيداك.

قال: «كولان تيث، أقوى جيداك، أنا وحدي المسؤول عن هذا الخطأ الجسيم. أنا مَن أمرت حرس القصر في الليلة الماضية. كنت أؤدي مهام واجبي في أجزاء أخرى من القصر خلال لقاء الصباح الباكر، ولم أعرف شيئًا عن ما حدث. وبالتالي عندما استدعاني الأب الثيرني وأوضح لي أنها رغبتكم في أن يغادر المدينة مسرعًا هو ومجموعته بسبب وجود عدو مميت يسعى لقتل الهيكادور المقدس، لم أفعل سوى ما تعلمت من التدريب طوال حياتي أنه الشيء الصحيح»، أطعت مَن كنت أعتقد أنه حاكمنا جميعًا، أقوى حتى منك وأنت أقوى جيداك.

«إنني أتحمل وحدي العواقب والعقوبة؛ لأنني المذنب الوحيد. أما حرس القصر الآخرين الذين ساعدوا في فرارهم، فقد قاموا بذلك بناء على تعليماتي».

نظر كولان تيث نحوي أولاً ثم نحو ثوفان ديهن، كأنما ليسألنا حُكمنا على الرجل. لكن الخطأ كان مبررًا بوضوح، ولذا لم يكن أيًّا منا راغبًا في رؤية الضابط الشاب يعاني لارتكاب خطأ يمكن أن يقع فيه أي شخص بسهولة.

سأله ثوفان ديهن: «كيف غادوا، وإلى أي اتجاه؟».

أجاب الضابط: «غادروا كما جاءوا، على سفينتهم الفضائية. وبعد مغادرتهم بفترة، رأيت أضواء السفينة تختفي تجاه الشمال».

وجه ثوفان ديهن سؤالاً إلى كولان تيث: «أين يمكن أن يعثر ماتاي شانج على ملجأ في الشمال؟».

وقف جيداك كاول لدقائق وهمَّ أن يحني رأسه، يبدو أنه كان يفكر بعمق. ثم أشرقت ملامحه بضوء مفاجئ. صاح: «عرفت! بالأمس فقط ألمح ماتاي شانج عن وجهته، فقد أخبرني بوجود عِرق مريخي يختلف عنا ويسكنون في الشمال. كما قال إن الثيرن المقدسين يعرفونهم وإنهم متدينون ومن أتباع العبادة القديمة. سوف يجد بينهم ملاذًا أبديًّا للجوء، حيث لا يمكن أن يسعى إليه 'الزنادقة الكاذبون'. لقد ذهب ماتاي شانج إلى هناك».

قلت صائحًا: «لن نجد في كاول كلها سفينة فضائية تتبعهم».

أجاب ثوفان ديهن: «ليس هناك أقرب من بتارث».

صرخت قائلاً: «انتظروا! وراء الحافة الجنوبية لهذه الغابة الكبيرة يقع حطام سفينة الثيرن الفضائية التي أتت بي كل هذه المسافة إلى هنا. كولان تيث، إذا وفرت لي رجالاً للبحث عنها وصُنَّاعًا لمساعدتي، يمكنني إصلاحها في غضون يومين».

كنت أكثر من نصف متشكك في مدى صدق ارتداد جيداك كاول المفاجئ عن معتقداته القديمة، لكن حماسته في الموافقة على اقتراحي، والبعثة التي ضمت قوة من الضباط والرجال ووضعها تحت تصرفي تمامًا، قد أزالت بقايا شكوكي.

هبطت السفينة بعد يومين على الجزء العلوي من برج المراقبة، مستعدة للمغادرة. منحني ثوفان ديهن وكولان تيث موارد البلدين بالكامل- ملايين من المقاتلين تحت إمرتي. لكن السفينة لم تكن لتتسع لأكثر من راكب آخر معي، بالإضافة إلى وولا.

صعدت على متن السفينة، واتخذ ثوفان ديهن مكانة بجانبي. ألقيت نظرة تساؤل مندهش نحوه. نظر إلى أحد الضباط، الأعلى رتبه بين ضباطه الذين رافقوه إلى كاول،

وقال: «أعهد إليك بمهمة إعادة حاشيتي إلى بتارث. وهناك، يتولى ابني الحُكم باقتدار في غيابي. لن يذهب أمير هيليوم بمفرده إلى أرض أعدائه. لقد تحدثت. الوداع!».

* * *

(8)

خلال كهوف كاريون

قادتنا نهارًا وليلاً البوصلة التي تحدد وجهتنا نحو الشمال مباشرة، وراء السفينة الهاربة؛ تلك البوصلة التي بقيت على وضعها منذ أن ضبطتها منذ أن غادرت حصن الثيرن.

لاحظنا في فترة مبكرة من الليلة الثانية، أن الهواء أصبح أكثر برودة. وتأكدنا -من المسافة التي أتينا منها عند خط الاستواء- أننا نقترب سريعًا من المنطقة القطبية الشمالية.

توخيت الحذر، نظرًا لمعرفتي بالجهود التي بذلتها عدد لا يحصى من البعثات لاستكشاف تلك الأراضي المجهولة؛ فلم ترجع أبدًا أي سفينة تجاوزت بمسافة كبيرة الحاجز الجليدي الجبار الذي يشكل الحافة الجنوبية للمنطقة المتجمدة.

لا أحد يعرف ما حدث لتلك البعثات، إلا أنها اختفت إلى الأبد عن الأنظار عندما دخلت قتامة ذلك البلد القطبي الغامض.

لم تكن المسافة من الحاجز إلى القطب تستغرق أكثر من بضع ساعات تقطعها سفينة سريعة، ولذا افترضنا أن كارثة مخيفة كانت تنتظر مَن يصلون إلى «الأرض المحرمة»؛ وسُمي سكانها المريخيين من العالم الخارجي.

وهكذا، تحركت بمزيد من البطء خلال الاقتراب من الحاجز. كانت هدفي أن أتحرك بحذر نهارًا فوق كومة الجليد التي قد اكتشفها، قبل أن أقع في فخ، إذا كان يوجد حقًّا بلد مأهول بالسكان في القطب الشمالي؛ إذ كنت أتصور أنه لا توجد سوى بقعة قد يشعر فيها ماتاي شانج بالأمان من جون كارتر، أمير هيليوم.

كنا نحلق بسرعة بطيئة، لكن على بُعد عدة أقدام من سطح الأرض، ونتحسس حرفيًّا طريقنا عبر الظلام؛ فقد غَرُب القمران، وكان الليل أسود وملبدًا بالغيوم التي لا يمكن العثور عليها إلا في أقصى طرفي المريخ.

وفجأة ارتفع جدار أبيض شاهق في طريقنا مباشرة. وعلى الرغم من أنني أدرت دفة القيادة بشدة وعكست اتجاه محركنا، فقد فات الأوان لتجنب الاصطدام. مع تحطم مقزز، اصطدم الجزء الأكبر من سفينتنا بالعقبة التي لاحت في الأفق.

أخذت السفينة تتهاوى؛ حيث توقف المحرك، وانفجرت خزانات الطفو، وسقطنا نحو الأرض التي تبعد حوالي عشرين قدمًا.

لحسن الحظ لم يصب أحد منا بجراح. بدأنا نخرج من حطام السفينة، ورأينا القمر الأصغر يصعد من وراء الأفق. وجدنا أننا عند سفح الحاجز الجليدي الجبار، حيث انتشرت رقع كبيرة من تلال الجرانيت التي تحول دون امتداده نحو الجنوب.

يا له من مصير! اكتملت الرحلة وسقطنا مُدَمَرين على الجانب الخطأ من هذا الجدار الوعر الذي لا يمكن تسلقه، من الصخور والجليد!

نظرت إلى ثوفان ديهن، الذي هز رأسه بأسى.

أمضينا ما تبقى من الليل نرتجف في ما لدينا من قدر ضئيل لا يكفي من حرير وفراء النوم، على الجليد الذي يقع عند سفح الحاجز الجليدي.

استردت معنوياتي مع ضوء الصباح بعض تفاؤلها المعتاد، على الرغم من أنني كنت أعرف أن الطعام القليل المتوفر غير كاف.

سألني ثوفان ديهن: «ماذا سنفعل؟ كيف يمكننا اجتياز ما يستحيل اجتيازه؟».

فقلت: «علينا أولاً دحض هذه الاستحالة. لن أعترف باستحالة اجتيازه قبل أن أتعقب دائرته بأكملها وأعود مرة أخرى إلى هذه البقعة مهزومًا. كلما أسرعنا في البدء، كان أفضل؛ فلا أرى أي طريقة أخرى. سوف نستغرق أكثر من شهر في الترحال عبر الأميال المضجرة شديدة البرودة التي تنتظرنا».

عبرنا الطريق المتجمد الوعر، الذي يقع عند سفح الحاجز الجليدي، في خمسة أيام من البرد والمعاناة والحرمان. هاجمتنا نهارًا وليلاً مخلوقات شرسة مغطاة بالفراء. لم نكن أبدًا للحظة آمنين من هجوم مفاجئ من بعض شياطين الشمال الضخمة.

كان الأبت[46] بمثابة عدونا الأكثر تماسكًا وخطورة.

هو مخلوق ضخم، مُغطى بفراء أبيض ولديه ستة أطراف؛ أربعة منها قصيرة وثقيلة، تحمله سريعًا على الثلوج والجليد، بينما يمتد الطرفان الآخران إلى الأمام من كتفيه على كل جانب من رقبته الطويلة القوية، وينتهيان بأيادٍ بيضاء عديمة الشَّعر يمسك بها فريسته.

---

(46) الأبت: مخلوق وحشي، يسكن القطب الشمالي في المريخ .http://barsoom.wikia.com/wiki/Apt - (المترجمة).

أما رأسه وفمه، فهما أكثر شبهًا برأس وفم فرس النهر من أي حيوان آخر على كوكب الأرض، في ما عدا وجود قرنين قويين يمتدان بانحاء إلى أسفل قليلاً من جانبي عظام الفك السفلي نحو الأمام.

أثارت عيناه الضخمتان فضولي إلى حد كبير. فهما تمتدان في رقعتين بيضاويتين واسعتين من وسط الجزء العلوي من الجمجمة إلى أسفل جانبي الرأس، وصولاً إلى منبت القرنين؛ بحيث تنمو هذه الأسلحة بالفعل خارجة من الجزء السفلي للعينين التي تتكون كل منهما من عدة آلاف من الأعين البسيطة.

تبدو بِنية هذه العين ملحوظة في الوحوش التي تتردد على حقول الجليد والثلج الزاهية. وعلى الرغم من أنني وجدت بعد فحص دقيق للحيوانات العديدة التي قتلناها أن كل عين بسيطة مزودة بجفن خاص بها، وأن بمقدور الحيوان إغلاق أكبر عدد ممكن أعينه الضخمة حسب اختياره، فقد كنت على يقين أن الطبيعة قد سلحته بهذه الطريقة لأنه يقضي فترة طويلة من حياته في تجاويف الظلام تحت الأرض.

واجهنا بعد فترة قصيرة أضخم حيوان أبت. بلغ طول المخلوق وهو واقف ثماني أقدام من عند الكتف، وكان أنيقًا ونظيفًا ولامعًا حتى أنني كدت أقسم أنه حصل على رعاية مؤخرًا.

وقف يتطلع إلينا ونحن نقترب منه، فقد وجدنا أنها مضيعة للوقت محاولة الهروب من الغضب الوحشي الأبدي الذي يبدو مسيطرًا على تلك المخلوقات الشيطانية، التي تجوب الشمال الموحش وتهاجم كل شيء حي يأتي في نطاق بصر أعينها الممتد.

حتى عندما تمتلئ بطونهم بالكامل ويصبحون غير قادرين على أكل المزيد، فإنهم يقتلون لمجرد متعة القتل. ولذا عندما فشل هذا الأبت تحديدًا في هجومه، دار وهرول بعيدًا مع اقترابنا منه. اندهشت كثيرًا عندما لمحت لمعان طوق ذهبي حول عنقه.

لمحه ثوفان ديهن أيضًا؛ مما حمل لكلينا نفس رسالة الأمل. إن الرجل فقط هو مَن يستطيع وضع ذلك الطوق. ونظرًا لأن جميع أعراق المريخيين التي نعرفها لم تحاول أبدًا تدجين الأبت الشرس، فلا بد أنه ينتمي إلى شعب الشمال الذي نجهل حتى وجودهم- ربما ينتمي إلى عِرق الرجل الأصفر الأسطوري في برسوم؛ وهو العِرق الذي كان قويًّا ذات يوم، ومن المفترض أنه انقرض، وإن كان الـمُنظِرون يعتقدونَ أحيانًا أنه لا يزال موجودًا في الشمال المتجمد.

وفي الوقت نفسه، بدأنا نتحرك على درب الوحش الضخم. فهم وولا رغبتنا سريعًا، ولذا لم يكن من الضروري محاولة الحفاظ على مرأى الحيوان الذي أخرجته حركته السريعة على الأرض من مجال بصرنا.

كان أفضل جزء من ساعتين هو موازاة الدرب للحاجز، ثم انعطف فجأة نحو أكثر منطقة وعرة يتعذر اجتيازها رأيتها على الإطلاق.

كانت صخور الجرانيت الضخمة تسد الطريق من كل جهة، وتصدعات الجليد العميقة تهدد بابتلاعنا عند أقل زلة قدم. ومن الشمال، حمل نسيم خفيف إلى أنوفنا رائحة كريهة لا توصف كادت أن تخنقنا.

انشغلنا لمدة ساعتين أخريين في عبور بضع مئات من الياردات أسفل الحاجز.

درنا بعد ذلك حول زاوية بارزة من الجرانيت تشبه الجدار، ووجدنا أنفسنا في منطقة ملساء تمتد 3-2 إكرات قبل قاعدة كومة الجليد والصخور الشاهقة التي قد أعاقتنا لأيام، ورأينا أمامنا فتحة غائرة مظلمة لكهف.

كانت الرائحة الكريهة تنبعث من هذا المدخل الـمُنفر. وعندما لمح ثوفان ديهن المكان، توقف وهو يصيح هاتفًا في دهشة كبيرة: «يا لكل أسلافي! لقد عشتُ لأشهد حقيقة كهوف كاريون الأسطورية! إذا كانت هذه هي كهوف كاريون بالفعل، فقد وجدنا طريقًا لتجاوز الحاجز الجليدي. إن السجلات القديمة لمؤرخي برسوم الأوائل- وهي قديمة إلى حد أننا اعتبرناها أساطير لعصور- تُسجل نهاية الرجال الصُّفر نتيجة آثار الجحافل الخضراء المدمرة التي اجتاحت برسوم، حيث أدى جفاف المحيطات الكبرى إلى خروج الأعراق المهيمنة من معاقلها. يحكون عن ترحال بقايا هذا العِرق الذي تميز بالقوة ذات يوم، سباق مرة واحدة قوية، وعن تعرضه للمضايقات في كلِ خطوة، إلى أن وجد أخيراً طريقًا عبر الحاجز الجليدي في الشمال إلى أحد الوديان الخصبة في القطب.

عند فتحة الممر تحت الأرضي الذي يؤدي إلى مأوى لجوئهم، دارت معركة قوية انتصر فيها الرجال الصُفر. وفي الكهوف التي كانت بمثابة مداخل إلى وطنهم الجديد، كدسوا جثث القتلى، من العِرقين الأصفر والأخضر، بحيث تُبعِد الرائحة الكريهة خصومهم من مواصلة مطاردتهم. ومنذ ذلك الحين، في تلك الفترةِ البعيدة، كان موتى هذه الأرض الأسطورية يُنقلون إلى كهوف كاريون؛ فقد يخدم موتهم وتحللهم بلدهم ويبعد عنها الأعداء الغزاة. وتقول الأسطورة إنهم كانوا ينقون إلى هنا أيضًا جميع نفايات الأمة- كل شيء يمكن أن يتعفن، بحيث يُضيف إلى الرائحة الكريهة التي تهاجم أنوفنا. والموت يختفي في كل خطوة بين الموتى المتعفنين؛ فهنا عرين مخلوقات الأبت

الشرسة، بالإضافة إلى التكدس العفن للأجزاء التي لا يأكلونها من فرائسهم. إنه طريق مروع لتحقيق هدفنا، لكنه السبيل الوحيد».

سألته: «أأنت متأكد إذنْ أننا وجدنا الطريق إلى أرض الرجل الأصفر؟».

فأجاب: «أعتقد ذلك؛ ولا يدعم اعتقادي هذا سوى الأسطورة القديمة. ولكن انظر إلى أي مدى، حتى الآن، تتطابق كل تفصيلة مع القصة القديمة قِدم العالم لهجرة العرق الأصفر. نعم، أنا متأكد أننا اكتشفنا الطريق إلى مكان اختبائهم القديم».

قلت: «دعنا نصلي أن يكون كلامك صحيحًا. وإن كان، ربما يمكننا هنا حل لغز اختفاء تاردوس مورس، جيداك هيليوم، وابنه مورس كاجاك؛ فلا توجد أي بقعة أخرى في برسوم لم تبحث فيها العديد من البعثات، هذا غير العدد الذي لا يُحصى من الجواسيس الذين يبحثون عنهما لما يقرب من عامين. آخر ما جاءنا منهم أنهم خرجوا يبحثون عن كارثوريس، ابني الشجاع، وراء الحاجز الجليدي».

اقتربنا ونحن نتحدث من مدخل الكهف. وعندما تجاوزنا عتبته، توقفت متعجبًا أن الرجال الخُضر القدماء، أعداء العِرق الأصفر، قد أوقفتهم أهوال ذلك الطريق المفزع.

تكومت عظام الرجال الموتى، على ارتفاع رجل، على أرضية الكهف الأول الواسعة، وفوق الكومة قطعة متعفنة من لحم متحلل. شقت مخلوقات الأبت خلال هذه الكومة دربًا بشعًا تجاه مدخل الكهف الثاني.

كان سقف هذه المساحة الأولى منخفضًا، مثل كل ما اجتزناه لاحقًا، بحيث كانت الروائح الكريهة محصورة ومكثفة إلى حد أنها بدت كشيء ملموس. يميل المرء هنا إلى امتشاق سيفه القصير وشق طريقه سريعًا بحثًا عن الهواء النقي في الخارج.

تساءل ثوفان ديهن، مختنقًا: «هل يمكن أن يتنفس الرجل هذا الهواء الملوث ويعيش؟».

فقلت: «أتصور ليس لفترة طويلة، لذا علينا أن نسرع. سوف أذهب أولاً، وأنت في الخلف، وولا بيننا. هيا»؛ ثم انطلقت نحو الأمام عبر كتل التعفن النتنة.

لم نقابل أي اعتراض مادي قبل أن ننتهي من المرور خلال سبعة كهوف ذات أحجام وأنواع مختلفة، وإن كانت تقل قوة ونوعية الرائحة النتنة. وفي الكهف الثامن، وصلنا إلى معقل لمخلوقات الأبت.

ضمت الغرفة دزينة كاملة من الوحوش الجبارة. كان بعضهم نائمًا، بينما كان البعض الآخر يمزق جثثًا جديدة لفرائس حديثة القتل، وهناك البعض الذين يتقاتلون وهم يمارسون الحب.

وهنا، في هذا الضوء الخافت لبيتهم تحت الأرض، اتضحت أهمية أعينهم الكبيرة؛ فهذه الكهوف الداخلية يلفها ظلام أبدي يقل قليلاً عن الظلام الدامس.

بدت -حتى بالنسبة لي- أن محاولة المرور وسط هذا القطيع الشرس هي ذروة الحماقة، فاقترحت على ثوفان ديهن أن يعود إلى العالم الخارجي مع وولا ويحاولان أن يجدا طريقهما إلى الحضارة ثم يعودان ثانية وبصحبتهما قوة كافية، ليس للتغلب على مخلوقات الأبت فقط، وإنما أيضًا لمواجهة أي عقبات أخرى تقع بيننا وبين هدفنا.

«وفي الوقت نفسه»، واصلت قائلاً: «قد اكتشفت بعض الوسائل لشق طريقي بمفردي إلى أرض الرجال الصُفر. وإذا فشلت، عندئذ نكون ضحينا بحياة واحدة فقط. أما إذا ذهبنا جميعًا وهلكنا، لن يوجد أحد ليوجه مجموعة الإغاثة نحو ديجاه ثوريس وابنتك».

أجاب ثوفان ديهن: «لن أذهب وأتركك هنا بمفردك يا جون كارتر. سواء فزت بالنصر أو انتهى بك الحال إلى الموت، سوف يبقى جيداك بتارث إلى جانبك. لقد أنهيت حديثي».

عرفت من نبرة صوته أن الجدال معه سيكون بلا جدوى، فخاطرت بإرسال وولا مع كلمة مكتوبة على عجل، وضعتها في علبة معدنية صغيرة، وربطها حول عنقه. أمرت وولا الوفي أن يبحث عن كارثوريس في هيليوم. وعلى الرغم من أن أنه سيعبر نصف عالَم ويواجه عددًا لا يُحصى من الأخطار، فقد كنت أعرف أن هذه المهمة إذا كانت قابلة للتحقيق، فإن وولا سيفعلها.

كانت الطبيعة قد منحت وولا سرعة رائعة وقدرة على التحمل، فضلاً عن ضراوة مخيفة تجعله مؤهلاً لمواجهة أي عدو على الطريق؛ كما أن ذكاءه الشديد وغريزته العجيبة تستكمل المطلوب للنجاح في إنجاز مهمته.

استدار الوحش الكبير، مع عزوف واضح، ليتركني امتثالاً لأمري. وقبل أن يذهب، لم أستطع مقاومة رغبتي في لف ذراعي حول رقبته الكبيرة في عناق الفراق. أخذ وولا يحك في يدي، في مداعبة نهائي، ثم اندفع مسرعًا عبر كهوف كاريون متجهًا نحو العالم الخارجي.

في مذكرتي إلى كارثوريس، أعطيت اتجاهات واضحة لتحديد مواقع كهوف كاريون، مع تأكيدي على ضرورة دخول البلد عبر هذا الطريق، وعدم محاولة عبور الحاجز الجليدي تحت أي ظرف من الظروف عن طريق أسطول. قلت له إنني لا أستطيع حتى تخمين ما يكمن وراء الكهف الثامن؛ لكنني على يقين أن والدته موجودة في مكان ما على الجانب الآخر من الحاجز الجليدي تحت سيطرة ماتاي شانج، وربما أيضًا جده وجده الأكبر، إذا كانوا في قيد الحياة.

علاوةً على ذلك، نصحته بأن يطلب من كولان تيث وابن ثوفان ديهن إمداده بمحاربين وسفن، بحيث تتمتع الحملة بما يكفي من قوة تضمن نجاحها من أول ضربة.

وأنهيت رسالتي قائلاً: «إذا كان هناك وقت، أحضر تارس تاركاس معك؛ فإذا قُدِر لي أن أعيش حتى تصل، فليس لدي من متعة أكبر من القتال ثانية إلى جانب صديقي القديم».

بعد أن تركنا وولا، اختبأت مع ثوفان ديهن في الكهف السابع. ناقشنا ورفضنا العديد من الخطط لعبور الغرفة الثامنة. رأينا من حيث نقف أن القتال بين مخلوقات الأبت يقل تدريجيًا، وأن العديدين الذين كانوا يأكلون قد توقفوا واستلقوا للنوم.

أصبح واضحًا الآن أن جميع الوحوش الشرسة قد تخلد إلى النوم في سلام، ما يمنحنا قريبًا فرصة محفوفة بالمخاطر للعبور من خلال مخبئهم.

تمددت المخلوقات الوحشية، واحدًا تلو الآخر، فوق التحلل الفقاعي الذي غطى كتلة العظام على أرضية وكرِهم، لكن واحدًا منهم فقط ظل مستيقظًا. كان هذا الكائن الضخم يتجول قلقًا، يتشمم رِفاقه وقمامة الكهف البغيضة.

كما كان يتوقف من حين لآخر لإنعام النظر تجاه أول مخارج الغرفة، ثم المخرج الآخر. ينم سلوكه كله على أنه يعمل كحارس.

اضطررنا أخيراً إلى الاعتقاد بأنه لن ينام ما دام شاغلو هذا الوكر نائمين، ولذا دارت في أذهاننا خطط قد تتيح لنا خداعه. وأخيراً اقترحت خطة على ثوفان ديهن. ونظرًا لأنها بدت جيدة، مثل باقي الخطط التي ناقشناها، فقد قررنا اختبارها.

تحقيقًا لهذه الغاية، اقترب ثوفان ديهن من جدار الكهف، بجوار مدخل الغرفة الثامنة. بينما أظهرت أنا نفسي عمدًا لمخلوق الأبت الحارس عندما نظر نحو تراجعنا. عندئذ قفزت إلى الجانب المقابل للمدخل، مسطحًا جسدي بالقرب من الجدار.

تحرك الوحش الضخم دون صوت بسرعة نحو الكهف السابع، ليرى مَن هذا الدخيل الذي تسلل برعونة كل هذه المسافة إلى داخل حدود مسكنه.

وعندما حشر رأسه خلال الفتحة الضيقة التي تربط الكهفين، كان سيف طويل ثقيل ينتظره على كل جانب. وقبل أن تُتاح له فرصة إصدار حتى هدير واحد، تدحرج رأسه المقطوع تحت أقدامنا.

نظرنا بسرعة داخل الغرفة الثامنة- لم يتحرك أي من مخلوقات الأبت. تسللنا فوق جثة الوحش الضخمة التي سدت المدخل، ودخلنا بحذر إلى الوكر المحظور المحفوف بالمخاطر.

شققنا طريقنا، مثل القواقع، بصمت وحذر بين الكائنات الضخمة الراقدة. كان الصوت الوحيد، غير تنفسنا، هو ضجيج أقدامنا عندما نرفعها من الأجساد المتحللة خلال زحفنا.

في منتصف الطريق عبر الغرفة، تحرك بقلق أحد الوحوش الجبارة في اللحظة نفسها التي كنت سأخطو فيها بقدمي من فوق رأسه.

انتظرت بهدوء، ووازنت نفسي على قدم واحدة؛ فلم أكن أجرؤ على القيام بأدنى حركة. كنت أحمل في يدي اليمنى سيفي القصير البتّار، ويقع رأسه على مسافة شبر أعلى الفراء السميك الذي يوجد أسفله قلب المخلوق الوحشي.

استرخى مخلوق الأبت أخيرًا، متنهدًا، كأنما انتهى من حلم مزعج، واستأنف تنفسه العادي ونومه العميق. وضعت قدمي بعد رأسه الشرسة، وبعد لحظة خطوت من فوقه.

تبعني ثوفان ديهن مباشرة، وبعد لحظة أخرى وجدنا أنفسنا أمام باب آخر لم نكن نعرف بوجوده.

تتكون كهوف كاريون من سلسلة تضم 27 غرفة متصلة. ويبدو من مظهرها أنها تآكلت بفعل المياه الجارية في عصر عتيق، عندما وجد نهر جبار طريقه إلى الجنوب خلال هذا الشق المنفرد في حاجز الصخور والجليد الذي يطوق بلدة القطب.

اجتزت مع ثوفان ديهن الكهوف التسعة عشر المتبقية دون مغامرات أو أحداث مؤسفة.

عرفنا لاحقًا أنه يمكن العثور على جميع مخلوقات الأبت، التي تسكن كهوف كاريون، في غرفة واحدة مرة واحدة فقط في الشهر.

أما في الأوقات الأخرى، فهم يتجولون منفردين أو في أزواج داخل الكهوف وخارجها، بحيث يستحيل عمليًّا لرجلين المرور خلال الغرف السبع والعشرين كاملة دون مقابلة مخلوق الأبت في كل غرفة تقريبًا. وهم ينامون مرة واحدة في الشهر لمدة يوم كامل، ومن حسن حظنا أننا دخلنا مصادفة في أحد هذه الأيام.

خرجنا بعد الكهف الأخير إلى بلد مقفر، من الثلوج والجليد، لكننا وجدنا دربًا ملحوظًا بوضوح يؤدي إلى الشمال. امتلأ الطريق بصخور متناثرة، كما كان الحال عند جنوب الحاجز، بحيث لم نتمكن في أي وقت إلا من رؤية مسافة قصيرة أمامنا.

وصلنا بعد بضع ساعات إلى صخرة ضخمة عند منحدر حاد يؤدي إلى واد في أسفل.

رأينا أمامنا مباشرة نصف دزينة من الرجال يتسمون بالشراسة، ولحاهم سوداء، وبشرتهم بلون الليمون الناضج.

هتف ثوفان ديهن: «رجال برسوم الصُّفر!». فعلى الرغم من أنه يراهم الآن، فقد وجد أنه بالكاد ما يمكنه تصديق أن هذا العِرق الذي كنا نتوقع العثور عليه مختفيًا في هذه الأرض النائية التي يتعذر الوصول إليها، موجود بالفعل.

تراجعنا خلف صخرة متاخمة لمشاهدة تصرفات هذه المجموعة الصغيرة، التي وقفت محتشدة عند سفح صخرة ضخمة أخرى، وكانت ظهورهم نحونا.

كان أحدهم ينعم النظر حول حافة كتلة من الجرانيت، مشاهدًا أحد الذين اقتربوا من الجانب الآخر.

والآن، جاء الشيء الذين يحدقون نحوه في نطاق رؤيتي، وكان رجلاً أصفر آخر. كانوا جميعًا يرتدون فراء رائعًا- يرتدي الستة فراء الأورلوك [47] الأسود المقلم بالأصفر، بينما كان الرجل الذي جاء بمفرده يرتدي متألقًا جلد الأبت الأبيض.

كان كل رجل أصفر مسلحًا بسيفين، يتدلي من خلف كل منهما رمح قصير؛ بينما يتدلى من ذراعه اليسرى دروع على شكل فنجان، لا يزيد حجمها عن طبق العشاء، وتتجه جوانبها المقعرة إلى الخارج نحو الخصم.

(47) أورلوك: هو وحش شرس يشبه الفيل، يوجد على وجه الحصر تقريبًا في مناطق أقصى شمال المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Orluk.(المترجمة).

تبدو أدوات ضعيفة وغير مجدية للسلامة ضد حتى المبارز العادي، لكني عرفت لاحقًا الغرض منها وكيف يستخدمها الرجل الأصفر ببراعة مذهلة.

لفت انتباهي على الفور أحد السيوف التي يحملها كل محارب. أُسمِّيه سيفًا، لكنه في الواقع نصل حاد ينتهي بخُطاف كامل.

وكان طول السيف الآخر يماثل تقريبًا طول السيف المزود بخُطاف، ويقع في مكان ما يماثل المسافة بين سيفي الطويل وسيفي القصير. كان هذا السيف مستقيمًا وذا حدين. وبالإضافة إلى الأسلحة التي ذكرتها، كان كل رجل يحمل خنجرًا في عتاده.

عندما اقترب الرجل الذي يرتدي الفراء الأبيض، امتشق الرجال سيوفهم بحزم- الأداة ذات الخُطاف في اليد اليسرى، والسيف المستقيم في اليد اليمنى، بينما ثُبِّت الدرع الصغير بقوة على سوار معدني فوق معصم اليد اليسرى.

ونظرًا لأن المحارب المنفرد جاء من الجهة المقابلة، أسرع الستة نحوه وهم يطلقون صرخات وحشية لا تشبه سوى صرخة الحرب الوحشية التي تطلقها قبائل الأباتش في الجنوب الغربي الأمريكي.

سحب المحارب المنفرد سيفيه على الفور. وعندما انقض عليه المحاربون الستة، شاهدتُ قتالاً رائعًا يحب المرء مشاهدته.

حاول المقاتلون الإمساك بعدوهم باستخدام الخُطافات الحادة، لكن درعه السريع كالبرق اندفع قبل انطلاق سلاح الهجوم وبداخل تجويفه الخطاف.

ما إن تمكن المحارب المنفرد باستخدام خطافه من الإمساك بأحد خصوم، حتى أغمد سيفه.

لكن الاحتمالات لم تكن متكافئةً على الإطلاق. فعلى الرغم من أن المقاتل المنفرد كان أفضلهم وأشجعهم بقدر كبير، فقد رأيتُ أنها ليست سوى مسألة وقت قبل أن يجد الخمسة الباقون ثغرة خلال وضعه الدفاعي الرائع وإسقاطه.

أتعاطف دائمًا مع الجانب الأضعف. ومع أنني لا أعرف أي شيء عن سبب المشكلة، فلا يمكنني الوقوف مكتوف اليدين وأرى رجلاً شجاعًا يُذبح لأن عدد خصومه أكبر.

لم أهتم كثيراً -في واقع الأمر- للبحث عن ذريعة؛ فحبي للقتال الجيد لا يجعلني في حاجة إلى أي سبب آخر للمشاركة في قتال يجري على قدم وساق.

وهكذا، وقبل أن يعرف ثوفان ديهن ما كنت على وشك القيام به، شاهدني أقف إلى جانب الرجل الأصفر الذي يرتدي ملابس بيضاء، أقاتل معه كالمجنون ضد خصومه الخمسة.

* * *

(9)
مع الرِّجال الصُّفر

لم يطل الوقت قبل أن ينضم معي ثوفان ديهن. وعلى الرغم من أننا وجدنا التعامل مع سلاح الخُطاف غريبًا ووحشيًّا، سرعان ما قتل ثلاثتنا محاربي اللحى السوداء الخمسة الذين واجهونا.

بعد انتهاء المعركة، استدار نحونا زميلنا الجديد وأخرج الدرع من معصمه. لم أعرف أهمية هذا التصرف، لكني خمنتُ أنه ليس سوى أحد أشكال التعبير عن امتنانه لي.

علمت بعد ذلك أن هذا التصرف يرمز إلى أن الرجل يعرض حياته في مقابل الفضل العظيم الذي قُدِم له. وكان رفضي الفوري هو ما توقعه مني.

قال الرجل الأصفر: «إذن اقبلْ من تالو، أمير مارينتينا، هذا الرمز تعبيراً عن امتناني»، وأخرج من أسفل أحد أكمامه الواسعة سوارًا ووضعه على ذراعي، وفعل الشيء نفسه مع ثوفان ديهن.

سألنا عن أسمائنا، ومن أي مكان أتينا. كان يبدو على دراية كبيرة بجغرافيا العالم الخارجي. وعندما أخبرته أنني من هيليوم، رفع حواجبه.

وقال: «آه، تبحثون عن حاكمكم ورفيقه؟».

سألته: «هل تعرفهما؟».

«لا أعرف سوى أن عمي أمسك بهما. عمي هو سالينسوس أوول، جيداك كل الجيداك، وحاكم أوكار، أرض رجال برسوم الصُّفر. أما عن مصيرهم، فلا أعرف شيئًا؛ لأنني في حالة حرب مع عمي، الذي يريد سحق سلطتي في إمارة مارينتينا. إن أولئك الذين أنقذتموني منهم، من محاربيه الذين أرسلهم للبحث عني وقتلي؛ فهم يعرفون أنني كثيراً ما أحضر بمفردي لصيد وقتل مخلوق الأبت المقدس الذي يقدسه كثيراً سالينسوس أوول. يكرهني سالينسوس أوول جزئيًّا؛ لأنني أكره الدين الذي يعتنقه؛ لكنه يخشى غالبًا سلطتي المتنامية، حيث الفصيل العظيم الذي نشأ في جميع أنحاء أوكار سيسعد لرؤيتي حاكم أوكار وجيداك كل الجيداك بدلاً منه. إنه حاكم قاس ومستبد، يكرهه الجميع. ولولا خوفهم الشديد منه، لجمعت جيشًا بين عشية وضحاها للقضاء على القليلين الموالين له. أما شعبي فهو مخلص لي، ولم يدفع ووادي مارينتينا الصغير أي ضريبة لبلاط

سالينسوس أوول لمدة سنة. وهو لا يستطيع إجبارنا؛ إذ يمكن لدزينة رجال أن تغلق الطريق الضيق إلى مارينتينا ضد مليون. والآن، عن شؤونكم.. كيف يمكنني مساعدتكما؟ قصري تحت تصرفكم، إن رغبتم في منحي شرف المجيء إلى مارينتينا».

فقلتُ: «عندما ننتهي من مهمتنا، سيسعدنا قبول دعوتك. أما الآن، يمكنك مساعدتنا بإرشادنا إلى بلاط سالينسوس أوول، واقتراح بعض الوسائل التي تُيسر لنا دخول المدينة والقصر، أو أي مكان آخر يحتجزون فيه أصدقاءنا».

حدق تالو بأسف إلى وجوهنا الملساء، وبشرة ثوفان ديهن الحمراء، وبشرتي البيضاء.

وقال: «يجب أن تأتوا أولاً إلى مارينتينا؛ فيجب تغيير مظهركما كثيراً قبل أن تأملا في دخول أي مدينة في أوكار. يجب أن توجد لديكما وجوه صفراء ولحى سوداء، كما يجب ألَّا تثير ملابسكما وأغطيتكما المزخرفة الشكوك. يوجد في قصري شخص يمكن أن يجعل مظهركما مثل الرجال الصُّفر تمامًا، مثل سالينسوس أوول نفسه».

بدا رأيه حكيمًا. ونظرًا لعدم وجود أي وسيلة أخرى لضمان دخولنا بنجاح إلى كادابرا عاصمة أوكار، ذهبنا مع تالو أمير مارينتينا إلى بلدته الصغيرة التي تحيط بها الصخور.

كان الطريق من أسوأ الرحلات التي شهدتها. وما من عجب أن مارينتينا، التي لا توجد فيها حيوانات الثوات أو السفن الفضائية، لا تخشى من أي غزو. وصلنا أخيراً إلى وجهتنا، وشاهدتها بداية من ارتفاع طفيف على بُعد نصف ميل من المدينة.

تقع المدينة في حضن واد عميق، وهي مبنية من الخرسانة المريخية، وكان كل شارع وميدان وساحة مفتوحة مسقوفًا بالزجاج. يوجد الثلج والجليد في كل مكان، ما عدا فوق الغطاء الكريستالي المستدير الذي يغطي المدينة بأكملها.

رأيت كيف قاوم هؤلاء الناس قسوة القطب الشمالي، ويعيشون في رفاهية وراحة وسط أرض من الجليد الأبدي. كانت مدنهم عبارة عن مدافئ حقيقية، وهنا يجب أن أعرب عن احترامي وإعجابي بالمهارات العلمية والهندسية غير المحدودة لهذه الأمة المدفونة.

ما إن دخلنا المدينة، حتى ألقى تالو بغطاء الفراء الخارجي الذي يرتديه، وفعلنا نفس الشيء. رأيتُ أن ملابسه تختلف قليلاً عن ملابس الأعراق الحمراء في برسوم. كان

عاريًا، باستثناء عتاده المصنوع من الجلد وتغطيه الجواهر والمعادن السميكة؛ فلا يمكن للمرء أن يشعر بالراحة وهو يرتدي ملابس في ذلك الجو الحار والرطب.

بقينا ضيوفًا عند الأمير تالو لمدة ثلاثة أيام، أحاطنا خلالها بكل اهتمام ومجاملة في إطار سلطته. وأرانا كل ما يثير الاهتمام في مدينته العظيمة.

تحافظ محطة الجو في مارينتينا على الحياة إلى أجل غير مسمى في مدن القطب الشمالي، بعدما بدأت تنقرض أشكال الحياة كافةً على ما يتبقى من المريخ، الآخذ في الاحتضار نتيجة لعدم التزود بالهواء، إذا توقف المحطة المركزية الكبيرة مرة أخرى عن العمل- كما حدث بالفعل عند وقوع ذلك الحادث الذي لا يُنسى، حيث منحني فرصة استعادة الحياة والسعادة في العالم الغريب الذي أحبه كثيراً.

أخذنا لنرى نظام التدفئة الذي يُخزن أشعة الشمس في خزانات كبيرة تحت المدينة، ومدى قلة القدر الضروري المطلوب للحفاظ على حرارة الصيف الأبدي للحديقة المجيدة في جنة القطب الشمالي هذه.

كانت الطرق الواسعة، المكونة من طبقة عشبية مجدولة مع بذور النباتات الصفراء من قيعان البحر الميت، تحمل بصمت حركة مركبات أرضية خفيفة متجددة الهواء؛ وهي الشكل الوحيد للنقل الاصطناعي الـمُستخدم في شمال الحاجز الجليدي العملاق.

وقد صُنعت الإطارات العريضة لهذه المركبات المتفردة من حقائب غازية تشبه المطاط، مملوءة بالشعاع البرسومي الثامن، أو شعاع الدفع- هذا الاكتشاف المريخي الرائع الذي أتاح لأساطيل كبيرة من السفن الفضائية الجبارة أن تجعل الرجل الأحمر من الخارجي في العالم متفوقًا. فهذا الشعاع يدفع الضوء المتأصل في الكوكب أو المنعكس منه إلى الفضاء، ويعطي المركبة الفضائية المريخية عند احتجازه طفوها الهوائي.

تحتوي المركبات الأرضية في مارينتينا على قدر كاف فقط من الطفو على عجلاتها التي تشبه عجلات السيارات، وذلك لإعطاء المركبات قوة السحب اللازمة لتوجيهها. وعلى الرغم من أن العجلات الخلفية مرتبطة بالمحرك وتساعد في قيادة الآلة، فإن مروحة صغيرة في المؤخرة تقوم بالجزء الأكبر من هذا العمل.

لا أعرف إحساسًا أكثر روعة من ركوب إحدى هذه المركبات الفاخرة، الخفيفة والهوائية كالريش، على طريق طحلبي ناعم كطرق مارينتينا. إنها تتحرك دون ضجة على الإطلاق بين حدود المرجة القرمزية، تحت قوس أشجار رائع يضم أزهارًا عجيبة من أصناف عديدة تتميز بها الحياة النباتية في برسوم.

مع حلول نهاية اليوم الثالث، أتى حلاق البلاط الملكي -لا أجد أي تسمية أخرى لوصفه غير تسميتنا في كوكب الأرض- وأجرى تغييراً ملحوظًا في مظهري ومظهر ثوفان ديهن، بحيث لا تتعرف علينا حتى زوجاتنا. أصبحت بشرتنا بنفس اللون الليموني لبشرته، كما تمكن من لصق لحى وشوارب سوداء كبيرة على وجوهنا الملساء. وساعدت أغطية محاربي أوكار المزخرفة في التنكر؛ أما عن ملبسنا خارج المدن الدافئة، فقد أعطى كلًّا منا رداء من فراء الأورلوك الأسود المقلم بالأصفر.

أعطانا تالو توجيهات دقيقة للرحلة إلى كادابرا عاصمة أمة أوكار، وهو الاسم العِرقي للرجال الصُّفر. وقد رافقنا هذا الصديق الجيد في جزء من الطريق، ووعد بمساعدتنا بأي شكل من الأشكال يجده ممكنًا، ثم ودعنا.

قبل أن نفترق، وضع في إصبعي خاتمًا غريب الصنع، من حجر أسود لا يصدأ، يبدو أكثر شبهًا بقطعة من الفحم الحجري منه كجوهرة برسومية لا تقدر بثمن.

قال: «كان هناك ثلاثة آخرون مقطوعون من الحجر الأصلي الموجود في حوزتي. يرتدي هذه الخواتم الثلاثة نبلاء أثق فيهم تمامًا، وقد أرسلتهم جميعًا في بعثات سرية إلى بلاط سالينسوس أوول. إذا اقتربت في إطار خمسين قدمًا من أي من هؤلاء الثلاثة، ستشعر بوخز سريع في الإصبع الذي ترتدي فيه هذا الخاتم. وسيشعر الشخص الآخر الذي يرتدي الخاتم بنفس الإحساس. ويرجع السبب إلى حدوث تأثير كهربائي

في اللحظة التي تقع فيها الجوهرتان، المقطوعتان من نفس الحجر الأصلي، داخل دائرة نصف قطرها هو قوة كل منهما. وستعرف بهذه الطريقة أنه صديق، يمكنك الاعتماد عليه إن احتجت إلى مساعدة. ولا تتردد إذا طلب شخص آخر يرتدي أحد هذه الجواهر مساعدتك. وإذا كنت مهددًا بالموت، عليك أن تبتلع الخاتم حتى لا يقع في أيدي الأعداء. حافظ عليه بحياتك يا جون كارتر، فربما في يوم ما سيعني أكثر من الحياة بالنسبة لك».

غادر صديقنا إلى مارينتينا بعد هذا التحذير. ولينا وجوهنا في اتجاه مدينة كادابرا وبلاط سالينسوس أوول، جيداك كل الجيداك.

في ذلك المساء، وقع سور مدينة كادابرا وأسطحها الزجاجية على مرمى البصر. تقع المدينة في منخفض قصير قرب القطب، وتحيط بها التلال الصخرية المغطاة بالجليد. رأينا -خلال ممر مدخلنا إلى الوادي- مشهدًا رائعًا لهذه المدينة الشمالية العظيمة. كانت قبابها الكريستالية تلمع في ضوء الشمس الرائعة المشرقة فوق الجدار الخارجي المغطى بالصقيع، الذي يلف مجمل محيطها البالغ مائة ميل.

تُفتح البوابات الكبيرة على فترات منتظمة، لتتيح الدخول إلى المدينة. ولكن حتى من المسافة التي نظرنا منها إلى البناء الضخم، كان واضحًا أن جميع البوابات مغلقة. لذا، وبناءً على اقتراح تالو، أجلنا محاولة دخول المدينة حتى صباح اليوم التالي.

وجدنا -كما قال- العديد من الكهوف في منحدرات التلال حولنا، وتسللنا ليلاً إلى أحدها. أشعرتنا ملابسنا الدافئة، من جلد الأورلوك بالراحة التامة؛ فنمنا نومًا عميقًا، واستيقظنا بعد وقت قصير من طلوع النهار في صباح اليوم التالي.

كانت المدينة تموج بالحركة، ورأينا من البوابات العديدة مجموعات الرجال الصُّفر. اتبعنا بدقة كافة تفاصيل توجيهات صديقنا الطيب من مارينتينا، فبقينا مختفين لعدة ساعات إلى أن مرت مجموعة تضم حوالي نصف دزينة من المحاربين على الدرب الذي يقع أسفل مكان اختبائنا، ودخلت إلى التلال عن طريق الممر الذي عبرناه مساء أمس.

وبعد أن انتظرنا وقتًا كافيًا يضمن ابتعادهم عن مرأى كهفنا، تسللنا أنا وثوفان ديهن خارج الكهف وتابعناهم، ثم لحقنا بهم عندما دخلوا إلى التلال.

عندما وصلنا إليهم تقريبًا، ناديت زعيمهم بصوت عال؛ فتوقفت المجموعة كلها واستدارت نحونا. وهنا أتى الاختبار الحاسم؛ إذا نجحنا في خداع هؤلاء الرجال، سيكون الباقي سهلاً نسبيًّا.

مع اقترابي منهم قلت: «كاور!».

أجاب الضابط المسؤول عن المجموعة: «كاور!».

«نحن من إيلال»، واصلت كلامي، ذاكرًا اسم أبعد مدينة في أوكار، كما ليس لديها سوى علاقات محدودة، إن وجدت، مع كادابرا، «وصلنا بالأمس فقط، وأخبرنا كابتن البوابة صباح اليوم أنكم خارجون لاصطياد الأورلوك، وهي رياضة غير موجودة في منطقتنا. وقد أسرعنا وراءكم على أمل أن تسمحوا لنا بمرافقتكم».

نجحنا في خداع الضابط تمامًا، وسمح لنا بلطف أن نمضي معهم. ثبتت صحة تخمين احتمال خروجهم لصيد الأورلوك؛ فقد أخبرنا تالو أن الاحتمال عشرة إلى واحد لأي بعثة تغادر كادابرا من خلال الطريق الذي دخلنا منه إلى الوادي؛ لأنه يؤدي مباشرة إلى السهول الواسعة التي يتردد عليها هذا الوحش الجارح الشبيه بالفيل.

بقدر ما يتعلق الأمر بالصيد، كان اليوم فاشلاً؛ فلم نرَ أي أورلوك. على أن ذلك كان من حسن حظنا؛ فقد تكدر الرجال الصُّفر من سوء حظهم لدرجة أنهم قرروا عدم دخول المدينة من نفس البوابة التي خرجوا منها في الصباح، إذ يبدو أنهم تفاخروا كثيراً أمام كابتن البوابة حول مهاراتهم في هذه الرياضة الخطرة.

ولذلك، اقتربنا من كادابرا عند نقطة تبعد عدة أميال عن موقع خروج المجموعة في الصباح، وبالتالي تخففنا من عبء مواجهة خطر أسئلة كابتن البوابة المحرجة وتقديم تفسيرات؛ لأننا سبق وقلنا للمجموعة أنه وجهنا إليهم تحديدًا.

اقتربنا جدًّا من المدينة، وجذب انتباهي رمح أسود طويل يرتفع برأسه عدة مئات من الأقدام في الهواء، ممَّا بدا كتلة متشابكة من القمامة المعدنية أو الحطام، تغيها الثلوج الآن جزئيًّا.

لم أجرؤ على المجازفة بالسؤال خشية إثارة شكوك حول جهلي الواضح

بشيء يجب أن أعرفه كرجل أصفر. لكني عرفتُ قبل وصولنا إلى بوابة المدينة الغرض من هذا الرمح القاتم، ومعنى الأشياء المتراكمة أسفله.

وصلنا إلى البوابة تقريبًا، ونادى أحد أفراد المجموعة على زملائه وهو يشير في الوقت نفسه نحو الأفق الجنوبي البعيد. نظرت في اتجاه إشارته، فرأيت هيكل سفينة فضائية كبيرة يقترب سريعًا فوق قمة التلال المطوقة.

تمتم القائد لنفسه: «لا يزال هناك حمقى آخرون يحاولون حل أسرار الشمال المحظور. ألن يتوقف فضولهم القاتل؟».

أجاب أحد المحاربين: «لنأمل ألَّا يتوقف، وإلا ماذا سنفعل بالنسبة للعبيد والرياضة؟».

«صحيح؛ ولكن يا لهم من وحوش غبية تستمر في المجيء إلى منطقة لم يرجع منها أبدًا كل مَن جاء إليها».

قال أحد الرجال: «دعونا نتلكأ لنشاهد نهاية هذه السفينة».

نظر الضابط نحو المدينة.

وقال: «لقد رآها حارس المناوبة؛ يمكننا البقاء، فقد يحتاجون إلينا».

نظرت نحو المدينة، فرأيت عدة مئات من المحاربين يخرجون من البوابة الأقرب. كانوا يتحركون على مهل، كأنما لا توجد حاجة للتسرع- نعم، ما من حاجة للتسرع، كما عرفت الآن.

أدرت بصري مرة أخرى نحو السفينة الفضائية، وكانت تتحرك بسرعة نحو المدينة. وعندما اقتربت بقدر كاف، فوجئت أن مراوحها تعطلت.

اتجهت نحو الرمح القاتم مباشرة. وفي آخر لحظة رأيت ريش المروحة الكبير يتحرك في اتجاه يجعلها تنقلب، كأنما تجذبها قوة جبارة يتعذر مقاومتها.

ساد هرج ومرج شديد على سطحها، حيث كان الرجال يركضون هنا وهناك نحو المدافع ويستعدون لإطلاق طائرات صغيرة تحمل كل منها راكبًا واحدًا، التي يُعد أسطولها جزءًا من معدات كل سفينة حربية في المريخ. أسرعت السفينة في اقترابها من الرمح الأسود. كانت على وشك الاصطدام، وعندئذ رأيت الإشارة المألوفة تنطلق لإرسال زوارق أصغر في قطيع كبير من على سطح السفينة الأم.

وعلى الفور، ارتفعت مائة طائرة صغيرة من السطح، مثل سرب من الذباب الضخم. لكن السفينة الحربية لم تكن واضحة لهم، بل تحولت نحو الرمح، متحركة أيضًا بسرعة مخيفة نحو نفس النهاية الحتمية التي تتهدد السفينة الأكبر.

وحدث الاصطدام. سقط الرجال من السفينة في جميع الاتجاهات، في حين انحنت السفينة واندفعت لتغطس متكومة في كومة الخردة عند قاعدة الرمح.

وسقط معها وابل الطائرات الصغيرة، بعد أن اصطدم كل منها بعنف مع الرمح الصلب.

لاحظت أن الطائرات المحطمة تكومت عند جانب الرمح، وأن سقوطها لم يكن بالسرعة المتوقعة. وفجأةً اكتشفتُ سر الرمح، واكتشفتُ بالتالي تفسير السبب الذي حال دون عودة أي سفينة تجاوزت الحاجز الجليدي.

كان الرمح مغناطيسًا قويًّا، وما إن تدخل سفينة إلى دائرة نصف قطرها جاذبيته القوية -ولأن فولاذ الألومنيوم يدخل إلى حد كبير في بنية جميع سفن برسوم- لا يمكن لأي قوة على الأرض أن تمنع هذه النهاية التي شهدناها الآن.

عرفت لاحقًا أن الرمح يرتكز مباشرة على القطب المغناطيسي لكوكب المريخ. لكني لا أعرف ما إذا كان ذلك يضيف بأي شكل إلى قوة جاذبيته التي لا يمكن التنبؤ بها؛ فأنا رجل قتال، ولستُ عالِمًا.

هنا، أخيرًا، كان تفسير طول غياب تاردوس مورس ومورس كاجاك. لقد خاطر هذان المحاربان المقدامان الشجاعان على مواجهة أسرار وأخطار الشمال المتجمد بحثًا عن كارثوريس، الذي أحنت غيبته الطويلة رأس والدته الجميلة ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، حزنًا عليه.

في لحظة استقرار الطائرات الأخيرة عند قاعدة الرمح، تدفق المحاربين الصُّفر بلحاهم السوداء نحو كتلة الحطام وأمسكوا مَن لم يُصبْ منهم بأذى باعتبارهم سجناء، وكانوا أحيانًا يقتلون بطعنة سيف الجرحى الذين يظهرون استياء عند الاستهزاء بهم أو إهانتهم.

اشتبك بشجاعة عدد قليل من الرجال الحُمر غير المصابين مع خصومهم القساة. على أن الجزء الأكبر منهم بدا غارقًا في رعب الكارثة التي ألمت بهم، فخضعوا بضعف إلى السلاسل الذهبية التي تكبلهم.

عادت المجموعة إلى المدينة بعد احتجاز آخر السجناء. وجدنا عند البوابة مجموعة من مخلوقات الأبت الشرسة التي ترتدي أطواقًا ذهبية،

ويسير كل منها بين اثنين من المحاربين يسوقونه بسلاسل قوية من نفس معدن الطوق.

وخلف البوابة مباشرة، أطلق المرافقون القطيع الرهيب كله. وعندما تدافع القطيع نحو الرمح الأسود القاتم، لم أكن في حاجة لأن أسال عن مهمتهم. لو لم يكن يوجد داخل مدينة كادابرا القاسية مَن يحتاجون إلى المساعدة أكثر من الموتى والمـُحتضرين المساكين هناك في البرد فوق هياكل ألف طائرة منحنية ومحطمة، لما كنت قاومت رغبتي في التعجيل بالعودة والاشتباك مع تلك المخلوقات البشعة التي أحضروها لتمزيقهم والتهامهم.

ليس بإمكاني سوى أن أتبع المحاربين الصُّفر، مع انحناء رأسي، والشعور بالامتنان للفرصة التي منحتني أنا وثوفان ديهن هذا الدخول اليسير إلى عاصمة سالينسوس أوول.

ما إن دخلنا من البوابات، حتى لم نجد صعوبة في مراوغة أصدقاء الصباح، الآن وجدنا أنفسنا في دار ضيافة مريخية.

* * *

(10)
في الحبس

وجدتُ أن دور الضيافة العامة في برسوم لا تختلف كثيراً. لا توجد خصوصية إلا للمتزوجين.

يذهب الرجال الذين ليست معهم زوجاتهم إلى غرفة كبيرة، أرضيتها عادة من الرخام الأبيض أو الزجاج الثقيل، ودائمًا نظيفة. يوجد هنا العديد من المنصات الصغيرة المرتفعة مخصصة لحرير وفراء النوم للضيف، وإذا لم تكن أمتعتك نظيفة، يمكنك الحصول على منتجات جديدة بتكلفة رمزية.

ما إن توضع أمتعة الرجل على إحدى تلك المنصات، حتى يُعتبر ضيفًا على الدار، وتظل المنصة تخصه إلى أن يغادر. لن يعتدي أي شخص على ممتلكاته أو ينتهك حرمتها؛ فلا يوجد لصوص على المريخ.

ونظرًا لأن الاغتيال هو الشيء الوحيد الذي يمكن الخوف منه، يوفر أصحاب دار الضيافة حراسًا مسلحين، يتجولون ذهابًا وإيابًا خلال غرف النوم ليلاً ونهارًا. ويدل عادة عدد الحراس وبهاء أغطيتهم المزخرفة على مكانة الفندق.

لا تُقدم هذه الدور وجبات، وإنما يوجد بجوارها عمومًا مكان عام لتناول الطعام. أما الحمامات، فهي ترتبط بغرف النوم، ومطلوب من كل ضيف الاستحمام يوميًّا أو مغادرة الفندق.

ويضم الطابق الثاني أو الثالث عادة غرفة نوم كبيرة للضيوف النساء غير المتزوجات، لكن تجهيزاتها لا تختلف ماديًّا عن الغرفة التي يشغلها الرجال. ويبقى الحراس الذين يحرسون النساء في الممر خارج غرفة النوم، بينما تتجول الإماء ذهابًا وإيابًا بين النائمات لإبلاغ المحاربين إذا دعت الضرورة وجودهم.

فُوجئت بملاحظة أن جميع حراس فندقنا من الرجال الحُمر. وبسؤال أحدهم عرفت أنهم كانوا عبيدًا اشتراهم مُلاك الفنادق من الحكومة. كان الرجل الـمُكلف بالمرور على غرفتي هو قائد سلاح البحرية في أحد أمم المريخ العظيمة، لكن مصيره حمل سفينته الرئيسة عبر الحاجز الجليدي داخل دائرة يبلغ نصف قطرها قوة الرمح المغناطيسية، والآن هو عبد منذ عدة سنوات شاقة عند الرجال الصُّفر.

وقد أخبرني أن الأمراء والجِد وحتى الجيداك من العالم الخارجي، هم مَن بين خدم العِرق الأصفر. وعندما سألتهَ إن كان سمع عن مصير مورس كاجاك أو تاردوس مورس، هز رأسه قائلاً إنه لم يسمع أبدًا عن كونهم سجناء هنا، على الرغم من أنه يعرف جيدًا سمعتهما وشهرتهما في العالم الخارجي.

لم يكن سمع أي شائعات عن قدوم الأب الثيرني والداتور الأسود للأبناء الأوائل، بل سارع إلى توضيح أنه لا يعرف سوى القليل مما يحدث داخل القصر. استطعت أن أرى قدرًا ليس بقليل عن تعجبه بفضول رجل أصفر حول بعض السجناء الحُمر وراء الحاجز الجليدي، وأنني شديد الجهل بعادات وظروف عِرقي.

وفي واقع الأمر، كنت قد نسيت تنكري عندما اكتشفت رجلاً أحمر يتقدم أمام منصة نومي. لكن تعاظم تعبير اندهاشه السابق حذرني في الوقت المناسب؛ فلم تكن لدي نية للكشف عن هويتي دون جدوى، إلا إذا كان ذلك سيأتي بفائدة، ولم أتصور بعد كيف يمكن أن يخدمني هذا الزميل المسكين، رغم أن ذهني كان مشغولاً بأنني قد أكون لاحقًا الوسيلة التي تخدمه وتخدم آلاف السجناء الآخرين الذين يقدمون خدماتهم لأسيادهم القساة في كادابرا.

ناقشت مع ثوفان ديهن خططنا ونحن نجلس سويًّا بين حرير وفراء النوم تلك الليلة، وسط مئات الرجال الصُّفر الذين يشغلون الشقة معنا. تكلمنا بهمسات منخفضة، ولم نُثِرْ أي شكوك؛ لأن الصوت الخفيض هو الشيء الوحيد المطلوب في مكان عام للنوم.

خلدنا أخيراً إلى النوم بعد أن حددنا كل ما يمكن اعتباره تكهنات إلى أن تتاح لنا فرصة استكشاف المدينة ومحاولة تنفيذ الخطة التي اقترحها تالو.

تناولنا إفطارنا صباح اليوم التالي، ثم انطلقنا لنرى كادابرا. من خلال كرم أمير مارينتينا، الذي زودنا أيضًا بالعملة المالية المستخدمة في أوكار، اشترينا مركبة أرضية أنيقة. ونظرًا لأننا تعلمنا قيادة تلك المركبات في مارينتينا، فقد أمضينا يومًا سارًّا ومفيدًا في استكشاف المدينة. وفي فترة متأخرة من بعد الظهيرة، في التوقيت الذي أخبرنا

تالو أننا سنجد المسؤولين الحكوميين في مكاتبهم، توقفنا أمام مبنى رائع في الساحة المقابلة للأراضي الملكية والقصر.

مشينا هنا بجرأة متجاوزين الحارس المسلح عند الباب، ليقابلنا عبد أحمر يسألنا عما نريد.

قلت: «قل لسيدك سوراف إن اثنين من محاربي إيلال يرغبون في الانضمام إلى الخدمة ضمن حراس القصر».

قال لنا تالو إن سوراف هو قائد قوات القصر، وإن رجال المدن البعيدة في أوكار - لا سيما إيلال- هم أقل احتمالاً من حيث التلوث بجرثومة الدسائس التي أصابت لسنوات أسرة سالينسوس أوول، وإنه واثق من أننا سنكون موضع ترحيب بعد الإجابة على بعض الأسئلة.

وقد زودنا بالمعلومات العامة التي يعتقد أنها ضرورية لنجاحنا في المقابلة مع سوراف، وبعدها سنخضع لاختبار آخر أمام سالينسوس أوول؛ ليحدد مدى لياقتنا البدنية وقدرتنا كمحاربين.

على أن خبرتنا القليلة مع السيف الخطافي الغريب لدى الرجل الأصفر ودرعه الذي يشبه الكوب، جعلتنا نتشكك في إمكانية النجاح في هذا الاختبار النهائي. ولكن أمامنا فرصة البقاء في قصر سالينسوس أوول لعدة أيام بعد أن يقبلنا سوراف وقبل أن يجد جيداك كل الجيداك وقتًا لاختبارنا النهائي.

انتظرنا عدة دقائق في غرفة الانتظار، استدعونا بعدها إلى مكتب سوراف الخاص. استقبلنا بلطف ضابط شرس المظهر ذو لحية سوداء، وسألنا عن أسمائنا ومواقعنا في مدينتنا. وعندما حصل على الردود التي يبدو أنها أشعرته بالرضى، وجَّه إلينا بعض الأسئلة التي توقعها تالو وعلمنا كيف نجيب عنها.

لم تستمر المقابلة أكثر من عشر دقائق، حيث استدعى سوراف معاونًا وأصدر له تعليمات بأن يسجلنا بشكل صحيح، ثم يرافقنا إلى جزء مخصص في القصر للمتقدمين من أجل الانتماء إلى حرس القصر.

أخذنا المعاون إلى مكتبه الخاص أولاً، حيث تولى أخذ قياساتنا وأوزاننا، كما التقط لنا صورًا بجهاز مبتكر لهذا الغرض. تُستنسخ على الفور خمس نسخ في خمسة مكاتب حكومية مختلفة، يقع اثنان منها في مدن أخرى تبعد عدة أميال. ثم قادنا عبر حديقة القصر إلى غرفة حراسة القصر الرئيسة، حيث سلمنا إلى الموظف المسؤول.

أعاد هذا الشخص سؤالنا ثانية بإيجاز، وأخيراً أرسل معنا جنديًّا ليرشدنا إلى أماكن إقامتنا. وجدناها في الطابق الثاني من القصر، في برج شبه منفصل عند الجزء الخلفي من الصرح الضخم.

وعندما سألنا مرشدنا عن سبب إقامتنا في مكان بعيد جدًّا عن غرفة الحراسة، أجاب أن قدامى الحراس اعتادوا خلق مشاجرات مع المتقدمين الجُدد، مما أسفر عن العديد من الوفيات، ولذا كان يصعب الحفاظ على الحارس في كامل قوته في ظل سيادة هذه العادة. ولهذا السبب، أبعد سالينسوس أوول هذا المقر وخصصه للمتقدمين، حيث تُغلق عليهم الأبواب بشكل آمن ضد خطر هجمات أفراد الحرس.

أوقفتْ فجأةً هذه المعلومات البغيضة جميع خططنا المدروسة جيدًا؛ لأنها تعني أننا عمليًّا سجناء في قصر سالينسوس أوول إلى أن يحين الوقت الذي يراه مناسبًا لاختبار كفاءتنا النهائي.

كنا نأمل في إنجاز الكثير خلال هذه الفترة في سعينا من أجل ديجاه ثوريس وثوفيا البتارثية. شعرنا بأسى غير محدود ونحن نسمع صوت إغلاق القفل الكبير خلف مرشدنا بعد أن قادنا إلى غرفنا.

التفتُّ إلى ثوفان ديهن وعلى وجهي علامات ساخرة. هز رفيقي رأسه مكتئبًا، وسار إلى أحد النوافذ في الجانب الآخر من الشقة.

وما إن نظر خلال النافذة، حتى ناداني بنبرة خفية تنم عن الإثارة والمفاجأة. وفي لحظة، كنت بجانبه.

قال ثوفان ديهن: «انظر!»، مشيراً إلى الساحة أدناه.

تابعت بعيني الاتجاه الذي يشير إليه، ورأيت امرأتين تتحركان جيئةً وذهابًا في حديقة مُسيجة.

عرفتهما على الفور؛ إنهما ديجاه ثوريس وثوفيا البتارثية!

إنهما من تعقبت أثرهما من قطب إلى آخر، أي بقدر طول العالم. ولا يفصلني عنهما الآن سوى عشر أقدام وعدة قضبان معدنية.

جذبت انتباههما بصيحة عالية. وعندما نظرت ديجاه ثوريس إلى أعلى والتقت أعيننا، أشرت بعلامة الحب التي يشير بها رجال برسوم إلى نسائهم.

لدهشتي وفزعي، رفعت رأسها عاليًا وبدت نظرة ازدراء تام على ملامحها الجميلة، ثم استدارت وأعطتني ظهرها. إن جسدي مغطى

بندوب آلاف الصراعات، لكنني لم أعان أبدًا في حياتي الطويلة من ألم مثل هذا الألم الذي شعرتُ به عندما نفذت نظرتها الفولاَذية إلى قلبي.

ابتعدت متأوهًا، ودفنت وجهي في ذراعي. سمعت ثوفان ديهن ينادي على ثوفيا بصوت عال. لكن صيحة اندهاشه المتعجب دلت أن ابنته أيضًا قد صدته.

قال لي صائحًا: «لن تستمعا حتى. فقد وضعتا أيديهما على آذانهما وسارتا إلى الطرف الآخر من الحديقة. هل سمعت عن مثل هذا السلوك المجنون من قبل يا جون كارتر؟ من المؤكد أنهما مسحورتان».

استجمعت شجاعتي للعودة إلى النافذة. فأنا أحبها حتى ولو صدتني، ولا يمكنني منع عيني من التمتع بهيئتها ووجهها الجميل. لكنها عندما شاهدتني، استدارت مرة أخرى.

كدت أُجن من تصرفاتها الغريبة، وبدا مذهلاً أيضًا رفض ثوفيا لوالدها. هل يمكن أن أميرتي لا تزال تتشبث بالعقيدة البشعة التي أنقذت العالم منها؟ وهل يمكن أنها نظرت نحوي بتقزز واحتقار؛ لأنني عُدت من وادي دور، أو لأنني دنست معابد وأشخاص الثيرنيين المقدسين؟

ما من شيء آخر يمكن أن أعزو إليه تصرفها الغريب، لكن ذلك يبدو مستحيلاً؛ لأن حب ديجاه ثوريس لجون كارتر كان حبًّا كبيراً ورائعًا، أكبر بكثير من أي تمييز عنصري، أو عقيدة، أو دين.

وعندما كنت أحدق بأسى في الجزء الخلفي من رأسها الملكي المتكبر، فُتحت بوابة في الطرف الآخر من الحديقة ودخل رجل، ثم دس شيئًا في يد الحارس الأصفر وراء البوابة. لم تكن المسافة بعيدة، فرأيت المال الذي أعطاه له.

عرفتُ على الفور أن هذا الوافد الجديد تمكن من دخول الحديقة عن طريق الرشوة. التفت الرجل ناحية المرأتين؛ ولم يكن سوى ثوريد، داتور الأبناء الأوائل الأسود.

اقترب منهما قبل أن يتحدث. استدارت المرأتان عند سماع صوته، ورأيت ديجاه ثوريس تبتعد عنه.

بدت على وجهها نظرة تقزز عندما اقترب منها وبدأ يتحدث. لم أستطع سماع كلماته، لكن إجاباتها جاءت واضحة.

قالت: «يمكن دائمًا أن تموت حفيدة تاردوس مورس، لكنها لا يمكن أن تعيش أبدًا بالثمن الذي تطلبه».

ثم شاهدت الوغد الأسود ينحني على ركبتيه بجوارها، متذللاً ومتوسلاً لها. لم أسمع سوى جزء فقط مما قاله. فعلى الرغم من أنه كان يعاني بوضوح من ضغط العاطفة والإثارة، فقد كان واضحًا بالقدر نفسه أنه لا يجرؤ على رفع صوته خوفًا من انكشافه.

سمعته يقول: «سوف أنقذك من ماتاي شانج. فأنتِ تعرفين المصير الذي ينتظركِ على يديه. ألا تفضلين اختياري بدلاً منه؟».

أجابت ديجاه ثوريس: «لن أختار أيًّا منكما، حتى إن كنتُ حرةً في أن أختار. لكني لست حرة، كما تعلم جيدًا».

قال: «أنتِ حرة! فقد مات جون كارتر، أمير هيليوم».

أجابت بسخرية وازدراء: «أعرف أفضل من ذلك. ولكن حتى إذا مات ويجب اختيار رفيق آخر، فسيكون رجل النبات أو القرد الأبيض الكبير أفضل من ماتاي شانج أو منك أيها الكالوت الأسود».

وفجأةً فقد الوحش الخبيث قدرته على التحكم في نفسه؛ إذ قفز وهو يقسم بخسة ناحية المرأة النحيلة، وأمسك رقبتها الرقيقة بمخالبه الغاشمة. صرخت ثوفيا وانطلقت لمساعدة زميلتها السجينة. وفي اللحظة نفسها مسني الجنون، وحطمت القضبان التي امتدت عبر نافذتي، اقتلعتها من تجاويفها كما لو أنها أسلاك نحاسية.

ألقيت نفسي من خلال الفتحة ووصلت إلى الحديقة على بعد مائة قدم من حيث يقف الأسود محاولاً قتل ديجاه ثويس خنقًا، فانقضضت عليه بقفزة واحدة. لم أنطق بكلمة وأنا أمزق أصابعه الدنسة وأبعدها عن تلك الرقبة الجميلة، ولم أصدر صوتًا وأنا أقذف به لمسافة عشرين قدمًا.

استشاط ثوريد غضبًا وهو يقف على قدميه، وهاجمني كثور مجنون.

صرخ قائلاً: «أيها الرجل الأصفر، أنت لا تعرف على مَن وضعت يدك الخسيسة. لكنك ستعرف جيدًا مما سأفعله بك، ماذا يعني أن يسيء شخص إلى أحد الأبناء الأوائل».

ثم هاجمني وصولاً إلى رقبتي. ففعلت هنا في حديقة قصر سالينسوس أوول ما فعلته تحديدًا ذلك اليوم في فناء معبد إيسوس. تجنبت ذراعيه الممدودتين، وعندما اندفع نحوي، لكمتُ جانب فكه بقوة بيدي اليُمنى الرائعة.

وحدث له الآن ما حدث تحديدًا في تلك المناسبة الأخرى. دار، وسقطت ركبتاه تحته، وتكوم على الأرض أمام قدمي. ثم سمعت صوتًا خلفي.

كان صوتًا عميقًا ينم عن السلطة، من علامات صوت الحاكم. وعندما استدرت، واجهت هيئة متألقة لرجل أصفر عملاق. ولم أكن في حاجة للسؤال كي أعرف أنه سالينسوس أوول. وقف على يمينه ماتاي شانج، وخلفهما مجموعة من الحرس.

قال صائحًا: «مَن أنت؟ وماذا يعني هذا التسلل داخل حرم النساء في الحديقة؟ لا أذكر وجهك. كيف جئت إلى هنا؟».

لولا كلماته الأخيرة، لكنت نسيتُ تمامًا تنكري، وأبلغته بصراحة أنني جون كارتر أمير هيليوم؛ لكن سؤاله ذكّرني بنفسي. أشرت إلى القضبان المزاحة من النافذة العلوية.

وقلت: «أنا متقدم جديد للانضمام إلى حرس القصر، ومن نافذة غرفة البرج المحتجز فيها انتظار لاختبار اللياقة البدنية النهائي، رأيت هذا المتوحش يهاجم هذه المرأة. لا يمكنني أن أقف مكتوف الأيدي أيها الجيداك، وأرى هذا يحدث داخل أراضي القصر، ومع ذلك أتصور أنني مناسب لخدمة وحراسة شخصكم الملكي».

تركت بوضوح انطباعًا لدى حاكم أوكار بكلماتي العادلة. وعندما التفت نحو ديجاه ثوريس وثوفيا البتارثية، وأكدت كلتاهما كلامي، تحول مكفهرًا نحو ثوريد.

رأيت لمعة قبيحة في عيني ماتاي شانج الشريرة عندما كانت ديجاه ثوريس تروي ما حدث بينها وبين ثوريد. وعندما وصلت إلى الجزء الذي يتناول تدخلي ضد داتور الأبناء الأوائل كان امتنانها واضحًا، على الرغم من أنني رأيت في عينيها شيئًا يثير حيرتها.

لم أتعجب من موقفها تجاهي أمام الآخرين؛ لكن إنكارها لي عندما كانت مع ثوفيا بمفردهما في الحديقة لا يزال يشعرني بمرارة.

عندما بدأ الاختبار، ألقيت نظرة سريعة على ثوريد، وأذهلني أنه ينظر نحوي بعينين واسعتين وبتعجب، وفجأة انفجر ضاحكًا في وجهي.

تحول سالينسوس أوول بعد لحظة تجاه الأسود.

وسأله بصوت عميق ورهيب: «ماذا تقول تفسيراً لهذه الاتهامات؟ أتجرؤ أن تطمح في المرأة التي اختارها الأب الثيرني- المرأة التي تصلح حتى أن تكون رفيقة صالحة لجيداك كل الجيداك نفسه؟».

ثم استدار الطاغية أسود اللحية، وألقى نظرة جشع مفاجئة على ديجاه ثوريس، كأنما بعبارته هذه برزت فكرة جديدة ورغبة جديدة داخل عقله وصدره.

كان ثوريد على وشك الرد وهو يشير بإصبعه نحوي بابتسامة خبيثة على وجهه، عندما ألجمت لسانه كلمات سالينسوس أوول وتعبيرات وجهه.

تسللت نظرة ماكرة إلى عينيه، وعرفت من تعبير وجهه أن كلماته التالية لم تكن تلك التي كان ينوي قولها.

قال: «يا أقوى جيداك، لم يقل الرجل والمرأة الحقيقة. لقد جاء الرجل إلى الحديقة لمساعدتهم على الهرب. كنت في الخلف وسمعت حديثهما، وعندما دخلت، صرخت المرأة وهاجمني الرجل وكاد أن يقتلني».

«ماذا تعرف عن هذا الرجل؟ إنه شخص غريب عنك، وأجرؤ على القول إنك ستجده عدوًّا وجاسوسًا. قدمه إلى المحاكمة، سالينسوس أوول، بدلاً من صديقك وضيفك ثوريد، داتور الأبناء الأوئل».

بدت الحيرة على وجه سالينسوس أوول. استدار ناحيتي مرة أخرى، ثم نظر إلى ديجاه ثوريس. بعدها اقترب منه ثوريد وهمس شيئًا في أذنه: «ماذا؟ لا أعرف».

تحول الحاكم الأصفر إلى أحد ضباطه.

وقال له آمرًا: «تأكد من حبس هذا الرجل بشكل آمن إلى أن يتوفر لنا الوقت لفحص هذه القضية بعمق. ونظرًا لأن القضبان وحدها ليست كافية لكبح جماحه، أضف السلاسل».

غادر الحديقة وأخذ معه ديجاه ثوريس، يده على كتفها. غادر أيضًا ثوريد وماتاي شانج، وعند وصولهما البوابة، استدار الأسود وضحك مرة أخرى بصوت عال في وجهي.

ما معنى هذا التغيير المفاجئ تجاهي؟ هل يشك في هويتي الحقيقية؟ أعتقد أن الأمر كذلك، وربما كشفتني الخدعة والضربة التي أسقطته أرضًا للمرة الثانية.

امتلأ قلبي بالحزن والمرارة والحراس يقتادونني بعيدًا؛ فقد أُضيف

الآن إلى الخصمين القساة، اللذين يطاردونها منذ فترة طويلة، خصم آخر أقوى. فأنا لست مغفلاً كي لا ألاحظ الحب المفاجئ الذي وُلد تجاه ديجاه ثوريس في قلب الوحش الرهيب سالينسوس أوول، جيداك كل الجيداك، حاكم أوكار.

* * *

(11)

حفرة الوفرة الخادعة

لم أمكث طويلاً داخل سجن سالينسوس أوول. خلال الوقت القصير الذي أمضيته هناك، مكبلاً بسلاسل من الذهب، كثيراً ما تساءلت عن مصير ثوفان ديهن جيداك بتارث.

لقد تبعني رفيقي الشجاع إلى الحديقة عندما هاجمت ثوريد. وعندما غادر سالينسوس أوول الحديقة ومعه ديجاه ثوريس والآخرون، تاركًا ثوفيا البتارثية، بقي ثوفان ديهن أيضًا في الحديقة مع ابنته دون أن يلاحظه أحد؛ لأن رداءه كان يماثل رداء الحراس.

المرة الأخيرة التي رأيته فيها، عندما كان يقف في انتظار المحاربين الذين اصطحبوني لإغلاق البوابة وراءهم؛ ربما انفرد مع ثوفيا. هل تمكنا من الهرب؟ أشك في ذلك، وإن كنت أتمنى من كل قلبي أن يكون ذلك صحيحًا.

جلب اليوم الثالث من حبسي عشرات المحاربين لمرافقتي إلى القاعة العامة، ليحاكمني سالينسوس أوول نفسه. ازدحمت القاعة بعدد كبير من النبلاء، من بينهم رأيت ثوريد، لكن ماتاي شانج لم يكن هناك.

جلست ديجاه ثوريس، تشع جمالاً كعادتها، على عرش صغير بجوار سالينسوس أوول. مزق تعبير اليأس الحزين على وجهها العزيز أعماق قلبي.

كان موقعها إلى جانب جيداك كل الجيداك نذير سوء لها ولي. وفي اللحظة التي رأيتها هناك، رسخ في ذهني عزمي الأكيد على ألَّا أغادر هذه القاعة حيًّا وأتركها في براثن هذا الطاغية الجبار.

لقد قتلت رجالاً أفضل من سالينسوس أوول، قتلتهم بيدي العاريتين، وأقسم الآن أمام نفسي أنني سأقتله إذا وجدت أنها الطريقة الوحيدة لإنقاذ أميرة هيليوم. ولا يهمني إذا كان ذلك يعني موتي الفوري، إلا أنه سيمنعني من بذل مزيد من الجهد من أجل ديجاه ثوريس؛ ولهذا السبب وحده اخترت طريقة أخرى. فحتى إذا قتلت سالينسوس أوول، لن يُعيد قتله زوجتي الحبيبة إلى شعبها. عقدت العزم على انتظار النتيجة النهائية للمحاكمة، بحيث أعرف كل ما يمكنني عن نوايا حاكم أوكار، ثم أتصرف تبعًا لذلك.

ما إن وقفت أمام سالينسوس أوول، حتى وجدته يستدعي ثوريد أيضًا.

قال: «داتور ثوريد، قدمتَ طلبًا غريبًا. لكني قررت الموافقة، بناء على رغبتك ووعدك أنه لمصلحتي. قلت لي إن إعلانًا معينًا سيكون وسيلة إدانة هذا السجين، ويفتح الطريق في الوقت نفسه إلى تحقيق أمنيتي العزيزة».

أومأ ثوريد.

واصل سالينسوس أوول: «إذنْ سأصدر الإعلان هنا أمام جميع النبلاء. لم تجلس ملكة بجانبي على العرش منذ سنة، ويناسبني الآن أن أتزوج المرأة التي يسبقها صيتها بأنها أجمل امرأة على برسوم. وهو إعلان لا يمكن بصدق أن يرفضه أحد.

«يا نبلاء أوكار، أشهروا سيوفكم وقدموا تحيتكم إلى ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم وملكة أوكار مستقبلاً؛ التي ستصبح قي نهاية الأيام العشرة المخصصة زوجة سالينسوس أوول».

رفع النبلاء سيوفهم عاليًا، وفقًا للعرف القديم في أوكار عندما يعلن الجيداك عن نيته في الزواج. وعندئذ وقفت ديجاه ثوريس ورفعت يدها عاليًا، وطلبت منهم بصوت عال أن يتوقفوا.

قالت: «لا يمكنني الزواج من سالينسوس أوول؛ لأنني بالفعل زوجة وأم. لا يزال جون كارتر أمير هيليوم حيًّا. أعرف أنه لا يزال حيًّا؛ لأنني سمعت ماتاي شانج يقول لابنته فايدور أنه رأى جون كارتر في كاور في بلاط الجيداك كولان تيث. لا يتزوج الجيداك امرأة متزوجة، وسالينسوس أوول لن ينتهك روابط الزواج».

تحول سالينسوس أوول نحو ثوريد بنظرة قبيحة.

وقال صائحًا: «هل هذه هي المفاجأة التي أعددتَها لي؟ لقد أكدت لي عدم وجود أي عقبة يصعب التغلب عليها بيني وبين هذه المرأة، والآن أجد عقبة لا تُقهر. ما معنى هذا يا رجل؟ ماذا لديك لتقوله؟».

أجاب ثوريد: «وإذا سلمتكَ جون كارتر يا سالينسوس أوول، ألن تشعر أنني أوفيت تمامًا بأكثر من وعدي لك؟».

قال الجيداك غاضبًا: «لا تتحدث كأحمق. فلستُ طفلاً لتتلاعب معي هكذا».

أجاب ثوريد: «أنا أتحدث كرجل يعرف أن بإمكانه الوفاء بما يزعمه».

صاح جيداك كل الجيداك بوجه قبيح: «أمامك إذنْ عشرة أيام تسلمني خلالها جون كارتر، أو ستعاني أنت نفسك في نهايتها من العقاب الذي سأحكم به عليه إذا كان في قبضتي!».

أجاب ثوريد: «لن تحتاج إلى الانتظار عشرة أيام يا سالينسوس أوول»؛ ثم استدار فجأة وهو يمد إصبعه نحوي قائلاً: «هناك يقف جون كارتر أمير هيليوم!».

صرخ سالينسوس أوول: «أحمق! هذا كذب! جون كارتر رجل أبيض، وهذا الزميل أصفر مثلي. ووجه جون كارتر أملس، كما وصفه لي ماتاي شانج. لهذا السجين لحية وشارب بنفس الحجم الكبير واللون الأسود كأي شخص في أوكار. أسرعوا يا حراس إلى الحُفر، ومعكم هذا المهووس الأسود الذي يرغب في القضاء على حياته من أجل مزحة سخيفة على حاكمكم!».

صاح ثوريد: «انتظروا!»، وهو يندفع نحوي. وقبل أن أخمن نيته، أمسك لحيتي وأزال مظاهر التنكر من وجهي ورأسي، وكشف عن بشرتي الملساء المصبوغة وشعري الأسود المقصوص قصيراً».

ساد الهرج على الفور في قاعة سالينسوس أوول العامة. اندفع المحاربون نحوي بسيوفهم متصورين أنني أفكر في اغتيال جيداك كل الجيداك؛ بينما تزاحم آخرون وراءهم بدافع الفضول لرؤية مَن اشتهر اسمه من القطب إلى القطب.

عند الكشف عن هويتي، رأيت ديجاه ثوريس تقفز على قدميها، وترتسم دهشة كبيرة على وجهها، ثم شقت طريقها خلال ذلك الحشد من الرجال المسلحين قبل أن يتمكن أحد من منعها. وفي لحظة أصبحت أمامي، ذراعاها ممدودين، وعيناها تشعان بضوء حبها الكبير.

صاحت: «جون كارتر! جون كارتر!»، وأنا أضمها إلى صدري. وفجأةً أدركت لماذا أنكرتني في الحديقة تحت البرج.

يا لي من أحمق! كيف توقعت أنها ستخترق تنكري الرائع الذي صنعه حلاق مارينتينا! فهي ببساطة لم تعرفني؛ وعندما رأت علامة الحب من شخص غريب، انزعجت واعتبرتها إهانة. طبعًا، يا لي من أحمق!

قالت: «كنت أنت من حدثني من البرج! كيف يمكنني أن أحلم بأن حبيبي الفيرجيني يختفي وراء تلك اللحية الشرسة والبشرة الصفراء؟».

كانت معتادة أن تدعوني الفيرجيني تعبيراً عن حبها؛ لأنها تعرف أنني أحب سماع هذا الاسم الجميل، ويصبح أكثر جمالاً وجلالاً ألف مرة عندما يخرج من شفتيها العزيزتين. وعندما سمعته مرة أخرى بعد كل تلك سنوات، أغرورقت عيناي بالدموع واختنق صوتي بالعاطفة.

لم أضم حبيبتي سوى لحظات، قبل أن يتجه سالينسوس أوول نحونا وهو يرتجف من الغضب والغيرة.

قال لمحاربية: «أمسكوا بهذا الرجل»، وعندئذ فرقت بيننا مائة يد لا ترحم.

كان نزع سلاح جون كارتر مهمًّا بالنسبة لنبلاء محكمة أوكار. فقد شعر عشرات منهم بقوة لكماتي المـُحكمة وأنا أقاتل لشق طريقي لنصف درجات العرش، حيث أخذ سالينسوس أوول ديجاه ثوريس، قبل أن يتمكن أحد من منعني.

ثم نزلت للقتال. كانوا حوالي خمسين محاربًا. وقبل أن أتلقى ضربة أفقدتني الوعي، سمعت من شفاه ديجاه ثوريس ما جعل كل معاناتي ذات قيمة.

كانت تقف بجانب الطاغية الكبير، الذي أمسكها من ذراعها، وأشارت إلى حيث أواجه منفردًا هذه الصعاب الفظيعة.

وقالت: «أتعتقد يا سالينسوس أوول أن زوجة رجل مثله يمكن أن تشوه ذكراه إن مات ألف مرة، بأن تتزوج من شخص أقل منه؟ هل يعيش على أي عالم شخص آخر مثل جون كارتر أمير هيليوم؟ هل يعيش رجل آخر يمكنه القتال عبر الطريق ذهابًا وإيابًا على كوكب محب للحرب، ويواجه الحيوانات المتوحشة وجحافل الرجال الوحشيين، من أجل حب امرأة؟. أنا ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، أنا له. لقد قاتل من أجلي، وفاز بي. إذا كنت رجلاً شجاعًا، عليك أن تحترم شجاعته وألاَّ تقتله. اجعله عبدًا لك إن أردتَ يا سالينسوس أوول، ولكن لا تقتله. أنا أُفضل أن أكون أَمَةً وليس ملكة أوكار».

أجاب جيداك كل الجيداك: «لا يمُلي العبيد أو الملكة على سالينسوس أول ما يفعل. سيموت جون كارتر ميتة طبيعية في حفرة الوفرة الخادعة، ويوم أن يموت ستصبح ديجاه ثوريس الملكة».

لم أسمع ردها، حيث عندئذ تعرضت لضربة على رأسي أفقدتني الوعي. وعندما استعدتُ حواسي، لم أجد معي في القاعة العامة سوى بعض الحراس. فتحت عيني، فدفعوني برؤوس سيوفهم لأنهض.

اقتادوني عبر ممرات طويلة إلى فناء بعيد في اتجاه مركز القصر.

توجد في وسط الفناء حفرة عميقة، وقف بالقرب من حافتها نصف دزينة من حراس آخرين في انتظاري. حمل أحدهم في يديه حبلاً طويلاً، بدأ في إعداده مع اقترابنا.

على بعد حوالي خمسين قدمًا من هؤلاء الرجال، شعرت بوخز مفاجئ غريب وسريع في أحد أصابعي.

تحيرت للحظة من هذا الشعور الغريب، ثم تذكرت ما كنتُ نسيته تمامًا تحت ضغط مغامرتي؛ الخاتم، هدية الأمير تالو من مارينتينا.

نظرت على الفور في اتجاه المجموعة التي كانت تقترب، وفي الوقت نفسه رفعت يدي اليسرى على جبهتي ليصبح الخاتم مرئيًّا لِمَن يريد. وفي الوقت نفسه، رفع أحد المحاربين المنتظرين يده اليسرى، كأنما يمشط بها شَعره، ورأيت نسخة الخاتم الأخرى في أحد أصابعه.

تبادنا نظرة فهم ذكية سريعة، بعدها أبقيتُ عيني بعيدًا عن المحارب، ولم أنظر إليه مرة أخرى، خشية إثارة شكوك الأوكاريين. وصلنا إلى حافة الحفرة ووجدتها عميقة جدًّا. أدركت أن مهمتي الآن هي تحديد مدى عمقها تحت سطح الفناء؛ فمَن أمسك بالحبل لفه حول جسدي بطريقة تتيح فكه من أعلى في أي وقت. وبعد ذلك، أمسك جميع المحاربين الحبل، ودفعني الزميل إلى الأمام، فسقطتُ في الهاوية السحيقة.

بعد الهزة الأولى التي شعرت بها عند وصولي نهاية الحبل، حيث جعلوني أسقط أسفل حافة الحفرة، بدؤوا في خفضي بسرعة ولكن بسلاسة. قبل دفعي للسقوط بلحظة، بينما انهمك رجلان أو ثلاثة في المساعدة على تثبيت وضع الحبل حولي، وضع أحدهم فمه بالقرب من خدي، وفي لحظة وجيزة قبل إلقائي إلى الحفرة المحرمة، تفوه بكلمة واحدة في أذني:

«تشجع!».

اتضح أن عمق الحفرة، التي تصورتها بلا قاع، لا يزيد عن مائة قدم. ولكن نظرًا لأن جدرانها مصقولة بشكل أملس، فلربما كان يصل عمقها إلى ألف قدم. لا أمل لي في الهروب دون مساعدة خارجية.

ظل المكان مظلمًا ليوم واحد، وفجأةً أنار ضوء ساطع زنزانتي الغريبة. كنت أشعر عندئذٍ بجوع وعطش شديدين، فلم أذق الطعام أو الشراب قبل يوم من حبسي.

ولدهشتي وجدت على جانبي الحفرة، التي تصورتها ملساء، عدة أرفف تضم أفضل الأطعمة والمرطبات في أوكار.

تقدمت مبتهجًا لأتناول بعض الطعام الترحيبي، لكن الضوء انطفأ قبل أن أصل إلى تلك الأرفف. وعلى الرغم من أنني تحسست طريقي في الغرفة، لم تلمس يدي أي شيء غير ذلك الجدار الأملس المصقول الذي شعرت به عندما فحصت زنزانتي بداية.

وعلى الفور بدأت آلام الجوع والعطش تهاجمني. كانت رغبتي في الطعام والشراب معتدلة، لكنني أعاني الآن بالفعل من الجوع والعطش بسبب ذلك المشهد الـمُحير لوجود الطعام في متناول يدي تقريبًا.

ساد الظلام والصمت مرة أخرى، صمت لم تكسره إلا ضحكة استهزاء واحدة.

ليوم آخر لم يحدث أي شيء لكسر رتابة السجن أو تخفيف معاناة الجوع والعطش. وببطء أصبحت الآلام أقل حِدةً، حيث قتلت المعاناة نشاط أعصاب معينة. وفجأة سطع الضوء مرة أخرى، وظهرت أمامي مجموعة من الأطباق الجديدة الـمُغرية، مع زجاجات كبيرة من المياه النقية وأباريق من النبيذ المنعش، تجمعت على سطحها الخارجي نقاط التكثيف الباردة.

انطلقت مرةً أخرى، بجنون جوع وحش بري، لتناول تلك الأطباق الـمُغرية. وكما حدث من قبل، انطفأ الضوء ووجدتني أقف أمام الجدار الصلب.

رنت ضحكة الاستهزاء ثانية.

حفرة الوفرة الخادعة!

آه، أي عقلية قاسية تلك التي ابتكرت هذا التعذيب الجهنمي الشيطاني! تكرر الأمر يومًا بعد يوم، حتى أصبحت على وشك الجنون. عندئذ، وكما فعلت في حُفر وارهون، سيطرت ثانية على ذهني وأجبرته على العودة إلى مساراته المتعقلة.

استعدت بقوة الإرادة السيطرة على عقلي المترنح، وحققت نجاحًا كبيراً. فعندما سطع الضوء ثانية، جلست ساكنًا تمامًا وأنا أنظر بلا مبالاة إلى الطعام الطازج الـمُغري الذي كان تقريبًا في متناول يدي. كنت سعيدًا لأنني قمت بذلك؛ لأنه أعطاني فرصة لحل لغز تلك الولائم المتلاشية.

نظرًا لبقائي ساكنًا دون محاولة التحرك للوصول إلى الطعام، لم يُطفئ الجلادون الضوء على أمل أن أتخلى عن موقفي وأمنحهم لذة التشويق والمتعة التي شعروا بها في جهودي العقيمة السابقة للحصول على الطعام.

جلست أدقق في الرفوف المحمولة، وأدركت كيفية حدوث ذلك. تعجبت من عدم تخمين السبب سابقًا، فالأمر شديد البساطة. كان جدار السجن من أنقى أنواع الزجاج، وخلفه توجد الأطعمة التي أثارت حيرتي.

انطفأ الضوء بعد ما يقرب من ساعة، ولكن هذه المرة دون ضحكة الاستهزاء، على الأقل ليس من جانب الجلادين؛ ولكن ضحكتي، لإبراء ذمتي، كانت منخفضةً حتى لا يتصوروا بالخطأ أنها هذيان مجنون.

مرت تسعة أيام، شعرت خلالها بالضعف نتيجة الجوع والعطش، لكن معاناتي السابقة انتهت. ثم وقعتْ من أعلى، خلال الظلام، ربطة صغيرة على الأرض بجانبي.

تلمست الأرض بلا مبالاة للعثور عليها، متصورًا أنها ليست سوى ابتكار جديد من السجانة ليزيدوا معاناتي.

عثرتُ عليها أخيرًا. وجدتها حزمة صغيرة ملفوفة في ورقة في نهاية حبل متين ونحيل. فتحتها، فسقطت منها عدة حبوب قليلة على الأرض. جمعتهم، وتحسستهم، وتشممتهم؛ فاكتشفت أنهم حبوب أغذية مُركزة، وهي شائعة في أنحاء برسوم كافة.

إنها سموم! هكذا تصورت.

حسنًا، ولمَ لا؟ لماذا لا أضع نهاية لهذا البؤس الآن، بدلاً من الاستمرار بضعة أيام بائسة أخرى في هذه الحفرة المظلمة؟ وببطءٍ، وضعتُ إحدى الحبوب على شفتي.

قلت: «وداعًا، ديجاه ثوريس! لقد عشت من أجلك وحاربت من أجلك، ورغبتي العزيزة التالية التي أتمنى أن تتحقق هي أن أموت من أجلك»، ووضعت الحبة في فمي والتهمتها.

أكلتُ الحبوب كلها، واحدة تلو الأخرى. لم أتذوق من قبل شيئًا أفضل من تلك حبوب التغذية الصغيرة هذه، التي أعرف أن بذور الموت تكمن فيها، وربما موت بشع ومُعذِب.

جلست بهدوء على أرضية سجني في انتظار النهاية. لمستْ أصابعي مصادفة قطعة الورق التي كانت تُغلف الحبوب، فأخذت ألعب بها دون اكتراث وذهني يتجول في

الماضي البعيد: فكرتُ أنني أعيش ثانية، لبضع لحظات قصيرة قبل موتي، بعض اللحظات السعيدة الكثيرة من حياتي الطويلة السعيدة. وخلال لمسي للورقة وشرود ذهني، أدركت وجود نتوءات غريبة على السطح الأملس للورقة الشبيهة بالمخطوط في يدي.

لم تحمل هذه النتوءات -لفترة- أي دلالة خاصة في رأيي، كنت فقط متعجبًا من وجودها. لكنها أخيراً بدأت تتخذ شكلاً، وأدركت بعد ذلك أنها تصطف في سطر واحد مثل الكتابة.

زاد اهتمامي، وبدأت أتتبعها مرات ومرات بأصابعي. كانت هناك أربع مجموعات منفصلة ومتميزة من الخطوط المرفوعة. هل هي أربع كلمات تحمل رسالة لي؟

كلما فكرتُ في الأمر، زاد تحمسي إلى حد أن أصابعي أصبحت تتحرك بجنون ذهابًا وإيابًا عبر تلك التلال والوديان المثيرة للحيرة على تلك القطعة الورقية الصغيرة.

لم أستطع أن أتوصل إلى أي شيء، وأخيراً قررتُ أن استعجالي الشديد يحول دون حل اللغز. عاودتُ المحاولة ببطءٍ أكبر. تتبعت بسبابتي تكرارًا ومرارًا تلك المجموعات الأربع.

يصعب شرح الكتابة المريخية لرجل كوكب الأرض؛ فهي شيء يجمع بين الاختزال والكتابة بالصورة، وهي لغة مختلفة تمامًا عن لغة المريخ المنطوقة.

لا يوجد في برسوم سوى لغة واحدة شفاهية.

وهذه اللغة تتحدث بها اليوم جميع الأعراق والأمم، كما كان الحال تمامًا في بداية الحياة البشرية على برسوم. وقد تطورت مع تطور التعلُّم والإنجازات العلمية على الكوكب. وكان تطورها مبتكرًا بحيث

شكلت الكلمات الجديدة نفسها، للتعبير عن أفكار جديدة، أو وصف ظروف أو اكتشافات جديدة؛ فلا توجد كلمة أخرى يمكنها تفسير الشيء الذي يتطلب كلمة جديدة سوى الكلمة التي تعبر عنه أصلاً، وبالتالي مهما كان بُعد المسافة والانعزال بين أمتين أو عِرقين، تتطابق لغتهما المنطوقة.

على أن الأمر يختلف في لغاتهم المكتوبة. لا توجد أمتان لديهما نفس اللغة المكتوبة، بل تختلف غالبًا أيضًا اللغة المكتوبة في مدن الأمة نفسها اختلافًا كبيراً عن اللغة المكتوبة في الأمة التي ينتمون إليها.

ولذلك أثارت العلامات على الورقة حيرتي، إن كانت كلمات بالفعل. وأخيراً تمكنت من معرفة الكلمة الأولى.

كانت: «تشجع»، وقد كُتبت بحروف مارينتينا.

تشجع!

إنها الكلمة التي همس بها الحارس الأصفر في أُذني وأنا أقف عند حافة حفرة الوفرة.

إذنْ فالرسالة منه، وكنت أعرف أنه صديق.

بأمل متجدد، استجمعت كل طاقتي لفك شفرة باقي الرسالة، وأخيراً نجحت محاولاتي، وقرأت الأربع كلمات:

«تشجع! عليك تتبُّع الحبل».

* * *

(12)
«عليك تتبُّع الحبل»

ما معنى هذا!

"عليك تتبُّع الحبل". أي حبل؟

تذكرت الحبل المرفق بالرزمة عندما سقطت بجانبي، فتحسست حولي قليلاً حتى وجدته. كان مرفقًا من أعلى، وعندما سحبته اكتشفت أنه مُثبت بقوة، ربما في فتحة الحفرة.

اختبرته ووجدت أن الحبل -وإن كان نحيلاً- يتميز بقدرة كبيرة على تحمل أوزان عدد من الرجال. وها هو اكتشاف آخر؛ إذ وجدت رسالة ثانية معقودة في الحبل على ارتفاع يصل إلى رأسي تقريبًا. تمكنتُ من فك شفرتها بسهولة أكبر، حيث أصبحت أعرف مفتاح الشفرة.

"أحضر الحبل معك. يكمن الخطر بعد العُقد".

هذا كل ما كان في الرسالة. ومن الواضح أنها مكتوبة على عجل، كاستدراك.

لم يطل انتظاري بعد معرفة محتويات الرسالة الثانية. وعلى الرغم من أنني لم أكن متأكدًا من معنى التحذير النهائي -"يكمن الخطر بعد العُقد"- فقد كنت على يقين أن أمامي الآن فرصة للهروب، وأنني كلما أسرعت في اقتناص هذه الفرصة، زادت احتمالات فوزي بالحرية.

على الأقل، لن يكون وضعي أسوأ من حالي في حفرة الوفرة الخادعة.

وقد عرفتُ، قبل أن أخرج من تلك الحفرة اللعينة، أن وضعي سوف يسوء كثيراً إذا اضطرت إلى البقاء فيها دقيقتين أخريين.

فقد استغرق صعودي لحوالي خمسين قدمًا فوق قاع الحفرة دقيقتين، عندما جذبت انتباهي ضوضاء علوية. تكدرت وأنا أرى غطاء الحفرة يُفتح، كما رأيت في ضوء الفناء عددًا من المحاربين الصُّفر.

هل أجتهد في شق طريقي لأصل إلى فخ جديد؟ وقبل كل شيء، هل كانت الرسائل زائفةً؟ هبطت أمالي وشجاعتي كثيراً، وعندئذٍ رأيت شيئين.

رأيت مخلوق الأبت الضخم يصارع ويزمجر، حيث يجري إنزاله من جانب الحفرة نحوي؛ ورأيت أيضًا فتحةً في جانب الحفرة، حجمها أكبر من حجم جسم الرجل، والحبل يؤدي إليها.

اندفعت نحو الفتحة المظلمة، ومر مخلوق الأبت أمامي وهو يمد يديه الجبارتين، ويزوم ويهدر ويزأر على نحو مرعب.

رأيت الآن بوضوح النهاية التي أعدَّها لي سالينسوس أوول. يبدأ التعذيب بتجويعي، ثم بإنزال هذا الوحش الشرس إلى سجني لإنهاء العمل الذي تصورته مخيلة الجيداك الشيطانية.

ثم ومضتْ حقيقة أُخرى في ذهني: لقد عشتُ تسعة أيام من الأيام العشرة المحددة التي يجب أن تمر قبل أن يتمكن سالينسوس أوول من الإعلان عن أن ديجاه ثوريس أصبحت الملكة. وكان الهدف من إنزال مخلوق الأبت هو ضمان موتي قبل اليوم العاشر.

ضحكت بصوت عال عندما فكرت كيف سيساعدني إجراء الأمان الذي اتبعه سالينسوس أوول في التغلب على الهدف الذي يسعى إليه؛ فعندما يكتشفون وجود مخلوق الأبت وحيدًا في حفرة الوفرة الخادعة، سيتصورون أنه التهمني تمامًا، وبالتالي لا توجد شبهة هرب تجعلهم يبحثون عني.

قمت بلف الحبل الذي يقودني حتى الآن في رحلتي غريبة، سعيًا لطرفه الآخر، ولكني وجدته يمتد أمامي كلما اتبعته. إذنْ هذا هو المقصود من عبارة: "عليك تتبُّع الحبل".

وكان النفق الذي أزحف من خلاله منخفضًا ومظلمًا. تتبعت الحبل لعدة مئات من الأمتار، ثم شعرت بعقدة تحت أصابعي. "يكمن الخطر بعد العُقد".

اتخذتُ أقصى قدر من الحذر، وبعد لحظة أوصلني منحنى حاد في النفق إلى فتحه في غرفة كبيرة وساطعة الإضاءة.

كان النفق الذي أعبره يتجه إلى أعلى قليلاً، ومن هذا تصورت أن الغرفة التي وجدت نفسي فيها الآن يجب أن تقع إما في الطابق الأول من القصر أو أسفل الطابق الأول مباشرةً.

رأيتُ على الجدار المقابل العديد من الأدوات والأجهزة الغريبة، وفي وسط الغرفة توجد مائدة طويلة، حيث يجلس رجلان في محادثة جادة.

كان في مواجهتي رجلٌ أصفر كهل، صغير الحجم، وجهه ذابل وشاحب، عيناه كبيرتان تُظهران الاستدارة البيضاء لمجمل محيط

القزحية.

وكان رفيقه رجلاً أسود، ولم أكن في حاجة إلى رؤية وجهه لأعرف أنه ثوريد؛ إذا لا يوجد أي شخص آخر من الأبناء الأوائل غيره في شمال الحاجز الجليدي.

كان ثوريد يتحدث عندما تناهت إلى سمعي أصوات الرجلين.

قال: "سولان، لا يوجد أي خطر، والمكافأة كبيرة. تعرف أنك تكره سالينسوس أوول، ولن يسعدك أي شيء أكثر من أن تحبط خطة عزيزة عليه. وليس أعز عليه اليوم أكثر من فكرة زفاف أميرة هيليوم الجميلة؛ لكني أريدها أيضًا، يمكنني الفوز بها بمساعدتك. لا تحتاج أكثر من الخروج من هذه الغرفة لمجرد لحظة عندما أعطيك الإشارة، وسأتولى الباقي. وعندما أغادر، يمكنك أن تأتي وتُعيد مفتاح التشغيل الكبير إلى مكانه مرة أخرى، ويعود كل شيء كما كان. أنا بحاجة إلى ساعة للبداية، حتى أكون آمنًا خارج القوة الشيطانية التي تتحكم فيها في هذه الغرفة الخفية تحت قصر سيدك. انظر مدى السهولة". ومع هذه الكلمات، نهض الداتور الأسود من مقعده، وسار عبر الغرفة، ثم وضع يده على رافعة كبيرة مصقولة تبرز من الجدار المقابل.

صرخ الكهل وهو يقفز خلفه قائلاً: " كلا! كلا! ليس هذا! ليس هذا! فهذا يتحكم في خزانات أشعة الشمس، وإذا سحبته لمسافة كبيرة لأسفل، ستؤدي الحرارة إلى فناء كادابرا كلها قبل أن أتمكن من إعادة الرافعة. ابتعد! ابتعد! أنت لا تعرف مع أي قوى جبارة تتعامل. هذه هي الرافعة التي تسعى إليها. لاحظ جيدًا الرمز الـمُطعم باللون الأبيض على سطحها الأسود».

اقترب ثوريد وفحص مقبض الرافعة.

وقال: "آه، مغناطيس. سوف أتذكر". ثم واصل: "سآخذه بعد انتهاء الأمر".

تردد الرجل العجوز. امتدت نظرة مختلطة بين الجشع والخوف على ملامحه التي لا تتسم بالجمال.

وقال: "ضاعِف الرقم. فالمبلغ الذي تعرضه ضئيل جدًّا مقابل الخدمة التي تطلبها. لماذا أخاطر بحياتي حتى باستضافتك هنا داخل حدود محطتي المحظورة. إذا عرف سالينسوس أوول ذلك، سيلقي بي إلى مخلوقات الأبت قبل أن ينتهي اليوم".

عارضه الأسود قائلاً: "إنه لا يجرؤ على ذلك، وأنت تعرف هذا جيدًا يا سولان. فأنت تتحكم في قوة كبيرة جدًّا من الحياة والموت على شعب كادابرا، ولذا لن يخاطر سالينسوس أوول أبدًا أن يهددك بالموت. فقبل أن يتمكن أتباعه من وضع أيديهم عليك، بمقدورك أن تمسك هذه الرافعة التي حذرتني منها وتقضي على المدينة بأكملها".

أجاب سولان مرتعشًا: "وأنا مع الصفقة».

فقال ثوريد: "لكنك إذا كنت ستموت على أي حال، فسوف تجد الجرأة للقيام بذلك".

تمتم سولان: "نعم، فكرتُ كثيراً في نفس هذا الموضوع. حسنًا، هل تستحق أميرتك الحمراء السعر الذي أطلبه نظير خدماتي، أم ستغادر من دونها وأنت تراها في أحضان سالينسوس أوول ليلة الغد؟".

أجاب ثوريد وهو يُقسم: "خُذ السعر الذي تريده أيها الرجل الأصفر. نصفه الآن والنصف الباقي بعد الوفاء بالاتفاق».

ألقى الداتور حقيبة مكتظة بالمال على المائدة.

فتح سولان الحقيبة، وأخذ يعد النقود بأصابع مرتعشة. كسا الجشع عينيه الغريبتين، وارتعشت لحيته وشاربه مع عضلات فمه وذقنه. فمن الواضح تمامًا من سلوكه أن ثوريد نجح في تخمين نقطة ضعف الرجل؛ إذ حتى حركة تشبث أصابعه الشبيهة بالمخالب كانت تدل على جشع البخيل.

أعاد سولان المال إلى الحقيبة بعد أن تأكد من أن المبلغ صحيح، ثم نهض من المائدة.

وقال: "والآن، هل أنت متأكد من أنك تعرف الطريق إلى وجهتك؟ يجب أن تغادر بسرعة لتقطع المسافة إلى الكهف، ومن هناك تتخطى القوة العظمى. كل ذلك خلال ساعة قصيرة، فلا أجرؤ على حمايتك أكثر من ذلك".

قال ثوريد: "دعني أكرر كلامك، لتتأكد من أنني حفظته».

أجاب سولان: "هيا".

بدأ ثوريد، وهو يشير إلى باب في أقصى نهاية الشقة: "أخرج من هذا الباب البعيد، وأتبع مسار ممر، وأترك ثلاثة ممرات متشعبة على يميني؛ ثم أدخل إلى الممر الأيمن الرابع، وإلى الأمام إلى حيث تجتمع ثلاثة

ممرات. وهنا، مرة أخرى، أتبع الممر الأيمن وأسير بجوار الجدار الأيسر لتجنب الحفرة. أصل، في نهاية هذا الممر، إلى مدرج حلزوني، يجب أن أتخذه لأسفل وليس إلى أعلى. وبعد ذلك، يمتد الطريق على طول ممر واحد بلا تشعبات. هل أنا محق؟».

أجاب سولان: "تمامًا يا داتور، والآن انصرف. لقد أمضيت بالفعل وقتًا طويلاً في هذا المكان المحظور".

قال ثوريد وهو ينهض لينصرف: "توقع الإشارة إذن الليلة أو غدًا".

كرر سولان: "الليلة أو غدًا"، وأغلق الباب خلف ضيفه. واصل الكهل تمتمته وهو يعود ثانية إلى المائدة، وبدأ في تفريغ محتويات حقيبة المال مرة أخرى وهو يفرك أصابعه خلال كومة المعدن اللامع، ثم أخذ يرتب القطع النقدية في أبراج صغيرة، ويعدها، ويفرزها، ويداعب الثروة وهو يتمتم بدندنة خفيضة.

توقفت أصابعه الآن عن اللعب، وبرزت عيناه باتساع كبير وهو يثبتهما على الباب الذي اختفى ثوريد من خلاله. تحولت الدندنة إلى برطمة، وأخيراً إلى هدير قبيح.

ثم نهض الرجل الكهل مبتعدًا عن المائدة، وأخذ يهز قبضته على الباب المغلق. رفع صوته الآن، وجاءت كلماته واضحة.

قال: "أحمق! أتعتقد أن سولان يمكن أن يتخلى عن حياته من أجل سعادتك؟ إذا هربت، سيعرف سالينسوس أوول أنك لم تكن لتنجح في الهرب إلا من خلال التواطؤ معي، وبالتالي سيرسل لي. ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أُحول نفسي والمدينة إلى رماد؟ كلا يا أحمق، هناك طريقة أفضل؛ طريقة أفضل يستطيع بها سولان الاحتفاظ بأموالك والانتقام في الوقت نفسه من سالينسوس أوول».

أطلق ضحكات كريهة بنبرة قبيحة.

"أيها الأحمق المسكين! يمكنك تحريك مفتاح التشغيل الكبير الذي سيعطيك الحرية لتطير في هواء أوكار، ثم تمضي في حماية بلهاء مع أميرتك الحمراء إلى حرية الإعدام. فعندما تخرج من هذه الغرفة إلى رحلتك، ماذا سيمنع سولان من إعادة مفتاح التشغيل إلى مكانه قبل أن تلمسه يدك الخسيسة؟ لا شيء؛ وعندئذ سيقتلك حارس الشمال أنت وامرأتك، وعندما يرى سالينسوس أوول جثتيكما، لن يتصور أبدًا أن سولان له أي علاقة بالموضوع".

انخفض صوته مرة أخرى إلى تمتمات لم أتمكن من ترجمتها. على أنني سمعت ما يكفي لتخمين قدر أكبر، وشكرت العناية الإلهية التي قادتني إلى هذه الغرفة في وقت مهم كهذا بالنسبة لي ولديجاه ثوريس.

والآن، كيف يمكنني المرور مع تجنب الرجل الكهل؟! فالحبل، الذي يكاد أن يكون غير مرئي على الأرض، يمتد مباشرة عبر الشقة إلى باب على الجانب الآخر.

لا أعرف طريقًا آخر، ولا يمكنني تجاهل نصيحة "عليك تتبُّع الحبل". يجب أن أعبر هذه الغرفة، ولكن دون أن يكتشفني هذا الرجل الكهل الذي وجوده في وسطها يحيرني.

بمقدوري بالطبع أن أهجم عليه وأسكته إلى الأبد بيدي العاريتين، لكني سمعت ما يكفي لإقناعي أن وجوده حيًّا ولديه كل المعلومات التي عرفتها قد يخدمني في وقت ما مستقبلاً؛ بينما إذا قتلته وحل رجل آخر محله، لن يأتي ثوريد هنا مع ديجاه ثوريس كما أفصح بوضوح عن عزمه.

وقفت في الظلال القاتمة في نهاية النفق، أفكر في خطة مناسبة. وخلال مراقبتي -كالقطط- كل حركة للرجل الكهل، وجدته يتناول حقيبة المال ويسير إلى أحد أطراف الشقة، ثم ينحني على ركبتيه ويلمس لوحًا في الجدار.

خمنت على الفور أنه يُخبئ نقوده هنا. كان منحنيًا وظهره نحوي، فتسللت إلى الغرفة على أطراف أصابعي، في محاولة للوصول إلى جانبها الآخر قبل أن يستكمل مهمته ويعود ثانية إلى وسط الغرفة.

أمامي ثلاثون خطوة إجمالاً، لكن مخيلتي الـمُجهَدة تصورت أن هذا الجدار يبعد عدَّة أميال. وصلتُ أخيراً، دون أن أبعد عيني إطلاقًا عن الجزء الخلفي من رأس هذا الكهل البخيل.

لم يستدر إلَّا عندما كانت يدي على زر التحكم في الباب الذي سأخرج منه لاستكمال طريقي، ولم يلتفت نحوي وأنا أخرج. خرجت، وأغلقت الباب برفق.

توقفتُ للحظة واضعًا أذني بالقرب من اللوح لأعرف ما إذا كان اشتبه في أي شيء، لكني لم أسمع أي صوت؛ فأسرعت في طريقي على طول

الممر الجديد، متبعًا الحبل الملفوف الذي أحضرته معي خلال تقدمي.

وبعد مسافة قصيرة وصلت إلى نهاية الحبل، عند نقطة تتجمع عندها خمسة ممرات. ماذا أفعل؟ وما الطريق الذي يجب أن أتخذه؟ استبدت بي الحيرة.

كشف فحص متأن لنهاية الحبل أنه قُطِع بأداة حادة. أقنعني ذلك، علاوة على الكلمات التي حذرتني أن الخطر يكمن بعد العُقد، أن الحبل قُطِع منذ وضعه صديقي لإرشادي؛ لأنني لم أمر إلا بعقدة واحدة، بينما يبدو واضحًا أن هناك اثنين أو أكثر على طول الحبل.

أنا الآن في ورطة كبيرة بالفعل؛ إذ لا أعرف المسار الذي يجب اتباعه، كما لا أعرف أين يكمن الخطر في طريقي. مع ذلك، ليس أمامي شيء آخر سوى اتباع أحد الممرات، فما من فائدة لبقائي هنا.

اخترت الممر المركزي، وسرت في أعماقه القاتمة وعلى شفتي صلاة.

سرعان ما ارتفعت أرضية النفق خلال سيري، ثم وصل بي الطريق إلى نهاية مفاجئة أمام باب ثقيل.

لم أسمع أي شيء. فتحت الباب ودخلت بتهوري المعتاد إلى غرفة مليئة بالمحاربين الصُّفر.

فتح أول مَن رآني عينيه باتساع في دهشة. وشعرت في اللحظة نفسها بإحساس الوخز في إصبعي، ما يشير إلى وجود صديق بين المجموعة.

والآن شاهدني الآخرون، واندفعوا للإمساك بي؛ فهؤلاء هم جميع أفراد حرس القصر، ويعرفون وجهي.

كان الرجل الذي يرتدي الخاتم المماثل لخاتمي الغريب هو أول مَن أمسك بي، وقال لي هامسًا: "استسلم لي!"، ثم صاح بصوت عال: "أنت سجيني، أيها الرجل الأبيض"، وهددني بسلاحه.

وهكذا، استسلم بخنوع جون كارتر أمير هيليوم لخصم واحد. احتشد حولنا الآخرون وهم يطرحون العديد من الأسئلة. لم أتكلم، وأخيراً أعلن الحارس الذي أسرني أنه سيعيدني إلى زنزانتي.

أمر ضابط عدة محاربين آخرين بمرافقته، بدأنا نعود من نفس الطريق الذي جئت منه لتوي. سار صديقي بجانبي وأخذ يوجه العديد من الأسئلة السخيفة عن البلد الذي أتيت منه، إلى أن كف زملاؤه في النهاية عن الانتباه لكلامه أو ثرثراته.

بدأ يخفض صوته تدريجيًّا وهو يتحدث، حتى أصبح قادرًا على التحدث معي بنبرة منخفضة دون جذب الانتباه. كانت حيلته ذكية، وأظهرت أن تالو لم يُخطئ في تقدير جدارة الرجل للمهمة الخطيرة التي اختاره لها.

عندما تأكد تمامًا أن الحراس الآخرين لا يستمعون إلينا، سألني لماذا لم أتبع الحبل. وعندما أخبرته أن الحبل انتهى عند الممرات الخمسة، قال لا بد أن شخصًا يحتاج إلى قطعة حبل هو مَن قطعه؛ لأنه كان على يقين أن "الكادابرانيين الأغبياء لا يمكنهم أبدًا تخمين الغرض منه".

وقبل أن نصل إلى نقطة تفرع الممرات الخمسة، نجح صديقي المارينتينياني في التقهقر معي إلى الجزء الخلفي من طابور الحرس. وعندما لاحت أمامنا الممرات المتفرعة، همس قائلاً:

"عليك أن تتخذ الطريق الأول على اليمين، حيث يؤدي إلى برج المراقبة عند الجدار الجنوبي، وأنا سوف أوجه المطاردة إلى الممر التالي"؛ ثم دفعني بقوة في الظلام نحو مدخل النفق، وبدأ في الوقت نفسه يصرخ في ألم زائف وتحذير وهو يلقي بنفسه على الأرض كما لو أنني أسقطته بضربة قوية.

سمعت من خلفي أصوات الحراس المنفعلين، يتردد صداها عبر الممر، ثم يهبط تدريجيًّا، حيث قادهم جاسوس تالو إلى ممر خاطئ في مطاردة وهمية.

ركضت إنقاذًا لحياتي خلال القاعات المظلمة أسفل قصر سالينسوس أوول. لا بد أن مظهري كان غريبًا إن كان هناك مَن لاحظه؛ فعلى الرغم من أن الموت كان يلوح حولي، فقد ظهرت ابتسامة عريضة على وجهي وأنا أفكر في بطل مارينتينا الذي لا أعرف اسمه وأدين له بحياتي.

إنه من نفس نوع رجال هيليوم الحبيبة. وعندما ألتقي بأي شخص من هذا النوع، أيًّا كان عِرقه أو لونه، يدخل قلبي كما حدث الآن مع صديقي الجديد الذي خاطر بحياته من أجلي لأنني ببساطة أرتدي خاتمًا مطابقًا للخاتم الذي وضعه حاكمه في إصبعه.

امتد الممر الذي أركض فيه مسافة كبيرة، منتهيًا أسفل مدرج حلزوني. صعدت، حتى وصلت إلى غرفة مستديرة فوق الطابق الأول من برج.

ضمت هذه الشقة دزينة من العبيد الحُمر، يعملون في تلميع أو إصلاح

أسلحة الرجال الصُّفر. اصطفت على جدران الغرفة أرفف عليها مئات من السيوف المستقيمة وذات الخطاف، والرماح، والخناجر. من الواضح أنه مستودع للأسلحة. ولم يكن هناك سوى ثلاثة محاربين يحرسون العمال.

أدركت عيناي المشهد بأكمله في لمحة. هنا توجد وفرة من الأسلحة! وهنا توجد مجموعة قوية من المحاربين الحُمر لاستخدام هذه الأسلحة!

وهنا الآن جون كارتر أمير هيليوم في حاجة للأسلحة والمحاربين على حد سواء!

دخلت إلى الشقة، وشاهدني الحراس والسجناء في وقت واحد.

يوجد على مقربة من المدخل، حيث وقفت، رف السيوف المستقيمة. وعندما أمسكت يدي بمقبض أحد هذه السيوف، وقعت عيني على وجهي سجينين يعملان جنبًا إلى جنب.

بدأ أحد الحراس يسألني: "مَن أنت؟ وماذا تفعل هنا؟».

قلت: "لقد جئت من أجل تاردوس مورس جيداك هيليوم، وابنه مورس كاجاك"، مشيراً إلى اثنين من السجناء الحُمر، اللذين نهضا واتسعت أعينهما في دهشة.

واصلت، بعد أن رأيت أن جميع السجناء من بحرية تاردوس مورس: "انهضوا أيها الرجال الحُمر! لنترك نصبًا تذكاريًّا قبل أن نموت في قصر طاغية أوكار، يُسجل إلى الأبد في حوليات كادابرا دليلاً على شرف هيليوم ومجدها".

هاجمني الحارس الأول واشتبكنا. ولفزعي لاحظت أن العبيد الحُمر مكبلون بالأرض.

* * *

(13)

مفتاح تشغيل المغناطيس

لم يعر الحراس أدنى اهتمام لعملهم في الحراسة؛ إذ لم يكن في مقدور الرجال الحُمر التحرك لما يزيد على قدمين من الحلقات الكبيرة التي كبلتهم، على الرغم من استيلاء كل منهم على السلاح الذي يعمل عليه عندما دخلت الغرفة، ووقفوا على أهبة الاستعداد للانضمام لي إن أمكنهم.

كرس الرجال الصُّفر كل اهتمامهم لي. ولم تمضِ فترة طويلة قبل أن يكتشفوا أنهم الثلاثة غير قادرين على الدفاع عن مخزن الأسلحة ضد جون كارتر. لو كان معي اليوم سيفي الطويل! على أي حال أبليت جيدًا بأسلحة الرجل الأصفر غير المألوفة لي.

استغرقتُ بعض الوقت في البداية لتجنب سيوفهم الخطافية الخسيسة، لكني نجحتُ بعد دقيقة أو دقيقتين في انتزاع سيف مستقيم ثان من أحد الرفوف على طول الجدار، وشعرتُ أن تجهيزاتي على قدم المساواة مع خصومي عندما استخدمته في صد خطافاتهم.

هاجمني الثلاثة مرة واحدة، ولولا حدث خدمني ربما كنت انتهيت بسرعة. اندفع الحارس الأمامي بشراسة نحوي بخطافه بعد أن دفعني ثلاثتهم إلى الجدار، لكني تحركت بخفة ورفعت ذراعي لتجنب خطافه، فمس سلاحه جانبي ورشق في رف الرماح.

ركضتُ قبل أن يتمكن من اقتلاعه، ثم عُدت إلى التكتيكات التي أنقذتني مائة مرة في ظروف عسيرة. أسرعت نحو المحاربين، وأجبرتهم على التراجع بوابل من الضربات والطعنات، إلى أن أخذ الخوف من الموت يحوم حولهم.

بدأ أحدهم يصرخ طلبًا للمساعدة، ولكن فات أوان إنقاذهم.

أصبحوا في يدي الآن، ودفعت بهم إلى نهاية مستودع الأسلحة حيث كنت أريدهم في متناول سيوف العبيد المكبلين. وفي لحظة رقد الاثنان موتى على الأرض. لكن صرخاتهم لم تكن بلا جدوى تمامًا؛ فقد سمعتُ الآن صيحات استجابة ووقع أقدام كثيرة من الرجال يركضون، وقعقعة العتاد، وأوامر الضباط.

صاح تاردوس مورس: «الباب! أسرع يا جون كارتر، أغلق الباب!».

كان الحراس على مرمى البصر بالفعل، يهرعون عبر الساحة المفتوحة التي كانت مرئيةً من خلال المدخل.

يمكنكم الوصول إلى البرج خلال عشر ثوان. حملتني قفزة واحدة إلى الباب الثقيل. أغلقته، مما أحدث ضجة مدوية.

صاح تاردوس مورس: «الحاجز!».

حاولت إنزال حاجز الإغلاق الضخم إلى مكانه، لكنه تحدى كل محاولاتي.

صاح أحد الرجال الحُمر: «ارفعه قليلاً لتخفيف حركة المزلاج».

وكنت أسمع المحاربين الصُّفر يقفزون على طول الممشى المرصوف خارج الباب. رفعتُ الحاجز وأطلقتُ عليه النار ناحية اليمين، عندئذٍ ألقى الحارس الأول بنفسه ضد الجانب الآخر من اللوحات الضخمة.

انزلق حاجز الإغلاق في الوقت المناسب، وإن كان في جزءٍ من الثانية فقط.

ركزتُ انتباهي الآن على السجناء. ذهبت أولاً إلى تاردوس مورس لأسأله عن مكان المفاتيح لفك قيودهم.

أجاب جيداك هيليوم: «إنهم لدى ضابط الحرس، وهو من بين أولئك في الخارج الذين يسعون إلى الدخول. عليك فك القيود بالقوة».

كان معظم السجناء يجاهدون بالسيوف التي في أيديهم لقطع الأغلال التي تكبلهم. وكان المحاربون الصُّفر يضربون الباب بالرماح والفؤوس.

ركزت انتباهي إلى السلاسل التي تكبل تاردوس مورس. قطعت المعدن بعمق، مرارًا وتكرارًا، بنصلي الحاد، بيد أن سيل الضربات على الباب كان أسرع كثيراً.

وأخيراً أثمرت جهودي عن فك الرابطة، وفي لحظة لاحقة أصبح تاردوس مورس حرًّا، على الرغم من وجود بضع بوصات من سلسلة زائدة لا تزال تتدلى من كاحله.

أعلن سقوط قطعة من خشب الباب إلى الداخل عن التقدم الذي يحققه أعداؤنا للدخول.

اهتزت اللوحات الجبارة وانحنت تحت الهجمة الجنونية للرجال الصُّفر الغاضبين.

مع الضرب على الباب وقطع الرجال الحُمر لقيودهم، كان الضجيج

داخل مستودع الأسلحة مروعًا. ما إن تحرر تاردوس مورس، حتى تحول إلى سجين آخر ليحرره، بينما انهمكت أنا في العمل لتحرير مورس كاجاك.

علينا أن نعمل بسرعة لقطع كل تلك الأغلال قبل أن ينفتح الباب. تحطم الآن لوح وسقط على الأرض نحو الداخل، فانطلق مورس كاجاك إلى الفتحة ليحمي الطريق حتى يتيح لنا وقتًا لإطلاق سراح الآخرين.

انتزع رماحًا من الجدار وأوقع خسائر بين المجموعة المتقدمة من الأوكاريين، بينما اشتبكنا نحن مع المعدن العنيد الذي يحول دون حرية زملائنا.

وأخيراً تحرر جميع السجناء ما عدا واحد، وهنا سقط الباب في انهيار جبار نتيجة ابتكارهم المتعجل لبلطة مهولة، ثم هجم علينا القطيع الأصفر.

«إلى الغرف العليا!»، صاح الرجل الأحمر الذي كان لا يزال مقيدًا بالأرض. «إلى الغرف العليا! فهناك يمكنكم الدفاع عن البرج ضد كادابرا كلها. لا تتأخروا بسببي، فلم أكن أحلم بموت أفضل من الموت في خدمة تاردوس مورس وأمير هيليوم».

لكني كنتُ أضحي بحياة كل رجل منا دون أن أهجر رجلاً أحمر واحدًا، بطلاً يتمتع بقلب أسد، ويتوسل إلينا أن نتركه.

فناديت على اثنين من الرجال الحُمر: «اقطعوا سلاسله، بينما يتصدى بقيتنا للعدو».

يوجد عشرة منا الآن لخوض المعركة مع الحراس الأوكاريين. وأعتقد أن برج المراقبة القديم لم يشهد أبدًا معركة حامية الوطيس أكثر من تلك المعركة التي اندلعت اليوم داخل جدرانه القاتمة.

تراجعتُ الموجة الأولى المتدفقة من المحاربين الصُّفر من جراء قسوة سيوف عشرة من قدامى مقاتلي هيليوم. سدت العشرات من جثث الأوكاريين المدخل. اندفع عبر الحاجز البشع عشرات آخرون يهتفون بصوت أجش صرخة الحرب البشعة.

واجهناهم عند الكومة الدموية، يدًا بيد، نطعن في الجانب الأقرب، وندفع بعيدًا عندما نتمكن من دفع أحد الخصوم بطول الذراع. ارتفعت وانخفضت، متداخلة مع صرخة الحرب التي يطلقها الأوكاريون، عبارة مجيدة: «من أجل هيليوم! من أجل

هيليوم!»، التي حفَّزت عبر عصور لا تُعد ولا تُحصى أشجع الشجعان على القيام بأفعال باسلة جعلت شهرة أبطال هيليوم تنتشر على مدى طول وعرض هذا العالم.

تحرر الآن آخر الرجال الحُمر بعد تحطيم أغلاله، وأصبحنا ثلاثة عشر رجلاً قويًّا نواجه كل مجموعة جديدة من جنود سالينسوس أوول. نزف جميعنا متأثرين بجراحنا، ولكن لم يسقط أحدٌ.

شاهدنا في الخارج المئات من أفراد الحرس يتدفقون إلى الفناء. وعلى طول الممر المنخفض الذي وجدت خلاله طريقي إلى مستودع الأسلحة، استمعنا إلى قعقعة المعادن وصيحات الرجال.

سيهاجموننا خلال لحظات من الجانبين. ومع كل براعتنا، لا يمكننا أن نأمل الصمود في وجه تلك الصعاب غير المتكافئة التي ستقسم انتباهنا ونحن عدد صغير.

«إلى الغُرف العليا!»، صاح تاردوس مورس. تراجعنا في لحظة نحو المدرج الذي يقود إلى الطوابق العليا.

خضنا معركة دموية أخرى مع قوة من الرجال الصُّفر، هاجمت مستودع الأسلحة خلال تراجعنا بعيدًا عن المدخل. وهنا فقدنا أول رجل؛ زميل نبيل لم نتمكن من حمايته. لكن الجميع نجح في التراجع إلى المدرج باستثنائي؛ فقد بقيت لمنع الأوكاريين من التقدم إلى أن أصبح الآخرون آمنين في الأعلى.

عند فتحة المدرج الحلزوني الضيقة، لم يكن من الممكن أن يهاجمني أكثر من محارب واحد في الوقت نفسه؛ ولذا نجحتُ في صدهم دون صعوبة خلال الفترة الوجيزة المطلوبة، ثم أخذتُ أتراجع أمامهم ببطءٍ لأبدأ صعود المدرج الحلزوني.

تزاحم الحراس ضاغطين علي، على طول الطريق الطويل إلى أعلى البرج. وعندما يسقط أحدهم بسيفي، يسارع الآخرون فوق القتيل ليحلوا محله. وهكذا، كان يسقط عدد كبير كلما تقدمت عدة أقدام قليلة. وصلت إلى برج مراقبة كادابرا الواسع ذي الجدران الزجاجية.

وهنا تجمع رفاقي وهم على أهبة الاستعداد لأخذ مكاني. اتخذت جانبًا لأستريح قليلاً، بينما يصد رفاقي العدو.

من موقعي المرتفع، امتد مشهد لعدة أميال في جميع الاتجاهات.

امتدت نحو الجنوب أراض مقفرة وعرة، يكسوها الجليد، حتى حافة الحاجز الجبار. وظهرت في اتجاه الشرق والغرب، وعلى نحو معتم تجاه الشمال، مدن أوكارية أخرى؛ بينما كان يطل أمامي مباشرة، وراء جدران كادابرا، الرمح الحارس القاتم برأسه الكئيب.

ثم ألقيت عيني إلى أسفل، إلى شوارع كادابرا، حيث اندلعت اضطرابات مفاجئة؛ ورأيت معركة محتدمة خارج جدران المدينة، ورجالاً مسلحين يسيرون في طوابير كبيرة في اتجاه بوابة قريبة.

اقتربتُ بلهفة من الجدار الزجاجي لبرج المراقبة، غير مصدق ما تشاهده عيناي. لم أعد قادرًا على الاستمرار في تشككي؛ فناديتُ تاردوس مورس بصيحة فرح عالية، ارتفعت بشكل غريب وسط لعنات وتأوهات الرجال المشتبكين عند مدخل الغرفة.

عندما انضم إليَّ، أشرتُ إلى أسفل، إلى شوارع كادابرا، وإلى الطوابير المتقدمة من الخارج، التي ترفرف فوقها بشجاعة في هواء القطب الشمالي أعلام ولافتات هيليوم.

وخلال لحظات، كان كل رجل أحمر في هذه الغرفة العلوية قد رأى هذا المشهد الـمُلهِم، وتردد صدى صيحات الشكر على نحو لم تشهده من قبل هذه الكومة الحجرية العتيقةَ.

على أننا يجب أن نواصل القتال. فعلى الرغم من أن قواتنا دخلت كادابرا، لا يزال استسلام المدينة بعيدًا حتى الآن، ولم تهاجم قواتنا القصر بعد. نجحنا بعد عدة جولات في السيطرة على الجزء العلوي من المدرج، بينما كان الآخرون يمتعون أعينهم بمشاهدة مواطنينا الشجعان يقاتلون الآن في أسفل.

ها هم الآن يقتحمون بوابة القصر! ويضربونها ببلطاتهم الضخمة سطحها الهائل. والآن يصدهم وابل قاتل من الرماح يأتي من أعلى جدار القصر!

هجموا مرة أخرى. لكن غارة تضم قوة كبيرة من الأوكاريين، القادمين من طريق متقاطع، سحقت رأس الطابور، وسقط رجال هيليوم وهم يقاتلون أمام قوة ساحقة.

انفتحت بوابة القصر على مصراعيها، واندفعت قوة من حرس الجيداك -منتقاة من خيرة جيش أوكارا- لتحطيم الأفواج المنكسرة. بدا للحظة أن الهزيمة حتمية، ثم رأيت شخصية نبيلة فوق حيوان ثوات جبار– ليس الثوات الصغير لدى الرجال الحُمر، وإنما أحد أبناء عمومته العمالقة من قيعان البحر الميت.

شق المحارب طريقه إلى الأمام، وخلفه يحتشد جنود هيليوم غير المنظمين. عندما رفع رأسه عاليًا في تحدٍّ للرجال فوق جدران القصر، رأيت وجهه؛ ودق قلبي فخرًا وسعادة عندما قفز المحاربين الحُمر إلى جانب قائدهم وفازوا ثانية بالأرض التي كانت في حوزتهم وفقدوها- الوجه الذي رأيته فوق الثوات الجبار هو وجه ابني، كارثوريس من هيليوم.

كان يحارب إلى جانبه كلب حرب مريخي ضخم. لم أكن في حاجة إلى نظرة ثانية لمعرفة أنه وولا، كلبي وولا الوفي الذي أدى مهمته الشاقة بنجاح وجلب جحافل الإغاثة في الوقت المناسب.

في الوقت المناسب؟!

مَن يمكنه القول إنهم لم يتأخروا في عملية الإنقاذ، لكنهم يقينًا يمكنهم الانتقام! ويا له من انتقام سيوقعه هذا الجيش الذي لا يقهر بالأوكاريين الحقودين! تنهدت وأنا أفكر في أنني قد لا أكون على قيد الحياة لأشهد ذلك.

نظرتُ مرة أخرى من الجدار الزجاجي. لم يفتح الرجال الحُمر بعد الجدار الخارجي للقصر، لكنهم كانوا يقاتلون بنُبل ضد أفضل ما يمكن أن تقدمه أوكار من محاربين بواسل يقاتلون على كل شبر من الطريق.

لفت انتباهي الآن عنصر جديد خاج سور المدينة، مجموعة كبيرة من المحاربين الراكبين تلوح في الأفق، وراء الرجل الأحمر. إنهم حلفاء هيليوم، العمالقة الخُضر، تلك الجحافل الوحشية من قيعان البحر الميت في أقصى الجنوب.

أسرعوا نحو البوابة في صمت قاتم ورهيب، حيث الحوافر المبطنة لدى حيواناتهم لا يصدر عنها أي صوت، وهجموا على المدينة المنكوبة. وخلال حركتهم عبر الساحة الواسعة أمام قصر جيداك كل الجيداك، رأيت في المقدمة هيئة قائدهم الجبار: تارس تاركاس، جيداك ثارك.

تحققت أمنيتي لرؤية صديقي القديم يقاتل مرة أخرى. وعلى الرغم من أنني لا أقاتل بجواره، فأنا أقاتل أيضًا من أجل نفس الهدف هنا في برج

أوكار العالي.

من الواضح أن خصومنا لن يكفوا أبدًا عن هجماتهم العنيدة؛ فهم لا يزالون يأتون على الرغم من انسداد الطريق إلى غرفتنا بجثث موتاهم. كانوا يتوقفون أحيانًا لفترة تكفي

لسحب الجثث التي تعوق الطريق، ثم يصعد محاربون جدد إلى الأعلى ليتذوقوا كأس الموت.

كنتُ آخذ دوري مع الآخرين دفاعًا عن تراجعنا النبيل، عندما صرخ عاليًا مورس كاجاك في اضطراب مفاجئ وهو يشاهد المعركة الدائرة في الشارع أسفلنا. كانت توجد نبرة تخوف في صوته، ما دفعني إلى جانبه في اللحظة التي أمكن فيها أن يأخذ محارب آخر مكاني. وعندما وصلت إليه، أشار إلى الامتداد الشاسع من الثلج والجليد في اتجاه الأفق الجنوبي.

صاح: «واحسرتاه!»، أنا مُجبر على أن أشهد قسوة مصيرهم دون أن أمتلك القدرة على تحذيرهم أو معونتهم؛ وربما تخطوا الآن مرحلة التحذير أو المعونة».

نظرت في الاتجاه الذي أشار إليه ورأيت سبب اضطرابه، رأيتُ أسطولاً جبارًا من السفن الفضائية يقترب بمهابة من كادابرا في اتجاه الحاجز الجليدي بسرعة متزايدة.

قال مورس كاجاك بحزن: «الرمح القاتم، الذي يسمونه حارس الشمال، يجذبهم إليه؛ تمامًا كما جذب تاردوس مورس وأسطوله الكبير. انظر حيث يسقطون ويتكومون محطمين. إنه عامود كئيب ورهيب، ذو قوة تدمير جبارة لا يمكن مقاومتها».

رأيت أنا أيضًا، وإنما شيئًا آخر غير ما رآه مورس كاجاك؛ رأيت بعين ذهني غرفة مدفونة، تصطف على جدرانها أدوات وأجهزة غريبة.

توجد في وسط الغرفة مائدة طويلة، حيث جلس رجل كهل جاحظ العينين يعد أمواله. وأوضح ما رأيت على الجدار، هو مفتاح تشغيل كبير مُطعم بمغناطيس صغير داخل سطح مقبضه الأسود.

ألقيت نظرة على الأسطول الذي يقترب بسرعة. سوف يتحول الأسطول الحربي الجبار في السماء خلال خمس دقائق إلى قطع ملتوية من الخردة لا قيمة لها، تقبع عند قاعدة الرمح وراء جدار المدينة، ثم ستنطلق جحافل الصُّفر من بوابة أخرى بسرعة بحثًا عن عدد قليل من الناجين الذين يتعثرون بشكل أعمى خلال كتلة الحطام، وأخيراً تأتي مخلوقات الأبت. ارتعدتُ لهذا التفكير، إذ يمكنني أن أرى بوضوح الصورة الحية لهذا المشهد الرهيب كله.

أنا سريع دائمًا في اتخاذ القرارات والتصرف الفوري. كما تتزامن دائمًا الدوافع التي تحركني والشيء الذي يجب أن أقوم به؛ فإذا اتخذ عقلي طريق شكلية المنطق المملة، فهذا يحدث في اللا وعي بحيث لا أدركه موضوعيًّا. ويخبرني علماء النفس أن اللا وعي

ليس منطقيًّا؛ فمَن يدقق في نشاطي العقلي قد يصل إلى أنه غير صحيح. ولكني، أيًّا ما كان الأمر، غالبًا ما أحقق نجاحًا، بينما لا يزال الـمُفكر مشغولاً في مهمة لا نهاية لها من مقارنة التصورات المختلفة.

والآن سرعة التصرف هي الشيء الجوهري الأساسي الضروري لنجاح ما قررت القيام به.

تشبثتُ بسيفي في يدي، وطلبتُ من الرجل الأحمر عند فتحة المدرج أن يتنحى جانبًا.

صحتُ قائلاً: «أفسحوا الطريق لأمير هيليوم!»؛ قطعتُ بسيفي رأس الرجل الأصفر المندهش، الذي كان في هذه اللحظة تحديدًا لسوء حظه في نهاية صف القتال، قبل أن يستجمع فطنته، واندفعت كالثور الهائج إلى أسفل مهاجمًا مَن كانوا وراءه.

«أفسحوا الطريق لأمير هيليوم!»؛ صرختُ وأنا أقطع الطريق خلال حراس سالينسوس أوول المدهوشين.

شققتُ طريقي إلى أسفل الدرج الحلزوني وأنا أضرب بسيفي يمينًا ويسارًا وسط دهشة المحاربين، إلى أن اقتربت من نهاية الدرج، حيث تصور المحاربون أن جيشًا يهبط نحوهم، فاستداروا هاربين.

دخلتُ مستودع الأسلحة في الطابق الأول ووجدته شاغرًا، بعد أن هربتُ آخر مجموعة من الأوكاريين إلى الفناء، ولذا لم يشهد أحد استمراري في الدرج الحلزوني نحو الممر أسفله.

وهنا انطلقتُ راكضًا، بقدر ما استطاع ساقاي أن تحملاني، نحو الأركان الخمسة؛ وهناك قفزت إلى الممر الذي يقود إلى موقع الرجل الكهل.

اقتحمتُ الغرفة دون اتباع شكليات الطرق على الباب، حيث وجدت

الرجل الكهل يجلس أمام المائدة. وعندما رآني، هب واقفًا ساحبًا سيفه.

نظرتُ إلية نظرة خاطفة وأنا أقفز نحو مفتاح التشغيل الكبير؛ لكن سرعته كانت بمثل سرعتي، فوصل إلى هناك قبلي.

لن أعرف أبدًا كيف فعل ذلك، كما لم أستطع تصديق أن أي مخلوق مولود على المريخ يمكن أن تقترب سرعته من سرعة عضلاتي الرائعة لكوني من كوكب الأرض.

التفتَ نحوي كنمر، وسرعان ما عرفت سبب اختيار سولان لهذا العمل المهم.

لم أشهد أبدًا في حياتي مثل تلك المهارة العجيبة وخفة الحركة الخارقة التي أظهرها هذا المبارز الكهل. كان في أربعين مكانًا في الوقت نفسه؛ وكان يود أن يجعل مني قردًا، بل قردًا ميتًا، قبل أن تتاح لي نصف فرصة لأدرك الخطر الذي أواجهه.

ومن الغريب أن الظروف الجديدة وغير المتوقعة، تُبرِز قدرات غير محدودة لمواجهتها.

لقد تعلمتُ في ذلك اليوم، في غرفة مدفونة تحت قصر سالينسوس أوول، معنى مهارة المبارزة، وما المدى الذي يمكن أن يصل إليه إتقاني لاستخدام السيف عندما أواجه مبارزًا ممتازًا مثل سولان.

ظل لفترة راغبًا في أن يتفوق عليّ. بيد أن إمكاناتي الكامنة -التي ربما كانت خاملة داخلي طوال حياتي- أصبحت الآن في الصدارة؛ وقاتلتُ كما لا يمكن أن يحلم إنسان أبدًا.

إن حدوث تلك المبارزة الملكية في تجاويف قبو مظلم، دون أن تشهدها عين واحدة تقدرها حق قدرها، بدا لي دائمًا كأنه كارثة عالمية- على الأقل من وجهة نظر برسومية، حيث يُعد الصراع الدموي أول وأعظم اهتمام لدى الأفراد والأمم والأعراق.

كنتُ أقاتل بهدف الوصول إلى مفتاح التشغيل الذي يحول سولان دون وصولي إليه. وعلى الرغم من أننا لم نكن نبعد أكثر من ثلاث أقدام عن المفتاح، فلم أتمكن من التحرك حتى ولو لشبر واحد تجاهه، حيث أجبرني على التراجع لشبر واحد في الدقائق الخمس الأولى من معركتنا.

كنتُ أعرف أن أمامي عدة ثوان قليلة لإنقاذ الأسطول، ولذا حاولت استخدام تكتيكاتي القديمة في الهجوم؛ لكنني كنت كمَن يهاجم حائطًا من الطوب كي يفسح سولان الطريق.

لقد أوشكت في الواقع من أن أضع نفسي فوق سن سيفه لأنهي آلامي؛ لكن الحق كان إلى جانبي، وأعتقد أن هذا يجب أن يعطي أي رجل ثقة أكبر مما لو كان يعرف أنه يقاتل في سبيل قضية شريرة.

على الأقل، لم تكن الثقة هي ما يعوزني. وعندما هاجمت سولان ثانية، كنتُ أثق ضمنيًّا أنه سيجعله يستدير لمواجهة اتجاه هجومي الجديد، وإذا استدار سيموت.

وحدث أننا تقاتلنا وجانبانا نحو الهدف المرغوب- مفتاح التشغيل الكبير الذي يقع بالقرب من متناول يدي اليمنى.

أن أكشف عن صدري للحظة، كان يعني موتي المفاجئ، لكني لم أجد وسيلة أخرى سوى المحاولة، إذا كان ذلكً سيقود إلى إنقاذ الأسطول القادم. وهكذا، في مواجهة طعنة سيف غادر، أوصلتُ رأس سيفي إلى المفتاح وضربته ضربة مفاجئة قوية حركته من مكانه.

اندهش سولان مرتعبًا إلى حد أنه نسي إكمال هجمته، وأسرع نحو المفتاح وهو يصرخ بصوت عال- كانت صرخته الأخيرة، قبل أن تتمكن يده الممدودة من لمس الرافعة، حيث اخترق سيفي قلبه.

* * *

(14)

وطيس المعركة

لم تكن صرخة سولان المدوية دون جدوى؛ إذ اقتحم عشرات الحرس الغرفة بعد لحظات، وإن لم يكن قبل أن أنجح في ثني وتحطيم مفتاح التشغيل الكبير بحيث لم يعُد يمكن استخدامه ثانية لتحويل التيار القوي إلى المغناطيس الجبار الذي يتحكم في التدمير.

أسفرت نتيجة قدوم الحراس المفاجئ عن إجباري على البحث عن مهرب منعزل في أول ممر يمكن أن أجده، وللأسف لم يكن الممر الذي أعرفه، وإنما ممر آخر على يساره.

من المؤكد أنهم إما سمعوا وإما خمنوا الطريق التي ذهبت إليه، فلم أقطع سوى مسافة قصيرة ثم سمعت صوت المطاردة. لم أفكر في التوقف ومقاتلة هؤلاء الرجال هنا، في الوقت الذي تدور فيه معارك عديدة في أماكن أخرى من مدينة كادابرا وعند القصر، وهي معارك أكثر أهمية بالنسبة لي من الحياة عديمة الفائدة.

لكن المحاربين كانوا يتزاحمون؛ ولما كنت لا أعرف الطريق على الإطلاق، سرعان ما أدركت أنهم سيلحقون بي إلا إذا وجدت مكانًا أختبئ فيه حتى يمروا، مما قد يتيح لي فرصة للعودة إلى البرج ثانية من خلال الطريق الذي جئت منه، أو ربما أجد سبيلاً للوصول إلى شوارع المدينة.

ارتفع الممر بسرعة منذ أن تركتُ شقة مفتاح التشغيل، ثم تحول الآن إلى مستوى آخر مضاء جيدًا يمتد طويلاً بقدر ما أستطيع أن أرى. سيتمكن المطاردون من رؤيتي بمجرد وصولهم إلى هذا الطريق الممتد، مما يحول دون أي فرصة للهروب من الممر دون أن يكتشفوني.

رأيت الآن سلسلة من الأبواب تُفتح من جانبي الممر. ونظرًا لأنها تبدو جميعها على حد سواء بالنسبة لي، فقد دخلت من أول باب وصلت إليه. وجدتني في غرفة صغيرة، مفروشة بترف، ويبدو واضحًا أنها غرفة انتظار تسبق غرفة مكتب أو قاعة القصر العامة.

ويوجد على الجانب الآخر مدخل مُغطى بالستائر، سمعت وراءه همهمة أصوات. عبرت الغرفة الصغيرة على الفور، وأبعدت الستائر، ثم نظرت داخل الشقة الأكبر.

رأيت أمامي مجموعة من حوالي خمسين من نبلاء البلاط، يرتدون ملابس رائعة، ويقفون أمام عرش جلس فوقه سالينسوس أوول. وكان جيداك كل الجيداك يخاطبهم.

كان يقول، عند دخولي الشقة: «قد حانت الساعة المحددة. وعلى الرغم من أن أعداء أوكار أصبحوا داخل بواباتها، لا شيء سيقف أمام إرادة سالينسوس أوول. يجب إلغاء الاحتفال العظيم، بحيث يظل كل رجل في موقعه الدفاعي باستثناء الخمسين شخصًا الذين تقضي عاداتنا ضرورة وجودهم ليشهدوا تنصيب ملكة جديدة في أوكار. سينتهي الأمر في لحظة ثم نعود إلى المعركة. وفي حين أنها الآن أميرة هيليوم، وتشاهد من برج الملكة إبادة أبناء بلدها السابق، فسوف تشهد عظمة زوجها».

ثم تحول نحو أحد رجال البلاط، وأصدر بعض الأوامر بصوت منخفض.

أسرع هذا الشخص إلى باب صغير في أقصى نهاية الغرفة، وفتحه على مصراعيه صائحًا: «أفسحوا الطريق أمام ديجاه ثوريس، ملكة أوكار في المستقبل!».

وعلى الفور ظهر اثنان من الحراس وهم يقتادون العروس الرافضة نحو المذبح. لا تزال يداها مكبلتين وراء ظهرها، من الواضح لمنع إقدامها على الانتحار.

دل شعرها الأشعث وصدرها اللاهث، رغم تقييدها بالسلاسل، على أنها كانت تقاوم ما يريدون أن يفعلوه لها.

وعندما شاهدها سالينسوس أوول، نهض وسحب سيفه، ورفع النبلاء الخمسون سيوفهم عاليًا على شكل قوس، حيث يقتادون المخلوقة الجملية المسكينة إلى أسفل هذا القوس لتواجه قدرها.

أجبرت ابتسامة قاتمة نفسها على شفتي وأنا أتصور وضع حاكم أوكار عندما يفيق ويكتشف انهيار ترتيباته. وكانت أصابعي تداعب مقبض سيفي الدموي.

خلال مشاهدتي للموكب الذي يتحرك ببطء نحو العرش -موكب لا يضم سوى حفنة من الكهنة الذين يسيرون خلف ديجاه ثوريس، علاوة على اثنين من أفراد الحرس- لمحت وجهًا أسود يطل من وراء الستائر

التي تغطي الجدار وراء المنصة التي يقف عليها سالينسوس أوول في انتظار عروسه.

يُجبر الحراس الآن أميرة هيليوم على مواصلة الخطوات القليلة الباقية إلى جانب طاغية أوكار، ولم تكن لديَّ أعين أو أفكار للاهتمام بأي شيء آخر. فتح كاهن كتابًا، ثم رفع يده وبدأ يُنشد بصوت رخيم أغنية الطقوس. مد سالينسوس أوول يده ليمسك يد عروسه.

كنتُ أنوي الانتظار إلى أن تتيح لي بعض الظروف أملاً معقولاً في النجاح؛ فحتى إذا اكتملت مراسم الاحتفال، لا يُعد الزواج صحيحًا؛ لأنني لا أزال على قيد الحياة. كان اهتمامي ينصب أساسًا، بطبيعة الحال، على إنقاذ ديجاه ثوريس. تمنيت أن آخذها من قصر سالينسوس أوول، إن تمكنت من ذلك؛ ولكن سواء تحقق ذلك قبل هذا الزواج الصوري أو بعده، فهي مسألة ثانوية.

على أنني عندما رأيت يد سالينسوس أوول الخسيسة تمتد لتصل إلى يد أميرتي الحبيبة، لم أستطع كبح جماح نفسي أكثر من ذلك. وقبل أن يعرف نبلاء أوكار ما حدث، قفزت خلال صفهم الضئيل، وأصبحت على المنصة بجانب ديجاه ثوريس وسالينسوس أوول.

أنزلت يده القذرة بسطح سيفي، وأمسكت ديجاه من خصرها وأبعدتها خلفي. واجهت طاغية الشمال، وظهري لستائر المنصة، وغرفته تغص بالمحاربين النبلاء.

كانت هيئة جيداك كل الجيداك ضخمة كالجبل- رجلاً فظًّا وقاسيًا كالوحش. ومن موقعه العلوي، وعندما كان شعر سوالفه وشاربه ينتصب غضبًا، أمكنني أيضًا أن أتصور كيف يمكن أن يرتعد أمامه محارب أقل حِنكةً.

انطلق نحوي مزمجرًا بسيفه فقط، لكني لم أعرف أبدًا ما إذا كان سالينسوس أوول مبارزًا جيدًا أم سيئًا؛ فمع ديجاه ثوريس خلفي، لم أعد إنسانًا- بل سوبرمان، ولا يمكن أن يصمد رجل أمامي.

أطلقت صيحة واحدة خفيضة: «من أجل أميرة هيليوم!»، ثم وجهت سيفي مباشرة مخترقًا القلب الفاسد لحاكم أوكار الفاسد. وأمام وجوه النبلاء البيضاء الشاحبة، تدحرج سالينسوس أوول وعلى وجهه تكشيرة الموت الرهيب، أسفل درجات عرش زواجه.

للحظة ساد صمت متوتر في قاعة الزواج، ثم انطلق النبلاء الخمسون نحوي. قاتلنا بشراسة، لكن موقعي كان متميزًا؛ حيث وقفت على منصة مرتفعة أعلى منهم، وقاتلتُ من أجل امرأةٍ جليلةٍ تنتمي لعِرق جليل، وقاتلتُ من أجل حب كبير، ومن أجل أم ابني.

ومن وراء كتفي، ارتفع بإيقاع فضي ذلك الصوت العزيز، بنشيد معركة الشجاعة، الذي تغنيه نساء هيليوم عندما يذهب رجالهم للفوز بالنصر.

هذا وحدة كان كافيًا لإلهامي الانتصار على صعاب أكبر حتى، وأعتقد بحق أنني كان بمقدوري التفوق ذلك اليوم في قاعة الزواج التي تغصُّ بالمحاربين الصُّفر في قصر كادابرا، حتى إن لم تأتِ المعونة.

كان القتال سريعًا ومحتدًّا؛ فلم يكن قفز نبلاء سالينسوس أوول مرارًا وتكرارًا فوق الدرجات التي تسبق العرش إلا ليتراجعوا أمام سيفي، الذي يبدو أنه اكتسب سحرًا جديدًا بعد خبرته مع سولان الخبيث.

كان اثنان يضغطان عن كثب بحيث لم أتمكن من الاستدارة عندما سمعت حركة خلفي، ولاحظت أن صوت نشيد المعركة توقف. هل كانت ديجاه ثوريس تعد نفسها لتأخذ مكانها بجواري؟

ابنه بطلة لعالَم بطل! لن يكون خلافًا لمواقفها أن تمسك بسيف وتقاتل إلى جانبي. فعلى الرغم من أن نساء المريخ لا يتدربن على فنون الحرب، فهن يتمتعن بروح الحرب، ومن المعروف قيامهن بالقتال في عدد لا يُحصى من المناسبات.

لكنها لم تأت، وكنتُ سعيدًا لأن مجيئها كان سيضاعف العبء الملقى على عاتقي لحمايتها قبل أن أتَمكن من إجبارها على الابتعاد عن طريق الأذى. تصورت أنها تفكر في استراتيجية ماكرة، ولذا قاتلت مطمئنًّا لاعتقادي أن أميرتي الرائعة تقف ورائي.

قاتلتُ نبلاء أوكار لمدة نصف ساعة على الأقل، دون أن يتمكن أحدهم أن يضع قدمه على المنصة حيث أقف. وفجأةً تجمع كل مَن بقي منهم ليهاجموني بجنون، هجومًا يائسًا. وعندما بدأوا يتقدمون، فُتِح الباب الموجود في أقصى الغرفة واسعًا وانطلق رسول همجي العينين داخل الغرفة.

صاح قائلاً: «جيداك كل الجيداك! أين جيداك كل الجيداك؟ لقد سقطت المدينة أمام الجحافل من وراء الحاجز، وفتح محاربو الجنوب الآن بوابة القصر الكبيرة، ويتدفقون في حرمك المقدس. أين سالينسوس أوول؟ هو وحده الذي يمكنه إحياء شجاعة محاربينا المتداعية. وهو وحده الذي يمكنه إنقاذ أوكار اليوم. أين سالينسوس أوول؟»

ابتعد النبلاء عن جثة حاكمهم، وأشار أحدهم إلى الجثة ذات التكشيرة.

ترنح الرسول في رعب، كأنما أصابته لكمة في وجهه.

وصاح: «إذن اهربوا يا نبلاء أوكار! فلن ينقذكم أحد. أتسمعون! ها هم قد وصلوا!».

سمعنا وهو يتحدث هديرًا عميقًا من رجال غاضبين في الممر بالخارج، فضلاً عن قعقعة المعادن وصليل السيوف.

أسرع النبلاء دون التفات نحوي، وكنتُ أقف متفرجًا على مشهد مأساوي، وهربوا من مخرج آخر للشقة.

ظهرت على الفور تقريبًا فرقة المحاربين الصُّفر، عند المدخل الذي أتى منه الرسول. كانوا يتراجعون في اتجاه الشقة وهو يقاومون بعناد تقدم عدد قليل من الرجال الحُمر الذين أجبروهم على التراجع ببطء.

فوق رؤوس المقاتلين، استطعتُ أن أرى من موقعي المرتفع على المنصة وجه صديقي القديم كانتوس كان، يقود المجموعة الصغيرة التي نجحت في شق طريقها إلى قلب قصر سالينسوس أوول.

أدركت في لحظة أنني بمهاجمة الأوكاريين من الخلف، يمكنني تشتيتهم بسرعة بحث لا تدوم مقاومتهم طويلاً. وانطلاقًا من هذه الفكرة، قفزت من المنصة وأنا أشرح الأمر لديجاه ثوريس من فوق كتفي، على الرغم من أنني لم أستدر للنظر إليها.

مع وجودي دائمًا بينها وبين أعدائها، ومع نجاح كانتوس كان ومحاربوه في الوصول إلى الشقة، لا يمكن أن تتعرض ديجاه ثوريس لأي خطر إن ظلت هناك بمفردها بجوار العرش.

أردتُ أن يراني رجال هيليوم، وأن يعرفوا أن أميرتهم المحبوبة هنا أيضًا؛ لأنني أعرف أن ذلك سوف يلهمهم ببطولات أكثر بسالة من بطولاتهم السابقة، على الرغم من أنهم عظماء بالفعل لكونهم تمكنوا من الفوز بالوصول إلى أكثر قصر منيع لطاغية الشمال.

عندما عبرت الغرفة لمهاجمة الكادابريين من الخلف، فُتح مدخل صغير على يساري، ولدهشتي وجدت ماتاي شانج الأب الثيرني، وابنته فايدور ينعمان النظر في الغرفة.

بعد أن تجولت أعينهم في لمحة سريعة، اتسعت حدقاتهم وهي تستقر في رعب على جثة سالينسوس أوول، وعلى الدم الذي صبغ الأرض بلون قرمزي، وعلى جثث النبلاء الذين سقطوا بكثافة أمام العرش، وعليَّ، وعلى المحاربين الذين يقاتلون عند الباب الآخر.

لم يحاولا دخول الشقة، لكن أعينهما تجولت في كل ركن منها حيث كانا يقفان. وعندما مسحت أعينهما المساحة بأكملها، اكتست ملامح ماتاي شانج بنظرة غضب شرسة، ولمست ابتسامة باردة ماكرة شفاه فايدور.

اختفيا بعد ذلك، ولكن ليس قبل أن تلقي المرأة ضحكة ساخرة في وجهي مباشرة.

لم أفهم حينذاك معنى غضب ماتاي شانج أو سرور فايدور، لكني كنت أعرف أن كليهما لا يضمر لي خيراً.

وقفتُ، في لحظة لاحقة، فوق ظهور الرجال الصُّفر؛ وما إن شاهدني رجال هيليوم الحُمر فوق أكتاف خصومهم، حتى رنت صرخة كبيرة عبر الممر طغت لحظات على ضجيج المعركة.

هتفوا: «من أجل أمير هيليوم! من أجل أمير هيليوم!»، وكما تنقض الأسود الجائعة على فرائسها، هجموا ثانيةً على محاربي الشمال الآخذين في الضعف.

كان الرجال الصُّفر يقاتلون بيأس مطلق، حيث يحاصرهم الخصمان من الجهتين. قاتلوا كما يجب أن أقاتل إذا كنت في مكانهم، بتصميم على أن آخذ بقوة سيفي أكبر عدد ممكن من خصومي عندما أموت.

كانت معركة مجيدة، لكن النهاية بدت حتمية عندما وصلت الآن، من أسفل الممر خلف الرجال الحُمر، مجموعة كبيرة من المحاربين الصُّفر لتعزيز زملائهم.

انقلب الأمر الآن، وبدا أن رجال هليوم هم مَن سيقعون بين شقي الرحى. اضطررنا جميعًا إلى مواجهة هذا الاعتداء الجديد بقوة أكبر بكثير؛ ولذا كان متروكًا التعامل مع مَن تبقى من الرجال الصُّفر في

غرفة العرش.

انشغلت بهم بدرجة كبيرة، إلى حد أنني بدأت أتساءل عمَّ إذا كنت سأنتهي منهم بالفعل. دفعوني ببطء نحو الغرفة ثانيةً، وبعد أن مر الجميع ورائي، أغلق أحدهم الباب ثم سده بالمزلاج ليمنع دخول رجال كانتوس كان.

كانت خطوة ذكية؛ لأنها وضعتني تحت رحمة دزينة من الرجال داخل غرفة محصنة ضد دخول أي مساعدة، كما منعت عن الرجال الحُمر في الممر بالخارج أي سبيل للهروب إذا ما هجمت عليهم مجموعة جديدة من الخصوم.

بيد أنني قد واجهت سابقًا صعابًا أضخم مما أواجهها اليوم، وكنت أعرف أن كانتوس كان نجح في التخلص من فخاخ أخطر مائة مرة مما يواجهه الآن. ولذا لم تنتبني مشاعر اليأس، وركزت انتباهي على القتال الدائر.

كانت أفكاري تعود باستمرار إلى ديجاه ثوريس، واشتقتُ أن أضمها بين ذراعي، ما إن ينتهي القتال، وما إن أسمع منها مرة أخرى كلمات الحب التي حُرِمت منها لسنوات عديدة.

لم تتح لي أي فرصة، في أثناء القتال في القاعة، أن أسرق نظرة لها حيث تقفت خلفي بجوار عرش الحاكم الميت. وتساءلت لماذا كفت عن تشجيعي بغناء نشيد هيليوم الوطني؛ لكنني لم أكن في حاجة إلى أكثر من معرفة أنني أقاتل من أجلها، حتى أقدِّم أفضل ما يمكنني.

ربما من المرهق سرد تفاصيل تلك المعركة الدموية، وكيف قاتلنا من المدخل وصولاً عبر طول الغرفة إلى العرش قبل أن يسقط آخر خصومي مع اختراق سيفي داخل قلبه.

بعد ذلك، ومع صرخة الفرح، التفتُ بأذرع ممدودة نحو أميرتي لأروي شفتي من شفتيها كمكافأة مضاعفة على جهدي في تلك المواجهات الدموية التي خضتها من القطب الجنوبي إلى الشمالي من أجلها.

ماتت صيحتي السعيدة، تجمدت فوق شفتي؛ وسقط ذراعاي في ضعف وبلا حياة إلى جانبي. ترنحتُّ على الدرجات أمام العرش، كمَن يئن من جراحه.

لقد اختفت ديجاه ثوريس.

* * *

(15)
المكافأة

مع إدراكي أن ديجاه ثوريس لم تعُد موجودة داخل قاعة العرش، بدأت أتذكر الوجه الكئيب الذي لمحته يطل من وراء ستائر عرش سالينسوس أوول عندما دخلت بشكل غير متوقع خلال المشهد الغريب الذي كان يجري داخل الغرفة.

لماذا لم تدفعني رؤية هذه الملامح الشريرة إلى اتخاذ مزيد من الحذر؟ لماذا سمحتُ لتطورات الموقف الجديد السريعة أن تطمس من ذاكرتي هذا التهديد الخطير؟ ولكن، للأسف، عبثًا أن يمحو الندم الكارثة التي حدثت.

لقد وقعت ديجاه ثوريس مرة أخرى في براثن هذا الشيطان، ثوريد، داتور الأبناء الأوائل الأسود. ومرة أخرى ذهبت جميع جهودي الشاقة هباء. وأدرك الآن سبب الغضب المرتسم على ملامح ماتاي شانج، والمتعة القاسية التي رأيتها على وجه فايدور.

كانا يعرفان أو يخمنان الحقيقة. ويبدو أن هيكادور الثيرنيين المقدسين جاء إلى الغرفة على أمل إحباط رغبة سالينسوس أوول، أو ما اعتبره غدره المزمع للكاهن الأعلى الذي يطمح في ديجاه ثوريس لنفسه؛ ثم أدرك أن ثوريد سرق الجائزة من تحت أنفه.

أما متعة فايدور، فقد كانت بسبب تحقيقها ما سوف تعنيه هذه الضربة القاسية الأخيرة بالنسبة لي، بالإضافة إلى ارتياحها جزئيًّا لما تكنه من كراهية غيور لأميرة هيليوم.

فكرتُ بداية أن ألقي نظرة وراء الستائر في الجزء الخلفي من العرش؛ حيث رأيت ثوريد. فككتُ بهزة واحدة أربطة تلك الستائر التي لا تقدر بثمن، فانكشف أمامي مدخل ضيق وراء العرش.

لم أشك في وجود فتحة هنا للهروب، وأن ثوريد اتخذها. وتأكدت من ذلك عندما لمحت قطعة زينة صغيرة مرصعة بالجواهر تقع على بعد خطوات قليلة داخل الممر وراءها.

اختطفت قطعة الحلي ورأيت أنها تحمل شعار أميرة هليوم. ضغطت عليها بشفتي وأسرعت بجنون على طول الطريق المتعرج الذي قادني إلى أسفل، إلى قاعات القصر السفلية.

وصلتُ بعد مسافة قصيرة إلى الغرفة التي كان يسيطر عليها سولان سابقًا. لا تزال جثته ملقاة حيث تركتها، ولا توجد أي علامة على مرور أي شخص آخر إلى الغرفة منذ أن كنت فيها؛ لكنني عرفت أن اثنين مرا بها – ثوريد، الداتور الأسود، وديجاه ثوريس.

توقفت للحظة غير متأكد أي من مخارج الشقة العديدة يقودني إلى المسار الصحيح. حاولت أن أتذكر الاتجاهات التي سمعت ثوريد يكررها أمام سولان. وببطء بدأت تأتيني، كأنما من خلال ضباب كثيف، ذكرى كلماته:

«اتبع مسار ممر، واترك ثلاثة ممرات متشعبة على يمينك؛ ثم ادخل الممر الأيمن الرابع، وإلى الأمام إلى حيث تجتمع ثلاثة ممرات. وهنا، مرة أخرى، اتبع الممر الأيمن وسر بجوار الجدار الأيسر لتجنب الحفرة. تصل، في نهاية هذا الممر، إلى مدرج حلزوني، يجب أن تتخذه لأسفل وليس إلى أعلى. وبعد ذلك، يمتد الطريق على طول ممر واحد بلا تشعبات».

وتذكرت المخرج الذي أشار إليه وهو يتحدث.

لم أستغرق وقتًا طويلاً للبدء في هذا الطريق المجهول، كما لم أهتم بتوخي الحذر على الرغم من معرفتي بوجود أخطار جسيمة أمامي.

كان جزءٌ من الطريق أسود كالخطيئة، لكن معظمه كان جيد الإضاءة. على أن المسافة الممتدة بجوار الجدار الأيسر لتجنب الحُفر، كانت أكثر المسافات إظلامًا، وكنتُ على حافة الهاوية تقريبًا قبل أن أعرف أنني بالقرب من موقع الخطر. إنه إفريز ضيق، لا يزيد اتساعه عن قدم، هو كل ما تبقى لعبور هذا التجويف المخيف الذي يسقط فيه بالتأكيد ومن أول خطوة مَن لا يعرف بوجوده. وأخيراً عبرته بأمان، ثم وضح باقي الطريق لوجود ضوء ضعيف، إلى أن خرجت فجأة، في نهاية آخر ممر، إلى ضوء النهار عند حقل من الثلوج والجليد.

ولأني كنت مرتديًا الملابس المناسبة لجو مدينة كادابرا الحار، كان التغيير المفاجئ إلى برودة القطب الشمالي مزعجًا. على أن الأسوأ هو أنني أعرف عدم قدرتي على تحمل البرد القارس، وكنت عاريًا تقريبًا، وسوف أموت قبل أن أصل إلى ثوريد وديجاه ثوريس.

بدا مصيراً قاسيًا أن تعوق الطبيعة حركتي. تراجعت عائدًا إلى الدفء في نهاية النفق، وشعرت باليأس أكثر من أي وقت سابق آخر.

قررت عدم مواصلة السعي؛ لأن استمراري يعني هلاكي قبل أن أصل إلى هدفي؛ ولكن إذا كانت هناك وسيلة أكثر أمنًا، فلا بأس من التأخير لمحاولة اكتشافها لأكون مرة أخرى إلى جانب ديجاه ثوريس في ظروف تسمح بالقتال من أجلها.

ما إن عدت إلى النفق، حتى عثرت على جزء من قطعة فراء على أرضية الممر بالقرب من الجدار. لم أتمكن من الرؤية جيدًا في الظلام، لكنني تلمست طريقي واكتشفت أنها تمتد أسفل باب مغلق.

دفعت الباب جانبًا ووجدت نفسي على عتبة غرفة صغيرة، اصطفت على جدرانها خطافات معلق عليها ملابس يرتديها الرجال الصُّفر عندما يخرجون إلى الهواء الطلق.

كان وجود هذه الغرفة والملابس عند بداية النفق الممتد من القصر، يعني أنها غرفة تبديل الملابس التي يستخدمها النبلاء عند الدخول إلى المدينة الدافئة أو الخروج منها، وأن ثوريد عرف بوجودها وتوقف هنا لإعداد نفسه وديجاه ثوريس قبل الخروج إلى البرد القارس في عالم القطب الشمالي.

وقد سقطت بعض الملابس على الأرض نتيجة لتسرعه، وكانت قطعة الفراء التي سقطت داخل الممر وسيلة لتوجيهي إلى الموقع الذي لم يكن يرغب أن أعرفه.

لم يتطلب الأمر أكثر من عدة ثوان لارتداء الملابس المصنوعة من جلد الأورلوك، والأحذية الثقيلة طويلة الرقبة المبطنة بالفراء، وهي جزء ضروري من ملبس كل مَن يريد التعامل بنجاح مع المسارات المتجمدة والرياح الجليدية في الشمال القاتم.

خطوتُ ثانية خارج فتحة النفق لأعثر على آثار لثوريد وديجاه ثوريس وسط الثلوج حديثة السقوط. أصبحت الآن مهمتي أسهل؛ فبالرغم من الصعوبة الشديدة في الحركة، لم تعُد الشكوك تكدرني بشأن الاتجاه الذي يجب أن أتبعه، أو مضايقات الظلام، أو الأخطار الخفية.

قادني الطريق عبر وادٍ ضيق مغطى بالثلوج، نحو قمة تلال منخفضة، وبعدها انحدر إلى واد آخر، ثم ارتفع بعد ربع ميل في اتجاه مسار يلتف حول جانب تلة صخرية.

تبينتُ من خلال آثار مَن سبقوني أن ديجاه ثوريس كانت تتراجع باستمرار، وأن الرجل الأسود كان مضطرًّا لسحبها. وبعد مسافة قصيرة، تمكنتُ من رؤية آثار أقدامه، عميقة وقريبة من بعضها البعض في الثلوج الكثيفة. وعرفت من هذه العلامات أنه اضطر إلى حملها، ويمكنني أن أتصور أنها قاومته بشدة في كل خطوة على الطريق.

وعندما وصلت إلى نتوء بارز من كتف التل، رأيت ما جعل خطواتي تتسارع وضربات قلبي تتزايد. ففي داخل حوض صغير بين قمة هذا التل والذي يليه، وقف أربعة أشخاص أمام فتحة كهف كبير، وبجانبهم تستقر سفينة فضائية فوق الثلوج اللامعة، ومن الواضح أنهم سحبوها الآن فقط من مخبئها.

كان الأربعة هم: ديجاه ثوريس، وفايدور، وثوريد، وماتاي شانج. اشتبك الرجلان في جدال حاد؛ الأب الثيرني يهدد، بينما الأسود يسخر منه وهو يذهب ليستكمل ما يقوم به.

تسللتُ نحوهم بحذر حتى يمكنني أن أقترب قدر الإمكان قبل أن يكتشفوني. رأيت أن الرجلين توصلا أخيراً إلى حل توفيقي؛ إذ حاولا بمساعدة فايدور سحب ديجاه ثوريس التي تقاومهم إلى سطح السفينة.

وبعد صعودهم، عاد الرجلان إلى الأرض للانتهاء من استعدادات الرحيل. ودخلت فايدور المقصورة الصغيرة على سطح السفينة.

اقتربت حوالي رُبع ميل منهما، وعندئذ لمحني ماتاي شانج. رأيته يمسك ثوريد من كتفه، ويُديره بسرعه في اتجاهي، مشيراً إلى حيث رآني بوضوح. وما إن أدركت ذلك، حتى تخليت تمامًا عن كل محاولة للتسلسل، وانطلقت في سباق مجنون نحو السفينة.

ضاعف الرجلان جهدهما في ما يفعلونه للمروحة، فقد كان واضحًا أنهما يضعانها مكانها بعد أن كانا أزالاها ربما لإصلاحها.

أنجزا ما يقومان به قبل أن أنتهي من قطع نصف المسافة التي تقع بيني وبينهم، ثم اندفع كلاهما إلى سلم الصعود.

وصل ثوريد أولاً، وتسلق سطح القارب سريعًا بخفة حركة قرد، حيث بلمسة على زر التحكم في خزانات الطفو، أرسل المركبة ببطء إلى أعلى، وإن لم يكن بالسرعة التي تتسم بها سفينة في حالة جيدة.

لا يزال أمامي حوالي مائة متر، ورأيتهم يرتفعون بعيدًا عن متناول يدي.

يوجد في مدينة كادابرا أسطول كبير يضم سفنًا فضائية جبارة -من هيليوم، ومن بتارث- السفن التي أنقذتها من الدمار في وقت سابق من اليوم. لكن ثوريد تمكن من الفرار قبل أن أصل إليهم.

شاهدت -وأنا أركض- ماتاي شانج يتمايل ويتأرجح فوق السلم نحو سطح السفينة، بينما ينحني أعلاه وجه الشر من الأبناء الأوائل. رأيت حبلاً زائدًا يتدلى من مؤخرة السفينة، ما بعث الأمل داخلي مجددًا. فإذا تمكنت من الوصول إليه قبل أن تحلق على ارتفاع كبير فوق رأسي، لا تزال هناك فرصة للوصول إلى سطح السفينة بمعونته البسيطة.

كان وجود شيء خاطئ تمامًا في السفينة واضحًا من عدم قابليتها للطفو، هذا بالإضافة إلى أن ثوريد قام بتشغيل ذراع الانطلاق مرتين، لكن السفينة لا تزال معلقة بلا حراك في الهواء، باستثناء انجراف طفيف مع هبوب نسيم خفيف من الشمال.

اقترب ماتاي شانج الآن من الحافة العليا للسفينة. كانت يدًا طويلة، تشبه المخلب، تمتد حتى تمسك بالقضيب المعدني.

زاد انحناء ثوريد، وانحنى لأسفل تجاه شريكه المتآمر.

ارتفع فجأة خنجر لامع في يد الرجل الأسود، ووجهها نحو وجه الأب الثيرني الأبيض. وبصرخة خوف عالية، أمسك بجنون الهيكادور المقدس بذلك الذراع الذي يتهدده.

وصلت تقريبًا إلى الحبل الزائد. لا تزال السفينة تعلو ببطء، وهي تجنح بعيدًا عني. تعثرت على الطريق الجليدي، وارتطمت رأسي بصخرة فوقعت منبطحًا وأنا على بُعد طول الذراع من الحبل، الذي كان طرفه يغادر الأرض الآن.

فقدتُ الوعي من جراء هذه الضربة على رأسي.

لم أفقد الوعي لأكثر من بضع ثوان فوق هذا الجليد الشمالي، بينما ابتعدت حبيبتي في براثن هذا الشرير الأسود. عندما فتحت عيني، أدركت أن ثوريد وماتاي شانج اشتبكا عند قمة السلم، وجنحت السفينة مائة ياردة نحو الجنوب، وأصبحت الآن نهاية الحبل الزائدة على ارتفاع حوالي ثلاثين قدمًا فوق سطح الأرض.

كاد أن يمسني الجنون لقسوة سوء حظي، الذي جعلني أتعثر عندما كان النجاح في متناول يدي تقريبًا. اندفعت بشكل محموم عبر المسافة الفاصلة؛ وتحت نهاية الحبل المتدلية، وضعت عضلاتي التي تنتمي إلى كوكب الأرض تحت أعلى اختبار.

قفزت، كالقط، قفزة جبارة إلى أعلى، نحو ذلك الحبل النحيل، السبيل الوحيد الباقي الآن ليحملني إلى حبيبتي التي بدأت تختفي.

أغلقتُ أصابعي على بُعد قدم فوق نهاية الحبل السفلى. أصابعي مغلقة. تشبثت بإحكام، لكني شعرت أن الحبل ينزلق، يفلت من قبضتي. حاولت رفع يدي الأخرى لأمسك بها الحبل أيضًا في موضع ثان أعلى من موضع يدي الأولى، لكن تغيير وضعي تسبب في زيادة انزلاقي بسرعة أكبر نحو نهاية الحبل.

وببطء شعرت بالحبل يفلت مني. كل ما حققته سيضيع في لحظة؛ ثم وصلت أصابعي إلى عقدة في أقصى نهاية الحبل وتوقفت عن الانزلاق.

مع صلاة الشكر على شفتي، سارعت إلى أعلى نحو سطح السفينة. لم أتمكن من رؤية ثوريد وماتاي شانغ الآن، لكني سمعتُ أصوات نزاع، فعرفت أنهما لا يزالان يتشاجران؛ الثيرني من أجل حياته، والأسود يريد أن يتخلص من وزن شخص واحد من أجل زيادة طفو السفينة.

إذا مات ماتاي شانج قبل وصولي إلى سطح السفينة، ستتضاءل بالتأكيد فرص وصولي إليها؛ ذلك أن الداتور الأسود لا يحتاج سوى قطع الحبل من أعلى ويتحرر مني إلى الأبد؛ لأن السفينة قد جنحت عبر حافة هوة يمكن أن يسقطني في أعماقها السحيقة، وتنتهي حياتي إذا وصل ثوريد إلى الحبل الآن.

أمسكت درابزين السفينة بيدي أخيرًا، وفي تلك اللحظة تحديدًا رنت صرخة مروعة في أسفل، أشعرتني بالبرودة تسري في دمي وحولت عينيَّ المفزوعتين نحو شيء يصرخ ويندفع ويتلوى منطلقًا إلى أسفل، إلى الهوة الفظيعة أسفلنا.

لقد ذهب ماتاي شانج الهيكادور المقدس والأب الثيرني إلى حسابه الأخير.

رفعت رأسي فوق سطح السفينة، ورأيت ثوريد يقفز نحوي والخنجر في يده. كان في مواجهة الطرف الأمامي من نهاية المقصورة، بينما

كنت أحاول الصعود على متن السفينة من طرفها الخلفي. خطوات قليلة هي التي تفصل بيننا. لا توجد قوة على الأرض يمكن أن ترفعني إلى سطح السفينة قبل أن يصل الأسود الغاضب إلى موقعي.

لقد أتت نهايتي. أعرف ذلك؛ ولم يكن لديَّ شك من نظرة الانتصار الخسيسة على هذا الوجه الشرير. خلف ثوريد، رأيت ديجاه ثوريس بعينيها الواسعتين، مرعوبة وتكافح لتتخلص من قيودها. من المؤكد أنه أجبرها أن تشهد موتى الشنيع، وهو ما جعل قسوة شعوري بمرارة مصيري تتضاعف.

توقفتُ عن الجهود التي أبذلها لتسلق حافة السفينة؛ وقبضت بيدي اليسرى بقوة على الدرابزين وسحبت بيدي خنجري.

فعلى الأقل يجب أن أموت كما عشت مقاتلاً.

عندما جاء ثوريد قبالة مدخل المقصورة، كشف عنصر جديد عن نفسه في هذه المأساة المروعة التي تحدث عاليًا في الهواء على سطح سفينة ماتاي شانج الـمُعطلة.

كانت فايدور.

قفزت فايدور إلى سطح السفينة أمامي، مع وجه متوهج وشعر أشعث، وعينين دامعتين- تلك الدموع التي كانت تفخر هذه الإلهة بأن تكبتها.

كان في يدها خنجر طويل نحيل. ألقيت مبتسمًا نظرة أخيرة على أميرتي الحبيبة، كما يجب أن يفعل الرجال وهم على وشك الموت، ثم أدرتُ وجهي نحو فايدور في انتظار الضربة.

لم أشهد أبدًا هذا الوجه الجميل يبدو أكثر جمالاً من تلك اللحظة. من المذهل أن شخصًا بهذا الجمال يمكن أن يضمر داخله قلبًا بهذه القسوة والعناد. واليوم، يوجد تعبير جديد في عينيها الرائعتين لم أشهده أبدًا من قبل- تعبير ينم عن رقة غير مألوفة، ونظرة معاناة.

أصبح ثوريد بجوارها الآن، يدفعها في محاولة الوصول لي أولاً؛ ثم حدث ما حدث بسرعة مذهلة، حتى إنه انتهى قبل أن أدرك حقيقته.

امتدت يد فايدور النحيلة لتمسك بمعصم يد الرجل الأسود التي تحمل الخنجر. وامتدت يدها اليمنى عاليًا وهي تمسك بنصل لامع.

صاحت: «هذه من أجل ماتاي شانج!»، ودفنت نصلها بعمق في صدر الداتور، ثم واصلت: «وهذه من أجل الخطأ الذي كنت سترتكبه مع ديجاه ثوريس!»، ثم غاص الفولاذ الحاد مرة أخرى في الجسد الدامي.

«وهذه، وهذه، وهذه!»، صاحت قائلة: «من أجل جون كارتر، أمير هيليوم»؛ ومع كل كلمة، كان نصلها الحاد يخترق القلب الخسيس لهذا الوغد الكبير. وبقوة انتقامية، ألقت جثة رجل الأبناء الأوائل من على سطح السفينة لتسقط في ذلك الصمت المروع وراء جثة ضحيته.

شلتني المفاجأة، بحيث لم أتحرك خطوة واحدة للوصول إلى سطح السفينة أثناء هذا المشهد المذهل؛ ولا أزالُ مندهشًا من تصرفها الذي أعقب هذا المشهد. فقد مدت فايدور يدها نحوي وساعدتني للصعود إلى سطح السفينة، فوقفت أحدق في وجهها بانبهار وذهول واضحين.

مست ابتسامة شاحبة شفتيها. لم تكن ابتسامة الإلهة القاسية والمتعجرفة التي نعرفها. قالت: «تتساءل يا جون كارتر ما الشيء الغريب الذي أدى إلى تغييري؟ سأقول لك. إنه الحب، حبُّك». وعندما اكفهر وجهي رفضًا لكلماتها، رفعت يدها بعطف.

وقالت: «انتظر. إنه حب مختلف عن حبي، إنه حب أميرتك ديجاه ثوريس؛ فأنت علمتني ما الحب الحقيقي، وكيف يجب أن يكون، وكيف كانت أنانيتي وغيرتي عليك بعيدة تمامًا عن الحب الحقيقي. أنا الآن مختلفة. يمكنني الآن أن أحب كما تحب ديجاه ثوريس، وسعادتي الوحيدة هي أن يجتمع شملكما مرة أخرى، فأنت لن تجد السعادة الحقيقية إلا معها. لكنني حزينة بسبب كل الشرور التي فعلتُها. فقد ارتكبت العديد من الآثام التي يجب التكفير عنها. وعلى الرغم من أنني خالدة، فالحياة برمتها قصيرة، لا تكفي للتكفير عن ذنوبي. لكن هناك طريقة أخرى. فإذا كانت فايدور، ابنة الهيكادور المقدس للثيرنيين المقدسين قد أخطأت، فما فعلته اليوم هو تعويض جزئي. وحتى لا تشك في صدق ما تقوله وحبها الجديد نحو ديجاه ثوريس أيضًا، سوف تثبت لك فايدور إخلاصها بالطريقة الوحيدة المتاحة: بعد أن أنقذتك فايدور، ستتركك لحضن أميرتك».

وبعد آخر كلمة قالتها، استدارت وقفزت من سطح السفينة إلى الهاوية أدناه.

اندفعتُ، وأنا أصرخ مفزوعًا، في محاولة يائسة لإنقاذ الحياة التي تمنيت طوال سنتين أن أسعد برؤيتها تنتهي. ولكن، فات الأوان.

ابتعدت سريعًا، بأعين غطتها الدموع، حتى لا أرى المشهد المروع في أسفل.

حطمت قيود ديجاه ثوريس، وعندما لفت ذراعيها حول عنقي ولمست شفتاها شفتيَّ، أنستني نشوةُ المكافأةِ الأهوالَ التي شهدتها والمعاناة التي قاسيتها.

* * *

(16)
الحاكم الجديد

وجدتني مع ديجاه ثوريس، بعد انفصال دام اثني عشر عامًا، على سطح سفينة ثبت أنها عديمة الجدوى تمامًا. هناك تسرُّب شديد في خزانات الطفو، ولن يتحرك بالتالي محركها. كنا عاجزين وسط الجو أعلى جليد القطب الشمالي.

انجرفت السفينة عبر الهوة التي تضم جثث ماتاي شانج وثوريد وفايدور، وأصبحنا الآن مُعلَّقين فوق تل منخفض. فتحتُ صمامات الطفو، وبالتالي سمحت للسفينة أن تنخفض ببطء إلى الأرض. وما إن لمست الأرض، حتى نزلت ومعي ديجاه ثوريس من سطح السفينة، يدًا بيد، واستدرنا لنعود عبر الامتداد المتجمد إلى مدينة كادابرا.

سرنا ببطءٍ عبر النفق الذي قادني إليهم خلال بحثي، إذ كان لدينا الكثير لنتحدث فيه معًا.

أخبرتني عن تلك اللحظة الرهيبة الأخيرة التي عاشتها قبل أشهر، عند إغلاق باب زنزانة السجن داخل معبد الشمس ببطء بيننا؛ وكيف هجمت عليها فايدور رافعة خنجرها، وصراخ ثوفيا عندما أدركت نية إلهة الثيرن.

كانت تلك الصرخة ترن في أذني طوال الأشهر المضنية التي عشتها في شك قاس حول مصير أميرتي؛ فلم أعرف أن ثوفيا انتزعت النصل من ابنة ماتاي شانج قبل أن يلمسها أو يلمس ديجاه ثوريس.

وأخبرتني أيضًا عن أبدية سجنها الفظيع؛ وعن كراهية فايدور القاسية؛ وعن حب ثوفيا الرقيق وكيف كانت هاتان الفتاتان الحُمر، عندما يشتد اليأس، تتشبثان بنفس الأمل والاعتقاد: إنَّ جون كارتر سيجد طريقة لتحريرهما.

وصلنا الآن إلى غرفة سولان. كنت أسير دون التفكير في توخي الحذر؛ لأني كنت على يقين أن كلاًّ من المدينة والقصر قد أصبح الآن في أيدي أصدقائي.

وهكذا دخلت إلى الغرفة لأجد دزينة من نبلاء بلاط سالينسوس أوول. كانوا يمرون متوجهين إلى العالم الخارجي من خلال الممرات التي انتهينا من عبورها.

توقفوا عند رؤيتنا، واتسعت ابتسامة قبيحة على وجه قائدهم.

صاح وهو يشير ناحيتي: «هذا هو سبب كل ما نعانيه! سنشعر بالارتياح بانتقام جزئي على الأقل، عندما نترك وراءنا جثتين مشوهتين لأمير وأميرة هيليوم».

«وعندما يجدونهما»، واصل وهو يهز إبهامه إلى أعلى نحو القصر، «سيدركون أن انتقام الرجال الصُّفر يُكلف خصومهم فقد أعزائه. استعد للموت يا جون كارتر، لكن نهايتك ستكون شديدة المرارة، وعليك أن تعرف أنني قد أغير رأيي في إنزال موت رحيم بأميرتك؛ فربما أحتفظ بها لتسلية النبلاء».

وقفتُ بالقرب من الجدار المغطى بالأجهزة والأدوات، وديجاه ثوريس إلى جانبي. نظرت نحوي بتعجب؛ إذ يتقدم المحاربون نحونا رافعين سيوفهم، بينما سيفي لا يزال معلقًا في غمده إلى جانبي، وعلى شفتي ابتسامة.

نظر النبلاء الصُّفر نحوي متعجبين أيضًا. ولـمَّا لم أتحرك لامتشاق سيفي، ترددوا خوفًا من أي حيلة، لكن قائدهم حثهم. وعندما وصلوا تقريبًا بالقرب من سيفي، رفعت يدي ووضعتها فوق سطح الرافعة الكبيرة المصقول، ثم نظرت مبتسمًا بتجهم، في وجه خصومي.

توقفوا جميعًا فجأةً، وهم يلقون نظرات مرتعبة إلى يدي وإلى بعضهم البعض.

صرخ قائدهم: «توقف! لا تحلم بأن تفعل ذلك!».

أجبته: «معك حق، جون كارتر لا يحلم؛ بل يعرف، يعرف أن أي شخص منكم يتخذ خطوة واحدة أخرى نحو ديجاه ثوريس أميرة هليوم، فسوف يسحب الرافعة لآخرها، وستموت الأميرة وأموت معها، لكننا لن نموت بمفردنا».

تراجع النبلاء وهم يتهامسون معًا لبضع لحظات. وفي النهاية خاطبني قائدهم،

وقال: «اذهب في طريقك يا جون كارتر، وسوف نذهب نحن في طريقنا».

أجبته: «السجناء لا يذهبون إلى طريقهم، وأنتم سجناء؛ سجناء أمير هيليوم».

وقبل أن يتمكن من الإجابة، فُتِح باب في الجانب الآخر من الشقة ودخل عشرات من الرجال الصُّفر. بدا شعور بالارتياح على النبلاء، ثم تغيرت ملامحهم في لحظة عندما سقطت أعينهم على قائد المجموعة الجديد؛ فقد كان تالو أمير مارينتينا المتمرد، وهم يعرفون أنهم لا يمكن أن ينتظروا منه معونة أو رحمة.

صاح تالو: «حسنًا فعلت يا جون كارتر. لقد استخدمت مصدر قوتهم الجبارة ضدهم. من حسن حظ أوكار أنك كنت هنا لتمنع هروبهم؛ فهؤلاء هم أقوى الأشرار في شمال الحاجز الجليدي، وهذا الشخص -مشيراً إلى قائد المجموعة- كان ليجعل من نفسه جيداك كل الجيداك بعد موت سالينسوس أوول. وبالتالي، يصبح لدينا حاكم أكثر خِسةً من الطاغية المكروه الذي سقط بسيفك».

خضع نبلاء أوكار الآن للقبض عليهم؛ فلن يواجهوا سوى الموت إذا قاوموا. خرجنا برفقة مجموعة تال في اتجاه القاعة العامة الكبرى، التي كانت من قبل تحت سيطرة سالينسوس أوول، حيث وجدنا حشدًا كبيراً من المحاربين.

ضمت القاعة رجال هيليوم وبتارث الحُمر، ورجال الشمال الصُّفر، وبجوارهم الرجال السود من الأبناء الأوائل الذين جاءوا بقيادة صديقي زودار للمساعدة في البحث عني وعن أميرتي. كما ضمت القاعة المحاربين الخُضر الوحشيين من قيعان البحر الميت في الجنوب، وحفنة من الثيرن ذوي البشرة البيضاء الذين تخلوا عن عقيدتهم وأقسموا الولاء لزودار.

وكان هناك تاردوس مورس، ومورس كاجاك، بالإضافة إلى شاب قوي طويل القامة ويرتدي أغطية المحاربين الرائعة- إنه ابني كارثوريس. اندفع ثلاثتهم نحو ديجاه ثوريس عندما دخلنا القاعة. وعلى الرغم من أن حياة وتدريب المريخي الملكي لا تميل نحو المظاهر العامة، فأعتقد أنهم كادوا يخنقونها بأحضانهم.

كان هناك أيضًا تارس تاركاس، جيداك ثارك، وكانتوس كان، صديقاي القدامى؛ كما كان عزيزي وولا يقفز ويمزق عتادي بجنون محموم وسعادة، تعبيراً عن حبه الكبير.

انطلقت الهتافات طويلاً وبصوت عال على مرأى منا. وكان رنين الأسلحة المعدنية يصم الأذان؛ حيث رفع قدامى المحاربين بكل مجموعة مريخية سيوفهم معًا لأعلى رمزًا للنجاح والنصر. لكنني عندما مررتُ بين حشد النبلاء والمحاربين وجيداك كل الجيداك، كان قلبي لا يزال ثقيلاً؛ فهناك وجهان مفقودان، تمنيت أن أراهما -ثوفان ديهن، وثوفيا البتارثية- حيث لم أجدهما في القاعة الكبرى.

سألتُ عنهما رجال كل أمة، وأخيراً عرفت من أحد أسرى الحرب الصُّفر أن أحد ضباط القصر اعتقلهما وهما يحاولان الوصول إلى حفرة الوفرة الخادعة عندما كنتُ سجينًا فيها.

لم أكن في حاجة إلى معرفة سبب ذهاب الجيداك الشجاع وابنته الوفية إلى الحفرة. وقد أخبرني الأسير أنهما الآن في إحدى زنازين القصر العديدة المدفونة، ريثما يتخذ طاغية الشمال قرارًا بشأن مصيرهم.

وفي لحظات، بدأت فرق البحث في تمشيط الركام القديمة بحثًا عنهما. واكتملت سعادتي عندما رأيتهما يدخلان القاعة برفقة حرس الشرف ووسط هتافهم.

كان أول ما قامت به ثوفيا هو اندفاعها نحو ديجاه ثوريس؛ ولم أكن في حاجة إلى إثبات الحب الذي تحمله كل منهما للأخرى أفضل من صدق احتضانهما.

كان عرش أوكار يطل، صامتًا وفارغًا، على القاعة المزدحمة.

من بين جميع المشاهد الغريبة التي شهدها ذلك العرش منذ العصر القديم المنصرم الذي شهدت جلوس أول جيداك كل الجيداك عليه، لا توجد أي مقارنة بالمشهد الذي أمامه الآن. وعندما فكرت مليًّا في ماضي ومستقبل هذا العِرق من الرجال الصُّفر الملتحين الذين دُفنوا طويلاً، رأيت أن وجودهم سيصبح أكثر إشَراقًا ونفعًا بين الأسرة الكبيرة التي تضم أَمَمًا صديقة تمتد الآن من القطب الجنوبي إلى أبوابهم تقريبًا.

لقد وجدتُ نفسي، منذ اثنين وعشرين عامًا، عاريًا وغريبًا في هذا العالم الغريب والوحشي. وكانت يد كل عِرق وأمة مرفوعة في حرب وصراع مستمر وضد رجال كل أرض أخرى ولون آخر. أما اليوم، وبقوة سيفي وولاء الأصدقاء، أصبحت أكتاف الرجال السود والبيض، والرجال الحُمر والخُضر، متجاورة في سلام وزمالة طيبة. لم تصبح جميع أمم برسوم كيانًا واحدًا بعد، لكنها اتخذت خطوة كبيرة إلى الأمام نحو تحقيق هذا الهدف. وإذا أمكنني الآن إدخال العِرق الأصفر الشرس إلى هذا التضامن بين الأمم، سوف أشعر أنني أنجزت عملاً كبيرًا في حياتي، وأسديتُ إلى المريخ على الأقل جزءًا من ديني بالامتنان الهائل الذي أدين به لمنحي ديجاه ثوريس.

وبعد تفكير، لم أجد سوى طريقة واحدة ورجل واحد يمكنه ضمان نجاح آمالي. وكعادتي، تصرفتُ كما أتصرف دائمًا دون مناقشة أو تشاور.

أولئك الذين لا يحبون خططي وطرق عرضها، لديهم على الدوام سيوفهم ليدعموا بها عدم موافقتهم. أما الآن، فلا يبدو أن هناك أي صوت معارض؛ فقد أمسكت بذراع تالو، وتوجهت إلى العرش الذي كان سابقًا لسالينسوس أوول.

قلتُ صائحًا: "يا محاربي برسوم، لقد سقطت كادابرا وسقط معها الطاغية الشمالي البغيض، ويجب الحفاظ على سلامة أوكار. الرجال الحُمر يحكمهم جيداك أحمر،

والمحاربون الخُضر من البحار القديمة لا يعترفون إلا بحاكم أخضر، والأبناء الأوائل من القطب الجنوبي يستمدون قانونهم من زودار الأسود؛ وليس في مصلحة الرجال الصُّفر أو الحُمر أن يجلس جيداك أحمر على عرش أوكار».

"ولا يوجد سوى محارب واحد فقط مناسب لحمل اللقب القوي القديم: جيداك كل الجيداك في الشمال. يا رجال أوكار، ارفعوا سيوفكم تحية لحاكمكم الجديد تالو، أمير مارينتينا المتمرد!».

وعندئذ ارتفعت صيحة ابتهاج عظيم بين رجال مارينتينا الأحرار والسجناء الكادابريين؛ ذلك أن الجميع تصور أن الرجال الحُمر سيحتفظون بما حصلوا عليه بقوة السلاح -فهذا ما يحدث عادةً في برسوم-، وأن مَن سيحكمهم من الآن فصاعدًا هو جيداك ليس منهم.

انضم المحاربون المنتصرون الذين رافقوا كارثوريس إلى المظاهرة المجنونة. ووسط هذا الارتباك والاضطراب والهتاف، خرجت مع ديجاه ثوريس إلى حديقة الجيداك الرائعة التي تزين الفناء الداخلي لقصر كادابرا.

سار وولا في أعقابنا. وعلى مقعد منحوت رائع الجمال، أسفل تعريشة من الزهور الأرجوانية، رأينا اثنين سبقانا إلى هنا؛ ثوفيا من بتارث، وكارثوريس من هيليوم.

كان رأس الشاب الوسيم منحنيًا على وجه رفيقته الجميل. نظرت إلى ديجاه ثوريس مبتسمًا، وأخذتها بالقرب مني هامسًا: "لمَ لا؟».

فعلاً، لمَ لا؟ ما أهمية الأعمار في هذا العالم من الشباب الأبدي؟

بقينا في كادابرا ضيوفًا على تالو حتى تقلد منصبه الرسمي، ثم أبحرنا على الأسطول الكبير الذي تمكنت لحسن الحظ من حمايته من التدمير. أبحرنا جنوبًا عبر الحاجز الجليدي، ولكن ليس قبل أن نشهد الهدم الكامل لحارس الشمال القاتم بناء على أوامر الجيداك الجديد لكل الجيداك.

وعندما استُكملت عملية التدمير، قال: "من الآن فصاعدًا يحق لأساطيل الرجال الحُمر والسود الدخَول والخروج عبر الحاجز الجليدي بمثل ما يعبرون أراضيهم. سنتولى تطهير كهوف كاريون بحيث يجد الرجال الخُضر طريقة سهلة للهبوط على أرض الصُّفر؛ وسيصبح صيد مخلوق الأبت المقدس رياضة النبلاء، حتى لا ترى أعيننا مرة أخرى أيًّا من تلك المخلوقات البشعة تتجول في الشمال المتجمد".

ودعنا أصدقاءنا الصُّفر بحزن حقيقيٍّ، ثم أبحرنا إلى بتارث. بقينا هناك لمدة شهر، بدعوة من ثوفان ديهن. وكان تقديرٍي أن كارثوريس ربما بقي هناك إلى الأبد إن لم يكن أمير هيليوم".

حلقنا فوق الغابات الجبارة في كاول إلى أن وصلتنا كلمة من كولان تيث جعلتنا نهبط على برج الهبوط الوحيد، واستغرقت السفن اليوم بطوله ونصف الليل لإنزال طواقمها. زرنا مدينة كاول، ونجحنا في تدعيم الروابط الجديدة التي تشكلت بين كاول وهيليوم. وبعد تحليق ليوم طويل لا يمكن نسيانه، شاهدنا الأبراج الطويلة النحيلة للمدينتين التوأم في هيليوم.

كان الشعب يستعد منذ فترة طويلة لاستقبالنا. امتلأت السماء بلافتات رائعة مزخرفة، وامتد الحرير والنسيج المزخرف الثمينين فوق كل سطح في المدينتين.

تناثر الذهب والجواهر على الأسطح والشوارع والميادين، بحيث بدت المدينتان متقدتين بشعلات قلوب الأحجار الرائعة والمعادن المصقولة التي تعكس ضوء الشمس الساطع، وتغييره إلى عدد لا يُحصى من الأشكال المجيدة.

أخيراً، وبعد اثني عشر عامًا، اجتمع شمل الأسرة المالكة في هيليوم في مدينتهم الجبارة، محاطين بجنون فرح الملايين أمام بوابات القصر. بكت النساء والأطفال والمحاربون الأقوياء امتنانًا للقدر الذي أعاد تاردوس مورس الحبيب والأميرة المحبوبة من الأمة بأسرها. وقد نال كل مَن شارك في هذه البعثة، المحفوفة بأخطار تفوق الوصف، مجد التصفيق والاستحسان.

جاءني في تلك الليلة رسول وأنا جالس مع ديجاه ثوريس وكارثوريس على سطح قصر مدينتي؛ إذ لم يجتمع ثلاثتنا منذ فترة طويلة بعد إعداد حديقتنا، سعيًا للعزلة والسعادة الهادئة، بعيدًا عن الأبهة ومراسم البلاط. أبلغني الرسول باستدعائنا إلى معبد الجزاء،حيث يواجه شخص المحاكمة هذه الليلة.

أجهدتُ ذهني في محاولة تحديد القضية المهمة الـمُعلقة التي تتطلب استدعاء الأسرة المالكة من قصرها عشية عودتهم إلى هيليوم بعد سنوات من الغياب؛ ولكن عند استدعاء من الجيداك، لا يمكن التأخير.

عندما هبطت سفينتنا على منصة الهبوط فوق المعبد، شاهدنا عددًا لا يُحصى من السفن الأخرى القادمة والمغادرة. كما شاهدنا في الشوارع أسفلنا حشدًا كبيراً يندفع نحو بوابات المعبد الكبيرة.

بدأتُ أتذكر ببطء الموت المؤجل الذي ينتظرني منذ تلك الفترة التي حاكمني فيها هنا في المعبد زات أراس، لخطيئة العودة من وادي دور وبحر كوراس المفقود.

هل يمكن أن معنى العدالة الصارم الذي يهيمن على رجال المريخ قد جعلهم يتغاضون عن الخير العظيم الذي نتج من هرطقتي؟ هل يمكنهم تجاهل أن الفضل في إنقاذ كارثوريس، وديجاه ثوريس، ومورس كاجاك، وتاردوس مورس يرجع لي، ولي وحدي؟!

لا يمكنني تصديق ذلك. وإلَّا فلأي غرض آخر يتم استدعائي إلى معبد الجزاء بمجرد عودة تاردوس مورس إلى عرشه؟

كانت دهشتي الأولى عندما دخلت إلى المعبد واقتربت من عرش الحق، ورأيت الرجال الجالسين بوصفهم قضاة: كولان تيث، جيداك كاول، الذي غادرنا قصره منذ بضعة أيام؛ وثوفان ديهن، جيداك بتارث، كيف وصل إلى هيليوم في نفس وقت وصولنا؟

كان هناك تاركس تاركاس، جيداك ثارك؛ وزودار، جيداك الأبناء الأوائل؛ وتالو، جيداك كل الجيداك في الشمال، الذي أكاد أقسم أنه لا يزال في مدينته الجليدية الدافئة وراء الحاجز الشمالي. جلس بينهم أيضًا تاردوس مورس، ومورس كاجاك، وعدد قليل من الجِد والجيداك لاستكمال عدد 31 الذين يجب أن يجلسوا للحكم على زميلهم.

يا لها من محكمة ملكية بحق؛ وأعتقد أن مثل هذه المحكمة لم تجتمع من قبل خلال تاريخ المريخ القديم كله.

ما إن دخلت القاعة، حتى ساد الصمت بين الحشود التي تجمعت في القاعة؛ ثم وقف تاردوس مورس.

وقال بصوته الحربي العميق: "جون كارتر، إن مكانك عند منصة الحقيقة، لمحاكمتك أمام محكمة عادلة ونزيهة تضم زملاءك".

نفذت برأس مرفوعة ما طلبه. وعندما تجولت ببصري حول هذه الدائرة من الوجوه التي كان يمكنني منذ لحظة أن أقسم أنهم أفضل أصدقائي في برسوم، لم ألمح نظرة ودية واحدة، وإنما رأيتُ فقط قضاة صارمين أشداء، يقومون بواجبهم.

نهض كاتب الجلسة وقرأ من كتاب ضخم قائمة طويلة من أفعالي البارزة التي أتصور أنها موضع فخر، وتغطي فترة طويلة تمتد 22 سنة؛ منذ أولى خطواتي عبر قاع

البحر بجوار حضانة الثاركيين. قرأ أيضًا كل ما قمتُ به في محيط جبال أوتز، حيث كان يسيطر الثيرنيون المقدسون والأبناء الأوائل.

هذا هو الأسلوب في برسوم: تلاوة فضائل الرجل وخطاياه عند محاكمته. ولذلك، لم أُفاجأ عند قراءة فضائلي أمام القضاة -الذين يعرفونها جميعًا عن ظهر قلب- بل وحتى اللحظة الراهنة. وعندما توقف القراءة، نهض تاردوس مورس.

وقال بصوت عال: "يا أعدل القضاة، لقد سمعتم تلاوة كل ما هو معروف -سواء الجيد أو السيئ- عن جون كارتر أمير هيليوم. ما حكمكم؟».

بدأ تارس تاركاس ينهض ببطء، كاشفًا عن طوله الشاهق الجبار، حتى بدا كتمثال برونزي أخضر أطول منا كثيراً. نظر نحوي بعينين يملؤهما التهديد - إنه تارس تاركاس، الذي خضت معه معارك لا حصر لها، وأحببته كشقيق.

كدت أبكي، لولا غضبي المجنون الذي جعلني على وشك سحب سيفي في مواجهتهم جميعًا.

واصل قائلاً: "يا قضاة، لا يوجد سوى حكم واحد. لم يعد يجوز اعتبار جون كارتر أميراً ليهليوم"، وبعد لحظة توقف، "وإنما يجب أن يصبح جيداك كل الجيداك، أمير الحرب في برسوم!".

وعندما وقف القضاة، وعددهم 31 قاضيًا، وسيوفهم مرفوعة دليلاً على موافقتهم الإجماعية على الحُكم، انطلقت عاصفة على مدى طول وعرض وارتفاع هذا المبنى الجبار، حتى اعتقدت أن السقف سيقع من رعد الصياح المجنون.

أدركت أخيراً الفكاهة القاتمة في الأسلوب الذي اتبعوه لمنحي هذا الشرف العظيم. أما فكاهة اللقب الذي منحوني إياه، فقد دحضها بسهولة صدق التهاني التي انهالت عليَّ من القضاة أولاً ثم النبلاء.

سار الآن خمسون من أعظم النبلاء في أعتى محاكم المريخ، في طريق الأمل وهم يحملون عربة رائعة فوق أكتافهم. وعندما رأى الناس مَن يجلس داخلها، بدت الهتافات التي ارتفعت من أجلي باهتة بجانب تلك التي تعالت كالرعد عبر أنحاء الصرح الواسع؛ فقد كان النبلاء يحملون ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم المحبوبة.

حملوها مباشرةً إلى عرش الحق، حيث ساعدها تاردوس مورس لتنزل من السيارة، وقادها إلى الأمام، إلى جانبي.

وقال: "فلتشارك أجمل امرأة في العالم شرف زوجها".

وأمامهم جميعًا، أخذت زوجتي بالقرب مني وقبّلتُ شفتيها.

* * *

انتهى الكتاب الثالث:

أمير الحرب في المريخ

ثوفيا فتاة المريخ

ادجار رايس بوروز

ترجمة شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

الفصل 1

كارثوريس وثوفيا

جلست امرأة على مقعد طويل ضخم ومصقول، أسفل شجرة بيماليا[48] عملاقة مزهرة. كانت قدمها الرشيقة تدق في صندلها بفارغ الصبر على الممشى الذي تتناثر فوقه الجواهر تحت أشجار السورابوس[49] الفخمة، عبر المرجة القرمزية في الحدائق الملكية لثوفان ديهن، جيداك[50] بتارث[51] . وكان يميل نحوها محارب أسود الشَّعر وأحمر البشرة، يهمس بكلمات حميمة بالقرب من أُذنها.

«آه، ثوفيا من بتارث»، قال المحارب: «أنت باردة حتى أمام حبي الناري المتفجر! ما من شيء أقسى من قلبك! إنه أبرد حتى من هذا المقعد الذي يضم جسدك الجميل النضر! قولي لي، يا ثوفيا البتارثية، إن أملي لا يزال ممكنًا، وإنك على الرغم من عدم شعورك بالحب نحوي الآن، يمكن في يوم ما، في يوم ما، يا أميرتي، أنا...».

وقفت الفتاة متعجبة من المفاجأة ومستاءة. كان رأسها الملكي يرتفع بغطرسة فوق كتفيها الأحمرين الناعمين. توجهت عيناها السوداوان بغضب نحو عيني الرجل.

وقالت: «أنسيت نفسك، ونسيت عادات وتقاليد برسوم[52] ، يا أستوك؟! لم أمنحك حق مخاطبة ابنة ثوفان ديهن هكذا، ولم تفز أنت بهذا الحق».

تحرك الرجل نحوها فجأةً، وأمسكها من ذراعها.

وقال: «سوف تكونين أميرتي! باسم الإلهة إيسوس[53] ، ستكونين أميرتي، ولن يقف أي شخص آخر بين أستوك أمير دوسار[54] ورغبة قلبه. قولي لي إن هناك شخصًا آخر، وسوف أمزق قلبه الكريه وأقذف به إلى الكالوت[55] المتوحشة في قيعان البحر الميت!».

---

(48) شجرة بيماليا: شجرة مزهرة كبيرة في حدائق المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Pimalia - المترجمة.

(49) سورابوس: نوع من الشجر معروف في المريخ بثماره النضرة المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapus - المترجمة

(50) جيداك: لقب يعادل الإمبراطور – http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak - المترجمة.

(51) بتارث: إحدى الممالك المريخية، يعيش فيها المريخيون ذوي البشرة الحمراء –http://barsoom.wikia.com/wiki/Ptarth - المترجمة.

(52) برسوم: كوكب يسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ -http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom -المترجمة.

(53) إيسوس: امرأة عجوز من المريخيين ذوي البشرة السوداء، زعمت أنها إلهة الحياة الأبدية، لكن حقيقتها تكشفت - http://barsoom.wikia.com/wiki/Issus- المترجمة

شحبت الفتاة ببشرتها النحاسية عندما لمست يد الرجل جسدها؛ فشخصيات النساء الملكية في بلاط المريخ يُنظر إليهن بنظرة تقل قليلاً عن التقديس. وبالتالي ما فعله أستوك، أمير دوسار، يُعد تدنيسًا. لم يكن الرعب باديًا في عيني ثوفيا البتارثية، بل مجرد الخوف الشديد مما فعله الرجل وعواقبه المحتملة.

«اتركني»، كان صوتها رزينًا، شديد البرودة.

تمتم الرجل بكلمات غير مترابطة، وجذبها بقسوة نحوه.

«اتركني!»، كررت بحدة: «أو سأنادي على الحرس، وأمير دوسار يعرف ماذا سيعني هذا».

ألقى ذراعه اليمنى بسرعة حول كتفيها، وحاول جاهدًا جذب وجهها إلى شفتيه. صرخت وهي توجه إليه ضربة في فمه بالأساور الضخمة التي ترتديها في ذراعها الأخرى.

صاحت: «كالوت! يا حراس! يا حراس! أسرعوا لحماية أميرة بتارث!».

واستجابةً لصيحتها، توافد عشرات من الحراس مسرعين عبر المرجة القرمزية، وسيوفهم الطويلة المرفوعة تلمع في الشمس، ومعادن تجهيزاتهم تصلصل في عتادها الجلدي، وصيحاتهم غاضبة من المشهد الذي رأته أعينهم.

لكنهم قبل أن يجتازوا نصف الحديقة الملكية، حيث لا يزال أستوك ممسكًا بالفتاة في قبضته وهي تقاومه، انطلق شخص آخر من بين مجموعة أوراق الشجر الكثيفة التي تخفي وراءها نصف نافورة ذهبية قريبة. كان شابًّا طويل القامة، شعره أسود وعيناه رماديتان متقدتان، أكتافه عريضة ووركاه نحيلان- مقاتل رشيق، معتدل البنية. كانت بشرته مشوبة باللون النحاسي الذي يميز المريخيين الحُمر عن الأعراق الأخرى في الكوكب الآخذ في الاحتضار. كان مثلهم، وإن اختلف بشكل طفيف عنهم أكثر من مجرد البشرة الأفتح والأعين الرمادية.

اختلفت حركته أيضًا؛ فقد جاء بقفزات كبيرة حملته بسرعة على الأرض، بحيث كانت سرعة الحراس لا شيء بالمقارنة به.

---

(54) دوسار: إحدى الممالك المريخية، يسكنها مريخيون حُمر، وتاريخها يمتلئ بالنزاعات مع المملكتين المجاورتين: هيليوم وبتارث - http://barsoom.wikia.com/wiki/Dusar-المترجمة.

(55) الكالوت: الكلب المريخي، وهو بحجم المُهر ولديه عشرة أرجل، ويضم فكاه ثلاثة صفوف من الأنياب الطويلة الحادة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Calot–المترجمة.

كان أستوك لا يزال ممسكًا بمعصم ثوفيا عندما واجهه المحارب الشباب. لم يُضِع الوافد الجديد الوقت، ولم يقل سوى كلمة واحدة.

«كالوت!»، قالها بعنف وهو يسدد قبضةً استقرت أسفل ذقن الطرف الآخر، ثم رفعه عاليًا في الهواء وألقاه كومة منهارة في وسط أشجار البيماليا بجوار المقعد الطويل.

التفت البطل نحو الفتاة، قائلاً: «كاور،[56] ثوفيا البتارثية! يبدو أن القدر اختار توقيت زيارتي جيدًا».

«كاور، كارثوريس من هيليوم!»، ردت الأميرة على تحية الشاب، وواصلت: «وهل يمكن أن يتوقع المرء أقل من ذلك من ابن سيد محترم؟».

انحنى الشاب تحية لمجاملتها لوالده، جون كارتر، أمير الحرب في المريخ. وصل الحراس يلهثون لأداء مهمتهم. كان فم أمير دوسار ينزف، وتمكن الأمير أن يزحف خارجًا من تشابك أوراق أشجار البيماليا مستخدمًا سيفه.

كاد أستوك أن يشتبك في قتال مميت مع ابن ديجاه ثوريس[57] ، لكن الحراس تجمعوا حوله ومنعوه، على الرغم من أن لا شيء أكثر من هذا القتال كان سيسعد كارثوريس.

قال كارثوريس راجيًا: «قولي كلمتك يا ثوفيا، فلن يسعدني شيء أكثر من إنزال العقاب الذي يستحقه هذا الرجل».

فأجابت: «لا يمكن يا كارثوريس. فعلى الرغم من أنه فقد حقه في مطالبتي بمراعاته، فقد جاء هنا بدعوة من الجيداك والدي، وهو الذي يحق له وحده النظر في هذا الفِعل الذي لا يُغتفر الذي ارتكبه».

قال كارثوريس: «كما تريدين يا ثوفيا. لكن كارثوريس أمير هيليوم، سوف يحاسبه بعد ذلك على هذه الإهانة التي وجهها إلى ابنة صديق والدي». لمعت عيناه، خلال الحديث، ببريق ينمُّ عن سبب آخر عزيز لبطولته أمام ابنة برسوم الرائعة.

امتقع لون خديها أسفل بشرتها الحريرية الشفافة، كما امتقعت أيضًا عينا أستوك أمير دوسار؛ إذ قرأ الرسالة الصامتة التي مرت بينهما في حدائق الجيداك الملكية.

---

(56) كاور: كلمة التحية بلغة أهل المريخ -http://barsoom.wikia.com/wiki/Martian_Language -المترجمة.

(57) ديجاه ثوريس: أميرة مملكة هيليوم، وهي زوجة جون كارتر (القادم من كوكب الأرض)، وأنجبت منه كارثوريس - http://barsoom.wikia.com/wiki/Dejah_Thoris-المترجمة.

وقال بعنف، ردًّا على تحدي كارثوريس: «وأنت لي».

لا يزال أستوك محاطًا بالحراس. إنه موقف صعب للضابط الشاب الذي أمر بذلك؛ فالأسير ابن جيداك قوي، كما كان ضيفًا على ثوفان ديهن- ضيف شرف، يغدقون عليه بكل مهابة ملكية. لا يعني إلقاء القبض عليه عنوة سوى الحرب، لكن المحارب البتارثي يرى أنه يستحق الموت لفعلته.

تردد المحارب الشاب، ونظر نحو أميرته التي كانت تفكر أيضًا في ما يمكن أن يترتب على ما سيقومون به في اللحظة التالية. لقد استمر السلام بين مملكتي دوسار وبتارث لسنوات عديدة. وكانت سفنهما التجارية الكبيرة تسافر ذهابًا وإيابًا بين المدن الكبرى في البلدين. والآن حتى، بمقدور الأميرة أن ترى، بعيدًا أعلى القبة القرمزية المذهبة لقصر الجيداك، سفينة شحن فضائية عملاقة تتخذ طريقها المهيب عبر فضاء برسوم الرقيق متجهة نحو الغرب ونحو دوسار.

كان يمكنها بكلمة واحدة أن تُغرق هاتين المملكتين القويتين في صراع دموي يستنزف أشجع الدماء، فضلاً عن ثروات لا تُحصى، وتتركهما عاجزتين أمام غارات الأمم المجاورة الأقل قوةً، وتتركهما في النهاية فريسة لجحافل الخُضر الوحشية من قيعان البحر الميت.

لم يكن الشعور بالخوف يؤثر على قرارها؛ فنادرًا ما يعرف أطفال المريخ الخوف. لكن شعورها بالمسؤولية كابنة الجيداك، ورفاهية شعب والدها، هو ما كان يؤثر على قرارها.

قالت للمُلازم الذي قاد الحرس: «لقد دعوتك يا بادوار[58] لحماية شخص أميرتك، والحفاظ على السلام الذي يجب ألا يُنتَهَك داخل حدائق الجيداك الملكية. وهذا كل شيء. والآن، سترافقني إلى القصر، وبصحبتنا أمير هيليوم».

استدارت الأميرة دون أن تلقي أي نظرة أخرى نحو أستوك، وأمسكت بيد كارثوريس الممدودة لها، وتحركا ببطء نحو الصرح الرخامي الهائل الذي يضم مسكن حاكم بتارث وبلاطه المتألق، وسار على كل جانب طابور من الحرس. وهكذا وجدت ثوفيا طريقة للخروج من مأزق، متجنبة ضرورة وضع الضيف الملكي لوالدها تحت القيد قسرًا، وفي الوقت نفسه فصلت بين اثنين من الأمراء اللذين كانا يمكن أن يشتبكا في معركة عند مغادرتها مع الحرس.

---

(58) بادوار: رتبة مريخية تُعادل رتبة مُلازم -http://barsoom.wikia.com/wiki/Padwar -المترجمة.

وقف أستوك بجوار شجر البيماليا، ضاقت عيناه القاتمتان إلى مجرد شقين من الكراهية تحت حواجبه المنخفضة وهو يشاهد مسيرة المرأة التي أثارت أعنف مشاعره الطبيعية، والرجل الذي يعتقد أنه وقف بينه وبين حبه لثوفيا.

وعندما اختفيا داخل الصرح الضخم، هز أستوك كتفيه استهجانًا وسار عبر الحدائق وهو يقسم متذمرًا، واتجه نحو جناح آخر من المبنى حيث يسكن هو وحاشيته.

وفي تلك الليلة، طلب رسميًّا من ثوفان ديهن أن يسمح له بالمغادرة. وعلى الرغم من عدم الإشارة إلى ما حدث في الحديقة، فقد كان واضحًا من خلال قناع المجاملة البارد الذي أبداه الجيداك أن عادات وتقاليد الضيافة الملكية هي فقط ما منعته من الإعراب عن شعوره بالازدراء تجاه أمير دوسار.

لم يحضر كارثوريس، كما لم تحضر ثوفيا، مراسم المغادرة. كانت المراسم صارمة ورسمية كما تتطلبها آداب البلاط. وعندما صعد آخر دوساري إلى سفينة الفضاء الحربية التي أتت بهم إلى هذه الزيارة المشؤومة لبلاط بتارث، وأخذت السفينة ترتفع ببطء من موقعها، بدت علامات الارتياح واضحة في صوت ثوفان ديهن وهو يتحدث إلى أحد ضباطه تعليقًا على موضوع يختلف عن ذلك الذي احتل موقع الصدارة في أذهان الجميع لساعات.

ولكن، في النهاية، هل كان مختلفًا تمامًا؟

وأصدر أوامره: «عليك إبلاغ الأمير سوفان أنها رغبتنا أن يستدعي الأسطول الذي غادر صباح اليوم متجهًا إلى كاول، كي يبحر إلى غرب بتارث».

عندما دارت السفينة الحربية التي تعود بأستوك إلى بلاط والده نحو الغرب، كانت ثوفيا تجلس على نفس المقعد الطويل الذي شهد إهانتها من أمير دوسار، واتجه بصرها نحو الأضواء المتلألئة للسفينة وهي تتضاءل مع ابتعادها. جلس بجوارها كارثوريس، في ظل ضوء القمر القريب الباهر. لم تتعلق عيناه بضوء السفينة الحربية الآخذ في الخفوت، بل بوجه الفتاة المنقلب.

قال هامسًا: «ثوفيا».

تحولت عينا الفتاة صوبه. تحركت يده لتجد يدها، لكنها سحبت يدها بلطف.

واصل المحارب الشاب حديثه: «ثوفيا، أحبكِ! قولي لي إن كلامي لا يُسيء إليكِ».

هزت رأسها بحزن، وقالت ببساطة: «إن حب كارثوريس ليس سوى شرف لأي امرأة؛ لكنك يا صديقي يجب ألا تمنحني ما لا أقدر على مبادلته بالمثل».

أخذ الشاب ينهض ببطء على قدميه، واتسعت عيناه في ذهول. فلم يخطر أبدًا على ذهن أمير هيليوم أن ثوفيا البتارثية وقعت في حب شخص آخر.

«ولكن في كادابرا!»، قال صائحًا: «ثم هنا في بلاط والدكِ، ماذا فعلتِ يا ثوفيا للفت نظري؟ إنكِ لا تبادلينني الحب!».

فأجابت: «وما الذي فعلته يا كارثوريس كي يقودك إلى الاعتقاد بأنني أبادلك الحب؟»

صمت يفكر، ثم هز رأسه قائلاً: «لا شيء يا ثوفيا، هذا صحيح؛ ومع ذلك، أكاد أن أقسم أنكِ تحبينني. وتعرفين بالطبع أن حبي لكِ يكاد أن يقترب من العبادة».

سألته ببراءة: «وكيف لي أن أعرف يا كارثوريس؟ هل أخبرتني من قبل؟ هل خرجت من بين شفتيك سابقًا كلمات تعبر عن حبك لي؟».

صاح: «لكنك كان يجب أن تعرفي ذلك! أنا مثل والدي -أحمق في مسائل القلب، ولا أعرف كيف أتَصرف مع النساء؛ لكن الجواهر التي تتناثر عبر مسارات الحديقة الملكية، والأشجار، والأزهار، والمرجة- قد قرأت بالتأكيد الحب الذي ملأ قلبي منذ اللحظة الأولى التي رأيتكِ فيها، ووقعت عيناي على وجهكِ وقوامكِ الجميلين؛ فكيف أنتِ وحدكِ لم تشهدي ذلك؟».

سألته ثوفيا: «وهل فتيات هيليوم يحاولن لفت انتباه الرجال؟».

صاح كارثوريس: «أنت تلاعبينني! قولي إنكِ تلاعبينني، وإنكِ تحبينني يا ثوفيا!».

«لا يمكنني أن أقول لك هذا يا كارثوريس؛ لأنني أعطيت وعدًا لشخص آخر».

كانت نبرة صوتها رزينة. ولكن، ألم يكن فيها مسحة حزن عميق لا نهائي؟ مَن يمكنه أن يعرف؟

«وعد لشخص آخر؟»، بالكاد ما صدرت تلك الكلمات من كارثوريس. شحب وجهه متحولاً إلى اللون الأبيض، ورفع رأسه والدماء تتدفق إلى أوردة سيد العالم.

وقال: «كارثوريس من هيليوم يتمنى لكِ كل السعادة مع الرجل الذي اخترتِه، مع ...»، ثم تردد في انتظار أن تضع هي الاسم.

أجابت: «كولان تيث، جيداك كاول[59] . إنه صديق والدي، وأشد حلفاء بتارث».

نظر الشاب إليها باهتمام للحظة، قبل أن يتحدث مرة أخرى.

ثم سألها: «هل تحبينه يا ثوفيا؟».

أجابت ببساطة: «أنا وعدته».

لم يضغط عليها. فكر كارثوريس: «إنه واحد من أنبل دماء برسوم وأقوى مقاتليها»؛ ثم تمتم بفظاظة: «إنه صديق والدي وصديقي- ليته كان شخصًا آخر!». كان القناع الذي يغطي تعبير الفتاة يخفي ما تفكر فيه، على أن مسحة حزن بدت عليها؛ ربما تجاه كارثوريس، أو نفسها، أو كليهما.

لاحظ كارثوريس حزنها، لكنه لم يسألها عنه؛ فقد كان ولاؤه لكولان تيث بمثابة ولاء دماء جون كارتر من فرجينيا لصديق، وهو أكبر من أي شيء.

رفع قطعة مرصعة بالجواهر من غطاء الفتاة المزخرف إلى شفتيه.

وقال: «على شرف وسعادة كولان تيث والجوهرة الثمينة التي مُنحت له». وعلى الرغم من بحة في صوته، فقد بدت فيه رنة صدق حقيقية. «قلت لكِ يا ثوفيا، إنني أحببتكِ قبل أن أعرف بوعدكِ لشخص آخر. ولن أكرر ما قلته لكِ ثانية، لَكني سعيد أنكِ تعرفينَ ذلك؛ فهو ليس عارًا سَواء بالنسبة لكِ أو لكولان تيث أو لَنفسي. حبي لكِ يشملَ كولان تيث أيضًا- إذا كنتِ تحبينه». احتوت عبارته على تساؤل تقريبًا.

فأجابت: «أنا موعدة له».

ابتعد كارثوريس ببطء، وهو يضع إحدى يديه على قلبه، ويده الأخرى على مقبض سيفه الطويل.

وقال: «هما لك، دائمًا». وسرعان ما دخل القصر وغاب عن نظر الفتاة.

---

(59) كاول: مملكة قوية، وإن كانت صغيرة، في نصف الكرة الشرقي للمريخ، وتضم مريخيين من ذوي البشرة الحمراء - http://barsoom.wikia.com/wiki/Kaol-المترجمة.

لو عاد مرة أخرى، لكان وجدها تميل على المقعد الطويل ووجهها مدفون في ذراعيها. هل كانت تبكي؟ لم يكن هناك ما يمكن رؤيته.

جاء كارثوريس في ذلك اليوم، دون إعلان مسبق، إلى بلاط صديق والده. جاء بمفرده في طائرة صغيرة، موقنًا أنه سيلقى نفس الترحيب الذي ينتظره دائمًا في بتارث. لذا، ونظرًا لعدم وجود استقبال رسمي عند حضوره، لم تكن هناك حاجة لوداع رسمي عند ذهابه.

وقد أوضح لثوفان ديهن أنه كان يجري اختبارًا لاختراعه الذي زوّد به طائرته؛ وهو عبارة عن تحسين ذكي للبوصلة الجوية المريخية العادية، بحيث تظل ثابتة دائمًا عند توجيهها لوجهة معينة، بما يجعل من الضروري فقط إبقاء مقدمة السفينة الفضائية دائمًا في اتجاه إبرة البوصلة للوصول إلى أي نقطة مُعطاة في برسوم بأقصر طريق.

كان هذا التحسين الذي أدخله كارثوريس يتكون من جهاز مُساعِد يقود السفينة ميكانيكيًّا في اتجاه البوصلة، ويوقف السفينة بمجرد وصولها إلى الوجهَة المحددة لها، ثم يهبط بها على الأرض أوتوماتيكيًّا أيضًا.

«يمكنك بسهولة تِبيان مزايا هذا الاختراع»، هذا ما قاله لثوفان ديهن الذي رافقه إلى منصة الهبوط على سطح القصر، ليتفقد البوصلة ويودع صديقه الشاب.

تجمع عشرات من ضباط البلاط وعدد من الوصفاء خلف الجيداك وضيفه، يستمعون بلهفة إلى المحادثة. وكان أحد الوصفاء أكثر تلهفًا إلى حد توبيخ أحد النبلاء له مرتين لوقاحته في دفع نفسه ليسبق رفاقه في رؤية الآلية الـمُعقدة للشيء الرائع الذي يُسمى «بوصلة التحكم في الوجهة».

«وعلى سبيل المثال»، واصل كارثوريس: «تمتد رحلتي هذه طوال الليل. وضعت المؤشر هنا، على الجانب الأيمن من القرص الذي يمثل نصف الكرة الشرقي لبرسوم، بحيث يستقر المؤشر عند خط الطول والعرض الدقيق لهيليوم. أقوم بعد ذلك بتشغيل المحرك، ثم أتدثر في حرير وفراء النوم، ومع اشتعال الأضواء، تسرع السفينة في الجو نحو هيليوم، وأنا واثق أنني في الساعة المحددة سأهبط بلطف على منصة الهبوط في قصري، سواء كنت لا أزال نائمًا أو استيقظت».

قال ثوفان ديهن: «هذا بشرط عدم التصادم مع بعض الجوالين الليليين الآخرين، في الوقت نفسه».

أجاب كارثوريس مبتسمًا: "هذا الخطر غير وارد. انظر هنا"، وأشار إلى جهاز على يمين بوصلة الوِجهة" "هذا ما أسميه 'مُتجنِّب العوائق'. هذا الجهاز المرئي عبارة عن مفتاح تحويل، مهمته فتح وإغلاق تشغيل الآلية. تقع الأداة نفسها تحت السطح، وموجهة نحو كل من جهاز التوجيه وروافع التحكم».

"المسألة شديدة البساطة، ليست أكثر من مولد راديوم ينشر نشاطًا إشعاعيًّا في جميع الاتجاهات لمسافة مائة ياردة أو نحو ذلك من الطائرة. وإذا واجهت هذه القوة المغلفة اعتراضًا آتيًا من أي اتجاه، تستشعر أداة حساسة ذلك على الفور، وتنقل في الوقت نفسه نبضة إلى جهاز مغناطيسي، يعمل بدوره على تشغيل آلية التوجيه، محولاً مقدمة السفينة بعيدًا عن العائق، إلى أن يبتعد مجال النشاط الإشعاعي للسفينة عن العائق، ثم تعود الأداة إلى مسارها العادي مرة أخرى. وإذا كان العائق من الخلف، كما في حالة مركبة تتحرك بسرعة بحيث يمكن أن تدركني، تتولى الآلية حث جهاز التحكم في السرعة، فضلاً عن ترس القيادة، وتنطلق الطائرة إلى الأمام، أو لأعلى أو أسفل، حسب خط سير السفينة القادمة في الاتجاه المعاكس: ما إذا كانت أدنى أو أعلى من الطائرة نفسها".

"وفي الحالات المتفاقمة -أي عندما توجد العديد من العوائق، أو تؤدي طبيعة تلك العوائق إلى انحراف مقدمة الطائرة لأكثر من خمسٍ وأربعين درجة في أي اتجاه، أو عندما تصل الطائرة إلى وجهتها وتهبطت إلى مسافة مائة متر من الأرض- فإن الآلية توقف الطائرة تمامًا، وتصدر في الوقت نفسه صوت إنذار عاليًا يوقظ الطيار على الفور. كما ترى، لقد توقعت جميع الحالات الطارئة تقريبًا".

ابتسم ثوفان ديهن مُعربًا عن تقديره للجهاز الرائع. اندفع الخادم الأمامي إلى جانب الطائرة تقريبًا، وقد ضاقت عيناه إلى مجرد شقين.

وقال: "جميع حالات الطوارئ، ما عدا حالة واحدة».

تطلع نحوه النبلاء في دهشة، وأمسك أحدهم بكتف الخادم ببعض الخشونة لدفعه مرة أخرى إلى مكانة الصحيح. لكن كارثوريس رفع يده.

وقال: "انتظر. دعونا نسمع ما يريد هذا الرجل قوله؛ فلم يُخلق عقل بشري مثالي. فإذا صادف أنه كشف عن ضعف، فمن الجيد معرفته على الفور. تعالَ أيها الزميل الطيب، وأخبرني ما حالة الطوارئ التي لم أضعها في حسباني؟».

نظر كارثوريس خلال حديثه إلى الخادم عن كثب للمرة الأولى. شاهد رجلاً وسيمًا يتمتع بقامة عملاقة، مثله مثل أفراد العِرق المريخي الأحمر، لكنَّ شفتيه كانتا رفيعتين وقاسيتين، وظهر على أحد خديه خطٌ أبيض باهت ناتج عن ضربة سيف من صدغه الأيمن حتى زاوية فمه.

حثه أمير هيليوم: "تعال، تكلم!".

تردد الرجل. وبدا واضحًا أنه ندم على جرأته التي جعلته مركز الاهتمام. لكنه تكلم أخيرًا، حيث لم يجد أي بديل آخر.

قال: "يمكن للعدو أن يتلاعب بها".

أخرج كارثوريس مفتاحًا صغيرًا من جيب حقيبته الجلدية.

وقال وهو يعطيه للرجل: "انظر إلى هذا. إذا كنت تعرف شيئًا عن الأقفال، ستعرف أن الآلية التي يُطلقها هذا المفتاح تتجاوز دهاء صانعي الأقفال. فهو يحمي الأجزاء الحيوية من عبث الماكرين. ومن دونه، يحتاج العدو إلى تحطيم نصف الجهاز للوصول إلى قلبه، تاركًا عمله اليدوي مرئيًّا لأي مشاهد".

أخذ الخادم المفتاح وهو ينظر إليه بدقة. وعندما تقدم لإعادته إلى كارثوريس، أسقطه على الرصيف الرخامي. واستدار الخادم للبحث عنه، ووضع نعل صندله بالكامل فوق المفتاح المتلألئ. وللحظة، اتكأ بوزنه كله على قدمه التي غطت المفتاح، ثم تراجع للوراء وهو يُعبّر عن سروره لأنه وجده، وانحنى، وأخذ المفتاح، وأعاده إلى كارثوريس، ثم عاد إلى موقعه مرة أخرى وراء النبلاء، وقد نسيه الجميع.

ودّع كارثوريس صديقه ثوفان ديهن ونبلاءه، وانطلق بأضواء متلألئة مرتفعًا في فضاء ليل المريخ.

* * *

الفصل (2)

العبودية

نزل حاكم بتارث، ووراءه حاشيته، من منصة الهبوط فوق القصر. ونزل الخدم متجهين إلى أماكنهم في القصر خلف أسيادهم الملكيين أو النبلاء، لكن أحد الخدم تباطأ قليلاً وراء الآخرين حتى أصبح آخرهم، ثم انحنى وانتزع صندل قدمه اليمنى بسرعة ووضعه في جيب حقيبته.

عندما وصلت المجموعة إلى المستويات الأدنى وفرقهم الجيداك بإشارة منه، لم يلحظ أحد أن الخادم الذي لفت الانتباه كثيراً قبل رحيل أمير هيليوم لم يعد موجودًا بين غيره من الخدم.

لم يفكر أحد في الاستفسار عنه ولأي حاشية ينتمي؛ فاتباع نبلاء المريخ كثيرون، يتحركون جيئةً وذهابًا وفقًا لرغبة سيدهم، بحيث نادرًا ما يصبح أي وجه جديد موضع تساؤل، لا سيما أن مرور رجل إلى داخل جدران القصر يُعد دليلاً إيجابيًّا على أن ولاءه للجيداك ليس محل أدنى شك نظرًا لصرامة الفحص الذي يلقاه كل مَن يسعى للخدمة مع نبلاء البلاط.

وهذه قاعدة جيدة، لكنها تُخفَّف فقط من قبيل المجاملة، لصالح حاشية ملك زائر من مملكة أجنبية صديقة.

وفي وقت متأخر من صباح اليوم التالي، مر خادم عملاق يرتدي عتاد بيت أحد نبلاء بتارث العظماء من بوابات القصر متجهًا إلى المدينة. اجتاز متكاسلاً بخفة طريق واسع، ثم طريق آخر، إلى أنه خرج من حي النبلاء ووصل إلى موقع المحال التجارية. توجه عندئذٍ إلى مبنى فخم يرتفع كالبرج نحو السماء، جدرانه الخارجية مزينة بإتقان بمنحوتات رقيقة وفسيفساء متشابكة.

كان «قصر السلام» الذي يضم ممثلي القوى الأجنبية، أو بالأحرى حيث توجد سفاراتهم؛ فالوزراء أنفسهم يسكنون في قصور رائعة في حي النبلاء.

اتجه الرجل نحو سفارة دوسار. دخل، ونهض موظف يستفسر عن سبب مجيئه. وعندما أفاد الرجل أنه يود التحدث مع الوزير، طلب الموظف أوراقه الشخصية. خلع الزائر سوارًا معدنيًّا بسيطًا يوجد فوق كوعه، وأشار إلى نقش على سطحه الداخلي وهو يهمس بكلمة أو كلمتين للموظف.

اتسعت عينا الموظف، وتحول موقفه على الفور إلى الاحترام. انحنى وجلب مقعدًا للرجل الغريب، ثم أسرع إلى غرفة داخلية والسوار في يده. عاد بعد ثوانٍ وقاد الرجل إلى حضرة الوزير.

استمر اللقاء المغلق لفترة طويلة. وأخيرًا خرج الخادم العملاق من المكتب الداخلي وعلى وجهه ابتسامة رضى شريرة، ثم خرج مسرعًا من «قصر السلام» متوجهًا مباشرة إلى قصر وزير دوسار.

وفي تلك الليلة، غادرت طائرتان سريعتان من سطح القصر نفسه. اتخذت إحداها مسارها السريع نحو هيليوم؛ والأخرى...

تجولت ثوفيا البتارثية في حدائق قصر والدها، كما هي عادتها كل ليلة قبل النوم. وكانت تلف حولها الحرير والفراء، فهواء المريخ يبرد بعد أن تغطس الشمس أسفل حافة الكوكب الغربية.

طافت أفكار الفتاة بين زفافها الوشيك، الذي سيجعلها إمبراطورة كاول، والشاب الوسيم من هيليوم الذي وضع قلبه عند قدميها في اليوم السابق.

ويصعب القول ما إذا كان شعورًا بالأسف أو الندم هو الذي أضفى عليها تعبيرًا حزينًا وهي تحدق نحو السماء الجنوبية وتشاهد خفوت أضواء طائرته تبتعد في الليلة السابقة.

وكان من المستحيل أيضًا تخمين ماذا كانت مشاعرها عندما تبينت أضواء طائرة تتحرك مسرعة عبر مسافة بعيدة من هذا الاتجاه ذاته، كأنما تدفعها نحو حديقتها كثافة أفكار الأميرة.

رأتها تدور منخفضة فوق القصر إلى أن تأكدت أنها تحوم استعدادًا للهبوط.

والآن، تنطلق أشعة كشافها القوية من مقدمتها إلى أسفل. سقطت الأشعة على منصة الهبوط للحظة قصيرة، كاشفة عن حراس بتارث ينتقون قطعًا نارية متألقة من الجواهر لعتادهم الرائع.

ثم توجهت الأعين اللامعة إلى الأمام، عبر القباب المصقولة والمنارات الرشيقة، ثم إلى أسفل نحو البلاط والمتنزه والحديقة، لتتوقف أخيرًا عند المقعد الطويل والفتاة التي تقف بجانبه ووجها مقلوب تمامًا نحو الطائرة.

توقف الكشاف لمجرد لحظة عند ثوفيا ثم انطفأ فجأة، كما كان قد أُضيء فجأة. مرت الطائرة فوقها، ثم اختفت وراء بستان من أشجار السكيل[60] الشامخة التي تنمو داخل حديقة القصر.

وقفت الفتاة لفترة بعد أن حلقت الطائرة بعيدًا، لكن رأسها كان منحنيًا وعيناها غارقتين في التفكير.

مَن غير كارثوريس؟ حاولت أن تشعر بالغضب لأنه عاد ليتجسس عليها؛ لكنها وجدت من الصعوبة أن تغضب من أمير هيليوم الشاب.

ما هذه النزوة الجنونية التي دفعته إلى انتهاك آداب الممالك؟ لقد نشبت حروب بين القوى الكبرى لأسباب أقل كثيراً.

كانت مصدومة وغاضبة كأميرة، لكن ماذا عنها كفتاة!

والحرس- ماذا عنهم؟ من الواضح أنهم فُوجئوا أيضًا بهذا السلوك غير المسبوق من شخص غريب لم يواجهوه حتى. ولكن سرعان ما اتضح أنهم لن يتركوا الأمر يمر ببساطة هكذا؛ وهو ما تجلى في تسيير المحركات فوق منصة الهبوط، وإطلاق نيران سريعة من زورق دورية طويل.

شاهدته ثوفيا يتحرك بسرعة شرقًا. كما شاهدت ذلك أعين أخرى أيضًا.

داخل الظلال الكثيفة لبستان أشجار السكيل، في شارع واسع أسفل أوراق الشجر المنتشرة، تعلقت طائرة فضائية على مسافة 12 متراً فوق الأرض. ومن على سطحها، شاهدت أعين حريصة كشاف زورق الدورية الذي يُلقي بضوئه بعيدًا. لم يظهر أي ضوء من السفينة المختفية في الظلال. وعلى سطحها، كان الصمت كالمقبرة. شاهد طاقمها، الذي يضم نصف دزينة من المحاربين الحُمر، أضواء زورق دورية يتناقص مع ابتعادها.

قال شخص بنبرة منخفضة: «عقول أجدادنا معنا الليلة».

وأجاب شخص آخر: «لم تُنفذ أي خطة من قبل أفضل. لقد فعلوا تمامًا ما تنبأ به الأمير».

التفت المتحدث الأول نحو الرجل الرابض أمام زورق الدورية.

---

(60) شجرة سكيل: شجرة من خشب مريخي صلب يُستخدم في بناء كل شيء من السكن إلى الأثاث. وتنتج أيضًا شجرة سكيل جوز جيد المذاق -http://barsoom.wikia.com/wiki/Skeel- المترجمة.

وقال هامسًا: «الآن!». لم يُعطَ أي أمر آخر. فمن الواضح أن كل رجل على السفينة كان يعرف جيدًا جميع تفاصيل العمل المطلوب في تلك الليلة. تسللت السفينة الداكنة في صمت أسفل أقواس البستان المظلم الصامت.

رأت ثوفيا، وهي تحدق نحو الشرق، بقعة أكثر سوادًا على خلفية سواد الأشجار، حيث اجتازت السفينة جدار الحديقة. شاهدت الكتلة القاتمة تنحدر رويدًا إلى أسفل، نحو المرجة القرمزية في الحديقة.

عرفت أن الرجال لم يأتوا بنوايا حسنة. على أنها لم تصرخ بصوت عال لتنبيه الحراس القريبين، ولم تفرَّ إلى القصر من أجل سلامتها.

لماذا؟

أستطيع أن أراها تهز كتفيها الرشيقتين وهي ترد بالإجابة القديمة قدم الدهر، والشائعة لدى النساء: لأن!

ما إن لمست السفينة الأرض، حتى قفز أربعة رجال من سطحها، وركضوا إلى الأمام نحو الفتاة.

لم تقم بأي إشارة إنذار بعد، كانت تقف كأنها منومة مغناطيسيًّا. أو هل كانت كمَن ينتظر زائرًا مرحبًا به؟

لم تتحرك إلا عندما اقتربوا منها. كان القمر الأقرب يرتفع فوق أوراق الشجر المحيطة، وأضاءت أشعته الفضية الرائعة وجوههم.

رأت ثوفيا رجالاً غرباء؛ محاربين يرتدون عتاد مملكة دوسار. وعندئذ فقط شعرت بالخوف، ولكن بعد فوات الأوان!

أمسكت أيد خشنة بها، قبل أن تتمكن حتى من إطلاق صرخة واحدة. التف وشاح حريري ثقيل حولَ رأسها، ورفعتها أيادٍ قوية ووضعتها على ظهر السفينة الفضائية. وفجأة دارت المراوح، واندفع الهواء نحو جسدها؛ وتناهت من بعيد، من أسفل، أصوات صياح الحراس ووعيدهم.

كانت تسرع نحو الجنوب سفينة آخرى في اتجاه هيليوم؛ وبداخل مقصورتها رجل أحمر طويل يميل على نعل ليّن لصندل مقلوب. وباستخدام أدوات دقيقة، قاس الأثر الباهت للشيء الصغير الذي يظهر على النعل. وكتب نتائج قياساته على لوحة بجواره تضم رسمًا لخطوط عريضة لمفتاح.

ظهرت ابتسامة على شفتيه عندما أنجز مهمته، ثم استدار نحو شخص ينتظره في الجانب الآخر من المنضدة.

قال: "الرجل عبقري".

"لا يمكن إلا لعبقري أن يخترع مثل هذا القفل الـمُصمم كي تنطلق السفينة. ها هو، خُذ الرسم التخطيطي، يا لاروك، وأطلق العنان بالكامل لعبقريتك لتحويل الرسم إلى معدن».

انحنى المحارب-المخترع، وقال: "لم يبنِ الرجل شيئًا يعجز المرء عن تدميره"، ثم غادر المقصورة ومعه الرسم.

عند طلوع الفجر فوق الأبراج الشامخة التي تُعد علامة على المدينتين التوأم في هيليوم -البرج القرمزي في إحداهما، والبرج الأصفر في المدينة الشقيقة- طافت سفينة متكاسلة قادمة من الشمال.

ارتفعت فوق مقدمة السفينة راية نبيل من مرتبة منخفضة من مدينة بعيدة في إمبراطورية هيليوم. لم يثر اقترابها على مهل، والثقة الواضحة التي عبرت بها المدينة، أي شكوك في عقول الحراس الناعسين. فقد أنهوا جولتهم تقريبًا، ولم يفكروا في شيء أبعد من قدوم حراس الدورية التالية للتخفيف عنهم.

ساد السلام في جميع أنحاء هيليوم، سلام ساكن وهادئ. فلا يوجد أعداء لهيليوم، ولا يوجد ما يدعو إلى الخوف.

تحركت ببطء ودون تسرع أقرب دورية جوية، واقتربت من الطائرة الغريبة. وعلى مسافة مناسبة، رحَّب الضابط على سطح زورق الدورية بالطائرة القادمة.

كانت كلمة الترحيب "كاور!" بابتهاج، والتفسير المعقول بأن صاحب الطائرة آتٍ من مناطق بعيدة ليقضي بضعة أيام من المتعة في هيليوم، كافيين. رد زورق الدوريةِ الجوية الترحيب، ومضى مرة أخرى في طريقه. واصلت طائرة الغريب الفضائية رحلتها، متجهة نحو منصة هبوط عامة، حيث هبطت متحركة على الممر إلى أن استقرت تمامًا.

في الوقت نفسه تقريبًا، دخل محارب إلى مقصورتها.

وقال: "تم الأمر، يا فاس كور"، وهو يسلم مفتاحًا معدنيًّا صغيراً للنبيل طويل القامة الذي نهض من حرير وفراء النوم.

رد فاس كور: "حسنًا، من المؤكد أنك أمضيت الليل لتنجز هذا العمل يا لاروك».

هز المحارب رأسه في إيماءة.

وبعد ذلك أمره فاس كور: "والآن عليك أن تعطيني معدن هيليوم الذي صنعته منذ عدة أيام».

وبعد أن قام المحارب بذلك، ساعد سيده ليضع الحلي البسيطة لمقاتل عادي من هيليوم محل المعدن المرصع بالجواهر في عتاده، مع نفس شارة البيت المميزة التي تظهر عند مقدمة الطائرة.

تناول فاس كور إفطاره على متن الطائرة، ثم ذهب إلى الرصيف الجوي ودخل إلى مصعد، حمله إلى الشارع أدناه، وسرعان ما وجد نفسه بين حشود الصباح الباكر من العاملين الذين يسرعون لأداء واجباتهم اليومية.

لم تكن أغطيته المزخرفة كمحارب ملحوظة بينهم؛ فجميع رجال المريخ محاربون، ما عدا غير القادرين بدنيًّا على حمل السلاح. تصدر أصوات صلصلة من أغطية التاجر الحربية وموظفه خلال ممارستهم لمهنتهم. ويأتي التلميذ إلى العالم وهو بالغ تقريبًا، بعد خروجه من قشرة بيضته التي شملته برعايتها لخمس سنوات طوال، ولا يعرف الحياة دون سيف معلق في وركه، وإذا تحرك دون سلاح سوف يشعر بنفس الضيق الذي يشعر به الرجل على كوكب الأرض عند سيره في شوارع تتسم بالخطورة.

كانت وجهة فاس كور تقع في هيليوم الكبرى، على مسافة حوالي خمسة وسبعين ميلاً عبر السهل المنخفض في هيليوم الصغرى. لقد هبط بطائرته في المدينة الأخيرة؛ لأن دورياتها الجوية أقل تشككًا وحذرًا من نظيرتها في العاصمة الأكبر، التي تضم قصر الجيداك.

وخلال تحركه مع الناس في الوادي الضيق الشبيه بالمنتزه عبر الطريق، كانت المدينة المريخية مملوءة بالحياة من حوله. فالبيوت التي ترتفع على أعمدة معدنية رفيعة أثناء الليل، أخذت تهبط بلطف نحو الأرض. والأطفال يلعبون بين الزهور فوق المرجة القرمزية التي تقع حول المباني؛ والنساء الجميلات يضحكن ويدردشن مع جيرانهن، ويقطفن أزهارًا بديعة لوضعها في المزهريات عند الأبواب.

وكانت كلمة الترحيب المريخية الدمثة "كاور" تهبط باستمرار على أذني الغريب خلال سيره بين أصدقاء وجيران يمارسون واجبات يوم جديد.

لقد هبط في حي سكني- حي يضم أكثر التجار ازدهارًا. تجد أدلة الترف والثروة في كل مكان. وظهر العبيد على سطح كل منزل ومعهم حرير رائع وفراء باهظ التكلفة، يضعونه في الشمس لتهويته. وتسترخي النساء مرتديات جواهرهن، حتى في هذا الوقت المبكر، في الشرفات أمام شقق نومهن. ويصعدن، في فترة لاحقة، إلى الأسطح عندما ينتهي العبيد من ترتيب الأرائك وتعليق الستائر الحريرية لتظللهن من الشمس.

تدفقت نغمات موسيقى جميلة من النوافذ المفتوحة؛ فقد حلَّ المريخيون مشكلة مواءمة جهازهم العصبي مع الانتقال المفاجئ من النوم إلى الاستيقاظ، وهو ما ثبتت صعوبة تحقيقه لمعظم سكان كوكب الأرض.

وكانت تتحرك في أعلى جيئةً وذهابًا، طائرات فضائية طويلة وخفيفة لنقل الركاب، تطير كل منها في مسارها السليم بين منصات الهبوط العديدة لتخدم حركة مرور الركاب الداخلية. أما منصات الهبوط التي ترتفع عاليًا في السماء، فهي مخصصة لخطوط السفن الفضائية الكبرى للركاب على المستوى الدولي. وهناك منصات أخرى لهبوط سفن الشحن، تقع على مستويات أدنى مختلفة، إلى حوالي بضع مئات من الأقدام من الأرض؛ ولا تجرؤ أي سفينة أن ترتفع أو تنخفض من مستوى إلى آخر، إلا في بعض الأحياء المحددة التي تحظر الحركة الأفقية.

وعلى طول المرجة مقصوصة العشب التي تمهد الطريق، تتحرك السفن الأرضية في خطوط متواصلة في اتجاهين متعاكسين. كان الجزء الأكبر من تلك السفن يتحرك على طول سطح المرجة، ويرتفع أحيانًا برشاقة في الهواء ليمر فوق سائق بطيء، أو عند التقاطعات، حيث تسير حركة المرور الشمالية والجنوبية ويجب أن ترتفع فوقها حركة المرور الشرقية والغربية.

ومن حظائر خاصة فوق العديد من الأسطح، كانت تنطلق طائرات متجهة إلى خط سيرها. اختلط الوداع المرِح ونصائح الفُراق مع أزيز المحركات والضوضاء الصاخبة في المدينة.

ومع كل هذه الحركة السريعة والآلاف العديدة من الناس الذين يسرعون هنا وهنا، كان الشعور الغالب هو السهولة المترفة وهدوء الصمت الناعم.

يكره المريخيون الضجة المتنافرة المزعجة. على أن أصوات الحرب العسكرية، واشتباك الأسلحة، وتصادم السفن المدرعة القوية في الجو، كانت الأصوات العالية الوحيدة التي يمكنهم سماعها دون غضاضة. ولا يوجد بالنسبة لهم موسيقى أكثر عذوبة منها.

نزل فاس كور، عند تقاطع طريقين واسعين، من مستوى الشارع إلى أحد المحطات الهوائية الكبيرة في المدينة. ودفع عند بوابة صغيرة رسوم نقله إلى الوجهة التي يريدها: قطعتين نقديتين بيضاويتين وباهتتين من عُملة هيليوم.

وبعد حارس البوابة، وصل إلى صف يتحرك ببطء لما قد يبدو لأعين سكان كوكب الأرض وكأنها قذائف ذات مقدمة مخروطية الشكل بثماني أقدام لمدفع عملاق. تحركت هذه الأشياء واحدة تلو الأخرى في موكب بطيء على طول مسار أخدودي. وقام ما يقرب من نصف دزينة من العاملين بمساعدة الركاب على الدخول، أو توجيه هذه الناقلات إلى وجهتها الصحيحة.

اقترب فاس كور إلى واحدة فارغة، يوجد عند مقدمتها قرص ومؤشر. حرّك المؤشر نحو محطة معينة في هيليوم الكبرى، ثم رفع الغطاء المقوس لهذا الشيء ودخل، واستلقى على أغطية السطح السفلي. قفل العامل الغطاء، الذي انغلق بنقرة بسيطة، وواصل الناقلات طريقها البطيء.

والآن، نقل الشيء نفسه تلقائيًّا إلى مسار آخر، حيث دخل بعد لحظة إلى نفق بين سلسلة من الأنفاق ذات المداخل المظلمة.

وما إن اكتمل دخول الناقلات إلى الفتحة السوداء، حتى انطلقت إلى الأمام بسرعة رصاصة البندقية. كانت هناك لحظة من الأزيز- توقف معتدل، وإن كان مفاجئًا، وبدأت الناقلة تظهر ببطء عند رصيف آخر. قام العامل برفع الغطاء، وخرج فاس كور إلى المحطة التي تقع أسفل مركز هيليوم الكبرى، وكانت على بُعد خمسة وسبعين ميلاً من النقطة التي بدأ منها.

وهنا توجه إلى مستوى الشارع، وصعد على الفور إلى طائرة أرضية في انتظاره. لم يقل أي كلمة للعبد الذي يجلس في مقعد السائق. من الواضح أن حضوره كان متوقعًا، وأن العبد تلقى تعليماته قبل مجيئه.

وما إن جلس فاس كور في مقعده، حتى انطلقت الطائرة في مسيرتها بسرعة؛ والآن تستدير من الطريق الواسع المزدحم إلى شارع أقل ازدحامًا. غادرت حاليًا الحي المزدحم ودخلت إلى قسم يضم متاجر صغيرة، ثم توقفت أمام مدخل متجر يحمل علامة تاجر في الحرير الأجنبي.

دخل فاس كور غرفة ذات سقف منخفض. أشار إليه رجل في نهاية الغرفة ليتوجه إلى شقة داخلية، دون إبداء أي علامة على معرفتهما، إلى أن سار خلفه فاس كور وأغلق الباب.

ثم نظر إلى الزائر، وحياه بود.

بدأ يقول: "أنبل..."، لكن فاس كور أومأ له ليصمت.

وقال "لا شكليات. يجب ألا ننسى أنني لست سوى عبدك. إذا كان كل شيء قد تم بعناية حسب التخطيط، فليس لدينا وقتًا نضيعه. بل علينا بالأحرى أن نتخذ طريقنا إلى سوق الرقيق. هل أنت مستعد؟».

أومأ التاجر، ثم تحول نحو صندوق كبير، وأخرج أغطية عادية يرتديها العبيد، وعلى الفور ارتداها فاس كور. خرج الاثنان من باب خلفي للمحل، وسارا في زقاق متعرج حتى وصلا إلى طريق تنتظرهما عنده طائرة، وصعدا إليها.

وبعد خمس دقائق، كان التاجر يقود العبد إلى السوق العام، حيث ملأت حشود ضخمة من الناس فضاءً كبيراً مفتوحًا توجد في منتصفه منصة للعبيد.

كانت الحشود هائلة اليوم؛ ذلك أن كارثوريس، أمير هيليوم، هو الـمُزايد الرئيس.

صعد الأسياد إلى المنصة، واحدًا تلو الآخر، بجوار مجموعة العبيد. وسرد كل منهم بإيجاز ووضوح فضائل عرضه.

عندما انتهى الجميع من كلماتهم، أشار كبير خدم أمير هيليوم إلى مجموعة العبيد على نحو ينمُّ عن إعجابه؛ ولذا قدم عرضًا جيدًا.

كانت المساومات حول السعر قليلة، ولم تُوجد أي مساومة على الإطلاق عند وضع فاس كور على المنصة. وافق سيده التاجر على قبول العرض الأول الـمُقدم له، وهكذا دخل نبيل من دوسار إلى بيت كارثوريس.

* * *

الفصل (3)

الخيانة

في اليوم التالي لدخول فاس كور إلى قصر أمير هيليوم، سادت حالة من الإثارة الشديدة في كافة أنحاء المدينتين التوأم، ووصلت إلى ذروتها في قصر كارثوريس. فقد وصل خبر اختطاف ثوفيا البتارثية من بلاط والدها، مع تلميح خفي بوجود شكوك في أن أمير هيليوم قد يكون على علم بذلك ويعرف مكان الأميرة.

اجتمع في قاعة مجلس جون كارتر، أمير الحرب في المريخ، كل من: تاردوس مورس، جيداك هيليوم؛ وابنه مورس كاجاك، جِد[61] هيليوم الصغرى؛ وكارثوريس، ومجموعة من كبار نبلاء الإمبراطورية.

قال جون كارتر: «يا بُني، يجب ألا تنشب الحرب بين بتارث وهيليوم. ونحن نعرف جميعًا أنك بريء من التهمة التي يُلمحون بها ضدك؛ لكن ثوفان ديهن يجب أن يعرف أيضًا».

«ولن يقنعه بذلك سوى شخص واحد، وهو أنت. عليك أن تسرع على الفور إلى بلاط بتارث؛ وبوجودك هناك، وبكلماتك، يمكنك أن تؤكد له أن شكوكه بلا أساس. اذهب حاملاً سلطة أمير الحرب في برسوم وجيداك هيليوم، واعرض تقديم كافة موارد الحلفاء لمساعدة ثوفان ديهن على استعادة ابنته ومعاقبة مختطفيها، مهما كانوا».

«اذهب! وأنا أعرف أنني لا أحتاج إلى حثك على ضرورة الإسراع».

غادر كارثوريس قاعة المجلس، وسارع إلى قصره.

انشغل العبيد للحظات في إعداد الأشياء اللازمة لرحيل سيدهم. كما انشغل العديد منهم في عملهم حول الطائرة السريعة التي ستحمل أمير هيليوم إلى بتارث.

وأخيراً أنجزوا كل شيء، وبقي عبدان مسلحان ليقوما بالحراسة. كانت الشمس تنخفض فوق الأفق، وسرعان ما سيلف الظلام كل شيء.

(61) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة -http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed -المترجمة.

كان أحد الحارسين عملاقًا، تمتد على خده الأيمن ندبة رفيعة من صدغه إلى فمه. أخذ هذا الحارس يقترب من زميله، موجهًا بصره إلى شيء ما خلف زميله.

وسأله: «ما هذه الطائرة الغريبة؟».

أدار الحارس الثاني رأسه بسرعة محولاً بصره نحو السماء. وما إن استدار ثانية نحو العملاق، حتى طعنه الأخير بنصل سيفه القصير تحت كتفه الأيسر، ومباشرة إلى قلبه.

سقط الجندي بلا صوت في موقعه ميتًا. أسرع القاتل بجر الجثة إلى الظلال السوداء في الحظيرة، ثم عاد إلى الطائرة.

أخرج من جيب حقيبته مفتاحًا صُنع بمكر، ثم أزال غطاء القرص الأيمن لبوصلة التوجيه. ظل للحظات يدرس بنية الآلية تحته، ثم أعاد القرص إلى مكانه وضَبَط المؤشر، ثم أزاله مرة أخرى ليرى التغيير الناتج في وضع الأجزاء المتضررة من جراء ما فعله.

ظهرت ابتسامة على شفتيه. استعان بزوج من القواطع لقطع النتوء الذي امتد عبر القرص من المؤشر الخارجي- والآن، يمكن نقل هذا المؤشر إلى أي نقطة على القرص دون التأثير على الآلية أدناه. وبعبارة أخرى، أصبح قرص نصف الكرة الشرقي عديم الفائدة.

حوّل انتباهه الآن إلى القرص الغربي. قام بضبطه عند نقطة معينة، ثم أزال غطاء هذا القرص أيضًا، واستعان بأداة حادة لقطع الإصبع الفولاذي من الجانب السفلي من المؤشر.

واستبدل، بأقصى سرعة ممكنة، غطاء القرص الثاني، ثم عاد إلى موقعه بالحراسة. كانت البوصلة تعمل بنفس كفاءتها السابقة لجميع المقاصد والأغراض؛ لكن نقل المؤشرات على القرصين نتج عنه عمليًّا عدم تحرك مناظر في الآلية السفلية، كما تم ضبط الجهاز بحيث يظل ثابتًا على الوجهة التي اختارها العبد.

وصل الآن كارثوريس، وبرفقته حفنة من السادة. ألقى نظرة عابرة على العبد الذي وقف منفردًا للحراسة. على أن شفاه العبد الرفيعة، وإصابته بقطع سيف يمتد من خده إلى فمه، أثار داخله ذكرى غير سارة. وتساءل من أين جاء ساران تال[62] بهذا الرجل، ثم تلاشى الموضوع من فكره، وأخذ يضحك ويدردش مع رفاقه، رغم أن قلبه كان باردًا من الجزع والقلق لأنه لا يقدر حتى على تخمين ما تواجهه ثوفيا من احتمالات.

(62) ساران تال: كبير الخدم في قصر كارثوريس -http://barsoom.wikia.com/wiki/Saran_Tal -المترجمة.

كان أول ما تبادر إلى ذهنه، بطبيعة الحال، أن أستوك من دوسار اختطف ثوفيا الجميلة؛ لكن أخبار الاحتفالات الكبرى التي أقيمت في دوسار احتفاء بعودة ابن الجيداك إلى بلاط والده، قد وصلت في الوقت نفسه تقريبًا مع وصول أخبار الاختطاف.

لا يمكن أن يكون هو، هكذا تصور كارثوريس، لأن استوك كان في دوسار في نفس ليلة اختطاف ثوفيا، مع ذلك...

دخل الطائرة، وتبادل كلمات عادية مع رفاقه وهو يفتح آلية البوصلة ويضبط المؤشر على عاصمة بتارث.

ودّع رفاقه، ثم لمس الزر الذي يسيطر على أشعة الدفع. ومع ارتفاع الطائرة قليلاً في الجو، أطلق المحرك صوته استجابة للمسة إصبع كارثوريس على الزر الثاني، وأطلقت المراوح أزيزها عندما جذبت يده رافعة السرعة إلى الخلف. وهكذا انطلق كارثوريس، أمير هيليوم، في سماء ليل المريخ الرائع وتحت قمريه المندفعين وملايين النجوم.

وما إن بدأت الطائرة تتخذ سرعتها، حتى لف الرجل حرير وفراء النوم حوله، وتمدد بطوله كاملاً على سطح السفينة الضيق لينام.

لكن النوم لم يأتِ كما كان يرغب.

فقد كانت الأفكار تتقلب في ذهنه، وتُبعد عنه النوم. تذكّر كلمات ثوفيا البتارثية، الكلمات التي شبه أن أكدت له أنها تحبه؛ فعندما سألها إذا كانت تحب كولان تيث، لم تقل في إجابتها سوى أنها وعدته.

وهو يرى الآن أن ردها كان يحمل أكثر من معنى. فقد يعني، بطبيعة الحال، أنها لا تحب كولان تيث؛ وبالتالي يمكن أخذ المعنى على أنها تحب شخصًا آخر.

ولكن، ماذا يضمن أن الشخص الآخر هو كارثوريس من هيليوم؟

وكلما فكر في الأمر، يتأكد أكثر من عدم وجود أي شيء في كلماتها يضمن أنها تحبه، كما لا يتأكد ذلك من خلال أفعالها. كلا، الحقيقة هي أنها لا تحبه، بل تحب شخصًا آخر. ولم يختطفها أحد، بل هربت عن طيب خاطر مع حبيبها.

ومع هذه الأفكار السارة، التي جعلته بالأحرى يشعر باليأس والغضب، غط كارثوريس أخيراً في النوم بعد أن استنفدت الأفكار ذهنه.

وجده طلوع الفجر المفاجئ نائمًا؛ وطائرته تسرع فوق سهول صفراء جرداء- قاع البحر المريخي الميت في العالم القديم.

ارتفعت على البُعد تلال منخفضة. ومع الاقتراب منها، كان يمكن رؤية أرض أمامية كبيرة من على سطح السفينة، أرض ممتدة كانت في يوم ما بمثابة محيط جبار. واصلت السفينة تحليقها ودورانها حول ميناء مدينة منسيّة، لا تزال ممتدة وراء أرصفة الميناء المهجورة، وكومة هائلة من العمارة الجيبة التي تنتمي إلى ماض سحيق فانٍ.

هناك عدد لا يُحصى من النوافذ الكئيبة، مهجورة وخالية من التعبير، تحدق عمياء من جدرانها الرخامية؛ وتتناثر عبر أنحاء المدينة الحزينة أكوام من جماجم الموتى التي حولتها الشمس إلى اللون الأبيض؛ وتظهر نوافذ الأبواب كمحجر للعين خال من الأعين، وبوابات، وفكين مبتسمين.

زاد اقتراب الطائرة، وأخذت سرعتها تتضاءل- لكن هذا الموقع لم يكن بتارث.

توقفت فوق الساحة المركزية، لتهبط ببطء. توقفت تمامًا على بُعد مائة ياردة من الأرض، وهي تطفو برفق في الهواء الخفيف. وفي اللحظة نفسها، وصل صوت إنذار إلى أذن النائم.

نهض كارثوريس. نظر أدناه متوقعًا رؤية مدينة بتارث المزدحمة، ومتصورًا ضرورة وجود دورية جوية بجواره.

أخذ يحدق حوله في دهشة حائرة؛ فقد وصل إلى مدينة عظيمة بالفعل، لكنها ليست بتارث. لا تصطخب الحشود عبر طرقها الواسعة، ولا تظهر أي علامات على الحياة تكسر رتابة الموت على الأسطح المهجورة، ولا أي مشهد للحرير الرائع، ولا الفراء الثمين الذي يمنح الحيوية واللون لهذا الرخام البارد والخشب اللامع.

كما لا يوجد زورق دورية على استعداد لأي تحديات مألوفة. تقع المدينة العظيمة في حالة صامتة وفارغة- كصمت وفراغ الهواء المحيط.

ماذا حدث؟

فحص كارثوريس قرص البوصلة؛ ووجد مؤشرها يتجه نحو بتارث. هل خانه الشيء الذي ابتكرته عبقريته؟ لم يعتقد ذلك.

أسرع بفتح الغطاء، ثم أعاده إلى مفصلته. فقد أدرك الحقيقة، أو جزءًا منها على الأقل، بلمحة واحدة- قُطِع النتوء الصلب الذي ينقل حركة المؤشر فوق القرص إلى قلب الآلية تحته. انقطع.

مَن الذي يمكنه أن يفعل ذلك؟ ولماذا؟

لم يستطع كارثوريس أن يخاطر حتى بتخمين ضعيف. لكن المهم الآن أن يعرف موقعه في هذا الجزء من العالم، ثم يواصل رحلته مرة أخرى.

فكر كارثوريس، وهو يفتح غطاء القرص الثاني، أنه إذا كان غرض بعض أعدائه من التلاعب في طائرته هو تأخيره، فقد نجحوا تمامًا؛ فمؤشر القرص الأول لم يُضبط على الإطلاق.

وجد تحت القرص الثاني دبوس الصلب مقطوعًا مثلما الحال في القرص الأول، لكن آلية التحكم كانت مضبوطة أولاً على بقعة على نصف الكرة الغربي.

تمكن من تحديد موقعة تقريبًا في مكان ما جنوب غرب هيليوم، وعلى مسافة بعيدة من المدينتين التوأم؛ وفجأة أذهله صراخ امرأة في أسفل.

مال عند جانب الطائرة، ورأى امرأة حمراء يسحبها محارب أخضر ضخم عبر الساحة. على ما يبدو أنه أحد السكان الشرسين القساة الذين يقطنون قيعان البحر الميت والمدن المهجورة في المريخ الآخذ في الاحتضار.

لم ينتظر كارثوريس؛ بل أسرع إلى لوحة التحكم ووجه طائرته لتهبط عموديًّا على الأرض.

كان الرجل الأخضر يسرع بأسيرته نحو حيوان ثوات[63] ضخم يرعى فوق الغطاء النباتي الأصفر في الساحة التي كانت في يوم ما قرمزية رائعة. وفي اللحظة نفسها، قفزت دزينة من المحاربين الحُمر من مدخل قصر قريب، تسعى خلف الخاطف بسيوفها وتطلق صيحات إنذار غاضبة.

---

(63) الثوات: حيوان مريخي يبلغ ارتفاعه عشر أقدام، ولديه أربعة أرجل على كل جانب، وذيله عريض مُسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد مباشرة خلفه عندما يجري؛ وفمه مفتوح يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم. وهو خال تمامًا من الشَّعر، ولون بشرته هو الرمادي الذي تشوبه الزُّرقة. أما بطنه فلونه أبيض، ويتدرج لون سيقانه بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامه. والأقدام نفسها شديدة الامتلاء وبلا أظافر، مما يسهم أيضًا في تحركه دون ضوضاء؛ وهو الأمر الذي يُشكل، إضافة إلى تعدد سيقانه، سمة مميزة لحيوانات المريخ -http://barsoom.wikia.com/wiki/Thoat المترجمة.

رفعت المرأة وجهها إلى أعلى نحو الطائرة التي تهبط، وبلمحة واحدة سريعة رأى كارثوريس أنها ثوفيا البتارثية!

* * *

الفصل (4)

أسيرة الرجل الأخضر

عندما لمس ضوء النهار سطح الطائرة الصغيرة التي ضمت أميرة بتارث بعد اختطافها من حديقة والدها، أدركت ثوفيا أن الليل قد شهد تغير مظهر خاطفيها.

لم تعد أغطيتهم المزخرفة تلمع بمعدن دوسار، بل ظهرت عليها شارة أمير هيليوم.

تجدد أمل الفتاة أمل؛ لأنها لم تستطع أن تصدق أن قلب كارثوريس لا يمكن أن يضمر لها الشر ويتعمد إضرارها.

تحدثت إلى المحارب الذي يجثم أمام لوحة التحكم.

قالت: «كنت ترتدي الليلة الماضية أغطية دوسار، والآن لديك معدن هيليوم. ماذا يعني ذلك؟».

نظر الرجل إليها مبتسمًا.

وقال: «أمير هيليوم ليس أحمقَ».

وعندئذ خرج ضابط من المقصورة الصغيرة، ووبخ المحارب لتحدثه مع السجينة، ولم يجب هو نفسه على أي من أسئلتها.

لم يلحقوا بها أي ضرر أثناء الرحلة. وصلوا أخيراً إلى وجهتهم مع الفتاة، دون أن تعرف خاطفيها أو الغرض من خطفها.

استقرت الطائرة ببطء على ساحة أحد تلك الأطلال التي تنتمي إلى الماضي الميت والمنسي للمريخ- المدن المهجورة التي تقع عند أطراف قيعان البحار الصفراء الحزينة، حيث كان اندفاع الفيضانات الجبارة فوقها في يوم ما ينقل التجارة البحرية لشعوب قد ولّت إلى الأبد.

لم تكن هذه الأماكن غريبة على ثوفيا؛ فقد عرفتها خلال تجوالها بحثًا عن نهر إيس، عندما خرجت وقتها لتقوم برحلة الحج الطويلة النهائية التي اعتاد عليها سكان المريخ لعدد لا يُحصى من العصور، متجهة إلى وادي دور، حيث يكمن بحر كوراس

المفقود، وشاهدت العديد من تلك الأطلال التي تعيد الذاكرة الحزينة حول عظمة ومجد برسوم القديمة.

كما عبرت هذه البقعة ثانية خلال رحلتها من معابد الثيرن المقدسين[64] مع تارس تاركاس، جيداك ثارك، وشاهدت مع زملائها من السجناء الغرباء تلك القرود البيضاء الضخمة في برسوم.

وتعرف أيضًا أن قبائل الرجال الخُضر البدوية تستخدم العديد من هذه الأطلال والمدن. ومن بين جميع هذه المدن، لا توجد مدينة لم يتجنبها الرجال الحُمر؛ فجميع المدن دون استثناء تقع وسط مساحات شاسعة خالية من الماء، ولا تصلح لاستمرار بقاء العرق المهيمن في المريخ.

إذنْ، لماذا أحضروها إلى هذا المكان؟ لا توجد سوى إجابة واحدة؛ هذه هي طبيعة مهمتهم، فهم يسعون إلى العزلة التي توفرها مدينة ميتة. ارتعدت الفتاة وهي تفكر في محنتها.

أبقاها الخاطفون لمدة يومين داخل قصر ضخم يعكس، حتى في حالته الخربة، روعة ذلك العصر عندما كان في ريعان شبابه.

وقبل الفجر مباشرة، في اليوم الثالث، أيقظتها أصوات اثنين من خاطفيها.

قال أحدهم: «يجب أن يصل هنا قبل الفجر. دعها تستعد عند الساحة، وإلا لن يهبط على الأرض أبدًا. ففي اللحظة التي سيعرف فيها أنه في بلد غريب، سيرحل على الفور. أعتقد أن خطة الأمير ضعيفة في هذه النقطة».

أجاب الثاني: «لم تكن هناك طريقة أخرى. إنه لعمل رائع أن يحضرهما إلى هنا، وحتى إذا لم ننجح في استدراجه إلى الهبوط، نكون قد أنجزنا الكثير».

وهنا رأى المتحدث عينَي ثوفيا موجهة نحوه، كشفتها بقعة الضوء سريعة الحركة القادمة من القمر ثوريا خلال سباقه الجنوني عبر السماء.

توقف عن الحديث بعد أن ألمح إلى زميله بإشارة خاطفة. توجه نحو الفتاة وأشار لها أن تنهض، ثم قادها خلال الليل نحو وسط الساحة الكبيرة.

---

(64) الثيرنيون أو الثيرن: هم عِرق مريخي أبيض البشرة وأصلع، يرتدون باروكات شقراء، ويتمتعون بقوى عقلية خارقة http://barsoom.wikia.com/wiki/Thern–المترجمة.

قال لها آمرًا: «قفي هنا، إلى أن نأتي إليك. سوف نراقبكِ، وإذا حاولتِ الهرب سوف يسوء وضعكِ أسوأ كثيراً من الموت. هذه أوامر الأمير».

استدار وعاد إلى القصر بعد أن تركها وحدها وسط الأهوال غير المرئية في المدينة الشبحية؛ فهي أماكن مسكونة في اعتقاد كثير من سكان المريخ الذين لا يزالون يتشبثون بالخرافات القديمة التي تقول إن أرواح الثيرن المقدسين الذين يموتون قبل بلوغ سن الألف المحددة لهم، تنتقل أحيانًا إلى أجسام القرود البيضاء الضخمة.

أما بالنسبة إلى ثوفيا، كان يكفيها الخطر الحقيقي المتمثل في هجوم أحد تلك الحيوانات الشرسة، الشبيهة بالإنسان. فهي لم تعُدْ تعتقد في ذلك الانتقال الغريب للروح الذي علَّمه لها الثيرنيون قبل أن ينقذها جون كارتر من براثنهم؛ لكنها تعرف جيدًا المصير المروع الذي ينتظرها إذا تمكن أحد هذه الوحوش الرهيبة من الوصول إليها خلال تجواله الليلي.

ما هذا؟

من المؤكد أنها لم تُخطئ. هناك شيء ما يتحرك خلسة في ظل إحدى الكتل الحجرية الكبيرة التي تصطف على طول الطريق، ويدخل إلى الساحة المقابلة لها!

إنه ثار بان، جِد بين جحافل توركواس[65]، يسرع بركوبته عبر الغطاء النباتي الأصفر في قاع البحر الميتِ، متجهًا نحو أنقاض مدينة آنتور القديمة.

لقد قطع مسرعًا مسافة طويلة في تلك الليلة؛ لأنه قادم بعد سرقة حاضنة القبائل الخضراء المجاورة التي كانت جحافل توركواس في حرب دائمة معها.

لم يكن حيوانه الثوات العملاق متهالكًا، لكن ثار بان فكر أنه من الجيد أن يسمح له بالرعي على الطحالب الصفراء التي تنمو إلى ارتفاع كبير داخل الساحات المحمية بالمدن مهجورة، حيث التربة أكثر ثراءً من تربة قيعان البحار، والنباتات محمية بالظلال جزئيًّا من الشمس أثناء نهار المريخ الخالي من السحب.

يوجد داخل سيقان هذا النبات الصغير، الذي يبدو جافًّا، قدرٌ من الرطوبة يكفي لتلبية احتياجات أجسام حيوانات الثوات القوية الضخمة، التي يمكنها العيش لعدة أشهر

---

(65) توركواس: كانت قديمًا إحدى المدن القوية على المريخ، وأصبحت الآن مجرد إحدى تلك المدن الميتة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Torquas-المترجمة.

دون ماء، ولعدة أيام دون حتى ذلك القدر الضئيل من الرطوبة الذي يحتويه الطحلب الأصفر.

واصل ثار بان طريقه دون صوت عبر الطريق الواسع الذي يؤدي من أرصفة آنتور إلى الساحة المركزية الكبيرة. ربما يمكن بالخطأ تصوره هو وركوبته أشباحًا من عالم الأحلام، رجل ووحش غريبان، يسير الوحش بأقدامه المبطنة خالية من الأظافر دون إحداث صوت فوق ممشى الرصيف القديم الذي تنمو عليه الطحالب.

كان الرجل نموذجًا رائعًا لعِرقه. يبلغ طوله خمس عشرة قدمًا من قدمه إلى رأسه. يتألق ضوء القمر على بشرته الخضراء اللامعة، وتتلألأ جواهر عتاده الثقيل والحلي التي تُثقل عضلات أذرعه الأربع، بينما أنيابه المقوسة التي تبرز من فكه السفلي تلمع بيضاء ومريعة.

تدلى على جانب حيوانه الثوات بندقيته الراديوم الطويلة ورمحه المعدني الكبير الذي يبلغ طوله أربعين قدمًا، بينما تدلى من عتاده سيفاه الطويل والقصير، فضلاً عن أسلحة أدنى.

وكانت عيناه الجاحظتان وأذناه اللتان تشبهان الهوائيات تدور باستمرار هنا وهناك؛ فقد كان ثار بان في بلد العدو، كما يتهدده أيضًا خطر القرود البيضاء الكبيرة، التي اعتاد جون كارتر أن يقول إنها المخلوقات الوحيدة التي يمكنها أن تثير في صدور أشرس سكان قيعان البحر الميت أبعد مظاهر الخوف.

توقف الراكب فجأة عند اقترابه من الساحة. أشارت أذناه المرهفتان الأنبوبيتان إلى الأمام على نحو صارم؛ فقد استقبلت صوتًا غير مرغوب. أصوات! حيثما توجد أصوات خارج توركواس، يوجد أعداء أيضًا. فعالم برسوم الواسع كله لا يضم سوى أعداء لقوم توركواس الشرسين.

ترجل ثار بار. وأخذ يقترب من الساحة، وهو يسير في ظلال كتل الأحجار الضخمة التي تصطف على طريق أرصفة مدينة آنتور النائمة. أتى خلفه مباشرة، في أعقابه مثل الكلب، حيوانه الثوات بلونه الرمادي الداكن وبطنه البيضاء التي يظللها جذعه، وأقدامه الصفراء الزاهية التي يتداخل لونها مع الطحلب الأصفر أسفلها.

رأى ثار بان امرأة حمراء في وسط الساحة، يتحدث معها محارب أحمر. والآن، يعود الرجل أدراجه إلى القصر في الجانب الآخر من الساحة.

ظل ثار بان ينظر، إلى أن اختفى المحارب داخل البوابة. هذه أسيرة لها قيمتها، ويجدر الحصول عليها! فنادرًا ما تقع أنثى من أعدائهم المتوراثين في قبضة رجل أخضر. لعق ثان بان شفتيه الرفيعتين.

شاهدت ثوفيا ظل الرجل وراء الحجر المتراص عند فتحة الشارع المقابل، وتمنت أن يكون من نسج خيالها الـمُجهَد.

ولكن، كلا! فهي تراه الآن بوضوح وهو يتحرك. جاء من وراء المأوى الذي يضم البئر.

سقط عليه فجأة ضوء الشمس المشرقة. ارتعدت الفتاة؛ فقد أدركت أنه محارب أخضر ضخم!

انطلق نحوها بسرعة. صرخت وحاولت الفرار؛ وما إن استدارت متوجهة إلى القصر، حتى سقطت يد عملاقة على ذراعها، ووجدت الفتاة نفسها نصف مسحوبة ونصف محمولة نحو ثوات ضخم يرعى ببطء فوق طحلب الساحة الأصفر عند بداية الطريق.

وفي نفس اللحظة، أدارت وجهها إلى أعلى، نحو صوت طنين لشيء فوقها، وشاهدت طائرة سريعة تهبط نحوها، وبها رجل يميل برأسه وكتفيه على جانبها؛ لكن ملامحه كانت في الظل فلم تتعرف عليه.

تسمع الآن من خلفها صيحات مختطفيها الحُمر؛ حيث يسرعون بجنون وراء من تجرأ على سرقة ما سرقوه أصلاً.

عندما وصل ثار بان إلى جانب ركوبته، انتزع بندقيته الراديوم الطويلة من جرابها، وأطلق ثلاث طلقات على الرجال الحُمر القادمين نحوه.

هذا هو أسلوب الرماية الخارق الذي يتمتع به هؤلاء الهمج المريخيون؛ فقد سقط ثلاثة من المحاربين الحُمر مع انفجار القذائف الثلاث التي فتكت بهم.

توقف الآخرون، ولم يجرؤْ أحدهم على إطلاق النار خشية إصابة الفتاة.

امتطى ثار بان ظهر الثوات، وثوفيا لا تزال بين ذراعيه. ومع صرخة انتصار وحشية، اختفى أسفل الوادي الأسود الضيق عند طريق الأرصفة، بين القصور المتجهمة في مدينة آنتور المنسيّة.

لم تكن طائرة كارثوريس قد لمست الأرض قبل أن يقفز من سطحها ليلحق بالثوات السريع، الذي كانت سيقانه الثماني الطويلة تأخذه عبر الطريق بمعدل قطار سريع؛ لكن رجال دوسار الذين لا يزالون على قيد الحياة، لا يعقلون كيف يمكنهم السماح بهروب أسيرة ذات قيمة عالية منهم.

لقد خسروا الفتاة، وسيصعب تفسير ذلك لأستوك. ولكنهم قد يتوقعون تساهله معهم إذا أخذوا أمير هيليوم إلى سيدهم.

وهكذا، وجه الثلاثة الذين بقوا سيوفهم الطويلة نحو كارثوريس، وهم يطالبونه بالاستسلام؛ كأنما يطالبون القمر ثوريا بالتوقف عن اندفاعه المجنون في سماء برسوم. ذلك أن كارثوريس من هيليوم كان ابنًا بحق لأمير الحرب في المريخ وديجاه ثوريس التي لا يضاهيها أحد.

كان كارثوريس ممسكًا بسيفه الطويل بالفعل وهو يقفز من سطح طائرته. وفي نفس اللحظة التي أدرك فيها تهديد المحاربين الحُمر الثلاثة، استدار لملاقاة هجومهم بطريقة لا يقوم بها إلا جون كارتر نفسه.

مع سرعة سيفه وقوة ومرونة عضلاته، التي نصفها مريخي ونصفها من كوكب الأرض، سقط أحد خصومه، ملطخًا بدمائه القرمزية الطحلب الأصفر، ما إن خطا خطوة واحدة نحو كارثوريس.

يسرع الآن محاربا دوسار المتبقيان في وقت واحد نحو محارب هيليوم. لمعت السيوف الطويلة الثلاثة وهي تشتبك تحت ضوء القمر، إلى أن استيقظت القرود البيضاء الكبيرة من نومها، وتسللت إلى النوافذ المنخفضة في المدينة الميتة لترى المشهد الدموي في أسفل.

أُصيب كارثوريس ثلاث مرات. سالت الدماء الحمراء على وجهه، ولمست عينيه وصبغت صدره العريض. مسح الدماء عن عينيه بيده الحرة، ومست شفتيه ابتسامة والده المقاتلة، ثم قفز نحو خصومه بضراوة متجددة.

أطاحت ضربة واحدة من سيفه الثقيل برأس أحدهما. أما الآخر، فقد تراجع عن موقع الموت وفرَّ متوجهًا نحو القصر خلفه.

لم يسع كارثوريس وراءه. فقد كان ما يشغله أكبر من معاقبة غرباء يستحقونها، يتخفون بارتداء معدن بيته؛ حيث رأى أن هؤلاء الرجال المخادعين يضعون الشارة التي تميز أتباعه الشخصيين.

اتجه بسرعة نحو طائرته، وسرعان ما كان يرتفع محلقًا فوق الساحة سعيًا وراء ثار بان.

خرج المحارب الأحمر الهارب إلى مدخل القصر. وعندما أدرك نية كارثوريس، انتزع إحدى البنادق التي تركها هو وزملاؤه مائلة على الجدار عند إسراعهم بالسيوف لمنع سرقة أسيرتهم.

لا يجيد إطلاق النار سوى عدد قليل من الرجال الحُمر؛ لأن السيف هو سلاحهم المختار. لم يكن أمام محارب دوسار إلا توجيه طلقة نحو الطائرة الآخذة في الارتفاع، فضغط على زناد بندقيته. وكانت المصادفة -أكثر من الكفاءة- هي سبب نجاحه الجزئي في تحقيق هدفه.

أصابت القذيفة جانب الطائرة، انكسر الطلاء المعتم بما يكفي ليسمح لضوء النهار الوصول إلى قارورة المسحوق داخل مقدمة الرصاصة. حدث انفجار حاد، وشعر كارثوريس أن طائرته تترنح، ثم توقف المحرك.

اكتسب الزورق الجوي زخمًا حمله خارج المدينة، في اتجاه قاع البحر.

أطلق المحارب الأحمر في الساحة عدة طلقات أخرى، ولم تصب أي منها الهدف. ثم حجبت منارة سامقة الطائرة التي يطاردها عن مرأى بصره.

كان كارثوريس قادرًا أن يرى، على مسافة أمامه، المحارب الأخضر وهو يحمل ثوفيا بعيدًا فوق حيوانه الثوات القوي؛ متجهًا نحو شمال غرب مدينة آنتور، حيث يقع بلد جبلي غير معروف للرجال الحُمر.

وجه كارثوريس انتباهه الآن نحو طائرته الـمُصابة. وكشف فحص دقيق عن وجود ثقب في إحدى خزانات الطفو، لكن المحرك نفسه لم يتعرض للإصابة.

ألحقت شظية من القذيفة الضرر بأحدى روافع التحكم، التي يتعذر إصلاحها خارج ورشة الماكينات. على أن كارثوريس نجح، بعد عملية ترقيع كبيرة، في دفع طائرته المصابة للحركة بسرعة منخفضة، بمعدل لا يقترب من حركة الثوات السريعة، الذي تنقله أرجله الثماني الطويلة القوية عبر الغطاء النباتي في قاع البحر الميت بسرعة مذهلة.

استشاط أمير هيليوم غضبًا وشعر بالقلق من بطء حركة طائرته، إلا أنه كان شاكرًا أن الضرر لم يكن أسوأ؛ فحركته الآن أسرع على الأقل من سيره على قدميه.

لكنه سرعان ما أصبح محرومًا حتى من هذا الرضى الضئيل؛ فطائرته بدأت تترنح وتتجه بمقدمتها نحو الميناء. من الواضح أن الأضرار التي لحقت بخزانات الطفو كانت أخطر مما تصوره في البداية.

وخلال ما تبقى من ذلك اليوم الطويل، طاف كارثوريس عشوائيًّا عبر الهواء الساكن، وزاد انخفاض مقدمة الطائرة، وأصبح الانحراف نحو الميناء ينذر بخطر أكبر، إلى أن حدث مع قرب الظلام، ومقدمة الطائرة متجهة لأسفل تقريبًا، أن شبك عتاده بحلقة ثقيلة على السطح، مما حماه من التعجيل بالسقوط على الأرض أدناه.

اقتصرت حركته إلى الأمام على الانجراف البطيء مع النسيم اللطيف الذي يهب من الجنوب الشرقي. ومع توقف النسيم عند غروب الشمس، ترك طائرته تهبط برفق فوق البساط الطحلبي أدناه.

تلوح أمامه الآن الجبال التي فر تجاهها الرجل الأخضر عندما شاهده للمرة الأخيرة. اتخذ ابن جون كارتر، الذي يتمتع بإرادة والده التي لا تُقهر، قرارًا عنيدًا بمواصلة السعي سيراً على الأقدام.

مضى قدمًا طوال الليل. ومع بزوغ فجر يوم جديد، دخل سفوحًا منخفضة لتلال تحرس الاقتراب إلى جبال توركواس الراسخة.

علت أمامه الجدران الجرانيتية الوعرة الشاهقة. لم يعرف كيف يمكنه تمييز فتحه عبر هذا الحاجز الهائل؛ لكن المرأة التي يرغبها قلبه قد حملها المحارب الأخضر إلى مكان ما في هذا العالم الحجري غير المضياف.

لا توجد آثار أقدام يمكن اقتفاؤها فوق الطحالب التي تنمو في قاع البحر؛ لأن أقدام حيوان الثوات الناعمة تضغط خلال حركتها السريعة على النباتات المرنة دون أن تترك أي أثر، حيث تظهر النباتات مرة أخرى بعد مروره وزوال تأثير ضغط الأقدام.

أما هنا في التلال، حيث تتناثر الصخور أحيانًا على الطريق، وحيث تحل جزئيًّا التربة الطفلية السوداء والزهور البرية محل الرتابة الكئيبة للأماكن القاحلة في الأراضي المنخفضة، كان كارثوريس يأمل أن يجد أي علامة تقوده إلى الاتجاه الصحيح.

مع ذلك، يبدو محتملاً أن اللغز المحير بحثًا عن أثر أو علامة سوف يظل إلى الأبد دون حل.

كان اليوم يقترب من نهايته، عندما تبينت عيون كارثوريس الثاقبة اللونَ الأصفر المشوب بالسمرة لبشرة ملساء تتحرك بين الصخور على مسافة عدة مئات من الياردات إلى يساره.

ربض كارثوريس بسرعة خلف صخرة كبيرة، ورأى الشيء الذي أمامه.

كان أحد حيوانات البانث[66] الضخمة، أحد الأسود البرسومية الوحشية التي تجول التلال المقفرة في الكوكب الآخذ في الاحتضار.

كانت أنف المخلوق قريبة من الأرض. فمن الواضح أنه يقتفي أثر لحم من خلال الرائحة.

قفز الأمل إلى قلب كارثوريس عندما شاهد هذا الحيوان. فربما يكمن هنا حل اللغز. ربما يقتفي هذا الحيوان الجائع، آكل اللحوم البشرية، أثر الاثنين اللذين يبحث عنهما كارثوريس.

تسلل الشاب بحذر وراء الحيوان آكل لحوم البشر. تحرك الكائن على طول جرف عمودي، وهو يتشمم أثر غير مرئي، ويطلق بين الفينة والأخرى الأنين المنخفض الذي يميز بانث الصيد.

تتبع كارثوريس المخلوق لبضع دقائق، ثم اختفى المخلوق بغموض فجأة كأنما ذاب في الهواء الرقيق.

نهض كارثوريس على قدميه. لن يُخدع مرة أخرى، كما خدعه الرجل من قبل. انطلق بوتيرة متهورة إلى المكان الذي شاهد فيه الوحش الضخم الهارب لآخر مرة.

لاح أمامه الجرف الحاد، ولم يجد على سطحه أي فتحة يمكن أن يدلف منها البانث الضخم. وكانت توجد بجوار كارثوريس صخرة صغيرة مسطحة، لا يزيد حجمها على سطح سفينة فضائية تسع عشرة رجال، ولا ترتفع أكثر من ضعف طوله.

هل يختبئ البانث خلفها؟ ربما اكتشف الوحش الرجل الذي يسير وراءه، ويتربص له الآن كفريسة سهلة.

---

(66) البانث: حيوان مفترس شرس متعدد الأرجل، أصلع تقريبًا مثل جميع الحيوانات المريخية إلا من شَعر كثيف خشن كبير كالأسد حول رقبته السميكة. جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشر أرجل قوية؛ وفكاه الضخمان مجهزان بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية؛ وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراوان هائلتان وجاحظتان وتضيفان لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع –http://barsoom.wikia.com/wiki/Banth- المترجمة.

استل كارثوريس سيفه الطويل، وتسلل بحذر حول الصخرة. لم يجد البانث هناك، لكنَّ شيئًا ما أثار دهشته أكثر مما لو وجد عشرين بانثًا.

وجد أمامه كهفًا مظلمًا فاغرًا فمه، يهبط في الأرض. من المؤكد أن البانث اختفى فيه. هل هذا عرينه؟ ألا يمكن أن تختفي في باطنه المظلم البغيض العديد من المخلوقات المخيفة وليس واحدًا فقط؟

لم يكن كارثوريس يعرف، ولم يهتم كثيراً في ظل سيادة التفكير الذي يحفزه للمضي خلف المخلوق على ذهنه؛ فقد كان واثقًا أن البانث تتبع الرجل الأخضر والأسيرة إلى هذا الكهف القاتم، وسيتبعه إلى الداخل أيضًا وعلى استعداد لأن يهب حياته للمرأة التي يحبها.

لم يتردد للحظة، كما لم يتقدم للدخول برعونة؛ لكنه استعد بسيفه ودلف بخطوات حذرة على الطريق المظلم. ومع تقدمه، أصبح الظلام الضبابي سوادًا لا يمكن اختراقه.

* * *

الفصل (5)

العِرق ذو البشرة البيضاء

قاده النفق الغريب إلى أسفل على طول أرضية عريضة ملساء، ولذا أصبح كارثوريس مقتنعًا بأن هذه الطبيعة تخص بئرًا كان يتصور في البداية أنه كهف.

سمع صوت أنين منخفض متقطع لبانث في الأمام، والآن تصدر نبرة غريبة مماثلة من خلفه. لقد دخل بانث آخر في أعقابه!

لم يكن وضعه جيدًا على الإطلاق. لا تستطيع عيناه اختراق الظلام، حتى لتمييز يده أمام وجهة؛ بينما يعرف أن البانث يرى جيدًا على الرغم من غياب الضوء تمامًا.

لم تصل أصواتٌ أخرى إلى أذنيه غير هذا الأنين الكئيب، المتعطش للدماء، من الوحش الذي أمامه والوحش الذي خلفه.

قاده النفق مباشرة، من حيث دخل أسفل جانب الصخرة الأبعد من المنحدرات التي يستحيل تسلقها، إلى الحاجز الجبار الذي كان في حيرة من أمرة لفترة طويلة.

والآن بدأت الأرضية تصبح مستوية تقريبًا، ثم لاحظ مكانًا لصعود تدريجي.

اقترب منه الوحش الخلفي، محاولاً دفعه بشكل خطير نحو الوحش الأمامي. عليه أن يشتبك الآن في معركة مع أحدهما، أو كليهما. أمسك سلاحه بقوة وصرامة.

يسمع الآن تنفس البانث الخلفي. لن يتمكن من تأخير المواجهة لفترة أطول.

لقد تأكد منذ فترة أن النفق يقوده أسفل المنحدرات إلى الجانب الآخر من الجدار، وكان يأمل أن يصل إلى الفتحة التي يضيئها القمر قبل أن يضطر إلى الاشتباك مع أي من الوحشين.

كانت الشمس تغرب عندما دخل النفق، وكان الطريق طويلاً بما يكفي ليتأكد أن الظلام يخيم الآن على العالم في الخارج. ألقى نظرةً وراءه. شاهد نقطتين متقدتين بالنار تلمعان في الظلام، على بُعد لا يزيد على عشر خطوات خلفه. وعندما التقت العيون الوحشية بعينيه، أصدر الوحش زئيرًا مخيفًا ثم بدأ هجومه.

إن مواجهة الضراوة المندفعة لهذا الجبل المتوحش، والوقوف بثبات أمام الأنياب البشعة التي يعرف أن اللعاب يسيل من بينها تعطشًا للدماء، على الرغم من أنه لا يراها، كان يتطلب أعصابًا فولاذية، ولكن هذه هي أعصاب كارثوريس الهيليومي.

كانت أعين الوحش مرشدًا لسيفه، وكانت قبضته على السيف تماثل قبضه والده القوية. وجه سيفه الحاد نحو إحدى تلك الأعين المتقدة، حتى وهو يقفز بخفة إلى أحد الجوانب.

اندفع البانث الجريح نحوه بمخالبه، مُطلقًا صرخة بشعة من الألم والغضب؛ ثم استدار ليعاود الهجوم. لكن كارثوريس رأى هذِه المرة نقطة واحدة تلمع بكراهية نارية موجهة نحوه.

وجد سن السيف طريقه ثانية نحو هدفه الوامض. وترددت مرة أخرى أصداء صرخة الوحش المنكوب الفظيعة خلال النفق الصخري؛ صرخة صادمة مما تحمله من ألم، وحجمها الهائل يصم الأذان.

استدار الوحش ليهاجم مرة أخرى، لكن نقاط الإرشاد لم تعُد موجودة لتوجيه حركة السيف. سمع كارثوريس احتكاك القدمين المبطنتين على الأرض الصخرية، وعرف أن المخلوق يهاجمه ثانية، لكنه لم يستطع رؤية أي شيء.

على أنه إذا كان غير قادر على رؤية خصمه، فإن خصمه غير قادر أيضًا على رؤيته الآن.

قفز إلى النقطة التي اعتبرها مركز النفق تحديدًا، وهو ممسك بسيفه جاهزًا ليسدده نحو صدر الوحش. كان هذا كل ما يمكن أن يفعله، مع أمله في أن يصل نصل سيفه إلى قلب الوحش داخل هذا الجسم الضخم.

انتهى المخلوق بسرعة، إلى حد أن كارثوريس لم يصدق حواسه. فقد اندفع المخلوق بجسده القوي مارًّا كالمجنون بجانبه. إما أن كارثوريس لم يضع نفسه في وسط النفق، أو أن البانث الأعمى أخطأ في حساباته.

على أن الجسم الضخم أخطأه بقدم فقط، وتابع المخلوق طريقه عبر النفق سعيًا وراء الفريسة التي قد استعصت عليه.

سار كارثوريس أيضًا في نفس الاتجاه. ولم يمض وقت طويل قبل أن يخفق قلبه فرحًا برؤية مخرج يضيئه القمر ويخرجه من هذا الطريق الطويل المظلم.

وجد أمامه تجويفًا عميقًا، محاطًا كليًّا بمنحدرات عملاقة. تناثرت أشجار ضخمة على سطح الوادي، وهو مشهد غريب بعيد تمامًا عن الممر المائي المريخي. كما اكتست الأرض نفسها بمرجة قرمزية رائعة، مملوءة برقعات لا حصر لها من الزهور البرية المذهلة.

كان جمال المشهد لا يُوصف، أسفل التألق البهي للقمرين، المشوب بغموض سحر غريب.

لم تتمكن عيناه من مشاهدة جمال الطبيعية سوى للحظة فقط؛ حيث تركزت على الفور تقريبًا نحو بانث ضخم يقف أمام جثة ثوات حديث القتل.

وقف الوحش الضخم، وعُرفه الأسمر المشوب بالصفرة ينتصب حول رأسه البشع، ينظر بثبات نحو بانث آخر ينطلق مهاجمًا بشكل عشوائيّ هنا وهناك، وهو يصرخ بشدة من الألم، ويطلق زئيراً مروعًا يمتزج بين الكراهية والغضب.

سرعان ما خمّن كارثوريس أن الوحش الثاني هو الذي أصابه بسيفه بالعمى أثناء المعركة في النفق. لكن اهتمامه انصب على الثوات الميت أكثر من الوحشين آكلي اللحوم.

كان العتاد لا يزال موجوداً فوق جسم هذا الثوات الضخم، وفكر كارثوريس في أن هذا هو الحيوان الذي كان يمتطيه المحارب الأخضر ومعه ثوفيا.

ولكن، أين الراكب وسجينته؟ ارتجف أمير هيليوم وهو يفكر في مصيرهما المحتمل.

اللحم البشري هو أكثر ما يشتهيه الأسد البرسومي الشرس، حيث يحتاج جسده الضخم وعضلاته العملاقة كميات هائلة من اللحوم.

يثير جسدان بشريان شهية المخلوق، ولذا بدا لكارثوريس من المرجح أن المخلوق قتل والتهم الرجل الأخضر والفتاة الحمراء. وربما ترك جثة الثوات الجبار ليلتهمها بعد أن يهضم الأجزاء البشرية طيبة المذاق من وليمته.

كان البانث الأعمى يهاجم ويرد هجوم بوحشية وبلا هدف، وتجاوز الآن مكان زميله المقتول حيث حمل النسيم الخفيف رائحة دماء جديدة إلى أنفه.

لم تعُد حركته عشوائية. مع ذيله الممدود وفكيه المملوءين بالرغوة، هاجم مباشرة كالسهم جسم الثوات والمخلوق التدميري الجبار الذي يقف وأقدامه الأمامية فوق الجانب الرمادي الداكن من الثوات، في انتظار الدفاع عن وليمته.

عندما كان البانث المهاجِم على مسافة عشرين خطوة من الثوات الميت، أتاح القاتل مسافة لمهاجمة البشع، ثمَ قفز إلى الأمام قفزة جبارة لمواجهته.

نشبت معركة تفوق في رعبها معارك برسوم الحربية. وقف كارثوريس دون حِراك كأنما تعويذة سحرية أصابته، وهو يشاهد التمزيق المجنون، والزئير البشع الذي يصم الأذان، والهمجية العنيدة للوحشين الملطخين بالدماء. وعند انتهاء المعركة، كان رأسا وكتفا المخلوقين ممزقين إلى شرائط، ويرقدان وفك كل منهما الميت لا يزال مدفونًا في جسد الآخر. وهنا تمكن كارثوريس بقوة إرادته من التخلص من حالة السحر الذي شل حركته.

أسرع إلى جانب الثوات الميت، وبحث عن أي أثر للفتاة التي يخشى أنها شاركت الثوات مصيره، لكنه لم يكتشف أي شيء يؤكد مخاوفه.

بدأ، وخف عبء قلبه قليلاً، يستكشف الوادي. وما إن سار عشر خطوات، حتى لفت نظره لمعان حلي مرصعة بالجواهر فوق المرجة.

التقطها، وتبين من الوهلة الأولى أنها حلي لزخرفة شعر امرأة، وعليها شارة البيت الملكي في بتارث.

يا له من اكتشاف مشؤوم؛ فالدماء التي تلطخ مجوهرات الإطار لا تزال رطبة.

شعر كارثوريس بشبه اختناق مما تبادر إلى خياله من احتمالات رهيبة أثارها هذا المشهد. لكنه لم ولن يصدق.

من المستحيل أن تلقى هذه المخلوقة المتألقة مثل هذه النهاية البشعة. لا يمكن تصديق أن ثوفيا الرائعة كفت عن الوجود.

أمسك كارثوريس بالشيء اللامع الذي ارتدته ثوفيا، وثبته فوق عتاده المرصع بالجواهر، إلى الحزام الذي يمر عبر صدره حيث يدق أسفله قلبه الوفي، وجعل ارتداءه مقدسًا بالنسبة له.

مضى بعد ذلك في طريقه إلى قلب الوادي المجهول.

حالت الأشجار العملاقة في معظمها دون رؤيته إلا لمسافات محدودة. كان يقتنص أحيانًا لمحات للتلال الشاهقة التي تحد الوادي من كل جانب. وعلى الرغم من وضوحها تحت ضوء القمرين، فقد كان يعلم أنها تقع على مسافة بعيدة، وأن الوادي يمتد امتدادًا هائلاً.

واصل بحثه إلى منتصف الليل، إلى أن توقف فجأة الآن بعد أن سمع صوت أنين حيوانات الثوات يأتي من بعيد.

استرشادًا بضوضاء هذه الوحوش الغاضبة دائمًا، تحرك إلى الأمام عبر الأشجار إلى أن وصل أخيرًا عند سهل مستوٍ ليس به أشجار، ويوجد في وسطه مدينة جبارة ترتفع قبابها المصقولة وأبراجها ذات الألوان الزاهية.

شاهد الرجل الأحمر حول المدينة المسورة معسكرات ضخمة لمحاربين خُضر من قيعان البحر الميت. ترك عينيه تطوفان بعناية على المدينة، وأدرك أنه لا توجد هنا مدينة مهجورة من الماضي السحيق.

ما هذه المدينة إذنْ؟ لقد تعلم من دراسته أن هذا الجزء الذي لم يحظ بالاستكشاف في برسوم، يضم الرجال الخُضر من قبيلة توركواس الشرسة، وأنهم اليد العليا، وأي رجل أحمر نجح حتى الآن في اختراق مدينتهم لم يعُد ثانية إلى عالم الحضارة.

أتقن رجال توركواس البنادق الضخمة، حيث أتاحت لهم قدرتهم الممتازة على الرماية صد الجهود الحثيثة القليلة التي بذلتها الأمم الحمراء القريبة لاستكشاف بلدهم عن طريق أساطيل السفن الفضائية الحربية.

كان كارثوريس على يقين أنه داخل حدود توركواس، لكنه لم يتصور أبدًا وجود مثل هذه المدينة الرائعة، كما أن سجلات الماضي لم تلمح حتى إلى مثل هذا الاحتمال؛ فالمعروف أن أهل توركواس يعيشون -مثل غيرهم من المريخيين الخُضر- داخل المدن المهجورة التي تتناثر على سطح الكوكب الآخذ في الاحتضار، ولم تقم أيضًا أي قبائل خضراء ببناء صرح واحد، ما عدا الحاضنات ذات الجدران المنخفضة التي تضم بيضهم حتى يفقس بفعل حرارة الشمس ويخرج الصغار.

يقع معسكر المحاربين الخُضر على بُعد خمسمائة ياردة تقريبًا من جدران المدينة. ولا يوجد بينه وبين المدينة أي مظهر لمتاريس أو مظاهر أخرى للحماية من نيران البنادق أو المدافع. والآن، في ضوء الشمس المشرقة، تمكن كارثوريس من رؤية العديد من الشخصيات تتحرك على طول قمة الجدار العالي، وعلى الأسطح وراءه.

كان متأكدًا أنهم بشر مثله، على الرغم من موقعهم الذي يبعد مسافة كبيرة لا تتيح له التأكد من أنهم من العِرق الأحمر.

بدأ المحاربون الخُضر -بعد شروق الشمس مباشرة- إطلاق النار في اتجاه الأشخاص الذين يقفون فوق الجدار. فوجئ كارثوريس أنهم لم يردوا بنيران مقابلة، لكن سكان المدينة يسعون إلى مأوى من هذا القصف الغريب من جانب الرجال الخُضر، ولم تظهر أي علامة على الحياة خارج الجدار.

كان كارثوريس في مأواه بالأشجار التي تحيط بالسهل. وبدأ يدور حول الجزء الخلفي لخط الحصار، على أمل أن يرى ثوفيا في مكان ما، فحتى الآن لا يعتقد أنها ماتت.

كان عدم اكتشاف وجوده بمثابة معجزة؛ ذلك أن المحاربين الراكبين يتحركون باستمرار ذهابًا وإيابًا من المعسكر إلى الغابة. استمر اليوم طويلاً، ولا يزال كارثوريس يواصل سعيه الذي بدا عقيمًا. ومع اقتراب غروب الشمس، وصل أمام بوابة جبارة في جدار المدينة الغربي.

توجد هنا -على ما يبدو- القوة الرئيسة للقبيلة المهاجِمة. فقد أُقيمت منصة، وتمكن كارثوريس وهو جالس القرفصاء من رؤية محارب أخضر ضَخم يُحيط به آخرون من نفس نوعه.

هذا إذنْ هورتان جور سيئ السمعة، جيداك توركواس؛ إنه الغول العجوز الشرس في نصف الكرة الجنوبي الغربي. فالمنصات لا تُقام في المعسكرات المؤقتة لجحافل برسوم الخُضر إلا للجيداك.

شاهد كارثوريس محاربًا أخضر آخر يشق طريقة إلى الأمام نحو المنصة، ويسحب بجواره أسيرًا. وعندما تفرق المحاربون المحيطون للسماح لهما بالمرور، لمح كارثوريس الشخص الأسير.

قفز قلبه في ابتهاج؛ ثوفيا لا تزال حية!

تمالك كارثوريس نفسه بصعوبة كي لا يندفع نحو أميرة بتارث. كان حكيمًا، ويعرف أنه لمواجهة هذه الصعاب عليه ألا يضيع بلا جدوى أي فرصة في المستقبل لنجدتها.

شاهدها وهم يسحبونها إلى أسفل المنصة. ورأى هورتان جور يخاطبها. لم يتمكن من سماع كلمات هذا المخلوق، ولا رد ثوفيا. ويبدو أن ردها أغضب هذا الوحش الأخضر، إذ رآه كارثوريس يقفز نحو السجينة، ويوجه لها ضربة قاسية على وجهها بذراعه المزينة بطوق معدني.

جُنّ جنون ابن جون كارتر، جيداك كل الجيداك، وأمير الحرب في برسوم. وطاف أمام عينيه ذلك الضباب القديم، المشوب بحمُرة الدم، الذي سبق وأن طاف أمام أعين والده متوهجًا ضد عدد لا يُحصى من الأعداء.

استجابت بسرعة عضلاته التي ينتمي نصفها إلى كوكب الأرض، وحملته عبر قفزات هائلة تجاه الوحش الأخضر الذي ضرب المرأة التي يحبها.

لم يكن التوركواسيون ينظرون في اتجاه الغابة؛ فقد تركزت كل الأعين على الفتاة والجيداك، وجلجل صوت ضحكاتهم البشعة إعجابًا بفطنة الإمبراطور الأخضر ردًّا على التماس السجينة للحرية.

قطع كارثوريس حوالي نصف المسافة بين الغابة والمحاربين الخُضر، ونجح عامل جديد في صرف انتباه المحاربين عنه.

فقد ظهر رجل فوق برج عال داخل المدينة المحاصرة، وأطلق من فمه المقلوب سلسلة من الصرخات المخيفة التي اجتاحت، بنبرتها الحادة المرعبة، جدران المدينة، فوق رؤوس المحاصرين، وعبر الغابة إلى أقصى حدود الوادي.

اخترق الصوت المخيف آذان الرجال الخُضر مرة، ومرتين، وثلاث مرات؛ ثم جاءت من بعيد، عبر الغابة الواسعة، صرخة رد حادة وواضحة.

لكنها لم تكن سوى الأولى؛ فقد ارتفعت صرخات وحشية مماثلة من كافة الأنحاء، حتى بدا العالم يرتعش من أصدائها.

نظر المحاربون الخُضر بعصبية في مختلف الاتجاهات. إنهم لا يعرفون الخوف، كما قد يعرفه رجال الأرض؛ لكن ثقتهم المعتادة في أنفسهم تهجرهم في مواجهة أي شيء غير مألوف.

وفجأة انفتحت على مصراعيها البوابة الكبرى في سور المدينة، أمام منصة هورتان جور. تدفق خلال البوابة مشهد غريب لم يسبق أن رآه كارثوريس من قبل، وتمكن خلال نظرة عابرة واحدة أن يلمح رماة السهام طوال القامة يتدفقون من البوابة وراء دروعهم

البيضاوية الطويلة، وأن يلاحظ لون شعرهم الكستنائي المتدفق، وأن يدرك أن الأشياء الهادرة التي تسير إلى جوارهم هي الأسود الشرسة في برسوم.

وصل كارثوريس إلى وسط التوركواسيين المندهشين، شاهرًا سيفه الطويل. وقعت عيناه بدايةً على عينَي ثوفيا التي كانت في ذهول، كأنما تنظر إلى جون كارتر نفسه؛ حيث يقاتل الابن بنفس طريقة قتال أبيه.

حتى ابتسامته كانت تماثل ابتسامة القتال الشهيرة لجون كارتر القادم من فيرجينيا. وذراع السيف! آه، نفس المهارة، والسرعة!

ساد الاضطراب والارتباك. أخذ المحاربون الخُضر يقفزون فوق ظهور حيوانتهم الثوات، التي تئن في هياج. وأصدرت حيوانات الكالوت هديرها الوحشي الأجش، تولول راغبة في قبض رقاب الأعداء القادمين.

كان ثار بار وشخص آخر إلى جانب المنصة أول مَن لاحظ قدوم كارثوريس. اشتبك معهما كارثوريس من أجل الفتاة الحمراء، بينما سارع الآخرون إلى ملاقاة الضيف القادم من المدينة المحاصرة.

سعى كارثوريس إلى الدفاع عن ثوفيا، والوصول إلى جانب هورتان جور البشع انتقامًا للضربة التي وجهها للفتاة.

نجح في الوصول إلى المنصة، على جثث اثنين من المحاربين اللذين انضما إلى ثار بان ورفيقته لصد الرجل الأحمر المغامِر، عندما كان هورتان جور على وشك القفز منها إلى ظهر حيوانه الثوات.

تحول انتباه المحاربين الخُضر أساسًا إلى رماة السهام القادمين من المدينة، وإلى حيوانات البانث الوحشية التي تسير بجوار لهم- إنها وحوش قاسية تُستخدم في الحرب، أكثر شراسةً بلا حدود من الكالوت الوحشية.

قفز كارثوريس إلى المنصة، آخذًا ثوفيا إلى جانبه، ثم تحول نحو الجيداك الذي يحاول المغادرة، وتحداه بغضب وطعنة سيف.

ما إن وخز سيف كارثوريس بشرة هورتان جور الخضراء، حتى استدار الثاني نحو خصمه مزمجرًا. وفي الوقت نفسه، طلب إليه اثنان من شيوخ القبائل أن يسرع لأنَّ هجوم سكان المدينة البيض كان يتطور إلى وضع أخطر مما توقعه التوركواسيون.

بدلاً من البقاء لمقاتلة الرجل الأحمر، توعده هورتان جور بأن يعود إليه بعد أن يتخلص من سكَّان المدينة المسورة المتغطرسين؛ ثم امتطى حيوانه الثوات وركض لمواجهة الرماة الذين يتقدمون بسرعة.

لحق المحاربون الآخرون بالجيداك، تاركين ثوفيا وكارثوريس وحدهما على المنصة.

نشبت معركة مرعبة في المساحة الواقعة بينهما وبين المدينة. اقتصر تسليح المحاربين البيض على الأقواس الطويلة ونوع من فؤوس الحرب قصيرة اليد. ولذا كانوا عاجزين تقريبًا أمام وحشية الرجال الخُضر الراكبين في الأحياء القريبة، بينما سهامهم الحادة كانت من على بُعد تماثل في إنجازها مقذوفات الراديوم لدى الرجال الخُضر.

وإذا كان المحاربون أنفسهم متفوقين، فالأمر يختلف بالنسبة لحيوانات البانث الشرسة. فما إن اشتبك الجانبان، حتى قفزت المئات من هذه المخلوقات المروعة بين التوركواسيين، وجذبت المحاربين من فوق حيواناتهم الثوات، وأوقعت الثوات الضخمة نفسها، مما أثار ذعر الجميع أمامهم.

كانت أعداد المواطنين لصالحهم أيضًا؛ فكلما سقط محارب، اتخذ عشرات مكانه، في تدفق مستمر يصب من البوابة الكبرى في المدينة.

وهكذا، مع ضراوة البانث وتزايد أعداد الرماة، تراجع التوركواسيون أخيرًا، بحيث أصبحت الآن المنصة التي يقف فوقها كارثوريس وثوفيا تقع في وسط المعركة مباشرة.

بدت معجزة أن كليهما لم يُصب برصاصة أو سهم. وأخيرًا، تجاوزهما الطوفان بحيث أصبحا يقفان بمفردهما بين المقاتلين والمدينة، باستثناء الموتى والمحتضرين ونحو عشرة من البانث الهادرين، الأقل تدريبًا من نظرائهم الذين أخذوا يطوفون بين الجثث سعيًا للحصول على اللحوم.

كان أغرب جزء من المعركة بالنسبة لكارثوريس هو حصيلة الرماة الهائلة التي حصدتها أسلحتهم الضعيفة نسبيًّا. لم يشهد في أي مكان رجلاً أخضر جريحًا، لكن جثث موتاهم ملأت ميدان المعركة.

يبدو أن الموت يلي مباشرة أقل طعنة من سهام الرماة، كما يبدو أنهم لا يُخطئون أهدافهم أبدًا. ربما لا يوجد سوى تفسير واحد، أن رؤوس السهام مُسممة.

اختفت الآن أصوات النزاع في الغابة البعيدة. ساد الهدوء، ولم يشقه سوى صوت هدير البانث وهي تلتهم فرائسها. التفت كارثوريس نحو ثوفيا. لم يتحدثا حتى الآن.

سألها: «ثوفيا، أين نحن؟».

نظرت الفتاة نحوه باستغراب؛ فوجوده ذاته يُعلن عن أنه مذنب ويعرف باختطافها. وإلَّا كيف عرف وجهة الطائرة التي أحضرتها هنا!

ردت على سؤاله بسؤال: «مَن يعرف أفضل من أمير هيليوم؟ ألم يأت هنا بإرادته الحرة؟».

أجابها: «جئت طوعًا من آنتور وراء الرجل الأخضر الذي اختطفك يا ثوفيا؛ لكنني منذ أن تركت هيليوم إلى أن استيقظت في آنتور، تصورت أنني متجهًا إلى بتارث».

ثم أوضح ببساطة: «كانت هناك تلميحات بأنني مذنب باختطافك، ولذا أسرعت إلى والدك الجيداك لإقناعه بزيف هذه التهمة، وأعرض خدماتي للعثور عليك. ولكن، قبل أن أغادر هيليوم، عبث شخص ما ببوصلة طائرتي، فحملتني إلى آنتور بدلاً من بتارث. هذا كل شيء. هل تصدقينني؟».

صاحت: «لكنَّ المحاربين الذين اختطفوني من الحديقة! بعد أن وصلنا إلى آنتور، كانوا يرتدون معدن أمير هيليوم. عندما أخذوني، كانوا يرتدون عتاد دوسار. لا يوجد سوى تفسير واحد. إن مَن تجرَّأ على القيام بذلك، كان يود وضع المسؤولية على شخص آخر، إذا ما تم اكتشاف تورطه في هذا العمل؛ وما إن ابتعد بأمان عن بتارث، حتى شعر بالأمان في أن يعود أتباعه إلى ارتداء عتادهم».

سألها: «أتعتقدين يا ثوفيا أنني قمت بذلك؟».

أجابت بحزن: «آووه يا كارثوريس، لا أود أن أصدِّق ذلك؛ وحتى إذا أشار كل شيء نحوك- فلن أصدق أيضًا».

قال: «لم أفعل ذلك يا ثوفيا. واسمحي لي أن أكون صادقًا تمامًا معكِ. بقدر ما أحب والدكِ، وبقدر ما أحترم خطيبكِ كولان تيث، علاوةً على معرفتي بالنتائج المخيفة التي تترتب على قيامي بذلك، بما فيها نشوب حرب بين ثلاثة من أكبر أمم برسوم- وعلى الرغم من كل هذا، لم أكن لأتردد في أن آخذكِ بهذه الطريقة يا ثوفيا، إذا ألمحتِ حتى بأن هذا لن يزعجكِ».

وأنهى كلامه بمرارة قائلاً: «لكنكِ لم تقومي بأي شيء من هذا النوع. وها أنا هنا، ليس من أجل نفسي، وإنما لخدمتكِ وخدمة الرجل الذي قطعتِ له وعدًا. أنا هنا لأنقذكِ من أجله، إذا كان في مقدوري أن أفعل ذلك».

نظرت ثوفيا إلى وجهه لعدة دقائق، وصدرها يرتفع وينخفض كأنما تنتابها مشاعر يتعذر مقاومتها. خطت نصف خطوة في اتجاهه. فتحت شفتيها كأنما لتتكلم، بسرعة واندفاع.

لكنها تغلبت على المشاعر التي حركتها.

وقالت ببرود: «يجب أن تمثل أفعال أمير هيليوم في المستقبل دليلاً على صدق غرضه».

جرحت نبرة الفتاة كارثوريس، بقدر ما جرحه الشك في صدقه الذي انطوت عليه كلماتها.

كان يأمل أن تلمح له بأنها تقبل حبه- فهو يستحق بالتأكيد قدرًا ضئيلاً على الأقل من الامتنان لأفعاله الأخيرة من أجلها؛ لكن أفضل ما حصل عليه هو شكوك باردة.

هز أمير هيليوم كتفيه العريضتين. لاحظت الفتاة ذلك، كما لاحظت الابتسامة البسيطة التي مست شفتيه، بحيث أصبح دورها الآن لتشعر أنه جرحها.

بالطبع لم تكن تقصد أن تجرحه. ربما عرف أنها لا تقدر على فِعل أي شيء لتشجيعه بعد ما قاله! لكنه لم يكن بحاجة إلى إظهار عدم الاكتراث بهذا الوضوح. يشتهر رجال هيليوم ببسالتهم، وليس بفظاظتهم؛ ربما كانت دماء كوكب الأرض التي تتدفق في عروقه.

كيف لها أن تعرف أن هز الكتفين طريقة كارثوريس لمحاولة، بجهد بدني، إخفاء الحزن الذي يمزق قلبه، أو أن الابتسامة على شفتيه هي ابتسامة والده القتالية التي تُعتبر بمثابة دليل خارجي على أن الابن عازم على كبت حبه العظيم خلال جهوده لإنقاذ ثوفيا من أجل رجل آخر؛ لأنه يعتقد أنها تحب هذا الرجل الآخر!

عاد الآن إلى سؤاله الأصلي.

وسألها: «أين نحن؟ أنا لا أعرف».

أجابت: «لا أعرف أنا أيضًا. مَن خطفوني من بتارث، كانوا يتحدثون عن آنتور. ولذا أعتقد أن المدينة القديمة التي أخذوني إليها كانت تلك الأطلال الشهيرة. لكني لا أعرف أين نحن الآن».

قال كارثوريس: «عندما يعود الرماة، سنعرف دون شك كل ما يمكن معرفته. لنأمل أن يتسموا بالود. تُرى ما هذا العِرق؟ لا يوجد سوى في أقدم أساطيرنا وفي اللوحات الجدارية بالمدن المهجورة في قِيعان البحر الميت تصوير أو وصف لهذا العِرق من الناس ذوي الشعر الكستنائي والبشرة البيضاء. هل عثرنا على مدينة لا تزال على قيد الحياة من تلك المدن القديمة التي يتصور الجميع في برسوم أنها اندفنت عبر العصور؟».

كانت ثوفيا تنظر نحو الغابة، حيث اختفى الرجال الخُضر والرماة الذين يطاردونهم. جاء من مسافة بعيدة صراخ حيوانات البانث البشعة، وصوت طلقات نارية متقطعة.

قالت الفتاة: «من الغريب أنهم لم يعودوا».

أجابها كارثوريس في عبوس وحيرة: «توقعت أن أرى الجرحى يعودون إلى المدينة وهم يعرجون أو يحملهم رفاقهم. وماذا عن الجرحى الأقرب إلى المدينة؟ هل حملوهم إلى داخل المدينة؟».

أدار الاثنان أعينهم نحو الميدان الذي يقع بينهما وبين المدينة المسورة، حيث كان القتال على أشده.

كانت هناك حيوانات البانث، لا تزال تهدر حول وليمتها البشعة.

نظر كارثوريس إلى ثوفيا في دهشة، ثم أشار نحو الميدان.

وهمس قائلًا: «أين هم؟ ماذا أصاب قتلاهم وجرحاهم؟».

* * *

الفصل (6)

جيداك لوثار

بدت الفتاة في ذهول.

وتمتمت قائلة: «ها هم، في أكوام. كان هناك الآلاف منهم منذ دقيقة واحدة».

فقال كارثوريس: «والآن، لم يتبقَّ سوى حيوانات البانث وجثث الرجال الخُضر».

علقت الفتاة: «لا بد أنهم أرسلوها، بينما كنا نتحدث، لحمل جثث الرماة القتلى».

أجابها كارثوريس: «مستحيل! كان آلاف القتلى هناك عند الحقل منذ دقيقة. وتتطلب إزالتهم ساعات عديدة. هذا شيء خارق للطبيعة».

قالت ثوفيا: «تمنيت أن قد نجد مأوى مع هؤلاء الناس ذوي البشرة البيضاء. فعلى الرغم من بسالتهم في ميدان المعركة، لم يوجهوا لي أي ضربة، وهم شعب شرس أو محب للحرب. لقد كنت على وشك الاقتراح أن نسعى إلى مدخل المدينة، لكنني الآن لا أعرف إذا ما كنت أغامر في ظل أناس تتلاشى جثث قتلاهم في الهواء».

أجابها كارثوريس: «دعينا نخوض هذه التجربة. فلن يكون الوضع داخل جدرانهم أسوأ من خارجها. وهنا قد نقع فريسة البانث، أو التوركواسيين الذين لا يقلون شراسة. وعلى الأقل، سنجد هناك كائنات تُشبهنا».

ثم أضاف: «على أن سبب ترددي هو خطورة أن آخذك وسط كل هذا العدد من حيوانات البانث. فلن يتغلب سيف واحد إذا هجم اثنان منهم في نفس الوقت».

ابتسمت الفتاة وهي تقول: «لا تخف من هذه النقطة، فالبانث لن يضر بنا».

نزلت من المنصة وخطت دون خوف، وكارثوريس إلى جانبها، خارج الميدان الدموي في اتجاه مدينة الغموض ذات الأسوار.

وبعد أن سارا مسافة قصيرة، لمحهما أحد حيوانات البانث التي تبحث عن وليمة دموية. سارع الوحش نحوهما وهو يزأر بغضب، وحذت حذوه عشرات أخرى من حيوانات البانث.

امتشق كارثوريس سيفه الطويل. ألقت الفتاة نظرة سريعة على وجهه، وشاهدت تلك الابتسامة على شفتيه، كأنها نبيذ مهدئ للأعصاب العليلة. ففي برسوم المولعة بالحرب، حيث يتمتع جميع الرجال بالشجاعة، تسرع النساء إلى اللا مبالاة الهادئة إزاء الخطر لدرء الوحشية دون كلام منمق.

قالت: «يمكنك إعادة سيفك. قلت لك إن البانث لن يضر بنا. انظر!»، ثم أسرعت في اتجاه أقرب حيوان.

كان كارثوريس على وشك أن يقفز لحمايتها، لكنها أشارت بإيماءة أن يتراجع. سمعها تتحدث مع البانث بصوت منخفض رخيم، يشبه الخرير.

وعلى الفور ارتفعت الرؤوس الضخمة وتوجهت جميع الأعين الشريرة نحو الفتاة؛ ثم بدأت تتحرك خلسة في اتجاهها. توقفت الفتاة الآن، ووقفت في انتظارهم.

تردد الحيوان الأقرب من الآخرين؛ فتحدثت إليه بغطرسة، كما يتحدث سيد مع كلب عنيد.

أحنى آكل اللحوم الضخم رأسه، وتحرك ببطء وذيله بين أقدامه إلى أن وصل أمام قدمي الفتاة، وبعده جاء الآخرون حتى أصبحت محاطةً تمامًا بهؤلاء الوحوش آكلي لحوم البشر.

استدارت وقادتهم إلى حيث يقف كارثوريس. زمجروا قليلاً عند اقترابهم منه، لكن عددًا قليلاً من الأوامر أوقفهم عند حدهم.

سألها كارثوريس متعجبًا: «كيف تفعلين ذلك؟».

أجابت: «سألني والدك ذات يوم هذا السؤال نفسه عند قاعات المنحدرات الذهبية في جبال أوتز، تحت معابد الثيرن. لم أستطع إجابته، ولا أستطع إجابتك. فلا أعرف من أين أتتني هذه القدرة للسيطرة عليهم، ولكن منذ اليوم الذي ألقاني فيه ساتور ثروج بينهم في حفرة البانث التابعة للثيرن المقدسين، وهذه المخلوقات الضخمة تتودد لي بدلاً من أن تلتهمني؛ ولديَّ دائمًا هذه السلطة الغريبة عليهم. إنهم يأتون عندما أدعوهم وينفذون أوامري، كما ينفذ الكلب وولا الوفي أوامر والدك الجبار».

تمكنت الفتاة بكلمة واحدة من تفريق هذه المجموعة الشرسة من الحيوانات. عادوا هادرين إلى وليمتهم، بينما سار كارثوريس وثوفيا بينهم في اتجاه المدينة المسورة.

مع تقدمهما للأمام، نظر الرجل بتعجب إلى جثث الرجال الخُضر الذين لم تلتهمها حيوانات البانث.

لفت انتباه الفتاة إليهم. لا توجد سيوف تبرز من الجثث الضخمة، ولا توجد على أي منهم علامة على جرح مميت، ولا حتى أدنى خدش أو كشط.

قبل اختفاء جثث الرماة القتلى، كانت جثث التوركواسيين مملوءة بسهام خصومهم القاتلة. أين ذهبت السهام، وهي رُسُل الموت النحيلة؟ وما اليد الخفية التي اقتلعتهم من جثث القتلى؟

بالكاد ما تمكن كارثوريس من كبت قشعريرة الخوف التي انتابته وهو يحدق نحو المدينة الصامتة أمامهما. لم تعُد تظهر أي علامة على الحياة فوق الجدار أو السطح الأعلى. كان كل شيء هادئًا هدوءًا مكتئبًا، لا تُحمد عقباه.

لكنه كان على يقين أن أعينًا تشاهدهما من مكان ما خلف ذلك الجدار المصمت.

ألقى نظرة نحو ثوفيا. كانت تتقدم بأعين واسعة مثبتة على بوابة المدينة. نظر إلى الاتجاه الذي تنظر إليه، لكنه لم يرَ أي شيء.

ويبدو أن نظرته نحوها كأنما أيقظتها من سباتها. نظرت إليه، ولمست ابتسامة سريعة وشجاعة شفتيها. اقتربت منه بعد ذلك، كأنما تتصرف بشكل لا إرادي، ووضعت إحدى يديها في يده.

خمّن كارثوريس أن شيئًا ما داخلها، خارج سيطرتها الواعية، يلتمس منه الحماية. ألقى بذراعه حولها، وعبرا الميدان. لم تبتعد عنه. وربما لم تدرك التفاف ذراعه حولها؛ فقد استغرقها غموض المدينة الغريب أمامها.

توقفا أمام البوابة. كانت جبارة. خمّن كارثوريس من بنيتها أنها ترجع إلى عصور قديمة لا يمكن تصورها.

كانت دائرية، تغلقها فتحه دائرية. يعرف كارثوريس من دراسته للعمارة القديمة في برسوم أنها تدور إلى جانب واحد، مثل عجلة ضخمة، نحو فتحه في الجدار.

لم يكن أحد يتصور حتى وجود مدن العالم القديم، مثل آنتور القديمة، عندما عاشت الأعراق التي بنت مثل هذه البوابات.

وبينما وقف يتكهن هوية هذه المدينة المنسيّة، تحدث إليهما صوت آت من فوق. نظر كلاهما إلى أعلى، وشاهدا رجلاً يميل على حافة الجدار العالي.

كان شعره كستنائي اللون، وبشرته بيضاء، أفتح حتى من بشرة جون كارتر القادم من فرجينيا. كانت جبهة الرجل عالية، وعيناه كبيرتين، وذكيًّا.

استخدم الرجل لغة مفهومة لكليهما. مع ذلك، هناك فارق ملحوظ بينها وبين لغتهم البرسومية.

سأل: «مَن أنتما؟ وماذا تفعلان هنا أمام بوابة لوثار؟».

أجاب كارثوريس: «إننا أصدقاء. هذه هي الأميرة ثوفيا من بتارث، ألقى التوركواسيون القبض عليها. وأنا كارثوريس من هيليوم، أمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم، وابن جون كارتر، أمير الحرب في المريخ، وزوجته ديجاه ثوريس».

كرر الرجل: «بتارث؟»، ثم هز رأسه قائلاً: «هيليوم؟ لم أسمع أبدًا عن هذه الأماكن، كما لم أكن أعرف بوجود عِرق بهذا اللون الغريب يعيش في برسوم. أين تقع هذه المدن التي ذكرتها؟ لم نرَ من أعلى برج لدينا أي مدينة أخرى غير لوثار».

أشار كارثوريس نحو الشمال الشرقي.

وقال: «تقع كل من هيليوم وبتارث في هذا الاتجاه. تبعد هيليوم بأكثر من ثمانية آلاف هاد عن لوثار، بينما تقع بتارث على بُعد تسعة آلاف وخمسمائة هاد شمال شرق هيليوم»[67].

هز الرجل رأسه.

وقال: «أنا لا أعرف أي شيء وراء تلال لوثار. لا يعيش أي شيء إلا جحافل التوركواسيين الخُضر البشعة. لقد غزوا برسوم كلها، ما عدا هذا الوادي ومدينة لوثار. ونحن هنا نواجههم منذ عصور لا حصر لها، على الرغم من أنهم يجددون بشكل دوري محاولاتهم لتدميرنا. لا يمكنني تخمين من أين أتيتما، إلا إذا كنتما تنحدران من العبيد

(67) في برسوم، 'أد' هو أساس القياس الخطي، وهو يعادل مسافة قدم على كوكب الأرض، أي حوالي 694.11 بوصة بقياسات كوكب الأرض. وكما هي عادتي في الماضي، قمت بترجمة رموز برسوم حول الزمن والمسافة، ... إلخ، إلى ما يعادلها على كوكب الأرض حتى يفهمها بسهولة القراء على كوكب الأرض. أما بالنسبة للمولعين بمزيد من الدراسة، فمن المثير للاهتمام التعرف على جدول القياس الخطي المريخي، وهو على النحو التالي: 10سوفاد=1 أد؛ 200 أد= 1 هاد؛ 100 هاد= 1 كاراد؛ 360 كاراد= محيط المريخ عند خط الاستواء. ويعادل الهاد، أو الميل البرسومي، حوالي 339.2 قدمًا بمقاييس كوكب الأرض. والكاراد يعادل درجة واحدة. والسوفاد يعادل حوالي 17.1 بوصة بمقاييس كوكب الأرض.

الذين أسرهم التوركواسيون في أزمان مبكرة عندما أخضعوا العالم الخارجي إلى عبوديتهم؛ فقد سمعنا أنهم أبادوا جميع الأعراق الأخرى ما عدا عِرقهم».

حاول كارثوريس أن يشرح أن التوركواسيين لا يحكمون سوى جزء صغير نسبيًّا من برسوم، وأن هذا يرجع فقط إلى أن مقاطعتهم لا تضم أي شيء يجذب العرق الأحمر. لكن الرجل اللوثاري لم يتصور وجود أي شيء خارج وادي لوثار غير أرض قفر غير مطروقة، تسكنها جحافل التوركواس الخضراء الشرسة.

وبعد مفاوضات كبيرة، وافق الرجل على دخولهم إلى المدينة. وخلال دقيقة، دارت البوابة التي تشبه العجلة إلى الوراء داخل فتحتها، ودخلت ثوفيا وكارثوريس إلى مدينة لوثار.

كان كل ما حولهم يدل على ثراء رائع. كانت واجهات المباني المواجهة للشارع بعد الجدار منحوتة بثراء؛ وتوجد حول النوافذ والأبواب حواف، باتساع قدم، من الأحجار الكريمة، والفسيفساء الراقية، أو ألواح من الذهب المطروق تحمل نقوشًا تصور ما قد يمثل أجزاء من تاريخ هذا الشعب المنسيّ.

انتظرهم الرجل، الذي تحدثوا معه عبر الجدار، في الشارع لاستقبالهم. وتجمع حوله ما يقرب من مائة رجل أو أكثر من العِرق نفسه، يرتدون جميعًا ثيابًا فضفاضة، وليس لديهم لحى.

بدت عليهم شكوك خائفة وليس العداء. تابعت أعينهم القادمين الجدد، دون التحدث معهم على الإطلاق.

لاحظ كارثوريس أن جميع المواطنين غير مسلحين، كما لا توجد أي علامة على وجود جنود، على الرغم من المدينة كانت محاطة منذ وقت قصير بحشد من شياطين متعطشة للدماء.

وتساءل ما إذا كان جميع المقاتلين قد خرجوا معًا في جهد واحد لهزيمة العدو، تاركين المدينة دون حراسة. ولذا سأل مضيفهما.

ابتسم الرجل، وأجاب: «لم يغادر مدينتنا اليوم أي مخلوق سوى عشرات من البانث المقدسين».

صاح كارثوريس: «لكن الجنود، الرماة! رأينا آلافًا منهم يخرجون من هذه البوابة، ويكتسحون جحافل التوركواس ويلحقون بهم الهزيمة بالسهام القاتلة وبحيوانات البانث الشرسة».

لم تفارق الابتسامة وجه الرجل، وصاح، وهو يشير إلى أسفل، نحو شارع واسع أمامه: «انظر!».

نظر كارثوريس وثوفيا إلى الاتجاه الذي أشار إليه الرجل، وشاهدا جيشًا هائلاً من الرماة الذين يسيرون بشجاعة تحت ضوء الشمس، ويتقدمون نحوهما.

صاحت ثوفيا: «آه! لقد عادوا من بوابة أخرى، أو ربما هؤلاء هم القوات التي بقيت للدفاع عن المدينة؟».

ابتسم الرجل مرة أخرى ابتسامته الغريبة، وقال: «لا يوجد جنود في لوثار، انظروا!».

تحول كارثوريس وثوفيا نحو الرجل وهو يتحدث، وعندما أدارا وجهيهما ثانية نحو الأفواج المتقدمة، اتسعت أعينهما في دهشة؛ إذا شاهدا الشارع الواسع أمامهما مهجورًا كالقبر.

همس كارثوريس: «وأولئك الذين خرجوا اليوم لمهاجمة الجحافل؟ كانوا أيضًا خياليين؟».

أومأ الرجل.

قالت ثوفيا بإلحاح: «ولكن سهامهم قتلت عددًا كبيرًا من المحاربين الخُضر».

أجاب اللوثاري: «لنذهب إلى تاريو. سيقول لكما ما يرى من الأفضل أن تعرفاه. فقد أخبركما بأمور أكثر».

تساءل كارثوريس: «مَن هو تاريو؟».

أجابه الرجل: «إنه جيداك لوتار». قادهما الرجل إلى طريق واسع، الطريق الذي شاهدا الجيش الوهمي يسير فوقه منذ لحظة.

ساروا لمدة نصف ساعة على طول طرق جميلة بين بنايات رائعة لم يشهد كلاهما مثلها من قبل. لم يشاهدا سوى عدد قليل من الناس. ولاحظ كارثوريس المظهر المهجور للمدينة الجبارة.

وصلوا أخيراً إلى القصر الملكي. رآه كارثوريس من على بُعد؛ ومع

تخمينه لطبيعة المباني الرائعة، تعجب من أنه حتى هنا لا توجد سوى علامات قليلة على النشاط والحياة.

لا يوجد حتى حارس واحد أمام بوابة المدخل العظيم. وفي الحدائق أيضًا، التي يمكن أن يراها، لا توجد علامة على حياة وافرة تنبض داخل حرم الممتلكات الملكية مثلما يوجد في قصور الجيداك الحُمر.

قال مرشدهما: «هنا قصر تاريو».

نظر كارثوريس ثانية نحو القصر العجيب. فرك عينيه متعجبًا في ذهول، ثم نظر مرة أخرى. كلا! لا يمكن أن يكون مخطئًا. وقف أمام البوابة الضخمة عشرات الحراس. وفي الداخل، طوال الطريق المؤدي إلى المبنى الرئيس، اصطف الرماة على الجانبين. وانتشر الضباط والجنود في الحدائق، يتحركون بسرعة وجيئة وذهابًا، كأنما ينهمكون في واجباتهم.

ما طبيعة هؤلاء الناس الذين يمكنهم استحضار جيش من الهواء؟ ألقى نظرة نحو ثوفيا، التي شهدت أيضًا هذا التحول.

اقتربت منه أكثر، وهي ترتعش قليلاً.

وقالت هامسة: «ما هذا؟ إنه شيء خارق للطبيعة».

أجابها كارثوريس: «لا يمكن تفسيره إلا بأننا أصابنا الجنون».

نظر كارثوريس تجاه اللوثاري، ووجده مبتسمًا.

سأله، مشيراً إلى الحراس: «أعتقد أنك قلت للتو أن لوثار ليس بها جنود. ما هذا؟».

أجابه الرجل: «يمكنك أن تسأل تاريو. اقتربنا من الوصول إليه».

لم يمض وقت طويل قبل دخولهم إلى غرفة طويلة يجلس رجل في أحد أطرافها على أريكة مترفة فوق منصة مرتفعة.

ومع اقتراب ثلاثتهم، نظر إليهم الرجل بعينين حالمتين ناعستين. توقف مرشدهم على بُعد عشرين قدمًا من المنصة، وهمس لثوفيا وكارثوريس أن يحذوا حذوه، وألقى بجسده دون تردد على الأرض، ثم نهض على يديه وركبتيه، وبدأ يزحف نحو أسفل

العرش، ورأسه يتأرجح ذهابًا وإيابًا، وجسده يتلوى كما تفعل الكلاب عندما تقترب من سيدها.

نظرت ثوفيا بسرعة نحو كارثوريس. كان يقف منتصبًا، مرفوع الرأس، وأسلحته مطوية عبر صدره الواسع. وانحنت شفتاه بابتسامة متعجرفة.

تطلع الرجل على المنصة إليه باهتمام، بينما توجه نظر كارثوريس الهيليومي نحو وجهه مباشرة.

سأل الرجل الذي زحف على بطنه على الأرض: «مَن هؤلاء يا جاف؟».

أجاب جاف: «أوه، تاريو، يا أعظم جيداك، هذان هما الغريبان اللذان جاءا مع جحافل التوركواس إلى بواباتنا، وقالا إنهما كانا أسيرين عند الرجال الخُضر. ويقولان حكايات غريبة عن مدن أبعد من لوثار».

قال تاريو آمرًا: «انهض يا جاف، وسلهما لماذا لا يُظهران الاحترام الواجب إلى تاريو».

نهض جاف وواجه الغريبين. وعندما شاهدهما واقفين، بدا الغضب على وجهه، وقفز في اتجاههما.

صرخ فيهما: «أيها المخلوقان! انخفضا! انخفضا على بطنيكما أمام آخر جيداك في برسوم!».

***

الفصل (7)

الرماة الأشباح

عندما قفز جاف نحوهما، وضع كارثوريس يده على مقبض سيفه الطويل. توقفت اللوثاري. كانت الشقة الكبيرة فارغة إلا من الأربعة عند المنصة. وعندما تراجع جاف نتيجة لموقف الهيليومي التهديدي، وجد كارثوريس نفسه محاطًا بعشرات الرماة.

من أين ظهروا؟ بدت الدهشة على كارثوريس وثوفيا.

أخرج كارثوريس سيفه من غمده، وفي اللحظة نفسها جذب الرماة سهامهم الرفيعة إلى الخلف.

نهض تاريو قليلاً مستندًا على كوع واحد. شاهد للمرة الأولى هيئة ثوفيا بالكامل، التي كانت تختفي وراء كارثوريس.

«كفى!»، صاح الجيداك وهو يرفع يده آمرًا بالتوقف. لكن سيف كارثوريس، في هذه اللحظة نفسها، طعن أقرب خصومه بشراسة.

ما إن وصل حد سيفه القوي إلى هدفه، حتى تركه كارثوريس يسقط على الأرض، وتراجع إلى الخلف مذعورًا وعيناه متسعتان، واضعًا ظهر يده اليسرى على جبينه. فلم يقطع سيفه سوى الفراغ، حيث اختفى خصمه، ولم يعُد هناك أي رماة في الغرفة!

قال تاريو، موجهًا كلامه إلى جاف: «من الواضح أنهما غرباء. لنحدد أولاً ما إذا كانت أهانتهما لنا عن علم، قبل أن نتخذ تدابير العقاب».

التفت إلى كارثوريس، لكن بصره طاف حول خطوط هيئة ثوفيا الرائعة، التي كان عتاد أميرة برسوم يبرزها أكثر منه يخفيها.

وسأل: «مَن أنت الذي لا تعرف آداب بلاط آخر جيداك؟».

أجاب: «أنا كارثوريس، أمير هيليوم. وهذه ثوفيا، أميرة بتارث. وفي بلاط آبائنا، لا يسجد الرجال أمام الملوك. منذ أن مزق الأبناء الأوائل جميع أطراف آلهتهم الخالدة، لا يزحف الرجال على بطونهم أمام أي عرش في برسوم. والآن، أتعتقد أن ابنه جيداك جبار وابن جيداك آخر يقبلان إذلال أنفسهما بهذا الشكل؟».

نظر تاريو نحو كارثوريس لفترة طويلة، ثم تحدث أخيراً.

قال: «لا يوجد في برسوم أي جيداك آخر سوى تاريو. ولا يوجد أي عِرق آخر غير ذلك العِرق في لوثار، إلا إذا أضفينا تكريمًا على جحافل التوركواس بمثل هذه التسمية. اللوثاريون بشرتهم بيضاء، وأنت بشرتك حمراء. ولم تعُد هناك نساء في برسوم. ورفيقتك امرأة».

نهض قليلاً من الأريكة، ومال إلى الأمام وهو يشير بإصبع اتهام إلى كارثوريس.

وصاح بصوت عال: «أنت تكذب! كلاكما كاذب، كيف واتتكما الجرأة إلى الحضور أمام تاريو، آخر وأقوى جيداك في برسوم، لتأكيد ما تقولانه. يجب أن يدفع شخص ثمن ذلك. جاف، إن لم أكن مخطئًا، أنت مَن تجرأت باستخفاف على تبديد الوقت سدى، في ظل حُسن طبيعة جيداكك».

«خُذ الرجل، واترك المرأة. سنرى إن كان كلاهما كاذبًا. وفي وقت لاحق يا جاف، ستُعاقب على جرأتك. لم يتبق منا سوى عدد قليل، ولكن- يجب تغذية كومال. اذهب!».

رأى كارثوريس أن جاف يرتعد وهو يسجد مرة أخرى أمام حاكمه، ثم نهض واستدار نحو أمير هيليوم».

وقال: «تعال!».

صاح كارثوريس: «واترك أميرة بتارث هنا وحدها؟».

انحنى جاف مقتربًا من كارثوريس، وهمس قائلاً:

«اتبعني- لن يلحق بها أي ضرر، إلا القتل؛ وهو يستطيع القيام بذلك سواء بقيتما أو غادرتما. الأفضل أن نذهب الآن، ثق بي».

لم يفهم كارثوريس، لكنَّ شيئًا في إلحاح جاف طمأنه. وبالتالي، استدار ليذهب، ولكن ليس دون لمحة نحو ثوفيا حاول من خلالها أفهمها أن من مصلحتها أن يتركها.

ردت عليه بأن أدارت ظهرها تمامًا، لكن ليس دون إلقاء نظرة ازدراء جلبت اللون القرمزي لخديه.

تردد، لكن جاف أمسكه من رسغه.

وهمس له: «هيا! أو سيجلب الرماة ثانية، وما من مهرب هذه المرة. ألم تشاهد كيف أن سيفك عقيم في مواجهة الفراغ!».

استدار كارثوريس كُرهًا. وعندما غادرا الغرفة، التفت إلى رفيقه.

وسأله: «إذا كنت غير قادر على قتل الفراغ، كيف أخشى، إذنْ، أن يقتلني الفراغ؟».

أجابه جاف بسؤال: «ألم تشهد التوركواس يسقطون أمام الرماة؟».

أومأ كارثوريس.

«ستسقط أمامهم، دون فرصة واحدة للدفاع عن النفس أو الانتقام».

خلال حديثهما، توجه جاف ومعه كارثوريس إلى غرفة صغيرة في أحد أبراج القصر العديدة. ضمت الغرفة أرائك، وطلب جاف من كارثوريس أن يجلس.

ظل جاف يحدق في سجينه لعدة دقائق، وأدرك كارثوريس أنه يتفحصه.

وأخيراً قال جاف: «أنا نصف مقتنع بأنك حقيقي».

ضحك كارثوريس.

وقال: «بالطبع أنا حقيقي. ماذا جعلك تشك في ذلك؟ ألا تراني، وتشعر بي؟».

أجابه جاف: «يمكنني أن أرى الرماة وأشعر بهم، لكننا جميعًا نعرف أنهم غير حقيقيين».

ظهرت الحيرة على تعبيرات وجه كارثوريس، مع كل إشارة جديدة إلى الرماة الغامضين- جنود لوثار المتلاشين.

وسأل: «ما هم، إذنْ؟».

سأله جاف: «ألا تعرف حقًّا؟».

هز كارثوريس رأسه نافيًا.

قال جاف: «يمكنني أن أصدق تقريبًا أنك قلت لنا الحقيقة، وأنك أتيت فعلاً من جزء آخر من برسوم أو من عالم آخر. ولكن، قل لي، ألا يوجد في بلدك رماة يبثون الرعب

في قلوب جحافل الرجال الخُضر وهم يقتلون ومعهم حيوانات البانث الشرسة في الحرب؟».

رد كارثوريس: «لدينا جنود. نحن من العِرق الأحمر كلنا جنود، ولكن ليس لدينا رماة للدفاع عنا، مثلكم. نحن ندافع عن أنفسنا».

صاح جاف متشككًا: «تخرجون ويقتلكم أعداؤكم!».

أجاب كارثوريس: «بالتأكيد. ماذا عن اللوثاريين؟».

قال جاف: «لقد رأيت بنفسك. نحن نرسل الرماة الذين لا يموتون، لا يموتون لأنهم بلا حياة، إنهم يوجدون فقط في خيال أعدائنا. إن عقولنا العملاقة هي بحق التي تدافع عنا، إذ ترسل فيالق من المحاربين الخياليين لكي تتجسد أمام عقل العدو».

«يراهم العدو، ويرى أقواسهم وهم يجذبونها إلى الخلف، ويرى سهامهم الرفيعة تنطلق بسرعة وبدقة دون خطأ نحو قلوبهم. ويموت الأعداء، تقتلهم قوة الإيحاء».

صاح كارثوريس: «وماذا عن الرماة القتلى؟ قلت إنهم لا يموتون، لكني رأيت جثثهم مكدسة على أرض المعركة. كيف ذلك؟».

أجاب جاف: «هذا فقط لإضفاء واقعية على المشهد. نحن نرسل صور العديد من المدافعين عنا مقتولين، حتى لا يُخمن التوركواس أنه لا توجد بالفعل مخلوقات من دم ولحم تواجههم».

«وبمجرد أن تصبح تلك الحقيقة مزروعة في عقولهم، وهي نظرية العديد منا، لن يقعون فريسة لإيحاء السهام القاتلة؛ فكلما كان إيحاء الحقيقة أكبر، سيسود إيحاء أقوى- إنه قانون».

تساءل كارثوريس: «والبانث؟ هل هم أيضًا مخلوقات من وحي الخيال؟».

رد جاف: «بعضهم حقيقي. لم تكن الحيوانات التي رافقت الرماة سعيًا وراء التوركواس حقيقية. ومثلهم مثل الرماة، لا يعودون أبدًا. لكنهم، بعد تحقيق الغرض منهم، يتلاشون مع الرماة عندما تتأكد هزيمة العدو».

«أما الحيوانات التي بقيت حول الميدان؛ فهي حقيقية. فقد أطلقناهم كجامعي قمامة لالتهام جثث موتى التوركواسيين؛ وهذا شيء يطلبه الواقعيون بيننا. أنا واقعي. أما تاريو، فهو أثيري».

«يرى الأثيريون أنه لا يوجد شيء اسمه المادة؛ بل كل شيء في العقل. ويقولون إن أي منا لا يوجد إلا في مخيلة زملائه، بخلاف عقلية غير ملموسة وغير مرئية».

«وفقًا لتاريو، إنها لضرورة أن نتوحد جميعًا في تخُيل عدم وجود توركواسيين موتى أسفل جدراننا، وبالتالي لن يوجدون، ولن نحتاج إلى البانث جامعي القمامة».

سأل كارثوريس: «إذنْ أنت لا تعتنق معتقدات تاريو؟».

أجاب اللوثاري «جزئيًّا فقط. أنا أعتقد، بل في الواقع أعرف، أن هناك بعض المخلوقات الأثيرية بالفعل. تاريو واحد منها، أنا مقتنع بذلك. ليس له وجود إلا في خيال شعبه».

«إن خلافنا نحن جميع الواقعيين يكمن، بطبيعة الحال، في أن جميع الأثيريين ليسوا سوى نسج خيال. يؤكدون أن الطعام ليس ضروريًّا، ولا

يأكلون؛ لكن أي شخص يتمتع بأقل ذكاء بدائي، يجب أن يدرك أن الطعام ضرورة للمخلوقات الموجودة وجودًا فعليًّا».

قال كارثوريس موافقًا: «نعم، مستعد أن أوافقك لأنني لم آكل أي شيء اليوم».

صاح جاف: «آه، عفوًا. تفضل وأشبع جوعك». وبحركة من يده أشار إلى مائدة وفيرة لم تكن موجودة منذ لحظة. كان كارثوريس متأكدًا من ذلك؛ لأنه فتش الغرفة بعينية بدقة عدة مرات.

واصل جاف: «من الجيد أنك لم تقع في أيدي الأثيريين؛ وإلا كنت ستقع فريسة الجوع بالفعل».

«ولكن»، صاح كارثوريس: «هذا ليس طعام حقيقي، إذ لم يكن هنا منذ لحظة، والطعام الحقيقي لا يتجسد من الفراغ».

بدا الحرج على جاف.

وقال: «لا يوجد طعام أو ماء حقيقي في لوثار، كما لم يكن يوجد لعدد لا يحصى من العصور. إننا نعيش على ما تراه الآن منذ فجر التاريخ. وبالتالي يمكنك أن تعيش عليه».

صاح كارثوريس: «لكني تصورت أنك واقعي».

«بالطبع»، صاح جاف: «ما أكثر واقعية من هذه الوليمة الوافرة؟ هنا تحديدًا يكمن أكثر خلافاتنا مع الأثيريين. فهم يزعمون أنه من غير الضروري أن نتخيل الطعام؛ لكننا وجدنا أنه من أجل الحفاظ على الحياة يجب أن نجلس ثلاث مرات يوميًّا لنأكل وجبات دسمة».

«من المفترض أن الطعام الذي يأكله الفرد يخضع لبعض التغيرات الكيميائية خلال عملية الهضم والامتصاص، والنتيجة بطبيعة الحال هي إعادة بناء الأنسجة التي أُهدِرت».

«ونحن نعرف جميعًا الآن أن العقل هو كل شيء، على الرغم من أننا قد تختلف في تفسير تجلياته المختلفة. يعتقد تاريو في عدم وجود شيء مثل المادة، وأن كل ما يوجد ينشأ من النسيج غير المادي للمخ».

«على أننا، نحن الواقعيين، نعرف أفضل. نحن نعلم أن العقل يتمتع بقدرة الحفاظ على المادة، حتى مع أنه قد لا يقدر على خلق المادة- وهذه المسألة الأخيرة لا تزال مفتوحة. وبالتالي، نحن نعرف أننا من أجل الحفاظ على أجسامنا المادية، يجب أن نجعل جميع أعضاء أجسامنا تعمل بشكل صحيح».

«ونحقق ذلك عن طريق تجسيد أفكار الطعام، وتناول مثل هذا الطعام. نحن نمضغه، ونبتلعه، ونهضمه. وجميع أجهزة أجسامنا تعمل تمامًا كأنها تناولت طعامًا حقيقيًّا. وما النتيجة؟ ماذا يجب أن تكون النتيجة؟ تحدث التغييرات الكيميائية من خلال الإيحاء المباشر وغير المباشر على حد سواء، ونحن نعيش ونزدهر».

نظر كارثوريس إلى الطعام أمامه، وكان يبدو حقيقيًّا. رفع لقمة إلى شفتيه. شعر بوجود مادة بالفعل، ونكهة أيضًا. نعم، حتى شهيته خُدِعت.

نظر إليه جاف مبتسمًا، وهو يأكل.

وسأله: «أليست وجبة مُشبِعة تمامًا؟».

أجاب كارثويس: «نعم، يجب أن أعترف بذلك. ولكن أخبرني، كيف يعيش تاريو، وغيره من الأثيريين الذين يعتبرون الطعام غير ضروري؟».

حك جاف رأسه.

وأجاب: «هذا سؤال نناقشه كثيراً. وهو أقوى دليل لدينا لعدم وجود الأثيريين؛ ولكن مَن قد يعرف غير كومال؟».

سأله كارثوريس: «مَن كومال؟ سمعت جيداكك يتحدث عنه».

انحنى جاف تجاه أُذن الهيليومي، ونظر حوله في خوف قبل أن يتحدث.

وهمس قائلاً: «كومال هو الجوهر. يعترف حتى الأثيريون بأن العقل نفسه يجب أن يتمتع بمادة ليحيل مظهر المادة إلى تصورات الخيال. فإن لم يكن هناك شيء بحق كالمادة، فلا يمكن الإيحاء- فما لا يوجد، لا يمكن تخيله. هل تتابع كلامي؟».

أجاب كارثوريس بجفاف: «أتلمس طريقي».

واصل جاف: «لذا، فإن الجوهر يجب أن يكون مادة. وكومال هو جوهر كل شيء، وتصونه المادة. إنه يأكل. ولأكن صريحًا، إنه يأكل الواقعيين. وهذا عمل تاريو».

«يقول إنه بقدر ما نحافظ على أننا وحدنا حقيقيون، علينا كي نكون متسقين أن نعترف أننا وحدنا الغذاء السليم لكومال. في بعض الأحيان، مثل اليوم، نجد له طعامًا آخر. إنه مولع بالتوركواسيين».

سأل كارثوريس: «وهل كومال رجل؟».

أجاب جاف: «هو كل شيء، قلت لك. أنا لا أعرف كيف أشرحه لك بكلمات بحيث تفهم. هو البداية والنهاية. تنبع الحياة كلها من كومال، ما دامت المادة التي تغذي المخ بالخيال تشع من جسم كومال».

«إذا توقف كومال عن تناول الطعام، سوف تتوقف جميع أشكال الحياة على برسوم. لا يمكن أن يموت، لكنه قد يتوقف عن الطعام، ومن ثم، يشع».

صاح كارثوريس: «وهو يتغذى على الرجال والنساء الذين يؤمنون بمعتقدك؟».

صاح جاف: «نساء! لا توجد نساء في لوثار. لقد هلك آخر إناث لوثار منذ عصور، خلال تلك الرحلة القاسية المروعة عبر السهول الطينية على حواف البحار نصف الجافة، عندما طاردتنا الجحافل الخضراء بقسوة عبر العالم إلى هنا، آخر مخبأ لدينا- قلعة لوثار المنيعة».

«لم يعش من ملايين عِرقنا العديدة سوى عشرين ألف رجل، تمكنوا من الوصول إلى لوثار. ولم يكن بيننا النساء أو أطفال؛ فقد لقوا حتفهم جميعًا خلال الطريق».

«وبمرور الزمن، بدأنا نحن أيضًا نموت، وأخذ عِرقنا يقترب بسرعة من الانقراض، عندما تكشفت لنا الحقيقة العظمى: أن العقل هو كل شيء. مات العديدون قبل أن نتمكن من قدراتنا. وأخيراً، أصبحنا قادرين على تحدي الموت عندما أدركنا تمامًا أن الموت مجرد حالة ذهنية».

«ثم جاءت مرحلة إبداع عقل الناس، أو بالأحرى تجسيد التصورات المتخيلة. بدأنا أولاً استخدامها العملي عندما اكتشف التوركواسيون تراجعنا، ومن حسن حظنا أن الأمر احتاج منهم إلى عصور من البحث قبل أن يعثروا على مدخل ضيق وحيد لوادي لوثار».

«في ذلك اليوم، أرسلنا أول رماة لمواجهتهم. وكان القصد مجرد إخافتهم بتلك الأعداد الغفيرة من الرماة الذين يمكننا حشدهم فوق جدراننا. وقفت لوثار جميعها مع أقواس وسهام مضيفنا الأثيري».

«لكن التوركواسيين لم يخافوا. إنهم أدنى من البهائم، ولا يعرفون أي خوف. لقد هرعوا نحو جدراننا، ووقف كل منهم على أكتاف الآخر في محاولة لبناء طريق بشري يقود إلى قمم الجدار، وكانوا على وشك الانقضاض علينا وسحقنا».

«لم ينطلق سهم من الرماة، بل جعلناهم يركضون جيئة وذهابًا على طول قمة الجدار وهم يصرخون بصيحات التهكم والتهديد ضد العدو».

«وحاليًا فكرت في محاولة الشيء- الشيء الأعظم. ركزت كل فكري الجبار على الرماة الذين خلقهم عقلي. أخذ كل منا ينتج ويوجه العديد من الرماة بقدر ما تتمكن عقليته وخياله».

«جعلتهم يضعون الأسهم في تلك الأقواس للمرة الأولى. وجعلتهم يستهدفون قلوب الرجال الخُضر. وجعلت الرجال الخُضر يرون كل هذا، ثم جعلتهم يرون الأسهم منطلقة، وجعلتهم يعتقدون أنها اخترقت قلوبهم».

«هذا كل ما كان ضروريًّا. تساقطوا بالمئات من فوق الجدار. وعندما رأى زملائي ما فعلته، سارعوا بعمل نفس الشيء، ولذا تقهقرت حالاً جحافل التوركواس خارج نطاق سهامنا».

«كان يمكننا قتلهم على أي مسافة، لكن هناك قاعدة للحرب حافظنا عليها منذ البداية- سيادة الواقعية. نحن لا نفعل شيئًا، أو بالأحرى نحن نجعل الرماة لا يقومون بأي شيء في مرمى بصر العدو يتجاوز فهم العدو؛ وإلا قد يخمنون الحقيقة، وهذه ستكون نهايتنا».

«ولكن، بعد أن تراجع التوركواس بعيدًا عن مرمى السهام، عادوا ثانية وهاجمونا ببنادقهم الرهيبة وطلقاتها المستمرة التي أحالت حياتنا وراء الجدار إلى جحيم».

«وعندئذ فكرت في خطة لإخراج الرماة ودفعهم من خلال البوابات نحوهم. وأنت رأيت اليوم مدى نجاح الخطة. لقد ظلوا لعصور يهاجموننا على فترات متقطعة، ولكن النتائج لم تتغير».

سأله كارثوريس: «وكل هذا بسبب عقلك يا جاف؟ لا بد أنك تحتل مكانة عالية في مجالس شعبك».

أجاب جاف بفخر: «نعم، موقعي بعد تاريو مباشرة».

«إذنْ لماذا اتخذت طريق الزحف لتقترب من العرش؟»

«بناء على طلب تاريو. إنه يشعر تجاهي بالغيرة، وينتظر أدنى عذر لإلقائي كطعام إلى كومال؛ فهو يخشى أن انتزع سلطته في يومًا ما».

نهض كارثوريس فجأة من أمام المائدة، وقال صائحًا: «جاف! يا لي من حقير! فقد أشبعت جوعي، بينما أميرة بتارث ربما لم تتناول أي طعام حتى الآن. فلنعد ونبحث عن وسيلة ما لإمدادها بالطعام».

هز اللوثاري رأسه.

وقال: «تاريو لن يسمح بذلك. أعتقد أنه سيجعلها أثيرية، دون شك».

قال كارثوريس بإصرار: «لكن يجب أن أذهب لها. قلت إنه لا توجد نساء في لوثار. لا بد أنها الآن بين رجال، ولذا أود أن أكون بالقرب منها بحيث يمكنني الدفاع عنها إذا دعت الحاجة إلى ذلك».

أجابه جاف بإصرار: «تاريو سيعرف. لقد أبعدك، ولا يمكنك العودة إلى أن يرسل في طلبك».

«إذنْ سأذهب دون أن أنتظر أن يرسل في طلبي».

قال جاف محذرًا: «لا تنس الرماة».

أجابه كارثوريس: «لن أنساهم»؛ لكنه لم يخبر جاف أنه يتذكر شيئًا آخر قاله اللوثاري- شيء ربما كان مجرد تخمين، ومع ذلك يستحق أن يُعلق عليه أملاً يائسًا، إن اقتضت الضرورة.

بدأ كارثوريس مغادرة القاعة. خطا جاف أمام، ليسد طريقه.

وقال: «إنني مُعجب بك أيها الرجل الأحمر، ولكن لا تنس أن تاريو لا يزال الجيداك، وأمرني أن تبق هنا».

كان كارثوريس على وشك الرد، عندما تناهت إلى أذنيهما صرخة ضعيفة من امرأة طلبًا للمساعدة.

دفع أمير هيليوم ذراع اللوثاري، ونحاه جانبًا، ثم انطلق ممتشقًا سيفه إلى الممر خارج الغرفة.

***

الفصل (8)

قاعة الموت

عندما شاهدت ثوفيا البتارثية أن كارثوريس يغادر غرفة تاريو، ويتركها مع الرجل بمفردها، استبد بها شعور مفاجئ بالرعب.

ساد جو من الغموض في الغرفة الفخمة. كان أثاثها وتجهيزاتها تنم عن الثراء والثقافة، ويوحي بأنها غالبًا ما كانت موقعًا لمهام ملكية.

مع ذلك لا يوجد حولها -في غرفة انتظار أو ممر- أي علامة على وجود شخص آخر غيرها وتاريو المضطجع، الجيداك، الذي نظر نحوها بعينين نصف مغلقتين وهو يتدثر بالأغطية رائعة الزخارف على الأريكة الملكية.

ظل الرجل ينظر نحوها لفترة، بعد أن غادر جاف وكارثوريس، ثم تحدث.

قال: «اقتربي». وعندما اقتربت قال: «أي مخلوق أنت؟ مَن الذي جرؤ على تجسيد تصوراته عن المرأة؟ هذا يتعارض مع العادات والفرمانات الملكية في لوثار. أخبريني، يا امرأة، من أي دماغ انطلقت؟ من دماغ جاف؟ كلا، لا تنكري. أعرف أنه ليس من أي شخص آخر سوى هذا الحسود الواقعي. إنه يسعى لإغرائي. يريد أن يراني واقعًا تحت سحر جاذبيتك، ثم يتولى سيدك توجيه مصيري و... نهايتي. أرى كل شيء! أرى كل شيء!».

علت دماء السخط والغضب على وجه ثوفيا. كان ذقنها مرتفعًا، وارتسمت ابتسامة متعجرفة على شفتيها الجميلتين.

وصاحت: «أنا لا أعرف أي شيء مما تقوله! أنا ثوفيا، أميرة بتارث. ولست من صنع أي 'مخلوق'. لم تقع عيناي من قبل على هذا الذي تسميه جاف، ولا على مدينتك السخيفة، التي لم تحلم بها أبدًا حتى أعظم أمم برسوم».

«جاذبيتي ليست لك، ولا لمثلك؛ وليست للبيع أو المقايضة، حتى لو كان السعر عرشًا حقيقيًّا. وأما عن استخدام جاذبيتي للفوز بسلطتك التافهة...»، انتهت جملتها بهز كتفيها الرشيقين، وضحكة استهزاء قصيرة.

عندما أنهت كلامها، كان تاريو جالسًا على حافة الأريكة، وقدماه على الأرض، ويميل إلى الأمام بأعين لم تعد نصف مغلقة، وإنما اتسعت في ذهول.

يبدو أنه لم يلحظ ما انطوت عليه كلماتها وطريقتها من العيب في الذات الملكية. كان من الواضح أن هناك شيئًا آخر أكثر إدهاشًا وإلحاحًا في حديثها.

نهض على قدميه ببطء.

وتمتم قائلاً: «بأنياب كومال! لكنك حقيقية! امرأة حقيقية! لست أحلم! لست تصورات عابثة أو حمقاء من نسج العقل!».

اتخذ خطوة نحوها، ويداه ممدودتان.

همس: «تعالي!، تعالي يا امرأة!، أحلم من عددٍ لا يُحصى من العصور أنكِ ستأتين في يومٍ ما. والآن، وأنتِ هنا، لا أكاد أصدق ما تشهدهُ عيناي. وحتى الآن وأنا أعرَف أنكِ حقيقيةٌ، لا تزال تنتابنيَ شبه رهبة أن تكوني كذبة».

تراجعت ثوفيا. ظنت أن الرجل مجنون. وضعت يدها خلسة على مقبض خنجرها المرصع بالجواهر. رأى الرجل هذه الخطوة، وتوقف. ظهر تعبير ماكر في عينيه، ثم أصبحتا على الفور حالمتين، وأخذتا تخترقان مخ الفتاة، بعد أن بدأ يتسرب إليه شعور بالضجر.

شعرت ثوفيا فجأة بتغيير يكتنفها. لم تستطع تخمين السبب. ولكن، على نحو ما، بدأ الرجل يبث افتراض علاقة جديدة داخل قلبها.

لم يعد عدوًّا غريبًا وغامضًا، بل صديق قديم ومصدر ثقة. تراجعت يدها عن مقبض الخنجر. اقترب تاريو، متحدثًا بكلمات رقيقة وودية. أجابت عليه بصوت بدا صوتها، لكنه لشخص آخر.

أصبح بجانبها الآن. وضع يده على كتفها، ومالت عيناه نحوها. نظرت الفتاة إلى وجهه. يبدو أن نظرته المحدقة اخترقتها مباشرة إلى نبع خفي من المشاعر داخلها.

فتحت شفتيها في رهبة وتعجب مفاجئين حول كشفها الغريب عن ذاتها الداخلية التي ظهرت بوضوح أمام وعيها. إنها تعرف تاريو منذ زمن بعيد، وهو أكثر من صديق بالنسبة لها. اقتربت منه قليلاً. وفي فيضان سريع من الضوء، عرفت الحقيقة. إنها تحب تاريو، جيداك لوثار! وكانت تحبه دائمًا.

رأى الرجل نجاح استراتيجيته، ولم يستطع منع ابتسامة ارتياح. هل ظهر شيء ما في تعبير وجهه، أو هل جاءها إيحاء أقوى من جانب كارثوريس في غرفة بعيدة بالقصر، مَن يعرف؟ لكنَّ شيئًا ما بدد فجأة التأثير المنوم الغريب للرجل.

وكأنما تمزق قناع من على عينيها، رأت ثوفيا فجأة تاريو كما كانت تراه سابقًا. ونظرًا لأنها على دراية بالتجليات الغريبة للعقلية شديدة التطور، التي كانت شائعة في برسوم، فقد أدركت سريعًا أنها في خطر محدق.

تراجعت بسرعة خطوة إلى الوراء، وحررت نفسها من قبضته. لكن الاتصال اللحظي أثار داخل تاريو جميع المشاعر المدفونة منذ فترة طويلة من وجوده بلا حب.

انطلق نحوها بصرخة مكتومة، وألقى ذراعيه حولها، وحاول سحب شفتيها نحو شفتيه.

صاح: «يا امرأة، إنكِ امرأة جميلة! تاريو يمكن أن يجعلكِ ملكة لوثار. أنصتي لي! أنصتي إلى حب آخر جيداك في برسوم».

جاهدت ثوفيا لتحرير نفسها من أحضانه.

صاحت: «توقف أيها المخلوق! أنا لا أحبك. توقف، وإلا سأصرخ طلبًا للمساعدة!».

ضحك تاريو في وجهها.

قلد طريقتها ساخرًا: «'سأصرخ طلبًا للمساعدة'، ومَن ذا الذي سيأتي من قاعات لوثار استجابة لكِ؟ ومَن ذا الذي يجرؤ على الدخول إلى حضرة تاريو دون استدعاء؟».

ردت قائلة: «هناك شخص واحد سيأتي، وهو آت، ويجرؤ على تمزيقك فوق عرشك، إذا تصور أنك أهنت ثوفيا البتارثية!».

سألها تاريو: «مَن؟ جاف؟».

أجابته: «ليس جاف، وليس أي لوثاري أبيض أملس البشرة؛ وإنما رجل حقيقي، محارب حقيقي، إنه كارثوريس من هيليوم!».

ضحك الرجل مرة أخرى.

وقال لتذكيرها: «هل نسيتِ الرماة. ماذا يمكن أن يفعل محاربكِ الأحمر في مواجهة جحافلي التي لا تعرف الخوف؟».

أمسكها بقوة ثانية، وأخذ يجذبها نحو أريكته.

وقال: «إن لم تكوني ملكتي، ستكونين عبدتي».

صاحت الفتاة: «كلا، لا هذا ولا ذاك!».

حركت يدها اليمنى بسرعة، مع آخر كلمة قالتها؛ أفلتها تاريو من قبضته، وهو يترنح ويضغط بكلتا يديه على جانبه. وفي اللحظة نفسها، امتلأت الغرفة بالرماة ثم سقط جيداك لوثار فاقد الوعي على الأرضية الرخامية.

في لحظة أن فقد وعيه، كان الرماة على وشك إطلاق سهامهم إلى قلب ثوفيا. أطلقت ثوفيا لا إراديًّا صرخة واحدة طلبًا للمساعدة، على الرغم من معرفتها أن كارثوريس نفسه لا يمكنه الآن إنقاذ حياتها.

أغلقت عينيها وانتظرت النهاية. لم يخترق أي سهم رفيع جانبها. فتحت جفناها لترى ما أوقف أيدي جلاديها.

كانت الغرفة فارغة إلا منها، ولا يزال جسد جيداك لوثار ملقًى أمام قدميها، واصطبغ الرخام الأبيض بجانبه بتجمع صغير من اللون القرمزي. كان تاريو فاقدًا للوعي.

اندهشت ثوفيا. أين الرماة؟ لماذا لم يُطلِقوا سهامهم؟ ما معنى هذا كله؟

كانت الغرفة منذ لحظة تمتلئ في ظروف غامضة برجال مسلحين، من الواضح أنه تم استدعاؤهم لحماية الجيداك؛ والآن، ومع رؤيتهم بوضوح لما فعلته، تلاشوا بنفس غموض مجيئهم، وتركوها بمفردها مع جسد حاكمهم، وبجواره خنجرها الطويل الحاد الذي أسقطته من يدها.

نظرت الفتاة حولها بقلق؛ لتبحث أولاً عن أي علامات على عودة الرماة، ثم عن وسائل للهروب.

وجدت مدخلين صغيرين يخترقان الجدار الواقع خلف المنصة، ويختفيان وراء ستائر ثقيلة. ركضت ثوفيا بسرعة نحو إحديهما، عندما سمعت قعقعة معدن محارب في نهاية الشقة خلفها.

آه، إذا كان لديها لحظة أخرى، لكانت وصلت إلى هذه الستائر المزركشة، وربما وجدت خلفها مصادفة سبيلاً للهرب؛ أما الآن، فقد فات الأوان، لقد تم اكتشافها!

وبشعور أقرب إلى اللا مبالاة، استدارت لتواجه مصيرها. وجدت أمامها كارثوريس يتجه ناحيتها وهو يعبر الغرفة الواسعة بسرعة، حاملاً في يده سيفه الطويل اللامع.

لقد ظلت لأيام تشك في نواياه. تصورت أنه طرف في اختطافها. منذ أن جمعهما القدر وهي بالكاد ما تُبدي له أي استحسان أكثر من ردود تعوزها الحماسة على ملاحظاته، إلا في أوقات مثل تلك الأحداث الغريبة والخارقة في لوثار التي أدهشتها وأخرجتها من تحفظها.

إنها تعرف أن كارثوريس سيقاتل من أجلها؛ لكنها تشككت في ما إذا كان سينقذها من أجله أم من أجل الشخص الآخر.

كان يعلم أنها موعودة لكولان تيث، جيداك كاول، ولكن إذا كان له دور فعال في اختطافها، فدوافعه لا يمكن أن يحثها ولاؤه لصديقه، أو اعتباره لشرفها.

والآن، وهي تراه قادمًا عبر الأرضية الرخامية للقاعة العامة في قصر تاريو اللوثاري، وعيناه الجميلتان مملوءتان بالخوف على سلامتها، وهيئته الرائعة تجسد أفضل ما يتحلى به المقاتلون في المريخ، لا تستطيع أن تصدق وجود أقل علامة على الغدر تتخفى وراء هذا المظهر الخارجي الرائع.

لم تتصور أبدًا، طوال حياتها، أن رؤية أي رجل ستكون موضع هذا الترحيب لديها. وقد منعت نفسها بصعوبة من الاندفاع لملاقاته.

كانت تعرف أنه يحبها؛ لكنها أشارت في الوقت المناسب إلى أنها وعدت كولان تيث. ولم تكن تثق حتى في نفسها لإظهار امتنانها الكبير له، خشية أن يسيء فهمها.

كارثوريس بجانبها الآن. ألقى لمحة سريعة على المشهد داخل الغرفة: لا يزال جسد الجيداك ممددًا على الأرض، والفتاة تسرع نحو مخرج خفي.

سألها: «هل ألحق بكِ أي ضرر يا ثوفيا؟».

حملت خنجرها القرمزي حتى يراه.

وقالت: «كلا، لم يلحق بي أي ضرر».

أضاءت ابتسامة قاتمة وجه كارثوريس.

وقال متمتمًا: «فليهنأ أسلافنا الأوائل!». والآن، لنرى كيف يمكننا الهرب من هذه المدينة الملعونة قبل أن يكتشف اللوثاريون أن جيداكهم لم يعُد له وجود».

وبالقوة الراسخة التي يتمتع بها من تتدفق في عروقه دماء جون كارتر من فرجينيا وديجاه ثوريس من هيليوم، أمسك يدها وعاد عبر القاعة إلى المدخل الكبير الذي أدخلهم منه جاف إلى حضرة الجيداك في وقت سابق من اليوم.

وما إن وصلا إلى عتبة، حتى انطلق شخص إلى القاعة عن طريق مدخل آخر. كان جاف، الذي ألقى أيضًا نظرة سريعة على المشهد.

استدار كارثوريس لمواجهته، وسيفه جاهز في يده، وجسمه الضخم يحمي كدرع هيئة الفتاة المرهفة.

صاح: «تعال يا جاف اللوثاري! فلنواجه هذه المسألة على الفور، حيث واحد منا فقط سيغادر هذه القاعة حيًّا مع ثوفيا البتارثية». وعندما رأى أن الرجل لا يحمل سيفًا، صاح: «استدع الرماة إذنْ، أو تعالَ معنا أسيراً إلى أن نمر بسلام من البوابات الخارجية لهذه المدينة الشبحية».

«لقد قتلت تاريو!»، صاح جاف متجاهلاً تحدي كارثوريس. «لقد قتلت تاريو! أرى دماءه على الأرض، دماء حقيقية، موت حقيقي. كان تاريو إذنْ حقيقيًّا مثلي. ومع ذلك كان أثيريًّا. لن يمكنه تجسيد مادته. هل هم على حق؟ حسنًا، نحن أيضًا على حق. كنا نتشاجر طوال تلك العصور، كل منا يقول إن الآخر على خطأ!».

«لكنه ميت الآن، وهذا يسعدني. سيأخذ جاف وضعه الآن، ويصبح جيداك لوثار!».

وما إن أنهى كلماته، حتى فتح تاريو عينيه، ثم جلس بسرعة.

وأخذ يصرخ: «خائن! قاتل!»، ثم صاح: «كادار! كادار!»، وهي صيحة استدعاء الحرس في برسوم.

شحب جاف، وانخفض على بطنه متلويًّا تجاه تاريو.

وقال بصوت يئن: «أوه، جيداكي، جيداكي! جاف ليس له يد في هذا. جاف وفي لك؛ دخلت القاعة الآن فقط لأجدك ممددًا على الأرض واهن القوى، وهذان الغريبان على وشك المغادرة. كيف حدث ذلك، لا أعلم. صدقني، يا أعظم جيداك!».

صاح تاريو: «توقف، أيها الوغد المحتال! لقد سمعت كلماتك: 'لكنه ميت الآن، وهذا يسعدني. سيأخذ جاف وضعه الآن، ويصبح جيداك لوثار!'».

«لقد كشفتك أخيراً، أيها الخائن. أدانتك كلماتك، بمثل ما وضعت أفعال هذه المخلوقات الحمراء نهاية لهما... ما لم ...» توقف لبرهة ثم استأنف: «ما لم تكن المرأة ...».

لم يستكمل العبارة؛ فقد خمّن كارثوريس ما سيقوله، وقفز نحوه قبل أن يتمكن من تلفظ العبارة، وضرب الرجل على فمه بكفه المفتوح.

أرغى تاريو وأزبد من الغضب والإهانة.

وقال كارثوريس محذرًا: «إذا أهنت أميرة بتارث مرة أخرى، سوف أنسى أنك بلا سيف، فلن أستطيع أن أتحكم إلى الأبد في حكة السيف ليدي».

انكمش تاريو إلى الوراء، نحو المداخل الصغيرة خلف المنصة. حاول أن يتكلم، لكن عضلات وجهه كانت تنتفض ببشاعة بحيث ظل عدة دقائق غير قادر على أن ينطق كلمة واحدة. وأخيراً، تمكن من الحديث بلغة مفهومة.

صرخ: «يجب أن تموت! يجب أن تموت!»، ثم استدار نحو المخرج خلفه.

قفز جاف إلى الأمام، وهو يصرخ مرتعبًا:

«الرحمة، تاريو! الرحمة! تذكر العصور الطويلة التي خدمتك فيها بإخلاص. تذكر كل ما فعلته من أجل لوثار. لا تحكم عليَّ الآن بإعدام بشع. أنقذني! أنقذني!».

ضحك تاريو باستهزاء، وواصل تحركه نحو الستائر التي تخفي المدخل الصغير.

تحول جاف نحو كارثوريس، وصاح: «أوقفه! أوقفه! إذا كنت تحب الحياة، لا تسمح له بمغادرة هذه الغرفة»، وخلال حديثه انطلق وراء الجيداك.

حذا كارثوريس حذو جاف، لكن ‹آخر جيداك في برسوم› كان أسرع منهم. وعند وصولهم إلى الستائر المزركشة التي اختفى الجيداك خلفها، وجدوا بابًا حجريًّا ثقيلاً يحول دون تقدمهم.

انهار جاف على الأرض في حالة تشنج من شدة رعبه.

صاح كارثوريس: «تعال يا رجل! نحن لم نمُت بعد. لنسرع إلى الطريق ونحاول مغادرة المدينة. نحن لا نزال على قيد الحياة، وما دمنا أحياء، يمكننا توجيه مصائرنا. ما جدوى أن تنهار على الأرض ضعيفًا؟ هيا، كن رجلاً!».

هز جاف رأسه.

وقال شاكيًا: «ألم تسمعه يستدعي الحراس؟ آه، لو كنا اعترضنا سبيله! ربما كان سيوجد أمل؛ لكنه، للأسف، كان سريعًا جدًّا بالنسبة لنا».

صاح كارثوريس بنفاذ صبر: «حسنًا، حسنًا، ماذا في أنه استدعى الحراس؟ لدينا وقت كاف للقلق في حال وصولهم، لكنني الآن لا أرى أي علامة على أن لديهم أي فكرة عما يحدث بحيث يبذلون جهدًا مفرطًا لإطاعة استدعاء الجيداك».

هز جاف رأسه بحزن.

وقال: «أنت لا تفهم، لقد جاء الحراس بالفعل وذهبوا. لقد قاموا بعملهم، نحن ضعنا. انظر إلى المخارج المختلفة».

أدار كارثوريس وثوفيا أعينهم في اتجاه المداخل العديدة التي تخترق جدران القاعة الكبرى. كان كل منها مغلقًا بإحكام بأبواب حجرية ضخمة.

سأل كارثوريس: «حسنا؟».

همس جاف بضعف: «سنميت الموت».

لم يقل أي شيء آخر. جلس على حافة أريكة الجيداك، وانتظر.

انتقل كارثوريس إلى جانب ثوفيا، وقف ممتشقًا سيفه، وطاف بعينيه الشجاعتين بلا كلل حول القاعة الكبرى، بحيث لا ينطلق نحوهم أي خصم دون أن يراه.

لم يخرق أي صوت، لعدة ساعات، صمت هذا القبر الحي. ولم يُبد جلادوهم أي علامة على توقيت أو طريقة موتهم. كان التوتر رهيبًا. حتى كارثوريس بدأ يشعر بالضغط

الرهيب على أعصابه. إذا تمكن فقط من معرفة كيف وأين ستضرب يد الموت، لكان واجهها دون خوف، لكن المعاناة الطويلة من هذا التوتر البشع نتيجة الجهل العمدي لخطط قاتليهم كان شديد الوطأة.

اقتربت منه ثوفيا. شعرت أكثر أمانًا وذراعه حولها. ومع ملامستها، تماسك والتفت إليها بابتسامته القديمة المعهودة.

وقال ضاحكًا: «يبدو أنهم يحاولون إخافتنا حتى الموت؛ عار عليَّ أن أعترف بذلك، وأعتقد أنهم يقتربون من تحقيق مخططاتهم».

كانت على وشك الرد، عندما انطلقت صرخة مرعبة من شفتي اللوثاري.

صاح: «النهاية تقترب! النهاية تقترب! الأرضية! الأرضية! أوه، كومال، كن رحيمًا!».

لم تكن ثوفيا وكارثوريس في حاجة إلى إلقاء نظرة على الأرضية ليدركا وجود حركة غريبة.

أخذ رخام الأرضية ينهار ببطء في جميع الاتجاهات نحو المركز. كانت الحركة تدريجية في البداية، وبالكاد ما يمكن ملاحظتها؛ لكن زاوية الأرضية أصبحت الآن في وضع يجعل الوقوف عليها بسهولة مستحيلاً، إلا بثني ركبة واحدة بقدر كبير.

لا يزال جاف يصيح، ويتشبث بالأريكة الملكية التي بدأت تنزلق فعلاً نحو وسط الغرفة، حيث فُوجئت ثوفيا وكارثوريس بفوهة صغيرة ينمو قُطرها مع اتخاذ الأرضية لشكل محيط أشبه بالقُمع.

زادت الآن صعوبة التشبث بالميل الدوار للرخام الأملس المصقول.

حاول كارثوريس دعم ثوفيا، لكنه بدأ هو نفسه بالانزلاق نحو الفتحه الآخذة في الاتساع.

وكان أفضل من التشبث بحجر أملس، أن ركل صندله المصنوع من جلد زيتيدار[68] ، واستعان بقدميه العاريتين لتثبيت نفسه في مواجهة هذا الانحدار الكريه، وألقى ذراعيه في الوقت نفسه حول الفتاة ليسندها.

---

(68) الزيتيدار: حيوان مريخي يشبه الفيل، ويُعتبر من حيوانات الجر الثقيلة حيث يستخدمه المريخيون غالبًا في حمل الأحمال الكبيرة لمسافات شاسعة وجر المركبات الضخمة –http://barsoom.wikia.com/wiki/Zitidar المترجمة.

ولشعورها بالرعب، شبكت يديها حول عنقه. كان خدها قريبًا من خده. وبدا الموت، بشكله غير المرئي وغير المعروف، قريبًا منهما. ولأنه غير مرئي وغير معروف، كان أكثر رعبًا.

همس كارثوريس: «تشجعي يا أميرتي».

نظرت إلى وجهه، ورأت شفتيه المبتسمتين فوق شفتيها، وعينيه الشجاعتين غير المرتعبتين تنظران بعمق نحو عينيها.

انحنت الأرضية وزادت سرعة ميلها؛ وفجأة انزلقا نحو الفتحة.

شقت صرخات جاف الغريبة والرهيبة آذانهم؛ ثم وجد الثلاثة أنفسهم مكدسين فوق أريكة تاريو الملكية، التي كانت عالقة داخل الفتحة في قاعدة القُمع الرخامي.

تنفسوا الصعداء للحظة، لكنهم اكتشفوا الآن أن الفتحة تواصل اتساعها. انزلقت الأريكة إلى أسفل. صرخ جاف مرة أخرى. سرى إحساس مقزز وهم يندفعون إلى أسفل، حيث سقطوا خلال الظلام إلى موت مجهول.

* * *

الفصل (9)

معركة عند السهل

لم تكن المسافة من قاع القُمع إلى أرضية الغرفة التي تقع أسفله كبيرة، إذ وصل إليها ضحايا غضب تاريو الثلاث سالمين.

وصل كارثوريس إلى الأرضية واقفًا على قدميه كالقطة، وهو لا يزال يضم ثوفيا بإحكام على صدره، وتلقى صدمة الفتاة. وما إن لمست قدماه الحجر الخشن الذي يغطي هذه الغرفة الجديدة، حتى ومض سيفه جاهزاً للاستخدام الفوري. وعلى الرغم من أن الغرفة كانت مضاءة، لم تضم أي علامة على وجود عدو.

نظر كارثوريس نحو جاف. كان الرجل شاحبًا من الخوف.

سأله: «ما مصيرنا؟ أخبرني يا رجل! تخلص من رعبك الذي طال كثيراً وأخبرني، حتى أكون مستعدًّا لبيع حياتي وحياة أميرة بتارث بأغلى ثمن ممكن».

همس جاف: «كومال! سيلتهمنا كومال!».

سأله كارثوريس: «هل هو معبودكم؟».

أومأ اللوثاري رأسه، ثم أشار نحو مدخل منخفض في أحد أطراف الغرفة.

«سيهاجمنا من هناك. ضع سيفك السقيم جانبًا، يا أحمق. سوف يزيد من غضبه، ويزيد بالتالي من معاناتنا».

ابتسم كارثوريس، وأحكم قبضته على سيفه الطويل.

أطلق جاف الآن أنينًا مفزعًا وهو يشير نحو الباب.

بكى قائلاً: «لقد جاء».

نظر كارثوريس وثوفيا في الاتجاه الذي أشار إليه اللوثاري، وهما يتوقعان رؤية مخلوق غريب ومخيف على شكل إنسان؛ ولدهشتهما شاهدا الرأس العريض والكتفين الكبيرين لبانث ضخم، أضخم حيوان بانث رآه أي منهما من قبل.

تقدم الوحش ببطء ومهابة داخل الغرفة. سقط جاف على الأرض، وكان يتلوى بجسده بنفس الطريقة الذليلة التي فعلها أمام تاريو. وأخذ يتحدث إلى الوحش الشرس كأنما يتحدث إلى إنسان، ويتوسل أن يرحمه.

خطا كارثوريس ليقف بين ثوفيا والبانث، مع سيفه جاهزًا لمباراة الانتصار على الوحش. تحولت ثوفيا نحو جاف.

وسألته: «هل هذا كومال، معبودكم؟».

أومأ جاف بالإيجاب. ابتسمت الفتاة، ثم خطت أمام كارثوريس، متوجهة إلى الوحش الهادر آكل اللحوم.

تحدثت إليه بنبرة منخفضة، مثلما تحدثت من قبل إلى وحوش البانث في المنحدرات الذهبية، والبانث من جامعي القمامة أمام جدران لوثار.

توقف الوحش عن الزئير. مشى خافضًا رأسه وهو يصدر خريرًا كالقطة، نحو أقدام الفتاة. التفتت ثوفيا تجاه كارثوريس.

وقالت: «ليس سوى حيوان بانث. ليس يوجد ما يمكن أن نخشاه».

ابتسم كارثوريس.

أجابها: «لم أكن قلقًا؛ فقد تصورت أيضًا أنه لن يكون سوى بانث، ومعي سيفي الطويل».

جلس جاف محدقًا في المشهد أمامه- فتاة نحيلة تدير أصابعها بطريقة معينة أمام مخلوق ضخم كان يتصور أنه معبوده، بينما يحك كومال أنفه البشع في جانبها.

ضحكت ثوفيا: «هذا معبودكم إذنْ!».

بدا جاف متحيرًا. لم يكن يتصور أنه يجرؤ على مخالف كومال؛ فللخرافات قوة رهيبة، فعلى الرغم من معرفتنا أننا نبجل خدعة، نتردد في الاعتراف بصحة قناعاتنا الجديدة.

قال: «نعم، هذا هو كومال. ظل تاريو لعصور عديدة يُلقي بخصومه إلى هذه الحفرة لإشباع فم كومال الذي يجب إطعامه».

سأله كارثوريس: «هل يوجد أي مخرج من هذه الغرفة إلى طرقات المدينة؟».

هز جاف كتفيه.

وأجاب: «لا أعرف. لم آتِ إلى هنا من قبل، ولم أهتم بذلك أبدًا».

اقترحت ثوفيا: «هيا، دعونا نستكشف. من المؤكد أن هناك طريقة للخروج».

اقترب ثلاثتهم من المدخل الذي دخل منه كومال إلى الغرفة التي كانت لتشهد موتهم. وجدوا خلفها عرينًا بسقف منخفض، وفي أقصى نهايته يوجد باب صغير.

ولسعادتهم، وجدوا على الباب مزلاجًا عاديًّا، فتحوه، ووجدوا أنفسهم في ساحة دائرية، محاطة بمدرج من المقاعد.

أوضح جاف: «هنا يتغذى كومال على الملأ. لو تجرَّأ تاريو، لكانت نهايتنا هنا؛ لكنه يخشى كثيراً سيفك الحاد أيها الرجل الأحمر، ولذا ألقانا إلى الحفرة. لم أكن أعرف أن الغرفتين متصلتان. نستطيع الآن أن نصل بسهولة إلى الطريق وبوابات المدينة. لن يقاطعنا سوى الرماة، لكنني أعرف سرهم، وأشك أن لديهم القدرة على إلحاق الضرر بنا».

قادهم إلى باب آخر إلى درجات ترتفع من مستوى الساحة إلى أعلى من خلال المقاعد، ثم إلى مخرج في الجزء الخلفي من القاعة. وجدوا وراءه ممرًّا عريضًا مستقيمًا، يستمر مباشرة من خلال القصر إلى الحدائق في الجانب.

لم يظهر أحد لتوجيه أي سؤال لهم خلال تقدمهم، وكان كومال الجبار يخطو بجانب الفتاة.

سأل كارثوريس: «أين سكان القصر، حاشية الجيداك؟ وحتى في شوارع المدينة التي نخترقها، يندر أن رأيت علامة على كائن بشري، برغم أن كل ما حولنا يدل على روعة السكان».

تنهد جاف، وقال: «مسكينة لوثار. إنها في الواقع مدينة أشباح. لم يتبقَّ منا أكثر من ألف، بعد أن كان عددنا يتجاوز الملايين. مدينتنا العظيمة مأهولة بمخلوقات من تصوراتنا. نحن لا نجهد أنفسنا، لتلبية احتياجاتنا، في تجسيد الشخصيات التي يصورها خيالنا؛ ومع ذلك فهي واضحة لنا».

«أرى الآن مثلاً حشودًا كبيرة تصطف على طول الطريق، تسرع جيئة وذهابًا في جولاتها للقيام بواجباتها. أرى النساء والأطفال يضحكون على الشرفات، ومحظور علينا

تجسيدهم؛ لكنني أراهم- وهنا... ولكن لمَ لا؟»، صمت لبرهة متأملاً: «لم أعد أخشى تاريو، لقد فعل أسوأ ما يمكنه، وفشل. لمَ لا، حقًّا؟».

واصل حديثه: «ابقوا يا أصدقاء. ألا تريدون رؤية لوثار في مجدها؟».

أومأ كارثوريس وثوفيا علامة على الموافقة؛ وأساسًا من باب المجاملة وليس لاقتناعهم بأهمية ثرثرته.

نظر جاف إليهما محدقًا للحظة، ثم صاح بإشارة من يده: «انظروا!».

كان المشهد أمامهم مذهلاً. ففي نفس المكان الذي لم يكن يضم سوى أرصفة مهجورة ومرجة قرمزية ونوافذ مفتوحة وأبواب لبيوت خالية، يتدفق الآن حشد بلا نهاية من أناس سعداء يضحكون.

قال جاف بصوت خفيض: «هذا هو الماضي. إنهم لا يروننا، وإنما يعيشون فقط الماضي الميت القديم للوثار العتيقة؛ لوثار العصور القديمة، لوثار التي ماتت وانهارت بعد أن كانت تقع عند شاطئ ثروكسوس، أقوى المحيطات الخمسة».

«أترون هؤلاء الرجال الرائعين، يتمايلون على طول شارع واسع؟ أترون الفتيات والنساء يبتسمون لهم؟ أترون الرجال يوجهون لهن التحية بكل حب واحترام؟ إنهم البحارة القادمون من سفنهم التي تقع بجوار أرصفة الميناء على حافة المدينة».

«آه، يا لهم من رجال شجعان، لكن مجد لوثار تلاشى! انظروا إلى أسلحتهم. هم فقط مَن يحملون أسلحة؛ لأنهم يعبرون البحار الخمسة إلى أماكن غريبة تكتنفها الأخطار. وبموتهم ماتت الروح العسكرية لدى اللوثاريين؛ ما بقي عبر العصور المتتالية، هو عِرق من الجبناء الضعفاء».

«نحن نكره الحرب، ولذا لم ندرب شبابنا على أساليب الحرب. ثم حل بنا الخراب؛ إذ عندما جفت البحار وتعدت علينا جحافل الخُضر، لم نستطع أن نفعل أي شيء سوى الفرار. لكننا نتذكر رماة البحرية في أيام مجدنا، وهي الذاكرة التي يصورها خيالنا أمام أعدائنا».

تلاشت الصورة عندما توقف جاف عن الحديث، ثم واصل الثلاثة طريقهم نحو البوابات البعيدة، على طول الطرق المهجورة.

شاهدوا مرتين لوثاريين حقيقيين من لحم ودم. لكن المواطنين فروا هاربين ما إن شاهدوا الثلاثة ومعهم البانث الضخم الذي تعرفوا فيه على كومال.

صاح جاف: «سوف ينقلون خبر رحلتنا إلى تاريو، وسرعان ما سيرسل الرماة خلفنا. لنأمل أن نظريتنا صحيحة، وأن سهامهم تعجز أمام عقول تدرك أنهم غير حقيقيين. وخلاف ذلك، سنموت».

«أيها الرجل الأحمر، وضح للمرأة الحقائق التي شرحتها لك، بحيث تواجه السهام بإيحاء مضاد أقوى حول الحصانة».

فعل كارثوريس ما طلبه جاف. وصلوا الآن إلى البوابات الكبرى دون أي علامة على مطاردة. وعندئذ قام جاف بتشغيل الآلية التي تدير البوابة الضخمة التي تشبه العجلة، وبعد لحظة كان الثلاثة، والبانث بصحبتهم، يخرجون إلى السهل الممتد أمام لوثار.

وما إن ساروا مائة ياردة، حتى انطلق صوت عدد كبير من الرجال يصيحون خلفهم، وعندما استداروا، شاهدوا مجموعة من الرماة يخرجون من البوابة، التي خرج الثلاثة منها حالًا، ويتوجهون نحو السهل.

كما وقف فوق جدار البوابة عدد من اللوثاريين، تعرف جاف من بينهم على تاريو. وقف الجيداك صارخًا، ومركزًا جميع قوى عقله الـمُدرب عليهم. ومن الواضح أنه يبذل أقصى جهد كي تصبح مخلوقاته الخيالية مميتة. شحب لون جاف، وبدأ يرتعش. يبدو أنه، في هذه اللحظة الحاسمة، فقد شجاعة اقتناعه. استدار البانث الضخم نحو الرماة المتقدمين، وهو يزأر. وضع كارثوريس نفسه بين ثوفيا والخصوم ووقف في مواجهتهم، وانتظر نتائج هجمتهم.

وفجأة جاءت لكارثوريس فكرة ملهمة.

صاح، موجهًا كلامه إلى جاف: «ألْقِ أنت أيضًا بالرماة في مواجهة تاريو! دعنا نشاهد معركة بين عقليتين».

ويبدو أن الاقتراح أثلج صدر اللوثاري؛ ففي اللحظة التالية كان الثلاثة يقفون وراء صفوف متينة من رماة يتمتعون بأجسام ضخمة، يهددون ويتوعدون المجموعة التي تخرج من المدينة المسورة.

أصبح جاف رجلًا جديدًا في لحظة وقوف كتائبه بينه وبين تاريو. يكاد المرء أن يُقسم أن الرجل يصدق أن هذه المخلوقات التي صنعتها قوة تنويمه الغريبة هي مخلوقات حقيقية من لحم ودم.

بصيحات القتال الفظة، هاجموا رماة تاريو. طارت السهام حادة الرؤوس بكثافة وسرعة. سقط رجال، وسالت الدماء على الأرض.

واجه كارثوريس وثوفيا صعوبة في التوفيق بين ما يرونه ومعرفتهم بالحقيقة. شاهدوا صفوفًا من الأوتان[69] تخرج من البوابة في خطوات مثالية لتعزيز مجموعة فائقة العدد التي بعث بها تاريو بداية لإلقاء القبض عليهم.

وفي المقابل شاهدوا قوات جاف تتنامى إلى أن تحول كل شيء حولهم إلى بحر من القتال، ولعنات من المحاربين، وموتى يتكدسون في أكوام في أرجاء السهل.

ويبدو أن جاف وتاريو نسيا كل شيء آخر غير صراع الرماة الذين يندفعون جيئة وذهابًا، ويملؤون كافة أرجاء السهل الشاسعة بين الغابة والمدينة.

لاحت الغابة قريبة خلف ثوفيا وكارثوريس. ألقى الأخير نظرة خاطفة نحو جاف.

وهمس للفتاة: «هيا! فلنتركهم يقاتلون معركتهم الوهمية؛ فمن الواضح أن كليهما ليس لديه قوة لإلحاق الضرر بالآخر. إنهما مثل اثنين متجادلين، يلقيان بالكلمات ضد بعضهما. ويمكننا، خلال اشتباكهما، تكريس طاقاتنا لمحاولة العثور على طريق عبر المنحدرات إلى السهول وراءها».

استدار جاف للحظة، وتمكن من التقاط كلمات كارثوريس. وشاهد الفتاة تتحرك لمرافقة الهيليومي. قفزت نظرة ماكرة إلى عينَي اللوثاري.

كان الشيء الذي يكمن وراء تلك النظرة عميقًا في قلبه منذ أن وقعت عيناه للمرة الأولى على ثوفيا البتارثية. على أنه لم يدرك ذلك إلا عندما أوشكت أن تختفي من حياته.

ركز عقله على الهيليومي والفتاة للحظة.

رأى كارثوريس ثوفيا تخطو إلى الأمام بيد ممدودة. أدهشه لطفها المفاجئ نحوه، وبكل قلبه ترك أصابعه تتشابك مع أصابعها، وهما يبتعدان معًا عن لوثار المنسيّة متجهين نحو إلى الغابة، وهما عازمان على الوصول إلى الجبال البعيدة.

وعندما استدار اللوثاري نحوهما، فُوجئت ثوفيا بصوت كارثوريس يقترح خطة جديدة.

---

(69) أوتان: سرية من الجنود تضم مائة جندي -http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=utan- المترجمة.

سمعته يقول: «يمكنك البقاء هنا مع جاف، بينما أذهب أنا للبحث عن طريق عبر المنحدرات».

تراجعت في دهشة وخيبة أمل؛ لأنها تعرف أنه لا يوجد سبب لعدم مرافقته. ومن المؤكد أنها ستكون أكثر أمانًا معه من وجودها بمفردها

مع اللوثاري.

ابتسم جاف ابتسامته الماكرة وهو يشاهدهما.

عندما اختفى كارثوريس داخل الغابة، جلست ثوفيا بلا مبالاة عند المرجة القرمزية لمشاهدة الصراع الذي يبدو بلا نهاية بين الرماة.

شقت فترة ما بعد الظهيرة الطويلة طريقها المرهق نحو الظلام، ولا تزال الجحافل الوهمية تهاجم وتتراجع. كانت الشمس على وشك الغروب، عندما بدأ تاريو سحب قواته ببطء نحو المدينة.

لاقت خطته لوقف الأعمال العدائية خلال الليل قبولاً تامًّا لدى جاف؛ إذ جعل قواته تشكل نفسها في أوتانات منظمة عند حافة الغابة، حيث سرعان ما انشغلوا في إعداد وجبة المساء ونشر حرير وفراء النوم.

بالكاد ما نجحت ثوفيا في كبت ابتسامة وهي تلاحظ العناية الدقيقة التي يوليها رجال جاف الوهميين في تصرفاتهم بكل التفاصيل الصغيرة، كأنهم حقًّا من لحم ودم.

قاموا بنشر الحراسة بين المعسكر والمدينة. وتحرك الضباط هنا وهناك، يصدرون الأوامر ويتأكدون من تنفيذها بشكل صحيح.

تحولت ثوفيا نحو جاف، وسألته: "لماذا تلتزم بهذا الانضباط الدقيق في تنظيم مخلوقاتك، وأنت وتاريو تعرفان تمامًا أنهم من صنع الخيال؟ لماذا لا تسمح لهم ببساطة بالذوبان في الهواء إلى أن تحتاج خدماتهم العقيمة مرة أخرى؟".

أجاب جاف: "أنت لا تفهمينهم. عند وجودهم، هم حقيقيون. أنا أدعوهم إلى الوجود فقط، وأوجه أعمالهم العامة. وهم يتصرفون باعتبارهم حقيقيين، مثلي ومثلك، إلى أن أجعلهم يتلاشون. يتولى ضباطهم إصدار الأوامر لهم، بناء على توجيهاتي. أنا القائد العام، هذا كل شيء. ويصبح التأثير النفسي على العدو أكبر بكثير مما لو تعاملت معهم كمجرد تصورات غير مجسدة».

واصل اللوثاري: "كما أن هناك دائمًا الأمل، الذي يشبه قليلاً الاعتقاد، بأن هذه التجسيدات ستندمج يومًا ما مع الواقع- أي أنهم، بعضهم، سيبقون بعد تلاشي زملائهم، وبالتالي نكون اكتشفنا وسيلة لإدامة عِرقنا الآخذ في الفناء».

"هناك البعض الذين يزعمون أنهم أنجزوا ذلك بالفعل. فمن المفترض عمومًا وجود عدد قليل تجسد بشكل دائم بين الأثيريين. بل قيل إن تاريو واحد منهم، لكن هذا غير صحيح؛ لأنه كان موجودًا قبل قد أن نكتشف إمكانيات الإيحاء الكاملة».

"وهناك آخرون بيننا يصرون على أننا جميعًا لسنا حقيقيين؛ فليس من الممكن أن يستمر وجودنا طوال كل هذه العصور دون طعام وماء حقيقيين إذا كنا أنفسنا حقيقيين. وعلى الرغم من أنني واقعي، فإنني أميل نحو هذا الاعتقاد».

"إنه يبدو اعتقادًا جيدًا ومعقولاً استنادًا إلى الاعتقاد بأن أسلافنا القدماء طوروا قبل فنائهم هذه العقليات العجيبة التي عاشت بعض أقوى عقولها بعد موت أجساد أصحابها، وإننا لسنا سوى عقول خالدة لأفراد ماتوا منذ زمن طويل».

"قد يبدو ممكنًا. ولكني، بقدر ما يتعلق الأمر بي، أملك كافة سمات الوجود المادي. أنا آكل، وأنام،..."، صمت لبرهة وهو يلقي نظرة ذات مغزى نحو الفتاة: "... وأحب!».

لم تُخطئ ثوفيا المعنى الواضح لكلماته وتعبيره. تحولت بعيدًا، وهي تقشعر قليلاً من الاشمئزاز الذي لم يفارقها أبدًا تجاه اللوثاري.

اقترب منها وأمسك ذراعها.

صاح: "لماذا ترفضين جاف؟ إنه أكثر احترامًا من الرجل الثاني في أقدم عِرق في العالم؟ الهيليومي؟ لقد ذهب، هجركِ وتركك لمصيركِ لينقذ نفسه. تعالي، كوني لجاف».

وقفت ثوفيا البتارثية بكامل هيئتها، وتحولت نحو الرجل بكتفيها المرفوعتين، وذقنها المتعجرف مرفوع، وشفتاها ملتويتان في ازدراء.

قالت بهدوء: "أنت تكذب! ما يعرفه الهيليومي عن عدم الولاء أقل مما يعرفه عن الخوف، وهو يجهل الخوف بمثل ما يجهله الصغار الذين لم يخرجوا من بيضهم بعد».

قال اللوثاري ساخرًا: "أين هو إذنْ؟ قلت لكِ إنه هرب إلى الوادي. تركك لمصيركِ. لكن جاف سيجعله مصيراً سعيدًا. سنعود غدًا إلى لوثار على رأس جيشي المنتصر، وسأصبح الجيداك وأنت زوجتي. تعالي!"، ثم حاول أن يضمها إلى صدره.

كافحت الفتاة لتحرير نفسها، وضربت الرجل بأساورها المعدنية. لكنه استمر يجذبها نحوه، إلى أن روعهما فجأة هدير بشع يصدر من الغابة القريبة المظلمة خلفهما.

* * *

الفصل (10)

كاركومار، رامي السهام

عندما تحرك كارثوريس خلال الغابة في اتجاه المنحدرات البعيدة، ويد ثوفيا لا تزال في يده، تعجب قليلاً من استمرار صمتها؛ لكنه كان سعيدًا بتلامس يديهما بحيث خشى أن يقطع -لو تحدث- فتنة اعتمادها الجديد عليه.

سارا خلال الغابة المعتمة، إلى أن بدأت ظلال ليل المريخ تسرع نحوهما، ثم بدأ كارثوريس يتحدث إلى الفتاة بجواره.

يجب أن يخططا معًا للمستقبل. كان يفكر في المرور عبر المنحدرات على الفور إذا أمكنهما تحديد موقع الممر. وكان على يقين أنهما يقتربان الآن من المنحدرات، لكنه أراد موافقتها على هذا الاقتراح.

وعندما وقعت عيناه عليها، أذهله مظهرها الأثيري الغريب. بدت فجأة كأنما ذابت في مادة حلم ضعيفة، ومع استمرار نظرته نحوها، أخذت تتلاشى ببطء من أمام بصره.

ظل مصعوقًا للحظة، ثم ومضت الحقيقة كاملة أمامه فجأة. لقد جعله جاف يعتقد أن ثوفيا ترافقه خلال الغابة، بينما احتجز الفتاة في الواقع لنفسه!

استبد الهلع بكارثوريس، لعن نفسه لغبائه، وأدرك أن القدرة الشيطانية التي استحضرها اللوثاري لإرباكه خدعته.

وبمجرد إدراكه الحقيقة، بدأ يعود أدراجه إلى لوثار. لكنه يتحرك الآن بسرعة رهيبة، فعضلات كوكب الأرض التي ورثها عن أبيه كانت تحمله سريعًا فوق البساط الناعم من أوراق الشجر المتساقطة وطبقات العُشب.

غمر ضوء القمر ثوريا اللامع السهل الذي يقع أمام مدينة لوثار المسورة، خلال خروج كارثوريس من الغابة في مواجهة البوابة الكبرى التي انطلق منها مع ثوفيا من المدينة في وقت سابق من اليوم.

لم يشهد في البداية أي علامة على وجود شخص غيره في المكان حوله. كان السهل مهجورًا. لا يخيم الرماة الآن أسفل الخَضَار المتدلي من الأشجار العملاقة. ولا

تتكدس أكوام الموتى الدموية التي كانت تشوه جمال المرجة القرمزية. كان الصمت يرين، والسلام يعُم.

وما إن وصل كارثوريس إلى حافة الغابة، وبدأ يعبر السهل في اتجاه المدينة، حتى لمح أمام قدميه هيئة شخص مكوم فوق العشب.

كانت جثة رجل خائر القوى. أدار كارثوريس الرجل على ظهره، إنه جاف، لكن جسده ممزق ومشوه ويصعب التعرف عليه.

مال الأمير فوقه ليتبين ما إذا بقيت فيه أي شرارة حياة. فتح الرجل جفونه، ونظر إلى كارثوريس بأعين كئيبة مليئة بالمعاناة.

صاح كارثوريس: «أميرة بتارث! أين هي؟ أجبني يا رجل، أم أستكمل العمل الذي بدأه غيري».

تمتم جاف: «كومال، قفز فوقي... وكاد أن يلتهمني من أجل الفتاة. بعد ذلك، ذهبا معًا إلى الغابة، الفتاة والبانث العظيم ... وأصابعها ممسكة بعُرفه الأسمر».

سأله كارثوريس: «ذهبا في أي اتجاه؟».

أجابه جاف بضعف: «هناك، في اتجاه الممر عبر المنحدرات».

لم ينتظر أمير هيليوم ليسمع المزيد، بل نهض على قدميه، وأخذ يسرع عائدًا مرة أخرى إلى الغابة.

كان الوقت فجرًا عند وصوله إلى فتحة النفق المظلم الذي قد يقوده إلى العالم الآخر، وراء وادي الذكريات الشبحية والتأثيرات المنومة الغريبة والأخطار.

لم يواجه أي حادثة أو عقبة داخل الممرات الطويلة المظلمة، وخرج أخيراً إلى ضوء النهار وراء الجبال، ولا توجد مسافة كبيرة من الحافة الجنوبية لمناطق التوركواسيين، لا تزيد على مائة وخمسين هادًا على الأكثر.

وتبلغ المسافة من حدود توركواس إلى مدينة آنتور حوالي مائتي هاد؛ إذنْ أمامه رحلة يزيد طولها على مائة وخمسين ميلاً (بمقاييس كوكب الأرض) بينه وبين آنتور.

لا يمكنه في أحسن الأحوال إلا أن يُخاطر بتخمين أن ثوفيا اتجهت نحو آنتور، حيث توجد أقرب مياه، وحيث تتوقع أن يأتي في يوم ما فريق إنقاذ من إمبراطورية والدها.

فقد كان كارثوريس يعرف ثوفان ديهن جيدًا، وأنه لن يدخر جهدًا لتعقب حقيقة اختطاف ابنته، ومعرفة كل شيء ممكن أن يدله على مكانها.

أدرك بالطبع أن الحيلة التي جعلت الشبهات تحوم حوله ستؤخر إلى حد كبير اكتشاف الحقيقة؛ لكنه لم يخمن إلى أي مدى تعاظمت نتائج نذالة أستوك الدوساري بالفعل.

عندما خرج من فتحة الممر للبحث عبر سفوح الجبال باتجاه آنتور، كان أسطول بتارث الحربي يبحر في طريقه المهيب ببطء نحو مدينتي هيليوم التوأم، بينما كان يسرع من كاول، من مسافة بعيدة، أسطول حربي جبار لينضم إلى قوى حليفه.

لم يعرف أن شعبه حتى، على ضوء الأدلة الظرفية ضده، بدأ يقبل الشك في أنه اختطف أميرة بتارث.

ولم يعرف مدى ما ذهب إليه الدوساريون لزعزعة الصداقة والتحالف القائمين بين القوى الكبرى الثلاث في نصف الكرة الشرقي: هيليوم، وبتارث، وكاول.

ولم يعرف كيف وجد مبعوثو دوسار فرص عمل في مناصب مهمة بالمكاتب الخارجية لثلاث أمم كبرى، وكيف قام هؤلاء المبعوثون بتبديل وتحريف الرسائل التي يبعث بها جيداك إلى آخر حتى وصل الأمر إلى حد عدم قدرة صبر وكبرياء الحكام الثلاثة الذين كانوا أصدقاء إلى تحمُل الإهانات والشتائم الواردة في هذه الأوراق المزورة.

كما لم يعرف حتى أن جون كارتر -أمير الحرب في المريخ- رفض السماح لجيداك هيليوم إعلان الحرب ضد بتارث أو كاول؛ وذلك لثقته الضمنية في ابنه، وأن كل شيء سيجد في نهاية المطاف تفسيراً مُرضيًا.

والآن، يبحر أُسطولان كبيران نحو هيليوم، بينما حاول جواسيس دوسار في بلاط تاردوس مورس إبقاء المدينتين التوأم جاهلتين بخطر قدوم هذين الأسطولين.

أعلن ثوفان ديهن الحرب، لكن الرسول الذي أُوفد لتسليم الإعلان كان دوساريًّا، وعمل على عدم وصول كلمة تحذير إلى المدينتين التوأم بشأن اقتراب أسطول معاد.

انقطعت العلاقات الدبلوماسية لعدة أيام بين هيليوم وجارتيها القويتين. ومع رحيل الوزراء، توقفت تمامًا الاتصالات اللا سلكية بين الأطراف المتنازعة، كما هي العادة في برسوم.

لكن كارثوريس كان يجهل كل ذلك. لقد كرس اهتمامه حاليًا على إيجاد ثوفيا البتارثية. اقتفى الأثر الواضح لدربها هي والبانث الضخم وصولاً إلى النفق، ثم ظهر الأثر ثانية في اتجاه الجنوب نحو سفوح الجبال.

أسرع في اتجاه قاع البحر الميت، حيث يعرف أنه قد يفقد أثرها فوق الغطاء النباتي الأصفر المرن. وفجأة أثار دهشته رؤية رجل عار يقترب منه قادمًا من الشمال الشرقي.

ومع اقترابه، توقف كارثوريس انتظارًا لمجيئه. كان يعلم أن الرجل غير مسلح، وأنه من لوثار؛ فبشرته بيضاء وشعره كستنائي.

اقترب الرجل دون أي علامة على الخوف. وعند وصوله، أطلق تحية الابتهاج في برسوم «كاور»، للترحيب.

سأله كارثوريس: «مَن أنت؟».

أجاب: «أنا كار كوماك، أودوار[70] الرماة. لقد حدث لي شيء غريب. ظل تاريو لعصور يستحضرني إلى الوجود كلما احتاج إلى خدمات الجيش الذي يبدعه عقله. ومن بين جميع الرماة، كان كار كوماك أكثر مَن يتجسد».

«وظل تاريو لفترة طويلة يركز عقله على تجسيدي الدائم. استحوذ عليه هاجس أنه قد يحقق ذلك في يوم ما، وبالتالي يضمن مستقبل لوثار. أكد أن المادة لا توجد إلا في مخيلة الرجل؛ أي أن كل شيء عقلي، ولذا كان يعتقد أنه بالمثابرة المستمرة في الإيحاء، يمكنه في نهاية المطاف أن يجعل مني إيحاء دائمًا في عقول جميع المخلوقات».

«وقد نجح أمس، ولكن في وقت عجيب! من المؤكد أن ذلك كله حدث دون أن يعرف، كما حدث لي دون علمي؛ فعندما كان قومي من الرماة يصيحون، سعيت وراء التوركواسيين الفارين إلى سهولهم الصفراء».

«ومع حلول الظلام، وعندما حان وقت تلاشينا في الهواء مرة أخرى، وجدت نفسي فجأة بمفردي عند حافة السهل العظيم الذي يقع هناك عند سفح التلال المنخفضة».

«كان رجالي قد عادوا إلى العدم، من حيث جاءوا؛ لكنني بقيت، عاريًّا وغير مسلح».

(70) أودوار: قائد أو جنرال -http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=odwar - المترجمة.

«لم أفهم في البداية، وأخيراً أدركت ما حدث. تحقق أخيراً إيحاء تاريو الذي استمر طويلاً، وأصبح كار كوماك حقيقة واقعة في عالم الرجال؛ لكن عتادي وأسلحتي تلاشت مع زملائي، وتركتني عاريًا وأعزل في بلد عدائي أبعد ما يكون عن لوثار».

سأله كارثوريس: «وهل ترغب في العودة إلى لوثار؟».

أجاب كار كوماك بسرعة: «كلا! أنا لا أحب تاريو. ولأني مخلوق صدر من عقله، أعرفه جيدًا. إنه قاس ومستبد، سيد لا أريد أن أخدمه. والآن، بعد نجاحه في إنجاز تجسيدي الدائم، سيصبح لا يُطاق، وسيستمر إلى أن يملأ لوثار بمخلوقاته. وأتساءل ما إذا كان قد نجح كذلك مع فتاة لوثار».

قال كارثوريس: «تصورت أنه لا توجد نساء هناك».

أجاب كار كوماك: «في شقة مخفية في قصر تاريو، احتفظ الجيداك بفتاة جميلة من إيحاءاته، على أمل أن تصبح دائمة ذات يوم. وقد شاهدتها هناك، إنها رائعة! لكنني آمل -من أجلها- ألا ينجح تاريو معها كما نجح معي. والآن، أيها الرجل الأحمر، لقد أخبرتك عن نفسي، ماذا عنك؟»

أحب كارثوريس وجه رامي السهام وطريقته. ولم تظهر على تعبيراته أي علامة على الشك أو الخوف خلال اقترابه من الهيليومي المدجج بالسلاح، كما أنه تحدث مباشرة وبوضوح.

أخبر أمير هيليوم رامي السهام عن لوثار، وعن المغامرة التي أتت به إلى هذا البلد البعيد.

وعندما أنهى حديثه، قال الآخر: «حسنًا! كار كوماك سيرافقك. معًا سنجد أميرة بتارث، ومعك سيعود كار كوماك إلى عالم الرجال- العالم الذي عرفه في الماضي البعيد، عندما كانت سفن لوثار الجبارة تجوب ثروكسس الغاضب، والأمواج الصاخبة تهزم حاجز هذه التلال القاحلة الكئيبة».

سأله كارثوريس: «ماذا تعني؟ هل كنت موجودًا بالفعل سابقًا؟».

أجاب كار كوماك: «بالتأكيد. كنت سابقًا قائد أساطيل لوثار، أقوى من كل الأساطيل التي أبحرت في البحار المالحة الخمسة».

«أينما عاش الرجال في برسوم، كان اسم كار كوماك معروفًا ويحظى بالاحترام. كانت الأعراق تعيش في سلام في تلك الأيام البعيدة، ولم يكن هناك محاربون سوى

البحارة. لكن مجد الماضي تلاشى الآن؛ ولم أكن أعتقد -إلى أن قابلتك- أن هناك مَن بقى في برسوم من جنسنا الذي عاش وأحب وحارب كما فعل قدامى البحارة في عصري».

«آه، ولكن من الجيد أن أرى الرجال مرة أخرى، الرجال الحقيقيين! فلم أحترم كثيراً مواطني بلدي اليوم. فهم يبقون داخل مدنهم المسورة، ويهدرون وقتهم في اللعب، ويعتمدون كليًّا على عِرق البحر لحمايتهم. أما المخلوقات المسكينة التي لا زالت باقية، أمثال تاريو وجاف في لوثار، فهم أسوأ حتى من أسلافهم القدماء».

تشكك كارثوريس قليلاً في مدى حكمة السماح لغريب أن يرافقه؛ فهناك دائمًا احتمال أنه ليس سوى صورة وهمية غادرة يحاول تاريو أو جاف ممارستها عليه. ومع صدق أسلوب وكلمات رامي السهام، وما أبداه كمقاتل، تعذر كارثوريس أن يجد في قلبه شعورًا بالشك فيه.

وفي النهاية، وافق كارثوريس أن يرافقه الأودوار العاري، وأخذا معًا يقتفيان أثر ثوفيا وكومال.

قادهم الأثر إلى قاع البحر، ثم اختفى كما توقع كارثوريس. لكن اتجاه الأثر كان يشير إلى آنتور، ولذا تحول الاثنان نحوها.

كانت رحلة طويلة وشاقة، ومحفوفة بالعديد من المخاطر. لم يكن بمقدور رامي السهام أن يتحرك بنفس وتيرة كارثوريس، حيث تحمله عضلاته بسرعة كبيرة على هذا الكوكب الصغير الذي تقل قوة جاذبيته كثيراً عن قوة الجاذبية في كوكب الأرض. يصل متوسط حركة الشخص المريخي خمسين ميلاً في اليوم، لكن ابن جون كارتر يمكنه بسهولة أن يقطع مائة ميل أو أكثر إذا قرر أن يهجر رفيقه الجديد.

كانا طول الطريق في خطر دائم من أن تكتشفهما عصابات التوركواس المتجولة، لا سيما قبل وصولهما إلى حدود توركواس.

كان الحظ حليفهما. فعلى الرغم من رصدهما لكتيبتين من الرجال الخُضر الوحشيين، لم تقع أعين الكتيبتين عليهما.

شاهدا عن بُعد، في صباح اليوم الثالث، القباب اللامعة لآنتور. أجهد كارثوريس عينيه طوال الرحلة بحثًا عن ثوفيا والبانث الضخم؛ لكنه لم يلمح بعد أي شيء يعطيه الأمل.

رأى الرجلان في هذا الصباح، في منتصف الطريق بينهما وبين آنتور، هيئتين صغيرتين تتحركان في اتجاه المدينة. راقباهما بعناية للحظة، ثم قفز كارثوريس، بناء على اقتناعه، إلى الأمام وهو يركض بسرعة، وأعقبه كار كوماك بأسرع ما يستطيع.

صاح الهيليومي لجذب انتباه الفتاة، التي استدارت ووقفت تطلع إليه. وقف إلى جوارها البانث الضخم، وأذناه مرفوعتان، يرقب الرجل الذي يقترب.

لم تتعرف ثوفيا بعد على كارثوريس، على الرغم من أنها كانت تبدو مقتنعة أنه هو؛ لأنها وقفت تنتظر دون أي علامة على الخوف.

رآها الآن تشير نحو الشمال الغربي خلفه. أدار عينيه في الاتجاه الذي أشارت إليه، دون أن يقلل سرعته.

كان يركض خلفه بصمت على الغطاء النباتي الكثيف، على مسافة نصف ميل، عشرات المحاربين الخُضر الشرسين، متجهين نحوه فوق حيواناتهم الثوات القوية لمهاجمته.

كان كار كوماك على يمينهم، عاريًّا وغير مسلح، ويركض ببسالة صائحًا تجاه كارثوريس لتحذيره؛ حيث اكتشف لتوه أيضًا هذه المجموعة الصامتة تقترب بسرعة مهددة، برماحها المسننة وسيوفها الطويلة جاهزة.

صاح كارثوريس إلى اللوثاري لتحذيره كي يتراجع، فهو يعرف أن الرجل ليس في وسعه سوى التضحية بلا جدوى بحياته بوضع نفسه، وهو غير مسلح، في مسار المتوحشين القساة عديمي الرحمة.

لكن كار كوماك لم يتردد أبدًا. وبصيحات التشجيع لصديقه الجديد، تقدم مسرعًا نحو أمير هيليوم. قفز قلب الرجل الأحمر أمام هذه الشجاعة والتضحية بالنفس. وشعر بالأسف؛ لأنه لم يفكر في إعطاء كار كوماك أحد سيوفه، ولكن فات أوان محاولة القيام بذلك؛ لأنه إذا انتظر أن يلحق به اللوثاري أو يعود هو لملاقاته، سيصل التوركواسيون إلى ثوفيا قبل أن يتمكن من تحقيق ذلك.

وحتى إن كان الأمر كذلك، فسيكون سباقًا حول مَن يصل إليها أولاً.

أدار وجهه نحوها ثانية. ورأى من طريق آنتور، قوة جديدة تسرع نحوها: طائرتان حربيتان من الحجم المتوسط. وتمكن، حتى من على هذه المسافة منه، تمييز الشعار على مقدماتهما.

يبدو أمل ثوفيا البتارثية ضئيلاً الآن، في واقع الأمر. يسرع نحوها المحاربون المتوحشون من جحافل توركواس من أحد الاتجاهات، ويتوجه نحوها من الاتجاه الآخر أعداء لا يقلون شراسة، على شكل مخلوقات أستوك، أمير دوسار، بينما لا يدافع عنها سوى بانث ومحارب أحمر ورامي سهام أعزل. كانت في محنة يائسة تمامًا، وخسرت قضيتها حتى قبل أن يبدأ النزاع.

عندما شاهدت ثوفيا كارثوريس يقترب، انتابها ثانية ذلك الشعور بالراحة الكامل لإلقاء المسؤولية على عاتقه، والخوف الذي أحسته في مناسبة سابقة. ولم تكن قادرة على التفكير، حيث لا يزال عقلها يحاول إقناع قلبها أن أمير هيليوم كان متورطًا في اختطافها من بلاط والدها. لم تكن تعرف سوى أنها شعرت بالسعادة عندما كان إلى جوارها، وأنها تشعر معه أن كل شيء يبدو ممكنًا؛ حتى الأمور المستحيلة، مثل الهرب من مأزقها الحالي.

توقف أمامها الآن لاهثًا. أضاءت ابتسامة تشجيع جسورة وجهه.

همس: «تشجعي أميرتي».

ومضت في ذاكرة الفتاة مناسبة استخدامه لتلك الكلمات نفسها- في قاعة عرش تاريو اللوثاري، عندما بدأ انزلاقهما إلى أسفل الأرض الرخامية نحو مصير مجهول.

لم توبخه حينذاك لاستخدام هذه الكلمات المألوفة، كما لم توبخه الآن، على الرغم من أنها كانت موعودة لشخص آخر. وتعجبت من نفسها، والدم يتدفق في وجهها لشعورها بالقيام بشيء مشين؛ ففي برسوم، من الـمُخجِل أن تستمع امرأة إلى هاتين الكلمتين من شخص آخر غير زوجها أو خطيبها.

لاحظ كارثوريس ذلك، وندم على كلماته. لم تبقَ سوى لحظات قبل أن ينقضَّ المحاربون الخُضر عليهما.

قال بصوت منخفض: «أرجو أن تسامحيني! فعذري هو حبي الكبير لكِ، واعتقادي بأن ما يتبقى لي من حياة لا يزيد عن لحظة»، ثم التفت بعد هذه العبارة ليواجه المحاربين الخُضر.

كان الخُضر يهاجمون برماح مسننة، وعندما اقترب أحدهم، قفز

كارثوريس إلى أحد الجانب، وترك الثوات الضخم وراكبه يعبران دون أن يلحق بهما أذى، ثم سدد ضربة جبارة بسيفه الطويل شطرت جسد الرجل الأخضر إلى نصفين.

وفي اللحظة نفسها، قفز كار كوماك وأمسك بيديه العاريتين ساق راكب ضخم آخر. أسرعت بقية المجموعة نحو ركن قريب، وترجلوا جميعًا لاستخدام سيوفهم الطويلة المفضلة. لمست طائرات دوسار البساط الأصفر الناعمة لقاع البحر، واندفع من داخلها خمسون مقاتل. وهنا اندفع كومال نحو هذا البحر المتلاطم من السيوف البتارة القاسية.

* * *

الفصل (11)

الرجال الخُضر والقرود البيضاء

سدد أحد التوركواس بسيفه ضربة خاطفة إلى جبهة كارثوريس. رأى ذراعين ناعمتين حول رقبته، وشفاهًا دافئة قريبة من شفتيه، قبل أن يفقد وعيه.

لم يخمن كم من الوقت بقي هناك راقدًا وهو فاقد الوعي. وعندما فتح عينيه، كان بمفرده، وإن تناثرت حوله جثث الموتى من الرجال الخُضر ورجال دوسار، وجثة البانث الضخم ملقاة بجانبه.

لم يجد ثوفيا، كما لم يجد جثة كار كوماك بين القتلى.

شق كارثوريس طريقه ببطء وضعف، نتيجة للدماء التي فقدها، نحو آنتور، ووصل إلى مشارفها عند الظلام.

كان بحاجة إلى المياه أكثر من أي شيء آخر، ولذا واصل طريقه عبر درب واسع نحو الساحة المركزية الكبيرة، حيث يعرف أن بإمكانه العثور على السائل الثمين في مبنى نصف مُدمَّر في مواجهة القصر الكبير للجيداك القديم الذي حَكَم هذه المدينة الجبارة في يوم ما.

شعر بالانزعاج والإحباط من تسلسل الأحداث التي يبدو أنها مُقدَرة مسبقًا لإعاقة كل محاولة يبذلها لخدمة أميرة بتارث، ولم يُلقِ بالاً بالبيئة المحيطة، وواصل سيره عبر المدينة المهجورة كأنما لا توجد قرود بيضاء كبيرة مختفية في ظلال الأكوام السوداء التي يكتنفها الغموض وتحيط بالطرق الواسعة والميدان الكبير.

وإذا كان كارثوريس لم يُلقِ بالاً إلى البيئة المحيطة، فهناك أعين أخرى كانت تراقب دخوله إلى الساحة، وتتبع خطاه البطيئة نحو كومة الرخام التي يسكنها نبع صغير، شبه مخنوق، يصعب الحصول على مياهه إلا بحفر حفرة عميقة في الرمال الحمراء التي تغطيه.

ما إن دخل الهيليومي إلى المبنى الصغير، حتى ظهرت من مدخل القصر دزينة من عشرة أجسام قبيحة تسرع نحوه بلا ضجيج عبر الساحة.

ظل كارثوريس في المبنى لمدة نصف ساعة، حفر وحصل على بعض قطرات المياه القليلة الضرورية التي أثمر عنها جهده، ثم نهض وغادر المكان ببطء. وبمجرد تجاوزه عتبة المبنى، هاجمته دزينة المحاربين التوركواسيين.

لم يتح له الوقت سحب سيفه الطويل؛ لكن خنجره الطويل النحيل سرعان ما طار من عتاده. وما إن انخفض كارثوريس أسفلهم، حتى توقف أكثر من قلب أخضر عن الخفقان من طعنات الخنجر الحاد.

تغلبوا عليه، وأبعدوا عنه أسلحته. لكن تسعة فقط من المحاربين الاثني عشر هم مَن بقوا ليعبروا الساحة بهذه الجائزة.

قاموا بجر سجينهم بخشونة إلى حُفر القصر، حيث قيدوه في الظلام المطبق بسلاسل ترتبط بالبناء الحجري الصلب للجدار من خلال وصلات صدئة.

وقالوا: «سيتحدث معك ثار بان غدًا، فهو نائم الآن. لكنه سيسعد كثيراً عندما يعرف مَن الذي كان يتجول بيننا، كما سيسعد هورتان جور كثيراً عندما يسحب ثار بان أمامه الأحمق المجنون الذين تجرأ على طعن الجيداك العظيم بسيفه».

ثم تركوه للصمت والظلام.

جلس كارثوريس القرفصاء، لفترة بدت ساعات، على أرضية سجنه الحجرية. سند ظهره إلى الجدار الذي غاص داخله ترباس ضخم لتأمين السلسلة التي تقيده.

تناهى إلى سمعه، وسط السواد الغامض أمامه، صوت أقدام عارية تتحرك خلسة على الأرضية الحجرية، وتقترب تدريجيًّا إلى حيث يجلس بلا سلاح ودون قدرة على الدفاع عن نفسه.

مرت دقائق، كأنها ساعات، من صمت كالقبر، أعقبها تكرار الاحتكاك الغريب لأقدام عارية تتسلل نحوه بحذر.

وأخيراً سمع صوت اندفاع مفاجئ للأقدام العارية عبر السواد الفارغ؛ ثم سمع، على مسافة قصيرة، صوت شجار وتنفس ثقيل، كما سمع ما تصور أنها لعنات يتمتم بها رجل يقاتل احتمالات كبيرة؛ ثم صوت سلسلة، وضوضاء احتكاك إحدى الوصلات مقطوعة بحجر.

ساد الصمت ثانية، وإنما للحظة فقط. يسمع الآن مرة أخرى صوت أقدام تقترب منه بهدوء. تصور أنه ميّز أعينًا شريرة تلمع نحوه بخوف خلال الظلام، وكان يعرف أن بإمكانه سماع تنفس ثقيل لرئات قوية.

وهنا، اندفعت نحوه العديد من الأقدام، وانقضت عليه هذه «الأشياء».

أمسكت أيد تنتهي بأصابع تشبه أصابع الإنسان بحلقه وذراعيه وساقيه. هاجمته أجساد مكسوة بالشَّعر، قاتلها ببشرته الملساء في ظل صمت كئيب؛ قاتل هؤلاء الخصوم المروعين في ظلمات حفر آنتور القديمة.

كانت عضلات كارثوريس الهيليومي قوية كالعملاق، لكنه كان عاجزًا كامرأة ضعيفة في براثن هذه المخلوقات غير المرئية في ليل تلك الحفرة الجهنمي.

على أنه لم يكفَّ عن القتال، بل أخذ يوجه ضربات عقيمة ضد صدور ضخمة كثيفة الشعر لا يراها؛ لكنه يشعر بحلوقها السميكة تحت أصابعه، ولعابها يسيل على خده، وتدخل أنفاسها ورائحة فمها الكريهة إلى أنفه.

الأنياب أيضًا، كان يعرف أن أنيابها القوية قريبة. لكنه لم يستطع أن يُخمن سبب عدم غرسها لأنيابها في جسده.

وأخيرًا، تمكن من إدراك مدى قوة اندفاع عدد من خصومه جيئة وذهابًا على السلسلة الضخمة التي تقيده. والآن، جاءه نفس الصوت الذي سمعه على مسافة قصيرة قبل تعرضه للهجوم بوقت قصير. لقد انفصلت سلسلته، وارتدت نهايتها المكسورة نحو الجدار الحجري ثانية.

تم الإمساك به الآن من الجانبين وسحبه بسرعة خلال ممرات مظلمة، نحو مصير لا يستطع حتى تخمينه.

تصور في البداية أن خصومه من قبيلة توركواس، لكن أجسامهم المكسوة بالشَّعر نفت هذا الاعتقاد. وأخيرًا أصبح موقنًا إلى حد بعيد من هوية خصومه، مع أنه لم يتصور سبب عدم قتلهم له والتهامه على الفور.

وبعد نصف ساعة أو أكثر من حركة سريعة خلال ممرات تحت الأرض -وهي من السمات المميزة لجميع مدن برسوم، سواء الحديثة أو القديمة- ظهر خاطفوه فجأةً تحت ضوء القمر في الفناء، بعيدًا عن الساحة المركزية.

أدرك كارثوريس على الفور أنه في قبضة قبيلة من القرود البيضاء الكبيرة في برسوم. كل ما أثار شكوكه من قبل حول هوية مهاجميه كانت صدورهم غزيرة الشَّعر؛ فالقرود البيضاء بلا شَعر على الإطلاق، باستثناء خصلة كبيرة تنتصب فوق رؤوسهم.

أدرك الآن سبب خديعته؛ إذ يوجد على طول صدر كل منهم شرائط من جلد مُشعِر، عادة من جلد حيوان البانث، لمحاكاة عتاد المحاربين الخُضر الذين يعسكرون كثيراً في تلك المدينة المهجورة.

كان كارثوريس قد قرأ سابقًا عن قبائل القرود التي يبدو أنها تتقدم ببطء نحو مستويات أعلى من الذكاء. أدرك أنه وقع في أيدي هؤلاء. ولكن، ما نواياهم نحوه؟

طاف ببصره حول الفناء، ورأى خمسين وحشًا بشعًا يجلسون القرفصاء، وعلى مسافة صغيرة منه يوجد إنسان آخر تحت حراسة مشددة.

وعندما التقت عيناه بالأسير، أضاءت ابتسامة وجه الأسير وصاح قائلاً: «كاور، أيها الرجل الأحمر!»- كان كار كوماك، رامي السهام.

صاح كارثوريس: «كاور! كيف جئت إلى هنا، وماذا حل بالأميرة؟».

أجاب كار كوماك: «هبط رجال حُمر مثلك من سفن قوية تبحر في الهواء، مثلما كانت السفن الكبيرة في عصري تبحر عبر البحار الخمسة، وحاربوا رجل توركواس الخُضر، كما قتلوا كومال، إلهة لوثار. تصورت أنهم أصدقاؤك، وكنت سعيدًا عندما حمل مَن نجا منهم من المعركة الفتاة الحمراء على إحدى السفن وأبحروا بعيدًا بأمان في الهواء».

«ثم أمسكني الرجال الخُضر، وأخذوني إلى مدينة كبيرة فارغة، حيث قيدوني بالسلاسل إلى جدار في حفرة سوداء. وبعد ذلك، جاء هؤلاء وجروني إلى هنا. والآن، ماذا عنك أيها الرجل الأحمر؟».

قص عليه كارثوريس كل ما أصابه، وخلال حديثهما تجمع القردة وجلسوا القرفصاء حولهم وهم يراقبونهم بإمعان.

سأل رامي السهام: «ماذا نفعل الآن؟».

أجابه كارثوريس بأسى: «يبدو أننا في حالة ميؤوس منها. إن هذه المخلوقات تولد آكلة للحم البشر، ولا أعرف لماذا لم يلتهمونا حتى الآن. انظر!»، قال هامسًا: «هل ترى؟ النهاية قادمة».

نظر كار كوماك في الاتجاه الذي أشار إليه كارثوريس، ورأى قردًا ضخمًا يتقدم ومعه هراوة قوية.

قال كارثوريس: «إنهم يفضلون قتل فرائسهم».

سأله كار كوماك: «أيجب أن نموت دون صراع؟».

أجابه كارثوريس: «كلا، على الرغم من أنني أعرف أن أفضل ما يمكننا من دفاع سيكون بلا جدوى ضد هؤلاء المتوحشين الأشداء! أوه، كم أتمنى أن أحصل على سيفي الطويل!».

قال كار كوماك: «أو قوس جيد»، ثم أضاف، «وأوتان من الرماة».

وهنا حاول كارثوريس الوقوف على قدميه، لكن حارسه منعه بخشونة.

صاح: «كار كوماك! لماذا لا تفعل مثل تاريو وجاف؟ لم يكن لديهما رماة غير مَن تصنعهم مخيلتهما. أنت تعرف بالتأكيد سر قوتهما. يمكنك بالمثل استدعاء أوتانك، كار كوماك!».

اتسعت عينا اللوثاري، ونظر إلى عينَي كارثوريس في دهشة تحمل معنى فهمه لفحوى الفكرة.

وتمتم قائلاً: «ولمَ لا؟».

كان القرد الوحشي، حامل الهراوة القوية، يتحرك في اتجاه كارثوريس. كانت أصابع الهيليومي تعمل، مع إبقاء عينيه على جلاده. ركز كار كوماك بصره النفّاذ على القرود. وكان العرق الذي يتصبب على حاجبيه المقطبين يدل على الجهد الذي يبذله عقله.

كان المخلوق المتجه لقتل الرجل الأحمر على بُعد ذراع تقريبًا من فريسته، عندما سمع كارثوريس صيحات غليظة الصوت تأتي من الجانب الآخر للفناء. اتجه بصره، وبصر القرود الجاثمين والشيطان حامل الهراوة، في اتجاه الصوت. شاهدوا مجموعة من الرماة الأشداء تسرع نحوهم من مدخل مبنى قريب.

قفزت القرود واقفة وهي تطلق صيحات الغضب لمواجهة هذا الهجوم. التقى بهم وابل السهام في منتصف المسافة، وسقط عشرات منهم بلا حياة على الأرض. اشتبك

باقي القرود مع خصومهم. وانصب كل اهتمامهم على المهاجمين، حتى الحراس تركوا السجينين للانضمام إلى المعركة.

همس كار كوماك: «هيا! يمكننا أن نهرب الآن، بينما يثير الرماة انتباههم».

صاح كارثوريس، الذي انتفضت طبيعته الوفيه عند سماع هذا الاقتراح البسيط: «ونترك هؤلاء الزملاء الشجعان بلا قائد!».

ضحك كاركوماك.

وقال: «أنسيت، إنهم ليسوا سوى فراغ، من نسج خيالي. وسيتلاشون دون أن يصابوا بأي أذى، عندما تنتفي حاجتنا إليهم. فليفخر بك أسلافك الأوائل أيها الرجل الأحمر، إن واتتك هذه الفكرة الآن! فمن المستحيل أنني كنت لأتخيل أن أمارس نفس القدرة التي جلبتني إلى حيز الوجود».

قال كارثوريس: «أنت على حق. ومع ذلك، أكره أن أتركهم، على الرغم من عدم وجود أي شيء يمكن القيام به». ومضى الاثنان ليخرجا من الفناء، ويشقان طريقهما إلى أحد الطرقات الواسعة. تسللا خلسة في ظلال المبنى، نحو الساحة المركزية الكبرى التي كان المحاربون الخُضر يشغلون مبانيها عندما زارا المدينة مهجورة.

توقف كارثوريس عندما وصلا إلى حافة الساحة.

وهمس قائلاً: «انتظر هنا، سأذهب لإحضار حيوانين ثوات؛ فلا يمكن أن نأمل في الهرب من براثن هذه الشياطين الخضراء إذا واصلنا سيراً على الأقدام».

للوصول إلى الفناء الذي توجد فيه حيوانات الثوات، كان من الضروري أن يمر كارثوريس عبر أحد المباني التي تحيط بالساحة. لم يكن بمقدوره تخمين أي منها مسكون وأي منها فارغ؛ ولذا كان مضطراً إلى توخي الحذر واقتناص فرصة الموقع الذي قد يسمع فيه أنين البهائم وشجارها الذي لا يهدأ.

قادته الصدفة، عبر مدخل مظلم، إلى غرفة كبيرة تضم دزينة أو أكثر من المحاربين الخُضر يرقدون ويغطيهم حرير وفراء النوم. عبر كارثوريس ردهة قصيرة تصل بين باب المبنى والغرفة الكبيرة وراءه، وهنا أدرك وجود شيء أو شخص في الردهة التي عبر منها لتوه.

سمع رجلاً يتثاءب، ورأى خلفه هيئة حارس ينهض من مكان غفوته، ويتمطع استكمالاً لاستيقاظه.

أدرك كارثوريس أنه مر بالقرب من المحارب، على مسافة قدم تقريبًا، وهذا دون شك ما جعله يستيقظ. التراجع الآن مستحيل. لكن المرور خلال هذه الغرفة التي تغص بمحاربين نيام يبدو مستحيلاً بالقدر نفسه.

هز كارثوريس كتفيه العريضتين واختار أهون الشرور، ودخل الغرفة بحذر. وجد على يمينه العديد من السيوف والبنادق والرماح تستند بميل

على الجدار- إنها أسلحة إضافية كدسها المحاربون بجوارهم بحيث تكون في متناول إيديهم إذا ما أيقظهم من سباتهم فجأة أي إنذار ليلي. كان كل منهم ينام وبجواره سلاحه، الذي لم يكن بعيدًا أبدًا عن صاحبه منذ طفولته وحتى موته.

أثار مرأى السيوف حكة في راحة يد الشاب. خطا نحوهم بسرعة، واختار سيفين قصيرين، واحد له والثاني لكار كوماك، كما أخذ أيضًا بعض الأغطية لرفيقه العاري.

تحرك مباشرة عبر وسط الشقة، بين التوركواسيين النيام.

لم يتحرك أي رجل منهم إلى أن أكمل كارثوريس أكثر من نصف الرحلة القصيرة المحفوفة بالمخاطر، ثم تقلب أحد الرجال بقلق فوق حرير وفراء نومه، بحيث أصبح مباشرة في طريق كارثوريس.

توقف كارثورس، وفي يده أحد السيوف القصيرة في وضع الاستعداد في حال إذا استيقظ المحارب. استمر الرجل الأخضر يتقلب في قلق، للحظات بدت دهرًا للأمير الشاب، ثم انطلق فجأة على قدميه، كأنما دفعه زنبرك، وواجه الرجل الأحمر.

سدد له كارثوريس ضربة على الفور، ولكن ليس قبل أن يصدر من بين شفاه الطرف الآخر صوت كالنخير. وفي لحظة، سادت الغرفة حالة من الاضطراب. نهض المحاربون، وهم يمسكون أسلحتهم ويتصايحون لمعرفة تفسير هذا الاضطراب.

بالنسبة لكارثوريس، كان كل شيء داخل الغرفة مرئيًا بوضوح في الضوء الخافت المنعكس من الخارج؛ فقد كان القمر الأبعد في ذروته. أما بالنسبة لأعين الرجال الخُضر، الذين استيقظوا لتوهم، فلم تكن الأشياء قد اتخذت بعد أشكالها المألوفة؛ ولذا لم يروا سوى أشكال غير واضحة تمامًا لمحاربين يتحركون في الشقة.

تعثر أحدهم الآن في جثة زميلهم الذي قتله كارثوريس. انحنى الرجل، وجاءت يده فوق الجمجمة المشقوقة. شاهد حوله هيئات عملاقة لرجال خُضر آخرين، وبالتالي قفز إلى الاستنتاج الوحيد الذي كان متاحًا أمامه.

صاح: «الثورد![71] الثورد يهاجمون! انهضوا يا محاربي توركواس، ووجهوا السيوف داخل قلوب أعداء توركواس القدماء!».

بدأ الرجال الخُضر على الفور يمتشقون سيوفهم، وقد ثارت شهوتهم الوحشية للمعركة، للقتال والقتل والموت بسيوف باردة يدفنونها في أجساد أعدائهم! آه، هذه كانت سعادتهم القصوى.

أدرك كارثوريس بسرعة خطأهم، وقرر الاستفادة منه. كان يعرف أنهم لن يستمروا في الشعور بمتعة القتل عند اكتشافهم لخطئهم، إلا إذا انصرف انتباههم إلى السبب الحقيقي للمشاجرة التي وقعت. ولذا لم يهدر وقته في استمرار عبور الغرفة إلى مدخلها عند طرفها الآخر الذي يفتتح على الفناء الداخلي، حيث تئن حيوانات الثوات الوحشية وتتقاتل فيما بينها.

لم تكن مهمته يسيرة؛ فالإمساك بأحد هذه الوحوش الغاضبة العنيدة عادة ليس بالأمر الهين حتى في أفضل الظروف. والآن، حيث الصمت والوقت اعتبارات مهمة، يبدو الأمر ميؤوسًا منه تمامًا لرجل أقل حيلة وتفاؤلاً من ابن أمير الحرب العظيم.

لقد تعلم الكثير من والده حول صفات هذه الحيوانات القوية، كما تعلم أيضًا من تارس تاركاس عندما زار هذا الجيداك الأخضر العظيم وشعبه في ثارك. ولذا أخذ يركز كل تفكيره على ما عرفه عنهم من الآخرين ومن تجربته الخاصة؛ فقد امتطاهم أيضًا وتعامل معهم مرات عديدة.

بدا أن طبع ثوات التوركواس أكثر حدة من طبع أبناء عمومتهم الأشداء في ثارك ووارهون، كما بدا لدقائق غير مرجحٍ أن يفلت من هجوم وحشي من ثورين عجوزين يدوران وهما يئنان خلال تحركهما حوله؛ لكنه نجح أخيراً في الاقتراب من أحدهما بما يكفي للمسه. هدأ المخلوق عندما شعر بيد كارثوريس على جلده الأملس، ثم استجاب لأوامر الرجل الأحمر عبر توارد الخواطر وجثا على ركبتيه.

وفي لحظة أصبح كارثوريس على ظهره، ووجهه نحو البوابة الكبرى التي تؤدي عبر مبنى كبير من الفناء إلى أحد أطراف طريق خلفه.

---

(71) الثورد: جماعة تسكن في مدينة مريخية تُسمَّى ثورد، وهم في عداء دائم مع التوركواسيين - http://barsoom.wikia.com/wiki/Thurd-المترجمة.

سار الثور الآخر، وهو يئن في غضب، في أعقاب زميله. لا يوجد لجام على أي منهما؛ فالإيحاء هو ما يتحكم تمامًا في هذه المخلوقات الغريبة، إن أمكن أصلاً التحكم فيها.

وحتى في أيدي الرجال الخُضر العمالقة، سيكون زمام اللجام بلا جدوى ضد وحشية وجنون وقوة الثوات الهائلة؛ ولذا لا يمكن توجيه الحيوان إلا بتلك القوة الغريبة، قوة توارد الخواطر، التي تعلم رجال المريخ استخدامها للتواصل بطريقة بدائية مع الكائنات الأقل مرتبة على كوكبهم.

تمكن كارثوريس بصعوبة من حث الوحشين حتى وصلوا إلى البوابة، ثم انحنى ورفع مزلاجها. ثم وضع الثواث الذي يركبه كتفه الضخم على الألواح الخشبية ودفعها للأمام، وفي لحظة أصبح كارثوريس ومعه الحيوانان في الخارج، يتحركون بصمت على الطريق الموصل إلى حافة الساحة حيث اختبأ كار كوماك.

وهنا وجد كارثوريس صعوبة كبيرة في إخضاع الثوات الثاني. ونظرًا لأن كار كوماك لم يركب من قبل أحد هذه الوحوش، بدت المهمة يائسة؛ لكن رامي السهام تمكن أخيراً من امتطاء ظهر الحيوان الأملس، واتخذ الوحشان طريقهما مرة أخرى بهدوء فوق الدروب التي تنمو عليها الطحالب، وفي اتجاه قاع البحر خارج المدينة.

واصل الرجلان طريقهما فوق الثوات طوال تلك الليلة، وفي اليوم التالي والليلة الثانية، نحو الشمال الشرقي. لم تظهر أي علامة على مطاردة. وفي فجر اليوم الثاني، رأى كارثوريس على مسافة منهما شرائط تلوح من أشجار كبيرة، وهي علامة على أحد الممرات المائية الطويلة في برسوم.

ترجلا على الفور واقتربا من المنطقة المزروعة سيراً على الأقدام. تخلص كارثوريس أيضًا من عتاده، أو جزء منه؛ لأنه قد يؤدي إلى التعرف عليه كهيليومي، أو أنه من الدم الملكي؛ فلم يكن يعرف ما الأمة التي ينتمي إليها هذا الممر المائي، ومن الأفضل دائمًا في المريخ أن تفترض أن كل رجل وكل أمة من خصومك إلى أن تتأكد من عكس ذلك.

كان الوقت منتصف الضحى تقريبًا عندما دخل الاثنان أخيراً إلى طريق يخترق المناطق المزروعة على مساحات منتظمة، ثم يربط المساحات القاحلة على الجانبين بطرق بيضاء وواسعة، تمضي خلال المركز من أحد أطراف أراضي المزارع البعيدة التي تشبه خيطًا ممتدًّا إلى طرفها الآخر.

كان الجدار المرتفع المحيط بالحقول بمثابة حماية في مواجهة أي غارة مفاجئة من الجحافل الخضراء، فضلاً عن أنه يبعد حيوانات البانث المتوحشة وغيرها من آكلات اللحوم عن الحيوانات الأليفة والبشر في المزارع.

توقف كارثوريس أمام أول بوابة وصل إليها، وطرق عليها طالبًا الدخول. حياهما بترحاب الشاب الذي أجاب على النداء، وتطلع بتعجب إلى بشرة رامي السهام البيضاء وشعره الكستنائي.

وبعد أن استمع إلى سردهما الجزئي لهروبهما من التوركواسيين، دعاهما إلى الداخل واقتادهما إلى منزله وأمر الخدم بإعداد الطعام لهما.

وخلال انتظارهما في غرفة المعيشة اللطيفة ذات السقف المنخفض في منزل المزرعة، إلى أن تجهز الوجبة، تحدث كارثوريس مع مضيفه حتى يعرف جنسيته، ويتعرف على الأمة التي يقع تحت سيادتها المجرى المائي الذي قادته إليه الظروف.

قال الشاب: «أنا هال فاس، ابن فاس كور من دوسار، نبيل في حاشية أستوك، أمير دوسار. وحاليًا، أنا دوّار[72] الطريق في هذه المنطقة».

كان كارثوريس سعيدًا جدًّا لأنه لم يكشف عن هويته. وعلى الرغم من أنه ليست لديه أي فكرة عن أي شيء حدث منذ مغادرته هيليوم، أو أن أستوك هو سبب محنته الأساسي، فهو يعرف جيدًا أن الدوساريين لا يكنون له الحب، وأنه لا يمكن أن يأمل في أي مساعدة داخل الأراضي المملوكة لدوسار.

سأله هال فاس: «ومَن أنت؟ يمكنني القول من مظهرك أنك مقاتل، ولكني لا أرى أي شارات على عتادك. هل يمكن أن تكون بانتان؟»[73].

أصبح شائعًا في برسوم الآن وجود جنود متجولون يسعون إلى الثروة، حيث معظم الرجال يحبون القتال. وهم يبيعون خدماتهم أينما توجد حرب؛ وعندما لا توجد حرب منظمة بين الأمم الحمراء، فهم ينضمون أحيانًا لفترات قصيرة إلى إحدى الحملات العديدة التي تُرسل باستمرار ضد الرجال الخُضر لحماية المجاري المائية التي تعتبر أكثر المناطق قفرًا على الوكب.

---

(72) دوار: رتبة مريخية تعادل رتبة كابتن (نقيب -http://barsoom.wikia.com/wiki/Dwar -(المترجمة.

(73) بانتان: هو جندي مريخي مرتزق، يتنقل من مكان لآخر ويقاتل لصالح مَن يرغب في شراء خدماته - http://barsoom.wikia.com/wiki/Panthan-المترجمة.

وعندما تنتهي خدمتهم، يتخلصون من معدن الأمة التي قدموا لها خدماتهم إلى أن يجدوا قيادة جديدة. وفي الفواصل الزمنية بين المعارك، لا يرتدون أي شارات ويكفي عتادهم الحربي وأسلحتهم شاهدًا على إمكانية استدعائهم.

كان اقتراح الشاب جيدًا، واقتنص كارثوريس الفرصة التي أتاحها له. لكنها كانت تنطوي على عيب واحد. ففي فترات الحرب، يضطر البانثان إلى ارتداء شارات الأمة المحاربة التي يقعون في نطاقها، والقتال مع محاربيها.

كان كارثوريس يعرف أن دوسار ليست في حالة حرب مع أي أمة أخرى، على أنه لا أحد يعرف أبدًا متى تبدأ أي أمة حمراء الحرب مع أمة مجاورة، على الرغم من أن التحالف القوي الكبير الذي يقع والده جون كارتر على قمته قد تمكن من المحافظة على سلام طويل في الجزء الأكبر من برسوم.

أضاءت ابتسامة لطيفة وجه هال فاس عندما أبلغه كارثوريس بمهنته.

وهتف الشاب قائلاً: «هذه مصادفة جيدة أن تأتي إلى هنا، حيث سرعان ما سنحتاج إلى خدماتك. معي الآن والدي فاس كور، الذي جاء هنا لتجنيد قوة من أجل الحرب الجديدة ضد هيليوم».

* * *

الفصل (12)

إنقاذ دوسار

ثوفيا البتارثية، التي تقاتل من أجل أكثر من مجرد حياة ضد شهوة جاف، ألقت لمحة سريعة من فوق كتفها نحو الغابة التي صدر منها هدير شرس. نظر جاف أيضًا.

أثار ما شاهداه تخوفهما. كان كومال، البانث-الرب، يهرع نحوهما وفكاه مفتوحان على اتساعهما!

تُرى مَن الذي اختاره كفريسته؟ أم أنه اختار كليهما على حد سواء؟

لم يطل انتظارهما؛ فعلى الرغم من أن اللوثاري حاول وضع الفتاة بينه وبين الأنياب الرهيبة، فقد وصل إليه الوحش الضخم أخيراً.

صرخ وحاول الفرار نحو لوثار، بعد أن دفع بثوفيا في وجه آكل لحوم البشر. لكن رحلة فراره كانت قصيرة؛ إذ انقض عليه كومال في لحظة، ومزق حلقه وصدره بغضب شيطاني.

وصلت الفتاة إلى جانبهم خلال لحظات، وتمكنت بصعوبة من انتزاع الوحش المجنون بعيدًا عن فريسته. وأخيراً سمح البانث للفتاة أن تقوده إلى داخل الغابة، وهو لا يزال يهدر ويُلقي نظرات جائعة نحو جاف.

مضت ثوفيا قدمًا، وبجوارها حاميها العملاق، بحثًا عن الممرات عبر المنحدرات، في محاولة بطولية تبدو مستحيلة للوصل إلى بتارث البعيدة التي تقع على مسافة تزيد على سبعة عشر ألف هاد في برسوم الوحشية.

لم تستطع أن تصدق أن كارثوريس تعمد هجرها، وظلت تراقبه؛ لكنها قطعت مسافة إلى الشمال بحثًا عن النفق، وتجاوزت الهيليومي؛ لأنه عاد إلى لوثار بحثًا عنها.

واجهت ثوفيا صعوبة في تحديد الموضع الدقيق لأمير هيليوم في قلبها. لم تستطع أن تعترف حتى لنفسها أنها تحبه، ومع ذلك سمحت له أن يستخدم كلمة العاطفة التي يجب على أي فتاة في برسوم أن تصم آذانها عند سماعها من شفاه أخرى غير شفاه زوجها أو خطيبها: «أميرتي».

كان كولان تيث، جيداك كاول، الذي كانت مخطوبة له، يحظى باحترامها وإعجابها. إذا كانت قد استسلمت لرغبة والدها، بسبب غيظها من أن الهيليومي الوسيم لم يستغل زياراته لبلاط والدها لطلب يدها، إلا أنها متأكدة تمامًا أنه يفكر فيها منذ ذلك اليوم البعيد عندما جلسا معًا على المقعد المنحوت في حديقة الجيداك الرائعة التي تزين الفناء الداخلي لقصر سالينسوس أوول في مدينة كادابرا؟

هل تحب كولان تيث؟ حاولت بشجاعة أن تعتقد أنها تحبه؛ لكن عينيها تطوفان في الوقت نفسه عبر الظلام بحثًا عن هيئة المحارب النحيل، أسود الشعر، ذي الأعين الرمادية. كان كولان تيث أسود الشعر، لكن عينيه بنيتان.

كان الظلام قد خيّم تقريبًا عندما وجدت مدخل النفق. مرت بأمان خلال التلال وراءه، وهنا توقفت تحت ضوء القمرين المريخيين الساطعين، لتضع خطة تحركها التالية.

هل يجب أن تنتظر هنا على أمل أن يعود كارثوريس بحثًا عنها؟ أو عليها أن تواصل طريقها في اتجاه الشمال الشرقي نحو بتارث؟ أين كان سيذهب كارثوريس أولاً بعد أن يترك وادي لوثار؟

أعطاها جفاف حلقها ولسانها الجواب: نحو آنتور والمياه. حسنًا، تذهب أولاً أيضًا إلى آنتور، حيث تجد أكثر من الماء الذي تحتاجه.

لم تشعر بالخوف كثيراً، نظرًا لوجود كومال بجوارها؛ فهو سيحميها من سائر الحيوانات المتوحشة. ستهرب القرود البيضاء الكبيرة مرتعبة من رؤية البانث الجبار. ربما عليها أن تخشى من الرجال، لكنها يجب أن تنتهز هذه الفرصة وغيرها من الفرص العديدة الأخرى قبل أن تأمل في الوصول إلى بلاط والدها مرة أخرى.

وبعد أن وجدها كارثوريس أخيراً، تعرض لضربة سيف طويل من رجل أخضر، وأخذت ثوفيا تصلي لأن يلحق بها نفس المصير.

أدى مشهد المحاربين الحُمر، الذين يقفزون من طائراتهم، إلى تجدد أملها للحظة، الأمل في أن كارثوريس مغمى عليه فقط وأنهم سوف ينقذونه. وما إن شاهدت معدن دوسار على عتاد المحاربين، وأنهم لا يسعون إلا لأخذها والهرب من هجوم التوركواسيين، حتى استسلمت.

مات كومال أيضًا، مات إلى جانب جسم الهيليومي. أصبحت، في واقع الأمر، بمفردها الآن، لا يوجد مَن يحميها.

سحبها محاربو دوسار إلى سطح أقرب طائرة. التف المحاربون الخُضر حولهم في محاولة لانتزاعها من الحُمر.

وأخيراً تمكن مَن لم يمت في هذا النزاع من الوصول إلى سطحي السفينتين الفضائيتين. اهتزت المحركات وأصدرت صوتًا كالخرير، ودارت المراوح. وسرعان ما انطلقت هذه الزوارق السريعة.

نظرت ثوفيا حولها. وقف رجل بالقرب منها مبتسمًا لها. نظرت إليه مليًّا وتعرفت عليه، ثم دفنت وجهها بين يديها وهي تئن من الرعب والفهم، وغطست على سطح السفينة الخشبي المصقول. لقد كان أستوك، أمير دوسار، هو مَن مال نحوها.

أسرعت طائرات أستوك الدوساري، إذ كان في عظيم الحاجة إلى الوصل لبلاط والده في أسرع وقت ممكن؛ ذلك أن الأساطيل الحربية لهيليوم وبتارث وكاول كانت تتناثر في جميع الأنحاء فوق برسوم. وليس من الجيد بالنسبة لأستوك الدوساري أن يكتشف أي من هذه الأساطيل وجود ثوفيا البتارثية سجينة على سفينته الخاصة.

تقع آنتور عند الدرجة الخمسين جنوب خط العرض، والأربعين شرق هورز -المقر المهجور للثقافة والتعليم في برسوم القديمة- بينما تقع دوسار على مسافة خمس عشرة درجة شمال خط الاستواء، وعشرين درجة من هورز.

وعلى الرغم من أنها مسافة كبيرة، فقد قطعتها الطائرات دون توقف. وقبل وصولهم إلى وجهتهم بفترة طويلة، عرفت ثوفيا العديد من الأشياء التي بددت الشكوك التي هاجمت عقلها لأيام عديدة. بمجرد ارتفاع الطائرة فوق آنتور، تعرفت على أحد أفراد الطاقم بوصفه كان أحد أفراد طاقم الطائرة الأخرى التي أخذتها من حدائق والدها إلى آنتور. كما أن وجود أستوك على الطائرة، حل اللغز كاملاً. لقد اختطفها مبعوثو أمير دوسار، ولا علاقة لكارثوريس بذلك.

ولم ينكر أستوك التهمة عندما واجهته، بل ابتسم وأقر بحبه لها.

وعندما كرر طلبه بالزواج منها، صاحت: «ربما أُفضِّل قردًا أبيض!».

حملق نحوها أستوك بوقاحة.

وقال هادرًا: «ستتزوجينني يا ثوفيا البتارثية، أو أقسم بجدك الأول سأحقق لكِ تفضيلكِ وتتزوجين من قرد أبيض».

لم ترد الفتاة، كما لم يتمكن أستوك من جذبها إلى محادثة خلال ما تبقى من الرحلة.

كان أستوك يشعر -في واقع الأمر- ببعض الخوف من أبعاد النزاع الذي نجم عن اختطافه لأميرة بتارث، كما لم يشعر براحة كبيرة لتحمله وطأة المسؤولية التي تنطوي على الاحتفاظ بمثل هذه السجينة.

انصب تفكيره الوحيد على أخذها إلى دوسار، وهناك يترك والده يتحمل المسؤولية. وفي الوقت نفسه، سيتوخَّى الحرص قدر الإمكان حتى لا يفعل أي شيء يسبب إهانتها، خشية أن يتم القبض عليهم جميعًا ويصبح عليه تفسير معاملته للفتاة أمام أحد الجيداك العظماء الذي تتركز مصلحته عليها.

وصلوا أخيراً إلى دوسار، وأخفى أستوك سجينته في غرفة سرية عالية بالبرج الشرقي لقصره. وجعل رجاله يقسمون على الصمت بشأن هوية الفتاة؛ فلم يكن يريد أن يعرف أحد عما أحضر معه من الجنوب إلى أن يرى والده، نوتوس، جيداك دوسار.

وعندما ظهر في القاعة العامة الكبرى أمام والده، الرجل غليظ الشفاه، فقد شجاعته ولم يجرؤ على إخباره بأنه يخفي الأميرة داخل قصره. تبادر إلى ذهنه اختبار مشاعر والده في هذا الموضوع، وبالتالي أخبره بقصة إلقاء القبض على أحد الذين يزعمون معرفة مصير ثوفيا البتارثية.

وقال: «إذا أمرتني يا مولاي، سأذهب وأمسك بها وأحضرها هنا إلى دوسار».

عبس نوتوس، وهز رأسه.

«لقد فعلت ما يكفي بالفعل لتجعل بتارث وكاول وهيليوم يهاجموننا على الفور إذا ما عرفوا دورك في اختطاف أميرة بتارث. إن نجاحك في تحويل الذنب نحو أمير هيليوم كان من حسن حظك واستراتيجية تحرك بارعة. ولكن إن عرفت الفتاة الحقيقة وعادت إلى بلاط والدها، فستدفع دوسار كلها الثمن؛ ووجودها هنا سجينة بيننا سيكون اعترافًا بالذنب الذي لن ينقذنا أحد من عواقبه. سيكلفني عرشي، يا أستوك، ولست مستعدًّا لذلك».

«إذا كانت لدينا هنا ...»، بدأ الرجل الكهل يفكر، ويكرر هذه العبارة مرارًا وتكرارًا. وصاح بشراسة: «إذا كانت لدينا هنا، أستوك. آه، إذا كانت لدينا هنا، ولا يعرف أحد أنها هنا! ألا يمكنك أن تخمن يا رجل؟ عندئذ سندفن ذنب دوسار مع عظامها إلى الأبد»، هكذا أنهى حديثه في همس ووحشية.

ارتجف أستوك، أمير دوسار.

كان ضعيفًا؛ نعم، لكنه شرير أيضًا. لكن الاقتراح الذي كانت كلمات والده تعنيه ضمنًا جعله يشعر ببرودة ورعب.

يتسم رجال المريخ بالقسوة تجاه أعدائهم؛ لكن تفسير كلمة «الأعداء» يعني عادة الرجال فقط. والاغتيال يثير أعمال الشغب في المدن البرسومية الكبرى؛ لكن قتل امرأة يُعد جريمة لا يمكن تصورها، حتى أشد القتلة المأجورين سيبتعدون عنك في رعب إذا أشرت إليهم بذلك.

يبدو أن نوتوس لم يلحظ الرعب الواضح على ابنه من اقتراحه. وتابع قائلاً:

«أنت تقول أنك تعرف مكان اختباء الفتاة؛ لأنها سُرقت من رجالك في آنتور. إذا وجدتها إحدى القوى الثلاثة، فإن قصتها غير المعتمدة ستكفي لتحويلهم جميعًا ضدنا».

ثم صاح الكهل: «لا توجد سوى طريقة واحدة يا أستوك. يجب أن تعود فورًا إلى مكان اختبائها وتحضرها هنا بسرية. ألا زلت هنا! اذهب، ولا تعد إلى دوسار من دونها!».

كان أستوك، أمير دوسار، يعرف جيدًا مدى انفعال والده الملكي. وكان يعرف أن قلب الطاغية لا يضم نبضة حب واحدة لأي مخلوق.

لقد كانت والدة أستوك من العبيد، ولم يحبها نوتوس أبدًا، ولم يحب أي امرأة أخرى. وحاول في شبابه العثور على عروس في بلاط العديد من جيرانه الأقوياء، لكنَّ نساءهم لم تقبله.

وبعد أن سعت دزينة من فتيات نبلائه إلى الانتحار بدلاً من الزواج منه، قرر أن يكف عن البحث. لكنه تزوج رسميًّا من إحدى إمائه؛ لأنه كان يرغب في ابن يبرز بين الجِد عندما يموت ويجري اختيار جيداك جديد.

انسحب أستوك ببطء من حضرة والده. سار بوجه شاحب وأطرافه مهتزة إلى قصره. وخلال مروره في الفناء، ألقى لمحة سريعة على البرج الشرقي العظيم الذي يلوح في الأفق عاليًا في السماء الصافية.

وعندئذ تدفقت حبات العرق على جبينه.

أيتها الإلهة إيسوس! لا تثق فيَّ أي يد أخرى غير يده للقيام بالشيء المروع. بأصابعه، عليه أن يسحق الحياة من ذلك الحلق الجميل، أو يدفن نصلاً صامتًا في القلب الأحمر.

قلبها! القلب الذي كان يأمل أن يفيض بالحب له!

ولكن، هل كان قلبها ليفعل ذلك؟ وتذكر احتقارها المتعجرف الذي استقبلت به إعلانه حبها. شعر بالبرودة ثم بالحرارة عندما طافت هذه الفكرة بذاكرته. هدأ وخز ضميره، عندما شعر بالرضى الذاتي لانتقامه القريب بعد أن تلاشت غرائزه الرقيقة التي أكدت نفسها من لحظة - تلاشت الصفات الجيدة التي ورثها من والدته العبدة، وغرق ثانية في الدماء الفاسدة التي ورثها من والد الملكي؛ كما كان دومًا، في نهاية المطاف.

حلت ابتسامة باردة محل الرعب الذي وسّع عينيه. استدار ليتجه نحو البرج. قرر أن يراها قبل أن يخرج إلى الرحلة التي يخفي بها على والده حقيقة أن الفتاة في دوسار بالفعل.

سار بهدوء في الطريق السري، وصعد المدرج الحلزوني إلى الشقة التي حبس فيها أميرة بتارث.

عندما دخل الغرفة، شاهد الفتاة تتكئ عند حافة النافذة الشرقية، وتحدق فوق أسقف مباني دوسار نحو بتارث البعيدة. كان يكره بتارث. امتلأ غضبًا. لماذا لا ينتهي منها الآن؟

استدارت بسرعة نحوه ما إن سمعت صوت خطواته. آه، كم هي جميلة! تلاشى عزمه المفاجئ أمام الضوء الرائع الصادر من جمالها العجيب. سينتظر إلى أن يعود من رحلته الخداعية القصيرة؛ ربما يجد عندئذ طريقة أخرى. قد تسدد يد أخرى الضربة؛ فمع ذلك الوجه، وتلك الأعين أمامه، كان على يقين أنه لن يتمكن أبدًا من قتلها. كان يفخر دائمًا بقسوة طبيعته، ولكن، يا إيسوس! لم يكن بهذا القدر من القسوة. كلا، يجب أن يعثر على شخص آخر، شخص يمكنه أن يثق به.

لا يزال ينظر إليها وهي تقف أمامه تنظر نحوه في ثبات ودون خوف. شعر بعاطفة حبه الحارة تتصاعد.

لماذا لا يطلب يدها مرة أخرى؟ إذا لانت، سيصبح كل شيء على ما يرام. حتى إذا لم يتمكن من إقناع والده، يمكنه أن يأخذها إلى بتارث، ويلقي لوم الخديعة والمؤامرات التي جعلت أربع أمم كبرى تتقاتل على عاتق نوتوس. ومن هناك يشك في عدالة الاتهام؟

قال: «ثوفيا، لقد جئت ثانية، للمرة الأخيرة، لأضع قلبي أمام قدميكِ. إن بتارث وكاول ودوسار في حرب الآن مع هيليوم بسببك. تزوجيني يا ثوفيا، وتصبحَ الأمور كلها على ما يرام».

هزت الفتاة رأسها.

قال قبل أن تتكلم: «انتظري! يجب أن تعرفي الحقيقة قبل أن تتفوهي بكلمات قد تنهي مصيركِ وأيضًا مصير الآلاف من المحاربين الذين يتقاتلون بسببكِ».

«إن رفضكِ لزواجي عن طيب خاطر، سيحيل دوسار إلى خراب إذا عرفت بتارث وكاول وهيليوم الَحقيقة. سيدمرون مدننا تمامًا، دون أن يتركوا حجرًا واحدًا فوق آخر. وسيبعثرون شعوبنا على سطح برسوم، من الشمال المتجمد إلى الجنوب المتجمد، ويطاردونهم ويذبحونهم، حتى تصبح هذه الأمة العظيمة مجرد ذكرى مكروهة في عقول الرجال».

«لكنهم مع إبادتهم للدوساريين، ستموت آلاف لا تُعد ولا تُحصى من محاربيهم. وكل ذلك، بسبب عناد امرأة لا ترغب في الزواج من الأمير الذي يحبها».

«يمكنكِ أن ترفضي زواجي يا ثوفيا، وعندئذ لن يتبقى سوى بديل واحد: لن يعرف أي رجل مصيَركِ على الإطلاق. لا يعرف غيري وعدد قليل من الموالين المخلصين لوالدي الملك أَن أستوك، أمير دوسار، هو مَن اختطفك من حدائق ثوفان ديهن، أو ستصرين اليوم سجينة في قصري».

«برفضكِ يا ثوفيا، يجب أن تموتي لإنقاذ دوسار؛ ولا توجد أي وسيلة أخرى. هذا قرار الجيداك نَوتوس. لقد أنهيت حديثي».

ظلت الفتاة توجه نظراتها للحظات طوال نحو وجه أستوك الدوساري، ثم تحدثت. وعلى الرغم من أن كلماتها القليلة، حملت نبرة صوتها الفاترة عمقًا مبهمًا من الاحتقار البارد.

قالت: «إن كل ما هددتني به أفضل منك».

ثم حولت ظهرها عنه، وذهب لتقف ثانية أمام النافذة الشرقية، وهي تحدق بعينين حزينتين نحو بتارث البعيدة.

استدار أستوك وغادر الغرفة، ثم عاد بعد فترة قصيرة ومعه طعام وشراب.

قال: «هذا زادكِ حتى أعود ثانية. الشخص التالي الذي سيدخل هذه الشقة سيكون جلادكِ. تذكري أسلافَكِ يا ثوفيا، ففي غضون أيام قليلة ستكونين معهم».

ثم ذهب.

وبعد نصف ساعة كان يجري مقابلة مع ضابط برتبة عالية في بحرية دوسار.

سأله: «أين ذهب فاس كور؟ فهو ليس في قصره».

رد الآخر: «إلى الجنوب، إلى المجرى المائي العظيم الذي يحيط بتوركواس. وابنه، هال فاس، هو دوار الطريق هناك، وقد ذهب إليه فاس كور لتجنيد عمال المزارع».

«جيد»، قال أستوك، وبعد نصف ساعة أخرى كان يرتفع فوق دوسار في أسرع طائراته.

* * *

الفصل (13)

تورجون، البانتان

لم يبدُ على وجه كارثوريس الهيليومي أي دليل على المشاعر التي زلزلته داخليًّا عندما سمع من شفاه هال فاس أن هيليوم في حرب مع دوسار، وأن مصيره ألقاه في خدمة العدو.

لكن اغتنامه لهذه الفرصة لصالح هيليوم لا يكفي لموازنة شعوره بالكدر؛ لأنه لا يقاتل صراحة على رأس قواته الوفية.

قد يبدو الهروب من الدوساريين يسيراً؛ ولكن ربما ليس كذلك. إذا شكوا في ولائه (لا سيما أن ولاء البانتان محل شك دائمًا)، قد لا يجد فرصة للتملص من يقظتهم إلى أن تنتهي الحرب، وهذا لا يحدث في أيام، أو قد لا يحدث ثانية إلا بعد سنوات طويلة مضجرة من إراقة الدماء.

وتذكر أن التاريخ سجل الحروب التي استمرت خلالها العمليات العسكرية الفعلية دون توقف لخمسمائة أو ستمائة سنة، ويوجد حتى الآن في برسوم أممٌ لا يوجد بينها وبين هيليوم سلام.

لم تكن التوقعات سعيدة. لكنه لا يستطيع تخمين أنه في غضون ساعات قليلة سوف يدرك نعمة المصير الذي ألقاه في خدمة دوسار.

صاح هال فاس: «آه! ها قد وصل والدي الآن. كاور! فاس كور. يوجد هنا شخص سيسعدك مقابلته، بانتان شجاع...»، تردد للحظة.

قاطعه كارثوريس: «تورجون»، وهو أول اسم تبادر إلى ذهنه.

وخلال حديثه، وقعت عيناه سريعًا على المحارب طويل القامة الذي كان يدخل الغرفة. أين رأى من قبل هذه الهيئة العملاقة، وهذه الملامح الخرساء، وهذا القطع من الصدغ إلى الفم بواسطة سيف؟

«فاس كور»، كرر كارثوريس في عقله. «فاس كور!»، أين رأى هذا الرجل من قبل؟

وعندما تحدث النبيل، تجلى كل شيء كالضوء الخاطف في ذاكرة كارثوريس: إنه الخادم الأمامي عند منصة الهبوط في بتارث، عندما كان يشرح تعقيدات بوصلته الجديدة لثوفان ديهن؛ وهو العبد الوحيد الذي كان يحرس حظيرة طائرته في تلك الليلة التي غادر بطائرته التي حملته إلى رحلته المشؤومة متجهًا إلى بتارث، الرحلة التي قد أوصلته إلى آنتور في ظروف لا تزال غامضة حتى الآن.

كرر كارثوريس بصوت عال: «فاس كور، فليبارك أسلافك هذا اللقاء». لم يخمن الدوساري المعنى الضمني الذي يكمن خلف هذه العبارة المبتذلة التي يستهل بها برسومي التعارف.

أجاب فاس كور: «وليبارك أسلافك يا تورجون».

والآن جاء دور تقديم كار كوماك إلى فاس كور. ونظرًا لأن كارثوريس كان طرفًا في هذا الحفل الصغير، فقد فكر في تفسير وحيد للبشرة البيضاء والشعر الكستنائي لدى رامي السهام؛ لأنه يخشى من أنهم لن يصدقوا الحقيقة، بل سيلقي قولها بظلال الشك عليهما منذ البداية.

قال موضحًا: «كار كوماك، كما ترون، هو من الثيرن. وقد تجول مسافات بعيدة عن معابده في الجنوب الذي يكسوه الجليد بحثًا عن مغامرة. وقد التقيت به في حُفر آنتور. ومع أنني لا أعرفه سوى من فترة قصيرة، يمكنني أن أشهد على شجاعته وولائه».

منذ تدمير نسيج عقيدتهم الزائف على يد جون كارتر، قَبِل غالبية الثيرن بسرور النظام الجديد، بحيث لم يعُد الآن من غير المألوف أن نراهم يختلَطون مع الرجال الحُمر في أي من مدن العالم الخارجي الكبرى، ولذا لم يشعر فاس كور أو يعبر عن أي دهشة كبيرة.

ظل كارثوريس يراقب، كالقط، كل شيء خلال المقابلة ليكشف أي علامة تدل على أن فاس كور أدرك أن البانتان الجريح ليس سوى أمير هيليوم الرائع. لكن الليالي الطوال بلا نوم، والسير والقتال لأيام عديدة، فضلاً عن الجروح والدماء الجافة، كانت كافية لطمس بقايا الشبه بهيئته السابقة؛ كما أن فاس كور رآه مرتين فقط طوال حياته، فلا عجب أنه لم يتعرف عليه.

أعلن فاس كور، خلال المساء، أنهم سيرحلون غدًا نحو الشمال تجاه دوسار، ويجمعون المجندين في المحطات المختلفة على طول الطريق.

كانت توجد، في حقل كبير خلف المنزل، سفينة نقل فضائية حربية متوسطة الحجم، تسع العديد من الرجال، لكنها سريعة ومسلحة جيدًا أيضًا. نام داخلها كارثوريس، وكار كوماك أيضًا، بالإضافة إلى المجندين الآخرين، تحت حراسة محاربي دوسار الذين يديرونها.

عاد فاس كور، حوالي منتصف الليل، إلى السفينة من منزل ابنه، واتجه على الفور إلى مقصورته. كانت نوبة حراسة كارثوريس مع محارب دوساري. كتم كارثوريس بصعوبة ابتسامة باردة عندما مر النبيل على مسافة قدم أمامه، أي على مسافة قدم من النصل النحيل الطويل الذي يتأرجح من عتاد الهيليومي.

يا لها من طريقة سهلة! يا لها من وسيلة سهلة للانتقام من الحيلة الجبانة التي مارسوها ضده، للانتقام لهيليوم وبتارث وثوفيا!

لكن يده لم تتحرك نحو مقبض الخنجر؛ إذ يجب الاستفادة من فاس كور على نحو يخدم غرضه أفضل، فربما يعرف أين يخفون ثوفيا البتارثية الآن، إذا كان الدوساريون هم فعلاً مَن اختطفوها أثناء القتال أمام آنتور.

كما أن هناك أيضًا الـمُحرض على هذه المؤامرة القذرة برمتها، ويجب معاقبته؛ وهل يوجد أفضل من فاس كور ليقود أمير هيليوم إلى أستوك الدوساري؟».

تناهى إلى سمع كارثوريس صوت مُحرك بعيد يصدر خافتًا خلال الليل. نظر إلى السماء متفحصًا.

نعم، على مسافة بعيدة في الشمال، هناك ملامح طائرة تتحدد في فراغ الفضاء المظلم الممتد بلا نهاية، تطير غير مضاءة عبر ليل برسوم.

لم يعط كارثوريس أي علامة على رؤيته لها؛ لأنه لا يعرف إن كانت من أصدقاء دوسار أو أعدائها، لكنه أدار عينيه في اتجاه آخر، وترك الأمر للدوساري الذي يتولى الحراسة معه.

اكتشف زميله الطائرة القادمة، وضغط على زر الإنذار المنخفض، ما جعل باقي الحراس والضابط ينهضون من حرير وفراء النوم على سطح السفينة.

كانت سفينة النقل مستقرة على الأرض وغير مضاءة، وبالتالي غير مرئية على الإطلاق للطائرة القادمة التي اتضح الآن أنها صغيرة الحجم.

وسرعان ما ظهر أن الغريب القادم ينوي الهبوط، فقد أخذت طائرته الآن تنخفض حلزونيًّا وتهبط برشاقة تدريجية مع كل انحناء.

همس محارب دوساري: «إنها السفينة الفضائية ثوريا، إنني أميزها في هذا السواد من بين عشرة آلاف طائرة أخرى».

صاح فاس كور، الذي جاء إلى سطح السفينة: «أنت محق!»، ثم قال مُرحبًا:

«كاور، ثوريا!».

وصدرت الآن «كاور!» من أعلى بعد صمت قصير. ثم: «ما هذه السفينة؟».

«إنها سفينة النقل كالكسوس، يا فاس كور من دوسار».

وجاءت كلمة «جيد!» من أعلى، ثم «هل يمكن الهبوط الآمن هنا؟».

«نعم، بالقرب من الميمنة. انتظر، وسوف نُضيء أنوارنا»، وخلال لحظات استقرت الطائرة الصغيرة بجوار كالكسوس، التي أُطفئت عندئذ أنوارها على الفور مرة أخرى.

نزلت عدة شخصيات من جانب الطائرة ثوريا، وتقدموا نحو السفينة كالكسوس. ونظرًا للتشكك الدائم، استعد الدوساريون لاستقبال الزوار كأصدقاء أو خصوم حسبما يُثبت الفحص الدقيق. وقف كارثوريس بالقرب من درابزين السفينة، مستعدًّا لاتخاذ جانب القادمين الجدد إذا تصادف أنهم من هيليوم وينفذون استراتيجية جريئة فوق هذه السفينة الدوسارية المنفردة. لقد سبق أن قاد بنفسه مجموعات مماثلة، ويعرف أن هذا الاحتمال ممكن تمامًا.

لكن وجه أول رجل يمر عبر الدرابزين أفاقه من أوهامه بصدمة غير سارة على الإطلاق- كان وجه أستوك، أمير دوسار.

بالكاد ما لاحظ أستوك الآخرين على ظهر السفينة كالكسوس، وسار قدمًا ليتلقى تحية فاس كور، ثم استدعى النبيل لينزل معه. عاد المحاربون والضباط إلى حرير وفراء النوم، وأصبح سطح السفينة خاليًا مرة أخرى إلا من المحارب الدوساري وتورجون، البانتان، المكلفين بالحراسة.

سار الأخير بهدوء ذهابًا وإيابًا. وانحنى الأول على الدرابزين، متمنيًّا انتهاء وقت الحراسة. لم يرَ رفيقه وهو يقترب من أضواء مقصورة فاس كور. ولم يرَه وهو ينحني ويضع إذنه بالقرب من مروحة التهوية.

كان أستوك يقول بأسف: «لتلتهمنا جميعًا القرود البيضاء، إن لم نزمجر بقبح على نحو لم تشهده من قبل! نوتوس يعتقد أننا نعرف أنها تختبئ في مكان بعيد عن دوسار. وأمرني أن أحضرها».

توقف عن الحديث. كان يجب ألا يسمع أي شخص الكلمات التي تخرج من شفتيه؛ إذ كان من الضروري أن يظل سرًّا إلى الأبد بين نوتوس وأستوك؛ لأن سلامة العرش تتوقف عليه. وبهذه المعرفة، يمكن لأي رجل من أن ينتزع من جيداك دوسار ما يريده.

لكن أستوك كان خائفًا، وأراد أن يسمع من هذا الرجل الأكبر سنًّا اقتراحًا بديلاً. واصل حديثه.

همس وهو يتلفت حوله بخوف: «سأقتلها. لا يريد نوتوس سوى أن يرى الجسد ليتأكد من تنفيذ أوامره. ومن المفترض الآن أنني ذهبت إلى موقع اختبائها لأحضرها في سرية تامة إلى دوسار. ويجب ألا يعرف أحد على الإطلاق أنها كانت في حوزة دوساري. لست بحاجة إلى أن أخبرك ماذا سيصيب دوسار إذا عرفت بتارث وهيليوم وكاول الحقيقة».

أطبق المستمع الواقف بجوار مروحة التهوية فكيه بصوت غاضب. كان يُخمن مسبقًا طبيعة موضوع هذه المحادثة. لكنه عرف الآن. سيقتلونها! تسمرت عضلات أصابعه إلى حد أن انغرست أظافره في راحة يده.

كان فاس كور يقول: «وتريد مني أن أذهب معك للبحث عنها وإحضارها إلى دوسار. أين هي؟».

مال أستوك نحو زميله وهمس في أذنه. لاحت ابتسامة على وجه فاس كور القاسي؛ حيث أدرك حجم القوة التي أصبحت في قبضته. يجب أن يفوز بمنصب جِد على الأقل.

سأل العجوز بلطف: «وكيف يمكنني مساعدتك يا أميري؟».

قال أستوك: «لا يمكنني قتلها. باسم الإلهة إيسوس! لا يمكن أن أفعل ذلك! عندما توجه عينيها نحوي، يسيل قلبي كالماء».

ضاقت عينا فاس كور.

«وتريدني ...»، توقف عن الحديث، الأسئلة لم تنتهِ، لكنها اكتملت.

أومأ أستوك.

وقال: «أنت لا تحبها».

وأنهى كلامة بوضاعة: «لكني أحب حياتي، على الرغم من أنني مجرد نبيل من مرتبة دنيا».

صاح أستوك: «ستكون أكبر نبيل، نبيل من الدرجة الأولى!».

قال فاس كور صراحة: «أود منصب جِد».

تردد أستوك.

وقال متضرعًا: «يجب أن يموت الجِد قبل اختيار جِد آخر».

قاطعه فاس كور: «لقد مات أكثر من جد. ولن يصعب عليك، دون شك، أن تعثر على جِد لا تحبه، أستوك، هناك العديد الذين لَا يكنون لك الحب».

كان فاس كور قد بدأ بالفعل في امتلاك ناصية قوته على الأمير الشاب. ولاحظ أستوك بسرعة التغيير الماكر الذي طرأ على هذا الملازم. إنها خطة ماكرة دخلت دماغه الضعيف الشرير.

صاح: «كما تريد يا فاس كور! ستكون أنت الجد عندما تنهي مهمتك»، ثم قال لنفسه: «ولن أجد صعوبة عندئذ في العثور على جِد لا أَحبه».

سأله النبيل: «ومتى نعود إلى دوسار؟».

أجاب أستوك: «على الفور. لنرحل الآن، لا شيء يبقيك هنا».

«كنت أنوي الإبحار غدًا، لأخذ بعض المجندين الذين جمعهم الدوار، حراس الطرق، خلال عودتنا إلى دوسار».

قال أستوك: «لينتظر المجندون، أو حتى من الأفضل أن تأتي معي إلى دوسار على الطائرة ثوريا، وتدع السفينة كالكسوس تجمع المجندين وتتبعنا».

رضخ فاس كور قائلاً: «نعم، هذه أفضل خطة. هيا، أنا مستعد»، ونهض لمرافقة أستوك إلى طائرته.

نهض المستمع الواقف بجوار المروحة الهوائية على قدميه ببطء، مثل رجل كهل. كان وجهه مسحوبًا ومتألـمًا، ويبدو الشحوب الشديد على بشرته النحاسية الخفيفة. سيقتلونها! وهو عاجز عن تجنب المأساة. ولا يعرف حتى مكان سجنها.

أخذ الرجلان يصعدان من المقصورة إلى سطح السفينة. تسلل تورجون، البانتان، مقتربًا من السلم، وأصابعه الملتوية تقبض بشدة على خنجره. هل يقتلهما قبل أن يتغلبا عليه؟ ابتسم. يمكنه أن يقتل أوتانًا من أعدائه بالكامل في حالته العقلية الراهنة.

إنهما الآن بجانبه تقريبًا، وكان أستوك يتحدث.

قال: «فاس كور، أحضر معك اثنين من رجالك؛ فلدينا نقص في القوى العاملة في الطائرة ثوريا. أسرع، حتى يمكننا الرحيل».

تركت أصابع البانتان مقبض الخنجر؛ إذ أدرك عقله سريعًا أن هناك

فرصة لإنقاذ ثوفيا. قد يتم اختياره لمرافقة القتلة، وبمجرد أن يعرف مكان الأسيرة، سيقتل أستوك وفاس كور. لكن قتلهم قبل أن يعرف مكان اختباء ثوفيا، يعني ببساطة تركها للموت على أيدي آخرين؛ ذلك أن نوتوس سيعرف عاجلاً أو آجلاً مكانها، ولن يسمح لها نوتوس، جيداك دوسار، بالعيش.

وضع تورجون نفسه في مسار فاس كور حتى لا يغفل الأخير عن وجوده. أيقظ النبيل الرجال النائمين على سطح السفينة، وكان أمامه دائمًا البانتان الغريب الذي جنده في نفس اليوم الذي وجد فيه وسيلة لإبقاء نفسه في الصدارة.

التفت فاس كور ناحية الملازم، وأعطاه تعليمات إحضار كالكسوس إلى دوسار بعد جمع المجندين؛ ثم أشار إلى اثنين من المحاربين اللذين وقفا خلف البادوار.

وقال: «أنتما ستأتيان معنا على متن الطائرة ثوريا. عليكما وضع أنفسكما تحت تصرف دوار الطائرة».

كان الظلام دامسًا على سطح السفينة كالكسوس، ولذا لم ينظر فاس كور جيدًا في وجهي الاثنين اللذين اختارهما؛ لكن ذلك لا يهم، لأنهما ليسا سوى محاربين عاديين للمساعدة في الواجبات العادية على الطائرة، والقتال إذا لزم الأمر.

كان أحدهما كار كوماك، رامي السهام، لكن الآخر لم يكن كارثوريس.

جُن الهيليومي بخيبة أمل، وانتزع خنجره من عتاده. لكن أستوك كان قد غادر السفينة كالكسوس بالفعل، وكارثوريس يعرف أنه قبل أن يلحق به، إذا قتل فاس كور، فسيقتله المحاربون الدوساريون، وعددهم كبير الآن على سطح السفينة. ستتعرض ثوفيا لخطر كبير إذا بقى أحدهما حيًّا، يجب قتل الاثنين!

عندما نزل فاس كور من السفينة إلى الأرض، تبعه كارثوريس بجرأة. لم يحاول أحد منعه، ظنًّا أنه دون شك أحد المرافقين.

جاء بعده كار كوماك والمحارب الدوساري الذي اختُير لأداء واجبه على الطائرة ثوريا. سار كارثوريس بالقرب من جانبه الأيسر. وصلوا الآن إلى الظل الكثيف أسفل جانب ثوريا، حيث كان الظلام شديدًا إلى حد أنه كان عليهم تلمس السلم.

سبق كار كوماك المحارب الدوساري. وما إن صعد الأخير إلى السلالم الدوارة المتأرجحة، حتى أطبقت أصابع فولاذية على قصبته الهوائية واخترق نصل صلب قلبه.

كان تورجون، البانتان، آخر مَن تسلق درابزين الطائرة ثوريا، جاذبًا سلم الحبل وراءه.

وخلال لحظات، ارتفعت الطائرة بسرعة، متجهة إلى الشمال.

عند الدرابزين، استدار كار كوماك ليتحدث مع المحارب الذي اختُير لمرافقته. اتسعت عيناه عندما وقعت على وجه الشاب الذي قابله بجوار المنحدرات الجرانيتية التي تحرس لوثار الغامضة. كيف أتى بدلاً من المحارب الدوساري؟

وبعد إشارة سريعة، استدار كار كوماك ثانية ليجد دوار الطائرة ثوريا الذي يجب أن يقدم له نفسه لأداء واجباته. وسار خلفه البانتان.

كان كارثوريس سعيدًا لمصادفة اختيار فاس كور لرامي السهام من بين جميع الآخرين؛ فلو كان هناك دوساري آخر، لظهر تساؤل يحتاج إلى إجابة عن المحارب الذي يرقد بهدوء في الحقل خارج مقر إقامة هال فاس، دوار الطريق الجنوبي، ولن يجد كارثوريس إجابة على هذا السؤال غير سيفه، الذي لا يكفي وحده لإقناع طاقم ثوريا كله.

بدت الرحلة إلى دوسار بلا نهاية لكارثوريس الذي نفد صبره، على الرغم من أن الطائرة أنجزتها في واقع الأمر بسرعة. وقبل وصولهم إلى وجهتهم، اجتمعوا وتحدثوا مع طائرة حربية دوسارية أخرى، وعرفوا أن معركة كبيرة ستنشب قريبًا جنوب شرق دوسار.

لقد اعترض أسطول هيليوم البحري الجبار أساطيل دوسار وبتارث وكاول مجتمعة في تقدمهم باتجاه هيليوم. وتُعد بحرية هيليوم الأكثر شراسة في برسوم، ليس من حيث العدد والتسليح فحسب، وإنما أيضًا من حيث تدريب وشجاعة ضباطها ومحاربيها، وضخامة العديد من سفنها الحربية الوحشية.

لا تنشب كثيراً معركة مثل هذه. كان الجيداك الأربعة يقودون أساطيلهم مباشرة: كولان تيث من كاول، وثوفان ديهن من بتارث، ونوتوس من دوسار، على جانب؛ بينما كان تاردوس مورس، جيداك هيليوم، على الجانب الآخر، ومعه جون كارتر، أمير الحرب في المريخ.

ومن أقصى الشمال، كانت تتحرك قوة أخرى نحو الجنوب عبر المنحدرات الحاجزة: البحرية الجديدة لدى تالو، جيداك أوكار، استجابة لدعوة أمير الحرب. وعلى أسطح السفن الحربية المتجهمة، وقف رجال صُفر بلحى سوداء يتطلعون بلهفة إلى الجنوب. كان مظهرهم مبهرًا وهم يرتدون عباءات رائعة من جلود حيوانات الأورلوك[74] والأبت[75] . إنهم مقاتلون شرسون من المدن الدافئة في الشمال المتجمد.

ومن الجنوب البعيد، من بحر أوميان والمنحدرات الذهبية، من معابد الثيرن وحديقة إيسوس، أبحر آلاف آخرون نحو الشمال بناء على دعوة الرجل العظيم الذي تعلموا احترامه، واحترامه هو الحب. وكان قائد السفينة الرئيسة لهذا الأسطول الجبار، الذي يلي بحرية هيليوم، إيبون زودار، جيداك من الأبناء الأوائل[76] ، الذي كان قلبه يخفق بقوة توقعًا للحظة القادمة التي يبعث فيها بأطقمه الوحشية وسفنه الجبارة ضد أعداء أمير الحرب.

ولكن، هل سيصل هؤلاء الحلفاء إلى مسرح الحرب في الوقت المناسب لتكون ذات جدوى لهيليوم؟ أو، هل هيليوم في حاجة إليهم؟

سمع كارثوريس، مع سائر أعضاء طاقم ثوريا، القيل والقال والإشاعات. ولم يكن أحد يعرف أي شيء عن الأسطولين، القادم أحدهما من الجنوب والآخر من الشمال لدعم سفن هيليوم، بينما كانت دوسار كلها مقتنعة بأنه لا يوجد أي شيء الآن يمكن أن ينقذ قوة هيليوم القديمة من أن تُمحى إلى الأبد من سماء برسوم.

---

(74) أورلوك: هو وحش شرس يشبه الفيل، يوجد على وجه الحصر تقريبًا في مناطق أقصى شمال المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Orluk-المترجمة.

(75) الأبت: مخلوق وحشي، يسكن القطب الشمالي في المريخ -http://barsoom.wikia.com/wiki/Apt -المترجمة.

(76) الأبناء الأوائل هم العِرق الأسود في المريخ -http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=First+Born+ -المترجمة.

شعر كارثوريس أيضًا، ابن هيليوم الوفي، بأن أسطوله البحري حتى قد لا يقدر على النجاح في مواجهة القوات المشتركة للقوى الثلاث الكبرى.

لمست الطائرة ثوريا الآن منصة الهبوط فوق قصر أستوك. نزل الأمير وفاس كور في عجالة ودخلا المهبط الذي سيحملهما إلى المستويات الأدنى في القصر.

كان هناك مهبط آخر مجاور، يستخدمه المحاربون العاديون. أمسك وكارثوريس كار كوماك من ذراعه.

وقال هامسًا: «تعال! أنت صديقي الوحيد بين أمة من الأعداء. هل ستقف إلى جانبي؟».

أجاب كار كومار: «حتى الموت».

اقترب الاثنان من المهبط، الذي يتولى تشغيله أحد العبيد.

سأل العبد: «أين أوراق مروركما؟».

تظاهر كارثوريس بأنه يبحث في جيب حقيبته، بينما يدخل إلى المهبط في الوقت نفسه. تبعه كار كوماك، وأغلق الباب. لم يبدأ العبد في تشغيل المهبط. كل ثانية لها قيمتها. يجب أن يصلا إلى أدنى مستوى في أسرع وقت ممكن، حيثما اتجه أستوك وفاس كور، لمعرفة مكانهما.

استدار كارثوريس فجأة نحو العبد، وقذف به إلى الجانب الآخر من غرفة المهبط.

صاح كارثوريس: «قم بتقييده وتكميم فمه يا كار كوماك!».

أمسك كارثوريس بذراع التحكم، وانطلق المهبط بسرعة شديدة إلى أسفل، بينما كان رامي السهام يتعارك مع العبد. لا يستطع كارثوريس أن يترك ذراع التحكم لمساعدة رفيقه؛ لأن وصولهم إلى أدنى مستوى بهذه السرعة لا يعني إلا اندفاعهم نحو موت فوري.

تمكن كارثوريس الآن أن يرى أدناه سطح غرفة المهبط الذي يضم أستوك، في مدخل الهاوية الموازي، ولذا بدأ في تخفيض السرعة لتماثل سرعة المهبط الآخر. بدأ العبد يصرخ.

صاح كارثوريس: «اجعله يصمت!».

وفي لحظة تالية، كان العبد مكومًا على أرضية غرفة المهبط.

قال كار كوماك: «لقد صمت».

أوقف كارثوريس غرفة المهبط على نحو مفاجئ، عند أحد مستويات القصر العليا. فتح الباب، وأمسك بالعبد وقذفه به خارجًا، ثم أغلق الباب واستأنف الهبوط.

شاهد مرة أخرى سطح غرفة المهبط الذي يستقله أستوك وفاس

كور. وعندما توقفت بعد لحظات، أوقف غرفة مهبطه، وشاهد الرجلين يختفيان في أحد مخارج الممر.

* * *

الفصل (14)

تضحية كولان تيث

في صباح اليوم الثاني لسجنها في البرج الشرقي لقصر أستوك، أمير دوسار، كانت ثوفيا البتارثية تنتظر في لا مبالاة مضجرة قدوم قاتلها.

لقد استنفدت كل إمكانية للهرب، بحثت مرارًا وتكرارًا الباب والنوافذ، والأرضية والجدران.

لم تتمكن حتى من خدش ألواح الخشب الصلبة؛ وزجاج النوافذ المتين في برسوم لا يتحطم بأي شيء أقل من مطرقة ثقيلة في يد رجل قوي. وكان الباب والقفل منيعين. لم يكن هناك أي مهرب. كما جردوها من أسلحتها حتى لا تتوقع ساعة موتها، وبالتالي تسرق منهم الارتياح بمشاهدة لحظاتها الأخيرة.

متى يأتون؟ هل سيقتلها أستوك بيديه؟ شكت في أن لديه الشجاعة. إنه شخص جبان، وقد عرفت ذلك منذ أن سمعته أول مرة يتفاخر كزائر في بلاط والدها، في محاولة لإقناعها بجرأته.

لم تستطع إلا مقارنته مع آخر. ومع مَن يمكن أن تقارن عروس مخطوبة بخاطب غير ناجح؟ مع خطيبها؟ وهل ثوفيا البتارثية تقيس الآن أستوك الدوساري بمعايير كولان تيث، جيداك كاول؟

كانت على وشك الموت؛ ويمكنها أن تطوف بأفكارها كما تريد؛ على أن كولان تيث كان أبعد أفكارها. فقد كان الهيليومي الوسيم طويل القامة يشغل عقلها، مزاحمًا جميع الصور الأخرى.

لقد حلمت بوجهه النبيل، ووقار خطواته الهادئة، والابتسامة التي تضيء عينيه عندما يتحدث مع أصدقائه، والابتسامة التي تمس شفتيه وهو يحارب أعداءه- ابتسامة القتال لدى والده القادم من فيرجينيا.

وجدت ثوفيا البتارثية، ابنة برسوم بحق، أن نفسها يتسارع وقلبها يقفز لذكرى هذه الابتسامة الأخرى- الابتسامة التي لن تراها ثانية أبدًا. ومع تنهيدة قصيرة، غاصت الفتاة في

كومة الحرير والفراء الملقاة في اختلاط أسفل النوافذ الشرقية، ودفنت وجهها بين ذراعيها.

وقف رجلان يتجادلان بحدة، في الممر الذي يقع خارج غرفة سجنها.

صاح أحدهم: «أقول لك مرة أخرى، يا أستوك، أنني لن أفعل ذلك إلا عندما تكون موجودًا في الغرفة».

بدا في لهجة المتحدث قليل من الاحترام الملكي الواجب؛ فاستشاط الآخر غضبًا.

وقاطعه قائلاً: «لا تُثقل كثيراً صداقتي لك يا فاس كور، هناك حدود لصبري».

أجاب فاس كور: «مسألة الامتياز الملكي ليست مطروحة هنا. لقد طلبت مني أن أصبح قاتلاً بدلاً منه، وضد أوامر الجيداك الصارمة. أنت لست في موقع يتيح لك يا أستوك أي إملاءات؛ بل عليك بالأحرى أن تسعد بقبول طلبي المعقول أن تكون موجودًا، وبالتالي نتقاسم الشعور بالذنب. لماذا يجب أن أتحمل كل ذلك بمفردي؟».

تجهم الشاب، لكنه تقدم نحو الباب المغلق. وعندما انفتح الباب متأرجحًا على مفصلاته، دخل الغرفة إلى جانب فاس كور.

سمعت الفتاة صوت دخولهما، فنهضت واقفة، وواجهتهما. لم تشحب بشرتها النحاسية الناعمة إلا قليلاً؛ لكنَّ عينيها كانتا شجاعتين ومتجهتين للأمام، وكان ميل ذقنها المتعجرف الصغير الثابت أبلغ دليل على اشمئزازها واحتقارها.

سألها أستوك: «هل لا تزالين تفضلين الموت؟».

أجابت الفتاة ببرود: «نعم، أفضل الموت عليك».

التفت أمير دوسار إلى فاس كور، وأومأ له. سحب النبيل سيفه القصير، وعبر الغرفة في اتجاه ثوفيا.

قال لها آمرًا: «اركعي!».

أجابت: «أفضل أن أموت واقفة».

قال فاس كور، وهو يتحسس نصله بابهامه الأيسر: «كما تريدين». ثم قال وهو يسرع نحوها: «باسم نوتوس، جيداك دوسار!».

وهنا صدرت من اتجاه الباب صيحة بنبرة منخفضة: «باسم كارثوريس، أمير هيليوم!».

التفت فاس كور، ورأى البانتان الذي جنده في منزل ابنه يقفز نحوه. انطلق كارثوريس بخفة مارًّا بأستوك وقال له: «دورك بعده، أيها... الكالوت!».

انطلق فاس كور لمواجهة الهجوم.

وصاح قائلاً: «ما معنى هذه الخيانة؟».

قفز أستوك، حاملاً سيفه، لمساعدة فاس كور. اشتبك سيف البانتان بسيف النبيل، ومع أول اشتباك عرف فاس كور أنه يواجه مبارزًا متمرسًا.

وقبل أن يدرك جزئيًّا غرض الرجل الغريب، وجده يقف بينه وبين ثوفيا البتارثية، محاصرًا في مواجهة سيفين دوساريين. لكنه لم يقاتل كرجل محاصر. فلم يكن أبدًا هو المعتدي، وعلى الرغم من أنه أبقى نصله يومض دائمًا بين الفتاة وأعدائها، فقد نجح في إجبارهم على التحرك في أنحاء الغرفة، طالبًا الفتاة أن تتبعه وتقف خلفه عن قرب.

لم يتصور أبدًا فاس كور أو أستوك، لفترة طويلة جدًّا، ماذا يدور في ذهن البانتان. وأخيرًا وقف الزميل وظهره نحو الباب، وأدرك كلاهما الأمر - لقد تم حصارهما في سجنهما نفسه، ويمكن أن يقتلهم الدخيل الآن إذا أراد؛ فقد كانت ثوفيا تغلق الباب في اتجاه الرجل، بعد أن أخذت المفتاح من الجانب المقابل حيث تركه أستوك بعد دخولهما.

أستوك، كعادته، عندما وجد أن العدو لم يسقط على الفور أمام سيفيهما، وضع العبء الأكبر من القتال على كاهل فاس كور. والآن، اتسعت عيناه بعد أن دقق بعناية في البانتان؛ إذ بدأ يتعرف ببطء على ملامح أمير هيليوم.

كان الهيليومي يهاجم فاس كور بقوة، والنبيل ينزف من عشرات الجروح. وأدرك أستوك أنه لن يتمكن من الصمود طويلاً أمام براعة تلك اليد التي تقبض على السيف.

همس في أذن زميله: «تشجع يا فاس كور! لدي خطة. اضغط عليه لعدة لحظات، وسيمضي كل شيء على ما يرام»، لكنه لم يقل باقي الجملة، «مع أستوك، أمير دوسار»، بصوت مرتفع.

أومأ فاس كور رأسه، متصورًا عدم وجود غدر، ونجح للحظة في محاصرة كارثوريس. رأى كارثوريس والفتاة الأمير الدوساري يسرع نحو الجانب الآخر من الغرفة،

ويلمس شيئًا في الجدار، بحيث انفتح لوح متأرجح نحو الداخل، واختفى أستوك في القبو الأسود خلف اللوح.

تم كل شيء بسرعة مذهلة، بحيث كان يتعذر اعتراض طريقه. انقض كارثوريس بشراسة على خصمه، خشية أن يراوغه فاس كور بالمثل، أو يعود أستوك فورًا مع تعزيزات. وفي لحظة، كانت جثة النبيل الدوساري تتدحرج مقطوعة الرأس على الأرضية الخشبية.

صاح كارثوريس: «هيا! ليس لدينا وقت نضيعه. سيعود أستوك ثانية خلال لحظات مع عدد من المحاربين يكفي لهزيمتي».

على أن تلك الخطة لم تكن في ذهن أستوك؛ فمثل هذه الخطوة ستعني نشر الحقيقة من خلال الثرثرة في القصر بأن أميرة بتارث كانت سجينة في البرج الشرقي. وسرعان ما تصل إلى والده، وعندئذ لن يكفي أي قدر من الكذب في تفسير الوقائع التي يمكن أن يلقي التحقيق الذي سيجريه الجيداك الضوء عليها.

كان أستوك، بالأحرى، يسرع بجنون خلال ممر طويل ليصل إلى باب قاعة البرج قبل أن يترك كارثوريس وثوفيا الشقة. لقد رأى الفتاة تأخذ المفتاح وتضعه في جيب حقيبتها، وكان يعرف أن إدخال سن خنجر في ثقب المفتاح من الجانب الآخر سوف يحبسهم في الغرفة السرية إلى أن تُطوق ثمانية عوالم ميتة شمسًا باردة ميتة.

دخل أستوك، بأقصى سرعة ممكنة، إلى الممر الرئيس الذي يقود إلى قاعة البرج. هل سيصل إلى الباب في الوقت المناسب؟ ماذا إن ظهر الهيليومي بالفعل وهاجمه في الممر؟ شعر أستوك بقشعريرة باردة في عموده الفقري. إنه ليس مستعدًّا لمواجهة ذلك النصل الخارق.

وصل تقريبًا عند الباب، الذي يوجد عند المنعطف التالي في الممر. كلا، لم يغادرا الشقة. من الواضح أن فاس كور لا يزال يقاتل الهيليومي!

بالكاد ما تمكن أستوك من كبت ابتسامة على الطريقة الذكية التي احتال بها على النبيل، وتخلص منه في الوقت نفسه. دار الآن عند المنعطف، ووجد نفسه وجهًا لوجه أمام عملاق كستنائي الشعر وأبيض البشرة.

لم ينتظر الزميل ليسأل عن سبب مجيئه؛ بل قفز عليه بسيف طويل، بحيث كان على أستوك أن يصد عشرات الإصابات الوحشية قبل أن يتمكن من الانسحاب والفرار مرة أخرى في اتجاه الممر.

وبعد لحظات، دخل كارثوريس وثوفيا الممر من الغرفة السرية.

سأل الهيليومي: «حسنًا يا كار كوماك؟».

قال رامي السهام: «من حسن الحظ أنك تركتني هنا، أيها الرجل الأحمر. لقد اعترضت الآن شخصًا بدا شديد الحرص على الوصول إلى هذا الباب- إنه من يسمونه أستوك، أمير دوسار».

ابتسم كارثوريس.

وسأل: «أين هو الآن؟».

أجاب كار كوماك: «لقد هرب أمام نصلي، وركض في اتجاه هذا الممر».

صاح كارثوريس: «يجب ألا نضيع أي وقت إذنْ! فسوف يستدعي الحرس الآن لمهاجمتنا!».

أسرع الثلاثة على طول الممرات المتعرجة التي اقتفى خلالها كارثوريس وكار كوماك أثر الدوساري بواسطة علامات صندله فوق طبقة التراب رقيقة التي تنتشر في أنحاء طوابق تلك الممرات التي نادرًا ما تُستخدَم.

وصلوا إلى الغرفة التي تقع عند مداخل المصاعد دون أن يواجهوا أي معارضة. وجدوا في الغرفة حفنة من الحرس وضابطًا. وعندما رأى الضابط أنهم غرباء، سألهم عن سبب وجودهم في قصر أستوك.

اضطر كارثوريس وكار كوماك إلى اللجوء إلى سيوفهم ثانية. وقبل أن يصلوا إلى أحد المصاعد، كان ضجيج النزاع قد أثار القصر بأكمله؛ فقد سمعوا رجالاً يصيحون. وخلال مرورهم بالعديد من المستويات في طريقهم السريع لمنصة الهبوط، رأوا رجالاً مسلحين يركضون هنا وهناك بحثًا عن سبب الفوضى.

كانت الطائرة ثوريا تقف بجانب المنصة، وفي حراستها ثلاثة محاربين. قاتل الهيليومي واللوثاري مرة أخرى جنبًا إلى جنب، وسرعان ما انتهت المعركة؛ إذ كان أمير هيليوم بمفرده يناظر أي ثلاثة يمكن أن تجلبهم دوسار.

ارتفعت الطائرة ثوريا قبل أن يقفز مائة مقاتل أو أكثر نحو منصة الهبوط، وكان أستوك على رأسهم. وعندما رأى أن الاثنين اللذين كان يعتقد أنهما تحت سلطته بأمان

ينزلقان من قبضته، أخذ يتحرك واثبًا في غضب وكدر، ويهز قبضته، ويقذفهم بالسباب والإهانات الخسيسة.

انطلقت ثوريا كنيزك في السماء، ومقدمتها تميل إلى أعلى بزاوية دائرية. وانطلقت وراءها عشرات من زوارق الدورية السريعة؛ ذلك أن المشهد الذي حدث عند منصة الهبوط فوق قصر أمير دوسار لم يمر دون أن يلاحظه أحد.

خدشت عشرات الطلقات جانب ثوريا. ونظرًا لعدم استطاعة كارثوريس ترك أذرع التحكم، تولت ثوفيا تحويل فوهات المدافع سريعة الطلقات على الطائرة في اتجاه العدو، متشبثة بسطح الطائرة المنحدر الزلق.

كان سباقًا نبيلاً وقتالاً نبيلاً. والآن، واحد ضد مجموعة؛ فقد انضمت طائرة دوسارية أخرى إلى المطاردة. لكن أستوك، أمير دوسار، قد بنى الطائرة ثوريا بشكل جيد؛ ولا يوجد في سلاح بحرية والده مَن يمتلك طائرة أسرع؛ ولا توجد أي طائرة أخرى مدرعة أو مسلحة جيدًا مثلها.

أخذ المطاردون يبتعدون واحدًا تلو الآخر، وعندما أصبح آخرهم خارج النطاق، قام كارثوريس بتحويل مقدمة ثوريا إلى مستوى أفقي. وعند جذب الذراع إلى نهايته، انطلقت الطائرة عبر الهواء الرقيق لكوكب المريخ الآخذ في الاحتضار، متجهة نحو الشرق وبتارث.

تقع بتارث على مسافة ثلاثة عشر ألف هاد ونصف، رحلة طويلة تقطعها أسرع طائرة في ثلاثين ساعة. وقد تقع نصف بحرية دوسار بين دوسار وبتارث؛ ففي هذا الاتجاه يكمن موقع المعركة البحرية الكبرى، التي سمعوا عنها، بل ربما بدأت الآن بالفعل.

لو كان كارثوريس يعرف بدقة موقع الأساطيل الكبرى للأمم المتنازعة، كان سارع في اتجاههم دون إبطاء؛ ففي عودة ثوفيا إلى والدها يكمن أكبر أمل للسلام.

قطعوا نصف المسافة دون رؤية أي سفينة حربية، ثم لفت كار كوماك انتباه كارثوريس نحو سفينة بعيدة تقف على الغطاء النباتي لقاع البحر الميت الكبير، الذي كانت ثوريا تسرع أعلاه.

كان يمكن رؤية العديد من الأشخاص يحتشدون حول السفينة. تمكن كارثوريس، بالاستعانة بعدسات قوية، من رؤية أنهم من المحاربين الخُضر، وأنهم كانوا يهاجمون مرارًا وتكرارًا طاقم السفينة الرئيسة، التي لم يتمكن من معرفة جنسيتها لبُعد المسافة.

لم يكن من الضروري تغيير مسار ثوريا من أجل الطيران مباشرة فوق مسرح تلك المعركة، لكن كارثوريس هبط بالطائرة لبضع مئات من الأمتار ليتمكن من الرؤية عن قرب بشكل أفضل.

إذا كانت السفينة تنتمي لقوة صديقة، لا يملك إلا أن يقف ويوجه

مدافعه نحو أعدائها، على الرغم من أن وجود ثوفيا معه كان يشعره بأنه ما من تبرير للهبوط؛ لأنه لا يملك سوى سيفه وسيف زميله، وهذا لا يكفي لتبرير تعريض سلامة أميرة بتارث للخطر.

وعند اقترابهم فوق السفينة المنكوبة، أدركوا أنها مجرد دقائق قبل أن يصل الحشد الأخضر إلى الجوانب المدرعة للسفينة ويصبون على المدافعين ضراوة شهوتهم لسفك الدماء.

قال كارثوريس لثوفيا: «من غير المجدي أن نهبط. ربما تنتمي السفينة إلى دوسار، إذ لا تظهر عليها أي شارات. كل ما يمكننا القيام به هو إطلاق النار على هذه الجحافل»، ثم صعد إلى أحد المدافع وأدار فوهته نحو المحاربين الخُضر عند جانب السفينة.

عند أول طلقة، اكتشف أولئك على السفينة أدناه وجود ثوريا فوقهم. وعلى الفور، رفرفت راية من مقدمة السفينة الحربية على الأرض. حبست ثوفيا أنفاسها بسرعة، وهي تنظر إلى كارثوريس.

كانت راية كولان تيث، جيداك كاول، الرجل الذي أميرة بتارث خطيبته!

كم كان يسيراً أن يمضي الهيليومي في طريقه، تاركًا منافسه للمصير الذي لا يمكن أن يتجنبه لفترة طويلة! لن يتهمه أحد بالجبن أو الغدر؛ ذلك أن كولان تيث في معركة ضد هيليوم، وعلاوة على ذلك، لا يوجد على ثوريا ما يكفي من سيوف لتأخير، ولو مؤقتًا، النتيجة المحسومة مسبقًا في أذهان المراقبين.

ماذا سيفعل كارثوريس، أمير هيليوم؟

ما إن انطلقت الراية في النسيم الخفيف، حتى كانت مقدمة ثوريا تتجه بزاوية حادة نحو الأرض.

سأل كارثوريس ثوفيا: «هل يمكنك تشغيل الطائرة؟».

أومأت الفتاة.

تابع قائلاً: «سأحاول جلب الناجين إلى متن ثوريا، ويتطلب الأمر استعانتي بكار كوماك لتشغيل المدافع بينما يحاول الكاوليون الصعود إلى ثوريا. حافظي على مقدمة الطائرة منخفضة ضد اتجاه نيران المدفعية. هذا سيجعل مدرعاتها الأمامية تحملها بشكل أفضل، وفي الوقت نفسه يحمي مراوحها».

هُرع إلى المقصورة، بمجرد أن تولت ثوفيا زمام الأمور على الطائرة. وفي لحظات، تم إسقاط حبال الصعود من عارضة ثوريا، ومن عشرات النقاط على جانبيها- صفوف من حبال جلدية معقودة تتدلى إلى أسفل. وفي الوقت نفسه، صدرت إشارة من مقدمتها:

«استعدوا للصعود».

تعالى الهتاف من على ظهر سفينة كاول الحربية. ابتسم كارثوريس بحزن، حيث كان قد عاد من المقصورة في ذلك الوقت. كان على وشك أن ينتزع من بين فكي الموت الرجل الذي يقف بينه وبين المرأة التي يحبها.

قال لرامي السهام: «خذ المدفع الجانبي يا كار كوماك كار»، وذهب إلى المدفع القائم عند الميمنة.

يشعرون الآن بالصدمة الحادة الناتجة عن انفجارات مقذوفات المحاربين الخُضر ضد جانبي ثوريا المدرعين.

كان أمل بائس في أحسن الأحوال. وفي أي لحظة، يمكن أن تخترق الطلقات خزانات الأشعة الطاردة. كان الرجال على سطح سفينة كاول يقاتلون بأمل متجدد. وقف كولان تيث في مقدمة السفينة؛ قائد شجاع يقاتل بجانب محاربيه الشجعان، ويصد ضربات الرجال الخُضر الشرسين.

انخفضت الطائرة ثوريا فوق السفينة الأخرى. كان الكاوليون يتجمعون بقيادة ضباطهم استعداداً للصعود إلى الطائرة، عندما انطلق فجأة وابل شرس من الموت والدمار من بنادق المحاربين الخُضر في اتجاه جانب الطائرة الشجاعة.

هوت الطائرة فجأة كطائر جريح يترنح، في اتجاه سطح المريخ. أدارت ثوفيا مقدمة الطائرة إلى أعلى في محاولة لتفادي مأساة وشيكة، لكنها نجحت فقط في تخفيف تأثير اصطدام الطائرة وهي ترتطم بالأرض إلى جوار سفينة كاول.

عندما رأي الرجال الخُضر أن سطح الطائرة ثوريا لا يضم سوى اثنين من المحاربين وامرأة، انطلقت صيحة انتصار وحشية بين صفوفهم، بينما صدرت تأوهات من شفاه الكوليين.

تركز انتباه الخُضر الآن على القادمين الجدد؛ إذ رأوا أنهم يستطيعون التغلب على دفاعات الطائرة بسرعة، ومن سطحها يمكنهم السيطرة على سطح السفينة المأهولة بعدد أكبر من الرجال.

وعندما بدأوا هجومهم، أطلق كولان تيث صيحة تحذير من جسر سفينته، مع إشادة بشجاعة التصرف الذي وضع الطائرة الصغيرة في هذا الموقف الحرج.

صاح: «مَن ذا الذي يقدم حياته في خدمة كولان تيث؟ لم تشهد برسوم من قبل مثل هذا العمل النبيل من التضحية بالنفس!».

هرولت الجحافل الخضراء نحو جانب ثوريا، في حين انطلقت من مقدمة الطائرة راية كارثوريس، أمير هيليوم، ردًّا على سؤال جيداك كاول. لم تتوفر أي فرصة أمام ركاب الطائرة الصغيرة لملاحظة أثر هذا الإعلان عند الكاوليين؛ فقد انصب الآن على ما يحدث على سطح طائرتهم.

كان كار كوماك يقف خاف المدفع الذي يتولى تشغيله، ويحدق بأعين متسعة في المحاربين الخُضر المندفعين بشراسة. وعندما رآه كارثوريس بهذا الشكل، شعر ببعض الأسف لأن هذا الرجل الذي اعتقد أنه شجاع، قد أثبت أنه في ساعة الضرورة ضعيف الشخصية مثل جاف أو تاريو.

صاح: «كار كوماك، يا رجل! تماسك! تذكر أيام مجد بحارة لوثار. لنقاتل! لنقاتل، يا رجل! لنقاتل كما لم يقاتل رجل من قبل. كل ما تبقى لنا هو أن نموت ونحن نقاتل».

نظر كار كوماك نحو الهيليومي، وعلى شفتيه ابتسامة قاتمة.

وتساءل: «لماذا يجب أن نقاتل هؤلاء الغرباء المخيفين؟ هناك طريقة أخرى، طريقة أفضل. انظر!»، وأشار نحو الرفاق الذين يتحركون أسفل الطائرة.

كانت حفنة من الرجال الخُضر قد وصلت بالفعل إلى سطح الطائرة ثوريا، بينما كان كارثوريس يحدق في الاتجاه الذي أشار إليه اللوثاري. المشهد الذي رآه جعل قلبه يخفق في فرحة وارتياح- أيمكن إنقاذ ثوفيا البتارثية؟ زأر تيار متدفق من الرماة العمالقة،

يبدو عليهم التجهم والفظاعة. ليسوا الرماة الذين يستدعيهم تاريو أو جاف، وإنما الرماة الذين استدعاهم أودوار الرماة– إنهم مقاتلون وحشيون، يتوقون إلى المعركة.

توقف المحاربون الخُضر في ذهول ورعب، ولكن للحظة فقط؛ ثم انطلقوا وهم يطلقون صيحات الحرب البشعة، لمواجهة هؤلاء الأعداء الجدد الغرباء.

أوقفهم وابل من السهام. وفي لحظة، كان المحاربون الخُضر فقط على سطح السفينة ثوريا قتلى، ثم قفز الرماة بأمر من كار كوماك على جانبي السفينة لمهاجمة الجحافل الخضراء التي على الأرض.

هبط أوتان بعد أوتان من داخل ثوريا لمهاجمة الرجال الخُضر البائسين. وقف كولان تيث والكاوليون في صمت وبأعين متسعة بدهشة وهم يشاهدون الآلاف من هؤلاء المحاربين الغرباء الشرسين، ينطلقون من السفينة الصغيرة التي لا يمكن أن تتسع لأكثر من خمسين شخصًا.

وأخيرًا، لم يعُد الرجال الخُضر قادرين على الصمود أمام هجمة تلك الأعداد الهائلة من الرماة. تراجعوا ببطء، في البداية، نحو السهل الأصفر، لكن الرماة طاردوهم. وكان كار كوماك يهتز من الإثارة، وهو واقف على سطح السفينة ثوريا.

أطلق، بملء رئتيه، صرخة الحرب الوحشية لعصره المنسي. صاح لتشجيع الأوتان وإصدار أوامر القتال. وعندما شاهد هجماتهم تتزايد من ثوريا، لم يستطع مقاومة إغراء المعركة.

قفز من جانب السفينة على الأرض، وانضم إلى آخر مجموعة رماة تتسابق فوق قاع البحر الميت لمطاردة الجحافل الخضراء الهاربة.

كان الرجال الخُضر يختفون في اتجاه الغرب، وراء نتوء كان في يوم ما جزيرة، وركض في أعقابهم رماة أسطول سابق عتيق. وكان كارثوريس وثوفيا يشاهدان كار كوماك الجبار يركض بينهم وهو يلوح عاليًا بالسيف التوركواسي القصير الذي تسلح به، ويحث مخلوقاته لمطاردة العدو المتقهقر.

وعندما اختفى آخرهم خلف النتوء، استدار كارثوريس نحو ثوفيا البتارثية.

وقال: «لقد علموني درسًا، هؤلاء الرماة اللوثاريون المتلاشون. عندما ينهون مهمتهم، لا يُحرِجون قادتهم بوجودهم. كولان تيث والمحاربون هنا لحمايتك. وقد

أثبتت أفعالي صدق غرضي. وداعا»، ثم ركع أمام قدميها ورفع جزءًا قليلاً من عتادها إلى شفتيه.

مدت الفتاة يدها، ووضعتها على شعره الأسود الكثيف فوق رأسه المحني أمامها، وسألته بنعومة:

«إلى أين تذهب يا كارثوريس؟».

أجاب: «مع كار كوماك، رامي السهام، حيث أجد القتال والنسيان».

وضعت الفتاة يديها أمام عينيها، كأنما تُبعد إغراء قويًّا عن بصرها.

قالت: «ليرحمني أجدادي، إذا قلت الشيء الذي لا يحق لي قوله؛ لكنني لا أستطيع أن أراك تهدر حياتك يا كارثوريس، أمير هيليوم! عليك أن تبقى يا قائدي. عليك البقاء... أنا أحبك!».

استدار الاثنان عند سماعهما سعالاً في خلفهما، وشاهدا كولان تيث، جيداك كاول واقفًا على مسافة خطوتين منهما.

صمت ثلاثتهم لعدة لحظات. ثم بدأ كولان تيث يتحدث.

قال: «لم أستطع إلا أن أسمع كل ما قيل. وأنا لست بأحمق كي أتغافل عن حبكما. كما أنني لست بأعمى كي لا أرى الشرف النبيل الذي جعلك يا كارثوريس تخاطر بحياتك وحياتها لإنقاذي، على الرغم من معرفتك أن تصرفك هذا سوف يسلبك فرصة الاحتفاظ بها لنفسك».

«كما لا يمكن أن يفوتني تقدير فضيلتك يا ثوفيا، التي أبقت شفتيكِ صامتتين أمام كلمات الحب لهذا الهيليومي، فأنا أعرف أن ما سمعته كان أول إعلانَ عن عاطفتكِ تجاهه. بل كنت لأدينكِ بالأحرى إذا تزوجتِني دون حبَ».

ثم أنهى حديثه قائلاً: «أعطيك حريتكِ يا ثوفيا البتارثية، وامنحيها للمكان الذي يقع فيه قلبكِ الـمُقيد. وعندما تلتف الأَطواق الَذهبية حول عنقيكما، سترين أن كولان تيث هو أول سَيف يرتفع إعلانًا عن الصداقة الأبدية لأميرة هيليوم الجديدة وزوجها الملكي!».

* * *

انتهى الكتاب الرابع:

ثوفيا فتاة المريخ

شطرنج المريخ

ادجار رايس بوروز

ترجمة شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

مقدمة

جون كارتر يصل إلى كوكب الأرض

هزمني شِيا الآن في لعبة الشطرنج كالمعتاد، وشعرت كالمعتاد أيضًا بارتياح مريب وأنا أمازحه بعقلية فاشلة؛ لإثارة اهتمامه للمرة الألف بتلك النظرية التي يطرحها بعض العلماء، وتؤكد أن لاعبي الشطرنج العظماء ينتمون دائمًا إلى صفوف الأطفال دون الثانية عشرة من العمر، أو إلى البالغين الذين تزيد أعمارهم على اثنتين وسبعين عامًا، أو إلى من يعانون عِلة عقلية -وهي النظرية التي أتجاهلها قليلاً في تلك الحالات النادرة التي أفوز فيها. ذهب شِيا إلى سريره لينام، وكان يجب أن أحذو حذوه؛ لأننا نمتطي الأحصنة هنا دائمًا قبل شروق الشمس، لكني جلست أمام طاولة الشطرنج في المكتبة، أنفث الدخان بإهمال نحو رأس مَلِكي المهزوم.

وفي هذه الأثناء، سمعت الباب الشرقي لغرفة المعيشة يُفتح ويدخل شخص ما. تصورت أن شِيا عاد ليتحدث معي حول بعض الأمور المتعلقة بأعمال الغد، لكني عندما رفعت عيني ونظرت نحو المدخل الذي يربط بين الغرفتين، رأيت هيئة برونزية عملاقة، هيئة رجل جسده عاريًا إلا من عتاد مرصع بالجواهر، يتدلى من أحد جانبيه سيف قصير مزخرف، ومن الجانب الآخر مسدس من طراز غريب. أدركت على الفور الشعر الأسود، الأعين الرمادية الفولاذية، الشجاعة والابتسام، السمات النبيلة، وقفزت واقفًا على قدمي لأصافح اليد الممدودة.

قلت صائحًا: «جون كارتر! إنه أنت؟».

«لا أحد غيره، يا بُني»، أجاب وهو يضع إحدى يديه في يدي، بينما يضع يده الأخرى فوق كتفي.

سألته: «وماذا تفعل هنا؟ لقد مرت سنوات طويلة منذ زيارتك الأخيرة لكوكب الأرض، ولم تأتِ من قبل مرتديًا أغطية المريخ المزخرفة. يا إلهي! ولكن، من الجيد أن أراك. لا يبدو علَى مظهرك أنك كبرت يومًا واحدًا منذ كنت تؤرجحني فوق ركبتك في طفولتي. كيف تفسر ذلك، جون كارتر، أمير الحرب في المريخ، أوَ هل حاولت تفسير ذلك؟».

أجاب: «لماذا أحاول تفسير ما لا يمكن تفسيره؟ فكما قلت لك من قبل، أنا رجل عجوز جدًّا. ولا أعرف كم أبلغ من العُمر. أنا لا أتذكر مرحلة طفولتي، لكني أتذكر فقط أنني كنت هكذا دائمًا كما تراني الآن، وكما رأيتني أول مرة عندما كان عُمرك خمس سنوات. أنت نفسك أصبحت مُسنًّا، وإن لم يكن بقدر معظم الرجال في نفس سِنك، مما قد يرجع إلى أن نفس الدماء تجري في عروقنا، على أنني لم أَشِخْ على الإطلاق. وقد ناقشت هذه المسألة مع أحد علماء المريخ البارزين، وهو صديق لي، لكن نظرياته لا تزال مجرد نظريات. على أنني سعيد بهذه الحقيقة - أنني لا أشيخ أبدًا، كما إنني أحب الحياة وحيوية الشباب.

«والآن، بالنسبة لسؤالك الطبيعي عن سبب عودتي مرة أخرى إلى كوكب الأرض، وبهذه الملابس الغريبة لأعين سكانه. يمكننا أن نشكر كار كوماك[77]، رامي السهام من لوثار[78]؛ فهو من أعطاني هذه الفكرة التي أخذت في تجريبها إلى أن نجحت أخيرًا. أنت تعرف أنني أمتلك منذ فترة طويلة القدرة على عبور الفراغ روحيًّا، لكني لم أتمكن أبدًا من قبل من نقل الجماد غير الحي بقدرة مماثلة. لكنك تراني الآن للمرة الأولى كما يراني تمامًا زملائي في المريخ – ترى السيف القصير جدًّا الذي ذاق دماء الكثير من الأعداء الوحشيين، وترى عتاد هيليوم[79] بأدواته والشارة الدالة على رتبتي، وترى أيضًا المسدس الذي قدمه لي تارس تاركاس، جيداك[80] ثارك[81].

«وإلى جانب رؤيتك، وهو السبب الرئيس لوجودي هنا، علاوة على إرضاء نفسي لنجاحي في نقل المادة الجامدة غير الحية من المريخ إلى الأرض، وبالتالي نقل الأشياء إذا رغبت في ذلك، ليس لديَّ أي سبب آخر. كوكب الأرض ليس لي؛ فاهتمامي كله ينصب على برسوم[82] – زوجتي، وأطفالي، وعملي؛ جميعهم هناك. سوف أمضي أمسية هادئة معك، ثم أعود إلى العالم الذي أحبه وأُفضِّله أكثر حتى من حبي للحياة».

جلس خلال حديثه على الجانب الآخر من طاولة الشطرنج.

قلت له: «تحدثت عن أطفال. ألديك أطفال آخرين غير كارثوريس؟».

---

(77) كار كوماك: يعيش كار كوماك منذ آلاف السنوات، عندما كانت المحيطات تنتشر على كوكب المريخ، وكان بحارًا في إمبراطورية لوثار. وهو أحد أبطال قصة «ثوفيا، فتاة المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Kar_Komak - «المترجمة.

(78) لوثار: مدينة مريخية منعزلة تحيط بها الجبال، تسكنها مجموعة من المريخيين البيض الذين يتمتعون بقدرات نفسية غير عادية - https://barsoom.fandom.com/wiki/Lothar - المترجمة.

(79) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium - المترجمة.

(80) جيداك: ما يعادل الإمبراطور – http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak - المترجمة.

(81) ثارك: جماعة المريخيين الخُضر – http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Thark - المترجمة.

(82) برسوم: كوكب يسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom - المترجمة.

أجاب: «لديَّ ابنة، أصغر قليلاً من كارثوريس، وهي من أجمل الأشياء التي تتنفس هواء المريخ الرقيق. لا يوجد أجمل من ابنتي تارا الهيليومية سوى والدتها ديجاه ثوريس».

وللحظة أشار بإصبعه دونما اكتراث إلى قطع الشطرنج، وقال: «لدينا في المريخ لعبة مشابهة للشطرنج، شديدة الشبه. وهناك عِرق مريخي يلعبها دون رحمة برجال وسيوف، ونسميها جيتان. وتجري اللعبة على لوحة مثل لوحتك، لكنها تضم مائة مربع ونستخدم فيها عشرين قطعة على كل جانب. وما من مرة رأيت الناس يلعبونها إلا وفكرت في تارا الهيليومية، وما حل بها بين قطع شطرنج برسوم. هل تريد سماع قصتها؟».

قلت له إنني أود ذلك، فحكى لي القصة، وها أنا الآن أحاول إعادة سردها لكم، بنفس عبارات أمير الحرب في المريخ، بقدر ما يمكنني أن أتذكرها، وإن كان بصيغة الغائب. وإذا ظهرت تناقضات وأخطاء في سردي، فاللوم لا يقع على جون كارتر، وإنما على أخطاء ذاكرتي. فهي قصة غريبة وبرسومية تمامًا.

الفصل (1)

غضب تارا

نهضت تارا من كومة الحرير والفراء الناعمة التي كانت مستلقية عليها، ومددت جسدها الرشيق بفتور، وتوجهت نحو وسط الغرفة، حيث يتدلى قرص برونزي من السقف المنخفض فوق طاولة كبيرة. كانت حركتها تنم عن الصحة والكمال الجسدي؛ تناسق دون جهد لا تشوبه شائبة. التفّ وشاح حريري من قماش رقيق عبر أحد كتفيها حول جسدها، وتكوّم شعرها الأسود عاليًا فوق رأسها. دقّت بعصا خشبية فوق القرص البرونزي. واستجابة للاستدعاء، دخلت إلى الغرفة بخفة فتاة من الإماء وهي تبتسم، فحظيت بتحية مماثلة من سيدتها.

سألتها الأميرة: «هل بدأ ضيوف والدي يَصِلون؟».

أجابت الأَمَة: «نعم، تارا الهيليومية، إنهم يَصِلون. لقد رأيت كانتوس كان، القائد الأعلى للقوات البحرية، والأمير سوران من بتارث[83] ، ودجور كانتوس، ابن كانتوس

(83) بتارث: إحدى الممالك التي تضم مريخيين حُمر ولديها علاقات وثيقة مع مملكة هيليوم - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ptarth - المترجمة.

كان»، ثم ألقت نظرة خبيثة نحو سيدتها عندما ذكرت اسم دجور كانتوس، «و... أوه، هناك آخرون، لقد حضر العديدون».

قالت الأميرة: «جهزي الحمام، أوثيا». ثم أضافت: «ولكن، أوثيا، لماذا تنظرين هكذا، وتبتسمين عند ذكر اسم دجور كانتوس؟».

ضحكت الأَمَة بمرح وهي تجيب: «يبدو واضحًا للجميع أنه يحبك حب العبادة».

قالت تارا: «لا يبدو ذلك واضحًا بالنسبة لي. إنه صديق أخي كارثوريس، ولذا يأتي هنا كثيراً، ولكن ليس لرؤيتي. إن صداقته لكارثوريس هي ما تجعله يأتي كثيراً إلى قصر والدي».

فقالت أوثيا لتذكيرها: «لكن كارثوريس في رحلة صيد في الشمال مع تالو، جيداك أوكار»[84] .

صاحت تارا: «حمامي أوثيا! إن لسانك هذا سيجلب لك الشقاء».

«الحمام جاهز، تارا الهيليومية»، أجابت الفتاة، وعيناها لا تزال تتلألأ في مرح؛ لأنها تعلم جيدًا أن قلب سيدتها لا يضمر أي غضب يمكن أن يحل محل حب الأميرة لجاريتها. سبقت أوثيا ابنة أمير الحرب وفتحت باب غرفة مجاورة تضم الحمام، وهو عبارة عن حوض من الرخام اللامع يحتوي على مياه معطرة، وتوجد أعمدة ذهبية تدعم سلسلة من الذهب تطوقها، وتؤدي إلى الماء على جانبي الدرجات الرخامية. علاوة على قبة زجاجية تتيح دخول ضوء الشمس الذي غمر الغرفة، وألقى بضوئه على الجدران الرخامية البيضاء المصقولة وموكب السبّاحين والأسماك المطعم بالذهب، في رسم تقليدي عبر شريط عريض يلف الغرفة.

أزالت تارا الوشاح من حولها وأعطته إلى الأَمَة. ونزلت الدرجات ببطء إلى الماء، واختبرت درجة حرارته بقدمها المتناسقة التي لم تشوهها الأحذية الضيقة والكعب العالي - قدم جميل، كما أراد الخالق أن تكون الأقدام، ويندر أن تكون. وجدت درجة حرارة الماء مناسبة، فأخذت تسبح على مهل ذهابًا وإيابًا في الحوض. سبحت بسهولة ونعومة حيوان الفقمة، تظهر أحيانًا على السطح، وأحيانًا أدناه، وتتحرك عضلاتها الملساء بهدوء تحت بشرتها الواضحة - أغنية صامتة للصحة والسعادة والنعمة. خرجت الآن، وسلمت نفسها إلى أيدي الأَمَة، التي دهنت جسم سيدتها بمادة نصف سائلة وحلوة الرائحة

(84) أوكار: مملكة تضم المريخيين الصُفر الذين يعيشون في المناطق الشمالية المتجمدة من المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Okar – المترجمة.

أخذتها من جرة ذهبية، إلى أن أصبحت بشرتها المتوردة مغطاة بالرغوة. انتهى حمامها بعد غطس سريع في الحوض، والتجفيف بمناشف ناعمة. كان حمامها الأنيق البسيط نموذجًا لحياة الأميرة - لا يضم حاشية من الجواري بلا فائدة، ولا أبهة، ولا إضاعة بلا طائل للحظات ثمينة. وانتهت، بعد نصف ساعة أخرى، من تجفيف شعرها وتصفيفه بطريقة غريبة لكنها أصبحت مميزة لها. وارتدت أغطيها الجلدية المغطاة بالذهب والجواهر، وأصبحت على استعداد لمقابلة الضيوف المدعوين إلى مأدبة منتصف النهار في قصر أمير الحرب.

عندما غادرت جناحها متجهة إلى الحدائق حيث يجتمع الضيوف، سار خلفها محاربان يحمل عتادهما شارات بيت أمير هيليوم، إنه تذكير قاتم بأن برسوم لن تتجاهل أبدًا نصل أي قاتل، وهو تدبير يوازن فترة الحياة البشرية الطبيعية الطويلة التي لا تقل عن ألف عام.

ومع وصولهم إلى مدخل الحديقة، اقتربت منهم امرأة أخرى، تحت حراسة مماثلة، قادمة من جناح آخر في القصر الكبير. التفتت نحوها تارا بابتسامة وتحية سعيدة، بينما ركع حراسها ورؤوسهم محنية في إجلال إرادي وطوعي لأميرة هيليوم المحبوبة. إنهم هكذا دائمًا، يتقدم محاربو هيليوم بمشاعرهم القلبية وحدها لتحية ديجاه ثوريس، الذي أدخلهم جمالها الأبدي أكثر من مرة في حرب دموية مع الأمم الأخرى في برسوم. كان حب شعب هيليوم عظيمًا لزوجة جون كارتر، بلغ عمليًّا حد العبادة، كأنما كانت في الواقع الإلهة التي تبدو عليها.

تبادلت الأم وابنتها القبلات وكلمة الترحيب البرسومية اللطيفة «كاور»، ودخلا معًا إلى الحدائق حيث يوجد الضيوف. سحب محارب ضخم سيفه القصير وضرب بسطحه المستوي درعه المعدني، فارتفع رنين الصوت النحاسي أعلى من أصوات الضحك والكلام.

صاح: «الأميرة قادمة! ديجاه ثوريس! الأميرة قادمة! تارا الهيليومية!». هكذا دائمًا الإعلان عن وصول الأسرة الملكية. نهض الضيوف، وأحنت المرأتان رأسيهما، وتراجع الحراس على جانبي المدخل، وتقدم عدد من النبلاء لتقديم احترامهم، ثم استؤنف الضحك والحديث، وأخذت ديجاه ثوريس وابنتها تتنقلان ببساطة وبشكل طبيعي بين الضيوف. لم يظهر أي اختلاف في الرُّتب بين الحاضرين، رغم وجود أكثر من جيداك، والعديد من المحاربين العاديين الذين تتمثل رتبتهم الوحيدة في شجاعة أفعالهم أو وطنيتهم النبيلة. هكذا، يكون الحُكم على الرجال في المريخ: بناء على جدارتهم وليس على أجدادهم، حتى وإن كان الفخر بالنَّسب كبيراً.

أتاحت تارا لنظراتها أن تتجول ببطء بين حشد الضيوف، إلى أن توقفت عند الشخص الذي كانت تنشده. هل كان ظِل التقطيب الباهت الذي ظهر على حاجبيها مؤشرًا على عدم رضاها عن المشهد الذي رأته عيناها، أم أن أشعة شمس منتصف النهار الرائعة هي التي أثارت ضيقها؟ لا أحد يعرف! لقد شبّت على الاعتقاد بأنها في يوم ما ستتزوج من دجور كانتوس، ابن أفضل صديق لوالدها. كانت هذه أعز رغبة عند كانتوس كان وأمير الحرب، وتقبلتها تارا كأمر واقع. ويبدو أن دجور كانتوس تقبل الأمر بنفس الطريقة. لقد تحدثا عن الأمر عَرَضًا كشيء طبيعي سيحدث يومًا ما في المستقبل، مثل: ترقيته في البحرية، حيث أصبح الآن برتبة بادوار[85] ، أو المهام المحددة لبلاط جدها تاردوس مورس، جيداك هيليوم، أو الموت. لم يتحدثا أبدًا عن الحب، وهذا ما أثار حيرة تارا في المناسبات القليلة التي فكرت خلالها في الأمر؛ فهي تعرف أنَّ من سيتزوجون ينشغلون كثيراً في العادة بمسألة الحب، وكان لديها كل الفضول كامرأة لأن تتساءل ما الحب. كانت مولعة بدجور كانتوس، وتعرف أنه مولع بها. كانا يحبان أن يكونا معًا، فهما يحبان نفس الأشياء، ونفس الأشخاص، ونفس الكتب، وكان رقصهما مرحًا، ليس فقط بالنسبة لهما، وإنما أيضًا لكل من يشاهدهما. لم تكن تتخيل أنها ترغب في الزواج من أي شخص آخر غير دجور كانتوس.

لذا ربما كانت الشمس فقط هي سبب تقطيب حاجبيها قليلاً في نفس لحظة اكتشافها أن دجور كانتوس يجلس في محادثة جادة مع أولفيا مارثيس، ابنة جِد[86] هاستور[87] . كان من واجب دجور كانتوس أن يقدم احترامه على الفور إلى ديجاه ثوريس وتارا، لكنه لم يفعل،

واكفهرت الآن بالفعل ابنة أمير الحرب. تطلعت طويلاً نحو أولفيا مارثيس، وعلى الرغم من أنها رأتها عدة مرات من قبل وتعرفها جيدًا، فقد نظرت إليها اليوم بأعين جديدة ترى، للمرة الأولى على ما يبدو، أن فتاة هاستور تتمتع بجمال ملحوظ حتى بين نساء هيليوم الجميلات الأخريات. انزعجت تارا الهيليومية، وحاولت تحليل عواطفها، لكنها وجدت صعوبة. كانت أولفيا مارثيس صديقتها، وتحبها كثيراً، ولم تشعر بأي غضب نحوها. هل كانت غاضبة من دجور كانتوس؟ كلاَّ، قررت أخيراً أنها ليست غاضبة منه، بل هي مجرد المفاجأة... مفاجأة أن يهتم دجور كانتوس بشخص آخر غيرها. وكانت على وشك عبور الحديقة والانضمام إليهما، عندما سمعت صوت والدها خلفها مباشرة.

---

(85) بادوار: رتبة مريخية تُعادل رتبة مُلازم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Padwar - المترجمة.

(86) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed - المترجمة.

(87) هاستور: إحدى المدن الصغيرة في مملكة هيليوم - https://barsoom.fandom.com/wiki/Hastor - المترجمة.

ناداها: «تارا الهيليومية!»، استدارت ورأته يقترب ومعه محارب غريب، يضم عتاده وأسلحته زخارف غير مألوفة لها. كانت أغطية الغريب ملحوظة لروعتها البربرية، حتى بين الأغطية الرائعة لرجال هيليوم وزوار الإمبراطوريات البعيدة. وكان جلد عتاده مختفيًا تمامًا تحت الحلي البلاتينية المرصعة بغزارة بالألماس الرائع، مثلما كانت أيضًا أغماد سيوفه والحافظة المزخرفة التي ضمت مسدسه المريخي الطويل. وخلال تحركه بجانب أمير الحرب عبر الحديقة المضاءة بنور الشمس، انتقلت الأشعة المتألقة من ذلك العدد اللا نهائي من الجواهر التي تحيط به كهالة من الضوء إلى هيئته النبيلة التي تنم على الاستقامة.

قال جون كارتر، بعد تقاليد التعريف البرسومية البسيطة: «تارا الهيليومية، هذا هو جاهان، جِد جاثول»[88].

ردت تارا: «كاور! جاهان، جِد جاثول».

قال الزعيم الشاب: «سيفي تحت قدميك، تارا الهيليومية».

تركهما أمير الحرب. جلسا على المقعد الطويل تحت شجرة سورابوس[89] ممتدة.

قالت الفتاة وهي مستغرقة في التفكير: «جاثول البعيدة. إنها ترتبط في ذهني دومًا بالغموض والرومانسية - تقاليد القدماء شبه المنسية. لا يمكنني أن أتصور جاثول الآن، ربما لأنني لم يسبق أن رأيت أي جاثولي من قبل».

أضاف جاهان: «وربما أيضًا بسبب المسافة الكبيرة الذي تفصل بين هيليوم وجاثول، فضلاً عن عدم الأهمية النسبية لمدينتي الصغيرة الحرة، التي قد تضيع بسهولة في أحد أركان هيليوم الجبارة». ثم واصل ضاحكًا: «لكن ما ينقصنا من قوة، نعوضه بالفخر. نحن نعتقد أن مدينتنا هي أقدم مدينة مأهولة بالسكان في برسوم. إنها واحدة من المدن القليلة التي احتفظت بحريتها، هذا على الرغم من أن مناجم الألماس القديمة بها تُعتبر أغنى المناجم المعروفة حتى الآن، وخلافًا لجميع المناجم الأخرى عمليًا، يبدو اليوم أنها لا تنضب أبدًا».

حثته الفتاة: «حدثني عن جاثول. مجرد التفكير يثير اهتمامي»، ولم يكن من المرجح أن ينتقص وجه الشاب الوسيم شيئًا من سحر جاثول البعيدة.

---

(88) جاثول: من أقدم مدن المريخ وتضم مريخيين حُمر، ولا تتبع أي مملكة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Gathol - المترجمة

(89) سورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بثماره النضرة المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapusالمترجمة.

بدا جاهان سعيدًا بمواصلة احتكار صحبة رفيقته الجميلة. بدت عيناه مقيدتين بملامحها الفاتنة، ولم تنتقلا أبعد من ثدييها المستديرين، حيث اختبأ جزء منهما تحت غطائها المرصع بالجواهر، أو كتفها العاري، أو كمال ذراعيها المتماثلين اللذين يتألقان بأساور ذات بهاء بربري.

أجابها: «لا شك أن تاريخكم القديم أخبركم أن جاثول بُنيت على جزيرة في ثروكسيوس[90] ، أقوى المحيطات الخمسة في برسوم القديمة. ومع انحسار المحيط زحفت جاثول على جانبي الجبل الذي كانت قمته هي الجزيرة التي بُنيت فوقها، وهي لا تزال تغطي المنحدرات حتى اليوم، من القمة إلى القاعدة، بينما يتخذ باطن التل الكبير شكلاً سداسي المقطع كأقراص شمع العسل يضم أروقة المناجم. ويحيط بنا بالكامل مستنقع مالح هائل، يحمينا من أي غزو بري، بينما طبيعة تضاريس جبلنا الوعرة والعمودية تجعل هبوط أي سفن فضائية عدائية مهمة محفوفة بالمخاطر».

سألته الفتاة: «وماذا عن محاربيكم الشجعان؟».

ابتسم جاهان، وقال: «نحن لا نتحدث عن ذلك إلا للأعداء، وعندئذ نتحدث بألسنة من السلاح وليس من اللحم».

«ولكن، كيف يمارس شعب، تحميه الطبيعة من الهجوم، فن الحرب؟»، سألت تارا التي أعجبتها إجابة الجد الشاب عن سؤالها السابق، وإن استمر في ذهنها تصور ملتبس حول احتمالات ميولَ أنثوية الطابع لدى رفيقها، نتجت دون شك من روعة زخارف أغطيته وأسلحته التي تبدو كعرض رائع وليست لاستخدامات شرسة.

قال موضحًا: «على الرغم من أن الحواجز الطبيعية لدينا أنقذتنا دون شك من الهزيمة في عدد لا يُحصي من الحالات، فهي لم تجعلنا بأي شكل مُحصنين من الهجمات، ذلك أن ثروة جاثول من الألماس هائلة، بحيث لا يزال هناك من يخاطر -وهو موقن تقريبًا من الهزيمة- ويبذل الجهد لنهب مدينتنا التي لا تُقهر، ولذلك، نمارس أحيانًا تدريبات على استخدام الأسلحة. لكن جاثول أكثر من مجرد مدينة جبلية، فهي تمتد من بولودونا (خط الاستواء) شمالاً بمقدار 10 كاراد[91] ، ومن الكاراد العاشر غرب مدينة

(90) ثروكسيوس: أكبر المحيطات الخمسة التي كانت موجودة في برسوم. كل ما تبقى منه هو مستنقع الملح العظيم - https://barsoom.fandom.com/wiki/Throxus - المترجمة.

(91) الكاراد: هو وحدة خط العرض المريخية، ويعادل درجة واحدة http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=karad - -المترجمة.

هورز[92] إلى العشرين غربًا، بما يشمل مليون هاد[93] مربع، والجزء الأكبر أراض رعوية جيدة، حيث تعيش قطعان كبيرة من حيوانات الثوات[94] والزيتيدار»[95].

«ونظرًا لأن الاعداء المفترسين يحيطون بنا، فإما يكون الرعاة لدينا من المحاربين أو لا نمارس الرعي، وتأكدي أنهم سيواجهون الكثير من القتال. كما أننا نحتاج باستمرار إلى عمال في المناجم. يعتبر أبناء جاثول أنفسهم عِرقًا محاربًا، ولذلك يفضلون عدم العمل في المناجم. بيد أن القانون ينص على أن يعطي كل جاثولي ذَكَر ساعة في اليوم للعمل لدى الحكومة. وهذه عمليًّا هي الضريبة الوحيدة المفروضة عليهم. على أنهم يفضلون إرسال بديل للقيام بهذا العمل، ونظرًا لأن شعبنا لا يود العمل في المناجم، فقد أصبح من الضروري اقتناء عبيد. ولست بحاجة لأقول لكِ إننا لم نفُز بالعبيد دون قتال. نحن نبيع هؤلاء العبيد في السوق العام، ويجري اقتسام المبلغ مناصفة: النصف للحكومة والنصف الآخر للمحاربين الذين جلبوهم. ويحظى المشترون بكمية العمل التي يؤديها العبيد. وفي نهاية السنة، يكون العبد الجيد قد أدى ضريبة العمل لسيده لمدة ست سنوات. وإذا كان عدد العبيد كبيرًا، يحق لسيدهم تحرير من يراه ويسمح له بالعودة إلى شعبه».

سألته تارا، وهي تشير إلى زخارف أغطيته الرائعة بابتسامة ساحرة: «هل تحاربون وأنتم ترتدون زخارف من البلاتين والألماس؟».

ضحك جاهان قائلاً: «نحن شعب مزهو بنفسه»، ثم واصل بحسن نية: «وربما نضفي قيمة كبيرة على المظهر الشخصي. نحن ننافس بعضنا بعضًا في روعة ما لدينا من ملابس أو تجهيزات إضافية، عندما نتقيد بواجبات خفيفة في الحياة، على الرغم من أن جلودنا في ميدان الحرب هي أبسط ما رأيت من جلود يرتديها المحاربون في برسوم. كما أننا نفتخر أيضًا بجمالنا البدني، لا سيما جمال نسائنا. وهل أجرؤ على القول، تارا الهيليومية، إنني آمل أن يأتي يوم تزورين فيه جاثول، ليرى شعبي امرأة جميلة حقًّا؟».

---

(92) هورز: مدينة مريخية تُعتبر مهجورة، لكنها كانت يومًا ما منارة الثقافة والتعليم على المريخ http://barsoom.wikia.com/wiki/Horz - -المترجمة.

(93) الهاد: هو الميل في برسوم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Linear_Measurement - المترجمة.

(94) الثوات: حيوان مريخي يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام، ولديه أربعة أرجل على كل جانب، وذيله عريض مُسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد مباشرة خلفه عندما يجري، وفمه مفتوح يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم. وهو خال تمامًا من الشعر، ولون بشرته هو الرمادي الذي تشوبه الزُّرقة. أما بطنه فلونه أبيض، ويتدرج لون سيقانه بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامه. والأقدام نفسها شديدة الامتلاء وبلا أظافر، مما يسهم أيضًا في تحركه دون ضوضاء، وهو الأمر الذي يُشكل، إضافة إلى تعدد سيقانه، سمة مميزة لحيوانات المريخ – http://barsoom.wikia.com/wiki/Thoat - المترجمة.

(95) الزيتيدار: حيوان مريخي يشبه الفيل، ويُعتبر من حيوانات الجر الثقيلة حيث يُستخدمه المريخيون غالبًا في حمل الأحمال الكبيرة لمسافات شاسعة وجر المركبات الضخمة – http://barsoom.wikia.com/wiki/Zitidar - المترجمة.

ردت الفتاة: «تتعلم نساء هيليوم إبداء الاستياء أمام الكلام المعسول»، لكن جاهان، جِد جاثول، لاحظ أنها ابتسمت وهي تقول ذلك.

ارتفع صوت البوق واضحًا وجميلاً أعلى من الضحك والحديث. صاح المحارب الشاب: «رقصة برسوم! إنني أطلبك للرقص، تارا الهيليومية».

نظرت الفتاة في اتجاه المقعد الطويل، حيث كانت قد شاهدت دجور كانتوس جالسًا. لكنه لم يكن هناك. هزت رأسها موافقة على طلب الجاثولي. كان العبيد يمرون بين الضيوف، يوزعون آلات موسيقية صغيرة ذات وتر واحد، وتوجد فوق كل آلة موسيقية عدة حروف تشير إلى النغمة وطولها. كانت تلك الآلات مصنوعة من خشب شجرة السكيل[96] ، والوتر من أحشاء الحيوانات، وتتخذ شكلاً يناسب ساعد الراقصة الأيسر الذي تكون مربوطة به. وهناك أيضًا حلقة من أحشاء الحيوانات، ترتديها الراقصة بين المفصلين الأول والثاني من سبابة يدها اليمنى، بحيث تُحدِث عند مرورها عبر وتر الآلة الموسيقية نغمة واحدة تريدها الراقصة.

نهض الضيوف، وأخذوا يتوجهون ببطء نحو المرجة القرمزية الواسعة في الطرف الجنوبي للحدائق حيث مكان الرقص، عندما كان دجور كانتوس يسرع نحو تارا الهيليومية. قال وهو يقترب منها: «أطلب منك ...»، لكنها قاطعته بإيماءة.

صاحت في غضب مصطنع: «لقد تأخرت، دجور كانتوس. لا يجوز لمتقاعس أن يطلب من تارا الهيليومية، عليك أن تسرع الآن حتى لا تفقد أيضًا أولفيا مارثيس، التي لم أرَها أبدًا تنتظر فترة طويلة ليطلبها أحد لهذه الرقصة أو غيرها».

اعترف دجور كانتوس في أسى: «لقد فقدتها بالفعل».

أجابته الفتاة وهي لا تزال تتصنع الاستياء: «هل تعني أنك لم تأت إلى تارا الهيليومية إلا بعد أن فقدت أولفيا مارثيس؟».

قال الشاب بإصرار: «أوه، تارا الهيليومية، أنت تعرفين أفضل من ذلك. أليس من الطبيعي أن أفترض أنك تتوقعين مجيئي، فمَن وحده الذي طلبك لرقصة برسوم ما لا يقل عن اثنتي عشرة مرة من قبل؟».

---

(96) شجرة سكيل: شجرة من خشب مريخي صلب يُستخدم في بناء كل شيء من السكن إلى الأثاث. وتنتج أيضًا شجرة سكيل جوز جيد المذاق - http://barsoom.wikia.com/wiki/Skeel - المترجمة.

سألته: «وأجلس ألهو بإبهامي إلى أن تجد الوقت مناسبًا لتأتي لي؟ آه، كلا، دجور كانتوس، تارا الهيليومية ليست لمتقاعس»، ثم ابتسمت له وتحركت مع جاهان، جِد جاثول، نحو حلبة الرقص حيث يتجمع الراقصون والراقصات.

تشبه «رقصة برسوم» الرقص الرسمي في المريخ -مثل رقصة «المسيرة الكبرى» التي نفتتح بها حفلاتنا الراقصة على كوكب الأرض- لكنها أكثر تعقيدًا وجمالاً بما لا يُقاس. ففي المريخ، قبل أن يحضر أي شاب/شابة مأدبة اجتماعية مهمة تضم رقصًا، يجب أن يتمتع بالبراعة

في ثلاث رقصات على الأقل: رقصة برسوم، ورقصته الوطنية، ورقصة مدينته. ويقدم الراقصون/الراقصات في هذه الرقصات الثلاث موسيقاهم، التي لا تتغير أبدًا، كما لا تتغير الخطوات أو الحركات، فهم يتناقلونها منذ زمن سحيق. تتسم جميع الرقصات البرسومية بالفخامة والجمال، لكن «رقصة برسوم» ملحمة مدهشة من الحركة والانسجام، لا تضم أوضاعًا متنافرة، أو أي حركات مبتذلة أو موحية. كانت توصف باعتبارها تفسيراً للمُثُل العليا للعالم الذي يتوق إلى النعمة والجمال والعفة في المرأة، وإلى القوة والكرامة والولاء في الرجل.

بدأ الرقص اليوم جون كارتر، أمير الحرب في المريخ، مع زوجته ديجاه ثوريس. وإذا كان هناك راقصان آخران ينافسانهما في إعجاب الضيوف الصامت، فهما جد جاثول المتألق وشريكته الجميلة. وخلال أشكال الرقص دائمة التغير، وجد الرجل يدَ الفتاة في يده، ثم ذراعه -الذي لم يغطِه بشكل كاف العتاد المرصَّع بالجواهر- حول جسدها الرشيق، أما الفتاة، وعلى الرغمِ من أنها رقصت ألف مرة سابقًا، فقد أحسَّت للمرة الأولى بالتواصل الشخصي لذراع رجل بجسدها العاري. اضطربت لأنها كان يجب أن تلاحظ ذلك، وتطلعت بتعجب وباستياء تقريبًا نحو الرجل كما لو كان خطأه. التقت عيناهما، وشاهدت في عينيه ما لم تشهد مثله من قبل في أعين دجور كانتوس. توقف الاثنان فجأة مع الموسيقى، في نهاية الرقص، ووقف كل منهما وهو ينظر مباشرة في عين الآخر. وكان جاهان الجاثولي هو من تكلم أولاً.

قال: «تارا الهيليومية، أنا أحبك!».

اعتدلت الفتاة وصاحت بغطرسة» «جِد جاثول نسي نفسه».

أجابها: «جد جاثول يمكن أن ينسى كل شيء إلا أنت، تارا الهيليومية». ضغط بقوة على يدها الناعمَة التي لا يزال ممسكًا بها بعد آخر شكلٍ للرقصة، وكرر: «أحبك، تارا الهيليومية. لماذا ترفض أذناكِ سماع ما لم ترفض عيناكِ رؤيته الآن ... وتجيب عليه؟».

صاحت: «ماذا تعني؟ هل رجال جاثول أفظاظ هكذا؟».

أجابها بهدوء: «ليسوا أفظاظًا ولا حمقى، بل يعرفون عندما يقعون في حب امرأة، وعندما تحبهم امرأة».

ضربت تارا على الأرض بقدمها الصغير من الغضب، وهي تقول: «اذهب! قبل أن يصبح من الضروري أن يعرف والدي الإهانة التي وجهها لي ضيفه».

استدارت، وسارت مبتعدة. صاح الرجل: «انتظري! مجرد كلمة أخرى».

سألته: «كلمة اعتذار؟».

أجابها: «مجرد استشراف للمستقبل».

قالت: «لا يهمني أن أسمعها»، وتركته واقفًا هناك. شعرت بتوتر غريب، وبعد فترة وجيزة عادت إلى غرفتها في القصر، حيث وقفت تتطلع طويلاً من النافذة إلى ما وراء المرجة القرمزية في هيليوم الكبرى تجاه الشمال الغربي.

ابتعدت بغضب عن النافذة وهي تصيح بصوت عال: «إنني أكرهه!». استفسرت محظيتها أوثيا: «من هو؟».

ضربت تارا قدمها على الأرض وقالت: «هذا الفظّ، سيئ الخلق، جِد جاثول».

رفعت أوثيا حاجبيها الرفيعين.

عندما ضربت تارا الأرض بقدمها الصغير، نهض وحش كبير من زاوية الغرفة واتجه نحوها، ووقف يتطلع إلى وجهها. وضعت يدها على رأسه القبيح، وقالت: «عزيزي وولا[97] العجوز، لا يمكن أن يوجد حُب أعمق من حبك، فهو لا يُسيء لي أبدًا. ليت أولئك الرجال يتخذونك نموذجًا!».

* * *

(97) وولا: هو اسم الكلب المريخي لدى جون كارتر وعائلته - https://barsoom.fandom.com/wiki/Woola - المترجمة.

الفصل (2)

تحت رحمه العاصفة

لم تعُد تارا الهيليومية إلى ضيوف والدها، لكنها انتظرت في جناحها كلمة من دجور كانتوس، كانت تعرف أنه يجب أن يأتي ليرجوها العودة إلى الحدائق، وعندئذ سوف ترفض بغطرسة. ولكن لم يصلها أي شيء من دجور كانتوس. شعرت تارا بالغضب بداية، ثم أحست أنها جُرِحت، وكانت في حيرة دائمة. لم تتمكن من الفهم. كانت تفكر أحيانًا في جد جاثول ثم تَضرب الأرض بقدمها؛ إذ كانت في الواقع شديدة الغضب من جاهان. يا لَوقاحة الرجل! لقد ألمح أنه قرأ في عينيها حبها له. لم تتعرض من قبل أبدًا لهذه الإهانة والإذلال. لم يسبق أن كرهت رجلاً هكذا. وفجأة التفتت نحو أوثيا.

أمرتها: «أحضري الجلود الخاصة بالطيران!».

صاحت الأَمَة: «لكن، الضيوف! يتوقع والدك، أمير الحرب، أن تعودي».

قاطعتها تارا: «سوف يصاب بخيبة أمل».

ترددت الأَمَة، وحاولت تذكير سيدتها: «لكنه لا يوافق على أن تطيري بمفردك».

نهضت الأميرة الشابة، وأمسكت الأَمَة التعيسة من كتفيها وأخذت تهزها. صاحت: «لقد أصبحتِ لا تُطاقين، أوثيا. قريبًا لن يوجد بديل سوى إرسالك إلى سوق العبيد العام، وربما تَجدين سيدًا يُرضيكِ».

اغرورقت أعين الجارية الرقيقة بالدموع، وقالت بدماثة: «هذا لأنني أحبك يا أميرتي». تقدمت تارا بمحبة واحتضنت الأَمَة وقبّلتها.

وقالت: «إن مِزاجي الآن كحيوان الثوات، أوثيا. سامحيني! أنا أحبك، وسوف أفعل من أجلك أي شيء، ولن أفعل أي شيء يضرك. ومرة أخرى، كما قلت مرارًا في السابق، إنني أمنحك حريتك».

أجابت أوثيا: «لا أريد حريتي إذا كانت ستبعدني عنك، تارا الهيليومية. أنا سعيدة هنا معك، وأعتقد أنني قد أموت من دونك».

تبادلت الفتاتان القبلات مرة أخرى. وتساءلت الأَمَة: «إذن لن تطيري بمفردك؟».

ضحكت تارا وقرصت رفيقتها، وقالت: «لا زلتِ مُصرة، يا لكِ من مزعجة صغيرة. بالطبع سوف أطير – ألا تفعل تارا الهيليومية دائمًا ما يَحلو لها؟»".

هزت أوثيا رأسها في حسرة، وقالت بإقرار: «للأسف! يتمتع أمير الحرب في برسوم بقوة الحديد في مواجهة تأثير الجميع ما عدا أمام اثنتين. فهو في أيدي ديجاه ثوريس وتارا الهيليومية يصبح مرنًا مثل الطين في أيدي صانعي الخزف».

* * *

حلَّقت طائرة تارا الهيليومية مسرعة بعيدًا، عبر قيعان البحار الصفراء، خارج مدينتي هيليوم التوأم. قادت الفتاة طائرتها نحو الشمال الغربي، وهي تشعر بالإثارة من سرعة طائرتها الصغيرة وطفوها. لم تتوقف لتعرف سبب اختيارها هذا الاتجاه، ربما لأن أقل المناطق المعروفة في برسوم تقع في هذا الاتجاه، وبالتالي هناك الرومانسية والغموض والمغامرة. كما تقع جاثول أيضًا في هذا الاتجاه، لكنها لم تكن تفكر في هذه الحقيقة بوعي.

على أنها كانت تفكر أحيانًا في جِد هذه المملكة النائية، وبالكاد ما كان رد فعلها تجاه هذه الأفكار يبعث على السرور. فلا تزال هذه الأفكار تثير حُمرة الخجل على خديها، وتبعث بموجه من الدم الغاضب إلى قلبها. كانت غاضبة جدًّا من جِد جاثول. وعلى الرغم من أنها يجب ألَّا تراه مرة أخرى أبدًا، كانت على يقين أن كراهيتها له ستظل ماثلة في ذاكرتها إلى الأبد. ودارت معظم أفكارها حول شخص آخر: دجور كانتوس. عندما تفكر فيه، تفكر أيضًا في أولفيا مارثيس من هاستور. اعتقدت تارا أنها تشعر بالغيرة من أولفيا الشقراء، وأثار هذا الشعور غضبها. شعرت بالغضب من دجور كانتوس ومن نفسها، لكنها لم تكن غاضبة على الإطلاق من أولفيا مارثيس التي أحبتها، وبالتالي لم تكن غيورة حقًّا. تكمن المشكلة في أن تارا فشلت للمرة الأولى في سير الأمور بطريقتها. لم يأت دجور كانتوس كعبد مُلبٍّ لها عندما توقعته، آه، هنا جوهر الأمر برمته! وشهد جاهان، جِد جاثول، وهو الغريب، إهانتها. فقد رأى في بداية الحفل عدم طلبها للرقص، وكان عليه أن يأتي إليها لنجدتها وإنقاذها، كما تصوَّر دون شك، من مصير زهرة الجدار المغمورة. ومع تواتر هذه الفكرة، شعرت تارا بأن جسمها كله يحترق بخجل قرمزي، ثم تحولت فجأة إلى بيضاء باردة من الغضب، وعندئذ أدارت طائرتها فجأة، إلى حد تمزق جميع الجلود التي ترتديها وسقوطها على سطح الطائرة المستوي الضيق. وصلت إلى المنزل قبل حلول الظلام، وقد غادر الضيوف، وساد الهدوء في القصر. وبعد ساعة انضمت إلى والدها ووالدتها في وجبة العشاء.

قال جون كارتر: «هجرتينا، تارا الهيليومية. ليس هذا ما يتوقعه ضيوف جون كارتر».

أجابت تارا: «إنهم لم يأتوا لرؤيتي. لم أدعُهم».

قال والدها: «إنهم ضيوفك أيضًا».

نهضت الفتاة، ووقفت بجانبه، ولفت ذراعيها حول عنقه.

وصاحت وهي تداعب كتلة شعره الأسود: «يا لك من فيرجيني عجوز أصيل».

قال الرجل وهو يبتسم: «في فيرجينيا، يقلبك والدكِ فوق ركبته ويضربك».

تسللت إلى حضنه وقبّلته، ثم قالت: «أنت لم تعُد تحبني. لا أحد يحبني»، لكنها لم تتمكن من إظهار العبوس على ملامحها لأن ضحكة متدفقة أصرت على اختراق العبوس.

قال: «المشكلة أن عددًا كبيراً يحبك. والآن هناك شخص آخر».

صاحت: «فعلاً! ماذا تقصد؟».

أجاب: «جاهان الجاثولي قد طلب الإذن ليخطبك».

اعتدلت الفتاة في جلستها، ورفعت ذقنها في الهواء، وقالت: «لن أتزوج من منجم للألماس يسير على قدمين. لن أتزوجه».

أجاب والدها: «قلت له هذا، كما أخبرته أنك مخطوبة لآخر. كان شديد التهذيب حول هذا الموضوع، لكنه جعلني أفهم في الوقت نفسه أنه اعتاد الحصول على ما يريد، وأنه يريدك بشدة. وأعتقد أن ذلك سيعني حربًا أخرى. فقد أبقى جمال والدتك هيليوم في حرب لسنوات عديدة. حسنًا، تارا الهيليومية، لو كنت شابًّا، لأشعلت دون شك كل برسوم للفوز بك، كما لا أزال مستعدًّا لأن أفعل ذلك للإبقاء على والدتك الإلهية»، وابتسم وهو ينظر عبر الطاولة المصنوعة من خشب السورابوس وأدوات الطعام الذهبية عليها، نحو توهج جمال أجمل امرأة في المريخ.

قالت ديجاه ثوريس: «لا ينبغي أن تقلق فتاتنا الصغيرة بعد بمثل هذه المسائل. تذكر، جون كارتر، أنك لا تتعامل مع طفلة على كوكب الأرض، ستنقضي أكثر من نصف فترة حياتها قبل أن تصل ابنة برسوم إلى مرحلة النضج الفعلي».

قال بإصرار: «ولكن، ألا تتزوج بنات برسوم أحيانًا في فترة مبكرة من العُمر، عند بلوغهن سن العشرين؟».

أجابته: «نعم، لكنهن يبقين مرغوبات في أعين الرجال بعد أربعين جيلاً من عودة شعب كوكب الأرض إلى التراب. لسنا على عجل، على الأقل في برسوم. نحن لا نذبل ونتحلل هنا، كما أخبرتني أنه يحدث لقوم كوكبك، على الرغم من أنك، وجودك أنت نفسك، يناقض كلماتك. عندما يحين الأوان ستتزوج تارا الهيليومية من دجور كانتوس، وحتى ذلك الحين ما من داع لإعطاء هذه المسألة مزيدًا من التفكير».

قالت الفتاة: «كلا، هذا الموضوع يؤرقني، ولن أتزوج دجور كانتوس أو غيره. أنا لا أنوي الزواج».

نظر إليها والداها وهما يبتسمان، ثم قال والدها: «ربما يخطفك جاهان الجاثولي عندما يعود».

سألته الفتاة: «هل رحل؟».

ورد جون كارتر: «غادرت طائرته الفضائية في الصباح إلى جاثول».

قالت تارا وهي تتنفس الصعداء: «إذن كانت هذه آخر مرة أراه فيها».

أجابها جون كارتر: «لكنه يقول غير ذلك».

هزت الفتاة كتفيها متغاضية عن هذا الموضوع، وتحول الحديث إلى مواضيع أخرى. وصلت رسالة من ثوفيا البتارثية[98] التي كانت تزور بلاط والدها، بينما كارثوريس، زوجها، يصطاد في أوكار. ورد بالرسالة نشوب الحرب ثانية بين الثارك والوارهون[99] ، أو بالأحرى أن هناك اشتباكات؛ لأن الحرب كانت حالتهما الاعتيادية. لا تضم ذاكرة الرجال وجود سلام بين هاتين الجماعتين الوحشيتين من قبائل الخُضر، سوى هدنة مؤقتة واحدة، وقد انطلقت سفينتان حربيتان جديدتان من هاستور. كانت عصابة صغيرة من الثيرن المقدسين[100] تحاول إحياء دين إيسوس[101] القديم الذي فقد

---

(98) بتارث: إحدى الممالك المريخية، يعيش فيها المريخيون ذوي البشرة الحمراء – http://barsoom.wikia.com/wiki/Ptarth - المترجمة.

(99) الوارهون: جماعة من المريخيين الخُضر، تتسم بالوحشية، وتأخذ اسمها من المدينة المينة التي تُعتبر عاصمتها - https://barsoom.fandom.com/wiki/Warhoon - المترجمة.

(100) الثيرنيون أو الثيرن: هم عِرق مريخي أبيض البشرة وأصلع، يرتدون باروكات شقراء، ويتمتعون بقوى عقلية خارقة – http://barsoom.wikia.com/wiki/Thern المترجمة.

مصداقيته، وتزعم أن إيسوس لا تزال حية على شكل روح وأنها تواصلت معهم. ووصلت شائعات من دوسار[102] عن الحرب. وزعم أحد العلماء أنه اكتشف وجود حياة بشرية على سطح القمر الأبعد. وحاول رجل مجنون تدمير مصنع الغلاف الجوي. واغتيل سبعة أشخاص في هيليوم الكبرى خلال آخر عشر زودات[103] (ما يعادل اليوم على كوكب الأرض).

بعد الانتهاء من الطعام، أخذت ديجاه ثوريس تلعب مع أمير الحرب لعبة جيتان، أي الشطرنج المريخي، وهي تُلعب على لوحة من مائة من المربعات السوداء والبرتقالية على التناوب. ويحصل أحد اللاعبين على عشرين قطعة سوداء، ويحصل الآخر على عشرين قطعة برتقالية. وقد يهتم قراء كوكب الأرض الذين يحبون لعبة الشطرنج بالتعرف على وصف مختصر للعبة، وأعتقد أن هذا الوصف لن يضيع وقت من يريدون مواصلة القصة حتى نهايتها؛ ذلك أنهم سيجدون أن التعرُّف على جيتان سيضيف إلى التشويق والإثارة المُخبأة لهم.

يوضع رجال قطع اللعبة على اللوح، كما في لعبة الشطرنج، على الصفين الأول والثاني أمام كل لاعب. وبالترتيب من اليسار إلى اليمين على صف المربعات الأقرب لكل لاعب. وقطع جيتان هي: المحارب، البادوار، الدوار[104] ، الطيار، القائد، الأميرة، الطيار، الدوار، البادوار،

المحارب. وفي الصف التالي، جميع القطع من البانتان[105] ما عدا القطع الأخيرة التي تُسمَّى الثوات، وتمثل المحاربين الذين يمتطون حيوانات الثوات.

البانتان، الذين يتميزون كمحاربين بوضع ريشة واحدة، ينتقلون مسافة واحدة في أي اتجاه ما عدا إلى الخلف، ويتميز المحاربون الذين يمتطون الثوات بثلاث ريشات، وينتقلون مسافة واحدة مستقيمة وأخرى قُطرية، ويمكنهم القفز على القطع التي

---

(101) إيسوس: امرأة عجوز من المريخيين ذوي البشرة السوداء، زعمت أنها إلاهة الحياة الأبدية، لكن حقيقتها تكشفت - http://barsoom.wikia.com/wiki/Issus - المترجمة.

(102) دوسار: إحدى الممالك المريخية، يسكنها مريخيون حُمر، وتاريخها يمتلئ بالنزاعات مع المملكتين المجاورتين: هيليوم وبتارث - http://barsoom.wikia.com/wiki/Dusar - المترجمة.

(103) ورد في قصة «آلهة المريخ» أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على 24 ساعة و37 دقيقة (بتوقيت كوكب الأرض). ويقسمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية تسمى زود (أي أن دورة المريخ حول محوره تساوي 10 زود)، وينقسم الزود إلى خمسين فترة أقصر تسمى زات (أي أن الزود يعادل 50 زات)، يتكون كل منها بدوره من 200 فترة زمنية قصيرة تعادل تقريبًا الثانية في كوكب الأرض وتسمى تال (أي 200 تال يعادل 1 زات) – المترجمة.

(104) دوار: رتبة مريخية تعادل رتبة كابتن (نقيب - http://barsoom.wikia.com/wiki/Dwar - (المترجمة.

(105) بانتان: هو جندي مريخي مرتزق، يتنقل من مكان لآخر ويقاتل لصالح من يرغب في شراء خدماته - http://barsoom.wikia.com/wiki/Panthan - المترجمة.

تعترضهم، أما المحاربون، جنود المشاة الذين يتميزون بريشتين، فيمكنهم الانتقال مسافتين مستقيمتين في أي اتجاه أو قطريًّا، وينتقل البادوار، وهو المُلازم ويرتدي ريشتين، مسافتين قطريًّا في أي اتجاه، أو تركيب، وينتقل الدوار، وهو النقيب ويرتدي ثلاث ريشات، لثلاث مسافات مستقيمة في أي اتجاه أو تركيب، وينتقل الطيارون، الممثلين بمروحة ذات ثلاث شفرات، لثلاث مسافات في أي اتجاه، أو تركيب، قطريًّا، ويمكنهم القفز فوق القطع التي تعترضهم. أما القائد، الذي يتميز بإكليل يضم عشر جواهر، فيمكنه الانتقال ثلاث مسافات في أي اتجاه، بشكل مستقيم أو قطري، والأميرة، التي يميزها إكليل يضم جوهرة واحدة، فمثلها مثل القائد، ويمكنها أن تقفز فوق القطع التي تعترضها.

يفوز أحد اللاعبين بالمباراة عندما يضع أي قطعة من قطعه في نفس مربع أميرة خصمه، أو عندما يقتل قائد القائد الآخر. تصبح النتيجة تعادلاً عندما يُقتل القائد بأي قطعة منافسة غير القائد المنافس، أو عندما يتقلص عدد القطع لدى كل جانب إلى ثلاثة أو أقل من نفس القيمة، ولا تنتهي اللعبة في النقلات العشر التالية، خمس لكل منهما. هذه ليست سوى الخطوط العريضة العامة للمباراة بإيجاز.

كانت ديجاه ثوريس وجون كارتر يلعبان هذه اللعبة عندما تمنت لهما تارا ليلة طيبة، وهي تتوجه إلى جناحها حيث حرير وفراء النوم. «أراكما صباح الغد، يا أحبائي»، هذا ما قالته وهي تخرج من الغرفة، ولم يدُر بخلدها ولا بخلد والديها، ولو قليلاً، أن هذه ربما المرة الأخيرة التي تقع أعينهما عليها.

شقشق الصباح غائمًا ورماديًّا. ظهرت غيوم مضطربة ومنخفضة، وتنذر بالسوء، وأسفلها شظايا ممزقة تنطلق نحو الشمال الغربي. تطلعت تارا من نافذة مسكنها نحو هذا المشهد غير المعتاد؛ إذ نادرًا ما كانت السحب الملبدة بالغيوم تغطي سماء برسوم. كان من عادتها، في هذه الساعة من النهار، أن تمتطي أحد حيوانات الثوات الصغيرة ذات السرج، المشهورة لدى المريخيين الحُمر، لكن مشهد الغيوم الكثيفة أغراها بمغامرة جديدة. كانت أوثيا لا تزال نائمة، ولم تزعجها الفتاة، بل أسرعت بارتداء ملابسها بهدوء، وذهبت إلى الحظيرة التي تقع على سطح القصر، فوق مسكنها مباشرة، حيث توجد طائرتها الفضائية السريعة. لم تقد الطائرة أبدًا خلال الغيوم. لكنها المغامرة التي كانت تتوق دائمًا إلى القيام بها. كانت الرياح قوية، وتمكنت بصعوبة من توجيه الطائرة خارج الحظيرة دون حوادث، وعندئذ حلقت بسرعة فوق المدينتين التوأم. تقاذفتها الرياح بقوة، والفتاة تضحك بصوت عالٍ في مرح من التشويق والإثارة. كانت تقود السفينة الصغيرة كأي محارب مخضرم، علىٰ الرغم من أن قِلة من المحاربين القدامى هم من يمكنهم

مواجهة خطر هذه العاصفة في مثل هذه السفينة الصغيرة الخفيفة. ارتفعت بسرعة نحو الغيوم، وهي تسابق شرائط الشظايا التي تنطلق سريعًا نتيجة للعاصفة، وبعد لحظة ابتلعتها تلك الكتل الكثيفة المتلاطمة أعلاها. هنا عالم جديد، عالم من الفوضى لا يضم بشرًا سواها، لكنه عالم بارد ورطب ومنعزل، ثم وجدته مثيرًا للإحباط بعد أن تبدد شعورها بأنه عالم جديد، واجتاحها شعورًا ساحقًا بمدى حجم القُوى التي تُحيط بها. شعرت فجأة أنها شديدة الوحدة والبرودة، وصغيرة جدًّا، ولذا أسرعت بالارتفاع إلى أن تسللت بطائرتها إلى موضع تضيئه أشعة الشمس المجيدة، التي حولت

سطح السفينة العلوي المعتم إلى كتل ملفوفة من الفضة المصقولة. لا تزال هناك برودة، ولكن دون رطوبة الغيوم، وارتفعت روحها، في عين الشمس الرائعة، مع تصاعد مؤشر مقياس الارتفاع. أخذت الفتاة تحدق في الغيوم، التي أصبحت بعيدة أسفلها، وأحست بأنها معلقة بثبات في منتصف السماء، لكن طنين مروحة الطائرة، والريح التي تضرب فيها، فضلاً عن الأرقام العالية التي ارتفعت وانخفضت تحت زجاج عداد السرعة، قد أخبرها أن سرعتها ممتازة، وعندئذ قررت العودة.

قامت بأول محاولة فوق السُّحب، لكنها لم تنجح. واندهشت عندما اكتشفت عدم قدرتها حتى على الاستدارة ضد الرياح العالية، التي تصطدم بالسفينة الضعيفة وتهزها. هبطت سريعًا نحو المنطقة المظلمة التي تجتاحها الرياح، بين السُّحب المندفعة والسطح القاتم للأرض المظللة. وهنا حاولت مرة أخرى إجبار مقدمة السفينة إلى الدوران للخلف في اتجاه هيليوم، لكن العاصفة تمكنت من السفينة الضعيفة ودفعتها بلا رحمة، بحيث لفت عدة مرات، وتقاذفتها كقطعة فلين في شلال. وأخيرًا نجحت الفتاة في تصحيح وضع الطائرة الفضائية على نحو محفوف بالمخاطر. لم يسبق لها أن اقتربت هكذا من الموت، لكنها لم تشعر بالرعب. لقد أنقذتها رباطة جأشها، فضلاً عن قوة الجلود التي كانت تربطها بسطح السفينة. كانت حركتها مع العاصفة آمنة، ولكن إلى أين تأخذها؟ وتصورت قلق والدها ووالدتها عندما لا تظهر في وجبة الصباح.. لن يجدوا طائرتها، وسيعتقدون أنها سقطت في مكان ما في مسار العاصفة ككتلة محطمة ومتشابكة فوق جسدها الميت، ثم يخرج الرجال الشجعان بحثًا عنها، ويخاطرون بحياتهم، وقد تضيع حياتهم خلال البحث. كانت تعرف ذلك، فمثل هذه العاصفة لم تهب أبدًا خلال حياتها على برسوم.

يجب أن تعود! ويجب أن تصل إلى هيليوم قبل أن يؤدي شغفها المجنون بالإثارة إلى التضحية بحياة شُجاعة واحدة! ارتأت أن أكبر قدر من السلامة واحتمال النجاح يقع فوق السُّحب، ولذا ارتفعت ثانية، ومرة أخرى خلال البخار قارس البرودة الذي تتقاذفه

الرياح. ومرة أخرى كانت سرعتها هائلة؛ إذ يبدو أن الرياح لم تقلّ، بل زادت. سعت تدريجيًّا إلى التحقق من سرعة طيران سفينتها. وعلى الرغم من أنها نجحت أخيراً في عكس اتجاه الموتور، فقد حملتها الرياح معها في اتجاهها. وعندئذ فقدت تارا الهيليومية أعصابها. ألم يكن عالمها ينحني دومًا إذعانًا لكل رغبة لديها؟ ما هذه الرياح التي تجرأت على التصدي لها؟ يجب أن تثبت لها أن ابنة أمير الحرب لا يمكن معارضتها! سوف تعرف الريح أن تارا الهيليومية لا يمكن أن يحكمها أحد، حتى قوى الطبيعة!

وبالتالي دفعت المحرك إلى الأمام مرة أخرى، ثم قامت بكل قوتها، وهي تجزّ على أسنانها البيضاء في عزيمة شرسة، بدفع ذراع التوجيه لأسفل نحو المرفأ بقصد إرغام مقدمة سفينتها على الانطلاق مباشرة في مواجهة الرياح، لكن الرياح تمكنت من السفينة الضعيفة، وقلبتها على ظهرها، وأخذت تدفعها وتقلبها وتتقاذفها مرارًا وتكرارًا، أسرعت المروحة للحظة إلى جيب هوائي، ثم تمكنت منها العاصفة ثانية وقلبتها حول محورها، تاركة الفتاة عاجزة تمامًا عن السيطرة على تلك الآلة الصغيرة التي ترتفع وتنخفض، وتتلوى وتتداعى.. إنها رياضة عناصر الطبيعة التي حاولت أن تتحداها. كانت المفاجأة هي أول إحساس انتاب تارا الهيليومية، أنها أخفقت في تحقيق ما أرادته، ثم بدأت تشعر بالقلق، ليس على سلامتها، وإنما على قلق والديها، والمخاطر الحتمية التي سيواجهها الباحثون عنها. ولامت نفسها على أنانيتها الطائشة التي تُعرض سلامتها وسلامة الآخرين للخطر. كما أدركت أيضًا الخطر الجسيم المحيط بها، لكنها لا تزال غير مرعوبة، كما يليق بابنة ديجاه ثوريس وجون كارتر. كانت تعرف أن خزانات الطفو قد تبقيها طافية إلى أجل غير مسمى، لكنها بلا طعام أو ماء، والرياح تحملها تجاه منطقة من المناطق غير المعروفة في برسوم. ربما من الأفضل أن تهبط على الأرض فورًا وتنتظر قدوم الباحثين عنها، بدلاً من أن تترك نفسها هكذا لتحملها الرياح إلى مناطق أكثر بُعدًا عن هيليوم، مما يقلل إلى حد كبير من فرص اكتشاف موقعها مبكرًا. على أنها عندما انخفضت في اتجاه الأرض، اكتشفت أن عنف الرياح يجعل محاولة الهبوط بمثابة دمار، فارتفعت ثانية بسرعة.

عندما أصبحت على بُعد بضع مئات من الأقدام فوق سطح الأرض، تمكنت من تقدير حجم العاصفة العملاق على نحو أفضل مما تصورته عندما كانت تحلق في المنطقة الهادئة نسبيًّا فوق السُّحُب، وتمكنت الآن من تمييز أثر الرياح على سطح برسوم. كان الهواء مليئًا بالغبار وتتطاير خلاله بعض أجزاء النباتات. وعندما حملتها العاصفة عبر مساحة مروية من الأراضي الزراعية، شاهدت أشجارًا ضخمة وجدرانًا حجرية ومبان ترتفع عاليًا في الهواء وتتبعثر في جميع أنحاء البلد المُدَمَّر، وسرعان ما حملتها الرياح إلى معالم أخرى فرضت على وعيها اقتناعًا تنامى سريعًا أنها قبل أي شيء شخص ضئيل

جدًّا وتافه وعاجز. كان استمرار الوضع بمثابة صدمة لاعتزازها بنفسها. ومع اقتراب المساء، كانت على استعداد للاعتقاد بأن هذا الوضع سوف يدوم إلى الأبد. لم تقِلّ ضراوة العاصفة، ولا توجد أي إشارة على أنها ستقلّ. لم يكن بمقدورها إلا أن تخمن المسافة التي قطعتها، لأنها لم تصدق في صحة الأَرقام العالية التي تراكمت على سجل عداد المسافات. كان يصعب تصديق هذه الأرقام، لكنها تعرف أنها صحيحة، فقد طارت وحملتها الرياح، خلال اثنتي عشرة ساعة، لمسافة 7000 هاد كاملة. وحملتها الرياح، قبل حلول الظلام مباشرة، فوق إحدى مدن المريخ القديم المهجورة، مدينة توركواس[106]، لكنها لم تعرف ذلك. ولو عرفت، لكانت تخلت ببساطة عن أي أمل باق؛ ذلك أن توركواس بالنسبة لشعب هيليوم تبدو بعيدة جدًّا، بمثل بُعد جزر البحر الجنوبي بالنسبة لنا. ولا تزال العاصفة، التي لا يخفّ غضبها، تحملها.

ظلت طوال تلك الليلة تندفع عبر الظلام أسفل السُّحُب، أو ترتفع مسرعة خلال الفراغ الذي يضيئه بتألق ضوء قمري برسوم. أحسَّت بالبرد والجوع وكانت بائسة تمامًا، لكن روحها الصغيرة الشجاعة أبت الاعتراف بأن محنتها ميؤوس منها، على الرغم من أن عقلها كان يعلن عن هذه الحقيقة. وكان ردها على عقلها، الذي قالته أحيانًا بصوت عال في تحد مفاجئ، يستدعي إلى الذاكرة العِناد الإسبرطي لوالدها في مواجهة الإبادة: «لا زلت أعيش!».

شهد صباح ذلك اليوم زائرًا حضر مبكرًا إلى قصر أمير الحرب. كان جاهان، جِد جاثول، وقد وصل بعد وقت قصير من ملاحظة غياب تارا الهيليومية. وفي ظل جو الانفعال، لم يعلن أحد عن وصوله إلى أن صادفه جون كارتر في ممر الاستقبال الكبير بالقصر، حيث كان أمير الحرب خارجًا على عجل لاتخاذ الترتيبات اللازمة لإرسال السفن بحثًا عن ابنته.

قرأ جاهان القلق على وجه أمير الحرب، وقال: «سامحني إن تدخلت، جون كارتر. لقد جئت أطلب أن أبقى هنا ليوم آخر، فمن التهور محاولة الطيران بسفينة فضائية في مثل هذه العاصفة».

أجابه أمير الحرب: «يمكنك أن تبقى ضيفًا مُرحبًا به جاهان، إلى أن تختار المغادرة، لكنك يجب أن تغفر أي إهمال قد يظهر من جانب هيليوم إلى أن نستعيد ابنتي».

---

(106) توركواس: كانت قديمًا إحدى المدن القوية على المريخ، وأصبحت الآن مجرد إحدى المدن الميتة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Torquas - المترجمة.

صاح جاهان: «ابنتك! تستعيدها! ماذا تقصد؟ أنا لا أفهم».

رد أمير الحرب: «لقد ذهبت، هي وطائرتها الخفيفة. هذا كل ما نعرفه. لا يمكننا سوى الافتراض أنها قررت أن تطير قبل وجبة الصباح، ووقعت في براثن العاصفة. عذرًا جاهان، أنا مضطر لأن أتركك؛ إذ أتولى ترتيب إرسال السفن بحثًا عنها»، لكن جاهان، جد جاثول، كان يسرع بالفعل في اتجاه بوابة القصر، وهناك قفز فوق حيوان الثوات المُنتظر، وتبعه اثنين من المحاربين يرتديان معادن جاثول، وانطلق عبر طرقات هيليوم إلى القصر المخصص لاستضافته.

* * *

الفصل (3)

بشر بلا رؤوس

وقفت السفينة الحربية «فاناتور» مثبتة في مرساتها القوية فوق سطح القصر المخصص لجد جاثول وحاشيته. وكان أنين ماكيناتها يشير إلى غضب العاصفة المجنون، بينماَ يؤكد قلق وجوه أفراد الطاقم خطورة الوضع، حيث تتطلب واجباتهم وجودهم على السفينة الحربية. حالت الشرائط الجلدية السميكة دون انجراف هؤلاء الرجال من فوق سطح السفينة، بينما اضطر الرجال على السطح الأدنى إلى التشبث بالقضبان والأعمدة لإنقاذ أنفسهم من الانجراف مع كل موجة غضب نيزكي جديدة. حملت مقدمة السفينة «فاناتور» رسمًا لشعار جاثول، بينما لم تظهر أي أعلام أو رايات في الأجزاء العليا من السفينة؛ لأن العاصفة كانت تدفعها في تعاقب سريع، كما بدا للرجال المشاهدين أنها تدفع السفينة نفسها بعيدًا. لم يكن في تصورهم أن أي ماكينة يمكن أن تصمد لفترة طويلة أمام هذه القوة الجبارة. تشبث كل محارب مفتول العضلات، وهو ممسك بسيفه القصير، بإحدى الجلود الاثني عشر. وإذا أفلتت مرساة واحدة نتيجة لقوة العاصفة، لقطعت السيوف الإحدى عشر باقي جلود المراسي الأخرى؛ ذلك أن تثبيت السفينة جزئيًّا يحكم عليها بالفشل، بينما وجودها طليقة في العاصفة ربما يمنحها على الأقل فرصة ضئيلة للحياة.

صرخ محارب لمحارب آخر: «باسم دم إيسوس، أعتقد أنهم سيصمدون!».

أجاب محارب آخر من المحاربين الموجودين على سطح القصر: «وإن لم يصمدوا، فلتُكافئ أرواح أجدادنا هؤلاء المحاربين الشجعان على السفينة فاناتور، فمنذ اللحظة التي تتمزق فيها حزم أحبالها، لن يطول الوقت حتى يرتدي طاقمها جلد الموتى. لكني أعتقد، يا تانوس، أنها سوف تصمد. دعنا على الأقل نشكر ظروف عدم إبحارنا قبل العاصفة؛ فكل منا الآن لديه فرصة للعيش».

أجاب تانوس: «نعم، أكره أن أكون في الخارج اليوم على السفينة القوية التي تبحر في سماء برسوم».

وعندئذ، ظهر الجد جاهان على السطح، ومعه باقي جماعته واثني عشر محارب من هيليوم. استدار القائدَ الشاب نحو أتباعه.

وقال: «سوف أبحر على الفور في فاناتور، بحثًا عن تارا الهيليومية التي من المعتقد أن الرياح جرفت طائرتها الصغيرة ذات الراكب الواحد. ولست بحاجة لأن أشرح لكم مدى ضآلة فرص فاناتور في الصمود أمام غضب العاصفة، ولن أطلب منكم السير نحو حتفكم. فليبق كل من يرغب في البقاء دون خزي. وليتبعني الآخرون»، ثم قفز على حبال السلم الذي يتحرك بعنف في العاصفة.

كان تانوس أول من تبعه. وعندما صعد آخر محارب على سطح السفينة، لم يبق على سطح القصر سوى المحاربين الاثني عشر من هيليوم، حيث اتخذوا وهم يحملون سيوفهم المهام التي كان الجاثوليين يتولونها عند المراسي.

لن يغادر فاناتور الآن أي محارب واحد ممن ظلوا على متنها.

قال جاهان: «لم أتوقع أقل». وبمساعدة المجموعة الموجودة على سطح السفينة، تمكن هو والآخرون من العثور على شرائط جلدية للتأمين. هز قائد فاناتور رأسه. كان يحب سفينته الأنيقة، فخر نوعها في السلاح البحري الصغير في جاثول. كان يفكر فيها وليس في نفسه. تصور سفينته ترقد ممزقة وملتوية فوق الغطاء النباتي الأصفر في قاع بحر بعيد، ثم تحتلها وتنهبها بعض القبائل الخضراء المتوحشة. وهنا نظر نحو جاهان.

سأله الجِد: «هل أنت مستعد، سان توثيس؟».

«كل شيء جاهز».

«فلنبحر إذن!».

سرت الكلمة عبر سطح السفينة وإلى محاربي هيليوم في أسفل، الذين قطعوا الأحبال عند سماع الطلقة الثالثة. كان على السيوف الاثني عشر الحادة أن تضرب في وقت واحد وبقوة متساوية، وأن يقطع كل منها بالكامل، وعلى الفور، ثلاث حزم من الحبال الثقيلة، بحيث لا تتشابك أي نهاية طليقة مكونة كتلة تتسبب في كارثة فورية للفاناتور.

بووم! انطلق صوت بندقية الإشارة عبر الرياح العاصفة إلى المحاربين الاثني عشر عند سطح القصر. بووم! ارتفع اثنا عشر سيفًا فوق اثني عشر كتفًا قويًّا. بووم! قطعت اثنتا عشرة شفرة حادة اثنتي عشرة مرساة متذمرة، قطعًا كليًّا مثل يد واحدة.

انطلقت الفاناتور، مع دوران مراوحها، إلى الأمام مع العاصفة، التي ضربت مؤخرتها مثل لكمة قوية، وأوقفت السفينة الكبيرة على مقدمتها، ثم أمسكت بها وأدارتها

كما يدور رأس طفل. وعلى سطح القصر، كان اثنا عشر رجلاً يشاهدون في عجز صامت ويصلون من أجل أرواح المحاربين الشجعان الذين يتوجهون لملاقاة حتفهم. كما رأى آخرون المشهد، من منصات الهبوط الشامخة في هيليوم ومن ألف حظيرة طائرات فوق ألف سطح. على أن الاستعدادات لإرسال رجال شجعان آخرين إلى هذه الدوامة المخيفة لبحث ميؤوس منه، لم تتوقف لأكثر من لحظة، فهذه هي شجاعة محاربي برسوم.

لكن السفينة فاناتور لم تسقط على الأرض، على مرأى من المدينة على الأقل، وطوال مشاهدة المراقبين لها، لم تجنح أبدًا ولو لثانية. كانت تميل أحيانًا على جانب أو آخر من جانبيها، أو تندفع وتهبط، أو تتلوى مرارًا وتكرارًا، أو تقف عند مقدمتها أو مؤخرتها عند أي تقلب مفاجئ للقوة الهائلة التي تحملها. رأى المراقبون أن هذه السفينة الكبيرة مجرد لعبة تحركها الرياح مع أجزاء أخرى من الحطام، الكبير والصغير، الذي ملأ السماء. لم يحدث أبدًا من قبل، سواء في ذاكرة الرجال أو حوليات التاريخ المسجل، أن اندلعت عاصفة من هذا القبيل فوق برسوم.

وفي لحظة أخرى، نسي الجميع سفينة فاناتور كصرح قرمزي أنيق، ظل علامة على هيليوم الصغرى لعصور، حيث تحطمت على الأرض، حاملة الموت والدمار للمدينة أسفلها. وسادت حالة من الذعر. اندلع حريق في الأنقاض. بدت كل قوة في المدينة في حالة شلل، وعندئذ أصدر أمير الحرب أوامره إلى الرجال الذين على وشك الخروج للبحث عن تارا الهيليومية بأن يكرسوا كل طاقاتهم لإنقاذ المدينة، فقد شهد أيضًا بداية رحلة فاناتور، وأدرك عدم جدوى إهدار الرجال الذين تحتاجهم بشدة هيليوم الصغرى لحفظها من التدمير التام.

بدأت العاصفة تهدأ بعد وقت قصير من ظهر اليوم الثاني. وقبل غروب الشمس، كانت الطائرة الصغيرة التي تأرجحت فوقها تارا الهيليومية بين الحياة والموت خلال تلك الساعات الطويلة قد جنحت ببطء بِفعل نسيم لطيف فوق مشهد التلال المتموجة التي كانت في يوم ما جبالاً شامخة فوق قارة مريخية. شعرت الفتاة بالإنهاك من عدم النوم، ونقص الطعام والشراب، ومن رد الفعل العصبي الناجم عن التجارب المرعبة التي مرت بها. لمحت الفتاة على مسافة قريبة، لا يفصلها عنها سوى تل، ما بدا برجًا له قبة. هبطت سريعًا بالطائرة إلى أن حال التل دون رؤيتها للسكان المحتمَلين للبناء الذي شاهدته. كان البرج يعني لها مسكنًا للإنسان، وبالتالي وجود الماء، وربما الطعام. إذا كان البرج من البقايا المهجورة لعصر انقضى، فلن تجد طعامًا، لكن الفرصة قائمة لتجد الماء. وإذا كان المبنى مأهولاً بالسكان، عليها أن تقترب بحذر، فليس من المتوقع أن يعيش في هذه الأرض النائية سوى الأعداء. تعرف تارا الهيليومية أنها في موقع بعيد عن المدينتين التوأم

في إمبراطورية جدها، لكنها إذا خمنت أنها على بُعد يزيد على 1000 هاد، لأصابها الذهول من إدراك اليأس المطلق لحالتها.

أبقت الطائرة منخفضة، لأن خزانات الطفو لا تزال سليمة، وانحنت الفتاة بالطائرة نحو الأرض، إلى أن حملتها الرياح بلطف إلى جانب آخر تل يقع بينها وبين المبنى الذي تصورت أنه برج من صنع الإنسان. وهنا هبطت بالطائرة على الأرض بين بعض الأشجار القصيرة، وسحبتها تحت شجرة تخفيها إلى حد ما من الطائرات التي قد تمر أعلاها. أنهت عملها بسرعة، وتحركت للأمام كي تستطلع الأمر. مثل معظم نساء طبقتها، لم تكن مُسلحة سوى بنصل واحد نحيل، وبالتالي لا يمكنها في أي حالة طارئة، مثل ما تواجهه الآن، إلا أن تعتمد على ذكائها كي لا يكتشفها الاعداء. تسللت بحرص وبأقصى قدر من الحذر في اتجاه قمة التل، مستفيدة من كل ساتر طبيعي توفره الظروف الطبيعية لإخفاء اقترابها عن المراقبين المحتملين أمامها، بينما تلقي نظرات سريعة نحو الخلف للحظات خشية أن يفاجئها أحد من ذلك الجانب.

وصلت أخيراً إلى القمة، حيث يمكنها من وراء شجيرة قصيرة تخفيها أن ترى ما يوجد على بُعد. امتد أسفلها واد جميل محاط بتلال منخفضة، تناثرت فيه العديد من الأبراج الدائرية ذات القباب، ويحيط بكل برج جدار حجري يضم داخله عددًا من الفدادين. بدت حالة الزراعة في الوادي جيدة. ويوجد برج وحظيرة مسورة على الجانب الآخر من التل، أسفلها مباشرة. لفت سطح البرج انتباهها بداية، فقد كان البناء يبدو متطابقًا من جميع النواحي مع تلك الأبنية البعيدة الأخرى في الوادي: جدار عال من الجبس لبناء ضخم، يحيط ببرج مبني على نحو مماثل، يوجد فوق سطحه الرمادي رسم بألوان زاهية لشعار غريب. بلغ قطر كل برج حوالي أربعين سوفاد[107] ، حوالي أربعين قدم بمقاييس كوكب الأرض، وارتفاعه ستين حتى قاعدة القبة. بالنسبة لشخص من كوكب الأرض، تبدو هذه المباني على الفور بمثابة الصوامع التي يستخدمها مزارعو الألبان لتخزين العلف لقطعانهم، لكن التمحيص الدقيق، الذي يكشف عن فتحات متفرقة في الجدار، إضافة إلى بنية القباب، من شأنه أن يُغير هذا الاستنتاج. رأت تارا الهيليومية أن القباب تبدو مواجِهة لأكثر من منشور زجاجي -عدد لا يُحصى منها- ويتألق بشكل رائع ما يتعرض منها لغرُوب الشمس، مما جلب إلى ذاكرتها فجأة زخارف جاهان الجاثولي الرائعة. وعندما تذكرت الرجل، هزت رأسها بغضب. تحركت بحذر لمسافة قدم أو اثنين لترى البرج الأقرب وحظيرته على نحو أفضل.

(107) السوفاد يعادل حوالي 17.1 بوصة بمقاييس كوكب الأرض - http://barsoom.wikia.com/wiki/Linear_Measurement - المترجمة.

وعندما نظرت تارا الهيليومية إلى أسفل، نحو الحظيرة المحيطة بأقرب برج، قطبت حاجبيها للحظة في عبوس مفاجئ، واتسعت عيناها في تعبير ينم عن تشكك مشوب بالرعب؛ إذ رأت مجموعة من عشرين أو أربعين من الأجساد البشرية، عارية ومقطوعة الرأس. ظلت تنظر لاهثة للحظات طوال، غير قادرة على تصديق ما تراه بعينيها: هذه الأشياء البشعة حية وتتحرك! شاهدتهم يزحفون على أيديهم وركبهم من مكان لآخر، ويبحثون حولهم بأصابعهم. ورأت بعضهم في أحواض، ويبدو أن الآخرين يبحثون عنهم. أما من في الأحواض، فهم يأخذون شيئًا من أوعية ويضعونه على ما يبدو حفرة في الموضع الذي كان يجب أن توجد فيه أعناقهم. لم تكن هذه الكائنات أسفلها بمسافة كبيرة، ولذا تمكنت من رؤيتهم بوضوح: أجساد لرجال ونساء، متناسقة بشكل جميل، وتماثل بشرتهم بشرتها، وإن كان لونها الأحمر أفتح قليلاً. تصورت في البداية أنها تتطلع إلى كارثة، وأن الرؤوس قُطِعت مؤخرًا، بالتالي تتحرك الأجساد بقوة رد الفعل العضلي، لكنها أدركت الآن أن هذهِ هي حالتهم العادية. سحرها رعبها منهم، بحيث بالكاد ما أبعدت نظرها عنهم. كان واضحًا من أياديهم التي تتلمس كل شيء حولهم أنهم بلا أعين، وأكدت حركاتهم البطيئة بدائية جهازهم العصبي وبالتالي صِغر أمخاخهم. تعجبت الفتاة كيف يعيشون، فلم يكن بمقدور أكثر خيالاتها جموحًا أن تتصور هذه المخلوقات المشوهة كفلاحين أذكياء يحرثون التربة. على أن حرث تربة الوادي كان واضحًا، وأن هذه الكائنات تحصل على غذاء. ولكن، من يحرث التربة؟ ومن الذي يحتفظ بهذه الكائنات التعيسة ويُطعمها؟ ولأي غرض؟ لقد كان لغزًا يتجاوز قدرتها على الاستنتاج.

أثار مشهد الطعام شعورها مرة أخرى بالجوع يقرضها والعطش يحرق حلقها. كانت ترى الطعام والماء داخل الحظيرة. ولكن، هل تجرؤ على الدخول حتى إن وجدت وسيلة؟ تشككت في ذلك؛ إذ مجرد التفكير في إمكانية التواصل مع هذه المخلوقات البشعة كان يصيبها بقشعريرة.

تجولت عيناها مرة أخرى عبر الوادي، إلى أن شاهدت ما بدا نهرًا صغيراً يشق طريقه متعرجًا وسط الأراضي الزراعية - وهو مشهد غريب في برسوم. آه، لو كان نهرًا! ربما كان أملها حقيقيًّا، فالحقول سوف تمدها بالقوت الذي يمكن أن تحصل عليه ليلاً، بينما تختبئ نهارًا بين التلال التي تحيط بها. وفي وقت ما، نعم، في وقت ما، تعرف أن الباحثين سيأتون؛ لأن جون كارتر، أمير الحرب في برسوم، لن يوقف أبدًا البحث عن ابنته إلا بعد تمشيط كل هاد مربع على سطح الكوكب مرارًا وتكرارًا، فهي تعرفه وتعرف محاربي هيليوم، ولذا تعرف أنها يجب أن تنجح في تجنب الأذى إلى أن يأتوا، فهم سيأتون في نهاية المطاف.

عليها أن تنتظر حتى يحل الظلام، قبل أن تجرؤ على المغامرة في الوادي، وفكرت أن عليها -في أثناء ذلك- البحث عن مكان آمن إلى حد معقول من تلك الوحوش الشرسة. ربما تخلو المنطقة من الكائنات آكلات اللحوم، لكن المرء لا يمكنه التأكد أبدًا في أرض غريبة. وعندما أوشكت على الانسحاب وراء حافة التل، جذبت الحظيرة أدناها اهتمامها مرة أخرى. ظهر شخصان من البرج، يتطابق جسداهما الجميلان وأجساد تلك المخلوقات مقطوعة الرأس التي يتحركان خلالها، لكن الوافدين الجديدين لم يكونا مقطوعي الرأس. حملت أكتاف كل منهما رأسًا يبدو بشريًّا، لكن حدس الفتاة أحسسها بأنها ليست رؤوسًا بشرية. كانا بعيدين عنها إلى حد لا يتيح أن تميزهما بوضوح في الضوء الخافت للنهار الذي أخذ يتلاشى، لكنها أدركت أن حجم الرأسين ضخمًا، لا يتناسب مع الجسدين المتناسقين تمامًا، كما كانا مفلطحين من حيث الشكل. تمكنت أيضًا من رؤية ملابس الرجلين، كانا يرتديان نوعًا من العتاد الذي يتدلى منه السيفان الطويل والقصير لمحاربي برسوم، وتوجد حول أعناقهم القصيرة ياقات جلدية ضخمة، مقطوعة على نحو يناسب تغطية الكتفين وكذا الجزء السفلي من الرأس بشكل مريح. بالكاد ما كان يمكن تمييز ملامحهما، لكنها كانت تنم عن بشاعة أثارت لديها شعورًا بالاشمئزاز.

حمل الرجلان حبلاً طويلاً كانا مثبتين به، ويوجد على مسافات متقطعة منه تبلغ كل منها حوالي 2 سوفاد، ما خمنت الفتاة لاحقًا أنها أصفاد خفيفة، حيث شاهدت المحاربين يمرون بين المخلوقات الضعيفة في الحظيرة، ويربطان حول المعصم الأيمن لكل منها أحد هذه الأصفاد. وعند الانتهاء من ربط الجميع بالحبل، بدأ أحد المحاربين بشد وسحب الحبل من نهايته الحرة كأنما يحاول جر المجموعة مقطوعة الرأس في اتجاه البرج، بينما تحرك الآخر بينهم، وهو يضرب أجسادهم العارية بسوط طويل خفيف. نهضت المخلوقات على أقدامها ببطء وبلادة، وبين جر المحارب الأمامي وضربات سوط المحارب الخلفي، وصل القطيع اليائس أخيرًا إلى البرج. ارتجفت تارا الهيليومية وهي تستدير مبتعدة. أي سلوك لهذه المخلوقات؟

هبط الليل فجأة. انتهى اليوم البرسومي، وخلال فترة الغسق القصيرة التي تجعل الانتقال من النهار إلى الظلام مفاجئة مثل إطفاء مصباح كهربائي، لم تجد تارا الهيليومية أي مأوى. ربما لا توجد وحوش لتخاف منها، أو بالأحرى تتجنبها، فلم تكن تارا الهيليومية تحب كلمة «خوف». على أنها كانت لتسعد لوجود قمرة، ولو صغيرة جدًّا، في طائرتها الصغيرة، لكنها لم تكن موجودة، فقد شغلت خزانات الطفو هيكل الطائرة الداخلي تمامًا. آه، توصلت إلى فكرة! يا لها من غبية لأنها لم تفكر في ذلك من قبل! يمكنها أن تربط الطائرة بالشجرة التي تقع أسفلها، وتسمح لها بالارتفاع بقدر طول الحبل.

وبتثبيت الحبل بحلقات سطح السفينة، سوف تأمن من أي وحش يصدف تجواله في المكان. ويمكنها في الصباح أن تهبط بها إلى الأرض مرة أخرى قبل أن تُكتَشَف.

تسللت تارا الهيليومية على منحدر التل إلى أسفل نحو الوادي. كان ظلام الليل يخفيها من مرأى أي مراقب ربما يتسكع عند أي نافذة في البرج المجاور. وكان كلوروس[108] ، أبعد قمري المريخ، يرتفع قليلاً فوق الأفق ليبدأ رحلته البطيئة عبر السماوات. ويغرب بعد 8 زود - أي ما يزيد قليلاً على تسع عشرة ساعة ونصف الساعة بتقويم كوكب

الأرض- وفي أثناء ذلك الوقت، يكون زميله المفعم بالحيوية، القمر ثوريا، قد أكمل دورتين حول الكوكب وأكثر من نصف الطريق في دورته الثالثة. لقد غرب حالاً، ولن ينطلق فوق الأفق المعاكس قبل ما يزيد على ثلاث ساعات ونصف، ليندفع بسرعة ومنخفضًا حول هذا الكوكب الآخذ في الاحتضار. وفي أثناء هذا الغياب المؤقت للقمر المجنون، تأمَل تارا الهيليومية في العثور على طعام وماء، وتفوز مرة أخرى بسلامة سطح سفينتها.

تلمست طريقها عبر الظلام، مع إعطاء البرج وحظيرته أوسع مسافة ممكنة. كانت تتعثر أحيانًا، ففي الظلال الطويلة التي يلقيها القمر كلوروس في صعوده، كانت الأشياء تبدو مشوهة إلى حد كبير؛ لأن الضوء القادم من القمر لم يزل غير كاف لمساعدتها. كما أنها لم تكن ترغب، في الواقع، في وجود ضوء. يمكنها أن تجد النهر في الظلام عبر حيلة بسيطة، بأن تذهب إلى أسفل التل، وتسير إلى أن ترى تلك الأشجار المثمرة والعديد من المحاصيل التي تنمو في كافة أنحاء الوادي، بحيث يمكنها حمل الكثير من الطعام قبل أن تصل إلى النهر. وإذا أظهر لها القمر الطريق بوضوح أكبر، كان ليحميها بالتالي من أي سقوط مفاجئ، لكنه كان سيُظهرها أيضًا بوضوح أكبر لسكان الأبراج الغريبين، وهذا يجب ألا يحدث بطبيعة الحال. ويمكنها أن تنتظر حتى تتحسن الظروف في الليلة التالية، حيث لا يظهر كلوروس في السماء على الإطلاق، وبالتالي يسود الظلام المطلق خلال غياب القمر ثوريا، لكن ألم العطش والجوع لم يعُد محتملاً، لا سيما أن الطعام والشراب يبدوان في الأفق، ولذلك قررت أن تخاطر بالاكتشاف بدلاً من أن تستمر معاناتها لفترة أطول.

مرت الفتاة بأمان عبر البرج الأقرب، وتحركت بالسرعة التي شعرت أنها تتسق والسلامة، واختارت الطريق الممكن بحيث تستفيد من ظلال الأشجار النامية على

(108) كلوروس: أحد أبعد قمري المريخ عن الكوكب الأم، ومعروف لدى سكان كوكب الأرض باسم القمر ديموس - http://barsoom.wikia.com/wiki/Cluros - المترجمة.

مسافات، وتكتشف في الوقت نفسه الأشجار التي تحمل ثمارًا. وعلى الفور حققت نجاحًا، فالشجرة الثالثة التي وقفت أسفلها كانت مثقلة بثمار ناضجة. فكرت تارا أنها لم تذُق من قبل أبدًا مثل هذه الثمرة اللذيذة، على أنها ليست سوى فاكهة اليوسا[109] التي تُعتبر بلا طعم تقريبًا، وغير مستساغة إلا بعد طهيها وتتبيلها، وهي تنمو بسهولة بقدر قليل من الري، وتوجد بوفرة على الأشجار، ولهذه الفاكهة قيمة غذائية عالية، ولذا تُعتبر من الأغذية الأساسية لغير الموسرين، كما تُعتبر -نظرًا لتدني سعرها وارتفاع قيمتها الغذائية- إحدى الحصص الغذائية الرئيسة للجيوش والقوات البحرية في برسوم، ولذا فازت بلقب «المريخ يوسا» الذي يمكن ترجمته إلى «البطاطس المقاتلة». كانت الفتاة حكيمة بما يكفي لأن تتناول قدرًا ضئيلاً من هذه الثمار، لكنها ملأت جيب حقيبتها بالفاكهة قبل أن تواصل طريقها.

مرت ببرجين قبل أن تصل إلى النهر، وهنا توخت الاعتدال ثانية ولم تشرب إلا قليلاً، وببطء شديد كانت تستمتع بتكرار شطف فمها وغسل وجهها ويديها وقدميها. وعلى الرغم من برودة الليل، كما هي ليالي المريخ، فقد كان الإحساس بالانتعاش أكثر من تعويض عن عدم ارتياحها الجسماني لدرجة الحرارة المنخفضة. بدّلت صندلها، واتخذت مسارًا قرب النهر للبحث عن التوت أو الدرنات الصالحة للأكل التي ربما كانت مزروعة هناك، وعثرت على صنفين يمكن أكلهما في حالتهما النيئة. وضعت تلك الدرنات مع بعض ثمار اليوسا في جيب حقيبتها، ليس لضمان التنوع فحسب، وإنما أيضًا لأنها وجدتها مستساغة أكثر. كانت تعود أحيانًا إلى النهر لتشرب، ولكن باعتدال في كل مرة. وكانت عيناها وأذناها في حالة انتباه دائم لأي بوادر للخطر، لكنها لم تشهد أو تسمع ما يمكن أن يزعجها. شعرت الآن أنها يجب أن تعود إلى طائرتها، خشية اكتشافها في ضوء القمر ثوريا الذي يتأرجح منخفضًا. كانت خائفة من الابتعاد عن الماء، فسوف تشعر بالعطش الشديد قبل أن تأمل في العودة مرة أخرى إلى النهر. لو كان لديها مجرد وعاء صغير لحمل المياه، حتى وإن كانت كمية صغيرة تكفيها حتى الليلة التالية، لكنها لا تملك أي شيء، ولذا يجب أن تقنَع بأنها لديها من عصائر الفاكهة والدرنات التي جمعتها.

وبعد أن شربت للمرة الأخيرة من النهر، أطول وأعمق شربة ماء سمحت بها لنفسها، نهضت لتقتفي أثر خطواتها نحو التلال. لكن توترًا أصابها فجأة من شر مرتقب. ما هذا؟ يمكن أن تقسم أنها رأت شيئًا يتحرك في الظل تحت شجرة ليست بعيدة. وقفت الفتاة دون حركة لعدة دقائق، وبالكاد ما كانت تتنفس. ظلت عيناها ثابتة على الظلال

(109) يوسا: فاكهة مريخية، لذيذة الطعم، تؤكل كما هي وإن كان معظم المريخيين يفضلونها مطبوخة ومتبلة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Usa - المترجمة.

الكثيفة أسفل الشجرة، وتيقظت أذناها خلال سكون الليل. سمعت أنينًا منخفضًا يهبط من التلال، حيث خبأت طائرتها. تعرف هذه النبرة جيدًا، إنها نبرة الصوت الغريبة التي يطلقها حيوان البانث[110] . يوجد آكل اللحوم الضخم هذا في طريقها مباشرة. لكنه لم يكن قريبًا مثل ذلك الشيء الآخر، الذي يختبئ في الظلال على مسافة قريبة منها. ما هذا؟ كان التوتر الناجم عن عدم اليقين هو ما يُثقل كاهلها. لو كانت تعرف طبيعة المخلوق القابع هناك، لتلاشى نصف الخطر. نظرت حولها بسرعة بحثًا عن ملاذ تلجأ إليه، إذا ثبتت خطورة هذا الشيء.

ارتفع الأنين ثانية من التلال، لكنه كان أقرب هذه المرة. وجاء الرد على الفور تقريبًا من الجانب الآخر من الوادي، خلفها، ثم من مسافة على يمينها، ومرتين من يسارها. عثرت عيناها على شجرة قريبة. تحركت ببطء، دون أن تُبعِد عينيها عن ظلال تلك الشجرة الأخرى، نحو الفروع المتدلية التي قد توفر لها ملاذًا عند الحاجة. وعند أول خطوة، ارتفع هدير منخفض من الموقع الذي تراقبه، وسمعت صوت تحرك مفاجئ لجسد كبير. وفي الوقت نفسه، انطلق المخلوق تحت ضوء القمر في هجوم كامل عليها: بذيله المنتصب، وآذانه المفلطحة، وفمه الكبير الذي يضم عدة صفوف من الأنياب الحادة القوية متلهفًا للانقضاض على فريسته، وتحمله عشرة سيقان نحو الأمام في قفزات كبيرة، وأخذ يصدر من حلق الوحش زئير مخيف يستهدف شلّ فريسته. إنه حيوان البانث، الأسد البرسومي الضخم ذو العُرف. رأته تارا الهيليومية قادمًا، وقفزت في اتجاه الشجرة التي كانت تتحرك نحوها. أدرك البانث نيتها، وضاعف سرعته. أثار هديره البشع الأصداء في التلال وفي الوادي، لكن هذه الأصداء أتت من حلوق أخرى لحيوانات من نفس نوعه، حتى بدا للفتاة أن القدر ألقى بها وسط عدد لا يُعد ولا يُحصى من هذه الوحوش الشرسة.

كانت سرعة البانث المُهاجِم مذهلة، ومن حسن الحظ أنه لم يكن يطارد الفتاة في العراء. كان هامش سلامتها معدومًا؛ إذ عندما تأرجحت برشاقة إلى الفروع الأدنى، اصطدم المخلوق بأوراق الشجر، وكاد أن يصل إليها وهو يحاول القفز إلى أعلى للإمساك بها. ما حفظها ليس سوى مزيج من حسن الحظ وخفة الحركة. انحرفت مخالب آكل اللحوم باصطدامه بفرع سميك. لكن النداء الذي أطلقه كان قريبًا جدًّا، بحيث مس ساعده العملاق جسدها قبل لحظة من اندفاعها نحو الفروع الأعلى.

---

(110) البانث: حيوان مفترس شرس متعدد الأرجل، أصلع تقريبًا مثل جميع الحيوانات المريخية إلا من شعر كثيف خشن كبير كالأسد حول رقبته السميكة. جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشرة أرجل قوية، وفكاه الضخمان مجهزين بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية، وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراء هائلة وجاحظة وتضيف لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع – http://barsoom.wikia.com/wiki/Banth - المترجمة.

ارتبك البانث، ونَفّس عن غضبه وخيبة أمله بسلسلة من الزئير المخيف الذي تسبب في ارتجاف الأرض، هذا بالإضافة إلى زئير وهدير وأنين زملائه وهم يقتربون من كل اتجاه، أملاً في أن ينتزعوا منه بدهاء أو براعة أي جزء من ضحيته. التفت نحوهم مزمجرًا وهم يحوطون بالشجرة، بينما تقبع الفتاة في موقع متشعب أعلاهم، وتنظر إلى الوحوش الصفراء الهزيلة وهي تتحرك على أقدامها المبطنة دون إحداث صوت في دائرة مضطربة. وتعجبت من غرابة القَدر الذي أتاح لها الهبوط الآن إلى هذا الوادي البعيد ليلاً دون أن تُصاب بأذى، لكنها تساءلت كيف يمكنها العودة إلى التلال؟ كانت تعرف أنها لا تجرؤ على المغامرة بذلك ليلاً، كما خمنت أنها قد تواجه في النهار أخطارًا أكبر.

أصبح الاعتماد على هذا الوادي للحصول على القوت إمكانية ضعيفة؛ لأن حيوانات البانث ستبقيها بعيدة عن الغذاء والماء خلال الليل، بينما سيحول سكان البرجين بلا شك دون استطاعتها على جمع الغذاء نهارًا. لم يكن أمامها سوى حل واحد عسير، أن تعود إلى طائرتها وتُصلي من أجل أن تدفعها الرياح إلى منطقة أقل رعبًا، ولكن، متى يمكنها العودة إلى الطائرة؟ لم تقدم حيوانات البانث أي دليل على التخلي عنها، وحتى لو تجولت بعيدًا عن الأنظار، فهل تجرؤ على المخاطرة بهذه المحاولة؟ تشككت في ذلك.

بدت في حالة ميؤوس منها، كان الوضع يائسًا في الواقع.

***

الفصل (4)

الوقوع في الأسر

تغير المشهد مع انطلاق القمر ثوريا، المتسابق السريع ليلاً، في السماء مرة أخرى، كأنما ظهر بفعل السِّحْر جانب جديد على وجه الطبيعة. كما لو أن المرء انتقل في لحظة من كوكب إلى آخر. هذه هي المعجزة القديمة التي تتجدد دومًا في ليالي المريخ، حتى بالنسبة إلى المريخيين: يتألق قمران في السماء، كان أحدهما موجودًا، لكن الظلال المتصارعة سريعة التغير أدت إلى تغيير التلال نفسها. يلقي القمر الفخم المهيب كلوروس، وهو مستقر تقريبًا، ضوءًا ثابتًا على العالم أدناه، أما القمر ثوريا، الجُرم السماوي العظيم المجيد، فهو يتأرجح سريعًا عبر القبة المقوسة للّيل الأزرق المشوب بالسواد، ويتحرك على ارتفاع شديد الانخفاض بحيث يبدو كأنما يمس التلال. يا له من مشهد رائع سحر الفتاة بفتنته! كما حدث وسيحدث دائمًا.

غمغمت تارا الهيليومية: «آه، ثوريا، الملكة المجنونة في السماء! تمر التلال في موكب فخم، تعلو وتهبط قممها، وتتحرك الأشجار في دوائر لا تهدأ، وتبدو الأعشاب الصغيرة كأقواس ضئيلة، كل شيء يتحرك، حركة مضطربة غامضة دون صوت، بينما يمر القمر ثوريا». تنهدت الفتاة، وألقت بصرها ثانية نحو الواقع القاسي أسفلها: حيوانات البانث الضخمة واضحة، والحيوان الذي اكتشف وجودها لا يزال رابضًا ينظر إلى أعلى نحوها في جوع. ابتعدت معظم الحيوانات بحثًا عن فريسة أخرى، وبقي بعضها على أمل أن تدفن أنيابها في ذلك الجسد الناعم.

هبط الليل. غادر القمر ثوريا السماء مرة أخرى، وأسرع للقاء الحب مع الشمس في سماء أخرى. بقي بانث واحد منتظرًا بفارغ الصبر أسفل الشجرة التي تأوي تارا الهيليومية. غادرت حيوانات البانث الأخرى، لكن صدى زئيرها وهديرها وأنينها ارتد لتارا رعدًا أو دويًّا أو طافيًا من أماكن قريبة وبعيدة. ما الفريسة التي وجدوها في هذا الوادي الصغير؟ بالتأكيد هناك شيء معتادين على العثور عليه هنا، ما جذب أعدادًا كبيرة منهم. تساءلت الفتاة عما قد يكون.

يا لطول الليل! شعرت تارا الهيليومية بالذبول والبرودة والإنهاك، وتشبثت بالشجرة في يأس متزايد، بل وغفت مرة وكادت أن تسقط. كان الأمل ضئيلاً في قلبها الصغير الشجاع. إلى أي مدى يمكنها أن تتحمل؟ سألت نفسها هذا السؤال، ثم هزت رأسها بشجاعة وفردت كتفيها وقالت بصوت عال: «ما زلت أعيش!».

نظر البانث نحوها هادرًا.

وصل القمر ثوريا ثانية، ثم ظهرت الشمس العظيمة -يسعى العاشق الملتهب إلى تحقيق رغبة قلبه. وتابع القمر كلوروس، الزوج البارد، طريقه الهادئ، وديعًا كما كان قبل أن ينتهك منزله هذا العاشق الملتهب. والآن، تسير الشمس مع القمرين في السماء، تاركين ألغازهم البعيدة، ويضفون غرابة على الفجر المريخي. نظرت تارا الهيليومية عبر الوادي الجميل الذي يمتد حولها من جميع الأطراف. كان غنيًّا وجميلاً، لكنها ارتجفت وهي تنظر إليه؛ فقد تراءت أمامها صورة الكائنات مقطوعة الرأس التي تخفيها الأبراج والجدران. هذه الكائنات نهارًا، والبانث ليلاً! آه، هل من عجب أنها ارتجفت؟

مع قدوم الشمس، نهض الأسد البرسومي الضخم على قدميه، التفت بأعين غاضبة نحو الفتاة أعلاه، وأطلق هديرًا منذرًا بالسوء، ثم تسلل مبتعدًا نحو التلال. راقبته الفتاة، ورأته يبتعد عن الأبراج بأوسع مسافة ممكنة، ولم يبعد نظره أبدًا عن أحدهما خلال مروره عليه. يبدو أن السكان علّموا هذه المخلوقات الوحشية احترامهم. ابتعد الآن عن نظرها في ممر ضيق، ولم تشاهد أي حيوان آخر في أي اتجاه. يبدو المشهد مهجورًا، عل الأقل لحظيًّا. تساءلت الفتاة عما إذا كانت تجرؤ على محاولة الوصول إلى التلال واستعادة طائرتها. كانت تخشى قدوم العمال إلى الحقول، حيث كانت على يقين من قدومهم. ارتجفت ثانية عندما تصورت الأجساد مقطوعة الرأس، ووجدت نفسها تتساءل عما إذا كانت هذه الكائنات تخرج إلى الحقول وتعمل. نظرت نحو أقرب برج. لا توجد أي علامة على الحياة. الوادي هادئ الآن ومهجور. هبطت بثبات إلى الأرض. كانت عضلاتها في حالة تشنج، وكل تحرك يُشعرها بالألم. توقفت لحظة لتشرب مرة أخرى من النهر. شعرت بالانتعاش، ثم اتجهت دون إبطاء نحو التلال. بدت الخطة الوحيدة هي قطع المسافة في أسرع وقت ممكن. لم تعُد الأشجار توفر إمكانية الإخفاء، ولذا لم تخرج عن طريقها لتقترب منهم. بدت التلال بعيدة جدًّا. لم تعتقد في الليلة السابقة أنها قطعت كل هذه المسافة. حقًّا لم تكن مسافة كبيرة، لكنها تبدو الآن هائلة مع وجود ثلاثة أبراج يجب أن تجتازهم في وضح النهار.

يقع البرج الثاني في طريقها مباشرة تقريبًا. لن يقلل الانعطاف من فرصة الكشف عنها، لكنه سوف يطيل فترة تعرضها للخطر. ولذا، واصلت طريقها مباشرة نحو التل، حيث توجد طائرتها، بغض النظر عن البرج. ظنت عند مرورها بالحظيرة الأولى أنها سمعت صوت حركة داخلها، لكن البوابة لم تنفتح وتنفست الصعداء عندما تجاوزتها. وصلت إلى الحظيرة الثانية، وعليها أن تدور حول جدارها الخارجي؛ لأنه يقع عبر طريقها. وعندما اقتربت منه، سمعت صوت حركة، كما ميزت أصوات حديث. سمعت

صوت رجل يُصدِر تعليمات بلغة برسوم العامة: كثيرون عليهم جمع اليوسا، وكثيرون عليهم ري هذا الحَقل، وكثيرون عليهم زراعة هذا النبات، وهلم جرًّا، مثل رئيس العمال الذي يحدد عمل اليوم لطاقمه.

وصلت تارا الهيليومية إلى البوابة في الجدار الخارجي. تأرجحت البوابة مفتوحة نحوها دون سابق إنذار. تصورت أنها قد تخفيها للحظة عن السكان في الداخل، فركضت مع بقائها قريبة من الجدار إلى أن ابتعدت عن مرأى النظر وراء انحناء المبنى، ووصلت إلى جانب الحظيرة الآخر. وهنا، أخذت تلهث من الجهد الذي بذلته ومن الإثارة التي سببها هروبها المُضني، وألقت نفسها بين بعض الأعشاب الطويلة التي تنمو بالقرب من أسفل الجدار. استلقت مرتجفة لبعض الوقت، دون أن تجرؤ حتى على رفع رأسها والنظر حولها. لم تشعر تارا الهيليومية أبدًا من قبل بالشلل الناتج عن الرعب. كانت مصدومة وغاضبة من نفسها؛ فهي ابنة جون كارتر، أمير الحرب في برسوم، ويجب ألا يظهر عليها الخوف. ولم يقلل حتى من شعورها بالخجل والغضب عدم وجود من يشهد حالها، والأسوأ هو معرفتها أنها قد تشعر بنفس القدر من الخوف إذا مرت بظروف مماثلة مرة أخرى. كانت تعرف أنه ليس الخوف من الموت، بل هو التفكير في الأجساد مقطوعة الرأس، وأنها قد تراهم، ويمكنهم حتى لمسها، ووضع أيديهم عليها، والإمساك بها. ارتجفت وارتعدت عندما فكرت في ذلك.

اكتسبت بعد فترة قدرة كافية القدرة على السيطرة على نفسها، ورفعت رأسها ونظرت حولها. ولرعبها، اكتشفت أنها عندما تنظر إلى كل مكان ترى أشخاصًا يعملون في الحقول أو يستعدون للعمل. كان العمال يأتون من أبراج أخرى، حيث تتوجه مجموعات صغيرة منهم إلى هذا الميدان أو ذاك، بل يعمل بعضهم بالفعل على بُعد ثلاثين آد منها - حوالي مائة ياردة- وهناك مجموعة، ربما عشرة، من الرجال والنساء، في الطرف الأقرب لها، يتمتع جميعهم بهيئة جميلة وإن كانت وجوههم بشعة. كانوا عراة عمليًّا، لأن أغطيتهم هزيلة، وهي حقيقة ملحوظة بين فلاحي الحقول في المريخ. ارتدى كل منهم طوقًا جلديًّا غريبًا، يرتفع ليغطي الرقبة تمامًا، فضلاً عن قطعة جلدية أخرى تكفي لدعم سيف واحد وحقيبة ذات جيب. كانت الجلود قديمة جدًّا وبالية، بما يوضح أنها مستخدَمة لفترة طويلة في أعمال شاقة، وكانت خالية تمامًا إلا من شعار واحد على الكتف الأيسر. على أن رؤوسهم كانت مغطاة بحُلي من معادن ثمينة ومجوهرات، بحيث لم يكن مرئيًّا سوى ما يزيد قليلاً على الأعين والأنف والفم. يا له من مشهد لا إنساني مخيف، وفي الوقت نفسه لبشر بشعين. كانت العينان متباعدتين وجاحظتين، والأنف لا تزيد على شقين صغيرين متوازيين عموديًّا أعلى ثقب مستدير هو الفم. تثير رؤوسهم

الاشمئزاز، إلى حد أن الفتاة لم تصدق كيف تُشكل هذه الرؤوس جزءًا لا يتجزأ من الأجساد الجميلة تحتها.

كانت تارا الهيليومية مسحورة مما تراه، إلى حد أنها بالكاد ما أبعدت عينيها عن تلك المخلوقات الغريبة – لكن الأحداث أثبتت أنها كان يجب أن تتراجع عن ذلك، فلكي تشاهدهم، اضطرت للكشف عن جزء من رأسها، وأصابها الذعر عندما شاهدت أحد المخلوقات يتوقف عن عمله ويحدق في وجهها مباشرة. لم تجرؤ على التحرك؛ إذ لا يزال من الممكن أن هذا الشيء لم يرها، أو يشك على الأقل في اختباء مخلوق بين الأعشاب. إذا أمكنها تبديد هذه الشكوك بأن تظل بلا حراك، قد يعتقد المخلوق أنه مخطئ ويعود إلى عمله. لكن الأمر، مع الأسف، لم يكن كذلك. رأت هذا الشيء يثير انتباه الآخرين نحوها، وعلى الفور بدأ أربعة أو خمسة منهم يتحركون في اتجاهها.

يستحيل الآن تجنب اكتشافها، ويكمن أملها الوحيد في الهرب. إذا أمكنها التملص منهم والوصول إلى التلال والطائرة، تستطيع أن تهرب. لا توجد سوى طريقة واحدة: الفرار، على الفور وبسرعة. نهضت واقفة، وانطلقت مسرعة على طول قاعدة الجدار الذي يجب أن تدور حوله لتصل إلى الجانب المقابل، حيث يقع بعده التل الذي تستهدفه. استقبلت المخلوقات الغريبة ما فعلته بأصوات صفير غريبة، وعندما ألقت نظرة خاطفة من فوق كتفها، رأتهم جميعًا ينطلقون خلفها بسرعة.

سمعت أيضًا صيحات شديدة اللهجة تأمرها بالتوقف، لكنها لم تعرها أي اهتمام. وقبل أن تستكمل الدوران حول نصف الحظيرة، اكتشفت أن فرص نجاح هروبها كبيرة؛ حيث تبينت أن سرعتها تفوق سرعة مطارديها. تعاظمت آمالها عندما لاح التل أمامها، لكنها سرعان ما تبددت لِما رأته أمامها؛ ففي الحقول التي تقع بينها وبين التل، يوجد مائة من المخلوقات المماثلة التي تطاردها، وجميعهم في حالة تأهب، ويبدو أن الصفير كان تحذيرًا لهم. انطلقت التعليمات والأوامر من كل مكان، ما جعل المجموعة الموجودة أمامها تنتشر على شكل نصف دائرة كبيرة لاعتراضها. وعندما دارت يمينًا على أمل الإفلات من الشبكة، شاهدت آخرين قادمين من الحقول خلفها، نفس الشيء من جهة اليسار. لكن تارا الهيليومية لا تعترف بالهزيمة. لم تتوقف على الإطلاق، بل توجهت مباشرة نحو مركز نصف الدائرة الأمامية التي تكمن خلفها فرصتها الوحيدة للهروب. وقامت وهي تركض بسحب خنجرها النحيل الطويل، مثلها مثل والدها الشجاع، فإذا كان يجب أن تموت، فلتمت وهي تقاتل. رأت ثغرات في الخط الرفيع المواجه لها، فتوجهت نحو أوسعها. خمنت المخلوقات على جانبي الثغرة نواياها، فتقاربوا لإغلاقها ووضع أنفسهم في طريق الفتاة، أدى هذا إلى اتساع الفتحات على جانبي تلك المجموعة،

وعندما ظهر أن الفتاة تسرع نحوهم، استدارت فجأة بزاوية قائمة، وركضت سريعًا في الاتجاه الجديد لبضع ياردات، ثم انطلقت بسرعة نحو التل مرة أخرى. والآن، هناك محارب واحد، توجد بجواره فجوة واسعة على كل جانب، يعترض طريقها الواضح نحو الحرية، بينما يركض جميع الآخرين بأسرع ما يمكنهم لاعتراضها. كانت موقنة أنها إذا تمكنت من اجتياز هذا المحارب دون تأخير كبير، ستنجح في الهرب، تتوقف كل آمالها على ذلك. أدرك المخلوق ذلك أيضًا، لأنه تحرك بحذر، وإن كان سريعًا، لاعتراضها، مثلما يناور لاعب الرجبي المدافع عندما يدرك أنه يقف بمفرده بين الفريق المنافس وتسديد الكرة في مرماه.

كانت تارا الهيليومية تأمل في البداية أن تتفاداه؛ إذ خمنت أنها أسرع، بل وأكثر مرونة، من هذه المخلوقات الغريبة، لكنها سرعان ما أدركت أن زملاءه الأقرب لها سوف ينقضون عليها خلال الوقت الذي تستغرقه في محاولة التملص من قبضته، وبالتالي يستحيل الهرب، ولذا اختارت أن تتوجه نحوه مباشرة. توقف المخلوق عندما خمّن قرارها، نصف رابض وبأذرع ممدودة في انتظارها. كان سيفه في إحدى يديه، لكن صوتًا ارتفع بنبرة سلطوية يأمره: «أمسكها على قيد الحياة! لا تضرّ بها!». وعلى الفور، أعاد سيفه إلى غمده، وهنا انقضت عليه تارا الهيليومية. انطلقت مباشرة نحو جسده الجميل، وفي لحظة التفاف ذراعيه ليمسك بها، غاص نصلها الحاد بعمق في صدره العاري. ألقى بها تأثير قوة الطعنة على الأرض، وعندما نهضت تارا الهيليومية على قدميها مرة أخرى، رأت مشهدًا مرعبًا: الرأس الكريه ينفصل ويتدحرج خارج الجسم، ويزحف بعيدًا عنها على ستة أرجل قصيرة تشبه أرجل العنكبوت. كافح الجسم في تشنج، ثم رقد ساكنًا. وعلى الرغم من أن زمن التأخير الناجم عن المواجهة كان قصيرًا، فقد كان مدة كافية لتراجعها؛ إذ عندما نهضت، انقض عليها مخلوقان، وأدركت على الفور أنها محاصرة. غاص نصلها ثانية في الجسد العاري، وتدحرجت الرأس ثانية منفصلة وزحفت بعيدًا. لكنهم تغلبوا عليها، وفي لحظة وجدت نفسها محاطة بالكامل بمائة من هذه المخلوقات، يسعون جميعًا للإمساك بها. تصورت في البداية أنهم يريدون تمزيقها إلى أشلاء انتقامًا لقتلها اثنين من زملائهم، لكنها أدركت أن الفضول وليس الشر هو أكبر دوافعهم.

«هيا!»، قال أحد الخاطفين، بعد أن أمسكاها جيدًا. كان يحاول أخذها معه نحو البرج القريب. صاح الثاني: «إنها لي. ألست أنا من أمسكها؟ إنها ستأتي معي إلى برج مواك».

قال الأول بإصرار: «مستحيل! أنها تبع لوود. سوف آخذها، وسوف يشعر كل من يتدخل بمدى حِدة سيفي، في الرأس!»، ونطق آخر كلمتين وهو يصيح بصوت عال.

«تعالي! هذا يكفي»، صاح بنبرة تحمل معنى السلطة، «لقد أمسكناها في حقول لوود، وبالتالي سوف تذهب إلى لوود».

أصر الرجل الذي زعم أنها تبع مواك: «اكتشفناها في حقول مواك، أسفل برج مواك».

قال تابع لوود: «لقد سمعت ما قاله نولاك، سوف أفعل ما قاله».

أجاب الآخر: «ليس وهذا التابع لمواك يحمل سيفًا. سوف أقطعها إلى نصفين، وآخذ النصف إلى مواك، لا أن أتخلي عنها تمامًا إلى لوود»، وسحب سيفه، أو بالأحرى وضع يده على مقبضه في بادرة تهديد. وقبل أن يفكر حتى في سحبه، كان تابع لوود يوجه طعنة مخيفة بسيفه غاصت بعمق في رأس خصمه. انهار الرأس المستدير الكبير على الفور، كما ينهار البالون المثقوب، وتدفقت منه مادة رمادية شبه سائلة. ظلت الأعين الجاحظة محدقة، وكانت بلا جفون، وأخذت عضلة الفم التي تشبه المعصرة تُفتح وتُغلق، ثم سقط الرأس من الجسم على الأرض. وقف الجسم متبلدًا لبرهة، ثم بدأ يتحرك ببطء هائمًا إلى أن أمسك أحد الآخرين بذراعه.

اقتربت رأس من الرأسين الزاحفين على الأرض، وقالت «هذا الرايكور[111] ينتمي إلى مواك. أنا مواكي. وسوف آخذه»، ودون مزيد من المناقشة، بدأ يزحف فوق الجزء الأمامي من الجسم مقطوع الرأس، باستخدام سيقانه الستة القصيرة التي تشبه سيقان العنكبوت، فضلاً عن مخلبين قويين في مقدمة سيقانه تشبهان بقوة مخالب سرطان البحر على كوكب الأرض، إلا أنهما كانا من الحجم نفسه. وفي الوقت نفسه، وقف الجسم في لا مبالاة سلبية، يتدلى ذراعاه بإهمال على جانبيه. تسلق الرأس وصولاً إلى الأكتاف، واستقر داخل الطوق الجلدي الذي أصبح الآن يخفي مخالب وسيقان الرأس. وأبدى الجسم على الفور دلائل على حركة ذكية. فقد رفع يديه وضبط الطوق ليصبح أكثر راحة، وأخذ الرأس بين راحتيه وثبتها في مكانها. وعندما بدأ يتحرك، لم تكن حركته بلا هدف، بل كانت خطواته ثابتة وبغرض ما.

---

(111) رايكور: حيوان مستأنس يستخدمه عِرق الكلدينيين في جميع الأغراض مثل النقل والطعام، وأداء المهام التي لا يستطيع الكلدينيون القيام بها لضعف أجسامهم. يبدو الرايكور على شكل إنسان بلا رأس، وبشرته من اللون الأحمر الفاتح، عضلاتهم قوية وأجسادهم جميلة، لكنهم لا يستطيعون الحياة من دون الكلدينيين الذين يوجهونهم نحو الطعام. توجد فجوة كبيرة في أعلى جسد الرايكور، يركب فيها الكلدينيون ويمسكون العمود الفقري المكشوف بما يمكنهم من السيطرة على أطراف الرايكور. ويُقال إن الرايكور هو هجين من أسرى المريخيين الحُمر وحيوان مريخي أليف كان الكلدينيون يستخدمونه - http://barsoom.wikia.com/wiki/Rykor - المترجمة.

شاهدت الفتاة كل هذه الأشياء في تعجب متزايد. والآن، لا يوجد بين المواكيين من يبدو ميالاً للنزاع على حق لوود فيها، واقتادها آسرها نحو البرج الأقرب. رافقهما العديدون، بما فيهم ذلك الذي حمل الرأس الطليق تحت ذراعه. أخذ الرأس المحمول يتحدث مع الرأس المُثبت فوق كتفي الشيء الذي يحمله. ارتعدت تارا الهيليومية. كان الأمر مريعًا! كل ما رأته من هذه المخلوقات المخيفة كان فظيعًا، فضلاً عن أن تكون سجينة تحت سلطتهم تمامًا. يا لظلم سلفها الأول! ماذا فعلت لتستحق هذا المصير القاسي؟

توقفوا عند الجدار المحيط بالبرج، بينما يفتح أحدهم البوابة، ثم دخلوا إلى الحظيرة. ويا لرعب الفتاة التي وجدتها مليئة بأجساد بلا رؤوس! وضع المخلوق الذي حمل الجسم مقطوع الرأس هذا العبء على الأرض، حيث زحف الجسم فورًا نحو أحد الأجسام القريبة الراقدة. كانت بعض الأجسام تتحرك في غباء جيئة وذهابًا، لكن هذا الجسم كان يرقد ساكنًا. كان جسم أنثى. زحف الرأس إلى الجسم، وشق طريقه نحو الكتفين وثبّت نفسه. وقف الجسم بخفة منتصبًا. اقترب أحد أولئك الذين رافقوهم من الحقول، ومعه العتاد والطوق المأخوذ من الجسم الميت الذي كان الرأس فوقه سابقًا. استولى عليها الآن الجسم الجديد، حيث تولت اليدين تثبيتهم ببراعة. وأصبح المخلوق الآن في حالة جيدة، كما كان قبل أن تطعن تارا جسمه السابق بنصلها الرفيع. لكن الأمر اختلف، فقد كان ذكرًا من قبل، والآن أنثى. على أن ذلك لم يُحدث فارقًا في الرأس. وفي واقع الأمر، لاحظت تارا -أثناء التدافع والمعركة عليها- أن الاختلافات بين خاطفيها الذكور والإناث تكاد تكون معدومة. فقد شارك كلاهما على قدم المساواة في مطاردتها، وارتدى كلاهما عتادًا متطابقًا، وحمل كلاهما سيوفًا. كما شهدت العديد من الإناث والذكور يمتشقون أسلحتهم في اللحظة التي بدا فيها أن العراك بين الفصيلين أصبح وشيكًا.

لم تحظ الفتاة سوى بفرصة قصيرة لملاحظة المخلوقات المثيرة للشفقة في الحظيرة، فبعد أن وجه آسرها الآخرين بالعودة إلى الحقول، قادها في اتجاه البرج. دخلا إلى شقة يبلغ عرضها حوالي عشرة أقدام وطولها حوالي عشرين قدم، يوجد في أحد طرفيها سلم يؤدي إلى مستوى أعلى، وتوجد في الطرف الآخر فتحة لسلم مماثل يقود إلى أسفل. على الرغم من أن الغرفة تقع على نفس مستوى الأرض، فقد كانت مضاءة ببراعة عن طريق نوافذ جدارها الداخلي، حيث يأتي الضوء من فناء دائري في وسط البرج. تقع جدران الفناء في مواجهة ما يشبه البلاط الأبيض المصقول، والجزء الداخلي كله مغمورًا بضوء مبهر، وهو ما أوضح للفتاة على الفور الغرض من المناشير الزجاجية التي بُنيت بها القباب. وكانت السلالم نفسها كافية لإثارة الملاحظة؛ إذ تُستخدم الممرات المائلة، ففي

جميع العمارة البرسومية، بغرض الاتصال بين المستويات المختلفة، ويصدق ذلك بوجه خاص على التكوينات القديمة وفي المقاطعات البعيدة التي شهدت تغيرات قليلة في عادات وتقاليد العصور القديمة.

قاد الآسر تارا الهيليومية أسفل السلم، إلى أسفل وأسفل خلال غرف لا تزال مضاءة من المصدر الرائع. كانا يمران أحيانًا عبر آخرين يسيرون في الاتجاه المعاكس، ويتوقفون دائمًا لفحص الفتاة وتوجيه أسئلة إلى آسرها.

وكانت إجابته على الفضوليين: «لا أعرف أي شيء. لكنها وُجدت في الحقول، وأمسكت بها بعد قتال، قتلت هي خلاله ريكورين، وقتلت أنا أحد اتِباع مواك، وآخذها الآن إلى لوود الذي تنتمي إليه، بطبيعة الحال. وإذا أراد لوود استجوابها، فالأمر متروك له، وليس هذا شأني».

وصلا الآن إلى غرفة تضم نفقًا دائريًّا يخرجهما بعيدًا عن البرج، وقادها المخلوق عبر هذا الطريق. يبلغ قُطر النفق سبعة أقدام، وأرضيته مُسطحة لتصلح كممشى. كانت المسافة من البرج ولمائة قدم مبطنة بنفس المادة الشبيهة ببلاط مصدر الضوء، ومضاءة جيدًا بالضوء المنعكس من هذا المصدر. كان النفق يواجه، بعد ذلك، أحجارًا من أشكال وأحجام مختلفة، تم تقطيعها وتركيبها معًا بإتقان، فسيفساء شديدة الدقة دون نمط محدد. توجد أيضًا فروع وأنفاق أخرى تتقاطع مع هذا النفق، وتوجد أحيانًا فتحات لا يزيد قُطر أي منها على قدم واحد، وعادة ما تكون قريبة من الأرضية. ومرسوم فوق كل فتحة من هذه الفتحات الصغيرة شعار مختلف، بينما ظهرت كتابة هيروغليفية عند كافة نقاط التقاطع والتلاقي على جدران النفق الأكبر. لم تتمكن الفتاة من قراءة هذه الكتابة، وإن خمنت أنها أسماء الأنفاق، أو إشعارات تشير إلى الاتجاهات التي تؤدي إليها. حاولت دراسة بعض النقوش، ولكن لا يوجد أي حرف مألوف لديها، وهو الأمر الذي يبدو غريبًا؛ إذ بينما تختلف اللغات المكتوبة في أمم برسوم، يوجد بينها العديد من الأحرف والكلمات المشتركة.

حاولت الفتاة التحدث مع حارسها، لكنه بدا غير راغب في الحديث معها، فتوقفت عن المحاولة عندما أدركت ذلك. لاحظت أنه لم يتعرض لها بأي إهانة، كما لم يكن خشنًا دون داع أو بأي شكل من أشكال القسوة. ويبدو أن قتلها لجسدين بخنجرها لم يثر أي عداء أو رغبة الانتقام في أذهان الرؤوس الغريبة التي علت الأجسام، حتى أولئك الذين تعرضت أجسامهم للقتل. لم تحاول فهم الأمر، لأن معرفتها أو خبرتها السابقة لم تمكنها من تحديد العلاقة الغريبة بين رؤوس وأجسام هذه المخلوقات، ولا تبعث معاملتهم لها حتى الآن على أي شيء يثير مخاوفها. وربما من حسن حظها أنها وقعت

في أيدي هذه المجموعة الغريبة من الناس، الذين قد لا يقتصر الأمر على حمايتهم لها من الضرر، بل ربما يساعدوها أيضًا في العودة إلى هيليوم. لم تنس أنهم يثيرون الاشمئزاز ويتسمون بالغرابة. وإذا كانوا لا يقصدون إلحاق أي ضرر بها، يمكنها على الأقل أن تتغاضى عن شعورها بالاشمئزاز. أثار تجدد الأمل داخلها روحًا من البهجة، وتحركت بمرح تقريبًا الآن إلى جانب رفيقها الغريب، بل وجدت نفسها تدندن لحنًا مرحًا يتمتع بالشعبية في هيليوم. أدار المخلوق الواقف بجانبها عينيه الخاليتين من أي تعبير نحوها.

وسألها: «ما هذا الضجيج الذي تصدرينه؟».

أجابت: «ليس سوى دندنة لحن».

كرر بعدها: «دندنة لحن! أنا لا أعرف ماذا تعنين، ولكن قومي بذلك ثانية، فقد أعجبني».

قامت الفتاة هذه المرة بغناء الكلمات، بينما يستمع رفيقها باهتمام. لم يدل وجهه على ما يدور داخل هذا الرأس الغريب؛ فقد خلا وجهه من أي تعبير، مثله مثل العنكبوت. لقد ذكّرها بالعنكبوت. وعندما انتهت، التفت نحوها ثانية.

وقال: «هذا مختلف. أعجبني أكثر حتى من الآخر. كيف تفعلين ذلك؟».

قالت: «لماذا، هذا هو الغناء. ألَّا تعرف ما الأغنية؟».

أجاب: «كلا. أخبريني كيف تفعلين ذلك».

قالت: «يصعب الشرح؛ فأي شرح يفترض بعض المعرفة بالنغم والموسيقى، بينما يشير سؤالك إلى أنك لا تعرف أيًّا منهما».

قال: «كلا، لا أعرف ما تتحدثين عنه، ولكن قولي لي كيف تفعلين ذلك؟».

أوضحت: «إنها مجرد تحويرات لإيقاعات صوتي. استمع!»، وغنت مرة أخرى.

قال بإصرار: «أنا لا أفهم، لكنه يعجبني. هل يمكنك تعليمي أن أفعل ذلك؟».

أجابته: «لا أعرف، ولكن يسعدني أن أحاول».

فقال: «سوف نرى ماذا سيفعل لوود معك. إذا لم يكن يريدك، سوف أحتفظ بك، وأنت تقومين بتعليمي إصدار مثل هذه الأصوات».

أخذت تُغني ثانية، بناء على طلبه، وهما يواصلان طريقهما عبر النفق المتعرج، الذي أصبح الآن مضاء بمصابيح متباعدة تبدو مماثلة لمصابيح الراديوم المألوفة لديها والمشتركة بين جميع أمم برسوم، حيث أُتقِن صنعها، بقدر ما تعرف، منذ فترة بعيدة جدًّا لدرجة فقدان أصلها في العصور القديمة. تتكون هذه المصابيح، عادة، من وعاء نصف كروي من الزجاج الثقيل، الزجاج الذي يحتوي على مُركب يضم، وفقًا لجون كارتر، ما يجب أن يكون عنصر الراديوم، يُلصق الوعاء بعد ذلك على صفيحة معدنية ذات ظهر معزول بدرجة كبيرة، ويُثبت الوعاء بالصفيحة في بنية الجدار أو السقف، حسب الرغبة، حيث يُصدر ضوءًا بشدة أكبر أو أقل وفقًا لتركيبة المادة المُعبأة، ولفترة زمنية غالبًا لا حصر لها.

التقيا خلال سيرهما بعدد كبير من سكان هذا العالم تحت الأرضي، ولاحظت الفتاة أن معادن وعتاد العديد من هؤلاء السكان كانت أكثر زخرفة مما يرتديه العاملون في الحقول أعلاه. بيد أن الرؤوس والأجسام كانت متشابهة، بل متطابقة. لم يلحق بها أحد الضرر، وتشعر الآن بشعور أقرب إلى السعادة. وهنا، دخل مرشدها فجأة إلى فتحة في الجانب الأيمن من النفق، ووجدت نفسها في غرفة كبيرة وجيدة الإضاءة.

* * *

الفصل (5)

العقل المثالي

ماتت الأغنية التي كانت على شفتيها عندما دخلت الغرفة، تجمدت من مشهد الرعب الذي التقى عينيها. يرقد على الأرض في وسط الغرفة جسم مقطوع الرأس -جسم تم التهامه جزئيًّا- بينما تزحف نحوه وفوقه نصف دزينة من الرؤوس، يسيرون على أرجلهم العنكبوتية القصيرة، ويمزقون جسم المرأة بمخالبهم، ثم يحملون القطع الممزقة إلى أفواههم الفظيعة. إنهم يأكلون لحوم البشر، يأكلونه نيئًا!

لهثت تارا الهيليومية رعبًا، وابتعدت وهي تغطي عينيها براحتيها.

قال آسرها: «تعالي! ما الأمر؟».

همست بنبرة مرتعبة: «إنهم يأكلون لحم جسد المرأة».

سألها: «ولِمَ لا؟ هل تتصورين أننا نحتفظ بالرايكور للعمل فقط؟ آه، كلا. إن مذاقهم لذيذ عند الإبقاء عليهم وتسمينهم. وهذا أيضًا من حسن حظ من نربيهم للغذاء، فهم لا يفعلون أي شيء على الإطلاق إلا أن يأكلوا».

صاحت: «يا للبشاعة!».

ركز نظره عليها للحظة، لكن وجهه الخالي من التعبير لم يكشف إن كانت نظرته تنم عن المفاجأة، أو الغضب، أو الشفقة. قادها بعد ذلك عبر الغرفة، مرورًا بذلك المشهد المخيف الذي أبعدت نظرها عنه. كانت ترقد على الأرض، بالقرب من الجدران، نصف دزينة من الأجسام مقطوعة الرأس وترتدي العتاد. خمنت الفتاة أن الرؤوس المحتفلة بالوليمة قد تخلت مؤقتًا عن هذه الأجسام، إلى أن يحتاجوا ثانية إلى خدماتهم. اشتملت جدران هذه القاعة على الكثير من الفتحات المستديرة الصغيرة، التي لاحظت الفتاة وجودها في أجزاء مختلفة من الأنفاق، لكنها لم تستطع تخمين الغرض منها.

سارا عبر ممر آخر، ثم غرفة ثانية أكبر من الأولى ومضاءة على نحو أكثر براعة. رأت داخلها العديد من المخلوقات ذات رؤوس وأجساد، بينما ترقد العديد من الأجسام مقطوعة الرأس قرب الجدران. توقف هنا آسرها، وتحدث مع أحد شاغلي الغرفة.

قال: «أسعى إلى لوود. أحضرتُ له مخلوقًا قبضت عليه في الميادين العلوية».

تزاحم الآخرون لفحص تارا الهيليومية. أصدر أحدهم صفيراً، وعندها عرفت الفتاة شيئًا عن الفتحات الصغيرة في الجدران؛ إذ زحف منها على الفور ما يشبه العناكب العملاقة: عشرات أو أكثر من الرؤوس البشعة. توجه كل منها نحو أحد الأجسام الراقدة وقام بتثبيت نفسه في المكان المحدد، واستجابت الأجسام فورًا في الاتجاه الذكي للرؤوس. نهضت المخلوقات، وتولت الأيدي تعديل الأطواق الجلدية ووضع باقي العتاد في موضعه، ثم عبرت الغرفة إلى حيث تقف تارا الهيليومية. لاحظت الفتاة أن زخارف جلودهم أكثر من تلك التي يرتديها أي من الآخرين الذين شاهدتهم سابقًا، وبالتالي خمنت أنهم أعلى سلطة من الآخرين. لم تكن مخطئة؛ فقد أشار سلوك آسرها إلى ذلك، حيث خاطبهم كمن يخاطب رؤساءَه.

قام العديدون الذين فحصوا جسمها بقرصها بلطف باستخدام الإبهام والسبابة، وشعرت الفتاة بالاستياء. ضربت على أيديهم لإزاحتها وهي تصيح بغطرسة: «لا تلمسني! أليست أميرة هيليوم؟» لم يتغير التعبير على تلك الوجوه الرهيبة. لم يكن بمقدورها أن تحدد ما إذا كانوا غاضبين أو مستمتعين، وما إذا كان ما فعلته أثار احترامهم أو ازدراءهم لها. تحدث واحد منهم فقط على الفور.

وقال: «يجب زيادة تسمينها».

اتسعت أعين الفتاة من الرعب. وتحولت نحو آسرها صائحة: «هل تعتزم هذه المخلوقات المخيفة التهامي؟».

أجابها: «هذا ما سوف يقرره لوود»، ثم انحنى مقربًا فمه من أذنها وقال هامسًا: «الضجيج الذي سمعته منك وتسميه أغنية قد أعجبني، وسوف أكافئك بتحذيرك عدم استعداء هؤلاء الكلدينيين[112] . إنهم أقوياء جدًّا، ولوود يستمع إليهم. لا تقولي عنهم مخيفين. إنهم يتمتعون بالوسامة. انظري إلى زخارفهم الرائعة، وذهبهم، وجواهرهم».

قالت: «شكرًا لك. لقد أطلقت عليهم الكلدينيين، ما معنى ذلك؟».

أجاب: «إننا جميعًا كلدينيون».

سألته: «وأنت أيضًا؟»، وأشارت إليه، موجهة إصبعها النحيل نحو صدره».

---

(112) الكلدينيون: عِرق مريخي شديد الذكاء، يسكن في منطقة صغيرة في برسوم تُعرف باسم بانتوم وغير معروفة للعالم خارجها - https://barsoom.fandom.com/wiki/Kaldane - المترجمة.

قال وهو يلمس جسمه: «كلا، ليس هذا، هذا رايكور»، ثم أضاف وهو يلمس رأسه: «لكن هذا كلديني. إنه العقل والفكر، والسلطة التي توجه كل الأشياء»، ثم أشار إلى جسمه وقال: «الرايكور ليس شيئًا، إنه ليس حتى كالمجوهرات على عتادنا، كلا، ليس حتى كالعتاد نفسه، إنه مجرد يحملنا. صحيح أننا سنجد صعوبة في العيش من دونه، لكن قيمته أقل من قيمة العتاد أو الجواهر؛ لأن إعادة إنتاجه أقل صعوبة». التفت ثانية إلى الكلدينيين الآخرين، وقال: «هل ستخبرون لوود أنني هنا؟».

أجاب أحدهم: «ذهب سيبت بالفعل إلى لوود. وسوف يقول له. أين وجدت هذا الرايكور مع الكلديني الغريب الذي لا يمكنه فصل نفسه؟».

حكى آسر الفتاة ثانية قصة الإمساك بها. قص الحقائق كما حدثت تمامًا، دون تجميل، وكان صوته بلا تعبير كوجهه، كما استقبل الآخرون قصته بنفس الطريقة. بدت المخلوقات تفتقر تمامًا إلى العاطفة أو -على الأقل- قدرة التعبير عنها، وكان من المستحيل الحُكم على ما تركته القصة من انطباع عليهم، أو حتى إن كانوا سمعوها، فقد كانت أعينهم الجاحظة تحدق ببساطة، وعضلات أفواههم تُفتح وتُغلق أحيانًا، ولم تقلل الألفة من رعب الفتاة منهم، كلما شاهدتهم، زاد شعورها بالاشمئزاز منهم، وكثيراً ما اهتز جسمها بارتعاشات تشنجية عندما تنظر إلى الكلدينيين. لكنها تشعر بالهدوء والانتعاش عندما تقع عيناها على أجسامهم الجميلة، وتتمكن للحظة من حذف الرؤوس من ذهنها، على الرغم من أن مشهد الأجسام مقطوعة الرأس الراقدة على الأرض كان صادمًا مثل مشهد الرؤوس وهي تصعد على الأجسام. على أن المشهد الأكثر بشاعة وغرابة حتى الآن هو تلك الرؤوس الزاحفة على أرجل عنكبوتية. وكانت تارة على يقين بأنها ستصرخ إذا اقترب أحدهم منها ولمسها، بينما قد يحاول أحدهم الزحف فوقها - أوووووه! أثارت الفكرة نفسها شعورًا بالدوار.

عاد سيبت إلى الغرفة، وقال: «سوف يقابلكِ لوود، أنتِ والآسر. هيا!»، ثم استدار نحو باب في الجهة المقابلة للباب الذي دخلَتَ منه تارا إلَى الغرفة. سأل سيبت آسر الفتاة: «ما اسمك؟».

أجاب: «أنا جيك، كبير العمال الثالث في حقول لوود».

«وما اسمها؟».

«لا أعرف».

«لا يهم. هيا!»

ارتفعت عاليًا الحواجب الأرستقراطية لتارا الهيليومية. لا يهم، طبعًا! إنها، أميرة هيليوم، الابنة الوحيدة لأمير الحرب في برسوم!

صاحت: «انتظر! يهمني أن تعرفوا من أنا، إذا كنتم تأخذونني إلى حضرة الجِد، عليكم أن تعلنوا عن الأميرة تارا الهيليومية، ابنة جون كارتر، أمير الحرب في برسوم».

قال سيبت آمرًا: «صمتًا! لا تتحدثي إلا عندما يُطلب منك. تعالي معي!».

اختنقت تارا من الغضب. حثها جيك: «هيا»، وأمسكها من ذراعها، وسارت معه. لم تكن سوى أسيرة، لا تعني الرتب والألقاب أي شيء لهؤلاء الوحوش القساة. قادوها عبر ممر قصير، على شكل S، إلى غرفة مبطنة كلية بمادة بيضاء مثل البلاط، في مواجهة المناطق الداخلية للجدار الخفيف. توجد العديد من الفتحات الدائرية الصغيرة بالقرب من قاعدة الجدران، لكنها أكبر من تلك الفتحات المشابهة التي لاحظتها في مكان آخر، وكانت معظم هذه الفتحات مغلقة. توجد أمام المدخل مباشرة فتحة ذات إطار ذهبي، وفوقها شعار غريب مُرصَّع بالمعدن الثمين نفسه.

وقف سيبت وجيك في الغرفة والفتاة بينهما، وقف ثلاثتهم بصمت أمام الفتحة في الجدار المقابل. رقد على الأرض بجوار الفتحة جسم رجل مقطوع الرأس، بأبعاد تكاد أن تكون ملحمية، ووقف على جانبيه محارب مدجج بالسلاح، يمتشق سيفه. انتظر الثلاثة ربما لخمس دقائق، ثم ظهر شيء في الفتحة. كان زوجًا من مخالب كبيرة، زحفت مباشرة لتصعد فوق الجسم الكلديني البشع، هائل الأبعاد. كان هذا النصف ضخمًا مثل كل من رأتهم تارا الهيليومية، ومظهره الكامل أكثر فظاعة بلا حدود. كانت بشرة الآخرين من اللون الرمادي المشوب بالزرقة، أما هذا، فكانت بشرته ذات مسحة أكثر زُرقة بقليل، وكانت أعينه محاطة بخطوط بيضاء وقرمزية، مثلما كان فمه أيضًا.

ومن كل فتحة من فتحتي أنفه، امتد أفقيًّا خط أبيض وخط قرمزي بعرض الوجه.

لم يتحدث أو يتحرك أحد. زحف المخلوق نحو الجسم الممدد، وثبّت نفسه في موضع الرقبة، ثم ارتفع الاثنان ككيان واحد، واقترب من الفتاة. نظر إليها، ثم تحدث إلى آسرها.

سأله: «أنت كبير العمال الثالث في ميادين لوود؟».

«نعم، لوود، واسمي جيك».

«قل لي ما تعرفه عن هذه»، وأومأ نحو تارا الهيليومية.

أطاع جيك الأمر وأخبره، ثم توجه لوود نحو الفتاة لمخاطبتها.

سألها: «ماذا كنت تفعلين داخل حدود بانتوم؟».

«قذفتني عاصفة شديدة إلى هنا وأصابت طائرتي، التي حملتني بالتالي إلى حيث لا أعرف. وقد هبطتُ إلى الوادي ليلاً بحثًا عن الطعام والشراب. جاءت حيوانات البانث، فلجأت إلى شجرة من أجل السلامة، ثم أمسك بي شعبك عندما كنت أحاول مغادرة الوادي. أنا لا أعرف لماذا أخذوني، لم أفعل أي شيء مُضرّ، وكل ما أطلبه أن تسمح لي بمواصلة طريقي بسلام».

أجاب لوود: «من يدخل بانتوم لا يغادرها أبدًا».

«لكن شعبي ليس في حرب مع شعبكم. أنا أميرة هيليوم، جدي الأكبر جيداك، وجدي جِد، ووالدي أمير الحرب في برسوم كلها. لا يحق لك إبقائي، وأطلب منك إطلاق سراحي في الحال».

كرر المخلوق دون أي تعبير على وجهه: «من يدخل بانتوم لا يغادرها أبدًا. أنا لا أعرف أي شيء عن المخلوقات الأدنى في برسوم، الذين تتكلمين عنهم. لا يوجد سوى عِرق سام واحد -عِرق البانتوميين، الطبيعة كلها موجودة لخدمتهم. وسوف تقومين بدورك، ولكن ليس بعد- أنت نحيفة جدًّا. علينا تسمينها يا سيبت. لقد سئمت من الرايكور. ولعل هذه تتسم بمذاق مختلف. حيوانات البانث كريهة جدًّا، ونادرًا ما يدخل أي مخلوق آخر إلى الوادي. أما أنت يا جيك، فسوف نكافئك، سوف أُرقيك من الحقول إلى الجحور. ومن الآن فصاعدًا، ستظل تحت الأرض كما يتوق كل بانتومي. ولن تضطر بعد الآن إلى تحمل الشمس البغيضة، أو تنظر إلى السماء البشعة، أو الأمور البغيضة التي تنمو وتشوه السطح. وفي الوقت الحالي، عليك أن تعتني بهذا الشيء الذي أحضرته لي، تأكد من أنها تنام وتأكل، ولا تفعل أي شيء آخر. تفهمني، جيك، لا تجعلها تفعل أي شيء آخر!».

أجاب جيك: «أفهم، لوود».

قال المخلوق آمرًا: «خذوها بعيدًا».

استدار جيك وقاد تارا الهيليومية خارج الغرفة. شعرت الفتاة بالهلع وهي تفكر في المصير الذي ينتظرها، المصير الذي يبدو لا مفر منه. كان واضحًا أن هذه المخلوقات لا تملك أي مشاعر رقيقة أو شهامة يمكن أن تستنجد بها، كما يبدو من المستحيل الإفلات من متاهات ممرات جحورهم تحت الأرضية. يبدو مستحيلاً.

لحق بهما سيبت خارج القاعة العامة وتحدث مع جيك لفترة وجيزة، ثم قادها حارسها خلال شبكة مُربِكة من الأنفاق المتعرجة حتى وصلا إلى شقة صغيرة.

«سوف نبقى هنا لفترة، ربما يرسل لوود لرؤيتك ثانية، وإذا لم يفعل، ربما لن يتم تسمينك، بل سيستخدمك لغرض آخر». كان من حس حظ الفتاة وراحة بالها أنها لم تدرك مقصده، ثم قال جيك: «غنّي لي».

لم تشعر تارا بأي رغبة على الإطلاق في الغناء، لكنها غنّت؛ فقد كان لديها أمل دائم في الهرب عند أي فرصة، وإذا تمكنت من الفوز بصداقة أحد هذه المخلوقات، ستزداد فرصها نسبيًّا. وقف جيك وعيناه ثابتتان نحوها طوال هذه المحنة، مما أثار توترها.

وعندما انتهت من الغناء، قال: «هذا رائع، لكنني لم أخبر لوود. لاحظتِ أنني لم أخبر لوود حول هذا الموضوع. إذا عرف، كان سيجعلك تغنين له، وبالتالي سيبقيك معه حتى يسمع الغناء كلما أراد، أما الآن، أنت معي طوال الوقت».

سألته الفتاة: «كيف تعرف أن غنائي سيعجبه؟».

أجاب جيك: «سيعجبه. إذا أعجبني شيء، إذن سيعجبه. ألسنا جميعًا متطابقين؟».

قالت الفتاة: «الناس في عِرقي لا تعجبهم نفس الأشياء».

علّق جيك: «يا للغرابة! يحب الكلدينيون نفس الأشياء ويكرهون نفس الأشياء. إذا اكتشفت شيئًا جديدًا وأعجبني، فإنني أعلم أنه سوف يلقى إعجاب جميع الكلدينيين. ولذا أنا أعرف أن لوود سوف يعجبه غناءك. نحن جميعًا نتشابه، كما ترين».

قالت الفتاة: «لكنك لا تبدو مثل لوود».

«لوود هو الملك، وهو أكبر حجمًا وأكثر روعة، لكننا، أنا وهو، متطابقين، ولِمَ لا؟ ألم يُنتِج لوود البيضة التي خرجت أنا منها؟».

استفهمت الفتاة: «ماذا؟ لم أفهم ما قلته».

أوضح جيك: «نعم، لقد خرجنا جميعًا من بيض لوود، تمامًا مثل جميع سرب مواك، خرجوا جميعًا من بيض مواك».

صاحت تارا بنبرة تدل على الفهم: «أوه! تقصد أن لوود لديه العديد من الزوجات، وأنت من ذرية واحدة منهن».

أجاب جيك: «كلا، ليس على الإطلاق. لوود ليس له زوجة، إنه يضع البيض بنفسه. أنت لا تفهمين».

أقرت تارا الهيليومية أنها لم تفهم.

قال جيك: «سأحاول إذن أن أشرح لك، إذا أعطيتني وعدًا أنك سوف تُغنين لي في وقت لاحق».

قالت: «أعدك».

بدأ يشرح: «نحن لسنا مثل الرايكور، فهم مخلوقات من مرتبة أدنى، مثلك ومثل البانث وأشياء من هذا القبيل. ليس لدينا نوعًا جنسيًّا، ولا أي أحد منا ما عدا الملك، فهو ثنائي الجنس. يبيض الملك العديد من البيض، الذي نخرج منه نحن، العمال والمحاربين، ومن بين كل ألف بيضة، توجد بيضة واحدة تفقس ملكًا. هل لاحظت الفتحات المغلقة في الغرفة التي رأيت فيها لوود؟ تضم كل منها ملكًا آخر، إذا هرب أحدهم، سينقض على لوود ويحاول قتله، وإذا نجح، سيصبح لدينا ملك جديد، ولكن لن يحدث أي فارق، سيكون اسمه لوود، ويستمر كل شيء كما كان من قبل. ألا ترين أننا متشابهين؟ يعيش لوود منذ فترة طويلة، وأنتج العديد من الملوك، ولذا يترك عددًا قليلاً فقط من هذا البيض حيًّا بحيث يوجد من يخلفه عند وفاته، ويقتل الآخرين».

سألت الفتاة: «لماذا يحتفظ بأكثر من واحد؟».

أجاب جيك: «تحدث في بعض الأحيان حوادث، ويُقتل جميع الملوك الذين يحافظ السرب عليهم، وعندما يحدث ذلك، يحصل السرب على ملك آخر من سرب مجاور».

سألت الفتاة: «وهل جميعكم أبناء لوود؟».

أجابها: «جميعنا باستثناء عدد قليل، من خرجوا من بيض الملك السابق، لكن لوود عاش فترة طويلة ولا يوجد الكثير من الآخرين».

سألته تارا: « هل تعيشون فترة طويلة أم قصيرة؟».

«فترة طويلة».

«وهل يعيش الرايكور أيضًا فترة طويلة؟».

قال: «كلا، يعيش الرايكور عشر سنوات، ربما، إذا استمروا أقوياء ومفيدين. عندما لا يعُد في مقدورهم خدمتنا، إما بسبب كبر السن أو المرض، نتركهم في الحقول وتأتي حيوانات البانث في الليل وتحصل عليهم».

صاحت: «يا لها من فظاعة!».

كرر كلمتها: «فظاعة؟ لا أرى أي فظاعة. الرايكور ليس سوى جسم بلا عقل.. إنهم لا يرون، ولا يشعرون، ولا يسمعون، وبالكاد ما يتحركون، ولنا فقط، وسيموتون جوعًا إن لم نجلب لهم الطعام. كما أنهم لا يفكرون، إنهم ليسوا سوى جلودنا. وكل ما يمكنهم القيام به لأنفسهم هو أخذ الطعام من الحوض ووضعه في أفواههم. أما وهم معنا - انظري إليهم!»، ثم استعرض بفخر الجسم النبيل أسفله، جسم مفعم بالحياة والطاقة والشعور.

سألته تارا: «كيف تفعل ذلك؟ أنا لا أفهم على الإطلاق».

قال: «وسوف أجعلك تشاهدين»، ثم استلقى على الأرض وفصل نفسه عن الجسم، وهنا أصبح الجسم ممددًا كشيء ميت، سار على ساقيه العنكبوتيتين نحو الفتاة، وقال: «انظري الآن، هل ترين هذا الشيء؟»، ومدّ ما بدا حزمة مخالب من الجزء الخلفي من رأسه. «توجد فتحة في مؤخرة فم الرايكور، فوق الطرف العلوي مباشرة من عموده الفقري. أقوم بإدخال مخالبي في هذه الفتحة، وأمسك بالحبل الشوكي. وعندئذ أتحكم على الفور في كل عضلة بجسم الرايكور لأنه يصبح جسمي، مثلما يمكنكِ توجيه حركة عضلات جسمكِ. أنا أشعر بما قد يشعر به الرايكور إذا كان لديه رأس ومَخ. إذا أصابه ضرر، فإنني سَأعاني إذا بقيت متصلاً به، ولذا في اللحظة التي يُصاب فيها أحدهم بجروح أو بمرض، فإننا نهجره إلى رايكور آخر. وكما يمكننا أن نعاني آلام إصاباتهم البدنية، فإننا نستمتع بالمثل بملذات الرايكور الجسدية. عندما يصبح جسمك مُجهدًا، تكونين عديمة الفائدة نسبيًّا، وعندما يمرض، تمرضين، وإذا قُتل، تموتين. أنتَ أَمَة لكتلة غبية من اللحم والعظام والدم. لا يوجد شيء في جثتك أفضل مما في جثة البانث. إن عقلك فقط هو ما يجعلك أعلى من البانث، لكن عقلك مُقيد بحدود جسمك. لكن الأمر مختلف بالنسبة لنا، حيث العقل هو كل شيء. يشغل العقل 90% من حجمنا. وليس لدينا سوى أبسط الأعضاء الحيوية، وهي صغيرة جدًّا؛ إذ ليس عليها أن تساعد في دعم نظام معقد للأعصاب، والعضلات، واللحم، والعظام. ليس لدينا رئتين؛ لأننا لا نحتاج إلى الهواء. وعلى مسافة كبيرة أسفل المستويات التي يمكن أن نأخذ الرايكور إليها، توجد الحياة الحقيقية التي يعيشها الكلدينيون في شبكة واسعة من الجحور. لكن الرايكور الذي يتنفس الهواء سوف يهلك هناك، مثلك أيضًا فأنت هناك تموتين. ونحن نُخزن هناك

كميات كبيرة من الطعام في غُرف مُحكمة الإغلاق، وسوف يستمر ذلك إلى الأبد. وتوجد مياه تحت السطح بمسافة كبيرة، سوف تتدفق لعدد لا يُحصى من العصور بعد استنفاد المياه السطحية. ونحن نستعد للزمن الذي نعلم أنه سيأتي، عندما تُستنفد البقايا الأخيرة من جو برسوم، وعندما تنفد المياه والأطعمة. وقد أنشأنا لهذا الغرض شيئًا لا يموت من جراء الطبيعة على الكوكب: إنه العقل المثالي».

سألته الفتاة: ولكن، ما الغرض الذي تستهدفونه عندما يحين ذلك الوقت؟».

قال: «أنت لا تفهمين. الأمر أكبر من قدرتك على استيعابه، لكنني سأحاول أن أشرحه لك. توجد الأقمار والشمس والنجوم في برسوم لغرض واحد، منذ بداية الزمن، عملت الطبيعة باجتهاد نحو تحقيق هذا الغرض. كانت الأشياء موجودة في الحياة منذ البداية، لكنها كانت بلا عقل. تطورت تدريجيًّا النُظُم العصبية البدائية والعقول الصغيرة، وهكذا استمر التطور.. أصبحت العقول أكبر حجمًا وأكثر قوة. وأنت تشاهدين فينا أعلى تطور، لكن بعضنا يعتقد أنه لا تزال هناك خطوة أخرى، وهي أن عِرقنا سوف يتطور في المستقبل البعيد إلى الشيء الخارق: العقل فقط. ستختفي السيقان والمخالب والأعضاء الحيوية، وسيصبح الكلديني في المستقبل مجرد عقل ضخم، أصم، وأبكم، وأعمى، ويعيش في قبو محكم الإغلاق، مدفون تحت سطح برسوم: مجرد عقل عظيم ورائع وجميل، دون أي شيء يلهيه عن التفكير الأبدي».

صاحت تارا: «تعني أنه سيرقد هناك وبغرض التفكير فحسب؟».

قال: «مجرد ذلك! هل هناك أروع من ذلك؟».

أجابت الفتاة: «نعم، يمكنني التفكير في عدد من الأشياء التي ستكون روعتها بلا نهاية».

* * *

الفصل (6)

في وسط الرعب

ما قاله المخلوق لتارا الهيليومية، منحها غذاء للفكر. كانت تعرف أن كل شيء قد خُلِق لتحقيق غرض مفيد، واجتهدت بإخلاص لاكتشاف الموقع المناسب للكلدينيين في المخطط الكوني. وكانت على يقين أن لهم موقع، لكنه يتجاوز تصورها، وبالتالي عليها أن تستسلم. تذكرت مجموعة صغيرة من الأشخاص في هيليوم، نبذوا متع الحياة سعيًّا للمعرفة. كانوا متعجرفين في علاقاتهم بمن يعتبرونهم أدنى فكرًا؛ فقد اعتبروا أنفسهم على درجة عالية من التفوق. وابتسمت عندما تذكرت ملاحظة قالها والدها ذات مرة حولهم، مفادها أن أيًّا منهم إذا قرر إسقاط أنانيته وتدميرها، سيستغرق تطهير هيليوم أسبوعًا. يحب والدها الناس العاديين، ويرى أن الذين يعرفون القليل والذين يعرفون الكثير هم على قدم المساواة. وتارا الهيليومية مثل والدها في هذا الصدد، ومثله أيضًا في أنها عاقلة وطبيعية.

على الرغم من الخطر الذي تواجهه، أثار هذا العالم الغريب اهتمامها. شعرت بالشفقة تجاه الرايكور، كما أثار داخلها تخمينات واسعة. كيف ومن أي نموذج تطور؟ وسألت جيك.

فقال: «غنّي لي مرة أخرى، وسوف أقول لكِ، إذا سمح لي لوود أن أحتفظ بكِ، لن تموتي أبدًا. يجب أن احتفظ بكِ دائمًا، حتى تُغنينَ لي».

اندهشت الفتاة من تأثير صوتها على المخلوق. هناك عصب في مكان ما في هذا العقل الهائل يتأثر باللحن. كانت هذه هي الرابطة الوحيدة بينها وبين هذا العقل عند فصله عن الرايكور. وربما يتمتع بغرائز بشرية أخرى عندما يهيمن على الرايكور، لكنها خافت حتى من مجرد التفكير في ذلك. بعد أن غنت، انتظرت أن يتحدث جيك، لكنه ظل صامتًا لفترة طويلة، ينظر فقط إلى وجهها بأعينه الفظيعة.

ثم قال: «أتساءل، ما إذا كان من الممتع أن أنتمي إلى عِرقك. هل كلكم تغنون؟».

قالت: «كلنا تقريبًا، نغني قليلاً، لكن علينا القيام بأشياء كثيرة أخرى مثيرة للاهتمام وممتعة. نحن نرقص ونلعب ونعمل ونحب، وأحيانًا نحارب لأننا عِرق من المحاربين».

فقال الكلديني: «الحب! أعتقد أنني أعرف ماذا تعنين، لكننا، لحسن الحظ، أعلى من المشاعر -عندما ننفصل عن الرايكور. أما عندما نهيمن على الرايكور- آه، هذا مختلف. وعندما كنت أستمع إلى غنائك وأنظر إلى جسمك الجميل، أعرف ماذا تقصدين بالحب. يمكنني أن أحبك».

ابتعدت عنه الفتاة، وقالت لتذكيره: «لقد وعدتني أن تخبرني عن أصل الرايكور».

بدأ يقول: «منذ عصور، كانت أجسامنا أكبر ورؤوسنا أصغر، وكانت أرجلنا ضعيفة جدًّا، بحيث لم نتمكن من التحرك بسرعة أو لمسافة بعيدة. وكان هناك مخلوق غبي يسير على أربعة أرجل ويعيش داخل حفرة في الأرض، ويجلب إليها الطعام. ولذا قمنا بحفر جحورنا لنصل إلى الحفرة ونأكل الطعام الذي يجمعه. إلا أنه لم يجلب ما يكفي الجميع -أي ما يكفي لنفسه وجميع الكلدينيين- وبالتالي كان علينا أيضًا أن نخرج للحصول على الطعام. وكان هذا العمل شاقًّا بالنسبة لأرجلنا الضعيفة. ثم بدأنا نركب على ظهور هذه الرايكورات البدائية. استغرق الأمر عصورًا عديدة دون شك، وأخيراً جاء الزمن الذي وجد فيه الكلدينيون وسيلة لتوجيه الرايكور. وإلى الآن، يعتمد الرايكور كليًّا على العقل المتفوق لدى سيده كي يوجهه نحو الطعام. وبمرور الوقت، أصبحت عقول الرايكور أصغر حجمًا. اختفت أذناه وعيناه، لأنه لم يعُد يستخدمهم، كان الكلديني يرى له ويسمع له. وبخطوات مماثلة، وقف الرايكور على قدميه الخلفيتين، حتى يتمكن الكلديني من الرؤية لمسافة أبعد. ومع تقلص عقله، تقلصت رأسه. كان الفم هو العضو

الوحيد المُستخدَم في الرأس، ولذا ظل الفم قائمًا بمفرده. وكان أفراد العِرق الأحمر يسقطون في أيدي أسلافنا من حين لآخر، وشاهدوا جمال ومزايا الشكل الَذي منحته الطبيعة للعرق الأحمر الذي كان الرايكور يتطور إليه. وبتهجين ذكي، ظهر الرايكور الحالي. إنه حقًّا ليس سوى نتاج لذكاء الكلدينيين الخارق - إنه جسمنا، نفعل به ما نراه مناسبًا، تمامًا كما تفعلين ما تجدينه مناسبًا مع جسمك، إلا أن لدينا ميزة امتلاك إمدادات غير محدودة من الأجسام. أما كنت تودين أن تكون كلدينية؟».

لم تعرف تارا الهيليومية المدة الزمنية التي أبقوها خلالها في القاعة تحت الأرض، فقد بدت فترة طويلة جدًّا. كانت تأكل وتنام وتشاهد صفوفًا بلا نهاية من المخلوقات التي تمر عبر مدخل سجنها. وهناك صف يأتي من أعلى وهو يحمل الطعام، الطعام، الطعام. ويعودون على الجانب الآخر بلا أحمال. وكانت تعرف -عندما تشاهدهم- أن الوقت نهار في أعلى. وعندما لا يمرون، تعرف أنه الليل، وأن حيوانات البانث على وشك التهام الرايكورات المتروكة في الحقول في اليوم السابق. بدأ الشحوب يتسلل إليها، وتزداد نحافة. لم تحب الطعام الذي يقدمونه لها، فهو لا يناسب نوعها، كما أنها لم تأكل

كثيراً من الطعام المستساغ خشية أن تصبح سمينة. كان لفكرة السمنة دلالة جديدة هنا.. دلالة رهيبة.

لاحظ جيك أنها ازدادت نحافة وبياضًا، تحدث معها عن ذلك، فأخبرته أنها لا يمكن أن تزدهر تحت الأرض، بل يجب أن تحصل على الهواء النقي وأشعة الشمس، أو سوف تذبل وتموت. ويبدو أنه نقل كلماتها إلى لوود؛ إذ أخبرها بعد فترة غير طويلة أن الملك أمر بأن تُحتَجَز في البرج، واقتادوها إلى البرج. كانت تأمل أن هذا حدث نتيجة حديثها مع جيك، فمجرد رؤية الشمس مرة أخرى يُعد إنجازاً. واتتها الآن فكرة، لم تجرؤ على التفكير فيها من قبل وهي تقبع في تلك المتاهة الرهيبة التي كان يستحيل أن تجد خلالها طريقها إلى العالم الخارجي، لكن الآن هناك سبب بسيط للأمل. يمكنها على الأقل أن ترى التلال، وإذا رأتهم، ألا يمكن أن تأتي فرصة أيضًا للوصول إليها؟ إذا كان لديها مجرد عشر دقائق، عشر دقائق قليلة! لا تزال الطائرة هناك، تعرف أنها يجب أن توجد هناك. مجرد عشر دقائق وتصبح حرة، حرة إلى الأبد بعيدًا عن هذا المكان المخيف. لكن الأيام تواصلت ولم تكن وحدها أبدًا، ولا حتى لخمس دقائق. خططت كثيراً للهرب، ولولا البانث لكانت تستطيع الهرب بسهولة خلال الليل، حيث ينفصل جيك دائمًا عن جسده ويغرق في حالة تبدو شبه غيبوبة. لا يمكن القول إنه ينام، أو على الأقل لا يبدو الأمر مثل النوم؛ إذ تظل عيناه خالية الجفون دون تغيير، لكنه يرقد بهدوء في أحد الأركان. تمثلت تارا الهيليومية في ذهنها مشهد الهرب ألف مرة، تُسرع إلى جانب الرايكور وتستولي على السيف المُعلق في عتاده. تفعل ذلك قبل أن يعرف جيك مقصدها، ثم تدفع بنصلها إلى رأسه البشع قبل أن يتمكن من إطلاق إنذار، لن يستغرق وصولها إلى الحظيرة أكثر من دقيقة، لن يتمكن الرايكور من إيقافها؛ لأنهم لا يملكون عقولاً لتخبرهم أنها تهرب. وقد شاهدت من النافذة فتح وإغلاق البوابة التي تؤدي من الحظيرة إلى الحقول، وتعرف طريقة عمل المزلاج الكبير. تمر من البوابة، وتنطلق مسرعة إلى التل. والتل قريب، لن يمكنهم اللحاق بها. المسألة بسيطة! أو أنها بسيطة لولا وجود البانث! البانث ليلاً، والعاملون في الحقول نهارًا.

لم تُظهر الفتاة التحسُن الذي يرغبه خاطفوها، فقد كانت محبوسة في البرج ودون تمارين رياضية أو طعام مناسب. سألها جيك في محاولة لمعرفة أسباب عدم امتلاء جسمها، وأن مظهرها لم يعُد حتى مثلما كان عليه عند أسرها. كان قلقه ناجمًا عن تساؤلات لوود المتكررة، ما أثار في ذهن تارا الهيليومية فكرةَ خطة قد تتيح لها فرصة جديدة للهروب.

قالت لجيك: «أنا معتادة على السير في الهواء الطلق وأشعة الشمس، ولا يمكن أن أعود كما كنت من قبل إذا بقيت محبوسة دائمًا في هذه الغرفة المنفردة، أتنفس القليل من الهواء ولا أمارس التمارين الرياضية. اسمح لي أن أخرج إلى الحقول كل يوم، وأتجول تحت الشمس المشرقة، وأنا واثقة أنني سأصبح عندئذ أفضل وأكثر سِمنة».

قال: «لكنك قد تهربين».

سألته: «كيف أهرب وأنت دائمًا معي؟ وحتى إذا رغبت في الهرب، أين يمكنني أن أذهب؟ أنا لا أعرف حتى اتجاه هيليوم، وأظن أنها بعيدة جدًّا. ستأكلني حيوانات البانث في الليلة الأولى، أليس كذلك؟»

قال جيك: «نعم. سوف أسأل لوود في هذا الموضوع».

أخبرها في اليوم التالي أن لوود وافق على أخذها إلى الحقول، كتجربة لفترة ليرى إن كانت تتحسن.

وأضاف جيك: «وإن لم تزدادي بدانة، سيرسل لكِ على أي حال، لكنه لن يستخدمكِ كطعام».

ارتجفت تارا الهيليومية.

أخذها في ذلك اليوم، وبعد أيام عديدة، خارج البرج إلى الحقول، مرورًا بالحظيرة. كانت تتحين دائمًا فرصة للهرب، لكن جيك كان دومًا بالقرب منها. لم يكن وجود جيك هو ما يحول دون محاولتها للهرب، بل كان عدد العمال الذين يعملون في حقل يقع بينها وبين التلال حيث تكمن الطائرة. كان يمكنها التملص من جيك بسهولة، ولكن ماذا عن العديد الآخرين. أخبرها جيك وهو يرافقها في أحد الأيام إلى الحقول أن هذه هي المرة الأخيرة.

قال لها: «سوف تذهبين هذا المساء إلى لوود. أنا آسف لأنني لن استمع إلى غنائك مرة أخرى».

«هذه الليلة!»، بالكاد ما تنفست الكلمة، لكنها كانت نابضة بالرعب.

ألقت لمحة سريعة نحو التلال.. كانت قريبة جدًّا! لكن حتى العمال يحولون بينها وبين التلال، ربما العشرات منهم.

قالت وهي تشير إلى العمال: «هل يمكن أن نسير إليهم؟ أود أن أرى ما يفعلونه».

أجاب جيك: «هذه مسافة بعيدة جدًّا، وأنا أكره الشمس. هنا أفضل كثيراً، حيث يمكنني الوقوف تحت ظل هذه الشجرة».

وافقت قائلة: «معك حق، يمكنك البقاء هنا وأسير أنا إلى هناك. لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة».

أجاب: «كلا، سوف أذهب معك. أنت تريدين الهرب، لكنك لن تنجحين».

قالت: «لا يمكنني الهرب».

قال جيك موافقًا: «أعرف، لكنك قد تحاولين، لا أتمنى أن تحاولي، ربما من الأفضل أن نعود إلى البرج في الحال، سيصعب وضعي إذا هربتي».

رأت تارا الهيليومية أن فرصتها الأخيرة في الهرب تتلاشى تمامًا، ولن توجد فرصة أخرى بعد اليوم. فكرت في حُجة لإغرائه بالاقتراب ولو قليلاً في اتجاه التلال.

قالت: «لا أطلب منك سوى القليل جدًّا. سوف تريد أن أغني لك الليلة، وستكون المرة الأخيرة، فإذا لم تسمح لي بالذهاب ومشاهدة ما يفعله الكلدينيون، لن أغني لك أبدًا مرة أخرى».

تردد جيك، ثم قال: «سوف أمسك بذراعك طوال الوقت».

قالت بتأكيد: «بطبيعة الحال، إذا كنت ترغب في ذلك. هيا!».

سار الاثنان في اتجاه العمال والتلال. كانت مجموعة صغيرة من العمال تستخرج الدرنات من الأرض. لاحظت أنهم ينحنون أثناء أداء عملهم، وتميل أعينهم البشعة نحو التربة المقلوبة. قادت جيك بالقرب منهم، وتظاهرت بأنها تريد معرفة طريقة عملهم بالضبط، وكان جيك يحكم قبضته طوال الوقت على معصمها الأيسر.

قالت وهي تتنهد: «تثير طريقة عملهم الاهتمام»، ثم صاحت فجأة: «انظر، جيك!»، وهي تشير بسرعة إلى الخلف في اتجاه البرج. استدار الكلديني، وهو لا يزال ممسكًا بها، لينظر في الاتجاه الذي أشارت إليه، في الوقت نفسه، وبسرعة البانث، لكمته بقبضتها اليمنى بكل ما أمكنها من قوة - ضربت الجزء الخلفي من رأسه السمين، فوق

الطوق مباشرة. كانت الضربة كافية لتحقيق غرضها، حيث فصلت الكلديني عن الرايكور وسقط الرأس على الأرض، تراخت فورًا القبضة من على معصمها، مع تراخي الجسم الذي لم يعد يسيطر عليه عقل جيك، تعثر على غير هدى للحظة قبل أن يجثو

على ركبتيه ثم ينقلب على ظهره، لكن تارا لم تنتظر لترى النتائج الكاملة لما قامت به. ما إن تراخت قبضة الأصابع على معصمها، حتى انطلقت الفتاة تركض مسرعة نحو التلال. وفي الوقت نفسه، انطلقت صافرة الإنذار من شفتي جيك، ففرد العمال ظهورهم، وكان أحدهم يقف في مسار الفتاة تقريبًا. تفادت الفتاة الأيدي الممدودة واتخذت طريقها ثانية في اتجاه التلال والحرية. اصطدم قدمها في أداة شبيهة بالمجرفة، تُستخدم في تقليب التربة، والتي تُركت ونصفها مطمور في الأرض. ركضت للحظة، وهي تتعثر، في جهد مجنون لاستعادة توازنها، لكن الشقوق المقلوبة أعاقت قدميها، فتعثرت ثانية وسقطت هذه المرة. وعندما كانت تسارع للنهوض مرة أخرى، سقط جسم ثقيل فوقها وأمسك بذراعيها. خلال لحظات، أصبحت مُحاطة وتُجر على قدميها. وعندما تطلعت حولها شاهدت جيك يزحف إلى رايكوره الراقد على الأرض، وبعد لحظة تقدم نحوها.

لم يوضح وجهه القبيح، العاجز عن التعبير، ماذا يدور في هذا الدماغ الضخم. هل كانت أفكاره تنم عن الغضب، أو الكراهية، أو الانتقام؟ ليس بإمكان تارا الهيليومية أن تُخمن، كما أنها لم تكن مهتمة؛ لقد حدث الأسوأ، حاولت الهرب وفشلت. لن تتوفر أبدًا فرصة أخرى.

قال جيك: «هيا! سنعود إلى البرج». تواصلت رتابة صوته القاتلة دون انقطاع. هذا أسوأ من الغضب، لأنه لا يكشف شيئًا عن نواياه، لكنه يزيد رعبها من هذه العقول الكبيرة التي تبعد عن إمكانية المشاعر البشرية.

عادت تارا إلى محبسها في البرج، وجلس جيك القرفصاء مرة أخرى بجانب المدخل، لكنه حمل في يده سيفًا، ولم يتخلى عن الرايكور وإنما استبدله بآخر أحضره معه عندما أظهر الأول دلائل تنم عن التعب. جلست الفتاة تنظر إليه، لم يكن قاسيًا معها، لكنها لم تشعر تجاهه بالامتنان، ولا بالكراهية؛ فتلك العقول العاجزة عن الإحساس بأي مشاعر جميلة، لم تثر شيئًا لديها. لم تشعر بالامتنان، أو العاطفة، أو الكراهية تجاههم، لم تشعر سوى برعب دائم في وجودهم. لقد سمعت كبار العلماء يناقشون مستقبل العِرق الأحمر، وتذكرت أن البعض أشار إلى أن العقل سوف يسيطر في نهاية المطاف على الإنسان. لن توجد أي أفعال أو عواطف غريزية، ولن يحدث أي فِعل بناء على الدافع، بل على العكس سيصبح العقل بمثابة السبب المباشر لكل فِعل. وقد أعرب صاحب تلك النظرية عن أسفه لأنه قد لا يتمتع أبدًا بنعمة هذه الحالة، التي قال إنها سوف تسفر عن حياة مثالية للجنس البشري.

تمنت تارا من كل قلبها أن يكون هنا الآن هذا العالِم المبتكِر ليشهد بالكامل النتائج العملية لتحقيق نبوءته. الخَيَار محدود بين الرايكور المادي البَحت والكلديني العقلي

البحت، أما في الجزء المتوسط السعيد الذي يضم الإنسان العادي وغير المثالي، كما تعرفه، تكمن حالة الوجود المرغوبة أكثر. فكرت الفتاة أن هذا درس رائع لجميع المثاليين الذين يطمحون إلى الكمال الشامل في أي مرحلة من مراحل السعي البشري؛ إذ قد يكتشفون هنا حقيقة أن الرغبة في الكمال المطلق أقل كثيراً من الرغبة في نقيضه.

امتلأ عقل تارا الهيليومية بأفكار قاتمة، حيث كانت تنتظر أمر الاستدعاء من لوود؛ ما قد يعني بالنسبة لها شيئًا واحدًا فقط: الموت. خمنت سبب طلبه لها، وكانت تعرف أنها يجب أن تجد وسائل للتدمير الذاتي قبل أن تنتهي الليلة، لكنها لا تزال تتشبث بالأمل والحياة. لن تستسلم إلا عندما لا تجد أي طريقة أخرى. أذهلت جيك مرة بصيحة عالية قوية: «ما زلت أعيش!».

سألها الكلديني: «ماذا تقصدين؟».

أجابت: «أعني تحديدًا ما قلته. أنني ما زلت أعيش، وما دمت أعيش سوف أجد وسيلة. أما لو ميتة، لا يوجد أمل».

سألها: «تجدين وسيلة من أجل ماذا؟».

أجابت: «من أجل الحياة والحرية وشعبي».

قال برتابة: «من يدخل بانتوم لا يغادرها أبدًا».

لم تردّ. وبعد فترة تحدث جيك ثانية: «غني لي».

وبينما كانت تُغني، حضر محاربون لاصطحابها إلى لوود. أخبروا جيك أن عليه البقاء.

سأل جيك: «لماذا؟».

أجاب أحد المحاربين: «أنت أغضبت لوود».

سأل جيك: «كيف؟».

أجاب المحارب: «لقد أظهرت افتقارك إلى قوة العقل غير الملوثة. وسمحت للمشاعر أن تؤثر عليك، ما دل على أنك معيب، وأنت تعرف مصير من يعانون من العيوب».

قال جيك بإصرار: «أعرف مصيرهم، لكنني لست معيبًا».

رد المحارب: «أنت سمحت للضوضاء الغريبة التي تصدر منها أن تُسعدك وتهدئك، مع أنك تعرف جيدًا أن أصل هذه الضوضاء وغرضها لا يتعلق على الإطلَاق بالمنطق أو قوى العقل، وهذا في حد ذاته يُشكل اتهامًا بالضعف لا يرقى إليه الشك. وبعد ذلك تأثرت دون شك بمشاعر غير منطقية جعلتك تسمح لها بالسير في الحقول إلى مكان تمكنت فيه من محاولة الهرب كادت أن تنجح. ولو كانت قوة عقلك غير معيبة، لأقنعتك بأنك غير ملائم. والنتيجة الطبيعية، والمعقولة، هي التدمير. ولذلك، سوف يجري تدميرك بطريقة تجعلك مثالاً مفيدًا لجميع الكلدينيين الآخرين من سرب لوود. والآن، عليك أن تبقى مكانك».

قال جيك: «أنت على حق. سأبقى هنا إلى أن يرى لوود من المناسب تدميري بأكثر طريقة عقلانية».

نظرت إليه تارا باندهاش، وهم يقودونها خارج الغرفة. نظرت إليه ثانية من فوق كتفها وقالت: «جيك، تذكر، أنت لا تزال تعيش!»، ثم اقتادوها عبر أنفاق لا نهائية إلى حيث ينتظرها لوود.

عندما وصلت عنده، وجدته جاثمًا في ركن الغرفة على سيقانه العنكبوتية الستة. ويرقد رايكوره بالقرب من الجدار المقابل، جسم جميل يلتف حوله عتاد رائع، شيء ميت دون كلديني يوجهه. صرف لوود المحاربين الذين رافقوا السجينة، ثم جلس مثبتًا عينيه الرهيبتين عليها، وظل لفترة صامتًا. لم يكن أمام تارا إلا أن تنتظر، كما لم تستطع إلا أن تُخمن ما يمكن أن يحدث، وعندما يحدث، ستجد وقتًا كافيًا لمواجهته. ما من ضرورة لتوقع النهاية. والآن، تكلم لوود.

«تفكرين في الهرب»، قال برتابة قاتلة بلا أي تعبير، مثل باقي عِرقه -وهي النتيجة الوحيدة التي يمكن أن يسفر عنها التعبير الشفاهي للعقل الذي لا يتأثر بالمشاعر- «لن تهربي. أنت مجرد تجسيد لأشياء غير كاملة: عقل معيوب، وجسم معيوب. ولا يمكن أن يوجد الاثنان معًا ويتحقق الكمال. تشاهدين هناك جسمًا مثاليًّا»، وأشار نحو الرايكور، «ليس لديه عقل»، ثم رفع إحدى مخالبه نحو رأسه وقال: «وهنا، العقل المثالي. إنه لا يحتاج إلى جسم كي يعمل بشكل مثالي وصحيح كعقل. تضعين عقلك الضعيف في مواجهة عقلي! تخططين الآن حتى لقتلي. وإن فشلتي، توقعي أنك بذلك تقتلين نفسك. سوف تعرفين قوة العقل على المادة. أنا العقل، وأنت المادة. عقلك ضعيف للغاية وغير متطور ليصبح جديرًا باسم العقل. لقد سمحتِ له بأن يزداد ضعفًا عن طريق أفعال متهورة تمليها المشاعر. لا قيمة للمشاعر؛ فليس لها عمليًّا أي سيطرة على وجودك. لن تقتليني، ولن تقتلي نفسك. عندما أكون معك، ستُقتلين إذا بدا ذلك شيئًا منطقيًّا. أنت لا تتصورين

إمكانيات القوة التي تكمن في عقل متطور على نحو مثالي. انظري إلى ذلك الرايكور، ليس لديه عقل، لا يمكن أن يتحرك بإرادته إلا قليلاً. فالغريزة الميكانيكية الموروثة التي سمحنا ببقاءها داخله تتيح له حمل الطعام إلى فمه، لكنه لا يستطيع أن يجد الطعام لنفسه، يجب أن نضع الطعام في متناوله، ودائمًا في نفس المكان. وإذا وضعنا الطعام عند قدميه وتركناه بمفرده، سوف يموت جوعًا. والآن، شاهدي ما يمكن أن يحققه العقل الحقيقي».

أدار عينيه في اتجاه الرايكور، وجثم هناك مبحلقًا في الشيء عديم الإحساس. ولرعب الفتاة، بدأ الجسم مقطوع الرأس يتحرك، نهض ببطء على قدميه، وسار عبر الغرفة إلى لوود، ثم انحنى وأمسك الرأس البشع في يديه، ورفعها إلى أعلى ثم وضعها على كتفيه.

سألها لوود: «ما فرصك في مواجهة هذه القوة؟ وما فعلته مع الرايكور، يمكنني أن أفعله معك».

لم ترد تارا الهيليومية؛ فمن الواضح أنه لا توجد ضرورة لأي رد صوتي.

قال لوود: «كنتِ تشكين في قدراتي!»، وكان كلامه صحيحًا، على أن الفتاة لم تقل ذلك، لكنها فكرت فيه فقط.

سار لوود عبر الغرفة ثم رقد وفصل نفسه عن الجسم، وزحف على الأرض إلى أن وقف مباشرة أمام الفتحة الدائرية التي رأته الفتاة يخرج منها في اليوم الذي جلبوها فيه إلى حضرته للمرة الأولى. وقف هناك وركّز عينيه البشعتين على الفتاة. لم يتكلم، لكن عينيه المُملتين كانتا تنظران مباشرة إلى مركز مخها. شعرت بقوة يتعذر مقاومتها تدفعها في اتجاه الكلديني. كافحت لمقاومتها، وحاولت إبعاد عينيها، لكنها لم تتمكن. كانت عيناها محتجزتين، كأنما في سحر مروع، في محجري عينيه اللامعتين والخاليتين من الجفون، اللتين تقعان في الدماغ الضخم الذي يواجهها. تحركت ببطء نحو الوحش المروع، وكانت كل خطوة بمثابة صراع مؤلم من المقاومة. حاولت البكاء بصوت عال في محاولة لإيقاظ ملكاتها المُخدَرة، لكن الصوت لم يصل إلى شفتيها. شعرت بأنها قد تستطيع استعادة قدرتها على التحكم في خطواتها إذا تحولت تلك الأعين بعيدًا عنها، ولو للحظة، لكن الأعين لم تبتعد عنها أبدًا. بدا لمعان أعينه يزداد عمقًا، حيث تستجمع كل بقايا السيطرة على جهازها العصبي بالكامل.

ومع اقترابها من الشيء، ابتعد ببطء على سيقانه العنكبوتية. لاحظت أن مخالبه لوحت ببطء ذهابًا وإيابًا وهو يبتعد تدريجيًّا، ويدخل في الفتحة المستديرة بالجدار. هل

يجب أن تتبعه إلى هناك أيضًا؟ ما الرعب الجديد المجهول الذي تخبئه تلك الغرفة الخفية؟ كلا! لن تدخل. لكنها قبل أن تصل إلى الجدار، وجدت نفسها على الأرض وتزحف على يديها وركبتيها نحو الفتحة مباشرة، ولا تزال أعين ذلك المخلوق تتسمر نحو أعينها. بذلت عند عتبة الفتحة آخر جهد بطولي لمقاومة القوة التي تسحبها، لكنها استسلمت في النهاية. وبلهاث انتهى بتنهيدة، مرت تارا خلال الفتحة لتصل إلى الغرفة التي تقع بعدها.

كان حجم الفتحة كبيرًا بما يكفي لدخولها. دخلت، ووجدت نفسها في غرفة صغيرة ولوود جاثم أمامها. ويرقد جسم كبير وجميل لرايكور ذكر عند الجدار المقابل، ولم يكن يرتدي أي عتاد أو أغطية.

قال لوود: «ترين الآن عدم جدوى التمرد».

ويبدو أن العبارة حررتها للحظات من السحر، فقد أدارت عينيها بسرعة بعيدًا عنه.

قال آمرًا: «انظري لي!».

أبقت تارا الهيليومية عينيها متجنبة النظر إليه. شعرت بقوة جديدة، أو على الأقل بتقلُص سلطة المخلوق عليها. هل أدركت سر هيمنته الخارقة على إرادتها؟ لم تجرؤ أن تأمل في ذلك. مع تجنب عينيها لعينيه، تحركت نحو الفتحة التي جرتها إليها تلك الأعين المؤذية. أمرها لوود ثانية أن تتوقف، لكن الصوت وحده كان يفتقر إلى أي سلطة للتأثير عليها. لم يكن الصوت مثل الأعين. سمعت المخلوق يطلق صافرة، وعرفت أنه يستدعي المساعدة. ونظرًا لأنها لم تجرؤ على النظر نحوه، لم تشاهده وهو يستدير ويركز بصره على الجسم الكبير مقطوع الرأس الراقد بجوار الجدار.

لا تزال الفتاة تحت تأثير المخلوق إلى حد ما، لم تستعِد بعد سيطرتها الكاملة والمستقلة على قواها. تحركت كمن يعاني آلام كابوس شنيع، تَحركت ببطء وألم كأنما يوجد ثقل ضخم يعوق حركة أطرافها، أو كأنما

تجر جسمها خلال سائل لزج. كانت الفتحة مغلقة، آه، إنها قريبة جدًّا، ورغم الجهد الذي تبذله، لم تحقق تقدمًا ملموسًا نحوها.

كان الجسم مقطوع الرأس يزحف خلفها على يديه ورجليه، مدفوعًا بقوة الرأس الخبيثة. وصلت أخيرًا إلى الفتحة. شيء ما داخلها كان يقول لها إنها ما إن تعبر الفتحة، حتى تتحطم سيطرة الكلديني. كانت على وشك الانتهاء والدخول إلى الغرفة المجاورة، عندما شعرت بيد ثقيلة عند كاحلها، أدركها الرايكور وأمسك بها، وعلى الرغم من

مقاومتها، فقد جرها من ظهرها إلى الغرفة مع لوود. أمسك بها بقوة وقرّبها منه، ثم لصدمتها بدأ يربت عليها بلطف.

سمعت صوت لوود الرتيب يقول: «ترين الآن، لا جدوى من التمرد، وعقابه».

قاتلت تارا الهيليومية دفاعًا عن نفسها، لكن عضلاتها كانت ضعيفة إلى حد يدعو إلى الرثاء في مواجهة هذا التجسد الأبله للقوة الغاشمة. لكنها قاومت، قاومت في مواجهة احتمالات يائسة لتكريم الاسم الفخور الذي تحمله. قاومت وحدها، وهي التي يضحي محاربو الإمبراطورية الجبارة، زهرة فرسان المريخ، بحياتهم بسرور لإنقاذ حياتها.

* * *

الفصل (7)

مشهد بغيض

طارت سفينة الفضاء فاناتور خلال العاصفة. لم تسقط مصطدمة بالأرض، أو تتلوى بفعل قوة عناصر الطبيعة متحولة إلى كومة من الحطام، وهو ما يرجع كليًّا إلى نزوة الطبيعة. ظلت، كسفينة عاجزة، تركب طوال فترة العاصفة فوق تلك الأمواج العاصفة التي تقذفها الرياح. وعلى الرغم من جميع المخاطر والتقلبات التي شهدتها، عاشت السفينة وطاقمها حياة مسحورة لمدة تصل إلى ساعة تقريبًا لانحسار الإعصار. وعندئذ وقعت الكارثة - كارثة بالفعل لطاقم فاناتور ومملكة جاثول.

ظل الرجال دون طعام أو شراب منذ مغادرتهم هيليوم، كما ظلوا يتدافعون ويتحملون ضربات الجلود التي تثبتهم بالسفينة إلى حد استنفاد قواهم. هدأت العاصفة لفترة قصيرة، حاول خلالها أحد أفراد الطاقم الوصول إلى مقره بعد إزالة الشرائط الجلدية التي تثبته بسطح السفينة حفاظًا على سلامته المحفوفة بالمخاطر. وكان سلوكه هذا يُعد في حد ذاته انتهاكًا مباشرًا للأوامر، في أعين أفراد الطاقم الآخرين، واتخذت نتيجته -التي جاءت على نحو مفاجئ بطريقة مذهلة- شكل الانتقام السريع والرهيب. ما إن أزال الرجل أحزمة السلامة، حتى أحاط ذراع سريع من العاصفة الوحشية بالسفينة، فأخذت تنقلب تكرارًا ومرارًا، ما أسفر عن سقوط ذلك المحارب المتهور عند أول دوران.

ونظرًا لفك الجلود، نتيجة لدوران والتواء السفينة المستمر وقوة الرياح، أخذت معدات الصعود والهبوط تنجر أسفل السفينة ككتلة متشابكة من الحبال والجلود. وفي تلك الظروف التي تنقلب خلالها الفاناتور كليًّا، تلتف هذه الأشياء حولها إلى أن تقع ثورة أخرى في الاتجاه المعاكس، فتحملهم الرياح نفسها مرة أخرى من سطح السفينة إلى مؤخرتها، وتتخبط في العاصفة تحت السفينة المندفعة.

سقط المحارب وسط هذا كله، وكالغريق الذي يتعلق بقشة، أمسك بالحبال المتشابكة التي سندته وحالت دون سقوطه. تشبث بقوة اليأس بالحبال، في سعي محموم لشبك ساقيه وجسمه بها، لكن قبضة يده كانت تخف مع كل اهتزاز للسفينة، وعلى الرغم من معرفته أنهم سيصطدمون بالأرض في نهاية المطاف، فقد قاتل بالجنون الذي ولّده اليأس للحظات بائسة أطالت معاناته.

هذا هو المشهد الذي رآه جاهان الجاثولي من فوق حافة سطح سفينة الفاناتور المترنحة، عندما حاول معرفة مصير محاربه. كان مُثبتًا بالحافة العليا من السفينة، وبالقرب منه حزام جلدي منفرد لم يتشابك مع الكتلة السفلية المُعقدة التي تتحرك بحرية عند جانب السفينة، وتنتهي بخُطاف. أدرك جد جاثول الوضع بلمحة واحدة. كان أحد رجاله ينظر أدناه في أعين الموت، وكانت وسيلَة العون تكمن في يد الجِد.

لم يتردد للحظة، فك الأحزمة الجلدية التي تثبته على سطح السفينة، وأمسك بالحزام الجلدي المخصص للهبوط، وانزلق على جانب السفينة. تأرجح مثل بندول مجنون جيئة وذهابًا، وهو يدور ويلتف على مسافة ثلاثة آلاف قدم فوق سطح برسوم، وأخيراً حدث ما كان يأمله.. وصل إلى الحِبال التي لا يزال المحارب يتشبث بها، وإن كانت قوته تتناقص بسرعة. ثبّت جاهان إحدى ساقيه على حلقة من الخيوط المتشابكة، ثم سحب نفسه مقتربًا بما يكفي للتشبث بحلقة أخرى قريبة من المحارب. وعلى الرغم من عدم استقرار تشبثه، انتقل الجد ببطء إلى الحزام الجلدي المخصص للهبوط وأمسك به واستخدمه ليهبط وصولاً إلىَ الخُطاف في نهايته. وهنا رَبَط عتاد المحارب بحلقة، مباشرة قبل أن تنزلق أصابع الرجل التي ضعفت قبضتها على الحبال.

لقد أنقذ حياة الرجل، مؤقتًا على الأقل، وتحول انتباهه الآن، تحول نحو تأمين سلامته الشخصية. كان العديد من خُطافات الهبوط الأخرى تتشابك بقوة في فوضى الحبال التي شَبَك عتاد المحارب بها،

وسعى إلى تأمين نفسه بإحداها حتى تهدأ العاصفة بما يكفي ليتيح له التسلق صعودًا إلى سطح السفينة. ولكن ما إن وصل إلى خُطاف يتأرجح بالقرب منه، حتى علقت السفينة في موجة متجددة من غضب العاصفة، وأخذت الحبال تندفع وتضرب السفينة الكبيرة، وضرب خُطاف معدني ثقيل يندفع عبر الهواء جبهة جِد جاثول، بين العينين مباشرة.

في ظل ذهول جاهان للحظات، ضعفت قبضة أصابعه على الحبال وسقط الرجل في اتجاه الأرض على بُعد ثلاثة آلاف قدم، خلال الهواء الرقيق لكوكب المريخ الآخذ في الاحتضار، بينما يتشبث المحاربون المخلصون بالأحزمة الجلدية على سطح السفينة فاناتور المتأرجحة دون معرفة أي شيء عن مصير زعيمهم المحبوب. ولم يكن قبل ما يزيد على ساعة، بعد أن هدأت العاصفة، أن أدركوا أنهم فقدوه، أو عرفوا بطولة تضحيته بذاته في موقف أنهى حياته. تستقر الفاناتور الآن على عارضة مسطحة، حيث جرفتها رياح قوية وإن كانت مطردة. تخلّص المحاربون من الأحزمة الجلدية التي تربطهم بسطح السفينة، كان الضباط يرصدون الخسائر والأضرار، عندما سمعوا صرخة ضعيفة جذبت

انتباههم إلى رجل مُعلق في الحبال تحت العارضة. رفعته أذرع قوية إلى سطح السفينة، وعندئذ عرف طاقم فاناتور بطولة الجِد ونهايته. لم يتمكنوا سوى التخمين على نحو مبهم بالمسافة التي قطعوها، كما لم يكنَ في مقدورهم العودة للبحث عنه في ظل ظروف العجز التي تعانيها السفينة. كانوا مجموعة حزينة اندفعت إلى الأمام خلال الهواء نحو وجهة اختارها لهم مصيرهم.

وماذا عن جاهان، جِد جاثول؟ سقط مندفعًا لمسافة ألف قدم، ثم أسرته العاصفة بمخلبها العملاق وحملته عاليًا مرة أخرى لمسافة بعيدة. قذفت به العاصفة كقطعة ورق صغيرة تطير في الهواء، كأنما هو رياضة الرياح وألعوبتها، أدارته مرارًا وتكرارًا، حملته إلى أعلى وهبطت به إلى أسفل، لكنه بعد كل هجمة جديدة كان يقترب من الأرض. وتُعد نزوات العواصف الإعصارية قاعدة في هذا النوع من العواصف، حيث إن تلك العواصف جميعها هي في حد ذاتها نزوات. فهي تقتلع الأشجار العملاقة وتدمرها، وتنقل في الزوبعة نفسها الأشجار الصغيرة الواهية لأميال وتودعها سالمة في أعقاب الأشجار العملاقة.

وهكذا كان الحال مع جاهان الجاثولي. توقع للحظات أن يندفع نحو الدمار، لكنه وجد نفسه مستقرًّا بلطف على الطحالب اللينة الصفراء في قاع البحر الميت. لم تكن حالته الجسدية نتيجة لمغامرته المروعة أسوأ من التورم الطفيف على جبهته من جراء ضربة الخُطاف المعدني. نهض الجد غير مُصدق برحمة القَدر معه، نهض ببطء كأنما كان مقتنعًا بأن يجد عظامه مسحوقةَ ولن تقدر على حمله، لكنه كان سليمًا، ونظر حوله في محاولة عقيمة لتحديد الاتجاه. كان الغبار والحطام يتطاير في الهواء. لم تكن الشمس ساطعة. واقتصرت رؤيته على مسافة نصف قطرها بضع مئات من الياردات من الطحالب الصفراء والهواء المُحمل بالغبار. ربما توجد على بُعد خمسمائة ياردة في أي اتجاه أسوار مدينة عظيمة، لكنه لا يعرف. لم يكن مُجديًا أن يتحرك من موقعه إلى أن يصبح الهواء نقيًّا، حتى يتمكن من معرفة اتجاه سيره، ولذا تمدد على الطحالب وهو ينتظر ويفكر في مصير محاربيه وسفينته، دون أن يفكر كثيراً في وضعه المحفوف بالمخاطر.

كانت سيوفه ومسدساته وخنجر مثبته في عتاده، وضم جيب حقيبته كمية صغيرة من المؤن المُركزة التي تُشكل جزءًا من معدات المقاتلين في برسوم. كل هذا، علاوة على عضلاته المُدرَبة وشجاعته العالية وروحه الباسلة، كان يكفيه في مواجهة أي شقاء قد يكمن بينه وبين جاثول، التي تقع في اتجاه لا يعرفه وعلى بُعد لا يعرفه.

كانت الرياح تهبط بسرعة ومعها الغبار الذي يحجب المشهد الطبيعي. كان مقتنعًا أن العاصفة انتهت، لكنه كان غاضبًا من خموله الناتج عن ضعف الرؤية، فضلاً عن أن

الظروف لم تتضح قبل هبوط الليل، وبالتالي كان مضطرًّا إلى انتظار بزوغ اليوم الجديد في نفس البقعة التي قذفته إليها العاصفة. أمضى ليلة غير مريحة دون حرير وفراء النوم. أحس بالإغاثة وهو يرى ظهور الفجر المفاجئ. أصبح الهواء

نقيًّا الآن، وشاهد في ضوء النهار الجديد سهلاً متموجًا يمتد في جميع الاتجاهات حوله، بينما بالكاد ما يُميز في الشمال الغربي الخطوط العريضة لتلال منخفضة. يعرف جاهان بوجود بلد يقع في جنوب شرق جاثول، وتصور أنه عرف مكانها وهو يخمن اتجاه وسرعة العاصفة التي حملته إلى موقع بالقرب منها، وافترض أن جاثول تقع وراء التلال التي يراها الآن، في حين أنها تقع في الواقع بعيدًا في اتجاه الشمال الشرقي.

لم يكن قبل يومين أن تمكن جاهان من عبور السهل والوصول إلى قمة التلال التي يأمل أن يرى بلده منها، لكن خيبة الأمل أصابته؛ فقد امتد أمامه سهل آخر، يتسم بأبعاد أكبر من أبعاد السهل الذي عبره، وتقع وراءه تلال أخرى. كان هذا السهل يختلف عن السهل الأول، حيث انتشرت خلاله تلالاً متفرقة معزولة. لكنه كان مقتنعًا بأن جاثول تقع في مكان ما في اتجاه بحثه، ولذا هبط إلى الوادي واتخذ خطواته في اتجاه الشمال الغربي.

ظل جاهان الجاثولي لأسابيع يعبر الوديان والتلال بحثًا عن بعض العلامات المألوفة التي قد تشير إلى طريقه نحو وطنه، لكن قمة كل سلسلة جبلية كانت تكشف عن مشهد طبيعي آخر غير مألوف. رأى عددًا قليلاً من الحيوانات ولم يشهد أي إنسان، إلى أن توصل أخيرًا إلى اعتقاد بأنه موجود في منطقة أسطورية من برسوم القديمة التي تقع تحت لعنة الآلهة القديمة – البلد الذي كان في يوم ما يتمتع بالثراء والخصوبة، وأنكر شعبها الآلهة بكبرياء وغطرسة، وكانت العقوبة هي الإبادة.

وفي أحد الأيام تسلق التلال المنخفضة ونظر إلى واد مأهول بالسكان، ويضم أشجار وحقول مزروعة، وقطع من الأرض مُحاطة بجدران حجرية تحيط بأبراج غريبة. رأي أناسًا يعملون في الحقول، لكنه لم يتعجل الهبوط لتحيتهم؛ عليه أولاً أن يعرف شيئًا ما عنهم، وما إذا كانوا أصدقاء أم أعداء. زحف، مختبئًا بين الشجيرات، إلى نقطة مميزة فوق أحد التلال الأكثر بروزًا في اتجاه الوادي، ورقد على بطنه يراقب العمال الأكثر قربًا منه. كانوا على مسافة بعيدة نسبيًّا بحيث لم يكن متأكدًا منهم. هناك شيء يبدو غير طبيعي بشأنهم، تبدو رؤوسهم غير متناسبة مع أجسادهم – رؤوس كبيرة جدًّا.

ظل لفترة طويلة راقدًا لمشاهدتهم، ونما إلى وعيه أنهم ليسوا مثله، ولن يندفع ويطمئن إلى وجوده بينهم. شاهد الآن اثنين يخرجان من الحظيرة القريبة، ويقتربان ببطء

ممن يعملون بالقرب من التل الذي يرقد عنده مختفيًا. لاحظ على الفور أن أحدهم يختلف عن الآخرين جميعًا. ولاحظ حتى على مسافة أكبر أن رأس هذا الشخص كان أصغر، وعندما اقتربا، كان على يقين أن عتاد أحدهم لم يكن مماثلاً لعتاد مرافقه أو عتاد أي ممن يحرثون الحقول.

كان الاثنان يتوقفان كثيراً، يتناقشان على ما يبدو، كأن أحدهما يريد المضي قدمًا في الاتجاه الذي يسيران فيه، بينما الآخر يتردد، وفي كل مرة يفوز الأصغر منهما بموافقة مترددة من الآخر، وبالتالي اقتربا أكثر من آخر صف من العمال الذين يحرثون الأرض بين الحظيرة التي أتوا منها والتل الذي يرقد عنده جاهان الجاثولي للمشاهدة. وفجأة، ضرب الشخص الأصغر رفيقه في وجهه. شاهد جاهان مرتعبًا رأس الشخص الأكبر تسقط من جسمه، ورأى الجسم يترنح ويسقط على الأرض. نهض الرجل قليلاً ليرى هذا الحدث في الوادي أدناه على نحو أفضل. كان المخلوق الذي ضرب رفيقه يندفع بجنون في اتجاه التل الذي يختبئ فيه، وتفادى أحد العمال الذين يسعون إلى الإمساك به، وكان جاهان يأمل أن يفوز المخلوق بحريته، لكنه لم يعرف أن هذا المخلوق من نفس عِرقه؛ لأن المسافة كانت بعيدة. وشاهد بعد ذلك المخلوق الأصغر يتعثر ويسقط على الأرض، وعلى الفور ينقض عليه مطاردوه. تصادف أن توجهت أعين جاهان الآن نحو المخلوق الذي أسقط المخلوق الهارب رأسه.

ما هذا الرعب الذي يشهده؟ أم أن عينيه تمارسان مزحة مروعة عليه؟ لا، هذا مستحيل، على الرغم من أنه ... صحيح ... الرأس يتحرك ببطء نحو الجسم، ويضع نفسه فوق الكتفين، وينهض الجسم، ثم يركض المخلوق -الذي بدا كما كان في حالة جيدة- إلى حيث يسحب زملاؤه الأسير التعيس ليقف على قدميه.

شاهد المراقِب المخلوق يمسك بالأسير من ذراعه ويقوده إلى الحظيرة. وحين عبر المسافة التي تفصِلهم عنه، لاحظ الكآبة واليأس المطلق في سلوك السجين، وكان شبه مقتنع أنها امرأة، وربما مريخية حمراء من عِرقه. إذا تأكد من صحة ذلك، عليه أن يبذل الجهد لإنقاذها على الرغم من أن عادات وتقاليد عالَمه الغريب تشترط أن تكون في بلده، لكنه لم يكن متأكدًا، ربما لا تكون مريخية حمراء على الإطلاق، أو إذا كانت، فربما تنتمي إلى شعب عدو. كان واجبه الأول هو العودة إلى شعبه بأقل مخاطر شخصية قدر الإمكان. وعلى الرغم من أن فكرة المغامرة كانت تثير دمه، فقد أزاح الإغراء جانبًا بتنهيدة ونهض ليبتعد عن الوادي السلمي الجميل الذي كان يتوق إلى دخوله، لأنه عزم على الدوران حول حافته الشرقية ومواصلة بحثه عن جاثول.

ما إن اتجهت خطوات جاهان الجاثولي نحو المنحدرات الجنوبية للتلال التي تحيط ببانتوم من الجنوب والشرق، حتى جذبت انتباهه مجموعة صغيرة من الأشجار على يمينه بمسافة قصيرة. كانت الشمس المنخفضة تلقي ظلالاً طويلة. اقترب حلول الليل. تقع الأشجار خارج المسار الذي اختاره ولم يكن يفكر في تغييره، لكنه تردد بعد أن ألقى نظرة ثانية. رأى شيئًا إلى جانب جذوع الأشجار والشجيرات، رأى ما يوحي بخطوط مألوفة من صنع الإنسان. توقف جاهان ودقق بنظره في اتجاه الشيء الذي لفت انتباهه. لا، من المؤكد أنه مخطئ، فقد اتخذت فروع الأشجار والشجيرات المنخفضة مظهرًا غير طبيعي في الأشعة الأفقية للشمس التي تغرب. استدار وواصل طريقه. لكنه ألقى نظرة جانبية مرة أخرى في اتجاه الشيء الذي أثار اهتمامه، وعندئذ ارتدت أشعة الشمس إلى عينيه من نقطة لامعة من الأشعة بين الأشجار.

هز جاهان رأسه وأسرع نحو هذا اللغز عازمًا على حله. لا يزال الشيء اللامع يجذبه إليه، وعندما اقترب منه، اتسعت عيناه من المفاجأة؛ فالشيء الذي رآه لم يكن سوى شعار مغطى بالجواهر على مقدمة طائرة صغيرة. تحرك جاهان بهدوء إلى الأمام، ويده على سيفه القصير، لكنه لم يجد مبررًا للخوف عندما اقترب من السفينة الفضائية الصغيرة لأنها كانت مهجورة، ثم لفت الشعار انتباهه. بهت وجهه وارتجف قلبه عندما فهم دلالة الشعار، فقد كان شارة بيت أمير الحرب في برسوم. تذكر على الفور هيئة الأسيرة الحزينة وهم يسحبونها إلى سجنها في الوادي الذي يقع خلف التلال مباشرة. تارا الهيليومية! وكان على وشك أن يتركها لمصيرها. توقف العرق البارد على جبينه.

كشف فحص متعجل للطائرة المهجورة عن القصة المأساوية بأكملها أمام الجد الشاب. نفس العاصفة التي قذفت به هنا هي التي حملت تارا الهيليومية إلى هذا البلَد البعيد. لا شك أنها هبطت هنا على أمل الحصول على الطعام والماء، فلا يمكنها دون مروحة أن تأمل في الوصول إلى مدينتها أو أي مدينة صديقة أخرى، إلا بتغيير بسيط في مصيرها. تبدو الطائرة سليمة باستثناء فقدان المروحة، فضلاً عن أن ربطها بعناية في مأوى من مجموعة أشجار يشير إلى أن الفتاة توقعت العودة إليها، بينما يدل الغبار وأوراق الشجر على سطحها إلى أنها هبطت منذ أيام طويلة، أو حتى أسابيع. تشير هذه الأدلة الصامتة، وإن كانت بليغة، إلى أن تارا الهيليومية أسيرة، وأنها هي السجينة التي شاهدها مؤخرًا تندفع بجرأة نحو الحرية، ليس لديه أدنى شك الآن.

يدور السؤال الآن حول إنقاذها. يعرف البرج الذي أخذوها إليه، لكنه لا يعرف أكثر من ذلك. لا يعرف عدد أو نوع أو سلوك خاطفيها، ولم يهتم – سوف يواجه بمفرده عالمًا عدائيًّا، من أجل تارا الهيليومية. فكر بسرعة في عدة خطط لإنقاذها، لكن الخطة التي مال

إليها بشدة تكمن في توفير أكبر فرصة لهروب الفتاة إذا نجح في الوصول إليها. وما إن توصل إلى قراره، حتى ركز انتباهه بسرعة على الطائرة. قام بفك أحزمتها الجلدية وسحبها من تحت الأشجار، ثم صعد إلى سطحها لاختبار عناصر التحكم المختلفة. بدأ المحرك يعمل وأصدر صوته العذب بعد أن لمسه، وكانت خزانات الطفو في حالة جيدة، كما استجابت السفينة تمامًا لأجهزة التحكم التي تنظم ارتفاعها، اقتصر المطلوب على مروحة تجعلها صالحة لرحلة طويلة إلى هيليوم. هز

جاهان كتفيه بصبر نافد، فلن توجد مروحة على بُعد ألف هاد. ولكن، ما أهميتها؟ فالطائرة، حتى من دون مروحة، سوف تلبي غرض خطته، شريطة عدم وجود سفن لدى خاطفي تارا الهيليومية، وهو لم يشاهد أي شيء يوحي بأن لديهم سفن، وقد أكد له معمار أبراجهم وحظائرهم أنهم لا يملكون سفنًا فضائية.

هبط ليل برسوم المفاجئ. وظهر القمر كلوروس بمهابة في السماوات العالية. وترددت أصداء هدير حيوانات البانث بين التلال. تمكن جاهان الجاثولي من الارتفاع بالسفينة لعدة أقدام، ثم أمسك بحبل مقدمتها المقوسة وألقاه على جانبها. أصبح الآن سحب السفينة أكثر سهولة. وعندما تحرك جاهان بسرعة نحو حافة التل فوق بانتوم، طافت الطائرة بخفة كبجعة في بحيرة هادئة. اتخذ جاهان الجاثولي خطواته الآن أسفل التل، نحو البرج الذي يراه على ضوء القمر الخافت. وسمع خلفه هدير البانث الساعي إلى الصيد. تساءل ما إذا كان الوحش يسعى نحوه أم يقتفي أثر آخر. لا يمكنه أن يتأخر الآن بسبب أي وحش مفترس جائع؛ إذ ليس بمقدوره تخمين ما قد يصيب تارا الهيليومية في تلك اللحظات، ولذا أسرع بخطواته. لكن الصرخات المرعبة لآكلي اللحوم زادت اقترابًا، ويسمع الآن صوت هبوط سريع لأقدام مبطنة على جانب التل وراءه. ألقى نظرة سريعة إلى الوراء في الوقت المناسب، حيث رأى الوحش يستعد لهجوم سريع. قفزت يده إلى مقبض سيفه الطويل، دون أن يسحبه؛ لأنه رأى في اللحظة نفسها عدم جدوى المقاومة المسلحة؛ فخلف البانث الأول يوجد قطيع لا يقل عن عشرة آخرين، لا يوجد سوى بديل واحد لموقف عقيم؛ إذ أدرك في لحظة أنه شاهد أعدادًا هائلة من خصومه.

نهض برفق من على الأرض، وتسلق الحبل متجهًا نحو مقدمة الطائرة. سحب وزنه الطائرة إلى أسفل قليلاً، وفي لحظة وصوله إلى سطح السفينة من مقدمتها، قفز قائد البانث نحو مؤخرتها. وقف جاهان وهرع نحو الوحش الضخم أملاً في إزاحته قبل أن ينجح في التسلق إلى متن السفينة، وفي اللحظة نفسها، شاهد البانث الآخرين يسرعون نحوهما مع نية واضحة للحاق بقائدهم إلى سطح السفينة. سوف ينتهي أمره تمامًا إذا وصل أي عدد منهم. لا يوجد سوى أمل وحيد. قفز جاهان إلى موضع ذراع التحكم في

الارتفاع، وسحبه على نطاق واسع. قفز ثلاثة من حيوانات البانث في وقت واحد إلى سطح السفينة. ارتفعت السفينة بسرعة. وشعر جاهان بأثر جسم على العارضة، تلاه هدير مكتوم لارتطام الأجسام الضخمة بالأرض، لم يستغرق ما فعله لحظة. والآن، فاز قائد البانث بالوصول إلى سطح السفينة، ووقف عند المؤخرة بأعينه اللامعة وزمجرة فكيه. سحب جاهان سيفه، ربما ارتبك الوحش في هذا الوضع الجديد، فلم يهاجم، بل تسلل ببطء نحو فريسته المقصودة. كانت السفينة ترتفع، ووضع جاهان أحد قدميه على عنصر التحكم وأوقف صعودها. لم يكن يريدها أن ترتفع كثيراً إلى تيار هوائي أعلى قد يحملها معه بعيدًا. وبالفعل كانت السفينة تتحرك ببطء نحو البرج، يحملها زخم جسم البانث الثقيل الذي قفز إليها من عند مؤخرتها.

راقب الرجل اقتراب الوحش ببطء، واللعاب يسيل من فكيه الممتلئين، والتعبير الخبيث على وجهه الشيطاني، بدأ المخلوق يكتسب الثقة نتيجة لاستقرار سطح السفينة، ثم قفز الرجل فجأة إلى أحد جوانب السطح، ما أدى إلى جنوح السفينة الصغيرة. انزلق البانث وتشبث بالسطح. قفز جاهان ممتشقًا سيفه، تماسك الوحش الضخم ووقف على رجليه الخلفيتين بغية التقدم والانقضاض على هذا البشري المتغطرس الذي تجرأ على التشكك في حقه في لحم الجسد الذي يشتهيه، وعندئذ انطلق الرجل إلى الجانب الآخر من سطح السفينة. سقط البانث على جانبه في نفس اللحظة التي حاول فيها الانقضاض، اقترب مخلب من رأس جاهان في لحظة اندفاع سيفه إلى قلب الوحش. وبينما كان المحارب يسحب سيفه من جسم البانث، انزلق النصل بصمت على جانب السفينة.

ألقى جاهان لمحة أدناه، وتبين أن السفينة تنجرف في اتجاه البرج الذي شهد السجينة تؤخذ إليه. ستصل السفينة فوق البرج مباشرة خلال لحظة أو اثنين. انطلق الرجل نحو لوحة التحكم، وترك المركبة

تنخفض بسرعة نحو الأرض حيث يتبعه البانث الذين لا يزالون يطمعون في الفريسة. كان الهبوط خارج الحظيرة يعني موتًا محتومًا، بينما في داخلها تمكن من رؤية العديد من الأشكال محتشدة على الأرض كأنها نائمة. تطفو السفينة الآن على مسافة بضعة أقدام فوق جدار الحظيرة. ليس أمامه إلا أن يخاطر بكل شيء مراهنًا بجرأة على الحظ، أو يستدير عاجزاً بلا أمل في العودة عن طريق الوادي الذي تنتشر فيه حيوانات البانث، حيث يسمع الآن ومن جوانب عديدة زئير وهدير هذه الأسود البرسومية الشرسة.

انزلق جاهان على الجانب، واستعان بحبل المرساة في الهبوط إلى أن لمست قدماه الجزء العلوي من الجدار، حيث لم يجد صعوبة في إيقاف انجراف السفينة البطيء. سحب المرساة وأنزلها داخل الحظيرة. لا توجد أي حركة في الجزء الذي يضم النائمين

في أسفل، فهم يرقدون كرجال أموات. تظهر من فتحات البرج أضواء باهتة؛ ولكن دون أي إشارة على وجود حراس أو نزلاء مستيقظين. تشبث جاهان بالحبل وأنزل نفسه داخل الحظيرة، حيث رأى أول مشهد عن قرب للمخلوقات المستلقية التي كان يتصور أنها نائمة، مع تعجب شبه مخنوق من الرعب، تراجع الرجل بعيدًا عن أجسام الرايكور مقطوعة الرأس. تصور في البداية أنهم بشر مثله، قُطعت رؤوسهم، وهو شيء شديد السوء، لكنه رآهم يتحركون، وأدرك أنهم وهبوا الحياة، وعندئذ زاد رعبه واشمئزازه.

يكمن هنا إذن تفسير المشهد الذي رآه بعد ظهر ذلك اليوم، عندما ضربت تارا الهيليومية رأس آسرها وزحف الرأس مرة أخرى إلى الجسم. ارتعد الرجل عندما فكّر أن لؤلؤة هيليوم وقعت في أيدي مثل هذه المخلوقات البشعة، لكنه عجّل بإسراع السفينة، فصعد إلى سطحها ثانية، وهبط بها إلى أرض الحظيرة. خطا نحو باب في قاعدة البرج، متقدمًا بخفة فوق أشكال الرايكور الممددة فاقدة الوعي، وعبر العتبة ثم دخل.

* * *

الفصل (8)

مهمة دقيقة

كان جيك في أسعد أيامه يشغل منصب كبير العمال الثالث في حقول لوود، وجلس يخفف من غضبه وإهانته. لقد استيقظ مؤخرًا شيء داخله، شيء لم يحلم من قبل بوجوده حتى. هل لتأثير المرأة الأسيرة الغريبة أي علاقة بهذا الاضطراب وعدم الرضى؟ لا يعرف. إنه يفتقد تأثير الضوضاء المريح الذي تسميه غِناء. هل توجد أشياء أخرى مرغوبة أكثر من المنطق البارد وطاقة العقل النقية؟ هل يجدر إذن السعي إلى عدم الكمال المتوازن أكثر من السعي نحو التطور العالي لسمة واحدة؟ كان يفكر في العقل العظيم الأقصى، الذي يسعى نحوه جميع الكلدينيين. سوف يتصف هذا العقل بالصمم، والبكم، والعمى. قد يُغني ويرقص حوله ألف شخص جميل من الغرباء، لكنه لن يستمد أي متعة من الغناء أو الرقص لأنه لن يمتلك ملكات الإدراك. لقد منع الكلدينيون أنفسهم من أغلب مسرات الحواس. تساءل جيك عما إذا كان بإمكانهم اكتساب الكثير بزيادة منع أنفسهم، ومع هذا التفكير تبادر إليه كامل نسيج نظريتهم. على أي حال، ربما كانت الفتاة على حق، ما الغرض الذي يمكن أن يخدمه عقل عظيم محبوس في أعماق الأرض؟

سوف يموت جيك من أجل هذه النظرية؛ فقد أصدر لوود مرسومًا بموت جيك. غمره الظلم بالغضب، لكنه عاجز. ما من مهرب؛ فحيوانات البانث تنتظره خارج الحظيرة، وبالمثل يتسم أبناء جنسه بالشراسة وعدم الرحمة. لا يوجد بينهم شيء مثل الحب، أو الولاء، أو الصداقة؛ فهم عقول فقط. ربما يتمكن من قتل لوود، ولكن كيف يفيده هذا؟ سوف يُطلقون ملكًا آخر من غرفته محكمة الإغلاق، ويقتلون جيك. لم يكن يعرف، لكنه لا يمتلك حتى الشعور بالارتياح نتيجة الانتقام؛ فلم يكن بمقدوره الإحساس بهذا الشعور الغامض.

صعد جيك فوق الرايكور، وسار على أرضية غرفة البرج، حيث أمروه أن يبقى. كان ليقبَل في العادة بحُكم لوود برباطة جأش مثالية، نظرًا لأن الحُكم ليس سوى نتيجة منطقية لسبب، لكن الأمر يبدو الآن مختلفًا. لقد سحرته المرأة الغريبة. تبدو الحياة شيئًا لطيفًا، وبها إمكانيات كبيرة. تراجع حلم العقل الأعلى إلى ضباب هش في خلفية أفكاره.

وفي تلك اللحظة، ظهر في مدخل الغرفة محارب أحمر ممتشقًا سيفه، كان نظيرًا ذكرًا للسجينة التي أدى صوتها العذب إلى تقويض العقل الحسابي البارد لدى الكلديني.

«صمتًا!»، حذره الوافد الجديد وقد تجمعت حواجبه المستقيمة في تجهم ينذر بالسوء، وسن سيفه الطويل يتحرك مُهدِّدًا أمام أعين الكلديني. «أريد المرأة، تارا الهيليومية، أَين هي؟ إذا كنت ترى لحياتك قيمة، تكلم بسرعة وقل الحقيقة».

إذا كان يرى لحياته قيمة! نعم، هذه هي الحقيقة التي أدركها جيك منذ لحظات. فكّر بسرعة؛ فالعقل العظيم ليس دون استخدام، وربما يكمن هنا الهروب من حُكم لوود.

سأل: «أنت من نفس نوعها؟ هل أتيت لإنقاذها؟».

«نعم».

«اسمع إذن. لقد أقمت صداقة معها، ولهذا سوف أموت. إذا ساعدتك على تحريرها، هل تأخذني معك؟».

نظر جاهان الجاثولي نحو المخلوق الغريب من رأسه إلى قدمه: جسم مثالي، ورأس بشع، ووجه بلا تعبير، لقد ظلت ابنه هيليوم الجميلة أسيرة بين مثل هؤلاء لأيام وأسابيع.

قال جاهان: «إذا كانت على قيد الحياة ولم يلحق بها أذى، سوف آخذك معنا».

أجاب جيك: «عندما أخذوها مني كانت على قيد الحياة ولم يلحق بها أذى. لكني لا أعرف ماذا حدث لها منذ ذلك الحين، فقد أرسل لوود

في طلبها».

قال جاهان بسرعة، وبنبرة آمرة: «من هو لوود؟ وأين هو؟ خُذني إليه».

أجابه جيك: «هيا إذن»، وقاد الطريق من الغرفة، ثم أسفل السلم نحو جحور الكلدينيين تحت الأرضية. «لوود هو الملك. وسوف آخذك إلى غُرفه».

حثه جاهان قائلاً: «أسرع!».

قال جيك مُحذرًا: «ضع سيفك في غمده، فإذا مررنا بآخرين من نوعي يمكنني أن أقول لهم إنك سجين جديد، فمن المحتمل الفوز باقتناعهم».

فعل جاهان ما طلبه الكلديني، مع تحذيره أن يده جاهزة على مقبض خنجره.

قال جيك: «لست بحاجة إلى الخوف من الغدر؛ فأملي الوحيد في الحياة يكمن في يدك».

حذره جاهان: «وإذا خذلتني، أعدك بموت مؤكد لا يضمنه لك حتى ملكك».

لم يرد جيك، لكنه تحرك بسرعة خلال الممرات المتعرجة تحت الأرض حتى بدأ جاهان يدرك كيف أصبح حقًّا في يد هذا الوحش الغريب. إذا ثبت أن الزميل كاذب، لن يستفيد جاهان شيئًا من قتله؛ إذ دون توجيهه، لن يأمل الرجل الأحمر أبدًا في معرفة طريق عودته إلى البرج والفوز بالحرية.

التقيا مرتين بكلدينيين آخرين حاولوا التحدث معهما، وفي الحالتين كانت إجابة جيك البسيطة أنه يأخذ سجينًا جديدًا إلى لوود، وهي الإجابة التي بددت كل الشكوك. وصلا أخيراً إلى غرفة الانتظار الخاصة بالملك.

همس جيك: «هنا، الآن، أيها الرجل الأحمر، سوف تقاتل. ادخل هناك!»، وأشار إلى المدخل أمامهما.

«وأنت؟» سأل جاهان، وهو لا يزال يخشى من الغدر.

أجاب الكلديني: «رايكوري قوي، وسوف أرافقك وأقاتل إلى جانبك، أو أموت لاحقًا تحت التعذيب وفقًا لأوامر لوود. هيا!».

عبر جاهان الغرفة بالفعل ودخل إلى القاعة. توجد فتحة دائرية على الجانب الآخر من الغرفة، يحرسها اثنان من المحاربين. تمكن أن يرى، من خلال هذه الفتحة، شخصين يتعاركان على الأرض، وبلمحة سريعة منحه فجأة أحد الوجهين قوة عشرة محاربين وضراوة بانث جريح. إنه وجه تارا الهيليومية، تقاتل من أجل شرفها أو حياتها.

اندهش المحاربان من مظهر الرجل الأحمر غير المتوقَع، ووقفا للحظة في ذهول أبكم. وفي تلك اللحظة، انقض جاهان الجاثولي عليهما. سقط أحدهما بطعنة سيف اخترقت قلبه.

همس صوت جيك في أُذن جاهان: «اضرب على الرأس». شاهد جاهان رأس المحارب الذي سقط تزحف بسرعة داخل الفتحة المؤدية إلى القاعة، حيث رأى تارا الهيليومية في براثن جسم مقطوع الرأس. عندئذ ضرب سيف جيك المحارب المتبقي وفصله عن رايكوره، وأغمد جاهان سيفه في الرأس المثير للاشمئزاز.

وعلى الفور قفز المحارب الأحمر ومر عبر الفتحة، وخلفه جيك بالقرب منه.

قال له جيك محذرًا: «لا تنظر إلى أعين لوود، وإلا ستضيع».

رأى جاهان تارا الهيليومية داخل القاعة في براثن جسم قوي، بينما يجثم بالقرب من الجدار، على الجانب الآخر من الشقة، لوود البشع، شبيه العنكبوت. أدرك الملك على الفور الخطر الذي يتهدده، وسعى إلى تركيز عينيه على أعين جاهان. وبالتالي كان مضطرًا إلى تخفيف تركيزه على الرايكور الذي تقاتله تارا. وعلى الفور تقريبًا، وجدت الفتاة نفسها قادرة على الابتعاد عن ذلك المخلوق الفظيع مقطوع الرأس.

نهضت تارا بسرعة على قدميها، ورأت للمرة الأولى سبب توقف خطط لوود. محارب أحمر! قفز قلبها في ابتهاج وشُكر. ما المعجزة التي أرسلها لها مصيرها؟ لم تتعرف عليه، هذا المحارب الذي يرتدي ملابس السفر وعتاد عادي لا يضم جوهرة واحدة. كيف كان يمكن أن تخمن أنه نفس المخلوق المتألق بالبلاتين والألماس، الذي شاهدته لمدة ساعة قصيرة في ظروف مختلفة تمامًا في بلاط والدها الجليل؟

رأى لوود أن جيك يتبع المحارب الغريب في القاعة. أمره الملك: «أسقطه يا جيك! أسقط الغريب، وتصبح حياتك ملكك».

نظر جاهان محملقًا في وجه الملك القبيح.

حذرته تارا صارخة: «لا تنظر إلى عينيه». لكن تحذيرها جاء متأخرًا؛ فقد استولت النظرة المنومة المروعة للملك الكلديني على أعين جاهان. ترددت خطوات المحارب الأحمر، وبدأ سيفه يتدلى ببطء نحو الأرض. نظرت تارا في اتجاه جيك، وشاهدت المخلوق يتوجه بعينيه الخاليتين من التعبير نحو ظهر الرجل الغريب. ورأت يد رايكور المخلوق تزحف خلسة نحو مقبض خنجره.

وعندئذ رفعت تارا عينيها عاليًا، وترنمت بنغمات أجمل لحن مريخي: أغنية الحب.

سحب جيك خنجره من غمده. تحولت عينيه نحو الفتاة التي تُغني. تذبذبت نظرة لوود بين أعين الرجل ووجه تارا. وفي اللحظة التي صرفت فيها أغنية تارا انتباهه عن ضحيته، هز جاهان نفسه وبذل أقصى جهد لإجبار عينيه إلى التحول نحو الجدار فوق رأس لوود البشع. رفع جيك خنجره فوق كتفه الأيمن، واتخذ خطوة واحدة سريعة إلى الأمام، وضرب. انتهت أغنية الفتاة بصرخة مختنقة، حيث قفزت إلى الأمام بنية واضحة لإحباط غرض الكلديني. لكن توقيتها كان متأخرًا، لحسن الحظ؛ فقد أدركت في اللحظة التالية غرض جيك عندما رأت الخنجر يطير من يده، ويتجاوز كتف جاهان، ثم يغوص كاملاً في الحارس الذي يقف أمام وجه لوود.

صاح القاتل: «هيا! ليس لدينا وقت نضيعه»، ثم توجه نحو الفتحة التي دخلوا من خلالها إلى القاعة، لكن خطواته توقفت عندما استقر بصره على شكل الرايكور القوي الذي يرقد منبطحًا فوق الأرض - رايكور الملك؛ أجمل وأقوى رايكور يمكن إنتاجه في بانتوم. أدرك جيك أنه لن يتمكن أن يأخذ معه خلال فراره إلا رايكورًا واحدًا، ولا يوجد في بانتوم أي شيء يمكن أن يخدمه أفضل من هذا العملاق الراقد هنا. نقل نفسه بسرعة إلى أكتاف هذا الهيكل الضخم الخامل. وعلى الفور، تحول الرايكور إلى مخلوق حساس، ينبض بالحياة والطاقة المتأهبة.

وقال: «الآن، نحن على أهبة الاستعداد. فليعيقني من سيعود إلى العدم». انحنى وهو يتحدث، وزحف إلى القاعة التالية، بينما أمسك جاهان بذراع تارا وأشار لها أن تتبعه. نظرت إليه الفتاة كاملاً للمرة الأولى، وقالت: «هذا كرم من آلهة شعبي؛ لقد وصلت في الوقت المناسب. سوف تحظى، إلى جانب شُكر تارا الهيليومية، بشُكر أمير الحرب في برسوم وشعبه. وسوف تتجاوز مكافأتك أعظم رغباتك».

أدرك جاهان الجاثولي أنها لم تتعرف عليه، وكبح بسرعة التحية الحارة التي كانت على شفتيه.

وأجاب: «لا يهم سواء أنت تارا الهيليومية أو غيرها، فخدمة امرأة حمراء من برسوم هو في حد ذاته مكافأة كافية».

خلال حديثهما، كانت الفتاة تشق كطريقها عبر الفتحة وراء جيك، والآن غادر الثلاثة غُرف لوود وأسرعوا في تحركهم على طول الممرات المتعرجة نحو البرج. حثهم جيك مرارًا وتكرارًا على التحرك بسرعة أكبر. لم يكن البرسوميان حريصان على التراجع، لكن حركتهما كانت بطيئة بالنسبة إلى الكلديني.

قال جاهان: «لا يوجد ما يعرقل تقدمنا، فلماذا نرهق قوة الأميرة بتسرع لا داع له؟».

«أعتقد أننا لن نواجه الكثير من المعارضة أمامنا؛ فلا أحد يعرف ما حدث في قاعات لوود هذه الليلة. لكن أحد الكلدينيين من المحاربين

اللذين وقفا يحرسان غرفة لوود قد هرب، وبالتأكيد لن يضيع وقته وسوف يبحث عن مساعدة. ويرجع عدم مجيئه قبل مغادرتنا إلى سرعة وقوع الأحداث في غرفة

الملك[113] . وسوف نجدهم خلفنا قبل أن نصل إلى البرج بفترة طويلة، وسوف يأتون بأعداد أكبر كثيراً من عددنا، وفي رايكورات أعرف جيدًا أنها ضخمة وقوية».

لم يمر وقت طويل قبل أن تتحقق نبوءة جيك. أصبحت الآن أصوات صلصلة عتاد مطارديهم مسموعة عن بُعد، فضلاً عن صفير استدعاء الكلدينيين لحمل السلاح.

صاح جيك: «أصبح البرج الآن على مسافة قصيرة، فلنسرع ما دمنا قادرين، وإذا استطعنا تحصينه بمتاريس حتى شروق الشمس، يمكننا أن نهرب».

أجاب جاهان: «لن نحتاج إلى حواجز لأننا لن نمكث طويلاً في البرج»، وكان يتحرك بسرعة أكبر، بعد أن أدرك من حجم الصوت خلفهم ضخامة عدد مطارديهم.

قال جيك بإصرار: «لكننا قد لا نتمكن من الذهاب أبعد من البرج الليلة؛ إذ ينتظرنا البانث والموت المحقق خارج البرج».

ابتسم جاهان، وقال بثقة: «لا تخف من البانث. إذا استطعنا الوصول إلى الحظيرة قبل مطاردينا، لن تخيفنا أي قوى شريرة داخل هذا الوادي اللعين».

لم يرد جيك، ولم يدل وجهه الخالي من التعبير على موافقته أو تشككه. نظرت الفتاة إلى وجه الرجل باستغراب. لم تكن تفهم.

قال جاهان: «تنتظرنا طائرتك أمام البرج».

أضاء وجهها بسرور وارتياح وصاحت: «أنت وجدتها! يا لحسن الحظ!».

أجاب: «كان حسن الحظ بالفعل. فهي لم تدلني فحسب على أنك سجينة هنا، بل أنقذتني أيضًا من البانث خلال عبوري الوادي من التلال إلى هذا البرج الذي رأيتهم يأخذونك إليه بعد ظهر هذا اليوم بعد محاولتك الشجاعة للهروب».

سألته: «كيف عرفت أنه أنا؟». بدت الحيرة على وجهه، كأنما أثار سؤالها تذكيره ببعض المشاهد السابقة بينهما.

وأجاب: «من ذا الذي لا يعرف فقدان تارا، أميرة هيليوم؟ وعرفت على الفور بمجرد رؤيتي الشعار على طائرتك، على الرغم من أنني لم أتعرف عليك عندما رأيتك معهم في

---

(113) لقد استخدمت كلمة الملك في وصف حكام أو رؤساء أسراب بانتوم، نظرًا لتعذر نطق الكلمة نفسها في اللغة الإنجليزية. كما أن كلمة جِد أو جيداك في لغة المريخيين الحُمر ليس لهما نفس معنى الكلمة البانتومية، التي لديها عمليًا نفس دلالة كلمة الملكة بالإنجليزية عند تطبيقها على قائد سرب من النحل - جون كارتر.

الحقول قبل ذلك بوقت قصير. كنت على مسافة بعيدة لا تتيح معرفة ما إذا كان الأسير رجلاً أم امرأة. لو لم أكتشف مصادفة مكان إخفاء طائرتك، تارا الهيليومية، لكنت غادرت. إنني أرتجف عندما أفكر في هذه المصادفة؛ إذ لولا لحظة إشراق الشمس فوق الشعار المزخرف على مقدمة طائرتك، لكنت غادرت دون أن أعرف».

ارتجفت الفتاة، وهمست في إجلال: «أرسلتك الآلهة».

فأجاب: «أرسلتني الآلهة، تارا الهيليومية».

أضافت: «لكنني لم أتعرف عليك. حاولت أن أذكرك، لكني فشلت. ما اسمك؟».

أجاب مبتسمًا: «ليس غريبًا ألا تتذكر أميرة عظيمة مثلك وجه كل بانتان متجول في برسوم».

قالت الفتاة بإصرار: «لكن، ما اسمك؟».

«ناديني توران»، هكذا أجاب؛ فقد تصور أن تارا إذا عرفت أنه الرجل الذي تسببت مجاهرته المتهورة بالحب في إغضابها ذلك اليوم في حدائق أمير الحرب، قد تصبح حالتها أقل احتمالاً بما لا يقاس عنها إذا اعتقدت أنه شخص غريب تمامًا. علاوة على ذلك، يمكن أن يفوز البانتان البسيط بقدر أكبر من ثقتها عن طريق ولائه وإخلاصه، وينال تقديرها الذي يبدو أن جِد جاثول المتألق لم يحظ به.

وصلوا إلى البرج الآن، ودخلوه من ممر تحت الأرض. كشفت لمحة سريعة إلى الخلف عن المركَبة التي يستخدمها مطاردوهم: امتطى الكلدينيون البشعون رايكورات سريعة وقوية. وبأسرع ما يمكن صعد الثلاثة السلالم المؤدية إلى الطابق الأرضي، وفي أعقابهم توابع لوود يركضون بسرعة أكبر. قاد جيك الطريق وهو ممسك بيد تارا لتيسير توجيهها ومساعدتها، بينما سار جاهان خلفهما بعدة خطوات ممتشقًا سيفه ومستعدًّا للهجوم الذي أدرك الجميع أنه قد يحدث قبل أن يصلوا إلى الحظيرة والطائرة.

قالت تارا: «دع جيك يرجع إلى الخلف ويقاتل معك».

أجابها جاهان: «لا تتسع مساحة هذه الممرات الضيقة سوى لنصل واحد، أسرعي مع جيك للوصول إلى سطح الطائرة، ثم ضعي يدك على لوحة التحكم. إذا تمكنت من الاقتراب بقدر كاف إلى حبل متدل، يمكنك أن ترتفعي بالطائرة عندما أخبرك، وسوف أتسلق الحبل ببطء، ولكن إذا دخل أحدهم أولاً في الحظيرة، عليك أن تعلمي أنني لن

آتي أبدًا، وعندئذ ترتفعين بسرعة وثقة إلى آلهة أسلافنا ليمنحوكِ نسيمًا عليلاً يحملك في اتجاه شعب مضياف أكثر».

هزت تارا رأسها، وقالت: «لن نتخلى عنك أيها البانتان».

تجاهل جاهان ردها، وتوجه بحديثه إلى جيك: «خذها إلى السفينة الراسية في الحظيرة، فهي أملنا الوحيد. يمكنني أن أصل إلى سطح السفينة بمفردي؛ ولكن إذا انتظرتكما حتى اللحظة الأخيرة، فمن المحتمل ألا ينجح أحدنا في الهرب. افعل ما قلته لك». كانت لهجته متعجرفة ومتغطرسة، لهجة رجل قاد رجالاً آخرين من فترة مبكرة في حياته، وإرادته هي القانون. شعرت تارا بالغضب والغيظ، فلم تكن معتادة أن يقودها أحد أو يتجاهلها. لكنها، بكل فخرها الملكي، لم تكن حمقاء، وكانت تعرف أن الرجل على حق، وأنه يجازف بحياته لإنقاذ حياتها، ولذا أسرعت مع جيك تبعًا لأوامره. ابتسمت تارا بعد فورة الغضب الأولى؛ إذ أدركت أن هذا الزميل ليس سوى محارب فظ غير مثقف، وليس ماهرًا في الأعراف الرفيعة المستخدمة في البلاط الملكي. كان قلبه على حق، قلب شجاع ووفي، وغفرت له بسرور جريمة لهجته وأسلوبه. ولكن، يا لها من لهجة! توقفت فجأة عندما تذكرتها. البانتان قُساة، ودائمًا على أهبة الاستعداد، ويصلون غالبًا إلى مناصب القيادة العليا. لم تكن لهجته السلطوية إذن هي ما أثارت انتباهها، وإنما شيء آخر، نوعية يصعب تحديدها وإن كانت مميزة ومألوفة. لقد سمعتها من قبل، عندما يرتفع صوت جدها الأكبر تاردوس مورس، جيداك هيليوم، وهو يصدر أوامره؛ وسمعتها أيضًا في صوت جدها، مورس كاجاك، جِد هيليوم؛ وفي رنين نبرة والدها الشهير جون كارتر، أمير الحرب في برسوم، عندما يخاطِب محاربيه.

لكنها الآن ليس لديها أي وقت لتخمين شيء تافه كهذا؛ فخلفها اندلع صدام الأسلحة، وتعرف أن البانتان توران يبارز أول مطارديهم. وعندما نظرت خلفها، رأت البانتان وراء منعطف في السلم، وبالتالي تمكنت من مشاهدة المبارزة السريعة التي تلت، وتعرف جيدًا، ابنة أعظم مبارز في العالم، أرقى ممارسات هذا الفن. شاهدت الهجوم الأخرق الذي شنه الكلديني، والرد السريع الواثق من جانب البانتان. وعندما نظرت من أعلى إلى جسمه العاري تقريبًا، الذي لا يغطيه سوى عتاد بسيط خال من الزخارف، ورأت حركة عضلاته الرشيقة تحت البشرة البرونزية الحمراء، وسرعة ودقة سيفه، أضاف ذلك إلى شعورها بالالتزام اعترافًا عفويًّا بالإعجاب الذي لم يكن سوى إشادة طبيعية من امرأة بالمهارة والشجاعة، وربما بعض الإعجاب الضئيل بتناسقه الرجولي وقوته.

تغير موضع نصل البانتان ثلاث مرات: مرة لصد إصابة وحشية، ومرة للخداع؛ ومرة للطعن. وعندما سحب سيفه من آخر موضع، تدحرج الكلديني فاقد الحياة من رايكوره

المترنح، وانطلق توران بسرعة أسفل السلم ليواجه الكلديني التالي. وهنا جذب جيك تارا إلى أعلى، وأبعد

انعطافهما على السلم مشهد البانتان المقاتل عن عينيها، لكنها ظلت تسمع صوت احتكاك السيوف، وقعقعة أدوات الكلدينيين وصفيرهم الحاد. دفعها قلبها للعودة إلى جانب مدافعها الشجاع، لكن حكمتها أرشدتها إلى أهمية وجودها على أهبة الاستعداد عند لوحة التحكم في الطائرة في لحظة وصوله إلى الحظيرة.

* * *

الفصل (9)

التحليق فوق مناطق غريبة

دفع جيك الآن بابًا على السلم، ورأت تارا أمامهم ضوء القمر يغمر الفناء المسوّر الذي يضم الرايكورات مقطوعة الرأس راقدة بجوار أحواض التغذية. شاهدت أجسامًا مثالية ذات عضلات قوية، كأفضل المحاربين عند والدها، وشاهدت أجسام الإناث التي قد تكون موضع حسد كثيرات من أجمل نساء هيليوم. آآه، لو تمكنت من أن تهبهم القدرة على التصرف! عندئذ يمكن ضمان سلامة البانتان، لكنهم ليسوا سوى كتل من الطين، وليس لديها القدرة على منحهم الحياة. سوف يستمر رقادهم إلى أن تسيطر عليهم عقول الكلدينيين القساة الباردة. تنهدت الفتاة بشفقة، وهي ترتجف في اشمئزاز خلال مرورها في اتجاه الطائرة بين المخلوقات الممددة.

صعدت الفتاة وجيك إلى سطح السفينة، بعد أن فك جيك المرساة. اختبرت تارا لوحة التحكم، رفعت السفينة وخفضتها لعدة أقدام داخل المساحة المسورة. استجابت السفينة تمامًا، ثم هبطت بها إلى الأرض ثانية وانتظرت. جاءت أصوات القتال من المدخل المفتوح، وتقترب منهم الآن، لكنها تنحسر حاليًا. لم يكن خوف الفتاة كبيراً من نتيجة المعركة، فقد شهدت مهارة البطل. لا يمكن أن يواجهه سوى خصم واحد في نفس الوقت على هذا السلم الضيق. إنه يتمتع بميزة الموقع والدفاع، كما أنه مبارز قوي، بينما هم -بالمقارنة- أغبياء أفظاظ. تكمن ميزتهم الوحيدة في أعدادهم، إلا إذا وجدوا طريقة للهجوم عليه من الخلف.

شحب وجهها من هذه الفكرة. ربما زاد قلقها إذا كانت تشاهده، إذ لم يقتنص أي فرصة من الفرص العديدة المواتية للاقتراب من الحظيرة. كان يحارب بهدوء، ولكن بإصرار شرس يشبه قليلاً الأعمال الدفاعية البحتة. وكثيراً ما كان يصعد فوق جسم خصم سقط ليقفز على الخصم التالي، ويقضي على خمسة كلدينيين وراءه، وهكذا كان يدفع خصومه إلى الخلف. لا يعرف الكلدينيون الذين يقاتلهم، ولا تعرف الفتاة التي تنتظره على الطائرة، أن جاهان الجاثولي كان يمارس رياضة جذابة أكثر من الفوز بالحرية؛ إذ كان ينتقم من الإهانات التي وجهوها إلى المرأة التي يحبها. لكنه أدرك الآن أنه قد يهدد سلامتها بلا جدوى، ولذا صعد السلم مُسرعًا بعد آخر طعنة، بينما انزلق القائد الكلديني على الأرضية المغطاة بالعقول وتعثر في المطاردة.

سبقهم جاهان إلى الحظيرة بعشرين خطوة، وأسرع نحو الطائرة. صاح مخاطبًا الفتاة: «ارتفعي بالطائرة! سوف أتسلق الحبل».

ارتفعت السفينة الفضائية الصغيرة ببطء عن الأرض، وقفز جاهان فوق أجسام الرايكورات الخاملة الراقدة على طول مساره. قفز أول مطارديه من البرج بمجرد أن أمسك جاهان الحبل.

صاح جاهان مخاطبًا الفتاة: «أسْرَع! أو سوف يسحبوننا إلى أسفل!»، لكن السفينة بدأت تتحرك بصعوبة، وإن كانت في واقع الأمر ترتفع بالسرعة المتوقعة من طائرة تسع شخصًا واحدًا لكنها تحمل ثلاثة أشخاص. تأرجح جاهان فوق الجزء العلوي من الجدار، لكن نهاية الحبل لا تزال على الأرض حيث وصل إليها الكلدينيون. كانوا يتدفقون بشكل مستمر من البرج إلى الحظيرة. أمسك قائدهم بالحبل.

صاح: «أسرعوا! احكموا قبضتكم، وسوف نسحبهم إلى أسفل».

كانوا في حاجة لأوزان قليلة لإنجاز هذه المهمة. توقفت رحلة السفينة، ارتعبت الفتاة لشعورها بسحب السفينة إلى أسفل. أدرك جاهان الخطر أيضًا، وضرورة القيام بعمل فوري. تشبث بالحبل بيده اليسرى، وقد جُرِحت ساقه الملفوفة حوله، تاركًا يده اليمنى حرة للإمساك بسيفه الطويل الذي لم يغمِده. قطعت طعنة إلى أسفل رأس الكلديني الأحمق، وقطعت ضربة أخرى الحبل المشدود تحت أقدام البانتان. سمعت الفتاة تجددًا مفاجئًا لصفير خصومها الحاد، وأدركت في الوقت نفسه أن السفينة ترتفع ثانية. جنحت السفينة ببطء إلى أعلى، بعيدًا عن متناول العدو، وبعد لحظة رأت توران يتسلق من على الجانب. وللمرة الأولى منذ أسابيع عديدة، غمرت فرحة الشكر قلبها، لكن تفكيرها الأول كان حول شيء آخر.

سألته: «ألست مُصابًا بأي جراح؟».

أجاب: «كلا، تارا الهيليومية. إنهم لا يستحقون أي جهد من نصلي، ولم تشكل سيوفهم أبدًا مصدر تهديد لي».

قال جيك: «كان يجب أن يقتلوك بسهولة؛ فقوة عقولنا عظيمة ومتطورة، بحيث كان ينبغي أن يعرفوا منطقيًّا، قبل أن تسدد ضربتك، الموضع الذي سوف توجه ضربتك نحوه، ويتمكنون من صد جميع ضرباتك والوصول بسهولة إلى قلبك».

قام جاهان بتذكيره قائلاً: «لكنهم لم يتمكنوا، جيك، لأن نظريتهم في التطور خاطئة، فهي لا تميل نحو كلٍّ متوازن تمامًا. لقد قمتم بتطوير العقل وأهملتم الجسم، ولا

يمكن أبدًا أن تفعل بأيدي غيرك ما تفعله بيديك. لقد تدربت يداي على استعمال السيف؛ وبالتالي تستجيب كل عضلة على الفور وبدقة، وتقريبًا بشكل ميكانيكي، عند الاحتياج الفوري. وبالكاد ما يمكنني الوعي بموضوعية أنني أفكر عندما أقاتل؛ ذلك أن سيفي ينتهز بسرعة كل إمكانية للطعن، أو يهبّ للدفاع عني إذا تعرضت لتهديد، كأنما للنصل البارد أعين وعقول. أما أنت، بعقلك الكلديني وجسمك الرايكوري، لا يمكنك أن تأمل أبدًا في تحقيق تلك الأشياء بنفس درجة الكمال التي يمكنني تحقيقها. لا ينبغي اعتبار تطور العقل بمثابة المجموع الكلي للمسعى البشري. إن أغنى وأسعد الشعوب ستكون هي الأقرب إلى الكمال المتوازن بين الجسم والعقل على حد سواء، بل سيكونون دائمًا أقل من الكمال، ففي الكمال المطلق والعام تكمن الرتابة الخانقة والموت. يجب أن تضم الطبيعة المتناقضات، يجب أن تضم الظلال والضوء، الحزن والسعادة؛ الخاطئ والصحيح، الخطيئة والفضيلة».

أجاب جيك: «ما تعلمته دائمًا يختلف تمامًا. ولكني بعد أن عرفت هذه المرأة وعرفتك، وأنتما من عِرق آخر، أصبحت أعتقد أنه ربما توجد معايير أخرى عالية ومرغوبة تمامًا كتلك التي يؤمن بها الكلدينيون، فقد رأيت لمحة على الأقل من الشيء الذي تسمونه السعادة، وأدرك أنه ربما يكون جيدًا على الرغم من عدم قدرتي على التعبير عنه. لا أستطيع أن أضحك أو أبتسم، ومع ذلك يوجد داخلي شعور بالرضى عندما تغني هذه المرأة، شعور يفتح أمامي آفاقًا عجيبة من الجمال والمتعة غير المتوقعة التي تتجاوز الفرح البارد لدى العقل الذي يعمل بشكل مثالي. كنت أتمنى أن أولد من عِرقكم».

حمل تيار هوائي لطيف السفينة ببطء نحو الشمال الشرقي، عبر وادي بانتوم، حيث تقع أسفلهم حقول مزروعة. مروا عبر أبراج غريبة، واحدًا تلو الآخر، أبراج تخص مواك ونولاش وملوكًا آخرين من الأسراب التي تقطن هذه الأرض الغريبة الرهيبة. وفي داخل كل حظيرة تحيط بالأبراج، تزحف الرايكورات؛ تلك الأشياء البغيضة، مقطوعة الرأس، جميلة وإن كانت بشعة.

قال جاهان، مشيراً إلى رايكورات الحظيرة التي يحلقون فوقها في ذلك الوقت: «إنهم عبرة، لتلك الأقلية الصغيرة -لحسن الحظ- من عِرقنا، الذين يعبدون اللحم ويجعل من الشهية إلهًا. تعرفينهم، تارا الهيليومية؛ يمكنهم أن يقولوا لك ما أكلوه بالضبط في وجبة منتصف النهار قبل أسبوعين، وكيف ينبغي إعداد لحم الثوات، وما المشروب الذي يجب تقديمه عند تناول وِرك الزيتيدار».

ضحكت تارا الهيليومية، وأضافت: «ولكن ليس بإمكان أحدهم أن يخبرك اسم الرجل الذي فازت لوحته بجائزة الجيداك في معبد الجمال هذا العام. إنهم مثل الريكورات، لم يكن تطورهم متوازنًا».

«محظوظون بالفعل أولئك الذين يجمعون بين القليل من الحسنات والقليل من السيئات، والقليل من معرفة العديد من الأشياء خارج مهنتهم، والقدرة على الحب والقدرة على الكراهية؛ فمثل هؤلاء يمكنهم التحلي بالتسامح مع الجميع، دون تحيز مغرور لمن يميل رأسه ثقيلاً على جانب لأن عقله يتجه نحو هذه النقطة».

ما إن توقف جاهان عن الكلام، حتى أصدر جيك بعض الضوضاء من حلقه كما يفعل من يريد جذب الانتباه. «أنت تتحدث كشخص يفكر كثيراً حول العديد من المواضيع. هل تجدون إذن، أنتم أبناء العِرق الأحمر، متعة في التفكير؟ هل تعرفون متعة التأمل؟ وهل يشكل العقل والمنطق أي جزء من حياتكم؟».

أجاب جاهان: «بالتأكيد، ولكن ليس إلى حد أن يشغل ذلك كل وقتنا، على الأقل ليس موضوعيًّا. أنت، جيك، مثال على الغرور الذي تحدثت عنه. تكرس أنت وجنسك حياتكم في عبادة العقل، ولذا تعتقدون أن الكائنات المخلوقة الأخرى غيركم لا تفكر. وربما نحن لا نفعل مثلكم، فأنتم لا تفكرون سوى في أنفسكم وعقولكم العظيمة. ونحن نفكر في الكثير من الأمور التي تتعلق برفاهية العالم. لولا رجال برسوم الحُمر، لكان الكلدينيون قد هلكوا من على الكوكب؛ إذ بينما يمكنكم العيش من دون الهواء، فإن الأشياء التي يعتمد وجودكم عليها لا تستطيع العيش من دون هواء. ولم يكن ليوجد الهواء بكميات كافية على برسوم، طوال تلك العصور العديدة، إذا لم يقم الرجل الأحمر بالتخطيط وبناء المصنع العظيم لإنتاج الجو، والذي منح حياة جديدة لعالم يحتضر.

«ماذا فعلت جميع عقول الكلدينيين الذين عاشوا حتى الآن، لنقارنها بتلك الفكرة التي قدمها رجل واحد أحمر؟».

انتابت الحيرة جيك. يعرف بوصفه كلدينيًّا أن العقول تؤثر على مجموع الإنجازات العالمية، ولكن لم يخطر بباله أبدًا ضرورة استخدامها بطرق عملية ومفيدة. أدار بصره ونظر إلى أسفل، إلى وادي أسلافه الذي يحلق فوقه ببطء، نحو عالم لا يعرفه، تُرى ما هو؟ كان يعرف أنه يجب أن يكون إلهًا حقيقيًّا بين المرؤوسين، لكن ارتيابًا ما هاجمه. فمن الواضح أن هذين الشخصين من ذلك العالم على استعداد للتشكك في تفوقه، بل كان غروره الكبير يثير شكًّا في رعايتهما له، وربما حتى شفقتهما عليه. ثم بدأ يتساءل، ماذا سيصبح. لن يمتلك العديد من الرايكورات التي تلبي أوامره. ليس لديه سوى هذا

الرايكور، وعندما يموت لن يجد أي رايكور آخر. وعندما يتعب الرايكور، وإلى أن يستريح، يظل جيك عاجزاً تقريبًا. تمنى لو أنه لم يتعرف أبدًا على هذه المرأة الحمراء، فهي لم تجلب له سوى السخط والخزي، والآن المنفى. بدأت تارا الآن تدندن بلحن، كان جيك راضيًّا.

حلقت سفينتهم الفضائية برفق تحت الأقمار المسرعة، أعلى ظلال مجنونة لليلة مريخية. خفتت أصوات زئير حيوانات البانث عندما كانت سفينتهم تبتعد عن حدود بانتوم، تاركين خلفهم أهوال تلك الأرض التعيسة. ولكن، إلى أين يجرفهم الهواء؟ نظرت الفتاة إلى الرجل الذي يجلس متربعًا على سطح السفينة الصغيرة، يحدق في الليل أمامه، ويبدو مستغرقًا تمامًا في التفكير.

تساءلت: «أين نحن؟ إلى أين ننجرف؟».

هز توران كتفيه العريضين، وأجاب: «تخبرني النجوم أننا ننجرف نحو الشمال الشرقي. لكني لا أستطيع حتى تخمين أين نحن، أو ماذا يكمن في طريقنا. كان يمكنني من أسبوع أن أقسم أنني أعرف ماذا يكمن وراء كل سلسلة تلال متعاقبة أقترب منها، أما الآن، أعترف بكل تواضع أنني لا أملك أي تصور عما قد يكمن على بُعد ميل في أي اتجاه، أنا ضائع، تارا الهيليومية، وهذا كل ما أستطيع أن أقوله لك».

كان يبتسم، وابتسمت له الفتاة. بدت حيرة طفيفة على تعبيرات وجهها، هناك شيء مألوف في ابتسامته. لقد التقت بالعديد من البانتان -يجيئون ويذهبون، عقب أي قتال- لكنها لم تستطع تحديد هذا البانتان.

فاجأته بسؤال: «من أي بلد أنت، توران؟».

أجابها: «ألا تعلمين، تارا الهيليومية، أن البانتان ليس لديه بلد؟ فهو اليوم يحارب تحت راية قائد، وغدًا تحت راية قائد آخر».

قالت بإصرار: «لكن ولاءك بالتأكيد لبلد ما، عندما لا يوجد قتال. ما الراية التي تقاتل تحتها الآن؟».

نهض، ووقف أمامها، ثم انحنى راكعًا. وقال: «أرجو قبول خدمتي، الآن وإلى الأبد، تحت راية ابنة أمير الحرب».

تقدمت نحوه، ولمست ذراعه بيدها البُنية النحيلة، وقالت: «خدماتك مقبولة، وإذا استطعنا الوصول إلى هيليوم، أعدك أن مكافأتك ستضم كل ما يمكن أن يرغبه قلبك».

فقال: «سوف أخدم بإخلاص، أملاً في تلك المكافأة». لكن تارا لم تُخمن ما كان في ذهنه؛ لأنها اعتقدت أنه من المرتزقة. وكيف يمكن لابنة أمير الحرب الفخورة أن تُخمن أن البانتان البسيط يطمح إلى يدها وقلبها؟

عند بزوغ الفجر، كانت السفينة تتحرك بسرعة فوق مشهد غير مألوف. زادت الرياح خلال الليل، وحملتهم بعيدًا عن بانتوم. كان البلد أسفلهم موحشًا وغير مضياف. لا توجد مياه مرئية، وسطح الأرض مشقوق بمضايق عميقة، بينما لا يوجد شيء ملحوظ في أي مكان سوى نباتات هزيلة. لا توجد حياة من أي نوع، ولا يوجد أي مؤشر على أن البلد يمكن أن يدعم الحياة. حلقوا لمدة يومين فوق هذه البقعة القفر البغيضة. لم يكن معهم طعام أو ماء، ولذا كانوا يعانون. تخلى جيك مؤقتًا عن رايكوره، بعد التماس مساعدة توران في وضعه بأمان على سطح السفينة. فكلما قل استخدامه، يقل استنفاد حيويته. كانت آثار الحرمان تظهر بالفعل على الرايكور. زحف جيك على السفينة كعنكبوت كبير: على جانبها، وأسفل العارضة، وأعلى الدرابزين المقابل. كان يبدو في تنقله من مكان لآخر، كأنما في منزله، فجميع الأماكن على قدم المساواة. على أن رفيقيه كانا يعتبران المكان ضيقًا؛ لأن سطح السفينة مخصص لشخص واحد وليس مُعدًّا ليحمل ثلاثة.

كان توران يسعى دائمًا لرؤية علامات للمياه. يجب أن يحصلوا على مصدر للماء، أو على النباتات التي تعطي المياه وتجعل الحياة ممكنة في العديد من المناطق القاحلة على المريخ، لكن كليهما لم يتوفر خلال هذين اليومين، وبدأت الآن الليلة الثالثة. لم تُعبِّر الفتاة عن شكواها، لكن توران يعرف أنها تعاني، ولذا شعر بقلبه ثقيلاً. كان جيك أقلهم معاناة، وأوضح لهم أن بمقدور جنسه العيش لفترات طويلة دون طعام أو ماء. كاد توران أن يلعنه وهو يرى هيئة تارا الهيليومية تضعف ببطء أمام عينيه، في حين يبدو الكلديني البشع ممتلئًا بالحيوية المعتادة.

قال جيك: «توجد ظروف لا يكون في ظلها الجسم المادي مرغوب فيه، بقدر الرغبة في عقل عالي التقدم».

نظر إليه توران، لكنه لم يقل شيئًا. ابتسمت تارا بضعف، وقالت: «لا يمكننا لومه، ألم نتبجح قليلاً في التفاخر بتفوقنا؟»، ثم أضافت، «عندما كانت بطوننا ممتلئة».

أقر توران قائلاً: «ربما هناك شيء يمكن قوله عن منظومتهم؛ إذا أمكننا وضع بطوننا جانبًا عندما تصرخ طلبًا للطعام والماء، لا أشك في أننا كنا لنفعل ذلك».

وافقته تارا: «أنا لا أفتقد بطني على الإطلاق الآن، فهي رفيق بائس جبار».

بزغ فجر يوم جديد، كاشفًا عن بلد أقل قفرًا، ما جدد الأمل ثانية بعد أن تقلص داخلهم جميعًا. وفجأة انحنى توران وهو يشير إلى الأمام.

صاح: «انظري، تارا الهيليومية! إنها مدينة! أرى أنا جا.. أنا توران البانتان، أرى مدينة».

تبدو الآن على بُعد، في ظل أشعة الشمس المشرقة، قباب وجدران وأبراج نحيلة لمدينة. أسرع الرجل إلى لوحة التحكم، وهبط بالسفينة بسرعة خلف مجموعة من التلال المنخفضة الفاصلة؛ ذلك أن توران يعرف جيدًا ضرورة اختبائهم، إلى أن يتمكنوا من اكتشاف ما إذا كان سكان هذه المدينة الغريبة من الأصدقاء أو الأعداء. تشير الاحتمالات إلى أنهم بعيدين عن مساكن الأصدقاء، ولذا يجب أن يتحرك البانتان بأقصى قدر من الحذر. لكنها مدينة، وأينما توجد مدينة يتوفر الماء، حتى وإن كانت المدينة مهجورة، ويتوفر الطعام إن كانت مأهولة بالسكان.

كان الطعام والماء بالنسبة للرجل الأحمر، حتى في قلعة للعدو، يعني الطعام والشراب لتارا الهيليومية. سوف يقبله منهم إن كانوا أصدقاء، وسيستولي عليه إن كانوا أعداء. سيحصل عليه ما دام متوفرًا، وهنا ظهر غرور المقاتل، على الرغم من أن توران لم يعتبره غرورًا، ولا تارا التي تنتمي أصولها إلى سلسلة طويلة من المقاتلين. أما جيك، فكان ليبتسم إن عرِف كيف.

سمح توران للطائرة أن تقترب وراء التلال الفاصلة. وعندما لم يعُد في استطاعته التقدم لمسافة أبعد درءًا لخطر الانكشاف، هبط بالطائرة برفق على أرض وادٍ صغير ضيق، ثم قفز نحو جانبها، ما جعلها تسرع نحو شجرة قوية. ناقشوا خططهم لعدةً دقائق: ما إذا كان من الأفضل الانتظار في مكانهم إلى أن يخفي الظلام تحركاتهم، ثم يقتربون من المدينة بحثًا عن الطعام والماء؛ أو يقتربون الآن، مع الاستفادة بأي تغطية ممكنة، إلى أن يتمكنوا من تبيان شيء عن طبيعة السكان.

سادت في النهاية خطة توران. سيتحركون إلى أقرب موقع تمليه السلامة، على أمل العثور على الماء خارج المدينة، وربما الطعام أيضًا. وإذا لم يجدوا ما يريدون، يمكنهم على الأقل استطلاع الأرض بالنهار، وعند حلول الليل، يقترب توران بسرعة من المدينة، ويواصل في أمان نسبي بحثه عن الطعام والشراب.

تابعوا الصعود أعلى الوادي إلى أن وصلوا أخيرًا إلى قمة سلسلة التلال، حيث كانت بقعة ممتازة لمشاهدة ذلك الجزء من المدينة الأقرب لهم، مع إخفاء أنفسهم

بالأغصان التي يجثمون خلفها. استعاد جيك رايكوره، الذي كانت معاناته أقل من معاناة تارا وتوران خلال صيامهم القسري.

أصبحت المدينة الآن أقرب كثيراً، وكشفت أول نظرة نحوها أنها مأهولة بالسكان. كانت اللافتات والرايات ترفرف فوق العديد من السواري. وكان الناس يتحركون عند البوابة الظاهرة أمامهم. وقف الحراس على مسافات متباعدة فوق الجدران البيضاء. وعلى أسطح المباني العليا، يمكن رؤية النساء يقمن بتهوية حرير وفراء النوم. ظل توران يراقب المشهد في صمت لبعض الوقت.

وقال: «لا أعرفهم، ولا يمكنني تخمين هذه المدينة. لكنها مدينة قديمة؛ فلا يوجد لدى شعبها طائرات فضائية أو أي أسلحة نارية، بالقطع هي مدينة قديمة».

سألته الفتاة: «كيف تعرف أنهم لا يملكون هذه الأشياء؟».

أجابها: «لا توجد منصات هبوط فوق الأسطح، لا يمكنني رؤية أي منصة من هنا، في حين إذا كنا ننظر إلى هيليوم لرأينا المئات. وليس لديهم أسلحة نارية، لأن دفاعاتهم كلها مبنية لصد هجمات الرماح والسهام برماح وسهام. هذا شعب قديم».

قالت الفتاة: «إذا كانوا من الشعوب القديمة، ربما يتسمون بالود. ألم نتعلم، في طفولتنا، عن تاريخ كوكبنا أنه كان مأهولاً في يوم ما بعِرق ودود ومحب للسلام؟».

أجاب توران ضاحكًا: «لكنني أخشى أنهم ليسوا قدماء إلى هذا الحد. لقد انقضت عصور طويلة منذ أن أحب رجال برسوم السلام».

قالت الفتاة: «والدي يحب السلام».

أجابها: «ومع ذلك، فهو دائمًا في حالة حرب».

ضحكت، ثم قالت: «لكنه يقول إنه يحب السلام».

قال مؤكدًا كلامها: «نحن جميعًا نحب السلام، السلام بشرف، لكن جيراننا لا يسمحون لنا بذلك، وبالتالي علينا أن نقاتل».

أضافت: «ولكي نقاتل جيدًا، يجب أن يحب الرجال القتال».

فقال: ولكي يحبوا القتال، عليهم أن يعرفوا كيف يقاتلون؛ فالرجل لا يحب أن يقوم بشيء لا يعرف كيفية القيام به جيدًا».

«أو أن بعض الرجال الآخرين يقومون به أفضل منه».

وأنهى كلامه قائلاً: «وبالتالي سوف توجد دائمًا حروب؛ ذلك أن الرجال الذين تجري في عروقهم دماء حارة سوف يمارسون فن الحرب».

ابتسمت الفتاة وهي تقول: «لقد حللنا سؤالاً كبيراً، لكن بطوننا لا تزال فارغة».

أجاب توران: «لقد أهمل البانتان القيام بواجبه، كيف يفعل ذلك والمكافأة الكبيرة أمام عينيه دائمًا!».

لم تُخمن في كلماته الحرفية المعنى الذي يقصده.

واصل قائلاً: «سوف أذهب على الفور لانتزاع الطعام والشراب من القدماء».

وضعت يدها على ذراعه وصاحت: «كلا، ليس بعد. سوف يقتلوك أو يسجنوك. أنت بانتان شجاع وقوي، لكنك لا تستطيع التغلب على مدينة بمفردك».

ابتسمت في وجهه، ولا تزال يدها على ذراعه. شعر بمتعة تدفق الدماء الحارة خلال عروقه. بإمكانه أن يضمها بقوة بين ذراعيه. لا يوجد سوى جيك الكلديني، لكن بداخله شيئًا أقوى يقيد يديه. من يمكن تعريف ذلك الشيء؛ تلك الفروسية الأصيلة التي تجعل بعض الرجال حماة طبيعيين للنساء؟

شاهدوا من موقعهم المتميز مجموعة من المحاربين المسلحين يخرجون من البوابة، ويلتفون على طول طريق مطروق يمر عبر سفح التل الذي ينظرون منه. كان الرجال من الحُمر، مثلهم، ويركبون صهوة حيوانات ثوات صغيرة من العِرق الأحمر. وكانت أغطيتهم وزخارفهم بربرية ورائعة، ويوجد العديد من الريش على أغطية رؤوسهم كعادة القدماء. كما كانوا مسلحين بسيوف ورماح طويلة، وشبه عرايا، وعلى أجسامهم رسوم بالأصفر والأزرق والأبيض. ربما تضم المجموعة عشرة أشخاص يركضون فوق ركوباتهم التي لا تكل، ويبدو مظهرهم وحشيًّا وجميلاً في آن.

قال توران: «إنهم يتسمون بمظهر المحاربين الرائعين. يمكنني السير بجرأة في مدينتهم وطلب الخدمة».

هزت تارا رأسها، وقالت ناصحة: «تريث. ماذا أفعل من دونك. وإذا أسروك، كيف ستحصل على مكافأتك؟».

أجاب: «سوف أهرب. على أي حال، سوف أحاول». وبدأ ينهض.

قالت الفتاة، ونبرة صوتها تنم على السلطة: «كلا، لن تفعل».

نظر إليها الرجل بسرعة، متعجبًا.

فقالت ببعض الغطرسة: «أنت في خدمتي، أنت تعمل في خدمتي بالأجر، وسوف تفعل ما آمرك به».

جلس توران بجوارها مرة أخرى، بنصف ابتسامة على شفتيه، وقال: «أنا تحت أمرك يا أميرة».

انتهى اليوم. ترك جيك رايكوره، لتعبه من ضوء الشمس، وزحف إلى حفرة اكتشف وجودها بالقرب منه. استلقت تارا وكذا توران تحت الظلّ الضئيل لشجرة صغيرة، وأخذا يشاهدان الناس تدخل وتخرج من البوابة. لم يرجع المحاربون الذين خرجوا منذ فترة. يُساق قطيع صغير من حيوانات الزيتيدار إلى المدينة خلال النهار، وتظهر في الأفق البعيد قافلة من العربات ذات العجلات العريضة، تجرها تلك الحيوانات الضخمة، واتجهت نحو المدينة، غابت عن نظرهما أيضًا بعد دخولها عبر البوابة. هبط الظلام، وأمرت تارا الهيليومية البانتان أن يبحث عن الطعام والشراب، لكنها حذرته من محاولة دخول المدينة. وقبل مغادرته، انحنى أمامها وقام بتقبيل يدها، حيث يمكن للمحارب تقبيل يد ملكته.

* * *

الفصل (10)

الوقوع في الشَرَك

اقترب البانتان توران من المدينة الغريبة تحت جنح الظلام. لم يأمل كثيراً في العثور على طعام أو ماء خارج الجدار، لكنه سيحاول. وإذا فشل، سيشق طريقة إلى المدينة؛ إذ يجب أن تحصل تارا الهيليومية على القوت وبسرعة. رأى أن الحراسة على الجدران ضعيفة، لكن الجدران عالية بما يكفي لأن تبوء أي محاولة لتسلقها بالفشل. استفاد توران من الشجيرات والأشجار، بحيث تمكن من الوصول إلى قاعدة الجدار دون اكتشافه. تحرك بهدوء نحو الشمال، مارًّا بالمدخل المُغلق ببوابة ضخمة تحول حتى دون أدنى لمحة إلى المدينة خلفها. كان توران يأمل في إيجاد سهل منبسط على الجانب الشمالي من المدينة، بعيدًا عن التلال، حيث تنمو محاصيل السكان، فضلاً عن المياه المرتبطة بنظام الري لديهم، لكنه لم يجد أي حقول أو مياه، على الرغم من سيره لمسافة طويلة على طول ذلك الجدار الذي بدا بلا نهاية. بحث كذلك عن وسيلة للدخول إلى المدينة، لكنه لم يواجه هنا أيضًا سوى الفشل. والآن، خلال تحركه، تشاهده أعين من أعلى ويلاحقه مُطارِد صامت منذ فترة من فوق قمة الجدار. نزل الظل المطارِد حاليًا إلى الرصيف في الدَاخل، وركض مسرعًا ليسبق الغريب في الخارج.

وصل الرجل الآن إلى بوابة صغيرة، يوجد بجوارها مبنى منخفض، ويقف محارب أمام مدخل المبنى لحراسته. تحدث بكلمات قليلة سريعة مع المحارب، ثم دخل المبنى، وإنما فقط ليعود على الفور إلى الشارع، يتبعه أربعين محاربًا. فتح الزميل البوابة بحذر، وأطل بعناية على طول الجدار إلى الخارج في الاتجاه الذي أتى منه. بدا رضاه واضحًا، وأصدر تعليمات في عدة كلمات لمجموعة المحاربين خلفه، وعندئذ عاد نصفهم إلى داخل المبنى، بينما تسلل النصف الآخر وراء الرجل خلال البوابة، وربضوا منخفضين بين الشجيرات على شكل نصف دائرة شمال البوابة التي تركوها مفتوحة. انتظروا بصمت مطلق في هذا الموقع. لم تطل مدة انتظارهم قبل أن يأتي البانتان توران بحذر سائرًا على طول قاعدة الجدار. وصل إلى البوابة، لكنه توقف للحظة ليستمع عندما وجدها مفتوحة، ثم اقترب ونظر إلى الداخل. وعندما تأكد من عدم وجود أي شيء يخشاه على مرمى البصر، دخل من خلال البوابة إلى المدينة.

وجد نفسه في شارع ضيق يوازي الجدار. ارتفعت على الجانب الآخر مبان ذات معمار غريب عليه، لكنه جميل. في حين كانت المباني متقاربة على نحو وثيق، لا يوجد

بينها أي اثنين متشابهين، وتتخذ واجهاتها كافة الأشكال والارتفاعات والعديد من الألوان. كسرت الأفق قمة مستدقة، وقبة، ومنارة، وأبراج طويلة ونحيلة، بينما تدعم الجدران العديد من الشرفات. وفي الضوء الخافت للقمر الأبعد كلوروس، الذي ينخفض الآن في الغرب، رأى لدهشته وذعره أشكال الناس في الشرفات. رأى أمامه مباشرة امرأتين ورجل، يجلسون متكئين على سور الشرفة ويبدو أنهم ينظرون إليه مباشرة، لكنهم إذا شاهدوه، لا يُظهِرون أي علامة.

تردد توران للحظة أمام اكتشافه الفعلي، لكنه كان متأكدًا من أنهم اعتبروه أحد أبناء شعبهم، ولذا تحرك بجرأة نحو الطريق. لم تكن لديه أي فكرة عن الاتجاه الذي ربما من الأفضل اتخاذه على أمل العثور على ما يسعى إليه، ولم يرغب في إثارة الشكوك بمزيد من التردد، ولذا اتجه إلى اليسار وسار بخفة على طول الرصيف وهو ينوي إبعاد نفسه بأقصى سرعة ممكنة عن مراقبة هؤلاء المراقبين الليليين. كان يعرف أن الليل قارب على الانتهاء، لذا كان يتعجب من جلوس الناس في الشرفات الآن في حين ينبغي أن يكونوا نيامًا الآن بين الحرير والفراء. تصور في البداية أنهم ضيوف لدى مضيف مرِح، لكن الظلام كان يكتنف النوافذ خلفهم، كما يسود هدوء مطلق، يا لها من نظرية مزعجة! اجتاز خلال سيره العديد من المجموعات الأخرى التي تجلس بصمت في شرفات أخرى. لم يعره أحدًا منهم أي اهتمام، كأنما لم يشاهدوه حتى خلال مروره. اتكأ بعضهم بكوعه على سور الشرفة، وذقونهم مستقرة على راحة أيديهم، واتكأ آخرون على الذراعين عبر الشرفة وهم ينظرون إلى الشارع، بينما شاهد العديدين يحملون آلات موسيقية في أيديهم، دون أن تتحرك أصابعهم على الأوتار.

وصل توران إلى موضع يلتف فيه الطريق نحو اليمين حول مبنى ناتئ من داخل سور المدينة. وعندما دار حول الزاوية بالكامل، وجد نفسه أمام اثنين من المحاربين يقف كل منهما على أحد جانبي المدخل المؤدي إلى مبنى على اليمين. كان من المستحيل عدم رؤيتهما له، ومع ذلك لم يتحركا، كما لم يُظهرا أي دليل آخر على أنهما شاهداه. وقف هناك منتظرًا، ويده فوق مقبض سيفه الطويل، لكنهما لم يتعرضا له سواء بالهجوم أو بإيقافه. هل تصورا أيضًا أنه أحد أبناء شعبهم؟ لم يكن بمقدوره، في واقع الأمر، تفسير تراخيهم على أي أسس أخرى.

عندما مر توران عبر البوابة إلى المدينة واتخذ طريقه دون عوائق على طول الطريق، دخل عشرون محاربًا المدينة وأغلقوا البوابة وراءهم، ثم صعد أحدهم على الجدار وسار فوقه خلف توران، وسار محارب آخر بمحاذاة الجدار خلفه أيضًا، بينما عبر المحارب الثالث الشارع ودخل أحد المباني على الجانب الآخر.

عاد باقي المحاربين ثانية، باستثناء حارس واحد بجوار البوابة، إلى المبنى الذي استدعاهم بداية. كان المحاربون يتمتعون بأجسام قوية البنية وضخمة، ومدهونة بالألوان، كما كانت أجسادهم العارية مغطاة بأثواب رائعة لتحمُّل برودة الليل. كانوا يضحكون وهم يتحدثون عن الغريب وسهولة خداعه بهذه الطريقة، وواصلوا ضحكهم وهم يلقون أنفسهم على الحرير والفراء لاستئناف نومهم الذي انقطع. من الواضح أنهم خصصوا حارسًا بعينه لحراسة البوابة التي ينامون بجوارها، ومن الواضح أيضًا وجود حراسة على البوابات، وأن المدينة تراقب بعناية أكثر بكثير مما اعتقده توران. كان جِد جاثول ليتكدر كثيراً إذا حلم أنه تعرض لهذا الخداع المنظم جيدًا.

سار توران عبر الطريق، مارًّا بحراس بآخرين بجوار الأبواب الأخرى، لكنه بدأ الآن يولي إليهم بعض الانتباه لأنهم لم يحاولوا قتاله، ولا حتى ملاحظة مروره ولو ظاهريًّا. وعلى الرغم من مشاهدته لواحد أو أكثر من هؤلاء الحراس الصامتين، عند مروره عند كل منعطف في هذا الطريق الغريب، لم يستطع تخمين أنه مر بنفس الشخص عدة مرات، وأن هناك مطاردين صامتين ماهرين يلاحقون ويرقبون كل خطواته. بمجرد أن يمر توران بحارس معين من أولئك الحراس الجامدين، قبل أن يستيقظ ويعود فجأة إلى الحياة، يركض الحارس عبر الطريق، ويدخل إلى فتحة ضيقة في الجدار الخارجي، ويواصل بسرعة في ممر مبني داخل الجدار نفسه، إلى أن يخرج إلى موضع يسبق وصول توران إليه بمسافة قصيرة، ثم يتخذ الموقف الصارم الصامت لجندي مكلف بالحراسة. لم يعرف توران أن حارسًا ثانيًا يتبعه في ظلال المباني خلفه، ولا أن حارسًا ثالثًا يسرع قبله في مهمة عاجلة.

وهكذا جاب البانتان الشوارع الصامتة في هذه المدينة الغريبة، بحثًا عن الطعام والشراب للمرأة التي يحبها. نظر إليه رجال ونساء من شرفات غامضة، لكن دون التحدث معه، وشاهد الحراس مروره ولم يعترضوا طريقه. جاءه الآن من الطريق أمامه صوت مألوف، قعقعة العتاد المعدني، نذير المحاربين المشاة. وفي الوقت نفسه تقريبًا، شاهد على يمينه مدخلاً مفتوحًا خافت الإضاءة من الداخل. إنه المكان الوحيد المتاح للاختباء من المجموعة التي تقترب. ومع مروره بعدة حراس دون أي اعتراض، فإنه بالكاد ما كان يأمل في تجنب التمحيص والاستجواب من الدورية، حيث افترض بطبيعة الحال أن تلك المجموعة هي دورية من الرجال.

اكتشف داخل المدخل ممرًّا يتحول فجأة إلى اليمين، ثم على الفور تقريبًا إلى اليسار. لا يوجد شيء على مرمى البصر، فدخل بحذر والتف حول المنعطف الثاني ليختبئ بعيدًا عن الشارع. امتد أمامه ممر طويل، خافت الإضاءة مثل المدخل. سمع

خلال انتظاره أصوات اقتراب المجموعة من المبنى، وسمع صوت شخص عند مدخل مكان اختبائه، ثم سمع صوت إغلاق الباب الذي دخل منه. وضع يده على سيفه، متوقعًا سماع اقتراب خطوات عبر الممر؛ ولكن لم يأت أحد. اقترب من المنعطف ونظر حوله، كان الممر فارغًا إلى الباب المغلق؛ يبدو أن من أغلقه ظل في الخارج.

انتظر توران وحاول الاستماع، لكنه لم يسمع أي صوت. تحرك نحو الباب ووضع أذنه عليه. الصمت يرين تمامًا في الشارع وراء الباب. ربما أغلق تيار هوائي مفاجئ الباب، أو ربما من واجبات الدورية القيام بمثل هذه الأمور. لا يهم. من الواضح أن الدورية أنهت مرورها، ويمكنه الآن العودة إلى الشارع ومواصلة طريقه. يجب أن توجد نافورة عامة في مكان ما، حيث يمكنه الحصول على المياه، كما تكمن فرصة الحصول على طعام في سلاسل الخضراوات واللحوم المجففة التي تُعلّق أمام مدخل كل بيت برسومي تقريبًا من بيوت الفئات الفقيرة التي رآها سابقًا. كان يسعى إلى هذا الحي، ولذا قاده بحثه بعيدًا عن البوابة الرئيسة للمدينة التي يعرف أنها لن تقع في حي فقير.

حاول فتح الباب دون جدوى؛ فقد أُغلق من الخارج. يا له من وضع مؤسف! حك البانتان توران رأسه وغمغم: «الحظ يعاكسني»، لكن المصير كان يقف خارج الباب على شكل محارب مدهون بالألوان ومبتسم. لقد خدع بمهارة الغريب الغافل. لقد كان المدخل المضاء، ودورية المشاة ضمن التخطيط والتوقيت الذي وضعه بإتقان المحارب الثالث الذي كان يسرع ليسبق توران على طول شارع آخر. وقام الغريب بما توقعه المحارب بالضبط، فلا عجب، إذن، أنه يبتسم.

ونظرًا لأن هذا المخرج أصبح غير متاح، عاد توران إلى الممر واتبعه بحذر وفي صمت. كان يوجد أحيانًا باب على جانب أو آخر، وحاول فتحها جميعًا ولكن دون جدوى. وكان الممر يزداد غرابة كلما تقدم فيه. سدّ باب مغلق في نهاية الممر طريقه، لكن بابًا على يمينه فُتِح ودخل غرفة خافتة الإضاءة، كانت جدرانها تضم ثلاثة أبواب أخرى. حاول فتح كل باب منها. أخفق في فتح بابين، وقاده الباب الثالث الذي فُتِح إلى مدرج يؤدي إلى أسفل. كان حلزونيًّا، ولم يتمكن من الرؤية أبعد من المنعطف الأول. فُتِح باب في الممر بعد أن غادر، وخرج منه المحارب الثالث ليتعقبه والابتسامة الباهتة لا تزال على شفتيه القاتمتين.

سحب توران سيفه القصير وأخذ يهبط بحذر. وجد في قاعدة المدرج الحلزوني ممرًّا قصيرًا، وفي نهايته باب مغلق. اقترب من اللوح الوحيد الثقيل، واستمع. لم يتناهَ إلى سمعه أي صوت من خلف البوابة الغامضة. حاول بلطف فتح الباب، الذي تأرجح نحوه بسهولة بمجرد أن لمسه. وجد أمامه غرفة منخفضة السقف وذات أرضية ترابية. ضمت

جدران الغرفة العديد من الأبواب، وجميعها موصدة. عندما دخلها توران بحذر، هبط المحارب الثالث المدرج الحلزوني وراءه. عبر البانتان الغرفة بسرعة وحاول فتح باب، لكنه وجده موصدًا. سمع نقرة مكتومة وراءه، فاستدار وهو مستعد بسيفه. كان بمفرده، لكن الباب الذي دخل منه أصبح مغلقًا؛ كانت النقرة التي سمعها هي صوت إغلاق الباب بإحكام.

عبر الغرفة بقفزة وحاول فتح الباب، ولكن دون جدوى. لم يعُد مهتمًّا بالصمت؛ لأنه يعرف الآن أن الأمور تجاوزت مجرد الصدفة. ألقي بثقله على اللوح الخشبي، لكن خشب السكيل السميك الذي ارتطم به يمكن أن يصمد أمام هجوم كبش، ومن وراء الباب، صدرت ضحكة خافتة.

اختبر توران بسرعة كل باب من الأبواب الأخرى، وجدها جميعًا موصدة. كشفت لمحة حول الغرفة عن وجود طاولة خشبية ومقعد طويل، كما توجد على الجدران عدة حلقات ثقيلة، مُعلق بها سلاسل صدئة، كلها أشياء ذات دلالة للغرض الذي خُصصت له الغرفة. شاهد على الأرضية الترابية، قرب الجدار، ثقبين أو ثلاثة تشبه فتحات الَجحور؛ إنها بلا شك موطن فئران المريخ العملاقة. نظر إليها لفترة، وفجأة انطفأ الضوء الخافت تاركًا إياه في ظلام دامس. تلمس توران طريقة سعيًا إلى الطاولة والمقعد الطويل، وضع المقعد عند الجدار وسحب الطاولة أمامه. جلس على المقعد، قابضًا على سيفه الطويل أمامه في استعداد. عليهم أن يقاتلوا، على الأقل، قبل أن يأخذوه.

جلس هناك لبعض الوقت منتظرًا؛ لأنه لا يعرف ماذا يمكن أن يحدث.

لم يتسلل أي صوت إلى زنزانته التي تقع تحت الأرض. أدار في ذهنه ببطء الأحداث التي وقعت في المساء: البوابة المفتوحة دون حراسة والمدخل المضاء، الوحيد الذي شاهده مفتوحًا ومضاء على طول الشارع الذي سار فيه، تقدُّم المحاربين في نفس اللحظة تحديدًا التي لا يمكن أن يجد فيها أي سبيل آخر للهرب أو الاختباء، الممرات والغرف التي قادته عبر العديد من الأبواب الموصدة إلى هذا السجن تحت الأرض، بحيث لا يجد أمامه أي مسار آخر.

وأقسم «باسم سلفي الأول! يا لها من طريقة بسيطة، وأنا مغفل. لقد خدعوني بدهاء، وأخذوني دون تعريض أنفسهم لأدنى خدش، ولكن لأي غرض؟».

تمنى أن يعرف إجابة هذا السؤال، ثم تحولت أفكاره إلى الفتاة التي تنتظره هناك، فوق تل خارج المدينة، وأنه لن يأتي أبدًا. كان يعرف الطرق التي تستخدمها أكثر شعوب

برسوم وحشية. كلا، لن يأتي أبدًا. لقد عصى أمرها. ابتسم وهو يتذكر حلاوة كلمات الأوامر التي خرجت من شفتيها العزيزتين. لقد عصى أمرها، وأضاع المكافأة.

ولكن ماذا عنها؟ ما مصيرها الآن، تتضور جوعًا أمام مدينة معادية، وليس بصحبتها سوى كلديني غير بشري؟ يا لها من فكرة مروعة فرضت نفسها عليه. لقد أخبرته عن المشاهد البشعة التي رأتها في جحور الكلدينيين، وكان يعرف أنهم يأكلون لحم البشر. كان جيك يتضور جوعًا، وإذا التهم رايكوره سيصبح عاجزًا؛ ولكن ... هناك طعام له ولرايكوره. لعن توران نفسه لحماقته. لماذا تركها؟ كان البقاء والموت معها، وهو على استعداد دائمًا لحمايتها، أفضل من تركها تحت رحمة البانتومي البشع.

تبين توران رائحة ثقيلة في الهواء الآن. غمرته بشعور بالنعاس. حاول النهوض لمقاومة الخمول الزاحف إليه، لكنه شعر بساقيه ضعيفتين، فغرق ثانية في المقعد الطويل. انزلق سيفه الآن من أصابعه، ومدّ جسمه على الطاولة واضعًا رأسه على ذراعيه.

* * *

زاد شعور تارا بالقلق عندما هبط الليل ولم يعُد توران. ومع طلوع الفجر دون أي علامة منه، توقعت أنه فشل. هناك شيء أكثر من مأزقها التعيس جلب شعورًا بالحزن إلى قلبها ... الحزن والوحدة. أدركت الآن أنها لم تعتمد على هذا البانتان للحماية فقط وإنما للصحبة أيضًا. إنها تفتقده، وبافتقاده أدركت فجأة أنه يعني لها أكثر من مجرد محارب مأجور. شعرت كأنما صديق أُخِذ منها ... صديق قديم وموضع تقدير. نهضت من مكان اختبائها، ربما تتمكن من رؤية المدينة بشكل أفضل.

كان يودور[114] - دوار الأوتان[115] الثامن لأوتار، جيداك ماناتور[116] -عائدًا في مطلع الفجر إلى ماناتور، من رحلة قصيرة إلى قرية مجاورة. وخلال دورانه حول التلال التي تقع جنوب المدينة، جذب انتباهه حركة طفيفة بين الشجيرات القريبة من قمة أقرب تل. أوقف ركوبته الشرسة ليراقب عن كثب. شاهد عن بُعد شخصًا ينهض ويتجه ببصره إلى أسفل، تجاه ماناتور خلف التل.

قال لأتباعه: «تعالوا!»، وبكلمة إلى حيوانه الثوات، أسرع الوحش في اتجاه أعلى التل. وأسرع في أعقابه عشرون محاربًا وحشيًّا، دون أن تصدر عن الأقدام المبطنة

---

(114) يودور: نبيل ومحارب من ماناتور، ومبارز مرموق - https://barsoom.fandom.com/wiki/U-Dor - المترجمة.

(115) الأوتان: سرية من الجنود تضم مائة جندي - http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=utan - المترجمة.

(116) ماناتور: مملكة مريخية من الحُمر، وعاصمتها ماناتور أيضًا، متخلفة تكنولوجيًّا وعاداتها بدائية أكثر من الممالك الأخرى. واعتمدت صناعتها لفترة طويلة على العبيد الذين تجمعهم من خلال قوافل جاثول - https://barsoom.fandom.com/wiki/Manator - المترجمة.

لحيواناتهم الثوات أي صوت على العشب الناعم. لكن جلجلة أسلحتهم الجانبية وعتادهم هي ما جعلت تارا تستدير فجأة ناحيتهم. شاهدت تارا مجموعة من المحاربين يرفعون الرماح ويتجهون نحوها.

نظرت إلى جيك. ماذا سيفعل الرجل العنكبوت في هذه الحالة الطارئة؟ رأته يزحف إلى رايكوره ويلصق نفسه به، ثم نهض جميل الهيئة مفعمًا بالحيوية وفي حالة تأهب. تصورت أن المخلوق يستعد للفرار. حسنًا، لم يختلف الأمر كثيرًا، ففي مواجهة من يتدفقون نحو أعلى التل تجاههم، كان مبارز واحد متواضع مثل جيك أسوأ من عدم وجود دفاع على الإطلاق.

حثته قائلة: «أسرِع، جيك! عُد إلى التلال! قد تجد هناك مكانًا للاختباء»، لكن المخلوق تحرك ليقف بينها وبين الفرسان القادمين، وهو يمتشق سيفه الطويل.

وعندما رأته يعتزم الدفاع عنها قالت: «ما من جدوى، جيك، ماذا يفعل سيف واحد في مواجهة هذه الصعاب؟».

أجاب الكلديني: «لن أموت سوى مرة واحدة. لقد أنقذتيني، أنتِ والبانتان، من لوود، وسوف أفعل ما كان ليفعله البانتان لحمايتك لو كان هنا».

قالت: «هذه شجاعة، ولكن بلا طائل. ضع سيفك في غمده. قد لا ينوون إلحاق الضرر بنا».

خفض جيك سلاحه، لكن دون أن يغمده، ثم وقف الاثنان في الانتظار. أوقف الدوار يودور حيوانه الثوات أمامهم، بينما شكّل المحاربون العشرون دائرة حولهم. ظل يودور جالسًا فوق ركوبته لدقيقة طويلة صامتًا، وهو ينظر متأملاً إلى تارا الهيليومية أولاً، ثم إلى رفيقها البشع.

سألهم: «من أي نوع من المخلوقات أنتما؟ وماذا تفعلان أمام بوابات ماناتور؟».

أجابت الفتاة: «نحن من بلدان بعيدة، وتائهين، ونتضور جوعًا. لا نطلب سوى الطعام والراحة، ثم نذهب في طريقنا إلى بلداننا».

ابتسم يودور ابتسامة قاتمة، وقال: «لا يعرف عُمر ماناتور سوى ماناتور والتلال التي تحرسها، ولا يوجد بأي سجل من حوليات ماناتور، طوال جميع العصور التي توالت منذ نشأتها، أن غريبًا غادرها».

صاحت الفتاة بغطرسة: «لكنني أميرة، وبلدي ليست في حرب مع بلدكم. عليكم أن تقدموا لي ولرفقائي العون والمساعدة للعودة إلى أرضنا. هذا هو قانون برسوم».

أجاب يودور: «لا تعرف ماناتور سوى قوانين ماناتور، ولكن هيا. سوف تذهبين معنا إلى المدينة. ولأنك جميلة، لا تخافين. وأنا شخصيًّا سوف أتولى حمايتك إذا أمر أوتار. أما بالنسبة لرفيقك .... انتظري! لقد قلت 'رفاقك'، هل يوجد آخرون معك؟».

أجابت تارا بغطرسة: «ترى ما تراه».

قال يودور: «ليكن ما يكون. إذا كان هناك المزيد، فلن يمكنهم الهرب من ماناتور. لكن، وكما كنت أقول، إذا كان رفيقك يقاتل جيدًا، فسوف يعيش أيضًا؛ ذلك أن أوتار عادل، والعدالة هي قوانين ماناتور. هيا!».

اعترض جيك.

وعندما رأت الفتاة أنه يستعد لقتالهم، قالت له: «ما من جدوى»، ثم أضافت بسرعة بصوت هامس: «لنذهب معهم. لماذا تواجه بنصلك الضعيف أسلحتهم القوية، بينما يكمن في عقلك العظيم وسيلة لخداعهم؟».

أجاب: «أنت على حق، تارا الهيليومية»، ووضع سيفه في غمده.

وهكذا تحركوا إلى أسفل التل نحو بوابات ماناتور -تارا أميرة هيليوم، وجيك الكلديني من بانتوم- يحيط بهما ركب المحاربين المتوحشين المدهونين بالألوان، الذين يتبعون يودور، دوار الأوتان الثامن لأوتار، جيداك ماناتور».

* * *

الفصل (11)

اختيار تارا

اكتست ماناتور بهالة رائعة من ضوء شمس برسوم المبهر، بينما كانت الفتاة وآسروها يدخلون إلى المدينة عبر بوابة الأعداء. يبلغ سُمك الجدار هنا حوالي خمسين قدمًا، ويُغطي جانبي الممر بعد البوابة رفوف بناء متوازية من أسفل إلى أعلى. ويقف داخل هذه الرفوف، أو التجاويف الأفقية الطويلة، صف فوق صف من الأشكال الصغيرة التي تبدو مثل تماثيل صغيرة مزخرفة من الرجال، تتدلى شعورهم الطويلة السوداء تحت أقدامهم ويطول أحيانًا وصولاً إلى الرف الأدنى. بالكاد ما يصل ارتفاع تلك الأشكال إلى قدم واحد، وباستثناء ضآلة نسبهم، يمكن القول إنها ربما جثث محنطة لرجال عاشوا في يوم ما. لاحظت الفتاة أن المحاربين خلال مرورهم كانوا يوجهون التحية برماحهم لتلك الأشكال، على طريقة محاربي برسوم في تقديم التحية العسكرية، ثم واصلوا طريقهم نحو شارع يمتد بجلال واتساع عبر المدينة نحو الشرق.

امتدت على الجانبين مبان رائعة، غطت العديد من جدرانها لوحات رائعة الجمال من العصور القديمة، ضعفت ألوانها واختلطت نتيجة ضوء الشمس عبر العصور. وعلى الرصيف، كانت حياة المدينة، التي استيقظت، على قدم وساق. النساء في أغطيتهن المزخرفة الباهرة، والمحاربون الذين يرتدون الريش، وأجسام الجميع مدهونة بالألوان، والحرفيون مسلحون لكن أرديتهم أقل بهجة، يتخذون طرقًا مختلفة وفقًا لواجبات يومهم. زيتيدار عملاق، بديع في سرجه الفخم، يدمدم وهو يجر عربة واسعة ذات عجلات على طول رصيف حجري نحو بوابة الأعداء. صنعت الحياة والألوان والجمال صورة ملأت أعين تارا بالذهول والإعجاب، فهذا مشهد من مشاهد الماضي الذي ولَّى على كوكب المريخ الذي يحتضر. هكذا كانت مدن مؤسسي عِرقها قبل اختفاء ثروكسيوس، أقوى المحيطات، من وجه العالم. ومن الشرفات على الجانبين، ينظر الرجال والنساء بصمت نحو الساحة أدناه.

تطلع الناس في الشارع إلى السجينين، لا سيما جيك البشع، ووجهوا أسئلة أو تعليقات إلى حارسهم، لكن المراقبين على الشرفات لم يتحدثوا، كما لم يُدِر أي منهم رأسه لمشاهدة مرورهما. توجد العديد من الشرفات في كل مبنى، ولا توجد شرفة لم تحتفظ بصمت رجالها ونسائها الذين يرتدون أفخر الأغطية، بالإضافة إلى وجود طفل أو اثنين هنا وهناك؛ ولكن حتى الأطفال حافظوا على الصمت وعدم الحركة مثل الكبار.

عند اقترابهم من وسط المدينة، رأت الفتاة أن الأسطح تضم هي الأخرى مجموعات من هؤلاء المراقبين الخاملين، الذين يرتدون العتاد والجواهر، كأنه يوم احتفالي للضحك والموسيقى؛ دون أن تنطلق أي ضحكة من تلك الشفاه الصامتة، ولا أي موسيقى من الآلات الموسيقية التي يحملها العديدون منهم بين أصابعهم المليئة بالمجوهرات.

اتسع الطريق الآن ليصل إلى ساحة هائلة، يرتفع في أقصى نهايتها صرح لامع فخم من الرخام الأبيض، بين المباني بهيجة الألوان التي تحيط به وبالمرج القرمزي وشجيراته المزهرة ذات الأوراق الخضراء. قاد يودور السجينين وحارسهما في اتجاه هذا الصرح، إلى مدخله الكبير المقوس، الذي يقف أمامه صف من خمسين محاربًا راكبًا يمنعون المرور. عندما تعرّف قائد الحرس على يودور، أمر محاربيه بالتراجع إلى الجانبين لإتاحة طريق واسع لمرور المجموعة. توجد بعد المدخل مباشرة مدرجات مائلة تقود إلى الأعلى من الجانبين. استدار يودور إلى اليسار، وقادهم إلى أعلى، إلى الطابق الثاني، ثم إلى أسفل عبر ممر طويل. وهنا، مروا برجال راكبين آخرين، كما شاهدوا غيرهم في غرف على الجانبين. كان يوجد أحيانًا مدرج آخر يؤدي إما إلى أعلى أو أسفل. اندفع محارب يمتطي فرسًا يركض بسرعة من إحدى هذه الغرف، ومر بهم مسرعًا لأداء مأمورية.

لم تشهد تارا حتى الآن أي شخص مترجل في هذا المبنى العظيم، ولكن عندما قادهم يودور عند أحد المنعطفات إلى الطابق الثالث، لمحت غرفًا تضم عددًا كبيراً من حيوانات الثوات دون راكبيها، كما لمحت في غرف أخرى مجاورة محاربين لا يمتطون حيوانات، وإنما يستريحون في استرخاء أو يلعبون ألعاب المهارة أو الحظ، ويلعب العديدون جيتان (الشطرنج). وصلت المجموعة بعد ذلك إلى قاعة رسمية طويلة وواسعة، رائعة الجمال بحيث لم تشهد أميرة هيليوم مثلها من قبل. تناثر عدد لا يُحصى من مصابيح الراديوم على السقف المقوس، الممتد على طول الغرفة، لإضاءته. وامتدت مساحات شاسعة من الجدار إلى الجدار، دون أن يقطع الأرضية عمود واحد. وكانت الأقواس من الرخام الأبيض الذي يبدو مُستخرَجًا ككتل منفردة ضخمة، قُطع من كل منها قوسًا كاملاً. وبين الأقواس، بُني السقف صلبًا حول مصابيح الراديوم ذات الأحجار الكريمة، التي ملأت نيرانها اللامعة وألوانها وجمالها المكان بأكمله. كما تدلت الأحجار أسفل الجدران لعدة أقدام، دون انتظام حوافها، بحيث بدت مُعلقة كستائر جميلة رائعة على الجدار الرخامي الأبيض. انتهى الرخام على مسافة ستة أقدام أو سبعة من الأرضية؛ ومن هذه النقطة إلى أسفل، اكتست الجدران بألواح من الذهب الصلب. وكانت الأرضية نفسها من الرخام المُطعم بثراء بالذهب. لقد ضمت تلك الغرفة كنزاً هائلاً يعادل ثروة العديد من المدن الكبيرة.

على أن أكثر ما جذب انتباه الفتاة، أكثر حتى من كنز الزخارف المذهلة، كانت صفوف المحاربين بعتادهم الرائع الذين يمتطون الثوات في صمت قاتم وجمود على جانبي الممر المركزي، صفًّا بعد صف وصولاً إلى الجدران البعيدة، وعندما سارت المجموعة بينهم، لم تلحظ أي رمشة جفن لدى أي محارب أو رعشة أذن لأي ثوات.

همس أحد حراسها، عندما لاحظ اهتمامها: «قاعة القادة»، وكانت نبرة صوته تحمل فخرًا ونوعًا من الرهبة الخفية. ساروا بعد ذلك خلال مدخل هائل لغرفة كبيرة ومربعة، حيث يمتطي عشرات المحاربين صهوة حيواناتهم.

عندما دخل يودور ومجموعته الغرفة، اعتدل المحاربون بسرعة على ركوباتهم وشكلوا صفًّا أمام باب آخر على الجانب المقابل من الجدار. أمرهم البادوار بتحية يودور، الذي توقف مع مجموعته في مواجهة الحرس.

قال يودور: «أرسل أحدًا إلى أوتار لإبلاغه أن يودور أحضر سجينين جديرين بأن يراهما الجيداك العظيم، الأولى بسبب جمالها الشديد، والثاني بسبب قبحه الشديد».

أجاب الملازم: «أوتار في المجلس مع القادة الأدنى، لكن كلمات الدوار يودور سوف تصل إليه»، ثم استدار وأعطى تعليماته إلى محارب وراءه يمتطي الثوات.

وتوجه بسؤال إلى يودور: «ما نوع هذا المخلوق الذكر؟ لا يمكن أن ينتمي كلاهما إلى عِرق واحد».

أوضح يودور: «لقد كانا معًا عند التلال جنوب المدينة، ويقولان إنهما تائهين ويتضوران جوعًا».

قال البادوار: «المرأة جميلة. لن تتسول طويلاً في مدينة ماناتور»، ثم انتقل حديثهما إلى موضوعات أخرى: من أعمال القصر إلى حملة يودور، حتى عاد الرسول قائلاً إن أوتار يأمر بإحضار السجينين أمامه.

سارا خلال مدخل ضخم، كشف عند فتحه عن قاعة المجلس الكبرى لجيداك ماناتور، أوتار. قادهم ممر مركزي من المدخل على طول القاعة الكبرى، وانتهى بهم عند سلالم منبر رخامي حيث يجلس رجل على كرسي العرش العظيم. توجد على جانبي الممر صفوف من طاولات وكراسي من خشب السكيل المنحوت، خشب صلب رائع الجمال. كان عدد الطاولات غير الشاغرة قليلاً، تلك القائمة في الصف الأمامي أسفل المنصة مباشرة.

عند المدخل، ترجل يودور وأربعة من أتباعه الذين شكلوا حراسة حول السجينين اللذين تم اقتيادهما أمام العرش، خلف يودور بعدة خطوات. عندما توقفا أمام السلالم الرخامية، استقرت نظرات تارا الهيليومية الفخورة على هيئة الرجل الجالس على العرش أعلاه. كان يجلس معتدلاً دون تصلب: الحضور القيادي، مرتديًّا الأغطية البربرية الفخمة التي يحبها زعماء برسوم. كان رجلاً ضخمًا، لم يشوه كمال وسامته سوى غطرسة عينيه الباردتين، وإيحاء القسوة الذي تنقله شفتيه النحيلتين جدًّا. ما من حاجة إلى نظرة ثانية لتأكيد أقل ملاحظة: هنا حاكم مسيطر – جيداك مقاتل، قد يبجله شعبه لكن دون حب، ويمكن أن يتقاتل ويموت من أجله المحاربون. هذا هو أوتار، جيداك ماناتور؛ وعندما رأته تارا للمرة الأولى، لم تستطع إلا الاعتراف بنوع معين من الإعجاب لهذا الزعيم الوحشي الذي يجسد بقوة الفضائل القديمة لإله الحرب.

تبادل يودور والجيداك التحيات البسيطة في برسوم، ثم سرد يودور تفاصيل اكتشاف السجينين والقبض عليهما. تفحصهما أوتار بتمعن خلال سرد يودور للأحداث، ولم تكشف تعبيراته عما يدور في العقل الكامن وراء تلك الأعين الغامضة. ومع إنهاء الضابط لحديثه، كانت أعين الجيداك مثبتة على جيك.

سأله: «وأنت، ما عِرقك؟ من أي بلد؟ ولماذا أنت في ماناتور؟».

أجاب جيك: «أنا كلديني، أعلى نوع من المخلوقات في برسوم، أنا العقل، وأنت المادة. لقد جئت من بانتوم. أنا هنا لأننا تائهين ونتضور جوعًا».

تحول أوتار فجأة نحو تارا وسألها: «وأنتِ! هل أنتِ كلدينية أيضًا؟».

أجابت الفتاة: «أنا أميرة هيليوم، كنت سجينة في بانتوم وأنقذني هذا الكلديني ومحارب من عِرقي. تركنا المحارب ليبحث عن الطعام والماء، ومما لا شك فيه أنه وقع في أيدي شعبك. وأطلب منكم إطلاق سراحه، وإمدادنا بالطعام والشراب، ثم دعونا نذهب إلى طريقنا. أنا حفيدة جيداك، وابنة جيداك كل الجيداك أمير الحرب في برسوم. ولا أطلب سوى المعاملة التي يمكن أن يمنحها شعبي لك أو لشعبك».

كرر أوتار: «هيليوم. لا أعرف أي شيء عن هيليوم، ولا يحكم جيداك هيليوم ماناتور. أنا أوتار، جيداك ماناتور. أنا وحدي الحاكم. وأحمي شعبي. لم ترين قط امرأة أو محارب من ماناتور أسيراً في هيليوم! لماذا أحمي شعب جيداك آخر؟ فمن واجبه هو حمايتهم. وإذا لم يستطع، إذن فهو ضعيف، ويجب أن يقع شعبه في أيدي القوي. أنا أوتار، وأنا قوي. سوف أحتفظ بك. وهذا...»، مشيراً إلى جيك «هل يمكنه القتال؟».

أجابت تارا: «إنه شجاع، لكنه لا يتمتع بمهارة استخدام أسلحة شعبي».

سألها أوتار: «لا يوجد أحد إذن ليقاتل من أجلك؟»، وتابع دون انتظار ردها: «نحن شعب عادل، وإذا كان لديك من يقاتل من أجلك، قد يفوز بالحرية لنفسه ولك أيضًا».

قالت: «لكن يودور أكد لي أنه ما من شخص غريب قد غادر ماناتور على الإطلاق».

هز أوتار كتفيه قائلاً: «هذا لا يدحض عدالة قوانين ماناتور، بل يعني بالأحرى أن محاربي ماناتور لا يُقهرون. فإذا أتى شخص يستطيع هزيمة محاربينا، فإنه يفوز بالحرية».

صاحت تارة بغطرسة: «يمكنك إحضار محاربي، وسوف ترى مبارزة لم تشهدها دون شك من قبل تلك الجدران المتهالكة لمدينتك المتداعية، وإذا لم تكن هناك خدعة في عرضك، فسوف نفوز بالحرية».

اتسعت ابتسامة أوتار، كما ابتسم يودور، وبدأ القادة والمحاربون يدفعون بعضهم بعضًا ويهمسون ضاحكين. أدركت تارا أن عدالتهم خادعة، لكنها لم تكف عن الأمل على الرغم من وضعها اليائس، أليست ابنة جون كارتر، أمير الحرب في برسوم، الذي يظل تحديه الشهير في عبارة «ما زلت أعيش!» بمثابة دفاع دائم ضد اليأس؟ ومع تفكير تارا في والدها النبيل، ارتفع ذقنها الأرستقراطي إلى أعلى. آه! لو كان يعلم مكانها، ما كانت لتخاف من أي شيء؛ فعندئذ سيهاجم جمهرة من هيليوم أبواب ماناتور بعنف، وسيندفع المحاربون الخُضر الوحشيون حلفاء جون كارتر من قيعان البحر الميت اشتهاء للسلب والنهب، وسوف تحلق السفن الفضائية المهيبة لبحرية بلدها الحبيب فوق الأبراج والمنارات غير المحمية في المدينة الهالكة، التي لن ينقذها سوى الاستسلام ودفع ضرائب باهظة.

لكن جون كارتر لا يعرف! ولا يوجد سوى شخص واحد آخر تأمل في رؤيته: إنه البانتان توران؛ ولكن أين هو؟ لقد شهدت سيفه في المبارزة، وتعرف أنه يُتقن استخدامه، فمن ذا الذي يمكن أن يعرف فن المبارزة أفضل من تارا الهيليومية، التي تعلمته جيدًا على يد جون كارتر نفسه. لكنها تعرف الحيل التي تبخس البراعة البدنية الأكثر حتى من براعتها، فضلاً عن وسيلة الهجوم التي قد تثير في آن واحد حسد ويأس أمهر المحاربين. ولذلك، تحولت أفكارها نحو توران البانتان، ولكن ليس لحمايتها فحسب. فقد أدركت، منذ أن غادرها بحثًا عن الطعام، أن نوعًا من الألفة نما بينهما وتفتقدها الآن. هناك شيء فيه جعل في الإمكان عبور فجوة الوضع الاجتماعي لكل منهما في الحياة، فهي لم تنظر

إليه باعتباره البانتان أو باعتبارها الأميرة، بل كرفيقين. وأدركت فجأة أنها تفتقده لشخصه أكثر من افتقادها لسيفه. توجهت الآن نحو أوتار.

وسألت: «أين توران، محاربي؟».

أجاب الجيداك: «لن تفتقري إلى محاربين، فواحدة بجمالك سوف تجد الكثيرين على استعداد للقتال من أجلها. ربما ليس من الضروري أن تنظري أبعد من جيداك ماناتور. أنت تُعجبيني يا امرأة. ما قولك على هذا الشرف؟».

دققت أميرة هيليوم، من خلال تضييق جفونها، في جيداك ماناتور؛ من غطاء الريش على الرأس إلى أقدامه في الصندل الذي يرتديه، ثم ثانية غطاء الريش على رأسه.

«الشرف!»، قالتها وهي تقلده بنبرة ساخرة، «أنا أعجبك، هل هذا صحيح؟ يجب أن تعلم، يا خنزير، أنك لا تعجبني، ابنة جون كارتر ليست لمثلك!».

ساد صمت متوتر مفاجئ بين القادة المجتمعين. وانحسر الدم ببطء عن الوجه الشرير لأوتار، جيداك ماناتور، وتحول إلى اللون الأرجواني الشاحب من شدة غضبه. ضاقت عيناه وأصبحتا شقين رفيعين، وانضغطت شفتيه إلى خط من الضغينة خال من الدماء. ساد الصمت للحظة طويلة في قاعة العرش بالقصر في ماناتور. ثم تحول الجيداك نحو يودور.

وقال بمستوى صوت يناقض مظهر غضبه: «خذها بعيدًا. خذها بعيدًا، وفي المباريات المقبلة، دع السجناء والمحاربين العاديين يلعبون الجيتان عليها».

سأل يودور، مشيراً إلى جيك: «وهذا؟».

أجاب أوتار: «إلى الحُفر، حتى الألعاب القادمة».

صاحت تارا: «هذه إذن عدالتك المتبجحة! أن تحكُم دون محاكمة على اثنين من الغرباء الذين لم يسيئا إليك؟ وأحدهما امرأة. عدالة خنازير ماناتور تماثل شجاعتهم».

صاح أوتار: «خذوها بعيدًا!». وبإشارة من يودور، التف الحراس حول السجينين وقادوهما إلى خارج القاعة.

وفي خارج القصر، فصلوا بين جيك وتارا الهيليومية. قادوا الفتاة عبر طرق طويلة نحو وسط المدينة، وأخيراً إلى مبنى منخفض، تعلوه أبراج عالية ضخمة البناء. وهنا، سلموها إلى محارب يرتدي شارة دوار، أو كابتن.

وقال له يودور موضحًا: «يرغب أوتار في سجنها حتى المباريات القادمة، حيث يلعب السجناء والمحاربين العاديين للفوز بها. لو لم يكن لسانها مثل الثوات، لكانت جديرة بأنبل محاربينا»، ثم تنهد يودور وأضاف: «ربما حتى كنت لأفوز لها بعفو. إنه شيء سيئ للغاية رؤية مثل هذا الجمال يقع من نصيب زميل عادي. لكنت أُكرمها بنفسي».

وقالت الفتاة: «إذا كان يجب أن أُسجن، إذن اسجنوني، فلا أذكر أن الحكم الذي صدر يقضي بالاستماع إلى إهانات كل غليظ منخفض المنزلة يصدف أنه مُعجب بي».

صاح يودور: «أرأيت يا أكور، هذه هي لغتها. وقالت ما هو أسوأ إلى الجيداك أوتار».

أجاب أكور: «نعم»، وشاهدته تارا يكبح ابتسامة بصعوبة. قال لها: «هيا معي إذن يا امرأة، وسوف نجد لك مكانًا آمنًا داخل أبراج جيتان - ولكن، انتظري! لماذا أنت متوعكة؟».

ترنحت الفتاة، وكادت أن تسقط لولا أن الرجل أمسكها بين ذراعيه. استجمعت نفسها، وحاولت بشجاعة أن تقف معتدلة دون دعم. نظر أكور إلى يودور وسأله: «أتعرف أن المرأة مريضة؟».

أجابه: «ربما من نقص الغذاء. فقد قالت إنها ورفاقها لم يتناولوا أي طعام منذ عدة أيام».

قال أكور ساخرًا: «يا لشجاعة محاربي أوتار، ويا لكرم ضيافتهم. يودور الذي ثرواته لا تُعد ولا تُحصى، وأوتار الشجاع الذي حيواناته الثوات تصيح في إسطبلات داخل قاعات رخامية وتتغذى في أحواض ذهبية، لا يمكنهما تجنيب أي كسرة لإطعام فتاة تتضور جوعًا».

تجهم يودور ذو الشعر الأسود. وصاح: «لسانك سوف يخترق قلبك، يا ابن الأَمَة! لا تحاول ثانية اختبار صبر عدالة أوتار. عليك صيانة كلامك كما تصون أبراجك».

قال أكور: «لا تفكر أن تسخر مني بسبب وضع أمي. إن دماء المرأة الأَمَة هو ما يملأ عروقي بفخر، وعاري الوحيد أنني أيضًا ابن جيداكك».

سأله يودور: «وهل سمع أوتار ذلك؟».

أجاب أكور: «سمعه أوتار بالفعل من شفتي، هذا وأكثر منه».

استدار أكور وذراعه لا تزال تلتف حول وسط تارا لدعمها، وبالتالي كان نصف يقودها ونصف يحملها إلى أبراج جيتان، بينما جذب يودور ثواته وأسرع مرة أخرى في اتجاه القصر.

تتبختر نصف دزينة من المحاربين داخل المدخل الرئيس لبرج جيتان. تحدث أكور إلى أحدهم، حارس الأبراج، قائلاً: «عليك إحضار لانو الأَمَة، وأصدر لها أمرًا بجلب الطعام والشراب إلى الطابق العلوي من برج ثوريان»، ثم رفع الفتاة وهي في حالة نصف إغماء بين ذراعيه، وحملها على طول المدرج الحلزوني المائل الذي يؤدي إلى أعلى داخل البرج.

فقدت تارا الوعي خلال رحلة الصعود الطويلة. وعندما أفاقت، وجدت نفسها في غرفة دائرية كبيرة تضم جدرانها الحجرية نوافذ على مسافات منتظمة حول كامل محيط الغرفة. كانت مستلقية فوق كومة من حرير وفراء النوم، بينما تنحني فوقها امرأة شابة تقوم بإدخال قطرات من شراب بارد بين شفتيها الجافتين. نهضت تارا قليلاً مرتكزة على كوعها، ونظرت حولها. في اللحظات الأولى لعودة وعيها، اجتاحتها ذكريات أحداث عدة أسابيع. ظنت أنها استيقظت في قصر أمير الحرب في هيليوم. تشابك حاجباها وهي تدقق في الوجه الغريب الذي يميل عليها.

وسألت: «من أنتِ؟ وأين أوثيا؟»

أجابت الفتاة: «أنا لانو، الأَمَة. ولا أعرف أي شخص باسم أوثيا».

اعتدلت تارا في جلستها ونظرت حولها. هذا حجر خشن، وليس رخام قاعات والدها. وتساءلت: «أين أنا؟».

أجابت الفتاة: «أنت في برج ثوريان»، وعندما رأت أنها لا تزال لا تفهم، قالت لها بوضوح: «أنت سجينة في أبراج جيتان بمدينة ماناتور. لقد أحضرك أكور، دوار أبراج جيتان إلى هذه الغرفة وأنت تعانين الضعف والإغماء، وأرسلني لك بالطعام والشراب، ذلك أن أكور يتمتع بقلب طيب».

قالت تارا: «أتذكر ببطء الآن. أتذكر، ولكن أين توران، محاربي؟ هل يتحدثون عنه؟».

أجابت لانو: «لم أسمع أي شيء عن شخص آخر. أنت وحدك من أحضروها إلى الأبراج. وأنت محظوظة، فلا يوجد في ماناتور رجل أنبل من أكور. إن دم والدته هو ما يجعله هكذا، فهي أَمَة من جاثول».

صاحت تارا: «جاثول! هل تقع جاثول بالقرب من ماناتور؟».

أجابت لانو: «ليست قريبة، إلا أنها أقرب بلد، تقع على بُعد حوالي عشرين درجة[117] شرقًا».

غمغمت تارا: «جاثول! جاثول البعيدة!».

قالت الأَمَة: «لكنك لست من جاثول؛ عتادك ليس عتاد جاثول».

قالت تارا: «أنا من هيليوم».

قالت الأَمَة: «المسافة من هيليوم إلى جاثول أبعد. لكننا، نحن من جاثول، تعلمنا في دراساتنا الكثير عن عظمة الهيليوم. ولذا لا أعتقد أنها بعيدة جدًّا».

سألت تارا: «أنت أيضًا من جاثول؟».

أجابت الأَمَة: «كثيرون منا من جاثول، ونحن عبيد في ماناتور. جاثول هي أقرب بلد إلى ماناتور، ولذا يجلب منها المانانوريون العبيد في أغلب الأحيان. فهم يخرجون بأعداد كبيرة على فترات متقطعة، من ثلاث إلى سبع سنوات، لقطع الطرق التي تؤدي إلى جاثول، ويمسكون بالقوافل كاملة دون ترك أي شخص يمكنه أن ينقل تحذيرًا إلى جاثول. ولم يتمكن أي منا من الهرب أبدًا من ماناتور بحيث يمكنه إبلاغ جاهان، جِد جاثول، بمصيرنا».

أكلت تارا ببطء وفي صمت. أثارت كلمات الفتاة ذكريات الساعات الماضية في قصر والدها، ومأدبة منتصف النهار العظيمة التي التقت خلالها بجاهان الجاثولي. وتورد وجهها، الآن حتى، وهي تتذكر كلماته الجريئة.

وفي أثناء استغراقها في الذكريات، انفتح الباب وظهر محارب قوي البنية: شخص ضخم، شفتاه سميكتان ووجهه شرير ينظر شذرًا. نهضت الفتاة الأَمَة على قدميها أمامه.

وصاحت: «ما معني هذا، يا إيميد؟ أليست إرادة أكور عدم إزعاج هذه المرأة».

قال الرجل ساخرًا: إرادة أكور، بالطبع! إرادة أكور ليس لها سلطة في أبراج جيتان أو غيرها، أكور الآن في حُفر أوتار، وإيميد هو دوار الأبراج».

رأت تارا شحوب وجه الفتاة الأَمَة والرعب في عينيها.

---

(117) حوالي 814 ميلاً بمقاييس كوكب الأرض.

* * *

الفصل (12)

ألاعيب جيك

في نفس وقت اقتياد تارا الهيليومية إلى أبراج جيتان، كانوا يصحبون جيك إلى الحُفر تحت القصر، حيث حبسوه في غرفة خافتة الإضاءة. وجد في الغرفة مقعدًا طويلاً وطاولة على الأرض الترابية بالقرب من الجدار، فضلاً عن عدة حلقات على الجدار تتدلى منها سلاسل ذات أطوال قصيرة. وتوجد عند قاعدة الجدران عدة ثقوب في الأرضية الترابية. وكانت هذه الثقوب وحدها هي ما أثارت اهتمامه، من بين العديد من الأشياء التي شاهدها. جلس جيك على المقعد الطويل ينتظر في صمت، ويستمع. أُطفِئت الأضواء الآن. لو كان جيك قادر على الابتسام، لكان ابتسم الآن؛ فهو يستطيع أن يرىَ في الظلام كما يرى في الضوء، بل ربما أفضل. نظر إلى فتحات الثقوب المظلمة في الأرضية وانتظر. لاحظ الآن تغيير في الهواء حوله؛ إذ أصبح مُحملاً برائحة غريبة. ومرة أخرى كان جيك ليبتسم إن أمكنه.

فليستبدلوا بكل هواء الغرفة أبخرتهم الأشد فتكًا، فلن يختلف الأمر بالنسبة إلى جيك، الكلديني، الذي ليس لديه رئتين، ولا يحتاج إلى الهواء. قد يختلف الأمر بالنسبة إلى الرايكور؛ إذ يؤدي حرمانه من الهواء إلى موته، لكنه لن يتأثر عند تعرضه لكمية من الغاز تكفي لتخدير مخلوق عادي؛ لأنه يفتقر إلى العقل الموضوعي. ما دامت زيادة ثاني أكسيد الكربون في الدم ليست لمنع عمل القلب، فإن الرايكور لن يعاني إلا من تضاؤل حيويته، لكن استجابته لقوة عقل الكلديني سوف تستمر.

أجلس جيك الرايكور وظهره إلى الجدار، بحيث يظل دون توجيه من عقله، ثم فك اتصاله بحبله الشوكي، لكنه ظل على وضعه فوق على أكتافه في انتظار وترقُب، فقد أُثير فضول الكلديني. لم ينتظر طويلاً قبل أن تومض الأضواء، وينفتح أحد الأبواب الموصدة، وتدخل نصف دزينة من المحاربين. اقتربوا منه بسرعة وانجزوا مهمتهم بسرعة. جردوه أولاً من أسلحته، ثم فكوا القيد عن أحد كاحلي الرايكور، وربطوه بنهاية إحدى السلاسل التي تتدلى من الجدران. قاموا بعد ذلك سحب الطاولة الطويلة إلى موضع جديد، وثبتوها بالأرضية بحيث أصبحت إحدى نهاياتها، بدلاً من وسطها، أمام السجين مباشرة. وضعوا على الطاولة أمامه الطعام والماء، ووضعوا عند الطرف الآخر منها مفتاح القيد، ثم فتحوا جميع الأبواب وغادروا.

* * *

عندما استعاد البانتان توران وعيه، شعر بألم حاد في أحد ساعديه. زالت آثار الغاز بسرعة، بمثل سرعة تغلبها عليه، ولذا عندما فتح عينيه كان متمتعًا بكامل ملكاته. أُضيئت الأنوار مرة أخرى، وكشف الرجل على وهجها هيئة فأر مريخي عملاق رابض فوق الطاولة ويقضم في ذراعه. انتزع ذراعه وبحث عن سيفه القصير، بينما الفأر يسعى هادرًا إلى الإمساك بذراعه ثانية. اكتشف توران عندئذ أنهم جردوه من كل أسلحته: السيف القصير، والسيف الطويل، والخنجر، والمسدس. هاجمه الفأر، فضربه الرجل ضربة أبعدته ثم نهض يبحث عن شيء يستخدمه في توجيه ضربة أقوى. هاجمه الفأر ثانية، وما إن تراجع توران بسرعة ليتجنب تهديد فكي الفأر، حتى شعر بشيء يهتز فجأة على كاحله الأيمن، وعندما سحب قدمه اليسرى لاستعادة توازنه، اشتبك كعبه في سلسلة مشدودة وسقط على ظهره فوق الأرض، فقفز الفأر إلى صدره ونحو رقبته.

فئران المريخ شرسة وكريهة، لديها أرجل كثيرة، وصلعاء، وجلدها بغيض يشبه جلد الفأر حديث الولادة. ويمكن مقارنة حجمها ووزنها بكلاب الصيد الكبيرة. أما أعينها، فهي صغيرة ومتقاربة، وتختفي تقريبًا في فتحات عميقة سمينة. لكن فك الفأر المريخي هو أكثر سماته شراسة وإثارة للاشمئزاز؛ إذ يكشف مجمل هيكله العظمي، الذي يبرز عدة بوصات خارج جسمه، عن خمسة أسنان حادة على شكل معزقة في الفك العلوي، ونفس العدد من الأسنان المشابهة في الفك السفلي، تشير جميعها إلى مظهر وجه متعفن انسلخ قدر كبير من لحمه.

قفز هذا الشيء على صدر البانتان ليمزق رقبته. أبعده توران مرتين بضرباته، وسعى إلى الوقوف على قدميه، لكن الفأر عاد في المرتين بضراوة أشد لتجديد الهجوم. أسلحته الوحيدة هي فكيه، حيث كانت قدميه الواسعتين المتباعدتين مسلحة بمخالب ضعيفة. يحفر الفأر جحوره المتعرجة بفكيه البارزين، ويدفع التراب نحوها بقدميه العريضين. كان مصدر قلق توران الوحيد هو إبعاد الفكين عن جسمه، وقد نجح في ذلك إلى أن أُتيحت له فرصة الإمساك بحلق المخلوق. وبعد ذلك انتهى الفأر في بضع لحظات. نهض توران أخيرًا، وبقشعريرة من الاشمئزاز قذف بالشيء جثة هامدة.

كرّس اهتمامه الآن بإجراء مسح سريع للظروف الجديدة التي أحاطت به منذ لحظة احتجازه. وأدرك بشكل ملتبس ما حدث. لقد خدروه وجردوه من أسلحته. وعندما وقف على قدميه، رأى أن أحد كاحليه مُقيد بسلسلة في الجدار. أخذ يتطلع إلى أنحاء الغرفة، جميع الأبواب مفتوحة، وتتأرجح باتساع! يزيد خاطفوه من قوة سجنه بتركه يلقي لمحات مغرية عبر الممرات المفتوحة نحو الحرية التي لا يستطيع نيلها. يوجد طعام وشراب عند نهاية الطاولة، وفي متناول يده. يمكنه على الأقل الحصول على الطعام والشراب، حيث

كانت بطنه التي تتضور جوعًا تكاد أن تصرخ بصوت عال طلبًا للقوت، وبصعوبة أكل وشرب باعتدال.

وبينما كان يلتهم الطعام، تجولت عيناه حول حدود سجنه إلى أن وقع بصره فجأة على شيء في النهاية البعيدة عنه من الطاولة. كان مفتاحًا. رفع كاحله المُقيد بالسلسلة وفحص القفل. لا يوجد أي مجال للشك! المفتاح القابع في نهاية الطاولة هو مفتاح هذا القفل. وضعه هناك محارب مُهمِل ونسيه، وغادر.

تدفق الأمل في صدر جاهان الجاثولي، أو توران البانتان. سعت عيناه بمكر نحو المداخل المفتوحة، لا يوجد أحد على مرمى البصر. آه، لو تمكن من الفوز بحريته! سيجد عندئذ طريقًا ليخرج من هذه المدينة البغيضة ويصل إلى تارا، ولن يتركها ثانية أبدًا إلا بعد أن يفوز بسلامتها أو يموت.

نهض وتحرك بحذر في تجاه الطرف الآخر من الطاولة، حيث يوجد المفتاح المرغوب. أوقف الكاحل المُقيد خطوته الأولى، لكنه تمدد بجسمه كاملاً على طول الطاولة، ومد أصابع حريصة تجاه الجائزة. اقتربت أصابعه كثيراً، عليه أن يمدها أكثر قليلاً وسوف تلمس المفتاح. حاول جاهدًا وزاد تمدده، لكن المفتاح لا يزال بعيدًا عن متناول يده. ألقى بنفسه إلى الأمام حتى غرز القيد الحديدي عميقًا في جسده، ولكن دون جدوى. عاد وجلس على المقعد الطويل، وحملق في الأبواب المفتوحة والمفتاح. أدرك الآن أن هذا ليس سوى جزء من خطة موضوعة بإتقان لتعذيبه، على الأقل معنويًّا لأنها لم تلحق به معاناة جسدية.

شعر الرجل للحظة بالأسف والتشاؤم، ثم استجمع نفسه ومسح حاجبيه، وعاد لاستكمال وجبته. يجب على الأقل ألا يشعروا بالارتياح لمعرفة مدى مرارة ضربتهم له. تبادر إلى ذهنه وهو يأكل أن يسحب الطاولة على طول الأرضية بحيث يصبح المفتاح في متناول يده. لكنه عندما حاول القيام بذلك، وجد أنهم ثبّتوا الطاولة بالأرض خلال فترة فقدانه للوعي. ابتسم جاهان ثانية، وهو يهز كتفيه، واستأنف تناوله لطعامه.

* * *

بعد أن غادر المحاربون السجن الذي ضم جيك، زحف الكلديني من أكتاف الرايكور إلى الطاولة. شرب القليل من الماء، ثم وجّه أيدي الرايكور إلى الطعام وما تبقى من ماء، وبدأ الجسم الخالي من العقل يأكل بشراهة. وفي هذه الأثناء اتخذ جيك طريقه كالعنكبوت على طول الطاولة، إلى الجهة المقابلة حيث يكمن مفتاح القيد. أمسك المفتاح بمخلبه وقفز إلى الأرض، ثم هرول سريعًا نحو فتحة أحد الجحور في الجدار

واختفى فيه. لقد ظل العقل يفكر في مداخل تلك الجحور، فهي تروق للكلدينيين، كما تشير إلى مكان اختباء نوع الطعام الوحيد الذي يستمتع به الكلديني: اللحم والدم.

لم يسبق لجيك أن يرى أولسيو[118]؛ لأن هذه الفئران المريخية الضخمة قد اختفت منذ فترة طويلة من بانتوم، حيث استمتع الكلدينيون بلحمها ودمها. لكن جيك ورث تمامًا كل ذكرى لجميع الأجداد، وبالتالي كان يعرف أن الأولسيو يسكن في هذه المخابئ، وأن مذاقه جيد للأكل. كما كان يعرف شكل الأولسيو وعاداته، على الرغم من أنه لم يشهده من قبل ولم يشهد أي صورة له. وبمثل ما نقوم نحن بتربية الحيوانات لنقل الصفات البدنية، يقوم الكلدينيون بتربية أنفسهم لنقل صفات العقل، بما في ذلك الذاكرة وقوة التذكر. وعلى هذا النحو، كانوا يتولون تربية ما نطلق نحن عليه الغريزة، أعلى من مستوى عتبة العقل الموضوعي، بحيث يمكن توجيهها واستخدامها عن طريق التذكُّر. تكمن في أذهاننا الذاتية دون شك العديد من انطباعات وخبرات أجدادنا، وقد تؤثر على وعينا في الأحلام فقط، أو في إيحاءات غامضة تتملكنا بأننا مررنا من قبل بمرحلة ما عابرة لوجودنا الحالي. آه، لو كانت لدينا القدرة على تذكرها! لكانت تتكشف أمامنا القصة المنسية لتلك العصور المفقودة التي سبقتنا. كنا لنسير حتى مع الإله في حديقة نجومه، بينما لا يزال الإنسان مجرد فكرة تتشكل في عقله.

دخل جيك إلى الجحر، وهبط في منحدر حاد لحوالي عشر أقدام، حيث وجد نفسه في شبكة متقنة وسارة من الجحور! كان الكلديني مبتهجًا. هذه هي الحياة! تحرك بسرعة، واتجه دون خوف نحو هدفه مباشرة، مثلما تتجه إلى مطبخ منزلك. يقع الهدف على مستوى منخفض في تجويف كروي يماثل حجم برميل كبير. وهنا، في عش يضم قطع ممزقة من الحرير والفراء، يوجد ستة من صغار الأولسيو.

عندما عادت الأم، لم تجد سوى خمسة أطفال ومخلوق كبير يشبه العنكبوت، فانطلقت على الفور لمهاجمته لكنها، واجهت مخالب قوية تمسك بها بحيث لم تعُد قادرة على الحركة. سحبت المخالب حلقها ببطء نحو فم بشع، وماتت في لحظة. كان يمكن أن يبقى جيك في العش لفترة طويلة، حيث يوجد طعام كاف لعدة أيام، لكنه لم يفعل ذلك، بل أخذ يستكشف الجحور. سار متتبعًا الجحور في العديد من الغرف تحت الأرضية أسفل مدينة ماناتور، ثم إلى الأعلى من خلال الجدران إلى غرف فوق سطح الأرض. وجد العديد من الفخاخ المبتكرة، كما وجد طعامًا مسمومًا وغيره من علامات

(118) أولسيو: مخلوق مريخي مروع يماثل إلى حد كبير الفأر على كوكب الأرض. يشبه الفأر الصغير الذي نما إلى حجم كلب الصيد الضخم - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ulsio- المترجمة.

المعركة المستمرة التي شنها سكان ماناتور ضد تلك المخلوقات البغيضة التي تسكن تحت بيوتهم ومبانيهم العامة.

لم يقتصر استكشافه على كشف اتساع أبعاد شبكة المدرجات، التي يبدو أنها تخترق كل جزء من المدينة، وإنما كشف أيضًا عن أن أغلبها يرجع إلى عصور قديمة. من الضروري أن أطنانًا فوق أطنان من القذارة قد أُزيلت، وظل يتساءل لفترة طويلة عن مكان إيداعها، إلى أن استشعر أمامه -عند نفق منحدِر ضخم الحجم والطول- الاندفاع المدوي للمياه الجوفية، ووصل الآن إلى ضفة نهر هائل تحت الأرض، يتدفق بعيدًا، ودون شك بطول عالم يصل إلى بحر أوميان المدفون. لقد دفعت أجيال عديدة من الأولسيو قاذوراتها الضئيلة إلى هذه المجاري الغزيرة في تجويفات متاهاتها الشاسعة.

تلكأ جيك لمجرد لحظة عند النهر. على أن تجواله الذي قد يبدو دون هدف، كان في الواقع بدافع غرض محدد، وسعى إلية بقوة وصلابة. تابع هذه المدرجات التي بدت تنتهي في حُفر أو غرف أخرى لسكان المدينة، وقام باستكشافها، يبدأ عادة بفتحة الجحر الآمنة، إلى أن يتأكد تمامًا من أن ما يسعى إليه غير موجود. تحرك بسرعة على سيقانه العنكبوتية، وقطع مسافات كبيرة في فترات زمنية قصيرة.

لم يُكلل بحثه بنجاح فوري، فقرر العودة إلى الحفرة التي تضم رايكوره يرقد مقيدًا بالسلاسل ويُعنى باحتياجاته. أبطأ خطاه عندما اقترب من نهاية الجحر الذي ينتهي في الحفرة، وقف عند مدخل المدرج بحيث يتمكن من فحص ما بداخل الغرفة قبل أن يدخلها. وعندئذ، شاهد هيئة محارب يظهر فجأة عند مدخل مقابل. كان الرايكور ممددًا على الطاولة، تتلمس يداه على نحو أعمى المزيد من الطعام. رأى جيك المحارب يقف محملقًا في دهشة مفاجئة نحو الرايكور، ورأى اتساع أعينه، ومسحة شاحبة تحل محل اللون البرونزي النحاسي لخديه. تراجع إلى الخلف، كأنما تلقى ضربة من شخص على وجهه، وقف للحظة في شلل من الخوف، ثم أطلق صرخة مخنوقة واستدار هاربًا. ومرة أخرى، كانت كارثة أن جيك الكلديني لا يمكنه أن يبتسم.

دخل الغرفة بسرعة، وزحف إلى أعلى الطاولة، ثم قام بتثبيت نفسه على أكتاف رايكوره، وانتظر. من يمكنه القول إن جيك لا يمتلك روح الدعابة، على الرغم من عدم قدرته على الابتسام؟ ظل منتظرًا في مكانه لمدة نصف ساعة، ثم تناهى إلى سمعه أصوات رجال يقتربون عبر الممرات الحجرية. سمع قعقعة أسلحتهم وهي تصطدم بالجدران الصخرية، وعرف أنهم يتحركون بوتيرة سريعة، لكنهم توقفوا وأخذوا يتقدمون ببطء قبل وصولهم إلى المدخل مباشرة. كان ضابط في الصدارة، ووراءه مباشرة المحارب متسع العينين، وربما لا يزال شاحبًا إلى حد ما، الذي غادر الغرفة مؤخرًا على

عجل. توقفا عند المدخل، ونظر الضابط بصرامة نحو المحارب، ورفع إصبعه مشيراً إلى جيك.

«المخلوق يجلس هناك! أتجرؤ على الكذب على دوارك؟».

صاح المحارب: «أقسم أنني قلت الحقيقة. كان هذا الشيء يرقد مقطوع الرأس منذ لحظات على هذه الطاولة نفسها! ليقتلني سلفي الأول على الفور إن قلت كلمة غير الحقيقة!».

بدا الضابط متحيراً. نادرًا ما يكذب المريخيون، إن كذبوا أصلاً. حك رأسه، ثم سأل جيك: «منذ متى وأنت هنا؟».

أجاب جيك: «من يدري أفضل من أولئك الذين وضعوني هنا وقيدوني بالسلاسل إلى الجدار؟».

«هل رأيت هذا المحارب يدخل هنا منذ بضع دقائق؟».

أجاب جيك: «رأيته».

واصل الضابط: «وكنت تجلس في نفس المكان الذي تجلس فيه الآن؟».

صاح جيك: «انظر إلى سلسلتي، ثم قل لي بعد ذلك في أي مكان آخر يمكنني أن أجلس! هل جميع سكان مدينتك حمقى؟».

انضم ثلاثة محاربين آخرين خلف الاثنين في الصدارة، ورفعوا أعناقهم لمشاهدة السجين، بينما يبتسمون لشعور زميلهم بالحرج. تجهم الضابط وهو ينظر نحو جيك.

وقال: «لسانك سليط مثل لسان المرأة التي أرسلها أوتار إلى أبراج جيتان».

سأله جيك، دون أن تكشف رتابته ووجهه الخالي من التعبير عن اهتمامه: «هل تتكلم عن الشابة التي اعتقلتوها معي؟».

أجاب الدوار: «نعم، أتكلم عنها»، ثم تحوّل إلى المحارب الذي استدعاه وقال: «عُد إلى مسكنك وابقَ هناك حتى المباريات القادمة. ربما بحلول ذلك الوقت، تتعلم أعينك ألا تخدعك».

نظر المحارب شذرًا إلى جيك، ثم خرج. هز الضابط رأسه وتمتم قائلاً: «لا أفهم. كان يوفان دائمًا محاربًا جيدًا ويمكن الاعتماد عليه. هل يمكن أن ....؟» ونظر بصرامة

نحو جيك ثم صاح: «لديك رأس غريب لا يتناسب مع جسمك. تخبرنا أساطيرنا عن تلك المخلوقات القديمة التي غرست هلاوس في عقول رفاقها. إذا كنت واحدًا منهم، ربما عانى يوفان قواك المحظورة. وفي هذه الحالة، سوف يعرف أوتار جيدًا كيفية التعامل معك». استدار ليخرج، وأشار إلى محاربيه ليتبعوه.

صاح جيك: «انتظر! أرسل لي طعامًا، إلا إذا كنتم تريدون تجويعي».

أجاب المحارب: «لقد أرسلنا لك الطعام من قبل».

سأله جيك: «وهل ستطعمونني مرة واحدة في اليوم؟ أحتاج إلى طعام

أكثر من ذلك، أرسل لي الطعام».

أجاب الضابط قبل أن يغادر: «سيأتيك الطعام. لن يقول أحد إن سجناء ماناتور يعانون من سوء التغذية. فقوانين ماناتور عادلة».

ما إن خفتت أصوات ابتعادهم، حتى زحف جيك من فوق أكتاف رايكوره وهرع إلى الجحر الذي أخفى فيه المفتاح. أحضر المفتاح، وفك القيد من حول كاحل المخلوق، ثم أغلق القفل فارغًا وحمل المفتاح بعيدًا في أسفل الجحر، ثم عاد إلى مكانه فوق كتفي خادمه الذي يفتقر إلى العقل. سمع بعد فترة قصيرة صوت خطوات تقترب، وعندئذ نهض وسار إلى ممر آخر غير ذلك الممر الذي يعرف أن المحارب قادمًا منه. وهنا انتظر، بعيدًا عن الأنظار، واستمع. سمع الرجل يدخل الغرفة ويتوقف، ثم سمع همهمة تعجُب، تلاها ضجيج أطباق معدنية ناتج عن ارتطام الصينية بالطاولة، ثم خطوات تتراجع بسرعة وتتلاشى عن بُعد.

لم يُضِع جيك أي وقت للعودة إلى الغرفة واسترداد المفتاح، ثم إعادة تقييد الرايكور إلى السلسلة. أعاد المفتاح إلى الجحر، وجثم على الطاولة بجوار جسمه مقطوع الرأس، مع توجيه يدي الرايكور نحو الطعام. بينما كان الرايكور يأكل، جلس جيك منصتًا لأصوات احتكاك الصنادل بالأرض وقعقعة الأسلحة؛ لأنه كان يعلم أن المحاربين سيأتون قريبًا. ولم يطل انتظاره. انطلق جيك نحو أكتاف رايكوره عندما سمعهم قادمين. مرة أخرى كان الضابط الذي استدعاه يوفان من قبل، ومعه ثلاثة محاربين. من الواضح أن المحارب الذي يقف خلفه مباشرة هو نفس الشخص الذي جلب الطعام؛ إذ اتسعت عيناه عندما شاهد جيك جالسًا على الطاولة. وقد بدا مظهره كالأبله، عندما وجه الدوار نظرة صارمة نحوه.

صاح قائلاً: «لقد قلت الحقيقة، لم يكن هنا عندما أحضرت له الطعام».

قال الضابط بتجهم: «لكنه هنا الآن، والقفل مغلق حول كاحله. انظر! القفل غير مفتوح … ولكن أين المفتاح؟ يجب أن يكون في نهاية الطاولة». ثم صاح موجهًا حديثه إلى جيك: «أين المفتاح، أيها المخلوق؟».

أجاب جيك بحسم: «كيف يمكن لسجين مثلي أن يعرف أفضل من السجان مكان مفتاح أغلالي؟».

صاح الضابط وهو يشير إلى الجانب الآخر من الطاولة: «لكنه كان هنا».

سأله جيك: «هل رأيته؟».

تردد الضابط، ثم قال: «كلا، لكنه كان يجب أن يوجد هناك».

أشار جيك إلى محارب آخر وسأله: «هل رأيت المفتاح هناك؟».

هز المحارب رأسه سلبًا، واستمر الكلديني يسأل الآخرين: «وأنت؟ وأنت؟».

أقر المحاربان بعدم رؤيتهما أبدًا للمفتاح. وهنا واصل جيك قائلاً: «وحتى إن كان المفتاح هناك، كيف يمكنني أن أصل إليه؟».

قال الضابط: «كلا، لا يمكنه أن يصل إليه، ولكن كفى، ما من مزيد! سوف تظل هنا يا أيزاف في حراسة هذا السجين إلى أن أعفيك من الحراسة».

لم يكن أيزاف سعيدًا بإحالة هذه المهمة إليه، ونظر إلى جيك بارتياب، بينما الدوار والمحاربين الآخرين يغادرون الغرفة ويتركوه لمصيره التعيس.

* * *

الفصل (13)

تصرف يائس

عبر إيميد غرفة البرج في اتجاه تارا الهيليومية والفتاة الأَمَة، لانو، وأمسك بتارا من كتفها وقال آمرًا: «قِفِي!». ضربت تارا يده وأزاحتها عن كتفها، ثم نهضت وتراجعت إلى الوراء.

وحذرته قائلة: «إياك أن تضع يدك على شخص أميرة هيليوم، أيها الوحش!».

ضحك إيميد، وسألها: «هل تعتقدين أنني ألعب الجيتان من أجلك دون أن أعرف أولًا الرهان الذي ألعب من أجله؟ تعالي هنا».

وقفت الفتاة معتدلة بكاملها ولفت ذراعيها حول صدرها، دون أن يلاحظ إيميد أنها أدخلت أصابعها الرفيعة في يدها اليمنى تحت الحزام الجلدي العريض لعتادها، حيث مرت فوق كتفها الأيسر.

صاحت الفتاة الأَمَة: «سوف تندم عندما يعلم أوتار بذلك، يا إيميد؛ فلا يوجد في ماناتور أي قانون يمنحك هذه الفتاة قبل أن تفوز بها بعدالة».

أجاب إيميد: «وهل يهتم أوتار بمصيرها؟ ألم أسمع؟ ألم تهزأ بالجيداك العظيم، وانهالت عليه بالإهانات؟ باسم سلفي الأول، أعتقد أن أوتار سوف يمنح لقب جِد للرجل الذي يقهرها»، ثم تقدم مرة أخرى نحو تارا.

قالت الفتاة بنبرة منخفضة هادئة: «انتظر! ربما لا تعرف ما تفعله. تُعتبر شخصيات نساء هيليوم مقدسات بالنسبة لشعب هيليوم. فمن أجل شرف أكثرهن تواضعًا، سوف يشهر الجيداك العظيم نفسه سيفه. وقد ارتعدت أعظم أمم برسوم من هدير الحرب دفاعًا عن شخص ديجاه ثوريس، والدتي. ونحن لسنا سوى بشر، ولذا نموت، لكننا لا نُدنس. يمكنك أن تلعب الجيتان للفوز بأميرة هيليوم، لكنك حتى إن فزت في المباراة، لن يمكنك المطالبة بالجائزة. إذا كنت تريد امتلاك جسم ميت، يمكنك مهاجمتي، على أن تعرف أيها الرجل من ماناتور أن دماء أمير الحرب لا تتدفق هباء في عروق تارا الهيليومية. لقد أنهيت حديثي».

أجاب إيميد: «لا أعرف أي شيء عن هيليوم، وأوتار هو أمير الحرب لدينا، لكنني أعرف أنني سأختبر عن قرب الجائزة التي سألعب من أجلها وأفوز. سأختبر شفتي المرأة التي ستصبح عبدتي بعد دورة الألعاب القادمة؛ وليس من الجيد، يا امرأة، أن تدفعيني إلى الغضب». ضاقت عيناه وهو يتحدث، واتخذ وجهه سيماء وحش مزمجر، ثم أضاف: «إذا كنت تشكين في صحة كلامي، يمكنك أن تسألي لانو، الفتاة الأَمَة».

قاطعته لانو قائلة: «ما يقوله صحيح، يا أميرة هيليوم، حاولي عدم إثارة غضب إيميد إذا كنت تُقدرين قيمة حياتك».

لكن تارا الهيليومية لم ترد؛ فقد أنهت حديثها. تقف الآن صامتة في مواجهة محارب قوي البنية يقترب نحوها. اقترب منها، وأمسك بها فجأة، ثم وانحنى في محاولة تقريب شفتيه من شفتيها.

رأت لانو المرأة الهيليومية تلتف نصف دورة، وتهز بحركة سريعة يدها اليمنى من حيث وضعتها فوق صدرها. ورأت اليد تبرز من أسفل ذراع إيميد وترتفع خلف كتفه، ورأت في اليد نصلاً طويلاً رفيعًا. كانت شفاه المحارب تقترب من شفتي المرأة، لكنها لم تمسها قط؛ إذ اعتدل الرجل فجأة بصعوبة وصرخة على شفتيه، ثم انهار كفراء فارغ ورقد ككومة منكمشة على الأرض. انحنت تارا الهيليومية، ومسحت نصلها على عتادها.

اتسعت أعين لانو وهي تنظر برعب إلى الجثة، وصاحت: «سيموت كلانا بسبب ذلك».

سألتها تارا: «ومن سيعيش عبدًا في ماناتور؟».

قالت الفتاة الأَمَة: «أنا لست شجاعة مثلك، والحياة حلوة والأمل موجود دائمًا».

قالت تارا: «الحياة حلوة، لكن الشرف مقدس. لا تخافي. عندما يأتون، سأخبرهم بالحقيقة: إنك ليس لديك يد فيما حدث، ولم تكن أمامك أي فرصة لمنعه».

استغرقت الفتاة الأَمَة للحظات في تفكير عميق، وفجأة لمعت عيناها. قالت: «ربما توجد طريقة تُبعد عنا الشك. لديه مفتاح هذه الغرفة، لنفتح الباب ونسحبه إلى الخارج ... ربما نجد مكانًا نخفيه فيه».

صاحت تارا: «جيد!»، وبدأت الاثنتان على الفور في تنفيذ ما اقترحته لانو. عثرت الفتاتان بسرعة على المفتاح، وفتحتا الباب، ثم قامتا بنقل جثة إيميد، بحملها جزئيًّا وجرها جزئيًّا، من الغرفة وأسفل الدرج إلى المستوى التالي حيث توجد غرف شاغرة كما

قالت لانو. فُتِح أول باب، وأدخلت الفتاتان من خلاله حملهما الرهيب إلى غرفة صغيرة تضيئها نافذة واحدة. ضمت المكان دلائل على استخدامه من قبل كغرفة معيشة وليس زنزانة، حيث كان فرشها يتسم بالراحة والرفاهية. كانت الجدران مغطاة بألواح يصل ارتفاعها إلى حوالي سبعة أقدام من الأرض، بينما كانت لوحات باهتة تعود لزمن قديم تزين الجبس أعلى الألواح وفي السقف.

تجولت أعين تارا سريعًا داخل الغرفة، ولفت انتباهها قسم من الألواح التي يمكن فصلها من إحدى حوافها عن اللوح المجاور. أسرعت نحو هذا القسم، واكتشفت أن حافة رأسية للوح كامل تبرز نصف بوصة عن باقي الألواح. أثار تفسير محتمل فضولها، وبناء عليه أمسكت الحافة البارزة وسحبتها إلى الخارج. تأرجح اللوح ببطء نحوها، كاشفًا عن فتحه مظلمة في الحائط وراءه.

صاحت: :انظري، لانو! انظري ماذا وجدت. إنها فتحة يمكن أن نخفي فيها هذا الشيء المُلقى على الأرض».

انضمت إليها لانو، وفحصتا معًا الفتحة المظلمة. وجدت الفتاتان منصة صغيرة يخرج منها مدرج ضيق، يهبط نحو ظلام دامس جهنمي. غطى التراب الكثيف أرضية المدخل، ما يشير إلى انقضاء فترة زمنية كبيرة منذ أن خطت عليه قدم بشرية – إنه طريق سري، بلا شك، غير معروف لسكان ماناتور الحاليين. قامت الفتاتان بجر جثة إيميد، ووضعها فوق المنصة، ثم مغادرة الغرفة الصغيرة المظلمة والمحرمة، وكان يمكن أن تغلق لانو اللوح، إن لم تمنعها تارا.

قالت: «انتظري!»، وانحنت لتختبر إطار الباب وفتحته».

همست الأَمَة: «أسرعي! إذا جاءوا، سينتهي أمرنا».

أجابت تارا: «قد تفيدنا معرفة كيف نفتح هذا المكان مرة أخرى»، ثم ضغطت فجأة قدمًا ضد قسم من القاعدة المنحوتة على يمين اللوح المفتوح. «آه!»، تنفست بارتياح وأغلقت اللوح إلى أن عاد إلى مكانه بإحكام. قالت: «تعالي!»، واستدارت نحو مدخل الغرفة الخارجي.

وصلت الفتاتان إلى زنزانتهما دون أن يكشفهما أحد. أغلقت تارا الباب وقفلته بالمفتاح من الداخل، ثم وضعت المفتاح في جيب سري في عتادها.

وقالت: «ليأتوا، ويستجوبونا! ماذا يمكن أن تعرف سجينتان ضعيفتان عن مكان وجود سجانهما النبيل؟ أنا أسألك يا لانو، ماذا يمكنهما أن يعرفا؟».

أجابت لانو، وهي تبتسم: «لا شيء».

سألتها تارا الآن: «أخبريني عن هؤلاء الرجال، رجال ماناتور. هل جميعهم مثل إيميد، أم بعضهم مثل أكور الذي يبدو شجاعًا وشهمًا؟».

أجابت لانو: «إنهم لا يختلفون عن شعوب البلدان الأخرى. بينهم الجيد والسيئ. وهم محاربون شجعان وأقوياء. وفيما بينهم، لا يفتقرون إلى الشهامة والشرف، وإنما في تعاملهم مع الغرباء، لا يعرفون سوى قانون واحد: قانون القوة. يملؤهم الضعفاء والبائسين من الأراضي الأخرى بالازدراء، ويثيرون أسوأ ما في طبيعتهم، مما يتسبب دون شك في معاملتنا كعبيد».

سألت تارا: «ولكن لماذا يشعرون بالاحتقار تجاه من أوقعهم سوء حظهم في أيديهم؟».

أجابت لانو: «لا أعرف، يعتقد أكور أن ذلك يرجع إلى أن بلدهم لم تتعرض أبدًا لغزو عدو منتصر. لم يُهزموا أبدًا في غاراتهم الخفية، لأنهم لا ينتظرون أبدًا لمواجهة قوات قوية، ولذا أصبحوا يعتقدون أنهم لا يُقهرون، ويحتقرون الشعوب الأخرى باعتبارها أدنى منهم من حيث البسالة واستخدام السلاح».

قالت تارا: «مع ذلك، أكور هو واحد منهم».

أجابت لانو: «إنه ابن أوتار، الجيداك، لكن والدته من عائلة نبيلة في جاثول، وأسرها أوتار وجعلها أَمَة. وأكور يفتخر بأن عروقه لا تحمل سوى دم والدته، وهو يختلف في الواقع عن الآخرين. إن شهامته تتخذ شكلاً ألطف، رغم أن أسوأ عدو له لا يجرؤ حتى على التشكيك في شجاعته، بينما تشتهر مهارته بالسيف، والرمح، والثوات على طول وعرض ماناتور».

سألت تارا: «ماذا تعتقدين أنهم سيفعلون معه؟».

أجابت لانو: «الحكم عليه بالاشتراك في المباريات. وإذا لم يكن غضب أوتار منه شديدًا، فسيحكم عليه بمباراة واحدة، وفي هذه الحالة قد يخرج منها على قيد الحياة، أما إذا كان أوتار يرغب حقًّا في التخلص منه، فسوف يحكم عليه بسلسلة المباريات كاملة، ولم يتمكن أي محارب من قبل من النجاة خلال العشر مباريات الكاملة، أو بالأحرى من كان محكومًا عليه من أوتار».

قالت تارا: «ما هي المباريات؟ أنا لا أفهم. سمعتهم يتحدثون عن لعبة الجيتان، ولكن لا أحد يمكن أن يُقتل في هذه اللعبة بالتأكيد. نحن نلعبها كثيراً في المنزل».

أجابت لانو: «ولكن ليس كما يلعبونها في ساحة ماناتور. تعالي إلى النافذة». اقتربت الفتاتان من فتحه تواجه الشرق.

نظرت تارا إلى أسفل، ورأت ساحة كبيرة يحيط بها بالكامل مبنى منخفض، والأبراج الشاهقة التي كان البرج المسجونة فيه تارا ليس سوى أحد وحداتها. توجد حول الساحة صفوف من المقاعد المتدرجة، لكن الشيء الذي أثار اهتمامها كان رقعة جيتان عملاقة، وُضعت على أرضية الساحة بمربعات كبيرة باللونين البرتقالي والأسود على التبادل.

«يلعبون الجيتان هنا، بقطع حقيقية. يلعبون على رهانات كبيرة، وعادة ما تكون على امرأة - أَمَة ذات جمال استثنائي. كان يمكن أن يلعب أوتار نفسه للفوز بكِ، إن لم تغضبيه. أما الآن، سيلعب العبيد والمجرمون للفوز بك، وسوف تُقام مباراة مفتوحة، وأنت سوف تنتمين إلى الجانب الذي يفوز - ليس لمحارب واحد، ولكن لكل من يبقى حيًّا عند انتهاء اللعبة».

لمعت أعين تارا، لكنها لم تُعلِق.

واصلت الأَمَة كلامها: «من يوجهان اللعبة، لا يشاركان فيها بالضرورة، بل يجلسان على هذين العرشين الكبيرين اللذين تشاهدين كلاًّ منهما عند أحد نهايتي الرقعة، ويوجه كل منهما قطعه من مربع إلى آخر».

سألتها تارا: «ولكن، أين يكمن الخطر؟ إذا أُخِذت قطعة، فهي تُزال من الرقعة - هذه هي قاعدة الجيتان، وهي قاعدة قديمة بمثل قِدم حضارة برسوم تقريبًا».

أوضحت لانو: «هنا في ماناتور، عندما يلعبون في الساحة الكبرى ويستخدمون الرجال الأحياء بدلاً من قطع اللعب، تتغير القاعدة. عندما ينتقل محارب إلى مربع تشغله قطعة معارضة، تدور معركة بين الاثنين حتى الموت من أجل الحصول على المربع، والذي ينجح هو من يفوز بالمربع. يرتدي كل منهم ما يحاكي القطعة التي يمثلها، كما يضع ما يشير إلى كونه عبدًا، أو محاربًا يقضي حكمًا بالسجن، أو متطوعًا. وإذا كان يقضي حكمًا بالسجن، يُشار أيضًا إلى عدد المباريات التي يجب أن يلعبها. وهكذا، يعرف الشخص الذي يوجه التنقل ما القطع التي يمكنه المخاطرة بها، والقطع التي يجب أن يحافظ عليها. والأكثر من ذلك

أن فرص الرجل تتأثر بالموضع المحدد له في اللعبة. فهم يضعون من يرغبون في موتهم في موقع البانتان دائمًا، لأن البانتان لديه أقل فرصة للبقاء حيًّا».

سألت تارا: «ألا يشارك أبدًا في اللعبة من يوجهونها؟».

قالت لانو: «أوه، نعم. غالبًا عندما يتقدم محاربان، حتى إن كانا من أعلى درجة، بشكوى ضد أحدها الآخر، فإن أوتار يجبرهما على تسوية الأمر على الساحة. وعندئذ يشاركان بنشاط، ويوجهان بسيفيهما لاعبيهم من موقع القائد. يختار كل منهما لاعبيه، وعادة أفضل محاربيه وعبيده إذا كانوا أقوياء، أو قد يتطوع أصدقاؤهما، أو يمكنهما الحصول على سجناء من الحُفر. إنها مباريات بالفعل، أفضل ما يمكن مشاهدته. وفي أحيان كثيرة، يقتل القادة أنفسهم».

سألت تارا: «هل تتحقق داخل هذه الساحة المدرجة عدالة ماناتور؟».

أجابت لانو: «إلى حد كبير».

واصلت الفتاة الهيليومية: «كيف يمكن إذن أن يفوز سجين بحريته من خلال هذه العدالة؟».

أجابت لانو: «إذا كان رجلاً، وتمكن من النجاة في عشر مباريات، فإنه يفوز بحريته».

سألت تارا: «وهل نجا أحد؟ وماذا إن كانت امرأة؟».

أجابت الأَمَة: «لم ينج أي غريب داخل بوابات ماناتور أبدًا في عشر مباريات. يُسمح لهم بمنح أنفسهم للعبودية الأبدية إذا كانوا يفضلون ذلك على القتال في مباراة جيتان. يمكن، بطبيعة الحال، استدعاؤهم كأي محارب للمشاركة في المباراة، وعندئذ تزداد فرص بقائهم أحياء لأنهم قد لا يجدون أي فرصة أخرى أبدًا للفوز بالحرية».

سألت تارا بإصرار: «وإن كانت امرأة، كم عدد النساء اللاتي فزن بحريتهن؟»

ضحكت لانو.

وقالت بسخرية: «المسألة بسيطة، ليس عليها سوى أن تجد محاربًا يقاتل من أجلها في عشر مباريات متتالية ويبقى على قيد الحياة».

قالت تارا بازدراء، وهي تكرر كلام أوتار: «قوانين ماناتور عادلة».

ثم سمعت الفتاتان صوت خطوات خارج زنزانتهما، وبعد لحظة فُتِح مفتاح القفل والباب. وقف أمامهما محارب.

وسأل: «هل رأيتما إيميد، الدوار؟».

أجابت تارا: «نعم، كان هنا منذ فترة».

ألقى الرجل نظرة سريعة حول الغرفة، ثم نظر إلى تارا وبعدها إلى الفتاة الأَمَة لانو. زاد تعبير الحيرة على وجهه. هرش في رأسه وقال: «يا له من أمر غريب! رآه عشرة رجال يصعد إلى هذا البرج، وعلى الرغم من وجود مخرج واحد فقط، يخضع لحراسة جيدة، لم يره أي رجل يخرج».

أخفت تارا تثاؤبها بظهر يدها الرشيقة، وقالت: «أميرة هيليوم جائعة، قل لسيدك إنها تريد أن تأكل».

وصل الطعام بعد ساعة، صاحب ضابط وعدد من المحاربين حامل الطعام. بحث الضابط في الغرفة بعناية، لكنه لم يجد أي دليل على حدوث أي شيء. من حسن حظ تارا أن الجرح الذي أرسل إيميد إلى أسلافه لم ينزف.

«يا امرأة»، صاح الضابط موجهًا كلامه إلى تارا، «لقد كنت آخر من رأى الدوار إيميد. أجيبيني الآن، وبصدق. هل رأيتِه يغادر هذه الغرفة؟ وإلى أين ذهب؟».

ردت الفتاة بازدراء: «كيف لي أن أعرف؟ هل تعتقد أن بإمكاني الخروج من باب مغلق مصنوع من خشب السكيل؟».

قال الضابط: «لا نعرف. فقد حدثت أشياء غريبة في زنزانة رفيقك في حفر ماناتور. ربما يمكنك المرور عبر باب مغلق مصنوع من خشب السكيل، بنفس سهولة قيامه بأعمال تبدو مستحيلة».

صاحت: «من تقصد، البانتان توران؟ هو حي إذن؟ قل لي، هل هو هنا في ماناتور سالم؟».

أجاب الضابط: «أنني أتكلم عن هذا الشيء الذي يُسمي نفسه جيك الكلديني».

سألته: «لكن توران! قل لي، يا بادوار، هل سمعت أي شيء عنه؟». كان الإصرار واضحًا في نبرة تارا، وانحنت قليلاً إلى الأمام نحو الضابط، وافترقت شفتاها قليلاً على أمل.

تسلل ضوء ناعم ينم عن الفهم إلى أعين الفتاة الأَمَة لانو، التي كانت ترقب تارا، لكن الضابط تجاهل سؤال تارا، فما أهمية مصير عبد آخر بالنسبة له؟ وقال متذمرًا: «الرجال لا يختفون في الهواء، وإن لم نجد إيميد، سرعان ما يتولى أوتار الأمر بنفسه. أود أن أحذرك يا امرأة، إذا كنت واحد من أولئك الكورفال[119] المروعين، الذين يمكنهم اكتساب سيطرة شريرة على الأحياء من خلال الاستحواذ على أرواح الموتى، كما يعتقد الكثيرون أن هذا هو حال الشيء المُسمَّى جيك، فإن أوتار لن يرحمك إن لم تُعيدي إيميد».

صاحت الفتاة: «ما هذه الحماقة؟ أنا أميرة هيليوم، كما قلت لكم جميعًا عشرات المرات. وحتى إذا كان الكورفال الأسطوريون موجودين، كما يعتقد الآن أكثر الناس جهلاً، فإن تقاليد القدماء تخبرنا أنهم لا يدخلون إلى جثث المجرمين الأشرار من أدنى فئة. هل أنت أحمق، أيها الماناتوري، وهل الجيداك وجميع هؤلاء الناس حمقى»، ثم أدارت ظهرها الملكي للبادوار، وأخذت تحدق من خلال النافذة إلى ساحة الجيتان وأسطح ماناتور عبر التلال المنخفضة، والبلد المتعرج، والحرية.

صاح البادوار: «إذن تعرفين الكثير عن الكورفال، تعرفين أنه في حين لا يجرؤ الرجل العادي على إيذائهم، فإن أيدي الجيداك ذات الحصانة يمكنها أن تقتلهم!».

لم ترد الفتاة على تهديداته وغضبته، ولم تكن تنوي التكلم مرة أخرى، فقد أصبحت تعرف الآن أنه لا أحد في ماناتور كلها قد يجرؤ على الإضرار بها إلا الجيداك أوتار. غادر البادوار بعد فترة، وأخذ رجاله معه. وبعد ذهابهم، وقفت تارا لفترة طويلة تتطلع إلى مدينة ماناتور، وتتساءل عما يخبئه لها مصيرها من قسوة. كانت تقف في تأمل صامت عندما تناهى إلى سمعها أصوات موسيقى عسكرية قادمة من المدينة في أسفل - نغمات شجية عميقة لأبواق الحرب الطويلة، ورنين موسيقى جنود المشاة. رفعت الفتاة رأسها ونظرت، واستمعت، ووقفت عند النافذة المقابلة تنظر في اتجاه الغرب، وطلبت من تارا أن تنضم إليها. يمكنهما الآن، عبر السقوف والطرق المؤدية إلى بوابة الأعداء، رؤية الجنود الذين يعبرون تلك البوابة ويدخلون المدينة.

قالت لانو: «الجِد الأكبر سيأتي. لا يجرؤ أحد غيره على الدخول، بأصوات الأبواق الصارخة، إلى مدينةَ ماناتور. إنه يوثور، جد مدينة ماناتوس، المدينة الثانية في ماناتور. يسمونه على طول ماناتور وعرضها الجد َالأكبر، لأن الناس يحبونه، لكن أوتار يكرهه. يقول العالِمين ببواطن الأمور إن الوضعَ لا يحتاج إلى أكثر من استفزاز طفيف لإشعال

(119) كورفال: روح شريرة يعتقد سكان ماناتور أنها تطارد سراديب الموتى في مدينتهم وتسعى إلى امتلاك جثثهم، وبالتالي يقوم الماناتوريون بتحنيط أجسادهم بعد موتهم حتى لا تستخدمها هذه الروح الشريرة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Corphal - المترجمة.

الحرب بينهما. وليس بمقدور أحد تخمين كيف يمكن أن تنتهي مثل هذه الحرب؛ ذلك أن شعب ماناتور يعبد أوتار العظيم، على الرغم من أنهم لا يحبونه. وهم يحبون يوثور، لكنه ليس الجيداك». فهمت تارا جيدًا، ذلك أن المريخيين وحدهم هم من يستطيعون إدراك ما تعنيه هذه العبارات البسيطة.

يُعد ولاء المريخي إلى جيداك بلده بمثابة غريزة تقريبًا، لا تأتي حتى في المرتبة الثانية بعد غريزة الحفاظ على الذات، وليس هذا بغريب لدى عِرق تضم ديانته عبادة الأسلاف، وتقتفي العائلات أصولها إلى عصور بعيدة، ويجلس الجيداك على العرش نفسه الذي شغله أسلافه لعدد ربما يصل إلى مئات الآلاف من السنين، ويحكم أحفاد الشعب

نفسه الذي حكمه أجداده. كان أي جيداك شرير يلقى مصير الخلع من العرش، ولكن نادرًا ما يحل محله أي شخص آخر غير واحد من أعضاء البيت الإمبراطوري، على الرغم من أن القانون يعطي الجِد الحق في اختيار من يحلو له.

سألت تارا: «هل يوثور رجل عادل وجيد؟».

أجابت لانو: «لا يوجد من هو أكثر نبلاً منه. في ماناتوس، لا يُجبر أحد على لعب الجيتان إلا المجرمين الأشرار الذين يستحقون الموت. وحتى عندما يلعبون، تكون المباراة عادلة ولديهم الفرصة للفوز بالحرية. قد يلعب المتطوعون، لكن التنقلات لا تؤدي بالضرورة إلى الموت - قد تؤدي إلى جرح، وحتى في بعض الأحيان تحسم نقاط في مبارزة هذه المسألة. ينظرون هناك إلى الجيتان كرياضة قتالية، لكنها هنا مجزرة. كما يعارض يوثور غارات العبيد القديمة والسياسة التي تُبقي ماناتور معزولة إلى الأبد عن بلدان برسوم الأخرى، لكن يوثور ليس الجيداك، ولذا لا يحدث أي تغيير».

شاهدت الفتاتان الطابور يتحرك على طول الطريق الواسع من بوابة الأعداء في اتجاه قصر أوتار. موكب بربري رائع، يضم محاربين توجد على أجسامهم ألوان ورسوم، وعتادهم مرصع بالجواهر ويلوحون بالريش، وحيوانات الثوات التي تئن في أغطيتها المزركشة بثراء، وفي أعلى ترفرف رايات على الرماح الطويلة التي يحملها راكبو الثوات، ويتحرك جنود المشاة بسهولة على طول الرصيف الحجري، وصنادلهم المصنوعة من جلد الزيتيدار لا تُصدر أي صوت، وخلف كل أوتان تسير سلسلة من العربات المطلية، عليها رسوم لحيوانات الزيتيدار العملاقة، وتحمل معدات المجموعة التي أمامهم. دخل أوتان بعد أوتان عبر البوابة الكبيرة، وحتى عندما وصل رأس الطابور إلى قصر أوتار، لم يكن دخول القافلة برمتها إلى المدينة قد اكتمل.

قالت لانو: «أنا هنا منذ سنوات عديدة، لكني لم أشهد أبدًا الجِد الأكبر يجلب هذا العدد الكبير من المقاتلين إلى مدينة ماناتور».

شاهدت تارا بأعين نصف مغلقة المحاربين يسيرون عبر الطريق الواسع، وحاولت أن تتخيل أنهم مقاتلي بلدها الحبيب هيليوم، قادمين لإنقاذ أميرتهم. قد يكون هذا الشخص الرائع فوق الثوات الكبير هو جون كارتر نفسه، أمير الحرب في برسوم، وخلفه أوتان بعد أوتان من قدامى المحاربين في الإمبراطورية، ثم فتحت الفتاة عينيها ثانية ورأت حشد البرابرة ذوي الرسوم الملونة الذين يرتدون الريش، وتنهدت. لكنها واصلت مشاهدتها لهم؛ إذ فتنها المشهد العسكري. ولاحظت الآن، مرة أخرى، مجموعات الشخصيات الصامتة على الشرفات. لا يلوحون بالحرير، ولا يطلقون صيحات الترحيب، ولا يلقون الزهور والمجوهرات، كما قد يميز دخول مثل هذا الموكب الودي الباهر إلى إحدى مدينتي هيليوم التوأم.

قالت للانو: «يبدو الناس غير ودودين تجاه محاربي ماناتوس، فلم أشهد علامة ترحيب واحدة من الناس على الشرفات».

نظرت إليها لانو في دهشة وقالت: «إنك إذن لا تعرفين! السبب هو ...» لكنها لم تستكمل حديثها؛ فقد تأرجح الباب منفتحًا، ووقف أمامهما ضابط.

أعلن الضابط: «الجيداك أوتار يستدعي الفتاة الأَمَة وتارا للمثول أمامه».

* * *

الفصل (14)

تحت قيادة جيك

كان البانتان توران غاضبًا في سلاسل قيده. الوقت يمر، أطال الصمت والرتابة الدقائق إلى ساعات، كما أن عدم يقينه من مصير المرأة التي يحبها أحال كل ساعة إلى جحيم أبدي. كان يتوق بفارغ الصبر إلى سماع صوت اقتراب خطوات، ورؤية أي مخلوق حي والتحدث إليه، لربما يعرف مصادفة أي شيء عن تارا الهيليومية. بعد ساعات مُعذِبة، تناهى إلى سمعه قعقعة عتاد وأسلحة، هناك رجال قادمون! انتظر في تلهف، ربما كانوا جلاديه، لكنه سيرحب بهم، ويسألهم. وإذا كانوا لا يعرفون أي شيء عن تارا، فلن يُفصح عن مكان الاختباء حيث تركها. وصلوا الآن، نصف دزينة من المحاربين ومعهم ضابط، يصحبون رجلاً أعزل، إنه سجين، دون شك. لم تستمر شكوك توران طويلاً، فقد أحضروا الوافد الجديد وقيدوه بالسلاسل المتدلية من الحلقة المجاورة. وعلى الفور بدأ البانتان في سؤال الضابط المسؤول عن الحرس.

«قل لي، لماذا تسجنونني، وهل أمسكتم بغرباء آخرين منذ دخولي مدينتكم».

سأله الضابط: «أي سجناء آخرين؟».

أجاب توران: «امرأة، ورجل برأس غريب».

قال الضابط: «من الممكن، ولكن ما أسماءهم؟».

«المرأة اسمها تارا، أميرة هيليوم، والرجل جيك، كلديني، من بانتوم».

سأله الضابط: «هل هم أصدقاؤك؟».

أجاب توران: «نعم».

قال الضابط: «هذا ما أود أن أعرفه»، ثم أصدر أمرًا مقتضبًا لرجاله كي يتبعوه، واستدار لمغادرة الزنزانة.

صاح توران: «أخبرني عنهم! أخبرني عن تارا الهيليومية! هل هي آمنة؟»، لم يجب الضابط، وسرعان ما اختفى صوت مغادرتهم مع ابتعادهم.

قال السجين المقيد بالسلاسل بجوار توران: «تارا الهيليومية آمنة، ولكن هذا منذ وقت قصير».

استدار البانتان تجاه المتكلم، ورأى رجلاً ضخمًا، وسيم الوجه، ويتمتع بأسلوب وقور وكريم. سأله: «هل رأيتها؟ إذن أسروها؟ هل هي في خطر؟».

أجاب السجين الجديد: «يحتجزونها في أبراج جيتان كجائزة في المباريات القادمة».

سأله توران: «ومن أنت؟ ولماذا أنت هنا، سجين؟».

أجاب السجين: «أنا الدوار أكور، حارس أبراج جيتان. وأنا هنا لأنني تجرأت وتحدثت عن حقيقة الجيداك أوتار مع أحد ضباطه».

سأله توران: «وما عقوبتك؟».

«لا أعرف. لم يقل أوتار بعد. لا شك ستكون المباريات، ربما المباريات العشر كاملة، ذلك أن أوتار لا يحب ابنه أكور».

سأله توران: «أنت ابن الجيداك؟».

«أنا ابن أوتار وأَمَة اسمها هاجا الجاثولية، التي كانت أميرة في بلدها».

نظر توران إلى المتحدث متفحصًا. ابن هاجا الجاثولية! أي أنه ابن شقيقة والدته، إذن هذا الرجل هو ابن خالته. تذكر جاهان اختفاء الأميرة هاجا الغامض ومعها أوتان كامل من قواتها الشخصية. كانت في زيارة بمنطقة بعيدة عن مدينة جاثول، واختفت خلال رحلة عودتها هي وحراسها بالكامل. أليس هذا إذن هو سر ذلك الاختفاء الغامض؟ هذا

يُفسر دون شك العديد من حالات الاختفاء المماثلة الأخرى، التي تمتد تقريبًا بامتداد تاريخ جاثول. تفحص توران رفيقه، واكتشف أدلة تشابه كثيرة مع شعب والدته. ربما أكور أصغر منه بعشر سنوات، لكن هذه الاختلافات العُمرية نادرًا ما تؤخذ في الحسبان بين من قلما يشيخون، أو لا يشيخون أبدًا، من حيث مظهرهم الخارجي بعد نضوجهم، وقد تمتد فترة حياتهم إلى ألف سنة.

سأله توران: «وأين تقع جاثول؟».

أجاب أكور: «تقريبا على خط مستقيم شرق ماناتور».

«وكم تبعُد؟».

أجاب أكور: «حوالي واحد وعشرين درجة من مدينة ماناتور إلى مدينة جاثول، ولكن أكثر قليلاً من عشر درجات بين حدود البلدين. ويقع بينهما بلد من صخور ممزقة وفجوات مفتوحة».

يعرف جاهان جيدًا هذا البلد الذي يحد بلده من الغرب. وتتجنبها حتى السفن الفضائية بسبب التيارات الغادرة التي ترتفع من الفجوات العميقة، فضلاً عن عدم إمكانية الهبوط الآمن على الإطلاق. يعرف الآن أين تقع ماناتور، ويعرف للمرة الأولى خلال أسابيع طويلة الطريق إلى بلده جاثول. وهنا معه رجل، سجين آخر، تتدفق في شرايينه دماء أجداده، رجل يعرف ماناتور، يعرف شعبها وأعرافه والبلدان المحيطة بها؛ ويمكنه مساعدته، على الأقل بتقديم المشورة، لإيجاد خطة لإنقاذ تارا الهيليومية والهرب. ولكن، هل سيوافق أكور، إذا تجرأ وفتح معه هذا الموضوع؟ ليس أمامه سوى أن يحاول.

سأله: «هل تعتقد أن أوتار سيحكم عليك بالإعدام؟ ولماذا؟».

أجاب أكور: «إنه يود ذلك، الشعب غاضب تحت قبضة يده الحديدية، وولاؤهم ليس سوى ولاء شعب إلى سلسلة طويلة من الجيداك اللامعين الذي ينحدر منهم. إنه رجل غيور، وقد وجد وسيلة للتخلص من معظم الذين تعطيهم دمائهم حق المطالبة بالعرش، والذين مكانتهم في وجدان الناس منحتهم أي أهمية سياسية. إن كوني ابن أَمَة، قد أنزلني إلى مرتبة أدنى، إلى موقع يتسم بأهمية بسيطة في نظر أوتار، ومع ذلك أنا لا زلت ابن جيداك، وقد أجلس على عرش ماناتور على قدم المساواة تمامًا مع أوتار نفسه. أضف إلى ذلك أن الناس في السنوات الأخيرة، لا سيما العديد من شباب المحاربين، قد أظهروا إعجابًا متناميًا تجاهي، وأنا أعزوه إلى بعض فضائل الشخصية والتدريب المستمدة من والدتي، لكن أوتار يفترض أنها نتيجة لطموحي نحو اعتلاء عرش ماناتور.

«والآن، أنا مقتنع تمامًا أنه انتهز فرصة انتقادي لمعاملته للفتاة الأَمَة تارا كذريعة للتخلص مني».

قال توران مقترحًا: «وماذا إن تمكنت من الفرار والوصول إلى جاثول».

استغرق أكور في تأمل، ثم قال: «لقد فكرت في ذلك، ولكن إلى أي مدى سيكون وضعي أفضل؟ لن أكون جاثوليًا في أعين الجاثوليين، بل سوف يرونني كأحد الغرباء، وسوف يعاملونني، دون شك، نفس المعاملة التي توليها ماناتور للغرباء».

قال توران: «إذا تمكنت من إقناعهم أنك ابن الأميرة هاجا، فسوف يرحبون بك قطعًا. ومن ناحية أخرى، يمكنك شراء الحرية والمواطنة بعد فترة قصيرة من العمل في مناجم الألماس».

سأله أكور: «كيف تعرف كل هذه الأشياء؟ كنت أعتقد أنك من هيليوم».

أجاب توران: «أنا بانتان، وقد خدمت في بلدان كثيرة، من بينها جاثول».

قال أكور وهو يفكر: «هذا ما أخبرني به العبيد من جاثول، وكذلك والدتي، قبل أن يرسلها أوتار لتعيش في ماناتوس. أعتقد أنه كان يخشى من سلطتها ونفوذها بين العبيد القادمين من جاثول ونسلهم، الذين ربما يصل عددهم إلى مليون شخص في جميع أنحاء أراضي ماناتور».

سأله توران: «وهل هؤلاء العبيد منظمون؟».

نظر أكور في أعين البانتان للحظة طويلة قبل أن يجيب، ثم قال: «أنت من الرجال الشرفاء؛ قرأت هذا في وجهك، ونادرًا ما يخطئ تقديري لرجل، ولكن ...»، ثم انحنى مقتربًا من توران وهمس في أذنه «حتى الجدران لها آذان»؛ وهكذا أجاب على سؤال توران.

جاء محاربون في وقت لاحق في المساء، وفتحوا قفل القيد من كاحل توران واقتادوه للمثول أمام الجيداك أوتار. اقتادوه نحو القصر خلال شوارع ضيقة متعرجة وطرقات واسعة. وكان ينظر نحوهم من الشرفات على الدوام عدد لانهائي من أناس هذه المدينة الصامتين. على أن القصر نفسه كان مليئًا بالحياة والنشاط؛ يركض المحاربون فوق حيواناتهم خلال الممرات، وصعودًا وهبوطًا في المدرجات التي تربط بين الطوابق المتجاورة. كان يبدو أنه لا أحد يسير داخل القصر باستثناء عدد قليل من العبيد. تضم قاعات رائعة بالقصر حيوانات الثوات المقاتلة ذات الأنين، بينما فرسانهم -إن لم يكونوا يؤدون بعض واجبات القصر- يلعبون الجيتان بأشكال صغيرة منحوتة من الخشب.

لاحظ توران روعة المعمار الداخلي للقصر والإنفاق السخي من المجوهرات والمعادن الثمينة، والرسوم الجدارية فائقة الجمال التي تصور على وجه الحصر تقريبًا مشاهد عسكرية، وأساسًا المبارزات التي يبدو أنها جرت فوق رقعة جيتان ذات حجم ضخم. وكانت تيجان العواميد العديدة التي تدعم أسقف الممرات والغرف التي يمرون بها تشبه قطع الجيتان – يوجد في كل مكان ما يوحي باللعبة. اقتادوا توران على طول نفس المسار الذي اقتادوا خلاله تارا الهيليومية نحو قاعة عرش الجيداك أوتار. وعندما

دخل إلى قاعة القادة، تحول اهتمامه إلى تعجُّب وإعجاب وهو ينظر إلى صفوف راكبي الثوات الأشبه بالتماثيل الذين يرتدون كامل دروعهم العسكرية الرائعة. لا يعتقد أنه رأى في برسوم من قبل شخصيات عسكرية أو حيوانات ثوات تدربت بهذا الإتقان المثالي على عدم الحركة مثل هؤلاء. لا ترتعش عضلة، ولا يتحرك ذيل، والفرسان الراكبين لا يتحركون مثلهم مثل ركوباتهم، تنظر كل عين محبة للحرب إلى الأمام مباشرة، وتميل الرماح الكبيرة بنفس الزاوية. إنها صورة تملأ صدر المقاتل بالرهبة والخشوع. لقد أثّر المشهد على توران وهم يقتادونه على طول القاعة، حيث وقف ينتظر أمام أبواب كبيرة إلى حين استدعائه للمثول أمام حاكم ماناتور.

* * *

عندما دخلت تارا إلى قاعة عرش أوتار، وجدتها قاعة كبيرة مليئة بقادة وضباط أوتار ويوثور، ويجلس يوثور في موقع الشرف أسفل العرش كما يتطلب العُرف. اقتادوا الفتاة عبر الممر، حيث توقفت أمام الجيداك الذي نظر إليها من فوق عرشه المرتفع وهو مقطب الحاجبين بأعين شرسة وقاسية.

وجه أوتار كلامه إليها قائلاً: «قوانين ماناتور عادلة، ولذا استدعيناك هنا مرة أخرى لتحاكمك أعلى سلطة في ماناتور. لقد وصلتني أحاديث تشتبه في أنك من الكورفال. ما قولك ردًّا على هذا الاتهام؟».

بالكاد ما تمكنت تارا من كبح جماح سخريتها وهي تجيب على هذه الاتهامات السخيفة بممارسة السحر. قالت: «تمتد ثقافة شعبي إلى عصور قديمة، ويكشف هذا التاريخ الأصيل عن عدم الدفاع عن شيء نعرف أنه لا يوجد إلا في العقول الجاهلة المؤمنة بالخرافات لدى شعوب الماضي الأكثر بدائية، ولأولئك السُّذج غير المتعلمين، الذين لا يزالون يعتقدون في وجود الكورفال، لا توجد حُجة لإقناعهم بخطأ اعتقادهم، وإنما يمكنهم الخروج من عبودية الجهل على مدار عصور طويلة من التهذيب والثقافة. لقد أنهيت حديثي».

قال أوتار: «إذن فأنت لا تنكرين التهمة».

ردت بغطرسة: «إنها لا تستحق شرف الإنكار».

قال صوت عميق بجانبها: «لو كنت مكانك، يا امرأة، لكنت مع ذلك أنكرتها».

استدارت تارا ورأت أعين يوثور، جِد ماناتوس الأكبر، تنظر نحوها. كانت أعينه شجاعة، لكنها ليست باردة ولا قاسية. ضربَ أوتار

على ذراع عرشه بصبر نافد، وصاح قائلاً: «ينسى يوثور أن أوتار هو الجيداك».

أجاب جِد ماناتوس: «يوثور يتذكر أن قوانين ماناتور تبيح لأي شخص يوجه إليه اتهام أن ينال النَصح والمشورة أمام قاضيه».

أدركت تارا لسبب ما أن هذا الرجل قد يساعدها، ولذا تصرفت بناء على نصيحته.

وقالت: «أنا أنفي هذه التهمة، أنا لست من الكورفال».

أسرع أوتار قائلاً: «سوف نعرف حول هذا الموضوع. يودور، أين أولئك الذين يعرفون بقوى هذه المرأة؟».

أحضر يودور العديدين الذين سردوا القليل الذي يعرفونه عن اختفاء إيميد، وغيرهم ممن تحدثوا عن القبض على جيك وتارا بما يوحي الاستنتاج أن وجودهما معًا يؤكد بشكل معقول أن كليهما سيئ، وبالتالي إدانة أحدهما بأنه كورفال تؤكد التهمة على الاثنين. طلب أوتار استدعاء جيك، وعلى الفور اقتاد المحاربون الكلديني البشع أمامه، وهم لا يخفون خوفهم من هذا المخلوق.

قال له أوتار بنبرة اتهام: «وأنت! لقد قيل لي بالفعل ما يكفي لتبرير طعن قلبك بسيف الجيداك. أخبروني كيف سرقت عقل المحارب يوفان بحيث تصور أنه شاهد جسمك مقطوع الرأس ولا يزال يتمتع بالحياة، وكيف تسببت في أن يعتقد محارب آخر أنك هربت، لأنك جعلته لا يرى أي شيء في غرفتك سوى المقعد الطويل والجدار».

«آه، يا أوتار، ولكن هذا لا شيء!»، صاح بادوار شاب، قائد الحرَّاس الذين أحضروا جيك، «فما فعله لإيزاف هنا يكفي وحده لإثبات تهمته».

سأله أوتار: «ماذا فعل للمحارب إيزاف؟ فليتكلم إيزاف!».

تقدم المحارب إيزاف نحو العرش، وإيزاف زميل ضخم، عضلاته منتفخة، وعنقه سميك. كان شاحبًا، ولا يزال يرتجف بوضوح من صدمة عصبية.

بدأ إيزاف يتكلم: «ليشهد سلفي الأول، يا أوتار، أنني أقول الحقيقة. كنت أحرس هذا المخلوق، وكان يجلس على المقعد الطويل مكبلاً بالسلاسل إلى الجدار. وقفت عند المدخل المفتوح في الجانب الآخر من الغرفة. لم يكن بمقدوره أن يصل إليّ. ولكن يا أوتار، وليبتلعني نهر إيس إن لم يكن هذا المخلوق قد سحبني نحوه وأنا عاجز كبيضة لم تفقس. لقد سحبني نحوه، يا أعظم جيداك، بعينيه! استولت عيناه على عينيّ وجرني نحوه، وجعلني أضع سيوفي وخنجري على الطاولة وأتراجع إلى الرُكن. استمرت عيناه

مثبتة نحو عيناي، وانفصل رأسه عن جسده ونزلت زاحفة على ستة أرجل قصيرة إلى الأرض ودخلت إلى حفرة أولسيو، لكن ليس لمسافة بعيدة بحيث ظلت عيناه مثبتة نحوي، ثم عاد بمفتاح قيوده. وبعد أن عاد إلى مكانه فوق كتفي الجسم، فتح قفل القيد وسحبني مرة أخرى عبر الغرفة وجعلني أجلس على المقعد الطويل وربط القيد حول كاحلي. لم أتمكن من القيام بأي شيء بسبب قوة سيطرة عينيه، كما أنه ارتدى السيفين وخنجري. اختفت الرأس، بعد ذلك، داخل حفرة الأولسيو مع المفتاح، وعندما عادت، امتطت جسمها. وقف يحرسني عند المدخل، حتى جاء البادوار لجلبه هنا».

قال أوتار بصرامة: «هذا يكفي! يستحق كلاهما سيف الجيداك»، ونهض من عرشه وسحب سيفه الطويل ونزل على السلالم الرخامية تجاههما، بينما أمسك محاربان مفتولي العضلات بتارا من ذراعيها، وأمسك محاربان جيك، وأوقفاهما في مواجهة نصل الجيداك.

صاح يودور: «انتظر، أيها العادل أوتار! هناك شخص آخر يجب محاكمته. علينا مواجهته، من يطلق على نفسه توران، مع زملائه قبل أن يموتوا».

«حسنًا!»، صاح أوتار متوقفًا عند منتصف الطريق أسفل السلم، «أحضروا العبد توران!».

أدخلوا توران إلى القاعة، وأوقفوه على يسار تارا، وإن كان في وضع أقرب إلى العرش بخطوة. نظر إليه أوتار مُهدِدًا.

وسأله: «أنت توران، هل أنت صديق ومرافق لهؤلاء؟».

كان البانتان على وشك الرد، عندما قالت تارا: «أنا لا أعرف هذا الزميل. من ذا الذي يجرؤ على القول إنه صديق ومرافق للأميرة تارا الهيليومية؟».

نظر إليها توران وجيك متفاجئين. لم تنظر تارا نحو توران، لكنها ألقت لمحة تحذير سريعة إلى جيك كأنما تقول: «اِبق هادئًا».

لم يحاول البانتان فهم غرضها، فالرأس تصبح عديمة الفائدة عندما يستولي القلب على وظائفها. لم يعرف توران سوى أن المرأة التي أحبها قد أنكرته، وعلى الرغم من أنه حاول حتى ألا يفكر في الأمر، فإن قلبه الأحمق دفعه إلى تفسير واحد فقط: أنها رفضت التعرف عليه خشية أن تتورط في مصاعبه.

نظر أوتار بداية إلى أحدهما، ثم إلى الآخر؛ ولكن لم يتحدث أي منهما.

توجه بالسؤال إلى يودور: «ألم يتم أسرهم معًا؟».

أجاب الدوار: «كلا. لقد عثرنا على من يُسمى توران وهو يحاول الدخول إلى المدينة، واجتذبناه نحو الحُفر. وفي صباح اليوم التالي، اكتشفت الاثنين الآخرين على التل خارج بوابة الأعداء.

قال بادوار شاب: «لكنهم أصدقاء ورفقاء، فقد سألني توران عن الاثنين الآخرين بالاسم وقال إنهما صديقاه».

قال أوتار: «هذا يكفي، سوف يموت ثلاثتهم»، وهبط خطوة أخرى على السلم أسفل العرش.

سأل جيك: «لما نموت؟ يثرثر شعبكم عن عدالة قوانين ماناتور، ومع ذلك تريدون قتل ثلاثة غرباء دون إخبارهم بالجريمة المتهمين بها».

قال صوت عميق: «إنه على حق». كان صوت يوثور، جد ماناتوس الأكبر. نظر إليه أوتار متجهمًا؛ وصدرت أصوات من أماكن أخرى بالقاعة تُثنيَ على المطالبة بالعدالة.

صاح أوتار: «إذن عليكم أن تعلموا، على الرغم من أنكم ستموتون على أي حال، أن ثلاثتكم مدانين بالانتماء إلى الكورفال، ولأن الجيداك فقط هو من يمكنه قتل أمثالكم، فأنتم على وشك تكريمكم بسيف أوتار».

صاح توران: «يا أحمق! ألا تعلم أن دماء عشرة آلاف جيداك تتدفق في عروق هذه المرأة - وأن سلطتها في بلدها أكبر من سلطتك؟ إنها تارا، أميرة هيليوم، ابنة حفيدة تاردوس مورس وجون كارتر أمير الحرب في برسوم. لا يمكن أن تنتمي إلى الكورفال. كما أنني وهذا المخلوق جيك لا ننتمي إلى الكورفال. وعليك أن تعرف أكثر من ذلك، أنني أستطيع إثبات حقي في الاستماع إليّ وتصديقي إذا تمكنت من الحديث مع الأميرة هاجا الجاثولية، الذي ابنها سجين في حُفر والده أوتار».

وهنا نهض يوثور في مواجهة أوتار، وسأله: «ما معنى هذا؟ هل يقول الرجل الحقيقة؟ هل ابن هاجا سجين في حُفرك يا أوتار؟».

قال أوتار غاضبًا: «وما أهمية سجناء حُفر الجيداك بالنسبة لجِد ماناتوس؟».

«هو أمر يهم جِد ماناتوس»، أجاب يوثور بصوت شديد الانخفاض أعلى قليلاً من الهمس، لكنه كان مَسموعًا على طول وعرض قاعة العرش العظيم لأوتار، جيداك ماناتور. «لقد أعطيتني الأَمَة هاجا، التي كانت أميرة في جاثول، لأنك كنت تخشى من

نفوذها بين العبيد الجاثوليين. وقد أعطيتها حريتها وتزوجتها، وجعلتها أميرة ماناتوس. ابنها هو ابني، يا أوتار. وعلى الرغم من أنك الجيداك، فإنني أقول لك إن أي ضرر يصيب أكور سوف تكون مسؤولاً عنه أمام يوثور الماناتوسي».

نظر أوتار طويلاً تجاه يوثور، لكنه لم يرد. ثم التفت مرة أخرى نحو توران وقال: «إذا كان أحدكم من الكورفال، فأنتم جميعًا منهم، ونحن نعرف ذلك جيدًا من الأشياء التي قد فعلها هذا المخلوق»، وأشار إلى جيك، «إنه كورفال؛ إذ لا يمتلك أي بشري هذه القوى التي يمتلكها. ولأنكم جميعًا من الكورفال، يجب أن تموتوا». اتخذ أوتار خطوة أخرى على السلم إلى أسفل، وهنا تحدث جيك.

قال: «لا يملك هذان الاثنان هذه القوى مثلي. فهما مجرد أشياء عادية بلا عقل، مثلك. وقد فعلت كل الأشياء التي أخبرك بها محاربوك المساكين الجهلاء، لكنها لا توضح سوى أنني من مرتبة أعلى منكم، وهذه هي الحقيقة. أنا كلديني، ولست من الكورفال. لا يوجد شيء خارق أو غامض بشأني، لكن الجهلاء يعتبرون جميع الأشياء التي لا يستطيعون فهمها غامضة. كان يمكنني بسهولة أن أتملص من المحاربين وأهرب من الحُفر، لكنني بقيت على أمل أن أساعد هذين المخلوقين الأحمقين اللذين ليس لديهما عقولاً للهرب دون مساعدة. لقد أصبحا صديقاي، وأنقذا حياتي. وأنا مدين لهما. لا تقتلهما، فهما غير مؤذيين. اقتلني إن شئت. أنا أقدم حياتي إذا كانت ستُشبع غضبك الجاهل. لا يمكنني العودة إلى بانتوم، لأنني قد أموت كذلك، فلا توجد أي متعة في التواصل مع المثقفين الضعفاء الذين يُثقلون وجه العالم خارج وادي بانتوم».

قال أوتار: «إنك متبجح بشع، عليك أن تستعد للموت، ولا تُملي رأيك على أوتار الجيداك. لقد أصدرت الحكم، وستشعرون ثلاثتكم بسيف الجيداك. لقد أنهيت حديثي!».

اتخذ خطوة أخرى أسفل السلم، ثم حدث شيء غريب. توقف، وعيناه ثابتتان على عيني جيك. انزلق سيفه من أصابعه الواهنة، وظل واقفًا يتمايل إلى الأمام والخلف. نهض الجِد مندفعًا نحوه، لكن كلمات جيك أوقفته.

صاح جيك: «انتظر! حياة الجيداك في يدي. أنتم تعتقدون أنني من الكورفال وبالتالي تعتقدون أن سيف الجيداك هو فقط ما يمكنه أن يقتلني، ولذلك سيوفكم ضدي غير مجدية. إذا حاولتم إلحاق الضرر بأي منا، أو الاقتراب من الجيداك إلى أن أنهي حديثي، ستجدونه جثة هامدة على الرخام. عليكم إطلاق سراح السجينين وإحضارهما

إلى جانبي. أود التحدث معهما على انفراد. بسرعة! افعلوا ما قلت، لا يسعدني أكثر من قتل أوتار. لكنني تركته يعيش لكي أفوز بالحرية لأصدقائي. عارضوني، وسيموت».

تراجع الحراس، وأطلقوا سراح تارا وتوران، اللذين اقتربا من جيك.

همس جيك: «افعلا ما أقوله لكما، وبسرعة. لا يمكنني السيطرة على هذا الزميل لفترة طويلة، ولا يمكنني قتله هكذا. هناك العديد من العقول تعمل ضدي، وعقلي سوف يتعب الآن ويعود أوتار كما كان ثانية. عليكما اقتناص أفضل فرصة ممكنة. توجد فتحة سرية خلف الستارة التي تتدلى وراء العرش. ومن الفتحة يوجد ممر يؤدي إلى حُفر القصر، حيث توجد مخازن تحتوي على الطعام والشراب. لا يذهب إلى هناك سوى عدد قليل من الناس. وترتبط هذه الحُفر بحُفر أخرى تؤدي إلى جميع أنحاء المدينة. عليكما اتباع المسار الذي يتجه غربًا، وسوف يصل بكما إلى بوابة الأعداء. والباقي تعرفونه. لا أستطيع القيام بأكثر من ذلك، أسرعا قبل أن يخذلني ضعف قواي. أنا لست مثل لوود، الذي كان ملكًا، ويمكنه السيطرة على هذا المخلوق إلى الأبد. أسرعا! اذهبا!».

* * *

الفصل (15)
العجوز في الحُفر

قالت تارا ببساطة: «أنا لن أتركك، جيك».

همس الكلديني: «هيا! هيا! لن يمكنك مساعدتي. اذهبا، وإلا ما فعلته سيضيع هباء».

هزت تارا رأسها وقالت: «لا أستطيع».

قال جيك للبانتان توران: «سوف يقتلونها». كان البانتان ممزقًا بين الولاء لهذا المخلوق الغريب الذي منح حياته له، وحبه للمرأة. تردد للحظة، ثم حمل تارا من قدميها ورفعها إلى ذراعيه وقفز على السلم الذي يؤدي إلى عرش ماناتور. فتح الستارة خلف العرش ووجد الفتحة السرية. حمل الفتاة داخل الفتحة، وهبط عبر ممر طويل ضيق، ومدرجات متعرجة تؤدي إلى المستويات الأدنى، إلى أن وصلا إلى حُفر قصر أوتار. توجد هنا متاهة من الممرات والغرف، تضم الآلاف من أماكن الاختباء.

عندما حمل توران تارا وصعد السلم نحو العرش، نهض عدة محاربين يريدون الاندفاع إلى الأمام لاعتراضهما. صاح جيك: «توقفوا! أو يموت الجيداك». توقف المحاربون في أماكنهم، امتثالاً لإرادة هذا المخلوق الغريب الخارق للطبيعة.

أبعد جيك عينيه عن أعين أوتار، وهز الجيداك نفسه كمن يتخلص من حلم مزعج، ثم اعتدل وهو لا يزال نصف مذهول.

عندئذ قال جيك:، «اسمعوا، لقد أعطيت جيداككم حياته، ولم أُلحق الضرر بأي من أولئك الذين كان يمكنني قتلهم بسهولة عندما كنت مسيطرًا عليهم. كما لم أقم أنا أو أصدقائي بأي شيء ضار في مدينة ماناتور. لماذا تضطهدوننا إذن؟ أعطونا حياتنا. أعطونا حريتنا».

استعاد أوتار الآن قواه، ثم انحنى واستعاد سيفه. ساد صمت في القاعة، انتظارًا لسماع إجابة الجيداك.

وأخيراً قال الجيداك: «قوانين ماناتور عادلة. ربما هناك بعض الحقيقة في كلمات الغريب. أعيدوه إلى الحُفر، وطاردوا الاثنين الآخرين واقبضوا عليهما. وباسم رحمة أوتار، سوف أسمح لهما بالفوز بحريتهما على رقعة جيتان في دورة المباريات القادمة».

كان وجه الجيداك لا يزال شاحبًا عندما اقتاد الحراس جيك بعيدًا. وكان مظهره يماثل مظهر رجل انتُزع من حافة الأبدية التي شهدها محدقًا، ليس برباطة جأش شجاعة عظيمة، وإنما بخوف. كان الحاضرون في قاعة العرش يعرفون أن إعدام السجناء الثلاثة قد تأجل، وأن المسؤولية تقع الآن على عاتق آخرين. وكان يوثور، جِد ماناتوس الأكبر، من بين من يعرفون ذلك. فقد دل تجعد شفتيه عن احتقاره للجيداك الذي اختار المهانة بدلاً من الموت. وكان يعرف أن أوتار فقد في تلك اللحظات القليلة قدرًا من المكانة أكبر مما يمكنه استرداده طوال عمره؛ ذلك أن المريخيين يشعرون بالغيرة من شجاعة قادتهم – فلا يمكن التملص من واجب صارم، ولا مماطلة في الشرف. وقد بدا واضحًا من الصمت والتجهم القاتم الذي ساد في القاعة، وجود آخرين يشاركون يوثور الرأي.

ألقى أوتار نظرة سريعة حوله، وأحس قطعًا بمشاعر العداء وخمّن أسبابه؛ إذ استشاط غضبًا فجأة وصاح بصوت عال على نحو لا يمكن اعتباره سوى تحديًّا، كمن يسعى بعنف كلماته إلى إثبات شجاعة قلبه.

صاح: «إرادة الجيداك أوتار هي قانون ماناتور، وقوانين ماناتور عادلة، لا يمكن أن تُخطئ. يا يودور، عليك إرسال من سيبحثون في القصر، والحُفر، والمدينة، وإعادة الهاربين إلى زنازينهم».

«والآن، أنت يا يوثور من ماناتوس! هل تعتقد أن لديك حصانة تتيح لك تهديد جيداكك، وتتشكك في حقه في معاقبة الخونة والمحرضين على الخيانة؟ كيف أصدق ولاءك، وأنت اتخذت من المرأة التي نفيتها

من بلاطي زوجة لك، بينما أنا نفيتها بسبب مؤامراتها ضد سلطة جيداكها وسيدها؟ لكن أوتار عادل. عليك إذن تقديم تفسيرك وموقفك المسالم قبل فوات الأوان».

أجاب جِد ماناتوس: «ليس لدى يوثور أي شيء ليفسره، وليس في حرب مع جيداكه، لكنه يَتمتع بالحق الذي يتمتع به كل جِد وكل محارب، وهو المطالبة بالعدالة على يد الجيداك لكل من يعتقد أنه تعرض للاضطهاد. لقد اضطهد جيداك ماناتور العبيد الجاثوليين بصرامة متزايدة منذ أن أخذ الأميرة هاجا لنفسه على غير رغبتها. وإذا كان لدى العبيد الجاثوليين أي أفكار عن الانتقام والهروب، فهذا ليس سوى المتوقع من شعب فخور وشجاع. لقد سبق ونصحت باتباع مزيد من الإنصاف في معاملتنا مع عبيدنا، فقد

كان كثيرون منهم، في بلدانهم الأصلية، أشخاصًا يتمتعون بالتميز والسلطة، لكن الجيداك أوتار يهزأ دائمًا بغرور من أي اقتراح أقدمه. وعلى الرغم من أن طرح هذه المسألة لم يأت نتيجة للمساعي التي سبق أن قمت بها، فإنني سعيد لطرحها، فقد كان يجب أن يأتي الوقت الذي يسعد فيه كل جد في ماناتور بأن يطالب أوتار بالاحترام والاعتبار الواجب من الرجل الذي يشغل هذا المَنصب الرفيع. ويجب أن تعرف، يا أوتار، أن عليك إطلاق سراح الدوار أكور على الفور، أو تقديمه إلى محاكمة عادلة أمام جِد ماناتور المجتمعين. لقد أنهيت حديثي».

صاح أوتار: «لقد تكلمت جيدًا وفي الصميم، يا يوثور، فقد كشفت لجيداكك وزملائك من الجِد عمق عدم الولاء الذي أشتبه فيه منذ فترة طويلة. لقد حوكم أكور بالفعل وأصدرتِ المحكمة العليا في ماناتور - أوتار، الجيداك - حكمها. وسوف تنال أنت أيضًا العدالة من نفس المصدر الذي لا يُخطئ. وأنت الآن، مقبوض عليك. إلى الحُفر معه! خُذوا يوثور، الجِد الخادع، إلى الحُفر!»، وصفق بيديه استدعاءً للمحاربين المحيطين لتنفيذ أمره. اندفعَ حوالي 20 شخصًا للقبض على يوثور، ومعظمهم من محاربي القصر، لكن عددًا مضاعفًا انطلق للدفاع عن يوثور، وقاتلوا بسيوفهم أسفل منصة عرش ماناتور حيث يقف الجيداك أوتار ممتشقًا سيفه استعدادًا للمشاركة في المعركة.

ومع اشتباك السيوف، هرع حرس القصر من أجزاء أخرى من المبنى الكبير إلى المشهد، إلى أن فاق عددهم بمعدل اثنين إلى واحد على عدد المدافعين عن يوثور، وعندئذ انسحب جد ماناتوس ببطء مع قواته، وشق طريقه بالقتال خلال ممرات وقاعات القصر حتى وصلَ أخيراً إلى الشارع. وهنا زادت تعزيزاته بالجيش المحدود الذي قد سار معه إلى ماناتور. تراجعوا ببطء نحو بوابة الأعداء، بين صفوف الشعب الصامت الذين ينظرون نحوهم من الشرفات، ومن هناك وصلوا داخل أسوار المدينة، وتوقفوا.

في غرفة خافتة الإضاءة تحت قصر الجيداك أوتار، أنزل البانتان توران تارا الهيليومية من ذراعيه ووقف أمامها. وقال: «أعتذر لك، يا أميرة، فقد كنت مُجبراً على عصيان أوامرك، أو التخلي عن جيك؛ ولم تكن هناك أي طريقة أخرى. لو كان تمكن من إنقاذك، لكنت بقيت في مكانه. قولي إنك تسامحيني».

أجابت بلطف: «وهل يمكنني أن أفعل أقل من ذلك؟ ولكن، من الجُبن التخلي عن صديق».

قال: «لو كان ثلاثتنا من المقاتلين لاختلف الأمر. كان يمكننا أن نبقى ونموت معًا ونحن نقاتل، لكنك تعلمين، تارا الهيليومية، أننا لا يمكن أن نُعرض سلامة امرأة للخطر حتى مع أننا نخاطر بفقدان الشرف».

قالت: «أعرف ذلك، توران، ولكن ما من أحد يعرف شرفك وشجاعتك يمكنه القول إنك خاطرت بالشرف».

استمع إليها متفاجئًا؛ فهذه أول كلمات تقولها له ولا تحمل سمة سلوك أميرة تجاه بانتان – على أنه أدرك الفارق من نبرة صوتها أكثر من الكلمات الفعلية. كم اختلفت كلماتها عن رفضها السابق له! لم يستطع فهمها، ولذا اندفع بالسؤال الذي كان في ذهنه منذ أن أبلغت أوتار أنها لا تعرفه.

قال: «تارا الهيليومية، كلماتك هي بلسم للجرح الذي أصبتني به في

قاعة عرش أوتار. أخبريني يا أميرة، لماذا أنكرتي معرفتي؟».

أدارت عينيها الكبيرتين العميقتين نحوه، وبهما بعض اللوم.

وسألته: «ألم تُخمن أن شفتي فقط، وليس قلبي، هما من أنكرا معرفتك؟ لقد أمر بأن أموت، وذلك لأنني كنت مرافقة لجيك أكثر من أي دليل ضدي، ولذلك أدركت أنني إذا اعترفت بك كواحد منا، سوف يقتلك أيضًا».

صاح: «كان ذلك لإنقاذي إذن؟»، وأضاء وجهه فجأة.

قالت بصوت منخفض: «كان لإنقاذ بانتاني الشجاع».

قال المحارب، وهو ينخفض على ركبة واحدة: «تارا الهيليومية، كلماتك غذاء لقلبي الجائع»، ثم أمسك بأصابعها وضغط عليهم بشفتيه.

أنهضته بلطف على قدميه، وقالت بهدوء: «لست في حاجة إلى أن تخبرني وأنت راكع».

كانت يدها لا تزال في يده وهو ينهض، وكانا قريبين جدًّا، ولا يزال الدم يتدفق في وجه الرجل من ملامسة جسمها منذ أن حملها من قاعة عرش أوتار. شعر بدقات قلبه في صدره والدم الحار يتدفق خلال عروقه وهو ينظر إلى وجهها الجميل وعينيها المُسبلتين وشفتيها المتباعدتين قليلاً، التي يمكن أن يتخلى عن مملكة للفوز بها، وعندئذ ضمها إليه واعتصرها في صدره، وأمطرها بالقبلات.

ولكن للحظة فقط؛ فقد استدارت الفتاة بشراسة النمرة، وضربته، ودفعته بعيدًا. تراجعت، ورأسها مرتفع وعيناها تومض شررًا، وصاحت: «كيف تجرؤ؟ أتجرؤ هكذا على تدنيس أميرة هيليوم؟».

التقت عيناه بعينيها مباشرة، ولم يبد فيهما أي خجل أو ندم.

وقال: «نعم، أنا أجرؤ، أجرؤ على أن أحب تارا الهيليومية، لكني لا أجرؤ على تدنيسها أو تدنيس أي امرأة بقبلات لا يدفعها إلا حبي لها وحدها». اقترب منها، ووضع يديه على كتفيها وقال: «انظري في عيني، يا ابنة أمير الحرب، وقول لي إنك غير راغبة في حب البانتان توران».

ابتعدت صائحة: «أنا لا أرغب حبك. أنا أكرهك!»، استدارت، وألقت برأسها في تجويف ذراعيها، وبكت.

تقدم الرجل خطوة في اتجاهها لتهدئتها، لكن صوت ضحكة رنانة خلفه استولت على انتباهه. نظر حوله، واكتشف هيئة غريبة لرجل يقف عند أحد المداخل. إنه أحد المشاهد النادرة التي يمكن رؤيتها أحيانًا في برسوم: رجل عجوز، تظهر عليه علامات العُمر. كان محنيًّا وتظهر عليه التجاعيد. كان مظهره أقرب إلى مومياء منه إلى رجل.

صاح الرجل: «الحب في حُفر أوتار!»، ثم رنّت ضحكته الرفيعة ثانية عبر صمت الأقبية تحت الأرضية، «مكان غريب للتودد! بالفعل، مكان غريب للتودد! عندما كنت شابًّا، كنا نتجول في الحدائق تحت أشجار البيماليا[120] العملاقة، ونسرق قبلاتنا تحت الظلال القصيرة قمر ثوريا المندفع. لم نأت إلى الحُفر القاتمة لنتكلم عن الحب، لكن الزمن تغير والأساليب تغيرت، مع أنني لم أتصور أبدًا أن أعيش إلى زمن أشهد فيه تغيير طريقة تعامل الرجل مع المرأة، أو المرأة مع الرجل. آه، وكنا نُقبّل النساء حينذاك! وماذا لو اعترضن، هه؟ ماذا لو اعترضن؟ كنا نزيد من تقبيلهن. إيييه، إييه، يا لها من أيام!»، ثم رنت ضحكته ثانية. «إييه، لا زلت أذكر أول امرأة قبّلتها، وقد قبّلت جيشًا منهن؛ كانت فتاة رائعة، لكنها حاولت أن تطعنني بخنجر وأنا أُقبلها. إييه، إييه، يا لها من أيام! لكني تمكنت من تقبيلها. لقد ماتت منذ أكثر من ألف سنة، لكنها لم تحظ بمثل قبلاتي ثانية خلال حياتها، بل أقسم حتى منذ موتها. وبعدها، كانت تلك المرأة الأخرى ...»، لكن توران قاطعه، وهو يراه يروي ذكريات عاطفية تمتد لأكثر من ألف سنة.

---

(120) شجرة بيماليا: شجرة مزهرة كبيرة في حدائق المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Pimalia المترجمة.

وقال له: «أخبرني عن نفسك، أيها العجوز، وليس عن حبيباتك. من أنت؟ وماذا تفعل هنا في حُفر أوتار؟».

أجاب العجوز: «قد أسألك نفس السؤال، أيها الشاب. قليلون من يزورون الحُفر بخلاف القتلى، باستثناء تلاميذي ... إييه! هذا يعني إذن... أنتما تلميذان جديدان! جيد! لكنهم لم يرسلوا أبدًا من قبل امرأة لتتعلم الفن العظيم من أعظم فنان. على أن الزمن تغير. على أيامي لم تكن النساء تعمل، كان دورهن يقتصر على التقبيل والحب. إيييه، يا لهن من نساء. أتذكر المرأة التي أسرناها في الجنوب ... إييه! كانت شيطانة، ولكن، كيف يمكنها أن تحب. كان ثدييها من الرخام وقلبها من النار. لماذا، كانت ...».

قاطعه توران قائلاً: «نعم، نعم، نحن تلميذان، ونتوق إلى العمل. قُدنا وسوف نتبعك».

قال العجوز: «إييه، نعم! إييه، نعم! تعالا! الكل مندفع ومتسرع، كأنما لا توجد آلاف عديدة من الأعمار أمامنا. إييه، نعم! أعمار عديدة بقدر الأعمار التي ولّت. لقد مضى ألفان من السنوات منذ أن كسرت قشرة بيضتي وأخذت اندفع، اندفع، اندفع دائمًا، لكني لا أستطيع أن أرى تحقُّق أي إنجاز. لا تزال ماناتور اليوم كما كانت حينذاك، باستثناء الفتيات. كان لدينا الفتيات آنذاك. هناك فتاة حصلت عليها على رقعة الجيتان. إييه، ولكن، بالتأكيد شاهدتما ....».

صاح توران: «قُدنا! يمكنك أن تحكي لنا عنها خلال عملنا».

«إييه، نعم»، قال العجوز، وجر قدميه أسفل ممر خافت الإضاءة، «اتبعاني!».

سألت تارا: «هل ستذهب معه؟».

أجاب توران: «ولِمَ لا؟ إننا لا نعرف أين نحن، أو الطريق من هذه الحُفر؛ إذ إنني لا أعرف الشرق من الغرب، لكنه يعرف دون شك. وإذا كنا أذكياء، يمكننا أن نعرف منه ما نريد معرفته. وعلى الأقل لا يمكننا تحمُّل إثارة شكوكه». وبالتالي تبعاه على طول ممرات متعرجة وخلال العديد من الغرف، إلى أن وصلوا أخيراً إلى غرفة تضم العديد من ألواح الرخام المرفوعة على ركائز ترتفع لمسافة ثلاثة أقدام تقريبًا من الأرض، وتوجد فوق كل لوح جثة بشرية.

قال العجوز: «ها قد وصلنا. هذه جثث جديدة، وعلينا أن نبدأ العمل عليها بسرعة. أنا أعمل الآن على الجثة المخصصة لبوابة الأعداء. لقد قتل عددًا كبيراً من محاربينا. إنه يستحق حقًّا مكانًا في البوابة. تعالا، سوف تشاهدانه».

قادهم إلى شقة مجاورة. تناثرت على الأرض العديد من العظام البشرية الجديدة، وعلى لوح الرخام كتلة من اللحم عديمة الشكل.

قال العجوز: «سوف تتعلمان هذا في وقت لاحق، إلا أنه لن يضيركما مشاهدتي الآن، فلا يوجد عدد كبير جاهز على هذا النحو، وقد يمر وقت طويل قبل أن تُتاح لكما الفرصة لرؤية إعداد واحد آخر لبوابة الأعداء. أقوم أولاً، كما ترون، بإزالة جميع العظام بعناية بحيث يقل تلف الجلد إلى أدنى ما يمكن. الجمجمة هي أصعب جزء، لكن الفنان الماهر يمكنه إزالتها. كما ترون، لم أصنع سوى فتحة واحدة. والآن أقوم بالخياطة، وبعدها أتولى تعليق الجسم»، ثم قام بربط حبل بشعر الجثة، وتأرجح الشيء المروع من حلقة في السقف. وكانت توجد على الأرض، أسفله مباشرة، فتحه دائرية أزال غطاءها ليكشف عن بئر مملوء جزئيًّا بسائل أحمر. «نُنزله الآن هنا، وسوف تتعلمون تركيبة السائل في الوقت المناسب. نربطه هكذا بالجزء السفلي من الغطاء الذي نعيده إلى مكانه ثانية. سيكون جاهزاً خلال سنة، ولكن يجب فحصه كثيراً خلال هذه الفترة والتأكد من الاحتفاظ بالسائل أعلى من مستوى قمته. سيكون قطعة جميلة جدًّا، هذا تحديدًا، عندما يصبح جاهزاً.

«وأنتم محظوظون، لأن اليوم لن يخرج أحد». توجه إلى الجانب المقابل من الغرفة وفتح غطاء آخر، وأخذ يجر شيئًا غريب الشكل من الحفرة. كان جسم إنسان، تقلص بفعل المادة الكيميائية التي كان مغموراً فيها، إلى ما يصل ارتفاعه بالكاد إلى قدم واحد.

صاح العجوز: «إيه، أليس جيدًا؟ سوف يأخذ مكانه غدًا عند بوابة

الأعداء». قام بتجفيفه بالقماش، ثم تعبئته بعناية في سلة. قال العجوز مقترحًا: «ربما ترغبان في رؤية بعض الأعمال التي قمت بها»، واقتادهما، دون انتظار الموافقة، إلى شقة أخرى عبارة عن غرفة كبيرة تضم حوالي أربعين أو خمسين شخصًا. كان الجميع يجلس أو يقف بهدوء عند الجدران، باستثناء محارب واحد ضخم يركب فوق ثوات كبير في وسط الغرفة؛ وجميعهم بلا حراك. وعلى الفور تبادر إلى عقليّ تارا وتوران صفوف الشعب الصامت على الشرفات التي اصطفت على جانبي طرقات لمدينة، والمنظومة النبيلة من المحاربين الراكبين في قاعة القادة. وتوصل كلاهما إلى التفسير نفسه، دون أن يجرؤ أحدهما على التعبير عن السؤال الذي دار في ذهنه، خشية أن يكشف جهله عن حقيقة أنهما غرباء في ماناتور ويتخفيان تحت ستار تلميذين.

قال توران: «هذا رائع جدًّا، يجب أن يتطلب الكثير من المهارة والصبر والوقت».

أجاب العجوز: «نعم، على الرغم من أنني أصنعهم منذ فترة طويلة، وأنني أسرع من الغالبية، فإن صناعتي تبدو الأكثر طبيعية. لماذا أتحدى زوجة ذلك المحارب لأقول إنه ليس حيًّا بقدر ما يتعلق الأمر بالمظهر»، وأشار نحو الرجل فوق الثوات: «يجلبون العديد منهم، بطبيعة الحال، فاسدين أو مصابين بجروح خطيرة، ويتعين أن أتولى ترميمهم. وهذا يتطلب مهارة كبيرة؛ إذ يرغب كل شخص أن يبدو موتاه كما كانوا في أفضل حالاتهم خلال فترة حياتهم. لكنكما سوف تتعلمان، سوف تتعلمان تركيبهم وطلاءهم وإصلاحهم، وفي بعض الأحيان تجعلان جثة قبيحة تبدو جميلة. وسوف تشعران براحة كبيرة عندما تتمكنان من التركيب بأنفسكم. لماذا، لأنه منذ ألف وخمسمائة سنة لم يقم أحد سواي بتركيب موتاي.

«لدي الكثيرين، تكتظ شرفاتي بهم، لكنني أحتفظ بغرفة كبيرة لزوجاتي. كلهن عندي، من الزوجة الأولى، وأقضي أمسيات كثيرة معهن، أمسيات هادئة وممتعة جدًّا. كما أن سعادة إعدادهن وجعلهن أجمل مما كُنَّ عليه في الحياة، تعوضني جزئيًّا عن فقدانهن. أمضي وقتي مع جثث الموتى، باحثًا عن واحدة جديدة بينما أعمل على القديمة. وعندما لا أكون متأكدًا من جثة جديدة، أجلبها إلى الغرفة التي تضم زوجاتي، وأقارن سحرها بسحرهن، وأشعر دائمًا بارتياح كبير في مثل هذه الأوقات، لمعرفتي عدم معارضتهن. أنا أحب الوئام».

سأله توران: «هل تقوم بإعداد جميع المحاربين في قاعة القادة؟».

أجاب العجوز: «نعم، أتولى إعدادهم وترميمهم. لا يثق أوتار في أي شخص آخر. لديَّ الآن حتى اثنين في غرفة أخرى، متضررين بشكل أو آخر وجلباهما لي. لا يحب أوتار غيابهما لفترة طويلة، فذلك يترك حيوانين ثوات من دون راكبيهما في القاعة. لكنني سأبدأ حاليًا في تجهيزهما؛ فهو يريدهم جميعًا هناك في حال نشأت أي مسألة خطيرة لا يتفق حولها الجد الأحياء، أو لا يتفقون مع أوتار. وهو يحمل مثل هذه الأمور إلى الجد في قاعة القادةِ، حيث ينفرد مع كبار القادة الذين نالوا الحكمة من خلال الموت. إنَها خطة ممتازة، ولا يوجد أبدًا أي خلاف أو سوء فهم. يقول أوتار إنها أرقى هيئة تداولية في برسوم، أكثر ذكاء بكثير من أي هيئة تتكون من جِد أحياء. ولكن هيا، يجب أن نبدأ في العمل. هيا إلى الغرفة التالية، وسأبدأ تعليمكما».

وقاد الطريق إلى الغرفة التي تضم عدة جثث على ألواح الرخام، ثم ذهب إلى خزانة وارتدى زوج من النظارات الضخمة، وبدأ في اختيار أدوات مختلفة من مقصورات صغيرة. وبعد أن انتهى، استدار ثانية نحو تلميذيه.

وقال: «الآن، دعوني ألق نظرة عليكما. عيناي ليست كما كانت سابقًا، وأحتاج إلى هذه العدسات القوية في عملي، أو لكي أرى بوضوح ملامح المحيطين بي».

أدار عينيه نحو الاثنين أمامه. حبس توران أنفاسه، لأنه يعرف أن الرجل سوف يكتشف الآن أنهما لا يرتديان عتاد أو شارة ماناتور. لقد تساءل من قبل عن عدم ملاحظة العجوز لذلك، لأنه لم يكن يعرف أن العجوز كان نصف أعمى. تفحص الرجل وجهيهما، وتعلقت عيناه لفترة طويلة على جمال تارا، ثم انتقلت إلى عتاد التلميذين. تصور توران أنه لاحظ بداية دهشة العجوز القائم بالتحنيط. ولكن إذا كان العجوز قد لاحظ أي شيء، فإن كلماته بعد ذلك لم تكشف عنها.

وجه العجوز كلامه إلى توران قائلاً: «تعال مع إيجوس. لديَّ بعض المواد في الغرفة التالية ويجب أن أحضرها هنا. عليكِ البقاء هنا، يا امرأة، سوف نذهب للحظة فقط».

قاد الطريق إلى أحد الأبواب العديدة، ودخل الغرفة قبل توران، ثم توقف بمجرد دخوله من الباب، وأشار إلى حزمة من الحرير والفراء على الجانب المقابل من الغرفة وأشار إلى توران لإحضارهم. سار توران عبر الغرفة وانحنى لرفع الحزمة، وعندئذ سمع صوت خلفه لقفلٍ يُغلق. استدار على الفور ليرى أنه بمفرده في الغرفة، وأن الباب الوحيد مُغلق. أسرع نحو الباب في محاولة لفتحه، إلا أنه وجد نفسه سجينًا.

بعد أن خرج إيجوس من الغرفة وأغلق الباب خلفه، توجه نحو تارا.

وقال وهو يطلق ضحكته المجلجلة: «لقد خانتكما بشرتكما. أردتما خداع إيجوس العجوز، ولكن إذا كانت عيناه ضعيفتان، فإن عقله ليس كذلك. لكني لن أُلحق بكِ أي ضرر، فأنت جميلة وإيجوس يحب النساء الجميلات. قد لا أتمكن منك في أي مكان آخر في ماناتور، أما هنا فلا يوجد من يرفض العجوز إيجوس. قليلون هم من يأتون إلى حُفر الموتى، يأتي فقط من يجلبون الموتى، ويعجلون بالخروج بأسرع ما يمكن. لن يعرف أحد أن إيجوس لديه امرأة جميلة محبوسة مع موتاه. لن أوجه لكِ أي سؤال، وعندئذ لن أضطر إلى التخلي عنك؛ لأنني لن أعرف لمن تنتمين، هه؟ وعندما تموتين، سوف أتولى تجهيزك بشكل جميل ووضعك في الغرفة مع نسائي الأخريات. أليس ذلك حسنًا، هه؟»، واقترب إلى أن توقف بجوار الفتاة المرتعبة. قال: «تعالي!»، وهو يمسكها من معصمها، «تعالي إلى إيجوس».

* * *

الفصل (16)

تغيير الاسم مرة أخرى

دفع توران بنفسه ضد باب سجنه بقوة في محاولة عقيمة لتحطيم خشب السكيل الصلب والتوجه إلى تارا التي كان يعلم أنها في خطر شديد، لكن الألواح الثقيلة ظلت ثابتة ولم ينجح سوى في إصابة كتفيه وذراعيه بكدمات. توقف في النهاية، وأخذ يبحث في سجنه عن وسائل أخرى للهرب. لم يجد أي فتحة أخرى في الجدران الحجرية، لكن بحثه كشف عن مجموعة غير متجانسة من أشياء متنوعة تضم أسلحة، وملابس، وعتاد، وحلي، وشارات، وحرير وفراء النوم بكميات كبيرة. وجد سيوفًا ورماحًا والعديد من البلطات الكبيرة ذات النصلين التي تُستخدم في المعارك، وتنم رؤوسها عن تشابه صارخ مع دافع الطائرة الصغيرة. استولى على إحداها، وهاجم الباب ثانية بغضب شديد. توقع أن يسمع شيئًا من إيجوس بعد هذا التدمير الوحشي، ولكن لم يصله أي صوت من وراء الباب الذي تصور أنه سميكًا جدًّا بحيث يصعب على الصوت البشري اختراقه، لكنه كان يراهن كثيراً على أن إيجوس سمعه. تشققت قطع من الخشب الصلب على إثر كل ضربة من الفأس الثقيل، إلا أن العمل كان بطيئًا ومضنيًا. أصبح الآن مضطرًّا للراحة، واستمر لما بدا ساعات يعمل إلى أن توشك قواه على الاستنفاد، ثم يستريح لبضع دقائق. وعلى الرغم من اتساع الفتحة، لم يتمكن من رؤية أي شيء داخل الغرفة التالية بسبب الستارة التي أغلقها إيجوس بعد أن حبس توران.

نجح البانتان أخيراً في حفر فتحة يمكنه من خلالها تمرير جسمه، ثم أمسك بسيف طويل كان قد وضعه بالقرب من الباب وزحف إلى الغرفة المجاورة. أزاح الستائر جانبًا ووقف مستعدًّا، والسيف في يده، ليشق طريقة إلى جانب تارا – إلا أنها لم تكن هناك. وجد إيجوس يرقد على الأرض ميتًا في وسط الغرفة، لكن تارا لم تكن موجودة في أي مكان بالغرفة.

ارتبك توران. من المؤكد أنها ضربت العجوز، إلا أنها لم تبذل أي جهد لإطلاق سراح توران من سجنه. ثم فكّر في كلماتها الأخيرة: «أنا لا أرغب حبك. أنا أكرهك!»، وبرزت أمامه الحقيقة – انتهزت تارا أول فرصة لتهرب منه. ابتعد توران بقلب حزين. ماذا يجب أن يفعل؟ لا توجد سوى إجابة واحدة. ما دام حيًّا وتارا حية، لن يدخر جهدًا لإنجاح هروبها وعودتها آمنة إلى أرض شعبها. ولكن كيف؟ كيف يجد طريقه حتى خلال هذه المتاهة؟ كيف يجدها ثانية؟ سار إلى أقرب مدخل، وكان من قبيل المصادفة

أنه يؤدي إلى الغرفة التي تضم الميت الراكب فوق الثوات، في انتظار نقله إلى شرفة أو غرفة قاتمة أو أي مكان آخر. اتجهت عيناه نحو المحارب العظيم المدهون فوق الثوات، ووقع بصره على أغطيته المزخرفة الرائعة وأسلحته الصالحة للاستعمال، وهنا تألقت أعين البانتان المتألقة بضوء جديد. وبخطوة سريعة اتجه إلى المحارب الميت، وأنزله من فوق الثوات. وبنفس السرعة، جرده من عتاده وأسلحته، ثم مزّق ملابسه وارتدى شعارات القتيل الملكية. أسرع بعد ذلك إلى الغرفة التي كان مُحتجزاً بها، فقد رأى فيها ما يحتاجه ليجعل تنكره كاملاً. وقد وجدهم في الخزانة: أواني الطلاء التي استخدمها المُحنِط العجوز ليضع طلاء الحروب في شرائطه الواسعة على وجوه المحاربين القتلى الباردة.

وبعد بضع لحظات، خرج جاهان الجاثولي من الغرفة كمحارب من ماناتور، بكل تفاصيل العتاد والأدوات والزخارف. وقد أزال من جلود القتيل شارة بيته ورتبته حتى يقلل عند سيره خطر إثارة الشك كمحارب عادي.

كان البحث عن تارا الهيليومية في متاهة حُفر أوتار المعتمة الواسعة يبدو للجاثولي سعيًا يائسًا، مصيره الفشل. ربما من الحكمة أن يبحث في شوارع ماناتور، حيث يأمل أن يعرف أولاً ما إذا كانوا أمسكوا بها، وإذا لم يكن الأمر كذلك، يمكنه العودة إلى الحُفر ومواصلة البحث

عنها. وللعثور على طريق الخروج من المتاهة، كان مضطراً أن يسير مسافة كبيرة عبر الممرات والغرف المتعرجة؛ فلم تكن لديه فكرة عن موقع أو اتجاه أي مخرج. لم يتمكن، في واقع الأمر، من اقتفاء أثر خطواته لحوالي مائة ياردة نحو موقع دخوله مع تارا إلى هذه المغارات القاتمة، وبالتالي تحرك على أمل أن يجد تارا مصادفة أو يجد طريقه إلى مستوى الشارع أعلاه.

ظل لفترة يجتاز غرفة بعد غرفة تمتلئ بموتى ماناتور المحفوظين بدهاء. كان الكثير منهم يتكدسون في صفوف على طريقة الحطب المجموع. وعند انتقاله عبر الممرات والغرف، لاحظ رسومًا هيروغليفية على الجدران فوق كل فتحة وعند كل مفترق طرق أو عبور للممرات، إلى أن استنتج أنها تشير إلى أسماء الممرات، بحيث يتمكن من يفهمها من السير بسرعة وثقة عبر الحُفر، لكن توران لا يفهمها. وحتى لو كان بمقدوره قراءة لغة ماناتور، فلن تساعد شخصًا لا يعرف المدينة. لكنه لم يستطع قراءتها على الإطلاق، فعلى الرغم من وجود لغة منطوقة واحدة في برسوم، هناك العديد من اللغات المكتوبة التي تختلف بقدر اختلاف الأمم. على أن شيئًا واحدًا سرعان ما أصبح واضحًا له: ظلت الرسوم الهيروغليفية لأحد الممرات كما هي حتى انتهاء الممر.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يدرك توران من المسافة التي قطعها أن الحُفر هي جزء من شبكة واسعة تلف، ربما، المدينة بأكملها. لقد أصبح مقتنعًا، على الأقل، أنه خارج حدود القصر. يختلف مظهر ومعمار الممرات من وقت لآخر، وكانت مضاءة جميعًا، وإن كانت عادة إضاءة خافتة تمامًا بمصابيح الراديوم. استمر لفترة طويلة دون أن يرى أي علامة على الحياة باستثناء أولسيو مصادفة، ثم وجد نفسه فجأة وجهًا لوجه مع محارب عند أحد المعابر العديدة. نظر إليه المحارب، وأومأ له، ثم مضى. تنفس توران الصعداء، حيث أدرك أن تنكره فعالاً. وعندما وصل إلى منتصف الممر، نادى عليه محارب آخر، توقف وتوجه نحوه. كان البانتان سعيدًا لأن السيف معلق إلى جانبه، كما أسعده أنهما داخل تجاويف الحُفر المعتمة، وليس أمامه سوى خصم واحد: فالوقت ثمين.

سأله المحارب: «هل سمعت أي شيء عن الآخر؟».

«كلا»، أجاب توران الذي لم تكن لديه أي فكرة عن الشخص الذي يعنيه المحارب.

واصل المحارب: «لا يمكنه الهرب. لقد ركضت المرأة نحونا مباشرة، لكنها أقسمت أنها لا تعرف أين يمكن العثور على زميلها».

«هل أخذوها إلى أوتار؟»، سأله توران، لأنه عرف الآن ما يعنيه المحارب، وأراد أن يعرف المزيد.

أجاب المحارب: «لقد أعادوها إلى أبراج جيتان. سوف تبدأ المباريات غدًا، ومما لا شك فيه أنهم سيلعبون للفوز بها، على أنني أشك أن هناك من يريدها، رغم جمالها. فهي لا تخشى حتى من أوتار. إنها كالقمر كلوروس! ولكن يصعب إخضاعها كأَمَة، فهي مثل البانث. ليست لي». ثم واصل طريقه وهو يهز رأسه.

أسرع توران في البحث عن طريق يقوده إلى مستوى الشارع أعلاه، ووصل فجاء إلى مدخل مفتوح لغرفة صغيرة يجلس فيها رجل مقيد بالسلاسل إلى الجدار. أصدر توران صوتًا خفيضًا ينم عن دهشته وسروره عندما تعرف على الرجل السجين، إنه أكور، وقد وجده مصادفة في نفس الزنزانة التي كان محبوسًا معه فيها. نظر إليه أكور متسائلاً؛ فمن الواضح أنه لم يتعرف على زميله السجين السابق. سار توران بجوار الطاولة، ومال مقتربًا من أكور وهمس في أذنه.

قال: أنا البانتان توران، الذي كان مقيدًا بالسلاسل إلى جانبك».

نظر إليه أكور عن كثب، ثم قال: «لن يتعرف عليك أحد أبدًا، حتى والدتك نفسها! ولكن قل لي، ماذا حدث منذ أن أخذوك؟».

روى توران خبراته في قاعة عرش أوتار وفي الحُفر أسفلها، وتابع قائلاً: «والآن، يجب أن أجد أبراج جيتان هذه، وأرى ما يمكن القيام به لإطلاق سراح أميرة هيليوم».

هز أكور رأسه، قائلاً: «شغلت منصب دوار الأبراج لفترة طويلة، ويمكن أن أقول لك، أيها الغريب، إن بإمكانك أيضًا محاولة إخضاع ماناتور، بمفردك، بمثل إنقاذ سجين من أبراج جيتان».

أجاب توران: «لكني يجب أن أنقذها».

سأله أكور: «هل أنت أفضل من مجرد مبارز جيد؟».

أجاب توران: «نعم، أنا محسوب كذلك».

قال أكور: «إذن هناك طريقة - هسس!»، صمت فجأة، مشيراً نحو قاعدة الجدار في نهاية الغرفة.

نظر توران في الاتجاه الذي أشارت إليه سبابة أكور، ورأى مخلبين كبيرين وعينين جاحظتين يخرجان من فتحة جحر الأولسيو.

صاح: «جيك!»، وعلى الفور زحف الكلديني البشع على الأرض واقترب من الطاولة. تراجع أكور إلى الوراء، وهو يُطلق صيحة نصف مخنوقة من النفور. لكن توران قال له مؤكِدًا: «لا تخف، إنه صديقي الذي أخبرتك أنه سيطر على أوتار لأتمكن من الهرب مع تارا».

تسلق جيك إلى أعلى الطاولة، وجلس القرفصاء بينهما، ثم خاطب أكور: «عليك أن تثق في افتراضك أن براعة توران البانتان في فن المبارزة ليس لها نظير في ماناتور كلها. لقد سمعت حديثكما، واصل كلامك».

واصل أكور: «أنت صديقه، وبالتالي يمكنني أن أشرح بأمان في وجودكما الخطة الوحيدة التي أعرف أنه يستطيع بمقتضاها أن يأمل في إنقاذ أميرة هيليوم. سوف يراهنون عليها في إحدى المباريات، ويرغب أوتار أن يفوز بها أحد العبيد أو المحاربين العاديين لأنها صدته، وهكذا يعاقبها. لن يفوز بها رجل واحد، وإنما كل من ينجو على الجانب المنتصر. على أنه يمكن بالمال شراء الآخرين قبل المباراة. هذا ما تستطيع أن تفعله، وإذا نجوت وفاز الجانب الذي تنتمي إليه، فإنها ستصبح عبدتك».

سأله توران: «ولكن كيف يمكن لغريب وهارب مطارَد أن يحقق ذلك؟».

أجاب أكور: «لن يتعرف عليك أحد. سوف تذهب غدًا إلى حارس الأبراج وتشترك في المباراة التي يدور رهانها على الفتاة، قل للحارس أنك من ماناتاج، وهي أبعد مدينة عن ماناتور. وإذا سألك، قل إنك رأيتها عندما أحضروها إلى المدينة بعد أسرها. وإذا فزت بها، سوف تجد حيوانات ثوات في قصري، وسوف أعطيك رمزًا يصبح بمقتضاه كل ما أملك تحت تصرفك».

سأله توران: «ولكن كيف يمكنني شراء الآخرين في المباراة من دون المال؟ ليس لدي أي مال، ولا حتى عُملة بلدي».

فتح أكور كيس في جيبه وأخرج حزمة من المال من عُملة ماناتور.

وقال: «هذا يكفي لشرائهم مرتين»، وأعطى جزءًا من المال إلى توران.

سأله البانتان: «ولكن، لماذا تفعل ذلك مع شخص غريب؟».

أجاب أكور: «كانت والدتي أميرة أسيرة هنا، وأنا أفعل لأميرة هيليوم ما كانت أمي لترغب أن أفعله».

قال توران: «إذن في ظل هذه الظروف، أيها الماناتوري، لا أستطيع إلا أن أقبل كرمك باسم تارا الهيليومية، وأعيش على أمل أن أرد لك صنيعك في يوم ما».

نصحه أكور: «يجب أن تذهب الآن، فقد يأتي الحارس في أي لحظة ويكتشف وجودك هنا. عليك أن تتوجه مباشرة إلى طريق البوابات الذي يلتف حول المدينة داخل الجدار الخارجي. وسوف تجد هناك العديد من الأماكن المخصصة لسكن الغرباء. سوف تعرف تلك الأماكن من رؤوس الثوات المنحوتة فوق الأبواب. قل إنك أتيت من ماناتاج لمشاهدة المباريات. وقل إن اسمك يوكال، فهذا الاسم لن يثير أي شبهة، كما أنك لن تثير الشبهات إذا أمكنك تجنب المحادثة. توجه في الصباح الباكر إلى حارس أبراج جيتان. ولتصحبك قوة وثروة جميع أسلافك!».

بعد وداع جيك وأكور، اتبع البانتان إرشادات أكور وأخذ يشق طريقه إلى طريق البوابات، ولم يواجه أي صعوبة كبيرة. التقى في طريقه بالعديد من المحاربين، الذين لم يعيروه أي اهتمام أكثر من إيماءة. عثر بسهولة على مكان للإقامة، حيث وجد العديد من الغرباء القادمين من مدن ماناتور الأخرى. ونظرًا لأنه لم ينم منذ الليلة الماضية، فقد ألقى

بنفسه بين الحرير والفراء على الأريكة ليحصل على الراحة التي يحتاجها لتقديم أفضل ما يمكنه لصالح تارا الهيليومية في اليوم التالي.

استيقظ في الصباح وقام لسداد تكلفة إقامته، ثم وجد مكانًا لتناول الطعام، وبعد فترة قصيرة كان يتخذ طريقه نحو أبراج جيتان التي لم يجد أي صعوبة في العثور عليها بسبب الحشود الكبيرة التي تسير على طول الطرق تجاه المباريات. كان حارس الأبراج الجديد، الذي خلف إيميد، شديد الانشغال بفحص اللاعبين عن كثب؛ إذ بالإضافة إلى العديد من اللاعبين المتطوعين، هناك العشرات من العبيد والسجناء الذين أجبرهم أسيادهم أو أجبرتهم الحكومة على المشاركة في المباريات. يجب تسجيل اسم كل شخص، فضلاً عن الدور الذي سيلعبه والمباراة أو المباريات التي سيشارك فيها، ثم هناك بدائل لكل من سيشارك في أكثر من مباراة - بديل واحد لكل مباراة إضافية يشارك فيها الشخص، بحيث لا تتأخر مباراة تالية عند وفاة لاعب أو إصابته بأي عجز يعوق استمراره.

«ما اسمك؟»، سأل الكاتب توران وهو يقدم نفسه.

أجاب البانتان: «يوكال».

«ومدينتك؟».

«مانتاج».

نظر الحارس، الذي كان يقف بجوار الكاتب، إلى توران وقال: «لقد سافرت مسافة طويلة لتشارك في الجيتان. يندر أن يحضر رجال ماناتاج مباريات أخرى غير المباريات التي تُعقد كل عشر سنوات. أخبرني عن أوزار! هل سيحضر السنة المقبلة؟ آه، لكنه كان مقاتلاً نبيلاً. إذا كنت نصف مبارز، يا يوكال، فإن شهرة ماناتاج سوف تزداد اليوم. ولكن قل لي، ماذا عن أوزار؟».

أجاب توران دون تكلف: «إنه على ما يرام، ويبعث بتحياته إلى أصدقائه في ماناتور».

صاح الحارس: «جيد! والآن، في أي لعبة سوف تشترك؟».

أجاب توران: «سوف أشترك في المباراة على أميرة هيليوم».

صاح الحارس: «لكن رهان المباراة عليها يا رجل سيكون بين العبيد والمجرمين. لن تتطوع في مثل هذه المباراة!».

أجاب توران: «سوف أتطوع. فقد رأيتها عند إحضارها إلى المدينة، وقد أخذت عهدًا على نفسي حينذاك بامتلاكها».

اعترض الحارس: «ولكن، سيكون عليك تقاسمها مع باقي الناجين، حتى إذا فاز فريقك».

قال توران بإصرار: «هؤلاء يمكن الاتفاق معهم».

واصل الحارس شارحًا: «وقد تجلب على نفسك غضب أوتار، الذي لا يحب هذه المرأة البربرية المتوحشة».

قال توران: «إذن إذا فزت، سيتخلص منها أوتار».

هز حارس أبراج جيتان رأسه وقال: «أنت متهور. كنت لأُثني صديقي أوزار عن مثل هذا الجنون».

سأله توران: «هل يمكنك القيام بخدمة لصديق أوزار؟».

صاح الحارس: «بكل سرور! ماذا يمكنني أن أقدم له؟».

أجاب البانتان: «اجعلني قائد الفريق الأسود، واجعل جميع لاعبي قِطعي من عبيد جاثول، لأنني فهمت أنهم محاربين ممتازين».

قال الحارس: «إنه طلب غريب، لكني مستعد للقيام حتى بأكثر من ذلك لصديقي أوزار، على الرغم أنه، بطبيعة الحال»، قال مترددًا، «قد جرى العُرف أن يدفع من سيكون قائدًا مبلغًا بسيطًا».

أسرع توران مؤكدًا: «بالطبع، أنا لم أنسَ ذلك، وكنت على وشك أن أسألك عن المبلغ المتعارف عليه».

أجاب الحارس: «لصديق صديقي سيكون المبلغ رمزيًّا»، ثم حدد رقمًا اعتبره جاهان ضئيلاً جدًّا؛ إذ اعتاد جاهان وهو جاثولي ثري على الأسعار المرتفعة.

قال جاهان وهو يعطي المبلغ للحارس: «أخبرني، متى يحين موعد المباراة على الفتاة الهليومية».

أجاب الحارس: «إنه الثاني في ترتيب مباريات اليوم. وإذا أتيت معي الآن، يمكنك اختيار قطع لاعبيك».

تبع توران الحارس إلى ساحة كبيرة تقع بين الأبراج وساحة جيتان، حيث تم تجميع مئات المحاربين. كان قادة مباريات اليوم ينتقون بالفعل قطعهم ويحددون مناصبهم، على الرغم من أن هذه الأمور قد جرى ترتيبها للمباريات الرئيسة منذ أسابيع. قاد الحارس توران إلى جزء من الفناء حيث يتجمع أغلب العبيد.

قال الحارس: «يمكنك الاختيار من بين هؤلاء، وعندما تكتمل حصتك، خذهم إلى الساحة. وهناك، سيتولى ضابط تحديد مكانك، حيث ستبقى مع قطعك إلى أن يتم استدعاء المباراة الثانية. أتمنى لك حظًّا سعيدًا، يا يوكال، على أنني مما سمعت، سيكون حظك في الخسارة أكثر منه في الفوز بالأَمَة الهيليومية».

غادر الحارس، ثم اقترب توران من العبيد وأعلن: «أريد أفضل المبارزين للمباراة الثانية. أود رجالاً من جاثول؛ لأنني سمعت أنهم مقاتلين نبلاء».

نهض عبد واقترب منه قائلاً: «لا يهم في أي مباراة نموت. سوف أقاتل لصالحك كبانتان في المباراة الثانية».

جاء عبد آخر وقال: «أنا لست من جاثول، أنا من هيليوم. وسوف أقاتل لشرف أميرة هيليوم».

صاح توران: «جيد! هل أنت مبارز ذو سمعة في هيليوم؟».

«كنت دوارًا تحت قيادة أمير الحرب العظيم، وقد حاربت إلى جانبه في عشرات المعارك، من المنحدرات الذهبية «إلى كهوف كاريون. اسمي فال دور، ومن يعرف هيليوم يعرف براعتي».

كان جاهان يعرف هذا الاسم جيدًا، حيث سمعهم يتحدثون عنه في زيارته الأخيرة إلى هيليوم، وعن اختفائه الغامض، فضلاً عن شهرته كمقاتل.

سأله توران: «كيف يمكنني أن أعرف أي شيء عن هيليوم؟ ولكن إذا كنت مقاتلاً بارعًا كما تقول، فلن يناسبك موقع أفضل من الطيار. ماذا قولك؟».

ظهر في أعين الرجل اندهاش مفاجئ، وتطلع باهتمام نحو توران، وعيناه تتفحصان عتاده بسرعة، ثم خطا بالقرب من توران بحيث لا يسمع أحد كلماته.

وهمس قائلاً: «أعتقد أنك قد تعرف عن هيليوم أكثر مما تعرف عن ماناتور».

سأله توران: «ماذا تعني يا زميل؟»، في محاولة للتفكير في مصدر معرفة أو تخمين هذا الرجل.

أجاب فال دور: «أنا أعني أنك لست من ماناتور، وإذا كنت ترغب في إخفاء هذه الحقيقة فلا تتحدث مع أي ماناتوري بنفس الطريقة التي تحدثت بها معي وتقول طيار! فلا توجد طائرات في ماناتور ولا تحمل أي قطعة في لعبتهم الجيتان هذا الاسم. إنهم بالأحرى يطلقون اسم أودوار على من يقف إلى جانب القائد أو الأميرة. ولقطعة الأودوار نفس تحركات وقوى قطعة الطيار في اللعبة خارج ماناتور. عليك أن تتذكر ذلك، وتتذكر أيضًا إذا كان لديك سر فإنه آمن مع فال دور الهيليومي».

لم يرد توران، بل واصل مهمة تحديد القطع الباقية. ساعده كثيراً فال

دور الهيليومي، وفلوران المتطوع من جاثول، حيث كان كلاهما يعرف معظم العبيد الذي عليه اختيارهم. بعد الانتهاء من اختيار جميع القطع، قادهم توران إلى مكان بجوار الملعب انتظارًا لدورهم، وهنا مرر كلمة أنهم سيقاتلون من أجل حصة أكبر مما عرضها عليهم مقابل الأميرة في حال فوزهم. كان الرجال قد قبلوا الحصة المعروضة، بحيث كان توران متأكدًا من امتلاك تارا إذا انتصر فريقه، لكنه كان يعلم أن هؤلاء الرجال سيقاتلون ببسالة من أجل الشهامة أكثر حتى من أجل المال، ولم يكن يصعب حتى كسب اهتمام الجاثوليين لصالح الأميرة. وعرض الآن إمكانية مكافأة أخرى.

وأوضح: «لا أستطيع أن أعدكم، لكني سمعت أننا إذا فزنا اليوم بالمباراة فمن الممكن أن نكسب حتى حريتكم!»

هبوا واقفين، واحتشدوا حوله ولديهم العديد من الأسئلة.

قال لهم: «لا يمكنني التحدث بصوت عال، لكن فلوران وفال دور أكدا لي أن بإمكاني الثقة بكم جميعًا. اسمعوا! ما سأقوله لكم يضع حياتي بين أيديكم، لكنكم يجب أن تعرفوا أن كل رجل عليه أن يدرك أنه يخوض اليوم أعظم معارك حياته، معركة من أجل شرف وحرية أروع أميرة في برسوم، وأيضًا حريته هو نفسه من أجل الحصول على فرصة العودة إلى بلده وإلى المرأة التي تنتظره هناك».

«أولاً، إذن، هذا هو سري: أنا لست من ماناتور. أنا عبد مثلكم لكني متنكر الآن في زي ماناتوري من ماناتاج. ويجب عدم الكشف عن بلدي وهويتي لأسباب لا تتعلق بمباراة اليوم. أنا واحد منكم، إذن، وأقاتل لنفس الأشياء التي ستقاتلون من أجلها».

«كما أنني قد عرفت الآن أن يوثور، جِد ماناتوس الأكبر، تشاجر مع أوتار في القصر قبل يوم أمس، وتقاتل محاربيهما. وقد دفعوا يوثور بعيدًا، إلى بوابة الأعداء، حيث أقام معسكره هناك. وقد تتجدد المعركة في أي لحظة، وهناك اعتقاد أن يوثور أرسل إلى ماناتوس طلبًا لتعزيزات. والآن يا رجال جاثول، أقول لكم الشيء الذي يهمكم. تزوج يوثور مؤخرًا الأميرة هاجا من جاثول، التي كانت أَمَة لأوتار وكان ابنها أكور دوار أبراج جيتان. يمتلئ قلب هاجا بالولاء لجاثول والتعاطف مع أبنائها الذين استعبدوهم هنا، وقد نقلت هذا الشعور إلى حد ما إلى يوثور. ولذلك فإنني أطلب مساعدتكم لتحرير تارا أميرة هيليوم، وأعتقد أن بإمكاني مساعدتكم ومساعدتها ومساعدة نفسي للهرب من المدينة. قربوا أذانكم يا عبيد أوتار حتى لا يسمع أي عدو قاسٍ كلماتي»، وهمس جاهان الجاثولي -بنبرة منخفضة- بالخطة الجريئة التي وضعها. وعندما انتهى، قال: «والآن، ليتكلم من لا يجرؤ على المشاركة». لم يرد أحد. «ألا يوجد أي شخص؟».

قال أحدهم بصوت خفيض يحمل شعورًا بالكبت: «لن أخونك إذا ألقيت سيفي تحت أقدامك، وقد حدث ذلك من قبل».

«وأنا!»، «وأنا!»، «وأنا!» ... قال الآخرون في همسات نابضة بالحياة.

* * *

الفصل (17)

مباراة حتى الموت

رن صوت البوق واضحًا ونقيًّا عبر ملاعب جيتان، انطلق صوته الهادئ من برج عالٍ وطاف عبر مدينة ماناتور، مرتفعًا أعلى من صخب المنافسات البشرية التي ترتفع من الكتّلة المزدحمة التي تملأ مقاعد الاستاد أدناه. دعا البوق اللاعبين إلى المباراة الأولى، ورفرفت في الوقت نفسه، عالية من ألف عامل على البرج والدرابزين والسور العظيم للاستاد، الرايات الفخمة المبهجة لقادة ماناتور المقاتلين. هكذا تميز افتتاح مباريات الجيداك، التي تُعتبر أهم مباريات السنة والثانية في الأهمية بعد المباريات الكبرى التي تُعقد كل عشر سنوات.

شاهد جاهان الجاثولي كل لعبة بعين نسر. لم تكن المباراة مهمة؛ إذ دارت لمجرد تسوية بعض المنازعات الصغيرة بين اثنين من القادة، وجرت بلاعبي جيتان محترفين لتسجيل نقاط فقط. لم يُقتل أحد، وسال مجرد قدر ضئيل من الدماء. استمرت المباراة حوالي ساعة، وأنهاها قائد الجانب الخاسر عمدًا ليتيح لنفسه نقاطًا إضافية بحيث تُعتبر النتيجة تعادلاً.

رن صوت البوق ثانية، ليُعلن هذه المرة عن المباراة الثانية والأخيرة لفترة ما بعد الظهر. وعلى الرغم من أنها لم تكن مباراة مهمة -حيث تجري المباريات المهمة في اليومين الرابع والخامس- فقد كانت تحمل قدرًا من الإثارة لأنها مباراة حتى الموت. يكمن الفارق الأساسي بين المباراة التي يخوضها رجال أحياء وتلك التي تستخدم قطعًا غير حية في أن نقل قطعة غير حية إلى مربع تحتله قطعة الخصم ينهي هذه الخطوة، أما في الحالة الأولى، يجب أن تشتبك القطعتان في مبارزة للفوز بالمربع. ولذلك، لا يقتصر الأمر في هذه الحالة على تحديد استراتيجية لجيتان، وإنما يتطلب أيضًا براعة وشجاعة كل قطعة منفردة، بحيث تمثل معرفة القائد بكل لاعب، ليس فقط من رجاله وإنما على الجانب الآخر أيضًا، قيمة هائلة.

وفي هذا الصدد كان وضع جاهان عسيرًا، على الرغم من أن ولاء لاعبي فريقه فعل الكثير لتعويض جهله باللاعبين الآخرين، فقد ساعدوه في ترتيب الرقعة على أفضل وجه وأخبروه صراحة بأخطاء وميزات كل منهم. قاتل أحدهم أفضل في لعبة خاسرة؛ وكان آخر بطيئًا للغاية، وهذا كان شديد التهور، وذاك كان متحمسًا وقلبه من حديد لكنه يفتقر إلى القدرة على التحمل. على أن معرفتهم بالخصوم كانت محدودة أو لا شيء. والآن، بعد أن

اتخذ الجانبان أماكنهم على المربعات السوداء والبرتقالية لرقعة الجيتان الكبرى، تمكن جاهان للمرة الأولى من النظر عن كثب إلى خصومه. لم يدخل قائد اللون البرتقالي إلى الملعب بعد، لكن جميع رجاله كانوا في أماكنهم. نظر فال دور إلى جاهان وقال: «جميعهم من المجرمين القادمين من حُفر ماناتور، وليس بينهم أي عبيد. ليس علينا قتال زميل واحد مواطن، وكل حياة سننهيها، ستكون حياة لعدو».

أجاب جاهان: «هذا جيد، لكن أين قائدهم، وأين الأميرتين؟».

«سيأتون الآن، أترى؟»، وأشار عبر الملعب، حيث يمكن رؤية امرأتين تقتربان تحت حراسة.

وعندما اقتربتا، تأكد جاهان من أن تارا الهيليومية إحداهما، لكنه لم يتعرف على الأخرى. أوصلاهما إلى الملعب، في المنتصف بين الجانبين، حيث انتظرتا حتى وصل قائد الفريق البرتقالي.

على أن فلوران أطلق صيحة اندهاش عندما تعرّف عليه، وقال: «باسم سلفي الأول، إنه أحد كبار قادتهم، لقد قيل لنا إن العبيد والمجرمين هم من سيلعبون هذه المباراة».

قطع صوت حارس الأبراج كلماته، فلم تقتصر مهمة الحارس على الإعلان عن المباريات والرهانات، وإنما كان الحَكم أيضًا.

«والآن، المباراة الثانية في اليوم الأول من مباريات الجيداك في السنة الثالثة والثلاثين بعد المائة الرابعة لأوتار، جيداك ماناتور. الرهان الوحيد هو الأميرة في كل جانب، وسوف تنتمي الأميرتان إلى الناجين في الجانب المنتصر ليفعلا بهما ما يرونه مناسبًا. أميرة الفريق البرتقالي هي الأَمَة لانو الجاثولية، وأميرة الفريق الأسود الأَمَة تارا، أميرة هيليوم. قائد الفريق الأسود هو اللاعب المتطوع يوكال من ماناتاج، وقائد الفريق البرتقالي هو لاعب متطوع أيضًا وهو الدوار يودور من الأوتان الثامن لجيداك ماناتور. ستجري المنافسة على المربعات حتى الموت. قوانين ماناتور عادلة! لقد أنهيت حديثي».

فاز يودور بالخطوة الأولى، وبعدها اصطحب القائدين أميرتيهما إلى المربع الخاص بكل منهما. إنها المرة الأولى التي ينفرد فيها جاهان بتارا، منذ جلبها إلى الملعب. شاهدها تنظر نحوه عن كثب بتمحيص وهو يقترب منها ليقودها إلى مَكانها، وتساءل عما إذا كانت قد تعرفت عليه؛ لكنها إذا كانت قد فعلت، فلم توضح أي علامة على ذلك. لم يستطع إلا أن يتذكر آخر كلماتها: «أنا أكرهك!»، ونبذْها له عندما حبسه

إيجوس المُحنط في غرفة تحت القصر، ولذا لم يسع إلى تعريفها بهويته. كان ينوي القتال من أجلهَا، والموت من أجلها إذا لزم الأمر، ولو لم يمت، كان مستعدًّا للقتال حتى النهاية للفوز بحبها. لم يكن من السهل تثبيط همة جاهان الجاثولي، لكنه كان مضطرًّا للاعتراف بأن فرصته في الفوز بحب تارا الهيليومية بعيدة. فقد صدته مرتين: مرة كجد لجاثول، ومرة كالبانتان توران. كانت سلامتها تأتي قبل حبه لها، ويجب تنحية حبها إلَى الخلفية إلى أن يحقق سلامتها.

مر كلاهما بين اللاعبين الموجودين بالفعل في مواقعهم، ثم اتخذ كل منهما موقعه على مربعه. كان جاهان الجاثولي، قائد الفريق الأسود، على يسار تارا، وأمامها مباشرة بانتان الأميرة، فلوران الجاثولي؛ وعلى يمينها أودار الأميرة، فال دور الهيليومي. يعرف كل منهم دوره في المباراة، سواء عند الفوز أو الخسارة، كما كان حال كل لاعب آخر في الفريق الأسود. عندما اتخذت تارا موقعها، انحنى أمامها فال دور قائلاً: «سيفي عند قدميك، تارا الهيليومية».

التفتت تارا ونظرت نحوه، وتعبيرات وجهها تنم عن الدهشة والتشكك، ثم صاحت: «فال دور، الدوار! فال دور من هيليوم، الكابتن، أحد رجال والدي الذين يثق بهم! هل تقول عيني الحقيقة؟».

أجاب المحارب: «أنا فال دور، يا أميرة، وأموت هنا من أجلك إن اقتضى الأمر، كما هو حال كل لاعب في الفريق الأسود على ملعب جيتان هذا اليوم. أتعرفين يا أميرة»، همس قائلاً، «لا يوجد في فريقنا أي رجل من ماناتور، لكن كل فرد فيه عدو لماناتور».

ألقت نظرة خاطفة ذات معنى نحو جاهان، وهمست: «لكن ماذا عنه؟»، ثم التقطت أنفاسها بسرعة من المفاجأة. صاحت: «ظل الجيداك الأول! لم أتعرف عليه بسبب تنكره».

سألها فال دور: «وهل تثقين فيه؟ أنا لا أعرفه، لكنه تحدث تمامًا كمحارب شريف، ووثقنا في كلماته».

أجابت تارا: «أنت لم تُخطئ. أنا أثق فيه بحياتي، بروحي، ويمكنك أيضًا أن تثق فيه».

كان جاهان الجاثولي ليسعد في الواقع إذا سمع هذه الكلمات، لكن المصير، الذي يقسو عادة على الحبيب في مثل هذه الأمور، قضى بغير ذلك، ثم بدأت المباراة.

نقل يودور أودوار أميرته ثلاثة مربعات مائلة إلى اليمين، مما وضع القطعة على المربع السابع لأودوار القائد الأسود. كانت النقلة تدل على نية لعبة يودور -لعبة الدم، وليس العِلم- كما تدل على احتقاره لخصومه.

نقل جاهان البانتان أودواره لمربع واحد إلى الأمام، وهو تحرك عِلمي، مما فتح طريقًا لنفسه خلال خط لاعبي البانتان لديه، فضلاً عن الإعلان إلى اللاعبين والمتفرجين أنه ينوي المشاركة في القتال بنفسه، حتى قبل أن تفرض عليه ضرورات اللعبة ذلك. أثارت هذه الخطوة موجة تصفيق من أقسام المقاعد المحجوزة للمحاربين العاديين ونسائهم، مما يدل على أن يودور لم يكن يتمتع بشعبية كبيرة بينهم، كما أثرت أيضًا على الروح المعنوية لقِطع جاهان. يجوز للقائد، وغالبًا ما يفعل، أن يلعب المباراة كاملة تقريبًا دون أن يغادر مربعه؛ إذ بإمكانه وهو يمتطي حيوانه الثوات أن يشرف على الملعب بأكمله ويوجه كل تحرك، كما لا يمكن لومه باعتباره يفتقر إلى الشجاعة إذا اختار أن يلعب المباراة على هذا النحو، حيث تنص القواعد على أنه إذا قُتِل أو أصيب بجراح شديدة تجبره على الانسحاب، فإن نتيجة المباراة التي كان يمكنه الفوز بها بمهارته وبراعة رجاله، تصبح تعادلاً. ولذلك، تدل الدعوة إلى القتال الشخصي على الثقة في مهارته في المبارزة وشجاعته الكبيرة، وهما سمتان تملآن لاعبي الفريق الأسود بالأمل والشجاعة عندما يبرهن عليهما قائدهم في بداية المباراة.

تمثلت خطوة يودور التالية في وضع أودوار لانو على مربع أودوار تارا الرابع – على مسافة من أميرة الفريق الأسود لافتة للنظر.

خطوة أخرى ويخسر جاهان المباراة، إلا إذا أُطيح بالأودوار البرتقالي أو انتقلت تارا إلى مكان آمن، لكن تحريك الأميرة الآن يعني اعترافه بتفوق الفريق البرتقالي. لم يكن يستطيع، في المربعات الثلاثة المسموحة له، أن يضع نفسه مباشرة فوق المربع الذي يشغله أودوار أميرة يودور. هناك لاعب واحد فقط على الجانب الأسود يمكنه قتال الخصم للفوز بالمربع، وهو أودوار القائد، الذي يقف على يسار جاهان. استدار جاهان وهو فوق حيوانه الثوات، ونظر إلى الرجل. كان زميلاً رائع المظهر، يتألق في أغطية أودوار فاخرة، والريشات الخمس الرائعة التي تدل على موقعه ترتفع في تحد من شعره الأسود الكثيف. كان يعرف، هو وكل لاعب في الملعب وكل متفرج في المدرجات المزدحمة، ما يدور في عقل قائده. لم يجرؤ على التحدث لأن أخلاقيات اللعبة تحظر ذلك، لكن ما لم تقله شفتيه عبّرت عنه عينيه بحماسة عسكرية، وببلاغة: «شرف الفريق الأسود وسلامة أميرتنا آمنين معي!».

لم يتردد جاهان طويلاً، وأصدر أمره: «أودوار القائد إلى المربع الرابع لأودوار الأميرة!». كانت الخطوة الشجاعة لقائد حمل القفاز الذي ألقاه خصمه.

انطلق المحارب إلى الأمام، وقفز إلى المربع الذي تشغله قطعة يودور. كان أول مربع يجري عليه القتال في المباراة. ثبتت أعين اللاعبين على المتسابقين، وانحنى المتفرجون إلى الأمام في مقاعدهم بعد أول تصفيق لتحية هذه الخطوة وساد الصمت بين هذا التجمع الهائل. في حالة هزيمة اللاعب الأسود، بإمكان يودور تحريك قطعته المنتصرة إلى المربع الذي تشغله تارا الهيليومية وتنتهي اللعبة – تنتهي في أربع خطوات وينهزم جاهان الجاثولي. أما هزيمة اللاعب البرتقالي، فهي تعني أن يودور ضحى بأحد أهم لاعبيه، وفقد أكثر مما منحته الخطوة الأولى من ميزة.

بدا الرجلان متماثلين تمامًا جسديًّا ويقاتل كل منهما من أجل حياته. على أن الواضح من البداية أن الأودوار الأسود كان مبارزًا أفضل، فضلاً عن أن جاهان كان يعرف أن لمبارزه ربما ميزة أكبر تتفوق على خصمه. فلم يكن الخصم يقاتل إلا للفوز بحياته، دون حافز الشهامة أو الولاء، أما الأودوار الأسود فكان هذان الحافزان يعززانه، هذا إلى جانب ما همس به جاهان في آذان لاعبيه قبل المباراة، وبالتالي كان محاربه يقاتل من أجل ما هو أكثر من حياة لرجل شريف.

لقد كانت مبارزة أصابت مشاهديها بصمت السحر. لمع السيفان المتحركان في ضوء الشمس الباهر، مع رنين هجمات الدفاع والهجوم. وأضفى عتاد المبارزين البربري ألوانًا رائعة على مشهد القتال الوحشي. كان الأودوار البرتقالي، الذي أُجبر على اتخاذ موقف دفاعي، يقاتل بجنون من أجل حياته؛ إذ أجبره الأسود، بكفاءة ممتازة ورهيبة، على التوجه باطراد، خطوة بخطوة، إلى ركن المربع – وهو وضع لا يمكن الفكاك منه. خروجه من المربع يعني أنه خسره لخصمه، وفاز لنفسه بموت خسيس وفوري أمام الجماهير الساخرة. دفعه يأسه الواضح من محنته إلى الانطلاق في هجوم غاضب مفاجئ أجبر المحارب الأسود على التراجع ستة خطوات، ثم وجه طعنة بسيفه أراقت أولى الدماء من كتف منافسه الذي لا يرحم. ارتفعت صرخة تشجيع مخنوقة من رجال يودور. تشجع الأودوار البرتقالي من نجاحه الوحيد، وسعى إلى هزيمة الأسود بهجوم سريع. سادت لحظة تحرك خلالها السيفان بسرعة ليس بمقدور العين البشرية أن تتابعها، ثم قام الأودوار الأسود بحركة دفاعية صاعقة موجهًا طعنة شرسة، ثم انحنى بسرعة إلى الأمام نحو الجرح الذي أحدثه، وطعن بسيفه قلب الأودوار البرتقالي – غرسه إلى مقبضه في جسم الأودوار البرتقالي.

انطلقت صيحة من المدرجات؛ إذ بغض النظر عمن كان يفضله المتفرجون، لم يكن هناك من يستطيع القول إنها لم تكن معركة بارعة، أو أن الرجل الأفضل لم يفُز. وتنفس لاعبو الفريق الأسود الصعداء، بعد أن خفت حدة توتر اللحظات الأخيرة.

لن أرهقكم بتفاصيل اللعبة، فلا يهم سوى ملامحها الحاسمة، الضرورية لفهم نتيجتها. أدت هذه الخطوة الرابعة، بعد فوز الأودوار الأسود، إلى وجود جاهان على المربع الرابع ليودور؛ ويقف بانتان برتقالي على المربع المجاور قطريًّا على يمينه، وهو اللاعب المنافس الوحيد الذي يمكن أن يشتبك معه عدا يودور نفسه.

كان من الواضح لكل من اللاعبين والمتفرجين، من الخطوتين الأخيرتين، أن جاهان يتحرك مباشرة خلال الملعب نحو منطقة الخصم التماسًا لقتال شخصي مع القائد البرتقالي - وأنه كان يراهن على إيمانه بتفوقه في مهارات المبارزة، فإذا اشتبك القائدان، تقرر نتيجة قتالهما الفائز في المباراة. يمكن أن يخطو يودور ويشتبك مع جاهان، أو ينقل بانتان أميرته إلى المربع الذي يشغله جاهان على أمل أن يقتل البانتان القائد الأسود وبالتالي تصبح النتيجة تعادلاً، وهي النتيجة في حال أن قام أي محارب آخر غير القائد بقتل قائد الفريق المنافس، أو يمكنه أن يخطو بعيدًا ويتجنب مؤقتًا ضرورة القتال الشخصي، أو أن هذا على الأقل ما كان يدور في ذهنه كما بدا بداهة لجميع من شاهدوه وهو يتفحص الرقعة بدقة حوله. على أن خيبة أمله كانت واضحة عندما اكتشف أخيراً أن جاهان قد وضع نفسه في موقع يغلق أمام يودور إمكانية الانتقال إلى أي مربع خارج نطاق قدرة جاهان للوصول إليه في خطوته التالية.

وضع يودور أميرته على مسافة أربعة مربعات شرقي جاهان، عندما تعرض موقعها للتهديد، وكان يأمل في إغراء القائد الأسود أن يسعى نحوها مبتعدًا عن يودور، إلا أنه فشل في ذلك. اكتشف الآن أن بإمكانه وضع أودواره في قتال شخصي مع جاهان، لكنه سبق أن فقد أودوارًا وقد لا يتمكن من الاحتفاظ بالثاني. كان موقفه حساسًا، لأنه لا يرغب في الاشتباك مع جاهان شخصيًّا، في حين كانت احتمالات تجنب ذلك تبدو ضئيلة. لم يكن أمامه سوى أمل واحد، وهو بانتان الأميرة. بالتالي، ودون مزيد من التفكير، أصدر أمره إلى تلك القطعة بالانتقال إلى المربع الذي يشغله القائد الأسود.

اتجه تعاطف المتفرجين الآن نحو جاهان كلية. فإذا خسر، سيُعلن عن انتهاء المباراة بالتعادل، ونظرتهم إلى التعادل في المباريات في برسوم ليست أفضل من نظرة رجال كوكب الأرض. إذا فاز، سيعني ذلك دون شك مبارزة بين القائدين، وهو التطور الذي يأملونه جميعًا. كانت المباراة تبدو قصيرة، وسوف يشعر الجمهور بالغضب إذا تقررت نتيجتها بالتعادل في ظل مقتل رجلين فقط. تضم السجلات مباريات عظيمة

وتاريخية، حيث بدأت بأربعين قطعة في الملعب، ولم ينج منها في النهاية سوى ثلاثة فقط - الأميرتين والقائد المنتصر.

لقد ألقوا باللوم على يودور، على الرغم من أنه كان يتصرف في الواقع في إطار حقه في توجيه لعبته على النحو الذي يراه مناسبًا، كما أن رفضه للاشتباك مع القائد الأسود لم يكن بالضرورة علامة على الجُبن. كان قائدًا عظيمًا لديه تصور عن امتلاك الأَمَة تارا. ما من شرف سوف يجنيه من الاشتباك في قتال مع العبيد والمجرمين، أو مع محارب غير معروف من ماناتاج، كما لم يكن الرهان يتسم بأهمية كافية لتبرير المخاطر.

بدأت المبارزة الآن بين جاهان والبانتان البرتقالي، وأصبح قرار الخطوة التالية في أيديهما فقط. إنها المرة الأولى التي يشهد فيها الماناتوريون جاهان الجاثولي المقاتل، لكن تارا الهيليومية تعرف مدى مهارته في المبارزة. لو تمكن من رؤية ضوء الفخر في عينيها وهو يبارز المحارب البرتقالي، لكان تساءل بسهولة عما إذا كانت هي نفس الأعين التي ومضت بنيران الكراهية تجاهه عندما غطى شفتيها بقبلات مجنونة خلال وجودهما معًا في حُفر قصر أوتار. لم تستطع وهي تشاهده إلا أن تقارن مبارزته بمبارزة أعظم مبارز في عالمين -والدها، جون كارتر من فيرجينيا؛ وأمير هيليوم وأمير الحرب في برسوم- وتعرف أن مهارة القائد الأسود أقل قليلاً بالمقارنة.

كانت المبارزة التي قررت حيازة المربع الرابع للقائد البرتقالي قصيرة وحاسمة. أعد المتفرجون أنفسهم لمعركة مثيرة للاهتمام، على الأقل لفترة متوسطة، لكنهم وقفوا ثابتين تقريبًا من جراء ذلك الوميض المتألق لسرعة المبارزة التي انتهت قبل أن يتمكن أحدهم من التقاط أنفاسه. شاهدوا القائد الأسود يتراجع بسرعة، وسيفه على الأرض، بينما يحاول خصمه التعلق بصدره وسيفه ينزلق من يده، ثم يسقط على ركبتيه ويندفع إلى الأمام على وجهه.

تحولت عينا جاهان الجاثولي بعد ذلك نحو يودور الماناتوري مباشرة، على مسافة ثلاثة مربعات. المربعات الثلاثة هي حركة القائد- ثلاثة مربعات في أي اتجاه أو مزيج من الاتجاهات، شريطة ألا يعبر المربع نفسه مرتين في حركة بعينها. رأى الناس وتوقعوا نية جاهان. نهضوا وصاحوا مُعلنين موافقتهم عليها، وهو ينتقل عمدًا عبر المربعات المتداخلة تجاه القائد البرتقالي.

جلس أوتار في المقصورة الملكية مُقطبًا وهو ينظر إلى المشهد، غاضبًا. كان غاضبًا من يودور لأنه دخل هذه اللعبة للفوز بالأَمَة التي كان يرغب ألا يفوز بها سوى العبيد والمجرمين. وكان غاضبًا من المحارب القادم من ماناتاج لأنه تفوق في

استراتيجيته وقتاله على رجال ماناتور. وكان غاضبًا من الجمهور لعدائهم الصريح تجاه الشخص الذي ينعم بتأييده منذ سنوات طوال. لم يستمتع الجيداك بالمباراة التي جرت بعد ظهر اليوم. ظهر التجهم نفسه على المحيطين به، فقد أغضبهم أيضًا الملعب، واللاعبين، والناس. كان بينهم رجلاً عجوزاً منحنيًا ومليء بالتجاعيد، يحدق بأعينه الضعيفة الهزيلة في الملعب واللاعبين.

عندما دخل جاهان إلى المربع، قفز يودور نحوه بالسيف غاضبًا، كغضب من تغلب على مبارز أقل مهارة وقوة. استمرت المعركة سريعة ومحتدة لمدة دقيقة، وقلصت بالمقارنة أهمية كل ما حدث من قبل. ففي واقع الأمر، كانت معركة تدور بين اثنين من أمهر المبارزين، معركة تُبشر بالتعويض عما شعر به الناس من خداع نتيجة لقِصر مدة المباراة. على أنها لم تستمر طويلاً قبل أن يتنبأ العديدون أنهم يشهدون مبارزة ستصبح تاريخية في حوليات الجيتان في ماناتور. فقد استخدم الرجلان كل خدعة وكل حيلة معروفة في فن المبارزة. أحرز كل منهما نقطة، مرارًا وتكرارًا، وأراق دماء بشرة خصمه النحاسية إلى أن أصبحت حمراء بلون الدم، لكن كليهما لم يتمكن من إحراز الضربة القاضية.

شاهدت تارا الهيليومية، من موقعها على الجانب الآخر من الملعب، معركة طويلة. بدا لها دائمًا أن القائد الأسود يقاتل من موقف دفاعي، أو عندما يكون بمقدوره دفع خصمه، فإنه يهمل آلاف الفتحات التي تلمحها عينها المتمرسة. لم يبدُ أبدًا في خطر حقيقي، كما لم يظهر أبدًا أنه يبذل الجهد الضروري لتحقيق النصر. لقد استمرت المبارزة لفترة طويلة، وكان اليوم يقترب من نهايته. الآن، ونظرًا لرقة هواء برسوم، يمكن أن يحدث الانتقال المفاجئ من ضوء النهار إلى الظلام، دون المرور بالغسق التحذيري الذي يشهده كوكب الأرض. ألن ينتهي القتال أبدًا؟ هل ستُعتبر نتيجة المباراة تعادلاً بعد كل هذا؟ ما الذي يزعج القائد الأسود؟

تمنت تارا أن تجيب على الأقل على آخر سؤال؛ لأنها كانت متأكدة من أن البانتان توران، كما تعرفه، لم يكن يقاتل بكل قوته، رغم أنه كان يقاتل ببراعة. لا تستطيع تصديق أن الخوف يقيد يده، لكنها واثقة أن هناك شيئًا غير عدم قدرته على دفع يودور بشراسة أكبر. على أنها لم تستطع تخمين هذا الشيء.

رأت جاهان ينظر نظرة سريعة نحو الشمس التي تغرب. سيحل الظلام خلال ثلاثين دقيقة. ثم رأت، ورأى الجميع، تحولاً غريبًا يتسلل إلى مبارزة القائد الأسود. كأنما كان يلعب مع الدوار الكبير، يودور، كل هذه الساعات، ولا يزال يلعب معه حتى الآن ولكن هناك اختلافًا. لعب معه بشكل رهيب، كما تلعب آكلات اللحم بضحيتها في اللحظة التي

تسبق القتل. أصبح القائد البرتقالي عاجزاً الآن في أيدي المبارز المتفوق بما لا يدع مجالاً للمقارنة، وفغر الناس أفواههم في ذهول ورعب وهم يشاهدون جاهان الجاثولي يُقطع خصمه إلى شرائط، ثم يسدد له ضربة تشقه حتى الذقن.

سوف تغيب الشمس خلال عشرين دقيقة. ولكن ما هذا؟

* * *

الفصل (18)

مهمة من أجل الولاء

استمر التصفيق الذي ارتفع فوق ملعب جيتان في ماناتور لمدة طويلة وبصوت عال، عندما استدعى حارس الأبراج الأميرتين والقائد المنتصر إلى وسط الملعب وقدم له ثمار بسالته. بعد ذلك، ووفقًا للأعراف، قام اللاعبون المنتصرون، بقيادة جاهان والأميرتين، بتشكيل موكب خلف حارس الأبراج الذي اقتادهم إلى موقع النصر أمام المنصة الملكية لتلقي ثناء الجيداك. نزل المحاربون الذين يركبون الثوات من على حيوانتهم وأعطوها للعبيد، حيث يجب أن يواصل الجميع سيراً على الأقدام خلال المراسم. تقع أسفل المقصورة الملكية مباشرة بوابات أحد الأنفاق، التي تمر تحت المقاعد، للدخول إلى الملعب أو الخروج منه. توقفت المجموعة أمام هذه البوابات، بينما نظر إليهم أوتار من أعلى. سار فال دور وفلوران بهدوء أمام الآخرين وتوجها مباشرة إلى البوابات، للاختباء ممن يشغلون المقصورة مع أوتار. ربما لاحظهما حارس الأبراج، لكنه لم يهتم بهما نظرًا لانشغاله الشديد بالطقوس الرسمية المتعلقة بتقديم القائد المنتصر إلى الجيداك.

أعلن بصوت عال كي يسمعه أكبر عدد ممكن: «أحضرت لك يا أوتار، جيداك ماناتور، يوكال من ماناتاجٍ، الذي انتصر على الفريق البرتقالي في ثاني مباريات الجيداك للسنة الثالثة والثلاثين بعد المائة الرابعة لأوتار؛ فضلاً عن الأَمَة تارا والأَمَة لانو، اللتين يمكن أن تُنعِم بهما على يوكال».

خلال حديثه، كان هناك رجل عجوز ضئيل الحجم وكثير التجاعيد يحدق ببصره من فوق درابزين المقصورة نحو الثلاثة الذين يقفون خلف الحارس مباشرة، وأجهد عينيه الضعيفة الهزيلة في محاولة لإرضاء فضوله كعجوز في مسألة ليست ذات أهمية خاصة، فما أهمية العبدتين والمحارب من ماناتاج لأي من يجلس مع الجيداك أوتار؟

قال أوتار: «يوكال من ماناتاج، أنت تستحق الرهان. نادرًا ما نشاهد مثل هذه المبارزة النبيلة. وإذا شعرت بالسأم من ماناتاج، لديك دائمًا هنا في مدينة ماناتور مكانًا بين حرس الجيداك».

بينما كان الجيداك يتحدث، أخفق تماما العجوز ضئيل الحجم في التعرف على ملامح القائد الأسود؛ فمد يده إلى جيب حقيبته وأخرج نظارة ذات عدسات سميكة،

ووضعها على أنفه. استمر للحظة يحدق في جاهان عن كثب، ثم نهض على قدميه لمخاطبة أوتار وهو يشير بإصبعه المرتعش نحو جاهان. وعندما وقف، تشبثت تارا الهيليومية بذراع القائد الأسود.

وقالت هامسة: «توران! إنه إيجوس، الذي تصورت أنه قُتِل في حُفر أوتار. إنه إيجوس، وقد تعرّف عليك، وسوف ...».

على أن ما يمكن أن يفعله إيجوس، قد بدأ يحدث بالفعل. صاح بصوته الجهوري الغريب: «إنه العبد توران الذي سرق المرأة تارا من قاعة العرش، يا أوتار. لقد دنس القائد الميت إيمال، ويرتدي عتاده الآن!».

ساد الهرج على الفور. وسحب المحاربون سيوفهم وهبوا واقفين. هرع لاعبو جاهان المنتصرين إلى الأمام كتلة واحدة، مكتسحين حارس الأبراج من قدميه. فتح فال دور وفلوران البوابات أسفل المنصة الملكية، فاتحين طريق النفق الذي يؤدي إلى شارع في المدينة وراء الأبراج. سحب جاهان، محاطًا برجاله، تارا ولانو إلى ممر، ووصلوا بوتيرة سريعة إلى الطرف الآخر من النفق قبل أن يعترض أحد هروبهم. وقد نجحوا. وعندما ظهروا في المدينة، كانت الشمس قد غربت وحل الظلام. لم يسعفهم سوى نظام إضاءة عتيق وغير فعال، يبعث بوهج شاحب إلى الشوارع الغامضة.

والآن فقط خمنت تارا أسباب إطالة القائد الأسود مبارزته مع يودور، وأدركت أنه كان بمقدوره أن يقتل خصمه في أي لحظة يختارها. الخطة بأكملها التي همس بها جاهان للاعبيه قبل المباراة كانت مفهومة تمامًا. كان عليهم أن يشقوا طريقهم إلى بوابة الأعداء، وهناك يعرضون خدماتهم على يوثور، جد ماناتوس الأكبر. كانت حقيقة أن معظمهم من الجاثوليين وأن بإمكان جاهان قيادة الرجال إلى الحفرة المحبوس فيها أكور ابن زوجة يوثور لإنقاذه، قد أقنعت جِد جاثول أن يوثور لن يرفضهم. ولكن حتى إذا رفضهم، فهم سيكافحون معًا نحو الحَرية، وإذا لزم الأمر سيشقون طريقهم عبر قوات يوثور على بوابة الأعداء – عشرون رجلاً ضد جيش صغير، هؤلاء هم محاربي برسوم.

قطعوا مسافة كبيرة على طول طريق شبه مهجور قبل أن تظهر علامات المطاردة. وفجأة هجم عليهم من الخلف عشرات المحاربين الممتطين لحيوانات الثوات؛ كتيبة يبدو واضحًا أنها من حرس الجيداك. وعلى الفور ساد هرج ومرج: سيوف متشابكة، ولعنات بين المحاربين، وأنين الثوات. أُريقت دماء الحياة لدى الجانبين في أول هجمة. سقط اثنان من رجال جاهان، وعلى جانب الأعداء، شهد ثلاثة من الثوات دون راكبين جزءًا على الأقل من الإصابات.

اشتبك جاهان مع زميل يبدو أنهم اختاروه خصيصًا له، لأنه مضى على ثواته مباشرة نحوه، ساعيًا إلى قتله دون إعطاء أدنى اهتمام للعديدين الذين كانوا يطعنونه خلال مروره عبرهم. كان الجاثولي متمرسًا في فن قتال المحاربين الراكبين وهو واقف على الأرض، ولذا سعى إلى الوصول إلى الجانب الأيسر من ثوات المحارب بالقرب من مؤخرة الراكب، وهو الموقع الوحيد الذي يمكن أن يحقق له ميزة على خصمه، أو هو بالأحرى الموقع الذي سيقلص إلى حد كبير ميزة الرجال الراكبين؛ وبالمثل، سعى الماناتوريون إلى إحباط خطته. وبالتالي، استدار الحارس وأدار حيوانه الشرير الغاضب، بينما يقفز جاهان إلى الداخل والخارج في محاولة للوصول إلى موقع الأفضلية المرغوب، مع سعيه الدائم نحو الثغرات الأخرى في دفاع خصمه.

وبينما تدور الاشتباكات، يسرع محارب بينهم متجاوزاً جاهان، الذي يسمع بعدها صيحة مذعورة.

تناهى إلى سمعه صوت تارا تقول: «لقد أمسكوني يا توران!».

شاهد بلمحة سريعة عبر كتفه محاربًا فوق الثوات يركض ساحبًا تارا نحو حيوانه. قفز جاهان الجاثولي بغضب شيطاني على المحارب الراكب أمامه وأسقطه من فوق الثوات وهو يفصل رأسه عن جسمه بضربة واحدة من سيفه البتار. وما إن كاد جسمه يلمس رصيف الشارع، حتى امتطى الجاثولي ظهر ركوبة المحارب الميت وأسرع راكضًا وراء تارا وخاطفها. خفتت أصوات القتال وهو يبتعد على طول الطريق الذي يمر بقصر أوتار ويقود إلى بوابة الأعداء.

تمكنت ركوبة جاهان، التي تحمل رجلاً واحدًا، من اللحاق بالمحارب الماناتوري؛ بحيث كان جاهان خلفه بحوالي مائة ياردة عند اقترابهم من القصر. شعر الآن بقلق شديد وهو يرى المحارب يستدير نحو طريق المدخل الكبير، حيث لم يوقفه الحراس لأكثر من لحظة ثم اختفى في الداخل. وصل جاهان على الفور، وإنما يبدو أن المحارب قد حذر الحراس، لأنهم قفزوا لاعتراض دخول الجاثولي. ولكن كلا! فالمحارب لم يعرف أن جاهان يطارده لأنه لم يشهده وهو يستولي على الثوات، كما لا يمكنه أن يتصور أن المطاردة ستكون بهذه السرعة. إذا كان المحارب قد عبر البوابة، إذن يمكنه أن يعبرها هو أيضًا؛ ألا يرتدي أغطية محارب ماناتوري؟ فكر الجاثولي بسرعة، وأوقف ركوبته، ثم طلب من الحراس السماح له بالدخول، «باسم أوتار!». ترددوا للحظة.

صاح جاهان: «تنحوا جانبًا! أيجب أن يتفاوض رسول الجيداك من أجل حقه في إيصال رسالته؟».

سأله بادوار الحرس: «لمن ستوصلها؟».

صاح جاهان: «ألم ترَ من دخل الآن توًّا؟»، وحث ثواته دون انتظار لرد على المضي مباشرة إلى القصر. وبينما يتداول الحراس بشأن أفضل ما يمكنهم القيام به، كان أوان القيام بأي شيء قد فات – وهو أمر ليس غير عادي.

وجه جاهان ثواته على طول الممرات الرخامية. ونظرًا لسيره في هذا الطريق من قبل، وليس لأنه يعرف الطريق الذي ساروا بتارا خلاله، تابع جاهان سيره عبر المدرجات وخلال الغرف التي تؤدي إلى قاعة عرش أوتار. التقى بعبد عند المستوى الثاني.

وسأله: «ما الطريق الذي اتخذه الرجل الذي حمل المرأة أمامه؟»

أشار العبد نحو مدرج قريب يقود إلى المستوى الثالث، وأسرع جاهان نحوه. في اللحظة نفسها، وصل رجل على ثواته بوتيرة غاضبة، واقترب من القصر وأوقف ركوبته عند البوابة.

وصاح في الحرس: «أرأيتم أي محارب يسعى خلف رجل يحمل امرأة أمامه على الثوات؟».

أجاب البادوار: «لقد دخل الآن، قائلاً إنه رسول أوتار».

صاح الوافد الجديد: «لقد كذب. إنه توران، العبد، الذي سرق المرأة من قاعة العرش منذ يومين. أيقظوا القصر! يجب القبض عليه، حيًّا إن أمكن. هذا أمر أوتار».

خرج المحاربون على الفور للبحث عن الجاثولي وتحذير نزلاء القصر بأن يحذو حذوهم. كان عدد الخدم في المبنى الكبير ضئيلاً نسبيًّا بسبب المباريات، لكنهم هرعوا على الفور للبحث بحيث أصبح الآن خمسين محاربًا على الأقل يبحثون خلال عدد لا يحصى من غرف قصر أوتار وممراته.

عندما وصل الثوات بجاهان إلى المستوى الثالث، لمح الرجل مأوى خلفي لثوات آخر يختفي عند منعطف أحد الممرات على بُعد. حث حيوانه إلى الأمام بسرعة، إلا أنه لم يجد سوى ممر فارغ. أسرع على طول هذا الممر واكتشف قرب نهايته البعيدة مدرجًا يقود إلى المستوى الرابع، فاتخذه وصعد. هنا وجد أنه لحق بطريدته، الذي كان يستدير نحو مدخل على بُعد خمسين ياردة. عندما وصل جاهان إلى الفتحة، كان المحارب قد نزل من فوق ركوبته وأخذ يسحب تارا في اتجاه باب صغير على الجانب الآخر من الغرفة. وفي اللحظة نفسها، تسببت قعقعة العتاد خلفه في أن يلقي نظرة خاطفة وراءه نحو

على الممر الذي اجتازه، فشاهد ثلاثة محاربين يسرعون مقتربين سيراً على الأقدام. قفز جاهان من فوق ثواته، وانطلق نحو الغرفة حيث كانت تارا تكافح لتحرير نفسها من قبضة آسرها. أغلق الباب وراءه، واضعًا الترباس الكبير في مكانه، ثم امتشق سيفه وعبر الغرفة بسرعة ليشتبك مع الماناتوري. أدرك الماناتوري تهديد جاهان، فطلب منه بصوت عال أن يتوقف، في الوقت نفسه، دفع تارا بطول ذراعه مع تهديد قلبها بسن سيفه القصير.

وقال: «توقف! أو تموت المرأة ولا تقع بين يديك مرة أخرى، فهذه هي أوامر أوتار».

توقف جاهان، تفصله عدة أقدام قليلة عن تارا وآسرها، ومع ذلك كان عاجزاً عن مساعدتها. تراجع المحارب ببطء تجاه المدخل المفتوح وراءه، ساحبًا تارا معه. ناضلت الفتاة وكافحت، لكن المحارب كان رجلاً قويًّا وأمسك بعتادها من الخلف ولذا تمكن من إبقاءها في موقف عاجز.

صرخت: «انقذني، توران! لا تسمح لهم بأخذي لمصير أسوأ من الموت. أن أموت الآن وعيني تلمح صديقًا شجاعًا، أفضل من أن أموت لاحقًا وأنا أكافح وحدي بين الأعداء دفاعًا عن شرفي».

اقترب جاهان خطوة، فقام المحارب بتقريب سيفه مهدِّدًا من بشرة الأميرة الناعمة اللينة. توقف جاهان.

وصاح: «لا أستطيع، تارا الهيليومية. لا تظنين بي السوء لأني ضعيف، ولا أستطيع أن أراكِ تموتين. حبي لك عظيم، يا ابنة هيليوم».

تراجع الماناتوري تدريجيًّا، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. كاد أن يصل إلى المدخل عندما شاهد جاهان محاربًا آخر في الغرفة التي تؤخذ إليها تارا - إنه رجل يتحرك بصمت، يتسلل تقريبًا، عبر الأرضية الرخامية وهو يقترب من الخلف من آسر تارا. كان يمسك بيده اليمنى سيفًا طويلاً.

«اثنان في مقابل واحد»، هكذا فكر جاهان، ومست ابتسامة قاتمة

شفتيه، فلم يكن لديه شك أنهما ما إن يضعا تارا بأمان في الغرفة المجاورة حتى ينقضان عليه. إذا لم يتمكن من إنقاذها، يمكنه على الأقل أن يموت من أجلها.

وفجأة ثبتت أعين جاهان بدهشة على المحارب الذي يقف خلف الزميل المبتسم الزميل الذي حمل تارا وأجبرها على الدخول. شاهد الوافد الجديد يخطو بالقرب من

ذراع الآخر، ثم شاهده يتوقف، وعلى ملامحه تعبير ينم عن كراهية غاضبة. ورأى السيف العظيم يتأرجح على شكل قوس دائرة كبيرة، ويكتسب زخمًا سريعًا وهائلاً من ثقله تدعمه قوة صلابة العضلات التي توجهه، وشاهده يخترق جمجمة الماناتوري المزينة بالريش، ويقسم ابتسامته الساخرة نصفين، ويشق جسمه وصولاً إلى منتصف عظام صدره.

وعندما خفت قبضة يد القتيل على رسغ تارا، قفزت الفتاة إلى الأمام، دون نظرة إلى الوراء، إلى ناحية جاهان. أحاطها بذراعه الأيسر، ولم تسحبها، وانتظر الجاثولي قرار المصير بسيفه جاهزًا. كان المحارب الذي أنقذ تارا يقف أمامهما وهو يمسح الدم من سيفه على شعر ضحيته. كان من الواضح أنه ماناتوري، يرتدي أغطية حرس الجيداك، ولذا لم يكن سلوكه مُفسَرًا عند جاهان وتارا. أغمد سيفه الآن واقترب منهما.

قال وهو ينظر مباشرة نحو أعين جاهان: «عندما يختار رجل إخفاء هويته وراء اسم مستعار، فإن أي صديق يكشف الخدعة لا يكون صديقًا إذا أفشى سره».

صمت كأنما ينتظر ردًا.

أجاب جاهان: «لقد اتضحت نزاهتك، ونطقت شفتاك بحقيقة غير قابلة للتغيير»، وكان التعجب يملأ ذهنه عما إذا كان التلميح صحيحًا، أي أن هذا الماناتوري قد خمن هويته.

واصل الآخر قائلاً: «اتفقنا إذن، وأقول لكما إن اسمي الحقيقي هو تاسور، على الرغم من أنني معروف هنا باسم أسور». صمت مؤقتًا ونظر إلى وجه جاهان بإمعان ليرى أي علامة على أثر ما قاله، وكوفئ سريعًا بتعبير عن الامتنان وإن كان بحرص.

تاسور! صديق شبابه. ابن الجاثولي العظيم النبيل الذي قدم حياته على نحو مجيد، وإن كان عبثًا، في محاولة للدفاع عن والد جاهان من خناجر القتلة. تاسور، نائب بادوار في حرس أوتار، جيداك ماناتور! شيء يصعب تصديقه، لكنه هو، ما من شك في ذلك. كرر جاهان بصوت مرتفع: «تاسور. لكنه ليس اسمًا لماناتوري». كانت العبارة شبه استفهامية، حيث أثار الموقف فضول جاهان. يود أن يعرف كيف أصبح صديقه وابن بلده الوفي ماناتوريًا. انقضت سنوات طوال منذ اختفاء تاسور في ظروف غامضة، كما حدث للأميرة هاجا والعديد غيرها من رعايا جاهان. وقد اعتبره جِد جاثول، منذ فترة طويلة، ميتًا.

أجاب تاسور: «لا، ليس اسمًا ماناتوريًّا. هيا بنا. سأبحث لكما عن مكان اختباء في غرفة منسيّة في أحد الأجزاء الشاغرة من القصر، وأحكي لكما بإيجاز خلال سيرنا كيف أصبح تاسور الجاثولي أسور الماناتوري».

«لقد حدث أن ركبت مع عشرات من المحاربين على طول الحدود الغربية لجاثول بحثًا عن حيوانات الزيتيدار التي شردت بعيدًا عن قطعاني، ثم أحاطت بنا مجموعة كبيرة من الماناتوريين. وقد تغلبوا علينا، ولكن ليس قبل قتل نصف محاربينا وعجز الباقين نتيجة لإصاباتهم. وبالتالي أخذوني سجينًا إلى ماناتاج، وهي مدينة تبعد عن ماناتور، حيث عرضوني للبيع كعبد. اشترتني امرأة – أميرة ماناتاج، التي كانت ثروتها ومكانتها لا مثيل لها في مدينة ولادتها. لقد أحبتني، وعندما اكتشف زوجها افتتانها توسلت لي أن أقتله، ولما رفضت، استأجرت آخر للقيام بذلك. تزوجتني بعد ذلك، لكنهم في ماناتاج اشتبهوا في معرفتها بمن اغتال زوجها. ولذا غادرنا ماناتاج متجهين إلى ماناتوس برفقة قافلة كبيرة تحمل جميع متاعها المادي ومجوهراتها ومعادنها الثمينة، وأطلقت خلال الطريق شائعة انتشرت حول وفاتها ووفاتي. وصلنا إلى ماناتور بدلاً من ماناتوس، واختارت لنفسها اسمًا جديدًا، واختارت لي اسم أسور، حتى لا يقتفي أثرنا أحد عن طريق أسمائنا. وتمكنت بما لديها من ثروة هائلة أن تشتري لي وظيفة في حرس الجيداك، ولا يعرف أحد أنني لست ماناتوريًّا، لأنها ماتت. لقد كانت جميلة، وإنما شيطانة».

سأله جاهان: «ألم تسع أبدًا للعودة إلى مدينتك الأصلية؟».

أجاب تاسور: «لم يغب قط هذا الأمل عن قلبي، أو يخلُ ذهني من خطة. أحلم بذلك ليلاً ونهارًا، لكنني أصل دومًا إلى النتيجة نفسها – لا توجد إلا وسيلة واحدة للهرب. يجب أن أنتظر حتى يتيح لي الحظ مكانًا في جولة إغارة على جاثول. وما إن أكون داخل حدود بلدي، لن يروني ثانية».

قال جاهان: «ربما لديك فرصة بالفعل في متناول يدك الآن، إن لم يكن ولائك لجِد بلدك قد قوضته سنوات الزمالة مع رجال ماناتور». كان العبارة بمثابة تحدٍّ.

صاح تاسور: «لو جِد بلدي يقف أمامي الآن، ويمكنني أن أعلن ذلك دون انتهاك سره، سوف أضع سيفي عند قدميه وأتسول شرف الموت من أجله كما مات والدي من أجل والده».

ليس هناك شك في إخلاصه، ولا في معرفته بهوية جاهان. ابتسم جِد جاثول، وقال بطريقة ذات معنى: «لو كان جِد بلدك هنا، ما من شك أنه كان ليأمرك أن تكرس مواهبك وبراعتك لإنقاذ تارا، أميرة هيلِيوم. ولو امتلك المعرفة التي اكتسبتها خلال أسري، كان

ليقول لك 'اذهب يا تاسور إلى الحفرة المحبوس فيها أكور، ابن هاجا الجاثولية، وأطلق سراحه، ثم قم معه بإثارة العبيد الجاثوليين وسيروا إلى بوابة الأعداء واعرضوا خدماتكم على يوثور الماناتاجي، الذي تزوج من هاجا الجاثولية، واطلب منه في المقابل أن يهاجم قصر أوتار وينقذ تارا الهيليومية، وعند إنجاز ذلك، عليه تحرير عبيد جاثول وإمدادهم بالأسلحة والوسائل اللازمة للعودة إلى بلدهم'. هذا، يا تاسور الجاثولي، ما كان ليطلبه منك جاهان جِد بلدك».

أجاب تاسور: «وهذا، أيها العبد توران، ما سوف أبذل كل جهد لإنجازه، بعد أن وجدت ملاذًا آمنًا لتارا الهيليومية والبانتان».

حملت لمحة جاهان إشارة إلى تاسور بامتنان جد بلده، وملأته إصرارًا شهمًا على إنجاز المطلوب منه، أو الموت؛ لأنه اعتبر أنه تلقى من شفتي حاكمه الحبيب تكليفًا وضع على عاتقه مسؤولية لم تشمل حياة جاهان وتارا فحسب، وإنما ربما أيضًا رفاه جاثول كلها في المستقبل. وبالتالي أسرع خلال ممرات القصر القديم العفنة، حيث انتشرت الأتربة عبر العصور على البلاط الرخامي. حاول تكرارًا فتح عدة أبواب، إلى أن وجد بابًا غير موصد. فتحه، وأشار لهما بالدخول إلى غرفة، مملوءة بالتراب. كانت قطع الحرير والفراء البالية تزين الجدران، فضلاً عن أسلحة قديمة، ولوحات كبيرة ضعفت ألوانها بشكل مذهل نتيجة لِقدمها.

قال: «هذا مكان جيد. لا أحد يأتي هنا. لم آت أبدًا هنا من قبل، ولذا لا أعرف أي شيء عن الغرف الأخرى، لكنني على الأقل أستطيع أن أجدكما مرة أخرى عندما أحضر لكما الطعام والشراب. لقد كان أوماي يشغل هذا الجزء من القصر خلال فترة حكمه، خمسة آلاف سنة قبل أوتار. وقد وجدوه ميتًا في إحدى هذه الشقق، ووجهه ملتوي في تعبير ينم عن خوف فظيع، إلى حد إصابة من عثروا عليه بالجنون، ومع ذلك لم تظهر عليه أي علامة على العنف. ومنذ ذلك الحين، يتجنب الجميع مسكن أوماي، حيث سادت أساطير أن أشباح الكورفال تتبع روح الجيداك الشرير ليلاً خلال هذه الغرف وهم يصرخون ويئنون»، ثم أضاف كأنما يطمئن نفسه، فضلاً عن أصحابه: «لكن مثل هذه الأشياء لا تقبلها ثقافة جاثول أو هيليوم».

ضحك جاهان، وقال: «وإذا كان كل من شاهده قد أصابه الجنون، من إذن الذي تولى أداء الشعائر الأخيرة أو إعداد جسم الجيداك لأداء الشعائر؟».

أجاب تاسور: «لا أحد. تركوه حيث وجدوه. وإلى يومنا هذا، لا تزال

عظامه البالية تختبئ في إحدى الغرف المنسيّة بهذا الجناح المحظور».

تركهم تاسور وطمأنهم أنه سيقتنص أول فرصة للتحدث مع أكور. كما سيجلب لهما في اليوم التالي الطعام والشراب[121].

بعد أن غادر تاسور، اقتربت تارا نحو جاهان ووضعت يدها على ذراعه، وقالت: «مرت الأحداث بسرعة منذ أن تعرفت عليك وأنت متنكر، ولم تُتح لي أي فرصة لأؤكد لك امتناني وعظيم تقديري لبسالتك. واسمح لي الآن الاعتراف بأنني أدين لك، وإذا كانت وعود من تتعرض حياته وحريته لخطر الشديد ليست عقيمة، فأرجو أن تقبل تأكيدي بأن مكافأة عظيمة تنتظرك على يد والدي في هيليوم».

أجاب: «لا أرغب في أي مكافأة غير سعادة معرفتي أن المرأة التي أحبها سعيدة».

استشاطت أعين تارا الهيليومية للحظة، وهبت واقفة بغطرسة، ثم هدأت وخففت موقفها وهي تهز رأسها بحزن.

وقالت: «لا يريد قلبي توبيخك، يا توران، لكن خطأك كبير. لقد كنت صديقًا شريفًا ومخلصًا لتارا الهيليومية، لكنك يجب ألا تقول ما يجب ألا تسمعه أذناي».

سألها: «تعني أن أذني أميرة يجب ألا تسمع كلمات حب من بانتان؟».

أجابت: «لا أعني ذلك، توران، بل أعني بالأحرى أنني لا أملك شرف الاستماع إلى كلمات الحب من شخص آخر غير خطيبي، وهو من بلدي، إنه دجور كانتوس».

صاح: «تقصدين، تارا الهيليومية، إنه لم يكن لهذا السبب، لكنتِ....».

أمرته: «توقف! لا يحق لك أن تفترض أي شيء آخر غير ما نطقت به شفتاي».

أجاب: «الأعين عادة أكثر بلاغة من الشفاه، تارا، وقرأت في عينيك أنك لا تحملين أي كراهية أو ازدراء للبانتان توران، ويخبرني قلبي أن شفتيك لم يصدُقا عندما صرخا بغضب: 'أنا أكرهك!'».

قالت الفتاة ببساطة: «أنا لا أكرهك، توران، ومع ذلك لا يمكنني أن أحبك».

قال: «عندما شققت طريقي خارج غرفة إيجوس، كنت في الواقع على وشك الاعتقاد أنك تكرهينني؛ فقد بدا لي أن لا شيء سوى الكراهية هو ما يمكن أن يفسر ذهابك دون بذل جهد لتحريري، لكن قلبي وعقلي الآن يخبراني أن تارا الهيليومية لم

---

(121) يتذكر كل من قرأ وصف جون كارتر للمريخيين الخُضر في قصة «أميرة المريخ»، أن بإمكان هؤلاء الناس الغرباء العيش لفترات زمنية طويلة دون طعام أو ماء؛ وهو ما يصدق بدرجة أقل على جميع المريخيين.

تكن لتترك رفيق في محنة. وعلى الرغم من جهلي بالحقائق حتى الآن، أعرف أنه لم يكن في استطاعتك مساعدتي».

قالت الفتاة: «هذا صحيح. فما إن سقط إيجوس بطعنة من خنجري، سمعت المحاربين يقتربون. جريت لأختبئ إلى أن يبتعدوا، وفي ذهني أن أعود لتحريرك. لكني خلال محاولة السعي للإفلات من المحاربين الذين سمعت أصوات اقترابهم، وجدت نفسي أقع بين ذراعي مجموعة أخرى من المحاربين. سألوني عن مكان وجودك، وأبلغتهم أنك كنت تتحرك أمامي وأنا أتبعك، وبالتالي أبعدتهم عنك».

كان تعليق جاهان الوحيد: «كنت أعرف ذلك»، كما امتلأ قلبه بالسرور والسعادة وهو يسمع من شفتي حبيبته اعتراف بالاهتمام والولاء، مهما كان مشوبًا بمسحة قليلة من المراعاة الدافئة. أن تُسيء إليك حبيبة قلبك، أفضل من أن تتجاهلك.

خلال حديثهما في الغرفة سيئة الإضاءة، حيث المصابيح الخافتة مغطاة بالتراب المتراكم لعدة قرون، كان شخص محنٍ وذابل يتحرك ببطء عبر الأروقة القاتمة في الخارج، وتحدق عيناه الضعيفتان الهزيلتان من خلال عدسات سميكة في علامات المرور المدونة على الأرضية المتربة.

* * *

الفصل (19)

تهديد من الميت

كان الليل في بدايته عندما جاء شخص إلى مدخل قاعة الاحتفالات، حيث يتناول أوتار الماناتوري العشاء مع القادة، ودخل متجاوزاً الحراس إلى القاعة الكبيرة بغطرسة شخص متميز، وكان في الحقيقة متميزاً. وعندما اقترب من رأس لوح الطاولة الطويل، انتبه أوتار إلى وجوده.

وصاح: «حسنًا، أيها العجوز! ماذا أخرجك اليوم ثانية من جُحرك الحبيب النتن. تصورنا أن مشهد العديد من الرجال الأحياء في المباريات سيدفعك إلى العودة لجثثك بأسرع ما يمكن».

أقرت ضحكة إيجوس المجلجلة الملاحظة الملكية. صاح العجوز: «إيبه، إيبه، يا أوتار، لا يخرج إيجوس من أجل المتعة، ولكن عندما يُدنس أحد بلا رحمة موتى إيجوس، يجدر الانتقام!».

سأله أوتار: «هل تشير إلى ما فعله العبد توران؟».

أجاب: «توران، نعم، والأَمَة تارا التي طعنتني بنصل قاتل. لو امتد لأقل من شِبر آخر يا أوتار، لكان العجوز إيجوس الذي تغطيه التجاعيد يرقد الآن بين أيدي بعض المتدربين لدبغ جلده، إيبه، إيبه».

«لكنهما هربا ثانية»، صاح أوتار. «هربا مرتين، حتى في قصر الجيداك العظيم، من الأوغاد الأغبياء الذين أسميهم حرس الجيداك». نهض أوتار غاضبًا وهو يشدد على كلماته بضربات قوية على الطاولة بكأس ذهبي.

«إيبه، أوتار، لقد هربا من حراسك ولكن ليس من الكالوت[122] الحكيم العجوز إيجوس».

قال أوتار آمرًا: «ماذا تعني؟ تكلم!».

(122) الكالوت: الكلب المريخي، وهو بحجم المُهر ولديه عشرة أرجل، ويضم فكاه ثلاثة صفوف من الأنياب الطويلة الحادة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Calot – المترجمة.

أجاب المُحنط العجوز: «أنا أعرف مكان اختبائهما. فقد كشفت آثار أقدامهما على تراب الممرات غيرِ المستخدَمة عن مكانهما».

سأله الجيداك: «هل تبعتهما؟ هل رأيتهما؟

أجاب إيجوس: «تبعتهما وسمعتهما يتحدثان من وراء باب مغلق، لكني لم أرهما».

صاح أوتار: «أين هذا الباب؟ سوف نرسل على الفور ونحضرهما»، ثم جال ببصره حول الطاولة كأنما ليقرر لمن سيعهد بهذه المهمة. نهض أكثر من عشرة قادة محاربين، ووضعوا أياديهم على سيوفهم.

صاح إيجوس: «لقد تتبعتهما إلى غرف أوتاي القاسي. سوف تجدونهما هناك، حيث يطارد أنين الكورفال صياح شبح أوماي؛ إييه!»، ثم أدار عينيه من أوتار في اتجاه المحاربين الذين نهضوا، ليكتشف أنهم عادوا سريعًا إلى مقاعدهم.

كسرت ضحكة إيجوس الساخرة المجلجلة الصمت الذي هبط على الغرفة. نظر المحاربون بخجل إلى الطعام في أطباقهم الذهبية. وطقطق أوتار أصابعه بنفاد صبر.

وصاح: «ألا يوجد سوى جبناء بين قادة ماناتور؟ لقد استهان هذان العبدان بوقاحة مرارًا وتكرارًا بفخامة جيداككم. هل يجب أن أصدر أمرًا لأحدكم بالذهاب لإحضارهما؟».

نهض قائد ببطء وحذا حذوه قائدان آخران، وإن كان على مضض ظاهر. علّق أوتار قائلاً: «ليس الجميع جبناء إذن. المهمة مقيتة. ولذلك ستذهبون ثلاثتكم، ومعكم أي عدد تريدون من المحاربين».

قاطعه إيجوس: «ولكن لا تطلبوا متطوعين، وإلا ستذهبون بمفردكم».

استدار القادة الثلاثة وغادروا قاعة المأدبة، وساروا ببطء كرجال حكم عليهم مصيرهم.

ظل جاهان وتارا في الغرفة التي قادهم إليها تاسور. أزال الرجل التراب من مقعد طويل، مريح وعميق، حيث يمكن لتارا أن تأخذ قسطًا من الراحة نسبيًّا. وجد أن الحرير والفراء القديم المخصص للنوم لا يمكن استخدامه على الإطلاق، حيث يتفتت إلى مسحوق بمجرد لمسة واحدة، مما ألغى أي فرصة لصنع سرير مريح للفتاة. وبالتالي جلس الاثنان معًا، يتحدثان بصوت منخفض عن المغامرات التي مرا بها وعن تصوراتهما

عما يمكن أن يحدث في المستقبل، فضلاً عن التخطيط لوسيلة للهرب، آملين ألا تطول غيبة تاسور. شمل حديثهما العديد من الأشياء: هاستور، وهيليوم، وبتارث، وأخيراً قاد الحديث تارا إلى تذكُر جاثول».

سألته: «هل خدمت هناك؟».

أجاب: «نعم».

قالت: «لقد قابلت جاهان، جد جاثول، في قصر والدي في اليوم نفسه قبل أن تنتزعني العاصفة من هيليوم - كانَ متغطرسًا، يرتدي أغطية رائعة مرصعة بالبلاتين والألماس. لم أشهد في حياتي أبدًا مثل هذا العتاد فائق الجمال. ويجب أن تعرف، توران، أن روعة برسوم كلها توجد في بلاط هيليوم، لكن عقلي لم يتمكن من تصور مخلوق متألق على هذا النحو يمتشق ذلك السيف المرصع بالجواهر في قتال مميت. أخشى أن جِد جاثول، على الرغم من أنه صورة جميلة لرجل، يختلف قليلاً».

لم تلحظ تارا، في الضوء الخافت، التعبير الساخر على وجه رفيقها الذي يتفاداها قليلاً.

وسألها: «تفكرين قليلاً إذن في جِد جاثول؟».

«إذن، أو الآن»، أجابت بضحكة صغيرة، «كم كان يثير غروره أن يعرف، إن أمكن، أن بانتانًا فقيراً فاز بمكانة أعلى منه عند تارا الهيليومية»، ثم وضعت أصابعها برفق على ركبته.

أمسك بأصابعه وقربها إلى شفتيه، وصاح: «أوه، تارا الهيليومية. أتعتقدين أنني رجل من حجر؟»؛ التفَّت إحدى ذراعيه حول كتفيها وجذبت الجسم اللين نحوه.

«أرجو أن يغفر لي سلفي الأولى ضعفي»، صاحت وهي تلف ذراعيها حول عنقه وترفع شفتيها التواقتين إلى شفتيه. التصقا لفترة طويلة في أول قبلة حب، ثم دفعته بعيدًا بلطف. قالت متنهدة: «أنا أحبك، توران، أحبك! إنه عذري الوحيد لاقترافي هذا الخطأ لدجور كانتوس، الذي أعرف الآن أنني لم أحبه أبدًا، فلم أكن أعرف معنى الحب. وإذا كنت تحبني كما تقول، توران، فإن حبك يجب أن يحميني من عار أكبر، فلست سوى عجينة بين يديك».

ضمها إليه بقوة مرة أخرى، ثم تركها فجأة ونهض، وأخذ يخطو بسرعة جيئة وذهابًا عبر أنحاء الغرفة كأنما يسعى إلى السيطرة على روح شريرة تملكته وإخضاعها من خلال

ممارسة تمارين عنيفة. كان يسري خلال عقله وقلبه وروحه رنين يماثل أنشودة الفرح، رنين الكلمات التي غيرت عالم جاهان الجاثولي: «أنا أحبك، توران، أحبك!» التي صدرت فجأة. كان يعتقد أنها شعرت تجاهه بالامتنان فقط لولاءه، ثم بعد لحظة سقطت كل حواجزها، لم تعُد أميرة، وإنما ...، قطع صوت وراء الباب المغلق أفكاره. لم يكن صندله المصنوع من جلد حيوان الزيتيدار يصدر أي صوت وهو يخطو فوق الأرضية الرخامية، وقادته خطواته السريعة عبر مدخل الغرفة، حيث جاء عن بُعد صوت خافت لصلصلة المعادن - نذير لا لبس فيه عن اقتراب رجال مسلحين.

أنصت جاهان بجدية للحظة، بالقرب من الباب، إلى أن تأكد دون شك من اقتراب مجموعة من المحاربين. وقد خمّن بشكل صحيح، مما أخبره به تاسور، أنهم لن يأتوا إلى هذا الجزء من القصر إلا لغرض واحد -البحث عنه وعن تارا- وعليه أن يجد وسيلة فورية للهروب منهم. كانت غرفتهما تضم مداخل الأخرى إلى جانب الباب الذي دخلوا منه، وعليه أن يجد في إحداها مكانًا أكثر أمانًا للاختباء. توجه إلى تارا وأبلغها بشكوكه، ثم قادها إلى أحد الأبواب التي وجدها غير موصدة. يفتح الباب على غرفة خافتة الإضاءة، توقفا على أعتابها في ذعر، وتراجعا بسرعة إلى غرفتهم التي تركاها، فقد كشفت أول لمحة عن أربعة محاربين يجلسون حول لوحة جيتان.

عزا جاهان عدم ملاحظة دخولهما إلى استغراق اللاعبين الاثنين وأصدقائهما في اللعبة. أغلق الباب بهدوء وانتقل الهاربان بصمت إلى الباب التالي، لكنه كان موصدًا. يتبقى الآن باب آخر، توجها نحوه بسرعة لأنهم يعرفون أن مجموعة البحث لابد أصبحت قريبة من الغرفة. أثار استياءهما أن وجدا طريق الهرب هذا مسدودًا بقضبان.

أصبحا الآن بالفعل في محنة مؤسفة؛ إذ لو كان لدى الباحثين عنهما معلومات تقودهم إلى هذه الغرفة، ينتهي أمرهما. قاد تارا ثانية إلى الباب الذي يجلس خلفه لاعبو الجيتان، وسحب جاهان سيفه وانتظر وهو يسترقّ السمع. تناهى إلى سمعهم بوضوح صوت مجموعة البحث في الممر، من المؤكد أنهم قريبون جدًّا، وسيأتون قطعًا بقوة. يجلس وراء الباب أربعة محاربين قد يُفاجأون بسهولة. لا يوجد إذن سوى خيار واحد، وبناء عليه فتح جاهان الباب بهدوء مرة أخرى ودخل إلى الغرفة المجاورة وتارا في يده، ثم أغلق الباب وراءهما. من الواضح أن لاعبي الجيتان الأربعة لم يسمعوا دخولهما. وكان أحد اللاعبين إما أتم تحريك قطعة أو يفكر في ذلك، فقد كانت أصابعه تمسك بقطعة لا تزال على اللوح. ويشاهد الثلاثة الآخرون حركته. ألقى جاهان نظرة نحوهم، يلعبون جيتان في هذا الضوء الخافت في هذه الغرفة المنسية المحظورة، ثم أضاءت ابتسامة فهم بطيئة وجهه.

قال لتارا: «تعالي! لا يوجد ما يدعو إلى الخوف منهم. إنهم يجلسون هكذا منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، هذا أثر باق لعمل يدوي قام به أحد المحنطين القدماء».

اقتربا أكثر، وشاهدا أن التراب يغطي تلك الهيئات التي تبدو نابضة بالحياة، لكن بشرتهم كانت جيدة الحفظ مثل أحدث مجموعات إيجوس. سمعا باب الغرفة التي تركاها ينفتح، وعرفا أن الباحثين عنهما يقتربون. شاهدا عبر الغرفة ما يبدو فتحة لممر، ثبت أنه ممر قصير ينتهي إلى غرفة توجد في وسطها منصة نوم مزخرفة. كانت هذه الغرفة سيئة الإضاءة، مثل باقي الغرف، فقد خفت تألق المصابيح بفعل الزمن وغطاها التراب. أوضحت لمحة سريعة أنها كانت مملوءة بمتاع ثقيل وتضم قدرًا كبيراً من الأثاث الضخم بالإضافة إلى منصة النوم. وكشفت نظرة ثانية عن هيئة رجل يرقد جزئيًّا على الأرض وجزئيًّا على المنصة. لا توجد أي مداخل مرئية غير الباب الذي دخلا منه، على الرغم من معرفتهما أن الستائر ربما تخفي أبوابًا أخرى.

أثار الفضول جاهان حول الأساطير المحيطة بهذا الجزء من القصر، فتوجه إلى المنصة لفحص هيئة الشخص الذي يبدو أنه سقط من المنصة. وجد جثة جافة وذابلة لرجل يرقد على ظهره فوق الأرض، وذراعاه ممدودتان، وأصابعه تمتد مفتوحة بقوة. كانت إحدى قدميه ملتوية جزئيًّا أسفله، بينما لا تزال القدم الأخرى متشابكة في حرير وفراء النوم على المنصة. لا يزال الوجه الذابل بالمحجرين الخاليين من الأعين يحتفظ، بعد خمسة آلاف سنة، بتعبير الخوف الفظيع، وهنا عرف جاهان أنه ينظر إلى جسم أوماي القاسي.

كانت تارا تقف بجانبه، وفجأة أمسكت بذراعه وأشارت نحو ركن بعيد في الغرفة. نظر جاهان، وما رآه أصابه بالذعر. ألقى ذراعه اليسرى حول الفتاة، ووقف ممتشقًا سيفه بينها وبين الستائر التي ينظران إليها، ثم تراجع جاهان الجاثولي ببطء؛ ففي هذه القاعة القاتمة الكئيبة، التي لم تطأها قدم إنسان منذ خمسة آلاف عام ولا يمكن أن تدخلها نفحة هواء، كانت الستائر الثقيلة في الزاوية البعيدة تتحرك. لم تكن تتحرك بلطف كأنما يهزها تيار هوائي، إن وُجد، لكنها انتفخت فجأة كأنما دفعها شيء من الخلف. تراجع جاهان إلى الركن المقابل إِلى أن وقفا وظهريهما تجاه ستائره، ثم سمعا صوت اقتراب المطاردين في الغرفة الخارجية، فقام جاهان بدفع تارا خلال الستائر وهو في أعقابها، وأبعد يده اليسرى عن تارا كي يمسك بالستارة حتى تظل مفتوحة بقدر صغير يتيح له رؤية الشقة والمدخل في الجانب المعاكس الذي يمكن أن يدخل منه المطاردون إذا وصلوا إلى هذا الحد.

توجد خلف الستائر مساحة يبلغ عرضها بينهما وبين الجدار حوالي ثلاثة أقدام، مما يجعل الممر الذي يحيط تمامًا بالغرفة لا يكسره سوى مدخل واحد مقابل لهم، وهو ترتيب معتاد خاصة في غرف نوم الأغنياء والأقوياء في برسوم، ولهذا الترتيب أغراض عديدة، فالممر يتيح موقعًا للحراس في نفس الغرفة مع سيدهم دون التطفل كليًّا على حياته الخاصة، ويخفي المخارج السرية بالغرفة، ويسمح لشاغل الغرفة بإخفاء المتنصتين والقتلة لاستخدامهم ضد الأعداء الذين قد يجذبهم إلى غرفته.

لم يجد القادة الثلاثة ودزينة المحاربين معهم أي صعوبة في اتباع مسارات الهاربين، خلال تراب الممرات والغرف التي تنقلوا عبرها. كان دخول هذا الجزء من القصر يتطلب كل ما لديهم من شجاعة، وأصبحت أعصابهم مشدودة إلى أقصى حد الآن بعد دخولهم جناح أوماي، قد يتعرضون للالتهام عند أي منعطف آخر، كما تنتشر الخرافات الغريبة بين شعب ماناتور. تحركوا ببطء ممتشقين سيوفهم عند دخولهم الغرفة الخارجية، ولم يكن أحدهم حريصًا على أخذ زمام المبادرة، وتراجع المحاربون الاثنا عشر في ذعر واضح ومخْزٍ، بينما تجمع القادة الثلاثة متقاربين لتشجيع بعضهم بعضًا، يدفعهم الخوف من أوتار فضلاً عن كبريائهم، وهم يعبرون ببطء الغرفة خافتة الإضاءة.

تعقبوا مسارات جاهان وتارا، ووجدوا أنهما اقتربا من كل باب لكن عتبة باب واحد فقط هي ما تجاوزاها. اقتربوا من هذا الباب وفتحوه بحذر، وحدقوا باندهاش عند رؤية المحاربين الأربعة عند طاولة الجيتان. للحظة كانوا على وشك الهرب، فعلى الرغم من معرفتهم بطبيعة هؤلاء الأربعة، فإن دخولهم على هذا النحو إلى هذا الجناح الغامض المسكون أذهلهم كأنما شاهدوا أشباح الراحلين. لكنهم استعادوا الآن شجاعتهم بما يكفي لاجتياز هذه الغرفة أيضًا والدخول إلى الممر القصير الذي يؤدي إلى غرفة النوم القديمة لأوماي القاسي. لم يعرفوا أن هذه الغرفة الفظيعة تقع أمامهم مباشرة، أو كان من المشكوك فيه أن يسيروا قدمًا، لكنهم يعرفون أن تارا وجاهان سارا في هذا الطريق ولذا عليهم المتابعة. على أنهم توقفوا عند مدخل الغرفة القاتم، وحث القادة الثلاثة أتباعهم بهمس منخفض للاقتراب خلفهم، ثم توقفوا بمجرد دخولهم حتى تعتاد أعينهم على الضوء الخافت. وفجأة أشار أحدهم إلى شيء ملقى على الأرض وتتشابك إحدى أقدامه في أغطية المنصة.

قال لاهثًا: «انظروا! إنها جثة أوماي! سلف الأسلاف! أننا في الغرفة المحظورة». وفي الوقت نفسه، صدر من خلف الستائر وراء الميت الشنيع أنين أجوف تلته صرخة خارقة، وانتفخت الستائر واهتزت أمام أعينهم.

وعلى الفور، استدار القادة والمحاربون مسرعين نحو المدخل، مدخل ضيق، حيث تزاحموا وتقاتلوا وصرخوا في محاولة للهرب. ألقوا سيوفهم وتكالبوا لشق طريق الهرب، صعد المتزاحمون في الخلف فوق أكتاف المتزاحمين أمامهم، وسقط بعضهم وداس فوقهم البعض الآخر، لكنهم تمكنوا في النهاية من شق طريقهم، وتوجه أسرعهم أولاً إلى الغرفتين الفاصلتين ثم الممر الخارجي بعدهما، ولم يتوقف انسحابهم المجنون قبل أن يسقطوا، ضعفاء ومرتجفين، في قاعة الولائم بقصر أوتار. وعند وصولهم، قفز المحاربون الذين ظلوا مع الجيداك وهم يمتشقون سيوفهم، متصورين أن العديد من الأعداء يطاردون زملاءهم، ولكن لم يتبعهم أحد إلى الغرفة، ووقف القادة الثلاثة أمام أوتار ورؤوسهم محنية وركبهم ترتجف.

سألهم الجيداك: «حسنا؟ مم تعانون؟ تكلموا!».

«أوتار»، صاح أحدهم عندما تمكن أخيراً من السيطرة على صوته، «متى خذلك ثلاثتنا في معركة أو قتال؟ ألم تكن سيوفنا دائمًا في مقدمة الدفاع عن سلامتك وشرفك؟».

أجاب أوتار: «وهل أنكرت ذلك؟».

«اسمع إذن، يا جيداك، وتساهل عند الحُكم علينا. لقد تبعنا العبدين إلى جناح أوماي القاسي. دخلنا الغرف اللعينة دون أن نهتز. وصلنا أخيراً إلى تلك الغرفة المروعة التي لم تشهدها عين بشرية منذ خمسين قرنًا،

ونظرنا إلى وجه أوماي الميت وهو يرقد كما كان طوال تلك الفترة. لقد وصلنا إلى غرفة موت أوماي، وكنا على استعداد للمضي إلى أبعد من ذلك، عندما دوت في آذاننا المذعورة فجأة أصوات الأنين والصراخ التي تميز هذه الغرف المسكونة بالأشباح، وتحركت الستائر وهي تصدر حفيفًا في الهواء الميت. يا أوتار، هذا أكثر مما يمكن أن تتحمله أعصاب البشر. استدرنا وهربنا. ألقينا بسيوفنا وتعاركنا مع بعضنا بعضًا خلال الهروب. بكل أسف، ولكن دون أي خجل، أقول لك إن أي رجل في ماناتور كلها كان ليفعل مثلنا. إذا كان هذان العبدان من الكورفال، فهما آمنان بين زملائهم الأشباح. وإن لم يكونوا من الكورفال، فهم قتلى بالفعل في غرفة أوماي، وهناك سوف يتعفنون، لأنني لن أعود إلى تلك البقعة الملعونة من أجل الفوز بعتاد جيداك وإمبراطورية تشمل نصف برسوم. لقد تحدثت».

قطب أوتار حاجبيه وسأل بسخرية: «هل جميع قادتي جبناء وتعوزهم الشجاعة؟».

نهض قائد من بين القادة الذين لم يشاركوا في مجموعة البحث، ونظر بوجه متجهم نحو أوتار.

وقال: «يعرف الجيداك ما ورد في حوليات ماناتور من أن جميع من شغل منصب الجيداك هم أشجع محاربيها. وسوف أمضي خلف قيادة الجيداك، ولا يجوز أن يشكك أي جيداك في شجاعتي أو يقول إني جبان إلا إذا رفضت الذهاب إلى حيث يجرؤ هو على الذهاب. لقد تحدثت».

ساد صمت مؤلم بعد أن جلس على مقعده، فقد كان واضحًا للجميع أن المتكلم تحدى شجاعة أوتار، جيداك ماناتور، وانتظروا جميعًا رد حاكمهم. كان يدور في كل عقل نفس التفكير - يجب أن يتولى أوتار قيادتهم على الفور إلى غرفة أوماي القاسي، أو يقبل إلى الأبد وصمة عار الجُبن، وعندئذ لا يمكن أن يوجد جبان على عرش ماناتور. يعلم الجميع ذلك، كما يعلمه أوتار أيضًا.

لكن أوتار تردد. تطلع في وجوه من يجلسون حوله في قاعة الولائم، لكنه لم يشهد سوى وجوه قاتمة لمحاربين أشداء. لا يوجد أي أثر للتساهل في وجه أي منهم. وعندئذ توجهت عيناه إلى مدخل صغير يقع عند أحد جوانب القاعة الكبيرة. ومحا تعبير عن الارتياح مسحة القلق من ملامحه.

وصاح: «انظروا! انظروا من أتى!».

* * *

الفصل (20)
الاتهام بالجُبن

شاهد جاهان، من خلال الفتحة بين الستائر هروب مطارديهما المحموم. استقرت ابتسامة قاتمة على شفتيه وهو يرى جنون التدافع سعيًا للسلامة، ثم رآهم يلقون بسيوفهم ويتعاركون مع بعضهم بعضًا في سباق الخروج من غرفة الرعب. وعندما خرجوا جميعًا، التفت نحو تارا، والابتسامة لا تزال على شفتيه، لكن ابتسامته ماتت على الفور في لحظة التفاته لأنه اكتشف اختفاء تارا.

«تارا!»، نادى بصوت عال، لأنه يعرف أن الخطر زال ولن يعود المطارِدون. لا توجد استجابة، إلا صوت خافت لضحكة مجلجلة قادمة من بعيد. بحث بسرعة في الممر خلف الستائر، وعثر على عدة أبواب، كان أحدها مفتوحًا جزئيًّا. دخل منه إلى الغرفة المجاورة التي كانت مضاءة ببراعة في ذلك الوقت عن طريق أشعة القمر ثوريا الناعمة، الذي يشق طريقه بجنون عبر السماء. وهنا وجد التراب متفرقًا على الأرضية، كما وجد الآثار المميزة للصنادل. لقد سارا من هذا الطريق - تارا وأيًّا كان المخلوق الذي سرقها.

ولكن، ما هذا؟ يتمتع جاهان بثقافة وذكاء كبيرين، ولا يعتقد في أي خرافات. كان يتمسك على نحو فطري، وجميع أعراق برسوم تقريبًا، بشكل جليل من عبادة الأسلاف، على الرغم من أن تمجيده كان للذكريات أو الأساطير التي تتناول فضائلهم وأعمالهم البطولية وليس لهم شخصيًّا. لم يتوقع أبدًا أي دليل ملموس على وجودهم بعد الوفاة، ولم يعتقد أن لديهم أي قوة -سواء للخير أو للشر- غير تأثير مثالهم خلال حياتهم على الأجيال التالية؛ ولم يعتقد في تجسيد أرواح الموتى. وإذا كانت هناك حياة أخرى، فهو لا يعرف عنها شيئًا؛ لأنه يعرف أن العلم أثبت وجود أسباب مادية لكل ظاهرة تبدو خارقة عن الأديان القديمة والخرافات. ومع ذلك، كان في حيرة لمعرفة القوة التي أخفت تارا فجأة من جانبه وفي ظروف غامضة، في غرفة لم يدخلها أحد منذ خمسة آلاف سنة.

لم يستطع أن يحدد في الظلام ما إذا كانت هناك آثار لصنادل أخرى غير صندل تارا، رأى فقط تشتت التراب، وفقد الأثر تمامًا بعد أن قاده إلى الممرات القاتمة. انكشفت أمامه الآن متاهة من الممرات والشقق، خلال سعيه السريع عبر أنحاء مسكن أوماي المهجور. هنا يوجد حمام قديم، لا شك أنه حمام الجيداك نفسه، ثم مر ثانية عبر غرفة بها وجبة فوق طاولة منذ خمسة آلاف سنة، ربما وجبة الإفطار التي لم يذقها أوماي.

ومرت أمام عينيه للحظات قصيرة، خلال سيره عبر الغرف، ثروة من الحلي والمجوهرات والمعادن النفيسة التي فاجأت حتى جدِ جاثول الذي كان عتاده من الألماس والبلاتين والثروات التي كانت موضع حسد من العالم. وأخيراً انتهى بحثه في غرف أوماي إلى غطاء صغير في الأرض، بمثابة فتحة لمدرج حلزوني يتجه إلى أسفل في ظل ظلام دامس جهنمي. يبدو تشتت التراب عند مدخل الغطاء جديدًا، وهي الإشارة الوحيدة الممكنة التي وجدها جاهان على الاتجاه الذي أخذ فيه الخاطف تارا، وعليه اتباعه للبحث في مكان آخر. نزل، دون تردد، في الظلام المطلق أدناه. تحسس بقدمه قبل أن يتخذ خطوة إلى الأمام، ولذا كان هبوطه بطيئًا بالضرورة. لكن جاهان كان برسوميًّا وبالتالي يعرف المزالق التي قد تنتظر الغافلين في هذه الأجزاء المظلمة، المحظورة في قصر الجيداك.

هبط ما قدّره بثلاثة مستويات كاملة ثم توقف، كما يفعل أحيانًا، لينصت. سمع بوضوح صوتًا غريبًا لاحتكاك أقدام تقترب من أسفل في اتجاهه. أيًّا ما كان هذا الشيء، فقد كان يصعد المدرج بخطى ثابتة، وسرعان ما يصل إليه. وضع جاهان يده على مقبض سيفه وسحبه ببطء من غمده، دون إحداث أي ضجيج يثير انتباه المخلوق لوجوده. تمنى أن ينحسر الظلام ولو قليلاً. إذا تمكن من رؤية مجرد الخطوط العريضة للشيء الذي يقترب منه، سوف يشعر أن لديه فرصة أكثر إنصافًا في اللقاء، لكنه لا يستطيع أن يرى أي شيء، بل اصطدم غمد سيفه بالجانب الحجري للمدرج، وأصدر صوتًا أدى سكون الممر وحدوده الضيقة والظلام إلى تكبيره إلى جلبة شديدة.

توقف صوت الاحتكاك على الفور. وقف جاهان للحظة في انتظار صامت، ثم نبذ حذره وواصل هبوطه على المدرج الحلزوني. لم يُصدر ذلك الشيء، أيًّا ما كان، أي صوت يتيح لجاهان أن يحدد مكانه. قد ينقض عليه في أي لحظة، ولذا أبقى سيفه على أهبة الاستعداد. قاده المدرج الحلزوني المنحدِر إلى أسفل. أحاط به ظلام وصمت القبور، ومع ذلك سار قدمًا حيث يمكن أن يوجد شيء في مكان ما. كان على يقين أنه ليس بمفرده في ذلك المكان المروع، بل هناك وجود آخر لا يسمعه أو يراه، يحوم حوله. ربما كان الشيء الذي سرق تارا. وربما تارا نفسها، لا تزال في براثن رعب مجهول، هي التي أمامه. أسرع خطواته حتى أصبحت ركضًا تقريبًا، وهو يفكر في الخطر الذي يهدد المرأة التي يحبها، ثم اصطدم بباب خشبي، تأرجح مفتوحًا على أثر الاصطدام. وجد أمامه ممرًّا مضاءً، توجد غرف على جانبيه. سار، ثم أدرك قبل مسافة قصيرة من الجزء السفلي من المدرج الحلزوني أنه في الحُفر التي تقع أسفل القصر. وبعد لحظة سمع خلفه صوت الاحتكاك الذي جذب انتباهه من قبل. نظر حوله وشاهد صاحب الصوت يخرج من المدخل الذي مر منه للتو. كان جيك الكلديني.

صاح جاهان: «جيك! أنت من كان في المدرج؟ هل رأيت تارا الهيليومية؟».

أجاب الكلديني: «نعم، أنا من كان في المدرج، لكني لم أر تارا الهيليومية. أنا أبحث عنها. أين هي؟».

أجاب الجاثولي: «لا أعرف؛ ولكن علينا أن نجدها ونخرجها من هذا المكان».

قال جيك: «قد نجدها؛ ولكن أشك في قدرتنا على إخراجها من هنا. مغادرة ماناتور ليست بنفس سهولة دخولها. يمكنني التحرك كما أريد خلال جحور الأولسيو القديمة، لكن حجمك الكبير لا يتيح لك ذلك، كما تحتاج رئتاك إلى قدر من الهواء أكثر مما يوجد في بعض المدرجات الأعمق».

صاح جاهان: «لكن هناك يوثور! هل سمعت أي شيء عنه أو عن نواياه؟».

أجاب جيك: «سمعت الكثير.. لقد أقام معسكرات عند بوابة الأعداء، والموقع الذي استولى عليه هو ومحاربيه يقع وراء البوابة، لكن قواته غير كافية لدخول المدينة والاستيلاء على القصر. كان يمكنك الوصول إليه منذ ساعة، أما الآن فالحراسة مشددة على جميع الطرق بعد أن عرف أوتار أن أكور هرب وانضم إلى يوثور».

صاح جاهان: «أكور هرب وانضم إلى يوثور!».

قال جيك: «منذ أكثر من ساعة بقليل. كنت معه عندما جاء محارب، رجل اسمه تاسور، يحمل رسالة منك. وتقرر أن يمضي تاسور بصحبة أكور في محاولة للوصول إلى معسكر يوثور، جد ماناتوس الأكبر، ويطلب منه التأكيدات التي طلبتها، ثم يعود يوثور ويجلب الطعام لَكما، أنت وأميرة هيليوم. وقد رافقتهما. وصلنا بسهولة ووجدنا يوثور أكثر من مستعد لاحترام جميع رغباتك. ولكن عندما حاول تاسور العودة إليك، كانت جميع الطرق مغلقة بواسطة محاربي أوتار. وعندئذ تطوعت أنا للقدوم إليك وإبلاغك بما حدث، ثم أبحث عن طعام وشراب لكما، وبعدها أتوجه إلى العبيد الجاثوليين في ماناتور وأبلغهم بدورهم في الخطة التي وضعها يوثور وتاسور».

سأله جاهان: «وما هي هذه الخطة؟».

أجاب جيك: «أن يرسل يوثور في طلب تعزيزات. وقد بعث إلى ماناتوس وإلى جميع المناطق النائية التابعة له. وسوف يستغرق جمعهم وإحضارهم هنا شهرًا، وفي الوقت نفسه يقوم العبيد داخل المدينة بالتنظيم سرًّا، وسرقة وإخفاء الأسلحة، إلى يوم وصول التعزيزات. وعندما يأتي ذلك اليوم، ستدخل قوات يوثور بوابة الأعداء؛ وما إن

يندفع محاربو أوتار لصدهم، حتى ينقض عليهم عبيد جاثول من الخلف وهم أغلبية عددًا، بينما يهاجم الباقون القصر. وهم بذلك يأملون في إبعاد الكثيرين عن البوابة، بحيث لا يجد يوثور صعوبة تُذكر في الدخول إلى المدينة».

قال جاهان: «ربما ينجحون، لكن محاربي أوتار كثيرون، ومن يقاتلون دفاعًا عن ديارهم وعن جيداكهم لديهم ميزة دائمًا. آه، جيك، لو كان لدينا السفن الكبيرة من جاثول أو هيليوم لتصب نيرانها التي لا ترحم على شوارع ماناتور، بينما يسير يوثور إلى القصر على جثث القتلى». صمت وهو يفكر بعمق، ثم حوّل بصره مرة أخرى نحو الكلديني وقال: «هل سمعت عن المجموعة التي هربت معي من ملعب جيتان: فلوران، وفال دور، وغيرهما؟ ماذا عنهم؟».

قال جيك: «نجح عشرة منهم في الوصول إلى بوابة الأعداء عند يوثور، الذي استقبلهم استقبالاً حسنًا. سقط ثمانية في القتال خلال الطريق. لكني أعتقد أن فال دور وفلوران لا زالا أحياء، فأنا متأكد من أنني سمعت يوثور يخاطب اثنين من المحاربين بهذين الاسمين».

صاح جاهان: «جيد! عليك إذن أن تذهب عبر جحور الأولسيو إلى بوابة الأعداء، وتحمل رسالة إلى فلوران سأكتبها بلغته. هيا، بينما أكتب الرسالة».

وجدا مقعدًا طويلاً وطاولة في غرفة مجاورة. جلس جاهان هناك وكتب إلى فلوران الجاثولي رسالة بأحرف مريخية غريبة مختزلة. وعندما انتهى سأل: «لماذا كنت تبحث عن تارا خلال المدرج الحلزوني حيث التقينا تقريبا؟».

قال جيك: «أخبرني تاسور أين أجدكما، ونظرًا لأني استكشفت ممرات الأولسيو في الجزء الأكبر من القصر، وفي الممرات الأكثر قتامة والأقل ارتيادًا، فقد عرفت مكانكما تحديدًا وكيفية الوصول إليكما. يتجه هذا المدرج الحلزوني السري إلى أعلى، من الحُفر إلى سطح أعلى أبراج القصر، وتضم جميع مستوياته فتحات سرية، ولا أعتقد أن أي ماناتوري حيّ على علم بوجوده. على الأقل لم ألتق أبدًا بأحد داخله، وقد استخدمته مرات عديدة. لقد دخلت الغرفة التي يرقد فيها أوماَي ثلاث مرات، ولم أكن أعرف شيئًا عن هويته أو قصة وفاته حتى أخبرنا بها تاسور في معسكر يوثور».

قاطعه جاهان: «أنت تعرف القصر بدقة إذن؟».

أجاب جيك: «أفضل من أوتار نفسه أو أي من خدمه».

واصل جاهان: «جيد! وسوف تخدم الأميرة تارا، يا جيك، وربما أفضل خدمة تقدمها لها هي مصاحبة فلوران واتباع تعليماته. سوف أكتب له هنا، في ختام رسالتي له، لأن الجدران لها آذان، جيك، ولن يستطيع قراءة ما كتبته إلى فلوران إلا جاثولي. وهو سوف يخبرك بما كتبت. هل يمكنني الوثوق بك؟».

أجاب جيك: «أنا لن أعود أبدًا إلى بانتوم، وبالتالي ليس لديَّ سوى صديقين في برسوم كلها. ماذا يمكنني أن أفعل أفضل من خدمتهما بإخلاص؟ يمكنك أيها الجاثولي أن تثق بي؛ فقد علمتني، أنت وامرأة من نوعك، أن هناك أشياء أرقى وأنبل من عقلية مثالية لا تتأثر بالتعاليم غير المنطقية التي يمليها القلب. سوف أذهب».

* * *

عندما أشار أوتار إلى المدخل الصغير، تحولت كل الأنظار إلى ذلك الاتجاه، وارتسمت دهشة كبيرة على وجوه المحاربين عندما تعرفوا على الشخصين اللذين دخلا قاعة المأدبة. كان إيجوس ويجر وراءه شخصًا مكممًا، ويداه مربوطتان خلفه بشريط من الحرير المتين. كانت الفتاة الأَمَة. ارتفعت ضحكة إيجوس المقهقهة فوق صمت الغرفة.

صاح بقوة: «إييه، إييه! ما لم يتمكن محاربو أوتار الشبان من عمله، قام به إيجوس العجوز بمفرده».

قال هادرًا أحد القادة الذين فروا من جناح أوماي: «الكورفال فقط هو من يستطيع الإمساك بكورفال».

ضحك إيجوس، وأجاب: «لقد أحال الذعر قلبك إلى مياه، عار على لسانك أن ينطق بهذا التشهير. إنها ليست كورفال، بل مجرد امرأة من هيليوم، ورفيقها محارب يبارز بسيفه أفضلكم ويشق قلوبكم العفنة. لم أشهد مثله في أيام شبابي. آه، عندما كان هناك رجال في ماناتور. إنني أتذكر ذلك اليوم عندما ....».

قاطعه أوتار: «اهدأ أيها العجوز الأحمق! أين الرجل؟».

أجاب إيجوس: «في نفس المكان الذي وجدت فيه المرأة، في غرفة موت أوماي. دع قادتك الحكماء الشجعان يذهبون إلى هناك ويحضرونه. أنا رجل عجوز، ولا يمكنني سوى إحضار شخص واحد».

أسرع أوتار بطمأنته: «لقد قمت بعمل جيد يا إيجوس». عندما علم أوتار أن جاهان ربما لا يزال في الغرف المسكونة بالأشباح، تمنى تهدئة غضب إيجوس لأنه يعرف جيدًا

سلاطة لسان العجوز وحدِّة مزاجه. ونظرًا لأنه كان يرغب في تغيير موضوع الحديث عن الرجل الذي لا يزال طليقًا، سأله: «أنت تعتقد إذن، إيجوس، أنها ليست كورفال؟».

أجال المُحنِط العجوز: «ليست أكثر منك».

اتجه بصر أوتار نحو تارا الهيليومية في نظرة طويلة متفحصة. بدا أن جمالها كله ينتقل فجأة إلى كل جزء من وعيه. كانت لا تزال ترتدي ذلك العتاد الثري لأميرة الفريق الأسود في الجيتان، وأدرك الجيداك أوتار وهو يحدق نحوها أن عينيه لم تقع أبدًا من قبل على هيئة أكثر مثالية أو وجه أكثر جمالاً.

تمتم لنفسه: «إنها ليست من الكورفال. ليست من الكورفال، وهي أميرة، أميرة هيليوم، وبالشعر الذهبي للهيكادور[123] المقدس، إنها جميلة». أصدر أوامره بصوت مرتفع: «انزعوا الكمامة عن فمها وحرروا يديها. أفسحوا مكانًا لتارا أميرة هيليوم بجانب أوتار الماناتوري. سوف تتناول الطعام كأميرة».

قام العبيد بتنفيذ أوامر أوتار، ووقفت تارا الهيليومية بأعينها اللامعة وراء المقعد الممنوح لها. وأمرها أوتار: «اجلسي!».

غرقت الفتاة في المقعد، وقالت: أنا أجلس كسجينة، وليس كضيفة على مائدة عدوي، يا أوتار الماناتوري».

أومأ أوتار إلى أتباعه للخروج من الغرفة، وقال: «أود أن أتكلم بمفردي مع أميرة هيليوم». انسحب القادة والعبيد، ثم تحول جيداك ماناتور مرة أخرى تجاه الفتاة قائلاً: «أوتار الماناتوري سيكون صديقك».

جلست تارا الهيليومية ويداها مطويتين على صدرها، وعيناها تومضان جفنيها اللذين أصبحا ضيقين، ولم تتفضل حتى بالرد على عرضه. مال أوتار مقتربًا منها. لاحظ سلوكها العدواني، وتذكر أول لقاء معها، إنها عنيدة كحيوان البانث، لكنها جميلة. كانت أكثر امرأة رغبها أوتار وصمم على امتلاكها. وقال لها ذلك.

«يمكنني أن اتخذك أَمَة، وإنما يسعدني أن اتخذك زوجتي. ستكونين جيدارة[124] ماناتور. أمامك سبعة أيام للتحضير للشرف العظيم الذي منحه لك أوتار. وفي مثل هذه الساعة من اليوم السابع، تصبحين إمبراطورة وزوجة أوتار في قاعة عرش كل الجيداك في

---

(123) هيكادور: لقب زعيم الثيرن المقدسين - http://barsoom.wikia.com/wiki/Hekkador المترجمة.

(124) جيدارة: الملكة أو الإمبراطورة - وهو الاسم المريخي المؤنث لجيداك (الملك أو الإمبراطور - (

- https://barsoom.fandom.com/wiki/Jeddakالمترجمة.

ماناتور». دق على زر جرس بجانبه على الطاولة، وعندما ظهر عبد، أمره باستدعاء المجموعة التي كانت بالقاعة. عاد القادة ببطء إلى مقاعدهم عند الطاولة في القاعة، كانت وجوههم قاتمة ومقطبة؛ إذ لا يزال السؤال المتعلق بشجاعة جيداكهم دون إجابة. يخطئ أوتار إذا كان يأمل في أنهم نسوا.

نهض أوتار، ثم أعلن: «تُقام وليمة كبيرة بعد سبعة أيام على شرف جيدارة ماناتور الجديدة»، وأشار بيده نحو تارا الهيليومية: «يبدأ الحفل

في بداية الزود السابع[125] في قاعة العرش. وفي الوقت نفسه، ستحظى أميرة هيليوم بالرعاية في برج المساكن النسائية بالقصر. عليك يا إيثاس أن تقودها إلى هناك مع حرس شرف مناسب، والتأكد من وجود العبيد والخصيان تحت تصرفها، فضلاً عن مَنْ يتولون تحقيق رغباتها وحراستها بعناية من الأذى».

عرف إيثاس الآن أن المعني الحقيقي الخفي وراء هذه الكلمات الجميلة، وهو أن يقود السجينة تحت حراسة قوية إلى مساكن النساء وحبسها هناك في البرج لمدة سبعة أيام، وإحاطتها بحراسة جديرة بالثقة تحول دون هروبها وإحباط أي محاولة لإنقاذها.

عندما كانت تارا تغادر القاعة مع إيثاس والحرس، انحنى أوتار بالقرب من إذنها وهمس: «فكري جيدًا خلال هذه الأيام السبعة في الشرف العظيم الذي عرضته عليك، و... بديله الوحيد». سارت الفتاة، كأنما لم تسمعه، خارج قاعة المأدبة ورأسها عالية وعينيها تتجهان إلى الأمام.

بعد أن غادر جيك، أخذ جاهان يجوب الحُفر والممرات القديمة في الأجزاء المهجورة من القصر، سعيًا لمعرفة أي شيء عن مكان أو مصير تارا الهيليومية. استخدم المدرج الحلزوني للانتقال من مستوى إلى آخر إلى أن عرف كل شبر فيه، من الحُفر إلى قمة البرج العالي، والشقق التي تُفتح عند مختلف المستويات، فضلاً عن الآلية الخفية البارعة التي تفتح أقفال الأبواب المخفية ببراعة المؤدية إليها. اعتمد في طعامه على المخازن التي وجدها في الحُفر، ورقد عند النوم على أريكة أوماي الملكية في القاعة المحظورة، مُشاركًا المنصة مع قدم الجيداك العجوز الميت.

عمَّت القصر اضطرابات واسعة، لا يعرف عنها جاهان أي شيء. تابع المحاربون والقادة واجباتهم بوجوه صارمة، وتجمعت هنا وهناك مجموعات صغيرة منهم تناقش بغضب الموضوع الذي يحتل موقع الصدارة في أذهان الجميع. وفي اليوم الرابع لحبس

(125) حوالي الثامنة والنصف مساء بتوقيت كوكب الأرض.

تارا في البرج، توجه إيثاس -كبير خدم القصر وأحد اتباع أوتار- إلى سيده في بعض الأمور التافهة. كان أوتار بمفرده في إحدى الغرف الصغيرة بجناحه الشخصي، عندما أُعلن عن وصول كبير الخدم. وبعد الانتهاء من المسألة التي أتى إيثاس من أجلها، أشار له الجيداك بالبقاء.

قال أوتار: «لقد قمت بتكريمك، يا إيثاس، وترقيتك من موقع محارب مغمور إلى قائد. كلمتك داخل حدود القصر تلي كلمتي. ولذلك، أنت لست محبوبًا، إيثاس، وإذا تبوأ جيداك آخر عرش ماناتور ماذا سيحدث لك، وأنت أعداءك من بين أقوى الشخصيات في ماناتور؟».

قال إيثاس متوسلاً: «لا تحدثني عن ذلك، أوتار. فقد كنت أفكر في ذلك خلال الأيام القليلة الماضية، وأود نسيان الأمر، لكنني سعيت إلى تهدئة غضب أسوأ أعدائي. كنت شديد اللطف والتسامح معهم».

سأله الجيداك: «هل قرأت أنت أيضًا الرسالة الصامتة في الهواء؟».

كان إيثاس قلقًا بوضوح، ولم يرد.

سأله أوتار: «لماذا لم تخبرني بمخاوفك؟ أليس هذا من الولاء؟».

أجاب إيثاس: «كنت خائفًا، أيها الجيداك القوي! خشيت ألا تفهم، وأن تغضب».

قال أوتار آمرًا: «ماذا تعرف؟ قل الحقيقة كاملة!».

أجاب إيثاس: «هناك الكثير من الاضطراب عند القادة والمحاربين، حتى من كانوا أصدقائك، يخافون من قوة من يتحدثون ضدك».

قال الجيداك هادرًا: «ماذا يقولون؟».

أجاب إيثاس: «يقولون إنك تخاف الدخول إلى غُرف أومواي للبحث عن العبد توران – أوه، لا تغضب مني، يا جيداك؛ إنني أكرر فقط ما يقولون. أنا، إيثاس، مُخلص لك، ولا أصدق هذا الافتراء الكريه».

سأله أوتار: «كلا، كلا؛ لماذا أخاف؟ نحن لا نعرف أنه هناك. ألم

يذهب القادة إلى هناك ولم يروه؟».

واصل إيثاس: «لكنهم يقولون إنك لم تذهب، وإنهم لا يريدون جبانًا على عرش ماناتور».

صرخ أوتار: «هل قالوا هذه الخيانة»؟.

أجاب كبير الخدم: «قالوا ذلك وأكثر، أيها الجيداك العظيم. قالوا إنك لا تخشى دخول غرف أوماي فحسب، لكنك تخشى أيضًا العبد توران، ويلومونك لطريقة معاملتك لأكور الذي يعتقدون أنه قُتِل بناء على أوامرك. إنهم يحبون أكور، ويقول العديدون الآن بصوت عال إن أكور كان يمكن أن يصبح جيداكًا رائعًا».

صرخ أوتار: «هل يجرؤون؟ يتجرأون على اقتراح اسم عبد لقيط لعرش أوتار!».

قال له إيثاس لتذكيره: «إنه ابنك، يا أوتار، ولا يوجد رجل محبوب أكثر منه في ماناتور. أنا لا أقول لك سوى الحقائق التي لا يمكن تجاهلها، ولا أجرؤ على ذلك إلا لأنك عندما تدرك الحقيقة، يمكنك إيجاد علاج للشرور المحيطة بعرشك».

هبط أوتار على مقعده الطويل؛ وبدا فجأة منكمشًا ومتعبًا وعجوزًا. صاح: «اللعنة على اليوم الذي شهد دخول هؤلاء الغرباء الثلاثة إلى مدينة ماناتور. ليت يودور قد نجا. كان قويًّا، يخشاه أعدائي، لكنه ذهب، قتله ذلك العبد البغيض توران، فلتحل عليه لعنة إيسوس!».

قال إيثاس متوسلاً: «يا جيداك، ماذا يجب أن نفعل؟ إلقاء اللعنات على العبد لن تحل مشاكلك».

قال أوتار في تضرع: «لكن موعد الحفل الكبير والزواج بعد ثلاثة أيام، وهو مناسبة لحفل عظيم، يعرف ذلك المحاربون والقادة جميعًا، إنه العُرف. وفي ذلك اليوم، تُمنح الهدايا والأوسمة. قل لي، من هم أكثرهم مرارة ضدي؟ سوف أرسلك بينهم لتنشر أنني أخطط تقديم مكافآت لما قدموه من خدمات سابقة للعرش. سوف أمنح القائد لقب الجِد، وأمنح المحارب لقب القائد، فضلاً عن منحهم القصور والعبيد. هه، إيثاس؟».

هز إيثاس رأسه قائلاً: «لن ينجح ذلك يا أوتار، لا يريدون هداياك أو أوسمتك. سمعتهم يقولون ذلك كثيراً».

سأله أوتار: «ماذا يريدون؟».

أجاب إيثاس وهو يشعر بارتعاش ركبتيه: «إنهم يريدون من الجيداك أن يكون أشجع الشجعان».

صاح الجيداك: «إنهم يعتقدون أنني جبان؟».

واصل إيثاس: «يقولون إنك تخاف الذهاب إلى جناح أوماي القاسي».

جلس أوتار لفترة طويلة ورأسه غارق على صدره، يحدِّق نحو الأرض.

وأخيراً تحدث بصوت أجوف لا يبدو على الإطلاق كصوت جيداك عظيم: «قل لهم إنني سوف أذهب إلى جناح أوماي وأبحث عن العبد توران».

* * *

الفصل (21)

مخاطرة من أجل الحب

«إيبه، إيبه، إنه جبان ويدعوني 'العجوز الأحمق'!» - كان إيجوس هو المتحدث، يخاطب مجموعة من القادة في إحدى غرف قصر أوتار، جيداك ماناتور - «لو كان أكور على قيد الحياة، لكان لدينا جيداك!».

سأله أحد القادة: «ومن قال إن أكور مات؟».

تساءل إيجوس: «أين هو إذن؟ ألم يختفِ الآخرون الذين أعتقد أوتار أيضًا أن المقربين من العرش يحبونهم؟».

هز القائد رأسه: «وأعتقد، أو بالأحرى أعرف، أنني قد أود الانضمام إلى يوثور عند بوابة الأعداء».

قال آخر مُحذِرًا: «شش، شش، ها هو لاعق الأحذية قادم»، واتجهت جميع الأعين نحو إيثاس المقترب نحوهم.

صاح: «كاور، يا أصدقاء!»، وهو يقف بينهم، لكن تحيته الودية لم تثر سوى إيماءات قليلة عابسة. واصل دون خجل من المعاملة التي أصبحت معتادة: «هل سمعتم الأخبار؟».

سأله إيجوس ساخرًا: «ماذا ... هل رأى أوتار أي أولسيو وأغمى عليه؟».

قال إيثاس لتذكيرهم: «لقد مات رجال لأقل من ذلك، أيها العجوز».

رد إيجوس: «أنا آمن، لأنني لست ابنًا شجاعًا وشعبيًّا لجيداك ماناتور».

كانت هذه في الواقع خيانة صريحة، لكن إيثاس تظاهر بأنه لم يسمعها. تجاهل إيجوس، وتحوّل إلى الآخرين قائلاً: «سوف يذهب أوتار هذه الليلة إلى غرفة أوماي بحثًا عن العبد توران»، ثم أضاف متهكمًا عبارة يمكن أن تنتشر في أجزاء أخرى من القصر: «وهو حزين لأن محاربيه يفتقرون إلى شجاعة أداء هذه المهمة البسيطة، وبالتالي يضطر الجيداك إلى أن يقوم باعتقال عبد عادي». وفي واقع الأمر، كان الجزء الأخير من الرسالة من ابتكاره، وكان سعيدًا بإبلاغها إلى أعدائه ليصيبهم بالحرج. وعندما استعد لمغادرة

تلك المجموعة الصغيرة من الرجال، ناداه إيجوس وسأله: «في أي ساعة ينوي أوتار زيارة جناح أوماي؟».

أجاب كبير الخدم: «في حوالي نهاية الزود الثامن»[126]، ثم انصرف.

قال إيجوس: «سنرى».

سأل محارب: «ماذا سنرى؟».

«سنرى ما إذا كان أوتار سيزور غرفة أوماي».

«كيف؟».

أوضح المُحنط العجوز: «سأكون هناك بنفسي، وإذا رأيته سأعرف أنه كان هناك. وإذا لم أره، سأعرفَ أنه لم يذهب».

سأل قائد: «هل هناك ما يملأ رجل صادق بالخوف؟ ماذا رأيت؟».

قال إيجوس: «ما رأيته ليس كثيراً، لكنه كان سيئًا بما يكفي، كذلك ما سمعته».

«أخبرنا! أخبرنا بما سمعت ورأيت؟».

قال إيجوس: «رأيت أوماي الميت». ارتجف الآخرون.

سألوه: «ألم يصبك الجنون؟».

أجاب إيجوس: «هل أنا مجنون؟».

«وسوف تذهب مرة أخرى؟».

«نعم».

صاح أحدهم: «إذن أنت مجنون بالفعل».

همس آخر: «رأيت أوماي الميت، ولكن ما الأسوأ الذي سمعته؟».

«رأيت أوماي الميت راقدًا على أرضية غرفة نومه، وتشتبك إحدى قدميه في حرير وفراء النوم فوق أريكته. وسمعت أنينًا مروعًا وصرخات مخيفة».

(126) حوالي الساعة الواحدة صباحًا بتوقيت كوكب الأرض.

سأل عديدون: «ولست خائفًا من الذهاب إلى هناك مرة أخرى؟».

قال إيجوس: «الموتى لا يمكنهم إلحاق الضرر بي، وهو يرقد هكذا منذ خمسة آلاف سنة. كما أن الصوت لا يمكن أن يضرني. سمعت هذا الصوت مرة واحدة ولازلت حيًّا، ويمكنني أن أسمعه مرة أخرى. جاء الصوت تقريبًا من جانبي، حيث اختبأت وراء الستائر، وشاهدت العبد توران قبل أن أختطف المرأة بعيدًا».

قال قائد: «إيجوس، أنت رجل شجاع جدًّا».

«دعاني أوتار 'العجوز الأحمق'، وسوف أواجه مخاطر أسوأ من الاستلقاء في غرف أوماي المحظورة لأعرف إن لم يذهب إلى غرفة أوماي. وعندئذ سيسقط أوتار بالفعل!».

هبط الليل ومرت الساعات واقترب موعد زيارة أوتار، جيداك ماناتور، إلى غرفة أوماي بحثًا عن العبد توران. بالنسبة لنا، من يتشككون في وجود أرواح خبيثة، قد يبدو خوفه لا يُصدق؛ لأنه كان رجلاً قويًّا ومبارزًا ممتازًا ومحاربًا يتمتع بسمعة كبيرة، ولكن تظل الحقيقة أن أوتار الماناتوري كان متوترًا من الخوف وهو يجوب أروقة قصره نحو قاعات أوماي المهجورة. وعندما وقف أخيراً ويده على الباب الذي يفتح الممر المترب المؤدي إلى الغرف نفسها، كاد الرعب أن يشله تقريبًا. لقد ذهب بمفرده لسببين ممتازين. أولهما ألاَّ يلحظ أحد ذعره، ولا فراره إذا فشل في آخر لحظة. وثانيهما أنه إذا تمكن من تحقيق المهمة بمفرده أو نجح في إقناع قادته بذلك، فإن الفضل سيكون أكبر بكثير مما لو كان برفقة محاربين.

ولكن على الرغم من أنه بدأ بمفرده، فقد أدرك أن هناك من يتبعه. وكان يعلم أن ذلك يرجع إلى أن قومه لا يؤمنون بشجاعته أو بصدقه. لم يكن يعتقد أنه سيجد العبد توران، ولم يكن يرغب كثيراً في العثور عليه، فعلى الرغم من أن أوتار كان مبارزاً ممتازاً ومحاربًا شجاعًا في أي قتال فعلي، فقد شاهد طريقة مبارزة توران مع يودور، وليس على استعداد لمبارزة شخص يعرف أنه يتفوق عليه.

وهكذا، وقف أوتار ويده على الباب - يخشى الدخول، ويخشى عدم الدخول. وفي النهاية، أصبح خوفه من محاربيه، الذين يراقبونه من الخلف، أكبر من خوفه من المجهول الذي ينتظره وراء الباب العتيق، فدفع الباب الخشبي الثقيل، ودخل.

ساد الصمت والكآبة وغبار قرون عديدة ثقيلاً على الغرفة. كان يعرف من محاربيه الطريق الذي يجب أن يتخذه إلى غرفة أوماي المروعة، وبالتالي أجبر قدميه الكارهتين على الدخول إلى الغرفة أمامه، حيث وجد لاعبي الجيتان جالسين أمام لعبتهم الأبدية، ثم

وصل إلى الممر القصير الذي يؤدي إلى غرفة أوماي. ارتعش سيفه في قبضة يده. كان يتوقف بعد كل خطوة لينصت السمع. وعندما وصل تقريبًا إلى باب الغرفة المسكونة بالأشباح، توقف قلبه داخل صدره وتصبب العرق البارد من جبينه، والتقطت أذناه المرتعدان صوت تنفس مكتوم. وكاد أوتار الماناتوري أن يفر أمام الرعب المجهول الذي لم يستطع رؤيته، لكنه يعرف أنه ينتظره في تلك الغرفة التي تقع أمامه. لكن خوف وازدراء محاربيه وقادته تبدَّى له مرة أخرى. سوف يشوهون سمعته ويقتلونه في الصفقة. ما من شك فيما سيؤول إليه مصيره إذا هرب من جناح أوماي مرتعبًا، ولذلك، كان أمله الوحيد يكمن في التجرؤ على اقتحام المجهول، أفضل من المصير المعروف.

تحرك إلى الأمام، اقتادته خطوات قليلة إلى المدخل. كانت الغرفة أمامه أكثر قتامة من الممر، بحيث بالكاد ما يُميز الأشياء الموجودة في الغرفة. شاهد منصة نوم بالقرب من وسط الغرفة، وبقعة أغمق لشيء ملقى على الأرض الرخامية بجانبها. انتقل خطوة أخرى في المدخل، واحتك غمد سيفه بالإطار الحجري، ولرعبه، شاهد حرير وفراء النوم فوق المنصة المركزية يتحرك. شاهد شيئًا ما ينهض ببطء من فراش موت أوماي القاسي، ويتخذ وضع الجلوس. اهتزت ركبتاه، لكنه استجمع كل قواه المعنوية، وأمسك سيفه بمزيد من الإحكام في أصابعه المرتعشة، استعدادًا للقفز عبر الغرفة عند ظهور هذا الشيء المروع. تردد للحظة. أحس بأعين تنظر نحوه -أعين غول تخترق الظلام إلى قلبه الهالك- أعين لا يستطيع رؤيتها. استجمع نفسه للانقضاض- وعندئذ انطلق من الشيء الجالس على الأريكة صراخًا مروعًا، وسقط أوتار فاقد الوعي على الأرض.

نهض جاهان من أريكة أوماي مبتسمًا، ليتجول سريعًا ممتشقًا سيفه، حيث التقطت أذناه الحريصتان ظلال ضوضاء تأتي من الظلال خلفه. رأى بين الستائر المتباعدة هيئة شخص منحنٍ ومليء بالتجاعيد. لقد كان إيجوس.

قال العجوز: «أغمد سيفك، يا توران، لا تخش من إيجوس».

سأله جاهان: «لماذا أنت هنا؟».

«لقد جئت للتأكد من أن الجبان الكبير لم يخدعنا. إييه، وقد قال عني ‘العجوز الأحمق’، ولكن، انظر له الآن! يرقد فاقد الوعي من الذعر، ولكن، إييه، ربما يغفر له من سمع صرختك الخارقة. لقد عصفت بشجاعتي. كنت أنت إذن من أصدر الأنين والصراخ عندما جاء القادة يوم أن سرقت تارا منك؟».

سأل جاهان: «كنت أنت إذن، أيها الوغد العجوز؟»، وهو يتحرك تجاه إيجوس مُهدِدًا.

قال العجوز محتجًّا: «نعم، نعم! كنت أنا، لكني كنت حينذاك عدوك. أما الآن فلن أفعلها، فقد تغيرت الظروف».

سأله جاهان: «كيف تغيرت؟ وماذا غيّرها؟».

«أنا لم أكن أدرك تمامًا جُبن جيداكي، أو شجاعتك أنت والفتاة. أنا رجل عجوز من عصر آخر، وأحب الشجاعة. لقد استأت في البداية من هجوم الفتاة ضدي، لكني أدركت لاحقًا مدى شجاعتها وفازت بإعجابي، وكذا جميع أفعالها. لم تخف من أوتار، ولم تخف مني، ولم تخف من جميع محاربي ماناتور. وأنت! باسم دماء ملايين الآباء! يا لك من محارب! أعتذر لأني عرضتك إلى ملاعب الجيتان. وأعتذر لأني أعدت الفتاة تارا إلى أوتار. يمكنني إصلاح الأمر، وسأكون صديقك. ها هو سيفي أمام قدميك»، وسحب إيجوس سيفه وألقاه على الأرض أمام جاهان.

كان الجاثولي يعلم أنه يندر أن يتنصل أكثر المنبوذين من المحتالين من هذا التعهد الجليل، ولذا انحنى والتقط سيف الرجل العجوز وأعاده إليه، من المقبض، قبولاً لصداقته.

سأله جاهان: «أين الأميرة تارا الهيليومية؟ هل هي بأمان؟».

أجاب إيجوس: «هي محبوسة في برج مساكن النساء، انتظارًا للاحتفال الذي سيجعلها جيدارة ماناتور».

قال جاهان هادرًا: «هل تجرأ هذا الشيء على الاعتقاد بأن تارا الهيليومية يمكن أن تتزوجه؟ سوف أجهز عليه، إن لم يكن مات بالفعل من الخوف»، ثم خطا نحو أوتار الملقى على الأرض ليغمد سيفه في قلب الجيداك.

صاح إيجوس: «لا! لا تقتله، علينا أن نصلي ألا يكون قد مات إذا أردت أن تنقذ أميرتك».

سأل جاهان: «وكيف ذلك؟».

«إذا وصلت أخبار موت أوتار إلى مساكن النساء، ستضيع الأميرة تارا. تعرف النساء نية أوتار بالزواج منها وجعلها جيدارة ماناتور، ولذا تأكد أنهن جميعًا يكرهنّها ويشعرن بالغيرة منها. سلطة أوتار هي فقط ما يحميها الآن من الأذى. فإذا مات أوتار، سوف يسلمونها إلى المحاربين والعبيد الذكور، فلن يوجد من ينتقم لها».

أغمد جاهان سيفه، وقال: «وجهة نظرك جيدة، ولكن ماذا سنفعل معه؟».

قال إيجوس ناصحًا: «اتركه حيث يرقد. إنه لم يمت. وعندما يستعيد وعيه، سيرجع إلى قصره ليحكي حكاية شجاعته، ولن يوجد من يطعن في تباهيه، إلا إيجوس. هيا! قد يستعيد وعيه في أي لحظة ويجب ألا يجدنا هنا».

ذهب إيجوس إلى جسم الجيداك وركع بجانبه للحظة، ثم عاد مارًّا بالأريكة إلى جاهان. غادر الاثنان غرفة أوماي واتجها نحو المدرج اللولبي. قاد إيجوس عندئذ جاهان إلى مستوى أعلى، ثم خرجا إلى سطح هذا الجزء من القصر، حيث أشار إلى برج عال قريب وقال: «هناك توجد أميرة هيليوم، وهي آمنة تمامًا حتى وقت الحفل».

قال جاهان: «آمنة، ربما، من أيدي الآخرين، ولكن ليس من نفسها. فهي لن تصبح أبدًا جيدارة ماناتور – ستدمر نفسها أولًا».

سأله إيجوس: «هل ستفعل ذلك؟».

أجاب جاهان: «ستفعل، إلا إذا أمكنك إيصال كلمة لها بأنني ما زلت أعيش، وأن الأمل لا يزال موجودًا».

قال إيجوس: «لا يمكنني إيصال كلمة لها. حراس أوتار في مساكن النساء أشداء، هم أكثر محاربيه وعبيده ثقة. ومع ذلك يوجد بينهم جواسيس عديدون، بحيث لا يعرف أحد مَنْ مع مَنْ. لا يسقط ظل داخل تلك الغرف دون أن ترقبه مائة عين».

وقف جاهان محدِّقًا في نوافذ البرج العالي المضاءة، في الغرف العليا المحبوسة فيها تارا الهيليومية، وقال: «سوف نجد طريقة، يا إيجوس».

قال العجوز: «لا توجد طريقة».

وقفا لبعض الوقت على السطح، تحت النجوم الرائعة وقمري المريخ المحتضِر المندفعين، يضعا الخطط الضرورية عندما يحين وقت إحضار تارا الهيليومية من البرَج العالي إلى قاعة عرش أوتار. وحينذاك، وفقط حينذاك، كما جادل إيجوس، يمكن أن يوجد أمل في إنقاذها. لم يكن جاهان يعرف إلى أي مدى يمكنه الثقة في إيجوس، ولذا احتفظ لنفسه بالخطة التي أرسلها عن طريق جيك إلى فلوران وفال دور، لكنه أكد للمُحنِّط العجوز أنه إذا كان مخلصًا في تصريحه المتكرر بضرورة إدانة أوتار وإحلال شخص آخر محله، فإن عليه أن يقتنص الفرصة في ليلة زواج الجيداك من أميرة هيليوم.

قال له جاهان مؤكِّدًا: «سيحين الوقت عندئذ يا إيجوس، وإذا كانت هناك أي أطراف تفكر بنفس طريقتك، عليك إعدادهم للاحتمال الذي يلي محاولة أوتار

الافتراضية بالزواج من ابنة أمير الحرب. أين أراك مرة أخرى، ومتى؟ سأذهب الآن للتحدث مع تارا أميرة هيليوم».

قال إيجوس: «أحب جرأتك، لكنها دون جدوى. لن تتمكن من الحديث مع تارا، أميرة هيليوم، على الرغم من أن دماء الكثيرين من الماناتوريين سوف تسيل دون شك فوق أرضية طوابق مسكن النساء قبل أن يذبحوك».

ابتسم جاهان، قائلاً: «لن أُقتل. أين ومتى سنلتقي؟ لكنك قد تجدني في غرفة أوماي ليلاً. يبدو أنها أأمن ملاذ في ماناتور كلها لعدو الجيداك الذي تقع في قصره. أنا ذاهب!».

قال إيجوس: «فلتحيط بك أرواح أسلافك».

غادر العجوز، وشق جاهان طريقه عبر سقف البرج العالي، الذي يبدو مُشيَّدًا من الخرسانة ومنحوتًا بشكل متقن، وسطحه كله مُغطى بتصاميم مُعقدة مشقوقة بعمق في المادة الشبيهة بالحجر التي يتكون منها. وعلى الرغم من أنه مُشيد منذ عصور، فلم يتأثر سوى قليلاً بجفاف طقس المريخ، وندرة هطول الأمطار، وندرة العواصف الترابية. وعلى الرغم من تلك الصعوبات والمخاطر التي ربما ردعت أشجع الرجال، فإنها كانت لتردع جاهان، دون شك، إن لم يشعر أن حياة المرأة التي يحبها تتوقف على إنجازه هذه المهمة البطولية الخطيرة.

خلع صندله، ووضع عتاده وأسلحته كلها جانبًا ما عدا حزام واحد يحمل خنجرًا، وبدأ الجاثولي محاولة الصعود الخطير. تشبث بالنقوش المنحوتة بيديه وقدميه وأخذ يصعد ببطء، متجنبًا النوافذ ومحافظًا على وجوده في الجانب الظليل من البرج بعيدًا عن ضوء القمرين ثوريا وكلوروس. يرتفع البرج حوالي خمسين قدم فوق سقف الجزء المجاور للقصر، ويتكون من خمسة مستويات أو طوابق ذات نوافذ تنظر في كل اتجاه. كان عدد قليل من النوافذ ذات شرفات، وقد سعى نحوها جاهان أكثر من النوافذ الأخرى التي سعى إلى تجنبها. وعلى الرغم من أن الوقت الآن أقرب إلى نهاية الزود التاسع، كان هناك احتمال ضئيل أن الكثيرين لا يزالون مستيقظين داخل البرج.

تقدم دون ضجيج ووصل أخيراً إلى نوافذ المستوى العلوي دون أن يُكتشَف. كانت هذه النوافذ، مثل النوافذ العديدة الأخرى التي مر بها على المستويات الأدنى، موصدة بقضبان كثيرة، بحيث لا توجد أي إمكانية لدخوله إلى الشقة المحبوسة فيها تارا. أخفى الظلام الجزء الداخلي خلف النافذة الأولى التي اقترب منها. وكانت النافذة الثانية تُفتح على غرفة مضاءة، حيث أمكنه رؤية حارس نائم في موقعه خارج باب. توجد هنا أيضًا

قمة المدرج الذي يؤدي إلى المستوى التالي أدناه. دار جاهان حول البرج واقترب من نافذة أخرى، لكنه الآن يتشبث بجانب البرج الذي ينتهي إلى فناء على مسافة مائة قدم أدناه، وسيصل إليه بعد فترة قصيرة ضوء القمر ثوريا. أدرك أن عليه أن يسرع، وصلّى أن يجد تارا الهيليومية خلف النافذة التي يقترب منها الآن.

وصل إلى الفتحة ونظر داخلها، ووجد غرفة صغيرة خافتة الإضاءة. توجد في وسط الغرفة منصة نوم، يرقد فوقها شخص مغطى بالحرير والفراء. برز من تحت الغطاء ذراع عارٍ، يمتد فوق جلد الأورلوك[127] المخطط بالأسود والأصفر - ذراع يتمتع بجمال عجيبٍ، يلتف حوله سوار يعرفه جاهان. كانت الغرفة كلها مرئية لجاهان، ولم يشهد فيها أي مخلوق آخر. ضغط الجاثولي وجهه على القضبان، وهمس اسمها العزيز. تقلبت الفتاة، لكنها لم تستيقظ. ناداها مرة أخرى، بصوت أعلى. جلست تارا ونظرت حولها، وفي اللحظة نفسها نهض عبد ضخم من الخصيان كان راقدًا على الأرض بالقرب من هذا الجانب من المنصة البعيدة عن جاهان. وفي الوقت نفسه ومض بالكامل ضوء القمر ثوريا الرائع عند النافذة التي يتشبث بها جاهان، مما ألقى بظله واضحًا أمام الاثنين داخل الغرفة.

قفز الاثنان واقفين. سحب العبد الخصي سيفه وقفز نحو النافذة التي يتشبث بها جاهان العاجز، الذي كان يمكن أن يسقط ضحية سهلة لضربة واحدة من السلاح القاتل الذي يحمله العبد، لولا أن تارا الهيليومية هجمت على حارسها وسحبته إلى الخلف. كما سحبت، في الوقت نفسه، خنجرها النحيل من مكان اختبائه في عتادها، وعندما حاول العبد إبعادها، غرزت خنجرها في قلبه. مات دون صوت، واندفع نحو الأرض. ثم ركضت تارا إلى النافذة.

صاحت: «توران، يا قائدي! يا لها من مخاطرة رهيبة تخوضها لتبحث عني هنا، حيث يعجز حتى قلبك الشجاع عن مساعدتي».

أجاب: «لا تتأكدي من ذلك، يا قلب قلبي. حين أحمل الكلمات إلى حبيبتي، تكون بشيراً بالأفعال، التي أتمنى أن تعيدك لي إلى الأبد. لقد خشيت أن تقتلي نفسك، تارا الهيليومية، تجنبًا للخزي الذي سيلحقه بك أوتار، ولذا جئت لأمنحك أملاً جديدًا وأتوسل إليك أن تعيشي من أجلي خلال أي ظروف قد تحدث، مع العلم بأن هناك طريقة الآن، وإذا سارت الأمور جيدًا سوف نتحرر أخيراً. ابحثي عني في قاعة عرش أوتار في

(127) أورلوك: هو وحش شرس يشبه الفيل، يوجد على وجه الحصر تقريبًا في مناطق أقصى شمال المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Orluk - المترجمة.

الليلة التي سيتزوجك فيها. والآن، كيف يمكننا التخلص من هذا الزميل؟»، وأشار إلى العبد الميت على الأرض.

أجابت: «لسنا بحاجة إلى أن نشغل أنفسنا بذلك. لن يجرؤ أحد على إيذائي خوفًا من غضب أوتار، وإلا لكنت مت بمجرد دخولي هذا الجزء من القصر، فالنساء تكرهني. أوتار فقط هو من يمكنه معاقبتي، وهل يهتم أوتار بحياة هذا العبد الخصي؟ كلا، لا تقلق من هذا الموضوع».

كانت أيديهم متشابكة بين القضبان، والآن أخذ جاهان يقربها أكثر منه.

قال: «قُبلة واحدة قبل أن أذهب، يا أميرتي»، وهمست الابنة الفخورة لديجاه ثوريس، أميرة هيليوم، وأمير الحرب في برسوم: «يا قائدي!»، وضغطت شفتيها على شفاه توران، البانتان.

* * *

الفصل (22)

في لحظة الزواج

كان صمت القبر يحيط ثقيلاً بأوتار، جيداك ماناتور، عندما فتح عينيه في غرفة أوماي. اجتاح وعيه ما تذكره من أحداث مخيفة واجهته. أنصت، لكنه لم يسمع أي شيء. لا يوجد أي شيء ظاهر في نطاق رؤيته يمكن أن يسبب إنذارًا بالخطر. رفع رأسه ببطء، ونظر حوله. يوجد على الأرض بجوار الأريكة الشيء الذي لفت انتباهه بداية، وأغلق عينيه مرعوبًا عندما تعرف عليه، لكنه لم يتحرك ولم يتحدث. فتح أوتار عينيه ثانية، ونهض على قدميه. كانت جميع أطرافه ترتجف. لم يكن على المنصة الشيء الذي شاهده يتحرك ويقوم منها.

تراجع أوتار ببطء من الغرفة. وصل أخيرًا إلى الممر الخارجي، ووجده فارغًا. لم يعرف أن الممر سرعان ما أصبح خاليًا ما أن اختلطت الصرخة العالية بصرخته وأفزعت آذان المحاربين المُرسلين للتجسس عليه. نظر إلى الساعة الموجودة في سوار ضخم على ساعده الأيسر. انقضى ما يقرب من نصف الزود التاسع. ظل أوتار فاقدًا للوعي لمدة ساعة. لقد أمضى ساعة في قاعة أوماي ولم يمت! نظر إلى وجه سلفه، ولا يزال عاقلاً! هز نفسه وابتسم. سرعان ما تمكن من السيطرة على أعصابه المهتزة عندما وصل إلى الجزء الذي يقطنه من القصر. كان يمشي مختالاً وذقنه مرتفع. ذهب إلى قاعة المأدبة وهو يعلم أن قادته في انتظاره هناك. وعندما دخل، نهض الجميع وعلى وجوههم الكثير من التشكك والدهشة؛ إذ لم يكن في اعتقادهم أنهم سوف يرون الجيداك أوتار مرة أخرى بعد أن أخبرهم الجواسيس عن الأصوات المروعة التي تصدر من غرفة أوماي. كان أوتار شاكرًا لأنه ذهب وحده إلى غرفة الرعب تلك، فلا يوجد أحد يمكنه أن ينكر الحكاية التي يجب أن يحكيها.

هرع إيثاس نحوه لتحيته، فقد رأى إيثاس نظرات سوداء موجهة نحوه عندما مضى الوقت ولم يعُد.

صاح كبير الخدم: «أيها الجيداك الشجاع المجيد جيداك! سعدنا بعودتك سالمًا وأرجوك أن تحكي لنا قصة مغامرتك».

صاح أوتار: «ليس هناك أي شيء. لقد بحثت في الغرف بعناية واختبأت منتظرًا عودة العبد توران، إذا كان غائبًا بشكل مؤقت، لكنه لم يأتِ. لم يكن هناك، وأشك أنه

ذهب أصلاً إلى هناك. قليلون هم من يختارون البقاء لفترة طويلة في هذا المكان الكئيب».

سأله إيثاس: «ألم تواجه أي هجوم؟ ألم تسمع صرخات أو أنين؟».

«سمعت أصواتًا بشعة، ورأيت هيئات شبحية، لكنهم فروا قبل أن أتمكن من إمساك أي منهم، ونظرت إلى وجه أومواي ولم يصبني الجنون. وقد استرحت حتى في القاعة بجوار جثته».

أخفى رجل منحنٍ ومجعد، في ركن بعيد من الغرفة، ابتسامته خلف كأس ذهبي من الشراب القوي.

صاح أوتار: «هيا! لنشرب!»، ثم مد يده للإمساك بخنجره، الذي اعتاد أن يدق بمقبضه على الجرس لاستدعاء العبيد، لكن الخنجر لم يكن في غمده. شعر أوتار بالحيرة؛ كان يعرف أن الخنجر في مكانه قبل دخوله قاعة أومواي مباشرة، فقد تحسس جميع أسلحته بعناية للتأكد من وجودها كلها. استخدم، بدلاً من الخنجر، أحد أدوات المائدة وضرب الجرس. وعندما جاء العبيد، أمرهم بإحضار أقوى مشروب لأوتار وقادته. قبل طلوع الفجر، كانت عبارات الإعجاب العديدة تنساب من الشفاه المخمورة - إعجاب بشجاعة الجيداك، لكن هناك البعض الآخر الذين لا تزال الكآبة ترتسم على وجوههم.

* * *

جاء أخيراً اليوم الذي سيتخذ فيه أوتار من الأميرة تارا الهيليومية زوجة له. ظلت الجواري لساعات يجهزن العروس الرافضة. استغرقت سبعة

حمامات مُعطرة ثلاث ساعات طويلة مضجرة، ثم دُهِن جسمها كله بزيت زهرة البيماليا ودلكته أصابع بارعة من إماء دوسار البعيدة. ارتدت أغطية جديدة، صُنعت خصيصًا لهذه المناسبة، من جلد القرود البيضاء الكبيرة في برسوم، مرصعة بالكثير من البلاتين والألماس. تجمعت كتلة شعرها السوداء اللامعة في تسريحة فخمة، امتلأت بمشابك من الألماس بحيث تألقت كنجوم السماء في ليلة غير مقمرة.

لكن العروس التي اقتادوها من البرج العالي إلى قاعة عرش أوتار كانت متجهمة ومتحدية. امتلأت الممرات بالعبيد والمحاربين ونساء القصر والمدينة، الذين صدرت إليهم الأوامر لحضور الحفل الذي ضم كل سلطة وفخر وثروة وجمال ماناتور. تحركت تارا ببطء، محاطة بحرس الشرف، على طول الممرات الرخامية المليئة بالناس. استقبلها

إيثاس، رئيس الخدم، عند مدخل قاعة القادة. كانت القاعة فارغة، باستثناء صفوف القادة الأموات فوق ركوباتهم الميتة. رافقها إيثاس على طول هذه الغرفة الطويلة إلى قاعة العرش التي كانت فارغة أيضًا؛ إذ تختلف مراسم الزواج في ماناتور عن بلدان برسوم الأخرى. هنا تنتظر العروس عريسها أسفل السلالم المؤدية إلى العرش. سار خلفها الضيوف واتخذوا أماكنهم، تاركين الممر المركزي من قاعة القادة إلى العرش فارغًا، حيث يقترب أوتار من عروسه بمفرده بعد تواصله الانفرادي القصير مع الموتى خلف أبواب مغلقة في قاعة القادة؛ كما يقضي العُرف.

ملأ الضيوف قاعة القادة، وأُغلقت الأبواب في طرفِي القاعة. والآن، فتح الواقفون - عند النهاية السفلى من القاعة- البابَ ودخل أوتار. كان عتاده الأسود مزخرفًا بالياقوت والذهب، وغطى وجهه بقناع بشع من المعدن الثمين الذي يضم قطعتين هائلتين من الياقوت محل العينين، ويوجد أسفلهما شقان ضيقان يمكن الرؤية من خلالهما. وكان تاجه عبارة عن شبكة للرأس تدعم ريشات منحوتة من نفس معدن القناع. وبأدق التفاصيل، صُنعت شعارات العريس الملكية وفقًا لأعراف ماناتور. والآن، ووفقًا للأعراف نفسها، جاء وحده إلى قاعة القادة للحصول على مباركة مجلس عظماء ماناتور الذين سبقوه.

أُغلقت أبواب النهاية السفلية للقاعة بعد دخوله، ووقف الجيداك أوتار بمفرده مع الموتى العظماء. حسب ما تُمليه العصور، يجب ألا تنظر أي عين بشرية على المشهد داخل هذه القاعة المقدسة. وكما يحترم أقوياء ماناتور تقاليد ماناتور، فلنحترم نحن أيضًا تلك التقاليد لشعب فخور وحساس. لماذا تهمنا الأحداث التي تجري في غرفة الموتى المهيبة تلك؟

مرت خمس دقائق. وقفت العروس صامتة أسفل العرش. يتحدث الضيوف معًا في همسات منخفضة، حتى امتلأت الغرفة بهمهمة أصوات كثيرة. تأرجحت مفتوحة الأبواب المؤدية إلى قاعة القادة، ووقف العريس متألقًا مستعدًّا للافتتاح الضخم. سقط صمت على ضيوف حفل الزفاف. اقترب العريس من عروسه بخطوة مدروسة ومثيرة للإعجاب. شعرت تارا بانقباض عضلات قلبها في ظل تعاظم مخاوفها حول مصيرها دون أن تصلها أي علامة من توران. أين هو؟ ماذا يمكنه أن يفعل الآن لإنقاذ حياتها؟ كانت محاطة برجال أوتار دون وجود صديق بينهم، وبدا موقفها في النهاية دون أمل.

«ما زلت أعيش!»، همست تارا لنفسها في محاولة شجاعة أخيرة لمكافحة اليأس الرهيب الذي يغمرها، لكنها مدت أصابعها خلسة للاطمئنان على النصل النحيل الذي تمكنت من نقله سرًّا من عتادها القديم إلى الجديد. يقف العريس الآن بجانبها وأمسك

يدها ليقودها أعلى السلالم المؤدية للعرش، حيث توقفا ووقفا يواجهان التجمع أدناه. جاء بعد ذلك، من الجزء الخلفي من الغرفة، موكب يرأسه شخص عالي المقام تكمن مهمته في تزويجهما، ويسير خلفه مباشرة شباب يرتدون ملابس أنيقة ويحملون وسادة حريرية فوقها أساور ذهبية متصلة بسلسلة قصيرة من الذهب، بحيث ينتهي الحفل عندما يقوم صاحب المقام الرفيع بشبك الأساور حول معصميهما رمزًا لاتحادهما السرمدي في رابطة الزواج المقدسة.

هل يأتي إنقاذ توران الموعود بعد فوات الأوان؟ استمعت تارا إلى التراتيل الطويلة المملة لطقوس الزفاف. وسمعت الإفراط في فضائل

أوتار وجمال العروس. اللحظة تقترب، ولا توجد حتى الآن أي علامة على توران. ولكن، ماذا يمكنه أن يفعل إذا نجح في الوصول إلى قاعة العرش، غير أن يموت معها؟ قد لا يوجد أي أمل في الإنقاذ.

رفع صاحب المقام الرفيع الأساور الذهبية من الوسادة. باركها، ثم قربها من معصم تارا. لقد حان الوقت! لا يمكن بجميع قوانين برسوم أن يستمر الوضع، حية أو ميتة، وأن تصبح زوجة لأوتار الماناتوري ما أن تُغلق الإسورتين معًا. وحتى إذا أتى الإنقاذ الآن أو لاحقًا، لا يمكنها أبدًا أن تفك تلك الأساور، وسيفقدها توران كأنما فرق الموت بينهما.

امتدت يدها نحو النصل المخفي، لكن يد انطلقت على الفور وأمسكت معصمها. لقد خمّن نيتها. تمكنت من خلال الشقين في القناع البشع أن ترى عينيه تركزان على عينيها، وخمنت الابتسامة الساخرة التي يخفيها القناع. وقف الاثنان هكذا للحظة متوترة. التزم الناس أسفل العرش بصمت لاهث، فالمسرحية التي تجري أمام العرش لم تمر مرور الكرام.

تضاعفت درامية اللحظة فجأة، مع الصخب الذي صاحب فتح الأبواب المؤدية إلى قاعة القادة. تحولت كل الأعين في اتجاه الباب وشاهدوا شخصًا آخر عند البوابة الضخمة - شخصًا لا يرتدي ملابس كاملة، بل يحاول ضبط عتاده على عجل في موضعه - إنه أوتار، جيداك ماناتور.

«توقفوا!»، صرخ وهو يركض إلى الأمام على طول الممر نحو العرش، «اقبضوا على هذا المحتال!».

انطلقت كل الأعين نحو العريس الواقف أمام العرش. شاهدوه يرفع يده وينتزع القناع الذهبي، واتسعت أعين تارا الهيليومية وهي تنظر بتشكك في وجه البانتان توران.

صاح الجميع: «العبد توران. الموت له! الموت له!».

«انتظروا!»، صاح توران وهو يمتشق سيفه، حيث قفز اثنا عشر محاربًا إلى الأمام.

«انتظروا!»، صاح صوت آخر، عجوز ومُجعد، إنه صوت إيجوس، الذي انطلق من بين الضيوف ووصل إلى سلالم العرش قبل المحاربين.

توقف المحاربون عند رؤية الرجل العجوز، ذلك أن شعب برسوم يكن التبجيل لكبار السن، كما هو الحال، ربما، لدى جميع الشعوب التي تستند أديانها بأي قدر إلى عبادة الأسلاف. لكن أوتار لم يعره أي اهتمام، وقفز بسرعة نحو العرش. صاح إيجوس: «توقف يا جبان!».

نظر الناس إلى الرجل العجوز في ذهول، حيث قال بصوته الرفيع الحاد: «يا رجال ماناتور، أتقبلون أن يحكمكم جبان وكاذب؟».

صاح أوتار: «لتسقط معه!».

رد إيجوس: «ليس قبل أن أتحدث، فهذا حقي. إذا فشلت، عقابي هو القتل – هذا ما تعرفونه جميعًا وأعرفه أنا أيضًا. ولذلك، أطلب منكم أن تسمعوني. هذا حقي!».

تعالت أصوات المحاربين من مختلف أنحاء القاعة: «هذا حقه».

واصل إيجوس: «يمكنني إثبات أن أوتار جبان وكاذب. لقد قال إنه واجه بشجاعة أهوال غرفة أوماي ولم ير العبد توران. أنا كنت هناك، مختبئًا وراء الستائر، ورأيت كل ما حدث. كان توران مختبئًا في الغرفة، وحتى كان راقدًا على أريكة أوماي عندما دخل أوتار الغرفة وهو يرتجف من الخوف. ارتبك توران، فنهض متخذًا وضع جلوس، وهو يطلق في الوقت نفسه صرخة حادة. صرخ أوتار وسقط مغشيًّا عليه».

صاح أوتار: «هذه كذبة!».

رد إيجوس: «ليست كذبة، ويمكنني إثبات ذلك. هل تذكرون ليلة عودته من جناح أوماي متفاخرًا بمآثره، وعندما أراد استدعاء العبيد لجلب النبيذ، ومد يده إلى خنجره ليقرع الجرس بمقبضه كعادته دائمًا؟ هل لاحظ أي منكم ذلك؟ وأنه لم يجد خنجره؟ يا أوتار، أين الخنجر الذي حملته معك إلى غرفة أوماي؟ أنت لا تعرف، لكنني أعرف. عندما سقطُ فاقد الوعي من الرعب، أخذت خنجرك من عتادك، وأخفيته بين حرير النوم على أريكة أوماي. والخنجر هناك حتى الآن، ومن يشك في ذلك، يمكنه أن يذهب إلى هناك وسوف يجده، ويعرف أن الجيداك جبان».

سأل أحد الحضور: «ولكن ماذا عن هذا المحتال؟ هل سيقف دون عقاب على عرش ماناتور، بينما نحن نتشاجر حول حاكمنا؟».

أجاب إيجوس: «لقد عرّفتنا شجاعته مدى جُبن أوتار، ومن خلاله سوف نحصل على جيداك أعظم».

«سوف نختار جيداكنا. امسكوا العبد واقتلوه!». تعالت صرخات الموافقة من جميع أنحاء الغرفة. كان جاهان ينصت بانتباه، كأنما لالتقاط صوت يأمل في سماعه. شاهد المحاربين يقتربون من المنصة، حيث يقف ممتشقًا سيفه وذراعه الأخرى تلتف حول تارا الهيليومية. وتساءل عما إذا كانت خططه قد فشلت في النهاية. وهو ما يعني عندئذ موته، كما يعرف أن تارا ستقتل نفسها إذا سقط. هل كانت كل جهوده لخدمتها دون جدوى؟

ألحّ العديد من المحاربين على ضرورة إرسال شخص على الفور إلى غرفة أوماي للبحث عن الخنجر الذي يُثبت، إذا وُجد، جُبن أوتار.

وافق ثلاثة محاربين أخيراً على الذهاب. قال لهم إيجوس مؤكِدًا: «ما من داع للخوف. لا يوجد هناك ما يمكن أن يلحق بكم الأذى. لقد ذهبت كثيراً مؤخرًا، والعبد توران نام هناك ليالٍ عديدة. والصراخ والأنين الذي أخافكم وأخاف أوتار أطلقه توران لإبعادكم عن مكانً اختبائه». غادر الثلاثة القاعة بخجل، وذهبوا للبحث عن خنجر أوتار.

تحول اهتمام الآخرين ثانية إلى جاهان. اقتربوا من العرش ممتشقين سيوفهم، لكنهم كانوا يتحركون ببطء لأنهم شاهدوا هذا العبد في ملعب جيتان ويعلمون براعته في المبارزة. وصلوا إلى أدنى السلم، عندما انطلق من أعلى دوي عميق، وتلاه آخر، ثم آخر، وابتسم توران وتنفس الصعداء. ربما لم يفت الأوان بعد. توقف المحاربون يستمعون، كما فعل الآخرون في الغرفة. اخترق آذانهم الآن دوي عال جاء من أعلى، كأنما يقاتل الرجال على أسطح القصر.

تساءلوا واحدًا بعد الآخر: «ما هذا؟».

قال أحدهم: «اندلعت عاصفة كبيرة عبر ماناتور».

قال أوتار آمرًا: «لا تهتموا بالعاصفة إلى أن تقتلوا المخلوق الذي يجرؤ على الوقوف على عرش جيداككم، اقبضوا عليه!».

وحتى عندما توقف عن الحديث، انفتحت الستائر وراء العرش وخرج منها محارب وصعد على المنصة. انطلقت هتافات الدهشة والحيرة من شفاه محاربي أوتار، صاحوا: «يوثور! ما هذه الخيانة؟».

قال يوثور بصوته العميق: «إنها ليست خيانة. أتيت لكم بجيداك جديد لكل ماناتور. ليس رعديد كاذب، وإنما رجل شجاع تحبونه».

تنحى جانبًا، وظهر شخص آخر من الممر الخفي وراء الستائر. كان أكور، وبرؤيته انطلقت هتافات الدهشة والسعادة والغضب، عندما أدركت الفصائل المختلفة الانقلاب الذي تم ترتيبه بمكر. جاء خلف أكور محاربون آخرون إلى أن ازدحمت بهم المنصة – جميع الرجال من ماناتور، من مدينة ماناتوس.

كان أوتار يحث محاربيه على الهجوم، عندما اقتحم بادوار ملطخ بالدماء وأشعث القاعة من مدخل جانبي. صاح بصوت عال: «لقد سقطت المدينة! تتدفق جحافل ماناتوس عن طريق بوابة الأعداء. وقد هب عبيد جاثول ودمروا حراس القصر. ويهبط محاربون من سفن كبيرة على سطح القصر، وفي ملاعب جيتان. ويسير رجال هيليوم وجاثول عبر أنحاء ماناتور. إنهم يصيحون بصوت عال من أجل أميرة هيليوم، ويقسمون بترك ماناتور محترقة مشتعلة تستهلك جثث جميع أفراد شعبنا. تلونت السماء باللون الأسود من السفن، التي تأتي في مواكب كبيرة من الشرق والجنوب».

تأرجحت أبواب قاعة القادة مفتوحة مرة أخرى، واستدار رجال ماناتور لمشاهدة شخص آخر يقف عند العتبة – رجل قوي، أبيض البشرة، وشعره أسود، وأعينه رمادية تلمع الآن كنقاط من الصلب. امتلأت خلفه قاعة القادة بمقاتلين يرتدون عتاد بلدان بعيدة. قفز قلب تارا الهيليومية فرحًا عندما رأته؛ كان جون كارتر، أمير الحرب في برسوم، على رأس مجموعة منتصرة لإنقاذ ابنته، وإلى جانبه دجور كانتوس خطيبها.

نظر أمير الحرب لحظات إلى المتجمعين قبل أن يتحدث. قال: «ألقوا أسلحتكم، يا رجال ماناتور. أرى ابنتي وإنها حية. وإذا لم يصبها أي ضرر، فلا حاجة إلى إراقة الدماء. تمتلئ مدينتكم بمقاتلي يوثور، ومقاتلين من جاثول ومن هيليوم. والقصر في أيدي العبيد الجاثوليين، إلى جانب ألف من محاربي هيليوم الذين يملؤون القاعات والغرف المحيطة بهذه القاعة. يقع مصير جيداكم بين أيديكم. وليست لدي رغبة في التدخل. لقد جئت فقط لأجل ابنتي وتحرير عبيد جاثول. لقد أنهيت حديثي!». ودون انتظار لرد، ومع امتلاء الغرفة برجاله وليس مجموعة معادية، خطا إلى الممر الرئيس الواسع نحو تارا الهيليومية.

أصاب الذهول قادةماناتور. نظروا إلى أوتار، لكنه لم يستطع إلا أن ينظر عاجزاً حوله، والعدو يدخل قاعة القادة ويحيط بقاعة العرش إلى أن حاصرها تمامًا. وعندئذ دخل دوّار من جيش هيليوم.

وجه كلامه إلى أمير الحرب قائلاً: «ألقينا القبض على ثلاثة قادة، طلبوا السماح لهم بدخول قاعة العرش وتقديم تقرير إلى زملاءهم عن بعض الأمور التي يقولون إنها ستقرر مصير ماناتور».

قال أمير الحرب آمرًا: «أدخلهم».

دخلوا تحت حراسة مشددة وتوقفوا عند السلالم المؤدية إلى العرش، حيث رفع أحدهم يده اليمنى أمام الآخرين من ماناتور وهو يمسك بخنجر مرصع بالجواهر. وقال: «وجدناه، وجدنا الخنجر في الموضع الذي أخبرنا به إيجوس»، ثم نظر بتهديد إلى أوتار.

هتف صوت: «أكور، جيداك ماناتور!»، وردد مائة محارب بصوت أجش الهتاف.

قال القائد الذي يحمل الخنجر: «لا يمكن أن يوجد في ماناتور إلا جيداك واحد»، ثم سار نحو أوتار التعيس وعيناه مثبتتان نحوه، عارضًا الخنجر على كفه الممدودة إلى الحاكم الذي فقد مصداقيته. ردد القائد الهتاف: «لا يمكن أن يوجد في ماناتور إلا جيداك واحد».

أخذ أوتار الخنجر المرفوع، ووقف معتدلاً، وغرسه كاملاً في صدره؛ إذ بهذا العمل الفردي يستعيد نفسه في تقدير قومه ويفوز بمكانة أبدية في قاعة القادة.

مع سقوطه، ساد الصمت في القاعة الكبرى، إلى أن حطمه الآن صوت يوثور. صاح: «مات أوتار! لندع أكور يحكم إلى أن يجتمع قادة ماناتور لاختيار جيداك جديد. ما رأيكم؟».

ملأ القاعة هتاف: «لندع أكور يحكم! أكور، جيداك ماناتور!»، دون أي صوت معارض.

رفع أكور سيفه طلبًا للصمت، وقال: «إنها إرادة أكور، وإرادة جد ماناتوس الأكبر، وقائد أسطول جاثول، والشهير جون كارتر، أمير الحرب في برسوم، أنَ يسود السلام مدينة ماناتور، وبالتالي أطالب رجال ماناتور بالترحيب بالمقاتلين من حلفائنا كضيوف وأصدقاء، وأن تُظهروا لهم عجائب مدينتنا القديمة وضيافة ماناتور. لقد تحدثت». صرف يوثور وجون كارترَ محاربيهم، وأمروهم بقبول ضيافة ماناتور. وعندما أصبحت الغرفة

خالية، اقترب دجور كانتوس من تارا الهيليومية. فسدت سعادة الفتاة بالإنقاذ عندما رأت هذا الرجل الذي أخبرها قلبها الطاهر أنها ظلمته. لقد أفزعتها المحنة التي تقع أمامها والعار الذي يجب أن تعترف به قبل أن تأمل في التحرر من التفاهم الذي كان بينهما لفترة طويلة. اقترب منها الآن دجور كانتوس، وركع أمامها ورفع أصابعها إلى شفتيه.

قال: «ابنة هيليوم الجميلة، كيف أقول لك الشيء الذي يجب أن أخبرك به – عن الخزي الذي فعلته معك عن غير قصد؟ لا يسعني إلا أن أستند على كرمك للصفح عني، لكني مستعد إذا أردتِ أن أتلقى طعنة خنجر بشرف كما فعل أوتار».

سألته تارا: «ماذا تقصد؟ عما تتحدث - لماذا تتحدث هكذا بالألغاز إلى امرأة قلبها يتحطم بالفعل؟».

قلبها يتحطم بالفعل! لم يكن المشهد واعدًا، وتمنى البادوار الشاب أن يموت قبل أن يضطر إلى قول الكلمات التي يجب أن يقولها الآن.

واصل قائلاً: «تارا الهيليومية، لقد اعتقدنا جميعًا أنك مُتِ؛ إذ اختفيت من هيليوم لمدة سنة طويلة. لقد حزنت عليك حقًّا، ثم بعد مرور أقَل مِن دورة قمر تزوجت من أولفيا مارثيس». توقف، ونظر إليها بأعين كأنما تقول: «وجهي لي الآن ضربة تمُيتني!».

صاحت تارا: «أوه، يا لك من رجل أحمق! لا يوجد شيء فعلته يمكن أن يسعدني أكثر من ذلك. دجور كانتوس، يمكنني أن أُقبِّلك!».

قال والابتسامات تكلل وجهه: «لا أعتقد أن أولفيا مارثيس تمانع». خلال حديثهما، دخلت مجموعة من الرجال إلى قاعة العرش واقتربت من المنصة. كانوا طوال القامة ويرتدون عتادًا بسيطًا يخلو تمامًا من الزخارف. وما إن وصل قائدهم إلى المنصة، حتى أشارت تارا إلى جاهان أن ينضم إليهم.

قالت: «دجور كانتوس، أقدم لك توران البانتان، الذي فاز ولاؤه وشجاعته بحبي».

نظر جون كارتر وقائد المحاربين الجدد القادمين، الذين يقفون عن قرب، إلى المجموعة الصغيرة بسرعة. ابتسم جون كارتر ابتسامة غامضة، ووجه قائد المحاربين كلامه إلى أميرة هيليوم، قائلاً: «توران البانتان! ألا تعرفين يا ابنة هيليوم الجميلة أن هذا الرجل الذي تعتبرينه البانتان هو جاهان، جِد جاثول؟».

بدت المفاجأة على تارا الهيليومية لمجرد لحظة، ثم هزت كتفيها الجميلتين، وهي تدير رأسها لتنظر عبر إحداهما نحو جاهان الجاثولي.

وقالت: «جِد أو بانتان، وما الفارق الذي يُحدثه ما كان عليه عبدي؟»؛ وضحكت بخبث في وجه حَبيبها المبتسم.

* * *

وبعد أن أنهى جون كارتر قصته، نهض من المقعد المقابل ووقف بهيئته العملاقة مثل أسد الغابة.

قلت له: «أيجب أن تذهب؟»، فلم أكن أرغب أن يغادر، حيث بدا وكأنه ظل معي لمجرد لحظة.

أجاب: «لقد تحولت السماء بالفعل إلى اللون الأحمر وراء تلالكم الجميلة، وسرعان ما يطلع النهار».

قلت له متوسلاً: «سؤال واحد فقط قبل أن تذهب».

وافق بطبيعته الطيبة: «حسنًا!».

سألته: «كيف تمكن جاهان من دخول قاعة العرش مرتديًا زخارف أوتار؟».

أجاب أمير الحرب: «الأمر بسيط لجاهان الجاثولي. لقد تسلل بمساعدة إيجوس إلى قاعة القادة قبل الحفل، بينما أُخليت قاعة العرش وقاعة القادة لاستقبال العروس. جاء عن طريق الحُفر خلال الممر الذي يقع وراء الستائر خلف العرش. وفي قاعة القادة، اتخذ مكانة فوق ظهر ثوات دون راكب، حيث كان راكبه في غرفة إيجوس لترميمه. وعندما دخل أوتار واقترب من هذا الثوات، هاجمه جاهان وضربه بمؤخرة رمح ثقيل. تصور أنه قتله، وفوجئ عندما ظهر أوتار وندد به».

سألته بإصرار: «وجيك؟ ماذا حدث له؟».

«قاد فال دور وفلوران طائرة تارا بعد أن تمكنا من إصلاحها، ورافقهما جيك إلى جاثول، ومن هناك بعثوا لي برسالة إلى هيليوم. وبعد ذلك قاد مجموعة كبيرة من السطح، تضم أكور ويوثور، حيث هبطت سفننا، أسفل مدرج لولبي إلى القصر وأرشدهم إلى قاعة العرش. أخذناه معنا إلى هيليوم، حيث لا يزال يعيش مع رايكوره الوحيد الذي وجدناه يكاد يموت جوعًا في حُفر ماناتور. ولكن، كفى! لا مزيد من الأسئلة الآن».

رافقته إلى الرواق الشرقي، حيث كان الفجر الأحمر متوهجًا وراء أقواس جدران الغرفة.

قال: «وداعا!».

قلت: «بالكاد ما يمكنني أن أصدق أنك أنت بالفعل. سأتأكد غدًا أنني كنت أحلم بهذا كله».

ضحك، وامتشق سيفه، ثم خدش أسمنت جدران أحد الأقواس راسمًا خطين متقاطعين بفظاظة.

وقال: «إذا تشككت غدًا، تعال وانظر إن كنت قد حلمت بهذا».

وبعد لحظة، كان قد ذهب.

* * *

انتهى الكتاب الخامس:

شطرنج المريخ

العقل المدبر للمريخ

ادجار رايس بوروز

ترجمة شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

الفصل (1)

رسالة

هيليوم[128]، في 8 يونيو 1925

عزيزي السيد بوروز:

تعود بداية تعرفي على جون كارتر، أمير الحرب في برسوم[129]، إلى خريف عام 1917 في معسكر لتدريب الضباط، من خلال صفحات روايتك «أميرة المريخ». لقد تركت القصة عندي انطباعًا عميقًا؛ وعلى الرغم من تأكدي أنها رواية تتمتع بخيال بارع، فقد تسلل إيحاء بصدقها إلى وعيي الداخلي، إلى حد أنني وجدت نفسي أحلُم بالمريخ وجون كارتر[130]، وديجاه ثوريس[131]، وتارس تاركاس[132]، ووولا[133]، كما لو أن وجودهم ينتمي إلى تجربتي وليس من نسج خيالك.

صحيح أن الوقت المتوفر للحلم كان ضئيلاً في تلك الأيام من الاستعدادات الشاقة، فقد كانت تستدعيني لحظات قصيرة قبل النوم ليلاً، وهذه كانت أحلامي. ويا لها من أحلام! تدور دائمًا حول المريخ. وتسعى عيناي دائمًا، خلال ساعات الاستيقاظ في الليل، نحو الكوكب الأحمر عند وجوده فوق الأفق وتتشبث به في محاولة لإيجاد حل للغز المُبهم الذي طرحه المريخ على مدى عصور على سكان كوكب الأرض.

ربما أصبحت المسألة هوسًا. أعرف أنها تملكتني خلال أيامي في معسكر التدريب، وليلاً على سطح سفينة النقل، حيث كنت أستلقي على ظهري لأحدِّق في عين إله الحرب الحمراء -يا إلهي- وأتمنى أن أُسحب عبر الفراغ الهائل، مثل جون كارتر، إلى ملاذ رغبتي.

---

(128) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium - المترجمة.

(129) برسوم: كوكب يسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom - المترجمة.

(130) جون كارتر: من فرجينيا، وهو أول رجل من كوكب الأرض يصل إلى المريخ، وأصبح أحد أعظم أمراء الحرب في تاريخ المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/John_Carter - المترجمة.

(131) ديجاه ثوريس: أميرة مملكة هيليوم، وهي زوجة جون كارتر (القادم من كوكب الأرض - (http://barsoom.wikia.com/wiki/Dejah_Thoris - المترجمة.

(132) تارس تاركاس: قائد جماعة ثارك، من المريخيين الخُضر، وحليف جون كارتر - https://barsoom.fandom.com/wiki/Tars_Tarkas - المترجمة.

(133) وولا: هو اسم الكلب المريخي لدى جون كارتر وعائلته - https://barsoom.fandom.com/wiki/Woola - المترجمة.

ثم توالت أيام وليال بشعة في الخنادق -الفئران، الحشرات، والطين- مع انقطاع رائع للرتابة أحيانًا عندما تًصدر لنا الأوامر للصعود أعلى الخنادق. أحببت ذلك الوقت، وأحببت انفجار القذائف، والفوضى الجامحة المجنونة للمدافع الهادرة... لكن الفئران والحشرات والطين- يا إلهي! كم كرهتهم. يبدو كأنني أتفاخر، أعلم ذلك، وأنا آسف؛ لكني أردت أن أكتب لك مجرد حقيقة نفسي. أعتقد أنك ستفهم. وقد يفسر الكثير مما جرى بعد ذلك.

وحدث لي أخيراً ما كان يحدث للعديدين غيري في تلك الحقول الدموية. حدث في غضون أسبوع حصولي على ترقيتي الأولى وأصبحت نقيبًا «كابتن»، وشعرت بفخر كبير، على الرغم من تواضع ذلك؛ إذ أدركت، كما فعلت في شبابي، حجم المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقي، فضلاً عن الفرص التي منحتها لي، ليس لخدمة بلدي فحسب، وإنما أيضًا بشكل شخصي، للرجال تحت قيادتي. لقد تقدمنا لمسافة تبلغ حوالي كيلومترين، وكنت أحتل مع كتيبة صغيرة موقعًا متقدمًا جدًّا عندما تلقيت أوامر بالعودة إلى الخط الجديد. هذا آخر ما أتذكره، إلى أن استعدتُ وعيي بعد حلول الظلام. من المؤكد أن قذيفة انفجرت بيننا. لم أعرف أبدًا ماذا حل برجالي. كان البرد شديدًا والظلام حالكًا عندما استيقظت، وشعرت للحظة في البداية براحة كبيرة -قبل أن أُفيق تمامًا، كما أتصور- ثم بدأت أشعر بالألم. ألمٌ يتعاظم إلى أن أصبح لا يُطاق. وكان في ساقي. مددت يدي لأتحسس ساقي، لكن يدي ارتدت مما وجدته، وعندما حاولت تحريك ساقي اكتشفت أنني ميت من الخصر إلى أسفل. ثم ظهر القمر من خلف سحابة، ورأيت أنني أرقد داخل حفرة قذيفة، وأنني لست بمفردي - القتلى حولي في كل مكان.

مضى وقت طويل قبل أن أجد الشجاعة النفسية والقوة البدنية لأرتكز على كوع واحد، بحيث يمكنني رؤية الإصابات التي لحقت بي. نظرة واحدة كانت كافية، ثم غرقت ثانية في عذاب الكرب النفسي والبدني- لقد تمزقت ساقاي من منتصف المسافة بين الوركين والركبتين. ولسبب ما لم أكن أنزف بإفراط، لكني عرفت أنني فقدت قدرًا كبيراً من الدماء، وما زلت أفقد تدريجيًّا ما يكفي لوضع نهاية لبؤسي خلال وقت قصير إن لم يجدني زملائي قريبًا. وكنت أصلي، وأنا راقد على ظهري أتعذب من الألم، متمنيًا ألا يأتوا في الوقت المناسب؛ فقد كانت فكرة العيش قعيدًا تخيفني أكثر من فكرة الموت. وفجأة تركزت عيناي على عين المريخ الحمراء الساطعة، وعندئذ تدفقت داخلي موجة مفاجئة من الأمل. مددت ذراعي نحو المريخ، دون أن أتساءل أو أتشكك للحظة خلال صلاتي إلى إله مهنتي أنه سيصل لنجدتي. كنت أعرف أنه سيفعل، وكان إيماني كاملاً. بذلت جهدًا ذهنيًّا هائلاً للتخلص من الأربطة البشعة في لحمي الممزق، بحيث شعرت

بلحظة خاطفة من الغثيان ثم نقرة حادة تشبه تحطم أسلاك الفولاذ، وفجأة وقفت عاريًّا على قدمين غير مصابين وأنا أنظر إلى أسفل، إلى الشيء الدموي المشوه الذي كان ... أنا. وقفت هكذا لمجرد لحظة قبل أن أرفع عيني ثانية إلى نجمة مصيري، وذراعاي ممتدتان هناك في برودة تلك الليلة الفرنسية – انتظارًا.

وفجأة شعرت أنني مسحوب بسرعة التفكير عبر الامتداد الشاسع غير المطروق في الفضاء الواقع بين الكواكب. مررت بلحظة من البرودة القصوى والظلام المطلق، ثم ....

يوجد الباقي في المخطوطة التي تمكنت، بمعونة شخص أكبر من كلينا، أن أعثر على وسيلة لنقلها إليك مع هذه الرسالة. سوف تُصدق أنت وعدد قليل آخر مُختار ما ورد بها – أما بالنسبة للباقين، لا يزال الأمر لا يثير اهتمامهم حتى الآن. سيأتي الوقت – ولكن، لماذا أقول لك ما تعرف بالفعل؟

أبعث لك بتحيتي وتهنئتي؛ تهنئتي على حسن حظك لأنك مُختار كوسيط يمكن خلاله أن يصبح سكان كوكب الأرض أفضل معرفة بعادات وتقاليد برسوم، طوال فترة مرورهم عبر الفضاء بسهولة مثل جون كارتر، وزيارة المشاهد التي وصفتها لهم، مثلما حدث معي.

صديقك المخلص:

أوليسيس باكستون

كابتن راحل– المشاة

الجيش الأمريكي.

***

الفصل (2)

بيت الموتى

من المؤكد أنني أغلقت عيني لا إراديًّا خلال رحلة الانتقال؛ إذ عندما فتحتهما وجدت نفسي راقدًا على ظهري محدقًا في سماء رائعة تُضيئها الشمس، بينما يقف على بُعد عِدة أقدام قليلة شخص غريب المظهر لم تقع عيناي على مثله أبدًا، وينظر نحوي بتعبيرات شديدة الغرابة. كان يبدو رجلاً عجوزاً جدًّا، حيث فاقت تجاعيده وذبوله الوصف. كانت أطرافه هزيلة، وتظهر ضلوعه بوضوح تحت جلده المنكمش، وجمجمته كبيرة ونامية، منحته مع أطرافه الهزيلة وجذعه مظهر الضخامة من أعلى، كأنما يتجاوز رأسه كل تناسب مع جسده، على الرغم من أنهما متناسبين، كما يمكنني أن أؤكد.

عندما أخذ يحدق نحوي خلال نظارته الضخمة متعددة العدسات، انتهزت الفرصة كي أفحصه أنا أيضًا بدقة. ربما يبلغ طوله خمسة أقدام، لكنه كان أطول في شبابه دون شك، إذ كان منحنيًا إلى حد ما؛ وكان عاريًا باستثناء بعض الأغطية الجلدية العادية البالية التي تدعم أسلحته وجيوب حقيبته، ويتزين بقلادة كبيرة مزخرفة، مرصعة بالجواهر، حول عنقه الضامر – قلادة يمكن لأرملة ورثت إمبراطورية خنازير أو عقارات أن تبيع روحها، إن امتلكت روحًا، للحصول عليها. كانت بشرته حمراء، وخصلات شعره الضئيلة رمادية. وخلال نظراته نحوي، زادت تعبيراته المتحيرة، وأمسك بذقنه بين إبهام وأصابع يده اليسرى، ورفع يده اليمنى ببطء ليحك رأسه عمدًا. ثم أخذ يكلمني، وإنما بلغة لم أفهمها.

مع كلماته الأولى، جلست وهززت رأسي. ثم نظرت حولي. وجدتني جالسًا فوق مرجة قرمزية داخل حظيرة ذات أسوار عالية، يتشكل جانبان منها على الأقل، وربما ثلاثة، بالأسوار الخارجية لبناء يماثل في بعض النواحي قلعة إقطاعية في أوروبا أكثر من أي شكل آخر مألوف من أشكال الهندسة المعمارية التي تتبادر إلى ذهني. أما واجهة المبنى أمامي، فقد كانت منحوتة بشكل زخرفي وبتصميم غير نظامي؛ حيث كان خط السقف متكسرًا بما يشير تقريبًا إلى التدمير، إلا أن البنية بمجملها بدت متناغمة ولا تخلو من جمال. ينمو داخل الحظيرة عدد من الأشجار والشجيرات، تبدو كلها غريبة، كما تزدهر جميعها، أو تقريبًا جميعها، بغزارة. وتوجد بينها مسارات من حصى ملون، تتلألأ خلالها جواهر نادرة وجميلة، يا لروعة تلك الأشعة السماوية الغريبة التي تقفز وتلعب في ضوء الشمس.

تكلم العجوز مرة أخرى، وبحزم هذه المرة، كأنما يكرر أمرًا أصدره وقُوبل بالتجاهل. لكنني هززت رأسي ثانية. وعندئذ وضع يده على أحد سيفيه. وما إن سحب سلاحه، قفزت واقفًا على قدمي على نحو مدهش بحيث لا أستطيع إلى الآن أن أحدد من منا كانت مفاجأته أكبر. لا بد أنني أبحرت لعشرة أقدام في الهواء وعُدت على مسافة حوالي عشرين قدمًا من حيث كنت أجلس؛ وتيقنت أنني على سطح المريخ، ليس لأنني تشككت للحظة في ذلك، وإنما بسبب تأثير الجاذبية الأقل، ولون المرجة، ولون بشرة المريخي الأحمر، التي قرأت وصفها في مخطوطات جون كارتر- تلك المساهمات الرائعة التي لم تنَل تقديرًا بعد في مؤلفات العالم العلمية. ما من شك أنني أقف على تربة الكوكب الأحمر، لقد أتيت إلى عالم أحلامي- إلى برسوم.

ذُهل العجوز برشاقتي حتى إنه قفز قليلاً، وإن كان لا إراديًّا دون شك، لكنه حقق بعض النتائج. هوت نظارته من فوق أنفه إلى المرجة، واكتشفت عندئذ أن هذا البائس العجوز المثير للشفقة يصبح أعمى عمليًّا عندما يُحرَم من هذه المُعينات الاصطناعية اللازمة للرؤية؛ إذ ركع على ركبتيه وبدأ يتلمس بشكل محموم نظارته المفقودة، كما لو أن حياته تتوقف على العثور عليها في تلك اللحظة. ربما تصور أنني قد أقتنص فرصة عجزه وأقتله. وعلى الرغم من أن النظارة كانت ضخمة وتبعد عنه ببضعة أقدام، فلم يتمكن من العثور عليها. لكنَّ يديه، المصابتين بذلك العِناد الغريب الذي يربك أحيانًا أبسط أفعالنا، تحسستا كل شيء يقع حول النظارة دون أن تَصلا إليها أبدًا.

وقفت أشاهد جهوده العقيمة، وأفكر في مدى استصواب مساعدته للحصول على الوسيلة التي تتيح لسيفه بسهولة أن يجد قلبي، ثم أدركت

دخول شخص آخر إلى الحظيرة. وجهت بصري إلى المبنى، ورأيت رجلاً ضخمًا أحمر يركض سريعًا نحو الرجل العجوز. كان الوافد الجديد عاريًا تمامًا، ويحمل هراوة في إحدى يديه، ويوجد على وجهه تعبير يُنذر دون شك بالسوء لرؤيته هذا الإنسان العاجز يزحف كالحشرة بحثًا عن نظارته المفقودة.

كان دافعي الأول هو البقاء على الحياد في قضية ربما بدت لا تتعلق بي، وليس لديَّ أدنى معرفة أحدد على أساسها إيثاري لأحد الطرفين؛ لكن نظرة ثانية على وجه حامل الهراوة أثارت سؤالاً بشأن ما إذا كان الأمر لا يتعلق بي. ظهر ذلك في تعبير وجه الرجل، الذي كان يدل إما على همجية متأصلة في سلوكه وإما على حالة هوس عقلي قد يُحول نواياه القاتلة بوضوح نحوي بعد أن يقتل ضحيته العجوز الذي يبدو، من حيث مظهره الخارجي على الأقل، شخصًا عاقلاً وغير مؤذٍ نسبيًّا. صحيح أن حركته لسحب

سيفه ضدي لم تكن تدل على تصرف ودي تجاهي، لكنها على الأقل، إذا كان هناك أي خيار، تبدو أهون الشرّين.

كان لا يزال يتلمس طريقه بحثًا عن نظارته، ويكاد الرجل العاري أن يهجم عليه، عندما توصلت إلى قرار بالوقوف إلى جانب الرجل العجوز. كنت على مسافة عشرين قدمًا، عاريًا وغير مسلح، لكن قطع المسافة بعضلاتي كشخص من كوكب الأرض لم يكن يتطلب سوى لحظة، كما كان سيف العجوز يقع بجواره لأنه تجاهله ليركز بحثه على نظارته. ولذا، واجهت المهاجم في لحظة وصوله إلى مسافة قريبة جدًّا من ضحيته، واستهدفني بالضربة التي كان ينوي توجيهها إلى العجوز. تفاديت الضربة، وأدركت عندئذ أن الرشاقة الهائلة التي تتمتع بها عضلاتي لها عيوبها إلى جانب مزاياها؛ إذ كان يجب أن أتعلم ضرورة الابتعاد في نفس لحظة معرفتي ضرورة تعلُّم القتال بسلاح جديد ضد مهووس مزود بهراوة، أو هذا ما افترضته على الأقل. وأعتقد أنه ليس غريبًا أنني كان يجب أن أفعل ذلك، مع ما يظهر على وجهه من تعبير مخيف وغضب عارم.

ترنحت خلال محاولة تعويد نفسي على الظروف الجديدة، ووجدتني أسعى للإفلات من الموت على يد خصمي بدلًا من مواجهته بجدية، وكثيرًا ما كنت أتعثر وأسقط على المرجة القرمزية؛ حتى إن المبارزة أصبحت منذ بدايتها سلسلة من الجهود: من جانبه للوصول إليَّ وسحقي بهراوته الضخمة، ومن جانبي لمراوغته والتملص منه. كان الوضع مُخزيًا، لكن هذه هي الحقيقة. على أن هذا الوضع لم يستمر إلى أجل غير مسمى؛ إذ سرعان ما تعلمت، وبسرعة أيضًا في ظل مقتضيات الموقف، أن أسيطر على عضلاتي، ووقفت على الأرض. وعندما استهدفني بضربة وتفاديتها، لمسته بسلاحي، وتفجرت دماؤه وهو يهدر بوحشية من الألم. أصبح عندئذ أكثر حذرًا، فاقتنصت فرصة هذا التغيير وضغطت عليه إلى أن سقط. كان التأثير الذي شعرت به سحريًّا، منحني ثقة جديدة، ولذا انقضضت عليه بحماسة شديدة، أطعنه وأمزقه، إلى أن أخذ ينزف من أماكن عديدة، مع حرصي على تجنُّب تقلباته القوية التي يمكن لأي منها أن تقتل ثورًا.

خرجنا من الحظيرة، خلال محاولاتي للتملص منه في بداية المبارزة، وأصبحنا نقاتل الآن على مسافة كبيرة من نقطة لقائنا الأول. وحدث الآن، في نفس لحظة مواجهتي لسلاحه، أن استعاد العجوز نظارته وضبط وضعها بسرعة على عينيه. نظر حوله على الفور إلى أن اكتشفنا، وعندئذ بدأ يصرخ فينا بانفعال ويركض في الوقت نفسه نحونا وهو يمتشق سيفه القصير. كان الرجل الأحمر يضغط عليَّ بشدة، لكنني اكتسبت سيطرة كاملة تقريبًا على نفسي. وخشية أنني سرعان ما أواجه خصمين وليس خصمًا واحدًا، ضاعفت من شدة قتالي ضده. أخطأني بأقل من بوصة، ومست الريح التي ولّدتها هراوته فروة

رأسي، لكنه ترك فتحة خطوت فيها وغرزت سيفي داخل قلبه. تصورت على الأقل أنني اخترقت قلبه، لكنني نسيت ما قرأته سابقًا في إحدى مخطوطات جون كارتر من أن جميع الأعضاء الداخلية للمريخيين لا يجري التخلص منها على نحو مطابق للأعضاء الداخلية لسكان كوكب الأرض. بيد أن النتائج الفورية كانت تبعث على الرضى، فقد وجدت أن جرح قلبه خطير بما يكفي ليكف عن القتال. وفي تلك لحظة وصل السيد العجوز. وجدني مستعدًّا، لكنني أخطأت في معرفة نواياه. لم يُبْدِ بسلاحه أي إيماءات غير ودية، لكنه بدا محاولاً إقناعي بأن لا نية لديه لإيذائي.

كان منفعلاً ويبدو شديد الضيق لأني غير قادر على فهمه، كما كان متحيراً أيضًا. أخذ يقفز وهو يصرخ في وجهي بعبارات غريبة تحمل نبرة الأوامر الحاسمة، والذم المسعور، والغضب العاجز. لكن دلالة إعادته لسيفه إلى غمده كانت أكبر من كل ثرثراته. وعندما توقف عن الصراخ في وجهي وبدأ الحديث بنوع من البانتوميم، أدركت أنه يعرض مبادرات سلام وإن لم تكن صداقة، ولذا أنزلت سيفي وانحنيت. وكان كل ما يمكنني التفكير فيه أن أؤكد له عدم نيتي في معاداته.

كان يبدو راضيًا، وحوّل اهتمامه على الفور نحو الرجل الذي سقط. فحص نبضه واستمع إلى قلبه، ثم أومأ برأسه وأخرج صفارة من أحد جيوب حقيبته وأطلق دويًّا واحدًا. وعلى الفور، برز من أحد المباني المحيطة عشرات من الرجال الحُمر العارين، جاءوا يركضون نحونا. لم يكن أي منهم مسلحًا. أصدر لهم عدة أوامر مقتضبة، حملوا بموجبها بين أذرعهم الرجل الذي سقط. ثم بدأ العجوز يتحرك نحو المبنى، وهو يومئ لي أن أرافقه. ولم يكن أمامي أي شيء يمكنني القيام به سوى طاعته. ففي أي مكان على المريخ، تعادل فرص وجودي بين أعداء مليون إلى واحد؛ ولذا فإنني هنا، أو في موقع آخر، يجب أن أعتمد على سعة حيلتي ومهارتي وخفة حركتي لشق طريقي على سطح الكوكب الأحمر.

قادني العجوز إلى غرفة صغيرة تنفتح منها أبواب عديدة، حمل رجاله خصمي الراحل خلال أحدها. واصلنا طريقنا إلى غرفة كبيرة مُضاءة ببراعة، حيث برز أمام بصري المذهول أبشع مشهد رأيته في حياتي. اكتظت الغرفة بصفوف عديدة من الطاولات مُرتبة في خطوط متوازية، يوجد فوق كل منها -مع استثناءات قليلة- حمولة مريعة مماثلة، جثة بشرية مقطعة الأوصال جزئيًّا أو مشوهة. ويوجد أعلى كل طاولة رف يضم حاويات من مختلف الأحجام والأشكال، بينما تتدلى من أسفل الرف أدوات جراحية عديدة، بما يوحي أنني دخلت برسوم من بوابة كلية طب عملاقة.

وبكلمة من الرجل العجوز، وضع الرجال البرسومي الذي أصبته فوق طاولة فارغة ثم غادروا الشقة. وعندئذ أشار لي مضيفي -إذا أمكنني تسميته هكذا، فمن المؤكد أنه لم يكن آسري- أن أخطو قُدُمًا. وخلال حديثه بنبرة عادية، أجرى شقين في جسم خصمي الراحل؛ أحدهما، كما أتصور، في وريد كبير والثاني في شريان أرفق فيه بمهارة نهاية أنبوبين، يرتبط إحداهما بوعاء زجاجي فارغ ويرتبط الثاني بوعاء مماثل مملوء بسائل شفاف عديم اللون يشبه المياه النقية. وبعد أن أنهى تلك الوصلات، ضغط السيد العجوز على زر يتحكم في موتور صغير، وعندئذ بدأت عملية ضخ دم الضحية إلى الجرة الفارغة، بينما أُجبِرت محتويات الجرة الثانية على الدخول إلى الأوردة والشرايين التي يجري تفريغها.

أقنعتني نبرات وإيماءات العجوز، وهو يحدثني خلال هذه العملية، أنه يشرح بالتفصيل أسلوب وغرض ما يحدث. لكنني لم أفهم أي كلمة مما قاله، وعندما أكمل محاضرته كنت في نفس الظلام الذي شعرت به قبل أن يبدأها، على الرغم من أن ما رأيته جعلني أعتقد بشكل معقول أنني رأيت عملية تحنيط برسومية عادية. وبعد أن أزال العجوز الأنابيب، أغلق الفتحات التي أجراها بأن غطاها بقطع من شريط لاصق ثقيل، ثم أشار أن أتبعه. سرنا من غرفة إلى غرفة، تضم كل منها نفس المعروضات البشعة. توقف العجوز عند العديد من الأجسام ليجري فحصًا موجزًا أو يشير إلى ما يبدو سجل الحالة، الذي كان مُعلقًا على خطاف عند قمة كل طاولة.

من آخر غرفة زرناها في الطابق الأول، قادني مضيفي أعلى مدرج مائل إلى الطابق الثاني حيث توجد غرف مماثلة لتلك الغرف أدناه، لكن الطاولات هنا تحمل الجثث كاملة وليس المشوهة، وجميعها مُرقعة في أماكن مختلفة بشريط لاصق. وخلال سيرنا بين الجثث في إحدى هذه الغرف، دخلت فتاة برسومية، اعتبرتها خادمة أو عبدة، وتحدثت مع العجوز، وعندئذ أشار لي أن أتبعه، نزلنا معًا عبر مدرج آخر إلى الطابق الأول من مبنى آخر.

وهنا، في جناح كبير رائع الزينة ويضم أثاثًا فاخرًا، كانت تنتظرنا امرأة حمراء عجوز؛ تبدو كبيرة السن جدًّا ووجهها مشوه ببعض الإصابات. كانت أغطيتها المزخرفة رائعة، ويحيط بها عشرات من النساء والمحاربين المسلحين، مما يوحي أنها ذات حيثية. على أن العجوز عاملها بفظاظة، كما أدركت من الرعب الذي أصاب مرافقيها.

استمرت محادثتهما طويلاً وفي نهايتها، وبناء على توجيه من المرأة، تقدم أحد مرافقيها الذكور وفتح جيب حقيبة بجانبه وأخرج حفنة بدت عملات معدنية مريخية، ثم أحصى عددًا منها وسلّمها إلى الرجل العجوز، الذي أومأ بدوره إلى المرأة لتتبعه،

وشملتني إيماءته أيضًا. بدأ العديد من مرافقيها النساء والحرس بمصاحبتنا، لكن العجوز أشار لهم آمرًا بالتراجع؛ وهنا انطلقت مناقشة ساخنة بين المرأة وأحد محاربيها من جانب والرجل العجوز من جانب آخر، وانتهت بأن عرض باشمئزاز إعادة المال إلى المرأة. ويبدو أن عرضه حسم الجدال؛ لأنها رفضت القطع النقدية، وتحدثت بإيجاز مع مرافقيها، ثم توجهت وحدها بصحبة العجوز وأنا معهما.

قاد العجوز الطريق إلى الطابق الثاني، ثم إلى غرفة لم أدخلها من قبل. كانت تشبه الغرف الأخرى إلى حد كبير، ما عدا أن جميع الجثث كانت لنساء شابات، تتمتع كثيرات منهن بجمال رائع. سارت المرأة عن كثب في أعقاب العجوز، وأخذت تتفقد المعرض البشع بعناية فائقة. مرت ببطء ثلاث مرات بين الطاولات متفحصة الحمولات المروعة. وقفت في كل مرة لفترة أطول أمام طاولة معينة تحمل جسم أجمل مخلوقة رأيتها من قبل، ثم عادت في المرة الرابعة إلى هذه الطاولة ووقفت تمعن النظر طويلاً في الوجه الميت. وقفت هناك للحظات تتحدث مع الرجل العجوز، ويبدو أنها وجهت له عددًا لا حصر له من الأسئلة، التي أجاب عليها بردود سريعة فظة، ثم أشارت بإيماءة إلى الجسم، مع إبداء موافقتها إلى الحارس العجوز لهذا المعرض المروع.

وعلى الفور أطلق العجوز صفارته لاستدعاء عدد من الخدم وأصدر لهم تعليمات موجزة، ثم قادنا إلى غرفة أخرى أصغر تضم واحد عددًا من الطاولات الفارغة المشابهة لتلك الطاولات التي وُضعت فوقها الجثث في الغرف المجاورة. توجد في هذه الغرفة أَمَتَان أو مرافقتان، وبكلمة من سيدهما أزالا أغطية المرأة العجوز، وأسدلا شعرها وساعداها على الصعود فوق إحدى الطاولات. وهنا، رشّت الفتاتان عليها ما يُفترَض أنه محلول مُطهر من نوع ما، ثم جففاها بعناية ونقلاها إلى طاولة أخرى تقع على مسافة عشرين بوصة تقريبًا من طاولة أخرى موازية.

تأرجح باب الغرفة مفتوحًا الآن وظهرت مرافقتان تحملان جثة الفتاة الجميلة التي رأيناها في الغرفة المجاورة. وضعت الفتاتان الجثة فوق الطاولة التي تركتها المرأة العجوز. رشت الفتاتان الجثة بالمحلول، مثلما سبق أن فعلتا مع المرأة العجوز، ثم نقلتاها إلى طاولة مجاورة لتلك التي ترقد عليها المرأة العجوز. أجرى الرجل العجوز الآن شقين في جسم المرأة العجوز، تمامًا كما فعل سابقًا في جسم الرجل الأحمر الذي قتلته بسيفي. وبدأت عملية سحب دمها من أوردتها، وضخ السائل النقي فيهم. غادرتها

الحياة، وهي ترقد جثة هامدة فوق اللوح المصقول من حجر الإرسايت[134] الذي يُشكل سطح الطاولة، مثلها مثل جثة المخلوقة الجميلة الميتة بجانبها.

أما الرجل العجوز، الذي أزال عتاده حتى خصره ونال قدرًا كاملاً من الرش، فقد اختار سكينًا حادًّا من بين الأدوات المُعلقة أعلى الطاولة وأزال فروة رأس المرأة العجوز وراء الخط الذي يحدد منبت الشعر كاملاً حول رأسها. وبطريقة مماثلة، أزال فروة الرأس من جثة المرأة الشابة، ثم استعان بمنشار دائري دقيق متصل بنهاية رمح مرن دوّار لنشر الجمجمتين وفقًا للخط الذي ظهر بعد إزالة فروة الرأس. وقد أدى هذه العملية الرائعة وباقي العمليات بمهارة يصعب وصفها. ويكفي القول إنه بعد نهاية أربع ساعات كان قد نقل مخ كل امرأة منهما إلى جمجمة الأخرى، وربط بمهارة الأعصاب والعُقد العصبية المقطوعة، واستبدل الجمجمتين وفروة الرأسين، وربط الرأسين بشكل جيد بواسطة شريطه اللاصق الغريب الذي لم يكن مُطهِّرًا وشافيًا فحسب وإنما أيضًا مُخدِّرًا محليًّا.

أعاد الآن تسخين الدم الذي سحبه من جسم المرأة العجوز وأضاف بضع قطرات من محلول كيميائي نقي، ثم سحب السائل من عروق الجثة جميلة، وأدخل مكانه دماء المرأة العجوز، مع حقنها في الوقت نفسه تحت الجلد.

لم ينطق بكلمة خلال العملية برمتها. والآن أصدر بضع تعليمات بطريقته المقتضبة إلى مساعديه، ثم أشار لي بمتابعته، وغادر الغرفة. قادني إلى جزء بعيد من مبنى أو سلسلة من المباني تُشكله، ثم إلى جناح فاخر، وفتح باب حمام برسومي وتركني في أيدي خدم مُدربين. غادرت الحمام بعد ساعة من الاسترخاء وأنا أشعر بالانتعاش والراحة، لأجد عتادًا وأغطية تنتظرني في الغرفة المجاورة. وعلى الرغم من بساطتها، فقد كانت مصنوعة من مواد جيدة، وإن لم تكن تضم أي أسلحة.

كنت أفكر كثيرًا بطبيعة الحال في الأشياء الغريبة التي شاهدتها منذ وصولي إلى المريخ، على أن أكثر ما حيرني كان تصرف المرأة العجوز الذي يتعذر تفسيره: أن تدفع لمضيفي ما بدا مبلغًا كبيرًا لقتلها ونقل مخ إحدى الجثث إلى جمجمتها. هل هذه إحدى تبعات تعصب ديني رهيب، أم هناك تفسير آخر لا يستطيع عقلي كإنسان قادم من كوكب الأرض أن يستوعبه؟

لم أكن قد توصلت إلى أي قرار في هذه المسألة، عندما تم استدعائي لأتبع عبدًا إلى جناح آخر قريب، حيث وجدت مضيفي ينتظرني أمام طاولة مُحملة بأطعمة شهية؛

(134) حجر الإرسايت: نوع من الحجر، جميل وملون، شائع في المريخ، ويستخدم في المباني والأثاث - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ersite - المترجمة.

وغني عن القول أنني كنت أحتاجها بشدة بعد صيامي الطويل، والأسابيع الأطول التي أكلت خلالها طعامًا قاسيًا في الجيش.

حاول مضيفي التحدث معي خلال الوجبة، لكن الجهد أسفر، بطبيعة الحال، عن نتائج عقيمة. كان يبدو شديد التحمس أحيانًا، ووضع يده على أحد سيوفه، ثلاث مرات مختلفة، عندما أخفقت في فهم ما يقوله لي، مما زاد من اقتناعي أنه مخبول جزئيًّا؛ لكنه برهن على قدر كافٍ من ضبط النفس في كل مرة تجنبًا لحدوث كارثة لأحدنا.

جلس بعد الوجبة لفترة طويلة في حالة تأمل عميق، ثم تملكه قرارٌ مفاجئٌ. استدار ناحيتي فجأة بابتسامة باهتة، ثم بدأ دون تردد في دورة مكثفة لتعليم اللغة البرسومية. مضى وقت طويل بعد حلول الظلام قبل أن يسمح لي أن أستريح ليلاً. قادني بنفسه إلى جناح كبير، يماثل ذلك الجناح الذي وجدت فيه عتادي الجديد، حيث أشار إلى كومة ثرية من حرير وفراء النوم، وتمنى لي ليلة برسومية طيبة، ثم غادر وقفل الباب خلفه، وتركني لتخمين ما إذا كنت ضيفًا أو سجينًا.

***

الفصل (3)

الحظوة

مرت سريعًا ثلاثة أسابيع. أتقنت ما يكفي من لغة برسوم لأتمكن من التحدث مع مضيفي بطريقة مُرضية على نحو معقول، كما كنت أتقدم ببطء أيضًا في إتقان لغة الكتابة في بلده، التي تختلف، بطبيعة الحال، عن لغة الكتابة في جميع أمم برسوم الأخرى، على الرغم من تتطابق اللغة المنطوقة. تعرفت خلال هذه الأسابيع الثلاثة على الكثير في هذا المكان الغريب الذي كنت فيه نصف ضيف ونصف سجين، وتعرفت على مضيفي-سجاني الرائع، راس ثافاس، الجراح العجوز في تونول[135] ، الذي كنت أرافقه باستمرار تقريبًا يومًا بعد يوم، إلى أن تكشّف تدريجيًّا أمام مَلَكاتي المذهولة فهمٌ لأغراض المنشأة التي يحكمها ويعمل فيها بمفرده عمليًّا؛ فالعبيد والمرافقون الذين يخدمونه ليسوا سوى حطابي أخشاب أو ناقلي مياه. كان عقله ومهارته فقط هما ما يوجهان أنشطة عمل حياته، التي كانت مفيدة أحيانًا وشريرة أحيانًا أخرى، لكنها دومًا رائعة.

كان راس ثافاس نفسه رائعًا مثل ما كان ينجزه. لم يكن قاسيًا عن عمد؛ ولم يكن شريرًا عن عمد، أنا واثق من ذلك. كان مذنبًا بممارسة أشد قسوة شيطانية وأحط الجرائم؛ إلا أنه في اللحظة التالية قد يُنفذ عملاً إذا كرره على كوكب الأرض يمكن أن يرفعه إلى أعلى ذروة تقدير لرجل. وعلى الرغم من معرفتي أنني أقول مطمئنًا إنه لم يقم أبدًا بأي عمل قاسٍ أو إجرامي بدوافع خسيسة، فلم يقم أبدًا أيضًا بأي عمل إنساني بدوافع سامية. ليس لديه سوى عقل علمي بحت، يخلو تمامًا من أي تأثير للمشاعر، التي لا يملكها. كان يتمتع بعقل عملي، كما تدل على ذلك الرسوم الهائلة التي يطلبها نظير خدماته المهنية. بيد أنني أعلم أنه لا يعمل من أجل المال فقط، وقد رأيته يخصص أيامًا لدراسة مشكلة علمية ربما لا يضيف حلها شيئًا إلى ثروته، بينما تكتظ غرفة الانتظار في مسكنه بالزبائن الأثرياء الذين ينتظرون صب الأموال في خزينته.

استندت تمامًا معاملته لي على متطلبات علمية. كنت مشكلة بالنسبة له: إما أنني لست برسوميًّا على الإطلاق، وهذا واضح تمامًا، أو أنني أنتمي لنوع لا يعرفه. وبالتالي كان الحفاظ عليَّ ودراستي هو أفضل ما يناسب أغراض العلم. كنت أعرف الكثير عن كوكبي، وهو ما أسعد راس ثافاس وعقله العلمي كي يستخرج مني كل ما أعرفه على أمل

---

(135) تونول: مملكة مريخية نائية محاطة بالمستنقعات، ودائمًا في حالة حرب مع مملكة فوندال المجاورة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Toonol - المترجمة.

أن يتمكن من استخلاص بعض الاقتراحات التي من شأنها حل أحد الألغاز العلمية التي لا تزال تُحير العلماء في برسوم؛ إلا أنه اضطر إلى الاعتراف بأنني لم أكن مفيدًا على الإطلاق في هذا الصدد، ليس فحسب لجهلي الشديد عمليًّا بجميع المواضيع العلمية، وإنما لأن العلوم على كوكب الأرض لم تصل حتى إلى مرحلة الأقمشة الملفوفة مقارنة بالتقدم الملحوظ في الأنشطة المناظرة على المريخ. بيد أنه احتفظ بي معه، ودربني على الكثير من المهام البسيطة في مختبرة الهائل. عرّفني على صيغة «سائل التحنيط» وعلمني كيفية سحب الدماء من شخص وإحلال مادة حافظة رائعة محله لمنع التحلُّل دون تغيير في أدق تفاصيل بنية أعصاب الجسم أو أنسجته. تعلمت أيضًا سر تلك القطرات القليلة من المحلول الذي عند إضافته إلى الدم، المُعاد تدفئته قبل إرجاعه إلى عروق الشخص، ينشط هذا الشخص ويستعيد كل جهاز في جسمه نشاطه الطبيعي والصحي.

أخبرني ذات مرة لماذا سمح لي بمعرفة هذه الأشياء التي يحتفظ بها سرًّا عن جميع الآخرين، ولماذا كان يُفضل بقائي معه في جميع الأوقات، ليلاً ونهارًا، أكثر من أي من الأفراد العديدين من عِرقه الذين يخدمونه رغم أن قدراتي أقل.

قال: «فاد فارو»، مستخدمًا الاسم البرسومي الذي منحه لي لأنه أصر على أن اسمي كان بلا معنى وغير عملي، «منذ سنوات عديدة كنت أحتاج إلى مساعد، ولم أشعر حتى الآن أنني وجدت الشخص الذي قد يعمل لديَّ هنا بإخلاص ونزاهة دون أن يوجد لديه سبب للذهاب إلى مكان آخر أو إفشاء أسراري للآخرين. أنت فريد من نوعك في برسوم كلها؛ ليس لديك أي صديق أو معارف غيري. وإذا تركتني ستجد نفسك في عالم من الأعداء؛ لأن الجميع يتشككون في أي شخص غريب. لن تتمكن من النجاة لاثني عشر فجرًا، وستشعر بالبرد والجوع والبؤس: منبوذ بائس في عالم عدائي. أنت تتمتع هنا بكل الرفاهية التي يمكن أن يبتكرها عقل إنسان أو تنتجها يده، كما أنك تنشغل بعمل يستغرق الاهتمام بحيث تُثمر كل ساعة تقضيها عن ارتياح لا مثيل له. لذا لا يوجد أي سبب أناني لأن تتركني، بل توجد أسباب وجيهة لأن تبقى. ولا أتوقع أي ولاء غير ما تستحثه الأنانية. أنت مساعد مثالي، ليس فقط للأسباب التي طرحتها عليك، وإنما أيضًا لأنك ذكي وسريع البديهة. وقد قررت الآن، بعد أن راقبتك بعناية لفترة كافية، أنك يمكن أن تعمل معي بصفة أخرى: حارسي الشخصي.

«ربما لاحظت أنني الوحيد المُسلح بين جميع من يرتبطون بمختبري. وهذا أمر غير مألوف في برسوم، حيث يتحرك الناس من جميع الطبقات وجميع الأعمار ومن الجنسين وهم مسلحون عادة. لكنني لا أستطيع الوثوق في العديدين منهم إذا كانوا مسلحين، لأنهم قد يذبحونني؛ ومن يدري، إذا أعطيت أسلحة لمن يمكنني الوثوق بهم،

فقد يستولي الآخرون عليها ويذبحونني، أو قد ينقلب ضدي حتى من وثقت فيهم، فلا يوجد أحد لا يرغب في مغادرة هذا المكان والعودة مرة أخرى إلى شعبه إلا أنت، أنت يا فاد فارو، فليس لديك مكان آخر تذهب إليه. لذا، قررت أن أُعطيك أسلحة.

«لقد أنقذت حياتي مرة. وقد تظهر ثانية فرصة مماثلة. أعرف أنك مخلوق منطقي وعقلاني، ولذا لن تُقدِم على قتلي، وليس لديك ما تجنيه من وراء ذلك، بل ستخسر كل شيء بموتي؛ لأنك ستصبح دون أصدقاء ودون حماية في عالم من الغرباء، حيث الاغتيال هو نظام المجتمع، وحيث تُعد الوفاة الطبيعية إحدى أندر الظواهر. ها هي أسلحتك». خطا نحو خزنة وفتحها، واستعرض تشكيلة من الأسلحة، ثم اختار لي سيفًا طويلاً، وسيفًا قصيراً، فضلاً عن مسدس وخنجر.

قلت: «يبدو أنك تثق في ولائي، راس ثافاس».

هز كتفيه، وقال: «أنا أثق فقط في أنني أعرف تمامًا أين تكمن مصالحك -كلمات الرومانسيين هي: الحب، والولاء، والصداقة، والعداوة، والغيرة، والكراهية، ... وآلاف الكلمات الأخرى؛ مضيعة للكلمات - هناك كلمة واحدة تحددهم جميعًا: المصلحة الذاتية. يدرك جميع الأذكياء ذلك. يحلل الأذكياء الفرد ويصنفونه، بناء على ميوله واحتياجاته، كصديق أو عدو؛ تاركين للحمقى ضعاف العقول، الذين يرغبون في أن يُخدعوا، هراء تأجج المشاعر».

ابتسمت وأنا أضع أسلحتي في عتادي، لكني بقيت صامتًا. لا يمكن الفوز بأي شيء بالجدال مع الرجل، كما كنت على يقين أيضًا بأنني لن أحصل إلا على الأسوأ في أي جدال أكاديمي صِرف؛ لكن العديد من الأمور التي يقولها تثير فضولي، وأيقظت أحدها في ذهني مسألةَ كنت أفكر فيها كثيراً. ففي حين فسرتها لي جزئيًّا بعض ملاحظاته، ما زلت أتساءل لماذا الرجل الأحمر الذي أنقذت العجوز منه كان يبدو عازمًا بشدة على قتله يوم وصولي برسوم. وبالتالي، سألته عندما جلسنا ندردش بعد وجبة المساء.

فقال: «رومانسي. إنه رومانسي من النوع الأكثر وضوحًا. أما سبب كراهيته لي بهذا الغِل، فلا يصدقه على الإطلاق أي رد فعل لعقل مُدرّب وتحليلي مثل عقلي؛ لكنني بعد مشاهدتي لرد فعله أدركت حالته الذهنية التي لا أستطيع أنا نفسي تخيلها. ضع الحقائق في حسبانك. لقد كان ضحية للاغتيال - محارب شاب في مقتبل العمر، يتمتع بوجه وسيم ولياقة بدنية رائعة. دفع أحد زبائني لأقاربه مبلغًا سخيًّا للحصول على جثته وجلبها لي. وعلى هذا النحو، يمكنني الحصول على جميع المواد التي أحتاجها تقريبًا. تعاملت مع الجثة بالطريقة التي تعرفها. يرقد الجسم في المختبر لمدة سنة، ولا تأتي أي مناسبة

خلال تلك الفترة لاستخدامها؛ ولكن في نهاية المطاف، يأتي زبون ثري، رجل ليس جذابًا بإفراط وكبير السن. وقع في حب يائس مع امرأة شابة طلب يدها خُطاب كثر يتمتعون بالوسامة. يمتلك موكلي أموالاً أكثر من أي منهم، وعقلاً أكبر وخبرة أكثر، لكنه يفتقر إلى الشيء الوحيد الذي يمتلكه كل منهم، الشيء الذي تهتم به دائمًا العقول غير المتطورة وغير المتعقلة، المُحملة بالمشاعر، عقول الإناث الشابات – وهذا الشيء هو الوسامة.

«يمتلك الآن '378-ج-493811-ب' ما كان موكلي يفتقر إليه وقادرًا على تكلفة شرائه. سرعان ما توصلنا إلى اتفاق بشأن السعر، ونقلت مخ موكلي الثري إلى رأس '378-ج-493811-ب' وغادر موكلي، وكل ما أعرفه أنه فاز بيد البلهاء الجميلة؛ وكان يمكن أن يظل '378-ج-493811-ب' مستلقيًا إلى أجل غير مسمى على اللوح الإرسايتي إلى أن أحتاج إليه أو إلى جزء منه في عملي، لو لم أكن قد اخترت، بمحض الصدفة، إيقاظه بسبب احتياج عبد آخر.

«أود تذكيرك الآن أن الرجل كان قد قُتِل. كان ميتًا. اشتريت الجثة وكل ما كان بها. كان يمكن أن يظل ميتًا مستلقيًا إلى الأبد فوق أحد ألواح الإرسايتية لو لم أنفث حياة جديدة في عروقه الميتة. هل امتلك العقل الذي يتيح رؤية الصفقة بطريقة حكيمة ونزيهة؟ كلا، لم يكن لديه. لقد أدت ردود أفعاله العاطفية إلى لومي لأني أعطيته جسمًا آخر. وقد بدا لي، إذا تطلب الأمر النظر إلى هذه المسألة من وجهة نظر المشاعر، أنه كان يجب أن يعتبرني فاعل خير؛ لأني منحته الحياة مرة أخرى وفي جسد صحي تمامًا، وإن كان مُستعملاً نوعًا ما.

«لقد تحدث معي حول هذا الموضوع عدة مرات، متوسلاً أن يستعيد جسده. وهو شيء غير وارد على الإطلاق بالطبع، كما شرحت له، إلا إذا حدثت مصادفة جلبت إلى مختبري جسم الزبون الذي اشترى جثته – وهو احتمال بعيد تمامًا بالنسبة لشخص ثري مثل زبوني. اقترح الزميل أن أسمح له باغتيال زبوني وإحضار جثته بحيث تستعيد رأسه جسمها مرة أخرى بعملية عكسية. تجهم عندما رفضت الإفصاح عن اسم المالك الحالي لجسمه. لكني، وحتى ساعة وصولك عندما هاجمني، لم أتصور مدى تعقيد عمق كراهيته.

«المشاعر، في الواقع، عقبة أمام كل تقدم. ونحن سكان تونول ربما أقل تعرضًا لتقلباتها من معظم الأمم الأخرى في برسوم، على أن معظم أبناء بلدي لا يزالون من ضحاياها بدرجات متفاوتة. مع ذلك، لها مكافآت وتعويضات. فلا يمكننا من دونها

الحفاظ على شكل مستقر للحكم، ومن دونها يمكن لسكان فوندال[136] أو غيرهم اجتياحنا وقهرنا؛ وإنما يتمتع قدر كاف من الطبقات الدنيا لدينا بمشاعر تكفي لمنح الولاء إلى جيداك[137] تونول، وتتمتع الطبقات العليا بذكاء يكفي لمعرفة أن من مصلحتهم بقاءه على العرش.

«والفونداليون، من ناحية أخرى، عاطفيون بفظاعة، تملؤهم الحماقات والخرافات، وهم عبيد لجميع أنواع العقل المغرور الذابل. إن تركهم المرأة السليطة ظاظا على العرش هو سمة على حماقتهم الغبية. إنها امرأة جاهلة، متعجرفة، أنانية، غبية، قاسية؛ لكنَّ الفونداليين يقاتلون ويموتون من أجلها لأن والدها كان جيداك فوندال. وهي تفرض عليهم ضرائب يترنحون تحت أعبائها، وتحكمهم بشكل سيئ، وتستغلهم، وتخونهم، لكنهم يركعون أمام قدميها ويعبدونها. لماذا؟ لأن والدها كان جيداك فوندال، ووالده من قبله... وهلمّ جرا إلى العصور القديمة؛ ذلك أن المشاعر وليس العقل هي ما تحكمهم؛ لأن حكامهم الأشرار استغلوا هذه المشاعر.

«ليس لديها أي شيء يوحي بأنها شخص عاقل – ولا حتى الجمال. أنت تعرف، فقد رأيتها».

سألته: «أنا رأيتها؟»

أجاب: «أنت ساعدتني يوم أن أعطينا رأسها القديم جسمًا جديدًا - يوم وصولك من ما تسميه كوكب الأرض».

قلت: «كانت هي! تلك المرأة العجوز كانت جيدارة[138] فوندال؟».

قال مؤكِّدًا: «نعم، كانت ظاظا».

قلت: «لكنك لم تعاملها بالشكل الذي يفترض أي شخص من كوكب الأرض أن يُعامل به أي حاكم، ولذا تصورت أنها ليست سوى امرأة عجوز ثرية».

---

(136) فوندال: مملكة صغيرة لا تضم سوى مدينة رئيسة وعدد قليل من الجزر في مستنقعات تونول، التي تُعد أقرب مملكة مجاورة لها - https://barsoom.fandom.com/wiki/Phundahl - المترجمة.

(137) جيداك: ما يعادل الإمبراطور

http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak – المترجمة.

(138) جيدارة: الملكة أو الإمبراطور - وهو الاسم المريخي المؤنث لجيداك (الملك أو الإمبراطور - (https://barsoom.fandom.com/wiki/Jeddak - المترجمة.

قال العجوز: «أنا راس ثافاس. لماذا أحني رأسي إلى أي شخص آخر؟ في عالمي، لا شيء يهم إلا المخ. وفي هذا الصدد، ودون غرور، يمكنني القول إنني لا أعترف بوجود من يفوقني».

قلت مبتسمًا: «أنت إذَنْ لست بلا مشاعر؛ فأنت تقر أنك تفتخر بعقلك!».

قال بصبر: «إنه ليس الفخر، بل مجرد حقيقة أذكرها. حقيقة لا أجد أي صعوبة في إثباتها. في جميع الاحتمالات، لديَّ العقل الأكثر تطورًا والأكمل أداء بين جميع معارفي من الرجال المثقفين، ويشير المنطق إلى أن هذه الحقيقة تطرح أيضًا أنني أمتلك العقل الأكثر تطورًا والأكمل أداء في برسوم. وأنا مُقتنع، مما أعرفه عن كوكب الأرض ومما شاهدته منك، أنه لا يوجد أي عقل على كوكبك تقترب قدرته ولو قليلاً من القدرة التي طورتها خلال ألف عام من الدراسة والبحث النشط. ربما يوجد في كوكب راسوم (عطارد) أو كوسوم (الزهرة) ذكاء يساوي أو حتى أكبر من عقلي. ففي حين قمنا ببعض الدراسات عن موجات الفكر هناك، لم تتطور أدواتنا بعد بما يكفي إلا للقول إنها تتمتع بأقصى النقاء والقوة والمرونة».

وبعيدًا عن الموضوع، سألته: «وماذا عن جسم الفتاة الذي أعطيته إلى الجيدارة؟»؛ إذ لم يستطع ذهني أن يمحو ذكرى ذلك الجسد الجميل الذي من المؤكد كان يمتلك مخًّا على القدر نفسه من الجمال والروعة.

أجاب ملوحًا بيده: «إنها مجرد شخص! مجرد شخص!».

سألته بإصرار: «ماذا ستصبح؟».

قال: «وما الفارق؟ لقد اشتريتها مع مجموعة من أسرى الحرب. ولا أذكر حتى من أي بلد حصل عليهم زبوني، أو أين كانت نشأتهم. فهذه الأمور ليست مهمة».

سألته: «هل كانت على قيد الحياة عندما اشتريتها؟».

أجاب: «نعم. لماذا؟».

سألته: «أنت ... أووه، ثم قتلتها إذَنْ؟»

أجاب: «قتلتها! كلا؛ لقد حافظت عليها. كان ذلك منذ حوالي عشر سنوات. لماذا أتركها لتصبح عجوزًا مملوءة بالتجاعيد؟ لن يكون لها نفس القيمة، أليس كذلك؟ كلا، لقد توليت صيانتها. وعندما اشترتها ظاظا، كانت نضرة وشابة تمامًا مثل يوم وصولها؛

فقد حافظت عليها منذ فترة طويلة. شاهدتها نساء عديدات وأردن وجهها وجسمها، لكن الجيدارة هي من تقتدر على الشراء، ودفعت أعلى سعر حصلت عليه من قبل.

«نعم، احتفظت بها لفترة طويلة، لكني كنت أعرف أنها ستعوضني في يوم ما بسعر جيد. كانت جميلة حقًّا، ولذا للمشاعر استخدام - فإن لم يكن من أجل المشاعر، لن أجد حمقى يدعمون هذا العمل الذي أقوم به، وبالتالي يتيح لي القيام بأبحاث ذات جدوى أكبر. أعرف أنك سوف تُفاجأ عندما أخبرك أنني أشعر أنني أكاد أصل تقريبًا إلى مرحلة التمكن من إنتاج بشر عقلاء من خلال عملي على تركيبات كيميائية معينة تتكون من مجموعة من الأشعة ربما لم يكتشفها علماؤك، وهنا يستند حكمي إلى ندرة معرفتك بمثل هذه الأمور».

قلت له مؤكِدًا: «لن أندهش. لن أتفاجأ بأي شيء قد تنجزه».

***

الفصل (4)

فالاديا

استلقيت مستيقظًا وقتًا طويلاً في تلك الليلة أفكر في «4296-ي-2631-هـ»، الفتاة الجميلة التي سُرِق جسمها المثالي لإعداد بيئة لمخ طاغية قاسية. بدت جريمة بشعة لم أتمكن من تخليص ذهني منها، وأعتقد أن التأمل فيها زرع أول بذور كراهيتي وبغضي تجاه راس ثافاس. لم أتمكن من استحضار مخلوق يخلو تمامًا من الرحمة، ولا تصور لحظة النهب المخيفة لهذا الجسد اللطيف الجميل حتى لأقدس الأغراض، ناهيك عن القيام بذلك من أجل الثراء الفاحش.

فكّرت كثيراً في الفتاة في تلك الليلة، وكانت صورتها هي أول ما انطبع في ذهني عندما صحوت في الفجر. وبعد أنا تناولت طعامي، ولم يكن راس ثافاس قد ظهر بعد، ذهبت مباشرة إلى غرفة التخزين حيث يوجد الشيء البائس. إنها ترقد هنا، ولا تتحدد سوى بلوحة صغيرة، تحمل رقم: '4296-ي-2631-هـ'. ترقد أمامي جثة امرأة عجوز بوجه مشوه، في صرامة جمود الموت؛ إلا أن هذا لم يكن الجسد الذي رأيته، وإنما رؤيا خيالية لجمال متألق ترقد روحه المسجونة هامدة تحت خصلات الشعر الرمادية تلك.

هذه المخلوقة هنا بوجه وهيئة ظاظا لم تكن ظاظا على الإطلاق؛ فكل ما جعل الأخرى على ما هي عليه، قد نُقل إلى هذه الجثة الباردة. كم سيكون الاستيقاظ مخيفًا، إذا استيقظت أصلاً! ارتجفت عند التفكير في الرعب الذي سيغمر الفتاة عندما تدرك بداية هذه الجريمة البشعة التي ارتُكِبت عليها. تُرى من كانت؟ وما القصة المحبوسة في هذا العقل الميت الصامت؟ وما الحب الذي كانت تتمتع به، وجمالها الذي كان هائلاً، ووجهها الجميل الذي يحمل بصمة لا تمُحى من الرقة! هل سبق وأيقظها راس ثافاس من هذا المظهر السعيد للموت؟ - الأكثر سعادة من أي إيقاظ ممكن من قبل. نفرت من فكرة صحوتها، وإن اشتقت إلى أن أسمعها تتكلم، وأن أعرف أن عقلها يحيا ثانية، وأن أعرف اسمها، وأستمع إلى قصة هذه الحياة الرقيقة التي انتُزِعت بوقاحة من بيئتها الملائمة وتعرضت ليد المصير القاسية. ولنفترض أنها استيقظت! لنفترض أنها استيقظت وأنني ... وُضِعت يد على كتفي، استدرت، ووجدتني أنظر في وجه راس ثافاس.

قال: «يبدو أنك مهتم بهذه الشخصية».

أجبته: «إنني أتساءل ماذا سيكون رد فعل مخ هذه الفتاة إذا استيقظت واكتشفت أنها أصبحت امرأة عجوزاً مشوهة».

حك ذقنه ونظر نحوي بإمعان. فكّر قائلاً: «تجربة مثيرة للاهتمام. أنا سعيد باكتشافي اهتمامك العلمي بالعمل الذي أقوم به. ويجب أن أعترف أنني أهملت المراحل النفسية في عملي خلال المائة سنة الماضية أو نحو ذلك، على الرغم من أنني سبق أن أوليتها قدرًا كبيراً من الاهتمام. وسيكون من المثير للاهتمام ملاحظة ودراسة العديد من هذه الحالات. قد تُثبت هذه الحالة، بوجه خاص، أنها ذات قيمة لك كدراسة أولية، كونها بسيطة واعتياديةَ. وسوف أتيح لك لاحقًا النظر في حالة نقلت فيها عقل رجل إلى جمجمة امرأة، وعقل امرأة إلى جمجمة رجل. هناك أيضًا حالات مثيرة للاهتمام؛ حيث وضعت جزءًا من مخ شخص محل جزء مخ مريض أو مصاب لشخص آخر، فضلاً عن أن تلك العقول البشرية التي زرعتها، لأغراض تجريبية فقط، في جماجم حيوانات، والعكس، تتيح فرصًا هائلة للملاحظة. أذكر حالة نقلت فيها نصف مخ قرد إلى جمجمة رجل بعد إزالة نصف مخه وقمت بتطعيمه على الجزء المتبقي من المخ في جمجمة القرد. حدث ذلك منذ عدة سنوات، وفكرت كثيراً في ضرورة أن أتذكرهما وألاحظ النتائج. يجب أن ألقي نظرة عليهما - وهما على ما أذكر في القبو رقم 'ل-42-إكس'، أسفل المبنى '4-ج-21'. علينا إلقاء نظرة عليهما في يوم ما قريبًا، فقد مرت سنوات منذ أن كنت في هذا القبو. من المؤكد أننا سنجد عينات مثيرة جدًّا للاهتمام أفرزها ذهني. ولكن، هيا! دعنا نقوم بإيقاظ '4296-ي-2631-هـ'».

صحت قائلاً: «كلا!»، واضعًا يدي على ذراعه: «سيكون الأمر مريعًا».

نظر نحوي بدهشة ثم التوت شفتاه في ابتسامة كريهة ساخرة. صاح: «يا لك من أحمق عاطفي! من ذا الذي يجرؤ أن يقول لي لا؟».

وضعت يدي على مقبض سيفي الطويل ونظرت في عينيه مباشرة قائلاً: «راس ثافاس، أنت سيد بيتك؛ وما دمت ضيفك، عاملني بلطف».

نظر نحوي للحظة، لكن عينيه ارتعشتا، وقال: «لقد تسرعت. يمكننا نسيان الأمر». اعتبرت إجابته بمثابة اعتذار، فقد كان بالفعل أكثر مما توقعت؛ لكن الحدث لم يكن مؤسفًا. وأعتقد أنه عاملني بعد ذلك باحترام أكبر. على أنه انتقل على الفور إلى اللوح الذي يحمل رفات '4296-ي-2631-هـ'.

قال: «عليك إعداد هذه الحالة للإيقاظ، ودراسة ما يمكنك من جميع ردود أفعالها»، ثم غادر الغرفة.

أصبحت بارعًا إلى حد كبير في هذا العمل الذي بدأته ببعض المخاوف، لكنني كنت متأكدًا أنني أفعل الصواب بإطاعة راس ثافاس طالما بقيت عضوًا في بطانته. كان الدم الذي سبق أن تدفق خلال أوردة الجسد الجميل، الذي باعه راس ثافاس إلى ظاظا، يستقر في وعاء مُغلق بإحكام على رف فوق الجثة. وكما فعلت في حالات أخرى تحت مراقبة عينَي الجراح العجوز، فعلته الآن بمفردي للمرة الأولى. قمت بتسخين الدم، وإجراء الشقوق، وربط الأنابيب، وإضافة قطرات قليلة من سائل الحياة إلى الدم، وأصبحت الآن مستعدًّا لإعادة الحياة إلى المخ الحساس الذي رقد ميتًا لعشر سنوات. وضعت إصبعي على الزر الصغير الذي يدفع الموتور للحركة بحيث يرسل سائل الإنعاش إلى تلك الأوردة الهامدة، وعندئذ انتابتني أحاسيس لا أتخيل أن أي رجل بشري شعر بها من قبل.

لقد أصبحت سيد الحياة والموت، على أنني في لحظة وقوفي عند هذه المرحلة من إيقاظ الموتى، شعرت أنني قاتل أكثر من كوني مُنقِذًا. حاولت النظر إلى الإجراء بفتور، من خلال عين العلم الباردة، لكنني فشلت فشلاً ذريعًا. لم أستطع إلا أن أرى فتاة منكوبة مكلومة لضياع جمالها. ابتعدت وأنا أُطلق لعنة خافتة. لا يمكنني القيام بذلك! وعندئذ، وكأنما استحوذت عليَّ قوة خارجية، تحرك إصبعي على الزر وضغط عليه. لا يمكنني تفسير ذلك إلا بنظرية العقلية المزدوجة، التي قد تفسر العديد من الأشياء. ربما قام ذهني الذاتي بتوجيه الفعل. لا أعرف. أعرف فقط أنني فعلت ذلك، وبدأ الموتور يعمل، كما بدأ مستوى الدم في الحاوية ينخفض تدريجيًّا.

وقفت كالمسحور أراقب. أصبح الوعاء فارغًا. أغلقت الموتور، وأزلت الأنابيب، ثم أغلقت الفتحات بالشريط اللاصق. اصطبغ الجسم بحمرة وهج الحياة، لتحل محل الشحوب الأرجواني للموت. أخذ الصدر يرتفع وينخفض بانتظام، وبدأ الرأس يتلفت قليلاً، والجفنان يتحركان. صدرت تنهيدة واهنة بين الشفتين المتباعدتين. لم تظهر لفترة طويلة أي علامة أخرى على الحياة، ثم فجأة انفتحت الأعين. كانت ذابلة في البداية، لكنها تمتلئ الآن بتعجُّب متسائل. استقرت الأعين نحوي، ثم تجولت حول ذلك الجزء من الغرفة الذي كان مرئيًّا من موضع الجسد، ثم عادت تنظر نحوي وظلت مثبتة على ملامحي بعد أن فحصتني من أعلى إلى أسفل. لا يزال التساؤل يملؤها، ولكن دون أن يبدو عليها الخوف. تساءلت: «أين أنا؟». كان الصوت لامرأة عجوز – عاليًا وقاسيًا. ملأ عينيها تعبير ينم عن الذهول. «ماذا حدث لي؟ ما المشكلة في صوتي؟ ماذا حدث؟».

وضعت يدي على جبينها. قلت لها بهدوء: «لا تهتمي بهذا الموضوع الآن، انتظري قليلاً حتى تصبحي أقوى. وعندئذ سأخبرك».

جلست، وقالت: «أنا قوية»، ثم امتد بصرها نحو الجزء الأسفل من جسدها وأطرافها، وسادت نظرة رعب مطلق على وجهها. «ماذا حدث لي؟ باسم سلفي الأول، ماذا حدث لي؟».

أزعجني الصوت الحاد الأجش. كان صوت ظاظا، لكن ظاظا تمتلك الآن ذلك الصوت الموسيقي الجميل الذي يتسق مع الوجه الجميل الذي سرقته. حاولت نسيان تلك النبرات الحادة والتفكير فقط في جمال الغطاء الذي كان يُزين ذات يوم الروح الموجودة داخل هذه الجثة العجوز الذابلة.

مدت يدها، ووضعتها بلطف على يدي. كان تصرفها جميلاً، وحركتها رشيقة. كان مخ الفتاة يوجه العضلات، لكن أحبال ظاظا الصوتية الفجة العجوز لا تقدر على إصدار نغمات أحلى. قالت متوسله: «أخبرني، أرجوك!». ملأت الدموع أعينها العجوز، وأعتقد للمرة الأولى منذ سنوات عديدة. «أخبرني! إنك لا تبدو قاسيًا».

أخبرتها. استمعت بإمعان، وتنهدت خلال حديثي. قالت: «على أي حال، ليس مروعًا، أعرف الآن بالفعل، فهذا أفضل من قتلي». أشعرني كلامها بالسعادة لأنني ضغطت على الزر. كانت سعيدة لأنها على قيد الحياة، حتى وإن تدثرت بجسم ظاظا البشع. تكلمت معها بنفس القدر.

قلت: «كنتِ جميلة جدًّا».

قالت: «والآن، أنا قبيحة جدًّا؟»، لم أجب.

تساءلت: «على كلٍّ، ما الفارق؟ ليس بمقدور هذا الجسم العجوز أن يُغيرني، أو يجعلني مختلفة عمَّا كنته دائمًا. لا يزال الخير موجودًا داخلي، ومهما كان الجمال واللطف، يمكنني أن أسعد بأنني على قيد الحياة، وربما أستطيع القيام ببعض الخير. شعرت بالهلع في البداية، لأنني لم أكن أعرف ماذا حدث لي. تصورت أنني ربما أصابني مرض رهيب، وهو الذي غيرني -هذا ما أرعبني؛ ولكني أعرف الآن- أووه! ماذا في ذلك؟».

قلت: «أنتِ رائعة. كان ليجن جنون معظم النساء من الرعب والحزن لفقدان ذلك الجمال العجيبَ مثل الذي كان لديكِ – وأنتِ لا تهتمين».

قالت: «أوه، نعم، يهمني يا صديقي، وإنما يهمني عدم تدمير جميع جوانب حياتي الأخرى بسبب ذلك، أو أن يلقي ذلك بظلاله على حياة من حولي. كنت جميلة واستمتعت بجمالي. وأؤكد لك أنها ليست سعادة لا تشوبها شائبة. قتل الرجال بعضهم

بعضًا بسبب هذا الجمال؛ وخاض بلدان كبيران الحرب بسببه؛ وربما فقد والدي عرشه أو حياته، لا أعرف؛ لأن العدو أسرني أثناء الحرب. وربما لا تزال الحرب محتدمة، والرجال يموتون لأنني كنت جميلة جدًّا»، ثم أضافت بابتسامة حزينة: «لن يحارب أحد من أجلي الآن».

سألتها: «هل تعرفين كم مضى من الوقت وأنت هنا؟».

أجابت: «نعم، أحضروني هنا قبل يوم أمس».

قلت لها: «كان ذلك قبل عشر سنوات».

«عشر سنوات! مستحيل».

أشرت إلى الجثث حولنا، وقلت موضحًا: «أنتِ رقدتِ هكذا لمدة عشر سنوات. وهناك آخرون يرقدون هنا منذ خمسين سنة، كما أخبرنَي راس ثافاس».

«عشر سنوات! عشر سنوات! ماذا قد لا يحدث في عشر سنوات! هكذا أفضل. يجب أن أخشى العودة الآن. يجب ألا أرغب في معرفة أن والدي، وكذا والدتي، ربما انتهيا. هكذا أفضل. ربما تسمح لي أن أنام مرة أخرى؟ ألا يمكن؟».

أجبت: «الأمر في يد راس ثافاس؛ لكن مهمتي هي ملاحظتكِ لفترة من الوقت».

«ملاحظتي؟».

«دراستكِ – دراسة ردود أفعالك».

«آه! وما الشيء الجيد الذي يسفر عن ذلك؟».

«قد يسفر عن بعض الخير في العالم».

قالت وصوتها الأجش يبعث على الحزن: «قد يمنح لهذا البشع راس ثافاس، بعض الأفكار الجديدة لغرفة التعذيب خاصته- خطط جديدة لتجميع النقود من معاناة ضحاياه».

قلت لها: «بعض أعماله جيدة. والمال الذي يجمعه يتيح له الحفاظ على هذه المؤسسة الرائعة التي يقوم فيها على الدوام بعدد لا يُحصى من التجارب. العديد من عملياته مفيد. أحضروا أمس محاربًا سُحقت ذراعه على نحو يتعذر إصلاحه، ومنحه راس ثافاس ذراعًا جديدًا. كما أحضروا طفلة مختلة العقل، ومنحها راس ثافاس مخًّا

جديدًا. أخذ الذراع والمخ من شخصين لقيا مصرعهما في أعمال عنف. أتاح لهما راس ثافاس، بعد موتهما، إعطاء الحياة والسعادة لآخرين».

قالت بعد لحظات من التفكير: «أنا المحتوى. آمل فقط أن تكون أنت المراقب دائمًا».

جاء راس ثافاس الآن، وفحصها، ثم قال: «الحالة جيدة». نظر إلى السِّجل، حيث أضفت تدوينًا قصيراً جدًّا بعد الإدخالات الأخرى المتعلقة بتاريخ الحالة رقم '4296-ي-2631-هـ'. وهذه، بطبيعة الحال، ترجمة شخصية لهذا الرقم التعريفي بعينه. لا توجد لدى البرسوميين حروف أبجدية مثل حروفنا، ونظام ترقيمهم يختلف تمامًا عن نظامنا. والرموز المذكورة أعلاه كانت مُمثَلَة بأربعة رموز تونولية، لكنها تحمل المعنى نفسه– فهي تمثل، بشكل مُختَصَر، رقم الحالة والغرفة والطاولة والمبنى.

واصل راس ثافاس: «ستسكن الحالة بالقرب منك، بحيث يمكنك ملاحظتها بانتظام. توجد غرفة مجاورة لغرفتك، وسوف أتأكد من أنها غير موصدة. خذ الحالة إلى هناك. وعندما لا تخضع لمراقبتك، يجب أن تغلق عليها الباب». لم تكن سوى حالة أخرى بالنسبة له.

أخذت الفتاة، إذا كان يمكنني تسميتها على هذا النحو، إلى مسكنها. وسألتها خلال سيرنا عن اسمها، فقد تصورت أنها فظاظة غير ضرورية أن أخاطبها وأنا أشير لها دائمًا باسم '4296-ي-2631-هـ'، وشرحت لها ذلك.

قالت: «إن تفكيرك هذا ينطوي على مراعاة لمشاعري، لكني هنا حالة بهذا الرمز بالفعل – أنا لست سوى حالة تشريح أخرى للحيوانات الحية».

قلت: «أنت أكثر من ذلك بالنسبة لي. أنتِ بلا أصدقاء ولا حيلة لكِ. أريد أن أكون في خدمتكِ، لتيسير الوضع عليكِ، إن استطعت».

قالت: «أشكرك مرة أخرى. اسمي فالا ديا، وما اسمك؟»

قلت: «راس ثافاس يدعوني فاد فارو».

- لكنه ليس اسمك؟

- اسمي أوليسيس باكستون.

- إنه اسم غريب، يختلف عن أي اسم سمعته من قبل. لكنك تختلف أيضًا عن أي رجل رأيته من قبل - لا تبدو برسوميًّا. لون بشرتك يختلف عن لون بشرة أي عِرق.

- أنا لست من برسوم، لكني من كوكب الأرض، الكوكب الذي تسمونه أحيانًا جاسوم. ولذا يختلف مظهري عن مظهر أي شخص رأيتِهِ من قبل.

- جاسوم! يوجد جاسومي آخر هنا، وصلت شهرته إلى أقاصي برسوم، لكني لم أره أبدًا.

سألتها: «جون كارتر؟».

- نعم، أمير الحرب. كان في هيليوم، وشعبي لم يكن صديقًا مع شعب هيليوم. لم أتمكن أبدًا من فهم كيفية وصوله إلى هنا. والآن، يوجد شخص آخر من جاسوم - كيف؟ كيف عبرت الفراغ الهائل؟

هززت رأسي، قائلاً: «لا يمكنني حتى التخمين».

قالت: «لابد أن جاسوم مأهولة برجال رائعين». كانت مجاملة لطيفة.

فقلت: «مثل برسوم المأهولة بنساء جميلات».

نظرت بأسف إلى جسدها العجوز المملوء بالتجاعيد.

قلت بلطف: «لقد رأيت جسدكِ الحقيقي».

قالت: «أكره التفكير في وجهي. أعرف أنه أصبح شيئًا مخيفًا».

- إنه ليس وجهكِ، تذكري ذلك عند رؤيته، ولا تشعري بأنه سيئ للغاية.

سألتني: «أهو سيئ إلى هذا الحد؟».

لم أجب. قالت: «لا يهم. إن لم أكن قد تمتعت بجمال الروح، لم أكن جميلة، بغض النظر عن مدى كمال ملامحي؛ وإن كنت قد امتلكت جمال الروح، فلا أزال أمتلكه. يمكنني التفكير في أفكار جميلة وأداء أفعال جميلة، وأعتقد أن هذا الاختبار الحقيقي للجمال، قبل أي شيء».

قلت هامسًا: «وهناك أمل».

- أمل؟ كلا، ليس هناك أمل إذا كنت تعني أنني قد أستعيد في يوم ذاتي المفقودة. لقد أخبرتني ما يكفي لإقناعي بأن هذا لا يمكن أن يحدث أبدًا.

قلت: «لن نتحدث في هذا الموضوع، لكننا قد نفكر فيه؛ وأحيانًا يساعدنا قدر هائل من التفكير على إيجاد وسيلة لتحقيق ما نريد، إن كنا نريده بشدة».

قالت: «لا أريد أن آمل، حتى لا أُصاب بإحباط. سأكون سعيدة كما أنا. أتمنى، فلا بد أن أكون تعيسة دائمًا».

أمرت بإحضار الطعام لها. وبعد أن وصل الطعام، أرسل راس ثافاس في طلبي، فتركتها بعد أن أغلقت باب غرفتها حسب تعليمات الجراح العجوز. وجدت راس ثافاس في مكتبه، وهي غرفة صغيرة ملاصقة لغرفة كبيرة جدًّا تضم عددًا من العاملين الذين يتولون ترتيب وتصنيف التقارير الواردة من مختلف إدارات المختبر الكبير. نهض عند دخولي.

قال: «تعال معي، فاد فارو. سوف نلقي نظرة على الحالتين في ‘ل-42-إكس’، اللتين تحدثت معك عنهما».

سألته: «الرجل الذي لديه نصف مخ قرد، والقرد الذي لديه نصف مخ إنسان؟».

أومأ، وسبقني نحو المدرج المؤدي إلى الأقبية الموجودة تحت المبنى. أشارت الممرات والدهاليز، خلال هبوطنا، إلى أنها لم تُستخدَم

منذ فترة طويلة. فالطوابق مغطاة بقدر لا يُطاق من التراب، لم تطأها قدم منذ فترة طويلة؛ وبالمثل كان حال مصابيح الراديوم الصغيرة التي تبعث بإضاءة خافتة في هذا الجزء من أعماق برسوم. مررنا خلال سيرنا بالعديد من المداخل على الجانبين، وعلى كل منها علامات وصفية بالهيروغليفية. وكانت العديد من الفتحات محكمة الإغلاق بالحجارة. تُرى ما الأسرار البشعة التي تختبئ داخلها؟ وصلنا أخيرًا إلى ‘ل-42-إكس’. الأجسام هنا مُرتبة على رفوف، العديد من الصفوف التي تملأ الغرفة بالكامل تقريبًا من الأرضية إلى السقف، باستثناء مساحة مستطيلة في منتصف الغرفة تضم طاولة عمليات سطحها من حجر الإرسايت، فضلاً عن مجموعة أدوات الجراحة، والموتور، وغيرها من معدات المختبر.

فحص راس ثافاس حالات تجربته الغريبة، وحملنا معًا الجسم البشري إلى الطاولة. وبينما كان راس ثافاس يتولى وضع الأنابيب، توليت وعاء الدم الذي وُضع على

الرف نفسه مع الجثة. سرعان ما انتهينا من طريقة الإنعاش، التي أصبحت مألوفة، ونراقب الآن عودة الوعي إلى هذه الحالة.

جلس الرجل ونظر نحونا، ثم ألقى نظرة سريعة حول الغرفة؛ ظهر ضوء وحشي في عينيه عندما عادت نظراته إلينا. ابتعد ببطء عن الطاولة ونزل إلى الأرض، مع إبقاء الطاولة بيننا.

قال له راس ثافاس: «لن نلحق بك أي ضرر».

حاول الرجل الرد، لكن كلماته كانت رطانة غير مفهومة، ثم هز رأسه هادرًا. خطا راس ثافاس نحوه، وانخفض الرجل على أربع، ومفاصل أصابعه تستقر على الأرض، ثم تراجع هادرًا.

صاح راس ثافاس: «تعال! لن نلحق بك أي ضرر». حاول الاقتراب من الحالة ثانية، ولم يكن من الرجل إلا أن تراجع بسرعة، هادرًا بشراسة أكبر؛ ثم قفز فجأة بسرعة إلى الجزء العلوي من أعلى رف، حيث جثم فوق جثة وهو يتمتم نحونا.

قال راس ثافاس: «علينا أن نحصل على مساعدة»، ثم ذهب إلى المدخل، وأطلق إشارة من صفارته.

وفجأة سأله الرجل: «لماذا تطلق الصفارة؟ من أنت؟ وماذا أفعل أنا هنا؟ ماذا حدث لي؟».

قال راس ثافاس: «يمكنك النزول، نحن أصدقاء».

هبط الرجل ببطء الرجل إلى الأرض وتوجه إلينا، لكنه لا يزال يتحرك ومفاصل أصابعه على الأرض نظر إلى الجثث حوله، وظهر ضوء جديد في عينيه.

صاح: «أنا جائع! وسوف آكل!»، ثم أمسك بأقرب جثة وسحبها إلى الأرض.

صاح راس ثافاس وهو يقفز إلى الأمام: «توقف! توقف! سوف تدمر هذه الحالة»، لكن الرجل تراجع وهو يسحب الجثة على الأرض خلفه. عندئذ وصل المساعدون واستطعنا بمعاونتهم التغلب على المخلوق البائس وتقييده. طلب راس ثافاس من المساعدين إحضار جثة القرد، وأمرهم بالبقاء، فقد نحتاج إليهم.

كانت الحالة هي عينة كبيرة لقرد برسوم الأبيض، أحد أشرس ساكني الكوكب الأحمر وأكثرهم وحشية. ونظرًا لقوة المخلوق الهائلة وضراوته، اتخذ راس ثافاس الاحتياطات اللازمة ليتأكد من تقييده جيدًا قبل إنعاشه.

كان مخلوقًا ضخمًا يبلغ طوله حوالي عشرة أو خمسة عشر قدم، يقف مستقيمًا، ولديه مجموعة وسيطة من الذراعين أو الساقين في منتصف المسافة بين أطرافه العليا والسفلى. كانت عيناه متقاربتين وغير جاحظتين؛ وكانت أذناه عاليتين، بينما كانت أنفه وأسنانه تشبه إلى حد كبير نظيرتها لدى الغوريلا الأفريقية على كوكب الأرض.

كان المخلوق ينظر إلينا متعجبًا خلال استعادته لوعيه. بدا مرات عدة أنه يحاول التحدث، لكن أصوات غير واضحة هي فقط ما صدر من حنجرته، ثم رقد ساكنًا لفترة.

تحدث معه راس ثافاس: «إذا كنت تفهم كلماتي، يمكنك أن تومئ برأسك». أومأ المخلوق.

سأله الجراح: «هل تريد أن نحررك من قيودك؟».

أومأ المخلوق ثانية بالإيجاب.

قال راس ثافاس: «أخشى أن تحاول الإضرار بنا، أو الهروب».

كان القرد يحاول جاهدًا التعبير، وأخيرًا صدر من بين شفتيه صوت لا يمكن إساءة فهمه. كان كلمة واحدة: «لا».

كرر راس ثافاس سؤاله: «لن تضر بنا أو تحاول الهرب؟».

قال القرد: «لا»، ونطق الكلمة هذه المرة بوضوح.

قال راس ثافاس: «سنرى. ولكن تذكر أننا بأسلحتنا يمكننا قتلك بسرعة إذا هاجمتنا».

أومأ القرد، ثم قال بمشقة: «أنا لن أضركم».

أزال المساعدون القيود بإشارة من راس ثافاس، وجلس المخلوق. مدّ أطرافه وانزلق بسهولة إلى الأرض، حيث وقفت مستقيمًا على قدمين. لم يكن وقوفه يثير الدهشة، نظرًا لأن القرد الأبيض يسير في كثير من الأحيان على قدمين من أقدامه الستة؛ وهي الحقيقة التي لم أكن أعرفها في ذلك الوقت، لكنَّ راس ثافاس أوضحها لي لاحقًا

في معرض تعليقه على سير الحالة الإنسانية على أربع، وهو ما اعتبره راس ثافاس إشارة ارتداد إلى النوع بزرع جزء من مخ القرد في الجمجمة البشرية.

درس راس ثافاس الحالة مطولاً، ثم استأنف دراسته للحالة الإنسانية التي استمرت في إبداء خصائص قردية أكثر من الخصائص البشرية، على الرغم من أن الرجل تحدث بسهولة أكثر من القرد؛ لأن أجهزته الصوتية أكثر كمالاً دون شك. ولم تصبح طريقة كلام القرد مفهومة إلا ببذل أقصى اهتمام.

قال راس ثافاس، بعد تخصيص نصف يوم للحالتين: «لا يوجد شيء لافت للنظر في هاتين الحالتين. فهما يحملان ما سبق أن قررته منذ سنوات في عمليات زرع العقل كاملاً؛ أن فِعل الزرع يحفز نمو ونشاط خلايا المخ. وستلاحظ أن أجزاء المخ المزروعة تُعد أكثر نَشاطًا في كل حالة منهما- فهي تسيطر إلى حد كبير. ولهذا السبب تعرض الحالة البشرية خصائص قردية واضحة، بينما يتصرف القرد بطريقة أكثر بشرية؛ ومع ذلك، إذا كان من المرغوب إجراء الملاحظة لفترة أطول وعن قرب، فإنك سوف تجد بلا شك أن كل حالة تعود أحيانًا إلى طبيعتها الخاصة -أي يصبح القرد قردًا تمامًا ويصبح البشري أكثر بشرية- لكن الأمر لا يستحق ما يستغرقه من وقت، لا سيما أنني أمضيت نهارًا لا يدر ربحًا في فحصهما، وهو وقت كبير بالفعل. سوف أتركك الآن لتعيد تخدير الحالتين، بينما أعود إلى المختبرات أعلاه. وسيبقى المساعدون هنا لمعاونتك إن لزم الأمر».

تقدم الآن القرد، الذي كان يستمع باهتمام، وتمتم قائلاً: «أوه، أرجوك، أُصلي لك، لا تُعدني مرة أخرى إلى هذه الأرفف الرهيبة. أنا أذكر يوم أن أحضروني هنا مُقيدًا بصرامة. وعلى الرغم من أنني لا أتذكر ما حدث حينذاك، لا يمكنني سوى التخمين من مظهر بشرتي، ومن هذه الجثث المتربة، أنني أرقد هنا منذ فترة طويلة. أتوسل إليك أن تسمح لي بالعيش، وإما أن تُعيدني إلى زملائي أو تسمح لي أن أخدم في هذه المنشأة، التي رأيت جزءًا منها ما بين وقت القبض عليَّ واليوم الذي أحضروني فيه، مكبلاً ولا حيلة لي، إلى هذا المختبر ووضعوني على لوح الإرسايت البارد فوق إحدى طاولاتك».

أومأ راس ثافاس على نحو يشير إلى نفاد صبره. وصاح: «هراء! أنت أفضل حالاً هنا، حيث يمكن الاحتفاظ بك لمصلحة العلم».

قلت متوسلاً: «وافِق على طلبه. وسوف أتولى بنفسي جميع مسؤولياته، بينما أستفيد من الدراسة التي سيتيحها لي».

قال راس ثافاس زاجرًا: «قم بما أمرتك به»، ثم غادر الغرفة.

هززت كتفي، وقلت: «لا يوجد شيء آخر، إذَنْ».

فكر القرد بصوت عال: «يمكنني قتلكم جميعا ثم أهرب، لكنك وددت مساعدتي. ولا يمكنني أن أقتل الشخص الذي أراد مصادقتي - على أنني أرتعد من التفكير في موت آخر. منذ متى وأنا راقد هنا؟».

رجعت إلى سجل تاريخ حالته، الذي كان معلقًا أعلى الطاولة، وقلتُ: «اثنا عشر عامًا».

سأل نفسه: «ومع ذلك، لِم لا؟ هذا الرجل سوف يقتلني ... لماذا لا أقتله أولاً».

أكدت له: «لن يفيدك ذلك في شيء؛ لأنك لن تتمكن أبدًا من الهرب، بل سوف يقتلونك بالفعل. الموت بالطريقة التي ربما يفكر فيها راس ثافاس تعني عدم إنعاشك أبدًا، بينما سأموت أنا على يديك -رغم أنني قد أجد الفرصة لاحقًا لإنعاشك، وأميل إلى ذلك- وعندئذ أعجز عن إنقاذك».

كنت أتحدث بصوت منخفض، على مقربة من أذنه، حتى لا يسمعني المساعدون. استمع القرد بإمعان.

وتساءل: «هل ستفعل بي ما تقترحه؟».

أكدت له: «في أول فرصة تسنح لي».

قال: «جيد جدًّا، أوافق، وكلي ثقة فيك».

وبعد نصف ساعة، انتهت إعادة الحالتين إلى رفيهما.

***

الفصل (5)

الاتفاق

تنامت الأيام إلى أسابيع، والأسابيع إلى أشهر، وأنا أجتهد في عملي بجانب راس ثافاس. زادت تدريجيًّا ثقة الجراح العجوز بي، وأخذ يخبرني الكثير عن أسرار مهارته ومهنته. كما سمح لي التدريج أداء مهام أكثر أهمية في أعمال مختبره الواسع. بدأت نقل الأطراف من حالة إلى أخرى، ثم نقل أعضاء الجهاز الهضمي الداخلية، ثم كلفني بإجراء عملية كاملة لزبون دفع أجرًا. قمت بإزالة كُليتَي رجل عجوز ثري، ووضعت مكانهما كُليتَي شاب تتمتعان بالصحة. وفي اليوم التالي أعطيتُ طفلاً توقف نموه غددًا درقية جديدة. وبعد أسبوع نقلت قلبين، وأخيراً جاء يوم عظيم بالنسبة لي- إذ دون مساعدة من راس ثافاس، الذي وقف بجواري صامتًا، أخرجت مخ رجل عجوز وزرعته داخل جمجمة شاب.

وبعد أن أنهيت العمل، وضع راس ثافاس يده على كتفي وقال: «لم أكن لأقم بذلك على نحو أفضل». بدا مبتهجًا للغاية، وتعجبت من هذا الإبداء غير المعتاد لمشاعره وهو الذي يفتخر بعدم امتلاكه لأي مشاعر. فكرت كثيراً في الهدف الذي دفع ثافاس إلى تكريس كل هذا الوقت لتدريبي، ولم يدر بذهني أبدًا أي تفسير أكثر ملاءمة من حاجته إلى المساعدة في عمله المتنامي. لكني اكتشفت، بعد مراجعة السجلات التي أصبحت متاحة أمامي الآن، أن ممارسته ليست أكبر مما كانت عليه لسنوات عديدة؛ وحتى مع ذلك لم أجد أي سبب بالفعل وراء تفضيله تدريبي عن تدريب أحد مساعديه من المريخيين الحُمر. وفي اعتقادي أن إيمانه بولائي ليس مبررًا كافيًا لهذه الحظوة، فقد كان بإمكانه الاحتفاظ بي كحارس شخصي وتدريب شخص من نفس عِرقه لمساعدته في عمله الجراحي.

على أنني عرفت الآن أن لديه سببًا ممتازًا لما يفعله- راس ثافاس لديه دائمًا سبب ممتاز لأي شيء يقوم به. في إحدى الليالي، بعد أن انتهينا من وجبة المساء، جلس يحدق في وجهي بإمعان مثلما يفعل في أحيان كثيرة، كأنما يقرأ ما في ذهني- وهو، بالمناسبة، ما لم يكن قادرًا عليه على الإطلاق، ويسبب له الكثير من الدهشة والكدر؛ ذلك أن أي مريخي، إن لم يكن منتبهًا على الدوام، يمكن لأي مريخي آخر أن يقرأ أفكاره بوضوح. لكن راس ثافاس لم يكن قادرًا على قراءة أفكاري، وأخبرني أن ذلك يرجع إلى أني لستُ برسوميًّا. بيد أنني كثيرًا ما أمكنني قراءة عقول مساعديه عندما لا يأخذون حذرهم، مع

أنني لم أتمكن أبدًا من قراءة أي من أفكار راس ثافاس، كما أنني على يقين من عدم تمكُّن أي شخص آخر من قراءتها. كان يغلق عقله بإحكام مثل آنية الدماء التي يحتفظ بها، كما لم يجده أحد أبدًا في لحظة سقطت فيها حواجز ذهنه.

جلس ينظر إلى وجهي هذا المساء لفترة طويلة، ولم يشعرني ذلك بأي إحراج لأني أصبحت معتادًا على غرائبياته. قال: «ربما أحد أسباب ثقتي فيك يرجع إلى أنني لم أستطع أبدًا سبر أغوار عقلك؛ ولذا لا أعرف إن كنت تأوي أفكارًا بالغدر تجاهي، بينما يكشف الآخرون جميعًا عن دواخل نفوسهم أمام عقلي البحثي، وأعرف أنهم يضمرون لي الحسد، أو الغيرة، أو الكراهية. وأعرف جيدًا أنني لا أستطيع أن أضع ثقتي فيهم. ولذلك يجب أن أقبل المخاطرة وأعتمد عليك، ويخبرني عقلي أن اختياري حكيم – وهكذا أقول لك أسس اختياري لك كحارسي الشخصي. ويصدق الأمر نفسه على اختياري لك للشيء القائم في ذهني. فأنت لا يمكنك إضراري دون الإضرار بنفسك، ولن يتعمد أي رجل القيام بذلك؛ كما لا يوجد أي سبب لأن تشعر بأي عداء عميق تجاهي.

«أنت عاطفي، بطبيعة الحال، ولا شك أنك تنظر برعب نحو العديد من أعمال عقل عاقل ورشيد وعلمي؛ لكنك تتمتع أيضًا بذكاء شديد ولذا يمكنك تقدير - أفضل من غيرك، حتى مع عدم موافقتك - الدوافع التي تدعوني للقيام بالعديد من تلك الأشياء التي تستنكرها مشاعرك. ربما أسأت إليك، لكني لم أظلمك أبدًا، ولم أظلم أي مخلوق ربما شعرت أنت تجاهه بما تسميه الصداقة أو الحب. هل افتراضي غير صحيح، أو منطقي خاطئ؟».

أكدت له عكس ذلك.

«حسنًا! سوف أشرح لك الآن لماذا تكبدت مشقة تدريبك كما لم يتدرب على الإطلاق أي كائن بشري آخر، باستثناء نفسي. لست مستعدًّا لاستخدامك بعد، أو بالأحرى أنت لست جاهزًا بعد؛ لكنك إذا عرفت

هدفي، سوف تدرك ضرورة تكريس طاقتك لإنجازه. وتحقيقًا لهذه الغاية، سوف تسعى جاهدًا، أكثر حتى مما تفعل، لإتقان الفن العلمي السامي الذي أعلمه لك».

تابع كلامه، بعد توقف قصير: «أنا رجل كهل جدًّا، حتى مع حساب العمر في برسوم. لقد عشت أكثر من ألف سنة، وتجاوزت فترة الحياة الطبيعية هنا، لكني لم أنتهِ من العمل الذي كرست له حياتي، بل يكاد أن يبدأ. ويجب ألا أموت. ويجب ألا تتعرض برسوم لسرقة مخي ومهارتي الرائعين. كانت لديَّ خطة منذ فترة طويلة للتغلب على

الموت، لكنها تتطلب شخصًا آخر يتمتع بمهارة مساوية لمهارتي – ويعيش الاثنان إلى الأبد. وقد اخترتك لتكون هذا الشخص الآخر، للأسباب التي شرحتها مسبقًا – لا تدنسهما المشاعر. لم يكن اختياري لك لأنني أحبك، أو لأنني أشعر بالصداقة معك، أو لأنني أعتقد أنك تحبني، أو تشعر بالصداقة تجاهي. اخترتك لأنني أعرف أنك أنت، من بين جميع سكان العالم، الشخص الأقل احتمالاً أن تخذلني. سوف تكون حياتي بين يديك لفترة. وأنت تدرك الآن لماذا لم يكن بمقدوري التعجل في الاختيار.

«أما الخطة التي اخترتها، فهي البساطة نفسها شريطة أن أستطيع الاعتماد على عاملين أساسيين فقط: مهارة مساعدي وولائه القائم على المصلحة الذاتية. إن جسدي يتهالك تقريبًا، ويجب أن أحصل على جسد جديد. يمتلئ مختبري بأجسام رائعة، شابة وتتمتع بكامل القوة والصحة. لا يتبقى سوى تحديد أحدها ويتولى مساعدي الماهر نقل مخي من جسدي العجوز إلى جسد جديد». توقف عن الكلام.

قلت: «أدرك الآن لماذا دربتني، فكثيراً ما أثار ذلك حيرتي».

واصل كلامه: «يمكنني هكذا، وهكذا فقط، مواصلة جهودي، وبالتالي تطمئن برسوم إلى استمرار الفوائد التي يمنحها ذهني إلى أطفالها عمليًّا إلى أجل غير مسمى. يمكنني أن أعيش إلى الأبد، شريطة أن يصاحبي دائمًا مساعد ماهر؛ كما يمكنني طمأنة نفسي بتحقيق ذلك بأن أتأكد أنه لن يموت أبدًا. فإذا تهالك أحد أعضاء جسده، أو جسده كله، يمكنني إحلال عضو جديد أو جسم جديد محله من مستودعي الكبير الذي يضم حالات ممتازة، كما يمكن لمساعدي أن يؤدي لي نفس الخدمة. وبالتالي يمكننا مواصلة عيشنا إلى الأبد؛ ذلك أن المخ، كما أعتقد، لا يموت تقريبًا إلا إذا أُصيب بجروح أو تعرض لمرض.

«أنت لست مستعدًّا حتى الآن لأعهد لك بهذه المهمة الخطيرة. يجب أن تنقل المزيد من الأمخاخ، وتواجه وتتغلب على العديد من الحالات غير القياسية والغريبة التي تشكل الاختلافات التي لا تفشل أبدًا في جعل أي عمليتين غير متطابقتين. عندما تكتسب المهارة الحِرفية الكافية، سأكون أول من يعرف ذلك، وعندئذ لن نضيع أي وقت لتصبح برسوم آمنة للأجيال القادمة».

كان الرجل العجوز أبعد ما يكون عن كراهية نفسه. على أن خطته كانت ممتازة، سواء لنفسه أو لي. لقد أكدت لنا الخلود: قد نعيش إلى الأبد، وبأجسام شابة تتمتع بالقوة والصحة دائمًا. كانت التوقعات مُغرية، ويا له من موقع رائع وضعني فيه. إذا كان العجوز على ثقة في ولائي بسبب المصلحة الذاتية، يمكنني بالمثل أن أعتمد على ولائه؛ إذ لا

يمكنه استعداء المخلوق الوحيد في العالم الذي قد يضمن له الخلود، أو يحجبه عنه. وللمرة الأولى، منذ دخول منشأته، أشعر بالأمان.

تركته وتوجهت مباشرة إلى شقة فالا ديا؛ لأنني أردت أن أقول لها هذه الأخبار الرائعة. رأيتها كثيراً خلال الأسابيع التي انقضت منذ إنعاشها، كما تكشف لي تدريجيًّا خلال معاملاتنا اليومية جمال روحها العجيب، حتى لم أعُد أرى أخيراً وجه ظاظا البشع المشوه عندما أنظر إليها، وإنما توغلت أعين قلبي بعمق في جمالها الذي يكمن داخل هذا العقل الفاتن. لقد أصبحت صديقتي المقربة وكاتمة أسراري، كما أصبحت أنا بالنسبة لها، وشكّلت هذه الرابطة إحدى دواعي سروري العظيم لوجودي في برسوم.

كانت تهانيها صادقة وجميلة جدًّا عندما أخبرتها بما حدث. وقالت إنها تأمل في أن استخدم هذه القوة الهائلة في عمل الخير في العالم. أكدت لها ذلك، وأن منحها جسمًا جميلاً سيكون بين أول الأشياء التي سأطلبها من راس ثافاس؛ لكنها هزت رأسها.

وقالت: «كلا، يا صديقي، إن لم أحصل على جسمي نفسه، فإن جسم ظاظا العجوز مثله مثل أي جسم آخر بالنسبة لي. لن أهتم بالعودة

إلى بلدي من دون جسمي الأصلي؛ في حين إذا منحني راس ثافاس جسمًا جميلاً آخر، سأظل دائمًا في خطر طمع إحدى موكلاته التي قد تراه وترغب في شرائه، وتترك لي جسمها القديم، الذي ربما يكون مريضًا أو مشوهًا. لا، يا صديقي، أنا راضية بجسم ظاظا ما لم أحصل على جسدي ثانية؛ فعلى الأقل أورثتني ظاظا جسمًا قويًّا يتمتع بالصحة، مهما كان قبيحًا؛ فما أهمية المظهر هنا؟ أنت صديقي الوحيد، وصداقتك كافية. أنت تُعجب بي لشخصي، وليس لمظهري، فلنترك الأمور كما هي».

سألتها: «هل ترغبين في استعادة جسمك والعودة إلى بلدك الأصلي؟».

بكت: «أوه، لا تقل ذلك! إن مجرد التفكير في ذلك يثير جنون شوقي. يجب ألا أفكر في حلم يائس؛ لأنه لن يقودني في أحسن الأحوال إلا إلى زيادة بغضي لمصيري».

جادلتها قائلاً: «لا تقولي 'يائس'؛ فالموت فقط هو ما يجعل الأمل عقيمًا».

أضافت: «أنت تريد أن تكون لطيفًا، لكنك تؤذيني فحسب. فلا يمكن أن يوجد أي أمل».

سألتها: «هل يمكنني أن آمل لك إذَنْ؟ فأنا أرى بالتأكيد وسيلة؛ ومهما كانت إمكانية النجاح طفيفة، فهي لا تزال وسيلة».

هزت رأسها وقالت بحسم: «ما من وسيلة. لن تعرفني دوهور بعد الآن».

كررت كلمتها: «دوهور؟ هل هو شخص يهمك كثيراً؟».

أجابت بابتسامة: «دوهور تهمني للغاية، لكنها ليست شخصًا- دوهور هي موطني، بلد أجدادي».

سألتها: «كيف تركت دوهور؟» لم تخبريني أبدًا، فالا ديا».

أجابت: «كان ذلك بسبب قسوة جال هاد، أمير أمهور. تتوارث دوهور وأمهور العداء؛ لكن جال هاد جاء متنكرًا إلى مدينة دوهور لأنه سمع، كما يقولون، عن الجمال الرائع لابنة كور سان، جيداك دوهور، الوحيدة. وعندما شاهدها، قرر امتلاكها. عاد إلى أمهور، وأرسل سفراء إلى بلاط كور سان لطلب يد أميرة دوهور. لكن كور سان، الذي لم يكن لديه ابن، كان قد قرر تزويج ابنته من جد[139] من بلده، بحيث الابن الذي يولد ويحمل دماء سان كور في عروقه، قد يتولى حُكم شعب دوهور؛ ولذا رفض عرض جال هاد.

«أثار رفضه غضب الأمهوري، إلى حد أنه جهّز أسطولاً كبيراً وتوجه لقهر دوهور وأخذ بالقوة ما لم يستطع الفوز به بطرق شريفة. كان دوهور في ذلك الوقت في حالة حرب مع هيليوم، وجميع القوات في موقع بعيد في الجنوب، باستثناء جيش صغير تُرِك لحراسة المدينة. ولذا كان اختيار جال هاد لتوقيت الهجوم ملائمًا. سقطت دوهور. وبينما كانت قواته تنهب المدينة الجميلة، هاجم جال هاد، مع قوة منتقاة، قصر الجيداك وبحث عن الأميرة؛ لكن الأميرة لم تكن ترغب في العودة معه كأميرة أمهور. أدركت الأميرة، مع الآخرين في المدينة، من لحظة رؤية طليعة أسطول أمهور في السماء، غرض مجيئهم، ولذا استخدمت عقلها لإفشال هذا الغرض.

«كانت حاشيتها تضم أخصائيًا في التجميل، تكمن مهمته في الحفاظ على جمال شعر الأميرة وبشرتها وإعدادها لملاقاة الجمهور في الحفلات، وفي اللقاءات اليومية في البلاط. كان فنانًا بحق؛ يمكنه جعل القبيح ممتعًا للنظر، والعادي جميلاً، والجميل متألقًا. دعته الأميرة بسرعة وأمرته بأن يجعل تألقها قبيحًا. وعندما انتهى من عمله، لم يكن بمقدور أحد أن يُخمن أنها أميرة دوهور، نظرًا لمهارة ما صنعه بأصباغه وفرشاته الصغيرة.

«وعندما تعذر على جال هاد العثور على الأميرة داخل القصر، ولم ينجح أي قدر من التهديد أو التعذيب في إجبار الموالين لها على القول بمكانها وجودها، أمر الأمهوري

(139) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed المترجمة.

بإحضار كل امرأة في القصر وإرسالها إلى أمهور؛ حيث يبقين كرهائن إلى حين تسليمه أميرة دوهور ليتزوجها. وهكذا، أمسكوا بنا جميعًا وأخذونا إلى سفينة حربية أمهورية، توجهت إلى أمهور قبل باقي الأسطول الذي ظل لاستكمال سلب دوهور وإسقاطها.

«وبعد أن قطعت السفينة، بقافلتها الصغيرة، حوالي أربعة أو خمسة

آلاف هاد[140] ، تفصل دوهور عن أمهور، شاهدها أسطول من فوندال وهاجمها على الفور. دُمِرت أو طُرِدت سفن القافلة، وأُسِرت السفينة التي كانت تحملنا. نقلونا إلى فوندال، حيث عرضَونا في مزاد، واشتراني أحد عملاء راس ثافاس. وأنت تعرف باقي القصة».

سألتها: «وماذا حدث للأميرة؟».

«ربما ماتت –فقد تفرقت جماعتها في فوندال- لكن الموت قد يمنع عودتها إلى دوهور. لن تتمكن أميرة دوهور أبدًا من رؤية موطنها ثانية».

طرأت في ذهني خطة، فقلت صائحًا: «لكنك تستطيعين! أين تقع دوهور؟».

ضحكت قائلة: «هل ستذهب إلى هناك؟».

«نعم!».

قالت: «أنت مجنون، يا صديقي. دوهور تقع على مسافة سبعة آلاف وثمانمائة هاد من تونول، على الجانب الآخر من تلال أرتول التي تغطيها الثلوج. أنت غريب ووحيد، ولا يمكنك الوصول إليها؛ إذ تقع على طول المسافة مستنقعات تونول، وجحافل برية، وحيوانات متوحشة، ومدن حربية. قد تموت بلا جدوى خلال أول عشرة هاد، حتى إذا نجحت في الهرب من الجزيرة التي يوجد عليها مختبر راس ثافاس؛ وما الذي يدفعك إلى هذه التضحية عديمة الجدوى؟».

لم أستطع إخبارها. فلا يمكنني النظر إلى هذا الجسم الذابل وهذا الوجه القبيح والمشوه وأقول: «لأنني أحبكِ يا فالا ديا». لكنه، للأسف، كان سببي الوحيد. فتدريجيًّا، مع تعرفي عليها خلال الانكشاف البطيء لروعة جمال عقلها وروحها، تسلل حبها إلى قلبي؛ على أنني لم أكن أستطيع تفسيره، ولا قول تلك الكلمات إلى تلك العجوز الشمطاء المخيفة. لقد رأيت الجسد الرائع الذي كانت تسكنه روح بنفس الروعة لفالا ديا الحقيقية – التي يمكن أن أحبها؛ يمكن أن أحب قلبها وروحها وعقلها؛ لكنني لا يمكن أن

(140) الهاد: هو الميل في برسوم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Linear_Measurement - المترجمة.

أحب جسم ظاظا. كنت ممزقًا أيضًا بشعور آخر يسببه شك كبير- هل تبادلني فالا ديا الحب. مع سكناها الآن في جسم ظاظا، دون أي خاطب آخر ولا صديق آخر، يمكنها أن تنجذب نحوي بدافع الامتنان أو مجرد الشعور بالوحدة؛ ولكن إذا أصبحت فالا ديا الجميلة مرة أخرى وعادت إلى قصر ملكها، محاطة بالعظماء من نبلاء دوهور، هل ستتجه عينها أو قلبها نحو مغترب وحيد بلا أصدقاء من عالم آخر؟ أشك في ذلك. على أن هذا الشك لم يمنعني من تصميمي، بقدر ما يتيحه المصير، على المضي في المخطط المجنون الذي كان يدور في ذهني.

قاطعت أفكاري المتلاطمة: «لم تجب على سؤالي، فاد فارو. لماذا تريد القيام بذلك؟».

قلت: «لتصحيح الخطأ الذي ارتُكِب في حقكِ، فالا ديا».

تنهدت. وقالت متوسلة: «لا تحاول ذلك، أرجوك. فأنت تسلبني صديقي الوحيد، وصداقته هي مصدر السعادة الوحيد المتبقي لي. لكرمك وولائك كل تقدير عندي، على الرغم من أنني لا أفهمهما؛ فرغبتك الكريمة في مساعدتي في هذه المخاطرة الانتحارية تمسني بأعمق مما يمكن أن تكشف عنه كلماتي، مما يضيف إلى ديوني لك؛ لكنك يجب إلا تقوم بهذه المحاولة- يجب ألا تحاول».

أجبت: «إذا كان هذا الأمر يزعجكِ، فالا ديا، فلن نتكلم عنه ثانية؛ لكنكِ يجب أن تعرفي أنه لن يغيب عن ذهني أبدًا. وفي يوم ما، سأجد وسيلة، حتى إن أخفقت خطتي الآن».

مرت الأيام، وامتلأت ليالي المريخ الرائعة بقمريه المسرعين يتبع أحدهما الآخر. أنفق راس ثافاس المزيد من الوقت في توجيه عملي لنقل المخ. أصبحت ماهرًا في عملي منذ فترة طويلة؛ وأدركت أن الوقت يقترب بسرعة ليطمئن راس ثافاس بأن يعهد حياته ومستقبله ليدي ومهارتي. سيصبح تحت سلطتي كليًّا، ويعرف أنني أعرف ذلك. يمكنني قتله؛ ويمكنني أن أبقيه إلى الأبد محفوظًا في قبضة مخدره؛ أو يمكنني خداعه بأي حيلة، حتى بإعطائه جسم كالوت[141] أو جزءًا من مخ قرد؛ إلا أن عليه اغتنام الفرصة، كما أعرف، لأنه كان يضعف بسرعة. لقد أصبح أعمى تقريبًا، وكانت النظارة الرائعة التي اخترعها هي فقط التي تتيح له الرؤية على الإطلاق؛ وفقد السمع منذ فترة طويلة، ولذا

---

(141) الكالوت: الكلب المريخي، وهو بحجم المُهر ولديه عشرة أرجل، ويضم فكاه ثلاثة صفوف من الأنياب الطويلة الحادة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Calot – المترجمة.

يستخدم وسائل اصطناعية للسمع؛ وبدأت أعراض التعب تظهر الآن على قلبه، بحيث لم يعُد يمكنه تجاهلها.

وفي صباح أحد الأيام، أرسل عبدًا يستدعيني إلى جناح نومه. وجدت الجراح العجوز مستلقيًا - كومة منكمشة يُرثى لها، من الجلد والعظم الذابل.

همس بضعف: «يجب أن نسرع، فاد فارو. يبدو أن قلبي توقف قبل قليل لعدة تالات[142] . ولذا أرسلت في طلبك». وأشار إلى باب في غرفته قائلاً: «ستجد هناك الجسم الذي اخترته. هناك، في المختبر الخاص الذي بنيته منذ فترة طويلة لهذا الغرض تحديدًا، ستقوم بإجراء أعظم عملية جراحية عرفها العالم: نقل المخ الأكثر كمالاً إلى أجمل وأكمل جسم شهدته هذه الأعين العجوز. سوف تجد الرأس جاهزًا لتلقي مخي؛ فقد أزلت مخ ذلك الشخص ودمرته- حرقته النيران تمامًا. فلا أريد المجازفة بوجود مخ يرغب ويخطط لاستعادة جسمه الرائع. كلا، لقد حرقته. استدعِ العبيد، واطلب منهم نقل جسدي إلى اللوح الإرسايتي».

قلت له: «ليس ضروريًّا؛ وحملت جسمه المنكمش بين ذراعي كطفل إلى الغرفة المجاورة، حيث وجدت المختبر مضاء ومجهزًا تمامًا، ويضم طاولتين للعمليات، توجد فوق إحديهما جثة رجل أحمر. وضعت راس ثافاس فوق سطح الطاولة الأخرى، الذي كان شاغرًا، ثم التفت لإلقاء نظرة على الجسم الجديد الذي اختاره. لا أعتقد أنني رأيت من قبل جسدًا بهذا الكمال، ووجهًا بهذه الوسامة – كان اختيار راس ثافاس جيدًا بحق؛ ثم نظرت إلى الجراح العجوز. قمت ببراعة، كما علمني، بإجراء الشقين وتعليق الأنابيب. استقر إصبعي على الزر الذي يجعل الموتور يبدأ في ضخ الدماء من عروقه وإدخال مخدر الصيانة الرائع إليها، ثم تكلمت.

قلت: «راس ثافاس، لقد دربتني لفترة طويلة تحقيقًا لهذه الغاية. وقد اجتهدت بلا كلل لإعداد نفسي حتى لا يوجد أدنى سبب للتخوف من النتائج. وعلمتني، في الوقت نفسه، أن تصرف أي شخص يجب أن تدفعه تم المصلحة الذاتية فقط. ولذا أنت تشعر بالرضى لأنني لا أفعل ذلك لأني أحبك أو أشعر بأي صداقة معك؛ لكنك تعتقد أنك عرضت لي ما يكفي لأن أضع أمامي فرصة مماثلة للخلود.

(142) تال: فترة زمنة قصيرة جدًا تعادل تقريبًا الثانية على كوكب الأرض. وقد ورد في قصة «آلهة المريخ» أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على 24 ساعة و37 دقيقة (بتوقيت كوكب الأرض). ويقسمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية تسمى زود (أي أن دورة المريخ حول محوره تساوي 10 زود)، وينقسم الزود إلى خمسين فترة أقصر تسمى زات (أي أن الزود يعادل 50 زات)، يتكون كل منها بدوره من 200 فترة زمنية قصيرة تعادل تقريبًا الثانية في كوكب الأرض وتسمى تال (أي 200 تال يعادل 1 زات) – المترجمة.

«وبغض النظر عن تعاليمك، أخشى أنني ما زلت عاطفيًّا نوعًا ما وأتوق إلى تصحيح الأخطاء. إنني أتوق إلى الصداقة والحب. السعر الذي عرضته ليس كافيًا. هل أنت على استعداد لأن تدفع لي أكثر لأنهي هذه العملية بنجاح؟».

استقرت نظرته نحوي لدقيقة طويلة. وسألني: «ماذا تريد؟». رأيته يرتجف غضبًا، لكنه لم يرفع صوته.

سألته: «هل تذكر الحالة '4296-ي-2631-هـ'؟».

«الحالة التي تسكن جسم ظاظا؟ نعم، أذكرها. ماذا عنها؟».

«أريد أن يعود لها جسدها. هذا هو الثمن الذي يجب أن تدفعه لهذه العملية».

نظر نحوي شذرًا: «هذا مستحيل. ظاظا لديها الجسد. وحتى إن اهتممت بالقيام بذلك، فلن يمكنني استعادته أبدًا. هيا، عليك أن تشرع في العملية!».

قلت بإصرار: «عندما تعطيني وعدًا».

«لا يمكنني أن أعدك بشيء مستحيل، لا يمكن الحصول ظاظا. اطلب شيئًا آخر. أنا لست رافضًا لأي طلب معقول».

«هذا كل ما أريده- هذا فقط؛ لكني لست مصرًّا أن تحصل على الجسم. إذا أحضرت لك ظاظا هنا، فهل تقوم بعملية النقل؟».

استشاط عضبًا: «هذا قد يعني الحرب بين تونول وفوندال».

قلت: «وهذا لا يهمني. بسرعة! عليك أن تتخذ قرارك. سوف أضغط على الزر بعد خمس تالات. إذا وعدتني بإنجاز طلبي، ستجد نفسك بجسم جديد وجميل؛ وإذا رفضت، سوف ترقد هنا في ما يشبه الموت

إلى الأبد».

قال ببطء: «أعدك، إذا أحضرت جسم ظاظا إلى هنا، سأنقل إليه أي مخ تختاره من بين الحالات الموجودة عندي».

قلت: «جيد»، وقمت بالضغط على الزر.

***

الفصل (6)

الخطر

استيقظ راس ثافاس من التخدير مخلوقًا جديدًا رائعًا - شابًّا يتمتع بجمال عجيب يبدو سماويًّا أكثر منه دنيويًّا؛ لكن هذا الرأس الجميل كان يحوي المخ الصارم البارد لجراح عجوز يتجاوز عمره ألف عام. وعندما فتح عينيه، نظر نحوي ببرود.

وقال: «أحسنت».

قلت: «لقد قمت بذلك من أجل الصداقة- ربما من أجل الحب؛ يمكنك إذَنْ أن تشكر العاطفة التي تنتقدها لأنها سبب نجاح عملية النقل».

لم يردّ.

واصلت حديثي: «والآن، سوف أنتظر منك الوفاء بوعدك».

قال: «عندما تحضر جسم ظاظا، سوف أنقل إليه مخ أي حالة تنتقيها. لكني لو كنت مكانك، فيجب ألا أعرض حياتي لخطر مشروع مستحيل- لا يمكنك أن تنجح. يمكنك اختيار جسم آخر – يوجد العديد من الجميلات – وسوف أمنحه مخ الحالة '4296-ي-2631-هـ'».

قلت: «لن يفي بوعدك سوى الجسم الذي تملكه الآن الجيدارة ظاظا».

هز كتفيه، وظهرت ابتسامة باردة على شفتيه الوسيمتين. قال: «حسنًا، يمكنك إحضار ظاظا. متى تبدأ؟».

«لست جاهزاً بعد. سوف أخبرك عندما أجهز».

«حسنًا. انصرف الآن– لكن، انتظر! عليك أن تذهب أولاً إلى المكتب وترى الحالات التي تنتظرنا، وإذا وجدت أي حالات لا تتطلب انتباهي الشخصي، وتقع في إطار مهارتك ومعرفتك، يمكنك رعايتها بنفسك».

لاحظت خلال مغادرتي ابتسامة رضى ماكرة على شفتيه. تُرى ماذا أثارها؟ لم يعجبني ذلك. وحينما ابتعدت، حاولت التفكير في ما قد مر بذلك المخ العجيب ليستدعي ابتسامة غير سارة في تلك اللحظة الخاصة. وعندما سرت عبرت المدخل

ووصلت إلى الممر، سمعته يستدعي عبده وحارسه الشخصي يمدور– وهو زميل ضخم، يحافظ راس ثافاس على ولائه من خلال إغداقه بالهدايا الفخمة والأفضال التي لا تُعد ولا تُحصى. كانت سلطة هذا الزميل هائلة بحيث يخشاه الجميع؛ إذ يمكن لكلمة من شفتي يمدور إلى سيده أن ترسل بسهولة أي من العبيد أو المعاونين الكثيرين إلى الخلود على لوح الإرسايت. وتطرح الشائعات أن هذا الزميل كان نتيجة لتجربة غير طبيعية، جمعت بين مخ امرأة وجسم رجل. وهناك الكثير في تصرفاته وسلوكياته تبرر هذا الاعتقاد العام. كانت لمسته، عندما يعمل مع سيده، ناعمة وخفيفة، وحركته رشيقة، وأساليبه لطيفة، لكن عقله كان غيورًا وانتقاميًّا ولا يرحم.

أعتقد أنه لم يكن يحبني، لغيرته من السلطة التي اكتسبتها في منشأة راس ثافاس؛ فما من شك أنني كنت بمثابة نائب بينما هو مجرد عبد؛ إلا أنه كان يمنحني دومًا كل تقدير واحترام. بيد أنه كان مجرد ترس صغير في آلية المنشأة العظيمة التي يرأسها العقل السيادي لراس ثافاس، ولذا منحته بعض الاعتبار؛ لكني لم أفعل ذلك الآن وأنا أخطو صوب المكتب.

لم أكن قد قطعت إلا مسافة قصيرة عندما تذكرت مسألة تتسم بالأهمية، وكان من الضروري أن أحصل بشأنها على إرشادات من راس ثافاس على الفور. ولذا عدت أدراجي نحو جناحه. وعندما اقتربت من المدخل المفتوح، سمعت الصوت الجديد للسيد الجراح. كان راس ثافاس يتحدث دائمًا بصوت مرتفع، سواء كانعكاس صوتي طبيعي لشخصيته السلطوية المهيمنة، أو بسبب إصابته بالصمم- لا أعرف؛ لكن كلماته الآن، مع الأحبال الصوتية الشابة لجسده الجديد، ترن واضحة مميزة في الممر المؤدي إلى غرفته.

كان يقول: «لهذا، يمدور، عليك أن تذهب على الفور وتختار عبدين تثق في صمتهما وحذرهما، وتأخذوا الحالة من جناح فاد فارو وتدمروها– لا تترك أي بقايا من الجسم أو المخ. وبعد ذلك مباشرة، تحضر العبدين إلى المختبر 'ف-30-ل'، ولا تسمح لهما بالتحدث إلى أي شخص، وسوف أرسلهما إلى غياهب الصمت والنسيان إلى الأبد».

«سوف يكتشف فاد فارو غياب الحالة، ويبلغني بذلك. وأثناء التحقيق، عليك أن تعترف بأنك ساعدت '4296-ي-2631-هـ' على الهرب، لكنك لا تعرف إلى أين كانت تنوي الذهاب. سوف أحكم عليك بالإعدام كعقوبة، لكني في النهاية سوف أشرح مدى احتياجي المُلح

لخدماتك، ثم بناء على تعهدك الرسمي أنك لن تقوم بأي مخالفة أخرى، سوف أقوم بتأجيل العقوبة لفترة استمرار حسن السير والسلوك. هل تفهم مجمل الخطة بدقة؟»

أجاب يمدور: «نعم، سيدي».

«إذَنْ توجَّهْ على الفور لاختيار العبدين لمساعدتك».

انطلقت بسرعة وفي صمت على طول الممر إلى أن أتاح لي أول تقاطع الاختباء عن أنظار أي شخص قادم من جناح راس ثافاس؛ ثم توجهت مباشرة إلى الغرفة التي تشغلها فالا ديا. فتحت الباب وأشرت لها بالخروج: «بسرعة! فالا ديا! ليس لدينا وقت نضيعه. ففي محاولتي لإنقاذك، جلبت لك الدمار. علينا أولاً أن نجد مكانًا تختبئين فيه، الآن على الفور، وبعد ذلك يمكننا التخطيط للمستقبل».

أول مكان طرأ في ذهني كمخبأ مناسب: الأقبية نصف المنسيّة في الحُفر التي تقع تحت المختبرات، وأسرعت أنا وفالا ديا نحوها. سردت لها خلال سيرنا كل ما حدث، ولم تلمني على الإطلاق؛ بل أعربت بالأحرى عن امتنانها لما أسعدها أن تُسميه صداقتي غير الأنانية. وأكدت لي أن فشل المشروع ليس بسببي، وأصرت أنها تُفضل الموت وهي تعرف أن لديها صديقًا مثلي على العيش إلى الأبد بلا أصدقاء.

وصلنا أخيراً إلى القاعة التي كنت أسعى إليها - القبو ‘ل-42-إكس’ في المبنى ‘4-ج-21’، حيث يرقد جسما القرد والرجل، الذي يمتلك كل منهما نصف مخ الآخر. كنت هنا مجبراً على ترك فالا ديا كي أسرع إلى المكتب لأداء الواجبات التي فرضها راس ثافاس، خشية إثارة شكوكه عندما يُبلغه يمدور أنه وجد شقتها شاغرة.

وصلت إلى المكتب دون أن يكتشف أي شخص يمكنه إبلاغ راس ثافاس أنني غبت لفترة طويلة بعد خروجي من شقته. شعرت بالارتياح عندما لم أجد أي حالات. وجدتها ذريعة للخروج. ودون إبداء أي مظهر من التسرع غير المبرر، اتخذت طريقي على الفور نحو جناحي، متحركًا على مهل وبلا مبالاة، كما كنت أطلق كعادتي صفيراً (وهي العادة الذي كانت تغضب راس ثافاس كثيرًا)، لأغنية كانت شائعة في وقت مغادرتي كوكب الأرض. كان صفيراً لمقطع «أوه، يا فرنسيين».

كان هذا وضعي عندما التقيت بيمدور يتحرك مسرعًا على طول الممر الذي يخرج من شقتي، بصحبة عبدين من الذكور. قمت بتحيته بسرور، كعادتي، ورد التحية؛ لكن تعبيرات الخوف والشك كانت تملأ عينيه. ذهبت على الفور إلى جناحي وفتحت الباب

المؤدي إلى الغرفة التي كانت تشغلها فالا ديا، ثم سارعت فورًا إلى شقة راس ثافاس ووجدته يتحدث مع يمدور. هرعت لاهثًا ومتخذًا مظهر الانفعال الشديد.

سألته: «راس ثافاس، ماذا فعلت بالحالة '4296-ي-2631-هـ'؟ لقد اختفت؛ شقتها فارغة؛ وعندما كنت أقترب من الشقة قابلت يمدور وعبدين آخرين قادمين من اتجاهها». استدرت بعد ذلك إلى يمدور وأشرت نحوه بإصبع اتهام، صائحًا: «يمدور! ماذا فعلت بهذه المرأة؟».

بدت حيرة حقيقية على راس ثافاس ويمدور، وهنأت نفسي أنني نجحت في تغيير مسار سعيهما. أعلن السيد الجراح إجراء تحقيق فوري؛ وفي الوقت نفسه أصدر أوامره ببحث شامل للمكان وللجزيرة خارج الحظيرة. أنكر يمدور أي معرفة بالمرأة، وكنت أنا، على الأقل، أعلم بصدق احتجاجاته، لكن راس ثافاس لم يكن كذلك. فقد رأيت لمحة تشكك في عينيه وهو يسأل خادمه الشخصي؛ لكنه بالفعل لا يمكنه تصور أي دافع لارتكاب يمدور هذه الخيانة، لأنه وافق على تمثيل اختطاف امرأة وما يترتب على ذلك من عصيان جسيم للأوامر.

لم يكشف التحقيق الذي أجراه راس ثافاس عن أي شيء. وأعتقد أن شكوكه في أنني ربما أعرف المزيد عن اختفاء فالا ديا أكثر مما أظهر سلوكي قد زادت تدريجيًّا بمرور الوقت، فقد أصبحت الآن على دراية بدقة إخفاء التجسس. تمكنت حتى الآن من تهريب المواد الغذائية إلى فالا ديا كل ليلة، بعد ذهاب راس ثافاس إلى جناحه للراحة. وفي إحدى المناسبات، شعرت فجأة أن هناك من يتبعني. ولذا، توجهت إلى المكتب، بدلًا من الأقبية، حيث أضفت بعض الملاحظات على تقريري حول قضية قد عالجتها في ذلك اليوم. وكنت أدندن، خلال عودتي إلى غرفتي، بعض مقاطع من «بعيدًا هناك»، بحيث تبدو راحة بالي واضحة. وكنت على يقين من وجود أعين تراقب تحركي، من لحظة مغادرة لجناحي حتى عودتي. «ماذا أفعل؟» يجب أن تحصل فالا ديا على الطعام وإلا ستموت؛ وإذا تتبعني أحد خلال حملي الطعام إلى مكان اختفائها، ستموت؛ سيعمل راس ثافاس على تحقيق ذلك.

بقيت مستيقظًا نصف الليلة، أفكر في حلول مختلفة لهذه المشكلة. لم أجد سوى طريقة واحدة - يجب أن أتملص من الجواسيس. إذا نجحت في ذلك مرة واحدة، يمكنني تنفيذ باقي الخطة التي طرأت في ذهني وهي، كما تصورت، الخطة الوحيدة الممكنة التي قد تؤدي في نهاية المطاف إلى استعادة فالا ديا لجسدها. كان الطريق طويلًا، والمخاطر هائلة؛ لكنني كنت شابًّا وواقعًا في الحب ومستهترًا بالعواقب تمامًا

بقدر ما يتعلق الأمر بي؛ وكان لسعادة فالا ديا وحدها ألا أخاطر بشدة إلا تحت ضغط شديد. حسنًا، الضغوط موجودة، ويجب أن أخاطر حتى ولو بحياتي.

وضعت خطتي ورقدت مستيقظًا على حرير وفراء النوم في ظلام غرفتي، في انتظار توقيت تنفيذها. كانت نافذتي في الطابق الثالث، وتطل على الحظيرة ذات الأسوار، عند المرج القرمزي الذي كان أول موقع تطأه قدمي عند وصولي إلى برسوم. عبر النافذة المفتوحة شاهدت القمر كلوروس[143]، القمر الأبعد، يتخذ طريقه البطيء المتعمَّد.

لقد غرُب بالفعل. وخلفه، تهرب ثوريا[144]، عشيقته بعيدة المنال، عبر السماء. وسوف تغرب ثوريا خلال خمس زاتات (حوالي 15 دقيقة)؛ وبعد حوالي ثلاثة ساعات وثلاثة أرباع ساعة (بساعات كوكب الأرض) سوف تظلم السماء، باستثناء وجود النجوم.

ربما تترصدني في الممر تلك الأعين الساهرة. توسلت إلى ربي ألا توجد في أماكن أخرى، إذ غرق القمر ثوريا أخيراً تحت الأفق. توجهت إلى حافة النافذة وفي يدي حبل طويل صنعته من شرائط مجدولة من حرير النوم خلال انتظاري غروب القمرين. قمت بربط أحد طرفي الحبل بمقعد طويل من خشب السورابوس[145] الثقيل بعد أن وضعته بالقرب من النافذة. وقمت بإسقاط الطرف الآخر من الحبل عبر النافذة وبدأت الهبوط. ونظرًا لأنني لم أكن قد اختبرت عضلاتي المنتمية لكوكب الأرض في مثل هذه المحاولة، لم أكن واثقًا أنها ستحملني إلى حافة النافذة في قفزة واحدة عند عودتي. كنت أشعر أنها ستحملني، لكني لم أكن أعرف؛ وكان الكثير يعتمد على نجاح مغامرتي وعدم المخاطرة بأي فرصة فشل غير ضرورية. ولذا توليت إعداد هذا الحبل.

لا أعرف ما إذا كنت مراقَبًا. يجب أن أواصل كأنما لا يوجد أحد يتجسس عليَّ. سيعود القمر ثوريا بعد أقل من أربع ساعات (قبل فجر برسوم المفاجئ مباشرة)، ويجب أن أصل إلى فالا ديا خلال هذه الفترة، وإقناعها بضرورة خطتي وتنفيذها بتفاصيلها، ثم العودة إلى غرفتي قبل أن يكشفني القمر ثوريا أمام أي مراقب. حملت أسلحتي معي، وفي قلبي عزيمة لا تلين بقتل أي من أصادفه في طريقي ويتعرف عليَّ خلال مهمتي، مهما كانت نواياه بريئة من الشر ضدي.

---

(143) كلوروس: أحد أبعد قمري المريخ عن الكوكب الأم، ومعروف لدى سكان كوكب الأرض باسم القمر ديموس - http://barsoom.wikia.com/wiki/Cluros - المترجمة.

(144) ثوريا: القمر الأقرب للمريخ من قمرين يدوران حوله؛ ومعروف في كوكب الأرض باسم فوبوس - http://barsoom.wikia.com/wiki/Thuria – المترجمة.

(145) سورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بثماره النضرة المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapus - المترجمة.

كانت الليلة هادئة باستثناء الأصوات البعيدة المعتادة التي كنت أسمعها منذ قدومي، وفسرتها على أنها صيحات الحيوانات المتوحشة. وقد سألت راس ثافاس عنها ذات مرة، لكن مزاجه لم يكن معتدلاً وتجاهل سؤالي. وصلت إلى الأرض بسرعة، وتحركت مباشرة دون تردد إلى أقرب مدخل للمبنى، إذ سبق وبحثت وحددت الطريق الذي سأتبعه إلى القبو. لم أشهد أحدًا، وكنت واثقًا عندما وصلت أخيرًا إلى المدخل أنني وصلت دون أن يكتشفني أي شخص. شعرت فالا ديا بالسعادة لرؤيتي مرة أخرى، إلى حد امتلاء عينيَّ بالدموع.

صاحت: «تصورت أن شيئًا قد حدث لك، فأنا أعلم أنك لا يمكن أن تغيب طويلاً بمحض إرادتك».

أخبرتها عن اقتناعي بأنني تحت المراقبة، وأنه لم يعُد في إمكاني إحضار الطعام لها دون التعرض للانكشاف، مما سيعني موتها الفوري.

قلت: «هناك بديل واحد»، ولم أكن أجرؤ حتى على اقتراحه إن كانت توجد أي طريقة أخرى. يجب أن تختفي بشكل آمن لفترة طويلة إلى أن تهدأ شكوك راس ثافاس؛ إذ ما دام يضعني تحت المراقبة، لن أتمكن

من تنفيذ الخطط التي وضعتها لإنقاذك واستعادة جسمك وعودتك إلى دوهور».

«إرادتك هي القانون الذي أتبعه، فاد فارو».

هززت رأسي: «سيكون الأمر أكثر صعوبة بالنسبة إليكِ مما تتخيلين».

سألتني: «ما السبيل؟».

أشرت إلى الطاولة ذات السطح الإرسايتي، وقلت: «يجب أن تخوضي المحنة مرة أخرى، حتى أتمكن من إخفائكِ في هذا القبو إلى أن يحين وقت تنفيذ خططي. هل يمكنك احتمال ذلك؟».

ابتسمت قائلة: «ولِمَ لا؟ إنه مجرد نوم- وإذا استمر إلى الأبد، لن أكون أكثر حكمة».

فوجئت بعدم رفضها للفكرة، لكنني سُررت لمعرفتي أنها فرصة النجاح الوحيدة أمامنا. استلقت دون مساعدة مني على اللوح الإرسايتي.

قالت بشجاعة: «أنا مستعدة، فاد فارو؛ لكنك يجب أن تعطيني أولاً وعدًا بأنك لن تقوم بأي مخاطرة في هذا المشروع المجنون. لن تنجح. عندما أغلق عيني، أعرف أنها ستكون المرة الأخيرة إذا كان استيقاظي يتوقف على نجاح هذه المغامرة المجنونة التي لم يتصورها إنسان من قبل؛ مع ذلك، أنا سعيدة لأنني أعرف أنها مُستَلهَمة من الصداقة العظيمة التي يمكن أن تنعم بها أي امرأة».

توليت خلال حديثها ضبط الأنابيب، وأقف الآن بجوارها وإصبعي على زر تشغيل الموتور.

همست: «وداعًا، فاد فارو».

«ليس وداعًا، فالا ديا، وإنما فقط نومًا جميلاً لمدة ستكون بالنسبة إليكِ أقصر لحظة. ستبدو كأنكِ تغمضين عينيكِ وتفتحينهما مرة أخرى. وكما تريني الآن، سأكون واقفًا هنا إلى جواركِ كأنما لم أتركِكِ أبدًا. وبمثل ما أنا آخر ما تقع عليه عيناكِ هذه الليلة قبل أن تغلقيها، سأكون أول ما تشاهديه عندما تفتحينهما في ذلك الصباح الجديد الجميل؛ لكنكِ لن تنظري من خلال أعين ظاظا، وإنما من أعماق أعينكِ الشفافة الجميلة».

ابتسمت وهزت رأسها. وتشكلت دمعتان تحت جفنيها. أمسكت بيدها ضاغطًا، ولمست الزر.

***

الفصل (7)

الشكوك

وصلت إلى شقتي دون أن يكتشفني أحد، بقدر علمي. أخفيت الحبل في مكان كنت على يقين من عدم اكتشافه، ثم تدثرت بحرير وفراء النوم وسرعان ما نمت.

عندما خرجت من جناحي في صباح اليوم التالي، لمحت هيئة شخص في ممر قريب؛ ومنذ ذلك الحين، ولفترة طويلة، تمكنت من الحصول على أدلة إضافية تؤكد أن راس ثافاس كانت تساوره الشكوك تجاهي. ذهبت إلى جناحه على الفور كعادتي. كان يبدو قلقًا، لكنه لم يعطني أي تلميح بأنه على يقين بأنني مسؤول عن اختفاء فالا ديا، وأعتقد أنه لم يكن متأكدًا. فقد كانت المسألة ببساطة أن بصيرته تشير إلى أنني الشخص الوحيد الذي قد يوجد لديه سبب للتدخل بأي شكل من الأشكال في هذا الموضوع بالذات، ووضعني تحت المراقبة لإثبات أو دحض شكوكه المنطقية. وقد شرح لي أسباب قلقه.

قال: «أدرس غالبًا رد فعل الآخرين الذين خضعوا لعملية نقل المخ، ولذا لم يدهشني كليًّا رد فعلي. لم يقتصر الأمر على حفز طاقة مخي، بما أسفر عن زيادة إنتاج الطاقة العصبية، بل أشعر أيضًا بتأثير الأنسجة الشابة والدماء الشابة في جسدي الجديد. إنها تؤثر على وعيي بطريقة أشارت إليها تجربتي بغموض، لكني أرى الآن ضرورة المرور بخبرتها في الواقع حتى أفهمها تمامًا. لقد تغيرت، أو على الأقل تلونت، أفكاري وميولي، وحتى طموحاتي، نتيجة لعملية النقل. وسوف يستغرق الأمر مني بعض الوقت لأجد نفسي».

على الرغم من عدم اهتمامي، استمعت إليه بأدب حتى أنهى كلامه، ثم غيرت الموضوع وسألته: «هل عرفت مكان المرأة المفقودة؟».

هز رأسه سلبًا.

قلت: «يجب أن تُقدر، راس ثافاس، أنني أدرك تمام الإدراك أنك تعرف أن طرد أو تدمير تلك المرأة سوف يحبط خطتي بأكملها. أنت الرئيس هنا. لا شيء يحدث دون علمك».

سألني: «هل تعني أنني مسؤول عن اختفاء المرأة؟».

«من المؤكد. هذا بديهي. وأنا أطالب باستعادتها».

فقد أعصابه. وصاح: «من أنت لتطالب؟ أنت لست سوى عبد. توقف عن وقاحتك وإلا سأمحوك، سوف أمحوك. ستصبح كأنك لم توجد أبدًا».

ضحكت في وجهه، وقلت لتذكيره: «الغضب هو أكثر السمات عُقمًا في المشاعر. أنت لن تمحوني؛ لأنني الوحيد الذي يقف بينك وبين الموت».

قال: «يمكنني تدريب شخص آخر».

قلت موضحًا: «لكنك لا تستطيع الوثوق به».

صاح: «لكنك ساومتني على حياتي عندما كنت تحت يديك».

«لا لشيء يمكن أن يضرك إذا منحته لي عن طيب خاطر. أنا لم أطلب شيئًا لنفسي. على أي حال، سوف تثق بي مرة أخرى. سوف تثق بي، ليس لأي سبب آخر غير أنك مجبر على الثقة بي. لماذا لا تحظى إذَنْ بامتناني وولائي بإعادة المرأة لي وتنفيذ شروط اتفاقنا واقعيًّا وروحيًّا؟».

استدار ونظر نحوي بثبات وهو يقول: «فاد فارو، أعطيك كلمة شرف نبيل برسومي أنني لا أعرف أي شيء على الإطلاق عن مكان وجود '4296-ي-2631-هـ'».

قلت بإصرار: «ربما يمدور يعرف».

«ولا يمدور. في حدود علمي، لا يعرف أي شخص يرتبط بي بأي شكل ما حدث. لقد قلت الحقيقة».

حسنًا، لم تكن المحادثة دون جدوى كما يمكن أن تبدو، فقد كنت على يقين أنها أقنعت راس ثافاس تقريبًا أنني أجهل بالمثل مصير فالا ديا. لم تقنعه كلية لأن التجسس استمر لفترة طويلة، وهو ما جعلني أقرر استخدام أساليب راس ثافاس نفسها في دفاعي. كنت قد خصصت عددًا من العبيد، فزت بهم بالعطف والتفاهم إلى أن عرفت أنني أحوز كامل ولائهم. ليس لديهم أي سبب لحُب راس ثافاس، بل لديهم كل ما يدعو إلى كراهيته. ومن ناحية أخرى، ليس لديهم أي سبب يدعو إلى كراهيتي، ورأيت أن لديهم كل الأسباب لمحبتي.

وكانت النتيجة أنني لم أجد أي صعوبة في تكليف اثنين منهم بالتجسس على جواسيس راس ثافاس، ما أدى إلى أنهم سرعان ما أخبروني أن شكوكي قائمة على أسس

سليمة – فقد كنت تحت المراقبة الدائمة في كل دقيقة أكون فيها خارج جناحي، لكن التجسس لم يتجاوز الجدران الخارجية لغرفتي. وهذا هو سبب نجاحي في الوصول إلى القبو بتلك الطريقة؛ فقد افترض الجواسيس أنني لن أغادر غرفتي إلا من مخرجها الطبيعي، ولذا تركزت حراستهم على هذا المخرج وتركوا نوافذي دون مراقبة.

أعتقد أن التجسس استمر لحوالي شهرين، ثم أخبرني رجالي أن المراقبة توقفت تمامًا. كنت أشعر بالضيق طوال كل هذا الوقت بسبب التأخير، لأنني أردت أن أشرع في خططي التي كان من المستحيل تمامًا تنفيذها وأنا تحت المراقبة. أمضيت الفترة في دراسة جغرافية نصف الكرة الشمالي الشرقي في برسوم، حيث كنت سأنفذ أنشطتي، كما درست أيضًا عددًا كبيراً من الحالات وتاريخها وشخوصها. وأخيراً، مع توقف الجواسيس، بدا الأمر كأنما يمكنني البدء قريبًا في وضع خططي موضع التنفيذ الفعال.

منحني راس ثافاس لفترة قدرًا كبيراً من الحرية لإجراء بحوث وتجارب مستقلة، وقد عزمت على الاستفادة من كل السبل الممكنة التي قد تسهم في تحقيق خططي لاستعادة فالا ديا. كان في ذهني، خلال دراستي لتاريخ العديد من الحالات، إمكانية اكتشاف الحالات التي قد تساعدني في مشروعي. ومن بين الحالات التي استحوذت على انتباهي بعناية كانت، بطبيعة الحال، تلك الحالات التي التي أعرفها أكثر وهي: حالة '378-ج-493811-ب'، الرجل الأحمر الذي أنقذت راس ثافاس من هجومه الأثيم يوم وصولي إلى المريخ، وهو الذي نُقل نصف مخه إلى قرد.

وحالة '378-ج-493811-ب'، هي لشخص من فوندال، محارب شباب ملحق ببلاط ظاظا، جيدارة فوندال، وضحية اغتيال. اشترى نبيل من فوندال جسمه، كما أخبرني راس ثافاس، بغرض الفوز باستحسان جمال الشباب. شعرت أنني ربما أستفيد بخدماته، لكن ذلك سيتوقف على مدى ولائه لظاظا. ولن أتمكن من تحديد ذلك إلا بإيقاظه واستجوابه.

نشأ الشخص الذي أخذ قرد نصف مخه في بتارث[146] ، التي تقع على مسافة بعيدة غرب فوندال ونحو الجنوب قليلاً على مسافة مساوية تقريبًا من دوهور، التي تقع على الشمال وغربها قليلاً. فكرت في أن ساكن بتارث قد يعرف الكثير عن مجمل البلد الذي يتضمنه المثلث الذي يتكون من فوندال وبتارث ودوهور. وسوف تثبت قوة وضراوة القرد قيمتها في عبور الأراضي القفر التي تنتشر فيها الوحوش. وشعرت أن بإمكاني الحصول على وعد كافٍ من النصف البشري من مخ الوحش الكبير، الذي يسيطر الآن بالفعل على

(146) بتارث: إحدى الممالك التي تضم مريخيين حُمْرًا ولديها علاقات وثيقة مع هيليوم https://barsoom.fandom.com/wiki/Ptarth - -المترجمة.

المخلوق، للفوز بتأييده وولائه. أما الحالة الثالثة التي اخترتها مؤقتًا فهي حالة القاتل التونولي سيئ السمعة، الذي أكسبته وقاحته وجسارته ومهارته كمبارز سُمعةً تجاوزت حدود بلده.

وقد أخبرني راس ثافاس نفسه، وهو من تونول، عن بعض الأشياء عن تاريخ هذا الرجل الذي لا تخلو قتامته من الشرف في برسوم، كما ارتفع جور هاجوس[147] إلى أعلى تقدير عند مواطني بلده لأنه لم يقتل أبدًا امرأة أو رجلاً صالحًا، ولم يضرب أبدًا من الخلف. وكانت عمليات القتل التي قام بها نتيجة دائمًا لمعارك عادلة تتمتع خلالها الضحية بكل فرصة للدفاع عن النفس وقتل مهاجمه؛ كما اشتهر بولائه لأصدقائه. وفي واقع الأمر، أسهم ولاؤه هذا في سقوطه وأتى به إلى أحد ألواح راس ثافاس الإرسايتية منذ عدة سنوات؛ إذ اكتسب عداوة فوبيس كان، جيداك تونول، بسبب رفضه اغتيال رجل كان صديقًا بدرجة طفيفة لجور هاجوس؛ وبعدها تولدت عند فوبيس كان شكوك بأن جور هاجوس قرر قتله. وكانت النتيجة الحتمية هي إلقاء القبض على جور هاجوس والحكم عليه بالإعدام. وبعد تنفيذ الحكم مباشرة، اشترى أحد وكلاء راس ثافاس الجثة.

هؤلاء هم الثلاثة الذين اخترتُهم كشركاء في مغامرتي الكبيرة. وصحيح أنني لم أناقش الموضوع مع أي منهم، لكن بصيرتي أكدت لي أنني لن أجد صعوبة في الاستعانة بخدماتهم وضمان ولائهم في مقابل إيقاظهم الكامل.

تكمن مهمتي الأولى في تجديد أعضاء الحالة '378-ج-493811-ب' وحالة جور هاجوس الذي كان قد أُصيب بجراح خطيرة. تحتاج الحالة الأولى رئة جديدة؛ وتحتاج الحالة الثانية قلبًا جديدًا، حيث طعنه قاتله بسيف قصير. ترددت في استئذان راس ثافاس بإجراء تجارب على هذه الحالات خوفًا من إثارة شكوكه، وعندئذ ربما يدمرهم، ولذا كنت مضطرًّا إلى إنجاز التصميمات بالحيلة وفي سرية. وتحقيقًا لهذه الغاية، اعتدت لأسابيع مواصلة عملي العادي في المختبر لفترة تمتد خلال الليل، وكثيرًا ما أطلب خدمات من المساعدين المختلفين بحيث يعتاد الجميع على رؤيتي أعمل في ساعات غير معتادة. وتعمدت عند اختياري للمساعدين، انتقاء جاسوسين كان راس ثافاس قد كلفهم بمراقبتي. فعلى الرغم من أن مهمتهم في مراقبتي قد انتهت، كنت آمل أنهم سينقلون أخبار أنشطتي إلى سيدهم، وكنت حريصًا على أن يعرفوا مني الإيحاءات الصحيحة لصياغة تقريرهم بلغة لا تُلحِق بي أي ضرر. نقلت إليهم، بأبسط الإيحاءات، فكرة أنني أعمل لفترة متأخرة لمجرد حب العمل ذاته واهتمامي الهائل به الذي أيقظه

(147) جور هاجوس: قاتل أحمر من مدينة تونول يخشاه الناس كثيراً ويعجبون به، ويشتهر بقتل ضحاياه في معارك عادلة وبرفضه قتل من يعتبرهم جديرين بالعيش - https://barsoom.fandom.com/wiki/Gor_Hajus - المترجمة.

راس ثافاس في ذهني. كنت أعمل في بعض الليالي مع مساعدين، وكثيراً ما كنت أعمل بمفردي، لكني حرصت دائمًا على أن يعرف العاملون في المكتب في صباح اليوم التالي أنني عملت بجهد لفترة طويلة في الليلة السابقة.

وبعد إعداد هذه الأسس بعناية، شعرت ببعض الخوف نسبيًّا من نتائج اكتشاف ما سأفعله عندما أبدأ عملي على محارب فوندال وقاتل تونول. اخترت أن أبدأ بالمحارب. أُصيبت رئته بجروح بالغة عندما مر نصلي بها، لكني وجدت في المختبر بقايا أعضاء جزئية وعثرت على رئة مثالية ووضعتها محل الرئة التي أفسدتها. استغرق العمل نصف الليل. كنت متلهفًا لإكمال مهمتي، حيث شرعت فور الانتهاء من فتح صدر جور هاجوس الذي اخترت له قلبًا قويًّا وضخمًا بشكل غير عادي. أسرعت في العمل، ونجحت في إتمام عملية النقل قبل الفجر. ونظرًا لمعرفتي بطبيعة الجروح التي أودت بحياة هذين الرجلين، أمضيت أسابيع في القيام بعمليات مماثلة بحيث أتقن عملي عليهما بوجه خاص؛ ولأنني لم أُواجه أي ظروف مرضية غير عادية في أي من الحالتين، أحرزت تقدمًا في العمل بسلاسة وبسرعة كبيرة. لقد أكملت ما كنت أخشى أنه الجزء الأصعب في مهمتي. والآن، بعد إزالة أكبر قدر ممكن من دلائل العملية باستثناء الشريط العلاجي الذي يغلق الشقوق، عدت إلى جناحي لبضع دقائق لاحتياجي الشديد إلى الراحة، داعيًا ألا يفحص راس ثافاس مصادفة أيًّا من الحالتين التي أعمل عليهما، على الرغم من أنني حصنت نفسي ضد هذا الاحتمال بإدخال كامل تفاصيل العملية على بطاقة تاريخ كل حالة بحيث أواجهه بلعبة الصراحة -على أساس أنني دونت العمل- بما قد يخفف من اشتباهه في أي دوافع خفية من جانبي إذا اكتشف عملي.

استيقظت في الوقت المعتاد، وتوجهت على الفور إلى جناح راس ثافاس، حيث قُوبلت بقذيفة مدوية كادت أن تدمر رباطة جأشي. نظر نحوي عن كثب لفترة طويلة قبل أن يتحدث.

قال: «امتد عملك لفترة متأخرة الليلة الماضية، فاد فارو».

«كثيراً ما أفعل»، أجبته بخفة، لكن قلبي كان ثقيلاً كحجر.

تساءل: «وما الذي شغل اهتمامك إلى هذا الحد؟».

شعرت كأنني فأر يلاعبه القط. أجبت: «كنت أقوم بنقل رئة وقلب، وانهمكت في العمل إلى درجة أنني لم ألحظ مرور الوقت».

«علمت أنك واصلت العمل حتى وقت متأخر من الليل. هل تعتقد أن هذا تصرف حكيم؟».

شعرت في تلك اللحظة أنه لم يكن تصرفًا حكيمًا، إلا أنني أكدت له عكس ذلك.

قال: «كنت قلقًا ولم أتمكن من النوم، فذهبت إلى جناحك بعد منتصف الليل، لكني لم أجدك. أردتُ شخصًا أتحدث معه، ولم يعرف عبيدك سوى أنك غير موجود، لا يعرفون أين كنت. ولذا أخذت أبحث عنك». وقع قلبي إلى قدمي. «خمنت أنك في أحد المختبرات، إلا أنني لم أجدك في بعض المختبرات التي ذهبت إليها بحثًا عنك». ارتفع قلبي بخفة ريشة. «منذ عملية النقل التي أُجريت لي وأنا مُصاب بلعنة القلق والأرق، إلى حد أنني أكاد أن أتمنى استعادة جسمي العجوز- شباب جسمي الحالي لا يتواءم مع قِدم مخي. فجسمي يمتلئ بدوافع ورغبات كامنة لا تتوافق مع الموضوعات المهمة في ذهني».

قلت: «أعتقد أن جسمك يحتاج إلى تمارين رياضية. إنه جسم شاب وقوي ومعافىً. وممارسة التمارين الرياضية سوف تتيح لعقلك الراحة في الليل».

أجاب: «أعرف أنك على حق، وقد وصلت إلى هذا الاستنتاج نفسه. وفي الواقع، عندما لم أجدك، أخذت أسير في الحدائق لمدة ساعة أو أكثر قبل العودة إلى جناحي، وعندئذ نمت جيدًا. سأقوم بالمشي كل ليلة لا أستطيع فيها النوم، أو أذهب إلى المختبرات وأعمل مثلك».

أثارت عبارته الأخيرة قلقي. فلا يمكنني التأكد الآن إلا أن راس ثافاس كان يتجول ليلاً، ولا يزال أمامي ليلة مهمة لإتمام عملي، وربما ليلتان. والسبيل الوحيد لتأكدي هو أن أكون معه».

قلت: «أرسل في طلبي عندما تشعر بالقلق، وسوف أسير وأعمل معك. يجب ألا تتجول هكذا في الليل بمفردك».

قال: «حسنًا، قد أفعل ذلك أحيانًا».

تمنيت أن يفعل ذلك دائمًا، لأعرف عندما لا يرسل في طلبي أنه آمنٌ في جناحه. مع ذلك رأيت أنني يجب من الآن فصاعدًا أن أواجه خطر الكشف. ولذا عزمت على الإسراع في إنهاء خططي والمخاطرة بكل شيء بضربة واحدة جريئة.

لم تسنح لي فرصة العمل في تلك الليلة؛ لأن راس ثافاس أرسل في طلبي مبكرًا وأبلغني أننا سوف نسير في الحدائق، وبالفعل سرنا إلى أن شعر بالتعب. ونظرًا لأنني في حاجة إلى ليلة كاملة لاستكمال ما يدور في ذهني، وسرت مع راس ثافاس حتى منتصف الليل، فقد اضطررت إلى التخلي عن كل شيء هذا المساء. لكنني أقنعته في صباح اليوم التالي بالسير مبكرًا بحجة أنني أود السير إلى ما بعد الحظيرة لمشاهدة برسوم، إلى جانب مشاهدتي لما يوجد داخل مختبراته وحدائقه. لم أثق كثيراً في أنه سيلبي طلبي، إلا أنه وافق. وأنا على يقين من أنه لم يكن ليفعل ذلك أبدًا إذا كان مرتديًا جسمه القديم العجوز؛ لكن الدماء الشابة غيرت راس ثافاس بدرجة كبيرة.

لم أذهب أبدًا خارج المباني، كما لم أشهد ما بعدها لعدم وجود نوافذ في الجدران الخارجية لأي مبنى؛ علاوة على أن الأشجار في جانب الحديقة تنمو إلى ارتفاع يحجب رؤية المشهد خلفها. سرنا لفترة في حديقة أخرى داخل الجدار الخارجي، ثم سألت راس ثافاس عما إذا أمكنني الذهاب إلى أبعد من ذلك.

قال: «لا. لن يكون آمنًا».

سألته: «ولماذا؟».

«سوف أُريك وفي الوقت نفسه أعطيك رؤية عن العالم الخارجي أوسع كثيراً مما يمكنك أن تحصل عليه بمجرد عبور البوابة. هيا، اتبعني!».

قادني على الفور إلى برج شاهق يرتفع أعلى أكبر مبنى في المجموعة التي تضم منشأته الشاسعة. يوجد في الداخل مدرج دائري يقود إلى أعلى وإلى أسفل. صعدنا، مرورًا على فتحات في كل طابق، حتى وصلنا أخيراً إلى قمته الشامخة. انتشر حولي أول مشهد طبيعي لبرسوم على أي امتداد تراه عيناي خلال الأشهر الطويلة التي أمضيتها على هذا الكوكب الأحمر. منذ سنة تقريبًا بحساب كوكب الأرض وأنا محبوس داخل جدران قاتمة في المختبر الدموي لراس ثافاس، إلى أن أصبحت تلك الحياة الغريبة تبدو طبيعية وعادية تمامًا؛ فنحن مخلوقات تتملكنا العادة. ولكن مع أول لمحة لبلد مفتوح، تدفقت داخلي رغبة ملحة في الحرية، في التحرك في المكان، في الغرفة- وكنت أعرف أنني سأحقق ذلك قريبًا.

تقع في أسفل مباشرة رقعة غير منتظمة من الأراضي الصخرية، ترتفع وربما لعشرة أقدام أو أكثر فوق المستوى العام للبلد المحيط مباشرة. تبلغ مساحتها مائة فدان، حسب تخميني التقريبي. وتقف فوقها المباني والأراضي المحاطة بجدار عال. ويقع البرج الذي نقف عليه في وسط إجمالي المساحة المسورة. ويوجد وراء الجدار الخارجي شريط من

الأرض الصخرية نمت فوقه غابة متناثرة من الأشجار كبيرة الحجم التي تتخللها رقع من نباتات الغابة. ووراء ذلك كله، هناك ما يبدو مستنقع طيني تمر خلاله مجارٍ مائية ضيقة تربط بين مياه بحيرات صغيرة مفتوحة توجد من حين لآخر، بالكاد ما تبلغ مساحة أكبرها فدانين. امتد

هذا المشهد بقدر ما يمكن أن تصل إليه العين. وكانت تقطعه أحيانًا جُزُرٌ مماثلة لجزيرتنا وعلى مسافة قصيرة من أفق مدينة كبيرة، تتألق أبراجها وقبابها ومناراتها وتومض في الشمس كأنما مطلية بمعدن لامع ومرصعة بأحجار ثمينة.

هذه بالتأكيد تونول، وحولنا مستنقعاتها الكبرى التي تمتد إلى ما يقرب من ألف وثمانمائة ميل، بمقاييس كوكب الأرض، شرقًا وغربًا؛ ويبلغ عرضها في بعض الأماكن حوالي ثلاثمائة ميل. لا يُعرف عنهم الكثير في بقاع برسوم الأخرى؛ لأن الوحوش الضارية تسكنها، كما لا تتيح أماكن لهبوط الطائرات، فضلاً عن أن طرفها الغربي يخضع لقيادة فوندال، بينما يخضع طرفها الشرقي لتونول، وهما مملكتان غير مضيافتين ولا ترحبان بأي اتصال مع العالم خارجهما، وتحافظان على استقلالهما عن طريق صعوبة الوصول إليهما وعزلتهما الوحشية.

عندما عادت عينايَ إلى الجزيرة التي نقف عليها، رأيت هيئة مخلوق ضخم تخرج من إحدى رقع الغابة القريبة، على مسافة قصيرة خلف الجدار الخارجي. وتلاه مخلوق ثانٍ ثم ثالث. لاحظ راس ثافاس أن تلك المخلوقات أثارت انتباهي.

قال مشيراً إليها: «هؤلاء الثلاثة هم من بين عدد من الأسباب المماثلة لعدم أمان مغامرتنا بالخارج من الحظيرة.

«إنهم القرود البيضاء الضخمة في برسوم، وهي مخلوقات وحشية إلى حد أن أسد برسوم الشرس وكذلك حيوان البانث[148] يترددان في عبور طريقها».

وأوضح: «تخدم هذه القرود غرضين. من ناحية، يثبطون عزيمة من قد يتسلل نحوي ليلاً من مدينة تونول، وأنا لست بلا أعداء، كما يمنعون من ناحية أخرى فرار عبيدي ومساعديَّ».

---

(148) البانث: حيوان مفترس شرس متعدد الأرجل، أصلع تقريبًا مثل جميع الحيوانات المريخية إلا من شعر كثيف خشن كبير كالأسد حول رقبته السميكة. جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشرة أرجل قوية؛ وفكاه الضخمان مجهزان بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية؛ وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراء هائلتان وجاحظتان وتضيفان لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع – http://barsoom.wikia.com/wiki/Banth - المترجمة.

سألته: «ولكن كيف يصل إليك زبائنك؟ وكيف تصل إليك إمداداتك؟».

التفت وهو يشير إلى أسفل، نحو أعلى جزء من السقف غير النظامي للمبنى أسفلنا. كان مبنيًّا فوقة هيكلاً كبيراً على شكل سقيفة. قال: «احتفظ هناك بثلاث سفن صغيرة. تذهب واحدة منهم يوميًّا إلى تونول».

كنت شغوفًا لمعرفة المزيد عن هذه السفن، التي أدركت أنها وسيلة ضرورية للفرار من الجزيرة، لكني لم أجرؤ على سؤاله خشية إثارة شكوكه.

استدرنا لنهبط على المدرج، وأعربت عن اهتمامي بالبناء الذي يدل على أنه أقدم من أي مبنى من المباني المحيطة.

قال راس ثافاس: «لقد بُني هذا البرج منذ حوالي ثلاثة وعشرين ألف سنة، وبناه أحد أسلافي الذي طرده الجيداك الحاكم حينذاك من تونول. فقام هنا، وعلى الجزر الأخرى، بجمع عدد كبير من الاتباع وسيطر على المستنقعات المحيطة، ودافع عن نفسه بنجاح لمئات السنين. وعندما سُمح لعائلتي بالعودة إلى تونول، أصبح هذا بيتهم؛ وأضافوا إليه، واحدًا تلو الآخر، تلك المباني المختلفة التي تشاهدها حول البرج، حيث يتصل كل طابق منها بالمبنى المجاور، من السقف إلى أدنى حُفرة تحت الأرض».

كانت هذه المعلومات مهمة أيضًا إلى حد كبير، فقد اعتبرتها تؤثر كثيراً أيضًا على خطتي للهرب. ولذلك شجعت راس ثافاس، خلال هبوطنا على المدرج، على الحديث عن تشييد البرج، وعلاقته بالمباني الأخرى، ولا سيما إمكانية الوصول إليها من الحُفر. مشينا مرة أخرى في الحديقة الخارجي، وعندما عدنا إلى جناح رس ثافاس كان الظلام قد حل تقريبًا، والجراح مرهق إلى حد كبير.

قال وأنا أتركه: «أشعر أنني سأنعم بنوم جيد الليلة».

فأجبت: «آمل ذلك، راس ثافاس».

***

الفصل (8)

الفرار

كانت المنشأة تهدأ ليلاً في العادة بعد حوالي ثلاث ساعات من وجبة العشاء، التي تُقدم بعد حلول الظلام مباشرة. وعلى الرغم من أنني كنت أُفضل الانتظار لفترة أطول للقيام بما يدور في ذهني، لم أتمكن من تحقيق ذلك بأمان؛ لأن هناك الكثير الذي يتعين إنجازه قبل الفجر. ولذا، مع أول العلامات الدالة على انتهاء العمل ونوم شاغلي المبنى الذي أقوم فيه بعملي، غادرت جناحي وتوجهت مباشرة إلى المختبر، حيث ترقد -لحسن حظ خططي- أجسام جور هاجوس، قاتل تونول، والحالة '378-ج-493811-ب'. استغرق نقلهما إلى طاولتين متجاورتين بضع دقائق، حيث أسرعت في تقييدهما بإحكام خشية عدم موافقة أحدهما أو كليهما على خطتي، وهو ما كان سيضطرني على تخديرهما مرة أخرى. انتهيت أخيراً من إجراء الشقوق، وبدأت الأنابيب المرفقة والمحركات في العمل. كان '378-ج-493811-ب'، الذي سوف أشير إليها في ما بعد باسمه، دار تاروس، أول من فتح عينيه؛ لكنه لم يكن قد استعاد وعيه بالكامل عندما ظهرت علامات الحياة على جور هاجوس.

انتظرت إلى أن استعاد كلاهما وعيه تمامًا. كان دار تاروس ينظر نحوي بإدراك متزايد، أثار على ملامحه تعبيراً مميتًا ينم على الكراهية. أما جور هاجوس، فقد كان في حيرة واضحة. آخر ما يتذكره هو مشهد قاعة الموت، لحظة اختراق سيف الجلاد لقلبه. كنت أول من كسر حاجز الصمت.

قلت: «دعوني أخبركم أولاً أين أنتم، إذا كنتم لا تعرفون بالفعل».

دمدم دار تاروس: «أنا أعرف جيدًا أين أنا».

وصاح جور هاجوس: «آه!»، وعيناه تتجولان في الغرفة، «يمكنني التخمين. فهل لم يسمع أي من أهل تونول عن راس ثافاس؟ باعوا جسدي إذَنْ إلى الجزار العجوز، أليس كذلك؟ وماذا الآن؟ هل وصلت الآن؟».

قلت: «أنت هنا منذ ست سنوات، وقد تظل هنا إلى الأبد إلا إذا توصل ثلاثتنا إلى اتفاق خلال الدقائق القليلة القادمة، وهذا ينطبق عليك أيضًا دار تاروس».

قال جور هاجوس وهو يفكر: «ست سنوات! حسنًا، أخبرني يا رجل، ماذا تريد؟ إذا كان قتل راس ثافاس، كلا! فقد أنقذني من التدمير التام. ولكن، أخبرني أسماء أخرى، ومن المفضل أن يكون فوبيس كان، جيداك تونول. أعطني نصلاً وسوف أقتل مائة لاستعادة حياتي».

«لست ساعيًا إلى قتل أي شخص إلا إذا وقف في طريق تحقيق رغبتي في هذه المسألة التي أريدها. اسمع! توجد هنا عند راس ثافاس فتاة جميلة من دوهور. وقد باع جسدها إلى ظاظا، جيدارة فوندال، وزرع مخ الفتاة في جسم الجيدارة البشع المليء بالتجاعيد. وهدفي هو استعادة الجسم، ونقل مخه إليه وإعادة الفتاة إلى دوهور».

ابتسم جور هاجوس ابتسامة عريضة، وقال: «تطرح بنودًا لاتفاق ضخم، على أنني أرى أنَّ روحك طيبة وأنا معك. هذا سوف يمنحني الحرية والقتال، وكل ما أطلبه هو فرصة لتوجيه طعنة إلى فوبيس كان».

قلت «أتعهد لك باسترداد حياتك. ولكن على أساس أن تخدمني بإخلاص وليس أي شخص آخر، ولا تقوم بأي عمل خاص بك إلى أن ننفذ عملي بنجاح».

أجاب: «هذا يعني أنني يجب أن أخدمك طوال الحياة؛ لأن الشيء الذي تريده لن يمكنك تحقيقه أبدًا. على أي حال، هذا أفضل من الاستلقاء هنا فوق لوح إرسايتي بارد في انتظار راس ثافاس العجوز ليأتي ويمزق أحشائي. أنا معك! دعني أنهض كي أشعر أنني أقف ثانية على ساقين».

«وأنت؟»، سألت دار تاروس بعد أن فككت قيود جور هاجوس. لاحظت الآن، للمرة الأولى، أن التعبير القبيح الذي شاهدته بداية على وجه دار تاروس قد حل محله تعبير عن اللهفة.

صاح: «فك قيودي! سوف أتبعك إلى نهاية برسوم، وعلى الطريق الذي يقود إلى تنفيذ خطتك. لكنه لن يؤدي إلى ذلك؛ بل سوف يؤدي إلى فوندال وإلى قاعة ظاظا الشريرة التي ربما يتيح لي كرم أسلافي فرصة الانتقام من الظلم البشع الذي نالني من هذه المخلوقة. لم يكن بإمكانك اختيار شخص مناسب لمهمتك أفضل من دار تاروس، الذي كان

في يوم ما جنديًّا ضمن حرس الجيدارة، وقتلتني حتى يأخذ أحد نبلائها الفاسدين جسمي السابق لكي يتودد إلى الفتاة التي أحبها».

خلال لحظات، كان الرجلان يقفان إلى جانبي. وتجنبًا لمزيد من التأخير، قمت بقيادتهم نحو المدرج الذي يهبط إلى المسار الكائن تحت المبنى. وصفت لهما، خلال سيرنا، المخلوق الذي اخترته ليكون العضو الرابع في مجموعتنا الغريبة. تساءل جور هاجوس عن مدى حكمه اختياري، قائلاً إن القرد سوف يجتذب نحونا الكثير من الانتباه. على أن دار تاروس كان يعتقد أنه قد يفيدنا من عدة نواح؛ فقد نضطر إلى قضاء بعض الوقت بين جزر منطقة المستنقعات التي تغزوها غالبًا تلك المخلوقات، ويمكننا عند الوصول إلى فوندال استخدام القرد بسهولة لتعزيز خططنا، ووجوده لن يثير أي تعليق في مدينة تحتفظ بالعديد من هذه الحيوانات قيد الاحتجاز، كما كثيراً ما يمكن مشاهدة تلك الحيوانات تؤدي دورًا في فرض انضباط الحشود في الشوارع.

ذهبنا على الفور إلى القبو، حيث يرقد القرد وحيث أخفيت جسد فالا ديا بعد تخديرها. وهنا قمت بإيقاظ الكائن الشبيه بالإنسان، ولراحتي الكبيرة وجدت أن النصف البشري في مخه لا يزال مهيمنًا. شرحت خطتي باختصار، مثلما فعلت مع الاثنين الآخرين، وفزت بتعهده القلبي بأن يدعمني نظير إعادة مخه إلى مكانه الصحيح بعد انتهاء مشروعنا.

علينا أولاً أن نخرج من الجزيرة. أوضحت الخطوط العريضة للخطتين اللتين كانتا في ذهني. إحداهما كانت سرقة إحدى طائرات راس ثافاس الثلاث والتوجه مباشرة إلى فوندال؛ والثانية، إن لم تكن الخطة الأولى ممكنة، أن نتسلل سرًّا على متن إحداها تحينًا لفرصة التغلب على طاقمها والاستيلاء عليها بعد مغادرتها الجزيرة، أو الهرب دون انكشاف إلى أن نصل إلى تونول. كان دار تاروس يُفضل الخطة الأولى. أما القرد، الذي أطلقنا عليه اسم صاحب النصف البشري من مخه، هوفان دو، فقد كان يفضل البديل الأول للخطة الثانية؛ وكان جور هاجوس يفضل البديل الثاني.

وما دامت فوندال هي هدفنا الرئيس، كما أوضح دار تاروس، فمن الأفضل أن نسرع بالوصول إلى هناك. وجادل هوفان دو بأن الاستيلاء على السفينة بعد مغادرتها الجزيرة سوف يتيح لنا -قبل ضياع السفينة والسعي إلى البحث عنها- وقتًا للفرار أطول مما قد يتيحه الاستيلاء عليها الآن في ضوء المعرفة الكاملة بأن غيابها سوف يُكتَشَف في غضون ساعات قليلة. رأى جور هاجوس أنه من الأفضل إن نتمكن من الوصول إلى تونول سرًّا، حيث يمكننا من خلال أحد أصدقائه تأمين الأسلحة وطائرة تخصنا. وأصر على عدم إمكانية نجاح محاولة المضي بعيدًا دون تسليح نفسه ودار تاروس، كما لا يمكننا أن نأمل في الوصول إلى فوندال دون أن يلحق بنا المطاردون؛ لأن علينا أن نخطط على أساس الافتراض بأن راس ثافاس سوف يكتشف غيابي على الفور، وسيتحقق بسرعة

من أن دار تاروس وجور هاجوس في عداد المفقودين، وعندئذ لن يضيع أي وقت وسوف يُبلغ فوبيس كان، جيداك تونول، أن القاتل جور هاجوس طليقٌ، وبالتالي سيرسل الجيداك أفضل سفنه لمطاردتنا.

كان منطق جور هاجوس صحيحًا، لا سيما أنني تذكرت ما أخبرني به راس ثافاس من أن الثلاث سفن بطيئة، ولذا كان يمكنني أن أتوقع بسهولة أن حريتنا لن تستمر سوى لمدة قصيرة إذا سرقنا إحدى طائرات الجراح العجوز.

خلال مناقشتنا لهذه المسألة، اتخذنا طريقنا عبر الحُفر، ووجدنا المخرج إلى البرج. تحركنا صامتين إلى أعلى عبر المدرج وخرجنا إلى السطح. كان القمران يبحران منخفضين عبر السماء، وكان المشهد مضاءً كأنه النهار. ومن المؤكد أن إمكانية اكتشافنا كانت واردة. أسرعنا نحو حظيرة الطائرات ودخلنا. للحظة على الأقل، تنفست بسهولة أكثر كثيراً مما كان عليه الحال تحت القمرين الرائعين على السطح المكشوف.

كان مظهر الطائرات غريبًا: منخفضة وقصيرة، وذات مقدمات ومؤخرات دائرية، وأسطح مغطاة، وتعلن بوضوح أنها ناقلات للبضائع، مُصممة لأي شيء إلا السرعة. كانت إحداها أصغر بكثير من الاثنين الأخريين، والثانية تبدو تحت الإصلاح. دخلت الطائرة الثالثة، وفحصتها بعناية. دخل معي جور هاجوس، وأشار إلى عدة أماكن يمكننا الاختباء فيها دون أن ننكشف ما لم يُشتَبه في أننا على متنها، وهذا يشكل بطبيعة الحال خطرًا حقيقيًّا؛ وخلال تفكيري في اتخاذ قرار بالمخاطرة بركوب الطائرة الصغيرة، التي أكد لي جور هاجوس أنها أسرع الثلاثة، لصق دار تاروس رأسه في السفينة وأشار لي أن أحضر بسرعة.

وعندما وصلت إلى جانبه قال: «هناك شخص ما».

سألته: «أين؟».

قال: «تعال»، وأخذني إلى الجزء الخلفي من حظيرة الطائرات، وكان أدنى من جدار المبنى، وأشار خلال أحد النوافذ إلى الحديقة الداخلية. ولذعري، رأيت راس ثافاس يسير ببطء جيئة وذهابًا. أصابني اليأس للحظة؛ إذ أعرف استحالة مغادرة السفينة للسطح دون أن يراها أي شخص يوجد في الحديقة، وعلى الأقل راس ثافاس من كل الناس في العالم. وفجأة أضاءت في ذهني فكرة عظيمة، وناديت الثلاثة للاقتراب، وشرحت خطتي.

أدركوا إمكانات الخطة على الفور، واستطعنا خلال فترة وجيزة من تحريك الطائرة الصغيرة على السطح وتحويل مقدمتها نحو الشرق، بعيدًا عن تونول. دخل جور هاجوس الطائرة، وقام بضبط عناصر التحكم المختلفة حسب اتفاقنا، وفتح صمام التحكم في تدفق الوقود، ثم هبط إلى السطح ثانية. أسرعنا نحن الأربعة إلى الحظيرة وركضنا نحو النافذة الخلفية لنشاهد السفينة تتحرك ببطء ورشاقة فوق الحديقة وراس ثافاس، الذي من المؤكد أن أذنيه التقطتا صوت خرخرة المحرك الخافتة، إذ كان ينظر إلى أعلى عندما وصلنا إلى النافذة.

قام على الفور بتحية السفينة. وابتعدت عن النافذة حتى لا يراني وأنا أرد التحية: «وداعًا، راس ثافاس! هذا أنا، فاد فارو، أخرج لمشاهدة عالم غريب، وسوف أعود. ولتبق معك أرواح أسلافك إلى ذلك الحين». هذه عبارة التقطتها من القراءة في مكتبة راس ثافاس، وكنت فخورًا بها».

وعلى الفور أجاب صائحًا: «عُد بسرعة، وإلا ستجد نفسك مع أرواح أجدادك قبل انتهاء يوم آخر».

لم أردّ؛ إذ كانت السفينة على مسافة خشيت معها ألا يبدو صوتي صادرًا منها، وبالتالي ينكشف أمرنا.

دون مزيد من التأخير، أخفينا أنفسنا على متن إحدى الطائرات المتبقية، التي لا تخضع لأعمال الإصلاح، وهنا بدأت أطول فترة انتظار مرت بي من قبل، وأكثرها مللاً.

كدت أن أفقد أي أمل في انطلاق السفينة ذلك اليوم، عندما سمعت أصواتًا في الحظيرة، ثم صوت خطوات على متن الطائرة. وبعد لحظات صدرت عدة أوامر، بدأت بعدها السفينة تتحرك وتخرج ببطء إلى الهواء.

احتشدنا نحن الأربعة في مقصورة صغيرة مُشيدة داخل مساحة ضيقة بين خزانات الطفو في الميمنة الأمامية والخلفية. كانت المقصورة مظلمة وسيئة التهوية، ويبدو أنها صُمِّمت كحجرة تخزين للانتفاع بما قد يُشكل، على خلاف ذلك، مساحة للنفايات. لم نجرؤْ على التحدث خشية لفت الانتباه إلى وجودنا، ولنفس السبب كانت حركتنا محدودة بأقل قدر ممكن؛ فليست لدينا وسيلة تتيح لنا معرفة ما إذا كان أحد أفراد الطاقم يقف خلف الباب الرقيق الذي يفصلنا عن المقصورة الرئيسة للسفينة. في المجمل، لم يكن الوضع مريحًا على الإطلاق؛ لكن المسافة إلى تونول ليست كبيرة وكنا نأمل أن يتغير وضعنا قريبًا - على الأقل إذا كانت تونول هي وجهة السفينة. وسرعان ما تحقق أملنا السعيد. سمعنا تحية خافتة بعد فترة قصيرة، ثم إغلاق المحركات، وتوقفت السفينة.

«أي سفينة؟»، سمعنا صوتًا يسأل، وجاء الرد من على متن سفينتنا:

«فوسار، برج ثافاس إلى تونول». وسمعنا صوت احتكاك، عندما لمست السفينة الأخرى سفينتنا.

صاح شخص من السفينة الأخرى: «لقد أتينا لتفتيشكم باسم فوبيس كان، جيداك تونول. كانت سعادتنا قصيرة. سمعنا صوت اختلاط العديد من الأقدام، وهمس جور هاجوس في إذني.

تساءل: «ماذا نفعل؟».

أمسكت بسيفي القصير، وأجبت: «نقاتل!».

قال: «حسنًا، فاد فارو»، ثم أعطيته مسدسي ليسلمه إلى دار تاروس. سمعنا الأصوات مرة أخرى، لكنها أقرب الآن.

صاح أحدهم: «يااااه! هذا بال زاك بنفسه، صديقي القديم بال زاك!».

أجاب صوت عميق: «وليس غيره. ومن توقعت أن تجد في قيادة

فوسر غير بال زاك؟».

قال الآخر: «ومن يعرف، ربما كان فاد فارو نفسه، أو حتى جور هاجوس. لدينا أوامر بتفتيش جميع السفن».

أجاب بال زاك: «ليتهم كانوا هنا، فالمكافأة كبيرة. ولكن كيف، وقد شاهدهم راس ثافاس بعينيه وهو يطيرون في السفينة بينسار قبل فجر اليوم ويختفون في الشرق؟».

قال الآخر موافقًا: «أنت على حق، بال زاك، وهي مضيعة للوقت أن نفتش سفينتك. هيا يا رجال! عودوا إلى سفينتنا!».

شعرت باسترخاء عضلات قلبي مع انحسار صوت أقدام محاربي فوبيس كان، حيث غادروا سطح السفينة فوسار إلى سفينتهم؛ وارتفعت روحي مع تجدد خرخرة محرك سفينة راس ثافاس ومواصلتها لطريقها. مال جور هاجوس بشفتيه بالقرب من أذني.

وهمس: «تبتسم لنا أرواح أجدادنا. الوقت ليل، وسوف يساعدنا الظلام في تغطية فرارنا من السفينة ومنصة الهبوط».

سألته: «ماذا يجعلك تعتقد أنه الليل؟».

«كانت سفينة فوبيس قريبة عندما قدمت التحية وسألت عن اسم سفينتنا. فإذا كنا بالنهار، كان بإمكانهم معرفة سفينتنا».

كان على حق. بقينا محبوسين في تلك الحفرة الخانقة منذ ما قبل الفجر. وعلى الرغم من أنني تصورت أنها فترة طويلة، فقد أدركت أيضًا أنها أطول كثيراً مما بدت بسبب الظلام وعدم الحركة والضغط العصبي؛ ولذا لم أندهش كثيراً أننا وصلنا تونول نهاراً.

لم تكن المسافة من برج ثافاس إلى تونول طويلة، بحيث بعد فترة وجيزة من حديث سفينة فوبيس مع سفينتنا، استقرت بنا السفينة على منصة الهبوط في وجهتنا. انتظرنا طويلاً نستمع إلى أصوات الحركة على متن السفينة. كان التساؤل، من جانبي على الأقل، يتعلق بنوايا القبطان. فمن الممكن أن يعود بال زاك إلى ثافاس هذه الليلة نفسها، لا سيما إذا كان قد جاء إلى تونول لإحضار مريض ثري أو قوي إلى المختبرات؛ أما إذا جاء بغرض جلب بعض المستلزمات فقط، فقد يظل هنا حتى الغد. بقدر ما تعلمته من جور هاجوس، فإن معرفتي بحركة طائرات راس ثافاس كانت أقل كثيراً من أي شيء؛ إذ على الرغم من أنني كنت لعدة أشهر مساعدًا للجراح، فلم أعرف إلا يوم أمس بوجود أسطوله الصغير؛ لأن سياسة راس ثافاس تقضي بعدم إبلاغي بأي شيء إلا إذا كانت معرفة هذا الشيء تتوافق مع خططه وتعززها.

كان يجيب على الأسئلة التي أطرحها، إذا رأى أن الإجابة لن تضر بمصالحه، ولم يتطوع بقول أي شيء لا يريدني تحديدًا أن أعرفه. كما أن عدم وجود نوافذ في الجدران الخارجية للمبنى المواجه لتونول، وعدم صعودي أبدًا قبل أمس الأول إلى السطح، وعدم رؤيتي أبدًا لسفينة تبحر عبر الفناء الداخلي نحو الشرق، يفسر جهلي بالأسطول وعملياته الاعتيادية.

انتظرنا بهدوء إلى أن ساد الصمت على السفينة، مما يدل على أن الطاقم يستريح ليلاً أو أنهم هبطوا واتجهوا إلى داخل المدينة. وبعد مشاورة هامسة مع جور هاجوس، قررنا أن نحاول مغادرة الطائرة. كان هدفنا العثور على مكان اختباء داخل برج منصة الهبوط، يمكننا خلاله أن ندرس السبل الممكنة للهرب إلى المدينة، إما على الفور أو غدًا عندما يمكننا الاختلاط بسهولة أكبر مع الازدحام الذي قال جور هاجوس أنه سيبدأ في الظهور بعد بضع ساعات بعد شروق الشمس.

فتحت باب مقصورتنا بحذر، ونظرت إلى المقصورة الرئيسة وراءه. كان الظلام مخيمًا. خرجنا بصمت. كان صمت القبور يرين على الطائرة، بينما تنهض خافتة من بعيد

ضوضاء المدينة. كل شيء على ما يُرام حتى الآن! ثم انطلق فجأة، دون صوت ودون سابق إنذار، ضوء لامع أضاء المقصورة من داخلها. شعرت بأصابعي تشدد قبضتها على مقبض سيفي، وأنا ألقي نظرة خاطفة حولي.

في مواجهتنا مباشرة، في مدخل المقصورة الصغيرة الضيق، وقف رجل طويل القامة يدل عتاده الوسيم على أنه ليس محاربًا عاديًّا. حملت كل يد من يديه مسدسًا برسوميًّا ثقيلاً، ووجدنا أنفسنا نحدق في فوهتيهما.

***

الفصل (9)

ارفعوا أيديكم!

في نبرة هادئة، قال بلغة برسوم ما يعادل في لغتنا في كوكب الأرض: «ارفعوا أيديكم!». مس ظل ابتسامة قاتمة شفتيه، وعندما رأى ترددنا في إطاعة أوامره تحدث مرة أخرى.

- افعلوا ما أقوله لكم، وسوف تأمنون. حافظوا على صمتكم. فأي صوت يرتفع سوف يتسبب في موتكم؛ طلقة المسدس مؤكدة.

رفع جور هاجوس يديه أعلى رأسه، وفعل الآخرون مثله.

أعلن الرجل الغريب: «أنا بال زاك»، وهنا سقط قلبي.

قال جور هاجوس: «إذَنْ من الأفضل أن تبدأ في إطلاق النار؛ لأنك لن تأخذنا أحياء. نحن أربعة ضد واحد».

قال كابتن السفينة فوسار: «ليس بهذه السرعة، جور هاجوس، ليس قبل أن تعرفوا ما يدور في ذهني».

قاطعه قاتل تونول: «نحن نعرف بالفعل ماذا يدور في ذهنك، فقد سمعناك تتحدث عن المكافأة الكبيرة التي تنتظر من يأسر فاد فارو وجور هاجوس».

قال بال زاك: «لو كنت أتوق إلى هذه المكافأة، لكنت سلمتكم إلى دُوّار[149] سفينة فوبيس كان عندما صعد على متن سفينتنا».

قلت لتذكيره: «لكنك لم تكن تعرف أننا على متن فوسار».

«آه، كنت أعرف».

تنحنح جور هاجوس بما ينم عن عدم تصديقه.

فقال بال زاك لتذكيرنا: «كيف إذَنْ كنت مستعدًّا في هذا المكان بالتحديد، عند خروجكم من مكان الاختباء؟ نعم، كنت أعرف أنكم على متن السفينة».

---

(149) دوار: رتبة مريخية تعادل رتبة كابتن (نقيب - http://barsoom.wikia.com/wiki/Dwar - (المترجمة.

«ولكن كيف؟»، سأله دار تاروس.

أجاب بال زاك: «هذا لا يهم، وإنما لإرضاء فضولكم الطبيعي أقول لكم إن لدي مسكنًا في غرفة صغيرة في برج ثافاس، ونوافذي تطل على السطح وحظيرة الطائرات. وحياتي الطويلة التي أمضيتها على متن الطائرات جعلتني شديد الحساسية لأي تغيير في صوت محركات السفينة، إنه يوقظني في عتمة الليل، وأعرف جيدًا صوت تشغيل المحرك أو توقفه. لقد أيقظني صوت تشغيل محركات بينسار؛ رأيت ثلاثة منكم على السطح وهبوط الرابع من على سطح السفينة عند تشغيل محركها. وعرفت بخبرتي أنكم ترسلون السفينة من دون طيار لسبب ما لا أعرفه. تأخر الوقت لمنعكم، ولذا انتظرت في صمت لمعرفة ماذا سيعقب ذلك. رأيتكم تسرعون إلى الحظيرة، وسمعت تحية راس ثافاس والرد عليها، ثم رأيتكم تصعدون إلى السفينة فوسار. نزلت فورًا إلى السطح، وركضت إلى الحظيرة دون إحداث صوت، متصورًا أنكم تريدون الانطلاق بهذه السفينة، لكني لم أجد أحدًا بالقرب من أزرار التحكم. ومن منفذ صغير في غرفة التحكم، حيث يمكن رؤية المقصورة الرئيسة، شاهدتكم تدخلون الغرفة الصغيرة. أدركت على الفور أن غرضكم الوحيد هو الاختباء من أجل الوصول إلى تونول. وبالتالي، ذهبت إلى عملي كالمعتاد، مع مراقبة مكان اختبائكم».

سألته: «ولم تقم بإبلاغ راس ثافاس؟».

أجاب: «لم أُبلغ أحدًا. تعلمت منذ سنوات أن أهتم بشؤوني فقط. أرى كل شيء، وأسمع كل شيء، ولا أقول أي شيء إلا إذا كان لمصلحتي».

قال جور هاجوس لتذكيره: «لكنك قلت إن مكافأة القبض علينا كبيرة؛ أليس من مصلحتك الحصول عليها؟».

أجاب بال زاك: «توجد في صدور الرجال الشرفاء قوة تفوق شهوة الذهب. وفي حين من المفترض أن التونوليين متحررون من تأثير المشاعر، أنا من بين الناس الذين لم يفقدوا تمامًا الشعور بالامتنان. قبل ست سنوات، جور هاجوس، أنت رفضت اغتيال والدي؛ لأني رأيت أنه رجل طيب، يستحق أن يعيش، وتصادقتما لفترة قصيرة. وأنت تجني اليوم مكافأتك، من خلال ابنه، فضلاً عن تعويضك بقدر ما عن العقوبة التي فرضها عليك فوبيس كان بسبب رفضك قتل والد بال زاك. لقد أرسلت طاقمي بعيدًا بحيث لا يبقى على متن فوسار سواي لأعرف سبب وجودكم. أخبروني بخططكم، وبأي طريقة يمكنني أن أخدمكم».

أجاب جور هاجوس: «نريد أن نصل إلى الشارع دون انكشاف. يمكنك مساعدتنا في ذلك، ولن نضع على عاتقك مسؤولية أخرى عن هروبنا. نحن ممتنون لك. وفي تونول، لا حاجة إلى تذكيرك، يُعتبر امتنان جور هاجوس شيئًا يتوق إليه حتى الجيداك».

وبعد لحظات من التفكير، قال بال زاك: «مشكلتكم معقدة، بسبب شخصيات مجموعتكم». فالقرد سوف يلفت الانتباه ويثير الريبة على الفور. ونظرًا لمعرفتي الكثير عن تجارب راس ثافاس، أدركت صباح اليوم، بعد مشاهدتي القرد معكم، أنه يملك مخ رجل؛ لكن هذه الحقيقة نفسها سوف تجذب له ولكم اهتمام الناس الكبير».

دمدم هوفان دو: «لا يتطلب الأمر تعريفهم بهذه الحقيقة؛ فأنا بالنسبة لهم لن أكون سوى سوى قرد أسير. أليس هذا شائعًا في تونول؟»

أجاب بال زاك: «ليس تمامًا، على الرغم من ندرته. ولكن هناك أيضًا بشرة فاد فارو البيضاء! يبدو أن راس ثافاس لا يعرف بوجود القرد معكم؛ لكنه يعرف فاد فارو جيدًا، ونشر أوصافه عبر كل وسيلة لديه. سوف يتعرف عليك فورًا أول تونولي تقع عليك عيناه. ومعكم أيضًا جور هاجوس، الذي قُتِل منذ ست سنوات. مع ذلك، لا يوجد تونولي كسر بيضته وخرج إلى الحياة قبل عشر سنوات لا يعرف وجه جور هاجوس بمثل ما يعرف وجه أمه. الجيداك نفسه ليس معروفًا لأهل تونول أكثر من جور هاجوس. وهذا يتركنا إلى شخص واحد فقط ربما يفلت من الشك والانكشاف في شوارع تونول».

قلت: «إذا أمكننا الحصول على أسلحة لهؤلاء الآخرين، ربما حتى الوصول إلى منزل صديق جور هاجوس».

تساءل بال زاك: «تشقون طريقكم بالقتال خلال مدينة تونول؟».

قلت: «سنضطر إلى ذلك، إن لم تكن هناك أي وسيلة أخرى».

علّق قائد السفينة فوسار قائلاً: «أنا معجب بهذه الإرادة، لكني أخشى أن الجسد يفتقر إلى قوة كافية. انتظر! هناك طريقة ... ربما. يوجد في أسفل، تحت هذه المنصة، مستودع عام لاستئجار محركات التوازن[150] . وإذا وجدنا وسيلة للحصول على أربعة من تلك المحركات، ستتوفر أمامكم فرصة على الأقل للإفلات من الدوريات الجوية والوصول إلى منزل صديق جور هاجوس؛ وأعتقد أنني أعرف طريقة لإنجاز ذلك.

---

(150) محرك التوازن: هو جهاز شخصي للطيران، يتيح للمُستخدِم الطيران من دون طيار، وهو نسخة بدائية من حزام الطيران الذي يوضع عادة على الظهر ويدفع المستخدِم للطيران عبر ضغط الغازات وأحيانًا الماء - https://barsoom.fandom.com/wiki/Equilibrimotor - المترجمة.

يغلقون برج الهبوط ليلاً، لكن هناك عدد من المراقبين الذين ينتشرون خلال مستوياته المختلفة. يوجد مراقب في مستودع محركات التوازن، وأنا أعرفه وأعرف أنه يحب لعبة الجيتان[151]، إلى حد أنه قد يترك واجباته كحارس لكي يلعبها. وأنا غالبًا ما أظل على متن السفينة فوسار في الليل وننغمس أحيانًا في اللعبة. سوف أطلب منه أن يصعد الليلة، وفي هذه الأثناء يمكنكم الذهاب إلى المستودع وترتدون محركات التوازن وتُصلّون إلى أسلافكم ألا تشتبه فيهم الدوريات الجوية خلال عبوركم المدينة نحو وجهتكم. ما رأيك في هذه الخطة، جور هاجوس؟».

أجاب: «إنها رائعة». «وأنت، فاد فارو؟».

أجبت: «لو كنت أعرف ما هو محرك التوازن، لأصبحت في وضع أفضل للحُكم على جدارة الخطة. مع ذلك، فإنني التزم بكل الرضى برأي جور هاجوس. وأود أن أعرب لك، بال زاك، عن امتناننا الكبير. ونظرًا لأن جور هاجوس وافق على خطتك، فلا يسعني إلا أن أحثك على وضعها موضع التنفيذ بأقل قدر ممكن من التأخير».

صاح بال زاك: «حسنًا! تعالوا معي، وسوف أخفيكم إلى أن أستدرج الحارس للعب الجيتان داخل مقصورتي. وبعد ذلك، سيكون مصيركم بين أيديكم».

سرنا معه من السفينة إلى سطح منصة الهبوط وبالقرب من أسفل جانب السفينة فوسار المعاكس الذي سيأتي منه الحارس إلى السفينة ويدخلها. تركنا بال زاك بعد أن تمنى لنا حظًّا طيبًا.

من قمة برج الهبوط، رأيت للمرة الأولى مدينة مريخية. تمتد أدناي بعدة مئات من الأقدام مدينة تونول بطرقاتها الواسعة جيدة الإضاءة، ويزدحم كثير منها بالناس. يوجد هنا وهناك، في هذا الحي المركزي، مبنى عالٍ يرتفع على محوره المعدني الأسطواني الذي يدعمه؛ بينما أبعد من ذلك، حيث تسودُ المساكن، تتخذ المدينة مظهر غابة ضخمة وبشعة. ترتفع أحيانًا بين القصور الكبيرة تركيبات من غرف فوق مستوى تركيبات مماثلة أخرى، وهذه هي شقق نوم ملاكها أو موظفيهم أو ضيوفهم؛ على أن البيوت الصغيرة توجد في مجملها مرتفعة، كإجراء احترازي يقتضيه استمرار نشاط اتباع مهنة جور هاجوس القديمة التي لا تتيح لأي شخص التحرر من التهديد المستمر بالاغتيال. وفي جميع أنحاء المنطقة الوسطى، تخترق الأبراج السامقة لمنصات الهبوط الأخرى السماء؛ على أنني عرفت لاحقًا أنها قليلة العدد نسبيًّا. وتونول ليست بأي حال مدينة طيران؛ إذ لا

(151) جيتان: لعبة في برسوم تشبه إلى حد كبير لعبة الشطرنج على كوكب الأرض - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jetan - المترجمة.

تضم أساطيل ضخمة من السفن التجارية وسفن الحرب كما هو حال مدينتي هيليوم التوأم، على سبيل المثال، أو العاصمة كبيرة بتارث.

تتسم إضاءة شوارع تونول بملمح غريب، ينطبق في الواقع أيضًا على إضاءة المدن البرسومية الأخرى التي زرتها، وقد لاحظته بداية في الليلة التي انتظرت فيها عند منصة الهبوط عودة بال زاك مع الحارس. بدا التألق في أسفل مقتصرًا بشكل مباشرة على المنطقة المطلوب إضاءتها؛ فالضوء لا ينتشر إلى أعلى أو خارج حدود مصابيح الإضاءة. وقد قيل لي إن هذا يرجع إلى أن المصابيح تم تصميمها وفقًا للمبادئ الناتجة عن عصور من البحث في خصائص موجات الضوء وقوانينها الناظمة، التي تتيح لعلماء برسوم احتجاز الضوء والتحكم فيه بمثل ما نحتجز المادة ونتحكم فيها. تغادر أمواج الضوء المصباح وتمر عبر دائرة محددة، ثم تعود إلى المصباح. ما من إهدار، كما لا توجد -وهو ما بدا غريبًا بالنسبة لي- أي ظلال كثيفة عند تثبيت وتعديل الأضواء بشكل صحيح، ذلك أن الموجات تنير جميع جوانب الأشياء عند عبورها حولها للعودة إلى المصباح.

وكان تأثير هذه الإضاءة رائعًا من الارتفاع الكبير للبرج. كان الظلام دامسًا، ولا توجد أقمار في تلك الساعة، وتشعر بهذا التأثير عندما تجلس في قاعة مظلمة وتنظرنا إلى منصة مضاءة ببراعة. وخلال مشاهدتي للحياة والألوان أدناه، سمعنا صوت عودة بال زاك. من الواضح أنه نجح في مهمته؛ لأنه كان يتحدث مع شخص آخر.

وبعد خمس دقائق، تسللنا بهدوء من مكان الاختباء وهبطنا إلى المستوى الأدنى حيث يقع مستودع محركات التوازن. لا توجد أي احتياطات ضد السرقة؛ ذلك أن السرقة غير معروفة عمليًّا في برسوم، إلا لأغراض منفصلة تمامًا عن الرغبة في الحصول على أرباح مالية من خلال الشيء المسروق. ولذلك وجدنا أبواب المستودع مفتوحة، وأسرع جور هاجوس ودار تاروس في انتقاء أربعة محركات توازن وضبطها علينا. يتكون محرك التوازن من حزام متسع، لا يختلف عن حزام الحياة المُستخدم على متن البواخر عابرة المحيطات على كوكب الأرض. وتمتلئ هذه الأحزمة بالأشعة الثامنة في برسوم، أو أشعة الدفع، بقدر يكفي لمساواة شد الجاذبية ومن ثم الحفاظ على الشخص في حالة توازن بين تلك القوة والقوة المعاكسة الناتجة عن الأشعة الثامنة. يتصل دائمًا محرك راديوم صغير بالجزء الخلفي من الحزام، وتوجد أزرار تحكمه على الجانب الأمامي الحزام. كما يرتبط بصرامة، ويبرز من كل جانب من جوانب الحافة العلوية للحزام، جناح قوي وخفيف يضم رافعتين يدويتين صغيرتين لتغيير موضعه بسرعة.

شرح جور هاجوس بسرعة طريقة التحكم، وأدركت أنني قد أواجه بعض الإحراج والمتاعب قبل أن أتقن فن التحليق بمحرك التوازن. أوضح لي كيفية إمالة أجنحة الهبوط

إلى أسفل عندما أسير، حتى لا ارتفع عن الأرض في كل خطوة، وقادني على هذا النحو إلى حافة منصة الهبوط.

وقال: «سوف ترتفع هنا. ونسعى، ونحن نحافظ على وجودنا في ظلام المستويات العليا، إلى الوصول إلى منزل صديقي دون أن نُكتشف. ويجب أن ننفصل إذا طاردتنا الدوريات الجوية، ثم يتجمع لاحقًا الفارون غربي سور المدينة حيث توجد بحيرة صغيرة وبرج مهجورة عند حافتها الشمالية؛ وهذا البرج سيكون مكان لقائنا في حالة حدوث مشكلة. اتبعوني!». وبدأ تشغيل محركه، وارتفع برشاقة في الهواء.

تبعه هوفان، ثم جاء دوري. ارتفعت برشاقة لحوالي عشرين قدمًا، طافيًّا فوق المدينة التي تقع على مسافة مئات الأقدام أدناه، ثم انقلبت فجأة رأسًا على عقب. كنت على يقين أنني فعلت شيئًا خاطئًا. أؤكد لكم أنني شعرت بإحساس مذهل، أن أطفو ورأسي إلى أسفل، عاجز تمامًا؛ بينما تقع أدناي شوارع مدينة عظيمة ليست أقل نعومة، بالتأكيد، من شوارع لوس أنجلوس أو باريس. لا يزال محركي مستمرًّا. ومع تعاملي مع أزرار التحكم المسؤولة عن تشغيل الأجنحة، بدأت في جميع أنواع الحركات الدائرية والحلقية والحلزونية إلى أن جاء دار تاروس لإنقاذي. أخبرني أولاً أن أرقد بهدوء، ثم تولى توجيه كل جناح حتى اكتسبت وضعًا عموديًّا. واصلت بعد ذلك بشكل جيد إلى حد ما، وسرعان ما ارتفعت وطرت في أعقاب جور هاجوس وهوفان دو.

لست بحاجة إلى أن أصف بالتفصيل ساعة من الطيران، أو بالأحرى الطفو، التي تلت ذلك. قادنا جور هاجوس إلى ارتفاع كبير حيث قادتنا محركاتنا البطيئة، خلال الظلام فوق المدينة، نحو حي لبيوت رائعة محاطة بحدائق واسعة. وعندها، حلّقنا فوق قصر كبير، وروعنا فجأة باعتراض حاد قادم من فوقنا مباشرة.

سأل صوت: «من ذا الذي يطير ليلاً؟».

أجاب جور هاجوس بسرعة: «أصدقاء مو تل، أمير بيت كان».

أمرنا شخص فوقنا: «أريد رؤية تصريح طيرانكم الليلي، ورخصة الطائرات»، وانزلق في الوقت نفسه فجأة إلى مستوى طيراننا، مما منحني أول مشاهدة لشرطي مريخي. كان مزودًا بمحرك توازن أسرع من محركاتنا وأكثر براعة. وأعتقد أن هذه كانت أول حقيقة تثير إعجابنا بعمق، وتوضح عدم جدوى الرحلة؛ إذ كان بإمكانه أن يمنحنا عشر دقائق بداية واللحاق بنا خلال عشر دقائق أخرى، على الرغم من أننا اخترنا الطيران في اتجاهات مختلفة. كان الزميل محاربًا وليس شرطيًّا، رغم أنه مكلف بأداء واجبات الشرطة كما

يحدث مع ضباط الشرطة في كوكب الأرض؛ فقد كان محاربي جيش فوبيس يقومون بالدوريات ليلاً ونهارًا في المدينة.

هبط الآن مقتربًا من قاتل تونول، وطالبه مرة أخرى بالتصريح والرخصة، وهو يومض في الوقت نفسه ضوءًا في مواجهة رفيقي.

صاح: «باسم سيف الجيداك! ليحالفني الحظ. من كان يتصور منذ ساعة أنني سوف أكون من سيحصل على مكافأة القبض على جور هاجوس؟».

أجاب جور هاجوس: «أي أحمق آخر قد يتصور ذلك، إلا أنه سيكون مخطئًا مثلك»، وخلال رده وجه ضربة بالسيف القصير الذي كنت أعطيته له.

ارتطمت الضربة بجناح محرك التوازن الذي يرتديه المحارب وحطمته، لكنها أصابت كتف المحارب بجرح خطير. حاول التراجع، لكن الجناح التالف تسبب في مجرد دورانه على نحو يصعب توقعه؛ ثم أمسك بصفارته وحاول إطلاق صفير هائل، لكن ضربة أخرى من سيف جور هاجوس أوقفتها، حيث شقت رأس الرجل على امتداد أنفه.

وصاح القاتل: «أسرعوا! علينا أن نهبط إلى حدائق مو تل؛ فهذه الإشارة سوف تجلب سربًا من الدوريات الجوية حول رؤوسنا».

رأيت الآخرين يهبطون بسرعة نحو الأرض، لكني واجهت مشكلة مرة أخرى. بالضغط على أجنحتي، تحركت إلى أسفل لمسافة قصيرة وفوق مسار إذا واصلته سأهبط على مسافة كبيرة من حدائق مو تل. كنت أقترب من أحد أجزاء القصر المرتفعة، ما بدا شقة صغيرة ترتفع على محورها المعدني لمسافة عالية فوق الأرض. وسمعت من جميع الاتجاهات صرخات صفارات الدوريات الجوية ردًّا على دعوة زميلهم الذي كان جسده يطفو فوقي مباشرة، كأنه دليل حتى في موته يشير إلى الطريق أمام زملائه للبحث عنا. كانوا على يقين أنهم سيكتشفونه، عندئذ سوف يرونني بوضوح وينتهي مصيري.

ربما أجد وسيلة لدخول الشقة التي تلوح قريبة في الظلام! قد أختفي فيها حتى ينتهي الخطر، شريطة أن أدخل دون أن أُكتَشَف. وجّهت مساري نحوها. يبدو خلال الظلام شكل نافذة مفتوحة. اصطدمت بشبكة من الأسلاك الرفيعة– ستارة حماية تصد القتلة القادمين جوًّا، وتحمي شقق النوم المرتفعة. شعرت أنني ضعت. إذا أمكنني فقط الوصول إلى الأرض قد أجد مكان اختباء بين الأشجار والشجيرات التي رأيتها دون وضوح في حدائق هذا الأمير البرسومي؛ لكنني لم أستطع الهبوط بزاوية كافية داخل أرض

الحديقة، وعندما حاولت الهبوط على شكل حلزوني، انقلبت وبدأت أعلو ثانية. فكرت في تمزيق حزامي وفتح طريق الفرار أمام الأشعة الثامنة؛ لكني خشيت أن يؤدي عدم إلمامي بهذه القوة الغريبة إلى سقوطي بعنف شديد على الأرض، رغم تصميمي على اللجوء إلى هذه الطريقة كبديل أخير إن لم أجد شيئًا أقل قسوة.

في محاولتي الأخيرة للهبوط الحلزوني، ارتفعت بسرعة لحوالي قدم لأصطدم على نحو مفاجئ ومثير للدهشة بشيء فوقي. وبشكل محموم قمت بتصحيح وضعي، متوقعًا تمامًا أن يُمسك بي على الفور أحد أفراد الدوريات الجوية، إلا أني وجدتني وجهًا لوجه مع جثة المحارب الذي قتله جور هاجوس. اقترب صفير الدوريات الجوية، وقد يستغرق اكتشاف وجودي مجرد عدة ثوان. وفي ظل صرامة الوضع الذي يواجهني، والموت ينظر إلى وجهي، برز أمامي طريق ممكن للفرار من هذه المعضلة.

أحكمت قبضة يدي اليسرى على عتاد التونولي الميت، ثم سحبت خنجري وشققت حزامه للطفو عشرات المرات. وعلى الفور، مع تسرب الأشعة، بدأ جسده يسحبني إلى أسفل. كان هبوطنا سريعًا، ولكن دون تهور، وما هي إلا بضع ثوان وهبطتنا بلطف فوق المرج القرمزي في حدائق مو تل، أمير بيت كان، بجوار أجمة من الشجيرات الكثيفة. انطلقت فوقي صفارات الدوريات المحلقة، وأنا أجُر جثة المحارب نحو عمق خفي داخل أوراق الشجر. لم أقترب من السلامة ولو للحظة؛ إذ انطلقت على الفور تقريبًا أشعة الكشاف اللامعة متجهة إلى الأسفل من على ظهر سفينة فضاء لدورية صغيرة، وألقت الضوء على المساحات المفتوحة حولي في الحديقة. لم تكشف لمحة سريعة خلال فروع وأوراق مخبئي عن رفاقي، وتنفست الصعداء لأنهم عثروا أيضًا على مكان للاختباء.

تحرك الضوء لفترة قصيرة حول الحدائق ثم اختفى، كما حدث أيضًا مع صوت صفارات الدورية، ثم انتقل البحث إلى أماكن أخرى؛ مما أكد لي أن الشكوك لم تشمل مكان اختبائنا.

استوليت في الظلام على ما أريد من أسلحة المحارب الميت بعد أن أزلت محرك التوازن، الذي فكرت بداية في تدميره لكني قررت أخيراً تثبيته في إحدى الشجيرات الكبيرة فربما أحتاج إليه ثانية. الآن، ولشعوري بالأمان لاقتناعي بانتهاء خطر اكتشاف الدوريات الجوية لنا، تركت مخبئي وبدأت أبحث عن رفاقي.

تحركت في ظلال الأشجار والشجيرات في اتجاه المبنى الرئيس، الذي لاح قريبًا في الظلام؛ وكنت أعتقد أن جور هاجوس سوف يقود الآخرين في هذا الاتجاه، وذلك

لمعرفتي أن قصر مو تل هو وجهتنا. تسللت بأقصى قدر من الحذر، وفجأة انطلق القمر الأقرب ثوريا فوق الأفق، لينير الليل بأشعته الرائعة. اقتربت من جدار المبنى المنحوت بالزخارف. توجد بجواري فتحة ضيقة، يلقي القمر ثوريا داخلها أعمق ظلال أشعته الرائعة؛ ويوجد على يساري جزء مفتوح من مرجة خضراء يقف عليها واضحًا بكل تفاصيله المرعبة مخلوق مخيف مخلوق لم تقع عيناي على مثله من قبل. كان وحشًا بحجم فرس قزم، لديه عشر سيقان قصيرة، ورأس مخيف يشبه قليلاً رأس الضفدع، إلا أن فكيه كانا مزودين بثلاثة صفوف من الأنياب الطويلة الحادة.

ارتفع أنف هذا الشيء في الهواء يتشمم حوله، بينما تتحرك عيناه الكبيرتان بسرعة في اتجاهات مختلفة، بما يؤكد دون شك أنه يبحث عن شخص ما. ومع أنني لست ميالاً إلى الغرور، لم أستطع أن أتجنب اقتناعي بأنه يبحث عني. إنها خبرتي الأولى مع كلب حراسة مريخي. حاولت الاختباء في الظلال الداكنة ورائي، على أن أعين المخلوق وجدتني في اللحظة نفسها، وسمعت هديره، ورأيته يتجه بهجومه نحوي مباشرة، وصدق هاجسي بأنني سأواجه خبرتي الأخيرة معه.

سحبت سيفي الطويل، وأنا أتراجع نحو الفتحة خلفي، وإن أحسست بعدم كفاية سلاحي غير المألوف في مواجهة ضراوة هذا الجسد الذي يزن حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة رطل. أخذت أتراجع ببطء في الظلال مع اقتراب المخلوق. وعندما دخلت إلى الفتحة، اصطدم ظهري بعائق صلب يحول دون مزيد من التراجع.

***

الفصل (10)

قصر موتل

عندما دخل الكالوت إلى الفتحة، أقسم أنني شعرت بجميع ردود أفعال فأر مُحاصَر في ركن، وأعرف يقينًا أنني أعددت نفسي للقتال في هذا الوضع الذي يصفه التشبيه السابق. كان الوحش على وشك الانقضاض. وكنت، مجازًا، أركل نفسي لعدم بقائي في العراء حيث توجد العديد من الأشجار العالية، عندما ظهر الدعم خلفي فجأة؛ إذ امتدت يد من وسط الظلام خلفي وأمسكت عتادي، سرعان ما وجدتني في سواد كالحبر. أُغلق باب بعنف، واختفت صورة الكالوت الظلية عند مدخل الفتحة الذي يضيئه القمر.

تحدث صوت أجش في أذني وقال: «تعال معي!». وجدتني يد، وقادتني عبر الظلام إلى ما اكتشفت أنه ممر ضيق تكررت خلاله اصطداماتي بإحدى جانبيه أولاً ثم بالجانب الآخر.

ومع التصاعد التدريجي، تحول الممر فجأة إلى زوايا قائمة ورأيت أمام مرشدي دليل إضاءة خافت يزداد تدريجيًّا إلى أن أخذنا لمنعطف آخر أوصلنا إلى عتبة غرفة جيدة الإضاءة - شقة رائعة، ذات أثاث وزخارف جميلة يصعب حتى على لغتي الأصلية وصفه. الذهب، والعاج، والأحجار الكريمة، والأخشاب الرائعة، والأقمشة المتألقة، والفراء الرائع، والعمارة المذهلة، أثرت مجتمعة على رؤيتي كمواطن قادم من كوكب الأرض وتركت انطباعًا لصورة لم أحلم أبدًا أن أحلم حتى بها. ووجدت رفاقي الثلاثة في وسط هذه الغرفة، تحيط بهم مجموعة صغيرة من المريخيين.

قادني مرشدي نحوهم، واستداروا تجاهنا عندما دخلنا القاعة. أوقفني أمام برسومي طويل القامة، متألق في عتاده المرصع بالجواهر.

وقال: «أيها الأمير، تعرف أنني قليل الكلام. وفي واقع الأمر، عندما فتحت الباب للخروج إلى الحديقة بحثًا عنه، كما أمرتني، وجدته هناك على الجانب الآخر وأحد الكالوت في الحديقة يكاد ينقض عليه».

«جيد!»، صاح من يوجه إليه الحديث باعتباره الأمير، ثم التفت إلى جور هاجوس قائلاً: «أهذا هو، يا صديقي، الشخص الذي أخبرتني عنه؟».

أجاب جور هاجوس: «هذا هو فاد فارو، الذي يزعم أنه من كوكب جاسوم. وهذا، يا فاد فارو، هو مو تل، أمير بيت كان».

انحنيت، وتقدم الأمير ووضع يده اليمنى على كتفي الأيسر في إقرار برسومي حق عن التعارف. وعندما فعلت مثله، انتهت الطقوس. لم يقل أحد تلك العبارات السخيفة ‘سعيد لمقابلتك’، أو ‘كيف حالك؟’، أو ‘إنه بالتأكيد لمن دواعي سروري’.

رويت بإيجاز، بناء على طلب مو تل، ما حدث لي بعد انفصالي عن رفاقي وإلى أن أنقذني أحد ضباطه من كارثة وشيكة. أعطى مو تل تعليمات بالانتهاء قبل الفجر من إزالة جميع آثار الدورية التي لقت حتفها، خشية أن يجلب له اكتشافها مزيدًا من شكوك عمه، فوبيس كان، جيداك تونول، الذي يغار من تزايد شعبية ابن أخيه منذ فترة طويلة، وبالتالي خوفه من طموحه لاعتلاء العرش.

في وقت لاحق في المساء، وخلال إحدى تلك الوجبات الرائعة التي يشتهر بها بجدارة أمراء برسوم، أخذ مو تل يتحدث عن عمه الإمبراطوري دون قيود، بعد أن انتشى قليلاً من الخمر النادر الذي قدمه لإسعاد ضيوفه.

قال: «لقد سئم النبلاء من فوبيس كان منذ فترة طويلة، كما سئم منه الناس -إنه طاغية بلا ضمير- لكنه حاكمنا بالوراثة، ولذا يترددون في تغييره. نحن شعب عملي، لا نتأثر كثيراً بالمشاعر؛ إلا أن هناك ما يكفي لإبقاء الجماهير على ولاء للجيداك حتى وإن لم يعد يستحق هذا الولاء، في حين أن الخوف من غضب الجماهير هو ما يُبقي على ولاء النبلاء. ولأنني أحتل الموقع الأول في خط الخلافة، هناك أيضًا الشك الطبيعي في أنني لن أكون كجيداك أقل استبدادًا من فوبيس كان، بينما قد أكون أكثر نشاطًا في الممارسات القاسية والشائنة لأني لا أزال شابًّا».

- أنا شخصيًّا لا أتردد في تدمير عمي والاستيلاء على عرشه إن تأكدت من دعم الجيش؛ فمع دعم محاربي فوبيس كان يمكنني مواجهة بقية تونول. ولهذا السبب عرضت صداقتي منذ فترة طويلة على جور

هاجوس؛ ليس لأنه قد يقتل عمي، بل لأنه -بعد أن أقتل عمي في قتال عادل- يمكنه أن يفوز لصالحي بولاء محاربي الجيداك، حيث شعبية جور هاجوس هائلة بين الجنود، الذين ينظرون إلى مثل هذا المقاتل العظيم بمهابة وإخلاص. وقد عرضت على جور هاجوس موقعًا رفيعًا في شؤون تونول إذا شاركني؛ لكنه يخبرني أن عليه أولاً الوفاء بالتزاماته تجاهك، فاد فارو. ولتعزيز مغامرتك، طلب مني أن أقدم لك ما يمكنني من مساعدة. وهذا ما أقدمه لك بكل سرور، من دوافع عملية بحتة، لأن نجاحك المبكر

سوف يُعجّل من نجاحي. ولذلك، فإنني أضع تحت تصرفك طائرة قوية ستحملك أنت ورفاقك إلى فوندال».

وافقت بطبيعة الحال على هذا العرض، وأخذنا بعد ذلك نناقش خطط رحيلنا. قررنا أخيرًا أن نبدأ محاولتنا في فترة مبكرة من الليلة التالية، في وقت لا يوجد فيه القمران في السماء. وبعد مناقشة موجزة للأجهزة والمعدات، وافق الجميع بناء على طلبي بأخذ قسط من الراحة؛ فلم أنم منذ أكثر من ست وثلاثين ساعة، ولم ينم رفاقي منذ أربع وعشرين ساعة.

قادنا العبيد إلى شقق النوم، التي كانت مفروشة بترف، ورتبوا لراحتنا حريرًا وفراء رائعًا للنوم.

وبعد مغادرتهم، لمس جور هاجوس زرًّا فارتفعت الغرفة سريعًا على محورها المعدني لحوالي أربعين أو خمسين قدمًا؛ وسقطت حولنا تلقائيًّا شبكة من السلك، وأصبحنا آمنين ليلاً.

وفي صباح اليوم التالي، بعد إنزال شقتنا إلى مستواها الصباحي وقبل أنا يُسمح لي بمغادرتها، أرسل لي مو تل عبدًا بتعليمات أن أصبغ جسمي كله باللون الأحمر النحاسي الجميل لأصبح مثل أصدقائي البرسوميين. زودني العبد بتمويه أعرف جيدًا ضرورته الشديدة لنجاح خطتي، نظرًا لأن بشرتي البيضاء سوف تلفت انتباهًا غير مطلوب في أي مدينة على برسوم. جلب عبد آخر عتادًا وأسلحة لجور هاجوس ودار تاروس ولي، فضلاً عن طوق وسلسلة للرجل القرد هوفان دو. وعلى الرغم من أن عتادنا كان مصنوعًا بإتقان من مواد ثقيلة، فقد كان شديد البساطة ويخلو من أي شارة، سواء لرتبة أو خدمة – أي كان يماثل العتاد الذي يرتديه عادة أي بانتان[152] برسومي، أو جندي مرتزق، في الأوقات التي لا يخدم فيها قطعًا أي دولة أو فرد. هؤلاء البانتان هم عمليًّا رجال بلا بلد، بل مرتزقة متنقلون على استعداد لبيع قوة سيوفهم إلى من يدفع أكثر. وعلى الرغم من عدم وجود تنظيم يجمعهم، تحكمهم قواعد أخلاقية صارمة؛ كما أنهم يدينون بالولاء، دون استثناء، للسيد الذي يعملون تحت إمرته. ومن المفترض عمومًا أنهم رجال هربوا من غضب جيداكهم أو عدالة محاكمهم؛ لكن بينهم رجال تتوق نفوسهم إلى المغامرة ويتخذون هذا السبيل لما فيه من تشويق وإثارة. ومع أنهم يحصلون على أجور مرتفعة، فهم أيضًا مقامرون بارزون وسمعتهم سيئة في إنفاق المال، ولذلك فهم يفتقرون دائمًا إلى المال وغالبًا ما يلجأون إلى وسائل غريبة لكسب عيشهم في الفترات التي تقع بين تعاقداتهم؛

(152) بانتان: هو جندي مريخي مرتزق، يتنقل من مكان لآخر ويقاتل لصالح من يرغب في شراء خدماته - http://barsoom.wikia.com/wiki/Panthan - المترجمة.

وهي الحقيقة التي أضفت معقولية كبيرة على حوزتنا لقرد مُدرّب، وهو ما قد يبدو ملحوظًا على كوكب المريخ أكثر مما قد يبدو امتلاك ملاح عجوز لقرد أو ببغاء، عاد لتوه من رحلة طويلة إلى أحد الموانى على كوكب الأرض.

أمضيت وقتًا طويلاً في صحبة الأمير في يوم وجودي في قصر مو تل؛ حيث وجد متعة في سؤالي عن عادات كوكب الأرض وسياسته وحضارته وجغرافيته. ولدهشتي، وجدته يعرف الكثير عنه، وأوضح لي أن ذلك يرجع إلى تطور برسوم الهائل في الأدوات الفلكية والتصوير اللا سلكي والاتصالات الهاتفية اللا سلكية. كما وصلت تطور الاتصالات الهاتفية اللاسلكية إلى حالة من الكمال أتاحت للعديد من علماء برسوم النجاح في تعلُم عدد من لغات كوكب الأرض، لا سيما الأُردية والإنجليزية والروسية، فضلاً عن الصينية.

وهذه كانت بلا شك اللغات الأولى التي جذبت انتباههم؛ لأن أعدادًا كبيرة من الناس يتحدثون بها في مناطق شاسعة من العالم.

أخذني مو تل إلى قاعة صغيرة في قصره، ذكرتني نوعًا ما بغرف العرض الخاصة على كوكب الأرض. تسع الغرفة حوالي مائتي شخص، ومبنية على شكل الحجرة المظلمة في الكاميرا؛ حيث يجلس الجمهور داخل الجهاز وظهورهم نحو العدسة وأمامهم رقعة زجاجية كبيرة، تملأ مساحة إحدى طرفي الغرفة بالكامل، تظهر عليها الصورة المطلوب مشاهدتها.

جلس مو تل أمام طاولة يوجد فوقها رسم تخطيطي للسماء، ويوجد فوق الرسم ذراع متحرك يحمل مؤشرًا. تولى مو تل تحريك المؤشر حتى استقر على كوكب الأرض، ثم أطفأ ضوء الغرفة وفورًا ظهر على اللوح الزجاجي مشهد مثل ذلك الذي يمكنك رؤيته من طائرة على ارتفاع ألف قدم. رأيت في هذا المشهد شيئًا مألوفًا بشكل غريب، إنه بلد قفر مهجور. رأيت جذوعًا محطمة يُعلن ترتيبها عن أن هذا المكان كان في يوم ما بستانًا مزدهرًا ومثمرًا. ورأيت ثقوبًا كبيرة وقبيحة في الأرض، تمر عبرها وفوقها مجموعة متشابكة من الأسلاك الشائكة. سألت مو تل: كيف يمكننا تغيير الصورة إلى منطقة أخرى؟ أضاء لمبة راديو صغير بيننا، ورأيت عالمًا كرويًّا، الكرة الأرضية ومؤشر صغير مثبت فوقها.

قال موضحًا: «يمثل هذا الجانب من العالم الذي تشاهده الآن وجه كوكب الأرض الذي تحول تجاهنا. وسوف تلاحظ أن الكرة الأرضية تدور ببطء. ضع هذا المؤشر في المكان الذي تريده على ذلك الكوكب، وسيكشف لك عن ذلك الجزء من جاسوم».

قمت بنقل المؤشر ببطء شديد، وتغيرت الصورة. ظهرت إحدى القرى التي تدمرت، ورأيت بعض الأشخاص يتنقلون بين أنقاضها. ليسوا جنودًا. ورأيت على بُعد قليل خنادق ومخابئ -وهنا أيضًا لا يوجد جنود. نقلت المؤشر بسرعة شمالاً وجنوبًا على طول خط واسع من الخنادق. رأيت جنودًا هنا وهناك في القرى، لكنهم جميعًا من الجنود الفرنسيين ولم أجد أحدهم أبدًا في الخنادق. لا يوجد أي جندي ألماني، ولا يوجد قتال. انتهت الحرب إذَنْ! نقلت المؤشر إلى نهر الراين وما بعده. يوجد جنود في ألمانيا- جنود فرنسيون، وجنود إنجليز، وجنود أمريكيون. لقد انتصرنا في الحرب! كنت سعيدًا، لكن المشهد كان يبدو بعيدًا جدًّا وغير واقعي -كأنما لم يوجد مثل هذا العالم ولم تحارب هذه الشعوب من قبل- شعرت كأنني أتذكر من خلال رسوم توضيحية رواية قرأتها منذ زمن بعيد.

لاحظ مو تل: «أنت تبدو أكثر اهتمامًا بتلك الحرب التي مزقت البلاد».

«نعم»، قلت موضحًا، «لقد قاتلت في تلك الحرب. ربما قُتِلت. لا أعرف».

تساءل: «وهل انتصرتم؟».

أجبت: «نعم، انتصر شعبي. لقد حاربنا من أجل مبدأ عظيم، ومن أجل سلام وسعادة العالم. وآمل أننا لم نحارب دون جدوى».

«إذا كنت تعني أنك تأمل أن مبدأكم سوف ينتصر لأنكم حاربتم وفزتم، أو أن السلام سيتحقق، فإن آمالك بلا جدوى. الحرب لا تجلب السلام أبدًا -بل تجلب المزيد والمزيد من الحروب. الحرب هي الحالة الطبيعية في الطبيعة- فمن الحماقة مكافحتها. يجب النظر إلى السلام باعتباره مجرد فترة تحضيرية للأعمال الرئيسة لوجود الإنسان. لو لم يكن بسبب الحرب المستمرة من أحد أشكال الحياة على شكل آخر لها، وحتى على نفسها، لاجتاحت الحياة الكواكب بحيث تخنق نفسها. وجدنا في برسوم أن فترات السلام الطويلة قد جلبت الأوبئة والأمراض الفظيعة التي أودت بحياة أعداد من الناس أكثر من الحروب، وبطريقة أكثر بشاعة وإيلامًا. ليس هناك متعة ولا تشويق ولا مكافأة من أي نوع يمكن الفوز بها بالموت في سرير نتيجة مرض كريه. إننا جميعًا يجب أن نموت - فلنخرج إذَنْ ولنمت في لعبة كبيرة ومثيرة، ونفسح المجال للملايين الذين يأتون بعدنا. لقد جربنا ذلك في برسوم، ولن نوجد دون حرب».

أخبرني مو تل بالكثير في ذلك اليوم عن فلسفة التونوليين الغريبة. فهم يعتقدون بأنه لم يتحقق أبدًا أي عمل جيد إلا بدوافع أنانية؛ وليس لديهم إله ولا دين؛ ويعتقدون، مثلهم مثل جميع المتعلمين في برسوم، أن الإنسان جاء أصلاً من شجرة الحياة. لكنهم،

على عكس معظم زملائهم، لا يعتقدون أن موجودًا كلي القدرة هو من خلق شجرة الحياة. كما يعتقدون أن الخطيئة الوحيدة هي الفشل، وأن النجاح -كيفما تحقق- جدير بالتقدير؛ على أن ما قد يبدو متناقضًا أنهم لا يخلفون كلمتهم أبدًا. وأوضح مو تل أنهم يتغلبون على النتائج الوخيمة لهذا الضعف المُهين -هذا الهراء العاطفي- بنُدرة، إن حدث أصلاً، ربط أنفسهم بولاء لآخر، وإن حدث يكون لفترة زمنية محددة بالتأكيد.

وعندما أصبحت معرفتي بهم أفضل، لا سيما معرفتي بجور هاجوس، بدأت أدرك أن جزءًا كبيرًا من احتقارهم المتفاخر بالمشاعر الجميلة كان خادعًا. صحيح أن أجيالاً من الكبت قد أدت إلى حد ما إلى ضمور خصائص القلب والروح تلك التي يقدرها عاليًا أكثرنا نبلاً؛ وأن روابط الصداقة تتراخى وأن القرابة بالدم لم توقظ أي شعور بالمسؤولية أو الحب بين الآباء والأمهات والأطفال؛ بيد أن جور هاجوس كان رجل مشاعر من حيث الجوهر، على الرغم من أنه قد يشق قلب كل من يجرؤ على اتهامه بذلك، لأنه يثبت تمامًا حقيقة اتهام الآخر له. لقد أثبت فخره بسمعته في النزاهة والولاء أنه رجل بتمتع بقلب، بمثل ما أثبتت غيرته على سمعته في القسوة أنه رجل يتمتع بمشاعر؛ وفي هذا كله، كان نموذجًا يمثل شعب تونول. إنهم ينكرون الألوهية، وفي الوقت نفسه يعبدون صنم العلم الذي سمحوا له أن يستحوذ عليهم تمامًا على نحو ضار يماثل الضرر الناجم عن قبول المتعصبين الدينيين للحكم غير الرشيد لآلهتهم الخيالية؛ وهكذا، ومع كل عجرفة معرفتهم، ليسوا أذكياء لأنهم يفتقرون إلى التوازن.

ومع اقتراب اليوم من نهايته، أصبحت أكثر شغفًا بالرحيل. تقع فوندال في أقصى الغرب، عبر تجمعات المستنقعات المقفرة. وفي فوندال، يوجد الجسد الجميل للفتاة التي أحبها وأقسمت على استعادته لمالكته الشرعية. انتهت وجبة المساء، وقادنا مو تل بنفسه إلى حظيرة سرية في أحد أبراج قصره؛ حيث أعّد لنا الصناع المهرة طائرة بعد أن أمضوا النهار في إزالة جميع الدلائل على ملكيتها الحقيقية، وحتى أجروا تغييرًا طفيفًا في خطوطها بحيث لا يرتبط اسم مو تل ببعثتنا بأي شكل من الأشكال في حال إلقاء القبض علينا. انتهى تخزين الإمدادات، بما في ذلك الكثير من اللحوم النيئة لهوفان دو. وعندما غرق القمر الأبعد في الأفق وحل الظلام، انزلقت جانبًا لوحة في جدار البرج، أمام مقدمة الطائرة مباشرة. تمنى لنا مو تل التوفيق، وانطلقت السفينة الفضائية بصمت في الليل. كانت الطائرة، مثل العديد من نوعها، دون قمرة أو مقصورة للقيادة؛ يحيط بحافتها العليا درابزين معدني منخفض؛ وُضعت حلقات ثقيلة بصورة ملحوظة على سطح السفينة، حيث من المفترض أن يتشبث أو يتعلق بها الطاقم بواسطة خطافات في عتادهم مخصصة لهذا الغرض وأغراض مماثلة؛ وهناك درع رياح منخفض، مع بعض الميل ليمنح بعض الحماية من الرياح؛ المحرك والضوابط مكشوفة كلها، حيث تشغل خزانات

الطفو المساحة التي تقع أسفل الأسطح. في هذا النوع من الطائرات، يجري التضحية بكل شيء من أجل السرعة؛ فما من راحة على متن السفينة. وعندما تتحرك بسرعة عالية، يرقد كل فرد من أفراد الطاقم ممددًا بكامل طوله على سطح السفينة، كل في مكانة المخصص لتحقيق التوازن اللازم، ومتشبثًا بالحياة العزيزة. على أن طائرات تونول لا تتمتع بسرعات هائلة، كما قيل لي، وتفوقها سرعة طائرات أمم مثل هليوم وبتارث التي كرست نفسها عبر عصور لتحقيق كمال أساطيلها. لكن سرعة هذه الطائرة تكفي لأغراضنا، التي لا يتطلب تحقيقها المقارنة بأنواع أعلى من الطائرات، وسرعتها بالتأكيد تكفي بالنسبة لي. وانطلقت سفينتنا عبر الهواء كالسهم، مقارنة بالسفينة فوسار بطيئة الحركة.

لم تضيع وقتًا في التخطيط أو التسلل، بل انطلقنا بسفينتنا بسرعة بمجرد أن أصبحنا على مسافة آمنة، ووجهناها مباشرة نحو الغرب وفوندال. وما إن عبرنا حدائق مو تل، التقينا بمغامرتنا الأولى. اصطدمنا بجسم شخص عائم في الهواء، ودوّت في الوقت نفسه تقريبًا صفارة الإنذار الخاصة بدورية جوية. سمعنا صفير طلقة نارية فوقنا دون أن تضر بنا، ومضينا في طريقنا. وفي غضون ثوانٍ قليلة، رأيت أشعة كشاف تضيء من أعلى إلى أسفل وتتحرك جيئة وذهابًا تبحث عبر الهواء. «قارب دورية!»، صاح جور هاجوس في إذني. دمدم هوفان دو بوحشية، وأخذ يهز السلسلة طوقه. أسرعنا، آملين بثقة في الآلهة الكبيرة والآلهة الصغيرة وجميع أسلافنا، ألا تجدنا عين الضوء العنيدة؛ لكنها رأتنا. ففي غضون ثوانٍ قليلة، سقطت على سطح سفينتنا بالكامل من أعلى وأمامنا وثبتت، حيث هبط زورقٌ الدورية نحونا بسرعة بينما حافظ على معدل عالٍ للسرعة على مسار لا يتطابق مع مسارنا. ولذعرنا، فتح النار علينا برصاصات متفجرة. تحتوي هذه القذائف على مواد شديدة الانفجار، تنفجر بواسطة أشعة ضوئية عندما ينكسر غطاء القذيفة المعتم باصطدامه مع الهدف. ولذلك، ليس ضروريًّا على الإطلاق توجيه ضربة مباشرة لتكون فعالة. فإذا اصطدمت القذيفة بأرضية أو سطح سفينة أو أي مادة صلبة بالقرب من هدفها، فإنها تُلحِق أضرارًا عند إطلاقها على مجموعة من الرجال أكثر بكثير مما تلحقه من ضرر إذا أصابت أحدهم فقط؛ لأنها عندئذ سوف تنفجر إذا انكسر الغلاف الخارجي وقتل أو جرح العديدين؛ بينما إذا دخلت جسم فرد، لن تتمكن الأشعة الضوئية من الوصول إليه ولن تحقق سوى ما تحققه رصاصة غير متفجرة. لم يكن ضوء القمر قويًّا بما يكفي لتفجير هذه المادة المتفجرة، ولذا كانت القذائف التي تُطلق أثناء الليل تنفجر عند شروق الشمس في صباح اليوم التالي، ما لم تلمسها أشعة قوية من الكشافات. وهو ما يجعل ساحة المعركة مكانًا غير آمن في ذلك الوقت، حتى وإن لم تعُد القوات المتصارعة موجودة هناك. وبالمثل، تصبح إزالة القذائف غير المنفجرة من جثث الجرحى عملية شديدة الخطورة قد تسفر عن وفاة فورية للمريض والجراح.

أدار دار تاروس، متخذًا موقعه أمام لوحات التحكم، مقدمة طائرتنا إلى أعلى مباشرة في اتجاه زورق الدورية، وصاح في الوقت نفسه طالبًا منا تركيز طلقاتنا على مراوح الزورق. لم أتمكن سوى من رؤية عين الكشاف التي تُصيب بالعمى، وبالتالي أطلقت النار بالسلاح الغريب الذي لم أتعرف عليه سوى منذ بضع ساعات عندما أعطاني إياه مو تل. كنت أعتبر أن هذه العين الباحثة تمثل أكبر خطر يواجهنا، وإذا أمكننا إصابتها، لن يتفوق علينا زورق الدورية. ولذا صوبت بندقيتي نحوها مباشرة، وإصبعي على زر التحكم في إطلاق النار، وأدعو في صلاتي من أجل إصابتها. كان جور هاجوس راكعًا إلى جانبي، يطلق الرصاص إلى زورق الدورية. انشغلت أيدي دار تاروس بلوحات التحكم، وجلس هوفان دو القرفصاء هادرًا عند مقدمة السفينة.

وفجأة هتف دار تاروس بذعر: «لقد أُصيبت لوحات التحكم! لا يمكننا تغيير مسارنا -أصبحت السفينة بلا طائل». وفي اللحظة نفسها تقريبًا انطفأ الكشاف- أصابته إحدى رصاصاتي. أصبحنا الآن على مقربة من العدو، وسمعنا صيحاتهم الغاضبة. كانت طائرتنا، التي أصبحت خارج نطاق السيطرة، تسير بسرعة نحو الزورق. ويبدو أننا إن لم نتصادم، فسوف نمر مباشرة أسفل عارضة زورق الدورية الجوية. سألت دار تاروس عما إذا كان يتعذر إصلاح سفينتنا.

أجاب: «يمكننا إصلاحها إذا كان لدينا وقت، لكن الإصلاح يستغرق ساعات وتأخيرنا سيتيح لقوات الدوريات الجوية كلها في تونول أن تصل إلينا».

قلت: «إذَنْ علينا أن نحصل على سفينة أخرى».

ضحك تاروس دار وأجاب: «أنت على حق، فاد فارو، ولكن أين نجد سفينة أخرى؟».

أشرت إلى زورق الدورية: «ليس علينا أن ننتظر الآن».

هز دار تاروس كتفيه قائلاً: «ولِمَ لا؟ ستكون معركة مجيدة جديرة بالموت من أجلها».

ربت جور هاجوس على كتفي وهو يهتف: «إلى الموت، أيها الكابتن!».

هز هوفان دو سلسلته وزأر.

تقترب السفينتان من بعضهما بسرعة. توقفنا الآن عن إطلاق النار خشية الإضرار بالسفينة التي نأمل في استخدامها في الهروب. ولسبب ما، توقف طاقم سفينة الدورية

عن إطلاق النار علينا- لم أعرف السبب أبدًا. نحن نتحرك على مسار سوف يجلبنا مباشرة أسفل السفينة الأخرى. وقد عقدت العزم على الصعود عليها مهما كانت التكلفة. يمكنني رؤية بكرة عارضة الصعود تتدلى أسفلها، على استعداد لخفضها من موقعها إلى سطح السفينة ما إن تمسك خطافاتها بالفريسة. مما لا شك فيه أنهم يزودونها بالرجال، وما إن نصل أسفلها، ستمتد مخالبها الصلبة نحونا وتمسك بنا، بينما يحتشد طاقمها للصعود على سطح.

ناديت هوفان دو، وتسلل إلى جانبي، فهمست بتعليماتي في أذنه. وعندما انتهيت، أومأ برأسه بهدير منخفض. ألقيت بخطاف عتادي، الذي يثبتني على سطح السفينة. وتحركت أنا والقرد إلى مقدمة سفينتنا بعد أن همست بتعليمات موجزة إلى جور هاجوس ودار تاروس. أصبحنا

الآن تقريبًا أسفل زورق العدو مباشرة؛ حيث يمكنني رؤية الخطافات مستعدة للهبوط. وصلت مقدمة سفينتنا أسفل مؤخرة السفينة الأخرى، وجاءت اللحظة التي كنت في انتظارها. لا يستطيع الآن من على سطح زورق الدورية رؤيتي أو رؤية هوفان دو. تأرجحت بكرة صعود السفينة الأخرى فوق رؤوسنا بخمسة عشر قدمًا. همست بكلمة آمرة إلى القرد، ثم جثمنا ووثبنا في الوقت نفسه نحو البكرة. قد تبدو فرصة مجنونة - فالفشل يعني موتًا محققًا- لكني شعرت أن نجاح كلينا في الوصول إلى سطح زورق الدورية خلال انشغال طاقمها بالكلَّابات، يستحق المخاطرة.

أكد لي جور هاجوس أن عدد الرجال على متن زورق الدورية لن يزيد على ستة؛ وأن أحدهم سيكون منشغلاً بلوحات التحكم، بينما ينشغل الآخرون بالخطافات. وهذا أنسب وقت للصعود إلى سطح سفينة العدو.

قمت أنا وهوفان دو بقفزتنا وابتسم لنا الحظ، على الرغم من أن القرد الضخم بالكاد ما وصل إلى البكرة بيد واحدة ممدودة، بينما حملتني عضلاتي كرجل من كوكب الأرض إلى هدفي بسهولة. شققنا معًا طريقنا سريعًا نحو مقدمة قارب الدورية. ودون تردد، وكما رتبنا مسبقًا، تسلق القرد بسرعة أعلى جانب الميمنة، وأنا إلى الميسرة. وفي حين كنت أكثر رشاقة في القفز، فقد تفوق عليَّ هوفان دو في التسلق، بحيث وصل إلى درابزين السفينة وأخذ يتسلقه بينما كانت عيناي لا تزالان دون مستوى سطح السفينة. وربما كان ذلك، بالمصادفة، من حسن حظي، فقد اخترت الوصول إلى سطح السفينة مباشرة عند موقع لا أعرفه وينشغل فيه أحد أفراد طاقمها بالخطافات.

كان يمكن أن يقتلني بضربة واحدة قبل أن أتمكن من وضع قدمي على سطح السفينة لو لم تنجذب عيناه إلى مكان آخر، نتيجة صياح أحد زملائه الذي كان أول من رأى وجه هوفان دو الوحشي يرتفع فوق الحافة العليا للسفينة.

وجد القرد نفسه مباشرة أيضًا أمام محارب تونولي، أطلق صيحة من المفاجأة وسعى إلى امتشاق سيفه، لكن القرد، رغم ضخامة حجمة، كان أسرع منه. وما إن اعتلت عيناي الدرابزين، رأيت القرد الجبار الشبيه بالإنسان يمسك بالرجل تعيس الحظ من عتاده، ويجره إلى الجانب ليلقيه نحو الدمار في أسفل.

صعد كلانا على الفور أعلى الدرابزين وأصبحنا مباشرة على سطح السفينة، بينما ترك بقية أفراد طاقمها مواقعهم وركضوا نحونا لمواجهتنا. أعتقد أن مشهد الوحش الهمجي الضخم أضعف من معنوياتهم لأنهم ترددوا، كأنما يرغب كل منهم أن يمنح زميله شرف الاشتباك الأول معنا. لكنهم اقتربوا، وإن كان ببطء. أسعدتني رؤية هذا التردد، لأنه يتفق تمامًا وخطتي التي تعتمد إلى حد كبير على النجاح الذي يمهد الطريق أمام جهود جور هاجوس ودار تاروس للوصول إلى سطح زورق الدورية عندما يقترب ارتفاع طائرتنا أسفلها بما يكفي ليتيح لهما الوصول إلى بكرة الصعود.

حذرني جور هاجوس بضرورة قتل الرجل المسؤول عن لوحات التحكم في أسرع وقت ممكن، حيث سيتمثل أول تصرف له في إلحاق الضرر بتلك اللوحات بمجرد ظهور أي احتمال لنجاح محاولة استيلائنا على سفينته. ولذا، ركضت نحوه بسرعة وقتلته قبل أن يتمكن من امتشاق سيفه. يوجد الآن أربعة ضدنا. انتظرنا تقدمهم بحيث يمكننا كسب الوقت حتى يصل رفاقنا إلى سطح السفينة.

تقدم الأربعة ببطء إلى مسافة تتيح الهجوم، وعندئذ رأيت رأس جور هاجوس تظهر أعلى درابزين مؤخرة السفينة، وسرعان ما أعقبتها رأس دار تاروس.

صحت نحو الأعداء: «انظروا! واستسلموا»، مشيراً إلى الوراء.

استدار أحدهم لينظر، وما رآه جعله يطلق تعبير بالمفاجأة على شفتيه، هتف: «إنه جور هاجوس!»، ثم قال لي: «ماذا ستفعل لنا إذا استسلمنا؟».

أجبت: «لسنا في خصومة معكم. ولا نريد سوى مغادرة تونول والمضي في طريقنا بسلام- ولن نلحق بكم أي ضرر».

التفت إلى زملائه بينما أوقف رفاقي الثلاثة، بإشارة مني، تقدمهم وانتظروا. تحادث المحاربون الأربعة لبضع دقائق بنبرة منخفضة، ثم خاطبني المحارب الذي تحدث معي أولاً.

قال: «هناك عدد قليل من التونوليين الذين لن تسعدهم خدمة جور هاجوس، الذي اعتقدنا أنه مات منذ وقت طويل، لكن تسليمكم سفينتنا يعني موتنا المؤكد عندما نُبلغ هزيمتنا إلى مقر قيادتنا. ومن ناحية أخرى، إذا واصلنا دفاعنا، سوف يُقتل معظمنا هنا على سطح هذه الطائرة. فإذا أمكنك أن تؤكد لنا أن خططكم لا تستهدف سلامة تونول، يمكنني تقديم اقتراح سيتيح لكم مجالاً للهروب ويضمن سلامتنا جميعًا».

أجبت: «نحن لا نريد سوى مغادرة تونول. وما نسعى إلى تحقيقه لن يسبب أي ضرر لتونول».

- جيد! وأين تريدون الذهاب؟

- هذا لن أخبركم به.

قال مؤكِدًا: «يمكنكم الوثوق بنا إذا قبلتم اقتراحي، وهو أن ننقلكم إلى وجهتكم، وبعد ذلك يمكننا العودة إلى تونول وتقديم تقرير أننا اشتبكنا معكم في معركة طويلة، أسفرت عن مقتل اثنين منا، ثم تمكنتم من المراوغة في الظلام وهربتم».

«هل يمكننا الوثوق بهؤلاء الرجال؟»، سألت جور هاجوس، الذي أكد لي ذلك. وبالتالي اتفقنا، وأسرعنا في اتجاه فوندال على متن إحدى طائرات فوبيس كان.

***

الفصل (11)

فوندال

أنزلنا الطاقم التونولي في الليلة التالية داخل جدار مدينة فوندال، وفقًا لتوجيهات دار تاروس وهو من مواطني المدينة، وكان محاربًا ضمن حرس الجيدارة، وقبلها خدم في سلاح البحرية الصغير في فوندال. وظهرت معرفته بكافة تفاصيل دفاعات فوندال ونُظُم دورياتها، حيث هبطت دون انكشاف وارتفعت السفينة التونولية وغادرت دون أن يلحظها أحد.

كان موقع هبوطنا هو سطح مبنى منخفض مبني على سور المدينة من الداخل. قادنا دار تاروس من هذا السطح دار أسفل مدرج مائل إلى الشارع، الذي كان عندئذ مهجورًا تمامًا. كان الشارع ضيقًا ومظلمًا، تحيط بإحدى جانبيه أبنية منخفضة ملاصقة لسور المدينة وتحيط بالجانب الآخر أبنية مرتفعة بعضها بلا نوافذ ولا يظهر ضوء من أي مبنى منها. أوضح دار تاروس أنه اختار هذه البقعة لدخولنا؛ لأنها كانت منطقة مخازن، وبينما تضج بالزحام والعمل خلال النهار، لا تحتاج في الليل إلى وجود حتى حارس واحد بسبب انعدام السرقة تمامًا في برسوم.

قادنا أخيراً، بطرق ملتوية وغير مباشرة، إلى قسم الدرجة الثانية من المتاجر وأماكن الطعام والفنادق مثل التي يتردد عليها الجنود العاديون والحرفيون والعبيد، حيث الاهتمام الوحيد الذي قد ينجذب نحونا يكون بسبب الفضول الذي يثيره هوفان دو. ونظرًا لأننا لم نأكل منذ مغادرة قصر مو تل، انصب أول اهتمامنا على الطعام. كان مو تل قد أمد جور هاجوس بالمال، حتى يتسنى لنا إشباع رغباتنا. كانت محطتنا الأولى في متجر صغير، حيث ابتاع جور هاجوس أربعة أو خمسة أرطال من لحم الثوات لهوفان دو، ثم توجهنا إلى مكان لتناول الطعام يعرفه دار تاروس. لم يقبل صاحب المكان في البداية إدخال هوفان دو، لكنه وافق أخيراً بعد جدال كثير بإدخال القرد إلى غرفة داخلية، حيث اضطر هوفان دو البقاء مع لحم الثوات خلال جلوسنا على طاولة في الغرفة الخارجية.

ويجدر بي القول إن هوفان دو لعب دوره جيدًا، ولم يحدث ولو لمرة واحدة أن تصور مالك المكان، أو أي من رعاته، أو الحشد الكبير الذي تجمع للاستماع إلى الجدال، أن جسم هذا الوحش الهمجي يحركه مخ بشري. وفي الحقيقة لم يمارس النصف القردي من مخ دوفان دو أي تأثير كبير عليه إلا عندما يتناول الطعام أو يقاتل؛ لكن هناك شك قليل أن هذا النصف كان يصبغ دائمًا كل أفكاره وتصرفاته إلى حد ما، بما

يفسر صمته المعتاد وسرعة إثارة غضبه، فضلاً حقيقة عدم ابتسامه أبدًا، ولا تقديره بأي درجة لفكاهة الموقف. على أنه أكد لي أن النصف البشري من مخه لا يُقدّر فحسب الأحداث والمصادفات الخفيفة لمغامرتنا والقصص والفكاهات التي يرويها القاتل جور هاجوس، بل يستمتع بها كثيراً أيضًا؛ لكن تشريحه القردي لم يُطور عضلات تتيح التعبير البدني عن ردود أفعاله العقلية.

تناولنا طعامنا بشهية رغم فظاظتها وبساطة سعرها، لكننا كنا سعداء بالإفلات من تطفل وفضول وثرثرة صاحب المكان، الذي أرهقنا بالعديد من الأسئلة بشأن ماضينا وخططنا المستقبلية التي كان على دار تاروس، مُتحدِثنا هنا، أن يجيب عليها بسرعة بردود مفبركة ويجب أن تتسم دائمًا بالاتساق. وأخيراً انتهينا وخرجنا إلى الشارع ثانية، حيث قادنا دار تاروس إلى دار إقامة عام يعرفه. اقتربنا من مبنى كبير رائع الجمال، تتدفق داخله وخارجه تيارات متواصلة من الناس. وعندما وصلنا أمامه، طلب منا دار تاروس الانتظار في الخارج وسوف يدخل أولاً. وعندما سألته عن السبب، أخبرني أن هذا كان معبد طور، الإله الذي يعبده شعب فوندال.

وقال: «لقد غبت لفترة طويلة، ولم تتح لي فرصة لتقديم الاحترام لإلهي. لن أدعكم تنتظرون طويلاً. جور هاجوس، هل يمكنك أن تقرضني بضع قطع من الذهب؟».

أخرج التونولي في صمت بضع قطع من المال من أحد جيوب حقيبته وأعطاها إلى دار تاروس، لكني رأيت كيف أخفى التونولي بصعوبة تعبيراً عن الازدراء نظرًا لأن التونوليين غير مؤمنين.

سألت دار تاروس عن إمكانية أن أرافقه إلى المعبد، وقد أسعده ذلك كثيراً. دخلنا مع تيار من البشر يقترب من المدخل الواسع. أعطاني دار تاروس قطعتين ذهبيتين من القطع التي اقترضها من جور هاجوس، وقال لي أن أسير خلفه مباشرة وأقوم بعمل كل ما أرى أنه يقوم به. اصطف

الكهنة داخل المدخل الرئيس مباشرة، وعلى طوله تمامًا عبر فواصل تتيح مساحة لمرور المتعبدين، وكانت أجسادهم مغطاة كاملة، بما في ذلك رؤوسهم ووجوههم، بعباءة من قماش أبيض. ويوجد أمام كل منهم منضدة كبيرة فوقها درج للنقود. وعندما اقتربنا من أحدهم أعطيناه قطعة من الذهب، قام على الفور بتبديلها إلى العديد من القطع الأقل قيمة، أسقطنا إحداها في صندوق بجانبه. وعندئذ قام بتمرير يديه عدة مرات فوق رؤوسنا، ثم غمس أحد أصابعه في وعاء من المياه القذرة وفركه عند نهايات أنوفنا وهو يتمتم ببعض الكلمات التي لم أستطع فهمها، ثم تحول إلى الشخص التالي في الصف

بعد انصرافنا وذهابنا إلى داخل المعبد الهائل. لم أشهد أبدًا من قبل مثل هذا العرض الرائع للثروة والإسراف في الزخارف التي وقعت عليها عينايَ هنا، في أول معابد طور التي من حسن حظي أن شاهدتها.

كانت الأرضية الضخمة متواصلة، لا يقطعها عمود واحد، انتظمت فوقها على فترات متساوية صور منحوتة تستقر على ركائز رائعة. كانت بعض هذه الصور لرجال وبعضها لنساء، تتمتع كثيرات منهن بالجمال؛ وهناك صور آخرون لوحوش ومخلوقات غريبة قبيحة، وكثير منها يتسم بالبشاعة. كان أول اقترابنا لشخصية امرأة جميلة، ويرقد على الأرض حول قاعدة تمثالها عدد من الرجال والنساء يضربون رؤوسهم سبع مرات، ثم ينهضون ويلقون قطعة من النقود في وعاء مخصص لهذا الغرض، ثم يتحركون إلى شخصية أخرى. كان التمثال التالي الذي زرناه أنا ودار تاروس لرجل له جسد سيليان[153]، وانتظمت حول قاعدة التمثال سلسلة من قضبان خشبية أفقية في دوائر متحدة المركز. بلغ ارتفاع القضبان حوالي خمسة أقدام من الأرض، ويتدلى منها عدد من الرجال والنساء من رُكبهم، وتكرر ذلك على نحو رتيب بدا لي كأنه ثرثرة فارغة.

انتقلت مع دار تاروس إلى القضبان مثل الآخرين، وتمتمنا بعبارات لا معنى لها لمدة دقيقة أو دقيقتين، ثم توجهنا إلى أسفل وألقينا عملة في الصندوق، وواصلنا. سألت دار تاروس عن الكلمات التي كررناها ومعناها، لكنه قال إنه لا يعرف. وسألته إذا كان هناك من يعرف، لكنه بدا مصدومًا، وقال إنه سؤال تدنيسي ويكشف عن نقص ملحوظ في الإيمان. عند التمثال التالي الذي زرناه، كان الناس جميعًا يزحفون على أيديهم وركبهم بجنون في دائرة حول قاعدة التمثال. زحفوا سبع مرات حوله، ثم نهضوا ووضعوا بعض النقود في صحن، وبعدها واصلوا طريقهم. وعند تمثال آخر، كان الناس يتدحرجون وهو يقولون: «طور هو طور؛ طور هو طور؛ طور هو طور»، ثم بعد ما ينتهون يقومون بإسقاط المال في وعاء ذهبي.

«ما هذا الإله؟»، همست قائلاً لدار تاروس بعد أن غادرنا هذا التمثال الأخير، الذي لم يكن لديه رأس، وكانت عيناه وأنفه وفمه في وسط بطنه.

أجاب دار تاروس بمهابة: «لا يوجد سوى إله واحد، هو طور!».

سألته: «هل كان ذلك هو طور؟».

---

(153) السيليان هو مخلوق مائي في بحر كوراس المفقود، وينشط ليلاً -http://barsoom.wikia.com/wiki/Silian .المترجمة.

همس دار داروس: «اصمت يا رجل. سوف يمزقونك إذا سمعوا مثل هذه الهرطقة».

صحت: «أوه، معذرة. لا أقصد أي إساءة. أرى الآن أنه مجرد أحد أصنامك».

وضع دار تاروس يده على فمي: «شششش»، وحذرني بضرورة الصمت. «نحن لا نعبد الأصنام- هناك إله واحد هو طور!».

«حسنًا، ما هذه؟»، سألته بإصرار، مع دفع اليد التي احتضنت العديد من الصور التي اجتمع حولها آلاف المتعبدين.

قال مؤكِّدًا: «يجب ألا نسأل. يكفي إيماننا بأن جميع أعمال طور عادلة وصالحة. تعال! لنواصل حتى ننتهي ونلحق برفاقنا».

قادني إلى تمثال بشع، يمتد فمه حول رأسه؛ ولديه ذيل طويل وثديا امرأة. التف حوله عدد كبير من الناس، يقف كل منهم على رأسه وهم يرددون، مرارًا وتكرارًا: «طور هو طور؛ طور هو طور؛ طور هو طور». قمنا بذلك لمدة دقيقة أو دقيقتين، كانت وقتًا عصيبًا حاولت خلاله الحفاظ على توازني، ثم نهضنا وألقينا عُملة نقدية في الصندوق الذي يقع عند قاعدة التمثال وتحركنا.

وقال دار تاروس: «يمكننا الذهاب الآن. كان أدائي جيدًا عند مرأى طور».

قلت: «لاحظت أن الناس تكرر أمام هذا التمثال نفس العبارة التي كرروها أمام التمثال السابق- طور هو طور».

صاح دار تاروس: «أوه، كلا، بل على العكس. لقد قالوا الآن عكس ما قالوه تمامًا أمام التمثال الآخر. عند التمثال الآخر قالوا: طور هو طور، بينما عند هذا التمثال قالوا العكس تمامًا: طور هو طور. أترى؟ قالوها معكوسة، وهذا فارق كبير جدًّا».

قلت بإصرار: «بدا الأمر نفس الشيء بالنسبة لي».

قال بحزن: «هذا لأنك تفتقر إلى الإيمان». خرجنا من المعبد، بعد إيداع باقي أموالنا في صندوق ضخم يقف حوله العديدون بعملاتهم المعدنية.

وجدنا جور هاجوس وهوفان دو ينتظرانا بفارغ الصبر، وسط حشد غفير وغريب من العديد من المحاربين الذين يرتدون معادن ظاظا، جيدارة فوندال. كانوا يريدون مشاهدة أداء هوفان دو، لكن دار تاروس أخبرهم أنه مُتعب ومزاجه سيئ.

وقال: «غدًا، بعد أن يستريح، سوف أخرج به إلى الشارع لتسليتكم».

تمكنّا بصعوبة من تخليص أنفسنا وذهبنا إلى شارع أكثر هدوءًا، واتخذنا طريقًا ملتويًا للوصول إلى مكان الإقامة، حيث وضعنا هوفان دو في غرفة صغيرة، بينما قادنا العبيد -أنا وجور هاجوس ودار تاروس- إلى شقة كبيرة للنوم، وتولوا ترتيب الحرير والفراء لنا على منصة منخفضة تطوق الغرفة، لا يقطعها سوى مدخل واحد للغرفة. ينام هنا بالفعل عدد كبير من الرجال، بينما يتولى عبدان مسلحان القيام بدوريات في الممر لحراسة الضيوف من القتلة.

لا يزال الوقت مبكرًا، وهناك بعض النزلاء الآخرين يتحدثون بهمس. ولذا سعيت الحديث مع دار تاروس حول معتقده الديني، الذي شعرت بفضول لمعرفته.

قلت له: «تفتنني دائمًا أسرار الأديان، دار تاروس».

صاح: «آه، لكن هذا هو جمال دين طور، لا توجد به أسرار. إنه دين بسيط وطبيعي وعلمي، ويمكن إثبات كل كلمة وعمل فيه من خلال صفحات طورجان: الكتاب العظيم الذي كتبه طور بنفسه.

«يقع بيت طور فوق الشمس. وهناك، منذ مائة ألف سنة، صنع برسوم وألقاها إلى الفضاء. ثم قام لتسلية نفسه بخلق الإنسان بأشكال مختلفة وفي جنسين؛ وصمم الحيوانات في وقت لاحق لتكون طعامًا للإنسان ولبعضها البعض، وتسبب في ظهور النباتات والمياه ليتمكن الإنسان والحيوان من العيش. ألا ترى كم هو بسيط وعلمي؟».

على أن جور هاجوس هو من أخبرني بالكثير عن دين طور، في يوم لم يكن فيه دار تاروس بجوارنا. قال إن الفونداليين يعتقدون أن طور لا يزال يخلق كل شيء حي بيديه. وإنهم ينكرون بشدة أن الإنسان يمتلك القدرة على إعادة إنتاج نوعه، ويعلمون الصغار أن الاعتقاد في ذلك يُعد جديرًا بالازدراء؛ ويخفون دائمًا أي دليل على الإنجاب الطبيعي، مُصرين حتى الموت على أن تلك الأشياء التي شهدوها بأعينهم وعاشت أجسامهم خبرتها في إنجاب صغارهم لم تحدث أبدًا.

لقد علّمهم طورجان أن برسوم مسطحة، وهم يغلقون عقولهم أمام أي دليل على العكس. إنهم لا يرحلون بعيدًا عن فوندال خشية السقوط من حافة العالم؛ ولا يسمحون بتطوير الملاحة الجوية؛ لأنه في حالة إبحار إحدى سفنهم حول برسوم، سوف يُعد ذلك تدنيسًا شريرًا في أعين طور الذي أنشأ برسوم مسطحة.

كما أنه لن يسمحوا باستخدام التلسكوبات؛ لأن طور علّمهم أنه لا توجد عوالم أخرى غير برسوم، وبالتالي من الهرطقة إلقاء نظرة على أي عالم آخر؛ ولن يسمحوا في المدارس بتدريس أي تاريخ لبرسوم سابق على خلق طور لبرسوم، على الرغم من وجود تاريخ مكتوب جيد التوثيق لبرسوم يعود إلى أكثر من مائة ألف سنة؛ ولن يسمحوا بأي جغرافيا لبرسوم إلا ما يظهر في طورجان، ولا أي أبحاث علمية على أساس بيولوجي. طورجان هو كتابهم الوحيد - وما لا يوجد في طورجان يُعد كذبة شريرة.

إن الكثير من هذا كله، وقدرًا أكبر كثيراً جمعته من مصدر أو آخر أثناء إقامتي قصيرة في فوندال، قادني إلى الاعتقاد أن شعب فوندال هو الأقل تقدمًا في الحضارة من أي أمة حمراء أخرى على برسوم. وباعتماد أفضل ما لديهم من تفكير على مثل تلك المسائل الدينية كليًّا، أصبحوا جهلاء ومتعصبين وضيقي الأفق، ويذهبون نحو أقصى طرف بمثل ما يذهب التونوليون إلى الطرف الأقصى الآخر.

على أي حال، أنا لم آتِ إلى فوندال للبحث في ثقافتها وإنما لسرقة مِلكتها، وهي الفكرة التي احتلت موقع الصدارة في ذهني عندما استيقظت على يوم جديد - يومي الأول في فوندال. بعد وجبة الصباح، اتخذنا طريقنا في اتجاه القصر للاستطلاع، وقادنا دار تاروس إلى موقع يتيح له بسهولة توجيهنا إلى باقي الطريق؛ لأنه لم يجرؤ على مرافقتنا إلى المناطق المجاورة مباشرة للأراضي الملكية خوفًا من أن يتعرف عليه أحد، فالجسد الذي لديه الآن كان ينتمي إلى أحد النبلاء المشهورين.

رتبنا أن يتصرف جور هاجوس باعتباره المتحدث، وأنا بوصفي حارس القرد. وبعد أن اتفقنا على ذلك، ودعنا دار تاروس وواصلنا طريقنا. سار ثلاثتنا على طول شارع واسع وجميل يؤدي مباشرة إلى بوابات القصر. أخذنا نخطط ونتمرن على أدوارنا، التي كنا نأمل أن تنجح في فتح البوابات أمامنا وتفوز لنا بالمثول أمام الجيدارة.

وخلال سيرنا وعلامات الاطمئنان بادية علينا، أُتيحت لي فرصة كبيرة للاستمتاع بالمشاهد الجديدة الجميلة لشارع القصور الغني هذا. أشرقت الشمس فوق المروج القرمزية المفعمة بالحيوية، وازدهرت أشجار البيماليا[154] الرائعة وغيرها من الأشجار والشجيرات نادرة الجمال في برسوم، بينما ظللت نماذج مثالية من أشجار السورابوس البديعة الطريق نفسه. كانت شُقق النوم في المباني قد انخفضت جميعها إلى مستواها خلال النهار، ورأيت في مئات الشرفات الحرير والفراء معلقًا للتهوية في الشمس. وينشط العبيد في أداء واجباتهم حول المباني، بينما تجلس النساء والأطفال في العديد من

---

(154) شجرة بيماليا: شجرة مزهرة كبيرة في حدائق المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Pimalia المترجمة.

الشرفات يتناولون وجبة الصباح. أثار مرورنا، أو على الأقل مشهد هوفان دو، حماسًا كبيراً بين الأطفال، كما أثار اهتمام الكبار. كان يمكن أن يوقفنا البعض مطالبين رؤية عرض للتسلية، لكننا تحركنا بثبات نحو القصر؛ فليس لدينا أي عمل أو شاغل آخر داخل أسوار فوندال.

تجمع حول بوابات القصر الحشد المعتاد من المتسكعين الفضوليين؛ فالطبيعة البشرية لا تختلف في أي مكان، سواء كانت البشرة سوداء أو بيضاء أو حمراء أو صفراء أو بنية، سواء على كوكب الأرض أو على سطح المريخ. كان الحشد أمام قصر ظاظا يتكون إلى حد كبير من الزوار القادمين من جزر ذلك الجزء من منطقة المستنقعات التونولية الكبرى التي تدين بالولاء لملكة فوندال، ويتوقون مثلهم مثل جميع أبناء القرى إلى لمحة من الأسرة الملكية؛ ومع ذلك كان يمكن أن يثير سلوك القرد الغريب اهتمامهم، ولذا كان في انتظارنا جمهور جاهز. تسبب الخوف الطبيعي من الوحش الضخم في تراجعهم قليلاً عند اقترابنا، مما فتح أمامنا طريقًا واضحًا للبوابات نفسها، وهناك وقفنا بينما تشكل الحشود خلفنا نصف دائرة حولنا. تحدث جور هاجوس بصوت عالٍ يمكن أن يسمعه المحاربون وضباطهم ما بعد البوابات، فهؤلاء هم من نريد حقًّا الترفيه عنهم وليست الحشود التي لم نعرها أدنى اهتمام.

صاح جور هاجوس: «يا رجال ونساء فوندال، انظروا إلينا، بانتانان فقيران، خاطرنا بحياتنا وأمسكنا ودربنا واحدًا أكثر الأنواع وحشية وشراسة وأيضًا أكثرها ذكاء من القرود البيضاء الكبيرة في برسوم، التي لم يأسرها أحد من قبل، وأحضرناه بتكلفة باهظة إلى فوندال لإبلاغكم والترفيه عنكم. أيها الأصدقاء، يتمتع هذا القرد الرائع بذكاء بشري؛ إنه يفهم كل كلمة أقولها لكم. ومع انتباهكم الكريم، يا أصدقائي، سأحاول إثبات الذكاء الاستثنائي الذي يتمتع به هذا الوحش الشرس، آكل لحوم البشر- الذكاء الذي استمتع به ملوك برسوم وقادتها، وأدهش عقول أفضل علمائها».

أعتقد أن جور هاجوس أتقن دوره جيدًا كفنان في الدعاية والإعلان. وجدتني أبتسم وأنا أستمع، هنا على المريخ، إلى العبارات المألوفة التي علمتها له من واقع خبرتي على كوكب الأرض عن أسواق المقاطعات ومتنزهات الترفيه، حيث بدت مُضحكة وهي تتساقط من شفاه قاتل تونول؛ لكنها أثارت بالتأكيد اهتمام مستمعيه وأعجبتهم أيضًا؛ لأنهم رفعوا أعناقهم ووقفوا صامتين تبدو الجدية في أعينهم انتظارًا لأداء هوفان دو. بل والأفضل أن عددًا من أفراد حرس الجيدارة ركزوا سمعهم وتحركوا نحو البوابات؛ وكان من بينهم ضابط.

وجّه جور هاجوس أوامره إلى هوفان دو بالاستلقاء، ثم النهوض، ثم

الوقوف على قدم واحدة، والإشارة إلى عدد الأصابع التي يرفعها جور هاجوس بأن يهدر مرة واحدة لكل إصبع، وبالتالي إرضاء الجمهور بأنه يستطيع العد؛ لكن هذه الحركات البسيطة كانت مجرد تحضير لتحقيق أداء أكثر لفتًا للانتباه، نأمل أن يفوز بإعجاب جمهور أمام الجيدارة. اقترض جور هاجوس مجموعة تضم عتادًا وأسلحة من رجل في الحشد، وجعل هوفان دو يرتديها ويبارزه، وعندئذ سمعنا صيحات الدهشة والإعجاب.

اقترب محاربو ظاظا والضابط من البوابات وكانوا من بين المتفرجين المهتمين، وهذا بالتحديد ما كنا نأمل فيه. وأصبح جور هاجوس الآن مستعدًّا للعرض النهائي المذهل لذكاء هوفان دو.

صاح: «ما شاهدتموه ليس شيئًا؛ فهذا الوحش الرائع يستطيع حتى القراءة والكتابة. لقد أمسكنا به في مدينة مهجورة بالقرب من بتارث، ويمكنه القراءة والكتابة بلغة ذلك البلد. هل يوجد بينكم، مصادفة، من أتى من ذلك البلد البعيد؟».

قال عبد: «أنا من بتارث».

«جيد!»، قال جور هاجوس، «اكتب بعض التعليمات البسيطة وأعطها إلى القرد. وأنا سوف أدير ظهري بحيث تتأكدون أنني لا أستطيع مساعدته بأي حال».

أخرج العبد لوحًا من جيب حقيبته وكتب عبارة موجزة، وأعطى ما كتبه إلى هوفان دو. قرأ القرد الرسالة وتحرك بسرعة دون تردد نحو البوابة وسلمها إلى الضابط الذي يقف على الجانب الآخر، وكانت البوابة مصنوعة من معدن مشغول بتصميمات عجيبة لا تعوق رؤية أو مرور المواد الصغيرة. أخذ الضابط الرسالة وفحصها.

وسـأل العبد الذي كتبها: «ماذا تقول؟».

أجاب العبد: «تقول خُذ هذه الرسالة إلى الضابط الذي يقف داخل البوابات مباشرة».

تعالت صيحات الدهشة من الحشد كله، واضطر هوفان دو تكرار أدائه عدة مرات برسائل مختلفة توجهه إلى القيام بأشياء مختلفة، في حين اهتم الضابط كثيراً بالمتابعة.

وأخيراً قال: «هذا عرض رائع، وسوف تستمتع الجيدارة كثيراً بأداء هذا الوحش. انتظر هنا، إذَنْ، حتى أرسل لها، فربما ترغب في رؤيتكم».

لا يوجد شيء يناسبنا أكثر من ذلك، وانتظرنا بصبر عودة الرسول. واستمر هوفان دو، خلال انتظارنا، في إثارة حيرة جمهوره ببراهين جديدة على ذكائه الشديد.

***

الفصل (12)

ظاظا

عاد الضابط، وتأرجحت البوابات مفتوحة، وأمرونا بدخول فناء قصر ظاظا، جيدارة فوندال. تطورت الأحداث بعد ذلك بسرعة كبيرة - أحداث مفاجئة وغير متوقعة تمامًا. قادونا عبر متاهة معقدة من الممرات والغرف حتى إنني تشككت أنهم يضللوننا عن عمد. واقتنعت بأن ذلك سواء كان مقصودًا أو غير مقصود، يجعلني غير قادر على اقتفاء أثر خطواتي للعودة إلى الفناء الخارجي بمثل ما لا يمكنني الطيران دون أجنحة. كانت خططنا تقضي بأننا -في حالة السماح لنا بدخول القصر- يجب أن نلاحظ بعناية كل ما قد يكون ضروريًّا لهروبنا السريع. لكنني عندما سألت جور هاجوس همسًا عما إذا كان يمكنه أن يجد طريق الخروج مرة أخرى، أكد لي أنه يعاني من نفس حيرتي.

لم يكن القصر لافتًا للنظر أو مثيراً للاهتمام بأي شكل؛ فقد كانت أعمال فناني فوندال ثقيلة وكئيبة ولا تدل على عبقرية عالية الخيال. كانت معظم المشاهد المرسومة ذات طبيعة دينية تصور مقاطع من طورجان، الكتاب المقدس في فوندال، وأغلبها عبارة عن سلسلة من التكرار الرتيب. هناك مشهد ورد مرارًا وتكرارًا، يصور طورجان يخلق المريخ على شكل مسطح مستدير ويلقيه في الفضاء، وهو المشهد الذي ذكرني دائمًا بالطاهي البارع الذي يلقي بفطيرة داخل نافذة طفل.

وكانت توجد أيضًا لوحات عديدة لما يبدو أنها مشاهد البلاط التي تحدد أعضاء السلالة الملكية في فوندال في أنشطة مختلفة؛ وكان ملحوظًا أن أحدث اللوحات، التي ظهرت فيها ظاظا، قد أُعيد طلاء الشخصية الرئيسة بحيث كانت تواجهني من وقت لآخر صورًا، ليست جيدة، لوجه وهيئة فالا ديا الجميلة في الأغطية الملكية للجيدارة. ليس من السهل أن أصف تأثير هذه الصور عليَّ. فقد ذكرتني أنني أقترب من -وسوف أقف الآن وجهًا لوجه مع -شخصية المرأة التي كرست لها حبي وحياتي، وإن كنت سأواجه في هذه الشخصية نفسها من أكرهها وسوف أدمرها.

أوقفونا أخيراً أمام باب كبير. ومن عدد المحاربين والنبلاء المحتشدين أمامه، كنت على يقين أنهم سرعان ما سينادون علينا للمثول أمام الجيدارة. وقد بدا لي خلال انتظارنا أن المجتمعين حولنا ينظرون إلينا بنظرة عداء أكثر من الفضول. وعندما تأرجح الباب مفتوحًا، رافقونا إلى داخل القاعة، باستثناء عدد قليل من المحاربين. كانت الغرفة متوسطة الحجم، وتجلس ظاظا في جانبها الأبعد، خلف طاولة ضخمة. تجمع حولها

عدد من النبلاء مدججين بالأسلحة. وعندما نظرت إليهم، أخذت أتساءل عما إذا كان من بينهم الشخص الذي سُرِق من أجله جسم دار تاروس؛ فقد تعهدنا له بأن نحاول استرداد جسمه إذا كانت الظروفَ مواتية.

نظرت نحونا ظاظا ببرود ونحن نقف أمامها، ثم قالت آمرة: «دعونا نرى أداء الوحش»، ثم صاحت فجأة: «ماذا يعني السماح للغرباء بالمثول أمامي وهم يحملون السلاح؟»، واستدارت نحو محارب وسيم شاب يقف بالقرب منها وقالت: «ساج أور، تأكد من نزع أسلحتهم!».

ساج أور! هذا هو الاسم. وقف أمامي النبيل الذي عانى دار تاروس بسببه من فقدان حريته وجسمه وحبيبته. تعرّف جور هاجوس أيضًا على الاسم وكذا هوفان دو؛ يمكن قول ذلك من نظرة أعينهم للرجل وهو يتحرك. طُلب منا أن نعطي أسلحتنا إلى اثنين من المحاربين تقدما لأخذها. تردد جور هاجوس. واعترف أنني لم أكن أعرف ماذا أفعل.

بدا العداء على الجميع، وربما لم يكن، دون شك، إلا انعكاسًا لموقفهم تجاه جميع الغرباء. لسنا سوى ثلاثة ضد غرفة مزدحمة، إذا رفضنا تسليم أسلحتنا؛ وإذا اختاروا اللجوء إلى القوة أو إذا أخرجونا من القصر بسبب ذلك، سوف نخسر الفرصة التي منحها لنا الرب للفوز بالوجود داخل قصر ظاظا وفي حضرتها، حيث يجب أن نفوز في النهاية قبل أن نقاتلهم. هل يمكن أن تُتاح لنا مثل هذه الفرصة ثانية؟ تشككت في ذلك وشعرت من الأفضل أن نخاطر الآن، بدلاً من أن يثير رفضنا طلبهم شكوكهم بالتأكيد. وبالتالي نزعت أسلحتي بهدوء وسلمتهم للمحارب الذي ينتظر استلامهم؛ وتبعني جور هاجوس، على الرغم من أنني أتصور أنه قام بذلك مُكرهًا.

أشارت ظاظا ثانية أنها تريد رؤية أداء هوفان دو. بدأ جور هاجوس في توجيه القرد للقيام بألعابه الغريبة، وكانت ظاظا تشاهد بفتور؛ كما لم يثر أي شيء قام به القرد أدنى اهتمام بين كل المتجمعين حول الجيدارة. ومع مرور الوقت، تملكتني هواجس الخوف من أن كل شيء لم يكن صحيحًا. وبدا لي أن هناك جهدًا يُبذل لاحتجازنا لغرض ما، لكسب الوقت. لم أفهم، مثلاً، لماذا طلبت ظاظا أن نكرر عدة مرات أقل أداءات القرد إثارة للاهتمام. وطوال الوقت، كانت ظاظا تجلس وفي يدها خنجر طويل رفيع، ورأيتها تنظر نحوي بقدر ما تنظر نحو هوفان دو، بينما وجدت من الصعوبة أن أبعد عيني عن ذلك الوجه المثالي، حتى وإن كنت أعرف أنه ليس سوى قناع مسروق يكمن خلفه العقل القاسي لطاغية وقاتلة.

وأخيراً قُوطع الأداء. فُتح الباب ودخل نبيل، توجه مباشرة إلى الجيدارة وخاطبها بإيجاز وبصوت منخفض. رأيتها تسأله عدة أسئلة، وأن ردوده كدرتها، ثم بإشارة مقتضبة أمرته بالانصراف واستدارت نحونا.

صاحت: «يكفي هذا!». استقرت عيناها على عيني، ووجهت خنجرها الرفيع نحوي. وسألت: «أين الشخص الآخر؟».

سألت مستفسرًا: «أي شخص آخر؟».

«أنتم ثلاثة، إلى جانب القرد. لا أعرف شيئًا عن القرد، لا أعرف أين أو كيف حصلت عليه؛ لكني أعرف كل شيء عنك يا فاد فارو، وعن جور هاجوس، قاتل تونول، وعن دار تاروس. أين دار تاروس؟». كان صوتها منخفضًا وموسيقيًّا وجميلاً -فهو صوت فالا ديا- لكني أعرف أن وراءه شخصية ظاظا الرهيبة، وأعرف أيضًا أنه من الصعب خداعها، فمن المؤكد أنها حصلت على تلك المعلومات من راس ثافاس مباشرة. كان من الغباء ألا أتوقع أن راس ثافاس سوف يُخمن على الفور غرض مهمتي ويُحذر ظاظا. وقد أدركت في الحال أن من الأسوأ إنكار هويتنا، بل يجب أن أفسر أسباب وجودنا – إن كان بإمكاني.

كررت سؤالها: «أين دار تاروس؟».

أجبت: «كيف لي أن أعرف؟ دار تاروس لديه أسباب للاعتقاد بأنه غير آمن في فوندال، وأتصور أنه لا يرغب في أن يعرف أي شخص مكانه، بما فيهم أنا. لقد ساعدني على الهرب من جزيرة ثافاس، وكانت حريته هي مكافأته. ولم يختر مرافقتي في مغامراتي».

هدأت ظاظا للحظات لأنني لم أنكر هويتي- من الواضح أنها افترضت أنني سأفعل ذلك.

وقالت: «تعترف إذَنْ أنك فاد فارو، مساعد راس ثافاس؟».

- وهل سعيت في أي وقت إلى إنكار ذلك؟

- لقد تنكرت كرجل أحمر من برسوم.

- وكيف يمكنني الترحال غير ذلك، حيث يعادي كل رجل أي شخص غريب؟

«ولماذا ترتحل في برسوم؟»، وضاقت عيناها وهي تنتظر ردي.

قلت لها: «مثلما أخبرك راس ثافاس دون شك، أنا من عالم آخر وأود أن أرى الكثير عن هذا العالم. أهذا شيء غريب؟».

«وهل بحضورك إلى فوندال، وسعيك دخول قصري والمثول أمامي، ومعك قاتل تونول سيئ السمعة، تشاهد بذلك الكثير في برسوم؟».

أوضحت: «جور هاجوس لن يعود إلى تونول، ولذا عليه أن يسعى إلى عمل لسيفه في بلاط آخر غير بلاط فوبيس كان - ربما في فوندال، أو إن لم يكن هنا عليه أن يواصل إلى مكان آخر. وآمل أن يقرر مرافقتي؛ لأنني شخص غريب في برسوم وغير معتاد على عادات وأساليب شعب هذا الكوكب. قد أعاني كثيراً دون مرشد ومُعلم».

صاحت: «سوف تعاني. لقد رأيت كل ما هو مُقدر لك أن تراه في برسوم – وقد وصلت إلى نهاية مغامرتك. أتعتقد أن بإمكانك خداعي، هه؟ ربما لا تعرف أنني سمعت عن افتتانك بفالا ديا، أو أنني لا أعرف تمامًا هدف زيارتك إلى فوندال». أبعدت عينيها ووجهتها إلى نبلائها ومحاربيها، صائحة: «خذوهم إلى الحُفر! وسوف نختار في ما بعد طريقة موتهم».

أحاطت بنا على الفور عشرات من السيوف. ما من مفر لي أو لجور هاجوس، لكني فكرت في فرصة لفرار هوفان دو. كانت إمكانية حدوث هذه الحالة الطارئة واردًا في ذهني منذ البداية، وكنت أبحث دومًا عن سبيل لفرار أحدنا؛ ولذا لم تغب النوافذ المفتوحة على يمين الجيدارة عن ملاحظتي، ولا الأشجار الكبيرة التي تنمو في الفناء أسفلنا. وكان هوفان دو يقف بجواري خلال حديث ظاظا.

قلت له هامسًا: «اذهب! النوافذ مفتوحة. اذهب وقل لدار تاروس ما حدث لنا»، ثم تراجعت إلى الوراء بعيدًا عنه وسحبت معي جور هاجوس كأنما سنحاول مقاومة الاعتقال. وبينما صرفت الانتباه بهذه الطريقه عن هوفان دو، انطلق هو نحو نافذة مفتوحة. ولم يكن قد اتخذ سوى خطوات قليلة عندما حاول محارب إيقافه؛ على أن المخ الشرس لشبيه الإنسان هيمن على المخلوق الضخم. قفز برشاقة القط، وهو يُطلق هديرًا بشعًا، على الفوندالي سيئ الحظ، وأرجحه عاليًا بيديه العملاقتين، ثم استخدام جسمه كآلة درس الزرع لإسقاط زملائه إلى اليمين واليسار وهو يقطع مسافة هائلة نحو أقرب نافذة مفتوحة.

ساد الهرج على الفور في الشقة. تركز اهتمام الجميع على القرد الضخم، وحتى من كانوا يواجهوننا تحولوا إلى مهاجمة هوفان دو. وفي خضم الفوضى رأيت ظاظا تخطو نحو ستائر ثقيلة تقع خلف مقعدها مباشرة، وفتحتها لتختفي وراءها.

«تعال!»، همست إلى جور هاجوس. وبغرض مشاهدة الصراع بين القرد والمحاربين، تقدمت إلى الأمام مع المقاتلين، ونحو اليسار دائمًا، إلى المقعد الذي غادرته ظاظا لتوها. كان هوفان دو يبلي بلاءً حسنًا. تخلص من ضحيته الأولى وأمسك بالآخرين واحدًا تلو الآخر عندما أصبحوا على مدى ذراعيه الطويلتين ويديه القويتين، وكان يمسك أحيانًا بأربعة في وقت واحد وهو يقف على أهبة الاستعداد على قدمين من أقدامه التي تشبه اليدين ويقاتل بالأربعة الأخرى. انتصبت كتلة شعره الخشن فوق جمجمته واستشاطت أعينُهُ الوحشية غضبًا، وهو يقف أعلى من خصومه، يحارب من أجل حياته – إنه أكثر المخلوقات الوحشية في برسوم إثارة للرعب. ربما تكمن ميزته الكبرى في أن كل رجل في هذه الغرفة كان يخشاه ويخاف من مواجهته، وهي الميزة التي ساعدتني أيضًا في وضع خطة سريعة لأنها أبقت جميع الأعين متجهة نحو هوفان دو بحيث تمكنت مع جور هاجوس من شق طريقنا إلى الجزء الخلفي من مقعد ظاظا. وأعتقد أن هوفان دو قد استشعر مقصدي، لأنه قام بأفضل شيء مناسب لجذب كل الأعين نحوه وبعيدًا عنا، كما ألمح لي أن النصف البشري من مخه لا يزال يقظًا وساهرًا على مصلحتنا.

من المؤكد أن الفونداليين كانوا ينظرون إليه قبل الآن كعينة استثنائية لقرد ضخم جيد التدريب، لكنه الآن، وفجأة، أصابهم بشلل يمتزج بالرهبة؛ إذ اتخذ زئيره وهديره شكل الكلمات وتحدث بلسان البشر. إنه يقف الآن بالقرب من النافذة. وكان العديد من النبلاء يندفعون بشجاعة إلى الأمام، ومن بينهم ساج أور. تقدم نحوه هوفان دو وأمسك به، وجرده من أسلحته، وصاح: «أنا ذاهب، لكني سأعود وأمزق قلب ظاظا إذا لحق بأصدقائي أي ضرر. قل لها ذلك، نقلاً عن قرد بتارث الأكبر».

وقف المحاربون والنبلاء للحظات ثابتين من الرعب. واتجهت جميع الأعين نحو هوفان دو، حيث يقف ممسكًا بشخص ساج أور الذي يكافح في قبضة هوفان دو الجبارة. وأصبحت أنا وجور هاجوس منسيين. استدار هوفان دو وقفز إلى عتبة النافذة ومنها قفز بخفة إلى فروع أقرب شجرة؛ وكان معه ساج أور، أو الشخص المُفضل لدى ظاظا، الجيدارة. وفي اللحظة نفسها، سحبت جور هاجوس معي وراء الستائر في الجزء الخلفي من مقعد ظاظا، حيث وجدنا أنفسنا عند مدخل ضيق لممر مظلم.

دون معرفة بطريق المرور وإلى أين يقودنا، واصلنا طريقنا على عمى، تدفعنا ضرورة اكتشاف مكان للاختباء أو سبيل للهروب من القصر قبل أن يلحق بنا المطاردون الذين نعرف أنهم سيشرعون على الفور في البحث عنا. زادت سرعة حركتنا عندما اعتادت أعيننا على الظلام، الذي بددته جزئيًّا إضاءة باهتة، ووصلنا الآن إلى مدرج حلزوني ضيق

يهبط إلى حفرة مظلمة أدنى مستوى الممر، كما تبدو هي الأخرى في ظلام دامس كالمستوى أعلاها.

سألت جور هاجوس: «أي طريق نتخذ؟».

أجاب: «سوف يتوقعون هبوطنا، حيث يقع في هذا الاتجاه أقرب شارع للهرب».

«لنصعد إذَنْ».

صاح: «جيد! كل ما نسعى إليه الآن هو مكان للاختباء حتى هبوط الليل، لأننا لا نستطيع الهرب نهارًا».

ما إن بدأنا نصعد، حتى سمعنا أول صوت للمطاردة - قعقعة المعدات والتجهيزات في الممر الأسفل. وحتى مع هذا الدافع الذي يحثنا، اضطررنا إلى التحرك بحذر شديد؛ لأننا لا نعرف ما يوجد أمامنا. وجدنا مدخلاً في المستوى التالي. كان الباب مغلقًا وموصدًا، لكننا لم نجد أي ممر ولا أي مكان للاختباء، فواصلنا الصعود. كان المستوى الثاني مطابقًا للمستوى الأدنى، على أننا وجدنا في المستوى الثالث ممرًّا واحدًا يتجه مباشرة نحو ظلام دامس وعلى يميننا باب موارب. اقتربت أصوات المطاردة الآن، وزادت ضرورة الاختباء مع زيادة حجم أصواتهم إلى أن طغت على أي اعتبار. وهو ليس بالأمر الغريب مع معرفة غرض مغامرتي، بما يعني ضرورة إحباطها وتدمير أي شعاع أمل لإيقاظ فالا ديا لتجد نفسها في جسمها الأصلي.

لم تكن لدينا حتى لحظة للتفكير. كان الظلام يكتنف الممر أمامنا - قد يكون مجرد زقاق مظلم. كان الباب مغلقًا على نحو موارب.

دفعت الباب برفق نحو الداخل. استقبلتنا رائحة بخور ثقيلة، وشاهدنا من خلال الفتحة الصغيرة جزءًا من غرفة كبيرة ذات زخارف مبهرجة. يقف أمامنا مباشرة، ويعوق رؤيتنا كلية للغرفة بأكملها تقريبًا، تمثال ضخم لشخصية تشبه رجل يجلس القرفصاء. سمعنا أصوات خلفنا. كان مطاردونا يصعدون الفعل الدرج الحلزوني، وسيصلون إلينا خلال بضع ثوان. فحصت الباب، واكتشف أن قِفله زنبركي. نظرت ثانية إلى الغرفة، ولم ألمح أي شخصٍ في نطاق رؤيتي، ثم أشرت إلَى جور هاجوس لمتابعتي داخل الغرفة وأغلقت الباب خلفنا. لقد أحرقنا جسورنا؛ فمع إغلاق الباب، تثبت القفل بنقرة حادة معدنية.

«ما هذا؟»، سأل صوت قادم، على ما يبدو، من أقصى نهاية الغرفة.

نظر نحوي جور هاجوس وهز كتفيه في استسلام (من المؤكد أنه كان يفكر فيما أفكر فيه – من أننا اخترنا الطريق الخطأ من بين طريقين)، لكنه ابتسم ولم يظهر أي عتاب في عينيه.

جاءت إجابة من صوت ثانٍ: «بدا الأمر من اتجاه طور العظيم».

قال المتحدث الأول: «ربما شخص ما عند الباب».

التصقت أنا وجور هاجوس بظهر التمثال بحيث نؤجل إلى أطول فترة ممكنة اكتشافنا الحتمي من المتحدثين إذا قررا استبيان أصل الضوضاء التي أثارت شكوكهم. كنت مستندًا إلى الحجر المصقول في ظهر التمثال، وطوقته بيدي. تحت أصابعي كانت القطع المنحوتة من عتاده المزخرف– كانت أغطية التمثال الحجرية تضم نتوءات بارزة، هي جواهر باهظة الثمن، وهناك تطعيم ذهبي رائع للثقوب؛ لكن عينايَ لم تنشغلا بهذه الأمور الآن. استطعنا سماع حديث الشخصين خلال اقترابهما. ربما كنت عصبيًّا، لا أعرف. أنا متأكد أنني لم أتراجع أبدًا من أي مواجهة، سواء استدعاها الواجب أو المنفعة؛ لكن كليهما الآن يتطلب تجنب الصراع والبقاء دون انكشاف. على أي حال، يبدو أن أصابعي كانت تتحرك بعصبية فوق جواهر عتاد التمثال عندما أصبحت أدركت على نحو غامض، وربما لا شعوريًّا، أن إحدى الجواهر كانت مفكوكة عن إطارها. لا أذكر أن هذا ترك أي انطباع على عقلي الواعي، لكني أعرف أنه أثار اهتمام أصابعي المتجولة التي من المؤكد أنها توقفت مؤقتًا لتعبث بالحجر المفكوك.

زاد اقتراب الأصوات الآن، وربما نواجه أصحابها خلال بضع ثوانٍ. توترت عضلاتي من اللقاء المرتقب، ودون وعي ضغطت بشدة على الإطار المفكَوك. وهنا تراجع بصمت جزء من ظهر التمثال، وكشف لنا عن داخله المُضاء إضاءة خافتة. لسنا في حاجة إلى دعوة أخرى؛ ففي الوقت نفسه خطونا عبر العتبة، واستدرت في نفس الحركة تقريبًا وأغلقت اللوح بلطف خلفنا. أعتقد لم يصدر أي صوت على الإطلاق من هذا الإجراء؛ وبعدها بقينا في صمت مطلق، بلا حراك – بالكاد ما نتنفس. سرعان ما اعتادت أعيننا الجزء الداخلي المظلم الذي اكتشفنا أنه مُضاء خلال الفتحات الصغيرة العديدة في هيكل التمثال، الذي كان مجوفًا بالكامل، ومن خلال هذه الفتحات تناهى إلى أسماعنا بوضوح كل صوت خارجي.

سمعنا الأصوات في الخارج مباشرة بمجرد أن أغلقنا الفتحة، وفي الوقت نفسه سمعنا دق على الباب الذي دخلنا منه إلى الشقة عبر الممر. سأل صوت داخل الغرفة: «من الذي يسعى إلى دخول معبد ظاظا؟».

علا صوت من الخارج: «أنا تيس آي، دوّار حرس الجيدارة، نحن نبحث عن الشخصين الذين جاءا لاغتيال ظاظا».

- هل جاءا من هذا الطريق؟

- أتعتقد أيها الكاهن أنني كنت لأبحث عنهما هنا إن لم يتخذا هذا

الطريق؟

- منذ متى؟

أجاب الدوّار: «منذ حوالي عشرين تال».

أكد الكاهن قائلاً: «إذَنْ ليسا هنا، لأننا هنا منذ زود كامل[155] ولم يدخل أي شخص آخر إلى المعبد خلال ذلك الوقت. ابحث بسرعة في شقق ظاظا في أعلى، والسطح والحظائر؛ لأنك إذا تابعتهما أعلى المدرج الحلزوني لن تجد أي مكان آخر يمكنهما الفرار منه».

صاح المحارب: «راقب المعبد بعناية إذَنْ حتى أعود»، ثم سمعنا صوت صعوده مع رجاله أعلى المدرج الحلزوني. سمعنا الآن الكهنة يتحدثون خلال مرورهم ببطء بجوار التمثال.

سأل أحدهم: «ما سبب الضوضاء التي جذبت اهتمامنا في البداية؟».

اقترح الآخر: «ربما حاول الهاربان فتح الباب».

- يبدو ذلك، لكنهما لم يدخلا، وإلا كنا رأيناهما عند خروجهما من خلف طور العظيم؛ لأننا كنا في مواجهته حينذاك ولم تبتعد أعيننا أبدًا عن أقصى نهاية هذا المعبد.

- إذَنْ هما، على الأقل، ليسا داخل المعبد.

- وأينما كان وجودهما في أي مكان آخر، هذا ليس من شأننا.

- لا، إلا إذا وصلوا إلى شقة ظاظا، إن لم يمرا من خلال المعبد.

- ربما وصلا إليها.

(155) التال يعادل حوالي الثانية الواحدة، والزود يقرب من ساعتين ونصف ساعة – بزمن كوكب الأرض.

- وهما من القتلة!

- أسوأ الأمور قد تصيب فوندال.

- صمتًا! للآلهة آذان.

- آذان من الحجر.

- لكن آذان ظاظا ليست من الحجر، وتسمع الكثير من الأشياء التي من المفترض ألا تسمعها.

- هذه البانث العجوز!

- إنها الجيدارة والكاهنة العليا.

«نعم، ولكن ...» – تجاوزت الأصوات في أقصى نهاية المعبد نطاق سمعنا، إلا أنها أخبرتنا بالكثير: أن جماعة الكهنة تخشى ظاظا وتكرهها، وأن الكهنة أنفسهم لا يبجلون إلههم كما اتضح من قول أحدهم إن الآلهة بآذان من حجر. كما أخبرتنا بأشياء أخرى، أشياء مهمة، عندما كان الكهنة يتحدثون مع دوّار حرس الجيدارة.

شعرت الآن، أنا وجور هاجوس، أننا وقعنا مصادفة في أفضل مكان مثالي للاختباء؛ ذلك أن الأوصياء على المعبد يمكنهم أن يقسموا أننا لم نكن، ولا يمكن أن نكون، حيث كنا. لقد أبعدوا مطاردينا بالفعل عن مسارنا.

تتوفر لدينا الآن، للمرة الأولى، فرصة لفحص مكان اختبائنا. كان الجزء الداخلي من التمثال مجوفًا، بإمكاننا أن نرى على ارتفاع كبير فوقنا، ربما لأربعين قدمًا، الضوء يسطع في الخارج ظاهرًا من الفم والأذنين والأنف، وأسفلهم مباشرة يمكن تمييز منصة دائرية حول الرقبة من الداخل. يوجد سُلم بدرجات مسطحة يؤدي إلى أعلى، من القاعدة إلى المنصة. يغطى تراب كثيف الأرضية التي نقف عليها، ويطرح أقصى وضعنا إجراء فحص متأنٍّ لهذا التراب، أسفر على الفور عن إعجابي بالأدلة التي كشفها؛ فقد أشارت إلى أننا أول من دخل التمثال منذ فترة طويلة، ربما لسنوات؛ لأن الغلاف الناعم غير المحسوس تقريبًا للتراب الذي غطى الأرضية لم تنطبع عليه أي آثار. وخلال فحصي وقعت عينايَ على شيء مُلقًى متجمعًا بالقرب من قاعدة السلم، ورأيت مع زيادة اقترابي أنه هيكل عظمي بشري؛ في حين كشف فحص أدق أن الجمجمة قد سُحقت وأن أحد الذراعين والعديد من الأضلاع مكسورة. ويوجد حوله -مُغطى بالتراب- أجمل أغطية مزخرفة رأيتها. موقعها في أسفل السلم، فضلاً عن أن سحق الجمجمة وكسور العظام،

ظهرت كأدلة قاطعة على طريقة وفاته – لقد سقط الرجل برأسه من المنصة الدائرية التي ترتفع فوقنا بأربعين قدمًا، وحمل معه إلى الأبد، دون شك، سر المدخل إلى الأجزاء الداخلية لطور العظيم.

اقترحت ذلك على جور هاجوس، الذي فحص أغطية الرجل الميت واتفق معي على أن هذه كانت طريقة وفاته.

«لقد كان أحد كهنة طور الكبار»، همس جور هاجوس، «وربما من أفراد البيت الملكي- من المحتمل جيداك. لقد مضى على موته وقت طويل».

قلت: «سوف أصعد، واختبر السُّلَّم. إذا كان آمنًا، اتبعني. أعتقد أننا سنتمكن من رؤية المعبد من الداخل عن طريق فم طور».

قال جور هاجوس ناصحًا: «تحرك بحذر، السلم قديم جدًّا».

ذهبت بحذر، اختبر كل درجة قبل أن أثق في تحملها لوزني، لكني وجدت خشب السورابوس القديم الذي بُنيت منه صلبًا وقويًّا كالفولاذ. ستظل وفاة الكاهن لغزًا دائمًا؛ ذلك أن السُّلَّم أو المنصة الدائرية كانت لتتحمل وزن مائة رجل أحمر.

من المنصة تمكنت من الرؤية عن طريق فم طور. كانت الغرفة أسفلي كبيرة، تصطف على جانبيها أصنام أخرى وإن كانت أصغر. كانوا أكثر بشاعة حتى من تلك التي رأيتها في المعبد بالمدينة، وكان ثراء أغطيتها المزخرفة يتجاوز مفهوم رجل قادم من كوكب الأرض- فقد كانت جواهر برسوم تتلألأ بأشعة غير معروفة لنا، وبجمال مذهل يُعمي الأبصار من روعته ويفوق أي وصف. يقع مذبح مصنوع من البالثون[156] ، وهو حجر نادر وجميل، بلون حمرة الدم، يمكن العثور عليه بلون أبيض نقي في أروع تصميمات الطبيعة خيالاً؛ يعززه كليًّا الطلاء المصقول العجيب الذي يتخذه من صنع يد حرفي ماهر.

لحق بي جور هاجوس، وتفحصنا معًا الجزء الداخلي من المعبد. تصطف نوافذ طويلة على الجانبين، تتيح دخول فيض من الضوء. وفي النهاية القصوى، مقابل طور العظيم، يوجد بابان يتسمان بالضخامة، ويغلقان المدخل الرئيس للغرفة، وهناك وقف الكاهنان اللذين سمعنا حديثهما. وغير ذلك، كان المعبد مهجورًا. يحترق البخور فوق

(156) بالثون: حجر نادر وجميل، ولا يوجد إلا على المريخ. لونه أحمر دموي ومغطى بعلامات بيضاء. يحظ بتقدير كبير عند المريخيين؛ وبسبب قابليته للتصنيع، يُستخدم عادة في بناء التماثيل وصُنع المجوهرات - https://barsoom.fandom.com/wiki/Palthon - المترجمة.

مذابح صغيرة أمام كل صنم من الأصنام الصغيرة، لكننا لم نستطع رؤية ما إذا كان هناك أي بخور يحترق أمام طور العظيم.

وبعد أن أشبعنا فضولنا تجاه المعبد، عاد اهتمامنا إلى مواصلة فحص ما بداخل رأس طور الضخمة. وكانت المكافأة هي اكتشاف سُلم آخر يؤدي إلى أعلى، عند الجدار الخلفي لمنصة أكبر وأخرى أصغر، يبدو واضحًا أنه يقود إلى العينين. لم أستغرق وقتًا طويلاً في الفحص، وهنا وجدت مقعدًا مريحًا أمام لوحة تحكم من شأنها تشغيل العينين، بحيث يمكن تحريكهما من جانب إلى آخر، أو لأعلى أو أسفل، وفقًا لرغبة القائم على التشغيل؛ وهنا أيضًا وجدت أنبوب تخاطب يصل إلى الفم. يتطلب الأمر أيضًا فحص هذا الأنبوب. عُدت إلى المنصة السفلية، حيث اكتشفت جهازًا تحت لسان الصنم. ويتصل هذا الجهاز، الذي يشبه مكبر الصوت، بأنبوب التخاطب من أعلى. لم أستطع منع ابتسامة، متأملاً تلك التماثيل كشهود صامتين على غدر البشر، وفكرت في الشيء المكسور الملقى أسفل السُّلَّم. وبإمكاني أن أقسم أن طور صامت منذ سنوات طوال.

عُدت أنا وجور هاجوس إلى المنصة الأعلى، ثم اكتشفت شيئًا آخر- أعين طور عبارة عن منظار حقيقي؛ وعند تدويرهم يمكننا رؤية أي جزء من المعبد، وما رأيناه من خلال الأعين كان مُضخمًا. لا شيء يمكن أن يفلت من أعين طور. والآن، عندما بدأ الكهنة يتحدثون ثانية، اكتشفنا أن لا شيء يمكن أن يفلت من أذني طور؛ فقد استمعنا بوضوح إلى أدنى صوت في المعبد. من المؤكد أن طور العظيم كان إضافة ذات قيمة للكهنة في تلك الأيام التي كان فيها هذا الهيكل العظمي المكسور الملقى أمامنا يمتلئ بالدماء والحياة!

***

الفصل (13)

طور العظيم

سار اليوم بضجر بالنسبة لجور هاجوس، ولي. شاهدنا كهنة مختلفين يأتون في أزواج على فترات حتى يتمكن سابقوهم من الراحة. واستمعنا إلى ثرثراتهم الفارغة، ومعظمها من القيل والقال عن فضائح البلاط. تحدثوا عنا أحيانًا، وعرفنا أن هوفان دو هرب مع ساج أور ولم يتمكنوا من تحديد مكانهما بعد، كما لم يتمكنوا من تحديد مكان دار تاروس. كان البلاط بأسره في حيرة من معجزة اختفائنا. يبحث عنا ثلاثة آلاف شخص، فضلاً عن نزلاء القصر والأفراد الملحقين به. قاموا بتفتيش كل جزء من القصر وأراضيه عددًا من المرات. كما فتشوا الحُفر بدقة شديدة أكثر من أي تفتيش يمكن أن يتذكره أقدم خادم، ويبدو أن عمليات التفتيش الشاملة أسفرت عن اكتشاف أشياء غريبة – أشياء لم تكن حتى ظاظا تحلم بها، وتهامس الكهنة أن بيتًا واحدًا على الأقل، كبيرًا وقويًّا، قد يسقط بسبب ما اكتشفه دوّار حرس الجيداك في منطقة نائية من الحُفر.

بعد غروب الشمس في الأفق وحلول الظلام، أُنير المعبد من الداخل بضوء أبيض خافت، إضاءة بارعة وإن كانت دون وهج الإضاءة الاصطناعية على كوكب الأرض. جاء المزيد من الكهنة، والعديد من الفتيات الشابات الكاهنات. قاموا بأداء طقوس أمام الأصنام، مع ترديد كلام غريب لا معنى له. امتلأت الغرفة تدريجيًّا بالمتعبدين، نبلاء بلاط الجيدارة مع نسائهم وخدمهم، مُشكلين صفين على جانبي المعبد أمام الأصنام الصغيرة، تاركين ممرًّا واسعًا من المدخل الكبير عند أقدام طور العظيم، ومتواجهين جميعًا في حالة انتظار في اتجاه هذا الممر. ماذا ينتظرون؟ تحولت أعينهم بتوقع نحو أبواب المدخل الكبير المغلقة، وشعرت أنا وجور هاجوس أن أعيننا مثبتة أيضًا في هذا الاتجاه، مسحورة بما هم على وشك فتحه وانكشاف مشهد مذهل.

تنفتح الأبواب الآن ببطء، وكل ما رأيناه هو لفة كبيرة من السجاد ملقاة على جانبها عبر الفتحة. وقف عشرون عبدًا، عرايا إلا من عتاد جلدي قليل، وراء اللفة الضخمة. وعندما انفتحت الأبواب على مصراعيها، قاموا بدحرجة السجادة إلى الداخل أسفل المذبح أمام تمثال طور العظيم، مع تغطية الممر الواسع من المدخل إلى الصنم بسجادة سميكة ناعمة ذات ألوان ذهبية وبيضاء وزرقاء. كانت أجمل شيء في المعبد، حيث كان كل شيء صاخبًا وصارخًا ومبهرجًا أو قبيحًا أو بشعًا. ثم أُغلقت الأبواب وانتظرنا مرة أخرى؛ ولكن ليس لفترة طويلة. صدر صوت الأبواق من الخارج، وزاد الصوت مع

اقترابهم من المدخل. وانفتحت الأبواب ثانية. وقف عند المدخل نبلاء مزدوجو الرتبة يرتدون أغطية فاخرة. دخلوا المعبد ببطء وخلفهم مركَبة رائعة يجرها اثنان من حيوانات البانث، أسدان برسوميان شرسان، وفي المقود عبيد على الجانبين. وفوق العربة يوجد مهاد تتكئ عليه ظاظا في راحة. وبمجرد دخولها المعبد، بدأ الناس يرددون بصوت رخيم أنشودة رتيبة في مدحها. كان محارب أحمر مكبلاً بالسلاسل إلى العربة ويسير على قدميه، وخلفه موكب يتألف من خمسين شابًّا وعدد مماثل من الشابات.

لمس جور هاجوس ذراعي، وهمس قائلاً: «السجين، هل تعرفت عليه؟».

صحت: «دار تاروس!».

إنه دار تاروس –لقد اكتشفوا مكان اختبائه وقبضوا عليه، ولكن ماذا عن هوفان دو؟ هل أمسكوا به أيضًا؟ في هذه الحالة، من المؤكد أنهم لم يتمكنوا من ذلك إلا بعد قتله، لأنهم لا يمكن أن يسعوا أبدًا إلى الإمساك بهذا الوحش الشرس، ولا يقدرون حتى على ذلك. بحثت عن ساج أور، لكنني لم أتمكن من رؤيته في أي مكان داخل المعبد، مما أعطاني الأمل في أن هوفان دو ربما لا يزال مطلق السراح.

وقفت العربة أمام المذبح وترجلت ظاظا. فتحوا القفل الذي يربط سلسلة دار تاروس بالعربة، واقتاد الخدم حيواني البانث بعيدًا إلى أحد جوانب المعبد وراء الأصنام الصغيرة. ثم اقتادوا دار تاروس إلى المذبح وألقوه عليه. صعدت ظاظا عدة درجات عند قاعدة المذبح، واقتربت من جانب دار داروس، ونظرت من خلال القيود الممتدة أعلاه إلى طور العظيم التي يرتفع شاهقًا. يا لجمالها! ويا لثراء أغطيتها! آآه، فالا ديا! إن جسدك الجميل هذا، الذي يُهان باستخدامه في أغراض قاسية لعقل شرير، يجب أن يعود إليك الآن!

استقرت عينا ظاظا الآن على وجه طور العظيم. صاحت: «يا طور، أبو برسوم، ها نحن نضع أمامك القربان، وأنت ترى كل شيء، وتعرف كل شيء، وأقوى من كل شيء، فلا تنظر إلينا عابسًا في صمت. لمائة عام لم تتكرم بالتحدث بصوت عالٍ إلى عبيدك المخلصين؛ لم تفتح شفتيك للتحدث إلى شعبك منذ أن أخذت هورا سان، الكاهن الأكبر، في تلك الليلة الغامضة التي مضت منذ زمن طويل. تحدث، يا طوران العظيم! أعطنا علامة، قبل أن نغرز هذا الخنجر في قلب قرباننا، أن أعمالنا تحظى برضا أعينك. أخبرنا أين ذهب الشخصان اللذان وصلا إلى هنا اليوم لاغتيال كاهنتك الكبرى؛ واكشف لنا عن مصير ساج أور. تحدث، يا طور العظيم، قبل أن أسدد ضربتي، ثم رفعت نصلها الرفيع أعلى قلب دار تاروس ونظرت إلى أعين طور أعلاها مباشرة.

وعلى حين غرة، جاءني إلهام هائل. سعت يدي إلى ذراع التحكم في أعين طور، وأدرتها إلى أن أكملت دائرة كاملة حول الغرفة واستقرت ثانية عند ظاظا. كان التأثير سحريًّا. لم أشهد أبدًا من قبل غرفة كاملة مملوءة بالناس الذين أصابهم الذهول والرعب مثل هذه. عندما عادت الأعين إلى ظاظا، بدت وكأنها تحولت إلى حجر واصطبغت بشرتها النحاسية بمسحة أرجوانية شاحبة. ظل خنجرها مُثبتًا بجمود أعلى قلب دار تاروس. لم يشهدوا منذ مائة عام أعين طور العظيم تتحرك. ثم وضعت أنبوب التخاطب أمام شفتي، وانطلق صوت طور مدويًا عبر الغرفة. ارتفع لهاث، كأنما من حلق واحد كبير، من أرضية المعبد المزدحم؛ وركع الناس على ركبهم، ودفنوا وجوههم في أيديهم.

قلت صائحًا: «الحُكم لي! لا تضرِبوا خشية أن تندموا! القربان مُقدم إلى طور!».

ثم بقيت صامتًا، في محاولة لوضع خطة تتيح أفضل السبل للاستفادة من الميزة التي اكتسبتها. ارتفعت الرؤوس المنحنية بخوف، واحدة تلو الأخرى، وتوجهت الأعين المرعوبة نحو وجه طور. منحتهم تشويقًا آخر بالسماح لأعين الإله أن تتجول ببطء عبر وجوههم المقلوبة. وخلال قيامي بذلك، جاءني إلهام آخر، نقلته إلى جور هاجوس في همس منخفض. أكاد أسمع ضحكته المكتومة وهو يهبط السُّلَّم لتنفيذ خطتي الجديدة. لجأت ثانية إلى أنبوب التخاطب.

واصلت هادرًا: «القربان مُقدم إلى طور. وسيضرب طور بيده. اطفئوا الأنوار، ولا يتحرك أحد تحت وطأة الموت الفوري إلى أن يتحدث طور. عليكم أن تسجدوا وتدفنوا أعينكم في راحة أياديكم؛ فسوف يُصاب بالعمى كل من ينظر عندما تسير روح طور بين شعبه».

سجدوا مرة أخرى، وأسرع أحد الكهنة بإطفاء الأنوار، وغاص المعبد في ظلام دامس. وبينما كان جور هاجوس منشغلاً بالدور المنوط به في هذا الأداء، حاولت التغطية على أي ضجيج قد يصنعه، بأن واصلت ما اعتبروه حديث الإله.

«تسأل ظاظا، الكاهنة العليا، عما حدث للشخصين اللذين تعتقد أنهما جاءا لاغتيالها. أنا، طور، قد أخذتهما لنفسي. طور هو المنتقم! وأخذت ساج أور أيضًا. لقد أتيت على هيئة قرد ضخم وأخذت ساج أور، ولم يعرفني أحد؛ على الرغم من أن أي أحمق كان يمكنه التخمين، فمن الذي سمع قردًا ضخمًا يتحدث بلسان البشر ما لم تحركه روح طور؟».

أعتقد أنهم اقتنعوا بكلامي، فهو نوع من المنطق يتناسب مع تصوراتهم الدينية، أو كان يمكن أن يقنعهم إن لم يكونوا مقتنعين بالفعل. تساءلت عما قد يدور في ذهن الكاهن المتشكك الذي قال من قبل إن للآلهة آذانًا حجرية.

أسمع الآن ضوضاء أسفل السُّلَّم، وخلال لحظة كان شخص يصعد على الجزء الدائري.

سمعت صوت جور هاجوس: «كل شيء جيد. ومعي دار تاروس».

قلت آمرًا عبر أنبوب التخاطب: «أضيئوا المعبد! انهضوا وانظروا إلى مذبحكم».

لمعت الأضواء، ونهض الناس على أقدامهم يرتجفون. مالت جميع الأعين نحو المذبح، وما شاهدوه كان يكفي لسحقهم من الرعب. صرخت بعض النساء وفقدت الوعي. تعجبت من أنهم جميعًا لم يأخذوا هذا الإله بأي قدر كبير من الجدية، أما الآن فقد سحرتهم تمامًا مشاهدة إثبات دامغ على قواه الخارقة؛ حيث شاهدوا قبل عدة لحظات قربانًا حيًّا ينتظر سكين الكاهنة العليا، والآن لا يرون سوى جمجمة بشرية يغطيها التراب. ربما بدا الأمر معجزة لأي شخص؛ لأن جور هاجوس ركض مسرعًا من قاعدة التمثال ومعه جمجمة الكاهن الميت ثم عاد ومعه دار تاروس. كنت قلقًا إلى حد ما بشأن موقف دار تاروس، الذي لم يكن إلمامه بالخدعة أكثر من إلمام الفونداليين، لكن جور هاجوس همس في أذنه عبارة «من أجل فالا ديا»، وقد فهم المعنى وأسرع معه.

والآن أعلنت ما يلي: «طور العظيم غاضب من قومه. فقد أبعدوه من قلوبهم، منذ فترة طويلة، رغم إعلانهم الواضح بعبادته. طور العظيم غاضب من ظاظا. ومن خلال ظاظا فقط، يمكن إنقاذ شعب فوندال من الدمار، ذلك أن طور العظيم غاضب. غادروا إذن المعبد والقصر، دون بقاء أي شخص هنا غير ظاظا، كاهنة طور العليا. اتركوها هنا بمفردها بجوار المذبح. سوف يتحدث طور معها وحدها».

أمكنني رؤية ظاظا ترتجف في ذعر.

سألتها: «هل الجيدارة ظاظا، كاهنة الإله طور العظيم العليا، تخشى من الاجتماع مع سيدها؟». ارتعد فك المرأة بحيث لم تقدر على الرد. قلت صارخًا: «الطاعة! أو تموت ظاظا وشعبها كله!».

استداروا كالبهائم يفرون نحو المدخل؛ وترنحت خلفهم ظاظا، التي كانت ركبتاها تهتز بحيث بالكاد ما تقف منتصبة. رآها أحد النبلاء ودفعها بخشونة إلى الخلف، لكنها صرخت وركضت وراءه عندما تركها. ثم سحبها آخرون إلى المذبح وألقوها بخشونة

أسفله، وهددها أحدهم بسيفه. لكني أعلنت بصوت عال أنني لا أريد إصابة الجيدارة بأي ضرر، وإلا سيقع عليهم جميعًا غضب طور. تركوها راقدة هناك، وفي حالة من الضعف والخوف تحول دون نهوضها. أصبح المعبد خاليًا خلال لحظات، ولكن ليس قبل أن أصيح فيهم بإخلاء القصر بكامله لمدة رُبع زود؛ فقد كانت خطتي تتطلب ميدان عمل خاليًا دون عوائق ودون مراقبة.

وما إن ابتعد آخرهم عن نظرنا، حتى نزل ثلاثتنا من رأس طور ووقفنا على أرضية المعبد خلف التمثال. أسرعت نحو المذبح، على الجانب الآخر، حيث سقطت ظاظا في إغماءة. كانت ترقد هناك، حملتها بين ذراعي وركض بسرعة إلى الباب الذي يقع في الحائط خلف التمثال – المدخل الذي دخلت منه أنا وجور هاجوس إلى المعبد في وقت سابق من اليوم.

صعدت المدرج، يسبقني جور هاجوس ويليني دار تاروس، متجهًا نحو السطح؛ فقد عرفنا من حديث الكهنة موقع حظائر الطائرات الملكية. كانت سعادتي لتكتمل لو كان معنا هوفان دو وساج أور؛ فما بدا خلال نصف يوم فشلاً تامًّا وهزيمة، قد تحول إلى نجاح مضمون تقريبًا. عند المهبط، حيث تقع شقق ظاظا، وقفنا ونظرنا داخلها. فكرت أن الرحلة خلال ليلة طويلة ستكون باردة، بينما يجب الحفاظ على جسم فالا ديا دافئًا في رداء مناسب حتى ولو كانت روح ظاظا هي من تسكنه. لم نشهد أي شخص، فدخلنا وسرعان ما وجدنا ما نحتاجه. استعادت الجيدارة وعيها، بينما أضع رداءً ثقيلاً من جلد الأورلوك[157] حولها. وعلى الفور تعرفت عليَّ، ثم على جور هاجوس، وأخيراً دار تاروس. تحسست خنجرها تلقائيًّا، لكنها لم تجده؛ وعندما رأت ابتسامتي أصابها شحوب غاضب. من المؤكد أنها خلُصت في البداية إلى أنها كانت ضحية لخدعة، لكن الشكوك دخلت عقلها الآن– ربما أخذت تتذكر بعض ما حدث داخل معبد طور العظيم، والتي لا هي ولا أي بشر غيرها يمكنه تفسيرها.

سألتني: «من أنت؟».

أجبت بوقاحة: «أنا طور».

- وماذا تريد مني؟

أجبت: «سوف آخذكِ بعيدًا عن فوندال».

---

(157) أورلوك: هو وحش شرس يشبه الفيل، يوجد على وجه الحصر تقريبًا في مناطق أقصى شمال المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Orluk - المترجمة.

«لكني لا أود الذهاب. أنت لست طور. أنت فاد فارو. سأستدعي المساعدة، وسيأتي حراسي ويقتلونك».

قلت لتذكيرها: «لا يوجد أحد في القصر. ألم أبعدهم، أنا طور، عن القصر؟».

أعلنت بحزم: «أُفضل الموت على أن أذهب معك».

قلت: «سوف تذهبين معي، ظاظا». وعلى الرغم من أنها قاتلت

وناضلت، فقد حملناها من شقتها، وصعدنا المدرج الحلزوني إلى السطح، حيث يجب أن نجد الحظائر والطائرات الملكية. وعندما خرجنا إلى هواء ليلة مريخية جديدة، شاهدنا الحظائر أمامنا، لكننا رأينا شيئًا آخر- مجموعة من محاربي فوندال، من حرس الجيدارة الذين يبدو أن أوامر طور لم تصلهم. وما إن رأتهم ظاظا، نادت عليهم بصوت عال طالبة الغوث».

صاحت: «تعالوا! تعالوا إلى الجيدارة! وجهوا ضربتكم إلى هؤلاء القتلة وأنقذوني!».

كانوا ثلاثة وكنا ثلاثة. لكنهم كانوا مسلحين، ونحن لم يكن لدينا سوى خنجر ظاظا الرفيع. أخذ جور هاجوس الخنجر. يبدو أن النصر تحول إلى هزيمة، حيث اندفعوا نحونا؛ لكن جور هاجوس أوقفهم. أمسك ظاظا ورفع الخنجر مصوبًا سنه إلى قلبها. صاح: «توقفوا! أو أقتلها».

تردد المحاربون، وبقت ظاظا صامتة يعتريها الخوف. وهكذا وقفنا جميعًا في جمود، وعندئذ رأيت خلف محاربي فوندال الثلاثة حركة عند حافة السطح. ما هذا؟ رأيت في الضوء الخافت شيئًا يشبه رأس إنسان لكنه ليس إنسانًا، يرتفع ببطء فوق حافة السطح، ثم يتبعه بصمت جسم كبير، وهنا تعرفت عليه- إنه هوفان دو، القرد الأبيض الضخم.

قلت لظاظا بصوت عال كي يسمعني هوفان دو: «أخبريهم أنني طور، انظروا، لقد جئت مرة أخرى على هيئة قرد أبيض!»، وأشرت إلى هوفان دو، «ولن أقتل هؤلاء المحاربين المساكين. عليهم إلقاء أسلحتهم والذهاب في سلام».

استدار الرجال، وعندما شاهدوا القرد الضخم يقف خلفهم، اهتزوا لتصورهم أنه تجسد من الهواء الرقيق.

سألها أحدهم: «من هو يا جيدارة؟».

أجابت ظاظا بصوت ضعيف: «إنه طور؛ ولكن، أنقذوني منه! أنقذوني منه!».

قلت لهم آمرًا: «عليكم إلقاء أسلحتكم وعتادكم، ثم تذهبون! أو سيوجه لكم طور ضربة مميتة. ألم تسمعوا الناس يتدافعون خارج القصر بناء على أوامر طور؟ أكان بإمكاننا إحضار ظاظا هنا بقوة أقل من قوة طور عندما كان قصرها كله يمتلئ برجالها المقاتلين؟ اذهبوا، حيث يمكنكم الذهاب بأمان».

فك أحدهم رباط عتاده وألقاه مع أسلحته على السطح. وما إن بدأ في التوجه نحو الدرج الحلزوني، حتَّى حذا رفاقه حذوه. اقترب هوفان دو ناحيتنا.

قال هادرًا: «حسنا فعلت، فاد فارو، على الرغم من عدم معرفتي أي شيء».

قلت له: «سوف نخبرك لاحقًا، لكننا يجب أن نعثر الآن على طائرة سريعة ونواصل طريقنا. أين ساج أور؟ ألا يزال حيًّا؟».

أجاب القرد: «لقد قيدته جيدًا وأخفيته بأمان في أحد أبراج القصر العالية. ويمكننا الوصول إليه بسهولة عندما ننطلق بالطائرة».

كانت ظاظا تتطلع إلينا في غضب. صاحت: «أنت لست طور! لقد كشفك القرد».

أكدت لها: «ولكن بعد فوات الأوان لكي تفيدي من ذلك بأي حال، يا جيدارة. ولا يمكنك إقناع أي من الأشخاص الذين وقفوا في المعبد هذه الليلة أنني لست طور. كما أنك أنت نفسك، لا تعرفين أنني لست طور. فأساليب طور - القدرة الكلية والمعرفة الكلية- تتجاوز مفهوم البشر. بالنسبة لك إذَنْ، يا جيدارة، أنا طور؛ وسوف تجدينني أتمتع بقدرة كاملة تكفي لتحقيق أغراضي».

أعتقد أنها كانت لا تزال في حيرة عندما سحبناها إلى متن الطائرة، ثم حولنا مقدمة الطائرة نحو البرج الشاهق الذي أخبرنا هوفان دو أنه أخفى فيه ساج أور.

قال دار تاروس ضاحكًا: «سوف أسعد لرؤية نفسي مرة أخرى».

قلت له: «وسوف تستعيد نفسك ثانية، دار تاروس، بمجرد أن نصل إلى حُفر راس ثافاس».

تنهد قائلًا: «ويمكن أن يجتمع الشمل مع حبيبتي كارا فاسا. وعندئذ، فاد فارو، لك أعظم امتناني».

- أين يمكن أن نجدها؟

- للأسف، لا أعرف. فقد أمسك بي عملاء ظاظا خلال بحثي عنها. عندما ذهبت إلى قصر والدها، عرفت أنهم اغتالوه وصادروا ممتلكاته. وهم إما لا يعرفون مكان كارا فاسا وإمَّا لا يفصحون عن؛ لكنهم أمسكوني بحجة أو أخرى حتى تأتي كتيبة حرس الجيدارة لتقبض عليَّ.

قلت: «علينا أن نستفسر من ساج أور».

توقفنا الآن بجانب إحدى نوافذ البرج الذي أشار إليه هوفان دو، وقفز هو ودار تاروس إلى حافة النافذة ودخلا. كانت معنوياتنا مرتفعة؛ فجميعًا يحمل سلاحًا الآن، بعد أن أخذنا الأسلحة التي ألقاها المحاربون الثلاثة في الحظيرة، ولدينا طائرة جيدة، واجتمع شمل مجموعتنا الصغيرة، بالإضافة إلى ظاظا وساج أور الذي يقتادونه الآن على متن الطائرة.

شرعنا في طريقنا ثانية، مع توجيه مقدمة الطائرة نحو الشرق. سألت ساج أور إذا كان يعلم ماذا حدث لكارا فاسا، لكنه أكد لي، بنبرة عابسة، أنه لا يعرف.

حذرته قائلاً: «فكر مرة أخرى، ساج أور، فربما تتوقف حياتك على الإجابة».

«ما هي فرصة بقائي على قيد الحياة؟»، سأل ساخرًا وهو يلقي نظرة قبيحة نحو دار تاروس.

أجبته: «لديك فرصة بالفعل. حياتك تكمن في يدي؛ وإذا أسديت لي هذه الخدمة، سوف تعيش وإن كان في جسدك وليس جسد دار تاروس».

- ألا تنوي تدميري؟

أجبت: «لا أنوي تدميرك أو تدمير ظاظا. سوف تعيش ظاظا في جسدها وأنت في جسدك».

قاطعتنا الجيدارة: «لا أود أن أعيش في جسدي».

وقف دار تاروس ينظر نحو ساج أور – ينظر، روحًا بلا جسد، إلى جسده الأصلي – يا له من وضع غريب لم أواجهه من قبل أبدًا.

وقال: «أخبرني ساج أور ماذا حدث لكارا فاسا. وعندما أستعيد جسدي وتستعيد جسدك، لن أضمر ضدك أي عداوة إن لم تكن أصبت كارا فاسا بضرر وأخبرتني بمكانها».

«لا أستطيع أن أخبرك، لأنني لا أعرف. لم يلحق بها أي ضرر، لكنها اختفت من فوندال بعد يوم اغتيالك. كنا على يقين أن والدها اختطفها، لكننا لم نستطع أن نعرف منه أي شيء. وبعد ذلك جرى اغتياله»، نظر الرجل محملقًا نحو ظاظا، «ومنذ ذلك الحين، لم نعرف أي شيء. وقد أخبرنا أحد العبيد أن كارا فاسا ركبت طائرة، مع بعض محاربي والدها، واتجهوا إلى هيليوم سعيًا لحماية إله الحرب العظيم في برسوم؛ لكننا في الحقيقة لا نعرف أي شيء. هذه هي الحقيقة. أنهيت حديثي، أنا ساج أور!».

لم يكن مجديًا أن نبحث عن كارا فاسا في فوندال، وبالتالي اتخذنا مسارنا نحو الشرق وبرج ثافاس.

***

الفصل (14)

العودة إلى ثافاس

أسرعنا طوال تلك الليلة، تحت قمرَي المريخ المندفعين، مجموعة غريبة أقسم أن مثلها لم يتجمع من قبل على أي كوكب: رجلان، يمتلك كل منهما جسد الآخر؛ وإمبراطورة عجوز شريرة ينتمي جسدها الجميل إلى فتاة شابة يحبها رجل في هذه المجموعة؛ وقرد أبيض ضخم يهيمن عليه نصف مخ بشري؛ وأستكمل أنا، مخلوق من كوكب بعيد، وجور هاجوس، قاتل تونول، القائمة المجنونة.

نادرًا ما أمكنني إبعاد عينَي عن جسد ظاظا ووجهها الجميلين. ومن حظ الحظ أنني كنت مفتونًا بها، لأنني أمسكتها وهي تحاول إلقاء نفسها من فوق ظهر السفينة؛ إذ كانت كارهة لفكرة العيش مرة أخرى في جسدها القديم البشع. أبقيتها بعد ذلك مقيدة بحزم على سطح السفينة، على الرغم من أن مشاهدتي للقيود على أطرافها الجميلة كانت تؤلمني.

كان دار تاروس مفتونًا بالقدر نفسه بتأمل جسده، الذي لم يره لسنوات عديدة.

صاح: «باسم سلفي الأول، من المؤكد أنني أقل الزملاء شأنًا، لأعطيك كلمة ليست لديَّ أي فكرة أنني سأتمكن من تنفيذها. بمقدوري أن أقول ذلك الآن دون غرور؛ لأنني أتكلم عن ساج أور»، ثم ضحك بصوت عالٍ على فكاهته الصغيرة.

ولكن تبقى الحقيقة، أن جسم ووجه دار تاروس كانا جميلين حقًّا، على الرغم من وجود لمحة قسوة في العينين والفكين تدل على دماء القتال. ما من عجب، إذَنْ، أن الجسد الذي يمتلكه الآن دار تاروس يتسم بالتهتك والعَجز؛ ولا أن دار تاروس يتوق لجسده ثانية.

هبطنا قبل الفجر مباشرة على إحدى الجزر العديدة الصغيرة التي تنتشر بين المستنقعات التونولية الكبرى، وحشرنا السفينة بين سيقان الأشجار الكبيرة لتستقر على سطح الأرض، نصف مدفونة في الغابة المورقة الرائعة، ومخفية جيدًا عن مرأى المطاردين المحتملين. وهنا وجد لنا هوفان دو الفاكهة والجوز، التي أكد القسم القردي في مخه أنها آمنة للاستهلاك البشري، وقادته الغريزة إلى نبع قريب تتدفق منه مياه لذيذة. كنا نحن الأربعة جوعى وفي شدة التعب، ولذا رحبنا بالطعام والمياه؛ ولم ترحب بهما

ظاظا وساج أور، أو رفضاهما. تناولنا الطعام، ثم رقد ثلاثة منا على سطح السفينة للنوم، بعد أن قيدنا أسرانا جيدًا بالسلاسل، بينما وقف الرابع للمراقبة. وتناوبنا بهذه الطريقة، بحيث نمنا أغلب اليوم. ومع شعورنا بالراحة والانتعاش عند هبوط الليل، أصبحنا على استعداد لاستئناف رحلتنا.

تجنبنا تونول بانعطاف واسع نحو الجنوب، وشاهدنا برج ثافاس الشاهق قبيل الفجر بساعتين تقريبًا. أعتقد أننا جميعًا كنا نشعر بأعلى درجة من الإثارة؛ فلم يكن هناك أحد على متن هذه الطائرة إلا وحياته كلها سوف تتأثر بجدية بنجاح أو فشل مغامرتنا. كإجراء احترازي أول، قمنا بتقييد أيدي ظاظا وساج أور خلف ظهورهم، ووضعنا كمامات على أفواههم، خشية نجاحهم في التحذير باقترابنا.

غرُب القمر كلوروس منذ فترة طويلة، وكان القمر ثوريا يتجه نحو الأفق ونحن نوقف محركات طائرتنا ونجنح دون أضواء لمسافة ميل أو ميلين جنوب البرج. انتظرنا بفارغ الصبر مغادرة القمر ثوريا للسماء وتركها في الظلام وتركنا في العالم. وفي اتجاه الشمال الغربي، كانت أضواء تونول تلمع صراحة على الخلفية الداكنة لنوافذ المختبر الكبير التابع لراس ثافاس، لكن البرج نفسه كان مظلمًا من القاعدة إلى القمة.

انخفض الآن القمر الأقرب تمامًا تحت الأفق، وترك المشهد للظلام ولنا. بدأ دار تاروس تشغيل المحرك، محرك برسوم الصامت الرائع، وتحركنا ببطء بالقرب من الأرض، نحو جزيرة راس ثافاس، دون أي صوت عدا طنين مروحتنا اللطيف؛ وحتى هذا كان يصعب سماعه على مسافة مائة قدم لدوران المروحة ببطء. توقفنا بالقرب من الجزيرة وراء مجموعة من الأشجار العملاقة، وأصدر هوفان دو هديرًا منخفضًا وهو يتقدم نحو مقدمة السفينة. وقفنا في صمت، ننتظر ونسمع. هناك حفيف في الشجيرات الكثيفة على الشاطئ. أطلق هوفان دو ثانية نداءه الشرس المنخفض، وجاءت الإجابة هذه المرة من الظلال السوداء. تحدث هوفان دو بلغة القردة، وأجاب المخلوق غير المرئي.

استمر الحديث لمدة خمس دقائق، أدركنا خلالها من الأصوات المختلفة انضمام آخرين إليه من الشاطئ، ثم استدار هوفان دو نحوي.

وقال: «انتهى ترتيب الأمر. سوف يسمحون لنا بإخفاء سفينتنا تحت هذه الأشجار، وسوف يسمحون لنا بالذهاب مرة أخرى عندما نصبح جاهزين على متنها، ولن يلحقوا بنا أي ضرر بأي شكل. كل ما يطلبونه هو أن نترك البوابة المؤدية إلى البلاط الداخلي مفتوحة بعد دخولنا».

- هل يفهمون أن أي قرد يدخل معنا لن يعود معنا؟

سألت.

- نعم؛ لكنهم لن يلحقوا بنا أي أذى.

- لماذا يرغبون أن نترك البوابة مفتوحة؟

أجاب هوفان دو: «لا تسأل كثيراً، فاد فارو، يكفي أن القرود الضخمة ستتيح لك إمكانية استعادة جسم فالا ديا لمخه والهروب معها من هذا المكان الرهيب».

قلت: «هذا يكفي. متى يمكننا الهبوط؟»

- على الفور. سوف يساعدونا على سحب السفينة تحت الأشجار، وتثبيتها.

قمت بتذكيره: «ولكن علينا الارتفاع أولاً أعلى الجدار إلى داخل البلاط».

- نعم، صحيح- لقد نسيت أننا لا نستطيع فتح البوابة من هذا الجانب.

تحدث ثانية مع القرود، الذين لم نراهم حتى الآن؛ ثم أخبرنا أنه انتهى من ترتيب كل شيء، وأن سيعود هو ودار تاروس مع السفينة بعد إنزالنا في الداخل على الجانب الآخر من الجدار.

ارتفعنا مرة أخرى ببطء فوق الجدار الخارجي، ثم هبطنا بصمت إلى الفناء وراءه. كانت الليلة مظلمة على نحو غير معتاد، حيث تبعت الغيوم القمر ثوريا وطمست النجوم بعد أن غادر القمر. لا يستطيع أحد أن يرى السفينة على مسافة خمسين قدمًا. تحركنا دون ضجيج تقريبًا. أنزلنا أسرانا بهدوء على الجانب الآخر، وبقيت معهم أنا وجور هاجوس، بينما ارتفع دار تاروس وهوفان دو ثانية وقادا السفينة إلى مكان إخفائها.

تحركت على الفور نحو البوابة، وفتحت المزلاج، ثم انتظرت. لم أسمع أي شيء. أعتقد أنني لم أتحمل من قبل أبدًا مثل هذا الصمت المطلق. لم يصدر أي صوت من الكومة الكبيرة التي ترتفع خلفي، ولا من الغابة المظلمة وراء الجدار. تمكنت في العتمة من رؤية أشكال جور هاجوس وظاظا وساج أور بجواري- وإلا لكنت وحدي في ظلام الفضاء واتساعه.

بدا انتظاري هناك أبديًّا قبل أن أسمع صوت خدش خافت على ألواح البوابة الثقيلة. دفعتها لفتحها، ودخل دار تاروس وهوفان دو بصمت، ثم أغلقتها وأعدت تثبيت المزلاج. لم يتحدث أحد. كل شيء كان بتخطيط دقيق، بحيث لم تكن هناك حاجة للكلام. قدنا الطريق أنا ودار تاروس، وتولى جور هاجوس وهوفان دو الجزء الخلفي مع

السجناء. توجهنا مباشرة نحو مدخل البرج، ووجدنا المدرج وهبطنا إلى الحُفر. كان الحظ حليفنا. لم نلتقِ بأحد، ولم نجد صعوبة في العثور على القبو المطلوب. قمنا بتأمين الباب جيدًا بمجرد دَخولنا، خشية المقاطعة التي كانت شاغلنا الأول، ثم أسرعت إلى الموقع الذي أخفيت فيه فالا ديا ملفوفة، وراء جثة محارب ضخم، بجوار الجدار في الظلام. شعرت بقلبي يتوقف وأنا أسحب جسم المحارب جانبًا؛ إذ كنت أخشى دائمًا أن يفتش راس ثافاس في كل غرفة وحفرة وأن يفحص كل جسم إلى أن يجدها، لأنه يعرف اهتمامي بها ويتوقع غرض مغامرتي. لكن مخاوفي كانت بلا أساس، فها هو جسم ظاظا، العلبة العجوز المملوءة بالتجاعيد التي تحوي مخ محبوبتي الجميل، حيث أخفيته انتظارًا لهذه الليلة. رفعت الجسم برفق، وحملته إلى واحدة من الطاولتين ذات السطح الإرسايتي. وهناك، تقف ظاظا مقيدة ومكممة، تنظر بعينيها اللتين تطلقان نار البغض والكراهية نحوي ونحو ذلك الجسم البشع الذي سرعان ما يستعيده مخها.

حاولت التملص من قبضتي وإلقاء نفسها على الأرض وأنا أرفعها على لوح الطاولة المجاورة، لكنني أمسكتها جيدًا وسرعان ما ربطتها بقوة في المكان. فقدت وعيها بعد لحظة، وسارت إجراءات إعادة النقل سيرًا حسنًا. كان جور هاجوس وساج أور وهوفان دو متفرجين مهتمين. أما دار تاروس، الذين وقف مستعدًّا لمساعدتي، كانت الإجراءات بمثابة قصة قديمة لأنه يعمل في المختبر وشهد عمليات كثيرة مماثلة. لن أزعجكم بوصف العملية – فهي ليست سوى تكرار لما فعلته مرات عديدة تحضيرًا لهذا الحدث.

انتهت العملية أخيرًا، وشعرت بقلبي يتوقف عند إحلال دماء حياة فالا ديا محل سائل التحنيط، ورأيت اللون يمتد إلى خديها ويرتفع صدرها وينخفض مع تنفسها اللطيف، ثم فتحت عينيها ونظرت إلى عينيّ.

تساءلت: «ماذا حدث، فاد فارو؟ هل هناك خطأ بحيث أيقظتني بسرعة، أم أنني لم أستجب للسائل؟».

تجولت عيناها ووقعت على وجوه الآخرين الذين يقفون حولي. وتساءلت: «ما معنى ذلك؟ مَن هؤلاء؟».

رفعتها بلطف بين ذراعي، وأشرت إلى جسم ظاظا الذي يرقد كالميت فوق اللوح الإرسايتي بجوارها. اتسعت عينا فالا ديا، وصاحت: «هل حدث؟»، ثم صفقت بيديها على وجهها وتحسست جميع ملامحها وعنقها الرقيق الناعم. على أنها لم تكن قادرة بعد على تصديق ما حدث، وطلبت مرآة؛ فأعطيتها مرآة أخذتها من جيب حقيبة ظاظا. نظرت في المرآة لفترة طويلة، وبدأت دموعها تنهمر على خديها، ثم نظرت نحوي خلال دموعها

ووضعت ذراعيها العزيزين حول عنقي وجذبت وجهي إلى أسفل بالقرب من وجهها. همست كلمة واحدة: «يا قائدي»، لكنها كانت كافية. لقد خاطرت بحياتي وواجهت مخاطر مجهولة من أجل أن أسمع هذه الكلمة، ويسعدني أن أخاطر بحياتي ثانية لأحصد دائمًا وإلى الأبد المكافأة نفسها.

مرت ليلة أخرى قبل أن أنتهي من استعادة دار تاروس وهوفان دو. تركت ظاظا وساج أور والقرد نائمين في ما يشبه الموت نتيجة للمخدر الرائع الذي ابتدعه راس ثافاس. لم تكن لديَّ نية لإعادة القرد، لكني شعرت بالتزام تجاه عودة الآخرين إلى فوندال، على الرغم من أن دار تاروس -الذي يتألق الآن في جسده الأصلي وأغطية ساج أور المزخرفة- كان يحثني على عدم تعريضهم مرة أخرى لمعاناة الفوندال الطويلة.

قلت له: «لكني وعدتهم».

فقال: «إذَنْ يجب إعادتهم».

أضفت قائلاً: «على الرغم من أن ما قد أفعله بعد ذلك هو مسألة أخرى»، فقد طرأت لي فجأة خطة جريئة.

لم أخبر دار تاروس بالأمر، ولم يتيسر لي الوقت لأخبره؛ إذ سمعنا في تلك اللحظة صوت شخص في الخارج يحاول فتح الباب، ثم سمعنا عدة أصوات، والآن هناك من يحاول ثانية فتح الباب وإن كان بالقوة هذه المرة. لم يصدر عنا أي ضجيج، بل بقينا في حالة انتظار. كنت آمل أن يبتعد هذا الشخص، أيًّا من كان. الباب شديد القوة، ولا بد أنهم أدركوا، بعد محاولة فتحه بالقوة، عدم جدوى محاولاتهم، ذلك أنهم سرعان ما توقفوا وسمعنا أصواتهم لمجرد فترة قصيرة ويبدو أنهم ذهبوا بعد ذلك.

قلت: «يجب أن نغادر المكان قبل عودتهم».

قمت بتقييد أيدي كل من ظاظا وساج أور خلفهما ووضعت الكمامات على فميهما، وأيقظتهما بسرعة. لم أشهد من قبل شخصين أقل امتنانًا.

كانت نظراتهما تجاهي تكاد تقتلني، لو أن النظرات قادرة على القتل. كما كانت نظرات الاشمئزاز تجاه أحدهما الآخر بادية بوضوح في أعينهما.

فتحت الباب بحذر وبهدوء شديد، وفي يدي اليمنى سيفي، ودار تاروس وجور هاجوس وهوفان دو جاهزين بسيوفهم خلف أكتافي. كشف الباب، عندما تأرجح مرتدًا، عن شخصين يقفان في الممر للمراقبة- هما من عبيد راس ثافاس؛ وأحدهما هو يمدور،

حارسه الشخصي. أطلق العبد عند رؤيتنا صرخة مدوية تدل على تعرفه علينا. وقبل أن أتمكن من القفز عبر المدخل ومنعهما، استدار الاثنان وركضا عبر الممر بأسرع ما يمكنهما.

لا يوجد الآن وقت نضيعه- يجب التضحية بكل شيء في مقابل الإسراع. ودون تفكير في توخي الحذر أو الصمت، أسرعنا خلال الحُفر نحو المدرج في البرج؛ وعندما خرجنا إلى الفناء الداخلي كان الوقت ليلاً مرة أخرى، لكن القمر الأبعد يحلق في السماء ولا توجد غيوم. وبالتالي كشفنا الحارس على الفور، ودق ناقوس الخطر وهو يركض إلى الأمام لاعتراضنا.

ماذا يفعل الحارس في فناء راس ثافاس؟ لم أفهم. ومن هؤلاء؟ عشرات المحاربين المسلحين يسرعون عبر الفناء في أعقاب الحارس.

«التونوليون!» صاح جور هاجوس، «إنهم محاربو فوبيس كان، جيداك تونول!».

ركضنا لاهثين نحن البوابة. آه لو أمكننا الوصول إليها أولاً! لكن أسرانا يعرقلون حركتنا، حيث توقفوا في لحظة اكتشافهم إمكانية إرباكنا، مما نتج عنه أننا التقينا جميعًا أمام البوابة. قمت مع دار تاروس وجور هاجوس ودو هوفان بوضع فالا ديا وأسرانا خلفنا، وقاتلنا المحاربين التونوليين العشرين باحتمالات خمسة منهم ضد واحد منا؛ على أن ميزتنا ربما تكمن في تعلُّق قلوبنا بالمعركة، على الرغم من يقيني أن جور هاجوس كان وحده كعشرة رجال، ويكفي تأثيره الرهيب على رجال تونول.

صاح أول من تعرف عليه منهم: «جور هاجوس!».

أجاب القاتل: «نعم، أنا جور هاجوس. استعِد لملاقاة أسلافك!»، وانطلق نحوهم مندفعًا وأنا على يمينه وهوفان دو ودار تاروس على يساره.

كانت معركة بارعة، إلا أنها كانت لتنتهي ضدنا، لأنهم يفوقوننا عددًا إلى حد كبير، ما لم أفكر في القرود والبوابة بجانبنا. شققت طريقي إلى البوابة وفتحتها. وهناك، على الجانب الخارجي، وقفت عشرات من الوحوش الضخمة اجتذبتها ضوضاء القتال. دعوت جور هاجوس والآخرين إلى التراجع بجوار البوابة. وما إن تدافعت القرود، أشرت إلى محاربي تونول.

أعتقد أن القرود كانوا في حيرة لمعرفة من الأصدقاء ومن الأعداء، لكن هجوم التونوليين عليهم حسم الأمر، بينما وقفنا نحن جانبًا وأسنة سيوفنا موجهة نحو الأرض. وقفنا في حالة انتظار للحظات. وعندما اندفعت القرود بين محاربي تونول، تسللنا في

ظلام الغابة وراء الجدار الخارجي وتوجهنا نحو الطائرة. سمعنا خلفنا هدير وزئير الوحوش مختلطًا بصيحات ولعنات الرجال؛ وما زال الصوت يرتفع من الفناء ونحن نصعد على متن الطيار ونشق طريقنا في الليل.

وبمجرد شعورنا أننا هربنا بأمان من جزيرة ثافاس، أزلت الكمامات من أفواه ظاظا وساج أور، ويمكنني القول أنني ندمت فورًا على قيامي بذلك؛ فلم أتعرض أبدًا في حياتي من قبل لمثل هذه الإساءة البشعة التي انطلقت من الشفاه العجوز المجعدة للجيدارة؛ وفقط عندما بدأت تكميمها مرة أخرى أن وعدت بالكف.

وضعت خططي الآن جيدًا، وتضمنت العودة إلى فوندال حيث لا يمكنني بدء الطيران إلى دوهور مع فالا ديا دون إمدادات ووقود، ولا يمكن الحصول عليها إلا من فوندال، التي شعرت أنني أحمل المفتاح الذي يتيح لي تأمين تلك الموارد منها؛ بينما كانت تونول كلها تحمل السلاح ضدنا نظرًا لخوف فوبيس كان من جور هاجوس.

اتخذنا طريقنا نحو فوندال سرًّا، كما سبق ووصلنا إليها سرًّا؛ فلم أكن مستعدًّا لأن نتعرض للاعتقال قبل النجاح في دخول قصر ظاظا.

توقفنا نهارًا لنستريح على نفس الجزيرة التي منحتنا ملاذًا قبل يومين، ثم انطلقنا عند حلول الظلام نحو المحطة الأخيرة في رحلتنا إلى فوندال. لم نشهد وجود من يطاردنا، وهو ما يمكن أن يفسره بسهولة حجم المستنقعات غير المأهولة الكبير التي طرنا فوقها والمسار الجنوبي البعيد الذي اتبعناه بالقرب من الأرض.

عندما اقتربنا من فوندال، قمت بتكميم ظاظا وساج أور ثانية، فضلًا عن وضع عصابة على أعينهما حتى لا يتعرف عليهما أحد؛ ثم أبحرنا مباشرة فوق المدينة في اتجاه القصر، على أمل عدم الانكشاف، وعلى أهبة الاستعداد في الوقت نفسه في حال انكشافنا.

وصلنا إلى حظائر الطائرات على السطح دون انكشاف، وقمت بتدريب كل شخص على الجزء الذي من المقرر أن يؤديه. وخلال هبوطنا ببطء على السطح، سرعان ما تولى دار تاروس وهوفان دو وفالا ديا تقييدي وتقييد جور هاجوس ولف عصابات حول أعيننا؛ لأننا شهدنا أدناه شخوص حراس الحظيرة. كان تقييدي وتقييد جور هاجوس ليصبح غير ضروري، إن كنا وجدنا السطح دون حراسة.

ومع اقتراب هبوطنا، قام أحد الحراس بتحيتنا، ثم سأل: «ما هذه السفينة؟».

أجاب دار تاروس: «الطائرة الملكية لجيدارة فوندال، تعود بظاظا وساج أور».

تهامس المحاربون فيما بينهم خلال اقتراب هبوطنا، ويجب أن أعترف أنني شعرت بالتوتر تجاه نتائج خدعتنا؛ إلا أنهم سمحوا لنا بالهبوط دون كلمة، وقدموا التحية بأسلوب برسوم لفالا ديا عندما رأوها، وقد نزلت من سطح السفينة وفقًا لمراسم النقل الملكي لإمبراطورة.

أمرت الحراس: «خذوا السجناء إلى شققي!». وبمساعدة هوفان دو ودار تاروس، حمل الحراس الأربعة المقيدين معصوبي الأعين من الطائرة إلى أسفل المدرج الحلزوني لشقق ظاظا، جيدارة فوندال. وهنا سارع العبيد المتحمسون إلى إطاعة الجيدارة. يبدو أن خبر عودة ظاظا طار عبر القصر بسرعة الضوء؛ إذ بدأ موظفو البلاط يأتون على الفور ويُعلن عن وصولهم، لكن فالا ديا أبلغت أنها لن ترى أحدًا لفترة من الوقت، ثم صرفت عبيدها. تولى دار تاروس، بناء على اقتراحي، البحث في الشقق بغية إيجاد مخبأ آمن لجور هاجوس، ولي، وللسجناء. وسرعان ما وجده في غرفة انتظار صغيرة تقع مباشرة أمام الشقة الرئيسة للجناح الملكي. أُزيلت قيودي وقيود القاتل، وحملنا معًا ظاظا وساج أور إلى الغرفة.

كان المدخل هنا مزودًا بباب ثقيل، عليه ستائر تخفيه تمامًا. أمرت هوفان دو، الذي يرتدي مثل بقيتنا عتاد فوندال، أن يقف لحراسة الستائر وألا يدع أحدًا يدخل ما عدا أفراد جماعتنا. اتخذت أنا وجور هاجوس مواقعنا داخل الستائر، وقطعنا فيها ثقوبًا صغيرة تتيح لنا رؤية كل ما يجري في الغرفة الرئيسة؛ فقد كنت أشعر بالقلق إلى حد كبير على سلامة فالا ديا وهي تؤدي دور ظاظا، لأنني أعرف أن شعب ظاظا يخشاها ويكرهها على حد سواء، ولذا فهي عُرضة دائمًا للاغتيال.

استدعت فالا ديا العبيد وأمرتهم بالسماح لمسؤولي البلاط بالدخول. وعندما فُتحت الأبواب على مصراعيها، دخل عشرات النبلاء. لم يَبْدُ عليهم الارتياح. وأعتقد أنهم كانوا يتذكرون ما حدث في المعبد عندما تركوا الجيدارة، بل وألقوها بخشونة عند قدمي طور العظيم. لكن فالا ديا سرعان ما جعلتهم يشعرون بالارتياح.

قالت: «لقد استدعيتكم لتسمعوا كلمة طور؛ فسوف يتحدث مرة أخرى إلى قومه. لقد أمضيت مع طور ثلاثة أيام وثلاث ليال. إن غضبه من فوندال كبير. وقد أمرني أن أستدعي جميع النبلاء الأعلى مقامًا إلى المعبد بعد وجبة العشاء الليلة، وكذا جميع الكهنة والقادة ودوّار الحرس، والعديد من النبلاء الأقل مرتبة في القصر؛ وسوف يستمع شعب فوندال إلى كلماته وقانونه. وكل من يطيعه سوف يعيش، وكل من لا يطيعه سوف يموت؛ والويل لمن لا يذهب إلى المعبد هذه الليلة بعد هذا الاستدعاء. أنا ظاظا، جيدارة فوندال، قد تحدثت! اذهبوا!».

ذهبوا، وبدوا سعداء بذهابهم. استدعت فالا ديا بعد ذلك أودوار[158] الحرس - وهي رتبة جنرال على كوكب الأرض- وطلبت منه إخلاء القصر من كل كائن حي، من مستوى المعبد إلى السطح، قبل وجبة العشاء بساعة، وعدم السماح لأي شخص بدخول المعبد أو المستويات أعلاه إلى أن يحين موعد التجمع في المعبد لسماع كلمة طور، باستثناء كل من قد تكون في شققها، التي لا يمكن دخولها تحت وطأة ألم الموت. لقد أوضحت كل شيء بجلاء وبساطة وأعتقد أن الأودوار ارتعد قليلاً، ذلك أن الجميع كان يخشون ظاظا الجيدارة كثيراً؛ ثم ذهب، وصُرِف العبيد، وأصبحنا وحدنا.

***

(158) أودوار: قائد أو جنرال.

- http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=odwar - المترجمة.

الفصل (15)

جون كارتر

حملنا ظاظا وساج أور قبل وجبة العشاء بنصف ساعة أسفل المدرج الحلزوني إلى قاعدة تمثال طور العظيم، واتخذت أنا وجور هاجوس مواقعنا على المنصة العلوية خلف عينَي التمثال وصوته. ظلت فالا ديا ودار تاروس وهوفان دو في الشقق الملكية. كانت خططنا جيدة الإعداد. لم يكن هناك أحد بين الباب الذي يقع خلف تمثال طور العظيم والطائرة المستعدة للإقلاع من السطح في حالة اضطرارنا للفرار إذا تعرضت خطتنا الجنونية للفشل.

مرت الدقائق ببطء، وهبط الظلام. اقترب الموعد. سمعنا صوت فتح أبواب المعبد، ورأينا الممر الكبير مضاء ببراعة. كان خاليًا باستثناء كاهنين وقفا مترددين بعصبية عند المدخل. وأخيراً استجمع أحدهما ما يكفي من شجاعة للدخول وتشغيل الأضواء. تقدما الآن بمزيد من الشجاعة، وسجدا أمام مذبح طور العظيم. وعندما نهضا ونظرا في وجه التمثال، لم أستطع مقاومة إغراء تحويل أعين التمثال الضخمة لتتجول داخل الغرفة إلى أن استقرت ثانية على الكاهنين؛ لكني لم أتكلم، وأعتقد أن الصمت المرعب في حضرة إله حي كان أكثر تأثيراً من الكلمات. انهار الكاهنان ببساطة. انزلقا على الأرض ورقدا مرتجفين، يئنان ويتوسلان طور أن يرحمها، ولم ينهضا قبل وصول أول المتعبدين.

سرعان ما امتلأ المعبد، وأدركت أنهم نشروا أوامر طور بشكل جيد ودقيق. لقد جاءوا مثلما حدث من قبل؛ لكن العدد أكبر هذه المرة. وقفوا عند جانبي الممر الأساسي منتظرين، وأعينهم مقسمة بين المدخل والإله. ومع حلول توقيت عرض المشهد، قمت بتحريك أعين طور لتتجول عبر المجتمعين لتوجيهها نحو الموضع المناسب للمشهد الذي كان على وشك الحدوث. جاءت ردود أفعالهم مماثلة لرد فعل الكاهنين؛ سقطوا على الأرض يئنون ويتوسلون إلى أن أعلنت أصوات الأبواق عن قدوم الجيدارة. نهضوا على أقدامهم. تأرجحت الأبواب الكبيرة مفتوحة، ثم وُضع البساط وجاء العبيد في الخلف. ارتفعت أصوات الأبواق مع تدحرُج البساط نحو المذبح، وظهرت بداية الموكب الملكي. كنت قد أمرت بذلك لإتاحة أكبر قدر ممكن من الفخامة بمجرد فتح الأبواب عند وصول رأس الموكب. سمحت خطتي أن يرى الجمهور الحاشية الملكية تتقدم أسفل الممر الطويل، وكانت النتيجة الرائعة. دخل بداية النبلاء من المرتبتين، وخلفهم العربة التي يجرها اثنان من حيوانات البانث، وتحمل المهاد الذي تتكأ عليه فالا

ديا. سار خلفها دار تاروس، على أن الجميع داخل تلك الغرفة كانوا يعتقدون أنهم يتطلعون إلى ظاظا الجيدارة والشخص الأثير بالنسبة لها: ساج أور. وسار هوفان دو خلف ساج أور، وتلاه خمسون شابًّا وخمسون فتاة.

توقفت العربة أمام المذبح، ونزلت منها فالا ديا وركعت. سكتت الأصوات التي تردد أناشيد مديح ظاظا، حيث مدت المخلوقة الجميلة يديها نحو طور العظيم ونظرت إلى وجهه.

صاحت: «نحن مستعدون، سيدي! تحدث! نحن ننتظر كلمة طور!».

ارتفع لهاث من الحشد الراكع، لهاث انتهى بتنهدات. شعرت بحماسهم وأن كل شيء يمكن أن يمضي دون عقبات. وضعت أنبوب التخاطب على شفتي.

قلت بصوت كالرعد، أخاف الحضور: «أنا طور! جئت لأصدر حكمي على شعب فوندال. قد تزدهرون أو تهلكون، حسبما تستقبلون كلمتي. يمكن التكفير عن خطايا الشعب، وذلك من خلال اثنين أرى أنهما اقترفا أكبر الخطايا». قمت بتحريك أعين طور حول الجمهور، حتى استقرت عند فالا ديا. «ظاظا، هل أنتِ مستعدة للتكفير عن خطاياكِ وخطايا شعبكِ؟».

أحنت فالا ديا رأسها الجميلة، وأجابت: «إرادتك هي القانون، يا سيدي!».

واصلت كلامي: «وأنت ساج أور. لقد أخطأت. هل أنت مستعد للتكفير عن خطاياك؟».

قال دار تاروس: «كما يأمر طور».

أعلنت بصوت مدوٍّ: «إنها إرادتي أن تُعيد ظاظا وساج أور الأجسام الجميلة التي يرتدونها الآن إلى أصحابها؛ وأن الشخص الذي أخذ ساج أور جسمه يصبح جيداك فوندال والكاهن الأعلى لطور؛ وأن تعود

الإنسانة التي سرقت ظاظا جسمها إلى بلدها الأصلي في موكب عظيم. لقد تحدثت. فليتكلم الآن كل من يخالف كلمتي أو يصمت إلى الأبد».

لم يصدر أي اعتراض؛ وكنت أشعر بيقين أنهم لن يعترضوا. وأشك أن أي إله قد نظر من قبل إلى قطيع أكثر هدوءًا وتأدبًا مثل هذا القطيع. خلال حديثي، نزل جور هاجوس إلى قاعدة الصنم وأزال القيود من قدمي وساقي ظاظا وساج أور.

أصدرت أوامري: «آمركم بإطفاء الأنوار!». أطاع كاهن مرتجف أمري.

كانت فالا ديا ودار تاروس يقفان متجاورين أمام المذبح عندما انطفأت الأنوار. قاما مع جور هاجوس بعملها سريعًا خلال دقيقة، بحيث عندما سمعت صوت صفارة منخفض من داخل قاعدة الصنم -وهي الإشارة المتفق عليها مسبقًا للدلالة على أن جور هاجوس انهى مهمته- أمرت بإعادة الأضواء مرة أخرى. وهناك، كان يقف كل من ظاظا وساج أور في نفس الموقع الذي وقف عنده من قبل كل من فالا ديا ودار تاروس، اللذين اختفيا حاليًا من المشهد. أعتقد أن التأثير الدرامي لهذا التبديل على الشعب كان مذهلاً أكثر من أي شيء آخر رأيته على الإطلاق. لا توجد أي قيود أو كمامات على ظاظا أو ساج أور، أي شيء يدل على إحضارهما إلى هنا بالقوة -فمن الذي يمكنه ذلك. كانت الخدعة مثالية- كانت لمحة تشير إلى قدرة كلية أذهلت ببساطة العقل. لكني لم أتوقف.

قلت: «كنت سمعتم ظاظا تتخلى عن عرشها، وساج أور يستسلم لحُكم طور».

صاحت ظاظا: «أنا لم أتخلَّ عن عرشي! إنها ...».

قلت بصوت كالرعد: صمتًا! عليكم الاستعداد لتحية جيداك فوندال الجديد، دار تاروس!»، ثم أدرت عيني نحو الأبواب الكبيرة وتبعتني أعين الحشد. تأرجحت الأبواب مفتوحة لتكشف عن دار تاروس يقف متألقًا في أغطية وزخارف هورا سان، الجيداك والكاهن الأكبر الذي مات منذ فترة طويلة جيداك وسرقنا عظامه في قاعدة التمثال منذ ساعة. لا أعرف كيف استطاع دار تاروس إجراء التبديل بهذه السرعة، لكنه فعلها وكان التأثير هائلاً. كان يشبه كل شبر من الجيداك؛ يتحرك ببطء ومهابة على طول الممر الواسع فوق السجادة ذات الألوان البيضاء والزرقاء والذهبية. تحولت ظاظا إلى اللون الأرجواني وهي غاضبة، وصرخت: «الدجال! أمسكوا به! اقتلوه!»، وركضت نحوه كأنما لتقتله بيديها العاريتين.

«خذوها بعيدًا»، قال دار تاروس بصوت هادئ، وعندئذ سقطت ظاظا غاضبة على الأرض. صرخت ولهثت، ثم رقدت ساكنة- امرأة عجوز شريرة، ماتت بسكتة دماغية. وعندما رآها ساج أور مُمددة، ربما كان أول من أدرك أنها ماتت، ولا يوجد الآن من يحميه من الكراهية الموجهة دائمًا نحو الشخص الأثير لدى الحاكم. نظر حوله بهياج للحظة، ثم ألقي بنفسه تحت أقدام دار تاروس.

صرخ: «لقد وعدت بحمايتي!».

أجاب دار تاروس: «لن يؤذيك أحد، اذهب في طريقك وعِش في سلام». ثم رفع عينيه إلى أعلى، نحو وجه طور، قائلاً: «ما إرادتك، سيدي؟ إن خادمك دار تاروس ينتظر أوامرك!».

تركت فرصة لتأثير الصمت المؤثر قبل أن أجيب.

«دع كهنة طور، والنبلاء الأقل مرتبة، وعدد معين من حرس الجيدارة، يتوجهون إلى المدينة وينشرون كلمة طور بين الناس، ويخبرونهم أن طور يبتسم مرة أخرى في فوندال، وأنه يوجد الآن جيداك جديد يعمل لصالح طور. ودع النبلاء الأعلى مرتبة يحضرون الآن إلى غرف ظاظا السابقة لأداء مراسم الشرف لفالا ديا، حيث حكمت الجيدارة ذات يوم مرتدية جسمها المثالي، وبدء الترتيبات اللازمة لعودتها سالمة إلى دوهور، مدينتها الأصلية. سوف يجدون هناك أيضًا اثنين خدما طور جيدًا، ولذا يجب منحهما ضيافة وصداقة كل فوندالي - إنهما جور هاجوس من تونول، وفاد فارو من جاسوم. اذهب! وعندما يخرج آخر شخص، اتركوا المعبد مظلمًا. أنا طور، وقد تحدثت!».

كانت فالا ديا قد توجهت مباشرة إلى شقق الجيدارة السابقة. وفي لحظة إطفاء الأضواء، انضممت إليها ومعي جور هاجوس. لم تطق صبر الانتظار لتسمع نتائج حيلتنا. وامتلأت عيناها بدموع الفرح عندما أكدت لها أننا لم نواجه أي عقبات.

همهمت: «لقد أنجزت المستحيل، يا قائدي، وأستطيع أن أرى بالفعل تلال دوهور وأبراج مدينتي الأصلية. آآه، فاد فارو، لم أحلم أن الحياة قد تحمل لي ثانية مثل هذه التوقعات السعيدة. أنا مدينة لك بالحياة، وأكثر من الحياة».

قاطعنا مجيء دار تاروس، ومعه هوفان دو وعدد من نبلاء المرتبة الأعلى الذين استقبلونا بسرور، على الرغم من اعتقادي أنهم كانوا متحيرين بشأن كيفية اتصالنا بخدمة إلاههم، كما أنني على يقين أن أحدًا لن يعرف أبدًا. كانت سعادتهم واضحة بالتخلص من ظاظا؛ وفي حين أنهم لم يتمكنوا من فهم غرض طور في رفع مستوى محارب سابق في الحرس إلى العرش، فقد كان يسعدهم ذلك لأنه قد يمنع عنهم غضب إلاههم، الذي أصبح الآن إلهًا حقيقيًّا ورهيبًا لما شاهدوه من معجزات في المعبد. وقد خفف انتماء دار تاروس إلى عائلة نبيلة من حرجهم، وقد لاحظت أنهم عاملوه باحترام كبير. كنت متأكدًا أنهم سيواصلون معاملته على هذا النحو؛ لأنه كان أيضًا الكاهن الأعلى، وسوف يجلب -لأول مرة منذ مائة عام- إلى طور العظيم في المعبد الملكي صوت الإله؛ إذ وافق هوفان دو على أداء الخدمة مع دار تاروس، كما وافق جور هاجوس أيضًا، ولذا لن يفتقروا أبدًا إلى لسان يتحدث به طور. إنني أتوقع إمكانيات عظيمة لعهد دار تاروس، جيداك فوندال.

تقرر في الاجتماع الذي عُقِد في شقق ظاظا أن فالا ديا تحتاج إلى الراحة لمدة يومين في فوندال، بينما يستعد أسطول صغير لنقلها إلى دوهور. خصص لها دار تاروس شقق ظاظا، وعبيدًا من مدن مختلفة لرعايتها، حيث سيحررهم جميعًا ويعودون مع فالا ديا إلى بلدها الأصلي.

كان الوقت فجرًا تقريبًا، قبل أن نسعى لحرير وفراء النوم، وارتفعت الشمس في السماء قبل أن نستيقظ. تناولت وجبة الإفطار مع جور هاجوس وفالا ديا، حيث وضعنا سرائرنا خارج باب غرفتها حتى لا نتركها دون حماية للحظة. وما إن انتهينا من وجبتنا، حتى جاء رسول من دار تاروس يستدعينا إلى القاعة العامة. وجدنا هناك بعض ضباط البلاط من الرتب العليا، متجمعين حول العرش الذي جلس عليه دار تاروس، وهو يبدو كإمبراطور. استقبلنا بلطف، حيث وقف ونزل من المنصة لاستقبال فالا ديا ورافقها إلى أحد المقاعد التي وضعت بجوار العرش لها ولي.

قال لي: «لقد حضر شخص إلى فوندال ليلاً ويلتمس الآن مقابلة الجيداك- شخص أعتقد أنك قد ترغب في رؤيته ثانية»، ثم أشار إلى أحد مساعديه بإدخال هذا الشخص. وعندما فتحت الأبواب في الجهة المقابلة من الغرفة، رأيت راس ثافاس واقفًا هناك. لم يتعرف عليَّ أو على فالا ديا أو جور هاجوس إلى أن وصل تقريبًا عند العرش، وعندئذ نظر بحيرة ثم ألقى لمحة أخرى سريعة إلى دار تاروس.

أعلن الضابط: «راس ثافاس من برج ثافاس، تونول».

سأل دار تاروس: «ماذا يريد راس ثافاس من جيداك فوندال؟».

أجاب راس ثافاس: «أتيت لمقابلة ظاظا، ولم أكن أعرف بوفاتها أو ارتقائك العرش حتى صباح اليوم؛ لكنني أرى ساج أور على عرش ظاظا وبجانبه من تصورت أنها ظاظا، على الرغم من أنهم أخبروني أن ظاظا ماتت؛ كما أرى من كان مساعدي في ثافاس، وأرى قاتل تونول، وأشعر بالحيرة، يا جيداك، ولا أعرف ما إذا كنت بين أصدقاء أم أعداء».

قال له دار تاروس: «تحدث كأنما ظاظا لا تزال تجلس على عرش فوندال؛ وعلى الرغم من أنني دار تاروس، الذي ظلمته، ولست ساج أور، فلا تخشَ شيئًا في بلاط فوندال».

«اسمح لي إذَنْ أن أقول لك إن فوبيس كان، جيداك تونول، بعد أن عرف بفرار جور هاجوس من عندي، أقسم أنني أطلقت سراحه لاغتياله، وأنه أرسل محاربين استولوا على

جزيرتي، وكان ليسجنني إن لم أتمكن من الهرب في الوقت المناسب، وقد جئت إلى هنا إلى ظاظا لأتوسل إليها إرسال محاربين لإبعاد رجال تونول من جزيرتي واستعادتها لي بحيث يمكنني مواصلة جهودي العلمية».

استدار دار تاروس نحوي: «فاد فارو، أنت من بين الجميع أكثر درايةً بأعمال راس ثافاس. هل ترى أن يستعيد جزيرته ومختبره مرة أخرى؟».

أجبت: «بشرط أن يكرس مهارته العظيمة لتخفيف المعاناة البشرية، ويكف عن المتاجرة بمهارته لأغراض الجشع والخطيئة الكريهة». أدى ذلك إلى نقاش استمر ساعات، وأسفر عن نتائج مهمة بعيدة المدى. وافق راس ثافاس على كل ما طلبته، وقام دار تاروس بتكليف جور هاجوس بقيادة جيش ضد تونول.

بيد أن هذه الأمور، مع فائدها العظمى للمعنيين بها مباشرة، لا تؤثر بشكل مباشر على قصة مغامراتي في برسوم، فلست جزءًا منها؛ لأنني في اليوم الثاني ركبت على متن طائرة مع فالا ديا، يرافقنا أسطول فوندال، وتوجهنا إلى دوهور. صاحبنا دار تاروس لمسافة قصيرة، وودعنا عندما توقف الأسطول عند ضفة المستنقع الكبير، وكان على وشك صعود سطح سفينته والعودة إلى فوندال عندما دوت صرخة من سطح إحدى السفن الأخرى، وسرعان ما علمنا أن نقطة المراقبة رصدت ما يبدو أسطولاً كبيراً في الجنوب الغربي. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يصبح ذلك الأسطول مرئيًّا بواضوح لنا جميعًا، كما اتضح أيضًا بجلاء أنه يتجه إلى فوندال.

أخبرني دار تاروس أنه بقدر ما يؤسفه ذلك، ما من بديل سوى العودة فورًا إلى عاصمة بلده مع الأسطول كاملاً، نظرًا لأنه لا يستطيع الاستغناء عن سفينة واحدة أو رجل واحد إذا ثبت عداء الأسطول الذي رأيناه، كما لا يمكنني أو فالا ديا الاعتراض. وهكذا أدرنا سفينتنا بأقصى ما تسمح به السفن البطيئة في فوندال، متجهين إلى المدينة.

رصدنا الأسطول الغريب في نفس وقت مشاهدتنا له، ورأيناه يُغير مساره ويتجه نحونا. وعندما زاد اقترابه منا، اصطفت سفنه استعدادًا لتطويقنا. كنت أقف بجانب دار تاروس عندما أصبحت ألوان الأسطول المقترب أكثر وضوحًا، وهنا عرفنا أنه من هيليوم.

أصدر دار تاروس توجيهاته: «أعطوا إشارة واسألوا إن كانوا قادمين بسلام».

وجاء الرد: «نحن نسعى إلى التحدث مع ظاظا، جيدارة فوندال. أما مسألة السلام أو الحرب، فهي من سيتخذ قرارها».

«أخبروهم أن ظاظا ماتت وأنني دار تاروس، جيداك فوندال، سوف أستقبل قائد أسطول هيليوم في سلام على سطح هذه السفينة، أو سوف أستقبله في حرب بجميع أسلحتي. أنا، دار تاروس، قد تحدثت!».

انطلقت من مقدمة إحدى السفن الكبيرة في أسطول هيليوم راية الهدنة، وعندما أجابت سفينة دار تاروس برد مماثل، اقتربت سفينة هيليوم بحيث أصبحنا الآن نرى رجالها على أسطحها. اقتربت السفينة الكبيرة ببطء بجانب سفينتنا الأصغر حجمًا، وسرعان ما صعد ضابطان إلى سفينتنا. كان الرجان يتمتعان بمظهر جيد، وعلى رأسهم رجل تعرفت عليه على الفور على الرغم من أنني لم أره أبدًا من قبل. أعتقد أنه كان أكثر شخصية رأيتها إثارة للإعجاب، وهو يتقدم ببطء على سطح السفينة تجاهنا - إنه جون كارتر، أمير هيليوم، وأمير الحرب في برسوم.

قال: «دار تاروس، يقدم لك جون كارتر التحية وفي سلام، على الرغم من أن كان ليختلف إذا كانت ظاظا لا تزال تحكم».

سأل دار تاروس: «هل جئت للحرب ضد ظاظا؟».

أجاب أمير الحرب: «لقد جئنا لتصحيح وضع خاطئ. ولكن مما نعرفه عن ظاظا، لم يكن ممكنًا تحقيق ذلك إلا بالقوة».

سأله دار تاروس: «وما الخطأ الذي ارتكبته فوندال ضد هيليوم؟».

- كان الخطأ ضد أحد رجالك- بل ضدك شخصيًّا.

قال دار تاروس: «أنا لا أفهم».

أجاب جون كارتر وهو يبتسم: «يوجد شخص على متن سفينتي يمكنه أن يشرح لك، دار تاروس»؛ ثم استدار وتحدث إلى أحد مساعديه في همس، وبعدها قدم المساعد التحية وعاد إلى سطح سفينته. «سوف تشاهد بعينيك، دار تاروس». وفجأة ضاقت عيناه. «أهذا هو دار تاروس بالفعل، الذي كان من محاربي حرس الجيدارة، ومن المفترض أنه اغتيل بناء على أوامرها؟».

أجاب دار تاروس: «نعم».

قال أمير الحرب: «يجب أن أتأكد».

تحدثت باللغة الإنجليزية: «ما من شك في ذلك، جون كارتر».

اتسعت عيناه. وعندما نظر نحوي جيدًا، لاحظ لون بشرتي الفاتح، حيث كان لون الصبغة آخذًا في التلاشي، تقدم نحوي وهو يرفع يده.

وتساءل: «هل أنت ابن بلدي؟».

قلت: «نعم، أنا أمريكي».

فقال: «أنا مندهش. ولكن لماذا أندهش؟ لقد عبرت أنا نفسي، ولا يوجد أي سبب لعدم عبور الآخرين. وها أنت تحقق ذلك! يجب أن تأتي إلى هيليوم معي وتقص لي كل شيء».

انقطع الحديث بعودة المساعد، الذي جلب معه امرأة شابة. أطلقت الشابة صيحة فرح ما إن رأت دار تاروس وقفزت نحوه، ولم أكن في حاجة إلى أن يقولوا لي إنها كارا فاسا.

لن يتبقَّ الكثير الذي يمكنني إخبارك بي دون أن أشعركم بالملل: كيف

أخذني جون كارتر نفسه ومعي فالا ديا إلى دوهور بعد حضور زفاف دار تاروس وكارا فاسا؛ وعن المفاجأة الكبرى التي كانت تنتظرني في دوهور، حيث علمت للمرة الأولى أن كور سان، جيداك دوهور، هو والد فالا ديا؛ وعن التكريم والثروات الهائلة التي منحها لي عند زواجي من فالا ديا.

حضر جون كارتر حفل الزفاف، وبدأنا في برسوم عادة أمريكية قديمة جيدة، حيث اتخذ أمير الحرب دور الإشبين؛ ثم أصر على أن نمضي شهر العسل في هليوم، وها أنا أكتب لك من هناك.

ويبدو حتى الآن وكأنه حلم أنني عندما أنظر من نافذتي وأرى البرجين القرمزي والأصفر لمدينتي هيليوم التوأم؛ وأنني قابلت، وأرى يوميًّا، كارثوريس وثوفيا البتارثية، وتارا الهيليومية، وجاهان الجاثولي، وتلك الإنسانة منقطعة النظير، ديجاه ثوريس، أميرة المريخ. وعلى الرغم من جمالها، هناك امرأة آخرى أكثر جمالاً – فالا ديا، أميرة دوهور وهي الآن السيدة أوليسيس باكستون.

***

انتهى الكتاب السادس:

العقل المدبر للمريخ

مقاتل المريخ

ادجار رايس بوروز

ترجمة شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

تقديم

يعود الفضل إلى جيسون جريدلي من طرزانا، مكتشف موجة جريدلي[159] ، في إقامة اتصال لا سلكي بين بليوسيدار[160] والعالم الخارجي.

كان من حسن حظي أن أُمضي وقتًا كبيراً في مختبرة وهو يجري تجاربه، وأن أكون أيضًا محل ثقته، بحيث أدركت تمامًا أنه بينما يأمل في إقامة اتصال مع بليوسيدار، يحاول التوسع أيضًا لتحقيق إنجاز أكثر روعة- كان يتلمس طريقه عبر الفضاء للاتصال بكوكب آخر؛ ولم يحاول إنكار أن الهدف الحالي لطموحه هو الاتصال اللا سلكي مع المريخ.

لقد نجح جريدلي في تصميم جهاز أوتوماتيكي بسيط لبث الإشارات بشكل متقطع، وتسجيل ما يمكن استقباله أثناء غيابه.

حملت موجة جريدلي عبر الأثير، ولمدة خمس دقائق، إشارة رمزية بسيطة تتكون من حرفين «ج.ج.» [اختصار اسمه: جيسون جريدلي]؛ تلاها فترة توقف لمدة عشر دقائق. يمر الوقت، ساعة بعد ساعة، يومًا بعد يوم، أسبوعًا بعد أسبوع، وهذه الرُّسُل الصامتة غير المرئية تنطلق إلى أقصى مسافة ممكنة في الفضاء اللا نهائي. وبعد أن غادر جيسون جريدلي طرزانا للشروع في رحلته إلى بليوسيدار، وجدت نفسي منجذبًا إلى مختبره بإغراء إمكانيات حلمه الهائلة، فضلاً عن وعدي له بأن أُراجع بين حين وآخر ما إذا كان الجهاز يعمل بشكل صحيح، وأفحص أدوات التسجيل لتتبع أي دليل على استقبال الإشارات والإجابة عليها.

منحتني علاقتي الوطيدة بجريدلي معرفة عملية جيدة بأجهزته، ومعرفة كافية بشفرة مورس تمكنني من الاستقبال بقدر معتدل من الدقة والسرعة.

مرت الشهور؛ وتراكم التراب غزيرًا فوق كل شيء باستثناء الأجزاء العاملة في جهاز جريدلي، كما احتفظ بنقائه شريط التيكرز الأبيض- الذي يحمل مؤشر استقبال إشارة الرد؛ ثم ذهبت في رحلة قصيرة إلى ولاية أريزونا.

---

(159) موجة جريدلي: وسيلة اتصال اكتشفها مخترع من كوكب الأرض هو جيسون جريدلي، وهي تتيح الاتصال في اتجاهين: بين كوكب الأرض والبليوسيدار (عالَم باطن كوكب الأرض)، وقد استُخدِمت لنقل قصص بليوسيدار إلى كوكب الأرض، كما استُخدمت لنقل قصص من المريخ إلى كوكب الأرض - https://barsoom.fandom.com/wiki/Gridley_wave - المترجمة.

(160) بليوسيدار: عالم نابض بالحياة تحت سطح كوكب الأرض، ويضم مخلوقات عاشت على الكوكب سابقًا وانقرضت منذ زمن طويل. لا يوجد ليل هناك لأن باطن الأرض عبارة عن شمس مشرقة تقع في المركز وتوفر الضوء دائمًا -

- https://barsoom.fandom.com/wiki/Pellucidarالمترجمة.

تغيبت حوالي عشرة أيام، وكان فحص مختبر جريدلي والأدوات التي تركها تحت رعايتي من أول الأشياء التي شغلت اهتمامي عند عودتي. دخلت الغرفة المألوفة وأضأت الأنوار، متوقعًا مواجهة نفس عدم الاستجابة التي أصبحت الآن معتادًا عليها تمامًا.

وفي واقع الأمر، لم يكن أملي في النجاح مرتفعًا بأي حال، كما لم يكن جريدلي مفرط التفاؤل- فهي مجرد تجربة. كان يراها تجربة جديرة بالمحاولة، وكنت أعتبرها أيضًا تستحق أن أساعده فيها بأي قدر أستطيعه، ولو ضئيل.

ولذلك تملكتني مشاعر الدهشة، المقترنة بصدمة متميزة، عندما رأيت على شريط التيكرز علامات مألوفة لنقاط وشرطات تخص شفرة.

أدركت بالطبع أن باحثًا آخر ربما توصل أيضًا إلى اكتشاف جيسون لموجه جريدلي، وأن هذه الرسالة ربما مصدرها كوكب الأرض، أو ربما هي رسالة من جيسون نفسه أرسلها من بليوسيدار؛ لكنني عندما انتهيت من فك شفرتها، تلاشت على الفور تلك الشكوك جميعًا. الرسالة من أوليسيس باكستون،[161] وهو كابتن سابق في سلاح المشاة بالجيش الأمريكي، انتقل بأعجوبة من ساحة معركة في فرنسا إلى حضن الكوكب الأحمر العظيم، وأصبح الساعد الأيمن للعالم رأس ثافاس[162] - العقل المدبر للمريخ - ثم تزوج من فالا ديا، ابنه كور سان، جيداك[163] دوهور[164] .

أوضحت الرسالة بإيجاز أن إشارات غامضة ظلت تصل إلى هيليوم[165] لعدة أشهر، وعلى الرغم من عدم قدرتهم على تفسيرها، فقد ذهبوا إلى أنها تصل من جاسوم، وهو اسم كوكب الأرض في المريخ.

ونظرًا لأن جون كارتر[166] كان غائبًا عن هيليوم، فقد أُرسلت طائرة سريعة إلى دوهور بطلب عاجل إلى باكستون؛ ليأتي على الفور إلى مدينتي هيليوم التوأم في محاولة

---

(161) أوليسيس باكستون: ويُسمَّى على المريخ فاد فارو - بطل قصة «العقل المُدبر في المريخ». وهو جندي أمريكي انتقل في ظروف غامضة إلى المريخ خلال الحرب العالمية الأولى - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ulysses_Paxton - المترجمة.

(162) راس ثافاس: عالِم مريخي، معروف بأنه العقل المُدبر في المريخ، وهو أحد أبطال القصة المعروفة بالاسم نفسه في سلسلة المريخ. يكرس اهتمامه بالعلوم دون النظر إلى العواقب الاجتماعية لاختراعاته أو اكتشافاته، وكان فاد فارو مساعده لفترة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ras_Thavas - المترجمة.

(163) جيداك: ما يعادل الإمبراطور

http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak – المترجمة.

(164) دوهور: مملكة على المريخ تضم مريخيين ذوي بشرة حمراء، وتقع في نصف الكرة الشمالي للمريخ -

- https://barsoom.fandom.com/wiki/Duhorالمترجمة.

(165) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/المريخ، وهي تضم مدينتين توأمًا رئيستين: هيليوم الكبرى وهيليوم الصغرى، وهما معًا بمثابة عاصمة المملكة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium - المترجمة.

للتحقق من مدى صحة وصول هذه الإشارات بالفعل من كوكب الأرض الذي ينتمي إليه باكستون.

تعرّف باكستون على الفور، بمجرد وصوله إلى هيليوم، على إشارات مورس. وتلاشى كل شك في أذهان علماء المريخ بأن شيئًا ملموسًا قد تحقق أخيراً في اتجاه حل الاتصال بين جاسوم وبرسوم[167].

فشلت محاولات متكررة لنقل الرد على الإشارات إلى كوكب الأرض، ثم شرعت أفضل عقول هيليوم في مهمة تحليل موجة جريدلي وإعادة إنتاجها.

شعروا أنهم تمكنوا أخيراً من تحقيق النجاح. وبعث باكستون برسالته، وظلوا ينتظرون الرد بفارغ الصبر.

ومنذ منذ ذلك الحين وأنا على اتصال مستمر تقريبًا بالمريخ. لكن الولاء لجيسون جريدلي، الذي يعود إليه كل الفضل والشرف، جعلني أمتنع عن أي إعلان رسمي من جانبي، فضلاً عن عدم تقديم أي معلومات مهمة، تاركًا له الأمر برمته لحين عودته إلى العالم الخارجي. مع ذلك، لا أعتقد أنني أخون الثقة إذا رويت لكم قصة هاردون الهاستوري[168] المشوقة، التي رواها لي باكستون منذ فترة ليست طويلة.

وآمل أن تستمتعوا بها بقدر استمتاعي.

على أني قبل أن أدخل في القصة، أعتقد من الممتع للعديد من القراء أن أقدم وصفًا موجزاً للأعراق الرئيسة في المريخ، وتنظيمهم السياسي والعسكري، فضلاً عن بعض عاداتهم. إن العِرق المُهيمن الذي يملك ناصية التقدم والحضارة -نعم، حياة المريخ نفسها- لا يختلِف عنا إلا قليلاً من حيث المظهر. ويكمن الاختلافان الأساسيان بينهم وبين المعايير الأنجلو-ساكسونية في لون بشرتهم النحاسي المائل إلى الحُمرة الخفيفة، وفي أنهم يتكاثرون عن طريق وضع البيض الذي يكسر الصغار قشرته ليخرجوا إلى العالم. كلا، هناك شيء آخر مختلف - إنه طول العُمر؛ إذ يُعتبر ألف عام فترة حياة طبيعية للمريخي، على الرغم من أن ولعهم بالحرب وانتشار الاغتيال فيما بينهم لا يتيح سوى لعدد قليل منهم أن يعيش هذه الفترة العمرية.

---

(166) جون كارتر: من فرجينيا، وهو أول رجل من كوكب الأرض يصل إلى المريخ، وأصبح أحد أعظم أمراء الحرب في تاريخ المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/John_Carter – المترجمة.

(167) برسوم: كوكب يُسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom - المترجمة.

(168) هاستور: إحدى المدن الصغيرة في مملكة هيليوم - https://barsoom.fandom.com/wiki/Hastor - المترجمة.

أما عن تنظيمهم السياسي العام، فلم يتغير إلا قليلاً على مدار عدد لا يُحصى من العصور؛ فلا تزال القبيلة هي الوحدة الرئيسة، وعلى رأسها قائد أو جِد[169] ، ما يُناظر الملك في العصر الحديث. والأمير هو جد وإن كان في مرتبة أدنى، بينما يحمل قائد القادة أو رئيس القبائل الموحدة لقب جيداك، أو إمبراطور، وزوجته تحمل لقب جيدارة.

يعيش غالبية المريخيين الحُمر في مدن ذات أسوار، على الرغم من وجود العديد الذين يسكنون في بيوت معزولة، ذات جدران قوية ودفاعاتها جيدة، في المزارع التي تمتد على طول شريط الأراضي الغنية

المروية التي نعرفها نحن سكان كوكب الأرض باسم «قنوات المريخ».

في أقصى الجنوب، أي في المنطقة القطبية الجنوبية، يسكن عِرق من الرجال سود البشرة ويتمتعون بالوسامة والذكاء الشديد. كما يسكن هناك أيضًا ما تبقى من العِرق أبيض البشرة؛ في حين يهيمن عِرق الرجال ذوي البشرة الصفراء على المناطق القطبية الشمالية.

وتتناثر بين القطبين الأراضي القفر لقيعان البحر الميت، وتضم في أغلبها المدن التي تدمرت خلال العصور السابقة، وتسكنها جحافل المريخيين خُضر البشرة المُخيفين.

ويتوارث هؤلاء المحاربون الخُضر الرهيبون في برسوم العداء لجميع الأعراق الأخرى على هذا الكوكب المولع بالقتال. وهم يتميزون بأحجامهم الضخمة؛ وبالإضافة إلى الساقين والذراعين، يمتلك كل فرد أيضًا زوجًا وسيطًا من الأطراف التي يمكنه استخدامها حسب رغبته إما كذراعين أو ساقين. تقع أعينهم عند أقصى جانبي رؤوسهم، فوق الوسط قليلاً، وتبرز على نحو يتيح توجيهها إلى الأمام أو إلى الخلف، وأيضًا بشكل مستقل عن بعضهما، مما يسمح لهذه المخلوقات الرائعة النظر في أي اتجاه أو في اتجاهين في وقت واحد دون الحاجة إلى تحويل رؤوسهم.

أما آذانهم، التي تقع مقتربتين أعلى العينين بقليل، فهي عبارة عن هوائيات صغيرة مُقعرة الشكل، وتبرز لعدة بوصات من الرأس؛ بينما أنوفهم ليست سوى شقوق طولية في وسط وجوههم، عند منتصف المسافة بين الأفواه والآذان.

أجسادهم خالية من الشعر، وذات لون أخضر مصفر فاتح في فترة الطفولة، ويتحول إلى اللون الأخضر الزيتوني في فترة النضج، بحيث عند البلوغ يصبح لون بشرة الذكور أكثر قتامةً من لون بشرة الإناث.

---

(169) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed - المترجمة.

لون قزحية أعينهم هو الأحمر الدموي، مثل الألبينو، بينما يتخذ إنسان العين اللون الأسود. ومقلة العين نفسها شديدة البياض، مثلها مثل الأسنان. وتضيف الأسنان مظهرًا أكثر شراسة لملامح وجه مخيف ورهيب، حيث تنحني الأنياب السفلية إلى أعلى وتنتهي بنهاية حادة في الموقع الذي توجد فوقه أعين البشر في كوكب الأرض. ولا يماثل بياض الأسنان بياض العاج، وإنما يشبه بياض الثلوج ولمعان آنية الخزف الصيني. وعلى خلفية بشرتهم الزيتونية الداكنة، تبرز أنيابهم بطريقة لافتة للنظر، حيث تبدو هذه الأسلحة بمظهر متفرد مدهش.

إنهم عِرق قاسٍ وقليل الكلام، وخالٍ تمامًا من الحب والتعاطف أو الشفقة.

كما أنهم عِرق يمتطي الحيوانات دائمًا، ولا يمشون أبدًا إلا للتحرك حول مخيماتهم.

والحيوان الذي يمتطوه يُسمَّى الثوات، وهو وحش همجي ضخم يتناسب حجمه مع أحجام أسياده العمالقة. وللثوات ثمانية أرجل، وذيل عريض مسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد خلفه مباشرة عندما يجري. وفمه كبير، يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم. وحيوانات الثوات، مثلهم مثل أسيادهم، خالية تمامًا من الشعر؛ وبشرتهم داكنة اللون وملساء وشديدة اللمعان، باستثناء البطن بيضاء اللون؛ ويتدرج لون سيقانهم بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامهم. والأقدام نفسها مبطنة وشديدة الامتلاء وبلا أظافر.

تخضع جحافل الخُضر، مثلهم مثل الرجال الحُمر، لحُكم الجِد والجيداك؛ لكن تنظيمهم العسكري ليس بنفس تفاصيل كمال نظيره عند الرجال الحُمر.

تتمتع قوات الرجال الحُمر العسكرية بتنظيم عالٍ، ويتمثل ذراعها الرئيس في القوات البحرية التي تضم قوة جوية هائلة من السفن الحَربية الفضائية مختلفة الأنواع، فضلاً عن مجموعة متنوعة لا حصر لها من السفن والطائرات الصغيرة الفضائية، وصولاً إلى طائرات الاستطلاع ذات الراكب الواحد. ويلي ذلك من حيث الحجم والأهمية، فرع المشاة؛ بينما سلاح الفرسان، الذي يمتطي رجاله سلالة من حيوانات الثوات الصغيرة المماثلة لتلك التي يستخدمها عمالقة المريخ الخُضر، فيكمن عمله أساسًا في دوريات طرق المدن والمناطق الريفية التي تقع على حدود نُظُم الري.

أما الوحدة الأساسية الرئيسة، وإن لم تكن أصغر وحدات التنظيم العسكري، فهي الأوتان؛ وتضم مائة رجل، ويرأسها دوار[170] ومعه

عدد من البادوار[171] أي من رتبة الملازِم الأصغر منه. وهناك الأودوار[172] وتحت إمرته الأوماك، وهو سرية تضم عشرة آلاف رَجل؛ بينما أعلاه يوجد الجدوار[173] وهي الرتبة الأدنى مباشرة للجِد أو الملك.

ونجد بعض أقسام العلم والأدب والفن والعمارة في المريخ أكثر تطورًا من نظيرتها على كوكب الأرض، وهذه مسألة جديرة بالملاحظة إذا أخذنا في الحسبان تلك المعركة المستمرة من أجل البقاء، والتي تشكل أكثر سمات الحياة بروزًا على كوكب المريخ.

فالأمر لا يقتصر على شن معركة مستمرة ضد الطبيعة، التي تؤدي ببطءٍ إلى تقلص غلافهم الجوي الضئيل أصلاً، بل يواجهون دومًا -من المهد إلى اللحد- تلك الضرورة الصارمة للدفاع عن أنفسهم ضد الأمم العدوة من عِرقهم نفسه، علاوة على الجحافل الكبيرة من المحاربين الخُضر المتجولين القادمين من قاع البحر الميت؛ بينما يوجد داخل أسوار مدنهم عدد لا يُحصى من القتلة المحترفين، الذين ينظمون عملهم بشكل جيد إلى حد انتظامهم في روابط في بعض المناطق.

وعلى الرغم من جميع الحقائق المروعة التي عليهم مكافحتها، فإن المريخيين الحُمر شعب سعيد واجتماعي. لديهم مباريات، ورقصات، وأغان؛ وتتسم الحياة الاجتماعية للعاصمة الكبرى في برسوم بالمرح والروعة، مثلها مثل أي حياة في العواصم الغنية على كوكب الأرض.

وهم شعب شجاع ونبيل وسخي، ويدل على ذلك عدم رغبة جون كارتر أو أوليسيس باكستون في العودة إلى كوكب الأرض.

نعود الآن إلى الحكاية التي وصلتني من باكستون من مسافة 43 مليون ميل عبر الفضاء.

* * *

---

(170) دوار: رتبة مريخية تعادل رتبة كابتن (نقيب - http://barsoom.wikia.com/wiki/Dwar - (المترجمة.

(171) بادوار: رتبة مريخية تُعادل رتبة مُلازم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Padwar - المترجمة.

(172) أودوار: قائد أو جنرال-

http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=odwar - المترجمة.

(173) جدوار: أعلى رتبة عسكرية في برسوم، ولا يخضع حاملها إلا إلى جِد أو جيداك. وتعادل هذه الرتبة القائد الأعلى لجميع القوات البرية والبحرية - https://barsoom.fandom.com/wiki/Martian_Military - المترجمة.

الفصل (1)

سانوما تورا

هذه هي قصة هادرون الهاستوري، المقاتل المريخي، كما رواها بنفسه لأوليسيس باكستون:

أنا تان هادرون من هاستور، ووالدي هو هاد أورتور، أودوار الأوماك الأول في قوات هاستور، وقائد أكبر سفينة فضائية حربية شاركت بها هاستور في قوات هيليوم البحرية. تستوعب سفينته العشرة آلاف رجل الذين يضمهم الأوماك الأول، إلى جانب خمسمائة سفينة قتالية أصغر، وجميع معدات الحرب. ووالدتي هي أميرة جاثول[174] نحن أسرة ليست غنية إلا بشرفها، ونُقدر قيمته أعلى من جميع الممتلكات العادية. وقد اخترت مهنة والدي وليس أي مهنة أخرى أكثر ربحًا. وتعزيزًا لطموحي، أتيت إلى عاصمة إمبراطورية هيليوم والتحقت بالخدمة في قوات تاردوس مورس، جيداك هيليوم، كي أكون أكثر قُربًا من جون كارتر، أمير الحرب في المريخ.

كانت حياتي في هيليوم وحياتي المهنية في الجيش تماثل حياة المئات من الشباب الآخرين. مرت أيام تدريبي دون إنجاز ملحوظ، دون أن أتقدم أو أتخلف عن زملائي. وقد حصلت، في الوقت المناسب، على رتبة بادوار في الأوماك[175] الحادي والتسعين، بعد تعييني في الأوتان الخامس من الدار[176] الحادي عشر.

ونظرًا لأنني من نسل نبيل لوالدي وأرث الدم الملكي من والدتي، كانت قصور مدينتي هيليوم التوأم مفتوحة أمامي دائمًا، واستمتعت كثيرًا بحياة المرح في العاصمة. وهكذا قابلت سانوما تورا، ابنة تور هاتان، أودوار الأوماك الحادي والتسعين.

ينتمي تور هاتان إلى طبقة نبلاء أدنى مرتبة، لكنه هائل الثراء من نهب المدن العديدة والاستثمار في الأراضي الزراعية والمناجم. ونظرًا لأن نفوذ الأغنياء هنا، في

---

(174) جاثول: من أقدم مدن المريخ وتضم مريخيين حُمرًا، ولا تتبع أي مملكة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Gathol - المترجمة.

(175) أوماك: سرية في الجيش تضم عشرة آلاف جندي (10 وحدات دار)، ويقودها أودوار - https://barsoom.fandom.com/wiki/Martian_Military - المترجمة.

(176) دار: وحدة عسكرية تضم 10 أوتان، بما يصل مجموع أفراد الدار إلى 1000 جندي - https://barsoom.fandom.com/wiki/Martian_Military - المترجمة.

عاصمة هيليوم، أكبر من نظيره في هاستور، فقد أصبح تور هاتان رجلاً قويًّا يصل نفوذه حتى إلى عرش الجيداك.

لن أنسى ما حييت تلك المناسبة، عندما وقعت عيناي للمرة الأولى على سانوما تورا. كانت وليمة كبيرة في القصر الرخامي لأمير الحرب، حيث تجمعت تحت سقف واحد أجمل نساء برسوم. وعلى الرغم من روعة وتألق جمال ديجاه ثوريس[177] وتارا[178] الهيليومية وثوفيا[179] البتارثية، فقد اقتنص جمال سانوما تورا الخلاب الانتباه. لا أقول إن جمالها يزيد على رقة وسحر ملكات برسوم، لأنني أعرف أن عشقي لسانوما تورا قد يؤثر بسهولة على تقديري؛ لكن جمالها الرائع لفت انتباه الآخرين، لأنه من نوع يختلف عن جمال ديجاه ثوريس بمثل ما يختلف جمال المناظر الطبيعية القطبية الطاهر عن جمال المناطق المدارية، وبمثل ما يختلف جمال قصر أبيض في ضوء القمر عن جمال حديقته في منتصف النهار.

عندما قُدمت إليها، بناء على طلبي، نظرت بداية إلى الشارة فوق درعي وأدركت أنني مجرد بادوار، تعطفت عليَّ بكلمة لطيفة، ثم حولت انتباهها ثانية إلى الدوار الذي كانت تتحدث معه.

يجب أن أعترف أنني ارتبكت، وأن وقاحة تعاملها معي هي ما أكد عزمي على الفوز بها؛ فدائمًا ما كان الهدف الأصعب في التحقق هو ما يبدو لي الأكثر رغبة.

وهكذا وقعت في حب سانوما تورا، ابنه قائد الأوماك الذي التحقت به.

وجدت صعوبة لفترة طويلة في تعزيز طلبي ولو بدرجة طفيفة؛ وفي واقع الأمر لم أقابل حتى سانوما تورا لعدة أشهر بعد لقائنا الأول، إذ كان من المستحيل أن أحصل على دعوة منها لزيارة منزلها بعد أن وجدتني فقيرًا، فضلاً عن رتبتي العسكرية المنخفضة، كما لم يصدف لفترة طويلة أن أقابلها في أي مكان آخر. ولكن، كلما زادت صعوبة الوصول إليها، زاد حبي لها، إلى حد أنني كرست كل لحظة في وقتي -لا أتولى خلالها أداء مهامي العسكرية- في وضع خطط جديدة ومغامِرة لامتلاكها. تملكني حتى جنون التفكير في اختطافها، وأعتقد أنني كنت لأمضي في نهاية المطاف في هذا الطريق إن لم أجد وسيلة أخرى لرؤيتها؛ لكن ما حدث في ذلك الوقت أن أحد الضباط الزملاء في سريتي رقم 91

(177) ديجاه ثوريس: أميرة مملكة هيليوم، وهي زوجة جون كارتر (القادم من كوكب الأرض - (http://barsoom.wikia.com/wiki/Dejah_Thoris - المترجمة.

(178) تارا: هي ابنة جون كارتر وديجاه ثوريس، والأخت الصغرى لكارثوريس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Tara - المترجمة.

(179) ثوفيا: الأميرة ثوفيا ابنة ثوفان ديهن، جيداك مملكة بتارث. وقد تزوجت من كارثوريس، ابن جون كارتر وديجاه ثوريس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Thuvia - المترجمة.

-وهو دوار الأوتان الذي التحقت به- أخذته الشفقة عليَّ، وتمكن من أن يحصل لي على دعوة إلى وليمة في قصر تور هاتان.

لم يكن مضيفي، وهو أيضًا قائدي في وحدتي العسكرية، يعرفني قبل هذا المساء؛ وفُوجئت بمودته ودفء تحيته.

قال: «يجب أن نراك كثيراً هنا، هادرون الهاستوري. لقد كنت أراقبك، وأتنبأ لك بمستقبل واعد في قوات الجيداك العسكرية».

عرفت أنه كان يكذب عندما قال إنه يراقبني؛ ذلك أن تور هاتان معروف بتراخيه في أداء واجباته كضابط في القيادة، التي كان يؤديها أكبر تيدوار[180] في الأوماك. وعلى الرغم من عدم استطاعتي أن أفهم سبب اهتمامه المفاجئ بي، فقد أسعدني للغاية لأنني ربما أتمكن من خلاله أن أخطو تجاه محاولتي نيل قلب ويد سانوما تورا.

حتى سانوما تورا نفسها كانت أكثر ودًّا بقليل عن تصرفها معي في أول لقاء لنا، رغم أنها أولت اهتمامًا أكبر تجاه سيل فاجيس.

وفي الحقيقة، إذا كان في هيليوم الآن أي رجل أكرهه أكثر من أي شخص آخر، فهو سيل فاجيس؛ إنه متكبر صغير يحمل رتبة تيدوار، مع أنني على يقين أنه لا يقود أي قوات، لكنه مجرد ضمن فريق تور هاتان، وأساسًا، حسبما افترض، بسبب ثروة والده الهائلة.

علينا أن نتحمل مثل هذه المخلوقات في أوقات السلم، أما عند اندلاع الحرب يتولى أمير الحرب العظيم زمام القيادة، وعندئذ يحتل المقاتلون مكانة عليا، ولا يُوضع الأغنياء في الحسبان.

على أي حال، أفسد سيل فاجيس هذا المساء بالنسبة لي، كما سوف يفسد العديد من الأمسيات الأخرى في المستقبل. ومع ذلك غادرت قصر تور هاتان تلك الليلة وبداخلي شعور يقترب من الغبطة؛ إذ حصلت على موافقة سانوما تورا بأن أزورها ثانية في بيت والدها عندما تسمح واجباتي أن أتقدم لها باحترامي.

عُدت إلى مسكني بصحبة صديقي، الدوار، الذي ضحك عند تعليقي على دفء استقبال تور هاتان لي.

---

(180) تيدوار: رتبة عسكرية أعلى من دوار؛ وهي تعادل رتبة رائد أو كابتن بحري على كوكب الأرض. ويتولى التيدوار قيادة دار (وهي الوحدة التي تضم 10 آلاف مقاتل)، أو سفينة فضائية حربية بمرفقاتها – https://barsoom.fandom.com/wiki/Martian_Military - المترجمة.

سألته: « لماذا تجد الأمر مدعاة للتسلية؟».

أجاب: «تعرف أن تور هاتان شديد الثراء والقوة، ومع ذلك يندر – كما تلاحظ - أن يتلقى دعوة إلى مكان من الأربعة أماكن في هيليوم التي يتوق أي رجل طموح إلى أن يُشاهد فيها».

سألته: «تعني قصور كل من أمير الحرب، والجيداك، والجِد، وكارثوريس؟».

أجاب: «بالطبع. وهل يوجد في هيليوم أي أربعة أماكن أخرى ذات أهمية؟»، ثم واصل حديثه قائلاً: «من المفترض أن تور هاتان ينتمي إلى طبقة نبلاء أدنى مرتبة، لكن التساؤل المُثار في ذهني يتعلق بما إذا كانت هناك قطره دم نبيلة واحدة تجري في عروقه. وتكمن إحدى الحقائق التي يستند إليها حدسي في تبجيله المتذلل والمتملق لأي شيء يتعلق بالملوك - فهو قد يمنح روحه الحمقاء نظير أن يعتبره أحد هؤلاء الأربعة شخصًا حميمًا».

سألته: «وما علاقة ذلك بي؟».

فأجاب: «له علاقة كبيرة، ولهذا أنت دُعيت إلى قصره الليلة».

قلت: «أنا لا أفهم».

أوضح قائلاً: «كنت أتحدث بالمصادفة مع تور هاتان في صباح اليوم الذي تلقيت أنت فيه دعوتك، وقد أشرت إليك أثناء حديثي معه. لم

يكن قد سمع عنك من قبل. لم يثر وضعك كبادوار في الأوتار الخامس اهتمامه قيد أنمله، لكني عندما أخبرته أن والدتك كانت أميرة جاثول، أنصت باهتمام، وعندما علم أنك تُستقبَل كصديق على قدم المساواة في تلك القصور الأربعة في هيليوم، زاد تحمسه لك»؛ ثم اختتم حديثه ضاحكًا: «هل فهمت الآن؟».

أجبت: «تمامًا، وشكرًا لك. كل ما أردته هو الفرصة، ولأني كنت على استعداد لتحقيقها ولو بارتكاب جريمة إن لزم الأمر، فلا يمكنني الاعتراض على أي وسيلة أنت استخدمتها لتمنحني هذه الفرصة، مهما كانت غير محببة إلى نفسي».

ترددت لعدة أشهر على قصر تور هاتان. ولأني كنت محادثًا جيدًا وعلى دراية بالرقصات الفخمة في برسوم وألعابها المرحة، لم أكن بأي حال زائرًا غير مرغوب فيه. كما أنني كثيراً ما كنت أصطحب سانوما تورا إلى أحد تلك القصور الأربعة الكبيرة في

هيليوم، حيث كنت دائمًا موضع ترحيب بسبب علاقة الدم القائمة بين والدتي وجاهان الجاثولي، الذي تزوج تارا الهيليومية.

شعرت بطبيعة الحال أنني أتقدم جيدًا نحو مسعاي، لكن التقدم المُحْرَز لم يكن سريعًا بما يكفي لمواكبة سرعة رغبات شغفي. لم أعرف الحب من قبل، وأحسست أنني سأموت إن لم أفز قريبًا بسانوما تورا. ولذلك، قمت في إحدى الليالي بزيارة قصر والدها وأنا عاقد العزم على وضع قلبي وسيفي عند قدميها قبل أن أغادر. وعلى الرغم من أن التعقيدات الطبيعية للمُحب أقنعتني بأنني شخص لا يليق بها، وأن رفضها لي له ما يبرره كلية، فقد كنت عازمًا على إعلان موقفي صراحة كمتقدِم لخطبتها؛ وهو ما سيمنحني، قبل أي شيء، حرية أكبر حتى وإن لم أكن الخاطب المفُضَل.

كانت واحدة من تلك الليالي الجميلة التي تتحول خلالها برسوم القديمة إلى عالم سحري. يتسابق القمران ثوريا[181] وكلوروس[182] عبر السماء ويلقيان ضوءهما اللطيف على حديقة تور هاتان، مُضفيًا لونًا أرجوانيًّا على المرج القرمزي النابض بالحياة، ودرجات لونية غريبة على أزهار أشجار البيماليا[183] والسورابوس[184] الرائعة؛ بينما يُطلق الممشى المتعرج، المرصوف بالجواهر والأحجار الثمينة، آلاف الأشعة اللامعة المكسوة بألوان متغيرة، ترقص تحت أقدام التماثيل الرخامية التي تضيف لمحة فنية ساحرة على المشهد بأكمله.

في إحدى القاعات الفسيحة التي تطل على حديقة القصر، جلس شاب وفتاة على مقعد ضخم من خشب السورابوس الغني؛ مقعد قد يماثل تلك المقاعد التي تُزين قاعات الجيداك العظيم نفسه، مقعد يتسم بثراء تصميم تلافيفه الأنيقة، وكمال النحت الذي صنعه حرفي ماهر.

تظهر على العتاد الجلدي الذي يرتديه الشاب شارة رتبته العسكرية: بادوار في الأوماك الحادي والتسعين. كنت أنا هذا الشاب، هادرون الهاستوري، ومعي سانوما تورا، ابنة تور هاتان. لقد أتيت مملوءًا بتصميم وجرأة لعرض قضيتي والدفاع عنها، لكنني أدركت فجأة عدم جدارتي. ماذا أملك لأقدمه إلى هذه الابنة الجميلة لتور هاتان الغني؟

---

(181) ثوريا: القمر الأقرب للمريخ من قمرين يدوران حوله؛ ومعروف في كوكب الأرض باسم فوبوس – http://barsoom.wikia.com/wiki/Thuriaالمترجمة.

(182) كلوروس: أحد أبعد قمري المريخ عن الكوكب الأم، ومعروف لدى سكان كوكب الأرض باسم القمر ديموس - http://barsoom.wikia.com/wiki/Clurosالمترجمة.

(183) شجرة بيماليا: شجرة مزهرة كبيرة في حدائق المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Pimalia المترجمة.

(184) سورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بثماره النضرة المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapusالمترجمة.

لست سوى بادوار، كما أنني فقير. صحيح أن دماء جاثول الملكية تجري في عروقي، وأعرف أن لهذا وزنه مع تور هاتان، لكنني لست من المتفاخرين، ولا أستطيع تذكير سانوما تورا بالمزايا التي يحققها ذلك، حتى مع معرفتي أن تأثير مثل هذا القول سيكون إيجابيًّا عليها. لا أملك إذَنْ ما أقدمه سوى حبي الكبير؛ وربما هو أعظم هدية يمكن أن يقدمها رجل أو امرأة إلى الآخر، وتصورت مؤخرًا أن سانوما تورا قد تبادلني الحب. لقد أرسلت لي في عدة مناسبات، وعلى الرغم من أنها كانت تقترح في كل مرة أن نذهب إلى قصر تارا الهليومية، فقد كان يحدوني الأمل ألا يكون هذا هو السبب الوحيد لرغبتها في صحبتي.

«أنت ممل الليلة، هادرون الهاستوري»، قالت بعد صمت طويل، كنت أسعى خلاله إلى صياغة عرضي بعبارات أنيقة تبعث على الإقناع.

أجبت: «ربما؛ ذلك أنني أحاول إيجاد الكلمات المناسبة لتغليف ما يثير اهتمامي أكثر من أي شيء».

«وما هو؟»، سألت برقة، وإن لم تُظهِر اهتمامًا كبيراً.

اندفعت قائلاً بارتباك: «أنا أحبكِ، سانوما تورا».

ضحكت، ضحكة تماثل رنين الفضة على الكريستال - ضحكة جميلة، لكنها باردة. وقالت: «كان ذلك واضحًا منذ فترة طويلة، ولكن لماذا تتحدث عن ذلك؟».

سألتها: «ولم لا؟».

أجابت ببرود: «لأني لست لك، هادرون الهاستوري، حتى لو بادلتك الحب».

سألتها: «إذَنْ لا يمكنك أن تبادليني حبي، سانوما تورا؟».

فأجابت: «أنا لم أقل ذلك».

«يمكنكِ أن تحبيني؟».

قالت: «يمكنني أن أحبك إذا سمحت لنفسي أن تضعف، ولكن ما هو الحب؟».

قلت لها: «الحب هو كل شيء».

ضحكت سانوما تورا، وقالت بغطرسة: «إذا كنت تعتقد أنني قد أربط نفسي مدى الحياة بمجرد بادوار حتى لو كنت أحبه، فأنت مخطئ. أنا ابنة تور هاتان، الذي لا تقل

ثروته وسلطته إلا قليلاً عن ثروة ونفوذ العائلات الملكية في هيليوم. لقد تقدم لي خاطبون يمتلكون ثروات هائلة، وبمقدورهم أن يشتروك أكثر من ألف مرة. وخلال هذا العام كان مبعوث الجيداك تول أكستار، من جاهار، ينتظر والدي. وعندما شاهدني قال إنه سيعود. وأنت، لمجرد الحب، تطلب من الفتاة التي قد تصبح في يوم ما جيدارة جاهار أن تكون زوجة بادوار فقير».

نهضت قائلاً: «ربما تكونين على حق. أنت جميلة جدًّا إلى حد يبدو معه من غير الممكن أن تكوني على خطأ. بيد أنني، ومن أعَماق قلبي، لا يسعني إلا أن أشعر بأن السعادة هي أعظم كنز يمكن لأحد أن يمتلكه، وبأن الحب هو أعظم قوة. ومن دونهما، سانوما تورا، تصبح حتى الجيدارة فقيرة».

قالت: «سوف أقتنص فرصتي».

أخشى أنني قلت بطريقة حادة نوعًا ما: «آمل ألا يكون جيداك جاهار كتلة من الشحوم كمبعوثه».

قالت سانوما تورا: «قد يكون قدرًا متحركًا من الشحوم، ما يهمني أنه سيجعلني جيدارة».

سألتها: «ليس لديَّ أي أمل إذَنْ؟».

أجابت: «ليس لديك أمل، ما دام ما تعرضه قليلاً جدًّا يا بادوار».

وعندئذ أعلن عبد عن وصول سيل فاجيس، فغادرت. لم يسبق لي أن اختبرت هذا الشعور العميق بالكآبة التي اجتاحتني وأنا أشق طريقي التعيس عائدًا إلى مسكني. وعلى الرغم من أن الأمل بدا مستحيلاً، فلم أتخلَّ عن تصميمي على الفوز بها. إذا كانت الثروة والسلطة هي ثمن الفوز بها، ربما يمكنني تحقيقهما. على أن كيفية تحقيقهما لم تكن واضحة تمامًا؛ لكني شاب، وكل شيء ممكن بالنسبة إلى الشباب.

ألقيت نفسي فوق حرير وفراء النوم لبعض الوقت وبقيت مستيقظًا، وفجأة اقتحم ضابط من الحرس مسكني.

وصاح: «هادرون! هل أنت هنا؟».

أجبت: «نعم».

قال بصوت عال: «حمدًا لرماد أجدادي! خشيت ألا أجدك».

سألته: «لماذا لا تجدني؟ ما كل هذا؟».

صاح: «تور هاتان، حقيبة الكنز القديم السمينة، لقد جُن».

«هاتان جُن؟ ماذا تعني؟ وما علاقتي بذلك؟».

«إنه يُقسم أنك اختطفت ابنته».

نهضت في لحظة واقفًا على قدميَّ صائحًا: «اختطفت سانوما تورا! هل حدث لها شيء؟ أخبرني، بسرعة».

قال: «نعم، حسنًا، لقد اختفت، والموضوع يحيط به غموض شديد».

لم أنتظر لسماع المزيد. ارتديت عتادي على عجالة، وقمت بضبطه وأنا أركض إلى أعلى المدرج الحلزوني في اتجاه الحظائر على سطح الثكنات. ليس لديَّ سلطة أو تصريح لإخراج طائرة، ولكن ما أهمية ذلك إذا كانت سانوما تورا في خطر؟

حاول حراس حظيرة احتجازي واستجوابي. لا أذكر ماذا قلت لهم؛ أعرف أنني كذبت بالتأكيد، لأنهم سمحوا لي باستخدام طائرة سريعة

لفرد واحد، وبعد لحظة كنت أسرع خلال الليل نحو قصر تور هاتان.

يبعد القصر عن الثكنات بمسافة تزيد قليلاً على 2 هاد[185] ، ووصلت إليه في لحظات. وعندما هبطت في الحديقة، التي وجدتها مضاءة ببراعة، رأيت عددًا من الأشخاص المحتشدين، من بينهم تور هاتان وسيل فاجيس.

وما إن قفزت من سطح الطائرة، حتى توجه نحوي تور هاتان غاضبًا، وصاح: «ماذا لديك لتقوله؟ أين ابنتي؟».

أجبت: «هذا ما جئت أسأل عنه، تور هاتان».

صاح: «أنت المسؤول، أنت اختطفتها. لقد أخبرتْ سيل فاجيس أنك طلبت يدها الليلة، وأنها رفضتك».

(185) الهاد: هو الميل في برسوم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Linear_Measurement - المترجمة.

قلت: «طلبت يدها فعلاً، ورفضتني. هذا الجزء صحيح. ولكن، إذا كانت مخطوفة، فباسم جدك الأول لا تضع الوقت في محاولة ربطي بهذه المؤامرة الشيطانية. لا علاقة لي بالأمر. كيف حدث ذلك؟ ومن كان معها؟».

أجاب تور هاتان: «سيل فاجيس كان معها. كانا يسيران في الحديقة».

وجهت سؤالي إلى سيل فاجيس: «رأيتها تُختَطَف، وأنت هنا معافىً وعلى قيد الحياة؟».

بدأ سيل فاجيس يقول بتأتأة: «كانوا كثيرين، وتغلبوا عليَّ».

«هل رأيتهم؟»، سألته.

«نعم».

سألته: «وهل كنت أنا من بينهم؟».

«كان الظلام حالكًا. لم أتمكن من التعرف على أي منهم، وربما كانوا متنكرين».

سألته: «هل تغلبوا عليك؟».

قال: «نعم».

قلت صائحًا: «أنت تكذب! لو وضعوا أيديهم عليك لكانوا قتلوك. لكنك هربت واختبأت، ولم ترفع سلاحًا أبدًا للدفاع عن الفتاة».

صرخ سيل فاجيس: «هذا كذب. لقد قاتلتهم، إلا أنهم تغلبوا عليَّ».

استدرت نحو تور هاتان وقلت له: «إننا نضيع الوقت. هل يوجد أي شخص يمكن أن يعطينا فكرة عن هوية هؤلاء الرجال، والاتجاه الذي اتخذوه؟ وكيف ومن أين جاءوا؟ وكيف وإلى أين غادروا؟».

قال سيل فاجيس: «إنه يحاول إبعادك عن المسار، تور هاتان. من يمكن أن يفعلها سوى خاطب مستاء؟ ماذا تقول إذا أخبرتك أن معدن الرجال الذين سرقوا سانوما تورا هو معدن محاربي هاستور؟».

أجبت: «أقول إنك كاذب. فإذا كان الظلام قد حال دون تعرفك على الوجوه، كيف يمكنك تحديد الشارات على عتادهم؟».

وفي هذه اللحظة انضم إلينا ضابط آخر من الأوماك الحادي والتسعين. قال: «لقد وجدنا شخصًا ربما يُلقي بعض الضوء على هذا الموضوع، إذا ظل حيًّا لفترة تكفي لأن يتحدث».

كان الرجال يبحثون في أراضي تور هاتان، وفي ذلك الجزء من المدينة المجاور لقصره. واقترب الآن عدة رجال يحملون رجلًا، ووضعوه على العشب أمام أقدامنا. كان جسده المكسور والمشوه عاريًا تمامًا، وهو يرقد لاهثًا بضعف في مشهد يُرثى له.

عاد عبد، كان مُرسلًا إلى القصر، ومعه عقاقير مُنشِطة. وعند إجبار الرجل على وضع بعضها بين شفتيه، انتعش قليلًا.

وسأله تور هاتور: «مَن أنت؟».

أجاب الرجل بضعف: «أنا محارب من حرس المدينة».

اقترب ضابط متهللًا من تور هاتان، وقال: «عثر رجالي الآن على ست جثث أخرى بالقرب من الموقع الذي اكتشفنا فيه هذا الرجل. جميعهم عرايا ومصابون بكسور وتشوهات مماثلة».

قال تور هاتان: «ربما لا يزال علينا أن نصل إلى أساس هذا الموضوع»، ثم تحول ثانية نحو الشيء المسكين المكسور المُلقى فوق المرج القرمزي، وأمره أن يواصل روايته.

«كنا في دورية ليلية في المدينة عندما شاهدنا طائرة تحلق دون أضواء. اقتربنا منها، ووجهنا الكشافات نحوها، وتمكنت من اقتناص لمحة قصيرة واحدة. لم تكن تحمل أي ألوان أو شارة تدل على هويتها، ويختلف تصميمها عن تصميم أي سفينة فضائية أخرى شاهدتها من قبل. فهي تحتوي على مقصورة طويلة مغلقة ومنخفضة، ويوجد على جانبيها مدفعان غريبان. هذا كل ما أتاح لي الوقت ملاحظته، إلا أنني رأيت رجلًا يتولى توجيه أحد المدفعين نحونا. وعلى الفور، أصدر البادوار قائد

سفينتنا أوامره بإطلاق النار على هذه الطائرة الغريبة، وفي الوقت نفسه قدم له التحية. وفي تلك اللحظة ذابت سفينتنا في الهواء؛ حتى عتادي سقط مني. أتذكر السقوط، هذا كل شيء»، وبهذه الكلمات لهث الرجل مرة واحدة ثم مات.

استدعى تور هاتان الناس حوله، وقال: «من المؤكد أن شخصًا ما كان بالقرب من القصر أو الحديقة ورأى شيئًا من هذا. وأوامري هي أن أي شخص، مهما كان، لديه أي قدر من المعرفة عن هذه المسألة، أن يتكلم».

تقدم عبد، ومع اقترابه نظر إليه تور هاتان بغطرسة متعجرفة.

سأله الأودوار: «حسنًا، ماذا لديك؟ تكلم!».

أجاب العبد وهو يلقي نظرة سريعة نحو سيل فاجيس: «لم أكن لأتحدث تور هاتان، لكنك أصدرت أوامرك، لأنني عندما أقول ما رأيت سأتكبد عداوة نبيل قوي».

قلت بسرعة: «وإذا قلت الحقيقة يا رجل، ستكون فزت بصداقة بادوار سيفه ليس وضيعًا، بل سيحميك حتى من نبيل قوي» - وكنت أنظر أيضًا ناحية سيل فاجيس؛ لأني تصورت أن ما سيقوله العبد قد لا يُسعد الغندور المتأنق الذي يتنكر تحت لقب محارب.

قال تور هاتور آمرًا بصبر نافد: «تكلم! دون أن تكذب».

أجاب الرجل: «أنا أخدم في قصرك بكل إخلاص منذ أربعة عشر عامًا، تور هاتان. وطوال وجودي هنا منذ أن أحضروني إلى هيليوم كأسير حرب بعد سقوط ونهب كوبول[186] ، حيث كنت الحارس الشخصي لجد كوبول، لم يكن لديك أي سبب للتشكك في مصداقيتي. سانوما تورا تثق بي، ولوَ كان معي سيف الليلة لكانت لا تزال معنا».

صاح تور هاتان: «هيا! هيا! قل ما لديك مباشرة. ماذا رأيت؟».

أسرع سيل فاجيس قائلاً: «الزميل لم يشهد أي شيء، لماذا نضيع وقتنا معه؟ إنه يسعى فحسب إلى المجد من خلال قصة موجزة شائنة».

قلت صائحًا: «دعوه يتكلم».

تحدث العبد موضحًا: «ما إن صعدت السلم الحلزوني الأول إلى المستوى الثاني من القصر، في طريقي إلى مكان نوم تور هاتان لترتيب الحرير والفراء لنومه ليلاً كما هي عادتي، حتى توقفت للحظة ونظرت إلى الحديقة، حيث رأيت سانوما تورا وسيل فاجيس يسيران تحت ضوء القمر. وإدراكًا مني بأنني لا ينبغي أن أراقبهما، كنت على وشك مواصلة طريقي لأداء واجباتي عندما رأيت طائرة تهبط بصمت في الليل في اتجاه الحديقة. لم يصدر عن محركاتها أي صوت، ولم يظهر منها أي ضوء. بدت سفينة شبحية ذات تصميم غريب، حتى أنها كانت لتلفت انتباهي إن لم يكن هناك أي سبب آخر، بينما كانت هناك أسباب أخرى. لا تتحرك السفن غير المضيئة خلال الليل لأي أغراض جيدة، ولذا توقفت لمشاهدتها».

---

(186) كوبول: مدينة تقع في نصف الكرة الجنوبي من المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Kobol - المترجمة.

«هبطت بصمت وسرعة خلف سانوما تورا وسيل فاجيس، اللذين لم يعرفا بوجودها إلى أن جذبت انتباههم قعقعة طفيفة من تجهيزات أحد المحاربين العديدين الذين انطلقوا من مقصورتها المنخفضة بعد أن هبطت. وعندئذ استدار سيل فاجيس، وتسمر في مكانه. قفز المحاربون الغرباء نحوه، فولى هاربًا ليختفي بين شجيرات الحديقة».

صاح سيل فاجيس: «هذا كذب».

قلت بلهجة آمرة: «صمتًا، أيها الجبان!».

قال تور هاتان: «واصل كلامك يا عبد!».

«لم تعرف سانوما تورا بوجود محاربين غرباء إلى أمسكها أحدهم بخشونة من الخلف. حدث كل شيء بسرعة، حتى أنني بالكاد ما كان لديَّ الوقت لإدراك غرض الزيارة المشؤومة قبل أن يضعوا أيديهم عليها. وبمجرد أن استوعبت أن سيدتي هي هدف هذا الهجوم الليلي، هرعت مسرعًا أسفل السلم الحلزوني، إلا أنهم سحبوها إلى متن الطائرة قبل أن أصل إلى الحديقة. ولو كان معي سيف حينذاك، لكنت لقيت حتفي على الأقل في خدمة سانوما تورا؛ فقد وصلت إلى السفينة الغامضة عندما كان آخر محاربيها يصعد على متنها. وقد تمكنت من الإمساك به من عتاده وحاولت سحبه على الأرض، وصرخت في الوقت نفسه بصوت عالٍ للفت انتباه حرس القصر، لكن أحد المحاربين من زملائه على سطح السفينة وجه ضربةً شرسة نحو رأسي بسيفه الطويل. أصابني نصل سيفه وكانت ضربة كافية لصعقي للحظة، إلى حد تخفيف قبضتي على المحارب الغريب، ووقعت على المرج. وعندما استعدت الوعي، كانت السفينة قد ذهبت، وكان حرس القصر يتدفقون متأخرين من غرفهم. لقد تحدثت وتكلمت بصدق».

توجهت نظرة تور هاتان الباردة نحو عينَي سيل فاجيس المنخفضة، وسأله: «ماذا تقول عن هذا الكلام؟».

هتف سيل فاجيس: «هذا الزميل يعمل لدى هادرون الهاستوري. وما قاله ليس سوى كذب. أنا هاجمتهم عندما أتوا، لكن عددهم كان كبيراً وتغلبوا عليَّ. وهذا الزميل لم يكن موجودًا».

قلت للعبد: «دعني أرى رأسك»، وعندما اقترب وركع أمامي رأيت علامة حمراء كبيرة على طول أحد جانبي رأسه فوق الأذن، تماثل تمامًا أثر الضربة التي يحدثها الجانب المسطح من سيف طويل. «هنا»، قلت لهاتان تور وأنا أشير إلى أثر الضربة الكبيرة، «إثبات ولاء العبد وشجاعته. دعونا نفحص الجروح التي أُصيب بها نبيل هيليوم،

الذين قال في شهادته إنه اشتبك بمفرده في قتال ضد عدد كبير من الأعداء. ففي مثل هذا الاشتباك، لا بد وأنه أُصيب بخدش على الأقل».

قال دوار حرس القصر، بسخرية مغلفة: «إلا لو كان مبارزاً رائعًا مثل جون كارتر العظيم نفسه».

صاح سيل فاجيس: «هذه مؤامرة. هل تثق في كلمة عبد، يا تور هاتان، ضد كلمة نبيل من هيليوم؟».

أجاب الأدوار: «أنا أستند إلى شهادة عينيَّ وحواسي»، ثم أدار ظهره إلى سيل فاجيس ليوجه كلامه إلى العبد مرة أخرى. وسأله: «هل تعرفت على أي من الرجال الذين اختطفوا سانوما تورا، أو لاحظت عتادهم أو معادنهم؟».

«لم أتمكن من رؤية وجه أي منهم بشكل جيد، لكني رأيت عتاد ومعادن المحارب الذي حاولت جره من الطائرة».

سأل تور هاتان: «هل كانت معادن هاستور؟».

أجاب العبد بشكل قاطع: «باسم سلفي الأولى، لم تكن. كما لم تكن من معادن أي مدينة أخرى في إمبراطورية هيليوم. التصميم والشارات ليست معروفة بالنسبة لي، على أنها تتسم بألفة معينة تثير حيرتي. أشعر أنني رأيتهم من قبل، لكني لا أتذكر متى وأين. عندما كنت في خدمة جِد مدينتي، حاربت غزاة من أراضٍ كثيرة، وربما رأيت معادن مماثلة منذ سنوات عديدةَ خلال تلك المعارك».

توجهت بسؤال إلى تور هاتان: «هل ترضيك شهادته، تور هاتان، كي تعتبر أن تشهير سيل فاجيس ضدي كان بلا أساس؟».

أجاب الأودوار: «نعم، هادرون الهاستوري».

فقلت «عندئذٍ، وبعد إذنك، سوف أرحل».

سألني: «إلى أين؟».

أجبته: «للبحث عن سانوما تورا».

فقال: «وإذا وجدتها وأعدتها لي سالمة، ستكون لك».

لم أُعرب عن امتناني لعرضه السخي إلا بالانحناء؛ إذ كان في ذهني أن سانوما تورا قد يكون لديها ما تقوله في هذا الشأن؛ وحتى بعض النظر عن ذلك، لم أتمنَّ زواجًا يتحقق بهذه الطريقة.

قفزت إلى سطح السفينة التي جلبتني، ثم ارتفعت خلال الليل مسرعًا في اتجاه القصر الرخامي لأمير الحرب في برسوم؛ فحتى مع تأخُّر الوقت ليلاً، كنت مصممًا على رؤيته دون ضياع أي لحظة دون جدوى.

الفصل (2)

سقوط الطائرة

اقتربت من قصر أمير الحرب، ورأيت مظاهر نشاط غير عادي في مثل هذه الساعة من الليل. طائرات تصل وأخرى ترحل؛ وعندما استقرت طائرتي فوق ذلك الجزء من السطح المخصص للسفن الحربية، رأيت طائرات عدد من كبار ضباط أركان الحرب.

ونظرًا لزياراتي المتكررة إلى القصر، وكوني معروفًا لدى جميع ضباط حرس أمير الحرب الشخصيين، لم أجد صعوبة في دخول القصر، وأنا الآن أجلس منتظرًا في القاعة، وأمامي مباشرة المقصورة الصغيرة التي اعتاد أمير الحرب أن يُجري فيها مقابلات قصيرة خاصة. أعلن عبد عن وجودي لسيده.

لا أعرف كم من الوقت انتظرت. ورغم أنها لم تكن فترة طويلة، فقد بدت دهرًا؛ لأن الفكرة التي كان تستحوذ على ذهني هي أن المرأة التي أحببتها ربما في خطر شديد. تملكني اقتناع، ربما مثير للسخرية وإن كان حقيقيًّا، أنني وحدي يمكنني إنقاذها، وأن كل لحظة تأخير تُقلص من فرص النجاح قبل فوات الأوان.

وأخيرًا دُعيت إلى الدخول. وعندما وقفت في حضرة أمير الحرب العظيم، وجدته مُحاطًا برجال من عِلية القوم في مجالس هيليوم.

دخل جون كارتر في الموضوع مباشرة: «أعتقد أن ما جاء بك هنا هذه الليلة، هادرون الهاستوري، يتعلق بمسألة اختطاف ابنه تور هاتان. هل لك أي معرفة أو أي نظرية قد تُلقي الضوء على هذا الموضوع؟».

أجبت: «كلا. لقد جئت فقط لأستأذنك في المغادرة على الفور، في محاولة لتتبع درب خاطفي سانوما تورا».

سألني: «أين تنوي البحث؟».

أجبت: «لا أعرف بعد، سيدي، لكنني سوف أجدها».

ابتسم قائلاً: «إن هذا التأكيد يشكل أساسًا على الأقل؛ ولمعرفتي دوافعه، فإني أمنحك الإذن الذي تريده. ففي حين يُمثل اختطاف ابنة هيليوم في حد ذاته خطرًا كافيًا لتبرير استخدام جميع الموارد للقبض على مختطفيها وإعادتها إلى بيتها، ينطوي هذا

الحدث أيضًا على عنصر قد يُنذر بخطر كبير على الإمبراطورية. وكما تعلم، دون شك، أن السفينة الغامضة التي اختطفتها كانت تحمل على متنها مدفعًا انطلقت منه قوة أدت إلى تفكيك كامل لجميع الأجزاء المعدنية لطائرة الدورية التي سعت إلى اعتراضها واستجوابها. ونتج عنها حتى تبدد الأسلحة والأجزاء المعدنية لعتاد أفراد الطاقم إلى لا شيء؛ وهو ما لُوحظ بسهولة عند فحص حطام طائرة الدورية وجثث طاقمها. كل شيء ينتمي إلى المملكة الحيوانية أو النباتية كان على متن الطائرة - الخشب، والجلود، واللحم - وجدناه متناثرًا على الأرض في موقع سقوطها، دون أن نعثر على أي أثر لبقايا مادة معدنية».

«أقول لك ذلك لأنه يطرح في ذهني فكرة محتملة عن الموقع العام لمدينة هؤلاء الأعداء الجدد لهيليوم. وأنا مقتنع أن هذه ليست سوى الضربة الأولى، لأن أي بحرية مسلحة بهذه المدافع يمكنها بسهولة أن تضع هيليوم تحت رحمتها، وقليلة هي في الواقع مدن برسوم خارج الإمبراطورية التي لن تغتنم فرصة امتلاك أي أداة قد تتيح لها سلب مدينتي هيليوم التوأم».

«منذ فترة ويساورنا قلق بالغ من تزايد عدد السفن أسطولنا البحري المفقودة. كانت تلك السفن، في جميع الحالات تقريبًا، تتولى رسم خريطة تيارات الهواء وتسجيل الضغط الجوي في أجزاء برسوم المختلفة البعيدة عن الإمبراطورية، واتضح مؤخرًا أن الغالبية العظمى من هذه السفن التي لم ترجع أبدًا كانت تلك التي أبحرت في الجزء الجنوبي من نصف الكرة الغربي، وهو جزء غير مضياف من كوكبنا، ولا نعرف عنه للأسف إلا القليل؛ نظرًا لأننا لم نُنَمِّ التجارة مع السكان غير الودودين الذين يعيشون في هذه المنطقة الشاسعة».

«هذا ليس سوى اقتراح، هادرون الهاستوري؛ مجرد قرائن شديدة الغموض، لكني أقدمها لك لقيمتها. وسوف نرسل ما بين الآن وحتى ظهر الغد ألف طائرة استطلاع تسع كل منها راكبًا واحدًا، بحثًا عن مختطفي سانوما تورا؛ كما لن يقتصر الأمر على ذلك. سوف تجوب السفن الحربية الهواء أيضًا، إذ يجب أن تعرف هيليوم ما المدينة أو الأمة التي تمكنت من تطوير سلاح تدميري مثل ذلك الذي استُخدِم الليلة فوق هيليوم».

«واعتقادي أن هذا السلاح هو اختراع حديث جدًّا؛ وأيًّا ما كانت السلطة التي تمتلكه، فلا بد أنها بذلت أقصى جهد ممكن لإتقانه وإنتاجه بكميات تجعلهم أسياد العالم. لقد تحدثت. اذهب، وليكن الحظ حليفك».

يمكنك أن تتيقن أنني لم أضع أي وقت على الإطلاق للشروع في مهمتي الآن، بعد أن منحني جون كارتر التصريح. توجهت إلى مسكني وأسرعت في تجهيزات المغادرة التي ضمت أساسًا اختيار الأسلحة بدقة، واختيار عتاد بسيط التصميم وجلود أثقل وأكثر تحملاً بدلاً من العتاد المزخرف الذي كنت أرتديه. عتادي القتالي هو دائمًا أفضل وأبسط ما يمكن ابتياعه، ويصنعه لي صانع عتاد شهير من هيليوم الصغرى. أما مجموعة أسلحتي، فكانت قياسية؛ تتكون من سيف طويل، وسيف قصير، وخنجر، ومسدس. كما سلحت نفسي بذخيرة إضافية، وتزودت بالحصص الغذائية المُركزة التي يستخدمها مقاتلو المريخ جميعًا.

وبعد أن انتهيت من تجميع هذه الضروريات البسيطة، التي تُشكل مع فراء واحد للنوم ومُعداتي، بدأ ذهني يعمل في التفسيرات المختلفة لاختفاء سانوما تورا. بحثت في ذهني عن أدنى ذاكرة قد تشير إلى تفسير، أو نقطة في اتجاه الهوية المحتملة لخاطفيها. وعندئذ تذكرت إشارتها إلى الجيداك تول أكستار من جاهار، لكن ذاكرتي لم تضم أي واقعة أخرى قد تشير إلى مفتاح اللغز. تذكرت بوضوح مبعوث تول أكستار الذي زار بلاط هيليوم منذ فترة ليست طويلة. وقد سمعته يفخر بثروات وسلطة جيداك بلده وجمال نسائه. ربما، إذَنْ، يجدر البحث أيضًا في اتجاه جاهار مثلها مثل أي مكان آخر. لكني عقدت العزم، قبل مغادرتي، على زيارة قصر تور هاتان ثانية وسؤال العبد الذي كان آخر من رأى سانوما تورا.

وعندما أوشكت على الانطلاق، تبادرت إلى ذهني فكرة أخرى. كنت أعرف أنني قد أجد في معبد المعرفة رسومًا توضيحية أو نماذج طبق الأصل لمعادن وعتاد كل أمة في برسوم، والتي لم تكن معروفة بأي حال في هيليوم. ولذلك توجهت على الفور إلى المعبد، وتمكنت بمساعدة أحد العاملين فيه من العثور على رسم لعتاد ومعادن محارب من جاهار. وحصلت، من خلال عملية استنساخ ضوئي بارعة، على نسخة من هذا الرسم التوضيحي في بضع ثوانٍ. أخذته وأسرعت إلى قصر تور هاتان.

لم أجد الأودوار، فقد ذهب إلى قصر أمير الحرب. لكن كبير الخدم بالقصر استدعى العبد كال تافان، الذي شهد اختطاف سانوما تورا واشتبك مع أحد مختطفيها.

نظرت إلى الرجل مليًّا وهو يقترب. كان يتمتع ببنية قوية، وملامح واضحة، ومظهره ينم بالتأكيد عن مقاتل.

سألته: «قلت إنك من كوبول، أليس كذلك؟».

أجاب: «لقد وُلِدت في تجاناث. وكانت لي زوجة وابنة هناك. سقطت زوجتي على يد قاتل، واختفت ابنتي عندما كانت صغيرة جدًّا. لا أعرف ماذا حدث لها. تُذكرني المشاهد المألوفة في تجاناث بأسعد الأيام، وبالتالي كانت تزيد حزني، ولذا لم أستطع البقاء. تحولت إلى بانتان[187] وسعيت إلى العمل في مدن أخرى، وهكذا خدمت في كوبول».

سألته: «وهناك، هل تعرفت على عتاد ومعادن العديد من المدن والأمم؟».

أجاب: «نعم».

سألته: «وهل تعرف هذا العتاد وتلك المعادن؟»، وأعطيته نسخة من الرسم التوضيحي الذي أحضرته من معبد المعرفة.

فحصها لفترة وجيزة، وأضاءت عيناه عندما تعرف عليها. قال: «إنها هي نفسها. إنها متطابقة».

سألته: «متطابقة مع ماذا؟».

أجاب: «مع العتاد الذي كان يرتديه المحارب الذي اشتبكت معه عند اختطاف سانوما تورا».

قلت: «تحددت إذَنْ هوية خاطفي سانوما تورا»، ثم التفت إلى كبير الخدم قائلاً: ابعث برسول على الفور إلى أمير الحرب ليبلغه بأن ابنة تور هاتان سرقها رجال من جاهار، وأنني أعتقد أن تول أكستار، جيداك جاهار، هو مَن أرسلهم. استدرت دون أن أقل كلمة أخرى، وغادرت القصر متجهًا مباشرة إلى طائرتي.

ارتفعت فوق أبراج وقباب هيليوم الكبرى ومنصات هبوطها الشامخة، وأدرت مقدمة طائرتي نحو الغرب مع زيادة سرعتها، وانطلقت عبر الهواء الرقيق الذي يحيط بكوكب المريخ الآخذ في الاحتضار، في اتجاه ذلك الامتداد الهائل المجهول في الجنوب الغربي البعيد لنصف كرة الكوكب، في مكان ما داخل المناطق الشاسعة حيث تقع جاهار؛ حيث أصبحت مقتنعًا الآن أنهم حملوا سانوما تورا إليها، لا لتصبح جيدارة لتول أكستار، وإنما عبدة له؛ لأن الجيداك في برسوم لا يتخذ المرأة جيدارة بالقوة.

---

(187) بانتان: هو جندي مريخي مرتزق، يتنقل من مكان لآخر ويقاتل لصالح من يرغب في شراء خدماته - http://barsoom.wikia.com/wiki/Panthan - المترجمة.

وأعتقد أنني فهمت تفسير اختطاف سانوما تورا، وهو التفسير الذي كان يمكن أن يسبب لها غضبًا شديدًا لأنه أبعد ما يكون عن أي إطراء لها. وأعتقد أن مبعوث تول أكستار أبلغ سيده سحر ابنة تور هاتان وجمالها، إلا أنها لا تنحدر من أسرة نبيلة تجعلها جديرة بأن تصبح جيدارة، ولذا استخدم الوسيلة الوحيدة التي تتيح له امتلاكها. شعرت بالدماء تغلي في عروقي بناء على هذا التفسير، رغم أن تقديري للأمور كان يشير دون شك إلى صحته.

خلال السنوات القليلة الماضية -يجدر بي القول خلال السنوات العشر أو العشرين الأخيرة- اتخذ النهوض بالملاحة الجوية خطوات أكبر مما تحقق خلال الخمسمائة سنة السابقة.

وترى العديد من السلطات أن إتقان بوصلة التحكم في الاتجاه، الذي أدخله كارثوريس[188] الهيليومي، يُعد إيذانًا ببداية عهد جديد من الاختراعات. لقد استمر ركودنا لقرون في بركة هادئة من الاكتفاء الذاتي، كما لو أننا بلغنا ذروة الكمال التي لم يعُد مُجديًا بعدها السعي لإدخال تحسينات على ما اعتبرناه أعلى إنجازات علمية ممكنة.

لقد أيقظنا كارثوريس الهيليومي، الذي ورث عن أبيه القادم من كوكب الأرض عقلاً لا يهدأ ولا يكف عن التساؤل. وهنا قبلت أفضل العقول لدينا التحدي، وأسفرت النتيجة عن تحسُّن سريع في تصميم وبناء جميع أنواع السفن الجوية، مما أدى إلى ثورة في بنية المُحركات.

كنا نعتقد أن محركات الراديوم القوية الخفيفة المُدمجة الموجودة لدينا لا يمكن تحسينها أبدًا، وأن الإنسان لا يمكنه أبدًا السفر، سواء بأمان أو بصورة اقتصادية، بسرعة أكبر مما تحققه لنا طائراتنا الاستطلاعية التي تسع كل منها رجل واحد -أي حوالي ألف ومائة هاد كل زود[189] - بينما أعلن بادوار غير معروف في سلاح بحرية هيليوم أنه تمكن من إتقان محرك يصل وزنه إلى نصف وزن محركاتنا الحالية ويزيد السرعة بمقدار الضِعف.

---

(188) كارثوريس: هو ابن جون كارتر وديجاه ثوريس، الشقيق الأكبر لتارا. وهو أمير هيليوم. واسمه مزيج من كارتر وثوريس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Carthoris - المترجمة.

(189) حوالي 166 ميلاً في الساعة بمقاييس كوكب الأرض. [وقد ورد في قصة «آلهة المريخ» أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على 24 ساعة و37 دقيقة (بتوقيت كوكب الأرض). ويقسمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية تُسمَّى زود (أي أن دورة المريخ حول محوره تساوي 10 زود) – المترجمة.]

وهذا هو نوع المُحرك في طائرتي الاستطلاعية -محرك يبدو بلا وقود، حيث يستمد طاقته غير المرئية والتي يصعب تقديرها بدقة من المجال المغناطيسي اللا متناهي وغير القابل للنضوب لكوكبنا.

يتمتع المحرك الجديد ببعض السمات الأساسية التي لا يعرفها بالكامل سوى المخترع وحكومة هيليوم، ويحرصون على سريتها أشد الحرص. يتكون عمود المروحة، الذي يمتد داخل هيكل الطائرة، من عدة قطاعات جانبية معزولة عن بعضها البعض. وتوجد حول هذا العمود، وتدعمه خلال مركز مروره، سلسلة من المحامل تشبه مولدات الكهرباء الصغيرة.

وترتبط هذه المحامل في سلسلة بجهاز يُسمَّى المُراكم، يجري من خلاله توجيه طاقة المريخ المغناطيسية نحو مولدات خاصة تحيط بعمود المروحة.

ويجري التحكم في السرعة عن طريق زيادة أو تقليل عدد محامل المولدات في سلسلة مع المُراكم - ويتحقق ذلك كله ببساطة بواسطة رافعة يحركها الطيار من موقعه على سطح السفينة، حيث يرقد عادة على بطنه، مع ربط حزام الأمان بالحلقات الثقيلة على سطح السفينة.

ويؤكد المخترع أن حد السرعة لا يعتمد إلا على نسبة القوة إلى الوزن في بنية هيكل السفينة. تصل سرعة طائرتي الاستطلاعية بسهولة

إلى ألفين هاد كل زود[190] ، ولا يمكنها الصمود أمام الضغط الهائل من مُحرك أكثر قوة، على الرغم من أنه كان يسهل زيادة كل من القوة والسرعة بوسيلة بسيطة تتمثل في وجود عمود مروحة أطول يحمل عددًا إضافيًّا من محامل المولدات.

عند تجربة المحرك الجديد في هاستور في العام الماضي، جرت محاولة لقيادة طائرة استطلاعية بسرعة استثنائية تبلغ 3300 هاد في الزود[191] ، ولكن قبل أن تبلغ السفينة سرعة 3000 هاد في الزود، تمزقت إلى أشلاء بفِعل محركها. ونحن نحاول الآن الوصول إلى قوة أكبر مع الحد الأدنى للوزن. ومع نجاح مهندسينا سنرى زيادة في السرعة، أنا متأكد أنها ستبلغ بسهولة 7000 هاد في الزود؛[192] إذ يبدو أنه لا توجد حدود لقوة هذه المحركات الرائعة.

---

(190) حوالي ثلاثة آلاف ميل في الساعة.

(191) حوالي 500 ميل في الساعة؛ حيث يعادل الهاد حوالي 0592.1949 قدم بمقاييس كوكب الأرض، ويعادل الزود حوالي 462.2 ساعة بزمن كوكب الأرض.

(192) ما يزيد على الألف ميل في الساعة.

هناك ابتكار آخر أقل إثارة للإعجاب بقليل وهو بوصلة التحكم في الاتجاه التي ابتكرها كارثوريس الهيليومي. ضع المؤشر على أي بقعة في أي من نصفي الكرة. افتح صمام الوقود، ثم استلق ويمكنك النوم إن أردت. وسوف تنقلك سفينتك إلى وجهتك، وتهبط إلى مسافة تبعد عن الأرض مائة ياردة أو نحو ذلك ثم تتوقف، بينما توقظك أداة تنبيه. إن هذا الابتكار هو جهاز بسيط للغاية بالفعل، لكني أعتقد أن جون كارتر قد وصفه بالكامل في إحدى مخطوطاته العديدة.

على أن بوصلة التحكم لم تفدني كثيراً في المغامرة التي شرعت فيها، ذلك أنني لم أكن أعرف موقع جاهار الدقيق. مع ذلك، وضعت المؤشر تقريبًا عند نقطة تقع ثلاثين درجة جنوب خط العرض، وخمسة وثلاثين درجة شرق خط الطول؛ لاعتقادي أن جاهار تقع في مكان ما جنوب غرب تلك النقطة.

طرت بسرعة عالية بحيث تركت خلفي المناطق المزروعة بالقرب من هيليوم منذ فترة طويلة، وحلقت فوق أراض قفر مهجورة من الطحالب الصفراء التي تكسو قيعان البحر الميت، حيث كان يتدفق عليها ذات يوم محيط قوي يحتضن النقل البحري لشعب سعيد ومزدهر، لكنه الآن ليس سوى ذاكرة نصف منسيّة في أساطير برسوم.

عند حواف الهضاب التي كانت تمُيز في يوم ما الخط الساحلي لقارة نبيلة، طرت فوق الآثار الوحيدة الباقية من ذلك الازدهار القديم، المدن الحزينة المهجورة في برسوم القديمة. حتى في أنقاضها هناك عظمة وروعة لا تزال قادرة على ترويع الإنسان الحديث. وهناك، في أسفل، في اتجاه أدنى قيعان البحر، توجد أنقاض تشير إلى المسار المأساوي الذي اتبعته تلك الحضارة القديمة في سعيها وراء انحسار مياه المحيط، حيث استسلمت في النهاية آخر مدينة، محرومة من التجارة، ومجردة من القوة، لتسقط ضحية سهلة أمام جحافل قبائل الخُضر الشرسة المغُيرة، الذين أحفادهم الآن هم الحكام الوحيدون لكثير من قيعان هذه البحار المهجورة. إنهم يكرهون ومكروهون، ولا يعرفون الحب أو الضحك أو السعادة، ويعيشون حياتهم الطويلة الشرسة في شِجار في ما بينهم وبين جيرانهم، ويفترسون أي مُغامرين يعبرون مصادفة حدود منطقتهم المريرة المقفرة.

وهم بمثل شراسة وفظاعة جميع الرجال الخُضر، على أن عددًا قليلاً منهم، مثل جحافل التوركواسيين[193] الخُضر، أدت طبيعتهم القاسية ومآثرهم الدموية إلى ترويع عقول الرجال الحُمر.

(193) توركواس: كانت قديمًا إحدى المدن القوية على المريخ، وأصبحت الآن مجرد إحدى المدن الميتة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Torquas - المترجمة.

كانت مدينة توركواس، التي يستمدون اسمهم منها، إحدى أكثر مدن برسوم القديمة روعة وقوة. وعلى الرغم من أن الجميع هجرها لعصور، ما عدا قبائل الخُضر المتجولة، فهي لا تزال قائمة على أي خريطة. ونظرًا لأنها تقع مباشرة على مسار بحثي عن جاهار، ولم أرها من قبل، فقد تعمدت تحديد مساري بحيث أطير فوقها. وعندما رأيت أمامي على بُعد أبراجها الشاهقة وأسوارها، شعرت بالتشويق والإثارة وإغراء المغامرة الذي تمارسه الأمثال المتعلقة بهذه المدن الميتة من برسوم علينا نحن الرجال الحُمر.

مع اقترابي من المدينة، قلصت سرعتي وانخفضت على نحو يتيح لي الحصول على رؤية أفضل للمدينة. لا بد أنها كانت مدينة جميلة في زمنها! وحتى اليوم، بعد كل العصور التي مرت منذ كانت طرقها الواسعة تتدفق بحياة جمهور سعيد ومزدهر، لا تزال القصور العظيمة تقف بكل روعة مجدها؛ صحيح أن الزمن وعناصر الطبيعة قد أثرت فيها، لكنها لم تدمرها بعد.

وعند دوراني مُحلقًا بانخفاض فوق المدينة، رأيت أميالاً من الطرق التي لم تسر عليها قدم إنسان لعدد لا يُعد ولا يُحصى من العصور. اكتست أحجار الرصيف الواهنة بالطحلب الأصفر، مع تناثر شجرة ضعيفة أو شجيرة بشعة من تلك الأصناف التي تجد قوتها بشكل ما في الأراضي القفر القاحلة. نظرت إلى ساحات صامتة مهجورة، كانت حدائق رائعة في يوم ما آخر أكثر سعادة. سقط سقف مبنى هنا وهناك، وإن بقي الجزء الأكبر منه سليمًا، يحلم دون شك بالثروة والجمال اللتين عرفهما في أيام ماضية. واستطاع خيالي أن يرى حرير وفراء النوم ينتشر رائعًا في ضوء الشمس، في حين تتكاسل النساء تحت أقمشة المظلات الحريرية، وتتألق جواهرهن مع كل حركة لأجسادهن. ورأيت في خيالي رايات صغيرة تلوح بها آلاف عديدة من العاملين على السفن الكبيرة الراسية في الميناء، وهي تعلو وتهبط مع حركة موجات البحر المضطرب. وهناك البحارة الذين يسيرون على الطرقات، والمقاتلون الأشداء يقفون أمام أبواب كل قصر. آآه، يا لها من صورة خيالية استحضرها الصمت المميت الذي يلف هذه المدينة المهجورة. ودفعتني دورة طويلة متأرجحة إلى أعلى فناء قصر رائع يواجه الميدان المركزي الكبير في المدينة، حيث لمحت ما حطم حلمي الجميل بالماضي. رأيت أسفلي مباشرة عشرات من حيوانات الثوات الكبيرة، مقيدة فيما كان ذات يوم الحديقة الملكية لجيداك.

كان وجود هذه الحيوانات الضخمة لا يعني سوى شيء واحد: أنه يمكن العثور على أسيادهم الخُضر في مكان قريب.

وعند مروري فوق الساحة، نظر أحد الوحوش الشريرة المضطربة إلى أعلى وشاهدني؛ وبدأ يئن بغضب. وعلى الفور أثار أنينه مِزاج حيوانات الثوات الأخرى سريع التقلب، وتوجه انتباههم إلى أعلى، واكتشفوا وجودي. وهنا شرعوا في هرج من همهمات وأنين أدى إلى النتيجة التي توقعتها فورًا. قفز محارب أخضر من داخل القصر إلى الفناء ونظر إلى أعلى، ليراني قبل أن أعبر مسار الرؤية فوق سطح المبنى.

أدركت فورًا أن هذا ليس مكانًا للتلكؤ، ففتحت أداة السرعة وانطلقت في الوقت نفسه نحو ارتفاع أكبر. وخلال مروري فوق المبنى وخروجي إلى الطريق أمامه، رأيت ما يقرب من عشرين محاربًا أخضر يخرجون من المبنى وهم يبحثون في السماء بأعينهم المحدقة إلى أعلى؛ فقد أبلغهم المحارب المسؤول عن الحراسة بوجودي.

لعنت نفسي لحماقتي التي جعلتني أقتنص فرصة دون داعٍ إلا لإرضاء فضولي الفارغ. اتخذت على الفور مسارًا تصاعديًّا متعرجًا، وارتفعت بأقصى سرعة ممكنة، بينما تناهت إلى سمعي بوضوح من أسفل صرخة الحرب الوحشية. رأيت بنادق طويلة شريرة موجهة نحوي، وسمعت هسهسة تدافع القذائف. وعلى الرغم من مرور أول قذيفة بالقرب مني، لم تُصَب السفينة بأي رصاصة. سوف أكون بعد لحظة خارج نطاقهم وفي أمان، وصليت داعيًا ألفًا من أسلافي لحمايتي خلال الدقائق القليلة الضرورية لتبعدني تمامًا عن مسار الأذى. تصورت أنني نجحت، وكنت على وشك تهنئة نفسي على حظي السعيد عندما سمعت جلجلة رصاصة تخترق معدن سفينتي، وصوت انفجار قذيفة في الوقت نفسه تقريبًا، ثم أصبحت خارج نطاق مرماهم.

تناهت إلى سمعي خافتة صرخات الغضب من خيبة الأمل، وأنا أنطلق مسرعًا في اتجاه الجنوب الغربي. أحسست بالراحة؛ لأن حسن حظي أتاح لي الفرار دون أي ضرر.

لقد قطعت بالفعل مسافة سبعين كاراد(194) تقريبًا من هيليوم، لكني كنت أعرف أن جاهار لا تزال على بُعد يتراوح بين خمسين وخمسة وسبعين كاراد. قررت عدم اقتناص أي فرص أخرى مثل تلك التي تمكنت لحسن حظي من الفرار منها.

أتحرك الآن بسرعة كبيرة مرة أخرى. وما إن انتهيت من تهنئة نفسي على حسن حظي، حتى أتضح لي فجأة أنني أواجه صعوبة في الحفاظ على ارتفاعي. كانت طائرتي تفقد قابليتها للطفو. وخمنت على الفور ما تحققت منه لاحقًا، وهو أن إحدى رصاصات المحاربين الخُضر المتفجرة قد ثقبت خزانات الطفو في سفينتي.

---

(194) الكاراد يعادل درجة على خط الطول.

كان لومي لنفسي على إهمالي يبدو مضيعة عديمة الجدوى للطاقة العقلية، على الرغم من تأكدي أنني كنت أدرك خطئي تمامًا وأثره المحتمل على مصير سانوما تورا، إذ قد يؤدي إلى عدم تمكني من المتابعة النشطة لإنقاذها. لم يزعجني تأثير النتائج عليَّ بقدر ما أفزعني التفكير في الخطر المؤكد الذي يحيق بسانوما تورا، وبسببه لم يترك تصميمي على إنقاذها أي مجال للتفكير في أدنى فشل.

كان هذا الحادث ضربة قاسية لآمالي، إلا أنه لم يحطمها تمامًا؛ إذ أعرف أنني من حيث تكويني لا أتخلى أبدًا عن الأمل في النجاح في أي قضية ما دامت حيًّا.

يصعب تحديد إلى متى ستظل سفينتي طافية. ونظرًا لعدم توفر أي وسيلة لإجراء الإصلاحات الضرورية للحفاظ على محتويات خزان الطفو المثقوب المتبقية، فقد كان أفضل ما أستطيع القيام به هو زيادة السرعة حتى أتمكن من قطع أكبر قدر ممكن من المسافة قبل الاضطرار إلى الهبوط. كانت بنية سفينتي تجعلها تميل عند سرعة عالية إلى المحافظة على نفسها في الهواء مع وجود حد أدنى من الأشعة الثامنة[195] في خزانات الطفو؛ على أنني كنت أعلم أن الوقت سيحين قريبًا للهبوط على هذه الأرض القفر الكئيبة المهجورة.

لقد قطعت حوالي ألفي هاد منذ أن تعرضت لنيران التوركواس، وعبرت ما كان خليجًا كبيراً عندما كانت مياه المحيط تتدفق على السهول الشاسعة القاحلة الحالية المغطاة بالطحلب التي تقع في أسفل. يمكنني أن أرى على بُعد أمامي الآن الخطوط العريضة للتلال المنخفضة التي كانت تحدد بالتأكيد خط الشاطئ الجنوبي الغربي للخليج. امتد قاع البحر الميت نحو الشمال الغربي بقدر ما يمكن أن تصل العين، لكنه ليس الاتجاه الذي أود اتخاذه. ولذا أسرعت في اتجاه التلال على أمل أن أحافظ على ارتفاع كاف لعبورهم. لكن هذا الأمل مات في صدري عندما لاحت التلال بسرعة، وأدركت أنَّ نهاية رحلتي ليس أمامها سوى بضع لحظات. وفي الوقت نفسه، ظهرت أنقاض مدينة مهجورة تقع عند سفح التلال. لم يزعجني هذا المشهد، حيث يمكن غالبًا العثور على المياه في آبار هذه المدن القديمة، التي حافظ عليها قبائل الخُضر الرُحَّل في الأراضي القفر.

أتحرك ببطء الآن على مسافة عدد قليل من الآد[196] فوق سطح الأرض. لقد قلصت سرعتي إلى حد كبير لتجنب أي حادث خطير عند الهبوط، ولهذا السبب تسارعت النهاية

---

(195) الأشعة الثامنة: تُعرف أيضًا باسم أشعة الدفع، وهي خاصية للضوء بغض النظر عن مصدر انبعاثه. وتُستخدم بشكل رئيس في المناطيد كوسيلة للطفو - https://barsoom.fandom.com/wiki/Eighth_Ray - المترجمة.

(196) الآد: يعادل الآد حوالي 75.9 قدم بمقاييس كوكب الأرض.

بحيث أنني أستقر الآن برفق على الغطاء النباتي الأصفر، على مسافة تكاد تبعد ما يصل إلى هاد من الواجهة المائية للمدينة المهجورة.

* * *

الفصل (3)

المأزق

كان هبوطي تعيسًا للغاية، تركني مكشوفًا أمام المدينة دون أي مكان للاختباء إذا كانت إحدى قبائل الخُضر العديدة تشغل الأنقاض، حيث تنتشر هذه القبائل في قيعان بحر برسوم الميت، وكثيراً ما تتخذ من مدينة أو أخرى من المدن المهجورة على الشاطئ القديم مقرًّا لها.

ونظرًا لأنهم يختارون السكن عادة في أكبر القصور القديمة وأكثرها روعة، ولأن هذه القصور تقع عادة على مسافة قريبة من الواجهة المائية، فمن الممكن تمامًا أنه حتى في حالة وجود رجال خُضر في المدينة أن أصل إلى مكان آمن للاختباء في أحد المباني القريبة قبل اكتشافهم لوجودي.

أصبحت طائرتي الآن عديمة الفائدة، وليس أمامي سوى التخلي عنها. وهكذا، سرت بسرعة في اتجاه الواجهة المائية العتيقة، ومعي فقط أسلحتي وذخائري وحصص الطعام القليلة المُركزة. لم أتمكن من تحديد ما إذا كنت وصلت إلى المباني مراقبًا أو دون مراقبة، لكني وصلت على أي حال دون رؤية أي علامة على مخلوق حي.

تسكن القرود البيضاء الكبيرة في برسوم أجزاء من هذه المدن العديدة القديمة المهجورة. ويخشى المرء هذه القرود أكثر من المحاربين الخُضر أنفسهم؛ فهذه المخلوقات الشبيهة بالإنسان تتمتع بقوة هائلة وتتسم بضراوة شديدة، فضلاً عن أنها أيضًا من آكلي لحوم البشر بشراهة. إنها مخلوقات رهيبة إلى حد القول أنهم المخلوقات الحية الوحيدة التي يمكنها غرس الخوف داخل صدور رجال برسوم الخُضر.

وبمعرفة المخاطر المحتملة التي قد تكمن في محيط هذا الخراب، قد يكون غريبًا أنني اقتربت منها أصلاً، وإنما في الواقع لم يكن هناك بديل آمن. فوق الرتابة الميتة للطحالب الصفراء في قاع البحر، كان يمكن أن يكتشف وجودي أول قرد أبيض أو رجل مريخي أخضر يقترب من المدينة في هذا الاتجاه، أو يأتي مصادفة من داخل أنقاض الواجهة المائية. ولذلك، كان من الضروري أن أجد مكانًا للاختباء حتى هبوط الليل؛ إذ يمكنني ليلاً فقط أن أتحرك بأمان عبر قاع البحر. ونظرًا لأن المدينة هي المخبأ القريب الوحيد، لم يكن لديَّ أي خيار سوى دخولها. ويمكنني أن أؤكد لك أن تسلقي إلى سطح شارع واسع، كان ذات يوم بمحاذاة شاطئ ميناء مزدحم، لم يكن دون شعوري بالقلق

الشديد. على امتداد مساحته الواسعة، ارتفعت أنقاض ما كان ذات يوم متاجر ومستودعات، لكن نوافذه الخالية من الأعين تنظر الآن إلى مشهد الخراب القاحل. لقد ولّت السفن الكبيرة! وولّت الحشود النشيطة المتعجلة! وولّى المحيط!

عبرت الطريق ودخلت أحد أطول المباني، الذي لاحظت أن برجًا شاهقًا يعلوه. بدت البنية برمتها، بما فيها البرج، في حالة ممتازة من الصيانة. وفكرت أنني إذا تمكنت من الصعود إلى البرج، سوف أحصل على مشهد ممتاز للمدينة وللبلد الذي يقع خلفها في اتجاه الجنوب الغربي، وهو الاتجاه الذي كنت أنوي اتخاذه لمواصلة البحث عن جاهار. وصلت إلى المبنى دون مراقبة، على ما يبدو، ودخلت لأجد نفسي في غرفة كبيرة لم يعُد من الممكن تحديد طبيعتها وغرضها لأن الزخارف التي ربما كانت تزين جدرانها في الماضي لم تعد واضحة، وأيًّا كان الأثاث الذي احتوته ويمكن أن يعطي فكرة عن هويتها قد أُزيل من فترة طويلة. تُوجد مدفأة هائلة في أقصى نهاية الغرفة، ويُوجد عند أحد جوانبها سلم يقود إلى أسفل، وعند الجانب الآخر سلم مماثل يقود إلى أعلى.

أمعنت السمع للحظة، لكني لم أسمع أي صوت سواء داخل أو خارج المبنى، ولذا بدأت بثقة كبيرة أصعد السلم.

واصلت الصعود من طابق إلى آخر. يتكون كل طابق من غرفة كبيرة واحدة، مما أقنعني في النهاية أن المبنى كان مستودعًا لتخزين السلع التي تمر عبر هذا الميناء القديم.

امتد من الطابق العلوي سلم خشبي إلى أعلى، خلال مركز البرج أعلاه. كان مصنوعًا من خشب السكيل[197] الصلب، وهو عمليًّا غير قابل للتدمير؛ لذلك، ومع معرفتي أن عمره ربما يقع بين خمسمائة ألف إلى مليون سنة، لم أتردد في استخدامه.

كان قلب البرج الداخلي الدائري، الذي يمتد السلم خلاله، مظلمًا إلى حد ما. وتوجد عند كل مرحلة فتحة تؤدي إلى غرفة البرج عندها. ونظرًا لأن العديد من هذه الفتحات كانت مغلقة، لم يتسلل سوى ضوء خافت إلى القلب المركزي.

صعدت إلى المستوى الثاني من البرج، وعندئذ تصورت أنني سمعت ضوضاء غريبة في أسفل.

كان مجرد إيحاء بضوضاء، لكن هذا الصمت المطلق الذي يخيم على المدينة المهجورة يجعل أقل صوت أكثر إدراكًا بالنسبة لي.

---

(197) سكيل: شجرة من خشب مريخي صلب يُستخدم في بناء كل شيء من السكن إلى الأثاث. وتنتج أيضًا شجرة سكيل جوزًا جيد المذاق - http://barsoom.wikia.com/wiki/Skeel -المترجمة.

توقفت خلال صعودي، ونظرت إلى أسفل، واستمعت؛ لكن الصوت الذي عجزت عن تفسيره لم يتكرر، فواصلت طريقي إلى أعلى.

ولأنني كنت عازمًا على التسلق إلى أعلى ارتفاع ممكن في البرج، لم أتوقف لفحص أي مستوى من المستويات التي مررت بها.

واصلت الصعود إلى مسافة كبيرة، ثم أعاقت تقدمي ألواح ثقيلة يبدو أنها تُشكِّل سطح العمود. يوجد أسفلي بحوالي ثمانية أو عشرة أقدام باب صغير ربما يؤدي إلى أحد مستويات البرج العُليا. ولا يمكنني إلا أن أتساءل عن سبب استمرار تصاعد السلم أعلى هذا المدخل، إذ لا يمكن أن يخدم أي غرض عملي إذا كان ينتهي عند السطح. تحسست بأصابعي الخطوط العريضة لما يبدو بابًا مسحورًا. تأكدت من رسوخ قدمي عند أعلى موضع تمكنت من الوصول إليه أعلى السلم، ووضعت كتفي على الحاجز. تمكنت في هذا الوضع من الضغط بشدة إلى أعلى، وأشعر حاليًا أن الألواح ترتفع فوقي، وبعد لحظة صاحبها أنين خافت، تأرجح إلى أعلى الباب المسحور على مفصلات خشبية قديمة لم تُستخدم منذ زمن طويل. صعدت إلى الشقة أعلاه، ووجدت نفسي عند المستوى الأعلى من البرج، الذي يصل ارتفاعه إلى حوالي مائتي قدم فوق الطريق أدناه. رأيت أمامي بقايا قديمة عفا عليها الزمن لمنارة متآكلة، كان يستخدمها القدماء منذ وقت طويل قبل اكتشاف الراديوم وتطبيقه العملي والعلمي ليحقق متطلبات الإضاءة في الحضارة الحديثة على برسوم. كانت هذه المصابيح القديمة تعمل بواسطة آلات باهظة الثمن لتوليد الكهرباء، وهذا المصباح كان يُستخدم دون شك كمنارة للتوجيه الآمنة لبحارة الميناء القدماء، حيث كانت المياه تتدفق ذات يوم أمام البرج.

وأتاح هذا المستوى العلوي من البرج رؤية ممتازة في جميع الاتجاهات. امتدت نحو الشمال والشمال الشرقي مساحات شاسعة. وفي اتجاه الجنوب، توجد مجموعة من التلال المنخفضة التي تنحني قليلاً في اتجاه الشمال الشرقي، حيث كانت تُشكل في تلك الأيام التي ولت خط الشاطئ الجنوبي لما يُعرف حتى الآن بخليج توركواس. ونحو الغرب، رأيت أنقاض مدينة عظيمة، تمتد بعيدًا إلى التلال المنخفضة، ويرتفع جانباها مع توسعها من شاطئ البحر. وتمكنت عن بُعد من تمييز فيلات الأثرياء القديمة، بينما تقع في المقدمة القريبة المباني العامة الهائلة، التي بُني أغلبها على الجوانب الأربعة من شكل رباعي كبير يمكنني تمييزه بسهولة على مسافة قصيرة من الواجهة المائية. هنا، دون شك، كان يُوجد القصر الرسمي للجيداك الذي حكم في يوم ما البلد الثري التي كانت هذه المدينة عاصمته وميناءه الرئيس. لا يسود الآن سوى الصمت. يا له من مشهد كئيب بالفعل، مشهد يحمل تكهنات تثير مشاعرنا نحن في عصرنا الحالي على برسوم.

ففي المواقع التي قاتلوا فيها ببسالة، وإن كان بلا جدوى، ضد التهديد المستمر لتناقص إمدادات المياه، نواجه نحن الآن مشكلة تتجاوز مشكلتهم بكثير من حيث أهمية تأثيرها في الحفاظ على الحياة على كوكبنا. لقد تمكن رجال برسوم الحُمر، خلال عدة آلاف من السنين، من مواصلة الحياة على كوكبنا الآخذ في الاحتضار، وسلاحهم الوحيد هو الشجاعة والحنكة والثروة؛ إذ لولا النباتات الجوية الكبيرة التي فكر فيها العرق البرسومي الأحمر وشيدها وحافظ عليها، لانقرضت منذ آلاف السنين جميع أشكَال المخلوقات التي تتنفس الهواء.

وبينما كنت أطوف ببصري محدقًا في المدينة، وذهني منشغل بهذه الأفكار الكئيبة، تبينت ثانية صوتًا قادمًا من داخل البرج أسفلي. تقدمت خطوات ونظرت إلى أسفل مباشرة. رأيت ما قد يجعل أشجع قلب برسومي يرتجف - الوجه البشع المُزمجر لقرد برسوم الأبيض الكبير.

وعندما التقت أعيننا، أطلق المخلوق هديرًا غاضبًا واندفع مسرعًا يصعد السلم، متخليًا عن نهج تسلله السابق. قمت تلقائيًّا بالشيء الوحيد الذي قد يُبعِد ولو مؤقتًا اندفاعه نحوي- دفعت الباب المسحور الثقيل فوق رأسه، وعندئذ رأيت للمَرة الأولى أن الباب مُجهز بقضيب خشبي ثقيل، ولك أن تتصور أنني لم أضع أي وقت في تأمينه، وبالتالي منعت فعليًّا صعود المخلوق عبر هذا الطريق، وأصبح طريقًا مسدودًا وضعت نفسي فيه.

أصبحت الآن في مأزق بالفعل- على مسافة مائتي قدم فوق المدينة، وطريق فراري الوحيد يعترضه وحش تخشاه أكثر حيوانات برسوم توحشًا.

لقد اصطدت هذه المخلوقات في ثارك[198] عندما كنت ضيفًا على الجيداك الأخضر العظيم، تاركاس تاركاس[199] ، وعرفت مكرهم وحيلهم وكذا ضراوتهم. إنهم يشبهون الإنسان إلى حد كبير من حيث الهيئة، كما يقتربون من البشر من حيث حجم وتطور أمخاخهم أكثر من أي مخلوقات أخرى أدنى مرتبة. ويمُسك بهم أحيانًا وهم صغار السن، ويُجرى تدريبهم. ونظرًا لأنهم أذكياء، يمكن تدريبهم على القيام بأي شيء تقريبًا يفعله الإنسان ويقع في نطاق قدراتهم المحدودة في التفكير. على أن الإنسان لم يتمكن أبدًا من تخفيف طبيعتهم الشرسة، وظلوا دائمًا أكثر الحيوانات خطورة في التعامل

---

(198) ثارك: جماعة المريخيين الخُضر

http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Thark – المترجمة.

(199) تارس تاركاس: قائد جماعة ثارك، من المريخيين الخُضر، وحليف جون كارتر -

https://barsoom.fandom.com/wiki/Tars_Tarkas - المترجمة.

معها، وربما هذا ما يُحسب حسابه أكثر من ذكائهم الذي يجذب دومًا الجماهير الكبيرة لمشاهدة تلك المخلوقات.

لقد دفعت في هاستور مبلغًا كبيراً لمشاهدة إحدى تلك المخلوقات، وأجد نفسي الآن في موقف يجعلني على استعداد لأن أدفع بكل سرور مبلغًا أكبر حتى لا أرى أي واحد منهم. لكن الواضح من الضجيج الذي يثيره في أسفل أنه عازم على أن يقدم لي عرضًا مجانيًّا وأن يجعلني وجبته المجانية. كان يدفع نفسه بأفضل ما في وسعه ضد الباب المسحور، وأنا أقف أعلاه تنتابني الهواجس؛ لكنها هدأت الآن عندما أدركت أن قوة القرد الأبيض الهائلة ليس لها قيمة في مواجهة الباب القديم المصنوع من خشب السكيل الذي لا يزال قويًّا ومتينًا.

ولاقتناعي أخيراً أنه لن يتمكن من الوصول إليَّ عبر هذا الطريق، بدأت في تقييم وضعي. تفحصت البرج وبنيته الخارجية بحيلة بسيطة، قمت بالانحناء نحو الخارج فوق كل جانب من جوانبه الأربعة. تنتهي ثلاثة جوانب من سطح المبنى على مسافة مائة وخمسين قدمًا أسفلي، بينما يمتد الجانب الرابع حتى رصيف الفناء لمسافة مائتي قدم أدناه. ومثل الكثير من معمار برسوم القديمة، كان سطح البرج منحوتًا بإتقان من أعلى إلى أسفل، وتوجد عند كل مستوى فتحات نوافذ، بعضها مزود بشرفات حجرية صغيرة. وكما هي القاعدة: لا توجد سوى نافذة واحدة بكل مستوى. ونظرًا لأن نافذة المستوى الأدنى مباشرة لا تُفتَح أبدًا على نفس الجانب من البرج كنافذة المستوى أعلاه، توجد دائمًا مسافة تتراوح بين ثلاثين إلى أربعين قدمًا بين النوافذ على نفس الجانب. وعند فحصي الجزء الخارجي من البرج، بغية أن يمدني بسبيل للهرب، كانت هذه النقطة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي؛ لأن مشهد سلسلة حواف النوافذ، واحدة تحت الأخرى، يبعث على الترحيب برجُل في وضعي.

عندما انتهيت من فحص السطح الخارجي للبرج، بدا واضحًا أن القرد قد استنتج أنه لن يتمكن من هدم الحاجز الذي يحول بيني وبينه. كنت آمل أن يتخلى عن الفكرة تمامًا ويغادر. على أنني عندما استلقيت على الأرض ووضعت أذني بالقرب من الباب، تمكنت من سماعه بوضوح أسفلي مباشرة وهو ينتقل أحيانًا من وضع غير مريح إلى آخر فوق السلم الصغير أدناي. لم أكن أعرف مدى تطوير هذه المخلوقات لفكرة ملائمة الغرض، وكان يحدوني الأمل أن يتعب قريبًا من السهر ويحول أفكاره إلى مسار آخر. على أي حال، ومع اقتراب نهاية اليوم، بدا هذا الاحتمال يتباعد أكثر وأكثر إلى أن أصبحت مقتنعًا بأن المخلوق عازم على محاصرتي حتى الجوع أو حتى يجبرني اليأس على التراجع.

بقيت مُحدِقًا لفترة طويلة نحو التلال التي تقع وراء المدينة، حيث يكمن طريقي نحو الجنوب الغَربي- نحو جاهار الأسطورية.

كانت الشمس تهبط نحو الغرب. وسرعان ما سيحدث الانتقال المفاجئ من ضوء النهار إلى الظلام، ثم ماذا؟ ربما يتخلى المخلوق عن حذره؛ فقد يجذبه الجوع أو العطش إلى مكان آخر، ولكن كيف لي أن أعرف؟ ما أسهل أن يهبط إلى أسفل البرج وينتظرني هناك، واثقًا أنني سوف أنزل عاجلاً أو آجلاً.

قد يتساءل الشخص الذي لا يعرف سمات هذه المخلوقات الوحشية لماذا لا أرفع الباب المسحور، وأنا مُسلح بسيف ومسدس، وأخوض معركة مع سجاني. لو كنت على يقين أنه القرد الأبيض الوحيد في الجوار، لِما ترددت في القيام بذلك؛ لكن خبرتي تؤكد أن هناك بلا شك قطيعًا بأكمله من تلك القَرود التي تسكن تلك المدينة المُدمَّرة. ومن عادتهم، نظرًا لندرة اللحم الذي يتوقون إليه، أن يصطاد كل منهم بمفرده، بحيث في حالة نجاحه في قتل الفريسة، يحتفظ بالجائزة لنفسه؛ لكني إذا هاجمته، فسوف يثير ضجة بالتأكيد لجذب زملائه، وعندئذ تتقلص فرصة هروبي في النهاية إلى الصفر.

رصاصة واحدة من مسدسي قد ترديه قتيلاً، لكنها أيضًا وبنفس القدر قد لا تفعل؛ ذلك أن هذه القرود البيضاء الكبيرة في برسوم هي مخلوقات ضخمة، تتمتع بحيوية تكاد لا تُصدق. يصل طول كثيرين منهم عند الوقوف إلى حوالي خمس عشرة قدمًا، ووهبتهم الطبيعة بقوة هائلة. ومظهرهم يضعف معنويات عدوهم؛ ذلك أن أجسامهم البيضاء الخالية من الشعر تثير في حد ذاتها اشمئزاز الرجل الأحمر، وكتلة الشعر الأبيض الكبيرة التي تنتصب فوق رؤوسهم تزيد من وحشية مظهرهم؛ بينما المجموعة الوسيطة من أطرافهم، التي يستخدمونها كذراعين أو ساقين حسب الضرورة أو الرغبة، تجعلهم أكثر الخصوم شراسة. كما يحملون عمومًا هراوات، ويبرعون في استخدامها. ولذلك، يُعد الفرد الواحد منهم تهديدًا كافيًا في حد ذاته، ومن هنا لم تكن لديَّ أي رغبة في اجتذاب آخرين من نوعه، مع إدراكي الكامل أنني قد اضطر في النهاية إلى خوض معركة معه.

ومع غروب الشمس، انجذب انتباهي إلى الواجهة المائية، حيث امتدت الظلال الطويلة للمدينة لمسافة بعيدة عبر قاع البحر الميت. شاهدت مجموعة من المحاربين الخُضر يمتطون حيوانات الثوات الوحشية الكبيرة، ويصعدون منحدرًا بسيطًا في اتجاه المدينة. ربما يصل عددهم إلى عشرين، يتحركون بصمت على الطحلب الناعم الذي يفترش قاع الميناء القديم؛ وحيواناتهم ذات الأقدام المبطنة لا تُصدر أي صوت. أعطتني حركتهم كالأشباح في ظلال نهاية اليوم، دليلاً آخر على أن مصيري قادني إلى شاطئ غير

ودود على الإطلاق. عندئذ، وكأنما لاستكمال ثلاثية التهديد البرسومي المخيف، انطلق هدير البانث[200] من التلال الواقعة وراء المدينة.

كانوا يتحركون في مأمن من المراقبة في البرج العالي فوقهم. رأيت المجموعة عند خروجها من جوف الميناء، ثم توجهها لتستقل الشارع أدناي. ولأول مرة ألاحظ هيئة شخص صغير يجلس أمام أحد المحاربين. يخيم الظلام سريعًا الآن. قبل أن يبتعد الموكب الصغير عن البصر بلحظات وراء زاوية المبنى، وهو يدخل شارع آخر يقود إلى قلب المدينة، أظن أنني أدركت أن تلك الهيئة الصغيرة هي لامرأة من عِرقي. كان أمرًا مفروغًا منه أنها أسيرة، وارتجفت وأنا أفكر في مصيرها. ربما كانت سانوما تورا في خطر مماثل. ربما –ولكن كلا، لا يمكن- كيف يمكن أن تقع سانوما تورا في براثن محاربي جماعة التوركواس الشرسة؟

لا يمكن أن تكون هي. كلا، هذا مستحيل. لكن الحقيقة هي أن الأسيرة امرأة حمراء؛ وسواء كانت سانوما تورا أو غيرها، وسواء كانت من هيليوم أو جاهار، فقد شعر قلبي بالتعاطف معها ونسيت مأزقي؛ لأن شيئًا في داخلي حثني على متابعة خاطفيها والسعي لانتزاعها من براثنهم؛ ولكن، واحسرتاه، يا لخيالي العقيم. كيف يمكنني أن أطمح في إنقاذ شخص آخر، وأنا عاجز حتى عن إنقاذ نفسي؟

أزعجتني هذه الفكرة وجرحت كرامتي، وعقدت العزم على الفور على أنني إن لم أغامر لإنقاذ نفسي، فعلى الأقل أغامر لإنقاذ امرأة من عِرقي؛ وفي ذهني دائمًا فكرة أنها ربما تكون المرأة التي أحبها.

حل الظلام، ووضعت أذني مرة أخرى على الباب المسحور. كان الصمت يرين أدناه، ما أكد لي أن المخلوق قد رحل؛ أو ربما ينتظرني

متربصًا عند مستويات أدنى. ولكن، ماذا في ذلك؟ يجب أن أواجهه في النهاية، إذا اختار أن ينتظر. فككت جراب مسدسي، وكنت على وشك إزاحة قضيب تأمين الباب عندما سمعت صوت الوحش بوضوح أسفلي مباشرة.

توقفت للحظة. ما الفائدة؟ رفع الباب يعني الموت المؤكد، وما الفائدة التي أجنيها أنا أو الأسيرة الضعيفة إذا منحت حياتي هباء هكذا؟ على أن هناك بديلاً – بديلاً كنت

(200) البانث: حيوان مفترس شرس متعدد الأرجل، أصلع تقريبًا مثل جميع الحيوانات المريخية إلا من شعر كثيف خشن كبير كالأسد حول رقبته السميكة. جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشرة أرجل قوية؛ وفكاه الضخمان مجهزان بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية؛ وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراوان هائلتان وجاحظتان وتضيفان لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع – http://barsoom.wikia.com/wiki/Banth - المترجمة.

أخطط لاستخدامه عند الضرورة، منذ لحظة فحصي بداية لبنية البرج الخارجية. بديل يتيح فرصة ضئيلة للفرار من مأزقي؛ والفرصة الضئيلة أفضل مما قد أواجهه إذا رفعت الباب المسحور.

صعدت إلى إحدى نوافذ البرج، ونظرت إلى أسفل على المدينة. لم يكن أي من القمرين في السماء؛ فلم أتمكن من رؤية أي شيء. سمعت أنين الثوات قادمًا من داخل المدينة. قد يُوجد مخيم للرجال الخُضر، وبالتالي يمكنني الاسترشاد بأنين حيواناتهم الشرسة لمعرفة موقعه. زأر بانث مرة أخرى عند التلال. جلست على العتبة، وأرجحت قدميَّ، ثم استلقيت على بطني وانزلقت بصمت على الحافة إلى أن أصبحت معلقًا بيدي فقط. تلمست الواجهة بأصابع قدمي في الصندل، وشعرت بموطئ قدم فوق المنحوتات العميقة على واجهة البرج. فوقي فراغ أسود مشوب بالزرقة ومرصع بالنجوم، وأدناي فراغ تام. ربما تبلغ المسافة إلى السطح أسفلي ألف سوفاد[201] ، أو ربما سوفادًا واحدًا. وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من رؤية أي شيء، فقد كنت أعرف أنها تبلغ مائة وخمسين، وأن الموت يكمن في أسفل إذا انزلقت قدم أو يد.

بدا النحت في وضح النهار كبيراً وعميقًا ومنحدرًا، لكن الوضع في الليل كان مختلفًا! لم تعثر أصابع قدمي سوى على خدوش جوفاء على سطح أملس من الحجر المصقول. كانت ذراعاي وأصابعي متعبة. يجب أن أجد موطئ قدم وإلا سأسقط. شعرت بضياع الأمل، لكن إصبع قدمي في الصندل الأيمن تلمست شقًّا أفقيًّا، وبعد لحظة عثر إصبع قدمي الأيسر على موطئ.

تمددت على الجدار العمودي للبرج حتى تستريح للحظات أصابعي وذراعاي المتعبة. وعندما شعرت أنها ستتحمل وزني مرة أخرى، سعيت لكي تحملني يداي. وهكذا نزلت بوصة تلو بوصة، وأنا أشعر بالألم والخطر والرتابة. تجنبت النوافذ، مما أضاف بطبيعة الحال إلى صعوبة وخطورة هبوطي؛ على أنني راعيت عدم المرور أمامهم مباشرة، خشية أن يكون القرد قد نزل من قمة السلم ويراني مصادفة.

لا أذكر أنني شعرت بالوحدة في حياتي من قبل أكثر مما شعرت به تلك الليلة، خلال هبوطي برج المنارة القديم في تلك المدينة المهجورة، إذ لم يكن حتى الأمل بصحبتي. كانت قبضتي على الحجر الحاد غير ثابتة، ولذا سرعان ما أصاب الخدر والاستنفاد أصابعي. لا أدري كيف تشبثت أصابعي بكل تلك الشقوق السطحية. كان الظلام هو الميزة الوحيدة خلال الهبوط، وشكرت أسلافي الأوائل مائة مرة أنني لم أتمكن

---

(201) السوفاد يعادل حوالي 17.1 بوصة بمقاييس كوكب الأرض - http://barsoom.wikia.com/wiki/Linear_Measurement - المترجمة.

من رؤية الأعماق أسفلي، ما كان يمكن أن يصيبني بالدوار. على أن الظلام، من ناحية أخرى، كان حالكًا إلى حد أنني لم أستطع تحديد المسافة التي نزلتها؛ كما لم أجرؤ على البحث عن الصورة الظلية لقمة البرج في مواجهة السماء التي تضيئها النجوم، خشية أن أفقد توازني وأسقط في الفناء أو على السطح الأدنى. لا ينشر هواء برسوم الرقيق ضوء النجوم إلى حد كبير. ولذا، بينما امتلأت السماء بنقاط ضوئية رائعة، كانت الأرض في أسفل غارقة في الظلام.

ويبدو أنني كنت أقرب إلى السطح مما ظننت عندما حدث ما حرصت بلا كلل على الحيلولة دون حدوثه: أن يحتك غمد سيفي الطويل بواجهة البرج، مُصدرًا بعض الضجيج. بدت في الظلام والصمت ضجة حقيقية. وقد أُبالغ بالقول أنني كنت أعرف أنها تكفي للوصول إلى أذني القرد الضخم في البرج. لم أستطع التخمين كيف سيستقبل هذا الضجيج- كنت آمل فقط أن يتسم ببلادة تجعله لا يربط هذا الضجيج بي أو بهروبي.

بيد أن شكوكي لم تستمر طويلاً؛ إذ جاء صوت على الفور من داخل البرج، صوت بدا لأعصابي المجهدة مثل هبوط جسم ثقيل بسرعة على سُلم. أدرك الآن أن الخيال ربما قد ترجم بسهولة الصمت المطلق إلى هذ الصوت؛ لأنني كنت أستمع بتركيز إلى ذلك الشيء نفسه بحيث ربما

تحولت بسهولة إلى حالة من التوتر العصبي تجعل أي نوع الهلوسة ممكنًا.

وبسرعة مضاعفة، ومع قدر من التهور يكاد يصل إلى حد الانتحار، أسرعت في هبوطي وشعرت خلال لحظات بأرضية صلبة تحت قدمي.

تنفست الصعداء، وإنما يبدو أنها كانت مجرد لحظات من الشعور بالارتياح، إذ أدركت على الفور أن الصوت القادم من داخل البرج لم يكن هلوسة؛ فقد ظهر فجأة القرد الأبيض العظيم، من مدخل لا تفصله عني سوى عشر خطوات.

لم يُصدِر أي صوت عند مهاجمتي. من الواضح أنه لم يظل مستيقظًا بمفرده كل هذه الفترة الطَويلة وفي نيته أن يتقاسم وجبته مع آخر. كان يود قتلي في صمت. وبصمت مماثل، امتشقت سيفي الطويل، وليس مسدسي، لمواجهة هجومه الوحشي.

من المؤكد أنني كنت شيئًا ضئيلاً بلا قيمة وأنا أواجه ذلك الجبل الشاهق من الضراوة الوحشية.

وبفضل ألف مقاتل من أسلافي، برعت في استخدام سيفي الطويل بسرعة وقوة، وإلا لوقعت مع أول هجمة للوحش بين براثنه الوحشية. امتدت أياديه الأربع القوية

لتمسك بي، لكنني وجهت حركة سيفي الطويل لتقطع إحدى يديه من المعصم، وقفزت بسرعة في اللحظة نفسها إلى أحد الجوانب بحيث غرزت خنجري عميقًا في جسد الوحش عندما اندفع ناحيتي بقوة. وبصرخة وحشية من الغضب والألم حاول الانقضاض عليَّ، لكن قدمه انزلقت على يده المقطوعة وتعثّر مرتبكًا في محاولة لاستعادة توازنه، لكنه لم ينجح، وظل متعثراً بغرابة وهو يندفع في اتجاه الحافة ومنها إلى الفناء أدناه.

وخشية أن يجذب صراخ الوحش الآخرين من نوعه إلى السطح، جريت سريعًا إلى حافة المبنى الشمالية، حيث كنت قد شاهدت من البرج في وقت سابق من بعد ظهر اليوم سلسلة من المباني المجاورة أقل ارتفاعًا، وفكرت أنني ربما أتمكن من خلال أسطحها أن أستكمل هبوطي إلى مستوى الشارع.

كان القمر كلوروس يرتفع فوق الأفق البعيد، مُلقيًا ضوءه الشاحب على المدينة بحيث تمكنت أن أرى بوضوح الأسطح التي تقع أسفلي عند وصولي إلى حافة المبنى الشمالية. كان هبوطًا طويلاً، ولكن ما من بديل آمن آخر؛ فمن المحتمل إذا حاولت النزول من خلال المبنى أن أقابل سائر أعضاء قطيع القردة الذين لفت انتباههم صراخ زميلهم.

انزلقت على حافة السطح، وتعلقت يداي للحظات، ثم سقطت. كانت المسافة حوالي 2 آد، لكنني نزلت بأمان ودون إصابات. على كوكبك، كوكب الأرض، بكتلته الأضخم وجاذبيته الأكبر، أعتقد أن السقوط من تلك المسافة قد يكون خطيراً؛ لكن الوضع ليس كذلك بالضرورة على برسوم. كان هبوطي من هذا السطح قصيراً إلى السطح التالي، الذي قفزت منه إلى جدار منخفض ثم إلى الأرض أدناه.

لو لم تكن تلك اللمحة العابرة للفتاة الأسيرة التي رأيتها عند غروب الشمس، لكنت اتجهت مباشرة نحو التلال غرب البلدة، سواء في وجود أو غياب البانث؛ لكنني الآن أشعر بالتزام أخلاقي قوي على عاتقي لأن أبذل أفضل جهد ممكن لإنقاذ الفتاة التعيسة سيئة الحظ التي وقعت في براثن أقسى المخلوقات.

تحركت متسللاً، خلال ظلال المباني، نحو الساحة المركزية للمدينة، التي سمعت من اتجاهها أنين حيوانات الثوات.

تبعد الساحة بمسافة هاد كامل عن الواجهة المائية، واضطررت إلى عبور عدة شوارع متقاطعة وأنا أشق طريقي نحوها، مسترشدًا بأنين متقطع من حيوانات الثوات التي تسكن في فناء قصر ما مهجور.

وصلت الساحة بأمان، واثقًا أنني لست مُراقَبًا.

رأيت على الجانب الآخر ضوءًا داخل أحد المباني الكبيرة المواجِهة، لكني لم أجرؤْ على عبور الفضاء المفتوح في ضوء القمر، ولذا بقيت متشبثًا بالظلال خلال تحركي إلى أقصى نهاية الشكل الرباعي الذي يلقي فوقه القمر كلوروس بأكثر ظلاله كثافة، ووصلت أخيراً إلى المبنى الذي يسكنه الرجال الخُضر. وجدت أمامي مباشرة نافذة منخفضة، من المؤكد أنها لغرفة مجاورة للغرفة التي تضم المحاربين. استمعت بإمعان، لكن لم أسمع أي شيء داخل الغرفة. وضعت ساقي فوق حافة النافذة وتسللت إلًى الداخل المظلم.

سرت على أطراف أصابعي عبر الغرفة، ووجدت بابًا يمكنني أن أنظر من خلاله إلى الغرفة المجاورة. توقفت فجأة عندما لمس قدمي جسم

ناعم، وقفت متجمدًا ووضعت يدي سيفي الطويل عندما رأيت الجسم يتحرك.

* * *

الفصل (4)

تافيا

هناك مناسبات في حياة كل إنسان ينبهر خلالها بالأدلة على وجود قوة خارجية توجه أفعاله؛ ما يوصف أحيانًا بيد العناية الإلهية، أو يُفسر على أساس فرضية الحاسة السادسة التي تنقل إلى الجزء في عقلنا الذي يتحكم في أفعالنا تلك التصورات التي لا ندركها موضوعيًّا. ومع وضع ذلك في الحسبان، تظل الحقيقة أنني عندما وقفت هناك تلك الليلة، في غرفة القصر القديم المظلمة في المدينة المهجورة، ترددت في توجيه طعنة بسيفي إلى الجسم الناعم الذي يتحرك أمام أقدامي. ربما كان ذلك، قبل كل شيء، أكثر مسار اتبعته ويتسم بالعقلانية والمنطقية. ضغطتُ بسن سيفي بحزم على الجسم الناعم، وهمست بكلمة واحدة: «صمتًا!».

ومنذ ذلك الحين، شكرت أسلافي الأوائل ألف مرة لأنني لم أتبع بواعثي الطبيعية؛ فقد رد صوت هامس على تحذيري: «لا تندفع، أيها الرجل الأحمر؛ أنا سجينة ومن نفس عِرقك»، وكان الصوت لفتاة.

سحبت سيفي على الفور، وركعت بجوارها. قالت: «إذا كنت قد جئت لمساعدتي، عليك أن تقطع قيودي وبسرعة؛ لأنهم سرعان ما سيعودون من أجلي».

بنظرة سريعة وجدت أنها مقيدة بسيور جلدية من المعصمين والكاحلين، فأخرجت خنجري وقطعت السيور بسرعة. سألتها وأنا أساعدتها على الوقوف: «هل أنتِ بمفردكِ؟».

فأجابت: «نعم. إنهم يلعبون في الغرفة المجاورة لتحديد لمن سأنتمي». وفي تلك اللحظة جاءنا من الغرفة المجاورة صوت قعقعة الأسلحة الجانبية. قالت: «إنهم قادمون. يجب ألا يجدونا هنا».

أمسكت بيدها وتحركنا إلى النافذة التي دخلت الشقة من خلالها. ومن حسن الحظ أنني ألقيت نظرة استطلاع قبل أن نخرج إلى الشارع؛ إذ عندما نظرت نحو اليمين على طول المبنى، رأيت محاربًا مريخيًّا أخضر يخرج من المدخل الرئيس. ومن الواضح أن قعقعة أسلحته الجانبية، خلال حركته في الشقة المجاورة للوصول إلى المدخل، كانت هي الصوت الذي سمعناه.

سألتها هامسًا: «هل هناك مخرج آخر من هذه الغرفة؟».

وأجابت: «نعم. يوجد أمام هذ النافذة مدخل يؤدي إلى ممر. وكان مفتوحًا عندما أحضروني هنا، لكنهم أغلقوه».

قلت: «سنكون أفضل حالاً داخل المبنى، لبعض الوقت على الأقل. هيا!». مشينا معًا عبر الشقة، ونحن نتلمس طريقنا على طول الجدار في اتجاه الباب الذي تمكنت من تحديد موقعه. فتحت الباب جزئيًّا بحرص شديد، خشية أن يفضح أنين مفصلاته القديمة أمرنا. يوجد بعد المدخل ممر مظلم كأعماق أوميان[202] ، دخلنا وأغلقنا الباب خلف ظهورنا بصمت. تلمسنا طريقنا نحو اليمين، بعيدًا عن الشقة التي يشغلها المحاربون الخُضر. كنا نتحرك ببطء خلال فراغ أسود إلى أن رأينا ضوءًا خافتًا أمامنا الآن، وكشف الفحص أنه يأتي من مدخل الشقة المفتوح الذي يواجه الفناء المركزي بالمبنى. كنت على وشك عبور هذا المدخل والبحث عن مكان اختباء في الأجزاء البعيدة من المبنى، عندما لفت انتباهي أنين أحد حيوانات الثوات في الفناء الذي يقع خارج الشقة التي نمر بها.

اكتسبت منذ طفولتي المبكرة خبرة كبيرة مع سلالة حيوانات الثوات الصغيرة التي يستخدمها عِرقي كحيوانات يركبونها. وخلال زيارتي لتاس تاركاس في ثارك، أصبحت على دراية تامة بالأساليب التي يتبعها الرجال الخُضر للسيطرة على وحوشهم الضخمة.

في حالة الترحال على سطح الأرض، يمكن مقارنة الثوات بأساليب النقل البري الأخرى؛ تمامًا مثل مقارنة طائرة الاستطلاع المخصصة لشخص واحد بجميع السفن الأخرى في الملاحة الجوية. والثوات هو الأسرع والأكثر خطورة في آن، بحيث عندما يواجه المرء مشكلة تتعلق بالنقل البري -كما هو حالي الآن- من الطبيعي أن يثير أنين الثوات خطة في ذهني.

سألتني الفتاة: «لماذا تتردد؟ لا يمكننا الهرب في هذا الاتجاه لعدم قدرتنا على عبور الفناء».

«على العكس»، أجبتها، «أعتقد أن أضمن طريق للفرار يكمن في هذا الاتجاه».

اعترضت قائلة: «لكن حيواناتهم الثوات مُقيدة في الفناء، ولا يوجد المحاربون الخُضر أبدًا بعيدًا عن حيواناتهم».

---

(202) أوميان: تجمع مائي كبير يقع تحت سطح المريخ بميلين - https://barsoom.fandom.com/wiki/Omean_Sea - المترجمة.

أجبت: «أود التحقق من الفناء لأن الثوات فيها».

قالت: «بمجرد أن يشم الثوات رائحتنا، سوف يثيرون جلبة تجذب انتباه أسيادهم، وسوف يكتشفون وجودنا على الفور ويمسكون بنا».

قلت: «ربما؛ ولكن إذا نجحت خطتي، ستكون جديرة بالمخاطرة. وإنما إذا كنتِ تشعرين بخوف شديد، فسوف أتخلى عنها».

قالت: «كلا، لست أنا مَن يختار أو يوجه. لقد كنت كريمًا معي وساعدتني، وسوف أتبع قيادتك. ولكن، إذا أخبرتني بخطتك، ربما أتبعك بشكل أكثر ذكاء».

قلت: «بالتأكيد؛ خطتي بسيطة جدًّا. توجد حيوانات ثوات. سوف نأخذ واحدًا منهم ونبتعد به. هذا أسهل كثيراً من السير، ويزيد من فرص هروبنا. وفي الوقت نفسه، سوف نترك بوابات الفناء مفتوحة على أمل أن تتبعنا حيوانات الثوات الأخرى، بحيث تترك أسيادها غير قادرين على متابعتنا».

قالت الفتاة: «إنها خطة مجنونة، لكنها شجاعة. إذا اكتشفونا، سوف ينشب قتال، وأنا بلا سلاح. أعطني سيفك القصير، أيها المحارب، حتى نكون مستعدين على الأقل للدفاع عن أنفسنا».

ففككت غمد سيفي القصير في عتادي، وعلقته على فخذها الأيسر. وعندما لمست جسدها وأنا أعلق السيف، لم تفتني ملاحظة عدم وجود أي علامة على الارتجاف، والتي كانت لتظهر إذا كانت قلقة أو خائفة. بدت باردة تمامًا ورابطة الجأش، وكانت نبرة صوتها تبعث على اطمئناني. لقد عرفت أنها ليست سانوما تورا عندما تحدثت أول مرة في ظلام الغرفة التي وجدتها فيها. وعلى الرغم من شعوري بخيبة أمل شديدة، ما زلت مصممًا على القيام بأفضل ما يمكن للمساعدة في هروب فتاة غريبة، مع ثقتي أن وجودها قد يؤخرني ويحرجني إلى حد كبير، كما يعرضني إلى خطر أكبر كثيراً من مصير محارب يسافر بمفرده. ولذلك، شعرت بالاطمئنان أن رفيقي غير المرغوب ليس عاجزاً تمامًا.

قلت، بعد أن انتهيت من ربط سيفي القصير بعتادها: «أثق أنكِ لن تُضطري إلى استخدامه».

قالت: «سوف تجدني، إن دعت الضرورة، قادرة على استخدامه».

أجبت: «جيد. عليك الآن أن تتبعيني وتبقي بالقرب مني».

كشف مسح دقيق للفناء من نافذة الغرفة التي تطل عليه عن وجود حوالي عشرين ثواتًا ضخمًا، وعدم وجود أي محارب أخضر؛ ما يدل على شعورهم بالأمان التام ضد أي أعداء.

احتشدت حيوانات الثوات في أقصى نهاية الفناء؛ كان عددًا قليلاً لأن الوقت كان ليلاً، لكنَّ الباقين كانوا يتحركون بلا هوادة كعادتهم. توجد بوابتان ضخمتان على الجانب الآخر من الفناء، وعند الطرف نفسه. وأعتقد، بقدر ما يمكنني أن أتبين، أنهما حاجزان لفتحة وحيدة في الفناء كبيرة بما يكفي لحركة الثوات، وأفترض أن بعدهما يوجد زقاق يؤدي إلى أحد الطرق القريبة.

كان الوصول إلى البوابات مع الثوات دون مراقبة بمثابة الخطوة الأولى في خطتي. وللقيام بهذه الخطوة على نحو أفضل، قررت التماس شقة بالقرب من البوابة، رأيت على جانبيها نوافذ مماثلة لتلك التي ننظر منها. ولذا أومأت إلى رفيقتي لمتابعتي. عُدنا إلى الممر، وتلمسنا طريقنا ثانية في الظلام. في الشقة الثالثة التي بحثت فيها، وجدت نافذة تطل على موضع من الفناء بجوار البوابة. وعند الجدار الذي يمتد بزوايا قائمة إلى الجدار الذي يضم النافذة، وجدت مدخلاً ينفتح على ممر مُقبب كبير على الجانب الآخر من البوابة. شجعني هذا الاكتشاف إلى حد كبير، لأنه يتسق تمامًا مع الخطة التي تدور في ذهني، كما أنه يقلل في الوقت نفسه من المخاطر التي قد تواجهها رفيقتي في مغامرة الهرب.

قلت لها، وأنا أوقفها خلف البوابة: «عليكِ أن تبقي هنا. إذا نجحت خطتي، سوف آتي راكبًا أحد الثوات في هذا الممر، وعندئذ يجب أن تكوني على استعداد للإمساك بيدي والركوب خلفي. وإذا انكشفت وفشلت، سوف أهتف بعبارة 'من أجل هيليوم!' وهي إشارة لكِ لتهربي بأفضل طريقة ممكنة».

وضعت يدها على ذراعي، وقالت متوسلة: «دعني أذهب إلى الفناء معك. سيفان أفضل من سيف واحد».

قلت: «كلا. فرصتي للتعامل مع الثوات بمفردي أفضل، حتى لا يصرف شخص آخر انتباههم».

قالت: «حسنًا»، وعندئذ تركتها وعُدت إلى الغرفة، ثم اتجهت مباشرة إلى النافذة. نظرت للحظة مستطلعًا الجزء الداخلي من الفناء. وعندما وجدت أن الظروف لم تتغير، خرجت متسللاً من النافذة، وتقدمت ببطء نحو البوابة. فحصت المزلاج بحذر واكتشف سهولة معالجته، وسرعان ما دفعت إحدى البوابات بصمت على مفصلاتها. ولما انفتحت

باتساع كافٍ يسمح بمرور الثوات، وجهت انتباهي إلى الوحوش في الحظيرة. إن هذه المخلوقاتً الوحشية، التي لم يتم ترويضها عمليًّا، تُعد جامحة مثل نظيراتها مطلقات السراح في قيعان البحار البعيدة؛ ونظرًا لأن توارد الخواطر هي وسيلة التحكم الوحيدة فيها، يسهُل انصياعها لإيحاء أقوى أسيادها؛ ومع ذلك تتطلب السيطرة عليها مهارة كبيرة.

تعلمت الأسلوب من تارس تاركاس نفسه، وشعرت بمهارتي الكبيرة التي تجعلني الآن أخوض هذا الاختبار الحاسم لقوتي بكل الثقة اللازمة للنجاح.

اتخذت موضعي بالقرب من البوابة، وركزت كل قدراتي الذهنية في اتجاه إرادتي، تخاطريًّا، على مخ الثوات الذي اخترته لهدفي. وقد حددت اختياري له بناء فقط على أنه أكثرهم قربًا مني. ظهر أثر جهدي على الفور. فالمخلوق الذي كان يبحث في مجموعات الطحلب التي تنمو أحيانًا بين بلاطات أحجار الفناء، رفع رأسه ونظر حوله. اضطرب على الفور، لكنه لم يصدر أي صوت لأني أردت منه أن يلتزم الصمت. تحركت عيناه الآن في اتجاهي وتوقف عندي. وببطء وجهته ناحيتي. كان العمل بطيئًا، فمن الواضح أنه شعر أنني لست سيده، وما إن اقترب مني، حتى توقف وتشمم بغضب. لا بد أنه أدرك، بعد أن شم رائحتي، أنني لست حتى من نفس العِرق الذي اعتاده. وعندئذ بذلت أقصى مدى لقواي الذهنية. كان واقفًا هناك يهز رأسه القَبيح جيئةً وذهابًا، وتحجز شفتاه المزمجرة أنيابه الكبيرة. رأيت خلفه حيوانات ثوات أخرى، اجتذبتها تصرفاته. كانت تنظر في اتجاهنا وتتحرك باضطراب، مع اقترابها نحونا. إذا اكتشفت تلك الثوات وجودي وبدأت في الأنين- وهو أول علامة دائمًا على سهولة إثارة غضبها- سوف أعرف أن المحاربين سرعان ما يهاجمونني؛ ذلك أن الثوات بطبيعته العصبية والمزاجية يُعد بمثابة كلب حراسة، فضلاً عن كونه وحش الأعباء الثقيلة، للبرسوميين الخُضر.

تردد للحظة الوحش الذي اخترته، كأنما يتردد قبل أن يقرر ما إذا كان يتراجع أم يهاجم، لكنه لم يفعل أيًّا منهما؛ بل تحرك نحوي ببطء. وعندما اجتزت البوابة إلى الممر المقبب بعدها، تبعني. كان هذا أفضل مما توقعت، لأنه أتاح لي إجباره على الانبطاح، بحيث تمكنت أنا والفتاة من الركوب بسهولة.

يقع أمامنا ممر طويل مقبب، يمكنني أن أرى في نهايته طريقًا أسفل قنطرة يُضيئه القمر. وقد عبرناه الآن ووصلنا إلى شارع واسع.

التلال على اليسار، ولذا استدرت إلى هذا الاتجاه ودفعت الثوات على طول الطريق القديم المهجور بين صفوف من الأنقاض نحو الغرب و ... ماذا؟

عندما التف الطريق صاعدًا إلى التلال، ألقيت نظرة، ولم أستطع أن أمنع شعوري بالاغتباط وأنا أرى في ضوء القمر صفًّا من حيوانات الثوات الضخمة، التي كنت واثقًا أيضًا أنها تعرف جيدًا ماذا تفعل بحريتها الجديدة.

قلت للفتاة، مُشيراً إلى الثوات بإيماءة: «لن يتمكن خاطفوكِ من مطاردتنا الآن».

قالت: «أسلافنا معنا الليلة. دعنا نصلي ألا يتركونا أبدًا».

الآن، ولأول مرة، ألقي نظرة جيدة إلى حد ما على رفيقتي، حيث كان القمران كلوروس وثوريا في السماء، والضوء جيد. لن تتعجب إن كشفت عن دهشتي؛ ففي الظلام، حيث صوت رفيقتي هو مرشدي الوحيد، كنت على ثقة أنني أساعد امرأة، لكنني عندما أنظر الآن إلى الشعر القصير والوجه الصبياني ... لا أعرف كيف أفكر؛ لم يساعدني العتاد الذي ارتداه في تبرير استنتاجي الأول، فمن الواضح تماما أنه عتاد رجل.

اندفعت قائلاً: «كنت أظنكِ فتاة».

اتسع الفم في ابتسامة كشفت عن أسنان قوية وبيضاء. وقالت: «أنا فتاة».

«لكن شعركِ، عتادكِ، حتى هيئتكِ، تنفي كلامكِ».

ضحكت بمرح. وهذا كان أهم جوانب سحرها، كما عرفت لاحقًا - أن بمقدورها أن تضحك بسهولة، دون أن تسبب أي جرح للمشاعر.

قالت: «صوتي يخونني. هذا سيئ للغاية».

سألتها: لماذا سيئ للغاية؟».

«لأن شعورك سيكون أفضل مع مقاتل كرفيق لك، بينما تشعر الآن أن رفيقك مجرد عبء».

أجبت: «عبء خفيف»، مع تذكُّري مدى سهولة رفعها إلى ظهر الثوات. «ولكن، أخبريني، من أنتِ ولماذا تتنكرين في هيئة صبي».

قالت: «أنا عبدة؛ مجرد فتاة عبدة هربت من سيدها»، ثم أضافت بحزن، «ربما يُحدِث ذلك فرقًا. ربما تأسف لأنك دافعت عن مجرد فتاة عبدة».

قلت: «كلا، لا يوجد فرق. أنا شخصيًّا مجرد بادوار فقير، لست غنيًّا بما يكفي لأمتلك عبدًا. وربما أنتِ التي تأسفين لأن من أنقذكِ ليس رجلاً ثريًّا».

ضحكت. وقالت: «أنا هربت من أغنى رجل في العالم، أو أعتقد على الأقل أنه أغنى رجل في العالم؛ فمن يمكن أن يكون أكثر ثراء من تول أكستار، جيداك جاهار؟».

قلت صائحًا: «أنتِ تنتمين إلى تول أكستار، جيداك جاهار؟».

أجابت: «نعم. لقد سُرِقت عندما كنت صغيرة جدًّا من مدينة تُسمى تجاناث، ومنذ ذلك الحين أعيش في قصرِ تول أكستار. وهو لديه العديد من النساء- الآلاف منهن. يعشن أحيانًا في قصره طوال حياتهن دون أن يروه أبدًا. أما أنا، فقد رأيته»، ثم أضافت مرتجفة، «إنه شخص فظيع. لم أكن غير سعيدة هناك، لأنني لم أعرف أمي أبدًا؛ لقد توفيت عندما كنت صغيرة، ووالدي مجرد ذكرى. كنت صغيرة جدًّا جدًّا عندما سرقني مبعوثو تول أكستار من بيتي في تجاناث. أقمت صداقات مع الجميع في قصر تول أكستار. أحبني الجميع، العبيد والمحاربون وقادة القبائل، لأني كنت أتصرف دائمًا بصبيانية، واستمتعوا بتدريبي على استخدام الأسلحة، وحتى الملاحة في الطائرات الصغيرة؛ ثم جاء يوم انتهت فيه سعادتي إلى الأبد- رآني تول أكستار. شاهدني وأرسل في طلبي. تظاهرت بالمرض ولم أذهب. وفي الليل ذهبت إلى مسكن جندي أعرف أنه يؤدي واجب الحراسة، وسرقت عتاده، وقصصت شعري الطويل، ودهنت وجهي بحيث أبدو أشبه برجل، ثم ذهبت إلى الحظائر على سطح القصر، وخدعت الحراس بحيلة، وسرقت طائرة تسع شخصًا واحدًا».

وأضافت: «أعتقد أنهم إذا قرروا أصلاً البحث عني، سوف يبحثون في اتجاه تجاناث، ولذا طرت في الاتجاه المعاكس، نحو الشمال الشرقي، بهدف الطيران في دائرة كبرى إلى الشمال، ثم العودة إلى تجاناث. وبعد أن حلقت فوق زاناتور[203] ، اكتشفت بستانًا كبيرًا من المانتاليا[204] التي تنمو عند قاع البحر الميت، وهبطت على الفور للحصول على بعض الحليب من هذا النبات؛ لأنني غادرت القصر على عجل ولم تتح لي فرصة للتزود بالمؤن. كان بستان المانتاليا أكبر من المعتاد، ويقدم حماية ممتازة من المراقبة نظرًا لارتفاع النباتات من 8 إلى 12 سوفاد. لم أجد صعوبة في العثور على مكان جيد للهبوط داخل حدود البستان. وبغية منع كشفي من أعلى، أخفيت طائرتي بين أوراق تتخذ شكل قوس لشجرتين من أشجار المانتاليا، ثم بدأت في الحصول على إمدادات من الحليب».

(203) زاناتور: من مدن المريخ الساحلية القديمة وكانت تقع جنوب شرق توركاس، وتوجد الآن في أراضي جحافل التوركواس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Xanator - المترجمة.

(204) مانتاليا: نوع من الأشجار كبيرة الحجم، تُسمى أحيانًا «نبات الحليب»، وتوجد في بساتين على طول قيعان البحر الميت. تنمو عمليًّا دون ماء، وتفرز كمية وفيرة من عصارة تشبه الحليب - https://barsoom.fandom.com/wiki/Mantalia - المترجمة.

«ونظرًا لأن الأشياء القريبة لا تبدو بمثل جاذبية الأشياء البعيدة، تجولت لمسافة تبعد قليلاً عن طائرتي قبل أن أجد النباتات التي تمنح إمدادات وفيرة كافية من الحليب الغني».

«دخلتُ أيضًا مجموعة من المحاربين الخُضر إلى البستان للحصول على حليب. وبينما كنت أقف بجوار الشجرة قد اخترتها، اكتشف أحدهم وجودي وأسرني. تيقنت من أسئلتهم أنهم لم يروني وأنا أدخل البستان، وأنهم لا يعرفون أي شيء عن طائرتي. لا بد أنهم كانوا في جزء من

البستان يتسم بغزارة أوراق الشجر عندما كنت أهبط بطائرتي. على أي حال، هم يجهلون وجود طائرتي، وأنا مصممة على استمرار جهلهم بها».

«وبعد حصولهم على قدر الحليب الذي يريدونه، عادوا إلى زاناتور وأنا معهم. وأنت تعرف باقي القصة».

سألتها: «هل هذه هي زاناتور؟».

أجابت: «نعم».

سألتها: «وما اسمكِ؟».

أجابت: «تافيا. وما اسمك؟».

قلت: «تان هادرون، من هاستور».

قالت: «اسم جميل». كانت الطريقة التي تحدثت بها تنم عن صراحة صبيانية، ما أقنعني أنها كانت لتسرع في إخباري إن لم يعجبها اسمي. لم تحمل نبراتها أي إطراء أبله. وعرفت لاحقًا، عندما أصبحت أكثر معرفة بها، أن الصدق والصراحة من السمات التي تميزها. على أنني، في هذه اللحظة، لم أهتم بمثل هذه الأمور لأن ذهني كان مشغولاً بجزء من قصتها، حيث أثارت عندي طريقة سهلة وسريعة للفرار من محنتنا.

سألتها: «هل تعتقدين أن بإمكانكِ العثور على بستان المانتاليا، حيث أخفيتِ طائرتكِ؟».

فأجابت: «أثق تمامًا في ذلك».

سألتها: «وهل يمكن أن تسع الطائرة لشخصين؟».

قالت: «إنها طائرة لشخص واحد، لكنها يمكن أن تحمل كلينا، رغم أن ذلك سوف يؤدي إلى خفض سرعتها وارتفاعها».

أخبرتني أن البستان يقع جنوب شرق زاناتور، ولذا أدرت رأس الثوات في اتجاه الشرق. وبعد أن اجتزنا مسافة كبيرة خارج حدود المدينة، تحركنا في اتجاه الجنوب أسفل التلال على قاع البحر الميت.

كان القمر ثوريا يبحر في رحلته السريعة عبر السماء، مُلقيًا بظلال غريبة دائمة الحركة على الطحلب الأصفر الذي يغطي الأرض، بينما يتخذ القمر كلوروس البارد أعلاه طريقه ببطء وجلال. أنار ضوء القمرين المشهد الطبيعي بوضوح. كنت على يقين من أن أي أعين حريصة يمكنها بسهولة أن تكشفنا عند أنقاض زاناتور، على الرغم من أن ظلال ثوريا سريعة الحركة كانت مفيدة لنا؛ لأن ظلال كل شجيرة أو شجرة واهنة تسفر عن حركة مفرطة على سطح قاع البحر الذي يقل فيه وضوح ظلنا المتحرك. على أن أكثر أمل سعدت بتحققه هو أن جميع حيوانات الثوات سارت خلف وحشنا منذ مغادرتنا الفناء، وأننا تركنا المحاربين الخُضر دون حيوانات ركوب، وبالتالي لن يتمكنوا من ملاحقتنا.

كان الوحش الضخم الذي يحملنا يتحرك بسرعة وصمت، بحيث لم يمضِ وقت طويل قبل أن نشهد على بُعد أوراق الشجر الظليلة في بستان المانتاليا، وسرعان ما دخلنا حدوده القاتمة. لم يكن دون صعوبة كبيرة أن عثرنا على طائرة تافيا. ولسعادتي الشديدة أيضًا أننا وجدناها في حالة جيدة؛ فقد شاهدنا أكثر من شكل لظل يتسلل خلال الغابة، وأنا أعرف أن الحيوانات الضارية في التلال القاحلة والقرود البيضاء الكبيرة في المدن المُدمَرة كانت مولعة أيضًا بحليب المانتاليا، وسنكون محظوظين، في الواقع، إن تجنبنا أي مواجهة معهم.

وصلنا إلى أقرب مكان ممكن من الطائرة. تركت تافيا على الثوات، وترجلت بسرعة، ثم أخرجت الطائرة الصغيرة إلى العراء. أظهر فحص لعناصر التحكم أنها ظلت دون مساس، وهو ما أشعرني براحة كبيرة؛ فقد خشيت أن تكون الطائرة قد تضررت بفِعل القرود الكبيرة، التي تميل إلى الفضول والتدمير.

وما إن تأكدت أن كل شيء على ما يُرام، حتى ساعدت تافيا كي تترجل، وخلال لحظات كنا على سطح الطائرة. استجابت الطائرة بشكل مُرضٍ، على الرغم من بطئها قليلاً، وعلى الفور كنا نطفو بلطف إلى أعلى، في ظل أمان مؤقتٍ لليلة برسومية.

كانت الطائرة من تصميم عفا عليه الزمن الآن في هيليوم؛ فلم تكن مجهزة ببوصلة تحكُم في الاتجاه، ما جعل من الضروري أن يظل الطيار دائمًا عند لوحات التحكم. مكاننا على السطح الصغير كان ضيقًا للغاية، وتوقعت أن أمامنا رحلة غير مريحة. تقطعت أحزمة أماننا المربوطة بنفس الحلقات على السطح، ونحن نرقد على أرضيته المصنوعة من خشب السكيل الصلب ونكاد نكون متلامسين. أما القلنسوة التي تحمي وجوهنا من اندفاع الرياح، التي تولدها سرعتنا البطيئة نسبيًّا، فلم تكن مرتفعة بما يكفي لتسمح لنا بتغيير مواقعنا إلى حد كبير، على الرغم من أننا كنا نجد راحتنا أحيانًا في الجلوس وظهورنا

في اتجاه مقدمة السفينة، مما يخفف من ملل البقاء باستمرار في وضع واحد. وعندما كنت أريد إراحة عضلاتي المحشورة، كانت تافيا تتولى توجيه الطائرة. لكن الرياح الباردة في ليل برسوم كانت تعود بي دائمًا خلال لحظات وراء القلنسوة.

اتفقنا خلال نقاشنا حول مقصدنا النهائي، أن نتوجه نحو الجنوب الغربي.

أخبرت تافيا برغبتي في الذهاب إلى جاهار وسببها. أبدت اهتمامًا كبيراً بقصة اختطاف سانوما تورا؛ ومن معرفتها بتول أكستار وعادات وتقاليد جاهار، ظنت أنه من الأكثر احتمالاً العثور على الفتاة المفقودة هناك. أما عن إمكانية إنقاذها، فهذه مسألة أخرى وقد هزت رأسها متشككة.

كان من الواضح أن تافيا لا ترغب في العودة إلى جاهار، إلا أنها لم تضع أي عقبات أمام مسار بحثي عن هدفي الكبير. وفي الواقع، أعطتني موقع جاهار وأدارت بنفسها مقدمة الطائرة نحو المسار الصحيح.

سألتها: «هل ستواجهين خطرًا كبيراً بعودتكِ إلى جاهار؟».

أجابت: «سيكون الخطر كبيراً جدًّا، لكن العبد يذهب حيث يذهب سيده».

قلت: «أنا لست سيدكِ، وأنتِ لستِ عبدتي. ولنعتبر أنفسنا رفاق سلاح».

قالت ببساطة: «هذا جميل جدًّا»، ثم أضافت بعد برهة، «وإذا كنا رفاقًا، اسمح لي إذَنْ أن أحذرك من الذهاب مباشرة إلى جاهار. سيتعرفون على هذه الطائرة فورًا. وسيدل عتادك على أنك أجنبي، ولن تحقق أي شيء نحو إنقاذ سانوما تورا أكثر من إرسالك إلى حُفر تول أكستار، ثم إشراكك عاجلاً أو أجلاً في المباريات على الساحة الكبيرة، حيث تُقتل في نهاية المطاف».

سألتها: «ماذا تقترحين إذَنْ؟».

«ما وراء جاهار، في اتجاه الجنوب الغربي حيث تقع تجاناث، مدينة مولدي. وهي المدينة الوحيدة، من بين جميع المدن في برسوم، التي آمل أن تستقبلني بطريقة ودية، وسوف يستقبلونك بمثل ما يستقبلونني. وهناك يمكنك الإعداد بصورة أفضل لدخول جاهار، وهو ما لا يمكن تحقيقة إلا بالتنكر كمواطن من جاهار؛ ذلك أن تول أكستار لا يسمح لأي غريب بالوجود في حدود إمبراطوريته إلا من يتم إحضارهم كأسرى حرب وعبيد. وفي تجاناث، يمكنك الحصول على عتاد ومعادن جاهار، كما يمكنني تدريبك على عادات وآداب إمبراطورية تول أكستار، بحيث تستطيع خلال فترة زمنية قصيرة دخولها ولديك قدر طفيف معقول من الثقة أن بإمكانك خداعهم بشأن هويتك. أما دخولك دون تحضير جيد، فسيكون قاتلاً».

رأيت حكمة مشورتها، وبناء على ذلك غيرنا مسارنا بغية المرور جنوب جاهار، والتوجه مباشرة نحو تجاناث، على بُعد ستة آلاف هاد.

سافرنا، خلال ما تبقى من الليلة، بمعدل منتظم يبلغ حوالي ستمائة هاد كل زود – وهي سرعة بطيئة مقارنة بطائرة الراكب الواحد الجيدة التي حضرت بها من هيليوم.

ومع شروق الشمس، كان لون الطائرة الأزرق المروع هو أول ما جذب انتباهي بوجه خاص.

قلت صائحًا: «ما هذا اللون الغريب للطائرة!».

نظرت تافيا نحوي، وقالت: «هناك سبب جيد؛ سبب سوف تفهمه تمامًا قبل أن تدخل جاهار».

* * *

الفصل (5)

إلى الحُفر

امتد أسفلنا المشهد الطبيعي الغريب لليل برسوم، في ضوء القمرين دائم التغيُّر، حيث تبتعد طائرتنا في تحليقها البطيء بحمولتها عن زاناتور فوق التلال المنخفضة التي تُعين الحدود الجنوبية الغربية لجحافل التوركواس الخُضر الشرسين. ناقشنا، مع حلول يوم جديد، مدى استصواب الهبوط وانتظار حلول الليل قبل متابعة رحلتنا؛ فقد أدركنا أن أملنا في الهروب قد يضيع إن شاهدتنا زوارق الأعداء.

قالت تافيا: «تمر طائرات قليلة من هذا الطريق، وأعتقد أننا إذا واصلنا المراقبة الجيدة سنكون آمنين في الهواء كما على الأرض؛ فعلى الرغم من أننا خرجنا من حدود توركواس، لا يزال الخطر قائمًا من غارات مجموعاتهم التي غالبًا ما تصل إلى أبعد من ذلك بكثير».

وعلى هذا النحو تقدمنا ببطء في اتجاه تجاناث، وأعيننا تمسح السماء باستمرار في جميع الاتجاهات.

إن رتابة المشهد الطبيعي، علاوة على بطء تقدمنا، كان يمكن في العادة أن يجعل هذه رحلة لا تُطاق بالنسبة لي؛ ولدهشتي، مر الوقت بسرعة. وأعتقد أن هذا يرجع أساسًا إلى لُطف وذكاء رفيقتي، فلا يمكن إنكار أن تافيا كانت صُحبة ممتازة. أعتقد أننا تحدثنا عن كل شيء في برسوم، وبطبيعة الحال دار قدر كبير من الحديث عن خبراتنا وشخصياتنا، بحيث شعرت - قبل أن نصل إلى تجاناث بوقت طويل – أنني أعرف تافيا أكثر من أي امرأة أخرى عرفتها، وكنت على يقين أنني لم أضع ثقتي بالكامل في أي شخص آخر.

كان لتافيا طريقة تجبرك على الثقة. لهذا، ولدهشتي، وجدت نفسي أناقش أكثر تفاصيل حياتي السابقة حميمية معها، آمالي، طموحاتي وتطلعاتي، فضلاً عن المخاوف والشكوك التي أتصور أنها تهاجم عقول جميع الشباب.

شعرت بإحراج صادم عندما أدركت تمامًا كيف كشفت عن مكنون نفسي لهذه العبدة الصغيرة، لكن صدق اهتمام تافيا بدد هذا الشعور، مثلما بدده إدراكي بأنها تبادلني الثقة نفسها.

قطعنا المسافة بين زاناتور وتجاناث في ليلتين ويوم. وما إن لاحت أبراج ومنصات هبوط وجهتنا في الأفق البعيد، نحو نهاية الزود الأول من اليوم الثاني، حتى أدركت أن الساعات التي امتدت منذ تركنا زاناتور كانت - لسبب يصعب تفسيره – بمثابة فترة سعيدة لم أعشها من قبل.

انتهينا الآن. وتجاناث أمامنا، شعرت بأسف واضح أنها لا تقع على الجانب الآخر من برسوم.

وباستثناء سانوما تورا، لم أحرص من قبل بشكل خاص أن أكون بصحبة نساء. لا أقصد نقل انطباع بأنني لم أكن أحبهن، فهذا غير صحيح لأن صحبتهن بين الفينة والأخرى كانت لطيفة واستمتعت بها؛ لكن وجودي لساعات عديدة في صحبة امرأة واحدة لا أحبها وإنما أستمتع بكل دقيقة معها، قد بدا لي من ضروب المستحيل. على أن هذه حقيقة ما حدث، ووجدت نفسي أتساءل عن إذا كانت تافيا تشاركني الاستمتاع بالمغامرة.

قلت، مُشيراً إلى اتجاه المدينة البعيدة: «لا بد أن هذه هي تجاناث».

فأجابت: «نعم».

غامرت بالقول: «لا بد أنكِ سعيدة بانتهاء الرحلة».

ألقت نظرة سريعة نحوي، وتقلص حاجباها فجأة وهي تُفكر، ثم أجابت على نحو غامض: «ربما يجب أن أكون سعيدة».

قلت لتذكيرها: «هذا وطنك».

أجابت: «ليس لديَّ وطن».

قلت بإصرار: «ولكنَّ أصدقاءَك هنا».

قالت: «ليس لديَّ أي أصدقاء».

قلت لتذكيرها: «نسيت هادرون الهاستوري».

«كلا»، قالت، «لم أنس أنك كنت لطيفًا معي، لكنني أتذكر أنني مجرد حادث صادفك خلال بحثك عن سانوما تورا. ربما تذهب غدًا، ولن نتقابل ثانية».

لم أفكر في ذلك، ووجدتني لا أحب التفكير في الأمر؛ لكني أعرف أنه صحيح. قلت: «سرعان ما ستقيمين صداقات هنا».

أجابت: «آمل ذلك. لكني ذهبت منذ وقت طويل وكنت صغيرة جدًّا عند اختطافي، ولذا لا أتذكر سوى أقل القليل عن حياتي في تجاناث. تجاناث لا تعني لي شيئًا بالفعل. يمكنني أن أشعر بالسعادة في أي

مكان آخر في برسوم مع … مع صديق».

نحن الآن أعلى جدار المدينة الخارجي، وانقطع حديثنا بظهور طائرة، يبدو أنها لدورية تقترب منا. كانت تُصدر صوت إنذار – ويمزق صراخ بوقها الحاد صمت الصباح الباكر. وعلى الفور التقطت الأجراس التحذير، وأطلقت صفارات الإنذار في جميع أنحاء المدينة. قام زورق الدورية بتغير مساره وارتفع فوقنا بسرعة، بينما ارتفعت من جميع منصات الهبوط عشرات الطائرات المقاتلة حتى أصبحنا محاطين بها كلية.

حاولت توجيه التحية إلى أقربهم، لكن صوتي غرق في الضجيج الجهنمي لإشارات التحذير. غطتنا مئات البنادق، وكانت طواقمها تقف جاهزة لتدميرنا.

سألت تافيا: «هل تجاناث تستقبل الزوار دائمًا بهذه الطريقة العدائية؟».

هزت رأسها قائلة: «لا أعرف. ربما فهمت ذلك لو كنا أتينا في سفينة غريبة من سفن الحرب؛ ولكن، لماذا تجذب طائرتنا الاستطلاعية الصغيرة نصف قوات تجاناث البحرية … انتظر!»، صاحت فجأة. «إن تصميم ولون طائرتنا يشير إلى أنها من جاهار. لقد رأى شعب تجاناث هذا اللون من قبل ويخشونه؛ إذَنْ، لو هذا صحيح، لماذا لم يطلقوا علينا النار؟».

أجبت: «لا أعرف لماذا لم يطلقوا علينا النار من البداية، لكن من الواضح لماذا لا يطلقونه الآن. سفنهم حولنا كثيرة جدًّا، ولا يمكنهم إطلاق النار دون تعريض رجالهم وطائراتهم إلى الخطر».

سألتني: «ألا توجد طريقة يمكنك خلالها أن توضح لهم أننا أصدقاء؟».

أطلقت على الفور إشارات الصداقة والاستسلام، لكن السفن بدت تخشى الاقتراب. توقفت إشارات الإنذار، وظلت السفن تحلق حولنا بصمت.

قمت ثانية بتحية سفينة قريبة. وصحت: «لا تطلقوا النار؛ نحن أصدقاء».

أجاب ضابط على سطح السفينة التي وجهت لها التحية: «الأصدقاء لا يأتون إلى تجاناث في سفن الموت الزرقاء لجاهار».

قلت بإصرار: «دعنا نقترب، على الأقل لأثبت لكم أننا لن نسبب أي ضرر».

أجاب: «لن تأتي بجوار سفينتي. وإذا كنتم أصدقاء، يمكنكم إثبات ذلك بالقيام بما أطلبه منكم».

سألته: «ماذا تريد؟».

«عليك تغيير اتجاهك وأخذ طائرتك خارج أسوار المدينة، ثم تهبط بها على مسافة هاد على الأقل وراء البوابة الشرقية، وبعد ذلك يمكنكما السير نحو المدينة».

سألته: «هل تعطينا وعدًا بحسن استقبالنا؟».

أجاب: «سوف نستجوبكما، وإذا كان الأمر على ما يرام، فما من شيء يدعوكما للخوف».

أجبته: «حسنًا، سنفعل ما تطلبه. أعطِ إشارة لسفنكم الأخرى كي تفسح لنا الطريق». وعندما فتحوا لنا ممرًّا، طرنا خلاله ببطء فوق أسوار تجاناث وهبطنا على مسافة هاد تقريبًا خارج البوابة الشرقية.

وعند اقترابنا من المدينة، تأرجحت البوابات مفتوحة وخرجت كتيبة من المحاربين لمقابلتنا. كان من الواضح أنهم يتشككون فينا ويخافون منا. أمرنا بادوار الكتيبة بالتوقف، رغم أن المسافة بيننا وبينهم كانت لا تزال مائة سوفاد.

قال آمرًا: «عليكم إلقاء أسلحتكم، ثم التحرك إلى الأمام».

قلت: «لكننا لسنا أعداء. ألا يعرف شعب تجاناث كيف يستقبل الأصدقاء؟».

كانت إجابته الوحيدة: «عليكما تنفيذ ما أقوله، أو سندمركما».

لم يسعني إلا أن أهز كتفي اشمئزازًا وأنا أسلمهم أسلحتي، بينما ألقت تافيا السيف القصير الذي كنت أعطيته لها. تقدمنا دون سلاح نحو المحاربين، ومع ذلك لم يبد البادوار مستريحًا تمامًا؛ فقد قام بتفتيش عتادنا بعناية قبل أن يقتادنا أخيرًا إلى المدينة، مع استمرار إحاطتنا بالمحاربين.

عند إغلاق البوابة الشرقية لتجاناث خلفنا أدركت أننا سجناء ولسنا ضيوفًا كما كنا نأمل، لكن تافيا حاولت طمأنتي بالإصرار على أنهم عندما يسمعون قصتنا سوف يعطوننا حريتنا ويمنحوننا الضيافة الواجبة.

قادنا الحراس إلى مبنى على الجانب الآخر من الشارع المواجه للبوابة الشرقية. ونحن الآن عند منصة هبوط واسعة على سطح المبنى. كانت تنتظرنا هنا طائرة دورية، وقام البادوار بتسليمنا إلى الضابط المسؤول، الذي اتسم موقفه تجاهنا بكراهية وعدم ثقة مستترين.

ارتفعت طائرة الدورية بمجرد صعودنا على متنها، وحلقت في اتجاه وسط المدينة.

تقع أسفلنا مدينة تجاناث، وتعطي انطباعًا بأنها لم تكن مواكبة للتطورات الحديثة. فقد بدت فيها علامات من العصور القديمة؛ عكست المباني الهندسة المعمارية للقدماء، وكان العديد منها في حالة سيئة، على الرغم من أن الكثير من القبح في المدينة كانت تخفيه أو تخففه أوراق الأشجار الكبيرة ونبات الكروم المتسلق، بحيث كان المشهد إجمالاً يبعث على الرضى. توجد ساحة كبيرة في اتجاه وسط المدينة، ومحاطة كليًّا بمبانٍ عامة فاخرة، بما فيها قصر الجِد. هبطت الطائرة على سطح أحد هذه المباني.

قادونا تحت حراسة قوية إلى داخل المبنى. وبعد فترة انتظار قصيرة، أدخلونا إلى حضرة أحد كبار المسؤولين. ومن الواضح أنهم أبلغوه بالفعل بالظروف المحيطة بوصولنا في تجاناث، لأنه كان يتوقعنا وعلى دراية بكل ما حدث حتى اللحظة الراهنة.

سألنا: «ماذا تفعلان في تجاناث، أيها الجاهاريان؟».

قلت: «أنا لست من جاهار. انظر إلى معادني».

أجاب بخشونة: «قد يُغير المحارب معادنه».

قالت تافيا: «لم يُغير هذا الرجل معادنه. وهو ليس من جاهار؛ إنه من هاستور، إحدى مدن هيليوم. وأنا من جاهار».

نظر إليها المسؤول في دهشة، وصاح: «تعترفين بذلك إذَنْ!».

قالت الفتاة: «لكني أصلاً من تجاناث».

سألها: «ماذا تقصدين؟».

أجابت تافيا: «لقد سُرقت من تجاناث عندما كنت طفلة صغيرة. ومنذ ذلك الحين وأنا عبدة في قصر تول أكستَار، جيداك جاهار». وقد تمكنت مؤخرًا من الفرار في الطائرة نفسها التي وصلنا بها إلى تجاناث. هبطت بطائرتي بالقرب من مدينة زاناتور الميتة، وأسرني رجال توركواس الخُضر. وهذا المحارب، وهو هادرون الهاستوري، أنقذني منهم. وجئنا معًا إلى تجاناث، متوقعين استقبالاً وديًّا».

سألها المسؤول: «من هم أهلكِ في تجاناث؟».

أجابت تافيا: «لا أعرف؛ كنت صغيرة جدًّا. لا أتذكر عمليًّا أي شيء عن حياتي في تجاناث».

«ما اسمكِ؟».

«تافيا».

كان اهتمام الرجل بقصتها يبدو سطحيًّا تمامًا، لكنه تغير فجأة وبدا عليه الاندهاش.

سألها: «هل تعرفين أي شيء عن والدكِ أو عائلتكِ؟».

أجابت تافيا: «لا أعرف أي شيء».

التفت إلى البادوار المسؤول عن مرافقتنا، وقال: «احتفظ بهما هنا حتى أعود»، ثم نهض من مقعده وغادر الشقة.

قلت لتافيا: «يبدو أنه تعرّف على اسمكِ».

سألتني: «كيف يمكنه؟».

قلت: «ربما كان يعرف عائلتك. فطريقته تطرح على الأقل أنهم سيعطوننا بعض الاعتبار».

قالت: «آمل ذلك».

قلت لها مؤكِدًا: «أشعر أن مشاكلنا على وشك أن تنتهي، تافيا؛ وسأسعد كثيراً لأجلكِ».

قالت: «وأنت، أظن أنك سوف تحاول الحصول على مساعدة لمواصلة بحثك عن سانوما تورا؟».

قلت: «بالطبع. هل تتوقعين مني أقل من ذلك؟».

أقرت بصوت شديد الانخفاض: «كلا».

على الرغم من أن شيئًا في سلوك المسؤول الذي استجوبنا قد منحني الأمل في مستقبلنا، فقد شعرت بالاكتئاب لأن حديثنا يؤكد اقتراب انفصالنا. شعرت كأني عرفت تافيا دومًا، ذلك أن الأيام التي أمضيناها معًا قد جعلتنا في الواقع قريبين جدًّا. أعرف أنني سأفتقد خفة دمها وتألقها، وتعاطفها الدائم ورفقة صمتها الهادئ؛ ثم برزت ملامح سانوما تورا الجميلة في ذاكرتي. ولأني أعرف أين يكمن واجبي، ألقيت أسفي جانبًا، لأنني أعرف أن الحب أكبر من الصداقة، وأنا أحب سانوما تورا.

عاد المسؤول إلى الشقة ثانية بعد فترة طويلة. تأملت وجهة لقراءة

أول بشائر الأخبار الجيدة، لكن تعبيره كان مبهمًا. على أن كلماته الأولى الموجهة إلى البادوار كانت مفهومة تمامًا.

قال: «احتجز المرأة في البرج الشرقي، وأرسل الرجل إلى الحُفر».

هذا كل شيء. إنها مثل صفعة على الوجه. نظرت إلى تافيا ورأيت اتساع نظرة عينيها نحو المسؤول. قالت: «تعني معاملتنا كسجناء؟ أنا ابنة تجاناث، وهذا المحارب الذي أتى إلى هنا من دولة صديقة يلتمس معونتكم وحمايتكم؟».

قاطعها المسؤول: «سوف تُخصص لكل منكما لاحقًا جلسة استماع أمام الجِد. لقد تحدثت. خذوهما».

أمسك بي العديد من المحاربين بخشونة من ذراعي. مضت تافيا بعيدًا عن المسؤول، وكانت تنظر نحوي. قالت: «وداعًا، هادرون الهاستوري! إنه خَطَئِي أنك هنا. ليغفر لي أسلافي!».

رجوتها: «لا تلومي نفسكِ، تافيا، فمن كان يمكنه أن يتوقع مثل هذا الاستقبال الغبي؟».

أخرجونا من الشقة من بابين مختلفين؛ استدرنا ليلقي كل منا آخر نظرة على الآخر. ملأت الدموع عينَي تافيا، وقلبي.

اقتادوني على الفور إلى حُفر تجاناث، التي كانت قاتمة وإن لم تكن مُغلفة في ظلام لا يمكن اختراقه – مثلها مثل الحُفر الموجودة أسفل معظم مدن برسوم. تسرب إلى

الزنزانة، خلال قضبانها الحديدية، ضوء الممرات الخافت؛ حيث كانت مصابيح الراديوم القديمة تضيء بخفوت. على أي حال هناك ضوء، وصليت شاكرًا لأنني كنت أعتقد دائمًا أنني سوف أصاب بالجنون إن سُجنت في ظلام مطلق.

كانت قيودي شديدة ورأيت أنها بلا داعٍ؛ فقد قيدوني بالسلاسل إلى حلقة حديدية ضخمة تنغرس بعمق في جدار زنزانتي، ثم غادروا وهم يُغلقون أيضًا الحاجز الحديدي أمام المدخل.

ابتعدت خطوات المحاربين إلى أن تلاشت، ثم سمعت صوتًا خافتًا لشيء يتحرك بالقرب مني في الزنزانة. تُرى ما هذا؟ أجهدت عيني في الظلام القاتم.

اعتادت عيناي الآن على ضوء زنزانتي الخافت، ورأيت هيئة رجل رابض على الجدار بالقرب مني. تحرك الرجل وسمعت الصوت ثانية، لكنه كان مصحوبًا هذه المرة بقعقعة سلسلة؛ ثم رأيت وجهًا ينظر نحوي، لكنني لم أستطع تمييز ملامحه.

قال صوت جاء من الشخصية التي لم تكن واضحة بجواري: «ضيف آخر يشاركني كرم الضيافة في تجاناث». كان الصوت واضحًا - صوت رجل - وأعجبني جرسه النوعيّ.

سألته: «هل يستضيف مضيفونا كثيرين مثلنا؟».

أجاب: «لم تكن هذه الزنزانة تضم سوى ضيف واحد، والآن تضم اثنين. هل أنت من تجاناث أم من مكان آخر؟».

«أنا من هاستور، مدينة إمبراطورية تاردوس مورس، جيداك هيليوم».

قال: «أنت على مسافة بعيدة عن وطنك».

أجبته: «نعم؛ وأنت؟».

أجاب: «أنا من جاهار. اسمي نور آن».

قلت: «وأنا اسمي هادرون. لماذا أنت هنا؟».

أجاب: «أنا سجين لأنني من جاهار. وأنت، ما جريمتك؟».

قلت: «لأنهم يعتقدون أنني من جاهار».

«وما الذي جعلهم يعتقدون ذلك؟ هل ترتدي معادن جاهار؟».

«كلا، أنا أرتدي معادن هيليوم، لكن ما حدث أنني أتيت إلى تجاناث في طائرة جاهارية».

أصدر صفيراً، ثم قال: «هذا قد يصعب تفسيره».

قلت مؤكدًا: «هذا صحيح. لم يصدقوا أي كلمة في قصتي، أو في قصة من كان في صحبتي».

سألني: «كانت لديك صحبة إذَنْ، أين هو؟».

«إنها امرأة. وُلدت في تجاناث، لكنها ظلت لسنوات طويلة عبدة في جاهار. ربما يصدقون قصتها لاحقًا، لكننا الآن في السجن. سمعتهم يأمرون بإيداعها في البرج الشرقي، بينما أرسلوني هنا إلى السجن».

«وهنا، سوف تبقى إلى أن تتعفن، إلا إذا كنت محظوظًا بما يكفي ليستدعوك إلى المباريات، أو سيئ الحظ بما يكفي للحُكم بإرسالك إلى الهلاك».

سألته، وقد أثار تركيزه على الكلمات فضولي: «وما هو 'الهلاك'؟».

«لا أعرف»، أجاب، «يتحدث عنه كثيراً المحاربون الذين يأتون إلى هنا، باعتباره شيئًا فظيعًا جدًّا. ربما يفعلون ذلك لتخويفي؛ ولكن إذا كان كلامهم صحيحًا، فلم أُشعِرهم بالارتياح، لأني -سواء كنت خائفًا من

عدمه- لا أسمح لهم برؤية ذلك».

قلت: «لنأمل في المباريات إذَنْ».

قال زميلي: «إنهم هنا في تجاناث مملون وأغبياء. وقد أخبرني المحاربون أنه في بعض الأحيان تنقضي سنوات عديدة بين مباريات الحلبة، لكننا نأمل على الأقل؛ فالموت هناك بسيف طويل جيد في يد شخص أفضل بالتأكيد من التعفن هنا في الظلام، أو الموت في 'الهلاك'، مهما كان».

قلت: «هذا صحيح. لنتضرع إلى أسلافنا أن يقرر جِد تجاناث إقامة المباريات في المستقبل القريب».

«أنت إذَنْ من هاستور»، قال بعد لحظة تأمل صامتة: «إنها مسافة طويلة من تجاناث. من المؤكد أنها مهمة مُلحة تلك التي أحضرتك من هذه المسافة البعيدة!».

أجبت: «كنت أبحث عن جاهار».

قال: «ربما من حسن حظك أنك وجدت تجاناث أولاً؛ فعلى الرغم من أنني جاهاري، لا يمكنني التباهي بكرم الضيافة في جاهار».

سألته: «تعتقد إذَنْ أنني لم أكن لأحظ بترحيب حار هناك؟».

صاح بشدة لافتة للنظر: «كلا، باسم سلفي الأول، كان تول أكستار سيلقيك في الحُفر قبل أن يسأل عن اسمك؛ والحُفر في جاهار ليست مضيئة أو مُسلية كهذه».

قلت: «لم تكن في نيتي أن يعرف تول أكستار بزيارتي».

سألني: «هل أنت جاسوس؟».

أجبت: «كلا. اختطف الجاهاريون ابنة قائد الأوماك الذي التحق به، ولديَّ سبب للاعتقاد أنهم اختطفوها بأوامر من تول أكستار نفسه. وهدف رحلتي هو إنقاذها».

قال بخفة: «وتقول هذا لجاهاري؟».

أجبت: «بثقة كاملة. فمن البداية قرأت في كلماتك ونبرة صوتك أنك لست صديقًا لتول أكستار، جيداك جاهار؛ وثانيًا، تبدو فرص عودتك إلى جاهار ضئيلة».

قال: «أنت على حق في كلا التخمينين. إنني بالقطع لا أحب تول أكستار. إنه وحش، يكره جميع الرجال المحترمين. وسبب كراهيتي له يماثل كثيراً سبب كراهيتك له، إلى حد وجود رابط مشترك بيننا في الواقع».

سألته: «وكيف ذلك؟».

«لم أشعر طوال حياتي إلا بالازدراء تجاه تول أكستار، جيداك جاهار، على أن هذا الازدراء لم يتحول إلى كراهية حتى سرق امرأة؛ وسرقة امرأة هي أيضًا ما وجهت حقدك ضده».

سألته: «امرأة من عائلتك؟».

أجاب نور آن: «حبيبتي، المرأة التي كنت سأتزوجها. أنا من عائلة نبيلة، من سلالة قديمة وثروة كبيرة. ولهذا كان تول أكستار يعرف أن لديه سببًا وجيهًا للخوف مني، ودفعه هذا الخوف إلى مصادرة ممتلكاتي وحكم عليَّ بالإعدام. ونظرًا لكثرة أصدقائي في جاهار، وأحدهم محارب من الحرس، تستر على فراري بعد أن سجنوني في الحُفر».

«اتخذت طريقي إلى تجاناث وحكيت قصتي إلى الجِد هاج أوسيس، وألقيت سيفي تحت قدميه وأنا أعرض عليه خدماتي. لكن هاج أوسيس أحمق عجوز ومفعم بالشك، واعتبرني جاسوسًا من جاهار وأمر بإلقائي في الحُفر. وأنا هنا منذ فترة طويلة».

قلت: «لا بد أن جاهار بلد تعيس، لأن رجلاً مثل تول أكستار هو حاكمها. لقد سمعت عنه الكثير مؤخرًا، لكني لم أسمع عنه حتى الآن فضيلة واحدة».

قال نور آن: «إنه لا يتمتع بأي فضيلة. هو طاغية قاسٍ وعفن، علاوة على الفساد والرذيلة. إذا كانت أي من القوى العظمى في برسوم قد خمنت ما يدور في ذهنه، لكانوا أخضعوا جاهار منذ فترة طويلة ودمروا تول أكستار».

سألته: «ماذا تقصد؟».

«يتبنى تول أكستار، منذ مائتي سنة على الأقل، حلمًا رائعًا، وهو إخضاع برسوم كلها. وخلال تلك الفترة، جعل القوى العاملة معبوده؛ لا يجوز تدمير أي بيض، وإجبار جميع النساء على المحافظة على ما تضعه من بيض[205] . وهناك جيش من الموظفين والمفتشين يسجلون إنتاج كل امرأة. ويكافئون النساء اللاتي ينتجن أكبر عدد من الذكور؛ ويقتلن غير المُنتِجات. وعندما اكتشف أن الزواج يميل إلى تخفيض إنتاجية الإناث في جاهار، أصدر مرسومًا إمبراطوريًّا لحظر الزواج بين أي طبقات أقل من طبقة النبلاء.

«وكانت النتيجة زيادة مروعة في عدد السكان إلى أن أصبحت العديد من المقاطعات في جاهار غير قادرة على دعم الأعداد الهائلة التي تحتشد مثل النمل في التل. ليس بمقدور أغنى الأراضي الزراعية في برسوم دعم مثل هذه الأعداد؛ وقد استُنفِدت جميع الموارد الطبيعية؛ ويموت الملايين جوعًا، وينتشر أكل لحوم البشر في العديد من المناطق.

«وطوال كل ذلك الوقت، كان ضباط تول أكستار يتولون تدريب الذكور على الحرب، ويزرعون فكرة الحرب داخل عقولهم في فترة مبكرة من وعيهم. وأصبحوا يتطلعون إلى الحرب، الحرب فقط، للتخفيف من ظروف اضطهادهم البشعة. واليوم

(205) نساء المريخ لا يلدن، بل يضعن البيض.

تطالب ملايين لا تُحصى بالحرب، لإدراكها أن النصر يعني النهب، وأن النهب يعني الطعام والثروات. يقود تول أكستار بالفعل جيشًا هائلاً، بحيث قد يقع مصير برسوم بسهولة في راحة يده، لولا وجود عقبة واحدة».

سألته: «وما هي؟».

أجاب نور آن: «تول أكستار جبان. بعد أن حقق حلمه في القوى العاملة، يخاف من استخدامها خشية أن يفرض المصير وقوع أحداث تؤدي إلى فشل خططه العسكرية وتنهزم قواته. ولذلك ينتظر، بينما يحث علماء جاهار على إنتاج أسلحة ذات قوة فائقة تدمر أي شيء تمتلكه أي أمة أخرى في برسوم بحيث تصبح جيوشه لا تُقهر.

«وقد ظلت أفضل العقول في جاهار تجتهد لسنوات إلى أن تمكن أحد أبرز علمائنا، وهو رجل مُسن يُدعى فور تاك، من تطوير بندقية ذات خصائص مذهلة.

«أثار نجاح فور تاك غيرة علماء آخرين. وعلى الرغم من أن الرجل العجوز أعطى تول أكستار ما كان يريده، لم يُظهر له الطاغية أي امتنان، وتعرض فور تاك لإهانات واضطهاد جعله يهرب في نهاية المطاف من جاهار.

«بيد أن ذلك لا يشكل أهمية. لقد فعل فور تاك كل ما يمكن أن يفعله لتول أكستار، وكان الجيداك، مع بندقية جديدة في حوزته، سعيدًا بالتخلص من عالِم عجوز».

انصب اهتمامي، بطبيعة الحال، على البندقية التي تحدث عنها نور آن، وتمنيت أن يخوض في وصفها بتفصيل أكبر، لكنني لم أجرؤ أن أطلب منه ذلك، خشية أن يحول الولاء الطبيعي الذي يشعر به كل رجل لموطن دون إفشاء أسرار عسكرية لشخص غريب. بيد أنني عرفت أن هذه المشاعر الوطنية السامية، التي تُعد جزءًا من كل رجل في هيليوم، تتولد من الحب والاحترام الذي نكنه لكل جيداك هيليومي عظيم بقدر ما تتولد من ارتباطنا الطبيعي لموطن ميلادنا؛ بينما من ناحية أخرى، لا يشعر الجاهاريون سوى بالازدراء والبغض تجاه رئيس بلدهم؛ ولأنهم لا يشعرون بالولاء له، وهذا هو وضعهم بالفعل، كانوا يعتبرون الوطنية ليست أكثر من شعار فارغ، استخدمها سيد غير جدير بها لتحقيق أغراضه، بحيث أصبحت بلا معنى. وعلى هذا النحو، في حين كنت مندهشًا الآن، فقد فهمت لاحقًا لماذا شرح لي طواعية نور آن بالتفصيل كل ما يعرفه عن سلاح جاهار الجديد الغريب ووسائل الدفاع ضده.

واصل حديثه بعد لحظة صمت: «هذه البندقية الجديدة ستجعل جميع الجيوش والقوات البحرية الأخرى في برسوم عاجزة أمامنا. فهي تطلق أشعة غير مرئية، يؤدي تأثير

اهتزازاتها إلى تغيير تكوين المعادن على نحو يسبب تفككها. أنا لست عالِمًا؛ لا أفهم التفسير الدقيق لهذه الظاهرة، ولكن مما تمكنت من فهمه خلال مناقشة هذا السلاح الجديد في جاهار عندي انطباع أن هذه الأشعة تُغير قطبية البروتونات في المواد المعدنية، وتُطلق الكتلة بمجملها كإلكترونات حرة. كما سمعت أيضًا في شرح النظرية أن فور تاك اكتشف، خلال بحثه، تطابق المبدأ الرئيس الذي يشكل أساس الزمان والمادة والمكان، وأن ما تحققه الأشعة التي تطلقها بندقيته هو بالفعل تحويل أي كتلة من المعدن توجه نحوها إلى أبسط مكونات المكان.

«على أي حال، يمتلك تول أكستار القوى العاملة والسلاح، ومع ذلك لا يزال مترددًا. إنه خائف ويسعى إلى أعذار لتأجيل حرب الغزو والنهب التي يطالب بها الملايين من رعاياه الآن. وتحقيقًا لهذه الغاية، وضع خطة تقوم على الإصرار على وسيلة للدفاع ضد هذه البندقية الجديدة، واستند في مطلبه إلى إمكانية اكتشاف بعض القوى الأخرى أيضًا لسلاح

مماثل، أو في النهاية عن طريق استخدام جواسيس أو مخبرين لمعرفة السر من جاهار. وربما لدهشته الكبيرة، ولشعوره دون شك بالحرج، أن الرجل الذي كان مساعدًا في مختبر فور تاك قد تمكن الآن من تطوير مادة من شأنها تبديد أشعة السلاح الجديد، ما يجعلها أشعة عديمة الضرر. وبهذه المادة زرقاء اللون، يدهنون الآن الأجزاء المعدنية لسفن وأسلحة وعتاد جاهار.

«لكن تول أكستار قرر ثانية تأجيل حربه، مُصرًّا على إنتاج كمية ضخمة من البنادق الجديدة وأسطول قوي من السفن الحربية ليضع عليها تلك البنادق. ثم يقول إنه سوف يبحر ويقهر برسوم كلها».

اتضح أمامي تمامًا الآن تدمير زورق الدورية فوق هيليوم ليلة اختطاف سانوما تورا. وعندما أخبرني نور آن في وقت لاحق أن تول أكستار أرسل طائرات تجريبية لمهاجمة تجاناث، فهمت لماذا سببت الطائرة الزرقاء، التي أوصلتنا أنا وتافيا، مثل هذا الذعر. بيد أن الفكرة التي أزعجتني، إلى حد استبعاد محنة سانوما تورا، هي أنه في مكان ما في هواء برسوم الرقيق يتحرك أسطول كبير من هيليوم للهجوم على جاهار، أو على الأقل هذا ما أتصوره، فليس لديَّ أي سبب للشك في أن كبير الخدم في قصر تور هاتان لم يُسلم الرسالة التي أعطيتها له إلى أمير الحرب. إن فكرة بقائي هنا مقيدًا في حُفر تجاناث، بينما يسرع أسطول كبير من هيليوم إلى التدمير، قد ملأتني بالرعب. لقد رأيت بعيني آثار هذا السلاح الجديد الرهيب، وكنت أعرف أنه لم يكن حلمًا فارغًا من جانب نور آن عندما قال إن بإمكان تول أكستار قهر عالَمًا بهذا السلاح؛ لكنَّ هناك دفاعًا في مواجهته. إذا أمكنني

فقط أن أستعيد حريتي، لن يقتصر الأمر على تحذير سفن هيليوم وإنقاذها من موت حتمي، وإنما قد اكتشف أيضًا خلال بحثي عن سانوما تورا في مدينة جاهار، سر الدفاع ضد الأسلحة التي تمكن الجاهاريون من تطويرها.

الحرية! كانت تبدو سابقًا أكثر شيء مرغوب في العالم؛ أما الآن فقد أصبحت ضرورية.

* * *

الفصل (6)

الحكم بالموت

لم أبقَ طويلاً في حفر تجاناث قبل وصول المحاربين، الذين فكوا أغلالي واقتادوني خارج زنزانتي. محاربان اثنان فقط، ولاحظت إهمالهما وتراخي انضباطهما خلال مرافقتي إلى الطابق العلوي من القصر؛ وتصورت حينذاك أن ذلك لا يعني سوى تغيُّر موقف المسؤولين وأنني سوف أحظى بحريتي.

لا يوجد شيء لافت للنظر في قصر جِد تجاناث. كان مكانًا فقيراً مقارنة بقصور بعض كبار نبلاء هيليوم. ومع ذلك لا أعتقدَ أنني أُوليت من قبل هذا الاهتمام الكبير بتفاصيل كل معمار، وكل ممر ومدخل، أو بسلوك وعتاد وزخارف الناس الذين مروا بنا؛ فعلى الرغم من أن الأمل في أنني على وشك نيل حريتي لم يفارق قلبي، فقد كنت أعتبر هذا المكان بمثابة سجني وهؤلاء الناس هم السجانون. ونظرًا لأن هدفي كان الهرب، عزمت على عدم ترك أي تفاصيل تغيب عن عيني، فربما تساعدني بأي طريقة إذا آن أوان استرداد حريتي.

تلك كانت الأفكار التي تشغل موقع الصدارة في ذهني وهم يقتادوني خلال بوابات واسعة إلى حضرة محارب مرصع بالجواهر. وما إن وقعت عيني عليه، حتى أدركت على الفور أنني في حضرة هاج أوسيس، جِد تجاناث.

توقف حارساي أمامه، وأخذ الجِد يتفحصني باهتمام شديد، وفي مناخ من الشك الذي يُعد سمته المميزة.

سألني: «اسمك وبلدك؟».

أجبته: «أنا هادرون من هاستور، بادوار في سلاح البحرية في هيليوم».

قال، موجهًا لي الاتهام: «أنت من جاهار. وقد جئت إلى هنا من جاهار، مع امرأة من جاهار، في طائرة جاهارية. هل تنكر ذلك؟».

أخبرت هاج أوسيس بالتفصيل كل شيء أدى إلى وصولي تجاناث. أخبرته أيضًا بقصة تافيا. ويجب أن أشيد على الأقل بصبره في الاستماع، على الرغم من شعوري

الدائم بأنني أقدم التماسي إلى عقل متحامل ضدي بالفعل، بحيث لا يوجد شيء يمكنني قوله قد يُغير اقتناعه.

دل سلوك رؤساء القبائل ورجال الحاشية الذين يحيطون بالجِد على شكوكهم، وأصبحت مقتنعًا بأن الخوف من تول أكستار قد استحوذ عليهم إلى حَد العجز عن النظر بذكاء في أي مسألة تتصل بأنشطة جيداك جاهار. الذعر جعلهم متشككين، والشك يرى كل شيء من خلال عدسات مشوهة.

بعد أن انتهيت من قصتي، أمر هاج أوسيس بإخراجي من الغرفة وأخذوني إلى غرفة انتظار صغيرة لبعض الوقت، بينما يناقش حالتي -كما تخيلت- مع مستشاريه.

وعندما اقتادوني إلى حضرته ثانية، شعرت أن جو القاعة كله ملبد بالعداء. وقفت للمرة الثانية أمام المنصة التي يجلس الجِد فوقها على كرسي العرش المنحوت.

أعلن هاج أوسيس، بغضب في وجهي: «قوانين تجاناث عادلة، وجِد تجاناث رحيم. يُعامل أعداء تجاناث بعدالة، لكنهم لا يتوقعون الرحمة. أنت يا من تسمي نفسك هادرون الهاستوري، مُدان باعتبارك جاسوس أخبث أعدائنا، تول أكستار من جاهار. وعلى هذا النحو، أحكم عليك، أنا هاج أوسيس، جِد تجاناث، بالموت في 'الهلاك'. لقد تحدثت». وبلفتة قاسية، ألمح إلى الحراس لإخراجي.

الحُكم غير قابل للاستئناف. تقرر موتي. استدرت في صمت، وغادرت القاعة بصحبة حرس من المحاربين. لكني أقول، من أجل شرف هيليوم، إن خطواتي كانت حازمة ورأسي عاليًا.

في طريق عودتي إلى الحُفر، سألت البادوار المسؤول عن مرافقتي عن تافيا. لكنه رفض إخباري، حتى إن كان يعرف عنها أي شيء. وأنا الآن مُقيد مرة أخرى في زنزانة مظلمة إلى جوار نور آن الجاهاري.

سألني: «حسنا؟».

أجبته: 'الهلاك'.

مد يده المُقيدة خلال الظلام ووضعها على يدي، وقال: «أنا آسف، يا صديقي».

فقلت: «ليس للإنسان سوى حياة واحدة؛ إذا أُتيح له أن يمنحها لسبب وجيه، فلا ينبغي أن يشكو».

قال: «أنت تموت من أجل امرأة».

قلت للتصحيح: «أموت من أجل امرأة من هيليوم».

فقال: «ربما سنموت معًا».

«ماذا تقصد؟».

«بعد أن ذهبت، جاء رسول من كبير خدم القصر ينصحني بالتصالح مع أسلافي، لأنني سرعان ما أموت في 'الهلاك'».

قلت: «أتساءل، ما هذا 'الهلاك'».

أجاب نور آن: «لا أعرف. ولكن من نبرات الرعب المكتوم التي يذكرونه بها، أتصور أنه رهيب».

سألته: «التعذيب، هل تتصور ذلك؟».

أجاب: «ربما».

قلت: «سوف يجدون أن رجال هيليوم، الذين يعرفون جيدًا كيف يعيشون، يعرفون أيضًا كيف يموتون».

فقال نور آن: «آمل أن أقدم مثلاً جيدًا أيضًا. لن أمنحهم متعة معرفة أنني أعاني. مع ذلك، أتمنى أن أعرف مسبقًا ما سأواجهه، حتى أكون أفضل استعدادًا لمواجهته».

قلت: «ما من داعٍ لإثارة الكآبة بالتفكير في الأمر. دعنا، بالأحرى، نأخذ الجزء الرجولي، ونبحث في خطط لإحباط أعدائنا والتمكن من الهرب».

فقال: «أخشى أن الأمر ميؤوس منه».

قلت: «سأرد عليك بعبارة جون كارتر الشهيرة: 'ما زلت أعيش!'».

قال بإعجاب: «فلسفة عمياء للشجاعة المطلقة، إلا أنها دون جدوى».

قلت بإصرار: «لقد ساعدته في العديد من الأوقات، لأنها أمدته بالإرادة لمحاولة المستحيل وإحراز النجاح. نحن ما زلنا نعيش، نور آن؛ لا تنسَ- ما زلنا نعيش!».

قال صوت أجش، قادم من الممر: «عليكما الاستفادة بذلك ما دام بإمكانكما، فلن يظل ذلك صحيحًا لفترة طويلة».

دخل المتحدث زنزانتنا– محارب من الحرس، يرافقه شخص واحد. تُرى ما قدر ما سمعه من حديثنا، لكني سرعان ما شعرت بالاطمئنان؛ لأن الكلمات التالية التي قالها المحارب الذي بدأ بالحديث كشفت عن أنهم لم يسمعوا أي شيء غير أننا ما زلنا نعيش.

سألني: «ماذا تعني بقولك 'لا تنسَ، نور آن، نحن ما زلنا نعيش'؟».

تظاهرت أنني لم أسمع سؤاله، ولم يكرره؛ لكنه توجه نحوي مباشرة وفك قيودي. وعندما أدار ظهره ليفك قيود نور آن، لاحظت إهماله الذي لا يُغتفر. كان رفيقه يتبختر عند المدخل، بينما انحنى المحارب الأول على القفل الذي يغلق أغلال نور آن.

كان أسلافي كرماء معي؛ لم أتوقع فرصة كهذه، لكني انتظرت -مثل بانث عظيم يستعد للانقضاض- انتظرت حتى يحرر نور آن. وعندما سقطت الأغلال بعيدًا عن رفيقي، قذفت نفسي على ظهر المحارب. انبطح على وجهه واهنًا فوق الحجر، حيث سقط بقوة تحت ثِقل وزني، وعندئذ انتزعت خنجره من غمده وغرزته بين عظام كتفه. مات بصرخة واحدة، ولم يراودني أي خوف من أن يصل صدى هذه الصرخة إلى أعلى خارج الحُفر القاتمة في تجاناث لتحذير زملائه عند المستوى الأعلى.

لكن زميله شاهدنا وسمعنا، وقفز داخل الزنزانة وسيفه الطويل جاهز في يده، ورأيت الآن الهمّة التي أبداها نور آن.

حدث الأمر بسرعة، كصاعقة من البرق في سماء صافية، إلى حد إيجاد عذر لأي رجل تجمد للحظات في ذهول، لكن نور آن لم يكن مذنبًا بأي تأخير فادح؛ فكأنما خططنا للأمر معًا، إذ انطلق إلى الأمام لمطاردة المحارب الثاني في اللحظة نفسها التي قفزت فيها على المحارب الأول. وواجه وهو أعزل السيف الطويل الذي في يد خصمه.

أدى ظلام الزنزانة إلى الحد من ميزة الرجل المسلح، الذي رأى شخصًا يقفز لمواجهة هجومه، ولم يعرف في سياق إثارة وظلام الخلية أن نور آن غير مسلح. تردد، وتوقف، ثم تراجع إلى الوراء ليتلقى الهجوم الطائش القادم من الظلام. أسرعت في تلك اللحظة بإخراج السيف الطويل من غمده لدى المحارب الذي سقط، وهاجمت الرجل من زاوية تختلف قليلاً عن زاوية نور آن.

اشتبكنا خلال لحظات، ولم أجد الزميل مبارزاً متوسطًا؛ لكني عرفت منذ لحظة تماس سيفينا أنني أتفوق عليه، ولا بد أنه أدرك ذلك بسرعة لأنه تراجع في موقف دفاعي

تمامًا، وكان من الواضح أنه عازم على الفرار إلى الممر. وبالتأكيد كنت مصممًا على عدم السماح له بذلك، فضغطت عليه بقوة بحيث لم يجرؤ على الاستدارة للفرار، كما لم يطلق

أي نداء للحصول على مساعدة لأنه –كما أعتقد- أدرك عدم جدوى القيام بذلك.

كنت ونور آن نقاتل، بيأس الحيوانات الحبيسة، من أجل حياتنا. لا يمكن هنا إثارة أي تساؤل حول التقيد الصارم بقواعد القتال؛ فهي إما حياته أو حياتنا. وبهذا الإدراك، انتزع نور آن السيف القصير من جثة المحارب الميت، وفي لحظة كان المحارب الثاني يرقد في بركة من دمه.

تساءل نور آن: «وماذا الآن؟».

سألته: «هل أنت على دراية بالقصر؟».

فأجاب: «كلا».

قلت: «إذَنْ علينا أن نعتمد على القليل الذي تمكنت من معرفته خلال ملاحظتي. دعنا نرتدي عتاد هذين الرجلين على الفور. ربما يوفر لنا ذلك تنكرًا يكفي للسماح لنا بالوصول إلى أحد المستويات العليا على الأقل؛ إذ من دون معرفة جيدة بالحُفر، ما من جدوى أن نحاول إيجاد مهرب تحت الأرض».

قال: «أنت على حق». خرجنا بعد عدة لحظات إلى الأروقة بوصفنا اثنين من محاربي حرس هاج أوسيس، جد تجاناث. ومع اعتقادنا أن جرأة التصرف هي أفضل ضمان ضد كشفنا، توليت قيادةَ الطريق نحو الطابق الأرضي للقصر دون أي محاولة للجوء إلى التسلل أو السرية.

قلت لنور آن: «يوجد العديد من المحاربين عند المدخل الرئيس للقصر، ودون معرفة أي شيء عن اللوائح التي تنظم دخول وخروج نزلاء المبنى، سيكون انتحارًا إن حاولنا الوصول إلى الشارع خارج القصر بهذا الطريق».

سألني: «ماذا تقترح إذَنْ؟».

«يُعد الطابق الأرضي للقصر مكانًا مزدحمًا، والناس يجيئون ويذهبون باستمرار خلال الممرات. ومما لا شك فيه أن تردد الناس يقل في بعض المستويات العليا. ولذا، لنبحث عن مكان اختباء في أعلى، ويمكننا من موقع جيد بإحدى الشرفات أن نضع خطة عملية للهروب».

قال: «جيد! هيا، عليك قيادة الطريق!».

صعدنا السلم المتعرج عند أدنى الحُفر، وانتهينا من مستويين قبل أن نصل إلى الطابق الأرضي للقصر دون أن نلتقي بأي شخص. وبمجرد خروجنا إلى المستوى الأرضي، شاهدنا الناس في كل مكان - الضباط، والحاشية، والمحاربين، والعبيد، والتجار - يتحركون ذهابًا وإيابًا لأداء واجباتهم المختلفة، أو سعيًا لإنجاز الأعمال التي أتت بهم إلى القصر؛ لكن أعدادهم الكبيرة أثبتت أنها ضمانة لنا.

على جانب الممر، في مقابل نقطة دخولنا إليه، يقع مدخل مقوس لسلم آخر يقود إلى أعلى. ودون لحظة تردد، سرت تحت القوس بين حشود الناس ونور آن إلى جانبي، واتخذنا السلم إلى أعلى.

وما إن بدأنا الصعود، حتى التقينا بضابط شاب يهبط السلم. بالكاد ما نظر إلينا خلال مرورنا، وتنفست الصعداء عندما أدركت أن تنكرنا يخفي شخصياتنا بالفعل.

كان عدد الناس أقل في المستوى الثاني من القصر، ومع ذلك لا يزال العدد كبيراً وغير مناسب لنا. واصلنا صعودنا إلى المستوى الثالث، ووجدنا الممرات مهجورة تقريبًا.

وجدنا تقاطع لممرين رئيسين بالقرب من مدخل السلم. وهنا ترددنا لحظات للاستطلاع. بتحرك الناس من الاتجاهين على طول الممر الذي خرجنا منه، ولكن الممر المستعرَض بدا مهجورًا في أحد الاتجاهات، فدخلناه بسرعة. كان ممرًّا طويلاً جدًّا، ويبدو ممتدًّا على طول القصر بأكمله. وامتدت على جانبيه مداخل تفصل بينها مسافات، وكانت أبواب بعضها مفتوحة، بينما كانت الأخرى مغلقة أو مواربة. رأينا أشخاصًا خلال بعض المداخل المفتوحة، بينما الشقق التي كشفتها أبواب أخرى بدت شاغرة. حددنا موقعها بعناية ونحن نتحرك ببطء، ونراقب بعناية كافة التفاصيل التي قد تثبت ذات قيمة لاحقًا.

اجتزنا حوالي ثلثي هذا الممر الطويل، عندما دخل إليه رجل من مدخل يبعد بضع مئات من الأقدام أمامنا. كان ضابطًا، وعلى ما يبدو أنه بادوار من الحرس. توقف في منتصف الممر، حيث ظهر طابور من المحاربين عند المدخل نفسه، وسار نحونا في تشكيل عمودي من صفين والضابط في المؤخرة.

هنا اختبار لتنكرنا ولم أخشَ من المجازفة. يوجد مدخل مفتوح على يسارنا؛ ولم أشهد أحد خلفه. «تعال!»، قلت لنور آن، وسرنا بلا مبالاة

ودون عجلة نحو الغرفة، وعبر نور آن عتبتها وقمت بإغلاق الباب وراءه. وعندئذ رأيت امرأة شابه تقف على الجانب الآخر من الشقة، وتنظر إلينا مباشرة.

سألت: «أيها المحاربان، لماذا أنتما هنا؟».

يا له من موقف حرِج. أسمع في الممر بالخارج قعقعة تجهيزات المحاربين الذين يقتربون، وأعرف أن الفتاة لا بد أنها تسمعها أيضًا. إذا فعلت أي شيء يثير شكوكها، يمكنها أنها تطلب المساعدة. كيف يمكنني تبديد شكوكها وليس لديَّ أدنى تصور عما يصلح كعذر لوجود اثنين من المحاربين في هذه الشقة تحديدًا، والتي قد تكون شقة أميرة من البيت الملكي، ودخولها دون إذن قد يعني ببساطة الموت لمحارب عادي. فكرت بسرعة، أو ربما لم أفكر على الإطلاق؛ غالبًا ما نتصرف بشكل صحيح بموجب دوافع بديهية، ثم نعزو النتيجة إلى الذكاء الفائق.

قلت بفظاظة: «جئنا من أجل الفتاة، أين هي؟».

سألت المرأة الشابة في اندهاش: «أي فتاة؟».

أجبتها: «السجينة، بطبيعة الحال».

«السجينة؟»، وبدت أكثر حيرة.

قال نور آن: «بالطبع، السجينة. أين هي؟»، ابتسمت، لأنني أعرف أن نور آن ليس لديه أي فكرة عما يدور في ذهني.

قالت المرأة الشابة: «لا توجد سجينة هنا. هذه شقق الابن الرضيع لهاج أوسيس».

قلت: «لقد أخطأ الأحمق في توجيهنا. نحن نأسف لاقتحامنا. لقد أرسلونا لجلب الفتاة تافيا، وهي سجينة في القصر».

كان مجرد تخمين. لم أكن أعرف أن تافيا سجينة، لكني خمنت ذلك بعد طريقتهم في معاملتنا.

قالت المرأة الشابة: «إنها ليست هنا. ومن الأفضل لكما مغادرة هذه الشقق على الفور، لأن وضعكما سيسوء إذا اكتشفوا وجودكما هنا».

كان نور آن يقف بجواري، وينظر إلى المرأة الشابة بإمعان. تقدم الآن، مقتربًا منها.

صاح بصوت منخفض: «باسم سلفي الأول، إنها فاو!».

تراجعت الفتاة، واتسعت عيناها بدهشة، ثم بدأت ببطء تتعرف عليه، صاحت: «نور آن!».

اقترب نور آن من الفتاة ووضع يدها في يده. وقال: «كل تلك السنوات، يا فاو، وأنا أعتقد أنكِ ميتة. عندما عادت السفينة، أفاد القبطان أنكِ قُتِلتِ أنتِ وعدد من الآخرين».

قالت الفتاة: «إنه كاذب. لقد باعنا كعبيد هنا في تجاناث. وأنت، نور آن، ماذا تفعل هنا مرتديًا عتاد تجاناث؟».

أجاب: «أنا سجين، مثل هذا المحارب أيضًا. كنا محتجزين في الحُفر تحت القصر، وحكموا علينا بالموت اليوم في 'الهلاك'، لكننا قتلنا اثنين من المحاربين جاءا لأخذنا، والآن نحن نحاول أن نجد طريقنا للخروج من القصر».

سألت: «إذَنْ لا تبحثان عن الفتاة، تافيا؟».

قلت: «نعم، نبحث عنها أيضًا. لقد سجنوها في نفس الوقت الذي سجنوني فيه».

قالت فاو: «ربما يمكنني مساعدتك؛ ربما»، أضافت بحزن، «يمكننا أن نهرب جميعًا معًا».

قال نور آن: «لن أهرب من دونك، فاو».

قالت الفتاة: «لقد أحسن لي أسلافي أخيرًا».

سألتها: «أين تافيا؟».

ردت فاو: «إنها في برج الشرق».

سألتها: «هل يمكنك أن تأخذينا إلى هناك، أو قولي لنا كيف نصل إلى هذا البرج».

أجابت: «ما من فائدة لأن آخذكم إلى هناك، فالباب موصد والحراس يقفون أمامه. لكن هناك طريقة أخرى».

سألتها: «وما هي؟».

قالت: «أعرف مكان المفاتيح، وأعرف أشياء أخرى قد تفيد».

قلت: «فليشملك أسلافنا بحمايتك ومكافأتك، فاو. والآن، أخبريني أين يمكنني العثور على المفاتيح».

أجابت: «يجب أن أقودك إلى المكان بنفسي، لكن فرصة نجاحنا ستكون أفضل إن قل عددنا. ولذلك، أقترح أن يبقى نور آن هنا. سأجد له مكان اختباء بحيث لا يعثر عليه أحد. وبعد ذلك سأذهب معك إلى السجينة، وسنعود إن أمكن إلى هذه الشقة. أنا المسؤولة هنا. لا يحضر أي زائر إلى شقة الأمير الصغير إلا في ساعات منتظمة، مرتين يوميًّا،

ليلاً وصباحًا. يمكنني هنا إخفاؤكما وإطعامكما لفترة طويلة، وربما نتمكن في النهاية من وضع خطة مُجدية للهرب».

قال نور آن: «نحن بين يديك، فاو. ولكني أود أن أصاحب هادرون، فربما ينشب قتال».

أجابت الفتاة: «إذا نجحنا، لن ينشب أي قتال». أسرعت الفتاة نحو باب في الغرفة وفتحته، فكشف عن خزانة كبيرة. قالت: «هنا، نور آن؛ يجب أن تظل هنا إلى أن نعود. ليس هناك سبب لأن يفتح أي شخص هذا الباب. وبقدر ما أعلم، لم يفتحه أحد غيري أبدًا منذ أن سكنت هنا».

«لا تعجبني فكرة الاختباء»، قال نور آن مكشرًا، «لكني اضطررت مؤخرًا إلى القيام بأشياء كثيرة لم تكن تعجبني»؛ ثم توجه إلى الخزانة ودخلها دون إضافة أي كلمة أخرى. التقت أعينهما للحظة قبل أن تغلق فاو الباب، وقرأت في أعماقهما ما جعلني أتساءل، حيث تذكرت القصة التي رواها نور آن عن المرأة الأخرى التي سرقها منه تول أكستار. على أن هذه المسألة لا تعنيني، وليس لها أي تأثير على المهام التي أمامنا.

«ها هي خطتي، أيها المحارب»، قالت فاو وهي تعود إلى جانبي، «عندما دخلت هذه الشقة، قلت إنك تبحث عن السجينة، تافيا. وقد صدقتك، على الرغم من أنها ليست هنا. ولذلك، سنذهب إلى يو سينو، حارس المفاتيح، وتخبره نفس القصة: أنهم أرسلوك لإحضار السجينة، تافيا. إذا صدقك يو سينو، فهذا جيد؛ لأنه سيذهب بنفسه لإطلاق سراح السجينة وتسليمها لك».

سألتها: «وإذا لم يصدقني؟».

قالت: «إنه وحش، وموته أفضل من بقائه حيًّا. وعندئذ تعرف ماذا تفعل».

قلت: «فهمت. قودي الطريق».

يقع مكتب يو سينو، حارس المفاتيح، في المستوى الرابع من القصر، فوق مسكن الأمير الرضع مباشرة على وجه التقريب. توقفت فاو عند المدخل، وجذبت أذني إلى شفتيها لتهمس بالتعليمات النهائية. قالت: سوف أدخل أولاً، لأداء مهام تافهة. وتدخل أنت بعد لحظة، دون إيلاء أي اهتمام لوجودي. من المهم ألا يظهر أننا جئنا معًا».

قلت: «فهمت»، ومشيت عدة خطوات على طول الممر بحيث لا أكون على مرمى البصر عندما يُفتح الباب. أخبرتني بعد ذلك أنها طلبت من يو سينو إعداد مفتاح جديد لأحد الأبواب العديدة في شقة الأمير الصغير.

انتظرت لحظة، ثم دخلت الشقة أيضًا. كانت غرفة مظلمة ليس بها نوافذ. عُلقت على جدرانها مفاتيح من كل الأشكال والأحجام التي يمكن تخيلها. جلس رجل خشن المظهر وراء مكتب كبير. تطلع نحوي بسرعة، منزعجًا من دخولي ومقاطعتي.

سألني: «حسنًا؟».

قلت: «لقد جئت من أجل المرأة، تافيا، السجينة من جاهار».

سأل: «مَن الذي أرسلك؟ وماذا تريد منها؟».

أجبت: «لديَّ أوامر بأخذها إلى هاج أوسيس».

نظر نحوي متشككًا، ثم سألني: «هل معك أمر كتابي؟».

قلت: «كلا بالطبع، ليس ضروريًّا. فهي لن تخرج من القصر؛ مجرد من شقة إلى أخرى».

قال بتأكيد: «يجب أن أحصل على أمر مكتوب».

قلت: «هاج أوسيس لن يُسر عندما يعرف أنك رفضت إطاعة أمره».

قال يو سينو: «أنا لا أرفض. وأنت لا تجرؤ على القول أنني أرفض. لا يمكن نقل سجين دون أمر كتابي. دعني أشاهد ما يثبت سلطتك، وسوف أعطيك المفاتيح».

أدركت أن الخطة فشلت، ويجب اتخاذ تدابير أخرى. امتشقت سيفي الطويل، وقفزت نحوه صائحًا: «ها هي سلطتي!».

أقسم اليمين وهو يخرج سيفه. وبدلاً من مواجهتي، تراجع بسرعة ومكتبه لا يزال بيننا، ثم استدار وضرب بالجزء المسطح لسيفه جرسًا نحاسيًّا كبيراً.

هرعت نحوه، وأنا أسمع قعقعة المعادن وصوت أقدام تأتي مسرعة من غرفة مجاورة. استمر يو سينو في التراجع، وأطلق صوتًا ساخرًا، ثم انطفأت الأضواء وغرقت الغرفة الخالية من النوافذ في ظلام دامس. أمسكت أصابع ناعمة بيدي اليسرى، وهمس صوت في أذني: «تعال معي».

جُذبت سريعًا إلى جانب، خلال فتحه ضيقة، عندما انفتح باب على الجانب الآخر من الغرفة وكشف عن نصف دزينة من المحاربين يبدو ظلهم في ضوء الغرفة التي خلفهم؛ ثم أُغلق الباب أمام وجهي مباشرة ووجدت نفسي ثانية في ظلام مطلق، وأصابع فاو لا تزال تمسك بيدي.

همس صوت ناعم: «صمتًا!».

سمعت من وراء الألواح أصواتًا غاضبة ومنفعلة. ارتفع صوت أعلى الأصوات الأخرى، يصيح بنبرة سلطوية: «ما المشكلة هنا؟».

أطلق الرجال صياحًا ولعنات وهم يرتطمون بقطع الأثاث وببعضهم البعض.

صاح صوت: «نريد ضوءًا»، وبعد لحظة، «هذا أفضل».

«أين يو سينو؟ أوه، ها أنت هناك، أيها الوغد السمين. ماذا حدث؟».

«باسم إيسوس[206] ! لقد ذهب»، كانت هذه العبارة بصوت يو سينو.

سأل صوت آخر: «مَن الذي ذهب؟ ولماذا استدعيتنا؟».

أوضح يو سينو: «لقد هاجمني محارب، جاء يطلب مفتاح الشقة التي يحتفظ فيها هاج أوسيس بابنة ...»، لم أستطع سماع بقية الجملة.

سأله الرجل الآخر: «حسنًا، أين هذا الرجل؟».

ارتفع صوت يو سينو إلى نحيب تقريبًا وهو يقول: «لقد ذهب، والمفتاح أيضًا. المفتاح اختفى».

«فلنسرع إذَنْ إلى الشقة التي تحتفظ فيها بالفتاة»، صاح المتكلم الأول؛ وهو ضابط الحرس دون شك، وفي نفس الوقت سمعتهم يسرعون نحو الشقة.

---

(206) إيسوس: امرأة عجوز من المريخيين ذوي البشرة السوداء، زعمت أنها إلهة الحياة الأبدية، لكن حقيقتها تكشفت - http://barsoom.wikia.com/wiki/Issus - المترجمة

تحركت قليلاً الفتاة التي تقف بجواري، وسمعت ضحكة منخفضة، قالت: «لن يجدوا المفتاح».

سألتها: «لماذا؟».

فأجابت: «لأنه معي».

قلت بأسى: «لن يفيدنا كثيراً. سوف يضعون حراسة جيدة على الباب الآن، ولن نتمكن من استخدام المفتاح».

ضحكت فاو مرة أخرى وقالت: «لا نحتاج إلى المفتاح. لقد أخذته لأحرف انتباههم. سوف يراقبون الباب، بينما ندخل نحن من مكان آخر».

قلت: «أنا لا أفهم».

«هذا الممر يربط بين الحواجز الفاصلة التي تؤدي إلى غرفة السجينة. أعرف ذلك لأن يو سينو جاء لزيارتي من هذا الطريق عندما كنت سجينة في تلك الغرفة. إنه متوحش، ويحدوني الأمل أنه لم يزر هذه الفتاة – آمل من أجلك، إذا كنت تحبها».

قلت: «أنا لا أحبها، إنها صديقة فقط»؛ لكنني بالكاد ما كنت أعرف ماذا أقول، والعبارات تنساب تلقائيًّا لأنني كنت في قبضة مشاعر لم أحس بها أو أعرفها من قبل. لقد تملكتني منذ اللحظة التي قالت فيها فاو إن يو سينو ربما زار تافيا عبر هذا الممر السري؛ شعرت بما يشبه الاضطراب - وهو الإحساس الذي غيرني. كان يمكنني من قبل أن أقتل يو سينو بسيفي وأشعر بالسعادة؛ لكنني الآن أريد تمزيقه، أريد تشويهه ورؤيته يعاني. لم أشعر في حياتي أبدًا من قبل بهذه الرغبة الوحشية. الشعور بشع، لكنه يتملكني الآن.

صاحت فاو: «ما هذا؟ أعتقد أنني شعرت بأنك ترتجف».

قلت: «أنا ارتجفت».

سألتني: «لماذا؟».

أجبتها: «من أجل يو سينو. لكن علينا أن نسرع. إذا كان هذا الممر يؤدي إلى الشقة التي يسجنون فيها تافيا، فلن أتمكن من الوصول سريعًا؛ فعندما يعلم هاج أوسيس بسرقة المفتاح، سوف ينقلها إلى سجن آخر».

قالت فاو: «لن يعرف إذا حال دون ذلك يو سينو وبادوار الحرس؛ لأن وصول هذا الخبر إلى أذني هاج أوسيس قد يكلفهم حياتهم بسهولة. سوف ينتظرون مجيئك ليقتلوك ويأخذوا المفتاح. لكنهم سوف ينتظرون خارج باب السجن، وأنت لن تذهب من ذلك الطريق».

بدأت تسير، خلال الحديث، على طول الممر الضيق المظلم، وهي ممسكة بيدي وراء ظهرها. كانت فاو تتحرك ببطء؛ إذ كان عليها أن تتلمس الطريق ببطء لأن الممر يتحول إلى زوايا حادة خلال متابعة الحواجز الفاصلة بين الشقق، كما توجد العديد من السلالم التي تصعد إلى المداخل وأخيراً السلم المؤدي إلى المستوى الأعلى.

توقفت الآن وقالت هامسة: «وصلنا، ولكن علينا أن نسمع أولاً للتأكد من عدم دخول أحد إلى الشقة مع السجينة».

لم أستطع رؤية أي شيء على الإطلاق في الظلام، ولم أستطع تخمين كيف عرفت فاو أنها وصلت إلى وجهتها.

قالت: «كل شيء على ما يرام»، وفتحت جزئيًّا في الوقت نفسه لوحًا خشبيًّا. رأيت خلال الفتحة جزءًا من شقة دائرية ذات نوافذ ضيقة عليها قضبان ثقيلة. رأيت في مواجهة الفتحة امرأة مستلقية فوق كومة من حرير وفراء النوم. لم أشهد سوى كتف عار وأذن صغيرة ورأس أشعث الشعر. عرفت من الوهلة الأولى أنها تافيا.

دخلنا الشقة وأغلقت فاو اللوح خلفنا. لفت صوت دخولنا انتباهها، جلست تافيا بهدوء وتطلعت إلينا، وقفزت واقفة بمجرد أن تعرفت عليَّ. اتسعت عيناها بدهشة، وظهر تساؤل على شفتيها، لكني وضعت سبابتي على شفتي لأنذرها بالصمت. تحركت عبر الشقة نحوها، وجاءت لمقابلتي وهي تركض تقريبًا. نظرت إلى عينيها ورأيت تعبيراً لم أره أبدًا في عينَي أي امرأة أخرى - على الأقل ليس بالنسبة لي. وإذا كنت قد تشككت على الإطلاق في صداقة تافيا، فقد اختفى هذا الشك في تلك اللحظة؛ لكني لم أتشكك أبدًا، وإنما فوجئت فقط لأني أدركت الآن مدى عمق المسألة. لو نظرت سانوما تورا نحوي بهذه النظرة، لقرأت الحب في تعبيرها؛ لكني لم أتحدث أبدًا عن الحب مع تافيا، وبالتالي عرفت أنها لم تشعر سوى بالصداقة. كنت دائماً شديد الانغماس في مهنتي، إلى حد أنني لم أقمْ بأي صداقات وثيقة؛ ولذا لم أدرك أبدًا حتى تلك اللحظة أن الصداقة شيء رائع.

التقينا في وسط الغرفة. نظرت نحوي والدموع تبلل عينيها: «هادرون»، همست وصوتها يجيش بالعاطفة. وضعت ذراعيّ حول كتفيها النحيلين، وجذبتها نحوي؛ شيء

ما يفوق إرادتي دفعني إلى تقبيلها على جبهتها. ابتعدت على الفور، وخشيت أن تُسيء فهم تلك القُبلة المتهورة التي تنم عن الصداقة، لكن كلماتها التالية طمئنتني.

قالت: «لم أتصور أبدًا أن أراك مرة أخرى، هادرون الهاستوري. كنت أخشى أن يقتلوك. كيف أتيت هنا، وفي معادن محارب من تجاناث؟».

رويت لها بإيجاز ما حدث لي منذ أن فصلوا بيننا، وكيف هربت - ولو مؤقتًا، على الأقل – من ’الهلاك‘. سألتني عما يكون ’الهلاك‘، لكنني لم أكن أعرف ماذا أقول لها.

قالت فاو: «إنه شيء فظيع جدًّا».

سألتها: «وما هو؟».

أجابت الفتاة: «لا أعرف سوى أنه شيء فظيع. هناك حفرة عميقة تقع أسفل أدنى حُفر القصر، ويقول البعض إنها بلا قاع؛ تصدر منها أصوات رهيبة – آهات وأنين على الدوام؛ ويلقى في هذه الحفرة كل من يُحكم عليهم بالموت في ’الهلاك‘، ويلقونهم بطريقة تجعل سقوطهم لا يقتلهم. يجب أن يصلوا إلى القاع وهم أحياء ليتكبدوا جميع أهوال ’الهلاك‘ التي تنتظرهم هناك. والتعذيب لا ينتهي، ما يؤكده عدم توقف أنين وآهات الضحايا أبدًا، بغض النظر عن طول الفترة بين الإعدامات».

قالت تافيا: «فررت أنت منها. لقد استُجيبت صلواتي. صليت لأيام وليالٍ لأجدادي كي تبقى حيًّا. والآن، ليتنا نتمكن من الهرب من هذا المكان البغيض. هل لديكَ خطة؟».

«لدينا خطة يمكن أن تنجح بمساعدة فاو. نور آن، الذي حكيت لك عنه، يختبئ في خزانة في إحدى شقق الأمير الصغير. سنعود إلى تلك الشقة في أول فرصة، وستتولى فاو إخفاء ثلاثتنا حتى نجد فرصة للفرار».

قالت فاو: «يجب أن نعود ولا نضيع المزيد من الوقت. هيا بنا، لنذهب على الفور».

توجهنا نحو اللوح الذي دخلنا من خلاله، ووجدته مواربًا على الرغم من تيقني أنني أن فاو أغلقته بعد دخولنا. وفي الوقت نفسه، أقسم أنني رأيت عينًا ملتصقة بالشق الضيق؛ كأنما شخص ما يراقبنا من الداخل المظلم للممر السري.

عبرت الغرفة بقفزة، وأزحت اللوح جانبًا. كان سيفي جاهزًا في يدي؛ لكنني لم أجد أي شخص في الممر.

الفصل (7)

'الهلاك'

اجتزنا الممر المظلم مرة أخرى، مع فاو في الصدارة وتافيا بيننا، في اتجاه شقة يو سينو. وعندما وصلنا إلى اللوح الذي تنتهي عنده رحلتنا، توقفت فاو وأنصتنا معًا باهتمام لأي صوت قد يدل على شخص في الغرفة أمامنا. كان الصمت يرين كالقبر.

قالت فاو: « أعتقد من الأكثر أمانًا أن تبقى أنت وتافيا هنا إلى الليل. سوف أعود إلى شقتي وأقوم بواجباتي كالمعتاد، وبعد أن يهدأ القصر في أسفل سوف تصبح هذه المستويات مهجورة تقريبًا؛ وعندئذ يمكنني الحضور عندما يقل خطر الانكشاف لآخذكما إلى الشقة».

اتفقنا على أن خطتها جيدة، وودعناها مؤقتًا. فتحت فاو اللوح بما يكفي لفحص الشقة، ووجدتها فارغة تمامًا. خرجت من الممر وأغلقت اللوح خلفها. وغرقنا أنا وتافيا ثانية في ظلام دامس.

كان يمكن أن تبدو ساعات انتظارنا الطويلة في ظلام الممر بلا نهاية، لكن الأمر لم يكن كذلك. اتخذنا وضعًا مريحًا قدر الإمكان على الأرض مستندين إلى أحد الجدران، مع ميلنا متقاربين حتى يمكننا التحدث بهمسات منخفضة. أمضينا وقتًا ممتعًا أكثر مما تصورت، سواء في حديثنا أو في فترات الصمت الطويل التي قطعته، بحيث لم نشعر بمرور وقت طويل قبل أن ينفتح اللوح ونرى فاو في ضوء الشقة الخافت. أشارت لنا أن نتبعها، وأطعناها في صمت. كان الممر خارج غرفة يو سينو مهجورًا، بمثل ما كان السلم الذي يؤدي إلى المستوى الأدنى والممر الذي يفتح عليه. بدا الحظ حليفنا في كل خطوة، وتمتمت بصلاة شكر عندما فتحت فاو الباب المؤدي إلى شقة الأمير وأشارت لنا بالدخول.

لكن قلبي غرق داخلي في اللحظة نفسها؛ إذ بمجرد دخولي الشقة مع تافيا، رأيت محاربين يقفون في انتظارنا على جانبي الغرفة. بصيحة تحذير جذبت تافيا خلفي واندفعت بسرعة نحو الباب، وعندئذ سمعت اندفاع أقدام وقعقعة تجهيزات في الممر خلفي. ألقيت نظرة سريعة من فوق كتفي، فرأيت محاربين آخرين يركضون من مدخل طريقة شقة على الجانب الآخر من الممر.

إننا محاصرون. لقد ضعنا، وأول ما طرأ في ذهني أن فاو خانتنا وأدت بنا إلى هذا الفخ الذي لا فكاك منه. أجبرونا على العودة إلى الغرفة وأحاطوا بنا، حيث رأيت يو سينو للمرة الأولى. وقف وعلى وجهه ابتسامة ساخرة. ونظرًا لأن تافيا أكدت لي أنه لم يمسها بأي ضرر، لكنت انطلقت لمهاجمته برغم دزينة السيوف التي كانت لتفتك بي على الفور.

«إذَنْ!»، قال يو سينو ساخرًا: «فكرت أن تخدعني، أليس كذلك؟ حسنًا، لست مَن يُخدع بسهولة. لقد خمنت الحقيقة، وتبعتك خلال الممر، وسمعت جميع خططتك وأنت تناقشها مع المرأة، تافيا. أنتم جميعًا لدينا الآن»، ثم التفت إلى أحد المحاربين، وأشار إلى الخزانة في الجانب الآخر من الغرفة. وقال آمرًا: «أحضر الآخر».

توجه الزميل إلى الباب وفتحه، وظهر نور آن راقدًا على الأرض وهو مقيد ومكمم الفم.

أمر يو سينو: «يمكنكم قطع قيوده وإزالة الكمامة. لقد فات أوان إحباطه لخططي بتحذير الآخرين».

تحرك نور آن في اتجاهنا، بخطوات ثابتة ورأس عالٍ ونظرة ازدراء متعجرفة لآسرينا.

وقفنا نحن الأربعة أمام يو سينو، وحلت نظرة الكراهية محل السخرية على وجهه.

وقال: «لقد حُكم عليكم بالموت في «الهلاك». إنها طريقة موت الجواسيس. لا يمكننا إيقاع عقوبة أكثر ترويعًا. ولو كانت موجودة، لكانت ستُطبق عليكما أنتما الاثنين»، ونظر نحوي أولاً ثم نحو نور آن، «لأنكما قتلتما اثنين من رفاقنا».

لقد وجدوا إذَنْ المحاربين اللذين قتلناهما. حسنًا، وماذا في ذلك؟ من الواضح أن ذلك لم يضعنا في موقف أسوأ من ذي قبل. كنا سنواجه 'الهلاك'، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لنا.

سألني يو سينو: «ألديك أي شيء تود قوله؟».

صحت وأنا أضحك في وجهه: «ما زلنا نعيش».

قال حارس المفاتيح: «كنت تتضرع منذ فترة طويلة إلى أسلافك الأوائل طالبًا الموت، لكن الموت لن يأتيك سريعًا، وتذكر أن لا أحد

يعرف كم من الوقت يلزم للموت في 'الهلاك'. لا يمكننا أن نضيف إلى معاناتكما الجسدية، ولكن لعذاب عقلك أود تذكيرك بأن نرسل بكما إلى الموت في 'الهلاك' دون أن تعرفا ماذا سيكون مصير شريكتيكما»، ثم أشار إلى تافيا وفاو.

كانت هذه نقطة رديئة، اختارها بعناية. ما كان ليجد أي وسيلة لتعذيبي أكثر من هذه، لكني لن أمنحه راحة مشاهدة عواطفي الحقيقية، ولذلك، ضحكت ثانية في وجهه. وصل صبره إلى أقصى حد يستطيع تحمله، والتفت فجأة إلى بادوار الحرس وأمره بإبعادنا على الفور.

عندما كانوا يسرعون بنا خارج الغرفة، بعث نور آن بوداع شجاع إلى فاو.

وصحت: «وداعًا، تافيا! وتذكري أننا ما زلنا نعيش».

صاحت: «ما زلنا نعيش، هادرون الهاستوري! ما زلنا نعيش!»، ثم غابت عن بصري وهم يدفعوننا أسفل الممر.

اقتادونا أسفل سلم بعد سلم إلى أن وصلنا إلى أقصى أعماق حُفر القصر، ثم إلى غرفة كبيرة حيث رأيت هاج أوسيس جالسًا على عرش ومحاطًا بالقادة والحاشية، كما كان الوضع عندما قابلني في المرة الأولى. كان مُعلقًا في مواجهة الجِد، وفي وسط الدائرة، قفص حديدي كبيرة، يتدلى من كتلة ثقيلة مثبتة في السقف. دفعونا بخشونة داخل هذا القفص، وأغلقوا بابه، ووضعوا عليه قفلاً كبيرًا. تعجبت من الوضع كله وعن علاقته بالموت في 'الهلاك'، وفي أثناء ذلك دفع عشرات الرجال بابًا مسحورًا ضخمًا تحت القفص. لفنا هواء بارد رطب، وشعرت ببرودة تكاد تدخل النخاع، كأنما أرقد بين ذراعي الموت الباردين. تناهى إلى سمعي أنين ضعيف وآهات جوفاء، وعرفت أننا أعلى الحُفر التي يكمن عندها 'الهلاك'.

لم ينبس أحد بكلمة داخل الغرفة. وبإشارة من هاج أوسيس، قام رجال أقوياء بخفض القفص ببطء في الفتحة أسفلنا. أصبح البرد والرطوبة أكثر وضوحًا، بينما تضاعف حجم الأصوات المريعة.

انزلقنا إلى أسفل نحو هاوية الظلام. أنستنا ضوضاء الأصوات الغريبة تحتنا رعب الصمت في الغرفة أعلاه.

قد لا يمكنني تخمين مدى المسافة التي هبطناها، لكنها بدت لنور آن ألف قدم على الأقل؛ ثم بدأنا نتبين لمعانًا طفيفًا حولنا. أصبح الأنين والتأوه هديرًا مستمرًا. ومع

اقترابنا، لم تعُد الأصوات تبدو مثل الأنين والتأوهات، وإنما أصبحت أكثر شبهًا بصوت الرياح واندفاع المياه.

فجأة، دون أدنى إنذار، أخذ قاع القفص يتأرجح إلى أسفل؛ ما يوضح أنه مُعلق من جانب واحد، ومُمسك بمقبض يمكن جذبه من أعلى. حدث ذلك بسرعة، بحيث بالكاد ما كان لدينا وقت للتخمين قبل أن نغوص في المياه المندفعة.

وعندما ارتفعت إلى السطح، اكتشفت أن بإمكاني الرؤية. لا أعرف أين كنا، لكن المكان لم يكن مغلفًا بالظلام الدامس، بل مضاء بشكل خافت.

وعلى الفور تقريبًا، تمايل رأس نور آن على بُعد ذراع مني. حملنا تيار قوي إلى أعلى، وأدركت على الفور أننا في قبضة نهر كبير تحت الأرض؛ أحد تلك الأنهار التي تراجعت إليها المياه المتبقية من برسوم الآخذ في الاحتضار. لمحت خط الشاطئ خط الشاطئ على مسافة، حيث يمكن رؤيته معتمًا في الضوء الخافت، فاتجهت نحوه وأنا أطلب من نور آن اتباعي.

المياه باردة، ولكن ليس بالقدر الكافي لتنبيهي؛ وليس لديَّ أي شك في أننا سوف نصل إلى الشاطئ. عندما أنجزنا هدفنا وزحفنا إلى الشاطئ الصخري، كانت أعيننا قد اعتادت الضوء الخافت. والآن، نحدق حولنا في دهشة. يا لها من مغارة شاسعة! فوقنا، أعلى منا بكثير، كان سقفها واضحًا في ضوء جسيمات الراديوم الدقيقة التي تناثرت في أنحاء الصخور التي تُشكل الجدران والسقف. على أن الضفة المقابلة للتيار الجارف كانت خارج نطاق رؤيتنا.

صاح نور آن: «أهذا هو ‹الهلاك›!».

أجبت: «أشك أنهم يعرفون ما هو. من هدير النهر وأنين الرياح، استحضر خيالهم شيئًا فظيعًا».

قال نور آن: «ربما أكبر معاناة يتحملها الضحية هي توقعه لما ينتظره في هذه الأعماق المروعة، بينما أسوأ ما قد يتصوره الإدراك هو الموت غرقًا».

قلت: «أو بسبب الجوع».

أومأ نور آن، وقال: «مع ذلك، أتمنى أن أعود لمجرد فترة تكفي للسخرية منهم ومشاهدة خيبة أملهم عندما يكتشفون أن ‹الهلاك› ليس رهيبًا».

وأضاف بعد لحظة صمت: «يا له من نهر جبار. هل قد يكون أحد روافد نهر إيس[207] ؟».

قلت: «ربما هو نهر إيس نفسه».

قال نور آن بكآبة: «إذَنْ أصبحنا مُقيدين برحلة الحج الطويلة الأخيرة إلى بحر كوراس[208] المفقود في وادي دور[209] . ربما هو مكان جميل، لكني لا أرغب بعد في الذهاب إلى هناك».

أجبته: «إنه مكان مرعب».

قال محذرًا: «صمتًا؛ هذا تدنيس للمقدسات».

«لم يعُد تدنيسًا للمقدسات منذ أن نزع جون كارتر وتارس تاركاس ستار السرية عن وادي دور وتخلصا من أسطورة إيسوس، إلهة الحياة الأبدية». ظل نور آن متشككًا، حتى بعد أن أخبرته بالقصة المأساوية كلها لإلهة المريخ الكاذبة؛ فالخرافات الدينية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنسيج وجودنا.

شعر كلانا ببعض التعب بعد معركتنا مع شدة تيار النهر، وربما كنا نعاني أيضًا من رد فعل الصدمة العصبية الناتجة عن هذه المحنة التي مررنا بها. ولذا، بقينا هنا، نستريح على الشاطئ الصخري لنهر الغموض. تحول حديثنا في النهاية إلى ما كان يحتل موقع الصدارة في ذهن كل منا وإن تردد في قوله - مصير تافيا وفاو.

قلت: «أتمنى أن يحكموا عليهما أيضًا بالموت في 'الهلاك'، فعلى الأقل سنكون معهما ونحميهما».

قال نور آن بحزن: «أخشى أننا لن نراهما ثانية أبدًا. يا له من مصير قاسٍ، أن أجد فاو لأفقدها ثانية وبسرعة دون رجعة».

---

(207) نهر إيس: النهر الوحيد المتبقي على المريخ، ولعصور طويلة ظلت الأعراق المريخية الخضراء والحمراء تتخذ طواعية رحلة الحج إلى نهر إيس عند بلوغ سن ألف عام، حيث يعتقدون أنهم سيجدون عنده الحياة الأخرى - http://barsoom.wikia.com/wiki/River_Iss - المترجمة.

(208) كوراس: هو بحر مريخي مفقود. وكان يملأ المنطقة التي تُسمى وادي دور، في الأيام التي كانت فيها المياه وفيرة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Korus - المترجمة.

(209) وادي دور: يقع عند نهاية نهر إيس المحيط ببحر كوراس المفقود - https://barsoom.fandom.com/wiki/Valley_Dor - المترجمة.

«إنه لمصير غريب فعلاً؛ أن يسرقها منك تول أكستار ثم يفقدها هو أيضًا، لكي تجدها أنت في تجاناث».

تطلع في وجهي للحظة بتعبير ينم عن الحيرة، ثم أشرق وجهه وقال: «فاو ليست المرأة التي حدثتك عنها في الزنزانة في تجاناث. أحببت فاو قبل فترة طويلة؛ إنها حبي الأول. وبعد أن فقدتها، تصورت أنني لن أستطيع الاهتمام ثانية بأي امرأة؛ لكن امرأة أخرى ظهرت في حياتي. ومع معرفتي أن فاو اختفت إلى الأبد، وجدت بعض العزاء في حبيبتي الجديدة؛ لكني أدرك الآن أنه لم يكن نفس الشيء، وأنه ما من حب يمكنه أن يحل أبدًا محل الحب الذي شعرت به تجاه فاو».

قلت لتذكيره: «لقد فقدتها من غير رجعة من قبل، لكنك وجدتها مرة أخرى؛ وربما تجدها ثانية».

قال: «أتمنى أن أشاركك التفاؤل».

ذكّرته قائلاً: «ليس لدينا شيء آخر يخفف عنا».

فقال: «أنت على حق»، ثم أضاف ضاحكًا: «ما زلنا نعيش!».

والآن، بعد قسط من الراحة، في الوقت الحاضر، أخذنا نسير على طول الشاطئ في اتجاه مجرى النهر؛ فقد قررنا أن هذا هو مسارنا، إن لم يكن لأي سبب آخر سوى أن النزول أسفل التل أسهل من الحركة إلى أعلاه. ولم تكن لدينا أدنى فكرة إلى أين سيقودنا المسار؛ ربما إلى كوراس؛ وربما إلى أوميان، البحر المدفون الذي ترسو عنده سفن الأبناء الأوائل[210].

تسلقنا كتلاً من الصخور المبعثرة، واتخذنا مسارًا بلا هدف على طول مستوى ممتد من الحصى الناعم، دون أن نعرف إلى أين، ودون هدف نسعى نحوه. توجد حياة نباتية، غريبة ومتنافرة، وعديمة اللون تقريبًا لغياب ضوء الشمس. شاهدنا نباتات تشبه الأشجار، تتخذ فروعها الغريبة شكل الزوايا وتُقطع بأقل لمسة. ونظرًا لأن الأشجار لم تكن تبدو

كأشجار، فلم تكن أزهارها تشبه الزهور. كان عالمًا يختلف عن العالم الخارجي، بمثل ما كانت تصورات الخيال تختلف عن الواقع.

(210) الأبناء الأوائل هم العِرق الأسود في المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=First+Born+ - المترجمة.

وأيًّا ما كانت التأملات التي انغمست فيها عن نباتات هذه الأرض الغريبة، فقد انتهت فجأة مع التفافنا حول نتوء بارز حيث وجدنا أنفسنا وجهًا لوجه أمام مخلوق بشع لم تقع عيني على مثله من قبل. كان سحلية بيضاء كبيرة، ذات فكين مفتوحين بما يكفي لابتلاع رجل جرعة واحدة. وعند رؤيتنا، أصدرت هسهسة غاضبة، وتقدمت نحونا في تهديد.

ولأننا غير مسلحين وتحت رحمه أي مخلوق يهاجمنا، اتبعنا الخطة الوحيدة التي تمليها فطنتنا -التراجع- ولا أخجل من الاعتراف بأننا تراجعنا سريعًا.

ركضنا بسرعة حول نهاية النتوء، ثم استدرنا بحدة عند الشاطئ بعيدًا عن النهر. ارتفع الجزء السفلي من الكهف ارتفاعًا حادًّا؛ وخلال تسلقي إلى أعلى، كنت أنظر خلفي أحيانًا لمشاهدة تصرفات مُطاردنا. لقد أصبحت مرئية الآن بوضوح؛ فبعد أن تتبعتنا وراء نهاية النتوء، توقفت وأخذت تَنظر حولها كأنما تبحث عنا. يبدو أنها لم ترنا، على الرغم من أننا لم نكن بعيدين عنها. وسرعان ما أصبحت مقتنعًا بوجود خلل في بصرها؛ لكنني لم أرغب في الاعتماد على ذلك، فواصلت التسلق حتى قمة النتوء. نظرت إلى الجانب الآخر، ورأيت مساحة شاسعة من الحصى الناعم، تمتد إلى مسافة معتمة على طول شاطئ النهر. شعرت بأننا قد نفلت من انتباه الوحش الضخم إذا استطعنا الهبوط إلى الجانب الآخر من الحاجز والوصول إلى هذا المستوى الممتد من الحصى. ألقيت لمحة أخيرة نحوها، لا تزال واقفة، تتطلع أولاً في اتجاه ثم في الاتجاه الآخر كأنما تبحث عنا.

كان نور آن خلفي، وانزلقنا معًا الآن على حافة الجرف. وعلى الرغم من شدة خدش الصخور الخشنة، وصلنا أخيراً إلى الحصى أدناه؛ وهنا، وبعد أن تملصنا ممن يهددنا، انطلقنا نركض أسفل النهر. قطعنا بصعوبة أكثر من خمسين خطوة، ثم تعثر نور آن على إحدى العقبات. وعندما انحنيت لمساعدته على النهوض، رأيت أن الشيء الذي تعثر فيه هو عتاد متعفن لمحارب، وبعد لحظة رأيت مقبض سيف يبرز من الحصى. أمسكت به، وسحبته بقوة من الأرض. كان سيفًا طويلاً جيدًا، ويمكنني أن أقول لك إن شعوري به في يدي أعاد لي ثقتي بنفسي أكثر من أي شيء آخر قد يكون حدث. ولأن السيف مصنوع من معدن غير قابل للتآكل، مثل جميع أسلحة برسوم، فقد ظل في حالة جيدة كحالته يوم تركه صاحبه.

«انظر»، قال نور آن مشيراً إلى عتاد آخر وسيف آخر على مسافة قليلة. كانا سيفين؛ سيفًا طويلاً وسيفًا قصيراً، وأخذهما نور آن. وتوقفنا عن الركض. كنت أشعر دائمًا أنه لا يوجد في برسوم ما يجعل اثنين من المحاربين المسلحين تسليحًا جيدًا في حاجة إلى الركض.

واصلنا طريقنا عبر مستوى الحصى الممتد، وسعينا إلى حل لغز هذه الأسلحة المتروكة؛ وهو اللغز الذي يزداد غموضًا باكتشاف أسلحة أكثر. في بعض الحالات نجد العتاد وقد تعفن تمامًا دون أن يترك سوى الأجزاء معدنية، بينما نجده في حالات أخرى سليمًا وجديدًا نسبيًّا. شاهدنا الآن كومة بيضاء أمامنا، لكننا لم نتمكن بداية، في الضوء الخافت بالكهف، من تحديد مكوناتها. وعندما فحصناها، وجدناها مملوءة بالرعب: كومة بيضاء من عظام وجماجم بشرية. إذَنْ ها هو أخيراً تفسير العتاد والسلاح المهجور. هذا مخبأ السحلية الكبيرة. هنا تقتل المخلوقات التعيسة التي تمر أسفل النهر؛ ولكن، كيف يمكن أن يصل رجال مسلحون إلى هذا المكان. لقد وصلنا إلى الكهف غير مسلحين، وأعتقد أن هذا كان حال جميع سجناء تجاناث المحكوم عليهم. من أين أتى الآخرون؟ لا أعرف، ودون شك لن أعرف. كان لغزاً من البداية، وسيظل لغزاً إلى النهاية.

خلال سيرنا، تناثر حولنا العتاد والسلاح، لكن العتاد كان أكثر بما لا يقاس من الأسلحة.

أضفت سيفًا قصيراً جيدًا إلى معداتي، فضلاً عن خنجر، كما فعل نور آن أيضًا. انحنيت لفحص سلاح آخر وجدناه –سيف قصير، ذو مقبض وواقٍ مزخرفين بشكل جميل– وفجأة أطلق نور آن صيحة تحذير.

صاح: «احترس، هادرون! إنها قادمة!».

وقفت على الفور، واستدرت سريعًا والسيف القصير لا يزال في

يدي. رأيت السحلية البيضاء الكبيرة تسرع نحونا، بفكيها الواسعين المنتفخين، وتطلق هسهسة تنذر بالسوء. كان مشهدها بشعًا، مشهدًا يجعل حتى الرجل الشجاع يستدير ويهرب؛ وأعتقد أن هذا ما فعله عمليًّا جميع ضحاياها؛ وإنما الآن يوجد اثنان لم يهربا. ربما كانت قريبة جدًّا إلى حد أننا أدركنا عدم جدوى الفرار دون التفكير في الأمر بوعي. على أي حال، وقفنا - نور آن بسيفه الطويل في يده، وأنا بسيفي القصير المزخرف الذي كنت أفحصه، على الرغم من أنني أدركت على الفور أنه ليس السلاح الذي أدافع به عن نفسي ضد هذا الوحش العملاق.

على أنني لم أكن لأتحمل إضاعة سلاح موجود في يدي بالفعل، لا سيما في ضوء إنجازي الذي أفخر به كثيراً.

في هيليوم، يراهن غالبًا كل من الضباط والرجال بمبالغ كبيرة على دقة إلقاء الخناجر والسيوف القصيرة، وقد رأيت مبالغ كبيرة تتبادلها أيديهم في ساعة واحدة؛ لكن

دقة مهارتي جعلتني أضيف الكثير إلى مستحقاتي نتيجة لفوزي، إلى أن ذاعت شهرتي إلى حد أنني لم أعد أجد أحدًا يرغب في المنافسة بين مهارته ومهارتي.

لم أقذف سلاحًا وأنا أصلي بحماس رغبة في الدقة أكثر مما فعلت الآن وأنا أطلق سيفي القصير بسرعة إلى فم السحلية التي تتحرك نحونا. لم تكن رمية جيدة؛ كانت لتفقدني نقودي في هيليوم، لكنها في هذه الحالة أنقذت حياتي. بدلاً من أن يسرع السيف في خط مستقيم ورأسه في المقدمة، كما يجب أن يكون، تحول ببطء إلى أعلى بحيث أصبح يتحرك بزاوية مقدارها حوالي خمس وأربعين درجة، مع رأسه إلى الأمام وبانخفاض. وبهذا الوضع، انطلق رأس السيف مباشرة داخل الفك السفلي للمخلوق، بينما استقر المقبض الثقيل، منطلقًا بزخمه، في سقف فم الوحش.

أصبحت السحلية عاجزة على الفور؛ اخترق رأس السيف لسانها ودخل في عظام فكها السفلي، بينما استقر مقبضه في فكها العلوي خلف أنيابها القوية. لم تستطع إزاحة السيف، سواء إلى الأمام أو إلى الخلف، وتوقفت للحظة وهي تطلق هسهسة تنم على الفزع. وفي الوقت نفسه، قفزنا أنا ونور آن إلى جانبين مختلفين من جسمها الأبيض المروع. حاولت الدفاع عن نفسها بذيلها ومخالبها، لكننا كنا أسرع منها؛ وهي ترقد الآن في بركة من دمها الأرجواني، وفي نهاية رد فعل عضلي تشنجي قبل موتها.

كان هناك شيء غريب، مثير للاشمئزاز والقرف، في الدم الأرجواني للمخلوق؛ ليس مجرد مظهره، وإنما أيضًا رائحته التي تثير الغثيان. ولم نضع أنا ونور آن أي وقت، وابتعدنا عن مسرح انتصارنا. غسلنا سيوفنا في النهر، ثم واصلنا سعينا العقيم.

شاهدنا الأسماك في النهر، خلال غسل سيوفنا. وبعد أن قطعنا مسافة كافية بعيدًا عن عرين السحلية، قررنا شحذ طاقاتنا لفترة وملء بطوننا.

لم يمسك أي منا بسمكة من قبل أو أكلها، لكننا نعرف من التاريخ إمكانية صيد الأسماك وأنها صالحة للأكل. ولأننا مبارزان، نظرنا بطبيعة الحال إلى سيوفنا كأفضل وسيلة لتأمين جسدينا. وبالتالي، نزلنا إلى النهر بسيوفنا الطويلة جاهزة لذبح السمك لإسعاد قلبينا. ولكن، أينما ذهبنا لم نجد أي أسماك. كنا نراها في أماكن بعيدة عن متناول سيفينا.

قال نور آن: «ربما الأسماك ليست بالغباء الذي تبدو عليه. يرون اقترابنا ويتشككون في دوافعنا».

قلت: «يمكن الاعتقاد بسهولة أنك على حق. فلنحاول وضع استراتيجية».

سألني: «كيف؟».

قلت: «تعال معي، سوف نعود إلى الشط». بعد البحث قليلاً أسفل مجرى النهر، وجدت حافة صخرية تطل على النهر. قلت: «سوف نكمن هنا على فترات، مع أعيننا ورؤوس سيوفنا فقط فوق الحافة. يجب ألا نتحدث أو نتحرك، خشية أن نُخيف الأسماك. ربما يمكننا بهذه الطريقة الحصول على سمكة»، فقد تخليت منذ فترة طويلة عن فكرة الذبح العام.

لسعادتي، نجحت الخطة؛ فلم يمضِ وقت طويل قبل أن يحصل كل منا على سمكة كبيرة.

نحن بطبيعة الحال، مثلنا مثل غيرنا، نفضل اللحم المطبوخ. ونظرًا لأننا محاربان، كنا معتادين على الحالتين. ولذا، أنهينا صيامنا الطويل بأسماك نيئة من نهر الغموض.

شعر كلانا بالانتعاش والقوة بعد الوجبة، حتى وإن لم تكن مستساغة. مرت فترة منذ آخرة مرة نمنا فيها، ولم تكن لدينا فكرة عما إذا كان الوقت لا يزال ليلاً على سطح برسوم، أو أصبح فجرًا بالفعل. قررنا أن النوم أفضل لنا؛ رقد نور آن، وتوليت أنا الحراسة. وبعد أن استيقظ، أخذت دوري في النوم. أعتقد أن كلينا لم ينم أكثر من زود واحد، لكن الراحة أفادتنا بقدر ما أفادنا الطعام الذي تناولناه. وأنا على يقين أنني لم يسبق أن شعرت بمثل هذه اللياقة التي شعرت بها عندما انطلقنا ثانية في رحلتنا هذه التي بلا هدف.

لا أعرف قدر الوقت الذي مر بعد نومنا، فالرحلة أصبحت الآن أكثر رتابة. لم يتغير كثيرًا مشهد المناظر الطبيعية المعتم المحيط بنا، ولم يكن في رفقتنا سوى هدير النهر وعويل الرياح دون انقطاع.

كان نور آن أول من لاحظ التغيير؛ أمسك ذراعي وأشار إلى الأمام. لا بد أنني كنت أنظر نحو الأرض أمامي خلال سيري، وإلا لرأيت في الوقت نفسه ما رآه.

صحت: «إنه ضوء النهار. إنها الشمس».

فقال: «لا يمكن أن تكون أي شيء آخر».

هناك، أمامنا، يقع مدخل مقبب من الضوء. هذا كل ما أمكننا رؤيته من موقع اكتشافنا له. أسرعنا ونحن نكاد نركض تقريبًا. كنا نتلهف إلى حل، ونأمل أن يكون ضوء الشمس بالفعل، وأن النهر قد وجد طريقه، على نحو غامض لا يمكن تفسيره، إلى سطح

برسوم. كنت أعرف أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا، كما كان نور آن يعرف أيضًا؛ ومع ذلك، يعرف كل منا مدى خيبة أمله عندما يكتشف التفسير الحقيقي لهذه الظاهرة.

عندما اقتربنا من رقعة الضوء الكبيرة، أصبح أكثر وضوحًا أن النهر خرج من كهفه المظلم إلى ضوء النهار. وعندما وصلنا إلى حافة هذا المدخل الجبار، رأينا مشهدًا ملأ قلوبنا بالدفء والبهجة؛ إذ يمتد أمامنا واد - واد صغير، صحيح - وادٍ مُحاط، بقدر ما يمكننا الرؤية، بمنحدرات جبارة، لكنه وادي الحياة والخصوبة والجمال تحت ضوء الشمس الحار.

قال نور آن: «إنه ليس سطح برسوم، وإنما الشيء الثاني الأفضل».

قلت: «لا بد أن هناك وسيلة للخروج. يجب أن توجد وسيلة ما. وإن لم توجد، سوف نوجدها».

صاح: «أنت مُحق، هادرون الهاستوري. سوف نوجد وسيلة. هيا!».

كانت ضفاف النهر الهادر مُبطنة بنباتات وفيرة؛ أشجار كبيرة تمتد فروعها المورقة أعلى بكثير من المياه؛ والموجات الصغيرة تلف المرجة القرمزية المتألقة، وتزدهر الشجيرات والزهور الرائعة في كل مكان بألوان وأشكال عديدة. لم أشهد على سطح برسوم من قبل مثل هذه الحياة النباتية. توجد هنا أشكال مماثلة لتلك المألوفة، وتوجد أشكال أخرى لا أعرفها على الإطلاق، غير أنها جميعًا جميلة رغم غرابة بعضها.

ونظرًا لأننا خرجنا من باطن الأرض المظلم الكئيب، كان المشهد أمامنا صورة لجمال عجيب. وعلى الرغم من أن جمال المشهد يعززه دون شك ما كنا فيه من مشهد نقيض، فقد كان مشهدًا يندر أن تراه أعين أي برسومي اليوم. تبدو لي هذه البقعة كحديقة صغيرة على عالم آخذ في الاحتضار، محفوظ منذ عصر قديم عندما كان برسوم في شبابه وكانت الأحوال الجوية لصالح نمو الحياة النباتية، التي انقرضت منذ ذلك الحين في مجمل مساحة الكوكب تقريبًا. في هذا الوادي العميق، المُحاط بمنحدرات شامخة، كان الجو أكثر كثافة دون شك على سطح هذا الكوكب. وكانت أشعة الشمس تنعكس على الجرف الشاهق، الذي لا بد أنه احتفظ أيضًا بالحرارة خلال فترات الليل الباردة. وعلاوة على ذلك، كانت مياه الري وفيرة؛ وربما أنجزت الطبيعة ذلك بسهولة عن طريق ترشيح مياه النهر خلال تربة الوادي العلوية وتحتها.

وقفت مع نور آن لعدة دقائق مفتونين بالمشهد الخلاب، ثم لمحنا فاكهة شهية تتدلى في عناقيد كبيرة من بعض الأشجار والشجيرات المُحملة بالتوت. وما كان منا إلا

أن أخضعنا الجمال إلى احتياجاتنا، وقررنا استكمال وجبتنا من الأسماك النيئة بالمعروض الرائع الذي يتدلى أمامنا ويغرينا. بدأنا نتحرك خلال النباتات، وأدركنا الخيوط الرقيقة لمادة شبيهة بالحرير تنتقل كالزينات من شجرة إلى شجرة ومن شجيرة إلى شجيرة. كانت شديدة الرقة إلى حد كونها غير مرئية تقريبًا، لكنها كانت قوية جدًّا على نحو يعيق تقدمنا. فوجئنا بصعوبة كسرها؛ وعند

وجود عشرة أو أكثر في وقت واحد يمنعون طريقنا، وجدنا من الضروري استخدام خناجرنا لشق طريق خلالهم.

سرنا خطوات قليلة في عمق الغطاء النباتي، ونحن نشق طريقنا خلال الخيوط الحريرية، عندما واجه تقدمنا عقبة جديدة ومثيرة للدهشة – عنكبوت ضخم يبدو من مظهره سامًّا، يهرول نحونا في وضع مقلوب، تتشبث دزينة من سيقانه بأحد الخيوط الحريرية، مما يسهم في دعمه وفي مساره؛ وإذا كان مظهره يدل على سُميته، فلا بد أنه حشرة مميتة بالفعل.

عندما تحرك نحوي، بنوايا شريرة واضحة، أسرعت في إعادة خنجري إلى غمده وامتشقت سيفي القصير وقذفته نحو المخلوق المخيف. تراجع إلى الوراء بحيث خدشه رأس خنجري قليلاً، وعندئذ فتح فمه البشع وأطلق صرخة مروعة لا تتناسب مع حجمه ومع طبيعة تلك الحشرات التي أعرف أن تأثيرها مزعجًا لأعصابي. وفي الحال استجابت لصرخته جوقة غريبة من الصرخات المماثلة حولنا، وظهر على الفور سرب من تلك الحشرات المروعة يركض نحونا فوق تلك الخيوط الحريرية. ويبدو أن الوضع المقلوب كان الوضع الوحيد لحركتهم، وأن شباكهم هي الوسيلة الوحيدة لتحقيقه؛ إذ ارتفعت أرجلهم الاثنا عشر من ظهورهم، ما أعطاهم مظهرًا أكثر غرابة.

خشية من سُمية هذه المخلوقات، تراجعت مع نور آن بسرعة نحو مدخل الكهف. ونظرًا لعدم قدرة العناكب على تجاوز خيوطها، كنا آمنين منهم تمامًا. على أن الفاكهة الشهية بدت الآن أكثر إغراء، يبدو لأنها أصبحت صعبة المنال.

قال نور آن بابتسامة حزينة: «يبدو أن الطريق أسفل النهر محروس جيدًا، مما قد يشير إلى هدف مرغوب أكثر».

أجبت: «الفاكهة هي أكثر شيء في العالم أرغبه في الوقت الحاضر، وسوف أحاول اكتشاف بعض الوسائل للحصول عليها».

تحركت إلى اليمين، بعيدًا عن النهر، وبحثت عن مدخل إلى الغابة خال من خيوط العناكب؛ ووصلت إلى موضع وجدت فيه دربًا محدد المعالم يبلغ اتساعه حوالي أربعة أو خمسة أقدام، ويبدو أن شخصًا شقه بين الغطاء النباتي. على أن آلاف الخيوط الشبيهة بالحرير كانت تمتد عند مدخله. لمسها، كما نعرف، سيكون إشارة لأعداد غفيرة من العناكب الغاضبة لتتوجه نحونا. وبينما كان خوفنا الأساسي، بالطبع، أن تكون هذه الحشرات سامة، فإن أفواههم ذات الأنياب القاسية تطرح – بغض النظر عن سميتها من عدمه - أنها قد تشكل، بحكم أعدادهم الكبيرة، خطرًا حقيقيًّا.

قلت لنور آن: «هل لاحظت أن هذه الخيوط تبدو ممتدة عبر مدخل المسار فقط. لا ألمح أيًّا منها بعد المدخل، مع أن رقتها تحول بطبيعة الحال دون رؤيتها ولو على مسافة قصيرة».

قال نور آن: «لا أرى أي عناكب هنا. ربما يمكننا مواصلة طريقنا مع تجنبها في هذه المرحلة».

قلت، وأنا أسحب سيفي الطويل: «سوف نحاول».

قطعت بعض الخيوط القليلة خلال سيري، وعلى الفور تدفقت من جانبي الأشجار والشجيرات مجموعات كبيرة من الحشرات، تسرع كل منها على خيطها المنفرد. في حالة الخيوط السليمة، كانت تلك المخلوقات تعبر الدرب وهي تحدق نحونا بأعينها البغيضة الكريهة، وتوجه أنيابها القوية اللامعة تهديدًا نحونا.

طافت الخيوط المقطوعة في الهواء إلى أن سحبها إلى أسفل وزن العناكب المقتربة، التي استمرت في حركتها حتى النهايات المقطوعة وليس أكثر. وهنا، إما تتدلى غاضبة نحونا أو تتسلق صعودًا وهبوطًا بانفعال، دون أن يغامر أي منهم على الإطلاق أن يترك حبله.

راقبتهم، وأثار سلوكهم الغريب خطة في ذهني. قلت لنور آن: «يصبحون لا حول لهم ولا قوة عند قطع شبكتهم. فإذا قطعنا كافة شبكاتهم، لن يتمكنوا من الوصول إلينا». وعلى ذلك، رفعت سيفي الطويل فوق رأسي، مع تحريكه خلال سيري، بحيث يقطع قطعت الخيوط المتبقية. وعلى الفور بدأت المخلوقات تطلق صرخاتها الجهنمية. سقط العديد منهم، الذين فصلتهم ضربات سيفي عن شبكاتهم، ووقعوا على الأرض على بطونهم، وأقدامهم معلقة في الهواء. بدت تلك المخلوقات عاجزة تمامًا. وعلى الرغم من أنها صرخت بصوت عالٍ ولوحت بأرجلها بشكل محموم، فقد فقدت تمامًا قدرتها

على الحركة؛ ولم تتمكن حتى المخلوقات المتدلية على جانبي الدرب من الوصول إلينا. حطمت بسيفي مَن وجدتهم خلال المسار، ثم دخلت الغابة ونور آن يتبعني. لم أرَ أي شبكة عنكبوتية أمامنا، وبدا الطريق واضحًا. وقبل أن نتقدم أكثر داخل الغابة، استدرت لإلقاء نظرة أخيرة على الحشرات المرتبكة لمعرفة ماذا تفعل. توقفت عن الصراخ الآن، وأخذت تعود ببطء إلى أوراق الشجر، ومن الواضح إلى مخابئها. بدا أنها لم تعد تشكل تهديدًا لنا، فواصلنا طريقنا. خلت الأشجار والشجيرات على طول الطريق من الثمار أو التوت. بيد أننا شاهدنا تنمو بوفرة على مسافة بعيدة، خلف حاجز من خيوط تلك الشبكات العنكبوتية التي تعلمنا سريعًا كيفية تجنبها.

قال نور آن: «يبدو أن هذا الدرب من صنع إنسان».

قلت: «بغض النظر مَن أو متى صنعه، ما من شك أن مخلوقًا ما لا يزال يستخدمه. وعدم وجود ثمار على طوله، يكفي دليلاً على ذلك».

تحركنا بحذر على طول الدرب المتعرج، لا نعرف في أي لحظة قد نواجه خطرًا جديدًا على شكل رجل أو وحش. رأينا أمامنا الآن ما بدت فتحة في الغابة، وخلال لحظات خرجنا إلى أرض خالية من الأشجار. لاحت في الأفق أمامنا كومة شاهقة من البناء، على مسافة ربما تقل عن هاد واحد. كانت كومة قاتمة، بُنيت على ما يبدو من الصخور البركانية السوداء. ارتفع جدار لحوالي ثلاثين قدمًا فوق سطح الأرض، تخترقه فتحة واحدة - مدخل صغير، أمامنا مباشرة تقريبًا. اتضح أن هذا الجزء من البنية هو جدار، ارتفعت خلفه مبان ذات حدود غريبة ومتنافرة، ويهيمن عليها جميعًا برج شاهق، تنطلق من قمته حزمة من الدخان متموجة في الهواء الساكن.

اكتسبنا في هذا الموقع المتميز رؤية للوادي أفضل مما كانت لدينا. أصبحت أكثر وضوحًا الآن الدلائل التي تشير إلى أنها كانت فوهة بركان عملاق وخمد منذ زمن طويل. بيننا وبين المباني، التي توحي بأنها مدينة صغيرة مسورة، احتوت الأرض الفضاء على عدد قليل من الأشجار المتناثرة، لكن غالبية الأرض كانت مزروعة، وتتخللها مصارف ري من النوع العتيق الذي انتهى على سطح الكوكب منذ عصور عديدة وحل محله نظام للري بالتسريب عندما اقتضى تناقص إمدادات المياه اعتماد تدابير للمحافظة عليها.

مع اقتناعي بعدم إمكانية اكتساب أي معلومات إضافية ببقائنا هنا، بدأت أتحرك بجرأة في الأرض الفضاء نحو المدينة. سألني نور آن: «إلى أين تذهب؟».

أجبته: «أنا ذاهب لمعرفة من يسكن في ذلك المكان الكئيب. هنا توجد حقول وحدائق، وبالتالي لا بد أن لديهم طعامًا وهو، على أي حال، الخدمة الوحيدة التي سأطلبها منهم».

هز نور آن رأسه، وقال: «مجرد مشهد المكان يصيبني بالكآبة». لكنه جاء معي كما توقعت، ذلك أن نور آن رفيق رائع يمكن دائمًا أن يعتمد المرء على ولائه.

قطعنا حوالي ثلثي مسافة الأرض الفضاء نحو المدينة قبل أن نشاهد أي علامة على الحياة، ثم ظهر بعض أشخاص على قمة الجدار فوق المدخل. كانوا يحملون وشاحات طويلة رقيقة، بدت كأنما يلوحون بها ترحيبًا بنا. وعندما اقتربنا، رأيت أنهم مجموعة من النساء الشابات. مالت النساء فوق الحاجز، وابتسمن، وأشرن لنا.

توقفت عند وصولنا إلى مسافة أسفل الجدار تتيح الحديث، وسألت: «أي مدينة هذه، ومن الجِد هنا؟».

صاحت إحدى الفتيات: «ادخلا أيها المحاربان، وسوف نقودكما إلى الجِد». كانت جميلة جدًّا وتبتسم بلطف، كما كانت رفيقاتها أيضًا.

قلت هامسًا لنور آن: «ليس المكان كئيبًا كما تصورت».

قال نور آن: «كنت مخطئًا، يبدو أنهم شعب طيب مضياف. هل ندخل؟».

«تعالا»، قالت فتاة أخرى، «فخلف هذه الجدران القاتمة يوجد الطعام والنبيذ والحب».

الطعام! كنت لأدخل مكانًا أكثر سوءًا بكثير من أجل الحصول على طعام.

عندما خطوت ونور آن في اتجاه الباب الصغير، انزلق ببطء إلى أحد الجوانب. خلف الباب، ترتفع مبانٍ من الصخور البركانية السوداء على طول طريق أسود مرصوف. بدا الشارع مهجورًا ونحن نخطو داخله. سمعنا نقرة باهتة لقفل، والباب ينزلق خلفنا عائدًا إلى مكانه. انتابني

هاجس مفاجئ ينذر بالشر، ما جعل يدي اليمنى تمسك بمقبض سيفي الطويل.

* * *

الفصل (8)

عنكبوت جاستا

وقفنا للحظة ننظر حولنا مترددين في وسط شارع فارغ، ثم جذب انتباهنا سلم ضيق يمتد من داخل الجدار الذي ظهرت على قمته الفتيات ورحبن بنا.

أخذت الفتيات تهبط السلم. ست فتيات، تشع ابتسامات الترحيب السعيدة من وجوههن الجميلة، وتبدد على الفور كآبة المحيط المظلم مثلما يبدد شروق الشمس ظلام الليل ويحل النور والدفء والسعادة محل ظلاله.

وكان عتادهن جميل الصنع، تثريه العديد من الجواهر المتألقة، ويبرز جمال أجسامهن المثالية. ومع اقترابهن، قفزت إلى ذهني صورة تافيا. مع جمال هؤلاء الفتيات الواضح، كانت تافيا أجمل!

وأذكر حتى الآن بوضوح أنني في تلك اللحظة نفسها، ومع كل ما يحدث لتشتيت انتباهي، تعجبت فجأة مندهشًا من أنني تصورت وجه تافيا وهيئتها وليس سانوما تورا. ولك أن تتصور أنني استعدت وعيي بأن استدرت حول نفسي استدارة كاملة، وبعدها كانت سانوما تورا هي من رأيت، ودون أي عدم ولاء لصداقتي مع تافيا – تلك الصداقة المباركة التي اعتبرها أغلى وأثمن ممتلكاتي.

توجهت الفتيات ناحيتنا بشغف، بمجرد وصولهن إلى الرصيف. صاحت إحداهن: «مرحبًا، أيها المحاربان، في جاستا السعيدة. لا بد أنكما جائعان بعد هذه الرحلة الطويلة. تعالا معنا وسنتولى إطعامكما. ولكن أولاً، يريد الجِد الأعظم تحيتكما والترحيب بكما في مدينتنا؛ فزوار جاستا قليلون».

قادتنا الفتيات على طول الشارع، حيث لاحظت من مظهر المدينة أنها مهجورة. لا توجد أي علامة على الحياة حول أي بناية من المباني التي مررنا عليها، كما لم نرَ أي إنسان آخر. وصلنا إلى ساحة مفتوحة، ترتفع في وسطها بناية جبارة يحيط بها البرج الشاهق الذي رأيناه عندما خرجنا بداية من الغابة. هنا شاهدنا عددًا من الناس، رجالاً ونساء – ينم مظهرهم عن الحزن والكآبة، يتحركون وأكتافهم محنية وأعينهم مُسدلة. تفتقر خطواتهم إلى الحيوية، ويبدو على مجمل سلوكهم اليأس المطلق. يا له من مظهر يناقض تمامًا مظهر الفرح وسعادة الفتيات اللاتي يمشين معنا بمرح نحو المدخل الرئيس لما

يُفترض أنه قصر الجِد. يقف للحراسة هنا محاربون بدناء، يتسمون ببنية قوية وأجسام ضخمة - لم يعجبنيَ مظهرهم على الإطلاق. وعند اقترابنا منهم، خرج ضابط من داخل المبنى؛ أكثر بدانة حتى من رجاله. ابتسم وانحنى وهو يرحب بنا.

صاح: «تحياتي! لينعم الغرباء الذين يدخلون بوابات جاستا بالسلام».

قالت له إحدى الفتيات: «أرسل إلى جرون، الجِد العظيم، أننا أحضرنا اثنين من المحاربين، ويرغبان في تقديم الاحترام له قبل الحصولَ على كرم الضيافة في جاستا».

أرسل الضابط محاربًا لإخطار الجِد بحضورنا، وفي الوقت نفسه اصطحبونا إلى داخل القصر. كان الأثاث لافتًا للنظر، يتسِم بروعة التصميم والتنفيذ. استفادوا من خشب الغابة الأصلي في صنع قطع جميلة من الأثاث المنحوت، حيث تتألق حبيبات الأخشاب بألوانها الطبيعية المختلفة، ويبرز جمالها بدهان أنيق لبعض القطع وتلميعها الدقيق؛ ولعل الملمح الأكثر إثارة للدهشة في الزخارف الداخلية هو النسيج المرسوم بشكل رائع ويغطي الجدران والأسقف. كان نسيجًا مشرقًا على نحو لا يُصدق، يعطي انطباعًا أنه نسيج من الفضة. كان مغزولاً بعناية بحيث يمكنه -كما عرفت لاحقًا- الاحتفاظ بالمياه، كما كان من القوة التي يستحيل معها تقريبًا تمزيقه.

توجد عليه رسوم بألوان رائعة لأجمل المشاهد التي يمكن أن يتصورها الخيال؛ رسوم لعناكب برؤوس نساء جميلات، ولنساء برؤوس عناكب. توجد أزهار وأشجار راقصة تحت شمس حمراء كبيرة؛ وتوجد سحالي كبيرة، مثل تلك التي التقينا بها داخل الكهف القاتم في رحلة هبوطنا من تجاناث. ولا يوجد في جميع الأشكال المرسومة أي شيء مماثل للأشكال الموجودة في الطبيعة؛ كأنما تصور عقل مجنون الأمر برمته.

انتظرنا في قاعة المدخل الكبير لقصر الجِد، ورقصت أربع فتيات للترفيه عنا- رقصة غريبة لم أشهد مثلها أبدًا من قبل في برسوم؛ خطواتها وحركاتها غريبة ورائعة كالزخارف الجدارية لهذه القاعة، ومع كل ذلك يوجد إيقاع وإيحاء مُعينين في تموجات تلك الأجسام الرشيقة التي نقلت إلينا شعورًا بالرفاهية والبهجة.

بلل البادوار السمين للحرس شفتيه السميكتين وهو يشاهدهن. وعلى الرغم من أنه قد شاهدهن يرقصن من قبل دون شك في العديد من المناسبات، فقد بدا أكثر تأثرًا منا بكثير. ولكن، ربما ليس لديه فاو أو سانوما تورا تشغل فكره.

سانوما تورا! وقف الجمال المنحوت لوجهها النبيل واضحًا أمام شاشة ذاكرتي للحظة وجيزة، ثم بدأ يتلاشى ببطء. حاولت أن أستعيده، أن أرى مرة أخرى الشفاه

القصيرة المتعجرفة والنظرة المستوية البارة، لكن الصورة تراجعت إلى أن طُمست ويبرز الآن زوج من الأعين العجيبة، المبللة بالدموع، ووجه مثالي، ورأس أشعث الشعر.

وعندئذ عاد المحارب وأبلغنا أن جرون، الجد، سوف يستقبلنا على الفور. رافقتنا الفتيات فقط، وبقي البادوار السمين؛ رغم أنني أكادَ أقسم أن هذا لم يكن باختياره.

تقع الغرفة التي استقبلنا فيها الجد عند المستوى الثاني من القصر. كانت غرفة كبيرة، وزخارفها أكثر بشاعة حتى من الَغرف التي مررنا خلالها؛ إذ كانت ذات أثاث بأحجام وأشكال غريبة لا تنسجم مع أي شيء آخر، على أن النتيجة كانت نوعًا من انسجام التنافر الذي لم يكن سيئًا على الإطلاق.

جلس الجد على عرش ضخم من الزجاج البركاني. ربما كان أكثر قطعة أثاث زخرفة وجمالاً رأَيتها على الإطلاق، وكانت عينة رائعة من براعة الحرفة في مجمل مدينة جاستا. وإذا كان قد لفت انتباهي حينذاك، فلم يكن سوى للحظة؛ إذ ما من شيء يمكنه أن صرف الانتباه طويلاً عن الجد نفسه. لقد بدا للوهلة الأولى أشبه بقرد مُشعر منه إلى رجل. كانت بنيته ضخمة، وأكتاَفه كبيرة وثقيلة ومنحنية، وذراعاه طويلان يغطيهما شعر أسود أشعث ربما هو الأكثر بروزاً لأنه لا يوجد في برسوم عِرق للرجال المشعرين. كان وجهه عريضًا ومسطحًا، وعيناه متباعدتان على نحو يبدو معه أن كل واحدة منهما تقع في إحدى زاويتي وجهه. عندما توقفنا أمامه، التوى فمه إلى ما تصورت حينذاك أن المقصود هو ابتسامة، لكنها جعلته يبدو أكثر بشاعة.

وضعنا سيوفنا أمام قدميه، وفقًا للعادة؛ وذكرنا أسماءنا ومدننا.

كرر: «هادرون الهاستوري، نور آن الجاهاري. يرحب بكم جرون، الجد، في جاستا. قليلون هم الزوار الذين يجدون طريقهم إلى مدينتنا الجميلة. ولذلك يُعتبَر حَدَثاً أن يشرفنا اثنين من المحاربين اللامعين بالزيارة. نادرًا ما تصلنا كلمة من العالم الخارجي. أخبرونا إذَنْ عن رحلتكما وماذا يحدث على سطح برسوم فوقنا».

كانت كلماته وطريقته تنم عن مضيف مهموم، مصمم على تقديم ترحيب واسع وحار بالغرباء. لكنني لم أستطع التخلُّص من مسحة سلبية تجاه ملامحه المثيرة للاشمئزاز، على الرغم من أنني لم أتمكن القيام بأقل من دور الضيف الشاكر الممتن.

سردنا قصصنا وأعطيناه أخبار الكثير عن مناطق برسوم المألوفة لكل منا. وعندما كان نور آن يتكلم، تجولت بعيني في التجمع المحتشد في القاعة الكبيرة. كانت الأغلبية من النساء، وكثيرات منهن شابات وجميلات. وكان الرجال، في معظمهم، أفظاظ المظهر

وبدناء، وتبدو حول أعينهم وأفواههم خطوط معينة من القسوة لم تغب عني، وإن حاولت أن أعزوها إلى أول انطباع كئيب أثارته في ذهني المباني السوداء الحزينة والطرق المهجورة.

بعد أن انتهينا من قصصنا، أعلن جرون أن مأدبة عشاء قد أُعدت على شرفنا، وقاد بنفسه الموكب من غرفة العرش إلى أسفل ممر طويل، وصولاً إلى قاعة مأدبة هائلة، توجد في وسطها طاولة كبيرة، امتدت على طولها زخارف رائعة تتألف بالكامل من فواكه وزهور الغابة التي عبرناها. يقع عرش الجد عند أحد طرفي الطاولة، وتقع عروش أصغر عند الطرف الآخر؛ عرش لنور آن وعرشٌ لي. جلست على جانبينا الفتيات اللاتي رحبن بنا ودخلنا معهن إلى المدينة؛ ويبدو أن مهمتهن الآن كانت الترفيه عنا.

كان تصميم الأطباق المرصوصة على الطاولة يتسق تمامًا وجميع التصميمات الجنونية الأخرى في قصر جرون. لا يوجد صحنان أو كأسان أو طبقان من نفس الشكل أو الحجم أو التصميم، ولا شيء يبدو مناسبًا للغرض المقصود منه. قدموا لي النبيذ في صحن فنجان مسطح قليلاً ومثلث الشكل، بينما حشروا اللحم في كأس طويل نحيل. على أنني كنت جائعًا جدًّا، وعلى دراية جيدة بآداب بلياقة المجتمع المهذب، بحيث لم أكشف عما شعرت به من استغراب.

كانت الجدران هنا، كما هو الحال في أجزاء أخرى من القصر، مغطاة بالنسيج الفضي الشبيه بخيوط الحرير، الذي جذب انتباهي وأثار إعجابي منذ لحظة دخولي المبنى؛ وكنت مفتونًا به إلى حد أنني لم أمتنع عن الإشارة إلى ذلك للفتاة التي جلست على يميني.

فقالت: «لا يوجد نسيج مماثل في أي مكان آخر على برسوم. إنه مصنوع هنا، وهنا فقط».

قلت: «إنه جميل جدًّا. يمكن أن تدفع الأمم الأخرى مبالغ كبيرة نظير الحصول عليه».

قالت: «إذا أمكننا إيصاله لهم؛ ولكن ليس لدينا أي اتصال مع العالم فوقنا».

سألتها: «من أي شيء تنسجونه؟».

أجابت: «عندما دخلت إلى وادي هوهر، رأيت غابة جميلة تمتد إلى ضفاف نهر سيل. ورأيت دون شك الفاكهة في الغابة. ولشعورك بالجوع، سعيت إلى جمعها، وعندئذ

هاجمتك العناكب الضخمة التي تتحرك بسرعة على طول خيوط فضية، أدق من شعر المرأة».

قلت: «نعم، هذا ما حدث تحديدًا».

«من هذه الشبكة التي تنسجها تلك العناكب البشعة، ننسج أقمشتنا. إنها قوية كالجلود، ودائمة كالصخور التي بُنِيت منها جاستا».

سألتها: «هل تغزل نساء جاستا هذا النسيج الرائع؟».

أجابت: «العبيد، الرجال والنساء».

سألتها: «ومن أين تأتون بالعبيد؟ وليس لديكم أي اتصال بالعالم العلوي؟».

«يأتي العديد منهم خلال أسفل النهر من تجاناث، حيث ماتوا في 'الهلاك'؛ ويأتي آخرون من أعلى النهر، لكننا لم نعرف أبدًا لماذا يأتون. فهم شعب صامت، لن يخبرنا. وفي بعض الأحيان يأتون من أسفل النهر، لكنهم قليلون وعادة ما يصيبهم الجنون من أهوال رحلتهم بحيث لا نتمكن من استخلاص المعرفة منهم».

«وهل ذهبتِ من قبل في اتجاه أسفل النهر من جاستا؟»، سألتها لأنني كنت آمل ومعي نور آن شقَّ طريقنا في هذا الاتجاه بحثًا عن الحرية؛ فقد تمنيت في أعماقي أن ننجح في الوصول إلى وادي دور وبحر كوراس المفقود، لاقتناعي بإمكانية الهرب من هناك، كما فعل جون كارتر وتارس تاركاس.

قالت: «قليلاً، ربما، لكننا لم نعرف أبدًا ماذا هناك؛ إذ لم يرجع أحد».

سألتها: «وهل أنتِ سعيدة هنا؟».

أجبرت نفسها على رسم ابتسامة على شفتيها الجميلتين، لكنني أعتقد أن قشعريرة سرت خلال جسدها.

كانت المأدبة رائعة والطعام لذيذ. كان الضحك كثيراً في أقصى نهاية الطاولة حيث جلس الجد؛ ذلك أن مَن يجلسون بالقرب منه كانوا يرقبونه عن كثب، وعندما يضحك – وهو ما يفعَله دائمًا عندما يطلق النكات– يضحك الآخرون جميعًا بشدة.

مع اقتراب نهاية الوجبة، دخلت فرقة من الراقصات إلى الشقة. انسحبت أنفاسي عندما وقع بصري عليهن؛ فجميعهن، مع استثناء واحد، مشوهات بفظاعة. والاستثناء

الوحيد كان أجمل فتاة رأيتها من قبل - أجمل فتاة رأيتها من قبل، لكن وجهها أكثر وجه حزين رأيته من قبل. كان رقصها ساحرًا، وتقفز وتزحف حولها تلك المخلوقات المسكينة التعيسة التي كانت كروبها الحزينة تثير التعاطف وليس السخرية، لكن الواضح أن اختيارهن كان لغرض وحيد هو إعطاء الجمهور فرصة للتنفيس عن السخرية عليهن. ويبدو أن مشهدهن كان يثير عند جرون طربًا مسعورًا؛ ولإضافة المزيد إلى متعته وإزعاج الراقصات المساكين المثيرات للشفقة، كان يرشقهن بالطعام والصحون خلال رقصهن حول طاولة الوليمة.

حاولت تجنب النظر إليهن، لكن فِتنة ما في تشوهاتهن جذبت بصري نحوهن، وهنا أدركت أن تشوهات غالبيتهن مصطنعة، وأن كسورهن وانحناءاتهن كانت بإيعاز عقل خبيث. وعندما توجهت ببصري، على طول لوح الطاولة، إلى وجه جرون الذي تزيد ضحكاته المهووسة من تشوهاته، خمنت أنه صاحب فكرة هذه التشوهات.

غادرت الراقصات أخيرًا، وحمل عبد ثلاث كؤوس كبيرة من النبيذ إلى قاعة المأدبة؛ كأسان من اللون الأحمر والثالث باللون الأسود. وضع العبد الكأس الأسود أمام جرون، والكأسين الحُمر أمامي وأمام نور آن. نهض جرون، وحذا الجميع حذوه.

وأعلن: «جرون، الجِد، يشرب نخب سعادة ضيوفه الكرام»، ثم رفع الكأس إلى شفتيه، وشربه دفعة واحدة.

كان من الواضح أن هذه الطقوس تختتم المأدبة، ومن المفترض أن نشرب أنا ونور آن في صحة مضيفنا: فرفعت كأسي. إنها أول مرة يقدمون شيئًا في الوعاء المناسب، وأسعدني أن بإمكاني أخيرًا أن في أشرب دون تكبد خطر تساقط معظم محتويات الوعاء.

قلت: «في صحة وقوة الجِد العظيم، جرون»، وشربت محتويات الكأس دفعة واحدة، اتباعًا لمثال مضيفي.

وبعد أن قام نور آن بالمثل، مع إلقاء بضع كلمات، شعرت بخمول مفاجئ وأدركت قبل أن أفقد الوعي بلحظات أنهم وضعوا مخدرًا في النبيذ.

عندما استعدت الوعي، وجدتني مستلقيًا على أرضية عارية في غرفة غريبة الشكل، توحي أنها جزء من قوس دائرة تقع بين محيط دائرتين متحدتين المركز. كان طرف الغرفة الضيق منحنيًا إلى الداخل، والطرف الأوسع منحنيًا إلى الخارج. توجد نافذة وحيدة صغيرة في الطرف الواسع؛ ولا يظهر باب أو فتحات أخرى في أي من الجدران المغطاة

بالنسيج الفضي نفسه الذي رأيته على جدران وسقوف قصر الجد. يرقد نور آن إلى جواري، ويبدو أنه ما زال تحت تأثير المواد المُخدِرة التي وضعوها لَنا في النبيذ.

تجولت ببصري ثانية في أنحاء الغرفة. وقفت، وذهبت إلى النافذة. رأيت أسطح المدينة على مسافة بعيدة في أسفل. من الواضح أنهم سجنونا في البرج الشاهق الذي يرتفع من وسط قصر الجد، ولكن كيف أحضرونا إلى الغرفة؟ بالتأكيد ليس من خلال النافذة، التي لا بد أنها ترتَفع بحوالي مائتي قدم فوق المدينة. وبينما كنت أفكر في هذه المشكلة المستعصية، استعاد نور آن وعيه. لم يتكلم في البداية، بل ظل راقدًا وهو ينظر نحوي بابتسامة حزينة على شفتيه.

سألته: «حسنا؟».

هز نور آن رأسه وقال بفزع: «ما زلنا نعيش. هذا أفضل ما يمكن أن يقوله المرء».

قلت: «نحن في قصر شخص مهووس، نور آن. ليس لديَّ أدنى شك. يعيش كل شخص هنا في رعب دائم من جرون؛ ومما شاهدته اليوم، هناك ما يبرر شعورهم بالرعب».

قال نور آن: «مع ذلك، أعتقد أننا لم نشهد سوى القليل أو لم نشهد شيئًا بعد».

أجبته: «لقد رأيت ما يكفي».

قال بعد لحظة صمت: «أولئك الفتيات جميلات جدًّا. لا أصدق إمكانية وجود مثل هذا الجمال وهذا الخداع معًا».

قلت: «ربما الفتيات أدوات مُجبرة عند سيد قاسٍ».

قال: «أود دائمًا أن أعتقد ذلك».

مضى النهار وهبط الليل؛ لم يقترب أحد منا، لكنى في هذه الأثناء اكتشفت شيئًا. اتكأت مصادفة على جدار الطرف الضيق في غرفتنا، وجدته دافئًا جدًّا، بل شديد الحرارة في الواقع. ومن هنا استنتجت أن أنبوب المدخنة الذي شاهدناه ينفث الدخان يرتفع في وسط البرج، وأن جدار المدخنة يشكل الجدار الخلفي لشقتنا. إنه لاكتشاف؛ لكنه لا يعني لنا أي شيء حاليًا.

كانت شقتنا بلا أضواء؛ ولأن القمر كلوروس بمفرده في السماء وعلى الجانب الآخر من البرج، كان سجننا في ظلام دامس تقريبًا. كنا نجلس في حالة تأمل قاتم لمحنتنا

وتدور في ذهن كل منا أفكار غير سعيدة، عندما سمعت خطوات تقترب قادمة من أسفل. زاد اقترابها إلى أن توقفت أخيراً عند شقة مجاورة، وعلى ما يبدو أنها التالية لشقتنا. وبعد لحظة سمعت صوت كشط، وظهر خط من الضوء أسفل أحد الجدران الجانبية، واستمر في الازدياد حتى أدركت أخيراً أن الجدار الفاصل آخذ في الارتفاع بأكمله. رأينا في الفتحة بداية صنادل أقدام محاربين، وشيئًا فشيئًا ظهرت أجسامهم كاملة - اثنان من الرجال الأقوياء، مفتولا العضلات، ومدججان بالسلاح. كان معهما أصفاد، وكبّلا معصمي كل منا خلف ظهره. لم يتكلما، لكن أحدهما وجهنا بإيماءة لمتابعته. وما أن خرجنا من الغرفة، كان المحارب الثاني في أعقابنا. دخلنا صامتين إلى منحدر حلزوني شديد الانحدار، حيث هبطنا إلى الجسم الرئيس للقصر.

على أن مرافقينا واصلا الهبوط، فعرفت أننا لا بد متوجهون إلى الحُفر تحت القصر.

الحُفر! ارتجفت داخليًّا. كان البرج أفضل كثيراً، لأن لديَّ رعبًا دائمًا من الحُفر. ربما هي حُفر مظلمة تمامًا، ومملوءة قطعًا بالفئران والسحالي.

انتهى المنحدر إلى شقة رائعة الزينة، تضم نفس مجموعة الرجال والنساء الذين شاركونا المأدبة في وقت سابق من اليوم. هنا، أيضًا، يجلس جرون على عرش. لكنه لم يبتسم هذه المرة عند دخولنا الغرفة. يبدو أنه لم يدرك وجودنا. كان يجلس مائلاً إلى الأمام، وعيناه مثبتتان على شيء في أقصى نهاية الغرفة، التي تحطم فجأة صمتها القاتل بصرخة ألم حادة. ولم تكن تلك الصرخة إلا مقدمة لسلسلة من صرخات مماثلة من العذاب.

نظرت بسرعة في الاتجاه الذي جاءت منه الصرخات، وهو الاتجاه الذي كان جرون يثبت نظراته نحوه. رأيت امرأة عارية، مقيدة بالسلاسل على شواية أمام نار ساخنة. من الواضح أنهم وضعوها هناك وقت دخولي الغرفة، وكانت أول صرخة عذابها هي التي جذبت انتباهي.

كانت الشواية فوق عجلات، بحيث يمكن تحريكها إلى أي مسافة من الحريق يختارها الجلاد، أو يمكن إدارتها بالكامل لتعريض الجانب الآخر من الضحية إلى الحريق.

تجولت عيناي مرة أخرى بين الجمهور، ورأيت أن معظم الفتيات يجلسن وأعينهم ثابتة برعب على المشهد المروع. لا أعتقد أنهن يستمتعن به؛ بل أعرف أنهن لم يستمتعن به. فهذه الفتيات أيضًا ضحايا على قدم المساواة لقسوة تقلبات عقل جرون المريض؛ وعاجزات مثلهن مثل المخلوقة الفقيرة عند الشواية.

وإلى جانب التعذيب نفسه، والخيال الشيطاني للعقل الذي يوجهه، كان هناك الصمت المطلق المفروض على جميع المتفرجين في مواجهة صيحات وأنين الضحية التي تتعرض للتعذيب، صمت يتحقق أعلى تأثيره على عقل الجِد المجنون.

كان المشهد مقززًا. أدرت عيني بعيدًا. والآن، أتى واحد من المحاربين اللذين أحضرانا هنا ولمس ذراعي مشيراً أن أتبعه.

قادنا من هذه الشقة إلى غيرها، حيث رأينا مشهدًا أكثر ترويعًا من شي ضحية بشرية. لا يمكنني وصفه؛ فمجرد التفكير فيه يُعذب ذاكرتي. قبل أن نصل إلى تلك الشقة البشعة بفترة طويلة، سمعنا صرخات ولعنات نزلائها. وفي صمت تام، قادنا حراسنا داخلها. إنها غرفة الرعب، حيث يصنع جِد جاستا تشوهات غير طبيعية لرقصة المعاقين القاسية.

قادنا في صمت أيضًا خارج هذا المكان المروع، والآن يصعد بنا مرشدنا إلى شقة مفروشة بترف. تجلس على الأريكة فتاتان من الفتيات الجميلات اللاتي رحبن بنا لدخول جاستا.

للمرة الأولى، منذ أن تركنا غرفتنا في البرج، كسر أحد مرافقينا الصمت، وقال: «سوف يشرحن»، مشيراً إلى الفتاتين، «لا تحاولا الهرب. لا يوجد لهذه الغرفة سوى مخرج واحد فقط. ونحن في الانتظار خارجه»، ثم أزال قيودنا وغادر مع رفيقه الشقة، وأغلق الباب خلفه.

كانت إحدى الفتاتين هي نفسها تلك الفتاة التي جلست على يميني خلال المأدبة. وقد وجدتها لطيفة وذكية، فتوجهت نحوها.

سألتها: «ما معنى ذلك؟ لماذا أصبحنا سجناء؟ ولماذا أحضرونا هنا؟».

أشارت لي أن آتي إلى الأريكة التي تتكئ عليها؛ وعندما اقتربت، أشارت لي أن أجلس بجانبها.

وقالت: «ما شاهدتماه الليلة يُمثل الحالات الثلاث المطروحة أمامكما. جرون مُعجب بكما، ويترك لكما الاختيار».

قلت: «أنا لا أفهم تمامًا».

سألتني: «رأيت الضحية أمام الشواية؟».

فأجبت: «نعم».

«هل تبغي معاناة هذا المصير؟».

«كلا».

واصلت: «رأيت التعساء، المنحنيات والمكسورات، لرقصة المعاقين».

أجت: «نعم».

«والآن ترى هذه القاعة الفخمة وتراني. ماذا تختار؟».

فقلت: «لا أعتقد أن البديل الأخير بلا شروط، مما قد يجعله أقل

جاذبية مما يبدو الآن، وإلا لما كان هناك سؤال يتعلق بماذا اختار».

قالت: «أنت على حق. هناك شروط».

سألتها: «وما هي؟».

«سوف تصبح ضابطًا في قصر الجِد، وعلى هذا النحو سوف تقوم بعمليات تعذيب مماثلة لتلك التي رأيتها في حُفر القصر. وسوف توجهك أهواء سيدك، مهما كانت».

وقفت ثم قلت: «اختار الحريق».

قالت بحزن: «كنت أعرف، ومع ذلك تمنيت ألا تفعل».

قلت بسرعة: «ليس بسببك؛ لكن الشروط الأخرى لا يمكن أن يقبلها أي رجل شريف».

قالت: «أعرف؛ وإذا كنت قد قبلتها، لكنت احتقرتك في النهاية بمثل ما أحتقر الآخرين».

سألتها: «أنتِ لستِ سعيدة هنا؟».

قالت: «بالطبع. مَن غير شخص مجنون يمكن أن يسعد في هذا المكان المروع؟ هناك، ربما، ستمائة شخص في المدينة، ولا يوجد من يعرف السعادة. يُشكل مائة منا بلاط الجِد؛ والآخرون عبيد. على أننا جميعًا عبيد، في واقع الأمر، نخضع لكل نزوة أو هوس مجَنون لذلك المعتوه الذي هو سيدنا».

سألتها: «وما من مهرب؟».

«كلا».

قلت: «أنا سوف أهرب».

«كيف؟»

أجبت: «الحريق».

ارتجفت، وقالت: «لا أعرف لماذا أهتم كثيراً، ما لم يكن إلا لأنني أُعجبت بك منذ البداية. حتى عندما كنت أساعد في إغرائك لدخول مدينة العنكبوت البشري جاستا، وددت أن أحذرك من الدخول، لكني كنت خائفة، تمامًا كما أخشى من الموت. أتمنى أن أتمتع بشجاعتك للفرار خلال الحريق».

التفت نحو نور آن، الذي كان يستمع إلى حديثنا، وسألته: «هل اتخذت قرارك؟».

فقال: «بالتأكيد؛ فلا يوجد سوى قرار واحد لأي رجل شريف».

قلت صائحًا: «جيد!، ثم التفتُّ إلى الفتاة وسألتها: سوف تخطرين جرون بقرارنا؟».

فقالت: «انتظر؛ يمكنك أن تطلب وقتًا للتفكير. أعرف أن ذلك لن يُحدِث أي فرق في النهاية، ولكن - أوه، لا تزال داخلي بذرة أمل، لا يمكن حتى لليأسَ المطلق أن يدمرها».

قلت: «أنت على حق. هناك دائمًا أمل. لنجعله يعتقد أنكِ قاربت على إقناعنا بقبول حياة الرفاهية واليُسر التي عرضها بديلاً عن الموت أو التعذيبَ، وأنكِ لو لديكِ المزيد من الوقت ربما تنجحين في إقناعنا بالكامل. وفي غضون ذلك، يمكننا إعداد خطة الهروب».

قالت: «هذا مستحيل».

الفصل (9)

فورتاك من جهاما

عدت مع نور آن ثانية إلى برج المدخنة، وناقشنا كل خطة مجنونة للهرب تبادرت إلى أذهاننا. لسبب ما لم يقيدونا بأغلال جديدة، ما أتاح لنا على الأقل حرية حركة بالقدر الذي توفره شقتنا، ويمكنك أن تتأكد أننا استفدنا منها بالكامل؛ فقد فحصنا بدقة كل بوصة مربعة في الأرضية والجدران إلى المسافة التي أمكننا الوصول إليها. لكن جهودنا المشتركة لم تكشف عن أي وسيلة لرفع الجدار الفاصل الذي يغلق السبيل الوحيد للهروب من سجننا؛ باستثناء النافذة التي لم يكن من الممكن بأي حال استبعادها من خططنا، على الرغم من قضبانها الثقيلة وارتفاعها بحوالي مائتي قدم فوق سطح الأرض.

صمدت القضبان العمودية الثقيلة التي تحمي النافذة أمام جهدنا المشترك عندما حاولنا ثنيها، على الرغم من قوة نور آن وبنيتي العضلية غير العادية التي يشيدون بها دائمًا. كانت القضبان متقاربة بحيث لا تسمح بمرور أجسادنا، لكن إزالة واحد منه سيتيح فتحة كبيرة الحجم؛ وإنما، لأي غرض؟ ربما كانت نفس الإجابة التي تدور في ذهني تدور في ذهن نور آن- عندما ينعدم الأمل ويبقى الحريق في الشواية هو البديل الوحيد، يمكننا على الأقل خداع جرون وإلقاء أنفسنا من هذه النافذة العالية نحو الأرض التي تبعد بمسافة كبيرة.

على أي حال، مهما كان تصور كل منا لنهايته، فقد احتفظ بها لنفسه. وعندما بدأت أحفر في الأسمنت أسفل أحد القضبان مستخدمًا إبزيم مشبك من عتادي، لم يسألني نور آن أي سؤال لكنه شرع في عمل مماثل في الأسمنت العلوي للقضيب نفسه. كنا نعمل في صمت، وخوفنا من الاكتشاف قليل؛ فلم يدخل أحد سجننا منذ حبسونا فيه. يرفعون الحاجز الفاصل مرة واحدة يوميًّا لبضع بوصات لإدخال الطعام من تحته، لكننا لم نرَ الشخص الذي أحضره، ولم يتواصل معنا أي شخص منذ أن اقتادنا الحراس إلى القصر في تلك الليلة الأولى وإلى لحظة نجاحنا الآن أخيراً في تخفيف الأسمنت حول القضيب بحيث يمكن إزالته بسهولة من موضعه.

لن أنسى أبدًا كيف انتظرنا بفارغ الصبر قدوم الليل، حتى يمكننا إزالة القضيب من النافذة وفحص السطح المحيط في البرج؛ فقد تبادر إلى ذهني أنه قد يوفر وسيلة للهبوط إلى الأرض أدناه، أو بالأحرى إلى سطح المبنى الذي يعلوه البرج، حيث نأمل أن نشق طريقنا إلى قمة سور المدينة دون كشفنا. وبالفعل، وضعت خطة في ضوء هذا الاحتمال

تتمثل في تمزيق شرائط من النسيج الذي يغطي الجدران ونصنع منها حبلاً نهبط من خلاله إلى الأرض خارج سور المدينة.

ومع اقتراب الليل، بدأت أدرك أنني بنيت آمالاً كبيرة على هذه الفكرة. كانت تبدو إمكانية إنجازها جيدة بالفعل، لا سيما مع أقصى استفادة من إمكانيات الحبل، بما يشمل صنع حبل طويل بما يكفي للوصول من نافذتنا إلى قاعدة البرج. وهكذا يمكن التغلب على كل عقبة. وعند الغسق، شرحت خطتي لنور آن.

قال: «جيد. فلنبدأ على الفور في صنع الحبل. نحن نعرف مدى قوة هذا النسيج، وضفيرة رقيقة منه ستتحمل وزننا. وهناك ما يكفي على جدار واحد لصنع الحبل الذي نريده».

بدا نجاحنا شبه مؤكد، وبدأنا إزالة النسيج من أحد الجدران الكبيرة. وهنا واجهتنا أول عقبة. كان النسيج مثبتًا من أعلى وأسفل بمسامير ذات رؤوس كبيرة، موضوعة قريبة من بعضها بعضًا، وصمدت أمام كل جهودنا لتفكيكها. بدا هذا النسيج الرائع، الرقيق وخفيف الوزن، غير قابل للإزالة على الإطلاق. نضبت جهودنا، واضطررنا في النهاية إلى الاعتراف بالهزيمة.

سرعان ما هبط ليل برسوم وبمقدورنا الآن، بسلامة نسبية، إزالة القضيب من النافذة والاستطلاع للمرة الأولى خارج الحدود التي تقيد زنزانتنا؛ بيد أن الأمل الذي كان يعتمل في صدورنا قد انخفض الآن. ومع توقع القليل من التشجيع، سحبت نفسي إلى حافة النافذة، وأخرجت رأسي وكتفيَّ من الفتحة.

تقع أدناي المدينة الحزينة الكئيبة، وقد تقلص سوادها ببعض الأضواء الخافتة التي يصدر أغلبها من نوافذ القصر. مررت براحة يدي على سطح البرج في حدود متناول ذراعي، وهنا غاص قلبي مرة أخرى داخلي.

سطح أملس شبيه بالزجاج، من الصخور البركانية المقطوعة والمرصوصة بشكل جميل، دون أي نتوءات يمكن التشبث بها- وفي الواقع، قد تجد أي حشرة صعوبة في التشبث بسطح مصقول.

«إنه لأمر ميؤوس منه تمامًا»، قلت وأنا أسحب رأسي إلى الغرفة خلفي، «البرج أملس كثدي امرأة».

سألني نور آن: «وماذا يوجد أعلاه؟».

انحنيت ثانية نحو الخارج، ونظرت هذه المرة إلى أعلى. يوجد إفريز البرج فوقي مباشرة – تقع زنزانتنا في أعلى مستوى للمبنى. شيء ما دفعني للاكتشاف في هذا الاتجاه – دافع مجنون، ربما ولّده اليأس.

قلت: «أمسكْ كاحليَّ، نور آن. وباسم سلفك الأول، أمسكْ بإحكام!».

تشبثت بالقضيبين المتبقيين ورفعت نفسي إلى وضع وقوف على حافة النافذة، بينما نور آن يمسك بي من الكاحلين بإحكام. همست لنور آن قائلاً إن بإمكان امتداد أصابعي الوصول فقط إلى قمة الإفريز، ثم نزلت ثانية إلى حافة النافذة، وصحت: «سوف أحاول الوصول إلى سطح البرج».

سألني: «لماذا؟».

ضحكت قائلاً: «لا أعرف، لكن شيئًا داخليًّا لديَّ يدفعني بإصرار».

فقال: «إذا وقعت، ستكون نجوت من الحريق- وسوف أتبعك. حظًّا سعيدًا، يا صديقي الهاستوري!». رفعت نفسي مرة أخرى إلى موضع الوقوف على حافة النافذة، ومددت أصابعي إلى أن التفت على حافة السطح الشاهق. سحبت نفسي ببطء إلى أعلى؛ يقع أسفلي، بحوالي مائتي قدم، سطح القصر والموت. أنا رجل قوي جدًّا – لا يمكن إلا لرجل قوي جدًّا أن يأمل في النجاح؛ فليس لديَّ في أحسن الأحوال سوى قبضة غير مستقرة على السطح المستوي فوقي، لكني نجحت أخيراً في رفع كوعي وتثبيته، ثم سحبت جسدي ببطء فوق الحافة إلى أن تمكنت في النهاية من الاستلقاء لاهثًا على الرصيف البازلتي الذي يغطي قمة البرج النحيل.

استرحت بضع لحظات، ثم وقفت على قدمي. كان القمر ثوريا الانفعالي المجنون يسرع عبر السماء الصافية؛ وقرينه القمر كلوروس البارد يتخذ دائرته المنفصلة في عزلة رائعة. ويقع أسفلي وادي هور مثل دنيا الخيال المسحور القديمة؛ وفوقي يقع نتوء الجرف الكئيب، الذي يحيط بعالم هذا الرجل المجنون.

شعرت فجأة بهواء ساخن يصطدم بوجهي، مما أعاد إلى ذهني عربدة التعذيب التي تجري في أسفل، في حُفر جاستا. ارتفعت صرخة خافتة من فم أنبوب المدخنة الأسود ورائي. ارتجفت، لكن انتباهي كان مركزاً الآن على فتحة التثاؤب تلك، واقتربت منها. تصاعدت من فم المدخنة موجات من الحرارة تكاد لا تُحتمل. الدخان قليل والاحتراق مثالي، لكنَّ شيئًا ما انطلق في الهواء بسرعة مذهلة. وبدا كأنني إن ألقيت نفسي عليه، فسوف يحملني بعيدًا.

وعندئذ تولدت في ذهني فكرة- فكرة تبدو مجنونة ومستحيلة، إلا أنها تملكتني. سحبت نفسي بحذر إلى أسفل، على حافة البرج الخارجية، وتمكنت أخيراً من استعادة الأمان في زنزانتي.

كنت على وشك شرح خطتي المجنونة لنور آن، عندما قاطعتني أصوات من الغرفة المجاورة؛ وبعد لحظات بدأ الحاجز الفاصل يرتفع. تصورت أنهم يجلبون لنا الطعام مرة أخرى، لكن الحاجز الفاصل ارتفع أكثر مما يتطلبه تمرير أوعية الطعام من تحته. وشاهدنا بعد لحظة، أسفل قاعدة الجدار الآخذ في الارتفاع، كاحلين وساقين لامرأة. انحنت فتاة ودخلت زنزانتنا. تعرفت عليها في ضوء الغرفة المجاورة- إنها الفتاة التي اختارها جرون لإغرائي بالخضوع لإرادته. كان اسمها شارو.

أعاد نور آن القضيب بسرعة إلى موضعه على النافذة، وعندما دخلت الفتاة لم يكن هناك ما يدل على تغيير أي شيء، أو أن أحدنا كان خارج الزنزانة. ظل الحاجز الفاصل نصف مرفوع، ما سمح بدخول الضوء إلى الشقة. لا بد أن الفتاة لاحظت، وهي تحدق في وجهي، أن نظراتي تتجول في الغرفة المجاورة.

قالت بابتسامة حزينة: «لا تُعلق آمالاً كبيرة. الحراس ينتظرون في المستوى التالي أدناه».

سألتها: «لماذا أتيتِ، شارو؟».

أجابت: «جرون أرسلني. لقد نفد صبره انتظارًا لقرارك».

فكرت بسرعة. أملنا الوحيد يكمن في تعاطف هذه الفتاة، الذي اتضح ودها على الأقل من موقفها السابق. قلت هامسًا: «لو كان لدينا خنجر وإبرة، يمكننا إعطاء جرون الإجابة في صباح بعد غد».

سألتني بعد لحظة من التفكير: «ما السبب الذي يمكنني قوله له عن هذا التأخير؟».

قال نور آن: «قولي له إننا نناجي أسلافنا، وقرارنا يعتمد على مشورتهم».

ابتسمت شارو. سحبت خنجرًا من غمده في جانبها ووضعته على الأرض، وأخرجت إبرة من جيب حقيبة معلقة على عتادها ووضعتها بجوار الخنجر. وقالت: «سوف أقنع جرون أنه من الأفضل الانتظار. كان قلبي يأمل، هادرون الهاستوري، أن تقرر البقاء معي. لكني سعيدة لأن تقديري لشخصيتك لم يكن خاطئًا. سوف تموت، يا محاربي، لكنك على الأقل ستموت كما يجب أن يموت رجل شجاع وشريف. وداعًا!

إنني أنظر إليك للمرة الأخيرة وأنت حي؛ وإلى أن ألتقي مع أسلافي، ستظل صورتك محفورة في قلبي».

ذهبت، وهبط الحاجز الفاصل، وأصبحنا مرة أخرى في شبه ظلام ليلة يضيئها القمر. لدينا الآن الشيئان اللذان كنت أرغبهما بشدة – الخنجر والإبرة.

«ما فائدتهما؟»، سألني نور آن وأنا آخذهما من على الأرض.

أجبته: «سترى»، وبدأت العمل فورًا بأن قطعت النسيج من جدران زنزانتنا، ثم وقفت فوق كتفي نور آن وأزلت أيضًا النسيج الذي يغطي السقف. كنت أعمل بسرعة لمعرفتي أن الوقت المتاح قليل لإنجاز ما شرعت فيه. كان مخططًا مجنونًا، لكنه يقع داخل نطاق إمكانية التطبيق العملي.

كنت أعمل في الظلام، معتمدًا على حاسة اللمس أكثر من البصر؛ ربما بإلهام من قوة عُليا لإنجاز المهمة التي حددتها لنفسي بأي درجة من الكمال.

اشتغلت ومعي نور آن في الفترة المتبقية من هذه الليلة وطوال اليوم التالي دون راحة، إلى أن ابتكرنا حقيبة ضخمة من النسيج الذي يغطي جدران وسقف زنزانتنا؛ كما صنعنا حبالاً طويلة من القصاصات التي تبقت. واكتملت مهمتنا مع حلول الليل.

قلت: «فليكن الحظ حليفنا».

قال نور آن: «هذا المخطط جدير بعقل جرون المجنون نفسه؛ لكنه يتضمن إمكانات نجاحه».

قلت: «هبط الليل؛ لسنا بحاجة إلى التأخير لفترة أطول. لكن علينا أن نتأكد من شيء واحد؛ سواء نجحنا أو فشلنا، فإننا سنتجنب الحريق. وفي الحالتين، أُهيب بأسلافنا النظر بحب ورحمة إلى شارو، التي أتاحت لنا صداقتها إمكانية هذه المحاولة».

أضاف نور آن، تصحيحًا لكلامي: «التي أتاح حبها».

أقدمت ثانية على الصعود المحفوفة بالمخاطر إلى السطح، وأخذت معي أحد حبالنا حديثة الصُنع. وعند وصولي إلى القمة ألقيت بالحبل إلى نور آن، حيث ربط الحقيبة الكبيرة به، وبعدها حصدت ثمار جهدنا وسحبتها بعناية إلى السطح بجواري.

كانت الحقيبة خفيفة خف الريشة، لكنها أقوى من جلد زيتيدار[211] مدبوغ جيدًا. أنزلت الحبل بعد ذلك، وساعدت نور آن ليصعد إلى جانبي، ولكن ليس قبل أن يُعيد القضيب الذي أزلناه من النافذة إلى مكانه.

كان عدد من الحبال الطويلة التي تنتهي بأنشوطات مربوطًا في قاع الحقيبة، التي كانت مفتوحة، وقمنا بتمرير أطول حبل صنعناه خلالها - وكان الحبل طويلاً إلى حد تطويق محيط البرج تمامًا - عندما ألقيناه أسفل الإفريز الناتئ. قمنا بعملنا بسرعة، مع عُقدة منزلقة يمكن فكها على الفور بهزة واحدة.

بعد ذلك، انزلقت أنشوطات نهاية الحبال، المعلقة بقاع الحقيبة على طول الحبل الذي يطوق البرج تحت الإفريز، إلى أن استطعنا بمهارة تحويل فتحة الحقيبة مباشرة فوق فم أنبوب المدخنة المؤدي إلى أسفل، إلى فرن الموت في حُفر جاستا. وقفت ونور آن على جانبي أنبوب المدخنة، ورفعت الحقيبة إلى أن بدأت تمتلئ بالهواء الساخن المندفع من المدخنة. انتفخت الحقيبة بما يكفي للبقاء في وضع مستقيم، فانتقلت فوقها تاركًا نور آن لتثبيتها، ثم قمت بتحريك الأنشوطات إلى أن أصبحت على مسافات متساوية، مما أدى إلى تثبيت الحقيبة فوق

مركز أنبوب المدخنة مباشرة. وبعدها قمت بتمرير الحبل الأخير على نحو فضفاض خلال الأنشوطات وربط نهايتيه معًا. وعلى طرفي الحبل المقابلين، شبكت خطافات الصعود التي تُعد جزءًا من عتاد كل محارب برسومي- ويمكن الغرض الأساسي لهذه الخطافات في خفض أطراف الصعود من سطح سفينة إلى أخرى أدناها مباشرة، لكنها في الممارسة العملية تُستخدم بطرق لا تُحصى في العديد من حالات الطوارئ.

ثم انتظرنا؛ نور آن على استعداد لترك العُقدة تنزلق -العقدة التي تمسك الحبل حول البرج تحت الإفريز- وأنا على الجانب الآخر، ومعي خنجر شارو وعلى استعداد لقطع الحبل الموجود على جانبي.

رأيت الحقيبة الكبيرة التي صنعناها تمتلئ بالهواء الساخن. تضخمت في البداية على نحو فضفاض، ثم اهتزت وتأرجحت؛ وبعد ذلك انتفخ جانباها وبدأت تجاهد للصعود. امتد نسيجها بإحكام إلى حد أنني تصورت أنها ستنفجر. أخذت تُسحب وتُجر من الحبال التي تقيدها، لكنني انتظرت.

---

(211) الزيتيدار: حيوان مريخي يشبه الفيل، ويُعتبر من حيوانات الجر الثقيلة حيث يُستخدمه المريخيون غالبًا في حمل الأحمال الكبيرة لمسافات شاسعة وجر المركبات الضخمة – http://barsoom.wikia.com/wiki/Zitidar المترجمة.

كانت الرياح قليلة أو منعدمة في وادي هوهر أسفلنا، مما سهّل إلى حد كبير تنفيذ مغامرتنا المتهورة.

تضخمت فوقنا الحقيبة الكبيرة، التي أصبح حجمها مماثلاً تقريبًا لحجم الغرفة التي حبسونا فيها. جاهدت فوق حبالها بنفاد صبر لترتفع عاليًا إلى حد تعجبي من قوة صمودها، ثم أعطيت كلمتي.

وفي الوقت نفسه، ترك نور آن العقدة التي عنده كي تنزلق، وعندئذ قمت بقطع الحبل على الجانب الآخر. تحررت الحقيبة الضخمة وانطلقت عاليًا، وهي تسحبنا في أعقابها. انطلقت إلى أعلى بسرعة مذهلة إلى أن أصبح وادي هوهر مجرد ثقب صغير في سطح العالم الكبير الذي يقع أسفلنا.

واجهتنا الرياح الآن، ويمكنك أن تطمئن أننا شكرنا أسلافنا عندما أدركنا أننا ننجرف أخيراً بعيدًا عن مدينة جاستا القاسية. زادت الريح إلى أن أصبحت تهب سريعًا في اتجاه الشمال الشرقي، لكننا لم نهتم كثيراً بالمكان الذي تدفعنا إليه، ما دامت تأخذنا بعيدًا عن نهر سيل ووادي هوهر.

بعد أن تجاوزنا فوهة البركان القديم، التي تُشكل قاع الوادي حيث توجد جاستا الكئيبة، شاهدنا أسفلنا، في ضوء القمر، بلدة بركانية قاسية ذات مظهر غريب ومثير للإعجاب من اللا واقعية؛ تشكل الفجوات العميقة وأكوام البازلت المتداعية عائقًا لا يمكن أن يتغلب الإنسان عليه، وهو ما قد يفسر سبب عدم اكتشاف وادي هوهر الذي يقع في هذه الزاوية البعيدة المهجورة من برسوم منذ عصور.

تزايدت الرياح، وحملتنا على ارتفاع كبير بسرعة كبيرة. على أني أدركت أننا نهبط ببطء شديد مع زيادة برودة الهواء الساخن داخل الحقيبة. ولم أستطع تخمين إلى متى سوف تبقينا الحقيبة في أعلى، لكنني كنت آمل أنها سوف تحملنا إلى ما يتجاوز على الأقل تلك التضاريس الصعبة أسفلنا.

ومع حلول الفجر، كنا نطفو على مسافة بضع مئات من الأقدام فوق سطح الأرض. أصبحت البلدة البركانية خلفنا الآن، وتمتد أمامنا، بقدر ما يمكننا الرؤية، تلال متموجة جميلة، تتناثر عليها أشجار السكيل المقاوِمة للجفاف والتي قيل إن حضارة برسوم قامت عليها.

وخلال مرورنا عند قمة تل منخفض، بسرعة خمسين سوفاد تقريبًا، شاهدنا أسفلنا مبنى أبيض لامعًا. كان محاطًا بجدار شاهق، مثله مثل جميع المدن والمباني المنعزلة في

برسوم؛ لكن بنيته المعمارية كانت تختلف من نواحٍ أخرى عن النمط البرسومي المعتاد. لم تكن بنيته الأساسية، التي تتكون من عدد من المباني، محاطة بالأبراج والقباب والمنارات المعتادة التي تميز جميع مدن برسوم، ولم تبدأ سوى في العصور الحديثة إفساح الطريق ببطء أمام منصات الهبوط المسطحة للعالم الجوي. يتكون المبنى الذي نراه أسفلنا من عدد من المباني ذات الأسطح المستوية على ارتفاعات مختلفة، دون أن يزيد ارتفاع أي منها على أربعة مستويات. وبين المباني والجدران الخارجية، وفي العديد من الساحات المفتوحة بين المباني، هناك وفرة من الأشجار والشجيرات بالإضافة إلى مرج قرمزي ومسارات جيدة. كان في الواقع مشهدا رائعًا وجميلاً. بيد أننا انخدعنا مؤخرًا، إلى ما كاد أن يصل إلى حد الهلاك، بجمال هوهر وإغراء نسائها الجميلات، ولذا حرصنا على ألا تخدعنا المظاهر الخارجية مرة أخرى. سوف نطفو فوق القصر الساحر، ونرى فرصنا في ذلك البلد المفتوح خلفه.

لكن القدر كان يضمر لنا شيئًا آخر. خفت حدة الرياح، وأخذنا نهبط بسرعة. رأينا أسفلنا أشخاصًا في حديقة المبنى، وفي الوقت نفسه، أصابهم الذعر عندما اكتشفونا. هرعوا إلى أقرب مدخل، ولم نشهد أي إنسان عندما انتهى بنا المطاف أخيرًا فوق سطح أحد أقسام المبنى العالية.

بعد أن تخلصنا من الأنشوطات التي تربطنا وتحررت الحقيبة الكبيرة من أوزاننا، ارتفعت بسرعة في الهواء لمسافة قصيرة ثم انقلبت تمامًا وسقطت على الأرض خارج الجدار الخارجي مباشرة. لقد خدمتنا جيدًا وتبدو الآن كشيء حي تخلى عن حياته لإنقاذنا. لم يكن لدينا وقت لنتأسف عليها؛ فعلى الفور ظهر رأس من فتحة صغيرة في السطح الذي نقف فوقه، ثم ظهر الجسم، وكان لرجل يرتدي عتادًا ضئيلاً يجعله عاريًا تقريبًا. كان رجلاً عجوزًا، رأسه مستدير ومُغطى بقليل من خصل الشعر الرمادية.

تندر في برسوم مظاهر سن الشيخوخة، ولذا يجذب وجودها الانتباه على الفور. تصل فترة حياة الإنسان الطبيعية في برسوم إلى ألف سنة تقريبًا، لكن مظهرنا خلالها لا يتغير إلاَّ قليلاً. صحيح أن معظمنا قد يلقى موتًا عنيفًا قبل أن يصل إلى سن الشيخوخة بكثير، لكن هناك البعض الذين يجتازون فترة الحياة تلك، والبعض الآخر الذين لا يهتمون بأنفسهم جيدًا، وهؤلاء القلائل هم من يشكلون العجزة بيننا، وواضح أن هذا العجوز واحد منهم.

عندما رآه نور آن، صاح بسرور من المفاجأة: «فور تاك!».

قال العجوز بصوت عال: «هاااا! مَن الذي أتى من السماء العالية ويعرف فور تاك العجوز؟».

أجاب صديقي: «إنه أنا – نور آن!».

صاح فور تاك: «هاااااا! نور آن– أحد حيوانات تول أكستار الأليفة».

«كما كنت أنت ذات يوم، فور تاك».

صرخ العجوز: «لكني لست الآن - لست الآن. لقد عصرني الطاغية مثل فاكهة شهية، ثم ألقى القشرة الفارغة جانبًا. هاااااااا! كان يعتقد أنها فارغة، لكني أُصلي يوميًّا لجميع أسلافي كي يعيش إلى أن يعرف أنه كان مخطئًا. يمكنني أن أقول لك هذا بأمان، نور آن، لأنك في قبضتي وأعدك أنك لن تحيا كي تنقل مكان وجودي إلى تول أكستار».

أجاب نور آن: «لا تخشَ، فور تاك؛ فقد عانيت أنا أيضًا من نذالة جيداك جاهار. لقد سمح لك بمغادرة العاصمة في سلام، لكنه صادر جميع ممتلكاتي وحكم عليَّ بالإعدام».

صاح العجوز: «هاااااااا! تكرهه أنت أيضًا إذَنْ».

أجاب صديقي: «الكراهية كلمة ضعيفة لوصف شعوري تجاه تول أكستار».

قال فور تاك: «هذا جيد. عندما رأيتكما تهبطان من السماء، اعتقدت أن أسلافي أرسلوكما لمساعدتي، وأعرف أن هذا كان صحيحًا في الواقع». ثم أضاف، وهو يومئ برأسه العجوز نحوي: «وهل هو محارب آخر من جاهار؟».

أجاب نور آن: «كلا، فور تاك. إنه هادرون الهاستوري، أحد نبلاء هليوم، لكن جاهار ظلمته أيضًا».

صاح العجوز: «جيد! أصبحنا الآن ثلاثة. لم يكن لديَّ مَن يساعدني حتى الآن سوى العبيد والنساء، على أن هدف انتصاري يلوح في الأفق الآن مع وجود شابين من المحاربين المدرَّبين الأقوياء».

تذكرت خلال حديث الرجلين ذلك الجزء من القصة التي رواها لي نور آن في حفر تجاناث، الجزء المتعلق بفور تاك والبندقية التي اخترعها وتؤدي إلى تفكيك الأشعة، وثبتت قوتها المميتة ضد زورق الدورية فوق هيليوم ليلة اختطاف سانوما تورا. يا لغرابة المصير الذي أحضرني إلى قصر الرجل حامل السر الذي قد يعني الكثير لهيليوم وبرسوم

كلها. ويا لغرابة وتعرج المسار الذي قادني إليه مصيري؛ لكنني كنت أعرف أن أسلافي يرشدونني، ولا بد أن كل شيء مرتب لنهاية جيدة.

بعد أن استمع فور تاك إلى جزء من قصتنا، أصر على أننا نشعر قطعًا بالتعب والجوع، وأثبت أنه مضيف جيد؛ حيث قادنا إلى قصره، واستدعى العبيد، وأمرهم بخدمتنا للاستحمام وتناول الطعام، ثم النوم حتى نأخذ قسطًا من الراحة. شكرنا له عطفه ومراعاته، التي سعدنا بالاستفادة منها.

كانت الأيام التي تلت مثيرة ومفيدة. فور تاك، الذي كان محاطًا ببضع من العبيد المخلصين الذين صاحبوه إلى منفاه، كان مسرورًا برفقتنا وبالمساعدة التي يمكننا تقديمها لتجربته، التي سوف يشرحها لنا تفصيلاً، بعد أن يطمئن إلى ولائنا.

حكى لنا قصة تجواله بعد مغادرة جاهار، وكيف عثر على هذه القلعة المهجورة منذ فترة طويلة، التي لم يترك بانيها وقاطنوها أي سجل سوى عظامهم. أخبرنا أن الهياكل العظمية، عندما اكتشف القلعة، كانت تتناثر في الفناء، وتكدست عظام عشرات المحاربين في المدخل الرئيس، بما يشهد على دفاع سكان القلعة الشرس ضد عدو غير معروف؛ في حين وجد هياكل عظمية أخرى – لنساء وأطفال - في العديد من الغرف العلوية.

وقال: «أعتقد أن بعض حشود المحاربين الخُضر الوحشية هاجمت المكان، ولم يتمكن أحد من النجاة. كانت الأعشاب تنمو بإفراط في الساحات والحدائق، وكان المبنى من الداخل مملوءًا بالتراب؛ ولم تكن هناك أضرار أخرى تُذكر. لقد أسميتها جهاما، وأواصل هنا العمل الأساسي في حياتي».

سألته: «وما هو؟».

قال العجوز: «الانتقام من تول أكستار. لقد أعطيته أشعة التفكيك، وأعطيته الطلاء العازل الذي يحمي سفنه وأسلحته من هذه الأشعة؛ والآن سأعطيه في يوم ما شيئًا آخر– شيئًا يُعد ثوريًّا في فن الحرب مثل شعاع التفكيك نفسه، شيئًا سوف يلقي أسطول جاهار محطمًا على الأرض، شيئًا سيبحث عن قصر تول أكستار ويدفن الطاغية تحت أنقاضه».

لم يمْضِ وقت طويل علينا، أنا ونور آن، في جهاما قبل أن نقتنع أن عقل فور تاك مشوش قليلاً من تفكيره لفترة طويلة في الأضرار التي سببها له تول أكستار. فعلى الرغم من ميوله الطبيعية الطيبة، كان مهووسًا برغبة مجنونة في الانتقام من الطاغية مع التجاهل التام لعواقب ذلك على نفسه وعلى الآخرين. كان تفكيره غير عقلاني في هذا الموضوع

تحديدًا؛ ونظرًا لشعوره بالارتياح لأنني ونور آن أصبحنا من بين العوامل المحتملة لتحقيق تصميمه بنجاح، كانت تصيبه نوبة غضب كاملة كلما تطرقت إلى موضوع رحيلنا.

لشعوري بالقلق نتيجة للرغبة التي تدفعني للتوجه إلى جاهار وإنقاذ سانوما تورا، لم أتحمل الصمت عن هذا التأخير القسري، لكن فور تاك كان عنيدًا -لن يسمح لي بالرحيل- وولاء عبيده المطلق جعل بإمكانه أن يفرض إرادته. لقد أوضح لهم خلال جلستنا أننا ضيوف، وضيوف كرام ما دمنا لا نبذل أي جهد للرحيل دون أذنه؛ وإنما إذا اكتشفونا في محاولة لمغادرة جهاما خلسة، فإن عليهم تدميرنا.

ناقشت الأمر بالتفصيل مع نور آن. اكتشفنا أن هناك أربعة آلاف هاد من المناطق العسيرة غير الودودة تمتد بيننا وبين جاهار. ونظرًا لأننا دون سفينة أو ثوات، فمن غير المحتمل أن نتمكن من الوصول إلى جاهار في الوقت المناسب لإنقاذ سانوما تورا، هذا إن استطعنا الوصول أصلاً. ولذلك اتفقنا على تكريس وقتنا لإقناع فور تاك أننا على استعداد لمساعدته، على أمل أن نحصل في النهاية على معونته ودعمه. وقد نجحنا خلال فترة زمنية قصيرة في الفوز بثقة العالِم العجوز، وبدأ يحدونا الأمل في اكتساب مزيد من ثقته ليكشف لنا عن طبيعة أداة التدمير التي يعمل على إعدادها ضد تول أكستار.

يجب أن أعترف أن اهتمامي انصب في الأساس على اختراعه، لأني كنت على ثقة بأن استخدام الاختراع ضد تول أكستار يتطلب إيجاد وسيلة لنقله إلى جاهار، واعتبرتها فرصة لوصولي إلى عاصمة الطاغية.

بقينا في جهاما حوالي عشرة أيام، أظهر خلالها فور تاك علامات التوتر والعصبية الشديدين. أبقانا معه عمليًّا طوال الوقت الذي لم يغلق فيه على نفسه في أعمق تجاويف مختبراته السرية.

بدا فور تاك خلال وجبة العشاء، في اليوم العاشر، أكثر اضطرابًا. كان يتحدث بلا نهاية كالعادة عن كراهيته لتول أكستار، واتخذت ملامحه تعبيراً عن غضب مهووس.

وفي النهاية قال وهو يكاد يصرخ: «لكني عاجز. عاجز لعدم وجود شخص يمكن أن أبوح له بسري، ويتحلى أيضًا بالشجاعة والذكاء لتنفيذ خطتي. أنا عجوز وضعيف لأواجه المشاق التي بمقدور شباب مثلكم تحملها، لكن مواجهتها ضرورية إن أردت تحقيق مهمتي كمنقذ لجاهار. لو كان بإمكاني فقط الوثوق بكما! لو كان بإمكاني فقط الوثوق بكما!».

قلت: «ربما يمكنك، فور تاك».

يبدو أن نبرة كلماتي طمأنته، فصاح: «هااااااا! أتصور ذلك، في بعض الأحيان».

قلت: «لدينا هدف مشترك؛ أو على الأقل أهداف مختلفة تلتقي عند نفس النقطة، جاهار. دعنا نعمل معًا. نحن نريد الوصول إلى جاهار. إذا ساعدتنا، سوف نساعدك».

جلس يفكر صامتًا للحظات طوال، ثم قال: «سأفعل. هاااااااا! سأفعل. هيا بنا». ونهض من مقعده وقادنا نحو باب مغلق أمام مدخل مختبره السري.

* * *

الفصل (10)

الموت الطائر

يشغل مختبر فور تاك جناحًا كاملاً في المبنى، ويتكون من غرفة واحدة كبيرة جدًّا، يبلغ ارتفاعها خمسين قدمًا. تقع المقاعد والطاولات والأدوات والمقصورات في ركن واحدة، وتبدو تائهة في الغرفة الكبيرة. ويوجد بالقرب من السقف مسار وحيد يحيط بالغرفة، معلق فيه زورق فضائي مُصغر، مدهون باللون الأزرق الشنيع لجاهار. ويوجد على أحد المقاعد جسم أسطواني بطول الذراع تقريبًا. هذه هي الملامح الوحيدة الملحوظة للمختبر، علاوة على الفراغ الهائل داخله.

أشار لنا فور تاك بالدخول وأغلق الباب وراءه، وسمعت نقرة القفل الهائل المشؤومة. كان هناك شيء كئيب يوحي به الوضع، ربما معرفتنا بجنون فور تاك وولعه باللغز الغريب في الغرفة الشاسعة.

قادنا إلى مقعد طويل وُضع فوقه الشيء الأسطواني الذي جذب انتباهي. رفع هذا الشيء بعناية وشبه مداعبة من موضع استقراره. وقال: «هذا نموذج للجهاز الذي سوف يدمر جاهار، ويتركز فيه جوهر الإنجاز العلمي. يبدو من مظهره أنه مجرد أسطوانة معدنية صغيرة، بينما تكمن داخله آلية دقيقة وحساسة كالمخ البشري، وسوف ترون أنه يعمل تقريبًا كأنما يحركه عقل بداخله؛ لكنه آلي تمامًا ويمكن إنتاجه بكميات كبيرة على نحو سريع وبتكلفة منخفضة. وقبل أن أشرحه لكما، سوف أعرض مرحلة واحدة من إمكانياته. انظروا!».

صعد فور تاك والأسطوانة في يده إلى خزانة مسطحة على الجدار وفتحها، فانكشفت معدات معقدة من مفاتيح التبديل والروافع والأزرار ضاغطة. قال وهو يغلق في الوقت نفسه أحد مفاتيح التبديل: «شاهدوا الآن الطائرة المصغرة المعلقة في المسار القريب من السقف». بدأت الطائرة على الفور تتحرك على طول المسار بسرعة كبيرة. ثم ضغط فور تاك على زر في أعلى الأسطوانة، فانطلقت فورًا من راحة يده المفرودة واستدارت بسرعة في الهواء، ثم اندفعت مباشرة نحو الطائرة المُسرعة. تلاشت المسافة بينهما ببطء؛ انحنت الأسطوانة تدريجيًّا في اتجاه خط رحلة الطائرة وأصبحت الآن خلفها مباشرة، بحيث تبعد مقدمتها المدببة عدة أقدام قليلة عن مؤخرة السفينة المصغرة. ثم جذب فور تاك رافعة صغيرة على لوحة التبديل، قفزت على إثرها الطائرة إلى الأمام بسرعة شديدة. وعلى الفور زادت سرعة الأسطوانة، وأمكنني ملاحظة أنها تكتسب سرعتها على

نحو أكبر بكثير من الطائرة. وفي منتصف الطريق حول الغرفة، اصطدمت مقدمتها بجذع الطائرة بشدة كافية جعلت السفينة تهتز من الجذع إلى المؤخرة؛ ثم ابتعدت الأسطوانة وطارت بلطف نحو الأرض. فتح فور تاك مفتاح التبديل، فتوقفت رحلة الطائرة، ثم ركض في اتجاه الأسطوانة الآخذة في الهبوط وأمسكها في يده.

«هذا النموذج»، أوضح، عندما عاد إلى حيث وقفنا، «مُصمم بحيث عندما يمس الطائرة، فإنها تطفو بلطف إلى الأسفل على الأرض. ولكن المُنتج النهائي، كما أدركتما تمامًا دون شك، سوف ينفجر عند استخدامه العملي ما إن يمس السفينة. لاحِظوا هذه الأزرار الصغيرة التي تغطيه. عندما يتماس أي منها بشيء، يتوقف النموذج ويهبط؛ بينما الجهاز في حجمه الكامل وتجهيزه الصحيح، سوف ينفجر، ويدمر تمامًا أي شيء يلمسه. وكما تعلمون، يوجد لكل مادة في الكون معدل اهتزاز ثابت. ويمكن ضبط هذه الآلية بحيث يجذبها معدل اهتزاز أي مادة. فالنموذج يجذبه، على سبيل المثال، الطلاء الأزرق الواقي الذي يغطي الطائرة. تخيلوا أسطولاً من السفن الحربية الجاهارية يتحرك جوًّا بمهابة في تشكيل حربي. يمكنني أن أُطلق، من سفينة العدو أو من الأرض، وعلى مسافة بعيدة لا تتيح لسفن جاهار رؤيتها، أكبر عدد ممكن من هذه الأجهزة بقدر سفن الأسطول، مع السماح بانقضاء بضع لحظات بين كل إطلاق. يندفع الطوربيد الأول نحو الأسطول ويدمر أقرب سفينة؛ أما باقي الطوربيدات المصطفة في خط، فيجتذبها تكتل جميع الأغطية الزرقاء الحامية للأسطول بأكمله. تسقط السفينة الأولى على الأرض. وفي حين قد لا يكون طلاؤها قد تدمر بأكمله، فهي لا تملك القدرة على حرف اتجاه أي من الطوربيدات المتعاقبة، التي تقوم واحدة تلو الأخرى بتدمير أقرب السفن المتبقية إلى أن ينمحي الأسطول تمامًا. وهكذا، أدمر أسطولاً كبيراً دون المخاطرة بحياة رجل واحد من أتباعي».

قال نور آن: «لكنهم سوف يرون الطوربيدات قادمة، ويجهزون وسائل

الدفاع. ويمكن أن يؤدي مجرد إطلاق النار إلى وقف العديد من الطوربيدات».

أجاب فور تاك: «هاااااااا! لكني فكرت في ذلك»، ثم وضع الطوربيد على المقعد الطويل وفتح خزانة أخرى.

تضم هذه الخزانة عددًا من الآنية، بعضها مُغلق بإحكام والبعض الآخر مفتوح، وكشفت عن محتويات من مدهونة بألوان مختلفة. نتأت من عدد من هذه الآنية مقابض فرش الطلاء. بيد أن أحد المقابض بدا مُعلقًا في الجو، فوق أحد الأرفف ببضع بوصات، بينما يوجد تحته مباشرة جزء من إطار إناء بدا أيضًا غير مستقر على شيء. وضع فور تاك

يده المفتوحة أسفل هذا الإطار العائم مباشرة، وعندما أخرج يده من الخزانة، تبعه طافيًا فوقه إطار الإناء وجزء من مقبض فرشاة الطلاء، وظل يحوم فوق أصابعه الممدودة التي اتخذت شكل كأس على نحو يوحي بأنها تمسك بوعاء زجاجي، كأنما في تحليقه يماثل الجزء المعتاد من إطار يشبه ذلك الذي أراه عائمًا على مسافة شبر واحد فوق أصابعه.

ذهب فور تاك إلى المقعد الطويل، حيث وضع الأسطوانة، وتصرف بما يوحي بأنه يضع وعاء عليه. وعلى الرغم من عدم رؤية وعاء، غير الإطار العائم، فقد سمعت بوضوح ضوضاء متطابقة مع الصوت الذي يمكن أن يحدثه قاع وعاء زجاجي عندما يلمس المقعد.

يمكنني أن أؤكد لك شعوري بحيرة هائلة؛ على أن هناك المزيد من الأحداث التي أعقبت ذلك مباشرة. أمسك فور تاك بمقبض فرشاة الطلاء، وصنع ممرًّا على مسافة بضع بوصات أعلى الطوربيد المعدني. وعلى الفور اختفى جزء من الطوربيد، يبلغ عرضه حوالي بوصة ويبلغ طوله حوالي ثلاث أو أربع بوصات؛ ثم أخذ يصنع ممرًّا بعد ممر إلى أن اختفى في النهاية كل سطح الطوربيد. أصبح الموقع الذي كان يستقر عليه فوق المقعد الطويل فارغًا. أعاد فور تاك مقبض فرشاة الطلاء إلى موضعها العائم فوق إطار الوعاء مباشرة ثم التفت نحونا وعلى وجهه تعبير طفولي بالفخر، كأنما يقول «حسنًا، ما رأيكم؟ ألست رائعًا؟». اضطررت بالتأكيد إلى التسليم بأنه رائع، وأنني كنت في حيرة ودهشة تمامًا بما رأيته.

صاح فور تاك: «ها هي، نور آن، الإجابة على انتقادك للموت الطائر».

قال نور آن وتعبيرات وجهه تنم عن الحيرة: «أنا لا أفهم».

صاح فور تاك: «هاااااا! ألم ترني أجعل الجهاز غير مرئي؟».

قال نور آن: «لكنه اختفى».

ضحك فور تاك بصوت عال، قائلاً: «إنه لا يزال هناك، لكنك لا تستطيع رؤيته. إنه هنا»، ثم أمسك بيد نور آن ووجهها نحو الموضع الذي كان فيه الجهاز.

رأيت أصابع نور آن تتحسس سطح شيء على ارتفاع عدة بوصات أعلى الطاولة. صاح: «باسم سلفي الأول، لا يزال الجهاز هنا!».

صحت: «هذا رائع. أنت حتى لم تلمسه؛ صنعت ممرات فحسب فوقه بمقبض فرشاة الطلاء، فاختفى».

قال فور تاك بإصرار: «لكني ألمسه. كانت الفرشاة هناك، لكنك لم ترها لأنها كانت مغطاة بمادة تجعل الموت الطائر غير مرئي. انظر إلى هذا الإناء الزجاجي الشفاف الذي أحتفظ فيه بتركيبة التخفي، وكل ما يمكنكم رؤيته منه هو ذلك الجزء من الإطار الذي لم يُطْلَ، مصادفة، بالتركيبة».

قلت صائحًا: «رائع! وحتى الآن، على الرغم من أنني شاهدته بعيني، بالكاد ما يمكنني إدراك إمكانية هذه المعجزة».

قال فور تاك: «إنها ليست معجزة؛ بل مجرد تطبيق لمبادئ لعلمية أعرفها جيدًا منذ مئات السنين. لا شيء يتحرك في خطوط مستقيمة: الضوء، البصر، القوى الكهرومغناطيسية، كلها تتبع خطوطًا منحنية. تنحني تركيبة التخفي ببساطة خارج الضوء المنعكس الذي، عندما يدخل أعيننا ويمس أعصابنا البصرية، يسفر عن ظاهرة نسميها الرؤية، ولذا يمرون حول أي كائن مطلي بالتركيبة. عندما بدأت تطبيق التركيبة على 'الموت الطائر'، انحرف خط بصرك حول الأجزاء الصغيرة المطلية. لكني عندما طليت كامل سطح الطوربيد، مر منحنى بصرك بالكامل حول جانبيه، وبالتالي أمكنك أن ترى بوضوح المقعد الطويل الذي كان يستقر فوقه تمامًا كما لو أن الجهاز ليس فوقه».

أدهشتني بساطة التفسير الواضحة؛ ورأيت كجندي، بطبيعة الحال، ميزة هائلة في نقل حيازة هذين السرين العلميين إلى البلد الذي يمكنه

السيطرة عليهما. تحقيقًا للأمان؛ نعم، فمن أجل وجود هيليوم، يجب أن أحصل عليهما؛ وإذا تعذر ذلك، يجب تدمير فور تاك قبل أن ينتقل سر هذه القوة الجهنمية إلى أي أمة أخرى. ربما يمكنني ببراعة إقناع فور تاك العجوز بتسليم هذه الأسرار إلى هيليوم مقابل حصوله على مساعدة هيليوم في انتقامه من تول أكستار.

قلت: «فور تاك، يوجد في قبضتك سران؛ ولو وضعتهما في أيدي قوة رحيمة وكريمة، يمكن أن يحل السلام الأبدي في برسوم».

صاح: «هاااااا! لا أريد السلام. أريد الحرب. الحرب! الحرب!».

قلت موافقًا: «جيد جدًّا»، لأنني أدركت أن اقتراحي لم يكن متمشيًا مع الأفكار المجنونة التي تدور في عقله المهووس، «فلنحارب إذَنْ؛ وما البلد الأفضل تجهيزاً من هيليوم في برسوم لشن الحرب؟ إذا كنت تريد الحرب، عليك بالتحالف مع هيليوم».

صاح: «لا أحتاج إلى هيليوم. ولا أحتاج إلى تحالفات. سوف أشن الحرب- سوف أشن الحرب بمفردي. باستخدام 'الموت الطائر' الخفي، يمكنني تدمير جميع الأساطيل،

جميع المدن، وأمم بأكملها. وسوف أبدًا بجاهار، وتول أكستار هو أول من سيشعر بوزن قواي المدمِرة. وعندما يسقط أسطول جاهار على أسطح مباني جاهار وتسقط جدران جاهار أمامَ تول أكستار؛ سأتوجه لتدمير تجاناث. وستعرفني هيليوم بعدهما. سوف ترتعش هيليوم الفخورة الجبارة، وتنحني تحت أقدام فور تاك. سوف أصبح جيداك جميع الجيداك، حاكم العالم». كان صوته يرتفع وهو يتحدث إلى أن وصل إلى صرخة خارقة، وارتعش في قبضة الهستيريا التي تملكته.

يجب تدميره؛ ليس من أجل هيليوم وحدها، بل من أجل برسوم كلها؛ يجب التخلص من هذا العقل المجنون إذا وجدت من المستحيل توجيهه أو إقناعه بغاياتي. ومع ذلك، فقد عقدت العزم على عدم تجاهل أي تضحية قد تسهم في تحقيق نتيجة مُرضية لهذه المغامرة الغريبة. كنت أعرف أن العقول المجنونة تكون أحيانًا عقولاً متقلبة، وتمنيت أن يكشف أمامي فور تاك في لحظة جنون عن سر 'الموت الطائر' وتركيبة التخفي. وكان هذا الأمل مهلته المؤقتة من الموت؛ وتحقيق هذا الأمل هو بمثابة العفو عنه. لكنني كنت أعرف ضرورة أن أعمل بحذر- فعند أدنى إيحاء بالخداع، سوف تُثار شكوك فور تاك وعندئذ سأكون أنا أول مَن يدمره فور تاك.

استلقيت تلك الليلة لفترة طويلة على حرير وفراء النوم، وأنا في حالة مضطربة من التفكير والتخطيط. شعرت أنني يجب أن أمتلك تلك الأسرار؛ ولكن كيف؟ أعرف أنها لا توجد سوى داخل عقله فقط؛ لأنه أخبرني بعدم وجود صيغة أو خطط أو مواصفات مدونة لأي سرِ منهما. يجب أن أستخرجها من عقله على نحو ما من خلال تملقه، وأفضل طريقةَ للبدء هي مداهنته ببراعة. وتحقيقًا لهذه الغاية، لا بد لي من تعزيز خططه بقدر ما أستطيع.

قبل النوم، عادت أفكاري إلى سانوما تورا والمهمة العاجلة التي دفعتني إلى الدخول في ما تطور إلى أغرب مغامرة في حياتي المهنية. شعرت بوخزة لوم ذاتي عندما أدركت فجأة أن سانوما تورا لم تشغل موقع الصدارة في ذهني وأنا راقد أضع الخطط المستقبلية. على أنني الآن، مع تذكرها، فكرت في خطة قد لا تقتصر على إنقاذها فحسب، بل تقربني أيضًا بصورة جيدة من فور تاك، وهكذا نمت مرتاحًا.

في فترة متأخرة من الصباح التالي، عندما وجدت فرصة التحدث مع المخترع العجوز، تطرقت فورًا إلى هذا الموضوع الذي يشغل ذهني. قلت: «فور تاك، أعتقد أن ما يُكبلك هو الافتقار إلى معرفة الأوضاع في جاهار وحجم الأسطول وموقعه. سوف نذهب أنا ونور آن إلى جاهار للحصول على المعلومات التي يجب أن تعرفها لنجاح خططك.

وبهذه الطريقة، سنوجه أنا ونور آن ضربة أيضًا إلى تول أكستار لأننا سنكون في وضع يسمح لنا الاهتمام بتلك الأمور التي تتطلب وجودنا في جاهار».

سأل فور تاك: «ولكن كيف ستصلون إلى جاهار؟».

سألته: «هل تسمح لنا بأخذ طائرة؟».

أجاب فور تاك: «ليس لديَّ أي طائرة. ولا أعرف أي شيء عن الطائرات. لست مهتمًّا بها. ولا يمكنني حتى بناء واحدة».

أصابني قوله هذا بالدهشة والصدمة، على أقل تقدير. ولكن، إذا كنت تشككت مسبقًا في أن عقل فور تاك قد تطور بشكل غريب،

فقد تلاشت شكوكي مع إقراره أنه لا يعرف أي شيء عن الطائرات؛ إذ يصعب ألا يعرف أي رجل أو امرأة أو طفل، في أي أمة على برسوم، كيفية بناء طائرة من نوع ما.

«ولكن كيف تتوقع دون طائرات نقل ‘الموت الطائر’ إلى منطقة على مقربة من أسطول جاهار؟ كيف تتوقع تدمير قصر تول أكستار، أو تحويل مدينة جاهار إلى أنقاض؟».

«الآن، بوجودك أنت ونور آن هنا لمساعدتي، يمكنني توجيه عبيدي للعمل تحت قيادتكما بحيث تستطيعون بسهولة إنتاج دزينة من الطوربيدات يوميًّا. وعند إكمالها، سوف أطلقها على الفور، وستجد طريقها في النهاية إلى جاهار والأسطول. ما من شك في ذلك؛ وحتى لو استغرق الأمر سنة، ستجد الطوربيدات فرائسها في النهاية».

قلت: «هذا إن لم يصادفها أي شيء في طريقها؛ وحتى مع ذلك، ما المتعة التي ستجنيها من انتقامك إذا كنت غير قادر على مشاهدة أي جزء منه؟».

أجاب فور تاك: «هاااااا! لقد فكرت في ذلك، لكن المرء لا يحصل على كل شيء».

قلت: «بل يمكنك».

سألني: «وكيف؟».

أجبته: «بأن تضع طوربيداتك على متن سفينة فضائية، وتطير إلى جاهار».

صاح بعناد: «كلا، سأفعلها بطريقتي الخاصة. بأي حق تتدخل في خططي؟».

قلت بنبرة استرضائية، في محاولة لتهدئته: «لا أريد سوى مساعدتك».

قال نور آن: «هناك فكرة أخرى تشير إلى أنه قد يكون من المناسب اتباع خطط هادرون».

قال فور تاك: «أنتما الاثنان ضدي».

قال نور آن لطمأنته: «كلا على الإطلاق. بل رغبتنا الشديدة على مساعدتك هي ما تدفعنا لهذا الاقتراح».

سأل العجوز: «حسنًا، وما هي إذَنْ؟».

أوضح نور آن: «تتوخى خطتك تدمير أساطيل تجاناث وهيليوم بعد سقوط جاهار. لكنك قد لا تأمل في إنجاز ذلك على الأقل بالنسبة لقوات هليوم البحرية؛ لأن المسافة كبيرة جدًّا ولا تعرف عدد السفن التي يتعين تدميرها، ولا ما إذا كانت طوربيداتك سوف تنجذب بالمثل إليها كما تنجذب إلى سفن جاهار؛ لأن سفن تلك الأمم الأخرى لا يحميها طلاء جاهار الأزرق. ولذلك، سيكون من الضروري أن تقترب من تجاناث ولاحقًا إلى هيليوم. ومن أجل حمايتك، سوف تستخدم طلاء جاهار الأزرق على سفينتك، لأنك لن تتأكد أبدًا إلا إذا كنت على الأرض في وقت تدميرك لأساطيل جاهار، أو كل بنادقهم ذات أشعة التفكيك».

فكر فور تاك، ثم قال: «هذا صحيح».

«وعلاوة على ذلك»، واصل نور آن، «إذا أرسلت عددًا من الطوربيدات أكبر من العدد اللازم، فإن الطوربيدات التي ستظل طليقة سوف يجذبها بالتأكيد الطلاء الأزرق لسفنك، وهنا سوف تُدمرك أجهزتك».

صرخ فور تاك: «أنت تدمر جميع خططي، لماذا فكرت على هذا النحو؟».

قال نور آن لتذكيره: «إن لم أفكر على هذا النحو، كنت لتدمر نفسك».

«حسنًا، ماذا أفعل حيال ذلك؟ ليس لديَّ سفينة. ولا يمكنني بناء سفينة».

قلت: «نحن يمكننا».

«كيف؟».

أوحت لي المحادثة بين نور آن وفور تاك بخطة، وشرحتها لهما بوجه عام. تحمس نور آن للفكرة، لكن فور تاك لم يكن متحمسًا بوجه خاص. لم أفهم أسباب اعتراضه، وفي الحقيقة لم تكن تهمني كثيراً منذ أقر أخيراً أنه مضطر إلى العمل وفقًا لاقتراحي.

توجد ورشة للآلات متاخمة لمختبر فور تاك ومجهزة بشكل جيد. مارست ونور آن فيها عملنا الشاق لأسابيع بالاستعانة بخدمات دزينة من العبيد، إلى أن نجحنا في بناء ما أنا على يقين أنه المنطاد الذي يتمتع بأروع مظهر وقع عليه بصري. كان باختصار على شكل أسطوانة مدببة من الطرفين وتشبه إلى حد كبير نموذج 'الموت الطائر'. يوجد داخل

غلافها الخارجي أسطوانة أخرى صغيرة؛ ووضعنا خزانات الطفو بين جداريهما. اخترقت منافذ مراقبة الخزانات وجانبي الغلافين الخارجيين للأسطوانتين، وعلى طول كل جانب من جوانب السفينة ومقدمتها ومؤخرتها. ويمكن تغطية هذه المنافذ تمامًا بمصاريع معلقة من الخارج لكنها تعمل من الداخل. كما يوجد بابان مسحوران في عارضة السفينة وبابان مماثلان أعلاهما، يؤديان إلى ممر ضيق على طول الجزء العلوي من الأسطوانة. وضعنا في الأبراج، الأمامية والخلفية، بندقيتين من بنادق أشعة التفكيك. ووضعنا منظارًا فوق لوحات التحكم، ليرسل صورة لكل ما يندرج في نطاقه إلى لوح زجاجي على الأرض أمام الطيار. قمنا أولاً بطلاء مجمل السفينة من الخارج باللون الأزرق المروع الذي سيحميها من بنادق أشعة التفكيك في جاهار، بينما وضعنا فوقه طلاء تركيبة التخفي. كما قمنا بطلاء مماثل للمصاريع التي تغطي المنافذ، بحيث بإغلاقها تصبح السفينة خفية كلية تقريبًا، والنقطة الوحيدة التي تظل مرئية هي عين المنظار الصغيرة.

ونظرًا لعدم امتلاكي المعرفة التقنية الكافية لتمكيني من بناء أحد المحركات من النوع الجديد، فلم يكن أمامي سوى الرضى بأحد الأنواع القديمة الأقل كفاءة بكثير.

انتهينا أخيراً من العمل. لدينا سفينة تستوعب أربعة أشخاص بسهولة؛ وكان غريبًا أن ندرك هذه الحقيقة، ولا نقدر في الوقت نفسه على رؤية أي شيء إلا عين المنظار الصغيرة عند تغطية المنافذ. ولم تكن حتى عين المنظار مرئية إلا إذا أدرناها في اتجاه المراقِب.

كنت قد لاحظت مع اقتراب انتهاء العمل أن طريقة فور تاك أصبحت أكثر توترًا وعصبية. كان يجد خطأ في كل شيء، وكاد في عديد من المناسبات أن يوقف العمل في بناء السفينة.

وأخيرًا، أصبحنا الآن على استعداد للإبحار. كانت السفينة مليئة بالذخيرة والمياه والإمدادات. وقمت في اللحظة الأخيرة بتركيب بوصلة التحكم في الاتجاه، التي سندين لها لاحقًا بكل شكر وامتنان.

اعترض فور تاك عندما اقترحت المغادرة فورًا، دون أن يعطي أي سبب لاعتراضه. على أن صبري قد نفد، وقلت للعجوز إننا ذاهبون على أي حال سواء أعجبه ذلك أو لم يعجبه.

لم يستشط غضبًا كما كنت أتوقع بل ضحك، وكان في ضحكه شيء يبدو أكثر ترويعًا من الغضب.

قال: «كنتما تعتقدان أنني أحمق، وسوف أترككما ترحلان ومعكما أسراري إلى تول أكستار، لكنكما مخطئان».

قاطعته: «أنت أحمق، لأنك تخطئ حين تتصور أننا نخونك، وتخطئ أيضًا في تصورك أن بإمكانك منع رحيلنا».

قال: «هاااا! لست بحاجة إلى منع رحيلكما، لكنني أستطيع منع وصولكما إلى جاهار أو أي مكان آخرى. أنا لم أكن عاطلاً خلال عملكما على هذه السفينة، بل شيدت 'الموت الطائر' بحجم كامل. وهو مجهز للبحث عن هذه السفينة. فإذا غادرتما ضد رغبتي، سوف يتبعكما ويدمركما. هااااا! ما رأيكما؟».

صحت بغضب: «أعتقد أنك أحمق عجوز. لديك فرصة لكسب ولاء اثنين من المحاربين الشرفاء كمساعدين، لكنك تختار تحويلهما إلى أعداء».

أجاب: «أعداء غير قادرين على الإضرار بي. فحياتكما بين يديَّ. لقد أخفيتما أفكاركما عني، وإنما ليس بشكل جيد. فقد قرأت ما يكفي منها لمعرفة أنكما تعتقدان أنني مجنون؛ كما تكوّن لديَّ انطباع أيضًا أن ما من شيء سوف يوقفكما للحيلولة دون استخدامي لقوتي ضد هيليوم. ليس لديَّ شك في أنكما سوف تساعداني ضد جاهار وربما ضد تجاناث أيضًا. لكن هيليوم، أكثر إمبراطوريات برسوم فخرًا وقوة، هي هدفي الحقيقي. سوف تعلن هيليوم أنني جيداك كل الجيداك، إذا كان لا بد لي من تدمير عالَم لإنجاز تصميمي».

سألته: «إذَنْ كل ما قمنا به من عمل كان من أجل لا شيء؟ ألن نستخدم السفينة التي بنيناها؟».

قال: «قد نستخدمها، ولكن بشروطي».

سألته: «وما هي؟».

«يمكنك أن تذهب وحدك إلى جاهار، لكني سأحتفظ بنور آن هنا كرهينة. وإذا خنتني، سيموت».

لا يوجد ما يمكن أن يؤثر عليه؛ ولا أي حجة كان يمكنها تغيير قراره. حاولت إقناعه بأن رجلاً واحدًا لا يمكنه أن ينجز إلا القليل، بل قد لا يتمكن على الإطلاق من إنجاز أي شيء، لكنه كان مُصرًّا – إما أن أذهب بمفردي أو ألاَّ أذهب على الإطلاق.

* * *

(الفصل 11)

«فلتكن النيران حامية!»

عندما حلقت في تلك الليلة البرسومية الرائعة التي تضيئها النجوم، كانت قلعة فور تاك البيضاء تبدو كجوهره جميلة أدناي تتحمم في ضوء القمر ثوريا الناعم. كنت بمفردي؛ ظل نور آن رهينة لدى العالم المجنون. وبسببه يجب أن أعود إلى جهاما. لم يطالبني نور آن بأي وعد، لكنه يعرف أَنني سوف أعود.

على بعد ألفين وخمسمائة هاد شرقًا تقع جاهار وسانوما تورا. وعلى بعد ألف وخمسمائة هاد إلى الجنوب الغربي تقع تجاناث وتافيا. أدرت مقدمة طائرتي نحو هدف المهمة، نحو المرأة التي أحبها؛ وأسرعت بطائرتي غير المرئية في اتجاه جاهار البعيدة.

بيد أنني لم أستطع التحكم في أفكاري. فعلى الرغم من كل جهد لإبقاء تفكيري مركزًا على غرض مغامرتي، فقد استمر يتجول في سجن البرج، إلى الرأس العنيد أشعث الشعر، والكتفين المستديرين اللذين ضماني مرة. هززت نفسي للتخلص من الرؤية وأنا أسرع خلال الليل، لكنها كانت تعود باستمرار وفي أعقابها تنتابني أفكارًا مروعة حول مصير تافيا في غيابي.

حددت مؤشر بوصلة التحكم في الاتجاه عند جاهار، عند الموضع الدقيق الذي أخبرني به فور تاك، وبالتالي أعفيت نفسي من ضرورة البقاء باستمرار أمام لوحات التحكم، وانشغلت بأشياء في داخل السفينة. فحصت ذخيرة بنادق أشعة التفكيك، وقمت بإعادة ترتيبها وفقًا لما ارتأيته.

أمدني فور تاك بثلاثة أنواع من الأشعة؛ واحدة لتفكيك المعادن، وأخرى لتفكيك الخشب، والثالثه لتفكيك اللحم البشري. كما أحضرت أيضًا شيئًا رفض فور تاك منحه لي عندما طلبته منه. ضغطت جيب الحقيبة للتأكد من أن القنينة لا تزال حيث وضعتها، وأعتقد أن قيمة محتوياتها لا تُقدر بثمن بالنسبة لي.

رفعت جميع مصاريع المنافذ وضبطت أجهزة التهوية؛ ففي أحسن الأحوال يبدو داخل هذه السفينة الغريبة مغلقًا وخانقًا لمن اعتاد على السطح المفتوح لطائرات هيليوم الاستطلاعية السريعة. فرشت حرير وفراء النوم واستلقيت للراحة، مع معرفتي أن بوصلة التحكم في الاتجاه ستوقف السفينة عند الوصول إلى جاهار وسوف يوقظني جهاز التنبيه

إن كنت نائمًا، لكن النوم يأبى أن يأتيني. كنت أفكر في سانوما تورا. تخيلت جمالها البارد الجليل، لكنَّ عينيها المتعجرفتين كانتا تذوبان دائمًا في عيني تافيا المتألقة بفرحة الحياة واللطيفة بضوء الصداقة.

كنت بعيدًا عن جهاما عندما قررت أن أقوم من تحت حرير وفراء النوم. ذهبت إلى لوحات التحكم، وأوقفت بوصلة التحكم في الاتجاه، ثم بدورة واحدة سريعة تأرجحت مقدمة الطائرة في اتجاه تجاناث.

كان الموت واردًا. شعرت بأنني يجب أن أعاني من الندم والبغض الذاتي، لكنني لم أشعر بأيٍّ منهما. استمتعت بالتفكير في أنني أسرع لخدمة صديقة، وكنت أعرف في أعماق قلبي أن من بين الاثنتين، كانت تافيا أكثر حرصًا على صداقتي من سانوما تورا، التي لم أحصل منها في أحسن الأحوال سوى على مجاملة محدودة.

لم أحاول النوم مرة أخرى. ولم أشعر برغبة في النوم؛ بل بقيت عند لوحات التحكم، ورأيت المشهد المهجور يمر أسفلي خلال طيراني السريع. مع حلول الفجر، شاهد تجاناث أمامي مباشرة. ومع اقترابي من المدينة، كان يصعب أن أدرك أن بإمكاني القيام بذلك في ظل حصانة تامة، وأن سفينتي كانت غير مرئية على الإطلاق في ظل إغلاق منافذها. أتحرك ببطء الآن، محلقًا فوق قصر هاج أوسيس. كشفت أجزاء القصر ذات الأسطح المسطحة عن حراس نائمين. ولا يوجد في الحظيرة الرئيسة سوى حارس واحد يراقب.

طرت فوق البرج الشرقي؛ تخيلت صورة تافيا، في أسفل، متدثرة في حرير وفراء النوم. كم ستُفاجأ إذا عرفت أنني أُحلق بالقرب منها في أعلى.

أخذت أهبط وأنا أُحلق فوق البرج، إلى أن توقفت أمام نوافذ غرفة احتجاز تافيا. أدرت السفينة بحيث تصبح أحد منافذها في مواجهة النافذة، واقتربت بما يكفي لإلقاء نظرة على داخل الغرفة. بقيت هناك لبعض الوقت، لكني لم أتمكن من رؤية أي شخص؛ ما أقنعني في النهاية بأنهم نقلوا تافيا إلى مكان آخر. شعرت بخيبة أمل؛ لأن هذا

سيؤدي بالضرورة إلى تعقيد خططي لإنقاذها. لم أتوقع صعوبة تذكر في نقل تافيا ليلاً من خلال نافذة البرج إلى الطائرة؛ والآن يجب أن أضع خطة جديدة. يتوقف كل شيء، بطبيعة الحال، على قدرتي على تحديد موقع تافيا. وبديهيًّا يتطلب القيام بذلك أن أدخل القصر. سوف تتهددني أخطار كثيرة ما إن أتخلى عن الطابع الخفي لطائرتي؛ كما أن العتاد الذي أرتديه من تصميم وصنع عبيد فور تاك، ولا بد أن يثير شك أول شخص يراني.

يجب أن أدخل القصر؛ ويتطلب ذلك أن أتنكر، تحقيقًا لأي درجة من السلامة.

جميع منافذي مغلقة الآن، والمنظار هو عيناي فقط. أدرت المنظار ببطء خلال محاولتي وضع خطة إجرائية تشتمل في داخلها على بذرة نجاح صغيرة.

عندما بدأت البانوراما تنكشف ببطء على الزجاج الأرضي أمامي، ظهرت حظيرة القصر الرئيسة والمحارب الوحيد الذي يتولى المراقبة. وهنا أوقفت حركة المنظار، حيث يوجد هنا أحد مداخل القصر، ويوجد هنا تنكر.

أدرت سفينتي ببطء في اتجاه الحظيرة، وهبطت بها قريبًا من سطح هذا المبنى. كان ينبغي أن أسعد بإرساء السفينة على السطح، وإنما لا توجد أي وسيلة هنا في متناول اليد. يجب أن أعتمد على وزنها، وآمل ألا تهب رياح عالية فتجرفها.

ومع إدراكي أنني سأصبح مرئيًّا تمامًا بمجرد خروجي من الطائرة، انتظرت أراقب من خلال المنظار إلى أن أدار المحارب على السطح أدناي مباشرة ظهره؛ ثم خرجت بسرعة من السفينة، عبر إحدى البوابات العلوية، ونزلت إلى السطح على الجانب الأقرب إلى المحارب. كنت على بُعد حوالي أربعة أقدام من حافة السطح، وكان يقف أدناي تقريبًا وظهره نحوي. إذا استدار، سيكشفني على الفور ويطلق إنذارًا قبل أن أتمكن من مهاجمته. ولذلك، كان أملي الوحيد في النجاح يتمثل في إسكاته قبل أن يدرك أنه مهدد.

لقد تعلمت من تجارب جون كارتر أن الأفكار الأولى غالبًا ما تكون مصدر إلهام، بينما قد يؤدي التفكير الرزين اللاحق إلى الفشل، أو قد يؤخر التصرف بما يقود إلى إبطال أي تأثير له.

ولذلك تصرفت في هذه الحالة بناء على الإلهام. لم أتردد. صعدت بسرعة إلى حافة السطح، وألقيت نفسي مباشرة على أكتاف الحارس العريضة. كان في يدي خنجر صغير.

جاءت النهاية سريعًا. وأعتقد أن الزميل المسكين لم يعرف ماذا حدث له. سحبت جثته إلى داخل الحظيرة وجردته من عتاده. وفي الوقت نفسه، لاحظت تلقائيًّا السفن الموجودة داخل الحظيرة. وكانت جميع السفن، باستثناء واحدة -زورق دورية- تحمل الشارات الشخصية لجد تجاناث. كانت جميعها سفن الملك- سفينة حربية مزخرفة ومدججة بالسلاح، طائرات صغيرتان للمتعة، طائرة استطلاعية تسع رجلين، وطائرة استطلاعية تسع رجلاً واحدًا. ليس عددًا كبيرًا، بطبيعة الحال، مقارنة بسفن هيليوم؛ لكنني على يقين بأنها أفضل ما يمكن أن تنتجه تجاناث على الإطلاق. بيد أنني، ومعي سفينتي،

لم أكن مهتمًّا بهذه السفن بشكل خاص بأكثر من اهتمامي الدائم بالسفن من جميع الأوصاف.

على مسافة غير بعيدة مني، يقع مدخل السلم الحلزوني المؤدي إلى القصر. ولإدراكي أن الجرأة هي فقط مفتاح النجاح، توجهت مباشرة إلى فتحة السلم ودخلت. وعند المنعطف الأول، أفزعني أن السلم يمر مباشرة من خلال غرفة الحرس. رأيت عشرات المحاربين يتمددون على الأرض متدثرين في حرير وفراء النوم.

لا أجرؤ على التوقف؛ يجب أن أواصل. ربما يمكنني المرور دون إثارة فضولهم. كنت قد ألقيت نظرة سريعة على الغرفة قبل دخولها، وخلال تلك اللمحة لم أشهد سوى رجال نائمين، وبعد أن خرجت رأيت أنها لا تضم سوى مَن رأيتهم بداية. لا يوجد بالغرفة أحد مستيقظ، لكني سمعت أصواتًا في غرفة مجاورة. أسرعت في خطواتي عبر الشقة، ودخلت السلم الحلزوني على الجانب الآخر.

أعتقد أن قلبي توقف وأنا أخطو بصمت عبر تلك الغرفة بين أولئك الرجال النيام؛ فلو كان أحدهم قد استيقظ، لعرف حتمًا أنني لست من زملائه أفراد الحرس.

لا بد أن يقل الخطر كلما نزلت عبر مستويات القصر؛ ذلك أن عدد الخدم في القصر كبير جدًّا بحيث لا يمكن أن يتعرف عليهم أحد بمجرد النظر، بحيث أصبح من المعتاد رؤية وجوه غريبة وغير مألوفة كما هو الحال في طرقات المدينة.

تمثلت خطتي في محاولة الوصول إلى غرفة البرج التي تُحتجز فيها تافيا؛ فقد كنت على يقين أنني لم أتمكن من موقعي في الطائرة من رؤية داخل الغرفة بالكامل، ومن المحتمل أن تافيا كانت هناك.

لم يكن بمقدوري، نظرًا لبنية السفينة، أن أجذب انتباه تافيا دون فتح كوة صغيرة والمخاطرة بكشف وجودي؛ بما سيعرض فرص تافيا للهرب إلى خطر كبير لا يبرر قيامي بفتح الكوة.

ربما يجب أن أنتظر حلول الليل؛ وربما كان قلقي مفرطًا، ولحماسي قد أواجه مخاطر أكبر بكثير من الضروري. فكرت في هذه الأمور، وربما وبخت نفسي؛ لكني مضيت بعيدًا في هذا المسار بحيث لا يمكنني التراجع الآن. اتخذت خطوات صحيحة، مهما كان ما سيترتب عليها.

واصلت الهبوط على السلم الحلزوني إلى مستويات مختلفة، وحاولت اكتشاف بعض العلامات المألوفة التي قد تقودني إلى البرج الشرقي. وعندما وصلت إلى ممر أحد

المستويات، رأيت أمامي مباشرة بابًا تعرفت عليه فورًا - إنه باب مكتب يو سينو، حارس المفاتيح.

قلت في ذهني: «جيد! لقد قادني مصيري إلى هنا».

توجهت إلى الباب وفتحته، ودخلت الغرفة بسرعة وأغلقت الباب ورائي. كان يو سينو يجلس على مكتبه. وكان بمفرده. لم ينظر. كان أحد أولئك الرجال المتغطرسين - رجل ضئيل يتمتع بسلطة محدودة- الذين يحبون إظهار وممارسة الأهمية على من هم أدنى منهم. ولذلك، كانت طريقته بلا شك هي تجاهل الزائرين للحظة أو لحظتين. لكنه كان على خطأ هذه المرة. فبعد أن أغلقت الباب ورائي بهدوء، توجهت إلى الباب الذي يقع في الجهة المقابلة من الغرفة، وأغلقته أيضًا.

وعندئذ كان يو سينو مضطرًا دون شك، بدافع الفضول، أن ينظر. لم يتعرف عليَّ في البداية، وسأل بخشونة: «ماذا تريد؟».

قلت: «أريدك أنت، يو سينو».

تثبتت عيناه نحوي للحظة باندهاش متزايد، ثم اتسعت عيناه وقفز على قدميه صارخًا: «أنت؟ باسم إيسوس، كلا! أنت ميت!».

قلت: «لقد عدت من القبر، يو سينو. عدت لملاحقتك».

سألني: «ماذا تريد؟ قف جانبًا! أنت مقبوض عليك».

سألته: «أين تافيا؟».

سألني: «وكيف لي أن أعرف؟».

«أنت حارس المفاتيح، يو سينو. مَن يعرف أفضل منك أماكن السجناء؟».

قال: «حسنًا، ماذا لو أعرف؟ لن أقول».

حذرته قائلاً: «سوف تقول، يو سينو، أو تموت».

خرج من وراء مكتبه ولم يكن يقف بعيدًا عني؛ ودون سابق إنذار وبسرعة أكبر مما تصورت أنه يملكها انتزع سيفه الطويل من غمده وهاجمني.

اضطررت للتراجع بسرعة لتجنب ضربته الأولى؛ وعندما تأرجح سيفه للمرة الثانية، كنت أمتشق سيفي مستعدًّا. أثبت يو سينو أنه ليس خصمًا ضعيفًا. كان ماهرًا في استخدام السيف، ويعلم أنه كان يقاتل من أجل حياته. تعجبت في البداية لماذا لم يستدعِ المساعدة، ثم استنتجت عدم وجود محاربين في الغرفة المجاورة التي كانوا فيها عند زيارتي السابقة لمقر يو سينو. تقاتلنا بصمت، في ما عدا قعقعة تصادم معادن السيفين التي تعكس المعركة المميتة.

كنت في عجلة من أمري للانتهاء منه. وعندما كنت أضغط عليه عن كثب، لجأ إلى حيلة كادت أن تثبت فشلي. تمكنت أن أجعله يقف وظهره قبالة مكتبه، وتصورت أنه بذلك لن يتمكن من الفرار. لم أتمكن من رؤية يده اليسرى خلفه، ولا المزهرية الثقيلة التي كان يتلمس طريقها؛ على أنني خلال لحظة رأيت ذلك الشيء يطير مباشرة نحو رأسي، كما رأيت الفتحة التي صنعها يو سينو عندما كان يلقي قذيفته، إذ كان شديد الانشغال بهدفه إلى حد أنه ترك سيفه يسقط. انحنيت تحت المزهرية قافزًا إلى موقع قريب واخترق سيفي قلب يو سينو.

لم أستطع أن أمنع شعورًا بالغبطة وأنا أمسح الدم من سيفي على شعر ضحيتي، فقد تمكنت بيدي من الإجهاز على الشخص الفاسق الذي تحرش بفاو والانتقام لشرف صديقي نور آن.

على أي حال، ما من وقت الآن للتأمل. سمعت خطوات تقترب في

الممر بالخارج، فأسرعت في الاستيلاء على عتاد الجثة ثم سحبتها تجاه اللوح الذي يخفي مدخل الممر السري الذي يقود إلى الغرفة في البرج الشرقي- ذلك الممر المألوف الذي أمضيت فيه لحظات سعيدة مع تافيا بمفردنا.

وبتسرع أكثر منه تبجيل، ألقيت جثة يو سينو في الجزء الداخلي المظلم وأغلقت اللوح خلفي، ثم أخذت أتلمس طريقي خلال الظلام نحو غرفة البرج وقلبي يحدوه الأمل أن أجد تافيا هناك.

مع اقترابي من اللوح الذي يقع في نهاية ممر البرج، شعرت بضربات قلبي تتسارع- إحساس لم أكن معتادًا عليه، ولم أتمكن من تفسيره. كنت على يقين بأن حالتي البدنية ممتازة؛ وفي حين أنه ليس من غير المعتاد على الإطلاق أن يتسبب الخطر المفاجئ أو الوشيك في تسارع نبضات قلوب بعض الرجال، على الرغم من تمتعهم بشجاعة استثنائية، إلا أنني لم أشعر من قبل بمثل هذا الإحساس، ويجب أن أعترف أنه أثار حيرتي للغاية.

على أن توقعي لرؤية تافيا ثانية سرعان ما دفعني إلى نسيان هذا الإحساس غير السار. وعندما توقفت خلف اللوح، كان ذهني منشغلاً تمامًا بتفكير ممتع لما آمل أنه في انتظاري- التوق إلى جمع الشمل مع أفضل صديقة.

كنت على وشك الإمساك بالمزلاج وفتح اللوح عندما جذبت انتباهي أصوات من الغرفة خلفه. سمعت صوت رجل وامرأة، لكني لم أتمكن من فهم أي كلمة. فتحت اللوح بحذر، بما يكفي لرؤية ما بداخل الشقة.

ارتفعت دماء القتال الحارة في عروقي من المشهد الذي التقت به عيناي. رأيت تافيا في وسط الغرفة في قبضة محارب شاب يرتدي أغطية مزخرفة ويسحبها عبر الغرفة نحو المدخل. كانت تافيا تضربه وتقاومه.

قال لها الرجل مزمجرًا: «لا تكوني حمقاء. هاج أوسيس منحكِ لي. سوف تعيشين كعبدتي حياة أفضل من الحياة التي تعشها أغلب النساء الأحرار».

أجابت تافيا: «أنا أُفضل السجن أو الموت».

كانت فاو تقف عاجزة على الجانب، وعيناها مملوءة بالشفقة تجاه تافيا. كان من البديهي أنها لا تستطيع أن تفعل أي شيء للدفاع عن صديقتها؛ فقد كانت أغطية المحارب توضح رتبته العالية، التي لم أتبينها حينذاك لعدم اهتمامي بها. قفزت إلى وسط الغرفة وأمسكت المحارب بخشونة من كتفه، وألقيت به إلى الخلف بشدة، فسقط ممددًا على الأرض. سمعت شهقات تنم عن الذهول من جانب فاو وتافيا، ونطقت تافيا اسمي بنعومة.

وجهت سيفي نحو المحارب الذي نهض بسرعة إلى قدميه، لكنه لم يمتشق سيفه وصرخ: «أحمق! أبله! وغد! ألا تدرك ما فعلت؟ ألا تعرف مَن أكون؟».

قلت له بصوت منخفض: «بعد لحظة سوف تصبح ’مَن كنت‘. استعد!».

«كلا»، صاح وهو يتراجع، «أنت ترتدي عتاد ومعادن محارب من الحرس. ولا تجرؤ على رفع سيفك ضد ابن هاج أوسيس. تراجع أيها الزميل، أنا الأمير هاج ألت».

أجبت: «كنت لأدعو من إيسوس أن تكون هاج أوسيس نفسه، لكن مكافأتي على الأقل هي معرفتي أنني دمرت ابنه. استعد، يا أحمق، إلا إن كنت تريد الموت رغبةً في أن تموت مثل سوراك»[212].

استمر يتراجع، ثم نظر حوله وكل دلائل الرعب بادية على ملامحه الضعيفة. لمح باب اللوح الذي تركته سهوًا مفتوحًا، وانطلق فيه قبل أن أتمكن من منعه وأغلقه خلفه. قفزت لمطاردته، لكن القفل أُغلِق ولم أكن أعرف أين يمكنني إيجاد الآلية اللازمة لفتحه.

صحت: «أسرعي، فاو، أنتِ تعرفين سر اللوح. افتحيه من أجلي. يجب ألا نسمح لهذا الزميل بالهروب وإلا سيدق جرس الإنذار ونضيع جميعًا».

ركضت فاو بسرعة إلى جانبي ووضعت إبهامها على زر مخفي بذكاء في نحت مزخرف في الألواح الخشبية التي تغطي الجدار. انتظرت في توقع لاهث، لكن اللوح لم ينفتح. ضغطت فاو بشكل محموم مرارًا وتكرارًا، ثم التفتت نحوي بإيماءة تنم عن العجز والهزيمة.

وقالت: «لقد عبث بالقفل من الجانب الآخر. إنه وغد ذكي، وكان سيفكر في ذلك».

قلت: «يجب أن نتبعه»، ورفعت سيفي الطويل وضربت اللوح ضربة قوية كان من شأنها أن تحطم ألواحًا أكثر سُمكًا، لكنها لم تسفر سوى عن خدش وتمزيق قطعة صغيرة لا يزيد سمكها عن ظفر الإصبع. على أن الندبة التي أحدثتها كشفت عن الحقيقة المروعة – أن اللوح مصنوع من الفوراندس[213] وهو أقوى وأخف معدن معروف في برسوم. ابتعدت قائلاً: «لا جدوى من محاولة اختراق الفوراندس بالصُّلب البارد».

تحركت تافيا ناحيتنا ووقفت صامتة، تنظر إلى وجهي. امتلأت عيناها بالدموع، ورأيت شفتيها ترتعشان، وقالت لاهثة: «هادرون! لقد عُدت من بين الأموات. أوه، لماذا جئت، لن يخطئوا هذه المرة».

قلت لها: « تافيا، أنت تعرفين لماذا جئت».

---

(212) سوراك: هو مخلوق صغير الحجم جدًا من ست أرجل، وتحتفظ به نساء المريخ كحيوان أليف - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorak المترجمة.

(213) فوراندس: أقوى وأخف معدن، ولا يوجد سوى على المريخ. يستخدم في صنع الدروع والأسلحة، وأحيانًا في المباني - https://barsoom.fandom.com/wiki/Forandus المترجمة.

«أخبرني»، قالت بصوت ناعم ومنخفض.

أجبتها: «من أجل الصداقة، تافيا؛ لأفضل صديقة يمكن للمرء أن يفوز بها».

بدت مندهشة في البداية، ثم ظهرت ابتسامة صغيرة غريبة على شفتيها، وقالت: «صداقة هادرون الهاستوري أفضل عندي من أي هدية أخرى قد يهبها العالم لي».

كان قولاً جميلاً منها وأقدره بالتأكيد، لكني لم أفهم ابتسامتها الصغيرة. مع ذلك، لم يكن لديَّ وقت لحل الألغاز؛ فمشكلة سلامتنا هي الأهم. وعندئذ فكرت في القنينة الموجودة في جيب حقيبتي. نظرت بسرعة حولي في الغرفة. لمحت في ركن كومة من حرير وفراء النوم؛ هناك شيء قد يحقق غرضي؛ فمحتويات القنينة قد تمنحنا جميعًا الحرية إذا توفر لدينا وقت كاف. ركضت في أنحاء الغرفة، وبحثت سريعًا إلى أن عثرت على ثلاث قطع من القماش كانت، على الأقل، أكثر ملائمة لغرضي من أي شيء آخر. فتحت جيب حقيبتي وأخرجت القنينة، وفي اللحظة نفسها سمعت صوت أقدام تركض وقعقعة الأسلحة.

فات الأوان! إنهم عند الباب بالفعل. أغلقت جيب حقيبتي، وانتظرت. دار في ذهني بداية الهجوم عليهم وقتالهم بمجرد دخولهم، لكني طرحت هذه الفكرة جانبًا لأنها أسوأ من عدم الجدوى؛ فلن تقود إلا إلى موتي، في حين قد يسفر الوقت عن فرصة لاستخدام محتويات القنينة.

تأرجح الباب مفتوحًا، وكشف عن خمسين محاربًا في الممر بالخارج. دخل بادوار الحرس متبوعًا برجاله، وقال آمرًا: «استسلِم!».

فقلت: «أنا لم أمتشق سيفي. تعال وخذني».

سألني: «هل تعترف أنك المحارب الذي هاجم الأمير هاج ألت؟».

أجبته: «نعم».

«وما علاقة هؤلاء النساء بالأمر؟».

«لا شيء. أنا لا أعرفهم. لقد تابعت هاج ألت إلى هنا لأنني اعتقدت أنها الفرصة التي كنت أسعى إليها لقتله».

سألني البادوار: «ولماذا تريد قتله؟ ما شكواك ضد الأمير؟».

أجبته: «لا شي. أنا قاتل محترف، استأجرني آخرون».

سألني: «ومَن هُم؟».

ضحكت، لمعرفتي أنه يعرف جيدًا عدم توجيه مثل هذا السؤال إلى قاتل محترف في برسوم؛ ذلك أن أعضاء هذه الأخوية القديمة يسترشدون بقواعد أخلاقية يلتزمون بها بدقة، ونادرًا ما يمكن إقناع أو إجبار أي منهم بالكشف عن من كلفه بالمهمة.

رأيت عينَي تافيا متجهة نحوي، ويبدو عليهما تعبيرات متسائلة؛ لكني على يقين أنها تعرف أنني أكذب لحمايتها هي وفاو.

أخرجوني من الغرفة؛ وخلال اقتيادي على طول الممرات وأسفل سلالم القصر، استجوبني البادوار في محاولة لمعرفة هويتي الحقيقية. شعرت براحة كبيرة لاكتشافي أنهم لم يتعرفوا عليَّ، وتمنيت أن أتمكن من مواصلة تجنب معرفتهم بهويتي، ليس لأن ذلك سيُحدث أي فارق في مصيري - فأنا مُدرك أن الضرر سيقع على مَن حاول اغتيال أمير بيت هاج أوسيس- لكني كنت أخشى أنهم إذا تعرفوا على هويتي قد يتهمون تافيا بالتواطؤ في الاعتداء على هاج ألت، وبالتالي تتعرض للمعاناة بناء على ذلك.

وجدت نفسي الآن في الحُفر مرة أخرى، وبالمصادفة في الزنزانة نفسها التي كنت محبوسًا فيها من قبل مع نور آن. أحسست بمشاعر العودة للوطن، وإن كان بشكل مختلف. أصبحت وحدي مرة أخرى، مُقيدًا إلى جدار حجري. وكان أملي الوحيد يتمثل في القنينة التي أغفلوها، ولا تزال مستقرة في الجزء السفلي من جيب حقيبتي. بيد أن هذا ليس الوقت أو المكان المناسب لاستخدام محتوياتها، كما أن المطلوب ليست في متناول يدي حتى لو كنت غير مُقيد.

لم يمضِ وقت طويل في الحفر هذه المرة قبل أن يأتي المحاربون ويفكوا أغلالي، ثم يقتادوني إلى قاعة العرش العظيم في القصر، حيث يجلس هاج أوسيس على المنصة ويحيط به كبار الضباط والموظفين من جيشه وحاشيته.

كان الأمير هاج ألت حاضرًا؛ واستشاط غضبًا عندما شاهدني وهم يقتادوني نحو العرش. أوقفوني أمام الجِد، الذي التفت إلى ابنه وسأله: «هل هذا هو المحارب الذي هاجمك، هاج ألت؟».

أجاب الشاب: «هذا هو الوغد. لقد هاجمني على حين غرة، وكاد أن يطعنني في ظهري لو لم أنجح في خداعه».

سأل هاج أوسيس: «هل وجّه سيفه ضدك - ضد شخص الأمير؟».

«نعم، وكان يمكن أن يقتلني به، كما قتل يو سينو الذي وُجدت جثته في الممر المؤدي من مكتب يو سينو إلى البرج».

عثروا إذَنْ على جثة يو سينو. حسنًا، لن يقتلوني مرتين. سوف أُقتل لتهديدي حياة الأمير، وعندئذ لن يقتلوا شخصًا ميتًا لارتكابه جريمة قتل يو سينو.

وهنا هرع ضابط إلى قاعة العرش مسرعًا. كان تنفسه سريعًا وهو يتوقف أمام العرش. كان يقف بجانبي مباشرة ورأيته يلتفت وينظر نحوي بسرعة، وعيناه تتحركان صعودًا وهبوطًا بسرعة بين رأسي وقدميَّ؛ ثم خاطب الرجل الجالس على العرش.

قال: «هاج أوسيس، جِد تجاناث، لقد جئت مسرعًا لأخبرك أننا عثرنا على جثة محارب من حرس الحظيرة داخل حظيرة طائرات الجد. وكان بلا عتاده وأسلحته، في حين وجدنا بجوار جثته عتادًا غريبًا وأسلحة غريبة. وعندما أتيت إلى العرش، هاج أوسيس، تعرفت على عتاد محاربي الميت على جسم هذا الرجل هنا»، وأشار نحوي بإصبع اتهام.

أخذ هاج أوسيس يتفحصني بعناية فائقة. وبدت في عينيه نظرة غريبة لم تعجبني. كانت تدل أنه يقترب من التعرف عليَّ، وفجأة رأيت تعرُّفَه الكامل؛ وعندئذ أقسم جِد تجاناث يمينًا بصوت عالٍ دوى خلال قاعة العرش العظيم.

صاح: «يا للهول، باسم إيسوس! انظروا إليه! ألا تعرفونه؟ إنه الجاسوس الذي أتى من جاهار ويطلق على نفسه اسم هادرون الهاستوري. لقد مات في 'الهلاك'. رأيته بعيني، لكنه هنا مرة أخرى في قصري، يقتل شعبي ويهدد ابني، لكنه سيموت هذه المرة»، نهض هاج أوسيس عن عرشه وهو يرفع يديه كأنما يخدش الهواء فوقي بمخالبه، حيث بدا مثل كورفال[214] بشع يُطلق لعنة على ضحيته، «ولكن علينا أولاً أن نعرف مَن الذي أرسله هنا. فهو لم يأتِ برغبته لقتلي وقتل ابني؛ بل خلفه عقل خبيث يتوق إلى تدمير جد تجاناث وأسرته. أحرقوه ببطء، ولكن دون أن يموت حتى يكشف لنا عن الاسم. خذوه بعيدًا! فلتكن النيران حامية، وإنما ببطء».

* * *

(214) كورفال: روح شريرة يعتقد سكان بعض مدن المريخ أنها تطارد سراديب الموتى في مدينتهم وتسعى إلى امتلاك جثثهم، وبالتالي يقومون بتحنيط أجسادهم بعد موتهم حتى لا تستخدمهما هذه الروح الشريرة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Corphal - المترجمة.

الفصل (12)

عباءة التخفي

ما إن أعلن هاج أوسيس، جِد تجاناث، الحكم بالإعدام ضدي، حتى أدركت أن أي شيء أريد أن أفعله لإنقاذ نفسي يجب أن يتم في الحال؛ إذ بمجرد أن يمسك بي الحراس ثانية، سيتلاشى أملي النهائي لأنهم سيشرعون في التعذيب والموت على الفور.

اصطف على بعد عدة خطوات خلفي المحاربون الذين يشكلون الحرس الذي اصطحبني من الحُفر. كانت المنصة التي وقف عليها هاج أوسيس ترتفع فوق أرضية قاعة العرش بحوالي ثلاثة أقدام. ولا يوجد أحد بيني وبين جِد تجاناث؛ إذ تقدم من عرشه إلى حافة المنصة عندما أعلن حُكمه ضدي .

لم يتأخر الإجراء الذي اتخذته، ما دام استغرق مني وقتًا لسرده. ولو كنت تأخرت، لم أكن لأستطيع سرده وإلا لهاجمني الحراس. فما إن سقطت آخر كلمة من فمه، حتى كانت خطتي جاهزة، وقفزت فورًا كالقط إلى المنصة، وهجمت على هاج أوسيس، جِد تجاناث. كان هجومي مفاجئًا وغير متوقع، لدرجه أنه لم يكن هناك أي دفاع. أمسكته مَن رقبته بإحدى يديَّ، وانتزعت باليد الأخرى خنجره من غمده ورفعته عاليًا وأنا أُطلق صيحات تحذيرية بصوت يسمعه الجميع .

صحت: «تراجعوا، وإلا يمتْ هاج أوسيس!».

كانوا قد بدأوا يندفعون نحوي، لكنهم توقفوا ما إن أدركوا مغزى تهديدي .

قلت: «إما حياتي، أو حياتك، هاج أوسيس، إلا إذا فعلت ما أقوله لك».

سألني، ووجهه يتخذ اللون الأسود من الرعب: «ماذا تريد؟».

سألته: «هل توجد غرفة انتظار خلف العرش؟».

فأجاب: «نعم. ماذا عنها؟».

قلت: «خذني إلى هناك، بمفردك. وأصدرْ أمرًا إلى رجالك بالتنحي جانبًا».

سألني وهو يرتعش: «وأتركك تقتلني عندما تنفرد بي هناك؟».

أجبت: «سوف أقتلك الآن إن لم تفعل. اسمع، هاج أوسيس، أنا لم آتِ هنا لقتلك أو قتل ابنك. فما قلته لبادوار الحرس كان كذبًا. لقد جئت لغرض آخر، تتجاوز أهميته بالنسبة لي حياة هاج أوسيس أو حياة ابنه. قم بما أطلبه منك، وأعطيك وعدًا بعدم قتلك. قل لرجالك إننا سنذهب إلى غرفة الانتظار، وإني تعهدت بعدم إلحاق الأذى بك إذا تركانا بمفردنا لمدة خمس زات (حوالي خمس عشرة دقيقة)».

تردد هاج أوسيس. قلت: «عليك أن تسرع، ليس لديَّ وقت أضيعه»؛ ووضعت سن خنجره بحيث يلمس رقبته.

صرخ بخوف: «لا! سوف أفعل كل ما تقوله. تراجعوا جميعا!»، صاح بقومه، «سأذهب إلى غرفة الانتظار مع هذا المحارب، وآمركم، وإلا أصابكم ألم الموت، بعدم الدخول إلينا لمدة خمس زات. وعند نهايتها، تدخلون؛ ولكن ليس قبل ذلك».

شددت قبضتي على عتاد هاج أوسيس بين كتفيه وأبقيت الخنجر لامسًا جسمه أسفل كتفه الأيسر، وتبعته إلى غرفة الانتظار؛ بينما تراجع كل مَن تزدحم بهم المنصة خلف العرش، ليفسحوا ممرًّا لطريقنا. توقفت عند المدخل واستدرت نحوهم.

وقلت: «تذكروا، خمس زات كاملة، وليس تالاً واحدًا قبلها».

دخلنا غرفة الانتظار وأغلقت الباب. عبرت الغرفة، وأنا أدفع هاج أوسيس أمامي، ثم أحكمت إغلاق الباب الآخر الذي يقع في نهايتها. دفعت الجِد إلى أحد جوانب الغرفة.

وقلت: «تمدد هنا، على وجهك».

قال باكيًا: «لقد تعهدت بألا تقتلني».

«لن أقتلك إلا إذا دخلوا قبل نهاية الخمس زات، وعليك أن تفعل ما أطلبه منك حتى لا تؤخرني. سوف أُقيدك، دون أن يصيبك ذلك بأي ألم».

رقد بهدوء على بطنه، وقمت بتقييد ذراعيه معًا في عتاده خلف ظهره؛ ثم عصبت عينيه، وتركته راقدًا .

كنت قد تفحصت بلمحة سريعة واحدة محتويات الغرفة عندما دخلتها، ورأيت بدقة الأشياء التي أحتاجها. والآن بعد أن تخلصت من هاج أوسيس، أسرعت إلى إحدى النوافذ ومزقت جزءًا من الستائر الحريرية التي تغطيها. كانت قطعة كاملة من الحرير الخفيف الناعم وعريضة جدًّا؛ ذلك أن المقصود من استخدامها أن تحمل ثنايا رقيقة

تُعلق بها ستائر أثقل. استخدمت في عملي المكتب المزخرف الذي يُوقِّع عليه جِد تجاناث مراسيمه. أخرجت القنينة أولاً من جيب حقيبتي، وأزلت السدادة التي تغلقها؛ ثَم حولت الحرير على شكل كرة، وتمكنت بفضل صفائه الرائع ضغطه بين يديَّ الاثنتين. قمت بربط شرائط حريرية، مزقتها من ستارة أخرى، بكرة الحرير بحيث أصبحت كتلة مضغوطة فضفاضة تتدلى منها تلك الشرائط؛ ثم أخذت أصب ببطء محتويات القنينة فوقها مع تدوير الكرة بسن خنجر هاج أوسيس. تذكرت تحذير فور تاك، ولذا حرصت على ألا تمس محتويات القنينة جسدي، وأدركت بسهولة لماذا يجب أن يتوخى المرء الحذر، عندما شاهدت كرة الحرير تختفي أمام عيني.

ومع معرفتي أن تركيبة الإخفاء تجف بسرعة ما إن يتشربها الحرير، لم أنتظر سوى لحظات وجيزة بعد إفراغ حوالي نصف محتويات القنينة على الكرة. أخذت أتلمسها بأصابعي، ووجدت الأشرطة التي تحافظ على شكلها الكروي وقطعتها، ثم هززت الحرير بقدر استطاعتي. كان معظمها خفيًّا، باستثناء بقعة أو بقعتين لم تصل إليها التركيبة، فأسرعت برشها بالسائل المتبقي في جيب حقيبتي.

يتوقف الكثير على نجاح تجربتي، لدرجة أنني كنت أخشى من اختبارها. بيد أن اختبارها كان ضروريًّا، وليس أمامي سوى قدر ضئيل من فترة الزات المتفق عليها قبل أن يقتحم محاربو هاج أوسيس غرفة الانتظار.

استعنت بحاسة اللمس لأضع الحرير فوق رأسي، بحيث يسقط كاسيًا جسمي كله. وتمكنت من خلال شبكاته الدقيقة الرقيقة من رؤية الأشياء على مسافة قريبة بما يكفي لشق طريقي. ذهبت إلى هاج أوسيس وأزلت العصابة عن عينيه، مع تراجعي بسرعة في الوقت نفسه. نظر حوله في عجالة وخوف.

وسأل: «مَن فعل ذلك؟»، ثم قال لنفسه: «لقد ذهب». ظل صامتًا للحظة، وعيناه تدوران في جميع الاتجاهات، باحثتين في كل زاوية وركن من الشقة؛ ثم ظهر في عينيه تعبيرٌ ينم جزئيًّا عن الأمل وجزئيًّا عن الارتياح.

«أسرعوا!»، صاح بصوت عالٍ، «يا حراس! لقد هرب.«!

تنفست الصعداء - إذا كان هاج أوسيس لا يستطيع رؤيتي، فلن يستطيع غيره – لقد نجحت خطتي.

لم أجرؤْ على العودة إلى قاعة العرش، وهربت بهذه الطريقة على طول الممرات المألوفة لي، وكنت أسمع بالفعل اندفاع الأقدام نحو باب غرفة الانتظار. كما كنت أدرك

جيدًا أنهم يستطيعون الشعور بي على الرغم من أنهم لا يستطيعون رؤيتي؛ ومما لا شك فيه أن عباءة التخفي التي أرتديها قد تتمزق، أو على الأقل جزء منها، خلال هذا الاندفاع المحموم، مما يعني دون شك موتي.

ركضت مسرعًا نحو المدخل الآخر وفتحته، ثم نظرت خلفي إلى هاج أوسيس. كانت عيناه موجهتين نحو المدخل وتتسعان في تشكك ورعب. لم أدرك السبب للحظة، ونظرت بسرعة إلى الخلف لمعرفة ما إذا كان بإمكاني رؤية ما تسبب في هلع هاج أوسيس، ثم أدركت الأمر وابتسمت. فقد رأى وسمع حركة المزلاج ثم فُتِح الباب وكأنه يحدث بأيدٍ شبحية.

لا بد أنه أحس باشتباه غامض بالحقيقة، لأنه التفت بسرعة نحو الباب الآخر وأطلق صرخة تحذير عالية. صاح: «لا تدخلوا إلى أن تنتهي الخمس زات. أنا – هاج أوسيس، الجِد - مَن يصدر هذا الأمر».

أغلقت الباب خلفي وما زلت مبتسمًا، وأسرعت على طول الممر بحثًا عن سلم يحملني إلى المستويات العليا من القصر، حيث يمكنني بسهولة تحديد غرفة الحرس والحظيرة التي تركت فيها سفينتي.

قادني الممر الذي دخلته إلى الشقق الملكية مباشرة.

وجدت صعوبة في البداية على تعويد نفسي على حالة الخفاء؛ فعندما دخلت فجأة إلى شقة تضم العديد من الأشخاص، كان الفرار هو أول ما طرأ في ذهني، على أنني خطوت مباشرة أمام أحد شاغلي الغرفة، على مسافة تزيد قليلاً على خمسة أو ستة أقدام، دون أن أجذب انتباهه، على الرغم من أن عينيه كانتا موجهتين نحوي مباشرة، وهذا ما أعاد لي الثقة. واصلت سيري في أنحاء الغرفة بلا مبالاة كما لو أنني في مسكني في هيليوم.

بدت الشقق الملكية بلا نهاية. وعلى الرغم من بحثي المستمر عن وسيلة للخروج منها إلى أحد ممرات القصر الرئيسة، كنت أجد دومًا أماكن لا يهمني الوجود فيها لأني لا أحتاج إليها في شيء. وكنت أشعر

أحيانًا بالحرج؛ مثلاً عندما دخلت شقة خاصة مريحة تخص النساء، في لحظة لا يتوقعن فيها دخول رجل غريب.

بيد أنني لم أعد أدراجي، فلم يكن لديَّ وقت أضيعه، ومررت بالغرفة ومنها إلى ممر قصير آخر لأجد نفسي كأنما أقفز من المقلاة إلى النار – فقد دخلت الشقة المحرمة،

شقة الجيدارة نفسها. من حسن حظ الملكة أنني من دخل فجأة دون توقع وليس هاج أوسيس؛ لأن وضعها كان فاضحًا، ومن عتاده أدركت أن رفيقها حسن المظهر كان عبدًا. تراجعت في اشمئزاز، فلم يكن بالشقة مخرج آخر. والآن، وجدت مصادفة أحد ممرات القصر الرئيسية – ممر مزدحم، مملوء بالعبيد والمحاربين وأفراد الحاشية، علاوة على رجال ونساء وأطفال يتحركون جيئة وذهابًا لأداء مهامهم، أو ربما يجلسون على المقاعد المنحوتة التي تصطف على طول الجدران.

لم أكن معتادًا بعد على حالة التخفي الجديدة والمثيرة للدهشة. بإمكاني أن أرى الناس حولي، وبدا لي أنهم لا بد وأنهم يرونني. ترددت للحظة عند المدخل الذي قادني إلى الممر. اقتربت فتاة أَمَة خلال الممر، واستدارت فجأة نحو المدخل حيث أقف. كانت تنظر نحوي مباشرة، على أن نظراتها بدت وكأنها تمر خلالي تمامًا. اعتراني الذعر للحظة، ثم أدركت أنها على وشك الاصطدام بي، فتحركت بسرعة جانبًا. مرت بجانبي، وإن كان من الواضح أنها شعرت بوجودي؛ لأنها توقفت ونظرت حولها بسرعة وفي عينيها تعبير ينم عن الدهشة ثم دخلت عبر المدخل وعندئذ شعرت بارتياح هائل. لم ترني، لكنها سمعت خطوتي دون شك عندما تنحيت جانبًا. والآن، مع تجدد شعوري بالثقة، انضممت إلى حشد غفير في الممر، وشققت طريقي بين الناس على نحو يجنبني التماس معهم، وأخذت أبحث بجدية عن مدخل لسلم يؤدي إلى أعلى. وقد اكتشفته الآن، ووصلت بعد فترة قصيرة إلى الطابق العلوي للقصر. وبعد بحث قصير، وصلت إلى غرفة الحرس أسفل السلم المؤدية إلى الحظائر الملكية.

تسكعت في غرفة الحرس، حيث كان المحاربون الذين في فترة راحتهم يشاركون في أنشطة مختلفة. كان بعضهم يقوم بتنظيف عتادهم وتلميع معادنهم؛ وكان اثنان يلعبان الجيتان[215] ، بينما يُدحرج آخرون كرات صغيرة مُرقمة في اتجاه مجموعة مرقمة من الثقوب – لعبة حظ رائعة، تُسمى يانو، وأعتقد أنها لعبة قديمة بمثل قِدم حضارة برسوم. كانت الغرفة تضج بضحكات المقاتلين وأصواتهم وهم يقسمون اليمين في ألعابهم. يا لتشابه المحاربين في أنحاء العالم كافة! أما من حيث عتادهم ومعادنهم، فهم يختلفون عن حرس القصر في هيليوم.

مشيت بينهم وصعدت السلم إلى السطح حيث توجد الحظائر. وقف محاربان في الخدمة أعلى السلم، بما يحول دون تقدمي. المسافة بينهما ضيقة جدًّا لأسير خلالها، وخشيت اكتشاف أمري. توقفت، وعندئذ سمعت حديثهما .

---

(215) جيتان: لعبة في برسوم تشبه إلى حد كبير لعبة الشطرنج على كوكب الأرض - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jetan - المترجمة.

قال أحدهم: «أقول لك إنه ضُرب من الخلف، ولم يُعرَف أبدًا من قتله»؛ وهنا عرفت أنهما يتحدثان عن الحارس الذيَ قتلته.

سأل الآخر: «ولكن من أين أتى القاتل؟».

«يعتقد البادوار أنه ربما زميل من أفراد الحرس. هناك تحقيق، وسوف يستجوبوننا جميعًا».

قال الآخر: «لست أنا. لقد كان أفضل صديق لي».

«ولست أنا أيضًا».

«لديه أسلوب مع النساء. ولعل... »

تشتت انتباهي، وأنهت أصوات محارب يركض أعلى السلم حديثهما. أصبح موقفي الآن أكثر خطورة. السلم ضيق، ويمكن أن يصطدم بي بسهولة الرجل القادم من الخلف. ولذا يجب أن أمر بين الحارسين فورًا وأشق طريقي إلى السطح. توجد مساحة بالكاد كافية بين المحارب على يساري والجدار الجانبي للسلم تتيح مروري إذا لم يتراجع المحارب خطوة إلى الوراء. ومع أقصى قدر أستطيعه من التسلل، أدخلت نفسي ببطء خلفه؛ ولك أن تطمئن أنني تنفست الصعداء عندما نجحت في المرور.

أما المحارب الذي كان يصعد السلم، فقد وصل الآن إلى الحارسين. وقال: «أمكن اكتشاف قاتل حارس الحظيرة».

«إنه ليس سوى ذلك الجاسوس من جاهار الذي يسمى نفسه هادرون الهاستوري، وهو ومعه الجاسوس الآخر نور آن هما من صدر ضدهما

الحكم بالموت في ‹الهلاك›. لكنه هرب بمعجزة وعاد إلى قصر هاج أوسيس. كما قتل يو سينو، بالإضافة إلى حارس الحظيرة، وأمسكوا به بعد مهاجمته الأمير هاج ألت. والآن هرب مرة أخرى وهو موجود في القصر. وقد أرسلني بادوار الحرس لتوجيهكم بمضاعفة المراقبة. وهناك مكافأة كبيرة لمن يقبض على هادرون الهاستوري، حيًّا أو ميتًا».

قال أحد الحراس: «باسم معادني، أود أن أراه يحاول الهرب من هذا الطريق».

«لن يأتي إلى هنا أبدًا في النهار».

ابتسمت وأنا أسرع نحو الحظيرة. كان الوصول إلى السطح دون أن أخلع رداء التخفي صعبًا، لكني نجحت أخيراً. يمتد أمامي السطح الفارغ؛ لم تكن السفينة ظاهرة؛ لكني ابتسمت مرة أخرى لأني أعرف جيدًا أنها موجودة. بحثت عن عين المنظار التي ستكشف عن مكان الطائرة، لكني لم أرها. بيد أن ذلك لم يشغلني كثيراً لأنني أدركت أنها ربما تحولت إلى الاتجاه المعاكس. لا يتطلب الأمر سوى أن أسير في المكان الذي غادرت منه السفينة، وفعلت ذلك وأنا أتحسس أمامي بيديَّ الممتدتين .

مشيت على السطح من جانب إلى آخر، لكني لم أعثر على السفينة. وبديهيًّا أنني شعرت بالحيرة. أعرف عن يقين أين تركت السفينة، لكنها لم تعُد هناك. ربما أزاحتها الرياح قليلاً. وبأخذ هذه الفكرة في الاعتبار، بحثت في قسم آخر من السطح، لكني لم أصل إلا لخيبة أمل مماثلة. انتابني الآن شعورٌ بالتخوف، فشرعت في بحث منتظم للسطح إلى أن غطيت كل قدم مربع؛ وكنت مقتنعًا بما لا يدع مجالاً للشك أن أسوأ الكوارث قد أصابتني- سفينتي ذهبت؛ ولكن إلى أين؟ هناك عيوب، بطبيعة الحال، في تركيبة الإخفاء. ربما توجد السفينة على مسافة قريبة مني، لكني غير قادر على رؤيتها. كانت رياح لطيفة تهب من الجنوب الغربي. إذا ارتفعت السفينة أعلى السطح، فسوف تنجرف في اتجاه الشمال الشرقي؛ ولذا أجهدت عينيَّ نحو هذا الاتجاه لكني لم أجد عين المنظار الصغيرة .

يجب أن أعترف أنني للحظة شعرت بإحباط شديد. يبدو دائمًا أن النجاح عندما يكاد أن يكون في متناول يدي، ينتزعه مني مصير خبيث؛ لكني الآن نفضت عني هذا اليأس الضعيف وقررت مواجهة المستقبل، أيًّا كان ما قد يجلبه.

أخذت أفكر لبضع لحظات في وضعي من جميع جوانبه، وأسعى إلى اكتشاف أفضل حل لمشكلتي. يجب أن أنقذ تافيا، لكنني شعرت بأنه ما من جدوى لمحاولة إنقاذها دون وجود سفينة، ولذلك يجب أن أحصل على سفينة، وكنت أعرف أن السفن في المستوى الأدنى مباشرة، في الحظائر الملكية. وهذه الحظائر تُغلق ليلاً، وتخضع لمراقبة الحراس في الصفقة. فإذا أردت سفينة، يجب أن أحصل عليها الآن، مع الاعتماد في نجاحي على سرعتي وجرأتي .

من المعروف أن الطائرات الملكية تتسم عادة بالسرعة. وإذا لم تكن سفن هاج أوسيس استثناء لهذه القاعدة العامة في برسوم، فقد آمل في مطاردة إذا تمكنت من تجاوز حارس الحظيرة.

كنت على يقين من شيء واحد، أنني لا أستطيع إنجاز ما أريد ببقائي على سطح الحظيرة فبدأت أنزل بحذر. اخترت لحظة توجه خلالها اهتمام الحراس إلى مكان آخر، لأني كنت أخشى دائمًا أن ينحسر ردائي جانبًا ويكشف عن أطرافي.

وما إن وصلت إلى السطح ثانية، حتى أسرعت نحو الحظيرة وألقيت نظرة على السفن. اخترت سفينة كنت على يقين أنها تسع أربعة أشخاص بسهولة، كما دلت خطوطها على سرعتها الكبيرة.

صعدت إلى سطح السفينة واتخذت مكاني أمام لوحات التحكم. بدأت أرتفع بالسفينة تدريجيًّا، ثم أدرت جهاز السرعة.

وقف الحراس أمامي مباشرة على الجانب الآخر، خلال المداخل المفتوحة في الحظيرة. وعندما انطلقت السفينة في ضوء الشمس، أطلقوا صرخة مفاجئة وفي الوقت نفسه إنذارًا. انطلقوا مثل المحاربين الشجعان بسيوفهم الطويلة، واستطعت أن أرى أنهم سيحاولون إنزال السفينة قبل أن أتمكن من التحليق على ارتفاع كبير. لكن أحدهم توقف الآن جانبًا واتسعت عيناه.

صاح: «باسم دماء أسلافنا الأوائل! لا يوجد أحد أمام لوحات التحكم».

ويبدو أن الرجل الثاني اكتشف ذلك في الوقت نفسه؛ لأنه انكمش جانبًا أيضًا. ومع دوران المروحة، انطلقت إلى الأعلى من حظيرة جِد تجاناث الملكية.

غرق الحارسان في الدهشة لمجرد لحظة؛ حيث سمعت على الفور صراخ صفارات الإنذار ورنين الأجراس الكبيرة، ورأيت بلمحة خلفي أن طائرة انطلقت بالفعل لمطاردتي. كانت طائرة تسع رجلين، وأدركت على الفور أنها أسرع من الطائرة التي اخترتها. ومما زاد من سوء الوضع، أنني رأيت زوارق الدورية ترتفع من حظائر الطائرات الموجودة في أماكن أخرى على سطح القصر. اتضح أنها جميعًا رأت سفينتي وتسعى للاقتراب مني. يبدو الهروب مستحيلاً؛ ففي كل طريق أتجه إليه أجد زورق دورية يقترب. دفعوني بالفعل إلى دوامة تصاعدية، وتركزت عيناي بحثًا عن سبيل للهرب قد ينفتح أمامي .

يا له من موقف يائس! سفينتي بطيئة للغاية؛ والمطاردون كثيرون جدًّا.

اعتقدت أن الأمر لن يطول، لكني في تلك اللحظة تحديدًا رأيت شيئًا أمام مقدمة سفينتي، على ارتفاع أكبر قليلاً، منحني أعظم إثارة شعرت بها من قبل في حياتي. كانت عينًا صغيرة مستديرة من الزجاج، لكنها تعني لي الحياة وأكثر من الحياة؛ لأنها قد تعني أيضًا الحياة والسعادة لتافيا- وطبعًا سانوما تورا.

كان أحد قوارب الدورية قادمة نحو في اتجاه قطري من أسفل، وعلى وشك أن مهاجمتي؛ على أنني وجهت طائرتي تحت العين العائمة، مع حساب المسافة جيدًا بحيث تمكنت من إيجاد مكان لرأسي تحت عارضة سفينتي التي تصورت أنني فقدتها. وبعد أن حددت موقع إحدى الكوات، التي كانت مُصممة بحيث تُفتح من الداخل أو الخارج، أسرعت إلى داخل جهاما، كما أسماها فور تاك .

أغلقت الفتحة وتوجهت إلى لوحات التحكم، ثم ارتفعت بسرعة بعيدًا عن الخطر المباشر. وقفت جانبًا، لمشاهدة المطاردين السابقين.

قرأت الذعر في وجوههم عندما وصلوا إلى الطائرة الملكية التي كنت قد سرقتها، وأدركوا أنها بلا طيار. ولأنهم لم يروني ولم يروا سفينتي، كانوا في وضع صعب، ولا يجدون أي نوع من التفسير لهذه الظاهرة.

وجدت خلال مشاهدتي لهم أنني من الضروري أن أغير موقعي باستمرار، نظرًا لعدد زوارق الدورية والطائرات الأخرى التي كانت تحتشد. لا أرغب في مغادرة المنطقة المجاورة للقصر؛ لأنني أعتزم البقاء هنا حتى حلول الظلام بحيث يمكنني محاولة أخذ تافيا وفاو على متن جهاما. كما كان في ذهني استطلاع البرج الشرقي خلال النهار، ومحاولة التواصل مع تافيا إن أمكن. كان الزود الخامس قد حل بالفعل، وسوف تغرب الشمس خلال خمسين زات (ثلاث ساعات).

وددت أن أشرع في خطة الإنقاذ بعد حلول الظلام مباشرة قدر الإمكان، فقد علمتني التجربة أن تنفيذ الخطط ليس بسلاسة التفكير فيها .

صعد محارب من إحدى سفن الدورية على متن الطائرة الملكية، التي كنت قد سرقتها، وكان يُعيدها إلى الحظيرة. تبعته بعض السفن، وعادت السفن الأخرى إلى محطاتها. ظل قارب دورية واحد يتجول؛ وفجأة أدركت خلال مشاهدتي أن ضابطًا شابًّا يقف على سطح القارب قد لمح عين منظاري. رأيته يشير نحوه، وبعدها مباشرة غير القارب مساره واتجه نحوي مباشرة. لم يكن هذا جيدًا، ولم أضع أي وقت؛ انتقلت إلى جانب آخر وأدرت عين منظاري بعيدًا عنهم حتى لا يتمكنوا من رؤيتي أو متابعتي.

تحركت لمسافة قصيرة بعيدًا عن مسارهم، ثم أدرت منظاري نحوهم مرة أخرى. ولدهشتي اكتشفت أنهم أيضًا غيروا مسارهم ويتبعونني.

ارتفعت سريعًا الآن واتخذت اتجاهًا جديدًا. وعندما نظرت ثانية وجدت الطائرة تلاحقني، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل تصوب بندقية نحوي.

ماذا حدث؟ يبدو أن شيئًا ما خاطئًا قد حدث، وأن اختفائي لم يعُد تامًا. وأيًّا ما كان، فات أوان تدارك الأمر حتى إذا كان بإمكاني. ليس أمامي سوى ملاذ وحيد، وتوسلت إلى سلفي الأول ألا يكون الوقت قد فات لوضعه موضع التنفيذ. إذا أطلقوا عليَّ النار، سأضيع .

أوقفت جهاما تمامًا، وانطلقت بسرعة إلى مؤخرة السفينة، حيث توجد البندقية الخلفية مثبتة على منصة داخل برج قصير .

في تلك اللحظة، فرحت بالبصيرة التي دفعتني إلى إعادة ترتيب القذائف بشكل صحيح في حال ضرورة استخدامها الفوري في حالات طارئة مثل هذه. اخترت قذيفة، ووضعتها في التجويف وأغلقت الحاجز خلفها .

استجاب البرج إلى لمستي، رغم بدائيته وتشييده باستعجال؛ وبعد لحظة كانت نطاق رؤيتي يغطي سفينة الدورية المقتربة. وشاهدت من خلال الفتحة الصغيرة المخصصة للرؤية أثر أول طلقة أقذفها من بندقية فور تاك ذات الأشعة التفكيكية .

استخدمت قذيفة تفكيك المعادن، وكانت النتيجة مروعة.

أحب السفن، وتمزق قلبي لرؤية هذه الطائرة القوية تنهار في الجو مع اختفاء أجزائها المعدنية من جراء أشعة التفكيك.

وهذا ليس كل شيء؛ إذ عندما غرق الخشب والجلد والنسيج نحو الأرض بفعل زيادة السرعة، اندفع المحاربون الشجعان نحو الموت. كان الأمر مروعًا.

صحيح أنا ابن برسوم، وأسعد في المعارك، والنزاع المسلح من حقي، والحرب هدف طموحي، لكن هذه لم تكن حربًا؛ بل كانت قتلاً.

لم أفرح بانتصاري كما فرحت عندما هزمت يو سينو في قتال مميت. وزاد تصميمي الآن، أكثر من أي وقت، على ضرورة حظر هذا السلاح التدميري المخيف إلى الأبد في برسوم. إنه لشيء رهيب التفكير في حرب باستخدام سلاح خفي تمامًا بتركيبة الإخفاء. يمكن محو أساطيل ومدن وأمم كاملة في معركة واحدة باستخدام هذا السلاح. وأحلام فور تاك المجنونة قد تتحقق بسهولة، ويتمكن هذا المهووس من حُكم كل برسوم.

على أن الوقت غير مناسب الآن للتأمل والتفلسف؛ فأمامي عمل يجب أن أنجزه. وعلى الرغم من أنه قد يقتضي إبادة تجاناث كلها، فقد كنت مستعدًّا للقيام بذلك.

انطلقت مرة أخرى صفارات وأجراس الإنذار؛ واحتشدت ثانية زوارق الدورية. شعرت أنني يجب أن أغادر إلى أن يحل الظلام، حتى لا أضطر ثانية إلى توجيه هذه البندقية المميتة ضد الرجال في ظل غياب أي بديل آخر.

عندما بدأت العودة إلى لوحات التحكم، سقطت عيني مصادفة على أحد المنافذ بمؤخرة السفينة، ولدهشتي رأيت بابه مرفوعًا. لا أعرف كيف حدث هذا؛ ظل الأمر غامضًا، لكني أدركت على الأقل كيف تمكن قارب الدورية من متابعتي. من المؤكد أن الثقب المستدير للمنفذ أثار استغرابهم وهو يتحرك في الهواء، لكنه كان في الوقت نفسه سببًا يتبعونه. وعلى الرغم من عدم فهمهم له، فقد اتبعوه كأي محاربين شجعان يؤدون واجبهم.

أسرعت بإغلاقه؛ وبعد أن فحصت الأبواب الأخرى ووجدتها جميعًا مغلقة، تيقنت أنني غير مرئي تمامًا باستثناء عين منظاري الصغيرة، ومن ثم لا توجد ضرورة فورية لمغادرة المنطقة المجاورة للقصر، ويمكنني بسهولة إبقاء السفينة خارج مسار زوارق الدورية التي تتجمع مرة أخرى بالقرب من الحظيرة الملكية.

أعتقد أنهم كانوا في ضيق شديد لما حدث، ومن الواضح أنه لا يوجد بينهم توافق في الرأي بشأن ما ينبغي عمله. كانت سفينة الدورية تحوم، ويبدو أنها تنتظر الأوامر، ولم تبدأ في البحث المنتظم فوق المدينة إلى بعد حلول الظلام؛ كما لم يمضِ وقت طويل قبل أن أفهم أوامرهم، كأنما قرأتها بنفسي. كانت السفن السفلية تطير على ارتفاع لا يزيد على خمسين قدمًا فوق المباني؛ وكان الصف الثاني يطير أعلاها بحوالي مائتي قدم. تحركت سفن كل مستوى في سلسلة من دوائر متحدة المركز وفي اتجاهين متعاكسين، وبالتالي أخذت تمشط الهواء فوق المدينة عن كثب بحيث لا تستطيع أي سفينة عدو من الاقتراب. كانت ألف عين تراقب الهواء أدناه؛ فعند كل نقطة مميزة، وقف الحراس للمراقبة، وظهرت بنادق – كأنما بفعل السحر– فوق أسطح جميع المباني العامة .

بدأت أتخوف تمامًا من إمكانية اكتشافهم حتى لعين منظاري الصغيرة، ولذا انخفضت قليلاً بسفينتي إلى فتحة بين بعض أشجار شاهقة تنمو داخل القصر والحديقة، وانتظرت على ارتفاع حوالي عشرين قدمًا فوق سطح الأرض، ومنظاري محجوب تمامًا وغير مرئي. وبالتالي، بقيت غير مرئي إلى أن هبط ليل برسوم على تجاناث؛ فارتفعت ببطء من ملاذي المحاط بأوراق الشجر.

توقفت أعلى الأشجار لإلقاء نظرة من خلال المنظار. على مسافة بعيدة في أعلى، تتلألأ أضواء زوارق الدورية المحلقة؛ ومن ألف نافذة في القصر تضيء أنوار أخرى.

وترتفع أمامي ظلال الخطوط الداكنة للبرج الشرقي في مواجهة السماء المرصعة بالنجوم .

ارتفعت ببطء وحلقت فوق البرج إلى أن وصلت بالسفينة جهاما أمام نافذة تافيا.

سفينتي بلا أضواء، بطبيعة الحال، ولم أشعل أي أضواء داخل مقصورتها؛ ولذا شعرت أن بإمكاني فتح باب أحد الكوات العلوية بأمان، وهذا ما فعلته. تقع جهاما بسطحها العلوي على مسافة قدم أو قدمين تحت عتبة نافذة تافيا. وقبل أن أغامر، خلعت عباءة التخفي .

لا يوجد ضوء في غرفة تافيا. وضعت أذني بالقرب من القضبان الحديدية لأستمع. غرق قلبي داخلي. هل نقلوها إلى جزء آخر من القصر؟ هل جاء هاج ألت وأخذها؟ ارتجفت لمجرد الفكرة، ولعنت الحظ الذي أتاح له تجنب نصلي .

مع كل تلك الأعين والآذان التي تجتهد خلال الظلام، خشيت إصدار أدنى صوت، مع أنني شعرت أن احتمالات مشاهدة الكوة المفتوحة ضئيل في الظلام المحيط؛ لكنني يجب أن أتأكد من وجود تافيا أو عدم وجودها داخل تلك الغرفة. انحنيت بالقرب من القضبان، وهمست اسمها. لا توجد أي استجابة.

«تافيا!»، همست بصوت أعلى هذه المرة، وبدا لي أن صوتي يدوي نحو السماء العالية بنبرات يمكن أن يسمعها الموتى.

سمعت ردًّا الآن من داخل الغرفة، يبدو كلهاث، ثم سمعت شخصًا يتحرك- يقترب من النافذة. الظلام حالك في الداخل لا يتيح رؤية أي شيء، لكنني أسمع الآن صوتًا بالقرب مني.

«هادرون! أين أنت؟».

لقد تعرفت على صوتي. ولسبب ما أسعدني ذلك للغاية. قلت: «أنا هنا، عند النافذة، تافيا».

اقتربت أكثر، وسألتني: «أين؟ لا أستطيع رؤيتك».

نسيت رداء التخفي. قلت: «لا يهم. لا يمكنك مشاهدتي، وسوف أشرح ذلك لاحقًا. هل فاو معك؟».

«نعم».

«هل معكما أي شخص آخر؟».

«كلا».

«سوف آخذك معي، تافيا أنتِ وفاو. يجب أن تقفا جانبًا، بعيدًا عن النافذة، حتى لا يصيبكما أي ضرر خلال إزالتي للقَضبان. وبعد ذلك، استعدا للصعود على متن سفينتي فورًا».

قالت: «سفينتك! أين هي؟».

«لا تهتمي الآن. توجد هنا سفينة. عليك فقط أن تفعلي ما أقوله لك. هل تثقين بي؟».

همست: «بحياتي، هادرون، إلى الأبد».

غنى شيء في داخلي. كان أكثر من مجرد التشويق؛ لا يمكنني شرحه؛ ولا أفهمه، لكني أفكر الآن في أشياء أخرى.

«قفي جانبًا بسرعة، تافيا، وأخبري فاو أن تبتعد عن النافذة حتى أنادي عليكما مرة أخرى. بالكاد ما أمكنني رؤيتها للحظة، ثم رأيتها تبتعد عن النافذة. عدت إلى لوحات التحكم، وأحضرت البرج الأمامي للسفينة أمام النافذة، وصوبت البندقية نحو القضبان. حشوتها ثم ضغط على الزر. لم أتمكن من مشاهدة النتيجة خلال فتحه الرؤية الصغيرة وبسبب الظلام، لكني كنت أعرف تمامًا ما حدث. انخفضت بالسفينة مرة أخرى، وذهبت إلى سطحها لأجد أن القضبان قد اختفت تمامًا.

قلت: «أسرعي، تافيا. هيا.«!

اقتربت من جدار البرج، مع أحد أقدامي على سطح السفينة والأخرى على عتبة النافذة، وبقدر استطاعتي وضعت عباءة التخفي على الفتاتين كمظلة لحمايتهن من الانكشاف خلال صعودهن على متن جهاما.

كان عملاً شاقًّا ومحفوفًا بالمخاطر. تمنيت لو كان لديَّ خطافات، لكنها لم تكن موجودة، ولذا يجب أن أتصرف بأفضل ما يمكنني. أمسكت العباءة بيد، وساعدت تافيا باليد الأخرى لتصعد إلى عتبة النافذة .

«لا توجد سفينة»، قالت بلهجة خائفة قليلاً.

قلت: «هناك سفينة، تافيا. لا تفكري سوى في أنكِ تثقين بي وافعلي ما أطلبه». أمسكت بها بحزم من أحزمة عتادها على ظهرها. قلت: «لا تخافي»، ثم جذبتها خلال الكوة وأنزلتها بلطف إلى داخل جهاما .

كانت فاو خلفها، ويجب أن أفتخر بأنها كانت بمثل شجاعة تافيا. لا بد أنها كانت تجربة مرعبة للفتاتين، أن تشعرا بإنزالهما في الهواء على مسافة مائة قدم فوق سطح الأرض، دون أن يشاهدا أي سفينة – بل

مجرد حفرة قاتمة في ظلام الليل.

وبمجرد صعودهما على متن سفينتي، تبعتهما وأغلقت الكوة خلفي.

جلسن في الظلام على أرضية المقصورة، ضعيفتين ومنهكتين من هذه المحنة القصيرة التي مررن بها للتو. على أنني لم أستطع أخذ الوقت الكافي للإجابة على التساؤلات التي أعرف أنها تملأ رأسيهما.

إذا نجحنا في تجاوز المراقبين على الأسطح وزوارق الدورية في أعلى، سيكون لدينا متسع من الوقت للأسئلة والإجابة. وإذا لم ننجح، فلن توجد حاجة إلى ذلك.

* * *

الفصل (13)

نساء تول أكستار

تحركنا ببطء وصمت من البرج، ومراوح سفينتنا تمنحنا ما يكفي فقط لتقدمنا. لم أجرؤ على الارتفاع إلى مستوى الطائرات المحلقة خشية اصطدام حتمي، نظرًا لمحدودية نطاق الرؤية الذي يتيحه المنظار. ولذا اتخذت مدارًا لسفينتي فوق سطح الجزء السفلي من القصر حتى وصلت إلى شارع واسع يقود في اتجاه الشرق إلى جدار المدينة الخارجي. حافظت على ارتفاعي أسفل أسطح المباني، تجنبًا لأي احتمال ضئيل لمواجهة طائرة أخرى. أصبح خطر اكتشافنا الوحيد الآن، وإن كان احتمالاً ضئيلاً، يتمثل في أن يسمع المراقبون على الأسطح صوت مروحتنا؛ على أن همهمة وأزيز مراوح السفن فوق المدينة تفوق أي صوت طفيف لريشات مروحتنا التي تدور ببطء. وصلنا أخيراً إلى البوابة في نهاية الشارع، فارتفعت فوق أسوارها، وخرجنا من تجاناث إلى ظلام الليل. وأخذت أضواء المدينة وزوارق الدوريات المحلقة تخفت تدريجيًّا ونحن نبتعد عنها ونتركها خلفنا.

حافظنا على صمت مطلق خلال فرارنا من المدينة. وما إن تأكدنا من نجاح هروبنا، حتى فتحت تافيا أبواب فيضان فضولها. كان سؤال فاو الأول يتعلق بنور آن. تنهدت في ارتياح يؤكد حبها له بمثل ما يمكن أن تؤكده الكلمات. استمعت الفتاتان باهتمام مبهور إلى قصة معجزة هروبنا من 'الهلاك'. ثم رغبن في معرفة كل شيء عن جهاما، وتركيبة التخفي، وأشعة التفكيك التي أذابت القضبان من نافذة سجنهما. ولم نبدأ في مناقشة خططنا التالية إلا بعد إشباع فضولهما .

قلت: «أشعر أنني يجب أن أذهب في الحال إلى جاهار».

«نعم»، قالت تافيا بصوت منخفض، «هذا واجبك. عليك أن تذهب أولاً إلى هناك لإنقاذ سانوما تورا».

«لو هناك مكان حيث يمكنني أن أتركك أنتِ وفاو بأمان، لكنت شعرت أن بإمكاني مواصلة مهمتي بقدر كبير من راحة البال؛ لَكنيَ لا أعرف أي مكان آخر غير جهاما، وأتردد في العودة إلى هناك حتى لا يعرف فور تاك أنني لم أذهب إلى جاهار مباشرة كما نويت. والرجل مجنون تمامًا. يصعب التنبؤ بما يمكن أن يفعله إذا عرف الحقيقة؛ كما

أنني لست على يقين أنكما ستنعمان بالأمان هناك تحت سلطته. فهو لا يثق إلا في عبيده، وقد تتملكه بسهولة هلاوس أنكما جاسوستين».

قالت تافيا: «أنت لا تحتاج إلى التفكير فيَّ على الإطلاق؛ وحتى إذا وجدت مكانًا لنا، أنا لن أمكث فيه. مكان الأَمَة هو أنها مع سيدها».

«لا تقولي ذلك، تافيا. أنتِ لستِ أَمَتِي».

أجابت: «أنا أَمَة. يجب أن أكون أَمَة لشخص ما، وأفضل أن يكون أنت».

لمسني ولاؤها، لكني لا أحب التفكير في تافيا كأَمَة؛ على أنها، ورغم كراهيتي للفكرة، كانت أَمَة. قلت: «أعطيكِ حريتكِ، تافيا».

ابتسمت. «أنا لا أريدها؛ والآن وبعد أن تقرر أنني سأبقى معك (قامت باتخاذ جميع القرارات)، أود أن أعرف كل ما يمكنني عن الحركة في جهاما، فقد أستطيع مساعدتك بهذه الطريقة».

معرفة تافيا بالملاحة الجوية جعلت مهمة تعليمها بسيطة؛ ولم يكن لديها في الواقع أي مشكلة على الإطلاق في التعامل مع هذه الطائرة.

أبدت فاو اهتمامًا أيضًا، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تأخذ دورها أمام لوحات التحكم؛ بينما أصرت تافيا على التعرف على جميع أسرار بندقية أشعة التفكيك.

قبل أن نشاهد أبراج عاصمة تول أكستار بفترة طويلة، رأينا طائرة تسع رجل واحد مطلية باللون الأزرق المروع في جاهار، ثم رأينا على بعد يمينًا ويسارًا طائرات أخرى. كانت تحلق ببطء على ارتفاع كبير. كان تقديري أنها طائرات استطلاعية لمراقبة قدوم أي أسطول لعدو متوقع. طرنا تحتها، ثم شاهدنا لاحقًا الصف الثاني من سفن العدو. كانت جميعها زوارق استطلاع، تحمل كل منها ما يتراوح بين عشرة إلى خمسة عشر رجلاً. اقتربت من إحداها، ورأيت أنها محملة بأربع بنادق أشعة التفكيك: اثنتان في الأمام واثنتان في الخلف. وبقدر ما يمكنني الرؤية في أي من الاتجاهين، كانت هذه السفن واضحة. وإذا كانت تُشكل، كما افترضت، دائرة حول جاهار بالكامل، فلا بد أنها عديدة .

وبعد أن تجاوزنا هذه المجموعة، شاهدنا الآن الصف الثالث من السفن الجاهارية. هنا تتمركز سفن حربية ضخمة، تحمل أطقمًا من ألف رجل وأكثر، ومحملة إلى حد ما ببنادق كبيرة.

وفي حين لم يكن أي من هذه السفن بمثل ضخامة السفن الكبرى في هيليوم، فقد كانت تُشكل قوة هائلة ومن الواضح أن عددها كبير .

ما رأيته قد أثار إعجابي بالفعل، من زاوية أن تفكير تول أكستار لإخضاع كل برسوم ليس حلمًا خاملاً. وبجزء صغير من السفن التي رأيتها فعلاً، أضمن أنه سوف يحول برسوم كلها إلى خراب، علاوة على أن سفنه مسلحة ببنادق أشعة التفكيك؛ وشعرت عن يقين أنني لم أشهد سوى جزء ضئيل من التسليح الهائل لدى تول أكستار.

ملأني مشهد كل هذه السفن بنذير مباشر للكارثة. إذا لم يكن أسطول هيليوم قد وصل ودُمِّر بالفعل، فبالتأكيد سوف يُدمَّر عند وصوله. ما من قوة على الأرض يمكنها إنقاذه. أفضل ما يمكنني أن أتمناه، إذا كان الأسطول قد وصل فعلاً، هو أن يكون لقاؤه مع الصف الأول من بنادق أشعة التفكيك بمثابة تحذير كافٍ ليتراجع الجزء الباقي من الأسطول.

رأيت وراء صف السفن الحربية أبراج جاهار ترتفع على مسافة. وعندما وصلنا إلى المناطق المحيطة بالمدينة، لمحت أسطولاً من سفن أكبر مما رأيته من قبل على الإطلاق، يستقر على الأرض خارج سور المدينة. لا بد أن هذه السفن، التي تطوق سور المدينة تمامًا، قادرة على استيعاب ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل. ومن بنيتها وأسلحتها الخفيفة، افترضت أنها وسائل نقل. لا شك أنها هي التي سوف تحمل جحافل محاربي جاهار الجياع عند التخطيط لأي حملة نهب وسلب بعد تدمير أي عالم.

دفعني تأمل هذا الأسطول الهائل إلى التخلي عن جميع الخطط الأخرى والإسراع في الحال إلى هيليوم، لنشر التحذير ووضع الخطط لإحباط طموحات تول أكستار المجنونة. كان عقلي مشتعلاً من المطالب المتضاربة. لقد خاطرت بحياتي لمرات لا تُحصى للوصول إلى جاهار لتحقيق هدف واحد؛ والآن بعد أن وصلت، مطلوب مني أن أعود لإنجاز هدف آخر- هدف أكبر، وربما أكثر أهمية، لكنني مجرد إنسان. ولذا، استدرت كي أنقذ أولاً المرأة التي أحبها، ثم أكرس نفسي فورًا بكل إخلاص لمتابعة المغامرة الأخرى التي يتطلبها واجبي ونزوعي. جادلت نفسي أن أقل تأخير ينتج عن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى تهديد قضية أكبر؛ بينما إن تخليت الآن عن سانوما تورا، فمن الأقل ترجيحًا أن أتمكن على الإطلاق من العودة إلى جاهار لإنقاذها.

كنا فوق جدران المدينة، وخلفنا أسطول ضخم مطلي باللون الأزرق المروع الي يميز جاهار. تحركنا في اتجاه قصر الجيداك.

وضعت خططي بشكل جيد. وناقشتها مرارًا وتكرارًا مع تافيا، التي ترعرعت في قصر تول أكستار .

وبناء على اقتراحها، سوف نطير بجهاما إلى نقطة تقع مباشرة فوق قمة برج نحيل، لا توجد عليه مساحة لهبوط الطائرة، وإنما يمكنني الدخول من خلاله إلى القصر عند نقطة قريبة من مساكن النساء.

ونظرًا لأننا اجتزنا الصفوف الثلاثة من سفن جاهار، تحت حماية طلاء تركيبة التخفي، فقد نجحنا في المرور عبر حراس سور المدينة، وعبر المحاربين الذين يتولون مراقبة الأبراج، وفوق متاريس قصر الأبراج، وفوق متاريس قصر الجيداك. ودون وقوع أي حادث جدير بالملاحظة، أوقفت جهاما فوق قمة البرج مباشرة الذي أشارت إليه تافيا.

قلت لتافيا: «سيحل الظلام خلال عشرة زات (حوالي ثلاثين دقيقة). فإذا وجدت من غير المناسب الاستمرار في البقاء هنا، يمكنك التحرك والعودة عند هبوط الظلام، فبغض النظر عن نجاحي في العثور على سانوما تورا، لن أحاول العودة إلى جهاما إلى أن يهبط الليل».

قالت لي إن مساكن النساء يُحتمل أن تكون مغلقة عند غروب الشمس، ولهذا السبب سأدخل القصر الصيفي في ضوء النهار، على الرغم من أنني كنت أُفضل عدم المخاطرة إلى أن يهبط الليل. كما أكدت لي تافيا أيضًا أنني بمجرد دخولي مساكن النساء، لن أجد أي صعوبة في مغادرتها حتى بعد إغلاقها؛ حيث يمكن فتح الأبواب من الداخل؛ لأن احتياطات التأمين لا تُتخذ خوفًا من مغادرة النزيلات للسكن، وإنما لحمايتهن من أخطار القتلة وغيرهم الذين يقصدون الشر.

قمت بضبط رداء عباءة التخفي حولي، ورفعت كوة العارضة الأمامية، وهي تقع مباشرة فوق قمة البرج الذي كان يُستخدم يومًا ما كنقطة مراقبة في عصر قديم قبل أن تجعله الأجزاء الأحدث والأعلى من القصر عديم الفائدة في هذا الغرض.

همست تافيا: «وداعًا، وحظًّا سعيدًا. أتمنى عند عودتك أن تكون معك سانوما تورا. وفي أثناء غيابك، سوف أدعو أسلافي أن تنجح في مهمتك».

شكرتها، ثم نزلت من خلال الكوة إلى قمة البرج، حيث يوجد باب مسحور صغير.

فتحت هذا الباب، ورأيت أدناي قمة سلم قديم كان يستخدمه المحاربون الذين قُتلوا منذ زمن بعيد، ومن الواضح أنه الآن نادرًا ما يُستخدم، إن استُخدِم أصلاً، ويشهد على ذلك التراب الذي يغطي درجاته. نزلت السلم وقادني إلى غرفة كبيرة في المستوى

العلوي من هذا الجزء من القصر- غرفة كانت في الأصل، دون شك، غرفة للحرس، لكنها وعاء الآن لبقايا غريبة متنوعة من مهملات تضم الأثاث والستائر والزينات. امتلأت الغرفة بعينات من منتجات الحِرف الجاهارية القديمة، إلى جانب بنود حديثة الصنع نسبيًّا. يا لها من غرفة، لكان من المثير اكتشافها؛ على أنني مررت خلالها باحثًا بلمحة واحدة عن أعداء أحياء. اتباعًا لتعليمات تافيا، نزلت سلمين حلزونيين، حيث وجدت نفسي في رواق مزين بالنقوش، ويفتح على شقق نساء تول أكستار. كان الرواق طويلاً، يمتد لمسافة ألف سوفاد إلى نافذة كبيرة مقوسة في أقصى نهايته، رأيت من خلالها أوراق الشجر مرفرفة .

تصطف على جانبي الممر العديد من الأبواب التي لا حصر لها مفتوحة أو مواربة؛ ذلك أن الممر نفسه كان محظورًا على الجميع إلا النساء وعبيدهم، باستثناء تول أكستار. أما السلم الوحيد الذي يؤدي إليه من المستوى الأدنى، فكان تحت حراسة رجال مُختارين، من الخصيان على وجه الحصر. وأكدت لي تافيا أن أي روح مغامرة تسعى إلى استكشاف تلك المناطق العلوية، تتعرض لضرورة تقديم اعتراف قصير بالإثم. بيد أنني هنا، رجل وعدو، أتحرك بأمان داخل المنطقة المحظورة.

عندما نظرت حولي في محاولة لتحديد من أين أشرع في بحثي، خرجت العديد من النساء من إحدى الشقق واقتربن مني على طول الممر. نساء جميلات وشابات ويرتدين أغطية ثرية، لكني أدركت من حواراتهن الخفيفة وضحكاتهن أنهن لسن تعيسات. شعرت بوخز الضمير لإدراكي تلك الفرصة الوضيعة التي حصلت عليها لرؤيتهن، ولكني لا أقدر على تجنبها، ولذا انتظرت واستمعت على أمل أن أنتزع من بعض أحاديثهن ما يساعدني في بحثي عن سانوما تورا؛ لكني لم أعرف خلالهن أي شيء سوى أنهن يتحدثن عن تول أكستار باحتقار ويشرن إليه بوصفه الزيتيدار العجوز. وكانت بعض إشاراتهن إليه شخصية للغاية ولم تتضمن أيٌّ منها مدحًا .

تجاوزتني النساء، ودخلن غرفة كبيرة في نهاية الممر. وخرجت بعد ذلك مباشرة نساء أخريات من الشقق الأخرى، وذهبن إلى الشقة نفسها التي دخلت فيها المجموعة الأولى .

سرعان ما أدركت أنهن يتجمعن هناك، ورأيت أنها ربما أفضل طريقة لبدء بحثي عن سانوما تورا - ربما أجدها بين المتجمعات أيضًا .

وعلى ذلك، سرت خلف إحدى المجموعات، وتبعتهن خلال المدخل الكبير ثم إلى ممر قصير يفتح على قاعة كبيرة رائعة التجهيز والزينة على نحو يوحي أنها قاعة عرش

الجيداك. وقد اتضح، في واقع الأمر، أن هذا جزء من غرضها، حيث ارتفع في أحد أطرافها عرش هائل ومنحوت بدرجة كبيرة .

كانت أرضيتها من خشب مصقول جيدًا، يقع في منتصفه حوض كبير للمياه. امتدت على طول جانبي الغرفة مقاعد واسعة ومريحة، مكدسة بالوسائد والحرير الناعم والفراء. هنا كان تول أكستار يعقد أحيانًا جلسات فريدة، ولا تحيط به سوى النساء. وهنا يرقصن له؛ وهنا يلقين بأنفسهن في مياه الحوض الشفافة لتسليته؛ وهنا تمتد الولائم والموسيقى الصاخبة لفترة طويلة ليلاً .

بحثت حولي في النساء اللاتي تجمعن بالفعل ولم أجد سانوما تورا بينهن، فاتخذت مكانًا بالقرب من المدخل حتى يمكنني التدقيق في وجه كل امرأة تدخل .

تأتي النساء الآن بأعداد كبيرة. وأعتقد أنني لم أشهد أبدًا من قبل هذا العدد من النساء متجمعات. حاولت خلال بحثي عن سانوما تورا أن أحصي عدد النساء، لكني سرعان ما فقدتُ الأمل. مع ذلك، وعندما انتهى دخولهن، كان تقديري أن عددهن وصل إلى ألف وخمسمائة امرأة محتشدات في القاعة الكبيرة .

جلست النساء على المقاعد المتناثرة حول الغرفة التي امتلأت بخليط من الأصوات النسائية. هناك نساء من جميع الأعمار ومن كل نوع، ولا توجد بينهن امرأة غير جميلة. لا بد أن عملاء تول أكستار السريين قاموا بتمشيط العالم للحصول على مثل هذا التجمع من الجمال .

فُتح باب عند أحد جانبي العرش ودخل طابور من المحاربين. اندهشت في البداية لأن تافيا قد أخبرتني أنه غير مسموح لأي رجل، غير تول أكستار، أن يصل إلى هذا الطابق؛ لكني رأيت الآن أن هؤلاء المحاربين هم نساء يرتدين عتاد الرجال، وشعرهن قصير، ووجوههن مطلية على نمط مقاتلي برسوم. وبعد أن اتخذن أماكنهن على جانبي العرش، دخل أحد الحاشية من الباب نفسه – وكان امرأة أخرى تتنكر في زي رجل.

صاحت: «قدموا الشكر! قدموا الشكر! الجيداك قادم.«!

ونهضت النساء على الفور، وبعد لحظة دخل تول أكستار، جيداك جاهار، إلى القاعة، وخلفه مجموعة من النساء متنكرات في زي رجال الحاشية.

بعد أن جلس تول أكستار بحجمه الضخم على العرش، أومأ إلى النساء في الغرفة كي يجلسن، ثم تحدث بصوت منخفض إلى المرأة التي تقوم بدور أحد الحاشية إلى جانبه.

خطت المرأة إلى حافة المنصة، وأعلنت بلهجة رسمية: «يعتزم الجيداك العظيم تكريمكن منفردات بناء على مشاهدته الملكية. سوف تسيرون على يساري أمامه، واحدة تلو الأخرى. لقد تحدثت، باسم الجيداك».

نهضت على الفور أول امرأة في اليسار وسارت ببطء أمام العرش. توقفت أمام تول أكستار لفترة كافية، ثم أدارت نفسها دورة كاملة، وبعدها سارت ببطء في أنحاء الشقة وخرجت من المدخل الذي كنت أقف بجواره. تبعتها النساء الأخريات، واحدة تلو الأخرى، في تعاقب سريع. لم يكن لهذا الإجراء بأكمله أي معنى بالنسبة لي. لم أفهمه عندئذ .

مرت ربما مائة امرأة أمام الجيداك، ثم تحركن على طول القاعة نحوي عندما جذب انتباهي شيء في إحداهن وهي تقترب مني، وخلال لحظة تعرفت فيها على سانوما تورا. لقد تغيرت، وإن لم يكن كثيراً، ولذا أدركت سبب عدم اكتشافي لوجودها في الغرفة من قبل. لقد وجدتها! بعد كل هذه الأشهر الطوال، وجدتها - وجدت المرأة التي أحبها. لماذا لا يشعر قلبي بأي انفعال؟

خرجت من مدخل القاعة الكبيرة، وسرت خلفها على طول الممر إلى شقة بالقرب من نهايته، وعندما دخلت، دخلت وراءها. لا بد أن أتحرك بسرعة أيضًا؛ لأنها استدارت على الفور وأغلقت الباب خلفها .

كنا وحدنا في غرفة صغيرة، أنا وسانوما تورا. يوجد حرير وفراء النوم في أحد الأركان؛ ويوجد بين نافذتين طاولة منحوتة، فوقها أدوات التزين الضرورية لأي امرأة في برسوم.

لم تكن شقة جيدارة؛ بل كانت غرفة أفضل قليلاً من زنزانة أَمَة .

سارت سانوما تورا في الغرفة بفتور نحو مقعد أمام طاولة الزينة وظهرها نحوي. أزلت رداء التخفي عني.

وقلت بصوت منخفض: «سانوما تورا.«!

ذُهِلت، والتفتت نحوي. صاحت: «هادرون الهاستوري! أم أنني أحلم؟».

«أنتِ لا تحلمين، سانوما تورا. إنه هادرون الهاستوري».

«لماذا أنت هنا؟ وكيف وصلت إلى هنا؟ هذا مستحيل. غير مسموح لأي رجل، باستثناء تول أكستار، أن يوجد في هذا الطابق».

«أنا هنا، سانوما تورا، وقد جئت لأعيدكِ إلى هيليوم - إن كنتِ ترغبين في العودة».

صاحت: «أوه، باسم سلفي الأول، ليت بإمكاني أن آمل في ذلك».

طمأنتها قائلاً: «يمكنكِ أن تأملي، سانوما تورا. أنا هنا، ويمكنني أن أعود بكِ».

قالت: «لا أستطيع أن أصدق. لا أستطيع أن أتخيل كيف أمكنك الدخول هنا. ومن الجنون التفكير في أن بإمكاننا نحن الاثنين أن نغادر دون أن يكتشفونا».

ألقيت العباءة حولي. صاحت سانوما تورا: «أين أنت، هادرون الهاستوري؟ ماذا حل بك؟ ما الذي حدث؟».

أوضحت لها: «هذا كيف تمكنت من الدخول، وكيف سنلوذ بالفرار»؛ ثم أزلت العباءة عني.

قالت: «ما هذا السحر المُحرّم؟»؛ فشرحت لها بأفضل ما أمكنني في كلمات قليلة تركيبة التخفي وكيف استخدمتها في الوصول إلى هنا.

وسألتها: «كيف حالكِ هنا، سانوما تورا؟ وكيف يعاملونكِ؟».

فأجابت: «لم أتعرض لسوء المعاملة، لا يهتم بي أحد هنا». شعرت في لهجتها بغرورها المجروح. أضافت: «لم أكن قد رأيت تول أكستار حتى هذه الليلة. لقد عدت توًّا من القاعة التي يجلس فيها بين نسائه».

قلت: «نعم، أعرف. فقد كنت هناك، وتبعتك إلى هنا».

سألتني: «متى يمكنك أن تأخذني؟».

أجبتها: «بأسرع ما يمكن الآن».

فقالت: «أخشى أن علينا التحرك بأقصى سرعة».

سألتها: «لماذا؟».

«عندما مشيت أمام تول أكستار، أوقفني للحظة وسمعته يتحدث إلى أحد الحاشية بجانبه. طلب منها أن تتأكد من اسمي ومكان سكني. وأخبرتني النساء ما يحدث بعد أن يضع تول أكستار عينه على واحدة منا، وأنا خائفة؛ ولكن ما الفرق، فأنا مجرد أَمَة».

يا له من تغيير طرأ على سانوما تورا المتعجرفة! هل هي تلك الجميلة المتغطرسة نفسها التي رفضت يدي؟ هل هي سانوما تورا التي كانت تطمح أن تكون جيدارة؟ لقد أصبحت ذليلة الآن- قرأت ذلك في تدلي كتفيها، في رجفة شفتيها، في الضوء الذي يغلفه الخوف وهو يشرق من عينيها.

امتلأ قلبي بالشفقة نحوها، على أن عدم إحساسي بأي شعور آخر هو ما أدهشني وأفزعني. ففي آخر مرة رأيت فيها سانوما تورا، كنت مستعدًّا أن أمنح روحي لأتمكن من ضمها بين ذراعي. هل غيرتني المصاعب التي خضتها؟ هل لا أرغب في سانوما تورا العبدة بمثل ما كنت أرغب في سانوما تورا الثرية ابنة تور هاتان؟ كلا؛ أعرف أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا. لكني تغيرت، ومما لا شك فيه أنه مجرد تغيير مؤقت ناجم عن الضغط العصبي الذي أعانيه بسبب المسؤولية الملقاة على عاتقي والتي فرضتها ضرورة إيصال كلمة إلى هيليوم في الوقت المناسب لإنقاذها من التدمير على يد تول أكستار – ليس لإنقاذ هيليوم وحدها، بل عالم بأكمله. يا لها من مسؤولية جسيمة. كيف يمكن لشخص مثقل بهذه الهموم أن يجد وقتًا للتفكير في الحب؟ لا، أنا لست نفسي؛ وأعرف أنني ما زلت أحب سانوما تورا.

ومع إدراكي ضرورة الإسراع، فحصت الغرفة سريعًا واكتشفت إمكانية إنقاذ سانوما تورا بسهولة من خلال النافذة، تمامًا كما أخرجت تافيا وفاو من البرج الشرقي في تجاناث.

شرحت لها خطتي بإيجاز، وإن كان بعناية، وطلبت منها الاستعداد خلال ذهابي؛ حيث لا يمكننا أن نتأخر عند عودتي لاصطحابها إلى متن جهاما.

قلت: «والآن، سانوما تورا، وداعًا لبضع لحظات! وسوف تسمعين صوتًا عند نافذتك، لكنكِ لن تري أي شخص أو أي سفينة. وعندئذ عليكِ إطفاء النور في غرفتكِ والصعود إلى عتبة النافذة. سوف أمسك بيدكِ. ضعي ثقتكِ فيَّ، ثم افعلي ما أطلبه منكِ».

وقالت «وداعًا، هادرون! لا أجد الآن كلمات كافية للتعبير عما أشعر به من امتنان، لكن سأمنحك عند عودتنا إلى هيليوم، ليس فقط عن طيب خاطر وإنما بكل سرور، أي شيء يمكن أن تطلبه مني».

رفعت أصابعها إلى شفتي ثم استدرت نحو الباب، عندما وضعت سانوما تورا يدها على ذراعي لتوقفني، وقالت: «انتظر! هناك شخص قادم».

وضعت عباءة التخفي على عجل وخطوت إلى أحد جوانب الغرفة. كان الباب المؤدي إلى الممر مفتوحًا، وكشف عن امرأة من حاشية تول أكستار ترتدي عتاد رائع. دخلت المرأة الغرفة وخطت إلى أحد جوانب المدخل الذي لا يزال مفتوحًا.

وأعلنت: «الجيداك! تول أكستار، جيداك جاهار.«!

وفي لحظة دخل تول أكستار الغرفة، متبوعًا بنصف دزينة نساء من حاشيته. كان رجلاً فظًّا وملامحة غليظة تعكس مزيجًا من القوة والضعف، من الغطرسة والعجرفة، من الفخر والشك – شك فطري في قدراته .

وقفت حاشيته النسائية خلفه عندما أصبح في مواجهة سانوما تورا. كان مظهر نساء حاشيته ذكوريًّا، ويبدو أن هذا هو سبب اختيارهن. كان مظهرهن جيدًا، من زاوية ذكورية، كما أظهرت بنيتهن الجسدية أنهن يتسمن بالفاعلية كحارسات شخصيات للجيداك.

ظل تول أكستار يتفحص بعينيه سانوما تورا لعدة دقائق. اقترب منها، وكان في طريقته ما لم يعجبني. وبالكاد ما تمكنت من كبح جماح

نفسي عندما وضع يده على كتفها .

قال: «لم أكن مخطئًا. أنتِ رائعة. منذ متى وأنتِ هنا؟».

ارتجفت، لكنها لم ترد.

«أنتِ من هيليوم؟».

ما من إجابة .

ضحك قائلاً: «سفن هيليوم في طريقها إلى جاهار. أخبرتني طائراتي الاستطلاعية أنهم سرعان ما يصلون هنا. سوف يلقون ترحيبًا حارًّا من الأسطول العظيم لدى تول أكستار»، ثم التفت إلى حاشيته وقال: «اذهبن! ولا ترجع أيٌّ منكن إلا عندما استدعيها».

انحنين، ثم خرجن وأغلقن الباب خلفهن. وضع تول أكستار يده مرة أخرى على كتف سانوما تورا العاري.

وقال: «تعاليَ! أنا لن أخوض حربًا ضد هيليوم كلها– معكِ، سوف أمارس الحب. باسم سلفي الأول، أنتِ جديرة بحب الجيداك».

سحبها نحوه. كان دمي يغلي- وكان غضبي حارًّا إلى حد الغليان بحيث تركت عباءتي تسقط عني دون تفكير في العواقب.

* * *

الفصل (14)

أكلة لحوم البشر في يوجور

عندما تركت عباءة التخفي تسقط بجانبي، امتشقت سيفي الطويل؛ وسمع تول أكستار صوت سحبه من غمده، فالتفت وواجهني. ولما رآني، اندفع دمه الجبان إلى قلبه، وترك وجهه شاحبًا. كاد أن يصرخ، لكني لمست رقبته بسيفي مُنذِرًا .

قلت هامسًا: «صمتًا.«!

سألني: «مَن أنت؟».

«صمتًا!».

وضعت خططي في لحظة. جعلته يستدير بحيث يصبح ظهره نحوي وجردته من سلاحه، ثم قمت بتقييده بحزم وتكميمه.

سألتها: «أين يمكنني أن أخفيه، سانوما تورا؟».

قالت: «توجد هناك خزانة صغيرة»، وأشارت إلى باب صغير في أحد جوانب الغرفة، ثم توجهت نحوها وفتحتها، بينما قمت بسحب تول أكستار خلفها وألقيته في الخزانة- وليس بلطف شديد، يمكنني أن أؤكد لك.

أغلقت باب الخزانة والتفت لأجد سانوما تورا بيضاء وترتعش. وقالت: «أنا خائفة. إذا عادت النساء ووجدنه هكذا، سوف يقتلنني».

قلت لتذكيرها: «حاشيته لن تعود إلى أنه يستدعيهن. لقد سمعتيه يقول لهن إن هذه رغبته - بل أوامره».

أومأت.

قلت لها: «هذا خنجره. إذا حدث شيء سيئ يمكنكِ صدهم بالتهديد بقتل تول أكستار»؛ لكن الفتاة بدا عليها الهلع وارتعشت جميع أطرافهاَ. وكنت أخشى من أن تفشل إذا اضطرت إلى التصرف. لكم تمنيت أن تكون تافيا هنا. أعرف أنها لن تفشل؛ وباسم سلفي الأولى، يتوقف الكثير على النجاح!

«سأعود بسرعة»، قلت وأنا أضع عباءة التخفي، «اتركي هذه النافذة الكبيرة مفتوحة، وكوني مستعدة عندما أعود».

لففت العباءة حولي. رأيتها ترتجف إلى حد أنها لم تتمكن من الرد. كانت تواجه في الواقع صعوبة في الإمساك بالخنجر، الذي توقعت للحظة أن أراه يسقط من أصابعها الواهنة؛ ولكن، ليس أمامي أي شيء يمكنني أن أفعله سوى الإسراع إلى جهاما ومحاولة العودة قبل فوات الأوان.

وصلت إلى قمة البرج دون وقوع أي حادث. تتلألأ فوقي نجوم ليل برسوم الرائعة، بينما يقع فوق القصر مباشرة كوكب رائع، كوكب جاسوم (أي كوكب الأرض).

كانت السفينة جهاما غير مرئية، بطبيعة الحال؛ لكن ثقتي في تافيا كانت كبيرة، بحيث عندما تمتد يدي إلى أعلى، أعرف أنني سأشعر بعارضة السفينة، وقد فعلت ذلك بكل ثقة. طرقت بلطف ثلاث مرات على الكوة الأمامية- وهي الإشارة التي اتفقنا عليها قبل قد دخولي القصر. فُتحت الكوة على الفور، وفي لحظة صعدت على متن السفينة .

سألتني تافيا: «أين سانوما تورا؟».

فقلت: «لا أسئلة الآن. علينا أن نعمل بسرعة. كوني مستعدة لتولي مسؤولية لوحات التحكم بمجرد أن أتركهم».

اتخذت مكانها في صمت بجواري، لمس كتفها الناعم ذراعي؛ وبصمت هبطت بالسفينة جهاما إلى مستوى النوافذ في مساكن النساء. كنت أعرف بشكل عام موقع شقة سانوما تورا، وتحركت ببطء مع توجيه المنظار نحو النوافذ. رأيت الآن هيئة سانوما تورا على الزجاج الأرضي أمامي. اقتربت بالسفينة جهاما إلى حافة النافذة، بحيث سطحها العلوي أسفل الحافة مباشرة .

قلت: «قفي بالسفينة هنا، تافيا»، ثم فتحت الكوة العلوية بضع بوصات، وناديت على الفتاة داخل الغرفة.

ارتعدت عندما سمعت صوتي إلى حد أن الخنجر كاد أن يسقط من يدها، على الرغم من أنها كانت تعرف أنني قادم وأنها في انتظاري.

همست لها: «أغلقي ضوء غرفتك». رأيتها تسير مرتبكة نحو زر في الجدار، وفي الحال كان الظلام يلف الغرفة. فتحت الكوة وخطوت إلى عتبة النافذة. لم أرغب في أن تزعجني طيات عباءة التخفي، ولذا طويتها ووضعتها في عتادي بحيث تكون جاهزة

للاستخدام على الفور عند حدوث أي طارئ. وجدت سانوما تورا في الظلام، وكانت ضعيفة

لشعورها بالرعب إلى حد أنني اضطررت إلى حملها بين ذراعيَّ إلى النافذة؛ وتمكنت بمساعدة فاو من سحبها خلال الكوة المفتوحة إلى الداخل. وبعد ذلك عدت إلى الخزانة التي تركنا فيها تول أكستار مقيدًا ومكممًا. توقفت، وقطعت القيود المحيطة بكاحليه .

قلت له: «عليك أن تفعل بالدقة ما أقوله لك، تول أكستار، وإلا سيجد سيفي طريقه إلى قلبك؛ إنه عطش لدمك، تول أكستار، وأجد صعوبة في كبح جماحه؛ فإذا لم تخذلني، ربما أتمكن من الإبقاء على حياتك. يمكنني استخدامك، تول أكستار، حياتك تتوقف على فائدتك بالنسبة لي؛ لأن موتك ليس له أي قيمة عندي».

جعلته ينهض ويسير إلى النافذة، وهناك ساعدته على الصعود إلى عتبة النافذة. كان مذعوراً عندما حاولت أن أجعله يخرج إلى الفضاء، كما كان يعتقد؛ لكنه عندما شاهدني أصعد إلى سطح السفينة جهاما أمامه وأنني أبدو عائمًا في الهواء، تشجع قليلاً، ونجحت أخيراً في الحصول عليه على متن السفينة.

أغلقت الكوة خلفه، وأضأت نورًا خافتًا داخل هيكل السفينة. استدارت تافيا نحوي انتظارًا لأوامري .

قلت لها: «احتفظي بالسفينة حيث هي، تافيا».

يوجد مكتب صغير في مقصورة جهاما، من المفترض أن يحتفظ فيه ضابط السفينة بسجله، ويهتم بأي سجلات أو تقارير أخرى من الضروري إعدادها. هنا توجد مواد للكتابة، أخرجتها من الدرج واستدعيت فاو لتأتي إلى جانبي .

قلت لها: «أنتِ من جاهار. هل يمكنكِ الكتابة بلغة بلدكِ؟».

أجابت: «بالطبع».

فقلت لها: «اكتبي إذَنْ ما أمليه عليكِ».

استعدت لتنفيذ تعليماتي .

أمليت عليها ما يلي: «إذا تم تدمير سفينة واحدة من هيليوم، سوف يموت تول أكستار. والآن ضعي التوقيع: هادرون الهاستوري، بادوار من هيليوم».

نظرت تافيا وفاو نحوي ثم إلى السجين، واتسعت أعينهم في دهشة لأنهما لم يتعرفا على السجين في ضوء السفينة الداخلي الخافت.

شهقت تافيا غير مُصدقة: «تول أكستار من جاهار! تان هادرون الهاستوري، لقد أنقذت هيليوم وبرسوم الليلة».

لاحظت سرعة بديهتها، وكيف أدركت على الفور الاحتمالات التي تقع في حوزة شخص تول أكستار، جيداك جاهار.

أخذت الرسالة التي كتبتها فاو، وعُدت بسرعة إلى غرفة سانوما تورا ووضعت الرسالة على طاولة ملابسها. وفي لحظات كنت في كابينة جهاما ثانية، وأسرعنا في الارتفاع فوق أسطح جاهار.

وجدَنا الصباح خارج أبعد صف من سفن جاهار، التي مررنا تحتها واسترشدنا بأضوائها - اتضح لي ضعف ضباط الأسطول؛ فأي رجل مُدرب، يتوقع عدوًّا مسلحًا، لن يضيء الأنوار على متن سفينته ليلاً .

نسرع الآن في اتجاه هيليوم، متبعين المسار الذي آمل أن يتيح لنا اعتراض أسطول أمير الحرب، في حال كان متجهًا بالفعل إلى جاهار كما أعلن تول أكستار.

بدأت سانوما تورا تستعيد اتزانها وسيطرتها على أعصابها. لمستني بعمق الرعاية اللطيفة التي أحاطتها بها تافيا. لقد تمكنت من تهدئتها وتسكينها مثلما يمكن أن تفعل لشقيقة أصغر سنًّا، على الرغم من تافيا نفسها كانت أصغر سنًّا من سانوما تورا. بيد أن الغطرسة القديمة عادت إلى سانوما تورا مع استعادتها الثقة، ولم تُظهر سوى امتنان محدود لتافيا ورعايتها لها. لكنني أدركت أن هذه هي طريقة سانوما تورا، اَلتي وُلدت بها، ولا شك أنها تكن في أعماق قلبها تقديرًا وامتنانًا. على أي حال، يجب أن أعترف أنني تمنيت أن تُظهر ذلك مع الوقت بكلمة بسيطة أو موقف بسيط. طرنا بسلاسة، أعلى قليلاً من الارتفاع اَلمعتاد للسفن الحربية. وكانت بوصلة التحكم في الاتجاه توجه مسار جهاما؛ وبعد كل ما مررت به، شعرت بالحاجة إلى النوم. نالت فاو قسطًا من الراحة في وقت سابق من الليل بناء على اقتراحي؛ ونظرًا لأن كل المطلوب كان الحفاظ على مراقبة دقيقة للسفن، فقد عهدت بهذه المهمة إلى فاو، وذهبت أنا وتافيا إلى حرير وفراء النوم، وسرعان ما نمنا.

كنت وتافيا في منتصف السفينة تقريبًا، وكانت فاو في المقدمة عند لوحات التحكم وتُحرك المنظار جيئة وذهابًا باستمرار بحثًا عن أي سفن في السماء. وعندما ذهبت للراحة، كانت سانوما تورا تقف عند

أحد منافذ الميمنة تنظر خلال الليل، بينما يرقد تول أكستار في مؤخرة السفينة. كنت قد أزلت الكمامة عن فمه منذ فترة طويلة، لكنه كان يبدو مرتعبًا تمامًا حتى للتحدث معنا، ورقد هناك في صمت عابس، أو ربما كان نائمًا، لا أعرف.

كنت شديد الإرهاق، ولا بد أنني نمت تمامًا بمجرد أن استلقيت، إلى أن أيقظني فجأة تأثير جسم فوقي. وعندما كافحت لتحرير نفسي، غضبت لاكتشافي أن يدي قُيدتا بمهارة خلال نومي، وهو العمل الذي أمكن إنجازه بسهولة لأن من عادتي أن أنام ويداي أمام وجهي.

كانت ركبة رجل على صدري، وتضغط عليَّ بشدة، وتمُسك إحدى يديه برقبتي. رأيت في ضوء المقصورة الخافت أنه تول أكستار وأنه يمسك بخنجر في يده الأخرى.

همس قائلاً: «صمتًا! إذا أردت أن تعيش، لا تُصدر أي صوت»، ثم لزيادة التأكيد قام بتكميمي وتقييدي من الكاحلين. أسرع بعد ذلك إلى تافيا وقيدها، وخلال قيامه بذلك تحركت عيني بسرعة نحو المقصورة بحثًا عن مساعدة. رأيت فاو على الأرض بالقرب من لوحات التحكم، مُقيدة ومكممة مثلي. أما سانوما تورا، فقد زحفت نحو الجدار وتبدو مرتعبة. لكنها لم تكن مُقيدة أو مُكممة، لماذا لم تحذرني؟ لماذا لم تأتِ لمساعدتي؟ لو كانت تافيا هي التي ظلت دون قيود، وليس سانوما تورا، لكانت نتيجةَ محاولة تول أكستار للحرية والانتقام قد اختلفت.

كيف حدث كل ذلك؟ كنت على يقين أنني قيدت تول أكستار بقوة بحيث لا يتمكن من تحرير نفسه، وإنما لا بد أنني أخطأت، ولعنت نفسي للإهمال الذي قلب كل خططي، والذي يمكن أن يسفر بسهولة في النهاية عن فناء هيليوم.

بعد أن انتهى تول أكستار مني ومن فاو وتافيا، انطلق نحو لوحات التحكم، متجاهلاً سانوما تورا وهو يمر بجوارها. ونظرًا للرعب الواضح الذي أظهرته، يمكنني أن أفهم بسهولة لماذا لم يعتبرها تهديدًا لخططه– كانت غير مؤذية له سواء حرة أو مقيدة.

أدار تول أكستار السفينة إلى الخلف في اتجاه جاهار. وعلى الرغم من أنه لم يفهم آلية بوصلة التحكم في الاتجاه ولم يستطع إيقافها، فلم يُحدث ذلك أي فارق ما دام ظل

عند لوحات التحكم؛ والتأثير الوحيد على البوصلة لإعادة السفينة إلى مسارها هو التخلي عن لوحات التحكم خلال حركة السفينة .

التفت الآن نحوي وقال: «كان يجب أن أدمرك، هادرون الهاستوري، لو لم أكن أعطيتك كلمة جيداك أنني لن أفعل».

تساءلت متعجبًا لمن أعطى كلمته أنه لن يقتلني، لكن ذهني كان مزدحمًا بأفكار أخرى أكثر أهمية بحيث أزاح كل شيء آخر إلى الخلفية. وكانت على قمة هذه الأفكار بطبيعة الحال، خطط استعادة السيطرة على جهاما، ثم مخاوفي بشأن مصير تافيا وسانوما تورا وفاو.

واصل كلامه قائلاً: «عليك تقديم الشكر لشهامة تول أكستار، الذي لم يفرض عقوبة على إهانتك له. وبدلاً من العقوبة، سوف أطلق سراحكم»، ثم ضحك وقال: «الحرية! سوف أهبط بكم في أقليم يوجور!».

كان هناك شيء بغيض في نبرة صوته، جعلت الوعد أشبه بتهديد. لم أسمع من قبل عن يوجور، لكنني أعرف مدى صعوبة أو استحالة شق الطريق عبر بعض الأقاليم النائية إلى جاهار أو هيليوم. كنت واثقًا من شيء واحد- أن تول أكستار لن يطلق سراحي في أي مكان يمكنني خلاله أن أُشكل تهديدًا له.

تحركت جهاما في صمت لساعات. لم يكن تول أكستار يتمتع باللياقة أو الإنسانية ليزيل كماماتنا. كان منشغلاً بلوحات التحكم؛ أما سانوما تورا، التي كانت جاثمة على جانب المقصورة، فلم تتحدث على الإطلاق، ولم تدر عينيها ناحيتي أبدًا ولا حتى لمرة واحدة. تُرى ما الأفكار التي كانت تدور في ذلك الرأس الجميل؟ هل كانت تحاول وضع خطة تمكنها من قلب المائدة ضد تول أكستار، أم كانت مجرد منسحقة أمام توقعات يائسة- احتمال إعادتها إلى العبودية في جاهار؟ لا أعرف، ولا يمكنني التخمين؛ كانت لغزًا بالنسبة لي.

لم أعرف المسافة التي قطعناها، ولا في أي اتجاه. انتهى الليل منذ فترة طويلة وارتفعت الشمس عاليًا عندما أدركت أن تول أكستار يهبط بالسفينة. توقف الآن صوت المحرك، وتوقفت السفينة. ترك تول أكستار لوحات التحكم وسار إلى حيث أرقد .

وقال: «لقد وصلنا إلى يوجور. وهنا سوف أطلق سراحك، ولكن عليك أن تعطيني أولاً الشيء الغريب الذي جعلك غير مرئي في قصري».

عباءة التخفي! كيف عرف بها؟ مَن الذي أخبره؟ لا يوجد سوى تفسير واحد، لكن كل خلية في كياني انكمشت حتى من مجرد التفكير في هذا التفسير. كنت قد طويت العباءة إلى كرة صغيرة وحشرتها في قاع جيب حقيبتي؛ إذ يتيح حريرها الشفاف إمكانية ضغطها إلى حجم متناه الصغر. أزال الكمامة عن فمي .

قلت له: «عندما تعود إلى قصرك في جاهار، ابحث على الأرض أسفل نافذة الشقة التي كانت تشغلها سانوما تورا. وقد يمكنك العثور عليها هناك. وفي ما يخصني، فقد حققت أغرضها جيدًا».

سألني: «ولماذا تركتها هناك؟».

«كنت في عجلة من أمري عندما تركت القصر، وقد تقع أحداث». أعترف أن هذه الكذبة لم تكن ذكية، لكن تول أكستار لم يكن ذكيًّا أيضًا وقد انطلت عليه .

فتح متذمرًا إحدى الكوات بعارضة السفينة وألقاني منها بفجاجة. ومن حسن الحظ أن السفينة كانت قريبة من الأرض، فلم أتعرض للضرر. وبعد ذلك، أنزل تافيا إلى جانبي ثم نزل هو نفسه إلى الأرض. انحنى، وقطع الأربطة التي تُقيد معصمي تافيا.

وقال: «سأحتفظ بالأخرى. فهي لطيفة». عرفت أنه يقصد فاو، ثم أضاف: «أما هذه، فهي تشبه الرجال؛ وأقسم أن إخضاعها يماثل إخضاع البانث. أنا أعرف هذا النوع. وسوف أتركها معك». كان من الواضح أنه لم يتعرف على تافيا كإحدى النساء اللاتي شغلن سابقًا مساكن النساء في قصره، وهو ما أسعدني .

دخل جهاما مرة أخرى، لكنه تحدث معنا ثانية قبل أن يغلق الكوة: «سوف ألقي لك أسلحتك، عندما نصل إلى حيث لا يمكنك استخدامها ضدي؛ ويمكنك أن تشكر جيدارة جاهار المستقبلية على رأفتي بك.«!

ارتفعت جهاما ببطء. أزالت تافيا الحبال التي تُقيد كاحليها، ثم انحنت وأخذت تعمل على إزالة قيودي. كنت في حالة شديدة من الذهول، مسحوقًا بصدمة إدراكي أن سانوما تورا، المرأة التي أحببتها، قد خانتني. لقد أدركت تمامًا الآن ما كان يمكن أن يخمنه أي شخص، إلا إن كان غبيًّا -أن تول أكستار قدم لها رشوة على شكل وعد بأن تُطلِق سراحه في مقابل أن يجعلها جيدارة جاهار.

حسنًا، سوف يتحقق حلمها؛ وإنما بتكلفة بشعة. وإذا عاشت لألف عام، لن تنظر إلى نفسها أو موقفها إلا بكل ازدراء واشمئزاز، ما لم يكن انحطاطها أكثر كثيراً مما

يمكنني تصوره. كلا؛ سوف تعاني، أنا على يقين من أنها ستعاني؛ لكن هذه الفكرة لم تسعدني. لقد أحببتها، ولا أتمنى لها التعاسة حتى بعد ما فعلته .

جلست على الأرض ورأسي ينحني في بؤس. شعرت بذراع ناعم يربت على كتفي، وبصوت رقيق يتحدث بالقرب من أذني: «هادرون المسكين!».

هذا كل ما قالته؛ على أن هذه الكلمات القليلة جسدت ثروة من التعاطف والتفهم خففت، كالبلسم المعجزة، من ألم قلبي المُعذَّب.

ما من شخص يقول هذه الكلمات سوى تافيا. استدرت وأخذت إحدى يديها الصغيرتين في يدي، ووضعتها على شفتي. وقلت: «صديقة حميمة. أشكر جميع أسلافي أنكِ لستِ مَن فعل ذلك».

لا أعرف ما الذي جعلني أقول ذلك. بدت الكلمات تخرج بمفردها دون تعمد؛ وعندما قيلت، أدركت على نحو مفاجئ مدى ما كنت لأشعر به من رعب إن كانت تافيا هي التي خانتني. لا يمكنني حتى التفكير في ذلك دون الشعور بعذاب أليم. اندفعت لأضمها بين ذراعي.

بكيت: «تافيا، أعطني وعدًا أنك لن تهجريني أبدًا. لا يمكنني أن أعيش من دونك».

وضعت ذراعيها القويتين الشابتين حول عنقي وتشبثت بي. همست: «ليس هذا الجانب من الموت على الإطلاق»، ثم جذبت نفسها بعيدًا عني، ورأيت أنها كانت تبكي.

يا لها من صديقة! كنت أعرف أنني لن أستطيع أن أحب امرأة مرة أخرى، لكني كنت مهتمًّا بإمكانية الاحتفاظ بصداقة تافيا إلى الأبد .

قلت: «لن نفترق ثانية أبدًا، تافيا. إذا كان أسلافنا كرماء معنا، وسمحوا لنا بالعودة إلى هيليوم، سوف تجدين بيت والدي بمثابة بيتك ووالدتي بمثابة والدتك».

جففت عينيها، ونظرت نحوي بتعبير حزين غريب لم أفهمه، ثم ابتسمت من خلال دموعها - تلك الابتسامة الصغيرة الغريبة والساخرة التي رأيتها

من قبل ولم أعد أفهمها أكثر مما أفهم عشرات من حالاتها المزاجية وتعبيراتها التي جعلتها تختلف كثيراً عن سائر الفتيات، كما أعتقد أنها أسهمت في انجذابي نحوها. لا تظهر صفاتها المميزة على السطح - بل هناك أعماق واتجاهات خفية لا يمكن فهمها بسهولة. ففي بعض الأحيان عندما أتوقع منها أن تبكي، أجدها تضحك؛ وعندما أعتقد أنها سعيدة، أجدها تبكي؛ لكنها لم تبكِ أبدًا مثلمًا تبكي النساء الأخريات- لم تبكِ أبدًا

بشكل هستيري؛ ذلك أن تافيا لم تفقد أبدًا سيطرتها على نفسها، وإنما تبكي بهدوء من كل قلبها وليس بأعصاب مشدودة، وقد تتفجر ابتسامة خلال دموعها في النهاية .

أعتقد أن تافيا كانت أروع فتاة عرفتها على الإطلاق. ومع زيادة معرفتي بها ورؤيتي لها، أدركت أنها برغم تمسكها بمحاولة التنكر كرجل، فقد كانت بالفعل أجمل فتاة رأيتها على الإطلاق. لم يكن جمالها مثل جمال سانوما تورا؛ لكنها وهي تنظر إلى وجهي الآن، تبادر إلى ذهني إدراك فجأة -ولسبب لا أعرفه- أن جمال تافيا يتجاوز كثيراً جمال سانوما تورا، وذلك بسبب جمال الروح الذي يشرق خلال عينيها، ويغير ملامحها بالكامل.

كان تول أكستار وفيًّا بوعده، وألقى أسلحتنا من خلال الكوة السفلية في جهاما. وخلال التقاطنا للأسلحة، استمعنا إلى صوت مراوح الطائرة يتناقص بسرعة خلال مغادرتها. كنا بمفردنا، نتحرك سيراً على الأقدام في بلد غريب ودون شك غير مضياف.

قلت: «يوجور! لم أسمع بها من قبل. هل سمعتِ عنها، تافيا؟».

قالت: «نعم. إنها أحد الأقاليم النائية في جاهار. كانت في يوم ما بلدًا زراعيًّا يتمتع بالثراء والازدهار، لكنها سقطت تحت لعنة طموحات تول أكستار المجنونة حول القوى العاملة، فزاد عدد سكانها بنسبة هائلة إلى حد أن أصبحت معه يوجور غير قادرة على إعاشة شعبها. ثم بدأ أكل لحوم البشر. بدأ، على نحو يمكن تبريره، بأكل المسؤولين الذين أرسلهم تول أكستار لتنفيذ قراراته القاسية. أرسل جيشًا لإخضاع الإقليم، لكن أعداد الناس كانت غفيرة إلى درجة أنهم هزموا الجيش وأكلوا المحاربين. وفي ذلك الوقت، كان الخراب قد نال من مزارعهم. لم يكن لديهم أي بذور، كما أصبحوا يتذوقون اللحم البشري. أما مَن كانوا يرغبون في فلاحة الأرض، فقد هاجمتهم عصابات الرجال المتجولين والتهمتهم. وظلوا لمائة عام يقتاتون على بعضهم بعضًا، بحيث لم تعُد يوجور الآن مقاطعة مكتظة بالسكان وإنما أرضًا قاحلة تسكنها عصابات متجولة تأكل بعضها البعض».

ارتجفت من سردها. وأصبح واضحًا أن علينا الفرار من هذا المكان اللعين بأسرع ما يمكن. سألت تافيا إن كانت تعرف موقع يوجور، وأخبرتني أنها تقع جنوب شرق جاهار على بعد يصل إلى حوالي ألف هاد، وتبعد بحوالي ألفي هاد جنوب غرب زاناتور .

رأيت أنه من العبث محاولة الوصول إلى هيليوم من هنا. فهي رحلة قد تستغرق سنوات سيراً على الأقدام، إن أمكن إنجازها على الإطلاق. وأقرب مدينة ودية يمكننا التوجه إليها هي جاثول، وتقع حسب تقديري على بُعد حوالي سبعة آلاف هاد شمالاً.

بدت إمكانية الوصول إلى جاثول بعيدة المنال، لكنها أملنا الوحيد. وهكذا، اتجهنا نحو الشمال وشرعنا في رحلتنا الطويلة اليائسة نحو المدينة التي شهدت مولد أمي.

كان البلد المحيط بنا متدرجًا، تتناثر خلاله تلال منخفضة؛ بينما رأيت على بُعد في اتجاه الشمال الخطوط العريضة لتلال أعلى في مواجهة الأفق. كانت الأرض عارية تمامًا إلا من الأعشاب الضارة، بما يشهد على المعركة الشنيعة التي يخوضها شعبها التعيس من أجل البقاء. لا توجد زواحف، ولا حشرات ولا طيور- فقد تم التهامهم جميعًا خلال قرن البؤس هذا الذي ساد على أراضيها .

ومع سيرنا المتثاقل خلال هذه النفايات المقفرة الكئيبة، حاولنا الحفاظ على روحنا المعنوية بأفضل ما نستطيع؛ ولأكثر من مائة مرة كانت لديَّ أسباب للشكر؛ لأن تافيا هي رفيقتي وليس غيرها.

ماذا كنت لأفعل في مثل الظروف إن كنت مثقلاً بعبء سانوما تورا؟ أشك أنها كانت لتسير 12 هاد، بينما تتمايل تافيا إلى جواري وهي مفعمة بنعمة الصحة والقوة. يتطلب تحمل هذه المسيرة رجلاً جيدًا، لكن تافيا لم تتخلف أبدًا؛ كما لا تظهر عليها علامات الإرهاق أسرع مني.

قلت: «نحن نكمل بعضنا البعض جيدًا، تافيا».

قالت بهدوء: «لقد فكرت في ذلك منذ فترة طويل».

واصلنا طريقنا حتى الغسق تقريبًا دون أن نرى علامة على أي شيء حي، وهنأنا أنفسنا على حسن حظنا عندما نظرت تافيا إلى الوراء، كما يفعل أحدنا كل فترة .

لمست ذراعي وأومأت نحو الخلف، وقالت ببساطة: «إنهم قادمون.«!

نظرة إلى الوراء، ورأيت ثلاثة أشكال تسير على دربنا. كانوا على مسافة بعيدة جدًّا لم تتحْ لي أن أتمكن من تحديد أنهم بشر. من الواضح أنهم شاهدونا، وأخذوا يهرولون نحونا.

سألتني تافيا: «ماذا نفعل؟ هل نقف ونقاتل، أم نحاول التملص منهم حتى هبوط الليل؟».

قلت: «لا هذا ولا ذاك. سوف نراوغهم الآن دون أن نجهد أنفسنا».

تساءلت: «كيف؟».

«من خلال عبقرية اختراع فور تاك، وتركيبة التخفي التي سرقتها منه».

صاحت تافيا: «رائع! لقد نسيت عباءتك. مع العباءة، لن نجد صعوبة في التملص من جميع المخاطر خلال المسافة بيننا وبين جاثول».

فتحت جيب حقيبتي وأدخلت يدي لسحب العباءة. لكنها اختفت! كما اختفت أيضًا القنينة التي تحتوي على ما تبقى من التركيبة. نظرت إلى تافيا، ولا بد أنها قرأت الحقيقة في تعبيرات وجهي.

سألتني: «هل فقدتها؟».

أجبت: «كلا، لقد سُرِقت مني».

اقتربت ثانية ووضعت يدها على ذراعي في تعاطف، وكنت أعرف أنها كانت تفكر في ما أفكر فيه؛ أن سانوما تورا هي التي سرقتها.

ترددت قبل أن أقول: «وأنا الذي عرضت سلامتكِ للخطر، تافيا، لإنقاذ امرأة مثلها».

قالت: «لا تتعجل في الحُكم عليها. نحن لا نعرف كيف تم إغراؤها، أو ما التهديدات التي استُخدِمت لحرفها عن طريق الشرف. ربما هي ليست قوية مثلنا».

قلت: «فلنكفَّ عن الحديث عنها. إنه إحساس بشع، تافيا، أن تشعري بتحول الحب إلى كراهية».

ضغطت على ذراعي، وقالت: «الزمن يشفي من جميع الآلام، وسوف تجد في يوم ما امرأة جديرة بك، إن كانت توجد مثل هذه المرأة».

نظرت إلى وجهها. فكرت في عبارتها: «إن كانت توجد مثل هذه المرأة»، غير أنها قاطعت تأملاتي بسؤال.

سألتني: «هل نقاتل أم نهرب، هادرون الهاستوري؟».

قلت: «أنا أُفضل القتال والموت، لكني يجب أن أفكر فيكِ، تافيا».

قالت: «إذَنْ سوف نبقى ونحارب؛ ولكن، هادرون، يجب ألا تموت». لم أغفل عن نبرة لوم في صوتها، وشعرت بالخجل من نفسي لنسياني أنني أدين لصداقتها بالكثير .

فقلت: «أنا آسف، تافيا، لا يمكن أن أرغب في الموت وأنتِ على قيد الحياة».

قالت: «هذا أفضل. كيف نحارب؟ هل أقف على يمينك أم على يسارك؟».

قلت لها: «سوف تقفين خلفي، تافيا. عندما تحمل يدي سيفًا، لن تحتاجي إلى دفاع آخر».

قالت: «منذ فترة طويلة، بعد أن التقينا للمرة الأولى، قلت لي إننا يجب أن نصبح رفاق سلاح. وهذا يعني أن نقاتل معًا، كتفًا بكتف، أو ظهرًا بظهر. هذه كلماتك، تان هادرون الهاستوري».

ابتسمتُ. وعلى الرغم من شعوري بأن قتالي بمفردي أفضل من قتالي وامرأة إلى جانبي، فقد كنت معجبًا بشجاعتها. قلت: «جيد جدًّا؛ قاتلي على يميني، وبالتالي تكونين بين سيفين».

اقتربت المخلوقات الثلاثة على مسارنا، وتبينت الآن نوعهم. رأيت أمامي أشخاصًا متوحشين، بشعر متشابك أشعث، وأجسام قذرة، ووجوه حقيرة. ينطلق من أعينهم ضوء وحشي، وتكشف شفاههم المزمجرة عن أنياب صفراء، وتتسم هيئتهم بالانحناء؛ ما أعطاهم مظهر الحيوانات البرية أكثر من مظهر الرجال.

كانوا مسلحين بسيوف يحملونها في أيديهم، بلا عتاد أو غمد. توقفوا على مسافة قصيرة منا وهم ينظرون إلينا في جوع؛ فمما لا شك فيه أنهم جوعى، حيث توحي بطونهم المترهلة أنها فارغة غالبًا، ثم تمتلئ عندما يعثرون على قدر كافٍ من اللحم. يأمل هؤلاء الثلاثة في ملء بطونهم هذه الليلة؛ وهو ما رأيته بوضوح في أعينهم. تهامسوا معًا بصوت خفيض لبضع دقائق، ثم تفرقوا للهجوم علينا من نقاط مختلفة في وقت واحد.

همست: «سوف ننقل المعركة إليهم، تافيا. عندما يتخذون مواقعهم حولنا، سأطلق كلمتي، وعندها سوف أندفع نحو الشخص الذي يقف أمامي وأحاول قتله قبل أن يتمكن الآخرون من الهجوم علينا. يجب أن تبقي على مقربة مني، حتى لا يتمكنوا من عزلكِ».

فقالت: «كتفًا بكتف حتى النهاية».

* * *

الفصل (15)

معركة جاهار

ألقيت نظرة خاطفة من فوق كتفي، رأيت أن الاثنين اللذين يتحركان خلفنا لا يزالان بعيدين عنا أكثر من ذلك الذي يقف في مواجهتنا. ومع إدراكي أن عدم توقعهم لتصرفنا سوف يعزز فرص النجاح، فقد أطلقت كلمتي.

همست: «الآن، تافيا»، وقفزنا معًا إلى الأمام في خط مستقيم نحو الرجل المتوحش العاري الذي يواجهنا.

كان واضحًا أنه لم يتوقع هذا التصرف، كما كان من الواضح أيضًا أنه وحش بطيء البديهة؛ لأنه عندما شاهدنا قادمين، تدلى فكه السفلي وظل واقفًا في انتظارنا؛ بينما إذا كان يتمتع بأي قدر من الذكاء، لكان تراجع ليمنح زملاءه الوقت اللازم للهجوم علينا من الخلف.

تقاطعت سيوفنا، وسمعت هديرًا وحشيًّا من الخلف يماثل الهدير الذي يصدره حيوان وحشي. رأيت من زاوية عيني تافيا تنظر إلى الوراء. وقبل أن أدرك ما تنوي القيام به، وجدتها تنطلق إلى الأمام وتغمد سيفها في جسم رجل أمامي وهو يندفع نحوي بسلاحه. والآن، ركضنا معًا وواجهنا الاثنين الآخرين اللذين كانا يسرعان نحونا. ويمكنني أن أؤكد لك أنني شعرت بارتياح لا حدود له عندما أدركت أن الاحتمالات لم تعد ضدنا بدرجة كبيرة .

عندما اشتبك معنا الرجلان، كان يعوقني في البداية ضرورة إبقاء عيني دائمًا على تافيا، لكن ذلك لم يستمر لفترة طويلة .

أدركت بعد لحظة أن يدًا خبيرة تسيطر ببراعة على هذا السيف. كان سيفها يتحرك جيئة وذهابًا في جسم هذا المتوحش الأخرق، وكنت أعرف أن هذه اليد الصغيرة التي تمسك بمقبض السيف سوف تنهي حياته، وخمنت أنه أحس بذلك. وعندئذ ركزت انتباهي على خصمي.

لم يكونا أفضل مبارزين قابلتهما، لكنهما ليسا مبارزين سيئين. بيد أن دفاعهما كان يتفوق على هجومهما، ويرجع ذلك في اعتقادي إلى شيئين: الجُبن الطبيعي، وأنهم يصطادون عادة في مجموعات يتجاوز عددها بكثير أعداد الطرائد. وبالتالي كان

المطلوب هو مجرد دفاع جيد؛ لأن ضربة الموت ربما تأتي دائمًا من الخلف، من زميل الشخص الذي يشتبك مع الطريدة من الأمام .

لم يحدث من قبل أن رأيت امرأة تقاتل، وربما تصورت أنني سأشعر بالغم إن قاتلت امرأة بجانبي؛ لكني شعرت بتشويق غريب يرجع جزئيًّا إلى الفخر، وجزئيًّا إلى شيء آخر لم أتمكن من تحليله.

أعتقد أن الزميل الذي يواجه تافيا لم يدرك في البداية أنها امرأة، لكنه سرعان ما أدرك ذلك؛ لأن عتاد برسوم الضئيل لا يخفي الكثير، وبالتأكيد لا يخفي معالم جسم تافيا الأنثوي. وربما بالتالي كانت هزيمته مفاجأة، أو ربما عندما اكتشف أنها امرأة أصبحت ثقته مفرطة. على أي حال، أغمدت تافيا سيفها في قلبه قبل أن أجهز على خصمي بلحظة.

لا يمكنني القول أننا سعدنا كثيرًا بانتصارنا. شعر كلانا بالشفقة تجاه تلك المخلوقات المسكينة، التي انحدرت إلى هذه الحالة الفظيعة نتيجة طغيان تول أكستار القاسي؛ وإنما كنا في موقف إما حياتهم وإما حياتنا، ونحن سعداء أنها لم تكن حياتنا.

ألقيت نظرة سريعة حولنا، على سبيل الاحتياط، عندما سقط آخر خصومنا. وكان هذا من حسن الحظ؛ لأني لمحت فورًا ثلاثة مخلوقات رابضة فوق قمة تلة منخفضة ليست على مسافة بعيدة.

قلت: «لم ننتهِ بعد، تافيا. انظري!»، وأشرت في اتجاه الثلاثة.

فقالت: «ربما لا يرغبون في تقاسم مصير زملائهم، فهم لا يقتربون».

قلت: «يمكنهم أن ينعموا بالسلام إن أرادوا، بقدر ما يتعلق الأمر بي. هيا، فلنذهب. إذا تبعونا، لدينا وقت كافٍ للنظر في أمرهم».

مشينا في اتجاه الشمال، وكنا ننظر خلفنا بين الفينة والأخرى. شاهدنا الآن هؤلاء الثلاثة ينهضون وينزلون من التل ويتجهون نحو جثث زملائهم القتلى. وعندئذ رأينا أنهن نساء، وغير مُسلحات.

عندما أدركن أننا نرحل وليست لدينا نية لمهاجمتهن، أخذن يطلقن صيحات غريبة بصوت عالٍ ويركضن بجنون نحو الجثث.

قالت تافيا بأسى: «يا له من وضع يثير الشفقة. حتى هذه المخلوقات المتدهورة المسكينة تمتلك مشاعر بشرية. يشعرن أيضًا بالحزن على فقدان الأحباء».

قلت: «نعم. كائنات مسكينة، أشعر نحوهن بالأسى».

وخشية أن يحاولن، في جنون حزنهن، الانتقام لأقرانهم الذين سقطوا، واصلنا مراقبتهن عن كثب، ولذا شهدنا تتمة النزاع المروعة. وكنت أتمنى ألا نشهدها .

عندما وصلت النساء الثلاث إلى الجثث، ألقين أنفسهن عليها؛ ولكن ليس بالبكاء والرثاء- وإنما لالتهامهم.

شعرنا بالغثيان، فاستدرنا، ومشينا سريعًا في اتجاه الشمال لفترة طويلة إلى أن هبط الظلام.

شعرنا بأن خطر الهجوم يقل خلال الليل، نظرًا لعدم وجود حيوانات متوحشة في هذا البلد الذي ليس لديه ما يقدمه لدعم حياتهم؛ كما كان من المعقول أيضًا أن نفترض أن الصيادين يفضلون الخروج نهارًا وليس ليلاً؛ لأنهم في الليل أقل قدرة على إيجاد الطرائد أو متابعتها.

اقترحت على تافيا أن نأخذ قسطًا من الراحة لفترة قصيرة، ثم نواصل لما تبقى الليل ونعثر على مكان للاختباء في النهار ونظل فيه إلى هبوط الليل ثانية، فقد كنت على يقين أن هذه الخطة تتيح لنا أفضل استغلال للوقت وتقلل معاناتنا من الإرهاق عن طريق مواصلة رحلتنا خلال ساعات الظلام الباردة، كما تقلل في الوقت نفسه بدرجة كبير من خطر اكتشافنا والهجوم علينا من أي سكان عدائيين يقطنون في المنطقة الواقعة بيننا وبين جاثول.

وافقت تافيا، وبالتالي أخذنا فترة راحة قصيرة، مع التناوب في النوم والمراقبة.

واصلنا مسيرتنا بعد ذلك، وأنا على يقين أننا قطعنا مسافة كبيرة قبل الفجر، على الرغم من أن التلال المرتفعة في اتجاه الشمال لا تزال تبدو بعيدة بمثل ما كانت في اليوم السابق.

شرعنا الآن في البحث عن مكان مريح للاختباء لقضاء ساعات النهار. لم يُعانِ كلانا بأي قدر من الجوع أو العطش، بمثل ما كان يمكن أن يشعر به القدماء في مثل هذه الظروف؛ إذ مع التناقص التدريجي للمياه والخضراوات على سطح المريخ خلال عصور لا تُعد ولا تُحصى، وخلال عملية تطور بطيئة، أصبحت جميع مخلوقات الكوكب قادرة على البقاء لفترات طويلة دون طعام أو شراب. كما تعلمنا أيضًا التحكم في عقولنا بحيث لا نفكر في الطعام أو الشراب إلى أن نتمكن من الحصول عليهما، وهو ما ساعدنا إلى حد كبير بلا شك في السيطرة على شهوتنا إلى الطعام .

بعد فترة طويلة من البحث، عثرنا على واد عميق وضيق يبدو أكثر مكان ملائم للاختباء. وما إن دخلناه، حتى لمحت عينين تنظران نحونا من قمة أحد التلال التي تحيط بالوادي. وعندما أمعنت النظر، انسحب الرأس الذي يحمل تلك العينين إلى ما وراء القمة.

أخبرت تافيا بما رأيته ثم قلت: «هذا ينهي إمكانية استخدام هذا المكان. علينا أن نتحرك ونبحث عن ملجأ جديد».

خرجنا من نهاية الوادي العلوية وألقيت نظرة أخرى إلى الخلف، فرأيت مخلوقًا ينظر نحونا ويحاول إخفاء نفسه منا. أخذت ألقي بنظري إلى الوراء خلال سيرنا وكنت أراه أحيانًا- إنه أحد رجال الصيد في يوجور. كان يطاردنا كما يطارد الوحش البري فريسته. أشعرتني هذه الفكرة بالتقزز. لم أكن لأشعر بذلك لو كان مقاتلاً يطاردنا لقتلنا، لكن فكرة أنه يتسلل في أعقابنا لأنه يرغب في التهامنا كانت بغيضة- بل مرعبة.

مضت الساعات والمخلوق لا يزال يتبعنا. لا شك أنه يخشى من الهجوم علينا لأننا نفوقه عددًا، أو ربما يعتقد أننا سوف نفترق أو نرقد للنوم أو نقوم بأحد الأشياء العديدة التي يقوم بها المسافرون وتتيح له الفرصة التي ينتظرها. لكنه لا بد وأنه فقد الأمل بعد فترة؛ فلم يعُد يسعى إلى إخفاء نفسه منا، ثم صعد إلى تلة منخفضة ووقف هناك وظِله في مواجهة السماء وألقى برأسه إلى الوراء وهو يصدر صرخة حادة غريبة جعلت شعِري القصير عند رقبتي يقف. إنها صيحة الصيد لدى الوحش البري عندما يستدعي المجموعة إلى القتل.

شعرت بتافيا ترتجف وتزداد التصاقًا بي، فوضعت ذراعي حولها في بادرة للحماية ومشينا في صمت لمدة طويلة.

أعاد المخلوق إطلاق صيحته الغريبة مرتين، إلى أن سمعنا أخيرًا الرد عليها من أمامنا وعلى يميننا.

اضطررنا إلى القتال مرة أخرى، وإنما في مواجهة مخلوقين فقط هذه المرة. واصلنا طريقنا ثانية مع شعور بالاكتئاب لم أستطع أن أتخلص منه- اكتئاب من اليأس المطلق لوضعنا.

توقفت عند قمة تل أعلى من التل الذي عبرناه. تنمو هنا بعض الحشائش الطويلة. قلت: «لنبقَ هنا، تافيا، حيث يمكننا المراقبة .

فلنراقب لفترة. ننام، ثم نتحرك مع حلول الليل».

أقلقني أنها تبدو متعبة، لكني أعتقد أنها كانت تعاني من إجهاد عصبي نتيجة المطاردة الأبدية أكثر من التعب الجسماني. لقد تأثرت أنا نفسي من المطاردة، وأعرف أن تأثيرها على فتاة شابة أكثر منه على مقاتل مُدرّب. رقدت بالقرب مني، كأنما لتشعر بمزيد من الأمان، وسرعان ما راحت في النوم بينما توليت أنا المراقبة .

تمكنت من هذه البقعة العالية أن أرى مساحة كبيرة من البلد، ولم يمض وقت طويل قبل أن ألمح رجالاً يتجولون مثل حيوانات البانث عند الصيد. وكان من الواضح أن بعضهم يطارد البعض الآخر. رأيت على الأقل نصف دزينة في وقت واحد. ورأيت أحدهم يمسك بفريسته ويقفز عليها من الخلف. كانت المسافة بيني وبينهم كبيرة جدًّا ولم تتحْ لي تمييز التفاصيل بدقة، لكني أتصور أن المطارد أغمد سيفه في ظهر فريسته، ثم انقض مثل بانث الصيد عليها ليلتهمها. لا أعرف إن كانَ انتهى منها، لكنه كان لا يزال يأكل عندما هبط الظلام.

نامت تافيا فترة طويلة، ولامتني عندما استيقظت لأني تركتها تنام كل هذه الفترة، وأصرت على ضرورة أن أنام.

علمتني الضرورة أن أكتفي بقليل من النوم عندما لا تسمح الظروف بتوفير الوقت، مع التعويض عن ذلك في وقت لاحق. كما تعلمت أيضًا أن يقتصر نومي على المدة التي أحددها، وها أنا الآن أستيقظ فور انقضاء الوقت الذي خصصته للنوم لنواصل طريقنا نحو جاثول البعيدة.

تحركنا هذه الليلة، مثل الليلة السابقة، دون مضايقات عبر أراضي يوجور المروعة، وشاهدنا مع بزوغ الصباح التلال العالية ترتفع بالقرب منا.

قلت: «ربما تمثل هذه التلال الحدود الشمالية ليوجور».

أجابت تافيا: «أعتقد ذلك».

قلت: «إنها تقع الآن على مسافة قصيرة منا؛ لنواصل سيرنا إلى أن نتجاوزها. لا يمكنني نسيان هذه الأراضي اللعينة خلفي سريعًا».

قالت تافيا: «ولا أنا. أشعر بالغثيان عندما أفكر في ما رأيته».

عبرنا واديًا ضيِّقًا، وكنا على وشك الدخول إلى التلال عندما سمعنا خلفنا صيحة الصيد البغيضة. استدرت، ورأيت رجلاً بمفرده يتحرك عبر الوادي نحونا. كان يعرف أنني رأيته، لكنه واصل تحركه وكان يقف أحيانًا ليطلق صيحته الغريبة. سمع إجابة تأتي من

الشرق، ثم إجابات أخرى من اتجاهات مختلفة. سارعنا بتسلق التلال المنخفضة وصولاً إلى القمة العالية، وعندما نظرنا خلفنا رأينا رجال الصيد يتقاربون نحونا من جميع الجهات. لم نشهد من قبل هذا العدد الكبير منهم في وقت واحد .

قلت: «ربما يمكننا التملص منهم إذا صعدنا إلى الجبال».

هزت تافيا رأسها وقالت: «حققنا على الأقل معركة جيدة، هادرون».

رأيت عزيمتها مثبطة، ولا يمكنني أن أتعجب؛ على أنها نظرت نحوي بعد لحظة وابتسمت لي بإشراق وهي تصيح: «ما زلنا نعيش، هادرون الهاستوري.«!

قلت لتذكيرها: «ما زلنا نعيش، ولدينا سيوفنا».

صعدوا وراءنا ونحن نتسلق، وأرى الآن آخرين قادمين عبر التلال من اليمين واليسار. انحرفنا حول القمة المنخفضة التي كنت آمل أن نعبر خلالها إلى القمة، فقد دخلها الصيادون من أعلى وأخذوا يهبطون نحونا. تلوح أمامنا مباشرة الآن ذروة عالية، الأعلى في المجموعة بقدر ما يمكنني الرؤية. وعندها فقط، أعلى جانبها الحاد، لا يوجد صيادون يحولون دون مواصلة طريقنا.

كلما صعدنا يزداد انحدار جانبي الجبل إلى أن أصبح الصعود شاقًّا، بل عسيراً ومحفوفًا بالمخاطر في بعض الأحيان. مع ذلك ما من بديل، فواصلنا الصعود نحو القمة وخلفنا يتدفق صيادو يوجور. ليسوا في عجلة من أمرهم، مما جعلني متأكدًا من معرفتهم أنهم حاصرونا. بحثت عن مكان يمكننا أن نقف عنده، لكني لم أجدْ. وأخيراً وصلنا إلى القمة، مساحة دائرية مستوية، ربما يبلغ قطرها مائة قدم.

ولما كان مطاردونا على مسافة قليلة أسفلنا، مشيت بسرعة حول الجزء الخارجي من القمة المستديرة أعلى الذروة. ينخفض مجمل وجهها الشمالي بالكامل من القمة لبضع مئات من الأقدام، بما يحول بالتأكيد دون تراجعنا. وعند جميع النقاط الأخرى، يصعد الصيادون. بدا وضعنا ميؤوسًا منه؛ بلا أي أمل، ومع ذلك رفضت الاعتراف بالهزيمة.

تتناثر على القمة صخور طليقة. ألقيت صخرة على أقرب آكل للحوم البشر. أصابته في رأسه، ودفعته إلى أسفل جانب الجبل، وأخذ في

طريقه اثنين من زملائه معه. قامت تافيا بنفس الشيء، وبدأنا معًا نقصفهم بالصخور. على أن ما سجلناه من إصابات خاطئة كان أكثر من الإصابات الصحيحة. كان

عددهم كبيراً، وكانوا جياعًا وشرسين بحيث لم نتمكن من وقف تقدمهم. وكانت أعدادهم الكبيرة هذه تُذكرني بالحشرات التي تصعد زاحفة- حشرات ضخمة وبشعة، سرعان ما تصل إلينا وتلتهمنا .

ومع زيادة اقترابهم، أطلقوا صيحة جديدة لم أسمعها من قبل. صيحة تختلف عن دعوة الصيد، لكنها فظيعة بالقدر نفسه .

قالت تافيا: «هذه صيحة الحرب».

استمر تدفق الحشد الغفير متسلقًا بإصرار إلى أعلى نحونا. امتشقنا سيوفنا؛ فهذه معركتنا الأخيرة. زاد اقتراب تافيا مني، ولأول مرة أشعر بها ترتعش .

قالت: «لا تدعهم يأخذوني. ليس الموت هو ما أخشاه».

كنت أعرف ما تعنيه، وأخذتها بين ذراعي، وقلت: «لا يمكن أن أفعل ذلك، تافيا، لا يمكن».

أجابت بصوت حازم: «يجب ألا تفعل. إذا كنت تهتم بي حتى كصديقة، لا تسمح لهذه الوحوش أن تأخذني وأنا على قيد الحياة».

أعرف أنني شعرت باختناق بحيث لم أستطع الرد، لكني كنت أعرف أنها على حق وسحبت خنجري.

«وداعًا، هادرون- هادرون.«!

كان صدرها مكشوفًا لتلقي خنجري، وكان وجهها مقلوبًا تجاهي. لا يزال وجهًا شجاعًا لا يظهر عليه الخوف، يااااه كم هي جميلة.

انحيت بتهور، مندفعًا بقوة لم أتمكن من التحكم فيها، وضغطت بشفتي على شفتيها. وبأعين نصف مغلقة، ضغطت شفتيها بقوة على شفتي .

«أووه، إيسوس!»، تنهدت وهي تبعد شفتيها، ثم صاحت: «لقد أتوا! اضرب الآن، هادرون، واضرب بعمق!».

كانت المخلوقات عند القمة تقريبًا. أرجحت يدي إلى أعلى بحيث يمكنني دفن خنجري النحيل بعمق في صدرها الجميل. ولدهشتي، اصطدمت يدي بشيء صلب

فوقي. ألقيت نظرة إلى أعلى. لا يوجد شيء؛ على أن شيئًا ما دفعني لأتحسس أعلاي ثانية لحل هذا اللغز الغريب، حتى في تلك اللحظة المأساوية الرهيبة.

تحسست أعلاي مرة أخرى. باسم إيسوس، يوجد شيء هناك! مرت أصابعي فوق سطح أملس – سطح مألوف.

لا يمكن أن تكون، لكني أعلم أنها يجب أن تكون، جهاما. لم أسأل أي أسئلة عن نفسي أو عن المصير في تلك اللحظة. كان صيادو يوجور على وشك الهجوم علينا عندما لمست أصابعي إحدى حلقات المرساة في مقدمة جهاما. حملت تافيا فوق رأسي.

وصحت: «إنها جهاما. عليك الصعود على سطحها».

اقتنصت الفتاة العزيزة بأسرع ما يمكن الفرصة غير المتوقعة وتصرفت كأي مقاتل مُدرَّب؛ لم تتوقف لتسأل، لكنها أرجحت نفسها إلى أعلى، إلى سطح السفينة، برشاقة بطل رياضي. وعندما أمسكتُ حلقة المرساة وسحبت نفسي إلى أعلى، رقدت تافيا في وضع مسطح على بطنها ومدت يدها إلى أن وصلت إليَّ وساعدتني؛ ولم تكن القوة في هذا الإطار النحيل غير مكافئة للمهمة.

وصل قادة الحشد قبيلة إلى القمة. توقفوا للحظات في حالة ارتباك عندما شاهدونا نتسلق الهواء الرقيق، ونقف على ما بدا فوق رؤوسهم مباشرة. لكن الجوع كان يحثهم، فقفزوا في محاولة للوصول إلينا بصعودهم فوق ظهور وأكتاف بعضهم بعضًا للإمساك بنا وجرنا إلى أسفل.

نجح اثنان في الوصول إلى سطح السفينة، حيث كنت أقاتلهم بمفردي، بينما فتحت تافيا إحدى الكوات وقفزت إلى لوحات التحكم.

وصل مخلوق آخر بوجه كريه إلى سطح السفينة عند الجانب الآخر، واكتشفت وجوده بمحض الصدفة قبل أن يخترق سيفه ظهري. بدأت جهاما ترتفع بالفعل وأنا أستدير للاشتباك معه. كانت المساحة المتاحة للقتال صغيرة، لكني ميزتي هي أنني أعرف مدى سطح السفينة تحت أقدامي، في حين لا يستطيع خصمي أن يرى أي شيء سوى هواء رقيق. أعتقد أن هذا أشعره أيضًا بالخوف. وعندما اندفعت نحوه، خطا إلى الخلف، إلى الفضاء، ثم هوى إلى أسفل نحو الأرض وهو يطلق صرخة رعب.

لقد أُنقِذنا، ولكن كيف باسم جميع أسلافنا تصادف أن توجد جهاما في هذه البقعة.

ربما كان تول أكستار على متنها! ملأتني هذه الفكرة بالقلق على سلامة تافيا. قفزت وسيفي جاهز في يدي خلال كوة المقصورة، ولم أجد سوى تافيا.

حاولنا التوصل إلى بعض تفسيرات لهذه المعجزة التي أنقذتنا، لكن جميع التخمينات لم تصل بنا إلى أي شيء يمكن أن يبعث على الرضى إطلاقًا.

قالت تافيا: «كانت السفينة هنا عندما كنا بحاجة إليها؛ وهذه الحقيقة يجب أن تُرضينا».

قلت: «أعتقد ذلك، على الأقل في الوقت الحاضر. ويمكننا الآن أن ندير مقدمة السفينة مرة أخرى نحو هيليوم».

قطعنا مسافة قصيرة وراء الجبال، ثم شاهدت سفينة على بُعد، ثم سفن أخرى، وأدركت أننا نقترب من أسطول كبير يتحرك نحو الشرق. ومع اقترابنا، تبينت هياكل مطلية بالأزرق المروع لجاهار، وعرفت أنه أسطول تول أكستار الهائل .

رأينا بعد ذلك سفنًا تقترب من الشرق، وعرفت أنه أسطول هيليوم. لا يمكن أن يكون أي شيء آخر؛ لكني يجب أن أتأكد. أسرعت في اتجاه أقرب سفن هذا الأسطول الآخر وشاهدت لافتات ورايات هيليوم ترفرف فوق الأجزاء العلوية من السفينة وشارة المعركة الخاصة بأمير الحرب مرسومة على مقدمتها. وتأتي خلفها سفن أخرى- أسطول نبيل يتحرك في اتجاه موت محتوم.

كانت سفينة جاهارية تتحرك في اتجاه سفينة الحرب الرئيسة، فانطلقت لاعتراضها ووضعت أحد بنادقي في وضع الاستعداد .

اضطررت للاقتراب من هدفي -السفينة الجاهارية- نظرًا لأن مدى فعالية بندقية أشعة التفكيك محدود للغاية.

كان كل شيء على متن سفينة هيليوم الحربية جاهزًا للعمل، وأعرف لماذا لم يُطلِقوا النار من أي بندقية. لم يحدث إطلاقًا أن تفاخر جون كارتر، أمير الحرب في برسوم، أنه بدأ بالحرب. يجب أن يبدأ العدو بالطلقة الأولى. إذا تمكنت من الوصول إليهم في الوقت المناسب، سوف يدرك العواقب المميتة لهذا الرمز النبيل والشهم؛ ويمكن لسفن هيليوم، بأسلحتها طويلة المدى، أن تبيد أسطول جاهار بأكمله قبل أن تتعرض لنطاق مرمى البنادق القاتلة. لكن ترتيبات القدر كانت مختلفة، وأفضل ما يمكنني القيام به الآن هو الوصول إلى السفينة الجاهارية قبل فوات الأوان.

كانت تافيا أمام لوحات التحكم، ونحن نسرع نحو السفينة الجاهارية الزرقاء. كنت أقف عند البندقية الأمامية. يجب أن نصل خلال لحظات داخل النطاق، ثم رأيت سفينة هيليوم الحربية الكبيرة تنهار في الجو. سقطت أجزاؤها الخشبية ببطء نحو الأرض، واندفع ألف محارب نحو موت قاسٍ فوق أرض جرداء أسفلهم .

توقفت على الفور تقريبًا باقي سفن هيليوم. لقد شاهدوا الكارثة التي ألمت بأول سفينة في الصف، وأدرك قائد الأسطول أن قوة جديدة لا يعرفون عنها شيئًا تتهددهم.

شجّع هذا النجاح الأول سفن تول أكستار، وبدأت تتحرك الآن بسرعة للهجوم. كانت السفينة التي دمرت السفينة الحربية الكبيرة في الصدارة، لكنها الآن داخل نطاق مرماي .

ولمعرفتي أن طلاء الحماية الأزرق يقي السفينة الجاهارية نفسها ضد أشعة التفكيك، حشوت البندقية بنوع آخر من القذائف وحركت فوهة البندقية بحيث تشعل النار على طول السفينة، ثم ضغطت على الزر.

ذاب الرجال على سطح السفينة في الهواء فورًا- لم يبقَ سوى عتادهم ومعادنهم وأسلحتهم.

وجهت تافيا إلى تسيير جهاما إلى الجانب، وفتحت الكوة العلوية وقفزت إلى سطح السفينة الجاهارية، وفي لحظة رفعت إشارة الاستسلام أعلاها. يمكن للمرء أن يتصور الذعر على متن السفن الجاهارية القريبة عندما شاهدت تلك الإشارة ترفرف من الصاري الأمامي للسفينة؛ إذ لم تكن هناك أي سفينة قريبة بما يكفي لتشهد ما حدث بالفعل على متنها.

عُدت إلى مقصورة جهاما، وفتحت الكوة وتوجهت على الفور إلى المنظار. تمكنت الآن أن أميز في الجزء خلفي من أول صف لسفن جاهار الشارة الملكية فوق سفينة حربية كبيرة، فعرفت أن تول أكستار هناك، لكنه في وضع آمن. كنت أود أن تكون سفينته هي التالية،

لكن الأسطول كان يتحرك قدمًا نحو سفن هيليوم ولم أجرؤ على إضاعة الوقت.

فتحت سفن هيليوم الآن نيرانها، وأخذت القذائف تنفجر حول السفن القيادية في أسطول جاهار - قذائف موقوتة جيدًا، بحيث يمكن ضبطها لتنفجر في أي وقت وصولاً إلى أقصى مدى البندقية التي أطلقتها. يتطلب الأمر استخدام المدفعية اللطيفة لمزامنة التوقيت مع الهدف.

بعد إصابة سفن أسطول جاهار، واحدة تلو الأخرى، قامت باقي السفن بإعداد بنادقها. أخفقت، مؤقتًا على الأقل، بنادق أشعة التفكيك؛ لكني أعرف أنها كانت لتنجح إذا تمكنت سفينة واحدة من اختراق صفوف سفن هيليوم، حيث يمكنها بين السفن الحربية الكبيرة تدمير دزينة منها في الهواء في غضون بضع دقائق.

كانت مدفعية جاهار فقيرة؛ تنفجر قذائفها عادة في الهواء قبل أن تصل إلى الهدف، لكنها تحسنت مع استمرار المعركة. ومع ذلك، كنت أعرف أن جاهار لا يمكن أن تأمل أبدًا في هزيمة هليوم بأسلحة هيليوم.

لقد أُصيبت سفينة حربية كبيرة بجانبي في أسطول تول أكستار ثلاث مرات على التوالي. رأيتها تسقط من المؤخرة وعرفت أنها انتهت، ثم رأيت قائدها يندفع إلى المقدمة ليواجه سقوطه الطويل الأخير. وكنت أعرف رجالاً شجعان في أسطول تول أكستار، فضلاً عن أسطول هيليوم، لكن تول أكستار لم يكن منهم، حيث رأيت عن بُعد سفينته الرئيسة تسرع نحو جاهار.

وعلى الرغم من جُبن الجيداك، اندفع الأسطول الكبير للهجوم. إذا كانت لديهم الشجاعة، لا يزال يمكنهم الفوز؛ فعدد سفنهم يفوق عدد سفن هيليوم بنسبة عشرة إلى واحد. وبقدر ما يمكن أن تصل العين، رأيتهم يسرعون من الشمال ومن الجنوب ومن الغرب في اتجاه ساحة المعركة.

أخذت سفن هيليوم تزداد اقترابًا من سفن جاهار. كان أمير الحرب يلعب مباشرة دون أن يقع في أيدي العدو. ففي ظل تفوق الرماية وعشرين سفينة حربية يحميها طلاء جاهار الأزرق، يمكن أن تمحو هيليوم أسطول تول أكستار الكبير؛ كنت على ثقة في ذلك، ومع هذه الفكرة جاءني إلهام. يمكن تحقيق ذلك، ولا يمكن أن يفعلها سوى تان هادرون الهاستوري.

كانت القذائف تتساقط حولنا. هزت قوة الانفجارات جهاما إلى أن تقلبت كسفينة قديمة في بحر قديم. اقتربنا مرارًا وتكرارًا بخطورة من خط نيران بنادق أشعة التفكيك الجاهارية. شعرت أنني يجب ألا أخاطر بتافيا على هذا النحو، ومع ذلك يجب تنفيذ الخطة التي وضعتها.

من الغريب كيف يتغير الرجال، ولأسباب تبدو تافهة. كنت أعتقد طوال حياتي أنني على استعداد لأي تضحية من أجل هيليوم، لكني أعرف الآن أنني لن أضحي بشعرة واحدة من هذا الرأس الأشعث من أجل برسوم كلها. إنها الصداقة، كما قلت لنفسي .

توجهت إلى لوحات التحكم وأدرت مقدمة جهاما نحو إحدى سفن هيليوم، كان تقف خارج خط النار مؤقتًا. ومع اقترابنا إلى جانبها، تركت لوحات التحكم مرة أخرى لتافيا، وفتحت الكوة الأمامية وانطلقت إلى سطح السفينة جهاما، ورفعت يدي فوق رأسي في إشارة للاستسلام في حال اعتبروني جاهاريًّا.

ماذا تصوروا عندما شاهدوني على ما يبدو عائمًا بشكل عمودي في الهواء الرقيق؟ ظهر الاندهاش واضحًا على تعبيرات وجوه أولئك الأقرب لي، عندما لمست جهاما جانب السفينة الحربية.

حافظوا على تغطيتي عندما صعدت على متن السفينة، تاركًا تافيا للمناورة في جهاما.

وقبل أن أعلن عن نفسي، تعرَّف عليَّ ضابط شاب من الأوماك الذي أنتمي إليه. قفز الضابط صائحًا من المفاجأة، وألقى ذراعيه حولي. صاح: «هادرون الهاستوري! هل أشاهد بعثك من الموت؛ لكن لا، أنت حقيقي، أنت على قيد الحياة ولست طيفًا من العالم الآخر».

قلت: «أنا على قيد الحياة الآن، لكننا جميعًا لن نستمر أحياء ما لم أتحدث مع قائدك. أين هو؟».

«أنا هنا»، قال صوت خلفي. استدرت ورأيت الأودوار العجوز الذي كان صديقًا عظيمًا لوالدي، وقد تعرَّف عليَّ مباشرة؛ ولكن، لا يوجد وقت حتى للتحية.

«يجب تحذير الأسطول أن سفن جاهار مسلحة ببنادق أشعة التفكيك

التي يمكنها إذابة جميع السفن، كما رأيت أول سفينة تتحلل. على أن هذه البنادق ليست فعالة إلا على مدى قصير».

«يجب الحفاظ على مسافة هاد واحد الأقل منها، وتصبح في أمان نسبيًّا. والآن، إذا أعطيتني ثلاثة رجال ووجهت نيران أسطولك بعيدًا عن سفن جاهار في جنوب صفوف، سوف أتمكن من إحضار عشرين سفينة لك في غضون ساعة – السفن المحمية بلون جاهار الأزرق، التي قد تواجهك ببنادقها ذات الأشعة التفكيكية».

يعرفني الأودوار جيدًا، ولذا وافق على مسؤوليته الخاصة على ما طلبته منه.

رافقني ثلاثة من البادوار من نفس رتبتي. أحضرت تافيا إلى السفينة الحربية، وسلمتها إلى الأودوار العجوز لحمايتها، على الرغم من اعتراضها الشديد على الانفصال عني .

قالت: «لقد خضنا الكثير معًا، هادرون الهاستوري، دعنا نستمر معًا حتى النهاية».

كانت قد اقتربت مني وتحدثت بصوت منخفض حتى لا يسمعنا أحد. وكانت تنظر نحوي بعينين متوسلتين.

قلت: «لا يمكنني تعريضك للخطر أكثر من ذلك، تافيا».

سألتني: «هل تعتقد أن الخطر الكبير لا يزال قائمًا؟».

قلت: «سنكون في خطر، بالطبع؛ إنها الحرب، ولا يستطيع أحد أن يخمن ما يمكن أن يحدث. على أي حال، لا تقلقي. سوف أعود سالمًا».

قالت: «إذَنْ أنت تخشى أن أكون عائقًا في الطريق، وهناك مَن يمكنه القيام بالعمل أفضل مني».

قلت: «كلا بالطبع. أنا لا أفكر سوى في سلامتكِ».

قالت: «إذا فقدتك، لن أعيش. أقسم بذلك. فإذا كنت تثق في قدرتي على العمل مثل الرجال، اسمح لي أن أذهب معك بدلًا من أحد هؤلاء الرجال».

ترددت. قالت: «أوه، هادرون الهاستوري، أرجوك لا تتركني هنا من دونك».

لم أستطع مقاومتها. قلت: «حسنًا، تعالي معي. أُفضل أن تأتي معي أكثر من أي شخص آخر». وهكذا حلت تافيا محل واحد من البادوار في جهاما، مما أثار غضب الضابط.

قبل دخولي إلى جهاما، التفتُ مرة أخرى إلى الأودوار العجوز، وقلت: «إذا نجحنا، سوف يتحرك ببطء عدد من سفن تول أكستار الحربية نحو خط هيليوم وهي ترفع إشارات الاستسلام. وستكون طواقمها قد دُمرت، وبالتالي يجب أن تكون طواقمنا جاهزة لتصعد على متنها وتديرها».

كان كل من على متن السفينة الحربية شديد الاهتمام بالسفينة جهاما، بطبيعة الحال؛ على الرغم من أن كل ما كان يمكنهم رؤيته هو كوة مفتوحة وعين المنظار.

اصطف الضباط والرجال على الدرابزين ونحن نصعد على متن سفينتنا غير المرئية. وعندما أغلقت الكوة، ارتفع فوقي هتاف بصوت عالٍ .

أثبت أول أعمالي حاجتي إلى تافيا، حيث حددت مكانها عند البرج الخلفي لتتولى مسؤولية البندقية هناك، بينما تولى بادوار لوحات التحكم وأدار مقدمة السفينة نحو أسطول جاهار.

كنت أقف في موقع يتيح لي مشاهدة المشهد المتغير على الزجاج الأرضي تحت المنظار. وعندما تمايلت سفينة حربية كبيرة ببطء في الصورة المصغرة أمامي، أصدرت توجيهات إلى البادوار بالتحرك في مسار مستقيم بالنسبة لها. بيد أنني رأيت بعد لحظة سفينة حربية أخرى تتحرك بجانبها. وكان هذا أفضل، وغيرنا مسارنا لنمر بينهما.

كانت السفينتان تتحركان بشجاعة في اتجاه أسطول هيليوم، وتطلقان الآن بنادقهم الكبيرة مع الاحتفاظ ببنادق أشعة التفكيك لنطاق أقرب. يا لمشهدهما الرائع، ومع ذلك يا لعجزهما. إن جهاما الصغيرة غير المرئية، ببنادقها الصغيرة، تشكل لهما خطرًا أكبر من أسطول هيليوم كله. تتحرك السفينتان دون معرفة بالمصير الحتمي الذي ينتظرهما .

قلت لتافيا: «اكتسحي السفينة اليمنى من الجذع إلى المؤخرة. سوف آخذ هذا الزميل إلى مرفئنا»، ثم قلت للبادوار المسؤول عن لوحات التحكم: «نصف السرعة.«!

تجاوزنا مقدمة السفينتين ببطء. لمست زر بندقيتي، ورأيت من فتحه الرؤية الصغيرة ذوبان الطاقم في مسار تلك الأشعة الفظيعة، خلال مرور السفينتين. كنا قريبين جدًّا، إلى حد أنني استطعت رؤية تعبيرات الذعر والرعب على وجوه بعض المحاربين وهم يشاهدون زملاءهم يختفون أمام أعينهم، ثم سيأتي دورهم وينتهون في طرفه عين، وأسلحتهم ومعادنهم تقعقع على سطح السفينة.

وعنما هبطنا خلفهم، كان عملنا قد أكتمل. قلت للبادوار أن يدير جهاما بحيث تصبح بجانب إحدى السفينتين، ثم أسرعت في الانتقال إليها ورفعت إشارة الاستسلام. سقطت السفينة مع الريح عند موت الضابط المسؤول عن لوحات التحكم، لكنني سرعان ما ارتفعت بها ثانية وضبطها على نصف السرعة، ووجهت مقدمتها نحو سفن هيليوم، ثم أغلقت لوحات التحكم وغادرتها.

عدت إلى جهاما وانتقلنا بسرعة إلى السفينة الأخرى، التي تحركت ببطء أيضًا خلال لحظات قليلة نحو أسطول أمير الحرب وإشارة الاستسلام ترفرف فوقها.

كانت الضربة سريعة، بحيث استغرقت السفن الجاهارية القريبة بعض الوقت لإدراك حدوث شيء خاطئ. ربما كانوا غير قادر على تصديق أعينهم عندما رأوا اثنين من السفن الحربية الكبيرة تستسلم قبل أن تصيبها طلقة واحدة. ويبدو حاليًا أن قائد طراد خفيف تيقن خطورة الوضع، على الرغم من أنه لم يفهمه تمامًا. كنا نتحرك بالفعل في اتجاه سفينة حربية أخرى، عندما رأيت الطراد يسرع نحو أحد غنائمنا مباشرة. كنت أعرف أنه لن يصل أبدًا إلى أسطول هيليوم إذا تركناه يصعد على متن تلك الغنيمة، وهو الشيء الذي يجب أن أمنعه بأي ثمن. إن مساره سوف يجلبه عبر مقدمتنا، وعند مروره أصيبه بالبندقية الأمامية.

رأيت من المستحيل أن تتجاوز جهاما هذا الطراد السريع، الذي يتحرك بأقصى سرعة، ولذا اضطررنا أن نسمح له بالمضي في طريقه. كنت أخشى في البداية أن يصطدم بأقرب سفينة غنمناها وإذا صدمها مباشرة بمعدل سيره، سيكون قد قطع نصف الطريق إلى هيكل السفينة الحربية. ولحسن الحظ، لم يصطدم بالسفينة الكبيرة، وتوجه مسرعًا إلى وسط أسطول هيليوم.

وعلى الفور أصبح هدفًا لمائة مدفع، حيث انطلق نحوه وابل من القذائف، ومن المؤكد حدوث عشرات الضربات في وقت واحد؛ لأن الطراد اختفى ببساطة- أصبح كتلة من حطام طائر.

نظرت إلى الوراء ورأيت الخراب الذي أحدثته المدافع الهيليومية الكبيرة على سفن العدو على يساري. ورأيت أيضًا ثلاث سفن حربية كبيرة تذهب إلى نهايتها، بينما انجرفت عاجزة مع الريح ما لا يقل عن أربع سفن أخرى. على أن هناك سفنًا أخرى في ذلك الأسطول القوي لا تزال تعمل. وبقدر ما يمكنني أن أرى، كانت قادمة من الشمال ومن الجنوب ومن الغرب. يبدو أنها بلا نهاية. وأخيراً أدركت أن معجزة فقط هي ما يمكن أن تمنح النصر لهيليوم.

كان أسطولنا منتظرًا بناء على اقتراحي، ويركز نيران مدافعه الكبيرة على سفن جاهار الأقرب، مع استمرار سعيه للحفاظ على البقاء خارج نطاق تلك البنادق القاتلة.

عدنا إلى العمل ثانية مرة أخرى- العمل الكئيب الذي خصصه لنا إله المعركة. استسلمت لنا عشرون سفينة حربية بأسطحها الخالية، واحدة تلو الأخرى. كما تمكنت خلال العمل من إحصاء عدد أكبر من السفن التي دمرتها مدافع أمير الحرب.

اضطررنا خلال متابعة عملنا إلى تدمير ما لا يقل عن نصف دزينة من الطائرات الصغيرة، مثل طائرات الاستطلاع والطرادات الفضائية الخفيفة؛ وهي الآن تتحرك عشوائيًّا

بين السفن الباقية من أسطول جاهار، وتحمل الذعر والرعب إلى قلوب محاربي تول أكستار، فلا بد أن جميع السفن القريبة قد أدركت الآن انطلاق قوة جديدة غريبة نحوها من سفن هيليوم .

ما زلنا نعمل حتى الآن وراء الصف الأول الجاهاري، ولم يعد بمقدورنا أن نرى سفن هيليوم، على الرغم من أن انفجار القذائف يشهد على أنها لا تزال هناك.

أدركت من خبرتي السابقة ضرورة حماية سفن جاهار التي استولينا عليها، حتى لا نسمح لهم باستعادتها، ولذا توجهت إلى الخلف واتخذت موقعًا يتيح لي مراقبة أكبر عدد ممكن منها. وكان جيدًا أن فعلت ذلك، فقد وجدنا من الضروري تدمير طواقم ثلاثة سفن أخرى قبل أن نصل إلى خط المعركة لدى أسطول هيليوم.

هنا، انتهوا من تسكين أطقم ما يزيد على عشر من السفن الحربية الجاهارية التي استولينا عليها؛ ومع ارتفاع لافتات وأعلام هيليوم فوقها، بدأت تتحرك وتتجه إلى العمل ضد السفن الجاهارية الشقيقة .

عندئذ، انهارت روح جاهار. وأعتقد أن هذا كان كثيراً جدًّا بالنسبة لهم، فما من شك أن معظمهم يعتقد أن هذه السفن توجهت طوعًا إلى العدو بجميع ضباطها وأطقمها؛ إذ لا يمكن أن يعرف سوى عدد قليل بتدمير الضباط والأطقم .

لقد هجرهم الجيداك منذ فترة طويلة، وتوجهت عشرون من أكبر سفنهم إلى العدو. وهي الآن، تحت حماية لون جاهار الأزرق ومع أفضل الرماة في برسوم، تتحرك من خلالهم وتنشر الموت والدمار على كل الجهات .

استسلمت طواعية العشرات من سفن تول أكستار، وعندئذ تفرقت السفن الأخرى؛ توجه عدد قليل منهم نحو جاهار، ومن هنا عرفت أنهم يعتقدون أن سقوط المدينة حتمي.

لم يبذل أمير الحرب أي جهد لمطاردة الطائرات التي فرت؛ بل وضع سفن العدو التي استولينا عليها، وبلغت أكثر من ثلاثين سفينة، حول أسطول هيليوم لحمايته من بنادق أشعة التفكيك لدى العدو في حالة تجدد الهجوم، ثم تحركنا ببطء إلى جاهار.

***

الفصل (16)

اليأس

بعد انتهاء المعركة مباشرة، أرسل أمير الحرب كي أتوجه لمقابلته. صعدت بعد لحظات قليلة ومعي تافيا على متن سفينة القيادة.

تقدم أمير الحرب بنفسه لمقابلتنا. وقال: «كنت أعرف أن ابن هاد أورتور سوف يعطي صورة جيدة عن نفسه. بالكاد ما يمكن أن تسد هيليوم دينها بالامتنان لك اليوم. أنت كنت في جاهار؛ وما فعلته اليوم يقنعني بذلك. هل يمكننا أن نقترب من المدينة بأمان للاستيلاء عليها؟».

أجبت: «كلا»، ثم شرحت بإيجاز القوة الجبارة التي جمعها تول أكستار والتسليح الذي يتوقع استخدامه لإخضاع العالم. وأضفت: «لكن هناك طريقة».

سألني: «وما هي؟».

«أن ترسل إحدى سفن جاهار التي استولينا عليها، مع رفع علم الهدنة فوقها. وأعتقد أن تول أكستار سوف يستسلم. إنه جبان. وهرب من الرعب عندما كانت المعركة لا تزال في بدايتها».

«وهل سيحترم علم الهدنة؟».

قلت: «إذا كان العلم على متن إحدى سفنه، ومحميًّا بطلاء جاهار الأزرق، أعتقد أنه سيحترمه. وفي الوقت نفسه، سوف أرافق السفينة في جهاما غير المرئية. أعرف كيف يمكنني إيجاد مدخل إلى القصر. لقد اختطفت تول أكستار مرة، وربما أتمكن مصادفة من اختطافه مرة أخرى. وإذا أصبح بين يديك، يمكنك إملاء الشروط على النبلاء؛ فهم جميعًا يخشون قوة الجمهور الجائع الهائلة التي لا يمنعها الآن سوى الرعب الغريزي الذي يشعرون به تجاه الجيداك».

انتظرنا أن يأتي الطراد الجاهاري حاملاً علم الهدنة إلى جانب سفينتنا، وفي هذه الأثناء أخبرني جون كارتر أسباب تأخير الحملة ضد جاهار لشهور عديدة.

لقد اغتيل كبير خدم قصر تور هاتان، الذي عهدت إليه بتوصيل الرسالة إلى جون كارتر، والتي كانت لتؤدي فورًا إلى الهبوط فوق جاهار؛ وقد اغتيل وهو في طريقة إلى قصر أمير الحرب. ولذلك لم تثر أي شكوك تجاه تول أكستار، وجابت سفن هيليوم فوق برسوم لشهور بحثًا دون جدوى عن سانوما تورا.

ولم يكن إلا مصادفة أن عرف العبد كال تافان أن سفن هيليوم لم تُرسل إلى جاهار، حيث سمع محادثتي مع كبير الخدم. ونظرًا لأن السيد لا يستمع إلى عبده ولا يثق فيه، لا سيما تور هاتان المتعجرف من بين جميع الرجال، فقد توجه كال تافان في نهاية المطاف إلى أمير الحرب وأبلغه بقصته.

قال جون كارتر: «ولخدماته، منحته حريته. وقد عرفت من سلوكه أنه ابن أحد النبلاء في بلده الأصلي، على الرغم من أنه لم يخبرني بذلك، فعينته للعمل على متن الأسطول. واتضح أنه رجل ممتاز، ومؤخرًا رقيته إلى دوار. ونظرًا لولادته في تجاناث وعمله في كوبول، كان أكثر إلمامًا بهذا الجزء من برسوم من أي رجل آخر في هيليوم. ولذلك، عهدت إليه بمهمة الضابط الملاحي للأسطول وهو الآن على متن سفينة القيادة».

قلت: «لقد سنحت لي الفرصة ملاحظة الرجل بعد اختطاف سانوما تورا مباشرة، وكنت معجبًا به. وأنا سعيد لأنه نال حريته ونال تفضيل أمير الحرب».

يقف الآن الطراد الذي يحمل علم الهدنة إلى جانب سفينة القيادة. أبلغ الضابط القيادي أمير الحرب بوصوله، وبعد أن تلقى تعليماته، عُدت ومعي تافيا إلى جهاما. قررنا المضي في هذا الجزء من الخطة بمفردنا، إذ أصبح من الضروري اختطاف تول أكستار مرة أخرى. كما كان أملي أيضًا أن أجد فاو وسانوما تورا. وإذا وجدتهما، ستزدحم مقصورة جهاما دون حتى إضافة البادوارين. كانا غير راغبين في ترك جهاما؛ لأني أعتقد أنهما خاضا أعظم خبرات حياتهما خلال الوقت القصير الذي أمضياه على متنها، لكني حصلت لهما على إذنٍ من أمير الحرب بمرافقة الطراد إلى جاهار.

أصبحنا وحدنا، أنا وتافيا، مرة أخرى. قلت: «ربما هذه آخر رحلة لنا على متن جهاما».

أجابت: «أعتقد أنني أتوق إلى الراحة».

سألتها: «هل أنتِ متعبة؟».

«كنت متعبة أكثر مما أتصور، إلى أن شعرت بالأمن والسلامة وأسطول هيليوم الكبير حولي. أعتقد أنني متعبة من وجودي دائمًا في خطر».

قلت: «كان يجب ألا تأتين معي الآن. لا يزال أمامنا الوقت الكافي لإعادتك إلى سفينة القيادة».

ابتسمت. وقالت: «أنت تعرف أفضل من ذلك، هادرون».

أعرف أفضل. كنت أعرف أنها لن تتركني. بقينا صامتين لفترة، وجهاما تنزلق جوًّا خلف الطراد بقليل. عندما نظرت إلى وجه تافيا، وجدته يعكس تعبًا كبيراً وظهرت بعض خطوط الحزن القليلة التي لم أرها من قبل. تحدثت ثانية بنبرة باهتة، تختلف عن طريقتها المعتادة .

قلت: «أعتقد أن سانوما تورا سوف تسعد بالعودة معكِ هذه المرة».

قلت: «لا أعرف. ولا يوجد فارق بالنسبة لي سواء أرادت أن تأتي أو لم ترد. إنه واجبي أن أجلبها».

أومأت. وقالت: «ربما كان هذا أفضل؛ فوالدها شديد الثراء ومن النبلاء».

لم أفهم ما أهمية ذلك؛ ولأنني لم أعد مهتمًّا على نحو خاص بسانوما تورا أو والدها، فلم أواصل الحديث. كنت أعرف أن من واجبي إعادة سانوما تورا إلى هيليوم إن أمكن، وهذا كان الشيء الوحيدة الذي يشغلني في الموضوع.

كنا على مرمى بصر جاهار قبل أن نواجه أي سفن حربية، ثم جاء طراد لمقابلة طرادنا الذي يحمل علم الهدنة. تبادل قادة الطرادين بضع كلمات، ثم استدار الطراد الجاهاري وقاد الطريق نحو قصر تول أكستار. كان يتحرك ببطء. تقدمت إلى الأمام، وخططي جاهزة بالفعل، وجهاما لا تحتاج إلى مرافقة لأنها خفية. طرت مباشرة إلى ذلك الجناح من القصر الذي يضم مساكن النساء، ودرت حوله ببطء ومنظاري على نفس خط النوافذ .

درنا بالقرب من نهاية الجناح، حيث تقع القاعة الكبرى التي يعقد فيها تول أكستار مجلسه مع نسائه، وهنا أصبح المنظار في مواجهة نوافذ شقة رائعة. أوقفت السفينة أمامها، كما حدث من قبل عند بعض النوافذ الأخرى التي رغبت في فحصها. وبينما كانت حركة المنظار البطيئة تعكس على اللوح الزجاجي فوق الأرض أمامي أجزاء مختلفة من غرفة كبيرة، رأيت امرأتين تعرفت عليهما فوراً: إحداهما سانوما تورا والأخرى

فاو. وكانت سانوما تورا ترتدي أغطية رائعة الزخارف، أغطية جيدارة. لقد حققت المرأة التي أحببتها هدفها، على أن ذلك لم يصيبني بأي شعور بالغيرة. بحثت في الجزء المتبقي من الشقة ولم أجد أي شخص آخر، فجلبت سطح السفينة جهاما بالقرب من عتبة النافذة، ثم فتحت الكوة وقفزت إلى الغرفة.

نهضت سانوما توما من الأريكة التي تجلس عليها عندما رأتني، وانقبضت في رعب. اعتقدت أنها على وشك الصراخ طلبًا للمساعدة، لكنني أمرتها أن تصمت. وفي اللحظة نفسها، انطلقت فاو إلى الأمام وأمسكت بذراع سانوما تورا وأغلقت فمها براحة يدها. وبعد لحظة كنت بجانبها.

قلت لسانوما تورا: «لقد انهزم أسطول جاهار أمام سفن هيليوم، وقد جئت لإعادتكِ إلى بلدكِ».

كانت ترتجف إلى حد أنها لم تستطع الرد. لم أشهد أبدًا من قبل مثل هذا الرعب البائس، الناجم دون شك عن ضميرها الميت.

قالت فاو: «أنا سعيدة لمجيئك، هادرون الهاستوري، لأنني أعرف أنك ستأخذني أيضًا».

قلت: «بالطبع. جهاما تقع خارج هذه النافذة مباشرة. هيا! وسرعان ما نكون جميعًا آمنين على متن سفينة القيادة، سفينة أمير الحرب».

سمعت خلال حديثي ضوضاء غريبة تبدو قادمة عن بُعد، ترتفع وتنخفض، والآن تتزايد مقتربة. لم أتمكن من تفسيرها؛ وربما لم أحاول، فلا يمكنني في أحسن الأحوال إلا أن أهتم قليلاً، بعد أن عثرت على المرأتين اللتين كنت أبحث عنهما. سوف أتولى إدخالهما إلى جهاما، ثم أحاول تحديد موقع تول أكستار .

في تلك اللحظة اندفع الباب مفتوحًا وهرع رجل إلى الغرفة. كان تول أكستار. كان شديد الشحوب ويتنفس بصعوبة. توقف عندما رآني وتراجع، وتصورت أنه سوف يستدير ويهرب، لكنه نظر إلى الوراء خائفًا من خلال الباب المفتوح ثم التفت نحوي مرتجفًا.

بكى بصوت مرعوب: «إنهم قادمون! سوف يمزقونني إربًا».

سألته: «مَن هُم؟».

فقال: «الناس. لقد فتحوا البوابات بالقوة وسوف يأتون، ألا تسمعهم؟».

هذه إذَنْ كانت الضوضاء التي جذبت انتباهي- جحافل الجياع من جاهار تبحث عن الرجل المتسبب في بؤسهم.

قلت: «جهاما خارج هذه النافذة. إذا أتيت على متنها كأسير حرب، سوف آخذك إلى أمير الحرب في برسوم».

قال تول أكستار منتحبًا: «سوف يقتلني أيضًا».

قلت مؤكِّدًا: «يجب أن يقتلك».

وقف ينظر نحوي للحظة، ورأيت في عينيه وتعبيرات وجهه انعكاسًا لفكرة في ذهنه. انفرجت أساريره، وبدا آملاً ثم قال: «سوف آتي، ولكن دعني أولاً أحضر شيئًا واحدًا لآخذه معي. إنه في تلك الخزانة هناك».

قلت: «عليك أن تسرع».

أسرع نحو الخزانة، التي كانت طويلة تمتد من الأرض إلى السقف تقريبًا، واختفى من أمامنا عندما فتح بابها.

سمعت خلال انتظاري تحطم الأسلحة في الطوابق الأدنى، وصيحات وصرخات ولعنات الرجال، واعتبرت أن حرس القصر يمسك بالغوغاء، مؤقتًا على الأقل. نفد صبري، فقلت: «أسرع، تول أكستار»، لكني لم أتلقَّ أيَّ رد. ناديت عليه ثانية، ولم أتلقَّ أيَّ رد أيضًا؛ فتوجهت إلى الخزانة ولم أجد تول أكستار وراء الباب.

ضمت الخزانة العديد من الأدراج ذات أحجام مختلفة، لكني لم أجد درجًا كبيراً بما يكفي لإخفاء رجل، ولا أي مكان يمكن أن يمر خلاله إلى شقة أخرى. بحثت في الغرفة على عجل، ولم أجد تول أكستار في أي مكان. وتصادف أن لمحت سانوما تورا. من الواضح أنها تحاول جذب انتباهي، لكن رعبها حال دون قدرتها على الحديث. كانت تشير بأصابع مرتجفة نحو النافذة. نظرت في هذا الاتجاه، لكني لم أجد شيئًا.

هرعت إلى جانبها وسألتها: «ما الأمر؟ ماذا تحاولين قوله، سانوما تورا؟».

نجحت في أن تقول: «لقد ذهب! ذهب!».

سألتها: «مَن الذي ذهب؟».

«تول أكستار».

قلت بإصرار: «أين؟ ماذا تقصدين؟».

«الكوة في جهاما- رأيتها تُفتح وتُغلق».

«هذا مستحيل. نحن نقف هنا ...» ثم تبادرت إلى ذهني فكرة، أصابتني بحالة من الذهول. نظرت إلى سانوما تورا وهمست: «عباءة التخفي؟».

أومأت .

عبرت الغرفة في قفزة واحدة إلى النافذة، وتحسست سطح السفينة جهاما. لم أجده. السفينة ذهبت، أخذها تول أكستار وتافيا معه.

استدرت وعبرت الغرفة إلى سانوما تورا. قلت لها صائحًا: «أنتِ امرأة لعينة! أنانيتكِ وغروركِ وخيانتك قد عرضت للخطر سلامة شخص لا تصلحين حتَى للمس آثار أقدامهِ». أردت أَن أطبق بأَصابعي حول على ذلك العنق المثالي، وأن أرى عذاب الموت على هذا الوجه الجميل؛ لكني ابتعدت عنها وسقطت يداي إلى جانبي، لأنني رجل – نبيل من هيليوم – ونساء هيليوم مقدسات، حتى أولئك مثل سانوما تورا .

تصاعدت من أسفل أصوات تجدد القتال. إذا اقتحم الغوغاء الغرفة، سنضيع جميعًا. لا يوجد سوى أمل واحد للسلامة المؤقتة، وهو البرج النحيل أعلى مساكن النساء .

قلت بخشونة: «اتبعوني». دخلنا الممر الرئيس، وألقيت نظرة خاطفة داخل القاعة الكبيرة التي يعقد فيها تول أكستار جلساته. امتلأت القاعة بنساء مرعوبات؛ فهن يعرفن جيدًا ماذا سيكون مصير نساء الجيداك على أيدي غوغاء غاضبين. أشفقت عليهن، لكني لا أستطيع إنقاذهن. سأكون محظوظًا في الواقع إن تمكنت من إنقاذ الفتاتين اللتين معي .

عبرنا الممر ثم صعدنا السلم الحلزوني وصولاً إلى المخزن. دخلناه، وأخذت احتياطاتي بإغلاق ترباس الباب، ثم صعدت السلم نحو الباب المسحور في قمة البرج والمرأتان تتبعاني. عندما فتحت الباب ونظرت حولي، كدت أن أصيح فرحًا بصوت عالٍ؛ إذ كان الطراد الذي يرفع علم الهدنة يحلق منخفضًا فوق سطح القصر. لم أخشَ من خطرٍ اكتشافنا من جانب محاربي جاهار؛ لأني أعرف مدى انشغالهم الآن في أسفل – أولئك الذين لم يفروا للنجاة بحياتهم – ولذا انطلقت إلى قمة البرج وهتفت لتحية الطراد بصوت يمكنهم سماعه جيدًا فوق عويل الغوغاء. جاء رد التحية من على سطح الطراد، الذي

هبط على الفور إلى مستوى سطح البرج. بمعاونة الطاقم، ساعدت فاو وسانوما تورا للصعود على متنها.

جاء الضابط قائد الطراد إلى جانبي، وقال: «مهمتنا هنا غير مجدية. وصلتني أخبار الآن أن القصر سقط أمام هجمة حشد من المواطنين الغاضبين. واستولى النبلاء على كل طائرة تمكنوا من وضع أيديهم عليها، وفروا. لا يوجد أحد يمكننا التفاوض معه على السلام. ولا أحد يعرف ماذا حدث لتول أكستار».

قلت له: «أنا أعرف»، ثم رويت ما حدث في شقة الجيدارة.

فقال: «يجب أن نطارده. علينا اللحاق به وإعادته إلى أمير الحرب».

سألت: «أين سنبحث؟ قد تقع جهاما على مسافة عشرة سوفاد منا ولا نراها. سوف أبحث عنه؛ لا تخف أبدًا، وسوف أجده في يوم ما، أما الآن فما من جدوى محاولة العثور على جهاما. علينا العودة إلى سفينة القيادة، سفينة أمير الحرب».

لا أعرف مدى إدراك جون كارتر للخسارة التي لحقت بي، لكني أعتقد أنه كان مدركًا لها؛ لأنه منحني جميع موارد هيليوم للبحث عن تافيا .

شكرته، لكني طلبت فقط سفينة سريعة؛ سفينة يمكنني خلالها تكريس ما تبقى من حياتي في ما تصورت أنه بحث عقيم عن تافيا؛ فكيف لي أن أعرف المكان الذي قد يختاره تول أكستار في برسوم الواسعة للاختباء. وهو يعرف دون شك العديد من المواقع البعيدة في إمبراطوريته، حيث يمكنه العيش في أمان لما تبقى من حياته في برسوم. قد يذهب إلى أحد هذه الأماكن، ولن يراه أحد خلال عبوره على متن جهاما الخفية؛ لن توجد أدنى فكرة يمكنني تتبعه خلالها، وسيأخذ تافيا معه وستصبح عبدته. ارتجفت من هذه الفكرة، وغرقت أظافري في راحة يدي.

أصدر أمير الحرب أمره بإحضار واحدة من أحدث وأسرع طائرات هيليوم إلى جانب سفينة القيادة. كانت طائرة أنيقة تسع مقصورتها بسهولة أربعة أو خمسة أفراد بالراحة. وأمر بنقل الإمدادات والمياه من مخازنه إليها، علاوة على نبيذ من بتارث وجرار العسل الشهيرة من دوسار.

أما عن سانوما تورا وفاو، فقد أرسلهما أمير الحرب مباشرة إلى قمرة؛ لأن سطح سفينة حربية في الخدمة ليس مكانًا للنساء. كنت على وشك الخروج عندما جاء رسول يخبرني أن سانوما تورا تود أن تراني.

أجبت: «وأنا لا أريد رؤيتها».

قال الرسول: «رفيقتها توسلت أيضًا أن تأتي».

هنا اختلف الأمر. لقد نسيت فاو. لكنها إذا رغبت أن تراني، فسوف أذهب. ولذا توجهت على الفور إلى القمرة التي تشغلها الفتاتان. وما إن دخلت، حتى تقدمت سانوما تورا نحوي، وجثت على ركبتيها أمامي.

بكت قائلة: «ارفق بي، هادرون الهاستوري. كنت شريرة، لكن غروري وليس قلبي هو مَن أخطأ. لا تذهب. عُد إلى هيليوم وسأكرس حياتي لسعادتك. يتمتع والدي، تور هاتان، بالثراء. وزوج ابنته الوحيدة يمكنه أن يعيش مترفًا إلى الأبد».

أخشى أن شفتي التوت تعبيرًا عن السخرية التي امتلأ بها قلبي. يا لتفاهة روحها! حتى في ذلها وندمها لا ترى جمالاً وسعادة أكبر من الثروة والجاه. تتصور أنها تغيرت، لكنني أعرف أن سانوما تورا لا يمكن أن تغيير أبدًا.

بكت: «سامحني، تان هادرون. عُد لي، لأنني أحبك. أعرف الآن أنني أحبك».

قلت: «حبكِ جاء متأخرًا، سانوما تورا».

تساءلت: «هل تحب امرأة أخرى؟».

أجبت: «نعم».

سألتني: «جيدارة من البلدان الغريبة التي مررت بها؟».

أجبتها: «بل فتاة أَمَة».

اتسعت عيناها متشككة. لم تتصور أنني أُفضل فتاة أَمَة على ابنه تور هاتان. قالت: «هذا مستحيل».

قلت مؤكِّدًا: «هذا صحيح؛ يُفضل تان هادرون الهاستوري فتاة أَمَة صغيرة على سانوما تورا ابنه تور هاتان»، ثم أدرت لها ظهري وواجهت فاو. قلت لها: «وداعًا، صديقتي العزيزة. أعتقد دون شك أننا لن نتمكن من اللقاء ثانية، لكنني سأرتب لكِ بيتًا جيدًا في هاستور. سأتحدث مع أمير الحرب قبل مغادرتي، وأطلب منه أن يرسلكِ مباشرة إلى أمي».

وضعت يدها على كتفي، وقالت: «دعني أذهب معك، تان هادرون، فربما تمر بالقرب من جهاما خلال بحثك عن تافيا».

فهمت على الفور ما تعنيه، وعاتبت نفسي لأني نسيت ولو مؤقتًا نور

آن. فقلت: سوف تأتين معي، فاو؛ وواجبي الأول يقضي بالعودة إلى جهاما وإنقاذ نور آن من فور تاك العجوز البائس».

خرجت من القمرة ومعي فاو، دون إلقاء نظرة أخرى على سانوما تورا. وبعد بضع كلمات وداع مع أمير الحرب، صعدنا على متن سفينتي الجديدة وبدأنا نتحرك نحو الغرب، إلى جهاما، وتلتقط آذاننا كلمات الوداع الودية.

ونظرًا لأن سفينتي لم تكن محمية بتركيبة فور تاك للتخفي، أو بالطلاء الذي يقاوم أشعة التفكيك الجاهارية، اضطررنا إلى مواصلة المراقبة الشديدة لسفن العدو التي لم أكن أخشاها كثيرًا. فإذا رصدناها في الوقت المناسب، أعرف أن بإمكاني أن أفوقها سرعة وأتجاوزها.

قمت بضبط بوصلة التحكم في الاتجاه على جهاما، وفتحت السرعة. سرعان ما هبط ليل برسوم؛ وكان الصوت الوحيد المسموع هو اندفاع الهواء الرقيق على جانبي سفينتنا، ما أدى إلى غرق خرخرة محرك سفينتنا.

أُتيحت لي أول فرصة للتحدث مع فاو، منذ أن وجدتها ثانية في مسكن الجيدارة في جاهار؛ وكان أول شيء سألتها عنه هو تفسير تخليها عن جهاما بعد أن انتهى تول أكستار من إنزالي وتافيا على أرض يوجور.

قالت: «وقع حادث أصاب تول أكستار بنوبة غضب كبيرة. كنا نتجه إلى جاهار عندما شاهد إحدى سفنه، التي أخذتنا على متنها بمجرد تعرفهم على هوية الجيداك. كان الوقت ليلاً، وخلال الارتباك الذي صاحب صعود السفينة الحربية الجاهارية نسي تول أكستار للحظات جهاما، التي لا بد أنها جنحت بعيدًا عن السفينة الكبيرة بعد أن غادرناها. طافوا لفترة بحثًا عنها، لكنهم اضطروا في النهاية إلى التخلي عنها ومواصلة الرحلة نحو جاهار».

معجزة وجود جهاما أعلى القمة، حيث وجدناها من حسن حظنا في الوقت المناسب للهرب من الصيادين في يوجور، لم تعُد معجزة الآن. فالرياح السائدة في هذا الجزء من برسوم تهب من الشمال الغربي في هذا الوقت من السنة. فما حدث أن جهاما جنحت مع الريح وتصادف وجودها عند أعلى ذروة في النطاق.

أخبرتني فاو أيضًا عن أسباب اختطاف تول أكستار أصلاً لسانوما تورا من هيليوم. كان لديه في هيليوم منذ فترة عملاء سريون، وأبلغوه أن أفضل طريقة لجذب أسطول هيليوم إلى جاهار هو اختطاف امرأة من إحدى الأسر النبيلة. فأصدر تعليماته لهم باختيار امرأة جميلة، ولذا قرر عملاؤه اختيار ابنة تور هاتان.

سألتها: «ولكن كيف يتوقعون إغراء أسطول هيليوم إلى جاهار، وهم لم يتركوا أي دليل على هوية خاطفي سانوما تورا؟».

أوضحت فاو: «لم يتركوا أي دليل حينذاك؛ لأن تول أكستار لم يكن مستعدًّا لهجوم من هيليوم، إلا أنه أرسل عملاءه كمجرد تلميح عن مكان وجود سانوما تورا، وعلم جون كارتر خلال مصادر أخرى هوية مختطفيها».

قلت: «إذَنْ سار الأمر كما خطط له تول أكستار، باستثناء النهاية».

مرت علينا الساعات بفترات متقطعة من الحديث والصمت الطويل الذي شغله كل منا بأفكاره الخاصة. وكانت أفكار فاو دون شك مزيجًا من الأمل والخوف؛ أما أفكاري، فلم تكن مساحة الأمل فيها كبيرة. كانت الاحتمالات السارة الوحيدة أمامي تكمن في إنقاذ نور آن وإعادة شمله مع فاو، ثم آخذهم بعد ذلك إلى أي بلد يرغبون الذهاب إليه، وبعدها أعود إلى المناطق المحيطة بجاهار ومتابعة بحثي اليائس.

بعد فترة صمت طويلة، قالت فاو: «لقد سمعت ما قلته إلى سانوما تورا في قمرة سفينة القيادة، وأسعدني».

قلت لتذكيرها: «أنا تحدثت في عدد من الأمور، فأي منها تقصدين؟».

فأجابت: «قلت إنك تحب تافيا».

«لم أقل شيئًا من هذا القبيل»، رددت بسرعة، لأني أكاد أكره هذه الكلمة.

قالت بإصرار: «لكن قلت. قلت إنك تحب فتاة أَمَة صغيرة، وأنا أعرف أنك تحب تافيا. لقد رأيت ذلك في عينيك».

«أنتِ لم تريْ أي شيء من هذا القبيل. أنتِ تحبين، ولذا تعتقدين أن كل شخص لا بد أنه يحبّ».

ضحكت. «أنت تحبها، وهي تحبك».

قلت بإصرار: «نحن أصدقاء فقط- أصدقاء جيدون جدًّا، وعلاوة على ذلك أنا أعرف أن تافيا لا تحبني».

«كيف تعرف؟».

قلت: «فلنكفَّ عن الحديث في هذا الموضوع»؛ وعلى الرغم من أنني لم أتحدث عن الموضوع، فقد كنت أفكر فيه. تذكرت قولي لسانوما توما أنني أحب فتاة أَمَة صغيرة، وكنت أعرف أن تافيا في ذهني في ذلك الوقت، لكني تصورت أنني قلت ذلك لأجرح سانوما تورا وليس لأي غرض آخر. حاولت تحليل مشاعري، لكني في النهاية تخليت عن ذلك باعتباره نوعًا من الحماقة. بالطبع لا أحب تافيا؛ ولا أحب أي شخص؛ الحب ليس لي، سانوما تورا، قتلته داخلي. كما كنت على يقين أيضًا أن تافيا لا تحبني؛ وإذا أحبتني، لكانت أظهرت ذلك، وكنت واثقًا بالقدر نفسه أنها لم تُظهر لي أبدًا أي شعور آخر غير أروع زمالة. كنا مجرد ما قالته- رفاق سلاح، ولا شيء آخر.

كان الظلام لا يزال سائدًا عندما رأيت قصر فور تاك الأبيض المضيء يلمع بهدوء تحتنا بمسافة كبيرة في ضوء القمر. وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخرًا، فقد رأيت أضواء في بعض الغرف. كنت آمل أن يكون الجميع نيامًا؛ لأن خططي تعتمد على قدرتي على دخول القصر سرًّا. أعرف أن فور تاك لا يحتفظ بأي حراسة ليلاً، لشعوره بعدم ضروري ذلك في تلك البقعة المعزولة.

هبطت بالسفينة في صمت إلى أن استقرت على سطح المبنى الذي هبطنا عليه أنا ونور آن أول مرة، حيث أعرف أنني سأجد ممرًّا إلى قصر أدناه.

همست: «انتظري هنا، فاو، عند لوحات التحكم. فقد أعود ومعي نور آن في عجلة من أمرنا، ويجب أن تكوني مستعدة».

تفهمت وأومأت رأسها. نزلت بهدوء إلى السطح، واقتربت من الفتحة التي تؤدي إلى الداخل في أسفل .

توقفت أعلى السلم الحلزوني وتحسست بسرعة أسلحتي للتأكد من أن كل سلاح في مكانه. فقد زودني جون كارتر بالأسلحة من جديد. كنت أقف مرة أخرى مرتديًا جلود ومعادن هيليوم، ومعي مجموعة كاملة من الأسلحة كمقاتل من برسوم. كان سيفي الطويل مصنوعًا من أفضل أنواع الصلب؛ لأنه أحد سيوف جون كارتر. وحملت إلى جانبه سيفًا قصيراً وخنجرًا، ويتدلى ثانية على جانبي مسدس الراديوم الثقيل. ففككت جراب المسدس، وبدأت أهبط السلم الحلزوني .

ومع اقترابي من أسفل السلم، سمعت صوتًا قادمًا من اتجاه مختبر فور تاك، الذي كان بابه مفتوحًا على الممر في أسفل السلم. تسللت ببطء إلى أسفل، وأغلقت الباب المؤدي إلى المختبر. سمعت رجلين يتحدثان. تمكنت من تمييز صوت فور تاك الرفيع العالي؛ والصوت الآخر لم يكن صوت نور آن، إلا أنه كان مألوفًا بشكل غريب.

سمعت الرجل الثاني يقول: «.... ثروات تفوق أحلامك».

جعجع فور تاك: «لا أحتاج إلى ثروات. هاااااا! سوف أمتلك الآن كل الثروات في العالم».

سمعت الرجل الآخر يقول متوسلاً: «سوف تحتاج إلى مساعدة. ويمكنني مساعدتك؛ سوف أعطيك كل سفينة في أسطولي الكبير».

توقفت عند هذه العبارة – «كل سفينة في أسطولي الكبير!». هذا مستحيل، وإنما ...

حاولت فتح الباب بلطف، ولدهشتي تأرجح مفتوحًا وكشف عن الغرفة من الداخل. كان تول أكستار يقف تحت ضوء ساطع؛ وعلى مسافة خمسين قدمًا منه يقف فور تاك خلف مقعد طويل يوجد فوقه بندقية أشعة التفكيك موجهة بالكامل نحو تول أكستار .

أين تافيا؟ وأين نور آن؟ ربما يعرف هذا الرجل وحده مكان تافيا، وفور تاك على وشك تدميره. قفزت إلى الغرفة، مُطلقًا صرخة تحذير. نظر تول أكستار وفور تاك نحوي بسرعة، واكتست ملامحهما بدهشة كبيرة.

صرخ المخترع العجوز: «هاااا!. إذَنْ فقد عُدت! يا محتال! يا عاق! يا خائن! لكنك عُدت فقط لكي تموت».

«انتظر»، صحت وأنا أرفع يدي، «دعني أتحدث».

صرخ فور تاك: «صمتًا! سوف تشاهد تول أكستار يموت. كرهت أن أقتله دون أي يشاهد أحد الموقف– شخص يشهد عذاب موته. سوف أنتقم منه أولاً، ثم منك».

صحت: «توقف!»، وكانت أصابعه تحوم بالفعل فوق الزر الذي سيلقي بتول أكستار إلى غياهب النسيان، ومعه ربما سر مكان تافيا.

سحبت مسدسي. قام فور تاك بحركة مفاجئة بيديه واختفى. اختفى كأنما تحول إلى هواء رقيق بأشعة التفكيك، لكني عرفت ما حدث .

عرفت أنه ألقى عباءة للتخفي حول نفسه، فأطلقت النار على آخر موقع كان مرئيًّا فيه .

وفي نفس اللحظة، فُتحت الأرض تحتي، ووجدت نفسي في ظلام مطلق.

شعرت بنفسي أندفع على طول سطح أملس، أصبح بالتدريج أفقيًّا؛ وبعد لحظة وجدتني في شقة ذات إضاءة خافتة، وعرفت أنها لا بد توجد في الحُفر أسفل القصر.

تشبثت بمسدسي خلال سقوطي؛ ونهضت الآن على قدمي وأعدته إلى جرابه مرة أخرى. على الأقل لم أكن أعزلَ.

اكتشفت أن ضوء الشقة الخافت، الذي كان أفضل قليلاً من عدم وجود ضوء على الإطلاق، كان من جهاز تهوية في السقف؛ ولا توجد أي فتحة أخرى في الجدار أو السقف أو الأرضية غير تلك الفتحة العمودية التي قادتني إلى الزنزانة. يبلغ قُطر جهاز التهوية حوالي قدمين، ويقود مباشرة من وسط السقف إلى سطح المبنى، عدة طوابق أعلى. وبلغ الطرف الأدنى من مدخل الفتحة العمودية حوالي قدمين فوق أطراف أصابع يدي عند تمديدهم عاليًا فوق رأسي. هذا إذَنْ سبيل للهرب عديم الجدوى، ولكن، للأسف، يا له من وضع مُعذِّب. من الجنون أن ترى ضوء النهار وطريق مفتوح إلى العالم الخارجي فوقك مباشرة، لكنك غير قادر على الوصول إليه. أسعدني ارتفاع الشمس، حيث تلقي نورها السريع على المشهد؛ لأنني سقطت هنا في ظلام مطلق. ولولاها لكانت محنتي أسوأ بكثير مما هي عليه الآن، ويعرف سلفي الأول مدى هذا السوء. ركزت انتباهي الآن على المنزلق الذي سقطت خلاله، ووجدت أن بمقدوري أن أصعد لمسافة صغيرة جدًّا؛ لكنه يبدو بعدها صعودًا حادًّا وجدرانه ملساء مصقولة بحيث يتعذر التسلق .

عُدت إلى الحُفر. يجب أن أهرب. والآن، عندما اعتادت عيناي على الضوء الخافت، رأيت أشياء تتناثر على الأرضية، انتزعت أملي الأخير وملأتني بالرعب. تناثرت في كل مكان على ألواح الأحجار أكوام وتلال من العظام البشرية اختارتها بعناية الفئران القارضة. ارتجفت وأنا أفكر في الليل القادم. إلى متى يطول الوقت قبل أن تجد عظامي أيضًا مكانها بين باقي العظام؟

أصابتني هذه الفكرة بالذعر، ليس على نفسي وإنما على تافيا. لا يمكن أن أموت. يجب ألَّا أموت. يجب أن أعيش إلى أن أجدها.

درت على عجل في أنحاء الغرفة بحثًا عن فكرة للأمل، لكنني لم أجد سوى أحجار غير مصقولة يربط بينها أسمنت ناعم.

أسمنت ناعم! وبهذا الإدراك، بزغ أمل جديد. إذا تمكنت من إزالة القليل من هذه الكتل ووضعتها واحدة فوق الأخرى، يمكنني الوصول بسهولة إلى الفتحة التي تنتهي عند السقف فوق رأسي. سحبت خنجري وبدأت في العمل. أخذت أكشط وأخدش في الأسمنت المحيط بأحد الحجارة في أقرب جدار. بدا العمل بطيئًا، لكني تمكنت في الواقع من تخفيف الأسمنت حول الحجر في وقت قصير للغاية. كانت مادة الأسمنت سيئة، وتتفتت بسهولة. وما إن سحبت الحجر، حتى تلاشت خطتي الأولى على ضوء ما رأيته أمامي. رأيت خلف الفتحة ممرًّا أسفل سلم حلزوني يؤدي إلى أعلى؛ ومن مكان ما أعلاه، يتسرب ضوء النهار.

أعرف أنني إذا تمكنت من إزالة ثلاثة أحجار أخرى قبل أن تُكتشف محاولتي، يمكنني أن أحشر جسمي خلال الفتحة لأصل إلى الممر خلفها. ولك أن تتخيل مدى سرعتي في العمل .

نجحت في إخراج الأحجار واحدًا تلو الآخر، وانزلقت مبتهجًا خلال الفتحة إلى الممر. يرتفع فوقي السلم الحلزوني. لا أعرف إلى أين يؤدي، لكنه يخرجني على الأقل من الحُفر. صعدت بحذر، ولكن دون أي تردد. يجب أن أحاول الوصول إلى المختبر قبل أن يقتل فور تاك تول أكستار. وسوف أتأكد هذه المرة من المخترع العجوز قبل أن أدخل الغرفة، وتوسلت إلى جميع أسلافي أن أصل في الوقت المناسب.

كانت جميع الأبواب المؤدية من السلم إلى مستويات القصر المختلفة مغلقة، مما أجبرني على الصعود إلى السطح. وتصادف أن الجناح الذي وجدت نفسي فيه كان منفصلاً بشكل أو آخر، بحيث أمكنني أن أرى من الوهلة الأولى عدم وجود أي طريق يمكن أن أصل خلاله إلى أي من الأسطح المجاورة.

مشيت حول حافة المبنى على عجل، باحثًا عن وسيلة للهبوط إلى السطح أدناه. ورأيت شيئًا أدنى بمستوى واحد، لفت انتباهي على الفور. كانت ساق رجل تبرز من نافذة، كأنما يُخرج أحد أطرافه من حافة النافذة. وبعد لحظة رأيت ذراعًا يبرز، وكان أعلى رأس الرجل وكتفاه مرئيين وهو يميل نحو الخارج. رأيت شيئًا يظهر أسفله مباشرة لم يكن موجودًا من قبل. ولمحت في اللحظة نفسها فتاة، ترقد على بُعد أقدام قليلة، ثم رأيت

الرجل ينزلق بسرعة على حافة النافذة ويهبط ويختفي؛ وكل ما كان يوجد أدناي هو رصيف الفناء.

بيد أنني أدركت تمامًا ما رأيته، في تلك اللحظة القصيرة. لقد رأيت تول أكستار يفتح كوة جهاما. ورأيت تافيا ترقد مقيدة على أرضية السفينة تحت الكوة. رأيت تول أكستار يدخل السفينة ويغلق الكوة فوق رأسه.

استغرق سرد الواقعة فترة طويلة مقارنة بالوقت الذي استغرقه حدوثها في الواقع؛ كما لم أستغرق وقتًا طويلاً للتصرف بمثل طول الوقت الذي استغرقه سردي.

قفزت بمجرد إغلاق الكوة.

* * *

الفصل (17)

وجدت أميرة

ربما لم أكن قد تصورت بالكامل نتيجة تصرفي عندما قفزت إلى الفضاء دون أي شيء مرئي بيني وبين أحجار رصيف الفناء على مسافة أربعين قدمًا أدناي، على أن تصرفي بطبيعة الحال لم يكن بناء على مجرد اندفاع غير عقلاني. فالعقل يعمل في الحالات الطارئة بسرعة لا يمكن تصورها: يتلقى التصورات، ويصل إلى أحكام، ثم إلى استنتاج محدد - كل ذلك في سرعة مذهلة بحيث تتزامن الأفعال الثلاثة. ولا بد أن هذا ما حدث في تلك اللحظة .

أعرف أين يقع الممشى الضيق على سطح جهاما العلوي في المساحة التي تبدو فارغة أسفلي، فقد قفزت في نفس لحظة إغلاق الكوة. وبالطبع أعرف الآن، وكنت أعرف حينذاك، أن تحقيق هذا الإنجاز يتسم بالخطورة والصعوبة حتى وإن كنت قادرًا على رؤية جهاما أدناي؛ على أنني عندما أنظر الآن إلى ما حدث حينذاك، أتأكد أنه لم يكن هناك أي شيء آخر يمكن القيام به. كانت فرصتي الوحيدة والأخيرة لإنقاذ تافيا من مصير أسوأ من الموت – وربما كانت فرصتي الأخيرة على الإطلاق لرؤيتها مرة أخرى. وكما قفزت حينذاك، يجب أن أقفز ثانية في ظل ظروف مماثلة حتى مع معرفتي أنني سأفقد جهاما؛ فأنا أعرف الآن، كما كنت أعرف حينذاك، أنني أُفضل أن أموت على فقدان تافيا- على الرغم من أنني لم أكن أعرف السبب حينذاك، بينما أعرفه الآن .

بيد أنني لم أُخطئْ الهدف، وهبطت مباشرة على قدمي فوق الممشى الضيق. لا بد أن تول أكستار شعر بتأثير وزني على سطح السفينة العلوي، لأنني شعرت بالسفينة أسفلي تنخفض قليلاً. ما من شك أنه تساءل عما حدث، لكنني لا أعتقد أنه خمن الحقيقة. على أي حال لم يفتح الكوة كما كنت آمل، وإنما لا بد أنه قفز إلى لوحات التحكم على الفور لأن جهاما ارتفعت سريعًا بزاوية حادة، ما أدى إلى صعوبة تشبثي بها؛ لأن سطحها العلوي لم يكن مزودًا بحلقات. بيد أنني نجحت في الصمود عن طريق الإمساك بحافة البرج الأمامية .

وعندما اكتسب تول أكستار ارتفاعًا كافيًا واستقامت السفينة على مسارها، فتح صمام السرعة بحيث أخذت الرياح تندفع في وجهي بسرعة مذهلة بدت لحظيًّا تكاد أن تحملني بعيدًا عن موقعي المحفوف بالمخاطر وتدفعني نحو الأرض البعيدة أسفلي.

ولحسن الحظ أنني رجل قوي -فربما لم يكن أي شخص آخر ليتمكن من النجاة من تلك المحنة - على أنني كنت عاجزًا تمامًا .

كان بإمكان تول أكستار، إذا خمن الحقيقة، أن يفتح الكوة الخلفية وعندئذ أصبح تحت رحمته. فعلى الرغم من أن مسدسي يتدلى على جانبي، لم أكن لأستطيع أن أستخدم أيًّا من يديَّ. بيد أن تول أكستار لم يعرف دون شك؛ أو إذا كان يعرف، فقد كان يأمل في أن السرعة المذهلة التي تتحرك بها السفينة من شأنها أن تزيح أي شخص أو أي شيء قد أحس أنه سقط فوقها.

لم أبقَ معلقًا سوى لفترة قصيرة قبل أن أدرك أن قبضتي سوف تضعف في النهاية. يجب أن أفعل أي شيء لتصحيح وضعي. يجب إنقاذ تافيا؛ ولأنني الوحيد الذي يمكنه إنقاذ حياتها، يجب ألا أموت.

بذلت أقصى جهد عضلي لسحب نفسي إلى الأمام إلى أن تمكنت من الاستلقاء وصدري فوق البرج. تحركت ببطء كالدودة، بوصة بعد بوصة، إلى الأمام. كانت أغطية أنبوب المنظار أمامي مباشرة. إذا تمكنت من الوصول إليها بيد واحدة، فقد آمل في الفوز بقدر أكبر من السلامة. كانت الرياح تعصف بي، ساعية إلى إبعادي. سعيت إلى قبضة أفضل بساعدي الأيسر حول البرج، ثم مددت يدي اليمنى بسرعة وأغلقت أصابعي حول غطائه .

وبعد ذلك لم يكن من الصعب مد جزء من عتادي حول الجزء الأمامي من البرج. وجدت الآن أن بإمكاني تحرير إحدى يدي، على أنني لا يمكن أن آمل في تحقيق أي شيء آخر إلى أن تتوقف السفينة .

ماذا يحدث داخل السفينة تحتي؟ هل يمكن أن تظل تافيا آمنة ولو لفترة قصيرة في قبضة تول أكستار؟ أثارت هذه الفكرة غضبي. يجب إيقاف جهاما، ثم جاءني إلهام .

ففككت جيب حقيبتي من عتادي بيدي الحرة، وسحبت نفسي مزيدًا إلى الأمام، وتمكنت من وضع جيب الحقيبة المفتوح فوق عين المنظار.

وعلى الفور أصبح تول أكستار أعمى؛ لم يعد قادرًا على رؤية أي شيء. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يتحقق رد الفعل الذي كنت أتوقعه وأتمناه - تباطأت جهاما، وتوقفت أخيرًا.

كنت أرقد جزئيًّا فوق الكوة الأمامية، وسحبت نفسي الآن بعيدًا عنها وبقيت أمامها. تمنيت أن يفتح هذه الكوة الأمامية؛ فهي الأقرب منه. انتظرت، ثم ألقيت نظرة عابرة إلى

الأمام ورأيته يفتح المنافذ. يمكنه بهذه الطريقة أن يبحر بالسفينة، ويحول بالتالي دون تنفيذ خطتي.

أصابني إحباط، لكني لن أتخلَّى عن الأمل. حاولت بهدوء شديد فتح الكوة الأمامية، لكنها كانت موصدة من الداخل. شققت طريقي سريعًا ووصلت إلى الكوة الخلفية. إذا قام بتشغيل جهاما ثانية الآن وبأقصى سرعة، سوف أضيع حتمًا؛ لكني شعرت أنني مُضطر للمجازفة بهذه الفرصة. بدأت جهاما تتحرك ثانية بالفعل، وضعت يدي على غطاء الكوة؛ على أنني لم أكن هذه المرة صامتًا ولا رقيقًا. رفعت الغطاء بقوة، وانفتحت الكوة. لم أتردد للحظة؛ وما إن انطلقت جهاما إلى الأمام ثانية بأقصى سرعة، حتى نزلت خلال الباب المسحور إلى داخل السفينة .

سمع تول أكستار صوت اصطدامي بالسطح، فترك لوحات التحكم واستدار ليواجهني. تعرَّف عليّ. أعتقد أنني لم أشهد أبدًا من قبل مثل هذا التعبير الذي يمزج بين الدهشة والكراهية والخوف، الذي بدا على ملامحه. كانت تافيا مستلقية عند قدميه بهدوء شديد إلى حد أنني تصورتها ميتة. وضع تول أكستار يده على مسدسه، وفعلت نفس الشيء. لكني عشت حياة أطهر من حياة تول أكستار. كان التنسيق بين عقلي وعضلاتي بسرعة أكبر من سرعة ذلك الذي أهدر حياته منغمسًا في الملذات .

أطلقت النار مباشرة نحو قلبه الفاسد. واندفع تول أكستار، جيداك وطاغية جاهار، إلى الأمام فوق سطح جهاما السفلي قتيلاً .

انطلقت على الفور إلى تافيا من جانبها وأدرتها. كانت مقيدة ومكممة، كما كانت -لسبب غير معروف- معصوبة العينين أيضًا؛ إلا أنها لم تكن ميتة. كدت أن أبكي فرحًا عندما أدركت ذلك. لكم تعثرت أصابعي وهي تسرع لتحريرها؛ وخلال بضع ثوانٍ كنت أضمها بشدة بين ذراعيَّ.

أعرف أن دموعي سقطت على وجهها المقلوب عندما تلامست شفتانا، لكني لا أخجل من ذلك. وبكت تافيا أيضًا، وتشبثت بي، وشعرت بجسدها العزيز يرتعش. لا بد أنها كانت مرعوبة، على أنني أعرف أنها لم تُظهر ذلك أبدًا لتول أكستار. كان رد الفعل- مزيجًا من الراحة والفرح في لحظة كان فيها اليأس أكثر سوادًا.

في تلك اللحظة، عندما خفقت قلوبنا معًا، وجذبتني لتقربني منها، أدركت حقيقة كبيرة. كم كنت أحمقَ وغبيًّا! كيف تصورت من قبل أن مشاعري تجاه سانوما تورا كانت حُبًّا؟ وكيف تصورت أن حبي لتافيا كان شيئًا ضعيفًا كالصداقة؟ قربتها مني.

وهمست: «أميرتي».

لهذه الكلمة في برسوم، عندما يقولها رجل لامرأة، دلالة خاصة لا تتغير؛ إذ لا يتحدث هكذا أي رجل مع امرأة لا يرغب في الزواج منها .

بكت تافيا: «كلا، كلا، خذني، وأنا لك؛ لكني لست سوى فتاة أَمَة. لا يمكن أن يتزوج تان هادرون الهاستوري من أَمَة».

إنها، حتى في هذه اللحظة، لا تفكر إلا في سعادتي، ولا تفكر في نفسها على الإطلاق. كم هي مختلفة عن سانوما تورا؟ لقد خاطرت بحياتي للفوز بكتلة قذارة، لكني عثرت على جوهرة لا تُقدَّر بثمن.

نظرت في عينيها؛ هذه الآبار العميقة الجميلة من الحب والتفاهم. قلت: «أحبكِ، تافيا. قولي لي إن من حقي أن أناديكِ أميرتي».

تساءلت: «على الرغم من أنني أَمَة؟».

قلت: «حتى لو كنت أقل ألف مرة من الأَمَة».

تنهدت واقتربت مني. همست بصوت شديد الانخفاض: «يا قائدي».

هنا تنتهي القصة بقدر ما يعنيني الأمر، أنا تان هادرون الهاستوري. فقد شهدت هذه اللحظة أعلى قمة تمنيت تحقيقها على الإطلاق؛ لكن هناك المزيد الذي قد يهم من تابعوا معي حتى الآن المغامرات التي حملتني طوال نصف الطريق حول نصف الكرة الجنوبي من برسوم.

عندما تمكنت أنا وتافيا من الابتعاد عن بعضنا، وهو ما استغرق وقتًا طويلاً، فتحت الكوة السفلية وألقيت جثة تول أكستار ليجد مثواه الأخير على الأرض الجرداء في أسفل. عدنا إلى جهاما، واكتشفنا أن نور آن قد تمكن في وقت سابق من صباح اليوم من الوصول إلى أحد أسطح القصر، واكتشفت فاو وجوده .

عندما عرف نور آن أنني دخلت القصر قبل الفجر، شعر بالقلق وبدأ يبحث عني. لم يعرف عن مجيء تول أكستار، وتصور أن الجيداك وصل بعد أن ذهب لينام ليلاً؛ ولم يعرف أن تافيا كانت ترقد مقيدة في جهاما بجوار جدار القصر.

على أن بحثه في القصر كشف عن أن فور تاك فور كان مفقودًا. استدعى العبيد وقاموا ببحث دقيق، دون التوصل إلى أي علامة تشير إلى مكان فور تاك .

تبادر إلى ذهني أنني قد أصل إلى معرفة مكان العالِم العجوز. قلت لنور آن: «تعالِ معي؛ ربما يمكنني العثور على فور تاك من أجلك».

ذهبنا إلى المختبر. فقال: «ما من جدوى للبحث هنا، فقد بحثنا اليوم مائة مرة. وتكشف في لمحة سريعة أن المختبر مهجور».

قلت: «انتظر. دعنا لا نتعجل من أمرنا. تعال معي، ربما أتمكن من الكشف عن مكان فور تاك».

هز كتفيه، وتبعني عندما دخلت المختبر الشاسع. مشينا نحو المقعد الطويل الذي توجد فوقه بندقية التفكيك. اصطدم قدمي بشيء غير مرئي خلف المقعد الطويل، شيء توقعت أن أجده هناك. انحنيت، وشعرت بشيء مكوم تحت غطاء من قماش ناعم.

أمسكت أصابعي بالنسيج غير المرئي، وأزحته جانبًا. ها هي أمامنا على الأرض جثة فور تاك، وثقب رصاصة في وسط صدره.

صاح نور آن: «باسم إيسوس! مَن فعل هذا؟».

أجبته: «أنا»، ثم أخبرته بما حدث في المختبر في نهاية الليلة الماضية.

نظر حوله في عجل. وقال: «عليك تغطيته بسرعة. يجب ألا يعرف العبيد. سوف يدمرونا. فلنخرج من هنا بسرعة».

سحبت عباءة التخفي على جسم فور تاك فور مرة أخرى. وقلت: «لديَّ عمل هنا قبل أن أغادر».

سألني: «ما هو؟».

«ساعدني في جميع قذائف وبنادق أشعة التفكيك في طرف الغرفة».

سألني: «ماذا تريد أن تفعل؟».

قلت: «سوف أنقذ العالم، نور آن».

انحنى ليساعدني. وعندما جمعناها كلها في كومة في أقصى نهاية المختبر، اخترت قذيفة واحدة وعدت إلى البندقية المحمولة على المقعد الطويل، وأدخلت القذيفة في ماسورة البندقية وأغلقتها وأدرت فوهة السلاح نحو تلك الكتلة المخيفة من الموت والكوارث.

وبمجرد ضغطي على الزر، اختفى كل ما تبقى في جهاما من اختراع فور تاك الخطير، باستثناء بندقية واحدة ظلت بلا ذخيرة. وبهذا، اختفى نموذج 'الموت الطائر' واختفى معه سره.

أخبرني نور آن بشكوك العبيد تجاهنا. ونظرًا لعدم وجود أي ضرورة للمخاطرة بأنفسنا، توجهنا إلى السفينة التي منحها لي جون كارتر وسحبنا السفينة جهاما معنا، ثم حددنا مسارنا نحو هيليوم.

تجاوزنا الأسطول قبل أن يصل بقليل إلى المدينتين التوأم: هيليوم الكبرى وهيليوم الصغرى. استقبلونا على سطح سفينة جون كارتر القيادية بالترحيب الحار والتصفيق. وبعد قليل وقع أحد أروع الأحداث وأكثرها إثارة على الإطلاق. كنا نقيم احتفالاً غير رسمي على السطح الأمامي للسفينة الحربية الكبيرة. وكان الضباط والنبلاء يتقدمون للحضور، ونظر العديدون إلى تافيا بإعجاب .

وجاء الآن دور الدوار كال تافان، الذي كان عبدًا في قصر تور هاتان. وعندما وقف وجهًا لوجه مع تافيا، رأيت نظرة دهشة في عينيه .

قال بتكرار: «هل اسمكِ تافيا؟».

قالت: «نعم، واسمك تافان. إنهما متماثلين».

قال: «لا أحتاج إلى أن أسأل من أي بلد أتيتِ. أنتِ تافيا من تجاناث».

تساءلت: «وكيف لك أن تعرف؟».

أجاب: «لأنكِ ابنتي. أسمتكِ والدتكِ تافيا. أنتِ تشبهينها. وبهذا وحده كان يجب أن أعرف ابنتي في أيِ مكان».

أخذها بلطف بين ذراعيه ورأيت الدموع في عينيه، وعينيها أيضًا، وهو يضع شفتيه على جبينها ليُقبلها، ثم التفت نحوي .

وقال: «أخبروني أن تان هادرون الهاستوري الشجاع قد اختار أن يتزوج من فتاة أَمَة؛ لكن هذا غير صحيح. أميرتك في الحقيقة هي أميرة بالفعل- إنها حفيده جِد. وكانت ستظل ابنة جِد إن بقيت أنا في تجاناث».

كم هي ملتوية مسارات الحياة! ويا لغرابة وعدم توقع الاتجاهات التي

تأخذنا إليها. لقد بدأت أحد هذه المسارات بقصد الزواج في النهاية من سانوما تورا؛ بينما شرعت سانوما تورا في مسار آخر على أمل الزواج من جيداك. ولم تجد في نهاية مسارها سوى الخزي والعار. وقد وجدت في نهاية مساري أميرة.

* * *

انتهى الكتاب السابع:

مقاتل من المريخ

سيوف المريخ

ادجار رايس بوروز

ترجمة شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

تمهيد

ارتفع القمر فوق حافة الوادي الضيق بالقرب من منابع نهر كولورادو الصغير. كانت تتحمم في ضوئه اللطيف أشجار الصفصاف التي تمتد على طول شاطئ التيار الجبلي، وأشجار الحور التي يوجد أسفلها الكوخ الصغير الذي خيّمت فيه لبضعة أسابيع في الجبال البيضاء بأريزونا.

وقفت في شرفة الكوخ الصغيرة متمتعًا بجمال هذه الليلة الفاتنة في أريزونا. وخلال تأملاتي في سلام وصفاء المشهد، كان من الصعب أن أتخيل جيرونيمو[216] الرهيب الشرس، وكيف وقف منذ بضع سنوات في هذه البقعة نفسها وأمام الكوخ نفسه؛ أو أن هذا الوادي المهجور الآن، كان يسكنه منذ أجيال أناس ينتمون إلى عِرق انقرض الآن.

أخذت أبحث في مدنهم المُدَمَّرة عن سر نشأتهم، فضلاً عن سر انقراضهم الغريب. ولكم تمنيت أن تتحدث تلك المنحدرات المتداعية من الحمم البركانية، وتخبرني بكل ما رأته منذ أن تدفقت كتيار منصهر من القمم البركانية الباردة الصامتة، التي تتناثر في هذه الهضبة المستوية وراء الوادي الضيق.

عادت أفكاري ثانية إلى جيرونيمو ومقاتليه من الأباتشي الشرسين؛ وتولدت من هذه التأملات الهائمة ذكريات الكابتن جون كارتر[217] من ولاية فرجينيا، الذي اختفى جثمانه لعشر سنوات طوال في كهف منسي في جبال تقع جنوبًا غير بعيد عن هذه البقعة تحديدًا - الكهف الذي سعى فيه إلى مأوى من مطاردة الأباتشي.

بحثت عيناي في السماء، متتبعة مسار أفكاري، إلى أن وقعتْ على عين المريخ الحمراء التي تتألق هناك في الفراغ الأزرق المشوب بالسواد؛ كان المريخ يشغل أعلى أولوية في ذهني وأنا أدخل كوخي واستعد للراحة هذه الليلة تحت أوراق أشجار الحور، التي امتزجت اهتزازاتها اللطيفة الهادئة بتموجات وقرقرة مياه نهر كولورادو الصغير.

لم أكن ناعسًا؛ لذا، وبعد أن خلعت ملابسي، وضعت مصباح الكيروسين بالقرب من سريري وأعددت نفسي للاستمتاع بقصة عن عصابات الاغتيال والخطف.

---

(216) محارب من قبيلة أباتشي جيريكاهوا الهندية. قاد هجمات على المستوطنين والجنود في المكسيك وجنوب غرب الولايات المتحدة خلال سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر– المترجمة .

(217) جون كارتر: من فرجينيا، وهو أول رجل من كوكب الأرض يصل إلى المريخ، وأصبح أحد أعظم أمراء الحرب في تاريخ المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/John_Carter - المترجمة.

كان كوخي غرفتين؛ الغرفة الخلفية الصغيرة هي غرفة نومي، وأمامها الغرفة الكبيرة التي تخدم جميع الأغراض الأخرى: تُعتبر غرفة طعام ومطبخًا وغرفة معيشة مجتمعة. ولا أستطيع من سريري أن أرى الغرفة الأمامية مباشرة؛ حيث يفصل حاجز رقيق غرفة النوم عن غرفة المعيشة. يتكون هذا الحاجز الفاصل من ألواح مقطوعة بخشونة، تركت عملية انكماشها شقوقًا واسعة في الجدار. وبالإضافة إلى ذلك، نادرًا ما يُغلق الباب بين الغرفتين؛ بحيث يمكنني أن أسمع أي شيء يحدث داخل الغرفة المجاورة، رغم عدم قدرتي على رؤية ما بداخلها.

لا أعرف أنني أكثر عرضة للإيحاء أكثر من أي رجل عادي؛ لكن قصص القتل والغموض والعصابات تبدو دائمًا أكثر حيوية عندما أقرؤها بمفردي في ساعات الليل الهادئة.

وكنت قد وصلت في القصة إلى لحظة تسلل القاتل إلى ضحية الخاطفين، عندما سمعت الباب الأمامي من كوخي يُفتح ويُغلق، وسمعت بوضوح صليلاً ناتجًا عن احتكاك المعادن.

لا يُخيم أحد غيري الآن، حسبما أعرف، عند منابع نهر كولورادو الصغير؛ وبالتأكيد ليس لأحد الحق في دخول كوخي دون طرق الباب.

جلست في سريري، ومددت يدي تحت وسادتي لأمسك بمسدسي الأوتوماتيكي من عيار 45. الذي أحتفظ به هناك.

أضاء المصباح الزيتي غرفة نومي بخفوت، لكن قوته الرئيسة تركزت فوقي. كانت الغرفة الخارجية مظلمة، كما رأيت عندما انحنيت من سريري وحدقت نحو المدخل.

«مَن هناك؟»، سألت وأنا أفتح محبس الأمان في مسدسي الأوتوماتيكي وأسحب قدميَّ من السرير إلى الأرض. ثم أطفأت المصباح، دون انتظار الرد.

صدرت ضحكة ضعيفة من الغرفة المجاورة: «من الجيد أن جدارك مليء بالشقوق»، قال صوت عميق، «وإلا لكنتَ واجهتَ مشكلة. تبدو بندقيتك متوسطة ، فقد رأيتها قبل أن تطفئ مصباحك».

كان الصوت مألوفًا، لكني لم أستطع تحديده بدقه. سألته: «مَن أنت؟».

أجاب زائري الليلي: «أشعلْ مصباحك وسوف أدخل. إذا كنت متوترًا، يمكنك الاحتفاظ بمسدسك على المدخل، لكني أرجوك ألا تضغط على الزناد قبل أن تعطي لنفسك فرصة التعرف عليَّ».

«اللعنة!»، صحت بصوت خافت، وأنا أشرع في إعادة إضاءة المصباح.

«هل المستوقد لا يزال ساخنًا؟»، تساءل الصوت العميق من الغرفة الخارجية.

أجبت: «ساخنًا جدًّا»، حيث نجحت أخيراً في إشعال الفتيل واستبدال المستوقد الساخن، «تفضلْ».

بقيت جالسًا على حافة السرير، مع الاحتفاظ بتغطية المدخل بمسدسي. سمعت ثانية قعقعة احتكاك المعادن، ثم دخل رجل في ضوء مصباحي الخافت وتوقف عند المدخل. كان رجلاً طويل القامة، يتراوح عمره بين 25 و30 سنة، وعيناه رماديتان، وشعره أسود. كان عاريًا ما عدا أغطية جلدية تدعم أسلحة من تصميم يختلف عن تصميمات أسلحة كوكب الأرض - سيف قصير، وسيف طويل، وخنجر، ومسدس. لكنَّ عينيَّ لم تكونا في حاجة إلى جرد كل هذه التفاصيل قبل أن أتعرف عليه. ألقيت مسدسي ونهضت واقفًا في لحظة رؤيتي له.

وصرخت: «جون كارتر!».

فأجاب بإحدى ابتساماته النادرة: «وليس أي شخص آخر».

تشابكت أيدينا. وقال: «لم تتغيرْ كثيراً».

أجبته: «وأنت لم تتغيرْ على الإطلاق».

تنهد، ثم ابتسم مرة أخرى: «الرب وحده هو مَن يعرف كم عمري. لا يمكنني أن أتذكر مرحلة طفولتي، ولم يتغيرْ مظهري عما أنا عليه هذه الليلة. ولكن، هيا»، أضاف، «يجب ألا تقف هنا حافيًا. اقفزْ إلى السرير مرة أخرى، فليالي أريزونا ليست دافئة».

أحضر كرسيًّا وجلس: «ماذا كنت تقرأ؟»، سألني وهو يلتقط المجلة التي سقطت على الأرض ويحملق في الرسم التوضيحي، «تبدو حكاية مذهلة».

أوضحت: «إنها قصة صغيرة قبل النوم، عن الاغتيال والاختطاف».

سألني: «ألا يكفي ما لديكم على كوكب الأرض، حتَّى تقرأ عن الموضوع للترفيه؟ لدينا هذه الحالات أيضًا على كوكب المريخ».

قلت: «إنه تعبير عن الاهتمام الغريب العادي بقصص الرعب. لا يوجد أي تبرير بالفعل، لكني أستمتع بمثل هذه الحكايات. على أنني فقدت اهتمامي الآن؛ وأريد أن

أسمع عنك أنت وديجاه ثوريس[218] وكارثوريس[219]، وما الذي أحضرك إلى هنا. لقد مرت سنوات منذ أن عُدت آخر مرة، وكنت قد فقدت كل أمل في رؤيتك مرة أخرى».

هز رأسه، بأسف كما أعتقد، وقال: «إنها قصة طويلة، قصة حب وولاء، كراهية وجريمة، قصة سيوف تنزف، وأماكن غريبة، وأناس غريبين على عالم غريب. إنها قصة قد تدفع مَن يعيشها -إن كان رجلاً ضعيفًا- إلى الجنون. أن تؤخذ منك المرأة التي تحبها، ولا تعرف مصيرها!».

لم أسألْه، بطبيعة الحال، مَن يقصد. فلا يمكن إلا أن تكون ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم[220] وزوجة جون كارتر، أمير الحرب في المريخ - المرأة التي بسبب جمالها الأبدي ظل مليون سيف مضرجًا بالدماء لسنوات طوال على الكوكب الآخذ في الاحتضار.

جلس جون كارتر صامتًا لفترة طويلة وهو يحدق في الأرضية. أعرف أن أفكاره كانت على بعد 43 مليون ميل، ولم أكنْ أرغب في مقاطعتها.

وأخيراً تحدث. قال: «تتماثل الطبيعة البشرية في كل مكان»، نقر بإصبعه حافة المجلة الملقاة على سريري، «نحن نعتقد أننا نريد نسيان مآسي الحياة، لكننا لا ننساها. وإذا مرت بنا لفترة قصيرة ثم تركتنا في سلام، فإننا نستحضرها ثانية؛ إما في أفكارنا أو من خلال وسيلة مثل وسيلتك. فأنت تجد متعة قاتمة في القراءة عنها، وأنا أجد متعة قاتمة في التفكير فيها».

«لكن ذكرياتي عن المأساة العظيمة ليست كلها حزينة. كانت مغامرة كبيرة، وقتالاً نبيلاً، وفي النهاية كان هناك ... ولكن، ربما ترغب في سماع القصة».

أخبرته أنني أود سماعها، فحكاها لي؛ وها أنا أسردها هنا بكلماته، بقدر ما استطعت أن أتذكرها.

* * *

---

(218) ديجاه ثوريس: أميرة مملكة هيليوم، وهي زوجة جون كارتر (القادم من كوكب الأرض - (- http://barsoom.wikia.com/wiki/Dejah_Thorisالمترجمة

(219) كارثوريس: هو ابن جون كارتر وديجاه ثوريس، الشقيق الأكبر لتارا. وهو أمير هيليوم. واسمه مزيج من كارتر وثوريس - - https://barsoom.fandom.com/wiki/Carthorisالمترجمة.

(220) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/المريخ، وهي تضم مدينتين توأمًا رئيستين: هيليوم الكبرى وهيليوم الصغرى، وهما معًا بمثابة عاصمة المملكة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium - المترجمة.

الفصل (01)

راباس الأولسيو

تقع زودانجا على مسافة تزيد على 1900 ميل شرق مدينتي هيليوم التوأم، عند حوالي 30 درجة جنوبًا على خط العرض و172 درجة شرقًا على خط الطول. وكانت دومًا مرتعًا للفتنة منذ اليوم الذي قُدْتُ فيه جحافل الثارك[221] الخُضر الشرسين ضدها، وأخضعتها، وأضفتها إلى إمبراطورية هيليوم.

يعيش داخل جدرانها الكئيبة العديد من الزودانجيين الذين لا يشعرون بأي ولاء لهيليوم. ويتجمع فيها أيضًا أعداد من الساخطين على الإمبراطورية العظيمة التي يحكمها تاردوس مورس جيداك[222] هيليوم. فقد هاجر إلى زودانجا عدد غير قليل من الأعداء الشخصيين والسياسيين لبيت تاردوس مورس وصهره جون كارتر أمير هيليوم.

كانت زياراتي للمدينة نادرة؛ فلم أحبها أو أحب شعبها كثيرًا، لكن واجباتي كانت تتطلب وجودي هناك أحيانًا، وأساسًا لأنها كانت مقر إحدى أقوى طوائف القتلة على المريخ.

إن الأرض التي وُلدت فيها ملعونة بالعصابات والقتلة والخاطفين، على أن خطرهم يُعتبر طفيفًا مقارنة بالمنظمات ذات الكفاءة العالية التي تزدهر على المريخ حيث الاغتيال مهنة، والخطف فن، ولكل منهما رابطته وقوانينه وعاداته ومدونة أخلاقياته؛ ولذا تمتد تشعباتهما على نطاق واسع بحيث تبدو متشابكة تمامًا داخل الحياة الاجتماعية والسياسية بأكملها على المريخ.

وقد حاولت لسنوات القضاء على هذا النظام البغيض، لكن المهمة بدت غير مجدية وميؤوسًا منها؛ فهم يتحصنون وراء متاريس العادات والتقاليد العتيقة، التي تجعلهم يحتلون مكانة في الوعي العام، تُلقي عليهم بريق الرومانسية والشرف.

---

(221) ثارك: جماعة المريخيين الخُضر.

- http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Thark – المترجمة.

(222) جيداك: ما يعادل الإمبراطور.

- http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak – المترجمة.

وعلى الرغم من أن تأثير الخاطفين ليس جيدًا، يوجد بين القتلة سيئي السمعة رجال يحتلون نفس مكانة تقدير الجماهير التي يحتلها أبطالك العظماء في حلبة الملاكمة وملعب البيسبول.

علاوة على ذلك، وفي الحرب التي خضتها ضدهم، أعاقتني أيضًا حقيقة أنني أقاتل بمفردي تقريبًا؛ إذ حتى رجال المريخ الحُمر الذين شاركوني نفس الشعور في هذا الموضوع، كانوا يعتقدون أيضًا أن الانحياز معي ضد القتلة ليس سوى وسيلة أخرى للانتحار. على أنني كنت أعرف أن هذا لم يكن ليردعهم، لو شعروا بأن هناك أي أمل في إحراز النجاح في نهاية المطاف.

وكانت نجاتي لفترة طويلة من نصل القتلة الحاد تبدو لهم أقل قليلاً من معجزة، وأعتقد أن ثقتي الشديدة في قدرتي على رعاية نفسي هي فقط ما حالت دون تمسكي بنفس الرأي.

كثيراً ما نصحتني ديجاه ثوريس -وكذا ابني كارثوريس- بالتخلي عن المعركة؛ لكني كرهت طوال حياتي الاعتراف بالهزيمة، ولم أتخلَّ طواعية أبدًا عن فرصة قتال جيد. هناك أنواع معينة من القتل عقابها على المريخ هو الإعدام، وتندرج معظم عمليات القتل التي يمارسها القتلة تحت هذه الأنواع. وهذا هو السلاح الوحيد الذي تمكنت من استخدامه ضدهم حتى الآن، على أنه لم ينجحْ دائمًا نظرًا لصعوبة إثبات جرائمهم، لأن شهود العيان يخشون الإدلاء بشهاداتهم ضدهم.

بيد أنني تمكنت تدريجيًّا من تطوير وتنظيم وسيلة أخرى لمكافحتهم؛ وهي تشكيل منظمة سرية تضم أفضل القتلة. وبعبارة أخرى، اخترت محاربة الشيطان بالنار.

فعند الإبلاغ عن عملية اغتيال، تقوم منظمتي بدور التحري للكشف عن القاتل، ثم تتولى عمل القاضي وهيئة المحلفين، وتضطلع في نهاية المطاف بدور الجلاد. وتقوم بكل خطوة في سرية، لكنها تشق علامة التقاطع (×) بخنجر حاد في قلب كل ضحية من ضحاياها.

نحن نضرب عادة بسرعة، إن أمكننا أن نضرب على الإطلاق؛ وسرعان ما أصبح الجمهور والقتلة يربطون وجود علامة التقاطع (×) على القلب بتحقيق العدالة ضد المذنبين. أعرف أننا استطعنا تقليص معدل الاغتيالات إلى حد كبير في عدد من المدن الكبرى في هيليوم. وبغير ذلك كان يمكن أن نبدو بعيدين عن هدفنا كما بدأنا أوَّل مرة.

على أن أقل نتائجنا كانت في زودانجا، وتفاخر القتلة في تلك المدينة علنًا أنهم أذكى مني؛ فقد خمنوا -على الرغم من عدم تيقنهم- أن علامة التقاطع (×) على صدور رفاقهم القتلى هي من صُنع منظمة برئاستي.

أتمنى ألا أكون قد أصبتك بالملل من عرض هذه الحقائق الجافة، لكني رأيت من الضروري أن أوضحها لك كمقدمة للمغامرات التي خضتها، وأخذتني إلى عالم غريب في محاولة للتصدي للقوى الخبيثة التي حوَّلت حياتي إلى مأساة.

في معركتي ضد القتلة في برسوم[223]، لم أتمكن أبدًا من تجنيد العديد من العملاء للعمل في زودانجا. أما مَن يتمركزون فيها، فكان عملهم غير متقن؛ ما أعطى أعداءنا سببًا وجيهًا للسخرية منا لفشلنا.

لو قلت إن هذا الوضع يزعجني، أكون قد خففت من شأنه. ولذا قررت أن أذهب شخصيًّا إلى زودانجا؛ ليس بغرض إجراء تحريات شاملة فحسب، وإنما أيضًا لإعطاء القتلة الزودانجيين درسًا يُحوِّل ضحكاتهم الساخرة إلى تعاسة.

قررت أن أذهب سرًّا ومتنكرًا؛ فقد كنت أعرف أنني إذا ذهبت إلى هناك كجون كارتر أمير الحرب من المريخ، لن أتمكن من معرفة أي شيء أكثر مما أعرفه بالفعل.

والتنكر بالنسبة لي يُعد مسألة بسيطة نسبيًّا. لقد جعلتني بشرتي البيضاء وشعري الأسود رجلاً مميزاً على المريخ؛ حيث لا يوجد على الكوكب مَن لديه بشرة فاتحة اللون مثل بشرتي سوى اللوثاريين[224] بشعرهم الكستنائي، وعِرق الثيرن[225] الأصلع تمامًا.

على الرغم من ثقتي الكاملة في ولاء خدمي، لا يعرف المرء أبدًا متى يمكن أن يندس جاسوس إلى المنظمة التي اخترت أفرادها بعناية فائقة. ولهذا السبب، حافظت على سرية خططي وتحضيراتي حتى على أكثر أفراد حاشيتي ثقة.

تضم حظائر الطائرات على سطح قصري نماذج مختلفة من السفن الفضائية، اخترت من بينها طائرة استطلاعية بذراع واحدة ومحوت من عليها خلسة شارة بيتي. وجدت ذريعة لإبعاد حارس الحظيرة لفترة قصيرة في وقت مبكر من مساء إحدى الليالي، وقمت بتهريب البنود التي أحتاجها لتأمين تنكري جيدًا على متنها؛ فبالإضافة إلى صبغة

---

(223) برسوم: كوكب يسميه أهل كوكب الأرض المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom - المترجمة.

(224) اللوثاريون: هم سكان مدينة لوثار، وهي مدينة مريخية منعزلة تحيط بها الجبال، وتسكنها مجموعة من المريخيين البيض الذين يتمتعون بقدرات نفسية غير عادية - https://barsoom.fandom.com/wiki/Lothar - المترجمة.

(225) الثيرنيون أو الثيرن: هم عِرق مريخي أبيض البشرة وأصلع، يرتدون باروكات شقراء، ويتمتعون بقوى عقلية خارقة – http://barsoom.wikia.com/wiki/Thernالمترجمة

حمراء لبشرتي ودهانات لجسم الطائرة، أدخلت مجموعة كاملة من عتاد زودانجا ومعادنها وأسلحتها.

قضيت ذلك المساء بمفردي مع دجاه ثوريس. وعند الزات[226] الخامس والعشرين تقريبًا بعد الزود الثامن -أو في منتصف الليل بتوقيت كوكب الأرض- ارتديت عتادًا جلديًّا عاديًّا، لا يحمل أي شارة، وأصبحت مستعدًّا للخروج في مغامرتي.

«كنت أتمنى ألا تذهب، يا أميري، لديَّ هاجس... حسنًا.. أن كلينا سوف يشعر بالأسى من جراء هذه الرحلة».

أجبتها: «يجب أن يتعلم القتلة درسًا، وإلا لن يتمكن أحد من عيش حياته آمنًا على برسوم. فقد أعلنوا بأفعالهم تحديًا واضحًا؛ ولا يمكنني تجاهل ذلك».

قالت: «لا أعتقد أن بإمكانك تجاهل الأمر؛ فقد فزت بمكانتك الرفيعة هنا بسيفك، ويجب أن تحافظ عليها بسيفك أيضًا، وإن تمنيت غير ذلك».

أخذتها بين ذراعيّ وقبّلتها وأخبرتها ألا تقلق، وأنني لن أغيب طويلاً؛ ثم توجهت إلى الحظيرة على السطح.

ربما ظن حارس الحظيرة أن خروجي على متن طائرة في هذا الوقت من الليل هو أمر غير عادي، لكنه لم يتشككْ في وجهتي. أقلعت نحو الغرب، وأتحرك الآن خلال الهواء الرقيق للمريخ، تحت النجوم التي لا تُعد ولا تُحصى وقمري الكوكب الأحمر الرائعين.

يأسرني دائمًا القمران المريخيان. وفي هذه الليلة، وأنا أحدق نحوهما، شعرت بإغراء الغموض الذي يحيط بهما. ثوريا هو القمر الأقرب، ومعروف في كوكب الأرض باسم فوبوس، وهو القمر الأكبر. ويقدم خلال دورانه حول برسوم، على مسافة 5800 ميل فقط، مشهدًا رائعًا للغاية. أما القمر الأبعد كلوروس، الذي يقل قطره قليلاً عن القمر ثوريا، فيبدو أصغر كثيراً نظرًا لبُعد مسافة مداره الكبيرة عن الكوكب والتي تبلغ 14500 ميل.

كانت توجد أسطورة في المريخ، استمرت لعصور طويلة إلى أن أتيت ودمرتها، تقول إن العِرق الأسود، أو مَن يُطلق عليهم أبناء برسوم الأوائل، كانوا يعيشون على القمر

(226) ورد في قصة «آلهة المريخ» أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على 24 ساعة و37 دقيقة (بتوقيت كوكب الأرض). ويقسمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية تسمى زود (أي أن دورة المريخ حول محوره تساوي 10 زود)، وينقسم الزود إلى خمسين فترة أقصر تسمى زات (أي أن الزود يعادل 50 زات) – المترجمة.

الأقرب ثوريا؛ لكني عندما كشفت زيف آلهة المريخ، أظهرت بشكل قاطع أن العرق الأسود كان يعيش في وادي دور، بالقرب من القطب الجنوبي للكوكب.

قدَّم لي القمر ثوريا -الذي بدا مُعلقًا بانخفاض فوقي- مشهدًا رائعًا يثير الاهتمام لأنه يبدو متحركًا عبر السماء من الغرب إلى الشرق؛ ويرجع ذلك إلى حقيقة أن مداره قريب جدًّا من الكوكب بحيث يستكمل القمر دورة كاملة في فترة تقل عن ثُلث الفترة التي يستغرقها دوران المريخ اليومي. لكني عندما شاهدت سحره الحالم هذه الليلة، لم أكن لأخمن الدور الذي سرعان ما سيلعبه في المغامرات المثيرة والمأساة الكبرى التي تكمن وراء الأفق.

عندما تجاوزت مدينتي هيليوم التوأم، أطفأت أنوار سفينتي ودُرت نحو الجنوب لأتجه تدريجيًّا نحو الشرق إلى أن اتخذت مسارًا فعليًّا لزودانجا. قمت بضبط بوصلة الاتجاه حتى أتمكن من تحويل انتباهي إلى مسائل أخرى، مع علمي أن هذا الاختراع الذكي من شأنه أن يحمل السفينة بأمان إلى وجهتها.

تكمن مهمتي الأولى في إعادة طلاء هيكل الطائرة. قمت بربط أحزمة على عتادي ومدّها إلى الحلقات التي تقع عند الحافة العليا من سفينتي الفضائية، ثم شرعت في العمل وأنا أميل بجسمي على جانب السفينة. كان العمل بطيئًا؛ لأنني بعد طلاء القدر الذي أمكنني الوصول إليه في جميع الاتجاهات، كان يجب أن أصعد على سطح السفينة لتغيير أماكن الأحزمة حتى أتمكن من تغطية جزء آخر من هيكل السفينة. وأخيراً أنجزت العمل مع اقتراب الصباح، على الرغم من أنني لا أستطيع القول إنني نظرت بفخر إلى النتيجة باعتبارها إنجازاً فنيًّا. مع ذلك، فقد نجحت في تغطية الطلاء القديم، وبالتالي تمويه السفينة بقدر ما يتعلق الأمر باللون. وبعد أن انتهيت، ألقيت الفرشاة وما تبقى من الطلاء في البحر، ثم ألقيت العتاد الجلدي الذي ارتديته في المنزل قبل خروجي.

ونظرًا لأن جسمي امتلأ بالكثير من الطلاء يقارب ما حصل عليه هيكل السفينة، فقد استغرقت بعض الوقت لمحو بقايا هذا الدليل الذي قد يعرف خلاله أي مراقب مدقق أنني أعدتُ مؤخرًا طلاء سفينتي.

وبعد أن انتهيت من هذه المهمة، وضعت الصبغة الحمراء بالتساوي على كل بوصة مربعة من جسدي العاري؛ بحيث أصبح بإمكاني الحركة في أي مكان على المريخ كأحد أفراد العِرق الأحمر المريخي المهيمن. وعندما ارتديت العتاد الزودانجي، ووضعت المعادنَ والأسلحة الزودانجية، شعرت أن تنكري اكتمل.

الوقت الآن منتصف الظهيرة. تناولت الطعام، ثم استلقيت لأنتزع بضع ساعات من النوم.

من المرجح أن يتسبب دخول مدينة مريخية بعد حلول الظلام في الكثير من الإحراج لمَن لا يستطيع شرح مهمته بسهولة. يمكنني، بطبيعة الحال، أن أتسلل بلا أضواء؛ لكن فرص الاكتشاف من جانب أحد زوارق الدورية كبيرة جدًّا. ولأنني غير قادر على شرح مهمتي أو الكشف عن هويتي بأمان، فبالتأكيد سوف يرسلون بي إلى الحُفر، ولا شك أنني سألقى العقوبة التي تُفرض على الجواسيس- السجن الطويل في الحُفر، ثم الموت في الساحة.

وإذا دخلت وأنواري مضاءة، سوف يلقون القبض عليَّ بالتأكيد. ولأني غير قادر على الإجابة على الأسئلة بشكل يبعث على الرضى، كما لا يوجد مَن يكفلني، فإن مأزقي سيكون على نفس الدرجة من الصعوبة. وبالتالي، عندما اقتربت من المدينة قبل فجر اليوم الثاني،

أوقفت محرك سفينتي وانجرفت بعيدًا عن نطاق أضواء كشافات زوارق الدورية.

وحتى بعد بزوغ ضوء النهار، لم أقترب من المدينة إلى منتصف الظهيرة عندما كانت السفن الأخرى تتحرك ذهابًا وإيابًا بحرية عبر أسوارها.

توضع قيود قليلة على دخول وخروج الطائرات الصغيرة في النهار، ما لم تكن المدينة في حالة حرب. تقوم زوارق الدورية أحيانًا بإيقاف إحدى هذه الطائرات واستجوابها؛ ونظرًا لارتفاع قيمة الغرامة على السير من دون ترخيص، تحافظ الحكومة على مظهر الانضباط.

لا يتعلق الأمر في حالتي بترخيص قيادة سفينة، بل بحقي في الوجود أصلاً في زودانجا؛ ولذلك كان اقترابي من المدينة لا يخلو من توابل المغامرة.

وأخيراً أصبح سور المدينة يقع أسفلي مباشرة تقريبًا، وكنت أهنئ نفسى على حسن حظي لعدم وجود زورق دورية في الأفق. لكن تهنئتي كانت مبكرة؛ فقد ظهر على الفور تقريبًا، من وراء برج شاهق، أحد تلك الطرادات الصغيرة السريعة التي تُستخدم عادة في جميع المدن المريخية لخدمة الدوريات، وكان يتجه نحوي مباشرة.

كنت أتحرك ببطء حتى لا أجذب انتباهًا غير مطلوب، لكني أؤكد لك أن ذهني كان يعمل بسرعة. كانت طائرتي الاستطلاعية، المخصصة لشخص واحد، سريعة جدًّا، ويمكنني بسهولة الابتعاد عن زورق الدورية؛ على أن ذلك يتعارض مع أمرين على درجة

كبيرة من الأهمية بالنسبة لخطتي. أولهما أن زورق الدورية سوف يطلق النار فورًا دون شك، مع فرص ممتازة لإسقاطي. وثانيهما أنني إذا هربت، فمن المستحيل عمليًّا أن أدخل المدينة مرة أخرى بهذه الطريقة لأنهم سيتعرفون على طائرتي وسينطلق نظام الدوريات بأكمله للبحث عني.

أخذ الطراد يقترب مني تدريجيًّا، وكنت أستعد لشق طريقي بحيلة وهي سرد قصة وهمية حول غيابي لفترة طويلة عن زودانجا فقدت خلالها أوراقي. كان أفضل ما تمنيته أن يقتصر الأمر على تغريمي لمجرد عدم وجود الأوراق؛ وسوف أرحب تمامًا بهذا الحل لمشكلتي؛ لأني كنت مزودًا بقدر كبير من المال.

على أنه كان أملاً ضئيلاً؛ فمن المتوقع أن يصرون على معرفة مَن كان كفيلي وقت إصدار أوراقي المفقودة، وومن دون كفيل سأكون في وضع سيئ.

وما إن وصلوا إلى مسافة تتيح الحديث، وأنا على يقين بأنهم على وشك أن يأمروني بالتوقف، حتَّى سمعت صوت تحطم عاليًا فوقي. نظرت إلى أعلى، ورأيت تصادم سفينتين صغيرتين. أمكنني الآن رؤية الضابط قائد زورق الدورية بوضوح. وعندما كنت أنظر نحوه، وجدته ينظر إلى أعلى. أصدر أمرًا قصيرًا؛ وعندئذ ارتفعت مقدمة زورق الدورية وأسرع صاعدًا، حيث تحول انتباهه عني إلى مسألة تتسم بأهمية أكبر بكثير. وفي هذه الأثناء، تسللت بهدوء داخل مدينة زودانجا.

تعرضت زودانجا منذ سنوات عديدة إلى النهب من جانب جحافل ثارك الخضراء، ودُمرت تمامًا تقريبًا. كنت على دراية أكبر بالمدينة القديمة، ولم أزُرْ زودانجا بعد إعادة بنائها سوى مرة أو مرتين.

تجولت فوق المدينة على مهل، ووجدت أخيرًا ما أبحث عنه - حظيرة عامة متواضعة في حي رديء من أحياء المدينة. توجد أحياء في كل مدينة أعرفها، حيث يمكن للمرء أن يتحرك دون التعرض لاستجواب فضولي ما دام لا يتعارض مع الضباط المسؤولين عن تنفيذ القانون؛ وهكذا بدت لي هذه الحظيرة وهذا الحي.

تقع الحظيرة على سطح مبنى قديم جدًّا، يبدو من الواضح أنه نجا من ويلات الثارك. كانت مساحة الهبوط صغيرة، والحظائر نفسها حقيرة وقذرة.

ما إن استقرت طائرتي على السطح، حتى ظهر رجل سمين ملطخ بشحوم سوداء، من خلف طائرة يبدو أنه يعمل في إصلاح محركها.

تطلع نحوي متسائلاً، وأعتقد دون أي تعبيرات ودية: «ماذا تريد؟».

- هل هذه حظيرة عامة؟

- نعم.

- أريد مكانًا لطائرتي.

سألني: «هل لديك نقود؟».

أجبته: «لديَّ القليل. وسوف أدفع إيجار شهر مقدمًا».

ذاب العبوس عن وجهه وقال مشيراً بيده: «هذا الموقع شاغر، خذها إلى هناك».

نقلت الطائرة إلى حظيرتها، وأغلقت لوحات التحكم، ثم عُدت إلى الرجل ودفعت له المبلغ المطلوب.

سألته: «هل يوجد مسكن عام جيد بالقرب من هنا؟ مسكن رخيص وليس شديد القذارة».

أجاب: «يوجد واحد في هذا المبنى، بمثل جودة أي مسكن عام تجده حولنا هنا».

هذا يناسبني تمامًا؛ فعندما يكون المرء في مغامرة من هذا النوع، لا يعرف أبدًا مدى سرعة احتياجه إلى طائرة أو مدى سرعة أن يحول ذلك بينه وبين الموت.

غادرت مالك الحظيرة العابس، ونزلت السلم الحلزوني الذي يفتح على السطح.

لا تصل المصاعد سوى إلى الطابق الذي يقع أسفل السطح. وجدت مصعدًا بابه مفتوح. كان عامل المصعد زميلاً شابًّا مبتذلاً، يرتدي عتادًا رثًّا.

سألني: «الطابق الأرضي؟».

أجبته: «أنا أبحث عن مكان للسكن. وأريد الذهاب إلى مكتب المسكن العام في هذا المبنى».

أومأ، وبدأ المصعد في الهبوط. بدا المبنى أكثر قِدمًا وتداعيًا من الداخل عنه من الخارج، كما بدت الطوابق العليا شاغرة عمليًّا.

قال: «ها قد وصلنا»، وأوقف المصعد وفتح الباب.

تُعتبر البيوت العامة -مثل هذا البيت- في المدن المريخية مجرد أماكن للنوم. ويندر أن تضم غرفًا خاصة، لكنها قليلة إن وجدت. توجد على طول الجدران الجانبية للغرف الطويلة منصات منخفضة يضع كل ضيف فوقها حرير وفراء النوم في المساحة المرقمة المخصصة له.

ونظرًا لانتشار الاغتيال، يتولى حراس مسلحون -يُعينهم المالك- حماية هذه الغرف ليلاً ونهارًا في دوريات؛ ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى أن الغرف الخاصة ليست مطلوبة. وفي المساكن التي تلبي احتياجات النساء، يتم فصل الضيوف. كما توجد المزيد من الغرف الخاصة دون حراسة في مقرات الإقامة؛ إِذْ يندر -إن حدث على الإطلاق- أن يقتل رجال برسوم امرأة، أو يمكنني القول إنهم لا يستعينون عادة بالقتلة لقتلهن.

كان المسكن العام الذي قادتني إليه المصادفة يقتصر على الرجال، ليس فيه نساء.

وكان المالك رجلاً قوي البنية، عرفت لاحقًا أنه بانتان[227] شهير سابق، أو جندي مرتزق. وقد خصص لي مكانًا للنوم، وحصل على رسم الإقامة ليوم واحد؛ ثم تركني بعد أن وجهني إلى مكان لتناول الطعام كما طلبت منه.

بالكاد ما كان يوجد في المسكن أي من الضيوف الآخرين في هذه الساعة من اليوم. ضمت المساحات المخصصة لهم أمتعتهم الشخصية، وحرير وفراء نومهم. وعلى الرغم من عدم وجود دوريات للحراس لحماية الغرفة، كانت الأمتعة في أمان؛ لأن السرقة غير معروفة عمليًّا على المريخ.

كنت قد أحضرت معي بعض الحرير والفراء، القديم والعادي، للنوم ووضعته على المنصة المخصصة لي. كان يرقد على المنصة المجاورة شخص تبدو عيناه مراوغتين ويبدو وجهه شريرًا. لاحظت أنه كان ينظر لي خلسة منذ أن دخلت. وأخيرًا تحدث معي.

قال: «كاور!»، وهي كلمة التحية المألوفة لسكان المريخ.

أومأت، وأجبته بتحية مماثلة.

قال: «نحن جيران إِذَنْ».

أجبت: «يبدو ذلك».

---

(227) بانتان: هو جندي مريخي مرتزق، يتنقل من مكان لآخر ويقاتل لصالح مَن يرغب في شراء خدماته - http://barsoom.wikia.com/wiki/Panthan - المترجمة.

واصل قائلاً: «من الواضح أنك غريب، على الأقل في هذا الجزء من المدينة. سمعتك تسأل المالك أين يمكنك العثور على مكان لتناول الطعام. لكن المكان الذي أخبرك به ليس بجودة المكان الذي أذهب إليه. وأنا ذاهب إلى هناك الآن؛ ويسعدني إذا أردت أن تأتي معي».

هناك شيء غامض في الرجل يؤكد -ارتباطًا بوجهه الشرير- أنه من فئة المجرمين الجنائيين. ونظرًا لأنني كنت أتوقع العمل بين هذه الفئة، كان

اقتراحه يتسق جيدًا مع خططي؛ ولذا وافقت بسرعة.

قال: «اسمي راباس»، ثم أضاف بفخر، «ويسمونني راباس الأولسيو».

تأكدت الآن أنني حكمت عليه بشكل صحيح؛ فكلمة أولسيو(228) تعني الجرذ.

قلت له: «اسمي فاندور»، وهو الاسم المستعار الذي اخترته لهذه المغامرة.

قال خلال سيرنا من الغرفة إلى المصاعد: «من معدنك، أرى أنك زودانجي».

أجبته: «نعم، لكني غبت عن المدينة لسنوات. وفي الواقع، لم آتِ إلى هنا منذ أن أحرقها الثاركيون. لقد حدثت العديد من التغييرات، كأنني أتيت إلى مدينة غريبة».

قال: «من مظهرك، أعتقد أنك مقاتل، القتال مهنتك».

أومأت، وقلت: «أنا بانتان. لقد خدمت لسنوات عديدة في بلد آخر، لكني قتلت رجلاً في الآونة الأخيرة واضطررت إلى المغادرة». أعرف أنه إذا كان مجرمًا كما خمنت، فإن اعترافي بجريمة قتل سيجعله يتعامل معي بحرية أكبر.

حملق نحوي سريعًا بعينيه المراوغتين؛ ورأيت أن اعترافي أعجبه، بطريقة أو بأخرى. تحدثنا بشكل عام خلال طريقنا إلى المطعم، الذي يقع في شارع آخر على مسافة قصيرة من مسكننا العام.

جلسنا على الطاولة، وطلب راباس المشروبات؛ وبدأ بعد أول مشروب مباشرة يتحدث بطلاقة.

سألني: «هل ستبقى في زودانجا؟».

---

(228) أولسيو: مخلوق مريخي مروع يماثل إلى حد كبير الجرذ على كوكب الأرض. يشبه الفأر الصغير الذي نما إلى حجم كلب الصيد الضخم - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ulsio - المترجمة.

أجبته: «هذا يعتمد على مدى إمكانية العثور على لقمة عيش هنا. أموالي لن تكفيني طويلاً. ونظرًا لأنني تركت آخر صاحب عمل في ظل الظروف التي أخبرتك بها، فليس لديَّ بطبيعة الحال أي أوراق؛ ولذلك قد أواجه مشكلة في العثور على مكان أصلاً».

واصل راباس الشرب خلال تناولنا وجبتنا. وكلما شرب أكثر، زادت ثرثرته.

أعلن الآن: «أنت تروق لي يا فاندور، وإذا كنت من النوع المطلوب كما أعتقد، فيمكنني أن أجد لك عملاً». وأخيرًا انحنى مقتربًا مني وهمس في أذني قائلاً: «أنا جورثان»[(229)] .

يا له من حُسن حظ مُذهل. كنت آمل في الاتصال بالقتلة، وأقر أول رجل أتعرف عليه بأنه أحدهم.

هززت كتفي في عدم اهتمام.

وقلت: «لا يدر ذلك الكثير من المال».

قال مؤكِّدًا: «بل الكثير، إذا كانت لديك علاقات جيدة».

فقلت مجادلاً: «ولكن ليست لديَّ علاقات جيدة، أو على الأقل هنا في زودانجا. أنا لا أنتمي إلى الرابطة الزودانجية؛ وكما قلت لك اضطررت إلى العودة دون أي أوراق».

نظر حوله بمكر ليرى ما إذا كان هناك أي شخص قريب يمكنه الاستماع إلى الحديث، ثم همس: «الرابطة ليست ضرورية، ولا ينتمي جميعنا إلى الرابطة».

علقت قائلاً: «طريقة جيدة للانتحار».

«ليس بالنسبة لرجل يتمتع بعقل جيد. انظر إليَّ، أنا قاتل ولا أنتمي إلى الرابطة. وأكسب أيضًا مالاً وفيراً ولست مضطرًا إلى مقاسمته مع أي شخص»، تناول شرابًا آخر، «لا يوجد كثيرون يتمتعون بعقول جيدة مثل راباس الأولسيو».

انحنى مقتربًا مني، وقال: «أنا معجب بك يا فاندور، أنت زميل جيد»، أخذ صوته يزداد ثقلاً من جراء الشراب، «لديَّ زبون شديد الثراء؛ ولديه الكثير من العمل ويدفع بشكل جيد. يمكنني أن أحصل لك على عمل متقطع معه بين الحين والآخر. وربما يمكنني أن أجد لك عملاً ثابتًا. ماذا تريد؟».

---

(229) جورثان: كلمة بلغة المريخ تعني «قاتل»، وهي إحدى المهن الشائعة على كوكب المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Gorthan - المترجمة.

هززت كتفيَّ وقلت: «على الرجل أن يعيش؛ وليس بمقدوره أن يحدد وظيفته وليس لديه الكثير من المال».

«حسنًا، يمكنك أن تأتي معي، سوف أذهب إلى هناك الليلة. وعندما يتحدث معك فال سيفاس، سأقول له إنك الرجل الذي يحتاجه تمامًا».

سألته: «ولكن ماذا عنك؟ فهذا عملك، وبالتأكيد لا يوجد رجل يحتاج إلى اثنين من القتلة».

أجاب راباس: «لا تهتم بأمري، لديَّ أفكار أخرى في رأسي». توقف فجأة وتطلع نحوي بنظرة سريعة ومتشككة؛ كأنما ما قاله قد أيقظه من سكرته. هز رأسه، في محاولة واضحة للتفكير بصفاء. سألني: «ماذا قلت؟ لا بد أنني ثمل».

«قلت إن لديك خططًا أخرى. أعتقد أنك تعني أن أمامك عملاً أفضل».

سأل: «هل هذا كل ما قلته؟».

«قلت إنك ستأخذني إلى رجل يُدعى فال سيفاس، سوف يعطيني عملاً».

شعر راباس بالارتياح. «نعم، سآخذك لرؤيته الليلة».

* * *

الفصل (02)

فال سيفاس

نام راباس في الفترة المتبقة من اليوم، بينما شغلت وقتي بالتسكع حول طائرتي في الحظيرة العامة فوق دار الضيافة. فهذه البقعة أكثر عزلة بكثير من غرفة النوم العامة أو شوارع المدينة، حيث يمكن لأي حادث أن يخترق تنكري ويكشف عن هويتي.

وبينما أعمل على محرك طائرتي، تذكرت الخوف الذي انتاب راباس فجأة عندما تصور أنه كشف لي شيئًا في حديثه وهو مخمور؛ وتساءلت دون اكتراث ماذا يكون ذلك. لقد ظهر خوفه بعد تصريحه بأن لديه خططًا أخرى. أي خطط؟ ومهما كانت، فمن الواضح أنها شائنة، وإلا لم يكن ليقلق على هذا النحو خشية أن يكون قد كشف عنها.

أقنعتني معرفتي القصيرة براباس أن تقييمي الأول لشخصيته كان صحيحًا، وأنه جدير حقًّا بتسميته الجرذ.

أغاظني الخمول القسري لهذا اليوم الطويل، لكن راباس الأولسيو جاء في المساء وغادرنا مسكننا وذهبنا ثانية إلى المطعم.

كان راباس متزنًا الآن، كما لم يأخذ سوى مشروب واحد مع وجبته. قال: «يجب أن يكون رأسك صافيًا عندما تتحدث إلى فال سيفاس العجوز. باسم سَلَفي الأول، لم يفقس من بيضة امرأة من قبل أي عقل أكثر دهاء من عقله»[230].

خرجنا في الليل بعد أن انتهينا من وجبتنا، وقادني راباس عبر طرق واسعة وأزقة ضيقة إلى أن وصلنا إلى مبنى كبير بالقرب من سور زودانجا الشرقي.

كان المبنى عبارة عن كومة مظلمة وقاتمة، والطريق المؤدي إليه غير مضاء. يقع المبنى في منطقة مخصصة للمستودعات، وكان كل ما يحيط بها مهجورًا في هذا الوقت من الليل.

اقترب راباس من مدخل صغير مخفي في زاوية إحدى الدعامات. رأيته يتلمس طريقه بيديه عند أحد جانبي الباب، ثم تراجع الآن وانتظر.

(230) ورد في قصص سابقة في سلسلة المريخ أن نساء المريخ لا يلدن، بل يضعن البيض - المترجمة.

قال بمسحة من التباهي: «ليس بإمكان كل شخص أن يحظى بالدخول إلى بيت فال سيفاس العجوز. يجب أن تعرف الإشارة الصحيحة، وهذا يعني أنك حائز على ثقة الرجل العجوز».

انتظرنا في صمت ربما لدقيقتين أو ثلاث دقائق. لم يصدر أي صوت من وراء الباب؛ والآن انفتح منفذ مستدير صغير على سطح الباب، ورأيت في الضوء الخافت للقمر الأبعد عينًا تتفحصنا، ثم تحدث صوت.

همس الصوت: «آه، راباس النبيل!»، ثم تأرجح الباب مفتوحًا.

كان الممر وراء الباب ضيقًا، ولصق الرجل الذي فتح الباب جسمه بالجدار حتى نتمكن من المرور، ثم أغلق الباب خلفنا. تبعناه على طول ممر مظلم، حتى وصلنا أخيراً إلى غرفة صغيرة خافتة الإضاءة.

هنا توقف مرشدنا، وقال لراباس: «لم يخبرنا السيد أنك ستحضر معك شخصًا آخر».

أجاب راباس: «لم يكن يعرف. وفي الواقع، لم أكن أنا نفسي أعرف حتى اليوم، لكن كل شيء على ما يرام. سوف يسعد سيدك لاستقباله عندما أشرح لماذا أحضرته».

أجاد العبد: «هذه مسألة يجب أن يقررها فال سيفاس بنفسه. ربما من الأفضل أن تذهب أولاً وتتحدث معه، وتترك الغريب هنا معي».

قال رفيقي موافقًا: «حسنًا. فاندور، ابقَ هنا حتى أعود».

فتح العبد الباب في الجانب البعيد من غرفة الانتظار؛ وبعد أن دخل راباس، تبعه وأغلق الباب.

تبادر إلى ذهني غرابة هذا التصرف قليلاً؛ فقد سمعته للتو يقول إنه سيبقى معي، وكان يمكن ألا أفكر في الأمر أكثر لو لم يتملكني الآن شعورٌ واضحٌ بأنني مراقب.

لا أستطيع أن أشرح هذا الشعور الذي ينتابني أحيانًا. يقول خبراء كوكب الأرض إن هذا الشكل من التخاطر مستحيل علميًّا، لكني شعرت في العديد من المناسبات بهذه المراقبة السرية، ثم اكتشفت لاحقًا أنني كنت تحت المراقبة بالفعل.

تجولت عيناي عرضًا في الغرفة، ثم استقرت ثانية على الباب الذي اختفى وراءه راباس والعبد. ظهر من خلال ثقب مستدير صغير في الألواح بريق شيء، قد يكون عينًا تلمع في الظلام. كنت أعرف أنها عين.

لا أعرف لماذا يحتاجون إلى مراقبتي. وإذا كان مراقبي يأمل في اكتشاف أي شيء مريب عني، سوف يُصاب بخيبة أمل؛ فما إن أدركت أن العين تراقبني، حتَّى مشيت إلى مقعد في أحد جوانب الغرفة وجلست، وعقدت العزم على عدم الكشف عن أي شيء يثير أدنى فضول حولي.

ربما لا تعني هذه المراقبة في حد ذاتها سوى القليل، وإنما في علاقتها بمظهر المبنى القاتم والبغيض، والتسلل والسرية الكبيرة لدخولنا، يتبلور لديَّ انطباع كريه عن المكان وصاحبه أكثر مما كان قد بدأ يتشكل بالفعل في ذهني.

لم يصدر أي صوت من وراء جدران الغرفة، كما لم تنفذ الضوضاء الليلية في المدينة إلى غرفة الانتظار الصغيرة. وهكذا جلست في صمت تام لمدة عشر دقائق تقريبًا، ثم فُتِح الباب وأومأ العبد نفسه.

قال: «اتبعني. سوف يراك السيد. سوف آخذك إليه».

تبعته على طول ممر قاتم، وصعدنا سلمًا حلزونيًّا إلى المستوى الأعلى التالي من المبنى. أدخلني بعد لحظة إلى غرفة هادئة الإضاءة، مفروشة بفخامة مترفة، حيث رأيت راباس يقف أمام أريكة يتكئ عليها، أو يجب أن أقول يجثم، فوقها رجل. ذكّرني على نحو ما بقط هائل يراقب فريسته، ومستعد دائمًا للانقضاض.

قال راباس، على سبيل التعريف: «هذا هو فاندور، يا فال سيفاس».

أحنيت رأسي امتنانًا، ووقفت أمام الرجل منتظرًا.

قال فال سيفاس: «أخبرني راباس عنك. أنت من أين؟».

أجبت: «أنا في الأصل من زودانجا، لكن ذلك كان قبل سنوات من نهب المدينة».

سألني: «وأين كنت منذ ذلك الحين؟ ولمَن قدمت خدماتك؟».

أجبت: «هذه مسألة لا تهم أي شخص سواي. يكفي أنني لم أكن في زودانجا، وأنني لا أستطيع العودة إلى البلد الذي هربت منه للتو».

سأل: «أليس لديك أصدقاء أو معارف في زودانجا؟».

أجبت: «ربما لا يزال بعض معارفي أحياء بالطبع، لكنني لا أعرف؛ فأهلي ومعظم أصدقائي قُتلوا خلال اجتياح الجحافل الخضراء للمدينة».

سأل: «ولم يكن لديك أي اتصال بزودانجا منذ أن غادرت؟».

«لا شيء على الإطلاق».

«ربما أنت الرجل الذي أحتاجه تحديدًا. راباس متأكد من ذلك، لكني لست متأكدًا؛ فلا يمكن الوثوق بأي رجل».

قاطعه راباس: «آه، ولكن أيها السيد، ألم أخدمك دائمًا بشكل جيد وبإخلاص؟».

أظن أنني رأيت ابتسامة سخرية خفيفة على شفتَي فال سيفاس.

وقال: «أنت نموذج مثالي، راباس، أنت روح الشرف».

انتفخ راباس لشعوره بالأهمية. وحالت أنانيته دون أن يلاحظ مسحة السخرية في صوت فال سيفاس.

سألته: «هل أعتبر أنني وجدت عملاً؟».

سألني: «هل تدرك أنه قد يُطلب منك استخدام الخنجر أكثر من السيف، وأن السموم تكون أحيانًا أفضل من المسدسات؟».

- أدرك ذلك.

تطلع نحوي بجدية.

وتابع قائلاً: «قد يأتي وقت تُضطر فيه إلى امتشاق سيفك الطويل أو القصير دفاعًا عني. هل أنت مبارز قدير؟».

أجبت: «أنا بانتان، وبالتالي أعيش بالسيف؛ وحقيقة وجودي هنا تجيب على سؤالك».

- ليس تمامًا. يجب أن يوجد لديَّ مبارز متمكن. راباس، هنا، بارع في استخدام السيف القصير. دعنا نرى ما يمكنك القيام به ضده.

سألته: «حتى الموت؟».

قهقه راباس بصوت عال، وقال: «لم أحضرك إلى هنا لأقتلك».

قال فاس سيفاس: «كلا، ليس حتى الموت، بطبيعة الحال. مجرد خدش صغير. دعنا نرى مَن سيتمكن من خدش الآخر أولاً».

لم تعجبني الفكرة. أنا لا أمتشق سيفي عادة إلا إذا كنت أنوي القتل، على أنني أدركت أنني أؤدي دورًا ولذا قد أُضطر إلى القيام بأشياء كثيرة لا أوافق عليها. لذلك أومأت بالموافقة وانتظرت أن يمتشق راباس سيفه.

كان سيفه القصير يومض في غمده. قال: «لن ألحق بك ضررًا شديدًا يا فاندور؛ لأني مُعجب بك جدًّا».

شكرته وامتشقت سلاحي.

خطا راباس إلى الأمام للاشتباك معي، وعلى شفتيه ابتسامة واثقة. وفي اللحظة التالية كان سلاحه يطير عبر الغرفة. لقد جردته من سلاحه، وأصبح تحت رحمتي. تراجع وعلى وجهه ابتسامة هزيلة. ضحك فال

سيفاس.

قال راباس: «كان حادثًا؛ فلم أكن مستعدًّا».

قلت له: «أنا آسف؛ اذهبْ واستردَّ سلاحك».

أخذ سلاحه وعاد، واندفع هذه المرة نحوي بشراسة. كان يمكن أن يصيبني بأكثر من مجرد خدش إذا نجح هجومه؛ إذ كان سيطعنني في القلب مباشرة. تفاديت الطعنة وخطوت للأمام، وطار سيفه ثانية عبر الهواء واصطدم بالجدار المقابل مصلصلاً.

جلجلت ضحكة فال سيفاس. وغضب راباس. قال فاس سيفاس: «كفى، هذا يرضيني. أغمدا سيفيكما».

عرفت أنني جعلت راباس عدوًّا، لكن ذلك لم يهمني كثيرًا؛ فلأنني على حذر، سوف أراقبه على الدوام. على أي حال، لم أثقْ به أبدًا.

سألني فال سيفاس: «هل أنت على استعداد لتدخل في خدمتي على الفور؟».

أجبت: «أنا في خدمتك الآن».

ابتسم. «أعتقد أنك سوف تجعلني رجلاً صالحًا. يريد راباس أن يبتعد لفترة من الوقت للاهتمام بأمور تخصه. وسوف تظل أنت هنا خلال غيابه كحارسي الشخصي. وعندما يعود، سوف أستعين بك بشكل أو آخر. فكونك غير معروف في زودانجا يجعل قيمتك كبيرة جدًّا بالنسبة لي». التفت إلى راباس وقال: «يمكنك أن تذهب الآن، يا راباس، ويمكنك خلال فترة غيابك أن تأخذ بعض الدروس في المبارزة».

ابتسم فال سيفاس وهو يقول ذلك، ابتسامة عريضة؛ لكن راباس لم يبتسم. ظهر شعوره بالمرارة، ولم يودعني وهو يغادر الغرفة.

بعد خروج القاتل وإغلاق الباب خلفه، قال فال سيفاس: «أخشى أنك جرحت كرامته».

أجبت: «لا تقلق، وعلى أي حال لم يكن خطئي، وإنما خطؤه».

سألني فال سيفاس: «ماذا تقصد؟».

«راباس ليس مبارزًا جيدًا».

قال فال سيفاس مؤكِدًا: «إنه يُعتبر مبارزًا ممتازًا».

«أتصور أنه كقاتل، أكثر مهارة بالخنجر والسم».

سأل: «وماذا عنك؟».

أجبت: «أنا كمقاتل، أُفضل السيف بطبيعة الحال».

هز فال سيفاس كتفيه قائلاً: «هذه مسألة تثير قلقي إلى حد ما. إذا كنت تفضل قتل أعدائي بالسيف، استخدم السيف. كل ما أطلبه هو أن تقتلهم».

سألته: «هل لديك العديد من الأعداء؟».

أجاب: «هناك الكثيرون الذين يرغبون في رؤيتي وأنا مُبعد عن الطريق. أنا مُخترِع، وهناك مَن يسرقون اختراعاتي. كنت مضطرًّا إلى تدمير العديد منهم. يشتبه أهلهم بي ويسعون إلى الانتقام؛ لكنَّ هناك شخصًا يسعى، قبل كل شيء، إلى تدميري. وهو مخترع أيضًا، وقد استعان بأحد أعضاء رابطة القتلة للتخلص مني.

«يرأس أور جان هذه الرابطة، وقد هدَّد شخصيًّا حياتي؛ لأنني استعنت بشخص غير عضو في رابطته للقيام بعمليات القتل التي أريدها».

تحدثنا لفترة قصيرة، ثم استدعى فال سيفاس عبدًا ليصحبني إلى مقر إقامتي. قال: «إنه يقع أسفل مقر إقامتي. وإذا استدعيتك، عليك أن تأتي على الفور. ليلة سعيدة».

قادني العبد إلى غرفة أخرى في نفس الطابق. وهي في الواقع جناح صغير من ثلاث غرف. كان أثاثها عاديًّا، لكنه مريح.

«هل تحتاج إلى أي شيء، أيها السيد؟»، سألني العبد وهو يستدير ليغادر الغرفة.

أجبت: «لا شيء».

قال: «غدًا سيتم تكليف عبد لخدمتك»، ثم خرج. ركزت سمعي لأعرف ما إذا كان أوصد الباب من الخارج، لكنه لم يفعل، على الرغم من أنني لم أكن لأندهش لو فعل ذلك. لقد بدا كل شيء يتعلق بهذه الكومة الكئيبة شريرًا وسريًّا.

انشغلت لبضع لحظات في تفقد مقر إقامتي. كان يتكون من غرفة معيشة، وغرفتَي نوم صغيرتين، وحمَّام. يوجد باب واحد ينفتح من غرفة المعيشة على الممر. ولا توجد نوافذ في أي من الغرف. هناك أجهزة تهوية صغيرة في الأرضيات والسقوف، وأشارت تيارات الهواء التي تدخل من الأرضيات إلى أن تهوية الشقة كانت ميكانيكية. وكانت الغرف مضاءة بمصابيح الراديوم، المماثلة لتلك المستخدمة عمومًا في أنحاء برسوم كافة.

ضمت غرفة المعيشة طاولة، ومقعدًا طويلاً، والعديد من المقاعد،

فضلاً عن رف يحمل عددًا من الكتب. بإلقاء نظرة خاطفة على بعض الكتب، اكتشفت أنها جميعًا من المؤلفات العلمية: كتب في الطب، والجراحة، والكيمياء، والميكانيكا، والكهرباء.

كنت أسمع من وقت لآخر ما يبدو ضوضاء عابرة في الممر، لكنني لم أتحقق منها؛ فقد أردت أولاً ترسيخ الثقة لدى فال سيفاس وناسه قبل أن أغامر بمحاولة معرفة ما هو أكثر مما يريدون أن أعرفه. لم أكن أعرف حتى أنني أريد معرفة المزيد عن بيت فال سيفاس؛ فعملي في زودانجا لا يتعلق به أساسًا. لقد جئت لتقويض سلطة أور جان ورابطة القتلة، وإن أمكن الإطاحة بهما؛ ولا أحتاج سوى قاعدة أعمل منها. وشعرت في الحقيقة بقدر من خيبة الأمل؛ لأن القدر ألقاني وسط معارضي أور جان. كنت أفضل -بل كنت آمل في الواقع- أن أتمكن من الانضمام إلى منظمة أور جان، حيث شعرت أن بإمكاني تحقيق إنجاز من داخلها أكثر مما يمكنني تحقيقه من خارجها.

إذا تمكنت من الانضمام إلى الرابطة، سرعان ما يمكنني معرفة هوية أعضائها الرئيسين؛ وهذا، قبل أي شيء آخر، هو ما كنت أرغب في القيام به، بحيث إما أنجح في تقديمهم إلى العدالة وإما أحفر علامة التقاطع (×) على قلوبهم برأس سيفي.

شغلتني هذه الأفكار، وكنت على وشك خلع عتادي والانتقال إلى حرير وفراء النوم عندما سمعت أصوات ما قد يكون عراكًا في الطابق الأعلى، ثم صوت ارتطام يماثل سقوط جسم.

أبرز الصمت المطلق السابق في هذا البيت الهائل دلالة الأصوات التي كنت أسمعها، وأضفى عليها غموضًا أدركت أنه قد لا يتناسب تمامًا مع أهميتها الحقيقية. ابتسمت وأنا أدرك تأثير البيئة المحيطة على أعصابي الثابتة عادة، وواصلت استعدادي لليل عندما رنت صرخة حادة خلال المبنى.

توقفت ثانية لأنصت، وسمعت الآن بوضوح صوت أقدام تركض مسرعة. بدت مقتربة، وخمنت أنها تهبط السلم الحلزوني من المستوى الأعلى إلى الممر الذي يمتد أمام مسكني.

ربما ما يحدث في بيت فال سيفاس ليس من شأني، ولكن لم يحدث أبدًا أن سمعت امرأة تصرخ دون التحقق في الأمر. ولذا خطوت إلى باب غرفة المعيشة وفتحته، وعندئذ رأيت فتاة تركض بسرعة نحوي. كان شعرها في حالة فوضى؛ وألقت من عينيها الواسعتين المرتعبتين نظرات متكررة من فوق كتفيها إلى الوراء.

كادت أن تصطدم بي قبل أن تكتشف وجودي، وعندئذ توقفت للحظة وهي تلهث من الدهشة أو الخوف، لا أعرف، ثم اندفعت خلال الباب المفتوح إلى غرفة المعيشة.

«أغلق الباب»، همست بصوت متوتر بانفعال مكبوت، «لا تدعه يمسك بي! لا تدعه يعثر عليَّ!».

لا يبدو أن أحدًا يطاردها، لكني أغلقت الباب حسب رغبتها والتفت نحوها لأطلب تفسيراً.

سألتها: «ماذا حدث؟ ممن تهربين؟».

قالت مرتجفة: «منه. أوه، إنه فظيع. أرجوك أن تُخفيني، لا تدعه يمسك بي ، أرجوك!».

- مَن تقصدين؟ مَن هو هذا الفظيع؟

وقفت ترتجف وتحدق نحو الباب بعينين متسعتين، كأنما أصابها الرعب بالجنون.

همست: «هو. مَن غيره؟».

- تقصدين ...؟

اقتربت مني وبدأت تتحدث، ثم ترددت. «لكن لماذا أثق بك؟ أنت واحد من مخلوقاته. أنتم جميعًا متشابهون في هذا المكان الفظيع».

تقف الآن بالقرب مني، وترتجف كورقة شجر. بكت: «لا أستطيع تحمله! لن أسمح له!». وبسرعة شديدة، إلى حد أنني لم أستطع منعها، انتزعت الخنجر من عتادي لتطعن نفسها.

لكني كنت أسرع منها، وأمسكت بمعصمها قبل أن تتمكن من طعن نفسها.

كانت مخلوقة رقيقة المظهر، وإن كان مظهرها يناقض قوتها. على أنني لم أجدْ صعوبة تذكر في تجريدها من سلاحها؛ ثم أخذتها إلى المقعد الطويل وأجبرتها على الجلوس.

قلت: «هدِّئي من روعكِ؛ لا يوجد ما يجعلكِ تخافين مني -ولا من أي شخص وأنا معكِ. أخبريني بما حدث، وممن تخافين».

جلست تحدق في عيني للحظة طويلة، وبدأت الآن تستعيد السيطرة

على نفسها. قالت: «نعم، ربما يمكنني أن أثق بك. لقد جعلتني أشعر بذلك- صوتك، مظهرك».

وضعت يدي على كتفها، كمَن يحاول تهدئة طفل مرعوب. وقلت: «لا تخافي؛ أخبريني عن نفسكِ. ما اسمكِ؟».

أجابت: «زاندا».

- هل تعيشين هنا؟

- أنا عبدة، سجينةٌ.

سألتها: «ما الذي جعلكِ تصرخين؟».

أجابت: «أنا لم أصرخْ، كانت أُخرى. حاول أن يمسكني، لكني تهربت منه، وهكذا أخذ أخرى. دوري سيأتي، وسوف ينال مني. إنه ينال منا جميعًا».

- مَن؟ مَن الذي سينال منكِ؟

ارتجفت وهي تنطق بالاسم: «فال سيفاس»، وصوتها يمتلئ رعبًا.

جلست بجانبها على المقعد الطويل ووضعت يدي على يدها. قلت لها: «هدِّئي من روعكِ، وأخبريني ما معنى هذا كله. أنا غريب هنا، وأصبحت هذه الليلة في خدمة فال سيفاس».

سألتني: «أنت لا تعرف أي شيء إذَنْ عن فال سيفاس؟».

- لا أعرف سوى أنه مخترع ثري، ويخشى على حياته.

- نعم، إنه ثري، وهو مخترِع، لكنه ليس مخترعًا عظيمًا بمثل ما هو قاتل ولص. إنه يسرق الأفكار من المخترعين الآخرين ثم يقتلهم لحماية ما سرقه. وأولئك الذين يتعرفون على الكثير من اختراعاته يموتون. فهم لا يغادرون هذا البيت أبدًا. لديه دائمًا قاتل على استعداد لتنفيذ أوامره؛ أحيانًا هنا، وأحيانًا في المدينة؛ وهو خائف على حياته دائمًا. راباس الأولسيو هو القاتل الذي يعمل لديه الآن. على أن كليهما يخاف من أور جان، رئيس رابطة القتلة؛ لأن أور جان عرف أن راباس يقتل من أجل فال سيفاس بسعر أقل كثيراً من السعر الذي تتقاضاه الرابطة.

سألتها: «ولكن ما تلك الاختراعات الرائعة التي يعمل عليها فال سيفاس؟».

- أنا لا أعرف كل الأشياء التي يقوم بها، ولكن هناك السفينة. وكان يمكن أن تكون رائعة، لو لم تولد من الدم والخيانة.

سألتها: «سفينة من أي نوع؟».

- سفينة سوف تسافر بأمان عبر الفضاء الواقع بين الكواكب. ويقول إننا سنتمكن خلال وقت قصير من السفر ذهابًا وإيابًا بين الكواكب بسهولة كما نسافر الآن من مدينة إلى أخرى.

قلت: «هذا مثير للاهتمام، وليس فظيعًا بقدر ما أرى».

- لكنه يفعل أشياء أخرى، أشياء فظيعة. وأحدها هو المخ الميكانيكي.

- المخ الميكانيكي؟

- نعم، لكني بالطبع لا أستطيع أن أشرحه. لديَّ قدر قليل من التعليم. وقد سمعته يتحدث عنه كثيراً، لكني لم أفهمْ. يقول إن الحياة كلها، المادة كلها، هي نتيجة لعمل ميكانيكي، وليست في الأساس لعمل كيميائي. ويرى أن جميع الأفعال الكيميائية تُعد أفعالاً ميكانيكية أوه، أنا على الأرجح لا أشرح الموضوع بشكل صحيح. الأمر برمته يربكني؛ لأنني لا أفهمه. على أي حال، هو يعمل على المخ الميكانيكي، المخ الذي سيفكر بوضوح ومنطقية، دون أن يتأثر على الإطلاق بأي من الوسائط الخارجية التي تؤثر على الأحكام البشرية.

قلت: «تبدو بالأحرى فكرة غريبة، على أنني لا أستطيع رؤية شيء فظيع حول هذا الموضوع».

قالت: «ليست الفكرة هي الرهيبة، بل الوسيلة التي يستخدمها لإتقان اختراعه. ففي جهده من أجل تكرار المخ البشري، عليه أن يدرسه. ولهذا السبب يحتاج إلى العديد من العبيد. وهو يشتري عددًا قليلاً من العبيد، بينما يكلّف آخرين باختطاف معظمهم».

بدأت ترتجف، وخرج صوتها في لهاث متقطع قليلاً: «أنا لا أعرف؛ ولم أشهد ذلك بالفعل؛ لكنهم يقولون إنه يربط ضحاياه بالأحزمة بحيث لا يستطيعون التحرك، ثم يزيل الجمجمة حتى يصبح المخ مكشوفًا. وهكذا، يراقب وظيفة المخ عن طريق الأشعة التي تخترق الأنسجة».

قلت: «لكن معاناة ضحاياه لن تستمر طويلاً، فسرعان ما يفقدون وعيهم ويموتون».

هزت رأسها. «كلا، لقد أتقن صنع عقاقير يحقنها في عروقهم حتى يبقون أحياء ومدركين لفترة طويلة. ويقوم لساعات طويلة بإعطائهم محفزات مختلفة، ويراقب رد فعل المخ. تخيل، إن استطعت، معاناة

ضحاياه المساكين».

«يجلبون إلى هنا العديد من العبيد، لكنهم لا يبقون طويلاً. يوجد في المبنى بابان فقط، ولا توجد نوافذ في الجدران الخارجية. والعبيد الذين يختفون لا يغادرون من خلال أي من المدخلين. أراهم اليوم، وغدًا يذهبون؛ يذهبون من خلال المدخل الصغير الذي يؤدي إلى غرفة الرعب بجوار مسكن نوم فال سيفاس».

«أرسل فال سيفاس الليلة لإحضار اثنين منا، أنا وفتاة أخرى. وهو يستهدف استخدام واحدة منا فقط، لكنه يفحص اثنين دائمًا ثم يختار من بينهما من يعتبره عينة أفضل. على أن اختياره لا تحدده كليًّا المتطلبات العلميّة، بل يختار دائما الفتاة الأكثر جاذبية من الفتاتين اللتين تم استدعاؤهما.

«وقد فحصنا، وأخيراً اختارني. كنت مرعوبة. حاولت التملص منه. طاردني في الغرفة، ثم انزلق وسقط، ففتحت الباب وهربت قبل أن يتمكن من النهوض على قدميه. سمعت بعد ذلك صراخ الفتاة الأخرى، فعرفت أنه أمسك بها، لكنني لم أفزْ إلا بتأجيل. سوف ينال مني، فما من مهرب. ولا أنا ولا أنت سوف نغادر أبدًا هذا المكان أحياء».

سألتها: «لماذا تعتقدين ذلك؟».

- لم يفعلها أحد من قبل أبدًا.

سألتها: «وماذا عن راباس؟ من الواضح أنه يأتي ويذهب كما يحلو له».

- نعم، راباس يأتي ويذهب. فهو القاتل الخاص بفال سيفاس، كما أنه يساعد في اختطاف ضحايا جدد. وفي ظل هذه الظروف، يجب أن يكون حرًّا في مغادرة المبنى. وهناك أيضًا عدد قليل آخر، خدم عجائز وموثوق بهم، وهم شركاء بالفعل في الجريمة، وحياتهم بين يدي فال سيفاس. وإنما تأكد أنهم لا يعرفون الكثير عن اختراعاته. فما إن يصبح الشخص محل ثقة فال سيفاس، حتَّى تعرف أن أيامه معدودة.

«ويبدو أن الرجل مهووس بالحديث عن اختراعاته. يجب أن يشرحها لشخص ما. وأعتقد أن هذا يرجع إلى غروره الشديد. فهو يحب أن يتباهى. ولهذا يخبرنا، نحن المحكوم علينا بالموت، عن الكثير حول عمله. تأكد أن راباس لا يعرف أي شيء يتسم بالأهمية. وفي الواقع، لقد سمعت فال سيفاس يقول إن الشيء الوحيد الذي جعله يحب راباس هو غباؤه التام كقاتل. كما يقول فال سيفاس إن راباس لا يتمتع بعقل كافٍ لفهم أي اختراع إذا شرح له تفاصيله بالكامل».

استعادت الفتاة الآن سيطرتها على نفسها. وعندما توقفت عن الكلام، بدأت تتحرك نحو المدخل. وقالت: «شكرًا جزيلاً لأنك سمحت لي بالدخول هنا. ربما لن أراك ثانية، لكني أود أن أعرف مَن الذي مد يد الصداقة لي».

أجبت: «اسمي فاندور، ولكن لماذا تعتقدين أنكِ لن تريني ثانية، وإلى أين تذهبين الآن؟».

«سأعود إلى مسكني انتظارًا للاستدعاء المقبل. ربما غدًا».

أجبت: «سوف تبقين هنا، لعلنا نجد طريقة لإنقاذكِ من هذا الوضع».

نظرت نحوي في دهشة، وكانت على وشك الرد عندما أمالت رأسها إلى أحد الجوانب لتنصت. قالت: «شخص ما قادم؛ إنهم يبحثون عني».

أمسكت بيدها ووجهتها نحو مدخل شقة نومي، وقلت: «تعالي إلى هنا. فلنرَ ما إذا كنا لا نستطيع إخفاءك».

اعترضت قائلة: «كلا، كلا؛ سوف يقتلوننا نحن الاثنين إذا وجدوني. لقد كنت لطيفًا معي، ولا أريدهم أن يقتلوك».

أجبت: «لا تقلقي بشأني، يمكنني الاعتناء بنفسي. افعلي ما أقوله لكِ».

أخذتها إلى غرفتي وجعلتها تستلقي على المنصة الصغيرة التي تُستخدم في برسوم كسرير، ثم ألقيت حرير وفراء النوم عليها في كومة مختلطة. لا يمكن إلا بتفتيش دقيق أن يكتشف أي شخص أن هيئتها الصغيرة تختبئ تحت هذه الكومة.

عُدت إلى غرفة المعيشة وأخذت عشوائيًّا كتابًا من الرف، وجلست على مقعد وفتحت الكتاب. وما إن فعلت، حتَّى سمعت خدشًا على الجزء الخارجي من الباب المؤدي إلى الممر.

قلت: «تفضلْ».

فُتِح الباب، ودخل فال سيفاس إلى الغرفة.

* * *

الفصل (03)

المأزق

أنزلت كتابي، ونظرت إلى أعلى عندما دخل فال سيفاس. تطلع بسرعة وبشكل مريب في أنحاء الشقة. كنت قد تركت عمدًا باب غرفة نومي مفتوحًا، حتى لا يثير الشكوك إذا جاء أي شخص للبحث. كما كان باب غرفة النوم الأخرى وباب الحمَّام مفتوحتين. نظر فال سيفاس إلى الكتاب الذي في يدي، وقال: «قراءة مُجهِدة نوعًا ما بالنسبة إلى بانتان».

ابتسمت. «قرأتُ مؤخرًا كتابه عن الميكانيكا النظرية. وأعتقد أن هذا عمل سابق، وليس ذا حجية كبيرة. كنت ألقي مجرد نظرة عابرة عليه».

تفحصني فال سيفاس باهتمام للحظة، ثم سألني: «ألا يُعتبر تعليمك جيدًا إلى حد ما بالنسبة إلى مهنتك؟».

أجبت: «المرء لا يمكنه أبدًا أن يعرف الكثير».

قال: «قد يعرف المرء الكثير هنا»، وتذكرت ما قالته لي الفتاة.

تغيرت لهجته: «لقد جئت لأرى ما إذا كان كل شيء على ما يرام معك، وأنك مرتاح».

أجبت: «مرتاح جدًّا».

- ألم يزعجك أحد؟ ألم يأتِ أحد إلى هنا؟

أجبت: «يبدو البيت شديد الهدوء. سمعت شخصًا يضحك منذ وقت قصير، هذا كل شيء. ولم يزعجني».

سألني: «هل أتى أي شخص إلى مسكنك؟».

«لماذا، هل كان من المفترض أن يأتي شخص ما؟

قال بإيجاز: «لا أحد، بطبيعة الحال». ثم بدأ في استجوابي، في محاولة واضحة للتأكد من مدى معرفتي الميكانيكية والكيميائية.

قلت له: «أنا لا أعرف بالفعل سوى القليل حول هذين الموضوعين. أنا مقاتل، هذه هي مهنتي، ولست عالِمًا. وبطبيعة الحال، تنطوي الألفة بالطائرات الفضائية على بعض المعرفة الميكانيكية، وعلى أي حال أنا مجرد حديث العهد بهذه الأمور».

أخذ يتفحصني بفضول، ثم قال أخيراً: «أتمنى لو كنت أعرفك أفضل، وأتمنى لو كنت أعرف أن بإمكاني الوثوق بك. أنت رجل ذكي. وفي موضوع العقول، أنا هنا بمفردي تمامًا وأحتاج إلى مساعد. أنا بحاجة إلى رجل مثلك»، هز رأسه، باشمئزاز نوعًا، ثم أضاف: «ولكن ما الفائدة؟ لا أستطيع أن أثق بأحد».

- لقد وظفتني كحارس شخصي. وأنا مناسب لهذا العمل. فلندع الأمور كما هي.

وافق قائلاً: «أنت على حق. وسوف أعرف مع الوقت ماذا يمكنك أن تفعل أيضًا».

واصلت حديثي: «وإذا كانت وظيفتي حمايتك، يجب أن أعرف المزيد عن أعدائك. يجب أن أعرف مَن هم، وما خططهم».

«هناك العديدون الذين يرغبون في رؤيتي مُدمَّرًا، أو يتولون تدميري بأنفسهم؛ على أن هناك شخصًا سوف يستفيد من موتي أكثر من الآخرين وهو المخترع جار نال»، تطلع نحوي في تساؤل.

قلت: «أنا لم أسمع عنه من قبل. عليك أن تتذكر أنني غبت عن زودانجا لسنوات عديدة».

أومأ، ثم قال: «أتولى الآن إعداد سفينة سوف تعبر الفضاء، ويقوم جار نال بنفس العمل. وهو لا يريد تدميري فحسب، بل يود أيضًا سرقة أسرار اختراعي الذي سيتيح له إتمام اختراعه. بيد أن أور جان هو أكثر من أخشاه؛ لأن جار نال استخدمه لتدميري».

«أنا غير معروف في زودانجا، وسوف ألاحق أور جان وأرى ماذا يمكنني أن أعرف».

هناك شيء واحد أردت أن أعرفه حينذاك، وهو ما إذا كان فال سيفاس سيسمح لي بمغادرة بيته تحت أي ذريعة.

قال: «لن تعرف أي شيء؛ لأن اجتماعاتهم سرية. وحتى إذا تمكنت من الدخول، وهو أمر مشكوك فيه، فسوف تُقتَل قبل أن تتمكن من الخروج».

قلت: «ربما أتمكن. على أي حال، يستحق الأمر المحاولة. هل تعرف أين يعقدون اجتماعاتهم؟».

- نعم، لكنك إذا رغبت في المحاولة، سوف أطلب من راباس أن يرشدك إلى المبنى.

قلت: «إذا ذهبت، لا أريد راباس أن يعرف أي شيء عن هذا الأمر».

سألني: «لماذا؟».

أجبت: «لأنني لا أثق به. ولا أثق في أي شخص ليعرف خططي».

- أنت على حق تمامًا. عندما تصبح على استعداد للذهاب، يمكنني أن أخبرك بالاتجاهات حتى يمكنك العثور على مكان اجتماعهم.

قلت: «سأذهب غدًا، بعد حلول الظلام».

أومأ موافقًا. كان يقف في موضع يتيح له أن ينظر مباشرة إلى غرفة النوم، حيث تختبئ الفتاة. سألني: «هل لديك قدر وفير من حرير وفراء النوم؟».

أجبت: «الكثير، لكني سوف أحضر حريري وفرائي غدًا».

- هذا ليس ضروريًا. سوف أزودك بكل ما تحتاجه. ظل واقفًا يحدق نحو تلك الغرفة الأخرى. تساءلت هل كان يشتبه في الحقيقة، أو أن الفتاة تحركت، أو كان تنفسها ملحوظًا تحت كومة البنود التي تختبئ تحتها.

لم أجرؤْ على الاستدارة والنظر بنفسي، خشية إثارة شكوكه أكثر. جلست منتظرًا ويدي على مقربة من غمد سيفي القصير. ربما كانت الفتاة على وشك الانكشاف؛ وإن كان الأمر كذلك، فإن فال سيفاس كان أيضًا على وشك الموت في تلك اللحظة.

استدار أخيراً نحو المدخل الخارجي: «سأعطيك غدًا اتجاهات الوصول إلى مقر الجورثان، كما سأرسل إليك عبدًا أيضًا في الغد. هل تريد رجلاً أم امرأة؟».

كنت أُفضل رجلاً، لكني فكرت أنها فرصة محتملة لحماية الفتاة، فقلت: «امرأة».

ابتسم. «امرأة جميلة، هه؟».

«أود أن اختارها بنفسي، إن سمحت لي».

أجاب: «كما تريد. سوف أجعلك تشاهدهن غدًا. أتمنى لك نومًا جيدًا».

غادر الغرفة وأغلق الباب وراءه، على أنني كنت أعرف أنه وقف في الخارج لفترة طويلة، يتنصت.

أمسكت بالكتاب ثانية وبدأت في القراءة، لكن عقلي لم يُسجل أي كلمة قرأتها؛ إذ كانت جميع ملكاتي تتركز على السمع.

وبعد ما بدا فترة طويلة، سمعت صوت ابتعاده؛ وبعد فترة وجيزة سمعت بوضوح صوت إغلاق الباب في الطابق الأعلى. لم أكن قد تحركت من مكاني بعد، لكني نهضت الآن وذهبت إلى الباب الذي كان مزودًا بترباس ثقيل من الداخل، فأغلقته بصمت.

عبرت الغرفة، ودخلت غرفة النوم التي توجد فيها الفتاة، وأزحت عنها الأغطية التي تخفيها. لم تتحرك. وعندما نظرت نحوي، وضعت إصبعي على شفتيَّ.

سألتها هامسًا: «هل سمعت؟».

أومأت.

«سوف أختاركِ غدًا عبدة لي. وربما أجد في وقت لاحق وسيلة لتحريرك».

قالت: «أنت شخص طيب».

انحنيت وأمسكت بيدها. قلت: «تعالي إلى الغرفة الأخرى. يمكنك النوم فيها بأمان هذه الليلة، وفي الصباح سوف نخطط كيف يمكننا تنفيذ بقية خططنا».

قالت: «أعتقد أننا لن نجد صعوبة. في الصباح المبكر يذهب الجميع، باستثناء فال سيفاس، إلى غرفة طعام كبيرة في هذا الطابق. وسوف يمر كثيرون منهم على هذا الممر. ويمكنني أن أتسلل، دون أن يروني، وأنضم إليهم. وسوف تتوفر لديك فرصة، خلال وجبة الإفطار، لرؤية العبيد جميعًا. ويمكنك اختياري إن كنت لا تزال ترغب في ذلك».

ضمت الغرفة التي خصصتها لها حرير وفراء النوم، وكنت أعرف أنها مريحة؛ ولذا تركتها وعُدت إلى غرفتي وأكملت استعدادي – الذي قُوطع بشكل غريب - للنوم ليلاً.

أيقظتني زاندا في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وقالت: «سوف يحين قريبًا وقت ذهابهم لتناول الإفطار. يجب أن تذهب قبلي وتترك الباب مفتوحًا. وسوف أتسلل عندما لا يوجد أحد في الممر».

غادرت مسكني، ورأيت شخصين أو ثلاثة يتحركون على طول الممر في اتجاه غرفة الطعام التي أخبرتني بها زاندا. وهكذا تبعتهم، ودخلت أخيراً إلى غرفة كبيرة تضم طاولة تتسع لحوالي عشرين شخصًا. كان أكثر من نصفها مملوءًا بالفعل، ومعظم العبيد من النساء– نساء شابات، وكثيرات منهن جميلات.

وباستثناء رجلين، يجلس كل منهما على أحد جانبي الطاولة، كان جميع

شاغلي الغرفة غير مسلحين.

وكان الرجل الذي يجلس على رأس الطاولة هو نفسه الذي سمح لنا، أنا وراباس، بالدخول في المساء السابق. وعلمت لاحقًا أن اسمه هاماس، وأنه كبير الخدم في مبنى الإقامة.

أما الرجل المسلح الآخر فاسمه فيستال، وهو المسؤول عن العبيد. كما أنه، كما عرفت لاحقًا، يتولى جلب العديد منهم، وعادة عن طريق الرشوة أو الاختطاف.

عرفني هاماس عندما دخلت الغرفة، وأشار لي أن آتي إليه. قال: «ستجلس هنا، يا فاندور، بجانبي».

لاحظت بوضوح اختلاف طريقته عن الليلة السابقة، حيث كان يبدو مجرد عبد حقير. أدركت أنه يلعب دورين، لأغراض يعرفها جيدًا هو أو سيده. ومن الواضح أنه كان في دوره الحالي شخصًا مهمًّا.

سألني: «هل نمت بشكل جيد؟».

أجبت: «تمامًا، يبدو البيت شديد الهدوء والأمان في الليل».

أصدر صوتًا كالنخير، وقال: «إذا سمعت أي أصوات غير عادية في الليل، لا تتحرَّ الأمر إلا إذا استدعيناك، أنا أو السيد»، ثم أضاف، وكأنما شعر أن الأمر يحتاج إلى بعض التفسير، «يعمل فال سيفاس أحيانًا على تجاربه في وقت متأخر من الليل. ويجب ألا تزعجه، بغض النظر عن أي أصوات قد تسمعها».

يدخل الآن بعض العبيد إلى الغرفة، وجاءت خلفهم زاندا. نظرت إلى هاماس ورأيت عينيه تضيقان عندما رآها.

وقال: «ها هي الآن، يا فيستال».

استدار الرجل وهو يجلس على مقعده في أقصى نهاية الطاولة، ونظر نحو الفتاة التي تقترب من ورائه. كان يستشيط غضبًا.

سألها، وهي تقترب من الطاولة: «أين كنتِ الليلة الماضية، يا زاندا؟».

فأجابت: «كنت خائفة، واختبأت».

سألها فيستال: «وأين اختبأتِ؟».

أجابت : «يمكنك أن تسأل هاماس».

حملق فيستال في وجه هاماس. سألها هاماس: «وكيف لي أن أعرف أين كنتِ؟».

رفعت زاندا حاجبيها المقوسين، وقالت: «أوه ، أنا آسفة؛ لم أكن أعرف أنك تهتم بمَن يعرف».

استشاط هاماس غضبًا، وسألها: «ماذا تقصدين بذلك؟ إلامَ ترمين؟».

قالت: «أوه، لم أكن لأقل أي شيء على الإطلاق؛ لكني تصورت، بطبيعة الحال، أن فال سيفاس يعرف».

كان فيستال ينظر إلى هاماس بشكل مريب. كما نظر نحوه كل العبيد، ويمكنك قراءة أفكارهم تقريبًا في تعبيرات وجوههم.

كان هاماس غاضبًا، وفيستال متشككًا؛ ووقفت الفتاة طوال الوقت وعلى وجهها تعبير ينم عن البراءة والملائكية.

صاح هاماس: «ماذا تعنين بقولكِ هذا؟».

سألت ببراءة: «ماذا قلت؟».

- قلتِ ... قلتِ ...

«لقد قلتُ: 'يمكنك أن تسأل هاماس'. ما الخطأ في ذلك؟».

سألها كبير الخدم: «ولكن، ماذا أعرف عن ذلك؟».

هزت زاندا كتفيها النحيلين، وقالت: «أخشى أن أقول أي شيء أكثر من ذلك. أنا لا أريد أن أسبب لك أي مشكلة».

قال فيستال: «ربما كلما قلَّ ما يُقال عن ذلك، كان أفضل».

بدأ هاماس في الكلام، وإنما من الواضح أنه فكر في الأمر بشكل أفضل. حملق بسخط نحو زاندا لحظة، ثم أخذ يتناول إفطاره.

وقبل انتهاء الوجبة مباشرة، أخبرت هاماس أن فال سيفاس أمرني باختيار عبدة.

أجاب كبير الخدم: «نعم، أخبرني. تحدث مع فيستال حول هذا الموضوع؛ فهو المسؤول عن العبيد».

«ولكن، هل يعرف أن فال سيفاس أعطاني الإذن لاختيار أي شخص أريد؟».

- سوف أقول له.

أنهى إفطاره بعد لحظات، وخلال مغادرته غرفة الطعام توقف للتحدث مع فيستال.

وعندما رأيت أن فيستال على وشك مغادرة الطاولة، ذهبت إليه

وأخبرته أنني أود اختيار عبدة.

سألني: «أي واحدة تريد؟».

أخذت أحملق حول الطاولة، لأبدو كأنما أفحص جميع العبيد بعناية، إلى أن استقرت عيناي أخيراً على زاندا.

قلت: «سآخذ هذه».

تقلص حاجبا فيستال، وتردد.

فقلت لتذكيره: «قال فال سيفاس إن بإمكاني اختيار مَن أريد».

سألني: «ولكن لماذا تريد هذه؟».

أجبته: «تبدو ذكية، كما أنها حسنة المظهر. وسوف تعمل بشكل جيد مثل غيرها، إلى أن أصبح أكثر ألفة ومعرفة بالمكان». وهكذا تم تعيين زاندا لخدمتي. كانت واجباتها تتمثل في الحفاظ على نظافة شققي، والقيام بالمهام الخاصة بي، وتنظيف عتادي، وتلميع معادني، وشحذ سيوفي وخناجري، وأي شيء آخر يجعلها مفيدة.

كنت أفضل كثيراً أن أتعامل مع رجل من العبيد، لكن الأحداث فرضت نفسها وأجبرتني على دور حامي الفتاة، ويبدو أنها كانت الخطة الوحيدة التي يمكنني خلالها إنجاز أي شيء في هذا الاتجاه؛ لكني لا أعرف ما إذا كان فال سيفاس سيسمح لي بالاحتفاظ بها. ويظل هذا احتمال مُعلق في المستقبل عندما يحدث، وإن حدث.

أخذت زاندا إلى مسكني ثانية؛ وخلال انشغالها بواجباتها، تلقيت استدعاء لمقابلة فال سيفاس.

قادني عبد إلى نفس الغرفة التي استقبلني فيها فال سيفاس الليلة السابقة عندما حضرت مع راباس. وعندما دخلت، حياني المخترع العجوز بإيماءة. توقعت أن يستجوبني على الفور بشأن زاندا، حيث كان كل من هاماس وفيستال معه؛ ولم يكن لديَّ أي شك أنهما أبلغاه بكل ما حدث على طاولة الإفطار.

على أنني شعرت بخيبة أمل مقبولة؛ لأنه لم يذكر الواقعة على الإطلاق، بل أعطاني فقط تعليمات بشأن واجباتي.

كان عليَّ أن أبقى في الخدمة في الممر خارج بابه وأرافقه عندما يغادر الغرفة؛ وألا أسمح لأحد بدخول الغرفة، غير هاماس أو فيستال، دون الحصول على إذن من فال سيفاس. وعندما يغادر الغرفة، يجب أن أرافقه. ولا ينبغي، تحت أي ظرف من الظروف، أن أذهب إلى الطابق الأعلى إلا بإذنه أو بأمر صريح منه. كان شديد الإصرار على تأكيد هذه النقطة وطبعها في ذهني؛ وعلى الرغم من أنني لست فضوليًّا أكثر من اللازم، فلا بد أن أعترف أنني الآن بعد أن أصبحت ممنوعًا من الذهاب إلى أي طابق علوي، أردت أن أفعل ذلك.

أوضح فال سيفاس: «عندما تستمر في خدمتي لفترة أطول، وتزداد معرفتي بك، آمل أن أتمكن من الثقة بك؛ لكنك حاليًا في فترة اختبار».

كان ذلك أطول يوم قضيته في حياتي، مجرد خارج هذا الباب لا أفعل شيئًا. واقترب اليوم أخيراً من نهايته؛ وعندما أُتيحت لي الفرصة، ذكّرت فال سيفاس أنه وعد بتوجيهي إلى مقر أور جان في محاولة لدخوله ليلاً.

أعطاني وصفًا واتجاهات دقيقة جدًّا لمبنى يقع في حي آخر من المدينة.

وقال: «أنت حر في البدء وقتما تشاء. وقد أعطيت هاماس تعليمات بأن تتحرك جيئة وذهابًا كما يحلو لك. وسوف يزودك بإشارة مرور تتيح لك الدخول إلى البيت. أتمنى أن يحالفك الحظ، وإن كنت أعتقد أن أفضل ما ستحصل عليه هو سيف في قلبك. أنت تضع نفسك في مواجهة أعنف عصابة في زودانجا وأكثرها انعدامًا للضمير».

قلت: «إنها فرصة يجب أن أقتنصها. ليلة سعيدة».

ذهبت إلى مسكني، وطلبت من زاندا أن توصد الباب عليها بعد خروجي، ولا تفتحه إلا بعد إشارة معينة اتفقنا عليها. وكانت سعيدة جدًّا لإطاعة أمري.

انتهيت من الاستعداد لمغادرة المبنى، وأوصلني هاماس إلى المدخل الخارجي. وهنا أطلعني على موضع زر مخفي في البناء، وشرح لي كيفية استخدامه للإعلان عن عودتي.

لم أكن قد ابتعدت كثيراً عن بيت فال سيفاس عندما التقيت براباس الأولسيو. يبدو أنه نسي غضبه تجاهي، أو كان يتظاهر، لأنه حيّاني بحرارة.

سألني: «إلى أين؟».

أجبته: «مجرد استراحة قصيرة في المساء».

- إلى أين تذهب، وماذا ستفعل؟

- سوف أذهب إلى المسكن العام لجمع أشيائي وتخزينها، ثم أبحث

عن القليل من الترفيه.

قال مقترحًا: «يمكن أن نجتمع لاحقًا في المساء».

أجبت: «حسنًا، متى وأين؟».

- سأنتهي من أشغالي بعد الزود الثامن بحوالي النصف. لنلتقي في المطعم الذي أخذتك إليه أمس.

قلت: «حسنًا، ولكن لا تنتظرني طويلاً. فقد أتعب من البحث عن المتعة وأعود إلى مسكني قبل ذلك بفترة طويلة».

غادر راباس، وذهبت إلى المسكن العام حيث تركت أشيائي. جمعتها ثم أخذتها إلى الحظيرة على السطح وخزّنت الأشياء في طائرتي. وبعد أن انتهيت، عُدت إلى الشارع واتخذت طريقي نحو العنوان الذي أخبرني به فال سيفاس.

قادني الطريق عبر منطقة تسوق مضاءة ببراعة، ثم إلى قسم قاتم من المدينة القديمة. كانت منطقة سكنية، لكنها من نوع حقير. لا تزال بعض المنازل على الأرض، بينما يرتفع معظمها على أعمدتها الفولاذية لمسافة عشرين أو ثلاثين قدمًا فوق الرصيف.

سمعت الضحك والأغاني، وأحيانًا المشاجرات - أصوات حياة الليل في مدينة مريخية كبيرة – ثم وصلت إلى حي آخر يبدو مهجورًا.

كنت أقترب من مقر القتلة. مشيت في ظلال المباني، وتجنبت أعداد الناس القليلة على الطريق بالتسلل خلال المداخل والأزقة. لم أكن أرغب أن يراني هنا أي شخص قد يتمكن بعد ذلك من التعرُّف عليَّ أو تحديد هويتي. كنت ألعب مع الموت، ويجب ألا أعطيه أي ميزة.

وصلت أخيراً إلى المبنى الذي أسعى إليه، ووجدت مدخلاً على الجانب الآخر من الطريق يمكنني أن أراقب منه هدفي دون أن يراني أي شخص.

كان القمر الأبعد يلقي ضوءًا خافتًا على واجهة المبنى، لكنه لم يكشفْ لي عن شيء يمثل أي أهمية.

لم أتمكن بداية من تمييز أي أضواء في المبنى؛ لكني رأيت -بعد ملاحظة دقيقة- انعكاسًا قاتمًا وراء نوافذ الطابق العلوي. لا شك أنه مكان اجتماع القتلة، وإنما كيف أصل إليه؟

من المفروغ منه أن أبواب المبنى مغلقة بإحكام، وأن أي طريق للاقتراب من مكان الاجتماع يخضع لحراسة جيدة.

توجد شرفات أمام النوافذ على عدة مستويات، ولاحظت بشكل خاص أن من بينها ثلاث شرفات تقع أمام نوافذ الطابق العلوي. وتوفر لي هذه الشرفات وسيلة للدخول إلى الطابق العلوي إذا تمكنت من الوصول إليها.

ونظرًا لأنني من كوكب الأرض، فإن جاذبية المريخ الأقل من جاذبية كوكبي الأصلي تمنحني قوة هائلة وخفة الحركة قد تكفي لأتسلق السطح الخارجي للمبنى؛ إلا أن هذا المبنى بالذات لا يتيح أي موطئ قدم حتى الطابق الخامس، الذي تبدأ فوقه الزخارف المنحوتة.

ناقشت في ذهني كل إمكانية، واضطررت من خلال عملية إقصاء البدائل إلى التوصل إلى استنتاج مفاده أن أفضل وسيلة هي عن طريق السطح.

ومع ذلك، فقد عقدت العزم على بحث إمكانيات المدخل الرئيس في الطابق الأرضي؛ وعندما أوشكت على عبور الطريق لهذا الغرض، رأيت رجلين يقتربان. تراجعتُ ثانية إلى ظلال مكان اختبائي وانتظرت مرورهما؛ لكنهما توقفا أمام مدخل المبنى الذي كنت أراقبه. لم يدم وقوفهما أكثر من لحظة، ثم فُتِح الباب ودخل الرجلان. أقنعني ذلك أن شخصًا يقف على أهبة الاستعداد عند المدخل الرئيس للمبنى، ومن غير المجدي أن أحاول الدخول منه.

لم يبقَ الآن سوى السطح كوسيلة لدخول المبنى، وسرعان ما وضعت خطة لإنجاز ما عزمت عليه.

غادرت مكان اختبائي وتعجلت خطواتي إلى المسكن العام الذي كنت أقطن فيه، وتوجهت على الفور إلى الحظيرة فوق سطحه.

كان المكان مهجورًا، وسرعان ما أصبحت أمام لوحات التحكم في طائرتي. كنت مضطرًّا للمخاطرة، فمن المحتمل أن يوقفني أحد زوارق الدورية، لكنه احتمال بعيد إلى

حد ما؛ لأنهم لا يهتمون كثيراً، إلا في حالات الطوارئ العامة، بالطائرات الخاصة داخل أسوار المدينة.

بيد أنني طرت منخفضًا، توخيًا الأمان، واتبعت طرقًا مظلمة تحت مستوى الأسطح. وصلت بعد وقت قصير إلى محيط المبنى الذي استهدفته.

وعندئذ ارتفعتُ فوق مستوى الأسطح. وبعد أن حددت المبنى، استقرت طائرتي بلطف على سطحه.

لم يكن المبنى مُجهزاً لهذا الغرض، فلا توجد حظيرة أو حلقات للإرساء؛ على أن الرياح نادرًا ما تهب عالية على المريخ، وهذه ليلة هادئة بشكل خاص وبلا رياح.

غادرت سطح الطائرة، وبحثت في السطح عن أي وسيلة لدخول المبنى. وجدت كوة صغيرة لكنها موصدة بقوة من الداخل، ولم أتمكن من زحزحتها - على الأقل دون إثارة قدر كبير من الضوضاء.

ذهبت إلى حافة المبنى المطلة على الطريق، ونظرت إلى أسفل، إلى إحدى الشرفات التي تقع تحتي مباشرة. كان يمكن أن أميل على الإفريز، وأتعلق من يديَّ، وأهبط مباشرة على تلك الشرفة؛ لكني سوف أواجه هنا خطر جذب الانتباه من الضوضاء التي يحدثها الهبوط.

فحصت واجهة المبنى أسفلي واكتشفت أن الزخرفة المنحوتة -مثلها مثل معظم المباني المريخية- تتيح مواضع ليديَّ وقدميَّ تكفي لاحتياجي.

انزلقت بهدوء على الإفريز، وتحسست بأصابع قدمي إلى أن وجدت بروزاً يمكن أن يدعمني. ثم حركت يدًا واحدة لأتحسس بروزاً جديدًا. وهكذا، ببطء شديد وعناية، نزلت إلى الشرفة.

اخترت مكان هبوطي أمام نافذة غير مضاءة. ووقفت عندها للحظة أسترق السمع. سمعت أصواتًا خافتة تأتي من مكان ما داخل المبنى. خطوت بإحدى ساقيَّ فوق حافة النافذة ودخلت إلى ظلمة الشقة.

تلمست طريقي ببطء إلى جدار، وتبعته إلى أن وصلت إلى باب مقابل للنافذة في نهاية الغرفة. تحسست المزلاج خلسة ورفعته. سحبت بلطف، ولم يكن الباب موصدًا، بل تأرجح نحوي دون ضجيج.

يوجد ممر وراء الباب. كانت إضاءته خافتة جدًّا، كأنما هي ضوء ينعكس من مدخل مفتوح أو من ممر آخر. أصبحت الأصوات الآن أكثر تميزًا، فتسللت بصمت في الاتجاه الذي تأتي منه.

وصلت الآن إلى ممر آخر يتقاطع بزوايا قائمة مع الممر الذي اتبعه. الضوء هنا أقوى، ورأيت أنه يأتي من مدخل مفتوح أبعد على طول الممر الذي كنت على وشك دخوله. على أنني كنت على يقين أن الأصوات لم تأتِ من هذه الغرفة التي يمكنني رؤيتها، وإلا لكانت أكثر وضوحًا وتميزًا.

لم يكن موقفي مستقرًّا. ولم أكن أعرف أي شيء على الإطلاق عن ترتيبات المبنى الداخلية. لم أكن أعرف على أي ممر يتحرك سكانه جيئةً وذهابًا. إذا اقتربت من المدخل المفتوح، قد أضع نفسي في موقع يسهل معه اكتشاف وجودي.

أعرف أنني أتعامل مع قتلة، وجميعهم خبراء في المبارزة؛ ولم أحاول خداع نفسي بأن قدرتي قد تماثل دزينة منهم أو أكثر.

بيد أن الرجال الذين يعيشون بالسيف معتادون على المخاطرة، بل ويخاطرون أحيانًا في حالات يائسة أكثر مما قد تبرره مهماتهم.

ربما كان هذا هو الحال الآن، لكني جئت إلى زودانجا لمعرفة كل ما يمكنني معرفته عن رابطة القتلة برئاسة أور جان سيئ السمعة؛ ووضعني حظي الآن في موقف قد يتيح لي الحصول على قدر كبير من المعلومات المفيدة، ولذا لم أفكرْ أبدًا في التراجع لمجرد أنني أواجه بعض الخطر.

تسللت خلسة إلى الأمام، ووصلت أخيرًا إلى الباب. ألقيت نظرة فاحصة بحذر شديد إلى الغرفة الداخلية من الخلف، وأنا أتحرك بوصة ببوصة عبر مدخلها.

كانت غرفة صغيرة، من الواضح أنها غرفة انتظار، ولم يكن بها أي شخص. ضمت الغرفة بعض الأثاث: طاولة، وبعض المقاعد الطويلة؛ ولاحظت بشكل خاص خزانة عتيقة الطراز تقف قُطريًّا عند إحدى زوايا الغرفة، ويبعد أحد جوانبها حوالي قدم عن الجدار.

يمكنني الآن -من حيث أقف عند المدخل- سماع الأصوات بوضوح تام، وكنت على ثقة بأن الرجال الذين أسعى إليهم يجتمعون في الغرفة المجاورة.

تسللت إلى غرفة الانتظار، واقتربت من الباب الذي يقع في طرفها الآخر. توجد على يسار الباب مباشرة الخزانة التي ذكرتها.

وضعت أذني على مقربة من لوحات الباب في محاولة لسماع ما يُقال في الغرفة، لكن الكلمات جاءتني غير واضحة ومكتومة. لن أنجح أبدًا هكذا، فلا أستطع أن أرى أو أسمع أي شيء في ظل هذه الظروف.

قررت أنني يجب أن أجد طريقة أخرى للاقتراب. وما إن استدرت لمغادرة الغرفة، حتَّى سمعت خطوات تقترب على طول الممر. أصبحت في مأزق.

* * *

الفصل (04)

موت ليلاً

كثيراً ما وجدت نفسي في مناسبات عديدة خلال حياتي في أماكن ضيقة، لكني نادرًا ما وقعت في مأزق مثل هذا الذي يبدو لي الآن. كانت الخطوات تقترب بسرعة على طول الممر. وأستطيع القول من خلال صوتها إنها خطوات أكثر من شخص.

إذا كانا رجلين فقط، يمكنني قتالهما؛ على أن الضجيج الناتج سوف يجذب أولئك المجتمعين في الغرفة خلفي. كما أن أي نوع من القتال مهما كان، من شأنه قطعًا أن يؤخرني لفترة طويلة تكفي لهجوم مَن يجذبهم الصوت قبل أن أتمكن من الهرب.

الهرب! كيف يمكنني الهرب إذا اكتشفوا وجودي؟ حتى إن تمكنت من الوصول إلى الشرفة، سيكونون خلفي مباشرة؛ ولن أستطيع التسلق للوصول إلى السطح قبل أن يتمكنوا من سحبي إلى أسفل.

بدا موقفي يائسًا إلى حد ما، ثم سقطت عيني على الخزانة التي تقع عند الزاوية بجانبي مباشرة، والمسافة التي تبعد بحوالي قدم بينها وبين الجدار.

وصلت الخطوات أمام المدخل تقريبًا. لا يوجد وقت لأضيعه، فتسللت بسرعة وراء الخزانة وانتظرت.

لم أسرع هكذا من قبل. دخل الرجال من الممر إلى الغرفة على الفور تقريبًا، وتصورت أنهم رأوني؛ وإنما يبدو أنهم لم يروني، لأنهم عبروا مباشرة إلى باب الغرفة الداخلية الذي فتحه أحدهم.

رأيت من مكان اختبائي هذا الرجل بوضوح، ورأيت أيضًا من خارج الغرفة ما بداخلها، بينما كان ظل الخزانة يخفيني.

منحني ما رأيته خارج ذلك الباب شيئًا للتفكير. يوجد في وسط الغرفة الكبيرة طاولة ضخمة، يجلس حولها ما لا يقل عن خمسين رجلاً- خمسين رجلاً من أقوى العملاء الذين رأيتهم يجتمعون معًا. ويجلس على رأس الطاولة رجل ضخم، عرفت على الفور أنه أور جان. كان رجلاً ضخمًا جدًّا لكن جسمه متناسب بشكل جيد؛ ويمكنني أن أقول بنظرة واحدة إنه مقاتل رائع.

استطعت أيضًا رؤية الرجل الذي فتح الباب، لكنني لم أتمكن من رؤية رفيقه أو رفاقه لأن الخزانة كانت تخفيهم.

نظر أور جان عندما فُتِح الباب. سأل: «ماذا الآن؟ مَن معك؟»، ثم أضاف: «أوه، لقد تعرفت عليه».

قال الرجل الواقف عند الباب: «إنَّ لديه رسالة لك، يا أور جان. ويقول إنها رسالة ملحة، وإلا لم أكن لأحضره هنا».

قال أور جان: «دعه يأتي. سنرى ماذا يريد، وأنت عُد إلى مكانك».

استدار الرجل إلى رفيقه الذي يقف خلفه وقال له: «ادخل، وابتهل إلى سلفك الأول أن تثير رسالتك اهتمام أور جان، وإلا لن تخرج من تلك الغرفة ثانية على قدميك».

وقف جانبًا، ورأيت رجلاً يمر ويدخل الغرفة. كان راباس الأولسيو.

عرفت من مجرد رؤية ظهره، وهو يقترب من أور جان، أنه متوتر وخائف. تساءلت عن سبب حضوره هنا، فمن الواضح أنه لم يكن عضوًا في الرابطة. ويبدو أن السؤال نفسه أثار حيرة أور جان، كما اتضح من كلماته.

سأله: «ماذا يريد راباس الأولسيو هنا؟».

أجاب راباس: «لقد جئت كصديق، ومعي خبر إلى أور جان كان يريده منذ فترة طويلة».

دمدم أور جان قائلاً: «أفضل خبر يمكن أن تجلبه لي أن شخصًا ما قد شق حنجرتك القذرة».

ضحك راباس ضحكة ضعيفة وعصبية إلى حد ما.

تمتم راباس بخنوع: «العظيم أور جان يحب مزاحه قليلاً».

نهض المتوحش الذي كان يجلس على رأس الطاولة، ووضع قبضته المشدودة بقوة فوق خشب السورابوس[231] الصلب.

- ما الذي يجعلك تعتقد أنني أمزح، أيها الحلق المشقوق الصغير

(231) سورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بثماره النضرة المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapus المترجمة.

البائس؟ وإن كان من الأفضل أن تضحك ما دام في إمكانك؛ فإذا لم تكن لديك أنباء تهمني، وجئت إلى هذا المكان المحظور على الغرباء، وقاطعت هذا الاجتماع دون سبب وجيه، فسوف أضع فمًا جديدًا في حلقك. لكنك لن تقدر على الضحك من خلاله.

قال راباس متضرعًا: «أردت فقط أن أقدم لك معروفًا. وأنا على يقين من أنك ترغب في الحصول على المعلومات التي أحضرتها، وإلا لم أكن لآتي».

- حسنًا، بسرعة! قلها، ما هي؟

- أعرف من يتولى القتل لصالح فال سيفاس.

ضحك أور جان. ضحكة بغيضة إلى حد ما، ثم قال بصوت عال: «أنا أيضًا أعرفه، إنه راباس الأولسيو».

بكى راباس: «كلا، كلا يا أور جان، هذا خطأ. اسمع يا أور جان».

وجه له رئيس القتلة اتهامًا: «لقد شُوهدت وأنت تدخل وتخرج من بيت فال سيفاس. أنت تعمل عنده. ولأي غرض يستخدم شخصًا مثلك، إلا للقيام بالقتل لصالحه؟».

- نعم، ذهبت إلى بيت فال سيفاس، ذهبت كثيراً. لقد وظفني كحارس شخصي له، لكني لم أقبل هذا العمل إلا لأتجسس عليه. والآن بعد أن عرفت ما ذهبت إلى هناك لأعرفه، جئت إليك مباشرة.

- حسنًا، ماذا عرفت؟

- قلت لك. لقد عرفت مَن يقوم بالقتل لصالحه.

- حسنًا، مَن هو، إن لم يكن أنت؟

- لديه في خدمته غريب عن زودانجا – بانتان اسمه فاندور. وهذا هو الرجل الذي يقوم بالقتل.

لم أستطع منع ابتسامة. يعتقد كل رجل أنه قارئ جيد للشخصيات؛ ويجد سببًا لسعادته عندما يحدث شيء يثبت اعتقاده؛ ونظرًا لقلة عدد الرجال الذين يستطيعون الحُكم بشكل جيد على الشخصيات، يندر أن يُهنئ أحدنا نفسه في هذا الصدد.

لم أثقْ أبدًا في راباس، واعتبرته منذ البداية غادرًا وخائنًا. وقد اتضحت صحة ذلك.

حملق أور جان نحوه متشككًا: «ولماذا تخبرني بهذه المعلومات؟ أنت لست صديقي، ولست أحد رجالي؛ كما أنك، بقدر ما أعرف، لست صديقًا لأيٍّ منا».

قال راباس متوسلاً: «لكني أرغب في صداقتكم. لقد خاطرت بحياتي لأجلب لك هذه المعلومات؛ لأنني أريد الانضمام إلى الرابطة والعمل تحت قيادة أور جان العظيم. وإذا حدث ذلك، سيكون اليوم الأكثر فخرًا في حياتي. أور جان هو أعظم رجل في زودانجا – هو أعظم رجل في برسوم كلها. وأنا أريد أن أخدمه، وسوف أخدمه بأمانة».

يتأثر جميع الرجال بالإطراء؛ وفي كثير من الأحيان، يكون أكثرهم جهلاً هو أكثرهم تأثرًا به. وأور جان ليس استثناء. ويكاد المرء أن يراه يُجمّل نفسه. رفع كتفيه الكبيرين ونفخ صدره.

«حسنا»، ثم أضاف بصوت أكثر لطفًا: «سوف نفكر في الأمر. ربما يمكننا استخدامك، ولكن عليك أولاً ترتيب الأمر حتى يمكننا التخلص من فاندور هذا»، ألقى نظرة سريعة حول الطاولة، ثم قال: «أيها الرجال، هل يعرفه أي منكم؟».

أنكر الجميع، ولم يقل أحد أنه يعرفني.

قال راباس الأولسيو: «أستطيع أن أدلكم عليه، أستطيع أن أدلكم عليه هذه الليلة بالذات».

سأله أور جان: «ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟».

- لأن لديَّ موعدًا معه لمقابلته في وقت لاحق في المطعم الذي يتردد عليه.

قال أور جان: «ليست فكرة سيئة، متى تلتقون؟».

أجاب راباس: «بعد نصف الزود الثامن تقريبًا».

دار أور جان ببصره سريعًا حول الطاولة، ثم قال: «أولداك، عليك أن تذهب مع راباس؛ ولا ترجع ما دام فاندور هذا حيًّا».

تفحصت أولداك جيدًا بعد أن اختاره أور جان. وعندما شاهدته يقترب نحو الباب مع راباس ليتخذا طريقهما لقتلي، حفرت في ذهني كل تفاصيل مظهره الخارجي، حتى طريقة سيره. وعلى الرغم من أنني لم أره إلا للحظة، فقد كنت أعرف أنني يجب ألا أنساه أبدًا.

غادر الرجلان الغرفة الكبيرة ومنها إلى غرفة الانتظار التي أختفي فيها، ثم شرح راباس لرفيقه الخطة التي يفكر فيها.

- سآخذك الآن لتعرف موقع المطعم الذي سأقابله فيه. ويمكنك العودة لاحقًا، وعندئذ سوف تعرف أن الرجل الذي يجلس معي هو الرجل

الذي تسعى إليه.

لم أستطع إلا أن ابتسم عندما استدار الرجلان إلى الممر وابتعدا عن مرمى السمع. تُرى كيف كانوا يفكرون، هم وأور جان، لو عرفوا أن الشخص الذي يستهدفون قتله يقف على بُعد بضعة ياردات منهم؟

أردت أن أتبع راباس وأولداك، فقد كان من الطريف تنفيذ الخطة التي وضعتها؛ لكني لا أستطيع الخروج من وراء الخزانة دون المرور مباشرة أمام المدخل المؤدي إلى الغرفة التي يجلس فيها أور جان والقتلة الخمسون.

بدا الأمر أنني مضطر إلى الانتظار حتى انتهاء الاجتماع وتفرُّق الشركاء قبل أن أتمكن من شق طريقي إلى السطح لأستقل طائرتي.

وعلى الرغم من ميلي إلى التذمر من فكرة هذا الخمول القسري، فقد انتهزت فرصة الباب المفتوح للتعرف على وجوه جميع القتلة الذين يمكنني رؤيتهم. جلس بعضهم وظهورهم نحوي، لكن لمحات من مظهرهم الجانبي كانت تنكشف أحيانًا.

كان من حسن الحظ أنني اغتنمت هذه الفرصة في وقت مبكر لحفر وجوه أعدائي في ذاكرتي. بيد أن أور جان لاحظ، بعد مغادرة راباس وأولداك بلحظات، أن الباب مفتوح وطلب من قاتل يجلس بالقرب منه أن يغلقه.

خرجت من وراء الخزانة بمجرد سماعي صوت نقرة إغلاق قفل الباب، واتجهت إلى الممر.

لم أرَ أحدًا ولم أسمع أي صوت في الاتجاه الذي يستخدمه القتلة في الدخول والخروج من غرفة الانتظار؛ ونظرًا لأن طريقي يقع في الاتجاه المعاكس، فلم أخشَ كثيراً من إمكانية الإمساك بي. أسرعت نحو الشقة من خلال النافذة التي دخلت منها إلى المبنى؛ إذ يعتمد نجاح الخطة التي في ذهني على قدرتي على الوصول إلى المطعم قبل راباس وأولداك.

وصلت إلى الشرفة وتسلقت إلى سطح المبنى دون وقوع أي حادث. وبعد فترة قصيرة جدًّا، كنت أهبط بطائرتي على حظيرة سطح المسكن العام لتخزينها. نزل إلى الشارع، واتخذت طريقي إلى موقع بجوار المطعم الذي يتجه إليه راباس مع أولداك. وبتفكير عقلاني، كنت على يقين أنني يجب أن أصل إلى هناك قبل وصولهما.

وجدت مكانًا يتيح مشاهدة المدخل بأمان نسبيًّا من الاكتشاف، وهناك انتظرت. لم أنتظر طويلاً، وأراهما الآن يقتربان. توقفا عند تقاطع شارعين على مسافة قصيرة من المكان. وبعد أن أشار راباس إلى الموقع كي يعرفه أولداك، انفصل الاثنان وواصل راباس طريقه في اتجاه المسكن العام الذي قابلته فيه أول مرة، بينما استدار أولداك مرة أخرى في اتجاه الطريق الذي جاءا منه بعد اجتماع القتلة.

لا يزال أمامي نصف زود على موعد لقائي مع راباس. ولم أكن مهتمًّا به، حاليًا على الأقل؛ لأن مهمتي كانت مع أولداك.

خرجت من مكان اختبائي بمجرد مرور راباس على الجانب الآخر من الشارع، ومشيت بسرعة في الاتجاه الذي اتخذه أولداك.

وعندما وصلت إلى تقاطع الشارعين، رأيت القاتل أمامي على مسافة صغيرة. كان يسير ببطء، ويبدو أنه كان يقتل الوقت إلى أن يحين موعد لقائي مع راباس في المطعم.

بقيت على الجانب الآخر من الشارع، وتابعت الرجل لمسافة كبيرة حتى دخل إلى حي يبدو مهجورًا- لم أكن أرغب في وجود جمهور يشهد على ما كنت على وشك القيام به.

عبرت الشارع وأسرعت في خطواتي، وسرعان ما تقلصت المسافة بيننا إلى أن أصبحت على بُعد خطوات قليلة وراءه. كنت أتحرك بهدوء شديد، ولم يكن على دراية بوجود شخص بالقرب منه. كانت بضع خطوات فقط تفصلنا عندما تحدثت.

سألته: «هل تبحث عني؟».

استدار على الفور، وطارت يده اليمنى إلى غمد سيفه. نظر نحوي مدققًا، وسألني: «مَن أنت؟».

قلت: «ربما أخطأت؛ أنت أولداك، أليس كذلك؟».

سأل: «وماذا في ذلك؟».

هززت كتفي. «ليس الكثير، إلا أنني فهمت أنك مُكلف بقتلي. اسمي فاندور».

توقفت عن الكلام وامتشقت سيفي. بدا مندهشًا تمامًا عندما أعلنت عن هويتي، ولم يكن أمامه أي شيء يفعله سوى الدفاع عن نفسه. امتشق سلاحه وهو يضحك ضحكة صغيرة شريرة.

وقال: «لا بد أنك أحمق. أي شخص ليس بأحمق، سوف يهرب ويختبئ إذا عرف أن أولداك يبحث عنه».

من الواضح أن الرجل يعتقد أنه مبارز عظيم. ربما كنت لأربكه إذا كشفت له عن هويتي الحقيقية؛ لأن أي محارب برسومي قد ينخلع قلبه إذا عرف أنه يواجه جون كارتر، لكني لم أخبره وإنما اشتبكت معه وأرهقته للحظة ليتأكد من أنه يستطيع التفاخر بعمله.

كان -في الواقع- مبارزًا ممتازًا. كما كان -كما توقعت- مخادعًا وعديم الضمير تمامًا. إن معظم هؤلاء القتلة بلا شرف على الإطلاق، إنهم مجرد قتلة.

قاتل في البداية على نحو لائق متصورًا أن بإمكانه هزيمتي بسهولة، لكنه عندما أدرك عدم قدرته، لجأ إلى حيل مشبوهة عديدة، وأخيرًا حاول الشيء الذي لا يُغتفر- سعى بيده الأخرى إلى سحب مسدسه.

ولمعرفتي بهذا النوع من الناس، كنت أتوقع بطبيعة الحال شيئًا من هذا القبيل. وفي اللحظة التي أغلق فيها أصابعه على مؤخرة سلاحه، ضربت سيفه وأوقعته جانبًا ووضعت رأس سيفي بقوة على معصمه الأيسر، وتقريبًا قطعت يده.

سقط وهو يصرخ من الغضب والألم، ثم هجمت عليه بقوة.

صرخ الآن طلبًا للرحمة، وبكى قائلاً إنه ليس أولداك، وإنني ارتكبت خطأ، وتوسل أن أتركه يذهب، ثم استدار الجبان كي يهرب. اضطررت إلى القيام بأكثر شيء أكرهه؛ لأني لا يمكن أن أتركه يعيش إذا كنت أرغب في تنفيذ خطتي، ولذا قفزت بالقرب منه وغرست سيفي في قلبه من الخلف.

رقد أولداك ميتًا على وجهه.

سحبت سيفي من جسده، ونظرت حولي بسرعة. لم يكن هناك أحد على مرمى البصر. قلبت الرجل على ظهره، ورسمت بسن سيفي علامة التقاطع (×) على صدره فوق قلبه.

* * *

الفصل (05)

المخ

كان راباس ينتظرني عندما دخلت المطعم، وبدا عليه الشعور بالرضى الذاتي والارتياح.

قال: «لقد أتيت في موعدك. هل وجدت أي شيء لتسليتك في حياة زودانجا الليلية؟».

قلت مؤكِّدًا: «نعم، استمتعت بدرجة كبيرة. وأنت؟».

«أمضيت أمسية مفيدة للغاية. قمت بعمل اتصالات ممتازة؛ ولم أنسك عزيزي فاندور».

قلت: «كم هو لطيف منك».

قال: «نعم، سيكون لديك سبب لتتذكر هذا المساء، ما دمت تعيش»، ثم انفجر في الضحك.

قلت: «يجب أن تخبرني عن ذلك».

أجاب: «كلا، ليس الآن. يجب أن يبقى سرًّا لفترة من الوقت. سرعان ما تعرف كل شيء، والآن دعنا نأكل. إنها هديتي الليلة، سوف أدفع حساب كل شيء».

يبدو أن الرجل- الجرذ البائس قد تضخم لشعوره بالأهمية الآن، لأنه اعتبر نفسه عضوًا كامل العضوية تقريبًا في رابطة أور جان للقتلة.

قلت: «حسنًا، هذه هديتك»؛ فقد وجدت أنني سوف أزيد متعتي بالنكتة بأن أسمح لهذا المسكين الأحمق أن يدفع الفاتورة. ولزيادة التسلية، طلبت الأطباق التي وجدتها أغلى ثمنًا.

عندما دخلت المطعم، كان راباس يجلس بالفعل في مواجهة المدخل ويلقي نظرة نحوه باستمرار. وكلما دخل شخص، كنت أرى نظرة التوقع على وجهه تتغير إلى خيبة أمل.

تحدثنا عن أشياء مختلفة غير مهمة ونحن نأكل. ومع مرور الوقت، لاحظت نفاد صبره المتزايد وقلقه.

سأله بعد فترة: «ما الأمر يا راباس؟ تبدو عصبيًّا فجأة. وتراقب المدخل باستمرار، هل تتوقع شخصًا ما؟».

تمالك نفسه بسرعة كبيرة، لكنه ألقى نظرة فاحصة نحوي مع تضييق جفنيه. قال: «كلا، كلا، لا أتوقع أي شخص، وإنما لديَّ أعداء. ولذا من الضروري دائما أن أتوخى الحرص».

كان تفسيره معقولاً، مع علمي بالطبع أنه ليس صحيحًا. كان بإمكاني أن أخبره أنه يراقب شخصًا لن يظهر أبدًا، لكني لم أفعل.

أطال راباس من فترة تناول الطعام قدر استطاعته. وكلما امتد الوقت، أصبح أكثر توترًا وطالت نظراته نحو المدخل. تحركت أخيراً للذهاب، لكنه احتجزني. قال: «لنبقَ قليلاً. أنت لست في عجلة من أمرك، أليس كذلك؟».

أجبت: «يجب أن أعود. قد يحتاج فال سيفاس إلى خدماتي».

قال لي: «كلا، ليس قبل الصباح».

قلت بإصرار: «لكني يجب أن أنام».

قال: «سوف تنام كثيراً، لا تقلق».

قلت وأنا أنهض: «حسنًا، إذَنْ من الأفضل أن أذهب لأستعد للنوم».

حاول أن يحتجزني، لكني انتهيت من كل المتعة التي يحملها لي هذا المساء، وهكذا أصررت على المغادرة.

نهض على مضض وقال: «سوف أسير معك قليلاً».

كنا بالقرب من الباب المؤدي إلى الطريق عندما دخل رجلان. كانا يناقشان شيئًا بانفعال وهما يقدمان التحية إلى مالك المطعم.

قال أحدهما: «لقد عاد عملاء أمير الحرب إلى العمل مرة أخرى».

سأل صاحب المطعم: «وكيف ذلك؟».

- لقد عثروا للتو على جثة أحد القتلة التابعين لأور جان في شارع ‘الحنجرة الخضراء’ – وكانت علامة التقاطع الخاصة بأمير الحرب فوق قلبه.

قال صاحب المطعم: «المزيد من السلطة لأمير الحرب. ستصبح زودانجا أفضل حالاً إذا تخلصنا منهم جميعًا».

سأل راباس، بقلق أكثر بكثير، كما أتصور، من اهتمامه بالمعرفة: «هل اسم الرجل الميت معروف؟».

رد أحد الرجلين اللذين جلبا النبأ: «لماذا؟ قال رجل في الحشد أنه يعتقد أن اسمه أولداك».

شحب راباس.

سألته: «هل كان صديقًا لك يا راباس؟».

قال الأولسيو: «أوه، كلا. لم أكن أعرفه. دعنا نذهب».

خرجنا معًا إلى الشارع وتحركنا في اتجاه بيت فال سيفاس. مشينا متجاورين خلال المنطقة المضاءة بالقرب من المطعم. كان راباس شديد الهدوء ويبدو عصبيًّا. شاهدته من طرف عيني وحاولت قراءة عقله، لكنه كان متأهبًا، وأغلقه ضدي.

أتمتع في كثير من الأحيان بميزة على المريخيين، تتمثل في قدرتي على قراءة عقولهم، على الرغم من عدم قدرتهم على الإطلاق على قراءة عقلي. لكنني لا أعرف ما سبب ذلك. تُعد قراءة العقل إنجازاً شائعًا في المريخ. ولحماية أنفسهم من أخطاره، تمكن المريخيون من تطوير القدرة على إغلاق عقولهم أمام الآخرين وفقًا لإرادتهم– إنها آلية دفاعية طويلة الأمد بحيث أصبحت تقريبًا خاصية عالمية. وعلى ذلك، لا يمكن سوى في بعض الأحيان ألا يكون المرء حذرًا في مواجهة قراءة الآخرين لعقله.

ومع دخولنا إلى شوارع أكثر إظلامًا، أصبح من الواضح أن راباس يحاول التخلف قليلاً ورائي؛ وعندئذ لم أكن في حاجة لأن أقرأ عقله لمعرفة ما فيه - أولداك فشل، أمام الجرذ الآن فرصة لتغطية نفسه بالمجد وكسب احترام أور جان، وذلك بتنفيذ المهمة التي كان من المفترض أن ينفذها أولداك.

إذا كان المرء يتمتع بحس الفكاهة، فإن وضعًا مثل هذا سيكون ممتعًا جدًّا، كما هو بالنسبة لي في الواقع. كنت أسير هنا على طول طريق مظلم مع رجل ينوي قتلي في أول فرصة، ومن الضروري أن أحبط خططه دون أن أجعله يعرف أنني أشك فيه؛ ذلك أنني لم

أكن أريد قتل راباس الأولسيو، على الأقل ليس في الوقت الحاضر. فقد شعرت أنني أستطيع الاستفادة منه بطريقة أو بأخرى دون أن يشك في أنه يساعدني.

«تعال»، قلت له أخيراً، «لماذا تتخلف؟ هل تشعر بالتعب؟». لففت ذراعي اليُسرى حول ذراعه القريبة من سيفه، وواصلنا طريقنا هكذا نحو منزل فال سيفاس.

وبعد مسافة قصيرة، عند تقاطع شارعين، ابتعد راباس عني وهو يقول: «سوف أتركك هنا. لن أعود إلى منزل فال سيفاس الليلة».

قلت له: «حسنًا يا صديقي، لكني سأراك ثانية قريبًا، آمل ذلك».

أجاب: «نعم، قريبًا».

اقترحت: «ربما ليلة الغد، أو إذا لم يكن ليلة الغد، إذَنْ في الليلة التالية. كلما وجدت وقتًا، سآتي إلى المطعم، وربما أجدك هناك».

قال: «حسنًا، أنا آكل هناك كل ليلة».

- أتمنى لك نومًا جيدًا، راباس.

«وأتمنى لك نومًا جيدًا، فاندور». ثم استدار إلى الطريق على يسارنا، وواصلت أنا طريقي.

اعتقدت أنه قد يتبعني، لكنه لم يفعل. وأخيراً وصلت إلى منزل فال سيفاس.

أدخلني هاماس، وبعد أن تبادلنا بضع كلمات ذهبت مباشرة إلى مسكني. أدخلتني زاندا بعد الإشارة المتفق عليها.

أخبرتني الفتاة أن البيت كان هادئًا جدًّا أثناء الليل، ولم يزعجها أحد أو يحاول دخول مسكننا. أعدت لي حرير وفراء النوم. ولأني كنت متعبًا إلى حد ما، سرعان ما رحت في النوم.

بعد وجبة الإفطار مباشرة في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى الخدمة مرة أخرى عند باب مكتب فال سيفاس. وبعد فترة قصيرة استدعاني لمقابلته.

سألني: «ماذا حدث في الليلة الماضية؟ كيف كان حظك؟ أرى أنك ما زلت هنا على قيد الحياة؛ ولذا أعتبر أنك لم تنجح في الوصول إلى مكان اجتماع القتلة».

قلت له: «على العكس، وصلت. كنت في الغرفة المجاورة لهم ورأيتهم جميعًا».

- وماذا عرفت؟

- ليس كثيراً. لم أسمع شيئًا عندما كان الباب مغلقًا. ولم يُفتح إلا لفترة قصيرة.

سألني: «ماذا سمعت عندما كان الباب مفتوحًا؟».

- عرفوا أنك وظفتني كحارسك الشخصي.

سأل: «ماذا! كيف عرفوا؟».

هززت رأسي وقلت له: «لا بد أن هناك تسريبًا».

صاح: «هناك خائن!».

لم أخبره عن راباس. كنت أخشى أن يقتله، ولم أردْ قتله؛ فربما يكون مفيدًا لي.

سأل: «ماذا سمعت أيضًا؟».

- أمر أور جان بقتلي.

قال فال سيفاس: «يجب أن تحذر. ربما من الأفضل ألا تخرج ثانية في الليل».

أجبت: «يمكنني العناية بنفسي، ويمكنني أن أخدمك أفضل إذا تحركت ليلاً وتحدثت إلى الناس في الخارج أكثر مما أستطيعه من خلال البقاء هنا محبوسًا عندما لا أكون في الخدمة».

أومأ، ثم قال: «أعتقد أنك على حق»، وجلس للحظة يفكر بعمق. وأخيراً رفع رأسه وصاح: «عرفته! أعرف مَن هو الخائن».

سألته بأدب: «عرفته؟».

- إنه راباس الأولسيو - أولسيو! يا لها من تسمية جيدة!

سألته: «هل أنت متأكد؟».

أجاب فال سيفاس بشكل قاطع: «لا يمكن أن يكون أي شخص آخر. لم يغادر أحد غيركما المبنى منذ قدومك. لكننا سنضع حدًّا لذلك بمجرد عودته. عندما يعود، عليك أن تدمره. هل تفهم؟».

أومأت.

قال: «إنه أمر، عليك إطاعته». جلس لبعض الوقت في صمت، ورأيت أنه يتفحصني باهتمام. وأخيراً تحدث: «لديك بعض المعرفة القليلة بالعلوم، وحكمي نابع من اهتمامك بالكتب الموجودة في مسكنك».

قلت له مؤكِّدًا: «معرفة قليلة فحسب».

قال: «أنا بحاجة إلى رجل مثلك، لو تمكنت فحسب من العثور على شخص قد أثق فيه. ولكن، بمَن يستطيع المرء أن يثق؟». يبدو أنه يفكر بصوت عال. واصل تفكيره: «نادرًا ما أخطأت. لقد قرأت راباس ككتاب مفتوح. كنت أعرف أنه حقير وجاهل، والخيانة في قلبه».

استدار نحوي فجأة، ثم قال: «لكنك مختلف. أعتقد أن بإمكاني المخاطرة معك، لكنك إذا خذلتني ...» - وقف وواجهني، ولم أرَ أبدًا مثل هذا التعبير الخبيث على وجه بشري من قبل، «إذا خذلتني يا فاندور، ستموت بطريقة لا يمكن أن يتخيلها سوى عقل فال سيفاس».

لم أستطع منع ابتسامة. قلت: «لن أموت إلا مرة واحدة».

- لكن موتك قد يستغرق وقتًا طويلاً، إذا حدث بطريقة علمية. استرخى الآن، وأخذت لهجته طابع المزاح قليلاً. يمكنني أن أتخيل أن فال سيفاس قد يستمتع برؤية عدو يموت بفظاعة.

قال: «سوف أمنحك ثقتي- قليلاً فقط».

قلت له: «تذكر أنني لم أطلب ذلك، وأنني لم أسعَ إلى معرفة أي من أسرارك».

فقال: «المخاطرة متبادلة، حياتك في مقابل أسراري. تعالَ، لديَّ شيء أريدك أن تراه».

قادني من الغرفة على طول الممر، ومرورًا بمسكني، ثم صعدنا السلم الحلزوني إلى الطابق الأعلى المحظور. سرنا هنا خلال مجموعة رائعة التجهيز من أماكن المعيشة، ثم خلال باب صغير مُخبَّأ وراء الستائر، ووصلنا أخيراً إلى غرفة علوية هائلة تمتد علويًّا إلى سطح المبنى، ومن الواضح لعدة مستويات فوقنا.

توجد في الغرفة أغرب طائرة فضائية رأيتها على الإطلاق؛ تدعمها سقالات، وتشغل ما يقرب من مجمل طول الغرفة الهائلة. كانت مقدمة الطائرة بيضاوية الشكل. ومن قطرها الأكبر، خلف مقدمتها مباشرة، تنحدر تدريجيًّا إلى نقطة في الجذع.

قال فال سيفاس بفخر: «ها هي، عمل عُمري، وهو مكتمل تقريبًا».

علّقت قائلاً: «هذا نوع جديد تمامًا من السفن الفضائية. في أي جانب تتفوق على الأنواع الحالية؟».

أجاب فال سيفاس: «لقد بُنيت لتحقيق نتائج لا يمكن لأي سفينة أخرى أن تحققها. وقد قمت بتصميمها على نحو يتيح لها الوصول إلى سرعة تتجاوز أكثر تخيلات البشر جموحًا. وسوف تحلق في مسارات لم يسافر خلالها أي رجل أو سفينة على الإطلاق».

- في تلك السفينة، يا فاندور، يمكنني زيارة القمرين ثوريا وكلوروس. ويمكنني السفر إلى أقاصي الفضاء، إلى كواكب أخرى.

قلت: «هذا رائع».

«ولكن هذا ليس كل شيء. ترى أنها مُشيدة من أجل السرعة. وأستطيع أن أؤكد لك أنها مبنية لتحمُّل أكبر ضغط، ومعزولة ضد أقصى درجات الحرارة والبرودة. ربما، يا فاندور، نجح مخترعون آخرون في تحقيق نفس الغاية. وأعتقد أن جار نال قد نجح في ذلك بالفعل. على أن رجلاً واحدًا فقط في برسوم، ومما لا شك فيه أن مخًّا واحدًا فقط في النظام الشمسي بأكمله، هو مَن يمكنه أن يفعل ما فعله فال سيفاس. فقد منحتُ تلك الآلية التي تبدو عديمة الإحساس مخًّا تفكر به. لقد

أتقنت المخ الميكانيكي يا فاندور، ومع القليل من الوقت، ومجرد القليل من التحسينات، سوف أتمكن من إرسال هذه السفينة بمفردها. سوف تذهب إلى حيث أرغب، وتعود مرة أخرى.

«لا شك أنك تعتقد أن هذا مستحيل. تعتقد أن فال سيفاس مجنون، وإنما انظر! راقبْ عن كثب».

تركزت نظرته على مقدمة السفينة غريبة المظهر، وأراها الآن ترتفع ببطء من السقالات لحوالي عشرة أقدام وتقف معلقة في الهواء، ثم ترفع مقدمتها بضعة أقدام، ثم ذيلها، وأخيراً تثبت مرة أخرى وتستقر باتزان فوق السقالات.

اندهشت بالتأكيد؛ فلم يسبقْ أن رأيت طوال حياتي شيئًا بمثل هذه الروعة. ولم أسعَ إلى إخفاء إعجابي عن فال سيفاس.

قال: «كما ترى، لم يتطلب الأمر حتى أن أتحدث إليها؛ فالمخ الميكانيكي الذي قمت بتثبيته في السفينة يستجيب لموجات الفكر. يجب فقط أن أنقل إليها دافع الفكر الذي أريدها أن تعمل وفقًا له. وعندئذ يعمل المخ الميكانيكي كما يعمل مخي تمامًا، ويُوجه الآلية التي تتولى تشغيل السفينة بمثل ما يتولى تمامًا مخ الطيار توجيه يده لنقل الروافع، والضغط على الأزرار، وفتح أو إغلاق صمام الوقود.

«لقد خضت معركة طويلة ورهيبة يا فاندور، لإتقان هذه الآلية الرائعة. واضطررت إلى القيام بأشياء من شأنها إثارة تقزز أروع المشاعر البشرية؛ لكنني أعتقد أن الأمر برمته كان يستحق. وأعتقد أن أعظم إنجازاتي يبرر كل ما تكلفه من أرواح ومعاناة.

«وأنا أيضًا دفعت ثمنًا. فقد أخذ مني شيئًا لا يمكن استبداله أبدًا. أعتقد يا فاندور أنه سلبني كل غريزة إنسانية. وباستثناء أنني إنسان فان، أنا مخلوق من صيغة باردة بلا إحساس مثل ذلك الشيء الذي تراه يستقر هناك أمامكَ. ولهذا أكره عملي أحيانًا، ومع ذلك مستعد لأن أموت من أجله. قد أرى آخرين يموتون من أجله، عددًا لا يُحصى من الآخرين، في المستقبل، كما رأيت في الماضي. يجب أن يعيش هذا الإنجاز؛ إنه أعظم إنجاز للعقل البشري».

الفصل (06)

السفينة

أعتقد أن كلاًّ منا يمتلك شخصيتين. تتشابه الشخصيتان في كثير من الأحيان إلى حد عدم ملاحظة هذه الازدواجية، على أن هناك اختلافًا كبيراً بينهما بحيث نشهد لدينا ظاهرة الدكتور جيكل والسيد هايد في الفرد الواحد. وأشار كشف فال سيفاس عن نفسه بإيجاز أنه قد يُعد مثالاً على هذا الاختلاف الواسع في الشخصية.

فقد بدأ ندمه فورًا على هذا الانفجار العاطفي، وتحول مرة أخرى إلى شرح اختراعه.

سألني: «هل ترغب في رؤية هذا الشيء من الداخل؟».

أجبت: «أرغب جدًّا».

ركز اهتمامه مرة أخرى على مقدمة السفينة. ينفتح الآن باب في جانبها، وينزل سلم من الحبال إلى أرضية الغرفة.

كان إجراء غريبًا - تمامًا كأنما تتولى أيادٍ شبحية أداء العمل.

أشار لي فال سيفاس أن أسبقه في صعود السلم. كان من عادته ألا يصعد أبدًا أحد وراءه، مما يدل إلى الضغط العصبي الذي يعيش في ظله دائمًا خوفًا من الاغتيال.

أدى المدخل مباشرة إلى مقصورة صغيرة مريحة، ومفروشة بشكل فاخر.

أوضح فال سيفاس: «المؤخرة مخصصة للمخازن، حيث يمكن وضع المواد الغذائية اللازمة للرحلات الطويلة. وعند المؤخرة أيضًا توجد المحركات، وماكينات الأكسجين وتوليد المياه، ومحطة تنظيم درجة الحرارة. وتوجد غرفة التحكم في الأمام. وأعتقد أن هذا سوف يثير اهتمامك كثيراً»، وأشار أن أسبقه خلال باب صغير في الحاجز الأمامي للمقصورة.

كان الجزء الداخلي من غرفة التحكم، التي احتلت مقدمة السفينة بأكملها، عبارة عن كتلة من الأجهزة الميكانيكية والكهربائية المعقدة.

ويوجد على جانبي المقدمة، كُوّتان كبيرتان مستديرتان ومثبت عليهما ألواح سميكة من الكريستال.

تبدو هاتان الكوتان من خارج السفينة كعينين هائلتين لوحش عملاق؛ وفي الحقيقة، كان هذا غرضهما.

لفت فال سيفاس انتباهي إلى شيء معدني مستدير وصغير، حجمه مثل حجم ثمرة الجريب فروت الكبيرة، ومثبت بحزم فوق العينين وبينهما مباشرة. ويخرج من هذا الشيء كابل كبير يتكون من عدد هائل من الأسلاك المعزولة الصغيرة جدًّا. رأيت أن بعض هذه الأسلاك يتصل بالعديد من الأجهزة في غرفة التحكم، وأن البعض الآخر يمتد عبر أنابيب إلى مؤخرة السفينة.

صعد فال سيفاس ووضع يدًا بمودة على الشيء الكروي الذي لفت انتباهي. وقال: «هذا هو المخ». ثم لفت انتباهي إلى موضعين، يقع كل منهما في المركز تحديدًا بكل بلورة في الكوتين الأماميتين. لم ألحظهما في البداية، لكني أرى الآن أنهما يختلفان تمامًا عن باقي البلورات.

قال فال سيفاس شارحًا: «تركز هذه العدسات على هذه الفتحة في الجزء السفلي من المخ»، ثم لفت انتباهي إلى ثقب صغير في قاعدة الكرة، «بحيث تنقل إلى المخ ما تراه أعين السفينة. وعندئذ يعمل المخ ميكانيكيًّا بمثل ما يعمل المخ البشري تحديدًا، إلا أنه أكثر دقة».

صحت: «هذا لا يُصدق!».

أجاب: «ومع ذلك، فهو حقيقي. بيد أن المخ يفتقر، من ناحية، إلى القوة البشرية. فلا يمكنه إنتاج الأفكار. وربما هذا من العدل أيضًا؛ فلو كان بإمكانه إنتاج الإفكار، لأطلق نحوي ونحو برسوم وحشًا عديم الإحساس يمكنه أن يعيث فسادًا مهولاً قبل أن يمكن تدميره؛ لأن هذه السفينة مجهزة ببنادق الراديوم عالية الطاقة التي يملك المخ القدرة على إطلاقها بدقة، وهي أكثر فتكًا بكثير مما يمكن أن يحققه إطلاقها من جانب الإنسان».

قلت: «لكني لم أرَ أي بنادق».

أجاب: «لا. إنها تحت غطاء عند الحواجز الأمامية، ولا يمكن رؤية أي جزء منهم باستثناء الثقوب المستديرة الصغيرة في هيكل السفينة. وكما قلت لك، نقطة الضعف الوحيدة للمخ الميكانيكي هي نفس الشيء الذي يجعله فعالاً للاستخدام البشري. فقبل أن يعمل، يجب شحنه بموجات الفكر البشري. وبعبارة أخرى، يجب أن أُدخل الأفكار إلى الآلية، وهذه الأفكار تُعد الغذاء لكي يعمل.

«وعلى سبيل المثال، أشحنه بفكرة الارتفاع عموديًّا لمسافة عشرة أقدام، ثم التوقف لبضع ثوان، وبعدها العودة ليستقر ثانية فوق السقالات.

«ولتطبيق الفكرة في مجال أكثر تعقيدًا، يجب أن أنقل إليه الفكر التشغيلي: أي أنه سوف يسافر إلى القمر ثوريا، ويبحث عن مكان مناسب للهبوط، ثم يهبط. ويمكنني حتى أخذ هذه الفكرة إلى أبعد من ذلك، بتحذيره أنه إذا هُوجم، فعليه أن يصد أعداءه بنيران البنادق وأن يناور تجنبًا لوقوع كارثة، ويعود فورًا إلى برسوم، بدلًا من تعرضه للدمار.

«كما أنه مُجهز بكاميرات، يمكنني توجيهها إلى التقاط الصور وهي على سطح ثوريا».

سألته: «وهل تعتقد أنه سوف يفعل هذه الأشياء، فال سيفاس؟».

دمدم في وجهي بنفاد صبر، وقال: «بالطبع. ليس أمامي سوى بضعة أيام أخرى لإتقان التفاصيل الأخيرة. إنها مسألة بسيطة تتعلق بتروس المحرك، فلست راضيًا عنها تمامًا».

قلت: «ربما أستطيع مساعدتك. فقد تعلمت العديد من الحيل المتعلقة بالتروس خلال حياتي الطويلة في الهواء».

اهتم على الفور، وأمرني بالعودة إلى الطابق الذي يضم حظيرته. تبعني إلى أسفل، ونحن الآن ندرس رسوم مُحرك سفينته.

سرعان ما وجدت الخطأ، وعرفت كيف يمكن تحسينه. وكان فال سيفاس مسرورًا. وأدرك على الفور قيمة النقاط التي قدمتها.

قال: «تعال معي، سوف نبدأ العمل على هذه التغييرات في الحال».

قادني إلى باب في إحدى نهايات الحظيرة وفتحه، وتبعني إلى الغرفة التي تقع خلف الباب.

رأيت هنا، وفي سلسلة من الغرف المجاورة، أروع الورش الميكانيكية والكهربائية مجهزة تجهيزًا لم أشهد مثله من قبل. ورأيت شيئًا آخر، وهو الشيء الذي جعلني ارتجف وأنا أدرك دهاء الهوس بالسرية غير الطبيعي لدى هذا الرجل في تطوير اختراعاته.

ضمت الورش مجموعة من الميكانيكيين، وكل منهم مُقيد بمقعده أو بآلته. كان لون بشرتهم شاحبًا من الحبس الطويل، ويبدو في أعينهم يأس اليأس.

لا بد أن فال سيفاس لاحظ تعبيرات وجهي؛ لأنه قال فجأة ما يتعلق تمامًا بما أفكر فيه: «يجب أن أفعل ذلك، يا فاندور، فلا يمكنني المجازفة بهروب أحدهم وكشف أسراري إلى العالم قبل أن أكون مستعدًّا».

سألته: «ومتى يحين ذلك الوقت؟».

صاح مزمجرًا: «أبدًا. عندما يموت فال سيفاس، تموت أسراره معه. وخلال حياته ستجعله أقوى رجل في الكون. وهذا هو السبب في أن جون كارتر نفسه، أمير الحرب من المريخ، سوف يضطر إلى الانحناء على ركبتيه أمام فال سيفاس».

سألته: «وهؤلاء البارعون المساكين، إذَنْ، هل سيبقون هنا طوال حياتهم؟».

قال: «يجب أن يشعروا بالفخر والسعادة؛ أليسوا يكرسون أنفسهم لأعظم إنجاز تصوره العقل البشري على الإطلاق؟».

قلت له: «لا يوجد شيء يا فال سيفاس أكثر مجدًا من الحرية».

رد بعنف: «احتفظْ بعواطفك السخيفة لنفسك. لا يوجد مكان للعاطفة في بيت فال سيفاس. إذا أردت أن تكون ذا قيمة بالنسبة لي، فلا تُفكر إلا في الهدف، وعليك نسيان الوسائل التي نحققه خلالها».

حسنًا، أدركت أنني لا أستطيع تحقيق أي شيء لنفسي أو لضحاياه المساكين بمعاداته، ولذا هززت كتفي بإذعان. وقلت موافقًا: «بالطبع، أنت على حق، فال سيفاس».

قال: «هذا أفضل، ثم استدعى كبير العمال وشرحنا له معًا التغييرات التي يجب إجراؤها في المحرك».

تنهد فال سيفاس بعد أن استدرنا وغادرنا الغرفة، وقال: «آه، إذا أمكنني فقط إنتاج المخ الميكانيكي بكميات، عندئذ أستطيع التخلص من كل هؤلاء البشر الأغبياء. يمكن لمخ واحد في كل غرفة أداء جميع العمليات التي يتطلب أداؤها الآن من خمسة إلى عشرين رجلاً؛ كما سيؤديها أفضل، بل أفضل كثيرًا».

توجه فال سيفاس إلى مختبره في نفس الطابق، وأخبرني أنه لن يحتاجني لفترة، لكني يجب أن أظل في مسكني وأن أترك الباب مفتوحًا كي أتأكد من عدم مرور أي شخص غير مصرح له على طول الممر في اتجاه السلم الحلزوني الذي يقود إلى مختبراته.

وعندما وصلت إلى مسكني، وجدت زاندا تقوم بتلميع معادن عتاد إضافي، قالت إن فال سيفاس أرسله لي.

قالت: «كنت أتحدث مع عبدة هاماس منذ فترة قصيرة. وتقول إن هاماس قلق عليك».

سألتها: «ولماذا؟».

- يعتقد هاماس أن السيد مُعجب بك، وهو يخشى على نفوذه. فقد كان رجلاً قويًّا جدًّا هنا لسنوات عديدة.

ضحكت، وقلت لها: «أنا لا أطمح إلى أمجاده».

قالت زاندا: «لكنه لا يعرف ذلك. ولن يصدق، إذا قيل له. إنه عدوك، وهو عدو قوي جدًّا. أردت فقط أن أحذرك».

قلت: «أشكرك، زاندا. سأكون يقظًا تجاهه. لديَّ عدد كبير من الأعداء، وأنا معتاد على وجودهم، بحيث وجود عدو جديد لن يُحدث فارقًا كبيراً».

قالت: «هاماس قد يُحدث فارقًا كبيراً بالنسبة لك. إن لديه أُذن فال سيفاس. وأنا قلقة جدًّا عليك يا فاندور.

«يجب ألا تقلقي؛ فأنتِ لديك أذن هاماس من خلال أَمَته، إذا كان ذلك سيشعرك بالتحسن. يمكنك أن تجعليهَا تعرف أنني ليس لديَّ أي طموح لإزاحة هاماس».

قالت: «هذه فكرة جيدة، لكني أخشى أنها لن تحقق الكثير. وإذا كنت مكانك، لن أعود في المرة القادمة التي أخرج فيها من المبنى. أنت خرجت الليلة الماضية، ولذلك أفترض أن لديك حرية المجيء والذهاب كما تريد».

أجبت: «نعم، هذا صحيح».

- ما دام فال سيفاس لا يأخذك إلى الطابق العلوي ويكشف لك أي من أسراره، فمن المحتمل أن يسمح لك بالخروج، ما لم يتمكن هاماس من إثارة شيء عند فال سيفاس كي يمنعك من هذه الميزة.

قلت: «لكني كنت بالفعل في الطابق العلوي، ورأيت العديد من عجائب اختراعات فال سيفاس».

أطلقت عندئذ صيحة ذعر صغيرة، وصاحت: «أوه ، فاندور، أنت ضعت! والآن لن تغادر أبدًا هذا المكان الرهيب».

قلت لها: «على العكس، سأخرج الليلة، زاندا. وقد وافق فال سيفاس على ذلك».

هزت رأسها، وقالت: «لا أفهم ذلك، ولن أصدق إلا بعد أن تخرج».

أرسل فاس سيفاس يستدعيني عند المساء. قال إنه يريد أن يتحدث معي حول بعض التغييرات الأخرى في تروس المُحرك، وهكذا لم أخرج في تلك الليلة. وطلب مني في اليوم التالي أن أتوجه إلى الورش لإرشاد الميكانيكيين الذين يعملون على التروس الجديدة؛ وبالتالي جعل من المستحيل مرة أخرى أن أغادر المبنى.

كان يمنعني، بطريقة أو بأخرى، ليلة بعد ليلة. وعلى الرغم من أنه لم يرفضْ عمليًّا السماح لي بالخروج، فقد بدأت أشعر أنني سجين بالفعل.

ومع ذلك، أثار العمل في الورش اهتمامي كثيراً، ولم أكن أبالي بخروجي من عدمه.

ظلت سفينة فال سيفاس العجيبة تشغل فكري على الدوام منذ أن رأيتها واستمعت إلى شرحه للمخ الميكانيكي الرائع الذي يسيطر عليه. رأيت فيها كل إمكانيات القوة من أجل الخير أو الشر التي تصورها فال سيفاس، وكنت مفتونًا بالتفكير في ما يمكن أن يحققه الرجل الذي يسيطر عليها.

إذا كان رفاه الإنسان هو ما يشغل هذا الرجل، فإن اختراعه سوف يصبح نعمة لا تقدر بثمن لبرسوم؛ لكنني كنت أخشى أن فال سيفاس أناني ومهووس بالسلطة، ولن يستخدم اختراعه من أجل الصالح العام فقط.

قادتني هذه التأملات بطبيعة الحال إلى التساؤل عن إذا كان يمكن لشخص آخر غير فال سيفاس أن يسيطر على المخ. أثارت هذه الفكرة اهتمامي، وعزمت على التأكد في أول فرصة من إذا كان هذا الشيء عديم الشعور سوف يستجيب لإرادتي.

كان فال سيفاس في مختبره بعد ظهر ذلك اليوم، وكنت أعمل في الورش مع الحِرفيين المساكين المقُيدين. تقع السفينة العظيمة في الغرفة المجاورة. ورأيت أن الوقت مناسب الآن لإجراء تجربتي.

كانت جميع المخلوقات في الغرفة معي من العبيد. وعلاوة على ذلك، يكرهون فال سيفاس؛ ولذا ما فعلته لم يُحدِث أي فارق بالنسبة لهم.

كنت رحيمًا بهم، بل وشجعتهم على الأمل، على الرغم من عدم قدرتهم على تصديق إمكانية وجود أي أمل. لقد شاهدوا عددًا كبيراً من زملائهم يموتون في سلاسل قيودهم، مما يجعلهم غير قادرين على التفكير في الهرب. كانوا غير مبالين في جميع الأمور، وأشك أن أيًّا منهم لاحظني عندما غادرت الورشة ودخلت الحظيرة حيث توجد السفينة فوق السقالات.

أغلقت الباب ورائي، واقتربت من مقدمة السفينة، ثم ركزت أفكاري على المخ داخلها. نقلت إليه رغبتي في أن ترتفع السفينة من السقالات، مثلما رأيت فال سيفاس يفعل، ثم تعود ثانية لتستقر في مكانها. فكرت أنني إذا استطعت أن أجعلها تفعل ذلك، فيمكنني أن أجعلها تفعل أي شيء يمكن أن يفعله فال سيفاس.

أنا لا أنفعل بسهولة؛ لكني يجب أن أعترف أن كل أعصابي توترت وأنا أشاهد هذا الشيء العظيم فوقي، وأتساءل ما إذا كان سيستجيب لموجات الفكر الخفية التي أطلقها نحوه.

وبطبيعة الحال، أدى تركيزي على هذا الشيء فقط إلى تقليص أنشطة ذهني الأخرى؛ ومع ذلك، كانت لديَّ رؤى لما يمكنني تحقيقه إذا نجحت تجربتي.

أعتقد أنني لم أمكثْ هناك إلا لحظة، لكنها بدت فترة طويلة؛ ثم ارتفعت السفينة العظيمة ببطء، كأن يدًا غير مرئية ترفعها. حامت للحظة لمسافة عشرة أقدام فوق السقالات، ثم استقرت عليها ثانية.

وبعد أن حدث ذلك، سمعت ضجيجًا ورائي. استدرت بسرعة، ورأيت فال سيفاس يقف في مدخل الورشة.

* * *

الفصل (07)

وجه في المدخل

اللا مبالاة هي نتيجة طبيعية لعدم التوازن. كنت ممتنًّا في تلك اللحظة لأن جينات الاتزان لدى أسلافي القدماء استمرت في التوارث إلى أن ورثتها. لا أعرف ما إذا كان فال سيفاس قد دخل الغرفة قبل أن تستقر السفينة مرة أخرى على السقالات. وإن لم يكن، فقد فاته المشهد لأقل من ثانية. وكان أفضل دفاع لحظي هو التصرف على افتراض أنه لم يرَ المشهد، وهذا ما عزمت على القيام به.

وقف المخترع العجوز عند المدخل، وهو ينظر نحوي بصرامة. سألني: «ماذا تفعل هنا؟».

أجبت: «الاختراع يبهرني، ويثير خيالي. كنت في الورشة، وأتيت هنا لإلقاء نظرة أخرى عليه. وأنت لم تقلْ لي ألا أفعل ذلك».

تجعد حاجباه وهو يفكر، ثم قال أخيراً: «ربما لم أقل لك، لكنني أقولها الآن. ليس من المفترض أن يدخل أي شخص هذه الغرفة إلا بأوامر صريحة مني».

قلت: «سأضع ذلك في اعتباري».

- سيكون من الجيد بالنسبة لك إذا فعلت ذلك، يا فاندور.

مشيت نحو الباب حيث يقف، بنية العودة إلى الورشة، لكن فال سيفاس سد طريقي.

قال: «انتظر لحظة. ربما كنت تتساءل عن إذا كان المخ سوف يستجيب لنبضات فكرك».

أجبت: «بصراحة، نعم».

تساءلت عن مدى ما يعرفه، ومدى ما رآه. ربما كان يلاعبني وهو مطمئن بما يعرفه؛ أو ربما كان يتشكك فيَّ، فودَّ سعى التأكد من شكوكه. وبغض النظر عن ذلك، كنت مصممًا على عدم الوقوع في فخ الافتراض بأنه لم يرَ ولا يعرف.

سألني: «ألم تكن تحاول، بأي حال، معرفة ما إذا كان سيستجيب؟».

سألته: «من غير أبله غبي يشاهد هذا الاختراع مرة ولا يضمر، بطبيعة الحال، مثل هذه الفكرة؟».

أقر قائلاً: «معك كل الحق، هذا صحيح، هذا أمر طبيعي. ولكن، هل نجحت؟»، ضاقت عيناه، وتحول جفناه إلى شقين ينذران بالسوء. يبدو أنه يحاول الحفر داخل روحي، ومما لا شك فيه أنه يحاول قراءة ذهني. لكني أعرف أنه لن يستطيع.

لوحت بيدي في اتجاه السفينة، وسألته ضاحكًا: «هل تحركت؟».

اعتقد أنني رأيت مجرد لمحة ارتياح بسيطة في تعبيراته، وتأكدت أنه لم يرَ أي شيء.

قال: «ومع ذلك، من المثير للاهتمام معرفة ما إذا كان عقل شخص آخر غيري يستطيع التحكم في الآلية. إذا افترضنا أنك ستحاول».

- لا بد أنها ستكون تجربة مثيرة للاهتمام للغاية. ويسعدني القيام بها. ماذا يجب أن أفعل في هذه المحاولة؟

قال لي: «من الضروري أن تكون فكرة أصيلة من عندك؛ لأنها إذا كانت فكرتي ونقلتها لك، لن نتأكد يقينًا ما إذا كان النبض الذي يحثها قد نبع من مخك أم من مخي».

سألته: «هل هناك خطر أن ألحق بالسفينة أي ضرر عن غير قصد؟».

أجاب: «لا أعتقد. ربما يصعب عليك إدراك أن هذه السفينة ترى وتفكر. إن بصرها وأداءها العقلي يتسم -بطبيعة الحال- بالميكانيكية البحتة؛ إلا أنها دقيقة. بل، في الواقع، يجدر بي القول إنها بالأحرى أكثر دقة. ربما تحاول أن تجعل السفينة تغادر الغرفة. لكنها لن تستطيع؛ لأن الأبواب الهائلة التي يجب أن تعبرها في النهاية خارج هذا المبنى مغلقة وموصدة. قد تقترب من جدار المبنى، لكن أعينها سوف ترى أنها لن تستطيع المرور دون أضرار؛ أو، بالأحرى، سترى الأعين العقبة، وتنقل الانطباع إلى المخ، الذي سيصل بدوره إلى نتيجة منطقية. وبالتالي، سيوقف السفينة أو على الأرجح سيجعل مقدمتها تتحرك بحيث تتمكن الأعين من البحث عن وسيلة آمنة للخروج. ولكن، دعنا نرى ما يمكنك القيام به».

لم يكن لديَّ أي نية لجعل فال سيفاس يعرف أن بإمكاني تشغيل اختراعه، هذا إن لم يكن يعرف بالفعل؛ ولذا حاولت إبقاء أفكاري بعيدة عن السفينة قدر الإمكان. تذكرت مباريات كرة القدم التي شاهدتها، وسيرك الحلقات الخمس، ومنتدى الجمال في معرض

شيكاغو العالمي عام 1893. حاولت، في الواقع، التفكير في أي شيء تحت الشمس غير فال سيفاس ومخه الميكانيكي.

والتفت نحوه في النهاية مع إيماءة تدل على الاستسلام. قلت: «لا يبدو أن أي شيء سيحدث».

بدا مرتاحًا إلى حد كبير، وقال: «أنت رجل ذكي؛ فإذا لم تُطِع السفينة توجيهاتك، يمكن الافتراض بأمان معقول أنها لن تطيع أحدًا سواي».

تاه للحظات في التفكير، ثم قام ونظر نحوي وعيناه تحترقان بنيران شيطانية. قال: «بمقدوري أن أصبح سيد العالم؛ ربما يمكنني حتى أن أصبح سيد الكون».

«بهذه؟»، سألته وأنا أشير إلى السفينة.

أجاب: «بالفكرة التي ترمز إليها؛ بفكرة جماد ينشط بوسائل علمية وبدافع من مخ ميكانيكي. إذا امتلكت فقط وسيلة القيام بذلك -أي الثروة- يمكنني تصنيع هذه الأمخاخ بكميات كبيرة، ووضعها في طائرات صغيرة يقل وزن كل منها عن وزن رجل. ويمكنني منحهم وسائل الحركة في الهواء أو على الأرض. ويمكنني إمدادهم بالأذرع والأيدي. ويمكنني تزويدهم بالأسلحة. ويمكنني إرسالهم بحشود كبيرة لغزو العالم. ويمكنني إرسالهم إلى كواكب أخرى. فهم لا يعرفون الألم أو الخوف. وليس لديهم آمال أو تطلعات أو طموحات قد تُثنيهم عن خدمتي. سوف تكون مخلوقات تحت تصرفي وإرادتي فقط، وتواصل أداء الأشياء التي أرسلهم للقيام بها إلى يتم تدميرهم.

«على أن تدميرهم لن يخدم أي غرض لأعدائي؛ فمصانعي سوف تنتج المزيد، في وقت أسرع مما يمكن لأعدائي تدميرهم».

قال: «هل رأيت كيف يمكن أن يسير الأمر؟»، ثم اقترب وقال هامسًا: «سوف أصنع بيدي أول هؤلاء الرجال الميكانيكيين. وبمثل ما صنعتهم، سوف أحثهم على صنع آخرين من نوعهم. سوف يصبحون الميكانيكيين الذين يعملون في مصانعي، وسيعملون ليلاً ونهارًا دون راحة، ويزيد دائمًا إنتاجهم لميكانيكيين من نوعهم. فكر في مدى سرعة تكاثرهم».

كنت أفكر في ذلك. أذهلتني وأدهشتني الاحتمالات. قلت له: «لكن الأمر يتطلب ثروة هائلة».

كرر كلماتي: «نعم، ثروة هائلة؛ لكني بنيت هذه السفينة بغرض الحصول على هذه الثروة الهائلة».

سألت، مبتسمًا: «هل تنوي مداهمة بيوت الخزانة في المدن الكبرى على برسوم؟».

أجاب : «على الإطلاق. فأكثر الكنوز تقع تحت تصرف الرجل الذي يسيطر على هذه السفينة. ألا تعرف ماذا يخبرنا المطياف عن ثروات القمر ثوريا؟».

قلت: «لقد سمعت بذلك، لكني لم آخذ الأمر بجدية؛ فقد كانت القصة خرافية، يصعب تصديقها».

قال: «لكنها صحيحة. لا بد أن هناك جبالاً من الذهب والبلاتين على ثوريا، فضلاً عن سهول شاسعة مفروشة بالأحجار الكريمة».

يا له من مشروع جريء! لكني بعد أن رأيت هذه السفينة، وعرفت العبقري الفذ فال سيفاس، لم يكن لديَّ شك في إمكانية تحقيق المشروع.

وفجأة، كما هي طريقته، بدا نادمًا لأنه وثق بي، وأمرني بفظاظة أن أعود إلى واجباتي في الورشة.

أخبرني العجوز الآن بالكثير، إلى حد أنني بدأت أتساءل بطبيعة الحال عن إذا كان يعتبر استمراري على قيد الحياة يهدد أمانه، ولذا كنت أتوخى الحذر باستمرار. كما بدا من غير المحتمل بدرجة كبيرة أن يوافق على مغادرتي المبنى، لكنني عقدت العزم على تسوية هذه المسألة على الفور؛ لأنني أردت أن أرى راباس قبل أن يتمكن من زيارة بيت فال سيفاس مرة أخرى، مما يجبرني بالتالي على تدميره. مر يوم بعد يوم، وفال سيفاس يخترع الأساليب للحيلولة دون مغادرتي البيت، على الرغم من أنه أنجز ذلك ببراعة بحيث لم يكن واضحًا بالفعل أنه لا يريدني أن أخرج.

وعندما صرفني من خدمته هذا المساء، أخبرته أنني سأحاول تحديد مكان راباس والاتصال مجددًا بالقتلة التابعين لأور جان.

تردد فترة طويلة قبل أن يرد، لدرجة أنني تصورت أنه على وشك منعني من الخروج؛ لكنه أومأ أخيراً بالموافقة. وقال: «ربما يكون الأمر كذلك. فراباس لم يعُد يأتي إلى هنا، وهو يعرف الكثير ليظل طليقًا، إلا إذا كان في خدمتي ومخلصًا لي. وإذا كان لا بد أن أثق في أحدكما، فمن الأفضل أن تكون أنت وليس راباس».

لم أذهب إلى وجبة المساء مع الآخرين؛ فقد كنت أنوي تناول الطعام في المطعم الذي يتردد عليه راباس، وحيث اتفقنا أن نلتقي في وقت راحتي.

كان من الضروري إبلاغ هاماس بخروجي؛ لأنه الوحيد الذي يستطيع فتح الباب الخارجي لي. لم يكن أسلوبه تجاهي جافًّا كما كان في الأيام القليلة الماضية، بل لطيفًا في الواقع. على أن هذا التغيير جعلني أكثر حذرًا، فقد شعرت أنه لا يبشر بأي خير - لا يوجد سبب كي يحبني هاماس اليوم أكثر من الأمس. إذا كنت سببًا في شعوره بتوقعات سارة، فلا بد أن هذا يرجع إلى تصوره بأن شيئًا غير سار سوف يصيبني.

خرجت من بيت فال سيفاس وتوجهت مباشرة إلى المطعم، وهناك سألت المالك عن راباس.

أجابني: «إنه يأتي كل مساء. يأتي عادة في هذا الوقت تقريبًا، ويأتي ثانية بعد نصف الزود الثامن. ويسألني عنك دائمًا وما إذا كنت أتيت».

قلت: «سأنتظره». وذهبت إلى الطاولة التي أجلس عليها عادة مع الجرذ.

ما إن جلست، حتى دخل راباس. جاء مباشرة إلى الطاولة وجلس أمامي.

سألني: «أين كنت؟ لقد بدأت أعتقد أن فال سيفاس العجوز قد تخلص منك، أو أنك سجين في بيته. وكنت على وشك أن أقرر الذهاب إلى هناك الليلة لمقابلة الرجل العجوز، لأعرف ماذا حدث لك».

قلت: «من الجيد أنني خرجت الليلة قبل أن تأتي».

سأل: «لماذا؟».

قلت له: «لأن ذهابك إلى بيت فال سيفاس ليس آمنًا. إذا كانت حياتك تهمك، فلا تذهب إلى هناك ثانية».

سألني: «ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟».

أجبت: «لا أستطيع أن أقول لك، وإنما ثقْ في كلامي وابقَ بعيدًا». لم أكن أريده أن يعرف أنني مُكلف بقتله. ربما جعله ذلك يرتاب ويخاف مني بحيث يفقد قيمته بالنسبة لي في المستقبل.

قال: «حسنًا، هذه مسألة غريبة؛ كان فال سيفاس ودودًا معي قبل أن آخذك إلى هناك».

أدركت أنه يضمر في ذهنه تصورًا بأنني، لسبب ما، أحاول إبعاده عن فال سيفاس؛ لكنني لم أستطعْ مساعدته، وهكذا غيرت الموضوع.

سألته: «هل كل شيء على ما يرام معك يا راباس، منذ رأيتك في المرة السابقة؟».

أجاب: «نعم، كل شيء على ما يرام».

- ما أخبار المدينة؟ لم أخرج منذ أن رأيتك آخر مرة، وبالطبع لا نسمع إلا القليل أو لا شيء في بيت فال سيفاس.

أجاب: «يقولون إن أمير الحرب موجود في زودانجا. لقد قُتِل أولداك، أحد رجال أور جان، في آخر ليلة رأيتك فيها، كما تتذكر. وجدوا على قلبه علَامة عملاء أمير الحرب؛ لكن أور جان يعتقد أنه لا يمكن لأي مبارز عادي أن يتفوق على أولداك. كما عرف من وكيله في هيليوم أن جون كارتر ليس هناك؛ لذلك، وبوضع هاتين الحقيقتين معًا، يعتقد أور جان أن أمير الحرب لا بد أنه في زودانجا».

قلت مُعلقًا: «يا له من أمر مثير للاهتمام. وماذا سيفعل أور جان حيال ذلك؟».

قال الجرذ: «أوه، سوف ينتقم له، بطريقة أو بأخرى. وهو يخطط بالفعل؛ وعندما يضرب، سوف يتمنى جون كارتر أن يكون قد حضر لشؤونه الخاصة وترك أور جان في حاله».

قبل انتهاء وجبتنا بوقت قصير، دخل زبون إلى المطعم وجلس بمفرده على طاولة في آخر القاعة. رأيته في مرآة أمامي. ألقى نظرة في اتجاهنا، فنظرت بسرعة نحو راباس ورأيت عينيه تومضان برسالة، كما أومأ برأسه قليلاً. كان يمكنني، من دون هذه الإشارة، أن أعرف سبب وجود الرجل؛ لأني تعرفت عليه كأحد القتلة الذين جلسوا في الاجتماع مع أور جان. تظاهرت بعدم ملاحظة أي شيء، وتجولت بنظراتي نحو المدخل، حيث اجتذبها زبونان كانا يغادران المكان في ذلك الوقت.

ثم رأيت شيئًا آخر يتسم بالأهمية- أهمية حيوية. فعندما تأرجح الباب مفتوحًا، رأيت رجلاً في الخارج ينظر. كان هاماس.

لم يطلب القاتل على الطاولة في نهاية القاعة سوى كأسٍ من النبيذ. وعندما شربها، نهض وغادر المطعم. وبعد خروجه بفترة قصيرة، نهض راباس.

وقال: «يجب أن أذهب، لديَّ ارتباط مهم».

سألته: «هل أراك ليلة الغد؟».

رأيته يحاول منع ابتسامة. وقال: «سأكون هنا مساء الغد».

خرجنا إلى الشارع، وتركني راباس، بينما استدرت واتخذت خطواتي نحو بيت فال سيفاس. لم يتطلب الأمر، في الأحياء المضاءة، أن أتوخى الحذر بوجه خاص؛ في حين أصبحت حذرًا عندما دخلت الأقسام المظلمة من المدينة. والآن، أرى شخصًا يختبئ في مدخل مظلم. كنت أعرف أنه القاتل الذي ينتظر ليقتلني.

* * *

الفصل (08)

الشك

يتحرك كلوروس، القمر الأبعد، عاليًا في السماء، ويلقي بضوئه الخافت على شوارع زودانجا كمصباح يكسوه التراب في سقف عال. لكنني لم أكنْ في حاجة إلى ضوء أفضل لرؤية ظل الرجل الذي ينتظر مجيئي.

كنت أعرف بالدقة ما يدور في ذهن الرجل، ولا بد أنني ابتسمت. كان يعتقد أنني على جهل تام بوجوده أو بحقيقة أن أي شخص يخطط لقتلي في تلك الليلة. كان يقول لنفسه إنه سوف ينطلق بعد مروري ويغمد سيفه في ظهري. إنها مسألة بسيطة جدًّا، وبعدها يعود لتقديم تقريره إلى أور جان.

توقفت عندما اقتربت من المدخل، وألقيت نظرة متسرعة خلفي. أردت أن أتأكد -إذا استطعت- أن راباس لم يتبعني. فإذا قتلت هذا الرجل، لم أردْ أن يعرف راباس أنني الفاعل.

استأنفت طريقي الآن، مع المحافظة على خطوات قليلة من المبنى حتى لا أكون قريبًا جدًّا من القاتل عندما أصل أمام مكان اختبائه.

وعندما وصلت أمامه، استدرت فجأة وواجهته. قلت بصوت منخفض: «اخرجْ من هناك أيها الأحمق».

ظل الرجل للحظة دون حراك. بدا مذهولاً تمامًا من اكتشافه وكلماتي.

سألته: «كنت تعتقد أنت وراباس أن بإمكانكما خداعي، أليس كذلك؟ أنت وراباس وأور جان! حسنًا، سأخبرك بسر- شيء لا يحلم به راباس وأور جان. لأنك تحاول قتل الرجل الخطأ، فأنت لا تستخدم الطريقة الصحيحة. أنت تعتقد أنك تحاول قتل فاندور، لكن هذا غير صحيح. لا يوجد شخص اسمه فاندور. الرجل الذي يواجهك هو جون كارتر، أمير الحرب في المريخ»، امتشقت سيفي، «والآن، إذا كنت على استعداد تمامًا، يمكنك أن تخرج وتُقتَل».

وعندئذ خرج ببطءٍ، وسيفه الطويل في يده. أظن أن أثر الدهشة ظهر في عينيه وبالتأكيد في صوته وهو يهمس: «جون كارتر!».

لم يبدُ عليه أي خوف، وأسعدني ذلك؛ لأنني أكره القتال مع رجل مرعوب مني بالفعل، حيث يبدأ معركته بعائق رهيب لا يستطيع التغلب عليه أبدًا.

«أنت إذَنْ جون كارتر!»، قال وهو يخرج من مخبئه، ثم بدأ يضحك، «تعتقد أنك تخيفني، أليس كذلك؟ أنت كاذب من الدرجة الأولى يا فاندور؛ وإذا احتويت كل الكذابين من الدرجة الأولى في برسوم داخل شخصك، لا يمكنك أن تخيف بوفاك».

من الواضح أنه لم يصدقني، وهو ما أسعدني لأن المبارزة على هذا النحو تصبح أكثر ثراء بعد أن يتكشف تدريجيًّا لخصمي أنها مباراة مع مبارز بارع.

وعندما اشتبك معي، ورغم أنه لم يكن مبارزًا سيئًا، رأيت أنه ليس في براعة أولداك. كان يجب أن أسعد بمباراتي معه لفترة من الوقت، لكنني لم أستطع المخاطرة بعواقب اكتشافي.

كان هجومي شرسًا إلى حد أنني سرعان ما جعلته يتراجع إلى جدار المبنى. لم يكن لديه أي فرصة للقيام بأكثر من الدفاع عن نفسه، والآن أصبح تحت رحمتي تمامًا.

كان يمكنني قتله على الفور، لكني أحدثت شقًّا قصيراً بمقدمة سيفي على صدره، ثم أحدثت شقًّا آخر يقطع الأول.

تراجعت ثم أنزلت سيفي وقلت له: «انظرْ إلى صدرك، بوفاك. ماذا ترى؟».

نظر إلى صدره، ورأيته يرتجف. قال لاهثًا: «علامة أمير الحرب. ارحمني، لم أكن أعرف أنك أنت».

قلت: «لقد أخبرتك، لكنك لم تصدقني. ولو كنت صدقتني، لكنت أكثر حرصًا على قتلي. وكان أور جان ليكافئك بسخاء».

قال متوسلاً: «دعني أذهب. لا تقتلني، وسأكون عبدك إلى الأبد».

رأيت عندئذ أنه جبان، ولم أشعر بأي شفقة تجاهه وإنما فقط بالازدراء.

زجرته قائلاً: «ارفعْ سيفك ودافعْ عن نفسك، أو سأقتلك».

فجأة، والموت يحدق في وجهه، بدا كمن أصابه مس من الجنون. اندفع نحوي بغضب مجنون. وأدى عنف هجومه إلى تراجعي بضع خطوات، وتفاديت طعنة هائلة، ثم أغمدت سيفي في قلبه.

رأيت على مسافة صغيرة مني بعض الناس يأتون، حيث اجتذبهم صليل السيوف.

استغرق الأمر مني بضع خطوات لأصل إلى مدخل زقاق مظلم، ودخلته، وواصلت سيري عبر طريق دائري إلى بيت فال سيفاس.

أدخلني هاماس، وكان ودودًا جدًّا، بل شديد الود في الواقع. شعرت أنني أضحك في وجهه لأني أعرف أنه لا يعرف أنني أعرف؛ لكنني قمت بتحيته بتهذيب ثم ذهبت إلى مسكني.

كانت زاندا تنتظرني. سحبت سيفي وسلمته لها.

«راباس؟»، سألتني لأني أخبرتها أن فال سيفاس أمرني بقتل الجذر.

أجبت: «كلا، ليس راباس. رجل آخر من رجال أور جان».

قالت: «هذا يجعلهما اثنين».

أجبت: «نعم. ولكن تذكري، يجب ألا تخبري أي شخص أنني أنا الذي قتلهما».

أجابت: «لن أقول لأحد، سيدي. يمكنك أن تثق دائمًا في زاندا».

أزالت الدم من النصل، ثم جفّفته وصقلته.

شاهدتها وهي تعمل، ولاحظت يديها اللطيفتين وأصابعها الرشيقة. لم أكن قد أوليتها الكثير من الاهتمام من قبل. كنت أعرف، بطبيعة الحال، أنها كانت شابة جميلة الجسد وحسنة المظهر؛ لكنني فجأة أدركت أنها جميلة جدًّا، وأنها -مع عتاد جيد ومجوهرات وتصفيفة شعر سيدة عظيمة- كانت لتصبح لافتة للنظر بين أي مجموعة.

قلت أخيراً: «زاندا، أنتِ لم تولدي عبدة، أليس كذلك؟».

- لا يا سيدي.

سألتها: «هل اشتراكِ فال سيفاس أو خطفكِ؟».

- أخذني فيستال واثنان من العبيد في إحدى الليالي، عندما كنت في الشارع مع مرافق. قتلوه وأحضروني إلى هنا.

سألت: «وأهلك، هل لا يزالون أحياء؟».

أجابت: «كلا. كان والدي ضابطًا في البحرية القديمة في زودانجا. وكان من النبلاء الأقل مرتبة. وقد قُتل عندما قاد جون كارتر جحافل ثارك الخضراء على المدينة. حزنت

والدتي، واتخذت رحلتها الطويلة الأخيرة عبر نهر إيس[232] المقدس إلى وادي دور[233] وبحر كوراس المفقود[234] .

«جون كارتر!»، قالت في تأمل وصوتها مشوب بالكراهية، «هو سبب أحزاني، وكل ما أصابني من سوء حظ. لولا أن جون كارتر سلبني والدايَّ، ما كان لي أن أكون هنا الآن، لأني كنت سأحظى برعايتهما وحمايتهما لي من كل خطر».

سألتها: «أنتِ تشعرين بمرارة شديدة تجاه جون كارتر، أليس كذلك؟».

فأجابت: «أنا أكرهه».

- سوف تسعدك رؤيته ميتًا، على ما أعتقد.

- نعم.

- أتعرفين، أعتقد أن أور جان أقسم على تدميره؟

أجابت: «نعم، أعرف. وأدعو باستمرار أن ينجح في ذلك. إذا كنتُ رجلاً، لعملت تحت راية أور جان. لا بد أن أكون قاتلة وأبحث بنفسي عن جون كارتر».

قلت: «يقولون إنه مبارز هائل».

- يجب أن أجد طريقة لقتله، حتى لو اضطررت إلى استخدام الخنجر أو السم.

ضحكت، وقلت: «آمل، من أجل جون كارتر، أنكِ لا تتعرفين عليه عندما تلتقين به».

قالت: «سأعرفه على أي حال؛ بشرته البيضاء سوف تخونه».

قلت ضاحكًا: «حسنا، لنأمل أن يهرب منكِ»، وتمنيت لها ليلة سعيدة وذهبت إلى حرير وفراء النوم.

---

(232) نهر إيس: النهر الوحيد المتبقي على المريخ، و لعصور طويلة ظلت الأعراق المريخية الخضراء والحمراء تتخذ طواعية رحلة الحج إلى نهر إيس عند بلوغ سن ألف عام، حيث يعتقدون أنهم سيجدون عنده الحياة الأخرى - http://barsoom.wikia.com/wiki/River_Iss - المترجمة.

(233) وادي دور: يقع عند نهاية نهر إيس المحيط ببحر كوراس المفقود - https://barsoom.fandom.com/wiki/Valley_Dor - المترجمة.

(234) كوراس: بحر مريخي مفقود. وكان يملأ المنطقة التي تُسمى وادي دور، في الأيام التي كانت فيها المياه وفيرة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Korus - المترجمة.

في صباح اليوم التالي، بعد وجبة الإفطار مباشرة، أرسل فال سيفاس يستدعيني. وعندما دخلت غرفة مكتبه، رأيت هاماس واثنين من العبيد يقفون بالقرب منه.

نظر فال سيفاس نحوي أسفل حاجبيه المنخفضين. لم يوجه لي التحية السارة المعتادة.

قال زاجرًا: «حسنًا، هل قتلت راباس الليلة الماضية؟».

أجبت: «كلا، لم أفعل».

«هل رأيته؟».

- نعم، رأيته وتحدث معه. وفي الواقع، تناولت وجبة المساء معه.

لاحظت كيف فاجأ هذا الاعتراف كلاًّ من فال سيفاس وهاماس. من الواضح أنه أربك حساباتهما، لأني أعتقد أنهما كانا يتوقعان أن أنكر رؤيتي لراباس؛ وهو ما كنت لأفعله لولا حسن حظي الذي أتاح لي اكتشاف تجسس هاماس عليَّ.

سألني فال سيفاس: «ولماذا لم تقتله؟ ألم أطلب منك أن تفعل ذلك؟.

أجبت: «لقد وظفتني لحمايتك، فال سيفاس؛ ويجب أن تعتمد على حكمي في القيام بذلك بطريقتي. أنا لست طفلاً ولا عبدًا. وأعتقد أن راباس أقام اتصالات أكثر ضررًا عليك من راباس نفسه؛ وبالسماح له بالعيش والبقاء على اتصال معه، سأكون قادرًا على معرفة الكثير لصالحك، والذي لا يمكن أن أعرفه إذا قتلت راباس. وإذا لم تكن راضيًا عن طريقتي، يمكنك أن تطلب من شخص آخر حمايتك. وإذا كنت قد قررت قتلي، أقترح عليك تجنيد بعض المحاربين. فهؤلاء العبيد ليسوا على نفس مستواي».

رأيت هاماس يرتجف بغضب مكبوت، لكنه لم يجرؤْ على قول أو فِعل أي شيء إلى أن يأمره فال سيفاس. كان يقف وأصابعه على غمد سيفه، ويشاهد فال سيفاس وهو يستجوبني كأنما ينتظر إشارة منه.

لكن فال سيفاس لم يعطه أي إشارة؛ بل جلس المخترع العجوز ينظر نحوي ويتفحصني باهتمام لعدة دقائق. وأخيراً تنهد وهز رأسه، وقال: «أنت رجل شجاع جدًّا يا فاندور، وإنما ربما لديك شعور مفرط بالثقة، والحماقة. لا أحد يتحدث إلى فال سيفاس بهذه الطريقة. يخافون كلهم. ألا تدرك أن في وسعي تدميرك في أي لحظة؟».

- إذا كنت أنت أحمق، فال سيفاس، لكنت توقعت منك أن تقتلني في هذه اللحظة، لكنك ليست بأحمق. أنت تعرف أنني أستطيع خدمتك وأنا حي أكثر منه وأنا ميت، وربما تتشكك أيضًا في ما أعرفه- فإذا خرجت، يجب ألا أخرج بمفردي. يمكنك أن تأتي معي.

بدا هاماس مرعوبًا، وأمسك بغمد سيفه بقوة كما لو كان على وشك امتشاقه؛ لكن فال سيفاس انحنى إلى الخلف مستريحًا على مقعده وابتسم.

وقال: «أنت محق تمامًا يا فاندور، ويجب أن تتأكد أنني إذا قررت أنك يجب أن تموت، لن أكون في متناول سيفك عندما يقع هذا الحدث المحزن. والآن أخبرني، ماذا تتوقع أن تعرف من راباس، وماذا يجعلك تعتقد أن لديه معلومات ذات قيمة بالنسبة لي؟».

«هذا لن يسمعه إلا أذناك فقط، فال سيفاس»، قلت وأنا ألقي نظرة عابرة على هاماس والعبدين.

أومأ لهم فال سيفاس قائلاً: «يمكنكم الذهاب».

اعترض هاماس: «ولكن، يا سيدي، سوف نتركك بمفردك مع هذا الرجل. قد يقتلك».

فأجاب السيد: «وجودك لن يجعلني أكثر أمانًا من سيفه، يا هاماس. لقد رأى كلانا كيف يسيطر على سيفه ببراعة».

اكفهرت بشرة هاماس الحمراء. غادر دون أن يضيف أي كلمة أخرى، وخرج خلفه العبدان.

قال فال سيفاس: «والآن، أخبرني ما عرفته أو ما تشك فيه».

أجبت: «لديَّ سبب للاعتقاد أن راباس عقد اتصالات مع أور جان. لقد قام جار نال، كما أخبرتني، بتوظيف أور جان لاغتيالك. وبالبقاء على اتصال مع راباس، يمكنني معرفة بعض خطط أور جان تجاهك. أنا لا أعرف بطبيعة الحال، لكن هذه هي الصلة الوحيدة لدينا مع القتلة، ولذا فإن قتله ليس استراتيجية جيدة».

فأجاب: «أنت محق تمامًا يا فاندور. تواصل مع راباس قدر ما تستطيع، ولا تقتله إلا عندما يفقد قيمته بالنسبة لنا. وعندئذ ...» - التوى وجهه بتكشيرة شريرة.

قلت: «أعتقد أنك ستوافقني الرأي. أنا حريص بشكل خاص على رؤية راباس مرة أخرى هذه الليلة».

قال: «جيد جدًّا. والآن دعنا نذهب إلى الورشة. فالعمل على المحرك الجديد يتقدم بشكل جيد؛ لكني أريدك أن تتحقق مما تم بالفعل».

ذهبنا معًا إلى الورشة. وبعد أن تفقدنا العمل، قلت لفال سيفاس إنني أريد الذهاب إلى غرفة المحرك في السفينة لأخذ بعض القياسات.

رافقني، ودخلنا السفينة معًا. وبعد أن أكملت فحوصاتي، اختلقت عذرًا للبقاء لفترة أطول في الحظيرة؛ فقد كانت تتشكل في ذهني خطة

تتطلب معرفة أكثر ألفة بالغرفة، في حال وجدت من الضروري أو من الممكن تنفيذ خططي.

مشيت حول السفينة، متظاهرًا بالإعجاب بها، وشاهدتها من كل زاوية. وفي الوقت نفسه ألقيت نظرة على كل ركن في الحظيرة. انصب اهتمامي خاصة على المدخل الكبير الذي من المفترض أن تمر من خلاله السفينة لتخرج في النهاية من المبنى. رأيت كيف بُنيت الأبواب وكيف تُغلق؛ وبعد ذلك فقدت الاهتمام بالسفينة، حاليًا على الأقل.

قضيت بقية اليوم في الورشة مع الميكانيكيين. وذهبت ثانية هذه الليلة إلى المطعم في شارع المحاربين.

لم أجدْ راباس. طلبت وجبتي، وقاربت على الانتهاء منها -على الرغم من أنني كنت آكل ببطء شديد- ولم يأتِ راباس بعد. تلكأت، لأنني كنت شديد الحرص على رؤيته الليلة.

وأخيراً جاء، وأنا على وشك الذهاب. كانت عصبيته الشديدة واضحة، وبدا أكثر مكرًا وخبثًا من المعتاد.

«كاور!»[235] ، قلت وهو يقترب من الطاولة، «جئت متأخرًا الليلة».

قال: «نعم، كنت محتجزاً».

طلب وجبته وهو يتململ بقلق.

قال: «هل وصلت إلى البيت في الليلة الماضية على ما يرام؟».

- لماذا، نعم، بالطبع.

---

(235) كاور: كلمة التحية بلغة أهل المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Martian_Language - المترجمة.

قال: «كنت قلقًا عليك قليلاً. سمعت أن رجلاً قُتِل في نفس الطريق الذي لا بد أنك اتخذته».

صحت: «هل هذا صحيح؟ من المؤكد أنه حدث بعد مروري».

قال: «إنها مسألة غريبة جدًّا. فهو أحد القتلة التابعين لأور جان، وكان على صدره -مرة أخرى- علامة جون كارتر».

كان ينظر لي بشكل مريب جدًّا، لكنني رأيت أنه خائف حتى من التعبير عما يدور في ذهنه. وأعتقد أنه خائف حتى من مجرد الفكرة.

- أور جان على يقين الآن أن جون كارتر، نفسه، موجود في المدينة.

قلت: «حسنًا، ولماذا تشعر بهذا الاستياء الشديد حول هذا الموضوع؟ أنا متأكد من أنه لا يعنيني ولا يعنيك».

الفصل (09)

على الشرفة

تنطق الأعين بالحقيقة أكثر من الشفاه. أخبرتني عينا راباس الأولسيو أنه لا يتفق معي على أن قتل أحد القتلة التابعين لأور جان لا يعنيني ولا يعنيه، لكنَّ شفتيه قالتا غير ذلك.

قال: «بالطبع، هذا لا شيء بالنسبة لي؛ لكن أور جان غاضب. وقد عرض مكافأة هائلة لمَن يتعرف على الرجل الذي قتل أولداك وبوفاك. وسوف يلتقي الليلة مع مساعديه الرئيسيين لإحكام تفاصيل الخطة التي يعتقدون أنها سوف تنهي بالتأكيد -وإلى الأبد- أنشطة جون كارتر ضد رابطة القتلة. إنهم...».

توقف فجأة، وظهر في عينيه مزيج من الشك والرعب. بدا الأمر للحظة كما لو أن عقله الغبي قد نسي شكه في أنني قد أكون جون كارتر، ثم تذكر ذلك بعد أن كشف عن بعض أسرار سيده، فشعر بالرعب.

قلتُ عَرَضًا: «يبدو أنك تعرف الكثير عن أور جان، بحيث يمكن للمرء أن يعتقد أنك عضو كامل العضوية في رابطته».

ارتبك للحظة. تنحنح عدة مرات كما لو كان على وشك الكلام، لكن الواضح أنه لم يستطع التفكير في أي شيء ليقوله، كما لم تكن نظرة عينيه ثابتة نحوي. وقد استمتعتُ كثيراً بانزعاجه.

والآن أنكر قائلاً: «كلا، لا شيء من هذا القبيل. هذه مجرد أشياء سمعتها في الشارع. إنها مجرد ثرثرة، وما من غرابة في تكرارها لصديق».

صديق! يا لها من فكرة طريفة للغاية. كنت أعرف أن راباس قد أصبح من رجال أور جان، وأنه مُكلف هو وزملاؤه بقتلي؛ وأنا كلفني فال سيفاس بقتل راباس؛ مع ذلك، ها نحن هنا نتناول الطعام ونثرثر معًا. يا لها من تسلية.

مع اقتراب نهاية وجبتنا، دخل شخصان يتسم مظهرهما بالشر، وجلسا على طاولة. لم يتبادلْ راباس معهما أي إشارات، لكنني تعرفت عليهما وعرفت سبب وجودهما هنا. لقد سبق أن رأيتهما في اجتماع القتلة، ونادرًا ما أنسى وجهًا. كان حضورهما بمثابة إطراء لي، وإقرار بأن أور جان أدرك أن مواجهتي تتطلب أكثر من مبارز واحد.

كان يجب أن أسعد بوضع بصمتي على صدورهما؛ لكنني أعرف أنني إذا قتلتهما، سوف تتأكد شكوك أور جان أنني جون كارتر. فربما كان قتل أولداك وبوفاك ووضع علامة أمير الحرب على صدريهما مجرد مصادفة؛ وإنما إذا واجه رجلان آخران، أرسلهما لقتلي، مصيراً مماثلاً، فسوف يتأكد الشك حتى في أي ذهن غبي أن الأربعة قُتلوا جميعًا على يد جون كارتر نفسه.

نهضت بمجرد أن جلس الرجال. قلت: «لا بد أن أعود أدراجي يا راباس؛ فلديَّ مهام يجب أن أنجزها الليلة. آمل أن تغفر لي رحيلي بهذه الطريقة، وربما أراك ثانية ليلة الغد».

حاول أن يحتجزني، صائحًا: «لا تتعجل، انتظر بعض لحظات. هناك عدد من الأشياء التي أود أن أتحدث معك حولها».

قلت له: «عليك الانتظار حتى الغد. أتمنى لك نومًا جيدًا، راباس»، ثم استدرت وغادرت المبنى.

مشيت مسافة قصيرة فقط في الاتجاه المعاكس لذلك الذي يؤدي إلى بيت فال سيفاس. أخفيت نفسي في ظلال أحد المداخل ثم انتظرت. لم أنتظرْ طويلاً حتى ظهر القاتلان وأسرعا في الاتجاه الذي افترضا أنني اتخذته. خرج راباس من المبنى بعد لحظة أو لحظتين. تردد قليلاً، ثم بدأ يسير ببطء في الاتجاه الذي اتخذه القاتلان.

عندما ابتعد الثلاثة عن مرمى بصري، خرجت من مكان اختبائي وتوجهت على الفور إلى المبنى الذي توجد فيه طائرتي.

كان المالك يتسكع في إحدى الحظائر عندما وصلت إلى السطح. كنت أتمنى ألا أجده هناك، فلم أكنْ أرغب بشكل خاص أن يكون حضوري وذهابي معروفًا.

قال: «لا أراك كثيراً».

أجبت: «كلا، فقد كنت مشغولاً للغاية». واصلت سيري في اتجاه الحظيرة التي وضعت فيها سفينتي.

سألني: «هل ستأخذ طائرتك هذه الليلة؟».

- نعم.

فقال: «احترس من زوارق الدورية، إذا كنت تقوم بأي عمل لا تريد أن تعرفه السلطات. لقد كانوا مشغولين إلى أبعد حد خلال الليلتين السابقتين».

لم أعرف إذا كان يعطيني نصيحة ودية، أم يحاول الحصول على بعض المعلومات مني. هناك العديد من المنظمات، بما في ذلك الحكومة، التي تستخدم عملاء سريين. فكيف لي أن أعرف، ربما كان الزميل عضوًا في نقابة القتلة.

قلت: «حسنًا، آمل ألا تتبعني الشرطة هذه الليلة». أُنصت باهتمام، «أنا لست بحاجة إلى أي مساعدة؛ وبالمناسبة، هي حسنة المظهر للغاية». غمزت في وجهه، خلال سيري، ودفعته بكوعي بطريقة اعتقد أن عقليته البسيطة سوف تفهمها. وحدث فعلاً.

ضحك وربت على ظهري. وقال: «أعتقد أن عليك أن تقلق من والدها أكثر من قلقك من الشرطة».

«أخبرني»، قال وأنا أتسلق إلى سطح سفينتي، «أليس لديها شقيقة؟».

عندما طرت بصمت فوق المدينة، سمعت الرجل في حظيرة يضحك على نكتته؛ وعرفت أنني تمكنت من تهدئة أي شكوك كانت لديه.

كان الظلام حالكًا، ولا يوجد أي من القمرين في السماء. على أن هذه الحقيقة بالذات قد تجعلني أكثر وضوحًا لزوارق الدوريات فوقي عند تحليقي أعلى المناطق المضاءة من المدينة. ولذا أسرعت نحو الطرق المظلمة، وطرت على انخفاض بين الظلال الكثيفة للمباني.

لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق لأصل إلى وجهتي، وأهبط بطائرتي بهدوء على سطح المبنى الذي يضم مقر رابطة القتلة في زودانجا.

لقد كانت عبارة راباس بأن أور جان ومساعديه الرئيسيين يجتمعون لوضع خطة متقنة تستهدف أنشطتي ضدهم، بمثابة المغناطيس الذي جذبني إلى هنا هذه الليلة.

قررت أنني لن أحاول مرة أخرى استخدام غرفة الانتظار المتاخمة لمكان اجتماعهم؛ ليس فقط لأن الطريق إليها محفوف بالكثير من المخاطر، وإنما أيضًا لأنني حتى إن وصلت بأمان إلى الركن المظلل خلف الخزانة، سأظل غير قادر على سماع أي شيء مما يدور خلف الباب المغلق.

كانت لديَّ خطة أخرى، وبدأت في تنفيذها على الفور.

هبطت بسفينتي عند حافة السطح، مباشرة فوق الغرفة التي يجتمع فيها القتلة؛ ثم قمت بتثبيت حبل بإحدى حلقات الحافة العليا في السفينة.

رقدت على بطني، ونظرت من على حافة السطح للتأكد من وضعي، ووجدت أن قياسي دقيق. تقع أسفلي مباشرة حافة شرفة أمام نافذة مضاءة. وكان الحبل يتدلى قليلاً عند أحد جوانب النافذة، بحيث لا يراه مَن في داخل الغرفة.

قمت بضبط لوحات التحكم في سفينتي بعناية، ثم ربطتُ نهاية الحبل الخفيف إلى رافعة الانطلاق. وبعد أن انتهيت، أمسكت الحبل وانزلقت على إفريز السطح وأنا أحمل الحبل الخفيف بيد واحدة.

نزلت بهدوء، حيث تركت أسلحتي على السفينة خشية أن يصدر أي صوت نتيجة احتكاكها، أو خدشها لجدار المبنى خلال نزولي وبالتالي تجذب الانتباه نحوي.

نزلت بحذر شديد؛ وعندما وصلت أمام النافذة، وجدت أن بإمكاني أن أمسك درابزين الشرفة بيد واحدة. سحبت نفسي ببطء نحو الشرفة، وإلى موضع حيث يمكنني الوقوف بأمان.

وسرعان ما سمعت أصواتًا بعد نزولي أسفل حافة السطح. والآن، عندما أصبحت على مقربة من النافذة، سررت لاكتشافي أنها مفتوحة، وأنني أستطيع أن أسمع جيدًا كل ما يدور داخل الغرفة. تعرفت على صوت أور جان، كان يتحدث وأنا أسحب نفسي نحو الشرفة.

قال: «حتى إذا أمسكناه الليلة، وثبت أنه الرجل الذي أعتقد أنه هو، فلا يزال بإمكاننا طلب فدية من والد الفتاة أو جدها».

قال صوت آخر: «ويجب أن تكون فدية كبيرة».

أجاب أور جان: «كل هذا سوف تحمله سفينة كبيرة، ومعه وعد بالحصانة لجميع القتلة في زودانجا، ووعد بالكف عن ملاحقتهم».

لم يسعني إلا أن أتساءل عمن يخططون ضده الآن- ربما أحد النبلاء الأثرياء؛ لكني لم أفهم الصلة بين موتي واختطاف الفتاة، إلا إذا كان حديثهم ربما لا يتعلق بي على الإطلاق وإنما يرتبط بشخص آخر.

وهنا سمعت صوت طرق على الباب، وصوت أور جان يقول: «تفضلوا».

سمعت الباب ينفتح، وأصوات الرجال الذين يدخلون الغرفة.

«آه»، صاح أور جان وهو يصفق بيديه، «تمكنتما منه الليلة! كان اثنان

عددًا كثيراً عليه، هه؟».

أجاب صوت عابس: «لم نتمكنْ منه».

سأل أور جان: «ماذا؟ ألم يأتِ إلى المطعم الليلة؟».

«كان هناك»، قال صوت آخر، وتعرفت عليه فورًا، صوت راباس، «كان معي هناك، كما وعدت».

سأل أور جان بغضب: «حسنًا، لماذا لم تتمكنْ منه؟».

أوضح أحد الرجال الآخرين: «تبعناه على الفور ما إن غادر المطعم، لكنه اختفى عندما وصلنا إلى الشارع. لم نجده في أي مكان على مرمى البصر. وعلى الرغم من أننا مشينا بسرعة على طول الطريق إلى منزل فال سيفاس، لم نره على الإطلاق».

سأل أور جان: «هل تشكك في الأمر؟ هل تعتقد أنه خمّن أنكما ذهبتما إلى هناك من أجله؟».

«كلا، أنا متأكد من ذلك. بل لا يبدو أنه لاحظ وجودنا على الإطلاق. لم أره حتى ينظر إلينا».

قال راباس: «لا أفهم كيف اختفى بهذه السرعة، لكننا نستطيع التمكن منه ليلة الغد. فقد وعد أن يقابلني هناك غدًا».

«اسمعوا»، قال أور جان، «يجب ألا تخذلوني غدًا. أنا متأكد أن هذا الرجل هو جون كارتر. ومع ذلك، أنا سعيد لأننا لم نقتله، فقد فكرت في خطة أفضل. سوف أرسل أربعة منكم ليلة الغد للانتظار بالقرب من منزل فال سيفاس. أريدكم أن تمسكوا بجون كارتر حيًّا وتحضروه لي. فمع وجوده حيًّا يمكننا الحصول على سفينتين محملتين بالثروات من أجل أميرته».

قال أحد القتلة معترضًا: «وعلينا بعد ذلك الاختباء في حُفر زودانجا للفترة المتبقية من حياتنا».

ضحك أور جان، وقال: «بعد أن نحصل على الفدية، لن يزعجنا جون كارتر ثانية».

«تقصد ...؟».

سأل أور جان: «أنا قاتل، أليس كذلك؟ وهل تعتقد أن أي قاتل سوف يدع عدوًّا خطيراً يعيش؟».

فهمت الآن العلاقة بين موتي واختطاف الفتاة التي ذكروها؛ وهي ليست سوى أميرتي الإلهية ديجاه ثوريس. يتوقع الأوغاد أن يحصلوا من مورس كاجاك[236] وتاردوس مورس[237] ومني على سفينتين محملتين بالفدية. وهم يعرفون جيدًا -وأنا أعرف- أن حساباتهم ليست خاطئة؛ لأننا نحن الثلاثة على استعداد لمنحهم بكل سرور العديد من السفن المحملة بالثروات من أجل سلامة أميرة هيليوم التي لا تُضاهى.

أدركت الآن ضرورة عودتي فورًا إلى هيليوم وضمان سلامة أميرتي، لكنني تلكأت على الشرفة للحظات كي أستمع إلى خطط المتآمرين.

اعترض أحد مساعدي أور جان الرئيسيين: «ولكن، حتى إذا نجحنا في الإمساك بديجاه ثوريس ...».

قاطعه أور جان: «ليس هناك ՙحتى՚ في هذا الموضوع. سوف أعتبر أننا نجحنا في إنجاز هذه المسألة؛ فقد كنت أستعد منذ وقت طويل. وقد فعلت ذلك سرًّا منعًا لأي تسريب، لكننا الآن على استعداد لضربتنا، ولذا أخبرتكم. ويمكنني إبلاغكم أن اثنين من رجالي يعملان حراسًا في قصر الأميرة ديجاه ثوريس».

اعترض المتحدث الأول متشككًا: «حسنًا، إذا سلّمنا أنك أمسكت بها، أين يمكنك إخفاؤها؟ أين يمكنك، في برسوم كلها، إخفاء أميرة هيليوم من مورس تاردوس العظيم، حتى لو نجحت في إبعاد جون كارتر عن طريقك؟».

أجاب أور جان: «لن أخفيها على برسوم».

- ماذا، ليس على برسوم؟ أين، إذَنْ؟

أجاب أور جان: «على القمر ثوريا».

«القمر ثوريا!»، ضحك المتكلم، «سوف تخفيها على القمر الأقرب. هذا جيد يا أور جان، سيكون مكان اختباء رائعًا - إذا أمكنك إرسالها إلى هناك».

- يمكنني إرسالها إلى هناك. فلم أقمْ صلة مع جار نال من أجل لا شيء.

- أوه، تقصد تلك السفينة الحمقاء التي يعمل على بنائها؟ تلك التي يتوقع أن تطير بين الكواكب لزيارتها؟ هل تعتقد أن هذا الشيء سوف

---

(236) مورس كاجاك: والد ديجاه ثوريس، وابن تاردوس مورس. وهو جِد هيليوم الصغرى - https://barsoom.fandom.com/wiki/Mors_Kajak - المترجمة.

(237) تاردوس مورس: جيداك هيليوم، وهو والد مورس كاجاك - https://barsoom.fandom.com/wiki/Tardos_Mors - المترجمة.

ينجح بالفعل، حتى بعد أن ينتهي من تشييدها، هل تعتقد- هذا إذا تمكن من الانتهاء من تشييدها؟

أجاب أور جان: «لقد انتهى بالفعل، وسوف تطير السفينة إلى ثوريا».

- حسنًا، حتى مع ذلك، فنحن لا نعرف كيفية تشغيلها.

- سوف يتولى جار نال ذلك. إنه يحتاج إلى كمية هائلة من الثروة لإكمال زوارق أخرى، وقد وافق على قيادة السفينة من أجلنا في نظير حصوله على حصة من الفدية.

أدركت الآن تمامًا كيف وضع أور جان خطته بعناية، وكم كان الخطر كبيراً على أميرتي. يمكنهم في أي يوم الآن النجاح في اختطاف ديجاه ثوريس، وأعرف أن هذا ليس مستحيلاً مع وجود اثنين من الخونة في حراستها.

قررت أنني لا يمكن أن أضيع أي لحظة أخرى. يجب أن أغادر إلى هيليوم على الفور. بيد أن القدر تدخل وكاد أن يضع نهايتي.

ما إن بدأت في تسلق الحبل والتأرجح بعيدًا عن الشرفة، حتى اشتبك جزء من عتادي في أحد زخارفها الحديدية؛ وعندما حاولت فكه، تفككت وسقط على الشرفة.

«ما هذا؟»، سمعت صوت أور جان وهو يسأل، ثم سمعت خطوات قادمة نحو النافذة. جاءوا بسرعة، وبعد لحظة لاحت أمامي هيئة أور جان.

صرخ: «جاسوس»، وقفز إلى الشرفة.

* * *

الفصل (10)

جات أور

عندما كنت أبحث عن أعذار خارج نفسي لتفسير أسباب المصائب التي ألمت بي، ربما تساءلت في تلك اللحظة أيضًا لماذا يجب أن يلقي القدر بثقله لصالح الأشرار ضدي. إن هدفي، دون شك، هو هدف عادل؛ لكن الحقيقة العبثية المتمثلة في أن الزخارف الحديدية على شرفة في مدينة زودانجا كانت مفكوكة، وأن عتادي اشتبك فيها بطريق الخطأ، قد وضعتني في حالة يبدو معها من غير المرجح أن أتمكن من النجاة بحياتي.

على أنني لم أمتْ بعد؛ وليس لديَّ أي نية للاستسلام أمام إملاءات مصير قاسٍ وغير عادل دون نضالٍ. علاوة على ذلك، وكما يقول تعبير لعبة أمريكية مشهورة، لديَّ ورقة رابحة مُخبأة.

عندما تسلق أور جان إلى الشرفة، كنت قد تأرجحت بعيدًا عنها وتشبثت بالحبل المربوط بسفينتي أعلاه؛ وفي الوقت نفسه، بدأت في تسلقه.

تأرجحت مثل البندول؛ وبعد أن وصلت إلى نهاية القوس، تأرجحت ثانية، وعلى ما يبدو إلى ذراعي أور جان مباشرة.

حدث كل شيء بسرعة كبيرة، أسرع بكثير مما يمكنني قوله. وضع أور جان يده على غمد سيفه. سحبت ركبتيَّ جيدًا إلى جسدي، وتأرجحت نحوه. وما إن اقتربت منه، حتى ركلته بقدميَّ بالكامل في صدره وبكل ما أُوتيت من قوة.

ترنح أور جان إلى الخلف، نحو قاتل آخر كان يتبعه على الشرفة، وسقط كلاهما كومة واحدة.

وفي الوقت نفسه، سحبت الحبل الخفيف الذي كنت قد ربطته برافعة الانطلاق في محرك سفينتي. واستجابة لذلك، ارتفعت السفينة؛ وارتفعتُ معها وأنا أتدلى في نهاية الحبل.

كنت في وضع لا أُحسد عليه. لم أستطعْ، بطبيعة الحال، توجيه السفينة؛ وإذا فشلت في الارتفاع بسرعة كافية، فأمامي فرصة ممتازة للاندفاع نحو الموت عند الاصطدام بأي من المباني خلال انجراري عبر المدينة. ولكن حتى هذا الخطر لم يكن

بأيِّ حال هو أكثر ما يهددني؛ فقد سمعت الآن صوت طلقة، وطنين رصاصة بجانبي – كان القتلة يحاولون قتلي.

تسلقت إلى سفينتي بأسرع ما يمكن. على أن تسلُّق حبل صغير، بينما أتأرجح تحت السفينة الآخذة في الارتفاع، ليس وضعًا يمكن أن يحسدني أحد عليه، حتى دون هذا الخطر الإضافي المتمثل في التعرض لإطلاق النار من جانب عصابة من القتلة.

حملتني السفينة قُطريًّا عبر الشارع الذي يوجد فيه المبنى الذي يأوي عصابة أور جان. كنت متأكدًا أنني سوف اصطدم بإفريز المبنى المقابل، لكني –صدقني- وضعت كل أوقية من قوتي وخفة حركة في تسلق هذا الحبل، وأنا أتأرجح بسرعة عبر الشارع.

بيد أن القدر كان لصالحي في هذه اللحظة، حيث طرت فوق سطح المبنى مباشرة.

استمر القتلة في إطلاق النار نحوي. وأتخيل أن معظم ضرباتهم في الماضي كانت بالخناجر أو السم؛ إذ كان استخدامهم للمسدسات شديد الرداءة.

وأخيراً أغلقت أصابعي على الحافة العليا من سفينتي، وسحبت نفسي بعد لحظة إلى سطحها. وصلت إلى لوحات التحكم، وضغطتُ على دواسة الوقود ووجهت مقدمة السفينة نحو هيليوم.

ربما كنت متهورًا، لأني تجاهلت تهديد زوارق الدورية ولم أبذل أي جهد للهروب من مراقبتهم. لا شيء يهمني الآن سوى الوصول إلى هيليوم في الوقت المناسب لحماية أميرتي.

لقد عرف أعدائي جيدًا أين يوجهون ضربتهم لي! وعرفوا جيدًا نقطة ضعفي! يعرفون أنني مستعد للتخلي عن أي شيء أملكه، بما في ذلك حياتي، للحفاظ على ديجاه ثوريس. ولا بد أنهم يعرفون أيضًا الثمن الذي سيتعين عليهم دفعه إذا لحق بها أي ضرر؛ وهذه الحقيقة علامة على أنهم رجال يائسون. لقد هددت أمنهم وحياتهم، وهم يخاطرون بكل شيء لهزيمتي.

تساءلت عن إذا كان أحدهم قد تعرف عليَّ. لم أكن قد رأيت راباس عند النافذة؛ ومن غير المحتمل، في ظلام الليل، أن القاتلين الآخرين اللذين رأوني للحظات في المطعم تأكدوا أنني الشخص الذي شاهداه

يتدلى لثوانٍ في نهاية حبل ملفوف. شعرت أنهم ربما يشكون أنه كان فاندور، لكني كنت آمل أنهم لمً يكونوا متأكدين من أنه كان جون كارتر.

طارت سفينتي بسرعة عبر مدينة زودانجا، واعتقدت أنني سأهرب دون صعوبة. وفجأة سمعت صيحة تحذير من زورق دورية، يشير لي أن أتوقف.

كان فوقي إلى حد كبير، وإلى الأمام قليلاً في اتجاه اليمين، عندما اكتشفني. كانت سرعتي مفتوحة إلى أقصاها، وأنا أطير خلال الهواء الرقيق للكوكب الآخذ في الاحتضار.

لا بد أن زورق الدورية قد أدرك على الفور عدم نيتي للتوقف، لأنه زاد من سرعته وتوجه للغوص في اتجاهي. كانت سرعته في هذا الغوص الطويل هائلة؛ وعلى الرغم من أنها ليست بمثل سرعة سفينتي، فقد كانت سرعة غوصه الهائلة أكبر بكثير مما يمكن أن تحققه سفينتي.

كنت أطير على انخفاض بالفعل لاكتساب السرعة عن طريق الغوص، ومع ذلك لا يمكن لسرعتي أن تتساوى والسرعة الهائلة للسفينة الأكبر، الذي أضاف وزنها إلى قوة اندفاعها.

كانت تهبط فوقي مباشرة، وتلحق بي بسرعة- وهي قادمة قُطريًّا من ناحية جانبي الأيمن.

بدا من غير المجدي أن آمل في الهروب من الزورق. وعندما فتح نحوي بنادق مقدمته، كان في ذهني تقريبًا التخلي عن القتال والاستسلام؛ حتى أظل على الأقل في قيد الحياة، وإلا سأموت. وإذا مت، لن أتمكن من مساعدة ديجاه ثوريس. لكنني أدركت عندئذ أنني سوف أتأخر، وقد لا أتمكن من الوصول إلى هيليوم في الوقت المناسب. كنت واثقًا من اعتقالي، وشبه متأكد أنني سأُسجن لمحاولتي الهروب من زورق الدورية. وليس لديَّ أوراق، مما سيزيد من صعوبة الأمر. وبالتالي، قد أُواجه العبودية، أو إلقائي في الحُفر تحت المدينة في انتظار دورة الألعاب القادمة.

كان الخطر كبيراً جدًّا، ويجب أن أصل إلى هيليوم دون تأخير.

وفجأة أدرت الدفة كاملة نحو اليمين، وسرعان ما أطاعتني سفينتي الصغيرة. كدت أن أسقط من سطح السفينة؛ لأنها تأرجحت فجأة في مسارها الجديد.

اتخذت سبيلي مباشرة تحت هيكل زورق الدورية وهو يسرع من فوقي؛ مما حال دون إطلاقه النار نحوي؛ لأن هيكل الزورق كان يحجب بنادقه.

وأصبح الآن وزنه الأكبر وسرعة غوصه يعملان لصالحي. لم يتمكنوا من ضبط سرعة هذه السفينة الأكبر، وحولوها إلى المسار الجديد بنفس سهولة تحريكي لسفينتي الأخف وزنًا التي تسع رجلاً واحدًا.

وأسفرت النتيجة أنني تمكنت من الابتعاد كثيراً عن أسوار زودانجا الخارجية قبل أن يصل الزورق إلى مساري ثانية؛ وواصلت طيراني دون أضواء، حتى لا يتمكن زورق الدورية من متابعتي.

رأيت أضواء الزورق لبضع لحظات، لكني لا أستطيع القول إنه لم يكن على المسار الصحيح؛ ثم تنفست الصعداء وجهزت نفسي لرحلة طويلة إلى هيليوم.

أسرعت خلال الهواء الرقيق لكوكب المريخ الآخذ في الاحتضار. ارتفع القمر ثوريا فوق الأفق الغربي أمامي، يغمر بضوئه الرائع الامتداد الشاسع لقيعان البحر الميت، حيث تدفقت في يوم ما محيطات جبارة، حملت فوقها السفن العظيمة للعِرق المجيد الذي كان يهيمن على الكوكب الشاب.

مررت بالمدن المُدمَّرة على حافة هذه البحار القديمة، ورسمت في مخيلتي صورة لحشود الناس في ذلك الزمن، أناس سعداء وبلا هموم. وتخيلت بعد ذلك عدداً من الجيداك العظماء الذين حكموهم، وجماعات المحاربين الذين دافعوا عنهم. لقد انتهى كل شيء الآن، وما من شك أن الخبايا المظلمة في مبانيهم الفخمة قد ضمت بعض قبائل الرجال الخُضر الوحشية، تلك القبائل القاسية التي لا تعرف المرح.

وهكذا أسرعت فوق مساحة شاسعة من الأراضي القفر، نحو مدينتي هيليوم التوأم والمرأة التي أحبها- المرأة التي كان جمالها الأبدي يفتن العالم.

كنت قد وضعت البوصلة في اتجاه هدفي، وتمددت الآن على سطح سفينتي ونمت.

إنها رحلة طويلة دون رفيق من زودانجا إلى هيليوم، وبدت هذه المرة أنها تمتد بلا نهاية بسبب قلقي على سلامة أميرتي. انتهت الرحلة أخيراً، ورأيت البرج القرمزي في هيليوم الكبرى يلوح أمامي.

وعندما اقتربت من المدينة، أوقفني زورق دورية وأمرني أن أقف إلى جانبه.

كنت خلال النهار قد أزلت الصبغة الحمراء من بشرتي؛ وتعرَّف عليَّ ضابط زورق الدورية، حتى قبل أن أعطيه اسمي.

أظن أنني لاحظت بعض التحفظ والإحراج في طريقته، لكنه لم يقلْ أي شيء آخر سوى أن قدم التحية باحترام وسألني إن كنت أريد أن يرافقني زورقه إلى قصري.

شكرته، وطلبت منه أن يتبعني حتى لا تحتجزني أي زوارق دورية أخرى. وعندما وصلت بأمان فوق حظائري، أدار مقدمة زورقه وغادر.

هبطت سفينتي على السطح، وركض نحوي حارس الحظيرة ليأخذها إلى حظيرتها.

كان هؤلاء الرجال من كبار السن والمخلصين في خدمتي منذ سنوات. وهم يستقبلونني عادة بحماس عند عودتي بعد غياب، وطريقتهم تجاهي، مع ما فيها من احترام دائمًا، كانت أقرب إلى طريقة قدامى الخدم منها إلى الطريقة العسكرية؛ لكنهم الليلة استقبلوني وأعينهم تتجنبني، ويبدو عليها القلق.

لم أسألهم، على الرغم من أن حدسي أشعرني بأن هناك شيئًا خاطئًا. أسرعت أسفل سلم حلزوني في قصري، واتخذت طريقي على الفور إلى مسكن أميرتي.

وعندما اقتربت، وجدت ضابطًا شابًّا من حراسها الشخصيين. أسرع نحوي بمجرد أن رآني. بدا وجهه مهمومًا، ورأيته يجتهد لكبح مشاعره.

سألته: «ماذا هناك، جات أور؟ قائد زورق الدورية أولاً، ثم حارس الحظيرة، والآن أنت. تبدون جميعًا كما لو أنكم فقدتم آخر صديق».

أجاب: «لقد فقدنا أفضل صديق لنا».

عرفت ما يعنيه، وترددت في طلب تفسير مباشر. لم أكن أريد أن أسمع ذلك. شعرت بالانقباض من سماع الكلمات التي أعرف أنه سيقولها، انقباض لم أشعرْ بمثله من قبل في حياتي، ولا حتى تجاه الموت.

لكن جات أور جندي، وكذلك أنا؛ ومهما كان أي واجب مؤلماً، يجب على الجندي مواجهته بشجاعة.

سألته: «متى أخذوها؟».

نظر نحوي واتسعت عيناه من الدهشة. صاح: «أنت تعرف يا سيدي؟».

أومأت وقلت له: «هذا ما جعلني أعود مسرعًا من زودانجا كي أمنع حدوثه. والآن أخبرني، جات أور، هل أتيت بعد فوات الأوان، أم ماذا؟».

أومأ.

قلت: «أخبرني ماذا حدث».

- حدث ذلك الليلة الماضية، يا أميري، لكننا لا نعرف متى حدث. كان رجلان يقفان في نوبة حراسة أمام بابها. كانا رجلين جديدين، لكنهما نجحا في الفحص والاختبار الدقيق الذي يخوضه كل مَن يدخل في خدمتك يا سيدي. وعندما أتت عبدتان هذا الصباح للحلول محل العبدتين اللتين كانتا مع الأميرة ليلة أمس، وجدوها اختفت؛ كما وجدتا العبدتين مقتولتين في حرير وفراء النوم، لقد قتلاهما وهما نائمتان. رحل الحارسان. نحن لا نعرف، لكننا على يقين، بطبيعة الحال، أنهما مَن أخذا الأميرة.

قلت: «نعم، هذا صحيح. إنهما من عملاء أور جان، القاتل، من زودانجا. وماذا فعلتم؟».

- أرسل جدها الجيداك تاردوس مورس، ووالدها مورس كاجاك، ألف سفينة للبحث عنها.

قلت: «هذا غريب؛ فلم أرَ سفينة واحدة طوال رحلتي بأكملها من زودانجا».

قال جات أور بإصرار: «لكن السفن خرجت بالفعل، يا أميري. أنا أعرف لأنني توسلت أن يُسمَح لي بالمرافقة في إحداها. شعرت أنها مسؤوليتي، وأنه خطف الأميرة هو بشكل ما خطئي».

قلت: «إنهم يضيعون وقتهم، أينما يبحثون. عليك إبلاغ ذلك إلى تاردوس مورس. أخبره أن يستدعي سفنه كي تعود. لا توجد سوى سفينة واحدة فقط بإمكانها تتبع المكان الذي أخذوا ديجاه ثوريس إليه، ولا يوجد سوى رجلين فقط في العالم يمكنهما تشغيل تلك السفينة. أحدهم عدو، والآخر هو أنا. لذلك، يجب أن أعود إلى زودانجا فورًا. ليس هناك وقت لنضيعه؛ كما أنني أود أن أرى الجيداك قبل رحيلي».

سألني: «وهل هناك أي شيء يمكننا القيام به هنا؟ ألا يوجد شيء يمكنني القيام به؟ لو كنت أكثر يقظة لما حدث هذا. كان يجب أن أنام

دائمًا أمام باب أميرتي. دعني أذهب معك. لديَّ سيف جيد، وقد يأتي وقت يسعَد أمير الحرب، نفسه، بوجود شخص آخر لدعمه».

فكرت في طلبه للحظة. لماذا لا آخذه معي؟ كثيراً ما كنت بمفردي خلال حياتي الطويلة إلى حد الاعتماد على قواي الذاتية فقط، وفي المناسبات التي قاتلت فيها مع رجال صالحين، كنت سعيدًا لوجودهم إلى جواري- رجال مثل كارثوريس، وكانتوس

كان[238] ، وتارس تاركاس[239] . وكنت أعرف أن هذا البادوار[240] الشاب مبارزٌ ماهرٌ، وأعرف أيضًا إخلاصه لأميرتي ولي. على الأقل، لن يكون عائقًا إن لم يكن عونًا.

قلت: «حسنًا، جات أور، عليك ارتداء عتاد عادي؛ فأنت لم تعدْ بادوارًا في بحرية هيليوم، وإنما أنت بانتان ليس لك بلد، وإنما تخدم مَن يطلب خدماتك. أطلب من ضابط الحرس أن يأتي إلى مسكني على الفور؛ وعندما تنتهي من تغيير عتادك، تعالَ أنت أيضًا. لا تتأخر».

وصل ضابط الحرس إلى مقري بعد وقت قصير. أخبرته أنني ذاهب للبحث عن ديجاه ثوريس، وأنه سيتولى مسؤولية الأسرة حتى أعود.

قلت له: «خلال انتظاري لجات أور، أريدك أن تذهب إلى سطح الهبوط وتستدعي أحد زوارق الدورية. أريده أن يرافقني إلى أن أتجاوز جدران المدينة، حتى لا أتأخر».

قدم التحية ثم غادر. وبعد أن ذهب، كتبت مذكرة قصيرة إلى تاردوس مورس، ومذكرتين أخريين إلى مورس كاجاك وكارثوريس.

وبعد أن انتهيت، دخل جات أور. كان مقاتلاً يتسم بالفاعلية والكفاءة، وأسعدني مظهره. على الرغم من أنه يعمل في خدمتنا منذ فترة، فلم أعرفه عن قرب، فهو كان مجرد بادوار شاب مُلحق بحاشية ديجاه ثوريس. وبالمناسبة، البادوار هي رتبة تناظر إلى حد كبير رتبة ملازم في أي تنظيم عسكري على كوكب الأرض.

أشرت إلى جات أور ليتبعني، وذهبنا معًا إلى سطح الهبوط. اخترت سفينة سريعة تسع رجلين. وبينما كنت أقودها إلى خارج حظيرتها، استقر بجوارها زورق الدورية الذي استدعاه ضابط الحرس.

طرنا خلال لحظات نحو الأسوار الخارجية لهيليوم الكبرى تحت حراسة زورق الدورية. وبعد أن تجاوزناها، أحنت السفينتان مقدماتهما في تحية وداع. قمت بضبط مقدمة طائرتي في اتجاه زودانجا، وفتحت صمام السرعة، بينما استدار زورق الدورية عائدًا إلى المدينة.

---

(238) كانتوس كان: يحمل أعلى رتبة عسكرية في بحرية هيليوم، رتبة جدوار، التي تعادل القائد الأعلى لجميع القوات البرية والبحرية؛ ومن أفضل أصدقاء جون كارتر - https://barsoom.fandom.com/wiki/Kantos_Kan - المترجمة.

(239) تارس تاركاس: قائد جماعة ثارك، من المريخيين الخُضر، وحليف جون كارتر - https://barsoom.fandom.com/wiki/Tars_Tarkas - المترجمة.

(240) بادوار: رتبة مريخية تُعادل رتبة مُلازم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Padwar - المترجمة.

كانت رحلة العودة إلى زودانجا هادئة. استفدت من الوقت المتاح في إخبار جات أور كل ما حدث عندما كنت في زودانجا وكل ما عرفته هناك، حتى يستعد مقدمًا لأي طارئ قد يحدث. كما صبغت بشرتي ثانية باللون الأحمر، الذي كان تنكري الوحيد.

كنت -وبطبيعة الحال- شديد القلق على مصير ديجاه ثوريس، وكرست الكثير من الوقت في تخمين عديم الجدوى حول المكان الذي أخذها إليه مختطفوها.

لم أستطع تصديق أن سفينة جار نال التي تنتقل بين الكواكب يمكن أن تقترب من هيليوم دون أن تُكتشف. ولذا، يبدو من المعقول أكثر افتراض أنهم اقتادوا ديجاه ثوريس إلى زودانجا، وسوف يحاولون نقلها من تلك المدينة إلى القمر ثوريا.

كنت في حالة ذهنية يصعب وصفها خلال هذه الرحلة الطويلة. تصورت أميرتي في قبضة السفاحين أتباع أور جان، وتخيلت معاناتها العقلية، على الرغم من معرفتي أنها سوف تظل ظاهريًّا هادئة وشجاعة. ما الشتائم والإهانات التي ستتعرض لها؟ طاف أمام عيني ضباب الدم الأحمر خلال تدفق مثل هذه الأفكار في ذهني، وهيمنت عليَّ تمامًا شهوة القاتل إلى الدم، بحيث أخشى أنني كنت رفيقًا عابسًا وصموتًا لجات أور خلال الساعات الأخيرة من تلك الرحلة.

اقتربنا أخيراً من زودانجا. كان الوقت ليلاً.

ربما من الأكثر أمانًا الانتظار حتى وضح النهار، كما فعلت سابقًا، قبل دخول المدينة؛ لكن الوقت كان عاملاً يتسم بالأهمية الآن.

توجهنا ببطءٍ نحو أسوار المدينة دون أضواء، مع حذرنا المستمر من زوارق الدورية، إلى أن وصلنا عند حافة السور الخارجي ومنه إلى شارع مظلم خلفه.

طرنا فوق طرق غير مضاءة، ووصلنا بأمان أخيراً إلى الحظيرة العامة نفسها التي ترددت عليها سابقًا.

وهكذا، اتخذت أول خطوة في البحث عن ديجاه ثوريس.

* * *

الفصل (11)

في بيت جارنال

يكشف الجهل والغباء أحيانًا عن مزايا ترفعهما إلى منزلة الفضائل. يندر أن يتمتع الجاهل والغبي بالخيال الذي يتيح له أن يكون فضوليًّا بذكاء.

شاهدني رجل الحظيرة وأنا أرحل بمفردي في طائرة لرجل واحد، والآن رآني أعود ومعي رفيق في طائرة لرجلين. بيد أن ذلك لم يثرْ لديه أي حيرة فضولية.

قمنا بتخزين طائرتنا في الحظيرة وأعطينا تعليمات لرجل الحظيرة أن يسمح لأي منا بإخراجها عندما يريد. أخذت جات أور إلى المسكن العام في المبنى نفسه، ثم تركته بعد تقديمه إلى المالك؛ فمن الأفضل أن يقوم رجل واحد، وليس رجلين، بالتحريات التي أستهدفها الآن.

يكمن هدفي الأول في معرفة ما إذا كانت سفينة جار نال قد غادرت زودانجا. لم أكن أعرف، للأسف، موقع الحظيرة التي بنى فيها جار نال سفينته. كنت على يقين أنني لن أتمكن من الحصول على هذه المعلومة من راباس؛ لأن لديه شكوكًا تجاهي بالفعل، ولذا كان أملي الوحيد هو فاس سيفاس.

كنت متأكدًا تمامًا أنه يعرف؛ فقد أقنعتني الملاحظات التي سمعتها منه أن المخترعين يتجسسان باستمرار على بعضهما. وهكذا انطلقت في اتجاه بيت منزل فال سيفاس، بعد أن أمرت جات أور بالبقاء في المسكن العام حتى يمكنني العثور عليه دون تأخير إذا احتجت إلى خدماته.

لم يزل الوقت غير متأخر في المساء عندما وصلت إلى منزل المخترع العجوز. أدخلني هاماس بعد إشارتي. بدا مندهشًا قليلاً، عندما تعرّف عليَّ، ولم يكن مسرورًا إلى حد ما.

قال: «اعتقدنا أن أور جان قد تخلص منك في النهاية».

أجبت: «لم يحالفه الحظ يا هاماس. أين فال سيفاس؟».

أجاب كبير الخدم: «في مختبره بالطابق الأعلى. لا أعرف إن كان لا يريد أي إزعاج، مع أنني أعتقد أنه سيحرص على رؤيتك».

أضاف هذه العبارة الأخيرة بأسلوب كريه لم يعجبني.

قلت: «سوف أذهب إلى مقره على الفور».

قال هاماس: «كلا، سوف تنتظر هنا. سوف أذهب إلى السيد وأسأله».

لمسته قليلاً وأنا أتحرك نحو الممر، وقلت: «قد تأتي معي، إن أردت يا هاماس؛ لكنك، سواء أتيت أو لم تأتِ، لا بد أن أرى فال سيفاس على الفور».

تذمر من تجاهلي لسلطته، وأسرع على الممر أمامي بخطوة أو خطوتين.

لاحظت خلال مروري بمسكني السابق أن الباب كان مفتوحًا. وعلى الرغم من أنني لم أرَ زاندا في الداخل، فلم أُلْقِ بالاً إلى هذه المسألة.

صعدنا السلم الحلزوني إلى الطابق الأعلى، وهناك طرق هاماس على باب شقة فال سيفاس.

بقينا للحظات دون أن يرد، وكنت على وشك دخول الغرفة عندما سمعت صوت فال سيفاس يسأل متبرمًا: «مَن هناك؟».

أجاب كبير الخدم: «أنا هاماس، وقد عاد الرجل، عاد فاندور».

أمره فال سيفاس: «أدخله، أدخله».

فتح هاماس الباب، تجاوزته ودخلت، ودفعته إلى خارج الممر: «قال: 'أدخله'»، ثم أغلقت الباب في وجهه.

من الواضح أن فال سيفاس خرج من إحدى الغرف الأخرى في جناحه ردًّا على طرقنا؛ لأنه وقف الآن يواجهني ويده لا تزال على مزلاج باب في الجدار المقابل للغرفة، وكان عابسًا غاضبًا وحاجباه مقطبين.

سألني: «أين كنت؟».

لم أكن معتادًا، بطبيعة الحال، أن يُحدثني أحد بالطريقة التي يتحدث بها فال سيفاس؛ كما أنها لم تعجبني. أنا مقاتل، ولست ممثلاً. وجدت صعوبة، للحظة، في تذكُّر أنني أؤدي دورًا.

وقد تماديت حتى إلى حد اتخاذ بضع خطوات نحو فال سيفاس بقصد الإمساك به من مؤخرة عنقه وهزه لتعليمه الأدب، لكنني ملكت زمام نفسي في الوقت المناسب. توقفت، ولم أستطع إلا أن أبتسم.

صاح فال سيفاس: «لماذا لا تجيبني؟ إنك تضحك؛ هل تجرؤ على الضحك في وجهي؟».

سألته: «لماذا لا أضحك على غبائي؟».

- غباؤك؟ لا أفهم. ماذا تعني؟

- لقد اعتبرتك رجلاً ذكيًّا، فال سيفاس، والآن أجد أنني كنت مخطئًا.

وهذا يجعلني أبتسم.

ظننت أنه سينفجر، لكنه تمكن من السيطرة على نفسه. سألني بغضب: «ماذا تقصد بذلك؟».

- أعني أنه لا يوجد رجل ذكي يتحدث إلى مُلازِم بنبرة الصوت التي خاطبتني بها للتو، بغض النظر عما يشتبه فيه إلى أن يتحرى الأمر بدِقة. ربما كنت تستمع إلى هاماس أثناء غيابي. ولذلك، فأنت تدينني بطبيعة الحال دون أن تسمع مني.

نظر نحوي خلسة للحظة، ثم قال بصوت أكثر تهذيبًا: «حسنًا، تفضل، يمكنك أن تشرح لي أين كنت وماذا كنت تفعل».

أجبت: «لقد تحريت عن بعض أنشطة أور جان، ولكن ليس لديَّ وقت الآن لشرح الموضوع. ما يهمني حاليًا هو أن أذهب إلى حظيرة طائرات جار نال، وأنا لا أعرف مكانها؛ ولذا جئت إليك لتخبرني».

سألني: «ولماذا تريد الذهاب إلى حظيرة طائرات جار نال؟».

- لأني عرفت أن سفينة جار نال قد غادرت زودانجا في مُهمة تتعلق بكل من جار نال وأور جان.

ألقت هذه المعلومة بفال سيفاس إلى حالة من الإثارة كادت أن تصيبه بالسكتة. وصاح: «يا له من كالوت[241]! السارق، الوغد؛ لقد سرق كل أفكاري والآن يُطلق سفينته قبل سفينتي. أنا ... أنا ...».

تابعت قائلاً: «هدِّئْ من روعك، فال سيفاس، نحن لا نعرف حتى الآن إن كانت سفينة جار نال قد أبحرت. قل لي أين كان يبنيها، وسوف أذهب لأتحرى الأمر».

---

(241) الكالوت: الكلب المريخي، وهو بحجم المُهر ولديه عشر أرجل، ويضم فكاه ثلاثة صفوف من الأنياب الطويلة الحادة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Calot – المترجمة.

صاح: «نعم، نعم، على الفور. ولكن هل تعرف يا فاندور إلى أين يريد جار نال الذهاب؟ هل عرفت؟».

أجبت: «إلى القمر ثوريا، على ما أعتقد».

أخذ فال سيفاس يتشنج غاضبًا. بدت فورة انفجاره الأولى، بالمقارنة، بمثابة موافقة متحمسة لمنافسه على أمجاد مبتكرة. نطق لسانه كل تسمية كريهة ممكنة على جار نال وجميع أسلافه، وصولاً إلى شجرة الحياة الأصلية التي من المفترض أن جميع الأشياء الحية على سطح المريخ قد نشأت منها.

وصاح مُستنتجًا: «إنه ذاهب الى ثوريا من أجل الثروة! لقد سرق مني حتى هذه الفكرة».

قاطعته: «هذا ليس وقت النواح، فال سيفاس، فلن نصل إلى أي شيء هكذا. قل لي أين حظيرة طائرات جار نال، بحيث يمكننا أن نتيقن ما إذا كان قد أبحر أم لا».

تمالك نفسه بجهد، ثم أعطاني وصفًا دقيقًا للوصول إلى حظيرة جار نال، بل أخبرني أيضًا كيف يمكنني دخولها؛ كاشفًا عن معرفته الجيدة بمعقل عدوه، مما يشير إلى أن جواسيسه ليسوا خاملين.

أنهى فال سيفاس توجيهاته، وأظن أنني سمعت أصواتًا قادمة من الغرفة وراءه - أصواتًا مكتومة- ربما لهاث، أو تنهد. لم أستطعْ أن أحدد. كانت الأصوات ضعيفة؛ قد تكون أي شيء. توجه فال سيفاس نحوي الآن وأشار لي بالخروج إلى الممر، على عجل قليلاً كما تصورت، وإنما ربما هذا ما تخيلته. كنت أتساءل عن إذا كان قد سمع الأصوات أيضًا.

قال: «من الأفضل أن تذهب الآن؛ على أن ترجع على الفور عندما تكتشف الحقيقة، وتخبرني بما وجدت».

في طريقي من مقر فال سيفاس، توقفت عند مقري للتحدث مع زاندا؛ لكنها لم تكن هناك، فواصلت طريقي نحو المدخل الصغير الذي أدخل وأخرج منه من بيت فال سيفاس.

كان هاماس في غرفة الانتظار. بدت عليه خيبة الأمل عندما رآني. سألني: «هل ستخرج؟».

أجبت: «نعم».

- هل ستعود مرة أخرى هذه الليلة؟

أجبت: «أتوقع ذلك. وبالمناسبة، يا هاماس، أين زاندا؟ لم تكن في مقري عندما توقفت عنده».

أوضح كبير الخدم: «تصورنا أنك لن ترجع، وكلفها فال سيفاس بواجبات أخرى. سوف أطلب من فيستال غدًا أن يرسل لك أَمَة أخرى».

قلت: «أريد زاندا مرة أخرى، فهي تؤدي واجباتها بشكل مُرضٍ، وأنا أُفضلها».

أجاب: «هذا شيء عليك مناقشته مع فال سيفاس».

اتخذت طريقي خلال الليل، ولم أعطِ الموضوع مزيدًا من التفكير،

فقد كان عقلي مشغولاً باعتبارات أكثر أهمية.

تجاوزت في طريقي المسكن العام، حيث تركت جات أور، ووصلت إلى حي آخر في المدينة. وهنا تمكنت دون صعوبة من تحديد المبنى الذي وصفه فال سيفاس.

يوجد عند أحد جوانبه زقاق ضيق مظلم. دخلته وتلمست طريقي إلى أقصى نهايته، حيث وجدت جدارًا منخفضًا - كما أخبرني فال سيفاس.

توقفت لحظة واستمعت باهتمام. لم يصدر أي صوت من داخل المبنى. قفزت بسهولة إلى أعلى الجدار، ومن هناك إلى سطح منخفض لمبنى ملحق. ظهرت عبر هذا السطح نهاية الحظيرة التي بنى فيها جار نال سفينته. عرفت ذلك من الأبواب الكبيرة في الجدار.

كان فال سيفاس قد أخبرني أنني أستطيع رؤية ما بداخل الحظيرة من خلال الشق القائم بين البابين، وأن أحدد بسرعة ما إذا كانت السفينة لا تزال هناك. ولكن، لا يوجد أي ضوء بالداخل، والحظيرة مظلمة تمامًا، ولم أستطع رؤية أي شيء عندما لصقت عيني على الشق.

حاولت تحريك الأبواب، لكنها كانت موصدة. تحركت بحذر على طول الجدار بحثًا عن فتحة أخرى.

وعلى مسافة حوالي أربعين قدمًا على يمين الأبواب، اكتشفت نافذة صغيرة ترتفع بحوالي عشرة أقدام على السطح الذي أقف عليه. قفزت إليها، وأمسكت حافتها بأصابعي وسحبت نفسي لأعلى على أمل أن أتمكن من رؤية أي شيء من هذا الموقع الجيد المتميز.

لدهشتي وفرحتي، وجدت النافذة مفتوحة. كان كل شيء هادئًا داخل حظيرة - هادئًا ومظلمًا مثل إيريبوس[242].

جلست على حافة النافذة وأرجحت ساقيّ من خلال النافذة، ثم رقدت على بطني وأنزلت نفسي إلى داخل الحظيرة؛ ثم تركت الحافة ونزلت.

إنها، بطبيعة الحال، مناورة محفوفة بالمخاطر؛ حيث لا يعرف المرء على ماذا سوف يهبط.

نزلت فوق مقعد طويل متحرك، مُحمَّل بأدوات وقطع معدنية. تأثر المقعد بوزني، وتحطم على الأرض مُحدثًا جلبة هائلة.

نهضت ووقفت على قدميَّ في الظلام، انتظر واستمع. إذا كان هناك أي شخص في أي مكان في المبنى الكبير، كما يبدو، فمن غير المرجح أن تمر الضوضاء التي أحدثتها دون أن يسمعها. وقد جذبت الانتباه بالفعل.

سمعت الآن خطوات. تبدو على مسافة بعيدة، اقتربت بسرعة في البداية، ثم أخذت تقترب ببطءٍ. يبدو أن مَن كان قادمًا قد بدأ يأخذ حذره أكثر مع اقترابه من الحظيرة.

انفتح الآن باب يقع في أقصى نهاية الحظيرة، ورأيت صورة ظلية لرجلين مسلحين على ضوء الغرفة خلفي.

لم يكن الضوء الذي جاء من الغرفة المجاورة قويًّا، لكنه كان يكفي لتبديد كآبة الحظيرة جزئيًّا من داخلها الذي يشبه الكهف، وكشف عن حقيقة عدم وجود السفينة. لقد أبحر جار نال!

خاب أملي، فقد فاجأني هذا الاكتشاف. رحل جار نال، ومما لا شك فيه أن ديجاه ثوريس معه.

كان الرجلان يتقدمان بحذر نحو الحظيرة. سمعت الرجل في الخلف يقول: «هل ترى أي شخص؟».

أجاب القائد: «كلا»، ثم قال بصوت عال: «مَن هناك؟».

كان مظهر أرضية الحظيرة ينم عن عدم الترتيب؛ فقد تناثرت فوقها بشكل عشوائي البراميل، والصناديق، والقناني، والأدوات، وقطع الغيار - ألف صنف وصنف. ربما كان

---

(242) إيريبوس :(Erebus) تجسيد الظلام في الأساطير اليونانية – المترجمة.

هذا من حسن حظي؛ فمن بين هذه الأشياء الكثيرة، يصعب اكتشافي ما دمت لا أتحرك، إلا إذا تعثر الرجلين مباشرة فوقي.

جلست راكعًا في ظل صندوق كبير، أخطط لخطوتي التالية في حال اكتشافي.

جاء الرجلين ببطء إلى وسط الغرفة، في مواجهة مكان اختبائي، ومرا بي. نظرت إلى الباب المفتوح الذي دخلا منه. لا يوجد أحد هناك، ومن الواضح أن هذين الرجلين من الحراس، وهما فقط من سمعا الضوضاء التي أحدثتها.

وفجأة ومضت خطة في ذهني. خرجت من مكان اختبائي، ووقفت بينهما وبين الباب المفتوح الذي دخلا منه.

تحركت بهدوء، بحيث لم يسمعاني، ثم تحدثت.

قلت: «لا تتحركا، وسوف تكونا آمنين».

توقفا كأنما أطلق عليهما أحد النار، واستدارا.

أمرتهما: «قفا حيث أنتما».

سأل أحدهما: «مَن أنت؟».

- لا يهم مَن أنا. أجيبا على أسئلتي، ولن يصيبكما أي ضرر.

وفجأة ضحك أحدهما، وقال: «لن يصيبكما أي ضرر. أنت بمفردك، ونحن اثنان. هيا!»، همس إلى زميله؛ ثم امتشقا سيفيهما واندفعا نحوي.

تراجعت عنهما، وسيفي جاهز لتفادي طعناتهما، وصحت: «انتظرا! أنا لا أريد قتلكما. عليكما أن تسمعاني. لا أريد منكما سوى بعض المعلومات، وبعد ذلك سأذهب».

صاح أحدهما: «أوه، هوو! إنه لا يريد قتلنا»، ثم قال لزميله: «تعال الآن، إلى جانبه الأيسر، وسوف أتولى جانبه الأيمن. هو إذَنْ لا يريد قتلنا، هه؟».

أشعر أحيانًا أنني جدير ببعض الفخر لنجاحاتي التي لا تعد ولا تحصى في القتال المميت. يبدو لي دائمًا، وبالتأكيد يجب أن يبدو أكثر لخصومي، أن نصل سيفي هو شيء حي يستلهم مآثره الرائعة من قوة تتجاوز قوة الإنسان الفاني. وكان الأمر على هذا النحو الليلة.

عندما هاجمني الرجلان من جانبين متعاكسين، لمع نصل سيفي بسرعة كبيرة في عمليات الصد والطعن والهجوم، التي أثق أن أعين خصومي لا يمكن أن تتابعها.

سقط الرجل الأول بجمجمة مشقوقة، ما إن أصبح في متناول نصلي. وفي نفس اللحظة تقريبًا، طعنت رفيقه في كتفه، ثم تراجعت.

كان ذراعه الممسك بالسيف عديم الفائدة، حيث تدلى بضعف إلى جانبه. لم يستطع الهرب. كنت بينه وبين الباب، وكان يقف هناك في انتظار أن أسدد طعنة إلى قلبه.

قلت له: «ليس لديَّ رغبة في قتلك. أجبْ عن أسئلتي بصدق، وسوف أتركك تعيش».

قال متذمرًا: «مَن أنت، وماذا تريد أن تعرف؟».

- لا يهم مَن أنا. أجبْ عن أسئلتي، وتأكد مِن أنك تجيب عنها بصدق. متى أبحرت سفينة جار نال؟

- منذ ليلتين.

- مَن كان على متنها؟

- جار نال وأور جان.

سألته: «ألم يكن هناك أي شخص آخر؟».

أجاب: «لا».

- إلى أين ذاهبا؟

- كيف لي أن أعرف؟

- من الأفضل لك أن تكون على دراية. هيا، إلى أين كانا ذاهبين، ومَن سيأخذان معهما؟

- كانا في طريقهما للقاء سفينة أخرى في مكان ما بالقرب من هيليوم، وهناك سوف يأخذان على متن سفينتهما شخصًا لم يشيرا إلى اسمه.

سألته: «هل يريدان اختطاف شخص من أجل فدية؟».

أومأ، ثم قال: «أعتقد ذلك».

- وأنت لا تعرف مَن هذا الشخص؟

- لا.

- وأين سيخفيان هذا الشخص الذي يختطفونه؟

قال: «في مكان ما لن يجدها فيه أحد أبدًا».

- أين هذا المكان؟

- سمعت جار نال يقول إنه ذاهب إلى القمر ثوريا.

حصلت على جميع المعلومات القيّمة التي يمكن أن يعطيها لي هذا الرجل؛ وجعلته يقودني إلى باب صغير يفتح على السطح الذي دخلت منه إلى الحظيرة. خرجت وانتظرت حتى أغلق الباب، ثم عبرت السطح ونزلت إلى أعلى الجدار أدناه، ومن هناك توجهت إلى الزقاق.

وضعت خطتي بسرعة وأنا في طريقي إلى بيت فال سيفاس. أدركت ضرورة المخاطرة بفرص يائسة، وأنه مهما كانت نتيجة مغامرتي، فإن نجاحها أو فشلها يقع كليًّا على عاتقي.

توقفت عند المسكن العام، حيث تركت جات أور، ووجدته ينتظر عودتي بفارغ الصبر.

كان المكان الآن مليئًا بالضيوف، بحيث لم نتمكن من التحدث بخصوصية. وبالتالي، أخذته معي إلى المطعم الذي نتردد عليه أنا ورباس. وجدنا طاولة، ورويت له كل ما حدث منذ أن تركته بعد وصولنا إلى زودانجا.

«والآن»، قلت، «آمل أن نتوجه الليلة إلى ثوريا. بعد أن نخرج من هنا، عليك أن تذهب فورًا إلى الحظيرة وتُخرِج سفينتنا. عليك الحذر من زوارق الدورية؛ وإذا نجحت في مغادرة المدينة، توجه مباشرة نحو الغرب على خط التوازي الثلاثين لمسافة مائة هاد[243]. انتظرني هناك. وإذا لم آتِ خلال يومين، تصرف كما يحلو لك».

* * *

(243) الهاد: هو الميل في برسوم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Linear_Measurement - المترجمة.

الفصل (12)

«سوف يموت كلانا!»

ثوريا! كان يثير خيالي دائمًا؛ ويهيمن الآن على وجودي كله وأنا أراه يتمايل منخفضًا عبر السماء فوقي، بعد أن افترقنا أنا وجات أور على الطريق أمام المطعم.

في مكان ما بين ذلك الجرم السماوي اللامع والمريخ، حملت سفينة غريبة حبي المفقود إلى مصير غير معروف.

يا لها من حالة يائسة تعانيها، وهي لا تستطيع أن تخمن أن من يحبونها لا يعرفون حتى بوضعها أو إلى أين يأخذها مختطفوها. ومن المحتمل أنها هي نفسها لا تعرف. لكم تمنيت أن أبعث إليها برسالة أمل.

كان ذهني منشغلاً بهذه الأفكار وأنا في طريقي نحو بيت فال سيفاس. وعلى الرغم من استغراقي في التفكير، كانت مَلَكاتي التي اعتادت الخطر لسنوات طوال، في حالة تأهب تام، بحيث إن أصوات الخطوات التي انطلقت للتو من شارع عبرته لم تمرَّ دون أن أنتبه إليها. أعرف الآن أنهم يسيرون خلفي في الطريق الذي أعبره، لكني لم أعطِ أي إشارة واضحة أنني سمعتهم إلى أن أصبح واضحًا أنهم يسرعون نحوي.

استدرت ويدي على غمد سيفي، وعندئذ خاطبني الرجل الذي كان يتبعني.

قال: «تصورت أنه أنت، لكني لم أكن متأكدًا».

أجبت: «إنه أنا يا راباس».

سألني: «أين كنت؟ لقد بحثت عنك في اليومين الماضيين».

استفسرت: «صحيح؟ ماذا تريد مني؟ أسرع يا راباس، أنا في عجلة من أمري».

تردد. رأيت توتره. كان يتصرف كأن لديه شيئًا يريد قوله لكنه لا يعرف كيف يبدأ، أو يخشى أن يطرح الموضوع.

بدأ كلامه بضعف: «حسنًا، لم نتقابل لعدة أيام، وأردت فقط رؤيتك - لندردش قليلاً، كما تعرف. دعنا نرجع ونتناول الطعام».

أجبت: «لقد أكلت للتو».

سألني: «كيف حال العجوز فال سيفاس؟ هل تعرف أي شيء جديد؟».

كذبت قائلاً: «لا شيء. هل تعرف أنت؟».

أجاب: «أوه، مجرد القيل والقال. يقولون إن أور جان اختطف أميرة هيليوم»، رأيته يحملق في وجهي لمعرفة رد فعلي.

سألته: «حقًّا؟ لا أحب أن أكون في وضع أور جان عندما يُمسك به رجال هيليوم».

قال راباس: «لن يمسكوا به، فقد أخذها إلى حيث لن يجدوها أبدًا».

قلت: «آمل أن ينال ما يستحقه، إذا ألحق بها أي ضرر. ومن المحتمل أن يحدث»، ثم استدرت كأنني سأرحل.

قال راباس: «لن يلحق بها أور جان أي ضرر إذا دفعوا الفدية».

سألته: «فدية؟ وماذا يعتبرون قيمة أميرة هيليوم بالنسبة لرجال هيليوم؟».

تطوع راباس قائلاً: «أور جان سوف يتركها لهم بسهولة؛ فهو لا يطلب سوى سفينتين محملتين بالثروات- كل ما يمكن أن تحمله سفينتان كبيرتان من ذهب وبلاتين وجواهر».

سألته: «وهل أبلغوا أهلها بمطالبهم؟».

أوضح راباس: «لديَّ صديق يعرف رجلاً على معرفة بأحد القتلة التابعين لأور جان، ويمكن التواصل مع القتلة بهذه الطريقة».

نطق أخيراً بما عنده. كنت لأضحك إن لم أكن قلقًا للغاية على ديجاه ثوريس. كان الوضع بديهيًّا. يثق كل من أور جان وراباس أنني إما جون كارتر أو أحد وكلائه، وقد تم تفويض راباس للعمل كوسيط بين المختطفين وبيني.

قلت: «يا له من أمر مثير للاهتمام. لكنه، بطبيعة الحال، لا يعني أي شيء بالنسبة لي. لا بد أن أذهب. أتمنى لك نومًا جيدًا يا راباس».

أجرؤ على القول أنني تركت الجرذ في مأزق وأنا أستدير لأواصل طريقي نحو بيت فال سيفاس. أتصور أنه لم يكن متأكدًا أنني جون كارتر أو حتى عميلاً لأمير الحرب؛ فلو كنت أحدهما، لكنت أظهرت المزيد من الاهتمام بمعلوماته. ولم يخبرني، بطبيعة الحال، شيئًا لا أعرفه بالفعل؛ ولذا لم يكن هناك أي شيء يستحث داخلي المفاجأة أو الإثارة.

ربما لا يوجد أي فارق إذا كان راباس يعرف بطريقة أو أخرى أنني جون كارتر؛ لكن الأمر أسعدني لأنني، في مكافحة أنشطة هؤلاء الرجال، أريد إبقاءهم في حيرة وأن أعرف دائمًا أكثر قليلاً مما يعرفون.

أدخلني هاماس ثانية عندما وصلت إلى الكومة القاتمة التي يسكنها فال سيفاس. وقد تبعني بعد أن مررت به واتخذت طريقي عبر الممر نحو السلم الحلزوني الذي يؤدي إلى مقر فال سيفاس في الطابق الأعلى.

سألني: «إلى أين تذهب؟ إلى مقر مسكنك؟».

أجبته: «كلا، أنا ذاهب إلى مقر فال سيفاس».

قال هاماس: «لكنه مشغول جدًّا الآن. ولا يمكن إزعاجه».

قلت: «لديَّ معلومات له».

- عليك الانتظار حتى صباح الغد.

التفت ونظرت إليه قائلاً: «أنت تضايقني يا هاماس. يمكنك الذهاب والاهتمام بعملك».

غضب، وأمسكني من ذراعي، وصاح: «أنا كبير الخدم هنا، ويجب أن تطيعني. أنت مجرد قا... قا...».

«قاتل»، أكملت الكلمة وأنا أدفعه بطريقة ذات مغزى، وأضع يدي على غمد سيفي.

تراجع صائحًا: «أنت لن تجرؤ، لن تجرؤ!».

- أوه، لن أجرؤ؟ أنت لا تعرفني يا هاماس. أنا أعمل عند فال سيفاس؛ وعندما أعمل عند رجل، فإنني أطيعه. وقد طلب مني أن أقدم له تقريري بمجرد عودتي. وإذا كان تقديم تقريري يتطلب أن أقتلك، فسوف أقتلك.

تغيرت طريقته، ورأيت أنه خائف مني. قال: «إني أحذرك فقط من أجل مصلحتك. فال سيفاس في مختبره الآن. وسوف يغضب إذا قاطعت العمل الذي يقوم به- قد يقتلك بنفسه. فإذا كنت حكيمًا، عليك أن تنتظر حتى يستدعيك».

قلت: «شكرًا لك يا هاماس. أنا ذاهب لرؤية فال سيفاس الآن. أتمنى لك نومًا جيدًا»، ثم استدرت وواصلت طريقي على الممر نحو السلم الحلزوني. لم يتبعني.

ذهبت على الفور إلى مقر فال سيفاس، وطرقت مرة واحدة على الباب، ثم فتحته. لم يكنْ فال سيفاس هناك، لكني سمعت صوته قادمًا من وراء الباب الصغير في الطرف الآخر من الغرفة.

صاح: «مَن هذا؟ ماذا تريد؟ اخرجْ من هنا ولا تزعجني».

أجبت: «إنه أنا، فاندور. يجب أن أراك على الفور».

- لا، لا، اذهب، سوف أراك في الصباح.

قلت: «ستراني الآن، أنا قادم إليك».

وصلت إلى منتصف الغرفة عندما فُتِح الباب وخرج فال سيفاس غاضبًا، وأغلق الباب وراءه.

صاح: «هل تجرؤ؟ هل تجرؤ؟».

قلت: «سفينة جار نال ليست في حظيرتها».

يبدو أن هذه العبارة أعادته إلى رشده، لكنها لم تقللْ من غضبه، وإنما حولته فقط في اتجاه آخر.

صاح: «الكالوت! ابن ألف مليون كالوت! لقد هزمني. سوف يذهب إلى ثوريا. وسوف يستخدم الثروة الهائلة التي سيعود بها في عمل كل ما كنت آمل أن أعمله».

قلت: «نعم. ومعه أور جان. ويمكن لهما معًا، أور جان وعالم كبير وعديم الضمير، أن يفعلا أشياء لا تُعد ولا تُحصى. لكنك أيضًا لديك سفينة يا فال سيفاس، وهي جاهزة. يمكننا، أنا وأنت، أن نذهب إلى ثوريا. لن يشكا في قدومنا. سنتمتع بكل المزايا. يمكننا تدمير جار نال وسفينته، وعندئذ تصبح أنت السيد».

شحب وجهه وقال: «لا، لا. لا أستطيع. لا أستطيع أن أفعل ذلك».

سألته: «لِمَ لا؟».

- الطريق إلى ثوريا طويل. لا أحد يعرف ما قد يحدث. ربما يحدث خطأ ما في السفينة. وقد لا تعمل السفينة في الممارسة العملية كما يجب أن تعمل من الناحية النظرية. وقد توجد وحوش غريبة ورجال بشعون على ثوريا.

صحت: «لكنك بنيت هذه السفينة للذهاب إلى ثوريا. أنت أخبرتني بنفسك».

تمتم قائلاً: «كان حلمًا. أنا أحلم دائمًا؛ ففي الأحلام لا يمكن أن يحدث لي شيء سيئ، وإنما في ثوريا - أوه، إنه قمر بعيد جدًّا، ويرتفع عاليًا فوق برسوم. ماذا لو حدث شيء ما؟».

فهمت الآن أن الرجل جبان بكل معنى الكلمة. كان على استعداد أن يسمح لحلمه العظيم أن ينهار حوله؛ لأنه لا يملك شجاعة القيام بالمغامرة العظيمة.

ماذا أفعل؟ كنت أعتمد على فال سيفاس، والآن خذلني. قلت له: «لا

أستطيع أن أفهمك. لقد أقنعتني، بحججك، أن السفر إلى ثوريا سيكون شيئًا بسيطًا في سفينتك. ما الخطر المحتمل الذي يمكن أن يواجهنا هناك ولا نستطيع التغلب عليه؟ سنكون عمالقة حقيقيين في ثوريا. لن يتمكن أي مخلوق يعيش هناك أن يصمد أمامنا. يمكننا أن نسحق بأقدامنا حياة أعظم الوحوش التي قد توجد في ثوريا».

لقد فكرت كثيراً في هذه المسألة منذ أن ظهر لأول مرة احتمال سفري إلى ثوريا. أنا لست عالماً، وقد لا تكون أرقامي دقيقة، لكنها صحيحة على وجه التقريب. أعرف أن قُطر ثوريا يبلغ افتراضًا حوالي سبعة أميال، أي أن حجمها لا يزيد على اثنين في المائة من حجم، لنقل مثلاً كوكب الأرض، الذي يمكننا المقارنة به حتى تتمكن من فهم الأمر أكثر.

وكان تقديري أنه إذا كان هناك بشر على ثوريا ويتناسبون مع بيئتهم كما يتناسب البشر مع بيئة كوكب الأرض، فإن طول الفرد منهم سوف يبلغ حوالي تسع بوصات ونصفًا، ويبلغ وزنه بين أربعة أو خمسة باوندات؛ وأن إنسان كوكب الأرض الذي ينتقل إلى المريخ يستطيع القفز 225 قدم في الهواء، وتحقيق قفزة واسعة وهو ثابت تبلغ 450 قدم، وقفزة واسعة وهو يركض تبلغ 725 قدم، وأن الرجل القوي يمكنه رفع كتلة تعادل أربعة أطنان ونصفًا على كوكب الأرض. وبالتالي، في مواجهة مثل هذا العملاق، تصبح المخلوقات الصغيرة في ثوريا عاجزة- شريطة، بطبيعة الحال، أن ثوريا مأهول.

اقترحت كل ذلك على فال سيفاس، لكنه هز رأسه بنفاد صبر، وقال: «هناك شيء لا تعرفه. وربما لا يعرفه جار نال نفسه. هناك علاقة غريبة بين برسوم وأقمارها، لا توجد بين أي من الكواكب الأخرى في النظام الشمسي وأقمارها. لقد طرح عالِم مجهول ذلك منذ آلاف السنين، ويبدو أن الأمر طواه النسيان. وقد اكتشفته في مخطوطة قديمة حصلت عليها مصادفة؛ وهي مكتوبة بخط اليد الأصلي للباحث، وربما لم تُوزع على الإطلاق.

«على أن الفكرة أثارت اهتمامي، وسعيت على مدى عشرين عامًا إما لإثباتها وإما دحضها. وفي النهاية، أثبتها بشكل قاطع».

سألته: «وما هي؟».

- توجد بين برسوم وأقمارها علاقة غريبة، أسميتها التعديل التعويضي للكُتل. وعلى سبيل المثال، دعنا ننظر في حالة كتلة تسافر من برسوم إلى ثوريا. نجدها، مع اقترابها من القمر الأقرب، تختلف مباشرة مع اختلاف تأثيرات الكوكب والقمر. وبالتالي، فإن نسبة الكتلة إلى كتلة برسوم على سطح برسوم ستكون هي نفسها نسبة الكتلة إلى كتلة ثوريا على سطح ثوريا.

«أنت كنت على حق في افتراض أن ساكن ثوريا - إن كان موجودًا - إذا كانت نسبته إلى ثوريا مثل نسبتك إلى برسوم، سيكون طوله حوالي ثمانية سووفات[244]؛ وبالتالي، إذا كانت نظريتي صحيحة، وليس لديَّ أي سبب للشك في ذلك، فإن طولك إذا سافرت من برسوم إلى ثوريا لن يكون سوى ثمانية سووفات عندما تصل إلى سطح القمر».

قلت صائحًا: «هذا منافٍ للعقل!».

انفجر غاضبًا، وصاح: «أنت لا شيء سوى قاتل جاهل. كيف تجرؤ على التشكيك في معرفة فال سيفاس؟ ولكن، يكفي هذا. عليك أن تعود إلى مقر مسكنك. يجب أن أواصل عملي».

قلت: «أنا ذاهب إلى ثوريا. وإذا لم تذهب معي، سوف أذهب بمفردي».

كان قد استدار ليدخل مختبره الصغير، لكني تبعته وكنت قريبًا منه.

قال: «اذهبْ من هنا. عليك أن تخرج، وإلا قتلتك».

وعندئذ فقط سمعت صرخة من الغرفة خلفه، وصوت امرأة تقول: «فاندور! فاندور، أنقذني!».

غضب فال سيفاس وحاول الاندفاع نحو الغرفة وإغلاق الباب في وجهي، لكني كنت أسرع كثيراً منه. قفزت إلى الباب ودفعته جانبًا، ودخلت.

التقت عيناي بمشهد رهيب. على ألواح من الرخام، ترتفع حوالي أربعة أقدام من الأرض، ترقد عدة نساء مقيدات بقوة، بحيث لا يستطعن تحريك أطرافهن أو رفع رؤوسهن. كُنَّ أربع نساء. أُزيلت أجزاء من جماجم ثلاث نساء، لكنهن ما زلن واعيات. رأيت أعينهن الخائفة والمرتعبة تتجه نحونا.

---

(244) سووف: هو البوصة المريخية، والتي تبلغ حوالي 1694.1 بوصة https://barsoom.fandom.com/wiki/Linear_Measurement - -المترجمة.

استدرت نحو فال سيفاس وصحت: «ما معنى ذلك؟ ما هذه الأعمال الشيطانية التي تقوم بها؟».

صرخ: «اخرج! اخرج! كيف تجرؤ على غزو دوائر العِلم المقدسة؟ مَن أنت، أيها الكلب، الدودة، لتشكك في ما يفعله فال سيفاس؛ والتدخلَ في عمل مخ لا يمكنك تصور حجمه؟ اخرج! اخرج! أو سوف تُقتل».

سألته: «ومَن سيقتلني؟ عليك إنهاء بؤس هذه المخلوقات المسكينة، وبعد ذلك سوف أنظر في أمرك».

كان غضبه أو رعبه، أو كلاهما، شديدًا إلى حد أنه أخذ يرتجف مثل رجل مصاب بنوع من الشلل؛ وقبل أن أتمكن من إيقافه، استدار واندفع خارج الغرفة.

أعرف أنه خرج لجلب مساعدة؛ ولا بد أن جميع نزلاء بيته الشيطاني سيأتون لمهاجمتي.

ربما كان يجب أن ألاحقه، لكني خشيت أن يحدث هنا أي شيء أثناء غيابي. ولذا عُدت إلى الفتاة التي كانت ترقد على اللوح الرابع. كانت زاندا.

خطوتُ سريعًا إلى جانبها. رأيت أنها لم تخضعْ بعد لعملية فال سيفاس البشعة. سحبت خنجري وقطعت الأربطة التي تقيدها. نزلت من الطاولة، وألقت ذراعيها حول رقبتي. بكت: «أوه، فاندور، فاندور. الآن، سوف يموت كلانا. لقد أتوا، إني أسمعهم».

* * *

الفصل (13)

المطاردة

كانت صلصلة المعادن بمثابة إعلان عن اقتراب الرجال المسلحين. لا أعرف أعداد الرجال القادمين؛ لكنني هنا وليس معي سوى سيفي الذي يفصل بيني وبين الموت، وظهري ضد الجدار.

فقدت زاندا كل أمل، لكنها ظلت هادئة ولم تفقد عقلها. ويمكنني القول إنها تحلت بالشجاعة في تلك اللحظات القصيرة القليلة.

قالت: «أعطني خنجرك، يا فاندور».

سألتها: «لماذا؟».

- سيقتلونك، لكنني لن أسمح لفال سيفاس أن يمسني، ولن أسمح لهؤلاء الآخرين بالمزيد من تعذيبي.

قلت لتذكيرها: «أنا لم أمتْ بعد».

- لن أقتل نفسي إلا إذا قتلوك؛ أما هؤلاء الفتيات الأخريات، فلا أمل لهم. إنهن يُصلين طلبًا للموت الرحيم. دعني أنهي بؤسهن.

جفلت من الفكرة، لكني عرفت أنها على حق وسلمتها خنجري. كان شيئًا يجب أن أفعله بنفسي. إنه يتطلب شجاعة أكثر بكثير من مواجهة رجال مسلحين، وسررت بإعفائي من هذه المهمة المروعة.

أصبحت زاندا خلفي الآن. ولم أشهدْ ما تفعله، ولم أسألها عما فعلته.

توقف أعداؤنا في الغرفة الخارجية. كنت أسمعهم يتهامسون، ثم رفع فال سيفاس صوته صائحًا.

صرخ: «اخرجْ من هناك واستسلم، أو سندخل ونقتلك».

لم أرد، ووقفت هناك، منتظرًا. اقتربت مني زاندا الآن وهمست: «يوجد باب على الجانب الآخر من هذه الغرفة، مُخبأ وراء شاشة كبيرة. إذا انتظرت هنا، سوف يرسل فال سيفاس الرجال إلى ذلك الباب، وبالتالي يهاجمونك من الأمام والخلف».

قلت: «لن أنتظر إذَنْ»، وتحركت نحو الباب المؤدي إلى الغرفة الخارجية حيث سمعت أعدائي يتهامسون.

وضعت زاندا يدها على ذراعي، وقالت: «لحظة واحدة، يا فاندور. ابقَ حيث أنت أمام الباب، وسوف أذهب نحوه وأفتحه فجأة. وعندئذ لن يمكنهم أخذك على حين غرة، كما يمكنهم أن يفعلوا إذا فتحته أنت».

كان الباب مزودًا بمفصلات ويُفتح إلى الداخل، وبالتالي سوف تكون زاندا محمية عندما تسحبه إلى الداخل وتقف خلفه.

خطت زاندا إلى الأمام وأمسكت بالمقبض، بينما وقفت أنا أمام الباب على بعد خطوات قليلة منه، وسيفي الطويل في يدي.

عندما فتحت الباب، ومض سيف إلى الداخل في طعنة كان يمكن أن تشق جمجمتي إذا كنت أقف هناك.

كان هاماس هو الرجل الذي استخدم السيف. ورأيت خلفه مباشرة فيستال ورجلاً آخر مسلحًا، بينما يقف فال سيفاس في المؤخرة.

بدأ المخترع العجوز الآن في الصراخ نحو الرجال وحثهم على مهاجمتي. لكنهم توقفوا لأن فتحة الباب لا تسمح إلا بمرور رجل واحد فقط في نفس الوقت؛ ويبدو أن أيًّا منهم لم يستمتع بفكرة أن يكون الأول. وفي الواقع، قفز هاماس إلى الوراء مباشرة بعد طعنته؛ وضم صوته الآن إلى صوت فال سيفاس في حث الاثنين الآخرين على دخول المختبر وتدميري.

صاح هاماس: «هيا يا رجال! نحن ثلاثة وهو واحد فقط. إلى الأمام يا فيستال، اقتلْ هذا الكالوت!».

قال فيستال هادرًا: «لندخلْ معك، أنت يا هاماس».

صرخ فال سيفاس: «ادخلوا! ادخلوا واقتلوه! ادخلوا أيها الجبناء». ولم يدخلْ أحد، بل ظلوا واقفين يحث كل منهم الآخر أن يكون الأول.

لم يعجبني هذا الهدر في الوقت، وذلك لسببين. في المقام الأول، لم أقبلْ فكرة التأخير غير الضروري ولو للحظة في بدء بحثي عن ديجاه ثوريس؛ وثانيًا، هناك دائمًا خطر وصول تعزيزات. ولذا، إن لم يدخلوا، سأضطر إلى الخروج لهم.

وبالفعل خرجت فجأة، بحيث أصيبوا بارتباك. تراجع هاماس وفيستال إلى وراء الرجل الذي يقف في الخلف، في جهد لتجنبي. لم يكن سوى عبد، لكنه كان رجلاً شجاعًا - أشجع الأربعة الذين واجهوني.

لقد دفع فيستال وهاماس جانبًا، وقفز نحوي بسيفه الطويل.

صاح فال سيفاس لتشجيعه.

صاح: «اقتله يا وولاك! اقتله وأعطيك حريتك».

وعندئذ اندفع وولاك نحوي بعزم. كنت أقاتل من أجل حياتي، لكنه كان يقاتل من أجل ذلك وشيء حتى أحلى من الحياة؛ والآن يتسلل

هاماس وفيستال نحوي– حاما مثل جبانين من أبناء آوى على حافة المعركة، انتظارًا للاندفاع في الوقت الذي يجعلهما لا يعرضان أنفسهما للخطر.

صاح فال سيفاس: «سأعطيك ذهبًا بقدر وزنك يا وولاك إذا قتلته».

الحرية والثروة! هما ما يلهمان خصمي الآن. الحياة والحرية والثروة! يا لها من مكافأة سخية يسعى جاهدًا من أجلها؛ لكنني أقاتل أيضًا من أجل كنز لا يُقدر بثمن، أقاتل من أجل ديجاه ثوريس التي ليس لها مثيل.

دفعني عنف هجوم الرجل إلى الوراء بضع خطوات، بحيث أصبحت أقف الآن عند المدخل، والذي كان في الحقيقة أكثر موقع استراتيجي من زاوية أنه منع كلاًّ من هاماس وفيستال من مهاجمتي من الجانب.

وقفت زاندا خلفي مباشرة، تحفزني بكلمات تشجيع هامسة، وإن لم أكن –مع تقديري لها- في حاجة إليها. لقد عزمت على إنهاء المسألة في أسرع وقت ممكن.

تتميز حافة سيف المريخ الطويل بأنها قاطعة مثل الموس، ورأسه حاد كالإبرة. ومن البراعة أن تحافظ على هذه الحافة القاطعة خلال القتال، مع تلقي ضربات سلاح خصمك على الجزء الخلفي من نصلك. أنا فخور بقدرتي على القيام بذلك، وادّخار الحافة القاطعة للغرض المقصود منها. احتجت الآن إلى حافة حادة؛ لأني كنت أستعد لتنفيذ خدعة صغيرة استُخدِمت بنجاح عدة مرات من قبل.

كان خصمي مبارزاً جيدًا، وقويًّا بشكل استثنائي في الدفاع؛ مما قد يتيح له إطالة أي مبارزة عادية لفترة. لكني لم أكنْ مستعدًّا لذلك، بل كنت أتمنى إنهاء المبارزة على الفور.

عند التحضير، دفعته إلى الوراء؛ ثم وجهت طعنة إلى وجهه. وقد فعل الشيء الذي كنت أعرف أنه سيفعله. ألقى برأسه إلى الخلف مُجَبراً، لتجنب رأس سيفي؛ مما أدى إلى رفع ذقنه لأعلى وبالتالي تعريض حنجرته للخطر. ومع استمرار امتداد نصلي، أحدثت قطعًا بسرعة من اليمين إلى اليسار. لم يتحرك رأس سيفي سوى بضع بوصات، بينما حافته الحادة فتحت حنجرته تقريبًا من الأذن إلى الأذن.

لن أنسى أبدًا نظرة الرعب في عينيه وهو يترنح إلى الخلف ويتكوم على الأرض.

ثم حولت انتباهي إلى هاماس وفيستال.

أراد كل منهما أن يتمتع الآخر بشرف الاشتباك معي. مع تراجعهما، كانا يوجهان سيفيهما نحوي بشكل عقيم؛ وكنت أدفعهما باطراد إلى زاوية، عندما تدخل فال سيفاس.

كان حتى الآن قانعًا بإطلاق صيحات التشجيع الشديد والأوامر لرجاله. لكنه أمسك الآن بمزهرية وقذفها نحو رأسي.

رأيتها مصادفة قادمة نحوي وتفاديتها؛ فتحطمت إلى ألف قطعة بعد أن اصطدمت بالجدار. ثم أمسك بشيء آخر وألقاه نحوي، واصطدم هذه المرة بمقبض سيفي وكاد فيستال أن يصيبني.

قفزت إلى الخلف لأتجنب طعنته، وعندئذ ألقى فال سيفاس شيئًا آخر صغيراً؛ ورأيت من زاوية عيني زندا تمسكه.

لم يكن فيستال أو هاماس مبارزين جيدين، وبإمكاني التغلب عليهما بسهولة في معركة عادلة؛ لكني رأيت أن تكتيكات فال سيفاس الجديدة من شبه المؤكد أنها قد تجعلني أتراجع. إذا استدرت لمهاجمته، سيصبح الاثنان الآخران خلفي، ويستغلان هذه الفرصة!

حاولت تغيير مواقعهما بحيث يصبحان بين فال سيفاس وبيني. وبهذه الطريقة سوف يحمونني من قذائفه، لكن قول ذلك أسهل من القيام به عندما تقاتل رجلين في غرفة صغيرة نسبيًّا.

أعاقني إلى حد كبير أنني كنت أراقب ثلاثة رجال. والآن، دفعت هاماس إلى الخلف بإصابته بقطع، وألقيت نظرة سريعة في اتجاه فال سيفاس، وعندئذ رأيت قذيفة تصيبه بين عينيه. سقط على الأرض كقطعة خشب. لقد أصابته زاندا بنفس قذيفته.

لم أستطع أن أمنع ابتسامة وأنا أحول انتباهي نحو هاماس وفيستال.

دفعتهما إلى ركن، وفاجأني هاماس بإلقاء سيفه جانبًا والركوع على ركبتيه.

بكى: «لا تقتلني، لا تقتلني، فاندور! لم أكن أريد مهاجمتك. فال سيفاس هو مَن جعلني أهاجمك»، ثم ألقى فيستال سلاحه على الأرض في رعب شديد. كان أكثر مشاهد الجُبن التي رأيتها في حياتي إثارة للاشمئزاز. شعرت بالرغبة في قتلهما، لكني لم أكنْ أريد أن أدنس نصلي بدمائهما العفنة.

نصحتني زاندا: «اقتلهما، لا يمكنك الوثوق في أيٍّ منهما».

هززت رأسي: «لا يمكننا قتل رجال عُزّل بدم بارد».

قالت: «إن لم تقتلهما، سوف يمنعان هروبنا، حتى إن استطعنا الهرب. هناك آخرون سيوقفوننا في الطابق الأدنى».

قلت: «لديَّ خطة أفضل يا زاندا»، وقمت على الفور بتقييد هاماس وفيستال بحزم في عتادهما، ثم فعلت الشيء نفسه مع فال سيفاس؛ لأنه لم يمت وإنما كان مشدوهًا فحسب. كما قمت أيضًا بتكميم ثلاثتهم حتى لا يتمكنوا من الصراخ.

وبعد أن انتهيت، طلبت من زاندا أن تتبعني. ذهبنا فورًا إلى الحظيرة، حيث توجد السفينة على سقالاتها.

سألتني زاندا: «لماذا جئت إلى هنا؟ علينا أن نخرج من المبنى في أسرع وقت ممكن- سوف تأخذني معك، أليس كذلك، فاندور؟».

قلت: «بالتأكيد سآخذكِ معي، وسنخرج من المبنى خلال وقت قصير. تعالي، ربما أحتاج إلى مساعدتكِ للتعاملَ مع هذه الأبواب»، وقدت الطريق إلى البابين الكبيرين في نهاية الحظيرة. كانت الأبواب مغلقة بقوة، بيد أنها انزلقت بسهولة مفتوحة على الجانبين بعد رفع المزلاج.

خطت زاندا إلى العتبة ونظرت، ثم قالت: «لا يمكننا الهرب من هذا الطريق. إنه على ارتفاع خمسين قدمًا من الأرض، وليس هناك سلم أو أي وسيلة أخرى للنزول».

«ومع ذلك، سوف نهرب عبر هذا المدخل»، قلت متسليًا بحيرتها، «تعالي معي فقط، وسوف ترين كيف».

عُدنا إلى جانب السفينة، ويجدر بي القول إنني لم أكنْ متأكدًا تمامًا من النجاح كما حاولت أن أتظاهر. ركزت أفكاري على الكرة المعدنية الصغيرة التي تربط المخ الميكانيكي في مقدمة السفينة.

أعتقد أن قلبي توقف عن الخفقان خلال انتظاري، ثم غمرتني موجة كبيرة من الارتياح عندما رأيت الباب يُفتح والسُّلم ينزل نحو الأرض.

اتسعت عينا زاندا في ذهول وهي تشاهد، وسألت: «مَن يوجد في الداخل؟».

قلت: «لا أحد. والآن اصعدي معي بسرعة، فليس لدينا وقت للتلكؤ هنا».

كان خوفها واضحًا، لكنها أطاعتني مثل جندي جيد، وصعدتُ السلم خلفها إلى المقصورة. ثم وجهت المخ ليرفع السلم ويغلق الباب، وتوجهت إلى غرفة التحكم، والفتاة تتبعني.

وهنا ركزت أفكاري مرة أخرى على المخ الميكانيكي الذي يقع فوق رأسي مباشرة. وحتى مع الاستعراض الذي قمت به بالفعل، لم أتمكن بعد من إقناع نفسي بحقيقة ما كنت أفعله. بدا من المستحيل أن هذا الشيء فاقد الإحساس يمكنه رفع السفينة من السقالات وتوجيهها بأمان عبر المدخل؛ وإنما بمجرد أن زودته بتلك الفكرة، ارتفعت السفينة بضعة أقدام وتحركت بصمت تقريبًا نحو الفتحة.

عندما خرجنا إلى سكون الليل، ألقت زاندا ذراعيها حول رقبتي. صاحت: «أوه، فاندور، فاندور! لقد أنقذتني من براثن هذا المخلوق الرهيب». ثم صاحت في هستيريا: «أنا حرة! أنا حرة مرة أخرى! أوه، فاندور، أنا لك، سأكون أَمَتك إلى الأبد. يمكنك أن تفعل معي كل ما تريد».

رأيت أنها كانت في حالة من الذهول والهستيريا.

قلت لتهدئتها: «أنتِ منفعلة، يا زاندا. أنتِ لستِ مدينة لي بأي شيء. أنتِ امرأة حرة. ليس عليكِ أن تكوني أَمَتي أو أَمَة أي شخص آخر».

قالت: «أريد أن أكون أَمَتك، يا فاندور»، ثم أضافت بصوت منخفض جدًّا: «أنا أحبك».

أبعدتُ ذراعيها بلطف عن رقبتي، وقلت لها: «أنتِ لا تعرفين ما تقولين، يا زاندا. لقد أخذكِ امتنانك بعيدًا. يجب ألا تحبيني؛ فقلبي ينتمي إلى امرأة أخرى. وهناك سبب آخر يجعلكِ لا تقولين إنكِ تحبينني - وهو سبب سوف تعرفينه عاجلاً أم آجلاً، وبعدها ستتمنين أن يصيبكِ البكم قبل أن تقولي إنكِ تحبينني».

كنت أفكر في كراهيتها لجون كارتر، ورغبتها المعلنة في قتله.

قالت: «أنا لا أعرف ماذا تعني؛ وإنما إذا قلت لي ألا أحبك، فسوف أحاول أن أطيعك، بغض النظر عما تقوله. أنا أَمَتك. أنا مدينة لك بحياتي، وسأكون دائمًا أَمَتك».

قلت: «سوف نتحدث عن ذلك في وقت آخر. لكني أود الآن أن أخبركِ بشيء قد يجعلكِ ترغبين في أن أتركك في بيت فال سيفاس».

عقدت حاجبيها ونظرت في وجهي متساءلة: «لغز آخر؟ تتحدث ثانية بالألغاز».

- نحن ذاهبان إلى رحلة طويلة وخطيرة في هذه السفينة، يا زاندا. وأنا مضطر إلى أن آخذكِ معي، لأنني لا أستطيع المخاطرة بأن يكتشفوني إذا هبطتُ بكِ في أي مكان في زودانجا. والهبوط بكِ بعيدًا عن أسوار المدينة لن يعني، طبيعة الحال، سوى التوقيع على مذكرة موتكِ.

أجابت: «لا أريد النزول في زودانجا أو خارجها. أريد أن أذهب معك أينما تذهب. قد تحتاج لي في يوم ما يا فاندور، وعندئذٍ سيسعدني أن أكون موجودة».

سألتها: «هل تعرفين إلى أين نحن ذاهبان، يا زاندا؟».

قالت: «كلا، ولا يهمني. ما من فارق بالنسبة لي، حتى لو كنت ذاهبًا إلى ثوريا».

ابتسمت، وحولت انتباهي مرة أخرى إلى المخ الميكانيكي، ووجهته ليأخذنا إلى الموقع الذي ينتظرني فيه جات أور؛ وعندئذ تحديدًا، سمعت إشارة عويل من زورق دورية فوقنا.

* * *

الفصل (14)

إلى ثوريا

على الرغم من إدراكي احتمال اكتشاف أحد زوارق الدورية لسفينتنا الغريبة، كنت آمل أن نتمكن من الهرب من المدينة دون انكشاف. أعرف أننا إذا لم نطعْ أمرهم، سوف يفتحون النار علينا، وضربة واحدة قد تنهي جميع خططي للوصول إلى ثوريا وإنقاذ ديجاه ثوريس.

وعلى الرغم من أن تسليح السفينة، كما وصفه فال سيفاس، يعطيني ميزة ساحقة في أي مواجهة مع زورق للدورية، فقد ترددت في الوقوف والقتال، لربما تُعطلنا طلقة محظوظة من سفينة العدو.

كان فال سيفاس يتباهى بسرعة قدرة المخ الميكانيكي على الفهم؛ فقررت أن مواصلة الطيران هو المسار الأكثر أمانًا، مهما كانت كراهيتي للهرب من أمام عدو.

كانت زاندا تلصق وجهها على إحدى الكوات العديدة في هيكل السفينة. وكان عويل سارينة زورق الدورية مستمرًّا- صوت تهديدي غريب في الليل، يخترق الهواء كخناجر حادة.

قالت زاندا: «إنهم يلاحقوننا يا فاندور؛ ويرسلون إشارات لزوارق أخرى طلبًا للمساعدة».

- ربما لاحظوا الخطوط الغريبة لهذه السفينة، التي لم تثرْ فضولهم فحسب، وإنما شكوكهم أيضًا.

سألتني: «ماذا ستفعل؟».

أجبت: «سوف نختبر قدرة السرعة في مُحرك فال سيفاس».

نظرت إلى الكرة المعدنية عديمة الشعور فوق رأسي. «أسرعي! أسرعي! اهربي من مطاردة زورق الدورية!»، كانت هذه هي الأفكار الإرشادية التي نقلتها إلى الشيء الصامت فوقي، ثم انتظرت.

بيد أنني لم أنتظر طويلاً. فما إن انطبعت أفكاري على الآلية الحساسة، حتى أخبرني تسارع طنين المحرك -الذي يكاد يكون بلا ضجيج- أن توجيهاتي قيد التنفيذ.

صاحت زاندا بحماس: «لم يعد الزورق قادرًا على اللحاق بنا. لقد قفزنا إلى الأمام، وتفوقنا عليه».

انفجرت في آذاننا سلسلة من النيران السريعة. لقد فتح عدونا النار علينا؛ وسمعنا على مسافة، في نفس الوقت تقريبًا، اختلاط صوت الطلقات بعويل صفارات الإنذار الأخرى التي أخبرتنا أن التعزيزات تقترب منا.

وتشهد سرعة اندفاع هواء المريخ الرقيق على طول جانبي سفينتنا على سرعتنا الهائلة. تلاشت أضواء المدينة بسرعة وراءنا. وأصبحت أضواء كشافات زوارق الدورية بمثابة مجموعات من الضوء تتناقص بسرعة عبر السماء المضاءة بالنجوم.

لا أعرف مقدار سرعة طيراننا، لكنها ربما بلغت حوالي 1350 هاد في الساعة.

أسرعنا على ارتفاع منخفض فوق قاع البحر القديم الذي يقع غرب زودانجا؛ وفي غضون ما يقرب من خمس دقائق - لا يمكن أن يكون أكثر من ذلك بكثير – تباطأت سرعتنا بتزايد، ورأيت طائرة صغيرة تطفو متسكعة في الهواء الساكن أمامنا مباشرة.

عرفت أنها الطائرة التي تحمل جات أور، ووجّهت المخ ليجلب سفينتنا إلى جوارها ثم نقف.

كانت استجابة السفينة لكل إرشادات فكري مذهلة. وعندما وصلنا بجوار طائرة جات أور، وبدا أن أيدٍ خفية تفتح الباب في جانب سفينتنا، عانيت من إحساس بالرعب لفترة قصيرة، كأنني فيٍ قبضة فرانكشتاين لا إنساني. هذا، على الرغم من أن كل تحرك للسفينة كان استجابة لتوجيهاتي.

وقف جات أور على سطح سفينته الصغيرة الضيق يحدق مندهشًا في تلك السفينة الغريبة التي تقف إلى جوار سفينته.

قال: «لو لم أكن أتوقع هذا، لكنت أدفعها الآن نحو هيليوم. إنها ذات مظهر شرير، مع تلك الأعين الهائلة التي تعطيها مظهر وحش خارق للطبيعة».

قلت له: «سوف يزداد لديك هذا الانطباع عندما تبقى على متنها لفترة من الوقت؛ فهي خارقة للطبيعة من نواحٍ عديدة».

سألني: «هل تريدني أن أصعد على متنها الآن؟».

أجبت: «نعم، بعد أن تتخلص من طائرتك».

سألني: «ماذا نفعل بها؟ «هل تود التخلي عنها؟»».

- عليك أن تضبط بوصلة الاتجاه على هيليوم، وتفتح صمام الوقود إلى نصف السرعة. وخلال الطريق، سوف نأتي بجوارك ثانية ونأخذك

على متن سفينتنا. وفي هيليوم، سيأخذ أحد زوارق الدورية الطائرة ويعيدها إلى حظيرتي.

فعل كما أمرته، ووجهت المخ ليأخذنا إلى جواره بعد أن يبدأ طريقه. وخلال لحظات كان يصعد إلى مقصورة سفينة فال سيفاس.

علّق قائلاً: «إنها مريحة. لا بد أن الصبي العجوز مُحب للترف والمتعة».

أجبت: «إنه يحب الشعور بالراحة، لكن حب الترف قد قلّص مِزاجه إلى حد خشيته من المغامرة والخروج بسفينته بعد أن أكملها».

تجول جات أور ببصره في المقصورة، وصادف أن وقعت عيناه على الأبواب في جانب السفينة عندما كنت أوجه المخ لإغلاقها. هتف مندهشًا.

وصاح قائلاً: «باسم سلفي الأول، مَن الذي يُغلق تلك الأبواب؟ أنا لا أرى أي شخص، وأنت لم تتحركْ أو تلمسْ أي نوع من أجهزة التشغيل منذ أن صعدت على متن السفينة».

قلت: «تعالَ إلى غرفة التحكم، وسوف ترى طاقم هذه السفينة بأكمله في خزانة معدنية لا تتجاوز حجم قبضتك».

دخلنا إلى غرفة التحكم، وشاهد جات أور زاندا للمرة الأولى. رأيت المفاجأة تنعكس في عينيه، لكنه كان جيد التهذيب ولم يقدم أي تعليق.

قلت: «هذه هي زاندا، يا جات أور. كان فال سيفاس على وشك إزالة جمجمتها لصالح العِلم عندما قاطعته هذا المساء. واضطرت الفتاة المسكينة إلى الاختيار بين أقل الشرين، وهذا سبب وجودها معي».

قالت زاندا: «هذه العبارة مُضلِّلة قليلاً. فحتى لو لم تكن حياتي في خطر، وكنت محاطة بكل الضمانات والفخامة، لاخترت أن أذهب مع فاندور حتى إلى نهاية الكون».

قلت مبتسمًا: «كما ترى، جات أور، هذه السيدة الشابة لا تعرفني جيدًا؛ ومن الأرجح أن تغير رأيها عندما تعرفني».

قالت زاندا: «أبدًا».

قلت لها مُحَذِّرًا: «لننتظرْ ونَرَ».

كنت قد شرحت لجات أور، خلال رحلتنا من هيليوم إلى زودانجا، الآلية الرائعة التي يسميها فال سيفاس المخ الميكانيكي. ويمكنني أن أرى عيني البادوار الشاب تبحثان داخل غرفة التحكم عن هذا الاختراع الرائع.

قلت: «ها هو»، مشيراً إلى الكرة المعدنية التي تقع فوق رأسه قليلاً في مقدمة السفينة.

سألني: «وهذا الشيء الصغير يقود السفينة ويفتح الأبواب؟».

قلت له: «المُحركات تقود السفينة، يا جات أور. وهناك مُحركات غيرها مهمتها تشغيل الأبواب وأداء الواجبات الميكانيكية المختلفة الأخرى على متن السفينة. ويكمن دور المخ الميكانيكي في مجرد تشغيلهم، بمثل ما توجه أمخاخنا أيدينا لأداء واجبات معينة».

سألني: «وهل هذا الشيء يفكر؟».

- إنه يعمل لجميع المقاصد والأغراض مثلما يعمل المخ البشري، والفارق الوحيد هو أنه لا يستطيع توليد الفكر.

وقف البادوار مُحدقًا نحو هذا الشيء في صمت لعدة لحظات، ثم قال أخيراً: «إنه يعطيني شعورًا غريبًا، شعورًا بالعجز؛ أنني أسيطر على مخلوق كلي القدرة ومع ذلك لا يمكنه التفكير».

وافقته: «لديَّ الشعور نفسه، ولا يمكنني إلا التكهن حول ما يمكن أن يفعله إذا كان بمقدوره التفكير».

قالت زاندا: «أنا أيضًا، أرتجف عندما أفكر في ذلك، وماذا لو كان فال سيفاس قد نقل إليه ضراوة قسوة عقله».

قلت لتذكيرها: «إنه من صنعه».

- لنأمل ألا يقدر أبدًا على توليد أي فكرة.

قال جات أور: «من المستحيل أن يفكر، بطبيعة الحال».

أجابت زاندا: «لا أعرف. فقد كان ذلك في ذهن فال سيفاس. أعرف أنه كان يعمل من أجل تحقيق هذه الغاية؛ لكنني لا أعرف ما إذا كان نجح في نقل قوة الفكر الأصلي

إلى هذا الشيء. أعرف أن أمله لم يقتصرْ على تحقيق هذه المعجزة في النهاية، وإنما كان يخطط أيضًا لنقل القدرة على الكلام إلى هذا الاختراع الفظيع».

سألها جات أور: «لماذا تعتبرينه فظيعًا؟».

أجابت الفتاة: «لأنه غير إنساني وغير طبيعي. لا يمكن أن يخرج من ذهن فال سيفاي أي شيء جيد. فالتصور الذي يقوم عليه هذا الشيء الذي تراه هناك، كان مبنيًّا على الكراهية والشهوة والجشع، وكان

إبداعه يستهدف إشباع هذه الخصائص عند فال سيفاس. لم يتضمن صنعه أي أفكار نبيلة أو سامية، ولا يمكن أن تنبثق منه إن امتلك القدرة على التفكير».

قلت لتذكيرها: «لكن هدفنا نبيل وشريف، وإذا خدمنا في تحقيق أملنا، سيكون قد حقق الخير».

أجابت زاندا: «ومع ذلك، أخشاه. أنا أكرهه لأنه يذكرني بفال سيفاس».

قال جات أور: «آمل ألا يتأمل المخ الميكانيكي هذه الاعترافات الصريحة».

صفعت زاندا شفتيها بكفها المفتوحة، وعيناها الواسعتان تعكسان رعبًا جديدًا. وهمست: «لم أفكرْ في ذلك، ربما يخطط في هذه اللحظة تحديدًا للانتقام».

لم أتمالك نفسي وضحكت على خوفها. قلت: «إذا لحق بنا أي ضرر يا زاندا من هذا المخ، يمكنك إلقاء اللوم عليَّ؛ لأن ذهني هو المسؤول عن تشغيله ما دامت السفينة في حوزتي».

قالت: «آمل أن تكون مُحقًّا، وأنه سيحملنا بأمان إلى أي مكان ترغب في الذهاب إليه».

تدخل جات أور: «ولنفترضْ أننا وصلنا إلى ثوريا أحياء؟ كنت أتساءل عن ذلك. لقد فكرت كثيراً في هذه المسألة بطبيعة الحال منذ قلت إنها وجهتنا؛ وأتساءل كيف سنتصرف على ذلك القمر الصغير. إن نسب أحجامنا ستكون مختلفة تمامًا عن أي شيء قد نجده هناك».

قلت: «ربما لن يكون الأمر على هذا النحو»، ثم شرحت له نظرية التعديل التعويضي للكتل كما شرحها لي فال سيفاس من قبل.

قال جات أور: «هذا يبدو منافيًا للعقل».

هززت كتفي ووافقته قائلاً: «نعم، يبدو كذلك بالنسبة لي أيضًا. وإنما بغضِّ النظر عن مدى كراهيتنا لشخصية فال سيفاس، لا يمكننا إنكار أنه يتمتع بعقل علمي رائع؛ وسيظل رأيي مُعلقًا إلى أن نصل إلى سطح ثوريا».

قال جات أور: «على الأقل، ومهما كانت الظروف هناك، لن يتمتع مختطفو الأميرة بأي ميزة تتفوق علينا إذا وجدناهم هناك».

سألته: «هل تشك في أننا سوف نجدهم؟».

أجاب: «إنها مجرد مسألة تخمين، بشكل أو آخر. وإنما لا يبدو في عالم الإمكانية أن اثنين من المخترعين يعملان بشكل مستقل عن بعضهما ويصل كل منهما إلى نفس التصور ويبني سفينة مماثلة قادرة على عبور الفراغ الخالي من الهواء الذي يقع بين المريخ وثوريا، وعن طريق توجيه مخ ميكانيكي».

أجبت: «ولكن -على حد علمي- لا تعمل سفينة جار نال بهذه الطريقة. لا يعتقد فال سيفاس أن جار نال أنتج مثل هذا المخ. ولا يعتقد أن الرجل قد تصور حتى هذه الإمكانية. وبالتالي يمكننا الافتراض أن سفينة جار نال تعمل عن طريق جار نال، أو على الأقل تعمل كليًّا بوسائل بشرية».

سأل جات أور: «إذَنْ، أي سفينة منهما لديها فرصة أفضل للوصول إلى ثوريا؟».

أجبت: «وفقًا لفال سيفاس، لا يمكن أن يوجد أي شك هنا؛ لأن هذا المخ الميكانيكي لا يمكن أن يُخطئ».

قال جات أور: «إذا قبلنا بذلك، علينا أن نقبل أيضًا إمكانية أن يُخطئ مخ جار نال البشري في بعض جوانب حساباته».

سألته: «ماذا تعني بذلك؟».

«لقد تبادر إلى ذهني أن جار نال قد لا يصل إلى ثوريا نتيجة لخطأ ما في حساباته، في حين أننا سوف نصل يقينًا لأن المخ الميكانيكي لا يُخطئ».

قلت: «لم أفكر في ذلك. لقد سيطرت على ذهني فكرة أن جار نال وأور جان يأخذان ضحيتهما إلى ثوريا، ولم أفكر أبدًا في إمكانية عدم قدرتهما على الوصول إلى هناك».

أحزنتني الفكرة؛ لأنني أدركت مدى يأس بحثي إذا وصلنا إلى ثوريا لنجد أن ديجاه ثوريس ليست هناك. أين يمكنني البحث عنها؟ أين آمل أن أجدها في مساحات الفضاء

الشاسعة؟ لكني سرعان ما أبعدت هذه الأفكار عن ذهني؛ لأن القلق هو قوة تدميرية حاولت إقصاءها من فلسفتي في الحياة.

نظرت نحوي زاندا بتعبير ينم عن الحيرة، وسألتني: «هل سنذهب حقًّا إلى ثوريا؟ أنا لا أفهم لماذا يرغب أي شخص في السفر إلى ثوريا؛

لكني مستعدة للذهاب، ما دمتَ ستذهب. متى نبدأ يا فاندور؟».

أجبتها: «نحن الآن في طريقنا إلى هناك. لقد وجهت المخ إلى ثوريا بأقصى سرعة بمجرد أن صعد جات أور على متن سفينتنا».

* * *

الفصل (15)

ثوريا

قمت بحّث زاندا وجات أور -في وقت لاحق- على الاستلقاء والراحة مع اندفاعنا السريع خلال مناطق الفضاء الباردة والمظلمة.

على الرغم من عدم توفر حرير وفراء النوم، يجب ألا نعاني؛ حيث كانت درجة حرارة المقصورة مريحة، وقد وجهت المخ للسيطرة عليها وعلى إمدادات الأكسجين، بعد أن غادرنا سطح برسوم.

تضم المقصورة أرائك ضيقة وإن كانت مريحة، فضلاً عن عدد من الوسائد الناعمة. ولذا لم يكن هناك سبب لأن يعاني أي منا خلال الرحلة.

غادرنا برسوم في حوالي منتصف الزود الثامن، وهو ما يعادل منتصف الليل بتوقيت كوكب الأرض. وبحساب تقريبي نوعًا ما للمسافة التي يتعين قطعها وسرعتنا التقديرية، توقعت أن نصل إلى ثوريا في حوالي ظهر اليوم التالي.

أراد جات أور أن يظل مراقبًا طوال الوقت، لكنني أصررت على ضرورة حصول كل منا على قسط من النوم. ونام بعد أن وعدت بإيقاظه بعد خمس ساعات.

وبينما كان رفيقاي نائمين، فحصت السفينة من الداخل بدقة أكبر من فحصي السابق عندما قادني فال سيفاس خلالها.

وجدتها مزودة جيدًا بالمواد الغذائية، كما اكتشفت أيضًا في المخزن وجود حرير وفراء للنوم. على أن الأسلحة كانت أكثر ما يهمني، بطبيعة الحال. توجد سيوف طويلة، وسيوف قصيرة، وخناجر، فضلاً عن عدد من بنادق ومسدسات الراديوم البرسومية الرائعة، إلى جانب كمية كبيرة من الذخيرة.

يبدو أن فال سيفاس لم ينسَ شيئًا؛ بيد أن كل تفكيره ورعايته وكفاءته كانت لتذهب هباء لو لم أتمكن من الاستيلاء على السفينة. لقد منعه جُبنه من استخدامها، وبالطبع لم يكن ليسمح لآخرين بإخراجها، حتى لو كان يعتقد أن عقلاً آخر يمكنه تشغيلها، وهذا ما كان يثق أنه غير ممكن.

انتهيت من تفتيش السفينة وذهبت إلى غرفة التحكم. نظرت من خلال إحدى الأعين الكبيرة. كانت السماء عبارة عن فراغ أسود مرصع بنقاط ضعيفة ومتلألئة من الضوء. كم تبدو النجوم مختلفة عندما يتجاوز المرء الغلاف الجوي للكوكب.

بحثت عن ثوريا، ولم أجده في أي مكان على مرمى البصر. صدمني هذا الاكتشاف؛ هل خذلنا المخ الميكانيكي؟ هل حملنا إلى ركن ناء في الفضاء، عندما كنت أضيع وقتي في تفتيش السفينة؟

لا أميل إلى فقدان عقلي والإصابة بحالة من الهستيريا عند مواجهة حالة طارئة؛ كما لا أتسرع في إطلاق الأحكام، إلا إذا اقتضت الضرورة اتخاذ إجراء فوري. أميل أكثر إلى التفكير في الأمور بعناية، وهكذا جلست على مقعد طويل في غرفة التحكم للتفكير في حل لمشكلتي.

وعندئذ جاء جات أور، وسألني: «منذ متى وأنا نائم؟».

أجبته: «ليس منذ فترة طويلة، ومن الأفضل أن تعود وتحصل على كل ما تستطيع من راحة».

قال: «لست نعسانًا. يصعب في الواقع التفكير في النوم عندما يكون المرء في وسط مغامرة مثيرة مثل هذه. فكّر في الأمر يا أميري ...».

قلت لتذكيره: «فاندور».

قال: «أنا أنسى أحيانًا. على أي حال، وكما كنت أقول، فكر في الاحتمالات، وفي الإمكانيات الهائلة لهذه المغامرة، وفكر في وضعنا».

أجبته على نحو عابس قليلاً: «كنت أفكر في ذلك».

- في غضون ساعات قليلة، سوف نوجد في مكان لم يذهب إليه أي برسومي من قبل- إلى ثوريا.

أجبت: «لست متأكدًا من ذلك».

سألني: «ماذا تقصد؟».

قلت له: «ألقِ نظرة إلى الأمام. هل ترى أي شيء من ثوريا؟».

نظر خلال إحدى الكوات المستديرة، ثم انتقل إلى الأخرى. قال: «لا أرى ثوريا».

أجبت: «ولا أنا. هل تدرك ما معنى ذلك؟».

تطلع مذهولاً للحظة. «أتعني أننا لسنا متجهين إلى ثوريا – أي أن المخ أخطأ؟».

أجبت: «لا أعرف».

سأل: «ما المسافة من برسوم إلى ثوريا؟».

أجبت: «أكثر قليلاً من 15700 هاد. وكان تقديري أن الرحلة تستغرق خمسة زودات».

اندفع ثوريا، الآن فقط، وأصبح مرئيًّا على يميننا، وأعرب جات أور عن شعوره بالراحة صائحًا: «رأيته».

سألته: «ماذا؟».

أجاب: «المخ الميكانيكي يعمل أفضل من أمخاخنا. يدور ثوريا أكثر من ثلاث دورات حول كوكبنا خلال الزودات العشرة من اليوم البرسومي، وبالتالي ينهي ثوريا دورة ونصفًا خلال سفرنا نحو مسار مداره».

- وهل تعتقد أن المخ الميكانيكي قد أدرك ذلك؟

قال: «دون شك؛ وسوف يحدد توقيت وصولنا بحيث نلتقي بالقمر في مساره».

هرشت في رأسي. قلت: «هذا يثير سؤالاً آخر لم أفكر فيه من قبل».

سألني جات أور: «وما هو؟».

- تبلغ سرعة سفينتنا حوالي 3250 هاد في الزود، في حين يتحرك ثوريا بمعدل يزيد على 250.41 هاد خلال نفس الفترة.

أطلق جات أور صفيراً، وصاح: «أكثر من اثنتي عشرة ونصف مرة من سرعتنا. كيف باسم سلفنا الأول، ونحن في طريقنا للقائه؟».

أومأت على نحو يدل على الاستسلام، وقلت: «أتصور أننا يجب أن نترك ذلك للمخ».

قال جات أور: «آمل ألا يقودنا ذلك إلى مسار الدمار الشامل».

سألت: «كيف يمكنك الهبوط إذا كنت تتولى تشغيل السفينة بعقلك؟».

قال: «علينا أن نأخذ قوة جاذبية ثوريا في الاعتبار».

أجبت: «هذا هو بالتحديد. عندما نصل الى نطاق نفوذ ثوريا، سوف يتم جذبنا بنفس معدل سير القمر؛ ومن ثم يمكننا أن نهبط بشكل طبيعي».

كان جات أور ينظر إلى الجرم السماوي العظيم ثوريا على يميننا. قال: «كم يبدو هائلاً. لا أعتقد أننا اقتربنا بما يكفي ليبدو كبيراً هكذا».

قلت: «هل نسيت أننا عندما نقترب منه يبدأ حجمنا في الصِّغر - ليتناسب مع حجمه. وعندما نصل إلى سطحه، إذا نجحنا بالفعل في ذلك، سيبدو كبيراً بالنسبة لنا مثل برسوم عندما نكون على سطحه».

قال جات أور: «يبدو لي الأمر برمته وكأنه حلم مجنون».

أجبت: «أتفق معك تمامًا، لكنك يجب أن تعترف أنه سيكون أكثر الأحلام إثارة».

خلال طيراننا السريع عبر الفضاء، اجتاز ثوريا مقدمة سفينتنا واختفى في النهاية أسفل حافة الكوكب الشرقية التي تقع تحتنا الآن. وعندما يستكمل دورة أخرى، سوف نقع دون شك في نطاق نفوذه. وعندئذ، وليس قبل ذلك، سوف نعرف نتيجة هذه المرحلة من مغامرتنا.

أصررت الآن على أن يعود جات أور إلى المقصورة ويحصل على بضع ساعات من النوم؛ إذ لا يعرف أي منا ماذا يحمله المستقبل، ومدى ما يستدعيه من احتياطيات قوانا البدنية والعقلية.

استدعيت جات أور في وقت لاحق، واستلقيت للراحة. نامت زاندا بهدوء خلال تلك الفترة؛ ولم تستيقظ إلا بعد أن أكملت فترة نومي وعُدت إلى غرفة التحكم.

كان جات أور يجلس ووجهه ملتصق بعين الميمنة. لم يدر وجهه ناحيتي، لكنه سمع خطوات دخولي المقصورة.

قال في همس متوتر: «إنه قادم. إيسوس![245] يا له من مشهد رائع ومُلهِم!».

ذهبت إلى الكوة ونظرت من فوق كتفه. رأيت أمامي عالَمًا هائلاً، تضيء الشمس خلفه إحدى حوافه على شكل هلال. أعتقد أنني رأيت بشكل مبهم محيط الجبال والوديان، ومساحات أكثر إنارة قد تكون صحراء رملية أو قاع البحر الميت، فضلاً عن

---

(245) إيسوس: امرأة عجوز من المريخيين ذوي البشرة السوداء، زعمت أنها إلهة الحياة الأبدية، لكن حقيقتها تُكشفت -
- http://barsoom.wikia.com/wiki/Issus المترجمة

كُتَل مظلمة قد تكون غابات. إنه عالَم جديد! عالم لم يزره من قبل أي رجل من كوكب الأرض أو من برسوم.

كان يمكن أن تسعدني، بما يتجاوز قوة تعبير الكلمات، فكرة المغامرة التي تكمن أمامي لو لم يكن الخوف على مصير أميرتي يخيم على ذهني. هيمنت الأفكار المتعلقة بها على جميع الأفكار الأخرى؛ ومع ذلك، فلم تطرد بالكامل ذلك الشعور بالغموض الرائع الذي أثاره مشهد هذا العالَم الجديد في داخلي.

انضمت إلينا زاندا الآن. وعندما رأت ثوريا يلوح في الأفق، أعربت عن القليل من الإثارة المتحمسة، وقالت: «لقد اقتربنا جدًّا».

أومأت. وقلت: «والآن، لن يمر وقت طويل قبل أن نعرف مصيرنا. هل أنتِ خائفة؟».

أجابت ببساطة: «ليس وأنت معي».

أدركت الآن أننا غيرنا مسارنا. ظهر ثوريا أسفلنا مباشرة بعد أن كان أمامنا. أصبحنا في نطاق نفوذه، ويجري سحبنا خلال الفضاء بسرعة ثوريا الهائلة. نتحرك حاليًا في مسار حلزوني إلى أسفل. المخ يعمل جيدًا.

قال جات أور: «لا أحب فكرة الهبوط على عالم غريب في الليل».

وافقته: «أنا شخصيًّا لست متحمسًا حول هذا الموضوع. وأعتقد أنه من الأفضل الانتظار حتى الصباح».

قمت بتوجيه المخ إلى الهبوط لحوالي 200 هاد من سطح القمر، والطيران ببطء في اتجاه الفجر المقبل.

اقترحت: «فلنأكل الآن بينما ننتظر ضوء النهار».

سألتني زاندا: «هل يوجد طعام على متن السفينة، يا سيدي؟».

أجبت: «نعم، سوف تجدينه في المخزن، في مؤخرة المقصورة».

قالت: «سوف أتولى إعداد الطعام، يا سيدي، وتقديمه في المقصورة».

غادرت غرفة التحكم وعينا جات أور تتبعانها. قال: «لا تبدو أَمَة، ومع ذلك تخاطبك كما لو أنها أَمَتك».

قلت: «أخبرتها أنها ليست أَمَتي، لكنها تصر على الحفاظ على هذا السلوك. كانت سجينة في بيت فال سيفاس، وقد كلفها هناك بأن تكون أَمَتي. إنها بالفعل ابنة نبيل من مرتبة دنيا- فتاة مهذبة، وذكية، ومثقفة».

قال جات أور: «وجميلة جدًّا. أعتقد أنها تحبك يا أميري».

قلت: «ربما تعتقد هي أنه الحب، لكنه مجرد امتنان. وإذا عرفت مَن أنا، سيتحول حتى امتنانها هذا إلى كراهية. فقد أقسمت على قتل جون كارتر».

سأل جات أور: «ولكن لماذا؟».

- لأنه غزا زودانجا؛ ولأن كل أحزانها نتجت عن سقوط المدينة. قُتل والدها، واتخذت والدتها من حزنها عليه الرحلة الطويلة الأخيرة إلى حضن نهر إيس. ولذا، كما ترى، لديها سبب وجيه لكراهية جون كارتر، أو على الأقل تعتقد أن لديها.

نادت علينا زاندا الآن، وذهبنا إلى المقصورة حيث أعدت وجبة على طاولة قابلة للطي.

وقفت بجوارنا تنتظر، لكنني أصررت على أن تجلس معنا وتناول الطعام.

قالت: «ليس من اللائق أن تجلس الأَمَة مع سيدها».

قلت: «مرة أخرى يازاندا، أقول لكِ إنكِ لستِ أَمَتي. وإذا كنت مصرة على الاحتفاظ بهذا الموقف السخيف، سوفَ أضطَر إلىَ الاستغناء عنكِ. ربما سأعطيكِ إلى جات أور. هل تحبين ذلك؟».

نظرت إلى البادوار الشاب الوسيم الذي يجلس أمامها وقالت: «ربما سيكون سيدًا جيدًا، لكني لن أكون أَمَة لأحد إلا فاندور».

سألتها: «وماذا تفعلين إذا أعطيتكِ له؟ كيف تتصرفين حيال ذلك؟».

أجابت: «سوف أقتل جات أور أو أقتل نفسي».

ضحكت وضربت يدها. قلت: «لن أستغني عنكِ، إذا كنت أستطيع».

سألت: «إذا كنت تستطيع؟ ولماذا لا تستطيع؟».

- لأني لا أستطيع الاستغناء عن امرأة حرة. لقد أخبرتكِ ذات مرة أنكِ حرة، والآن أخبركِ مرة ثانية في حضور شاهد. أنتِ تعرفين عادات برسوم، يا زاندا. أنتِ حرة الآن، سواء كنتِ ترغبين في ذلك أو لا ترغبين».

قالت: «لا أريد أن أكون حرة. وإنما إذا كانت هذه رغبتك، يا فاندور، فليكن الأمر كذلك». صمتت للحظة، ثم نظرت نحوي وسألتني: «إذا لم أكن أَمَتك، فماذا أكون؟».

أجبت: «أنتِ حاليًا زميلتي في المغامرة، على قدم المساواة، نتشارك في أي أفراح أو أحزان قد نواجهها».

قالت: «أخشى أن أكون عائقًا أكثر من مساعد، لكني بالطبع أستطيع أن أطبخ لك وأقوم على رعايتك. يمكنني على الأقل القيام بتلك الأشياء التي تقوم بها المرأة».

قلت لها: «إذَنْ سوف تكونين مساعدًا أكثر من عائق. وللتأكد من أننا لن نفقدكِ، سوف أكلف جات أور بحمايتكِ. سوف يكون مسؤولاً عن سلامتكِ».

كان واضحًا أن هذا أسعد جات أور، لكني لا أعرف ماذا أقول عن زاندا. أعتقد أنها تألمت بعض الشيء، لكنها ألقت بابتسامة حلوة سريعة تجاه البادوار الشاب كما لو أنها تخشى أنه خمّن خيبة أملها ولم ترغب في إيلامه.

رأيت غابات أسفلنا، خلال طيراننا المنخفض فوق ثوريا، والخطوط المتعرجة بلون أفتح والتي اعتبرتها نهيرات أو أنهار؛ ورأيت جبالاً على بُعد. يبدو عالَمًا جميلاً ومثيرًا.

لم أستطع التأكد من المياه؛ فمن المعتقد بشكل عام أن برسوم وأقماره لم تكن عمليًّا رطبة. ومع ذلك، قد يُخطئ العلماء.

لقد نفد صبري. يبدو أن ضوء النهار لن يأتي. وأخيرًا تسلل أول تدفق وردي للفجر من وراء قمم الجبال أمامنا؛ وأخذت تفاصيل هذا العالم الغريب تتشكل ببطء أسفلنا، بمثل ما يتخذ المشهد في الصورة الفوتوغرافية شكلاً سحريًّا.

كنا ننظر إلى أسفل على واد من الغابات، تقع خلفه سفوح منخفضة مفروشة بنباتات مورقة، تمتد ثانية إلى الجبال العالية على بُعد.

تماثل الألوان نظيرتها على برسوم - الأعشاب القرمزية، الأشجار الرائعة ذات الألوان الغريبة؛ لكننا لم نرَ أي شيء حي بقدر ما امتد بصرنا.

«يجب أن توجد حياة»، قالت زاندا عندما علّق جات أور على هذه الحقيقة، «في كل تلك الثروة من الجمال، يجب أن توجد أعين حية لمشاهدتها والإعجاب بها».

سأل جات أور: «هل سنهبط؟».

أجبت: «جئنا إلى هنا للعثور على سفينة جار نال، وعلينا البحث عنها أولاً».

قال جات أور: «سيكون مثل البحث عن حبة صغيرة بين طحالب قاع البحر الميت».

أومأت قائلاً: «أخشى ذلك. لكننا جئنا لهذا الغرض، وهذا الغرض فقط».

«انظروا!»، صاحت زاندا، «ما هذا - هناك، في الأمام؟».

* * *

الفصل (16)

أعداء غير مرئيين

نظرتُ في الاتجاه الذي أشارت إليه زاندا، ورأيت ما يبدو أنه مبنى كبير على ضفة نهر. يقع المبنى في أرض مقطوعة الشجر في الغابة. وتنعكس من أبراجه، أينما تلمسها الشمس المشرقة، أشعة براقة من ضوء متعدد الألوان.

يواجه أحد أقسام المبنى ما يبدو أنه فناء مُسوَّرٌ، يضم شيئًا أثار اهتمامنا وحماسنا أكثر من المبنى نفسه.

سألت زاندا، لأنها مَن اكتشفته: «ما هذا في رأيك يا زاندا؟».

أجابت الفتاة: «أعتقد أنها سفينة جار نال».

سألها جات أور: «ماذا يجعلكِ تعتقدين ذلك؟».

أجابت: «لأنها تشبه سفينتنا إلى حد كبير. كان جار نال وفال سيفاس يسرقان الأفكار من بعضهما كلما استطاعا، وسوف أندهش بالفعل إن لم تتشابه سفينتاهما بدرجة كبيرة».

قلت: «أنا متأكد أنكِ على حق يا زاندا. فليس من المعقول أن نفترض أن سكان ثوريا قد شيدوا -من خلال صدفة معجزة- سفينة مماثلة لسفينة فال سيفاس؛ كما أنه من المستبعد على قدم المساواة احتمال هبوط سفينة ثالثة من برسوم على القمر».

وجهتُ المخ إلى الهبوط الحلزوني، ونحلق الآن على ارتفاع أتاح لنا رؤية واضحة لتفاصيل المبنى والتضاريس المحيطة به.

كلما زاد اقترابنا من السفينة في الفناء، زاد يقيننا أنها سفينة جار نال. بيد أننا لم نرَ في أي مكان أي علامة لجار نال، أو أور جان، أو ديجاه ثوريس؛ كما لم نشهد، في الواقع، أي علامة تدل على الحياة حول المبنى أو الأرض المحيطة به. ربما كان المكان دار الموتى.

قلت: «سوف أهبط بالسفينة على الأرض بجانب سفينة جار نال. عليك أن تستعد بأسلحتك يا جات أور».

فأجاب: «الأسلحة جاهزة وعلى أهبة الاستعداد، يا فاندور».

واصلت كلامي: «لا أعرف عدد الرجال المقاتلين على متن تلك السفينة. قد يوجد فقط جار نال وأور جان، وقد يوجد أكثر. إذا سارت المعركة لصالحنا، يجب ألا نقتلهم جميعًا إلى أن نتأكد من أن الأميرة معهم».

- لقد غادرا برسوم قبلنا بيوم كامل على الأقل. وربما قررا بالفعل أين يضعا سجينتهما، رغم أنه احتمال بعيد. ولذلك، يجب أن نترك أحدهما على الأقل حيًّا ليرشدنا إليها.

أخذنا نهبط ببطء، وأعيننا في حالة تأهب. كانت زاندا قد خرجت من غرفة التحكم قبل لحظة، وعادت الآن وهي ترتدي عتاد وأسلحة محارب مريخي، وربطتها على جسمها النحيل.

سألتها: «لماذا؟».

أجابت: «قد تحتاج إلى يد إضافية تحمل سيفًا. أنت لا تعرف عدد الخصوم الذين ستواجههم».

قلت: «ارتديهم، إذا أردت، وإنما عليكِ البقاء في السفينة حيث تكونين آمنة. سوف نتولى أنا وجات أور القتال».

قالت زاندا بهدوء، وإنما بحزم: «سأذهب معك وأقاتل معك».

هززت رأسي، وقلت: «لا. يجب أن تفعلي ما أقول وتبقَيْ على هذه السفينة».

تطلعت في عيني بثبات، وقالت لتذكيري: «أنت كنت مُصرًّا، ضد إرادتي، على جعلي امرأة حرة. وأنا الآن أتصرف بوصفي امرأة حرة وليس كأَمَة. سوف أفعل ما يحلو لي».

لم أملكْ إلا أن أبتسم. قلت: «حسنًا. وإنما إذا أتيتِ معنا، عليكِ المجازفة كأي رجل مقاتل. ذلك أنني وجات أور سوف ننشغل بخصومنا ولن نتمكن من حمايتكِ».

قالت زاندا ببساطة: «يمكنني الاعتناء بنفسي».

خاطبها جات أور متوسلاً: «أرجوكِ البقاء على متن السفينة»؛ لكن زاندا هزت رأسها.

استقرت سفينتنا بهدوء على الأرض بجانب سفينة جار نال. وجهت الباب الجانبي أن يُفتح والسلم أن ينخفض. لا توجد حتى الآن أي علامة على الحياة، سواء على السفينة

الأخرى أو في أي مكان آخر حول القلعة. يحوم صمت الموت مثل عباءة ثقيلة على المشهد بأكمله.

وقفت للحظة في المدخل لأتطلع؛ ثم نزلت إلى الأرض وخلفي جات أور وزاندا.

تلوح القلعة أمامنا. إنه مبنى عجيب وغريب من العمارة المجهولة، يضم العديد من الأبراج من أنواع مختلفة، يقف بعضها بمفرده ويتشابك البعض الآخر في مجموعات.

وهو يثبت جزئيًّا نظرية فال سيفاس حول الثروة المعدنية الهائلة على القمر؛ فجدران المبنى أمامنا مُشيدة من كتل من الأحجار الكريمة، مُرتبة بطريقة تمزج بين ألوانها الرائعة بحيث تنسجم في كتلة لونية تتحدى الوصف.

على أن جمال هذه الكتلة لم يشغلني كثيراً في هذه اللحظة، وتركز انتباهي نحو سفينة جار نال. كان بابها الجانبي، على غرار باب سفينتنا، مفتوحًا؛ والسلم يتدلى إلى الأرض.

أعرف أن صعود هذا السلم يجعلني في وضع سيئ للغاية إذا هُوجمت من أعلى؛ ولكن، ما من بديل. يجب أن اكتشف ما إذا كان هناك أي شخص على متن السفينة.

طلبت من زاندا الوقوف على مسافة قصيرة، حتى يمكنها الرؤية داخل السفينة وتحذيري إذا ظهر عدو. ثم أسرعتُ في الصعود.

نظرًا لأن السفينة كانت مستقرة بالفعل على الأرض، أصبحت عيناي فوق مستوى أرضية المقصورة بعد صعودي بضع درجات من السلم. أوضحت نظرة سريعة عدم وجود شخص على مرمى البصر، وبعد لحظة كنت أقف داخل مقصورة سفينة جار نال.

يختلف ترتيبها الداخلي قليلاً عن ترتيب مقصورة سفينة فال سيفاس، كما لم تكن المقصورة مفروشة بثراء.

خطوت من المقصورة إلى غرفة التحكم. لا يوجد أحد. ثم فتشت الجزء الخلفي من السفينة. كانت السفينة مهجورة بأكملها.

عُدت إلى الأرض، وأخبرت جات أور وزاندا بما وجدته.

قال جات أور: «هذا غريب. لم يواجهنا أحد أو يولي أي اهتمام لوجودنا. هل من الممكن أن القلعة كلها مهجورة؟».

قالت زاندا بنبرة منخفضة ومتوترة: «هناك شيء غريب في المكان. حتى الصمت يبدو محملاً بصوت مكتوم. لا أرى أحدًا، ولا أسمع أحدًا، ومع ذلك أشعر ... لا أعرف ماذا».

وافقتها: «إنه أمر غامض. يتناقض مظهر القلعة المهجورة مع الأراضي المُعتنى بها جيدًا. فإذا لمْ يُوجده أحد هنا الآن، فهذا يعني أنها ليست مهجورة منذ فترة طويلة».

قال جات أور: «لديَّ شعور بأنها ليست مهجورة الآن. إنني أشعر بالموجودات حولنا. ويمكنني أن أقسم أن الأعين علينا ... أعين كثيرة، تراقب كل خطوة نخطوها».

كان لديَّ نفس الشعور. نظرت إلى نوافذ القلعة في أعلى، متوقعًا تمامًا أن أرى أعينًا تحدق نحونا؛ لكن تلك النوافذ العديدة كانت تفتقر إلى أي علامة على الحياة. أطلقت بصوت عال تحية السلام المعتادة في برسوم.

«كاور!»، صحت بصوت يمكن سماعه في أي مكان على هذا الجانب من القلعة. «نحن قادمون من برسوم. ونود التحدث مع سيد القلعة».

وكان الصمت بمثابة الرد الوحيد.

صاحت زاندا: «يا للغرابة! لماذا لا يجيبون علينا؟ يجب أن يوجد هنا شخص ما؛ يوجد شخص ما هنا. أنا أعرف ذلك! لا أستطيع رؤيتهم، لكن يوجد أناس هنا. إنهم حولنا».

قلت: «أنا متأكد أنكِ على حق، يا زاندا. يجب أن يوجد شخص ما في تلك القلعة، وأنا ذاهب لإلقاء نظرة داخلَها. جات أور، انتظرني هنا أنت وزاندا».

قالت الفتاة: «أعتقد أننا يجب أن نذهب معًا».

«نعم»، وافق جات أور، «يجب ألا ننفصل».

لم أرَ أي اعتراض صحيح على الخطة، ولذا أومأت موافقًا. اقتربت من باب مغلق في واجهة جدار القلعة. جاء خلفي جات أور وزاندا.

سرنا حوالي نصف المسافة من السفينة إلى الباب، وأخيرًا، على حين غرة وبشكل مذهل، تحطم الصمت بصوت عاصف بالرعب قادم من أعلى، على ما يبدو من أحد الأبراج الشاهقة المطلة على الفناء.

صرخ الصوت: «عليك بالهرب، يا زعيمي! اهرب من هذا المكان الرهيب ما دمت قادرًا على الهرب».

توقفت مذهولاً للحظة ... كان صوت ديجاه ثوريس.

صاح جات أور: «الأميرة!».

قلت: «نعم الأميرة. تعال!»، ثم بدأت أركض نحو باب القلعة؛ وما إن اتخذت خطوات قليلة، حتَّى أطلقت زاندا من خلفي صرخة رعب تخرق الآذان.

استدرت على الفور لمعرفة الخطر الذي واجهته.

كانت تكافح كأنما أصابتها نوبة من التشنجات. وكان وجهها يتلوى من الرعب، وكان تحديق عينيها وحركات ذراعيها وساقيها كأنما تقاتل خصمًا، لكنها كانت وحدها. لم يكن هناك أحد بالقرب منها.

قفزت أنا وجات أور نحوها؛ لكنها تراجعت بسرعة وهي لا تزال تكافح. تحركت زاندا إلى يميننا، ثم انحنت وتحركت في اتجاه المدخل الذي يقع في جدار القلعة.

كان يبدو أنها لا تتحرك بقوة عضلاتها، وإنما بالأحرى كأن هناك من يجرها، إلا أنني لم أر أحدًا بالقرب منها.

لقد استغرقت وقتًا طويلاً في سرد ذلك، لكنه حدث في بضع ثوانٍ قصيرة قبل أن أتمكن من قطع المسافة القصيرة لأصل بجوارها.

كان جات أور أقرب إليها. وعندما أمسك بها تقريبًا، سمعته يصرخ: «إيسوس! لقد أمسك بي أيضًا».

سقط على الأرض كأنه في حالة إغماء، لكنه كان يكافح كما كافحت زاندا – مثل شخص يستسلم في المعركة أمام خصمه.

كان سيفي الطويل في يدي وأنا أركض نحو زاندا، على الرغم من أنني لم أرَ العدو الذي قد يشرب سيفي دمه.

لم أشعر في حياتي من أي قبل بأنني ضعيف وعاجز هكذا. ها أنا هنا، بعد أن كنت أعظم مبارز في عالَمين، عاجز في الدفاع عن أصدقائي لأنني لا أستطيع رؤية خصومهم.

في قبضة أي قوة خبيثة وقعوا، قوة بمقدورها التحرك في المكان متخفية من موقع خفي، وتُسقِطهم أو تجرهم كما يحلو لها؟

كم كنا عاجزين جميعًا، ويتزايد عجزنا من جراء التأثير النفسي لهذا الهجوم الغامض والغريب.

أحضرتني بسرعة عضلاتي، كإنسان من كوكب الأرض، إلى جانب زاندا. وعندما مددت يدي لأمسكها وأمنع تقدمها نحو باب القلعة، قبض شيء على كاحلي؛ فوقعت على الأرض. شعرت بالأيدي فوقي - أيدٍ كثيرة. انتزعوا سيفي من قبضة يدي، وانتزعوا أسلحتي الأخرى.

قاتلت ربما كما لم أقاتل أبدًا من قبل. شعرت بأجسام خصومي تضغط فوقي. شعرت بأياديهم وهي تلمسني وقبضاتهم وهي تضربني، لكني لم أرَ أحدًا. على أن ضرباتي اصطدمت بلحم متماسك. هذا شيء مهم. فقد منحني شعورًا بالمساواة أكبر قليلاً من ذي قبل؛ لكني لم أستطع أن أفهم لماذا أقدر على لمس هذه المخلوقات ولا أستطيع رؤيتها.

على أن ذلك قد فسر، على الأقل جزئيًّا، أفعال زاندا الغريبة. فقد كانت تشنجاتها نضالاً ضد هؤلاء المهاجمين غير المرئيين. إنهم يحملونها الآن نحو المدخل. وخلال صراعي دون جدوى ضد احتمالات كبيرة، رأيتها تختفي داخل القلعة.

أما الأشياء التي هاجمتني، أيًّا كانت، فقد غلبتني بعددها. كنت أعرف أن عددهم كبيرٌ، لأنهم كانوا كثيرين، أيادٍ كثيرة فوقي.

ربطوا معصمي وراء ظهري، وربطوا أقدامي بقسوة.

لا أستطيع وصف أحاسيسي بدقة؛ ذلك أن لا واقعية كل ما حدث خلال تلك اللحظات القليلة أصابتني بحالة من الذهول وعدم اليقين. لمرة واحدة على الأقل في حياتي، كنت محرومًا تمامًا من القدرة على التفكير، ربما لأن هذه الحالة الطارئة كانت غريبة تمامًا عن أي شيء مررت به من قبل. لم يكن حتى رجال السهام الوهميين في لوثار حالة فريدة من نوعها، لأنهم كانوا مرئيين عندما يهاجمون.

ونظرًا لقيود أقدامي، نظرت حولي بحثًا عن جات أور ورأيته بالقرب مني، وكانت يداه مقيدتين على نحو مماثل وراء ظهره.

أشعر الآن أنهم يدفعونني نحو المدخل الذي اختفت خلاله زاندا، وبالقرب مني جات أور يتحرك في نفس الاتجاه.

سألني: «هل يمكنك أن ترى أي شخص، يا أميري؟».

أجبت: «يمكنني رؤيتك».

سألني: «ما هذه القوة الشيطانية التي أمسكت بنا؟».

أجبت: «لا أعرف، لكني أشعر بأيادٍ فوقي، وبدفء الأجسام من حولي».

قال: «أعتقد أننا انتهينا يا أميري».

صحت: «انتهينا؟ ما زلنا نعيش».

قال: «كلا، لا أقصد ذلك. أعني أننا قد نتخلى عن كل أمل، بقدر ما يتعلق الأمر بالعودة إلى برسوم. لديهم سفينتنا. هل تعتقد أننا، حتى لو هربنا منهم، سنراها مرة أخرى، أو نتمكن على الأقل من استعادتها؟ كلا يا صديقي. بقدر ما يتعلق الأمر ببرسوم، نحن مثل القتلى».

السفينة! لقد نسيت السفينة خلال ما مررت به للتو. نظرت نحوها، وأعتقد أنني رأيت حبال السلم تتحرك كما لو أن وزن جسم غير مرئي يصعد عليه.

السفينة! إنها أملنا الوحيد في العودة مرة أخرى إلى برسوم، وهي في أيدي هذا الخصم الغريب الغامض. يجب إنقاذها.

هناك طريقة! ركزت أفكاري على المخ الميكانيكي - وجهته إلى الارتفاع والانتظار فوق القلعة، بعيدًا عن الضرر، حتى أعطيه أوامر أخرى.

ثم سحبني الخطر الخفي عبر المدخل إلى داخل القلعة. ولم أعرفْ ما إذا كان المخ قد استجاب لتوجيهاتي.

ألن أعرف أبدًا؟

* * *

الفصل (17)

الرجل القط

كانت أفكاري لا تزال تركز على المخ في مقدمة سفينة فال سيفاس، وهم يسحبونني عبر ممر واسع في القلعة. كنت مكتئبًا خشية ألا أتمكن من نقل توجهات أوامري للسفينة على هذه المسافة الكبيرة، أو لأن ذهني يعمل تحت ضغط وتوتر اللحظة. كانت السفينة تعني الكثير لنا جميعًا، وكانت ضرورية لإنقاذ ديجاه ثوريس، إلى حد أن فكرة فقدانها كان بمثابة ضربة قاضية. على أنني أدركت الآن أن القلق حول هذا الموضوع لن يفيد، فطردت هذه الأفكار الهدّامة من ذهني.

رفعتُ عيني، فرأيت جات أور يتحرك عبر الممر بالقرب مني. وعندما تلاقت أعيننا، هز رأسه وابتسم في حزن.

قال: «يبدو أن مغامرتنا في ثوريا قد تكون قصيرة الأجل».

أومأت. وافقته: «لا يبدو المستقبل مشرقًا. لم أمرَّ بمثل هذا الوضع، حيث لا أستطيع رؤية عدوي ولا التواصل معه».

أضاف جات أور: «ولا تسمعه. إنني لا أدرك وجود أي شخص غيرنا هنا، باستثناء الشعور بالأيدي على ذراعي ومعرفة أن قوة ما تسحبني عبر هذا الممر. يشعرني هذا اللغز بالعبث المطلق».

قلت: «لكننا في نهاية المطاف سوف نجد شخصًا يمكننا رؤيته ونواجهه بقدراتنا العقلية والقتالية على أساس أكثر إنصافًا؛ فهذه القلعة وما نراه حولها يشير إلى وجود مخلوقات لا تختلف عنا. لاحظ، على سبيل المثال، المقاعد والأرائك على طول جدران هذا الممر. لا بد أنها مخصصة لمخلوقات مثلنا. الفسيفساء الجميلة التي تزين الجدران، والسجاد الرائع والجلود على الأرض - هذه الأشياء هنا لتلبية حب الجمال، الذي هو سمة خاصة للعقل البشري، ولا يمكن تصور هذه الأشياء أو إنتاجها إلا بأيادٍ بشرية وبتوجيه من عقول بشرية».

أجاب جات أور: «استنتاجاتك صحيحة، ولكن أين هؤلاء الناس؟».

أجبت: «هنا يكمن اللغز. وأعتقد أن مستقبلنا يتوقف على حله».

قال جات أور: «مع انشغالي بكل هذه الأسئلة، أجدني أكثر قلقًا على مصير زاندا. أتساءل، ماذا فعلوا معها».

لم يمكنني بالطبع الإجابة، على الرغم من أن فصلها عنا يقلقني كثيراً.

اقتادونا إلى سلم واسع ومزخرف في نهاية الممر، وصعدنا إلى المستوى التالي من القلعة؛ ثم أخذونا الآن إلى غرفة كبيرة - غرفة واسعة، رأينا في طرفها البعيد شخصية واحدة فقط.

إنها زاندا. كانت تقف أمام منصة يوجد فوقها مقعدان كبيران مزخرفان من مقاعد العرش.

كانت غرفة رائعة، ذات زخارف وزينات بربرية تقريبًا. يُغلف الذهب والأحجار الكريمة أرضيتها وجدرانها، صنعها بتصميمات مدهشة فنان متمكن كانت تحت تصرفه أحجار ثمينة نادرة لم يسبقْ أن رأيت مثلها على كوكب الأرض أو على برسوم.

قادتنا القوة الخفية التي دفعتنا إلى جانب زاندا، حيث وقف ثلاثتنا أمام المنصة ومقاعد العرش الفارغة.

لكنني تساءلت هل كانت فارغة. كان لديَّ نفس الشعور الغريب الذي انتابني في الفناء؛ أنني محاط بالعديد من الناس، وأن هناك العديد من الأعين مثبتة نحوي، مع عدم رؤيتي لأي شخص أو سماعي أي شيء.

وقفنا أمام المنصة لعدة دقائق، ثم سحبونا إلى خارج الغرفة. أخذونا عبر ممر آخر، ممر أضيق، ثم أعلى سلم متعرج، واجه جات أور بعض الصعوبة في صعوده. كانت هذه الاختراعات جديدة عليه، فهذه السلالم لا تُستخدم على المريخ، بل تؤدي السلالم المنحدرة المائلة من طابق إلى آخر في المبنى.

وكنت قد حاولت مرة إدخال السلالم في قصري في هيليوم، لكن الكثير من عائلتي وأصدقائي كادوا أن يكسروا أعناقهم عليها، ولذا استخدمت السلالم المنحدرة بدلاً منها.

بعد صعود عدة طوابق، فصلوا زاندا عنا وأخذوها عبر ممر متباعد. وعند طابق آخر، سحبوا جات أور بعيدًا عني.

لم يتحدث أحد منا منذ دخولنا قاعة العرش الكبرى، وأعتقد أن الكلمات الآن بعد فصلنا عن بعضنا، تبدو غير كافية على الإطلاق في وضعنا اليائس.

أصبحت الآن وحيدًا تمامًا؛ لكني أواصل الصعود بتوجيه من تلك الأيدي الخفية على ذراعي. إلى أين يأخذونني؟ وإلى أي مصير أخذوا رفاقي؟ في مكان ما في هذه القلعة العظيمة توجد الأميرة التي عبرت الفراغ لأعثر عليها، لكنها لم تكنْ أبعد مني مما كانت عليه في هذه اللحظة؛ لم يحدث أبدًا أن كان الانفصال بيننا يبدو كاملاً تمامًا ونهائيًّا.

لا أعرف لماذا شعرت هكذا، إلا إذا كان ذلك بتأثير اللغز الغامض الذي يحوط بي.

صعدنا إلى ارتفاع كبير بحيث كنت على ثقة أنهم يقتادونني إلى أحد الأبراج الشاهقة في القلعة، والتي رأيتها من الفناء. هناك شيء في هذه الحقيقة، فضلاً عن انفصالنا، يوحي أنه مهما كانت القوة التي أمسكت بنا، فهي غير واثقة تمامًا من نفسها؛ ذلك أن الخوف من هروبنا، أو أن وجودنا معًا قد يلحق بها الضرر، ربما يشير إلى ضرورة فصلنا. على أن صحة تفكيري في هذه الفرضية كان مجرد تخمين. الوقت وحده يمكنه أن يحل اللغز، ويجيب على العديد من الأسئلة التي تطرح نفسها في ذهني.

هذا ما كان يشغل تفكيري عندما توقفت أمام باب، لفت مزلاجه الغريب انتباهي. وبينما كنت أشاهده، رأيته يتحرك كما لو أن يدًا تديره؛ ثم فُتِح الباب، وسحبوني إلى غرفة وراءه.

هنا أزالوا القيود من معصمي. استدرت بسرعة نحو ترباس الباب، لكنه أُغلِق في وجهي قبل أن أتمكن من الوصول إليه. حاولت فتحه، لكنه كان مغلقًا تمامًا. ابتعدت عنه باشمئزاز.

استدرت لتفقد سجني، وعندئذ وقعت عيناي على شخص يجلس على مقعد في الجانب البعيد من الغرفة.

لا توجد كلمة أفضل لوصف ما رأيته إلا أنه رجل؛ ولكن، يا له من رجل!

كان المخلوق عاريًا باستثناء تنورة جلدية قصيرة تلتف حول وركيه بحزام عريض، ومثبتة بمشبك ذهبي ضخم يضم مجموعة من الأحجار الثمينة.

كان يجلس على مقعد أحمر أمام لوح من جدار رمادي. وكانت بشرته من نفس لون الجدار بالضبط، باستثناء ذلك الجزء من ساقيه الذي يلمس المقعد، حيث كانا من اللون الأحمر.

تشبه جمجمته شكل جمجمة الإنسان، لكن ملامحه لم تكن بشرية. توجد في وسط جبهته عين واحدة كبيرة، يبلغ قطرها حوالي ثلاث بوصات؛ وبؤبؤ عينه عبارة عن

شق عمودي، مثل عين القط. جلس هناك ينظر نحوي بتلك العين الكبيرة، على ما يبدو لتقييمي كما كنت أُقيمه؛ وتساءلت: هل مظهري غريب بالنسبة له بمثل غرابة مظهره بالنسبة لي؟

وفي تلك اللحظات القليلة التي بقينا خلالها بلا حراك، يحدق كل منا في الآخر، تعرفت سريعًا على العديد من خصائصه الجسدية الغريبة الأخرى.

كانت أصابع يديه وأربعٌ من أصابع قدميه أطول بكثير من نظيرتها لدى الجنس البشري، في حين كان إبهامه وأصابع قدميه الكبيرة أقصر كثيراً من أصابعه الأخرى وتمتد أفقيًّا بزوايا قائمة نحو يديه وقدميه.

تطرح هذه الحقيقة، علاوة على بؤبؤ عينه الرأسي، أنه من ساكني الأشجار كليًّا، أو على الأقل اعتاد أن يعثر على طعامه أو فريسته في الأشجار.

ولكن ربما كانت أبرز ملامح وجهه البشعة هي فمه: لديه فمان، أحدهما فوق الآخر مباشرة. كان فمه الأسفل أكبر وبلا شفتين، وتُشكل بشرة وجهه اللثة التي تحمل الأسنان، مما يجعل أسنانه البيضاء القوية تظهر دائمًا في ابتسامة بشعة، مثل الموت.

وكان فمه العلوي مستديرًا، مع وجود شفتين بارزتين قليلاً وتتحكم فيهما عضلة تشبه العضلة العاصرة. وكان هذا الفم بلا أسنان.

أما أنفه، فكان واسعًا ومسطحًا، مع فتحات مقلوبة. لم أجدْ في البداية أي آذان، لكني اكتشفت لاحقًا فتحتين صغيرتين بالقرب من الجزء العلوي من الرأس وعلى جانبين متعاكسين ويخدمان أغراض السمع.

كما أن لديه عُرفًا متيبسًا يميل إلى اللون الأصفر، يبلغ اتساعه حوالي بوصتين، ويبدأ فوق عينه بقليل وصولاً إلى وسط جمجمته.

كان المشهد قبيحًا في مجمله. على أن فمه المبتسم وأسنانه القوية، في ارتباطهما مع تطوره العضلي الملحوظ، يشير إلى أنه قد لا يكون خصمًا دنيئًا.

تساءلت: هل هو شرسٌ كما يبدو من مظهره، وتبادر إلى ذهني أنهم ربما حبسوني هنا مع هذا الشيء لكي يدمرني. ومن المحتمل أنني

بمثابة طعامه.

لم يبعدْ هذا المخلوق عينه الوحيدة الفظيعة عني ولو لمرة واحدة منذ أن دخلت الغرفة، كما لم أنظرْ في الواقع إلى أي مكان آخر غيرها. لكني الآن، وبعد أن أرضيت فضولي جزئيًّا بقدر ما يمكن عن طريق الرؤية، تركت عيني تتجول في أنحاء الغرفة.

كانت غرفة مستديرة، ومن الواضح أنها تشغل مساحة الطابق كله، ومن الواضح أيضًا أنها تقع في أعلى مستوى من برج. اكتست جدرانها بألوان مختلفة؛ وحتى هنا، في زنزانة هذا السجن العالي النائي، كانت تبدو الحساسية الفنية لباني القلعة. فالغرفة جميلة، في الواقع، بشكل مذهل.

توجد نصف دزينة من النوافذ الطويلة والضيقة تخترق الجدار الدائري. كانت النوافذ بلا زجاج ، وإنما عليها قضبان.

وعلى الأرض، في مواجهة جزء من الجدار، توجد كومة من السجاد والجلود - ربما هي فراش المخلوق المسجون هنا.

مشيت نحو إحدى النوافذ لأنظر منها، وعندئذ نهض المخلوق من مقعده وتحرك إلى جانب الغرفة البعيد عني. تحرك بلا ضجة بطريقة تشبه مشية القط المتسلل، وهو يرمقني دائمًا بتلك العين الرهيبة الخالية من الجفن.

جعلني صمته وتسلله ومظهره الرهيب اتخذ حذري، لئلا يقفز على ظهري إذا أبعدت وجهي عنه. ومع ذلك ألقيت نظرة متسرعة من خلال النافذة، واقتنصت لمحة للتلال البعيدة. كما رأيت في أسفل، خارج جدار القلعة مباشرة، نهرًا وبعده غابة كثيفة.

يطرح القليل الذي رأيته أن البرج لا يطل على الفناء الذي توجد فيه السفينة، وكنت حريصًا على رؤية هذا الجزء من أراضي القلعة للتأكد مما إذا كنت قد نجحت في توجيه المخ لنقل السفينة إلى موضع آمن.

تصورت أن بإمكاني اكتشاف ذلك من خلال إحدى النوافذ على الجانب الآخر من البرج؛ فأبقيت عيني على زميل زنزانتي، وعبرت الغرفة. وعندئذ سرعان ما غير مكانه، ليظل في أبعد مكان ممكن مني.

كنت أتساءل ما إذا كان خائفًا مني؛ أم ينتظر فرصة، مثل القط، للانقضاض عليَّ عندما أكون في وضع يتيح له ذلك.

وصلت إلى النافذة المقابلة ونظرت إلى الخارج، لكني لم أستطعْ رؤية الفناء، حيث حجبت الأبراج الأخرى العديدة للقلعة الرؤية على هذا الجانب. يرتفع في الواقع برج

شاهق آخر أمامي مباشرة في هذا الاتجاه، على مسافة لا تزيد على عشرة أقدام أو خمسة عشر قدمًا من البرج الذي سجنوني فيه.

تنقلت بالمثل من نافذة إلى أخرى للبحث، دون جدوى، عن لمحة للفناء؛ واستمر زميل زنزانتي يتنقل ليحافظ على مسافة بعيدًا عني.

وبعد أن اقتنعت بعدم إمكانية رؤية الفناء أو اكتشاف مدى نجاحي في إنقاذ السفينة، حولت انتباهي مرة أخرى إلى رفيقي.

شعرت أنني يجب أن أعرف شيئًا عن موقفه تجاهي. لا بد أن أتأكد قبل هبوط الليل مما إذا كان يمثل خطورة؛ فهناك شيء يقول لي إن تلك العين العظيمة يمكن أن تبصر في الليل، ولا يمكنني البقاء مستيقظًا إلى الأبد، وقد أقع فريسة سهلة له في ظلام الليل، إذا كانت نواياه قاتلة.

تطلعت نحوه ثانية، ولاحظت تغييراً مفاجئًا في مظهره. لم تعد بشرته رمادية وإنما صفراء زاهية، ولاحظت أنه يقف مباشرة أمام لوحة صفراء. أثار هذا اهتمامي إلى أقصى حد.

تحركت نحوه، ومرة أخرى غير مكانه. وقف هذه المرة أمام لوحة زرقاء، ورأيت اللون الأصفر يتلاشى من بشرته ويتحول إلى اللون الأزرق.

يوجد على برسوم نوع من الزواحف الصغيرة يُسمى دارسين، يُغير ألوانه لتتواءم مع الخلفية، تمامًا كما تفعل الحرباء على كوكب الأرض. ولم يسبق لي أن رأيت أي مخلوق، حتى وإن كان يشبه الإنسان من بعيد، يتمتع بموهبة الحماية بالتلون هكذا. إنه مذهل، في الواقع، أكثر من جميع المخلوقات المدهشة التي سبق أن رأيتها على الإطلاق.

تساءلت: هل كان يتمتع بموهبة الكلام، ولذا خاطبته. قلت: «كاور! دعنا نكون أصدقاء»، ثم مددت يدي التي أحمل بها السيف فوق رأسي وراحة يدي نحوه، ما يدل على نواياي الودية.

تطلع نحوي للحظة، ثم صدرت من فمه العلوي أصوات غريبة تشبه خرخرة ومواء القط.

كان يحاول التحدث معي، لكني لم أستطعْ أن أفهمه أكثر من استطاعته أن يفهمني.

كيف لي أن أعرف نواياه تجاهي قبل هبوط الليل؟

بدا الأمر ميؤوسًا منه، واستسلمت برباطة الجأش انتظارًا لما قد يحدث. ولذلك قررت تجاهل وجود المخلوق إلى أن يتحقق أي تقدم، سواء عدائي أو غيره. مشيت، وجلست على المقعد الذي غادره.

اتخذ على الفور موقعًا جديدًا، أبعد ما يمكن عني، وهذه المرة أمام لوحة خضراء، وعندها تغير لونه على الفور إلى الأخضر. لم أستطع إلا أن أتساءل عن النتيجة اللونية التي قد تسفر عن مطاردتي لهذا الشيء حول هذه الشقة متعددة الألوان. قادتني هذه الفكرة إلى أن أبتسم، وعندئذ رأيت رد فعل فوريًّا لدى زميل زنزانتي. أطلق صوت خرير غريب، ومد فمه العلوي أفقيًّا في ما قد يكون محاولة للابتسام ردًّا على ابتسامتي. وفي الوقت نفسه، أخذ يفرك راحة يديه أعلى وأسفل فخذيه.

تبادر إلى ذهني أن مد الفم وفرك الفخذين ربما يُشكل التعبير الخارجي عن عاطفة داخلية، ويهدف إلى الإشارة إلى موقفه تجاهي. لكنني لم أستطع أن أعرف ما إذا كان هذا الموقف وديًّا أو عدائيًّا. ربما نقلت ابتسامتي إلى المخلوق معنى يتعارض تمامًا مع ما تنقله الابتسامة عادة بين البشر من سكان كوكب الأرض أو المريخ.

أذكر أنني اكتشفت هذه الحقيقة بين الرجال الخضر في برسوم، الذين يضحكون بصوت عال عندما يمارسون أنواع التعذيب الشيطانية على ضحاياهم؛ على الرغم من أن هذا لا يشبه ما أعنيه، ففي حالة في المريخيين الخُضر، هو نتيجة لانحراف شديد الخصوصية لحس الفكاهة.

وربما، من ناحية أخرى، كانت تكشيرة المخلوق وإيماءته تمثل تحديًا. وإذا كان هذا صحيحًا، فكلما أسرعت في اكتشافه كان أفضل. من الضروري معرفة الحقيقة فورًا، لا سيما إن لم يكن ودودًا بحيث أعرف قبل حلول الظلام.

وخطر لي أنني قد اكتسب بعض المعرفة عن نواياه من خلال تكرار إيماءاته. وهكذا، ابتسمت له وفركت راحتي يدي أسفل وأعلى فخذي.

وجاء رد فعله فوريًّا. مد فمه العلوي إلى الجانب، وجاء نحوي. وقفت عندما اقترب، وعندما اقترب أكثر توقف ومد إحدى يديه وربت بها فوق أعلى ذراعي.

لم أستطع إلا أن أعتقد أنها مقدمة للصداقة، وبالتالي فعلت مثله وربت أحد ذراعيه.

أذهلتني النتيجة. قفز المخلوق مبتعدًا عني وهو يصدر من بين شفتيه ضوضاء الخرخرة الغريبة، ثم بدأ يرقص رقصة غريبة. أخذ يقفز مثل القط، ويثب مرحًا حول الغرفة في تمايل غريب.

وعلى الرغم من بشاعة وتنافر وفظاعة مظهره البدني، فقد أعجبتني براعة ورشاقة جميع حركاته.

دار حول الغرفة ثلاث مرات، وقد جلست ثانية على المقعد أشاهده؛ وبعد أن انتهى من الرقص، جاء وجلس بجانبي.

أخذ يصدر خريره ومواءه ثانية في محاولة واضحة للتواصل معي؛ لكنني لم أستطع إلا أن أهز رأسي علامة على أنني لم أفهم، وتحدثت إليه بلغة برسوم.

توقف الآن عن المواء وخاطبني بلغة بدت أكثر بشرية بكثير - لغة تستخدم تقريبًا نفس حروف الحروف الساكنة والمتحركة المماثلة لتلك الموجودة في لغات الجنس البشري التي اعتدت عليها.

وهنا أخيرًا اكتشفت أرضية مشتركة يمكننا استكشاف التفاهم المتبادل على أساسها.

من الواضح أن المخلوق لا يمكنه فهم أي لغة أستطيع أن أتكلمها، ولن تفيد محاولة تعليمه أي منها؛ لكنني إذا تعلمت لغته، سأتمكن من التواصل مع بعض سكان ثوريا؛ وإذا كانت توجد لغة مشتركة بين مخلوقات ثوريا، كما هو الحال على المريخ، فسوف تقل صعوبات وجودي على هذا القمر الصغير.

ولكن كيف أتعلم لغته؟ هذا هو السؤال. قد لا يسمح لي خاطفي أن أعيش فترة طويلة تكفي لتعلُّم أي شيء؛ لكن قبولي بهذا الافتراض باعتباره نهائيًّا سيمنعني من القيام بأي محاولة للهرب أو لتخفيف ظروفي هنا. لذلك يجب أن أفترض أن لديَّ الكثير من الوقت لتعلُّم

إحدى لغات ثوريا، وقررت أن أبدأ على الفور.

بدأت بالطريقة المعتادة التي يتعلم بها المرء لغة جديدة. أشرت إلى البنود المختلفة التي تضمها الغرفة، وإلى أجزاء مختلفة من أجسادنا، وكررت أسماءهم بلغتي. فهم رفيقي على الفور ما أحاول القيام به، وأشار إلى البنود نفسها مع تكرار أسمائها عدة مرات بلغة أكثر بشرية من اللغتين اللتين يعرفهما – هذا إذا كان يمكننا تسمية المواء والخرخرة لغة، وهو السؤال الذي لم أكنْ حينذاك قادرًا على الإجابة عليه.

وخلال انشغالنا في هذه المسألة، انفتح باب الغرفة ودخل عدد من الأواني طافيًا، ثم استقر على الأرض مباشرة خلف الباب، الذي انغلق على الفور.

بدأ رفيقي يصدر خريرًا متحمسًا، وركض نحو الأواني. عاد فورًا ومعه جرة من الماء ووعاء من الطعام، وضعهما على المقعد بجانبي. وأشار نحو الطعام ثم نحوي، ليشير إلى أنه طعامي.

عبر الغرفة ثانية وعاد بجرة أخرى من الماء وقفص يحتوي على طائر من أكثر الطيور تميزًا.

قلت إنه طائر لأن لديه أجنحة؛ لكن تخميني حول العائلة التي ينتمي إليها لن يختلف عن تخمينك. كان لهذا الشيء أربع أرجل وقشور مثل الأسماك، لكن منقاره وعُرفه منحا وجهه الغريب مظهرًا يشبه الطائر.

كان الطعام في الوعاء أمامي خليطًا من الخضروات والفواكه واللحوم. أتصور أنه كان مغذيًّا، ومذاقه مستساغ.

وبينما كنت أطفئ عطشي من الجرة وأتذوق الطعام الذي جاءني، أخذت أشاهد رفيقي. ظل يلعب للحظة أو لحظتين مع الطائر في القفص. أدخل إصبعًا بين القضبان، فرفرف المخلوق بأجنحته وأطلق صرخة حادة، وحاول إمساك الإصبع بمنقاره. على أنه لم ينجحْ تمامًا، لأن زميل زنزانتي كان يسحب إصبعه دائمًا في الوقت المناسب. يبدو أنه كان يستمتع بذلك كثيرًا، فقد كان يصدر خريره باستمرار.

وأخيرًا فتح باب القفص وحرر الأسير. رفرف المخلوق على الفور في أنحاء الغرفة، وحاول الهروب من النوافذ؛ لكن القضبان كانت شديدة التقارب. بدأ رفيقي في مطاردته، تمامًا مثلما يطارد القط فريسته. وعندما هبط الطائر، تسلل نحوه إلى أن اقترب منه بدرجة كافية وانقضْ عليه.

نجح الطائر لفترة في التملص منه، لكن القط ضربه بشدة في النهاية وأوقعه أرضًا على نحو أصاب الطائر بالذهول جزئيًّا. وبعد ذلك أخذ يلعب معه ويلتف حوله. كان يتركه أحيانًا ويتحرك في أنحاء الغرفة متظاهرًا أنه لا يراه؛ ثم يبدو وكأنه اكتشفه مجددًا، فيندفع نحوه وينقض عليه.

وأخيرًا، مع زئير سعال بشع يبدو كزئير أسد، قفز عليه بشراسة وقطع رأسه بقضمة واحدة بفكيه القويين. نقل الرقبة فورًا إلى فمه العلوي، وامتص الدم من الذبيحة. لم يكن مشهدًا جميلاً.

وبعد استنفاد الدم، التهم فريسته بفكيه السفليين؛ وكان يهدر كأسد يتغذى، وهو يمزق الطائر.

أنهيت وجبتي ببطء، بينما كان زميل زنزانتي في الطرف الآخر من الغرفة يمزق جثة قتيله، ويبتلع بكميات كبيرة إلى أن التهم كل ما تبقى من الطائر.

وبعد أن أنهى وجبته، ذهب إلى المقعد الطويل وشرب جرة الماء كلها من خلال فمه العلوي.

لم يُوْلِ أي اهتمام نحوي خلال تناوله طعامه؛ والآن يصدر خرخرة كسولة وهو يمشي إلى كَومة الجلود والملابس على الأرض، ثم رقد عليها متكومًا ونام.

* * *

الفصل (18)

الحكم بالإعدام

يتكيف الشباب بسهولة مع الظروف الجديدة ويتعلم بسرعة. وعلى الرغم من أن خالقي وحده يعرف كم عمري، فما زلت أحتفظ بخصائص الشباب. وبمساعدة هذه الحقيقة، فضلاً عن رغبتي الصادقة في الاستفادة من كل وسائل الحفاظ على الذات، تعلمت لغة رفيقي بسرعة وسهولة.

وهكذا كُسِرت رتابة الأيام التي تلت أسري، ولم يُثقل الوقت على كاهلي بشدة كما كان يمكن أن يحدث.

لن أنسى أبدًا ما شعرت به من ابتهاج عندما أدركت أنني وزميلي في الزنزانة قادرين أخيراً على تبادل أفكارنا، على أن كلاًّ منا عرف، حتى قبل ذلك، اسم الآخر. كان اسمه أومكا.

في اليوم الأول الذي اكتشفت فيه قدرتي على التعبير عن نفسي بما يكفي لكي يفهمني، سألته عمن يحتجزنا كسجناء.

أجاب: «التاريديون[246]».

سألته: «مَن هم؟ كيف يبدون؟ ولماذا لا نراهم أبدًا؟».

أجاب: «أنا أراهم. وأنت، ألا تراهم؟».

- كلا، كيف يبدون؟

أجاب: «إنهم يشبهونك كثيراً؛ فهم، على الأقل، مخلوقات من نفس نوعك. لديهم عينان، وأنف، وفم واحد فقط، وآذانهم عبارة عن أشياء كبيرة معلقة على جانبي رؤوسهم مثل آذانك. لكنهم لا يتمتعون بالجمال مثلنا، نحن شعب ماسينا[247]».

سألته: «ولكن، لماذا لا أراهم؟».

---

(246) التاريديون أو التاريد: هم عِرق يشبه البشر، ويعيش على القمر ثوريا - https://barsoom.fandom.com/wiki/Tarids - المترجمة.

(247) شعب ماسينا أو الماسين أو الماسينيون: نوع من البشر يسكن الأشجار في غابات القمر ثوريا. لا يُعرف عنهم الكثير، وإنما يبدو أنهم العِرق المهيمن على القمر - https://barsoom.fandom.com/wiki/Masenas - المترجمة.

أجاب: «أنت لا تعرف كيف تراهم. وإذا عرفت، يمكنك أن تراهم بوضوح كما أراهم».

قلت له: «أود كثيراً أن أراهم. هل يمكنك أن تخبرني كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟».

وقال: «يمكنني أن أخبرك، لكن هذا لا يعني أنك ستتمكن من رؤيتهم؛ لأن ذلك يعتمد على قدرتك العقلية. أنت لا تراهم لأنهم أرادوا بقوة عقولهم ألا تراهم. إذا استطعت تحرير عقلك من هذه الهيمنة، يمكنك أن تراهم بوضوح كما تراني».

- لكني لا أعرف كيف أفعل ذلك.

- يجب أن توجه عقلك نحو عقولهم في محاولة للتغلب على رغبتهم عن طريق رغبتك. إنهم يرغبون ألا تراهم. يجب أن ترغب في رؤيتهم. لقد نجحوا معك بسهولة لأن عقلك لم يكن يتوقع شيئًا كهذا، وبالتالي لم يضع أي آلية دفاعية ضده. لديك الآن ميزة، لأنهم رغبوا في شيء منافٍ للطبيعة، في حين ستقف قوى الطبيعة خلفك. وإذا كان عقلك قويًّا بما يكفي، لن يمكنهم إقامة حاجز عقلي كافٍ.

- حسنًا، يبدو الأمر بسيطًا. لكني لست مُنومًا مغناطيسيًّا، وأشك كثيراً، بطبيعة الحال، في قدرتي في هذا المجال.

وعندما شرحت هذا لأومكا، زمجر بصبر نافد.

وقال: «لا يمكنك أن تنجح أبدًا ولديك مثل هذه الشكوك. أبعدْ عنك هذه الشكوك، وضعْ في اعتبارك أنك ستنجح، وسوف تتوفر لديك فرصة أكبر بكثير للنجاح».

سألته: «ولكن، كيف يمكنني أن آمل في تحقيق أي شيء وأنا لا أستطيع رؤيتهم؟ وحتى لو استطعت رؤيتهم، فلا توجد فرصة لرؤيتهم غير لحظة فتح الباب القصيرة عندما يجلبون لنا الطعام».

أجاب: «ليس بالضرورة. أنت تفكر في أصدقائك على الرغم من أنك لا تستطيع رؤيتهم الآن، أليس كذلك؟».

- نعم، أفكر فيهم بطبيعة الحال، ولكن ما علاقة ذلك؟

- إنه يوضح فقط أن أفكارك يمكن أن ترحل إلى أي مكان. عليك إذَنْ أن توجه أفكارك نحو التاريديين. وأنت تعلم أن القلعة مليئة بهم، لأني أخبرتك بذلك. عليك فقط

توجيه عقلك إلى عقول جميع سكان القلعة، وسوف تصل أفكارك إليهم جميعًا، على الرغم من أنهم قد لا يدركون ذلك.

قلت: «حسنًا، سأبدأ. تمَنَّ لي الحظ».

أوضح: «قد يستغرق الأمر بعض الوقت. لقد مر وقت طويل بعد أن تعلمت السر، قبل أن أتمكن من اختراق خفائهم».

- ركزت ذهني على الفور على المُهمة، وأبقيت عليه هناك عندما لم يكن ذهني مشغولاً بشيء آخر. بيد أن أومكا كان مخلوقًا ثرثارًا؛ فبعد أن حرموه لفترة طويلة من فرصة الكلام، يعوض الآن عن الوقت الضائع.

سألني العديد من الأسئلة عن نفسي والمكان الذي جئت منه. واندهش لفكرة وجود مخلوقات حية على العالم العظيم الذي يرآه يطفو في سماء الليل.

وأخبرني أن شعبه –الماسينيين- يعيشون في الغابة، في بيوت بُنيت عاليًا بين الأشجار. وعددهم ليس كبيرًا، ولذا يسعون إلى مناطق بعيدة عن سكان ثوريا الآخرين.

وقال إن التاريد كانوا في وقت ما شعبًا قويًّا؛ لكن أُمة أخرى انتصرت عليهم في الحرب وأبادتهم تقريبًا.

لا يزال أعداؤهم يطاردونهم، وكان يمكن ألا يتبقى أحد منهم منذ زمن طويل لو لم يتمكن أحد أكثر رجالهم حكمة من تطوير قوة التنويم التي أتاحت لهم البقاء غير مرئيين لأعدائهم.

قال أومكا: «كل مَن تبقى من التاريد يعيش هنا في هذه القلعة. يبلغ عددهم حوالي ألف، من الرجال والنساء والأطفال. إنهم يختبئون هنا، في هذا الجزء البعيد من العالم، في محاولة للهرب من أعدائهم، ويشعرون أن جميع المخلوقات الأخرى هي أعداؤهم. وبالتالي كل مَن يأتي إلى قلعة التاريد هو عدو يجب تدميره».

سألته: «وهل تعتقد أنهم سوف يدمروننا؟».

أجاب: «بالتأكيد».

سألته: «ولكن متى، وكيف؟».

أوضح أومكا: «يحكمهم اعتقاد غريب؛ لا أفهمه، لكنه يُنظم كل عمل مهم في حياتهم. يقولون إنهم يسترشدون بالشمس والقمر والنجوم. إنه شيء أحمق، لكنهم لن

يقتلونا إلى أن تخبرهم الشمس. ولن يقتلونا لمتعتهم الخاصة، وإنما لأنهم يعتقدون أن ذلك سوف يجعل الشمس سعيدة».

- هل تعتقد، إذَنْ، أن أصدقائي، وهم أيضًا سجناء هنا، لا يزالون في قيد الحياة وآمنين؟

أجاب: «لا أعرف، لكني أعتقد ذلك. كونك ما زلت على قيد الحياة يشير إلى أنهم لم يُضحوا بالآخرين؛ لأني أعرف أن من عادتهم إنقاذ أسراهم ثم تدميرهم جميعًا في احتفال واحد».

- وهل سيدمرونك في الوقت نفسه؟

- أعتقد ذلك.

- وهل أنت مستسلم لمصيرك، أم تفكر في الهرب إن استطعت؟

أجاب: «سوف أهرب بالتأكيد، إذا أتيحت لي الفرصة؛ لكني لن أجد تلك الفرصة، ولا أنت.

قلت: «إذا أمكنني فقط رؤية هؤلاء الناس والتحدث معهم، قد أجد طريقة لهروبنا. وقد أقنعهم حتى أنني وأصدقائي لسنا أعداءهم، وأقنعهم بمعاملتنا كأصدقاء. لكن ماذا أفعل؟ لا أستطيع رؤيتهم. وحتى إن رأيتهم، لن أستطع سماعهم. يبدو التغلب على هذه العقبات مستحيلاً».

قال أومكا: «إذا نجحت في التغلب على إيحاء الخفاء الذي زرعوه في عقلك، يمكنك أيضًا التغلب على الإيحاء الآخر بأنك لا تسمعهم. هل بذلت أي جهد في هذا الاتجاه؟».

- نعم؛ أحاول باستمرار التخلص من تعويذة التنويم هذه.

يقدمون لنا وجبة واحدة كل يوم، في فترة الظهيرة تقريبًا. وهي دائمًا نفس الوجبة. يحصل كل منا على جرة كبيرة من الماء، وأحصل أنا على وعاء من الطعام، ويحصل أومكا على قفص يضم حيوانًا غريبًا يشبه الطائر ويبدو أنه طعامه الوحيد.

وبعد أن شرح لي أومكا كيف يمكنني التغلب على التعويذة المنومة التي فرضوها على ذهني، وبالتالي أتمكن من رؤية وسماع الخاطفين، بدأت عند فتح الباب يوميًّا لإدخال الطعام، اتخذ موقعًا يتيح لي رؤية واكتشاف ما إذا كان التاريدي الذي جلب طعامنا مرئيًّا بالنسبة لي.

وكنت أشعر دائمًا بالإحباط ما إن أرى الأوعية التي تحتوي على الطعام والماء وهي توضع على الأرض بأيادٍ غير مرئية.

وعلى الرغم من جهودي اليائسة، واصلت محاولاتي بإصرار وعناد على أمل النجاح.

كنت جالسًا في أحد الأيام أفكر في حالة ديجاه ثوريس اليائسة، وسمعت صوت خطوات في الممر وراء بابنا وصوت احتكاك المعادن،

مثل معدن المحارب عند احتكاكه بإبزيم عتاده أو أسلحته الأخرى.

كانت هذه أول أصوات أتمكن من سماعها، غير صوتي وصوت أومكا - أول علامات الحياة داخل قلعة التاريد العظيمة منذ أخذوني أسيراً. ما استنتجته من هذه الأصوات يتسم بأهمية بالغة، لدرجة أنني بالكاد ما كنت أتنفس وأنا أنتظر الباب يُفتح.

وقفت حيث يمكنني أن أنظر مباشرة إلى الممر عند فتح الباب.

سمعت نقرة فتح القفل. تأرجح الباب على مفصلاته مفتوحًا ببطء. رأيت بوضوح رجلين من لحم ودم. كانا من حيث الشكل مثل البشر تمامًا. وكانت بشرتهما صافية وبيضاء، على أن التناقض الغريب كان شعرهم الأزرق وحواجبهم الزرقاء. ويرتدون تنورات قصيرة محبوكة على الجسم، عبارة عن شبكة من الذهب الثقيل، وصدريات مصنوعة بالمثل من الذهب. أما الأسلحة، فقد كان لدى كل منهما سيفٌ طويلٌ وخنجرٌ. كانت ملامحهم قوية، ذات تعبيرات صارمة وإلى حد ما بغيضة.

لاحظت كل هذه الأشياء في اللحظات القليلة التي ظل خلالها الباب مفتوحًا. رأيت الرجلين ينظران نحوي ونحو أومكا، وكنت على يقين أن كليهما لا يعي حقيقة أنني أراهما؛ لأني متأكد أنهما إذا أدركا الحقيقة، كانت تعبيرات وجهيهما ستوضح ذلك.

شعرت بسعادة غامرة لتخلُّصي من تلك التعويذة الغريبة التي فرضوها عليَّ. وبعد ذهابهما، أخبرت أومكا أنني تمكنت من رؤيتهما وسماعهما.

طلب مني أن أصفهما. وعندما وصفتهما، أخبرني أنني قلت الحقيقة.

وقد فسّر شكه في صدقي بقوله: «يتخيل الناس أحيانًا بعض الأشياء».

سمعت في منتصف نهار اليوم التالي ضجة كبيرة في الممر وعلى السلم المؤدي إلى سجننا. انفتح الباب الآن، ودخل خمسة وعشرون رجلاً إلى الغرفة.

وعندما رأيتهم، تبادرت إلى ذهني خطة تصورت أنها ربما تعطيني ميزة على هؤلاء الناس إذا سحنت فرصة للهرب في وقت لاحق. وبالتالي تظاهرت أنني لم أرهم. نظرت في اتجاههم، مع تركيز بصري خلفهم؛ ولتقليص صعوبة هذه المسرحية، سعيت إلى تركيز انتباهي على أومكا الذي يعرفون أنني أراه.

أسفت لأنني لم أفكر في هذه الخطة من قبل. وسوف أشرحها لأومكا في الوقت المناسب، لأنه قد يذكر دون قصد أنني أصبحت أرى التاريد.

اقترب مني اثنا عشر رجلاً. ووقف رجل بالقرب من الباب وأصدر الأوامر، بينما اقترب الآخرون من أومكا وأمروه أن يضع يديه وراء ظهره.

تراجع أومكا ونظر نحوي متسائلاً. أدركت أنه يتساءل ما إذا سنحاول الفوز بحريتنا.

حاولت أن أبدو كما لو أنني غير مدرك لوجود المحاربين. لم أكن أرغب أن يعرفوا أن بمقدوري رؤيتهم. نظرت نحوهم بوجه خال من التعبير، وأخذت أتجول بلا مبالاة إلى أن أصبح ظهري نحوهم وواجهت أومكا؛ ثم غمزت له.

دعوت الله أن تنير معجزة ما بصيرته، إن لم يكن يعرف معنى الغمزة. وكإجراء وقائي إضافي، وضعت إصبعي على شفتي طالبًا منه أن يصمت.

بدا أومكا غبيًّا، ولحسن الحظ أنه ظل غبيًّا.

أصدر الضابط المسؤول عن الكتيبة أوامره: «يأخذ نصفكم الماسيني، ويأخذ الباقون الرجل ذا الشعر الأسود. فكما ترون، إنه لا يعرف أننا في الغرفة؛ وبالتالي، أمسكوه بحزم لأنه قد يُفاجأ عند لمسه ويصارع».

أعتقد أن أومكا ظن أنني أصبحت ثانية تحت تأثير التعويذة المنومة، لأنه كان ينظر نحوي مشدوهًا عندما أحاط به المحاربون وأخذوه معهم.

انقضَّ فوقي اثنا عشر رجلاً. كان يمكنني خوض معركة، لكني لم أرَ شيئًا يمكن كسبه من ذلك. كنت متلهفًا، في واقع الأمر، لمغادرة هذه الغرفة. لن أتمكن من إنجاز أي شيء طالما بقيت فيها، وإنما قد يتيح خروجي فرصة. ولذلك لم أقاومْ كثيراً، بل تظاهرت أنني فُوجئت بهم عندما أمسكوا بي.

اقتادونا من الغرفة إلى أسفل سلسلة طويلة من السلالم التي صعدتها قبل أسابيع، وأخيراً إلى نفس غرفة العرش الكبرى التي أخذونا إليها - أنا وزاندا وجات أور – في

صباح يوم القبض علينا. ولكن، يا له من مشهد مختلف الآن بعد أن تخلصت من تعويذة التنويم التي كانت تسيطر على ذهني حينذاك.

لم تعُد الغرفة الكبرى فارغة، ولم يعُد مقعدا العرش شاغرين؛ بل كانت الغرفة العامة كتلة من الضوء واللون والإنسانية.

اصطف الرجال والنساء والأطفال في الممر الواسع الذي اصطحبونا عبره، أنا وأومكا، نحو المنصة التي حملت مقعدي العرش. قادنا مرافقونا بين صفوف قوية من المحاربين، الذين يتألقون في زخارف رائعة، إلى مساحة مفتوحة قليلاً أمام العرش.

تجمع تحت الحراسة كل من جات أور، وزاندا، وأور جان، وشخص آخر أدركت أنه جار نال، وأميرتي الحبيبة ديجاه ثوريس؛ وكانت أيديهم مقيدة.

صاحت ديجاه ثوريس: «يا قائدي! يا لرحمة القدر الذي أتاح لي أن أراك مرة أخرى قبل أن نموت».

قلت لتذكيرها: «ما زلنا نعيش». ابتسمت لإدراكها معنى كلامي، فهي تدرك التحدي الذي أتمسك به منذ زمن طويل أمام أي مصير خبيث قد يبدو أنه يهددني.

كشف تعبير أور جان عن مفاجأته، عندما شاهدني. صاح: «أنت!».

- نعم، أنا، يا أور جان.

- ماذا تفعل هنا؟

أجبت: «إحدى مُتع الرحلة التي يسلبها مني خاطفونا».

سألني: «ماذا تقصد؟».

أجبت: «متعة أن أقتلك».

أومأ بابتسامة ساخرة، على نحو يشير إلى فهمه لمقصدي.

انجذب انتباهي الآن إلى الرجل الجالس على العرش. كان يأمر أن نصمت.

كان رجلاً سمينًا جدًّا، ولديه تعبير متعجرف. ولاحظت عليه علامات التقدم في السن التي يندر أن تظهر على رجال برسوم الحُمر. لاحظت أيضًا علامات مماثلة على أفراد آخرين من الحشد الذي ملأ القاعة العامة؛ وهي حقيقة تشير إلى أن هؤلاء الناس لا يتمتعون بالشباب الدائم تقريبًا الذي يتمتع به المريخيون.

شغلت امرأة شابة وجميلة مقعد العرش إلى جانب الرجل. كانت تحدق نحوي حالمة، من خلال الرموش الثقيلة لجفنيها نصف المغلقين. لا يمكنني سوى الافتراض أن اهتمام المرأة انجذب نحوي بسبب اختلاف لون بشرتي عن لون بشرة رفاقي، حيث أزلت صبغة التنكر بعد مغادرة زودانجا.

همست بفتور: «رائع!».

سأل الرجل: «ماذا؟ ما الرائع؟».

نظرت كمن يستيقظ من حلم. وصاحت بعصبية: «أوه! قلت إنه من الرائع إذا جعلتهم يصمتون؛ ولكن كيف يمكنك ذلك إذا كنا غير مرئيين وغير مسموعين بالنسبة لهم، إلا إذا»، هزت كتفيها، «أسكتهم بالسيف».

قال الرجل مترددًا: «تعلمين، يا أوزارا، أننا نحتفظ بهم من أجل إله النار- قد لا نقتلهم الآن».

هزت المرأة كتفيها، وسألته: «ولماذا نقتلهم؟ إنهم يبدون مخلوقات ذكية. قد يكون من المثير للاهتمام الإبقاء عليهم».

التفت إلى رفاقي، وسألتهم: «هل بإمكان أي منكم أن يرى أو يسمع أي شيء يجري في هذه الغرفة؟».

قال جار نال: «باستثناء أنفسنا، لا أستطيع أن أرى أو أسمع أحدًا»، وأجاب الآخرون بالمثل.

أوضحت: «نحن جميعًا ضحايا لشكل من أشكال التنويم المغناطيسي، مما يجعل من المستحيل أن نرى خاطفينا أو نسمعهم. ويمكنكم تحرير أنفسكم من هذه الحالة باستخدام قوى عقولكم. وهذا ليس صعبًا، وقد نجحت في القيام به. وإذا نجحتم أنتم أيضًا، فإن فرصنا للهرب ستكون أفضل بكثير، إن أُتيحت أمامنا. فلن يأخذوا حذرهم منا أبدًا، لاعتقادهم أننا لا نراهم. في واقع الأمر، يمكنني الآن انتزاع سيف من الزميل الذي يقف بجانبي وأقتل الجيداك والجيدارة[248] على عرشيهما قبل أن يتمكن أي شخص من منعني».

قال جار نال: «لا يمكننا العمل معًا ونصفنا يستهدف في قلبه قتل النصف الآخر».

(248) جيدارة: الملكة أو الإمبراطورة - وهو الاسم المريخي المؤنث لجيداك (الملك أو الإمبراطور - (- https://barsoom.fandom.com/wiki/Jeddakالمترجمة.

قلت: «فلنتفقْ إذَنْ على هدنة فيما يتعلق بخلافاتنا إلى أن نهرب من هؤلاء الناس».

قال جار نال: «هذا عدل».

سألته: «هل توافق؟».

فأجاب: «نعم».

سألت: «وأنت يا أور جان؟».

أجاب: «إنه اتفاق يناسبني».

نظر جال نال إلى جات أور، وسأله: «وأنت؟».

أجاب البادوار: «أوافق على كل ما يأمر به... فاندور».

ألقى أور جان نظرة سريعة نحوي تنم عن فهم مفاجئ، وصاح: «آه، أنت أيضًا فاندور. أفهم الآن الكثير الذي لم أفهمه من قبل. وهل يعرف الجرذ راباس ذلك؟».

تجاهلت سؤاله. قلت: «والآن، لنرفع أيدينا ونقسم على الالتزام بهذه الهدنة حتى نهرب جميعًا من التاريد، فضلاً عن أن كل واحد منا سوف يفعل كل ما في وسعه لإنقاذ الآخرين».

رفعنا أنا وجار نال وأور جان وجات أور أيادينا لنقسم.

«والنساء أيضًا»، قال أور جان. وعندئذ رفعت ديجاه ثوريس وزاندا أيديهن، وأقسمنا نحن الستة على القتال حتى الموت من أجل بعضنا بعضًا إلى أن نتحرر من هؤلاء الأعداء.

كان وضعًا غريبًا، لأني كُلِّفت بقتل جار نال؛ وأقسم أور جان على قتلي، في حين كنت عازمًا على قتله: وزاندا التي تكرههما كانت تنتظر فرصة لتدميري عندما تعرف هويتي.

«ما هذا»، صاح الرجل السمين على العرش، بغضب، «ماذا يثرثرون بتلك اللغة الغريبة؟ يجب أن نُسكتهم؛ لم نأتِ بهم إلى هنا للاستماع إليهم».

اقترحت الفتاة التي ناداها باسم أوزارا: «يمكنك إزالة التعويذة عنهم. دعهم يروننا ويسمعوننا. يوجد بينهم أربعة رجال فقط، ولا يمكنهم إلحاق الضرر بنا».

أجاب الرجل: «سيروننا ويسمعوننا عندما يُقتادون إلى الموت، وليس قبل ذلك».

قالت الفتاة: «لديَّ تصور أن الرجل ذا البشرة الفاتحة بينهم يمكنه رؤيتنا وسماعنا الآن».

سألها الرجل: «وما الذي يجعلكِ تعتقدين ذلك؟».

أجابت حالمة: «أشعر بذلك عندما تقع عيناه على عيني. وأيضًا، عندما تتحدث يا أوول فاس، تنتقل عيناه إلى وجهك، وعندما أتكلم، تعود عيناه نحوي. إنه يسمعنا يا أوول فاس ويرانا».

كنت في الواقع أنظر إلى المرأة عندما تتحدث، وأدركت الآن صعوبة الاستمرار في الخداع. على أنني هذه المرة، عندما أجاب الرجل الذي أسمته أوول فاس، ركزت عيني خلف الفتاة ولم أنظرْ إليه.

قال: «هذا مستحيل. إنه لا يستطيع أن يرانا أو يسمعنا». ثم نظر إلى الضابط قائد الكتيبة التي جلبتنا من زنزاناتنا إلى القاعة العامة، وسأله: «ما رأيك يا زاماك؟ هل يستطيع هذا المخلوق أن يرانا أو يسمعنا؟».

أجاب الضابط: «لا أعتقد، سُمُوّك. عندما ذهبنا لإحضاره، سأل هذا الماسيني الذي كان مسجونًا معه، عما إذا كان هناك أي شخص في الغرفة، على الرغم من أن خمسة وعشرين منا كانوا حوله».

قال أوول فاس للجيدارة: «أعتقد أنكِ مخطئة، وأنتِ دائمًا تتخيلين أشياء».

هزت الفتاة كتفيها الجميلين وتحولت عنه وهي تتثاءب مع شعور بالملل، لكنَّ عينيها توجهتا نحوي الآن ثانية. وعلى الرغم من أنني حاولت عدم الالتقاء بهما مباشرة بعد ذلك، فقد كنت أعرف أنها ظلت تراقبني طوال الوقت الذي أمضيته في القاعة العامة.

قال أوول فاس: «لنبدأ».

تقدم رجل عجوز إلى الأمام ووقف أمام العرش مباشرة. «سُمُوّك»، قال مرتلاً في نغم، «اليوم جيد، والمناسبة جيدة، لقد آن الأوان. لقد أحضرنا أمامك، يا أكثر أبناء إله النار مهابة، سبعة من أعداء التاريد. يتحدث والدك من خلالك، ليعرف شعبه رغباته. أنت تحدثت مع إله النار، والدك. أخبرنا، يا سموك، إذا كانت هذه العطايا تبدو جيدة في عينيه؛ أخبرنا برغباته، أيها الجبار».

منذ أن دخلنا إلى القاعة العامة وأوول فاس يتفحصنا بعناية؛ وتركز اهتمامه بوجه خاص على ديجاه ثوريس وزاندا. وهو الآن يتنحنح لإجلاء صوته.

قال: «يريد والدي، إله النار، أن يعرف مَن هم هؤلاء الأعداء».

أجاب الرجل العجوز الذي سبق له الحديث، واعتبرته الكاهن: «ينتمي أحدهم إلى الماسينيين، وقد ألقى محاربوك القبض عليه بينما كان يصطاد خارج جدراننا. الستة الآخرون هم مخلوقات غريبة لا نعرف من

أين أتوا. لقد وصلوا بواسطة جهازين غريبين، يتحركان في الهواء مثل الطيور، على الرغم من عدم وجود أجنحه فيهما. كان يوجد في كل جهاز منهما رجلان وامرأة. نزلوا داخل أسوارنا؛ لكننا لا نعرف من أين جاءوا أو لماذا، وهم دون شك يستهدفون الإضرار بنا، كما هو هدف جميع الرجال الذين يأتون إلى قلعة التاريد. وتلاحظ، سموك، أن خمسة من هؤلاء الستة لديهم بشرة حمراء، بينما بشرة السادس أغمق قليلاً من بشرتنا. يبدو أنه من عِرق مختلف، ببشرته البيضاء، وشعره الأسود، وعينيه الرماديتين. هذا كل ما نعرفه، ولا شيء أكثر. نحن ننتظر رغبات إله النار من شفتي ابنه أوول فاس».

زم الرجل على العرش شفتيه، كما لو كان يفكر، في حين انتقلت عيناه ثانية إلى السجناء الذين يقفون أمامه، واستقرت طويلاً على ديجاه ثوريس وزاندا. والآن تحدث.

- والدي، إله النار، يطالب بتدمير الماسيني والرجال الأربعة الغرباء على شرفه في الساعة نفسها، بعد أن يتم دورانه سبع مرات حول لادان(34).

(34) لادان: هو القمر ثوريا، بلغة سكانه - https://barsoom.fandom.com/wiki/Thuria - المترجمة.

مرت لحظات قليلة من الصمت المتوقع بعد أن توقف عن الكلام- وهو الصمت الذي كسره أخيراً الكاهن العجوز.

سأل: «والنساء، سموك؛ ما رغبات إله النار، والدك، بشأنهن؟».

أجاب الجيداك: «يود إله النار أن يُظهر حبه الكبير بأن يقدم المرأتين إلى ابنه، أوول فاس ليقرر بشأنهما ما يريد».

* * *

الفصل (19)

أوزارا

الحياة حلوة؛ وعندما سمعت كلمات الموت تسقط من شفتي الجيداك أوول فاس، الكلمات التي حكمت على خمسة منا بالموت في اليوم السابع، لا بد أن شعورًا بالاكتئاب انتابني بطبيعة الحال. لكني لم أكن واعيًا به، في ضوء الاضطراب العقلي الأكبر بكثير الذي أحدثته معرفتي أن مصير ديجاه ثوريس سيكون أسوأ من الموت.

أسعدني أنها لم تتمكن، لحسن الحظ، من سماع ما سمعته. فمعرفتها بالمصير الذي ينتظرها لن يفيد بأي شيء؛ ومعرفتها بحكم الإعدام الصادر ضدي سوف يصيبها بكرب لا داعيَ له.

وقف جميع رفاقي كالماشية الخرساء أمام عرش قاضيهم القاسي، نظرًا لعدم رؤيتهم أو سماعهم أي شيء. ما شاهدوه أمامهم هو مجرد مقعد شاغر؛ لكنني كنت أرى فوق هذا المقعد مخلوقًا من لحم ودم – مخلوقًا بشريًّا يمكن أن يطاله رأس نصل حاد.

تحدث أوول فاس ثانية، وأصدر أمره: «أبعدوهم الآن. احبسوا الرجال في برج الفيروز، وخذوا النساء إلى برج الماس».

فكرت أن أقفز عليه وأخنقه بيديَّ العاريتين، لكن حكمة بصيرتي ألهمتني أن هذا لن ينقذ ديجاه ثوريس من المصير الذي ينتظرها. وقد لا يسفر إلا عن موتي، وبالتالي يحرمها في نهاية المطاف من أعظم أمل، وربما الوحيد، في النجاة؛ وهكذا ذهبت بهدوء مع زملائي السجناء، وكان آخر ما أذكر رؤيته في القاعة العامة هو نظرة خفية من أوزارا، جيدارة التارديين.

لم يُعيدوني أنا وأومكا إلى الزنزانة التي سبق احتجازنا فيها؛ بل أخذونا مع جات أور، وجار نال، وأور جان، إلى غرفة كبيرة في برج الفيروز.

لم نتحدثْ إلى أن أُغلِق الباب وراء المرافقين، الذين كانوا غير مرئيين للجميع باستثنائي أنا وأومكا. بدا الآَخرون في حالة ارتباك، قرأتها في تعبيرات الحيرة على وجوههم.

سألني جات أور: «ماذا حدث يا فاندور؟ لماذا وقفنا صامتين في تلك الغرفة الفارغة أمام تلك العروش الشاغرة؟».

أجبت: «لم يكن هناك أي صمت، وكانت الغرفة مزدحمة بالناس. جلس الجيداك والجيدارة على العرشين اللذين بدا لك شاغرين، وأصدر الجيداك حكمًا بالإعدام علينا جميعًا – سنموت في اليوم السابع».

سألني: «والأميرة وزاندا أيضًا؟».

هززت رأسي: «كلا، للأسف لا».

سألني متحيراً: «ولماذا تقول للأسف؟».

- لأنهن قد يفضلن الموت على ما ينتظرهما. سوف يحتفظ بهما الجيداك أوول فاس لنفسه.

اكفهر وجه جات أور، وقال: «يجب أن نفعل شيئًا، يجب أن ننقذهما».

أجبت: «أعرف، لكن كيف؟».

سألني: «هل فقدت الأمل؟ هل ستمضي نحو موتك بهدوء، وأنت تعرف ما ينتظرهما؟».

قلت: «أنت تعرفني أفضل من ذلك يا جات أور. آمل أن يحدث شيء يوحي بخطة للإنقاذ؛ وعلى الرغم من أنني لا أرى أي أمل في الوقت الحاضر، فلست يائسًا. إذا لم تتوفر أي فرصة، فعلى الأقل سوف أنتقم لها في اللحظة الأخيرة، إن لم أتمكن من إنقاذها؛ ذلك أنني أتمتع بميزة على هؤلاء الناس لا يعرفون أنني أمتلكها».

سألني: «وما هي؟».

أجبت: «إنهم ليسوا غير مرئيين ولا غير مسموعين بالنسبة لي».

أومأ، ثم قال: «نعم، كنت قد نسيت. وإنما يبدو من المستحيل أن تتمكن من الرؤية والسمع عندما لا يوجد شيء يمكن رؤيته أو سماعه».

سألني جار نال، بعد أن سمع حديثي مع جات أور: «لماذا سيقتلوننا؟».

أجبت: «سوف يقدموننا كقرابين إلى إله النار الذي يعبدونه».

«إله النار؟»، سأل أور جان، «مَن هو؟».

أوضحت: «الشمس».

سألني جار نال: «ولكن كيف يمكنك فهم لغتهم؟ فمن غير الممكن أنهم يتكلمون نفس اللغة التي يتحدث بها سكان برسوم».

أجبت: «لا، لا يتحدثون بها. لكن أومكا، الذي سُجِنت معه منذ القبض علينا، علمني لغة التاريد».

سأل جات أور: «وما هو التاريد؟».

أوضحت: «إنه اسم الشعب الذي نحن في قبضته».

سأل جار نال: «وماذا يسمون ثوريا؟».

أجبت: «لست متأكدًا، لكني سأسأل أومكا». قلت لأومكا بلغته: «أومكا، ماذا تعني كلمة لادان؟».

أجاب: «إنه اسم هذا العالم الذي نعيش عليه. أنت سمعت أوول فاس يقول إننا يجب أن نموت عندما يدور إله النار سبع مرات حول لادان».

دخلنا نحن أهل برسوم بعد ذلك في حديث عام، وأُتيحت لي الفرصة لدراسة جار نال وأور جان بعناية أكبر.

كان عُمر جار نال غير محدَد، مثل معظم المريخيين. لم يكن في سن كبيرة بحيث تبدأ ظهور علامات السن عليه، كما كان حال فال سيفاس. قد يقع عُمر جار نال في أي موضع يتراوح بين مائة وألف سنة. كان يتسم بجبين عال وشعر رفيع نوعًا ما بالنسبة لأي مريخي، ولا يوجد أي شيء مميز في ملامحه سوى عينيه. لم تعجبني عيناه؛ كانتا ماكرتين، وخادعتين وقاسيتين.

أما أور جان، الذي سبق بالطبع أن رأيته، فقد كان مثلما يمكن أن يتوقع المرء تمامًا – مقاتلًا قويًّا البنية ووحشيًّا من أدنى نوع. وبمقارنة الاثنين، اعتقد أنني قد أثق في أور جان أكثر من جار نال.

شعرت بمدى غرابة احتجازي هنا، في مثل هذا المكان الصغير، مع اثنين من أشد الخصوم. على أنني أدركت، ولا بد أنهما أدركا أيضًا، أن مواصلة شجارنا لن يفيدنا في ظل هذه الظروف، بينما إذا توفرت إمكانية للهرب، فإن فرصة أربعة رجال قادرين على المبارزة بمهارة أفضل من فرصة رجلين للظفر بالحرية للجميع. وإذا واصلنا شجارنا، لن نصبح أكثر من اثنين؛ فقد يموت اثنان منا على الأقل، وربما ثلاثة، لضمان السلام.

بدا أننا تجاهلنا أومكا، عندما كنا نتحدث نحن الأربعة بلغتنا. لقد نمَتْ بيني وبينه علاقة ودية للغاية، وكنت أعتمد عليه لمساعدتنا إذا سنحت لنا فرصة للهرب. ولذلك انتابني القلق بشكل خاص بشأن ما إذا كان ودودًا حتى الآن؛ فكنت أوجهه إلى الحديث أحيانًا، وأترجم له ما نقول.

مضت الأيام وأنا أشاهد أومكا يلهو بمخلوقاته التعيسة التي يقدمونها لطعامه، بحيث لم يعد المشهد يؤثر عليَّ. أما اليوم، عندما أحضروا لنا الطعام، راقب البرسوميون طريقة الماسيني برعب شديد؛ بل ورأيت تزايد خوف جار نال من الرجل.

وبعد أن انتهينا من وجبتنا بوقت قصير، فُتح الباب ثانية ودخل العديد من المحاربين. وكان في قيادتهم مرة أخرى زاماك، الضابط الذي اقتادني أنا وأومكا إلى القاعة العامة. رأيت أنا وأومكا فقط دخولهم إلى الغرفة، وتظاهرت أنني لم أدرك دخولهم.

قال زاماك، مُشيراً ناحيتي: «ها هو، أحضروه».

اقترب مني الجنود وأمسكوني من ذراعي على الجانبين؛ ثم أسرعوا بي نحو الباب.

صاح جات أور: «ما هذا؟ ماذا حدث لك؟ إلى أين تذهب؟». كان الباب لا يزال مواربًا، ورأى أنني متجه إليه.

أجبت: «أنا لا أعرف إلى أين أنا ذاهب يا جات أور، إنهم يأخذونني ثانية».

صاح: «يا أميري، يا أميري»، وقفز نحوي كما لو كان يسحبني إلى الداخل، لكن الجنود أخرجوني من الغرفة، وأغلقوا الباب في وجه جات أور.

قال أحد المحاربين الذين يصطحبوني: «من الجيد أن هؤلاء الزملاء لا يمكنهم رؤيتنا، أعتقد أننا كنا لنشتبك في معركة قوية الآن إذا تمكنوا من رؤيتنا».

وقال أحد الزملاء الذي كان يدفعني: «أعتقد أن هذا الشخص يمكن أن يقاتل جيدًا؛ فعضلات ذراعيه مثل شرائط الفضة».

علّق زميل آخر: «حتى أفضل الرجال لا يمكنهم محاربة خصوم غير مرئيين لهم».

- وقد كان أداء هذا الشخص جيدًا جدًّا في الفناء يوم ألقينا القبض عليه؛ وأصاب بيديه العاريتين حراس الجيداك بكدمات كثيرة، وقتل اثنين منهم.

كانت هذه أول معلومات أعرفها عن أنني حققت أي نجاح في ذلك القتال، وقد أسعدني. يمكنني أن أتخيل شعورهم إذا عرفوا أنني لا أستطيع رؤيتهم فحسب، بل أسمعهم أيضًا وأفهمهم.

كانوا على درجة كبيرة من التساهل بسبب تصورهم الوهمي عن أمنهم، إلى حد أنه كان بمقدوري أن أنتزع سلاحًا من أيٍّ منهم تقريبًا. أعرف أن بإمكاني إثبات نفسي جيدًا كمقاتل، لكنني لم أتمكنْ من تصور مدى

فائدة ذلك لي أو لزملائي السجناء.

اقتادوني إلى جزء من القصر يختلف تمامًا عن أي جزء رأيته حتى الآن. كان أكثر روعة، من حيث فخامة زيناته وتجهيزاته الفاخرة، من غرفة العرش الرائعة.

وصلنا الآن إلى مدخل وقف أمامه للحراسة العديد من المحاربين.

قال زاماك: «لقد جئنا، حسب الأوامر، وأحضرنا السجين ذا البشرة البيضاء معنا».

أجاب أحد الحراس: «نتوقع حضوركم، ويمكنكم الدخول»، ثم فتح الأبواب المزدوجة الكبيرة.

توجد خلف الأبواب شقة رائعة الجمال والثراء، لا أجد في مفرداتي الفقيرة أي كلمات لوصفها. هناك ستائر بألوان لا تعرفها أعين سكان كوكب الأرض، تتدلى على خلفية من جدران تبدو من العاج الصلب، لكنني لم أعرف المواد التي تتكون منها. إن ثراء وأناقة تجهيزات الغرفة هو بالأحرى ما جعلها تبدو جميلة جدًّا؛ إذ عند وصفها، وجدت بمعنى ما أن البساطة كانت هي الملاحظة السائدة.

لم يكنْ في الغرفة أحد آخر عندما دخلنا. قادني حارسي إلى وسط الغرفة ثم توقف.

انفتح باب الآن في الجانب الآخر من الغرفة، وظهرت امرأة. كانت شابة جميلة جدًّا، وعرفت في وقت لاحق أنها أَمَة.

قالت: «سوف تنتظر في الممر يا زاماك، والسجين سيتبعني».

سألها زاماك مندهشًا: «ماذا! وحده دون حارس؟».

أجابت الفتاة: «هذه هي الأوامر التي لديَّ».

سألها زاماك: «ولكن كيف يمكنه أن يتبعك وهو لا يستطيع أن يرانا أو يسمعنا؛ وإذا كان بمقدوره أن يسمعنا، فهو لا يستطيع أن يفهمنا؟».

أجابت: «سأقوده».

ما إن اقتربت مني، حتى أبعد الجنود قبضتهم عن ذراعي؛ وأمسكت الفتاة بإحدى يديّ وقادتني من الشقة.

أخذتني إلى غرفة أصغر قليلاً، لكنها أجمل بكثير من الغرفة الأخرى. بيد أنني لم ألحظْ على الفور تجهيزاتها، حيث انجذب انتباهي فورًا وكلية نحو شاغلها الوحيد.

أنا لا أندهش بسهولة؛ وإنما في هذه اللحظة، لا بد أن أعترف أنني اندهشت عندما تعرفت على المرأة التي تستلقي على أريكة، وترقبني باهتمام من تحت رموشها الطويلة: إنها أوزارا، جيدارة التاريديين.

قادتني الفتاة الأَمَة إلى وسط الغرفة ثم توقفت منتظرة، وتنظر في تساؤل نحو الجيدارة؛ بينما سعيت أنا -وفقًا لافتراض أنني أصم وأعمى تجاه هؤلاء الناس- إلى تركيز بصري إلى ما وراء الإمبراطورة الجميلة التي بدت عيناها المخفيتان تقرآن روحي.

قالت الآن: «يمكنك الانصراف يا أولاه».

انحنت الأَمَة، ثم تراجعت إلى خارج الغرفة.

لم يكسرْ أي صوت صمت الغرفة لعدة لحظات بعد خروجها؛ لكنني شعرت دائمًا أن عينَي أوزارا تحملقان فيَّ.

ضحكت الآن، ضحكة موسيقية فضية، وسألتني: «ما اسمك؟».

تظاهرت بأنني لم أسمعها، ووجدت وظيفة لعيني تتمثل في فحص جمال الغرفة. يبدو أنها مخدع الإمبراطورة الخاص، وقد جعلت منها بيئة رائعة لجمالها الذي لا جدال فيه.

قالت الآن: «اسمع، أنت خدعت أوول فاس وزاماك والكاهن الأعلى وجميع الباقين؛ لكنك لم تخدعني. سوف أعترف أنك تتمتع بقدرة رائعة على التحكم، لكنَّ عينيك خانتاك. خانتاك في القاعة العامة، وخانتاك ثانية الآن عندما دخلت هذه الغرفة، وكنت أعرف أنها ستخونك. ظهر الاندهاش عليهما عندما التقتا بعيني، وهذا لا يعني سوى شيء واحد: أنك رأيتني وتعرفت عليَّ. عرفت أيضًا في القاعة العامة أنك تفهم ما يُقال. أنت مخلوق ذكي للغاية، وتغيُّر أضواء عينيك كان يعكس رد فعلك على ما سمعت في القاعة العامة. لنكن صادقين، أنت وأنا؛ فلدينا من القواسم المشتركة أكثر مما يمكنك تخمينه. أنا لست غير ودودة تجاهك. وأفهم لماذا تعتقد أنه لصالحك إخفاء حقيقة أنك

ترانا وتسمعنا؛ لكني أؤكد لك أنك لن تكون أسوأ حالاً إذا منحتني ثقتك، لأني أعرف بالفعل أننا لسنا غير مرئيين ولا غير مسموعين بالنسبة لك».

لم أفهم ماذا تقصد بقولها إنَّ لدينا الكثير من القواسم المشتركة، إلا إذا كانت مجرد حيلة لإغرائي بالاعتراف أنني قادر على رؤية التاريد

وسماعهم. بيد أنني، من ناحية أخرى، لم أجدْ أي سبب للاعتقاد بأنها أو الآخرين سوف يستفيدون من هذه المعرفة؛ فأنا في قبضتهم تمامًا، وما من فارق يُذكر إذا كنت أراهم وأسمع أو لم أكنْ. علاوة على ذلك، كنت مقتنعًا بأن هذه الفتاة ذكية للغاية، ولا يمكنني خداعها لتعتقد أنها غير مرئية بالنسبة لي. وعلى وجه العموم، لم أجد أي سبب لمحاولة الاستمرار في خداعها؛ ولذا وهكذا نظرت إلى عينيها مباشرة وابتسمت.

قلت: «تشرفني صداقة الجيدارة، أوزارا».

صاحت: «ها أنت! كنت أعرف أنني على حق».

- ومع ذلك، ربما كان لديكِ بعض الشك.

- إذا كان لديَّ شك، فهو يرجع إلى مهارتك في فن الخداع.

- شعرت أن حياتي وحريتي، وحياتي وحرية رفاقي، قد تعتمد على قدرتي على الحيلولة دون معرفة شعبكِ أنني أستطيع أن أراهم وأفهمهم.

قالت: «أنت لا تتحدث لغتنا بشكلٍ جيدٍ. كيف تعلمتها؟».

أوضحت: «علّمها لي الماسيني الذي سُجنت معه».

قالت: «أخبرني عن نفسك، اسمك، وبلدك، والآلات الغريبة التي أتيتم بها إلى آخر معقل التاريد، وسبب قدومكم».

أجبت: «أنا جون كارتر؛ أمير بيت تاردوس مورس، جيداك هيليوم».

سألتني: «هيليوم؟ أين هيليوم؟ لم أسمعْ بها أبدًا».

شرحت لها: «إنها على عالم آخر، على برسوم، الكوكب العظيم الذي تسمونه قمركم الأكبر».

قالت: «أنت، إذَنْ، أمير في بلدك؟ تصورت ذلك. نادرًا ما يُخطئ تقديري للناس. تتسم المرأتان وأحد الرجال بين رفاقك بالتهذيب»، واصلت، «أما الرجلان الآخران، فهما ليسا كذلك. على أن أحدهما يتمتع بعقل رائع، بينما الآخر أحمق وفظ وهو رجل دنيء».

لم أستطعْ إلا أن أبتسم لتقييمها الدقيق لرفاقي. أمامي هنا، في الواقع، امرأة ذكية. شعرت أنها قد تحقق لنا الكثير، إذا كانت حريصة بالفعل على صداقتي؛ لكنني لم أسمح لآمالي بالتحليق عاليًا؛ لأنها قبل كل شيء زوجة أوول فاس، الجيداك الذي حكم علينا بالموت.

قلت لها: «أنتِ قرأتِهم بدقة، يا جيدارة،».

«وأنت»، واصلت حديثها، «أنت رجل عظيم في عالمك. وستكون رجلاً عظيمًا في أي عالم. لكنك لم تخبرني لماذا جئتم إلى بلدنا».

- الرجلان اللذان قمت بوصفهما في آخر كلامك، اختطفا أميرة من بيت حاكم بلدي.

فكرت أوزارا ثم قالت: «لا بد أنها تلك الجميلة جدًّا».

قلت: «نعم. وقد لحقتُ بهم، ومعي الرجل الآخر والفتاة، في سفينة أخرى. وبعد وقت قصير من وصولنا إلى لادان، رأينا سفينتهم في فناء قلعتكم. هبطنا بجوارها لإنقاذ الأميرة ومعاقبة مختطفيها. وهنا ألقى رجالكم القبض علينا».

سألت: «إذَنْ أنتم لم تأتوا لإيذائنا؟».

أجبت: «كلا بالتأكيد. لم نكن نعرف حتى بوجودكم».

أومأت، ثم قالت: «كنت على يقين أنكم لا تهدفون إلى إلحاق أي ضرر بنا، فالأعداء لا يستسلمون هكذا أبدًا أمام قوتنا. لكني لم أتمكن من إقناع أوول فاس والآخرين».

قلت: «أنا أُقدِّر تصديقَكِ لكلامي؛ لكنني لا أفهم سبب اهتمامِكِ بي، وأنا أجنبي وغريب».

تأملتني بصمت للحظة، وعيناها الجميلتان حالمتان.

قالت: «ربما لأن بيننا الكثير من القواسم المشتركة، وربما أيضًا بسبب قوة أكبر من كل القوى الأخرى تستحوذ علينا، وتهيمن علينا دون إرادتنا».

توقفت ونظرت نحوي باهتمام، ثم هزت رأسها بصبر نافد.

قالت: «الشيء المشترك بيننا هو أننا سجينان في قلعة أوول فاس. ويمكنك أن تفهم سبب اهتمامي بك إذا كان ذكاؤك يعادل عُشر تقديري لذكائك».

الفصل (20)

محاولة هروبنا

ربما بالغت أوزارا في تقدير ذكائي، لكنها قللت من شأن حذري. لا يمكنني الإقرار بأنني فهمت ما كان من المفترض أن أستخلصه مما قالته. كان المضمون -في واقع الأمر- منافيًا للعقل لدرجة أنني كنت أميل في البداية إلى الاعتقاد بأنه حيلة تهدف إلى الإيقاع بي في نوع من الاعتراف بخطط خفية ضد شعبها، بعد أن فازت بثقتي تمامًا؛ وهكذا سعيت إلى تجاهل الاعتراف المحتمل في الجزء الأخير من كلامها بأن أبدو مندهشًا من جزئه الأول، الذي كان حقًّا مفاجأة لي.

سألتها: «أنتِ سجينة؟ تصورت أنكِ جيدارة التاريديين».

قالت: «نعم، أنا كذلك. لكني سجينة».

سألتها: «ولكن، أليس هؤلاء الناس شعبكِ؟».

أجابت: «كلا، أنا دومنية؛ بلدي هي دومنيا، وتقع بعيدًا عبر الجبال التي تقع خلف الغابة التي تحيط بقلعة أوول فاس».

سألتها: «وقام أهلكِ بتزويجكِ من أوول فاس، جيداك التاريد؟».

أجابت: «كلا. لقد سرقني منهم. لا يعرف أهلي ماذا حدث لي. لم يكونوا ليرسلوني عن طيب خاطر إلى بلاط أوول فاس، ولم أكن لأبقى هنا إذا كنت أستطيع الهرب. أوول فاس مثل الوحش، ويتكرر تغييره للجيدارات. يبحث وكلاؤه باستمرار عن شابات جميلات في البلدان الأخرى. وعندما يجدون واحدة أجمل مني، سوف أذهب على الطريق إلى أسلافي. وأعتقد أنه وجد واحدة ترضيه بالفعل، وأن أيامي أصبحت معدودة».

سألتها: «وهل تعتقدين أن وكلاءَه وجدوا امرأة أخرى أجمل منكِ؟ يبدو أمرًا لا يُصدق».

قالت: «شكرًا على المجاملة، لكنَّ وكلاءَه لم يجدوا امرأة أجمل مني، بل وجدها أوول فاس بنفسه. ألم تره في القاعة العامة وهو ينظر إلى مواطنتك الجميلة؟ إنه بالكاد ما أبعد عينيه عنها، وتذكر أنه لم يأمر بقتلها».

قلت لتذكيرها: «ولم يأمر كذلك بقتل الفتاة زاندا. هل سيتخذها جيدارة أيضًا؟».

أجابت أوزارا: «كلا، لا يمكنه اتخاذ سوى جيدارة واحدة فقط في الوقت نفسه. والفتاة التي تسميها زاندا، هي للكاهن الأعلى. وبهذه الطريقة، يسترضي أوول فاس الآلهة».

قلت: «إذا أخذ المرأة الأخرى، فإنها سوف تقتله».

قالت أوزارا: «لكن هذا لن يساعدني».

«لماذا؟»، سألتها.

شرحت: «لأنه بينما تعيش جيدارة، لا يستطيع اتخاذ جيدارة أخرى».

سألتها: «سوف يقتلك؟».

أجابت: «سوف أختفي. تحدث أشياء غريبة في قلعة أوول فاس، أشياء غريبة وفظيعة».

قلت: «بدأت أفهم لماذا أرسلتِ في طلبي. أنتِ تريدين الهرب؛ وتعتقدين أنكِ إذا ساعدتينا على الهرب، سوف نأخذكِ معنا».

قالت: «لقد بدأت تفهم جزءًا على الأقل من أسبابي. وسوف تعرف الباقي في الوقت المناسب».

سألتها: «هل تعتقدين أن أمامنا فرصة للهرب؟».

قالت: «مجرد فرصة ضئيلة. وإذا كنا سنموت على أي حال، فلِمَ لا نغتنمها؟».

- هل لديك أي خطط؟

- يمكننا الهرب في السفينة، تلك التي لا تزال في الفناء.

بدأت الآن أهتم، فسألتها: «لا تزال إحدى السفينتين في الفناء؟ واحدة فقط؟ لم يدمروها؟».

- أرادوا تدميرها، لكنهم يخافون منها، يخافون من الاقتراب منها. عند إلقاء القبض عليكم، دخل اثنان من محاربي أوول فاس إحدى السفينتين، وطارت بهما على الفور. ولم تحلق قبل أن ينادي المحارب الذي دخلها أولاً على رفيقه ويقول له إنها خالية. وهم يعتقدون الآن أن هاتين السفينتين واقعتان تحت تأثير تعويذة سحرية، وبالتالي لن يقترب أحد من تلك التي تقع في الفناء.

سألتها: «هل تعرفين ماذا حل بالسفينة الأخرى؟ هل تعرفين أين ذهبت؟».

- إنها في السماء، بعيدًا فوق القلعة. فقط تطفو هناك، كما لو كانت تنتظر أو في انتظار شيء، ونحن لا نعرف ما هو. أوول فاس خائف منها. وهذا هو أحد أسباب عدم قتلكم من قبل. كان ينتظر معرفة ما قد

تفعله السفينة، وينتظر أيضًا أن يستجمع شجاعته كي يأمر بقتلكم، ذلك أن أوول فاس جبان كبير.

سألتها: «تعتقدين إذَنْ أن هناك فرصة للوصول إلى السفينة؟».

قالت: «هناك فرصة. يمكنني إخفاؤكم هنا في شقتي حتى حلول الظلام، وتنام القلعة. وإذا استطعنا المرور من الحارس عند المدخل الخارجي والوصول إلى الفناء، عندئذ يجب أن ننجح. الأمر يستحق المحاولة، لكنك قد تضطر إلى شق طريقك بالقتال للمرور من الحارس. هل أنت مبارز ماهر؟».

أجبت: «أعتقد أن تقييمي لنفسي جيدٌ. ولكن، كيف يمكننا إحضار باقي مجموعتي إلى الفناء؟».

قالت: «سنذهب أنا وأنت فقط».

هززت رأسي. «لا أستطيع الذهاب إلا إذا جاءت معي مجموعتي كلها».

نظرت نحوي بتشكك مفاجئ، وسألتني: «ولِمَ لا؟ أنت تحب إحدى الفتاتين، ولن تذهب من دونها». كانت لهجتها مشوبة بالاستياء؛ كان حديث امرأة غيورة.

يجب إذَنْ ألا تعرف الحقيقة، حتى أتمكن من النجاح في تحقيق هروب الآخرين، وخاصة ديجاه ثوريس. ولذلك فكرت بسرعة، وتبادر إلى ذهني سببان وجيهان لتبرير لماذا لا يمكننا أن نغادر بمفردنا.

قلت لها: «إنها مسألة شرف في البلد الذي جئت منه، أن الرجل لا يهجر رفاقه أبدًا. ولهذا السبب، لا يمكنني باسم الشرف أن أغادر دونهم؛ على أنَّ هناك سببًا آخر أقوى».

سألتني: «وما هو؟».

- إن السفينة التي لا تزال في الفناء هي مِلك لخصومي، الرجلين اللذين اختطفا الأميرة من بلدي. وسفينتي هي التي تطفو فوقَ القلعة. وأنا لا أعرف أي شيء على الإطلاق عن آلية سفينتهم. وحتى إذا نجحنا في الوصول إليها، لن أتمكن من تشغيلها.

فكرت في هذه المشكلة لفترة من الوقت، ثم نظرت نحوي وقالت: «لا أعرف إن كنت تخبرني الحقيقة».

أجبت: «تتوقف حياتكِ على تصديقي، مثلما تتوقف حياتي وحياة جميع رفاقي على تصديقكِ».

فكرت في الأمر بصمت للحظة، ثم بلفتة تنم عن نفاد الصبر قالت: «لا أعرف كيف يمكننا جلب أصدقائك إلى الفناء والسفينة».

قلت: «أعتقد أنني أعرف كيف يمكننا الهرب، إذا كنتِ ستساعدينا».

سألتني: «وكيف ذلك؟».

- إذا كان بإمكانكِ أن تحضري لي الأدوات التي يمكننا استخدامها لقطع قضبان نوافذ زنزاناتهم في السجن، وأن تصفي لي بدقة موقع الغرفة التي تُسجن فيها الفتيات، فأنا متأكد من نجاحي.

قالت متشككة: «إذا فعلت هذه الأشياء، يمكنك أن تهرب من دوني».

- أعطيكِ كلمتي، يا أوزارا، أنكِ إذا قمتِ بما أطلبه، لن أغادر من دونك.

سألتني: «وماذا تريد مني أن أفعل أيضًا؟».

- هل يمكنكِ الدخول إلى الغرفة التي تُسجن فيها الأميرة وزاندا؟

أجابت: «نعم، أعتقد ذلك، ما لم يدرك أوول فاس أنني أشتبه في نيته، وقد يتصور أنني أنوي قتل الفتاتين؛ لكنني لست متأكدة أن بإمكاني الحصول على الأدوات التي يمكنك استخدامها لقطع قضبان نوافذ سجنك». صححت كلامها قائلة: «يمكنني الحصول عليها، لكني لا أعرف كيف أعطيها لك».

قلت مقترحًا: «إذا أمكنكِ إرسال بعض المواد الغذائية لي، قد تستطيعين إخفاء مقشط أو منشار في جرة الطعام».

صاحت: «هذه مسألة بسيطة! يمكنني أن أرسل لك جرة من الطعام مع أولاه».

سألتها: «وماذا عن قضبان نوافذ سجن الفتيات؟».

أجابت: «إنهم في برج الماس، وهو عال جدًّا. ولا توجد قضبان على نوافذه، لأنه لا يمكن لأحد الهروب من برج الماس بهذه الطريقة. يوجد حراس دائمًا عند قاعدته؛

لأنه البرج الذي يضم مقرات الجيداك؛ فإذا كنت تخطط لهرب النساء من النافذة، عليك أن تتخلى تمامًا عن هذه الفكرة».

أجبت: «لا أعتقد ذلك. إذا نجحت خطتي، يمكنهن الهرب من برج الماس بسهولة أكبر من الهرب من الفناء».

- لكن، ماذا عنك أنت والرجال الآخرين في مجموعتك؟ فحتى إذا تمكنتم من إنزال أنفسكم خلال نافذة زنزانتكم، فلن تتمكنوا من الوصول إلى برج الماس لضمان هروبنا.

قلت: «اتركي هذا الأمر لي، وثقي بي. وأعتقد أنكِ إذا قمتِ بدوركِ، سنتمكن جميعًا من الهرب».

سألتني: «الليلة؟».

قلت: «كلا، لا أعتقد ذلك. من الأفضل أن ننتظر حتى ليلة الغد، لأننا لا نعرف كم من الوقت سيستغرقه قطع قضبان نافذتنا. ربما من الأفضل أن تُعيديني إلى زنزانتي الآن، ثم تُهرّبين لي الأدوات في أقرب وقت».

أومأت، ثم قالت: «أنت على حق».

«انتظري لحظة»، قلت، «كيف لي أن أعرف برج الماس؟ وكيف يمكنني العثور عليه؟».

بدت في حيرة؛ ثم أوضحت: «إنه برج القلعة المركزي وأعلى أبراجها، لكني لا أعرف كيف ستصل إليه من دون مرشد والعديد من المقاتلين».

- اتركي هذا لي، ولكن عليكِ المساعدة في توجيهي إلى الغرفة التي يسجنون فيها المرأتين.

سألتني: «وكيف يمكنني أن أفعل ذلك؟».

- عندما تصلين إلى غرفتهن، يمكنك تعليق وشاح ملون من نافذتها.. وشاح أحمر.

سألتني: «وكيف يمكنك رؤيته من داخل القلعة؟».

- لا تهتمي؛ سأجده إذا نجحت خطتي. ورجاء الآن، أعيديني إلى زنزانتي.

قرعت جرسًا معلقًا بجوارها، فدخلت الأَمَة أولاه إلى الشقة. أمرتها: «اصطحبي السجين إلى زاماك، وقولي له أن يُعيده إلى زنزانته».

أمسكت أولاه بيدي وقادتني من أمام حضرة الجيدارة إلى الشقة المجاورة، ومنها إلى الممر الذي يقع بعدها حيث ينتظر زاماك والحراس. وهناك سلمتني إلى المحاربين، الذين اقتادوني ثانية إلى غرفة برج الفيروز التي يُسجن فيها رفاقي.

صاح جات أور بارتياح عندما رآني أدخل الغرفة: «عندما أخذوك، يا أميري، اعتقدت أنني لن أراك أبدًا مرة ثانية. على أن القدر يزداد لطفًا معي؛ فقد أعطاني للتو دليلين على أفضاله: أنك عُدت، وأنني عندما فُتِح الباب رأيت التاريد الذين عادوا معك».

صحت: «هل يمكنك رؤيتهم؟».

أجاب: «يمكنني رؤيتهم وسماعهم».

قال جار نال: «وأنا أيضًا».

«وماذا عنك، يا أور جان؟»، سألت، حيث كلما زاد عدد من يستطيع منا رؤيتهم، أصبحت فرصنا أفضل في حالة نشوب أي قتال خلال محاولتنا لإنقاذ النساء والهرب.

هز أور جان رأسه بحزن شديد، وقال: «لا يمكنني رؤية أو سماع أي شيء».

قلت لتشجيعه: «لا تستسلم، يجب أن تراهم. عليك بالمثابرة، وسوف تراهم».

«والآن»، قلت وأنا أستدير نحو جار نال، «لديَّ بعض الأخبار الجيدة. سفننا آمنة؛ سفينتك لا تزال في الفناء. وهم يخشون الاقتراب منها».

سألني: «وسفينتك؟».

- سفينتي تطفو في السماء، فوق القلعة.

سألني: «هل أحضرت آخرين معك من برسوم؟».

أجبت: «كلا».

- ولكن، لا بد أن هناك شخصًا ما على متن السفينة، وإلا لم تكن لتصل إلى هناك وتظل تحت السيطرة».

أجبت: «هناك شخص على متنها».

تطلع في حيرة، وسألني: «لكنك قلت للتو إنك لم تُحضر معك أي شخص».

- يوجد محاربان من التاريد على متنها.

- ولكن كيف يمكنهما التعامل معها؟ ماذا يعرفان عن آلية سفينة فال سيفاس المعقدة؟

- لا يعرفان شيئًا عنها، ولا يمكنهما التعامل معها.

سألني: «إذن كيف، باسم إيسوس، ارتفعت ووصلت إلى هناك؟».

قلت له: «هذا شيء لا تحتاج إلى معرفته، جار نال. الحقيقة هي أنها هناك».

- وكيف تفيدنا وهي مُعلقة هناك في السماء؟

- أعتقد أن بإمكاني الوصول إليها، عندما يحين الوقت»، قلت ذلك على الرغم من أنني لم أكنْ متأكدًا، في واقع الأمر، أنني أستطيع التحكم

في السفينة من خلال المخ الميكانيكي على هذه المسافة الكبيرة. «أنا لست قلقًا على سفينتي، جار نال، كما لست قلقًا على سفينتك. يجب أن نستعيدهما؛ لأن الهدنة بيننا ستنتهي بعد هروبنا من هذه القلعة، وليس من الجيد أن نرحل على نفس السفينة.

وافق بإيماءة، لكني رأيت عينيه تضيقان بمكر. وتساءلت عن إذا كان هذا التعبير يعكس تفكيراً بالغدر، لكني تجاهلت الفكرة لأن ما يفكر فيه جار نال لن يؤثر كثيراً ما دامت عيناي عليه إلى أن تصعد ديجاه ثوريس إلى متن سفينتي بأمان.

كان أور جان يجلس على مقعد طويل محملقًا في الفضاء، وأدركت أنه يحاول التركيز بعقله الغبي في محاولة للتخلص من تعويذة التنويم التي فرضها عليه التاريد. وكان أومكا يرقد ملتويًا على بساط، ويموء باطمئنان. أما جات أور، فقد وقف يتطلع من إحدى النوافذ.

فُتِح الباب، واستدرنا نحوه جميعًا. نحو ذلك. رأيت أولاه، أَمَة الجيدارة، تحمل جرة خزفية كبيرة من الطعام. وضعتها على الأرض، وعادت إلى الممر، ثم أغلقت الباب خلفها.

أسرعت إلى الجرة وحملتها؛ وعندما استدرت نحو الآخرين، رأيت أور جان يقف محدقًا في الباب بعينين متسعتين.

سألته: «ما الأمر، يا أور جان؟ تبدو كأنك رأيت شبحًا».

«رأيتها!»، هتف، «رأيتها. شبحًا أو غير شبح، رأيتها».

«جيد!»، صاح جات أور، «لقد تحررنا جميعًا الآن من تلك التعويذة اللعينة».

قال أور جان هادرًا: «أعطني سيفًا جيدًا، وسوف نتحرر قريبًا من القلعة أيضًا».

قال جار نال لتذكيره: «علينا أن نخرج من هذه الغرفة أولاً».

قلت لهم: «أعتقد أن لدينا هنا، في هذه الجرة، وسائل الهرب. هيا، علينا أن نأكل الطعام أيضًا، ما دام لدينا، ونرى ما قد نجده في قاع الجرة».

تجمع الآخرون من حولي، وبدأنا في إفراغ الجرة باستمتاع. وقبل أن نصل إلى عمقها، اكتشفت ثلاثة مقاشط، وبدأنا العمل فورًا لقطع قضبان إحدى نوافذنا.

حذرتهم قائلاً: «لا تقطعوهم تمامًا، علينا فقط إضعاف ثلاثة منها حتى نتمكن من سحبهم جانبًا عندما يحين الوقت».

كانت القضبان مصنوعة من معدن إما غير معروف على كوكبَي الأرض وبرسوم، أو من سبيكة غريبة غير معروفة أيضًا كانت شديدة الصلابة. وفي واقع الأمر، ظهرت في البداية بمثل صلابة مقاشطنا؛ وأخيرًا نجحنا في التمكن منها، إلا أنني أدركت أنه مهمة صعبة وسوف تستغرق وقتًا طويلاً.

واصلنا عملنا على تلك القضبان طوال الليل، وامتد عملنا طوال اليوم التالي.

وعندما أحضر العبيد طعامنا، وقف اثنان منا ينظران من النافذة، وأيدينا تمسك بالقضبان لإخفاء الأدلة على عملنا؛ وهكذا نجحنا في الانتهاء من المهمة دون أن نُكتشف.

هبط الليل. واقترب وقت اختبار المرحلة الأولى من خطتي، وهي المرحلة التي كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يتوقف عليه نجاح المغامرة برمتها. فإذا فشلت، سيصبح كل عملنا على القضبان بلا جدوى، وتتحطم عمليًّا آمالنا في الهرب. لم أكن قد أبلغت الآخرين بما سأقوم به، كما لم أبلغهم الآن بالشكوك والمخاوف التي هاجمتني.

كان أور جان ينظر من النافذة. وقال: «يمكننا سحب هذه القضبان متى نريد، لكنني لا أرى الفائدة المرجوة. إذا ربطنا كل ما لدينا من عتاد معًا، لن يصل إلى سطح القلعة أسفلنا. يبدو أن عملنا كان بلا جدوى».

قلت له: «اذهبْ إلى هناك واجلس ساكنًا. عليكم جميعًا السكون؛ لا تتكلموا أو تتحركوا حتى أقول لكم».

لم يخمن من بينهم سوى جات أور هدف محاولتي، إلا أنهم قاموا جميعًا بما طلبته.

ذهبت إلى النافذة وبحثت في السماء، لكني لم أتمكن من رؤية سفينتنا. ومع ذلك، سعيت إلى تركيز أفكاري على المخ المعدني أينما كان. وجهته إلى الهبوط والاقتراب من نافذة البرج حيث أقف. أعتقد أنني لم أركز ذهني من قبل، طوال حياتي، على فكرة واحدة. وكان رد الفعل الذي شعرت به مماثلاً تقريبًا لشعوري عند انقباض عضلاتي. تساقط العرق البارد على جبهتي.

كانت الغرفة خلفي صامتة كالقبر. ولم يأتِ خلال النافذة المفتوحة التي أقف عندها أي صوت من القلعة النائمة أسفلنا.

مرت الثواني البطيئة، في اتجاه ما يبدو أبدية الزمن. هل تجاوز المخ نطاق سيطرتي؟ هل فقدت السفينة إلى الأبد؟ هاجمتني هذه الأفكار مع بداية ضعف قوة تركيزي. اجتاحت ذهني عربدة مجنونة من الآمال والشكوك والمخاوف المتضاربة، فضلاً عن تأكيدات النجاح السريعة المفاجئة التي أخذت تتلاشى إلى يأس بنفس سرعة تناميها من لا شيء.

وعندئذ، رأيت عبر السماء الهيكل الأسود العظيم يتحرك ببطء نحوي خلال الليل.

أشعرتني هذه الاستجابة بالضعف للحظة، لكني سرعان ما استعدت السيطرة على نفسي، وخلعت القضبان الثلاثة التي قطعناها.

كان الآخرون يرقبون النافذة من حيث جلسوا أو وقفوا، والآن تحركوا إلى الأمام. سمعت صيحات مخنوقة من المفاجأة والارتياح والغبطة. استدرت نحوهم بسرعة، وطلبت منهم التحلي بالصمت.

وجهت المخ ليقترب بالسفينة من النافذة، ثم استدرت ثانية إلى رفاقي وقلت: «يوجد اثنان من محاربي التاريد على متنها. إذا وجدا ما تحمله من ماء وغذاء، فهذا يعني أنهما لا يزالان أحياء. وما من سبب للاعتقاد بأن الرجلين اللذين يتضوران جوعًا لن يجداه. ولذا، يجب أن نستعد للقتال. وكل رجل منهما مُسلح، دون شك، بسيف طويل وخنجر. نحن غير مسلحين. وعلينا التغلب عليهما بأيدينا».

نظرت نحو أور جان وقلت: «عند يُفتح باب السفينة، يجب أن يقفز اثنان منا إلى المقصورة في وقت واحد، بحيث يمكننا أخذهما على حين غرة. هل تذهب معي أولاً يا أور جان؟».

أومأ، وارتسمت ابتسامة صفراء على شفتيه. وقال: «نعم، وسيكون مشهدًا غريبًا رؤية أور جان وجون كارتر يقاتلان جنبًا إلى جنب».

قلت: «يجب على الأقل أن نخوض معركة جيدة».

فقال: «إنه لأمر سيئ أن هذين المحاربين من التاريد لن يتمتعا بشرف معرفة مَن قتلهما».

«جات أور، أنت وجار نال تتبعانا مباشرة أنا وأور جان». وبعد ذلك، أخبرت أومكا، بلغته الخاصة، أن يصعد على متن السفينة بعد جات أور وجار نال مباشرة. وقلت له: «إذا لم يكن القتال قد انتهى، أنت تعرف ماذا تفعل عندما ترى المحاربين التاريد». امتد فمه علوي في إحدى ابتساماته الغريبة، وأصدر مواء دليلاً على الرضى.

صعدت إلى عتبة النافذة، وتسلق أور جان إلى جانبي. كان هيكل السفينة يكاد يحتك بجانب المبنى، وكان مدخلها على بُعد قدم واحدة من العتبة التي وقفنا عليها.

همست: «استعد يا أور جان»، ثم وجهت المخ لفتح الأبواب بأسرع وقت ممكن.

انفتحت الأبواب على الفور تقريبًا، وفي اللحظة نفسها قفزنا أنا وأور جان إلى المقصورة. وجاء خلفنا رفاقنا الثلاثة. رأيت في عتمة السفينة من الداخل رجلين أمامنا؛ ودون انتظار لإعطاء أي منهما فرصة لامتشاق سيفه، ألقيت نفسي على ساقي أقربهما.

سقط على الأرض، وأمسكت بمعصميه قبل أن يسحب خنجره، وقيدت يديه خلف ظهره.

لم أشهد كيف تعامل أور جان مع الرجل الآخر. على أننا بعد لحظة، وبمساعدة جات أور وأومكا، جردناهما من سلاحهم.

أراد أور جان وجار نال قتلهما، إلا أنني لم أوافقهما. يمكنني أن أقتل رجلاً في معركة عادلة دون أي تأنيب من الضمير، لكني لا أستطيع قتل رجل أعزل بدم بارد، حتى لو كان عدوي.

وكتدبير وقائي، قمنا بتقييدهما وتكميم أفواههما.

«وماذا الآن؟»، سألني جار نال: «كيف ستحرر النساء؟».

أجبت: «سوف أحاول أولاً الوصول إلى سفينتك؛ ذلك أننا إذا أطلنا مدة الهدنة، ستُتاح لنا فرصة أفضل للعودة إلى برسوم لو كانت السفينتان في حوزتنا؛ لأن شيئًا ما قد يحدث لإحديهما».

قال: «أنت مُحق؛ كما أنني أكره أيضًا أن أفقد سفينتي. إنها ثمرة حياة كاملة من الفكر والدراسة والعمل».

قمت بتوجيه السفينة الآن بالارتفاع والابتعاد إلى حيث ظننت أنها بعيدة عن أنظار القلعة. وقد اعتمدت هذه الطريقة كمجرد استراتيجية للتخلص من التاريد خارج مسارنا في حال رأى أحد الحراس السفينة تحلق بين الأبراج. لكني، مع ابتعادنا قليلًا، جعلت السفينة تهبط وتقترب ثانية من القلعة من جانب الفناء الذي تقع فيه سفينة جار نال.

وأبقيت ارتفاع السفينة منخفضًا فوق أشجار الغابة، وتحركت ببطء شديد دون أضواء. وخلف سور القلعة مباشرة، وجهت السفينة أن تتوقف، وألقيت نظرة على الفناء القابع أمامنا وتحتنا مباشرة.

رأيت بوضوح الخطوط العريضة لسفينة جار نال. ولم يوجدْ على هذا الجانب من القلعة أي علامة على حارس.

على أن ذلك بدا جيدًا جدًّا ليكون صحيحًا، فسألت أومكا هامسًا: هل من الممكن أن تظل القلعة دون حراسة خلال الليل.

فقال: «يوجد حراس داخل القلعة طوال الليل، وخارج برج الماس، لكن مهمتهم تتمثل في حماية أوول فاس ضد أي عملية اغتيال من جانب أفراد شعبه. إنهم لا يخشون أن يأتي أي خصم من خلف الأسوار في الليل؛ لأن أحدًا لم يهاجمْ من قبل إلا نهارًا. فغابات لادان مليئة بالوحوش البرية؛ وإذا حاولت أي مجموعة من الرجال دخول الغابة ليلًا، تُحدِث الوحوش ضجيجًا من العويل والهدير يتيح للتاريد أخذ حذرهم خلال وقت كافٍ للدفَاع عن أنفسهم. وهكذا، كما ترى، تُعد وحوش الغابة بمثابة الحراسة التي يحتاجون إليها».

وهكذا تأكدت من عدم وجود أحد في الفناء، وأخذت السفينة عبر السور وهبطت بها على الأرض بجانب سفينة جار نال.

أعطيت تعليماتي بسرعة لما يجب القيام به. قلت: «جار نال، سوف تذهب على متن سفينتك وتطير بها خلفي. سوف نتوجه إلى نافذة الغرفة التي تُحتجز فيها الفتيات. وعندما أتوقف عند نافذتهن، سوف ينفتح البابان في جانبي سفينتي. افتح الباب الواقع عند منفذ سفينتك واجعله بجانب باب سفينتي، بحيث يمكنك عند الضرورة أن تمر من خلال سفينتي وتدخل غرفة احتجاز النساء. قد نحتاج إلى كل مساعدة ممكنة، إذا كانت النساء تحت حراسة جيدة».

* * *

الفصل (21)

في برج الماس

أزعجتني مخاوف غامضة عندما رأيت جار نال يدخل سفينته. بدت كهاجس لكارثة أو مأساة؛ لكنني أدركت أنها لا تستند إلى شيء أكثر جوهرية من كراهيتي الطبيعية للرجل، وهكذا سعيت إلى إبعادها وتكريس أفكاري على العمل الذي أقوم به.

كان الليل مظلمًا. لم يرتفع المريخ أو القمر كلوروس في السماء. ولأني كنت أعرف في واقع الأمر أنهما لن يكونا في السماء، فقد اخترت هذا التوقيت لإنقاذ ديجاه ثوريس ورفيقتها.

سمعت الآن صوت محركات سفينة جار نال، الذي قررنا أن يكون إشارة على استعداده للبدء. وعندما غادرت الأرض، ارتفعت من الفناء وعبرت السور واتخذت مسارًا يبعد عن المدينة. واصلت إلى أن شعرت أننا ابتعدنا عن أنظار أي مراقب يمكنه اكتشافنا. وكان خلفنا هيكل سفينة جار نال المظلم.

ارتفعت في طيران حلزوني واسع ودُرت عائدًا إلى الجانب الآخر من القلعة؛ وعندما اقتربت منه، توجهت إلى البرج الشاهق- برج الماس.

توجد ديجاه ثوريس وزاندا في مكان ما من هذا البرج اللامع. وإذا لم تكن أوزارا قد خانتني ولم يقع حادث يحبط خطتها، ستكون جيدارة التاريد معهن.

مرت لحظات شعرت خلالها بالقلق إلى حد ما، فيما يتعلق بأمانة وولاء أوزارا. إذا كان ما قالته هو الحقيقة، هناك إذَنْ سبب لرغبتها في الهرب من براثن أوول فاس. على أنها قد لا تتحمس حول هروب ديجاه ثوريس وزاندا.

أعترف أنني لا أفهم النساء. فهناك بعض الأشياء التي يقمن بها، عملياتهن العقلية، التي لا أجد لها غالبًا أي تفسير. نعم، أنا أحمق مع النساء؛ مع ذلك لم أكنْ غبيًّا وشعرت بشيء في طريقة تعامل أوزارا معي، شيء في حقيقة أنها أرسلت تستدعيني، بما يشير إلى اهتمام من جانب جيدارة التاريد قد يثبت أنه يتعارض مع مصالح أميرة هيليوم.

بيد أن أوزارا -جيدارة التاريد- لم تكن العامل الوحيد محل شكي في المشكلة التي واجهتني. لم أثقْ أيضًا في جار نال. وأشك أن أي شخص ينظر في عين الرجل مرة

واحدة، يمكن أن يثق به. وكان أور جان خصمي علانية، ومن مصلحته أن يخونني أو يدمرني.

ولا بد أن زاندا قد عرفت الآن من ديجاه ثوريس أنني جون كارتر أمير هيليوم. وما من شك في أن هذه المعرفة تحررها من كل شعور بالالتزام تجاهي؛ فلا يمكنني نسيان أنها أقسمت على قتل جون كارتر إذا ما أُتيحت أمامها فرصة. يتبقى فقط جات أور وأومكا، اللذان بإمكاني الاعتماد عليهما؛ وإن كنت -في واقع الأمر- لا أعتمد كثيراً على أومكا. قد تكون نواياه جيدة بما يكفي، لكني لا أعرف سوى القليل جدًّا عن شجاعته وقدرته القتالية بحيث أتأكد أن الرجل القط في لادان سوف يثبت أنه حليف مهم وفاعل.

وخلال تسابق هذه الأفكار المحبطة في ذهني، كنت أهبط بالسفينة ببطء نحو برج الماس وأدور حوله؛ ورأيت الآن وشاحًا أحمر اللون عبر عتبة نافذة مضاءة.

اقتربت السفينة بصمت. وفتحت الأبواب في جانبي المقصورة للسماح لجار نال بالعبور من سفينته إلى النافذة في البرج.

وقفت على عتبة مدخل المنفذ، على استعداد للقفز داخل الغرفة لحظة اقتراب السفينة إلى حدٍّ كافٍ.

لم تكن الغرفة وراء النافذة جيدة الإضاءة من الداخل؛ على أني تمكنت خلال تلك الإضاءة القاتمة أن أرى شخصيات ثلاث نساء، وقفز قلبي مع تجدد الأمل.

لم يكن اكتشاف الوشاح القرمزي يحلق من النافذة يبعث على اطمئناني تمامًا، إذ كنت أدرك تمامًا أنه ربما وُضع هناك كإغراء؛ لكن وجود النساء الثلاث في الغرفة كان دليلاً معقولاً على أن أوزارا نفذت بإخلاص الجزء الخاص بها من الاتفاق.

عندما زاد اقتراب السفينة من عتبة النافذة، كنت متأهبًا للقفز إلى داخل الغرفة. وما إن قفزت، حتى سمعت صوتًا يرتفع من قاعدة البرج مُنبهًا ومُحذرًا. لقد اكتشفونا.

عندما نزلت على أرضية الغرفة، صاحت ديجاه ثوريس تعبيراً عن سعادتها: «يا قائدي! كنت أعرف أنك ستأتي. أينما يأخذونني، كنت أعرف أنك ستأتي».

أجبت: «إلى نهاية الكون، يا أميرتي».

لم تترك لنا صيحة التحذير التي أتت من أسفل، وعرفت منها أننا انكشفنا، وقتًا للتحية أو التفسير، كما أنني وديجاه ثوريس لن نكشف للغرباء عن المشاعر التي تجيش في صدورنا. أردت أن أضمها إلى قلبي، وأعتصر جسدها الجميل، وأغطي شفتيها

بالقبلات؛ لكني لم أقل لها بالأحرى سوى: «هيا، علينا أن نصعد على متن السفينة في الحال. فقد أطلق الحارس أدناه تحذيرات».

أتت زاندا وأمسكت ذراعي، وقال: «كنت أعرف أنك ستأتي يا فاندور».

لم أفهم استخدامها لهذا الاسم. ألم تخبرها ديجاه ثوريس مَن أنا. أوزارا أيضًا تعرف اسمي. ويبدو من المستحيل أنها لم تذكره عندما جاءت إلى الغرفة لتشرح للمرأتين السجينتين وجود خطة للإنقاذ ومن الذي سيتولى تنفيذها.

لم تتقدم جيدارة التاريد لتحيتي. ألقت نظرة فاحصة نحوي من أسفل جفنيها الضيقين، خلال الأهداب الناعمة لرموشها الطويلة. ولما استقرت عيناي لحظة على عينيها، اعتقد أنني وجدت في نظرتها لمحة من الحقد؛ ولكن ربما هذا ما تخيلته فقط، وليس لديَّ بالتأكيد وقت الآن لتحليل مشاعرها أو التشكيك فيها.

التفت نحو النافذة مع ديجاه ثوريس، وانتابتني حالة من الذعر. لقد اختفت السفن!

جريت نحو الفتحة ونظرت، فرأيت السفينتين على اليسار تتحركان خلال الليل.

ماذا حدث لتتحطم خططي في لحظة النجاح نفسها؟

شاركتني النساء الثلاث الذعر. صاحت ديجاه ثوريس: «السفينة!».

وصاحت أوزارا: «أين ذهبت؟».

وقالت زاندا ببساطة: «لقد ضعنا. أسمع رجالاً مسلحين يركضون إلى أعلى السلم».

أدركت فجأة ما حدث. كنت قد وجهت المخ للاقتراب من النافذة، لكني لم أقلْ له أن يتوقف. لقد قفزت إلى داخل الغرفة، وتحركت السفينة قبل أن يتمكن رفاقي من اتباعي؛ وواصل جار نار مع السفينة كما أخبرته لكنه لم يعرف ماذا حدث.

ركزت أفكاري فورًا على المخ الميكانيكي ووجهته لإعادة السفينة إلى النافذة والتوقف عندها. ما من فائدة الآن للوم ذاتي، وإن كان لا يسعني إلا إدراك أن إهمالي قد عرض سلامة أميرتي للخطر، وسلامة الآخرين الذين يتوقعون مني الحماية.

أسمع بوضوح الآن أصوات المحاربين يقتربون. كانوا يأتون بسرعة. رأيت من النافذة الآن السفينتين تستديران. هل ستصلان إلينا قبل فوات الأوان؟ أمرت المخ بأن يعود بأقصى سرعة تتوافق مع السلامة. قفزت السفينة إلى الأمام استجابة لرغباتي. يسرع المحاربون، وأتصور أنهم يقتربون من المستوى الأدنى مباشرة، وفي لحظة سيصلون إلى الباب.

كنت أحمل السيف الطويل لأحد محاربي التاريد الذي تغلبنا عليه في مقصورة المركبة، ولكن هل يمكن لسيف واحد أن ينجح لفترة طويلة في مواجهة الكثيرين الذين أعرف أنهم قادمون؟

زاد اقتراب السفينتين، حيث سفينة جار نال إلى جوار سفينتي تقريبًا. رأيت جات أور وأور جان يقفان عند مدخل سفينة فال سيفاس.

قلت لهما: «لقد انطلق صوت الإنذار ويقترب المحاربون من بابنا. سأحاول صدهم إلى أن تنقلوا النساء».

سمعت خلال حديثي أصوات الخصوم خارج باب الغرفة. قلت للنساء الثلاث: «ابقين على مقربة من النافذة، ثم اصعدن على متن السفينة عندما تمس العتبة»؛ ثم عبرت الغرفة بسرعة إلى الباب، وسيف التاريد الطويل جاهز في يدي.

انفتح الباب بمجرد وصولي، ورأيت عشرات المحاربين يحتشدون في الممر. عندما قفز أولهم داخل الغرفة، سقط كاملاً على رأس نصلي، ومات على صرخة واحدة. وعندما نزعت سيفي من قلبه، اندفع إلى الأمام عند قدمي.

وفي اللحظة نفسها، أُجبر ثلاثة رجال على دخول الغرفة، بدفع ممن يقفون خلفهم.

وجه أحدهم طعنة نحوي، وحاول آخر إحداث قطع هائل في رأسي. تفاديت الطعنة، وراوغت محاولة إحداث القطع، ثم شققت بنصلي جمجمة أحدهم.

نسيت للحظة كل شيء في نشوة المعركة. شعرت بتوتر شفتي في ابتسامة القتال التي أشتهر بها في عالَمينِ. ومرة أخرى، كما حدث في

العديد من ميادين القتال الأخرى، بدا سيفي مُلهَمًا. لم يكن التاريد مبارزين منحطين أو جبناء. تدافعوا إلى الأمام داخل الغرفة فوق جثث رفاقهم القتلى.

أعتقد أنه كان بإمكاني القضاء عليهم بمفردي، في ظل هذا الحماس الشرس الذي جعلني ألقي بكياني كله دفاعًا عن أميرتي؛ لكنني أسمع الآن وقع أقدام عديدة وقعقعة تجهيزات تأتي من أسفل. التعزيزات قادمة!

كانت معركة مجيدة حتى الآن. يرقد ستة قتلى على الأرض حولي، لكن الستة الآخرين دخلوا جميعًا إلى الغرفة الآن. ومع ذلك، لم أكن لأشعر بالإحباط لو لم أسمع القصف المدوي لتلك الأقدام العديدة التي تصعد بسرعة من أسفل.

كنت مشتبكًا مع زميل ضخم يسعى لدفعي إلى الخلف، عندما حاول أحد رفاقه الوصول إلى جانبي وتشتيت انتباهي، بينما تقدم آخر إلى جانبي المعاكس.

أصبح وضعي في تلك اللحظة محرجًا، على أقل تقدير. فالرجل الذي اشتبك معي من الأمام لم يكن زميلاً قويًّا فحسب، بل كان أيضًا مبارزًا رائعًا؛ ثم رأيت ومضة سيف على يميني وأخرى على يساري. سقط اثنان من خصومي، وأظهرت نظرة سريعة أن أور جان وجات أور يقاتلان إلى جانبي.

عندما قفز بشجاعة التاريد الثلاثة المتبقون لاتخاذ أماكن رفاقهم الذين سقطوا، وصلت تعزيزاتهم؛ واندفع فيضان من المحاربين داخل الشقة وهم يصيحون.

ومع نجاحي أخيراً في التخلص من خصومي، انتهزت فرصة لحظية لإلقاء نظرة خلفي.

رأيت النساء الثلاث وأومكا في الغرفة، وجار نال يقف على عتبة النافذة.

صرخت: «بسرعة، جار نال، خذ النساء على متن السفينة».

انشغلت في الدقائق القليلة التالية كما لم أنشغل في حياتي أبدًا قبل، كان التاريد حولنا. لقد نجحوا في تطويقنا. بقيت منشغلاً باستمرار مع سيفين أو ثلاثة في وقت واحد. لم أتمكن من رؤية ما يحدث في باقي الغرفة، لكن أفكاري كانت دومًا حول ديجاه ثوريس وسلامتها. وتبادر إلى ذهني فجأة أنها إذا مات كل مَن يقاتل في الغرفة، سوف تُترك في قبضة جار نال دون مدافع عنها.

كان جات أور يقاتل بالقرب مني. قلت له: «الأميرة! إنها وحدها على متن السفينة مع جار نال. وإذا قُتِل كلانا، ستضيع الأميرة. اذهبْ إليها على الفور».

سألني: «وأتركك يا أميري؟».

قلت: «إنه ليس طلبًا، جات أور، لكنه أمر».

أجاب: «نعم يا أميري»، وشق طريقه بالقتال إلى النافذة.

«ساعده يا أور جان»، قلت آمرًا.

نجح ثلاثتنا في فتح طريق أمام جات أور ليصل إلى النافذة. وعندما وقفنا وظهورنا للنافذة، رأيت شيئًا أثار ذعري. كانت أوزارا، جيدارة التاريد، تكافح عند أحد الجوانب في قبضة اثنين من المحاربين.

صرخت: «أنقذني، جون كارتر! أنقذني، أو سيقتلونني».

لا يوجد أي شيء آخر يمكنني القيام به. ما من سبيل آخر مُشرّف. سهلت لنا أوزارا إمكانية الهرب، وربما أدى ما فعلته إلى إنقاذ ديجاه ثوريس بالفعل. لقد وضعنا غبائي في هذا الموقف، الذي أصبح الآن تهديدًا أكيدًا لحياة الجيدارة.

نجحت، أنا وجات أور وأور جان، في القضاء على المحاربين الذين كانوا في مواجهتنا مباشرة؛ ويبدو أن الآخرين، ربما أقل أفراد الفرقة شجاعة، يتردد في الاشتباك معنا ثانية.

التفت إلى رفاقي، وصحت: «أسرعوا إلى متن السفينة، وحافظوا على مدخلها إلى أن أحضر الجيدارة على متنها».

ما إن بدأت التحرك نحو المحاربين الذين يحملون أوزارا، حتى رأيت أومكا بجانبي. كان مقاتلاً جيدًا في المعركة على الرغم من أنه لا يحمل سيفًا، وهو ما لم أفهمه عندئذ نظرًا لوجود إمدادات وفيرة من الأسلحة على متن السفينة؛ لكني عرفت لاحقًا أن الماسينيين لا يقاتلون بالسيوف أو الخناجر؛ لأنهم لا يعرفون طريقة استخدامها على الإطلاق.

رأيت طريقته في القتال، وأدركت أن عضلاته القوية وفكي فمه السفلي الرهيبين تُعد أسلحة كافية حتى ضد المبارز، فضلاً عن خفة حركة الماسينيين كالقطط.

وقد أصيب أومكا بعدد من الجروح؛ وكان ينزف بغزارة، مثلنا جميعًا؛ لكني رأيت أنه في حالة سيئة، وأمرته بالعودة إلى السفينة. اعترض في البداية، لكنه ذهب أخيرًا؛ وأصبحت بمفردي في الغرفة مع التاريد المتبقين.

كنت أعرف أن موقفي يائس، لكني لم أستطع أن أتركهم يقتلون هذه الفتاة التي ساعدتني.

تقدمت لمهاجمة خاطفيها، وهنا رأيت فريقًا آخر من التعزيزات ينطلق داخل الغرفة.

أصبحت الآن في وضع يائس تمامًا.

لم يكن اهتمام الوافدين الجدد موجهًا نحوي، بل ركضوا مباشرة إلى النافذة حيث تكمن السفينة. إذا نجحوا في الصعود على متنها، سيكون موت ديجاه ثوريس مؤكدًا.

لا توجد سوى طريقة واحدة لصدهم، على الرغم من أنها قد تعني نهايتي بالتأكيد.

كان الرجلان اللذان يحملان أوزارا ينتظران هجومي عليهما. لكني توقفت لفترة كافية لإرسال أمر عقلي إلى المخ الميكانيكي في مقدمة سفينة فال سيفاس.

ألقيت نظرة على السفينة. يقف أور جان وأومكا في المدخل، وجات أور غير موجود. وعندما بدأت السفينة تتحرك مبتعدة إطاعة لأمري، ظهر البادوار الشاب.

صاح: «يا أميري، لقد تعرضنا لخيانة. هرب جار نال في سفينته ومعه ديجاه ثوريس».

هاجمني التاريد؛ وتلقيت ضربة على رأسي أفقدتني الوعي.

* * *

الفصل (22)

في الزنزانة المظلمة

استعدت الوعي، ووجدت الظلام يلفني وصمت القبور يحيط بي. كنت راقدًا على أرضية حجرية باردة، ورأسي يؤلمني. تحسست رأسي براحة يدي، وجدت دماء جافة، وشعري مُعقدًا.

كنت أشعر بدوار. سحبت نفسي إلى وضع الجلوس، ثم وقفت. أدركت أنني ربما لست مصابًا بجروح خطيرة، وبدأت في استكشاف المكان المحيط بي.

تحركت بحذر، ومددت يدي إلى الأمام لأتلمس طريقي خلال الظلام، وسرعان ما لمست جدارًا حجريًّا. تبعته لمسافة قصيرة إلى أن اكتشفت وجود باب. كان بابًا ضخمًا، وموصدًا بحزم من الجانب الآخر.

واصلت الحركة؛ درت حول الغرفة وصولاً إلى الباب مرة أخرى. كانت غرفة صغيرة، إنها زنزانتي الجديدة. ليس بها ما يمكنها أن تقدمه لعيني أو أذني. بدأت أدرك نوع العالَم الذي يعيش فيه المكفوفون والصم.

لم يتبقَّ من حواسي إذَنْ سوى التذوق والشم واللمس.

لا تفيدني حاسة التذوق، بطبيعة الحال، في ظل هذه الظروف. أما عن حاسة الشم، فقد تعرفت أنفي في البداية على رائحة قديمة وعفنة، لكنني أصبحت معتادًا عليها الآن ولم تعُد ذات تأثير على الإطلاق. لم يبقَ لي إذَنْ سوى حاسة اللمس. عالمي عبارة عن جدران قوية تضم بابًا خشبيًّا.

تساءلت كم من الوقت سيتركونني هنا. كان الأمر أشبه بدفني حيًّا. أعرف أنني يجب أن أشحذ إرادتي في مواجهة تلك الرتابة الرهيبة، في رفقة جدار حجري وباب خشبي وأفكاري.

أفكاري! لم تكن أفكاري ممتعة. فكرت في ديجاه ثوريس وهي بمفردها في قبضة جار نال؛ وفكرت في جات أور المسكين، المسجون في سفينة لا يستطع السيطرة عليها مع أور جان القاتل الوحشي من زودانجا. كنت أعرف ما يفكر فيه، وهو لا يعرف شيئًا عن مصيري، وشعوره بالمسؤولية عن سلامة ديجاه ثوريس التي يعجز عن حمايتها أو الانتقام لها.

فكرت في زاندا المسكينة ومصيرها شديد القسوة، حيث سيحكمون عليها بالموت الآن فوق هذا القمر البعيد.

وأومكا.. حسنًا، كان أومكا يتوقع الموت، وبالتالي ليس أسوأ حالاً الآن مما كان يمكن أن يحدث له إن لم يلتقِ بي.

على أن الفكرة الأكثر مرارة من بين جميع الأفكار هي أن إهمالي تسبب في كارثة لجميع مَن كانوا ينتظرون مني المساعدة والحماية.

وهكذا -دون جدوى- أضفت التعذيب العقلي إلى رتابة تلك الساعات البطيئة.

كانت الحفرة الشبيهة بالقبو -التي سجنت فيها- باردة ورطبة. خمنت أنهم وضعوني في حفرة تحت القلعة حيث لا يمكن لأي سفينة أن تصل إليَّ. تيبست عضلاتي، وسارت الدماء ببطء خلال عروقي، واجتاحني اليأس.

أدركت الآن أنني سأضيع إذا أفسحت المجال لتأملاتي الكئيبة. ذكّرت نفسي مرارًا وتكرارًا أنني ما زلت أعيش. قلت لنفسي إن الحياة حلوة؛ وما دامت مستمرة، لا تزال أمامي فرصة لتخليص لنفسي والخروج إلى العالم مرة أخرى لخدمة أميرتي.

بدأت في التحرك حول زنزانتي، دُرت فيها عدة مرات إلى أن عرفت أبعادها؛ ثم هرولت إلى الأمام والخلف، جيئة وذهابًا، وحول جدرانها؛ وتحركت مثل ملاكم الظل، أهاجم وأصد، حتى تدفقت الدماء ثانية في عروقي وشعرت بدفء الحياة يجدد حيويتي ويطرد رواسب القلق الكريهة من ذهني.

لم أتمكن من الاستمرار هكذا، فسعيت إلى إلهاءات أخرى وقمت بإحصاء عدد الأحجار في جدران زنزانتي. بدأت عند الباب، وانتقلت إلى اليسار. ولم تكن التسلية الأكثر إمتاعًا التي انغمست فيها، لكنها أضافت على الأقل نكهة من الإثارة؛ إذ فكرت أنني قد أجد بعض الأحجار غير المُثبتة جيدًا، بما قد يكشف عن فتحة تؤدي إلى شقة أخرى، وبالتالي الهروب. وهكذا ساعدني خيالي على تخفيف أهوال الظلام والصمت.

لم أستطع، بطبيعة الحال، قياس الوقت. لم أعرف كم من الوقت سُجِنت، على أني في النهاية شعرت بالنعاس. استلقيت على الأرضية الباردة والرطبة.

وعندما استيقظت، لم أعرف كم من الوقت نمت؛ لكنني شعرت بانتعاش، فاستنتجت أنني نمت عدد الساعات المعتاد للراحة.

بيد أن الشعور بالبرد والخدر انتابني ثانية؛ فعُدت مرة أخرى إلى ممارسة التدريبات بغية استعادة دورتي الدموية لوضعها الطبيعي. وخلال انشغالي بالتدريبات، سمعت أصواتًا وراء باب زنزانتي.

توقفت لأستمع. نعم، هناك شخص يقترب. انتظرت، ووجهت بصري في الاتجاه الذي أعرف أن الباب يقع عنده. والآن، ينفتح الباب ويسطع ضوء.

كان ضوءًا يُعمي من اعتادت عيناه على ظلام الزنزانة التام. كان لا بد أن أدير رأسي بعيدًا وأخفي عينيَّ بيديَّ.

وعندما تمكنت من النظر ثانية، رأيت محاربًا يحمل شعلة، ووعاء من الطعام، وإبريقًا من الماء.

فتح المحارب الباب باتساع يكفي لتمرير الأوعية ووضعها على أرضية زنزانتي. رأيت سلسلة ثقيلة تحول دون فتح الباب أكثر من ذلك، فضلاً عن أنها تمنعني من مهاجمة حامل طعامي ثم الهروب.

رفع الزميل الشعلة فوق رأسه ونظر نحوي، ثم أدخلها خلال شق الباب بحيث أضاءت زنزانتي من الداخل تمامًا، أو على الأقل بارتفاع بعض العوارض الخشبية الثقيلة التي امتدت عبر الغرفة على ارتفاع حوالي عشرين قدمًا من الأرضية.

قال المحارب: «لم تُقتَل إذَنْ».

أجبت: «هذا أكثر مما يمكنك قوله لبعض الآخرين الذين قاتلوا في برج الماس الليلة الماضية، ألم تكن الليلة الماضية؟».

قال: «لا، كانت الليلة قبل الماضية. لا بد أنها كانت معركة. لم أكن هناك، لكن القلعة كلها تتحدث عنها منذ ذلك الحين. يقول مَن قاتلوا ضدك إنك أعظم مبارز على الإطلاق. ويرغبون أن تبقى هنا وتقاتل من أجلهم وليس ضدهم. لكن أوول فاس العجوز غاضب جدًّا لدرجة أن لا شيء سيرضيه سوى موتك».

قلت موافقًا: «أستطيع أن أتخيل أنه لا يشعر نحوي بأي شعور طيب».

- لا، أراهن بحياتي أنه لا يشعر نحوك بأي شعور طيب. كان قيامك بتهريب جميع سجنائه سيئًا بما يكفي؛ لكن التخطيط لأخذ الجيدارة معك في حياته، يااااه! هذا شيء في حد ذاته. يقولون إن السبب في أنك ما زلت حيًّا يرجع إلى أنه لم يحدد بعد طريقة الموت التي تتناسب مع جريمتك.

سألته: «والجيدارة؟ ماذا عنها؟».

- لقد حبسها؛ وسوف تُقتل أيضًا. أتصور أنه يخطط لإعدامكما في نفس الوقت، وربما بنفس الطريقة. من العار قتل مبارز مثلك، لكني متأكد أنها ستكون طريقة مثيرة جدًّا للاهتمام. وآمل أن يحالفني الحظ لرؤيتها.

قلت: «نعم، آمل أن تستمتع بها».

قال بحسن نية: «سوف يستمتع الجميع، باستثنائك أنت وأوزارا»، ثم سحب الشعلة وأغلق الباب وأوصده، وسمعت خطواته تبتعد.

تلمست طريقي إلى الطعام والماء. كنت جائعًا وعطشانًا. تأملت خلال تناولي الطعام ما قاله وما رأيته في ضوء الشعلة المتوهجة.

أثار اهتمامي ارتفاع العوارض الخشبية بمسافة عشرين قدمًا عن الأرض. ويبدو عدم وجود أي شيء فوقها سوى فراغ مظلم، كما لو أن سقف الزنزانة أعلى بكثير.

انتهيت من وجبتي، وعزمت على استكشاف ما يكمن فوق تلك العوارض. على المريخ، تتيح لي عضلاتي كرجل من كوكب الأرض أن أقفز إلى ارتفاعات غير عادية. تذكرت الحسابات، وأن رجل كوكب الأرض يمكنه بكامل حجمه أن يقفز في ثوريا إلى ارتفاع 225 قدمًا. أدرك، بطبيعة الحال، أن حجمي تقلص، بحيث إن حجمي لم يعُد - مقارنة بالنسب في ثوريا- مثلما كان عليه في برسوم. ومع ذلك، لا أزال على يقين أن عضلاتي المنتمية إلى كوكب الأرض تسمح لي بالقفز أعلى بكثير من أي ساكن في لادان.

ومع الاستعداد لوضع خطتي موضع التنفيذ، واجهت العقبة الخطيرة التي يطرحها الظلام التام. ليس بمقدوري رؤية العوارض الخشبية، وقد يصطدم رأسي بإحداها مباشرة عندما أقفز نحوها، مما قد يسفر عن نتائج مؤلمة للغاية، إن لم تكن قاتلة.

عندما لا يمكنك الرؤية، يصعب أن تعرفة مدى ارتفاع قفزتك. ليس لديَّ أي ضوء، وليس لديَّ وسيلة لصنع ضوء؛ وبالتالي، كل ما يمكنني القيام به هو توخي الحذر بقدر ما أستطيع وأضع ثقتي في الحظ.

حاولت الوثب قليلاً في البداية، وأنا أمد يدي فوق رأسي. نجحت المحاولة؛ لأنني في النهاية ضربت في عارضة.

قفزت مرة أخرى لتحديد موقعها بالضبط، ثم قفزت ثانية وأمسكت بها. رفعت نفسي إلى العارضة، ثم تحسست طريقي عليها وصولاً إلى الجدار. وقفت، ومددت يدي إلى أعلى، لكني لم أجدْ أي شيء فوقي.

انتقلت إلى طرف العارضة الآخر، لكني لم أجدْ شيئًا يمنحني أي بارقة أمل.

سيكون انتحارًا أن أواصل البحث أبعد من ذلك، بالقفز أعلى العارضة، وهكذا هبطت إلى الأرض مرة أخرى. قفزت ثانية نحو عارضة أخرى وإجراء بحث مماثل، لكني وصلت إلى نفس النتيجة.

واصلت -على هذا النحو- استكشاف الفراغ فوق العوارض الخشبية واحدةً تلو الأخرى، وإلى أبعد مسافة يمكنني الوصول إليها؛ ولم تختلف النتيجة.

كانت خيبة أملي شديدة. في مثل حالتي، يتعلق المرء بأي قشة صغيرة. يضع كل آماله ومستقبله وحياته عليها، وعندما لا تكفي لدعم ثقل هذه المسؤولية، يغرق في أقصى أعماق اليأس.

لكني لن أعترف بالهزيمة. العوارض الخشبية موجودة؛ ويبدو أن العناية الإلهية وضعتها لي لأستخدمها بطريقة ما.

أجهدتُ عقلي بحثًا عن خطة للهرب. كنت مثل فأر في مصيدة، فأر محاصَر، وبدأ ذهني يعمل بمكر وحش بري يسعى إلى الهروب من فخ.

تبادرت فكرة إلى ذهني الآن. بدت مُرسلة من السماء؛ ربما لأنها كانت الخطة الوحيدة التي طرحت نفسها، وليس لأنها تتسم بأي ميزة جوهرية. كانت خطة جريئة ورعناء، تعتمد على أشياء كثيرة ليس لديَّ سيطرة عليها. ولا بد أن القدر سيكون كريمًا معي إذا نجحت.

واتتني الفكرة وأنا أجلس مكتئبًا فوق العارضة الأخيرة بعد أن أنهيت بحثي. نزلت إلى أرضية زنزانتي على الفور، وتوجهت نحو الباب ووقفت بجانبه، أتنصت.

لا أعرف كم من الوقت بقيت هناك. وعندما غلبني التعب، استلقيت ونمت وأذني على الباب. لم أتركْ هذا الموقع أبدًا. مارست تدريباتي قفزاً في المكان نفسه عند هذا الباب المشؤوم.

وأخيراً، التقطت أذناي شيئًا.

كانت خطوات تقترب. أسمعها تسير متثاقلة، لكنها كثيرة؛ وأسمع صوت قعقعة احتكاك المعادن. تزداد الأصوات صخبًا. وأسمع صوت اقتراب محارب.

قفزت إلى العارضة التي تقع فوق الباب مباشرة، وجثمت هناك مثل وحش جارح، وانتظرت.

توقفت الخطوات خارج زنزانتي. سمعت انزلاق القضبان التي تغلق الباب، ثم فُتح الباب وظهر ضوء. رأيت ذراعًا تمتد إلى الغرفة، واليد تضع جرار المواد الغذائية والمياه. دخلت اليد التي تحمل الشعلة المتوهجة إلى الغرفة، ثم ظهر رأس رجل. رأيت الزميل يطوف ببصره داخل الزنزانة.

صاح: «مهلاً ، هناك!» صاح، «هااا، أين أنت؟»

لم يكن صوت الرجل الذي أحضر طعامي في المرة السابقة. لم أرد.

تمتم قائلاً: «باسم تاج الجيداك، هل هرب الزميل؟».

سمعته يحرك السلسلة التي تحول دون فتح الباب إلا لبضع بوصات، وتوقف قلبي. هل يمكن أن يتحقق أملي الجامح؟ تتوقف على هذا الأمل إمكانية تحقيق باقي خططي وآمالي.

تأرجح الباب مفتوحًا، ودخل الرجل إلى الغرفة بحذر. كان محاربًا قويًّا، يحمل الشعلة في يده اليسرى، ويقبض باليمنى على سيف طويل حاد.

تحرك بحذر وهو ينظر حوله في كل خطوة.

لا يزال قريبًا جدًّا من الباب. بدأ يتحرك ببطء شديد عبر الزنزانة متمتمًا. تابعته في الظلام فوق العارضة أعلاه، كنمر يطارد فريسته. تراجع وهو لا يزال يتمتم في دهشة. سار تحت موقعي، وعندئذ قفزت.

* * *

الفصل (23)

الباب السري

اندفعت نحو المحارب وطرحته أرضًا. تردد صدى صرخاته متجاوزًا الغرفة والممر وراءها، بما يكفي لجلب كل مقاتلي القلعة.

انطفأ ضوء الشعلة عندما سقط الرجل، وقاتلنا في ظلام دامس. كان هدفي الأول هو إسكات صرخاته، وقد نجحت ما إن وجدتْ أصابعي حنجرته.

يبدو من طبيعة المعجزة أن يتحقق حلمي في الهرب، خطوة خطوة، كما تصورته تحديدًا. ومنحتني هذه الفكرة الأمل في أن يستمر حظي الجيد في رعايتي إلى أن أخرج بأمان من براثن أوول فاس.

كان المحارب الذي أقاتله، على الأرض الحجرية لتلك الزنزانة المظلمة أسفل قلعة التاريد، رجلًا يتسم بقوة بدنية عادية، وسرعان ما تمكنت من إخضاعه.

ربما أنجزت ذلك أسرع مما تصورت؛ فبعد أن وضعت أصابعي على رقبته، وعدته أنني لن أقتله إذا توقف عن القتال ومحاولة الصراخ.

كان الزمن عاملًا شديد الأهمية بالنسبة لي؛ فحتى لو لم تصل صرخاته إلى سمع رفاقه أعلى السلالم، سيبدؤون البحث عنه إن لم يعد إلى واجباته الأخرى في غضون فترة زمنية معقولة. وإذا كان لي أن أهرب، لا بد أن أخرج فورًا. وهكذا، بعد أن قدمت عرضي للرجل وتوقف عن القتال، أبعدت قبضتي عن حنجرته لفترة تكفي لقبوله اقتراحي أو رفضه.

وافق، لأنه رجل ذكي.

قمت على الفور بتقييده في عتاده، وكممت فمه كإجراء وقائي إضافي، ثم أخذت خنجره. وبعد أن تحسست الأرض، وجدت السيف الطويل الذي سقط من يده عندما هاجمته بداية.

قلت له: «والآن، وداعًا يا صديقي. لا تشعر بالإهانة لهزيمتك؛ لأن رجالًا أفضل منك بكثير قد انهزموا أمام جون كارتر، أمير هيليوم»؛ ثم خرجت وأغلقت باب الزنزانة وأوصدته ورائي.

كان ظلام الممر حالكًا. لم أشهد منه، أو من جزء منه بالأحرى، سوى لمحة سريعة واحدة عندما أحضروا طعامي في اليوم السابق.

بدا لي حينذاك أن الممر يقود مباشرة من المدخل إلى زنزانتي. والآن، أتلمس طريقي خلال الظلام في هذا الاتجاه. ربما كان ينبغي أن أتحرك ببطء على طول هذا الممر المجهول، لكني لم أفعلْ؛ فقد كنت أعرف أنه إذا كانت صرخات المحارب قد وصلت إلى القلعة أعلاه، ربما بدأ البحث عن سببها. ولم أكنْ أرغب بالتأكيد في مقابلة مجموعة من الرجال المسلحين في هذا الزقاق الذي أسير فيه.

أبقيت إحدى يديَّ على الجدار لتوجيهي، وتحركت بسرعة إلى الأمام. وبعد أن مشيت حوالي مائة ياردة، لاحظت ضوءًا خافتًا أمامي. ليس ضوء الشعلة الأصفر، لكنه بالأحرى ضوء النهار المنتشر.

زاد الضوء مع اقترابي منه. وصلت حاليًا إلى أسفل السلم الذي ينتشر منه الضوء.

لم أسمع طوال هذا الوقت أي شيء يشير إلى قدوم شخص للتحري، وبالتالي صعدت السلم ولديَّ شعور ببعض الأمان على الأقل.

دخلت الطابق الأعلى بأقصى قدر من الحذر. كان الضوء هنا أكبر. وجدتني في ممر قصير يوجد باب على كل من جانبيه، وينتهي الممر أمامي إلى ممر بالعرض. تحركت بسرعة إلى الأمام نظرًا لقدرتي الآن على رؤية طريقي بوضوح تام؛ ذلك أن الممر العرضي، على الرغم من قتامته الشديدة، كانت إضاءته أفضل بكثير من الممر الذي خرجت منه.

هنأت نفسي على حسن حظي وأنا على وشك دخول الممر العرضي؛ وعندئذ اصطدمت بشخصية عند المنعطف.

كانت امرأة. وربما كان وقع المفاجأة عليها أكبر لأنها بدأت في الصراخ.

كنت أعرف أنني لا بد، قبل أي شيء، أن أمنعها من إعطاء إنذار؛ ولذا أمسكت بها ووضعت يدي على فمها.

لقد اصطدمت بها بمجرد استدارتي لدخول الممر الآخر، ورأيتها بكامل طولها. الآن، وأنا أحاول إسكاتها، رأيت اثنين من المحاربين يستديران لدخول الممر من طرفة الآخر البعيد. كانا يتحركان في اتجاهي. من الواضح أنني أسرعت في تهنئة نفسي.

لولا أسيرتي الي تُثقل كاهلي، ربما وجدت مكانًا للاختباء، أو أن أنصب لهما كمينًا في هذا الممر المظلم وأقتلهما قبل أن يتمكنا من إطلاق إنذار؛ لكنني هنا ويداي مكبلتان: إحداهما تمسك بالفتاة والأخرى تمنع محاولتها للصياح.

لم أستطع قتلها؛ وإذا حررتها، سوف تجلب القلعة بأكملها ضدي في لحظات قليلة. بدت حالتي يائسة تمامًا، لكني لم أتخلَّ عن الأمل. لقد تقدمت كثيراً، ولم ولن أعترف بالهزيمة.

تذكرت البابين اللذين شاهدتهما في الممر القصير. كان أحدهما على بُعد بضع خطوات خلفي.

همست: «اهدئي، ولن أؤذيكِ»، ثم سحبتها على طول الممر إلى الباب الأقرب.

لم يكن مغلقًا، لحسن الحظ، لكنني لا أعرف ماذا يوجد خلفه. يجب أن أفكر وأقرر بسرعة ما أفعله إذا لم أجد المكان خلفه شاغراً. لا يوجد سوى شيء واحد يمكنني القيام به: أن أدفع الفتاة إلى الداخل، ثم أعود ثانية لمواجهة المحاربين اللذين رأيتهما يقتربان. وبعبارة أخرى، أن أحاول شق طريقي بالقتال للخروج من قلعة أوول فاس – يا لها من خطة مجنونة، مع خمسمائة محارب يسدون طريقي.

كانت الغرفة شاغرة، كما رأيت لحظة دخولي فيها لأنها مضاءة جيدًا بالعديد من النوافذ.

أغلقت الباب. وقفت وظهري على الباب لأستمع. لم أكن قد نظرت إلى المرأة التي في ذراعي، فقد كنت منشغلاً بسماع خطوات المحاربين الذين رأيتهما. هل سيأتون إلى هذا الممر؟ وهل سيدخلون إلى هذه الغرفة بالذات؟

لا بد أنني خففت من ضغط يدي على شفتي الفتاة؛ إذ إنها تمكنت من إبعاد يدي، قبل أن أتمكن من منعها، وتحدثت.

قالت بنبرة منخفضة: «جون كارتر!».

نظرت نحوها مندهشًا، وعندئذ تعرفت عليها. إنها أولاه، أَمَة أوزارا، جيدارة التاريد.

قلت لها بجدية: «أولاه، أرجوكِ، لا تدعيني أؤذيكِ. أنا لا أريد إيذاء أي شخص في القلعة. أنا لا أريد سوى أن أهرب. هناك ما هو أكثر من حياتي يعتمد على هروبي، أكثر بكثير لدرجة انتهاك القانون غير المكتوب لطائفتي فيما يتعلق بقتل امرأة، إذا كان من الضروري قتلها لتحقيق هدفي».

قالت: «أنت لست في حاجة لأن تقلق من ناحيتي، أنا لن أخونك».

قلت: «أنتِ فتاة حكيمة، واشتريت حياتكِ بثمن بخس».

قالت: «لم يكن وعدي هذا لإنقاذ حياتي. لم أكن لأخونك في أي حال من الأحوال».

سألتها: «ولماذا؟ أنتِ لستِ مدينة لي بأي شيء».

قالت ببساطة: «أنا أحب سيدتي أوزارا».

سألتها: «وما علاقة ذلك بي؟».

- لن أؤذي شخصًا تحبه سيدتي.

عرفت، بطبيعة الحال، أن أولاه تفكر بطريقة عاطفية، وتترك العنان لخيالها؛ ولما كان ما تعتقده لا يمثل أهمية ما دامت تساعدني، فلم أعارضها.

سألتها: «وأين سيدتك الآن؟».

أجابت: «إنها في هذا البرج تحديدًا، محبوسة في غرفة فوق هذه الغرفة مباشرة، في الطابق التالي. يحتجزها أوول فاس هناك إلى أن يستعد لتدميرها. أوه، أنقذْها، جون كارتر، أنقذْها!».

سألتها: «كيف تعرفين اسمي يا أولاه؟».

أجابت: «الجيدارة أخبرتني؛ إنها تتحدث عنك باستمرار».

قلت: «أنتِ على دراية بالقلعة أفضل مني يا أولاه؛ هل هناك أي طريقة يمكنني الوصول إلى الجيدارة خلالها؟ هل يمكنكِ إيصال رسالة لها؟ وهل يمكننا إخراجها من تلك الغرفة؟».

أجابت: «كلا. باب الغرفة مغلق، ويقف خارجه اثنان من المحاربين ليلاً ونهارًا».

مشيت إلى النافذة، ونظرت إلى الخارج. لم أشهدْ أحدًا على مرمى البصر. انحنيت بقدر ما أستطيع ونظرت إلى أعلى. توجد نافذة أخرى في أعلى بحوالي خمسة عشر قدمًا. عُدت إلى الغرفة.

سألتها: «هل أنتِ متأكدة من أن الجيدارة في الغرفة التي تعلو هذه الغرفة مباشرة؟».

أجابت: «أنا أعرف ذلك».

- وتريدين مساعدتها على الهرب؟

- نعم، وعلى استعداد للقيام بأي شيء لخدمتها.

سألتها: «في أي شيء تُستخدم هذه الغرفة؟».

أجابت: «لا شيء الآن. وأنت ترى أن كل شيء مُغطى بالتراب. لم تُستخدم منذ فترة طويلة».

سألتها: «وهل تعتقدين أنه من غير المرجح أن يأتي أي شخص إلى هنا؟ هل تعتقدين أن بإمكاني الاختباء هنا بأمان هذه الليلة؟».

أجابت: «أنا متأكدة من أنك آمن تمامًا. ولا أعرف لماذا يأتي أي شخص إلى هنا».

صحت: «جيد! هل تريدين حقًّا مساعدة سيدتكِ على الهرب؟».

أجابت: «من كل قلبي. لا أستطع تحمل رؤيتها تموت».

قلت: «يمكنك إذَنْ مساعدتها».

- كيف؟

- عليكِ إحضار حبل وخُطّاف قوي. هل بإمكانكِ القيام بذلك؟

- ما طول الحبل؟

- حوالي عشرين قدمًا.

- متى تريدهم؟

- عندما تتمكنين من إحضارها دون خطر الانكشاف، وإنما بالتأكيد قبل منتصف الليل هذه الليلة.

قالت: «يمكنني الحصول عليهم. سأذهب على الفور».

كان لا بد أن أثق بها؛ ما من طريقة أخرى، ولذا تركتها تغادر.

خرجت، وأغلقت الباب خلفها؛ وجدت قضيبًا ثقيلاً على الباب من الداخل، فأنزلته إلى موقعه حتى لا يتمكن أحد من دخول الغرفة بشكل غير متوقع، ويأخذني على حين غرة؛ ثم جلست انتظر.

مضت ساعات طوال بطيئة. تشككت في مدى حكمتي في الثقة بالأَمَة أولاه. ماذا أعرف عنها؟ ما الولاء الذي يربطها بي، إلا رابطة ضئيلة تولدت من خيالها الأحمق؟ ربما رتبت بالفعل لإلقاء القبض عليَّ. لن أستغرب على الإطلاق أن يكون لديها حبيب محارب؛ لأنها جميلة جدًّا. ما أفضل من مساعدته على الكشف عن مكان اختبائي بحيث يصبح وسيلة للقبض عليَّ، وربما يفوز بترقية؟

مع اقتراب نهاية فترة ما بعد الظهر، سمعت خطوات قادمة على طول الممر نحو مكان اختبائي - أول أصوات أسمعها منذ أن غادرت أولاه. كنت على يقين أن المحاربين يأتون للقبض عليَّ. قررت مواجهتهم بقوة؛ فوقفت عند الباب وسيفي الطويل جاهز في يدي، لكن الخطوات مرت دون أن تتوقف، بل واصلت في اتجاه السلم الذي صعدته من الممر الأسود المؤدي إلى زنزانتي.

لم يمضِ وقت طويل، وسمعتهم يعودون. كانوا عددًا من الرجال يتحدثون بحماس، لكني لم أتمكن من التقاط كلماتهم خلال الباب الثقيل. تنفست الصعداء عندما ابتعدت أصواتهم، وبدأت ثقتي في أولاه تتخذ روحًا جديدة.

هبط الليل، وبدأ الضوء يلمع وراء العديد من نوافذ القلعة التي رأيتها من غرفة اختبائي.

لماذا لم تعُد أولاه؟ ألم تتمكن من إيجاد حبل وخُطاف؟ هل كان هناك شيء أو شخص يحتجزها؟ يا لها من أسئلة عقيمة تتبادر إلى ذهن المرء في أقصى حالات اليأس.

أسمع حاليًا صوتًا خارج باب الغرفة. لم أسمعْ صوت اقتراب أي شخص، لكني أعرف الآن أن شخصًا ما كان يدفع الباب في محاولة للدخول. اقتربت من الباب ووضعت أذني على لوحاته، ثم سمعت صوتًا: «افتحْ، أنا أولاه».

شعرت براحة كبيرة وأنا أرفع القضيب الذي يغلق الباب، كي تدخل الأَمَة. كان الظلام دامسًا في الغرفة، ولم نتمكنْ من رؤية بعضنا.

سألتني: «هل تصورت أنني لن أعود، جون كارتر؟».

أجبت: «كانت الشكوك قد بدأت تنتابني. هل تمكنت من الحصول على الأشياء التي طلبتها؟».

قالت: «نعم، ها هي». شعرت بضغط الحبل والخُطاف على يدي.

صحت: «جيد! هل تمكنت من معرفة أي شيء قد يساعدني أو يساعد الجيدارة؟».

قالت: «كلا، لم أعرفْ أي شيء قد يساعدك، وإنما عرفت ما قد يجعل من الصعب عليك مغادرة القلعة، إن أمكنكِ على الإطلاق، وهو ما أشك فيه».

سألتها: «وما هذا الشيء؟».

أجابت: «لقد عرفوا بهروبك من الزنزانة. لم يعُد المحارب الذي أحضر لك الطعام. وذهب محاربون آخرون للتحري، فوجدوه مقيدًا ومكممًا في الزنزانة التي كان يجب أن يجدوك فيها».

قلت: «لا بد أنهم مَن سمعت مرورهم بالباب في وقت متأخر بعد

الظهيرة. ومن الغريب أنهم لم يفتشوا هذه الغرفة».

قالت للتوضيح: «يعتقدون أنَّك ذهبت في اتجاه آخر، وهم يبحثون في جزء آخر من القلعة».

سألتها: «وهل سيأتون في النهاية إلى هنا؟».

قالت: «نعم. سوف يبحثون عمليًّا في كل غرفة من غرف القلعة، لكن ذلك سيستغرق وقتًا طويلاً».

قلت: «لقد أبليت بلاء حسنًا، يا أولاه. أنا آسف لأنني لا أستطيع أن أقدم لكِ أي شيء في المقابل أكثر من شكري».

قالت: «يسعدني أن أقوم بالمزيد، ولا يوجد شيء لن أفعله لمساعدتك أنت والجيدارة».

قلت لها: «لا يوجد شيء أكثر من ذلك يمكنكِ القيام به. ومن الأفضل أن تذهبي الآن قبل أن يجدوكِ هنا معي».

سألتني: «هل أنت متأكد أنه لا يوجد شيء آخر يمكنني القيام به؟».

«لا، لا شيء، أولاه»؛ وفتحت لها الباب، وخرجت.

همست وأنا أغلق الباب خلفها: «وداعًا، وحظًّا سعيدًا يا جون كارتر».

ذهبت إلى النافذة على الفور، بعد أن أغلقت الباب بالمزلاج. كان الظلام حالكًا في الخارج. وددت الانتظار إلى ما بعد منتصف الليل وتنام القلعة قبل أن أحاول أن أضع الخطة التي فكرت فيها لإنقاذ أوزارا موضع التنفيذ، لكن معرفتي أنهم يبحثون عني في القلعة أجبرتني أن أضع جانبًا كل اعتبار باستثناء السرعة.

أحكمت ربط أحد طرفي الحبل بالخُطاف الذي أحضرته أولاه، ثم جلست على عتبة النافذة وانحنيت إلى الخارج.

أمسكت بأحد طرفي الحبل في يدي اليسرى التي تتشبث بإطار النافذة، وأمسكت الخُطاف في يدي اليمنى مع السماح للحبل بالتدلي حرًّا أسفلي على جانب البرج خارج النافذة.

قمت بقياس مسافة الصعود إلى عتبة النافذة أعلاه. المسافة بعيدة، وقد لا تتيح لي أن آمل في إلقاء ناجح للحبل من موضع جلوسي، ولذا نهضت واقفًا على عتبة النافذة. ساعدني ذلك في اكتساب بضع أقدام أقرب إلى هدفي، كما منحني أيضًا المزيد من حرية العمل ولو قليلاً.

كنت شديد الحرص على النجاح من أول مرة؛ فقد خشيت أن تجذب قعقعة احتكاك الخُطاف المعدني بجدار البرج الانتباه.

وقفت عدة دقائق لقياس المسافة والتفكير في جميع طرق إلقاء الخُطاف دون أن يسقط.

وعندما شعرت أنني تمكنت من قياس التوقيت والمسافة بدقة، بحيث يمكنني القيام بالأمر بهذه الطريقة، أرجحت الخطاف إلى أعلى ثم ألقيته.

كنت أرى العتبة التي فوقي؛ لأن ضوءًا خافتًا كان قادمًا من الغرفة وراء نافذتها. رأيت الخطاف يتأرجح في هذا الضوء، وسمعت صوت ارتطامه بالحلقة المعدنية في العتبة، ثم تسلقت الحبل.

لقد شبك الخطاف جيدًا! كان وزني ثقيلاً على الحبل، ولا يزال الخطاف مشتبكًا. انتظرت لحظة لمعرفة ما إذا كنت قد جذبت انتباه أوزارا أو أي شخص آخر قد يوجد في الغرفة معها.

لم تخرجْ أي علامة من هذا الصمت أعلاه، فسمحت جسدي بالتأرجح على الحبل.

كان يجب أن أصعد بعناية فائقة؛ لأنني لا أعرف مدى إحكام اشتباك الخطاف على العتبة العلوية.

ليست مسافة كبيرة للتسلق، لكنها بدت كالأبد قبل أن تلمس يداي العتبة.

أغلقت أولاً أصابع يد واحدة على العتبة؛ ثم سحبت نفسي إلى أعلى حتى تمكنت من التشبث بها بيدي الأخرى. رفعت نفسي ببطء، مستعينًا بقوتي، إلى أن أصبحت عيني فوق مستوى العتبة.

وجدت أمامي غرفة خافتة الإضاءة، وتبدو شاغرة.

سحبت نفسي أكثر لأتمكن من وضع إحدى ركبتي على العتبة، مع حرصي الشديد الدائم على عدم خلع الخطاف.

وعندما استقر وضعي أخيرًا، دخلت الغرفة وأخذت الخطاف معي، خشية أن ينزلق ويسقط إلى نهاية البرج من الخارج.

رأيت الآن أن الغرفة ليست شاغرة. نهضت امرأة من سريرها على الجانب الآخر، وهي تنظر نحوي بعينين واسعتين ملأهما الرعب. كانت أوزارا. وظننت أنها ستصرخ.

رفعت إصبع تحذير إلى شفتي، واقتربت منها. همست: «لا تصدري أي صوت يا أوزارا، لقد جئت لإنقاذكِ».

«جون كارتر!»، لهثت الاسم بنبرة منخفضة لا يمكن سماعها من وراء

الباب. اقتربت مني، وهي تتحدث، وألقت ذراعيها حول رقبتي.

قلت: «هيا، يجب أن نخرج من هنا فورًا. لا تتحدثي؛ فقد يسمعوننا».

أخذتها إلى النافذة، وسحبت الحبل وقمت بربط طرفه السفلي حول خصرها.

همست: «سوف أقوم بإنزالكِ إلى نافذة الغرفة أدناه. وبمجرد أن تصبحي بأمان في الداخل، عليكِ فك الحبل واتركيه يتأرجح حرًّا في الخارج من أجلي».

أومأت، وأنزلتها. أصبح الحبل طليقًا الآن، فعرفت أنها وصلت إلى عتبة الغرفة أدناه. انتظرت أن تفكه من حول جسدها، ثم شبكت الخطاف على العتبة التي جلست عليها ونزلت بسرعة إلى الغرفة أدناه.

لم أكن أرغب في ترك الخطاف والحبل في مكانهما؛ لأنه في حالة دخول أي شخص إلى زنزانة أوزارا في أعلى، سوف تشير هذه الأدلة فورًا إلى الغرفة أدناه، كما أنني لا أعرف إلى متى علينا الانتظار هنا.

هززت الحبل بلُطف قدر الإمكان إلى أن أصبح الخُطاف طليقًا، وكنت محظوظًا في الإمساك به عندما سقط وقبل أن يحتك بالجدار الجانبي من البرج.

وعندما دخلت الغرفة، اقتربت مني أوزارا ووضعت يديها على صدري. كانت ترتجف، وكان صوتها يرتجف وهي تتحدث.

قالت: «لقد فُوجئت لرؤيتك، جون كارتر. اعتقدت أنك مُت. رأيتهم يضربونك وأخبرني أوول فاس أنهم قتلوك. يا له من جرح رهيب، لا أعرف كيف تعافيت. عندما واجهتني في الغرفة أعلاه، ورأيت الدم قد جف على بشرتك وفي شعرك، بدا الأمر كأن رجلاً ميتًا قد عاد إلى الحياة».

قلت: «لقد نسيت ما المشهد الذي يجب أن أعرضه. لم أجد أي فرصة لغسل الدم مني منذ أن جُرحت. فالماء القليل الذي أحضروه، بالكاد يكفي لأغراض الشرب. وإنما، بقدر ما يتعلق الأمر بالجرح، فإنه لا يزعجني. لقد تعافيت تمامًا، كان مجرد جرح سطحي».

قالت: «كنت خائفة جدًّا عليك. وأنت الآن تخاطر من أجلي، في الوقت الذي كان يجب أن تهرب مع أصدقائك».

سألتها: «أتعتقدين أنهم هربوا بسلام؟».

أجابت: «نعم، وأوول فاس غاضب جدًّا لهذا. سوف يجعلنا -أنا وأنت- ندفع الثمن إذا لم نهرب».

سألتها: «هل تعرفين أي طريقة يمكننا الهرب خلالها من هذه القلعة؟».

أجابت: «يوجد مدخل سري، لا يعرفه سوى أوول فاس واثنين من أكثر عبيده إخلاصًا، أو على الأقل يعتقد أول فاس أن ثلاثتهم فقط يعرفونه، لكنني أعرفه أيضًا. إنه يؤدي إلى حافة النهر، حيث المياه تلف حول أسوار القلعة. أوول فاس ليس محبوبًا من شعبه. توجد دسائس ومؤامرات في القلعة. هناك فصائل ترغب في الإطاحة بأوول فاس وتنصيب جيداك جديدًا. وبعض هؤلاء الأعداء أقوياء جدًّا لدرجة أن أوول فاس لا يجرؤ على تدميرهم علنًا. ولذا، سوف يقتلهم سرًّا ويحمل عبداه المخلصان الجثث إلى هذا المدخل السري ويلقون بها في النهر. وقد اشتبهت ذات يوم في شيء من هذا النوع،

وتبعته بهدف اكتشاف وسيلة للهرب والعودة إلى شعبي في دومنيا؛ لكنني شعرت بالخوف عندما رأيت إلى أين يؤدي الممر. أنا لا أجرؤ على القفز في النهر؛ وحتى لو فعلت، توجد غابة رهيبة وراء النهر. ولا أعرف، جون كارتر، ما إذا كان حالنا سواء في النهر أو الغابة سيكون أفضل مما نحن عليه هنا».

- نعرف يا أوزارا أننا إذا بقينا هنا، ما من مفر من أن نلقى حتفنا. أما في النهر أو الغابة وراءه، فقد توجد فرصة على الأقل؛ فالوحوش البرية في كثير من الأحيان أقل قسوة من الرجال.

أجابت: «أعرف ذلك جيدًا؛ ولكن حتى في الغابة هناك رجال، رجال فظيعون».

قلت لها: «ومع ذلك، يجب أن أغتنم الفرصة يا أوزارا. هل ستأتين معي؟».

قالت: «إلى أي مكان يا جون كارتر، وأيًّا ما كان المصير الذي يصيبنا، سأكون سعيدة ما دمت معك. لقد شعرت بغضب شديد عندما علمت أنك تحب تلك المرأة من برسوم، لكنها ذهبت الآن، وستكون أنت لي وحدي».

- إنها زوجتي، يا أوزارا.

سألتني: «أنت تحبها؟».

أجبت: «بالطبع».

قالت: «لا بأس، لكنها ذهبت وأنت لي الآن».

لم يكن لديَّ وقت لأضيعه في مثل هذه الأمور. كان من الواضح أن الفتاة عنيدة، وأن لديها دائمًا طريقتها، وتفعل ما يحلو لها، ولا تحتمل مخالفتها بغض النظر عن مدى حماقة نزوتها. ربما في وقت آخر، إذا بقينا أحياء، أن أجعلها تعود إلى رشدها، لكنني الآن يجب أن أركز كل جهد على الهروب.

سألتها: «كيف يمكننا الوصول إلى هذا المدخل السري؟ هل تعرفين الطريق من هنا؟».

أجابت: «نعم، تعال معي».

عبرنا الغرفة ودخلنا الممر. كان الظلام حالكًا. تلمسنا طريقنا إلى السلم الذي استخدمته للصعود من الحفرة في وقت سابق من اليوم. وعندما بدأت في الهبوط، سألتها.

- هل أنتِ متأكدة أن هذا هو الطريق الصحيح؟ إنه يؤدي إلى الزنزانة التي سُجِنت فيها.

قالت: «ربما؛ لكنه يؤدي أيضًا إلى جزء بعيد من القلعة على مقربة من النهر، حيث سنجد المدخل الذي نسعى إليه».

كنت آمل أنها على دراية بما تقوله. تابعتها أسفل السلم، ثم عبر الظلام الجهنمي في الممر أدناه.

عندما سرت خلاله من قبل، كنت أسترشد بضغط يدي اليمنى على الجدار بجانبي. تتبع أوزارا الآن الجدار المقابل. وبعد سيرنا لمسافة قصيرة، استدارت إلى ممر على يميننا كنت قد تجاوزته دون معرفة بوجوده لأني كنت أتبع الجدار المقابل. وفي الظلام المطلق بالممر، لم أكن قادرًا بطبيعة الحال على رؤية أي شيء.

سرنا في هذا الممر الجديد لمسافة طويلة، وأخيرًا صعدنا سلمًا دائريًّا إلى المستوى التالي أعلاه.

وهنا وصلنا إلى ممر مضاء.

همست أوزارا: «إذا أمكننا الوصول إلى الطرف الآخر دون أن ننكشف، سنكون آمنين. يوجد عند الطرف البعيد باب زائف يقود إلى الممر السري الذي ينتهي عند باب فوق النهر».

ركز كلانا السمع باهتمام. قالت: «لا أسمع أحدًا».

- ولا أنا.

بدأنا نسير عبر الممر الطويل، ورأيت فتحات لغرف على جانبيه. وشعرت بارتياح عند اقترابنا من كل باب ووجدناه مغلقًا.

قطعنا ربما نصف طول الممر عندما جذبت ضوضاء طفيفة وراءنا انتباهي. استدرت، فرأيت رجلين يخرجان من إحدى الغرف التي مررنا بها. كانا يتحركان في اتجاه الطرف الآخر من الممر، وتنفست الصعداء، ثم تبعهما رجل ثالث من الغرفة. ويشاء سوء الحظ أن يلقي هذا الرجل نظرة نحونا، ويطلق على الفور صيحة اندهاش وتحذير.

صاح: «الجيدارة! والرجل ذو الشعر الأسود!».

استدار الثلاثة على الفور وركضوا نحونا. كنا عند منتصف الطريق تقريبًا بينهما وبين الباب المؤدي إلى الممر السري الذي نستهدفه.

لا تستسيغ معدتي الفرار في مواجهة خصم. ولكن ما من بديل الآن؛ فالوقوف والقتال لا يعني سوى كارثة مؤكدة؛ وهكذا فررنا أنا وأوزارا.

أخذ الرجال الثلاثة الذين يلاحقوننا يصيحون بأعلى أصواتهم، بهدف جذب الآخرين إلى مساعدتهم.

دفعني شيء ما إلى امتشاق سيفي الطويل وأنا أركض، ومن حسن الحظ أنني فعلت ذلك؛ إذ عندما اقتربنا من مدخل على يسارنا، خرج محارب جذبته الضوضاء في الممر. تخطته أوزارا عندما كان يسحب سيفه. لم أقلْ حتى من سرعتي، لكنني طعنته خلال تحركي، شققت جمجمته وأنا أسرع في طريقي.

وصلنا الآن عند الباب، وأخذت أوزارا تبحث عن الآلية السرية التي تفتحه. وكان الرجال الثلاثة يقتربون بسرعة.

«خذي وقتكِ يا أوزارا»، قمت بتحذيرها لأني أعرف أن أصابعها قد تفسد المهمة نتيجة لتوتر السرعة، وبالتالي تؤخرنا.

قالت: «أنا أرتجف. سوف يصلون إلينا قبل أن أتمكن من فتحه».

قلت لها: «لا تقلقي بشأنهم، يمكنني تأخيرهم إلى أن تتمكني من فتحه».

هاجمني ثلاثتهم. تعرفت عليهم، إنهم ضباط من حرس الجيداك؛ لأن أغطيتهم تماثل الأغطية التي يرتديها زاماك. وقد خمنت، وصدق حدسي، أنهم مبارزون ماهرون.

اتسم المبارز الذي كان في الصدارة بالتهور الشديد. اندفع نحوي

متصورًا أن بإمكانه قتلي من أول ضربة، ولم يكن حكيمًا في ذلك؛ لأن طعنة سيفي اخترقت قلبه.

وعندما سقط، اندفع الاثنان الآخران نحوي لكنهما قاتلا بمزيد من الحذر. وعلى الرغم من أنهما اثنان، ويحاول نصليهما الوصول إليَّ بمواصلة الاقتحام والطعن، فإن حركة سيفي المماثلة لسرعة تفكيري أقامت شبكة دفاع من الصلب حولي.

على أن الدفاع وحده لن يحقق هدفي؛ فإذا أبقوني في وضع دفاعي، يمكنهم الاستمرار إلى أن تأتي التعزيزات، وبالتالي يتغلبون عليَّ بتفوقهم العددي.

في هذه اللحظة، وبعد حركة دفاعية، انطلق رأس سيفي ووخز أحد خصومي بحدة فوق القلب؛ فتراجع لا إراديًّا. وعندئذ استدرت نحو رفيقه وشققت صدره.

لم يكن أي من تلك الجراح مميتًا، لكنها أبطأت خصومي. لا تزال أوزارا تحاول فتح الباب. وسوف يسوء وضعنا للغاية إن لم تتمكن من فتحه؛ إذ أرى الآن، عند نهاية الممر، كتيبة من المحاربين تسرع نحونا. ومع ذلك، لم أحذرها وأحثها على التسرع، خشية ألا تتمكن من فتحه على الإطلاق نتيجة لتوترها.

يضغط عليَّ بقوة الآن ثانية الرجلان المصابان. كانا محاربين شجاعين وخصمين شديدين. وسعدت بمبارزتهما، على الرغم من الشعور بالندم دائمًا عندما يتطلب الأمر قتلهما. ومع ذلك، لم يكن لديَّ خيار، فقد سمعت صرخة ارتياح مفاجئة من أوزارا.

صاحت: «إنه مفتوح، جون كارتر. تعال! أسرع!».

كان المحاربان يشتبكان معي الآن بضراوة، إلى حد أنني لم أستطع الابتعاد عنهما.

لكن هذا الوضع لم يستمر أكثر من لحظة. تمكنت منهما بسرعة وضراوة مذهلة لم يتصورها أي منهما. أسقطت طعنة وحشية أحدهما، وعندما سقط، وجهت سيفي نحو الآخر بحيث اخترق صدره.

كانت التعزيزات التي تركض نحونا قد قطعت نصف طول الممر، بينما كنت أسرع عبر المدخل وراء أوزارا، وأغلقت الباب خلفي.

وجدنا أنفسنا الآن في ظلام دامس مرة أخرى. صاحت أوزارا: «أسرع! الممر مستقيم ومستوٍ على طول الطريق إلى الباب».

ركضنا خلال الظلام. سمعت الرجال خلفي يفتحون الباب، وعرفت أنهم في الممر الذي يقع خلفنا؛ لا بد أنهم عشرون رجلاً.

وفجأة اصطدمت في أوزارا. كنا قد وصلنا إلى نهاية الممر، وهي تقف عند الباب. فتحت هذا الباب بسرعة أكبر؛ وعندما انفتح، رأيت النهر المظلم يتدفق تحتنا. ورأيت على الشاطئ المقابل الخطوط العريضة القاتمة للغابة.

كم بدا هذا النهر الغريب باردًا وغامضًا. ماذا يكمن خلف هذه الغابة الشريرة من ألغاز ومخاطر ورعب؟

لكن إدراكي لهذه الأفكار كان مبهمًا؛ فقد كاد المحاربون الذين سيمسكون بنا ويحملوننا إلى الموت على وشك الانقضاض علينا، عندما أخذت أوزارا في ذراعي وقفزت.

* * *

الفصل (24)

العودة إلى برسوم

غطت المياه المظلمة البغيضة رؤوسنا ودارت حولنا ونحن نرتفع إلى السطح؛ وبالمثل كانت الغابة المظلمة البغيضة مكفهرة أمامنا. وبدا حتى أنين الرياح في الأشجار بمثابة تحذير غريب وبغيض وتهديدي. وخلفنا، يصب علينا المحاربون في المدخل لعناتهم.

توجهت إلى الشاطئ المقابل، وأنا أحمل أوزارا بإحدى ذراعيَّ مع الحفاظ على فمها وأنفها فوق الماء. كانت في حالة ضعف شديدة لدرجة أنني ظننت أنها أُغمى عليها. ولم يكن ليفاجئني أن امرأة قوية مثلها قد تضعف بعد أن مرت بكل هذه المعاناة خلال اليومين الماضيين.

ولكن عندما وصلنا إلى الشاطئ المقابل، تسلقت إلى الضفة وهي في كامل قدراتها.

قلت: «ظننت أنكِ فقدتِ الوعي؛ فقد كنتِ في حالة سكون تام».

أجابت: «أنا لا أعرف السباحة؛ وكنت أعرف أنني إذا قاومت، سوف أعوقك». كانت الجيدارة السابقة تتمتع بصفات التاريد أكثر مما تخيلت.

سألتني: «ماذا سنفعل الآن، جون كارتر؟». كانت أسنانها تصطك من البرد، أو الرعب، وبدت بائسة جدًّا.

قلت: «أنتِ تشعرين بالبرد، إذا تمكنتِ من العثور على أي شيء جافٍّ بما يكفي للاشتعال، يمكنناَ إشعال نار».

اقتربت الفتاة مني، وشعرت بجسدها يرتجف.

قالت: «أشعر بالبرودة قليلاً، ولكن هذا لا شيء. أنا خائفة جدًّا».

- ولماذا تخافين الآن، أوزارا؟ هل تعتقدين أن أوول فاس سوف يرسل رجالاً لملاحقتنا؟

أجابت: «لا، ليس الأمر كذلك. لا يستطيع إرسال الرجال إلى هذه الغابة في الليل. وحتى في وضح النهار، كانوا سيترددون في المغامرة إلى هذا الجانب من النهر. سيعرف غدًا عدم جدوى إرسال رجال لملاحقتنا؛ لأننا مع حلول يوم غد سنكون قد لقينا حتفنا».

سألتها: «ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك؟».

قالت: «الوحوش. الوحوش التي تصطاد خلال الغابة ليلًا، ولا يمكننا الإفلات منها».

- ومع ذلك جئتِ إلى هنا عن طيب خاطر.

أجابت: «كان أوول فاس سيعذبنا. والوحوش ستكون أكثر رحمة. اسمعْ! يمكنك سماعها الآن».

سمعت على بُعد نخيراً غريبًا ثم زئيراً مخيفًا.

قلت: «ليسوا بالقرب منا».

أجابت: «سيأتون».

- من الأفضل إذَنْ أن أحاول إشعال نار، فهي ستبقيهم بعيدًا.

سألتني: «هل تعتقد ذلك؟».

- آمل ذلك.

كنت أعرف أن أي غابة يجب أن تحتوي على أغصان ميتة. بالتالي، وعلى الرغم من الظلام الشديد، بدأت أبحث عن الأغصان التي سقطت. وسرعان ما جمعت كومة صغيرة منها، وبعض الأوراق الجافة.

لم يسلبني التاريد حقيبتي، ولا يزال فيها الجهاز المريخي الشائع لإشعال النار.

سألتها، وأنا أسعى إلى إشعال الأوراق الجافة التي كنت آمل أن أشعل بها النار: «لقد قلت إن التاريد يترددون في دخول الغابة على هذا الجانب من النهر، حتى في النهار. لماذا؟».

أجابت: «بسبب الماسينيين. إنهم يأتون غالبًا إلى النهر بأعداد كبيرة لصيد التاريد؛ وصاحب الحظ السيئ هو مَن يجدونه خارج أسوار القلعة. ومع ذلك، نادرًا ما يعبرون إلى الجانب الآخر من النهر».

سألتها: «لماذا يصطادون التاريد؟ ماذا يريدون منهم؟».

أجابت: «الطعام».

سألتها: «أنتِ لا تقصدين القول إن الماسينيين يأكلون اللحم البشري؟».

أومأت. «نعم، إنهم مولعون به».

كنت قد نجحت في إشعال الأوراق، والآن أشغل نفسي بإلقاء الأغصان الصغيرة في النار حديثة الاشتعال، وإقامتها على شكل شيء يستحق العناء.

قلت لتذكيرها: «لكنني سُجِنت لفترة طويلة مع أحد الماسينيين، وبدا ودودًا للغاية».

قالت: «في ظل تلك الظروف، لن يحاول بطبيعة الحال أن يأكلك. بل قد يصبح حتى ودودًا للغاية. لكنك إذا قابلته هنا في الغابة مع

شعبه، فسوف تجده مختلفًا تمامًا. إنهم يصطادون الوحوش، مثل جميع المخلوقات الأخرى التي تسكن الغابة».

تنامت النار إلى حجم كبير. لقد أضاءت الغابة، وسطح النهر والقلعة خلفه.

عندما اشتعلت النيران وكشفتنا، نادى علينا التاريد متنبئين بموتنا السريع.

كان دفء النار ممتعًا بعد خروجنا من الماء البارد وتعرضنا لصقيع ليل الغابة. اقتربت مني أوزارا، وتمددت بجسمها الرشيق الشاب. أضاءت النيران الصفراء بشرتها الفاتحة، وأضفت مسحة خضراء على شعرها الأزرق، وأيقظت نيران النعاس في عينيها الواهنتين.

توترت فجأة، واتسعت عيناها بخوف، وأشارت وهي تهمس: «انظر!».

التفت في الاتجاه الذي أشارت إليه. رأيت عينين خلال الظلال الكثيفة التي تقع خلف النار مباشرة، كانتا لامعتين ومتوهجتين.

قالت أوزارا: «لقد جاءوا من أجلنا».

التقطت من النار غصنًا مشتعلاً وقذفت به نحو الدخيل. صدرت صرخة بشعة ومرعبة، واختفت الأعين.

كانت الفتاة ترتجف مرة أخرى. ألقت نظرات مرتعبة في جميع الاتجاهات.

«هناك آخر»، قالت صائحة الآن، «وهناك، وهناك، وهناك».

لمحت جسمًا ضخمًا يتسلل في الظلال؛ وعندما استدرت، رأيت حولنا أعينًا متوهجة. ألقيت عدة أغصان أخرى، فاختفت الأعين للحظة فقط ثم عادت على الفور تقريبًا، وفي كل مرة كان يبدو أنها تقترب. الآن، ومنذ أن ألقيت أول غصن، تزأر الوحوش وتهدر وتصرخ باستمرار - مجموعة من الأصوات المرعبة.

أدركت أن النار لن تصمد طويلاً إذا واصلت إلقاء الأغصان المشتعلة على الوحوش؛ فليس لديَّ ما يكفي من الخشب لتجديدها.

يجب أن نفعل شيئًا. نظرت حولي يائسًا للبحث عن سبيل للهرب، واكتشفت شجرة قريبة بدا تسلقها يسيراً. وهذه الشجرة وحدها لن تمنحنا أي ميزة، فلم يكن لديَّ أي شك في أن تلك المخلوقات سوف تهاجمنا بمجرد أن نبدأ في التسلق.

ولذا أخذت غصنين من النار وأعطيتهما إلى أوزارا، ثم اخترت اثنين لنفسي.

سألتني: «ماذا سنفعل؟».

أجبت: «سنحاول تسلق تلك الشجرة. ربما يتسلق بعض هؤلاء الوحوش أيضًا، لكن علينا اغتنام الفرصة. تبدو الوحوش التي رأيتها ضخمة وثقيلة وقد يصعب عليها التسلق. سوف نسير ببطء نحو الشجرة. وعندما نصل، عليكِ بإلقاء أغصانك نحو أقرب الوحوش ثم ابدئي في التسلق. وسوف أتبعكِ عندما تصبحين في أمان بعيدًا عنهم».

سرنا ببطء من النار إلى الشجرة، مع التلويح بالأغصان المشتعلة.

وفعلت أوزارا ما قلته لها. وعندما ابتعدت بأمان، أمسكت أحد الغصنين بأسناني وقذفت الغصن الآخر، ثم بدأت في التسلق.

بدأت الوحوش هجومها على الفور، لكني وصلت إلى موقع آمن قبل أن يتمكنوا من سحبي إلى أسفل. حالفني الحظ ونجحت، على الرغم من أن دخان الأغصان دخل في عيني، ولمس شرار النيران بشرتي العارية. شعرت بضرورة الإبقاء على ضوء نار الأغصان، لأني لا أعرف أين يكمن الخصوم من ساكني الشجرة في فروعها أعلاه.

فحصت على الفور الشجرة، وتسلقت إلى أعلى فروعها التي يمكن أن تتحمل وزني. اكتشفت، بمساعدة الضوء الذي معي، عدم وجود أي مخلوق في الشجرة غيري أنا وأوزارا. عثرت بين الفروع العالية على عش ضخم، منسوج بعناية ومبطن بأعشاب ناعمة.

كنت على وشك أن أنادي على أوزارا لتصعد، عندما رأيتها تصعد بالفعل.

عندما رأت العش، قالت إنه ربما كان أحد تلك الأعشاش التي يبنيها الماسينيون لاستخدامها مؤقتًا خلال غارة أو بعثة إلى هذا الجزء من الغابة. كان قطعًا اكتشافًا رائعًا؛ لأنه وفر لنا مكانًا مريحًا لقضاء ما تبقى من الليل.

مضى بعض الوقت قبل أن نتمكن من الاعتياد على ضجيج الوحوش التي تعوي في أسفل، وأخيراً استطعنا النوم. وعندما استيقظنا في الصباح، كانت الوحوش قد غادرت وأصبحت الغابة هادئة.

أخبرتني أوزارا أن بلدها، دومنيا، تقع عبر الجبال التي ترتفع وراء الغابة؛ ويمكن الوصول إليها عن طريق اتباع النهر إلى مسافة كبيرة

حتى نهايته، حيث يمكننا متابعة نهر آخر وصولاً إلى دومنيا على الجانب الآخر.

كانت أبرز سمات اليومين التاليين هي أننا استطعنا النجاة. وجدنا وفرة من الطعام؛ ولم نُعانِ من نقص المياه ما دمنا بالقرب من النهر دائمًا. بيد أننا كنا نواجه باستمرار -ليلاً ونهارًا- خَطر هجوم آكلي اللحوم المتجولين علينا.

كنا ننقذ أنفسنا دائمًا بتسلق الأشجار، على أننا أُخِذنا على حين غرة ثلاث مرات. وقد اضطررت إلى الاستعانة بسيفي، الذي بدا غير كافٍ كسلاح دفاعي ضد بعض الوحوش الشرسة التي هاجمتنا.

ومع ذلك، تمكنت في تلك الحالات الثلاث من قتل مهاجمينا. بيد أنني يجب أن أعترف -كما بدا لي آنذاك، ولا يزال- أن نجاحي كان مسألة حظ تمامًا.

أصبحت أوزارا في إطار ذهني أكثر تفاؤلاً. فقد شعرت أننا، مع بقائنا أحياء طوال هذه المدة، يمكن أن نعيش حتى نصل إلى دومنيا، رغم أنها لم تكن واثقة بداية في إمكانية النجاة في الليلة الأول.

أصبحت الآن تتمتع بالمرح في كثير من الأحيان، وكانت رفيقة جيدة حقًّا. وقد صدق ذلك بوجه خاص في صباح اليوم الثالث، ونحن نحقق تقدمًا جيدًا نحو هدفنا البعيد.

بدت الغابة هادئة بشكل غير عادي، ولم نشهد أي وحوش خطيرة طوال ذلك اليوم. وفجأة انطلقت جوقة من زئير بشع من كل مكان حولنا، كما نزلت في الوقت نفسه عشرات المخلوقات التي كانت تختفي بين أوراق الأشجار حولنا.

ماتت ثرثرة أوزارا المرحة على شفتيها وهي تصيح: «الماسينيون!».

حاصرونا وبدأوا في الاقتراب منا، وهنا توقف زئيرهم وبدأوا في المواء والخرير. وهو ما بدا لي أكثر رعبًا بكثير. ومع اقترابهم، قررت أن أجعل الإمساك يكلفهم غاليًا، على الرغم من أنني كنت أعرف أنهم سوف يمسكون بنا في النهاية. لقد رأيت من قبل أومكا وهو يقاتل، وأعرف ما أتوقعه.

على الرغم من اقترابهم مني، لم يحرصوا على الاشتباك معي. من خلال دفعهم لي من جانب ثم من الجانب الآخر، وبعد ذلك الابتعاد من هنا ثم هناك، وجدتني مضطرًّا إلى التحرك. لكني لم أدركْ إلا بعد فوات الأوان أنني أتحرك في الاتجاه الذي يرغبون أن أتحرك فيه.

أصبحت حاليًا في الموقع الذي أرادوه أسفل فروع شجرة كبيرة، وهبط ماسيني على الفور فوق كتفي وأوقعني على الأرض. وفي الوقت نفسه، احتشد معظم الآخرين فوقي، بينما أمسك عدد قليل منهم بأوزارا. وقد نجحوا في تجريدي من سلاحي قبل أن أتمكن من توجيه ضربة.

انطلق قدر كبير من الخرير بعد ذلك، ويبدو أنه كان نوعًا من النقاش. لم أفهمْ شيئًا لأنه كان بلغتهم. بدؤوا يتحركون الآن في عكس اتجاه النهر، وهو يجرونني معهم.

وصلنا بعد حوالي ساعة إلى قسم من الغابة قُطعت أغصان جميع أشجاره؛ والأرض تحت الأشجار مثل العشب تقريبًا. وتتناثر فروع الأشجار المقطوعة على مسافة كبيرة حول الأرض.

وعندما وصلنا إلى حافة هذه المساحة الشبيهة بالحديقة، أصدر خاطفونا زئيراً عاليًا وجاء الرد سريعًا من الأشجار التي كنا نقترب منها.

قاموا بجرنا إلى سفح شجرة كبيرة، يحتشد فوقها العديد من خاطفينا مثل القطط.

ثم جاءت مشكلة رفعنا. رأيت الحيرة بادية على الماسينيين. كان قُطر ساق الشجرة كبيراً جدًّا بحيث لا يمكن لأي رجل عادي تسلقه، وجميع الفروع مقطوعة أعلى بكثير مما يمكن لرجل أن يقفز. كان يمكنني دخولها بسهولة، لكني لم أكنْ أخبرهم بذلك. ولم تكن أوزارا لتنجح بمفردها.

وبعد كثير من المواء والخرير، وليس القليل من الهدير، قام في الحال بعض القابعين في أعلى الشجرة بخفض نبتة متعرشة سهلة الطي. وأمسك أحد الماسينيين الذين على الأرض بأوزارا من خصرها، ولف إحدى ذراعيه حولها، وأمسك بالنبتة بيده الأخرى

وبقدميه. رفعت المجموعة في أعلى هذا المصعد البشري إلى أن وجدت له ولراكبته موقعًا آمنًا بين الفروع.

رفعوني بنفس الطريقة إلى الشجرة، حيث كان التسلق بعد ذلك سهلاً.

صعدنا بضعة أقدام ووصلنا إلى منصة فظة بُني فوقها بيت غريب من بيوت الأشجار التي يسكنها الماسينيون.

أرى الآن بيوتًا مماثلة، في جميع الاتجاهات، بقدر ما يمكن لعيني

أن تخترق أوراق الشجر. ورأيت في بعض الأماكن أنهم قطعوا الفروع ووضعوها من شجرة إلى شجرة بحيث تُشكل طرقًا للسير بين البيوت. ولم أجدْ في أماكن أخرى سوى نبتات معشوشبة، بحيث يمكن أن يمسك بها الماسينيون للعبور من شجرة إلى أخرى.

وكان البيت الذي اقتادونا إليه كبيراً؛ ولم يستوعبْ بسهولة الرجال العشرين الذين أسرونا فحسب، وإنما أيضًا الخمسين رجلاً الإضافيين الذين سرعان ما تجمعوا.

جلس الماسينيون القرفصاء في مواجهة طرف الغرفة البعيد، حيث جلس رجل مفرده، أتصور أنه الملك.

كانوا يتحدثون عنا بلغتهم التي هي عبارة عن الكثير من المواء والخرير. أصبحت نافد الصبر. تذكرت أن أومكا يتكلم لغة التاريد، وظننت أنه ليس من المستبعد على الإطلاق أن يعرفها بعضهم؛ فخاطبتهم بها.

سألتهم: «لماذا أسرتونا؟ نحن لسنا أعداءكم. كنا نهرب من التاريد، الذين هم أعداؤكم. لقد سجنونا وكانوا على وشك قتلنا. هل يفهم أي منكم ما أقوله؟».

«أنا أفهمك»، أجاب المخلوق الذي اعتبرت أنه الملك، «أنا أفهم كلماتك، ولكن حجتك بلا معنى. عندما نغادر بيوتنا وننزل إلى الغابة، لا نعني الإضرار بأي مخلوق؛ لكن هذا لا يحمينا من الوحوش الجارحة التي تتغذى على لحم قتلاها. هناك القليل من الحجج التي يمكنها التغلب بشكل مُرضٍ على رغبات البطن».

سألته: «تقصد أنكم ستأكلوننا؟».

أجاب: «بالتأكيد».

انكمشت أوزارا مقتربة مني. قالت: «هذه هي النهاية إذَنْ، ويا لها من نهاية رهيبة! لم يفيدنا الهرب من أوول فاس».

قلت لتذكيرها: «أمضينا على الأقل ثلاثة أيام من الحرية التي لم نكن لنحصل عليها لولا هروبنا. وعلى أي حال، سنموت في يوم ما».

تحدث ملك ماسينا إلى شعبه بلغتهم، وعلى الفور بدؤوا في مواء وخرير رهيب. وبصوت هدير متوحش، أمسك عدد منهم بي وبأوزارا وبدأوا في جرنا نحو المدخل.

ما إن وصلوا بنا إلى المدخل، حتَّى دخل ماسيني واحد وتوقف أمامنا.

صحت: «أومكا!».

صاح: «جون كارتر! «ماذا تفعل هنا، أنت وجيدارة التاريد؟».

قلت له: «لقد هربنا من أوول فاس، والآن شعبك على وشك أن يأكلنا».

تحدث أومكا إلى الرجال الذين كانوا يسحبوننا من الغرفة. ترددوا للحظة، ثم أعادونا أمام ملك ماسينا، الذي خاطبه أومكا لعدة دقائق.

وبعد ذلك، دخل الملك والآخرون في الغرفة على ما يبدو أنه مناقشة ساخنة. وعندما انتهوا، استدار أومكا نحوي.

وقال: «سوف يُطلق سراحك في مقابل ما فعلته معي، وإنما عليك مغادرة بلدنا على الفور».

أجبت: «لا شيء يناسبنا أفضل من هذا».

- سوف يرافقكما بعضنا لضمان عدم تعرضكما للهجوم من أفراد شعبنا خلال وجودكما في أرض ماسينا.

بعد أن انطلقنا مع مرافقينا الغرباء، طلبت من أومكا أن يخبرني بما يعرفه عن أصدقائي.

أوضح قائلاً: «بعد أن غادرنا قلعة التاريد، جرفنا الهواء لفترة طويلة. أرادوا ملاحقة الرجل الذي أخذ المرأة في السفينة الأخرى، لكنهم لم يعرفوا أين يبحثون. واليوم نظرت من السفينة ورأيت أننا فوق ماسينا، فطلبت منهم أن ينزلوني على الأرض. وهذا ما فعلوه، وهم لا يزالون هناك على حد علمي، حيث يأخذون المياه العذبة إلى متن السفينة، وكانوا سيجمعون الفواكه ويصطادون من أجل الحصول على اللحم».

اتضح أن مكان الهبوط ليس على مسافة بعيدة من موقعنا الحالي؛ وطلبت منه أن يقودنا إلى المكان.

وعندما اقتربنا، كادت قلوب اثنين من مجموعتنا أن تتوقف عن الخفقان؛ فقد كان التشويق هائلاً. فهو قد يعني ببساطة الفرق بين الحياة والموت بالنسبة لي ولأوزارا.

وها نحن نرى السفينة الغريبة مستقرة في موقع خال صغير بين الأشجار.

رأى أومكا من الأفضل ألا يقترب هو ورفاقه من السفينة؛ لأنه قد لا يتمكن من كبح جماح رفاقه في حضور هؤلاء الآخرين الذين لم يقدم

وعدًا بحمايتهم؛ لذلك شكرناه وودعناه، ثم ذاب مع رفاقه الغريبين في الغابة.

لم يلحظْ أي من الثلاثة على متن السفينة اقترابنا. ولم يكتشفوا وجودنا إلا بعد أن كدنا نصل. استقبلونا بحماس؛ فقد عاد اثنان من الموت. حتى أور جان كان مسرورًا حقًّا لرؤيتي.

كان القاتل الزودانجي غاضبًا من جار نال لأنه حنث بقسمه؛ ولدهشتي الآن، يلقي الزميل بسيفه أمام قدمي ويقسم الولاء الأبدي لي.

قال: «لم يسبقْ لي طوال حياتي أن قاتلت جنبًا إلى جنب مع مبارز مثلك، ولن يُقال أبدًا إنني امتشقت سيفًا ضدك».

قبلت خدمته، ثم سألته كيف تمكنوا من الوصول بالسفينة إلى هذه البقعة.

أوضح جات أور: «زاندا هي الوحيدة التي كانت تعرف أي شيء عن الآلية أو التحكم فيها؛ وبعد عدة تجارب وجدت أن بإمكانها تشغيلها». تطلع نحوها بفخر، وقرأت الكثير في الابتسامة التي مرت بينهما.

قلت لزاندا: «يبدو أنكِ لستِ في أسوأ حال يا زاندا بعد كل ما مررتِ به من خبرات، بل يبدو في الواقع أَنكِ سَعيدة جدًّا».

أجابت: «أنا سعيدة جدًّا يا فاندور، أسعد مما كنت أتوقع في حياتي».

شددت على كلمة فاندور، وأظن أنني لمحت ابتسامة كامنة في أعماق عينيها.

سألتها: «هل سعادتكِ الكبيرة هي السبب في أنكِ نسيتِ تعهدكِ بقتل جون كارتر؟».

ابتسمت لمزاحي، وأجابت: «أنا لا أعرف أي شخص باسم جون كارتر».

كان جات أور وأور جان يضحكان، لكنني رأيت أن أوزارا لم تكن تعرف علاما يدور الحديث.

قلت: «آمل من أجله ألا تقابليه أبدًا يا زاندا، لأنني مولع به إلى حد ما، وأكره أن أراه مقتولاً».

قالت: «نعم، يجب أن أكره قتله، لأنني أعرف الآن أنه أشجع رجل وأصدق صديق في العالم - مع استثناء واحد، ربما»، وألقت نظرة خبيثة نحو جات أور.

ناقشنا وضعنا مطولاً، وحاولنا وضع خطط للمستقبل. وقررنا أخيراً أن نأخذ باقتراح أوزارا، وهو التوجه إلى دومنيا والحصول على مساعدة والدها. ورأت أوزارا أننا من هناك يمكننا البحث بسهولة عن جار نال وديجاه ثوريس.

لن أضيع وقتك في سرد رحلتنا إلى بلد أوزارا، أو الترحيب الذي لاقيناه على يد والدها، والمشاهد الغريبة التي رأيناها في هذه المدينة التي تقع على القمر ثوريا.

والد أوزارا هو جيداك دومنيا. وهو رجل قوي، ولديه امتدادات سياسية في مدن أخرى على القمر الأقرب. ينتشر وكلاؤه في كل مكان بين الشعوب التي تربطها ببلده علاقات ودية أو غير ودية؛ ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يأتيه الخبر بأن جسمًا غريبًا كان يطفو في الهواء وأُصيب بعطب، وأَمكن إمساكه في بلد تُسمَّى أومبرا. وكان بداخله رجل وامرأة.

أعطانا الدومنيون اتجاهات تفصيلية للوصول إلى أومبرا؛ وقاموا بتوديعنا بعد أن وعدناهم أننا سوف نعود لزيارتهم بعد انتهاء مغامرتنا.

كان فراقي مع أوزارا مؤلماً نوعًا ما. أخبرتني بصراحة أنها تحبني، لكنها استسلمت لحقيقة أن قلبي ينتمي إلى إنسانة أخرى. وقد أظهرت قوة شخصية رائعة لم أكنْ أعتقد أنها تمتلكها. وعندما ودعتني، كان مع تمنياتها أن أجد أميرتي وأتمتع بالسعادة التي أستحقها.

عندما حلقت سفينتنا فوق دومنيا، كان قلبي يمتلئ بشعور من الابتهاج، وكان يقيني كبيراً أن شملي سيجتمع قريبًا مع ديجاه ثوريس التي لا مثيل لها. كنت واثقًا من النجاح بسبب ما قاله لي والد أوزارا عن شخصية جيداك أومبرا. كان جبانًا بكل معنى الكلمة، وأي نوع من إظهار القوة سوف يجعله يركع طلبًا للسلام.

نحن الآن في وضع يتيح لنا تقديم عرض للقوة لم يشهده سكان أومبرا من قبل؛ ذلك أنهم، مثل باقي سكان القمر ثوريا الآخرين الذين رأيناهم حتى الآن، لا يعرفون أي شيء على الإطلاق عن الأسلحة النارية.

كنتُ أنوي الطيران على مستوى منخفض وأطالب بتسليم ديجاه ثورس وجار نال، دون أن نصبح تحت سلطة سكان أومبرا.

وإذا رفضوا، وهذا مؤكد؛ أنوي أن أقدم لهم عرضًا على فاعلية الأسلحة النارية من برسوم، بنادق السفينة التي سبق أن وصفتها. وكنت على يقين أن هذا سيجعل الجيداك يوافق على مطالبي، وكنت آمل إنجاز

ذلك دون خسارة لا لزوم لها في الأرواح.

كنا جميعًا مسرورين ونحن نبحر إلى أومبرا. كان جات أور وزاندا يخططان للبيت الذي يتوقعان تأسيسه في هيليوم، وكان أور جان يتوقع منصبًا بين مقاتلي حاشيتي، وحياة الشرف والاحترام.

لفتت زاندا انتباهي حاليًا إلى أننا نطير على ارتفاع كبير، وأنها تشعر بدوار. وفي الوقت نفسه تقريبًا، بدأت أشعر بضعف يتسلل إلى جسدي، بينما انهار أور جان.

ذهبت وخلفي جات أور إلى غرفة التحكم، وظهر على الألتيميتر(249) أننا صعدنا إلى ارتفاعات خطيرة. وجهت المخ في الحال لتنظيم إمدادات الأكسجين داخل السفينة، ثم وجهته ليهبط قريبًا من سطح القمر.

أطاع المخ توجيهاتي بقدر ما يتعلق الأمر بإمدادات الأكسجين، لكنه استمر في الارتفاع إلى ما يتجاوز إمكانية الألتيميتر لتسجيل الارتفاع.

وعندما تلاشى القمر ثوريا بعيدًا، أدركت أننا نحلق بسرعة هائلة تتجاوز بكثير توجيهاتي للمخ.

كان من الواضح أن المخ خارج السيطرة تمامًا. لا يوجد شيء أكثر من ذلك يمكنني القيام به، ولذلك عدت إلى المقصورة. وجدت أن كلاًّ من زاندا وأور جان قد تعافى بعد تجديد إمدادات الأكسجين.

أخبرتهم أن السفينة تطير بسرعة مذهلة في الفضاء، وأن مصيرنا في النهاية ليس سوى تكهنات فارغة- كانوا يعرفون قدر ما أعرف.

تحطمت آمالي تمامًا بعد أن كانت عالية جدًّا. وكان ألمي يزداد كلما أسرعنا بعيدًا عن ثوريا، على الرغم من أنني أخفيت مشاعري الشخصية عن رفاقي.

---

(249) الألتيميتر: جهاز لقياس الارتفاع - المترجمة.

لم يتجدد في صدور أي منا الأمل في الحياة إلا عندما اتضح أننا متجهون إلى برسوم.

مع اقترابنا من سطح الكوكب، أصبح من الواضح لي أن السفينة تحت سيطرة كاملة؛ وتساءلت هل كان المخ نفسه قد اكتشف قوة الفكر الأصلي، لأنني كنت أعرف أنني لا أتحكم فيها ولا يتحكم فيها أي من رفاقي.

كانت الوقت ليلاً، وكانت ليلة حالكة الظلام. تقترب السفينة من مدينة كبيرة. أشاهد الأضواء أمامي. وعندما اقتربنا أدركت أنها مدينة زودانجا.

بدت السفينة كأنها تسترشد بيد وعقل إنسان، حيث تسللت بصمت فوق السور الشرقي للمدينة العظيمة، وهبطت في ظلال شارع مظلم، ثم تحركت بثبات نحو وجهتها المجهولة.

بيد أن وجهتها لم تظل مجهولة لفترة طويلة. فقد أصبح الحي الآن مألوفًا. كنا نتحرك ببطء شديد. وكانت زاندا معي في غرفة التحكم، تحدق من إحدى النوافذ الأمامية.

صرخت: «بيت فال سيفاس!».

تعرفت عليه أنا أيضًا، وأرى أمامنا مباشرة أبواب الحظيرة الكبيرة مفتوحة، الحظيرة التي سرقتُ منها السفينة.

دارت السفينة ببطء بأقصى قدر من الدقة، إلى أن أصبح الذيل يشير نحو مدخل الحظيرة، ثم تراجعت واستقرت على سقالاتها.

فُتحت الأبواب في اتجاهي، وهبط السلم إلى الأرض. وبعد لحظة كنت أبحث عن فال سيفاس، طلبًا لتفسير. رافقني أور جان وجات أور وهما يمتشقان سيفيهما، وتبعتهما زاندا عن كثب.

توجهت في الحال إلى مقر نوم فال سيفاس. كان مهجورًا، لكنه كان كما تركته. رأيت مذكرة مثبتة بجانب الباب. كانت موجهة لي.

فتحتها وقرأت ما يلي:

من فال سيفاس، من زودانجا

إلى جون كارتر، من هيليوم

عليك أن تعرف ما يلي:

لقد خنتني. وسرقت سفينتي. وظننت أن عقلك التافه يمكن أن يكون أفضل من عقل فال سيفاس العظيم.

حسنًا يا جون كارتر، ستكون مبارزة للعقول - عقلي ضد عقلك، وسوف نرى من سيفوز.

إنني أستدعي السفينة.

وأوجهها للعودة من أي مكان قد توجد فيه، وبأقصى سرعة. وهي لن تسمح لأي عقل آخر أن يُغيِّر مسارها. لقد أمرتها بالعودة إلى حظيرتها والبقاء هناك إلى الأبد، ما لم تتلقَّ توجيهات مختلفة من عقلي.

عليك أن تعرف إذَنْ، يا جون كارتر، عندما تقرأ هذه المذكرة، أنني،

فال سيفاس، قد فزت؛ وأنني ما دمت أعيش، لن يتمكن أي عقل آخر غير عقلي من تحريك سفينتي في أي وقت.

كان يمكنني تحطيم السفينة إلى قطع على الأرض وبالتالي أدمرك؛ لكني عندئذ لم أكن لأستطيع أن أشمت فيك كما أشعر بالشماتة الآن.

لا تبحث عني. أنا مختبئ حيث لا يمكنك أن تجدني أبدًا.

لقد أنهيت كتابتي. هذا كل شيء.

كانت نهاية المذكرة قاتمة، وتوحي بسلطة معينة تحول دون أي أمل ضعيف. لقد سُحِقت.

سلّمت المذكرة في صمت إلى جات أور، وطلبت منه أن يقرأها بصوت عال للآخرين. وعندما انتهى، سحب أور جان سيفه القصير وقدمه لي بحيث كان مقبضه ناحيتي.

وقال: «أنا مَن تسبب في حزنك. حياتي ملك لك. أقدمها لك الآن تكفيراً عن ذنبي».

هززت رأسي ودفعت يده بعيدًا. قلت له: «أنت لم تكن تعرف ما تفعله يا أور جان».

قالت زاندا: «ربما هذه ليست النهاية. أين يمكن أن يختفي فال سيفاس حتى لا يجده الرجال الحازمون؟»).

قال جات أور: «دعونا نكرس حياتنا لهذا الغرض». وهنا، في مقر فال سيفاس، أقسمنا نحن الأربعة على ملاحقته.

رأيت عند خروجنا إلى الممر رجلاً يقترب. كان يتسلل على أطراف أصابعه في اتجاهنا. لم يتمكن من رؤيتي على الفور لأنه كان يلقي نظرة قلقة عبر كتفه، كما لو كان يخشى من اكتشافه في هذا الاتجاه.

عندما واجهني، اندهش كلانا - كان راباس الأولسيو.

وعندما شاهدنا، أنا وأور جان، نقف جنبًا إلى جنب، شحب الجرذ متحولاً إلى اللون الرمادي. بدأ يستدير كأنما يستعد للركض؛ لكنه، على ما يبدو، فكر بشكل أفضل، لأنه واجهنا على الفور ثانية ووقف يحدق نحونا كالمسحور.

ابتسم ابتسامة سخيفة عندما اقتربنا منه، وقال: «حسنًا يا فاندور، يا لها من مفاجأة. أنا سعيد لرؤيتك».

أجبت: «نعم، يجب أن تكون سعيدًا. ماذا تفعل هنا؟».

- جئت لرؤية فال سيفاس.

سأله أور جان: «هل كنت تتوقع أن تجده هنا؟».

«نعم»، أجاب راباس.

سأله أور جان: «لماذا إذَنْ كنت تتسلل على أطراف أصابعك؟ أنت تكذب يا راباس. وتعرف أن فال سيفاس ليس هنا. وإذا كنت تتصور أنه هنا، لم تكن لتجرؤ على المجيء؛ لأنك تعرف أنه يعرف أنك تعمل لصالحي».

خطا أور جان بسرعة إلى الأمام، وأمسك راباس من الحلق. قال هادرًا: «اسمع أيها الجرذ، أنت تعرف أين فال سيفاس. أخبرني، وإلا سأنتزع رقبتك».

بدأ راباس يتذلل ويولول.

بكى: «لا، لا، أنت تؤذيني. سوف تقتلني».

قال أور جان هادرًا: «قل الحقيقة لمرة واحدة على الأقل. بسرعة، الآن. أين فال سيفاس؟».

سأله الجرذ: «إذا أخبرتك، هل تعدني ألا تقتلني؟».

قلت: «سوف نعدك بذلك وأكثر. قل لنا أين فال سيفاس، وسوف أعطيك ثروة بقدر وزنك».

«تكلم»، قال أور جان وهو يهز راباس.

همس راباس: «فال سيفاس في بيت جار نال. ولكن، لا تقولوا له إنني أخبرتكم؛ لا تقولوا له إنني أخبرتكم وإلا سوف يقتلني بطريقة فظيعة».

لم أجرؤْ على إطلاق سراح راباس خشية أن يخوننا، علاوة على أنه وعد بمساعدتنا لدخول بيت جار نال واصطحابنا إلى الغرفة التي سنجد فيها فال سيفاس.

لم أستطع أن أتخيل ماذا يفعل فال سيفاس في بيت جار نال، إلا إذا كان قد ذهب إلى هناك في غياب جار نال في محاولة لسرقة بعض أسراره. كما أنني لم أكلِّفْ نفسي عناء استجواب راباس حول هذا الموضوع، لأنه لم يمثل أهمية كبيرة بالنسبة لي، يكفيني أن فال سيفاس هناك وأن أجده.

انتصف الوقت بعد الزود الثامن، أو حوالي منتصف الليل بتوقيت كوكب الأرض، عندما وصلنا إلى بيت جار نال. قام راباس بإدخالنا وقادنا إلى المستوى الثالث من البيت، عبر سلالم ضيقة في الجزء الخلفي من المبنى حيث لا يوجد أحد. تحركنا بصمت دون أن نتحدث، وأخيراً توقف مرشدنا أمام باب.

وهمس: «إنه في الداخل، هنا».

قلت له: «افتح الباب».

حاول فتح الباب، لكنه كان موصدًا. دفعه أور جان جانبًا، ثم ألقى بجسمه الضخم على الباب. تحطم الباب وتناثرت شظايا الخشب، بصوت عال. قفزت عبر العتبة، ورأيت فال سيفاس وجار نار يجلسان على طاولة – جار نال، الرجل الذي كنت أعتقد أنه مسجون في مدينة أومبرا على القمر الأقرب.

نهض الرجلان بمجرد رؤيتنا، أنا وأور جان، وظهرت على وجهيهما الشريرين علامات الدهشة والرعب.

ركضت نحو جار نال وأمسكت به قبل أن يتمكن من سحب سيفه، وهجم أور جان على فال سيفاس وأسقطه. كاد أن يقتله بخشونة، لكني منعته. كل ما أردته هو معرفة مصير ديجاه ثوريس، وبالتأكيد يعرف أحدهما الحقيقة. يجب ألا يموتا إلى أن أعرف.

سألت: «ماذا تفعل هنا، يا جار نال؟ اعتقدت أنك سجين في أومبرا».

أجاب: «هربت».

- هل تعرف أين أميرتي؟

- نعم.

- أين؟

ظهرت نظرة ماكرة في عينيه. «أتريد أن تعرف، أليس كذلك؟»، سأل بسخرية، «ولكن، هل تعتقد أن جار نال أحمق ليخبرك؟ كلا، ما دمت أعرف وأنت لا تعرف، فلن تجرؤ على قتلي».

دمدم أور جان: «سوف أحصل على الحقيقة منه. هيا يا راباس، قم بتسخين خنجر. تسخينه حتى يحمر لونه». على أننا لم نجد راباس. لقد هرب بمجرد دخولنا الغرفة.

«حسنًا»، قال أور جان، «يمكنني تسخينه بنفسي، وإنما دعوني أولاً أقتل فال سيفاس».

صرخ المخترع العجوز: «لا، لا. أنا لم أسرقْ أميرة هيليوم؛ بل مَن سرقها هو جار نال».

ثم بدأ الاثنان في تبادل الاتهام، واكتشفت الآن أنه بعد عودة جار نال من ثوريا، قام هذان المخترعان، الوغدان الكبيران، بعقد هدنة والتحالف معًا بسبب خوفهما مني. وقد اتفقا على أن يقوم جار نال بإخفاء فال سيفاس، وفي المقابل يوضح له فال سيفاس سر المخ الميكانيكي.

كان كلاهما على يقين بأن آخر مكان في العالم يمكن أن أبحث فيه عن فال سيفاس هو بيت جار نال. وقد أصدر جار نال تعليمات إلى خدمه بأن يقولوا إنه لم يعُد بعد من رحلته مع أور جان، مما يعطي الانطباع بأنه لا يزال على ثوريا. وكان يخطط للرحيل هذه الليلة تحديدًا إلى مخبأ بعيد.

لم يزعجني هذا كله. فلم أكن أهتم بهما أو بخططهما. أردت أن أعرف شيئًا واحدًا، وهو مصير ديجاه ثوريس.

سألت: «أين أميرتي يا جار نال؟ أخبرني، ولن أقتلك».

أجاب: «إنها لا تزال في أومبرا».

التفتُّ إلى فال سيفاس، وقلت له: «هذا تصريح بموتك، يا فال سيفاس».

سألني: «لماذا؟ ما علاقتي بالأمر؟».

- أنت تمنعني من توجيه المخ لتشغيل سفينتك، وهي الطريقة الوحيدة لكي أصل إلى أومبرا.

رفع أور جان سيفه لشق جمجمة فال سيفاس، لكن الجبان ركع على ركبتيه وتوسل من أجل حياته.

بكى: «لا تقتلني، وسوف أعيد لك السفينة وأترك لك السيطرة على المخ».

قلت: «لا أستطيع أن أثق بك».

قال متوسلاً: «يمكنك أن تأخذني معك، فهذا أفضل من الموت».

قلت: «حسنًا؛ لكنك إذا تدخلت في خططي أو حاولت خيانتي، فسوف تدفع حياتك ثمنًا لخيانتك».

استدرت نحو الباب، وقلت لرفاقي: «سوف أعود إلى ثوريا الليلة. سآخذ فال سيفاس معي، وعندما أعود مع أميرتي (ولن أعود من دونها)، آمل أن أتمكن من مكافأتكم ماديًّا لولائكم الرائع».

قال جات أور: «أنا ذاهب معك، يا أميري، ولا أطلب أي مكافأة».

قالت زاندا: «وأنا أيضًا، سوف أذهب معك».

دمدم أور جان: «وأنا أيضًا. ولكن، دعني أولاً يا أميري أن أضع سيفي في قلب هذا الوغد»؛ وكان يسير وهو يتحدث نحو جار نال: «يجب أن

يموت من أجل ما فعله. لقد أعطاك كلمته ثم حنث بها».

هززت رأسي وقلت: «لا. لقد أخبرني أين يمكن أن أجد أميرتي، وقد ضمنت سلامته في المقابل».

أعاد أور جان سيفه إلى غمده متذمرًا، ثم سرنا نحن الأربعة، مع فال سيفاس، في اتجاه الباب. سبقني الآخرون. كنت آخر من يخرج إلى الممر. وما إن خرجت، حتى سمعت بابًا يُفتح في الطرف الآخر من الغرفة التي غادرناها للتو. التفتُ خلفي لإلقاء نظرة. وهناك، عند مدخل عبر الغرفة، وقفت ديجاه ثوريس.

ركضت نحوي وذراعاها ممدودتان، عندما ركضت للقائها.

كانت تلهث بشدة وترتجف وأنا آخذها بين ذراعي. بكت: «أوه، يا أميري، اعتقدت أنني لن آتي في الوقت المناسب. لقد سمعت كل ما قيل في هذه الغرفة، لكني كنت مقيدة ومكممة ولم أستطع تحذيرك أن جار نال يخدعك. وفي هذه اللحظة فقط، نجحت في تحرير نفسي».

صيحتي من المفاجأة عندما رأيتها جذبت انتباه رفاقي، وعادوا جميعًا إلى الغرفة. وبينما أمسكت بأميرتي بين ذراعي، قفز أور جان وأغمد سيفه في قلب جار نال البغيض.

* * *

انتهى الكتاب الثامن:

سيوف المريخ

رجال المريخ الآليون

ادجار رايس بورروز

ترجمة شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

الفصل (1)

أين راس ثافاس؟

تمتد المستنقعات التونولية الكبرى من فوندال[250] في أقصى الغرب، شرق تونول[251] ، عبر كوكب المريخ الآخذ في الاحتضار، لمسافة 1800 ميل [بمقياس الميل على كوكب الأرض] مثل الزواحف العملاقة النجسة والسامة - إنه مستنقع طيني، تربط تلافيف جداوله المائية الضيقة بين ما يظهر أحيانًا من مياه مفتوحة وبحيرات صغيرة، لا يغطي أكبرها أكثر من بضعة أفدنة. وتنكسر أحيانًا رتابة هذه المستنقعات والأدغال والمياه بواسطة جُزُر صخرية، تكسوها نباتات خضراء من بقايا هياكل سلسلة جبال قديمة.

لا تعرف مناطق عديدة في برسوم[252] عن مستنقعات تونول الكبرى سوى القليل؛ فهي منطقة غير مضيافة ومأهولة بالوحوش الشرسة والزواحف المرعبة، فضلاً عن بقايا قبائل السكان الأصليين الهمجية المعزولة منذ زمن طويل. ويحرس كل طرف منها إما مملكة فوندال وإما مملكة تونول غير الودودتين اللتين لا ترحبان بالتواصل مع أي أمم أخرى، وتخوضان باستمرار حروبًا ضد بعضهما.

ظل راس ثافاس[253] ، العقل المُدبِّر في المريخ، يجاهد في مختبره على جزيرة بالقرب من تونول لما يقرب من ألف عام إلى أن انقلب ضده فوبيس كان- جيداك[254] تونول وأبعده من الجزيرة التي كانت بمثابة بيته، ثم صدّ في وقت لاحق قوة من محاربي فوندال بقيادة جور هاجوس، القاتل المشهور في تونول، سعت إلى استعاده الجزيرة واستعادة راس ثافاس لمختبره بناء على وعد منه بتكريس مهارته وتعليمه إلى تخفيف المعاناة الإنسانية بدلاً من استخدامها في أغراض الجشع والآثام الكريهة.

---

(250) فوندال: مملكة صغيرة لا تضم سوى مدينة رئيسة وعدد قليل من الجزر في مستنقعات تونول، التي تُعد أقرب مملكة مجاورة لها - https://barsoom.fandom.com/wiki/Phundahl - المترجمة.

(251) تونول: مملكة مريخية نائية محاطة بالمستنقعات، ودائمًا في حالة حرب مع مملكة فوندال المجاورة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Toonol - المترجمة.

(252) برسوم: كوكب يسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom - المترجمة.

(253) راس ثافاس: عالِم مريخي، معروف بأنه العقل المُدبر في المريخ، وهو أحد أبطال القصة المعروفة بالاسم نفسه في سلسلة المريخ. يكرس اهتمامه بالعلوم دون النظر إلى العواقب الاجتماعية لاختراعاته أو اكتشافاته - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ras_Thavas - المترجمة.

(254) جيداك: ما يعادل الإمبراطور- http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak – المترجمة.

اختفى راس ثافاس بعد هزيمة جيشه الصغير، ونسيه الجميع تمامًا مثله مثل الموتى وأدخله مَن عرفوه في عِداد الأموات؛ على أن هناك البعض الذين لا يمكنهم نسيانه. هناك فالا ديا أميرة دوهور[255] ، التي كان قد نقل مخها إلى رأس العجوز البشعة ظاظا جيدارة[256] فوندال؛ لكي تكتسب ظاظا جسم فالا ديا الشاب الجميل. وقد تمكن فاد فارو، زوج فالا ديا، الذي عمل لفترة مساعدًا لراس ثافاس، من إعادة مخ زوجته إلى جسدها. فاد فارو هو رجل من كوكب الأرض، اسمه أوليسيس باكستون[257] في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن المفترض أنه توفي في حفرة أحدثتها قذيفة في فرنسا؛ وهناك جون كارتر[258] أمير هيليوم[259] وأمير الحرب في المريخ، الذي كان خياله مفتونًا بالحكايات التي أخبره بها فاد فارو عن المهارات الرائعة لأعظم عالِم وجراح في العالَم.

لم ينسَ جون كارتر راس ثافاس. وعندما نشأت حالة طارئة كانت فيها مهارة هذا الجراح الأعظم هي الأمل الوحيد المتبقي، قرر جون كارتر البحث عنه والعثور عليه إذا كان لا يزال حيًّا. فقد عانت أميرته ديجاه ثوريس[260] من إصابة مروعة في تصادم بين سفينتين سريعتين، وظلت فاقدة للوعي لعده أسابيع، مع كسر والتواء في ظهرها، إلى أن تخلى أعظم الجراحين في أنحاء هيليوم كافة عن كل أمل في علاجها؛ حيث اقتصرت مهارتهم على إبقائها في قيد الحياة.

ولكن كيف يمكن العثور على راس ثافاس؟ هذا هو السؤال. وعندئذ تذكر جون كارتر أن فاد فارو كان مساعدًا للجراح العظيم. فإذا تعذر العثور على الأستاذ، ربما تكفي مهارة التلميذ. ومن المرجح أيضًا أن فاد فارو، من بين جميع الرجال في برسوم، يعرف مكان راس ثافاس. وهكذا قرر جون كارتر التوجه أولاً إلى دوهور.

---

(255) دوهور: مملكة على المريخ تضم مريخيين ذوي بشرة حمراء، وتقع في نصف الكرة الشمالي للمريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Duhor - المترجمة.

(256) جيدارة: الملكة أو الإمبراطورة - وهو الاسم المريخي المؤنث لجيداك (الملك أو الإمبراطور - (https://barsoom.fandom.com/wiki/Jeddak - المترجمة.

(257) أوليسيس باكستون: ويُسمى على المريخ فاد فارو - بطل قصة «العقل المُدبر في المريخ». وهو جندي أمريكي انتقل في ظروف غامضة إلى المريخ خلال الحرب العالمية الأولى - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ulysses_Paxton - المترجمة.

(258) جون كارتر: من فرجينيا، وهو أول رجل من كوكب الأرض يصل إلى المريخ، وأصبح أحد أعظم أمراء الحرب في تاريخ المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/John_Carter - المترجمة

(259) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/المريخ، وهي تضم مدينتين توأم رئيستين: هيليوم الكبرى وهيليوم الصغرى، وهما معًا بمثابة عاصمة المملكة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium - المترجمة.

(260) ديجاه ثوريس: أميرة مملكة هيليوم، وهي زوجة جون كارتر (القادم من كوكب الأرض - (http://barsoom.wikia.com/wiki/Dejah_Thoris - المترجمة

اختار من أسطوله طرادًا فضائيًّا صغيراً سريعًا من نوع جديد، تصل سرعته إلى 400 ميل في الساعة - أكثر من ضعف سرعة الأنواع القديمة التي كان قد عرفها بداية، وطار بها من قبل عبر الهواء الرقيق لكوكب المريخ. كان يود الرحيل بمفرده، لكن كارثوريس[261] وتارا[262] وثوفيا[263] ناشدوه عدم القيام بذلك. وقد استسلم أخيراً ووافق على اصطحاب أحد ضباط قواته الشخصية وهو بادوار[264] شاب اسمه فور داج. ونحن مدينون له بهذه الحكاية الرائعة حول مغامرة غريبة على كوكب المريخ؛ نحن مدينون له ولجيسون جريدلي، مُكتشِف موجة جريدلي[265] التي أتاحت لي استقبال هذه القصة على جهاز الراديو الخاص باستقبال موجة جريدلي، وهو الجهاز الذي قام جيسون جريدلي بتصميمه هنا في طرزانا، ومدينون إلى يوليسيس باكستون الذي ترجمها إلى اللغة الإنجليزية وأرسلها عبر مسافة 40 مليون ميل في الفضاء.

سأقص عليكم القصة بكلمات فور داج قدر الإمكان، وبقدر وضوحها. هناك بعض الكلمات والتعبيرات المريخية غير القابلة للترجمة، فضلاً عن مقاييس الزمن والمسافة، وستجدونها عادة بكلماتي الخاصة. وستجدون أيضًا تدخلات من جانبي أحيانًا ولا يزعجني تحمل مسؤوليتها؛ لأن أصولها ستكون واضحة للقارئ. وبالإضافة إلى ذلك، هناك دون شك بعض أعمال التحرير من جانب فاد فارو. والآن، لنبدأ في الحكاية الغريبة كما رواها فور داج.

* * *

(261) كارثوريس: هو ابن جون كارتر وديجاه ثوريس، الشقيق الأكبر لتارا. وهو أمير هيليوم. واسمه مزيج من كارتر وثوريس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Carthoris - المترجمة.

(262) تارا: هي ابنة جون كارتر وديجاه ثوريس، والأخت الصغرى لكارثوريس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Tara - المترجمة.

(263) ثوفيا: الأميرة ثوفيا ابنة ثوفان ديهن، جيداك مملكة بتارث. وقد تزوجت من كارثوريس، ابن جون كارتر وديجاه ثوريس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Thuvia - المترجمة.

(264) بادوار: رتبة مريخية تُعادل رتبة مُلازم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Padwar - المترجمة.

(265) موجة جريدلي: وسيلة اتصال اكتشفها مخترع من كوكب الأرض هو جيسون جريدلي، وهي تتيح الاتصال في اتجاهين: بين كوكب الأرض والبيليوسيدار (عالَم باطن كوكب الأرض)، وقد استُخدِمت لنقل قصص بيليوسيدار إلى كوكب الأرض، كما استُخدمت لنقل قصص من المريخ إلى كوكب الأرض - https://barsoom.fandom.com/wiki/Gridley_wave - المترجمة.

الفصل (2)

مهمة أمير الحرب

أنا فور داج، وأشغل موقع بادوار في حرس أمير الحرب. كان يجب أن أموت منذ فترة طويلة بسبب الشيخوخة وفقًا لمعايير سكان كوكب الأرض، الذين أدرك أنني أكتب لهم حكاية هذه المغامرات؛ لكنني هنا، على برسوم، لا أزال في ريعان الشباب. أخبرني جون كارتر أن استمرار حياة أي إنسان على كوكب الأرض لمائة عام تُعد مسألة تثير اهتمام الناس. أما فترة العُمر الطبيعية المتوقعة للمريخي فهي ألف عام، من لحظة كسره لقشرة البيضة[266] التي احتضنته لخمس سنوات ويخرج منها، دون أن يكتمل نضجه البدني، مخلوقًا وحشيًّا يجب ترويضه وتدريبه مثل صغار المراتب الدنيا التي استأنسها الإنسان. ويضم هذا التدريب الكثير من الإعداد العسكري، بحيث يبدو لي أحيانًا أنني خرجت من البيضة مُجهزًا تجهيزًا كاملاً بعتاد المحارب وأسلحته. لتكن هذه، إذَنْ، بمثابه مقدمتي. يكفي أن تعرفوا اسمي، وأنني مقاتل كرّس حياته لخدمة جون كارتر في المريخ.

شعرت بفخر شديد بطبيعة الحال عندما اختارني أمير الحرب لمرافقته في بحثه عن راس ثافاس، على الرغم من أن المهمة بدت عادية لا تُقدم إلا أكثر قليلاً من فرصة لمرافقة أمير الحرب وخدمته وخدمة ديجاه ثوريس، أميرته التي لا مثيل لها. ويا لضآلة توقعاتي حول ما أواجهه!

كانت نية جون كارتر أن يطير أولاً إلى دوهور، التي تقع على بُعد حوالي 10500 هاد[267] ، أو نحو 4000 ميل بقياسات كوكب الأرض، شمال غرب مدينتي هيليوم التوأم؛ حيث كان يتوقع أن يجد فاد فارو ويأمل أن يعرف منه مكان راس ثافاس. فقد كان راس ثافاس هو الشخص الوحيد في العالم، باستثناء فاد فارو، الذي يمكنه بمعارفه ومهارته أن ينقذ ديجاه ثوريس من القبر الذي ترقد بالقرب منه لأسابيع، وأن تستعيد صحتها.

كانت الساعة الثامنة و29 دقيقة وخمس ثوان (12 و13 دقيقة صباحًا بتوقيت كوكب الأرض) عندما ارتفعت طائرتنا الأنيقة السريعة من منصتها فوق سطح قصر أمير الحرب.

---

(266) ورد في قصص سابقة في سلسلة المريخ أن نساء المريخ لا يلدن، بل يضعن البيض - المترجمة.

(267) الهاد: هو الميل في برسوم، ويعادل الهاد، أو الميل البرسومي، حوالي 339.2 قدمًا بمقاييس كوكب الأرض - http://barsoom.wikia.com/wiki/Linear_Measurement - المترجمة.

وكان القمران ثوريا[268] وكلوروس[269] يسرعان عبر السماء المُضاءة بنجوم متألقة، تلقي بظلالها المزدوجة دائمة التغيُّر على التضاريس أسفلنا بما يوحي لنا بخيالات لأشياء حية لا تُعد ولا تُحصى في حركه مستمرة لا تهدأ، أو لعالم سائل عاصف بالدوامات والغليان يختلف تمامًا، كما أخبرني جون كارتر، عن جانب مماثل على كوكب الأرض، حيث يتحرك القمر الوحيد بوتيرة جليلة فخمة عبر السماء.

ومع ضبط بوصلة تحديد الاتجاه نحو دوهور، واستمرار مُحرك طائرتنا في عمله بصمت وعلى نحو مثالي، لم نشغل وقتنا بأي مشكلات ملاحية. وإذا لم نواجه بعض الحالات الطارئة غير المتوقعة، ستطير السفينة في مسارها الجوي إلى دوهور وتتوقف فوق المدينة. ضبطنا جهاز الألتيمتر[270] الحساس للحفاظ على ارتفاع 300 آد[271] (حوالي 3000 قدم)، مع حد أدنى من الأمان يبلغ 50 آد. وبعبارة أخرى، تحافظ السفينة عادة على ارتفاع 300 آد فوق مستوى سطح البحر؛ وتحافظ عند عبورها فوق أي بلد جبلي على مسافة خالية لا تقل عن 50 آد (حوالي 490 قدم)، وذلك من خلال جهاز حساس يضبط لوحات التحكم عندما تقترب السفينة من أي ارتفاع عن سطح الأرض يقل عن 50 آد تحت عارضتها. وأعتقد أن أفضل طريقة لوصف هذه الآلية هي أن أطلب منكم أن تتخيلوا كاميرا ذاتية التركيز البؤري، يمكن ضبطها لأي مسافة تصبح بعدها في وضع تركيز بؤري دائم. وعندما تقترب من شيء على بُعد أقل من المسافة المحددة، تقوم تلقائيًّا بتصحيح البؤرة. هذا هو التغيير الذي يضبط لوحات التحكم في السفينة، ويتسبب في ارتفاعها إلى أن يتحقق ثبات التركيز مرة أخرى. ويتسم هذا الجهاز بحساسية شديدة، بحيث يعمل في ضوء النجوم بمثل دقة عمله في ضوء الشمس. ولا يخفق الجهاز في عمله إلا في الظلام المطلق؛ على أن هذا القيد الوحيد أمكن التغلب عليه في الحالات النادرة عندما تكون سماء المريخ ملبدة بالغيوم تمامًا نتيجة للسُّحب، وذلك من خلال وسيط يُطلق شعاعًا ضوئيًّا صغيراً ويجري توجيهه إلى أسفل من عارضة السفينة.

ونظرًا لشعورنا بالأمان لاعتقادنا في نجاح بوصلة تحديد الاتجاه، تخففنا من اليقظة وغفونا طوال الليل. ليس لديَّ أعذار أقدمها، ولم يلمني جون كارتر؛ إذ سرعان ما أقر أن الخطأ كان خطأه بقدر ما كان خطئي. بل تحمل كل اللوم، في واقع الأمر، قائلاً إنه يتحمل المسؤولية كاملة.

---

(268) ثوريا: القمر الأقرب للمريخ من قمرين يدوران حوله؛ ومعروف في كوكب الأرض باسم فوبوس – http://barsoom.wikia.com/wiki/Thuria المترجمة.

(269) كلوروس: أبعد قمري المريخ عن الكوكب الأم، ومعروف لدى سكان كوكب الأرض باسم القمر ديموس - http://barsoom.wikia.com/wiki/Cluros - المترجمة.

(270) الألتيمتر: جهاز لقياس الارتفاع - المترجمة.

(271) الآد: يعادل الآد حوالي 75.9 قدم بمقاييس كوكب الأرض. المترجمة.

لم يكن إلا بعد شروق الشمس أن اكتشفنا وجود شيء خاطئ جذريًّا في موقعنا أو توقيتنا. كان يجب أن تكون التلال الشمالية المغطاة بالثلوج وتحيط بدوهور مرئية بوضوح أمامنا، لكننا لم نشهدها- ما رأيناه كان مجرد مساحة شاسعة من قاع البحر الميت، مُغطاة بنباتات صفراء، وتوجد على البُعد تلال منخفضة.

اتخذنا مواقعنا بسرعة، لنجد أننا على مسافة حوالي 4500 هاد جنوب شرق دوهور؛ أو للدقة: 150 درجة غرب خط الطول، من مدينة أكسوم، و15 درجة شمالاً.

ومن زاوية خط العرض، نحن على مسافة حوالي 2600 هاد جنوب غرب فوندال، التي تقع عند الطرف الغربي من المستنقعات التونولية الكبرى.

أخذ جون كارتر يفحص بوصلة تحديد الاتجاه. كنت أعرف مدى مرارة شعوره بخيبة الأمل بسبب هذا التأخير. ربما لعن شخص غيره مصيره؛ لكنه لم يقل سوى ما يلي: «إنه التواء قليل في إبرة البوصلة، لكنه كاف ليخرجنا عن مسارنا. وربما هذا من الإنصاف أيضًا؛ فمن الأكثر ترجيحًا أن سكان فوندالٍ يعرفون أكثر من أي شخص في دوهور مكان وجود راس ثافاس. لقد فكرت في دوهور أولاً، بطبيعة الحال؛ لأننا على يقين من حصولنا على مساعدة ودية هناك».

وأضاف: «هذا أكثر مما يمكن أن نتوقع في فوندال، مما سمعته عن أهلها».

أومأ قائلاً: «ومع ذلك، سنذهب إلى فوندال. أعرف أن دار تاروس، الجيداك، لديه علاقات ودية مع فاد فارو؛ وبالتالي قد يكون صديقًا لصديق فاد فارو. وإنما توخيًا للحذر، سنذهب إلى المدينة باعتبارنا من البانتان[272] ».

ابتسمتُ قائلاً: «سوف يعتقدون أننا نحلق عاليًا في الخيال؛ ... بانتانان في سفينة من بيت أمير الحرب في برسوم!».

البانتان هو جندي متجول مرتزق، يبيع خدماته وسيفه لمَن يدفع له؛ ويحصل عادة على أجر منخفض؛ لأن الجميع يعرف أن البانتان يُفضل القتال على تناول الطعام، ولذلك لا يدفعون له كثيراً. وهو ينفق بإسراف ما يدفعونه له، ولذا فسرعان ما يُفلِس بعد فترة قصيرة.

---

(272) بانتان: هو جندي مريخي مرتزق، يتنقل من مكان لآخر ويقاتل لصالح مَن يرغب في شراء خدماته - http://barsoom.wikia.com/wiki/Panthan - المترجمة.

أجاب جون كارتر: «لن يروا السفينة. سنجد مكانًا لإخفائها قبل أن نصل إلى هناك. سوف تسير يا فور داج إلى بوابات فوندال وأنت ترتدي عتادًا عاديًّا». ابتسم قائلًا: «أنا أعرف جيدًا أن ضباط سفني يحبون السير».

قمنا خلال رحلتنا إلى فوندال بإزالة الشارات والزخارف من عتادنا، بحيث نصل إلى البوابات ونحن نرتدي الجلود العادية لأي بانتان مستقل. ومع ذلك، كنا نعرف أنهم قد لا يقبلون دخولنا إلى المدينة؛ ذلك أن سكان المريخ يرتابون دومًا من الغرباء، لا سيما أن الجواسيس يأتون في بعض الأحيان متخفين على هيئة بانتان. ساعدت جون كارتر على دهن بشرته الفاتحة بصبغة نحاسية ضاربة إلى الحُمرة يحملها معه دائمًا لمواجهة أي حالة طارئة تتطلب إخفاء هويته وأداء دور رجل أحمر أصلي من برسوم.

رأينا فوندال على مسافة، ولذا طرنا منخفضين، نكاد نلمس الأرض، مع الاستفادة من التلال لإخفائنا من الحراس عند سور المدينة. وعلى بُعد أميال قليلة من وجهتنا، هبط أمير الحرب بالطائرة على واد ضيق بجوار بستان صغير من أشجار سومبوس[273] حيث أوقف الطائرة. أزلنا روافع لوحات التحكم ودفناها على مسافة قصيرة من السفينة، وحرقنا أربع أشجار محيطة بها بطريقة تتيح لنا بسهولة تحديد موقع المخبأ عندما نعود إلى السفينة، إذا استطعنا العودة. ثم انطلقنا سيرًا على الأقدام نحو فوندال.

(273) شجرة سومبوس: شجرة مثمرة تنمو على المريخ. وثمارها من الحمضيات وذات قشرة حمراء كثيفة، ولبها يُسمى سوم. مذاقها يشبه مذاق الجريب فروت لكنها أكثر حلاوة. وتعتبر طعامًا شهيًّا - https://barsoom.fandom.com/wiki/Sompus - المترجمة.

الفصل (3)

محاربون لا يُقهَرون

بعد فترة وجيزة من وصول الجندي الفيرجيني المرتزق [جون كارتر] إلى المريخ، سقط في أيدي جماعة المريخيين الخُضر في ثارك[274] وأطلقوا عليه اسم دوتار سوجات؛ على أن الجميع قد نسي عمليًّا هذا الاسم مع مرور السنوات، نظرًا لاستخدامه لفترة وجيزة فقط من جانب عدد قليل من أعضاء تلك القبيلة الوحشية، ولذا قرر أمير الحرب استخدامه في هذه المغامرة، بينما احتفظت أنا باسمي لأنه لم يكن معروفًا في هذا الجزء من العالم. وهكذا، كان دوتار سوجات وفور داج بانتانين متجولين، يسيران خلال التلال المنخفضة في اتجاه غرب فوندال في هذا الصباح البرسومي الهادئ. ولم يصدر عن سيرنا أي صوت لأننا نتحرك فوق النباتات الصفراء الشبيهة بالطحالب. كانت حركتنا صامتة بمثل صمت ظلالنا الصارمة الحادة التي لازمت خطواتنا نحو الشرق. راقبتنا الطيور المرحة الصامتة المزُينة بالريش، خلال فروع أشجار السكيل[275] والسورابوس[276] . كانت الطيور صامته مثل الحشرات الجميلة التي تحوم حول أزهار البيماليا[277] والجلورستا[278] الرائعة، التي تنمو بكثافة في كل منخفض بالتلال، وتحافظ على الرطوبة الشحيحة لفترة أطول. فالمريخ عالَم شاسع من الصمت، حيث تصمت حتى المخلوقات ذات الأصوات كأنما هي واعية بموت المريخ الوشيك كعالَم آخذ في الاحتضار. نحن نكره الضوضاء. وأصواتنا، مثل موسيقانا، خافتة ومنخفضة؛ نحن شعب قليل الكلام. أخبرني جون كارتر عن ضجيج مدن كوكب الأرض، والآلات النحاسية وطبول موسيقاها، وعن الثرثرة المستمرة بلا معنى لملايين الأصوات التي لا تقول شيئًا. وأعتقد أن مثل ذلك العالَم قد يدفع المريخيين إلى الجنون.

ما زلنا في التلال، والمدينة ليست على مرمى البصر، عندما جذبت أصوات أعلانا وخلفنا انتباهنا. التفتنا في وقت واحد لننظر إلى الوراء، والتقت أعيننا بمشهد مذهل

---

(274) ثارك: جماعة المريخيين خُضر البشرة – http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Thark - المترجمة.

(275) شجرة سكيل: شجرة من خشب مريخي صلب يُستخدم في بناء كل شيء من السكن إلى الأثاث. وتنتج أيضًا شجرة سكيل جوزًا جيد المذاق - http://barsoom.wikia.com/wiki/Skeel - المترجمة.

(276) سورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بثماره النضرة المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapus - المترجمة.

(277) شجرة بيماليا: شجرة مزهرة كبيرة في حدائق المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Pimalia - المترجمة.

(278) جلورستا: نبات مريخي مُزهِر ينمو بكثافة في كل منخفض بالتلال، ويحافظ على الرطوبة الشحيحة لفترة طويلة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Gloresta - المترجمة.

جعلنا بالكاد ما نصدق حواسنا: يطير نحونا حوالي عشرين طائرًا. كان مشهدًا مذهلاً في حد ذاته، حيث يسهل تحديد نوع الطيور؛ إنها طيور مالاجور[279] ، ذلك النوع الذي من المفترض أنه انقرض منذ زمن طويل. وزادت غرابة المشهد بوجود محارب فوق كل طائر من تلك الطيور العملاقة. يبدو من الواضح تمامًا أنهم شاهدونا، ولذا لا جدوى على الإطلاق من محاولة الاختباء منهم. أخذوا يهبطون ويطيرون منخفضين، والآن يدورون حولنا. ومع هذه الفرصة للمشاهدة عن قُرب، أثارتني غرائبية أشكال المحاربين. هناك شيء غير إنساني إلى حد ما، إلا أنهم يبدون بشرًا مثلنا تمامًا. توجد امرأة مع أحدهم، تجلس أمامه فوق عنق الطائر الضخم؛ لكنني لم أتمكن من رؤيتها أو رؤية الآخرين جيدًا؛ لأنهم يتحركون جميعًا حركة ثابتة.

هبط العشرون طائرًا مُشكلين دائرة حولنا، وترجل خمسة محاربين واقتربوا منا. رأيت الآن ما يعطيهم المظهر الغريب وغير الطبيعي. كان مظهرهم يماثل رسمًا معيوبًا دبت فيه الحياة، بريشة رسام رديء - كاريكاتير بشري متحرك. لا يوجد تماثل في تصميمهم. كان طول ذراع أحدهم الأيسر يبلغ قدمًا بالكاد، في حين كان ذراعه الأيمن طويلاً إلى حد أنه يجر يده على طول الأرض وهو يمشي. وكانت أربعة أخماس وجه

أحدهم تقع فوق العينين، في حين تتساوى النسب تحت عينين واحد آخر. ولم تكن الأعين والأنوف والأفواه في محلها المعتاد، فهي إما كبيرة جدًّا وإما صغيرة جدًّا ولا تتواءم مع الملامح المجاورة. بيد أن هناك استثناء واحدًا - المحارب الذي ترجل الآن، ويتبعه خمسة محاربين يقتربون جميعًا منا. كان رجلاً وسيمًا، يتمتع ببنية جيدة، كما كانت أغطيته وأسلحته من نوعية وتصميم ممتازين - معدات صالحة لاستعمال مقاتل. وكان عتاده يحمل شارة دوار[280] ، وهي رتبة مماثلة لرتبة الكابتن في الهيئات العسكرية على كوكب الأرض. توقف المحاربون الخمسة بأمر منه قبل الوصول إلينا؛ ثم خاطبنا.

سألنا: «هل أنتما من فوندال؟».

أجاب جون كارتر: «نحن من هيليوم. كان آخر عمل لدينا هناك. نحن من البانتان».

- أنتما سجيناي. على كل منكما أن يمد ذراعيه.

مست ابتسامات خافتة شفاه أمير الحرب. قال: «تعال وخذهم». كان يتحداه.

(279) مالاجور: طائر كبير الحجم على المريخ، يعتقد السكان أنه انقرض منذ زمن طويل - https://barsoom.fandom.com/wiki/Malagor - المترجمة.

(280) دوار: رتبة مريخية تعادل رتبة كابتن (نقيب - http://barsoom.wikia.com/wiki/Dwar - (المترجمة.

هز الآخر كتفيه وقال: «كما تريد. نحن نفوقك عددًا، عشرة إلى واحد. سوف نأخذك، لكننا قد نقتلك ونحن نأخذك. أنصحك بالاستسلام».

- ستكون حكيمًا إذا تركتنا نذهب في طريقنا، لا نريد الشجار معكم. ولكن إذا اخترت الشجار، فلن نموت وحدنا.

ابتسم الدوّار ابتسامة غامضة وأجاب: «كما تريد»؛ ثم التفت إلى المحاربين الخمسة وقال: «خذوهما!». بيد أنه لم يأتِ معهم عندما تحركوا نحونا، بل بقي وراءهم؛ وهو ما يتناقض تمامًا والأخلاق التي تحددُ سلوك ضباط المريخ. كان ينبغي أن يقودهم، وأن يشتبك معنا بنفسه، وأن يقدم مثالاً للشجاعة أمام رجاله.

سحبنا سيفينا الطويلين من غمدهما وواجهنا المخلوقات الخمسة المرعبة، ونحن نقف ظهرًا بظهر وهم يحيطون بنا. نسج سيف أمير الحرب شبكة حادة من الصلب أمامه، بينما قمتُ بأفضل ما في وسعي للدفاع عن أميري والتمسك بشرف سيفي. كان أدائي جيدًا، ويعتبرني جون كارتر نفسه، وهو أعظم مبارز، مبارزًا عظيمًا. أما خصومنا، فلم يكونوا بالكفاءة نفسها. لم يتمكنوا من اختراق حمايتنا، على الرغم من أنهم قاتلوا بتجاهل كامل للبقاء أحياء؛ فقد كانوا يلقون بأنفسهم على سيوفنا ثم يجيئون ثانية لمزيد من العقاب. وكان ذلك بمثابة الملمح المُحبِط في هذه المواجهة البشعة. فقد تكررت طعناتي؛ وعندما أطعن أحدهم، أجده يتراجع إلى أن يخرج سيفي من جسده ثم يأتي نحوي ثانية. يبدو أنهم لا يعانون من الصدمة أو من الألم، ولا يعرفون الخوف. قطع سيفي ذراع أحدهم من الكتف؛ وبينما اشتبك معي زميله، وجدته ينحني ويستعيد سيفه بيده الأخرى ويقذف ذراعه المقطوعة جانبًا. قطع جون كارتر رأس أحد خصومه، لكن الجسم استمر يدور وهو يضرب ويطعن بغضب واضح غير قابل للسيطرة إلى أن أمر الدوّار العديد من المحاربين الآخرين بالإمساك به ونزع سلاحه، وكان الرأس راقدًا طوال الوقت يثرثر ويتمرغ في التراب. وقد كان أول خصومنا الذي يصبح عاجزًا بشكل دائم عن القتال، وأوحى لنا بالطريقة الوحيدة التي يمكننا تحقيق الانتصار خلالها.

قال لي أمير الحرب: «اقطع رؤوسهم يا فور داج!»، وكان يقطع وهو يتحدث رأس محارب آخر.

أقول لك إنه كان مشهدًا بشعًا. استمر الجسم في القتال ورأسه ملقًى على الأرض يصرخ ويلعن. تقدم جون كارتر لنزع سلاحه، وعندئذ اندفع الجسم إلى الأمام وضربه تحت ركبتيه بكتلة جذعه مقطوع الرأس، فأفقده توازنهً. ومن حسن الحظ أنني رأيت ما يحدث، ولولا ذلك كان يمكن أن يطعن مخلوق آخر أمير الحرب. جئت في الوقت

المناسب، وقطعت رأس المخلوق، وسقط على الأرض. لم يتبقَّ سوى اثنين من خصومنا، لكن الدوّار استدعاهما.

انسحبوا إلى ركوباتهم، ورأيت الضابط يصدر تعليمات، لكني لم أتمكن من سماع ما كان يقوله. تصورت أنهم سوف يستسلمون ويغادرون، حيث نهض العديد منهم وامتطوا طيور المالاجور الكبيرة، لكن الدوّار لم يركب فوق طائره وإنما ظل واقفًا هناك يراقب. حلقت المجموعة التي امتطت الطيور فوقنا مباشرة، بعيدًا عن متناول سيوفنا؛ وترجل عدد من زملائهم واقترب منا، وإن ظلوا أيضًا محافظين على مسافة منا. كانت الرؤوس الثلاثة المقطوعة ملقاة على الأرض وتلعننا. نزعوا سلاح جسمين وقيدوهما، في حين كانت قِطع الجسم الثالث تتناثر هنا وهناك، وسعى زميلان إلى إدخالها في الشباك التي ألقوها عليها بقدر ما تمكنوا من الاقتراب بما يكفي.

لمحت أضواء جانبية بنظرة سريعة؛ لأن اهتمامي كان منصبًا أكثر على تصرفات أولئك الذين يحلقون فوقنا، في محاولة لتحديد وضعية هجومهم المقبل. ولم أنتظر طويلاً لإرضاء فضولي. فكوا الشِّباك التي يلفها كل منهم حول خصره، وكنت أتصور أنها جزءٌ من ملابسهم، وألقوها علينا في محاولة لإيقاعنا في الشَّرَك. حاولنا قطع نسيج الشِّباك، مع شعور متزايد بعدم الجدوى. وعلى الرغم من أننا قطعناه في أماكن عديدة، لم نتمكن من الهروب منه. وعندما أسقطوا علينا بمهارة شبكتين أخريين، نجحوا في اصطيادنا وأصبح وضعنا يائسًا. اندفع نحونا المحاربون الذين حاصرونا على الأرض، وقيدونا. قاتلنا، ولكن حتى قوة أمير الحرب الهائلة كانت بلا جدوى في مواجهة تلك الشِّباك المتشابكة والقوه الغاشمة التي تمتلكها الكائنات البشعة التي فاقتنا عددًا بكثير. اعتقدتُ أنهم ربما سيقتلوننا الآن، لكنهم تراجعوا بأمر من الدوّار. هبط الذين كانوا يحلقون في الهواء، وجمعوا شباكهم. قاموا بجمع عدة رؤوس وأسلحة وربطوها بظهور طيور المالاجور، كما فعلوا الشيء نفسه مع الأجسام مقطوعة الرأس. وخلال قيامهم بذلك، اقترب الضابط وتحدث معنا. بدا أنه لا يضمر أي نية سيئة تجاهنا للأضرار التي ألحقناها بمحاربيه، وكان كريمًا بما يكفي لمجاملتنا على شجاعتنا وقدرتنا على المبارزة.

«ومع ذلك»، أضاف، «كان من الحكمة أن تأخذا بنصيحتي وتستسلما منذ البداية. إنها لمعجزة أنكما لم تُقتلا أو على الأقل تُصابا بجراح شديدة. إن قدرتكما الإعجازية على المبارزة هي ما أنقذتكما».

أجاب جون كارتر: «المعجزة الوحيدة هي احتفاظ أي من رجالك برأسه. إن قدرتهم على المبارزة بغيضة».

ابتسم الدوّار، وقال: «أتفق معك تمامًا. على أن ما يفتقرون إليه في التقنية يعوضونه أكثر في قوتهم الغاشمة وعدم خوفهم، وضرورة تقطيع أوصالهم لكي تتقي ضررهم. فكما لاحظت، لا يمكن قتلهم».

سأله أمير الحرب: «والآن بعد أن أصبحنا سجناءك، ماذا تنوي أن تفعل معنا؟».

- سآخذكما إلى رؤسائي. هم سيقررون. ما أسماؤكما؟

- هذا فور داج. وأنا دوتار سوجات.

- أنتما من هيليوم، وكنتما ذاهبان إلى فوندال. لماذا؟

- كما قلت لك، نحن من البانتان، ونبحث عن عمل.

- هل لديكما أصدقاء في فوندال؟

- كلا. لم نذهب إلى هناك من قبل. إذا وجدنا مدينة أخرى في طريقنا، كنا سنعرض خدماتنا هناك. أنت تعرف وضع البانتان.

أومأ الرجل، وقال: «ربما ستشتبك في قتال».

سألته: «هل تمانع في أن تخبرني ما نمط تلك المخلوقات من محاربيك؟ لم يسبق لي أن رأيت رجالاً مثلهم».

قال: «ولم يسبق لأي شخص آخر أن رأى مثلهم. إنهم يُسمون هورماد. كلما قلت مشاهدتك لهم، سيزداد إعجابك بهم. والآن، لأن عليكما الاعتراف بأنكما سجيناي، لديَّ اقتراح أقدمه لكما. إن الرحلة إلى موربوس لن تكون مريحة على الإطلاق وأنتما مقيدان؛ وأنا لا أرغب في تعريض اثنين من المقاتلين الشجعان لعدم راحة غير ضرورية. إذا أكدتما لي أنكما لن تحاولا الهروب قبل أن نصل إلى موربوس، فسوف أزيل قيودكما».

كان من الواضح أن الدوّار زميل لطيف. قبلنا عرضه بكل سرور، وأزال قيودنا بنفسه؛ ثم طلب منا أن نركب وراء اثنين من محاربيه. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها عن قرب المرأة التي تركب أمام هورماد على أحد طيور المالاجور. التقت أعيننا، ورأيت الرعب والضعف ينعكسان في عينيها. رأيت أيضًا مدى جمالها. أقلعت الطيور الكبيرة وهي ترفرف بأجنحتها العملاقة الرائعة، واتخذنا طريقنا إلى موربوس.

الفصل (4)

سر المستنقعات

كان أحد الرؤوس التي أطحنا بها في قتالنا مع الهورماد مُعلقًا في شبكة على جانب طائر المالاجور الذي امتطيته. تعجبت لماذا يحتفظون بمثل هذه الغنيمة المروعة، وعزوت ذلك إلى بعض الأعراف أو الخرافات التي تتطلب إعادة الجسم إلى وطنه للتخلص منه نهائيًّا.

يقع مسارنا جنوب فوندال، ويسعى القائد بوضوح إلى تجنبها. رأيت أمامي المستنقعات التونولية الشاسعة، تمتد إلى مسافة بعيدة بقدر ما يمكن أن ترى العين. إنها متاهة من الممرات المائية المتعرجة، تشق طريقها عبر مستنقعات مقفرة، وترتفع الجُزر خلالها أحيانًا من الأرض الصلبة، مع تناثر مناطق مظلمة هنا وهناك من الغابات وزُرقة البحيرات الصغيرة.

وخلال مشاهدتي لهذه الصورة البانورامية التي تتكشف أمامنا، سمعت صوتًا يهتف فجأة شاكيًا: «أدرني. لا أستطيع رؤية أي شيء سوى بطن هذا الطائر». بدا الصوت صادرًا من أسفلي؛ وبإلقاء نظره خاطفة إلى أسفل، رأيت أن الرأس المُعلق في الشبكة تحتي هو الذي يتحدث. يرقد الرأس في الشبكة، ووجهه إلى أعلى نحو بطن المالاجور، وعاجز عن الالتفات أو تحريك نفسه. كان مشهدًا مروعًا، مشهد هذا الشيء الميت يتحدث؛ ويجب أن أعترف أنه جعلني أرتجف.

قلت: «لا يمكنني أن أقلبك؛ لأني لا أستطيع الوصول إليك. وما الفارق على أي حال؟ ما الفارق إذا كانت عيناك تنظران في اتجاه أو آخر؟ أنت ميت، والموتى لا يمكنهم الرؤية».

- وهل يمكنني أن أتحدث إذا كنت ميتًا، أيها الأحمق الأبله؟ أنا لست ميتًا؛ لأنني لا أموت. إن مبدأ الحياة متأصل بداخلي- في كل نسيج مني. وسوف يظل قائمًا ما لم يتعرض للدمار تمامًا، مثل تعرضه للحرق؛ وسوف تستمر الحياة. إنه قانون الطبيعة. أدرني، أيها الغبي! يمكنك أن تهز الشبكة، أو تسحبها إلى أعلى وتقلبني.

حسنًا، إن أخلاق هذا الشيء سيئة للغاية؛ وإنما تبادر إلى ذهني أنني ربما أشعر بالانزعاج إذا ما قُطع رأسي؛ فقمت بهز الشبكة إلى أن انقلب الرأس على جانبه بحيث لم يعد ينظر إلى بطن المالاجور.

سألني: «ما اسمك؟».

- فور داج.

- سأتذكره. قد تحتاج إلى صديق في موربوس. سأتذكرك.

قلت: «شكرًا»، وتعجبتُ، فماذا يمكن أن يقدمه صديق جيد لا جسم له. وتعجبت أيضًا أن هز الشبكة لهذا الشيء كان يتجاوز حقيقة أنني من قطع رأسه. ومن باب التهذيب فقط، سألته عن اسمه.

أجاب: «أنا تور-دور-بار. أنا تور-دور-بار نفسه. ومن حسن حظك أن أكون صديقك. أنا رائع حقًّا. وسوف تُقدِّر ذلك عندما نصل إلى موربوس وتعرف الكثير منا، نحن الهورماد».

تور-دور-بار معناها أربعة ملايين وثمانية [4.000.008] في لغة كوكبك، كوكب الأرض. يبدو الاسم غريبًا، بيد أن كل شيء عن هؤلاء الهورماد كان غريبًا. ومن الواضح أن الهورماد الجالس أمامي كان يستمع إلى حديثنا؛ لأنه أدار رأسه قليلاً وقال باستخفاف: «لا تولي اهتمامًا لتور-دور-بار. إنه مغرور. لكنني أنا الرائع. وإذا كنت ترغب في صديق قوي- حسنًا، لن تحتاج إلى أن تنظر أبعد مني. لا يمكنني أن أقول أكثر من ذلك؛ أنا شديد التواضع. لكنك إذا احتجت إلى صديق حقيقي في أي وقت، ليس عليك إلا أن تأتي إلى تيايتان-أوف». (وهذا يعني 1107 في لغتك بكوكب الأرض).

سخر تور-دور-بار باشمئزاز: «'مغرور' بالفعل! أنا المُنتَج النهائي من مليون ثقافة، أو أكثر من أربعة ملايين [4.000.000] ثقافة على وجه الدقة. أما تيايتان-أوف، فهو بالكاد ما يزيد على تجربة».

قال تيايتان-أوف مُهدِّدًا: «إذا خففت من قبضة شبكتي، فإنك تصبح مُنتَجًا مُنتهيًا».

بدأ تور-دور-بار يصرخ: «سايتور[281] ! سايتور! القتل!».

---

(281) سايتور: دوّار الكتيبة، وهو مريخي أحمر يخدم جِد الهورماد في موربوس. وربما كان مخه هو مخ هورماد ومزروع في رأس رجل أحمر -https://barsoom.fandom.com/wiki/Sytor - المترجمة.

كان الدوّار يطير على رأس كتيبته الغريبة، وعندئذ أدار طائره المالاجور نحونا وطار إلى جانبنا. سأل: «ماذا يحدث هنا ؟».

بكى تور-دور-بار قائلاً: «تيايتان-أوف يهدد بالتخلص مني في مستنقعات تونول. خذني بعيدًا عنه يا سايتور».

سأل سايتور: «تتشاجران ثانية، هه؟ إذا سمعت منكما أي كلام آخر، سيذهب كلاكما إلى المحرقة عندما نعود إلى موربوس. وأنت يا تيايتان-أوف، تأكد من عدم حدوث أي شيء لتور-دور-بار، هل تفهم؟».

ولول تيايتان-أوف، وعاد سايتور إلى موقعه. واصلنا طريقنا بعد ذلك في صمت، وأخذت أتأمل أصل هذه المخلوقات الغريبة التي وقعتُ بين أيديها. كان أمير الحرب يركب طائرًا أمامي، وتركب الفتاة طائرًا على يساري قليلاً. تجولت عيناي كثيراً في اتجاهها؛ وتعاطفت معها لأني كنت على يقين من أنها أيضًا سجينة. تُرى إلى أي مصير فظيع يحملونها؟ الوضع سيئ للغاية لأي رجل، ولا يمكنني سوى أن أخمن أنه أسوأ بالنسبة لامرأة.

طارت المالاجور بسرعة وسلاسة. وهي تطير، حسب تخميني، بسرعة تزيد على 400 هاد في الزود[282] (أي حوالي 60 ميل في الساعة). ويبدو أنها لا تكل؛ فقد ظلت تطير ساعة بعد ساعة، دون راحة. وبعد تحليقها فوق فوندال، اتجهت نحو الشرق؛ واقتربت في وقت متأخر بعد الظهيرة من جزيرة كبيره ترتفع وسط المستنقعات المحيطة بها. تلتف حول حدودها الشمالية إحدى الممرات المائية المتعرجة التي لا تُعد ولا تُحصى، ثم تتسع هنا لتُشكل بحيرة صغيرة على شاطئ مدينة صغيرة مُسورة طفنا حولها مرة قبل أن ننخفض إلى المهبط أمام بوابتها الرئيسة التي تواجه البحيرة. لاحظت خلال هبوطنا مجموعات من أكواخ صغيرة متناثرة حول الجزيرة خارج أسوار المدينة، أينما امتد بصري، مما يوحي بوجود عدد كبير من السكان. ونظرًا لأنني لم أستطع أن أرى سوى جزء صغير من الجزيرة، والتي كانت شاسعة الامتداد، انتابني انطباع أن عدد سكانها هائل. على أنني عرفت لاحقًا أن أكثر تخميناتي جموحًا كان لا يمكن مساواته بالحقيقة.

---

(282) الزود: حوالي 166 ميل في الساعة بمقاييس كوكب الأرض. [وقد ورد في قصة «آلهة المريخ» أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على 24 ساعة و37 دقيقة (بتوقيت كوكب الأرض). ويقسمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية تُسمَّى زود (أي أن دورة المريخ حول محوره تساوي 10 زود) – المترجمة.]

بعد أن ترجلنا، جمعونا معًا نحن السجناء الثلاثة. أما الأذرع والسيقان والرؤوس والأجسام التي أنقذوها من معركتنا في وقت سابق من اليوم، فكانت موضوعة في شِباك بحيث يمكن حملها بسهولة. تأرجحت البوابات مفتوحة، ودخلنا إلى مدينة موربوس.

كان الضابط المسؤول عن البوابة يتسم بمظهر بشري طبيعي تمامًا، لكنَّ محاربيه كانوا من الهورماد البشعين القبحاء. تبادل الضابط التحيات مع سايتور، وسأله بعض الأسئلة حولنا، ثم وجّه الحمّالين بأخذ أحمالهم البشعة إلى «مختبر الإصلاح رقم 3»، وبعد ذلك قادنا سايتور إلى طريق يمتد جنوبًا من البوابة. وعند أول تقاطع، استدار الحمّالون إلى اليسار ومعهم الجثث المشوهة؛ ومع ابتعادهم، صاح صوت: «لا تنسَ يا فور داج أن تور-دور-بار صديقك وأن تيايتان-أوف أفضل قليلاً من تجربة».

نظرت حولي، فرأيت رأس 008.000.4 المروع وهو يغمز لي من أسفل الشبكة. قلت له: «لن أنسى»؛ وكنت أعرف أنني لن أنسى هذا الرعب أبدًا، على الرغم من تساؤلي عن الطريقة التي يمكن أن يخدمني بها رأس بلا جسم مهما كانت ودية نواياه.

تختلف موربوس عن أي مدينة مريخية زرتها من قبل. كانت مبانيها كبيرة وخالية من الزخارف، ولبساطة خطوطها مهابة تضفي عليها جمالاً خاصًّا بها. كما أنها تعطي الانطباع بأنها مدينة جديدة، مبنية وفقًا لخطة مدروسة جيدًا، ينم كل خط فيها عن الكفاءة. لم أستطع إلا أن أتساءل ما الغرض من وجود مثل هذه المدينة هنا، في أعماق المستنقعات التونولية الكبرى؟ مَن يمكنه أن يعيش، باختياره، في مثل هذه البيئة النائية والكئيبة؟ كيف توجد مثل هذه المدينة دون أسواق أو تجارة؟

توقفت تأملاتي بوصولنا أمام مدخل صغير في سور أبيض. دق سايتور على الباب بمقبض سيفه، وعندئذ فُتِحت لوحة صغيرة وظهر وجه.

«أنا سايتور، دوّار الأوتان[283] العاشر، الدار[284] الأول لحرس الجِد[285] الثالث. وقد أحضرت سجناء، وأنتظر قرار مجلس الجِدود السبعة».

سأله رجل البوابة الصغيرة: «كم عددهم؟».

«ثلاثة - رجلان وامرأة».

---

(283) الأوتان: سرية من الجنود تضم مائة جندي - http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=utan - المترجمة.

(284) دار: وحدة عسكرية تضم 10 أوتان، بما يصل مجموع أفراد الدار إلى 1000 جندي - https://barsoom.fandom.com/wiki/Martian_Military - المترجمة.

(285) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed المترجمة.

تأرجح الباب مفتوحًا، وأومأ لنا سايتور بالدخول. لم يرافقنا. وجدنا أنفسنا في ما يبدو واضحًا أنه غرفة الحرس، حيث ضمت حوالي عشرين محاربًا من الهورماد بالإضافة إلى الضابط الذي أدخلنا، وكان - مثل الضباط الآخرين الذين رأيناهم - رجلاً عاديًّا، أحمر البشرة مثلنا. سأل عن أسمائنا، وأدخلها في دفتر مع معلومات أخرى مثل مهنة كل منا والمدينة التي جاء منها. وعرفت خلال هذا الاستجواب اسم الفتاة. كان اسمها جاناي؛ وقالت إنها جاءت من أمهور- وهي مدينة تبعد حوالي 700 ميل شمال موربوس؛ وهي مدينة صغيرة يحكمها أمير يدعى جال هاد ولديه سمعة سيئة وصلت حتى إلى هيليوم البعيدة. هذا كل ما كنت أعرفه عن أمهور.

وبعد أن انتهى من استجوابنا، وجه الضابط أحد الهورماد ليأخذنا. قادنا أسفل ممر إلى فناء كبير، يضم عددًا من المريخيين الحُمر. قال الهورماد: «سوف تبقون هنا إلى أن يرسلوا في طلبكم. لا تحاولوا الهرب»، ثم تركنا.

«الهرب!»، قال جون كارتر بابتسامة ساخرة. «لقد هربت من أماكن كثيرة؛ وربما يمكنني الهرب من هذه المدينة، لكن الفرار من مستنقعات تونول مسألة أخرى. ومع ذلك، سنرى».

اقترب منا الآخرون، الذين اتضح أنهم سجناء أيضًا. كانوا خمسة. قاموا بتحيتنا: «كاور!»[286] . تبادلنا الأسماء، وسألونا العديد من الأسئلة حول العالم الخارجي، كما لو أنهم سجناء منذ سنوات. لكنهم ليسوا كذلك؛ وإنما يبدو أن موربوس معزولة تمامًا بحيث يشعرون أنهم خارج العالم منذ فترة طويلة. كان اثنان منهم من فوندال، وواحد من تونول، وواحد من بتارث، وواحد من دوهور.

سأل جون كارتر: «لأي غرض يبقون السجناء؟».

أوضح باندار، أحد القادمين من فوندال: «إنهم يستخدمون البعض كضباط لتدريب وقيادة محاربيهم. ويستخدمون أجساد الآخرين لوضع أمخاخ الهورماد الأذكياء بما يكفي للخدمة في مناصب عالية. وتذهب جثث آخرين إلى مختبرات الاستزراع، حيث تُستخدم أنسجتها في الأعمال الملعونة التي يقوم بها راس ثافاس».

صاح أمير الحرب: «راس ثافاس! هل هو هنا في موربوس؟».

أجاب جان هاد، من تونول: «إنه سجين في مدينته الخاصة، خادم المخلوقات البشعة التي يقوم بتصميمها».

---

(286) كاور: كلمة التحية بلغة أهل المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Martian_Language - المترجمة

قال جون كارتر: «لا أفهم ما تقول».

أوضح جان هاد: «بعد أن نجح فوبيس كان، جيداك تونول، من طرده من مختبراته العظيمة، جاء راس ثافاس إلى هذه الجزيرة لاستكمال وإتقان اكتشاف كان يعمل عليه لسنوات، وهو بناء بشر من الأنسجة البشرية. وقد أتقن مزرعة تنمو فيها الأنسجة بشكل مستمر. وملأ الناتج من الجزيئات الصغيرة للأنسجة الحية غرفة كاملة في مختبره، لكنه كان بلا شكل. وتمثلت مشكلته في توجيه هذا الناتج النامي. قام باختبارات مع زواحف مختلفة لاستنساخ أجزاء معينة من أجسامهم مثل أصابع الأقدام، والذيول، والأطراف عند قطعها؛ وفي النهاية اكتشف المبدأ. وقد طبق ذلك على التحكم في نمو الأنسجة البشرية في مزرعة شديدة التخصص. وكان الهورماد هم نتيجة هذه الاكتشافات والتجارب. إن 75% من المباني في موربوس مكرسة لاستزراع ونمو هذه المخلوقات البشعة التي ينتجها راس ثافاس بأعداد هائلة.

«ويتسم جميعهم، عمليًّا، بذكاء منخفض للغاية؛ لكنَّ عددًا قليلاً منهم تطورت لديه أمخاخ عادية، وتجمع بعضهم للاستيلاء على الجزيرة وإنشاء مملكه خاصة بهم. وقد أجبروا راس ثافاس، بعد تهديده بالموت، على الاستمرار في إنتاج هذه المخلوقات بأعداد كبيرة، ووضعوا خطة مذهلة لا تقل عن بناء جيش من ملايين الهورماد واستخدامهم لقهر العالَم. سوف يبدأون بفوندال وتونول، ثم ينتشرون تدريجيًّا على سطح الكوكب بأكمله».

«شيء مذهل»، قال جون كارتر، «لكني أعتقد أنهم وضعوا خطتهم دون فهم كامل لجميع المشكلات التي ينطوي عليها مثل هذا العمل. فمن غير المتصور، على سبيل المثال، أن تتمكن برسوم من تغذية مثل هذا الجيش في الميدان؛ كما أن هذه الجزيرة الصغيرة لا يمكنها بالتأكيد تغذية نواة مثل هذا الجيش».

أجاب جان هاد: «أنت هنا مخطئ. يجري إنتاج غذاء الهورماد بوسائل مماثلة تقريبًا لتلك التي تُنتِجهم- استزراع مختلف قليلاً؛ هذا هو كل شيء. تنمو الأنسجة الحيوانية بسرعة كبيرة جدًّا في تلك المزرعة، ويمكن نقلها مع جيش في صهاريج بحيث توفر باستمرار ما يكفي من طعام. كما توفر أيضًا ما يكفي من الماء، نظرًا لمحتواها المائي الكبير».

سألته: «ولكن، هل يمكن لأنصاف البشر هؤلاء أن ينتصروا على القوات الذكية جيدة التدريب والمُجهزة للحرب الحديثة؟».

قال باندار: «أعتقد ذلك. سينجحون بأعدادهم الساحقة، وعدم خوفهم على الإطلاق، وحقيقة أنه من الضروري قطع رؤوسهم قبل أن يصبحوا عاجزين عن القتال».

سأل جون كارتر: «ما حجم جيشهم الكبير؟».

- يوجد عدة ملايين من الهورماد على الجزيرة. وتنتشر أكواخهم على كامل منطقة موربوس. وهناك تقدير أن الجزيرة يمكنها استيعاب مائة مليون منهم. ويزعم راس ثافاس أن بإمكانه إرسال 2.000.000 [مليونين] منهم سنويًّا إلى المعركة؛ وإذا فقدهم، لا تزال لديه قوته الأصلية غير المستنفدة بقدر رجل واحد. إن هذا المصنع ينتجهم بكميات هائلة. وهناك نسبة مئوية معينة مشوهة بشكل صارخ، إلى حد أنها عديمة الفائدة تمامًا. وعندئذ يجري تقطيعها إلى مئات الآلاف من القطع الصغيرة وتُلقى ثانية في أحواض الاستزراع، حيث تنمو بسرعة لا تُصدق وتتطور في غضون تسعة أيام إلى هورماد كامل الحجم، ويتطور عدد مذهل منها إلى شيء يمكنه السير واستخدام السلاح ببراعة.

قال جون كارتر: «يبدو الوضع خطيراً، وإن كان يبقى هناك شيء واحد».

سأله جان هاد: «وما هو؟».

- النقل. كيف سينقلون مثل هذا الجيش الهائل؟

- كانت هذه مشكلتهم، لكنهم يعتقدون أن راس ثافاس قد حلها الآن. فقد أجرى تجارب لفترة طويلة على أنسجة المالاجور في وسيط استزراع خاص. وإذا أمكنه إنتاج هذه الطيور بكميات كافية، ستُحل مشكله النقل. أما بالنسبة لسفن القتال التي سيحتاجون إليها، فهم يعتمدون على السفن التي يتوقعون الاستيلاء عليها، عندما يأخذون فوندال وتونول، كنواة لأسطول كبير ينمو مع اتساع فتوحاتهم وامتدادها إلى مدن أكثر وأكبر.

انقطع الحديث بوصول اثنين من الهورماد يحملان وعاء يحتوي على نسيج حيواني لوجبتنا المسائية – وكان عبارة عن كمية من الفوضى تبدو غير شهية على الإطلاق.

قام السجين من دوهور، الذي بدا متطوعًا للعمل كطباخ، بإشعال نار في الفرن الذي يُشكل جزءًا من الحائط البالغ طوله عشرين قدمًا، ويغلق الجانب الوحيد من الفناء غير المُحاط بأجزاء من البناية؛ وها هو عشاؤنا الآن على الشواية فوق النار الساخنة.

لم أتمكن من التفكير في مادة وجبتنا دون شعور بالاشمئزاز، على الرغم من أنني كنت جائعًا جدًّا؛ وكان ذهني يموج بالشكوك التي تولدت من كل ما سمعته منذ دخولي

هذا المُجمع، ولذا تحولت نحو جان هاد وسألته: «هل هذا، بأي حال من الأحوال، نسيج بشري؟».

ارتجف وقال: «ليس من المفترض؛ لكن هذا هو السؤال الذي لا نسأله حتى لأنفسنا؛ لأننا يجب أن نأكل لنعيش، وهذا هو كل ما يجلبونه لنا».

* * *

الفصل (5)

صدور حكم الجدود

جلست جاناي، فتاة أمهور، بعيدًا. بدا لي وضعها يثير الشفقة إلى أقصى حد - امرأة وحيدة مسجونة مع سبعة رجال غرباء في مدينة أعداء بشعين. إننا نحن رجال برسوم الحُمر عِرق شهم بطبيعتنا؛ لكن الرجال هم رجال، ولا أعرف شيئًا عن الخمسة الذين وجدناهم هنا. ستظل آمنة ما دمنا أنا وجون كارتر سجناء معها؛ هذا ما أعرفه. وتصورت أن معرفتها بذلك، قد تخفف عنها عبء تخوفاتها.

عندما اقتربت منها بنية الحديث معها، دخل الضابط الذي سبق أن استجوبنا في غرفة الحرس ومعه ضابطان آخران وعدد من الهورماد. جمعونا معًا، ونظر نحونا الضابطان المرافقان لضابط الحرس؛ ثم قال أحدهم: «ليست حصيلة سيئة».

هز الآخر كتفيه وقال: «سيأخذ الجدود أفضلهم، ويتذمر راس ثافاس بشأن المواد التي يحصل عليها. فهو يفعل ذلك دائمًا».

تساءل ضابط الحرس: «إنهم لا يريدون الفتاة، أليس كذلك؟».

أجاب أحد الآخرين: «الأوامر التي تلقيناها تقضي بإحضار السجناء».

قال ضابط الحرس: «أريد الاحتفاظ بالفتاة».

ضحك الآخر قائلاً: «ومَن لا يريد ذلك؟ قد تحصل عليها إذا كان لديها وجه أولسيو[287] ؛ لكن الفتيات حسناوات المظهر يذهبن إلى الجِدود، وهذه أكثر من مجرد حسنة المظهر».

كانت جاناي تقف بجانبي، ويمكنني أن أشعر تقريبًا بارتجافها. تحركت بدافع مفاجئ، وضغطتُ على يدها؛ تشبثت بي للحظة، ملتمسة الحماية غريزيًّا؛ ثم أبعدت يدها وتورد وجهها.

قلت: «أتمنى أن أتمكن من مساعدتكِ».

---

(287) أولسيو: مخلوق مريخي مروع يماثل إلى حد كبير الجرذ على كوكب الأرض. يشبه الفأر الصغير الذي نما إلى حجم كلب الصيد الضخم - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ulsio - المترجمة.

- أنت شخص طيب. وأنا أفهم ذلك، وإنما لا يستطيع أحد المساعدة. وضعك أفضل لأنك رجل. وأسوأ ما سيفعلونه بك هو قتلك.

حاصرنا الهورماد البشعون، وساروا بنا مرة أخرى خلال غرفة الحراسة ثم إلى الشارع. سأل جون كارتر ضابطًا إلى أين يأخذوننا.

فقال: «إلى مجلس الجدود السبعة، حيث يقررون كيفية التصرف معكم. بعضكم سيذهب إلى أحواض الاستزراَع. والمحظوظون منكم، سيحتفظون بهم لتدريبهم والعمل كضباط للقوات مثلي. وهو أمر ليس رائعًا، لكنه أفضل من الموت».

سأله أمير الحرب: «وما هو مجلس الجِدود السبعة؟».

- إنهم حُكّام موربوس. هم سبعة من الهورماد، تطورت أمخاخهم بشكل طبيعي وانتزعوا السيطرة من راس ثافاس. يتوق كل منهم إلى أن يحكم؛ ونظرًا لأن أيًّا منهم لن يتخلى عمَّا يعتبره حقوقه، فقد أعلنوا أنهم جميعًا جِدود ويحكمون بشكل مشترك.

وصلنا بعد مسافة قصيرة من السجن إلى مبنى كبير، يقف أمام مدخله حارس من المحاربين الهورماد بقيادة ضابطين. جرت محادثة قصيرة هنا، ثم اقتادونا إلى المبنى وسرنا عبر ممر طويل إلى غرفة كبيرة أمام مدخل، حيث احتجزتنا مجموعة أخرى من الحرس لبضع دقائق. وعندما فُتِح الباب، رأينا عددًا من الهورماد والضباط يقفون، كما رأينا في أقصى نهاية الغرفة منصة مرتفعة يجلس على مقاعدها المنحوتة سبعة رجال حُمر البشرة. وكان من الواضح أنهم الجدود السبعة، لكن مظهرهم لم يكن مثل الهورماد الذين رأيناهم سابقًا. بل على العكس، كاَن مظهرهم طبيعيًّا ويتمتع معظمهم بحسن المظهر.

اقتادونا أمام المنصة، حيث أخذ الجِدود يتفحصوننا ويسألون نفس الأسئلة التي سألها لنا ضابط الحرس عندما أُدخلنا إلىِ السجن. ناقشونا نقاشًا مطولاً، كما يتناقش الرجال عند شراء عددٍ من الثوات(288) أو الكالوت(289) . بدا العديد منهم أكثر اهتمامًا بجاناي، وفي النهاية ٍطالب بها ثلاثة منهم. وعندئذ بدأت مشادة، وانتهت إلى إجراء تصويت لتحديد من سيحصل عليها. ونظرًا لعدم حصول أي منهم أبدًا على أغلبية، فقد

---

(288) الثوات: حيوان مريخي يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام، ولديه أربع أرجل على كل جانب، وذيله عريض مُسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد مباشرة خلفه عندما يجري؛ وفمه مفتوح يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم. وهو خال تمامًا من الشَّعر، ولون بشرته هو الرمادي الذي تشوبه الزُّرقة. أما بطنه فلونه أبيض، ويتدرج لون سيقانه بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامه. والأقدام نفسها شديدة الامتلاء وبلا أظافر، مما يسهم أيضًا في تحركه دون ضوضاء؛ وهو الأمر الذي يُشكل، إضافة إلى تعدد سيقانه، سمة مميزة لحيوانات المريخ – http://barsoom.wikia.com/wiki/Thoat المترجمة.

(289) الكالوت: الكلب المريخي، وهو بحجم المهُر ولديه عشر أرجل، ويضم فكاه ثلاثة صفوف من الأنياب الطويلة الحادة - – http://barsoom.wikia.com/wiki/Calotالمترجمة.

تقرر حبسها لبضعة أيام ثم تسليمها إلى راس ثافاس إذا لم يتوصل المطالبون بها إلى اتفاق فيما بينهم. وبعد اتخاذ هذا القرار، توجه أحد الجِدود إلى مخاطبتنا نحن الرجال السجناء.

سألنا: «كم منكم سيخدمنا كضباط في قواتنا إذا سمحنا لكم بالعيش؟».

ونظرًا لأن البديل الوحيد كان الموت، فقد أعلنّا جميعًا عن استعدادنا للعمل كضباط. أومأ الجِدود، ثم قال أحدهم: «سوف نحدد الآن مَن منكم أفضل استعدادًا للعمل كضابط معَ مقاتلينا»؛ ثم قال لضابط يقف بالقرب منا: «عليك إحضار سبعة من أفضل محاربينا».

اقتادونا بعد ذلك إلى أحد جوانب الغرفة، حيث انتظرنا. قال جون كارتر مبتسمًا: «يبدو أننا سنقاتل».

أجبته: «أنا على يقين أنه لا يوجد شيء يناسبك أفضل من ذلك».

قال: «ولا أنت»، ثم التفت إلى الضابط الذي كان قد تحدث معه خلال الطريق من السجن وقال: «اعتقدت أنك أخبرتني أن الجِدود السبعة من الهورماد».

- نعم، إنهم من الهورماد.

- لكنهم لا يبدون مثل أي هورماد رأيته.

قال الضابط: «لقد عالجهم راس ثافاس. ربما لا تعرف أن راس ثافاس هو أعظم عالِم وجراح في برسوم».

- لقد سمعت عنه كثيراً.

- ما سمعته صحيح. يمكنه إخراج مخك ووضعه في جمجمة رجل آخر. لقد قام بهذه العملية مئات المرات. وعندما سمع الجِدود السبعة عن ذلك، اختاروا سبعة من أفضل الضباط مظهرًا وأجبروا راس ثافاس على نقل أمخاخهم إلى جماجم هؤلاء الضباط؛ فقد كان هؤلاء الجِدود مخلوقات بشعة وأرادوا التمتع بمظهر وسيم.

سألته: «وماذا حدث للضباط السبعة؟».

- أخذوهم إلى أحواض الاسترزاع، أو بالأحرى وُضِعت أمخاخهم في الأجسام الأصلية للجدود السبعة. ها هم هنا المحاربون السبعة قادمون. ستعرفون خلال بضع دقائق مَن منكم سيذهب إلى الأحواض.

أخذونا الآن إلى وسط الغرفة، واصطف أمامنا سبعة من الهورماد ذوي الأجساد الضخمة. كانوا أقل تشوهًا من الهورماد الذين شاهدناهم حتى الآن، إلا أنهم لا يزالون أكثر المخلوقات إثارة للاشمئزاز من حيث مظهرهم. زودونا بالسيوف، وتولى ضابط إعطاءنا التعليمات. على كل منا أن يشتبك مع الهورماد الذي يواجهه؛ ومن يتمكن منا من النجاة دون الإصابة بجرح خطير، يُسمح له بالعيش والعمل كضابط في جيش موربوس.

بأمر من ضابط، تقدم الصفان المتواجهان؛ وفي لحظه رن في الغرفة صوت اصطدام السيوف. نعتقد نحن رجال هيليوم أننا أفضل المبارزين في برسوم، ولا يوجد من بيننا جميعًا مبارز عظيم مثل جون كارتر؛ ولذلك، لم تكن لديَّ أي مخاوف بالنسبة لنتائج المباراة بقدر ما يتعلق الأمر به وبي. كان المخلوق الذي يهاجمني يعتمد على وزنه وقوته الغاشمة للتغلب عليَّ، وهي التكتيكات التي يعتمدون عليها جميعًا بشكل عام لأنهم لا يتمتعون بأي قدر كبير من الذكاء. من الواضح أنه يأمل في اختراق دفاعي بضربة هائلة واحدة من سلاحه الثقيل، لكنني متمرس منذ زمن طويل في القتال لأقع ضحية لمثل هذه الوسيلة الصريحة في الهجوم. وعندما تفاديت ضربته وخطوت جانبًا، هُرِع نحوي برعونة؛ وكان يمكنني طعنه بسهولة، لكنني تعلمت من لقائي الأول مع هذه الوحوش أن ما قد يُشكل جرحًا مميتًا لأي رجل لا يسبب للهورماد أي إزعاج على الإطلاق. يجب أن أقطع أحد سيقانه أو ذراعيه، أو أقطع رأسه لأخرجه من القتال. وهذا منحه، بطبيعة الحال، ميزة هائلة عليَّ؛ لكنه لم يكن لا يُقهر، أو هذا ما تصورته على الأقل في بداية اشتباكنا، على أنني سرعان ما بدأت في التشكك. كان الزميل المبارز أفضل بكثير من أي هورماد آخر ممن واجهناهم وقت القبض علينا. وقد عرفت في وقت لاحق أنهم اختاروا هذه المخلوقات التي تواجهنا الآن لذكائهم المتفوق، الذي كان أعلى قليلاً من المتوسط بين الهومارد، كما أن هذه المجموعة قد درست المبارزة على يد ضباط مريخيين حُمر.

لو كان رجلاً عاديًّا لكنت قتلته بسهولة؛ لكن تجنُّب اندفاعه المجنون وسيفه، وقطع رأسه، قد ظهر الآن أنه مهمة أكبر بكثير مما توقعت. وبغض النظر عن أي شيء، كان خصمًا بغيضًا للغاية، حيث كان وجهه شديد البشاعة. كانت لديه عين واحدة تقع في أعلى جبهته، ويصل حجمها إلى ضعف حجم عين زميله. وتقع أنفه حيث كان يجب أن توجد إحدى أذنيه، بينما تشغل أذنه الموضع الطبيعي لأنفه. وكان فمه عبارة عن شق كبير وملتوٍ وممتلئ بأنياب ضخمة. وقد تكفي ملامحه وحدها لإزعاج خصمه.

كنت ألمح أحيانًا المبارزات الأخرى التي تدور حولي. رأيت أحد الفونداليين يسقط. ورأيت، في الوقت نفسه تقريبًا، رأس خصم جون كارتر تتدحرج على الأرض وهي تلعن وتصرخ، بينما يندفع جسدها بجنون مُعَرِّضًا الجميع في الغرفة للخطر. وقد أخذ عدد من الهورماد والضباط الآخرين يطاردون الجسد بالأنشوطات والشِّباك في جهد للإمساك به وتقييده. وفي هذه الأثناء اندفع هذا الشيء نحو خصمي وأفقده توازنه، مما أعطاني الفرصة التي كنت أنتظرها. وجهت له ضربة هائلة نحو رقبته، أرسلت رأسه متدحرجًا على الأرض. أصبح هناك جسمان مقطوعا الرأس، يتحركان باندفاع يمينًا ويسارًا وبيد كل منهما سيفه الثقيل. أقول لك، انشغل الهورماد والضباط الآخرون بضع دقائق قبل أن يتمكنوا أخيراً من الإمساك بتلك الأشياء الرهيبة والتغلب عليها؛ ومع انتهاء القتال، كان اثنان آخران من الهورماد يتقلبان على الأرض، وفقد كل منهما إحدى ساقيه. لقد هزمهما باندار وجان هاد. أما الرجل من بتارث والرجل من دوهور، فقد قُتِلا. لم يبقَ منا نحن السبعة سوى أربعة. أخذ الرأسان على الأرض يوجهان لنا اللعنات، بينما يجمع الهورماد الآخرون حطام المعركة ويحملونه بعيدًا في شِباك.

اقتادونا الآن ثانية أمام منصة مجلس الجِدود السبعة؛ واستجوبونا مرة أخرى، وإن كان هذه المرة بعناية أكثر. وبعد انتهاء الاستجواب، بدأوا يتهامسون لفترة من الوقت، ثم خاطبنا أحدهم.

قال: «ستخدمون كضباط، وعليكم طاعة رؤسائكم وجميع الأوامر التي قد تتلقونها من مجلس الجِدود السبعة. لا يمكنكم الهروب من موربوس. إذا خدمتم بإخلاص، سنسمح لكم بالعيش. وإذا أذنبتم بارتكاب العصيان أو الخيانة، سوف نرسلكم إلى أحواض الاستزراع، حيث تكون نهايتكم». ثم التفت نحوي ونحو جون كارتر، وقال: «أنتما يا رجال هيليوم، سوف تخدمان حاليًا مع حراس المختبر. ومن واجب حارس المختبر أن يتأكد من عدم هروب راس ثافاس وألا يلحق به أي ضرر. وقد اخترناكما لهذه المهمة لسببين: كلاكما مبارز ممتاز؛ وكونكما من هيليوم البعيدة، فليس لديكما أي شعور بالتحيز تجاهه، أو تجاه تونول أو فوندال. وبالتالي يمكنكما التصرف بالكامل لمصلحتنا ضد أولئك الأعداء. يرغب راس ثافاس في الهرب أو استعادة السيطرة على موربوس. وفوندال تريد إنقاذه، وتونول تود تدميره. وكل منهما سوف تسعد بإبعاده عنا، حتى لا يتمكن من إنتاج المزيد من الهورماد. أما بالنسبة للرجل من فوندال والرجل من تونول، فسيتم الاستعانة بهما لتدريب محاربينا عند خروجهم من أحواض الاستزراع. لقد تكلم مجلس الجِدود السبعة؛ وعليكم الطاعة». أومأ إلى الضابط الذي أحضرنا وقال: «خذهم بعيدًا».

نظرتُ نحو جاناي، التقت نظراتنا وابتسمت لي. كانت ابتسامة صغيرة شجاعة جدًّا. ابتسامة صغيرة مثيرة للشفقة، صادرة عن قلب يائس. ثم اقتادونا بعيدًا.

* * *

الفصل (6)

راس ثافاس، العقل المدبر في المريخ

اقتادونا عبر الممر نحو المدخل الرئيس للمبنى، وكان ذهني منشغلاً باستعراض الأحداث الرهيبة التي مررنا بها اليوم؛ كأنما استغرقت هذه الساعات القليلة عُمرًا بأكمله. لقد خضت مغامرات لم أكن لأتخيلها في أكثر أحلامي جموحًا. أصبحت ضابطًا في ذلك الجيش البشع لمدينة لم أكن أتصور منذ ساعات قليلة أنها موجودة. والتقيت بفتاة غريبة من أمهور البعيدة؛ ولأول مرة في حياتي أقع في الحب، ثم أفقدها خلال ساعة. الحب شيء غريب. لماذا شعرت به على هذا النحو وكيف؟ لا يمكنني التفسير على الإطلاق. لا أعرف سوى أنني أحب جاناي، وأنني سوف أحبها دائمًا. لكنني لن أرها ثانية، ولن أعرف إن كنت قد فزت بحبها في المقابل. لن أتمكن أبدًا من إخبارها بأنني أحبها. حياتي كلها، منذ الآن فصاعدًا، ستتلون بالحزن من تفكيري في حبيبتي، ومن تذكُّري لها؛ إلا أنني لن أتخلَّى عن حبي لها. نعم، الحب شيء غريب.

عند تقاطع الممر الرئيس مع آخر، اقتادونا أنا وجون كارتر إلى اليمين، بينما استمر باندار وجان هاد في اتجاه المدخل الرئيس. ودّعنا بعضنا البعض وذهبنا. ومن اللافت للنظر كيف تتشكل الصداقات بسرعة في خضم خطر مشترك. كان الرجلان من مدينتين غريبتين من أعداء هيليوم؛ وإنما نظرًا لتحملنا الخطر معًا، فقد شعرت برابطة ودية تجاههما، ولم أشكُّ في أنهما يميلان بالمثل نحو جون كارتر ونحوي. وتساءلت ما إذا كنا سنلتقي ثانية.

قادونا أسفل هذا الممر الجديد ثم عبر فناء كبير إلى مبنى آخر، كُتبت فوق مدخله كتابة هيروغليفية غريبة بالنسبة لي. لا توجد أُمتان في برسوم لديهما نفس اللغة المكتوبة، على الرغم من وجود لغة علمية مشتركة يفهمها علماء جميع الأمم. بيد أن هناك لغة تخاطب واحدة في برسوم، تتحدثها وتفهمها الشعوب جميعًا، بما فيها الرجال الخُضر الوحشيون في قاع البحر الميت. لكن جون كارتر يتمتع بثقافة عالية ويقرأ العديد من اللغات، وقد أخبرني أن المكتوب بالهيروغليفية يعني مبنى المختبر.

أخذونا إلى قاعة عامة متوسطه الحجم، حيث طلب منا ضابط أن ننتظر إلى أن يجلب راس ثافاس، الذي يجب أن نقابله لأنه الرجل الذي سنساعد في حراسته ومراقبته. كما أخبرنا أيضًا أن نتعامل مع راس ثافاس باحترام ما دام لا يبذل أي جهد للهرب. وأنه يتمتع بالحرية في مختبره، وبمعنى ما: له كل السيطرة. وإذا دعانا إلى مساعدته في عمله،

علينا أن نفعل ذلك. كان من الواضح أن مجلس الجدود السبعة ينظرون إليه بقلق على الرغم من أنه سجينهم، وأنهم يشعرون بضرورة تيسير الحياة له قدر الإمكان. كنت متلهفًا لرؤية راس ثافاس، الذي سمعت عنه الكثير. كان يُسمى العقل المدبر في المريخ؛ وعلى الرغم من أن مواهبه الرائعة كانت تتحول غالبًا إلى مخططات شائنة، فقد كان يحظ بالإعجاب بسبب علمه الغزير ومهارته الكبيرة. من المعروف أن عُمره يزيد على ألف عام؛ وبسبب هذه الحقيقة وحدها كنت متلهفًا لرؤيته، فنادرًا ما تكون فترة العُمر في برسوم طويلة هكذا. من المفترض أن الحد الأقصى لفترة العُمر هو ألف عام، لكنَّ قليلين هم مَن يصلون إلى ألف عام بسبب طبيعتنا المُحبة للحروب، فضلاً عن انتشار عمليات الاغتيال. فكرت أن مظهره سيبدو كمومياء صغيرة ذابلة لرجل؛ وتساءلت عن مدى قدرته لمواصلة العمل الهائل الذي يقوم به.

لم ننتظر كثيراً. عاد الضابط وفي صحبته شاب وسيم للغاية، نظر إلينا بغطرسة واستعلاء كما لو كنا من حثالة البشر وهو إله.

قال ساخرًا: «جاسوسان إضافيان لمراقبتي».

قال الضابط الذي أحضرنا من المبنى الآخر: «بل هما مقاتلان إضافيان لحمايتك يا راس ثافاس».

هذا إذَنْ هو راس ثافاس! لم أصدق عيني. هذا رجل شاب دون شك؛ ففي حين لا تظهر علينا نحن المريخيون سوى آثار قليلة من سنوات التقدم في العُمر حتى تقريبًا نهاية الفترة المخصصة لحياتنا، وعندها يصبح التدهور سريعًا، فإن هناك بعض علامات الشباب بادية عليه بوضوح.

واصل راس ثافاس تفحصنا. رأيت حاجبيه ينعقدان وهو يفكر وينظر نحو جون كارتر، كما لو كان يحاول أن يتذكر وجهًا رآه من قبل. على

أنني أعرف أن الرجلين لم يلتقيا أبدًا. تُرى ماذا يدور في ذهن راس ثافاس؟

وفجأة قال: «وكيف لي أن أعرف أنهما لم يتسللا إلى موربوس لاغتيالي؟ وكيف لي أن أعرف أنهما ليسا من تونول أو فوندال؟».

أجاب الضابط: «إنهما من هيليوم».

رأيت صفاء جبين راس ثافاس، كأنما توصل فجأة إلى حل مشكلة. أضاف الضابط: «إنهما بانتانان وجدناهما في طريقهما إلى فوندال يبحثان عن عمل».

أومأ راس ثافاس، وقال: «سأستخدمهما لمساعدتي في المختبر».

بدا الضابط متفاجئًا، وقال: «أليس من الأفضل أن يخدما في الحراسة لفترة من الوقت؟ فهذا سيمنحك وقتًا لمراقبتهما وتحديد ما إذا كان آمنًا أن يبقيا بمفردهما معك في المختبر».

حسم راس ثافاس الأمر: «أنا أعرف ما أقوم به. ولست بحاجة إلى مساعدة مخ من الدرجة الخامسة ليقرر ما هو أفضل بالنسبة لي. لكني ربما أمنحك شرفًا».

تورد وجه الضابط وقال: «تقضي الأوامر ببساطة أن أتولى تسليمك هؤلاء الرجال. وليس من شأني كيف تستخدمهم. ما أردت سوى حمايتك».

«قُم إذَنْ بتنفيذ الأوامر، واهتم بعملك. يمكنني الاعتناء بنفسي». كانت لهجته كريهة مثل كلماته. كان لديَّ هاجس أنه ليس بالشخص اللطيف في العمل.

هز الضابط كتفيه، وأصدر أمرًا إلى المحاربين الهورماد الذين رافقونا، وسار بهم إلى خارج القاعة العامة. أومأ لنا راس ثافاس قائلًا: «تعالا معي». قادنا إلى غرفة صغيرة، جدرانها مبطنة بالكامل برفوف تكتظ بالكتب والمخطوطات. تناثرت أوراق وكتب فوق مكتب، حيث جلس راس ثافاس، وأشار لنا في الوقت نفسه أن نجلس على مقعد طويل قريب.

سألنا: «أي أسماء تطلقونها على أنفسكما؟».

أجاب جون كارتر: «أنا دوتار سوجات، وهو فور داج».

سأل راس ثافاس: «هل تعرف فور داج جيدًا وتثق فيه؟». كان سؤالًا غريبًا؛ لأن راس ثافاس لا يعرف أيًّا منا.

أجاب أمير الحرب: «أعرف فور داج منذ سنوات، وأثق بولائه وذكائه في أي مسألة، وبمهارته وشجاعته كمحارب».

قال راس ثافاس: «حسنًا. يمكنني إذَنْ أن أثق فيكما على حد سواء».

سأله جون كارتر مستفسرًا: «ولكن، كيف تعرف أن بإمكانك الوثوق بي؟».

ابتسم راس ثافاس وقال: «إن نزاهة جون كارتر، أمير هيليوم وأمير الحرب في برسوم، هي مسألة معروفة في جميع أنحاء العالم».

نظرنا إليه متفاجئين. سأله أمير الحرب: «ما الذي يجعلك تعتقد أنني جون كارتر؟ لم يسبق لك أن رأيته».

- اندهشت في القاعة العامة من أنك لم تظهر كمريخي أحمر بالفعل. تفحصتك أكثر عن قرب، واكتشفت أن الصبغة التي وضعتها على بشرتك تضم بعض البقع الصغيرة. لا يوجد سوى اثنين من سكان جاسوم[290] على المريخ؛ أحدهما هو فاد فارو، واسمه على كوكب الأرض كان باكستون. أنا أعرفه جيدًا؛ لأنه خدم كمساعد لي في مختبراتي في تونول. وقد كان، في واقع الأمر، مَن قمت بتدريبه إلى أن اكتسب مهارة جعلته قادرًا على نقل مخي العجوز إلى هذا الجسم الشاب. ولذا عرفت أنك لست فاد فارو. والجاسومي الآخر هو جون كارتر، إنه استنتاج بسيط.

قال أمير الحرب: «لقد أقمت شكوكك على أسس صحيحة، ومنطقك سليم. أنا جون كارتر. وكنت سأخبرك؛ لأنني كنت في طريقي إلى فوندال بحثًا عنك عندما قبض علينا الهورماد».

سأل الجراح العظيم: «ولأي سبب يبحث أمير الحرب في برسوم عن راس ثافاس؟».

- لقد أُصيبت أميرتي، ديجاه ثوريس، إصابة شديدة في حادث تصادم بين طائرتين، وترقد غائبة عن الوعي منذ أيام عديدة. وعجز أعظم جراحي هيليوم عن مساعدتها، ولذا كنت أسعى إلى راس ثافاس ألتمس مساعدته لكي تستعيد صحتها.

- والآن وجدتني سجينًا على جزيرة نائية في المستنقعات التونولية الكبرى- وجدتني سجينًا معك.

- لكنني وجدتك.

سأل العقل المدبر في المريخ: «وما فائدتي لك أو لأميرتك؟».

سأله جون كارتر: «هل تأتي معي وتساعدها إن أمكنك؟».

- بالتأكيد. لقد وعدت فاد فارو ودار تاروس، جيداك فوندال، بتكريس مهارتي ومعرفتي لتخفيف المعاناة ومن أجل صالح البشرية.

قال جون كارتر: «إذَنْ سنجد وسيلة».

---

(290) جاسوم: هو كوكب الأرض بلغة سكان كوكب المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Jasoom - المترجمة.

هز راس ثافاس رأسه وقال: «يسهل قول ذلك، وإنما يستحيل تحقيقه. فلا يمكن الهرب من موربوس».

أجاب أمير الحرب: «مع ذلك علينا أن نجد وسيلة. أتوقع أن صعوبات الهرب من الجزيرة قد يمكن تذليلها. على أن السفر عبر المستنقعات التونولية الكبرى هو ما يثير أكبر قدر من القلق».

هز راس ثافاس رأسه، وقال: «لا يمكننا أبدًا الخروج من الجزيرة. فمن ناحيةٍ توجد دوريات كثيرة، ومن ناحيةٍ أخرى هناك الكثير من الجواسيس والمخبرين. كما أنَّ العديد من الضباط الذين يبدونَ من المريخيين الحُمر، هم في الواقع من الهورماد الذين أجبروني على نقل أمخاخهم إلى أجساد رجال عاديين. أنا لا أعرف حتى مَن هم، حيث لا أقوم بإجراء العمليات إلا في حضور مجلس الجدود السبعة؛ وتظل وجوه الرجال الحُمر ملثمة. يتمتع بعض هؤلاء الجدود السبعة بعقَول ماكرة. أرادوا ممن يثقون بهم التجسس عليَّ، ولن تنجح خطتهم إذا رأيت وجوه المريخيين الحُمر الذين أمنحهم عقول الهورماد. وأنا الآن لا أعرف من بين الضباط الذين يحيطون بي، مَن منهم من الهورماد ومَن منهم من الرجال العاديين - باستثناء اثنين. أنا متأكد من جون كارتر لأني كنت لأعرف إذا أجريت نقل مخ إلى رجل أبيض البشرة من جاسوم. ولديَّ كلمة شرف من جون كارتر عنك يا فور داج. وباستثنائنا نحن الثلاثة، لا يوجد مَن يمكننا الوثوق به؛ لذا كونا حذرين مع مَن تصادقونهم وما تقولانه أمام الآخرين. إنكما سوف ...».

وهنا قاطعته جلبة شديدة اندلعت فجأة من جزء آخر من المبنى. بدت مزيجًا مروعًا من الصرخات والخوار والتأوهات والأنين، كأن حشدًا من الوحوش البرية قد أصبح هائجًا فجأة.

«تعالا»، قال راس ثافاس، «إلى نسل الوحوش. قد تكون هناك حاجة إلينا».

* * *

الفصل (7)

أحواض الحياة

قادنا راس ثافا إلى غرفة كبيرة، حيث رأينا مشهدًا ربما لا يوجد مثله في أي مكان آخر في الكون كله. يوجد في وسط الغرفة حوض ضخم يبلغ ارتفاعه حوالي أربعة أقدام، وتظهر منه كائنات مسخ شديدة البشاعة تتجاوز قدرات الخيال البشري على التصور؛ ويحيط بالحوض عدد كبير من محاربي الهورماد مع ضباطهم، يندفعون نحو تلك المخلوقات الرهيبة، ويمسكون بهم ويقيدونهم، أو يقومون بتدميرهم إذا كانت تشوهاتهم كبيرة بحيث تحول دون عملهم بنجاح كمقاتلين. كان يجب تدمير 50% منهم على الأقل - كانوا كرسوم كاريكاتورية مخيفة لحياة، لم تكن لوحش أو لرجل. كان أحدهم عبارة عن كتلة كبيرة من اللحم الحي، ولديه عين في مكان ما ويد واحدة. وهناك آخر نمت ذراعاه محل ساقيه وساقاه محل ذراعيه، بحيث يسير منقلبًا ورأسه بين ساقيه. كما كانت ملامح العديد منهم في غير محلها؛ فقد تتناثر الأنوف والأذان والأعين والأفواه بشكل عشوائي في أي مكان فوق الجذع أو الأطراف. دمروا كل هؤلاء؛ ولم يحتفظوا إلا بمَن لديه ذراعان وساقان، وتوجد ملامح وجهه في مكان ما على رأسه. قد يكون الأنف تحت الأذن والفم فوق العينين، لكن المظهر لا يشكل أهمية إذا كان بإمكانهم أداء العمل المطلوب.

نظر نحوهم راس ثافاس بفخر واضح، وسأل أمير الحرب: «ما رأيك فيهم؟».

أجاب جون كارتر: «بشعون جدًّا».

انزعج راس ثافاس وقال: «لم أبذل أي محاولة حتى الآن لتحقيق الجمال؛ ويجب أن أعترف أنني لم أتمكن بعد من تحقيق التماثل، لكنَّ كليهما سيحدث. لقد بنيت بشرًا. وسوف أنجح في يوم ما من بناء رجل مثالي؛ سوف يسكن في برسوم عِرق جديد من الرجال الخارقين- يتسمون بالجمال والذكاء، ولا يموتون.

«وفي غضون ذلك، ستنتشر هذه المخلوقات في جميع أنحاء العالم وتغزوه. سوف يدمرون رجالك الخارقين. لقد بنيت مضيفًا لفرانكشتاين، لن يكتفي بتدميرك، وإنما سيدمر أيضًا حضارة العالم. ألم يتبادر إلى ذهنك أبدًا هذا الاحتمال؟

«نعم، فكرت في ذلك؛ لكني لم أكن أنوي على الإطلاق بناء هذه المخلوقات بأعداد كبيرة. إنها فكره الجِدود السبعة. لم أكن أقصد سوى بناء ما يكفي لتشكيل جيش صغير لغزو تونول، واستعادة جزيرتي ومختبري القديم».

ارتفعت الضجة في الغرفة الآن إلى مستوى يستحيل معه الاستمرار في الحديث. تدحرجت رؤوس تصرخ على الأرض. وقام المحاربون الهورماد بإبعاد المخلوقات حديثة البناء، التي اعتبروها مناسبة للعيش، واحتشد المحاربون الجدد في الغرفة للحلول محلهم. يظهر باستمرار هورماد جدد من حوض الاستزراع، الذي تكاثرت فيه حياة تتلوى مثل وعاء الساحرة الضخم. وكان هذا المشهد نفسه يتكرر في 40 غرفة مماثلة في جميع أنحاء مدينة موربوس، بينما يتدفق تيار من الهورماد الجدد من المدينة لترويضهم وتدريبهم من جانب ضباط هورماد أكثر ذكاء.

شعرت بالسرور والراحة عندما اقترح راس ثافاس أن ننظر في مرحلة أخرى من عمله، وسمح لنا بمغادرة غرفة الأهوال هذه. أخذنا إلى غرفة أخرى، حيث يقوم بأعمال إعادة البناء. هنا كانت رؤوس تنمو على أجسام جديدة، وأجسام بلا رؤوس تتخذ رؤوسًا جديدة. وكان الهورماد الذين فقدوا أذرعهم أو سيقانهم يكتسبون أذرعًا وسيقانًا جديدة. وفي بعض الأحيان تسير هذه الأنشطة على نحو خاطئ، عندما تنمو ساق واحدة من عنق رأس مقطوع. وهناك حاله مماثلة من بين تلك الحالات التي رأيناها في هذه الغرفة. كان الرأس غاضبًا جدًّا من ذلك، وأصبح شديد البذاءة، وأخذ يلعن راس ثافاس.

قال الرأس: «ما فائدتي وأنا مجرد رأس واحد وساق واحدة؟ يسمونك العقل المدبر في المريخ! هذا هراء! ليس لديك حتى عقل سوراك[291] . عندما ينتجون نسلاً من نوعهم، يعطونهم جسمًا وستَّ أرجل، ناهيك عن الرأس. والآن ماذا ستفعل حيال ذلك؟ هذا ما أريد أن أعرفه».

«حسنًا»، قال راس ثافاس بعد تفكير، «يمكنني دائمًا تقطيعك ثانية وإعادة القطع إلى حوض الاستزراع».

صرخ الرأس: «كلا! كلا! دعني أعيش. اقطع هذه الساق ودعني أحاول بناء جسم».

«حسنًا»، قال راس ثافاس، «غدًا».

(291) سوراك: هو مخلوق صغير الحجم جدًّا من ست أرجل، وتحتفظ به نساء المريخ كحيوان أليف http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorak - المترجمة.

سألته، بعد أن ابتعدنا: «لماذا يرغب شيء كهذا في العيش؟».

أجاب راس ثافاس: «إنها سمة الحياة، مهما كان شكلها متدنيًا. حتى هذه المسوخ المسكينة اللا جنسية، ومتعتها الوحيدة في الحياة هي أكل الأنسجة الحيوانية النيئة، ترغب في العيش. إنهم لا يحلمون حتى بوجود الحب أو الصداقة، وليس لديهم موارد روحية أو عقلية يمكن الاعتماد عليها لإرضائهم أو تحقيق متعتهم؛ ومع ذلك يرغبون في العيش».

قلت: «إنهم يتحدثون عن الصداقة. وقد قال لي رأس تور-دور-بار ألا أنسى أنه كان صديقي».

أجاب راس ثافاس: «إنهم يعرفون الكلمة، لكنني متأكد أنهم لا يستطيعون استشعار دلالاتها الدقيقة. إن الطاعة هي أحد الأشياء الأولى التي يتعلمونها، وربما كان يعني أنه سيطيعك ويخدمك. قد لا يتذكرك الآن حتى؛ فبعضهم ليس لديه عمليًّا أي ذكريات، وكل ردود أفعالهم ميكانيكية بحتة. وهم يستجيبون لمحفزات تتكرر كثيراً - الأمر بأن يسير، وأن يقاتل، وأن يأتي، وأن يذهب، وأن يقف. كما أنهم يفعلون ما يرون معظم زملائهم يفعلونه. هيا! سنجد رأس تور-دور-بار ونرى ما إذا كان يتذكرك. وسوف تكون تجربة مثيرة للاهتمام».

انتقلنا إلى غرفه أخرى، حيث تجري أعمال إعادة البناء. وتحدث راس ثافاس إلى ضابط مسؤول هناك. قادنا الرجل إلى أقصى نهاية الغرفة، حيث يوجد حوض كبير تنمو فيه للجذوع أذرع أو سيقان أو رؤوس جديدة، وتنمو فيه للعديد من الرؤوس أجسام جديدة.

وما أن وصلنا إلى الحوض، صرخ رأس: «كاور، فور داج!»؛ إنه رأس 008.000.4 بنفسه.

أجبته: «كاور، تور-دور-بار! أنا مسرور لرؤيتك مره أخرى».

قال: «لا تنسَ أن لديك صديقًا واحدًا في موربوس. سأكتسب قريبًا جسمًا جديدًا، وعندئذ سأكون مستعدًّا إذا احتجتني».

قالت راس ثافاس: «يتمتع هذا الهورماد بذكاء غير عادي. سوف أراقبه».

وقال تور-دور-بار: «يجب أن تمنح مخي جسمًا حسن المظهر. أود أن أبدو وسيمًا مثل فور داج أو صديقه».

«سنرى»، قال راس ثافاس ثم انحنى وهمس إلى الرأس قائلاً: «لا تقل أكثر عن ذلك الآن. ثق بي فقط».

سأله جون كارتر: «ما الوقت الذي يستغرقه نمو جسم جديد لتور-دور-بار ؟».

- تسعة أيام؛ ولكن قد يكون جسمًا لا يمكنه استخدامه، ولذا سيتعين بناؤه من جديد. لقد أنجزت الكثير، لكني ما زلت غير قادر على السيطرة على تطور هذه الأجسام أو أي جزء منها. ينمو الجسم في العادة من الرأس. قد يكون جسمًا مشوهًا وبالتالي عديم الفائدة، أو قد يكون مجرد جزء من الجسم أو حتى رأس آخر. سوف أتمكن في يوم ما من السيطرة على هذا النمو. سأتمكن في يوم ما من بناء بشر مكتملين.

قال أمير الحرب بابتسامة: «لكنك تُغضب الإله العظيم».

قال راس ثافاس: «إن أصل الحياة لغز غامض. وبقدر ما توجد أدلة كثيرة تشير إلى أن الحياة ظهرت نتيجة لمصادفة، توجد أدلة كثيرة أيضًا تطرح أنها ظهرت بتخطيط من كائن أعلى. وأنا على دراية بأن علماء كوكبك الأرضي يعتقدون أن كل أشكال الحياة على ذلك الكوكب قد تطورت من شكل منخفض جدًّا من الحياة الحيوانية يُسمى الأميبا - وهي كتلة مجهرية من البروتوبلازم ذات نواة، وليس لها حتى شكل بدائي من الوعي أو الحياة العاقلة. كان يمكن للخالق كلي القدرة أن يخلق أيضًا أعلى شكل من أشكال الحياة منذ البداية -أي المخلوق المثالي- في حين لا توجد على أي من الكوكبين حياة مثالية أو تقترب حتى من الكمال».

وأضاف: «لدينا الآن على المريخ نظرية مختلفة تمامًا عن الخلق والتطور. نحن نعتقد أن المواد الكيميائية على الكوكب اندمجت بعد أن بردت وشكلت البذرة التي كانت أساس الحياة النباتية، ثم نمت منها بعد سنوات لا تُعد ولا تُحصى شجرة الحياة وازدهرت، ربما في وسط وادي دور[292] منذ ثلاثة وعشرين مليون سنة، كما يعتقد البعض،

وربما في مكان آخر. وقد شهد تطور ثمرة هذه الشجرة تغيرات تدريجية استمرت لعدد لا يُحصى من العصور، مرورًا بدرجات من الحياة النباتية البحتة إلى مزيج من الحياة النباتية والحيوانية. ولم تكن ثمرة الشجرة تمتلك في المراحل الأولى سوى قوة العمل العضلي المستقل، بينما ظل الجذع مرتبطًا بالنبات الأصلي. وفي ما بعد، تطور مخ في الثمرة، وبدأ في التفكير وهو مُعلق في الجذوع الطويلة، ثم أخذت الأمخاخ تتحرك

(292) وادي دور: يقع عند نهاية نهر إيس المحيط ببحر كوراس المفقود - https://barsoom.fandom.com/wiki/Valley_Dor - المترجمة.

كأفراد. ومع تطور الإدراك، أتت المقارنة؛ التوصل إلى أحكام ومقارنتها، وبالتالي وُلد العقل وسلطة العقل على برسوم».

أكمل قائلاً: «مرت العصور. وظهرت أشكال كثيرة من الحياة وذهبت فوق شجرة الحياة، لكنها ظلت مرتبطة بجذوع النبات الأصلي وبأطوال متفاوتة. وظلت الثمرة على الشجرة، لفترة طويلة، تتكون من رجال نبات(293) صغار، مثل أولئك الذين يمكن إيجادهم الآن يتناسلون بحجم ضخم في وادي دور، لكنهم لا يزالون مرتبطين بأطراف وفروع الشجرة من السيقان التي نمت من قمم رؤوسهم».

وأضاف: «أما البراعم التي ازدهر منها رجال النبات، فهي تشبه ثمرة الجوز الكبيرة التي يبلغ قُطرها حوالي قدم، وتقسمها جدران تقسيم مزدوجة إلى أربعة أقسام. نما رجال النبات في أحد الأقسام، ونمت في قسم آخر دودة ذات ستّ أرجل، ونما في القسم الثالث سلف القرد الأبيض، ونما في القسم الرابع الإنسان البرسومي البدائي. وعندما انفجر برعم، ظل رجل النبات يتدلى من نهاية جذعه؛ لكن الأقسام الثلاثة الأخرى سقطت على الأرض، حيث الجهود التي بذلها شاغلوها المسجونون من أجل الهرب جعلتهم يتنقلون في جميع الاتجاهات».

قال مواصلاً: «وهكذا تناثرت هذه المخلوقات الحبيسة، مع مرور الوقت، بقدر كبير على سطح الكوكب. وعاشت لعصور حياتها الطويلة داخل قشرتها الصلبة، تخطو وتقفز هنا وهناك، وتقع في الأنهار والبحيرات والبحار التي كانت موجودة على سطح برسوم، ولا يزال انتشارها يتزايد على وجه العالَم الجديد. وقد مات منها بلايين لا تُحصى قبل أن يحطم أول إنسان أسوار سجنه ويخرج إلى ضوء النهار. وبدافع من الفضول، حطم الإنسان قشورًا أخرى؛ وبدأت برسوم تصبح مأهولة بالسكان. ماتت شجرة الحياة، لكن رجل النبات تعلّم قبل موتها أن ينفصل عنها. وأتاحت له ازدواجيته الجنسية إعادة إنتاج نفسه على طريقة النباتات الحقيقية».

قال جون كارتر: «لقد رأيتهم في وادي دور، حيث ينمو رجل نبات صغير أسفل كل ذراع، يتدلى كالثمرة من الجذوع المرفقة بقمم رؤوسهم».

واصل راس ثافاس: «وعلى هذا النحو، نشأت مصادفة أشكال الحياة الحالية؛ وبدراستهم جميعًا، من أدنى الأشكال إلى أعلاها، تعلمت كيفية إعادة بناء الحياة».

قلت: «ربما تأسف لذلك».

---

(293) رجال النبات: هم عِرق شبيه بمصاصي الدماء، يقتاتون على النباتات ودماء الحيوانات، يسكنون في وادي دور، ولونهم أزرق، ويسيرون على قدمين – http://barsoom.wikia.com/wiki/Plant_Men - المترجمة.

وافق قائلاً: «ربما».

* * *

الفصل (8)

القاتل الأحمر

مرت الأيام، وظل راس ثافاس يقينا معه باستمرار تقريبًا؛ ولكن دائمًا كان هناك آخرون حولنا، بحيث كانت فرصنا للتخطيط قليلة، كما لم نكن نعرف الصديق من الجاسوس. ملأتني أفكاري عن جاناي بالحزن، وكنت أحاول دومًا التعرف على أي وسيلة لمعرفة مصيرها. حذرني راس ثافاس، وطلب مني عدم إظهار الكثير من الاهتمام بالفتاة، فقد يسفر ذلك عن إثارة شكوك قد تؤدي إلى تدميري. لكنه أكد لي أنه سيساعدني بأي شكل ممكن بحيث لا يستمر قلقي. وقد وجد وسيلة بالفعل في أحد الأيام.

كان من المقرر إرسال عدد من الهورماد الذين يتمتعون بذكاء غير عادي إلى مجلس الجِدود السبعة، لفحص لياقتهم البدنية للخدمة ضمن الحرس الشخصي لدى كل جد. واَختارني راس ثافاس مع ضباط آخرين لمرافقتهم. كانت هذه هي المرة الأولى التي أُخرج فيها من مبنى المختبر، حيث لا يُسمح لأيٍّ منا بتركه إلا لأداء بعض المهام الرسمية مثل هذه.

عندما دخلت المبنى الكبير، وكان في الواقع قصر الجِدود السبعة، انشغل ذهني كله بالتفكير في جاناي وأملي أن ألمحها. نظرت في الممرات، وحملقت خلال المداخل المفتوحة، بل فكرت في ترك المجموعة والاختباء في إحدى الغرف التي نمر بها، ثم أحاول البحث عنها في القصر؛ لكن تفكيري الحكيم أنقذني، وسرت مع الآخرين إلى غرفة كبيرة يجلس فيها مجلس الجِدود السبعة.

كان فحص الهورماد دقيقًا جدًّا. وخلال استماعي للحديث بعناية وملاحظة كل سؤال وجواب، وتأثير الإجابات على الجدود، بدأت بذور خطة تتشكل في ذهني. إذا نجحت في تخصيص تور-دور-بار كحارَس شخصي لأحد الجدود، يمكنني أن أعرف مصير جاناي. أما كيف تحقَّق الأمر بشكل مختلف، وما الخطة َالغريبة التي وُضعت في النهاية، فسوف أخبرك بذلك في الوقت المناسب.

أثناء وجودنا في قاعة المجلس، دخل عدد من المحاربين مع سجين. كان رجلاً أحمر متبجحًا وعلى بشرته العديد من الندوب. كان محاربًا صعب المراس، تبدو على وجهه سخرية وعجرفة عمدية، وموجهة لآسريه والجِدود السبعة. كما كان رجلاً قويًّا؛

فعلى الرغم من الجهود التي بذلها المحاربون معه، فقد شق طريقه تقريبًا إلى المنصة قبل أن يتمكنوا من كبح جماحه.

سأل أحد الجِدود: «مَن هذا الرجل؟».

جأر الأسير بصوت عال: «أنا جانتون جور، قاتل من أمهور. أعيدوا لي سيفي، أيها الجرذان الأنتان، ودعوني أُريكم ماذا يمكن أن يفعل مقاتل حقيقي مع كائناتكم الممسوخة المشوهة ومعكم أيضًا. لقد أمسكوني بالشِّباك، وهي ليست طريقة رجل مهذب إزاء محارب».

قال أحد الجِدود آمرًا: «صمتًا!»، وقد شحب وجهه غضبًا لشعوره بالإهانة لتسميته بالجرذ النتن.

«صمتًا؟»، صرخ جانتون جور، «باسم سلفي الأول! لم يعش أي إنسان يمكنه أن يجعل جانتون جور يصمت. تعال وحاول، رجل إلى رجل، أيها الدودة الباكية».

صاح الجِد: «أبعدوه! خذوه إلى راس ثافاس، وقولوا لراس ثافاس أن يستخرج مخه ويحرقه. ويمكنَه أن يفعل بالجسم ما يحلو له».

قاتل جانتون جور كشيطان، يلكم الهورماد يمينًا ويسارًا؛ وتمكنوا أخيراً من هزيمته بإيقاعه في شِباكهم؛ ثم جروه، وهو يسب ويلعن، نحو المختبر.

وبعد ذلك بفترة وجيزة، اختار الجدود الهورماد الذين قرروا الاحتفاظ بهم. اقتدنا الآخرين خارج الغرفة، حيث سلمناهم إلى الضباط لتكليفهم بالواجبات التي تُعتبر مناسبة لهم. عُدت إلى مبنى المختبر دون أن أتمكن من رؤية جاناي أو معرفة أي شيء عنها. شعرت بإحباط ويأس رهيب.

وجدت راس ثافاس في غرفة مكتبه الصغيرة الخاصة. وكان معه جون كارتر وهورماد جيد المظهر إلى حد ما، وكان يقف وظهره نحوي وعندما دخلت الغرفة. التفتَ بمجرد أن سمع صوتي، وحيّاني بالاسم. وكان تور-دور-بار بجسمه الجديد. كان إحدى ذراعيه أطول قليلاً من الآخر، ولا يتناسب جذعه مع ساقيه القصيرتين، ولديه ستُّ أصابع في أحد قدميه، وإبهام إضافي في يده اليسرى؛ لكنه، في المجمل، عيّنة جيدة جدًّا كهورماد.

صاح: «حسنًا، ها أنا، حسن المظهر كشخص جديد»، وابتسامة واسعة تقسم طلعته البشعة، «ما رأيك؟».

قلت له: «أنا سعيد باتخاذك صديقًا. أعتقد أن جسمك الجديد قوي جدًّا، ويتمتع بعضلات رائعة». وهذا صحيح بالفعل.

قال تور-دور-بار: «على أنني أود جسمًا ووجهًا مثل جسمك ووجهك. كنت أتحدث الآن مع راس ثافاس حول هذا الأمر، ووعدني بتحقيق ذلك إن أمكنه».

تذكرت على الفور جانتون جور قاتل أمهور، والقرار الذي أصدره الجِد ضده. قلت: «أعتقد أن جسمًا جيدًا في انتظارك في المختبر»؛ ثم أخبرتهم بقصة جانتون جور. «والأمر الآن متروك لراس ثافاس؛ إذ قال الجِد إن راس ثافاس يمكنه أن يفعل ما يشاء بالجسم».

قال العقل المدبر في المريخ: «لنلق نظرة على الرجل»، وقاد الطريق إلى غرفة الاستقبال حيث يحتجزون الضحايا الجدد انتظارًا لأوامره.

وجدنا جانتون جور مقيدًا بإحكام وتحت حراسة مشددة. وعندما شاهدنا، بدأ يجأر ويوبخنا، ويوجه إهاناته عشوائيًّا إلى ثلاثتنا. بدت ميوله شريرة. تطلع نحوه راس ثافاس للحظه في صمت؛ ثم صرف المحاربين والضباط الذين جلبوه.

وقال: «سنهتم به. يمكنكم إبلاغ مجلس الجِدود السبعة بأنني سأحرق مخه، وسوف أجد استخدامًا جيدًا لجسمه».

وعندئذ انفجر جانتون جور يهذي، إلى حد أنني تصورت أن مسًّا من الجنون أصابه، وربما حدث. أخذ يجز على أسنانه وخرج الزبد من فمه، وشتم راس ثافاس بكل ما يمكن أن يحمله لسانه.

التفت راس ثافاس إلى تور-دور-بار وسأله: «هل يمكنك أن تحمله؟».

أجاب الهورماد بأن حمل الرجل الأحمر بسهولة، كما لو كان بلا وزن، وألقاه فوق إحدى أكتافه العريضة. فقد كان جسم تور-دور-بار الجديد بمثابة جبل من القوة.

قاد راس ثافاس طريق العودة إلى غرفة مكتبه الخاصة، ثم مر من خلال مدخل صغير إلى غرفه لم أرها من قبل. ضمت الغرفة طاولتين تبعدان عن بعضهما بحوالي عشرين بوصة، ويوجد فوق كل منهما لوح مصقول جيدًا من حجر الإرسايت[294] الصلب. ويوجد رف عند أحد طرفي الطاوتين، وعليه وعاءان فارغان من الزجاج، بالإضافة إلى

(294) حجر الإرسايت: نوع من الحجر، جميل وملون، شائع في المريخ، ويُستخدم في المباني والأثاث - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ersite - المترجمة.

وعائين مماثلين بهما سائل شفاف عديم اللون يشبه الماء. ويوجد موتور صغير أسفل كل طاولة. وهناك العديد من الأدوات الجراحية، مُرتبة بدقة، فضلاً عن أوعية مختلفة تحتوي على سوائل ملونة، وأجهزة كالتي يمكن أن يجدها المرء في مختبر أو مستشفى ولا أعرف شيئًا عن استخداماتها؛ فأنا، أولاً وأخيرًا، مقاتل ولا شيء آخر.

أصدر راس ثافاس توجيهاته إلى تور-دور-بار ليضع جانتون جور على إحدى الطاولتين؛ ثم قال له: «والآن، ضع نفسك على الطاولة الثانية».

صاح تور-دور-بار: «هل ستقوم بذلك فعلاً؟ هل ستعطيني جسمًا ووجهًا جديدين وجميلين؟».

قال راس ثافاس بابتسامة صغيرة: «لن أسميه جميلاً بشكل خاص».

صاح تور-دور-بار: «أووه، هذا رائع. سأكون عبدك إلى الأبد إذا فعلت ذلك من أجلي».

على الرغم من أن جانتون جور كان مُقيدًا بإحكام، تطلب الأمر أن نمسكه أنا وجون كارتر إلى أن ينتهي راس ثافاس من فتح شقين في جسده؛ أحدهما في وريد كبير والثاني في شريان. أوصل بكل شق منهما نهاية أنبوب، يتصل أحدهما بوعاء زجاجي فارغ ويتصل الآخر بوعاء مماثل يحتوي على سائل عديم اللون. وبعد ما انتهى من هذه المرحلة، ضغط على زر يتحكم في الموتور الصغير أسفل الطاولة. وعندئذ بدأ ضخ دم جانتون جور إلى الوعاء الفارغ، بينما كانت محتويات الوعاء الآخر تدخل إلى الأوردة والشرايين التي تصبح فارغة. وبطبيعة الحال، فقد جانتون جور وعيه على الفور تقريبًا بعد أن بدأ الموتور يعمل؛ وعندئذ تنفست الصعداء. وعندما حل السائل عديم اللون محل الدم بأكمله، أزال راس ثافاس الأنبوبين وأغلق الفتحتين بالجسم بأجزاء من ماده لاصقة؛ ثم التفت إلى تور-دور-بار.

وسأله: «هل أنت على يقين تمامًا أنك تريد أن تكون رجلاً أحمر؟».

أجاب الهورماد: «لا يمكنني الانتظار».

كرر راس ثافاس على تور-دور-بار العملية التي قام بها للتو على جانتون جور؛ ثم رش الجسمين بما قال لنا إنه محلول مطهر قوي؛ ثم رشه على نفسه، وفرك يديه جيدًا. قام الآن باختيار سكين حاد من بين الأدوات، وأزال فروه الرأس من الجسمين، متتبعًا خط الشَّعر تمامًا حول كل رأس. وبعد أن انتهى، استخدم منشارًا دائريًّا صغيرًا، متصلاً بنهاية عمود دوار مرن، لنشر جمجمة كل منهما متتبعًا الخط الذي كشفته إزالة فروة الرأس.

كانت العملية التي تلت ذلك طويلة وتتسم بمهارة رائعة. وانتهى بعد أربع ساعات من نقل مخ تور-دور-بار إلى جمجمة مَن كان جانتون جور؛ ثم قام بوصل مُتقن للأعصاب والعُقد العصبية المقطوعة، واستبدال الجمجمة وفروة الرأس. وأخيراً ربط الرأس بإحكام بمادة لاصقة، لم تكن مُطهِرة وشافية فقط وإنما تُعد أيضًا بمثابة تخدير موضعي.

وهو الآن يُعيد تسخين الدم الذي سحبه من جسم جانتون جور، مُضيفًا بضع قطرات من محلول كيميائي شفاف. ومع سحب السائل من الأوردة والشرايين، كان يضخ الدم مرة أخرى ليحل محله. وبعدها مباشرة، أعطاه حقنة تحت الجلد.

وقال: «سوف يستيقظ تور-دور-بار خلال ساعة ليجد حياة جديدة في جسم جديد».

وبينما كنت أشاهد هذه العملية الرائعة، تبادرت إلى ذهني خطة مجنونة يمكنني خلالها أن أصل إلى جانب جاناي، أو على الأقل اكتشف مصيرها. التفتُّ إلى راس ثافاس وسألته: «هل يمكن استعادة مخ جانتون جور إلى رأسه إذا أردت؟».

- بالتأكيد.

- أو يمكنك وضعه في جمجمة تور-دور-بار المهجورة؟

- نعم.

- ما الوقت المطلوب، بعد إزالة المخ، لاستبداله بمخ آخر؟

- السائل الذي قمت بضخه في عروق وشرايين الجسم، سوف يحفظه إلى أجل غير مسمى. والدم الذي قمت بسحبه، محفوظ أيضًا بنفس الطريقة. ولكن، ماذا تستهدف بأسئلتك؟

قلت: «أريدك أن تنقل مخي إلى الجسم الذي كان لتور-دور-بار».

قال لي جون كارتر: «هل أنت مجنون؟».

- كلا، حسنًا، ربمًا قليلاً، إذا كان الحب هو الجنون. يمكن إرسالي كهورماد إلى مجلس الجدود السبعة، وربما يختارونني لخدمتهم. أعرف أنهم سوف يختارونني؛ لأني أعرف الإجَابات على أسئلتهم. وما إن أصبح هناك، حتى يمكنني أن أجد فرصة لاكتشاف

وضع جاناي. وربما يمكنني حتى إنقاذها. وسواء نجحت أو فشلت، يستطيع راس ثافاس أن يُعيد مخي إلى جسمي. هل يمكنك أن تفعل ذلك يا راس ثافاس؟».

نظر راس ثافاس بتساؤل إلى جون كارتر. وقال أمير الحرب: «ليس لديَّ الحق في طرح أي اعتراضات. ذلك أن فور داج من حقه أن يتصرف في مخه وجسمه كما يشاء».

قال راس ثافاس: «حسنًا، ساعدني في رفع تور-دور-بار الجديد من الطاولة، ثم استلق عليها بنفسك».

* * *

الفصل (9)

رجل يتحول إلى هورماد

عندما استعدتُ الوعي، كان أول مشهد وقعت عليه عيناي هو جسمي الراقد فوق لوح الإيرسايت على مسافة بضع بوصات مني. كانت تجربة مروعة أن تنظر نحو جثتك؛ لكني عندما جلست ونظرت إلى جسمي الجديد، كان الوضع أسوأ. لم أتوقع كم سيكون الأمر مروعًا أن أصبح هورمادًا، له وجه قبيح وجسد مشوه. كرهت لمس نفسي بيدي الجديدة. ماذا لو حدث شيء ما لراس ثافاس! تدافع عَرَق بارد عندما واتتني هذه الفكرة. وقف جون كارتر والجراح العظيم ينظران نحوي.

سألني راس ثافاس: «ما الأمر؟ تبدو مريضًا».

أخبرته بالمخاوف التي هاجمتني فجأةً. هز كتفيه قائلاً: «سيكون أمرًا مؤسفًا بالنسبة لك. هناك رجل آخر في العالم، وربما هو الرجل الوحيد الآخر في الكون بأكمله، الذي يمكنه إعادة مخك إلى جسمك إذا حدث لي أي شيء؛ لكنك لن تستطيع أبدًا إحضاره إلى موربوس ما دام الهورماد يحكمونها».

سألته: «مَن هو؟».

- إنه فاد فارو، وهو أمير دوهور الآن. كان اسمه أوليسيس باكستون من كوكب الأرض، وكان مساعدي في مختبري في تونول. وهو مَن نقل مخي إلى هذا الجسم الجديد. ولكن، لا تقلق؛ لقد عشت أكثر من ألف عام، والهورماد يحتاجونني. ولا يوجد سبب يمنعني من العيش ألف سنة أخرى. وقبل ذلك سأكون قد درّبت مساعدًا آخر، حتى يتمكن من نقل مخي إلى جسم جديد. كما ترى، يمكنني أن أعيش إلى الأبد.

قلت له: «آمل ذلك». وعندئذ اكتشفت جثة قاتل أمهور مستلقية على الأرض، فسألت: «ما الأمر مع تور-دور-بار؟ أليس من المفترض أن يستعيد وعيه قبلي؟».

قال راس ثافاس: «تدبرت الأمر حتى لا يحدث ذلك. فقد قررنا، أنا وجون كارتر، أنه من الأفضل ألا يعرف غيرنا أنني نقلت مخك إلى جسم هورماد».

- أنتما على حق. دعوهم يعتقدون أنني هورماد بالكامل.

- عليك أن تحمل تور-دور-بار إلى غرفة مكتبي، ليسترد وعيه فيها، ثم تختفي عن الأنظار قبل أن يستيقظ. يمكنك الذهاب إلى المختبر، والمساعدة في ظهور الهورماد الجدد. قل للضابط إنني مَن أرسلك إلى هناك.

- ولكن، ألن يتعرف عليَّ تور-دور-بار عندما يراني لاحقًا؟

- لا أعتقد. فهو لم يرَ وجهه بما يكفي ليألفه. وعدد المرايا في موربوس قليل. كما أنه اكتسب جسمه الجديد مؤخرًا، وهناك احتمال ضئيل أن يتعرف عليه. وإذا تعرّف عليه، سنضطر إلى إبلاغه.

لم تكن الأيام القليلة التالية سارة على الإطلاق. كنت هورمادًا، وبالتالي كنت مضطرًّا للاندماج مع الهورماد وأكل الأنسجة الحيوانية النيئة. زودني راس ثافاس بسلاح، وكانت مهمتي تدمير المسوخ البشرية الرهيبة التي تهرب من أحواضه البغيضة وهي مشوهة إلى درجة تجعلها عديمة الفائدة حتى كهورماد. قابلت في أحد الأيام تيايتان-أوف، الذي طرت معه إلى موربوس على ظهر مالاجور. وقد عرفني، أو على الأقل تصور ذلك.

قال لتحيتي: «كاور، تور-دور-بار! لديك جسم جديد الآن. ماذا حدث لصديقي فور داج؟».

قلت: «لا أعرف. ربما ذهب إلى الأحواض. لقد تحدث عنك كثيراً قبل أن أفقد متابعته. وكان شديد الحرص أن نصبح أنا وأنت أصدقاء».

قال تيايتان-أوف: «ولِمَ لا؟».

قلت: «أعتقد أنها فكره ممتازة، ذلك أنني أريد اكتساب أصدقاء. ماذا تفعل الآن؟».

- أنا عضو في الحرس الشخصي للجِد الثالث، وأعيش في القصر.

قلت: «هذا جيد، وأفترض أنك ترى كل ما يدور هناك».

- أرى الكثير؛ ما يجعلني أريد أن أكون جِدًّا. أود أن أحصل على جسم جديد مثل أجسامهم.

غامرت قائلاً: «تُرى ماذا حدث للفتاة التي أحضروها إلى القصر في نفس الوقت مع فور داج».

سألني: «أي فتاة؟».

- تلك التي تُدعى جاناي.

- أوه، جاناي. إنها لا تزال هناك. يريدها اثنان من الجِدود، ولن يسمح

الجِدود الآخرون لأي منهما أن يأخذها. على الأقل ليس حتى الآن. سيقومون بالتصويتَ عليها قريبًا، وأعتقد أن كلاًّ منهم يريدها. إنها أجمل امرأة قُبض عليها منذ فترة طويلة.

سألته: «هي إذَنْ آمنة حاليًا؟».

سألي: «ماذا تقصد بكلمة آمنة؟ ستكون محظوظة جدًّا إذا أخذها أحد الجِدود. ستحصل عندئذ على الأفضل من كل شيء، ولن تضطر إلى الذهاب إلى أحواضِ راس ثافاس. ولكن، لماذا تهتم بها؟ ربما تريدها لنفسك»، ثم انفجر في الضحك. كان ليُفاجأ بالفعل إذا عرف أن ما قاله صحيح.

سألته: «هل أنت سعيد كونك عضوًا في الحرس الشخصي لأحد الجِدود؟».

- سعيد جدًّا. يعاملونني جيدًا، ولديَّ طعام كثير ومكان لطيف للنوم. كما أن العمل ليس شاقًّا. علاوة على ذلك، أتمتع بقدر كبير من الحرية. يمكنني الذهاب إلى أي مكان أريد على جزيرة موربوس، ما عدا مساكن الجدود الخاصة. وأنت لا يمكنك ترك هذا المختبر؛ ثم لمس ميدالية تتدلى من سلسله حولَ رقبته، وقال: «هذه هي ما يعطيني الكثير من الحرية. فهي توضح أنني في خدمة الجِد الثالث. ولا أحد يجرؤ على التدخل معي. أنا شخص مهم جدًّا يا تور-دور-بار. وأشعرَ بالأسف تجاهكم، أنتم الذين هم مجرد جزء من نسيج حيواني يمكنه أن يتجول ويتحدث».

قلت: «من الجميل أن يكون لي صديق مُهم مثلك، لا سيما صديق سوف يساعدني إذا أمكنه».

سألني: «أساعدك بأي طريقة؟».

- يطلب الجِدود باستمرار محاربين جددًا للحلول محل المحاربين الذين قُتِلوا. ويمكنني أن أخدمَ كمحارب جيد وحارس شخصي لأي من الجدود، ومن الجميلَ أن نعمل أنا وأنت معًا؛ لذلك، إذا اختارني الجِدود لاختباري، يمكنَك أن تقول عني كلمة جيدة عندما يسألون مَن يعرفني.

أخذ يفكر في الأمر لمدة دقيقه بطريقته الغبية، وفي النهاية قال: «ولِمَ لا؟ أنت تبدو قويًّا جدًّا. ويحدث أحيانًا شجار بين أفراد الحرس، وعندئذ من الجيد أن يكون لي صديق قوي. نعم، سأساعدك إن استطعت. يسألوننا أحيانًا إذا كنا نعرف محاربًا قويًّا يتمتع بالذكاء، ثم يرسلون لإحضاره واختباره. أنت لست شديد الذكاء بالطبع، لكنك قد تنجح بسبب قوتك. ولكن أخبرني، ما مدى قوتك؟».

لم أكن أعرف نفسي، في واقع الأمر. كنت أعرف أنني قوي؛ لأنني أحمل الأجسام بسهولة؛ ولذا قلت له: «أنا حقًّا لا أعرف».

سألني: «هل يمكنك أن تحملني؟ أنا ثقيل جدًّا».

قلت: «أستطيع أن أحاول». حملته بسهولة شديدة. كان يبدو أنه لا يزن أي شيء؛ لذا قررت أن أرى مدى إمكاني لحمله فوق رأسي. ونجحت إلى حد يفوق توقعاتي وتوقعاته. قذفته إلى سقف الغرفة تقريبًا، وأمسكت به عند هبوطه. وعندما أعدته ليقف على قدميه، كان يتطلع نحوي في دهشة.

وقال: «أنت أقوى شخص في موربوس. لم يوجد أبدًا من في مثل قوتك. سوف أخبر الجِد الثالث عنك».

ذهب، وتركني مع الأمل. كنت أتوقع، في أحسن الاحتمالات، أن يدرجني راس ثافاس يومًا ما ضمن تكليفات الهورماد ليختبرني الجدود؛ ولكن نظرًا لأن رُتب الحراس الشخصيين كانت تُملأ في كثير من الأحيان بطريقةَ القُرعة في القرى التي تقع خارج المدينة، لم أكن أعرف كم من الوقت يجب أن أنتظر مثل هذه الفرصة.

وكان راس ثافاس قد خصصني كخادم شخصي لجون كارتر، لذلك لم ننفصل؛ ولما كان عمل جون كارتر يتطلب أن يرافق راس ثافاس دائمًا، كنا ثلاثتنا معًا في كثير من الأحيان. وكانا يعاملانني في وجود الآخرين مثلما يعاملان أي شخص آخر - خادم غبي وجاهل – وعندما نكون بمفردنا، يتعاملان معي على قدم المساواة. وقد تعجب كلاهما بقوتي الهائلة، التي لم تكن سوى إحدى مصادفات نمو جسم تور-دور-بار الجديد. وكنت على يقين أن راس ثافاس قد يود تقطيعي وإعادتي إلى الأحواض، على أمل إنتاج سلالة جديد من الهورماد فائقة القوة.

جون كارتر هو واحد من أكثر الأشخاص الذين عرفتهم إنسانية. وهو، بكل معنى الكلمة، رجل عظيم، وسياسي، وجندي، وربما أعظم مبارز عاش على الإطلاق، ومتجهم ورهيب في القتال؛ ومع كل ذلك، هو إنسان متواضع وودود ولا يفقد أبدًا حسه الفكاهي.

عندما نكون وحدنا، يمزح معي حول ما اكتسبته من «جمال» مؤخرًا، ويضحك بطريقته الهادئة إلى أن يهتز جانباه؛ فقد كان مظهري، في الواقع، يثير الضحك والرعب. فلم يكن جسمي متناسبًا: جذعي كبير على ساقين قصيرتين، وذراعي اليُمنى يصل إلى أسفل ركبتي، وذراعي اليُسرى يصل إلى أسفل خصري قليلاً.

قال بعد أن تطلع نحوي لفترة طويلة: «وجهك هو حقًّا أعظم ما تملك. أود أن أعود بك إلى هيليوم كما أنت، وأقدمك إلى أول حفل استقبال يقيمه الجيداك. تعرف، بالطبع، أنك كنت تُعتبر واحدًا من أكثر الرجال وسامة في هيليوم. وعندئذ سوف أقول: 'ها هو النبيل فور داج، بادوار في حرس أمير الحرب'، وكيف ستتجمع النساء من حولك!».

كان وجهي يلفت الانتباه بالفعل. لا يوجد ملمح واحد حيث يجب أن يكون، بالإضافة إلى عدم تناسب جميع الملامح؛ فبعضها كبير جدًّا وبعضها صغير جدًّا. كانت عيني اليُمنى على جبهتي، تحت خط الشَّعر، وكانت ضعف حجم عيني اليُسرى التي تقع أمام أذني اليُسرى بحوالي نصف بوصة. ويبدأ فمي أسفل ذقني، ويصعد بزاوية 45 درجة تقريبًا إلى نقطة أسفل قليلاً عيني اليُمنى الضخمة. أما أنفي، فكان بالكاد أكبر من برعم، ويشغل المكان الذي كان يجب أن تشغله عيني اليُسرى الصغيرة. وكانت إحدى أُذنيَّ مغلقة وصغيرة، والأُذن الأخرى عبارة عن كتلة متدلية تصل إلى كتفي تقريبًا. وهو ما جعلني أميل إلى الاعتقاد أن التماثل لدى البشر العاديين لا يمكن أن يكون مصادفة بالكامل، كما يعتقد راس ثافاس.

أراد تور-دور-بار، مع جسده الجديد، اسمًا وليس عددًا؛ ولذا أطلق عليه جون كارتر وراس ثافاس اسم تون جان: وهو اسم ناتج عن تبديل موضع مقطعي الاسم الأول من جانتون جور. وعندما أخبرتهما بمحادثتي مع تيايتان-أوف، وافقا معي على ضرورة احتفاظي باسم تور-دور-بار. وقال راس ثافاس إنه سيخبر تون جان بأنه وضع مخًّا جديدًا في جسده القديم. وقد أخبره فعلاً في أول فرصة.

وبعد ذلك بوقت قصير، قابلت تون جان في أحد ممرات المختبرات. تطلع نحوي فاحصًا للحظة، ثم أوقفني وسألني: «ما اسمك؟».

أجبته: «تور-دور-بار».

ارتجف بوضوح، وقال متسائلاً: «هل أنت بشع حقًّا كما تبدو؟»؛ ثم أضاف، دون انتظار لردي: «ابقَ بعيدًا عن ناظري، إذا كنت لا تريد الذهاب إلى المحرقة أو الأحواض».

ضحك كثيراً جون كارتر وراس ثافاس عندما أخبرتهم بما حدث. من الجيد أن نضحك أحيانًا، فلا توجد أي تسلية في هذا المكان. كنت قلقًا على جاناي، وكذا على احتمال استعادة جسدي السابق. فقد كان راس ثافاس مكتئبًا بسبب فشل خطته لاستعادة مختبره السابق في تونول، والانتقام من فوبيس كان الجيداك. وأعرف أن جون كارتر كان حزينًا دائمًا على مصير أميرته.

وبينما كنا نتحدث في غرفة مكتب راس ثافاس الخاصة، أُعلِن عن حضور ضابط من القصر. وقد دخل الغرفة دون انتظار لدعوته. وقال: «لقد جئت لإحضار هورماد يُسمى تور-دور-بار. عليك إرساله دون إبطاء».

قال الضابط: «هذا أمر من مجلس الجِدود السبعة». كان متجهمًا ومتعجرفًا؛ لا شك أنه أحد الأسرى الحُمر من الذين وُضعت في جماجمهم أمخاخ هورماد.

هز راس ثافاس كتفيه، وأشار نحوي قائلاً: «هذا هو تور-دور-بار».

* * *

الفصل (10)

العثور على جاناي

اصطف سبعة هورماد آخرون معي أمام المنصة التي جلس فوقها الجدود السبعة. ربما كنت أكثرهم قبحًا. سألونا العديد من الأسئلة. كان، بشكل ما، اختبارًا للذكاء؛ لأنهم يريدون هورمادًا فوق المتوسط من حيث الذكاء، للخدمة في هذه الهيئة المختارة من الحراس الوحشيين. أدركت أيضًا أنهم أصبحوا يهتمون بالمظهر قليلاً؛ إذ نظر أحد الجِدود نحوي طويلاً، ثم أشار لي أن أبتعد.

قال: «نحن لا نريد مثل هذا المخلوق البشع بين الحراس».

نظرت حولي نحو الهورماد الآخرين في الغرفة، ولم أشهد فارقًا كبيرًا للاختيار بيني وبينهم. كانوا جميعًا وحوشًا بشعة. ماذا يجعلني أكثر بشاعة؟ وبالطبع لم يكن بمقدوري أن أفعل أي شيء؛ فاتخذت خطوة للوراء، بخيبة أمل كبيرة.

كان خمسة من السبعة الباقين أفضل قليلاً من نصف أذكياء، وأبعدوهم. وربما كان الاثنان الآخران أغبياء بدرجة عالية في أحسن الأحوال، لكنهم قبلوهما. تحدث الجِد الثالث إلى ضابط، وسأله: «أين الهورماد الذي طلبت حضوره، واسمه تور-دور-بار؟».

قلت: «أنا تور-دور-بار».

قال الجِد الثالث: «تعال هنا». خطوت ثانية نحو المنصة.

واصل الجد الثالث كلامه: «يقول أحد حراسي إنك أقوى شخص في موربوس. هل هذا صحيح؟».

أجبت: «لا أعرف. لكنني قوي جدًّا».

- يقول إنك تستطيع إلقاء رجل إلى السقف وتتلقاه مرة أخرى. دعني أراك تفعل ذلك.

اخترت أحد الهورماد المرفوضين، وألقيته إلى أعلى ما أستطيع. عرفت حينها أنني لم أعرف قوتي. كانت الغرفة شاهقة، وارتطم المخلوق بالسقف مجلجلاً ثم سقطت مرة

أخرى بين ذراعي وهو فاقد الوعي. نظر نحوي الجِدود السبعة والآخرون في الغرفة باندهاش.

قال الجِد الثالث: «قد لا يكون جميلاً، لكني سآخذه لحراستي».

اعترض الجد الذي كان قد أشار لي بالابتعاد، وقال: «يجب أن يكون الحراس أذكياء. وهذا المخلوق يبدو بلا مخ على الإطلاق».

قال جِد آخر: «سنرى»، ثم بدأوا في توجيه الأسئلة. كانت بالطبع أسئلة بسيطة، يمكن لأكثرَ الرجال الحُمر جهلاً الإجابة عليها بسهولة؛ ذلك أن موجهي الأسئلة لا يملكون في النهاية سوى أمخاخ وخبرة الهورماد.

قال الجِد الثالث: «إنه ذكي جدًّا، ويجيب على كل أسئلتنا بسهولة. وأنا مُصرٌّ عليه».

قال الجِد الأول: «سوف نجري قُرعة عليه».

قال الجِد الثالث غاضبًا: «لن نفعل شيئًا من هذا القبيل. إنه لي؛ أنا مَن أرسلت لإحضاره، ولمَ يكن أي منكم قد سمع عنه من قبل».

فقال الجِد الرابع: «فلنقم بإجراء تصويت».

لم يقل الجِد الخامس، الذي كان قد رفضني، أي شيء؛ وإنما جلس هناك متذمرًا. لقد جعلته يبدو كالأحمق بإثباتي أن العديد من الجِدود يرغبون في أخذي.

قال الجِد السابع: «هيا، فلنقم بالتصويت لتحديد ما إذا كان الجِد الثالث يفوز به أم نقترع عليه».

قال الجِد الثالث: «لا تضيعوا الوقت؛ لأني سوف آخذه على أي حال»، كان رجلاً ضخمًا، أضخَم من جميع زملائه.

قال الجِد الأول هادرًا: «أنت تثير المتاعب دائمًا».

رد الجِد الثالث بحسم: «إنكم أنتم مَن تثيرون المتاعب بمحاولة حرماني مما هو حقي».

قال الجد الثاني: «الجد الثالث على حق. لم يكن أي منا يريد هذا الهورماد، وكنا على استعداد لرفضه، إلى أن أثبت الجِد الثالث أن هذا الهورماد يصلح حارسًا له».

تشاجروا لفترة طويلة، وفي النهاية استسلموا أمام الجد الثالث. أصبح لديَّ الآن سيد جديد. وقد ضعني تحت مسؤولية أحد ضباطه، ثم أَخرجوني لأبدأ في واجباتي كحارس في قصر جِدود موربوس السبعة.

اقتادني الضابط إلى غرفة حراسة كبيرة، حيث يوجد العديد من المحاربين الهورماد الآخرين. كان تيايتان-أوف من بينهم، واقتنص الفرصة للفخر بدوره في اختياري ضمن الحرس. كان أحد أول الأشياء التي تعلمتها أن أقاتل وأموت، إذا لزم الأمر، دفاعًا عن الجِد الثالث.

أعطوني شارة الحرس لأعلقها حول رقبتي، ثم تعهد ضابط بتدريبي على استخدام السيف الطويل. كان عليَّ أن أتظاهر ببعض الارتباك، حتى لا يكتشف أنني أكثر دراية بالسلاح منه. وقد أثنى على استعدادي، وأخبرني أنه سيعطيني تعليمات اليومية بعد ذلك.

وجدت زملائي الحراس عبارة عن مجموعة غبية مغرورة من المغفلين. كانوا يغارون من بعضهم، ومن الجِدود السبعة الذين كانوا مجرد هورماد في أجسام رجال حُمر، اكتشفت أن الخوف هوَ الشيء الوحيد الذي يُقيدهم؛ لأن ذكاءهم يكفي لإثارة استياء مجموعتهم وإثارة حسد الضباط والجدود الذين يتمتعون بالسلطة والنفوذ. كانت التربة مُهيأة للتمرد أو الثورة. كان مجرد اتجاهَ مستتر يشعر به المرء إذا كان ذكيًّا؛ وهم لا يُعرِبون عن مشاعرهم الحقيقية بصوت عالٍ؛ لأنهم يخشون الجواسيس والمخبرين.

أغضبني كل تأخير يمنعني من البحث عن جاناي. لم أجرؤ على الاستفسار عنها، فقد يثير ذلك الشك على الفور؛ كما لم أجرؤ على التجول بفضول في القصر إلى أن أعرف المزيد عن عاداته وحياته.

أخذوني في اليوم التالي مع كتيبة من الحرس خارج أسوار المدينة، بين القرى المزدحمة بالهورماد العاديين. رأيت آلاف المخلوقات الوحشية، الغبية والمتجهمة، في ظل غياب أي متعة غير الأكل والنوم؛ ويتمتعون بقدر من الذكاء لا يكفي عادة إلا ليجعلهم غير راضين عن مصيرهم. ويوجد لدى العديد، بطبيعة الحال، أمخاخ أقل ذكاءً ولا تزيد قدرة خيالهم على قدرة الوحوش. وهؤلاء فقط هم مَن كانوا قانعين.

رأيت الحسد والكراهية في نظرات العديدين منهم نحونا ونحو ضباطنا. وسمعنا لغطًا متذمرًا بعد مرورنا، استمر يتبعنا كأنين الرياح المنخفض في أعقاب طائرة. توصلت إلى استنتاج مفاده أن جدود موربوس السبعة سوف يواجهون العديد من العقبات على طريق خطتهم المهيبة لقَهر العالم بهذه المخلوقات، وأن أكثر العقبات التي لا يمكن التغلب هي هذه المخلوقات نفسها.

تعرفت أخيراً على طرقات القصر وكيفية العثور على طريقي؛ وفي أول مرة كنت فيها خارج أوقات العمل، بدأت البحث المنهجي عن جاناي. كنت أتحرك بسرعة دائمًا، كأني في مأمورية مهمة؛ وبالتالي لم يكن الضباط أو الهورماد يهتمون عندما يلتقون بي خلال حركتي.

وصلت في أحد الأيام إلى نهاية ممر، وخطا هورماد من المدخل وواجهني. سألني: «ماذا تفعل هنا؟ ألا تعرف أن هذه هي مساكن النساء، وغير مسموح لأحد بالوجود هنا إلا حراسهن؟».

سألته: «وهل أنت أحد هؤلاء الحراس؟».

- نعم؛ وعليك الآن أن تذهب وألَّا تعود إلى هنا ثانية.

قلت: «من المؤكد أن موقعك على درجة كبيرة من الأهمية؛ حراسة النساء».

انتفخ بشكل ملحوظ، وقال: «هذا صحيح بالفعل. ولا يختارون لهذا الموقع سوى المحاربين الأجدر بالثقة».

سألته: «وهل النساء جميلات جدًّا؟».

أجاب: «جدًّا».

- أنا أحسدك بالتأكيد. أتمنى أن أكون حارسًا هنا أيضًا. سوف تسعدني رؤية هؤلاء النساء الجميلات. فلم أرَ واحدة من قبل. من الرائع إلقاء مجرد لمحة عليهن.

قال: «حسنًا، ربما ما من ضرر أن أسمح لك بلمحة صغيرة. يبدو أنك رجل ذكي جدًّا. ما اسمك؟».

أجبت: «اسمي تور-دور-بار. وأنا ضمن حرس الجِد الثالث».

سألني: «أنت تور-دور-بار، أقوى رجل في موربوس؟».

- نعم، أنا هو.

- لقد سمعت عنك. يتحدث الجميع عنك، وكيف رميت الهورماد إلى سقف قاعة المجلس بقوة بحيث قتلته. يسعدني جدًّا أن أسمح لك بإلقاء نظرة على النساء؛ ولكن، لا تقل لأحد أنني فعلت ذلك.

قلت له مؤكِدًا: «لن أقول بالطبع».

خطوت نحو الباب في نهاية الممر وفتحته. رأيت غرفة كبيرة تضم عدة نساء، وعددًا من الهورماد الذي لا جنس لهم، وكان من الواضح أنهم يخدمونهن.

قال الحارس: «يمكنك أن تدخل؛ سيظنون أنك حارس آخر».

دخلت الغرفة وتجولت ببصري حولها سريعًا. وخفق قلبي عندما رأيت جاناي في طرف الغرفة البعيد. نسيت كل شيء آخر، وبدأت أتوجه نحوها. نسيت الحارس. ونسيت أنني وحش بشع. نسيت كل شيء إلا أن

المرأة التي أحبها هناك، وها أنا هنا. أدركني الحارس ووضع يده على كتفي.

قال: «مهلًا! إلى أين تذهب؟».

عُدت إلى رشدي، وقلت له: «كنت أرغب في إلقاء نظرة عن قرب نحوهن. أردت أن أرى ماذا يرى الجِدود في النساء».

- حسنًا، لقد رأيت ما يكفي. وأنا عن نفسي لا أرى ما يرونه فيهن. تعال الآن، يجب أن تخرج.

وعندئذ تأرجح الباب الذي دخلنا منه مفتوحًا، ودخل الجِد الثالث. انكمش الحارس رعبًا، وقال لاهثًا: «أسرع! اختلط مع الخدم. تظاهر أنك واحد منهم، ربما لن يلاحظك».

أسرعت نحو جاناي، وركعت أمامها. سألتني: «ماذا تريد؟ ماذا تفعل هنا، يا هورماد؟ أنت لست أحد خدمنا».

قلت لها هامسًا: «لديَّ رسالة لكِ». لمستها بيدي. لم أتمكن من منع نفسي. بالكاد ما أمكنني مقاومه الرغبة الهائلة التي شعرت بها لآخذها بين ذراعيَّ. انكمشت مبتعدة عني، وعلى وجهها تعبير عن الكراهية والاشمئزاز.

قالت: «لا تلمسني يا هورماد، وإلا سوف أستدعي الحرس».

تذكرت هيئتي كوحش بشع، وابتعدت عنها. توسلت إليها: «لا تستدعي الحرس إلى أن تسمعي رسالتي».

قالت: «لا يوجد أحد هنا ليرسل لي أي رسالة يهمني سماعها».

قلت: «هناك فور داج. هل نسيته؟».

انتظرت بتلهف رد فعلها.

تنفست هامسة: «فور داج! هل أرسلكِ لي؟».

- نعم. طلب مني أن أعثر عليك. لم يكن يعرف إلا أنكِ ربما ميتة. وقال لي إذا وجدتكِ، أن أخبركِ أنه يفكر ليلاً ونهارًا في خطة يمكنه بمقتضاها أن يأخذكِ بعيدًا عن موربوس.

قالت: «ما من أمل، ولكن قل له إنني لم ولن أنساه أبدًا. وإنني أفكر فيه كل يوم، والآن سوف أباركه كل يوم لتفكيره بي ورغبته في مساعدتي».

كنت على وشك أن أقول لها أكثر من ذلك، أن أخبرها أن فور داج يحبها، لأرى ما إذا كان ذلك يسعدها أم لا؛ لكنني سمعت صوتًا عاليًا يصيح: «ماذا تفعل هنا؟»، استدرت ورأيت أن الجِد الأول قد دخل الغرفة ويواجه الجِد الثالث باتهام.

أجاب الجِد الثالث: «لقد جئت من أجل المرأة أَمَتي. ماذا ستفعل حيال ذلك؟».

- لم يوزع المجلس هؤلاء النساء. وليس لديك الحق في أيٍّ منهن. إذا كنت بحاجة إلى المزيد من العبيد، يمكنك أن تطلب عددًا إضافيًّا من الهورماد. هيا، عليك أن تخرج من هنا!

جاءت إجابة الجد الثالث بأن خطا عبر الغرفة وأمسك جاناي من ذراعها وأمرها قائلاً: «تعالي معي يا امرَأة»، وبدأ في سحبها نحو الباب؛ وعندئذ امتشق الجِد الأول سيفه وسد الطريق. ومض سيف الجِد الثالث وهو يخرجه من غمده، واشتبكَ الرجلان؛ ما استلزم أن يتخلى الجِد الثالث عَن قبضته على ذراع جاناي.

كان مشهدًا نادرًا لمبارزة رديئة، لكنهما تحركا عبر الغرفة كثيراً وتوجهت طعناتهما المخيفة في جميع الاتجاهات بحيث اضطر شاغلو الغرفة الآخرون إلى التحرك باستمرار لتجنب الإصابة. حاولت البقاء دائمًا بينهما وبين جاناي، ووجدتني الآن بالقرب من الباب والفتاة بجانبي. كان انتباه الحرس وجميع الآخرين في الغرفة منصبًّا على المقاتلين، وكان الباب خلفنا مباشرة. لا يوجد أي مكان يُشكل خطرًا أكبر على جاناي أكثر من هنا. وربما لن تتوفر لي الفرصة ثانية لإخراجها من هذا المسكن الذي تُعتبر سجينة فيه. إلى أين يمكنني أخذها؟ لم أكن أعرف؛ لكن إخراجها من هنا يُعد مسألة مهمة. كنت على يقين أنني إذا تمكنت من تهريبها بطريقه ما إلى المختبر؛ فسوف يجد جون كارتر وراس

ثافاس مكانًا لإخفائها. انحنيت بوجهي القبيح مقتربًا من وجهها الجميل، وهمست قائلاً: «تعالي معي»، لكنها انكمشت بعيدًا. توسلت لها: «أرجوكِ، لا تخافي مني. أنا أفعل ذلك من أجل فور داج؛ لأنه صديقي. وأريد أن أحاول مساعدتكِ».

قالت: «حسنًا»، دون مزيد من التردد.

نظرت على عجل حول الغرفة. لم يكن أحد يهتم بنا. تركزت جميع الأعين على المقاتلين. أمسكت بيد جاناي، وتحركا معًا خلسة عبر المدخل إلى الممر.

* * *

الفصل (11)

حرب الجدود السبعة

بعد أن خرجنا من الغرفة التي كانت بمثابة سجن جاناي، لم يكن لديَّ أدنى فكرة إلى أين آخذها. سوف تُثار شكوك أول شخص رآنا معًا. سألت جاناي إذا كانت تعرف أي مكان حيث يمكن أن أخفيها بأمان إلى أن أجد طريقة لإخراجها من القصر. لكنها قالت إنها لا تعرف سوى الغرفة التي سُجِنت فيها.

أسرعت بها عبر الممر الذي جئت منه. وعند قمة السلم الحلزوني المؤدي إلى الطابق أدناه، رأيت ضابطين يصعدان. يوجد باب على يساري؛ ولأننا يجب أن نتوارى عن الأنظار فورًا، فتحت الباب وأدخلت جاناي إلى الغرفة، التي كانت لحسن الحظ شاغرة. من الواضح أنها مخزن؛ لأن هناك أكياسًا وصناديق مكدسة على طول جدرانها. توجد نافذة في أقصى نهاية الغرفة، كما يوجد باب آخر في أحد الجدران الجانبية.

انتظرت إلى أن سمعت صوت مرور الضابطين على الممر، ثم فتحت باب الجدار الجانبي لرؤية ما يكمن وراءه. وجدت غرفة أخرى، ورأيت في أحد أركانها كومة من حرير وفراء النوم. كان كل شيء مغطى بالتراب، ما يشير إلى أن الغرفة شاغرة منذ فترة طويلة. يوجد حمام في تجويف مُغطى بالستائر؛ وهناك سنانير على طول الجدار، مُعلق عليها أغطية محارب وأيضًا أسلحته. من المؤكد أن ساكن الغرفة السابق تركها، متوقعًا أن يعود. خمنت أنه ضابط خرج في بعثة وقُتِل، فالأغطية والأسلحة التي تركها وراءه كانت ما يرتديه المقاتل في المناسبات.

قلت: «لقد عثرنا على مكان ممتاز لاختبائك. عليكِ إبقاء باب هذه الغرفة موصدًا؛ هناك ترباس على هذا الجانب. سأجلب لكِ الطعَام عندما أستطيع. وبمجرد ما يمكنني سآخذكِ إلى مكان أكثر أمانًا».

قالت: «ربما سيأتي فور داج لرؤيتي. تأكد من أن تخبره بمكاني».

«سوف يأتي إذا أمكنه ذلك، لكنه في مبنى المختبر ولا يمكنه الخروج. هل ترغبين كثيراً في رؤيته؟». لم أستطع مقاومة سؤالها عن ذلك.

قالت: «كثيراً، في الواقع».

- سوف تسعده معرفة ذلك. وإلى أن يتمكن من المجيء، سأفعل أفضل ما في وسعي لمساعدتكِ.

سألتني: «لماذا أنت لطيف هكذا معي؟ أنت تبدو مختلفًا تمامًا عن الهورماد الآخرين الذين رأيتهم».

قلت: «أنا صديق فور داج. وسأفعل كل ما بوسعي له ولكِ. لا تخافي مني الآن؟»

- كلا. كنت في البداية، ولكن ليس الآن.

- لا تخافي مني أبدًا. لا يوجد شيء لن أفعله من أجلكِ، ومستعد حتى للتضحية بحياتي من أجلكِ.

قالت: «أشكرك، على الرغم من أنني لا أفهم».

- ستفهمين في يوم ما، ولكن ليس بعد. والآن، يجب أن أذهب. كوني شجاعة، ولا تفقدي الأمل.

- وداعًا، ... آووه، أنا لا أعرف حتى اسمك.

قلت: «اسمي تور-دور-بار».

- آووه، أتذكرك الآن. لقد قُطِع رأسك أثناء القتال، عند إلقاء القبض على فور داج ودوتار سوجات. أتذكر أنك وعدت فور داج بأن تكون صديقه. لديك الآن جسم جديد.

«كنت أتمنى أن يعطوني وجهًا جديدًا أيضًا»، قلت وأنا أحاول محاكاة ابتسامة بفمي البشع الكبير.

قالت: «يكفي أن لديك قلبًا طيبًا».

- يكفيني أنكِ تقولين ذلك، جاناي؛ والآن وداعًا.

فحصت الأكياس والصناديق المكدسة في الغرفة الخارجية عند مروري خلالها، وأسعدني اكتشاف أنها تضم أطعمة. أسرعت لإبلاغ جاناي بهذه الأخبار الجيدة؛ ثم تركتها وعُدت إلى غرفة الحرس.

كان زملائي الحراس صُحبة رتيبة. فهم مثل معظم الأغبياء يتحدثون أساسًا عن أنفسهم ويتفاخرون كثيراً. كما كان الطعام أيضًا موضوعًا شديد الأهمية في أحاديثهم،

ويمكنهم قضاء ساعات في الحديث حول كميات الأنسجة الحيوانية الكبيرة التي تناولوها في مناسبات مختلفة. وعندما لا يوجد ضابط بالقرب منهم، يبدأون في الحديث عن شكواهم ضد سلطة الجِدود؛ لكنهم يفعلون ذلك بتخوف، فهناك

دائمًا خطر الجواسيس أو المخبرين. فقد كانت أماكن النوم الأفضل وزيادة مخصصات الأنسجة الحيوانية بمثابة المكافآت على الإبلاغ عن الزملاء.

وبعد عودتي بوقت قصير، دخل ضابط الغرفة، وأمرنا بحمل أسلحتنا ومرافقته. سار بنا إلى غرفة كبيرة جدًّا في مسكن الجِد الثالث، الذي ننتمي إليه؛ وهناك وجدت جميع خدم الجِد المسلحين. كان هناك الكثير من الهمس والتكهنات. وبدا على الضباط جدية غير عاديَة، كما بدا الجو مشحونًا بتخوفات عصبية. دخل الآن الجِد الثالث إلى الغرفة، يرافقه أربعة من الدوّار الأساسيين. وكان ينزف من عدة جروح تحت الضمادات. كنت أعرف أين أُصيب بهذه الجراح، وتساءلت عن وضع الجِد الأول. صعد الجِد الثالث إلى المنصة وخاطبنا.

قال: «سترافقونني إلى مجلس الجِدود السبعة. من واجبكم التأكد من عدم إصابتي بأي ضرر. أطيعوا ضباطكم. إذا كنتم مخلصين، سوف تحصلون على علاوة إضافية من الطعام والعديد من الامتيازات. لقد تحدثت».

ساروا بنا إلى قاعة المجلس، التي كانت مزدحمة بالهورماد المسلحين المنتمين إلى الحرس الشخصي للجِدود السبعة. كان الجو متوترًا بانفعال مكبوت، أصاب حتى أغبى الهورماد. جلس ستة جِدود على المنصة. كانت الضمادات الحمراء بالدم كثيرة عند الجد الأول. وكان عرش الجَد الثالث شاغرًا. أحطنا بالجِد الثالث وقمنا بشق الطريق إلَى المنصة؛ لكنه لم يصعد إلى العرش، بل وقف في مواجهة الجِدود الستة؛ اتسم صوته وطريقته بالعدوانية وهو يخاطبهم.

قال: «لقد أرسلتم محاربين للقبض عليَّ. وهم موتى الآن. لا يوجد أحد في موربوس لديه السلطة أو النفوذ لاعتقالي. يوجد بينكم مَن يرغب في أن يصبح الجيداك ويحكمنا. يود الجد الأول أن يصبح الجيداك. لقد حان الوقت لنحدد مَن الذي يصلح ليكون الجيداك؛ لَأني أتفق مع آخرين منكم أن سبعة رجال لا يمكن أن يحكموا مثل رجل واحد. فالسلطة المُقسمة ليست سلطة».

صاح الجِد الأول: «أنت رهن الاعتقال».

ضحك الجد الثالث قائلاً: «أنت تقدم دليلاً إضافيًّا على أنك لا تصلح أن تكون الجيداك؛ إذ يمكنك إصدار أوامر فقط- ولا يمكنك تنفيذها».

نظر الجد الأول إلى اتباعه، وخاطب الدوّار الرئيس بين حرسه، وأمره: «أمسكْ به! أمسك الخائنَ، حيًّا أو ميتًا».

تحرك محاربو الجد الأول نحونا، وهم يشقون طريقهم ببطء خلال حشود المحاربين الآخرين. صادفَ أنني أقف في الصف الأمامي، في مواجهة الهورماد القادمين نحونا. كان محارب ضخم أول مَن شق طريقه خلالنا. حاول إصابتي بسيفه، لكن محاولته كانت بطيئة جدًّا وخرقاء، ولم أجد أي صعوبة في التحرك جانبًا بسرعة وتجنب الطعنة. كان قد استخدم كل قوته في تلك الضربة، فعندما لم يصبني فقد توازنه وسقط بين ذراعيَّ. كان ذلك رائعًا! فقد رفعته عاليًا وألقيته على مسافة 50 قدمًا، فوقع وسط رفاقه، وأسقط العديد منهم على الأرض.

صاح الجد الثالث: «عمل جيد، يا تور-دور-بار! سوف تحصل على كل ما تريد من اللحوم نظير ما فعلته».

اقترب مني رجل ثان، وألقيت به إلى نهاية الغرفة. بدأت أدرك مدى قوتي الهائلة. كان يصعب تمامًا تصديق وجود مخلوق يتمتع بمثل هذه القوة. ساد هدوء، نجح خلاله الجِد الثالث في التحدث مرة أخرى.

صاح هادرًا: «أنا، الجد الثالث، أُعلِن نفسي الآن جيداك موربوس. لينهض الجِدود الذين سوف يقسمون الولاءَ لي!».

لم ينهض أحد. بدا وضع الجد الثالث سيئًا، حيث اكتظت الغرفة بمحاربي الجدود الآخرين. كما بدا الوضع شديد السوء بالنسبة لنا. تساءلت عما سيفعله الجِد الثالث. وبدا لي أنه خسر حياته على أي حال، بغض النظر عما فعله. استدار وتحدث إلى الدوّار المتجمعين حوله، وعلى الفور صدرت لنا الأوامر بالعودة إلى المدخل. وهنا بدأ القتال، حيث أصدر الجِدود الآخرون أوامرهم لمحاربيهم بمنع هروبنا.

ناداني الجد الثالث بالاسم: «عليك إخلاء طريقنا إلى الباب يا تور-دور-بار!». بدا لي أنه يعتمد بشكل كبير على قوتي؛ على أني استمتعت بالقتال، وكانت فرصة ممتازة لإشباع رغبتي القتالية. شققت طريق عودتي خلال صفوفنا إلى ما أصبح الآن الصف الأول لهجومنا، وهنا منحتني تشوهاتي ميزة كبيرة. استخدمت السيف بذراعي الطويل الذي أتاح لي، بدعم من قوتي البشرية الخارقة وسيفي الطويل، إخلاء رقعة خلال خط

العدو، مما فتح الطريق كأنما بالسحر؛ فقد استدار مَن لم أسحقهم وفروا قبل اشتداد هجومي.

كانت هناك رؤوس وأذرع وسيقان وأنصاف أجسام تتلوى وتتشنج على الأرض؛ ورؤوس تصرخ وتلعن تحت الأقدام؛ وأجسام مقطوعة الرأس تتدافع في الغرفة وتصطدم عشوائيًّا بالأصدقاء والأعداء. لقد شهدت قاعة المجلس الكبرى لجِدود موربوس السبعة هرجًا ومرجًا لم تشهده من قبل. كان الجزء الأكبر من الهورماد أغبَى من معرفة الخوف؛ لكن معنوياتهم تحطمت وهم يرون ضباطهم يفرون أمامي. ونجحنا في الوصول إلى الباب، بخسائر قليلة.

قادنا ضباطنا خارج القصر إلى المدينة، ثم عبر الطريق الطويل إلى بوابات المدينة. لم يكن حرس البوابات يعرفون أي شيء عما يحدث في القصر، ففتحوا البوابات بأمر من الجد الثالث. لم يكن بإمكانهم إيقافنا على أي حال؛ لأن عددنا فاق كثيراً عدد حراس البوَابات.

تساءلت إلى أين نذهب، لا سيما أننا نسير خارج مدينة موربوس؛ لكنني سرعان ما اكتشفت. فما إن وصلنا إلى أول قرية خارج المدينة، حتَّى أمرهم الجد الثالث بالاستسلام، وأعلن أنه جيداك موربوس. أمر الضباط والمحاربين أن يقسمواَ بأنهم في خدمته، وقام بترقية العديد من الضباط، ووعد المحاربين بزيادة حصص إعاشتهم، ثم ترك دوّارًا لتمثيله وسار من أجل فتوحات جديدة.

لم يلقَ معارضة في أي مكان، ونجح خلال ثلاثة أيام في إخضاع جزيرة موربوس كلها باستثناء المدينة نفسها. وقام كل دوّار تركه وراءه بتنظيم المحاربين المحليين لمواجهة أي قوة قد يرسلها الجِدود الستة الذين لا يزالون يحكمون المدينة. وخلال تلك الأيام الثلاثة، لم يخرج الجيشُ من موربوس لمعارضة حق الجيداك الجديد في الحكم.

سرنا في اليوم الخامس عائدين إلى قرية كبيرة على الساحل، بالقرب من المدينة. وهناك أسس آي-ماد، جيداك موربوس، عاصمته. وقد اتخذ لنفسه اسم أي-ماد، وترجمته الحرفية هي: رجل واحد، أو الرجل رقم واحد، أو الرجل الأول. كان زعيمًا، على أي حال، واعتقد أنه أفضل مَن يصلح كجيداك من بين الجِدود السبعة. كان يتمتع بلياقة بدنية ووجهه مناسب لدوره الجديد، كما كان عقله من أفضلَ العقول بين جميع الهورماد الذين عرفتهم.

بيد أن كل ما حدث حينذاك قد وضعني، بطبيعة الحال، في موقف يائس تمامًا. فقد كانت جاناي في المدينة، بعيدة عن أي أمل في المساعدة. كما أنني انفصلت عن أمير

الحرب وراس ثافاس. لست سوى هورماد مسكين دون نفوذ أو منصب. ليس بمقدوري القيام بأي شيء، ولا بد أنني أصبحت معروفًا في المدينة ولن أتمكن من دخولها خلسة. ولا بد أن ملامحي البشعة أصبحت معروفة جيدًا الآن لأتباع الجِدود الستة، وبالتالي فقدتُ أدنى أمل في دخول المدينة دون أن يتعرفوا عليَّ.

بعد استقرارنا أخيراً في عاصمة أي-ماد الجديدة، ألقيت نفسي على الأرض مع زملائي الهورماد انتظارًا للحصول على الأنسجة الحيوانية اللزجة، التي كانت جائزتنا الرئيسة للفتوحات التي حققناها. كانت معظم المخلوقات المسكينة البائسة، المُعاقة عقليًّا، الذين هم زملائي، ترضيها تلك الأنسجة؛ بينما لم تكن تُرضيني. لقد وُهبتُ مُخًّا أفضل، وبقدرة وخبرة وقوة بدنية أكثر من أي منهم. كنت إلى حد بعيد أفضل من الجيداك نفسه؛ لكنني مجرد هورماد بشع ومشوه، لا يود أي كالوت يحترم نفسه أن يرافقني. وهكذا، شغلتني الشفقة على نفسي عندما جاء ضابط واستدعاني بالاسم بصوت عالٍ، فوقفت.

قلت: «أنا تور-دور-بار».

فقال: «تعالَ معي. لقد أرسل الجيداك يطلبك».

رافقته إلى حيث يتجمع الجيداك وجميع ضباطه الرئيسين. تساءلت ما المهمة الجديدة التي سيطلبها آي-ماد لاختبار قوتي الهائلة، فلا أصدق أنه يرغب في رؤيتي لأي غرض آخر. كنت قد اكتسبت الدونية النموذجية للهورماد الحقيقي.

وجدت أنهم أقاموا نوعًا ما من المنصة والعرش من أجل آي-ماد، حيث جلس كأي جيداك عادي يتجمع حوله ضباطه. أمرني قائلاً: «اقترب، تور-دور-بار!»، فخطوت إلى الأمام ووقفت أمام العرش. قال: «اركع»، فركعت؛ لأني لست سوى هورماد مسكين. أضاف: «إن الانتصار الذي حققناه في قاعة المجلس في موربوس يرجع إليك. أنت لا تملك قوة

العديد من الرجال فحسب، لكنك تتمتع بذكاء أيضًا. ولذلك، قررت تعيينك في منصب دوّار. وعندما ندخل موربوس منتصرين، يمكنك اختيار جسم أي رجل أحمر هناك، وسوف أصدر أوامري إلى راس ثافاس لنقل مخك إلى جسم هذا الرجل الأحمر».

أنا دوّار إذَنْ. شكرتُ آي-ماد، وانضممت إلى الدوّار الآخرين الذين يتجمعون حوله. كانت أجسامهم جميعًا لرجال حُمر. لكنني لم أعرف كم منهم لديه مخ هورماد. ربما كنت الوحيد، بقدر ما أعرف، الذي لديه مخ بشري.

الفصل (12)

مكافأة المحارب

موربوس مدينة مسورة؛ وهي منيعة عمليًّا أمام الرجال المُسلحين فقط بالسيوف. ظل آي-ماد يحاول لمدة سبعة أيام دخولها، لكن أقصى ما استطاعه محاربوه هو تسلق بواباتها الخشبية الكبيرة دون جدوى، حيث أسقط دفاعها من المحاربين الحجارة الثقيلة على رؤوسهم. انسحبنا في الليل، وربما ذهب المدافعون للنوم بشعور بالأمان الكامل. وفي اليوم الثامن، دعا آي-ماد إلى اجتماع يضم جميع الدوّار. قال: «نحن لم نصل إلى أي شيء. ويمكننا أن نظل نضرب تلك البوابات لآلاف السنين، ولا نحقق أي شيء أكثر من خدشها. كيف لنا أن نأخذ موربوس؟ إذا كنا لنقهر العالم، علينا الاستيلاء على موربوس وراس ثافاس».

قلت: «لا يمكنك قهر العالم، ولكنك تستطيع الاستيلاء على موربوس».

سألني: «لماذا لا نستطيع قهر العالم؟».

- لأنه كبير جدًّا، ويضم الكثير من الأمم العظمى التي يتعين التغلب عليها.

سألني: «ماذا تعرف عن العالم؟ أنت مجرد هورماد، ولم تخرج أبدًا من موربوس».

- سترى أنني على حق، إذا حاولت قهر العالم؛ ولكن من السهل التغلب على مدينة موربوس.

سألني: «وكيف؟».

قلت له في بضع كلمات كيف يمكنني تحقيق ذلك إذا كنت في القيادة. أخذ يتطلع في وجهي لفترة طويلة، وهو يفكر في المسألة. قال: «الأمر في منتهى البساطة»، ثم التفت إلى الآخرين: «لماذا لم يفكر أحد منكم في ذلك من قبل؟ تور-دور-بار هو الرجل الوحيد الذكي بينكم».

انشغل ألف هورماد طوال تلك الليلة في بناء سلالم طويلة، وامتد العمل إلى اليوم التالي. أصبح لدينا ألف سلم. وعندما مر القمران تحت الأفق في الليلة الثانية، تسلل مائة ألف هورماد نحو جدران موربوس ومعهم السلالم طويلة. رفعنا السلالم إلى قمة الأسوار

في ألف مكان في أنحاء المدينة كافة؛ وعند إشارة معينة، صعد مائة رجل على كل سلم وهبط في شوارع المدينة.

كان الباقي يسيراً. نجحنا في الاستيلاء على المدينة النائمة دون أن نفقد سوى عدد قليل من المحاربين؛ ودخل آي-ماد مع دوّاره إلى قاعة المجلس. وكان أول ما فعله هو إزالة جميع العروش من على المنصة، باستثناء عرش واحد. وبعد أن جلس على العرش، طلب إحضار الجِدود الستة أمامه. وقد سحبهم الحرس، وجاءوا خائفين ومذعورين.

سألهم: «كيف ترغبون أن تموتوا؟ أ تفضلون إعادة أمخاخكم إلى جماجم الهورماد التي أتوا منها؟ من أين جاؤوا ؟».

قال الجد الخامس: «هذا لا يمكن القيام به. ولكن إن أمكن، فإنني أفضل بالأحرى أن أذهب إلى الأحواض. أنا لا أرغب أن أكون هورمادًا مرة أخرى».

سأله أي-ماد: «لماذا لا يمكن القيام بذلك؟ هذا ما فعله راس ثافاس مرات عديدة، ويمكنه أن يفعله ثانية».

قال الجِد الخامس: «ليس هناك راس ثافاس، لقد اختفى».

يمكنك أن تتخيل مدى أثر هذه العبارة عليَّ. إذا كانت صحيحة، فقد حُكم عليَّ بالسجن مدى الحياة في جسم هورماد متوحش. ما من مهرب؛ لأن دوهور –حيث يوجد فاد فارو- بعيدة عني، كأنما عاد إلى كوكبه جاسوم؛ وهو الرجل الوحيد الآخر في العالم الذي يمكنه أن يُعيد مخي إلى جسمي الفعلي إذا كان راس ثافاس قد مات. وفي ظل هذا الجيداك الجديد لموربوس، الذي يسعى إلى قهر العالم، سيصبح الجميع أعداءنا. ولن أتمكن من استدعاء أي رجل لإنقاذي.

وماذا عن جاناي؟ ستراني بغيضًا على الدوام، ولن أستطيع حتى أن أخبرها الحقيقة. كان من الأفضل أن تعتقد أنني ميت من أن تعرف أن مخي دُفن إلى الأبد وراء هذا القناع البغيض غير الإنساني. كيف يمكن لرجل بهذا المظهر الخارجي أن يتحدث عن الحب؟ والحب ليس للهورماد.

سمعت، وأنا في حالة ذهول، آي-ماد يسأل عن ما حل براس ثافاس، ورد الجد الخامس: «لا أحد يعرف. لقد اختفي ببساطة. ونظرًا لأنه لا يستطيع الهرب من المدينة دون أن نكتشفه، فإننا نعتقد أن بعض

الهورماد قاموا بتقطيعه وألقوه في أحد أحواض الاستزراع انتقامًا منه».

غضب آي-ماد، إذ من دون راس ثافاس يتحطم حلمه لغزو العالم. صاح: «هذا من عمل أعدائي. واحد منكم -«أنتم الجِدود الستة»- له يد في هذا. لقد دمرتم راس ثافاس أو أخفيتموه. خذوهم بعيدًا! ضعوهم في زنزانات منفصلة في الحُفر. ومَن يعترف أولاً، سوف ينال حياته وحريته، بينما يموت الباقون. أعطيكم يومًا واحدًا لاتخاذ قرار».

وبعد إبعاد الجِدود الستة، عرض آي-ماد أن يعفو عن جميع ضباطهم الذين يقسمون له الولاء. وهي دعوة لم يرفضها أحد؛ لأن الرفض لا يعني سوى الموت. وبعد انتهاء هذا الإجراء الرسمي، الذي استغرق عدة ساعات، أعلن آي-ماد على الملأ أن الفضل في نجاح عملياته ضد موربوس يرجع لي؛ وأنه سيمنحني أي معروف أطلبه بالإضافة إلى تعييني أودوار، وهي رتبة عسكريه تماثل رتبة الجنرال في جيوش كوكب الأرض.

«والآن»، واصل آي-ماد جنون، «يمكنك اختيار المعروف الذي تريده».

قلت: «أود أن أقوم بذلك بيننا فقط؛ فالمعروف الذي أود أن أطلبه لا يهم أحدًا غيري وغيرك».

قال: «حسنًا. سنجتمع معًا على انفراد بعد انتهاء هذه الجلسة العامة».

انتظرت بنفاد صبر انتهاء الجلسة في قاعة المجلس. تنفست الصعداء عندما نهض آي-ماد أخيراً وأشار لي أن أتبعه. قادني إلى مقصورة صغيرة وراء المنصة مباشرة، وجلس خلف مكتب كبير.

«والآن»، قال: «ما المعروف الذي ترغب فيه؟».

أجبت: «سوف أطلب معروفين. أولاً، أود أن أتولى بالكامل مسؤولية مبنى المختبر».

قاطعني قائلاً: «لا أرى أي وجه اعتراض على ذلك. ولكن لماذا تطلب مثل هذا الطلب الغريب؟».

أوضحت: «يوجد جسم رجل أحمر هناك، وأرغب في نقل مخي إليه إذا عثرنا على راس ثافاس. وإذا توليت مسؤولية مبنى المختبر بالكامل، يمكنني حماية هذا الجسم والتأكد من إجراء راس ثافاس العملية».

قال: «حسنًا، طلبك مُجاب. وما الطلب الآخر؟».

- أريدك أن تعطيني الفتاة، جاناي.

اكفهر وجهه، وسألني: «ماذا تريد من فتاة؟ أنت مجرد هورماد».

- قد أصبح رجلاً أحمر في يوم ما.

- ولكن لماذا هذه الفتاة جاناي؟ ماذا تعرف عنها؟ لم أكن أعرف أنك رأيتها من قبل».

- كنت مع المجموعة التي أمسكت بها، وهي المرأة الوحيدة التي رأيتها في حياتي وأريدها.

قال: «لا أمنحك إياها، لو لديَّ عقل. لكنها اختفت أيضًا. لا بد أنها هربت من الغرفة في أثناء قتالي مع الجِد الأول، فقد كنا نتقاتل في الشقة التي تُحتَجز فيها النساء. ولم نرها منذ ذلك الحين».

- وهل تعطيها لي إذا أمكن العثور عليها؟

- أنا أريدها لنفسي.

- ولكن بإمكانك الاختيار من العديدات الأخريات. لقد رأيت نساء جميلات في القصر؛ وبالتأكيد توجد بينهن زوجة رائعة ومناسبة لجيداك. وهذا هو المعروف الذي أرغبه أكثر من أي شيء.

قال: «ربما تفضل جاناي الموت على أن تنتمي إلى وحش بشع مثلك».

- حسنًا. إذا أمكن العثور عليها، نترك لها القرار.

ضحك، ثم قال: «أوافق على ذلك عن طيب خاطر. هل تعتقد أنها سوف تختارك وتفضلك على الجيداك، هل ستُفضل وحشًا على رجل؟».

- لقد قيل لي إن النساء لا يمكن التنبؤ بهن. وأنا على استعداد للمجازفة والقبول بقرارها، إذا وافقتَ أنت على ذلك.

قال: «اتفقنا إذَنْ». كان لطيفًا جدًّا حول هذا الموضوع، وعلى يقين من النتيجة؛ أضاف: «لكنك لم تحصل على الكثير كمكافأة على الخدمات التي قدمتها لي. تصورت أنك ستطلب على الأقل قصرًا لك والعديد من الخدم».

قلت: «طلبت أكثير شيئين أتمناهما، وأنا راضٍ».

- حسنًا، لك القصر والخدم وقتما تشاء؛ فوفقًا لاقتراحك، لن تختارك الفتاة حتى إذا وجدناها.

بمجرد أن صرفني، أسرعت إلى الشقة حيث تركت جاناي، وكان قلبي يخفق خشية ألا أجدها هناك. كان يجب أن أتوخى الحذر حتى لا يراني

أحد وأنا أدخل المخزن الذي يؤدي إلى مكان اختبائها؛ فلم أكن أريد أن يكتشف آي-ماد أنني أعرف مكانها. كان الممر خاليًا لحسن الحظ، ودخلت المخزن دون أن يراني أحد. ذهبت إلى غرفة جاناي، وطرقت الباب. لم ترد.

ناديتها: «جاناي! هذا أنا، تور-دور-بار. هل أنت هناك؟».

سمعت صوت سحب الترباس، وتأرجح الباب مفتوحًا. وقفت هناك! كاد قلبي أن يتوقف، لشعوري بالراحة. كانت جميلة جدًّا! تبدو أكثر جمالاً في كل مرة أراها.

قالت: «لقد عدتَ. بدأت أخشى ألا تأتي أبدًا. هل لديك رسالة من فور داج؟».

إنها تفكر إذَنْ في فور داج! يقتات الحُب ويزدهر على مثل هذا الرزق البسيط. دخلت الغرفة وأغلقت الباب.

قلت: «يرسل إليكِ فور داج بتحياته. وهو لا يفكر في أي شيء سواكِ ورفاهكِ».

- ولكن، ألا يمكنه أن يأتي؟

- كلا. إنه سجين في مبنى المختبر، لكنه كلفني بالاعتناء بكِ. ويمكنني الآن الاعتناء بكِ أفضل من ذي قبل، فقد حدثت العديد من التغيرات في موربوس منذ أن رأيتكِ آخر مرة. أنا أودوار الآن، وأتمتع بالنفوذ عند الجيداك الجديد.

قالت: «لقد سمعت أصوات القتال. أخبرني بما حدث».

أخبرتها بإيجاز أن الجِد الثالث هو الجيداك الآن. فقالت: «أنا ضعت إذَنْ؛ لأنه أصبح قويًّا».

قلت لها: «ربما هذا هو خلاصكِ. لقد قام الجيداك بترقيتي إلى أودوار، لمكافأتي على الخدمات التي قدمتها له، ووعد بمَنحي أي معروف أطلبه».

- وماذا طلبت منه؟

- أنتِ.

كان يمكنني أن أشعر تقريبًا بالقشعريرة التي سرت خلال جسدها وهي تنظر إلى وجهي البشع وجسمي المشوه. قالت متوسلة: «أرجوك! قلت إنك صديقي، وإنك صديق فور داج. وأنا على يقين أنه لن يرغب في أن أكون لك».

قلت لها: «لقد طلبتكِ فقط حتى يمكنني حمايتكِ من أجل فور داج».

سألتني: «وكيف يعرف فور داج أنني سأكون له؟».

«إنه لا يعرف. وإنما يأمل فقط أن أحميكِ من الآخرين. أنا لم أقل أن فور داج يريدكِ لنفسه؟». لم أستطع مقاومة قول ذلك، لمجرد المقارنة مع ما يبدو من لا مبالاتها تجاه فور داج. ارتفع ذقنها قليلاً، وأسعدني ذلك. أعرف بعض الأشياء عن النساء وردود أفعالهن.

سألتني: «وماذا قال الجِد الثالث عندما طلبتني؟».

قلت موضحًا: «إنه الجيداك الآن، ويُسمي نفسه آي-ماد. وقال لي «إنك لن تقبلي بي، ولذا جئت لأضع المسألة كلها أمامك، والقرار لك. أعتقد أن فور داج يحبكِ. وعليكِ أن تختاري بينه وبين آي-ماد. سوف يطلب منكِ آي-ماد الاختيار بينه وبيني؛ لكن الخيار سيكون في الواقع بينه وبين فور داج، لكن آي-ماد لن يعرف ذلك. إذا اخترتِني، سيشعر آي-ماد بالإهانة والغضب؛ لكني أعتقد أنه سيلتزم بالصفقة. وعندئذ سوف آخذكِ إلى مسكن بالقرب من مسكني، وأتولى حمايتكِ إلى أن يحين الوقت المناسب حيث يمكنكِ أنتِ وفور داج الهرب من موربوس. ويمكنني أيضًا أن أؤكد لكِ أن فور داج لن يُلزمكِ بأي وعد بعد ذلك. فكرته الوحيدة الآن هي مساعدتكِ».

قالت: «كنت متأكدة أن فور داج سيفعل ذلك. وكُن على يقين أنني سأختارك عندما يطلب مني آي-ماد الاختيار».

سألتها: «حتى لو اختياركِ له سيجعلكِ الجيدارة؟».

قالت: «وحتى مع ذلك، نعم».

الفصل (13)

اختفاء جون كارتر

بعد أن تركتُ جاناي، ذهبت مباشرة إلى مبنى المختبر للعثور على جون كارتر ومعرفة ما يعرفه عن اختفاء راس ثافاس. اتفقت مع جاناي أن تبقى حيث كانت لبضعة أيام حتى لا تثير سهولة العثور عليها شكوك آي-ماد. وقررت الشروع في بحث عنها بحيث يجدها شخص آخر، مع وجودي بالقرب منه لمنع أي إجهاض لخططنا.

كان تون جان أول مَن قابلته عند دخولي مبنى المختبر.

وما إن رآني حتَّى انفجر غاضبًا: «أعتقد أنني قلت لك أن تبقى بعيدًا عن ناظري»، ثم أضاف متوعدًا: «هل تريد أن تذهب إلى المحرقة؟».

أشرت إلى شارة منصبي، التي من الواضح أنه لم يلاحظها. وسألته: «لا يمكنك أن ترسل أودوار الجيداك إلى المحرقة، هل يمكنك؟».

كان مصعوقًا، وسألني: «هل أنت أودوار؟».

سألته: «ولِمَ لا ؟».

- لكن كنت مجرد هورماد.

- ربما، لكني أيضًا أودوار. يمكنني إرسالك إلى المحرقة أو الأحواض، لكني لا أنوي ذلك. لديَّ جسمك، ولذا يجب أن نكون أصدقاء. ما رأيك؟

«حسنًا»، قال موافقًا. فماذا يمكن أن يفعل غير ذلك؟ ثم أضاف: «لكني لا أفهم كيف حصلت على رتبة الأودوار، ولديك هذا الوجه البشع والجسم المشوه».

قلت لتذكيره: «لا تنسَ أنهما كانا وجهك وجسمك في يوم ما. ولا تنسَ أيضًا أنك لم تكن تستطيع أن تذهب إلى أي مكان بهما. فالأمر يتطلب أكثر من وجه أو جسم للذهاب إلى أي مكان – يتطلب المخ، الذي يفيد في أشياء أخرى بجانب التفكير في الطعام».

- ما زلت لا أستطيع أن أفهم لماذا أعطوك رتبة أودوار وهناك رجل حسن المظهر مثلي كان يمكنهم اختياره.

- حسنًا، لا يهم. ليس هذا ما جئت هنا لأناقشه. لقد أصبحت مسؤولاً بالكامل عن مبنى المختبر، وجئت للتحدث مع جون كارتر. هل تعرف أين هو؟

- لا. ولا يعرف أي شخص آخر مكانه. لقد اختفى في الوقت نفسه مع اختفاء راس ثافاس.

يا لها من ضربة جديدة. جون كارتر اختفى! لكن هذه المعلومة جددت أملي، عندما فكرت في الأمر ثانية. فقد ذهب كلاهما ولا أحد يعرف ماذا حدث لهما. من الممكن تمامًا أنهما وجدا وسيلة للهرب معًا. كنت على يقين أن جون كارتر لن يتخلَّى عني أبدًا. إذا ذهب بإرادته، فسوف يعود. لن يتركني أسكن هذا الجسم الفظيع.

سألته: «ألا يوجد لدى أحد أي فكرة عما حدث لهما؟».

قال تون جان: «ربما تعرضا للتقطيع والإلقاء في أحد الأحواض. فقد خرج بعض قدامى الهورماد عن السيطرة، وهددهم راس ثافاس بالمحرقة. وربما فعلوا ذلك لإنقاذ أنفسهم، أو لمجرد الانتقام منه».

قلت: «أنا ذاهب إلى غرفة مكتب راس ثافاس. تعال معي».

وجدت غرفة المكتب في نفس الحالة التي رأيتها عليها آخر مرة. لا يوجد ما يشير إلى وقوع عِراك من أي نوع، ولا يوجد أي دليل يشير إلى حل للغز. كنت في حيرة كاملة.

- متى شُوهدا آخر مرة؟

- قبل حوالي ثلاثة أيام. قال أحد الهورماد إنه رآهما يخرجان من الحُفر. لا أعرف لماذا كانا هناك. فلم يعُد أحد يذهب إلى هناك منذ أن توقفوا عن تخزين الجثث؛ كما لا يُحتَفظ بالسجناء هناك، فهم يستخدمون الحفر الموجودة تحت بعض المباني الأخرى.

- هل تم تفتيش الحُفر؟

- نعم، ولم نعثر لهم على أي أثر.

قلت: «انتظر هنا لدقيقة». أردت أن أذهب إلى المختبر الصغير وألقي نظرة على جسمي. أردت أن أتاكد أنه في أمان، لكنني لم أرد أن يراه تون جان. كانت فكرتي أنه قد يشك في شيء إذا رأى جسمي. لم يكن شديد الذكاء، لكن تخمين أين ذهب مخ فور داج لا يتطلب الكثير من الذكاء.

انتظرني تون جان في غرفة المكتب. أعرف مكان إخفاء مفتاح المختبر الصغير؛ لأن راس ثافاس أخبرني. وسرعان ما أدرت المفتاح في القفل. وبعد لحظة خطوت إلى الغرفة، وأصابتني صدمة أخرى - اختفى جسدي!

ضعفت ركبتاي إلى حد أنني انهرت على مقعد طويل. جلست واضعًا رأسي بين يديَّ. لقد اختفى جسدي! وضاع باختفائه أملي الأخير للفوز بجاناي؛ فلا يمكنني الفوز بها مع هذا الوجه المروع والجسد البشع. لم أكن لأرغب في الفوز بها هكذا. لا يمكنني احترامها أو احترام أي امرأة أخرى يمكن أن تختار مخلوقًا بغيضًا مثلي.

جمعت شتات نفسي ومشيت إلى الطاولة التي رأيت عليها جسمي للمرة الأخيرة. يبدو كل شيء في مكانه، إلا أن الحاوية التي ضمت دمي كانت مفقودة. هل من الممكن أن راس ثافاس نقل مخًّا آخر إلى جسدي؟ لا يمكن أن يفعل ذلك دون موافقة جون كارتر؛ وإذا كان جون كارتر قد وافق، من المؤكد أن هناك سببًا وجيهًا. تبادر سبب إلى ذهني. ربما وجدا فرصة للهرب من الجزيرة، وكان لا بد من اقتناصها على الفور وإلا تضيع. وفي هذه الحالة، ربما بدا أكثر حكمة لجون كارتر أن ينقل مخًّا آخر إلى جمجمتي ويأخذ جسدي معه، بدلًا من تركه معرضًا لخطر التدمير. وهو لم يفعل ذلك، بطبيعة الحال، إلا لأنه متأكد أنه سيعود في وقت لاحق وينقذني. على أن هذا التخمين لا معنى له بالطبع. وحقيقة الأمر هي أنه لا يوجد تفسير.

وفي أثناء جلوسي هناك أفكر في المسألة، تذكرت تاريخ الحالة الذي كتبه راس ثافاس وعلقه أسفل الطاولة حيث وضع جسدي. فكرت أن ألقي نظرة عليه لأعرف ما إذا كان أدخل أي بيانات أخرى. لكني عندما مشيت إلى الطاولة ونظرت أسفلها، لم أجد الورقة التي تضم تاريخ الحالة. وجدت ورقة أخرى مُعلقة في مكانها، وكُتِب عليها رقمين «17-3». ماذا تعني هذه الأرقام؟ لا شيء، بقدر ما يعنيني الأمر.

عُدت إلى غرفة المكتب، وطلبت من تون جان مرافقتي بينما أقوم بفحص المختبرات؛ فما دمت المسؤول الآن، لا بد أن أقوم ببعض المظاهر التي تتمشى وسلطتي المكتسبة حديثًا.

سألت تون جان: «كيف تسير الأمور منذ اختفاء راس ثافاس؟».

أجاب: «ليس على ما يرام. تبدو الأمور، في الواقع، تسير في اتجاه خاطئ من دونه». وعندما وصلت إلى غرفة الأحواض الأولى، أدركت أن ما قاله كان أقل من الحقيقة بكثير؛ فالوضع شديد السوء. وجدت الأرضية مُغطاة ببقايا المسوخ البشعة التي كان يتأتى على الضباط تدميرها. لا تزال بعض الأجزاء حية. تحاول الأرجل أن تسير،

وتُمسك الأيدي بأي شيء متاح أمامها، والرؤوس لا تكف عن الصراخ والشكوى. طلبت حضور الضابط المسؤول.

سألته: «ما معنى هذا؟ لماذا لم تقم بأي شيء حيال هذه الأشياء؟».

أجابني بسؤال: «مَن أنت لتستجوبني، يا هورماد؟».

لمست شارة رتبتي، فتغير موقفه تمامًا. قلت: «أنا المسؤول هنا الآن. أجب على أسئلتي».

قال: «لا أحد يعرف تحديدًا، سوى راس ثافاس، كيفية تقطيع هؤلاء الفارين، وفي أي حوض يوضعون».

قلت: «خذوهم إلى المحرقة. عليك بحرق كل ما ليس له فائدة، إلى أن يعود راس ثافاس».

قال: «لقد حدث خطأ ما في غرفة الأحواض رقم 4. ربما من الأفضل أن تلقي عليها نظرة».

وعندما وصلت إلى الغرفة رقم 4، التقت عيناي بأفظع مشهد رأيته على الإطلاق. من الواضح حدوث خطأ ما في بيئة الاستزراع؛ إذ بدلاً من تشكُّل هورماد منفردين، تشكلت كتلة واحدة ضخمة من الأنسجة الحيوانية، وأخذت تخرج من الحوض وتتدحرج على الأرض. كما أخذت تنمو منها مختلف الأجزاء والأعضاء البشرية الداخلية والخارجية دون أي علاقة بالأجزاء الأخرى- ساق هنا، ويد هناك، ورأس في موضع آخر؛ وكانت الرؤوس تتكلم وتصرخ، مما أضاف رعبًا إلى المشهد.

قال الضابط: «حاولنا أن نفعل شيئًا حيال ذلك. وعندما حاولنا قتل هذه الفوضى، أمسكت بنا الأيدي وعضتنا الرؤوس. حتى الهورماد كانوا يخشون الاقتراب منها؛ وإذا كان هناك شيء مروع بالنسبة للهورماد، فلا تتوقع أن يتحمله البشر.

اتفقت مع رأيه تمامًا. وبصراحة، لم أكن أعرف ماذا أفعل. لم أستطع الاقتراب من الحوض لتصريف مادة الاستزراع ووقف النمو؛ ومع خوف الهورماد من الاقتراب منه، سيكون من المستحيل تدميره.

قلت: «أغلقوا الأبواب والنوافذ. ففي النهاية سوف يخنق هذا الكائن نفسه أو يجوع حتى الموت». ورأيت، عند مغادرتي الغرفة، أحد الرؤوس يقضم قطعة كبيرة مجاورة من الأنسجة. على الأقل لن يجوع حتى الموت.

ظل المشهد يطاردني لفترة طويلة، ولم أتمكن من إخلاء ذهني من التكهنات حول ما يحدث في غرفة الأهوال تلك، وراء الأبواب والنوافذ المغلقة.

أمضيت عدة أيام في محاولة إصلاح الأمور في مبنى المختبر، ونجحت. ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى عدم معرفة أحد كيفيه إعداد الأنسجة لأحواض الاستزراع، حيث كانت قد فرغت نتيجة لنمو النسل البشع. وأسفرت النتيجة عن انخفاض سريع في إنتاج الهورماد، مما أسعدني كثيراً. قريبًا لن يوجد المزيد منهم، وكنت لأتمنى ألا يعود راس ثافاس ليجدد عمله المُشين، لولا أنه الوحيد الذي يمكنه أن يُعيد لي جسمي.

لم أزر جاناي خلال تلك الفترة، خشية اكتشاف مكان اختبائها، ويشك آي-ماد أنه خُدِع. لكنني قررت أخيراً أن الأكثر أمانًا لها هو «العثور عليها»؛ فذهبت إلى آي-ماد وأخبرته أنني فشلت في تحديد مكانها، وأنني على وشك الشروع في إجراء بحث شامل في القصر.

قال: «إذا وجدتها، لن تجد سوى جثة. فليس بإمكانها مغادرة القصر. وأعتقد أنك توافقني في عدم إمكانية أي امرأة أن تترك هذا القصر دون أن يراها أحد أفراد الحرس أو أحد جواسيسنا».

سألته: «ولكن، ماذا يجعلك تعتقد أنها ماتت؟».

- لا يستطيع الناس العيش من دون طعام أو شراب، وأنا أراقبك وأراقب الآخرين الذين يمكنهم تزويدها بالطعام. لم يأخذ لها أحد أي طعام. يمكنك أن تبدأ بحثك، يا تور-دور-بار. ومكافأتك، إن وجدتها على الإطلاق، ستكون جثة امرأة ميتة.

توقفت أمام شيء في تعبيره عندما تحدث: نصف ابتسامة - ماكرة وتحمل شعورًا بالرضى الذاتي. تُرى، ما معناها؟ هل وجد جاناي وقتلها؟ بدأت أقلق على الفور. استحضرت كل أنواع الصور المروعة، ومنعت نفسي بصعوبة شديدة من الذهاب في الحال إلى مكان اختباء جاناي لأعرف الحقيقة. تغلبت حكمتي، وبدأت على الفور في تنظيم مجموعات للبحث. كلفت ضباطًا جديرين بالثقة؛ ووجهت كل منهم للبحث في جزء معين من القصر- البحث في كل غرفة، وخزانة، وحُجيرة. رافقت إحدى المجموعات. كانت بقيادة سايتور، الذي وثقت به؛ وشملت تيايتان-أوف، الذي يتفاخر كثيراً بصوت عالٍ حول صداقته لي. وكانت مهمة البحث لهذه المجموعة تقع في جزء من القصر يضم الغرفة التي تختبئ فيها جاناي.

لم أوجه البحث إلى تلك الشقة بوجه خاص، وأصبحت عصبيًّا للغاية عندما بحثوا في كل مكان إلا مكان وجودها. وصلوا أخيراً إلى المخزن. ودخلت خلف سايتور.

قلت: «إنها ليست هنا».

أجاب: «لكن هناك باب آخر، ها هو»، وسار نحوه.

قلت: «ربما مجرد مخزن آخر»، في محاولة لأبدو غير مبالٍ، على الرغم من أن قلبي كان يخفق من التوتر.

قال: «الباب مغلق. إنه موصد من الجانب الآخر. يبدو مريبًا».

خطوت إلى جانبه وناديت: «جاناي!». لم يرد أحد. غاص قلبي! كررت النداء: «جاناي! جاناي!».

قال سايتور: «إنها ليست هناك، لكنني أعتقد أننا مضطرون إلى كسر الباب للتأكد».

- نعم، اكسره.

أرسل لجلب أدوات. وعندما وصلت، بدأ الهورماد عملهم على الباب. وما إن بدأت الألواح في الانشقاق، حتى جاء صوت جاناي من داخل تلك الغرفة الأخرى. قالت: «سأفتح. سمعنا صوت سحب الترباس، ثم تأرجح الباب مفتوحًا. قفز قلبي عندما رأيتها آمنة وفي حالة جيدة. سألت: «ماذا تريدون مني؟».

قال سايتور: «جئت لآخذكِ إلى آي-ماد، الجيداك».

قالت جاناي: «أنا مستعدة». لم تنظر نحوي حتى. تساءلت ما إذا كانت قد قررت أنه ليس سيئًا أن تُصبح جيدارة. كان لديها العديد من الأيام للتفكير في هذه المسألة، ولم أزرها خلال تلك الفترة. ربما غيرت رأيها. أُدرك أن الإغراء كبير؛ وماذا قدم لها فور داج؟ لم يقدم لها الأمان، بالتأكيد، وهو ما تريده المرَأة قبل أي شيء.

وصلنا إلى غرفة آي-ماد الخاصة، المتاخمة للقاعة العامة، وأخذ قلبي يخفق وأنا أسير خلف سايتور وجاناي.

* * *

الفصل (14)

عندما ينموالوحش

للحُب خيال مهووس، يستحضر صورًا مروعة. لا يمكنه انتظار تطور الأحداث، بل يتوقع الأسوأ. وهو عرّاف في أحيان كثيرة. وهذا ما كنت أخشاه الآن عندما وقفنا، أنا وسايتور وجاناي، أمام آي-ماد. سايتور بوجهه الوسيم وجسمه الجميل؛ وآي-ماد في أغطية الجيداك المزخرفة؛ وجاناي مثالية وجميلة! وبمقارنتهم بوجهي الوحشي البشع المشوه، غاص قلبي. كيف تختارني جاناي وتفضلني عن أي رجل طبيعي؟ وإذا كان هذا الرجل هو الجيداك، ما فرصتي إذَنْ؟ كنت مُصرًّا على الخلط بيني وبين فور داج الحقيقي، وعليك أن تعترف بحجم الإرباك عندما تمتلك مخًّا واحدًا وجسمين.

التهمت عينا آي-ماد جاناي، وارتجف قلبي. على أني أقسمت أن أقتله إذا اختارتني جاناي، ولم يلتزم آي-ماد بالاتفاق. قام بصرف سايتور ثم واجه جاناي.

قال وهو يشير نحوي: «كان هذا الهورماد في خدمتي. ولمكافأته، أخبرته بأنني سأمنحه معروفًا. وقد طلبك. وقررنا أننا سنلتزم باختيارك. إذا أمكن العثور على راس ثافاس، يأمل الهورماد في الحصول على جسم جديد. وإذا لم نعثر على راس ثافاس، سوف يظل دائمًا كما هو. إذا اخترتني، سوف تصبحين جيدارة موربوس. فمَن تختارين؟».

شعرت أن آي-ماد عرض الأمر بعدالة، لكني أعتقد أنه يشعر بأن كل حجة كانت لصالحة في كل الأحوال؛ فلماذا حاول تجميها؟ عند وزن المسألة، ما من شك في إجابة جاناي. فقد عرض عليها آي-ماد الزواج والمنصب. وليس لدى فور داج ما يعرضه، وما من سبب للشك في أن قلبها قد يميل إلى واحد أكثر من الآخر- فهي بالكاد ما تعرف أيًّا منا.

نفد صبر آي-ماد. سألها: «حسنًا، ما جوابكِ؟».

قالت: «سأذهب مع تور-دور-بار».

عض آي-ماد شفته، لكنه تعامل مع الأمر بلباقة. قال: «حسنًا، لكني أعتقد أنكِ ترتكبين خطأ. وإذا غيرتِ رأيكِ، أبلغيني»؛ ثم صرفنا.

في طريق العودة إلى مبنى المختبر، كنتُ كمَن يسير على الهواء. اختارتني جاناي، وسوف تظل معي الآن وتحت حمايتي. وقد بدت هي الأخرى سعيدة أيضًا.

سألتني: «هل سأرى فور داج الآن؟».

أجبت: «كلا، للأسف».

سألتني: «لماذا؟»، وبدت عليها الكآبة فجأة.

أوضحت: «قد يستغرق الأمر بعض الوقت. وفي الوقت نفسه، سوف تكونين معي وآمنة تمامًا».

- لكني تصورت أنني ذاهبة لرؤية فور داج. أنت لم تخدعني، أليس كذلك يا هورماد؟

«إذا كنتِ تعتقدين ذلك، فمن الأفضل أن تعودي إلى آي-ماد»؛ قلت بشكل حاد، ربما بدافع أغرَب تعقيد للمشاعر التي اجتاحت أي إنسان من قبل- كنت غيورًا من نفسي!

شعرت جاناي بالندم. وقالت: «أنا آسفة، لكني مستاءة جدًّا. أرجوك سامحني. لقد مررت بالكثير، ما يكفي لدفع الإنسان إلى الجنون».

كنت قد اخترت مسكنًا ورتبته بالفعل لجاناي في مبنى المختبر. كان بجانب مسكني، وبعيدًا بعض الشيء عن رعب غرف الأحواض. كما اخترت العديد من الهورماد الأكثر ذكاءً كعبيد وحراس لها، وبدت مسرورة بهذه الترتيبات. وعندما رأيتها استقرت بأمان، أخبرتها أنها إذا احتاجتني أو رغبت في رؤيتي لتسألني عن أي شيء، يمكنها أن ترسل لي وسوف آتي؛ ثم تركتها وذهبت إلى غرفة مكتب راس ثافاس.

وهكذا أنجزت خطتي التي كانت تتطلب هذا الوجه البشع، بيد أنني الآن لا أتمكن من التخلص منه؛ بل يقف في طريق مساعدتي لجاناي للهروب من موربوس؛ لأني لا أستطيع الخروج إلى العالم بشكلي الوحشي الحالي. ولا يمكنني أن أجد السلامة الآن إلا في موربوس.

وكي أشغل ذهني، أخذت أبحث في أوراق وملاحظات راس ثافاس والملاحظات، وكان معظمها بلا معنى على الإطلاق بالنسبة لي. وأواصل الآن بإهمال البحث في مكتبه،

على الرغم من أن ذهني لم ينتبه إلى أي شيء رأيته. كنت أفكر في جاناي. وتساءلت عما حدث لجون كارتر وراس ثافاس، ومصير جسدي المسكين. لم يكن المستقبل ليبدو أكثر قتامة. رأيت الآن ما كان من الواضح أنها رسوم مبنى. درستها

ووجدتها رسوم مبنى المختبر؛ لأني تعرفت بسهولة على الطابقين اللذين أعرفهما جيدًا. رأيت في الجزء السفلي من الأوراق رسمًا لطابق الحُفر تحت المبنى، ويضم ممرات وزنازين. توجد ثلاثة ممرات طويلة تمتد على طول الحُفر، وخمسة ممرات تقطعها؛ وكانت مُرقمة من 1 إلى 8. كما كانت الزنازين التي توجد على طول كل ممر مُرقمة؛ أرقام زوجية على أحد جانبي كل ممر، وأرقام فردية على الجانب الآخر. لم يكن هناك أي شيء يثير الاهتمام. طويت الرسوم لإعادتها إلى مكانها في المكتب. والآن، أعلن الحرس في الغرفة الخارجية عن مجيء تون جان. كان في غاية الانفعال عندما دخل.

سألته: «ما الأمر؟»، فقد أدركت من طريقته حدوث شيء خاطئ.

قال: «تعال، سوف أُريك».

قادني إلى الممر الرئيس ثم إلى غرفة جانبية تطل على فناء كبير يبعث الضوء والتهوية إلى العديد من الغرف داخل المختبر، ومن بينها غرفة الأحواض رقم 4، التي كانت نوافذها تقع مباشرة عبر الغرفة التي نوجد فيها. كان المشهد الذي رأته عيناي وأنا أنظر إلى الفناء مرعبًا للغاية. لقد نمت كتلة النسيج الحية بسرعة في بيئة الاستزراع التي اكتشفها راس ثافاس، وملأت الغرفة تمامًا، وتضغط في جميع الاتجاهات إلى أن انفتحت نافذة وأخذت الكتلة البشعة تخرج إلى الفناء.

قال تون جان: «هناك! ماذا ستفعل حيال ذلك؟».

قلت: «لا يوجد شيء يمكنني القيام به حيال ذلك. ولا يوجد شيء يمكن لأي شخص أن يفعله حيال ذلك. أشك أن راس ثافاس نفسه يمكنه أن يفعل أي شيء. لقد بنى قوة ربما لا يمكنه هو نفسه السيطرة عليها، ما دامت فرت منه».

سألني تون جان: «وماذا ستكون نهاية ذلك؟».

- إذا لم تتوقف عن النمو، فسوف تشق طريقها على حساب كل شيء حي آخر في موربوس. سوف تنمو وتنمو وتتغذى على نفسها. بل قد تُغلف العالم كله. ماذا لدينا لوقفها؟

هز تون جان راسه. لم يكن يعلم. قال: «ربما آي-ماد يمكنه إيقافها؛ إنه الجيداك».

قلت: «أرسل إليه. قل له إن شيئًا ما قد حدث هنا في مبنى المختبر، وأريده أن يراه بنفسه». كنت متلهفًا، لأول مرة في حياتي، على نقل المسؤولية إلى شخص آخر؛ وذلك لعجزي عن مواجهة مثل هذه الحالة الطارئة التي لم يسبق أن واجهها أي إنسان منذ نشأة العالَم.

حسنًا، وصل آي-ماد في الوقت المناسب. وعندما نظر من النافذة واستمع إلى شرحي لهذه الظاهرة، ألقى بكامل المسؤولية على عاتقي مرة أخرى.

قال: «أنت أردت أن تتولى مسؤولية المختبر كاملة، وأنا عينتك المسؤول. هذه هي مشكلتك، وليست مشكلتي»، ثم استدار وعاد إلى القصر. أصبحت الآن أرضية الفناء مُغطاة تمامًا بالكتلة المتلوية الثرثارة؛ وينزلق المزيد منها أسفل النافذة المكسورة أعلاه.

حسنًا، فكرت أن الكتلة سوف تستغرق وقتًا طويلاً لملء الفناء. ويمكنني في غضون ذلك التفكير في شيء أفعله. عُدت إلى مسكني وجلست أنظر يائسًا من النافذة إلى ما بعد أسوار موربوس، إلى المستنقعات التونولية الكئيبة التي تنتشر في كل الاتجاهات بقدر ما يمكن أن يمتد البصر. وقد ذكّرتني بالكتلة المنتشرة في الفناء أسفل غرفة الأحواض رقم 4؛ فأغلقت عينيَّ حتى لا أرى المشهد.

ولسبب ما، تبادرت إلى ذهني رسوم المبنى التي وجدتها في مكتب راس ثافاس؛ ثم تذكرت الرحلة من هيليوم مع أمير الحرب. وهو ما جعلني أتذكر جسدي، وتخيلته الآن مرتديًا عتاد حراس أمير الحرب. أين كان؟ آخر مرة رأيت جسدي، كان على لوح الإرسايت في المختبر الصغير لراس ثافاس. واللوح فارغ الآن، وتوجد ورقة مُعلقة أسفله ومكتوب بها رقم مبهم: 17-3. 17-3! ماذا يعني هذا الرقم؟

تحمس ذهني فجأة للعمل. لا بد أن هذا الرقم يمثل أهمية! قفزت ناهضًا وأسرعت إلى غرفة مكتب راس ثافاس الصغيرة. سحبت رسوم المبنى وفردتها، وعُدت إلى الصفحات التي تضم رسوم طابق الحُفر. حركت أصبعي بسرعة إلى الممرات من 3 إلى 17. هل هذا هو الجواب؟ درست الرسوم بعناية أكبر. وجدت دائرة صغيرة في أحد أركان الزنزانة رقم 17. لا توجد أي دوائر في الزنازين الأخرى. ماذا تعني هذه الدائرة؟ هل تعني أي شيء؟ هل كتابة الرقم «17-3» على ورقة أسفل الطاولة التي كان جسدي راقدًا عليها تعني وجود علاقة بين الممر ورقم الزنزانة؟

لا توجد سوى طريقة واحدة للإجابة على هذه الأسئلة. قمت بسرعة من على المكتب وخرجت إلى الممر. شققت طريقي عبر الهورماد والضباط إلى السلم الحلزوني الذي يؤدي إلى الطابق السفلي والحُفر. انطبعت خريطة الحُفر بقوة في ذاكرتي، إلى حد إمكاني العثور على 17-3 وعيناي مغلقتان.

كانت الممرات والزنازين مُرقمة بوضوح، بحيث لم أجد أي صعوبة في العثور على الزنزانة 17 في الممر 3. حاولت فتح الباب لكنه كان موصدًا! يا لغبائي. كان يجب أن أعرف أنه سيكون موصدًا، إذا كان يخفي الشيء الذي أسعى إليه. وكنت أعرف أين يضع راس ثافاس مفاتيح الأقفال المختلفة في مبنى المختبر. عُدت أدراجي، لكني هذه المرة رأيت العديد من الضباط ينظرون نحوي بطريقة تخيلت أنها مريبة. الجواسيس، تبادر ذلك إلى ذهني؛ إن بعضهم من جواسيس آي-ماد. يجب أن أحذر، وهذا يعني مزيدًا من التأخير.

أتحرك الآن بفتور. تظاهرت أنني أتفقد إحدى غرف الأحواض. أرسلت أحد الضباط الذين أشك فيهم منذ فترة طويلة إلى مهمة. ذهبت إلى النافذة ونظرت. وفي النهاية شققت طريقي على مهل إلى غرفة المكتب؛ وهناك لم أجد أي صعوبة في العثور على المفتاح، إذ كان راس ثافاس دقيقًا ومنهجيًّا في كل ما يفعله، ووضع رقمًا وعلامة على كل مفتاح.

لا بد أن أعود الآن إلى الحُفر دون إثارة الشكوك. تسكعت ثانية خلال الممرات والغرف، وأخيراً وصلت إلى السلم الحلزوني. نزلت دون أن يراني أحد. وأخيراً، وقفت ثانية أمام باب 17-3. وضعت المفتاح، وألقيت نظرة أخيرة على الممر لأتأكد أنني بمفردي، ثم فتحت الباب. كانت الزنزانة مُضاءة، مثل الممرات، بواسطة مصابيح الراديوم الدائمة التي يشيع استخدامها في برسوم.

وجدت جسمي أمامي مباشرة، مُمددًا على طاولة. دخلت الزنزانة وأغلقت الباب ورائي. نعم، هذا جسدي، وهذا هو الوعاء الذي يحتوي على دمي. اجتمعنا معًا مرة أخرى: جسدي، ودمي، ومخي؛ لكننا لا نزال متباعدين مثل القطبين. راس ثافاس فقط هو مَن يمكنه أن يجمعنا معًا ككيان واحد، لكن راس ثافاس اختفى.

* * *

الفصل (15)

وجدت قائدي

وقفت لفترة طويلة أنظر إلى جسدي. لم أكن أبدًا رجلاً مغرورًا، لكن جسمي بدا أجمل شيء رأيته على الإطلاق عندما قارنته بذلك الشيء البشع الذي يحركه مخي الآن. فكرت في جاناي في جناحها أعلاه، ولعنت حماقتي لأني تخليت عن الجسم الذي ربما كانت أحبته.

على أن هذا الضيق كان بلا جدوى، فأجبرت نفسي على التفكير في أشياء أخرى. تبادرت إلى ذهني تلك الدائرة الصغيرة التي ظهرت في رسوم الزنزانة رقم 17، ومشيت إلى ركن الغرفة الذي تدل الدائرة على أنني قد أعثر فيه على شيء مختلف عما يوجد في بنية الزنازين الأخرى في الحُفر. كان هناك شيء. شيء بالكاد ما يمكن رؤيته، لكنه هناك - خط ضعيف يرسم دائرة يبلغ قُطرها حوالي قدمين. نزلت على يدي وركبتي لفحصه. وجدت فجوة صغيرة في أحد الجوانب. بدا الشيء كما لو أنه باب مسحور، مصنوع بذكاء، وهذه الفجوة هي موضع فتحه. أدخلت رأس خنجري وحركته، فارتفع الباب بسهولة. ارتفع الآن بما يكفي لوضع أصابعي تحته، وفي اللحظة التالية تمكنت من رفعته جانبًا لأكشف عن فراغ مظلم. ماذا يوجد هناك؟ وما غرض هذه الفتحة؟

لا توجد سوى طريقة واحدة لمعرفة ذلك. ونزلت بجسمي خلال الفتحة، التي كان حجمها بالكاد ما يكفي لإدخال جسمي الفظ. وعندما كنت مُعلقًا على طول ذراعي اليُمنى الطويلة، لمست أصابع قدمي شيئًا صلبًا كنت آمل أن يكون قاع الحفرة، وقفزت.

أقف الآن على أرضية صلبة. رأيت خلال الضوء الصغير الذي يأتي من الفتحة فوقي ممرًّا ضيقًا يمتد في الظلام المطلق. ليس أمامي سوى الاستكشاف، بعد أن وصلت إلى هذا الحد. تمنيت أن أكون قد أعدت الغطاء إلى مكانه؛ بحيث إذا جاء أي شخص إلى الزنزانة، لا يكتشف الباب المسحور. وبدأت أتساءل كيف يمكن أن يخرج أي شخص من هذا المكان إذا كان الغطاء مغلقًا أعلاه. إذا كان الغطاء مفتوحًا، يمكن للرجل أن يقفز إلى حافة الفتحة ويسحب نفسه؛ أما إذا كان الغطاء مغلقًا، لا يمكنه ببساطة الخروج.

يوجد هنا شيء خاطئ. لا بد أن هناك طريقة أخرى. بدأت أتلمس حولي بحثًا عن شيء ما، أيًّا ما كان، وأخيراً وجدته - عمود يستقر على أوتاد بالقرب من قمة الممر.

سندته على حافة الفتحة وتسلقت، وقمت بجر الغطاء إلى وضعه تقريبًا. نزلت، واستخدمت العمود لضبط وضع الغطاء في مكانه.

بدأت الآن أتلمس طريقي خلال الظلام المطلق على طول الممر. كنت أتحسس بأصبع قدمي قبل اتخاذ أي خطوة، وأبقيت يديَّ على جانبي الممر خشية تفويت بعض الممرات المتفرعة أو المتقاطعة التي قد تطردني من مساري عند عودتي- إن عُدت. توقفت عند هذه الفكرة. ماذا سيحدث لجاناي إذا أخفقت في العودة؟ ربما يجب ألا أواصل هذه المغامرة الجديدة. ربما يجب أن أعود. ولكن، لا. فمن مصلحتها، قبل أي شيء، أن أواصل استكشاف ما يوجد تحت حُفر موربوس. ربما أجد هنا سبيلاً للحرية.

واصلت طريقي. كانت أرضية الممر مستوية، ولا توجد تفريعات أو ممرات متقاطعة. انحنى الطريق قليلاً مرتين، وإنما ليس كثيراً. أخذت أفكر، حسنًا، لا بد أنني وصلت تقريبًا إلى نهاية الطريق؛ لكن الطريق امتد. أصبحت الجدران رطبة، وانبعثت من الممر رائحة العفن الكريهة؛ ثم وصلت إلى منحدر حاد. ترددت للحظة، وإنما للحظة فقط. مالت الأرضية إلى أسفل بزاوية تبلغ حوالي 15 درجة. وصلت إلى أرضية مستوية ثانية؛ لا بد أنني انخفضت بحوالي ثلاثين أو أربعين قدمًا تحت المستوى الأصلي. كانت النداوة تسيل من الجدران والسقف، وبالتالي الأرضية لزجة. مشيت على طول هذا النفق الأسود اللا متناهي. تصورت أنه لن ينتهي أبدًا؛ وعندما ينتهي، كما يجب أن يحدث، تُرى أي مأزق جديد سأجد؟ فكرت أحيانًا في العودة، لكن ذلك كان فقط عندما أفكر في جاناي واعتمادها عليَّ.

«يا هورماد!»، لا أزال أسماعها وهي تناديني هكذا، وأشعر بالازدراء والبغض الذي لم تستطع أن تخفيه تمامًا، حتى لو حاولت. والطريقة التي تحدثت بها عن فور داج في نفس الوقت، وكيف تغير صوتها! اجتاحتني ثانية موجة من الغيرة مني، على أن حسي الفكاهي أنقذني، فضحكت.

خلفت الضحكة صدى كئيبًا غريبًا في الممر. لم أضحك ثانية – فالصدى كان مروعًا.

ترتفع ثانية أرضية الممر الآن. أخذ الارتفاع يتزايد حتى شعرت أنني وصلت إلى المستوى الأصلي؛ وفجأة رأيت ضوءًا أمامي، أو بالأحرى ظلامًا أقل؛ وخلال لحظات خرجت إلى العراء. كان الوقت ليلاً. ولم يكن القمران في السماء. أين كنت؟ أدركت أنني ارتحلت ربما لأميال خلال هذا الممر الكئيب. لا بد أنني خارج أسوار موربوس، ولكن أين؟

وفجأة لاح أمامي شخص، عرفت في ظل الضوء الخافت أنه هورماد. سألني: «مَن أنت؟ وماذا تفعل هنا؟»، ودون انتظار لجوابي، اقترب مني بسيف طويل.

كنت أفهم هذه اللغة، وإجابتي جاهزة، امتشقت سيفي، واشتبكت مع هذا الشيء. كان مبارزًا أفضل من أي مبارز اشتبكتُ معه من قبل. كما كان يعرف بعض الحيل التي تصورت أن تلامذة جون كارتر هم فقط من يعرفونها. وعندما اكتشف أنني أعرف حلول جميع حيله، أطلق صيحة؛ وخلال لحظ أو لحظتين، اندفع ثلاثة أشخاص آخرين من وسط الليل. لم يكن الزعيم من الهورماد، وإنما كان رجلًا أحمر طويل القامة. وما إن بدأ يشتبك معي، حتَّى تعرفت عليه.

صحت: «جون كارتر! هذا أنا، فور داج».

أنزل سيفه على الفور وخطا إلى الوراء، صائحًا: «فور داج! باسم سلفي الأول، كيف وصلت إلى هنا؟».

ظهر راس ثافاس وهورماد ثانٍ، وأخبرتهم بإيجاز كيف اكتشفت الزنزانة 17 والفتحة في الممر.

وقلت لهم: «أخبروني الآن، ماذا تفعلون هنا».

قال أمير الحرب: «فليخبرك راس ثافاس».

قال الجراح العظيم: «روبوس مدينة قديمة، بناها في عصور ما قبل التاريخ سكَّانٌ انقرضوا الآن. وقد اكتشفتها خلال رحلتي، بعد هزيمتنا في تونول، وقمت بإعادة تشكيلها وإعادة بنائها على أسس المدينة القديمة إلى حد كبير، والتي كانت رائعة البناء. هناك الكثير الذي لا أعرفه عنها. على أني وجدت رسومًا لكثير من المباني، بما فيها مباني مبنى المختبر. ولاحظت تلك الدائرة في الزنزانة رقم 17، ومثلك تمامًا تصورت أنها تعني شيئًا، وإنما لم يتوفر لديَّ أبدًا الوقت أو الميل للتحقق من الأمر. وعندما قررنا إخفاء جسمك حتى لا يمكنهم العثور عليه وتدميره إذا حدث أي شيء، اخترت الزنزانة رقم 17 واكتشفنا النفق إلى هذه الجزيرة التي تقع على بعد ميلين بالكامل من موربوس.

«حمل دور-دان وإيل-دور-إن جسمك إلى الزنزانة 17، وأحضرناهما معنا. وهما اثنان من أفضل الهورماد، ذكيان ومخلصان. وبعد أن هربنا من موربوس، قررنا محاولة شق طريقنا إلى الطرف الغربي من المستنقعات الكبرى واستعادة طائرة جون كارتر، والطيران إلى هيليوم على أمل أن أصل في الوقت المناسب لإنقاذ ديجاه ثوريس من الموت.

«وانشغلنا في بناء قارب لرحلة طويلة خلال المستنقعات، ونحن على وشك الانتهاء. كنا في مأزق بشأن ما يجب أن نفعله من أجلك. لم نكن نريد تركك؛ لكن الطائرة لا تسع سوى شخصين، وعندئذ كنا لنتركك في مكان ما إلى أن نعود؛ لكنك في موربوس أكثر أمانًا مما لو كنت في التلال وراء فوندال».

قلت: «ما كان يجب أن تفكرا في وضعي؛ ذلك أن هدفنا الوحيد كان العثور عليك والعودة إلى هيليوم في أسرع وقت ممكن. كنت أعرف في بداية الرحلة أنني سأظل في المكان الذي نجدك فيه؛ لأن تصميم الطائرة يجعلها لا تسع أكثر من شخصين. وهذه كانت تضحية صغيرة لأميرة هيليوم. وكان أمير الحرب سوف يرسل لي طائرة في وقت لاحق».

قال أمير الحرب: «بطبيعة الحال. ومع ذلك، كرهت أن أتركك هنا؛ ولكن لم يكن هناك بديل. خططنا لإرسال إيل-دور-إن إلى المدينة ثانية مع رسالة تشرح لك كل شيء، على يرافقنا دور-دان. وسوف يحاول العودة إلى موربوس، إذا نجحنا في اجتياز المستنقع والوصول إلى الطائرة».

سألته: «متى تتوقع أن تبدأ؟».

- سننتهي من القارب غدًا، ونبدأ رحلتنا بمجرد حلول الظلام. نحن نخطط للسفر ليلاً، ونستريح ونختبئ خلال ساعات النهار؛ حيث يؤكد راس ثافاس، وهو على دراية بالمستنقعات، أن اجتيازها نهارًا يستحيل إلا على قوة كبيرة من المحاربين. يقطن العديد من الجزر سكان أصليون وحشيون، أو قراصنة ومجرمون خارجون على القانون وأكثر وحشية.

فالمستنقعات التونولية الكبرى تُعد بمثابة البقايا الأخيرة للمحيطات العظيمة التي غطت ذات يوم جزءًا كبيراً من برسوم، والمخلوقات التي تسكنها هي البقايا الأخيرة من البشرية.

سألته: «هل هناك أي طريقة يمكنني مساعدتكما بها؟».

قال: «كلا. أنت ضحيت بما فيه الكفاية».

- سأعود إذَنْ إلى المدينة قبل أن يلاحظوا غيابي. لديَّ هناك مسؤوليات تماثل مسؤولياتك تقريبًا يا سيدي.

سألني: «ماذا تقصد؟».

قلت: «جاناي».

- ماذا عنها؟ هل وجدتها؟

أخبرتهم بكل ما حدث ولا يعرفون عنه شيئًا؛ أن آي-ماد أصبح الجيداك وحاكم موربوس الوحيد، وأنني أصبحت برتبة أودوار والمسؤول عن مبنى المختبر، وأن جاناي أصبحت في حمايتي.

قال راس سافاس: «إذَنْ أنت المسؤول عن مبنى المختبر. كيف حاله في غيابي؟».

قلت: «فظيع. التعويض الوحيد لغيابك هو أن إنتاج الهورماد يتوقف. لكننا نواجه الآن شيئًا قد يثبت أنه أسوأ بلا حدود من الهورماد»؛ ثم أخبرته بما حدث في غرفه الأحواض رقم 4.

بدا شديد القلق، وقال: «هذا أمر مؤسف. إنه شيء كنت أخشاه دائمًا وأحترس منه. عليك أن تستعد بكل الوسائل الممكنة للهرب من موربوس، إن لم تتمكن من وقف النمو في غرفة الأحواض رقم 4. فهذه الكتلة النامية سوف تُغطي الجزيرة بأكملها في النهاية، إن لم يمكن السيطرة عليها. ومن الناحية النظرية، قد تُغطي سطح برسوم كله، وتخنق جميع أشكال الحياة الأخرى. هذا هو مبدأ الحياة الأصلي الذي لا يموت، وإنما يجب السيطرة عليه. تسيطر عليه الطبيعة؛ لكني تعلمت، مع الأسف، أن الإنسان لا يقدر على هذه السيطرة. أنا تدخلت في عمل الطبيعي المنهجي؛ وربما هذه هي عقوبتي».

سألته: «ولكن كيف يمكنني وقف نمو هذه الكتلة؟ كيف يمكنني إيقاف هذا الرعب من الانتشار؟».

هز رأسه، ثم قال: «هناك شيء واحد، وهو ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة، يمكنه السيطرة على الأمر».

سألته: «وما هو؟».

قال: «النار. لكن الواضح أن الأمر تفاقم».

قلت: «أخشى ذلك».

- كل ما يمكنك القيام به الآن هو إنقاذ نفسك وإنقاذ جاناي، وانتظار عودتنا.

فقال أمير الحرب: «سأعود ومعي قوه كافية من الرجال والسفن لإخضاع موربوس وإنقاذكما».

قلت: «وإلى ذلك الحين يا سيدي، أرجو أن أسمع منك أن أميرة هيليوم استعادت صحتها».

الفصل (16)

الجيداك يتحدث

كنت مكتئبًا جدًّا وأنا في طريق العودة خلال ذلك النفق المظلم. بدا لي احتمالاً ضئيلاً أن يعيش جون كارتر وراس ثافاس خلال رحلتهما للوصول إلى الطرف الغربي من المستنقعات. سيموت أمير الحرب، وعندئذ سيكون الموت هو مصير أميرتي المحبوبة ديجاه ثوريس. وبعد ذلك لن يكون هناك شيء للعيش من أجله. جاناي هي أملي الضائع، ما دام مصيري أن أسكن هذا الجسم البغيض.

نعم، هناك شيء أعيش من أجله- جاناي. يمكنني على الأقل تكريس حياتي لحمايتها؛ ربما أتمكن في يوم ما من ترتيب هروبها من موربوس. كانت آمالي في هذا الاتجاه أكثر إشراقًا، بعد أن أصبحت على دربة بالنفق.

وصلت أخيراً إلى الزنزانة 17. تلكأت قليلاً للتحديق بحزن وإعجاب في جسمي المسكين. هل سيتمكن مخي من تحريكه مرة أخرى؟ شعرت بانقباض لإعطاء إجابة على هذا السؤال، وتركت الزنزانة بقدمين متثاقلتين وصعدت إلى الطوابق العليا. عندما اقتربت من غرفة المكتب، قابلت تون جان.

قال براحة واضحة: «أنا سعيد بعودتك».

- لماذا؟ ما الأمر؟ هل حدث شيء آخر؟

أجاب: «لا أعرف، وإنما لأني لا أعرف أين كنت أو ماذا كنت تفعل. هل تعرف إن كان هناك مَن تتبعك، أو إن كان أي شخص قد رآك؟».

قلت: «لم يرني أحد. ولكن ما الفارق إن شاهدوني. كنت مجرد أتفقد الحُفر». لن أخاطر بولاء أي شخص. «لكن لماذا تسأل؟».

قال: «كان جواسيس آي-ماد نشيطين جدًّا. أنا أعرف بعضهم، وأشتبه في آخرين. وأعتقد أنه أرسل مجموعة جديدة لمراقبتك. يقولون إنه غاضب لأن المرأة اختارت الذهاب معك وليس البقاء معه لتصبح جيدارة موربوس».

سألته: «هل تعني أنهم كانوا يبحثون عني؟».

- نعم؛ في كل مكان. حتى أنهم ذهبوا إلى شقة المرأة.

- وهل هي بخير؟ هل أخذوها؟

- ليس هذا ما أعرفه.

- لكنك لا تعرف عن يقين؟

- لا.

غاص قلبي. هل حدث ذلك أيضًا؟ سارعت نحو شقة جاناي، وتبعني تون جان. بدا قلقًا أيضًا. وربما كان قلقًا بالفعل. أتمنى ذلك، لأني أحتاج إلى كل حليف مخلص يمكنني حشده، إذا كان آي-ماد يخطط لأخذ جاناي.

عندما تعرّف عليَّ الحارس عند باب شقتها، تنحى جانبًا لندخل. لم أرَ جاناي في البداية. كانت تجلس وظهرها نحوي، وتنظر من النافذة. ناديها، نهضت واستدارت. بدت مسرورة لرؤيتي، لكنها تراجعت واتسعت عيناها رعبًا عندما رأت تون جان.

سألتني: «ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟».

قلت: «إنه أحد ضباطي. ماذا فعل؟ هل أُلحق بكِ أي ضرر خلال غيابي؟».

سألتني: «ألا تعرف مَن هو؟».

- ماذا. إنه تون جان. وهو ضابط جيد.

قالت: «إنه جانتون جور، القاتل من مدينة أمهور. لقد قتل والدي».

أدركت على الفور الخطأ الطبيعي الذي وقعت فيه. قلت لها: «إنه مجرد جسم جانتون جور. وقد أُحرِق مخه. وهذا الجسم لديه الآن مخ صديق».

قالت براحة: «آووه. عمل آخر من أعمال راس ثافاس. سامحني، تون جان. لم أكن أعرف».

قال تون جان: «أخبريني عن الرجل الذي أسكن جسمه الآن».

- كان قاتلاً سيئ السمعة من أمهور، ويعمل غالبًا لدى الأمير جال هاد. كان جال هاد يريدني، لكن أبي لم يستسلم؛ لأنه يعرف أنني أفضل الموت على أن أتزوج من جال هاد. ولذا قام جال هاد بتكليف جانتون جور باغتيال والدي وخطفي. تمكنت من الهرب،

وكنت في طريقي إلى بتارث، حيث يوجد أصدقاء لوالدي. تبعني جانتون جور ومعه مجموعة قوية من القتلة، جميعهم أعضاء في رابطة القتلة. تمكنوا من اللحاق بنا وهاجموا المجموعة الصغيرة من الموالين المخلصين الذين رافقوني

إلى المنفى. هبط الليل والقتال لا يزال دائرًا. تفرقت مجموعتي، ولم أرَ أيًّا منهم ثانية. وبعد يومين، قبض عليَّ الهورماد. وأعتقد أن مجموعة أخرى ألقت القبض على جانتون جور في وقت لاحق.

قلت لها: «لن يخيفكِ ثانية أبدًا».

- مع ذلك، من الغريب أن أراه كما عرفته تمامًا، ثم أدرك أنه ليس هو.

قلت: «هناك العديد من الأشياء الغريبة في موربوس. ليس كل مَن ترينهم لديهم الأمخاخ أو الأجسام التي تنتمي إليهم أصلاً».

إنه لوضع غريب في الواقع. يقف هنا تون جان في جسم جانتون جور ومخ تور-دور-بار، وأنا في جسم تور-دور-بار ومخ فور داج. تُرى ما رد فعل جاناي لو عرفت الحقيقة. إذا كانت تحب فور داج، يجب أن أوضح لها كل شيء، فمن الأفضل أن تعرف الحقيقة؛ أما إذا لم تكن تحبه، وما من سبب للاعتقاد في ذلك، ربما يثير شكلي الحالي اشمئزازها إلى حد أنها لا تستطيع أن تحبني عندما أستعيد جسمي. هكذا فكرتُ، ومن ثم قررت عدم إخبارها.

شرحت لها لماذا أتيت ومعي تون جان إلى شقتها، وأن عليها أن تحرص في كلامها وتصرفاتها؛ لأنها محاطة دون شك بجواسيس ومخبرين آي-ماد.

تطلعت نحوي في تساؤل للحظة، ثم قالت: «أنت تتعامل معي بطريقة جيدة جدًّا. أنت الصديق الوحيد الذي لديَّ. أتمنى أن تأتي لرؤيتي كثيراً. ولستَ بحاجة إلى تقديم أعذار أو تفسيرات لحضورك. هل أحضرت لي أي رسالة من فور داج؟».

ارتفعت معنوياتي في الجزء الأول من حديثها، لكنني شعرت مع الجملة الأخيرة أن تلك الغيرة غير المفهومة تنتابني. هل اندمج جسم تور-دور-بار مع مخ فور داج واستوعب هوية هذا الأخير؟ هل أقع كهورماد في حب جاناي؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما النتيجة؟ ألا يمكن أن أكره فور داج وأخشاه إلى حد تدمير جسمه لأن جاناي تحبه أكثر من حبها لجسم تور-دور-بار؟ يا لها من فكرة خيالية، لكنها تتفق وجميع الظروف المحيطة بها.

قلت: «لم أُحضر إليكِ أي رسالة من فور داج؛ لأنه اختفى. ربما إذا عرفنا ماذا حدث لكل من دوتار سوجات وراس ثافاس، قد نعرف ماذا حدث لفور داج».

سألتني: «أنت تعني أنك لا تعرف أين فور داج؟ هناك شيء غريب في هذا الموضوع يا تور-دور-بار. أريد أن أثق بك، لكنك كنت مراوغًا للغاية حول فور داج منذ أن جئتني بداية. أشعر أنك تحاول منعي من رؤيته. لماذا؟».

قلت: «هذا غير صحيح. عليكِ أن تثقي بي، جاناي. وسوف أجمع بينكِ وبين فور داج ثانية عندما أتمكن من ذلك. هذا كل ما يمكنني قوله. ولكن، لماذا تحرصين هكذا على رؤية فور داج؟».

فكرت أن أفاجئها بقول شيء قد يعطي تلميحًا عن مشاعرها تجاه فور داج. لم أكن أعرف ما إذا كنت أتمنى أم أخشى أن تعطيني بعض مؤشرات عن مودتها تجاهه؛ فقد كنت في حيرة من ردود فعل شخصيتي المزدوجة. لكن خدعتي لم تكن مجدية، ولم يطرح ردها شيئًا.

قالت: «لقد وعد بمساعدتي على الهرب». هذا كل ما في الأمر، كان اهتمامها بفور داج أنانيًّا بحتًا. على أي حال، هذا أفضل من عدم اهتمامها على الإطلاق. وهكذا فكرت أن الأسباب المتعلقة بالحب تجعل الرجل أحمق، إلى أن تبادر إلى ذهني أن اهتمامي بجاناي ربما كان أنانيًا بحتًا أيضًا. الاختيار بينهما ضئيل. هي تريد حريتها؛ وأنا أريدها هي. والسؤال هو، هل سأخاطر بكل شيء، حتى حياتي؛ لأفوز لها بحريتها، مع معرفتي أنني سأفقدها هي؟ حسنًا، أعرف أنني قد أفقدها، ولذا ربما لم يكن حبي لها أنانيًّا تمامًا. وأسعدني ذلك.

لاحظت، خلال حديثنا، أن اثنين من الخدم الهورماد يراقباننا عن كثب، ويقتربان أكثر في محاولة لسماع ما نقول. كنت على يقين أنهما من جواسيس آي-ماد؛ لكن طريقتهما الفجة جعلتهما غير مؤذيين. حذّرت جاناي منهما بصوت منخفض؛ وعندما زاد اقترابهما قلت لها: «كلا، ما من فائدة؛ لن أسمح لكِ بمغادرة المسكن، فلا تطلبي مني ذلك مرة أخرى. أنتِ أكثر أمانًا هنا. أنت تنتمين لي الآن، ولديَّ الحق أن أقتل أي شخص قد يهدد بإيذائكِ. وسوف أفعل ذلك أيضًا». هذا كان من أجل الجواسيس.

تركتها وأخذت تون جان معي. عُدت إلى غرفة المكتب، وتوصلت إلى قرار. يجب أن أحيط نفسي وأحيط جاناي بأتباع مُخلصين، ولتحقيق ذلك يجب أن أغتنم بعض الفرص. تحدثت مع تون جان؛ فقال إنه يدين بكل شيء لفور داج وراس ثافاس، وبما أنهما صديقاي، فإنه سيخدمني بأي طريقه ممكنة. لم يكن يحب أي جِد من الجِدود.

وتحدثت خلال اليومين التاليين مع سايتور، وباندار، وجان هاد، وتيايتان-أوف؛ وأصبحت مُقتنعًا أن بإمكاني الاعتماد على إخلاصهم. ونجحت في نقلهم جميعًا، باستثناء تيايتان-أوف، إلى العمل في مبنى المختبر؛ حيث الحاجة إلى المزيد من الضباط لمحاولة وقف انتشار النمو المروع الذي يخرج من غرفة الأحواض رقم 4. وكان تيايتان-أوف يعمل بمثابة جاسوسي في القصر. وسايتور هو الضابط الذي قاد مجموعة الهورماد التي ألقت القبض علينا، أنا وأمير الحرب. كنت مُعجبًا به، وبعد أن تحدثت معه مطولاً، أصبحت مقتنعًا أنه رجل أحمر عادي يمتلك مخه نفسه؛ إذ كان على دراية بأماكن وأحداث العالم الخارجي التي لا يمكن أن يعرفها أي هورماد. كان من دوسار، ومتلهف على الفرار من موربوس والعودة إلى بلده.

أما باندار من فوندال، وجان هاد من تونول، فقد كانا زملائي السجناء، ولذا أعرف عنهما بعض الأشياء. وأكد لي كلاهما أنني إذا كنت أعمل حقًّا لصالح فور داج ودوتار سوجات، فسوف يعملان معي عن طيب خاطر.

يعتقد هؤلاء الرجال جميعًا، بطبيعة الحال، أنني مجرد هورماد؛ لكن رتبتي أكدت لهم أن لديَّ نفوذًا وأنني شخص مهم. شرحت لهم أن لديَّ وعدًا بالحصول على جسم رجل أحمر بمجرد تحديد مكان راس ثافاس، وعندئذ سأصبح واحدًا منهم وأحرص على مغادرة موربوس.

أصبح نمو الأنسجة في غرفة الأحواض رقم 4 يملأ تقريبًا الفناء الكبير الآن. قمنا بإغلاق جميع فتحات النوافذ والأبواب بمتاريس مُحكَمة، بحيث لا تتمكن الكتلة من دخول المبنى. لكنها أصبحت تهدد بالارتفاع إلى أعلى والتدفق عبر أسطح المنازل، بحيث تجد طريقها في النهاية إلى شوارع المدينة. لقد توقف عمليًّا إنتاج هورماد جُدد، وأفرغتُ جميع الأحواض حتى لا يتكرر ما حدث في غرفة الأحواض رقم 4. وقد استلزم ذلك زيارتي لكل مبنى يضم أحواض استزراع، وهناك العديد منها. وعند عودتي من أحد المباني، تلقيت استدعاء للمثول أمام آي-ماد.

جاء تيايتان-أوف لمقابلتي عندما دخلت القصر، وقال لتحذيري: «كن حريصًا؛ هناك شيء ما يحدث. أنا لا أعرف ما هو، لكن أحد خدم آي-ماد أخبرني أنه دائم الغمز واللمز عنك وعن المرأة. فبعد أن فقدها، أصبح الآن يرغبها أكثر من ذي قبل. وإذا أردت أن توفر على نفسك المتاعب، فمن الأفضل أن تعيدها له؛ لأنك إذا لم تفعل، فسوف يقتلك ويأخذها على أي حال، ولا توجد امرأة تستحق ذلك».

شكرته وتوجهت إلى القاعة العامة، حيث تجمع ضباط آي-ماد الرئيسين أمام العرش. حيّاني الجيداك بوجه متجهم وأنا أتخذ مكاني بين الضباط الآخرين؛ وكنت الوحيد الذي ليس لديه جسم رجل أحمر. تُرى مَن منهم لديه مخ هورماد؛ ليس لديَّ وسيلة لمعرفة ذلك. لكني خمنت، مما سمعته منذ وصولي موربوس، أن أمخاخ معظمهم مزروعة. من المؤكد أنهم كانوا ليُفاجئون، وعلى رأسهم أي-ماد، إذا عرفوا أن داخل رأس هذا الجسد القبيح والوجه البشع يوجد مخ نبيل من هيليوم ومساعد موثوق به لأمير الحرب في برسوم.

أشار نحوي آي-ماد بإصبعه، قائلاً: «لقد وثقت بك، ووضعتك المسؤول عن المختبرات؛ فماذا فعلت؟ لقد توقفت إمدادات المحاربين».

قلت لتذكيره: «أنا لست راس ثافاس».

- لقد سمحت بوقوع كارثة في غرفة الأحواض رقم 4، وهي كارثة تهدد باكتساحنا.

قاطعته: «اسمح لي أن أُذكرِك مرة أخرى أنني لست العقل المدبر في المريخ».

لم يهتم بكلامي وواصل قائلاً: «هذه الأمور تهدد بانهيار كل خططنا لقهر العالم، وتجعل قواتنا غير كافية للبدء في محاولة تنفيذ هذه الخطط. أنت فشلت في المختبر، وأنا الآن أعفيك من واجباتك هناك، لكني أعطيك فرصة أخرى للتعويض عن ذلك. أنوي الآن غزو فوندال على الفور، لاكتساب أسطول للسفن يتيح لنا نقل محاربينا إلى تونول. وسوف يمنحنا الاستيلاء على تونول سفنًا إضافية تتيح لنا التحرك للاستيلاء على مدن أخرى. وقد وضعتك في قيادة الحملة ضد فوندال.

ولا يتطلب إخضاع تلك المدينة قوة كبيرة. لدينا 500 مالاجور، ويمكنهم القيام برحلتين ذهابًا وإيابًا في اليوم. وهذا يعني أن بإمكانك نقل ألف محارب يوميًّا إلى موقع بالقرب من فوندال؛ أو قد يصل العدد إلى 2000 محارب إذا كان بإمكان الطيور أن تحمل ضعف العدد. كما يمكنك، بالطريقة نفسها، وضع ألف محارب داخل أسوار المدينة للاستيلاء على البوابات وفتحها أمام كيان قواتك الرئيس. وعليك أولاً نقل الأحواض ومادة الاستزراع اللازمة لإنتاج المواد الغذائية لمحاربيك. يمكنك الهجوم ومعك 2000 محارب؛ وسوف أواصل إرسال 2000 محارب يوميًّا إلى أن تنتهي الحملة؛ لأنك سوف تخسر الكثير من المحاربين. والآن، عليك أن تترك فورًا مسكنك في مبنى المختبر وتتخذ مسكنًا هنا في القصر، سأقوم بتخصيصه لك ولحاشيتك».

أدركت على الفور ما يحاول تحقيقه. سوف ينقل جاناي إلى القصر، ثم يرسلني إلى الحملة ضد فوندال.

- سوف تنتقل إلى القصر فورًا، وتبدأ في نقل قواتك في الحال. لقد تحدثت.

***

الفصل (17)

الهروب المستحيل

وجدتني الآن أواجه مشكلة تبدو بلا حل. لو كنت أسكن جسدي، لكان يمكنني الهرب مع جاناي عبر النفق إلى الجزيرة، حيث يختبئ جون كارتر وراس ثافاس، وننتظر عودتهما هناك؛ لكني لا أستطيع التخلي عن جسدي والمخاطرة بالخروج إلى العالم كهورماد. كما شعرت أيضًا أن من واجبي كرجل أحمر أن أبقى وأحاول بشكل ما إحباط خطة آي-ماد لغزو العالم. توجهت إلى مسكن جاناي لأخبرها بما حل بنا، وكانت معنوياتي في الحضيض.

قابلت تون جان خلال سيري على طول ممر في مبنى المختبر، وبدا شديد الانزعاج. قال: «تجاوزت الكتلة سقف غرفة الأحواض رقم 4 من موضع فيه، وتفيض على جانب المبنى إلى الشارع. لقد تسارع النمو فجأةً؛ وإذا لم نوقفها، ليست سوى مسألة وقت قبل أن تغلف المدينة بأكملها».

قلت: «والجزيرة كذلك، لكني لا أستطيع أن أفعل أي شيء حيال ذلك؛ لقد أعفاني آي-ماد من واجباتي في المختبر، وتعود المسؤولية الآن إلى مَن يخلفني».

سألني تون جان: «ولكن ماذا يمكننا أن نفعل لإنقاذ أنفسنا؟ سنضيع جميعًا إذا لم يتوقف النمو. لقد استولت الكتلة على الموقع بالفعل والتهمت العديد من المحاربين الذين أُرسِلوا في محاولة لتدميرها. تمتد أيدٍ من الكتلة وتمسك بهم، ثم تلتهمهم الرؤوس. سوف تأكلنا جميعًا في النهاية».

نعم، ماذا يمكننا أن نفعل لإنقاذ أنفسنا؟ للحظة، كانت كلمة أنفسنا لا تشمل سوى جاناي والشخصيتين الماثلتين في أفكاري؛ لكني فكرت الآن في الآخرين- في باندار، وجان هاد، وسايتور، نعم، وحتى تون جان قاتل أمهور الذي يحمل مخ هورماد. كان هؤلاء الرجال قريبين مني كأي أصدقاء في موربوس، وهناك أيضًا تيايتان-أوف المسكين. كان صديقي. يجب أن أنقذهم جميعًا.

قلت: «تون جان، كنت ترغب في الهرب؟».

- بالطبع.

- هل تقسم أن تخدمني بإخلاص إذا ساعدتك على الابتعاد عن موربوس، وتنسى أنك من الهورماد؟

قال: «أنا لست من الهورماد الآن. أنا رجل أحمر، وسوف أخدمك بإخلاص إذا ساعدتني على الهرب من براثن الرعب الذي يخرج إلى المدينة».

- حسنًا، توجه حالاً إلى باندار وجان هاد وسايتور وتيايتان-أوف، وأخبرهم أن يأتوا إلى مسكن جاناي. عليك تحذيرهم بضرورة السِّرّية. لا تدعْ أحدًا يسمع ما تقوله لهم. أسرع، تون جان!

ذهبت على الفور إلى مسكن جاناي، التي بدت سعيدة لرؤيتي؛ وأخبرتها بأوامر آي-ماد أن ننتقل إلى جناح في القصر. سمعنا الخادمان اللذان كنت أشتبه فيهما، وكنت أقصد أن يسمعا حديثي. أمرتهما بجمع أمتعة سيدتهما في الحال، مما أعطاني فرصة للتحدث مع جاناي على انفراد. أخبرتها بمغزى أوامر آي-ماد، وأن لديَّ خطة تطرح أملاً طفيفًا في الهرب.

قالت: «أنا مستعدة لأي مخاطرة، وليس البقاء في قصر آي-ماد بعد أن يبعدك. أنت الشخص الوحيد في موربوس الذي أستطيع الوثوق به، أنت صديقي الوحيد؛ على الرغم من أنني لا أعرف لماذا تصادقني».

قلت: «لأن فور داج صديقي، وفور داج يحبكِ». شعرت أنني جبان، لاتباعي هذه الطريقة للاعتراف بحب قد لا أملك شجاعة الاعتراف به لو كنت في هويتي الأصلية. وبعد أن فعلت ذلك، قلت لنفسي ليتني ما فعلت. ماذا لو سخرت من حب فور داج؟ فهو ليس هنا بشخصه للدفاع عن قضيته، وبالتأكيد لا يمكن أن يقوم هورماد قبيح بشع بهذه المهمة بدلاً منه. كتمت أنفاسي وأنا أنتظر ردها.

ظلت صامته للحظة، ثم سألتني: «ماذا يجعلك تعتقد أن فور داج يحبني؟».

- أعتقد أن هذا واضح تمامًا. فهو لم يكن ليقلق على مصير أي امرأة إذا لم يكن يحبها.

- أنت مخطئ على الأرجح. كان فور داج ليقلق على مصير أي امرأة حمراء سجينة في موربوس. كيف يوجد حب بيننا؟ نحن بالكاد ما نعرف بعضنا؛ لم نتحدث معًا سوى بضع كلمات.

كنت على وشك مواصلة الحديث حول هذه النقطة عندما وصل باندار وجان هاد وسايتور، مما أنهى الحديث وتركني في نفس حالة الشك من مشاعر جاناي نحو فور داج. تمكن تون جان من إيجادهم بسرعة، نظرًا لأنهم يعملون في مبنى المختبر. أرسلتهم إلى غرفة المكتب لانتظاري، فلم أكن أرغب أن أتحدث معهم في أي مكان يسمعنا فيه أحد جواسيس آي-ماد.

عاد تون جان بعد بضع دقائق ومعه تيايتان-أوف، وهكذا اكتملت قائمة مَن كنت آمل أن يساعدوني بإخلاص. انتهى الخدم الآن من جمع متعلقات جاناي، وأمرتهم أن يأخذوها إلى مسكننا الجديد في القصر، وبهذه الطريقة تخلصت منهم.

أسرعت بمجرد ذهابهم إلى غرفة المكتب مع جاناي، وتون جان، وتيايتان-أوف؛ حيث وجدنا باقي المجموعة في انتظارنا. نحن جميعًا معًا الآن. أوضحت أنني وضعت خطة للهرب من موربوس، وسألت كلًّا منهم إذا كان على استعداد لمرافقتي. أكد كل منهم رغبته في مرافقتي؛ على أن سايتور أعرب عن شكه في إمكانية الهرب – وهو الشك الذي أتصور أنهم جميعًا يشتركون فيه.

سألني: «ما خطتك؟».

قلت: «لقد اكتشفت ممرًّا تحت الأرض يؤدي إلى جزيرة أمام شاطئ موربوس. وقد ذهب دوتار سوجات وراس ثافاس إلى هذه الجزيرة عند اختفائهما من المدينة. وهما الآن في طريقهما إلى هيليوم. ويمكنك أن تطمئن إلى أن دوتار سوجات سوف يعود مع أسطول من السفن الحربية وقوة كافية من المحاربين لإنقاذي من موربوس.

تساءل تيايتان-أوف متشككًا: «ولماذا يرغب دوتار سوجات في إنقاذ هورماد من موربوس؟».

وتساءل سايتور: «وكيف يأمل دوتار سوجات، وهو بانتان فقير، في إقناع جيداك هيليوم بإرسال أسطول من السفن الحربية إلى المستنقعات التونولية من أجل هورماد؟».

أجبت: «أعلم أن الفكرة تبدو خيالية؛ ويرجع ذلك إلى أنكم لا تعرفون كل الحقائق، وهناك أسباب تجعلني لا أرغب في الإفصاح عنها كلها الآن. مع ذلك، ولكي تستريح عقولكم، سوف أخبركم بشيء واحد. يملك دوتار سوجات القدرة على إحضار أسطول من السفن الحربية من هيليوم؛ لأن دوتار سوجات هو، في واقع الأمر، جون كارتر، أمير الحرب في المريخ».

أذهلهم هذا التصريح؛ وصدقوني بعد أن شرحت لماذا جاء جون كارتر إلى موربوس. كان تياتان-أوف لا يزال متعجبًا لعدم فهمه لماذا يهتم أمير الحرب العظيم بهورماد، إلى حد إحضار أسطول عظيم من هيليوم البعيدة لينقذه.

أدركت أنني أخطأت عندما تحدثت بهذه الطريقة، بيد أنه كان يصعب أحيانًا أن أفصل بين شخصيتي المزدوجة. فقد كنت أرى نفسي دائمًا فور داج، أحد نبلاء إمبراطورية هيليوم. لكنني بالنسبة إلى الآخرين كنت تور-دور-بار، مجرد هورماد من موربوس.

قلت محاولاً تفسير الأمر: «ربما بالغت في أهميتي عندما قلت إنه سيعود لإنقاذي. فهو سيعود لإنقاذ فور داج؛ لكنه سينقذني أيضًا لأن كليهما – هو وفور داج – أصدقائي».

سألني باندار من فوندال: «وماذا يجعلك تعتقد أنه سينقذ أيًّا منا؟».

- سوف ينقذ أيضًا أي شخص يطلب فور داج إنقاذه؛ وهذا يعني أي شخص أقترحه؛ لأن فور داج صديقي.

قال جان هاد من تونول: «لكن فور داج اختفى، ولا أحد يعرف مكانه. ومن المُعتَقد أنه مات».

صاحت جاناي: «لم تخبرني بذلك يا تور-دور-بار»، ثم التفتت إلى سايتور.

- ربما هذه خدعة من جانب الهورماد، حتى نظل تحت سيطرته لسبب ما.

قلت: «لكني أخبرتكِ يا جاناي أنه اختفى».

- لم تخبرني أن الجميع يعتقدون أنه مات. تقول إنك لا تعرف مكانه، وتقول في الوقت نفسه إن جون كارتر سيعود من أجله. ماذا أصدق؟

قاطعتها: «إذا كنتم تأملون في العيش والهروب، عليكم أن تصدقوني. سوف ترون فور داج خلال بضع دقائق، وتفهمون لماذا لا يستطع أن يأتي إليكم». كنت بدأت أفقد صبري معهم جميعًا، فقد تشابكت الشكوك في لحظه تتطلب أكبر سرعة إذا كنا لنهرب قبل إثارة شكوك آي-ماد.

سألتني جاناي: «ماذا أصدق؟ أنت لا تعرف مكان فور داج، لكنك تقول إننا سنراه خلال بضع دقائق».

- كان هناك وقت لم أعرف خلاله أين هو. وعندما وجدته، كان من الأفضل لكِ، وأنتِ تعتمدين عليه، ألا أخبركِ بالحقيقة. فور داج عاجز عن مساعدتك. لا يستطيع مساعدتك سواي. ومع الأسف، يؤدي تنفيذ خطتي للهرب إلى معرفتكِ ما حدث لفور داج. والآن، لقد أهدرنا وقتًا كافيًا دون جدوى. أنا ذاهب، وأنتِ قادمة معي. أنا مدين لفور داج بمساعدتكِ. ويفعل الآخرون ما يرونه مناسبًا.

قال بادار: «سأذهب معك. لن نكون في أي مكان آخر أسوأ حالاً من هنا».

قرروا جميعًا مرافقتي، ووافق سايتور على مضض. ذهب ووقف بالقرب من جاناي وهمس لها شيئًا.

أخذت تيايتان-أوف معي وذهبت إلى المختبر الصغير، وجمعت كل الأدوات اللازمة لإعادة نقل مخي إلى جسمي. أعطيت الأدوات إلى تيايتان-أوف؛ ثم فصلت الموتور وجميع وصلاته؛ إذ من دونه لا يمكن إعادة ضخ دمي في عروقي وشراييني. استغرق ذلك بعض الوقت، وأخيراً أصبحنا مستعدين للرحيل.

كنت على يقين أننا لن نتمكن من تجنب أي ملاحظة أو شكوك. وكان أفضل ما أتمناه أن نصل إلى الزنزانة رقم 17-3 قبل أن يلحق بنا مطاردونا. لفت مشهدنا الانتباه على الفور: اثنان من الهورماد، وأربعة رجال حُمر، وجاناي، بالإضافة إلى الأحمال التي نحملها أنا وتيايتان-أوف. وكان المسؤول الجديد لمبنى المختبر من بين مَن شاهدونا.

سألني: «إلى أين تذهبون؟ وماذا ستفعلون بتلك الأدوات؟».

قلت: «سوف أضعها في الحُفر، حيث تكون في أمان. إذا عاد راس ثافاس، سوف يحتاجها».

أجاب: «إنها في أمان كاف حيث كانت. أنا المسؤول هنا الآن، وإذا أردت نقلها، سأهتم شخصيًّا بالأمر. عليك إعادتها إلى حيث كانت».

سألته: «منذ متى يصدر الدوار أوامر إلى أودوار؟ قف جانبًا!"، ثم واصلت سيري ثانية مع رفاقي نحو السلم الحلزوني المؤدي إلى الحُفر.

قاطعني: «انتظر! لن تذهب إلى أي مكان بتلك المعدات والفتاة دون أمر من آي-ماد. تقضي الأوامر التي لديك بأن تأخذ الفتاة إلى القصر، وليس إلى الحُفر؛ وتقضي الأوامر التي تلقيتها من آي-ماد مباشرة أن أشرف على طاعتك للأوامر التي صدرت لك"؛

ثم رفع صوته صارخًا طلبًا للمساعدة. أعرف أن المحاربين سرعان ما يحاصروننا؛ ولذا طلبت من رفاقي الاستعجال في اتجاه الحُفر.

ركضنا أسفل السلم الحلزوني الطويل ومسؤول مبنى المختبر في أعقابنا، وهو يستمر في الصياح طلبًا للمساعدة. سمعنا وراءنا الآن صيحات المحاربين الذين استجابوا، وجاءوا لمطاردتنا.

الفصل (18)

جزيرة الخيانة

بدت خطتي برمتها الآن محكومًا عليها بالفشل؛ فحتى إذا نجحنا في الوصول إلى الزنزانة 17-3، لن أجرؤ على دخولها والكشف عن طريق هروبنا.

بيد أن العودة إلى الوراء مستحيلة، بعد أن وصلنا إلى هذا الحد. لا يوجد سوى حل واحد لمشكلتنا: يجب ألا يبقى أي شاهد ليعود لإبلاغ آي-ماد.

وصلنا إلى الحُفر، وأخذنا نتحرك على طول الممر الرئيس. كان مسؤول مبنى المختبر يخطو خلفنا، مع الحفاظ على مسافة آمنة منا. وكانت صيحات المحاربين تدل على أنهم لا يزالون في أثرنا. طلبت من تون جان أن يأتي إلى جواري، حيث أبلغته تعليماتي بصوت منخفض، وبعدها توجه إلى تيايتان-أوف وباندار وتحدث معهما بإيجاز، ثم استدار ثلاثتهم إلى ممر جانبي. تردد مسؤول مبنى المختبر للحظة، لكنه لم يتبعهم. كان اهتمامه منصبًّا على تتبع مساري أنا وجاناي، وهكذا استمر وراءنا. وعندما وصلنا إلى ممر متقاطع، قُدت بقية المجموعة نحو اليمين، ثم توقفت فورًا وأنزلت أحمالي جانبًا.

قلت: «سنقابلهم هنا. علينا أن نتذكر شيئًا واحدًا فقط: إذا أردنا أن نهرب ونعيش، يجب ألا نترك أحدًا من مطاردينا حيًّا حتى لا يقود آخرين خلفنا».

وقف سايتور وجان هاد بجانبي، وبقيت جاناي على بعد خطوات قليلة وراءنا. توقف مسؤول مبنى المختبر على مسافة بعيدة عن متناول السيف، انتظارًا لمحاربيه. لا توجد أسلحه نارية لدينا جميعًا؛ ذلك أن المواد اللازمة لتصنيع المتفجرات إما غير موجودة في المستنقعات التونوولية وإما لم تُكتشف هناك بعد. كنا مسلحين فقط بالسيوف الطويلة، والسيوف القصيرة، والخناجر.

لم ننتظر طويلاً قبل وصول المحاربين. كانوا تسعة، وجميعهم من الهورماد. وكان مسؤول مبنى المختبر له جسم رجل أحمر ومخ هورماد. كنت أعرفه جيدًا في القصر؛ فهو ماكر وقاسٍ، لكنه يفتقر إلى الشجاعة الجسدية. أوقف محاربيه، ووقف العشرة في مواجهتنا.

قال: «من الأفضل أن تستسلموا، وتعودوا معي. ليس أمامكم فرصة. نحن عشرة وأنتم ثلاثة فقط. إذا أتيتم بهدوء، لن أخبر آي-ماد بهذا الأمر».

أدركت أنه حريص على تجنب القتال، لكن المعركة هي فرصتنا الوحيدة للهرب. سوف نضيع، أنا وجاناي، إذا عدنا إلى قصر آي-ماد. تظاهرت بالتفكير في اقتراحه، على أمل كسب الوقت؛ لا احتاج إلا إلى لحظه؛ لأني رأيت الآن تون جان وباندار وتيايتان-أوف يقتربون بصمت وراء المسؤول ومجموعته.

صحت: «الآن!»، وعندئذ أطلق الثلاثة الذين يقفون صيحة جعلت العشرة يستديرون في وقت واحد؛ فهجمنا عليهم، أنا وسايتور وجان هاد، بسيوفنا. كانت جميع الاحتمالات في صالحهم من زاوية العدد؛ لكن فرصهم كانت معدومة في الواقع. فقد أربكهم الهجوم المفاجئ، لكن العاملين اللذين منحانا أعظم ميزة كانا قوتي الخارقة وذراعي الممسكة بالسيف الطويل. وسرعان ما أدركوا أنهم يقاتلون من أجل حياتهم؛ ومثل الفئران المحاصرَة، حاربوا بشراسة.

رأيت تيايتان-أوف المسكين يسقط بجمجمة مشقوقة، وباندار يُصاب بجراح، ولكن ليس قبل أن يتخلص من أحد الخصوم؛ بينما تخلص تون جان من خصمين. أما سايتور، فقد تراجع -لدهشتي وخيبة أملي- حتى لا يعرض نفسه للخطر؛ لكننا لم نكن في حاجة إليه. أخذت أشق الجماجم واحدة تلو الأخرى، من الرأس إلى الذقن، بسيفي الطويل، حتى أصبح مسؤول مبنى المختبر هو الخصم الوحيد المتبقي، ولم يكن قد شارك كثيراً في هذه المعركة القصيرة. وهو يصرخ الآن، ساعيًا للهرب؛ لكن تون جان وقف في طريقه. اشتبكا بالسيوف للحظة، ثم دوت صرخة؛ وبعدها سحب تون جان سيفه من قلب مسؤول مبنى المختبر، ومسحه في شعر خصمه الذي سقط.

كان الممر في حالة مروعة من الفوضى، تتناثر فيه أجساد فظيعة بلا رؤوس وغارقة في الدماء. أكره سرد ما حدث بعد ذلك؛ وإنما كان من الضروري تدميرهم تمامًا، وخاصة أمخاخهم، حتى نشعر بالأمان ونحن نواصل طريقنا.

أصدرت تعليماتي إلى تون جان ليحمل المواد التي كنت قد عهدت بها إلى تيايتان-أوف، ثم حملت الموتور وقدتُ الطريق إلى زنزانة 17-3. لاحظت أن سايتور يسير بالقرب من جاناي، ويتحدث معها بصوت منخفض؛ لكن ذهني كان مشغولاً في هذه اللحظة بأمور أخرى بحيث لم أُوْلِ أهمية خاصة لحديثهما. حققنا نجاحًا حتى الآن. أما ماذا يحمل لنا المستقبل، فمَن ذاَ الذي يمكنه أن يتنبأ؟ لا أعرف ما سُبُل العيش على الجزيرة؛ كما ليس لديَّ أكثر من خطط مبهمة حول كيفية الهروب من المنطقة المجاورة

لموربوس ومن المستنقعات التونولية الكبرى في حال فشل جون كارتر في العودة من أجلي. كنت على يقين أن وفاته فقط هي ما يمكن أن يمنعه من العودة، ولا يمكنني تصور أن أمير الحرب العظيم قد يموت. كان يبدو خالدًا، سواء بالنسبة لي أو للعديد من الآخرين. ولكن، لنفترض أنه عاد من دون راس ثافاس؟ ملأتني هذه الفكرة بالرعب، ولم تترك لي أي بديل آخر -إن تحققت- سوى تدمير نفسي. فالموت أفضل كثيراً من الحياة في شكلي الحالي البشع والبغيض. الموت أفضل من أن تضيع مني جاناي إلى الأبد. كانت هذه هي أفكاري عندما وصلنا إلى باب الزنزانة 17-3. فتحت بابها، وقُدت مجموعتي إلى داخلها.

عندما رأت جاناي جسم فور داج ممددًا على لوح الإرسايت البارد، صرخت من الرعب والتفتت نحوي بشراسة. «لقد كذبت عليَّ، تور-دور-بار»، قالت بهمس مكبوت، «كنت تعرف طوال الوقت أن فور داج مات. لماذا تصرفت معي بهذه القسوة؟».

قلت: «فور داج لم يمت. إنه ينتظر فقط عودة راس ثافاس لاسترداد حياته».

سألتني: «ولكن لماذا لم تخبرني؟».

- لم أكن أعرف سوى مكان إخفاء جسم فور داج. ولم يكن من المفيد، سواء لكِ أو له، معرفة ذلك؛ فكلما قل عدد مَن يعرفون، كان ذلك أكثر أمانًا لجسم فور داج. لم أكن لأكشف لأحد، حتى لكِ وأنا أعرف أن بإمكاني الوثوق بك، عن سر مكان مخبئه. تعرفين مكانه الآن فقط، أنتِ وهؤلاء الآخرون؛ لأنه لا توجد أيَ وسيلة أخرى للهروب من موربوس إلا من خلال هَذه الغرفة التي يرقد فيها فور داج. أعتقد أنني أستطيع أن أثق بكم جميعًا في ما يتعلق بهذا السر، ومع ذلك لا أستطيع أن أعدكم بأن أيًّا منكم سيعود حيًّا إلى موربوس بينما جسم فور داج هنا وأظل أنا على قيد الحياة.

اقترب سايتور من اللوح الذي يرقد فوقه الجسم، وأخذ يفحصه بدقه. رأيته يومئ برأسه، وتمس نصف ابتسامة شفتيه وهو يُلقي نظرة سريعة في اتجاهي. تساءلت عما إذا كان اشتبه في الحقيقة؛ ولكن ما الفارق ما دام يُبقي فمه مغلقًا. لم أكن أريد أن تعرف جاناي أن مخ فور داج يسكن في جمجمة تور-دور-بار البشعة. تصورت، ربما بحماقة، أنها إذا عرفت، قد لا تتمكن من نسيان هذه الحقيقة حتى بعد إعادة مخي إلى جسده. بدت غارقة في التفكير لبضع لحظات بعد أن شرحت لها لماذا لم أخبرها بالمأساة التي حلت بفور داج؛ ثم التفتت نحوي ثانية وتحدثت بلطف. قالت: «أنا آسفة لأني تشككت بك، تور-دور-بار. تصرفت بشكل صحيح بعدم كشفك لأي شخص عن مكان جسم فور داج. كان تدبيراً احتياطيًّا حكيمًا، ينم عن الولاء».

الفصل (19)

رحلة ليلية

توليت قيادة مجموعتي الصغيرة، بشعور من الراحة، خلال نفق طويل إلى الجزيرة الصخرية أمام شاطئ موربوس. كانت المشكلة التي تواجهنا تتمثل في كيفية الهروب من الجزيرة. وبطبيعة الحال، كان في ذهني دائمًا الأمل في أن يعود جون كارتر من هيليوم مع أسطول للإنقاذ؛ لكن شبح الخوف كان يكمن وراء هذا الأمل، الخوف الذي يولده الشك في ما إذا كان سيتمكن هو وراس ثافاس من عبور الامتداد البشع للمستنقعات التونولية الكبرى والوصول إلى طائرته السريعة التي أخفاها وراء فوندال.

تضم الجزيرة الطيور والقوارض، كما تنمو فيها الأشجار والشجيرات التي تحمل ثمار الجوز والتوت. هذا بالإضافة إلى الأسماك التي استطعنا صيدها، وزودتنا بما يكفي من الغذاء بحيث لم نُعانِ من الجوع بل كانت لدينا وفرة. بنيت مأوى لجاناي حتى تتمتع بالخصوصية؛ على أن بقيَتنا كان ينام في العراء؛ لأن الجو كان لطيفًا.

توجد العديد من التلال في الجزيرة الصغيرة، ولذا أقمنا مخيمنا على جانب بعيد عن موربوس بحيث تخفينا التلال من اكتشاف المدينة لنا. بدأت في هذه البقعة المنعزلة بناء قاربين خفيفين، يقدر كل منهما على حمل ثلاثة منا ومجموعة من الإمدادات؛ على أن يكون أحدهما أكبر حجمًا من الآخر بغرض استيعاب جسم فور داج. فقد قررت أخذه معنا إن لم يعُد جون كارتر في غضون فترة زمنية معقولة، ويصبح من الضروري أن نحاول القيام برحلة محفوفة بالخطر في قاربنا الضعيف.

لاحظت خلال هذه الفترة أن سايتور يمضي الكثير من وقت فراغه في صحبة جاناي. كان ودودًا ومتحدثًا ذكيًّا؛ ولذا لم أتعجب من أنها استمتعت بصحبته. لكنني يجب أن أعترف أنني عانيت الكثير من آلام الغيرة. كان سايتور ودودًا أيضًا للغاية مع باندار الفوندالي؛ بحيث بدا طبيعيًّا، من زاوية اجتماعية، أن ننقسم إلى مجموعتين: باندار وسايتور وجاناي في مجموعة، وأنا وجان هاد وتون جان في مجموعة أخرى. لم يكن بيننا أي نفور، إلا أن هذا التقسيم كان طبيعيًّا بشكل ما. كان جان هاد تونولي، وتونول وفوندال تتوارثان العداء، وبالتالي لا يوجد شيء مشترك بين جان هاد وباندار. وكان تون جان يمتلك جسم رجل أحمر ومخ هورماد، وأنا أسكن جسم هورماد، ولذا ربما تقاربنا لأننا نعرف أن الآخرين يعتبروننا - في أعماق قلوبهم - وحوشًا، وأقل بشرية من أدنى

الحيوانات. وأستطيع أن أقول لك إن جسمًا بشعًا مثل جسمي يثير شعورًا بالدونية لا يمكن التغلب عليه؛ وأعتقد أن تون جان يشعر بالمثل، رغم ما يُبديه من مظهر جسور في جسم قاتل أمهور.

بعد أن أكملنا الزورقين، اللذين تطلبا عدة أسابيع من العمل المتواصل، أثقل الخمول علينا بشدة، كما أطل الشقاق بوجهه القبيح. أصر سايتور أن نبدأ رحلتنا فورًا، لكنني كنت أرغب في الانتظار لفترة أطول قليلاً لأني أعرف أن جون كارتر إذا ظل حيًّا ووصل إلى هيليوم، فسوف يعود من أجلي. اتفق باندار مع سايتور، بينما عارض جان هاد؛ فقد كانت الخطة هي محاولة الوصول إلى فوندال، وكان يخشى إلقاء القبض عليه هناك ثم اعتباره عبدًا. كان تون جان يدعمني في العديد من الحجج التي تلت. وشعرت بارتياح هائل لدعم جاناي أيضًا، عندما أدركت تصميمي على الانتظار لفترة أطول قليلاً.

قالت: «يجب ألا نغادر ما لم نتمكن من أخذ جسم فور داج معنا، ويرفض تور-دور-بار الرحيل إلا عندما يتأكد من عدم وجود أمل في الإنقاذ من هيليوم. ومع ذلك أعتقد»، قالت لي، «إنك ترتكب خطأً، وعليك أن ترضخ لحكمة وخبرة سايتور المتميزين، فهو رجل أحمر ولديه مخ رجل أحمر».

حضر سايتور هذا الحديث، ورأيته يلقي نظرة سريعة نحوي؛ وتساءلت ثانية ما إذا كان يشتبه في أن مخ فور داج يسكن في رأسي البشع. وتمنيت ألا ينقل شكوكه إلى جاناي.

قلت: «قد يكون لدى سايتور مخ رجل أحمر، لكنه يعمل الآن لمصلحة سايتور فقط. ومخي، مهما كان أدنى، فهو مُشبع برغبة واحدة، تفوق أي اعتبار آخر غير رفاهك أنت وفور داج. ولن أترك هذه الجزيرة إلى أن يعود جون كارتر إلا إذا اضطررت لذلك، وإلى أن أقتنع بانعدام أدنى أمل في عودته. كما لن أسمح لكِ يا جاناي بالمغادرة؛ قد يغادر الآخرون

إذا أرادوا، لكنني وعدت فور داج بحماية جاناي، ولن أحميها إذا سمحت لها بالقيام برحلة محفوفة بالمخاطر في المستنقعات التونولية الكبرى إلى فوندال، وهو بلد غير مضياف، إلا إذا لم أستنفد كل البدائل الأخرى».

ردت جاناي بغضب: «أنا سيدة نفسي، وسوف أرحل عندما أريد؛ لن يُملي عليَّ هورماد ما أفعل».

قال سايتور: «جاناي على حق تمامًا، ليس لديك الحق في التدخل».

أجبت: «ومع ذلك سوف أتدخل، وسوف تبقى جاناي معي هنا حتى لو اضطررت أن أبقيها بالقوة، وأعتقد أنكم تعرفون جميعًا أنني قادر جسمانيًّا على ذلك».

حسنًا، لم يكن الوضع سارًّا بعد ذلك. أمضت جاناي وسايتور وباندار وقتًا أطول معًا، وكانوا يتحدثون في كثير من الأحيان بصوت منخفض لا يمكن سماعه. اعتقدتُ أنهم كانوا فقط يتذمرون معًا ويكيلون لي السِّباب. حزنت بطبيعة الحال لاعتقادي أن جاناي تحولت ضدي؛ وكنت تعيسًا للغاية؛ لكني لم أتوقع أي نتيجة أخرى لتذمرهم، وكنت على ثقة تامة بضرورة مواصلة طريقي الذي رأيت ببصيرتي أنه الطريق الآمن.

وجد سايتور وباندار مكانًا للنوم بعيدًا عن المكان الذي اخترته مع جان هاد وتون جان، كما لو كانوا يريدون إبلاغنا عدم وجود شيء مشترك معنا. وقد راقني ذلك تمامًا، حيث أصبحت أشتبه فيهما وأنفر منهما.

وفي إحدى الليالي، خلال استعدادي للنوم بعد قضاء اليوم في الصيد، جاء تون جان وجلس بجانبي. قال: «لقد سمعت اليوم شيئًا وأعتقد أنه يهمك. كنت أغفو تحت شجيرة عند الشاطئ بعد ظهر اليوم، عندما جاء سايتور وجاناي وجلسا بجانب الشجيرة التي أغفو خلفها. كان من الواضح أنهما يتحدثان عنك، وسمعت جاناي تقول: 'أنا على يقين أنه مُخلص حقًّا لفور داج ولي. لكن بصيرته فقط خاطئة؛ فماذا يمكن أن نتوقع من مخ مشوه لهورماد لديه مثل هذا الجسم المشوه'؟

«أجابها سايتور: 'أنتِ مخطئة تمامًا. لا يوجد في ذهنه سوى فكرة واحدة، وهي امتلاككِ. وهناك شيء عرفَته منذ فترة طويلة، لكنني ترددت في إخباركِ لأني لم أكن أرغب فِي أن أجرحك. إن فور داج الذي عرفتيه لن يعيش أبدًا مرة أخرى، حيث تمت إزالة مخه وتدميره، وأَخفى تور-دور-بار جسمه وتولى حمايته انتظارًا لعودة راس ثافاس الذي سينقل مخ الهورماد تور-دور-بار إلى جمجمة فور داج. وبعدها سوف يأتي لكِ في جسمه الجديد والجميل، على أمل أن يفوز بكِ؛ لكنه لن يكون فور داج الذي يأملَ في امتلاككِ، وإنما سيكون مخ هورماد في جسم رجَل'.

«صاحت جاناي: 'يا للهول! هذا غير صحيح. كيف لك أن تعرف شيئًا كهذا؟'».

«أجاب سايتور: 'أخبرني آي-ماد أن جسم فور داج سيكون مكافأة لتور-دور-بار على الخدمات التي قدمها له؛ ولزيادة تأكيد الأمر، تمكن تور-دور-بار من إقناع آي-مادن بتدمير مخ فور داج'».

سألته: «وماذا كان رد جاناي؟ لم تصدقه، أم أنها صدقته؟».

قال تون جان: «نعم، صدقته؛ لأنها قالت إن ذلك يفسر العديد من الأشياء لم تكن حتى الآن قادرة على فهمها، وإنها تعرف الآن لماذا تُبدي، وأنت هورماد، هذا الولاء الملحوظ نحو رجل أحمر».

شعرتُ بالاشمئزاز والغضب والجُرح، وتساءلت ما إذا كانت فتاة مثل جاناي تستحق الحب والتفاني اللذين أشعر بهما تجاهها؛ بيد أن بصيرتي أنقذتني عندما أدركت أن كلام سايتور كان، من حيث الظاهر، بمثابة تفسير منطقي لموقفي تجاه الفتاة؛ إذ لماذا يدافع هورماد بشع عن رجل أحمر إلا إذا كان يرغب في اكتساب جسمه، ليفوز في الوقت نفسه بفتاة جميلة، أو على الأقل بفرصة معقولة للفوز بها ويحول شكله البشع دون تحقيق ذلك الآن.

قال تون جان: «عليك أن تحترس من هذا الجرذ».

قلت: «لن أُضطر إلى ذلك طويلاً. سأجعله يتراجع غدًا عما قاله؛ لأني سأخبرهم جميعًا بالحقيقة، التي أعتقد أن سايتور يشك فيها بالفعل، لكنها سوف تُفاجئ جاناي».

بقيت مستيقظًا لفترة طويلة في تلك الليلة، أفكر في رد فعل جاناي عندما تعرف الحقيقة، ماذا يمكن أن تقول أو كيف يمكن أن تفكر أو تتصرف عندما أخبرها أن وراء وجهي هذا البشع يوجد مخ فور داج. تمكنت أخيراً من النوم. ونظرًا لأنني بقيت مستيقظًا لفترة طويلة قبل أن يغلبني النوم، صحوت متأخرًا في صباح اليوم التالي. وكان جان هاد التونولي هو مَن أيقظني. كان يهزني بقوة، وعندما فتحت عيني رأيته شديد التوتر.

سألته: «ما الأمر، يا جان هاد؟».

«سايتور!»، أوضح قائلاً، «أخذ سايتور وباندار أحد القاربين وهربا مع جاناي».

قفزت واقفًا وركضت بسرعة إلى حيث أخفينا القاربين. لم أجد سوى قارب واحد. لكن ذلك لم يكن أسوأ شيء؛ فقد وجدت ثقبًا كبيراً في قاع القارب الآخر، ما يعني تأخير مطاردتنا لهم لعدة أيام.

هذه إذَنْ مكافأتي على حبي وولائي وإخلاصي. شعرت بقلبي ينفطر. لا يهمني كثيراً الآن إذا عاد جون كارتر أو لم يعُد؛ فحياتي الباقية ستخلو من كل شيء إلا البؤس. ابتعدت بحزن عن القارب. وضع جان هاد يده على كتفي.

قال: «لا تحزن. إذا ذهبت بمحض إرادتها، فلا تستحق أن تحزن عليها».

وجدت في كلماته أملاً، أملاً ضعيفًا وإنما يكفي في حالتي اليائسة لتخفيف معاناتي الذهنية. إذا ذهبت بمحض إرادتها! ربما لم تذهب بمحض إرادتها. ربما أخذها سايتور بالقوة. هناك أمل على الأقل، وقررت التشبث به إلى النهاية المريرة. ناديت تون جان، وبدأ ثلاثتنا العمل لإصلاح القارب التالف. عملنا بهمة، لكن عملنا استغرق ثلاثة أيام كاملة ليصبح القارب جاهزاً للإبحار مرة أخرى؛ فقد نجح سايتور في إتلافه بشدة.

ونظرًا لأن باندار كان معهم، فقد خمنت أنهم ذهبوا مباشرة إلى فوندال، حيث قد ينجح في استقبالهم هناك كأصدقاء. وهكذا خططت متابعتهم إلى فوندال، مهما كلفني ذلك. شعرت في داخلي بقوة مائة رجل، والقدرة على إبادة جيش كامل بمفردي، وهدم أسوار أقوى مدينة.

أصبحنا أخيراً على استعداد للرحيل. وقبل مغادرتنا، اتخذت احتياطًا واحدًا. أخفيت، تحت الصخور والأغصان والوحل، مدخل النفق المؤدي إلى الغرفة التي يرقد فيها جسم فور داج.

استولى سايتور على القارب الكبير، الذي يسع أكثر من ثلاثة أشخاص، لكنه كان أيضًا أثقل ويمكن لرجلين فقط التجديف، في حين كان قاربنا أخف ويتيح لثلاثة رجال التجديف. وعلى الرغم من أن الآخرين رحلوا قبلنا بثلاثة أيام، فقد شعرت – ومعي جان هاد وتون جان – أن بإمكاننا اللحاق بهم قبل أن يصلوا إلى فوندال. بيد أنه كان مجرد أمل، فقد يكون من قبيل المصادفة أن نتبع نفس المسار الذي اتخذوه خلال متاهة الممرات المائية المتعرجة التي تقع بيننا وبين وجهتنا. وقد نتجاوزهم دون أن ندري. وقد يتبع أي طرف مسارًا مائيًّا ليكتشف أنه وصل إلى طريق مسدود، مما يستلزم العودة لأميال مرهقة؛ حيث لا توجد خريطة لامتدادات مستنقعات تونول، كما أنها غير مألوفة على الإطلاق لأفراد الطرفين. ونظرًا لاعتيادي مراقبه التضاريس من الجو، فقد تكونت في ذهني صورة معقولة عن المنطقة التي طرنا فوقها ثم أخذنا الهورماد على المالاجور محلقين إلى موربوس، ولم يكن لديَّ شك أن سايتور طار فوق المنطقة عدة مرات. ومع ذلك، لم يكن لديَّ سبب يُذكر للاعتقاد بأن هذه الحقائق سوف تفيد أيًّا منا إلى حد كبير؛ ذلك أن الرؤية من سطح الماء تعرقلها على الدوام النباتات التي تنمو على سطح المستنقع والعديد من الجزر الكبيرة والصغيرة.

كان قلبي ثقيلاً عندما شرعت في مطاردة سايتور؛ أولاً بسبب شكوكي في ولاء جاناي، وثانيًا لأني اضطررت إلى التخلي عن جسمي والخروج إلى العالم على شكل هورماد بشع. لماذا أسعى وراء جاناي، التي هجرتني بعد أن استمعت إلى سايتور

وصدقته ولم تصدقني؛ يكمن التفسير الوحيد في أنني أحبها، وهذا الحب يجعل الرجل أحمق.

انطلقنا بعد حلول الظلام حتى لا تكشفنا موربوس. لا يوجد في السماء سوى القمر الأصغر والأبعد كلوروس، لكنه أضاء طريقنا بما يكفي، ومنحتنا النجوم اتجاهنا. وكانت قوتي المذهلة بمثابة إضافة قوة رجلين على الأقل إلى المجاديف. قررنا مواصلة طريقنا ليلاً ونهارًا، على أن ينال كل منا القسط المطلوب من النوم على التناوب في قاع القارب. أحضرنا معنا الكثير من المؤن، وكانت سرعة دفعنا للقارب تمنحنا الأمل أن نتمكن من الهروب من هجوم أي مواطنين غير وديين قد يكتشفون وجودنا.

طار سرب من المالاجور فوقنا في اليوم الأول، في اتجاه فوندال. اختبأنا منهم أسفل الأغصان التي تتدلى أعلى قناة ضيقة كنا نعبرها؛

لكن الطيور كانت واضحة لنا، وكان كل منها يحمل على ظهره محاربًا من الهورماد.

قال جان هاد: «هذه غارة أخرى».

قلت: «من المرجح أنها مجموعة بحث أرسلها آي-ماد للبحث عنا، فلا بد أنه اكتشف هروبنا من موربوس».

قال تون جان: «لكننا هربنا منذ أسابيع».

قلت موافقًا: «نعم، وليس لديَّ شك أنه كان يرسل خلال هذه الفترة مجموعات البحث في جميع الاتجاهات».

أومأ جان هاد: «ربما كنت على حق. دعنا نأمل ألا يكتشفوا أيًّا منا؛ لأننا في هذه الحالة سنذهب إلى الأحواض أو إلى المحرقة».

في اليوم الثاني، وبعد أن دخلنا بحيرة متوسطة الحجم، اكتشفنا بعض الهمج الذين يسكنون على شواطئها. ركبوا عددًا من الزوارق وانطلقوا لاعتراضنا. انحنينا على مجاديفنا، وانزلق قاربنا الصغير بخفة على سطح الماء؛ لكن الهمج انطلقوا من نقطة أمامنا على الشاطئ، وبدا من المؤكد تقريبًا أنهم سيصلون إلينا قبل أن نتمكن من تجاوزهم. كانت مجموعة وحشية؛ ورأيت مع اقترابهم أنهم عُراة تمامًا، ويبرز شعرهم الكثيف في جميع الاتجاهات، وتبدو وجوههم وأجسادهم التي لونوها أكثر بشاعة مما منحته لهم الطبيعة. كانوا مسلحين برماح وهراوات بدائية؛ لكن طريقة تعاملهم مع الزوارق الطويلة، التي أسرعت فوق الماء بسرعة مذهلة، لم تكن بدائية.

قلت بإلحاح: «أسرعوا!». والآن، مع كل ضربة مجداف، بدا قاربنا يغادر المياه لأنه كان يقفز إلى الأمام مثل كائن حي.

يصرخ الهمج الآن ابتهاجًا، حيث بدا من المؤكد أنهم سيدركوننا؛ ولكن الطاقة التي بذلوها في صرخاتهم الوحشية كان من الأفضل أن يوجهوها إلى التجديف؛ لأننا تجاوزنا حاليًا قاربهم الرئيس وبدأنا نبتعد عنهم. ألقوا غاضبين رماحهم وهراواتهم علينا من قاربهم الرئيس، لكنها سقطت بعيدًا عنا، وسرعان ما أصبح من الواضح أننا نجونا منهم، ولن يمكنهم إدراكنا. بيد أنهم واصلوا لبضع دقائق، ثم عادوا بلعنات غاضبة ووجوه متجهمة إلى الشاطئ. وهو ما كان حسن حظنا؛ لأن قدرة جان هاد وتون جان على التحمل قد وصلت إلى أقصاها، وغاص كلاهما في حالة إرهاق شديدة في قاع الزورق لحظة أن كف الهمج عن مطاردتنا. لم أشعر بالتعب، وواصلت التجديف في اتجاه نهاية البحيرة. دخلنا هنا إلى قناه متعرجة، وواصلنا لحوالي ساعتين دون أي مغامرات أخرى. كانت الشمس على وشك الغروب عندما سمعنا رفرفة أجنحة كبيرة تقترب أمامنا.

«طيور المالاجور»، قال تون جان.

قال جان هاد: «لقد عاد فريق البحث؛ وأتساءل بأي نجاح».

قلت: «إنهم يطيرون منخفضين جدًّا. هيا، لنتوجه إلى الشاطئ تحت تلك الشجيرات. وحتى مع ذلك، سنكون محظوظين إذا لم يرونا».

تنمو الشجيرات عند حافة جزيرة مسطحة منخفضة، ترتفع بضع بوصات فوق سطح الماء. طار المالاجور منخفضًا فوقنا، ثم عاد أدراجه.

قال تون جان: «سوف يهبطون. لا يحب الهورماد الطيران في الليل؛ لأن المالاجور لا يبصرون جيدًا بعد حلول الظلام، كما أن انطلاق القمر ثوريا بسرعة على انخفاض فوقهم، يخيفهم ويربكهم».

نظرنا جميعًا إلى أعلى نحوهم عندما كانوا يحلقون فوقنا، ولاحظت أن ثلاثة من طيور المالاجور تحمل شخصين.

لاحظ الآخرون ذلك أيضًا، وقال جان هاد إن لديهم سجناء.

قال تون جان: «أعتقد أن من بينهم امرأة».

- ربما ألقوا القبض على سايتور وباندار وجاناي.

قال جان هاد: «سوف يهبطون على هذه الجزيرة. وإذا انتظرنا حتى حلول الظلام، يمكننا تجاوزهم بأمان».

أجبت: «يجب أن أعرف أولاً إذا كانت جاناي من بين السجناء».

قال تون جان: «إذا اكتشفونا، سيعني ذلك موتنا جميعًا. لدينا فرصة للهرب، ولا يمكننا مساعدة جاناي إذا أمسكوا بنا».

قلت: «يجب أن أعرف. سوف أذهب إلى الشاطئ لأتأكد؛ إذا لم أرجع بعد حلول الظلام بفترة وجيزة، واصلا أنتما طريقكما، وأتمنى لكما حظًّا سعيدًا».

سأل جان هاد: «وإذا وجدتها هناك؟».

- عندئذ سأعود إليكم، وسوف نتوجه إلى موربوس على الفور. إذا أعادوا جاناي إلى هناك، يجب أن أعود أيضًا.

قال جان هاد بإصرار: «لكنك لن تستطيع تحقيق أي شيء. ستضحي بحياتنا وبحياتك دون جدوى. لا يحق لك أن تفعل بنا ذلك، عندما لا يوجد أمل في النجاح. سوف يختلف الأمر إذا كان هناك حتى أدنى أمل؛ عندئذ أنا عن نفسي سوف أرافقك. لكني أرفض تمامًا لعدم وجود أمل؛ لست مستعدًّا لأن أخسر حياتي في مهمة حمقاء».

قلت: «سوف أعود إذا كانت جاناي هناك، حتى إذا عُدت بمفردي. ويمكنكما أن ترافقاني أو تبقيا في هذه الجزيرة. هذا القرار متروك لكما».

تجهم كلاهما ولم يرد أي منهما. تسللت إلى الشاطئ، مختفيًا بين الشجيرات. لم أفكر ثانية في تون جان وجان هاد؛ فقد كان ذهني منشغلاً كلية بمشكلة اكتشاف ما إذا كانت جاناي من بين السجناء الذين يأخذهم الهورماد إلى موربوس. منحتني الشجيرات المنخفضة التي تنمو على الجزيرة غطاء ممتازًا. زحفت بينهم على بطني في الاتجاه الذي سمعت أصواتًا تصدر منه. كنت أتحرك ببطء، وهبط الظلام تقريبًا قبل أن أصل إلى نقطة تمكنني من مراقبة المجموعة. رأيت دزينة من المحاربين وضابطين. زحفت إلى مسافة أقرب، واكتشفت بعض الأشخاص يرقدون، وتعرفت فورًا على أقربهم مني، كان سايتور. كان مُقيدًا من يديه وقدميه؛ وبوجوده عرفت أن جاناي هناك أيضًا. لكني كنت أرغب في التأكد، ولذا تحركت بحذر إلى موقع آخر، حيث يمكنني رؤية الاثنين الآخرين. كانت جاناي أحدهما.

يصعب وصف ما اجتاحني من انفعال، فقد رأيت المرأة التي أحبها مُقيدةً وراقدةً على الأرض، وسجينة للمرة الثانية لدى أتباع آي-ماد البشعين، ومحكوم عليها أن تُعاد إليه. كانت قريبة جدًّا مني، لكني لم أتمكن من إبلاغها أنني هنا وأبحث عن وسيلة لخدمتها بإخلاص كما لو أنها لم تتخلَّ عني. بقيت فترة طويلة أنظر إليها. وعندما حل الظلام، استدرت وابتعدت زاحفًا بحذر. ونظرًا لعدم وجود القمرين حاليًا في السماء، سرعان ما نهضت دون خوف من الكشف، ومشيت بسرعة نحو البقعة التي تركت فيها جان هاد وتون جان. كنت أحاول معرفة كيفية العودة إلى موربوس بسرعة أكبر من سرعة تركنا المدينة؛ لكني أعرف صعوبة زيادة سرعتنا، واستسلمت إلى حقيقة عدم تمكني من الوصول إلى المدينة قبل يومين، وفي الوقت نفسه، ماذا قد لا يحدث لجاناي؟ ارتجفت وأنا أفكر في مصيرها؛ وأقنعت نفسي بفكرة أنني إن لم أتمكن من إنقاذها، فعلى الأقل سوف أنتقم لها. كرهت التفكير في إجبار تون جان وجان هاد على العودة معي؛ وإنما لا توجد أي وسيلة أخرى. أحتاج إلى قوة المجاديف لتسريع عودتي. لا أستطيع حتى أن أقدم البديل، أن يبقيا على الجزيرة. هذا ما كنت أفكر فيه عندما وصلت إلى المكان الذي تركت فيه القارب. لم أجد القارب. هجرني جان هاد وتون جان، وأخذا معهما وسيلة مواصلاتي الوحيدة إلى موربوس.

انتابني ذهول للحظة من ضخامة المصيبة التي أصابتني؛ لأنها تستبعد أي إمكانية لقدرتي على مساعدة جاناي بأي شكل؛ فهي الوحيدة التي تهمني. جلست على حافة القناة، وغرق وجهي بين راحتي يديَّ، في جهد يبدو عقيمًا للتخطيط للمستقبل. خططتُ وألغيت عشرات المشاريع المجنونة، ثم قررت أخيرًا الإقدام على المشروع الوحيد الذي لا يبدو أنه يطرح أي فرصة للنجاح. قررت العودة إلى مخيم الهورماد وتسليم نفسي. يمكنني على الأقل أن أكون بالقرب من جاناي، وعندما نعود إلى موربوس قد تمنحني بعض الظروف الجيدة الفرصة التي أتطلع إليها، على الرغم من أن بصيرتي تخبرني أن الموت سيكون مكافأتي الوحيدة.

نهضتُ وبدأت بجرأة خطوات العودة إلى المخيم. وعندما اقتربت منه، وقبل أن يكتشفوني، تبادرت خطة أخرى إلى ذهني. إذا عُدت إلى موربوس سجينًا، مُقيد اليدين والقدمين، سيقتلني آي-ماد دون شك وأنا عاجز لأنه يعرف قوتي الهائلة ويخشاها؛ لكني إذا وصلت إلى موربوس دون أن يكتشفوني، ربما أتمكن من إنجاز شيء أكثر قيمة. وإذا تمكنت من الوصول إلى موربوس قبل أن تعود جاناي إلى آي-ماد، فإن فرصتي في إنقاذها منه ستزداد ألف مرة. وهكذا، أخذت أتحرك بمزيد من الحذر حول المخيم إلى أن وصلت عند طيور المالاجور. كان بعضها نائمًا، ورؤوسها تحت أجنحتها العملاقة، في

حين كان البعض الآخر يتحرك بقلق. لم تكن الطيور مربوطة بأي شكل من الأشكال؛ لأن الهورماد يعرفون أنها لن تطير بمحض إرادتها بعد حلول الظلام.

ما زلت أتحرك، واقتربت من الطيور من الجانب البعيد من المخيم. ونظرًا لأنني هورماد، لم يثر وجودي بينهم أي شك. مشيت إلى أول طائر قابلته، وأمسكت برقبته وقدته بعيدًا بهدوء، ثم قفزت فوق ظهره عندما شعرت بالأمان لابتعادي بما يكفي عن المخيم. أعرف كيفية السيطرة على الطيور الكبيرة؛ لأني راقبت تيايتان-أوف بعناية عندما أمسك بي وأخذني إلى من منطقة مجاورة لفوندال إلى موربوس؛ كما كنت أتحدث كثيراً مع الضباط والمحاربين الهورماد عن تلك الطيور، واكتسبت بالتالي المعرفة الضرورية للسيطرة عليها وتوجيهها.

عارض الطائر التحليق في البداية وحاول مقاومتي، إلى حد أنني خشيت من الضوضاء التي يمكن أن تجذب انتباه المخيم؛ وقد حدث بالفعل؛ لأنني سمعت شخصًا يصيح «ماذا يجري هناك؟». ورأيت الآن، في ضوء القمر الأبعد، ثلاثة هورماد يقتربون.

قمت بحثِّ الطائر ثانية للتحليق، وركلته بكعبي بعنف. يركض الهورماد نحوي الآن، واستيقظ المخيم بأكمله. توتر الطائر من ركلاتي وضجيج المحاربين المقتربين خلفنا، وبدأ يهرب منهم. فرد أجنحته الكبيرة، ورفرف بقوة للحظة واحدة، ثم ارتفع من فوق الأرض وحلّق في الليل.

وجهت الطائر إلى موربوس، وكانت النجوم دليلي؛ وكان ذلك كل المطلوب مني؛ لأن غريزته نحو بيته سوف تبقيه على المسار الصحيح. كانت الرحلة سريعة ومؤكدة، على الرغم من انفعال المالاجور عندما قفز القمر ثوريا من تحت الأفق واندفع عبر السماء.

يرتفع القمر ثوريا بمسافة تقل عن 6000 ميل من سطح برسوم، ويدور حول الكوكب في أقل من ثماني ساعات، مُقدمًا مشهدًا رائعًا وهو يندفع عبر السماء. يا له من مشهد محسوب جيدًا لغرس الرعب في قلوب الحيوانات الأدنى مرتبة التي حياتها نهارية تمامًا. بيد أن طائري حافظ على اتجاهه، على الرغم من تحليقه منخفضًا كما لو أنه يحاول أن يبتعد قدر الإمكان عن كرة النار العملاقة التي بدت تتابعه.

آه، يا ليالينا المريخية! مشهد رائع لا يتوقف أبدًا عن فتن خيال أي بارسومي. كيف تبدو الليالي شاحبة وقاتمة على كوكب الأرض، مع قمر واحد يتحرك بسرعة الحلزون عبر السماء على مسافة كبيرة من ذلك الكوكب؛ لا بد أنه [قمر كوكب الأرض] لا يبدو أكبر

من طبق. لا يزال مشهد هذه الليلة المجيدة يثير تشويقي، حتى في ظل الإجهاد الذي يعانيه ذهني.

قطع طائر المالاجور السريع المسافة في بضع ساعات، وهي التي تطلبت من موربوس يومين وليلتين من الجهد المضني. أجبرت الطائر بصعوبة على الهبوط فوق الجزيرة التي انطلقنا منها قبل يومين؛ فقد كان الطائر يرغب الهبوط في مكانه المعتاد أمام بوابات موربوس. لكنني نجحت أخيرًا، وتنفست الصعداء وأنا أنزلق من الجزء الخلفي لطائري العنيد.

لم يرغب الطائر في التحليق ثانية، لكني أجبرته على ذلك؛ فلم يكن بمقدوري أن أتحمل فرصة أن يشاهدوه إذا طار من الجزيرة بعد شروق الشمس، وبالتالي يقود أعدائي إلى ملاذي الوحيد عندما تُثار شكوكهم بالقصة التي أعرف أن مجموعة البحث سترويها عند عودتها.

وبعد أن نجحت في إبعاد الطائر، ذهبت على الفور إلى مدخل النفق الذي يقود إلى مبنى المختبر، وأزلت ما يكفي من الحطام كي أتمكن من الزحف داخل النفق. وقبل أن أزحف، حطمت شجيرة كبيرة، وتسللت كالدودة داخل الفتحة، ثم سحبت الشجيرة ورائي على أمل أن تملأ الثقب وتخفي الفتحة؛ ثم أسرعت خلال النفق الطويل إلى زنزانة رقم 17-3.

شعرت بارتياح كبير عندما وجدت جسدي لا يزال آمنًا في القبو الذي يشبه القبر. وقفت للحظه أتطلع إليه، وفكرت أنني لم أكن أتوق إلى شيء آخر غيره، باستثناء جاناي. قد توجد عيوب في وجهي وجسدي، لكنهما -مقارنة بالمسخ البشع الذي يوجهه ذهني الآن- من بين أجمل الأشياء في العالم؛ لكنهما هنا، خسرتهما كما لو أنهما ذهبا إلى المحرقة ما لم يرجع راس ثافاس.

راس ثافاس! جون كارتر! أين هما؟ ربما قُتلا في فوندال؛ وربما قُتلا منذ فترة طويلة في المستنقعات التونولية الكبرى؛ وربما كانا ضحايا في حادث خلال رحلة العودة إلى هيليوم، هذا إن نجحا في الوصول إلى طائرة جون كارتر خارج فوندال. لقد تخليت عمليًّا عن أمل عودتهما من

أجلي؛ لأن الوقت الذي انقضى يكفي لوصول جون كارتر إلى هيليوم وعودته بسهولة منذ فترة طويلة. على أن الأمل لا يموت.

الفصل (20)

جِد جوولي الجبار

أدركت أن خططي يجب أن تعتمد من الآن فصاعدًا على الظروف التي تواجهني. أملي أن أصل إلى قصر آي-ماد دون أن أُكتشف، وأختبئ في غرفه العرش لحين مثول جاناي أمامه. ويجب عندئذ أن أحاول قتل آي-ماد؛ وإذا نجحت، وليس لديَّ شك في ذلك، سوف أقاتل لأشق طريقي مع جاناي نحو الحرية. من المحتمل أن أفشل؛ لكنني على الأقل يجب أن أقتل أسوأ عدو لها، وربما أجد ما حتى يكفي من أنصار بين الهورماد الساخطين دائمًا على حكامهم، وننجح في الاستيلاء على المدينة وجزيرة موربوس. كان هذا هو حلمي؛ وإنما لم يكن مصيره إلى التحقق أبدًا. فقد كنت أقوم بحساباتي دونما اعتبار لغرفة الأحواض رقم 4.

اقتربت من الباب الذي يفتح على الممر، واعتقدتُ أنني أسمع أصواتًا وراء الألواح الثقيلة؛ ولذا فتحت الأبواب تدريجيًّا بأقصى قدر من الحذر. وعندئذ تناهى الصوت إلى أذني بوضوح أكبر. كان صوتًا لا يوصف - صوتًا عاصفًا غريبًا، يختلف عن أي صوت آخر في العالم، ويختلط بأصوات بشرية غريبة تتكلم على نحو مبهم.

عرفت الصوت حتى قبل أن ألقي نظرة إلى الخارج. خطوت إلى الممر ورأيت على يميني، وليس بعيدًا عن الباب، كتلة منتفخة من أنسجة بشرية لزجة تزحف نحوي تدريجيًّا. كانت تبرز منها قطع بشرية لا علاقة لها بتركيب الجسم البشري - يد وساق مكتملتان، قدم، رئة، قلب، وتتناثر هنا وهناك رؤوس فظيعة تتكلم. صرخت الرؤوس في وجهي، وامتدت يد في محاولة للإمساك بي؛ لكنني كنت بعيدًا عنها بما يكفي. لو كنت وصلت بعد ساعة وفتحت هذا الباب، لكانت تلك الكتلة البشعة قد اندفعت نحوي، ولكان جسم فور داج ضاع إلى الأبد.

وكان الممر الذي يقع على يساري مهجورًا تمامًا؛ وهو الممر الذي يفتح على السلم الحلزوني الذي يؤدي إلى الطوابق العليا. أدركت أن الكتلة التي كانت في غرفة الأحواض رقم 4 قد وجدت مدخلاً في أقصى نهاية الحُفر، من خلال بعض الفتحات دون حراسة تحت مستوى الشارع. سوف تملأ في النهاية كل صدع، وتشق طريقها أعلى السلم الحلزوني، إلى الطوابق العليا من مبنى المختبر.

تساءلت، كيف ستكون النهاية؟ نظريًّا، لن تتوقف الكتلة عن النمو والانتشار إلا إذا دُمِّرت تمامًا. وسوف تنتشر خارج مدينة موربوس وعبر المستنقعات التونولية الكبرى. سوف تبتلع المدن؛ أو تحيط بها وتعزلها إذا فشلت في تسلق أسوارها، وبالتالي تحكم على سكانها بالموت البطيء جوعًا. وسوف تتدفق عبر قيعان البحر الميت إلى مزارع قنوات المريخ الكبيرة. وفي نهاية المطاف، ستغطي كامل سطح الكوكب، وتدمر كل أشكال الحياة الأخرى. ومن المتصور أنها تظل تنمو إلى الأبد، وتقتات وتعيش على نفسها. يا له من تفكير بشع، لكنه محتمل؛ فقد أخبرني راس ثافاس نفسه بالكثير.

أسرعت على طول الممر نحو السلم الحلزوني، متوقعًا ألا أجد أحدًا في الخارج في هذا الوقت من الليل، حيث يكون الانضباط وحراسة مبنى المختبر في حالة تراخٍ شديدة عند ترك مسؤوليتها للهورماد، كما حدث بعد تخفيض رتبتي؛ لكنني وجدت الطوابق العليا تموج حيوية بالمحاربين والضباط، ما أثار كدري وقلقي. سادت حالة من الذعر الحقيقي، لدرجة عدم انتباه أي شخص لوجودي. كان الضباط يحاولون الحفاظ على شكل من أشكال النظام والانضباط؛ لكنهم فشلوا تمامًا في مواجهة الذعر الذي كان واضحًا في كل مكان. عرفت مما سمعته من أحاديث خاطفة أن الكتلة التي خرجت من غرفة الأحواض رقم 4 قد دخلت القصر، وأن آي-ماد وحاشيته يفرون إلى جزء آخر من الجزيرة خارج أسوار المدينة. عرفت أيضًا أن الكتلة تنتشر عبر طرقات المدينة، ويخشى المحاربون الهورماد من عدم قدرتهم على الفرار؛ فقد أصدر آي-ماد أوامره ببقائهم لمحاولة تدمير الكتلة ومنع انتشارها عبر أنحاء المدينة. حاول بعض الضباط بفتور تطبيق الأوامر، لكن أغلبهم كان حريصًا على الهرب مثل المحاربين العاديين.

وفجأةً صاح أحد المحاربين بصوت أعلى من الجلبة قائلاً لزملائه: «لماذا نبقى هنا لنموت، بينما يهرب آي-ماد مع مَن يفضلهم؟ هناك شارع واحد لا يزال مفتوحًا؛ هيا، اتبعوني!».

كانت كلماته كافية؛ دفعت الوحوش البشعة، كموجة ضخمة، الضباط إلى جانب، وقتلوا بعضهم وداوسوا فوق البعض الآخر، وهم يهرعون نحو المخرج الذي يؤدي إلى الطريق الوحيد للهروب الذي لا يزال مفتوحًا أمامهم. ما من شيء كان يمكن أن يصمد أمامهم، ووجدتني معهم في اندفاعهم الجنوني نحو الأمان.

لن يحضروا جاناي إلى المدينة، إذا كان آي-ماد يغادرها.

خف التزاحم بمجرد وصولنا إلى الشارع، وتحركنا في اتجاه ثابت نحو البوابة الخارجية؛ لكن الرحلة لم تتوقف هنا، حيث انتشر الهورماد المذعورون عبر أنحاء

الجزيرة في محاولة للابتعاد أقصى ما يمكن عن المدينة. ولذا وجدتني واقفًا بمفردي تقريبًا في الفضاء المفتوح أمام المدينة، حيث تهبط طيور المالاجور ويركبها الهورماد في رحلة الهروب. سوف يصل خاطفو جاناي إلى هذه البقعة. سوف أنتظر هنا على أمل أن تطرح بعض الظروف الجيدة خطة تمكنني من إنقاذها من أهوال هذه المدينة.

لم يسبق لي أن انتظرت لفترة طويلة هكذا حتى طلوع الفجر، ووجدتني تقريبًا بمفردي على امتداد السهل المفتوح الذي يقع بين بوابات المدينة وشاطئ البحيرة. بقي عدد قليل من الضباط والمحاربين عند البوابة، وكان المستطلعون يدخلون المدينة باستمرار للإبلاغ عن مدى تقدم الكتلة. أعتقد أنهم لم يلاحظوا وجودي، لكن أحد الضباط اقترب مني الآن.

سألني: «ماذا تفعل هنا؟».

أجبت: «أرسلني آي-ماد إلى هنا».

قال الضابط: «وجهك مألوف. أنا متأكد أنني رأيتك من قبل. هناك شيء يثير شكوكي».

هزت كتفي. قلت: «تفكيرك لا يشكل فارقًا كبيراً. أنا رسول آي-ماد، وأحمل أوامر للضابط المسؤول عن الفريق الذي خرج يبحث عن الهاربين».

قال: «أوه، هذا ممكن. مع ذلك، أشعر أنني أعرفك».

أجبت: «أشك في ذلك. فقد عشت منذ البداية في قرية صغيرة تقع في نهاية الجزيرة».

قال: «ربما. ما من فارق، على أي حال. وما الرسالة التي تحملها إلى قائد فريق البحث؟».

- لديَّ أوامر لقائد البوابة أيضًا.

قال الضابط: «أنا قائد البوابة».

أجبت: «جيد. أوامري هي أن آخذ المرأة، إذا أمسكوا بها، وأطير بها مباشرة فوق مالاجور إلى آي-ماد، ويتولى كابتن البوابة مسؤولية تنفيذ ذلك. أشعر بالأسف من أجلك، إذا كانت هناك عقبات».

قال: «لن توجد عقبات. لا أتصور لماذا قد توجد عقبات».

قلت مؤكِّدًا: «قد توجد عقبات؛ فقد قال أحد المُخبرين لآي-ماد إن قائد فريق البحث يريد جاناي لنفسه. وفي ظل كل الارتباك والعصيان والتمرد التي أعقبت إخلاء المدينة، لم يعُد آي-ماد متأكدًا من نفسه أو سلطته؛ ولذلك فهو يخشى أن يستغل هذا الضابط الظروف ويتحداه، ويحتفظ بالفتاة لنفسه عندما يعرف ما حدث هنا خلال غيابه».

قال كابتن البوابة: «حسنًا، سأهتم بذلك».

قلت: «ربما من الأفضل ألا يعرف الضابط قائد الفريق ما يدور في ذهنك. وسوف أختبئ خلف بوابات المدينة حتى لا يراني؛ ويمكنك أن تأتيني بالفتاة، ثم لاحقًا بطائر مالاجور، بينما تتحدث مع الضابط وتصرف انتباهه. ويمكنك إخباره بعد أن أطير».

قال: «هذه فكرة جيدة. أنت لست أحمقَ كما يبدو مظهرك».

قلت: «أنا متأكد من أنك لم تُخطئ في تقديرك لي».

قال: «انظر! أعتقد أنهم قادمون الآن». وبالفعل، كانت هناك مجموعة صغيرة من النقاط تبدو مرئية على بُعد عالية في السماء، وسرعان ما أصبحت أكبر حجمًا، ثم ظهر أخيراً أحد عشر مالاجور يحملون المحاربين والأسرى.

اقترب الفريق واستعد للهبوط، فعبرتُ البوابة حيث لا يستطيع أي منهم ملاحظتي أو التعرف عليَّ. تقدم كابتن البوابة واستقبل قائد فريق البحث العائد. تحدثا لبضع لحظات، ثم رأيت جاناي تقترب من البوابة، ويتبعها محارب يقود أحد طيور المالاجور الكبيرة. ألقيت نظرة فاحصة على المحارب وهو يقترب، ولم أتعرف عليه؛ وهكذا تأكدت أنه لن يعرفني. دخلت جاناي ووقفت أمامي وجهًا لوجه.

صاحت: «تور-دور-بار!».

همست: «أخفضي صوتكِ. أنتِ في خطر جسيم، وأعتقد أن بإمكاني إنقاذكِ إذا وثقتِ بي؛ فمن الواضح أنكِ لم تثقي بي سابقًا».

قالت: «لم أكن أعرف بمَن أثق، لكنني وثقت فيك أكثر من أي شخص آخر».

وصل المحارب الآن إلى البوابة ومعه المالاجور. وضعت جاناي فوق ظهر الطائر وقفزت خلفها؛ ثم انطلقنا. وجهت رحلة الطائر نحو الطرف الشرقي من الجزيرة، حتى يعتقد الضابط ومَن معه أنني آخذ جاناي إلى آي-ماد. وبعد أن عبرنا بعض التلال

المنخفضة، واختفت المجموعة عن بصري، استدرت نحو الجانب الجنوبي من الجزيرة لأتجه إلى فوندال.

عندما بدأنا الطيران من الجزيرة، واجهت صعوبة في السيطرة على الطائر الكبير؛ حيث حاول العودة إلى زملائه ثانية. اضطررت إلى مقاومته باستمرار لإبقائه في الاتجاه الذي أريده. أدى هذا الإجهاد، الذي أضاف إلى رحلة الطائر الطويلة، إلى أنه تعب بسرعة بحيث استسلم في النهاية ورفرف ببطء وخوف على طول الطريق الذي اخترته. واستطعنا، أنا وجاناي أن نتحدث أخيراً.

سألتني: «كيف حدث أن أجدك عند البوابة عندما وصلت؟ وكيف أنك الرسول الذي اختاره آي-ماد لإحضاري؟».

أجبت: «لا يعرف آي-ماد شيئًا عن ذلك. إنها قصة خيالية اخترعتها لخداع كابتن البوابة وقائد الفريق الذي أمسك بكِ».

- ولكن كيف عرفت أنهم أمسكوا بي، وأنهم سيعودون بي اليوم إلى موربوس؟ يثير الأمر برمته الإرباك والحيرة؛ لا يمكنني فهمه.

سألتها: «ألم تسمعي بسرقة مالاجور من مخيمكم الليلة الماضية؟».

صاحت: «تور-دور-بار! لقد كنت أنت؟ ماذا كنت تفعل هناك؟».

- شرعت في البحث عنكِ، وكنت بجانب الجزيرة عندما هبط فريقكم.

قالت: «فهمت. يا لك من ذكي وشجاع».

قلت: «لو كنتِ صدقتني ووثقتِ بي، لكنا هربنا؛ ولا أعتقد أنني أحمق مثل سايتور ليمسكوا بي».

قالت: «أصدقك وأثق بك أكثر من أي شخص آخر».

سألتها: «لماذا إذَنْ هربتِ مع سايتور؟».

- لم أهرب مع سايتور. لقد حاول إقناعي، وأخبرني العديد من القصص عنك ولم أرغب في تصديقها. وأخيراً قلت له بوضوح إنني لن أذهب معه، لكنه جاء في الليل ومعه باندار وأخذني بالقوة.

قلت: «أنا سعيد لعدم ذهابك معه عن طيب خاطر». يمكنني أن أخبرك مدى سعادتي لأنها لم تذهب معه بإرادتها؛ أحبها الآن أكثر من ذي قبل. وإنما لن يفيدني ذلك ما دمت أسكن هذا الجسم البشع والوجه المتوحش غير الإنساني.

سألتني: «وماذا عن فور داج؟».

- علينا أن نترك جسمه حيث هو، إلى أن يعود راس ثافاس. ليس هناك بديل.

سألتني بصوت مرتعش: «وإذا لم يرجع راس ثافاس؟».

أجبت: «سوف يظل فور داج راقدًا حيث هو إلى الأبد».

قالت لاهثة: «يا للفظاعة. كان وسيمًا جدًّا، ورائعًا جدًّا».

«فكرتكِ عنه جيدة؟»، سألتها، وخجلت فورًا من اقتناص هذه الفرصة غير العادلة.

«فكرتي عنه جيدة»، قالتها بنبرة عادية، وهو الرد الذي لم يكن مثيراً ولا مشجعًا. ربما كانت لتتحدث بنفس الطريقة عن ثوات أو كالوت.

أصبح من الواضح، في وقت ما بعد الظهيرة، أن المالاجور وصل إلى أقصى قدرته على التحمل. بدأ في الانخفاض تدريجيًّا نحو المستنقعات، وهبط الآن على أحد أكبر الجزر التي رأيتها. كانت جزيرة جذابة جدًّا، تضم التل والوادي وأراضي الغابات، فضلاً عن جدول مائي صغير يسير متعرجًا إلى البحيرة. وهو مشهد غير معتاد في برسوم. ما إن هبط المالاجور، حتَّى أخذ يتدحرج على جانبه وألقانا على الأرض. تصورت أنه على وشك الموت؛ لأنه رقد هناك يقاوم ويلهث.

قالت جاناي: «يا له من طائر مسكين! ظل يحمل ضعف حمولته لثلاثة أيام، مع طعام غير كافٍ، يكاد يكون بلا طعام عمليًّا».

قلت: «حسنًا، أبعدنا على الأقل عن موربوس. وإذا تعافى، سيأخذنا إلى هيليوم».

سألتني: «لماذا إلى هيليوم؟».

- لأنه البلد الوحيد الذي أتأكد أنكِ ستجدين فيه اللجوء الآمن.

سألتني: «ولماذا سأجد الأمان هناك؟».

- لأنكِ صديقة لفور داج. وسوف يضمن جون كارتر، أمير الحرب في برسوم، استقبالاً حسنًا ومعاملة جيدة لأي صديق لفور داج.

سألتني: «وأنت؟». لا بد أنني ارتجفت بوضوح عندما فكرت في دخول هيليوم بهذا المظهر المروع؛ لأنها قالت بسرعة: «أنا على يقين أنك ستحظى باستقبال جيد أيضًا؛ لأنك بالتأكيد تستحق ذلك أكثر مني بكثير». صمتت للحظة تفكر، ثم سألتني: «هل تعرف ماذا حدث لمخ فور داج؟ أخبرني سايتور أنهم دمروه».

أردت أن أقول لها الحقيقة، لكني لم أستطع؛ فقلت: «لم يُدمَّرْ. وراس ثافاس يعرف مكانه. وإذا وجدت راس ثافاس، سوف يستعيد فور داج مخه».

قالت بحزن: «يبدو أننا لن نتمكن من العثور على راس ثافاس».

هذا ما كان يبدو لي أيضًا، لكني لن أتخلَّى عن الأمل. يجب أن يعيش جون كارتر! ويجب أن يعيش راس ثافاس! ويجب أن أجدهما في يوم ما.

ولكن ماذا عن جسدي الذي يرقد هناك تحت مبنى المختبر في موربوس؟ ماذا لو وجدت الكتلة التي خرجت من غرفة الأحواض رقم 4 طريقها إلى الزنزانة 17-3؟ أصابتني هذه الفكرة بالدوار؛ على أنها لم تكن مستحيلة. إذا امتلأ المبنى والممر بالكتلة، قد يؤدي ضغط الكتلة الكبير إلى كسر باب الزنزانة 17-3 رغم ضخامته. وقد تلتهمني تلك الرؤوس البشعة؛ أو إذا انتشرت الكتلة خارج الجزيرة نحو المستنقعات، قد يستحيل على الإطلاق أن أسترد جسدي وأن يظل إلى الأبد دون مساس. لم يكن توقعًا مبهجًا، بل كان محبطًا للغاية. بيد أن أفكاري اتخذت فجأه اتجاهًا آخر عندما صرخت جاناي.

صاحت: «انظر!».

التفتُ في الاتجاه الذي كانت تشير إليه، ورأيت عددًا من المخلوقات الغريبة القادمة نحونا في قفزات مذهلة. كان واضحًا أنهم نوع بشري ما، على أن هناك اختلافات تجعلهم لا يماثلون أي حيوانات أخرى على المريخ. كانت سيقانهم طويلة وقوية، والركبتان مثنيتان دائمًا باستثناء ما يلي إحدى القفزات المذهلة مباشرة، ولدى كل منهم ذيل طويل قوي؛ وغير ذلك، يبدون كالبشر تمامًا من حيث البنية. لاحظت عند اقترابهم أنهم عراة تمامًا، باستثناء عتاد بسيط يدعم سيفًا قصيرًا في إحدى جانبيه وخنجرًا في الجانب الآخر. وبالإضافة إلى هذه الأسلحة، يحمل كل منهم رمحًا في يده اليمنى. حاصرونا بسرعة، بينما احتفظوا بمسافة قليلة منا، وجلسوا القرفصاء مع ثني ركبهم ودعم أنفسهم بأقدامهم العريضة المسطحة وذيولهم.

سأل أحدهم: «مَن أنتم؟ وماذا تفعلون هنا؟»؛ واندهشت لقدرته على الحديث.

أجبت: «كنا نطير فوق جزيرتكم عندما نال التعب من طائرنا المالاجور، واضطررنا إلى الهبوط للراحة. وسوف نواصل طريقنا بمجرد أن نتمكن من ذلك».

هز الزميل رأسه وقال: «لن تغادروا جوولي أبدًا». كان يفحصني عن كثب، وسألني: «ما أنتم؟».

قلت: «أنا رجل»، وسحبت سيفي قليلاً.

هز رأسه. وسأل وهو يشير إلى جاناي: «وما هذا؟».

أجبت: «إنها امرأة».

هز رأسه مرة أخرى.

قال: «إنها ليست سوى نصف امرأة. ليس لديها وسيلة لتربية صغارها أو تدفئتهم. سيموت صغارها بمجرد أن يفقس البيض».

حسنًا، لم أجد سببًا للخوض في هذا الموضوع، فبقيت صامتًا. بدا الأمر مُسليًا لجاناي؛ فأنوثتها واضحة للغاية.

سألته: «ماذا تنوي أن تفعل معنا؟».

- سوف نأخذك إلى الجد، وهو سيقرر. ربما يسمح لك بالعيش والعمل؛ وربما يدمرك. أنت قبيح جدًّا، لكنكَ تبدو قويًّا؛ لا بد أنك عامل جيد. أما المرأة، فتبدو عديمة الفائدة؛ إذا كان يمكن تسميتها امرأة.

كنت في حيرة ولا أعرف ما يجب أن أفعله. كان يحاصرنا 50 محاربًا، بتسليح بدائي. يمكنني تدمير العديد منهم بقوتي الهائلة؛ لكني متأكد أنهم سيتمكنون مني في النهاية ويقتلونني. من الأفضل أن نذهب معهم إلى الجِد، وننتظر فرصه أفضل للهرب. قلت: «حسنًا، سنذهب معكم».

قال: «بالطبع؛ فماذا يمكنك أن تفعل غير ذلك؟».

قلت: «يمكنني أن أقاتل».

سألني: «هاااا، أترغب في القتال؟ حسنًا، إن كان الأمر كذلك، سوف يستضيفك الجِد. تعالوا معنا».

قادونا على طول النهر، ثم إلى مرتفع صغير، رأينا بعده غابة تقع عند

حافتها قرية أكواخها من القش.

أشار إليها القائد قائلاً: «هذه هي جوولي، أكبر مدينة في العالم. هنا يسكن أناتوك، جِد جوولي وكل جزيرة أومبت، في قصره العظيم».

اقتربنا من القرية، وجاء بضع مئات من الناس لمقابلتنا: الرجال والنساء والأطفال. وعندما تفحصت النساء، أدركت لماذا كان قائد المجموعة التي أمسكت بنا يعتقد أن جاناي ليست أنثى كلية. وجدت سكان جزيرة أومبت جرابيين، والنساء جرابيات تبيض. تضع الإناث البيض في حقيبة بالجزء السفلي من بطونهن. ويفقس البيض في هذه الحقيبة، ويعيش فيها الصغار ويتخذونها مأوى إلى أن يتمكنوا من إعالة أنفسهم. كان مثيراً أن نرى رؤوسًا صغيرة تبرز من حقائب أمهاتهم، وينظرون نحونا بأعين متسائلة. كنت أعتقد أن نوعًا جرابيًّا واحدًا فقط يوجد في برسوم، وهو من الزواحف؛ لذلك كان لافتًا للنظر أن أرى هؤلاء الناس الذين يبدون كالبشر ويحملون صغارهم في حقائب بالبطن.

تعاملت معنا المخلوقات التي خرجت من القرية لمقابلتنا بخشونة شديدة، حيث كانوا يجذبوننا ويسحبوننا في محاولة لتفحصنا عن قرب. كنت أطول منهم جميعًا، وكانوا خائفين مني بعض الشيء، لكن تعاملهم مع جاناي كان سيئًا للغاية؛ فتدخلت ودفعت العديد منهم بعيدًا بقوة إلى حد سقوطهم على الأرض، وعندئذ سحب اثنان أو ثلاثة منهم سيوفهم متوجهين نحوي، لكن المجموعة التي أمسكت بنا تصرفت كحراس شخصيين لنا ودافعت عنا ضد الهجوم. أبعدوا الغوغاء عنا واقتادونا داخل القرية، إلى كوخ من الأعشاب أكبر كثيراً من الأكواخ الأخرى. ولذا افترضت أنه القصر الرائع للجِد أناتوك. وقد اتضح أنه قصره بالفعل، حيث خرج الجِد نفسه من الكوخ ومعه العديد من الرجال والنساء وحشد من الأطفال. كانت النساء زوجاته وخدمهن؛ وكان الرجال مستشاريه.

بدا أناتوك شديد الاهتمام بنا، وطرح علينا أسئلة كثيرة حول القبض علينا، ثم سألنا من أين جئنا.

قلت: «جئنا من موربوس، ونحن في طريقنا إلى هيليوم».

قال: «موربوس... هيليوم. لم أسمع بهما أبدًا. لا بد أنها قرى صغيرة يسكنها الهمج. كم نحن محظوظون للعيش في مدينة رائعة مثل جوولي. أليس كذلك؟».

أجبت بصدق: «أعتقد أنك أكثر سعادة بكثير في جوولي من موربوس، وأكثر راحة بكثير من هيليوم».

واصلت قائلاً: «بلادنا لم تضرك أبدًا. ونحن لسنا في حالة حرب. لذلك عليك أن تدعنا نمضي في طريقنا بسلام».

وعندئذ ضحك، وصاح: «يا لبساطة الناس الذين يأتون من القرى الأخرى! أنتم عبيدي. وعندما تنتهي خدمتكم، سأدمركم. هل تعتقدون أننا نريد أن يغادر الغرباء أومبت، ثم يقودون الأعداء إلى هنا لتدمير مدينتنا الرائعة وسرقة ثرواتنا الشاسعة؟».

قلت: «شعبنا لن يزعجك أبدًا. وبلدنا بعيد جدًّا عن هنا. وإذا أراد أحد أفراد قومك أن يأتي إلى بلدنا، سوف نعامله بلطف. نحن لا نقاتل سوى أعدائنا».

فقال قائد المجموعة التي أمسكت بنا: «هذا يُذَكِّرُني بأن هذا الزميل هو في الواقع عدونا بحكم كلماته، فقد قال إنه يرغب في قتالنا».

صاح أناتوك: «ماذا! حسنًا؛ إذا كان الأمر كذلك، سنحقق له رغبته. لا نحب شيئًا أكثر من القتال الجيد. بأي أسلحة تود أن تقاتل؟».

أجبت: «سأقاتل بأي شيء يختاره خصمي».

* * *

الفصل (21)

مبارزة حتى الموت

سرعان ما ظهر أن القتال الشخصي يمثل أهمية كبيرة بالنسبة لأهالي الجُزر. دخل الرئيس ومستشاروه في مناقشة مطولة لاختيار خصم لي. ناقشوا صفات عدد من المحاربين، بل قاموا أيضًا بتقييم ومقارنة أسلاف هؤلاء المحاربين لما يعود إلى الجيل الخامس والسادس. ربما كانت مسألة بالغة الأهمية بالنسبة إلى الدولة، فقد كانوا يتحدثون بجدية شديدة. وكثيراً ما قُوطع اجتماعهم باقتراحات وتعليقات من أعضاء القبيلة الآخرين؛ لكنهم اختاروا أخيراً شابًّا قويًّا. ولشعور الشاب بالأهمية التي ترتبط به الآن، شرع في خطاب طويل وطنّان يسرد فيه فضائله وفضائل أسلافه العديدة، بينما يستخف بي ويتفاخر بأنه سينجز عمله معي في فترة قصيرة. واختتم أخيراً خطابه العدواني باختيار السيوف كأسلحة في قتالنا. ثم سألني أناتوك إذا كان لديَّ أي شيء لأقوله. يبدو أن إلقاء خطاب كان جزءًا من الحفل الذي يسبق المبارزة.

أجبت: «لديَّ سؤال فقط».

سألني أناتوك: «وما هو؟».

سألته: «ما مكافأتي إذا هزمت محاربك؟».

ارتبك أناتوك للحظات، ثم قال: «لم تتبادر إلى ذهني هذه النتيجة؛ لكن الأمر لا يمثل أهمية، بطبيعة الحال؛ لأنك لن تفوز».

قلت بإصرار: «ولكن قد يحدث ذلك. وإذا حدث، ما مكافأتي؟ هل تمنحنا حريتنا أنا ورفيقتي؟».

ضحك أناتوك، وقال: «بالتأكيد. يمكنني أن أعدك مطمئنًا بأي شيء تطلبه؛ لأنك ستكون ميتًا بعد انتهاء القتال».

أجبت: «جيد جدًّا؛ ولكن، لا تنسَ وعدك».

سألني أناتوك: «هل هذا كل ما تريد قوله؟ ألن تخبرنا عن مدى مهارتك، وعدد الرجال الذين قتلتهم، وكيف أنك مقاتل رائع؟ أم أنك لست مقاتلاً جيدًا؟».

أجبت: «هذا هو الشيء الذي لا يقرره سوى السيف. لقد تفاخر خصمي كثيراً، وقد يستمر في التفاخر إلى أجل غير مسمى دون أن يتمكن من إسقاط قطرة من دمي أو إلحاق الأذى بي بأي شكل من الأشكال. إنه حتى لم يُخفني؛ لأني سمعت رجالاً يتباهون من قبل؛ وأولئك الذين يتفاخرون بأعلى الأصوات، لديهم عادة أقل ما يمكنهم للتباهي به».

قال أناتوك: «من الواضح أنك لا تعرف شيئًا عن محاربي جوولي. نحن أشجع شعب في العالم، ومحاربونا هم أعظم المبارزين. وبسبب هذه الصفات، نحن أقوى أمة في العالم، وهو ما يتجلى واضحًا في حقيقة أننا بنينا هذه المدينة الرائعة وحميناها لأجيال، ونجحنا خلال كل تلك الفترة في حماية كنوزنا الهائلة».

نظرت حولي في القرية الصغيرة المتواضعة، المبنية من أكواخ عشبية، وتساءلت عن مكان إخفاء كنوز أناتوك الهائلة، ومم تتكون. ربما كان مخزنًا شاسعًا من الأحجار النادرة والمعادن الثمينة.

قلت: «لا أرى أي دليل على وجود ثروة أو كنوز كبيرة. ربما أنت تتباهى أيضًا».

وعندئذ غضب أناتوك وقال: «أتجرؤ على التشكك في كلامي، أيها الوحشي البشع؟»، ثم صاح: «ماذا تعرف من الثروة أو الكنوز؟ ربما لم تقع عيناك أبدًا على أي شيء يمكن مقارنته بثروات جوولي».

صاح محارب: «أره الكنز قبل أن يموت. وسيدرك عندئذ لماذا نحن شعب شجاع ومُحب للحرب من أجل حماية ثروتنا والاحتفاظ بها».

قال أناتوك: «هذه ليست فكرة سيئة. فليشهد بعينيه أننا شعب جوولي لا نتباهى بثروتنا، كما سيعرف أيضًا بالتجربة أننا لا نتباهى بشجاعتنا ومهارتنا في المبارزة. تعال، أيها الزميل، يجب أن ترى الكنوز».

قاد الطريق إلى داخل قصره. سرت خلفه وحولي عشرات المحاربين يضغطون. كان الكوخ العشبي فارغًا من الداخل، باستثناء بقايا أعشاب ميتة حول الجدران يبدو أنها الأسرّة التي ينامون عليها، وبعض الأسلحة، وعدد قليل من أواني الطبخ البدائية، وصندوق كبير في وسط المبنى تحديدًا. قادني أناتوك إلى هذا الصندوق، وبتفاخر كبير رفع غطاءه ليعرض محتوياته، وهو يقول: «ليس لديك شيء أكثر في العالم الآن لتراه؛ لقد رأيت كل شيء».

أضاف: «هنا ثروات جوولي».

كان حوالي ثلاثة أرباع الصندوق مملوءًا بالأصداف البحرية. راقبني أناتوك والآخرون عن كثب لمشاهدة ردة فعلي.

سألته: «أين الكنز؟ هذه ليست سوى أصداف».

ارتجف أناتوك بغضب مكبوت، وصاح: «يا لك من متوحش مسكين جاهل. كان يجب أن أعرف أنك لن تستطيع تقدير قيمة وجمال كنز جوولي. هيا إلى القتال؛ سيصبح العالم أفضل حالاً كلما كان تدميرك أسرع. لا يمكننا، نحن شعب جوولي، أن نتحمل الجهل والغباء؛ فنحن أذكى شعوب العالم وأكثرها حكمة».

قلت: «هيا، كلما أسرعنا في الانتهاء من هذه المسألة، كان أفضل».

اتضح أن التحضير للمبارزة كان مسألة احتفالية تمامًا. تشكل موكب، على رأسه أناتوك ومستشاريه. يليهم خصمي، وسار وراءه حرس شرف يضم حوالي عشرة محاربين. وجئت أنا خلفهم؛ وكان يمكن أن أسير وحدي لكنني أخذت جاناي معي، ولم يعترضوا على ذلك. وسار خلفنا باقي أفراد القبيلة، بما فيهم المحاربون والنساء والأطفال. لم يكن موكبًا عاديًّا، حيث كان مجرد موكب وبلا جمهور. سرنا حول القصر مرة واحدة، ثم توجهنا إلى الشارع الرئيس، وخرجنا من القرية. شكَّل القرويون دائرة، وقفت في وسطها، وكذا وقف خصمي ومجموعته من حرس الشرف. وبكلمة من أناتوك سحبت سيفي؛ وفعل خصمي والمحاربون العشرة نفس الشيء؛ ثم تقدمنا نحو بعضنا.

التفتُّ إلى أناتوك، وسألته: «ماذا يفعل هؤلاء المحاربون الآخرون؟».

أجاب: «إنهم مساعدو زوكي».

سألته: «وهل من المفترض أن أقاتلهم جميعًا؟».

أجاب أناتوك: «أووه، كلا. سوف تقاتل زوكي، وسوف يقدم له معاونوه يد المساعدة إذا وقع في ورطة».

- هذا يعني أنني سوف أقاتل -في واقع الأمر- أحد عشر رجلاً.

صاح أناتوك: «قاتِل يا جبان! نريد أن نشهد قتالاً جيدًا».

التفتُّ ثانية نحو زوكي ومعاونيه. كانوا يتقدمون نحوي ببطء شديد؛ وكانوا يصنعون أشكالاً بوجوههم كما لو كانوا يحاولون إخافتي. أدهشني الموقف كله وكان مثيراً للسخرية، بحيث لم أتمكن من الامتناع عن الضحك؛ على أنني أعرف مدى خطورته؛

لأن احتمالات أحد عشر إلى واحد كانت ضدي بشدة، على الرغم من أن مستوى الأحد عشر مساعدًا في المبارزة قد يكون متدنيًا.

كان وجهي في حد ذاته بشعًا للغاية، ولويت قسماته فجأة في تكشيرة رهيبة، وقفزت نحوهم وأنا أطلق صيحة عاصفة. كان رد الفعل مدهشًا؛ حيث كان زوكي أول مَن استدار وهرب، واصطدم بزملائه الذين حاولوا بدورهم الهروب من هجومي. لم أسعَ خلفهم؛ وعندما رأوا ذلك، توقفوا وواجهوني مره أخرى.

سألتُ أناتوك: «هل هذا مثال على الشجاعة التي تتفاخرون بها في جوولي؟».

أجاب أناتوك: «لقد شهدت للتو طريقة استراتيجية جيدة؛ لكن جهلك الشديد يجعلك لا تستطيع تقديرها».

تحركوا نحوي ثانية، وببطء شديد أيضًا؛ وكانوا يطلقون هذه المرة نوعًا من صيحات الحرب، إلى جانب صناعة أشكال بوجوههم.

كنت على وشك الهجوم مره أخرى، عندما صرخت امرأة وهي تشير إلى الوادي. استدرتُ مع الآخرين لرؤية ما جذب انتباهها، وشاهدت نصف دزينة من الهمج مثل الذين هاجموا قاربنا عندما كنت مع جان هاد وتون جان نسعى وراء سايتور وجاناي. ارتفع عويل هائل من القرويين عند رؤيتهم. ركض النساء والأطفال والجميع، ما عدا حفنة من المحاربين، إلى الغابة. لم أستطع أن أحدد ما إذا كان مَن بقوا قد شلّهم الخوف فأصبحوا غير قادرين على الركض، أم أصابتهم نوبة مفاجئة من الشجاعة. لم يكن زوكي، خصمي، من بينهم، بل كان هو وأناتوك يتسابقان نحو الغابة قبل كل الآخرين.

سألت المحارب الذي يقف بالقرب مني: «مَن هؤلاء؟».

أجاب: «إنهم من أكلة لحوم البشر. بعد آخر غارة لهم، اختارونا لنكون القربان عندما يتطلب الأمر مجيئهم ثانية».

سألته: «ماذا تعني بقولك 'القربان'؟».

أجاب: «نعم، إنه قربان. إذا لم نسلمهم طوعًا خمسة محاربين عند مجيئهم، فسوف يهاجمون القرية ويحرقونها، ويأخذون كنزنا، ويسرقون نساءنا، ويقتلون أكبر عدد ممكن يجدونه من رجالنا. الأمر أبسط بهذه الطريقة، لكنه صعب على المُختارين. ومع ذلك، ليس لدينا بديل سوى الطاعة، وإلا ستعذبنا القبيلة حتى الموت».

سألته: «ولكن لماذا نستسلم لهم؟ إنهم ستة أفراد فقط، ونحن ستة؛ دعونا نقاتلهم. فرصتنا للفوز مثل فرصتهم».

تطلعوا نحوي في دهشة. قالوا: «لكننا لا نحارب أحدًا أبدًا، ما لم نكن متفوقين عدديًّا: عشرة إلى واحد. وإلا لن تكون استراتيجية جيدة».

قلت آمرًا: «عليكم نسيان استراتيجيتكم، والوقوف معي ضد هؤلاء الرجال».

سأل أحدهم شخصًا آخر: «هل تفترض أن بإمكاننا القيام بذلك؟».

وكان الرد: «لم يحدث هذا من قبل».

قاطعت قائلاً: «هذا ليس سببًا يمنع حدوثه الآن. إذا ساعدتموني ولو قليلاً، يمكننا قتلهم جميعًا».

قالت جاناي: «أعطني سيفًا، سوف أساعد أنا أيضًا».

قال أحد محاربي جوولي: «فلنحاول ذلك».

وقال آخر: «ولِمَ لا؟ سنموت على أي حال».

أصبح الهمج الآن على مسافة قريبة منا. كانوا يضحكون ويتحدثون معًا، وينظرون بازدراء إلى الجووليين. قال أحدهم: «هيا، ألق سلاحك وتعال معنا».

وكإجابة، قفزت إلى الأمام وبضربة واحدة شققت أحدهم من أعلى رأسه إلى عظام صدره. تقدم الجووليون الخمسة ببطء. لم يكن لديهم قدرة على تحمل القتال، لكنهم تشجعوا عندما رأوا نجاح ضربتي الأولى؛ وبالمثل فُوجئ الهمج. لم أتوقف، بل اندفعت نحو باقي الهمج. واجهت منافسة قليلة؛ لكن امتداد يدي الطويلة وقوتي الهائلة أعطياني ميزة لم يتمكنوا من التغلب عليها. وأسفرت النتيجة عن سرعة سقوط ثلاثة منهم، وهروب الثلاثة الآخرون بأسرع ما يمكن.

عندما رأى الجووليون العدو يتراجع -وهو الشيء الذي ربما لم يروه في حياتهم من قبل- تملكتهم الشجاعة وشرعوا في مطاردة خصومهم. كان يمكنهم إدراكهم بسهولة؛ لأنهم يتحركون بقفزات كبيرة تنقلهم كل قفزة عشرين قدمًا؛ لكنهم تركوهم يهربون عند حافة الهضبة؛ ثم عادوا قافزين، وصدورهم منتفخة، ويشع الرضى الذاتي والغرور من تعبيرات وجوههم.

من الواضح أن بعض المختبئين في الغابة رأوا المشهد، حيث أتت القبيلة بأكملها الآن نحونا بتثاقل. بدا الخزي قليلاً على وجه أناتوك، لكن كلماته الأولى أخفت تعبيره. قال: «رأيت قيمة استراتيجيتنا. يبدو أننا نهرب خائفين، فنجذبهم ثم ندمرهم».

قلت: «أنت لا تخدعني ولا تخدع نفسك. أنتم عِرق متفاخر جبان. لقد أنقذت الرجال الخمسة الذين كنتم ستتخلون عنهم كقربان، دون بذل أي مجهود للدفاع عنهم. لقد سمحت لستة من الهمج بالإملاء عليك أنت وكل محاربيك. يمكنني أن أقتلكم جميعًا بمفردي، وأنت تعرف ذلك. وأطالبك الآن بمكافأتي على ما قمت به، بالسماح لي ولرفيقتي بالبقاء هنا في أمان إلى أن نتمكن من التخطيط لمواصلة رحلتنا. وإذا رفضت، ستكون أول مَن يشعر بحافة سيفي».

قال وهو يرتجف: «لا تهددني. كان في نيتي أن أعطيك حريتك كمكافأة على ما قمت به. وأنت حر في البقاء معنا، والذهاب والمجيء كما تريد. يمكنك أن تبقى أي فترة تريدها، إذا كنت ستقاتل ضد أعدائنا عندما يأتون».

* * *

الفصل (22)

التوجه إلى فوندال

ذهبت في اليوم التالي مع جاناي لنرى ما إذا كان المالاجور قد تعافى، لكننا لم نجد له أي أثر. ولذا افترضت أنه إما طار بعيدًا وإما استولى عليه الهمج، الذين قال لي أناتوك إنهم يأتون من جزيرة أخرى بعيدة عن جوولي.

بدأت العمل على الفور لبناء قارب، وساعدني الجووليين قليلاً على الرغم من أنهم كُسالى للغاية ويتعبون بسرعة. كانوا بلا شك أكثر عِرق عديم الفائدة رأيته من قبل، ويبذلون كل طاقاتهم عمليًّا في التفاخر، ولا ينجزون إلا قليلاً، أو لا شيء على الإطلاق. فبعد ساعات قليلة من المواجهة مع الهمج، بدأوا يتفاخرون بانتصارهم العظيم ويمنحون الفضل كله لأنفسهم، ويزعم أناتوك أن معظم هذا النصر يعود إلى استراتيجيته الرائعة، كما وصفها. هناك شعوب كثيرة في العالم مثل الجووليين، وإنما لن يعثر أحد على بعضهم.

أصبحت علاقتي حميمة مع زوكي في الأسابيع التي تلت، خلال بناء القارب. وجدت ذكاءه أعلى من المتوسط، ويتمتع بحس بدائي من الفكاهة يفتقده تمامًا الجووليون الآخرون. سألته في أحد الأيام لماذا يعتبرون الأصداف كنزًا ثمينًا.

أجاب: «يجب أن يوجد كنز لدى أناتوك ليعطيه شعورًا بالتفوق؛ وأن الوضع كان مماثلاً مع الحُكّام الذين سبقوه، بل ومع كل واحد منا في واقع الأمر. وجود كنز يجعلنا نشعر بأهمية كبيرة؛ لكننا شعب يتوخى الحذر، ولذا اخترنا الكنز الذي لا يريده أحد آخر، وإلا ستأتي الشعوب المحبة للحرب باستمرار لسرقة كنزنا. أشعر أحيانًا أنها مسألة سخيفة بعض الشيء، لكنني لن أجرؤ على قول ذلك لأناتوك أو للآخرين. فقد ظلوا طوال حياتهم يسمعون عن القيمة الكبيرة لكنز جوولي الهائل، وهكذا أصبحوا يؤمنون به، ولا يتشككون؛ لأنهم لا يرغبون في التشكيك فيه».

سألته: «وهل يشعرون بنفس الطريقة تجاه شجاعتهم التي يتفاخرون بها، وتجاه استراتيجية أناتوك؟».

أجاب زوكي: «أووه، هذا شيء مختلف؛ فهذه الأشياء حقيقية. نحن حقًّا أشجع شعب في العالم، وأناتوك أعظم الاستراتيجيين».

حسنًا، لقد تجاوز حسه الفكاهي الحدود بالتشكيك في الكنز؛ لكنه لا يمكن أن يصمد أمام التشكيك في بسالة الجووليين أو استراتيجية أناتوك. ربما كان الجووليون أفضل حالاً هكذا؛ لأن غرورهم السخيف يمنحهم روحًا معنوية كانوا ليفتقرون إليها كليًّا لو اعترفوا بالحقيقة.

ساعدتني جاناي في بناء القارب، وهكذا أمضينا وقتًا كثيراً معًا؛ لكني كنت دائم الشعور بأنني أثير اشمئزازها. لم تلمسني أبدًا، ما دام بإمكانها تجنب ذلك؛ كما لم تنظر في كثير من الأحيان في وجهي مباشرة، ولا يمكنني أن ألومها؛ على أنني كنت على يقين أنها أصبحت مولعة بي، كشخص يصبح مولعًا بكلب قبيح لكنه مخلص. وهو ما جعلني أتمنى حقًّا أن أكون كلبًا، على الأقل لتداعبني؛ لكنني كنت أقبح كثيراً من أي كالوت مريخي، بحيث كنت أثير اشمئزازها دائمًا بغض النظر عن مدى شعورها باللطف تجاهي.

جعلتني هذه الأفكار أتساءل عن جسدي المسكين. هل لا يزال في مخبئه بأمان في الزنزانة 17-3، أم أن الباب انفتح وتمكنت الكتلة البشعة التي خرجت من غرفة الأحواض رقم 4 من اجتياح الزنزانة والتهمته؟ هل سأراه ثانية؟ هل سأمتلكه ثانية وأتمكن من تحريكه بمخي هذا الذي ظل موجودًا من أجل جاناي فقط دون أن تدرك هي ذلك أبدًا؟ شعرت باليأس. والآن، بعد أن فقدنا المالاجور، يبدو النجاح في الرحلة إلى هيليوم أقل قليلاً من الاستحالة.

انتهينا أخيراً من بناء القارب، وساعدني الجووليون على حمله إلى البحيرة. وقد زودوه بالمؤن، وأعطوني رماحًا إضافية، وأعطوا جاناي سيفًا وخنجرًا.

لقد تفاخروا ببناء القارب، وأخبرونا أنه أفضل قارب بُني على الإطلاق، ولم يكن يمكن لأحد أن يبنيه سوى الجووليين. وتفاخروا بالأسلحة التي أعطوها لنا، وبالمؤن. تركناهم وهم لا يزالون يفتخرون، وشرعنا نحو الغرب في رحلتنا المحفوفة بالمخاطر، خلال المستنقعات التونولية الكبرى.

الفصل (23)
أسرى في أمهور

تضم المستنقعات الكبرى مساحات شاسعة غير صالحة لسُكنى البشر. وقد مررنا لمدة أسبوع خلال أراض قفر كئيبة يتعذر حتى على السكان الأصليين المتوحشين العيش فيها. كما واجهنا تهديدات أخرى على شكل زواحف كبيرة، فضلاً عن حشرات عملاقة يتسم بعضها بأبعاد هائلة ويزيد طول جناحها المفرود على أكثر من ثلاثين قدمًا. يمكن بسهولة أن تبيدنا هذه الوحوش؛ حيث إنها مزودة بفكين قويين أو إبر حادة كالسيف، وأحيانًا بكليهما؛ لكننا لحسن الحظ لم نتعرض أبدًا لهجومها. وكانت الزواحف الأصغر في المستنقعات بمثابة فرائسها الطبيعية، وقد شهدنا العديد من المواجهات التي تنتهي دائمًا بانتصار الحشرات.

وفي أحد الأيام، بعد أسبوع من مغادرتنا جوولي، كنا نجدف عبر واحدة من البحيرات العديدة التي تنتشر في المستنقعات، عندما شاهدنا فوق الأفق أمامنا سفينة حربية كبيرة تتحرك بانخفاض وببطء في اتجاهنا. قفز قلبي فرحًا على الفور.

صحت: «جون كارتر! لقد جاء أخيراً. لقد أُنقذتِ يا جاناي».

قالت: «وسيكون معه راس ثافاس، ويمكننا العودة إلى موربوس واستعادة جسم فور داج».

قلت: «وسوف يعيش ثانية، ويتحرك، ويحب»؛ وكنت مأخوذًا بالراحة والسعادة التي ولَّدها هذا التوقع.

سألتني: «ولكن، لنفترض أنه ليس جون كارتر؟».

- يجب أن يكون جون كارتر، يا جاناي، فلماذا يطير إنسان متحضر آخر فوق هذه الأراضي القفر البشعة؟

أوقفنا التجديف، وشاهدنا السفينة الكبيرة تقترب. كانت تطير بانخفاض شديد، تبعُد بالكاد مئات الأقدام فوق الأرض وتتحرك ببطء شديد. وعندما زاد اقترابها، وقفت في الزورق ولوحت جذبًا للانتباه، على الرغم من معرفتي أنهم لا يمكن إلا أن يرونا؛ لأنهم كانوا يتجهون نحونا مباشرة.

لم تكن السفينة تحمل أي شارة تعلن عن جنسيتها، لكن هذة مسألة عادية في الأساطيل البحرية المريخية عندما تدخل سفينة منفردة إلى بلد عدو محتمل.

كما كانت خطوط السفينة أيضًا غير مألوفة تمامًا بالنسبة لي؛ ولذا لم أتمكن من تحديد هويتها. يبدو أنها إحدى السفن عتيقة الطراز، التي لا يزال العديد منها يعمل على حدود هيليوم. لم أفهم لماذا اختار جون كارتر مثل هذه السفينة، وفضّلها على أنواع السفن الجديدة السريعة. لكنني كنت أعرف أن هناك بالتأكيد سببًا وجيهًا لهذا الاختيار.

زاد انخفاض السفينة مع اقترابها؛ ولذا تأكدت من أنهم شاهدونا. وتوقفت أخيراً فوقنا مباشرة. ألقوا إلينا بأحبال من خلال كوة في عارضة السفينة، وسرعان ما ربطتها بجسم جاناي لتصعد بشكل مريح إلى السفينة. وفي غضون ذلك، ألقوا بحبل آخر لي؛ وسرعان ما رفعونا إلى السفينة.

وبمجرد رفعنا إلى السفينة، أُتيحت لي فرصة لرؤية البحارة الذين أحاطوا بنا. وأدركت أنها ليست سفينة من هيليوم، حيث ارتدى الرجال عتاد بلد آخر.

التفتت جاناي نحوي بعينين خائفتين، وهمست: «لا جون كارتر ولا راس ثافاس على هذه السفينة. إن السفينة ليست من هيليوم، وإنما هي إحدى سفن جال هاد، أمير أمهور. وإذا اكتشفوا هويتي، لن يختلف وضعي في موربوس عن وضعي الآن».

قلت: «يجب ألا يعرفوا. أنتِ من هيليوم، تذكري ذلك». أومأت موافقة.

كان الضباط والبحارة الذين أحاطوا بنا أكثر اهتمامًا بي من جاناي، وأخذوا يعلقون صراحة على بشاعتي.

اقتادونا على الفور إلى الطابق العلوي، أمام الضابط المسؤول عن القيادة.

تطلع نحوي وجهي باشمئزاز واضح.

سألني: «مَن أنتما؟ ومن أين أتيتما؟».

أجبت: «أنا هورماد من موربوس، ورفيقتي فتاة من هيليوم، من أصدقاء جون كارتر، أمير الحرب في المريخ».

تطلع نحو جاناي طويلاً وبإمعان للحظة، ثم مست ابتسامة شريرة

صغيرة شفتيه وقال: «متى غيّرتِ جنسيتك يا جاناي؟ لا تحاولي إنكار هويتكِ يا جاناي، أنا أعرفكِ. يمكنني التعرُّفَ على وجهكِ في أي مكان بين ملايين الوجوه؛ فصورتكِ معلقة فِي مقصورتي، وفي مقصورة قائد كل سفينة أمهورية. وهناك مكافأة عظيمة لمَن يعود بكِ إلى الأمير جال هاد».

قلت: «إنها تحت حماية أمير الحرب في المريخ. ومهما كانت المكافأة التي يعرضها عليك جال هاد، فإن جون كارتر سوف يعطيك أكثر إذا أعدت جاناي إلى هيليوم».

«مَن هذا الشيء؟»، سأل القائد جاناي وهو يومئ برأسه نحوي، «ألست سجينته؟».

أجابت: «كلا. إنه صديقي. لقد خاطر بحياته عده مرات لينقذني، وكان يحاول إعادتي إلى هيليوم عندما ألقيتم القبض علينا. أرجوك لا تَعُدْ بي إلى أمهور. وأنا على يقين من أن جون كارتر سيدفع لك جيدًا إذا أخذتنا إلى هيليوم، ما دام تور-دور-بار يقول ذلك».

قال القائد: «ويقوم جال هاد بتعذيبي حتى الموت عندما أعود إلى أمهور؟ لا يا سيدي! سنعود إلى أمهور؛ وربما أحصل على مكافأة إضافية عندما أُسلم هذا المسخ إلى جال هاد؛ لأنه سيكون إضافة قيمة لمقتنياته، ويقدم تسلية وترفيهًا إلى حد كبير لمواطني أمهور. إذا أحسنت التصرف يا جاناي، سيعاملكِ جاد هاد جيدًا. لا تكوني حمقاء كما كنتِ في السابق؛ فلَيس سيئًا على الإطلاق أن تصبَحي أميرة أمهور».

قالت الفتاة: «يسعدني ذلك مثلما يسعدني الزواج من آي-ماد؛ لكني سأموت قبل ذلك».

هز القائد كتفيه، وقال: «هذا شأنكِ الخاص. لديكِ متسع من الوقت للتفكير في الأمر قبل أن نصل إلى أمهور، وأنصحكِ بالتفكير فيه جَيدًا وتغيير رأيكِ». ثم أعطى تعليمات بتخصيص مكان لنا، ومراقبتنا بعنَاية، وعدم حبسنا إذا أحسنّا التصرف.

خلال اقتيادنا نحو درج يؤدي إلى الطابق الأدنى في السفينة، رأيت رجلاً أسرع فجأة عبر سطح السفينة وقفز منها. وقد فعل ذلك بسرعة مذهلة بحيث لم يتمكن أحد من اعتراضه. وعلى الرغم من أن القائد رأى المشهد، لم يبذل أي جهد لإنقاذه، واستمرت السفينة في طريقها.

سألت الضابط المرافق لنا عن هذا هوية هذا الرجل وأسباب قفزه من سطح السفينة.

أوضح الضابط قائلاً: «كان سجينًا، ويفضل الموت على العبودية في أمهور».

كنا لا نزال نطير بانخفاض فوق سطح البحيرة. وقال أحد البحارة، الذين ركضوا نحو الدرابزين عندما قفز الرجل من السفينة: «إن السجين يسبح نحو زورقنا المهجور».

وقال الضابط، ونحن ننزل متوجهين إلى كبائننا: «لن يتمكن من البقاء طويلاً في المستنقعات الكبرى».

خصصوا لجاناي أفضل كابينة على السفينة؛ لأنهم توقعوا أنها ستصبح أميرة أمهور، وأرادوا معاملتها بشكل جيد والاعتناء بها. أراحني أن أعرف أنها ستحظى بكل رعاية واعتبار، على الأقل حتى نصل إلى أمهور.

اقتادوني إلى كابينة صغيرة تسع شخصين، وبالفعل كان يشغلها رجل آخر. كان ظهره نحوي عندما دخلت، حيث كان ينظر من الكوة. أغلق الضابط الباب خلفي وغادر. أصبحت بمفردي مع رفيقي الجديد. وعندما انغلق الباب، التفت وواجهني؛ وأعرب كل منا عن دهشته. كان شريكي في السكن هو تون جان. وظهر عليه الخوف قليلاً عندما تعّرف عليَّ، فلا بد أن ضميره كان يؤنبه بسبب تخليه عني.

قلت: «إنه أنت إذَنْ؟».

أجاب: «نعم، وأفترض أنك تريد أن تقتلني الآن. ولكن لا تلمني كثيراً. ناقشنا الأمر، أنا وباندار، ولم نكن نرغب في التخلي عنك. لكننا كنا نعرف أننا سنموت جميعًا إذا عدنا إلى موربوس، في حين كانت لدينا فرصة للهرب باستخدام الزورق».

قلت: «أنا لا ألومك. ربما كنت لأفعل نفس الشيء في ظروف مماثلة. وقد اتضح أن هروبكما كان أفضل بالنسبة لي؛ لأنني بسببه تمكنت من الوصول إلى موربوس في بضع ساعات وأنقذت جاناي عند وصولها مع المجموعة التي كانت قد ألقت القبض عليها. ولكن، كيف حدث أن توجد على متن هذه السفينة؟».

- لقد أُلقي القبض علينا، أنا وباندار، منذ حوالي أسبوع؛ وربما كان

هذا جيدًا؛ لأن أهالي المنطقة كانوا يطاردوننا وأخافتهم هذه السفينة عند هبوطها، وأبعدتهم، وإلا كانوا أمسكوا بنا وقتلونا دون شك. كنت سعيدًا لصعودي على متن السفينة، لكن باندار لم يكن سعيدًا. وقال إنه لا يريد الذهاب إلى أمهور، ثم المعاناة من العبودية. كل ما كان يعيش من أجله هو العودة إلى فوندال.

سألته: «وأين باندار الآن؟».

- لقد قفز من السفينة؛ وكنت أراقبه عندما دخلت أنت. رأيته يسبح إلى الزورق، وأعتقد أنه الزورق الذي أخذوك منه، ويجدف الآن في طريقه إلى فوندال.

قلت: «آمل أن يصل إليها».

تنبأ تون جان: «لن يصل. فلا أعتقد أن أي رجل يمكنه العبور بمفرده خلال أهوال هذا المستنقع الجهنمي».

قلت لتذكيره: «لقد قطعت أنت شوطًا طويلاً بالفعل».

- نعم، ولكن مَن يدري ماذا يكمن في المستقبل؟

سألته: «وأنت، ألا تكره الذهاب إلى أمهور؟».

سألني بدوره: «لماذا أكره الذهاب إليها؟ إنهم يعتقدون أنني جانتون جور، قاتل أمهور؛ ويعاملونني باحترام كبير».

صحت: «رائع! فقد نسيت أنك تسكن جسم جانتون جور. هل تعتقد أن بإمكانك التعامل على هذا الأساس والاستمرار في خداعهم؟».

أجاب: «أعتقد أنني أستطيع. مخي ليس غبيًّا مثل معظم الهورماد. وقد أخبرتهم أنني تعرضت لإصابة في رأسي جعلتني أنسى قدرًا كبيراً من حياتي الماضية؛ وهم لا يشكون في صحة كلامي حتى الآن».

قلت: «لن يتشككوا أبدًا؛ لأنهم لا يستطيعون تصور وضع مخ مخلوق آخر في جمجمة جانتون جور».

قال: «لن يعرفوا إذا لم تخبرهم أنت؛ لأنني بالتأكيد لن أخبرهم؛ ولذا تذكر أرجوك أن تناديني باسمي الجديد. لماذا تبتسم؟».

- الوضع مُسلٍّ للغاية. لا أحد منا هو نفسه. لديَّ جسمك، ولديك جسم رجل آخر.

سألني: «ولكن مَن أنت؟ لمَن المخ الذي في جسمي؟ تساءلت كثيراً عن ذلك».

أجبت: «استمر في تساؤلك؛ فقد لا تعرف أبدًا».

تطلع في وجهي للحظات، ثم أشرق وجهه فجأة وقال: «أعرف الآن. يا لغبائي لأني لم أخمن من قبل».

قاطعته: «أنت لا تعرف شيئًا. وإذا كنت مكانك، لا ينبغي حتى أن أُخمن».

أومأ، ثم قال: «حسنًا، تور-دور-بار، سيكون الأمر كما تريد».

ولتغيير الموضوع سألته: «لماذا تطوف هذه السفينة من أمهور بمفردها فوق المستنقعات التونولية الكبرى؟».

- جال هاد، أمير أمهور، لديه هواية جمع الوحوش البرية. يقولون إن لديه عددًا كبيراً منها، وهذه السفينة تبحث في المستنقعات التونولية الكبرى عن عينات جديدة».

- إذَنْ، لم يكن بحثهم عن جاناي؟

- لا. هل كانت جاناي معك عندما ألقوا القبض عليك؟ لم ألمح سوى شخصين عندما مرت سفينتنا أعلاكما.

- نعم، جاناي على متن السفينة؛ وأواجه الآن مشكله إخراجها من السفينة قبل أن نصل إلى أمهور.

قال: «حسنًا، ربما تتمكن من تحقيق ذلك. إنهم يهبطون بالسفينة من حين لآخر لاصطياد عينات جديدة، ويتسم النظام بالتراخي. وفي واقع الأمر، لا يحرسوننا على الإطلاق. وهذا هو السبب في سهولة هروبباندار».

لم تُتح لنا فرصة للهروب؛ لأن السفينة أدارت مقدمتها نحو أمهور مباشرة عندما عرف القائد أن جاناي على متنها. لم تلمس السفينة الأرض ولو لمرة واحدة، ولم تُحلق ثانية بالقرب من الأرض.

تقع أمهور على مسافة حوالي 750 ميل، بمقاييس كوكب الأرض، شمال البقعة التي ألقوا عندها القبض علينا، وهي المسافة التي قطعتها السفينة في حوالي سبع ساعات ونصف.

لم أر جاناي خلال تلك الفترة؛ لأنها بقيت في كابينتها.

وصلنا فوق أمهور في منتصف الليل، وظلت السفينة تطفو فوق المدينة حتى الصباح، وتحيط بها زوارق الدورية كحماية، ولحراسة حمولتها الثمينة. كان جال هاد نائمًا عندما وصلنا، ولم يجرؤ أحد على إزعاجه. ويمكنني القول من الأشياء الصغيرة التي تناهت إلى سمعي إن لديه سُمعة شريرة ويخشاه الجميع للغاية.

وصلت طائرة ملكية إلى جوارنا، عند حوالي الزود الثاني، وأخذت جاناي على متنها، وكنت عاجزاً عن منع ذلك لأنهم أخذوني من كابينة جانتون جور عند وصولنا فوق المدينة وحبسوني في كابينة أخرى كسجين. غمرني اليأس، لشعوري أن الأمر لا يقتصر الآن على أنني لن أتمكن أبدًا من استعادة جسدي، وإنما لن أرى جاناي ثانية أبدًا. لم أهتم بما حل بي، وصليت فقط طلبًا للموت.

* * *

الفصل (24)

الحبس في قفص

هبطت السفينة على منصة الهبوط بعد أن أخذوا جاناي، وبعد ذلك بفترة وجيزة فُتِح باب سجني ووجدتني في مواجهة كتيبة من المحاربين بقيادة ضابط. كانوا يحملون سلاسل ثقيلة، قيدوا يديَّ بها. لم أقاوم؛ لأنني لم أعُد أهتم.

أخرجوني إلى منصة الهبوط، ثم ركبنا مصعدًا لنصل إلى الأرض. لم يكن المحاربون الذين أخذوني من السفينة قد رأوني من قبل.

لقد أثرت اهتمامهم كثيراً، لكنهم كانوا خائفين بعض الشيء. وعندما وصلنا إلى الشارع، أثار مظهري انتباهًا كبيراً، قبل أن يحشروني في طائرة أرضية تحركت عبر شارع واسع يؤدي إلى أرض القصر.

تُعد هذه الطائرات الأرضية وسيلة نقل خاصة، شائعة في العديد من مدن المريخ. يصل ارتفاعها إلى حوالي 100 قدم، وتبلغ أقصى سرعتها 60 ميلاً في الساعة. في أمهور، تسير حركة المرور الشمالية والجنوبية على مستوى الأرض في تقاطعات؛ بينما تحلق فوقها خطوط المرور الشرقية والغربية. وتضطر حركة المرور الشرقية والغربية إلى الارتفاع فوق حركة المرور الشمالية والجنوبية عند كل تقاطع، نظرًا لوجود مسار قصير يميل إلى الارتفاع حوالي عشرة أقدام عند كل تقاطع، وينتهي بانخفاض مفاجئ عند التقاطع. وهذ المناطق المرتفعة تُجبر جميع حركات المرور الشرقية والغربية على الارتفاع فوق التقاطعات المرورية الشمالية والجنوبية. وتسير جميع المركَبات في اتجاه واحد فقط على أي طريق، مع تناوب اتجاه التدفق بحيث يحمل نصف الطريق حركة مرور في اتجاه واحد ويحمل النصف الآخر الحركة في الاتجاه المضاد. ولا يتطلب الأمر تقليل السرعة عند المنعطفات اليسرى، وذلك من خلال وسيلة بسيطة تتمثل في الارتفاع فوق مساري حركة المرور. والنتيجة هي تدفق حركة المرور باطراد في جميع الاتجاهات بسرعة متوسطة، تصل إلى حوالي 50 ميلاً في الساعة. ويتكرر وجود أماكن وقوف السيارات، حيث توجد داخل المباني على مستوى يرتفع بحوالي 60 متراً فوق الرصيف. تتواصل حركة مرور المشاة شمالاً دون انقطاع في أي من الاتجاهين على جانبي الشوارع الشمالية والجنوبية على المستوى الأرضي. وبالمثل، في الشوارع الشرقية والغربية من خلال ممرات سفلية عند تقاطعات الشوارع.

لقد تناولت مسألة التحكم في حركة المرور في إحدى المدن المريخية ببعض التفصيل، وربما كان مملاًّ، بسبب ما قاله لي جون كارتر عن ازدحام وارتباك حركة المرور في مدن كوكب الأرض؛ وعلى أمل تشجيع المخترعين في كوكبكم الشقيق على تطوير طائرات أرضية مماثلة لتلك التي يشيع استخدامها في مدن المريخ.

تغطي أرض القصر، التي كانت وجهتنا، مساحة تبلغ حوالي 80 فدانًا. وتصطف قصور النبلاء على الطرق المؤدية إليه، التي توجد خلفها مباشرة أفضل مستويات المحال التجارية والفنادق. أمهور مدينة صغيرة، وهي الوحيدة في المقاطعة وتستحق لقب مدينة بجدارة؛ حيث تتكون باقي المقاطعة من قرى صغيرة تتناثر على نطاق واسع. يتمثل عمل المقاطعة الرئيس في تربية حيوانات الثوات والزيتيدار[295] . تُستخدم حيوانات الثوات في الركوب، بينما تُستخدم حيوانات الزيتيدار الضخمة في الجر. كما يُربون كليهما أيضًا للطعام؛ حيث تقوم أمهور بتصدير اللحوم المحفوظة والجلود وغيرها من المنتجات الثانوية، إلى دوهور وفوندال وتونول.

وأمهور هي مدينة رجال المال في البلد، والرجال المولعين بالقتال، الذين ينفقون كثيراً ولديهم الكثير من المال. وهي، علاوة على ذلك، مدينة مثيرة للاهتمام؛ على الرغم من أن المرء لا يسعه الاستمتاع بها من داخل قفص في حديقة حيوان، حيث هبطت بالضبط بعد دقائق من دفعي خلال البوابة الخلفية لأرض القصر.

هنا، على جانبي الطريق، امتدت الأقفاص والحُفر والأوكار التي تحتوي على عينات من مجموعة واسعة من الحياة الحيوانية المريخية. كان معرضًا لحيوانات الكوكب، ولا بد أنه مفيد، وبالتأكيد ممتع ومُسلٍّ

للجماهير التي تمر في الشارع يوميًّا؛ فقد كان مسموحًا للجمهور حرية دخول هذا الجزء من القصر خلال ساعات النهار.

وكان إدراج أنواع مختلفة من بشر المريخ من السمات الفريدة لهذا المعرض الحيواني الذي يحتفظ به جال هاد، أمير أمهور. ضم القفص الذي يقع على يساري رجلاً أخضر ضخم الجثة، لديه أنياب من العاج وأربع أذرع. وكان على يميني رجل أحمر من بتارث. هناك أيضًا حيوانات الثوات والزيتيدار، فضلاً عن القرود البيضاء الكبيرة في برسوم وهي وحوش شرسة مكسوة بالشَّعر وتشبه الإنسان إلى حد بعيد، وربما هي أكثر

---

(295) الزيتيدار: حيوان مريخي يشبه الفيل، ويُعتبر من حيوانات الجر الثقيلة حيث يُستخدمه المريخيون غالبًا في حمل الأحمال الكبيرة لمسافات شاسعة وجر المركبات الضخمة – http://barsoom.wikia.com/wiki/Zitidar المترجمة.

وحوش المريخ إثارة للخوف. ويوجد أيضًا بالقرب مني اثنان من حيوانات الأبت[296] ، وهي وحوش القطب الشمالي في أوكار[297] . وهذه الوحوش الكبيرة مُغطاة بفراء أبيض ولديها ست أرجل، أربعة منها قصيرة وثقيلة وتحملها على الثلوج والجليد. ويمتد الاثنتان الأخريان إلى الأمام من الكتفين على جانبي رقبة الوحش الطويلة القوية، وتنتهي كل منهما بيد بيضاء خالية من الشَّعر يمسك بها فريسته. وقد أخبرني جون كارتر أن رأس وفم هذا الوحش تشبه نظيرتها لدى فرس النهر في كوكب الأرض، باستثناء بروز قرنين قويين، من الجانبين المسطحين لعظام الفك السفلي، ينحنيان إلى أسفل قليلاً نحو الجبهة. وتمتد عيناه الضخمتان على شكل بقعتين بيضاوين كبيرتين في وسط الجزء العلوي من الجمجمة، أسفل جانبي الرأس، إلى أسفل جذور القرنين، بحيث تبرز هذه الأسلحة بالفعل من الجزء السفلي للعينين التي تتكون كل منهما من عدة آلاف من العوينات. وكل عين من هذه العوينات مزودة بجفن، بحيث يمكن لحيوان الأبت إغلاق العديد منها كما يشاء. وكان هناك أيضًا حيوانات البانث[298] ، والكالوت، والدارسين[299] ، والأورلوك[300] ، والسيث[301] ، والسوراك، والأولسيو، والعديد غيرها من الوحوش والحشرات والرجال، بما في ذلك حتى رجل كلديني[302] وهو واحد من رجال العنكبوت الغريبة في بانتوم. وما إن وضعوني في قفصي، حتى أصبحت على الفور غنيمة المعرض. ولا بد أن أعترف أنني كنت إلى حد بعيد أبشع مخلوق في حديقة الحيوان هذه. وربما يجب أن أفتخر بهذا التميُز؛ لأنني جذبت اهتمامًا أكثر بكثير من أكثر الوحوش البشعة ترويعًا التي نجح جال هاد في جمعها.

---

(296) الأبت: مخلوق وحشي، يسكن القطب الشمالي في المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Apt - المترجمة.

(297) أوكار: مملكة تضم المريخيين الصُّفر الذين يعيشون في المناطق الشمالية المتجمدة من المريخ - – https://barsoom.fandom.com/wiki/Okarالمترجمة.

(298) البانث: حيوان مفترس شرس متعدد الأرجل، أصلع تقريبًا مثل جميع الحيوانات المريخية إلا من شعر كثيف خشن كبير كالأسد حول رقبته السميكة. جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشر أرجل قوية؛ وفكاه الضخمان مجهزان بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية؛ وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراوان هائلتان وجاحظتان وتضيفان لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع – http://barsoom.wikia.com/wiki/Banth - المترجمة.

(299) دارسين: نوع من الزواحف الصغيرة على كوكب المريخ، يُغير ألوانه لتتواءم مع الخلفية، تمامًا كما تفعل الحرباء على كوكب الأرض - - https://barsoom.fandom.com/wiki/Darseenالمترجمة.

(300) أورلوك: هو وحش شرس يشبه الفيل، يوجد على وجه الحصر تقريبًا في مناطق أقصى شمال المريخ - - http://barsoom.wikia.com/wiki/Orlukالمترجمة.

(301) سيث: حشرة مفترسة ضخمة موطنها منطقة كاول على المريخ، ويستخدم الرجال الحُمر في كاول أكياسها المسممة في الأسلحة - - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sithالمترجمة.

(302) الكلدينيون: عِرق مريخي شديد الذكاء، يسكن في منطقة صغيرة في برسوم تُعرف باسم بانتوم وغير معروفه للعالم خارجها - - https://barsoom.fandom.com/wiki/Kaldaneالمترجمة.

وقفت حشود تحملق أمام قفصي، نكزني كثيرون منهم بالعصي أو ألقوا نحوي بالحصى أو بقطع من الطعام. وجاء الآن أحد الخدم ومعه لوحة، أتيحت لي فرصة قراءتها قبل أن يعلقها بالقرب من أعلى قفصي لإفادة الجمهور عني: هورماد من موربوس، وحش شبيه بالإنسان أمكن العثور عليه في المستنقعات التونولية الكبرى.

وبعد ساعتين تقريبًا من وجودي في قفصي، دخلت كتيبة من حرس القصر إلى الشارع وطردت جميع المتفرجين من حديقة الحيوان. وسمعت بعد بضع دقائق أصوات أبواق تأتي من أقصى نهاية الشارع. نظرت،

ورأيت عددًا من الرجال والنساء يقتربون.

سألت الرجل الأحمر في القفص المجاور: «ماذا الآن؟».

تطلع نحوي الزميل كما لو أنه فُوجئ بقدرتي على الكلام، وقال: «سيأتي جال هاد ليراك. وسيفخر بك جدًّا؛ فلا يوجد شيء آخر مثلك في العالم».

قلت: «قد يعرف بمرور الوقت أن الأمر ليس كذلك، وعندئذ قد يأسف لأن هناك الملايين مثلي ويخطط زعماؤهم لاجتياح برسوم كلها والاستيلاء عليها».

ضحك الرجل الأحمر على ذلك، لكنه لم يكن ليضحك لو كان يعرف ما أعرفه.

كانت المجموعة الملكية تقترب، ويسير جال هاد أمام الآخرين بعدة خطوات. كان بدينًا، يتسم فمه بالوحشية وتتسم عيناه بالمراوغة. جاء وتوقف أمام قفصي. اقترب الآخرون وتوقفوا وراءه، ورأيت أن جاناي كانت واحدة منهم. تطلعت نحوي، ورأيت الدموع تتشكل في عينيها. قال جال هاد، بعد أن ظل يتفحصني للحظات: «رائع. أراهن أنه لا توجد عينة أخرى مثله في أي مكان في العالم». ثم التفت نحو مرافقيه، وسألهم: «ما رأيكم فيه؟».

«إنه مدهش»، أجابوا جميعًا – في تناغم تام عمليًّا - ما عدا جاناي؛ فقد بقيت صامتة.

ركز جال هاد نظرته على جاناي، وسألها: «ما رأيكِ فيه يا حبيبتي؟».

أجابت: «أفكر فيه كثيراً. تور-دور-بار صديقي، وأعتقد من العار الشديد حبسه في قفص هكذا».

سألها: «هل تريدين إذَنْ أن تتجول الوحوش البرية في جميع أنحاء المدينة؟».

- تور-دور-بار ليس وحشًا بريًّا؛ إنه صديق شجاع ومخلص. ولولاه، لكنت في عِداد الموتى منذ فترة طويلة؛ وعلى الرغم من أن موتي ربما كان أفضل بالنسبة لي، فلن أكَف أبدًا عن تقديري للمخاطر والمصاعب التي عانى منها من أجلي.

قال جال هاد بكرم: «ولهذا يجب مكافأته. سوف يحصل على فضلات الطعام من المائدة الملكية».

يا للعجب! أنا، نبيل من هيليوم، أحصل على الغذاء من بقايا طعام مائدة جال هاد، أمير أمهور. على أنني واسيت نفسي بفكرة أن بقايا طعام مائدته سيكون على الأرجح أفضل كثيرًا من الطعام الذي يقدمونه عادة إلى وحوش حديقة الحيوان؛ ويمكنني بسهولة ابتلاع كبريائي مع بقايا طعامه.

لم تتوفر لي فرصة، بطبيعة الحال، للتحدث مع جاناي، ولذا لم أتمكن من معرفة ماذا حدث لها، وما المستقبل المطروح أمامها، إذا كانت هي تعرف.

سألني جال هاد: «قل لي شيئًا عن نفسك. هل أنت مجرد شخص غريب المظهر، أم هناك كثيرون مثلك؟ كيف كان أبوك وأمك؟».

أجبت: «ليس لديَّ أب وأم، وهناك الكثير من أمثالي، الملايين منّا».

سألني: «لا أب ولا أم؟ لا بد أن مخلوقًا من نوع ما وضع البيضة التي خرجت منها».

أجبت: «لم أخرج من أي بيضة».

قال جال هاد: «حسنًا، أنت لست فقط أغرب شخص رأيته من قبل، لكنك أيضًا أكبر كاذب. ربما تتحسن أخلاقك عند ضربك، حتى لا تكذب على جال هاد».

قالت جاناي: «إنه لم يكذب، لقد قال لك الحقيقة».

سألها: «وأنتِ أيضًا، هل تظنين أنتِ أيضًا أنني أحمق؟ يمكنني أن أضرب نسائي أيضًا، مثل حيواناتي، إذا أسأن التصرف».

قلت: «أنت تثبت أنك أحمق بالتأكيد؛ لأنك سمعت الحقيقة من كلينا، وحتى الآن لا تصدقها».

صاح ضابط من الحرس: «صمتًا! هل أقتل هذا الوحش الوقح يا جال هاد؟».

أجاب الأمير: «لا. إنه ثمين جدًّا. ربما يُضرَب فيما بعد». تساءلت عمن سيجرؤ على الدخول إلى قفصي ليضربني، أنا الذي يمكنه تمزيق أطراف رجل عادي.

استدار جال هاد وابتعد، وخلفه أفراد مجموعته. وبعد خروجهم من الشارع، سُمِح للجمهور بالدخول ثانية؛ وبقيت، إلى أن حل الظلام، متحملاً تحديق وإهانات الرعاع الثرثارين. وأدركت الآن بأي ازدراء يجب على الوحوش في الأقفاص أن تنظر إلى البشر الذين يثرثرون ويحدقون فيهم.

بدأ إطعام الحيوانات بعد طرد الحشود من حديقة الحيوان؛ ذلك أن جال هاد اكتشف أن الوحوش المأسورة تزدهر بشكل أفضل إذا لم تكن الحشود المحدقة تراقبهم عندما يتناولون طعامهم، وبالتالي سمح لحيواناته أن تأكل في سلام وفي عزلة كما تتيح أقفاصهم. لم يقدموا لي الطعام مع الآخرين، وإنما جاء صبي عبد بعد فترة وجيزة من قصر جال هاد ومعه سلة مملوءة ببقايا مائدة الأمير.

جحظت عينا الصبي بانبهار ورهبة وهو يقترب من قفصي وينظر نحوي. كان هناك باب صغير في واجهة قفصي بالقرب من الأرض، ويمكن تمرير الطعام من خلاله؛ لكن الواضح أن الصبي خاف أن يفتح الباب، خشية أن أمسك به.

قلت: «لا تخف. لن أؤذيك. أنا لست وحشًا مسعورًا».

اقترب، ثم فتح الباب قليلاً بهدوء وقال: «أنا لست خائفًا»؛ لكنني كنت أعرف أنه خائف.

سألته: «أنت من أين؟».

أجاب: «من دوهور».

قلت: «يعيش هناك صديق لصديقي».

- ومن هو؟

أجبت: «فاد فارو».

- آه، فاد فارو! رأيته كثيراً. كنت سأعمل ضمن حرسه عندما أنهي تدريبي. لقد تزوج من فالا ديا، أميرتنا. إنه محارب عظيم. ومَن هو صديقك الذي هو صديقه؟

أجبت: «جون كارتر، أمير هيليوم وأمير الحرب في المريخ».

اتسعت عيناه وقال: «جون كارتر، هل تعرفه؟ مَن ذا الذي لم يسمع عنه، أعظم مبارز في برسوم كلها؟ ولكن كيف يمكن لمثلك أن يكون صديقًا لجون كارتر؟».

قلت: «قد يبدو غريبًا لك، لكن جون كارتر، في الحقيقة، هو أعز صديق لي».

سألني الرجل الأحمر في القفص المجاور: «وماذا تعرف عن جون كارتر؟ أنا من هيليوم، ولا يوجد في الإمبراطورية كلها مخلوق مثلك. أعتقد أنك كاذب كبير. كذبت عليَّ، وكذبت على جال هاد، وتكذب الآن على هذا العبد الصغير. ماذا تعتقد أنك ستكسبه بقول الكثير من الأكاذيب؟ ألم تسمع أبدًا أن المريخيين يفتخرون بصدقهم؟».

قلت: «أنا لم أكذب».

قال الرجل الأحمر ساخرًا: «أنت لا تعرف حتى شكل جون كارتر».

قلت: «لديه شعر أسود، وعينان رماديتان، ولون بشرته أفتح من بشرتك؛ وقد جاء من جاسوم، وتزوج من ديجاه ثوريس، أميرة هيليوم. وعندما وصل إلى برسوم، قبض عليه رجال ثارك الخُضر. وقد حارب في أوكار، أرض الرجال الصُّفر في أقصى الشمال؛ وحارب الثيرن[303] في وادي دور؛ كما حارب على طول وعرض برسوم؛ وآخر مرة رأيته كنا معًا في موربوس».

فوجئ الرجل الأحمر وصاح: «باسم سلفي الأول، أنت تعرف الكثير عن جون كارتر. ربما كنت تقول الحقيقة».

نظر العبد الشاب نحوي باهتمام شديد. ورأيت أنني أثرت إعجابه كثيرًا. كان أملي أن أفوز بثقته، ثم أفوز بعد ذلك بصداقته؛ لأنني أردت صديقًا لي في قصر جال هاد، أمير أمهور.

قال: «لقد رأيت جون كارتر إذَنْ، وتحدثت معه، ولمسته. آه، يا للروعة!».

قلت: «ربما يأتي إلى أمهور في يوم ما. وإذا جاء، قل له إنك تعرف تور-دور-بار، وإنك كنت لطيفًا معه، وعندئذ سيصبح جون كارتر صديقك أيضًا».

قال: «سأكون لطيفًا معك بقدر ما أستطيع، وإذا كان هناك أي شيء يمكنني أن أفعله لك، يسعدني القيام به».

---

(303) الثيرنيون أو الثيرن: هم عِرق مريخي أبيض البشرة وأصلع، يرتدون باروكات شقراء، ويتمتعون بقوى عقلية خارقة http://barsoom.wikia.com/wiki/Thern – المترجمة

قلت: «هناك شيء يمكنك أن تقوم به من أجلي».

سألني: «ما هو؟».

«اقتربْ أكثر، لكي أهمس لك»، تردد الشاب. «لا تخف. لن أؤذيك».

اقترب من القفص وسألني: «ماذا تريد؟».

ركعت وقربت شفتي منه: «أريد أن أعرف كل ما يمكن عن الفتاة جاناي؛ أعني، ما يحدث لها في قصر جال هاد، وما سيحدث لها».

قال: «سوف أخبرك بكل ما أستطيع معرفته»، ثم أخذ سلته الفارغة وابتعد.

* * *

الفصل (25)

أمير في حديقة للحيوانات

جاءت وولت أيام رتيبة؛ لم يخفف وطأتها سوى الحديث مع الرجل الأحمر في القفص المجاور، وزيارتين يوميًّا من العبد الشاب من دوهور، وكان اسمه أورم-أو.

تطورت صداقة بيني وبين الرجل الأحمر من هيليوم. كان اسمه أور راج؛ وعندما أخبرني به، تذكرت أنني التقيت به منذ عدة سنوات. كان من هاستور، وهي مدينة تقع على حدود الإمبراطورية، كما كان يحمل رتبة بادوار ويعمل على متن إحدى السفن الحربية التي تتمركز هناك. سألته إذا كان يتذكر ضابطًا يُدعى فور داج، وقال إنه يتذكره تمامًا.

سألني: «هل تعرفه؟».

أجبت: «أعرفه معرفة حميمة. وفي الواقع، لا أعرف أحدًا في العالم معرفة جيدة مثلما أعرفه».

سألني: «وكيف عرفته؟».

أجبت: «كان في موربوس مع جون كارتر».

قال: «كان ضابطًا رائعًا. أتذكر حديثًا طويلاً معه عندما جاء الأسطول الكبير إلى هاستور».

- لقد تناقشتما حول اختراع كنت تعمل عليه، من شأنه أن يكشف ويحدد موقع سفن العدو على مسافة كبيرة، وذلك عن طريق صوت محركاتها. وأنت اكتشفت أنه لا يوجد محركان يُصدران نفس الاهتزازات، وتمكنت من تطوير أداة تسجل هذه الاهتزازات بدقة على مسافات كبيرة. كما قمت بتقديمه أيضًا إلى شابة جميلة جدًّا كنت تأمل أن تتزوجها.

اتسعت عينا أور راج في دهشة، وسألني: «وكيف تسنى لك أن تعرف هذه الأمور؟ لا بد أنكما صديقان حميمان بالفعل، حتى يحكي لك خلاصة الأحاديث التي جرت قبل سنوات مع غريب نسبيًّا».

أجبت: «لم يُخبرني أو يُخبر أي شخص آخر عن اختراعك؛ لأنه وعدك أنه لن يقول شيئًا حوله إلى أن تنتهي منه تمامًا وتعرضه على بحرية هيليوم».

سألني: «وإذا كان لم يخبرك، كيف عرفت هذه الأشياء؟».

أجبت: «هذا لن تعرفه أبدًا؛ ولكن عليك أن تطمئن أن فور داج لم يُسئْ أبدًا لثقتك فيه».

أعتقد أن أور راج كان مذعورًا مني بعض الشيء بعد ذلك، متصورًا أنني أتمتع بقوى خارقة للطبيعة أو غامضة. لاحظته أكثر من مرة محدِّقًا نحوي باهتمام وهو يجلس القرفصاء على أرضية قفصه، ولا شك أنه كان يحاول فهم ما بدا لغزًا لا يجد له تفسيرًا.

أصبح الفتي العبد، أورم-أو، ودودًا جدًّا؛ ويخبرني بكل ما يمكن أن يعرفه عن جاناي، وكان قليلاً أو لا شيء. عرفت منه أنها لم تكن في خطر مباشر؛ لأن أقدم زوجة لجال هاد تولت حمايتها. كان لجال هاد عدة زوجات؛ لكنه كان يخشى هذه الزوجة الأولى أكثر من أي شيء على الأرض. وقد عارضت طويلاً مقاسمة محبة جال هاد مع نساء أخريات؛ ولم تكن ترغب في زيادة عددهن، وخاصة مع امرأة شابة وجميلة مثل جاناي. «هناك شائعات»، قال أورم-أو، «أنها سوف تبعد جاناي عن طريقه عند أول فرصة. وهي مترددة الآن بسبب خوفها من أن جال هاد قد يقتلها، في فورة غضبه، إذا فعلت ذلك؛ لكنها قد تجد وسيلة لتحقيق ذلك دون أن يشك فيها. وفي واقع الأمر، قابلت جانتون جور، قاتل أمهور، عدة مرات مؤخرًا، بعد أن عاد من الأسر. ويمكنني أن أقول لك إنني لا أود أن أكون في وضع جاناي، لا سيما إذا كان جانتون جور يستمع إلى فانوما ويقبل ما تود تكليفه به».

تسببت هذه المعلومات في قلقي كثيرًا على رفاه جاناي. كنت على يقين، بالطبع، أن جانتون جور لن يقتلها؛ لكن ذلك لن يمنع فانوما من العثور على وسيلة أخرى، إذا كانت قد قررت تدمير جاناي. وطلبتُ من أورم-أو تحذير جاناي، وقال إنه سيفعل إذا وجد أي فرصة.

كان الخطر الذي يهدد جاناي في ذهني باستمرار، وشعرت بارتباك بسبب قدرتي على مساعدتها. لو كان هناك شيء يمكنني فعله، ولكن لا يوجد. شعرت بأنني عاجز تمامًا، وأن وضع جاناي ميؤوس منه بالقدر نفسه.

كانت تمر علينا أحيانًا بعض الأيام المملة في حديقة الحيوان. وإنما كقاعدة، كان هناك تدفق مستمر من الناس يمر على طول الشارع بين

الأقفاص، ويتجمع دائمًا حشد قليل أمام قفصي عندما لا يزدحم الشارع بأولئك الذين جاءوا ووقفوا يتطلعون نحوي لساعات طوال. هناك دائمًا وجوه جديدة؛ وهناك مَن أصبحت أتعرف عليهم لأنهم يأتون كثيراً. وفي يوم من الأيام، رأيت جانتون جور بين الحشد. شق طريقه نحوي، مثيراً الكثير من التذمر وبعض الكلمات القاسية؛ ولكن عندما يتعرف عليه شخص ويتداول البعض اسمه، يفتح الجمهور الطريق أمامه، فلا أحد يرغب في معاداة قاتل أمهور. يا لها من سُمعة اكتسبها القاتل الأصلي!

قال وهو يقترب من القفص: «كاور، تور-دور-بار».

أجبت: «كاور، جانتون جور. من الجيد أن أراك ثانية؛ وأود أن أتحدث معك على انفراد».

قال: «سوف أعود، بعد طرد الزوار. كما ترى، أنا أصبحت شخصية مميزة في أمهور وفي القصر. لا أحد يرغب في معاداتي، ولا حتى جال هاد».

اعتقدتُ أن اليوم لن ينتهي أبدًا، ولن يغادر الزوار أبدًا. مضت الساعات متثاقلة بلا نهاية؛ وأخيراً قاد الحراس الجمهور إلى الخارج، وظهرت في الشارع العربات التي تحتوي على طعام الحيوانات. جاء أورم-أو ومعه بقايا الطعام؛ ولم تظهر أي علامة على وصول جانتون جور. وتساءلت عما إذا كان قد هجرني مرة أخرى، أم أن تفاخره بالتميُّز كان مجرد أسطورة. كنت متلهفًا على رؤيته بشكل خاص؛ لأني وضعت أخيراً خطة أعتقد أنها قد تفيد جاناي. سألت أورم-أو عن أي شيء عنها، لكنه هز رأسه وقال إنه لم يرها في القصر لعدة أيام.

قلت بتخوف: «ربما فانوما دمرتها».

قال: «ربما. آخر ما سمعته أنها لم تعامل جاناي جيدًا كما كانت في البداية. ويقول البعض إنها تجلدها الآن كل ليلة».

لم أستطع أن أتخيل فانوما أو أي شخص آخر يجلد جاناي، فهي ليست من النوع الذي يتلقى الجلد بخنوع.

كان الظلام قد حل تقريبًا وتخليت عن كل أمل في مجيء جانتون جور، عندما رأيته يقترب من قفصي. قال: «كاور، تور-دور-بار! لقد تأخرت؛ ليس لشخص أقل من جال هاد نفسه، فقد جاء للتحدث معي».

سأل أور راج: «مَن يريد أن يقتل الآن؟».

أجاب جانتون جور: «أراد فقط أن يتأكد أنني لا أخطط لقتله. هل تعرف أنني أفضل أن أكون ما أنا عليه - رئيس رابطة القتلة - من أن أكون أمير أمهور! قوتي غير محدودة، ويخشاني الجميع؛ فبينما أنا معروف، جميع القتلة الآخرين في الرابطة غير معروفين؛ وحتى مَن يريدون التآمر ضدي، يخافون من القيام بذلك لئلا يعلم جواسيسي بالأمر».

قلت مبتسمًا: «لقد قطعت شوطًا طويلاً من مبنى المختبر، جانتون جور. وإنما قل لي، هل جاناي ما زالت تعيش؟ هل هي بخير؟ هل هي آمنة؟».

- إنها تعيش وعلى ما يرام، لكنها ليست آمنة؛ ولا يمكن أن تكون آمنة في أمهور. ولن تكون حياتها آمنة على الأقل ما دامت فانوما تعيش. وأنا لست في حاجة بالطبع إلى أن أقول لك إنني وجميع قتلة الرابطة لن ندمر جاناي؛ لكن فانوما قد تجد شخصًا آخر يقوم بهذه المهمة، أو حتى تقوم بها بنفسها يأسًا. ولذلك توصلت إلى أن أفضل شيء يمكنني القيام به هو قتل فانوما.

اعترضتُ: «كلا، كلا. ففي اللحظة التي تخرج فيها فانوما من الطريق، لن يوجد مَن يحمي جاناي من جال هاد».

قال جانتون جور وهو يهرش في رأسه: «هذا صحيح. لم أضع هذه المرحلة من المسألة في الاعتبار. وفي الواقع، ليس الأمر سيئًا بالنسبة إلى جاناي؛ لأنها سوف تصبح أميرة أمهور؛ وما رأيته من زوجة جال هاد الأخرى، يجعلني أقول إن جاناي سوف تصبح الملكة بلا منازع».

قلت: «لكنها لا ترغب في الزواج من جال هاد. فور داج يحبها. وعلينا إنقاذها من أجله».

قال جانتون جور: «يرقد فور داج كرجل ميت في الحُفر تحت مبنى المختبر في موربوس، ومن المؤكد أن الرعب الذي خرج من غرفة الأحواض رقم 4 قد أحاط به وربما التهمه منذ فترة طويلة. لا، لا، تور-دور-بار، على الرغم من إعجابي بولائك لفور داج، اعتقد أنه انتهى. ولا أنت، ولا أنا، ولا جاناي، سوف نراه ثانية أبدًا».

- ومع ذلك، علينا أن نفعل ما في وسعنا لإنقاذ جاناي من أجله؛ لأني لم أتخلَّ عن الأمل في إنقاذ فور داج في يوم ما.

سألني: «حسنًا، هل لديك خطة إذَنْ؟».

قلت: «نعم، لديَّ خطة».

سألني: «وما هي؟».

- يجب أن يصل إلى فانوما -حتى إن أبلغتها بنفسك- أن جال هاد عرف أنها تحاول توظيف القتلة لتدمير جاناي، وأنه أقسم إذا ماتت جاناي، بغض النظر عن السبب، فسوف يدمر فانوما فورًا.

قال جانتون جور: «ليست فكرة سيئة. يمكنني إيصال ذلك إلى فانوما فورًا من خلال إحدى إمائها».

قلت: «سأتنفس الصعداء عندما أعرف أنك فعلت ذلك».

نمت بالتأكيد في تلك الليلة أفضل من نومي منذ فترة طويلة؛ لأنني شعرت - مؤقتًا على الأقل – أن جاناي في أمان. وكان جيدًا لراحة بالي أنني لا أعرف ماذا سيحمله صباح اليوم التالي.

* * *

الفصل (26)

لدغة الأفعى

قُسمت زنزانتي أفقيًّا بواسطة حاجز، بحيث أصبح الجزء الأمامي منها يطل على الشارع، بينما يضم الجزء الخلفي غرفة مظلمة بها نافذة واحدة صغيرة وباب ثقيل في الجدار الخلفي. وكانت هذه بمثابة غرفة نومي، وكان سريري عبارة عن كومة من النباتات الصفراء الشبيهة بالطحالب التي تغطي قيعان البحر الميت في برسوم. وترتبط الغرفتان بباب منزلق، يرتفع وينخفض عن طريق حبل يمر فوق بكرة تقع خارج القفص. عندما أكون في الغرفة الأمامية، يقوم الخدم بخفض الباب والدخول إلى الغرفة الخلفية لتنظيفها، والعكس صحيح؛ فلا يغامر أحد بالدخول إلى أي غرفة منها والوجود معي بمفرده. ولا بد لي من القول إن جال هاد كان يحرص على بقاء أقفاصنا نظيفة إلى حد معقول؛ إذ أدرك أن بإمكانه بهذه الطريقة الحفاظ على حالتنا الصحية، وليس بسبب امتلاكه لأي غريزة إنسانية.

في الصباح التالي لزيارة جانتون جور، أيقظتني أصوات قرع الطبول والنغمات الحزينة الصادرة من آلات النفخ التي تنتج موسيقى أشبه بالموسيقى الجنائزية. أصبح النوم مستحيلاً، فخرجت إلى ضوء النهار في الغرفة الأمامية ورأيت أور راج يقف ضاغطًا وجهه على قضبان قفصه وينظر نحو القصر.

سألته: «لماذا الموسيقي؟ هل يحتفلون بشيء؟».

أجاب بابتسامة: «ربما، مع أن هذه الموسيقى تعني موت أحد أفراد العائلة الملكية».

قلت: «لنأمل أن يكون جال هاد».

أجاب أور راج: «ربما لسنا محظوظين إلى هذا الحد».

وصل الخدم إلى الشارع لإطعام الحيوانات، وسألناهم عندما وصلوا إلى قفص أور راج عن الشخص الذي مات؛ لكنهم قالوا إن الأمر ليس من شأننا، وتركونا. ما من سبب بالطبع لعدم إخبارنا إذا كانوا يعرفون، وإنما يبدو أن معاملتنا كوحوش برية وليس كرجال يعطيهم شعورًا بأهمية أكبر، فليس من المفترض أن تعرف الوحوش البرية أي شيء عن شؤون أسيادها.

لم يكن الرجل الأخضر في القفص المجاور جارًا ودودًا. وأعتقد أنه استاء لأنني جذبت اهتمامًا أكثر منه. لم يتوجه لي بحديث أبدًا، وكان يجيبني بكلمة من مقطع واحد أو لا يجيب على الإطلاق في الأوقات القليلة التي حادثته فيها. وربما يرجع ذلك إلى أنهم عِرق متجهم وقليل الكلام بطبعه؛ لكنه الآن، وبشكل غير متوقع تمامًا، خاطبني.

قال: «إذا كان جال هاد قد مات، سيحدث ارتباك لعدة أيام. أنا هنا منذ فترة طويلة، وعرفت الكثير. وأعرف أن هناك العديد من الذين يرغبون في خلافة جال هاد؛ وإذا مات، ستدخل أمهور في حرب أهلية. وهذا هو الوقت المناسب لكي نحاول الهرب».

قلت: «لو كنت أتصور وجود أي فرصة للهرب، لم أكن لأنتظر موت جال هاد».

قال الرجل الأخضر: «لا توجد فرصة لنجاح أي خطة للهرب إلا عندما يحدث شيء يعطل انضباط الحرس ويلقي بالمدينة إلى حالة من الاضطراب. وإذا حدث ذلك، لديَّ خطة قد تنجح».

سألته: «ما هي؟».

«اقتربْ من القضبان لأهمس لك، فلا أريد أن يسمعني أحد. لا يستطيع رجل بمفرده إنجاز الأمر، وأعتقد أن بإمكاني الوثوق بك وبالرجل الأحمر في القفص المجاور لقفصك. لقد راقبتكما بعناية، وأعتقد أنكما تتمتعان بالشجاعة والذكاء لمساعدتي في تنفيذ خطتي بنجاح». ثم شرح لي همسًا وبالتفصيل خطته. لم تكن سيئة، وربما تضم عناصر النجاح. طلب مني الرجل الأخضر أن أشرح خطته لأور راج، وفعلت ذلك. استمع الرجل الأحمر باهتمام، ثم أومأ براسه.

وقال: «سواء فشلنا أو نجحنا، فهذا على الأقل أفضل من البقاء هنا في الأسر مدى الحياة».

قلت: «أتفق معك تمامًا، وإذا كانت حياتي فقط هي التي في خطر، لكنت على استعداد لهذه المحاولة في أي وقت؛ لكنني يجب أن أنتظر الفرصة المناسبة لإنقاذ جاناي معي».

سألني أور راج: «ولماذا تهتم بالفتاة الحمراء جاناي؟ فهي بالتأكيد لن تنظر مرتين إلى أي شخص بشع مثلك».

قلت: «لقد وعدت فور داج أنني سأحميها؛ ولذا لا أستطيع الذهاب من دونها».

قال أور راج: «فهمت. وبقدر عدم نجاح أي خطة للهرب، علينا أن نخطط أيضًا لأخذ جاناي معنا. فعلى الأقل، لن يعقد ذلك الأمور. ومن حسن الحظ أنهم لا يستطيعون منعنا من الأحلام، يا تور-دور-بار. ونظرًا لأن الأحلام تمثل كل السعادة التي يحق لنا توقعها، علينا الاستفادة منها إلى أقصى درجة، وأن نحلم بما يستحق العناء بالفعل. سأحلم أننا سننجح؛ وأننا سندمر جال هاد، وأنني سأصبح أمير أمهور. وسوف أمنحك رتبة دوّار يا تور-دور-بار. وفي الواقع، أمنحك الرتبة من الآن». ضحك من قلبه على مزحته الصغيرة، وضحكت معه.

وقلت: «لكني كنت برتبة بادوار في موربوس».

- أوه، حسنًا، سأمنحك هنا رتبة بادوار. اعتبر أنك حصلت على ترقية.

لم يجد الرجل الأخضر شيئًا مضحكًا في ما نقول، حيث يأخذ كل شيء حرفيًّا. لا يتمتع عِرقه بحس الفكاهة كما نفهمه، ولا يبتسمون أو يضحكون إلا عندما يشاهدون معاناة الآخرين. لقد رأيتهم يقعون على الأرض من الضحك وهم يشاهدون معاناة بعض الضحايا التي تفوح منهم رائحة أشد أنواع التعذيب وحشية. توقف حديثنا حول هذا الموضوع بوصول أورم-أو ومعه سلة فضلات الطعام لإفطاري.

سألته: «ماذا حدث، يا أورم-أو؟ لماذا هذه الموسيقى؟».

سألني: «أتعني أنك لم تسمع بالأمر؟ لقد ماتت فانوما. أخبرتني إحدى إمائها أنها بلا شك ماتت مسمومة؛ وهناك اشتباه في جال هاد».

- فانوما ماتت! ماذا سيحدث لجاناي الآن؟

تأثرنا قليلاً نحن نزلاء حديقة الحيوان بما حدث في القصر بعد وفاة فانوما، وذلك لسبب واحد. فقد ظلت أرض القصر مغلقة أمام الجمهور إلى أن انتهت مراسم الجنازة التي جرت بعد خمسة أيام من وفاتها، ولذا تطلعنا إلى فترة شعرت أنها قد تكون فاصلاً من البهجة والسلام والهدوء؛ لكنني سرعان ما اكتشفت أنها لم تكن ممتعة كما توقعت، حيث وجدت رتابتها لا تطاق. قد يبدو غريبًا أنني افتقدت ثرثرة الرعاع، وأدركت أنها أتاحت لنا قدرًا من التسلية والترفيه والإلهاء بمثل ما أتحناه لهم.

وعرفت خلال تلك الفترة من أورم-أو شيئًا أراح ذهني بقدر ما يتعلق الأمر بجاناي، لفترة من الزمن على الأقل. فقد أخبرني أن آداب البلاط تتطلب فترة حداد مدتها سبعة وعشرين يومًا، تمتنع خلالها الأسرة الملكية عن جميع الملذات؛ لكنه أخبرني أيضًا أن جال هاد يخطط للزواج من جاناي بعد انقضاء هذه الفترة مباشرة.

والشيء الآخر الذي عرفته منه هو أن عائلة فانوما تعتقد أن جال هاد قد تسبب في تسميمها. كانت عائلتها من النبلاء الأقوياء ومن أصول ملكية، ويطمح أحدهم أن يصبح أمير أمهور. وقد كان - واسمه دور أجماد - أكثر شعبية بكثير من جال هاد، ونفوذه كبير في الجيش خارج قوات جال هاد الشخصية.

لولا أورم-أو، لم نكن نحن نزلاء حديقة الحيوان لنعرف أي شيء عن كل هذا؛ لكنه أبقانا على دراية جيدة، بحيث كنا قادرين على متابعة الأحداث في القصر والمدينة تمامًا مثل أي مواطن عادي في أمهور. وبمرور الأيام، رأيت أن مِزاج زوار حديقة الحيوان قد تغير. أصبحوا يتسمون بالتوتر والعصبية، ويلقون العديد من النظرات في اتجاه القصر. زاد ازدحام الناس في الشارع بين الأقفاص، لكني شعرت أنهم يأتون لمعرفة ما قد يحدث في أراضي القصر أكثر من مجرد النظر إلينا. تجمعت مجموعات تتحدث بهمس دون أي اهتمام بنا؛ ومن الواضح أن أشياء أكثر أهمية من الوحوش البرية كانت تشغلهم.

وفي أحد الأيام، قرب انتهاء فترة الحداد، سمعت في وقت مبكر من الصباح طنينًا متقطعًا لأسلحة المريخ النارية؛ فضلاً عن دعوات بالبوق وصيحات بأوامر. أغلق الحراس البوابات التي كانوا قد فتحتوها للتو لدخول الجمهور؛ وباستثناء الكتيبة التي بقيت لحراسة البوابة، ركض الخدم والمحاربون على حد سواء في اتجاه القصر.

كان الوضع مثيراً للغاية؛ لكنني لم أنسَ خلال هذه الإثارة ما قد تعنيه لي ولجاناي، كما لم أنسَ الخطة التي ناقشناها معًا أنا والرجل الأخضر وأور راج. وهكذا، عندما رأيت واحدًا من آخر الخدم الذين يركضون في الشارع نحو القصر، ألقيت نفسي على أرضية قفصي وتقلبت في معاناة واضحة، وصرخت طالبًا منه أن يأتي. لم أكن أعرف ما إذا كانت الحيلة ستنجح، فلا بد أن الرجل أراد أن يذهب مع الآخرين ليرى ماذا يحدث

في القصر. لكني راهنت على حقيقة معرفته أنه إذا حدث أي شيء لأحد ممن يتولى مسؤوليتهم، لا سيما إن كان ذا قيمة كبيرة مثلي، فلا شك أن جال هاد سوف يعاقبه على تركه لموقعه؛ وعقوبات جال هاد مميتة في أغلب الأحيان.

تردد الزميل للحظة وهو يلتفت وينظر في اتجاهي. تحرك ثانية نحو القصر، لكنه استدار بعد بضع خطوات وركض إلى قفصي. صاح: «ما الأمر أيها الوحش؟».

صحت: «يوجد أحد الزواحف الغريبة في غرفة نومي، وقد لدغني. سوف أموت».

سألني: «أين لدغك؟».

صحت: «في يدي، تعال وانظر».

اقترب، وعندئذ مددت يدي بين القضبان بسرعة وأمسكته من حلقه. كنت سريعًا وأطبقت على قصبته الهوائية بإحكام بحيث لم تكن لديه فرصة للصياح. ضغط كل من أور راج والرجل الأخضر نفسه بين قضبان قفصيهما لمشاهدتي. لم يَرَ سوى ثلاثتنا الحارس يموت.

سحبت جسمه إلى أعلى حتى أتمكن من الاستيلاء على المفاتيح التي تتدلى من حلقة في عتاده، ثم تركته يسقط على الأرض. وصلت بسهولة إلى القفل الذي يوصد الباب في الجزء الأمامي من القفص، وخرجت من القفص خلال عدة ثوان. ومن هناك زحفت بسرعة تحت الأقفاص إلى الخلف، حتى لا يرى مَن يمر في الشارع ما أفعل. أطلقت سراح الرجل الأخضر وأور وراج، ووقفنا للحظات نناقش مدى استصواب تنفيذ خطتنا بالكامل. كان تنفيذها محفوفًا بالمخاطر، لكننا شعرنا أنها قد تثير وضعًا يتيح لنا الارتباك الذي يعقبه فرصة أفضل للهرب.

قال أور راج موافقًا: «نعم؛ كلما زاد الارتباك، زادت فرصنا للوصول إلى القصر والعثور على جاناي».

يجب أن أقول إن الخطة بأكملها كانت طائشة ويائسة، وربما كانت فرصة نجاحها تصل إلى واحد في مائة مليون.

قلت: «حسنًا، هيا بنا».

وجدنا خلف الأقفاص عددًا من العصي والمهاميز التي يستخدمها الخدم للسيطرة على الوحوش. تسلحنا بها وبدأنا نتحرك نحو الأقفاص السفلية، وهي أقرب إلى البوابة وأبعد من القصر. كنت مُسلحًا أيضًا بالسيف القصير والخنجر اللذين أخذتهما من الخادم الذي قتلته، لكني لم آمل الاستفادة منهما كثيرا إذا ما فشلت خططنا.

بدأنا بأقرب قفص من البوابة، وأطلقنا سراح الحيوانات، ثم قدناهم أمامنا على طول الجانب الخلفي من الأقفاص في اتجاه القصر.

كنت أخشى ألا نتمكن من السيطرة على الحيوانات، وأنها قد تنقلب علينا وتدمرنا؛ لكن التجربة سرعان ما علمتني أنهم يخافون من المهاميز الحادة التي يستخدمها الحراس، والتي استخدمناها لتهديدهم وحثهم على السير. تحرك حتى حيوانا الأبت الكبيرين والقرود البيضاء بتجهم أمامنا. كان هناك في البداية القليل من الضجيج أو الارتباك، مجرد هدير منخفض من الحيوانات أكلات اللحوم وشخير عصبي من الحيوانات التي تقتات على الأعشاب. ومع تقدمنا، وزيادة أعداد الوحوش وأنوعها، زاد

حجم الأصوات إلى أن تصاعد رنين الهواء مع خوار حيوانات الزيتيدار وأنين الثوات التي أصابها الجنون، فضلاً عن زئير وهدير البانث والأبت وعشرات من الوحوش الأخرى التي تتحرك بعصبية أمامنا.

تفصل البوابة، المغلقة دائمًا، حديقة الحيوان عن الأراضي المحيطة بالقصر مباشرة. وقد تركها الخدم مفتوحة اليوم، نتيجة الأوضاع المثيرة؛ وبالتالي قُدنا الوحوش من خلالها إلى أرض القصر دون عقبات.

انضمت حاليًا جميع وحوش حديقة الحيوان الرهيبة إلى تلك الجوقة الفظيعة من الشراسة، وهم في أعلى درجات الانفعال والتوتر العصبي بسبب هذه الحرية غير المعتادة وارتفاع أصوات زملائهم، بحيث لا يمكن ألا يسمعها أحد داخل أراضي القصر، أو بعده بمسافة. وأرى الآن الخدم الذين تركوا مواقعهم يعودون نحونا وهم يركضون. رأتهم الوحوش أيضًا، ولا بد أن بعض أكثر الوحوش ذكاء -مثل القرود البيضاء الكبيرة- قد تذكرت الإهانة والقسوة التي انهالت عليهم خلال أسرِهم؛ لأنهم واصلوا طريقهم، وهم يزمجرون ويهدرون ويزأرون غضبًا، لمواجهة الحراس، وهجموا عليهم ودمروهم. وبعد أن زادت إثارتهم بمذاق الدم والانتقام، تحولوا نحو الجنود الذين يتولون مسؤولية الدفاع عن البوابات التي كانت تهددها قوات دور أجماد.

وهذا تحديدًا ما كنا نأمل في حدوثه؛ لأنه أثار وضعًا أتاح لي، ومعي أور راج والرجل الأخضر، أن ندخل القصر من باب جانبي دون أن يرانا أحد.

نجحت أخيراً في دخول القصر، حيث جاناي سجينة؛ لكن خطة تحويل الوضع لصالحنا كانت لا تزال بعيدة مثل القمر الأبعد. كنت في القصر، ولكن أين جاناي وسط تلك الكومة الضخمة؟

* * *

الفصل (27)

هروب محفوف بالمخاطر

كانت الغرف والممرات في ذلك الجزء من القصر الذي دخلناه مهجورة، وكان النزلاء إمَّا يختبئون وإمَّا يدافعون عن البوابات.

سألني الرجل الأخضر، واسمه بال تاب: «ماذا نفعل الآن، بعد أن دخلنا هنا؟ أين المرأة الحمراء؟».

قال أور راج: «إنه قصر كبير؛ وسوف يستغرق البحث وقتًا طويلاً، حتى لو لم تصادفنا أي عوائق. لكننا قطعًا، وقبل مرور فترة طويلة، سنجد محاربين يسدون طريقنا».

قال بال ناب: «هناك شخص قادم من هذا الممر. أستطيع أن أسمعه».

ينحني الممر إلى اليسار، أمامنا مباشرة. وجاء حاليًا من هذا المنحنى شاب تعرفت عليه فورًا. كان أورم-أو، وركض بسرعة نحوي.

قال: «رأيتك من أحد النوافذ العلوية تدخل القصر، فأتيت بأسرع ما يمكن لمقابلتك».

سألته: «أين جاناي؟».

قال: «سوف أخبرك، لكنهم سيقتلونني إذا عرفوا. ربما أنت تأخرت؛ لأن جال هاد ذهب لزيارتها في شقتها، على الرغم من أن فترة الحداد لم تنتهِ».

قاطعته قائلاً: «أسرعوا». انطلق أورم-أو مهرولاً على طول الممر، وبعده أور راج، وبال تاب، وأنا. قادنا إلى أسفل المنحدر الحلزوني، وطلب منا أن نصعد إلى المستوى الثالث ثم نتوجه يمينًا ونتبع ممرًّا إلى نهايته. وهناك سنجد الباب المؤدي إلى شقق جاناي.

وقال: «إذا كان جال هاد مع جاناي، ستجدون حراسًا في الممر وعندئذ ستقاتلون، لكنكم لن تواجهوا أي أسلحة نارية لأن جال هاد -خشية الاغتيال- لا يسمح لأحد سواه أن يحمل أسلحة نارية في القصر».

شكرت أورم-أو، ثم صعد ثلاثتنا السلم الحلزوني. وما إن وصلنا إلى المستوى الثالث، حتى رأيت محاربين يقفان أمام باب في نهاية ممر قصير. يوجد خلف هذا الباب جال هاد وجاناي.

توجه المحاربان نحونا، بمجرد أن شاهدونا، امتشقا سيفيهما.

سأل أحدهم: «ماذا تريد هنا؟».

أجبت: «أود أن أرى جال هاد».

فقال: «لا يمكنك رؤية جال هاد. عودوا إلى أقفاصكم، حيث تنتمون».

أجاب بال تاب بأن أطاح بالمحارب بالمهماز المعدني الذي يحمله، واشتبكتُ في الوقت نفسه تقريبًا مع المحارب الآخر في مبارزة بالسيوف. كان المحارب مبارزاً جيدًا بشكل ملحوظ، لكنه لم يستطع التعامل مع مَن تتلمذ على يد جون كارتر، فضلاً عن تمتعي بميزة إضافية وهي يدي الطويلة بشكل غير طبيعي وقوتها الهائلة.

انتهيت منه بسرعة، فلم أرد أن أتأخر كثيراً، ولا أن أزيد من معاناته.

كان بال تاب يبتسم، لأنه يستمتع برؤية الرجال يموتون. وقال: «ذراعك التي تمسك بالسيف جيدة»؛ يا له من ثناء كبير من مريخي أخضر.

خطوت فوق جسم خصمي، وفتحت باب الغرفة ودخلت. وجدت غرفة انتظار صغيرة، وكانت شاغرة. رأيت بابًا آخر في أقصى نهاية هذه الغرفة، تناهت من ورائه أصوات ترتفع في غضب أو انفعال. ركضت بسرعة ودخلت الغرفة الثانية، حيث وجدت جال هاد يمسك جاناي بين ذراعيه. كانت تكافح لتهرب من قبضته، وتضربه. وكان وجهه أحمر من الغضب، ورأيته يرفع قبضته ليضربها.

صحت: «توقف!»، استدار كلاهما وشاهداني.

صاحت جاناي: «تور-دور-بار!»، وكان بصوتها نبرة الشعور بالارتياح.

عندما رآنا جال هاد، دفع جاناي بخشونة وأخرج مسدسه الراديوم. قفزت نحوه، وقبل أن أصل إليه، انطلق مهماز معدني من فوق كتفي واستقر في قلب أمير أمهور قبل أن يتمكن من رفع مسدسه أو الضغط على الزناد. كان بال تاب هو مَن ألقى بالمهماز، وربما أنا مدين له بحياتي.

أعتقد أننا دهشنا جميعًا من جراء المفاجأة، وهزتنا ضخامة الحدث. وقفنا للحظة في صمت ننظر إلى جسم جال هاد.

قال أور راج: «حسنًا، لقد مات. ماذا سنفعل الآن؟».

قالت جاناي: «يمتلئ القصر وأراضيه بالخدم. وسوف يقتلوننا جميعًا إذا اكتشفوا ما فعلناه».

قال بال تاب: «علينا أن نشتبك نحن الثلاثة معهم في معركة تظل طويلاً في ذاكرتهم».

قال أور راج: «إذا وجدنا مكانًا نختبئ فيه إلى أن يحل الظلام، أنا متأكد من أننا نستطيع الخروج من أراضي القصر، بل ومغادرة المدينة أيضًا».

سألت جاناي: «هل تعرفين أي مكان يمكننا الاختباء فيه إلى أن يحل الظلام؟».

قالت: «كلا، لا أعرف أي مكان لن يبحثوا فيه».

سألتها: «ماذا يوجد في الطابق العلوي؟».

أجابت: «الحظيرة الملكية، حيث توجد طائرات جال هاد الخاصة».

أعربت لا إراديًّا عن صيحة ارتياح: «يا للحظ! لا شيء يناسب هدفنا أفضل من إحدى طائرات جال هاد».

قالت جاناي: «لكن الحراسة عند الحظائر جيدة. فكثيراً ما رأيت المحاربين يمرون أمام بابي لتبديل نوبات الحراسة. ولم يقل عددهم أبدًا عن عشرة».

قال أور راج: «قد لا يوجد عدد كبير منهم اليوم؛ لأن جال هاد احتاج إلى كل قواته للدفاع عن بوابات القصر».

قال بال تاب: «إذا كان عددهم عشرين، ستصبح المعركة أفضل. دعونا نأمل ألا يكون عددهم قليلاً».

أعطيت مسدس الراديوم الخاص بجال هاد إلى أور راج، ثم خرجنا نحن الأربعة إلى الممر وصعدنا السلم الحلزوني إلى الحظيرة على السطح. أرسلت أور راج أولاً، لأنه أصغر حجمًا من بال تاب ومني، ويمكنه استطلاع الأمر باحتمالات اكتشاف أقل؛ كما أنه رجل أحمر وهذا مفيد للاستعانة به في الاستطلاع؛ لأنه لن يثير الشك بسرعة مثلي أو مثل

بال تاب. تحركنا نحن الثلاثة خلفه على مسافة قصيرة. وعندما وصل إلى نقطة يمكنه رؤية السطح عندها، توقفنا وانتظرنا.

عاد إلينا الآن وقال: «لا يوجد في الحراسة سوى رجلين. إنها مسألة سهلة».

اقترحتُ: «لننقض عليهما. إذا أخذناها على حين غرة، قد لا يتطلب الأمر قتلهم». على الرغم من أنني رجل أتمتع بالخبرة وشاركت في العديد من النزاعات، ما زلت أكره رؤية الرجال يموتون وخاصة بيدي، ما دام يمكن ترتيب الأمور بشكل مختلف. ويبدو أن الشابين اللذين يحرسان الحظيرة الملكية على السطح لم يكن يهمهما أن يعيشا أو يموتا، لأنهما هاجمانا بمجرد رؤيتنا. وعلى الرغم من أنني وعدتهما بعدم الإيذاء إذا استسلما، فقد استمرا في التوجه نحونا بحيث لم يكن أمامنا سوى الاشتباك معهما.

وقبل وصولهما إلينا، تحدث أحدهما بصوت خافت إلى الآخر، الذي ما كان منه إلا أن استدار وركض بأسرع ما يمكن عبر السطح؛ ثم اشتبك رفيقه الشجاع معنا. وبنظرة سريعة نحو الرجل الثاني، رأيته يختفي خلال باب مسحور في السطح؛ ومن الواضح أنه ذهب لاستدعاء مساعدات، بينما ضحى زميله بحياته لاحتجازنا. وما إن أدركت ذلك، حتَّى قفزت لإغلاق الباب وقتلت المحارب، وإن كان يجب أن أعترف أنني لم أقتل رجلاً من قبل بهذا القدر من عدم الاستمتاع. كان هذا المحارب البسيط بطلاً، إذا كان هناك أبطال؛ وبدا من العار أن أقتله، ولكن إما حياته وإما حياتنا.

ولمعرفتي أن الأمر قد يتطور فورًا إلى مطاردة، استدعيت الآخرين وأسرعنا إلى الحظيرة، واخترت طائرة تبدو سريعة ويمكن أن تسعنا جميعًا.

كنت أعرف أن بإمكان أور راج قيادة سفينة فضائية؛ ولذا أمرته بتولي لوحات التحكم، وخلال لحظات كنا ننزلق بسلاسة من الحظيرة عبر السطح.

نظرت بمجرد أن أقلعنا إلى أرض القصر في أسفل، حيث ارتفعت صرخات الوحوش وصيحات المحاربين؛ كما رأيت سقوط البوابة ورجال دور أجماد يدخلون للقضاء على بقايا قوات جال هاد.

وعندما ارتفعنا في الهواء، رأيت زورق دورية على مسافة بعيدة يستدير ويتجه نحونا. أمرت بال تاب وجاناي بالانخفاض فورًا، وأعطيت بعض التعليمات إلى أور راج، ثم انخفضت أيضًا حتى لا يرانا أحد من أفراد طاقم زورق الدورية.

اقترب الزورق بسرعة. وعندما أصبح على مسافة تسمح بالتخاطب، سأل عمن في السفينة وإلى أين تتوجه. أجاب أور راج -بناء على تعليماتي- بأن جال هاد هو مَن يوجد

في أسفل، وأنه أعطى أوامر بعدم الإفصاح عن وجهتنا. ربما ساورت الشكوك قائد زورق الدورية في ما

يتعلق بصحة هذا الكلام، وإنما من الواضح أنه شعر بعدم ضرورة معاداة الأمير إن كان على متن السفينة وأصدر هذه الأوامر بالفعل؛ ولذا تركنا نواصل طريقنا، لكنه بدأ في تتبعنا. وقبل أن نخرج من حدود المدينة، رأيت ما لا يقل عن دزينة من الطائرات تطاردنا. يبدو أن حارس الحظيرة الذي نجا قد دق ناقوس الخطر. وربما وجدوا جثة جال هاد. وعلى أي حال، كان من الواضح تمامًا أننا مطاردون. وعندما تجاوزن السفن الأخرى زورق الدورية وتحدث معه، انطلقت أيضًا وراءنا بأقصى سرعة.

* * *

الفصل (28)

الأسطول الكبير

كانت سرعة الطائرة التي استولينا عليها تماثل تقريبًا نفس سرعة السفن الكبيرة التي تطاردنا؛ لكن قارب الدورية كان أسرع، ومن الواضح أنه سيتمكن في النهاية من اللحاق بنا.

كشف مسح متسرع للزورق عن وجود بنادق على رفوف في الطابق السفلي، ومدفع صغير عند مقدمته وعند الجزء الخلفي على السطح. أطلقوا جميعًا القذائف المريخية المتفجرة المعتادة، التي عرفها المريخ عبر العصور. إن ضربة واحدة مباشرة لأي جزء حيوي من السفينة قد يعطلها بسهولة، وكنت أعرف أن طائرة الدورية سوف تبدأ في إطلاق النار بمجرد اقترابها. صعدت إلى سطح السفينة ما إن أدركت أننا لم نعُد نخدع الأمهوريين، ووقفت بجانب أور راج أحثه على زيادة السرعة.

قال: «لقد بلغت سفينتنا الآن أقصى حدود سرعتها؛ لكنهم لا يزالون يقتربون منا. ومع ذلك، لا أعتقد أن علينا أن نقلق كثيراً. ربما لم تلاحظ أن هيكل هذه السفينة يتمتع بحماية جيدة، وعلى الأرجح أنها مدرعة أفضل من السفن الأخرى؛ لأن جال هاد شخصيًّا هو مَن كان يستخدمها. ولن يتمكنوا من تعطيل سفينتنا إلا بضربة مباشرة تصيب لوحات التحكم أو الدفة، ما لم يزدد اقترابهم ويشنون هجومًا مُركزًا؛ لكننا نقدر، بما لدينا من أسلحة، على منع ذلك».

انضمت لي جاناي وبال تاب على سطح السفينة، ووقفنا ثلاثتنا نراقب قارب الدورية الذي يطاردنا ويقترب منا باطراد.

«هناك!»، قالت جاناي، «إنهم يطلقون النار».

قال بال تاب: «لم يتحقق لهم ما أرادوا، والنطاق متسع على أي حال».

قلت متوقعًا: «لكنهم سرعان ما يصححون ذلك، ونصبح في مرمى نيرانهم».

طلبت من جاناي وبال تاب النزول إلى أسفل، فلا معنى للمخاطرة بحياتهم على سطح السفينة دون داع.

قلت له: «عندما نصبح في مرمى نيرانهم يا بال تاب، سأطلب منك أن تصعد وتحضر معك بندقيتين أو ثلاثًا».

ذهبت إلى المدفع الموجود في مؤخرة السفينة، ووجهته نحو قارب الدورية، وعندئذ سقطت طلقة أخرى قبل أن تصل إلينا. قمت بضبط مدفعنا بعناية شديدة، وأطلقت النار.

صاحت جاناي: «رائع! لقد أصبتهم من أول ضربة». استدرت، ورأيت جاناي وبال بات راكعين ورائي.

كان درع المدفع يحمينا، إلا أنني ما زلت أعتقد أن الوضع يتسم بالخطورة؛ لكنهما لن ينزلا إلى أسفل إلا لإحضار العديد من البنادق وقدر أكبر من إمدادات الذخيرة.

وعلى الرغم من أن طلقة مدفعي كانت مباشرة، فلم تلحق بقارب الدورية أي أضرار؛ فهي لم تُبطئ سرعة القارب ولم تتداخل مع نيرانه.

بدأ زورق الدورية ينحرف قليلاً نحو اليمين، بقصد الوصول إلى موضع يتيح له أن يشن هجومًا مركزًا.

يطلق كلانا النار الآن بشكل مستمر، وتنطلق بين الحين والآخر قذيفة تضرب درع المدفع أو الهيكل وتنفجر.

نصحت أور راج بالحفاظ على مسار مستقيم؛ لأننا إذا حاولنا الحفاظ على مؤخرة سفينتنا وهدفنا الأصغر في اتجاه مطاردينا الأعداء، علينا أن نغير مسارنا وعندئذ سنُدفع إلى منحنى واسع قد يتيح للسفن الأكبر اللحاق بنا، وبالتالي يتمكنون بالتأكيد من تدميرنا أو القبض علينا.

استمرت معركة الهروب إلى أن أصبحت أمهور بعيدة خلفنا. كنا نحلق بسرعة فوق مساحات شاسعة تدفقت عليها في يوم ما محيطات المريخ الجبارة، وأصبحت الآن أراض قاحلة لا تضم سوى البدو الرُحل من الرجال الخضر الأفظاظ. كان زورق الدورية يقترب باطراد، كما تقدم قليلاً أسطول من السفن الكبيرة ليوضح أنهم أسرع إلى حد ما من طائرتنا. وكان زورق الدورية يزحف ببطء نحونا، لكنه لا يزال على مسافة كبيرة. توقفوا عن إطلاق النار، وأشاروا لنا الآن كي نستسلم. وجاء ردنا، أنا وبال تاب، بأن وجهنا مدفعي المقدمة والمؤخرة نحوهم. أعادوا إطلاق النار علينا بهجوم مركز بجميع أسلحتهم. سحبتُ جاناي إلى أسفل بجانبي وراء الدرع الواقي؛ لكن بال تاب لم يكن محظوظًا. رأيته يقف بكامل طوله ويسقط إلى الخلف من على جانب الطائرة.

حزنت لفقدان بال تاب، ليس لأنه قلص قوتنا الدفاعية فقط، وإنما لفقدان رفيق مخلص ومقاتل رائع. لكنه رحل، والحداد لن يفيد. لقد مات بالطريقة التي أرادها، أن يموت وهو يقاتل؛ ويرقد جسده حيث كان يتمنى، على الطحلب الأصفر في قاع البحر الميت.

يستمر الآن انفجار المقذوفات على جانبي طائرتنا المُدرعين، وكان درع المدفع بمثابة حمايتنا. أما أور راج، فهو يتمتع بحماية وافرة في مقصورة الطيار، حيث كانت مدرعة بدرجة كبيرة.

كان ثلاثتنا في أمان كاف إذا بقينا وراء حمايتنا؛ لكنني لم أعرف إلى متى يمكن أن يصمد جانب الطائرة المدرع أمام هذا القصف المستمر من القذائف المنفجرة.

أشرت إلى أور راج، لجذب انتباهه إلى محاولة الارتفاع أعلى زورق الدورية؛ فقد نتمكن من تعطيلها إذا أطلقنا عليها النار من أعلى.

وما إن بدأنا في الارتفاع، حتَّى ناداني أور راج وأشار إلى الأمام. التقت عيناي بمشهد خطف أنفاسي. يقترب أعلانا، بل بالفعل فوقنا تقريبًا، أسطول من سفن الحرب الكبيرة التي لم نلحظها لانشغالنا بالمعركة التي نشتبك فيها.

كنت على يقين من حجم السفن وعددها أنها ليست من أمهور؛ لكنني لم أتمكن، من موقعنا أدناها، من قراءة الشارات على مقدماتها، ولا رؤية الألوان التي ترفرف من هياكلها الخارقة. على أي حال، وبغض النظر عن الأمة التي يمثلها هذا الأسطول، لن نكون في أيديهم أسوأ حالاً مما لو وقعنا في أيدي الأمهوريين؛ ولذا أخبرت أور راج أن يوجه مساره نحوه سفن الأسطول ويحاول أن يجد موقعًا بينهم وبين زورق الدورية، على أمل أن يكف الزورق عن إطلاق النار تجنبًا لاحتمال ضرب إحدى سفن الأسطول، الذي يمكن أن تدمر مدافعه الكبيرة الزورق في لحظة. ولم يُخطئ توقعي، فقد أوقف قارب الدورية إطلاق النار على الرغم من استمراره في متابعتنا.

نقترب بسرعة حاليًا من سفينة القيادة في الأسطول. وأرى الرجال يطلون من جوانبها نحونا، وها هي السفينة الكبيرة تتباطأ الآن.

ارتفعنا مقتربين من مقدمتها، وهتف أور راج فجأة في سعادة: «أسطول من هيليوم!». ثم شاهدت أنا أيضًا الشارة على مقدمة السفينة، وقفز قلبي لأنني عرفت أن هذا يعني إنقاذ جاناي.

رحبوا بنا وسألونا مَن نحن. أجبت: «أور راج من هاستور، وهو بادوار في بحرية هيليوم، ومعه اثنان من أصدقائه هاربان من السجن في مدينة أمهور».

طلبوا منا أن نصعد على متن السفينة، فقاد أور راج طائرتنا فوق درابزين السفينة الحربية وهبط على سطحها الواسع.

نظر الضباط والرجال نحوي مندهشين وأنا أهبط إلى سطح السفينة وأحمل جاناي كي تهبط؛ ثم انضم إلينا أور راج.

وفي غضون ذلك، اكتشف زورق الدورية الأمهوري هوية الأسطول بوضوح؛ لأنه استدار مسرعًا نحو السفن الأمهورية الشقيقة. وسرعان ما انطلق مطاردونا جميعًا نحو أمهور بأقصى سرعة؛ لأنهم يعرفون أن أور راج من هيليوم، ويخشون الانتقام لاحتجازه في الأسر.

أخذونا – أنا وجاناي وأور راج - إلى الضابط القائد، ولم يجد أور راج صعوبة في إقناعه بهويته. سأله الضابط مُشيراً نحوي ونحو جاناي: «وهذان الاثنان الآخران؟».

أجبت: «أنا صديق فور داج؛ وكذلك هذه الفتاة جاناي. لقد خدمتُ جون كارتر أيضًا بإخلاص، وسوف تسعده معرفة أنني ما زلت في قيد الحياة وحالتي جيدة».

سألني الضابط: «هل أنت تور-دور-بار؟».

أجبت: «نعم. وكيف عرفت؟».

- كان هذا الأسطول في طريقه إلى أمهور بحثًا عنك وعن الفتاة، جاناي.

سألته مندهشًا: «وكيف عرفت أننا كنا في أمهور؟».

أجاب: «المسألة بسيطة جدًّا. كان الأسطول يُعيد جون كارتر وراس ثافاس إلى موربوس. وبالأمس، ونحن نحلق بانخفاض فوق المستنقعات الكبرى، رأينا رجلاً أحمر يطارده الهمج. وكانت زوارقهم على وشك اللحاق به، فألقينا قنبلة لتفريقهم. ثم انخفضنا أكثر وأحضرنا الرجل على متن سفينتنا. قال إن اسمه باندار، وأنه يهرب من موربوس. وعرف جون كارتر عندما استجوبه أن طائرة من أمهور قد أمسكت بكما، أنت والفتاة جاناي. وقد أمر الأسطول على الفور بالتوجه إلى أمهور لإنقاذكما».

قلت: «لكنك لم تصل بسرعة. أخبرني، هل جون كارتر وراس ثافاس أحياء؟».

قال: «نعم. وهم على متن السفينة روزار».

لقد كنت أفخر دائمًا بقدرتي على السيطرة الكاملة على انفعالاتي؛ إلا أنني مع هذا الدليل النهائي على أن جون كارتر وراس ثافاس أحياء، اقتربت من الانهيار كما لم يحدث لي أبدًا من قبل طوال حياتي. فقد جعلني الشعور بالارتياح، بعد أشهر طويلة من الشك وعدم اليقين، أكاد أنهار؛ لكنني تماسكت. وبعد لحظة، أطل شك آخر برأسه القبيح. لا يزال جون كارتر وراس ثافاس أحياء؛ ولكن، هل لا يزال جسم فور داج موجودًا؟ وإذا كان في مكانه، هل في قدرة المرء استعادته؟

* * *

الفصل (29)

العودة إلى موربوس

وسرعان ما انتقلنا إلى السفينة روزار، حيث استقبلني جون كارتر وراس ثافاس بحرارة.

عندما حكيت قصتي، وأكد لهما أور راج أنه لم يعُد هناك المزيد من سجناء هيليوم في أمهور، أمر جون كارتر الأسطول أن يغير طريقه ليتجه ثانية إلى موربوس.

أخبرت راس ثافاس عن الحادث الذي وقع في غرفة الأحواض رقم 4 ونتائجه، وقد أثار قلقه كثيراً.

قال: «هذه مسألة سيئة، سيئة للغاية. وقد لا نتمكن أبدًا من إيقافه. لنأمل ألا يصل إلى جسم فور داج».

صاحت جاناي: «أوه، لا تقل ذلك. يجب إنقاذ فور داج».

قال جون كارتر: «لقد عُدت بهذا الأسطول لإنقاذ فور داج، ويمكنك أن تطمئني إلى أننا لن نعود من دونه، الا إذا كان تعرض للدمار».

استفسرت من جون كارتر، وأنا خائف وأرتجف، عن حالة ديجاه ثوريس الصحية.

أجاب: «لقد استعادت عافيتها تمامًا، بفضل راس ثافاس. وبعد أن يأس كبار جراحي هيليوم جميعًا، نجح راس ثافاس المعجزة في استردادها لأفضل حالة صحية».

سألته: «هل وجدت أي صعوبة في العودة إلى هيليوم من موربوس؟».

أجاب: «واجهتنا بعض الصعوبات. اشتبكنا طوال الرحلة من موربوس إلى فوندال في معركة واحده مستمرة مع حشرات، ووحوش، وزواحف ورجال من الهمج. أما كيف نجونا ونجحنا في مواصلة طريقنا، فهذا لغز بالنسبة لي؛ لكن دور-دان وراس ثافاس قاتلا جيدًا بالسيف والخنجر، وكدنا أن نصل إلى الطائرة دون أن يهلك أحدنا. لكن دور-دان قُتل، قبل وصولنا إليها بيوم واحد، في معركة مع بعض الهمج المتوحشين- آخر مَن واجهناهم في المستنقعات. واستغرقت الرحلة بين موربوس وفوندال معظم الوقت؛ ثم كان علينا أن نقضي بعض الوقت في هيليوم بالطبع، بينما تخضع ديجاه ثوريس للعلاج.

وكنت مقتنعًا بأنك ستجتاز المحنة بشكل ما. فأنت قوي، وذكي، وواسع الحيلة؛ على أن ثقتي كانت لتتقوض لو عرفت ما حدث في غرفة الأحواض رقم 4».

قلت: «إنها كارثة رهيبة؛ ربما كارثة عالمية، وكان المشهد أكثر ترويعًا من أي شيء رأيته على الإطلاق. لا يمكن القضاء على تلك الكتلة؛ لأنك حتى لو تمكنت من تقطيعها، ستستمر في النمو والانتشار».

في ذلك المساء، وأنا أمشي على سطح السفينة، رأيت جاناي تقف بمفردها عند الدرابزين. ولمعرفتي أنني أثير اشمئزازها، لم أفرضْ نفسي عليها أبدًا؛ لكنها أوقفتني هذه المرة.

قالت: «تور-دور-بار، أتساءل عما إذا كنت قد شكرتك بما يكفي لكل ما قمت به من أجلي».

قلت: «لا أنتظر أي شكر. يكفي أنني تمكنت من خدمتك وخدمة فور داج».

نظرت لي عن كثب، وقالت: «ماذا يعني لك الأمر، يا تور-دور-بار، إذا لم يسترد فور داج جسمه؟».

قلت: «سأكون قد فقدت صديقًا».

- وسوف تعيش في هيليوم؟

قلت: «لا أعرف إن كنت سأهتم بالعيش».

سألتني: «لماذا؟».

- لأنه لا يوجد مكان في العالم لوحش بشع مثلي.

قالت بلطف: «لا تقل ذلك، يا تور-دور-بار. أنت لست بشعًا؛ لأن لديك قلبًا طيبًا. في البداية، قبل أن أعرفك، كنت أعتقد أنك بشع؛ لكنني لا أرى الآن، يا صديقي، سوى جمال ونُبل شخصيتك».

كان ذلك لطيفًا للغاية منها، وقلت لها ذلك؛ لكنه لم يغير حقيقة بشاعة مظهري إلى درجة معرفتي أنني سوف أخيف النساء والأطفال باستمرار إذا وافقت على الذهاب إلى هيليوم.

قالت: «حسنًا، أعتقد أن مظهرك لن يفرق كثيراً في هيليوم؛ لأنني مقتنعة بأنك سوف تحظى بالعديد من الأصدقاء. ولكن، ماذا سيحدث لي إن تعذر إنقاذ فور داج؟».

- لا تخشي أي شيء، سوف يرعاكِ جون كارتر.

قال بإصرار: «لكن جون كارتر ليس مُلزَمًا بي».

- ومع ذلك، سوف يعتني بكِ.

سألتني: «وهل ستأتي لرؤيتي، تور-الدور-بار؟».

قلت: «إذا كنتِ ترغبين في ذلك»؛ لكنني كنت أعرف أن تور-دور-بار لن يعيش للذهاب إلى هيليوم.

ركزت بصرها نحوي في صمت للحظة، ثم قالت: «أعرف ما يدور في عقلك، تور-دور-بار! أنت لن تأتي أبدًا إلى هيليوم كما أنت. وإنما الآن، وبعد أن عاد راس ثافاس، لماذا لا يعطي مخك جسمًا جديدًا، كما فعل لكثير من الهورماد الآخرين الأقل جدارة؟».

أجبت: «ربما؛ ولكن أين أجد جسمًا؟».

قالت هامسة: «هناك جسم فور داج».

قلت: «هل تعنيين أنكِ تودين مخي في جسم فور داج؟».

سألت: «ولِمَ لا؟ لقد كان مخك أفضل وأعز صديق لي. وأخبرني سايتور أن مخ فور داج تدمر. ربما كلامه صحيح، وفي هذه الحالة أعرف أنه كذب عندما قال إنك مَن تسببت في تدميره؛ ذلك أني أعرفك جيدًا الآن وأعرف أنك لا يمكن أن تظلم صديقًا. وإنما إذا كان جسمه قد تدمر بمحض الصدفة، فماذا أفضل بالنسبة لي من أن يتولى مخ صديقي تحريك جسم شخص أنا معجبة به؟».

- ولكن، ألن تقولي لنفسك دائمًا 'هذا الجسم لديه مخ هورماد؟ إنه ليس فور داج، بل مجرد شيء نما في حوض'.

أجابت: «كلا. لا أعتقد أن هذا سيحدث أي فارق. لا أعتقد أنني سأجد صعوبة في إقناع نفسي أن المخ والجسم ينتميان معًا، بالمثل كما كان الوضع على العكس من ذلك، حيث كان من الصعب تصور أن المخ الذي يُحرك جسم تور-دور-بار قد نما في حوض من الأنسجة الحيوانية اللزجة».

قلت مازحًا: «إذا وجد لي راس ثافاس جسمًا وسيمًا، أؤكد لكِ أن فور داج سيواجه منافسًا».

رمقتني بنظرة غريبة وقالت: «لا أعتقد ذلك».

تساءلت عما تعنيه بذلك، ولماذا تطلعت نحوي بهذا الشكل الغريب.

ليس من المرجح أنها خمنت الحقيقة، فمن غير المتصور أن يقبل أي رجل نقل مخه إلى جسم هورماد. هل كانت تعني أن فور داج ليس له منافس ناجح؟

هبط الليل ونحن نقترب من المستنقعات التونولية الكبرى. حلّق الأسطول الكبير بمهابة فوق مدينة فوندال؛ وكانت المدينة المضاءة تتألق في الظلام أدنانا، ولم يغامر أي زورق دورية باستجوابنا. وكانت جميع سفننا مضاءة، ولا بد أنها ظلت مرئية لفترة طويلة قبل مرورنا فوق المدينة؛ لكن فوندال، الضعيفة من حيث سفنها، لا يمكن أن تتحدى أي أسطول غريب بحجم أسطولنا. ويمكنني أن أتخيل جِد فوندال يتنفس الصعداء عندما اختفينا في الليل تجاه الشرق.

* * *

الفصل (30)

نهاية عالَمين

اتخذت الأراضي القفر المهجورة التي مررنا بها، فوق المستنقعات التونولية الكبرى، جمالاً ساحرًا غريبًا، أضاف غموضًا في الظلام. وعكست مياهها نجومًا لا تُعد ولا تُحصى، كشف عنها الهواء المريخي الرقيق. كما انعكس ضوء القمرين المارين من البحيرات الساكنة، أو لمس الجزر الصخرية بإشعاع خافت أحالها إلى جزر فاتنة. كنا نرى أحيانًا نيران مخيمات الهمج، وتصل إلى أذاننا خافتة أصوات أغانيهم البربرية ودوي طبولهم عن بُعد، يتخللها صراخ أو خوار شيء وحشي.

جاء جون كارتر إلى جواري بجانب الدرابزين، وقال: «هذه آخر المحيطات الكبيرة. واختفاؤها في نهاية المطاف سيكون بلا شك إيذانًا باختفاء عالَم، وسيظل المريخ إلى الأبد غير مأهول حتى ولو بذكرى واحدة عن عظمته الماضية».

قلت: «يحزنني التفكير في ذلك».

أجاب: «وأنا أيضًا».

قلت لتذكيره: «لكنك تستطيع العودة إلى كوكب الأرض».

ابتسم، ثم قال: «لا أعتقد أن أيًّا منا بحاجة إلى القلق بشأن نهاية المريخ؛ ربما ليس لمليون سنة أخرى على الأقل».

ضحكت، وقلت: «عندما تحدثت عن ذلك، بدت النهاية بشكل ما كما لو أنها قريبة جدًّا».

أجاب: «المسألة نسبية. ليس لدينا هنا سوى مستنقعات ضحلة تُذكرنا بالمحيطات الجبارة التي تدفقت ذات يوم عبر الجزء الرئيس من برسوم. أما على كوكب الأرض، تغطي المياه ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، وتصل إلى عمق يزيد على خمسة أميال. ومع ذلك، سيلقى كوكب الأرض المصير نفسه. سوف تنجرف الجبال أسفل البحار؛ وستتبخر البحار؛ وفي يوم من الأيام، كل ما سيبقى للدلالة على المحيطات العظيمة هو مستنقع تونولي آخر في أرض مقفرة قاحلة في الموضع الذي يتدفق فيه حاليًا المحيط الهادئ العظيم».

قلت: «إنك تثير حزني».

ضحك قائلاً: «حسنًا، دعنا لا نقلق بشأن ذلك. لدينا الكثير من الأمور التي تحتاج إلى تفكير، وأكثر أهمية من نهاية العالَمين. إن مصير الصديق يتجاوز مصير الكوكب. ماذا ستفعل إذا لم تتمكن من استرداد جسمك؟».

أجبت: «لن أعود إلى هيليوم أبدًا بهذا الجسم».

- لا أستطيع أن ألومك. علينا أن نجد لك جسمًا آخر.

قلت: «كلا. لقد فكرت كثيراً في هذه المسالة، وتوصلت إلى قرار نهائي. إذا كان التدمير قد نال جسمي، فسوف أدمر هذا الجسم أيضًا ومعه المخ. هناك أجسام أكثر جاذبية من جسمي، بطبيعة الحال، إلا أنني متعلق به إلى حد عدم حرصي على العيش في جسم شخص آخر».

- لا تأخذ قرارًا متسرعًا يا فور داج.

قلت للتصحيح: «تور-دور-بار، يا أميري».

سألني: «لماذا تواصل هذا التخفي إلى الآن؟».

قلت: «لأنها لا تعرف».

أومأ، ثم قال: «وهل تعتقد أن هذا قد يُحدث فرقًا معها؟».

- أخشى أنها لن تنسى أبدًا هذا الوجه والجسد اللا إنسانيين، وقد تتساءل دومًا ما إذا كان المخ أيضًا لهورماد، حتى مع إعادة وضعه في جمجمة فور داج. لا أحد يعرف إلا أنت وراس ثافاس وأنا، يا أميري. وأتوسل إليك ألا تخبر جاناي بالحقيقة.

قال: «كما تريد، مع يقيني تمامًا أنك ترتكب خطأ. إذا كانت تهتم بك، فلن يحدث ذلك أي فرق بالنسبة لها؛ وإذا كانت لا تهتم بك، فلن يحدث فارقًا بالنسبة لك».

قلت: «لا. أنا نفسي أريد أن أنسى تور-دور-بار، وأريدها بالتأكيد أن تنساه».

قال: «هي لن تنساه أبدًا؛ فقد قالت لي إنها تشعر بعاطفة قوية جدًّا تجاه تور-دور-بار! وإنه أخطر منافس لفور داج».

قلت متوسلاً: «كلا. الفكرة ذاتها مثيرة للاشمئزاز».

قال جون كارتر: «الشخصية هي التي تصنع الرجل، وليس الجسد الطيني الذي يسكنه».

أجبت: «لا، يا صديقي. ولا أي قدر من التفلسف يمكن أن يجعل تور-دور-بار زوجًا مناسبًا لأي امرأة حمراء؛ وعلى الأخص جاناي».

قال موافقًا: «ربما كنت على حق؛ وإنما بعد التضحية الكبيرة التي

قدمتُها لها، أشعر أنك تستحق مكافأة أفضل من الموت بيدك».

أجبت: «حسنًا، ربما يقرر لنا الغد هذه المسألة، وأنا أرى بالفعل أول خطوط الفجر فوق الأفق».

فكر في صمت لبضع لحظات، ثم قال: «ربما تكون أقل الصعوبات التي قد تواجهنا هي الوصول إلى الزنزانة 17-3 وجسم فور داج. على أن ما يقلقني أكثر هو احتمال امتلاء مبنى المختبر بأكمله بالكتلة التي خرجت من غرفة الأحواض رقم 4، وعندئذ سوف يستحيل عمليًّا الوصول إلى مختبر راس ثافاس الذي يحتوي على الأدوات الضرورية لإجراء تلك العملية الحساسة لإعادة مخك إلى جسمك».

أجبت: «توقعت ذلك؛ ولذا أخذت معي، في طريقي للخروج من موربوس، كل ما هو ضروري وتركته في الزنزانة 17-3».

صاح: «جيد! هكذا يشعرني براحة ذهنية إلى حد كبير. فقد ساورنا، أنا وراس ثافاس، قلق عميق بسبب ما وصل إليه يقينه العملي بأننا لن نتمكن أبدًا من الوصول إلى مختبره. وهو يرى ضرورة تدمير موربوس قبل أن نتحقق من نمو الكتلة التي خرجت من غرفة الأحواض رقم 4».

اقتربنا من موربوس مع طلوع النهار. أُرسلت السفن التي حملتنا، باستثناء السفينة روزار، لتطويق الجزيرة بغية اكتشاف مدى انتشار الكتلة من غرفة الأحواض رقم 4.

انخفضت السفينة روزار بحيث أصبحت تبعُد عن الأرض ببضعة ياردات، واقتربت من الجزيرة الصغيرة التي تضم النفق المؤدي إلى الزنزانة 17-3. ومع اقترابنا منها، التقت أعيننا بمشهد مرعب. انتشرت كتلة من الأنسجة المتعرجة المتلوية عبر المياه من جزيرة موربوس الرئيسة وغطت الجزيرة الصغيرة كلية. ارتفعت رؤوس بشعة تنظر نحونا وهي تصرخ متحدية؛ وامتدت أيادٍ لتصل إلينا، بلا جدوى.

بحثت عن مدخل النفق، لكنه لم يكن مرئيًّا؛ فقد غطته بالكامل تلك الكتلة المتلوية. غاص قلبي، فقد شعرت أن الكتلة قد تمكنت بالتأكيد من دخول النفق ووجدت طريقها إلى زنزانة 17-3؛ لأنني كنت على يقين أنها قد تدخل من أي فتحة وتسير وفق أقل المسارات مقاومة إلى أن تواجه أي حاجز يتعذر عبوره.

ومع ذلك تشبثت يائسًا بأمل أنني أغلقت فتحة النفق بشكل جيد، يكفي لمنع الكتلة من المرور فيه. وحتى مع ذلك، كيف يمكننا أن نأمل في الوصول إلى النفق خلال هذا الطوق البشع من الرعب؟

وقف جون كارتر عند درابزين السفينة مع عدد من أفراد الطاقم. ووقفت أنا وجاناي وراس ثافاس بجانبه. كان يحدق برعب واضح في نتيجة ما صنعه راس ثافاس. أصدر تعليماته الآن لأفراد طاقمه، وغادر اثنان منهم لتنفيذها. انتظرنا صامتين، فقد أخرسنا الرعب المتصاعد تحتنا، صارخًا ومثرثرًا ومتلويًا.

تقف جاناي بالقرب مني، وتشبثت الآن بذراعي. إنها المرة الأولى التي تلمسني فيها بمحض إرادتها. همست: «يا له من رعب! يستحيل أن جسم فور داج لا يزال موجودًا، فلا بد أن تلك الكتلة البشعة قد انتشرت في كل مكان خلال المباني وأيضًا خارج أسوار المدينة».

هززت رأسي. لم يكن لديَّ ما أقوله. ضغطت جاناي على ذراعي بقوة. قالت: «تور-دور-بار، أعطني وعدًا أنك لن تقوم بأي تصرف طائش إذا فُقِد جسم فور داج».

قلت: «دعينا لا نفكر في ذلك».

- لكننا يجب أن نفكر في الأمر؛ ويجب أن تعدني.

هززت رأسي، وقلت: «أنتِ تطلبين الكثير. لا يمكن أن أشعر بالسعادة ما دمت أحتفظ بجسم هورماد». أدركت عندئذ أنني تماديت في الحديث، وإنما يبدو أنها لم تلاحظ ذلك، بل ظلت واقفة في صمت تنظر إلى أسفل نحو الشيء المروع تحتنا.

بدأت السفينة روزار في الارتفاع الآن، إلى أن أصبحت على مسافة خمسمائة أو ستمائة قدم من الأرض، ثم ثبتت ثانية فوق ذلك الجزء من الجزيرة الصغيرة حيث تقع فتحة الكهف مباشرة. سقطت الآن قنبلة حارقة، وتلوت الكتلة صارخة وهي تنفجر، وانتشرت محتوياتها الملتهبة في جميع الاتجاهات.

لن أسرد حجم الرعب؛ لكن القنابل استمرت تسقط إلى أن تبقت مجرد كتلة متفحمة من اللحم يتصاعد منها الدخان، وتقع داخل دائرة يبلغ نصف قطرها مائة قدم من فتحة الكهف. ثم انخفضت السفينة روزار مقتربة من الأرض، وأنزلوني باستخدام بكرة هبوط وتبعني راس ثافاس، وخلفه مائتا محارب مسلحون بالسيوف والمشاعل المتقدة، حيث هاجموا

على الفور الكتلة التي كانت تزحف بالفعل إلى الوراء لتغطي الأرض التي فقدتها.

كان قلبي مضطربًا عندما بدأت العمل لإزالة التراب والحجارة التي كنت قد أغلقت بها مدخل النفق. ولم أرَ خلال عملي أي علامة على اختراق المدخل، وها هو الآن مفتوح أمامي، وكدت أن أصرخ فرحًا لأن فتحة النفق كانت فارغة.

لا أستطيع أن أصف مشاعري وأنا أجتاز هذا النفق الطويل ثانية لأصل إلى الزنزانة 17-3. هل جسدي لا يزال هناك؟ هل لا يزال كاملاً وفي أمان؟ استحضرت كل أنواع الأشياء الفظيعة التي ربما تعرض لها جسمي خلال غيابي الطويل. ركضت بسرعة خلال النفق المظلم لمعرفة الحقيقة، وأخيرًا، وبيدين مرتعشتين، رفعت غطاء الباب المسحور الذي يقود من النفق إلى الغرفة في أعلى. وبعد لحظة وقفت في الزنزانة 17-3. وكان جسم فور داج يرقد في مكانه كما تركته.

سرعان ما وصل راس ثافاس، وتنفس الصعداء أيضًا عندما وجد الجسم والأدوات اللازمة دون مساس.

رقدت على لوح الإرسايت بجانب جسمي دون انتظار لتعليمات راس ثافاس. وانحنى راس ثافاس فوق جسمي ليبدأ عمله. شعرت بإجراء شق طفيف وبقليل من الألم، ثم غبت عن الوعي.

* * *

الفصل (31)

نهاية المغامرة

فتحت عينيَّ. كان راس ثافاس يميل نحوي. يرقد بجانبي جسم الهورماد تور-دور-بار. امتلأت عيناي بالدموع، دموع ارتياح وسعادة وفرح لم أشعر بمثلها من قبل في حياتي؛ ليس لمجرد استعادتي لجسدي، وإنما لأنني أستطيع الآن أن أضعه أمام أقدام جاناي.

قال راس ثافاس: «هيا يا بُني. نحن هنا منذ فترة طويلة، والكتلة تتلوى وتصرخ في الممر خلف الباب. دعنا نأمل ألا تنجح في استعادة الأرض التي فقدتها في الطرف الآخر من النفق».

قلت: «حسنًا، دعنا نعود على الفور». نزلت من فوق الطاولة، ووقفت على قدمي. كنت متصلبًا بعض الشيء، ولاحظ راس ثافاس ذلك.

قال: «سينتهي هذا خلال لحظات؛ فقد كنت ميتًا لفترة طويلة»، وابتسم.

وقفت للحظة أتطلع نحو جسم تور-دور-بار الغريب. قال راس ثافاس: «لقد خدمك جيدًا».

وافقته قائلاً: «نعم، وأفضل مكافأة أستطيع أن أقدمها له هي النسيان الأبدي. سوف نتركه هنا، مدفونًا إلى الأبد في هذه الحُفر تحت المبنى، حيث شعر بالحياة لأول مرة. إنني أتركه هنا، يا راس ثافاس، دون أي شعور بالندم».

قال العقل المدبر في المريخ: «كان يتمتع بقوة هائلة؛ فضلاً عن يد تستخدم السيف ببراعة، كما فهمت».

قلت: «ومع ذلك، ما زلت أعتقد أنني أستطيع تحمل الحياة من دونه».

صاح راس ثافاس: «الغرور، الغرور! أنت، المحارب، سوف تتخلى عن قوه هائلة ويد لا تُضاهى في المبارزة من أجل وجه جميل».

أدركت أنه يسخر مني؛ وقد يسخر العالم كله مني إن أراد، ما دمت استعدت جسدي ثانية.

أسرعنا في طريق العودة من خلال النفق. ظهرت الجزيرة أخيراً، وكان المحاربون لا يزالون يقاومون إصرار الكتلة على النمو. استُبدِلت الكتيبة أربع مرات منذ نزولنا من السفينة روزار. كنا قد وصلنا في الصباح الباكر، لكن الشمس الآن على وشك الهبوط خلف الأفق البعيد. ومع ذلك، شعرت أنني لم أستغرق سوى بضع لحظات منذ نزولي من السفينة روزار.

رفعونا بسرعة إلى متن السفينة ثانية، حيث كدنا نختنق من كثرة التهاني.

وضع جون كارتر يده على كتفي، وقال: «لم أكن لأقلق على مصير أحد أبنائي أكثر من قلقي عليك».

كان هذا كل ما قاله، لكنه كان يعني لي أكثر من مجلدات يقولها شخص آخر. لاحظ الآن أن عينيَّ تتجولان على سطح السفينة، ولمست ابتسامة شفتيه. سألته: «أين هي؟».

قال: «لم تتحمل ضغط الانتظار، وذهبت إلى مقصورتها لترتاح. من الأفضل أن تذهب إليها وتخبرها بنفسك».

قلت: «شكرًا لك، يا سيدي»؛ وبعد لحظات قليلة كنت أطرق على باب مقصورة جاناي.

سألت: «مَن الطارق؟».

أجبت: «فور داج»، ثم فتحتُ الباب ودخلت دون انتظار لدعوة.

نهضت وجاءت نحوي، وعيناها متسعتان بالتساؤل: «إنه أنت حقًّا؟».

أكدت لها: «إنه أنا»، وتوجهت إليها. أردت أن أضمها بين ذراعي وأقول لها إنني أحبها. لكنها يبدو أنها توقعت ما يدور في ذهني؛ لأنها أوقفتني بإيماءة.

قالت: «انتظر. هل تدرك أنني بالكاد ما أعرف فور داج؟».

لم أكن قد فكرت في ذلك، لكنه صحيح. فهي عرفت تور-دور-بار أكثر. «أجب على سؤال واحد».

سألتها: «وما هو؟».

سألتني: «كيف مات تيايتان-أوف؟».

كان سؤالًا غريبًا. ما علاقته بجاناي أو بي؟ أجبت: «لماذا. لقد مات في الممر المؤدي إلى الزنزانة 17-3، حيث أصابه أحد المحاربين الهورماد خلال هروبنا من مبنى المختبر».

ومضت أسنانها البيضاء في ابتسامة مفاجئة. «والآن، ماذا كنت ستقول لي عندما أوقفتك؟».

أجبت: «كنت أريد أن أقول لكِ إنني أحبكِ، وأسالكِ إن كان هناك أي أمل لتبادليني الحب».

قالت: «أنا بالكاد أعرف فور داج؛ وكنت أحب تور-دور-بار؛ لكني أعرف الآن الحقيقة التي خمنتها منذ فترة، وأدرك التضحية التي كنت على استعداد لها من أجلي». تقدمت، ووضعت ذراعيها العزيزتين حول رقبتي، وشعرت للمرة الأولى بشفتَي المرأة التي أحبها.

* * *

ظل الأسطول الكبير يحلق عاليًا فوق فوربوس لعشرة أيام، ويلقي بالقنابل على المدينة والجزيرة والكتلة الكبيرة التي بدأت تنتشر في جميع الاتجاهات لابتلاع العالم؛ ولم يكن جون كارتر ليغادر إلا بعد إبادة آخر بقايا الرعب تمامًا. وأخيراً دارت مقدمات السفن الحربية الكبيرة في اتجاه هيليوم. لم نتوقف سوى لفترة قصيرة في فوندال لإعادة باندار إلى مدينته الأصلية، ثم توجهنا إلى الديار، وشعرت بالسعادة مع جاناي خلال الرحلة بعد كل ما خضناه معًا من أهوال.

ظهرت الأبراج الكبيرة لمدينتي هيليوم التوأم على مسافة، وأنا أقف مع جاناي عند مقدمة السفينة روزار. قلت لها: «أود أن تخبريني لماذا سألتني عن كيفية موت تيايتان-أوف. فأنتِ تعرفين كما أعرف».

صاحت ضاحكة: «غبي! كنتَ وتور-دور-بار وباندار الناجين الوحيدين من تلك المعركة التي كانت مع الأسطول عندما عُدنا إلى موربوس. ومن هؤلاء الثلاثة، لم يكن بإمكانك أن ترى سوى تور-دور-بار قبل أن تراني. ولذلك، عندما أجبتني بشكل صحيح عرفت أن مخ تور-دور-بار قد نُقل إلى جمجمتك. وهذا هو كل ما أردت أن أعرفه؛ لأن المخ هو ما منح الطابع والصفاء إلى تور-دور-بار الذي تعلمت أن أحبه. ولا يهمني، يا فور داج، لمَن كان المخ في الأصل. لن أسأل، إذا كنت لا تحرص على أن تخبرني؛ لكني

أشك أنه كان مخك ونقلته إلى رأس تور-دور-بار حتى يمكنك حمايتي بشكل أفضل من آي-ماد».

قلت: «إنه مخي».

ضحكت: «تقصد كان مخك؛ فهو لي الآن».

* * *

انتهى الكتاب التاسع:

رجال المريخ الآليون

لانا من جاثول

ادجار رايس بوروز

ترجمة شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

تصدير

لانيكاي هي منطقة، وشاطئ، ومكتب بريد، ومتجر للبقالة؛ وتقع على الشاطئ المواجه للريح في جزيرة أواهو[304] . يا لها من مسافة بعيدة من المريخ. مياهها زرقاء وجميلة وهادئة داخل شعابها المرجانية، وربما كانت أصوات تنهدات الرياح التجارية خلال أوراق أشجار جوز الهند في الليل هي همسات أشباح الملوك والقادة الذين دأبوا على الصيد في مياهها الساكنة منذ فترة طويلة، قبل أن يجلب قباطنة البحر أمراضًا غريبة، أو يجلب المُبشرون الأثواب الفضفاضة طويلة الأكمام للنساء.

كانت أفكار الماضي مجرد تخيلات غامضة، تتجول في ذهني في ليلة لم أتمكن فيها من النوم، وجلست في الشرفة أشاهد سفن الشحن ورجالها بيض البشرة وهي تسرع في اتجاه الشاطئ تحت ضوء القمر الذي يغمر المكان. رأيت ملوك هاواي القديمة العمالقة، وقادتهم الأقوياء الذين يرتدون أغطية من الريش وخوذات. وجاء كاميهاميها[305] ، الفاتح العظيم، يعلوهم جميعًا. جاء هابطًا من نووالي بالي[306] بخطوات كبيرة فوق حقول القصب والبيوت. اشتبكت حافة غطائه الريشي ببرج الكنيسة، فسقط على الأرض. تقدم بخطواته نحو أرض منخفضة لينة؛ وعندما رفع قدمه، اندفعت مياه مستنقع نحو أثر قدمه، وتكونت بحيرة.

كان اهتمامي كبيراً بمجيء كاميهاميها الملك؛ لأنني كنت مُعجبًا به دائمًا؛ على الرغم من أنني لم أتوقع أن أراه؛ لأنه مات منذ مائة عام أو نحو ذلك، وعظامه مدفونة في مكان مقدس سري لا يعرفه أحد. بيد أنني لم أُفاجأ على الإطلاق لرؤيته، بل ما فاجأني هو أنني لم أفاجأ. أتذكر رد الفعل هذا بوضوح. وأتذكر أيضًا أنني تمنيت أن يراني وألَّا يخطو فوقي.

وبينما تدور تلك الأفكار في ذهني، توقف كاميهاميها أمامي ونظر نحوي. قال: «حسنًا، حسنًا! تنام في ليلة جميلة مثل هذه! أنا مندهش».

(304) أواهو: إحدى كبرى الجُزر في ولاية هاواي الأمريكية – المترجمة.

(305) كاميهاميها: كاميهاميها الأول، المعروف أيضًا باسم كاميهاميها الكبير، موحد جزر هاواي والمؤسس الفعلي لمملكة هاواي في 1810 – المترجمة.

(306) نووالي بالي: جزء من منحدر يقع في مهب الريح عند بقايا سلسلة كولاو الجبلية، في جزيرة أواهو. وقد فتح كاميهاميها الأول أواهو في معركة نووانو بالي – المترجمة.

أغمضت عينيَّ بشدة وفتحتهما ونظرتُ مرة أخرى. كان يقف أمامي بالفعل محارب يرتدي ملابس غريبة، لكنه لم يكن الملك كاميهاميها. تلعب العينان أحيانًا حيلاً غريبة تحت ضوء القمر. أغمضت عينيَّ ثانية وفتحتهما، لكن المحارب لم يختفِ. وعندئذ عرفت!

نهضت واقفًا على قدمي، ومددت يدي صائحًا: «جون كارتر!»[307].

قال: «دعنا نتذكر أين التقينا آخر مرة، عند منابع نهر كولورادو أم في طرزانا؟».

قلت: «أعتقد عند منابع نهر كولورادو في ولاية أريزونا، منذ فترة طويلة. ولم أتوقع رؤيتك مرة أخرى».

- لا، لم أتوقع أبدًا أن أعود.

- ولماذا عُدت؟ من المؤكد هناك شيء مهم.

ابتسم قائلاً: «ليس لشيء يتسم بأهمية كونية؛ إلا أنه مهم بالنسبة لي. أردت أن أراك».

قلت: «وأنا أُقدر ذلك».

- أنت آخر أقاربي الذين أعرفهم شخصيًّا على كوكب الأرض. وأشعر بين الحين والآخر برغبة في رؤيتك وزيارتك، ويمكنني تلبية هذه الرغبة على فترات طويلة - كما هو الحال الآن. وبعد موتك، ولن يطول الأمر الآن، لن توجد لديَّ روابط بكوكب الأرض – وما من سبب لعودتي إلى مشاهد حياتي السابقة.

قلت لتذكيره: «يوجد هنا أطفالي، وهم أقاربك بالدم».

قال: «نعم، أعرف؛ لكنهم قد يخافون مني. فقد يعتبرني سكان كوكب الأرض شيئًا مثل الشبح».

أكدت له قائلاً: «لن يفعل أطفالي ذلك؛ وهم يعرفونك جيدًا بمثل ما أعرفك. ويمكنك رؤيتهم أحيانًا، بعد أن أموت».

أومأ وقال بما يشبه الوعد: «ربما سأفعل».

---

(307) جون كارتر: من فرجينيا، وهو أول رجل من كوكب الأرض يصل إلى المريخ، وأصبح أحد أعظم أمراء الحرب في تاريخ المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/John_Carter - المترجمة

قلت: «والآن، أخبرني شيئًا عن نفسك، عن المريخ، عن ديجاه ثوريس[308] ، عن كارثوريس[309] وثوفيا[310] ، عن تارا[311] من هيليوم[312] . أتذكر أن جاهان من جاثول[313] تزوج من تارا الهيليومية».

أجاب أمير الحرب: «نعم، تزوجت جاهان، جِد[314] مدينة جاثول الحرة. ولديهم ابنة، شخصيتها وجمالها جديران بوالدتها وأم والدتها، جمالها -مثله مثل جمالهما- دفع الأمم إلى خوض الحروب ضد بعضهم. ربما ترغب في سماع قصتها؛ قصة لانا من جاثول».

قلت إنني أود سماع قصتها؛ وهذه هي القصة التي أخبرني بها تلك الليلة تحت أشجار جوز الهند في أُواهو.

* * *

(308) ديجاه ثوريس: أميرة مملكة هيليوم، وهي زوجة جون كارتر (القادم من كوكب الأرض - (http://barsoom.wikia.com/wiki/Dejah_Thoris - المترجمة

(309) كارثوريس: هو ابن جون كارتر وديجاه ثوريس، الشقيق الأكبر لتارا. وهو أمير هيليوم. واسمه مزيج من كارتر وثوريس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Carthoris - المترجمة.

(310) ثوفيا: الأميرة ثوفيا ابنة ثوفان ديهن، جيداك مملكة بتارث. وقد تزوجت من كارثوريس، ابن جون كارتر وديجاه ثوريس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Thuvia - المترجمة.

(311) تارا: هي ابنة جون كارتر وديجاه ثوريس، والأخت الصغرى لكارثوريس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Tara - المترجمة.

(312) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/المريخ، وهي تضم مدينتين توأمًا رئيستين: هيليوم الكبرى وهيليوم الصغرى، وهما معًا بمثابة عاصمة المملكة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium - المترجمة.

(313) جاثول: من أقدم مدن المريخ وتضم مريخيين حُمرًا، ولا تتبع أي مملكة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Gathol - المترجمة

(314) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed - المترجمة.

الكتاب الأول

الموتى القدماء

الفصل (1)

مهما كان المرء اجتماعيًّا على نحو غريزي، هناك أوقات يتوق فيها إلى العُزلة. أنا أحب الناس. أحب أن أكون مع عائلتي، وأصدقائي، ورجالي المقاتلين. وربما لأنني شديد الحرص على الرفقة، أجدني في بعض الأحيان حريصًا بالقدر نفسه على البقاء بمفردي. ويمكنني في مثل هذه الأوقات التوصل إلى أفضل حلول لمشكلات الحُكم المُعقدة، سواء في زمن الحرب أو السِّلم. كما يمكنني أيضًا تأمل جميع الجوانب المختلفة لحياة كاملة مثل حياتي؛ ولأني إنسان، فقد ارتكبت الكثير من الأخطاء التي يمكنني تأمُّلِها لتحصين نفسي ضد إعادة ارتكابها.

عندما أشعر بأن تلك الرغبة الغريبة في العُزلة تجتاحني، أركب عادة طائرة فضائية تسع رجلاً واحدًا وأجوب فوق قيعان البحر الميت وغيره من البراري غير المأهولة في هذا الكوكب الآخذ في الاحتضار؛ إذ أجد هناك العُزلة بالفعل. توجد على المريخ مساحات شاسعة لم تطأها قدم بشرية، وهناك مناطق شاسعة أخرى لم تعرف خلال آلاف السنوات سوى الرجال العمالقة خُضر البشرة، وهم البدو المتجولون في الصحاري الصفراء.

أمكث أحيانًا عدة أسابيع في تلك المغامرات الرائعة من العزلة. ولذا ربما أصبحت أعرف عن جغرافيا المريخ وتضاريسه أكثر من أي إنسان حي آخر؛ فقد حملتني هذه الرحلات، فضلاً عن مغامراتي الأخرى على هذا الكوكب، من بحر كوراس المفقود[315] في وادي دور[316] في الجنوب المتجمد إلى أوكار[317] ، أرض الرجال صُفر البشرة ذوي اللحى السوداء في الشمال المتجمد، ومن كاول[318] إلى بانتوم[319] . ومع ذلك لا تزال

---

(315) كوراس: كوراس هو بحر مريخي مفقود. وكان يملأ المنطقة التي تُسمى وادي دور، في الأيام التي كانت فيها المياه وفيرة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Korus - المترجمة.

(316) وادي دور: يقع عند نهاية نهر إيس المحيط ببحر كوراس المفقود - https://barsoom.fandom.com/wiki/Valley_Dor - المترجمة.

(317) أوكار: مملكة تضم المريخيين الصُّفر الذين يعيشون في المناطق الشمالية المتجمدة من المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Okar – المترجمة.

(318) كاول: مملكة قوية، وإن كانت صغيرة، في نصف الكرة الشرقي للمريخ، وتضم مريخيين من ذوي البشرة الحمراء - http://barsoom.wikia.com/wiki/Kaol - المترجمة.

هناك أجزاء كثيرة في برسوم[320] لم أزرها بعد، وهذا ليس بغريب إذا أخذنا في الاعتبار حقيقة أن مساحة يابسة المريخ -على الرغم من أنها أكبر من رُبع مساحة كوكب الأرض- أكبر بحوالي 8 مليون ميل مربع، وذلك لأن برسوم تخلو من مناطق المياه السطحية الكبيرة، وأكبر محيطاتها المعروفة أصبح تحت الأرض بالكامل. وأعتقد أيضًا أنك سوف تقر بأن معرفة 56 مليون ميل مربع معرفة جيدة يُعد قدرًا كبيراً من الأراضي.

أما عن القصة التي سوف أخبرك بها؛ فقد بدأت بأن طرت نحو الشمال الغربي من هيليوم، التي تقع على مسافة 30 درجة جنوب خط الاستواء، ثم واصلت لحوالي 1600 ميل شرق مدينة إكسوم التي تُعد بمثابة مدينة جرينيتش البرسومية. تمتد حولي، شمالاً وغربًا، منطقة شاسعة وغير مُستكشَفة تقريبًا؛ ولذا فكرت أنني قد أجد فيها العُزلة المطلقة التي أنشدها.

قمت بضبط بوصلة الاتجاه نحو مدينة هورز، تلك المدينة المهجورة منذ زمن طويل ذات الثقافة البرسومية القديمة، وطرت بسرعة 75 ميلاً في الساعة على ارتفاع يتراوح بين 500 و1000 قدم. رأيت بعض الرجال الخُضر شمال شرق مدينة توركواس[321]، واضطررت إلى الفرار من طلقاتهم النارية، ولم أعُد لأنني لم أكن أسعى إلى مغامرة. عبرت شريطين رفيعين من أراضي المريخيين الحُمر الزراعية، المتاخمة للقنوات التي تجلب المياه الثمينة الناتجة عن ذوبان القمم الجليدية سنويًّا في القطبين. ولم أشهد، أبعد من ذلك، أي علامات على حياة بشرية طوال الـ5000 ميل التي تقع بين هيليوم الصغرى وهورز.

يحزنني دائمًا بعض الشيء أن أنظر إلى عالم يموت، وأشاهد تلك الأميال اللا نهائية من النباتات الصفراء الشبيهة بالطحالب، التي تُغطي مناطق شاسعة تدفقت عليها في يوم ما محيطات المريخ الجبارة عندما كان كوكبًا شابًّا وقويًّا، وأن أتأمل كيف كانت الأساطيل الفخورة والسفن التجارية لعشرات الدول الغنية والقوية تبحر ذات يوم في هذا الموقع الممتد في الأسفل، بينما تجوب فيه اليوم حيوانات البانث[322] الشرسة، ولا يكسر صمت عزلته سوى زئير القاتل وصراخ الضحية.

---

(319) بانتوم: منطقة صغيرة في المريخ غير معروفة للعالم خارجها، تتكون من وادي للرعي وجدول مائي صغير، ويسكنها الكلدينيون وهم عِرق مريخي شديد الذكاء - https://barsoom.fandom.com/wiki/Bantoom - المترجمة

(320) برسوم: كوكب يُسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom - المترجمة.

(321) توركواس: مدينة كانت في يوم ما إحدى أقوى وأجمل مدن المريخ، لكنها أصبحت من المدن الميتة ويسكنها المريخيين ذوي البشرة الخضراء - https://barsoom.fandom.com/wiki/Torquas - المترجمة

(322) البانث: حيوان مفترس شرس متعدد الأرجل، أصلع تقريبًا مثل جميع الحيوانات المريخية إلا من شعر كثيف خشن كبير كالأسد حول رقبته السميكة. جسده طويل ورشيق، ويعتمد على عشر أرجل قوية؛ وفكاه الضخمان مجهزان بعدة صفوف من أنياب طويلة تشبه الإبرة، مثله

هبط الليل ونمت مطمئنًّا لمعرفتي أن بوصلة الاتجاه ستوجه طائرتي نحو مدينة هورز، وعلى الارتفاع الذي حددته - ألف قدم، ليس فوق سطح البحر، وإنما فوق الأراضي التي تعبرها سفينتي الفضائية. يمكن ضبط هذا الجهاز الصغير المُذهل في اتجاه أي بقعة على برسوم، وعلى الارتفاع المرغوب. وعند ضبطه على ارتفاع ألف قدم، كما هو الحال في رحلتي هذه، لن يسمح للسفينة أن تقترب من أي شيء أعلى من ألف قدم، وبالتالي يحول دون خطر الاصطدام. وعندما تصل السفينة إلى هدفها، ستوقفها البوصلة على ارتفاع ألف قدم. ولذلك، لا يحتاج قائد السفينة المزودة بمثل هذه البوصلة الاتجاهية إلى البقاء مستيقظًا، وبالتالي يمكنني السفر ليلاً ونهارًا دون خطر.

شاهدت أبراج مدينة هورز القديمة في حوالي ظهيرة اليوم الثالث. يقع أقدم جزء من المدينة على حافة هضبة واسعة؛ بينما تتخذ الأجزاء الأحدث، التي يزيد عمرها على آلاف لا تُعد ولا تُحصى من السنوات، شكل مدرجات تنحدر نحو خليج كبير، بمثابة علامة على سعي البحر المُنحسر اليائس إلى الشواطئ التي كانت تقع عندها ذات يوم هذه المدينة الغنية والقوية. أما آخر المباني الفقيرة لعِرق فان، فقد اختفت أو لم يبقَ منها الآن سوى أنقاض مُهدّمة؛ بيد أن الأبنية الرائعة في قمتها لا تزال قائمة على حافة الهضبة، كذكرى صامتة وإن كانت بليغة على الآثار العظيمة الباقية لذلك العِرق الأشقر أبيض البشرة الذي اختفى إلى الأبد.

تثير اهتمامي دائماً هذه المدن المهجورة للمريخ القديم. لا يُعرَف عن سكانها سوى القليل، غير ما يمكن جمعه من القصص التي تحكيها المنحوتات التي تزين الزخارف الخارجية للعديد من المباني العامة والجداريات القليلة المتبقية، التي صمدت أمام ويلات الزمن والتخريب الذي قامت به جحافل الخُضر التي اجتاحت العديد منها. كما ساعدت شدة انخفاض الرطوبة على الحفاظ عليها، لا سيما ديمومة بنائها. لقد بنيت هذه الصروح الرائعة لا لتبقى سنوات، وإنما لتستمر إلى الأبد؛ في حين ضاعت على مر العصور أسرار أحجارهم ومواد البناء وأصباغهم. وبعد عدد لا يُحصى من العصور، وبعد اختفاء الحياة من على وجه برسوم لفترة طويلة، سوف تبقى أعمالهم تتدافع في المكان إلى الأبد على كوكب ميت بارد دون وجود عين ترى أو عقل يُقدّر. يا لها من تأملات حزينة.

وصلت أخيراً فوق هورز. كنت قد وعدت نفسي، منذ فترة طويلة، أن آتي هنا في يوم ما، إلى هورز – ربما أقدم وأعظم المدن الميتة على برسوم. مدينة بنتها المياه، وحكم

مثل حيوانات الكالوت أو الكلاب المريخية؛ وفمه يصل إلى نقطة بعيدة خلف أذنيه الصغيرتين، بينما عيناه الخضراوان هائلتان وجاحظتان وتضيفان لمسة الرعب الأخيرة إلى مظهره الفظيع – http://barsoom.wikia.com/wiki/Banth - المترجمة.

عليها فقدان المياه بالموت. أتساءل كثيراً ما إذا كان سكان كوكب الأرض، الذين لديهم وفرة في المياه، يُقدِرون المياه حقًّا. وأتساءل هل كان سكان مدينه نيويورك يدركون معنى أن ينجح عدو -بعد إنشاء قاعدة جوية داخل دائرة يُشكل نصف قطرها المدينة الأولى للعالم الجديد- في قصف وتدمير سد كروتون ومنظومة مياه كاتسكيل. سوف تزدحم السكك الحديدية والطرق السريعة باللاجئين، وسيموت الملايين، ولسنوات - وربما إلى الأبد - ستكف مدينة نيويورك عن الوجود.

طرت بتكاسل فوق المدينة المهجورة، ورأيت أشكالاً تتحرك في ساحة أسفلي. هورز، إذَنْ، ليست مهجورة تمامًا! أثارني الفضول، فانخفضت قليلاً بسفينتي؛ وحطّم ما رأيته أفكار العزلة في ذهني: رأيت رجلاً أحمر وحيدًا، تحاصره نصف دزينة من المحاربين الخُضر الشرسين.

لم أكن أسعى إلى المغامرة، لكنها هنا أمامي؛ فلا يمكن لرجل جدير بسلاحه أن يتخلى عن رجل مثله يواجه هذا الوضع الرهيب. رأيت موقعًا في ساحة مجاورة، حيث يمكنني الهبوط؛ وصليت أن يَحول انهماك الرجال الخُضر دون ملاحظتهم لاقترابي، ثم توجهت بسرعة وصمت نحو المهبط.

* * *

الفصل (2)

هبطت سفينتي، لحسن الحظ، دون أن يلاحظها أحد؛ حيث أخفاها برج هائل يرتفع بجانب الساحة التي اخترتها. رأيتهم يتقاتلون بسيوف طويلة، فامتشقت سيفي وركضت في اتجاه المعركة غير المتكافئة. يدل تحمل الرجل الأحمر لهذه المعركة للحظات قليلة على أنه مبارز ممتاز، وتمنيت أن يصمد إلى أن أصل إليه؛ حيث سيكون إلى جواره أفضل مبارز في برسوم كلها لمساعدته بالسيف الذي ذاق دماء ألف خصم على طول هذا العالم وعرضه.

وجدت طريقي من ساحة هبوطي، لكنني واجهت جدارًا يبلغ ارتفاعه عشرين قدمًا ولم أتصور عدم وجود أي فتحة فيه. توجد فتحة دون شك؛ لكن الرجل قد يُقتل بسهولة خلال الوقت الذي يضيع في العثور عليها.

سمعت بوضوح صليل السيوف، ولعنات المقاتلين وهمهماتهم، من الجانب الآخر للجدار الذي يسد طريقي. بل تمكنت أيضًا من سماع تنفس المقاتلين الثقيل. وسمعت الرجال الخُضر يطالبون خصمهم بالاستسلام، كما سمعت رده الساخر. أعجني ما قاله وطريقة رده في وجه الموت.

تأكدت من معرفتي بأساليب الرجال الخُضر أنهم سيحاولون القبض عليه لتعذيبه بدلاً من قتله على الفور، وأنني يجب أن أتصرف بسرعة لإنقاذه من أي مصير منهما.

لا توجد سوى طريقة واحدة للوصول إليه دون مضيعة للوقت، وهي طريقة متاحة أمامي لأن جاذبية المريخ أقل من جاذبية كوكب الأرض ولذا أتمتع بقوة وخفة حركة أكبر. يمكنني ببساطة القفز إلى قمة الجدار، وإلقاء نظرة سريعة لمعرفة وضع الأرض خلف الجدار، ثم القفز من قمة الجدار إلى أسفل وسيفي الطويل في يدي، وأتخذ مكاني بجانب الرجل الأحمر.

عندما أجتهد، يمكنني القفز إلى ارتفاعات لا تُصدّق؛ حيث العشرين قدم لا شيء. لكنني أخطأت الحساب هذه المرة. كنت على مسافة عدة ياردات من الجدار عندما ركضت قليلاً ثم قفزت في الهواء. وبدلاً من الهبوط على قمة الجدار، حسبما خططتُ، ارتفعت أعلى منه وتجاوزته بحوالي عشر أقدام.

كان المقاتلون في الأسفل. ومن الواضح أنني كنت سأهبط على الأرض في وسطهم. وكانوا منهمكين في المبارزة إلى حد أنهم لم يلاحظوني، وهذا جيد؛ فقد كان بإمكان أي من الرجال الخُضر أن يطعنني بسيفه بسهولة خلال سقوطي عليهم.

اشتد ضغط المقاتلين على الرجل الأحمر؛ فمن الواضح أن الرجال الخُضر تخلُّوا عن فكرة القبض عليه، ويحاولون الآن قتله. وعندما نزلت من فوق الجدار، انتهز أحدهم فرصة مواتية وكان على وشك طعنه بسيف طويل. ولحسن الحظ أنني نزلت مباشرة فوق ظهر المقاتل الذي كان على وشك قتله. كان سن سيفي يتجه إلى الأسفل؛ فطعنته في كتفه اليُسرى وواصل السيف طريقه إلى قلبه. وقبل أن ينهار، كنت قد نزلت بقدميّ على كتفيه، ثم اعتدلت وسحبت سيفي من جسمه.

أصابهم مجيئي المذهل بارتباك للحظة، فقفزت إلى جانب الرجل الأحمر وواجهت مَن تبقى من خصومه، ودماء المحارب الأخضر الحمراء تقطر من سيفي.

ألقى الرجل الأحمر نظرة سريعة نحوي؛ ثم تكالب علينا باقي الرجال الخُضر، ولم يكن هناك وقت للكلام. وجَّه أحدهم سيفه نحوي لكنه لم يصبني. يا للهول! يا لها من ضربة! لو أصابتني، لأصبحت مقطوع الرأس مثل الرايكور[323] . ومن سوء حظ الرجل الأخضر أنه لم يصيبني، فقد أصبته. طعنتُه أفقيًّا بكل قوتي كرجل من كوكب الأرض، وهي قوة كبيرة على كوكب الأرض لكنها أكبر بلا حدود على المريخ. مر سيفي الطويل -بحافته الحادة كالموس وفولاذه الذي لا تنتجه سوى برسوم- خلال جسم خصمي تمامًا، وشقه إلى نصفين.

«أحسنت!»، هتف الرجل الأحمر وهو يُلقي نحوي ثانية نظرة سريعة.

لمحت بطرف عيني رفيقي المجهول، ورأيت فيه مبارزًا رائعًا. كنت فخورًا بالقتال إلى جانب هذا الرجل. واستطعنا، حتى الآن، تقليص عدد خصومنا إلى ثلاثة. تراجعوا بضع خطوات، وأنزلوا سيوفهم لالتقاط أنفاسهم. لم أكن في حاجه أو رغبة لالتقاط أنفاسي؛ لكني ألقيت نظرة سريعة نحو رفيقي ووجدته مستنفَدًا، ولذا أنزلت سيفي أيضًا وانتظرت.

---

(323) رايكور: حيوان مستأنس يستخدمه عِرق الكلدينيين في جميع الأغراض مثل النقل والطعام، وأداء المهام التي لا يستطيعون القيام بها لضعف أجسامهم. يبدو الرايكور على شكل إنسان بلا رأس، وبشرته من اللون الأحمر الفاتح، عضلاتهم قوية وأجسادهم جميلة، لكنهم لا يستطيعون الحياة من دون الكلدينيين الذين يوجهونهم نحو الطعام. توجد فجوة كبيرة في أعلى جسد الرايكور، يركب فيها الكلدينيون ويمسكون العمود الفقري المكشوف بما يمكنهم من السيطرة على أطراف الرايكور. ويُقال إن الرايكور هو هجين من أسرى المريخيين الحُمر وحيوان مريخي أليف كان الكلدينيون يستخدمونه - http://barsoom.wikia.com/wiki/Rykor - المترجمة.

وكان عندئذ أن تمكنت من إلقاء نظرة جيدة نحو الرجل الذي تبنيت قضيته؛ وكانت عندئذ أيضًا صدمتي. لم يكن الرجل أحمر البشرة، لكنه رجل أبيض لم أشهد مثله من قبل. وقد اتخذت بشرته لونًا برونزيًّا نتيجة تعرضه للشمس، مثلي؛ وهذا ما خدعني في البداية. ولا أرى الآن أي شيء لديه يشبه المريخيين الحُمر. يختلف عتاده وأسلحته، وكل شيء لديه، عن أي شيء رأيته على المريخ.

كان يرتدي غطاء رأس، وهو أمر غير معتاد في برسوم. وكان عبارة عن شريط جلدي يدور حول رأسه أعلى حاجبيه مباشرة، وشريط جلدي آخر يعبر رأسه من اليمين إلى اليسار، وشريط ثانٍ من الأمام إلى الخلف. وزُينت هذه الشرائط بنقوش منحوتة ومجموعة مع الجواهرٍ والمعادن الثمينة. ويوجد في وسط الشريط الذي يمر بجبهته قطعة مُسطحة من الذهب على شكل رأس حربة يتجه سنها إلى أعلى. وكان منقوشًا أيضًا على نحو جميل، ويحمل رسمًا غريبًا مُرصعًا باللونين الأَحمر والأسود.

توجد كتلة من الشعر الأشقر محصورة تظهر من غطاء الرأس هذا – إنه أكثر شيء مدهش يمكن رؤيته على المريخ. قفزت في البداية إلى استنتاج مفاده أنه ثيرني[324] ، من تلك الأراضي القطبية الجنوبية البعيدة. لكني استبعدتُ هذه الفكرة على الفور عندما أدركت أن شَعره حقيقي؛ فالثيرن عِرق أصلع تمامًا ويرتدون شعرًا مستعارًا أصفر اللون.

رأيت أيضًا أن رفيقي كان وسيمًا بشكل غريب، وقد أقول جميلاً، لولا الأنوثة التي تدل عليها الكلمة؛ فلم يكن هناك أي شيء أنثوي في أسلوب قتال الرجل، أو في اليمين الجبار الذي أقسم به دون أن يتحدث مع خصمه. فنحن المقاتلون قلما نتحدث؛ لكنك عندما تشعر أن نصلك يشق جمجمة إلى نصفين أو يخترق قلب خصم، ينطلق أحيانًا قسم عظيم من شفتيك.

لم يكن أمامي سوى وقت قصير لتقييم رفيقي، فبعد لحظات بدأ الثلاثة الباقون في مهاجمتنا ثانية. أتصور أنني قاتلت في ذلك اليوم كما أقاتل دائمًا؛ لكن ما يبدو لي في كل مرة أنني لم أقاتل من قبل بهذه الجودة التي قاتلت بها في تلك المناسبة تحديدًا. لا أستحق تقديرًا كبيرًا على قدرتي القتالية، إذ يبدو لي أن سيفي مُلهَمًا. لا يمكن لأي رجل أن يفكر بمثل سرعة حركة سيفي؛ فهو يتحرك دائمًا نحو الموقع الصحيح في الوقت المناسب، كما لو أنه يتوقع خطوة الخصم التالية. كما أنه ينسج شبكة فولاذية حولي، لم تقدر على اختراقها سوى سيوف قليلة. ويملأ عينَي الخصم بالذهول، وعقله بالشك،

(324) الثيرنيون أو الثيرن: هم عِرق مريخي أبيض البشرة وأصلع، يرتدون باروكات شقراء، ويتمتعون بقوى عقلية خارقة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Thern – المترجمة.

وقلبه بالخوف. وأتصور أن الكثير من نجاحي يرجع إلى التأثير النفسي لتفوقي في المبارزة على أعدائي.

أسقطتُ خصمًا في الوقت نفسه الذي أسقط فيه رفيقي خصمًا آخر، وعندئذ استدار المحارب المتبقي هاربًا. صاح رفيقي في السلاح: «لا تدعه يهرب!»، وانطلق يطارده وفي الوقت نفسه يصيح بصوت عالٍ طلبًا للمساعدة، وهو ما لم يفعله عندما كان قريبًا من الموت في مواجهة ستة سيوفٍ. مَن كان يتوقع أن يجيب على ندائه في هذه المدينة الميتة

والمهجورة؟ ولماذا طلب المساعدة عندما هرب آخر خصومه؟ كنت في حيرة؛ لكنني بعد أن اشتبكت في هذه المغامرة الغريبة، شعرت أنني يجب أن أواصل لأستطلع الأمر، وهكذا انطلقت لمطاردة الرجل الأخضر الهارب.

عَبَرَ الفناء الذي دار فيه قتالنا، وتوجه نحو ممر كبير فوقه قنطرة ويفتح على طريق واسع. اقتربت منه، بعد أن تجاوزته هو والمحارب الغريب. وعندما وصلت إلى الشارع، رأيت الرجل الأخضر يقفز ليمتطي ظهر أحد حيوانات الثوات[325] الستة التي كانت في الانتظار، كما رأيت في الوقت نفسه ما لا يقل عن مائة محارب يتدفقون من مبنى قريب. كانوا جميعًا بيض البشرة وشعرهم أصفر، ويرتدون مثل رفيقي المقاتل السابق، وانضموا الآن لمطاردة الرجل الأخضر. كانوا مسلحين بالأقواس والسهام وأرسلوا وابلًا من القذائف نحو الرجل الهارب، الذي لم يكن في إمكانهم أبدًا أن يأملوا في اللحاق به، حيث سرعان ما ابتعد عن نطاق أسلحتهم.

روح المغامرة قوية جدًّا في داخلي، إلى حد أنني غالبًا ما أستسلم لمطالبها على الرغم من إملاءات بصيرتي الأفضل. لم يكن لما يحدث أي علاقة بي. فقد فعلت كل شيء، وحتى أكثر مما يُتَوَقع مني؛ على أنني قفزت الآن فوق ظهر أحد حيوانات الثوات المتبقية، وشرعت لمطاردة المحارب الأخضر.

* * *

(325) الثوات: حيوان مريخي ضخم، يرد وصف تفصيلي له في الفصل التالي – http://barsoom.wikia.com/wiki/Thoat - المترجمة.

الفصل (3)

يوجد على المريخ نوعان من حيوانات الثوات: السُّلالة الصغيرة، سهلة الانقياد نسبيًّا، ويستخدمها المريخيون الحُمر كحيوانات ركوب، وبدرجة أقل كبهائم للجر أو نقل الأحمال في المزارع التي تحد قنوات الري الكبيرة. وهناك سُلالة من الوحوش الضخمة الشرسة الجامحة، التي يستخدمها المحاربون الخضر بشكل حصري كأحصنة حربية.

يبلغ ارتفاع كل مخلوق من هذه المخلوقات حوالي عشر أقدام إلى الكتف. ولديه أربع أرجل على كل جانب، وذيله عريض مُسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد مباشرة خلفه عندما يجري؛ وفمه مفتوح يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم. يخلو جسمه تمامًا من الشَّعر، والجزء العلوي منه عبارة عن لوح داكن اللون ولامع وأملس بدرجة كبيرة. أما بطنه فلونه أبيض، ويتدرج لون سيقانه بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامه. والأقدام نفسها مبطنة وبلا أظافر.

كانت تصرفات حيوان الثوات الذي يقوده الرجل الأخضر أكثر بشاعة من أي مخلوق رأيته من قبل، دون استثناء حتى للرجال خُضر البشرة. تتقاتل تلك الحيوانات باستمرار فيما بينها، ويا ويل الراكب الذي يفقد السيطرة على ركوبته الرهيبة؛ ومع ذلك تبدو المفارقة في أن الرجال يمتطونهم دون لجام أو شكيمة ويسيطرون عليهم بوسيلة التخاطر فقط، التي تعلمتها -من حسن حظي- منذ فترة طويلة عندما كنت أسيراً لدى لوركواس بتومل، جِد الثارك، وهم جماعة من المريخيين خُضر البشرة.

كان الوحش الذي امتطيته شيطانًا خبيثًا، وتعامل معي بعنف استثنائي، ربما لأن رائحتي غريبة بالنسبة له. حاول أن يطرحني أرضًا، وعندما فشل أدار رأسه إلى الوراء وهو يفتح فكيه الضخمين في محاولة للإمساك بي.

وأود الإشارة إلى وجود وسيلة مساعِدة للسيطرة عندما تتمرد هذه الوحوش القبيحة؛ وقد استخدمتُها في حالتي هذه، على الرَغم من أنني فزت بموافقة كارهة من الثاركيين الخُضر الشرسين بالسيطرة على الثوات بالصبر والعطف. لم يكن لديَّ وقت لأي من الطريقتين؛ فقد كان الرجل الأخضر يسرع على طول الشارع الواسع الذي يؤدي إلى الأرصفة القديمة لموانئ هورز وقيعان البحر الميت الواسع خلفها. ولذا ضربت رأس وأنف الوحش بشدة بالجزء العريض من سيفي إلى أن خضع، ثم امتثل إلى أوامري التخاطرية، وانطلقتُ بسرعة كبيرة في المطاردة.

كان الثوات سريعًا جدًّا، أحد أسرع الحيوانات التي امتطيتها؛ وعلاوة على ذلك، كان يحمل وزنًا أقل بكثير من الوحش الذي نسعى للحاق به. ولذلك، سرعان ما اقتربنا من الرجل الأخضر الهارب.

لحقنا به عند حافة الهضبة التي بُنيت عليها المدينة القديمة. توقف واستدار بركوبته، واستعد للمعركة. وكان عندئذ أن شعرت بالتقدير لذكاء ركوبتي الرائع؛ إذ تحرك الثوات، وتقريبًا دون توجيه مني، إلى الوضع الصحيح الذي يعطيني ميزة في هذه المبارزة الوحشية. وعندما حققت أخيراً ميزة مفاجئة تسببت في سقوط خصمي من فوق ركوبته، هرع حيواني الثوات كشيطان مسه الجنون نحو المحارب الأخضر مُمزِّقًا حنجرته بفكيه القويين، بينما يحاول الانقضاض عليه بثِقل هجومه الوحشي.

وعندئذ سددت ضربة قاضية إلى خصمي الجريح الملطخ بالدماء وتركته حيث سقط، وعُدتُ لتلقي الاستحسان والشُّكر من أصدقائي الجُدد.

كانوا ينتظرونني، وعددهم مائة، في موقع ربما كان ذات يوم سوقًا عامة في مدينة هورز القديمة. لم أرَ ابتسامات على وجوههم، بل بدت حزينة. ترجلت، واحتشدوا حولي. سأل أحدهم، توحي حُليه ومعادنه أنه زعيم: «هل هرب الرجل الأخضر؟».

أجبت: «كلا؛ لقد مات».

صدرت تنهدات كبيرة، تنم عن الارتياح، من مائة حنجرة. لم أفهم شعورهم بمثل هذا الارتياح لمجرد قتل رجل أخضر واحد.

شكروني وهم يتجمعون حولي؛ لكن وجوههم لا تزال حزينة وغير مبتسمة. أدركت فجأة أنهم أناس غير ودودين - شعرت بذلك بشكل حدسي، ولكن بعد فوات الأوان. كانوا يدفعونني من جميع الجهات كي لا أتمكن حتى من رفع ذراع؛ ثم فجأة، وبكلمة من قائدهم، جردوني من سلاحي.

سألت: «ما معنى ذلك؟ لقد جئت من تلقاء نفسي لمساعدة واحد منكم، ولولا ذلك لكان مقتولاً الآن. هل هذا هو الشكر الذي أحصل عليه؟ أعيدوا إليَّ أسلحتي واتركوني أذهب».

قال الرجل الذي تحدث سابقًا: «أنا آسف، لا يمكننا... أن نفعل غير ذلك. لقد التمس بان دان تشي، الرجل الذي جئت لمساعدته، أن نسمح لك أن تمضي في طريقك؛

لكن هذا ليس قانون هورز. يجب أن آخذك إلى هوو ران كيم، جيداك[326] هورز العظيم، وهناك سنلتمس جميعًا من أجلك، لكن التماساتنا لن تكون مُجدية. سوف يقتلك في النهاية؛ لأن سلامة هورز أكثر أهمية من حياة أي إنسان».

أجبت: «أنا لا أهدد سلامة هورز. لماذا أضع خططًا ضد مدينة ميتة، ولا تمثل أي أهمية على الإطلاق لإمبراطورية هيليوم، التي أرتدي عتاد أمير الحرب في خدمة جيداكها تاردوس مورس».

صاح بان دان تشي، وهو يشق طريقه نحوي خلال ضغط المحاربين: «أنا آسف. لقد ناديتك عندما امتطيت الثوات لمطاردة المحارب الأخضر، وقلت لك ألا ترجع؛ ومن الواضح أنك لم تسمعني. قد أموت بسبب تصرفي هذا، لكنني سأموت فخورًا. ثم سعيت للتأثير على لان سون ون، الذي يتولى قيادة هذا الأوتان[327]، ليسمح لك بالهروب، ولكن دون جدوى. سوف ألتمس لك الرحمة من الجيداك هوو ران كيم، بيد أنني أخشى أنه لا يوجد أمل».

قال لان سون ون: «هيا! لقد أهدرنا ما يكفي من الوقت هنا. سوف نأخذ السجين إلى الجيداك. بالمناسبة، ما اسمك؟».

أجبت: «أنا جون كارتر، أمير هيليوم، وأمير الحرب في برسوم».

قال: «اللقب الأخير فخور، لكنني لم أسمع عن هيليوم من قبل».

قلت: «إذا أصابني هنا أي ضرر، فسوف تسمع عن هيليوم إذا عرفتْ هيليوم ذلك».

اصطحبوني خلال طرق لا تزال رائعة ومحاطة بمبانٍ جميلة - لا تزال جميلة رغم اضمحلالها. أعتقد أنني لم أشهد أبدًا مثل هذا الفن المعماري المُلهم، ولا مثل تلك الأبنية الثابتة. لا أعرف كم عُمر هذه المباني، لكنني سمعت علماء المريخ يقولون إن العِرق الأصلي المهيمن من ذوي البشرة البيضاء والشعر الأصفر كان مزدهرًا منذ مليون سنَة. يصعب تصديق أن أعمالهم لا تزال موجودة؛ لكن المريخ يضم العديد من الأشياء التي يصعب على رجال بقعتنا الترابية الصغيرة، كوكب الأرض، تصديقها.

توقفنا أخيرًا أمام بوابة صغيرة في صرح ضخم يشبه الحصن، ولا يضم أي فتحة أخرى غير هذه البوابة الصغيرة التي ترتفع بمسافة 50 قدمًا فوق الأرض. نظر إلينا حارس

---

(326) جيداك: ما يعادل الإمبراطور – http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak - المترجمة.

(327) الأوتان: سرية من الجنود تضم مائة جندي - http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=utan - المترجمة.

من شرفة ترتفع حوالي 50 قدمًا فوق البوابة. سأل: «من القادم»، على الرغم من أنه يستطيع دون شك رؤية القادم وبالتأكيد يعرف لان سون ون.

أجاب لان سون ون: «أنا الدوّار[328] لان سون ون، قائد الأوتان الأول من حرس الجيداك، ومعي سجين».

بدا الحارس حائرًا، وقال: «تقضي الأوامر بعدم إدخال غرباء، وإنما قتلهم على الفور».

قاطعه لان سون ون قائلاً: «يمكنك استدعاء قائد الحرس». جاء إلى الشرفة الآن ضابط مع الحارس.

سأل: «ما هذا؟ لم يتمّ جلب أي سجين من قبل إلى قلعة هورز. أنت تعرف القانون».

قال لان سون ون: «هذه حالة طارئة. يجب إحضار هذا الرجل أمام هوو ران كيم. افتح البوابة!».

أجاب قائد الحرس: «لا يمكنني فتحها إلا بناء على أوامر من هوو ران كيم نفسه».

قال لان سون ون: «اذهبْ إذَنْ لتحصل على الأوامر. قل للجيداك إنني أناشده بقوة أن يستقبلني مع هذا السجين؛ فهو ليس كالسجناء الآخرين الذين سقطوا في أيدينا سابقًا».

دخل الضابط إلى القلعة وغاب ربما حوالي 15 دقيقة، ثم فُتِحت البوابة الصغيرة التي وقفنا أمامها، وأومأ لنا قائد الحرس نفسه بالدخول.

قال للدوّار لان سون ون: «سوف يستقبلكم الجيداك».

كانت القلعة عبارة عن مدينة ضخمة مُسورة داخل مدينة هورز القديمة. ومن الواضح تمامًا أنها منيعة ضد أي هجوم، ما عدا الهجوم الجوي. ضمت داخلها طرقًا وبيوتًا وحدائق ومحالَّ تجارية جذابة. توقف الناس السعداء، الخالين من الهموم، للنظر نحوي في دهشة، خلال اقتيادي عبر شارع واسع في اتجاه مبنى جميل - قصر الجيداك هوو ران كيم. وقف حارس على كل جانب من جانبي البوابة. لا يوجد أي حراس

---

(328) دوّار: رتبة مريخية تعادل رتبة كابتن (نقيب - http://barsoom.wikia.com/wiki/Dwar - (المترجمة.

آخرين، وكان وجود هذين الحارسين نوعًا من الشكليات وليس للحماية؛ فلا يحتاج أحد داخل أسوار القلعة إلى حماية من شخص آخر، كما عرفت في ما بعد.

احتجزونا في غرفة الانتظار لبضع دقائق قبل استدعائنا، ثم أخذونا عبر ممر طويل إلى غرفه متوسطه الحجم، حيث يجلس رجل بمفرده عند مكتب. كان هوو ران كيم، جيداك هورز. لم تكن بشرته مائلة إلى الحُمرة مثل محاربيه، لكن شعره كان أصفر مثلهم وعيناه زرقاوين.

شعرت بتلك العينين الزرقاوين تنظر نحوي لتقييمي وأنا أقترب من مكتبه. كانت عينين طيبتين، وإنما ذاتا بريق من الصُلب. انتقلت عيناه بعد ذلك إلى لان سون ون، حيث خاطبه هوو ران كيم.

قال بصوت هادئ ورخيم: «هذا شيء غير معتاد على الإطلاق. ألا تعرف أن الهورزيين لقوا حتفهم لأقل من هذا؟».

أجاب الدوّار: «أعرف يا جيداك؛ لكن هذه حالة طارئة غير اعتيادية».

قال الجيداك: «عليك أن توضح».

قاطع بان دان تشي قائلاً: «فلتسمح لي أن أشرح الأمر؛ فهي مسؤوليتي قبل أي شيء، وقد قمت بحثّ لان سون ون للقيام بذلك».

أومأ الجيداك قائلاً: «تفضل».

* * *

الفصل (4)

لم أفهم لماذا يعطون كل هذه الأهمية لأسر سجين، ولا لماذا مات رجال لتصرفات أقل من ذلك كما قال هوو ران كيم لتذكير لان سون ون. ففي هيليوم، يتلقى المحارب الثناء على الأقل لأسر رجل وإحضاره سجينًا. أما إذا تمكن محارب عادي من أسر جون كارتر، أمير الحرب في المريخ، فقد يرقيه أمير الخصم إلى مرتبة النبلاء.

بدأ بان دان تشي حديثه: «يا جيداك، بينما كان ستة من المحاربين الخُضر يحاصرونني، جاء هذا الرجل - الذي يقول إن اسمه جون كارتر، وهو أمير الحرب في برسوم – جاء من تلقاء نفسه ليقاتل إلى جانبي. لا أعرف من أين جاء؛ وكل ما أعرفه أنني كنت في لحظة أقاتل بمفردي في معركة يائسة، ثم وجدتُ جانبي أعظم مبارز عرفته هورز من قبل. كان يمكنه ألا يأتي، وكان يمكنه أن يرحل في أي وقت، لكنه بقي؛ ولأنه بقي، أنا ما زلت حيًّا، ومات آخر المحاربين الخُضر الستة عند الواجهة البحرية القديمة. كان هذا المحارب ليهرب إن لم يقفز جون كارتر ويمتطي ظهر أحد حيوانات الثوات الضخمة ويطارده. كان بإمكان جون كارتر أن يهرب، لكنه عاد. لقد حارب من أجل جندي من هورز، ومنح ثقته لرجال هورز. فهل نكافئه بالموت؟».

توقف بان دان تشي عن الكلام، وأدار هوو ران كيم عينيه الزرقاوين نحوي، ثم قال: «جون كارتر، إن ما فعلته جدير باحترام وتعاطف كل رجل في هورز. وقد فزت بشكر جيداك هورز، غير أن...»، تردد الجيداك ثم واصل، «ربما إذا قلت لك شيئًا من تاريخنا، سوف تفهم لماذا يجب أن أحكم عليك بالموت». توقف للحظات، كما لو كان يفكر.

كنت أفكر في الوقت نفسه أيضًا؛ فقد أدهشتني الطريقة العفوية التي أصدر بها هوو ران كيم حكمه عليَّ بالموت. كان ودودًا للغاية بحيث لم يكن يبدو جادًّا، لكن لمحة سريعة على بريق تلك العينين الزرقاوين أكدت لي أنه لم يكن يمزح.

قلت: «أنا على يقين أن تاريخ هورز مثير للاهتمام، لكنني الآن أكثر اهتمامًا بمعرفة لماذا أموت بسبب صداقتي لمقاتل من هورز».

قال: «سوف أشرح لك».

قلت مؤكِّدًا: «سوف يتطلب الأمر قدرًا كبيراً من الشرح، جلالتكم».

لم يُلقِ بالاً بكلامي، وإنما واصل حديثه. «يُعتبر سكان هورز، بقدر ما نعرف، المجموعة الوَحيدة الباقية من العِرق الذي كان مُهيمنًا ذات يوم في برسوم، وهو عِرق الأوروفار. كانت سفننا تجوب، منذ مليون سنة، المحيطات الخمسة العظيمة التي حكمناها. ولم تكن مدينة هورز مجرد عاصمة لإمبراطورية عظيمة، بل كانت مقرًّا لعِلم وثقافة أعظم عِرق بشري عرفه العالَم. وامتدت إمبراطوريتنا من القطب إلى القطب. كانت هناك أعراق أخرى على برسوم، لكنها قليلة العدد وليس لها أهمية. نظرنا إليهم كمخلوقات أدنى. امتلك الأوروفاريون برسوم، التي كانت مقسمة بين مجموعة قوية من الجيداك. كانوا شعبًا سعيدًا ومزدهرًا وقانعًا، ونادرًا ما كانت الأمم المختلفة تقاتل بعضها. وتمتعت هورز بألف عام من السلام».

«لقد وصلوا إلى أقصى قمة الحضارة والكمال عندما أخذ مصير وشيك يلقي بأولى ظلاله على أفقهم؛ حيث بدأت البحار في الانحسار، وزادت هشاشة الغلاف الجوي. لقد بدأ ما تنبأ به العِلم منذ فترة طويلة، وهو أن العالَم يحتضر».

«ظلت مدننا لعصور تتبع انحسار المياه. وجفت المضايق، والخلجان، والقنوات، والبحيرات. وأصبحت الموانئ المزدهرة مدنًا داخلية مهجورة. وجاءت المجاعة. شنت الجحافل الجائعة الحرب ضد المجموعات الأكثر حظًّا. واجتاحت حشود الرجال الخُضر الوحشية المتزايدة ما كان في يوم ما أراض زراعية خصبة، وافترست كل شيء».

«لقد أصبحت كثافة الهواء قليلة إلى حد يصعب معه التنفس. وكان العلماء يعملون على بناء مصنع للجو، بيد أن عددًا قليلاً فقط من

سكان برسوم ظل في قيد الحياة قبل أن تكتمل عملية البناء بنجاح. لم ينجُ سوى الأكثر قوة - الرجال الخُضر، والرجال الحُمر، وعدد قليل من الأوروفاريين - ثم أصبحت الحياة مجرد معركة لبقاء الأصلح».

«اصطادنا الرجال الخُضر، كما كنا نصيد الوحوش الجارحة. لم يتركونا نرتاح، ولم يظهروا نحونا أي رحمة. كان عددنا قليلاً، وكانوا كثيرين. وأصبحت هورز آخر مدينة نلجأ إليها، وأصبح أملنا الوحيد في البقاء يكمن في منع العالم الخارجي من معرفة أننا موجودون. ولهذا، بقينا لعصور نقتل كل غريب يأتي إلى هورز ويرى أي أوروفاري، بحيث لا يغادرنا الغريب ويخوننا بأن ينقل إلى خصومنا أننا ما زلنا أحياء».

«يمكنك الآن أن تتفهم أنه مهما كان عمق أسفنا لهذه الضرورة، من الواضح أننا لا نستطيع أن نسمح لك بالعيش».

قلت: «يمكنني أن أتفهم شعوركم بضرورة تدمير أي عدو، لكنني لا أرى سببًا لتدمير صديق. ومع ذلك، فالقرار لك».

قال الجيداك: «لقد اتخذت القرار بالفعل، يا صديقي، يجب أن تموت».

صاح بان دان تشي: «انتظر لحظة، يا جيداك! قبل أن تصدر حكمك النهائي، فكر في هذا البديل. إذا بقي جون كارتر هنا في هورز، لن يمكنه نقل أي شيء إلى خصومنا. نحن ندين له بالامتنان. اسمحْ له بالعيش، ولكن دائمًا داخل جدران القلعة».

أبدى الحاضرون الآخرون إيماءات بالموافقة، ورأيت أن عينَي هوو ران كيم السريعتين قد شاهدتها. تنحنح الجيداك وقال: «هذا شيء ربما يجدر التفكير فيه. سوف أؤجل الحكم النهائي إلى الغد. وأنا أفعل ذلك إلى حد كبير بسبب حبي لك يا بان دان تشي؛ ونظرًا لأن وجود هذا الرجل هنا يرجع إلى إلحاحك، فسوف تعاني من نفس المصير المقَدر له».

فُوجئ بان دان تشي بالتأكيد، ولم يستطع إخفاء ذلك؛ لكنه تلقى الضربة كرجل. قال: «سأعتبره شرفًا أن أتقاسم أي مصير يواجهه جون كارتر، أمير الحرب في برسوم».

صاح الجيداك: «قول جيد، بان دان تشي! إعجابي بك يزيد بقدر زيادة مرارة حزني عندما أفكر في الحُكم الذي لا مفر منه تقريبًا بأن تموت في الغد».

انحنى بان دان تشي، وقال: «أشكر جلالتكم على قلقكم العميق. سوف تتشرف آخر ساعاتي بتذكُّرِه».

تحولت عينا الجيداك إلى لان سون ون، وركزت عليه لما بدا دقيقة كاملة. أراهن عشرة إلى واحد أن هوو ران كيم كان على وشك أن يسبب لنفسه المزيد من الحزن الذي لا يوصف بالحكم على لان سون ون بالموت. وأتصور أن لان سون ون كان يعتقد ذلك أيضًا؛ فقد كان ينظر بقلق.

قال هوو ران كيم: «لان سون وين، خُذهما إلى الحُفر واتركهما هناك هذه الليلة. تأكد أن يحصلا على طعام جيد وكل سُبُل الراحة الممكنة، لأنهما ضيفايَ الكريمان».

صاح لان سو ون: «لكن الحُفر، فخامتك! لم تُستخدم منذ زمن بعيد أطول من ذاكرة الإنسان. ولا أعرف حتى إن كان يمكنني أن أجد مدخلها».

قال هو رام كيم بعد تفكير: «هكذا إذَنْ. وحتى إن وجدتها، فمن المؤكد أنها في حالة من القذارة الشديدة وعدم الراحة. ربما من الأكثر عطفًا تدمير جون كارتر وبان دان تشي على الفور».

قال بان دان تشي: «انتظر، جلالتكم. أنا أعرف أين يكمن مدخل الحُفر. لقد كنت فيها من قبل، ويمكن جعلها بسهولة أكثر راحة. لا أريد أن أُغير خططك أو أسبب لك حزنًا عميقًا على الفور من جراء موتي وموت جون كارتر المفاجئ. تعال، لان سون ون! سوف أقود الطريق إلى حُفر هورز!».

* * *

الفصل (5)

كان من حسن حظي أن بان دان تشي كان متحدثًا سريعًا. فقبل أن يتفوه هوو ران كيم بأي اعتراضات، كنا خارج القاعة العامة وفي طريقنا إلى حُفر هورز. ويمكنني القول إنني كنت سعيدًا بالابتعاد عن أنظار ذلك الطاغية العطوف المُكترث. فلا يمكن التنبؤ متى يمكن أن تؤثر عليه بعض الدوافع الإنسانية الجديدة فيأمر بقطع رؤوسنا على الفور.

كان مدخل حُفر هورز يقع في مبنى صغير بلا نوافذ بالقرب من سور القلعة الخلفي. وكانت تغلقه بوابات ضخمة أصدرت صريرًا وهي تتحرك على مفصلات متآكلة عندما فتحها اثنان من المحاربين الذين رافقونا.

قال بان دان تشي: «المكان هنا مُظلم، سنكسر رقابنا دون ضوء».

ونظرًا لأن لان سون ون كان زميلاً جيدًا، فقد أرسل أحد رجاله لإحضار بعض المشاعل. وعندما عاد، دخلت مع بان دان تشي إلى الكهف القاتم.

اتخذنا خطوات قليلة نحو قمة منحدر صخري مبتور يتجه إلى الأسفل في الظلام الدامس، ثم صاح لان سون ون: «انتظروا! أين مفتاح هذه البوابات؟».

بان دان تشي: «أنا لا أعرف، ولكن ربما يعرف حارس المفاتيح الذي كان يعمل لدى جيداك عظيم عاش منذ آلاف السنين».

سأل لان سو ون: «ولكن كيف سأغلق عليكما الباب؟».

قال بان دان تشي: «لم يقل لك الجيداك أن تغلق علينا الباب، بل قال أن تأخذنا إلى الحُفر وتتركنا هناك هذه الليلة. أتذكر كلماته جيدًا».

كان لان سون ون في مأزق، لكنه اكتشف أخيرًا أنه طريق للهروب. قال: «تعالا، سنعود إلى الجيداك ونوضح عدم وجود مفاتيح؛ ونترك الأمر له».

قال بان دان تشي: «وأنت تعرف ما سيفعل!».

سأل: «ماذا؟».

«سيأمر بقتلنا فورًا. هيا، يا لان سون ون، لا تحكم علينا بموت فوري. اترك حارسًا هنا عند البوابات، مع أوامر بقتلنا إذا حاولنا الهرب».

فكر لان سون ون للحظة، وأخيراً أومأ برأسه موافقًا. وقال: «هذه خطة ممتازة»، ثم قام بتكليف اثنين من المحاربين بالحراسة؛ كما تولى ترتيب مناوبتهما، وبعد ذلك تمنى لنا ليلة جيدة وغادر مع محاربيه.

لم يسبق لي أن رأيت أناسًا يتسمون بالتهذيب والمراعاة مثل الأوروفاريين؛ وقد يكون تقريبًا من دواعي السرور أن يشق أحدهم حلق شخص آخر، وسيكون رد فعل هذا الآخر شديد التهذيب. إنهم على النقيض تمامًا لأعدائهم المتوارثين، أي الرجال الخُضر الذين لا يعرفون المجاملة أو المراعاة أو العطف؛ بل يتسمون بالبرود والقسوة والتوحش البغيض، ولا يعرفون الحب، وعقيدتهم هي الكراهية.

ومع ذلك، لم تكن حُفر هورز مكانًا يبعث على الرضى. تكدس التراب عبر العصور على المنحدر الذي مشينا فيه. امتد من نهايته ممر خارج نطاق ضوء مشاعلنا. كان ممرًّا واسعًا، توجد على جانبية فتحات أبواب. أعتقد أنها الزنازين القديمة التي كان الجيداك القدماء يحبسون فيها أعداءهم. سألت بان دان تشي.

قال: «على الأرجح، على الرغم من الجيداك الذين جاءوا بعد ذلك لم يستخدموها».

سألته: «ألم يكن لديهم أعداء؟».

«بالتأكيد كان لديهم أعداء، لكنهم اعتبروا من القسوة حبس الرجال في مثل هذه الثقوب المظلمة؛ ولذلك كانوا يقتلون على الفور مَن يشتبهون في أنهم أعداء».

سألته: «لماذا إذَنْ توجد الحُفر هنا؟».

«أوه، لقد بُنيت عندما بُنيت المدينة، ربما من مليون سنة، وربما أكثر. ومن قبيل المصادفة أن القلعة بُنيت حول مدخل الحُفر».

نظرت داخل إحدى الزنزانات. رأيت هيكلاً عظميًّا متعفنًا على الأرض، ويوجد في ما بين عظامه الحديد الصدئ الذي كان يربطه بالجدار. ورأيت في الزنزانة التالية ثلاثة هياكل عظمية، وصندوقين معدنيين منحوتين بشكل رائع. وعندما رفع بان دان تشي غطاء أحدهم، بالكاد ما أمكنني منع شهقة من الدهشة والإعجاب. امتلأ الصندوق بجواهر رائعة مُرتبة بجمال متقن، وعينات من الفنون المنسية، والحرف اليدوية لحِرفيين ممتازين كانوا يعيشون منذ مليون سنة. أعتقد أنني لم أرى من قبل شيئًا أثار إعجابي على هذا النحو. على أن الأمر كان يبعث على الإحباط؛ فقد ارتدت هذه المجوهرات نساء

جميلات ورجالٌ شجعان اختفوا في غياهب النسيان تمامًا بحيث لم تبق منهم حتى أي ذكرى.

قطع صوت أقدام، تسير متثاقلة خلفي، استغراقي في تلك الأفكار الخيالية. استدرت، وطارت يدي بشكل غريزي إلى حيث يجب أن يوجد مقبض سيفي، لكنه لم يكن في مكانه. كان يواجهني، وعلى استعداد للانقضاض عليَّ، أكبر أولسيو[329] رأيته من قبل.

تُعتبر هذه الفئران المريخية أشياء شرسة وقبيحة؛ تمتلك العديد من الأرجل، وخالية من الشعر، وجلدها يشبه جلد فأر مقزز حديث الولادة، وأعينهم عبارة عن مجموعة صغيرة ومغلقة تختفي في فتحات سمينة عميقة. على أن أكثر ملامحها شراسة وإثارة للاشمئزاز تتمثل في فكيها، اللتين يبرز مجمل هيكلهما العظمي عدة بوصات خارج اللحم ويكشف عن خمسة أسنان حادة تشبه المجرفة في كل فك، بحيث يعطي الشكل في مجمله مظهر وجه متعفن انسلخ عنه قدر كبير من اللحم. يصل حجمها عادة إلى حوالي حجم كلاب الأرديل الضخمة، لكن الفأر الذي قفز نحوي في حُفر هورز ذلك اليوم كان ضخمًا، في حجم الأسد الأمريكي الصغير وبعشرة أضعاف شراسته.

عندما قفز هذا المخلوق نحو حلقي، ضربت جانب رأسه بشدة وأسقطته على جانبه؛ لكنه نهض على الفور وهاجمني مرة أخرى؛ ثم جاء بان دان تشي إلى المشهد. لم يأخذوا منه سلاحه، فهجم بسيفه القصير على الأولسيو.

كانت معركة بحق. فقد كان هذا الأولسيو أكثر وحش رأيته شراسة وعندًا، وأعطى بان دان تشي معركة حياته؛ حيث قطع اثنتين من سيقانه، وإحدى أذنيه، وأَسقط معظم أسنانه قبل أن تخف ضراوة هجماته المتكررة. لقد قطعه تقريبًا إلى شرائط، لكنه كان مُجبراً دومًا على القتال. لم أستطع إلا الاكتفاء بالوقوف والمشاهدة، وهو الدور الذي لا أحبه في القتال. بيد أن المعركة انتهت أخيراً. مات الأولسيو، ونظر بان دان تشي إليَّ وهو يبتسم.

كان يبحث عن شيء يمسح به الدم من نصله. قلت: «ربما يوجد شيء في الصندوق الآخر»؛ ومشيت إليه، ورفعت الغطاء.

يبلغ طول الصندوق حوالي سبع أقدام، وعرضه قدمين ونصفًا، وعمقه قدمين. ويرقد في داخله رجل؛ يرتدي عتادًا مُتقنًا ومرصعًا بالجواهر، وخوذة مغطاة تمامًا بالماس

---

(329) أولسيو: مخلوق مريخي مروع، يماثل إلى حد كبير الجرذ على كوكب الأرض. يشبه الفأر الصغير الذي نما إلى حجم كلب الصيد الضخم - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ulsio - المترجمة.

- إحدى الخوذات القليلة التي رأيتها على المريخ. وبالمثل كانت زينة غمد سيفه الطويل، وسيفه القصير، وخنجره.

كان رجلاً وسيمًا ، ولا يزال جسمه وسيمًا. كان محفوظًا تمامًا بحيث ربما -بقدر استمرار المظاهر- لا يزال على قيد الحياة، باستثناء طبقة رقيقة من التراب غطت ملامحه. وعندما أزلتها، بدا حيًّا مثلك أو مثلي.

سألت بان دان تشي: «هل تدفنون موتاكم هنا؟». هز رأسه.

وأجاب: «لا. ربما يوجد هذا الرجل منذ مليون سنة».

صحت: «هراء! كان ليجف ويتآكل من آلاف السنين».

قال بان دان تشي: «لا أعرف أي شيء عن ذلك. هناك العديد من الأشياء التي عرفها هؤلاء الزملاء القدماء وتُعتبر اليوم من الفنون المفقودة. وأعرف أن التحنيط كان إحداها. وتوجد أسطورة حول لي أوم لوو، أشهر مُحنِّط في كل العصور. تحكي الأسطورة أن عمله كان مثاليًّا إلى حد أن الجثمان نفسه لا يعرف أنه كان ميتًا؛ وفي العديد من المناسبات، كانت الجثامين تنهض وتسير في مراسم الجنازة. وجاءت نهاية لي أوم لوو عندما لم تتمكن زوجة جيداك عظيم من إدراك أنها ميتة، وسارت مباشرة نحو الجيداك وزوجته الجديدة. وفي اليوم التالي، فقد لي أوم لوو رأسه».

قلت ضاحكًا: «إنها قصة جيدة. وآمل أن يدرك هذا الرجل أنه ميت، لأني على وشك تجريده من سلاحه. لم يكن ليحلم منذ مليون سنة أنه في يوم ما سيُعيد تسليح أمير الحرب في برسوم».

ساعدني بان دان تشي في رفع الجثة وإزالة عتادها. ودُهشنا من نعومة وليونة ملمس جسمه، ودفئه الطبيعي.

سألته: «هل تفترض أننا ربما نرتكب خطأ؟ هل يمكن ألا يكون ميتًا؟».

هز بان دان تشي كتفيه، وقال: «إن معارف القدماء وفنونهم تتجاوز إدراك الإنسان الحديث».

قلت: «كلامك لا يساعد على الإطلاق. هل تعتقد أن هذا الرجل قد يكون حيًّا؟».

قال بان دان تشي: «كان وجهه مغطًّى بالتراب، ولم يأتِ أحد إلى هذه الحُفر منذ آلاف وآلاف السنين. فإذا لم يكن قد مات، من المؤكد أنه ميت الآن».

وافقت تمامًا، وقمت بربط العتاد الرائع حولي دون مزيد من اللغط. سحبت السيوف والخنجر وفحصتها. كانت الأسلحة متألقة وجيدة مثل صقلها الأول، وكانت حوافها حادة. شعرت مرة أخرى أنني رجل كامل، فالسيف يمثل جزءًا أساسيًّا مني.

عندما خرجنا إلى الممر، رأيت ضوءًا من بعيد؛ لكنه اختفى في لحظة. سألت بان دان تشي: «هل رأيت ذلك؟».

قال بصوت مضطرب: «رأيت ذلك. يجب ألا يوجد ضوء هنا، لعدم وجود أي شخص».

وقفنا مع تركيز بصرنا على طول الممر، لربما يتكرر الضوء. لم يكن هناك شيء، لكن ضحكة جوفاء ترددت من بعيد خلال هذا الممر الأسود.

* * *

الفصل (6)

نظر إليَّ بان دان تشي متسائلاً: «ما هذا؟».

أجبت: «بدا لي كثيراً كأنه ضحك».

أومأ بان دان تشي وقال موافقًا: «نعم، ولكن كيف يوجد ضحك حيث لا يوجد أحد ليضحك؟»، وكان بان دان تشي في حيرة.

قلت مبتسمًا: «ربما تعلم الأولسيو في هورز كيف يضحك».

تجاهل بان دان تشي سخريتي. قال وهو يفكر: «رأينا ضوءًا وسمعنا ضحكًا، ماذا يعني ذلك بالنسبة لك؟».

قلت: «يعني نفس الشيء الذي يعنيه لك، وهو وجود شخص ما بجوارنا هنا في حُفر هورز».

قال: «لا أعرف كيف يمكن أن يحدث ذلك».

اقترحت: «دعنا نتحقق من الأمر».

تقدمنا ممتشقين سيوفنا، لأننا لا نعرف طبيعة أو مِزاج صاحب تلك الضحكة. وهناك احتمال دائم أن يقفز أولسيو من إحدى الزنزانات ويهاجمنا.

امتد الممر على خط مستقيم لمسافة، ثم بدأ ينحني. هناك العديد من الفروع والتقاطعات، لكننا واصلنا طريقنا على طول ما اعتقدنا أنه الممر الرئيس. لم نشهد أي أضواء أخرى، ولم نسمع المزيد من الضحك. لا يوجد أي صوت في كل تلك المتاهة الشاسعة من الممرات غير قعقعة خافتة لأسلحتنا، وأصوات خطوات أقدامنا بصنادلنا على الأرض، فضلاً عن همسات خافتة يصدرها عتادنا الجلدي.

قال بان دان تشي أخيراً: «ما من جدوى للاستمرار في البحث لمسافة أبعد. يمكننا أن نبدأ في العودة».

لم يكن لديَّ أي نية الآن للعودة إلى موتي. فكرت أن الضوء والضحك يشيران إلى وجود رجل في هذه الحُفر. وإذا كان سكان هورز لا يعرفون شيئًا عنها، فإن عليهم

دخولها من خارج القلعة، وهو ما يعني أن طريق الهروب مفتوح أمامي. ولذلك لم أكن أرغب في العودة؛ لذا اقترحت أن نرتاح لفترة ونناقش خططنا المستقبلية.

قال بان دان تشي: «يمكننا أن نرتاح، لكن وليس هناك ما نحتاج إلى مناقشته. فقد وضع هوو ران كيم جميع خططنا».

دخلنا زنزانة لا تضم سوى ذكريات قاتمة عن مأساة الماضي. وبعد أن أدخلنا أحد مشاعلنا في فتحة في الجدار، جلسنا على الأرضية الحجرية الصلبة.

قلت: «ربما حدد لك هوو ران كيم خططك، لكنني وضعت خططي الخاصة».

سألني: «وما هي؟».

«لن أعود لكي أُقتل؛ بل سأجد وسيلة للخروج من هذه الحُفر».

هز بان دان تشي رأسه في حسرة. قال: «أنا آسف، لكنك ستعود لتواجه مصيرك معي».

سألته: «ماذا يجعلك تعتقد ذلك؟».

«لأنني يجب أن أعود بك. فأنت تعرف جيدًا أنني لا يمكن أن أدع غريبًا يهرب من هورز».

قلت: «هذا يعني أننا يجب أن نتقاتل حتى الموت يا بان دان تشي، وأنا لا أود قتل شخص قاتلت إلى جانبه وأُعجبت به».

قال بان دان تشي: «لديَّ شعور مماثل، يا جون كارتر. أنا لا أريد قتلك؛ لكنك يجب أن تتفهم موقفي - إذا لم تأتِ معي عن طيب خاطر، يجب أن أقتلك».

حاولت مجادلته لأثنيه عن موقفه الأحمق، لكنه كان عنيدًا. كنت على يقين أن بان دان تشي يحبني. وشعرت بانقباض من فكرة قتله، لأنني

أعرف أنني سأتمكن من قتله. كان مبارزًا ممتازًا، وإنما ما الفرصة المتاحة أمامه في مواجهة سيد المبارزين في عالَمين؟ أنا آسف إذا كان كلامي يبدو تفاخرًا؛ فأنا أكره التفاخر – وإنما لم أقل سوى الحقيقة؛ فما من شك أنني أفضل مبارز عاش على الإطلاق.

قلت: «حسنًا، ليس علينا أن نقتل بعضنا على الفور. دعنا نستمتع بصحبتنا المشتركة لفترة أطول».

ابتسم بان دان تشي، وقال: «هذا يناسبني تمامًا».

سألته: «ماذا عن لعبة الجيتان[330] ؟ سوف تساعد على تمرير الوقت بشكل لطيف».

سألني: «كيف يمكننا أن نلعب الجيتان دون لوحة أو قِطع؟».

فتحت الحقيبة الجلدية، مثل تلك التي يحملها جميع سكان المريخ، وأخرجت لوحة جيتان صغيرة قابلة للطي ومعها جميع القطع – كانت هدية من ديجاه ثوريس، زوجتي التي لا تُضاهى. وكان بان دان تشي مفتونًا بهذا الجيتان؛ فهو قطعة فنية جميلة وبديعة، قام أعظم فنان في هيليوم بتصميم قطعها، وتولى نحتها تحت قيادته اثنان من أفضل النحاتين في هيليوم.

كانت جميع قطع اللعبة - مثل المحارب، البادوار[331] ، الدوّار، البانتان[332] ، الرئيس - منحوتة على شكل مقاتلين مشهورين في المريخ؛ كما كانت إحدى الأميرتين منحوتة بشكل جميل كصورة مُصغرة من تارا الهليومية، والأميرة الأخرى على شكل لانا من جاثول.

أشعر بفخر غير عادي بهذا الجيتان. ولأن القطع صغيرة جدًّا، أحمل معي دائمًا عدسات صغيرة وإن كانت قوية ، بحيث لا أستمتع بمفردي وإنما قد يستمتع الآخرون أيضًا. أعطيت العدسات لبان دان تشي، وفحص القطع بدقة.

قال: «إنها غير عادية. لم أرَ أبدًا أي شيء أكثر جمالاً». تفحص إحدى القطع لفترة أطول بكثير من القطع الأخرى، وأمسكها بيده كما لو أنه لا يريد التخلي عنها: «يا لروعة خيال الفنان الذي أبدع هذه القطعة، فلا يمكن أن يوجد لديه أي نموذج لهذا الجمال الرائع. لا يوجد في برسوم شيء كهذا».

قلت له: «كل قطعة من هذه القطع تشبه شخصية حقيقية موجودة».

(330) جيتان: لعبة في برسوم تشبه إلى حد كبير لعبة الشطرنج على كوكب الأرض - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jetan - المترجمة.

(331) بادوار: رتبة مريخية تُعادل رتبة مُلازم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Padwar - المترجمة.

(332) بانتان: هو جندي مريخي مرتزق، يتنقل من مكان لآخر ويقاتل لصالح مَن يرغب في شراء خدماته - http://barsoom.wikia.com/wiki/Panthan - المترجمة.

قال: «ربما باقي القطع، لكن ليس هذه. فلم تعشْ من قبل امرأة بمثل هذا الجمال».

سألته: «أي قطعة تقصد؟»، فأعطاها لي. فقلت: «إنها لانا من جاثول، ابنة تارا الهيليومية التي هي ابنتي. وهي تعيش بالفعل، والقطعة تشبهها تمامًا. على أن القطعة لا تمثلها بالطبع على نحو عادل، لأنها لا يمكن أن تعكس حركتها أو سحر شخصيتها».

أخذ مني التمثال الصغير وظل يتطلع إليه لفترة طويلة تحت العدسة، ثم أعاده إلى الصندوق. سألته: «هل نلعب؟».

هز رأسه نافيًا وقال: «لا يصح أن نلعب بتمثال إلهة».

جمعتُ القطع مرة أخرى داخل صندوق صغير، كان أيضًا لوحة اللعب، وأعدته إلى حقيبتي. جلس بان دان تشي صامتًا. ألقى ضوء الشعلة الوحيدة ظلالًا عميقة وداكنة على الأرض.

كانت مشاعل هورز هذه بمثابة وحي بالنسبة لي؛ فهي مبتكرة للغاية. كانت أسطوانية، وتضم نواة مركزية تتوهج ساطعة بضوء ضعيف عند تعرضها للهواء. وبتدوير غطاء مفصلي وبالضغط بالإبهام على زر يدفع النواة المركزية إلى أعلى، تصبح معرضة للهواء وتضيء بقوة. وكلما ارتفعت، تعرضت لمزيد من الهواء، وبالتالي تزداد كثافة الضوء. أخبرني بان دان تشي أن اختراعها يرجع إلى عصور طوال، وأن ضوءها لا يتسبب سوى في فقدان قدر محدود من مادة النواة، ولذا فهي تُعتبر عمليًّا أبدية. بيد أن فن إنتاج النواة المركزية ضاع منذ عصور قديمة، ولم يتمكن أي عالِم منذ ذلك الحين من تحليل التركيبة.

ظل بان دان تشي صامتًا لفترة طويلة قبل أن يتحدث مره أخرى؛ ثم نهض. بدا متعبًا وحزينًا. قال: «هيا، دعنا ننتهي من الأمر الآن»، وسحب سيفه.

سألته: «لماذا يجب أن نتقاتل؟ نحن أصدقاء. إذا رحلت، أتعهد بشرفي أنني لن أقود الآخرين إلى هورز. اتركني أذهب في سلام. لا أريد أن أقتلك. ومن الأفضل أن تأتي معي. هناك الكثير الذي يمكنك رؤيته في العالم خارج هورز، فضلًا عن الكثير للمغامرة».

قال راجيًا: «لا تحاول إغرائي، لأنني أريد أن آتي. لأول مرة في حياتي أريد أن أترك هورز، لكنني لا أستطيع. هيا! جون كارتر. خذ حذرك! يجب أن يموت أحدنا، إلا إذا عُدت معي عن طيب خاطر».

قلت لتذكيره: «سيموت أحدنا في أي حالة. وهو شيء سخيف للغاية، يا بان دان تشي».

كان رده الوحيد: «خذ حذرك!».

لم يكن أمامي أي شيء أفعله إلا امتشاق سيفي والدفاع عن نفسي. لم يسبق لي أن امتشقت سيفي دون متعة مثل الآن.

* * *

الفصل (7)

لم يتخذ بان دان تشي موقفًا هجوميًّا، ولم يفعل الكثير في الدفاع. كان بإمكاني قتله في أي وقت أختاره منذ لحظة امتشاقي لسيفي. أدركت على الفور أنه يمنحني حريتي على حساب حياته، لكنني لن أقتله.

وفي النهاية تراجعت، وأنزلت سيفي قائلاً: «أنا لست جزارًا، يا بان دان تشي، هيا! فلنكفَّ عن القتال».

هز رأسه وقال ببساطة شديدة: «لا أستطيع أن أقتلك».

سألته: «لماذا؟».

قال: «لأنني أحمق. إن نفس الدماء تتدفق في عروقك وعروقها. ولا يمكنني إراقة هذه الدماء. لا يمكنني أن أتسبب في تعاستها».

سألته: «ماذا تعني؟ عن ماذا تتحدث؟».

قال: «أتحدث عن لانا الجاثولية، أجمل امرأة في العالم، المرأة التي لن أراها أبدًا لكني أقدم لها حياتي بكل سرور».

تبدو الآن الشهامة المفرطة لدى مقاتلي المريخ، لكن الأمر كان يحملنا إلى أبعد كثيراً مما رأيته من قبل.

قلت: «هذا جيد جدًّا؛ ونظرًا لأنني لا أنوي قتلك، فلا فائدة من هذه المبارزة السخيفة».

أعدتُ سيفي لغمده، وبالمثل فعل بان دان تشي.

سألني: «ماذا نفعل؟ لا أستطيع أن أدعك تهرب؛ ومن ناحية أخرى، لا أستطيع منعك. أنا خائن لبلدي. ولذلك، يجب أن أقتل نفسي».

كان لديَّ خطة. يمكنني مرافقة بان دان تشي والعودة معه إلى مدخل الحُفر تقريبًا، وهناك يمكنني التغلب عليه وتقييده وتكميمه، ثم أهرب أو على الأقل أحاول العثور على مخرج آخر من الحُفر. وبعد ذلك سوف يكتشفون بان دان تشي، وقد يواجه حكمًا بالموت وإنما دون أن تعلق وصمة الخيانة باسمه.

قلت له: «أنت لا تحتاج إلى قتل نفسك. سوف أرافقك إلى مدخل الحُفر. لكني أحذرك أنني إذا اكتشفت فرصة للهرب سأهرب».

قال: «هذا عدل، واقتراح كريم منك. فقد أتحت لي إمكانية الموت بشرف ورضى».

سألته: «هل تريد أن تموت؟»

قال مؤكِّدًا: «كلا بالطبع، أتمنى أن أعيش. وإذا عشت، قد أجد طريقي في يوم ما إلى جاثول».

سألته: «لماذا لا تأتي معي إذَنْ؟ يمكننا معًا أن نعثر على طريق لخروجنا من الحُفر. تبعُد طائرتي بمسافة قصيرة عن القلعة، والمسافة من هورز إلى جاثول لا تزيد على 4000 هاد[333]».

هز رأسه وقال: «إن الإغراء عظيم؛ وإلى أن أستنفد كل الموارد وأفشل في العودة إلى هوو ران كيم قبل ظهر الغد، فقد لا أفعل أي شيء آخر سوى المحاولة».

سألته: «لماذا عند ظهر الغد؟».

أجاب: «إنه قانون أوروفاراني قديم جدًّا، يحدد موعد حكم الإعدام بظهيرة اليوم الذي يصدر فيه الحكم على الشخص. وقد قرر هوو ران كيم أن نموت غدًا. وإذا لم يحدث، لسنا مُلزمين بشرف العودة إليه».

توجهنا بحزن إلى المدخل الذي من المتوقع أن نعبره لنصل إلى موتنا. لم تكن لديَّ نية لعبوره بالطبع، لكنني كنت حزينًا من أجل بان دان تشي. لقد أحببته كثيرًا؛ فقد كان رجلاً يتمتع بشرف كبير، كما كان مقاتلاً شجاعًا.

مشينا كثيرًا، إلى أن أصبحت مقتنعًا بأننا إذا كنا في الممر الصحيح كان ينبغي أن نصل إلى المدخل منذ فترة طويلة. أخبرت بان دان تشي بذلك ووافقني. تتبعنا خطواتنا إلى الخلف، وحاولنا في ممر آخر. لكننا فشلنا في العثور على الممر الصحيح.

قال بان دان تشي: «أخشى أننا ضللنا الطريق».

---

(333) الهاد: هو الميل في برسوم، ويعادل الهاد، أو الميل البرسومي، حوالي 339.2 قدم بمقاييس كوكب الأرض - http://barsoom.wikia.com/wiki/Linear_Measurement - المترجمة.

وافقته بابتسامة: «أنا متأكد تمامًا من ذلك». إذا كنا قد ضللنا الطريق بما يكفي، فلن نجد المدخل قبل الظهيرة القادمة؛ وعندئذٍ يصبح بان دان تشي حرًّا في الذهاب إلى حيث يجد سعادته، وكنت أعرف جيدًا إلى أين يُسعده أن يذهب.

أنا لست وسيط زواج، ولا أؤمن بسد الطريق لمنع لقاء رجل وامرأة؛ بل أؤمن بترك الأمر للطبيعة كي تأخذ مجراها. إذا كان بان دان تشي يعتقد أنه يحب لانا الجاثولية ويرغب في الذهاب إلى جاثول ومحاولة الفوز بها، لم أكن لأشجعه لو كان ينحدر من أصل متدنٍّ أو كانت طبيعته شائنة. لكنه لم يتسم بأي منهما؛ فهو ينتمي إلى أقدم عِرق مثقف في برسوم، وأثبت بان دان تشي أنه رجل يتحلى بالشرف.

لم يكن لديَّ أي سبب للاعتقاد بأن هدفه سوف يُكلل بالنجاح. ذلك أن لانا الجاثولية لا تزال صغيرة، ومع ذلك ألقى بعض رجال أعظم بيوت في برسوم سيوفهم أمام قدميها. وهي عاقلة، مثلها مثل جميع نساء المريخ تقريبًا اللاتي يتمتعن بمنزلة عليا. فقد يختطفها، مثل الكثيرات منهن، خاطب متهور؛ وعندئذ إما أن تحبه وإما أن تدس خنجرًا بين ضلوعه، لكنها لن تتزوج أبدًا من رجل لا تحبه. كان خوفي على بان دان تشي أكثر منه على لانا الجاثولية.

تتبعنا آثار خطواتنا وحاولنا الدخول إلى ممر آخر، لكننا لم نجد مدخلًا. استلقينا للراحة، ثم حاولنا مرة أخرى. كانت النتيجة هي نفسها.

قال بان دان تشي: «لا بد أن الوقت صباحٌ الآن».

قلت بعد أن نظرت في جهاز الكرونوميتر الخاص بتعيين الوقت: «نعم، نحن عند الظهيرة تقريبًا».

لم أستخدم بالطبع كلمة «الظهيرة»، بل استخدمت بالأحرى ما يعادلها في لغة برسوم: 25 زات بعد الزود الثالث[334] – أي 12 ظهرًا بتوقيت كوكب الأرض.

صاح بان دان تشي: «يجب أن نُسرع!».

صدرت ضحكة جوفاء خلفنا. استدرنا سريعًا، ورأينا ضوءًا على بُعد ثم اختفى على الفور.

---

(334) ورد في قصة «آلهة المريخ» أن يوم المريخ يزيد بمقدار ضئيل على 24 ساعة و37 دقيقة (بتوقيت كوكب الأرض). ويقسِّمه المريخيون إلى عشرة أجزاء متساوية تُسمَّى زود (أي أن دورة المريخ حول محوره تساوي 10 زود)، وينقسم الزود إلى خمسين فترة أقصر تُسمَّى زات (أي أن الزود يعادل 50 زات) – المترجمة.

سألته: «لماذا يجب أن نسرع؟ لقد بذلنا قصارى جهدنا. وليس خطؤنا أننا لم نجد طريقنا للعودة إلى القلعة والموت».

أومأ بان دان تشي وقال: «بغض النظر عن مدى سرعتنا، هناك احتمال ضئيل أن نجد المدخل».

كان هذه الفكرة بالطبع صعبة المنال، إلا أنها كانت أيضًا دقيقة؛ فنحن لم نجد أبدًا مدخل القلعة.

قال بان دان تشي: «هذه هي المرة الثانية التي نسمع فيها هذه الضحكة ونرى ذلك الضوء. أعتقد أننا يجب أن نتحرى الأمر؛ ربما يوجهنا الضوء وصوت الضحك إلى المدخل».

قلت: «ليس لديَّ اعتراض على أن نتحرى الأمر؛ وإن كنت أشك في أننا إذا وجدنا صاحب الضحكات سنجده صديقًا».

قال بان دان تشي: «يا له من أمر يبعث على الحيرة. كنت أعتقد طوال حياتي، كما اعتقد جميع سكان هورز الآخرين، أن حُفر هورز مهجورة. منذ زمن طويل، ربما يمتد لعصور، دخل بعض الرجال المغامرين إلى الحُفر للتحري عنها. وتكرر ذلك على فترات، ولم يعُد على الإطلاق

أي من الذين دخلوا الحُفر. على الإطلاق. وافترض الجميع أنهم ضلوا الطريق وجاعوا حتى الموت. ربما سمعوا الضحك أيضًا ورأوا الأضواء!».

قلت: «ربما».

* * *

الفصل (8)

فقدنا، أنا وبان دان تشي، كل شعور بالوقت؛ فقد بقينا لفترة طويلة في حُفر هورز دون طعام أو ماء. يصعب أن يكون أكثر من يومين، فما زلنا نتمتع بالقوة. كما أن أكثر من يومين دون ماء سوف يستنزف قوة أفضل الرجال. رأينا الضوء وسمعنا الضحك ثانية لمرتين. يا لها من ضحكة! ما زلت أسمعها. حاولت الاعتقاد أنها ضحكة إنسان. لم أرد أن يصيبني الجنون.

قال بان دان تشي: «لنعثر عليه ونشرب من دمه!».

قلت ناصحًا: «كلا، بان دان تشي. نحن رجال ولسنا وحوشًا».

قال: «أنت على حق. كدت أفقد السيطرة».

قلت: «دعنا نستخدم عقولنا. إنه يعرف مكاننا دائمًا، لأنه يرى ضوء شعلتنا. لنفترض أننا أطفأناها وتسللنا إلى الأمام بصمت. إذا كان فضوليًّا، سوف يتحرى الأمر. وسوف ننصت بانتباه، ننصت إلى صوت خطوات أقدامه». وضعت خطة جيدة، ووافق بان دان تشي على أنها كانت خطة دقيقة. وأعتقد أنه لا يزال يفكر في شرب دم المخلوق عندما نجده. كنت أقترب من حالة تجعلني أنا أشرب من دمه أيضًا. يا إلهي! إذا لم تكن قد عانيت سابقًا من الجوع والعطش، فلا تحكم على الآخرين بقسوة.

أطفأنا الشعلة. كان لدى كل منا واحدة، وما من ضرورة لبقاء الشعلتين مضاءتين. يمكن زيادة ضوء إحداهما إلى درجة قد تصيب الإنسان بالعمى. زحفنا بصمت إلى الأمام، في الاتجاه الذي شهدنا فيه الضوء في المرة الأخيرة. امتشقنا سيوفنا. اقتربت لثلاث مرات بالفعل حيوانات الأولسيو الضخمة التي تعيش في حُفر هورز القديمة، لكننا نتمتع بميزة ضوء الشعلة. لم أستطع إلا أن أتساءل كيف سنخرج إذا هاجمنا أحدهم الآن.

كان الظلام كليًّا، ولا يوجد أي صوت. تشبثنا بأسلحتنا حتى يصدر صوت القعقعة إذا احتكت بمعادننا. رفعنا أقدامنا وأنزلناها بلطف على الأرضية الحجرية. لا يوجد أي صوت على الإطلاق. وبالكاد ما نتنفس.

ظهر الآن ضوء أمامنا. توقفنا، وانتظرنا، وأنصتنا. رأيت هيئة، ربما لإنسان وربما لمخلوق غير بشري. لمستُ ذراع بان دان تشي بخفة، وتحركت إلى الأمام. جاء معي. لم نُصدر أي صوت على الإطلاق. وأعتقد أن كلاًّ منا حبس أنفاسه.

زاد سطوع الضوء. يمكنني الآن رؤية رأس وكتف يبرزان من مدخل على جانب الممر. كان لهذا المخلوق شكل بشري على الأقل. ويمكنني أن أتخيل أن اختفاءنا المفاجئ أقلقه، ويتساءل عما حدث لنا. انسحب إلى المدخل الذي كان يقف عنده، غير أن الضوء استمر. يمكننا رؤيته ساطعًا من داخل الزنزانة أو الغرفة التي دخلها المخلوق.

تسللنا لمسافة أقرب. قد تكمن هنا الإجابة على سعينا للحصول على الماء والغذاء. إذا كان المخلوق إنسانًا، فإنه يحتاجهما؛ وإذا كانا متوفرين، يجب أن نحصل عليهما.

اقتربنا بصمت من المدخل الذي يتدفق منه الضوء إلى الممر. سيوفنا عالية. كنت في الصدارة. شعرت أن المخلوق سيختفي عند أي تحذير باقترابنا. يجب ألا يحدث ذلك. يجب أن نراه. ويجب أن نمسك به، ونجبره على إعطائنا الغذاء والماء!

وصلت إلى المدخل، وخطوت إلى الفتحة ولمحت لحظيًّا هيئة غريبة؛ ثم غرق كل شيء في الظلام وتردد صدى ضحكة جوفاء خلال السواد الدامس في حُفر هورز.

حملت في يدي اليمنى السيف الطويل الذي أخذته من الرجل الأوروفاري الذي مات منذ زمن طويل. وأمسكت شعلة هورز المذهلة في يدي اليُسرى. وعندما انطفأ الضوء في الغرفة، رفعت بإبهامي زر الشعلة، فغمر الضوء الغرفة.

رأيت غرفة كبيرة مليئة بالعديد من الصناديق. كما توجد أريكة بسيطة، ومقعد طويل، وطاولة، ورفوف مليئة بالكتب، وموقد مريخي قديم، وخزان للمياه، فضلاً عن أغرب رجل رأته عيناي على الإطلاق. هرعت إليه ووضعت سيفي أمام قلبه لأنني لم أكن أريده أن يهرب. ارتعد وصرخ، وتوسل ألا أقتله.

قلت: «نحن نريد الماء؛ الماء والطعام. أعطنا الماء والطعام دون أن تلحق بنا أي ضرر، وعندئذ ستكون آمنًا».

قال: «خذوهما بنفسيكما. الماء هناك، والطعام هنا. ولكن، أخبرني مَن أنتما وكيف وصلتما هنا إلى حُفر هورز القديمة، هورز الميتة – التي ماتت منذ عصور لا تُعد ولا تُحصى؟ لقد انتظرت لعصور لكي يأتي شخص، وها أنتما هنا الآن. مرحبًا بكما. سنكون أصدقاء رائعين. ستبقيان هنا معي إلى الأبد، مثل كل الآخرين العديدين. سأجد صحبة في حُفر هورز المهجورة». ثم ضحك بشكل جنوني.

كان من الواضح أنه مخلوق مجنون. لم يقتصر الجنون على مظهره، بل تصرفاته أيضًا. كان كلامه أحيانًا عبارة عن تمتمة غير مفهومة، يتخللها غالبًا ضحك بلا معنى وفي غير محله - الضحكة الجوفاء التي سمعناها من قبل.

كان مظهره مثيراً للاشمئزاز. كان عاريًا باستثناء العتاد الذي يدعم السيف والخنجر، وكانت بشرة جسده المشوه بيضاء شبحية – مثل لون الجثث. وكان فمه المترهل مفتوحًا، ويكشف عن عدد قليل من الأنياب الصفراء المهترئة. أما عيناه، فواسعتان ومستديرتان، ويظهر البياض بالكامل حول القزحية. لا يوجد لديه أنف؛ ويبدو أنه تآكل نتيجة للمرض.

أبقيت عيني عليه بينما يشرب بان دان تشي، الذي راقبه وأنا أروي عطشي. وظل المخلوق طوال الوقت يتفوه بثرثرة لا معنى لها. يقول كلمة كالوت[335] مثلاً، ويظل يرددها مرارًا وتكرارًا كما لو أنه يجري محادثة.

يمكنك اكتشاف جملة استفهامية عن طريق طبقة صوته؛ ويصدق الشيء نفسه على الجملة البيانية، أو صيغة الأمر، أو التعجب. واستمر طوال الوقت في الإيماء مثل خطيب حفل الرابع من يوليو.

وأخيراً قال: «تبدوان غبيِّين جدًّا، لكنكما قد تفهمان في النهاية. والآن بشأن الطعام: هل تفضلان الأولسيو نيئًا، كما أتصور؛ أم يجب أن أطبخه؟».

«الأولسيو!»، صاح بان دان تشي، «أنت لا تعني أن تقول إنك تأكل الأولسيو!».

قال المخلوق: «إنه طعام شهي».

سأله بان دان تشي: «هل لديك أي شيء آخر؟».

أجاب المخلوق: «لا يزال هناك القليل من رو تان بيم[336]، لكنه بدأ يتصلب قليلاً حتى لرجل ذوّاق مثلي».

نظر بان دان تشي نحوي. فقلت: «أنا لست جائعًا، تعال! دعنا نحاول الخروج من هنا». سألت الرجل العجوز: «أي ممر يقود إلى المدينة؟».

قال: «يجب أن تنالا قسطًا من الراحة، وبعد ذلك سوف أريكما الطريق. يمكنكما الاستلقاء على تلك الأريكة وتستريحان».

كنت أسمع دائمًا أنه من الأفضل ملاطفة مختل العقل؛ وكان من الحكمة أن أطلب معروفًا من هذا المخلوق. علاوة على ذلك، كنت وبان دان تشي نشعر بتعب شديد،

---

(335) الكالوت: الكلب المريخي، وهو بحجم المُهر ولديه عشر أرجل، ويضم فكاه ثلاثة صفوف من الأنياب الطويلة الحادة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Calot – المترجمة.

(336) رو تان بيم: اسم رجل أورفاري ميت، يوجد جسمه في حُفر هورز - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ro_Tan_Bim - المترجمة.

ولذلك استلقينا على الأريكة وجر الرجل العجوز المقعد الطويل وجلس بجانبنا. وبدأ يتحدث بصوت منخفض وهادئ.

«أنتما متعَبان للغاية»، قالها مرارًا وتكرارًا برتابة، وثبت عينيه الكبيرتين على أحدنا أولاً ثم حولها إلى الآخر. شعرت باسترخاء عضلاتي. ورأيت بان دان تشي يغلق جفنيه. همس رجل الحُفر العجوز: «سرعان ما تنامان. سوف تنامان وتنامان وتنامان، ربما لعصور مثل أولئك الآخرين. ولن تستيقظا إلا عندما أقول لكما، أو عندما أموت - وأنا لن أموت أبدًا». نظر نحوي وقال: «أنت سرقت عتاد وأسلحة هور كاي لان. وسوف يغضب عندما يستيقظ ويكتشف أنك سرقت أسلحته، لكن هور كاي لان لن يستيقظ. إنه نائم منذ عصور عديدة، حتى إنني نسيت عددها. دونت عددها في كتابي، لكن ما الفارق الذي يحدثه ذلك؟ وما الفارق في أن يرتدي شخص آخر عتاد هور كاي لان؟ لن يستخدم أحد سيوفه مرة أخرى أبدًا؛ وعلى أي حال، عندما ينتهي رو تان بيم، ربما أستخدم هور كاي لان. وربما أستخدمك. مَن يدري؟».

وكان صوته مثل تهويدة حالمة. شعرت أنني أغرق في سُبات لطيف. ألقيت نظرة على بان دان تشي، ووجدته نائمًا. وعندئذ وصل مغزى كلمات المخلوق إلى ذهني المنطقي. لقد حكم علينا بالموت الحي باستخدام التنويم المغناطيسي! سعيت لنفض الخمول عني. استجمعت ما تبقى من قوة إرادتي. كان عقلي دائمًا أقوى من عقل أي مريخي نفذت إليه.

منحني رعب الوضع قوة: فكرة الاستلقاء هنا لعدد لا يُحصى من العصور، ويتجمع فوقي تراب حُفر هورس، أو يأكلني هذا المهووس المهترئ! استجمعت كل قوتي في جهد أخير هائل لتحطيم الروابط التي قيدتني. كان جهدًا أشد كثيراً من الجهد البدني. تفجر عرقي بعنف. شعرت بأنني أرتجف من الرأس إلى القدمين. هل سأنجح؟

ومن الواضح أن الرجل العجوز أدرك المعركة التي أخوضها من أجل الحرية؛ لأنه ضاعف جهوده لاحتجازي. التف صوته، كما التفت عيناه، حولي بقوة بدنية. بدأ المخلوق يتصبب عرقًا الآن، فقد كانت محاولاته مضنية لإغواء ذهني. هل سينجح؟

* * *

الفصل (9)

إنني أفوز! كنت أعرف أنني أفوز! ولا بد أن المخلوق كان يعرف أيضًا؛ لأنني رأيته يستل خنجره من غمده في جانبه. إذا لم يستطع تقييدي في مظهر الموت، فسوف يقيدني في موت فعلي. سعيت إلى تحرير نفسي من آخر مخالب قوى المخلوق العقلية الخبيثة الآخذة في الضعف قبل أن يتمكن من توجيه ضربة مميتة تتسبب في موتي، وفي ما يعادل الموت لبان دان تشي.

ارتفعت يد الخنجر فوقي. نظر في عينيَّ بعينيه البشعتين المتوهجتين، اللتين تسطعان بنيران الجنون الشيطانية؛ لكنني، وفي تلك اللحظة الأخيرة، فزت! لقد تحررت. ضربت اليد التي تحمل الخنجر وأبعدتها عني، ثم نهضت على قدمي وفي يدي السيف الجيد الطويل الذي أخذته من هور كاي لان.

ارتعد المخلوق وصرخ. صرخ طلبًا للمساعدة حيث لا توجد مساعدة، ثم استل سيفه. لم أرغب في تدنيس فن مبارزتي الجميل مع مثله. تذكرت تفاخره بأنني وبان دان تشي سوف ننام إلى أن يوقظنا أو يموت. وكان هذا وحده كافيًا لأتخذ قراري - لن أكون مبارزًا، بل جلادًا ومحرِّرًا.

سددت ضربة واحدة، قطعت رأسه الكريه وتدحرجت فوق الأرضية الحجرية في حُفر هورز. نظرت إلى بان دان تشي. كان يستيقظ. تقلّب وتمدد، ثم جلس وهو ينظر نحوي متسائلاً. تجولت عيناه نحو الجسم والرأس على الأرض.

سأل: «ماذا حدث؟».

وقبل أن أتمكن من الرد، قاطعني وابلٌ من الأصوات القادمة من الغرفة التي كنا فيها، ومن الغرف الأخرى في حُفر هورز.

نظرنا حولنا بسرعة. انفتحت أغطية عدد لا يُحصى من الصناديق، وجاءت صيحات أشخاص آخرين بعد فتح أغطية الصناديق التي كانت تحتجزهم. ظهر رجال مسلحون - محاربون في عتاد رائع. ونساء يفركن أعينهن وينظرن في حيرة.

وبدأ آخرون يقتربون من الغرفة خلال الممر، مسترشدين بضوء شعلتنا.

سأل رجل ضخم، يرتدي أغطية رائعة: «ما معنى هذا؟ مَن أحضرني إلى هنا؟ من أنتما؟». أخذ يتطلع حوله بحيرة واضحة، كما لو كان يبحث عن وجه مألوف.

قلت: «ربما أستطيع أن أشرح لك؟ نحن في حُفر هورز. وأنا هنا منذ بضع ساعات فقط. وإنما إذا كان ما أخبرني به هذا المخلوق الميت على الأرض هو الحقيقة، فإن بعضكم هنا منذ عصور. لقد احتجزكم هذا المخلوق المجنون بقدرته على التنويم المغناطيسي، وقد حرركم موته».

نظر الرجل إلى الرأس المُحدِّق المُلقى على الأرض. وقال صائحًا: «لوم تار أوو! لقد أرسل لي، وطلب مني أن أحضر لأراه بشأن مسألة مهمة. وأنت قتلته. حسابك معي – غدًا. أما الآن، يجب أن أعود إلى ضيوفي».

توجد طبقة من التراب على وجه الرجل وجسمه؛ وبذلك عرفت أن وجوده هنا لا بد أن يمتد لفترة طويلة. وقد ثبت تخميني الآن بطريقة أكثر دراماتيكية.

كان الرجال والنساء الذين استيقظوا يجاهدون للخروج من الصناديق التي احتجزتهم. ووجد المحتجزون في الصناديق السفلية صعوبة في إزاحة الصناديق المكدسة فوقهم. وأحدث سقوط الصناديق الفارغة على الأرض جلبة واضطراب شديدين. كما اختلطت أصوات الحديث، فضلاً عن الشعور بالحيرة والارتباك.

زحف أحد النبلاء، والتراب يغطيه، من صندوق. وعلى الفور تعرّف على الرجل الضخم الذي تحدث. قال الأخير: «ماذا حدث لكم؟ التراب يغطيكم جميعًا. لماذا أتيت إلى هنا؟ هيا! يجب أن أعود إلى ضيوفي».

هز النبيل رأسه في حيرة واضحة، وصاح: «ضيوفك، يا كام هان تور! هل تتوقع أن ينتظرك ضيوفك عشرين عامًا».

«عشرون عامًا! ماذا تعني؟».

«كنت ضيفك قبل عشرين عامًا. وتركتنا في منتصف المأدبة ولم تعُد أبدًا».

صاح كام هان تور: «عشرون عامًا؟ أنت مجنون!». نظر نحوي ثم إلى الرأس المُلقى على الأرض، وبدأ يضعف. رأيت ذلك بالفعل.

كان الرجل الآخر يتحسس وجهه، وينظر إلى التراب الذي أزاله منه؛ ثم وجه كلامه إلى كام هان تور: «يغطيك التراب أنت أيضًا».

نظر كام هان تور إلى جسده وعتاده، ثم مسح وجهه ونظر إلى أصابعه وصاح: «عشرون عامًا!»، ثم حوّل بصره إلى رأس لوم تار أوو. صائحًا: «أيها الوحش الخسيس! لقد كنت صديقك، وتفعل هذا بي!». التفت نحوي وقال: «عليك أن تنسى ما قلته. لم أفهم. أيًّا ما كنت، اسمح لي أن أؤكد لك أن سيفي في خدمتك دائمًا».

انحنيت تقديرًا له.

«عشرون عاما!»، أخذ كام هان تور يكرر، كما لو أنه لم يُصدق بعد. «سفينتي العظيمة! كان يجب أن تبحر من ميناء هورز في اليوم التالي لمأدبتي - وهي أعظم سفينة بُنيت على الإطلاق. لقد أصبحت قديمة الآن، ربما عفا عليها الزمن؛ وأنا لم أرها أبدًا. أخبرني... هل أبحرت جيدًا؟ هل لا تزال سفينة فخورة؟».

قال الآخر: «رأيتها عندما أبحرت على ثروكسيوس[337] . كانت سفينة فخورة في الواقع، لكنها لم تعُد من تلك الرحلة الأولى، كما لم يسمع عنها أحد أي شيء. لا بد أنها دُمِرت».

هز كام هان تور رأسه بأسف، ثم اعتدل في وقفته. وقال: «سوف أبني سفينة أخرى، سفينة أكبر، للإبحار في أقوى بحار برسوم الخمسة».

بدأت أفهم الآن ما تشككت فيه ولم أتمكن من تصديقه. يا له من وضع مذهل تمامًا. فقد كنت أنظر وأتحدث مع رجال عاشوا مئات الآلاف من السنين، عندما كان ثروكسيوس ومحيطات المريخ الأربعة الأخرى القديمة تغطي ما نراه الآن امتدادًا صحراويًّا شاسعًا لقاع البحر الميت؛ عندما كانت البحرية التجارية الكبرى تحمل تجارة عِرق أشقر وبشرته فاتحة اللون، ومن المفترض أنه انقرض منذ عدد لا يُعد ولا يُحصى من العصور.

اقتربت من كام هان تور ووضعت يدي على كتفه. تجمع حولنا الرجال والنساء الذين تحرروا من تعويذة لوم تار أوو الخبيثة، تجمعوا ليستمعوا. قلت: «أنا آسف لتحريرك من هذا الوهم يا كام هان تور، لكنك لن تتمكن من بناء سفينة، ولن تتمكن أي سفينة من الإبحار في ثروكسيوس ثانية».

سألني: «ماذا تعني؟ مَن ذا الذي يستطيع منع كام هان تور، شقيق الجيداك، من بناء السفن والإبحار بها في ثروكسيوس؟».

---

(337) ثروكسيوس: أكبر المحيطات الخمسة التي كانت موجودة في برسوم. كل ما تبقى منه هو مستنقع الملح العظيم - https://barsoom.fandom.com/wiki/Throxus - المترجمة.

قلت: « ثروكسيوس لم يعُد موجودًا يا صديقي».

« ثروكسيوس غير موجود؟ أنت مجنون!».

أوضحت له: «أنت هنا في حُفر هورز منذ عدد لا يُحصى من العصور. وخلال تلك الفترة، جفت محيطات برسوم الخمسة الكبرى. لا توجد محيطات، ولا توجد تجارة. لقد انقرض العِرق الذي تنتمي إليه».

صاح: «يا رجل، أنت مجنون!».

سألته: «هل تعرف كيف نخرج من هذه الحُفر؟ نخرج إلى المدينة مباشرة، وليس من خلال...» كنت سأقول القلعة، لكنني تذكرت أن القلعة لم تكن موجودة عندما تم إغراء هؤلاء الناس للقدوم إلى الحُفر.

سأل كام هان تور: «تقصد ليس من خلال قصري؟».

قلت: «نعم، ليس من خلال قصرك، وإنما إلى أرصفة الميناء؛ حيث

يمكنني أن أوضح لك أن ثروكسيوس لم يعد موجودًا».

قال: «أعرف الطريق بالتأكيد. ألم تُبْنَ هذه الحُفر وفقًا لخططي!».

قلت: «هيا، إذَنْ».

وقف رجل ينظر إلى رأس لوم تار أوو. توجه إلى كام هان تور قائلاً: «إذا كان ما يقوله هذا الرجل صحيحًا، فلا بد أن لوم تار أوو عاش منذ زمن طويل. كيف عاش كل هذه العصور؟ وكيف عشنا نحن؟».

قلت: «أنتم كنتم في حالة من توقف الحيوية. أما بالنسبة إلى لوم تار أوو، فهذا لغز».

أجاب الرجل: «ربما ليس لغزًا. كنت أعرف لوم تار أوو جيدًا. كان ضعيفًا وجبانًا، ويتسم بردود الفعل النفسية للضعيف والجبان. وكان يكره كل مَن يتصف بالشجاعة والقوة، ويرغب في إلحاق الضرر بهم. وكان لي أوم لوو بمثابة صديقه الوحيد، وأشهر مُحنِّط عرفه العالَم. وعندما مات لوم تار أوو، قام لي أوم لوو بتحنيط جسده. ومن الواضح أنه قام بهذا العمل بشكل رائع إلى حد أن جسد لوم تار أوو مات، واستمر كأنه حي. وهذا يوضح استمرار وجود هذا المخلوق طوال تلك الفترة الزمنية الهائلة – وجوده

ليس كإنسان، وليس كمخلوق حي، كلا على الإطلاق؛ بل مجرد جثة لا يزال مخها الخبيث يعمل».

ما إن أنهى الرجل حديثه، حتى سمعنا ضجة عند مدخل الغرفة. دخل رجل ضخم مندفعًا، عاريًا تقريبًا؛ وكان غاضبًا جدًّا. سأل: «ما معنى هذا؟ ماذا أفعل هنا؟ وماذا تفعلون هنا؟ مَن الذي سرق عتادي وأسلحتي؟».

وعندئذ تعرفت عليه.. إنه هور كاي لان، الذي أرتدي عتاده وأسلحته. كان منفعلاً للغاية، ولا يمكنني أن ألومه كثيراً. شق طريقه خلال الحشد، وتعرّف على ممتلكاته بمجرد أن شاهدني.

صاح: «يا لص! أعد لي عتادي وأسلحتي!».

قلت: «أنا آسف؛ لكنني سأحتفظ بها، إلا إذا أعطيتني غيرها».

صاح: «يا كالوت. هل تدرك إلى مَن تتحدث؟ أنا هور كاي لان، شقيق الجيداك».

نظر كام هان تور نحوه في ذهول. وصاح: «أنت ميت منذ أكثر من 500 سنة يا هور كاي لان، وكذلك شقيقك. وقد خلف شقيقي آخر جيداك في عام 4ل382م27».

قال بان دان تشي: «لقد توفيتم جميعًا منذ عصور. وحتى هذا التقويم يُعتبر من الماضي الميت».

تصورت أن شرايين هور كاي لان ستنفجر؛ إذ صاح: «مَن أنت؟ إنني أضعك رهن الاعتقال. بل أضعكم جميعًا رهن الاعتقال. هاااااا! يا حراس!».

حاول كام هان تور تهدئته، ونجح على الأقل في الحصول على موافقته لأن يرافقنا إلى أرصفة الميناء للتحقق من وجود ثروكسيوس، حيث إن ذلك بالتأكيد هو ما سيثبت أو يدحض الحقائق التعيسة التي اضطررت إلى شرحها لهم.

وعندما بدأنا في طريقنا، بقيادة كام هان تور، لاحظت أن غطاء أحد الصناديق يتحرك قليلاً. ارتفع الغطاء تدريجيًّا، ورأيت عينين تطلان من خلال الفتحة التي نتجت عن رفع الغطاء؛ ثم فجاه صرخ صوت فتاة: «جون كارتر، أمير هيليوم! يا لبركة سلفي الأول!».

* * *

الفصل (10)

لم أكن لأندهش إذا تجسّد سلفي الأول فجأةً أمام عيني أكثر من دهشتي عند سماع اسمي يصدر من داخل إحدى الصناديق في حُفر هورز.

ما إن بدأت أتحرى الأمر، حتَّى أُلقي غطاء الصندوق جانبًا وخرجت منه فتاة. كانت دهشتي أكبر مما قد تبدو عليه دهشة سلفي الأول؛ فقد كانت الفتاة هي لانا من جاثول!

صحت: «لانا! ماذا تفعلين هنا؟».

«قد أطرح عليك السؤال نفسه، يا سَلَفي المبجل»، أجابت بأسلوب يفتقر إلى الاحترام لكِبر سني؛ الاحترام الذي يتسم به دائمًا الأقربون لي في أواصر الدم والمودة.

تقدم بان دان تشي بفم مفتوح وعينين جاحظتين. «لانا من جاثول!»، همس كما لو أنه يذكر اسم إلهة. بدت الغرفة المليئة بالمفارقات التاريخية غير مكترثة إلى حد ما.

سألتني لانا الجاثولية: «مَن هذا الشخص؟».

أوضحتُ: «إنه صديقي، بان دان تشي من هورز».

فك بان دان تشي رباط سيفه ووضعه عند قدميها، وهو التصرف الذي يصعب إلى حد ما شرحه بمعايير السلوك على كوكب الأرض. إنه ليس بالضبط مجاهرة بالحب أو عرض للزواج. بل هو، بطريقه ما، شيء أكثر قدسية. فهو يعني أن هذا السيف، ما دامت الحياة مستمرة، سيكون في خدمة مَن وُضِع عند أقدامه. قد يضع المحارب سيفه عند قدم رجل أو امرأة؛ مما يعني الولاء مدى الحياة. وإذا كان المُستهدَف بالولاء امرأة، ربما يوجد في ذهن الرجل شيء آخر. وأنا على يقين أن هذه كانت حالة بان دان تشي.

قالت لانا الجاثولية: «صديقك يتصرف بسرعة مذهلة»؛ لكنها انحنت وأمسكت بالسيف وأعادته إلى بان دان تشي بحيث كان المقبض ناحيته! مما يعني أنها كانت مسرورة وقبلت عرضه بالولاء. ولو رفضت ببساطة العرض، لكانت تركت السيف في الموضع على الأرض. ولو رغبت في رفض عرضه بازدراء، لكانت أعادت له سيفه وهي ممسكة بالمقبض. ولكانت هذه بمثابة الإهانة الأخيرة والمميتة. كنت سعيدًا لأن لانا الجاثولية أعادت السيف إلى بان دان تشي والمقبض ناحيته، ذلك أنني أحب بان دان تشي. وأسعدني بوجه خاص أنها لم تُعِدْ إليه السيف وهي ممسكة بمقبضه؛ فهذا كان

سيعني أنني، بوصفي أقرب أقربائها الذكور الموجودين، يجب أن أقاتل بان دان تشي؛ وأنا لا أرغب بالتأكيد في قتله.

«حسنًا»، قاطع كام هان تور، «هذا كله مثير للاهتمام ومؤثر للغاية؛ وإنما ألا يمكننا تأجيله حتى نصل إلى الأرصفة».

غضب بان دان تشي، ووضع يده على مقبض سيفه. أوقفتُ أي تصرف غير لائق من جانبه بالإشارة إلى أن كام هان تور على حق تمامًا، وأن شؤوننا الخاصة يمكن أن تنتظر حتى ننتهي من مسألة المحيط، لأنها مسألة حيوية للغاية بالنسبة للآخرين جميعًا. وافق بان دان تشي؛ وبدأنا طريقنا ثانية إلى رصيف ميناء هورز القديمة.

سارت لانا الجاثولية إلى جانبي. قلتُ: «أخبريني الآن، كيف حدث أنك في حُفر هورز».

قالت: «كان ذلك منذ سنوات عديدة، عندما كنت أنت في مملكة أوكار في الشمال المتجمد. وبعدها مباشرة قام تالو - الأمير المتمرد، الذي نصبته أنت على عرش أوكار - بزيارة هيليوم. ومنذ ذلك الحين، وبقدر ما سمعت، لم يحدث أي تواصل بين أوكار وباقي برسوم».

سألتها: «وما علاقة هذا بوجودك في حُفر هورز؟».

أجابت: «لا تتعجل، سوف أصل إلى ذلك. كان الاعتقاد العام أن المنطقة المحيطة بالقطب الشمالي مأهولة بعدد قليل من السكان ولا يسكنها سوى عِرق الرجال الملتحين ذوي البشرة الصفراء».

قلت: «هذا صحيح».

اعترضت قائلة: «ليس صحيحًا. تشغل أُمة من الرجال الحُمر مساحة كبيرة، لكنها تبعُد عن أوكار. ولديَّ انطباع أنك عندما كنت هناك، لم يكن سكان أوكار أنفسهم قد سمعوا عن هؤلاء الناس».

«وجاء مؤخرًا إلى بلاط والدي، جاهان الجاثولي، رجل أحمر غريب. كان مثلنا، ومع ذلك يختلف عنا. جاء في سفينة قديمة، قال والدي إن عُمرها لا بد أن يرجع إلى عدة مئات من السنين - عفا عليها الزمن في جميع جوانبها. كان طاقمها يضم مائة محارب، عتادهم وأسلحتهم غير معروفة لنا. بدا مظهرهم شرسًا مُحبًّا للحرب، لكنهم جاءوا في سلام واستقبلناهم في سلام».

«كان قائدهم، واسمه هين أبتول، متفاخرًا ثرثارًا. وكان فظًّا وغير مثقف؛ لكنه حصل على كل احترام لأنه ضيفنا. قال إنه جيداك جميع الجيداك في الشمال. أعرب والدي عن اعتقاده بأن هذا هو لقب تالو».

«أجاب هين أبتول: ‹كان لقب تالو إلى أن غزوت بلده وجعلته تابعًا لي. والآن، أنا جيداك جميع الجيداك في الشمال. بلدي بارد وقاتم، خارج مدننا الزجاجية. وأود أن آتي إلى الجنوب، بحثًا عن أراض أخرى يمكن أن يستقر عليها شعبي ويتزايد›».

«قال له والدي إن جميع الأراضي الصالحة للزراعة قد استقرت وأصبحت تنتمي إلى أمم أخرى منذ قرون».

«هز هين أبتول كتفيه بغطرسة، وقال: ‹عندما أجد الأرض التي أريدها، سأغزو شعبها. أنا، هين أبتول، آخذ ما أريده من شعوب برسوم الأدنى مرتبة. وهي جميعًا، مما سمعته، شعوب ضعيفة وعاجزة؛ ليست جسورة ومحبة للحرب مثلنا نحن شعب البانار. نحن نسل مقاتل، بالإضافة إلى ما لدينا من عدد لا يُحصى من المرتزقة. يمكنني أن أقهر برسوم كلها، إذا أردت›».

«وبطبيعة الحال، أثار هذا النوع من الكلام غضب والدي؛ لكنه حافظ على أعصابه لأن هين أبتول ضيفه. وأظن أن هين أبتول تصور أن والدي خاف منه؛ فرجل من هذا النوع غالبًا ما يعتقد أن التهذيب علامة على الضعف. وأعرف أنه قال مرة لوالدي: ‹أنت محظوظ لأن هين أبتول صديقك. فالأمم الأخرى قد تسقط أمام جيوشي، لكنني سأسمح لك أن تحتفظ بعرشك. ربما أطالبك بجِزية قليلة، لكنك ستكون بأمان. وسوف يحميك هين أبتول›».

«لا أعرف كيف تحكم والدي في أعصابه. كنت غاضبة، وأهنت هذا الرجل عشرات المرات، لكنه كان غليظًا وأنانيًّا ليدرك أنه تعرض للإهانة؛ ثم جاءت القشة الأخيرة. فقد أخبر جاهان الجاثولي أنه قرر تكريمه بأخذي، أنا لانا الجاثولية، زوجة له. كما تفاخر بالفعل أن لديه سبع زوجات!».

«قال له أبي: ‹لا يمكنني مناقشة هذه المسألة معك؛ فابنة جاهان الجاثولي سوف تختار زوجها›. ضحك هين أبتول وقال: ‹هين أبتول يختار زوجاته، وليس لديهن أي شيء لقوله حول هذا الأمر›».

«حسنًا، لقد تمكنت من الصمود ضده إلى أقصى ما أستطيع، ثم قررت الذهاب إلى هيليوم لزيارتك أنت وديجاه ثوريس. قرر والدي أنني لا بد أن أذهب في طائرة صغيرة ومعي خمسة وعشرون من أكثر رجاله ثقة، كل أفراد حرسي الشخصي».

«وعندما سمع هين أبتول أنني سوف أغادر، قال إنه سيغادر أيضًا - وإنه عائد إلى بلده، لكنه سيرجع ثانية من أجلي. وقال: 'وأتمنى ألا تسببوا مشكلة حول هذه المسألة؛ إذ سيصبح وضع جاثول سيئًا للغاية إن جعلت من هين أبتول الباناري، جيداك جميع الجيداك في الشمال، عدوًّا لها'».

«غادر قبل رحيلي بيوم، ولم أغير خططي بسبب ذهابه؛ لأنني كنت، في واقع الأمر، أخطط لهذه الزيارة منذ فترة».

«وما إن قطعت سفينتي بالكاد مائة هاد في اتجاه هيليوم، رأينا سفينة ترتفع من وراء حافة غابة من أشجار السورابوس[338] أمامنا. تحركت

ببطء نحونا، وتعرفتُ عندئذ على خطوطها القديمة. كانت سفينة هين أبتول الباناري، الذي يطلق على نفسه جيداك جميع الجيداك في الشمال».

«عندما اقتربت السفينتان بدرجة كافية، وجهت لنا سفينته التحية وأخبرنا قبطانها أن شيئًا ما قد حل بالبوصلة وأنهم فقدوا اتجاه الطريق. وطلب أن يقترب إلى جانبنا ليفحص رسومنا البيانية ويعرف الاتجاه. كما قال إنه يأمل أن نتمكن نحن من إصلاح بوصلة سفينته».

«لم يكن أمامنا، في ظل هذه الظروف، إلا الموافقة على طلبه؛ فالمرء لا يترك سفينة تعاني من مشكلة دون تقديم المعونة. نزلت إلى مقصورتي، نظرًا لعدم رغبتي في رؤية هين أبتول».

«شعرت بتلامس السفينتين عندما جاءت سفينة بانار إلى جوار سفينتنا، ثم سمعت بعد لحظات صيحات ولعنات وأصوات معركة على سطح السفينة العلوي».

«صعدت السلم بسرعة، وملأني المشهد الذي رأته عيناي بالغضب. كان يندفع ما يقرب من مائة محارب مسلح إلى سطح سفينتنا من سفينة هين أبتول القديمة. لم يسبق لي أن رأيت وحشية أكثر من هذه، ولا حتى من الرجال الخُضر. تجاهل الوحوش القواعد

(338) سورابوس: نوع من الشجر معروف في برسوم بثمارة النضرة المحفوظة داخل ما يشبه قشرة الجوز - http://barsoom.wikia.com/wiki/Sorapus - المترجمة.

الأخلاقية المتعارف عليها في الحرب المتحضرة. كانوا يفوقوننا عددًا، أربعة إلى واحد، ولم يكن لدينا أي فرصة. ومع ذلك، خاض رجال جاثول معركة نبيلة، وكبدوا مهاجميهم خسائر جسيمة؛ ولابد أن هين أبتول فقد خمسين رجلاً تمامًا قبل أن يتمكنوا من قتل آخر حارس من حراسي الشجعان».

«ألقى البانار جرحانا في البحر مع الموتى، دون أن يمنحوهم حتى رصاصة الرحمة. لم يبقَ أحد من كل طاقمي على قيد الحياة».

«اختال هين أبتول متباهيًا على متن السفينة وقال: 'لقد أخبرتكِ أن هين أبتول يختار زوجاته. كان من الأفضل لكِ ولجاثول تصديقي'».

«أجبت: 'كان من الأفضل لك ألا تسمع عن لانا الجاثولية. وتأكد من الانتقام لموتها'».

«قال: 'أنا لا أنوي قتلكِ'».

«فقلت له: 'سوف أقتل نفسي قبل أن أتزوج أولسيو مثلك'. أغضبه كلامي وضربني. فقلت له: 'جبان وأيضًا أولسيو'».

«لم يضربني ثانية، لكنه أمرني بالنزول إلى أسفل. أدركت وأنا في مقصورتي أن السفينة تتحرك مرة أخرى. نظرت من الكوة، ورأيت أنه يتجه شمالاً، نحو أراضي بانار المتجمدة».

* * *

الفصل (11)

«جاء محارب إلى مقصورتي في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. قال: ‹تقضي أوامر هين أبتول أن تذهبي فورًا إلى غرفه التحكم›».

«سألته: ‹ماذا يريد مني؟›».

«قال: ‹الرُبان لا يفهم هذه السفينة أو أدواتها. وسوف يسألكِ بعض الأسئلة›».

«فكرت بسرعة. ربما يمكنني إحباط خطط هين أبتول إذا بقيت لبضع دقائق مع لوحات التحكم والأدوات، التي أعرفها كما أعرف وجه شخص محبوب؛ ولذلك تابعت المحارب إلى أعلى».

«كان هين أبتول في غرفه التحكم مع ثلاثة من ضباطه. كان وجهه أسود ومتجهم عندما دخلت. قال: ‹نحن خارج مسارنا، وفقدنا اتصالنا ليلاً مع سفينتنا. وعليكِ إرشاد ضباطي كيف يتعاملون مع هذه الأدوات السخيفة التي أربكتهم›؛ ثم غادر غرفة التَحكم».

«نظرت إلى الأفق في كل اتجاه. لم تكن السفينة الأخرى مرئية في أي اتجاه. وضعت خطتي على الفور. لو كانت السفينة الأخرى قادرة على رؤيتنا، لما نجحتُ. وكنت أعرف أنني سأقتل نفسي، هربًا من مصير أسوأ من الموت، إذا وصلت هذه السفينة التي تسجنني إلى بانار. وقد أواجه الموت أيضًا على الأرض، وإنما ربما توجد لديَّ فرصة أفضل للهرب».

«سألت أحد الضباط: ‹ما المشكلة؟›».

«أجاب: ‹كل شيء. ما هذا؟›».

«أوضحت: ‹إنها بوصلة تحديد الاتجاه؛ ولكن، ماذا فعلت بها؟ إنها حطام›».

«‹لم يعرف هين أبتول ما هي، وهو ما أثار غضبه الشديد؛ فبدأ يفككها لمعرفة ماذا يوجد داخلها›».

«قلت: ‹لقد أدى مهمة تفكيكها جيدًا. والآن يجب أن يتولى هو، أو أي شخص آخر منكم، تركيبها ثانية›».

«قال: ‹نحن لا نعرف كيفية إعادة تركيبها. ألا تعرفين؟›».

«'كلا، بالطبع'».

«'ماذا نفعل إذَنْ؟'».

«قلت له: 'ها هي البوصلة العادية. يمكنك الطيران شمالاً باستخدامها. وإنما دعوني أرى أولاً الأضرار الأخرى التي لحقت بالسفينة'».

«تظاهرتُ بأنني أفحص جميع الأدوات ولوحات التحكم الأخرى؛ وفي أثناء ذلك، فتحت صمامات خزان الطفو، وقمت بتعطيلها بحيث لا يمكن إغلاقها».

«قلت: 'كل شيء على ما يرام الآن. عليك فقط أن تستمر في اتجاه الشمال باستخدام هذه البوصلة. لن تحتاج إلى بوصلة تحديد الاتجاه'. لم أقل إنهم خلال فترة قصيرة لن يحتاجوا إلى أي بوصلة، بقدر ما يتعلق الأمر بطيران هذه السفينة. ثم نزلت إلى مقصورتي».

«كنت أعرف أن شيئًا ما سيحدث خلال فترة قصيرة جدًّا، وقد حدث بالفعل. رأيت من كوة مقصورتي أننا نفقد الارتفاع - ننخفض ببطء – وعلى الفور جاء محارب آخر إلى مقصورتي وأخبرني أنني مطلوبة في غرفة التحكم مرة أخرى».

«كان هين أبتول هناك ثانية. قال لي: 'نحن نهبط' - وهذه الحقيقة كانت شديدة الوضوح دون حاجة إلى ذكرها. قلت: 'لقد لاحظت ذلك منذ فترة'».

«قال: 'حسنًا، افعلي شيئًا حيال ذلك! أنتِ تعرفين كل شيء عن هذه السفينة'».

«قلت: 'أعتقد أن الرجل الذي يفكر في قهر برسوم كلها لا بد أن يتمكن من قيادة سفينة فضائية دون مساعدة من امرأة'».

«تدفق الدم إلى وجهه، ثم سحب سيفه. قال هادرًا: 'ستخبريننا ما المشكلة، وإلا سأشق جسمكِ من رأسكِ إلى بطنكِ'».

«قلت ساخرة: 'يا لك من رجل شهم دائمًا؛ لكنني، وحتى من دون تهديدك، سوف أخبركم بالمشكلة'».

«سألني: 'حسنًا، ما هي؟'».

«'عندما عبثتم بلوحات التحكم، ربما قمت أنت، أو بعض المتوحشين الأغبياء مثلك، بفتح صمامات خزان الطفو. كل ما عليك هو إغلاقها. وعندئذ لن ننخفض أكثر

من ذلك، لكننا أيضًا لن نتمكن أبدًا من الارتفاع أعلى من ذلك. آمل ألا توجد جبال أو تلال عالية بين موقعنا هنا وبانار'».

«سألني: 'أين الصمامات؟'».

«أشرت له إلى مكانها».

«حاولوا إغلاقها؛ لكني كنت قد أتقنت تعطيلها بحيث لم يتمكنوا من إغلاقها، وأخذنا ننخفض نحو النباتات الصفراء في قاع البحر الميت».

«كان هين أبتول مذعورًا، وكذلك ضباطه. إنهم هنا على مسافة آلاف هاد من ديارهم – 25 رجلاً قضوا الجزء الأكبر من حياتهم في مدن زجاجية دافئة في أراضي القطب الشمال، دون علم أو حتى معرفة قليلة بالعالم الخارجي أو بطبيعة الرجال والوحوش، أو غيرها من التهديدات التي قد تعترض طريقهم نحو ديارهم. بالكاد ما أمكنني أن أمتنع عن الضحك».

«ومع فقداننا الارتفاع، رأيت أبراج مدينة على مسافة شمالنا؛ كما رآها هين أبتول. قال: 'أرى مدينة. نحن محظوظون. يمكننا أن نجد ميكانيكيين لإصلاح سفينتنا'».

«فكرت: 'نعم، لو كنت جئت من مليون سنة لوجدت الميكانيكيين. ولن يعرفوا شيئًا عن إصلاح طائرة؛ لأن اختراعها لم يكن قد ظهر بعد؛ لكنهم كانوا يستطيعون بناء سفينة قوية تبحر في محيطات برسوم القديمة الخمسة'، لكني لم أقل أي شيء، وتركت هين أبتول يكتشف ذلك بنفسه».

«لم أذهب إلى هورز من قبل؛ لكنني عرفت أن تلك الأبراج التي ترتفع على بُعد قد تدل على تلك المدينة التي ماتت منذ زمن طويل، وتمنيت أن أسعد بمشاهدة خيبة أمل هين أبتول بعد هذه الرحلة الطويلة عديمة الفائدة».

قلت لها: «يا لكِ من عفريتة صغيرة، مُحبِّة للانتقام».

أقرت لانا الجاثولية قائلة: «أخشى أنني كذلك؛ ولكن، هل تلومني في هذه الحالة؟».

كان عليَّ أن أعترف بأنني لا أستطيع لومها، وقلت لأحثها: «أكملي القصة، أخبريني ماذا حدث بعد ذلك».

صاح كام هان تور: «ألن نصل أبدًا إلى نهاية هذه الحُفر البغيضة!».

قال بان دان تشي: «أنت الذي يجب أن يعرف؛ فقد قلت إنها بُنيت وفقًا لخططك».

قاطعه كام هان تور: «أنت وقح، ويجب معاقبتك».

قال بان دان تشي: «أنت ميت منذ مليون سنة، يجب أن ترقد».

وضع كام هان تور يده على مقبض سيفه الطويل. كان غاضبًا جدًّا ولا يمكنني أن ألومه، ولكن لم يكن لدينا وقت لنشتبك في متعة المبارزة.

قلتُ: «توقفا! لدينا أشياء أكثر أهمية الآن من المشاجرات الشخصية. لقد أخطأ بان دان تشي، وسوف يعتذر».

نظر بان دان تشي نحوي في مفاجأة واستنكار، لكنه أعاد سيفه ثانية إلى غمده. وقال: «سوف أفعل ما يأمرني به جون كارتر، أمير هيليوم، وأمير الحرب في برسوم. وأنا أتقدم باعتذاري إلى كام هان تور».

حسنًا، تكرّم كام هان تور بقبول الاعتذار. وطلبت من لانا الجاثولية أن تواصل قصتها.

تابعت قائلة: «هبطت السفينة برفق على الأرض دون المزيد من الأضرار. لم يقرر هين أبتول في البداية ما إذا كان سيأخذ كل رجاله معه إلى المدينة، أو يترك بعضهم لحراسة السفينة. وقرر أخيراً أن من الأفضل لهم جميعًا البقاء معًا، فربما يواجهون استقبالاً عدائيًّا عند بوابات المدينة. كان يمكنك أن تتصور، من طريقة حديثه، أن بإمكان خمسة وعشرين باناري الاستيلاء على أي مدينة في برسوم».

«قلت: ‹سأنتظركم هنا. فما من سبب لمرافقتكم إلى المدينة›».

«قال: ‹وعندما أعود، تكونين قد ذهبتِ. أنتِ فتاة داهية، أما أنا فقليل الدهاء. سوف تأتين معنا›».

«لذلك اضطررت إلى السير بتثاقل معهم على طول الطريق إلى هورز، وكانت رحلة طويلة وشاقة. وعندما اقتربنا من المدينة، أبدى هين أبتول دهشته أننا لم نشهد أي علامة على الحياة - لم نشهد أي دخان، ولا حركة على طول الطريق الذي نراه موازيًا للسهل المواجه للمدينة؛ السهل الذي كان في يوم ما محيطًا عظيمًا».

«لم يدرك أن المدينة ميتة ومهجورة إلا عندما دخلناها – على أننا سرعان ما اكتشفنا أنها ليست مهجورة تمامًا».

«تقدمنا لمسافة قصيرة إلى الشارع الرئيس، وعندئذ خرج عشرات المحاربين الخُضر من أحد المباني وهاجموا البانارين. ربما كانت لتصبح معركة جيدة، يا جون كارتر، لو كنت أنت واثنين من المحاربين من حرسك تخوضونها ضد الرجال الخُضر؛ لكنَّ هؤلاء البانارين ليسوا محاربين، إلا إذا كانت جميع الفرص لصالحهم. كان عددهم يفوق بالطبع عدد الرجال الخُضر، لكن ضخامة حجم المحاربين الخُضر وقوتهم وشراسة وحشيتهم منحتهم ميزة على مثل هؤلاء الخصوم الضعفاء».

«لم أشهد سوى جزء قليل من المعركة. لم يهتم بي المتحاربون. كانوا منهمكين مع بعضهم؛ وعندما رأيت قمة منحدر قريب، دخلته. وكشف آخر شيء رأيته من الاشتباك عن أن هين أبتول يركض متراجعًا بأقصى سرعته نحو السهل، ويتبعه رجاله، ووراءهم الرجال الخُضر. وأمنح كل التقدير لسرعة البانارين؛ ربما لا يستطيعون القتال، لكنهم يستطيعون الركض».

* * *

الفصل (12)

واصلت لانا الجاثولية قصتها: «مع معرفتي أن الرجال الخُضر سيعودون لأخذ حيواناتهم الثوات، وبالتالي يجب أن أختبئ، نزلت عبر المنحدر، الذي قادني إلى الحُفر تحت المدينة. كنت أنوي مجرد الابتعاد بما يكفي لتجنب اكتشافي من أعلى، مجرد إيجاد مكان اختباء إذا ما نزل الرجال الخُضر إلى المنحدر بحثًا عني؛ فأنا أعرف أنهم سينزلون، ولن يتخلوا بسرعة عن فرصة القبض على امرأة حمراء لتعذيبها أو استعبادها».

«وصلت إلى نهاية المنحدر، ورأيت ضوءًا خافتًا أمامي على مسافة قصيرة عبر الممر. تصورت أن الأمر يستحق التحري؛ فلم أكن أرغب أن يمسكوا بي بشكل غير متوقع من الخلف، وربما أجد نفسي محتجزة بين خصمين. ولذلك، سرت في الممر نحو اتجاه الضوء، الذي اكتشفت أنه أخذ يتراجع. ومع ذلك واصلت الطريق إلى أن توقفت في غرفه مليئة بالصناديق».

«وعندما نظرت، رأيت مخلوقًا بشع المظهر...».

قلت: «إنه لوم تار أوو، المخلوق الذي قتلته».

«نعم»، قالت لانا، «راقبته للحظة، ولم أعرف ماذا أفعل. توجد شعلة تضيء الغرفة. حمل شعلة أخرى في يده اليسرى. وأصبح الآن في حالة تأهب. بدا أنه ينصت باهتمام، ثم تسلل خارج الغرفة».

قلت لها: «هذا عندما سمع خطواتنا أول مرة، أنا وبان دان تشي».

«أفترض ذلك»، قالت لانا الجاثولية، «على أي حال، أصبحت بمفردي في الغرفة. إذا رجعت عبر الطريق الذي جئت منه، ربما أجد نفسي بين يدي رجل أخضر. وإذا تابعت المخلوق البشع الذي رأيته للتو، قد أقع دون شك في مأزق سيئ. إذا كان بإمكاني فقط أن أجد مكانًا للاختباء إلى أن يصبح الوضع آمنًا لكي أخرج من الحُفر من خلال الطريق الذي دخلت به!».

«فكرت في الصناديق. سوف يمدني أحدهم بمكان ممتاز للاختباء. وبمحض الصدفة كان أول صندوق فتحته فارغًا. تسللت إليه وأغلقت الغطاء فوقي. وأنت تعرف بقية القصة».

«وها أنتِ الآن تخرجين من الحُفر»، قلت لها، ونحن نبدأ في صعود المنحدر الذي يمكنني أن أرىَ في نهايته ضوء النهار».

قال كام هان تور: «سوف نرى، خلال لحظات قليلة، مياه ثروكسيوس الشاسعة».

هززت رأسي وقلت له: «أرجو ألا تصاب بخيبة أمل كبيرة».

قال كام هان تور: «هل اتفقت أنت وصديقك على خداعي؟ لقد رأيت فقط بالأمس سفن أسطول عند مرساة أمام رصيف الميناء. هل تعتقدان أنني أحمق، ولذا تقولان لي إنه لم يعد هناك أي محيط، والمحيط كان موجودًا بالأمس حيث كان منذ نشأة برسوم؟ المحيطات لا تختفي بين عشيه وضحاها، يا صديقي».

سرت همهمة من الموافقة من جانب تلك المجموعة الراقية من النبلاء ونسائهم الذين سمعوا حديثنا. كانوا كارهين تصديق ما لا يرغبون في تصديقه، وما يعتبرونه -كما أدركت- إهانة لذكائهم.

ضع نفسك في مكانهم. ربما تعيش في سان فرانسيسكو، ودخلت لتنام في إحدى الليالي، وعندما استيقظت وجدت شخصًا غريبًا عنك تمامًا يخبرك أن المحيط الهادئ قد جف، وعليك أن تذهب إلى هونولولو أو جوام أو الفلبين سيراً على الأقدام. أنا على يقين أنك لن تصدقه.

وعندما وصلنا إلى الشارع الواسع المؤدي إلى الواجهة البحرية القديمة لمدينة هورز، أخذت هذه المجموعة من الرجال والنساء – الذين يرتدون أغطية رائعة – تنظر في دهشة رهيبة إلى أنقاض مدينتهم المتداعية، التي كانت فخورة في يوم ما.

سأل أحدهم: «أين الناس؟ لماذا شارع الجيداك مهجور؟».

وصاح آخر: «وقصر الجيداك! لا يوجد حراس».

وقالت امرأة: «لا يوجد أحد!».

لم يُعلّق أحد، واندفعوا بشغف نحو الرصيف. وقبل أن يصلوا إلى هناك، كانت أعينهم تحملق بالفعل عبر أنحاء صحراء قاحلة في قاع البحر الميت، حيث تدفقت ذات يوم مياه ثروكسيوس.

واصلوا طريقهم في صمت إلى شارع أرصفة الميناء. لا يستطيعون ببساطة تصديق ما تشهد به أعينهم. لا أتذكر أبدًا أنني شعرت بالأسف تجاه أي من زملائي البشر أكثر مما شعرت به في تلك اللحظة تجاه هؤلاء المساكين.

«لقد اختفى»، قال كام هان تور بصوت بالكاد ما يمكن سماعه.

بكت امرأة، وسحب محارب خنجره وغرزه في قلبه.

وقال كام هان تور: «لقد اختفت جميع شعوبنا. اختفى عالمنا».

وقفوا ينظرون عبر ذلك الامتداد الصحراوي؛ خلفهم مدينة ميتة كانت، في آخر يوم أمس بالنسبة لهم، تزخر بالحياة والشباب والطاقة.

ثم حدث شيء غريب. بدأ كام هان تور ينكمش ويتفتت أمام عيني. كان يتفكك، حرفيًّا، هو وعتاده الجلدي. تناثرت أسلحته على الرصيف. وتجمع في كومة صغيرة من التراب من كان منذ لحظة كام هان تور، شقيق الجيداك.

اقتربت مني لانا الجاثولية وأمسكت بذراعي. قالت هامسة: «يا للفظاعة! انظر! انظر إلى الآخرين!».

نظرت حولي. شاهدت رجال ونساء هورز القديمة يعودون -على انفراد، أو في مجموعات من اثنين أو ثلاثة- إلى التراب الذي جاءوا منه - من التراب جئنا وإلى التراب نعود!

قال بان دان تشي: «لقد استمر هذا التفكك ببطء طوال عصور رقادهم في حُفر هورز. ولم تمنحهم قوى لوم تار أوو الملعونة سوى مظهر من مظاهر الحياة. ومع انتهاء قوته، حدث التحلل النهائي بسرعة».

قلت: «لا بد أن هذا هو التفسير. ومن الجيد أن الأمر كذلك؛ فلم يكن ممكنًا على الإطلاق أن يجد هؤلاء الناس السعادة في برسوم اليوم -عالَم آخذ في الاحتضار- وبالتالي على عكس عالَم برسوم المجيد في قمته، ومحيطاته الخمسة، ومدنه الكبيرة، وشعوبه السعيدة المزدهرة التي أطاحت نهائيًّا -إذا قال التاريخ الحقيقة- بجميع أمراء الحرب ومروجيها، وأقامت السلام من القطب إلى القطب».

قالت لانا الجاثولية: «لا، لم يكن بإمكانهم أبدًا الشعور بالسعادة مرة أخرى. ألم تلاحظ مدى وسامتهم؟ كما كان لون بشرتهم مثل لون بشرتك يا جون كارتر. وباستثناء شعرهم الأشقر، ربما كانوا من كوكبك الأرضي».

قلت لها: «يوجد على كوكب الأرض العديد من الناس ذوي الشعر الأشقر. ربما بعد تزاوج جميع أعراق كوكب الأرض للعديد من العصور، يتطور عِرق من الرجال الحُمر، كما يوجد في برسوم. من يدري؟».

وقف بان دان تشي ينظر بهيام نحو لانا الجاثولية. كان من الواضح أن الوضع مؤلم، ويمكنني أن أرى انزعاج لانا رغم أنه يثير سرورها.

قلت له: «تعالَ. لن تحصل على أي شيء بوقوفك هنا. توجد طائرتي في الساحة القريبة، ويمكنها أن تحمل ثلاثة أفراد. ألن تأتي معي، بان دان تشي؟ يمكنني أن أؤكد ترحيب هيليوم بك، والحصول على منصب ما في جيش الجيداك».

هز بان دان تشي رأسه، وقال: «يجب أن أعود إلى القلعة».

قلت لتذكيره: «إلى هوو ران كيم والموت».

قال: «نعم، إلى هوو ران كيم والموت».

قلت: «لا تكن أحمق، بان دان تشي. لقد برّأت نفسك بشرف. لا يمكنك قتلي، وأنا أعلم أنك لن تقتل لانا الجاثولية. سنذهب ومعنا سر شعب هورز المنسي، بغض النظر عما ستفعله؛ لكنك يجب أن تعلم أن

كلينا لن يستخدم معرفتنا لإلحاق الأذى بشعبك. لماذا تعود إذَنْ إلى موتك دون جدوى؟ تعال معنا».

نظر في عينَي لانا الجاثولية مباشرة، ثم سألها: «هل ترغبين أن أذهب معكما؟».

أجابت: «إذا كان البديل يعني وفاتك، فإنني أرغب أن تأتي معنا».

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي بان دان تشي، ويبدو أنه رأى شعاعًا من الأمل في جوابها غير المُلزِم، حيث قال لي: «أشكرك، جون كارتر. سوف أذهب معك. وسيفي لك دائمًا».

* * *

الفصل (13)

لم أجد أي صعوبة في تحديد مكان الساحة التي هبطت فيها طائرتي وتركتها هناك. وعندما اقتربنا منها، رأيت عددًا من الرجال يرقدون موتى في الشارع. كانوا ممددين في أوضاع بشعة للموت. كانت أجساد بعضهم مشقوقة من رؤوسهم إلى بطونهم. قلت: «هذا من فِعل الرجال الخُضر».

قالت لانا الجاثولية: «هؤلاء كانوا رجال هين أبتول».

أحصينا 17 جثة قبل أن نصل إلى مدخل الساحة. نظرت إلى الساحة، ثم توقفت مفزوعًا – لم تكن طائرتي هناك؛ وإنما يرقد بالقرب من مكانها خمسة قتلى من البناريين.

قلتُ: «لقد اختفت».

قالت لانا الجاثولية: «فعلها هين أبتول. ترك الجبان رجاله وهرب في طائرتك. لن ينجح سوى اثنين من المحاربين في مرافقته».

قلت: «ربما كان من الغباء أن يبقى. فقد كان ليواجه نفس الموت الذي واجهوه».

ردّت قائلة: «في ظروف مماثلة، كان يمكن اعتبار جون كارتر أحمق أيضًا».

ربما كلامها صحيح؛ فأنا في واقع الأمر أحب القتال. أعتقد أنني على خطأ، لكنني لا أستطيع كبح جماح نفسي. فالقتال هو مهنتي التي أتذكر ممارستها طوال حياتي كلها. لقد حاربت خلال الحرب الأهلية في الجيش الكونفيدرالي. وقاتلت في حروب أخرى قبل ذلك. لن أثقل عليك بسيرتي الذاتية. يكفيني القول إنني كنت دائمًا أقاتل. أنا لا أعرف كم عمري. ولا أتذكر طفولتي. أبدو دائمًا في حوالي الثلاثين من عمري. وما زلت كذلك. كما أنني لا أعرف من أين أتيت، ولا إذا كنت وُلدت من امرأة مثل الرجال الآخرين. فأنا ببساطة، وبقدر ما أعرف، موجود دائمًا. ربما أنا تجسيد لمحارب من عصر آخر، ومات منذ زمن طويل. مَن يعرف؟ وقد يفسر ذلك قدرتي على عبور الفراغ البارد المظلم في الفضاء الذي يفصل بين كوكب الأرض والمريخ. لا أعرف.

حطّم بان دان تشي تعويذة استغراقي في التفكير الخيالي، عندما سألني: «وماذا الآن؟».

قلت: «أمامنا مسافة طويلة نمشيها؛ إنها 4000 هاد تمامًا من هنا إلى جاثول، أقرب مدينة صديقة». وهو ما يعادل 1500 ميل – مسافة طويلة جدًّا للسير.

سأل بان دان تشي: «وليس أمامنا سوى هذه الصحراء للبحث عن القوت؟».

قلت له: «هناك تلال أيضًا. كما يوجد القليل من الوديان الصغيرة العميقة، حيث الرطوبة وحيث تنمو أشياء يمكن أن نأكلها. لكننا قد نواجه الرجال الخُضر، وتوجد بالتأكيد حيوانات البانث والوحوش المفترسة. هل أنت خائف، بان دان تشي؟».

قال: «نعم، وإنما على لانا الجاثولية فقط. إنها امرأة – وهذه ليست مغامرة لامرأة. ربما لا تستطيع الاحتمال».

ضحكت لانا الجاثولية، وقالت: «أنت لا تعرف نساء هيليوم، بل ومن تتدفق في عروقها دماء ديجاه ثوريس وجون كارتر. ربما ستعرف قبل أن نصل إلى جاثول». انحنت وجردت أحد القتلى البانارين من عتاده وأسلحته وارتدتها. كان تصرفها أكثر بلاغة من الكلمات.

قال بان دان تشي ضاحكًا: «نحن الآن ثلاثة مبارزين جيدين»؛ إلا أننا كنا نعرف أنه لم يكن يضحك على لانا جاثولية وإنما إعجابًا بها.

وهكذا انطلق ثلاثتنا على درب تلك الرحلة الطويلة نحو جاثول البعيدة – أنا ولانا الجاثولية، من دم واحد وعالَمين، وبان دان تشي من دم آخر وعالَم منقرض. ربما كنا نبدو مختلفين تمامًا، وإنما لم يكن هناك ثلاثة أشخاص أكثر انسجامًا معًا - على الأقل في البداية.

واصلنا لمدة خمسة أيام دون رؤية أي شيء حي. اعتمدنا في غذائنا على حليب نبات المانتاليا[339] الذي ينمو دون ماء، بتقطير كميات وفيرة من الحليب من منتجات التربة، فضلاً عن اعتمادنا على رطوبة الهواء الطفيفة، وأشعة الشمس. يمنح النبات الواحد من هذا النوع ثمانية أو عشرة كوارت[340] من الحليب يوميًّا. ومن تدابير العناية الإلهية الرحيمة، أن هذا النبات يتناثر عبر قيعان البحر الميت، مانحًا الطعام والشراب لكل من البشر والوحوش.

---

(339) مانتاليا: نوع من الأشجار كبيرة الحجم، تُسمى أحيانًا «نبات الحليب»، وتوجد في بساتين على طول قيعان البحر الميت. تنمو عمليًا من دون ماء، وتفرز كمية وفيرة من عصارة تشبه الحليب - https://barsoom.fandom.com/wiki/Mantalia - المترجمة.

(340) الكوارت: وحدة لقياس الحجم، والكوارت يعادل رُبع جالون - المترجمة.

ربما لقي رفيقاي حتفهما من العطش أو الجوع إن لم أكن معها، فكلاهما لا يعرف أن هذه النباتات التي نمر بها أحيانًا ومظهرها عادي تمامًا، تحمل في سيقانها وفروعها هذا السائل الذي يمنح الحياة.

كنا نتوقف للراحة في منتصف النهار وننام خلال الجزء الأوسط من الليل، ونتناوب الحراسة – وأصرت لانا الجاثولية أن تتقاسم معنا هذه المهمة.

وعندما استلقينا للراحة في الليلة السادسة، كانت لانا مسؤولة عن أول نوبة في الحراسة؛ ونظرًا لأن نوبتي كانت الثانية، فقد أخذت استعدادي للنوم على الفور. جلس بان دان تشي، وكان يتحدث مع لانا.

وخلال غفوتي، سمعته يقول: «هل لي أن أدعوكِ أميرتي؟».

هذا في برسوم يُعادل اقتراح الزواج على كوكب الأرض. حاولت أن أغلق أذنيَ وأنام، لكنني تمكنت من سماع ردها.

قالت: «أنت لم تقاتل من أجلي حتى الآن، ولا يجوز لأي رجل أن يتقدم للزواج بامرأة من هيليوم إلى أن يثبت بسلاحه أنه جدير بها».

قال: «لم تتوفر أي فرصة للقتال من أجلكِ».

قالت بإيجاز: «ننتظر إذَنْ حتى تأتي الفرصة. والآن ليلة سعيدة».

أعتقد أن حديثها معه كان مقتضبًا للغاية. بان دان تشي زميل لطيف، وأنا على يقين أنه سيقدم نفسه بشكل جيد عندما تتاح الفرصة. لم يكن عليها أن تعامله كما لو كان حثالة. لكن للنساء طرقهن الخاصة. وهي، كقاعدة، طرق غير سارة؛ وإنما يبدو أنها الطرق الصحيحة للفوز بالرجال. ولذلك افترضتُ أن الأمر على ما يرام.

سار بان دان تشي خطوات قليلة، ثم استلقى على الجانب الآخر من لانا الجاثولية. كنا نحرص دائمًا على إبقائها بيننا في جميع الأوقات، لتوفير حماية أكبر لها.

استيقظت في وقت لاحق على صوت صراخ وهدير بشع. وقفت على الفور، ورأيت لانا الجاثولية على الأرض ويهاجمها بانث ضخم. وفي تلك اللحظة، قفز بان دان تشي على ظهر الحيوان الجبار آكل اللحم.

حدث ذلك كلة بسرعة مذهلة بحيث بالكاد ما أمكنني تصور الأمر برمته. فقد رأيت بان دان تشي يسحب الوحش الضخم في محاولة لإبعاده عن جسم لانا، وفي الوقت

نفسه يغرز خنجره في جانب الوحش. كان البانث يزأر ببشاعة وهو يحاول الاشتباك مع بان دان تشي، مع احتفاظه في الوقت نفسه بقبضته على لانا.

قفزت مقتربًا وسيفي القصير في يدي، وكان من الصعب العثور على فتحة دون تعريض لانا أو بان دان تشي للخطر. لا بد أنه كان مشهدًا مُسليًا للغاية؛ فقد كنا نحن الأربعة مشتبكين على الأرض، مختلطين جميعًا، والبانث يزأر، وبان دان تشي يلعن مثل فارس في لحظة لا يحاول خلالها أن يخبر لانا الجاثولية كم كان يحبها.

تمكنت أخيراً من العثور على فتحة، وغرزت سيفي القصير في قلب البانث. أطلق الوحش صرخة نهائية وقشعريرة متشنجة، ثم تدحرج على الأرض ورقد ساكنًا.

عندما حاولت رفع لانا من الأرض، قفزت واقفة. صاحت: «بان دان

تشي! هل هو على ما يرام؟ هل أُصيب؟».

قال بان دان تشي: «أنا على ما يرام بالطبع؛ ولكن ماذا عنكِ؟ ما مدى سوء إصابتكِ؟».

«أنا لست مصابة على الإطلاق. أنت أبقيت الوحش مشغولاً عني، بحيث لم يكن لديه فرصة لإصابتي بأي جرح».

صاح بان دان تشي بحرارة: «شكرًا لأسلافي!». وفجأة التفت إليها قائلاً: «والآن، لقد حاربت من أجلكِ. ما إجابتكِ؟».

هزت لانا الجاثولية كتفيها الجميلين وقالت: «أنت لم تقاتل رجلاً... إنه مجرد بانث صغير».

حسنًا، أنا لا أفهم النساء أبدًا.

* * *

الكتاب الثاني

قراصنة برسوم السود

الفصل (1)

في حياتي السابقة على الأرض، أمضيت على صهوة الفرس وقتًا أكبر مما أمضيته سيرًا على الأقدام؛ ومنذ أن وصلت إلى كوكب المريخ، أمضيت الكثير من الوقت على صهوة وحوشه أو على السفن والطائرات السريعة لأسطول هيليوم البحري. وبالتالي، لم أكن أتطلع، بطبيعة الحال، إلى أي قدر كبير من المتعة للسير مسافة 1500 ميل. ومع ذلك، لا بد من القيام بذلك؛ وعندما يوجد شيء يجب القيام به، فإن أفضل خطة هي البدء فيه، والاستمرار، وإنجازه في أسرع وقت ممكن.

تقع جاثول جنوب غرب هورز. ومع عدم وجود بوصلة أو معالم، توجهت أكثر - كما اكتشفت لاحقًا - نحو الغرب. ولو لم أفعل ذلك، لكنا قد وفرنا على أنفسنا بعض التجارب المروعة. ومع ذلك، وإن كانت حياتي السابقة تمثل أي معيار، كان يمكننا أن نجد العديد من المغامرات الأخرى.

قطعنا حوالي 2500 هاد من الـ4000 هاد التي تفصل بيننا وبين وجهتنا -أو على الأقل بقدر ما أمكنني حسابه- بحد أدنى من الحوادث غير المرغوب فيها. هاجمتنا حيوانات البانث مرتين، لكننا استطعنا قتلهم قبل أن يتمكنوا من إيذائنا؛ كما هاجمتنا مجموعة من حيوانات الكالوت الوحشية، لكننا لحسن الحظ لم نلتق بأي كائن بشري - فهم أخطر مخلوقات على برسوم. فهنا، خارج بلدك أو بلدان حلفائك، يُعتبر كل رجل عدوك ويعتزم تدميرك؛ وهذا ليس غريبًا في عالم يحتضر، تضاءلت موارده الطبيعية إلى نقطة التلاشي، وبالكاد ما يكفي الهواء والماء لتلبية متطلبات السكان الحاليين.

سرنا مساحات شاسعة على قاع البحر الميت، مغطاه بنباتات صفراء، وتتخللها في بعض الأحيان تلالاً منخفضة. وأحيانًا كنا نجد في الوديان المظللة، جذورًا ودرنات صالحة للأكل. بيد أن الجزء الأكبر من غذائنا اعتمد على السائل الشبيه باللبن الذي تنتجه شجيرة المانتاليا التي تنمو على قاع البحر الميت، على الرغم من أن غزارته ليست كبيرة.

حاولنا تتبع الأيام، وواجهنا في اليوم السابع والثلاثين مشكلة خطيرة بحق. كنا في الزود الرابع، أي حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر بتوقيت كوكب الأرض، عندما رأينا على بُعد وإلى يسارنا ما تعرفت عليه فورًا: قافلة من المريخيين الخُضر.

ونظرًا لأنه لا يمكن تصور مصير أسوأ من الوقوع في أيدي هؤلاء الوحوش القُساة، أسرعنا على أمل عبور طريقهم قبل أن يكتشفونا. استفدنا مما منحه لنا ما يُغطي قاع البحر، وكان قليلاً جدًّا؛ وأجبرنا أحيانًا على الزحف على بطوننا - وهو الفن الذي تعلمته من الأباتشي[341] في أريزونا. كنت في المقدمة، ووجدت أمامي هيكلاً عظميًّا بشريًّا. كان يتفتت إلى تراب، وهو ما يدل على أنه لا بد يرقد هنا منذ سنوات عديدة؛ ذلك أن رطوبة المريخ منخفضة للغاية، وبالتالي تتفكك الهياكل العظمية ببطء شديد. عثرت على هيكل عظمي آخر بعد حوالي 50 ياردة، ثم رأينا العديد منهم. كان مشهدًا مروعًا، لم أستطع تخمين ما يُنبئ به. تصورت في البداية أنهم ربما خاضوا معركة هنا، لكنني عندما رأيت أن بعض هذه الهياكل العظمية جديدة ومُصانة جيدًا وبعضها الآخر قد بدأ يتفكك بالفعل، أدركت أن هناك عدة سنوات تفصل بين موت هؤلاء الرجال.

شعرت أخيراً أننا اجتزنا خط مسيرة القافلة، وسوف نأمن نسبيًّا بمجرد أن نجد مكانًا للاختباء. وعندئذٍ رأيت حافة صدع مفتوح.

لم يسبق لي أن رأيت شيئًا كهذا، باستثناء الوادي الكبير في كولورادو. كان بمثابة واد متصدع كبير، يبلغ اتساعه حوالي عشرة أميال، وربما يصل عمقه إلى ميلين، ويمتد لأميال في الاتجاهين.

توجد نتوءات صخرية على حافة الصدع، اختبأنا خلفها. تناثرت حولنا هياكل عظمية بشرية أكثر مما شاهدناه من قبل. ربما كانت تحذيرًا؛ لكنها على الأقل لن تضر بنا، ولذا حولنا انتباهنا إلى القافلة المقتربة، والتي بدأت الآن تغير اتجاهها قليلاً وتأتي نحونا مباشرة. رقدنا نراقبهم، على أمل أن يُغيروا اتجاههم مره أخرى ويبعدوا عنا.

عندما نُقلتُ لأول مرة بأعجوبة إلى المريخ، أمسك بي حشد من الرجال الخُضر، وعشت معهم لفترة طويلة، بحيث أصبحت أعرف عاداتهم جيدًا. ولذلك، كنت على يقين أن هذه القافلة تقوم بإحدى رحلاتها الطويلة كل خمس سنوات إلى الحاضنة الخفية لبيضها.

(341) الأباتشي : مجموعة من قبائل الهنود الحمر، السكان الأصليين لأمريكا الشمالية – المترجمة.

تضع كل أنثى مريخية بالغة حوالي ثلاث عشرة بيضة كل عام؛ ويخفون البيض الذي يصل إلى الحجم والوزن والثقل النوعي الصحيح في تجاويف قبو تحت الأرض، حيث درجة الحرارة منخفضة جدًّا بالنسبة للحاضنة. ويقوم مجلس من عشرين شيخ قبيلة بفحص هذا البيض بعناية كل عام، ويحتفظون بحوالي 100 بيضة من أكثر البيض كمالاً، ويدمرون الباقي. وبعد خمس سنوات، يختارون حوالي 500 بيضة جيدة من بين آلاف البيض الذي كانوا قد جلبوه؛ ثم يضعون البيض في حاضنات مُحكمة الإغلاق، إلى أن يفقس بفعل أشعه الشمس بعد خمس سنوات أخرى.

يفقس جميع البيض ما عدا حوالي 1%، ويتركون هذه النسبة من البيض عندما يغادر الحشد الحاضنة. ولا يعرف أحد مصير هؤلاء المريخيين الصغار إذا فقس بيض هذه المجموعة المهجورة. فهم غير مرغوبين؛ لأن ذريتهم قد ترث وتنقل النزعة إلى فترة حضانة طويلة، وبالتالي يزعزعون النظام الذي استمر لعصور، ويسمح للمريخيين البالغين تحديد الوقت المناسب للعودة إلى الحاضنة بحوالي ساعة.

تُبنى الحاضنات في أماكن بعيدة منعزلة، حيث لا توجد أو تقل احتمالات اكتشافها من جانب قبائل أخرى. فاكتشافها يُعد كارثة، لأنه يعني عدم وجود أي أطفال في المجتمع المحلي لمدة خمس سنوات أخرى.

أما قافله المريخيين الخُضر، فهي شيء رائع وبربري تجدر رؤيته. ضمت هذه القافلة حوالي 250 عربة هائلة ذات ثلاث عجلات، تجرها حيوانات ضخمة معروفة باسم زيتيدار[342]، ويوحي مظهرها أن أيًّا منها يمكنه بسهولة جر قطار بعد تحميله بالكامل.

كانت العربات نفسها ضخمة، واسعة ومُزينة بشكل رائع؛ تجلس في كل منها امرأة مريخية مُحملة بالحلي المعدنية والجواهر والحرير والفراء؛ ويمتطي ظهر كل زيتيدار سائق مريخي شاب، يجثم فوق أغطية رائعة. ويركب أمام القافلة حوالي 200 محارب، كل خمسة على جانب واحد؛ وعدد مماثل وراء القافلة. ويحيط بالعربات من جانبيها حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين محاربًا راكبًا.

ويصعب بلغة كوكب الأرض وصف الحيوانات التي يمتطيها المحاربون. يبلغ ارتفاع كل منها حوالي 10 أقدام إلى الكتف؛ ولدى كل منها أربع أرجل على كل جانب؛ وذيل مسطح عريض، حجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد مباشرة خلفه عندما يجري؛ وفم مفتوح يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم.

---

(342) الزيتيدار: حيوان مريخي يشبه الفيل، ويُعتبر من حيوانات الجر الثقيلة حيث يُستخدمه المريخيون غالبًا في حمل الأحمال الكبيرة لمسافات شاسعة وجر المركبات الضخمة – http://barsoom.wikia.com/wiki/Zitidar المترجمة.

وهذه الحيوانات، مثلها مثل أسيادهم الضخام، خالية تمامًا من الشَّعر، ولونها مثل اللوح الداكن، وجلدها أملس ومصقول. أما بطونها فلونها أبيض، ويتدرج لون سيقانها بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند الأقدام. والأقدام نفسها شديدة الامتلاء وبلا أظافر. ولا ترتدي هذه الحيوانات أي لجام، مثلها مثل الزيتيدار، وإنما يمكن توجيهها تمامًا عن طريق التخاطر.

وخلال مشاهدتنا لهذا الموكب الرائع والمثير حقًّا للإعجاب، وجدناه

يُغير اتجاهه ثانية. تنفست الصعداء عندما رأيتهم يبتعدون عنا. يبدو أنهم شاهدوا الصدع، من فوق ظهور حيواناتهم الضخمة، ويتحركون الآن على طريق يوازيه.

لكن شعوري بالراحة كان قصيراً. فعندما كان الجزء الخلفي من القافلة على وشك الابتعاد عنا، كشفنا أحد المحاربين.

* * *

الفصل (2)

استدار الزميل فوق الثوات على الفور، وصاح مناديًا رفاقه، وتحرك نحونا راكضًا. قفزنا على أقدامنا ممتشقين سيوفنا ومتوقعين الموت، وإنما على استعداد لبيع حياتنا غاليًا.

وبعد وقوفنا بلحظة، صاحت لانا: «انظروا! يوجد هنا درب يقود إلى الوادي في أسفل».

نظرت حولي. وقفنا، وتأكدتُ تمامًا من رؤية بداية درب ضيق وشديد التحدر يؤدي إلى أسفل، إلى حافة الهاوية. سنكون آمنين إذا استطعنا الوصول إليه، ذلك أن حيوانات الثوات والزيتيدار الضخمة التي يمتطيها الرجال الخضر لا يمكنها عبور هذا الدرب. ربما لم يكن الرجال الخُضر على بينة من وجود هذا الصدع قبل أن يتوجهوا نحوه فجأةً، وهذا ممكن تمامًا؛ لأنهم يبنون حاضناتهم في أماكن قفر غير مأهولة وغير مُستَكشَفة، وتبعُد أحيانًا بمسافة ألف ميل عن أراضيهم.

ركض ثلاثتنا -أنا، ولانا، وبان دان تشي- نحو الدرب. ألقيت نظرة من فوق كتفي ورأيت المحارب الأول يكاد يصل إلينا، وأننا لن نتمكن جميعًا من الوصول إلى الدرب. ولذلك ناديت على بان دان تشي ليسرع مع لانا. توقف كلاهما واستدارا نحوي.

قلت لهما: «هذا أمر. استدارا ثانية على مضض، وواصلا طريقهما في اتجاه نهاية الدرب، بينما وقفت أنا وواجهت المحارب.

أوقف المحارب حيوانه الثوات وترجل، ويبدو أنه كان يود الإمساك بي وليس قتلي؛ لكني لم أكن مستعدًّا أن يمسكوا بي ويعذبوني، ثم يقتلوني في النهاية. من الأفضل أن أموت الآن.

سحب المحارب سيفه الطويل وهو يتقدم نحوي، وفعلت بالمثل. لم أكن لأقلق كثيراً لو ركض نحوي ستة من زملائه على حيواناتهم الثوات الضخمة، فلا يماثلني في المبارزة أي مريخي أخضر فقسته بيضة من قبل. حتى حجمهم الضخم لا يعطيهم أي ميزة، ربما يعوقهم؛ فحركتهم بطيئة وثقيلة مقارنة بخفة حركتي كرجل من كوكب الأرض. وعلى الرغم من أن حجم أي منهم يماثل ضِعف حجمي، فلا تقلُّ قوتي عن قوة أي

منهم. إن عضلات رجل كوكب الأرض لم تنافس قوة الجاذبية، منذ فجر الإنسانية، من أجل لا شيء. لقد نمت واشتدت؛ لأن الجاذبية تتحدى كل حركة نقوم بها.

كان خصمي شديد الثقة في نفسه بدرجة كبيرة، وهو يواجه مخلوقًا يبدو ضئيلاً مثلي، بحيث إنه تقدم نحوي للهجوم مثل ثور جامح.

رأيته يحمل سيفه على نحو يوضح أنه ينوي تسديد ضربة إلى رأسي بالجانب المسطح من السيف، بحيث يفقدني الوعي ويتمكن من الإمساك بي بسهولة أكبر. ولكن، عندما سقط السيف لم أكن هناك؛ فقد خطوت إلى اليمين مبتعدًا عن طريقه، ووجهت في الوقت نفسه طعنة إلى قلبه. كانت طعنتي يمكن أن تخترقه أيضًا، إن لم يتأرجح أحد ذراعيه الأربع نحو رأس نصلي قبل أن يصل إلى جسده. لقد أصبته بجرح حاد. زأر غاضبًا، ثم التفت وتوجه نحوي ثانية.

كان أكثر حذرًا هذه المرة؛ لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئًا. سوف يموت لا محالة؛ لأنه يختبر مهارته ضد أفضل مبارز في عالَمين.

اقترب الآن المحاربون الستة الآخرون. لم يكن هذا الوقت مناسبًا لرياضة المبارزة. وجهت له ضربة قوية واخترق سيفي قلبه. نظرت نحو لانا. وعندما تأكدتُ أنها آمنة، استدرت وركضتُ على طول حافة الصدع. وفعل المحاربون الستة الخُضر ما توقعته تمامًا. ربما فصلوا أنفسهم عن الحرس الخلفي لممارسة رياضة القبض على رجل أحمر لتعذيبه أو زجه في مبارياتهم الوحشية. تجمعوا معًا وتحركوا ورائي، دون أن يصدر من الأقدام المبطنة الخالية من الأظافر لحيواناتهم الثقيلة أي صوت على النباتات الصفراء الشبيهة بالطحالب في قاع البحر الميت. رفعوا رماحهم، وهم يقتربون مني، وكل منهم يحاول أن يقتلني أو يمسك بي. شعرت مثلما قد يشعر الثعلب في مطاردة للثعالب.

توقفت فجأةً، واستدرت، ثم ركضت نحوهم. لا بد أنهم ظنوا أن الخوف أصابني بالجنون؛ لأنهم بالتأكيد لا يمكنهم معرفة ما يدور في ذهني، وأنني هربت منهم لمجرد إغرائهم للابتعاد عن بداية الدرب المؤدي إلى الوادي. كانوا على وشك الانقضاض عليَّ عندما قفزت فوقهم تمامًا، عاليًا في الهواء، وتجاوزتهم. ساعدتني مرة أخرى، في هذه الحالة الطارئة، قوتي الكبيرة وخفة حركتي وجاذبية المريخ الأقل من جاذبية كوكب الأرض.

وبمجرد نزولي على الأرض، اندفعت نحو بداية الدرب. وعندما تمكن المحاربين من إيقاف ركوباتهم، استداروا وركضوا ورائي؛ ولكن بعد فوات الأوان. يمكنني التفوق علي أي ثوات. على أن مشكلتي الوحيدة هي أن شعوري بالفخر يجعلني كارهًا للركض؛

وإنما -مثل الزميل الذي كان فخوراً بالقتال- يجب أن أركض أحيانًا، كما في هذه الحالة عندما تكون سلامة الآخرين على المحك.

وصلت إلى بداية الدرب خلال فترة طويلة، وأسرعت إلى أسفل وراء لانا وبان دان تشي، ووجدتهما في انتظاري.

نظرت إلى أعلى خلال هبوطنا، ورأيت المحاربين الخُضر عند حافة الصدع ينظرون نحونا. خمّنت ما يمكن أن يحدث، ولذا سحبت لانا إلى ملاذ عند الحافة المتدلية. تبعنا بان دان تشي عندما بدأ رصاص الراديوم ينفجر بالقرب منا.

تُصنع البنادق التي يحملها رجال المريخ الخُضر من معدن أبيض ممزوج بالخشب، وهو عبارة عن إنتاج خفيف للغاية وشديد الصرامة، ويحظى بتقدير كبير على المريخ، لكنه غير معروف على الإطلاق لسكان كوكب الأرض. أما معدن أنبوب البندقية، فهو سبيكة تتكون أساسًا من الألومنيوم والصُّلب؛ وقد تعلموا تحويلها إلى صلابة تتجاوز بكثير الصُلب الذي نعرفه. وزن هذه البنادق قليل نسبيًّا؛ ومع العيار الصغير، فإن مقذوفات الراديوم المتفجرة التي يستخدمونها وطول أنبوبها الكبير، تصبح مميتة إلى أقصى حد، وعلى نطاقات لا يمكن تصورها على كوكب الأرض.

تنفجر المقذوفات التي يستخدمونها عندما يوجهونها لضرب شيء؛ إذ إنها مغطاة بطلاء خارجي مُعتم، ينكسر نتيجة للتصادم، كاشفًا عن أسطوانة زجاجية، صلبة تقريبًا، توجد في نهايتها الأمامية جسيمات دقيقة من مسحوق الراديوم[343] .

وينفجر هذا المسحوق بمجرد أن تلمسه أشعة الشمس، على الرغم من انتشارها؛ ولا يمكن أن يصمد أي شيء أمام عنف هذا الانفجار. وقد لاحظت خلال المعارك الليلية عدم وجود تلك الانفجارات، بينما يمتلئ الصباح التالي مع شروق الشمس بانفجارات حادة من صواريخ أُطلِقت في الليلة السابقة. وإنما، كقاعدة عامة، تُستخدم المقذوفات غير المنفجرة بعد الظلام.

شعرت أنه من الأسلم أن نظل حيث كنا بدلاً من كشف أنفسنا إذا حاولنا الهبوط، كما شككت كثيراً أن المحاربين الخُضر الضخام يمكن أن يتبعونا إلى أسفل ذلك المنحدر الحاد سيراً على الأقدام؛ فالدرب كان ضيقًا للغاية بالنسبة لأجسادهم الكبيرة، كما أنهم يكرهون التحرك سيراً على الأقدام.

---

(343) لقد استخدمت كلمة راديوم لوصف هذا المسحوق؛ لأنني أعتقد - على ضوء الاكتشافات الأخيرة على كوكب الأرض – أن الراديوم يشكل الأساس في هذا الخليط. على أن كابتن جون كارتر يستخدم دائمًا في مخطوطاته الاسم المُستخدَم في لغة هيليوم المكتوبة، وهو يُنطق بالهيروغليفية التي تصعب تهجئتها، كما أن ذلك عديم الفائدة - [ملحوظة من محرر النسخة الإنجليزية الأصلية.[

نظرت بعد بضع دقائق، ووجدت أنهم - على ما يبدو - قد غادروا.

بدأنا نهبط إلى الوادي. وتمنينا عدم مواجهة أي خطر آخر بمقابلة حشد كبير من المخلوقات القاسية والوحشية.

* * *

الفصل (3)

كان الدرب شديد الانحدار ومحفوفًا بالمخاطر في معظم الأحيان؛ لأنه يتعرج أسفل منحدر عمودي تقريبًا. قد نخطو أحيانًا، عند الحافة، على هيكل عظمي لرجل؛ ومررنا على ثلاث جثث في مراحل مختلفة من التحلل، لرجال ماتوا من فترة قريبة.

سألني بان دان تشي: «ماذا عن هذه الهياكل العظمية والجثث؟».

أجبت: «أنا في حيرة. عدد الذين لقوا حتفهم على الدرب أكبر من عدد أولئك الذين رأينا بقاياهم هنا. وسوف تلاحظ أنها جميعًا توجد عند الحواف، حيث استقرت بعد سقوطها. ومن المؤكد أن عددًا أكبر قد انحدر إلى سفح الهاوية».

سألتني لانا: «ولكن كيف يمكننا تصور طريقة موتهم؟».

قال بان دان تشي: «ربما تفشى وباء لمرض ما في الوادي، ومات هؤلاء المساكين أثناء محاولتهم الهرب».

أجبت: «ليس لديَّ أدنى فكرة عن تفسير موتهم. نحن نرى بقايا عتاد على معظمهم، وإنما لا توجد أسلحة. وأنا أميل إلى أن بان دان تشي على حق في افتراضه أنهم كانوا يحاولون الهرب، لكننا لن نعرف أبدًا إذا كان هروبهم من وباء لمرض أم من شيء آخر».

استطعنا رؤية مشهد ممتاز للوادي أدناه، من موقعنا غير المستقر على ذلك الدرب المحفوف بالمخاطر. كان الوادي مستويًا ومرويًّا بشكل جيد. كما كانت الغابات تكسر رتابة العشب القرمزي الذي ينمو على سطح المريخ أينما يوجد الماء، مما جعل المشهد برمته مذهلاً لمن يعرف هذا الكوكب الآخذ في الاحتضار.

توجد محاصيل وأشجار ونباتات أخرى على طول القنوات المائية، وتوجد مروج وحدائق في المدن التي يتوفر فيها الري؛ على أنه لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا المشهد إلا في وادي دور بالقطب الجنوبي، حيث يقع بحر كوراس المفقود. ذلك أننا لم نشهد مجرد امتداد واسع لوادٍ خصب، بل رأينا أيضًا الأنهار وبحيرة واحدة على الأقل على مسافة؛ ثم لفتت لانا انتباهنا إلى مدينة بيضاء لامعة، ذات أبراج شاهقة.

قالت: «يا لها من مدينة جميلة. تُرى ما نوع الناس الذين يعيشون فيها؟».

قلت: «ربما أناس لا يحبون شيئًا أكثر من ذبحنا».

قال بان دان تشي: «نحن الأروفار لسنا من هذا النوع، نحن نكره قتل الناس. لماذا تكره جميع الأعراق الأخرى على المريخ بعضها؟».

قلت: «لا أعتقد أن الكراهية هي التي تجعلهم يريدون قتل بعضهم. بل أصبح ذلك بمثابة العُرف. فبعد جفاف البحار منذ عصور طويلة، أصبح البقاء في قيد الحياة أكثر صعوبة؛ واعتاد الناس، خلال تلك العصور، على القتال من أجل الوجود؛ بحيث أصبحت الآن الطبيعة الثانية هي قتل جميع الغرباء».

قالت لانا الجاثولية: «أنا لا أزال أرغب في رؤية تلك المدينة من الداخل».

قلت: «ربما لا يمكن أبدًا إشباع فضولكِ».

وقفنا لبعض الوقت عند الحافة ننظر إلى هذا الوادي الجميل، ربما أحد أجمل المشاهد على المريخ كله. رأينا عده قطعان من حيوانات الثوات الصغيرة التي يستخدمها المريخيون الحُمر في الركوب والطعام. هناك فارق ضئيل بين الأنواع المخصصة للركوب وتلك المخصصة للذبح، لكننا لم نتمكن من هذه المسافة معرفة نوع هذه الحيوانات. رأينا أيضًا حيوانات الطريدة، التي يتعقبها الصيادون للترفيه أو لأكلها؛ وهو ما أغرانا، ونحن لنا فترة طويلة دون تناول لحم جيد.

قالت لانا: «لنهبط إلى أسفل؛ لم نرَ أي إنسان، ولسنا بحاجة إلى الاقتراب من المدينة. إنه طريق طويل. وأود أن أرى جمال هذا الوادي عن قرب».

قلت: «وأنا أود الحصول على بعض اللحوم الحمراء الجيدة».

قال بان دان تشي: «وأنا أيضًا».

قلت: «تخبرني بصيرتي أن القيام بذلك يُعد حماقة؛ لكني لو كنت قد اتبعت بصيرتي دائمًا، لكانت حياتي أصبحت مملة للغاية».

قالت لانا: «على أي حال، نحن لا نعرف إن كان الوادي في أسفل أكثر خطورة من وضعنا هنا عند الحافة. ومن المؤكد أننا بالكاد ما تفادينا الكثير من المتاعب هنا في أعلى، وربما لا يزال الخطر يحوم حولنا».

لم أكن أعتقد ذلك؛ على الرغم من أنني كنت أعرف أن المريخيين الخُضر يمكنهم اصطياد رجلين من الرجال الأحمر لأيام في وقت واحد. على أي حال، أسفرت مناقشتنا عن أننا واصلنا النزول إلى الوادي.

وجدنا عند سفح الهاوية، حيث انتهى الدرب، ركامًا من العظام البشرية وجثتين مشوهتين بشدة - يا لهم من مساكين بؤساء؛ إما لقوا حتفهم على الدرب أعلاه، وإما سقطوا ليلقوا حتفهم هنا في أسفل. وتساءلت، كيف ولماذا.

ومن حسن حظنا أن المدينة كانت بعيدة، بحيث كنت متأكدًا من عدم إمكانية أي شخص أن يرانا منها. ونظرًا لمعرفتي بالعادات المريخية، لم تكن لدينا نية للاقتراب منها؛ كما لم يكن لدينا أي اهتمام بالاقتراب منها حتى إن كانت آمنة؛ لأن الوادي كان فاتن الجمال في حالته الطبيعية بحيث قد تبدو مشاهد وأصوات المدينة مثل نغمة متنافرة.

رأينا نهرًا صغيرًا على مسافة قصيرة منا، وخلفه غابة توصل إلى حافته. عبرنا إلى النهر من خلال مرجة قرمزية، قصيرة العشب بفعل قطعان الرعي وتتناثر فيها العديد من الزهور ذات جمال سماوي.

كانت قطعان الثوات ترعى على مسافة قصيرة من النهر. وكانت من لحوم متنوعة، جيدة المذاق بشكل استثنائي. واقترح بان دان تشي أن نعبر النهر حتى يتمكن من الاختفاء في الغابة ليقترب بما يكفي لصيد إحداها.

كان النهر حيًّا بأسماكه، وطعنت بعضها بسيفي الطويل خلال عبورنا مياهه.

قلت: «لدينا على الأقل أسماك نتناولها في العشاء. وإذا حالف الحظ بان دان تشي، سنتناول شرائح اللحم».

قالات لانا: «وأنا أرى الفواكه والجوز في الغابة. يا لها من مأدبة!».

قال بان دان تشي: «تمنوا لي حسن الحظ»، ودخل الغابة ليشق طريقه نحو حيوانات الثوات.

كنت أشاهد مع لانا، لكننا لم نرَ الشاب الأروفاري إلى أن قفز من الغابة وقذف شيئًا نحو أقرب ثوات وحجمه مثل الثور الصغير.

صرخ الوحش، ركض بضع أقدام، ثم ترنح وسقط، بينما ركض بقية القطيع مبتعدًا.

سألت لانا: «كيف فعل ذلك؟».

قلت: «أنا لا أعرف، لقد قام بذلك بسرعة شديدة بحيث لم أتمكن من رؤية ما قذفه. لم يكن رمحًا بالتأكيد لأن ليس لديه رمح، ولم يكن سيفًا وإلا لرأيناه».

قالت لانا: «لقد بدا وكأنه ألقى عصا صغيرة».

رأينا بان دان تشي يقطع شرائح اللحم من الحيوان الذي قتله؛ وعاد إلينا الآن وهو يحمل ما يكفي من اللحم لدزينة من الرجال.

سألته لانا: «كيف قتلت هذا الثوات؟».

أجاب بان دان تشي: «بخنجري».

قلت: «كان رائعًا. ولكن أين تعلمت ذلك؟».

«يُعتبر إلقاء الخنجر أحد أشكال الرياضة في هورز. ونحن جميعًا نجيدها. لكنني فزت بكأس الجيداك في السنوات الثلاث الماضية؛

ولذا كنت على يقين أنني سأنجح عندما عرضت أن أقتل الثوات، على الرغم من أنني لم أستخدم خنجري من قبل في لعبة قتل طريدة. يندر جدًّا تنظيم مبارزة في هورز؛ وعندما يحدث، يختار المتسابقون عادة الخناجر إلا إذا كان أحدهم أكثر مهارة بكثير من الآخر».

بينما كنا أنا وبان دان تشي نشعل النار ونطبخ السمك وشرائح اللحم، كانت لانا تجمع الفواكه والجوز؛ بحيث تناولنا وجبة لذيذة، وعندما جاء الليل استلقينا على المرجة الناعمة ونمنا.

* * *

الفصل (4) نمنا في وقت متأخر، لشعورنا بالتعب الشديد في الليلة السابقة. اصطدت بعض الأسماك الطازجة، وتناولنا السمك وشرائح اللحم والفواكه والجوز مرة أخرى على الإفطار. ثم بدأنا نتحرك نحو الدرب الذي يقود إلى خارج الوادي.

قال بان دان تشي: «سيكون صعودًا شنيعًا».

قالت لانا: «أووه، أتمنى أن نبقى هنا؛ أكره أن أغادر هذه البقعة الجميلة».

انجذب انتباهي فجأةً نحو الطرف السفلي من الوادي. قلت: «ربما لن تضطري إلى مغادرتها، يا لانا. انظروا!».

التفتت لانا وكذا بان دان تشي ونظرا في الاتجاه الذي أشرت إليه. رأينا 200 محارب يمتطون حيوانات الثوات. كان الرجال من ذوي البشرة السوداء الأبنوسية، وتساءلت ما إذا كانوا من قراصنة برسوم السود سيئي السمعة الذين واجهتهم وقاتلتهم منذ سنوات عديدة في القطب الجنوبي - أولئك الذين يطلقون على أنفسهم الأبناء الأوائل[344].

ركضوا نحونا وحاصرونا، ورماحهم مرفوعة في حالة استعداد لأي طارئ.

سأل قائدهم: «مَن أنتم؟ وماذا تفعلون في وادي الأبناء الأوائل؟».

أجبت: «جئنا إلى أسفل الدرب لتجنب حشد من الرجال الخُضر. وكنا على وشك المغادرة. لقد جئنا في سلام. نحن لا نريد الحرب، لكن سيوفنا الثلاثة جاهزة لتقديمنا بشكل جيد».

قال القائد: «عليكم أن تأتوا معنا إلى كامتول».

سألته: «المدينة؟». أومأ بالإيجاب.

سحبت سيفي من غمده.

قال: «توقف! نحن 200، وأنتم ثلاثة. إذا أتيتم إلى المدينة، هناك فرصة على الأقل لعدم قتلكم؛ أما إذا بقيتم هنا وحاربتم، فسوف تُقتلون».

---

(344) الأبناء الأوائل هم العِرق أسود البشرة في المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=First+Born+ - المترجمة.

هززت كتفي قائلاً: «هذا لا يهمني. لكن لانا الجاثولية ترغب في رؤية المدينة، وأنا لا أترك معركة. بان دان تشي، ما رأيك أنت ولانا؟».

قالت لانا: «أنا أود رؤية المدينة، لكنني سأقاتل إذا كنت ستقاتل». ثم أضافت: «ربما لن يتعاملون معنا بقسوة».

قال القائد: «عليكم التخلي عن أسلحتكم».

لم يعجبني ذلك، وترددت.

قال القائد: «إما هذا وإما الموت. هيا! لا أستطيع الوقوف هنا طوال اليوم».

حسنًا، ما من جدوى للمقاومة. ومن الحماقة التضحية بحياتنا إذا كان هناك أمل ولو ضئيل أن يستقبلونا بشكل جيد في كامتول. وهكذا، ركبنا على ظهور ثلاثة من الثوات خلف راكبيهم، وبدأنا نتحرك نحو المدينة البيضاء الجميلة.

لم تشهد الرحلة إلى المدينة أي أحداث، لكنها منحتني فرصة ممتازة لفحص خاطفينا عن كثب. كانوا بلا شك من نفس عِرق زودار، داتور[345] الأبناء الأوائل في برسوم -وهذا لقبه بالكامل- الذي كان خصمي في البداية ثم أصبح صديقي أثناء مغامراتي الغريبة مع الثيرن المقدسين. إن الأبناء الأوائل عِرق وسيم بشكل استثنائي، يتميزون بالنحافة والقوة، ووجوههم ذكية، وملامحهم منحوتة بشكل رائع بحيث قد يحسدهم عليها أدونيس[346] نفسه. أنا من فرجينيا؛ وقد يبدو غريبًا أن أقول ذلك، لكن بشرتهم السوداء، التي تشبه الأبنوس المصقول،

تضيف إلى جمالهم بدرجة كبيرة. وكان عتاد ومعادن خاطفينا يتطابق مع تلك التي يرتديها القراصنة السود الذين تعرفت عليهم عند المنحدرات الذهبية أعلى وادي دور.

بيد أن إعجابي بهؤلاء الناس لم يعمني عن حقيقة أنهم عرق قاس لا يرحم، وأن فترة عمرنا المتوقع لحياتنا قد انخفضت إلى أدنى حد بعد أن ألقوا القبض علينا.

لم تخلف مدينة كامتول وعدها. كانت جميلة عندما رأيناها عن كثب كما كانت عن بُعد. كان سورها الأبيض النقي الخارجي منحوتًا بإتقان، وكذلك واجهات العديد من مبانيها. ارتفعت أبراجها الرشيقة فوق طرقات واسعة، كانت مزدحمة بالناس عندما دخلنا

---

(345) داتور: هو لقب الأمير بين المريخيين السود في وادي دور - http://barsoom.wikia.com/wiki/Dator -المترجمة.

(346) أدونيس هو إله الجمال والرغبة في الأساطير اليونانية – المترجمة.

المدينة. رأينا بين الرجال السود عددًا من الرجال الحُمر يؤدون مهامًا وضيعة. من الواضح أنهم عبيد، ويوحي وجودهم بالمصير الذي ربما ينتظرنا.

لا يمكنني القول إنني كنت أتطلع بأي قدر كبير من الحماس لاحتمال أن يصبح جون كارتر، أمير هيليوم وأمير الحرب في المريخ، عامل نظافة في الشارع أو جامعًا للقمامة. على أن الشيء الوحيد الذي لاحظته بوجه خاص في كامتول هو عدم إمكانية رفع المساكن على أعمدة أسطوانية، كما هو الحال في معظم المدن المريخ الحديثة، التي أصبح فيها الاغتيال أحد الفنون وازدهرت روابط القتلة علنًا بحيث يختال أعضاؤها في الشوارع مثلما فعل رجال العصابات ذات مرة في شيكاغو.

أخذونا تحت حراسة مشددة إلى مبنى كبير، وهناك انفصلنا. اقتادوني إلى شقة وأجلسوني على كرسي بحيث كان ظهري في اتجاه جهاز غريب المظهر، سطحه مُغطًّى بأقراص لا تُعد ولا تُحصى. امتد من أجزاء مختلفه من الجهاز عدد من الكابلات المعزولة بشدة. وثبتوا مشابك معدنية في نهايات هذه الكابلات حول معصمي، والكاحلين، ورقبتي، مع تثبيت المشبك الأخير على نحو يضغط على أسفل جمجمتي؛ ثم قاموا بتثبيت شيء مثل سترة ضيقة بإحكام حولي، وشعرت بأن عددًا هائلاً من الإبر يلمس عمودي الفقري بأكمله تقريبًا. تصورت أنهم سوف يصعقونني بالكهرباء، لكنهم يتكبدون كل هذا العناء غير الضروري لتدميري. إن طعنة بسيطة بالسيف كافية لإنجاز الأمر بسرعة أكبر بكثير.

جاء ضابط، بدا واضحًا أنه المسؤول عن تلك الإجراءات، ووقف أمامي. قال: «أنت على وشك أن تبدأ الاختبار. عليك أن تجيب عن جميع الأسئلة بصدق»، ثم أشار إلى مساعده الذي ضغط على مفتاح تشغيل الجهاز.

لن يصعقونني بالكهرباء إذَنْ، وإنما سيختبرونني. لم أستطع أن أتخيل طبيعة الاختبار. شعرت بوخز خفيف في جسدي بأكمله، ثم بدأوا في إلقاء الأسئلة.

كان هناك ستة رجال. يستجوبونني كل منهم منفردًا أحيانًا، بينما في أحيان أخرى يستجوبونني معًا. وعندئذ لم أتمكن بالطبع من الإجابة بذكاء، نظرًا لعدم سماعي الأسئلة بالكامل. وكانو يتحدثون معي بهدوء في بعض الأحيان، ثم يصيحون في وجهي بغضب؛ وكثيراً ما ينهالون عليَّ بالشتائم. سمحوا لي بالراحة لبضع لحظات، ثم دخل عبد إلى الشقة حاملاً صينية طعام مغرية جدًّا، وقدمها لي. وعندما كنت على وشك أن آخذها، أبعدوها عني وضحك المعذبون في وجهي. وخزوني بأدوات حادة إلى أن تدفق الدم، ثم مسحوا الجروح بمادة كاوية حارقة، وبعد ذلك وضعوا عليها مرهمًا يخفف الألم على

الفور. استرحت مرة أخرى، وقدموا لي الطعام ثانية. لم أتحرك لأخذه، فأصروا أن آخذه؛ ولدهشتي، سمحوا لي أن آكل.

لقد توصلت الآن إلى استنتاج مفاده أن مَن قبضوا علينا ينتمون إلى عِرق من المجانين الساديين، وما حدث بعد ذلك أكد لي أنني على حق. ترك المعذِّبونَ جميعًا الشقة. جلست لعدة دقائق أتساءل عن الإجراء

بأكمله، ولماذا لا يستطيعون تعذيبي دون ربطي بهذا الجهاز العجيب. كنت أجلس في مواجهة باب في الجدار المقابل، وفجأةً انفتح الباب وقفز بانث ضخم إلى الغرفة وهو يزأر ببشاعة.

تصورت أن هذه هي النهاية؛ إذ اندفع الحيوان الضخم آكل اللحم نحوي. وكما دخل الغرفة فجأة، توقف أمامي على بُعد بضع أقدام مني، ثم أُلقي على الأرض فورًا عند قدمي. وعندئذ رأيت أنه كان مربوطًا بسلسلة قصيرة لا تسمح له بالوصول إليَّ. كنت أشعر بكل أحاسيس الموت الوشيك - وهو شكل دقيق من أشكال التعذيب. ومع ذلك، وإذا كان هذا هو غرضهم، فقد فشلوا، لأنني لا أخاف الموت.

سحبوا البانث إلى خارج الشقة باستخدام السلسلة، وأغلقوا الباب؛ ثم دخلت مجموعة المحققين وهم يبتسمون في وجهي بلطف شديد.

قال الضابط المسؤول: «هذا هو كل شيء؛ انتهى الاختبار».

* * *

الفصل (5)

أخذني حارس، بعد إزالة المُعدات عني، واقتادني إلى الحُفر. كانت تشبه الحُفر الموجودة في كل مدينة من مدن المريخ، سواء قديمة أو حديثة. تُستخدم هذه المتاهة من الممرات والغُرف لأغراض التخزين ولحبس السجناء، وكانت الأولسيو المثيرة للاشمئزاز هي سكانها الآخرون.

قيدوني بالسلاسل إلى جدار زنزانة كبيرة، حيث يوجد سجين آخر، مريخي أحمر؛ ولم يمضِ وقت طويل حتى أحضروا لانا الجاثولية وبان دان تشي، وقيدوهما بسلاسل بالقرب مني.

قلت: «أرى أنكما اجتزتما الاختبار».

سألت لانا: «ماذا يتوقعون أن يعرفوا من مثل هذا الاختبار؟ كان غبيًّا وسخيفًا».

قال بان دان تشي: «ربما يريدون معرفة مدى إمكانية إخافتنا حتى الموت».

قالت لانا: «أتساءل إلى متى يبقوننا في هذه الحُفر؟».

قال الرجل الأحمر: «أنا هنا منذ سنة. يُخرجونني أحيانًا لأعمل مع العبيد الآخرين الذين ينتمون إلى الجيداك؛ لكني سوف أظل هنا إلى أن يشتريني أي شخص».

سأل بان دان تشي: «يشتريك! ماذا تقصد؟».

أجاب الرجل الأحمر: «جميع السجناء ينتمون إلى الجيداك، لكنَّ نبلاءه أو ضباطه قد يشترون أيًّا منهم إذا أرادوا عبدًا آخر. وأعتقد أنه يحتجزني ويعرض سعرًا مرتفعًا للغاية؛ لأن عددًا من النبلاء نظروا إليّ وقالوا إنهم يرغبون في شرائي».

صمت للحظة ثم قال: «أرجو أن تعذروني على فضولي، لكنَّ اثنين منكم لا يبدون من برسوم على الإطلاق، وأتساءل من أي جزء من العالم أنتما. تبدو المرأة فقط من برسوم؛ لكن بشرتكما أنتما الاثنين بيضاء، وأحدكما شعره أسود والآخر شعره أصفر».

سألته: «لقد سمعت عن أوروفار؟».

أجاب: «بالتأكيد، لكنها انقرضت منذ عصور».

«ومع ذلك، بان دان تشي أورفاري. توجد مستعمرة صغيرة منهم، الذين نجوا ويعيشون في مدينة أورفار المهجورة».

سألني: «وأنت؟ أنت لست أورفاريًّا، بهذا الشعر الأسود».

قلت: «لا، أنا من عالم آخر، من جاسوم[347] ».

صاح: «أووه، أيمكن أن تكون أنت جون كارتر؟».

«نعم، وأنت؟».

«اسمي جاد-هان. أنا من أمهور».

قلت: «أمهور. أعرف فتاة من أمهور. اسمها جاناي».

سألني: «ماذا تعرف عن جاناي؟».

سألته: «هل تعرفها؟».

«كانت شقيقتي؛ لقد ماتت منذ سنوات. بينما كنت خارج البلاد في رحلة طويلة، اتفق جال هاد، أمير أمهور، مع القاتل جانتون جور على قتل والدي لأنه اعترض على جال هاد كخاطب ليد جاناي. وعندما عُدت إلى أمهور، كانت جاناي قد هربت؛ وعرفت بوفاتها في وقت لاحق. وقد كنت مضطرًّا إلى مغادرة المدينة، هربًا من الاغتيال؛ وبعد تجوالي لفترة، ألقى الأبناء الأوائل القبض عليَّ. ولكن أخبرني، ماذا تعرف عن جاناي؟».

أجبت: «أعرف أنها لم تمت. وأنها تزوجت أحد أكثر ضباطي ثقة،

وتعيش آمنة في هيليوم».

غمرت السعادة جاد-هان عندما علم أن شقيقته لا تزال تعيش.

قال: «والآن، إذا استطعت الهروب من هنا والعودة إلى أمهور للانتقام لأبي، سأموت سعيدًا».

قلت له: «لقد تم الانتقام لوالدك؛ فقد مات جال هاد».

قال جاد-هان: «للأسف لم أكن أنا مَن قتله».

قلت: «أنت هنا منذ عام، ومن المؤكد أنك تعرف شيئًا عن عادات الشعب. هل يمكنك أن تخبرنا ما المصير الذي ينتظرنا؟».

---

(347) جاسوم: هو كوكب الأرض بلغة سكان كوكب المريخ - https://barsoom.fandom.com/wiki/Jasoom - المترجمة.

أجاب: «هناك العديد من الاحتمالات. قد يأخذونكم للعمل كعبيد، وفي هذه الحالة ستلقون معاملة سيئة وإنما قد يتركونكم تعيشون لسنوات؛ أو قد يحتفظون بكم للمشاركة في المباريات التي تُقام على ملعب كبير. وهناك سوف تتقاتلون مع الرجال أو الوحوش لتسلية الأبناء الأوائل. ومن ناحية أخرى، قد يقررون إعدامكم على الفور في أي لحظة. يتوقف ذلك كله على النزوات العقلية لدوكسوس، جيداك الأبناء الأوائل، الذي أعتقد أنه مجنون بعض الشيء».

قالت لانا: «إذا كان الاختبار السخيف الذي مررنا به يمثل أي معيار، فهم جميعًا مجانين».

قال لها جاد-هان: «لا تكوني متأكدة من ذلك. إذا أدركتِ الغرض من هذا الاختبار، لفهمتِ أن مَن ابتكره لا يتمتع إلا بعقل سليم. هل رأيت الرجالَ الموتى عندما دخلتِ إلى الواديَ؟».

«نعم، ولكن ما علاقتهم بالاختبار؟».

«لقد مروا بنفس الاختبار؛ وهذا هو سبب موتهم».

قلت: «أنا لا أفهم. اشرح لنا من فضلك».

«لقد سجلت الماكينات التي ربطوك بها المئات من ردود أفعالك؛ كما سجلت تلقائيًّا مؤشرك العصبي الفردي، وهو يختلف عن المؤشر العصبي لأي مخلوق آخر في العالم».

«الماكينة الرئيسة، التي لم ولن تراها أبدًا، تولّد اهتزازات موجة قصيرة يمكن ضبطها تمامًا على مؤشرك العصبي الفردي. وعندئذ تُصاب بالشلل نتيجة لسكتة دماغية حادة، وتموت على الفور تقريبًا».

سأله بان دان تشي: «ولكن، لماذا يقومون بذلك كله لمجرد تدمير عدد قليل من العبيد؟».

أوضح جاد-هان: «ليس هذا هو السبب الوحيد. ربما كان أحد الأغراض الأولية لمنع السجناء من الهرب ونشر الأخبار عن وجود هذا الوادي الجميل على كوكب يحتضر. يمكنك أن تتخيل أن جميع البلدان تقريبًا سوف ترغب في امتلاكه. وهناك غرض آخر؛ فهو يحافظ على مكانة دوكسوس العليا. فقد سجل لكل شخص بالغ في الوادي مؤشره العصبي، وبالتالي يقع الجميع تحت رحمة الجيداك. يمكنه إبادتك دون

أن تغادر الوادي. قد يكون أحد خصوم الجيداك جالسًا في منزله ذات يوم، ويعثر عليه هذا الشيء ويدمره. ودوكسوس هو الشخص البالغ الوحيد في كامتول الذي لم يُسجّل مؤشره العصبي. كما أنه هو ورجل آخر فقط، اسمه مير-لو، مَن يعرفون تحديدًا أين يقع الجهاز الرئيس، أو كيفية تشغيله. ويُقال إنه جهاز حساس للغاية ويمكن أن يتلف في لحظة بشكل يتعذر إصلاحه - كما لا يمكن استبداله أبدًا».

سألت لانا: «لماذا لا يمكن استبداله؟».

أجاب جاد-هان: «لأن مَن اخترعه قد مات. ويُقال إنه كان يكره دوكسوس بسبب الغرض الذي استخدم فيه الجيداك اختراعه، وإن دوكسوس اغتاله خوفًا منه. أما مير-لو، الذي خلفه، فلا يتمتع بالعبقرية لتصميم جهاز مماثل آخر».

* * *

الفصل (6)

في تلك الليلة، وبعد أن نامت لانا، تحدثت مع جاد-هان وبان دان تشي همسًا حتى لا نزعجها.

قال جاد-هان وهو ينظر إلى الفتاة النائمة: «يا له من وضع سيئ للغاية؛ من المؤسف أنها جميلة جدًّا».

سأله بان دان تشي: «ماذا تقصد؟».

«لقد سألتوني بعد ظهر هذا اليوم عن مصيركم المحتمل؛ وأخبرتكم بالاحتمالات، لكنني تحدثت عن الاحتمالات بالنسبة لكما كرجلين. أما بالنسبة للفتاة...». نظر في حسرة نحو لانا وهز رأسه. لم يتطلب الأمر أن يقول أكثر من ذلك.

وفي اليوم التالي، جاء عدد من الأبناء الأوائل إلى زنزانتنا لفحصنا، كما يفحص المرء ماشية يريد شراءها. وكان من بينهم أحد ضباط الجيداك، الذين يتولون مسؤولية بيع السجناء كعبيد بأعلى سعر ممكن.

أُعجب أحد النبلاء على الفور بلانا وقدم عرضًا لشرائها. تناقشوا لفترة حول المبلغ، لكنه حصلَ عليها في النهاية.

أصابنا، أنا وبان دان تشي، حزن شديد لأخذهم لانا، فقد كنا نعرف أننا لن نراها مرة أخرى. هذا على الرغم من أن والدها هو جِد جاثول، وتتدفق في عروقها دماء هيليوم، وتعرف نساء هيليوم كيف يتصرفن عندما يواجِهن مصيراً قاسيًا كذلك المصير الذي نعرف أن لانا الجاثولية ستواجهه.

صاح بان دان تشي: «أووه! أن تكون مقيدًا بالسلاسل إلى جدار ومن دون سيف، عندما يحدث شيء من هذا القبيل».

قلت: «أعرف ماذا تشعر؛ لكننا لم نمت بعد، بان دان تشي؛ وسوف تأتي فرصتنا».

قال: «وإذا أتت، سنجعلهم يدفعون ثمن فِعلتهم».

تنافس نبيلان على شرائي، وأخيراً فاز داتور اسمه زازاك. أزالوا أغلالي، وحذرني مندوب الجيداك أن أكون عبدًا جيدًا ومطيعًا.

كان مع زازاك اثنين من المحاربين، وسارا على جانبيَّ ونحن نغادر الحُفر. كنت هدفًا لفضول كبير ونحن في طريقنا إلى قصر زازاك، الذي يقع بالقرب من قصر الجيداك. تثير دائمًا بشرتي البيضاء وعينايَ الرماديتان الكثير من التعليقات في المدن التي لا تعرفني. تتخذ بشرتي بالطبع لونًا برونزيًّا نتيجة التعرض للشمس، لكنها لا تكتسي حتى باللون الأحمر النحاسي مثل رجال برسوم الحُمر.

سألني زازاك قبل أخذي إلى مساكن العبيد في القصر: «ما اسمك؟».

أجبت: «دوتار سوجات». وهذا هو الاسم الذي أطلقه عليَّ المريخيون الخُضر الذين أمسكوا بي عندما جئت لأول مرة إلى المريخ؛ وهو اسم مركب من اسمي أول اثنين قتلتهما من المريخيين الخُضر في المبارزات؛ وهو في طبيعته لقب مُشرّف. لا يُعتبر أي رجل باسم واحد، أوو-ماد، من مكانة عالية. وكنت سعيدًا دائمًا أن الأمر يقتصر على اسمين؛ فلو كان من المفترض أن أحمل اسم كل محارب مريخي أخضر قتلته في مبارزة، لكنت احتجت ساعة لنطقهم جميعًا.

سألني زازاك: «هل قلت داتور؟ لا تقل لي إنك أمير!».

أجبت: «قلت دوتار». لم أذكر اسمي الحقيقي؛ فقد كان لديَّ سبب للاعتقاد بأنه معروف جيدًا للأبناء الأوائل، الذين لديهم سبب وجيه ليكرهوني على ما فعلته بهم في وادي دور.

سألني: «من أين أنت؟».

قلت: «ليس لديَّ بلد، أنا بانتان».

ونظرًا لأن هؤلاء الجنود المرتزقة ليس لديهم مكان ثابت، بل يتجولون من مدينة إلى أخرى ويقدمون خدماتهم وسيوفهم لمَن يوظفهم، فهم الرجال الوحيدون الذين يستطيعون التوجه بحصانة إلى أي مدينة في

المريخ تقريبًا.

قال: «أووه، بانتان. أفترض أنك تستخدم السيف جيدًا».

أجبت: «لقد واجهت أسوأ المواقف».

قال: «إذا كنت أعتقد أنك جيد، لأدخلتك إلى المباريات الصغرى؛ لكنك كلفتني الكثير من المال، ولا أود أن أغامر بقتلك».

قلت: «لا أعتقد أنك بحاجة إلى القلق».

قال: «أنت واثق من نفسك تمامًا. حسنًا، دعنا نرى ما يمكنك القيام به». أصدر أمره إلى المحاربين: «خذوه إلى الحديقة». تبعنا زازاك إلى رقعة رملية مفتوحة.

قال لأحد المحاربين: «أعطه سيفك»، ثم قال للثاني: «اشتبك معه، يا بتانج، ولكن لا تقتله»؛ ثم التفت نحوي: «ليست مبارزة للموت، أيها العبد، وأنت تفهم ذلك. أود فقط أن أرى مدى مهارتك. يمكن لأي منكما أن يصيب الآخر بجرح، ولكن دون قتل».

كان بتانج، مثل جميع قراصنة برسوم السود الآخرين الذين التقيت بهم، مبارزًا ممتازًا – كان هادئًا، وسريعًا، ومميتًا. اقترب مني وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة ومتغطرسة.

وقال موجهًا كلامه إلى زازاك: «ليس من الإنصاف، يا أميري، أن تضعه ضد أحد أفضل المبارزين في كامتول».

أجاب زازاك: «هذه هي الطريقة الوحيدة التي تُمكنني من تحديد ما إذا كان ماهرًا على الإطلاق، أو لم يكن. إذا تحملك، فهذا يعني أن مهارته تتيح له الدخول إلى المباريات الصغرى. ربما قد يفوز حتى بما دفعته فيه».

قال بتانج: «سنرى». وبدأنا الاشتباك بسيوفنا.

وخزته في كتفه، قبل أن يدرك ما يحدث. بدت عليه الدهشة، وغادرت الابتسامة شفتيه.

قال: «هذا حادث، ولن يتكرر ثانية»؛ وعندئذ وخزت كتفه الآخر. ارتكب الآن خطأً فادحًا؛ فقد استشاط غضبًا. ففي حين قد يؤدي الغضب إلى تعزيز هجوم الرجل، فقد يضعف أيضًا دفاعه. لقد رأيت ذلك يحدث ألف مرة؛ وعندما أريد التخلص من خصم بسرعة، أحاول دائمًا إغضابه.

قال زازاك: «هيا، هيا، بتانج! ألا يمكنك تقديم عرض أفضل من ذلك ضد هذا العبد؟».

وهنا اندفع بتانج نحوي وعيناه بلون الدم، ولم أرَ أي شيء سوى الرغبة في القتل – اندفع بتانج ليقتلني.

صاح زازاك: «بتانج! لا تقتله».

عندئذ ضحكت، وأدميت بتانج بإصابة في صدره. وسألت ساخرًا: «ألا يوجد لديكم مبارز حقيقي في كامتول؟».

كان زازاك ومحاربه الآخر في حالة هدوء شديدة. كنت أقتنص أحيانًا لمحات نحو وجهيهما، وقد بدت كئيبة بعض الشيء. كان بتانج غاضبًا، واندفع نحوي الآن مثل الثور الهائج، ووجه لي ضربة كان يمكن أن تقطع رأسي لو أصابتني. على أنها لم تصبني؛ وطعنت عضلات ذراعه الأيسر.

سألت زازاك: «أليس من الأفضل أن نتوقف، قبل أن يظل رجلك ينزف حتى الموت؟».

زازاك لم يرد؛ لكنني بدأت أشعر بالملل من الأمر برمته وأردتُ أن أنهيه؛ ولذلك دفعت بتاج إلى الأمام وضربت سيفه بحيث طار عبر الحديقة.

سألت: «هل هذا يكفي الآن؟».

أومأ زازاك قائلًا: «نعم، هذا يكفي».

كان بتانج أحد أكثر الرجال دهشة وتعاسة رأيته من قبل. وقف يحدق

في وجهي، دون أن يتحرك ليسترد سيفه. شعرت بالأسف الشديد له.

قلت له: «ليس هناك ما تخجل منه، يا بتانج. أنت مبارز رائع، لكنني فعلت معك ما يمكنني أن أفعله مع أي رجل في كامتول».

قال: «أعتقد ذلك. قد تكون عبدًا، لكنني فخور بمبارزتي معك. لم يرَ العالم أبدًا مبارزًا أفضل منك».

قال زازاك: «وأنا مقتنع بذلك، ويمكنني أن أرى أنك ستفوز لي بمال كثير، يا دوتار سوجات».

* * *

الفصل (7)

عاملني زازاك مثلما يعمل مالك ثري على كوكب الأرض حصانه المحتمل أن يفوز في سباق ديربي للأحصنة. أسكنني في ثكنات حرسه الشخصي، حيث عوملت على قدم المساواة. وكلّف بتانج بمتابعة حصولي على القدر المناسب من التمرين والمبارزة؛ وأظن أنه أراد التأكد أيضًا من عدم محاولتي الهرب. كان مصدر قلقي الوحيد هو مصير لانا الجاثولية وبان دان تشي، حيث لم أكن أعرف أي شيء على الإطلاق عن مكان وجود أي منهما أو حالته.

تطور نوع ما من الصداقة بيني وبين بتانج. كان مُعجبًا بأسلوبي في المبارزة، واعتاد أن يتباهى بها أمام المحاربين الآخرين. كانوا يميلون في البداية إلى انتقاده والسخرية منه لأن عبدًا تفوق عليه؛ ولذلك اقترحت عليه أن يعرض على منتقديه مبارزتي لمعرفة مَن منهم يمكنه أن يؤدي أفضل منه.

قال: «لا أستطيع أن أفعل ذلك دون إذنٍ من زازاك؛ وإلا إذا حدث لك أي شيء، سيحملني المسؤولية».

قلت له: «لا شيء سيحدث لي؛ وأنت تعرف ذلك أكثر من أي شخص».

ابتسم قليلاً بحزن، وقال: «أنت على حق، ومع ذلك يجب أن أسال زازاك»؛ وقد سأل الداتور بالفعل عندما رآه.

ومن أجل الفوز بصداقة أكبر مع بتانج، قمت بتعليمه بعض النقاط الدقيقة في فن المبارزة الذي تعلمته في عالمين، وفي ألف مبارزة ومعركة. لكنني لم أعلمه، بأي حال من الأحوال، كل حيلي، كما لا يمكنني أن أنقل له القوة وخفة الحركة التي تمنحني إياها على المريخ عضلاتي كرجل من كوكب الأرض.

كان زازاك يشاهدنا في أثناء تمارين المبارزة، عندما سأله بتانج إن كان يسمح أن أبارز بعض منتقديه. هز زازاك رأسه وقال: «أخشى أن يُصاب دوتار سوجات».

قلت له: «إنني أضمن عدم إصابتي».

قال: «حسنًا؛ وأخشى أن تقتل بعض المحاربين».

«أعدك أنني لن أفعل. سوف أوضح لهم ببساطة أنهم لا يستطيعون هزيمتي، مثلهم مثل بتانج».

قال زازاك: «قد تكون رياضة جيدة. مَن هم الذين انتقدوك، يا بتانج؟».

ذكر له بتانج أسماء خمسة من المحاربين، كانت سخريتهم وانتقاداتهم لاذعة بوجه خاص. أرسل زازاك في طلبهم على الفور.

قال زازاك، عندما جاءوا: «فهمت أنكم أدنتم بتانج لأن هذا العبد تفوق عليه في مبارزة. هل يعتقد أي منكم أنه يستطيع أن يبارزه أفضل من بتانج؟ إذا كان الأمر كذلك، هذه فرصتكم».

أكدوا له جميعًا، في صوت واحد تقريبًا، أنهم يستطيعون المبارزة أفضل بكثير.

قال: «سنرى. ولكن، عليكم أن تفهموا جميعًا أن القتل غير مسموح به، وأن المبارزة ستتوقف عندما أقرر ذلك. هذا أمر».

أكدوا له أنهم لن يقتلوني، ثم تقدم أولهم متبخترًا لمواجهتي. وخزت كلًّا منهم، واحدًا تلو الآخر في تعاقب سريع، في كتفه اليُمنى ونزعت سلاحه.

ولا بد لي من القول إنهم أخذوا الأمر بأسلوب غاية في الاحترام؛ جميعهم ما عدا واحد فقط اسمه بان-تور، وكان أكثرهم عنفًا في نقده لبتانج.

قال متذمرًا: «لقد خدعني. اسمح لي بمواجهته مرة أخرى، يا داتور، وسوف أقتله». كان غاضبًا جدًّا، بحيث ارتعد صوته.

قال زازاك: «لا، لقد جرحك ونزع سلاحك، وأثبت أنه أفضل مبارز. وإذا كان ذلك بسبب خدعة، فهي من خدع فن المبارزة الذي يجب أن تتقنه جيدًا قبل أن تحاول قتل دوتار سوجات».

كان الزميل لا يزال مقطبًا ومتذمرًا وهو يبتعد مع الأربعة الآخرين. وقد أدركت أنه بينما كان جميع هؤلاء الأبناء الأوائل أعدائي شكليًّا، فإن هذا الزميل، بان-تور، كان عدوًّا فعليًّا. بيد أنني لم أعطِ هذه المسألة اهتمامًا كبيرًا؛ لأن قيمتي كانت عالية جدًّا عند زازاك بحيث يصعب أن يخَاطر أي شخص بإثارة غضبه من خلال الإضرار بي؛ كما لم أرَ أي وسيلة يمكن لهذا الزميل استخدامها لأذيتي.

وبعد أن غادر الجميع، قال بتانج: «يكرهني بان-تور دائمًا. يكرهني لأنني أتفوق عليه دائمًا في المبارزة وبطولات القوة؛ وبالإضافة إلى ذلك، فهو مثير للمتاعب من حيث طبيعته. وإذا لم يكن من أقرباء زوجة زازاك، لكان الداتور قد أبعده».

ونظرًا لأنني كنت قد قارنت نفسي بالحصان المحتمل فوزه في سباق ديربي، يمكنني أيضًا بالتماثل أن أصف مبارياتهم الصغرى بمباريات السباق الصغرى. يعقدون مبارياتهم مرة واحدة كل أسبوع في ملعب داخل المدينة، حيث يقدم النبلاء الأثرياء محاربيهم أو عبيدهم لمواجهة محاربي وعبيد نبلاء آخرين في مباريات تضم بطولات القوة، والملاكمة، والمصارعة، والمبارزة. كما يراهنون بمبالغ مالية كبيرة، وتصل الإثارة إلى أقصاها. والمبارزات ليست دائمًا حتى الموت، حيث يقرر النبلاء بدقة مسبقًا على ماذا يراهنون. وهم يضعون رهاناتهم عادة على أول إصابة بجرح أو على نزع سلاح الخصم؛ وإنما توجد دائمًا مبارزة واحدة على الأقل حتى الموت، وهي التي يمكن مقارنتها بسباق أو بطولة ملاكمة.

يبلغ عدد سكان كامتول حوالي 200 ألف نسمة، من بينهم ما يقرب من 5000 عبد. ونظرًا لأن الحرية المسموحة لي كانت كبيرة، كنت أتجول في جميع أنحاء المدينة، ويرافقني بتانج دائمًا. أثار انتباهي ندرة وجود الأطفال، وسألت بتانج عن السبب.

أجاب: «يمكن لوادي الأبناء الأوائل أن يدعم على نحو مريح 200 ألف ساكن فقط، ولذلك لا يُسمح إلا بعدد من الأطفال يُعوض عن الخسائر الناجمة عن الوفاة. وربما تكون خمنت، برؤيتك لشعبنا، أنه يجري تدمير العجائز وكذا غير الأكفاء؛ فلدينا حوالي 65 ألف رجل مقاتل، وحوالي ضعف هذا العدد من النساء والأطفال الأصحاء. وهنا يوجد فصيلان، يذهب أحدهما إلى ضرورة خفض عدد النساء إلى حد كبير، بحيث يمكن زيادة عدد الرجال المقاتلين، في حين يصر الفصيل الآخر على أننا لسنا مُهددين من جانب أي أعداء أقوياء، وبالتالي يكفينا 65 ألف رجل مقاتل».

«والغريب أن معظم النساء ينتمين إلى الفصيل الأول، على الرغم من أن هذا الفصيل، الذي يرى ضرورة خفض عدد الإناث، سيفعل ذلك عن طريق السماح بوضع عدد أكبر بكثير من البيض في الحاضنات، وقتل جميع الإناث اللواتي خرجن من البيض وعدد من النساء البالغات يماثل عدد الذكور الذين خرجوا من البيض. وربما يرجع ذلك إلى أن كل امرأة تعتقد أن هناك رغبة شديدة في تدميرها، وأن هذا المصير سيقع على امرأة أخرى. ويرى دوكسوس الإبقاء على الوضع الراهن؛ وإنما قد يرى أي جيداك في المستقبل الأمر بشكل مختلف؛ وحتى دوكسوس قد يغير رأية لأنه، وأقولها لك بشكل سري، كثير التذبذب».

سرعان ما ذاعت شهرتي كمبارز بين الـ65 ألف مقاتل في كامتول، وانقسمت الآراء بشكل غير متساوٍ حول قدرتي. ربما شهدت دزينة من رجال كامتول مبارزتي، وكانوا على استعداد لدعمي ضد أي شخص؛ على أن بقية الـ65 ألف رجلٍ شعروا أن بإمكانهم التفوق عليَّ في قتال فردي؛ لأنه سباق بين مقاتلين، يفتخر كل منهم بمهارته وبسالته.

وفي أحد الأيام، كنت أمارس بعض التمارين التدريبية في الحديقة مع بتانج، عندما جاء زازاك ومعه داتور آخر قال إن اسمه ناستور. أطلق بتانج صفيراً عندما رآهما قادمين، وقال بصوت منخفض: «أنا لم أرَ ناستور هنا من قبل. لا يحتاج زازاك إليه، كما أن ناستور يكره زازاك»؛

ثم صاح: «انتظر! لديَّ فكرة عن سبب وجوده هنا. إذا طلبا منا إجراء مبارزة، دعني أطيح بسلاحك وسوف أقول السبب لاحقًا».

قلت: «حسنًا، وآمل أن يحقق ذلك الخير لك».

قال: «ليس لي، وإنما للداتور زازاك».

عندما اقترب الاثنان منا، سمعت ناستور يقول: «هذا إذَنْ هو مبارزك العظيم! أود المراهنة على أن لديَّ رجال يمكنهم التفوق عليه في أي يوم».

قال زازاك: «لديك رجال ممتازون؛ ومع ذلك، أعتقد أن رجُلي يقدم نفسه جيدًا. ما قدر الرهان الذي تود عرضه؟».

قال ناستور: «لقد رأيت قتال رجالي، لكني لم أرَ هذا الزميل من قبل وهو يقاتل. أريد أن أراه في الممارسة الفعلية، وبعدها يمكنني تحديد الاحتمالات».

قال زازاك: «جيد جدًّا، هذا عدل»، ثم التفت إلينا: «يا دوتار سوجات، سوف تقدم عرضًا في فن المبارزة أمام داتور ناستور؛ وإنما ليست مبارزة حتى الموت.. أتفهم؟».

امتشقنا، أنا وبتانج، سيوفنا وتواجهنا. قال: «لا تنسَ ما طلبته منك»؛ ثم اشتبكنا.

لم أتذكر فقط ما طلبه مني، وإنما أدركت الآن أيضًا لماذا طلبه؛ وبالتالي قدمت عرضًا عاديًّا تمامًا لفن المبارزة، عرضًا جيدًا بما يكفي إلى أن أسمح لبتانج أن يطيح بسلاحي.

قال ناستور: «إنه مبارز ممتاز»، وكان يعرف أنه يكذب، لكن لا يعرف أننا نعرف ذلك، ثم أضاف: «لكنني سأراهن بالمال أن بإمكان رجُلي قتله».

سأله زازاك: «هل تعني مبارزة حتى الموت؟ عندئذ سوف أطالب بنسبة؛ فأنا لا أرغب أن يقاتل رجلي حتى الموت في أول قتال له».

قال ناستور: «سوف أعطيك اثنين إلى واحد، هل هذه نسبة مُرضية؟».

قال زازاك: «تمامًا. بأي مبلغ ترغب في الرهان؟».

أجاب ناستور: «ألف تانبي مقابل 500 منك». يُعادل التابني دولارًا تقريبًا بعملة الولايات المتحدة.

أجاب زازاك: «أريد أكثر مما يكفي لإطعام سوراك زوجتي».

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السوراك هو حيوان صغير يشبه القط ولديه ست أرجل، وتحتفظ به العديد من نساء مريخ كحيوان أليف؛ ولذا كان ما قاله زازاك يعني إبلاغ ناستور أننا لا نهتم بالقتال من أجل إطعام الدجاج. رأيت أن زازاك يحاول إغضاب ناستور كي يراهن بتهور، وعرفت عندئذ أنه لا بد أنَّهُ خمّن أن بتانج اتفق معي على هذا العرض عندما تركت بتانج يطيح بسلاحي بسهولة.

كان ناستور يتذمر بغضب، وقال: «أنا لا أريد سرقتك، وإنما إذا كنت ترغب في التخلص من أموالك، يمكنك تحديد مبلغ الرهان».

قال زازاك: «إنني أراهنك، لمجرد الإثارة، بمبلغ 50 ألف تانبي في مقابل 100 ألف منك».

أذهل هذا العرض ناستور للحظة؛ لكنه لا بد فكّر في سهولة إطاحة بتانج بسلاحي، لأنه ابتلع الطُّعم في النهاية. قال: «موافق! وأنا آسف لك ولرجُلك»، ثم استدار بتهذيب مصطنع وغادر دون كلمة أخرى.

نظر نحوه زازاك ونصف ابتسامة على شفتيه؛ ثم التفت إلينا بعد أن تحقق من مغادرته. قال: «آمل أنكم كنتم تلعبون مجرد لعبة صغيرة؛ وإلا سوف أفقد 50 ألف تانبي».

قال بتانج: «لا تقلق، يا أميري».

أجاب الداتور: «لن أقلق إلا إذا إذا كان دوتار سوجات قلقًا».

أجبت: «هناك مقامرة دائمًا في مشروع مثل هذا؛ لكنني أعتقد أنك حصلت على أفضل ما في الصفقة، وإلا كنت ستحصل على مجرد النسبة».

قال الداتور زازاك: «ثقتك على الأقل أكبر من ثقتي».

* * *

الفصل (8)

أخبرني بتانج أنه لم يشهد من قبل مثل هذا الاهتمام بمبارزة حتى الموت مثلما شهده بعد الإعلان عن الرهان بين زازاك وناستور. قال: «لن يُمثل ناستور محاربًا عاديًّا. فقد تمكن من إقناع داتور أن يقاتل من أجله، وهذا الداتور يُعتبر أفضل مبارز في كامتول، واسمه نولات. لم يسبق لي من قبل أن سمعت عن أمير يقاتل عبدًا؛ لكنهم يقولون إن نولات يدين لناستور بقدر كبير من المال، وإن ناستور سيلغي الدين إذا فاز نولات، ونولات على يقين أنه سيفوز – إلى حد أنه رهن قصره لجمع المال للمراهنة على نفسه».

قلت: «على أي حال، ليس من الغباء أن يفعل ذلك؛ لأنه إذا خسر، لن يحتاج إلى قصره».

ضحك بتانج، وقال: «آمل ألا يحتاج إليه. ولكن لا تكن مفرطًا في ثقتك، لأنه يُعتبر أفضل مبارز بين الأبناء الأوائل؛ ومن المفترض ألا يوجد في برسوم كلها مبارز أفضل منه».

زادت عصبية زازاك وبتانج قبل يوم المحدد لمبارزتي مع نولات؛ كما كان حال جميع محاربي زازاك، الذين بدا أنهم يشعرون باهتمام شخصي تجاهي -باستثناء بان-تور، الذي أثرت عداوته بإطاحة سلاحه.

وضع بان-تور عددًا من الرهانات ضدي؛ وظل يتفاخر بهذا الأمر، مُصرًّا على أنني لست على مستوى نولات ولا بد أنني سأُقتل سريعًا.

نمت في غرفة صغيرة على فراء قديم متهالك، غرفة تليق بعبد. وكانت غرفتي متصلة بالغرفة التي شغلها بتانج؛ وبها باب واحد فقط، يفتح على غرفة بتانج. كانت في الطابق الثاني من القصر، وتطل على طرف الحديقة.

أيقظتني ضوضاء في غرفتي، في الليلة التي تسبق المبارزة. وعندما فتحت عيني، رأيت رجلاً يقفز خارجًا من النافذة وبيده سيف. ونظرًا لأن قمرَي المريخ ليسا في السماء، لم يكن الضوء كافيًا لأتأكد من إمكانية التعرف عليه؛ وإنما كان مألوفًا جدًّا.

أخبرت بتانج، في صباح اليوم التالي، عن زائري الليلي. ولم يتمكن كلانا من تصور سبب دخول شخص إلى غرفتي متخفيًا، فليس لديَّ أي شيء يمكن سرقته.

قال بتانج: «ربما كان قاتلاً يريد وقف القتال».

قلت: «أشك في ذلك؛ فقد كانت لديه فرص كثيرة لقتلي، وأنا لم أستيقظ إلا عندما كان يقفز من النافذة إلى الخارج».

سألني بتانج: «هل نقص أي شيء لديك؟»·

أجبت: «ليس لديَّ أي شيء يمكن أن ينقص. ليس لديَّ سوى عتادي وأسلحتي، وأنا أرتديها الآن».

وفي النهاية طرح بتانج اعتقاده أن الرجل ربما تصور وجود امرأة أَمة تنام في الغرفة؛ ورحل عندما اكتشف خطأه. وبهذا التصور أسقطنا هذه المسألة من ذهننا.

ذهبنا إلى الملعب في حوالي الزود الرابع، وذهبنا على نحو أنيق -كان في الواقع موكبًا عاديًّا: زازاك وزوجته، وإماؤها، وضباط زازاك ومحاربوه. امتطينا جميعًا حيوانات الثوات ذات الأغطية المزركشة، ترفرف فوقنا الرايات مثلثة الشكل، وأمامنا عازفي الأبواق. كان ناستور هناك وبصحبته نفس النوع من الأتباع والحاشية. تجولنا جميعًا حول الحلبة تصاحبنا صيحات التحية «كاور!»[348] - كانت صيحات كاور يصحبها تصفيق، وكان الهدير بمثابة صيحات استهجان. تلقيت من الهدير ما يزيد كثيراً على الكاور؛ لأنني قبل كل شيء عبد يواجه أميراً، رجل من دمهم.

بدأت بعض مباريات المصارعة والملاكمة، بالإضافة إلى عدد من المبارزات تنتهي عند سقوط أول نقطة من الدم، لكن الناس كانوا ينتظرون المبارزة حتى الموت. يتشابه الناس كثيراً في كل مكان. يذهبون في كوكب الأرض إلى مباريات الملاكمة أملاً في رؤية الدماء والضربة القاضية؛ ويذهبون إلى مباريات المصارعة على أمل رؤية شخص يُطرد خارج الحلبة مُعاقًا؛ ويأملون عند ذهابهم إلى سباقات السيارات في رؤية شخص يُقتل. وهم لا يعترفون بهذه الأشياء، لكن هذه المسابقات الرياضية لن تجذب الناس دون عنصر الخطر، بل وخطر الموت.

حانت اللحظة أخيراً لأدخل إلى الحلبة. ودخلت أمام جمهور شديد التميُّز. كان هناك دوكسوس، جيداك الأبناء الأوائل، ومعه الجيدارة[349] . وازدحمت المقصورات

---

(348) كاور: كلمة التحية بلغة أهل المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Martian_Language - المترجمة.

(349) جيدارة: الملكة أو الإمبراطور - وهو الاسم المريخي المؤنث لجيداك (الملك أو الإمبراطور - (
- https://barsoom.fandom.com/wiki/Jeddakالمترجمة.

بنبلاء كامتول. كان مشهدًا رائعًا؛ حيث تألق عتاد الرجال والنساء بالمعادن والمجوهرات الثمينة، ورفرفت الرايات والأعلام من كل موقع.

اصطحبوا نولات إلى مقصورة الجيداك لتقديمه له وتحيته؛ ثم إلى مقصورة زازاك، حيث انحنى؛ وفي النهاية إلى مقصورة ناستور، الذي كان نولات يقاتل من أجله رجلاً غريبًا حتى الموت.

أما أنا، ولكوني عبدًا، فلم يقدموني إلى الجيداك؛ لكنهم أخذوني إلى ناستور بُغية أن يتعرف عليَّ بوصفي الشخص الذي يراهن على هزيمته. وهذه، بطبيعة الحال، مجرد شكليات؛ لكنها تتفق وقواعد المباريات.

لم أتمكن سوى من إلقاء نظرة سريعة على الحاشية المرافقة لناستور ونحن ندور حول الحلبة لأنهم كانوا خلفنا؛ لكنني استطعت الآن إلقاء نظرة جيدة عليهم، عندما وقفت في الحلبة أمام ناستور، ورأيت لانا الجاثولية تجلس هناك بجانب الداتور. إذَنْ، الآن، سوف أقتل بالفعل رجل ناستور!

لهثت لانا الجاثولية وبدأت تتحدث معي؛ لكني هززت رأسي خشية أن تدعوني بالاسم، وهو ما قد يعادل هنا، عند الأبناء الأوائل، عقوبة الإعدام. كنت مندهشًا من عدم تعرُّف أي من هؤلاء الرجال عليَّ؛ إذ إن بشرتي البيضاء وعينيَّ الرماديتين تجعلني ملفتًا للانتباه، كما لا بد أن يتذكرني مَن كان منهم في وادي دور أثناء وجودي هناك. لكني عرفت لاحقًا لماذا لم يعرفني أحد من قراصنة برسوم السود هؤلاء.

سألني ناستور: «لماذا تفعل ذلك، أيها العبد؟».

سألته: «أفعل ماذا؟».

أجاب: «تهز رأسك».

قلت: «ربما أنا متوتر».

قال بغطرسة: «يجب أن تكون متوترًا أيها العبد؛ لأنك على وشك الموت».

أخذوني بعد ذلك إلى موقع في الحلبة أمام مقصورة الجيداك. كان معي بتانج، كمعاون للمبارز على ما أظن. تركانا نقف هناك بمفردنا لعدة دقائق، يبدو لإثارة أعصابي؛ ثم اقترب نولات، يرافقه تادور نبيل آخر. وجاء رجل خامس؛ ربما يمكن أن نسميه الحَكم، على الرغم من أنه لم يفعل أي شيء غير إعطاء إشارة بدء المبارزة.

كان نولات رجلاً ضخمًا وقويًّا؛ وبنيته مثل بنية مقاتل. كما كان وسيمًا للغاية، لكن تعبيره كان يتسم بالعجرفة والغطرسة. كان بتانج قد أخبرني أننا من المفترض أن نُحيي بعضنا بسيوفنا قبل أن نشتبك؛ فقمت بالتحية ما إن اتخذت موقعي، بينما سخر نولات قائلاً: «تعالَ يا عبد! أنت على وشك أن تموت».

قلت ونحن نشتبك: «لقد أخطأت يا نولات».

سألني وهو يندفع نحوي: «ماذا تقصد؟».

قلت وأنا أتفادى اندفاعه: «كان يجب أن تُحييني بطريقة أفضل. سيصبح الأمر أكثر صعوبة معك الآن - إلا إذا رغبت في التوقف لتوجه

لي التحية كما كان يجب في البداية».

قال هادرًا: «يا لك من كالوت وقح!»، واندفع نحوي بشراسة ليطعنني.

وللرد عليه، جرحته جرحًا بليغًا في خده الأيسر، وقلت ساخرًا: «أخبرتك أنك كان يجب عليك تحيتي».

ثار غضب نولات، واقترب مني بنية واضحة لإنهاء المبارزة على الفور. أحدثت قطعًا على طول خده الآخر، وبعد لحظة قمت بنحت علامة تقاطع دموية على صدره الأيسر؛ وهي مناورة صعبة تتطلب خفة الحركة والمهارة الاستثنائية؛ لأن جانبه الأيمن كان في مواجهتي دائمًا، أو كان يجب أن يكون في مواجهتي دائمًا إذا كان سريعًا بما يكفي لمتابعة حركة أقدامي.

كان الجمهور صامتًا صمت القبور، باستثناء تحيات مجموعة زازاك. وكان نولات ينزف بغزارة، وتباطأت حركته إلى حد كبير.

وفجأة صاح شخص ما: «الموت!»، ثم تعالت أصوات أخرى بالهتاف نفسه. أرادوا القتل؛ ولما كان واضحًا تمامًا عدم قدرة نولات على قتلي، افترضت أنهم يريدون مني أن أقتله. لكنني لم أقتله، وإنما أطحت بسلاحه، بحيث طار سيفه وقطع نصف الحلبة. ركض الحَكَم خلف السيف؛ فقد أعطيته أخيراً شيئًا يقوم به.

نظرت نحو مساعد نولات وقلت بصوت عالٍ يمكن سماعه في أي جزء من الملعب: «إنني أمنح الرجل حياته».

تعالت على الفور صيحات «كاور!» و«الموت!». وكانت صيحات «الموت!» تمثل الأغلبية.

قال له مساعده: «إنه يمنحك حياتك، يا نولات».

قلت: «لكن الرهانات يجب سدادها بالدقة كما لو كنت قتلتك».

قال نولات: «إنها مبارزة حتى الموت، سوف أقاتل».

حسنًا، لقد كان رجلاً شجاعًا، ولذلك لم أرغب في قتله.

عاد إليه سيفه الآن، واشتبكنا ثانية. لم يبتسم نولات هذه المرة ولم يسخر، ولم يتفوه بأي شيء سيئ ضدي. كان جادًّا في قتاله، ويقاتل من أجل حياته مثل جرذ مُحاصَر. كما كان مبارزًا ممتازًا؛ لكنني لا أعتقد أنه أفضل مبارزي الأبناء الأوائل؛ لأني رأيت العديد منهم يقاتلون من قبل، ويمكنني تسمية دزينة منهم يستطيعون قتله ببساطة.

كان بإمكاني أن أقتله في أي وقت أريد، لكنني بشكل ما لم أرغب في ذلك. بدا لي من العار أن أقتل مثل هذا المبارز الجيد والرجل الشجاع؛ ولذلك وخزته عدة مرات، وأطحت بسلاحه ثانية. قمت بذلك ثلاث مرات أخرى؛ وعندما كان الحَكَم يركض ليعيد السيف لنولات مره أخرى، توجهت إلى مقصورة الجيداك وقمت بتحيته.

سألني أحد ضباط حرس الجيداك: «ماذا تفعل هنا، أيها العبد؟».

أجبت: «جئت لأطلب الحياة لنولات. إنه مبارز جيد ورجل شجاع - وأنا لست بقاتل؛ وسيكون اغتيالاً إذا قتلته الآن».

قال دوكسوس: «إنه طلب غريب؛ فالمبارزة حتى الموت، ويجب أن تستمر».

قلت: «أنا غريب هنا، وتقضي القواعد، من حيث جئت، أن المتسابق إذا أمكنه إظهار غش أو خداع، يحق له اتخاذ القرار دون الحاجة إلى إنهاء المسابقة».

سألني دوكسوس: «هل تعني أن هناك غش أو خداع من جانب داتور ناستور أو داتور نولات؟».

«أعني أن أقول إن رجلاً دخل غرفتي الليلة الماضية وأنا نائم، وأخذ سيفي، وترك سيفًا أقصر مكانه في الغمد. وهذا السيف أقصر بعدة بوصات من سيف نولات؛ وقد

لاحظت ذلك عند بداية اشتباكنا. هذا ليس سيفي، ويمكن أن يشهد بذلك زازاك وبتانج إذا فحصاه».

استدعى دوكسوس كل من زازاك وبتانج، وطلب منهم فحص السيف

وتحديده. قال زازاك إنه بإمكانه التعرف على السيف باعتباره من ترسانته، لكنه لا يعرف ما السيف الذي كان ممنوحًا لي، وأن بتانج هو مَن يعرف. وعندئذ التفت دوكسوس إلى بتانج.

سأله: «هل هذا هو السيف الذي تسلمه العبد دوتار سوجات؟».

أجاب بتانج: «لا، ليس هو».

«هل يمكنك أن تتعرف عليه؟».

«نعم».

«لمن هذا السيف؟».

أجاب بتانج: «إنه سيف محارب اسمه بان-تور».

* * *

الفصل (9)

لم يكن هناك شيء أمام دوكسوس سوى اعتباري الفائز؛ كما أمر أيضًا بسداد جميع الرهانات، تمامًا كما لو كنت قتلت نولات. لم يكن ذلك جيدًا بالنسبة إلى ناستور، لا سيما أن دوكسوس جعله يدفع 100 ألف تانبي إضافية إلى زازاك في حضور الجيداك؛ ثم أرسل في طلب بان-تور.

كان دوكسوس غاضبًا؛ ذلك أن الأبناء الأوائل يفتخرون كثيراً بشرفهم كمقاتلين، وما حدث يُعتبر وصمة عار على نُبلهم جميعًا.

سألني: «هل هذا هو الرجل الذي دخل غرفتك الليلة الماضية؟».

«كان الظلام حالكًا، ولم أرَ سوى ظهره؛ كان هناك شيء مألوف في هيئته، لكني لم أتمكن من التعرف عليه تمامًا».

سأل بان-تور: «هل وضعت أي رهانات في هذه المباراة؟».

أجاب الرجل: «رهانات قليلة، يا جيداك».

«على مَن؟».

«على نولات».

التفت دوكسوس إلى أحد ضباطه وقال: «استدعِ جميع الذين راهن معهم بان-تور في هذه المباراة».

أرسلوا عبدًا يطوف بالفناء ويصيح لاستدعاء المطلوب مثولهم أمام الجيداك؛ وسرعان ما تجمع 50 محاربًا أمام مقصورة دوكسوس. بدت التعاسة على وجه بان-تور؛ فمن كل محارب من الخمسين، توصل دوكسوس إلى معلومات مفادها أن بان-تور قد راهن بمبالغ كبيرة مع كل منهم، وأعطى في بعض حالات نسبًا كبيرة جدًّا.

سأله دوكسوس: «كنت تعتقد أنك تراهن على شيء مؤكد، أليس كذلك؟».

أجاب بان-تور: «تصورت أن نولات سوف يفوز؛ فلا يوجد مبارز أفضل منه في كامتول».

«وكنت متأكدًا من أنه سيفوز ضد خصم سيفه أقصر. لقد جلبت العار، وأهنت الأبناء الأوائل. وعقوبتك أنك ستقاتل دوتار سوجات»؛ ثم التفت نحوي قائلاً: «يمكنك أن تقتله؛ وقبل أن تشتبكا، سوف أرى بنفسي أن سيفك بنفس طول سيفه؛ على الرغم من أنه من العدل إجباره على القتال بالسيف الأقصر الذي أعطاه لك».

أجبت: «أنا لن أقتله، لكني سأترك عليه علامة يحملها طوال حياته لتذكير الجميع بأنه مخادع».

عندما بدأنا في اتخاذ أماكننا أمام مقصورة الجيداك، سمعت الرهانات التي تُقدَّم مع نسب عالية مثل فوزي بنسبة مائة إلى واحد، وعرفت لاحقًا تقديم عرض بنسبة ألف إلى واحد ولم يأخذها أي شخص. بدأنا المواجهة، وعندئذ سمعت ناستور يصيح: «لن أراهن، لكني سأعطي بان-تور 50 ألف تانبي إذا قتل العبد». يبدو أن الداتور النبيل كان غاضبًا مني.

لم يكن بان-تور خصمًا ضعيفًا؛ فهو ليس مبارزًا جيدًا فحسب، بل يقاتل أيضًا من أجل حياته والفوز بـ50 ألف تانبي. لم يحاول هذه المرة القيام بأي تكتيكات مندفعة، وإنما قاتل بعناية، وغالبًا في وضع دفاعي انتظارًا لأي خطوة خادعة مني تتيح له فرصة؛ لكني لا أقوم بأي حركات خادعة، بل كان هو مَن قام بخطوة خادعة. فقد وجه لي طعنة، بعد هجوم مخادع، متصورًا أنه سوف يفقدني توازني.

أنا لا أفقد توازني أبدًا. حركت سيفي مرتين بسرعة الضوء، وتركت قطعًا عميقًا على شكل حرف X في وسط جبين بان تور، ثم أطحت بسلاحه.

ودون أن أنظر حتى إليه مرة أخرى، توجهت إلى مقصورة دوكسوس وقلت: «أنا راضٍ. سوف يحمل هذه الندبة طوال حياته، وهذا عقاب كافٍ بالنسبة لي، وأسوأ من الموت».

أومأ دوكسوس موافقًا؛ ثم أمر نافخي الأبواق إعلان انتهاء المباريات، وبعد ذلك التفت نحوي ثانية. «من أي بلد أنت؟».

أجبت: «ليس لديَّ بلد؛ أنا بانتان، وسيفي للبيع لأعلى مُزايد».

قال الجيداك: «سأشتريك، وبالتالي أكتسب سيفك أيضًا. ماذا دفعت نظير هذا العبد يا زازاك؟».

أجاب زازاك: «100 تانبي».

قال دوكسوس: «لقد اشتريته بمبلغ زهيد. سوف أعطيك 50 تانبي».

لا يوجد شيء مثل أن تكون في منصب جيداك!

قال زازاك بكرم: «إنه لمن دواعي سروري أن أهديه لك». لقد فزت له بمائة ألف تانبي، ولا بد أنه أدرك استحالة وضع رهان آخر ضدي.

وقد رحبت بهذا التغيير؛ لأنه سيأخذني إلى قصر الجيداك، ولديَّ خطة تمهد الطريق للهروب في نهاية المطاف، ولا يمكن أن تنجح إلا بدخولي القصر - هذا إن كانت استنتاجاتي صحيحة.

وهكذا دخل جون كارتر، أمير هيليوم وأمير الحرب في برسوم، إلى قصر دوكسوس، جيداك الأبناء الأوائل، كعبد وإنما عبد يتمتع بسمعة ممتازة. عاملني المحاربون في حرس الجيداك بكل الاحترام، وأعطوني غرفة لائقة. وكان أحد الضباط الذين يثق بهم دوكسوس مسؤولاً عني، تمامًا كما كان بتانج في قصر زازاك.

كنت في حيرة لسبب شراء دوكسوس لي. لا بد أنه يعرف عدم إمكانية ترتيب مبارزة لي من أجل المال؛ فمن الأحمق الذي يقدم رجلاً أو رهانًا ضد شخص جعل العديد من أفضل مبارزي كامتول يبدون كمبتدئين؟

بيد أنني اكتشفت السبب في اليوم التالي. أرسل دوكسوس لرؤيتي. كان وحده في غرفة صغيرة عندما أدخلني مرافقي، وصرف فورًا المحارب الذي رافقني.

بدأ حديثه: «رأيت عند دخولك الوادي العديد من الهياكل العظمية، أليس كذلك؟».

أجبت: «نعم».

قال: «مات هؤلاء الرجال وهم يحاولون الهرب. ويستحيل أن تحقق أي نجاح أفضل منهم. وأنا أقول لك هذا لكي لا تقوم بمحاولة هروب. قد تعتقد أنك بقتلي قد تتمكن من الهرب خلال الارتباك الذي سيترتب على موتي؛ لكنك لن تستطيع؛ لا يمكنك الهروب من وادي الأبناء الأوائل. وإنما يمكنك أن تعيش هنا مستريحًا، إذا كنت ترغب في ذلك. كل ما عليك أن تعلمني حيل المبارزة التي تفوقت بها على خيرة مبارزي الأبناء الأوائل. أريدك أن تقوم بذلك، ولكن بسرية تامة دون أن تخرج أي كلمة على الإطلاق من شفتيك، وإلا ستعاني ألم الموت الفوري – وأؤكد لك أنه موت غير سار أبدًا. ماذا تقول؟».

قلت: «يمكنني أن أعدك بأقصى قدر من السرية، لكني لا أستطيع أن أعدك بأنني سأجعلك أعظم مبارز بين الأبناء الأوائل؛ فتحقيق ذلك يعتمد إلى حد ما على قدرتك الأصلية. ومع ذلك، سوف أقوم بتعليمك».

قال: «أنت لا تتحدث مثل بانتان مسكين، بل كرجل اعتاد التحدث مع جيداك، وعلى قدم المساواة».

قلت: «ربما عليك أن تتعلم الكثير حول كيفية أن تكون مبارزًا، ولكني يجب أن أتعلم المزيد حول كيفية أن أكون عبدًا».

استاء من كلامي، ثم نهض وطلب مني أن أتبعه. مررنا خلال باب صغير يقع خلف المكتب الذي كان يجلس عليه، ثم نزلنا أسفل منحدر يؤدي إلى الحُفر تحت القصر. وعند نهاية المنحدر دخلنا غرفة كبيرة جيدة الإضاءة وتضم محافظ ملفات، وأريكة، والعديد من المقاعد الطويلة، وطاولة تتناثر عليها مواد الكتابة وأدوات الرسم.

قال دوكسوس: «هذه شقة سرية. لا يستطيع الوصول إليها سوى شخص واحد فقط غيري، ولن يزعجنا أحد هنا. أما الرجل الآخر الذي

تحدثت عنه، فهو خادمي الأكثر ثقة وقد يأتي هنا في بعض الأحيان، لكنه لن يكشف سرنا الصغير. دعنا نبدأ العمل. بالكاد ما أستطيع الانتظار إلى اليوم الذي سيمكنني فيه مبارزة بعض هؤلاء النبلاء المغرورين، الذين يظنون أنهم مبارزون عظماء بالفعل. ألن يُفاجئهم ذلك؟!».

* * *

الفصل (10)

لم يكن لديَّ أي نية للكشف عن جميع حيلي في المبارزة إلى دوكسوس؛ على الرغم من أن الأمر لا يتعلق بأي خطر عليَّ، فلا يمكنه أبدًا أن يقف معي على قدم المساواة؛ لأنه لا يستطيع على الإطلاق أن يماثل قوتي أو خفة حركتي.

كنت أدربه على الإطاحة بسلاح الخصم، عندما فُتِح باب في مواجهة الباب الذي دخلنا منه، وجاء رجل إلى الغرفة. وفي الفترة الوجيزة الذي ظل خلالها الباب مفتوحًا، رأيت وراءه غرفة ساطعة الإضاءة؛ ولمحت ما يبدو ماكينة معقدة بشكل يثير الدهشة.

كان سطحها مُغطًّى بأقراص، وأزرار، وغيرها من الأدوات - ذكرتني بالجهاز الذي ربطوني به خلال الاختبار الغريب الذي أخضعوني له عند دخولي إلى المدينة.

فوجئ الوافد الجديد عندما رآني. رأى رجلاً غريبًا تمامًا، وواضح أنه عبد، ويقف يحمل سيفًا في مواجهة جيداك الأبناء الأوائل. سحب الزميل مسدسه الراديوم على الفور، لكن دوكسوس تدارك الأمر وأوقف المأساة.

قال: «كل شيء على ما يرام، يا مير-لو، يدربني هذا العبد على بعض حيل المبارزة. اسمه دوتار سوجات، وسوف تراه هنا معي يوميًّا. ماذا تفعل هنا الآن؟ هل حدث شيء؟».

قال مير-لو: «هرب عبد في الليلة الماضية».

«وقبضت عليه بالطبع، أليس كذلك؟».

«الآن فقط. أعتقد أنه قطع حوالي نصف الطريق إلى الجرف».

قال دوكسوس: «جيد! لنعُد إلى عملنا، دوتار سوجات».

شغلني جدًّا ما سمعته ورأيته الآن، وما تصورت أنه يعني ضرورة بذل الجهد لإبقاء تركيز ذهني على عملي؛ إلى حد أنني سمحت لدوكسوس دون قصد أن يخزني. وكان سعيدًا كالطفل.

صاح: «رائع! لقد تحسنتُ في درس واحد، بحيث تمكنتُ من لمسك! ولا حتى نولات نفسه يمكنه فِعل ذلك. سنتوقف الآن. وأعطيك حرية الحركة في المدينة. لا

تتجاوز البوابات». ذهب إلى الطاولة، واستغرق دقيقة لكتابة شيء؛ ثم سلمني ما كتبه. قال: «خُذ هذا، وسيسمحون لك بالذهاب إلى حيث تريد في جميع الأماكن العامة، والعودة إلى القصر».

ما كتبه هو:

«لقد منحت دوتار سوجات، العبد، حرية الحركة في القصر والمدينة.

دوكسوس،

الجيداك».

عُدت إلى غرفتي، وعقدت العزم على السماح لدوكسوس أن يخزني كل يوم. وجدت مان-لات، الضابط المكلف بالاعتناء بي، بمفرده في غرفته المجاورة لغرفتي.

قلت له: «سوف تقل واجباتك».

سألني: «ماذا تقصد؟».

أعطيته التصريح.

قال: «لا بد أنك تروق لدوكسوس. فلم أعرف من قبل أي عبد يُمنح هذا القدر من الحرية. ولكن، لا تحاول الهرب».

«ما أعرفه يجعلني لا أحاول الهرب. فقد رأيت الهياكل العظمية من أعلى الجرف إلى أسفله».

قال مان-لات: «نحن نسميهم أطفال مير-لو؛ وهو فخور جدًّا بهم».

سألته: «ومَن هو مير-لو؟».

أجاب مان-لات: «إنه شخص على الأرجح لن تراه أبدًا. فهو يلتصق بأوانيه وغلاياته، ومخارطه ومثاقبه، فضلاً عن أدوات الرسم».

سألته: «هل يعيش في القصر؟».

«لا أحد يعرف أين يعيش، إلا إذا كان الجيداك يعرف. يقولون إن لديه شقة سرية في القصر، لكنني لا أعرف أي شيء عن ذلك. لكن ما أعرفه هو أنه أقوى رجل في كامتول، بعد دوكسوس؛ وأنه يتمتع بقوة الحياة والموت على كل رجل وامرأة في وادي

الأبناء الأوائل. لماذا، لأن بإمكانه إلحاق ضربة مميتة بأي منا بينما نحن نجلس هنا نتحدث، ولن نرى أبدًا ما قتلنا».

أصبحت الآن أكثر اقتناعًا مما سبق أنني وجدت في تلك الغرفة السرية تحت القصر ما كنت آمل في العثور عليه، ولكن كيف يمكن الاستفادة من هذه المعرفة؟!

انتهزت على الفور فرصة حريتي في الخروج إلى المدينة، التي لم أشهد منها سوى جزء فقط خلال الفترة القصيرة التي خرجت فيها مع بتانج. فوجئ الحراس عند بوابة القصر، مثلهم مثل مان-لات، عندما قرأوا تصريحي. ما زلت بالطبع، سواء بالتصريح أو من دونه، خصمًا وعبدًا – أي شخص يُنظر إليه بشك وازدراء؛ لكن الازدراء في حالتي كان أقل لمعرفتهم أنني هزمت أفضل مبارزيهم. أشك أن بإمكانك إدراك مدى التقدير العالي لمبارز كبير في كل مكان على المريخ. إنهم يبجلونه في بلده، كما هو حال خوان بيلمونت[350] في إسبانيا أو جاك ديمبسي[351] في أمريكا.

لم أكن قد ابتعدت كثيراً عن القصر عندما تصادف أن نظرت إلى أعلى، ولدهشتي رأيت عددًا من الطائرات التي تهبط في اتجاه المدينة. كان جميع الأبناء الأوائل الذين رأيتهم في وادي دور من رجال الطيران؛ ولكن لم يسبق لي أن رأيت أي طائرات في الوادي، وهو ما أثار دهشتي.

تتسم طائرات المريخ بأنها أخف من الهواء؛ بسبب استخدام ذلك الاكتشاف الرائع المتمثل في أشعة الدفع، التي تميل إلى دفعهم بعيدًا عن الكوكب. وبالتالي تستطيع الطائرات أن تهبط عموديًّا على مساحة أكبر من الطائرة قليلاً، وكانت الطائرات التي شاهدتها تهبط في المدينة على مسافة غير بعيدة عن القصر.

طائرات فضائية! أعتقد أن ضربات قلبي تسارعت قليلاً عند مشاهدتهم. طائرات فضائية! إنها وسيلة للهروب من وادي الأبناء الأوائل. قد يتطلب الأمر قدرًا كبيراً من التخطيط، وسينطوي بالتأكيد على مخاطر هائلة؛ ولكن إذا سارت الأمور بشكل جيد في الجزء الآخر من خطتي، قد أجد وسيلة – طائرة فضائية.

اتخذت طريقي نحو البقعة التي رأيت الطائرات تختفي عندها وراء أسطح المباني بالقرب مني، وأخيراً أثمر بحثي. وصلت إلى مبنى ضخم بارتفاع ثلاثة طوابق، ورأيت على سطحه جزءًا من طائرة. تقع عمليًّا جميع حظائر الطائرات في برسوم على أسطح

---

(350) خوان بيلمونت: هو مصارع ثيران إسباني شهير (1962-1892)، وتوفي في إسبانيا بسبب إصابة بعيار ناري – المترجمة.

(351) جاك ديمبسي: هو ملاكم أمريكي (1983-1895)، وكان من أشهر ملاكمي الوزن الثقيل شعبية – المترجمة.

البنايات، حفاظًا على المساحات في المدن المزدحمة المسورة؛ ولذلك يدهشني وجود حظيرة في هذا الموقع في كامتول.

اقتربت من مدخل المبنى، عازمًا على تفتيشه وتفتيش بعض السفن الفضائية إذا أمكنني الدخول. خطوت إلى المدخل، ومنع دخولي محارب بسيفه المسحوب.

سألني: «إلى أين تعتقد أنك ذاهب، يا عبد؟».

أعطيته تصريحي.

فُوجئ مثله مثل الآخرين الذين قرأوا التصريح. وقال: «ينص التصريح على حرية الحركة في القصر وفي المدينة، ولم يذكر حرية الحركة في حظائر الطائرات».

سألته: «الحظائر في المدينة، أليس كذلك؟».

هز رأسه. «إنها في المدينة، لكني لن أسمح لك بالدخول. سوف أستدعي الضابط».

وبالفعل، استدعى الضابط. حضر الضابط وصاح بمجرد رؤيتي: «أنت! أنت العبد الذي كان بإمكانه قتل نولات لكنك أنقذت حياته. ماذا تريد هنا؟».

سلمته تصريحي، وقرأه بعناية عدة مرات. قال: «لا يبدو ممكنًا، لكن مبارزتك لم تكن تبدو ممكنة أيضًا. لا يزال يصعب عليَّ تصديق ذلك. كان نولات يُعتبر أفضل مبارز في كامتول؛ وجعلته يبدو وكأنه امرأة عجوز بساق واحدة. لماذا تريد أن تدخل هنا؟».

قلت بسذاجة: «أريد أن أتعلم الطيران».

ضرب فخديه بيديه وهو يضحك. «إما أنك أحمق، وإما أنك تعتقد أننا نحن الأبناء الأوائل حمقى، إذا تصورت أننا قد نُعلم عبدًا الطيران».

قلت: «حسنًا، على أي حال، أود أن أدخل وألقي نظرة على الطائرات. وهذا لن يسبب أي ضرر. فقد كنت دائمًا مهتمًّا بها».

فكر لحظة، ثم قال: «نولات هو أعز صديق لي؛ وكان يمكنك قتله، لكنك رفضت. ولذلك، سوف أسمح لك بالدخول».

قلت: «شكرًا لك».

كان الطابق الأول من المبنى مكرسًا إلى حد كبير للمحال التجارية التي يجري فيها بناء أو إصلاح الطائرات. واكتظ الطابقان الثاني والثالث بالطائرات، ومعظمها من الطائرات الصغيرة والسريعة التي يشتهر بها قراصنة برسوم السود. يوجد على السطح أربعة سفن حربية كبيرة، يقف تحتها عدد من الطائرات الصغيرة التي من الواضح ليس لها مكان في الطوابق الأدنى.

لا بد أن البناية تُغطي عدة فدادين؛ ولذلك تضم الحظائر عددًا هائلاً من الطائرات. يمكنني رؤيتهم الآن، كما رأيتهم منذ سنوات، يحتشدون مثل البعوض الغاضب على منحدرات الثيرن المقدسة الذهبية؛ ولكن ماذا تفعل هذه الطائرات هنا؟ لقد كنت افترض أن الأبناء الأوائل يعيشون في وادي دور فقط، على الرغم من أن أغلب البرسوميين لا يزالون يعتقد أنهم جاءوا من ثوريا[352] ، القمر الأقرب. تلك النظرية التي شهدت دحضها عندما كاد زودار، القرصان الأسود، أن يموت من نقص الأكسجين ما إن حلقت عاليًا أثناء الهروب منهم؛ ونجوت أنا وثوفيا في ذلك الوقت من الثيرن خلال معركتهم مع القراصنة السود. وإذا لم يستطع رجل العيش من دون أكسجين، فلا يمكنه الطيران ذهابًا وإيابًا بين ثوريا وبرسوم في طائرة فضائية مفتوحة.

أرسل الضابط محاربًا معي، وأعتقد إأنه إجراء وقائي ضد أي عمل تخريبي؛ وسألت هذا الزميل عن سبب عدم رؤيتي لأي سفن في الهواء منذ مجيئي، باستثناء هذا العدد القليل الذي رأيته اليوم.

أجاب: «نحن نطير غالبًا في الليل، حتى لا يستطيع خصومنا رؤية مواقع الإقلاع أو الهبوط. أما الطائرات التي رأيتها قادمة قبل دقائق، فهم زوار من دور. وهذا قد يعني أننا قد نخوض حربًا، وأنا آمل ذلك. فلم نقم بمداهمة أي مدينة منذ فترة طويلة. وإذا كانت غارة كبيرة، فسوف يتشكل فريق من دور ومن كامتول معًا».

بعض القراصنة السود من وادي دور! سيتعرفون عليَّ الآن إذَنْ.

* * *

(352) ثوريا: القمر الأقرب للمريخ من قمرين يدوران حوله؛ ومعروف في كوكب الأرض باسم فوبوس
http://barsoom.wikia.com/wiki/Thuria – المترجمة.

الفصل (11)

ابتعدت عن مبنى الحظيرة، ثم استدرت ونظرت إلى الوراء لدراسة كل تفاصيله المعمارية؛ ثم مشيت حول المبنى بأكمله، الذي يغطي ميدانًا كاملاً، مع وجود طرق على جوانبه الأربعة كلها. كان هذا المبنى، مثل جميع المباني المريخية تقريبًا، مزخرفًا بمنحوتات عميقة. وهو يقع في قسم فقير من المدينة، على الرغم من أنه لا يبعد عن القصر؛ وتحيط به منازل صغير ومتواضعة. وهي على الأرجح منازل الحرفيين الذين يعملون حول الحظيرة. وعلى بُعد قليل من الحظيرة، بدأ يظهر قسم من المحال التجارية الصغيرة. كنت أشاهد خلال سيري السلع المعروضة، ورأيت شيئًا جعلني أتوقف فجأة، لأنه أوحى لي بإضافة شيء جديد إلى خططي التي تتشكل سريعًا للهرب من وادي الأبناء الأوائل - الذي لم يهرب منه أحد من قبل. من الجيد أحيانًا ألا تقيدك السوابق كثيراً.

دخلت المحل وسألت المالك عن ثمن القطعة التي أريدها. بلغ سعرها 3 تيبيي فقط، أي ما يعادل حوالي ثلاثين سنتًا بعملة الولايات المتحدة؛ على أن هذه المعلومة جعلتني أدرك أنني لا أحمل عملة الأبناء الأوائل.

لا تختلف وسيلة التبادل في المريخ عنها في كوكب الأرض، باستثناء أن القطع النقدية بيضاوية الشكل؛ وتوجد ثلاث قطع فقط: بي وتُنطق باي، وقيمتها حوالي سنت؛ وتيبيي، وتعادل عشرة سنتات؛ وتانبي، ويعادل دولارًا واحدًا. وهذه القطع النقدية بيضاوية؛ واحدة من البرونز، وواحدة من الفضة، وواحدة من الذهب. ويجري إصدار النقود الورقية من جانب الأفراد، بما يماثل كتابتنا للشيكات، ويستردها الفرد مرتين سنويًّا. وإذا أصدر رجل أوراقًا نقدية أكثر مما يمكنه استرداده، تدفع الحكومة لدائنيه بالكامل، بينما يعمل المدين بقدر هذا المبلغ في المزارع أو المناجم المملوكة للحكومة. كانت معي نقود بعملة هيليوم تصل قيمتها إلى حوالي 50 تانبي، وسألت المالك ما إذا كان يقبل مبلغًا أكبر من السعر المطروح ولكن بعملة أجنبية. ولما كانت قيمة المعدن تساوي قيمة العملة، فقد وافق بسرور أن يحصل على دولار واحد من الذهب على ما قيمته ثلاثين سنتًا من الفضة؛ ثم أخذت السلعة التي أردتها ووضعتها في جيب حقيبتي وغادرت.

رأيت أمامي، عند اقترابي من القصر، رجلاً أبيض البشرة يحمل حِملاً ثقيلاً على ظهره. لا يوجد في كامتول، بقدر ما أعرف، إلا رجل واحد فقط أبيض البَشرة؛ وهو بان دان تشي، ولذلك أسرعت للحاق به.

كان بالتأكيد الأورفاري من هورتز؛ وعندما جئت وراءه وناديته بالاسم، كاد حِمله أن يسقط من فرط مفاجأته.

صاح: «جون كارتر!».

قلت لتحذيره: «صمتًا! اسمي دوتار سوجات. إذا عرف الأبناء الأوائل أن جون كارتر في كامتول، أكره أن أفكر في ما سيحدث له. أخبرني عن نفسك. ماذا حدث لك منذ آخر مرة رأيتك فيها؟».

«اشتراني داتور ناستور، الذي لديه سُمعة بأنه أصعب سيد في كامتول. وهو أيضًا أكثرهم بُخلاً؛ فقد اشتراني لمجرد أنه تمكن من شرائي بسعر رخيص، وكما اشترى جاد-هان أيضًا. إنه يجعلنا نعمل ليلاً ونهارًا، ويعطينا القليل جدًّا من الطعام – بل وطعام سيئ أيضًا. ومنذ أن خسر مائة ألف تانبي إلى زازاك، ونحن كأننا نعمل عند رجل مهووس».

وفجأةً صاح: «باسم سلفي الأول!؛ أنت إذن الذي هزم نولات وتسبب في فقدان ناستور كل هذا المال! لم أدرك ذلك إلا الآن. فقد قالوا إن العبد الذي فاز في المسابقة اسمه دوتار سوجات، وهذا الاسم لم يكن يعني شيئًا إلا الآن - كنت بطيئًا قليلاً في فهم الأمر».

سألته: «هل رأيت لانا الجاثولية؟ كانت في مقصورة ناستور أثناء المباريات؛ ولذلك افترضت أنه اشتراها».

أجاب بان دان تشي: «نعم، لكني لم أرها؛ على أنني سمعت بعض الثرثرة في مساكن العبيد، وأشعر بالقلق من الهمس الذي يدور في القصر».

«ماذا سمعت؟ شعرت أنها في خطر عندما رأيتها في مقصورة ناستور.

إنها جميلة جدًّا، وجمالها يجعلني أقلق على أمانها».

قال بان دان تشي: «كانت آمنة تمامًا في البداية، عندما اشترتها في الأصل زوجة ناستور الأساسية. كان كل شيء جيدًا نسبيًّا إلى أن شاهدها ناستور جيدًا أثناء المباريات، ثم حاول أن يشتريها من زوجته. لكنها، واسمها فان-تيجا، رفضت أن تبيعها له. غضب ناستور وأخبر فان-تيجا أنه سيأخذ لانا على أي حال، ولذا قامت فان-تيجا بحبسها في شقة في أعلى البرج الخاص بمسكنها في القصر، ووضعت حراسها الشخصيين لحراستها عند المدخل الوحيد». ثم قال مُشيراً إلى أعلى: «ها هو البرج، «ربما تنظر لانا الجاثولية إلى أسفل الآن، نحونا».

نظرت إلى البرج، ورأيته يرتفع فوق القصر الذي يقع مباشرة عبر الساحة المركزية الكبيرة لقصر الجيداك؛ ورأيت شيئًا آخر - رأيت نوافذ شقة لانا من دون قضبان.

سألته: «هل تعتقد أن لانا تواجه أي خطر مباشر؟».

أجاب: «نعم، أظن ذلك. يُشاع في القصر أن ناستور سيقود محاربين إلى مسكن فان-تيجا في القصر، ويحاول أن يدخل البرج بالقوة».

«ليس لدينا وقت نضيعه إذَنْ، بان دان تشي. يجب أن نتصرف الليلة».

سألني: «ولكن ماذا يمكن أن يفعل اثنان من العبيد؟ حتى لو نجحنا في إخراج لانا من البرج، لن نتمكن أبدًا من الهرب من وادي الأبناء الأوائل. لا تنسَ الهياكل العظمية، جون كارتر».

قلت: «ثق بي، ولا تُنادني جون كارتر. هل يمكنك الخروج من قصر ناستور بعد حلول الظلام؟».

«أعتقد ذلك؛ فهم في حالة تراخٍ شديدة لأن الاغتيال والسرقة غير معروفين عمليًّا هنا، كما أن الجهاز السري للجيداك يجعل الهرب من الوادي مستحيلاً. أنا على يقين أنني أستطيع الخروج. وفي الواقع، يرسلونني في مهمات كل ليلة منذ شرائي».

قلت: «جيد! والآن استمع بعناية: عليك أن تخرج من القصر، وتتسكع في الظلال بالقرب من قصر ناستور في حوالي الزات الخامس والعشرين بعد الزود الثامن (منتصف الليل، بتوقيت كوكب الأرض). ويمكنك إحضار جاد-هان معك إذا أراد الهرب. إذا نجحت خطتي، سوف تهبط طائرة هنا في الساحة القريبة منك؛ عليك أن تذهب إليها وتصعد على متنها. سيكون قائدها من القراصنة السود، فلا تدع هذا يثنيك. إذا استطعت أنت وجاد-هان تسليح نفسيكما، قوما بذلك؛ فقد نواجه قتالاً. وإذا لم تأتِ الطائرة، سوف تعرف أنني فشلت؛ ويمكنك العودة إلى مسكنك ولن تكون أسوأ حالاً. إذا لم آتِ، سيكون السبب أنني ميت، أو على وشك أن أموت».

سألني: «ولانا؟ ماذا عنها؟».

قلت مؤكِّدًا: «تدور خططي كلها حول إنقاذ لانا الجاثولية. وإذا فشلت في ذلك أكون فشلت في كل شيء؛ لأنني لن أغادر من دونها».

قال: «أتمنى أن تخبرني كيف تتوقع تحقيق المستحيل. أعرف أنني سوف أشعر بيقين أكبر في النتيجة إذا أخبرتني بشيء على الأقل من خططك».

قلت: «بالتأكيد، في المقام الأول...».

سأل صوت خشن خلفنا: «ماذا يفعل عبدان بتسكعهما هنا؟».

استدرت، ورأيت محاربًا قوي البنية عند كتفي. أجبت عليه بأن أعطيته تصريحي الموقع من الجيداك.

نظر نحوي، بعد أن قرأه، كما لو أنه لا يصدق؛ ثم أعاده لي قائلاً: «هذا صحيح بالنسبة لك، ولكن ماذا عن هذا الآخر؟ هل لديه تصريح أيضًا من الجيداك؟».

قلت: «الخطأ خطئي. كنت أعرفه قبل القبض علينا، وأوقفته لأسأله عن أحواله. وأنا متأكد أن الجيداك إذا عرف ذلك، سيقول إن من حقي التحدث مع صديق. فالجيداك لطيف للغاية معي». كنت أحاول إقناع المحارب بأن الجيداك يتصرف بلطف معي، وأعتقد أنني نجحت.

قال: «جيد جدًّا، ولكن امضِ في طريقك الآن - الساحة الكبرى ليست مكانًا يتزاور فيه العبيد».

أخذ بان دان تشي حِمله وغادر. وكنت على وشك المغادرة عندما احتجزني المحارب. قال: «لقد رأيتك تهزم نولات وبان-تور في المباريات. وكنا نتحدث عن ذلك منذ فترة قصيرة مع بعض أصدقائنا من وادي دور. وقالوا إن محاربًا أتاهم ذات يوم مثل هذا المبارز الرائع. كان اسمه جون كارتر، وبشرته بيضاء وعيناه رماديتان! هل اسمك، بالمصادفة، جون كارتر؟».

أجبت: «اسمي دوتار سوجات».

قال: «يريد أصدقاؤنا من وادي دور الإمساك بجون كارتر»؛ ثم ابتسم ابتسامة صغيرة سيئة، واستدار، وتركني.

* * *

الفصل (12)

لقد زادت الآن -لمائة ضعف في الواقع- أهمية الإسراع في الهرب. ما دام رجل واحد في كامتول يشتبه في أنني جون كارتر، أمير هيليوم، فسوف أضيع غدًا على أقصى تقدير - وربما قبل حلول الغد. خشيت حتى وأنا أدخل القصر أن يعتقلوني، لكني وصلت إلى غرفتي دون أحداث. جاءني الآن مان-لات؛ وتوقعت الأسوأ عند رؤيته، لأنه لم يزرني من قبل. كان سيفي جاهزًا للقفز من غمده؛ لأنني قررت أن أموت وأنا أقاتل، ولا أسمح لهم باعتقالي وتجريدي من سلاحي. وحتى إذا قام مان-لات بأي خطوة مخادعة الآن، يمكنني قتله؛ وإنما ربما لا تزال هناك فرصة أن تؤتي خطتي ثمارها بنجاح.

كان مان-لات في مزاج ودي، ومرِح. قال: «من المؤسف أنك عبد؛ إذ توجد أشياء عظيمة في القصر الليلة. يريد دوكسوس تسلية زواره من دور. هناك الكثير من الطعام والشراب، فضلاً عن الترفيه. ربما يجعلك دوكسوس تقدم عرضًا لفنون المبارزة مع أحد أفضل مبارزينا - ولكن ليس حتى الموت، أنت تفهم، وإنما فقط لإراقة أول قطرة دم. كما سترقص الإماء؛ حيث يقدم النبلاء أجملهن. وقد أصدر دوكسوس أمره إلى ناستور كي يحضر العبدة الجديدة التي اشتراها، التي كان جمالها موضوع حديث كامتول منذ المباريات الأخيرة. نعم، من المؤسف أنك لست من الأبناء الأوائل بحيث يمكنك الاستمتاع بهذه الأمسية».

قلت: «أنا متأكد من أنني سوف أستمتع بالأمسية».

سألني: «وكيف ذلك؟».

«ألم تقل أنني سأكون هناك؟».

«أووه، نعم؛ ولكن فقط كفنان. لن تأكل أو تشرب معنا، ولن تشاهد الإماء. من السيئ للغاية حقًّا أنك لست من الأبناء الأوائل؛ لكنت فخرًا لنا».

ونظرًا لسأمي من غطرسة الأبناء الأوائل وغرورهم، قلت: «أشعر أنني على قدم المساواة تمامًا مع أي من الأبناء الأوائل».

نظر نحوي مان-لات في مفاجأة مؤلمة. وقال: «أنت عبد وقح. ألا تعرف أن أبناء برسوم الأوائل، الذين يُعرَفون أحيانًا لأمثالكم من المخلوقات الأدنى باسم قراصنة برسوم

السود، هم أقدم عِرق على هذا الكوكب. إن سلالتنا ترجع مباشرة، دون انقطاع، إلى شجرة الحياة التي ازدهرت في وادي دور منذ 23 مليون سنة».

«شهدت ثمرة هذه الشجرة تغيرات تدريجية في تطورها، خلال عصور لا تُعد ولا تُحصى، حيث مرت بدرجات من الحياة النباتية الحقيقية إلى مزيج من النبات والحيوان. كانت ثمرة الشجرة، في الأطوار الأولى من تلك المرحلة، لا تمتلك سوى قوة العمل العضلي المستقل، بينما ظل الجذع مرتبطًا بالنبات الأصلي. وفي وقت لاحق، تطور المخ في الثمرة؛ ظلت الثمار معلقة هناك بسيقانها الطويلة، وإنما أخذت تفكر وتتحرك كأفراد».

«ثم بدأت المقارنة، مع تطور الإدراك؛ وأمكن التوصل إلى الأحكام ومقارنتها، وبالتالي وُلد العقل وقوة العقل على برسوم».

«مرت العصور. وجاءت أشكال كثيرة من الحياة وذهبت فوق شجرة الحياة، لكنها ظلت جميعًا معلقة بالنبات الأصلي عن طريق سيقانها ذات الأطوال المختلفة. ومع مرور الوقت، أصبحت الثمرة على الشجرة تتكون من رجال نبات صغيرين، مثل الذين نراهم الآن بأبعاد ضخمة في وادي دور؛ لكنهم لا يزالون معلقين على أطراف وفروع الشجرة بالسيقان التي نمت من قمم رؤوسهم».

«والبراعم التي ازدهر منها رجال النبات تشبه الجوز الكبير الذي يبلغ قطر الواحدة منه حوالي سوفاد (17.11 بوصة بمقاييس كوكب الأرض)، وجدرانه مقسمة بفواصل مزدوجة إلى أربعة أقسام. نما رجل النبات في أحد الأقسام؛ ونمت دودة بست عشرة أرجل في القسم الثاني؛ ونما سلف القرد الأبيض في الثالث؛ ونما رجل برسوم الأسود البدائي في الرابع».

«وعندما انفجر البرعم، ظل رجل النبات يتدلى في نهاية جذعه؛ لكن الأقسام الثلاثة الأخرى سقطت على الأرض، والجهود التي بذلها شاغلوها السجناء للهرب جعلتهم يتحركون في جميع الاتجاهات».

«وهكذا، مع مضي الوقت، أصبحت برسوم كلها مغطاة بهذه المخلوقات السجينة. وقد عاشوا حياتهم الطويلة داخل أصدافهم الصلبة لعدد لا يُحصى من العصور، يتنقلون ويقفزون في أنحاء الكوكب الواسع، يقعون في الأنهار، والبحيرات، والبحار، وينتشرون إلى أبعد من ذلك على سطح العالم الجديد».

«ماتت بلايين لا تُحصى قبل أن يكسر أول رجل أسود أسوار سجنه ويخرج إلى ضوء النهار. وبدافع من الفضول، كسر أصداف أخرى، وبدأ شعب برسوم».

«وظلت السلالة النقية من دم هذا الرجل الأسود الأول غير ملوثة بالاختلاط مع المخلوقات الأخرى؛ لكن جميع أشكال الحياة الأخرى على برسوم ظهرت من الدودة ذات الأرجل الست عشرة، وأول قرد أبيض، والرجال السود المتمردين».

تمنيت أن ينتهي من شرحه، لأنني سمعت هذا كله عدة مرات من قبل، لكني لم أجرؤ، بالطبع، على إخباره بذلك. كما تمنيت أن يذهب؛ صحيح أنني لن أتمكن من القيام بأي شيء حتى يحل الظلام، لكني أردت فقط أن أظل بمفردي وأعيد تخطيط كل تفاصيل العمل الليلي الدقيقة المطلوبة.

ذهب أخيراً؛ وهبطت آخر ليلة طويلة، لكني يجب أن أنتظر حوالي ساعتين قبل أن يحين الموعد الذي أخبرت به بان دان تشي كي يكون مستعدًّا للصعود على متن الطائرة التي يقودها قرصان أسود. أعتقد أنه لا يزال متحيراً بشأن ذلك.

حل المساء. سمعت أصوات المحتفلين تأتي من الطابق الأول في القصر من خلال الحديقة التي تفتح عليها نافذتي كانت مأدبة الجيداك في أوجها. اقتربت ساعة الصفر- لكن ضربة حظ سيئة حدثت. فقد جاء محارب، واستدعاني إلى قاعة المأدبة!

كان يمكنني قتله ومواصلة عملي، على أن روح الشجاعة تملكتني فجأة. يمكنني أن أواجههم جميعًا، وأن أجعلهم يشاهدون مرة أخرى أعظم مبارز في عالمين، وأن أجعلهم يدركون، بعد نجاتي منهم، أنني كنت أعظم في جميع النواحي من أعظم الأبناء الأوائل. أعرف أنه موقف أحمق، لكنني أسير الآن وراء المحارب نحو قاعة المأدبة؛ الموت أمامي، وإنما فات أوان الرجوع.

لم يهتم بي أي شخص وأنا أدخل القاعة الكبرى - فلست سوى عبد. ضمت القاعة أربع طاولات تُشكل مربعًا أجوف، ويرتدي الرجال والنساء أغطية رائعة. كانوا يتحدثون ويضحكون، والنبيذ يتدفق، ويحمل جيش صغير من العبيد المزيد من الطعام والمزيد من النبيذ. انتشى بعض الضيوف قليلاً، وكان من الواضح أن دوكسوس في أفضل حالاته. كان يلف ذراعه حول زوجته من جانب، ويُقبّل زوجة رجل آخر من الجانب الثاني.

توجه المحارب الذي أحضرني إلى الجيداك وهمس في أذنه، وقرع دوكسوس ناقوسًا ضخمًا طالبًا الصمت. تحدث، بعد أن هدأ الجميع، قائلاً: «يتفاخر الأبناء الأوائل في وادي دور منذ فترة طويلة بقدرتهم على المبارزة؛ وأعترف أنهم أثبتوا في المسابقات أنهم يتفوقون قليلاً علينا. لكن لديَّ في قصري عبد، عبد عادي، يمكنه المبارزة أفضل من أفضل مبارزي وادي دور. وهو هنا الآن لتقديم عرض لقدرته الرائعة في مسابقة مع أحد

نبلائي؛ ليست حتى الموت، وإنما لإراقة أول قطرة دم فقط - إلا إذا كان أحد من وادي دور يعتقد أنه أفضل من عبدي هذا».

نهض نبيل وقال: «إنه تحدٍّ. داتور زيثاد هو أفضل مبارز هنا من وادي دور الليلة؛ لكنه إذا لم يقبل مبارزة عبد، سوف أقوم أنا بذلك من أجل شرف دور. لقد سمعنا عن هذا العبد منذ وصولنا إلى كامتول، وكيف تفوق على أفضل مبارزيكم؛ وسوف يسعدني أن أريق دمه».

ثم نهض زيثاد، وقال بكل عجرفة وغطرسة: «لم ألوث سيفي من قبل

بدم عبد، وإنما يسعدني أن أمحو العار عن كامتول. أين هذا الوغد؟».

زيثاد! لقد كان داتور حراس إيسوس[353] خلال ثورة العبيد والإطاحة بإيسوس. ولديه سبب وجيه ليتذكرني ويكرهني.

عندما تواجهنا في وسط ذلك المربع الأجوف في قاعة مأدبة دوكسوس، جيداك الأبناء الأوائل في كامتول، وقف للحظة في حيرة، ثم خطا إلى الوراء. فتح فمه ليتحدث.

قلت له ساخرًا: «أتخشى مبارزة عبد! هيا! يريدون رؤيتك تريق دمي. دعنا لا نخيب أملهم». لمسته بسيفي قليلاً.

قال متذمرًا: «يا كالوت!»، ثم توجه نحوي.

كان مبارزًا أفضل من نولات، لكني جعلت منه قردًا. جعلته يدور حول المربع، مع إبقائه دائمًا في موقف الدفاع؛ لكني لم أرق دمه بعد. كان غاضبًا، وخائفًا. جلس الجمهور في صمت لاهث.

وفجأة صاح: «يا حمقى! ألا تعرفون من هذا العبد؟ إنه...»؛ وعندئذ طعنته في قلبه. ساد هرج على الفور. سُحِبت مئات من السيوف من أغمادها؛ انتظرت، لكني لم أرَ المزيد - فقد رأيت الكثير! ركضت مباشرة ممتشقًا سيفي إلى مركز إحدى الطاولات. صرخت امرأة. تجاوزتُ الطاولة وضيوفها بقفزة واحدة، وهربت من الباب وراءها في إلى الحديقة.

---

(353) إيسوس: امرأة عجوز من المريخيين ذوي البشرة السوداء، زعمت أنها إلهة الحياة الأبدية، لكن حقيقتها تكشفت - http://barsoom.wikia.com/wiki/Issus - المترجمة.

وبالطبع بدأوا في ملاحقتي فورًا؛ لكنني هربت إلى الشجيرات، واتخذت طريقي إلى موقع أسفل نافذتي في الطرف المنخفض من الحديقة. قفزت بالكاد 15 قدمًا لأصل إلى الإفريز؛ وعبرت غرفتي في ثانية، ثم نزلت أسفل منحدر إلى الطابق الأدنى.

كان الظلام حالكًا، لكنني أعرف كل شبر من الطريق إلى هدفي. وكنت مستعدًّا لمواجهة أي احتمال. وصلت إلى الغرفة التي قابلني فيها دوكسوس أول مرة، ومشيت خلال المدخل الكائن خلف المكتب، ونزلت أسفل المنحدر إلى الغرفة السرية أدناه.

كنت أعرف أن لا أحد سيُخمن أين ذهبت؛ ولأن مير-لو كان في المأدبة، يجب أن أتمكن بسهولة من إنجاز ما أتيت هنا لإنجازه.

فتحت الباب المُفضي إلى الغرفة الأكبر. نهض مير-لو من على الأريكة وواجهني.

سألني: «ماذا تفعل هنا، أيها العبد؟».

* * *

الفصل (13)

يا لها من أحداث! لا يبدو أي شيء على ما يرام. أولاً، الاستدعاء إلى قاعة المأدبة؛ ثم زيثاد؛ والآن مير-لو. أكره أن أقتله، وإنما لا توجد أي وسيلة أخرى.

قلت له: «امتشق سيفك!». أنا لست بقاتل، ولذا لا يمكنني قتله إلا وسيفه في يده؛ لكن مير-لو لم يكن يتحلى بالأخلاق – مد يده إلى مسدسه الراديوم عند وركه. خطأ فادح! عبرت بقفزة واحدة المساحة التي تفصل بيننا؛ واخترق سيفي قلب مخترع كامتول، مير-لو.

ركضت إلى الغرفة الصغيرة، دون انتظار حتى لمسح الدم من سيفي. كانت تضم الآلة الرئيسة التي تستعبد 200 ألف شخص؛ ذلك الاختراع البشع الذي أدى إلى تناثر الهياكل العظمية المتحللة عند حافة الصدع الكبير.

بحثت حولي، ووجدت قطعه ثقيلة من المعدن؛ ثم توجهت إلى هذا الوحش عديم الشعور بكل ما أملك من قوة وحماس. أصبح في بضع دقائق خليطًا لا يوصف من أجزاء ملتوية ومكسورة - حطامًا كليًّا.

ركضت بسرعة مرة أخرى إلى الغرفة المجاورة، وجردت جثة مير-لو من العتاد والأسلحة وخلعت عتادي وأسلحتي؛ ثم أخرجت من جيب حقيبتي الشيء الذي كنت قد اشتريته من المتجر الصغير. كان جرة من كريم باللون الأسود الأبنوسي، تستخدمه نساء الأبناء الأوائل لإخفاء عيوب بشرتهن اللامعة.

أصبحت بشرتي، بعد عشر دقائق، سوداء مثل أي قرصان أسود كسر صدفته من قبل. ارتديت عتاد وأسلحة مير-لو؛ وباستثناء عينيَّ الرماديتين، كنت نبيلاً من نبلاء الأبناء الأوائل. شعرت الآن بالسعادة لأن مير-لو لم يكن في المأدبة؛ فعتاده سوف يساعدني على المرور عبر القصر والخروج منه، وهي المحنة التي لم أكن أتوقع حلها بسهولة؛ ذلك أني كنت أرتدي العتاد الأكثر شيوعًا بين المحاربين العاديين، وأشك كثيراً أنهم يدخلون القصر ويخرجون منه في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل دون استجواب - ولم تكن لديَّ أي أجوبة.

مشيت خلال القصر دون أن أواجه أي شخص، وعندما اقتربت من البوابة بدأت أترنح. أردتهم أن يظنوا أنني ضيف مخمور يغادر مبكرًا. عقدت أنفاسي وأنا أقترب من

المحاربين الواقفين للحراسة؛ لكنهم وجهوا لي التحية بكل احترام، وخرجت إلى شوارع كامتول.

كانت خطتي أن أتسلق واجهة مبنى حظيرة الطائرات، وهو ما كان يمكنني القيام به بسبب نحت الزخرفة العميق، ولكن ربما يعني ذلك معركة مع الحرس على السطح بعد أنا أتسلق على الإفريز. ولذا قررت الآن محاولة خطة أخرى، وإن لم تكن أقل خطورة.

توجهت مباشرة إلى المدخل. كان هناك محارب واحد يتولى مسؤولية الحراسة. لم أعره أي اهتمام، وواصلت طريقي إلى داخل المبنى. تردد لحظة؛ ثم حياني. دخلت، وصعدت المنحدر. انبهر الحارس بأغطية النبيل مير-لو الرائعة.

وكان العائق الأكبر الذي يجب أن أتغلب عليه الآن هو الحراس على السطح، ولم يكن لديَّ أي شك في أنني سأجد العديد من المحاربين. قد يصعب إقناعهم بأن النبيل يمكنه الطيران بمفرده في هذا الوقت من الليل؛ لكنني عندما وصلت إلى السطح، لم أجد أي محارب على الإطلاق.

استغرقت لحظات للعثور على الطائرة التي اخترتها للمغامرة عندما جئت هنا من قبل. واستغرقت لحظة أخرى لتسلقها والوصول إلى لوحات التحكم، وتشغيل المحرك السلس الصامت.

كان الظلام حالكًا، ولا يوجد أي من القمرين في السماء؛ ولذا كنت شاكرًا. ارتفعت في طيران حلزوني حاد إلى أن وصلت إلى مسافة عالية فوق المدينة، ثم توجهت إلى برج قصر ناستور حيث تُسجن لانا الجاثولية.

كنت متأكدًا أن هيكل الطائرة الأسود يجعلها غير مرئية من الطرق أدناها، في ليلة مظلمة مثل هذه. وصلت إلى البرج وأنا على يقين أن خطتي برمتها حققت نجاحًا باهرًا، حتى على الرغم من الحوادث التي كانت تبدو على وشك أن تدمرها في مراحلها الأولى.

عندما اقتربت ببطء من نوافذ شقة لانا، سمعت صرخة مكتومة لامرأة وصوت رجل يعلو في غضب. لمست مقدمة سفينتي بعد لحظة الجدار الذي يقع أسفل النافذة مباشرة. أمسكت بحبل المقدمة، وقفزت عبر الإفريز إلى داخل الغرفة وسيف مير-لو في يدي.

رأيت عبر الغرفة رجلاً يحاول دفع لانا الجاثولية إلى الوراء، على الأريكة. كانت تضربه، وكان يلعنها.

قلت صائحًا: «كفى!»، ترك الرجل لانا والتفت نحوي. كان الرجل هو ناستور، الداتور.

سألني: «مَن أنت؟ وماذا تفعل هنا؟».

أجبت: «أنا جون كارتر، أمير هيليوم؛ وأنا هنا لأقتلك».

كان قد امتشق سيفه بالفعل، واشتبكت سيوفنا حتى وأنا أتحدث.

قلت: «ربما من الأفضل أن تتذكر أن دوتار سوجات، العبد الذي كلفك 100 ألف تانبي، هو الأمير الذي سيكلفك حياتك».

بدأ في الصياح لاستدعاء الحرس، وسمعت صوت خطوات تبدو تصعد المنحدر الموجود خارج الباب. رأيت أنني يجب أن أنتهي بسرعة من ناستور؛ لكنه كان مبارزًا أفضل مما توقعت، على الرغم من أن الاشتباك تطور بسرعة إلى ركض حول الغرفة.

كان الحراس يقتربون، فركضت لانا نحو الباب ودفعت الترباس الثقيل لإغلاق الباب. وعلى الفور تقريبًا سمعت طرقًا على الباب وصيحات المحاربين في الخارج؛ وهنا تعثرت في الفراء الذي سقط من الأريكة خلال المعركة بين لانا وناستور، ووقعت على ظهري. قفز ناستور في الحال فوقي ليسدد طعنة في قلبي. كان سيفي ممتدًّا نحوه، لكن ناستور كان في وضع متميز. كنت على وشك الموت.

لم تنقذني سوى سرعة بديهة لانا؛ إذ اندفعت نحو ناستور من الخلف وأمسكته من كاحليه. تأرجح إلى الأمام فوقي، واخترق سيفي قلبه وبرز من ظهره بمسافة قدمين. احتجت كل قوتي لانتزاع سيفي من جسده.

قلت: «هيا يا لانا».

سألتني: «إلى أين؟ الممر مملوء بالمحاربين».

قلت: «النافذة، هيا!».

استدرت نحو النافذة، ورأيت نهاية الحبل الذي سقط خلال المعركة واختفى بعيدًا عن حافة النافذة. انجرفت سفينتي بعيدًا، ونحن محاصران.

ركضت إلى النافذة. ابتعدت السفينة بحوالي 25 قدمًا، وانخفضت عن حافة النافذة ببضعة أقدام؛ يا له من هروب عائم وحرية عائمة؛ ويا لها من حياة عائمة لكل من لانا الجاثولية، وبان دان تشي، وجاد-هان، ولي.

لا يوجد سوى أمل وحيد. صعدت إلى حافة النافذة، وقمت بقياس المسافة بعيني ثانية – وقفزت. وبالطبع يؤكد سردي هذه المغامرة لك أنني هبطت على سطح السفينة. أصبحت السفينة، بعد لحظات، بجانب الحافة ثانية وعلى متنها لانا.

قالت: «بان دان تشي! ماذا عنه؟ يبدو من القسوة التخلي عنه وتركه لمصيره».

كان بان دان تشي ليصبح أسعد رجل في العالم إذا عرف أنه كان أول ما فكرت فيه لانا، على أنني كنت أعرف أنها سوف تصده أو تهينه في أول فرصة تجدها – يا لغرابة النساء.

انخفضت بسرعة نحو الساحة. سألتني لانا: «إلى أين تذهب؟».

«ألا تخشَ أن يقبضوا علينا هناك؟».

قلت: «أنا ذاهب لإحضار بان دان تشي». هبطتُ بعد لحظة بالقرب من قصر ناستور، وانطلق رجلان من الظلال نحو السفينة: بان دان تشي وجاد-هان.

ارتفعت بسرعة بمجرد صعودهما على متن السفينة، وتوجهت نحو جاثول. شعرت بنظرات بان دان تشي نحوي. ولكنه لم يتمكن من منع نفسه وسألني: «مَن أنت؟ وأين جون كارتر؟».

قلت: «أنا الآن مير-لو، المخترع؛ ومنذ فترة قصيرة كنت دوتار سوجات، العبد؛ لكني دائمًا جون كارتر».

قال: «نحن جميعًا معًا مرة أخرى، وفي قيد الحياة؛ ولكن إلى متى؟ هل نسيت الهياكل العظمية على حافة الصدع؟».

قلت له مؤكِّدًا: «لا داعيَ للقلق، فقد قمت بتدمير الآلة التي قتلتهم».

التفت إلى لانا قائلاً: «لانا الجاثولية، لقد خضنا معًا الكثير، ولا نعرف ما يخبئه لنا المستقبل. ولذا، أضع قلبي مرة أخرى أمام قدميكِ».

قالت لانا الجاثولية: «يمكنك أن تأخذه؛ فأنا أشعر بالتعب وأريد أن أنام».

الكتاب الثالث

الهروب على المريخ

الفصل (1)

كنا أربعة على متن الطائرة التي سرقتها من حظيرة الطائرات في كامتول لتنفيذ هروبنا من وادي الأبناء الأوائل: لانا الجاثولية؛ وبان دان تشي من هورتز؛ وجاد-هان، شقيق جاناي من أمهور؛ وأنا، جون كارتر، أمير هيليوم وأمير الحرب في برسوم.

كانت واحدة من تلك الليالي المريخية الرائعة المذهلة التي تأخذ بأنفاسنا. ففي الهواء الرقيق للكوكب الآخذ في الاحتضار، برزت كل نجمة في عظمة متألقة ضد سواد السماء المخملي في روعة لا يمكن لسكان كوكب الأرض تصورها.

وكان بإمكاننا رؤية قمرَي المريخ، مع ارتفاعنا فوق الوادي المتصدع الكبير؛ كما كانت الأرض والزهرة متزامنين، مما أتاح لنا مشهدًا لا يُضاهى من الجمال. يتحرك القمر الأبعد كلوروس[354] في مهابة جليلة عبر قبو السماء على بُعد 14 ألف ميل؛ بينما لا يبعُد القمر ثوريا سوى 4000 ميل، ويندفع خلال الليل من الأفق إلى الأفق في أقل من أربع ساعات، ويُلقي ظلالاً متغيرة على الأرض أسفلنا مُضفيًا وهم الحركة المستمرة، كما لو كان سطح المريخ يُغطيه عدد لا يُحصى من الأشياء المتسللة والزاحفة. أتمنى أن أنقل لك بعض المفاهيم عن غرائبية هذا المشهد العجيب المذهل وجماله؛ على أن قدرتي على الوصف لا تكفي مع الأسف. ولكن، ربما يأتي يوم تزور فيه المريخ أيضًا.

ما إن ارتفعنا فوق حافة الجرف الهائل الذي يحد الوادي، وجهتُ مسارنا نحو جاثول وفتحت صمام السرعة إلى أقصاه لأنني كنت أتوقع احتمالات مطاردة. ولكن مع علمي بإمكانيات سرعة هذا النوع من الطائرات، كنت على ثقة أنه لا يوجد شيء في كامتول -مع طريقة بدايتنا- يمكنه اللحاق بنا ما لم يواجهنا سوء الحظ.

يفترض العديدون أن جاثول هي أقدم مدينة مأهولة على المريخ، وإحدى المدن القليلة التي احتفظت بحريتها. علاوة على ذلك، وعلى الرغم من أن مناجم الماس

---

(354) كلوروس: أبعد قمرَي المريخ عن الكوكب الأم، ومعروف لدى سكان كوكب الأرض باسم القمر ديموس - - http://barsoom.wikia.com/wiki/Cluros المترجمة.

القديمة فيها تُعد أغنى المناجم المعروفة، على عكس جميع حقول الماس الأخرى تقريبًا، فهي تبدو اليوم لا تنضب كما كانت دومًا.

بُنيت المدينة، في العصور القديمة، على جزيرة في ثروكسيوس، أقوى محيطات برسوم الخمسة القديمة. وعندما انحسرت المحيطات، زحفت جاثول إلى جانبي الجبل، الذي كانت قمته هي الجزيرة التي كانت جاثول قد بُنيت عليها؛ ولا تزال حتى اليوم تغطي المنحدرات من قمة الجبل إلى قاعدته، في حين يمتلئ باطن التل الكبير بدهاليز مناجمها.

وجاثول مُحاطة تمامًا بمستنقع ملحي هائل، يحميها من أي غزو بري؛ بينما تضاريس الجبل الوعرة والعمودية في كثير من الأحيان تجعل هبوط أي سفن فضائية عدائية محفوفًا بالمخاطر.

جاهان، والد لانا، هو جد جاثول التي تُعتبر أكثر بكثير من مجرد مدينة منفردة؛ حيث تُغطي حوالي 140 ألف مِيل مربع، معظمها من أراضي الرعي الرائعة، وتضم عددًا كبيراً من قطعان الثوات والزيتيدار. كان علينا إعادة لانا إلى والدها ووالدتها، تارا الهيليومية، بعد مرورنا خلال العديد من المغامرات المروعة منذ أن تركنا هورز.

والآن، لانا على وشك الوصول إلى بيتها؛ وسرعان ما اتخذ طريقي إلى هيليوم وأميرتي ديجاه ثوريس التي لا تُضاهى، التي ربما تصورت منذ فترة طويلة أني ميت.

جلس جاد-هان بجانبي أمام لوحات التحكم، ونامت لانا، وكان بان دان تشي سارحًا. ويبدو أنها الحالة الطبيعية لجميع العشاق. شعرت بالأسف

تجاه بان دان تشي؛ وكان بإمكاني تخفيف اكتئابه بإخباره أن أول كلمات لانا بعد أن أنقذتها من برج قصر ناستور كانت عنه - تستفسر عن حاله - لكنني لم أفعل. تمنيت أن الرجل الذي يفوز بلانا الجاثولية، يفوز بها بنفسه. إذا استسلم يائسًا وكلاهما يعيش وهي لا تزال غير متزوجة، إذَنْ لا يستحقها؛ ولذا تركت بان دان تشي المسكين يُعاني من صد لانا له في المرة الأخيرة.

اقتربنا من جاثول قبل الفجر بوقت قصير. لم يكن القمران في السماء، وكانت السماء مظلمة نسبيًّا. كانت المدينة مظلمة أيضًا؛ لم أرَ أي ضوء. هذا غريب، وربما يُنذر بالسوء؛ فمدن المريخ ليست مظلمة عادة إلا في أوقات الحرب، عندما يتهددها عدو.

خرجت لانا من المقصورة الصغيرة، وجثمت على سطح السفينة بجانبي. قالت: «هذا نذير سوء».

قلت موافقًا: «وهذا ما أشعر به أيضًا. سوف أقف حتى طلوع النهار. أريد رؤية ما يحدث قبل أن أحاول الهبوط».

قالت لانا: «انظر هناك»، وأشارت إلى يمين الكتلة السوداء في الجبل، «يا لها من أضواء كثيرة».

قلت: «ربما نيران مخيم من الرعاة».

قالت لانا: «هناك الكثير منها».

قال جاد-هان: «ربما هي أيضًا نيران معسكرات للمحاربين».

قال بان دان تشي: «هناك طائرة تقترب، لقد اكتشفونا».

رأيت طائرة تقترب من أسفل نحونا بسرعة. قلت: «لا شك أنها طائرة دورية»، لكني فتحت صمام السرعة وأدرت مقدمة الطائرة إلى الاتجاه المعاكس. لم يعجبني مظهر الأشياء، ولم أكن أنوي السماح لأي سفينة أن تقترب إلى أن أتمكن من رؤية شارتها.

ثم جاء نداء: «مَن أنت؟».

سألته في المقابل: «مَن أنت؟».

أصدر أمرًا: «توقف!»، لكني لم أتوقف؛ كنت أبتعد عنه بسرعة، وكانت سفينتي أسرع بكثير.

أطلق علينا النار، لكن طلقته لم تصبنا. كان جاد-هان عند بندقية مؤخرة السفينة، وسألني: «هل أطلق عليه النار؟».

أجبت: «لا؛ ربما يكون من جاثول. أدر الكشاف نحوه، يا بان دان تشي، دعنا نحاول رؤية شارته».

لم يركب بان دان تشي أي سفينة من قبل، كما لم يرَ أبدًا أي كشاف. ذلك أن البقايا القليلة من العِرق الأورفاري الذي انقرض تقريبًا، وهو واحد منهم، كانت تختفي في هورز القديمة وليست لديهم سفن أو كشافات؛ ولذلك جاءت لانا الجاثولية لإنقاذه. وأضاءت الآن مقدمة الطائرة التي تطاردنا.

قالت لانا: «لا أستطيع رؤية الشارة، لكن هذه السفينة ليست من جاثول».

لم تصبنا طلقة أخرى. طلبت من جاد-هان أن يطلق النار، وقد فعل لكنه لم يصب السفينة الأخرى. أطلق العدو النار ثانية، وشعرت أن القذيفة تضربنا، لكنها لم تنفجر. كانت سفينتنا في نطاقه، ولذا أخذت أطير في خط متعرج، ولم تصبنا طلقتاه التاليتان. أخطأ جاد-هان أيضًا، ثم تعرضنا لضربة أخرى.

قلت للانا: «اهتمي بلوحات التحكم»، ثم توجهت إلى الخلف، إلى البندقية. «حافظي عليها في مكانها كما هي»، قلت للانا وأن أضبط الهدف بعناية. كنت أطلق قذيفة متفجرة، انفجرت بالارتطام، حيث ضربت سفينة العدو بالكامل ودخلت في هيكلها وانفجرت. مزقت مقدمة السفينة بأكملها، فاشتعلت فيها النيران وبدأت مقدمتها في السقوط. بدأت تسقط ببطء، ثم اتخذت طريقها إلى الغوص الطويل والسريع الأخير - كأنها نيزك مشتعل اصطدم بمستنقع الملح وانطفأ.

قالت لانا الجاثولية: «هذه نهايتها».

أجبت: «لا أعتقد أن المسألة انتهت، بقدر ما يتعلق بنا الأمر؛ فنحن نفقد الارتفاع بسرعة، لا بد أن إحدى تلك القذائف قد أصابت خزان الطفو في سفينتنا».

أمسكتُ بلوحات التحكم وحاولت أن أبقيها كما هي. فتحتُ صمام السرعة إلى أقصاه، في محاولة للابتعاد عن طوق نيران المخيم قبل أن نضطر في النهاية إلى الهبوط.

* * *

الفصل (2)

كانت سفينتنا صغيرة وجيدة -قوية وسريعة، مثل جميع سفن القراصنة السود في برسوم- وحملتنا مسافة تبعد عن أبعد نيران للمخيم قبل أن تستقر أخيراً على الأرض عند الفجر. كنا على مقربة من غابة صغيرة من أشجار السورابوس، ورأيت من الأفضل أن نتخذ مأوى هنا حتى نتمكن من الاستطلاع قليلاً.

قالت لانا بغضب: «يا له من حظ. وكنت على يقين أننا في أمان وسلامة عمليًّا في جاثول».

سأل بان دان تشي: «ماذا نفعل الآن؟».

قال جاد-هان: «مصيرنا في أيدي أسلافنا».

قلت لهم: «لكننا لن نتركه لأسلافنا؛ أشعر أنني أكثر كفاءةً بكثير في توجيه مصيري من أسلافي الذين لقوا حتفهم منذ سنوات عديدة. علاوة على ذلك، أنا أكثر منهم بكثير اهتمامًا بمصيري».

ضحكت لانا وقالت: «أعتقد أنك ربما على حق؛ على الرغم من أنني لا أمانع في ترك قدري بين أيدي أسلافي الأحياء - والآن، ماذا سيفعل أحدهم في هذا الموقف؟».

أجبت: «سوف أذهب أولاً للعثور على شيء للأكل، وبعد ذلك سوف أحاول معرفة مَن الذين كانوا يتدفئون عند تلك النيران في الليلة الماضية؛ قد يكونوا أصدقاء، كما تعلمون».

قالت لانا: «أشك في ذلك. وإنما إذا كانوا أصدقاء، فهذا يعني أن جاثول في أيدي الخصوم».

«سرعان ما سنعرف. والآن، عليكم أن تبقوا أنتم الثلاثة هنا، بينما أذهب وأرى إن كان هناك أي شيء صالح للأكل ينمو في هذه الغابة. اهتموا بالمراقبة».

مشيت في الغابة، باحثًا عن جذور أو أعشاب، ونبات المانتاليا الذي يهب الحياة بعصارته التي تشبه اللبن، وكثيراً ما أنقذتني من الموت عطشًا أو جوعًا. بيد أن هذه الغابة تبدو خالية على نحو غريب من جميع أشكال الأشياء الصالحة للأكل. سرت خلال

الغابة وخرجت من الجانب الآخر دون العثور على أي شيء، أي شيء يحاول أن يأكله رجل يتضور جوعًا.

رأيت وراء الغابة بعض التلال المنخفضة، وهو ما جدد أملي؛ فمن المؤكد أنني قد أجد في أي واد صغير، حيث تظل الرطوبة لفترة أطول، شيئًا يستحق أن أعود به إلى رفاقي.

كنت قد عبرت حوالي نصف المسافة من الغابة إلى التلال، عندما سمعت قعقعة معادن لا لبس فيها وصرير الجلود خلفي. استدرت، ورأيت حوالي عشرين رجلاً أحمر يمتطون حيوانات الثوات ويقتربون مني على ركوباتهم ذات الأقدام المبطنة الخالية من الأظافر وتتحرك دون إصدار صوت على الغطاء النباتي الناعم الذي يغطي الأرض.

امتشقت سيفي في مواجهتهم. توقفوا على مسافة بضعة أمتار مني. سألتهم: «هل أنتم من رجال جاثول؟».

أجاب أحدهم: «نعم».

قلت: «إذَنْ أنا صديق».

ضحك الرجل وقال: «ليس لدينا أصدقاء من قراصنة برسوم السود».

كنت قد نسيت الصبغة السوداء التي تغطي كل شبر من وجهي وجسمي، كتمويه يساعدني على الهرب من القراصنة السود في وادي الأبناء الأوائل.

قلت: «أنا لست قرصانًا أسود».

صاح الرجل: «أووه، كلا! أفترض إذَنْ أنك قرد أبيض». ضحكوا جميعًا. «هيا الآن، أغمد سيفك وتعالَ معنا. سندع جان هور يقرر ما يفعله معك، ويمكنني إبلاغك من الآن أن جان هور لا يحب القراصنة السود».

قلت: «لا تكن أحمق؛ أخبرتك أنني لست من القراصنة السود - هذا مجرد تمويه».

قال الزميل: «حسنًا»، ثم أضاف، من باب المزاح، «أليس من الغريب أن نلتقي أنا وأنت؟ - أنا بالفعل قرصان أسود متنكر في هيئة رجل أحمر». أثار ذلك ضحك رفاقه. وعندما استطاع التوقف عن الضحك على مزحته قال: «هيا الآن، لا مزيد من الحماقة! أو تريد منا أن نأتي ونأخذك؟».

أجبت: «تعالَ وخذني!». وكان هذا خطأ؛ لكن مزاح هؤلاء الحمقى الأغبياء أثار حنقي.

بدأ في الركض نحوي وتطويقي؛ وكانوا خلال ذلك يفكون الحبال التي يستخدمونها للقبض على الثوات. أخذوا يديرونها فوق رؤوسهم الآن وهم يصيحون. وفجأة، انطلقت خلال الهواء في وقت واحد عشرات الحلقات نحوي. كان عرضًا جميلاً من الحبال، على أنني لم أستطع تقديره بحق في ذلك الوقت. استقرت تلك الأنشوطات حولي، من رقبتي إلى كعبي، مما أصابني بعجز تام لأنها كانت مشدودة بقوة؛ ثم بدأت المجموعة التي أوقعتني في الشَّرَك تسحبني في نفس الاتجاه، وهم يجرونني على الأرض. لم يتوقفوا عن السير، بل واصلوا تحركهم وهم يجرونني على الأرض.

تدحرج جسدي مرارًا وتكرارًا فوق النباتات الصفراء اللينة، وواصل الخاطفون حركتهم فوق ركوباتهم على نحو أسرع إلى أن وصلت سرعة حيواناتهم إلى أقصاها. كان أكثر وضع مُهين لمقاتل؛ شعرت بداية بجرح كرامتي، وليس إصابة جسمي - أو حقيقة أن المزيد من هذا، سوف يتركني مجرد جثة ملطخة بالدماء مربوطة في نهايات 12 حبلاً جلديًّا.

لا بد أنهم جروني لمسافة نصف ميل قبل أن يتوقفوا أخيرًا. وقد بقيت في قيد الحياة بعد هذه التجربة، لا لشيء إلا لأن الغطاء النباتي الذي يشبه الطحلب ويغطي معظم المريخ يتسم بالليونة.

جاء القائد راكبًا، وتلاه الآخرون. نظر إلى وجهي، واتسعت عيناه. صاح: «باسم سلفي الأول! إنه ليس من القراصنة السود - لقد زال اللون الأسود!».

نظرت وأنا على يقين بأن النباتات التي جرّوني فوقها قد محت الكثير من الصبغة، وأصبحت بشرتي خليطًا من الشرائط السوداء والبيضاء الملطخة بالدم.

ترجل الرجل، ونزع سلاحي، ثم أبعد عني الأنشوطات. قال لرفاقه: «إنه ليس قرصانًا أسود، وليس رجلاً أحمر حتى؛ إنه أبيض وعيناه رماديتان. باسم سلفي الأول. لا أعتقد أنه رجل على الإطلاق. أيمكنك الوقوف؟».

وقفت. ترنحت قليلاً، لكني وقفت. قلت: «أستطيع أن أقف. وإذا كنت تريد معرفة ما إذا كنت رجلاً، أعطني سيفي وامتشق سيفك»، ثم صفعته على وجهه بقوة لدرجة أنه سقط. كنت غاضبًا للغاية، لدرجة أنني لم أهتم إن كان سيقتلني. نهض على قدميه وهو يسب ويلعن مثل قرصان حقيقي من أصول إسبانية.

صاح: «أعطوه سيفه! كنت سآخذه حيًّا إلى جان هور، لكنني الآن سأتركه هنا ميتًا».

قال له أحد رفاقه ناصحًا: «من الأفضل أن تأخذه حيًّا، يا كور-آن. ربما يكون جاسوسًا؛ وليس جيدًا لك إذا قتلته قبل أن يتمكن جان هور من استجوابه».

صاح كور-آن: «لا يمكن لرجل أن يضربني ويعيش؛ أين سيفه؟».

أعطاني أحدهم سيفي الطويل، وواجهت كور-آن. سألته: «مبارزة حتى الموت؟».

أجاب كور-آن: «حتى الموت!».

قلت: «لن أقتلك، يا كور-آن، وأنت لا تستطيع قتلي؛ لكنني سوف

أعلمك درسًا لن تنساه سريعًا». كنت أتحدث بنبرة صوت عالية، بحيث يسمعها الآخرون.

ضحك أحدهم، وقال: «أنت لا تعرف مع مَن تتحدث، يا زميل. كور-آن هو أحد خيرة المبارزين في جاثول. ستموت خلال خمس دقائق».

قال كور-آن: «في دقيقة واحدة»، واقترب مني. توجهت للاشتباك مع كور-آن، بعد أن حاولت إجراء تقدير تقريبي لعدد الجروح والخدوش النازفة على جسدي. كان مقاتلاً غاضبًا، لكنه أخرق. أرقت الدم من صدره الأيمن في الثانية الأولى؛ ثم قطعت جرحًا طويلاً في فخذه الأيمن. لمسته بسيفي مرارًا وتكرارًا، وسحبت الدم من الجروح أو الخدوش. كان يمكنني قتله في أي وقت، ولم يتمكن من لمسي بسيفه في أي مكان.

قلت: «لقد انقضى ما يزيد على دقيقة، يا كور-آن».

لم يرد؛ كان يتنفس بقوة، ويمكنني القول -من عينيه- إنه كان خائفًا. جلس رفاقه في صمت، يشاهدون كل خطوة.

وأخيرًا، بعد أن أصبته في كل جسده من الجبين إلى أخمص القدمين، تراجعت إلى الوراء وأنزلت سيفي. سألته: «ألا يكفي هذا، يا كور-آن؟ أم تريدني أن أقتلك؟».

قال بشجاعة: «أنا اخترت القتال حتى الموت؛ ومن حقك أن تقتلني - وأنا أعرف أنك تستطيع. وأعرف أنك كنت تستطيع قتلي في أي وقت منذ لحظة اشتباك سيوفنا».

قلت: «لا أريد أن أقتل رجلاً شجاعًا».

قال أحد الآخرين: «عليك إنهاء الأمر برمته، يا كور-آن؛ أنت تواجه أعظم مبارز رآه أي شخص من قبل».

قال كور-آن: «كلا، سيلحق بي العار إذا توقفت قبل أن أقتله أو يقتلني. هيا!»، ورفع سيفه.

تركت سيفي يسقط على الأرض وواجهته. قلت له: «ها هي فرصتك الآن لقتلي».

قال: «لكن هذا اغتيال، وأنا لست بقاتل».

«ولا أنا، يا كور-آن. وإذا طعنتك بسيفي، حتى وأنت تحمل سيفك، سأكون قاتلاً مثلك إذا قتلتني الآن؛ لأنك، حتى وسيفك في يدك، أعزل ضدي بقدر ما أنا أعزل ضدك الآن».

قال أحد الجاثوليين: «الرجل على حق»، أغمد سيفك يا كور-آن، لن يحمل أحد سيفه ضدك».

نظر كور-آن إلى الآخرين، وحثوه جميعًا على الكف عن القتال. وضع سيفه في غمده، وامتطى حيوانه الثوات. قال لي: «اركب ورائي». ركبت، وانطلقوا يركضون.

* * *

الفصل (3)

دخلوا بستانًا آخر من أشجار السورابوس بعد حوالي نصف ساعة، ووصلنا الآن إلى مجموعة من الأكواخ الفظة التي يستخدمها المحاربون الرعاة في جاثول. يوجد هنا ما تبقى من القوات التي ينتمي إليها الخاطفون. هؤلاء الرعاة هم محاربو جاثول، وينقسمون إلى وحدات عسكرية نظامية. يضم هذا الأوتان مائة رجل بقيادة دوّار ومعه اثنان من البادوار، أو برتبة ملازم تحت قيادته. وهم يبقون في هذا المهمة لمدة شهر، أي ما يعادل حوالي 70 يومًا بزمن كوكب الأرض، ثم يتم إعفاؤهم منها ويعودون إلى مدينة جاثول.

كان الدوّار جان هور يجلس أمام أحد الملاجئ يلعب الجيتان مع بادوار، عندما أخذني إليه كور-آن. نظر إلينا من أعلانا إلى أسفلنا لمدة دقيقة كاملة، ثم صاح: «باسم إيسوس! ماذا كنتما تفعلان - تلعبان مع قطيع من البانث، أو قبيلة من القردة البيضاء؟ ومَن هذا؟ إن بشرته ليست حمراء ولا سوداء».

«إنه سجين»، قال كور-آن، ثم شرح بأمانة كاملة سبب مظهرنا هذا.

تجهم جان هور، وقال: «سأناقش هذه المسألة معك لاحقًا، يا كور-آن»؛ ثم التفت نحوي.

قلت: «أنا والد تارا الهيليومية، أميرة جِد جاثول».

قفز جان هور واقفًا على قدميه، وترنح كور-آن كما لو أنه تعرض لضربة قوية. ظننت أنه سيسقط.

صاح جان هور: «جون كارتر! البشرة البيضاء، والعينان الرماديتان، والمبارزة التي أخبرني بها كور-آن. لم يسبق لي أن رأيت جون كارتر، لكنك لا يمكن إلا أن تكون هو»، ثم استدار نحو كور-آن. «وأنت قمت بجر أمير هيليوم، أمير الحرب في برسوم، لمسافة نصف ميل وهو مربوط في نهايات حبالك!»، ثم قال بصوت صارخ تقريبًا: «ستموت بسبب ذلك!».

قلت: «لا، لقد سوينا الأمر بيننا أنا وكور-آن؛ ويكفي ما ناله من عقاب».

يعيش هؤلاء المحاربون-الرعاة من جاثول مثل بدو الصحراء لدينا؛ حيث يتنقلون من مكان إلى آخر وفقًا لما تمُليه متطلبات الرعي ووجود المياه. لا توجد مياه سطحية في جاثول غير رطوبة مستنقع الملح الذي يطوق المدينة؛ وإنما يمكن العثور على المياه في بعض الأماكن من الآبار الغارقة، ويُشيدون مخيماتهم في هذه البقع، كما هو الحال هنا في بستان السورابوس الذي أحضروني إليه.

أمر جان هور بإحضار مياه لي؛ وبينما كنت أغتسل لأتخلص من الصبغة السوداء والقاذورات والدماء، أخبرته بوجود لانا الجاثولية واثنين من الرفاق في موقع غير بعيد عن المكان الذي أمسكني فيه كور-آن؛ فأرسل واحدًا من البادوار مع عدد من المحاربين وثلاثة ثوات إضافية لإحضارهم.

قلت: «والآن، أخبرني ماذا يحدث لجاثول. يشير الهجوم علينا الليلة الماضية، بالإضافة إلى حلقة نيران المخيمات التي تطوق المدينة، إلى جاثول تتعرض لحصار من جانب أعداء».

أجاب جان هور: «أنت على حق. جاثول محاطة بقوات هين أبتول، الذي يعتبر نفسه جيداك جميع الجيداك في الشمال. لقد جاء هنا منذ فترة في طائرة قديمة عفا عليها الزمن؛ ولأنه جاء في سلام، كان جاهان يعامله كضيف شرف. يقولون إنه كان يتصرف كمغرور متبجح وبفظاظة لا تطاق، وانتهى بأن طلب من جاهان أن يعطيه لانا كزوجة - بينما يتفاخر بأن لديه بالفعل سبع زوجات».

«وبطبيعة الحال، وقال له جاهان إن لانا الجاثولية سوف تختار زوجها. وعندما رفضت لانا، هدد بالعودة وأخذها بالقوة. غادر بعد ذلك، وفي اليوم التالي سافرت أميرتنا إلى هيليوم على متن سفينة مع خمسة وعشرين من حراسها الشخصيين. لم تصل إلى هيليوم أبدًا، ولم يرها أحد

أو يسمع عنها منذ ذلك الحين، إلى أن أخبرتني أنت الآن أنها في قيد الحياة وعادت إلى جاثول».

«لكننا سرعان ما سمعنا من هين أبتول. فقد عاد مع أسطول كبير من طائرات عتيقة الطراز لم أشهد مثلها من قبل؛ من المؤكد أن عُمر بعض سفنه يزيد على مائة سنة. عاد هين أبتول، وطالب باستسلام جاثول».

«كانت سفنه مكتظة بالمحاربين، وقفز آلاف منهم وهبطوا على المدينة بمحركات التوازن[355] . شهدت طرقات المدينة وأسطح المباني قتالاً امتد طوال اليوم، لكننا استطعنا في النهاية تدميرهم أو أسرهم جميعًا. حاصر هين أبتول المدينة، عندما وجد أنه لا يستطيع الاستيلاء عليها بالقوة».

«وقد أبعد سفنه ما عدا عدد قليل منها، ونحن نعتقد أنها عادت إلى الشمال المتجمد لجلب تعزيزات. أما نحن الذين كنا نؤدي واجبنا هنا في بداية الحصار، فلم نعد قادرين على العودة إلى المدينة. لكننا نواصل إزعاج محاربي هين أبتول الذين يشيدون مخيماتهم على السهل».

قلت: «هم يستخدمون إذَنْ محركات التوازن؛ من الغريب أن توجد لدى أي شعب من الشمال المتجمد. لم يكن أحد يعرفها في أوكار عندما كنت هناك».

ومحركات التوازن هي أجهزة بارعة للطيران الفردي. يتكون المحرك من حزام واسع، لا يختلف عن حزام الحياة الذي يستخدمه ركاب الطائرات في كوكب الأرض. يُملأ الحزام بالأشعة الثامنة البرسومية، أو أشعة الدفع، إلى درجه كافية تعادل سحب الجاذبية؛ ولذا يبقي الشخص في توازن بين تلك القوة والقوة المضادة التي تبذلها الأشعة الثامنة. يُعلَّق على ظهر الحزام محرك راديوم صغير، وتوجد لوحات التحكم فيه عند مقدمة الحزام. ويُعلق عند الحافة العليا من الحزام، ويبرز منه، جناح خفيف وقوي، وبه روافع يدوية صغيرة لتغيير الموقع بسرعة. ويمكنني أن أدرك مدى فاعلية هذا المحركات لهبوط القوات في مدينة العدو ليلاً.

استمعت إلى جان هور مع شعور بالقلق العميق؛ لأني أعرف أن جاثول ليست بلدًا قويًّا، وأن الحصار الطويل والمستمر لا بد أن يُقلص من قوتها ما لم تأتِها مساعدة خارجية. تعتمد جاثول في إمداداتها الغذائية على السهول التي تشمل عمليًّا جميع أراضيها. تقطع إحدى قنوات برسوم الشهيرة الزاوية الشمالية الغربية البعيدة من البلد؛ حيث يزرعون الحبوب، والخضراوات، والفاكهة التي تزود المدينة؛ بينما يرعون على السهول القطعان التي تزودها باللحم. يقوم العدو الذي يحاصر المدينة بقطع كل هذه الإمدادات؛ وعلى الرغم من أن جاهان لديه احتياطات مُخزنة في المدينة، فلا يمكن أن تدوم إلى أجل غير مُسمى.

---

(355) محركَ التوازن: هو جهاز شخصي للطيران، يتيح لمَن يرتديه الطيران، وهو نسخة بدائية من حزام الطيران الذي يوضع عادة على الظهر ويدفع المستخدِم للطيران عبر ضغط الغازات وأحيانًا الماء - https://barsoom.fandom.com/wiki/Equilibrimotor - المترجمة.

أشرت في مناقشتي للأمر مع جان هور أنني إذا استطعت الحصول طائرة، يمكنني أن أعود إلى هيليوم وأجلب أسطولاً من السفن الحربية القوية، فضلاً عن سفن النقل التي تحمل ما يكفي من بنادق ورجال لإبادة هين أبتول والباناريين من على وجه برسوم.

قال جان هور: «حسنًا، طائرتك هنا؛ جاءت مع أسطول هين أبتول. لقد تعرف عليها أحد رجالي، وعلى شارتك عليها، بمجرد أن رآها؛ وكنا نتساءل جميعًا كيف حصل هين أبتول عليها؛ لكننا رأينا بعد ذلك أن بحوزته سفنًا من مجموعة من الأمم المختلفة، ولم يكلف عناء إزالة شاراتهم».

قلت للتوضيح: «لقد وجدها في إحدى ساحات مدينة هورز المهجورة؛ وعندما هاجمه الرجال الخُضر، طار بها مع اثنين من محاربيه تاركًا الآخرين يُقتلون».

عاد الآن البادوار وكتيبته الذين ذهبوا لإحضار لانا وبان دان تشي وجاد-هان؛ لكن حيوانات الثوات الثلاثة كانت بلا ركاب!

قال البادوار: «لم نجدهم هناك. وعلى الرغم من أننا بحثنا في كل مكان، لم نتمكن من العثور عليهم؛ وإنما كانت توجد دماء على الأرض حيث كانوا».

* * *

الفصل (4)

لقد فقدتُ لانا الجاثولية مرة أخرى! ربما قبض عليها محاربو هين أبتول. طلبت من جان هور أن يعطيني أحد حيوانات الثوات، بحيث يمكنني الذهاب إلى الموقع ودراسة المكان الذي أخذوهم منه. وافق جان هور على طلبي، بل ورافقني أيضًا مع كتيبة من محاربيه.

كان من الواضح أن معركة نشبت في الموقع الذي تركتهم فيه؛ فالغطاء النباتي كان مسحوقًا وعليه دماء. لكن مرونة هذه النباتات الشبيهة بالطحالب في قيعان البحر الميت بالمريخ، جعلت آثار المعركة تختفي بسرعة، باستثناء الدماء؛ ولا يوجد ما يشير إلى الاتجاه الذي اتخذه خاطفو لانا.

سألت جان هور: «ما مدى بُعد خطوطهم عن هنا؟».

أجاب: «حوالي تسعة هاد» – وهو ليس تمامًا ثلاثة أميال بمقاييس كوكب الأرض.

قلت: «يمكننا أيضًا العودة إلى مخيمك؛ فليس لدينا قوة تكفي لإنجاز أي شيء الآن. سأعود بعد حلول الظلام».

اقترح جان هور: «يمكننا القيام بغارة صغيرة على أحد مخيماتهم الليلة».

قلت له: «سأذهب بمفردي؛ لديَّ خطة».

اعترض قائلاً: «لكن هذا ليس آمنًا. لديَّ مئات من الرجال، ونزعج الأعداء باستمرار. ويسعدنا أن نذهب معك».

«سوف أذهب لمجرد جمع معلومات، يا جان هور؛ ومن الأفضل أن أكون بمفردي».

عدنا إلى المخيم، وقمت بمساعدة أحد محاربي جان هور بدهن وجهي وجسمي بالصبغة الحمراء التي أحملها معي دائمًا، حيث أستخدمها عندما أجد من الضروري التنكر كرجل أحمر- وهذه الصبغة عبارة عن مرهم نحاسي ملون مثل ذلك الذي كان الإخوة بتور من زودانجا أول مَن أعطاني إياه منذ سنوات عديدة.

وعندما حل الظلام، امتطيت الثوات وتحركت برفقة جان هور واثنين من محاربيه؛ حيث وافقت على عرضه لمرافقتي إلى أقرب نقطه لخطوط البانارين. ولحسن الحظ كانت السماء بلا أقمار مؤقتًا. اقتربنا من أول نيران مخيمات العدو، وعندئذٍ ترجلت وودعت أصدقائي الجدد.

قال جان هور: «حظًّا سعيدًا! ستحتاج إليه».

كان كور-آن أحد المحاربين الذين رافقونا. قال لي: «أود أن أذهب معك، يا أمير، للتكفير عما فعلته».

قلت مؤكدًا: «كنت لآخذك معي، يا كور-آن، إذا كان من الضروري أن يرافقني أي شخص. وعلى أَي حال، ليس هناك ما يجب أن تُكفِّر عنه؛ وإذا كنت تريد القيام بشيء من أجلي، أعطني وعدًا بأنك سوف تقاتل دائمًا من أجل تارا الهيليومية ولانا الجاثولية».

قال: «أقسم بسيفي على ذلك». تركتهم واتخذت طريقي بحذر نحو مخيم البانار.

ومرة أخرى، كما هو الحال في مناسبات كثيرة، استخدمت تكتيكات عِرق آخر من المحاربين الحُمر - الأباتشي، في جنوب غرب كوكب الأرض - حيث زحفت على بطني وأنا أقترب أكثر من خطوط العدو. يمكنني رؤية أشكال المحاربين المتجمعين حول النيران، كما يمكنني سماع أصواتهم وضحكاتهم الفظة؛ ومع زيادة اقترابي سمعتهم يقسمون ويطلقون الكلمات البذيئة، التي تصدر بشكل طبيعي من أفواه المقاتلين. وعندما هبت عاصفة من الرياح من المخيم نحوي، استطعت حتى أن أشم رائحة عرقهم واختلاط الجلود بالدخان المتصاعد من نيرانهم.

خطا حارس ووقف بيني وبين النيران؛ وعندما اقترب أكثر مني، فردت جسمي على الأرض. سمعته يتثاءب عندما كان عند رأسي تقريبًا، فنهضت واقفًا أمامه. وأمسكت برقبته قبل أن يتمكن إطلاق صيحة تحذير، وطعنته في قلبه ثلاث مرات بخنجري. أكره القتل هكذا، ولكن ليس أمامي أي سبيل آخر، ولم أقتله من أجل نفسي - بل من أجل لنا الجاثولية، ومن أجل تارا الهيليومية، ومن أجل ديجاه ثوريس أميرتي الحبيبة.

وما إن وضعت جسده على الأرض، حتَّى نهض محارب كان يجلس أمام نيران قريبة ونظر نحونا. سأل زملاءه: «ماذا كان ذلك؟».

أجاب أحدهم: «الحارس؛ إنه هناك الآن». تركت الموقع ببطء، على أمل ألا يأتي أحد ليتحقق من الأمر.

قال المتحدث الأول: «يمكنني أن أقسم أنني رأيت رجلين يتشاجران هناك».

فقال متحدث ثالث: «أنت دائمًا ترى أشياء».

ابتعدت عن الموقع إلى أن توقفوا عن مناقشة هذه المسألة وتحول انتباههم لشيء آخر؛ ثم ركعت بجوار الرجل الميت وجردته من عتاده وأسلحته، وارتديتها على الفور. وهكذا أصبحت، من حيث مظهري الخارجي، أحد جنود هين أبتول – محارب باناري من إحدى المدن الزجاجية اللامعة في الشمال المتجمد. مشيت إلى أقصى نهاية موقعي، ثم واصلت ودخلت المخيم على مسافة من المجموعة التي ضمت المحارب الذي أثرت شكوكه. وعلى الرغم من مروري بالقرب من مجموعة أخرى من المحاربين، لم يهتم بي أحد. كان هناك أفراد آخرون يتجولون من حلقة نيران إلى غيرها، ولذا لم تجذب حركتي أي انتباه.

لا بد أنني مشيت مسافة هاد كامل داخل خطوطهم من نقطه دخولي، قبل أن أشعر بالأمان لوقوفي مع المحاربين واختلاطي بهم. وأخيراً رأيت محاربًا يجلس وحيدًا بجانب النيران، فاقتربت منه.

قلت، مستخدمًا التحية البرسومية: «كاور!».

أجاب. «كاور! اجلس. أنا غريب هنا، وليس لديَّ أصدقاء في هذه الدار». الدار هي وحدة عسكرية تضم ألف رجل، تماثل الفرقة في كوكب الأرض. «لم أخرج سوى اليوم، مع وحدة جديدة من بانكور. من الجيد أن أتحرك وأرى العالم مرة أخرى، بعد تجميد امتد لخمسين سنة».

قلت صائحًا: «لم تخرج من بانكور منذ خمسين سنة!»، مع تخميني أن بانكور هو اسم المدينة القطبية التي جاء منها، وعلى أمل أن يكون التخمين صحيحًا.

قال: «لا، وأنت! كم سنة كنت مجمدًا؟».

قلت: «لم أذهب إلى بانكور من قبل؛ أنا مَن الذين انضموا للتو إلى قوات هين أبتول منذ مجيئهم إلى الجنوب». تصورت أن هذا الموقف هو الأسلم؛ لأنني سوف أثير شكوكه إذا زعمت أنني أعرف بانكور، وأنا لم أذهب إليها أبدًا.

قال رفيقي: «حسنًا، لا بد أنك مجنون».

سألته: «لماذا؟».

«لا يضع أحد نفسه تحت سلطة هين أبتول إلا إذا كان مجنونًا. حسنًا، لقد فعلتها. سيأخذونك إلى بانكور بعد انتهاء هذه الحرب، إلا إذا كنت محظوظًا وقُتِلت؛ ثم يجمدونك هناك إلى أن يحتاجك هين أبتول في حملة أخرى. ما اسمك؟».

أجبت: «دوتار سوجات». استخدمت ثانية الاسم القديم الذي منحتني إياه جماعة المريخيين الخُضر في ثارك منذ سنوات عديدة».

«وأنا اسمي إيم-تار، أنا من كوبول».

«أظن أنك قلت إنك من بانكور».

أوضح: «أنا من كوبول من حيث المولد. وأنت، من أين؟».

قلت لتذكيره: «نحن البانتان ليس لنا بلد».

قال بإصرار: «لكنك لا بد أنك مولود في مكان ما».

قلت وأنا أحاول أن أغمز بمكر: «ربما كلما قل الحديث عن ذلك، كلما كان أفضل».

ضحك، وقال: «آسف أنني سألت».

في بعض الأحيان، عندما يرتكب رجل جريمة سياسية، تُعرض مكافأة ضخمة لمن يتقدم بمعلومات عن مكان وجوده؛ ولذلك يُغير اسمه ولا يكشف عن اسم بلده. وقد تركت إيم-تار يعتقد أنني هارب من العدالة.

سألته: «كيف ترى سير هذه الحملة؟».

أجاب إيم-تار: «سوف يفوز هين أبتول إذا نجح في تجويعهم؛ ولكن مما سمعته، لا يمكنه أبدًا الاستيلاء على المدينة بالقوة. إن الجاثوليين مقاتلون عظماء، وهو أكثر مما يمكن أن يُقال عن أولئك الذين يقاتلون تحت قيادة هين أبتول - قلوبنا ليست معه؛ لا نشعر بالولاء تجاه هين أبتول. لكن الجاثوليين يقاتلون الآن من أجل بيوتهم ومن أجل الجد؛ فهم يحبون الاثنين على حد سواء. يقولون إن أميرة جاهان هي ابنة أمير الحرب في برسِوم. وإذا عرف ما يحدث وأحضر أسطولاً وجيشًا من هيليوم، فلن يكون أمامنا سوى أن نبدأ في حفر قبورنا».

سألته: «وهل لدينا العديد من السجناء؟».

«ليس كثيراً. لقد أمسكوا بثلاثة هذا الصباح؛ وكانت ابنة جاهان، جِد جاثول، واحدة منهم؛ وكان الاثنان الآخران رجلين».

قلت: «هذا مثير للاهتمام؛ وأتساءل ما الذي سيفعله هين أبتول مع ابنة جاهان».

أجاب إيم-تار: «لا أعرف، لكنهم يقولون إنه أرسلها إلى بانكور بالفعل. يسمع المرء الكثير من الشائعات في الجيش، على الرغم من أن معظمها غير صحيح».

قلت: «أفترض أن هين أبتول لديه أسطول كبير من الطائرات».

«لديه الكثير من الخردة القديمة، وليس لديه العديد من الرجال الذين يستطيعون قيادتها».

قلت: «أنا طيار».

قال إيم-تار ناصحًا: «من الأفضل ألا تجعلهم يعرفون ذلك، وإلا سوف يضعونك على متن بعض تلك الطائرات القديمة».

«أين منصة الهبوط هنا؟».

«في هذ الاتجاه، على مسافة هاد تقريبًا»، وأشار في الاتجاه الذي كنت ذاهبًا إليه عندما توقفت للتحدث معه.

قلت: «حسنًا، وداعًا يا إيم-تار»، ونهضتُ.

«إلى أين تذهب؟».

قلت: «للطيران من أجل هين أبتول».

* * *

الفصل (5)

اتخذت طريقي خلال المخيم إلى حيث اصطف عدد من الطائرات. كان صفًّا يفتقر إلى التنظيم وغير عسكري، مما يشير إلى عدم الكفاءة؛ وكانت السفن عبارة عن أكثر تجميع مثير للدهشة من البقايا الأثرية التي عفا عليها الزمن رأيته من قبل، ويُعتبر معظمهم قطعًا متحفية.

جلس بعض المحاربين حول حلقة نيران قريبة. اقتربت منهم، على افتراض أنهم يرتبطون بخدمة الطيران.

سألت: «أين ضابط الطيران المسؤول؟».

«هناك»، قال أحدهم وهو يشير إلى أكبر سفينة في الصف، «لماذا؟ هل تريد مقابلته؟».

«نعم».

«حسنًا، ربما كان ثملاً».

قال رجل آخر: «إنه ثمل بالفعل».

سألت: «ما اسمه؟».

أجاب الأول: «الأودوار فور سان». ورتبة أودوار تعادل تقريبًا رتبة جنرال أو عميد. وهو يتولى قيادة 10 آلاف محارب في الجيش، وأسطول في القوات البحرية.

قلت: «شكرًا، سأذهب لمقابلته».

«لا تفعل، إذا كنت تعرفه؛ فهو وضيع مثل الأولسيو».

توجهت إلى السفينة الكبيرة. واضح أنها تعرضت للقصف وضربات المناخ، ولا بد أن عمرها الآن 50 سنة على الأقل. كان السلم يتدلى من منتصف السفينة، ووقف عند نهايته محارب يمتشق سيفه.

سألني: «ماذا تريد؟».

قلت: «لديَّ رسالة للأودوار فور سان».

«مَن الذي أرسلها؟».

قلت له: «هذا ليس من شأنك، عليك إبلاغه أن دوتار سوجات يريد مقابلته في مسألة مهمة».

قدم لي الزميل التحية العسكرية بطريقة ساخرة ،وقال: «لم أكن أعرف بوجود جدوار بيننا. لماذا لم تخبرني؟».

الجدوار هي أعلى رتبة في الجيش أو البحرية على المريخ. وهذه الرتبة - بخلاف الجد أو الجيداك، أو أمير الحرب – قد أنشأها لي خصيصًا خمسة من الجيداك في خمس إمبِراطوريات. وكان ذلك المحارب ليُفاجأ إذا عرف أنه منحني لقبًا أدني من لقبي بكثير.

ضحكت على مزحته، وقلت: «لا يعرف المرء مَن الذي يُضحِكه».

قال: «إذا كانت لديك رسالة بالفعل إلى الأولسيو العجوز، سوف أستدعي مسؤول سطح السفينة؛ ولكن، باسم إيسوس، من الأفضل أن تكون لديك رسالة مهمة».

أكدت له: «لديَّ رسالة مهمة بالفعل»؛ وكنت أقول الحقيقة؛ لأن الأمر كان على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لي. استدعى مسؤول سطح السفينة، وطلب منه أن يقول للأودوار إن دوتار سوجات هنا ومعه رسالة مهمة.

انتظرت حوالي خمس دقائق، ثم جاء استدعائي إلى السفينة وأخذوني إلى إحدى المقصورات. جلس رجل فظ وقذر الملابس أمام طاولة عليها إبريق كبير والعديد من الكؤوس المعدنية الثقيلة. نظر نحوي متذمرًا بأعين غائمة.

سأل: «ماذا يريد ابن الكالوت هذا الآن؟».

خمنت أنه يشير إلى ضابط أعلى، وربما إلى هين أبتول.

حسنًا، إذا كان يعتقد أنني أحمل رسالة من هين أبتول، فهذا أفضل بكثير.

قلت: «أنا هنا للعمل تحت قيادتك، بوصفي خبيراً بالطيران».

صاح في وجهي قائلاً: «وهل أرسلك في هذا الوقت من الليل لتبلغني بذلك؟».

قلت: «لديك عدد قليل من الطائرات الجيدة. وأنا بانتان، طرت في جميع أنواع السفن الفضائية في قوات هيليوم البحرية. وقد تصورت أنك ربما يسعدك أن أعمل معك

قبل أن يأخذني أي قائد آخر. أنا ملاح، وعلى دراية بجميع الأدوات الحديثة أما إذا لم تكن تريدني، سأكون حرًّا في الارتباط بأي مكان آخر».

كان مشوشًا بالشراب القوي، أو ربما لم تنطلي عليه الخدعة. تظاهر بأنه ينظر في الأمر بجدية؛ وخلال ذلك، سكب لنفسه شرابًا آخر، وابتلعه في جرعتين أو ثلاث – انسكب معظمها على جبهته. ملأ كأسًا أخرى ودفعه عبر الطاولة نحوي، مع انسكاب معظم محتوياته على سطح الطاولة.

قال: «اشرب!».

قلت: «ليس الآن؛ أنا لا أشرب أبدًا عندما أكون في الخدمة».

«أنت لست في الخدمة».

«أنا دائمًا في الخدمة؛ قد اضطر إلى الطيران بسفينة في أي لحظة».

فكر في الأمر لعدة دقائق بمساعدة شراب آخر؛ ثم ملأ كأسًا أخرى ودفعه عبر الطاولة نحوي. قال: «اشرب».

أمامي الآن كأسان؛ فمن الواضح أن فور سان لم يلاحظ أنني لم أشرب الكأس الأولى.

سألته: «ما السفينة التي سأقودها؟». كنت أرتقي بالحديث بسرعة. لم يلق فور سان بالًا لسؤالي، وانهمك في ما أصبح الآن عملية حساسة وصعبة - صب مشروبًا آخر، انسكب معظمه على الطاولة، ومنها إلى ركبتيه.

سألته: «ما السفينة التي قلت إنني سأتولى قيادتها؟».

تطلع حائرًا للحظة، ثم حاول جمع شتات نفسه بكرامة عسكرية. قال: «سوف تقود السفينة دوسار، أيها الدوّار»؛ ثم ملأ كأسًا أخرى ودفعه نحوي قائلًا: «اشرب، يا دوّار». تأكدت ترقيتي.

مشيت إلى مكتب مغطى بركام غير مرتب من الأوراق، وبحثت حتى وجدت ورقة رسمية فارغة وكتبت:

«إلى الدوّار دوتار سوجات:

عليك أن تأخذ السفينة دوسار على الفور.

بأمر من الأودوار القائد».

وبعد أن عثرت على قطعه قماش ومسحت الخمور من على الطاولة أمامه، وضعت الأمر وأعطيته القلم.

قلت: «لقد نسيت أن توقع هذا، يا أودوار». كان يبدأ في التمايل، ورأيت أنني يجب أن أسرع.

سألني: «أوقع ماذا؟»، ومد يده إلى الإبريق.

دفعت الإبريق بعيدًا عنه، وأمسكت يده ووضعت سن القلم في المكان الصحيح على الورقة، وقلت: «وقع هنا».

كرر: «وقع هنا»، وكتب اسمه بمشقة؛ ثم سقط إلى الأمام على الطاولة، نائمًا. لقد أنجزت المهمة في الوقت المناسب.

ذهبت إلى سطح السفينة؛ وكان القمران في السماء الآن: كلوروس فوق الأفق مباشرة، وثوريا أعلى قليلاً؛ وعندما يقترب كلوروس من الذروة، يكون ثوريا قد أكمل مداره حول برسوم واجتازه – يا لها من رحلة سريعة عبر السماء.

اقترب مني مسؤول سطح السفينة. سألته: «أين الطائرة دوسار؟».

أشار إلى الصف قائلاً: «أعتقد أنها السفينة الخامسة أو السادسة».

ذهبت إلى الجانب الآخر؛ وعندما نزلت إلى الأرض سألني الحارس: «هل كان الأولسيو العجوز ثملاً كعادته؟».

أجبت: «كان متزنًا تمامًا».

فقال: «إذَنْ علينا استدعاء طبيب، فلا بد أنه مريض».

مشيت على طول الصف، وعند السفينة الخامسة اقتربت من الحارس الذي يقف عند سلمها. سألته: «هل هذه هي السفينة دوسار؟».

سألني بوقاحة: «ألا يمكنك أن تقرأ؟».

نظرت إلى الشارة عند مقدمة السفينة؛ كانت دوسار. وضعت الأمر أمامه وسألته: «هل يمكنك القراءة؟».

بدأ يهتم وقدم لي التحية. قال متجهمًا: «لم أتمكن من التعرف عليك من خلال معادنك». كان على حق تمامًا؛ فقد كنت أرتدي معادن محارب عادي.

نظرت إلى السفينة. لم يكن مظهرها واعدًا - مجرد هيكل قديم، عتيق الطراز. صعدت السلم ودخلت إلى سطح السفينة التي أصبحتُ قائدها. لا يوجد ملاح لتوجيه النفير. هناك رجل واحد فقط للمراقبة، وكان مكومًا على سطح السفينة مستغرقًا في النوم.

توجهت نحوه ولكزته بأصبع قدمي. قلت له آمرًا: «استيقظ، هيا!».

فتح عينيه ونظر في وجهي، ثم قفز واقفًا على قدميه. سألني: «مَن أنت؟ وماذا تفعل هنا؟ وماذا تقصد بركلي في ضلوعي وإيقاظي؟».

قلت له: «سؤال بسؤال، يا رجُلي. سأجيب عن سؤالك الأول، وهي إجابة عن الأسئلة الأخرى أيضًا». أخرجت الأمر ليراه.

أمسك الأمر وهو يقول: «لا تناديني رجُلي، أنت ...»؛ لكنه توقف هنا بعد أن قرأ الأمر. قدم لي التحية وأعاد لي الأمر، لكني لاحظت ما يوحي بمجرد ابتسامة على وجهه.

سألته: «لماذا تبتسم؟».

قال: «كنت أفكر أنك ربما حصلت على أسهل وظيفة في قوات هين أبتول البحرية».

«ماذا تعني؟».

«لن تجد شيئًا تفعله؛ لأن دوسار خارج الخدمة – فهي لن تطير».

إذَنْ، ربما لم يكن الأودوار فور سان ثملاً كما تصورت.

* * *

الفصل (6)

كان سطح السفينة دوسار قذرًا، ومتهالكًا نتيجة للعوامل الجوية. كان كل شيء في حالة من الفوضى، ولكن ما الفارق إذا كانت السفينة لا تطير؟

سألته: «كم عدد الضباط والرجال الذين يعملون عليها؟».

ابتسم الزميل وأشار إلى نفسه قائلًا: «واحد، أو أصبحنا الآن اثنين بوجودك».

سألته عن اسمه، فقال فو-نار. كان ليُعتبر في الولايات المتحدة بحارًا عاديًّا، لكن الكلمات المريخية للملاح والبحار قد عفا عليها الزمن الآن، مثلها مثل المحيطات التي ماتت تقريبًا من ذاكرة الإنسان. يُعرف جميع البحارة والجنود باسم 'الثان'، وقد ترجمتها دائمًا كمحاربين.

قلت: «حسنًا، فو-نار، دعنا نلقي نظرة على سفينتنا. ما مشكلتها؟ لماذا لا تطير؟».

قال: «إنه المحرك، يا سيدي، لم يعُد يعمل».

قلت: «سألقي نظرة على السفينة، ثم نرى ما إذا كنا لا نستطيع أن نفعل شيئًا حيال المحرك».

أخذت فو-نار معي، وذهبت إلى أسفل. كان كل شيء قذرًا وفي حالة فوضى. سألته: «منذ متى وهي خارج الخدمة؟».

«حوالي شهر».

قلت: «لا يمكن بالتأكيد أنك تسببت في كل هذه الفوضى خلال شهر».

«لا يا سيدي؛ كانت دائمًا هكذا، حتى عندما كانت تطير».

«مَن كان قائدها؟ أيًّا مَن كان، يجب طرده لأنه سمح أن تصل السفينة إلى هذه الحالة».

قال فو-نار: «لن يُطرد أبدًا يا سيدي».

سألته: «لماذا؟».

أوضح فو-نار وهو يبتسم: «لأنه كان ثملاً وسقط من على متن السفينة خلال رحلتنا الأخيرة».

فحصت البنادق، كانوا ثمانيَ: أربعٌ على الجانب بجوار المقدمة الصغرى للسفينة، وبنادق المؤخرة على سطح السفينة. تبدو جميع البنادق في حالة جيدة، وهناك الكثير من الذخيرة. كانت رفوف القنابل في جوف السفينة ممتلئة، كما يوجد شَرَكَ قنبلة خداعية في الأمام وأخرى في الخلف.

ضمت السفينة أماكن لإقامة خمسة وعشرين رجلاً وثلاثة ضباط، فضلاً عن مطبخ جيد، والكثير من المؤن. إن لم أكن قد رأيت الأودوار فور سان، لم أكن لأفهم لماذا تُركت كل هذه المواد – البنادق، والذخيرة، والمؤن، والمعدات - على متن سفينة أَصبحت خارج الخدمة. بدا لي أن عُمر السفينة حوالي عشر سنوات – وبعد فحص دقيق؛ سطحيًّا، بدا عمرها مائة سنة.

قلت لفو-نار أن يعود إلى سطح السفينة وينام، إذا كان يرغب في ذلك؛ ثم ذهبت إلى مقصورة الدوّار واستلقيت. لم أنلْ قسطًا كافيًا من النوم في الليلة السابقة، وكنت مُتعبًا. استيقظت مع ضوء النهار، ووجدت فو-نار في المطبخ يُعد إفطاره. طلبت منه إعداد إفطاري؛ وبعد أن تناولنا طعامنا، ذهبت لإلقاء نظرة على المحرك.

يؤلمني أن أستكشف هذه السفينة، وأرى الحالة التي وصلت لها بسبب ربانها المخمور. أحب الطائرات الفضائية البرسومية، وشاركت في بحرية هيليوم لسنوات عديدة بحيث اكتسبت السفن الفضائية شخصيات بشرية تقريبًا بالنسبة لي. كنت أتولى تصميمها، وأشرف على تشييدها، وتمكنت من تطوير أفكار جديدة في المُعدات والمُحركات والتسليح. كما أن العديد من الأدوات القياسية للطيران والملاحة هي من اختراعي.

وإذا كان هناك شيء لا أعرفه عن الطائرات المريخية الحديثة، فهذا يعني أن لا أحدًا آخر يعرفه.

وجدت الأدوات، وقمت بتفكيك المحرك عمليًّا والتحقق من كل جزء. وخلال قيامي بذلك، طلبت من فو-نار أن يبدأ في تنظيف السفينة. قلت له أن يبدأ بمقصورتي، ثم ينتقل إلى تنظيف المطبخ. يستغرق الأمر من رجل بمفرده شهرًا أو أكثر لإعادة السفينة دوسار إلى حالة معقولة، لكننا على الأقل سنبدأ.

اكتشفت، قبل مرور نصف ساعة من عملي على المحرك، طبيعة المشكلة – مجرد الأوساخ! فقد سدت جميع خطوط التغذية، ومنعت الوقود المريخي المُركز الرائع من الوصول إلى المحرك.

أذهلني هذا الغباء وعدم الكفاءة، وإن لم يُفاجئني تمامًا؛ فلا يمكن أن تظل الطائرات البرسومية في حالة جيدة في ظل قائد سكير. ففي قوات هيليوم البحرية، لا يشرب أي ضابط أبدًا وهو على متن سفينة أو وهو في الخدمة؛ كما لا يفرط أي منهم أبدًا في الشراب.

وإذا كان ضابط في حالة سُكر في أي وقت على متن سفينته، يحرص الطاقم على التأكد من عدم تكراره لذلك؛ لأنهم يعرفون أن حياتهم في أيدي ضباطهم، ولا يثقون في تركها إلى رجل مخمور - وببساطه يدفعون الضابط من فوق متن السفينة. كانت عادة راسخة، أو تُستخدم قبل أن يتوقف عمليًّا شرب الضباط، ألا يُتخَذ أي إجراء ضد المحارب الذي يطبق الانضباط بنفسه، حتى وإن رأى الضباط ما فعله. وقد خمنت أن هذه العادة المشهورة لها علاقة بالحادث المؤسف الذي سرق من السفينة دوسار قائدها السابق.

انقضى اليوم عمليًّا عندما انتهيت من تنظيف كل جزء من المحرك بدقة وأعدتُ تجميعه؛ ثم قمت بتشغيل المحرك. كانت همهمة المحرك اللطيفة، بلا أي ضجة أو اهتزاز تقريبًا، بمثابة الموسيقى في أذني. لديَّ الآن سفينة - سفينة يمكنها أن تطير!

يمكن لرجل واحد تشغيل مثل هذه السفينة، لكنه لا يستطيع بالطبع خوض حرب بها بمفرده. من أين يمكنني الحصول على رجال؟ لم أكن أريد مجرد أي رجال. أريد مقاتلين جيدين، على استعداد للقتال ضد هين أبتول.

وخلال تفكيري في هذه المشكلة، ذهبت إلى حجرتي لتنظيفها؛ فوجدتها مُرتبة بشكل أنيق. لقد قام فو-نار بعمل جيد؛ كما جلب أيضًا العتاد والمعادن الخاصة برتبة الدوّار – لا شك أنها من ممتلكات القائد الراحل. استحممت وارتديت العتاد، وشعرت أنني رجل جديد. توجهت إلى السطح العلوي. جذبت اهتمام فو-نار، الذي قدم لي التحية.

سألته: «فو-نار، هل أنت باناري؟».

قال بحِدة: «يجب أن أقول لا... أنا أصلاً من جاهار، والآن ليس لديَّ بلد – أنا بانتان».

سألته: «هل كنت هناك خلال عهد تول أكستار؟».

فأجاب: «نعم؛ وبسببه أصبحت منفيًّا - حاولت قتله، وقبضوا عليّ، وبالكاد ما تمكنت من الفرار وإنقاذ حياتي. لا يمكنني العودة ما دام هو في قيد الحياة».

قلت: «يمكنك العودة إذَنْ؛ فقد مات تول أكستار».

«كيف يمكنك أن تعرف، يا سيدي؟».

«أعرف الرجل الذي قتله».

صاح فو-نار: «يا لحظي! الآن عندما أصبح بإمكاني أن أعود، لا أستطيع العودة».

«لماذا لا يمكنك العودة؟».

«للسبب نفسه، يا سيدي، الذي من أجله لن يمكنك العودة أبدًا، بغض النظر من أين أتيت، إلا إذا كنت من بانار - وهذا ما أشك فيه».

قلت: «لا، أنا لست من بانار؛ ولكن ماذا يجعلك تعتقد أنني لن أعود إلى بلدي؟».

«لأن كل مَن يقع في أيدي هين أبتول لا يمكنه أن يهرب أبدًا إلا بالموت».

* * *

الفصل (7)

قلت: «أوه، يا فو-نار، هذا سخف. ماذا يمنع أي منا من المغادرة؟».

أجاب: «إذا غادرنا هذا المكان، سيقبض علينا الجاثوليون ويقتلونا. وبعد انتهاء هذه الحملة، لن نهبط إلا في بانار؛ ومن بانار لا يوجد مفر. لا تتوقف سُفن هين أبتول أبدًا في أي مدينة صديقة، حيث يمكن للمرء أن يجد فرصة للهرب؛ لأنه لا توجد مدن صديقة لهين أبتول. إنه يهاجم كل مدينة يعتقد أن بإمكانه غزوها، وينهبها، ثم يطير بعيدًا بكل الغنائم التي يمكنه جمعها ويأخذ معه العديد من السجناء بقدر ما يمكن أن تحمل سفنه - ومعظمهم من الرجال. يقولون إن لديه مليون رجل الآن، وإنه يخطط في النهاية لغزو هيليوم وبعد ذلك برسوم كلها».

«لقد أسرني عندما نهب راكسار في طريقه من بانار إلى جاثول؛ كنت أخدم في جيش جِد راكسار».

سألته: «وهل ترغب في العودة إلى جاهار؟».

فأجاب: «بالتأكيد. زوجتي هناك، إذا كانت لا تزال تعيش؛ فقد انقضى عشرون عامًا».

«ألا تشعر بالولاء تجاه هين أبتول؟».

أجاب: «كلا، على الإطلاق؛ لماذا؟».

«أعتقد يمكنني أن أقول لك. إنني أتمتع بنفس القدرة التي يتمتع بها جميع البرسوميين، وهي قراءة عقل شخص آخر عندما لا يكون مغلقًا. وقد كان عقلك الباطن مفتوحًا أحيانًا، يا فو-نار، مما أتاح لي قراءة أفكارك، وعرفت عنك العديد من الأشياء. كان أحدها هو تساؤلك الدائم عني - مَن أنا، وما إذا كان يمكنك الوثوق بي. وعرفت أيضًا أنك تحتقر البانار. كما اكتشفت أنك لم تكن محاربًا عاديًّا في جاهار، وإنما أنت دوّار في خدمة الجيداك - كنت تفكر في ذلك عندما رأيتني أول مرة مرتديًا معدن وعتاد دوّار».

ابتسم فو-نار، وقال: «أنت تقرأ جيدًا، ويجب أن أكون أكثر حذرًا. أنت تقرأ أفضل مني بكثير، أو تغلق أفكارك على نحو أفضل مني؛ لأنني لم أتمكن من الحصول حتى على أدنى معرفة عما يدور في ذهنك».

قلت: «لم يتمكن أي رجل من قراءة ذهني، وهذا أمر غريب أيضًا وليس له تفسير. لقد نجح المريخيون في تطوير قراءة العقل إلى حد أن أصبح فنًّا جميلاً، ومع ذلك لم يتمكن أحد أبدًا من قراءة ذهني. ربما لأنه عقل رجل من كوكب الأرض، والتخاطر لم يتقدم كثيراً على كوكبنا».

قال فو-نار: «أنت محظوظ. وإنما برجاء أن تستكمل ما بدأته من حديث».

قلت: «حسنًا. بداية، لقد أصلحتُ المحرك – والآن يمكن لدوسار أن تطير».

صاح فو-نار: «جيد! أنا قلت إنك لست من بانار؛ فهم أغبى شعب في العالم. لم يكن أي باناري ليستطيع إصلاحه أبدًا؛ كل ما يمكنهم القيام به هو ترك الأشياء للخراب والدمار. واصل كلامك».

«نحتاج الآن إلى طاقم. هل يمكننا إيجاد 15-20 رجلاً جديرين بالثقة وقادرين على القتال، ويتبعونني إلى أي مكان أقودهم إليه للفوز بحريتهم من هين أبتول؟».

أجاب فو-نار: «يمكنني أن أجد لك كل الرجال الذين تحتاج إليهم».

قلت: «عليك أن تبدأ على الفور؛ أنت الآن بدوار أول في السفينة دوسار».

قال فو-نار ضاحكًا: «ها أنا أعود للعالم مرة أخرى. سأبدأ فورًا، وإنما لا تتوقع معجزة. فقد يستغرق العثور على رجال مناسبين بعض الوقت».

«دعهم يأتون إلى السفينة بعد حلول الظلام، وقل لهم أن يتأكدوا من عدم رؤية أحد لهم. ماذا نفعل حيال ذلك الحارس عند أسفل السلم؟».

قال فو-نار: «الشخص الذي كان في الخدمة عندما جئت إلى السفينة

هو شخص جيد؛ وسوف يأتي معنا. إنه يعمل من الزود الثامن إلى التاسع، وسوف أطلب من الرجال القدوم في هذا التوقيت».

قلت وهو يستدير: «حظًّا سعيدًا، يا بادوار».

مر باقي اليوم ببطء. قضيت بعض الوقت في مقصورتي أنظر في أوراق السفينة. تحتفظ السفن البرسومية بسجلات مثل سفن كوكب الأرض، وانشغلت عدة ساعات في قراءة سجلات دوسار. لقد تم الاستيلاء على السفينة منذ أربع سنوات عندما كانت في رحلة علمية بالقطب الشمالي؛ على أن السجلات سيئة جدًّا منذ ذلك الحين، في ظل قيادة البانارييين. ففي بعض الأحيان لا توجد مدخلات لمدة أسبوع، وعندما يدونون شيئًا يكون بإهمال وتعوزه المهنية. كلما عرفت أكثر عن البانارييين، قل إعجابي بهم – ناهيك عن التفكير في أن المخلوق الذي يحكمهم يطمح إلى غزو العالم!.

عاد فو-نار في حوالي نهاية الزود السابع. قال: «كان حظي أفضل بكثير مما توقعت؛ فكل رجل اقتربت منه يعرف ثلاثة أو أربعة يثق فيهم، ولذا لم يستغرق إيجاد 25 رجلاً وقتًا طويلاً. أعتقد أيضًا أن لديَّ الرجل الجديد برتبة البادوار الثاني. كان برتبة بادوار في جيش هيليوم، وخدم على العديد من سفنها».

سألته: «ما اسمه ؟ فأنا أعرف العديد من رجال هيليوم».

أجاب فو-نار: «إنه تان هادرون، من هاستور».

تان هادرون من هاستور! لماذا، لقد كان واحدًا من أفضل ضباطي؟ ما الحظ السيئ الذي أوقعه في أسطول هين أبتول البحري؟

قلت بصوت عال: «تان هادرون من هاستور؛ يبدو الاسم مألوفًا إلى حد ما. ربما كنت أعرفه». لم أكن أرغب أن يعرف أحد أنني جون كارتر، أمير هيليوم؛ فإذا عُرف ذلك وأمسكوا بي، سوف ينتزع هين أبتول فدية هائلة من تاردوس مورس، جيداك هيليوم، وجد زوجتي ديجاه ثوريس.

بدأ وصول المحاربون إلى متن دوسار بعد الزود الثامن مباشرة.

أصدرت تعليماتي إلى فو-نار لإرسالهم على الفور إلى مقصوراتهم، لأني خشيت أن تجذب الحياة على سطح السفينة دوسار الانتباه. وطلبت منه أيضًا أن يرسل تان هادرون إلى مقصورتي بمجرد صعوده إلى متن السفينة.

طرق شخص باب مقصورتي في حوالي الزود الثامن والنصف. دعوته للدخول، ودخل تان هادرون إلى المقصورة. خدعته بشرتي الحمراء وعتادي الباناري، فلم يتعرف علي.

قال: «أنا تان هادرون من هاستور. أبلغني البادوار فو-نار أنك تريد مقابلتي».

سألته: «أنت لست باناري؟».

توتر، ثم قال بفخر: «أنا من مدينة هاستور في هيليوم».

سألته: «أين هاستور؟».

بدا مندهشًا من هذا الجهل. قال: «إنها تقع مباشرة جنوب هيليوم الكبرى، يا سيدي، على مسافة حوالي 500 هاد. أرجو أن تعذرني، فقد فهمت من البادوار فو-نار أنك تعرف العديد من رجال هيليوم، ولذا تصورت أنك زرت الإمبراطورية. بل فهمت منه، في الواقع، أنك خدمت في قواتنا البحرية».

قلت: «لم أخدم في القوات البحرية هنا أو هناك. أوصى فو-نار بأن أمنحك منصب البادوار الثاني على متن دوسار. عليك أن تخدمني بإخلاص، وتتبعني إلى أي مكان أذهب إليه؛ ومكافأتك هي حريتك من هين أبتول».

رأيت أنه متشكك بعض الشيء حول الاقتراح برمته بعد أن قابلني – فقد قابل رجلاً لم يسمع عن هاستور، وهذا لم يشعره بالراحة؛ ومع ذلك لمس غمد سيفه وقال إنه سيتبعني بإخلاص.

سألني: «هل هذا كل شيء، يا سيدي؟».

قلت: «نعم، في الوقت الحالي. وبعد أن يصل الرجال جميعًا إلى السفينة، سأطلب الاجتماع معهم هنا، وعندئذ سوف أحدد الضباط. أرجو أن تحضر».

قدم التحية، واستدار ليخرج.

ناديت عليه: «أوه، بالمناسبة، كيف حال تافيا؟».

اهتز كما لو أن أحدًا أطلق عليه النار، واتسعت عيناه.

سألني: «ماذا تعرف عن تافيا يا سيدي؟ إنها زوجتي».

«أعرف أنها فتاة رائعة، ولذا لا أفهم لماذا لست معها في هاستور؛ أم أن موقعك في هيليوم الآن؟».

اقترب قليلاً مني، ونظر في وجهي باهتمام. لم يكن الضوء جيدًا في مقصورتي، وإلا لكان ليتعرف علي بسرعة أكبر.

وأخيراً تدلى فكه، ثم فك سيفه وألقاه عند قدمي صائحًا: «جون كارتر!».

قلت لتحذيره: «ليس بصوت عالٍ، يا هادرون؛ لا أحد هنا يعرف مَن أنا، ويجب ألا يعرف أحد باستثنائك».

ضحك قائلاً: «أمضيت وقتًا طيبًا معي، يا سيدي، أليس كذلك؟».

قلت: «لقد مر وقت طويل منذ أن تمكنت من الضحك على أي شيء؛ ولذا أرجو أن تغفر لي. والآن، أخبرني عما حدث لك وأوقعك في هذا المأزق».

قال: «ربما نصف قوات هيليوم البحرية تبحث عنك وعن لانا الجاثولية. جاءتنا شائعات عن مكانك أو مكانها من جميع أنحاء برسوم. وكنت، مثلي مثل العديد من الضباط الآخرين، أبحث عنك وعن لانا في طائرة لرجل واحد. لكن حظي كان سيئًا، يا سيدي. وها أنا هنا. أصابت طائرتي طلقة من إحدى سفن هين أبتول؛ وأمسكوا بي بمجرد هبوطي».

قلت له: «كنت، ومعي لانا الجاثولية ورفيقين آخرين، في طائرة، وأسقطتها أيضًا إحدى سفن هين أبتول. وقبض عليهم بعض محاربي هين أبتول، كما أعتقد، عندما تركتهم للبحث عن الطعام بعد هبوطنا خلف خطوطهم. علينا أن نحاول التأكد، إن أمكن، أين توجد لانا؛ وبعدها يمكننا التخطيط بذكاء. ربما بعض الرجال الذين جاءوا إلينا لديهم معلومات، حاول أن تعرف».

قدم لي التحية وغادر مقصورتي. كان من الجيد أن أعرف أن لديَّ رجلاً مثل تان هادرون الهاستوري كأحد المساعدين.

* * *

الفصل (8)

غادر تان هادرون مقصورتي، وبعد فترة وجيزة دخل فو-نار لإبلاغي بأن جميع المجندين وصلوا ما عدا واحد، وأنه طلب من الرجال تنظيم السفينة وترتيبها. لكنه كان يبدو قلقًا بعض الشيء، فسألته عما يقلقه.

أجاب: «يقلقني عدم وصول أحد المحاربين، والرجل الذي أقنعه بالانضمام إلينا يشعر بالقلق أيضًا. وقال إن معرفته به لا تمتد لفترة طويلة، وقد التقى عند وصوله إلى دوسار برجلين يعرفان ذلك المحارب جيدًا ويقولون إنه أولسيو».

قلت: «حسنًا، لا يوجد شيء يمكننا القيام به حيال ذلك الآن. وإذا كان هذا الرجل ليتحدث ويثير الشك، فعلينا أن نقلع بالسفينة بأسرع ما يمكن. هل حددت لكل رجل موقعه؟».

أجاب: «تان هادرون يقوم بذلك الآن. أعتقد أن هذا الرجل ضابط رائع».

قلت موافقًا: «أنا متأكد من ذلك. عليك أن تتأكد من تخصيص أربعة رجال لقطع الحبال على الفور، إذا واجهنا ضرورة الهروب السريع».

عندما ترسو الطائرات المريخية الكبيرة على الأرض، يجري ربطها بأربع دعائم ثابتة: دعامة على كل جانب من جانبي المقدمة، ودعامة على كل جانب من جانبي المؤخرة. وإذا لم تكن السفينة عائدة إلى نفس المرسى، تؤخذ هذه الدعائم إلى متنها قبل أن تقلع. وفي حالة المغادرة القسرية -التي أتوقع أنها قد تكون ضرورية في حالتنا- تُقطع غالبًا الحبال التي تربط السفينة بالدعائم.

عاد فو-نار مسرعًا بعد خمس دقائق من مغادرته مقصورتي، قال: «أعتقد أن علينا الرحيل، يا سيدي؛ ذلك أن الأودوار فور سان قادم إلينا! ومعه المحارب المفقود. لا بد أنه أبلغ فور سان بكل ما يعرفه».

«أحضر الأودوار إلى مقصورتي بمجرد وصوله إلى متن سفينتنا، ثم أصدر أمرًا للرجال بالتوجه إلى مواقعهم، وتأكد من أن الرجال الأربعة الذين خصصتهم لهذه المهمة يقفون بفؤوسهم عند حبال المرساة. اطلب من تان هادرون أن يبدأ تشغيل المحرك، ويستعد للإقلاع. واطلب من أحد الرجال أن يقف خارج باب مقصورتي لينقل أمري بالإقلاع عندما أعطي الإشارة؛ وهي عندما أصفق بيدي مرتين».

ذهب فو-نار لبضع دقائق، وعاد ثانية. قال: «لن ينزل إلى مقصورتك، وهو يسير كحيوان ثوات مجنون، ويطلب إحضار الرجل الذي أعطى الأمر بتجنيد طاقم لدوسار إلى سطح السفينة».

سألته: «هل تان هادرون عند لوحات التحكم، ومستعد لبدء تشغيل المحرك؟».

أجاب فو-نار: «نعم».

«سيبدأ إذَنْ بمجرد أن أصعد إلى سطح السفينة، وأرسل رجالك في الوقت نفسه إلى أحبال الرسو، وأخبرهم عن الإشارة».

انتظرت بضع دقائق بعد مغادرة فو-نار، ثم صعدتُ إلى سطح السفينة. كان فور سان يضرب بقدمة على السطح في غضب رهيب واضح، كما كان أيضًا ثملاً إلى حد ما.

ذهبت إليه وقدمت له التحية، ثم سألته: «هل أرسلت في طلبي، يا سيدي؟».

سألني: «مَن أنت؟».

أجبت: «أنا الدوّار المسؤول عن السفينة دوسار، يا سيدي».

صاح: «مَن قال ذلك؟ ومَن كلفك بقيادة هذه السفينة؟ بل مَن كلفك بقيادة أي سفينة؟».

«أنت، يا سيدي».

قال صارخًا: «أنا؟ أنا لم أرك من قبل. أنت مقبوض عليك. أمسكوه!». التفت إلى المحارب الذي يقف بجواره –محاربي المفقود،

كما كنت أشك- وبدأ في التحدث إليه ثانية.

قلت: «انتظر لحظة. انظر إلى هذا، إنه أمر مكتوب وعليه توقيعك بتعييني لقيادة دوسار». رفعت الأمر إلى أعلى حتى يتمكن من قراءته في ضوء قمرَي المريخ المنيرين.

بدا متفاجئًا ومكتئبًا قليلاً لمجرد لحظة، ثم انفجر متوعدًا: «إنها مزورة! وعلى أي حال، لم تعطك السلطة لتجنيد محاربين للسفينة». ها هو يضعف.

سألته: «ما فائدة سفينة قتالية دون محاربين؟».

قال: «أنت لا تحتاج إلى محاربين على متن سفينة لن تطير، أيها الأحمق».

«كنت تعتقد أنك ذكي لتأخذ توقيعي على هذا الأمر، لكنني أذكى منك – فقد كنت أعرف أن دوسار لن تطير».

سألته: «حسنًا، لماذا كل هذه الضجة إذَنْ، يا سيدي؟».

«لأنك تخطط لشيء لا أعرفه، لكنني سأعرف – أن تحضر رجالاً على متن هذه السفينة سرًّا في الليل! أنا ألغي هذا الأمر، وأضعك رهن الاعتقال».

كنت أود إخراجه من السفينة بسلام، لأني أردت التأكد من مكان لانا قبل الإقلاع. أخبرني أحد الرجال أنه سمع أنها على متن سفينة متجهة إلى بانكور، وإنما لم يكن متأكدًا. وكنت أرغب أيضًا معرفة ما إذا كان هين أبتول معها.

قلت: «حسنًا، فور سان؛ أود أن أقول لك شيئًا الآن. أنا قائد هذه السفينة، وأنوي البقاء في قيادتها. سأعطيك وهذا الجرذ ثلاث ثوان للرحيل، لأن دوسار ستقلع بعد ثلاث ثوان»، ثم صفقت بيدي مرتين.

ضحك فور سان ساخرًا، وقال: «قلت لك إنها لن تطير. والآن، هيا! إذا لم تأتِ بهدوء، سنأخذك بالقوة»، وأشار إلى الجانب الآخر. نظرت، ورأيت كتيبة قوية من المحاربين تسير نحو دوسار، التي بدأت في الوقت نفسه ترتفع من على الأرض.

وقف فور سان أمامي مزهوًا، وسألني: «ماذا ستفعل الآن؟».

أجبت وأنا أشير إلى الجانب: «سوف آخذك في نزهة صغيرة».

ألقى نظرة واحدة، ثم ركض إلى الدرابزين. كان محاربوه ينظرون من أسفل إليه في حيرة عقيمة. صاح فور سان في البادوار الذي يقودهم: «أصدر أمرًا إلى أوكار بمتابعة هذه السفينة والاستيلاء عليها!». كانت أوكار هي سفينته الرئيسة.

ونظرًا لأن خمور قائد السفينة السابق لا تزال موجودة في مقصورتي، اقترحت عليه: «ربما ترغب في النزول إلى مقصورتي لتشرب قليلاً». وأمرت المحارب الذي خاننا: «سوف تذهب معه، وستجد الخمور في إحدى الخزائن»، ثم ذهبت إلى الجسر. وفي طريقي، أرسلت محاربًا لاستدعاء فو-نار. قلت لتان هادرون أن يطوف فوق خط السفن. وعندما جاء فو-نار، أعطيته أوامره، ثم تركنا ونزل إلى أسفل.

قلت لتان هادرون: «لا يمكننا أن ندعهم يطيرون؛ فسفينتنا ليست سريعة، ولن توجد أمامنا فرصة إذا لحق بنا العديد منهم».

اتبع تان هادرون أوامري وطار منخفضًا نحو أول سفينة في الصف؛ كانت أوكار، وعلى وشك الإقلاع. وجهت إشارة إلى فو-نار، وبعد لحظة كان هناك انفجار هائل على متن السفينة أوكار – أصابت أول قنابلنا الهدف بدقة! تحركنا ببطء على طول صف الطائرات، وأسقطنا قنابلنا. وقبل أن نصل إلى منتصف الصف، كانت السفن في الطرف الأدنى تقلع، والمقذوفات تنفجر من حولنا من البطاريات الأرضية.

قلت لتان هادرون: «لقد حان الوقت للخروج من هنا». فتح صمام السرعة إلى أقصاه، وارتفعت دوسار بسرعة في مسار متعرج.

كانت بنادقنا ترد على البطاريات الأرضية، ويبدو أنها كانت شديدة الفاعلية لأننا لم نتعرض لأي إصابة على الإطلاق. شعرت أن الحظ ساعدنا حتى الآن للخروج من هذا الوضع. لم ندمر العديد من السفن

كما كنت آمل، وطارت عدة سفن بالفعل وسوف تطاردنا دون شك. يمكنني رؤية سفينة تقترب من ذيلنا بالفعل، لكنها خارج النطاق ويبدو أنها ليست سريعة ولن تتمكن من اللحاق بنا.

قلت لتان هادرون أن يحدد مساره في اتجاه الشمال، ثم أرسلت لفو-نار كي يجمع كل الرجال على سطح السفينة؛ أردت فرصة لرؤية طاقمي وشرح ما تنطوي عليه رحلتنا. والآن وقت مناسب، حيث لما توجد سفن ضمن نطاقنا، وقد لا يستمر ذلك طويلاً.

جاء الرجال من أسفل ومن مواقعهم على سطح السفينة. كانوا، في أغلبهم، مجموعة صلبة، من قدامى المحاربين الذين شاركوا في حملات عديدة. أدركت، عندما نظرت إليهم، أنهم يحاولون تقييمي؛ وعلى الأرجح يستفهمون عني أكثر مما أستفهم عنهم، لأنني كنت على يقين كامل بما سيقومون به إذا تصوروا أن بإمكانهم التغلب عليَّ – «أسقُط» من السفينة، ويستولون عليها، ثم يتشاجرون على ما ينبغي القيام به وإلى أين يطيرون بالسفينة، وفي النهاية لن يبقى منهم في قيد الحياة سوى نصف دزينة من أكثرهم قوة، ويتوجهون إلى أقرب مدينة لبيع دوسار ثم يعربدون - إن لم يُدمروها قبل ذلك.

سألت كل رجل عن اسمه وخبرته الماضية. بلغ عددهم 23 رجلاً، من بينهم 11 بانتانًا و12 قاتلاً، وحاربوا جميعًا في أنحاء العالم كافة. وكان سبعة من البانتان من هيليوم، أو خدموا في قواتها البحرية؛ وكنت أعرف أنهم اعتادوا على الانضباط. وكان القتلة من مدن مختلفة، تتناثر في جميع أنحاء برسوم. لم أكن بحاجه إلى سؤالهم لأتأكد من أن كلاًّ منهم قد أثار غضب رابطته واضطر إلى الفرار هربًا من أن يغتالوه هو نفسه – يا لها من مجموعة من القساة.

قلت لهم: «نحن نطير إلى بانكور، بحثًا عن ابنة جِد جاثول، التي اختطفها هين أبتول. قد نواجه العديد من المعارك قبل أن نحصل عليها. إذا نجحنا وبقينا أحياء، سنطير إلى هيليوم، وهناك سوف أعطيكم السفينة، ويمكنكم أن تفعلوا بها ما تريدون».

قال أحد القتلة: «أنت لن تطير بي إلى بانكور؛ لقد كنت هناك لمدة خمسة وعشرين عامًا، ولن أعود إليها».

كان هذا العصيان يقترب من التمرد. وهذا شيء يسهل التعامل معه في أي قوات بحرية جيدة الانضباط؛ وإنما هنا، حيث لا توجد يكن سلطة أعلى مني، اضطررت إلى اتخاذ مسار مختلف عما يمكن أن يتخذه قائد وراءه حكومة قوية. توجهت إلى الرجل وصفعته، كما صفعت كور-آن من قبل؛ فسقط على الأرض، مثل كور-آن.

قلت: «سوف تطير إلى المكان الذي أطير إليه؛ فلا يوجد أي عصيان على هذه السفينة».

قفز واقفًا وسحب سيفه، ولم يكن أي شيء أفعله سوى أن أسحب سيفي أيضًا.

قلت: «عقوبة تصرفك هي الموت، كما تعرف، إلا إذا أعدت سيفك إلى غمده على الفور».

صاح: «سوف أغمده في بطنك، يا كالوت!»، وهو يندفع نحوي بجنون. تفاديته بسهولة، ثم أصبت كتفه الأيمن. أعرف أنني سوف أضطر إلى قتله، لتحقيق الانضباط على السفينة، وربما قد يتوقف مصير لانا الجاثولية على مسألة سيادتي وسلطتي؛ وإنما يجب أن أقدم أولاً عرضًا لمبارزة تؤكد لباقي أعضاء الطاقم أن الطعنة المميتة ليست مصادفة، فقد يتصورون ذلك إذا قتلته على الفور.

ولذلك، لعبت معه كما يلعب القط مع الفأر، إلى أن بدأ أفراد الطاقم الآخرين يسخرون منه بعد أن كانوا يقفون صامتين ومتذمرين في البداية.

قال أحدهم ساخرًا: «تصورت أنك ستغمد سيفك في بطنه».

وقال آخر: «لماذا لا تقتله، يا جان-هو؟ كنت أعتقد أنك مبارز عظيم».

وقال ثالث: «أستطيع أن أقول لك شيئًا واحدًا، أنت لن تطير إلى بانكور أو أي مكان آخر. وداعًا جان-هو! أنت ميت».

أطحت بسلاح جان-هو وطار سيفه عبر سطح السفينة، وقد قمت بذلك

لمجرد أن أوضح للرجال الآخرين كيف يمكنني عمل ذلك بسهولة. وقف للحظة صارخًا في وجهي مثل وحش مجنون؛ ثم استدار وركض عبر سطح السفينة وقفز من فوق الدرابزين. أسعدني أنني لم أُضطر إلى قتله.

التفتُّ إلى الرجال الذين تجمعوا أمامي. سألتهم: «هل هناك أي شخص آخر لن يطير إلى بانكور؟»، وانتظرت الرد.

ابتسم العديدون بخجل. كان هناك الكثير من حركة جر صنادلهم على سطح السفينة، وإنما لم يرد أحد.

«لقد جمعتكم هنا لأقول لكم اتجاه طيراننا وسببه، وأيضا لإبلاغكم أن فو-نار هو البادوار الأول وتان هادرون هو البادوار الثاني. وأنا الدوّار - وعليكم طاعتنا. عودوا الآن إلى مواقعكم».

* * *

الفصل (9)

وبعد أن تفرق الرجال بفترة وجيزة، ظهر فور سان وتابعه على سطح السفينة؛ وكانا مخمورين. جاء فور سان نحوي وتوقف أمامي وهو يشير بأصبعه في وجهي. كانت رائحته كريهة من الخمر الذي شربه.

قال بطريقة خطابية: «باسم هين أبتول، جيداك جميع الجيداك في الشمال، آمرك بتسليمي قيادة هذه السفينة، وإلا ستعاني من عواقب جريمة تمردك».

رأيت الرجال على سطح السفينة ينظرون إلى الاثنين بشذر. قلت: «من الأفضل أن تنزلا إلى أسفل؛ فقد تسقطا من متن السفينة».

استدار فور سان إلى بعض أفراد الطاقم. وأعلن: «أنا الأودوار فور سان، قائد الأسطول. ضعوا القيود الحديدية في أيدي هذا الرجل، وعودوا بالسفينة إلى المجال الجوي!».

قلت: «أعتقد أنك تماديت كثيراً، يا فور سان. وإذا واصلت، سأفترض أنك تحاول تحريض طاقمي على التمرد، وأتصرف وفقًا لذلك. عليك أن تنزل إلى أسفل!».

قال: «أتحاول أن تعطيني أوامر على إحدى سفني؟ سأجعلك تفهم أنني فور سان...».

أكملت له الجملة: «قائد الأسطول»؛ ثم قلت لاثنين من المحاربين يقفان بالقرب منا: «خذا هذين الاثنين إلى أسفل. وإذا لم يُحسنا التصرف، عليكما تقييدهما».

استشاط فور سان غضبًا وأخذ يصيح متبجحًا والمحاربان يجرانه إلى أسفل. مشى رفيقه بهدوء؛ أعتقد أنه أدرك ما الأفضل بالنسبة له.

كانت السفينة الأخرى لا تزال تحاول اللحاق بنا دون جدوى، ووراءها تقترب سفينتان.

قلت لتان هادرون، الذي كان يقف بجواري: «لا يبدو الأمر جيدًا».

قال: «دعنا نريهم شيئًا».

سألته: «ماذا، على سبيل المثال؟».

«هل تذكر المناورة التي قمت أنت بها في آخر هجوم ضد هيليوم أسطول العدو، عندما جعلت السفينة الرئيسة وسفينتين أخريين يعتقدون أنك تهرب منهم؟».

قلت: «حسنًا، سنحاول»؛ ثم أرسلت لاستدعاء فو-نار وأعطيته التعليمات كاملة. سمعت، ونحن نتحدث، سلسله من الصرخات التي تخرق الأذن وتتناقص تدريجيًّا على بُعد؛ لكن ذهني كان شديد الانشغال بهذه المسألة الأخرى بحيث لم أفكر في أي شيء غيرها. أبلغني الآن فو-نار «أن الجميع على أهبة الاستعداد»؛ فقلت لتان هادرون أن يمضي قدمًا في المناورة.

كانت السفينة دوسار تطير بكامل سرعتها ضد رياح أمامية قوية؛ وعندما حوّل اتجاهها، أسرعت نحو السفن القادمة كأنها ثوات في سباق. كانت سفينتان منهم في موقف يتيح لهما إطلاق النيران علينا عندما نأتي ضمن مداهما؛ على أنهما شرعا في إطلاق النار مبكرًا. أما نحن، فلم نطلق نيراننا إلا في الوقت المناسب بحيث نحرز نتيجة فعالة. كنا جميعًا نطلق بنادق مقدمات سفننا – لأنها الوحيدة التي يمكنها أن تتحمل، ولم يحقق أحد الكثير من الأضرار.

وعندما اقتربنا من سفينة القيادة، رأيت ارتباكًا كبيرًا على سطحها؛ أتخيل أنهم ظنوا أننا سنصطدم بهم. وعندئذٍ نجح المحارب المكلف بالمدفع في تدمير بندقية مقدمة سفينتهم، وهذا من حسن حظنا فعلاً. ثم رفع تان هادرون مقدمة دوسار، وارتفعنا فوق سفينة القيادة.

انفجر سطح تلك السفينة واشتعلت فيها النيران خلال مرورنا فوقها. أدار تان هادرون السفينة بسرعة نحو اليسار بحيث تطير على جانبها، وكان علينا -نحن الذين على السطح- أن نتعلق بأي شيء يمكن أن نجده حتى لا نسقط منها. تمكن تان هادرون بهذه المناورة أن يعبر فوق

السفينة الثانية؛ وأطلقت قاذفات القنابل في جوف دوسار قنبلة ثقيلة على سطحها. انقلبت تمامًا مع انفجار القنبلة، ثم سقطت نحو الأرض على مسافة 4000 قدم أدناه. لا بد أن الانفجار أدى إلى تفجير جميع خزانات الطفو.

لم تبقَ سوى سفينة واحدة فقط في المنطقة المجاورة لنا مباشرة؛ وعندما توجهنا نحوها، أدارت ذيلها وولت هاربة تتبعها هتافات رجالنا. استأنفنا الآن مسارنا نحو الشمال، بعد أن تخلى العدو عن مطاردتنا.

ما زالت السفينة الأولى تحترق، فوجهت تان هادرون إلى الاقتراب منها لمعرفة ما إذا كان أي من طاقمها حيًّا. وعندما اقتربنا منها، رأيتها تتدلى ومقدمتها إلى أسفل، والنيران تشتعل في باقي الأجزاء. لم تكن مقدمتها تحترق، ورأيت عددًا من الرجال يتشبثون بسطحها المائل.

تصور محاربي المسؤول عن مدفع المقدمة أنني أريد الإجهاز عليهم، ووجه بندقيته نحوهم، لكنني أوقفته في الوقت المناسب وتحدثت معهم.

قلت بصوت عالٍ: «هل يمكنكم الوصول إلى أدنى لوح عند نهاية سفينتكم؟».

جاءت الإجابة: «نعم».

قلت: «سوف نأتي أسفلكم ونأخذكم». وبعد حوالي 15 دقيقة كان الناجون الخمسة، وأحدهم بادوار باناري، على متن سفينتنا.

فوجئوا أنني لم أجهز عليهم عندما كانوا في وضع غير مواتٍ، كما لم أتركهم مُعلقين إلى أن يحترقوا. كان البادوار على يقين أن لدينا بعض الدوافعٌ الخفية لإنقاذهم من السفينة المحترقة، وسألني كيف أنوي قتلهم.

قلت: «أنا لا أنوي قتلكم على الإطلاق، إلا إذا اضطررت».

فُوجئ رجالي مثلما فُوجئ السجناء؛ لكنني سمعت أحدهم يقول: «لقد كان الدوّار في القوات البحرية لهيليوم - وهناك لا يقتلون أسرى الحرب». حسنًا، إنهم لا يقتلونهم في جميع بلدان المريخ، إلا أن معظمهم يقتلون سجناءهم إذا وجدوا من الصعب أو من المستحيل أخذهم معهم كعبيد دون تعريض سفنهم للخطر.

سألني البادوار: «ماذا ستفعل معنا؟».

«إما أن أهبط في أقرب وقت مناسب وأطلق سراحكم، وإمَّا أن أسمح لكم بالانضمام إلينا. ومع ذلك، يجب أن تدركوا أنني في حالة حرب مع هين أبتول».

قرر الرجال الخمسة جميعًا الانضمام إلينا، فأحلتهم إلى فو-نار لتكليفهم بالحراسة وتحديد واجباتهم. تجمع رجالي في وسط السفينة لمناقشة ما حدث؛ ويشعر كل منهم بالفخر مثل الطاووس.

قال أحدهم: «دمرنا سفينتين، وأجبرنا الثالثة على الهرب دون أن نعاني أي خسائر».

وقال آخر: «هذا هو الدوّار الذي يجب الطيران تحت قيادته. عرفت أنه جيد عندما رأيته يتعامل مع جان-هو. أقول لكم إنه رجل يجدر القتال من أجله».

بعد سماعي هذه المحادثة والكثير مثلها، زاد يقيني باحتمالات نجاح المغامرة؛ ذلك أنه مع طاقم لا يتسم بالولاء، قد يحدث أي شيء إلا النجاح.

وفي وقت لاحق، كنت أعبر سطح السفينة، ورأيت أحد المحاربين اللذين أخذا فور سان ورفيقه إلى أسفل؛ وقد رحبت به وسألته ما إذا كان السجينان على ما يرام.

قال: «أنا آسف لإبلاغك، يا سيدي، أن كليهما سقط من على متن السفينة».

سألته: «كيف سقطا من على متن السفينة وهما في الطابق السفلي؟».

فقال دون أن يبتسم: «لقد سقطا من خلال شَرَك القنبلة الخداعية

الأمامية، يا سيدي».

* * *

الفصل (10)

كنت مرتابًا قليلاً، بطبيعة الحال، من الاعتماد على جور-دون، البادوار الباناري الذي أنقذناه من السفينة البانارية المحترقة. كان الباناري الوحيد في السفينة دوسار، والشخص الوحيد على متنها الذي يمكن تصور أنه يدين بأي ولاء إلى هين أبتول. حذرت فو-نار وتان هادرون منه، وإبقاء العين عليه، على الرغم من أنني لا أتصور بالفعل كيف يمكنه أن يضر بنا.

مع اقترابنا من المنطقة القطبية الشمالية، كان من الضروري إخراج ملابس الفراء الدافئة الموجودة في مخازن دوسار - توزيع الفراء الأبيض المأخوذ من حيوانات الأبت[356] على المحاربين؛ والفراء الأسود المخطط بالأصفر من حيوان الأورلوك[357] على الضباط الثلاثة؛ فضلاً عن توزيع حصة إضافية من فراء النوم على الجميع.

شعرت بقلق شديد في تلك الليلة، من هاجس لا أساس له على الإطلاق أن هناك كارثة وشيكة. ونهضتُ في حوالي الزود التاسع (الساعة الواحدة و12 دقيقة صباحًا، بتوقيت كوكب الأرض)، وذهبت إلى سطح السفينة. كان فو-نار عند عجله القيادة؛ فلم أكن أعرف بعد أي من محاربي الطاقم العاديين معرفة كافية لأثق في تكليفه بهذا الواجب المهم.

توجد مجموعة من الرجال في وسط السفينة، يتهامسون. ونظرًا لأنهم ليسوا ضمن فريق الحراسة، فليس لديهم أي عمل هنا في هذا الوقت من الليل. وخلال توجهي نحوهم لآمرهم بالنزول إلى الطابق الأسفل، رأيت ثلاثة رجال يتشاجرون عند مؤخرة السفينة. تتطلب هذه المخالفة للانضباط اهتمامًا فوريًّا أكثر من التجمع على سطح السفينة. أسرعت نحو الرجال الثلاثة، ووصلت عندما كان اثنان منهم على وشك إلقاء الثالث من فوق درابزين السفينة.

أمسكت الاثنين من ياقاتهما وقمت بجرهما إلى الخلف. تركا ضحيتهما والتفتا نحوي؛ لكنهما ترددا عندما تعرفا عليَّ.

قال أحدهما بوقاحة: «كان الباناري يسقط من متن السفينة».

---

(356) الأبت: مخلوق وحشي، يسكن القطب الشمالي في المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Apt - المترجمة.

(357) أورلوك: هو وحش شرس يشبه الفيل، يوجد على وجه الحصر تقريبًا في مناطق أقصى شمال المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Orluk - المترجمة.

كان الرجل الثالث بالتأكيد هو جور-دون، الباناري، وأنقذته من خطر محقق. قلت له: «انزل إلى الطابق الأدنى، إلى مقصورتي؛ سأتحدث معك هناك لاحقًا».

وعندما بدأ يسير، قال له صائحًا أحد الرجلين اللذين حاولا إلقاءه من متن السفينة: «إنه لن يتحدث كثيراً، إذا كان يعرف ما الجيد بالنسبة له».

سألت الرجلين: «ما معنى هذا؟»، وقد تعرفت عليهما، وهما قاتلان.

أجاب أحدهما: «هذا يعني أننا لا نريد أي باناري على متن هذه السفينة».

أمرتهما: «اذهبا إلى مسكنكما؛ سوف آتي إليكما لاحقًا». كانت نيتي أن أقيدهما بقيود حديدية على الفور.

ترددا؛ اقترب مني أحدهما. هناك طريقة واحدة فقط للتعامل مع مثل هذه الحالة – أن تكون أول من يبدأ. سددت ضربه بيميني إلى ذقن الزميل فسقط. امتشقت سيفي وواجهتهما.

قلت لهما: «سوف أطعن مَن يضع منكما يده على سلاحه»، وكانا يعرفان أنني أعني ما أقول. جعلتهما يقفان في اتجاه الدرابزين وظهراهما نحوي، وجردتهما من أسلحتهما؛ ثم قلت: «تحركا الآن إلى الطابق الأسفل».

وبينما كانا يبتعدان، رأيت رجال المجموعة المتجمعة في وسط السفينة تراقبنا. وما إن اقتربت منهم، حتَّى تفرقوا متجهين إلى الطابق السفلي قبل أن آمرهم بذلك. ذهبت إلى فو-نار وأخبرته ما حدث، كما حذرته من احتمالات حدوث مشكلات، وأن عليه مراقبة الأمور جيدًا.

قلت له: «أنا ذاهب إلى أسفل، للتحدث مع الباناري؛ وأعتقد أن هناك أكثر من مجرد الرغبة في إلقائه من السفينة، ثم سأتحدث مع بعض الرجال. لكني سوف أوقظ تان هادرون أولاً، وأطلب منه تقييد هذين القاتلين بالحديد في الحال. سوف أعود إلى السطح بسرعة، وعلى ثلاثتنا المراقبة الدقيقة من الآن فصاعدًا. فهؤلاء الرجال لم يصعدوا إلى سطح السفينة في هذه الساعة من الليل لمجرد استنشاق هواء نقي».

ذهبت إلى الطابق السفلي، وأيقظت تان هادرون وأخبرته بما حدث على سطح السفينة، وأمرته أن يستجوب الرجال ويقيد القاتلين بالحديد؛ وبعد ذلك ذهبت إلى مقصورتي. نهض جور-دون من المقعد الطويل وحياني عندما دخلت.

قال: «اسمح لي أن أشكرك يا سيدي، لإنقاذك حياتي».

سألته: «هل كانوا يريدون إلقاءك من السفينة لأنك باناري؟».

أجاب: «لا، يا سيدي، ليس لهذا السبب. يخطط الرجال للاستيلاء على السفينة؛ فهم يخشون الذهاب إلى بانكور ويحاولون معي لأنضم إليهما. لا يعرف أي منهما قيادة السفن، وأنا أعرف؛ وكانت نيتهما هي قتلك أنت والاثنين الآخرين برتبة البادوار. رفضت الانضمام إليهما، وحاولت إثناءهما؛ وعندئذ أصبحا يخشان أن أبلغك بخططهما، كما كنت أنوي بالفعل. ولذلك كانا يريدان التخلص مني بإلقائي من السفينة. لقد أنقذت حياتي يا سيدي عندما أخذتني من تلك السفينة المحترقة، ويسعدني أن أرد الجميل دفاعًا عنك. أنت في حاجة إلى كل دفاع يمكنك الحصول عليه؛ والرجال عازمون على السيطرة على السفينة، على الرغم من أنهم منقسمون على مسألة قتلك».

قلت: «بدوا قانعين بالخدمة تحت قيادتي، بعد اشتباكنا مباشرة مع سفنكم الثلاث؛ وأتساءل ماذا غير موقفهم».

أجاب جور-دون: «الخوف من هين أبتول عندما تقترب السفينة من بانكور؛ فهم يخشون من التفكير في تجميدهم ثانية هناك لسنوات».

قلت: «لا بد أن بانكور مكان رهيب».

أجاب: «إنها كذلك بالنسبة لهم».

رأيت أنه كان مسلحًا، وأخبرته أن يتبعني إلى السطح. نحن أربعة على الأقل، وكنت آمل أن يتسم بعض أفراد الطاقم بالولاء.

أعرف أنني وتان هادرون الهاستوري يمكننا القتال جيدًا، لكنني لا أعرف الوضع بالنسبة إلى فو-نار وجور-دون.

قلت للباناري: «تعالَ»، ثم فتحت باب مقصورتي وخرجت لأجد نفسي بين يدي دزينة من الرجال في انتظاري، وهاجموني وحملوني إلى سطح السفينة قبل أن أتمكن من تسديد ضربة دفاعية. قاموا بتجريدي وتجريد الباناري من أسلحتنا، وربطوا أيدينا خلف ظهورنا. تم كل شيء بسرعة وهدوء؛ فالخطة كانت مثيرة للإعجاب، وفازت باستحساني - فأي شخص يمكنه الإمساك بجون كارتر بهذه السهولة يستحق الثناء.

أخذونا إلى سطح السفينة، ولا يمكن إلا ملاحظة أن العديدين منهم لا يزالون يعاملونني بكل الاحترام. كان جميع أولئك الذين حاصروني على الفور من البانتان. ورأيت على سطح السفينة أن كلًّا من فو-نار وتان هادرون كان سجينًا.

التف حولنا الرجال لمناقشة مصيرنا. صاح أحد القتلة: «الأربعة على متن السفينة! لا تكن أحمق»، وقال أحد البانتان: «لا يمكننا الإبحار بالسفينة من دون واحد منهم على الأقل».

«يمكن إبقاء واحد منهم، وإلقاء الآخرين من فوق الدرابزين مع الدوار أولاً!».

قال بانتان آخر: «لا؛ إنه مقاتل عظيم، وقائد جيد قادنا إلى النصر. سأقاتل قبل أن أراه مقتولاً».

«وأنا أيضًا!»، صاح العديد من الآخرين في وقت واحد.

سأل قال آخر: «ماذا تريدون عمله معهم، إذَنْ؟ هل تريدون أن نأخذهم معنا حتى تُقطع رؤوسنا جميعًا في أول مدينة نتوقف فيها، حيث يمكنهم إبلاغ السلطات عنا؟».

قال رجل لم يتحدث من قبل: «يمكننا الاحتفاظ باثنين لقيادة السفينة، وإنزال الاثنين الآخرين إذا كنتم لا تريدون قتلهم».

لا يزال العديد من القتلة يريدون قتلنا، لكن رأي الآخرين ساد. وطلبوا من تان هادرون الهبوط بالسفينة دوسار. وعندما هبطت السفينة وأخرجوني ومعي جون-دون، أعادوا لنا أسلحتنا - مع احتجاج العديد من القتلة.

ولما وقفت هناك فوق الثلج والجليد في القطب الشمالي، ورأيت دوسار ترتفع في الهواء وتتوجه نحو الجنوب، تصورت أنه ربما كان من الأفضل أن يقتلانا.

* * *

الفصل (11)

ترتفع في الشمال مجموعة من التلال الصخرية، اجتاحت الرياح قممها الجرانيتية لتظهر رُقعًا من الثلوج والجليد، وتبدو منحدراتها الثلجية المغطاة بالجليد مثل العمود الفقري لوحش ميت. وتمتد ناحية الجنوب، بقدر ما يمكن أن تصل العين، أراضٍ وعرة غطتها الثلوج. توجد شمالاً أراضٍ قفر مجمدة وموت، وتوجد جنوبًا أراضٍ قفر مجمدة وموت. ولا يبدو هناك أي بديل.

لكن الجنوب هو ما يهمني. يمكنني النضال حتى الموت، لكني لن أستسلم ما دمت أعيش.

قلت لجور-دون، وأنا أبدأ في الحركة نحو الجنوب: «أعتقد علينا أن نتحرك».

سألني: «إلى أين؟ لا يوجد سوى الموت في هذا الاتجاه لمَن يسير على قدميه».

أجبت: «أعرف ذلك، يكمن الموت في أي اتجاه نذهب إليه».

ابتسم الباناري وقال: «تقع بانكور وراء تلك التلال. لقد قمت بالصيد هنا مرات عديدة، على هذا الجانب؛ يمكننا الوصول إلى بانكور خلال بضع ساعات».

هززت كتفي قائلاً: «ما من فارق؛ لأنهم على الأرجح سوف يقتلونني في بانكور». وبدأت أتحرك ثانية، ولكن هذه المرة نحو الشمال.

قال جور-دون: «يمكنك أن تأتي إلى بانكور في أمان، لكن عليك أن تأتي كعبد لي. هذا ليس ما أريده يا سيدي، لكنها الطريقة الوحيدة التي تجعلك في أمان».

قلت: «أنا فاهم، وأشكرك».

أوضح قائلاً: «علينا أن نقول إنني أخذتك سجينًا، بعد أن تمرد طاقم سفينتي وأنزلونا».

قلت: «إنها قصة جيدة، وعلى الأقل تأسست على حقيقة واقعية. ولكن، قل لي: هل سأتمكن في أي وقت من الهرب من بانكور؟».

وعدني قائلاً: «سوف تتمكن إذا حصلت أنا على سفينة أخرى. مسموح لي أن أصطحب عبدًا على متن السفينة، وسوف آخذك معي. أما أي شيء آخر، فعلينا أن نتركه

للمصير؛ على الرغم من أنني أؤكد لك أن الهرب من قوات هين أبتول البحرية ليس سهلاً».

قلت: «أنت كريم جدًّا».

«أنا مدين لك بحياتي، يا سيدي».

يا لغرابة الحياة. كيف كان يمكنني أن أخمن قبل بضع ساعات أن حياتي ستكون في يد أحد ضباط هين أبتول، وآمنة؟ إذا كان رجل ليُكافأ بسرعة على عمل جيد قام به، فهو أنا – بعد إنقاذي هؤلاء المساكين من السفينة المحترقة.

قاد جور-دون الطريق بثقة على الأرض القفر إلى مضيق ضيق يقسم التلال. مَن لا يعرف الموقع، كان ليصل من سفح التلال على بُعد مائة ياردة إلى فتحته دون أن يراها؛ حيث جدرانه المغطاة بالثلوج والجليد تمتزج بالثلوج المحيطة وتخفيها بشكل فعال.

كان الوضع صعبًا في ذلك المضيق. غطته الثلوج والجليد والصخور المكسورة، بحيث كنا كثيراً نتعثر وأحيانًا نقع. شكّلت الشقوق المستعرضة التي تعبر المضيق متاهة من الممرات التي يمكن للمرء أن يتوه فيها بسرعة.

أخبرني جور-دون أن هذا هو الممر الوحيد عبر التلال، وسيتجمد حتى الموت أي عدو يدخله قبل أن يجد طريقه للخروج. واصلنا طريقنا لمدة نصف ساعة تقريبًا، وعند منعطف وجدنا أحد أكثر مخلوقات المريخ رعبًا تسد الطريق. كان أحد حيوانات الأبت: وهو مخلوق ضخم، ذو فراء أبيض، ولديه ستة أطراف، أربعة منها قصيرة وثقيلة تحمله بسرعة على الثلوج والجليد، بينما ينمو الطرفان الآخران إلى الأمام من كتفيه على

جانبي عنقه الطويل القوي، وينتهي كل طرف منهما بيد بيضاء خالية من الشعر، يمسك بها فريسته.

يشبه رأسه وفمه، من حيث المظهر، رأس وفم فرس النهر أكثر من أي حيوان آخر على كوكب الأرض؛ في ما عدا امتداد قرنين قويين من جانبي عظم فكه العلوي، ينحنيان إلى أسفل قليلاً نحو الجبهة.

وتثير عيناه الضخمتان فضولاً كبيراً. تمتد عيناه في بقعتين بيضاويين واسعتين من وسط الجزء العلوي من الجمجمة إلى أسفل كل جانب من جانبي الرأس إلى ما تحت جذور القرنين، بحيث تبرز هذه الأسلحة بالفعل من أسفل العينين، التي تتكون كل منهما من عدة آلاف من العوينات.

كانت بنية هذه العين تبدو لي دائماً رائعة في وحش يطارد ضحاياه فوق حقل لامع من الجليد والثلوج. وعلى الرغم من أنني وجدت، بعد فحص دقيق لأعين عدد من هذه الحيوانات التي قتلناها أنا وثوفان ديهن[358] خلال عبورنا من كهوف الجثث، أن كل واحدة من تلك العوينات لديها جفنها، وبمقدور الحيوان – وفقًا لرغبته - إغلاق ما شاء منها. وكنت على يقين أن الطبيعة قد أمدته بتلك الأعين لأنه يمضي الكثير من حياته في تجاويف مظلمة تحت الأرض.

انطلق المخلوق لمهاجمتنا بمجرد أن رآنا؛ فسحبت وجور-دون مسدساتنا الراديوم في نفس الوقت وبدأنا إطلاق النار. كنا نسمع صوت الرصاصات وهي تنفجر في جسمه، ونشاهد قطعًا كبيرة من اللحم والعظم تتمزق؛ لكنه لا يزال يتوجه ناحيتنا. وجدت إحدى رصاصاتي طريقها إلى عينه المليئة بالعوينات وانفجرت فيها ومزقتها. تردد المخلوق واهتز لمجرد لحظة، ثم جاء ثانية. كان على رأسينا الآن، ورصاصاتنا تمزق أعضاءه الحيوية. لا أفهم كيف يستمر حيًّا؛ لكنه استمر وقبض على جور-دون بيديه البيضاوين الرهيبتين الخاليتين من الشعر، وجره نحو فكيه الضخمين.

كنت على الجانب الآخر؛ وإدراكًا مني أن رصاصاتنا لن تقتل الوحش في الوقت المناسب لإنقاذ جور-دون، امتشقت سيفي الطويل وأمسكت مقبضه بكلتا يديَّ، ووجهت طعنة للوحش من أسفل، خلف كتفي الأيمن، إلى أن وصل نصلي الحاد إلى رقبة الوحش الطويلة. وفي اللحظة التي كاد فيها أن يغلق فكيه على جور-دون، تدحرجت رأس الأبت فوق أرضية المضيق الجليدية؛ لكن أصابعه القوية كانت لا تزال متشبثة بالباناري، واضطررت إلى قطعها بسيفي القصير قبل تحرير الرجل.

قلت: «كانت نجاة من خطر كارثي».

قال جور-دون: «لقد أنقذت حياتي مرة أخرى؛ كيف يمكنني أن أفي بديني لك؟»،

قلت له: «بأن تساعدني في العثور على لانا الجاثولية، إذا كانت في بانكور».

أجاب: «إذا كانت في بانكور، لن يقتصر الأمر على مساعدتك في العثور عليها، بل سوف أساعدك أيضًا في إنقاذها، إذا أمكن القيام بذلك على نحو إنساني. أنا ضابط في قوات هين أبتول البحرية، لكنني لا أشعر بالولاء تجاهه. إنه طاغية، يكرهه الجميع. إن استمراره يحكمنا لأكثر من مائة سنة، دون أن يعثر عليه خنجر أو سم قاتل، يُعد معجزة».

---

(358) ثوفان ديهن: جيداك مملكة بتارث، وهو والد الأميرة ثوفيا التي تزوجت كارثوريس، ابن جون كارتر وديجاه ثوريس - https://barsoom.fandom.com/wiki/Thuvan_Dihn - المترجمة.

كنا نتحدث ونحن نواصل طريقنا خلال المضيق؛ وخرجنا الآن إلى سهل تغطية الثلوج وترتفع فوقه إحدى تلك المدن الزجاجية الدافئة المذهلة في المنطقة القطبية الشمالية في برسوم».

قال جور-دون: «بانكور»؛ ثم التفت نحوي وبدأ يضحك.

سألته: «لماذا تضحك؟».

قال: «معادِنك؛ أنت ترتدي شارة دوّار في خدمة هين أبتول، وقد يبدو غريبًا أنك، الدوّار، أسير وعبَد لبادوار».

قلت: «قد يصعب تفسير ذلك»؛ وأزلت الشارة وألقيتها.

كان من حسن حظنا أن نجد عند بوابة المدينة أحد معارف جور-دون في قيادة الحرس. سمع قصة جور-دون باهتمام وسمح لنا بالدخول، ولم يُلقِ بالاً لي على الإطلاق.

كانت بانكور شديدة الشبه بكادابرا، عاصمة أوكار، لكنها أصغر بكثير.

وعلى الرغم من أن البلد حولها، وصولاً إلى سورها، كانت مغطاة بالثلوج والجليد، لم يكن هناك أي شيء فوق القبة الكريستالية العظيمة التي تغطي المدينة بأكملها؛ وساد تحت القبة جو ربيعي لطيف. كانت طرقاتها مُغطاة بالنباتات الصفراء الشبيهة بالطحلب، التي تغطي قيعان البحر الميت في الكوكب الأحمر، وتحيط بحدودها مروج مُصانة جيدًا من العشب البرسومي القرمزي.

وتسرع على طول هذه الطرقات حركة مرورية صاخبة من طائرات أرضية خفيفة متجددة الهواء، أصبحت مألوفة لديَّ في مارنتينا[359]) وكادابرا منذ سنوات طويلة.

أما الإطارات العريضة لهذه الطائرات الفريدة، فهي عبارة عن أكياس غاز شبيهة بالمطاط ومملوءة بالأشعة البرسومية الثامنة، أو شعاع الدفع - هذا الاكتشاف الرائع للمريخيين، الذي أتاح بناء أساطيل كبيرة من السفن الجبارة التي جعلت الرجل الأحمر في العالم الخارجي متفوقًا. وهذا الشعاع هو الذي يدفع ضوء الشموس والكواكب المتأصل والمنعكس إلى الفضاء؛ وعند احتجازه، يمنح الطائرة المريخية طفوها في الهواء.

---

(359) مارنتينا: مقاطعة في أوكار، وهي تدعم نفسها ومعزولة عن طريق الجبال – https://barsoom.fandom.com/wiki/Marentina - المترجمة.

ركبنا طائرة عامة لنصل إلى بيت جور-دون. جلست بجوار السائق، كما يليق بعبد. حظى جور-دون وفي بيته باستقبال حار من والدته ووالده وشقيقته؛ واصطحبني خادم إلى مسكن العبيد. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يرسل جور-دون في استدعائي. وعندما غادر الخادم الذي أحضرني، شرح لي جور-دون أنه أخبر والديه وشقيقته كيف أنقذت حياته، وأنهم يرغبون في التعبير عن امتنانهم. وتلقيت منهم مدحًا وتقديرًا هائلاً. كانوا ممتنين كثيراً.

قال والده: «سوف تكون الحارس الشخصي لابني، ولن نعتبرك عبدًا في هذا البيت. أخبرني ابني أنك من النبلاء في بلدك». ربما خمّن جور-دون ذلك، أو ربما قال ذلك للتأثير عليهم؛ فأنا لم أقل له بالتأكيد أي شيء عن وضعي في بلدي. لا أعرف حجم ما قاله لهم؛ لم أكن أرغب أن يعرف كثيرون أنني أبحث عن لانا. سألته عندما كنا بمفردنا، وأكد لي أنه لم يقل لهم أي شيء.

قال: «إن ثقتي بهم كاملة، لكن الموضوع لا يخصني كي أتحدث عنه». يوجد باناري واحد على الأقل يتمتع بالتهذيب؛ يبدو أنني كنت أحكم عليهم جميعًا بحكمي على هين أتول.

زودني جور-دون بعتاد وشارة يميزاني بالتأكيد كعبد لأسرته، مما جعل في إمكاني أن أتجول في المدينة بأمان، وهذا ما كنت حريصًا على القيام به على أمل أن أعرف أي شيء عن لانا؛ ذلك أن جور-دون أخبرني أن الجميع يثرثرون في السوق يوميًّا، حيث يُجمع العبيد لشرائهم وبيعهم.

قال لي: «إذا حدث شيء أو كان سيحدث، فإن الجميع في السوق يعرفونه؛ هذا قول مأثور هنا»؛ ورأيت أن كلامه صحيح.

كان مسموحًا لي، بصفتي حارس جور-دون، أن أحمل أسلحة. وكانت الشارة على عتادي تؤكد ذلك. أسعدني ذلك، لأني أشعر بالضياع من دون سلاح - بمثل ما يشعر الرجل في كوكب الأرض أنه يمشي في الشارع من دون سرواله.

ذهبت بمفردي إلى السوق، في اليوم التالي لوصولنا.

* * *

الفصل (12)

تحدثت مع عدد من العبيد، لكني لم أعرف منهم أي شيء ذا قيمة بالنسبة لي. مع ذلك، وضعني وجودي هناك على طريق معرفة شيء يمثل أهمية لي. كنت أتحدث مع عبد آخر، عندما جاء ضابط إلى السوق ولمس عبدًا، ثم لمس عبدًا آخر سار خلفه على الفور.

قال لي العبد الذي تحدثت معه وأخبرته أنني وافد جديد إلى بانكور: «إذا لمسك، لا تسأل أي أسئلة؛ بل امضِ معه».

حسنًا، لمس الضابط كتفي بالفعل خلال مروره، وسرت خلفه مع عدد يتراوح بين حوالي 20-10 عبدًا آخر. قادنا إلى خارج السوق، ثم على طول شارع من المحال التجارية الفقيرة، وصولاً إلى سور المدينة. وهنا، بجانب بوابة صغيرة، توجد سقيفة تضم مخزونًا من الملابس المصنوعة من فراء حيوان الأبت. وبعد أن ارتدى كل منَّا هذه الملابس، وفقًا لتعليمات الضابط، فتح البوابة الصغيرة وقادنا إلى خارج المدينة في برد القضب الشمالي القارس، حيث التقت عيناي بمشهد آمل ألا أراه ثانية أبدًا. امتدت على التوالي صفوف من الأرفف بقدر ما يمكنني الرؤية، تتدلى منها جثث بشرية مُجمدة؛ آلاف عديدة مُعلقة من أقدامها وتتأرجح في مهب الريح.

اكتست كل جثة بالجليد، غلاف شفاف تحدق من خلاله أعينهم الميتة متوسلة، موبِّخة، متهمة، وفظيعة. تجمدت على بعض الوجوه ابتسامات، تسخر بأسنانها المكشوفة مِن مصيرها.

أمرنا الضابط بإنزال عشرين جثة. وقد أثار اشمئزازي تصوري للغرض الذي يقصده. عندما نظرت إلى تلك الصفوف اللا نهائية من الجثث المُعلقة من أرجلها ورؤوسها إلى أسفل، تذكرت مشاهد الشتاء أمام محال الجزارة في المدن الشمالية بموطني الأصلي؛ حيث تتدلى أجسام الثيران والدببة والغزلان مُجمدة، ليتفحصها الذواقة.

تطلب الأمر قوة رجلين حُمر لرفع وحمل جسم واحد من تلك الأجسام المُغطاة بالجليد. ونظرًا لأن الضابط اختار عددًا فرديًّا من العبيد، فقد بقيت دون شريك ليحمل الجثة معي؛ ولذا انتظرت الأوامر.

شاهدني الضابط أقف بلا عملٍ، فناداني صائحًا: «هييه، أنت! لا تتسكع هكذا دون القيام بأي شيء؛ يمكنك جر أحدهم إلى البوابة».

انحنيت ورفعت إحدى الجثث على كتفي، وحملتها بمفردي إلى البوابة. رأيت ذهول الضابط، لأن ما فعلته كان عملاً فذًا يستحيل أن يتناسب وقوة أي مريخي. لم تكن قدرتي على القيام بذلك استثنائية، في واقع الأمر؛ فقوتي الهائلة غير العادية، بالإضافة إلى الجاذبية الأقل على المريخ، جعلت من السهولة نسبيًّا أن أقوم بذلك.

كنت أفكر، طوال حملي هذا العبء المروع، في الشواء الذي تناولناه في الوجبة ببيت جور-دون، وأتساءل! هل يمكن أن يتسم البشر المتحضرون بهذا الشر؟ يصعب تصديق ذلك على أناس مثل جور-دون وعائلته. شقيقته فتاة جميلة حقًّا. هل يمكنها...؟ ارتجفت من المعنى الضمني.

حملنا الجثث إلى مبنى كبير عبر الشارع من البوابة الصغيرة. هنا توجد صفوف فوق صفوف ومستويات فوق مستويات من الطاولات المغطاة بطبقة من حجر الإرسايت[360] ؛ وعندما وضعنا الجثث على بعضها، وفقًا لأوامر الضابط، بدا المكان وكأنه مشرحة.

دخل الآن عدد من الرجال إلى الغرفة وهم يحملون السكاكين الثقيلة. أعتقد أنهم الجزارون. ربطوا خراطيم مياه بالصنابير، ووقف كل منهم فوق جثة ورشها بماء دافئ، مع قطع الجليد بسكينه في الوقت نفسه. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً.

وبعد تحرير الجثة الأولى تمامًا من الطبقة الجليدية التي تحيط بها، أردت أن أبتعد ببصري، لكنني لم أستطع - لقد سحرني الرعب وأنا

أنتظر لأرى الجزار يستخدم سكينه؛ لكنه لم يفعل، بل استمر يرش الجسم بالماء الدافئ، ويدلكه أحيانًا. وأخيرًا، أخرج من جيب حقيبته حقنة تُعطى تحت الجلد، وحقن شيئًا في ذراع الجثة. وهنا حدث الشيء الأكثر ترويعًا: حركت الجثة رأسها جيئة وذهابًا، وفتحت عينيها!

قال الضابط آمرًا: «استعدوا، أيها العبيد! قد يكون بعضهم جامحًا قليلاً في البداية - كونوا على استعداد للإمساك بهم».

---

(360) حجر الإرسايت: نوع من الحجر، جميل وملون، شائع في المريخ، ويستخدم في المباني والأثاث - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ersite - المترجمة.

جلست الجثة الأولى ونظرت حولها، وبدأت علامات الحياة تظهر على الآخرين. وسرعان ما كانوا جميعًا إما جالسين وإما واقفين يحدقون حولهم بنوع من الارتباك. أعطوا الآن كلًّا منهم عتاد عبد. جاءت كتيبة من المحاربين لتتولى مسؤوليتهم، وعندئذ صرفونا نحن العبيد الآخرين. تذكرت الآن، وفهمت، ما كرره كثيراً محاربو هين أبتول أنهم كانوا «مُجمدين». تصورت أنهم كانوا يقصدون كونهم يعيشون في مدينة قطبية محاطة بالثلوج والجليد.

خاطبني الضابط وأنا أغادر المبنى. سألني: «مَن أنت يا عبد؟».

أجبت: «أنا العبد والحارس الشخصي للبادوار جور-دون».

قال: «أنت رجل قوي جدًّا، من أي بلد أنت؟».

«فيرجينيا»، أجبت.

«لم أسمع بها من قبل؛ أين هي؟».

«جنوب ميريلاند».

«حسنًا، لا يهم - دعنا نرى مدى قوتك؛ هل يمكنك حمل نهاية هذه الطاولة الإرسايت بمفردك؟».

«لا أعرف».

قال آمرًا: «حاول».

أمسكت الطاولة بأكملها ورفعتها فوق رأسي. صاح الضابط: «شيء لا يُصدق!». وقف المحاربون ينظرون نحوي في دهشة وأفواههم مفتوحة.

سألني الضابط: «ما اسمك؟».

«دوتار سوجات».

قال: «جيد، يمكنك أن تذهب الآن».

عُدت إلى منزل جور-دون، الذي أخبرني أنه كان متخوفًا بسبب طول فترة غيابي. «أين كنت كل هذا الوقت؟»، سألني، «كنت قلقًا عليك».

قلت له ضاحكًا: «كنت أذيب الجليد عن الجثث. قبل أن أرى علامات الحياة تعود إليهم، تصورت أن البانارين يأكلونهم. أخبرني، ما فكرة تجميدهم؟».

«إنه جزء من خطة هين أبتول المجنونة لغزو برسوم كلها وتنصيب نفسه جيداك جميع الجيداك وأمير الحرب في برسوم. وقد سمع عن جون كارتر الشهير، الذي يحمل هذه الألقاب؛ ويحسده. وهو يحفظ البشر بتجميدهم لمائة سنة بالكامل. كانت خطته في البداية مجرد الاحتفاظ باعداد كبيرة من العبيد المتاحين في أي وقت، دون الإنفاق على طعامهم خلال فترة تجميدهم. وبعد أن سمع عن جون كارتر وثروة هيليوم الهائلة، وعدد من الإمبراطوريات الأخرى، بدأ يتشكل لديه هذا المخطط الرهيب للغزو».

«كان عليه أن يمتلك أسطولاً. ونظرًا لعدم وجود أحد في بانكور يعرف كيفية بناء السفن الفضائية، فقد كان يحصل عليها بالخداع والسرقة. وعندما تمكن قليلون من عبور حاجز الجليد في بعض المدن الشمالية، جرى إغراؤهم بالهبوط عن طريق إشارات الصداقة والترحيب، ثم القبض على أطقم تلك السفن وتجميدهم جميعًا باستثناء واحد أو اثنين. أولئك الذين وعدوا بتدريب البانارين على التعامل مع السفن. كانت عملية بطيئة جدًّا لبناء قوات بحرية؛ لكنه استكملها من خلال زيارة العديد من المدن الشمالية والتظاهر بالصداقة، ثم سرقة سفينة أو سفينتين، مثلما تظاهر بالصداقة مع جاهان الجاثولي ثم سرق ابنته».

«وهجومه الحالي على جاثول هو مجرد حمله تدريبية لإعطاء ضباطه ومحاربيه الخبرة، وربما في الوقت نفسه الحصول على عدد من السفن».

سألته: «كم عدد الرجال المُجمدين؟».

أجاب جور-دون: «لقد تراكم لديه مليون رجل بالكامل في السنوات المائة الماضية؛ إنه جيش هائل، إذا كانت لديه سفن لنقله».

على هذا الكوكب المحتضر، الذي يتناقص سكانه باطراد منذ حوالي مليون سنة، فإن جيشًا من مليون محارب هو جيش هائل في الواقع. ولكن بقيادة هين أبتول وبضباط بانارين، لن يُشكل 2 مليون محارب باناري لا يدينون بالولاء خطرًا كبيراً على قوة مثل هيليوم.

قلت: «أخشى أن حلم هين أبتول لن يتحقق أبدًا».

«أتمنى ألا يتحقق. لا يتعاطف معه سوى عدد قليل جدًّا من البانارييين. الحياة هنا سهلة، ونحن راضون بأن نُترَك في حالنا ونترك الآخرين في حالهم. وبالمناسبة، هل عرفت شيئًا عن مكان لانا الجاثولية عندما خرجت؟»

«لا شيء؛ هل عرفت أنت؟»

أجاب: «لا؛ لكنني لم أقم بعد بأي استفسار مباشر. وأنتظر حتى أتمكن من التحدث مع بعض أصدقائي الذين يتمركزون في القصر. لكنني أعرف أن هين أبتول عاد من جاثول، وأنه في قصره».

جاء عبد، ونحن نتحدث، ليعلن وصول ضابط من عند الجيداك، ويرغب في التحدث مع جور-دون.

قال سيدي: «أحضروه هنا». دخل بعد لحظات رجل يرتدي أغطية رائعة، وكنت أقف حينذاك خلف مقعد جور-دون، كعبد جيد التدريب وكما يجب أن يفعل الحارس الشخصي.

قدم الرجلان التحية لبعضهما بالاسم واللقب؛ ثم قال الزائر: «هل لديك عبد اسمه دوتار سوجات؟».

أجاب جور-دون: «نعم، إنه حارسي الشخصي، هنا».

نظر الضابط نحوي وسألني: «أنت العبد الذي رفع الطاولة الإرسايت اليوم بمفرده في مبنى الإنعاش؟».

«نعم».

التفت مرة أخرى إلى جور-دون، وقال: «سوف يمنحك الجيداك شرف قبول هذا العبد كهدية».

انحنى جور-دون، وقال: «إنه لمن دواعي سروري العظيم، فضلاً عن أنه شرف أن أهدي العبد دوتار سوجات إلى الجيداك». وغمز لي جور-دون، عندما أبعد الضابط نظره لوهلة. فقد كان يعرف مدى حرصي على الدخول إلى قصر هين أبتول.

وكعبد مطيع، تركت بيت جور-دون، البادوار، وتبعت الضابط إلى قصر الجيداك.

* * *

الفصل (13)

يحيط جدار عالٍ بأراضي قصر هين أبتول في مدينة بانكور، على قمة العالم، ويسير الحرس فوق هذا الجدار ليلاً ونهارًا.

يقف عند البوابات أوتان كامل من مائة رجل؛ ويقف في الداخل، عند المدخل الكبير للقصر نفسه، أوتان آخر. لا عجب أنه يصعب اغتيال هين أبتول، الذي ينصب نفسه جيداك كل الجيداك في الشمال.

يوجد مرج قرمزي مفتوح بجوار أحد جوانب القصر، حيث رأيت شيئًا أثار دهشتي - رأيت طائرتي الفضائية! إنها الطائرة التي سرقها مني هين أبتول في مدينة هورز المهجورة؛ والآن، كما عرفت لاحقًا، يعرضها هنا كدليل على عظمة شجاعته وقدرته.

كان يتفاخر بأنه استولى عليها بمفرده من أمير الحرب في برسوم، بعد أن هزمه في مبارزة. أضفى عدم الشك في أنها طائرتي الشخصية لونًا إلى القصة؛ فقد كانت شارتي عليها، واضحة على مقدمتها، وبمقدور الجميع قراءتها. لا بد أنهم سحبوها من خلال إحدى البوابات، ثم طاروا بها إلى مكانها الحالي لتستقر؛ حيث لا يمكن أن تهبط أي طائرة، بطبيعة الحال، داخل قبة بانكور العظيمة.

تركوني في غرفة الحراسة التي تقع داخل مدخل القصر مباشرة، حيث يستريح بعض المحاربين من الحرس؛ يلعب اثنان منهم لعبة الجيتان، وهي لعبة الشطرنج المريخي، في حين يلعب الآخرو لعبة اليانو[361] . نهضوا جميعًا عندما دخل معي الضابط إلى الغرفة. وعندما غادر، جلست على مقعد طويل في أحد الجوانب، كما جلس الآخرون واستأنفوا ألعابهم.

نظر أحدهم نحوي ووبخني، قال آمرًا: «قف، أيها العبد!».

«ألا تعرف أفضل من الجلوس في وجود محاربين باناريين؟».

قلت له: «سوف أقف إن استطعت أن تثبت أنك رجل أفضل مني». لم أكن في حالة مزاجية لتقبُّل أي شيء من هذا بخنوع؛ فقد سئمت، في واقع الأمر، من كوني عبدًا.

---

(361) يانو: لعبة حظ مريخية، من المفترض أنها قديمة قِدم حضارة المريخ. وبها كرات مُرقمة وثقوب مُرقمة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Yano – المترجمة.

قفز المحارب على قدميه، وقال: «أووه، أنت وقح أيضًا! حسنًا، سأعلمك درسًا».

قال له أحد رفاقه مُحذِّرًا: «من الأفضل أن تتمهل، يا أوول-تو، أعتقد أن هذا الزميل جاء بناء على أوامر الجيداك. وإذا تشاجرت معه، قد يغضب هين أبتول».

قال أوول-تو هادرًا: «حسنًا، يجب تلقينه درس؛ فالشيء الذي لا أتحمله هو وقاحة عبد»، وتوجه نحوي. لم أنهض، فأمسكني من عتادي وحاول سحبي إلى قدميه، ووجه لي ضربة في الوقت نفسه.

تفاديت ضربته، وأمسكت بعتاده؛ ثم وقفت ورفعته إلى أعلى فوق رأسي. ظللت ممسكًا به هكذا للحظة، ثم قذفته عبر الغرفة. قلت له: «هذا سوف يعلمك أن تكون أكثر احترامًا لمَن هم أفضل منك».

كان بعض الحرس الآخرين يتذمرون بغضب، بينما كان الكثيرون يضحكون على أوول-تو الذي أسرع بالوقوف على قدميه وسحب سيفه الطويل وجاء نحوي. ونظرًا لأن أسلحتي كانت لا تزال معي، سحبت سيفي. وقبل أن نتمكن من الاشتباك، أمسك اثنان من رفاق أوول-تو به ومنعاه من الاستمرار. كان يلعن ويكافح لتحرير نفسه والاشتباك معي، عندما دخل ضابط من الحرس إلى الغرفة؛ من الواضح أن هذا الاضطراب جذب انتباهه. وعندما سمع ما حدث، التفت بغضب نحوي قائلًا: «يجب جلدك، لإهانتك محاربًا باناريًّا والهجوم عليه».

قلت: «ربما ترغب في محاولة جلدي».

وهنا تحول وجهه إلى اللون الأرجواني، وتقريبًا أخذ يقفز صعودًا وهبوطًا وهو يستشيط غضبًا.

توجه إلى المحاربين صارخًا: «اقبضوا عليه! وأوسعوه ضربًا».

بدأ جميعهم يتحركون في اتجاهي، فسحبت سيفي. كنت أقف وظهري إلى جدار، وكان يمكن أن يتناثر العديد من البانارين القتلى حول الغرفة خلال بضع دقائق، إن لم يأتِ الآن الضابط الذي أحضرني هنا.

سألني: «ما معنى هذا؟».

أوضح ضابط الحرس ما حدث، على نحو يظهرني مخطئًا تمامًا.

قلت للضابط: «إنه يكذب، لقد هُوجمت دون أن أثير أي استفزاز».

التفتَ إلى ضابط الحرس وقال له: «لا أعرف مَن الذي بدأ هذا، وإنما من الجيد لرقبتك أن شيئًا لم يحدث لهذا الرجل»؛ ثم جردني من سلاحي وطلب مني أن أتبعه.

قادني إلى خارج القصر ثانية، وكانت طائرتي تقف بجانب المبنى. لاحظت أنها لم تكن مربوطة، حيث لا يوجد خطر من الرياح تحت تلك القبة العظيمة؛ على أنني تمنيت أن تكون في العراء بحيث أتمكن من الطيران بها إذا استطعت العثور على لانا الجاثولية؛ فهي فرصة للهرب أرسلتها السماء، لو لم تكن توجد تلك القبة.

أخذني إلى وسط مساحة من العشب جيدة الصيانة، تواجه عددًا من الناس الذين تجمعوا بجانب المبنى. كانوا من الرجال والنساء، وهناك المزيد الذين يأتون من القصر. وأخيراً سمعت أصوات الأبواق، وجاء الجيداك يرافقه الحاشية والنساء.

في هذه الأثناء، خرج رجل ضخم ووقف على العشب بجانبي. كان محاربًا يرتدي المعدن الذي يرمز إلى أنه أحد أفراد الحرس الشخصي لهين أبتول.

قال الضابط الذي أحضرني هنا: «لقد سمع الجيداك حكايات عن قوتك العظيمة، ويرغب في رؤية عرضًا. هذا راب-زوف، ومن المفترض أنه أقوى رجل في بانكور...».

«أنا أقوى رجل في بانكور، يا سيدي»، قاطعه راب-زوف، «أنا أقوى رجل على برسوم».

قلت: «لا بد أنه قوي جدًّا. ماذا سيفعل بي؟».

«سوف تتصارعان لتسلية الجيداك وبلاطه. سوف يعرض راب-زوف كيف يمكنه بسهولة أن يلقي بك أرضًا ويبقيك على الأرض. هل أنت مستعد، يا راب-زوف؟».

قال راب-زوف إنه مستعد، وأشار لنا الضابط كي نبدأ. تحرك راب-زوف نحوي بعجرفة، وهو يلقي أحيانًا لمحات سريعة إلى الجمهور ليعرف ما إذا الجميع ينظرون إليه. كانوا ينظرون إليه بالفعل، ويُعجبون بضخامة حجمه.

قال راب-زوف: «هيا، يا زميل! عليك أن تخوض أفضل معركة في إمكانك؛ أريدها مثيرة لاهتمام الجيداك».

قلت: «أتمنى أن تثير اهتمامك أنت، يا راب-زوف».

ضحك بصوت عالٍ، وقال: «لن تشعر بالرغبة في المزاح عندما أهزمك».

قلت صائحًا: «هيا، يا ثرثار! أنت تتحدث كثيراً».

كان يميل إلى الأمام في محاولة لحملي، عندما أمسكت أحد معصميه واستدرت بسرعة وألقيته فوق كتفي. تركته عمدًا يسقط بقوة، وكان لا يزال يترنح قليلاً عندما وقف على قدميه. كنت في انتظاره على كثب، وأمسكت بعتاده ورفعته فوق رأسي، ثم بدأت أدور وأنا أحمله. كان عاجزاً تمامًا. وعندما رأيت أنه مشوش بما يكفي، حملته وألقيته بقوة أمام هين أبتول. كان راب-زوف في حالة يُرثى لها.

«أليس لديك رجال أقوياء في بانكور؟» سألته؛ ثم رأيت لانا الجاثولية تقف بجانب الجيداك. وهنا جاءني فجأة إلهام بخطة جنونية.

قال هين أبتول بطريقة لطيفة: «ربما كان من الأفضل أن أرسل رجلين ضدك»؛ من الواضح أنه استمتع بالعرض.

سألته: «لماذا لا تجلب مبارزًا؟ أنا أستخدم السيف جيدًا»؛ وقد كنت أحتاج إلى سيف بشدة الآن، أحتاجه لتنفيذ خطتي.

سألني هين أبتول: «هل تريد أن تُقتَل، أيها العبد؟ لديَّ في حرسي أفضل مبارز في العالم».

قلت: «هات أفضل من لديك؛ قد أفاجئه، وأفاجئ شخصًا آخر»، ونظرت مباشرة إلى لانا الجاثولية وغمزت. وعندئذ تعرّفت عليَّ، للمرة الأولى، مع تنكري.

سألني هين أبتول، وهو ينظر حوله: «لمَن تغمز؟».

قلت: «دخل شيء في عيني».

تحدث هين أبتول مع ضابط يقف بالقرب منه. سأله: «مَن أفضل مبارز في الحرس؟».

أجاب الضابط: «لا يوجد أفضل من أوول-تو».

«أحضروه».

هكذا إذَنْ! مبارزة مع صديقي القديم أوول-تو. وهذا سيسعده - لبضع لحظات.

أحضروا أوول-تو؛ وقد سعد كثيراً عندما وجد أنه سيشتبك معي. قال: «الآن، أيها العبد، سوف ألقنك الدرس الذي وعدتك به».

سألته: «مرة أخرى».

قال: «سيكون الأمر مختلفًا هذه المرة».

بدأنا الاشتباك بسيوفنا.

قلت: «مبارزة حتى الموت!».

أجاب أوول-تو: «حتى الموت يا عبد!».

قاتلتُ بداية في موقف دفاعي أغلب الوقت، ساعيًا إلى توجيه خصمي إلى الموضع الذي أردته؛ وعندما حدث، ضغطت عليه فتراجع. ظللت أدفعه في اتجاه الجمهور. ولأجعله سهل الانقياد إلى توجيهاتي، بدأت في إصابته قليلاً. أردته أن يحترم سيفي وقدرتي. وسرعان ما غطته الدماء، وكنت أجبره على التوجه إلى أي موقع أريد.

دفعته نحو الحشد الذي كان يتراجع إلى الخلف؛ ثم نظرت نحو لانا وأومأت لها برأسي أن تتوجه إلى أحد الجوانب، ثم اقتربت منها وهمست: «اركضي إلى الطائرة، عندما أقتله، وابدئي تشغيل المحرك».

وعندئذٍ دفعت أوول-تو بعيدًا عن الحشد، ورأيت لانا تتبعنا كما لو أنها مهتمة بالمبارزة ولا ٍتدرك ما تفعله.

همست: «الآن، لانا!». رأيتها تسير ببطءٍ إلى الوراء؛ إلى الطائرة.

ولجذب انتباه الحشد بعيدًا عن لانا، ضغطت على أوول-تو ليتحرك نحو أحد الجوانب؛ وذلك باستعراض للمبارزة أعرف أنه سيثير اهتمام الجميع. ثم جعلته يستدير إلى حد التراجع إلى الوراء، على نحو يأخذني إلى أقرب موقع لسفينتي.

وفجأةً سمعت هين أبتول يصيح: «الفتاة! أحضروها! لقد صعدت على متن تلك الطائرة!».

وعندما بدأوا يتحركون، طعنت أوول-تو في قلبه واستدرت راكضًا إلى سفينتي. جاءت في أعقابي دزينة من المحاربين ممتشقين سيوفهم. لحق بي الشخص الذي كان أول مَن بدأ في التحرك، وكان أسرع من الآخرين، عندما اضطررت إلى التوقف للحظة على جانب الطائرة للتأكيد مرة أخرى من أنها غير مربوطة بأي شكل من الأشكال. استدرت وتفاديت طعنة خبيثة؛ ثم تحرك سيفي ثانية بسرعة الضوء، وتدحرجت رأس المحارب من فوق كتفيه.

قلت للانا صائحًا، وأنا أقفز إلى سطح السفينة: «طيري بها!».

ما إن ارتفعت السفينة، حتَّى أسرعت إلى لوحات التحكم وتوليت القيادة.

سألتني لانا: «إلى أين نذهب، جون كارتر؟».

أجبت: «إلى جاثول».

نظرت لانا إلى القبة فوقنا. بدأت تقول: «كيف ..؟»، لكنها رأتني أدير مقدمة الطائرة إلى أعلى بزاوية 45 درجة، وأفتح صمام السرعة – وهنا عرفتْ إجابة سؤالها.

كانت السفينة الصغيرة، اللطيفة والسريعة كما أطير بها دائمًا، تندفع خلال الهواء بانكور الدافئ بسرعة هائلة. اقترب كلانا من سطح قمرة القيادة الصغيرة – آملاً.

اهتزت الطائرة من الاصطدام الهائل؛ تناثر الزجاج المكسور في جميع الاتجاهات - ثم خرجنا إلى الهواء البارد، الهواء النقي في القطب الشمالي.

استقر الوضع، وتوجهت إلى جاثول بأقصى سرعة؛ فهناك خطر أن نتجمد حتى الموت إذا لم نصل قريبًا إلى مناخ أكثر دفئًا، فليس لدينا فراء.

سألتها: «ماذا حدث لكل من بان دان تشي وجاد-هان؟».

أجابت لانا: «لم أرهما منذ القبض علينا جميعًا في جاثول. مسكين بان دان تشي؛ لقد قاتل من أجلي، وأُصيب بجروح خطيرة. أخشى ألا أراه ثانية»؛ وامتلأ صوتها بالدموع.

حزنت كثيراً على المصير المحتَمل لكل من بان دان تشي وجاد-هان، لكن لانا الجاثولية على الأقل في أمان أخيراً. أم أن في هذا القول مبالغة شديدة؟

إنها آمنة على الأقل من هين أبتول، ولكن ماذا يحمل المستقبل؟ كانت مُعرضة لخطر مباشر يتمثل في التجمُّد حتى الموت، إذا وقع أي حادث يؤخرنا قبل أن نصل إلى خط عرض أكثر دفئًا؛ كما كانت توجد مخاطر أخرى، لا تُعد ولا تُحصى، خلال عبور الأراضي القفر في هذا الكوكب الآخذ في الاحتضار.

ولأنني متفائل عنيد، شعرت أن لانا في أمان، وكان هذا شعورها أيضًا؛ وربما لأنه لا يمكن تصور خطر أكبر من ذلك الخطر الذي كان يتهددها عندما وقعت في أيدي هين أبتول.

لاحظت أنها تضحك، وسألتها عن السبب.

قالت: «هين أبتول يخشاك أكثر من أي رجل آخر على برسوم، وكنت أنت لديه دون أن يعرف ذلك. وقد حرّض ضدك، وأنت أعظم مبارز في عالَمين، شخصٌ أخرق؛ في حين كان يمكنه إطلاق أوتان كامل عليك ويدمرك، على الرغم من أنه كان سيفقد بلا شك نصف محاربي الأوتان. أدعو فقط أن يأتي يوم يعرف فيه الفرصة التي فاتته، عندما سمح لجون كارتر، أمير الحرب في برسوم، الهرب منه».

قلت: «نعم، إنها قصة مُسلية. وكذلك تلك الحفرة التي تركناها في سقف مدينته الدافئة؛ لكنني أخشى أن حس الدعابة الذي يتمتع به هين أبتول لن يكون مساويًا لمُهمة تقديره».

أسرعنا نحو الجنوب، إلى مناخ أكثر دفئًا، وسعداء بهروبنا بمعجزة من طاغية بانار؛ ولم نكن ندرك، لحسن الحظ، ماذا يخبئه لنا المستقبل.

كانت لانا الجاثولية في أمان – ولكن إلى متى؟ متى سنرى جاثول أو هيليوم ثانية؟

* * *

الكتاب الرابع

رجال المريخ غير المرئيين

الفصل (1)

نعم، أصبحت لانا الجاثولية في أمان أخيراً. لقد أخذتها من الأسر في مدينة بانكور بالقطب الشمالي، سرقتها أمام هين أبتول الذي ينصب نفسه جيداك جميع الجيداك في الشمال؛ وكنا نسرع في طائرتي نحو جاثول، خلال الهواء الرقيق لكوكب المريخ الآخذ في الاحتضار. كنت سعيدًا بما حققته، لكنني كنت أشعر أيضًا ببرودة شديدة.

قالت لانا، بعد أن ابتعدنا عن بانكور بمسافة كبيرة: «قلت إنك تأخذني إلى جاثول. لا شيء يسعدني أكثر من العودة إلى والدي، ووالدتي، ومدينتي الأصلية؛ وإنما كيف يمكننا أن نأمل في الهبوط هناك، بينما جاثول مُحاطة بمحاربي هين أبتول؟».

أجبت: «البارناريون هم مجموعة عديمة الكفاءة من الأغبياء؛ ومعظم محاربي هين أبتول عبارة عن مُجندين بالإكراه، ولا يتعاطفون مع خوض الحرب من أجل سيدهم الطاغية. ويتحمل هؤلاء الرجال المُجمدين المساكين ذلك لأنهم يعرفون أنه لا يوجد مفر؛ ويفضلون الحياة والوعي على إعادتهم إلى بانكور وتجميدهم ثانية إلى أن يحتاج هين أبتول سيوفهم في حرب في المستقبل».

صاحت لانا: «رجال مجمدون! ماذا تقصد بذلك؟».

سألتها مندهشًا: «ألم تسمعي أي شيء عنهم عندما كنت سجينة في بانكور؟».

أكدت لانا قائلة: «لم أسمع أي شيء؛ أخبرني عنهم».

«يوجد خارج أسوار المدينة الدافئة صفوف عديدة من الأرفف، في رياح المنطقة القطبية الشمالية قارسة البرودة وشديدة الرياح. ويُعلق على هذه الأرفف آلاف المحاربين من أقدامهم، مثل لحم البقر في مستودع تخزين بارد. وهؤلاء المحاربون في حالة تجمد، حياة مُعلقة. إنهم الأسرى الذين قُبض عليهم في العديد من الغارات خلال فترة تمتد إلى مائة سنة كاملة. وقد تحدثت مع بعض الذين جُمِّدوا لأكثر من 50 سنة».

«وكنت في غرفة الإنعاش عند إذابة الجليد عن عدد منهم؛ بعد بضع دقائق، لا يبدو حالهم أسوأ نتيجة لهذه التجربة، لكن الفكرة كلها مقززة».

سألتني لانا: «لماذا يفعل ذلك؟ ولماذا يحتاج إلى آلاف منهم؟».

قلت: «أفضل القول آلاف فوق آلاف؛ فقد أخبرني أحد العبيد أن عددهم لا يقل عن مليون. ويحلم هين أبتول باستخدامهم في غزو برسوم كلها».

صاحت لانا: «يا للبشاعة!».

«لو لم يكن لقوات هيليوم البحرية وجود، لكان بإمكانه أن يمضي على طريق تحقيق طموحه العظيم؛ ويجب أن تشكري أسلافك المبُجلين، يا لانا، أن القوات البحرية لهيليوم موجودة. بعد عودتك إلى جاثول، سوف أرحل إلى هيليوم لتنظيم حملة تضع نهاية لأحلام هين أبتول».

قالت لانا: «أتمنى قبل أن تفعل ذلك، أن تحاول معرفه ما حدث لبان دان تشي وجاد-هان؛ إذ قام الباناريون بالفصل بيننا بعد وقت قصير من القبض علينا».

قلت: «ربما نقلاهما إلى بانكور لتجميدهما».

صاحت لانا: «أووه، لا!؛ سيكون هذا فظيعًا جدًّا».

سألتها: «أنت مولعة ببان دان تشي، أليس كذلك؟».

أجابت ببعض الخشونة: «كان صديقًا جيدًا جدًّا». لن تعترف هذه الفتاة العنيدة أنها تحبه – وربما لا تحبه؛ لا يمكنك أبدًا قول أي شيء

عن المرأة. لقد عاملته بفظاعة عندما كانا معًا؛ وعندما فصلاهما وكان يواجه الخطر، أظهرت أكبر قلق على سلامته.

قلت: «لا أعرف كيف يمكننا معرفة أي شيء عن مصيره، ما لم نتمكن من الاستفسار مباشرةً من البانارييين، وهذا قد يمثل خطورة نوعًا ما. أود أن أعرف ماذا حدث لهم، وأيضًا ماذا حدث لتان هادرون الهاستوري».

«تان هادرون من هاستور؟ أين هو؟».

«آخر مرة رأيته، كان على متن دوسار، وهي سفينة بانارية سرقتها منهم خارج جاثول؛ وتمرد الطاقم وأخذوا مني السفينة وأسروه. كان الطاقم يضم عددًا من القتلة، ويصرون على قتل تان هادرون بمجرد ما يصل بالسفينة إلى المكان الذي يقرروه؛ فلا يعرف أحد من الطاقم أي شيء عن الملاحة الفضائية».

قالت لانا ثانية: «تان هادرون من هاستور؛ كانت والدته أميرة ملكية من جاثول، وتان هادرون نفسه أحد أعظم المقاتلين في برسوم».

أضفتُ: «وضابط رائع».

«يجب اتخاذ خطوات لإنقاذه أيضًا».

قلت: «إن لم يفت الأوان؛ وتكمن الفرصة الوحيدة لإنقاذ أي منهم في وصولي إلى هيليوم في الوقت المناسب لإحضار أسطول إلى جاثول قبل أن ينجح هين أبتول في إضعافها، ثم إلى بانكور إذا لم نجد الثلاثة بين سجناء هين أبتول في جاثول».

اقترحت لانا: «ربما من الأفضل أن نطير مباشرة إلى هيليوم. أسطول هيليوم يمكنه إنجاز شيء، في حين أننا نحن الاثنان بمفردنا قد لا ننجز أكثر من الوقوع ثانية في أسر البانارييين – وسيصعب عليك الأمر، يا جون كارتر، إذا وقعت ثانية في أيدي هين أبتول بعد ما فعلته في بانكور اليوم». ضحكت، ثم قالت: «لن أنسى أبدًا ما فعلته لراب-زوف، أقوى رجل في بانكور».

قلت: «ولن ينسى راب-زوف».

«ولا هين أبتول. هذا غير الثقب الذي أحدثته في القبة الزجاجية التي تغطي المدينة، عندما طرت بالطائرة خلاله! أراهن أنهم عانوا جميعًا قشعريرة البرودة قبل إصلاح هذا الثقب. لا، لن ينساك هين أبتول أبدًا».

قلت لتذكير لانا: «لكنه لم يعرف مَن أنا بالفعل؛ فبعد إزالة تنكري، لم أعد رجلاً أحمر. ولا يمكنه أبدًا تخمين أن جون كارتر كان بحوزته في يوم ما».

قالت لانا: «لن تختلف النتيجة بقدر ما يتعلق الأمر بك، وأعتقد أنه الموت في الحالتين».

قبل أن نبتعد كثيراً عن بانكور، قررت أن المسار الأكثر حكمة هو المضي مباشرة إلى هيليوم، والحصول على معونة تاردوس مورس، الجيداك. على الرغم من أنني أحمل لقب جيداك كل الجيداك وأمير الحرب في برسوم، التي منحها لي خمسة من جيداك خمس أمم، فقد كنت دومًا أعتبرها ألقابًا فخرية إلى حد كبير، ولم أمارس أبدًا السلطة التي تتضمنها، إلا في أوقات الحرب حتى عندما يكرمني جيداك هيليوم العظيم ويعمل تحت قيادتي.

بعد أن وصلت إلى قرار السفر إلى هيليوم وليس جاثول، أدرت الطائرة نحو الجنوب الشرقي. أمامنا رحلة نقطع خلالها نصف المسافة حول الكوكب، وليس لدينا ماء أو طعام على الإطلاق. سرعان ما ظهرت أبراج هورز وأطلالها الفاخرة، وذكرتنا بظروف لقائنا مع بان دان تشي. وأعتقد أن لانا نظرت بحزن قليل إلى أسفل، على تلك المدينة الميتة منذ زمن طويل التي نُفي فيها حبيبها المفقود بسببنا. فهنا هربت من هين أبتول، وهنا سرق هين أبتول طائرتي هذه التي وجدتها في عاصمته القطبية واستعدتها. نعم، تحمل هوزر لكلينا العديد من الذكريات؛ وأسعدني أننا تجاوزناها وأصبحت خلفنا - هذا الأثر الميت لماضٍ ميت.

تقع دوسار على بُعد، حيث يمكننا الحصول على المياه والطعام؛ بيد أن صداقة دوسار كانت محل شك. فلم تمضِ سنوات عديدة منذ كاد

كارثوريس، أمير هيليوم، يُساق إلى موته على يد أستوك ابن نوتوس، جيداك دوسار؛ ولا يوجد أي تواصل بين هيليوم ودوسار منذ ذلك الحين. ولا توجد بعد دوسار أي مدينة ودية على طول الطريق إلى هيليوم.

قررت الهبوط على دوسار، ولذا طرنا فوقها وكانت غير مألوفة تمامًا بالنسبة لي. كان بلدًا جبليًّا؛ لكنني رأيت في الوادي الطويل العميق أحد أندر المشاهد على المريخ: غابة رائعة. تعني لي الغابة وجود الفاكهة والجوز، وربما حيوانات للصيد؛ وكنا جائعين. توجد أيضًا بلا شك نباتات المانتاليا، التي يمكن من أن تروينا عصارتها؛ وهكذا قررت الهبوط. كان تقديري أن الهبوط محفوف بالمخاطر، وأثبتت الأحداث اللاحقة صحة ذلك.

* * *

الفصل (2)

هبطت على الأرض بالقرب من الغابة، وطلبت من لانا البقاء على متن الطائرة على استعداد للإقلاع في في أي لحظة، وذهبت للبحث عن الطعام. كانت الغابة تضم أساسًا أشجار السكيل[362] ، والسورابوس، والسومبوس[363] . كان النوعان الأولان من أشجار الخشب الصلب، ويحملان الجوز الكبير اللذيذ؛ في حين تحمل أشجار السومبوس ثمارًا تشبه الحمضيات وذات قشرة حمراء رقيقة. يُسمى لب هذه الثمرة «سومب»، ولا يختلف عن الجريب فروت، وإن كان أكثر حلاوة. ويعتبر البرسوميون ثمارها طعامًا شهيًّا، ويُزرَع على طول العديد من القنوات المائية. على أنني لم أرَ من قبل أي شجرة منها بهذا الحجم الكبير؛ كما لم يسبق لي أن رأيت أشجارًا على المريخ بحجم العديد من تلك التي تنمو في هذه الغابة الخفية.

جمعت أكبر قدر يمكنني حمله من الفاكهة والجوز، عندما سمعت لانا تناديني. هناك نبرة من الانفعال والاستعجال في صوتها، فأسقطتُ كل ما جمعته وركضت في اتجاه الطائرة.

سمعتها تصرخ قبل خروجي من الغابة مباشرة؛ وعندما خرجت، رأيت الطائرة ترتفع من الأرض. ركضت نحوها بأسرع ما يمكنني، وسرعتي هائلة في ظل ظروف الجاذبية الأقل التي تسود على المريخ. كنت أقطع 40 أو 50 قدم في القفزة الواحدة، ثم قفزت 30 قدمًا كاملة في الهواء في محاولة للامساك بدرابزين الطائرة. لمست إحدى يدي الحافة العليا للطائرة، لكن أصابعي لم تنغلق على الدرابزين، فانزلقت إلى الخلف وسقطتُ على الأرض. على أنني تمكنت من إلقاء نظرة على سطح الطائرة، وما رأيته أثار دهشتي، ولسبب ما نقل لفروة رأسي شعورًا غريبًا بأن كل شعرة في رأسي تقف منتصبة – فقد كانت لانا بمفردها تمامًا على سطح السفينة، ولا يوجد أحد عند لوحات التحكم!

قال صوت ورائي: «محاولة نبيلة؛ يمكنك القفز بالتأكيد».

استدرت ويدي على غمد سيفي؛ ولم يكن هناك أحد!

---

(362) شجرة سكيل: شجرة من خشب مريخي صلب يُستخدم في بناء كل شيء من السكن إلى الأثاث. وتنتج أيضًا شجرة سكيل الجوز جيد المذاق - http://barsoom.wikia.com/wiki/Skeel - المترجمة.

(363) شجرة سومبوس: شجرة مثمرة تنمو على المريخ، وتعتبر طعامًا شهيًّا - https://barsoom.fandom.com/wiki/Sompus - المترجمة.

نظرت نحو الغابة؛ لا توجد أي علامة على وجود شيء حي حولي. سمعت خلفي ضحكة - ضحكة ساخرة، استفزازية. استدرت ثانية. لم أشهد، بقدر ما أمكنني الرؤية، سوى المشهد المريخي الطبيعي السلمي. حلقت الطائرة فوقي واختفت وراء الغابة - طارت، دون وجود يد بشرية عند لوحات التحكم، بفِعل قوة شريرة لم أتمكن من فهمها.

ومرة أخرى قال صوت خلفي: «حسنًا، علينا أن نمضي نحن أيضًا في طريقنا. أظن أنك تدرك أنك سجيننا».

أجبت: «أنا لا أدرك أي شيء من هذا القبيل. إذا أردت أن تأخذني، تعال وخذني- عليك أن تأتي إلى العراء مثل الرجال؛ إذا كنت من الرجال».

قال الصوت: «ما من جدوى للمقاومة؛ نحن عشرون وأنت واحد فقط».

سألته: «مَن أنت؟».

قال الصوت: «أووه، عفوًا، كان يجب أن أقدم نفسي. أنا بنوكسوس ابن بتانتوس، جيداك إينفاك. ومَن أنت، الذي كان لي شرف القبض عليه؟».

قلت: «لم تحظَ بعد بشرف القبض عليَّ». لم يعجبني هذا الصوت، كان مداهنًا ومهذبًا.

قال الصوت المُسمَّى بنوكسوس: «أنت غير متعاون على الإطلاق، ولا أريد استخدام أساليب مزعجة معك». لم يعُد الصوت لطيفًا، شابته مجرد مسحة خشونة بسيطة.

قلت: «أنا لا أعرف أين تختبئ؛ لكنكم إذا خرجتم، العشرون جميعًا، سوف أذيقكم طعم الفولاذ. لقد اكتفيت من هذه الحماقة».

قاطعني الصوت: «واكتفيت أنا أيضًا». بدا الأمر بشكل ما وكأنه فخ الدب - انتهت المداهنة اللطيفة. «خذوه يا رجال!».

نظرت حولي بسرعة لأرى الرجال، لكني لا أزال بمفردي - أنا فقط، وذلك الصوت. هذا على الأقل ما اعتقدته، إلى أن أمسكت أيادٍ بكاحلي وهزت قدمي من تحتي. سقطتُ مسطحًا على وجهي، وشعرت وكأن نصف دزينة من رجال ضخام يقفزون على ظهري، ونصف دزينة من الأيادي تنتزع سيفي من قبضتي، والمزيد من الأيادي تجردني من أسلحتي الأخرى. ثم قامت أيادٍ غير مرئية بتقييد يدي خلف ظهري، وربطت أيادٍ أخرى حبلاً حول رقبتي، وقال الصوت: «انهض!».

وقفت. قال الصوت المُسمى بنوكسوس: «إذا أتيت دون مقاومة، سيكون الأمر أسهل كثيراً بالنسبة لك ولرجالي. يتسم بعض رجالي بسرعة الغضب، وإذا جعلت الأمر صعبًا عليهم، قد لا تصل إلى إينفاك حيًّا».

قلت: «سوف آتي، ولكن أين؟ يمكنني انتظار الباقين».

قال بنوكسوس: «سوف يقودونك، واحرص أن تسير إلى حيث يقتادونك. فقد أثرت بالفعل ما يكفي من المتاعب».

أجبت: «أنت لن تعرف ما هي المتاعب حتى أتمكن من رؤيتك».

«لا تُهدِّد؛ فقد راكمت لنفسك بالفعل ما يكفي من المتاعب».

سألته: «ماذا حدث للفتاة التي كانت معي؟».

قال بنوكسوس: «أعجبتني، وطلبت من أحد رجالي الذين يمكنهم قيادة السفينة أن يأخذها إلى إينفاك».

يصعب أن أحكي لك مدى غرابة التجربة؛ أن يقودني خلال تلك الغابة رجال لا يمكنني رؤيتهم، وإنما يتحدثون معي بصوت ليس لديه جسم. على أنني شعرت بالرضى عندما أدركت أنهم ربما يأخذونني إلى المكان الذي ذهبت إليه لانا الجاثولية، بل وكنت حريصًا على الانصياع لهم حيث يقتادوني.

يمكنني رؤية الحبل المتدلي من رقبتي يمتد أمامي، ويلتف في انحناء بسيط كقاعدة، ثم يختفي تدريجيًّا -ما يماثل المشهد الانطباعي- وفجأةً يمتد أحيانًا في خط مستقيم، وعندئذ أشعر برعشة خلف رقبتي. لكنني تعلمت تجنب المتاعب باتباع نهاية هذا الحبل الشبحي خلال أشجار الغابة ومراقبة عقدته بعناية، بغية توقع الرعشة المقبلة عند استقامة الانحناء.

وكنت أسمع باستمرار، أمامي وخلفي، أصواتًا توبخ أصواتًا أخرى:

«تحسس أين تذهب، أيها المتخبط الأبله»، أو «كف عن الضغط على كعبي، يا أحمق»، أو «بمَن تعتقد أنك تصطدم، يا ابن الكالوت!». بدت الأصوات تتداخل. وعلى الرغم من شعوري بخطورة وضعي، لم أستطع منع نفسي من هذه التسلية.

أشعر حاليًا بذراع تلمسني، أو على الأقل شعرت أنها ذراع، وباللحم الدافئ للذراع العارية؛ لمستني للحظة فقط ثم ابتعدت على الفور، ثم لمستني ثانية بإيقاع موزون، مثلما

قد تفعل أذرع رجلين يسيران بخطواتهما جنبًا إلى جنب؛ ثم تحدث صوت بالقرب مني، وعرفت أن صوتًا يمشي معي.

قال الصوت: «سوف نسير عبر مكان سيئ؛ ومن الأفضل أن تمسك بذراعي».

تحسست بيدي اليُمنى وعثرت على ذراع لا يمكنني رؤيتها. أمسكت ما شعرت وكأنها ذراع علوية، وعندئذ اختفت يدي اليُمنى! تنتهي ذراعي اليُمنى حاليًا عند المعصم، أو هذا ما يبدو على الأقل؛ لكن بمقدوري أن أشعر بأصابعي ممسكة بهذه الذراع التي لا أستطيع رؤيتها. هذا أغرب إحساس؛ وأنا لا أحب المواقف التي لا يمكنني فهمها.

وصلنا على الفور تقريبًا إلى مكان مفتوح في الغابة، حيث لا تنمو الأشجار.

كانت الأرض مُغطاة بربوات صغيرة، وعندما صعدت عليها، انخفضت غارقة لبضع بوصات. كان مثل المشي فوق زنبرك ملفوف يكسوه العشب.

قال الصوت الذي يسير بجانبي: «سوف أرشدك. إذا سرت خلال هذا الدرب بمفردك، سوف تُبتَلَع. أسوأ ما يمكن أن يحدث لك الآن هو أن تطأه إحدى ساقيك، لأن بإمكاني أن أجذبك قبل أن يمسك بك بقوة».

قلت: «شكرًا لك؛ هذا لطيف جدًّا منك».

أجاب الصوت: «لا تفكر في ذلك. أشعر بالأسف تجاهك؛ وأشعر دائمًا بالأسف على الغرباء الذين يقودهم مصيرهم إلى غابة إينفاك. لدينا اسم آخر لها، وأعتقد أنه أفضل وصف لها – 'غابة الرجال المفقودين'».

سألته: «هل من السيئ بالفعل الوقوع في أيدي شعبك؟».

أجاب الصوت: «أخشى ذلك؛ فما من مهرب».

لم أهتم كثيراً، لأنني سمعت ذلك من قبل. تتفاخر كثيراً الشعوب الأدنى في برسوم: لديهم دائمًا أفضل المبارزين، وأرقى المدن، والثقافة الأكثر تميزًا؛ وبمجرد أن تقع في أيديهم، يحكمون عليك دائمًا بالموت أو حياة العبودية - ولا يمكنك الهروب أبدًا.

سألته: «هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟».

قال الصوت: «بالتأكيد».

«هل أنت دائمًا صوت فقط؟».

أمسكت يد بذراعي، وافترضتُ أنها يده اليمنى، واعتصرتها بأصابع قوية وإن تكن غير مرئية؛ وضحك هذا الشيء الذي كان يسير بجانبي. وسألني: «هل يشعرك ذلك بأنني مجرد صوت؟».

قلت: «صوت جهوري. يبدو أنك تمتلك الصفات المادية لرجل من دم ولحم؛ هل لديك اسم؟».

«بالتأكيد؛ اسمي كاندوس؛ وما اسمك؟»، سأل بأدب.

قلت له: «دوتار سوجات»؛ مستخدمًا مرة أخرى اسمي المستعار القديم.

نجحنا في عبور المستنقع، أو أيًّا ما كان، وأبعدت يدي عن ذراع كاندوس. أصبحت مرئيًّا بالكامل على الفور، وظل كاندوس مجرد صوت. مشيت بمفردي ثانية، أنا والحبل الذي يبرز أمامي ويبدو كأنه يتحدى قانون الجاذبية. ولم يساعدني تخميني أن الطرف الآخر للحبل مُثبت بصوت أنا أراه يتحرك بشكل صحيح؛ كانت أكثر طريقة غير لائقة يتصرف بها حبل.

كرر كاندوس: «‘دوتار سوجات’؛ يبدو أشبه باسم رجل أخضر».

سألته: «هل تعرف الرجال الخُضر؟».

«أووه، نعم. هناك جماعة منهم تتردد أحيانًا على قيعان البحر الميت وراء الغابة؛ لكنهم تعلموا أن يبتعدوا عنا بمسافة كبيرة. فعلى الرغم من ضخامة حجمهم وقوتهم، لدينا ميزة واضحة عليهم. وفي واقع الأمر، أعتقد أنهم يخشوننا كثيراً».

«يمكنني أن أتصور ذلك؛ فليس من السهل محاربة أصوات. فلا يوجد شيء يمكن طعنه بالسيف».

ضحك كاندوس، وقال: «أعتقد أنك تود طعني بسيفك».

قلت: «كلا بالتأكيد؛ لقد كنت لطيفًا جدًّا معي، لكنني لا أحب الصوت الذي يُسمي نفسه بنوكسوس. ولا أمانع في مبارزته».

قال كاندوس مُحذِّرًا: «لا تتحدث بصوت عال. يجب أن نتذكر أنه ابن الجيداك. علينا جميعًا أن نتعامل بلطف مع بنوكسوس - بغض النظر عن رأينا الشخصي فيه».

أدركت من كلامه أن بنوكسوس لا يحظى بشعبية. من المدهش حقًّا كيف يمكن للمرء أن يحكم بسرعة على شخص من صوته؛ لم يحدث لي هذا من قبل بهذه القوة. لقد كرهت صوت بنوكسوس منذ البداية، حتى عندما كان لطيفًا، وربما بسبب ذلك؛ لكني أحببت الصوت المُسمى كاندوس - كان صوت رجل، صريحًا ودون مكر؛ كان صوتًا جيدًا.

سألني كاندوس: «من أين أنت، دوتار سوجات؟».

قلت: «من فرجينيا».

«لم يسبق لي أن سمعت عن هذه المدينة. في أي بلد تقع؟».

أجبت: «في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنك لم تسمع عنها أبدًا أيضًا».

قال: «لا، لا بد أنه بلد بعيد».

قلت مؤكِدًا: «إنه بلد بعيد، على بعد 43 مليون ميل من هنا».

قال: «يمكنك أن تتحدث طويلاً بمثل ما تقفز. أنا لا أمانع أن تمزح معي، ولو كنت مكانك لم أكن لأمزح مع بنوكسوس، ولا مع الجيداك بتانتوس؛ فلا يتمتع أي منهما بحس الفكاهة».

قلت بإصرار: «لكني لم أكن أمزح. هل رأيت جاسوم في السماء ليلاً؟».

أجاب: «بالطبع».

«حسنًا، هذا هو العالم الذي جئت منه؛ تُسمى هناك كوكب الأرض، ويُسمى برسوم كوكب المريخ».

قال كاندوس: «أنت تبدو وتتحدث كرجل شريف. وفي حين أنني لا أفهم، فأنا أميل إلى تصديقك؛ ومع ذلك، من الأفضل أن تختار مكانًا في برسوم موطنًا لك عندما يسألك أي شخص آخر في إينفاك؛ وهم سرعان ما يستجوبونك - فنحن على أبواب المدينة الآن».

* * *

الفصل (3)

إينفاك! مدينة في غابة الرجال المفقودين. لم أرَ في البداية سوى البوابة، نظرًا لكثافة الأشجار التي تخفي سور المدينة - الأشجار والكرمات التي تغطي السور.

سمعت اعتراضًا صوتيًّا مع اقترابنا من البوابة، وسمعت صوت بنوكسوس يرد: «أنا بنوكسوس، الأمير، ومعي عشرون محاربًا وسجينًا».

قال الصوت: «فليتقدم شخص واحد ليقول كلمة السر».

أدهشني أن حارس البوابة لم يستطع التعرف على ابن الجيداك، ولا على أي من المحاربين العشرين معه. أتصور أن شخصًا تقدم وهمس بكلمة السر؛ لأن صوتًا قال الآن: «ادخل، يا بنوكسوس، مع محاربيك العشرين وسجينك».

تأرجحت البوابات مفتوحة على الفور. رأيت ممرًّا مضاء وأناسًا يتحركون. جُذِب الحبل حول رقبتي وسرت قُدُمًا نحو البوابة، وظهر أمامي فجأة رجال مسلحون وراء عَتبة البوابة واحدًا تلو الآخر، كما لو أنهم يتجسدون من الهواء الرقيق، واستمر وجودهم على طول الممر المُضاء. اقتربت من البوابة، كما لو كنت بمفردي، وما إن خطوت العتبة، حتى وجدت محاربًا بجانبي في نفس المكان الذي كان يسير فيه صوت كاندوس.

نظرت إلى المحارب، ومن المؤكد أن دهشتي الواضحة كانت بادية على وجهي، حيث ابتسم المحارب. نظرت خلفي، ورأيت محاربًا تلو محارب يتجسد كرجل بدم ولحم بمجرد عبوره العتبة. لقد سرت في الغابة برفقة أصوات، والآن يسير عشرة محاربين أمامي وتسعة خلفي وواحد بجانبي.

سألت المحارب الذي يسير إلى جانبي: «هل أنت كاندوس؟».

قال: «بالتأكيد».

قلت صائحًا: «كيف يمكنك القيام بذلك؟».

أجاب: «ببساطة شديدة، لكنه سر الإينفاكيين. ومع ذلك، يمكنني أن أخبرك أننا غير مرئيين نهارًا، أو بالأحرى عندما لا تُضيئنا تلك المصابيح التي تنير مدينتنا. وإذا لاحظت بنية المدينة ونحن نسير، سترى أننا نستفيد تمامًا من فرصتنا الوحيدة في أن نكون مرئيين».

سألته: «لماذا تهتمون برؤية الآخرين أو عدم رؤيتهم لكم؟ ألا يكفي أنكم ترون أنفسكم؟».

قال: «للأسف هناك عقبة. يمكننا أن نراكم، لكننا لا نستطيع رؤية بعضنًا بأكثر مما يمكنك أن ترانا».

يُفسر هذا إذن التذمر واللعنات التي سمعتها خلال مسيرتنا عبر الغابة؛ حيث كان المحاربون يتصادمون لعدم قدرتهم على رؤية بعضهم أكثر من قدرتي على رؤيتهم.

قلت: «لقد اكتسبتم التخفي بالتأكيد، أم خرجتم من بيض غير مرئي؟».

أجاب: «لا، نحن أناس عاديون؛ لكننا تعلمنا أن نجعل أنفسنا غير مرئيين».

رأيت عندئذ ساحة مفتوحة أمامنا، ويختفي المحارب بمجرد خروجه من الممر المُضاء إلى الساحة. وعندما خرجت مع كاندوس من الممر، أصبحت أسير بمفردي ثانية. يا للغرابة.

تناثرت تلك الساحات في المدينة لتمنحها التهوية؛ لأن المدينة كانت مسقوفة تمامًا ومُضاءة بشكل مصطنع بأضواء مدهشة تتيح لسكانها رؤية كاملة. نمت الأشجار في كل ساحة، وتنمو الكرمات على سطح المدينة؛ ولذا، ومع تشييدها في وسط غابة الرجال المفقودين، كانت المدينة غير مرئية تقريبًا، مثلها مثل سكانها، سواء من الأرض أو من الجو.

توقفنا أخيراً في ساحة كبيرة تضم العديد من الأشجار، بها حلقات حديدية وسلاسل تربطها بها. وهنا امتدت أيادٍ خفية ووضعت قيدًا حول أحد كاحليّ، وتثبيت القيد في نهاية إحدى هذه السلاسل.

همس الآن صوت في أذني: «سأحاول مساعدتك؛ لأنك أثرت إعجابي- على المرء أن يُعجب برجل يمكنه القفز ثلاثين قدمًا في الهواء؛ وعلى المرء أن يهتم برجل يقول إنه أتى من عالم آخر يبعد بمسافة 43 مليون ميلٍ عن برسوم».

كان كاندوس هو المتحدث. شعرت بأنني محظوظ بوجود صديق هنا، لكني تساءلت كيف يمكنه مساعدتي. ذلك أن كاندوس لم يكن الجيداك، ومصيري يقع على الأرجح في يد بتانتوس.

يمكنني سماع أصوات تعبر الساحة ذهابًا وإيابًا. ويمكنني رؤية أناس يأتون من الممرات أو الشوارع ثم يتلاشون بمجرد دخولهم الساحة. ويمكنني رؤية ظهور رجال

ونساء فجأة في مداخل الشوارع وهم يغادرون الساحة. وفي عدة مناسبات، كانت أصوات تقف بجانب شجرتي وتناقشني. كانوا يُعلقون على بشرتي الفاتحة وعينيَّ الرماديتين. وذكر أحد الأصوات قفزتي الكبيرة في الهواء، التي رواها واحد ممن خطفوني.

توقف عِطر لطيف بالقرب مني، وقال صوت جميل: «يا له من رجل مسكين، وهو وسيم جدًّا!».

هدر صوت رجل: «لا تكوني حمقاء، يا روجاس، إنه عدو؛ وعلى أي حال، مظهره ليس جيدًا جدًّا».

قال الصوت الجميل بإصرار: «أعتقد أنه وسيم جدًّا، وكيف تعرف أنه عدو؟».

قلت: «لم أكن عدوًّا عندما هبطتُ بسفينتي بجوار الغابة، لكن المعاملة التي تلقيتها سرعان ما ستجعل مني عدوًّا».

قال الصوت الجميل: «أرأيت، لم يكن عدوًّا. ما اسمك، أيها الرجل المسكين؟».

أجبت ضاحكًا: اسمي دوتار سوجات، لكني لست مسكينًا».

قال صوت الرجل: «ربما هذا ما تعتقده. هيا، يا روجاس، قبل أن تُظهِري نفسكِ كحمقاء».

قلت: «إذا أعطيتني سيفًا وخرجت من حالة الخفاء الجبانة، سوف أجعل منك أحمق، يا كالوت».

ركلني إصبع قدم خفية، لكنه مادي، في فخذي وقال الصوت هادرًا: «احفظ مركزك يا عبد!».

اندفعت إلى الأمام، وجدت يدي طريقها مصادفة على هذا الزميل؛ وعندئذ أمسكته من عتاده لفترة تكفي لتحسس مكان وجهه، وعندما عثرت عليه، ضربته بيدي اليُمنى ضربة قوية لا بد أنها ألقت به في منتصف الطريق عبر الساحة.

قلت: «هذا سوف يعلمك عدم ركل رجل لا يستطيع رؤيتك».

«هل ركلك موتوس؟»، صاح الصوت الجميل، إلا أنه لم يكن جميلاً الآن، بل كان صوتًا غاضبًا، صوتًا مصدومًا. «يبدو أنك ضربته - وآمل أن تكون فعلت ذلك».

قلت: «لقد ضربته بالفعل، ومن الأفضل أن تتأكدي من وجود طبيب في المنزل».

صاحت الفتاة: «موتوس، أين أنت؟»).

لم يرد؛ لا بد أن موتوس اختفى كضوء. وسرعان ما سمعت بعض الألفاظ النابية، وصوت رجل يقول: «من أنت، يا من ترقد هنا في الساحة؟». من الواضح أن صوتًا ما قد تعثر في موتوس.

قلت في الاتجاه الذي جاء منه صوت الفتاة: «لا بد أنه موتوس. من الأفضل أن تجدي مَن يحمله».

قال صوتها، وهي تبتعد: «لا يهمني، يمكنه أن يظل راقدًا هناك إلى

أن يتعفن». وعلى الفور تقريبًا رأيت فتاة نحيفة تتجسد عند مدخل أحد الشوارع. يمكنني القول من ظهرها أنها كانت فتاة غاضبة؛ وإذا كان ظهرها يُشكل أي معيار، فهي فتاة جميلة - على أي حال، صوتها جميل وقلبها طيب. ربما هؤلاء الإينفاك ليسوا سيئين.

* * *

الفصل (4)

قال صوت خلفي: «كان رائعًا ما فعلته في موتوس».

لم أكن مهتمًّا حتى بالالتفات، فما فائدة الاستدارة وعدم رؤية أحد؟ ولكن عندما قال الصوت: «أراهن أن هذا الكالوت الإينفاكي القذر سيظل هناك لأسبوع»، استدرت لأنني أعرف أن أي إينفاكي لن يقول مثل هذا الكلام.

رأيت رجلاً مقيدًا بالسلاسل إلى شجرة بالقرب مني، وكان رجلاً أحمر آخر (من الغريب أنني أعتبر نفسي دائمًا رجلاً أحمر هنا في برسوم؛ ومع ذلك، ربما ليس غريبًا على الإطلاق. أنا رجل أحمر، باستثناء لون بشرتي - أنا رجل أحمر، حتى النخاع، من حيث تفكيري وشعوري. لم أعد أعتبر نفسي فيرجينيًّا، فقد أصبح حبي لهذا العالم متأصلاً إلى حد اعتباره عالمي). سألته: «حسنًا، من أين أتيت؟ وهل أنت واحد من هؤلاء غير المرئيين؟».

أجاب الرجل: «أنا لست منهم. أنا كنت هنا دائمًا. لا بد أنني كنت نائمًا خلف شجرتي عندما أحضروك هنا، لكن الناس الذين يقفون للتعليق عليك أيقظوني. سمعتك تخبر الفتاة أن اسمك دوتار سوجات. إنه اسم غريب لرجل أحمر. اسمي بتور فاك، أنا من زودانجا».

بتور فاك! تذكرته الآن؛ كان أحد الإخوة بتور الثلاثة الذين صادقوني عندما كنت أريد دخول زودانجا بحثًا عن ديجاه ثوريس. ترددت في البداية أن أقول له مَن أنا بالفعل؛ لكنني كنت أعرف أنه رجل شريف وكنت على وشك إخباره بهويتي عندما صاح فجأة: «باسم أم القمر الأقرب! تلك العينان، وتلك البشرة!».

قلت مُحذِّرًا: «ششش! أنا لا أعرف بعد طبيعة هؤلاء الناس، ولذا تصورت أنه من الحكمة أن أكون دوتار سوجات».

سأل صوت يقف عند كوعي: «إن لم تكن دوتار سوجات، فمَن أنت؟». هذه هي المشكلة مع الاختفاء- أن يتسلل رجل ويتنصت عليك، وليس لديك أدنى فكرة أن هناك أي شخص بالقرب منك.

قلت أول اسم تبادر إلى ذهني: «أنا سلطان سوات».

سأل الصوت: «ما السلطان؟».

أجبت: «جيداك».

«في أي بلد؟».

«في سوات».

قال الصوت: «لم أسمع عن سوات من قبل».

«حسنًا، ما دام الأمر أصبح معروفًا الآن، فمن الأفضل أن تخبر الجيداك أن لديه سلطانًا مقيدًا بالسلاسل هنا في الساحة الخلفية».

لا بد أن الصوت ابتعد، لأني لم أسمع منه بعد ذلك. كان بتور فاك يضحك، قال: «يمكنني القول إن الأمور سوف تتحسن قليلاً الآن، لأنك هنا. تقديري العميق لأي من أسلافك الذي منحك روح الدعابة. هذه أول مرة أضحك منذ أن أمسكوا بي».

«منذ متى وأنت هنا؟».

«منذ عدة أشهر. كنت أجرب مُحركًا جديدًا طورناه في زودانجا، وأحاول إعداد سجل للملاحة الدورانية في برسوم عند خط الاستواء. ويقع هذا المكان بالطبع على خط الاستواء، وتعطل محركي هنا. كيف أتيت أنت إلى هنا؟».

«كنت قد هربت من بانكور مع لانا، ابنة جاهان الجاثولي، وكنا في طريقنا إلى هيليوم لنعود بأسطول يُعلّم هين أبتول درسًا. لم يكن لدينا طعام أو ماء على طائرتنا؛ لذلك هبطت إلى جوار هذه الغابة للحصول على الطعام والماء. بينما كنت في الغابة، صعد أحد هؤلاء الإينفاك على متن الطائرة، ولم تره لانا بالطبع، وأقلع ومعه لانا؛ ثم هاجمني أكثر من عشرين منهم وأخذوني سجينًا».

«كانت معك فتاة! هذا سيئ جدًّا. قد يقتلوننا، لكنهم سيبقون عليها».

قلت بمرارة: «قال بنوكسوس إنه مُعجب بها».

قال بتور فاك موضحًا: «بنوكسوس كالوت، وابن كالوت، وحفيد كالوت». لا يمكن تقييم بنوكسوس بدقة أكثر من ذلك.

سألته: «ماذا سيفعلون معنا؟ هل لدينا أي فرصة للهرب، تعطيني أيضًا فرصة لأخذ لانا؟».

«حسنًا، لا يمكنك الهرب ما دمت هنا مقيدًا بالسلاسل إلى شجرة؛ وهذا ما فعلوه معي منذ أن أتيت. أعتقد أنهم ينوون استخدامنا في نوع ما من المباريات، لكني لا أعرف ما هي. انظر!»، صاح ضاحكًا ومشيراً بيده.

نظرت في الاتجاه الذي أشار إليه، ورأيت رجلين يحملان هيئة عرجاء ثالثة إلى أحد الشوارع.

قال بتور فاك: «لا بد أن هذا هو موتوس». وفجأة قال بصوت رصين: «أخشى أن يوقعك هذا في ورطة».

قلت: «يستحق ما ناله، مهما كانت المتاعب التي سأواجهها. فكّر في ركل رجل لا يُبصر، وهذا معنى ما قام به. وقد جُن جنون الفتاة لما فعله، لا بد أنها طيبة. روجاس - هذا اسم جميل».

قال بتور فاك: «إنه اسم سيدة من طبقة النبلاء».

سألته: «هل تعرفها؟».

«لا، لكن بإمكاني معرفة انتماء أو عدم انتماء الشخص إلى طبقة النبلاء من نهاية اسمه، وأعرف الانتماء من عدمه إلى العائلة الملكية من بداية ونهاية اسمه. تنتهي أسماء طبقة النبلاء الذكور بـ'وس' والإناث بـ'اس'. وتنتهي الأسماء الملكية بالمثل، لكنها تبدأ دائمًا بحرفين ساكنين: مثل بنوكسوس وبتانتوس».

قلت: «إذَنْ موتوس ينتمي إلى النبلاء».

«نعم، وهذا ما سيجعل وضعك سيئًا».

قلت: «أخبرني، كيف يجعلون أنفسهم غير مرئيين؟».

«لقد تمكنوا من تطوير شيء يمنحهم الخفاء ربما لمدة يوم؛ وهو شيء يأخذونه داخلهم – مثل حبة دواء كبيرة. وأعتقد أنهم يأخذون واحدة كل صباح، للتأكد من وضع الخفاء إذا كان عليهم الخروج من المدينة. تستغرق هذه حوالي ساعة قبل أن يبدأ تأثيرها؛ وإذا هاجم عدو المدينة، سيكون وضعهم سيئًا إذا اضطروا للخروج والقتال وهم مرئيين».

سألته: «ما نوع الأعداء هنا؟ أخبرني كاندوس أنه حتى الرجال الخُضر يخافونهم».

قال بتور فاك موضحًا: «توجد مدينة أخرى في الغابة يسكنها فرع من هذه القبيلة، وتُسمَّى أونفاك؛ ويمتلك شعبها أيضًا سر الخفاء. يأتي الأونفاك أحيانًا لمهاجمة الإينفاك، أو ينتظرون مجموعات الإينفاك للصيد عندما تخرج إلى الغابة».

قلت: «أعتقد أنه يصعب نوعًا ما القتال في معركة لا يستطيع خلالها المرء أن يرى العدو أو الصديق».

«نعم. أتصور أنه لا تحدث أبدًا أضرار كبيرة، إلا أنهم قد يقبضون أحيانًا على سجين. قبض الإينفاك في آخر معركة على سجينين، واكتشفوا عند وصولهم إلى المدينة أنهما من رجالهم. لا يعرفون أبدًا كم يقتلون من شعبهم؛ فهم يضربون بسيوفهم كيفما اتفق، ولتساعد إيسوس مَن يكون في طريقهم».

ما إن أنهى بتور فاك حديثه، حتَّى شعرت بيدٍ تفعل شيئًا في الأغلال المحيطة بكاحلي؛ والآن فكت اليد الأغلال وأزالتها.

قال الصوت: «تعالَ يا عبد»، ثم أمسكني أحدهم من ذراعي وقادني نحو مدخل أحد الشوارع.

رأيت لحظة دخولنا محاربًا بجانبي، وآخرين أمامي وخلفي. اقتادوني على طول هذا الشارع، عبر ساحتين أخريين، حيث أصبح المحاربين على

الفور غير مرئيين، بطبيعة الحال، وأصبحت أنا أبدو وكأني أسير بمفردي مع مجرد شعور بضغط يد على ذراعي. أخذوني إلى غرفة كبيرة، تضم عددًا من الناس الذين يقفون أمام مكتب وعلى جانبيه. جلس على المكتب رجل متجهم شرس الوجه.

اقتادوني إلى المكتب ثم وقفنا. أخذ الرجل الجالس وراء المكتب ينظر نحوي ويتفحصني في صمت لعدة ثوانٍ. كان يرتدي عتادًا جيدًا، حيث الجلود منحوتة بشكل جميل، ومرصعة بالأحجار الكريمة. وعلى ما يبدو أن غمد سيفه، الذي رأيته فوق مكتبه، كان من الذهب، ومرصعًا أيضًا بتلك الأحجار الكريمة النادرة والجميلة في برسوم، والتي تتحدى أي وصف بكلمات لغات كوكب الأرض. التف حول جبينه إكليل من الجلد المنحوت، كُتب عليه من الأمام بالأحجار الكريمة الحروف الهيروغليفية البرسومية التي تُنطق 'جيداكَ'. هذا إذَنْ بتانتوس، جيداك إينفاك. شعرت أنني ولانا لا يمكن أن نقع في أيدي أسوأ من ذلك.

* * *

الفصل (5)

نظر بتانتوس في وجهي بشراسة، بحيث كنت على يقين أنه يحاول إخافتي. يبدو أنها طريقة الطغاة والمتنمرين في محاولة لتحطيم معنويات الضحية قبل تدميره. لكنه لم يثر إعجابي كثيراً، وتوقفت عن النظر إليه تدفعني رغبة حمقاء في مضايقته. أعتقد أن هذا أزعجه كثيراً، لأنه ضرب بقبضته بقوة على المكتب وانحنى إلى الأمام.

زأر تقريبًا في وجهي: «يا عبد! التفت لي».

قلت لتذكيره: «أنت لم تقل أي شيء حتى الآن. سوف أسمعك عندما تقول أي شيء يستحق الاستماع، وليس عليك أن تصيح في وجهي».

التفت بغضب إلى ضابط، وقال: «إياك أن تجلب أي سجين أمامي ثانية قبل إعطائه تعليمات كيف يتصرف في حضرة الجيداك».

قلت له: «أنا أعرف كيفية التصرف في حضرة جيداك؛ فقد سبق أن كنت في حضرة بعض أعظم الجيداك في برسوم، وأنا أعامل الجيداك كما أعامل تمامًا أي رجل آخر - كما يستحق. سيحظى باحترامي إذا كان نبيل القلب، ولن يحظى به إن كان فظًّا».

كان التلميح واضحًا، وتلون وجه بتانتوس. قال: «كفَّ عن وقاحتك. أعرف أنك زميل مثير للمشاكل، وأنك أزعجت بنوكسوس، الأمير، كثيراً بعد القبض عليك، كما أنك ضربت أحد النبلاء وجرحته بشدة».

قلت: «قد يمتلك هذا الرجل لقبًا، لكنه ليس نبيلاً؛ فقد ركلني وهو غير مرئي – موقف يماثل ركل رجل أعمى».

«هذا صحيح»، قال صوت فتاة خلفي قليلاً على الجانب. استدرت ونظرت، كانت روجاس.

سألها بتانتوس: «هل رأيتِ ذلك، يا روجاس؟».

«نعم، أساء لي موتوس؛ وهذا الرجل، دوتار سوجات، وبَّخه. فركله موتوس».

«هل هذا صحيح، يا موتوس؟»، سأله بتانتوس وهو يدير رأسه وينظر إلى الجانب الآخر. استدرت ونظرت في هذا الاتجاه، ورأيت موتوس ووجهه مُغطًّى بالضمادات؛ كان مشهده يبعث على الأسى.

قال هادرًا: «لقد أعطيت العبد ما يستحقه؛ فهو زميل وقح».

قال بتانتوس: «أتفق معك تمامًا، وسوف يموت عندما يحين الوقت. لكنني لم أستدعِه هنا لمحاكمته. أنا، الجيداك، أقرر دون شهادة أو مشورة. لقد أرسلت في استدعَائه لأن أحد الضباط أخبرني أن بإمكانه القفز لثلاثين قدمًا في الهواء. وإذا كان يستطيع القيام بذلك فعلاً، قد يجدر إبقائه لفترة من الوقت لتسليتي».

لم أتمكن من منع ابتسامة صغيرة؛ فربما كانت قدرتي على القفز هي التي حفظت حياتي منذ وصولي إلى برسوم من سنوات عديدة، عندما أمسكت بي جحافل ثارك الخضراء، وأمرني تارس تاركاس[364] أن أقفز أمام لوركواس بتوميل، الجِد؛ والقفز الآن على وشك أن يعطيني مهلة قصيرة على الأقل قبل الموت.

سألني بتانتوس: «لماذا تبتسم؟ هل تجد الأمر مضحكًا؟ عليك أن تقفز الآن، وبسرعة».

نظرت إلى السقف، وكان على بُعد حوالي 15 قدمًا من الأرضية. قلت: «ستكون مجرد قفزة قصيرة».

قال بتانتوس: «حسنًا، لتكن قفزة قصيرة».

التفتُّ ونظرت خلفي. كان الرجال والنساء يزدحمون بكثافة لمسافة عشرين قدمًا تقريبًا بيني وبين المدخل. وبفضل خفة حركتي الهائلة وجاذبية المريخ الأقل، قفزت بسهولة فوقهم. كان بإمكاني أن اندفع نحو الباب ثم أقفز إلى سقف المدينة وأهرب؛ وكنت لأفعل ذلك لو لم

تكن لانا الجاثولية سجينة هنا.

ملأت هتافات الدهشة الغرفة؛ فهي بالنسبة لهم خفة حركة رائعة. وعندما قفزت مرة أخرى، دوت موجة من التصفيق.

---

(364) تارس تاركاس: قائد جماعة ثارك، من المريخيين الخُضر، وحليف جون كارتر - https://barsoom.fandom.com/wiki/Tars_Tarkas - المترجمة.

سألني بتانتوس: «ماذا يمكنك أن تفعل أيضًا؟».

قلت: «يمكنني بالسيف أن أجعل موتوس يبدو كالأحمق، وكذلك بقبضتي، إذا واجهني تحت الأضواء حيث يمكنني رؤيته».

ضحك بتانتوس فعلاً، وقال: «أعتقد أنني سأدعك تفعل ذلك في وقت ما عندما أنتهي معك؛ لأن موتوس سوف يقتلك بالتأكيد. ربما لا يوجد في برسوم كلها مبارز أفضل من النبيل موتوس».

قلت: «يسعدني أن تسمح له بالمحاولة، وأعطيك وعدًا بأنني سوف أستمر قادرًا على القفز بعد أن أقتل موتوس». ثم واصلت قائلاً: «لكنك إذا أردت حقًّا أن ترى بعض القفز، خذني أنا والفتاة التي قبضت عليها معي إلى الغابة، وسوف نريك شيئًا جديرًا بالاهتمام». إذا استطعت فقط الخروج من البوابات مع لانا، أعرف أن بإمكاننا الفرار؛ لأن بمقدوري أن أسبق أيًّا منهم حتى لو اضطررت إلى حمل لانا.

قال بتانتوس: «خذوه؛ أعيدوه إلى مكانه وقيدوه. لقد رأيت وسمعت ما يكفي اليوم». أعادوني إلى الساحة وربطوني بشجرتي.

قال بتور فاك، بعد أن تصور مغادرة الحراس: «حسنًا، كيف سار الأمر؟».

أخبرته بما حدث في حضرة الجيداك؛ فقال إنه يأمل أن أحصل على فرصة مبارزة موتوس؛ لأن بتور فاك يعرف جيدًا سمعتي كمبارز.

بعد أن حل الظلام في تلك الليلة، جاء صوت وجلس بجانبي. كان كاندوس.

قال: «من الجيد أن قفزت أمام بتانتوس اليوم؛ فقد تصور الشيطان العجوز أن بنوكسوس كان يكذب عليه، وبعد أن يثبت أنك لا تستطيع القفز، كان بتانتوس سيدمرك فورًا بطريقة سيئة للغاية يتعامل بها مع مَن يثيرون غضبه أو استياءه».

قلت: «أتمنى أن أتمكن من تسليته لفترة من الوقت».

قال كاندوس: «لن يختلف الأمر في النهاية. ولكن إذا كان هناك أي شيء يمكنني القيام به لتيسير أسرك، فسوف يسعدني أن أقوم به».

«سوف تخفف عني إذا كنت تستطيع إخباري ماذا حدث للفتاة التي قُبِض عليها في نفس الوقت عند القبض عليَّ».

«إنها محبوسة في مساكن الإماء. هناك، في ذلك الجانب من المدينة وراء القصر»، وأشار إلى ذلك الاتجاه.

سألته: «وماذا تعتقد سيحدث لها؟».

أجاب: «يتشاجر حولها بتانتوس وبنوكسوس. وهما يتشاجران دائمًا حول أي شيء؛ يكرهان بعضهما. بنوكسوس يريدها، ولذلك لا يرغب بتانتوس في إعطائها له؛ وبالتالي فهي في أمان، حاليًا على الأقل. يجب أن أذهب الآن». ثم قال بعد لحظة، ويمكنني القول من اتجاه صوته إنه نهض، «إذا كان هناك أي شيء يمكنني القيام به، تأكد أن تخبرني».

قلت: «إذا أمكنك أن تجلب لي بعض الأسلاك، سأكون ممتنًّا».

سألني: «ماذا ستفعل بالأسلاك؟».

قلت: «لمجرد تمرير الوقت؛ أقوم بثني الأسلاك وصنع أشكال مختلفة وصغيرة لأسلي نفسي. أنا لست معتادًا على البقاء مقيدًا بالسلاسل إلى شجرة، والوقت يمر ثقيلاً جدًّا».

قال: «بالتأكيد، يسعدني أن أجلب لك الأسلاك؛ سأعود بها بعد لحظات. وحتى ذلك الحين، إلى اللقاء».

قال بتور فاك: «أنت محظوظ لأن لك صديق هنا. أنا هنا منذ عدة أشهر ولم أكتسب ولو صديقًا واحدًا».

قلت: «أظن أن قدرتي على القفز هي السبب؛ فقد خدمتني بشكل جيد من قبل، ومن نواحٍ عديدة».

لم يمض وقت طويل قبل أن يعود كاندوس ومعه الأسلاك. شكرته، وغادر على الفور.

كان الوقت الآن ليلاً، والقمران في السماء. أضاء الضوء الخافت الفناء، بينما اجتاحت رحلة القمر ثوريا السريعة عبر السماء ظلال الأشجار، وحولتها إلى حركة دائمة التغير فوق المرج القرمزي، مع تحوله الآن إلى اللون الأرجواني في ضوء القمر.

كانت سلسلتي وسلسلة بتور فاك طويلة بما يكفي ليسمح لنا فقط بالجلوس جنبًا إلى جنب، ورأيت أن طلبي للأسلاك قد أثار فضوله، لأنه واصل النظر إليها في يدي. وفي النهاية لم يستطع الانتظار، فسألني: «ماذا ستفعل بهذا السلك؟».

قلت: «سوف تُفاجأ»؛ توقفت لبرهة لشعوري بوجود شخص ما بالقرب مني، ثم واصلت: «بالأشياء الذكية التي يمكن للمرء أن يفعلها بقطعة من السلك».

* * *

الفصل (6)

لو عشت هنا في إينفاك بقية حياتي، من المؤكد أنني لن أتمكن من التأقلم مع تلك الموجودات الخفية الغريبة، أو مع معرفة احتمال وجود شخص يقف دائمًا على مقربة مني ويستمع إلى حديثي مع بتور فاك.

أشعر الآن بيدٍ ناعمة على ذراعي، ثم أسمع نفس الصوت الجميل الذي سمعته من قبل يقول: «أنا روجاس».

قلت: «أنا سعيد لأنك جئت. تمنيت أن أجد فرصة لأشكرك على شهادتك عني اليوم أمام بتانتوس»

أجابت: «أخشى أنها لن تجلب لك الكثير من الخير؛ ذلك أن بتانتوس لا يحبني».

سألتها: «ولماذا يكرهك؟».

«أرادني بنوكسوس زوجة له وأنا رفضته؛ لذلك، وعلى الرغم من أن بتانتوس لا يحب بنوكسوس، فقد شعر أنني جرحت كرامته؛ ويصب جام غضبه على عائلتي من ذلك الحين». اقتربت مني، ويمكنني أن أشعر بدفء ذراعها على ذراعي وهي تميل نحوي. قالت: «دوتار سوجات، تمنيت أن تكون إينفاكيًّا، حتَّى يمكنك البقاء هنا إلى الأبد في أمان».

قلت: «هذا لطيف جدًّا منك، يا روجاس، لكنني أخشى أن مصيري يختلف عن ذلك».

تسللت الذراع الناعمة حول كتفي. ملأ عطرها اللطيف أنفي، ذلك العطر الذي أعلن عن وجودها أول مرة بعد ظهر ذلك اليوم، وشعرت بتنفسها الدافئ على خدي. «دوتار سوجات، هل ترغب في البقاء هنا»، توقفت ثم قالت: «... معي؟».

أصبح الوضع مُحرجًا. شعر حتى بتور فاك بالحرج، رغم عدم التفاف أذرع لينة خفية حول رقبته. عرفتَ أنه مُحرَج لأنه ابتعد بمقدار طول سلسلته بأكملها. لا يمكنه بالطبع رؤية روجاس بأكثر ما أستطيع، لكنه لا بد سمع كلماتها. وكونه رجلاً مهذبًا، فقد أبعد نفسه قدر الإمكان، ويجلس هناك الآن وظهره نحونا. يا له من وضع رومانسي أن تبثني الحب فتاة جميلة في حديقة تحت ضوء القمر، لكن عدم رؤية الفتاة يماثل أن يبثك

شبح الحب؛ على الرغم من أنني أؤكد لك أن روجاس لم تكن تشعرك على الإطلاق بأنها كالشبح.

قالت: «أنت لم تُجب على سؤالي، دوتار سوجات».

أنا لم أحب أبدًا سوى امرأة واحدة - ديجاه ثوريس التي لا تُضاهى؛ ولست مثل بعض الرجال الذين يتظاهرون بالحب لنساء أخريات. أنا ثابت في مكاني، كما تقولون في أمريكا. يقولون إن كل شيء جائز في الحب والحرب؛ وبقدر ما يتعلق بي الأمر بي، كنت بالتأكيد في حالة حرب مع الإينفاك. وها هي إحدى فتيات العدو، ويمكن أن تؤدي إجابتي إما إلى الفوز بولائها وإما إثارة كراهيتها المريرة.

لم أكن لأتردد لو كان الأمر يتعلق بي فقط؛ لكن مصير لانا الجاثولية يفوق جميع الاعتبارات الأخرى، ولذا فقد ماطلت.

قلت: «لا يهم كم أود أن أكون معكِ دائمًا، يا روجاس، أعرف أن هذا مستحيل. سوف أخضع هنا لأهواء الجيداك، ومن ثم سوف يفصل الموت بيننا إلى الأبد».

صاحت وهي تُقرب خدي من خدها: «أووه، لا، دوتار سوجات، يجب ألا تموت - لأنني أحبك».

اعترضتُ قائلاً: «ولكن، روجاس، كيف يمكنكِ أن تحبي رجلاً لم تعرفيه سوى لبضع ساعات فقط، بل لبضع دقائق؟».

أجابت: «عرفت أنني أحبك في اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليك، وقد رأيتك أكثر كثيراً من بضع دقائق. كنت أحضر باستمرار تقريبًا إلى الساحة منذ رأيتك أول مرة وأراقبك. عرفت جميع تعبيرات وجهك المتغيرة. شاهدت في عينيك ضوء الغضب، والفكاهة، والصداقة. لو عرفتك طوال حياتي، لم أكن لأعرفك بشكل أفضل. قبِّلني، دوتار

سوجات». أنهت كلامها، وقمت بشيء سأخجل منه دائمًا. أخذت روجاس بين ذراعيّ وقبّلتها.

هل سبق لك أن حملت شبحًا بين ذراعيك وقبّلته؟ يهينني الاعتراف بأنها لم تكن تجربة غير سارة. لكن روجاس تشبثت بي بإحكام ولفترة طويلة، بحيث غمرني الارتباك والإحراج.

تنهدت روجاس: «أووه، يمكننا أن نظل هكذا دائمًا».

أتصور شخصيًّا أن الأمر مهما كان لطيفًا، فربما كان غير مريح بعض الشيء.

ومع ذلك، قلت: «ربما ستأتين ثانية كثيراً، يا روجاس، قبل أن أموت».

صاحت: «أووه، لا تتحدث عن الموت».

«لكنكِ تعرفين أن بتانتوس سوف يقتلني - إلا إذا هربت».

«الهرب!»، بالكاد ما لفظت الكلمة.

أضفتُ بصوت حاولت ألا يبدو متفائلاً: «لكنني أعتقد أنه لا مهرب بالنسبة لي».

كررت: «الهرب، الهرب! آه لو أمكنني أن أذهب معك».

سألتها: «ولِمَ لا؟». لقد تماديت إلى هذا الحد، وشعرت أنني قد أواصل على هذا الطريق إذا كان ذلك سيساعدني على إطلاق سراح لانا الجاثولية من الأسر.

كررت روجاس: «نعم، لِمَ لا؟ وإنما كيف؟».

قلت: «إذا تمكنت من أن أصبح غير مرئي».

فكرت للحظات ثم قالت: «ستكون خيانة. وسوف تعني الموت، موت رهيب، إذا أمسكوا بي».

قلت: «لا أستطيع أن أطلب منك ذلك»؛ وشعرت أنني منافق، لأنني أعرف أن بإمكاني أن أطلب منها ذلك إذا تصورت أنها ستفعله. كنت مستعدًّا للتضحية عن طيب خاطر بحياة كل شخص في إينفاك، بما في ذلك حياتي، إذا كان يمكنني تحرير لانا الجاثولية بهذه الطريقة. كنت يائسًا، ويلجأ الرجل عندما يشعر باليأس إلى أي وسيلة تتيح له الفوز بما يريد.

«أنا تعيسة هنا»، قالت روجاس، في محاولة طبيعية وإنسانية للتبرير. وأضافت: «وبالطبع، إذا نجحنا، ما من فارق عندما يعرفون أنني التي فعلتها؛ لأنهم لن يتمكنوا من العثور علينا. سيكون كلانا خفيًّا، ويمكننا معًا أن نشق الطريق إلى بلدك». كانت تخطط لكل شيء جيدًا.

سألتها: «هل تعرفين أين الطائرة التي جلب الفتاة السجينة؟».

«نعم، هبطت على سطح المدينة».

قلت: «هذا سيُبسّط الأمور بشكل كبير. إذا أصبحنا جميعًا غير مرئيين، يمكننا الوصول إليها والهرب بسهولة».

سألتني: «ماذا تعني بـ'جميعنا'؟».

قلت: «لأنني أريد أن آخذ معي بتور فاك، ولانا الجاثولية التي قبضوا عليه في نفس وقت القبض عليَّ».

تجمدت روجاس فورًا، وأنزلت ذراعيها من حولي. وقالت: «الفتاة، لا».

قلت بإصرار: «لكني يجب أن أنقذها، يا روجاس». لم ترد. انتظرتُ لحظة، ورأيت ظهرها النحيل يتجسد في مدخل أحد الشوارع في مواجهتي. ظهر نحيل يعلوه رأس عنيد. وكان هذا الظهر يشع بغضب أنثوي.

* * *

الفصل (7)

غرقت في أعماق اليأس بعد أن غادرت روجاس. لو انتظرت، كنت لأوضح لها كل شيء ونهرب نحن الأربعة.

أعترف أنني لم أتمكن أبدًا من فهم طرق النساء، لكنني شعرت أن روجاس لن ترجع أبدًا. أعتقد أن اقتناعي كان متأثرًا بتلك السطور من مسرحية 'عروس في ثوب الحِداد'[(365)] : 'ما من غضب في الجنة مثل تحول الحب إلى كراهية، وما من ضراوة في الجحيم مثل امرأة في موضع ازدراء'.

ومع ذلك، لم أتخلَّ عن الأمل بالكامل- لا أفعل أبدًا. وبدلاً من التبرم، عُدتُ إلى العمل على قفل قيودي باستخدام الأسلاك التي أحضرها لي كاندوس. اقترب بتور فاك لمشاهدتي. جلست في مواجهة شجرتي، على مقربة منه، وانحنيت لأنجز عملي؛ كما انحنى بتور فاك أيضًا لمساعدتي. كنا نحاول إبقاء ما أحاول القيام به بعيدًا عن الأنظار. ونظرًا لأننا كنا في وقت متأخر ليلاً، كنا نأمل ألا يوجد أحد في الساحة غيرنا.

وجدت التركيبة أخيراً، ولم يستغرق فتح قيد بتور فاك سوى بضع ثوانٍ. ثم تحدث صوت خلفنا.

سأل: «ماذا تفعلان؟ لماذا لستما نائمين؟».

سألته، وأنا أخفي السلك تحتي: «كيف يمكننا النوم والناس تزعجنا باستمرار؟».

قال الصوت: «قِفا»، وعندما وقفنا سقطت الأغلال عن كاحلينا.

قال الصوت: «هذا ما ظننته». ثم رأيت قطعة الأسلاك ترتفع من الأرض وتختفي. «أنت ذكي جدًّا، لكنني لا أعتقد أن بتانتوس سوف يُقدر ذكاءَك عندما يسمع عن هذا. سوف أُعين حارسًا لمراقبتكما باستمرار منذ الآن فصاعدًا».

«كل شيء يسير على نحو خاطئ»، قلت لبتور فاك بعد لحظة، بعد أن رأيت محاربًا يدخل أحد الشوارع، على أمل أن يكون المحارب الذي تحدث إلينا ولا يوجد آخرون حولنا.

---

(365) أشهر مسرحيات الكاتب المسرحي الإنجليزي وليم كونجريف – المترجمة.

قال بتور فاك: «يبدو الأمر ميؤوسًا منه، أليس كذلك؟».

«لا»، قاطعته، «ليس ونحن لا نزال أحياء».

جاء صوت كاندوس بعد الظهر، وجلس بجانبي. سأل: «كيف حالكما؟».

قلت: «فظيع».

سأل: «كيف؟».

قلت: «لا يمكنني التحدث؛ فعلى الأرجح يقف هنا حارس للاستماع إلى كل ما أقول».

قال كاندوس: «لا يوجد أحد هنا غيرنا».

سألته: «كيف تعرف؟ فشعبك غير مرئي بالنسبة لك كما هو بالنسبة لي».

أوضح: «لقد تعلمنا الشعور بوجود الآخرين. لكني لا أستطيع أن أخبرك كيف نقوم بذلك».

قلت: «لا يهم كيف تقوم بذلك، ما دمت على يقين بعدم وجود أحد هنا يستمع إلينا. سوف أتحدث معك بصراحة. لقد نجحت في إزالة قيودي وقيود بتور فاك. أمسكني شخص ما، وأخذ قطعة الأسلاك مني». لم أخبر كاندوس أنني قطعت السلك الذي أحضره إلى نصفين، وما زلت أحتفظ بالنصف الثاني في جيب حقيبتي. فما من فائدة في قول كل شيء تعرفه حتى إلى صديق.

سألني: «كيف كنت تأمل أساسًا في الهرب، حتى وإن فككت أغلالك؟».

قلت له: «كانت مجرد الخطوة الأولى. ليس لدينا خطة بالفعل، لكننا نعرف أننا لا يمكننا الهرب بالتأكيد ما دمنا مُكبلين».

ضحك كاندوس. وقال: «هناك فكرة في كلامك». صمت للحظة ثم قال: «الفتاة التي قُبِض عليها معك».

سألته: «ماذا عنها؟».

أجاب: «أعطاها بتانتوس إلى موتوس؛ قام بذلك فجأة. ولا يعرف أحد السبب؛ لأن بتانتوس لا يحب موتوس بوجه خاص».

إذا كان كاندوس لا يعرف السبب، فأعتقد أنني أعرفه. فقد تصورت دور روجاس الشيطاني سببًا - الغيرة وحش بلا قلب. سألته: «هل يمكن أن تقوم بشيء آخر من أجلي، كاندوس؟».

أجاب: «بكل سرور، إن كان بإمكاني».

قلت: «قد يبدو طلبًا سخيفًا، وأرجوك ألَّا تطلب مني تفسيرًا. أريدك أن تذهب إلى روجاس وتخبرها أن لانا الجاثولية، الفتاة التي أعطاها بتانتوس إلى موتوس، هي ابنة ابنتي». قد يبدو غريبًا لكم، أنتم سكان كوكب الأرض، أن روجاس يمكن أن تتعلق بحب جِد، لكن عليك أن تتذكر أن المريخ ليس كوكب الأرض، وأنني مختلف عن جميع رجال كَوكب الأرض الآخرين؛ أنا لا أعرف كم أبلغ من العمر، ولا أتذكر طفولتي. يبدو لي دائمًا أنني كنت موجودًا وأنني الشخص نفسه دون تغيير. فمظهري الآن لا يختلف عن مظهري عندما قاتلت مع الجيش الكونفيدرالي خلال الحرب الأهلية- كنت في حوالي الثلاثين من عمري. وهنا في برسوم لا تؤثر الاختلافات العُمرية؛ حيث تمتد فترة العمر الطبيعية إلى حوالي ألف سنة، ولا تبدأ علامات الشيخوخة تظهر على الناس إلا قبل فترة وجيزة من موتهم. يمكنك أن تقع في حب فتاة جميلة في برسوم؛ وبقدر ما يتعلق الأمر بالمظهر، قد يكون عمرها 17 سنة أو 700 سنة.

قال كاندوس: «أنا لا أفهم، بالطبع، لكنني سأفعل ما تطلبه».

قلت: «سأطلب منك الآن معروفًا آخر. وعدني بتانتوس بأنه سيسمح لي بمبارزة موتوس، مع تأكيده أن موتوس سيقتلني. هل توجد أي إمكانية للترتيب لخوض تلك المبارزة اليوم؟».

قال كاندوس: «سوف يقتلك».

قلت: «ليس هذا ما سألته».

قال كاندوس: «لا أعرف كيف يمكنني تحقيق ذلك».

قلت مقترحًا: «إذا كانت دماء الرياضة تجري في عروق بتانتوس، ويحب المراهنة من حين لآخر، عليك أن تراهنه بأن موتوس إذا قاتلني وهو مرئي، فإنه لن يستطيع أن يقتلني وإنما يمكنني أن أقتله عندما أريد».

قال كاندوس: «لكنك لن تتمكن من ذلك. موتوس هو أفضل مبارز في برسوم. أنت ستُقتَل، وأنا سأخسر أموالي».

قلت: «كيف يمكنني إقناعك؟ أعرف أن بإمكاني قتل موتوس في معركة. إذا كان لديَّ أي شيء ثمين، لكنت أعطيته لك كضمان لرهانك».

قال بتور فاك: «أنا لديَّ شيء ثمين، ويمكنني المراهنة به وبكل شيء آخر ممكن لصالح دوتار سوجات». وضع يده في جيب حقيبته، وأخرج ميدالية رائعة مرصعة بالجواهر. قال لكاندوس: «هذه بقيمة فدية جيداك - خذها كضمان وراهن بقيمتها على دوتار سوجات».

اختفت الميدالية في ثانية، فعرفنا أن كاندوس مد يده وأخذها.

قال صوت كاندوس: «لا بد أن أذهب وأفحصها، لأنني بالطبع لا أستطيع رؤيتها الآن لأنها أصبحت خفية. لن أتغيب كثيراً».

قلت: «هذا موقف لطيف منك جدًّا، يا فور تاك، لا بد أن هذه الميدالية لا تُقدر بثمن».

أوضح فور تاك: «كان أحد أسلافي البعيدين جيداكًا؛ وهذه الميدالية

كانت ملكًا له، وما زالت مع العائلة منذ آلاف السنين».

قلت: «لا بد أنك تثقك تمامًا في قدرتي على المبارزة».

أجاب: «نعم؛ وحتى لو كنت أقل ثقة، كنت لأفعل نفس الشيء».

قلت: «هذه هي الصداقة، وأنا ممتن لك».

قال صوت بجانبي: «إنها لا تُقدر بثمن». عرفت أن كاندوس عاد.

«سأذهب على الفور لأرى ما يمكنني عمله بشأن المبارزة».

قلت لتذكيره: «ولا تنسَ ما طلبت منك أن تقوله لروجاس».

* * *

الفصل (8)

مضى الوقت متثاقلاً، بعد أن غادر كاندوس. أصبحنا بعد الظهر، في وقت متأخر جدًّا إلى حد جعلني أتأكد أنه فشل في مهمته. كنت جالسًا أفكر بحزن في مصير لانا الجاثولية الذي قد يتحدد سريعًا. أعرف أنها ستقتل نفسها، وكنت عاجزًا عن الحيلولة دون هذه المأساة.

وبينما كنت غارقًا في أعماق اليأس، شعرت بيدٍ توضع على كتفي.

يد ناعمة، وقال صوت جميل: «لماذا لم تخبرني؟».

قلت: «أنت لم تعطيني فرصة؛ فقد ابتعدتِ دون إعطائي فرصة للشرح».

«أنا آسفة»، قال الصوت، «أعتذر عن الضرر الذي سببته للانا الجاثولية؛ والآن حكمت عليك بالموت».

سألتها: «ماذا تعنين؟».

«لقد أصدر بتانتوس أمره إلى موتوس بقتالك وقتلك».

ألقيت بذراعيّ حول روجاس وقبّلتها. لم أستطع كبح جماح نفسي، فقد كنت في قمة السعادة.

صحت: «جيد! على الرغم من أن كلينا لم يدرك ذلك حينذاك، فقد قدمتِ لي معروفًا كبيرًا».

سألتني: «ماذا تقصد؟».

«لقد أعطيتني فرصة الاشتباك مع موتوس في معركة عادلة؛ وأعرف الآن أن لانا الجاثولية ستكون في أمان - بقدر ما يتعلق الأمر بموتوس».

قالت روجاس بإصرار: «موتوس سوف يقتلك».

سألتها: «هل ستكونين هناك لمشاهدة المبارزة؟».

قالت: «لا أريد أن أراك تُقتَل»، وتشبثت بي بإحكام.

«لا داعي للقلق، لن أُقتَل؛ ولن يحصل موتوس أبدًا على لانا الجاثولية أو أي امرأة أخرى».

قال بتور فاك: «يمكنِك إبلاغ أصدقائه البدء في حفر قبره فورًا».

قالت روجاس: «أأنت متأكد إلى هذا الحد؟».

قال بتور فاك: «لدينا الأميرة»؛ وهذا قول يماثل في أمريكا «كل شيء في الحقيبة». والتعبير الذي قاله بتور فاك مُشتق من لعبة الشطرنج البرسومي، الجيتان، حيث يفوز مَن يأخذ الأميرة وتنتهي اللعبة.

قالت روجاس: «أتمنى أن تكون مُحقًّا. فقد شجعتني على الأقل للتصديق، وليس من الصعب تصديق أي شيء عن دوتار سوجات».

سألتها: «هل تعرفين موعد المبارزة؟».

أجابت روجاس: «هذا المساء، أمام البلاط بأكمله في غرفة العرش بالقصر».

سألتها: «وبعد أن أقتله؟».

قالت روجاس: «عليك أن تخشى من ذلك أيضًا. سوف يغضب بتانتوس؛ فلن يقتصر الأمر على فقدانه أحد مقاتليه، وإنما سيخسر كذلك كل المال الذي راهن به في المبارزة».

ثم أضافت: «الوقت يمر، وسرعان ما سيحين موعد المبارزة. يجب أن أذهب الآن». رأيتها تفتح حقيبتي وتُسقِط فيها شيئًا، ثم اختفت.

عرفت من طريقتها الخفية أنها لا ترغب في أن يعرف أي شخص ما وضعته في جيب حقيبتي، أو أنها وضعت أي شيء على الإطلاق؛ ولذا لم أتحقق من الأمر على الفور، خوفًا من وجود أحد يراقبنا وأثير شكوكه. بدأ يتملكني ضغط دائم من الشعور بوجود أعين خفية تراقبني وآذان خفية تستمع إلى كل كلمة أقولها؛ وأصبحت عصبيًّا مثل قطة لديها سبع قطط صغيرة.

بعد صمت طويل، قال بتور فاك: «ماذا ستفعل معها؟».

كنت أعرف ما يقصده؛ لأن نفس السؤال كان يثير قلقي. قلت: «إذا نجحنا في الخروج من هنا، سوف آخذها معي إلى هيليوم، وأترك لديجاه ثوريس مهمة إقناعها

بوجود العديد من الرجال الأكثر جاذبية مني». فقد حدث من قبل أن وقعت نساء أخريات في حبي، ولن تكون المرة الأولى التي تحل فيها ديجاه ثوريس هذه الأمور. فهي تعرف أنها المرأة الوحيدة التي أحبها، بغض النظر عن عدد النساء اللاتي وقعن في حبي.

قال بتور فاك: «أنت رجل شجاع».

أجبت: «أنت تقول ذلك لأنك لا تعرف ديجاه ثوريس؛ ليس أنني رجل شجاع، بل هي امرأة حكيمة».

جعلني هذا الحديث أفكر فيها ثانية، على الرغم من أنني يجب أن أعترف أنها نادرًا ما تغيب عن فكري. أتخيلها الآن في قصرنا الرخامي في هيليوم، محاطين برجال ونساء رائعين يحتشدون في صالوناتها. وأشعر بيدها في يدي ونحن نرقص الرقصات البرسومية الرائعة التي تحبها كثيراً. ويمكنني رؤيتها كأنها تقف أمامي هذه اللحظة، وأرى ثوفيا البتارثية وكارثوريس وتارا الهيليومية وجاهان الجاثولي. تلك المجموعة الرائعة من الرجال الوسيمين والنساء الجميلات المرتبطين بعلاقات الحب والزواج. يا للذكريات التي يثيرونها!

داعبت يد ناعمة خدي، وقال صوت متوتر وعصبي: «لا بد أن تعيش! لا بد أن تعيش من أجلي! سأعود في منتصف الليل، ويجب أن تكون هنا». ثم ذهبت.

لسبب ما أو آخر، لم أستطع تفسيره، هدأت أعصابي نتيجة لكلماتها.

لقد أعطتني كلماتها الثقة بأنني سأكون حرًّا في منتصف الليل. وذكّرني وجودها أنها أسقطت شيئًا في جيب حقيبتي، ففتحته وأدخلت يدي. لمست أصابعي عددًا من المواد الكروية، في حجم الرخام، وعرفت أنه سر الخفاء.

اقتربت من بتور فاك. وفتحت قفل أغلاله بالجزء المتبقي معي من الأسلاك، ثم أعطيته إحدى الكُرات التي تركتها لي روجاس.

انحنيت بالقرب من أذنه وهمست: «خذ هذا، وخلال ساعة ستصبح غير مرئي. اذهب إلى أقصى نهاية الساحة وانتظر. وعندما أعود، سأكون أنا أيضًا غير مرئي. وعندما أطلق هذا الصفير، أجبني». أطلقت صفيراً بالنغمات الافتتاحية لنشيد هيليوم الوطني، وهي الإشارة التي كثيراً ما نستخدمها أنا وديجاه ثوريس.

قال بتور فاك: «فهمت».

«ماذا فهمت؟»، سأل صوت.

اللعنة! كان هناك عدو خفي، والآن ذهبت جميع خططنا في أدراج الرياح. ترى ما القدر الذي سمعه الزميل؟ وماذا رأى؟ ارتجفت داخليًّا، خوفًا من الإجابة. ثم شعرت بيدين عند كاحلي، ورأيت قيودي تنفتح.

«حسنًا»، كرر الصوت بشكل قاطع، «ماذا كان ما فهمته؟».

قلت: «كنت أخبر بتور فاك كيف سأقتل موتوس، وقال إنه فاهم تمامًا».

سألني الصوت: «هل تعتقد إذَنْ أنك ستقتل موتوس؟ حسنًا، سوف تُدهش كثيراً لبضع دقائق، وبعدها ستكون ميتًا. تعال معي؛ فالمبارزة على وشك أن تبدأ».

تنفست الصعداء. من الواضح أن الزميل لم يسمع أو يرى شيئًا مهمًّا.

قلت: «أراك لاحقًا، بتور فاك».

أجاب: «إلى اللقاء، وحظًّا سعيدًا». دخلت بعد ذلك، برفقة المحارب، إلى أحد شوارع المدينة في طريقي إلى غرفة عرش بتانتوس، جيداك إينفاك.

* * *

الفصل (9)

قال المحارب الذي يسير إلى جانبي، وكان مرئيًّا لي الآن: «تظن إذَنْ أنك ماهر في استخدام السيف؟».

أجبت: «نعم».

«حسنًا، ستتلقى الليلة درسًا في المبارزة. لكنه لن يفيدك كثيرًا بالطبع، لأنك ستموت في النهاية».

قلت: «يا له من تشجيع؛ لكنك إذا كنت مُعجبًا بموتوس، أقترح أن تحتفظ بتشجيعك له. فهو سيحتاجه».

قال المحارب: «أنا لست مُعجبًا بموتوس، ولا يوجد أحد مُعجب بموتوس. إنه كالوت، مع اعتذاري للكالوت لمقارنته بهم. أتمنى أن تقتله، لكن لن تستطيع بالطبع. إنه يقتل مبارزه دائمًا، لكنه مخادع. احترس من ذلك».

سألته: «هل تعني أنه لا يقاتل بشرف؟».

قال المحارب: «لم يُعلمه أحد أبدًا هذه الكلمة».

قلت: «حسنًا، شكرًا لك على تحذيرك لي؛ وأتمنى أن تبقى لمشاهدة المعركة، ربما سوف تُفاجأ».

قال: «سأبقى بالتأكيد للمشاهدة، لن يفوتني ذلك. لكني لن أُفاجأ؛ لأنني أعرف ما سيحدث. سوف يلعب معك لخمس دقائق، وبعدها سيقتلك؛ وهذا لن يُسعد بتانتوس الذي يحب المبارزات الطويلة».

قلت: «أووه، يحب المبارزات الطويلة، فعلاً؟ حسنًا، سيشاهد إذَنْ مبارزة طويلة». وهذا يناسب خططي تمامًا. كنت قد ابتلعت كرة إخفاء قبل أن يفك المحارب أصفادي مباشرة، وأعرف أن تأثيرها يبدأ بعد حوالي ساعة. قد يصعب إطالة المبارزة لمدة ساعة، لكني كنت آمل في الحصول على القليل من الوقت بالمماطلة قبل أن تبدأ المبارزة. وقد حققت ذلك الآن بالسير ببطء لقتل أكبر قدر ممكن من الوقت، كما توقفت مرتين لتشديد رباط صندلي.

سألني المحارب: «ما الأمر؟ لماذا تسير ببطءٍ؟ هل أنت خائف؟».

أجبت: «أنا مرعوب. فقد أخبرني الجميع أن موتوس سوف يقتلني بسهولة. ولذا، هل تعتقد أنني أريد أن أركض إلى موتي؟».

قال المحارب: «حسنًا، لا ألومك، ولن أستعجلك».

أبديت ملاحظة: «الكثير منكم، أنتم الإينفاك، زملاء جيدون جدًّا».

قال: «بالطبع. ماذا يجعلك تتصور غير ذلك؟».

أجبت: «بنوكسوس، وموتوس، وبتانتوس».

ابتسم المحارب قائلاً: «أعتقد أنك زميل شديد الذكاء، بحيث فهمتهم بسرعة».

قلت: «تبدو كراهية الجميع لهم؛ لماذا لا تتخلصون منهم؟ سأبدأ الليلة بالتخلص من موتوس».

قال المحارب: «ربما أنت مبارز جيد، لكنك تتفاخر كثيراً. ولم أعرف من قبل أي متفاخر تمكن من 'أخذ الأميرة'».

قلت: «أنا لا أتفاخر؛ بل مجرد أذكر الحقائق». في واقع الأمر، أدرك في كثير من الأحيان أن حديثي عن مهارتي في المبارزة قد يبدو للآخرين تفاخرًا، لكنني لا أشعر في الحقيقة أنني أتفاخر. أعرف أنني أعظم مبارز في عالَمين. من الغباء أن أبدو خجولاً، وأمص أصبعي، وأقول إنني لست مبارزاً ماهرًا. أنا وكل مَن شاهدني أقاتل يعرف أنني ماهر. هل من الغطرسة قول حقيقة بسيطة؟ لقد أنقذت مهارتي عددًا من الأرواح؛ لأن الشباب المتهور لا يكف عن مواجهتي.

يمكنك القول إن القتال هو عملي طوال حياتي. لا يوجد سلاح فتاك قيد الاستخدام ولا أتفوق في استخدامه؛ لكن السيف هو سلاحي المُفضل. أحب النصل الجيد، وأحب المعركة الجيدة، وتمنيت أن أجدهما الليلة.

تمنيت أن يتمتع موتووس بكل ما قالوه عنه. ربما سيطرت هذه الفكرة على وعي بعض الرجال، لكنها لم تتبادر إلى ذهني إطلاقًا. يقولون إن الإفراط في الثقة يؤدي غالبًا إلى الهزيمة، لكني لا أعتقد أنني بالغت أبدًا في ثقتي. أنا مجرد واثق تمامًا، وأرى وجود اختلافات في هذا العالم.

وصلنا أخيراً إلى قاعة العرش. لم تكن نفس القاعة التي رأيت فيها بتانتوس أول مرة؛ بل كانت أكبر بكثير، وأكثر زخرفة. ارتفعت منصة عند أحد جوانبها، وفوقها عرشين. لا يزال العرشان خاليين؛ فلم يظهر الجيداك والجيدارة بعد. ازدحم المستوى الأرضي من القاعة بالنبلاء ونسائهم. وامتدت على طول جوانب القاعة الثلاثة عدة مستويات من المقاعد الطويلة، تبدو مؤقتة؛ فمن الواضح أنهم أحضروها خصيصًا لهذه المناسبة. كانت مُغطاة بأقمشة ووسائد مبهجة، لكنها لا تزال فارغة؛ فلا يمكن أن يجلس أحد، بطبيعة الحال، إلا بعد دخول الجيداك وجلوسه.

أثار دخولي إلى القاعة انتباه بعض الناس، وسرعان ما توجهت العديد من الأعين نحوي.

بدوت باهتًا في عتادي القتالي البالي، وسط مجموعة العتاد الرائعة بجلودها المنحوتة والمرصعة بالجواهر. الإينفاك شعب وسيم، مثله مثل معظم الأمم الحمراء في برسوم. وكان هؤلاء الحاضرون من هذه الأمة الصغيرة في قاعة العرش، والمُختفين في غابة الرجال المفقودين، يتمتعون بمظهر شجاع تحت الأضواء الغريبة الجميلة التي تتيح رؤيتهم.

سمعت العديد من التعليقات عني. قالت امرأة: «لا يبدو برسوميًّا على الإطلاق».

وقال صوت جميل، تعرفت عليه فورًا: «إنه وسيم للغاية»، ونظرت للمرة الثانية في وجه روجاس. أراها ترتعش كلما التقت أعيننا. كانت فتاة جميلة، أجمل من جميع النساء في القاعة، أنا متأكد.

قالت لامرأة ورجلين يقفون معها: «فلنذهب لنتحدث معه».

قالت المرأة: «هذا مثير للاهتمام»، وسار الأربعة منهم نحوي.

نظرت روجاس في عيني مباشرة، وسألتني دون أي لمحة توضع معرفتنا: «ما اسمك؟».

أجبت: «دوتار سوجات».

قال أحد الرجلين: «سلطان سوات، مهما كان السلطان وأينما كانت سوات». بالكاد ما أمكنني كبح جماح ابتسامة.

استفسرت المرأة: «أين تقع سوات؟».

أجبت: «في الهند».

قال أحد الرجلين: «أعتقد أن الزميل يحاول أن يسخر منا. إنه يخترع هذه الأسماء؛ إذ لا توجد أماكن بهذه الأسماء في برسوم».

أجبت عليه: «لم أقل إنها في برسوم. بل على بُعد 43 مليون ميلاً من برسوم».

سألني الرجل: «إذا لم تكن في برسوم، فأين تقع؟».

أجبت: «على جاسوم».

قال الرجل: «هيا، لقد اكتفيت من وقاحة هذا العبد».

قالت المرأة: «أجده مثيراً جدًّا للاهتمام».

وقالت روجاس: «وأنا كذلك».

قال الرجل: «حسنًا، استمتعا به الآن؛ فسوف يموت خلال بضع دقائق».

سألته: «هل راهنت على ذلك؟».

قال متذمرًا: «لم أتمكن من العثور على أي شخص للمراهنة ضد موتوس. كاندوس هو الأحمق الوحيد الذي قام بذلك، وغطى الجيداك رهانه بأكمله».

قلت: «هذا سيئ للغاية؛ أن يفقد شخص فرصة كسب بعض المال».

سألتني روجاس، وهي تحاول إخفاء الحماسة في صوتها: «هل تعتقد أنك ستفوز؟».

أجبت: «سأفوز بالطبع. أنا دائمًا أفوز. يبدو أنك فتاة ذكية جدًّا؛ إذا جاز لي أن أتحدث معك بمفردك، سأقول لك سرًّا صغيراً».

أدركت أن لديَّ شيئًا أريد قوله لها سرًّا. لكنني أعترف أنني وضعتها في موقف مُحرج. بيد أن المرأة الأخرى ساعدتني.

قالت وهي تحث روجاس: «هيا، يا روجاس. أعتقد من الممتع معرفة ما لديه ليقوله».

وهكذا تشجعت روجاس، وأخذتني إلى جانب، وسألتني: «ما هو؟».

قلت لها: «لانا الجاثولية، كيف سنحصل عليها؟».

حبست أنفاسها، وقالت: «أنا لم أفكر في ذلك».

سألتها: «هل يمكنك إعطاءها كرة الخفاء الآن؟».

قالت: «من أجلك، نعم. سأفعل أي شيء من أجلك».

«جيد. وأخبريها أن تخرج إلى ساحة مساكن الإماء. وسوف تسمع صفيري بعد منتصف الليل بقليل. وسوف تتعرف عليه، وعندئذ تجيب وتنتظرني. هل ستفعلين ذلك من أجلي، يا روجاس؟».

«نعم، ولكن ما تبرير مغادرتي الذي أقوله لأصدقائي؟».

قلت: «أخبريهم أنكِ ذاهبة للحصول على بعض المال للرهان لصالحي».

ابتسمت روجاس، وقالت: «هذه فكرة رائعة». وبعد لحظة كانت قد قدمت مبرراتها إلى أصدقائها، ورأيتها تغادر قاعة العرش.

* * *

الفصل (10)

كان اضطراب الحشد يتنامى انتظارًا للجيداك، على أن هذا التأخير أسعدني كثيرًا؛ لأن من شأنه تقليص الفترة التي يجب أن أنتظرها قبل أن يسري مفعول الكرة وأصبح خفيًّا.

يبدو الآن أن كل شيء قد ترتب بشكل جيد؛ فعندما رأيت روجاس تعود إلى قاعة العرش وتعطيني ابتسامة سريعة عابرة، اقتنعت أن آخر همومي على وشك الانتهاء. لم يكن في ذهني بالفعل سوى شك واحد متبقٍّ، وهو ما قد يحدث لي بعد أن أقتل موتوس. ليس لديَّ أي شك في غضب بتانتوس؛ وكونه طاغية يتسم بردود أفعال الطاغية، فقد يأمر بوفاتي على الفور.

لذلك، ومع توقعي هذا، قررت أن أركض إلى أقرب ساحة؛ وإذا كان الوقت الكافي للتخفي قد انقضى منذ تناولي لكرة الإخفاء، لن يتطلب الأمر سوى الخروج إلى العراء للإفلات منهم. وأعرف أنني سأتمكن من الهرب بمجرد وصولي إلى إحدى الساحات مُختفيًا.

دوت الأبواق فجأةً، وتراجع الناس إلى جوانب قاعة العرش. دخل بتانتوس والجيدارة، بعد عازفي الأبواق، إلى قاعة العرش، برفقة مجموعة من رجال البلاط يرتدون أغطية فاخرة.

نظرت إلى الساعة الكبيرة المُعلقة على الحائط. الوقت الآن الزود الثامن تمامًا، ما يعادل الساعة العاشرة و48 دقيقة مساءًا بتوقيت كوكب الأرض. سوف تكتسب لانا الجاثولية وضع التخفي بحلول منتصف الليل - إذا كانت روجاس قد أعطتها الكرة. هذا هو السؤال. على أن روجاس لم تخذلني حتى الآن. ولديَّ اعتقاد راسخ أنها أدت دورها.

سار الزوجان الملكيان ببطء عبر القاعة إلى المنصة، وجلسا على عرشيهما. ووجد النبلاء ونساؤهم أماكنهم على المقاعد الطويلة.

ظهر موتوس من مكان ما. أصبحت أنا والمحارب الذي يحرسني، وموتوس والنبيل الذي يرافقه، بمفردنا على أرضية الحلبة. ثم ظهر رجل خامس، اكتشفت لاحقًا أنه ما قد تسمونه حكمًا أو مُحكِّمًا. استدعاني لأتقدم، وتقدمنا نحن الخمسة إلى العرش ووقفنا أمامه.

قال مُخاطِبًا بتانتوس: «أحضرت لك النبيل موتوس؛ ودوتار سوجات، سلطان سوات، اللذين سيتقاتلان حتى الموت بالسيوف الطويلة».

أومأ الجيداك، وقال: «فليبدأ القتال»، ثم أضاف وهو يصرخ نحوي: «وتأكد أنك تقاتل بشرف».

قلت: «أعتقد أن موتوس لا يقاتل بشرف، لكن هذا لا يهمني. سأقتله مهما كانت طريقة قتاله».

كان الحَكم بجواري تقريبًا وشعر بالإحراج. همس: «عليك بالصمت، يا عبد!» كان يحمل سيفًا إضافيًّا سلمه إليَّ، ثم أوما لنا كي نبدأ باشتباك سيوفنا.

بيد أن موتوس لم يلتزم بهذه العادة الشريفة، ووجه طعنة إلى قلبي.

تفاديت طعنته وأنا أقول له: «هذا تصرف غير حكيم، ياموتوس، ولذا سوف أزيد معاناتك قليلاً».

قال الحَكم: «الصمت يا عبد».

أجبت: «عليك إسكات نفسك، يا كالوت، وابتعد عن طريقي؛ فليس من المفترض أن أقاتل رجلين»، ثم وخزت الجانب الأيمن من صدر موتوس بحيث نزف، وواصلت قائلاً: «وإنما يسعدني أيضًا إذا سحبت سيفك».

اقترب مني موتووس مجددًا، لكنه كان حذرًا، كما كان مبارزاً جيدًا.

قلت: «وجهك بأكمله أسود ومتورم، يا موتوس. يبدو أن شخصًا ضربك؛ وهذا ما يناله ابن كالوت عندما يركل رجلاً أعمى».

صرخ الحَكم: «اصمت».

قاتلت على جانب الدفاع في البداية، وعيني على الساعة الكبيرة.

مر أكثر من نصف ساعة منذ أن ابتلعت كرة التخفي، وقد كانت خطتي أن أترك موتوس حيًّا لنصف ساعة أخرى حتى أتأكد تمامًا أنني اكتسبت وضع التخفي المحتمل قبل أن أجهز عليه.

نظرًا لأنني كنت أقاتل في وضع الدفاع، أجبرت موتوس على القيام بالعمل كله. وبتكراري تجنبت أكثر طعناته شرًّا، وتركتها تنزلق على نصلي بحيث يضطر إلى القفز

بسرعة إلى الوراء، عانى موتوس من توتر عصبي وإجهاد بدني شديدين؛ وأصبح العرق الآن يتدفق على جسمه. بدأت ألمسه هنا وهناك؛ واختلط الدم مع العرق إلى أن أصبح المشهد يدعو إلى الأسف، على الرغم من أنه لم يتلقَّ أي جرح شديد في أي مكان.

كان الحشد بأكمله مؤيدًا لموتوس، أعني كل مَن يرفعون أصواتهم. أعرف اثنين على الأقل يأملون أن أفوز، وأتصور أن هناك العديد من الآخرين الذين يكرهون موتوس لكنهم لا يجرؤون على الهتاف لأجنبي وعبد.

قلت له: «أنت مُتعَب، يا موتوس، أليس من الأفضل أن تجهز عليَّ الآن قبل أن تُستنفَد كليًّا؟».

عاد لمواجهتي وقال: «سوف أجهز عليك، يا عبد، إذا صمتَ وقاتلت».

قلت له بعد أن ألقيت نظرة خاطفة على الساعة: «لم يحن الوقت لقتلك بعد، يا موتوس، سأقتلك عندما تشير الساعة إلى الزات الأحد عشر بعد الزود الثامن».

صرخ الحَكم: «صمتًا».

سأل بتانتوس بصوت جهوري: «ماذا يقول العبد؟».

صرخت في وجهه: «قلت إنني سأقتل موتوس عندما تشير الساعة إلى الزات الأحد عشر بعد الزود الثامن بالضبط. راقب الساعة، يا بتانتوس؛ ففي تلك اللحظة ستخسر رهانك ويخسر موتوس حياته».

قال الجيداك آمرًا: «صمتًا».

همست: «والآن، يا موتوس، سوف أدعك ترى كيف يمكنني أن أقتلك بسهولة عندما يحين الوقت»، وهنا أطحت بسلاحه، وسقط سيفه مصلصلاً على الأرض.

لهث الجمهور بقوة؛ إذ من حقي، وفقًا لقواعد هذا النوع من المبارزة، أن أطعن موتوس في قلبه. لكنني بالأحرى وضعت سيفي على الأرض وتحولت إلى الحَكم.

وقلت: «اذهب لإحضار سيف موتوس، وأعطه له».

كان موتوس يرتجف قليلاً. رأيت اهتزاز ركبتيه لا إراديًّا. وعرفت عندئذ ما كنت أفترضه – شحب لون موتوس.

وعندما كان الحَكم يستعيد سيف موتوس، سرت موجة صغيرة من التصفيق خلال المدرجات. بيد أن بتانتوس جلس متجهمًا بشراسة؛ أخشى أنه لم يكن مُعجبًا بي.

عندما عاد السيف إلى موتوس، هاجمني بشراسة؛ وكنت أعرف تمامًا ما يدور في ذهنه: كان يريد قتلي على الفور.

أطحت بسلاحه ثانية. وأنزلت سيفي مرة أخرى، بينما ركض الحَكم لإحضار النصل دون انتظار أن يُطلب منه ذلك.

أصبح موتوس أكثر حذرًا الآن. أدركت أنه كنت يحاول دفعي إلى موضع معين يريدني فيه. لاحظت أن الحكم لم يعُد في نطاق رؤيتي، وبلمحة سريعة وجدته يقف خلفي مباشرة. لم يكن الحدس هو ما دلني على سبب ذلك؛ فقد شاهدت تلك الخدعة من قبل، يمارسها مبارز محتال مع شريك له. سمعت بعض التذمر يتصاعد من المدرجات؛ فعرفت أنني على حق، فلا يمكن لأي شخص شريف أن يشهد ذلك دون التعبير عن رفضه.

عندما يهجم موتوس، على أمل أن يجبرني على التراجع ويكون الحَكم خلفي 'بطريق الخطأ'، فسوف أصطدم به وهنا يضعني موتوس تحت

رحمته. إنها خدعة حقيرة، ولا بد أن بتانتوس عرف بأنها ستحدث، لكنه لم يتحرك لمنعها.

راقبت عينَي موتوس، وعرفت منهما نيته تجاهي قبل هجومه بلحظة، حيث اندفع مُلقيًا بثقله كله. انحنيت قليلاً توقعًا لما سيفعله، وحملتني جانبًا عضلاتي المنتمية إلى كوكب الأرض، وغاص سيف موتوس حتى غمده في جسم الحَكم.

ساد الهرج للحظة في قاعة العرش. وقف الجمهور بأكمله في المدرجات، وتصاعدت هتافاته وتذمراته، وأشعرني شيئًا ما أن الهتافات موجهة لي والتذمر موجه لموتوس والحَكم.

توترت أعصاب موتوس بدرجة رهيبة وهو يهز نصله لسحبه من جسم الرجل الميت، لكني لم أمهله. اندفعت نحوه بقوة، وإن لم يكن لقتله بعد، وأصبته بجرح بالغ في فكه المتورم.

قلت: «لن تكون جثتك حسنة المظهر الآن، يا موتوس. وقبل أن أقتلك، سيزداد مظهرك سوءًا».

قال: «أنت كالوت!»، ثم اندفع نحوي في هجوم عنيف. تفاديت كل طعنة وإصابة، ونسجت شبكة من الصُّلب حوله بحيث أجرحه ويسيل دمه من بقعة جديدة في جسده، بعد كل مرة أتفادى فيها طعنته.

قلت: «أمامك 3 زات تعيشهم؛ فمن الأفضل أن تستفيد بهم قدر الإمكان».

اندفع نحوي كالمجنون؛ لكني خطوت جانبًا، وعندما استدار اقتلعت إحدى أذنيه بدقة مثلما يمكن لجرّاح أن يفعل – تصورت أنه سيفقد الوعى؛ لأن ركبتيه بدأتا تنهاران تحته، وترنح لوهلة.

انتظرته حتى يستعيد السيطرة على نفسه، ثم توجهت نحوه ثانية. حاولت نحت الأحرف الأولى من اسمي على صدره، لكني لم أجد مكانًا كافيًا؛ إذ كان جسمه، من الخصر إلى أعلى، يشبه طبق هامبورجر نيئ.

أصبحت الأرضية الآن مُغطاة بدمه. ولما اندفع نحوي بشراسة ثانية، انزلق وسقط. رقد للحظة صارخًا في وجهي، وكنت على يقين أنه يتوقع مني أن أجهز عليه؛ لكني قلت له بالأحرى: «لديك زات ونصف لتعيشها، يا موتوس».

وقف مترنحًا وحاول إلقاء نفسه فوقي، وهو يصرخ باللعنات. أعتقد أن موتوس جن جنونه تمامًا الآن من الألم والرعب. لم أشعر بأي تعاطف معه - كان جرذًا، ويقاتل الآن كجرذ محاصَر.

قلت له: «الأرضية هنا زلقة للغاية، دعنا نذهب أمام عرش الجيداك – وأنا واثق أنه يريد مشاهدة النهاية».

قمت بتحريكه في موقعه، وسندته على الأرض إلى أن وقفنا مباشرة أمام بتانتوس.

نادرًا ما عاقبت رجلاً مثلما عاقبت موتوس؛ لكني شعرت أنه يستحق ذلك. كنت بمثابة المُدعي، والنائب العام، وهيئة المحلفين، والقاضي؛ وكنت أيضًا الجلاد.

كان موتوس يثرثر، ويوجه نحوي طعنات عقيمة بنصله. وكان بتانتوس يصرخ في وجهي، الجمهور يحبس أنفاسه بتوتر من التوقعات. رأيت العديد من الأعين تنظر إلى الساعة.

فقلت: «تال آخر يا موتوس»؛ والتال حوالي ثمانية أعشار الثانية بمقاييس كوكب الأرض.

وهنا استدار موتوس فجأة وركض صارخًا نحو المدخل الكبير الذي يؤدي إلى قاعة العرش. وقف الجمهور ثانية، وارتفعت صيحات وهتافات: «جبان!».

كان المتفق أنه قتال حتى الموت، وراهن بتانتوس أنني لن أقتل موتوس. خشيت أنني إذا لم أقتله، أن يطالب بتانتوس بالمال؛ ولذلك خاطرت بكل شيء في الفن الذي مارسته في أغلب الأحيان للمتعة. رفعت يدي التي تحمل السيف إلى أعلى خلف كتفي اليُمنى، ثم أحضرتها إلى الأمام وأنا ألقي بالسيف، مع رأسه أولاً، بكل قوتي. طار السيف

كسهم سريع، وغاص أسفل كتف موتوس اليُسرى؛ وذلك في الزات الأحد عشر من الزود الثامن بالضبط.

* * *

الفصل (11)

استدرت وانحنيت أمام بتانتوس، دون وجود السيف معي لتحيته به. كان يجب أن يُقدر هذه المجاملة المتعارف عليها، لكنه لم يفعل أي شيء من هذا القبيل، بل صرخ في وجهي ووقف. وقفت الجيدارة أيضًا؛ وسارا والأبواق أمامهما والحاشية خلفهما إلى خارج قاعة العرش، مع اضطرارهم جميعًا للدوران مسافة كبيرة تجنبًا للدماء والجثتين.

وبعد مغادرتهم، جاء المحارب الذي جلبني من الساحة ولمس ذراعي. قال: «تعالَ. كل ما ستحصل عليه بعد كل ذلك هو تقييدك في شجرتك ثانية».

أجبت، وأنا أرافقه عبر قاعة العرش: «لقد فزت بأكثر من ذلك بكثير؛ فقد أراحني الانتقام من ركلة جبانة».

وعندما وصلنا إلى المدخل، بدأ أحدهم بالهتاف وتبعه عمليًّا الجمهور كله. قال المحارب: «هذه مظاهرة غير عادية، لكنك تستحقها. لم يرَ أحد في برسوم أبدًا مبارزة مثل هذه - وكنت أعتقد أنك تتفاخر!»، وضحك.

أعرف أنه من الضروري أن نعبر ساحتين قبل أن نصل إلى الساحة التي كنت محبوسًا فيها؛ وأدركت أنني إذا اختفيت فجأةً أمام أعين المحارب، سيعرف أنني حصلت على كُرات الاختفاء؛ ولأنه لن يتمكن بالطبع من إيجادي، سوف يبدأون البحث ويعرقلون خطط هروبنا. وإذا عرفوا أنني أتحرك براحتي وغير مرئي، من الطبيعي أن يكون وضع حارس عند طائرتي هو أول الأشياء التي يقومون بها.

بيد أنهم إذا تصوروا أنني هربت وحسب، ولست غير مرئي، سيشعرون أنهم بحاجة إلى البحث عني وإيجادي بسرعة. ويمكنهم بالطبع، في هذه الحالة أيضًا، وضع حارس عند الطائرة؛ لكنه لن يكون في حالة تأهب، وعندئذ لا يزال بإمكاننا الصعود إلى متن السفينة والطيران قبل أنهم يدركوا وجودنا.

عندما اقتربنا من الساحة الأولى، انفصلت فجأةً عن حارسي وركضت بكل سرعتي كشخص ينتمي إلى كوكب الأرض. صاح المحارب لكي أتوقف، وبدأ يركض خلفي. وصلت إلى مدخل الساحة، وتظاهرت أنني أختبئ وراء زاوية، وهي تُخفيني منه بالطبع.

لا بد أن أعترف أن قلبي كان يخفق بشدة خلال هذا السباق القصير؛ فلم أكن أعرف، بطبيعة الحال، ما إذا كنت قد أصبحت خفيًّا أم لا.

على أنني اختفيت تمامًا في لحظة تركي الممر المُضاء؛ إذ لم أتمكن من رؤية أي جزء من جسمي - كان أغرب إحساس شعرت به على الإطلاق.

وضعت خططي، وركضت الآن إلى أقصى نهاية الساحة، ثم قفزت بخفة إلى سطح المدينة.

سمعت صوت المحارب الحارس وهو يركض ويناديني؛ فمن المؤكد أن اختفائي أدهشه؛ لأنه لا يعرف أنني تمكنت من أن أصبح غير مرئي، ولا توجد بالفعل أي وسيلة ليعرف ذلك، إلا بناء على نظرية أنني ركضت إلى مدخل شارع آخر. بيد أنه على الأرجح كان واثقًا من أنني لم أحصل على وقت كافٍ للقيام بذلك.

حسنًا، لم أهتم به كثيراً أو بكيفية تفكيره؛ بل تحركت بالأحرى عبر السطح بحثًا عن الساحة التي ينتظرني فيها بتور فاك، وحيث كنت أتوقع أن أقابل روجاس في منتصف الليل؛ وكان الوقت يقترب جدًّا مما نسميه منتصف الليل - منتصف الليل البرسومي هو في الزات الخامس والعشرين بعد الزود الثامن.

ينقسم يوم المريخ إلى عشرة أجزاء متساوية يُسمى كل منها زود؛ ويضم الزود خمسين فترة أقصر تسمى زات، أي أن الزود يتكون من 50 زات؛ وينقسم كل زات إلى 200 فترة زمنية قصيرة تُسمى تال، أي أن الزات الواحد يتكون من 200 تال. توضع على أقراص ساعاتهم أربع دوائر مركزية. وتوضع بين الدائرة الداخلية والدائرة التالية الخارجية

علامات من 1 إلى 10 للدلالة على الزود؛ وتوضع في الدائرة التالية علامات من 1 إلى 50 بين كل زودين، للدلالة على الزات؛ وتوضع في الدائرة الخارجية 200 علامة تدل على الزات، وتقع بين أنصاف الأقطار التي تمر عبر أرقام الزود، وتمتد إلى المحيط الخارجي للقرص. كما تضم الساعة ثلاثة مؤشرات مختلفة الأطوال والألوان؛ تشير أحدها إلى الزود، والثاني إلى الزات، والثالث وهو الأطول يشير إلى التال[366] .

لم أجد أي صعوبة في العثور على الساحة التي كنت مُقيدًا فيها؛ وأطلقت الصفير بمجرد وصولي، وأجابني فور تاك. نزلت إلى الساحة، وأطلقت الصفير ثانية. وعندما أجاب فور تاك، تلمست حولي إلى أن اصطدمت به.

قال: «يبدو مظهرك جيدًا»، وضحكنا. واصل قائلاً: «لقد استغرقت وقتًا أطول مما كنت تتوقع للتخلص من موتوس».

(366) يوجد أمامي الرسم التخطيطي للساعة المريخية، رسمه جون كارتر منذ سنوات عديدة - ملحوظة من محرر النسخة الإنجليزية الأصلية.

أوضحت: «اضطررت إلى إطالة المدة للتأكد من أنني غير مرئي عند عودتي إلى هنا».

سألني بتور فاك: «والآن ماذا؟».

تحسست حتى وجدت رأسه، ووضعت شفتي بالقرب من إحدى أذنيه وهمست: «بعد أن تأتي روجاس، سنعبر السقف إلى مساكن الإماء لإحضار لانا الجاثولية. وفي غضون ذلك، يمكنك تسلق هذه الشجرة التي تصل إلى السطح، وتنتظر مجيئنا.

قال: «أطلق صفيرك عندما تأتون»، ثم تركني.

اكتشفت أن الخفاء مُزعج للغاية. لا يمكنني رؤية أي جزء من جسدي، كنت مجرد صوت دون مادة مرئية - صوت يقف في ساحة مهجورة، ربما تكون مملوءة بالأعداء، في حدود معرفتي. ليس بمقدوري حتى أن أسمعهم إذا كان أي منهم موجودًا؛ فقد اتخذ الإينفاك الاحتياطات اللازمة لتغطية جميع الأجزاء المعدنية من أدواتهم، بحيث لا يُسمَع صوت قعقعة المعادن المعتادة عندما يتحركون.

ولعلمي أنهم لا بد شرعوا في البحث عني، شعرت بأنه من المؤكد وجود محاربين إينفاك في الساحة، على الرغم من عدم سماعي أو رؤيتي أي شخص.

انتظرت روجاس، وقررت كاحتياط عدم التحرك خشية الاصطدام عن غير قصد بشخص قد يطلب مني تحديد هويتي. لكني لا أستطيع منع أي شخص من الارتطام بي، وهذا بالضبط ما حدث. شعرت بيدين على كتفي، وسألني صوت فظ: «مَن أنت؟».

يا له من مأزق. ماذا أفعل؟ تشككت في إمكانية تعاملي بوصفي رجلاً من الإينفاك – أنا لا أعرف عنهم سوى القليل جدًّا حتى أنجح في ذلك؛ ولذا فعلت أفضل شيء آخر تبادر إلى ذهني.

قلت بصوت يوحي بالقبور: «أنا شبح موتوس. وأبحث عن الرجل الذي قتلني، لكنه ليس هنا».

أبعدت اليدان قبضتها عني، وشعرت بأن الزميل يبتعد عني. ثم قال صوت آخر: «شبح موتوس، كلا – أنا أعرف هذا الصوت، إنه صوت العبد الذي قتل موتوس. اقبضوا عليه!»

قفزت إلى الجانب، فوجدتني بين ذراعي صوت آخر، وأمسك بي صائحًا: «لقد قبضت عليه! كيف أمكنك الحصول على أسرار الخفاء، أيها العبد؟».

تلمست بيدي اليسرى مقبض سيف الزميل؛ وعندما وجدته قلت: «أنت أخطأت»، وأغمدت السيف في قلب الصوت.

أطلق صرخة حادة واحدة، تحررت بعدها. حملت سيفي بحيث كان رأسه عاليًا واستدرت، ثم ركضت إلى الشجرة التي تسلقها بتور فاك إلى السطح. اصطدم إحدى كتفِيَّ بجسم، لكني وصلت إلى الشجرة بأمان.

وخلال تسلقي بحرص إلى فرع منخفض، حتى لا أكشف عن وجودي باهتزاز أوراق الشجر، سمعت صفيراً منخفضًا. كانت روجاس.

سأل صوت في مكان ما من الساحة: «مَن أطلق هذا الصفير؟». لم يرد أحد.

ما من توقيت أسوأ كان يمكن أن تأتي فيه روجاس. لم أرد عليها؛ ولم أكن أعرف ماذا أفعل، لكن من الواضح أن بتور فاك كان يعرف ماذا يفعل، فقد رد عليها بصفير. لا بد أنه تصور أنني أنا مَن يطلق الإشارة له.

صاح صوت: «إنهم على السطح! أسرع! فلنتسلق تلك الشجرة!».

كانت هذه هي الشجرة الوحيدة التي تصل إلى السطح؛ فإذا بقيت فوقها، سوف يكتشفونني بالتأكيد. لم يكن أمامي سوى شيء واحد، وهو الصعود إلى السطح. وقد فعلت ذلك بأسرع ما يمكن.

لم أكن قد أكملت 6 خطوات بعد أن وصلت قبل أن أصطدم بشخص.

همست: «زودانجا؟»، فلم أرغب في ذِكر اسم بتور فاك، لكنني عرفت أنه سيتفهم الأمر إذا ذكرت اسم البلد الذي جاء منه.

أجاب: «نعم».

«عليك أن تعثر على الطائرة، وابقَ بالقرب منها إلى أن آتي». ضغط على ذراعي ليوضح أنه فهم، ثم ذهب.

رأيت الشجرة التي تسلقتها تهتز بعنف، عرفت بالتالي أن عددًا من المحاربين يتسلقونها سعيًا للإمساك بي، على الرغم من أنني لا أعرف كيف يتوقعون العثور عليَّ.

كان وضعًا مذهلاً؛ لا بد أن عددًا لا يقل عن دزينة من الرجال على السطح، وربما لا يزال هناك آخرون في الساحة حيث توجد روجاس. على أن كلاًّ من السطح والساحة

كان يبدو مهجورًا – لا يمكن للعين أو الأذن تصور وجود أي كائن حي؛ إلا إذا تحدث شخص وبدد هذا الوهم. سمعت الآن صوتًا على مسافة قصيرة. «ربما ذهب في هذا الطريق؛ إذ إن سور المدينة يقع أقرب في هذا الاتجاه. انتشروا ومشطوا السطح كله، وصولاً إلى سور المدينة».

قال صوت آخر: «هذه مضيعة للوقت. إذا كان قد حصل على سر الإخفاء من أي شخص، فلن يمكننا أبدًا العثور عليه».

قال صوت ثالث: «لا أعتقد أنه حصل عليه؛ على أي حال، ما من سبيل لكي يصبح غير مرئي – لقد كان شبح موتوس دون شك هو الذي تحدث».

بدأت الأصوات تبتعد الآن، وشعرت أن المكان آمن ويمكن الافتراض أن جميع المحاربين ذهبوا للبحث عني؛ فمشيت إلى حافة السطح وقفزت إلى الساحة. وقفت للحظة لتركيز كل قواي العقلية في محاولة للشعور بوجود الآخرين بالقرب مني، كما أخبرني كاندوس أنه قادر على القيام بذلك، ولكن لم أشعر بأي رد فعل. وهذا قد يعني إما أنني أخفقت في الشعور بوجود الآخرين، وإما أنه لا يوجد أحد - على الأقل بالقرب مني؛ لذلك اقتنصت الفرصة وأطلقت الصفير مرةً أخرى. سمعت الرد من الجانب الآخر للساحة؛ فانتظرت.

سمعت عن قرب الآن صوت صفير منخفض، وأجبت – وبعد لحظة لمستني روجاس.

لم أتحدث ثانية خشية جذب مطاردين آخرين، لكنني قدتها إلى الشجرة وساعدتها على التسلق إلى السطح.

همستُ: «أين طائرتي؟».

أمسكتني من ذراعي وقادتني اتجاه بزوايا قائمة، إلى حيث اتجه المطاردون. بدا المشهد أكثر إشراقًا على الفور.

مشيت مع روجاس ويدي بيدها، حتى لا نفقد بعضنا. رأيت طائرتي تقف هناك تحت ضوء القمر الأبعد، وبدت بالتأكيد جيدة.

سألتُ روجاس همسًا: «تقع مساكن الإماء بالقرب من هنا، أليس كذلك؟».

«هناك تحديدًا»، وافترضتُ أنها أشارت بيدها؛ ثم قادتني إلى حافة السطح التي تطل على الساحة.

الفصل (12)

وقفت ويدي في يد روجاس عند حافة السطح ننظر نحو الساحة التي تبدو مهجورة أسفلنا. سألتها: «هل أعطيتِ لانا الجاثولية كرة الخفاء؟».

أجابت روجاس: «نعم، ولا بد أنها خفية الآن». ثم همست وهي تضغط على يدي: «لقد قاتلتَ ببراعة. يعرف الجميع أنك كنت تستطيع قتل موتوس عندما تريد، وأنا فقط خمنت لماذا لم تُسرع في قتله. بتانتوس غاضب، وأمر بتدميرك فورًا».

قلت: «روجاس، ألا تعتقدين أن عليكِ إعادة النظر في قراركِ بالمجيء معي؟ يوجد جميع أصدقائكِ وأقاربكِ هنا في إينفاك، وقد تصبحين وحيدة وغير سعيدة بين شعبي».

قالت: «سأكون سعيدة أينما تكون أنت. وسوف أقتل نفسي إذا لم تأخذني معك».

وعلى هذا النحو، فقد قمت بتوريط نفسي في مثلث ربما يتسبب في إحراج كبير أو حتى مأساة. شعرت بالأسى على روجاس، وأزعجني بل أهانني الدور الذي كنت مُجبراً على أداءه. وإنما لم تكن هناك طريقة أخرى؛ كانت المسألة إما سعادة روجاس أو حياتنا أنا ولانا وبتور فاك. كنت أعرف أنني اخترت بحكمة، لكنني لم أكن سعيدًا.

بدافع من عاداتي طوال حياتي، أجهدتُ عيني بحثًا عن لانا الجاثولية، التي ربما توجد في مكان ما بالساحة. ومع إدراكي لعدم جدوى البحث عنها، أطلقت صفيراً. سمعت استجابة فورية في أسفل، فقفزت من السطح. لم نستغرق وقتًا طويلاً لنحدد موقعينا؛ ولما لم يعترضنا أحد، افترضت أننا محظوظين لنكون وحدنا.

لمست لانا يدي وقالت: «تصورت أنك لن تأتي أبدًا. أخبرتني روجاس عن المبارزة التي كان عليك خوضها؛ ورغم عدم شكي في قدرتك على المبارزة، كنت أدرك أن هناك دائمًا خطر وقوع حادث أو خدعة. لكنك هنا أخيراً. يا لغرابة عدم القدرة على رؤيتك. كنت خائفة بالفعل عندما خرجت إلى الساحة هنا واكتشفت أنني لا أستطيع حتى رؤية نفسي».

قلت: «إنها معجزة الخفاء التي ستنقذنا، ولن ينقذنا سوى معجزة. يجب أن تصعدي إلى السطح الآن».

لا توجد شجرة متدلية في هذه الساحة، ويبلغ ارتفاع السطح 15 قدمًا من الأرض. قلت: «أنتِ على وشك المرور بتجربة جديدة يا لانا».

سألتني: «ماذا تقصد؟».

قلت لها: «سوف أُلقي بك إلى السطح، وآمل أن تهبطي على قدميك».

قالت: «أنا مستعدة».

يمكنني رؤية السطح تمامًا، لكني لا أستطيع رؤية لانا؛ وليس أمامي سوى الدعاء أن يتحقق هدفي. «حافظي على جسمكِ كله صلبًا تمامًا إلى أن ألقي بكِ، ثم افردي قدميكِ واسترخي. قد تسقطين بشكل سيئ، لكني لا أعتقد أن ذلك قد يضر بكِ كثيراً؛ فالسطح مملوء بالكرمات».

قالت لانا: «هيا، فلنفعلها».

أمسكت إحدى ساقيها عند الركبة بيدي اليُمنى، وحملت جسدها بساعدي الأيسر. ثم أرجحتها ذهابًا وإيابًا بضع مرات، وقذفتها عاليًا في الهواء.

قد تكون لانا الجاثولية غير مرئية، لكن لها جسم بالطبع.

سمعت هبوطها على السطح، جلجلة غير مرئية، فتنفست الصعداء. قفزت بخفة إلى السطح، بفضل قوة عضلاتي المنتمية إلى كوكب الأرض، وسرعان ما تجمع ثلاثتنا بتصفير منخفض. حذرت الفتيات بضرورة الصمت، ومشينًا جنبا إلى جنب في اتجاه الطائرة.

وكانت هذه هي اللحظة التي أثارت أكبر مخاوفي؛ إذ ربما كانت الطائرة مُحاطة بمحاربين غير مرئيين. وبقدر ما أعرف، كان السيف الوحيد لدينا هو ذلك الذي أخذته من المحارب بعد أن قتلته في الساحة؛

ولكن، ربما كان مع روجاس سيف.

همست: «هل لديك سيف، يا روجاس؟».

قالت: «نعم، لقد أحضرت سيفًا».

سألتها: «هل يمكنكِ استخدامه؟».

أجابت: «لم يسبق لي أن استخدمت سيفًا».

«أعطيه إذَنْ إلى لانا الجاثولية، فهي تستطيع استخدامه عند الضرورة، وبشكل فعال أيضًا».

اقتربنا من الطائرة بحوالي مائة قدم، وتوقفنا. هذه هي اللحظة الحاسمة؛ كنت خائفة من الصفير، لكني فعلت. وجاءني رد فوري من موقع بجوار الطائرة. انتظرت للحظات للاستماع إلى أي أصوات قد توضح وجود العدو، لكني لم أسمع أي شيء.

تقدمنا بسرعة، وساعدت الفتاتين على الصعود عبر الدرابزين. ثم سألت: «أين أنت، بتور فاك؟ هل أنت بمفردك؟».

أجاب: «أنا على سطح السفينة، ولا أعتقد أن هناك أي شخص».

قلت: «قد يأتي الآن جميع محاربي إينفاك»، ووصلت إلى لوحات التحكم وبدأت تشغيل المحرك.

ارتفعت السفينة بعد لحظة برشاقة في الهواء، وسمعنا على الفور تقريبًا صيحات ولعنات تأتي من أسفل. شاهد الإينفاكيون السفينة، لكن أوان منع هروبنا قد فات. نحن في أمان. لقد أنجزنا ما كان يبدو قبل بضع ساعات مستحيلاً؛ عندما كنت وبتور فاك مقيدين بالسلاسل إلى الأشجار، وكانت لانا الجاثولية أسيرة في جزء آخر من المدينة.

قلت: «نحن مدينون لروجاس بدين كبير من الامتنان».

أجابت: «هذا الدين يسهل عليك جدًّا، وأتمنى أن يسعدك سداده».

أزعجني ردها؛ فقد أدركت أنني سأواجه وقتًا عصيبًا. أُفضل مواجهة دزينة من الرجال بسيفي أكثر من مواجهة امرأة غاضبة أو مُحطمة القلب. فكرت أن أخبرها قبل وصولنا إلى هيليوم، لكني قررت الانتظار إلى أن نتخلص من وضع الإخفاء.

ربما كان من الأسهل أن أخبرها وكلانا غير مرئي، لكني اعتبرتها طريقة جبانة.

سألتني لانا: «سوف نذهب إلى هيليوم، جون كارتر؟».

قلت: «نعم».

سألتني: «ماذا سيظنون عن طائرة قادمة بنفسها، دون وجود أحد على متنها؟».

أجبت: «علينا أن ننتظر إلى أن نصبح مرئيين، قبل أن نقترب من المدينة. وعلينا ألا نتناول المزيد من كُرات الإخفاء».

سألت روجاس: «مَن هو جون كارتر؟ هل يوجد هنا شخص آخر لا أعرفه؟».

أجبت: «أنا جون كارتر. أما دوتار سوجات، فهو مجرد اسم اتخذته مؤقتًا».

سألتني روجاس: «أنت إذَنْ لست سلطان سوات؟».

أجبت: «لا، أنا لست سلطان سوات».

«لقد خدعتني».

قلت: «أنا آسف يا روجاس؛ لم أكن أحاول خداعكِ - بشأن اسمي. وفي واقع الأمر، لم يسبق لي أن قلت لكِ إنني سلطان سوات، بل قلتها للمحارب الذي استجوبني». إذا كان خداعي لها بشأن اسمي ووضعيتي قد أغضبها، فكيف ستتعامل مع حقيقة أنني لم أحبها، وأنني متزوج بالفعل! كنت تعيسًا، مثل ثعبان السمك حيًّا في مقلاة؛ ثم قررت فجأةً أن أغامر وأخبرها بكل شيء. بدأت قائلاً: «روجاس، على الرغم من أنني لم أخدعكِ بشأن اسمي، فقد خدعتكِ في مسألة أكثر أهمية بكثير».

سألتني: «وما هي؟».

«لقد استخدمت... صداقتك للفوز بالحرية للانا الجاثولية. تظاهرت بأنني أحبكِ؛ لكنني متزوج بالفعل».

انتظرت الانفجار، لكنه لم يحدث؛ بل سمعت رنينًا خافتًا، والقليل من الضحك. واصلت الانتظار؛ لم تتحدث، وأصبح الصمت ثقيلاً. توقعت للحظات أن تقذفني بخنجر، أو أن تقفز روجاس من متن السفينة؛ وإنما لم يحدث أي شيء. جلست أمام لوحات التحكم متسائلاً عن ضحكها. ربما أدت صدمة اعترافي إلى عدم توازن عقلها. تمنيت أن أتمكن من رؤيتها، وفي الوقت نفسه كنت سعيدًا لأنني لا أستطيع رؤيتها- وكنت سعيدًا بالتأكيد لعدم قدرة أي شخص على رؤيتي، فقد شعرت أنني أحمق.

لم أتمكن من التفكير في أي شيء أقوله، وتصورت أن الصمت سيدوم إلى الأبد، لكن لانا الجاثولية حطمت الصمت أخيراً. سألت: «إلى متى سنبقى غير مرئيين؟».

قالت روجاس: «أكثر قليلاً من 10 زود منذ لحظة تناول الكرة. سأصبح أنا مرئية أولاً، وربما بعد ذلك إما جون كارتر أو بتور فاك، لأني أتصور أنهما تناولا الكُرات في

نفس الوقت تقريبًا؛ وأنت يا لانا ستكونين آخر مَن يصبح مرئيًّا». كان صوتها طبيعيًّا تمامًا، دون أي أثر لعصبية أو مرارة. لم أستطع فهم الفتاة.

ربما كانت من النوع الذي يستغرق وقتًا قبل أن يبدأ في انتقام رهيب. وأقول لك، كان لديَّ الكثير لأفكر فيه حول هذا الموضوع خلال تلك الرحلة إلى هيليوم.

* * *

الفصل (13)

رأيت بعد الفجر بفترة وجيزة ظاهرة مدهشة - رأيت مجرد بعض خطوط عريضة لشيء مظلل بجانبي، وبدأت يتخذ شكلاً ببطء: كانت روجاس تتجسد! بدأ تأثير تركيبة الخفاء يزول، ومع زواله ظهرت روجاس. كانت تجلس وتحدق ببصرها في مشاهد المريخ الطبيعية، وابتسامة سعيدة على شفتيها؛ ذكّرتني على نحو ما بقط ابتلع لتوه عصفور الكناري.

قلت لها: «كاور!»، وهي كلمة تعني بلغة برسوم صباح الخير، أو مرحبًا، أو كيف حالك؟ - وبعبارة أخرى، هي كلمة التحية بلغة برسوم.

توجهت روجاس ببصرها نحوي، لكنها بالطبع لم تستطع رؤيتي.

أجابت مبتسمة: «كاور! لا بد أنك مُتعب للغاية، جون كارتر؛ أنت لم تنم طوال الليل».

أجبت: «سوف أنام عندما تستيقظ لانا الجاثولية؛ فهي تستطيع التعامل مع لوحات التحكم جيدًا، مثلي تمامًا».

قالت روجاس: «لم أتجاوز أبدًا غابات إينفاك، يا له من عالم موحش وحيد هذا».

قلت: «سوف تجدين مدينتَي هيليوم التوأم جميلتين جدًّا. أتمنى أن تُحبِّي المكان هناك، يا روجاس».

قالت: «أنا متأكدة من أنني سأحب المكان؛ وأتطلع إلى الوجود في هيليوم معك، جون كارتر».

تساءلت ماذا تعني بذلك. كانت الفتاة لغزًا؛ فتوقفت عن محاولة إيجاد حل لها. تحدثت لانا الجاثولية بعد لحظات، فعرفت أنها استيقظت وطلبت منها أن تتولى أمر لوحات التحكم.

قلت: «سوف نبحر حول هيليوم من الخارج إلى أن نتخلص من تأثير الخفاء»؛ ثم استلقيت ونمت.

زال تأثير كُرات الإخفاء عنا جميعًا في وقت متأخر من تلك الليلة، فاقتربت من هيليوم في صباح اليوم التالي. جاء زورق دورية فضائي لمقابلتنا، وسار إلى جانبنا بمجرد أن تعرّف على طائرتي. كان الضابط قائد الزورق، والطاقم بأكمله في واقع الأمر، في سعادة غامرة لرؤيتنا - أنا ولانا الجاثولية - في قيد الحياة وآمنين. رافقنا زورق الدورية إلى حظيرة الطائرات على سطح قصري، حيث تلقينا ترحيبًا هائلاً؛ حيث تصور الجميع أننا في عِداد الموتى منذ فترة طويلة.

كان كل من بتور فاك، ولانا، وروجاس، خلفي عندما أخذت ديجاه ثوريس بين ذراعي؛ ثم استدرت وقدمت لها روجاس وبتور فاك.

قلت لديجاه ثوريس: «لولا روجاس، ما كان أحد منا هنا»، ثم أخبرتها بإيجاز عن القبض علينا وحبسنا في إينفاك.

راقبتُ روجاس عن قُرب عندما وضعت ديجاه ثوريس يديها في يدي روجاس وقبّلتها على جبينها؛ ولدهشتي، ألقت روجاس ذراعيها حول أميرتي وقبّلتها في فمها مباشرة – يا لها من فتاة مُحيرة تمامًا.

وبعد أن تناولنا جميعًا طعام الإفطار، سألتني ديجاه ثوريس عن خططي الحالية. أجبت: «سوف ألتقي على الفور بتاردوس مورس، وبعد أن أنتهي من ترتيبات إرسال أسطول إلى جاثول، سوف أطير إلى هناك بمفردي للاستطلاع».

سألتني ديجاه ثوريس: «لماذا بمفردك؟ ولكن لماذا أسألك؟ أنت لك دائمًا طريقتك في القيام بالأشياء بمفردك».

قابلت تاردوس مورس، واتخذت الترتيبات اللازمة لإرسال أسطول إلى جاثول؛ ثم عُدت إلى قصري لتوديع ديجاه ثوريس. وخلال مروري بالحديقة، رأيت روجاس تجلس هناك وحدها.

قالت: «جون كارتر، تعال هنا لحظة؛ أريد أن أخبرك بشيء».

فكرت أن اللحظة قد حانت؛ حسنًا، يجب حل المسألة عاجلاً أم آجلاً، وسوف يريحني حلها على الفور.

قالت: «أنت خدعتني، جون كارتر».

أجبت: «أعرف أنني خدعتكِ بالفعل».

قالت: «أنا سعيدة جدًّا لأنك خدعتني؛ لأنني خدعتك أنا أيضًا. لقد أُعجِبت بك كثيراً، جون كارتر، لكني لم أحبك أبدًا. كنت أعرف أنك جئت إلى إينفاك في طائرة، وأنني إذا ساعدتك في الهروب بالطائرة ربما يقنعك هذا أن تأخذني معك. أنا أكره إينفاك، وكنت تعيسة هناك إلى حد استعدادي إلى بيع روحي لكي أتمكن من الهرب؛ ولذلك حاولت أن أجعلك تحبني لكي تأخذني بعيدًا عن إينفاك. تصورت أنني نجحت، وكنت أخجل من نفسي كثيراً. ولا يمكنك أن تتصور أبدًا مدى شعوري بالراحة عندما اكتشفت أنني فشلت؛ ذلك أنني شديدة الإعجاب بك ولا أرغب أن أكون سببًا في تعاستك».

سألتها: «ولكن، لماذا ادعيتِ أنكِ شديدة الغيرة من لانا الجاثولية؟».

قالت: «حتى يبدو حبي لك حقيقيًّا».

«لقد أزلتِ عن ضميري ثِقلاً مهولاً، روجاس. أتمنى أن يعجبكِ المكان هنا، وأن تكوني سعيدة».

قالت: «أحب ذلك؛ لأنني أحببت ديجاه ثوريس بالفعل، وقد طلبت مني البقاء هنا معها».

قلت: «أعرف الآن أنكِ ستكونين سعيدة هنا».

«أنا متأكدة من ذلك، جون كارتر - وقد رأيت بعض الرجال الذين يتمتعون بالوسامة بالفعل، وبالتأكيد ليسوا جميعًا متزوجين».

كانت الرحلة إلى جاثول خالية من الأحداث. تناولت كُرة إخفاء قبل مغادرة هيليوم بفترة قصيرة، وأصبحت خفيًّا تمامًا قبل أن أصل إلى جاثول.

رأيت مع اقترابي من المدينة جيش هين أبتول يحاصرها، وقد زاد حجم الجيش كثيراً عما كان عليه عندما هربت في دوسار. وجدتُ على الصف الذي سرقت منه السفينة ما يزيد على مائة طائرة إضافية على الأقل، من بينها العديد من سفن الحرب الكبيرة وبعض سفن نقل الجنود.

حلّق عدد من زوارق الدورية لمقابلتي. لم تحمل طائرتي أي ألوان، ولم أرد عندما وجهوا لي التحية. جاء زورقان بجانبي، وسمعت صيحات دهشتهم عندما اكتشفوا عدم وجود أحد على متن السفينة وعدم وجود طيّار عند لوحات التحكم.

أعتقد أنهم كانوا بالأحرى خائفين؛ فلم يحاول أحد أن يصعد على متن سفينتي، وسمحوا لي بالطيران دون تدخل.

هبطتُ إلى صف طائرات بانار، ووضعت طائرتي بجانب آخر سفينة في الصف. هبطت أيضًا إحدى زوارق الدورية، وسرعان ما احتشد الضباط والمحاربون حول سفينتي وعلامات الفضول مرسومة على وجوههم.

قلت بصوت عال: «الموت هو مَن يقود هذه السفينة، والموت هو مصير كل مَن يقترب منها أو يحاول الصعود على متنها».

توقف الرجال عندئذ، وتراجع معظمهم. نزلت من السفينة وتجولت حولي، مستهدفًا جمع ما يمكنني من المعلومات خلال أحاديث الضباط. على أن اهتمام هؤلاء الرجال كان منصبًّا على سفينتي بحيث لم أحصل على أي معلومات منهم؛ فابتعدتُ وتجولت عبر الصف وصولاً إلى سفينة القيادة وصعدت على متنها، مرورًا بالحارس أسفل السلم والمراقِب على سطحها. كان السير غير مرئي بين أفراد العدو غريبًا، وكل المطلوب هو تجنب التماس مع أي منهم، وبالتالي كنت في مأمن من الكشف عن وجودي.

توجهت إلى مقصورة قائد الأسطول. كان جالسًا مع العديد من كبار الضباط، ويعطيهم التعليمات.

كان يقول: «بمجرد وصول هين أبتول من بانكور، سوف نأخذ عدة آلاف من الرجال المزودين بمحركات التوازن ليهبطوا في المدينة مباشرة. وبعد ذلك، ومع اتخاذ جاثول كقاعدة، سوف نتحرك إلى هيليوم ومعنا مليون رجل».

سأل أحد الضباط: «متى سيصل هين أبتول؟».

أجاب القائد: «الليلة أو صباح الغد. سوف يأتي مع أسطول كبير».

حسنًا، أخيراً عرفت شيئًا، ووضعت خططي على الفور. تركت سفينة القيادة وعُدت إلى طائرتي، التي كان يفحصها عدد كبير من الضباط والرجال، وإنما من مسافة آمنة.

وجدت صعوبة في المرور بين الضباط دون لمس أي منهم، لكني نجحت أخيراً، وسرعان ما وقفت أمام لوحات التحكم.

وعندما ارتفعت الطائرة من الأرض دون توجيه من أي شخص، كما بدا لهم، تبعتها صيحات الرهبة والدهشة. سمعت رجلاً يصيح: «إنه الموت؛ الموت عند لوحات التحكم».

طرت منخفضًا فوقهم. صحت: «نعم، إنه الموت عند لوحات التحكم؛ الموت الذي جاء ليأخذ كل مَن يهاجم جاثول»، ثم ارتفعت عاليًا بسرعة مع تحويل مقدمة سفينتي نحو بانكور.

ابتعدت بمسافة كافية عن جاثول حتى لا تراني قوات هين أبتول، ثم طرت في دوائر واسعة وعلى ارتفاعات كبيرة انتظارًا لأسطول هين أبتول.

وأخيرًا رأيت -بعد فترة طويلة- أسطوله على بُعد. كان معه الرجل الذي يستطيع -مع هذا العدد الهائل من مُجنديه- أن يستولي بالتأكيد على جاثول ويسلبها، دون أن يتمكن أحد من إيقافه.

حددت فورًا موقع سفينة القيادة في أسطول هين أبتول، وانخفضت إلى جانبها. لم تثر طائرتي الصغيرة أي إنذار؛ لأنها بلا حول ولا قوة وسط هذا الأسطول الكبير. ولكن عندما رأى الرجال على متن سفينة القيادة أن الطائرة تُحلق دون سيطرة بشرية، انطلق فضولهم بلا حدود وتزاحموا عند الدرابزين لإلقاء نظرة أفضل.

حلقت بسفينتي مقتربًا أكثر فأكثر. تمكنت من رؤية هين أبتول على الجسر مع عدد من الضباط، ورأيت مدى اندهاشهم، مثلهم مثل المحاربين على السطح.

كان هين أبتول يميل على الدرابزين لإلقاء نظرة أفضل نحوي؛ تحركت مقتربًا، ولمس جانب طائرتي الجسر بخفة.

نظر هين أبتول مُحدقًا إلى سطح سفينة وإلى الغرفة الصغيرة التي تضم لوحات التحكم. قال: «لا يوجد أحد على متن هذه السفينة. يبدو أن شخصًا ما اكتشف وسيلة للتحليق عن طريق التحكم من بُعد».

قمت بتثبيت عجلة القيادة بإحكام كنت في مواجهة الجسر، ثم قفزت إلى سطح سفينة هين أبتول وأمسكته من عتاده، ثم سحبته عبر الدرابزين إلى سطح طائرتي. وبعد لحظة كنت أقف أمام لوحات التحكم وهين أبتول لا يزال في قبضتي. وجهت مقدمة طائرتي إلى أسفل، وحلّقت تحت سفينة القيادة بكامل سرعتي.

سمعت صيحات الدهشة مختلطة بصرخات الغضب والخوف.

طارت بعض السفن الصغيرة ورائي؛ لكنني كنت أعرف أنهم لا يستطيعون اللحاق بي، ولن يجرؤ أي منهم على إطلاق النار خشية قتل هين أبتول.

كان هين أبتول يرتجف بجانبي، يكاد الرعب أن يصيبه بالشلل. وأخيراً قال متلعثمًا: «مَن أنت؟ وماذا ستفعل معي؟».

لم أرد، مُعتقدًا أن هذا سيزيد من خوفه؛ وهذا ما حدث؛ لأنه بعد فترة توسل لي أن أتكلم.

طرنا عاليًا فوق جاثول، التي أصبحت الآن آمنة من الهجوم. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، رأيت أسطولاً كبيراً يأتي من الجنوب الشرقي- كان أسطول هيليوم الذي أحضره تاردوس مورس لإنقاذ جاثول.

ومع اقترابي من الأسطول، بدأ أثر كُرة الإخفاء يتقلص بسرعة، وتجسدتُ أمام أعين هين أبتول المذهولة.

سألني: «مَن أنت؟ ما أنت؟».

أجبت: «أنا الرجل الذي سرقت أنت طائرته في هورز. وأنا الرجل الذي

استعادها أمامك في بانكور ومعه لانا الجاثولية – أنا جون كارتر، أمير هيليوم؛ هل سمعت عني من قبل؟».

عندما زاد اقترابي من الأسطول، أطلقت ألواني وشارتي -شارة أمير هيليوم- فارتفع هتاف هائل من سطح جميع السفن التي تعرفه ألواني وشارتي.

أما ما حدث بعد ذلك، فقد أصبح من التاريخ الآن- كيف دمر أسطول هيليوم العظيم أسطول هين أبتول، وكيف هزم جيش هيليوم القوات التي حاصرت جاثول لفترة طويلة.

وعندما انتهت هذه الحرب الوجيزة، حررنا ما يقرب من مليون رجل من الرجال المُجمدين في بانار؛ ثم عُدت إلى هيليوم وديجاه ثوريس، التي أتمنى ألا أنفصل عنها ثانية.

أحضرت معي جاد-هان وبان دان تشي، اللذين وجدناهما بين سجناء بانكور. وعلى الرغم من عدم وجودي في اللقاء الذي جمع بين بان دان تشي ولانا الجاثولية، فقد

أكدت لي ديجاه ثوريس أن المخاطر والتقلبات التي عانى منها بان دان تشي لحبه للجاثولية الجميلة لم تكن دون جدوى.

* * *

انتهى الكتاب العاشر:

لانا من جاثول

جون كارتر من المريخ

ادجار رايس بوروز

ترجمة شهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

تنويه:

هذا هو الكتاب الحادي عشر والأخير من سلسلة المريخ للكاتب المُبدع إدجار رايس بوروز.

ويضم الكتاب روايتين قصيرتين:

- جون كارتر وعملاق المريخ - John Carter and the Giant of Mars، نُشرت في يناير 1941 في Amazing Stories magazine.
- رجال الهياكل العظمية في كوكب المُشترى - Skeleton Men of Jupiter ، نُشرت في يوليو عام 1943 في Amazing Stories magazine.

وصدرت الروايتان في مجلد واحد يوليو 1964، من دار نشر Canaveral Press.

* * *

الرواية الأولى

جون كارتر وعملاق المريخ

الفصل (1)

الاختطاف

نظر قمرا المريخ إلى أسفل، إلى حيوان الثوات[367] المريخي العملاق وهو يركض بصمت على الأرض الطحلبية الناعمة. حَمَلت ثماني أرجل قوية هذا المخلوق في خطوات كبيرة قافزة.

تحرك الوحش الجبار في مساره، حيث كان يوجهه تخاطريًّا شخصان يجلسان فوق سرج ضخم مربوط على ظهره العريض.

اعتادت ديجاه ثوريس[368] ، أميرة هيليوم[369] ، أن تمتطي الثوات أسبوعيًّا لتتفقد جزءًا من مملكة جَدها الزراعية والصناعية الشاسعة.

تمر رحلتها في الأراضي الزراعية خلال الغابة الوحيدة في هيليوم؛ حيث تنمو الأشجار الضخمة التي توفر الكثير من إمدادات الخشب إلى بلدان المريخ المتحضرة.

كان الفجر يصعد إلى سماء المريخ الشرقية، ولا تزال الغابة مظلمة ورطبة بندى المساء. أشعر ظلام الغابة ديجاه ثوريس بالامتنان لوجود رفيقها الذي يركب أمامها على السرج. استقرت يداها على كتفيه البرونزيتين العريضتين، ومنحها ملمس عضلاته الملساء المرنة شعورًا بالثقة. كان يضع إحدى يديه على المقبض المرصع بالجواهر لسيفه الطويل الكبير، ويجلس على السرج مستقيمًا؛ إنه أقوى محارب على المريخ.

أدار جون كارتر[370] بصره نحو وجه أميرته الجميل.

---

(367) الثوات: حيوان مريخي يبلغ ارتفاعه عشر أقدام، ولديه أربع أرجل على كل جانب، وذيله عريض مُسطح وحجمه عند الطرف أكبر منه عند المنبت، ويمتد مباشرة خلفه عندما يجري؛ وفمه مفتوح يقسم رأسه من أنفه إلى عنقه الطويل الضخم. وهو خال تمامًا من الشَّعر، ولون بشرته هو الرمادي الذي تشوبه الزُّرقة. أما بطنه فلونه أبيض، ويتدرج لون سيقانه بظلال من لون الكتفين فالوركين وصولاً إلى اللون الأصفر الزاهي عند أقدامه. والأقدام نفسها شديدة الامتلاء وبلا أظافر، مما يسهم أيضًا في تحركه دون ضوضاء؛ وهو الأمر الذي يُشكل، بالإضافة إلى تعدد سيقانه، سمة مميزة لحيوانات المريخ – http://barsoom.wikia.com/wiki/Thoat - المترجمة.

(368) ديجاه ثوريس: أميرة مملكة هيليوم، وهي زوجة جون كارتر (القادم من كوكب الأرض - (- http://barsoom.wikia.com/wiki/Dejah_Thorisالمترجمة.

(369) هيليوم: إحدى الممالك الكبرى في برسوم/المريخ، وهي تضم مدينتين توأمًا رئيستين: هيليوم الكبرى وهيليوم الصغرى، وهما معًا بمثابة عاصمة المملكة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Helium - المترجمة.

(370) جون كارتر: من فرجينيا، وهو أول رجل من كوكب الأرض يصل إلى المريخ، وأصبح أحد أعظم أمراء الحرب في تاريخ المريخ - - https://barsoom.fandom.com/wiki/John_Carterالمترجمة.

سألها: «هل أنتِ خائفة، يا ديجاه ثوريس؟».

ابتسمت ديجاه ثوريس قائلة: «لا أخاف على الإطلاق وأنا مع قائدي».

- وماذا عن وحوش الغابة، وزواحف الأربوك[371] ؟

- لقد قضى جَدي عليها جميعًا. كما قتل حارسي، في الرحلة الأخيرة، آخر أحد زواحف الأشجار الوحيدة التي رأيتها في حياتي.

وفجأة لهثت ديجاه ثوريس، وتشبثت دون جدوى بجون كارتر لاستعادة توازنها؛ فقد ترنح الثوات الجبار بقوة وسقط على الأرض الطحلبية. قفز الراكبان فوق رأسه، ووقفا على قدميهما في لحظة. لكن الثوات ظل بلا حراك.

سحب كارتر سيفه الطويل من غمده، وأشار إلى ديجاه ثوريس أن تبقى خلفه.

تحطم صمت الغابة فجأة بسبب زئير غريب فوقهم مباشرة.

صرخت ديجاه ثوريس: «الأربوك!».

انطلق ساكن الشجرة الزاحف مباشرة نحو المخلوقين البشريين. رفع كارتر سيفه وهو يهزه بسرعة إلى جانب واحد، مما لفت انتباه الوحش بعيدًا عن ديجاه ثوريس التي جثمت وراء الثوات الساقط على الأرض.

نفذت أول طعنة وجَّهها رجل كوكب الأرض إلى شريحة من جلد الوحش الخارجي دون ضرر. لكن مخلبًا ضخمًا أفقد كارتر توازنه، ووجد نفسه ملقى على الأرض وأنياب هائلة تمسك بحلقه.

صاح بصوت أجشّ: «ديجاه ثوريس، أحضري البندقية الذرية المُعلقة على ظهر الثوات»، لكن الفتاة لم ترد.

استجمع كارتر كل قوته الهائلة ودفع بسيفه إلى رقبة الأربوك. ارتجف المخلوق، وتدفق من الجرح تيار من الدماء. تملص الرجل من أسفل الجثة ووقف على قدميه.

- ديجاه ثوريس! ديجاه ثوريس!

---

(371) أربوك: هو نوع من الزواحف التي تعيش في الأشجار، وموطنها غابات هيليوم. ولهذه الزواحف مخالب وأنياب، ويمتلئ جلدها بالقرون - https://barsoom.fandom.com/wiki/Arbok - المترجمة.

بحث كارتر باضطراب، الأرض والأشجار المحيطة بالثوات الميت والأربوك المقتول، ولم يجد أي أثر لديجاه ثوريس. لقد اختفت تمامًا.

لمع شعاع من ضوء الشمس المشرقة خلال أوراق الشجر على شيء عند قدمي رجل كوكب الأرض. التقط كارتر قذيفة كبيرة، انطلقت منذ فترة وجيزة من بندقية ذرية صامتة.

ذهب إلى الثوات الميت، وفحص أغطية السرج. وجد أن البندقية الذرية التي طلب من ديجاه ثوريس إطلاق نيرانها لا تزال داخل غطائها الجلدي!

انحنى رجل كوكب الأرض بجانب رأس الثوات الميت، ورأى ثقبًا دمويًّا صغيراً في جمجمته. لقد كانت تلك الطلقة، فضلاً عن هجوم الأربوك، جزءًا من خطة مدروسة لقتله واختطاف ديجاه ثوريس.

ولكن كيف اختفت ديجاه ثوريس تمامًا بهذه السرعة؟

بدا كارتر متجهمًا في رحلة العودة من الغابة، في اتجاه هيليوم.

وعند الظهيرة، كان رجل كوكب الأرض يجلس في قاعة خاصة مع تاردوس مورس، جيداك[372] هيليوم وجَد ديجاه ثوريس.

كان الجيداك العجوز قلقًا. ودفع قطعة جلدية خشنة في يد جون كارتر، منقوش عليها كتابة وقحة وفظة، استشاط كارتر غضبًا عندما قرأها:

«أنا، بيو موجل، أقوى حاكم على المريخ، قررت تولي زمام صناعة الحديد في هيليوم. فالحديد سوف يزودني بكل السفن التي أحتاجها لحماية هيليوم ومدن برسوم[373] الأخرى من أي غزو. وإذا لم تقم بإجلاء جميع العاملين لديك من مناجم ومصانع الحديد خلال ثلاثة أيام، سوف أبدأ في إرسال أصابع أميرة هيليوم الملَكية. أسرع؛ لأنني قد أقرر إرسال لسانها، الذي يتفوه كثيراً باسم جون كارتر. تذكر، يجب أن تطيع بيو موجل؛ لأنه يتمتع بقوة كلية».

غرز تاردوس مورس أظافره في راحة يديه، وقال: «مَن هذا المغرور الذي يطلق على نفسه أقوى حاكم في المريخ؟».

---

(372) جيداك: ما يعادل الإمبراطور – http://barsoom.wikia.com/wiki/Special:Search?query=Jeddak - المترجمة.

(373) برسوم: كوكب يسميه أهل كوكب الأرض بالمريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Barsoom - المترجمة.

نظر كارتر بعناية إلى الرسالة.

وقال: «لا بد أن لديه جواسيس هنا. كان بيو موجل يعرف أنني سأغادر هذا الصباح مع ديجاه ثوريس في جولة تفقدية».

قال تاردوس مورس متذمرًا: «لا بد أن هناك جاسوسًا؛ فقد وجدت هذه الرسالة مُعلقة على ستائر قاعتي الخاصة. ولكن، ماذا يمكننا أن نفعل؟ ديجاه ثوريس هي الشيء الوحيد الباقي الذي أحبه في هذه الحياة ...»، وهنا تقطَّع صوته.

- هيليوم كلها تحبها، يا تاردوس مورس، وسنموت جميعًا قبل أن نعود إليك من دونها.

سار كارتر إلى شاشة تعمل باللمس، وضغط على زر.

تحدث بسرعة مع وصيف: «استدع كانتوس كان[374] وتارس تاركاس[375]، وقل لهما أن يأتيا إلى هنا في الحال».

وبعد فترة وجيزة، كان المحارب الأخضر الضخم والرجل الأحمر النحيل في القاعة.

أمسك الثاركي الأخضر تارس تاركاس سيفه الضخم بيديه الأربع القوية وقال: «من حسن الحظ يا جون كارتر، أنني هنا في هيليوم في زيارتي الأسبوعية من السهول». وكان جسمه الضخم العملاق ينحني بمهابة فوق الآخرين في القاعة.

وضع كانتوس كان يده على كتف جون كارتر.

وقال الصديق النبيل: «كنت في طريقي إلى القصر عندما تلقيت استدعاءك. لقد انتشر في هيليوم بالفعل خبر اختطاف أميرتنا، وجئت على الفور لأقدم لك سيفي وقلبي».

قال تارس تاركاس: «لم يسبق لي أن سمعت عن هذا المُسمى بيو موجل، هل هو رجل أخضر؟».

---

(374) كانتوس كان: مريخي أحمر البشرة، برتبة جدوار في بحرية هيليوم – وهي أعلى رتبة عسكرية في برسوم - ومن أفضل أصدقاء جون كارتر - https://barsoom.fandom.com/wiki/Kantos_Kan - المترجمة.

(375) تارس تاركاس: مريخي أخضر البشرة، وقائد جماعة ثارك، من المريخيين الخُضر، وحليف جون كارتر - https://barsoom.fandom.com/wiki/Tars_Tarkas - المترجمة.

أجاب تاردوس مورس متذمرًا: «إنه على الأرجح مجرم حقير خارج عن القانون، أو مجرم يتسم بغرور مفرط».

رفع كارتر عينيه عن رسالة الفدية.

وقال: «لا، يا تاردوس مورس، أعتقد أنه أكثر شراسة مما تتخيل. وهو ذكي أيضًا. ولا بد أن لديه سفينة فضائية ذات مُحرك صامت، بحيث أمكنه اختطاف ديجاه ثوريس والابتعاد بها بسرعة - أو ربما لديه بعض الطيور الضخمة! إن رجلاً شديد القوة، على استعداد لدعم تهديداته، هو فقط مَن يمكنه اختطاف أميرة هيليوم، بل ويأمل أيضًا في السيطرة على الأشغال الحديدية الهائلة».

«وربما توجد لديه موارد ضخمة. غير أنه من المشكوك فيه أن لديه أي نية لإعادة الأميرة، وإلا كان سيدرج المزيد من التفاصيل في رسالة الفدية».

وفجأةً ضاقت عينا رجل كوكب الأرض الثاقبة؛ فقد تحرك ظل في الغرفة المجاورة.

وبقفزة قوية وصل كارتر إلى المدخل المقوس. وذابت شخصية خفية في الممر شبه المظلم، وكارتر وراءه عن قرب.

توقف الغريب عندما أدرك أن الهروب مستحيل، وركع على ركبة واحدة مع توجيه بندقية الأشعة نحو رأس رجل كوكب الأرض المُقترِب. شاهد كارتر إصبع الغريب يتحول إلى اللون الأبيض وهو يضغط على الزناد.

«كارتر!»، صاح كانتوس كان، «ألق بنفسك على الأرض».

انخفض كارتر بسرعة الضوء منبطحًا على الأرض. انطلق نصل طويل مُحدِثًا أزيزًا فوق رأسه، ودفن نفسه حتى غمده في قلب الرجل الغريب.

تمتم جون كارتر وهو يقف على قدميه: «إنه أحد جواسيس بيو موجل.

شكرًا لك يا كانتوس كان».

فتش كانتوس كان الجثة، لكنه لم يجد أي دليل على هوية الرجل.

جلس الرجال ثانية في القاعة لمواصلة العمل بحزم صارم.

كانوا ينحنون فوق خريطة ضخمة لبرسوم، عندما تحدث كارتر:

- لقد أصبحت المدن التي تمتد لأميال حول هيليوم مدنًا صديقة الآن. كانوا سيحذروننا من بيو موجل إذا عرفوا عنه أي شيء. ربما استولى على إحدى المدن المهجورة في قاع البحر الميت، التي تقع شرق هيليوم أو غربها. وهذا يعني أن علينا البحث في آلاف الأميال، لكننا سنبحث في كل ميل.

جلس كارتر على طاولة، وشرح خطته:

- تارس تاركاس، اتجه شرقًا واتصل بزعماء جميع قبائلك. وسأغطي الغرب بسفن الاستطلاع الفضائي. أما كَانتوس كان، فسوف يظل في هيليوم كمسؤول اتصال. كُن جاهزًا ليلاً ونهارًا بالسلاح الجوي بأكمله. ومَن يكتشف مكان ديجاه ثوريس أولاً، عليه إبلاغ موقعه إلى كانتوس كان بطبيعة الحال؛ إذ يمكننا التواصل مع بعضنا من خلال كانتوس كان فقط. وسيكون طول الموجة ثابتًا وسريًّا، 2000 كيلو سيكل.

نظر تاردوس مورس إلى رجل كوكب الأرض.

قال: «كل موارد مملكتي تحت أمرك يا جون كارتر».

أجاب جون كارتر: «سنغادر في الحال يا صاحب الجلالة. وسوف نجد ديجاه ثوريس، إذا كانت في قيد الحياة على برسوم».

* * *

الفصل (2)

البحث

وفي غضون ثلاث ساعات، كان جون كارتر يقف على سطح المطار الملكي لإعطاء تعليمات اللحظة الأخيرة لأسطول يضم 24 طائرة استطلاع سريعة تسع كل منها رجلًا واحدًا.

«على كل منكم تغطية جميع الأراضي في منطقته بدقة. وإذا اكتشفتم أي شيء، لا تحاولوا التعامل معه بأنفسكم؛ بل عليكم إبلاغ كانتوس كان على الفور» نظر كارتر بعناية إلى الوجوه المتجهمة أمامه، وعرف أنهم سوف يطيعونه.

استدار كارتر وهو يشير بإبهامه من فوق كتفه نحو السفن قائلاً: «لنتحرك».

تفرق الرجال، وسرعان ما كانت طائراتهم تسرع مبتعدة عن هيليوم.

ظل كارتر على السطح لفترة كافية لتدقيق الاتصال مع كانتوس كان. قام بتعديل سماعات الأذن حول رأسه، ثم ضبط المؤشر عند 2000 كيلو سيكل. وعلى الفور، بدأت تأتي نقاط وشرطات رد كانتوس كان.

- إشارتك تأتي بشكل مثالي. يغادر تارس تاركاس المدينة الآن. ويحشد الأسطول الجوي قواه. والقوات الجوية بأكملها على أهبة الاستعداد لمساعدتك. انتهى بث كانتوس كان.

هبط الليل وكارتر يبحر على مسافة حوالي 500 ميل من هيليوم. كان شديد الإرهاق، ولم تثمر عمليات البحث في العديد من المدن والقنوات المُدَمَّرة عن شيء. أثار انتباهه ثانية أزيز السماعة الصغيرة.

- يبدأ بث كانتوس كان. نظّم تارس تاركاس عملية بحث برية كاملة، امتدت من الشرق إلى الجنوب. لم يرد بث من طائرات الاستطلاع الجوي الأخرى من الغرب إلى الجنوب. سوف نبلغك بأي أخبار قد تصل. نحن في انتظار الأوامر، وعلى أهبة الاستعداد. انتهى البث.

- لا توجد أوامر. لا توجد أخبار. انتهى بث كارتر.

ترك كارتر ضجرًا السفينة تنجرف. ما من حاجة للنظر إلى أن يظهر القمران. وسقط رجل كوكب الأرض في نوم متقطع.

عاد البث عند منتصف الليل، مما أيقظ كارتر. يبث كانتوس كان مجددًا، وبحماس.

«تارس تاركاس وجد ديجاه ثوريس. وهي محتجزة في مدينة مهجورة على ضفاف البحر الميت في كورفاس». أعطى كانتوس كان خطَّي العرض والطول للموقع بدقة.

- تعليمات جديدة من تاركس تاركاس؛ يطلب أكبر قدر من السرية في تحركاتك. سيكون عند الجسر الرئيس المؤدي إلى المدينة. انتهى بث كانتوس كان. هيا، يا جون كارتر.

انتهى بث جون كارتر مع كانتوس كان، وحثه على البقاء دائمًا على أهبة الاستعداد بأسطول هيليوم الجوي. قام الآن بضبط البوصلة الدوّارة – وهي جهاز يُوجهُه تلقائيًّا إلى وجهته.

وبعد عدة ساعات، كان رجل كوكب الأرض يحلق فوق مجموعة منخفضة من التلال ورأى أسفله مدينة قديمة على ضفاف البحر الميت. دار بطائرته وهبط عند الجسر، حيث تقضي التعليمات بمقابلة تارس تاركاس. امتلأ أخدود جاف أسفله بظلال سوداء طويلة.

خرج كارتر من طائرته، شق طريقه، متتبعًا الظلال، إلى الأنقاض الشاهقة في المدينة. كانت هادئة جدًّا، لدرجة أن خفاشًا وحيدًا يحلق بسرعة خارجًا من برج بدا كأنه سفينة تسقط.

أين تارس تاركاس؟ يجب أن يظهر الرجل الأخضر عند الجسر.

سار كارتر من مدخل المدينة إلى الظل الأسود لسورها وانتظر. ما من صوت يكسر سكون الليل الهادئ. المدينة مثل القبر. يدور قمرا المريخ السريعان، ديموس وفوبوس، عبر السماء.

توقف كارتر عن التنفس كي ينصت. تناهى إلى أذنيه الحادتين صوت خافت لخطوات – خطوات غريبة مختلطة تقترب.

شيء ما كان قادمًا على طول السور. توتر رجل كوكب الأرض، واستعد للقفز إلى سفينته. يمكنه الآن سماع خطوات أخرى حوله. هناك شيء داخل الأنقاض يتحرك خلال الصخور المتساقطة.

ثم سقط جسم ثقيل هائل على جون كارتر من أعلى السور. أحرق تنفسٌ حارٌّ وكريه الرائحة رقبته، وخنقته أذرع ضخمة وفظة التفت حوله بشراسة.

ألقى به الشيء على الأرض المغطاة بالزلط الخشن. أمسكت أيد ضخمة بحلقِه. أدار كارتر رأسه، ورأى فوقه وجه قرد أبيض هائل.

كان ثلاثة من زملاء المخلوق يحومون حول كارتر، ويسعون جاهدين إلى ربط قدميه بالحبال؛ بينما خنقه الآخر بأياديه الأربع الجبارة إلى حد أفقده الشعور.

شقت أقدام كارتر طريقها متلوية تحت بطن القرد الذي يصارعه. أرسلت دفعة جبارة المخلوق إلى الهواء ليسقط، وهو يئن وعاجز، على الأرض.

نهض كارتر على قدميه، مثل بانث[376] مُحاصَر، جاثمًا على السور وممتشقًا سيفه، في انتظار الثلاثي المُهاجِم.

وحيوانات البانث هي وحوش جبارة، بطول ثماني أقدام بالكامل، وشعر أبيض طويل يغطي أجسادهم الهائلة. ويوجد لدى كل حيوان أربع أذرع عضلية تنتهي بأيدٍ هائلة مُسلحة بمخالب ملتوية وحادة. كانوا يكشفون عن أنيابهم ويهدرون بشراسة وهم يقتربون من رجل كوكب الأرض.

ربض كارتر منخفضًا؛ وعندما انطلقت الوحوش، حملته عضلاته المنتمية إلى كوكب الأرض في قفزة عالية في الهواء فوق رؤوسهم. طعن كارتر بسيفه الثقيل، مدعومًا بكل قوة عضلاته، رأس أحد القرود؛ فانشقت جمجمته مفتوحة على مصراعيها.

ضرب كارتر الأرض بقدمه، واستدار على أهبة الاستعداد عندما هاجمه ثانية القردان المتبقيان. صدرت صرخة بشعة مخيفة؛ حيث غرق سيف كارتر هذه المرة في عمق قلب الوحش.

أخرج رجل كوكب الأرض سيفه من جسد الوحش، الذي سقط على الأرض.

---

(376) البانث: أسد المريخ الضخم ذو الثماني أرجل – محرر الطبعة الإنجليزية.

استدار الآن الوحش الأخير وتراجع خائفًا، وكانت عيناه تلمعان وهو ينظر نحو كارتر في الظلام، ثم هرب في ممر طويل بالمبنى المجاور. كاد رجل كوكب الأرض أن يُقسِم أنه سمع اسمه يصدر من حنجرة القرد، مختلطًا بهديره الغاضب، أثناء فراره.

وما إن استعاد كارتر سيفه، حتى شعر بهواء يندفع فوق رأسه. يقترب منه شيء، على شكل حركة ضبابية.

شعر الآن بأن شيئًا أمسكه من خصره، ثم ألقاه خمسين قدمًا في الهواء. وعلى الرغم من أن كارتر كان يكافح ليتنفس، فقد تمكن من الإمساك بالشيء الذي يطوق جسده. وجد جلده مليئًا بالقرون مثل جلد الأربوك؛ وشعره طويلاً مثل جذور الشجر، ويخرج من القشور ذات القرون.

لقد كانت يدًا عملاقة!

* * *

الفصل (3)

جووج العملاق

وجد جون كارتر نفسه ينظر إلى وجه وحشي.

بلغ طول رأسه خمس عشرة قدمًا بالكامل، من قمة الرأس الأشعث إلى أسفل الذقن المُشعِر.

لقد ظهر وحش جديد في الحياة على سطح المريخ. ومقارنة بالمباني المجاورة، لا بد أن طول المخلوق يبلغ مائة وثلاثين قدمًا!

رفع العملاق كارتر عاليًا فوق رأسه وهزه؛ ثم دفع وجهه إلى الخلف. هدرت ضحكات بشعة جوفاء من شفتيه المتدليتين، وكشفت عن أسنان تشبه الصخور الجبلية الصغيرة.

كان يرتدي سترة فضفاضة، ذات حجم غير مناسب، تتدلى في طيات فضفاضة مهلهلة على وركيه، بينما تتيح لذراعيه وساقيه حرية الحركة.

ضرب بيده الأخرى صدره الجبار.

وظل يردد، وهو يواصل الضحك وهز ضحيته العاجزة: «أنا جووج. أنا جووج. يمكنني أن أقتل! يمكنني أن أقتل!».

بدأ جووج العملاق يسير. تحرك بعناية على طول الشوارع القاحلة، وكان يدور أحيانًا حول أي مبنى شاهق الارتفاع، يحول ارتفاعه دون أن يخطو فوقه.

توقف أخيراً أمام قصر مُتهدم جزئيًا. لم تتمكن ويلات الزمن سوى من تخفيف جماله. زحفت كتل ضخمة من الطحالب والكرمات خلال البناء، وأخفت الجدران المُحطَّمة. ألقى جووج العملاق جون كارتر، بدفعة مفاجئة، داخل نافذة عالية في برج القصر.

استرخى كارتر تمامًا عندما شعر بقبضة العملاق تتركه. ضرب الأرض الحجرية وهو يدور دورة طويلة، حاميًا رأسه بذراعيه. أخذ رجل كوكب الأرض ينصت جيدًا وهو يستعيد أنفاسه، بينما يرقد في الظلام العميق للمكان الذي سقط فيه.

لم يتناهَ إلى سمعه أي صوت لبعض الوقت. ثم بدأ يسمع تنفس جووج الكثيف خارج نافذته. ومرة أخرى استجابت عضلات كارتر، المنتمية لكوكب الأرض، إلى جاذبية المريخ الأقل، وحملته قفزاً لمسافة عشرين قدمًا إلى عتبة النافذة الضيقة. وهنا التصق بالنافذة ونظر ثانية إلى وجه العملاق البشع المُشْعِر.

كان العملاق يتمتم: «أنا جووج. أنا جووج. يمكنني أن أقتل! يمكنني أن أقتل!». اجتاحت أنفاس العملاق وجه كارتر مثل انفجار فرن كبريتي. لا يوجد مهرب من تلك النافذة!

هبط كارتر ثانية إلى أرضية زنزانته. وبدأ يتجول ببطء في الغرفة، متلمسًا طريقه على طول ألواح الإرسايت[377] المصقولة التي تُشكل الجدار. كانت الأرضية مرصوفة بالزلط المليء بالحطام. سمع كارتر هسهسة شريرة لعنكبوت مريخي يفرد شبكته.

لا توجد طريقة يعرف بها كم مضى من الوقت وهو يتلمس طريقه حول الجدران. بدت كأنها ساعات؛ ثم تحطم الصمت المميت فجأةً، من جراء صرخة امرأة في مكان ما في المبنى.

شعر جون كارتر بقشعريرة باردة تسري في جسمه. هل هذا هو صوت ديجاه ثوريس؟

قفز جون كارتر مرة أخرى نحو الضوء الخافت الذي يحدد حافة النافذة. نظر إلى الأسفل بحذر. رأى جووج يرقد على البلاط أدناه، ويتنفس كما لو كان نائمًا. يرتفع صدره الكبير خمس أقدام مع كل نفس.

بدأ يتقدم بهدوء تدريجيًا على الحافة التي تمتد على طول النافذة وتختفي في ظل برج مجاور. آه لو بإمكانه الوصول إلى هذا الظل دون

إيقاظ جووج!

كاد أن يصل إلى هدفه، عندما زأر جووج بصوت أجش.

فتح عينًا كبيرة الآن ونظر إلى أعلى، ثم أمسك بكارتر من ساقه وألقى به ثانية إلى نافذة البرج.

---

(377) حجر الإرسايت: نوع من الحجر، جميل وملون، شائع في المريخ، ويستخدم في المباني والأثاث - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ersite - المترجمة.

زحف كارتر مرهَقًا إلى جدار زنزانته المظلمة، ومال عليه. طاردت تلك الصرخة ذاكرته؛ فقد كانت تعذبه فكرة وجود ديجاه ثوريس في خطر.

وأين تارس تاركاس؟ لا بد أن بيو موجل قبض عليه أيضًا. نهض كارتر فجأةً على قدميه.

تحرك أحد ألواح الإرسايت خلف ظهره! انتظر، ولم يخرج منه أي كائن. اقترب من اللوح الحجري بحذر ودفعه بقدمه. تحرك اللوح قليلاً إلى الداخل. دفع كارتر الحجر الآن بكل قوته الهائلة. ظل يحركه بوصة بوصة إلى أن أوجد أخيراً مساحة يمكنه ضغط جسمه والمرور خلالها.

لا يزال الظلام دامسًا، لكن أصابعه التي تتحسس الجدار كشفت أنه في ممر بين جدارين. ربما هذا هو طريق خروجه من سجنه!

أعاد الحجر بعناية إلى موقعه، دون ترك أي أثر لاختفائه من الغرفة. كان الممر الذي وجد نفسه فيه شديد الانخفاض، لدرجة أنه اضطر إلى الزحف على يديه وركبتيه. كما كانت رائحة الممر المنخفض كريهة، كما لو أنه لم يُستخدَم منذ فترة طويلة.

زاد انحدار النفق تدريجيًّا إلى أسفل. وتفرعت من النفق الرئيس العديد من الممرات الجانبية الصغيرة. لا يوجد ضوء، ولا ضوضاء. بدأت فقط رائحة نفاذة ثقيلة الوطأة تملأ الهواء.

بدأ يظهر الآن ضوء خافت. أدرك رجل كوكب الأرض أنه لا بد في كهوف تحت القصر، وأن سبب الضوء الخافت يرجع إلى توهج الراديوم الفوسفوري الذي يُستخدم في جميع أنحاء المريخ للإشعاع.

وفجأةً، اكتشف رجل كوكب الأرض مصدر هذا الضوء الخافت. كان يلمع خلال شق في الجدار أمامه. دفع جون كارتر جانبًا حجرًا فضفاضًا آخر، وزحف إلى غرفة. سحب أنفاسه بحدة.

شاهد في مواجهته محاربًا يمتشق سيفه، وكان رأس السيف بالكاد ما يلامس صدر رجل كوكب الأرض!

قفز جون كارتر بسرعة البرق، وسحب سيفه، وضرب سلاح الشخص الآخر.

سقطت ذراع الرجل الأحمر من جسده إلى الأرض، وذابت متحولة إلى تراب. وقع السيف القديم مصلصلاً على الأرض.

أدرك كارتر الآن أن المحارب كان يميل على الجدار، متوازنًا على نحو غير مستقر لعصور. امتدت ذراعه الممسكة بالسيف أمامه، حيث تصلّب ميتًا منذ فترة طويلة. أدى سقوط الذراع إلى افتقاد الجسم للتوازن؛ فسقط على الأرض، وذاب في كومة من التراب تشبه الرماد!

ضمت غرفة مجاورة عددًا من النساء والفتيات الجميلات، المقُيدات معًا بسلاسل في أطواق من الذهب حول أعناقهنّ. جلسن على طاولة يأكلن، ولا يزال الطعام أمامهن. لقد كُن سجينات؛ إماء لحكام المدينة التي ماتت منذ زمن طويل. وقد حافظ الهواء الجاف الساكن، إضافة إلى بعض الإفرازات الغازية من الجدران والزنازين، على جمالهن عبر العصور.

سار رجل كوكب الأرض مسافة قصيرة عند ركن عفن، وأدرك عندئذ وجود شيء يكشط خلفه. دار إلى ممر جانبي ونظر إلى الوراء. كانت أعين براقة تتجه نحوه، وتبعته وهو يتراجع إلى النفق.

تكرر الكشط ثانية، وإنما على بُعد هذه المرة أمامه في النفق. لمعت أعين أخرى أمامه.

ركض جون كارتر إلى الأمام، ورأس سيفه ممتد. تراجعت الأعين الأمامية، بينما بدأت الأعين التي تقع خلفه تُغلَق.

أصبح الظلام حالكًا الآن، لكن رجل كوكب الأرض كان يرى أمامه بصيصًا من ضوء باهت يتسرب إلى النفق.

ركض نحو الضوء. إن قتال أشياء يمكنك رؤيتها أسهل بكثير من التعثر في ممر مظلم.

دخل كارتر الغرفة، ووقف في الضوء الخافت وجهًا لوجه أمام المخلوق الذي رأى عينيه أمامه في النفق. كان نوعًا من الفئران المريخية الضخمة ذات ثلاث أرجل!

كشفت زمجرة شريرة عن أنيابه الصفراء البشعة، وهو يتراجع بطيئًا بعيدًا عن كارتر إلى الطرف البعيد من الغرفة الصغيرة.

جاء الجرذ الآخر خلفه الآن، وبدأ الوحشان معًا في إغلاق الطريق أمام رجل كوكب الأرض.

ابتسم كارتر بقتامة وهو يقبض على سيفه.

تمتم وهو يؤرجح سيفه أمام المخلوق الأقرب: «أنا الجرذ المحاصر الآن، كما يقول المَثل».

تجنب المخلوق الضربة، وهُرع نحوه.

بيد أن سيف رجل كوكب الأرض كان جاهزًا. اندفع الجرذ المُهاجِم بقوة نحو رأس السيف المُنتظِر.

حملت قوة دفع الوحش بكارتر إلى الخلف خمس أقدام؛ لكنه ظل محتفظًا بقبضته على سيفه، الذي اخترق رأسه كتف الحيوان ووصل إلى قلبه الوحشي.

عندما أخرج كارتر سيفه من جسد الوحش واستدار لمواجهة خصمه الآخر، أفلت من شفتيه تعبير عن الفزع.

كانت الغرفة نصف مليئة بالجرذان!

دخلت تلك المخلوقات من فتحة أخرى، وشكلت دائرة حوله، انتظارًا لتهاجمه.

قاتل كارتر بشراسة من أجل حياته لمدة نصف ساعة، في زنزانة معزولة تحت القصر في مدينة كورفاس القديمة.

تكدست جثث الفئران الميتة عاليًا حوله، لكن أعدادهم كانت في تزايد؛ ما أدى في نهاية المطاف إلى تغلبهم عليه.

سقط جون كارتر بضربة قوية على رأسه من ذيل يشبه الأفعى.

كان نصف مذهول، لكنه ظل متشبثًا بسيفه في عناد، عندما شعر بأذرع تمسك به وتجره نحو ظلام نفق مجاور.

* * *

الفصل (4)

مدينة الجرذان

تعافى جون كارتر تمامًا عندما جروه خلال بركة من المياه الموحلة. سمع الجرذان تشرب بشراهة، ورأى أعينها الخضراء تلمع في الظلام.

وصلت رائحة الأرض المحفورة حديثًا إلى أنفه، وأدرك أنه في جُحر بعيد تحت أقبية القصر.

أمسك بذراعيه العديد من الفئران على جانبيه ببراثنهم الأمامية وهم يجروه. كان وضعًا غير مريح على الإطلاق، وتساءل إلى متى تستمر الرحلة.

لم يطل انتظاره. وصل مع رفقته الغريبة أخيراً إلى كهف ضخم تحت الأرض.

يتسرب الضوء من الخارج خلال فتحات مختلفة في السقف أعلاه، وتنعكس أشعته على الآلاف من أعمدة الحجر الرملي الأحمر البراقة المتدلية في الكهوف. وترتفع الأعمدة الصاعدة الهائلة، والتشكيلات الرسوبية الضخمة ذات الأشكال الغريبة، من أرضية الكهف.

ومن بين هذه التشكيلات، هناك العديد من أكواخ الطين التي تتخذ هيئة القبة.

كان كارتر يُحدق، خلال جرِّه، في كوخ يقوم العديد من الجرذان ببنائه. كان إطاره يتكون من عصي بيضاء من أشكال مختلفة، تُلصَق بطين مأخوذ من قاع جدول مائي تحت الأرض. لم تكن العصي البيضاء منتظمة الطول والحجم. توقف أحد الجرذان عن العمل ليقضم عصا بَدَتْ كأنها قطعة من العظم.

وعندما اقترب منه، خلال عملية الجر، أدرك أن العصا كانت من عظم فخذ بشري!

كانت الأكواخ الطينية مرصعة بالعظام والجماجم، ولا يزال يتدلى من بعضها ببشاعة بقايا الشعر والجلد. لاحظ كارتر أن قمم جميع الجماجم قد أُزيلت، وقُطِعت بدقة.

جر الجرذان رجل كوكب الأرض إلى أرض خلاء في وسط الكهف. وفوق كومة من الجماجم، جلس جرذ يزيد حجمه عن حجم الجرذان الآخرين بحوالي مرة ونصف.

توهجت أعين المخلوق البالية المحمرة وهو ينظر إلى كارتر، بينما يسحبونه إلى أعلى الكومة.

أبعدت الوحوش قبضتها عن رجل كوكب الأرض ونزلت من الكومة، تاركة كارتر بمفرده مع الجرذ الكبير.

كانت شوارب الوحش الطويلة تهتز باستمرار وهو يتشمم الرجل. يبدو أن الوحش قد فقد أذنًا في إحدى المعارك منذ فترة طويلة، بينما كانت أذنه الأخرى تلمع بندبة في أنسجتها.

ظلت أعينه المحمرة الصغيرة تتفحص كارتر لفترة طويلة، بينها يداعب باعتزاز ذيله الطويل الخالي من الشعر بيده التي تشبه المخلب.

ما من شك في أنه ملك الجرذان.

«إله العالم السفلي»، فكر كارتر في محاولة لحبس أنفاسه. كانت رائحة الكهف الكريهة ساحقة.

مد الجرذ يده، دون أن يبعد عينيه عن كارتر، والتقط جمجمة بجانبه ووضعها أمام كارتر. كرر ذلك، والتقط جمجمة من الجانب الآخر ووضعها بجانب الأولى. وبتكرار هذه العملية، شكّل في النهاية حلقة صغيرة من رؤوس بلا قمم أمام رجل كوكب الأرض.

تسلق الآن، بحكمة شديدة، إلى داخل دائرة الجماجم والتقط إحداها ورماها نحو كارتر. أمسك بها كارتر ورماها ثانية نحو الملك.

ويبدو أن هذا السلوك أزعج صاحب السمو الملكي. فلم يبذل أي جهد للإمساك بالجمجمة، وتجاوزته متجهة إلى أسفل الكومة.

أخذ الملك يقفز صعودًا وهبوطًا داخل دائرة الجماجم الصغيرة، ويُطلق في الوقت نفسه صريرًا غاضبًا.

أثار ذلك حيرة رجل كوكب الأرض. وأدرك وهو يقف هناك وجود دائرتين من الجرذان تتشكلان عند قاعدة الكومة، تضم كل منها حوالي ألف حيوان. بدأوا يؤدون رقصة غريبة، ويتحركون عكس اتجاه عقارب الساعة حول منصة العظام المرتفعة. وكان ذيل كل جرذ في فم الوحش التالي له، وبالتالي تشكلت سلسلة مستمرة.

ما من شك في أن رجل كوكب الأرض كان في وسط طقوس غريبة. وعلى الرغم من جهله بطبيعة الاحتفال الدقيقة، لم يكن لديه أدنى شك في نتيجته النهائية. فالجماجم القاحلة التي لا تُعد ولا تُحصى، وتلك التي تحول لونها إلى الأصفر وملأت الكهف، كانت أدلة مروعة صامتة على مصيره النهائي.

من أين حصلت الجرذان على كل تلك الجثث التي أخذت منها الجماجم، ولماذا قمم تلك الجماجم مفقودة؟ إن مدينة كورفاس، كما يعرف كل تلميذ مريخي، مهجورة منذ ألف سنة؛ ومع ذلك هناك العديد من الجماجم والعظام المنتقاة التي تم مؤخرًا انتزاع اللحم منها بدقة. لم يشهد كارتر في المدينة أي دلائل عن وجود حياة غير القرود البيضاء الضخمة، والعملاق الغامض، والجرذان نفسها.

غير أنه سمع من فترة قريبة صرخة امرأة. وقد أكد هذا التفكير قلقه الدائم على سلامة ديجاه ثوريس ومكان وجودها.

كان هذا التأخير يُعذبه. وعندما حاصرته دوائر الفئران، بحثت أعين رجل كوكب الأرض بشغف عن أي وسيلة للهرب.

دارت الجرذان ببطء في حلقات وهي تراقب ملكها الذي وقف على ساقيه الخلفيتين، يضرب الأرض بقدميه، ويهز ذيله. ترددت أصداء كومة الجماجم جوفاء.

زادت سرعة رقص الملك، وزادت سرعة حركة دوائر الجرذان مقتربة من الكومة.

ألقت الجرذان الأقرب إلى رجل كوكب الأرض نظرات جائعة نحوه. ابتسم كارتر بمرارة، وأحكم قبضته على سيفه. من الغريب أنهم تركوه محتفظًا بسيفه.

سيموت أكثر من وحش قبل أن يتمكنوا من التغلب عليه، وسيكون الملك أول مَن يموت. ما من شك في ضرورة التضحية به لإعداد طقوس العربدة الشهية.

توقف الملك فجأةً عن دورانه الجامح أمام كارتر مباشرة. وتوقف الراقصون على الفور، يرقبون، وينتظرون.

بدأ صرير غريب يهدر بعمق في حلق الملك، ثم تصاعد إلى صرخة تثقب الأذن. صعد ملك الجرذان فوق حلقة الجماجم، وتقدم بطيئًا نحو كارتر.

نظر رجل كوكب الأرض حوله ثانية بحثًا عن وسيلة للهرب من الكومة؛ على أنه نظر هذه المرة إلى أعلى. يبعد السقف بحوالي خمسين قدمًا على الأقل. لا يفكر أي شخص مريخي المولد في الهروب من هذا الاتجاه.

لكن جون كارتر مولود على كوكب الأرض، وجاء إلى المريخ ومعه كل قوة وخفة حركة رياضي مُدرَب.

وبناء على ذلك، علاوةً على جاذبية المريخ الأقل، وضع رجل كوكب الأرض خطة سريعة للحظة التالية.

انتظر فرصته بتوتر. أوشك الحفل على الانتهاء، وكان الملك يكشف عن أنيابه على مسافة تقل عن قدم واحدة من رقبة كارتر.

شدد رجل كوكب الأرض قبضته على مقبض سيفه؛ ثم انطلق النصل من غمده. حركة ضبابية وضربة مقززة. طار رأس الملك في الهواء، ثم تدحرج بعيدًا أسفل الكومة.

وقفت الوحوش الأخرى أسفل الكومة صامتة في ذهول، وإن كان للحظات فقط. أخذت الآن تصرخ بعنفٍ وتحتشد فوق الكومة، بهدف تمزيق رجل كوكب الأرض.

جثم جون كارتر، ثم أرسلته عضلاته بقفزة قوية إلى مسافة خمسين قدمًا في الهواء.

تشبث يائسًا بالرواسب الكلسية المتدلية، وسرعان ما كان يتأرجح فوق الطحالب المعلقة عند الامتدادات العليا الشاسعة من الكهف.

ألقى نظرة إلى أسفل، ورأى الجرذان تئن وهي تتحرك في ارتباك. لاحظ أيضًا شيئًا آخر. لا يوجد، على ما يبدو، سوى وسيلة واحدة فقط للدخول أو الخروج من الزنزانة التي تشكل مدينة الجرذان تحت الأرض: نفس النفق الذي جروه خلاله في البداية.

ومع ذلك، كان رجل كوكب الأرض عازمًا على إيجاد وسيلة خروج من السقف.

وجد كارتر أخيراً فتحة ضيقة، وغاص خلال ستارة ثقيلة من الطحالب، متأرجحًا في الكهف.

شاهد العديد من الأنفاق تتفرع في الظلام، يرتبط معظمها بكثافة مع شبكات لزجة للعنكبوت المريخي الضخم. من الواضح أنها كانت أجزاء من شبكة واسعة من الأنفاق تحت الأرض، أقامها منذ زمن طويل القدماء الذين كانوا يسكنون كورفاس ذات يوم.

استعد كارتر بسيفه لأي اشتباك مع رجل أو وحش يأتي في طريقه؛ وبالتالي بدأ من أكبر نفق.

أتاح ضوء الراديوم المشتعل على الدوام، والذي وُضع في الجدار عند بناء النفق، إضاءة كافية ليرى رجل الأرض طريقه بوضوح تام.

توقف كارتر أمام باب ضخم في نهاية النفق. كان منقوشًا بكتابة هيروغليفية غير مألوفة له. سمع أزيزًا مكتومًا، كأنه صوت العديد من المحركات، يأتي من مكان ما وراء الباب.

دفع الباب، ولم يكن موصدًا؛ ثم توقف يحدق غير مُصدِّق في المختبر الهائل الذي وجد نفسه فيه.

رأى محركات كبيرة تضخ الأكسجين خلال أنابيب منخفضة، في صفوف من الأقفاص الزجاجية التي اصطفت على الجدران وملأت الغرفة البيضاء المُعقمة من أولها إلى آخرها. تقع في وسط المختبر عدة طاولات للعمليات الجراحية، تُركز عليها من أعلى كشافات كبيرة.

بيد أن محتويات الأقفاص الزجاجية جذبت انتباه رجل كوكب الأرض على الفور.

يحتوي كل قفص على قرد أبيض عملاق، يقف في وضع مستقيم ويبدو بلا حياة.

وكانت الضمادات تغطي قمة كل رأس مُشعِر. إذا كانت هذه الوحوش ميتة، لماذا تصل أنابيب الأكسجين إلى أقفاصهم؟

تحرك كارتر في أنحاء الغرفة لفحص الحالات من مسافة أقرب. وجد في منتصف الطريق إلى الجدار الأبعد، قبة زجاجية منخفضة تغطي حفرة ضخمة في الأرض.

شهق. كانت الحفرة مليئة بجثث الموتى؛ محاربين حُمر البشرة، رؤوسهم مقطوعة بدقة!

* * *

الفصل (5)

غرفة الرعب

رأى جون كارتر، على مسافة بعيدة في الحفرة، أشكالاً تتحرك حول أجسام الرجال الحُمر الموتى.

اتضح أنها الجرذان؛ حيث شاهدها تجر الجثث إلى أنفاق مجاورة. ربما تؤدي هذه الأنفاق إلى النفق الرئيس الذي يصل إلى مدينة الجرذان تحت الأرض.

هذا هو المكان إذن الذي تحصل منه الوحوش على الجماجم والعظام التي تستخدمها في بناء مساكنها ذات الرائحة تحت الأرض!

مسحت عينا كارتر المختبر؛ لاحظ طاولة العمليات الجراحية، وصندوق الأدوات أعلاها، والتخدير. يشير كل شيء إلى تجارب مروعة، أجراها بعض العلماء المجانين.

يوجد العديد من الكتب داخل صندوق زجاجي. حمل أحد المجلدات كتابة بأحرف ذهبية: (بيو موجل، حياته وأعماله الرائعة).

اكفهر رجل كوكب الأرض. ما تفسير ذلك؟ لماذا يُدفَن هذا المختبر، المُجهز جيدًا، في مدينة قديمة مفقودة، مدينة تبدو مهجورة باستثناء القردة والجرذان ورجل عملاق؟

لماذا تضم الصناديق الموجودة على طول الجدار جثثًا خرساء لا تتحرك لقرود بضمادات على رؤوسها؟ والرجال الحُمر في الحفرة - لماذا قُطِعت جماجمهم إلى نصفين، وأُزيلت أمخاخهم؟

من أين جاء العملاق؛ ذلك المخلوق الوحشي الذي لا يوجد له مثيل سوى في الفولكلور البرسومي؟

يحمل أحد الكتب في صندوق أمام كارتر اسم «بيو موجل». ما علاقة بيو موجل بكل هذا، ومَن هو هذا الرجل؟

على أن السؤال الأهم هو أين ديجاه ثوريس أميرة هيليوم؟

مد جون كارتر يده نحو كتاب بيو موجل. وفجأة صمتت الغرفة. توقفت المولدات التي كانت طاقتها تطن.

ترددت كلمات خلال المختبر: «لا تلمس هذا الكتاب يا جون كارتر».

سقطت يد كارتر على سيفه. توقف الصوت الخفي للحظة، ثم واصل.

«استسلم يا جون كارتر، أو تموت أميرتك»، كان واضحًا أن الكلمات تصدر من مكبر صوت مخفي في مكان ما بالغرفة.

- توجه إلى الباب الذي يقع على يمينك، يا رجل كوكب الأرض، الباب على يمينك.

شعر كارتر بالفخ على الفور. اتجه إلى الباب، وفتحه قلِقًا بقدمه.

جلس رجل بشع ومشوه على عرش بهيّ في النهاية البعيدة من غرفة ضخمة على شكل قبة. رجل ذو رأس صغير مستدير فوق أكتاف ضخمة.

بدا كل شيء في المخلوق مشوهًا. كان جسمه ملتويًا، ولم تكن ذراعاه متساويتين في الطول. كما كانت إحدى أقدامه أكبر من الأخرى.

نظر وجه الرأس الضئيل شزرًا إلى جون كارتر. وتدلى جزئيًّا لسان سميك على الأسنان الصفراء.

كان جسمه العملاق مغطى بأغطية ذات زخارف رائعة من البلاتين والماس. وكان يداعب بإحدى يديه الشبيهة بالمخلب سلسلة من الخرز.

لا يوجد شعر على جسمه، من الرأس إلى القدم.

جثم عند قدمي الرجل وحش أشعث ضخم، بأربع أيدٍ - قرد أبيض آخر. استقرت عيناه الصغيرتان الحمراوان بثبات على رجل كوكب الأرض، الذي يقف في النهاية البعيدة من الغرفة.

لمس الرجل الجالس على العرش الميكروفون الذي استخدمه

لاستدعاء كارتر إلى الغرفة.

لمعت أعينه الصغيرة المستديرة بالكراهية، وقال: «لقد أوقعتك أخيراً يا جون كارتر. لا يمكنك مضاهاة المخ العظيم الذي يتمتع به بيو موجل!».

التفت بيو موجل نحو شاشة تلفزيون مليئة بالأقراص والأضواء من مختلف الألوان.

التوى وجهه في ابتسامة. «أنت تُشرّف مدينتي المتواضعة يا جون كارتر. لقد رأيت حركتك خلال غرف القصر العديدة بجهازي التلفزيوني»، ربت بيو موجل على الجهاز.

ثم واصل كلامه: «هذا اختراع صغير لمُعلمي الممتاز راس ثافاس[378]، وحصلت عليه منه. كان الجهاز عونًا لا يُقدر بثمن في معرفة بحثك عن شخصي التافه. ومن المؤسف أنك تشككت في نوايا مندوبي الكريمة بعد ظهر ذلك اليوم في غرفة الجيداك».

- على أنه، لحسن الحظ، كان قد أنهى مهمته بالفعل؛ فمن خلال امتداد لهذا الجهاز التلفزيوني، مُخبأ بذكاء خلف مرآة في غرفة عرش الجيداك، تمكنت من رؤية وسماع الإجراءات بأكملها.

ضحك بيو موجل بتفاهة، وعيناه اللتان لا ترمشان تحدقان بثبات في كارتر الذي ظل بلا حراك في الطرف الآخر من الغرفة.

لم يَرَ رجل كوكب الأرض أي شيء في الغرفة يشير إلى وجود فخ. كانت الجدران والأرضية من ألواح رمادية مصقولة. وقف كارتر في نهاية ممر طويل يؤدي إلى عرش بيو موجل.

تقدم بطيئًا نحو بيو موجل ويده تقبض على سيفه، وعضلات ذراعه متصلبة.

توقف رجل كوكب الأرض في منتصف الممر، وقطعت كلماته الهواء: «أين ديجاه ثوريس؟»

تكوم رأس بيو موجل الضئيل[379] على جانب واحد. انتظره كارتر ليتكلم.

---

(378) راس ثافاس: عالِم مريخي، معروف بأنه العقل المُدبر في المريخ، وهو أحد أبطال القصة المعروفة بالاسم نفسه في سلسلة المريخ. يكرس اهتمامه بالعلوم دون النظر إلى العواقب الاجتماعية لاختراعاته أو اكتشافاته - https://barsoom.fandom.com/wiki/Ras_Thavas - المترجمة.

(379) المقصود بالرأس الضئيل microcephalic وصف لحجم رأس صغير، بما يعني سعة صغيرة جدًّا للمخ. وهو عكس كبر حجم الرأس megacephalic، الذي يعني سعة كبيرة للمخ. وصِغر الرأس علامة، بوجه عام، على البلاهة؛ على الرغم من أنه لا يعني ذلك في حالة بيو موجل، بل يعني المكر الشديد والجنون، ويشير إلى أن سبب صغر رأس بيو موجل – وهو مُنتَج اصطناعي لأحد أشهر علماء المريخ، راس

لا يبدو بيو موجل بشريًّا تمامًا، على الرغم من أن ملامحه ملامح رجل. هناك شيء بغيض لا يوصف فيه؛ الشفتان الرفيعتان، الخدان المجوفان، العينان المتقاربتان.

أدرك كارتر أن تلك الأعين لا ترمش. لا توجد جفون. لا تغمض عينا الرجل أبدًا. تحدث بيو موجل ببرود: «أنا مدين لك كثيرًا بهذه الزيارة. كنت محظوظًا بما يكفي لأتمكن من استضافة أميرتك وأفضل صديق لك؛ لكنني لم أجرؤ على الأمل بأن تُشرفني أنت أيضًا».

كان وجه كارتر بلا تعبير، وكرر بطيئًا: «أين ديجاه ثوريس؟».

نظر بيو موجل بسخرية.

تقدم رجل كوكب الأرض نحو العرش. زأر القرد الأبيض الجائم عند قدمي بيو موجل، وانتصب الشعر على رقبته عموديًّا عندما جفل بيو موجل قليلاً.

ارتسمت ثانية ابتسامة ملتوية على وجهه وهو يرفع يده نحو جون كارتر ويتكلم ببطء:

- تَحَلَّ بالصبر يا جون كارتر، وسوف ترى أميرتك. لكنك ربما تهتم

أولاً برؤية الرجل الذي قال لك، الليلة الماضية، إنه سيقابلك عند الجسر الرئيس خارج المدينة.

ضغط بيو موجل بأحد أصابعه على رافعة تبرز من الذراع الذهبية لعرشه، وجذبها نحوه. بدأ عمود على يسار عرشه يدور ببطء، ونصفه مثبت في الجدار.

ظهر رجل أخضر عملاق، مُقيد بالسلاسل إلى العمود، وأذرعه الأربع القوية مربوطة بإحكام. ولسلامة بيو موجل الإضافية، التفت العديد من السلاسل الفولاذية حول جسد الرجل الأخضر مع إغلاقها بأقفال ضخمة. كما تم تأمين رقبته وكاحليه بأشرطة من الصلب، وإغلاقها أيضًا.

صاح كارتر: «تارس تاركاس!».

ثافاس - يرجع إما إلى مرض، وإما إلى عدم قدرة المخ على التكيف مع تجويف الجمجمة الغريب غير الملائم. من الواضح أن رأس بيو موجل كان صغيرًا جدًّا بالنسبة إلى جسمه أو مخه – ملحوظة من محرر الطبعة الأجنبية.

ارتسمت ابتسامة قاتمة على وجه تارس تاركاس وهو يرد: «كاور[380]، جون كارتر. أرى أن صديقنا هنا أمسكنا بنفس الطريقة. لكنه احتاج إلى عملاق يفوق حجمي بخمس عشرة مرة ليمسك بي حتى يتمكنوا من تقييدي بهذه السلاسل».

«الرسالة التي أرسلتها إليَّ الليلة الماضية...»، أدرك كارتر الحقيقة على الفور. قام بيو موجل بتزييف الرسائل القادمة من كانتوس كان وتارس تاركاس، بعد أن أوقعهما في الشرك بالمدينة في الليلة السابقة.

قال بيو موجل: «نعم، لقد أرسلت إليكما رسائل متطابقة، كل رسالة تبدو من الآخر. لقد تأكدت من طول موجة البث الصحيحة بعد الاستماع إلى الميكروفون الخفي الذي زرعته في غرفة عرش الجيداك. ذكاء، هه؟».

جحظت عين بيو موجل اليسرى فجأة من محجرها وتدلت على خده. لم ينتبه إلى ذلك، لكنه استمر في الكلام، وهو ينظر أولاً إلى كارتر ثم إلى تارس تاركاس بالعين الأخرى.

قال بيو موجل: «لقد التقيتما بجووج. يبلغ طوله 130 قدمًا، وكله عضلات. إنه نتاج العلم، نتج عن مخي العظيم. لقد صنعته بيدي من لحم حي، وهو أعظم وحش مقاتل شهدته برسوم على الإطلاق. وقد قمت بنمذجته من أعضاء وأنسجة وعظام عشرة آلاف رجل أحمر وقرد أبيض».

أدرك بيو موجل ما حدث لعينه اليسرى، فدفعها بسرعة إلى مكانها ثانية.

ضحك تارس تاركاس إحدى ضحكاته النادرة، وقال: «أنت تتفكك يا بيو موجل. وبمثل ما تزعم أنك صنعت عملاقك، أنت نفسك مصنوع».

تابع تارس تاركاس: «ما لم أكن قد أخطأت في تخميني يا جون كارتر، فإن هذا الكائن الغريب الذي يجلس أمامنا ويطلق على نفسه الملك، قد زحف هو نفسه خارجًا من حوض للأنسجة البشرية!».

زاد شحوب وجه بيو موجل وهو يقفز واقفًا على قدميه. صفع تارس تاركاس بشراسة.

قال صارخًا: «اصمت أيها الرجل الأخضر!».

---

(380) كاور: كلمة التحية بلغة أهل المريخ - http://barsoom.wikia.com/wiki/Martian_Language - المترجمة.

ابتسم تارس تاركاس أمام هذه الإهانة، متجاهلاً الألم. كان وجه جون كارتر مثل قناع متجمد. ضربة أخرى لصديقه الأعزل كانت سترسله إلى حنجرة بيو موجل.

كان يعلم أن من الأفضل الانتظار إلى أن يتمكن من معرفة مكان إخفاء ديجاه ثوريس.

عاد بيو موجل إلى عرشه وغاص فيه ثانية. جثم القرد الأبيض ثانية، بعد أن نهض، عند قدمي سيده.

يبتسم بيو موجل الآن مرة أخرى.

قال: «أنا آسف جدًّا لأنني فقدت أعصابي. أنسى أحيانًا أن مظهري الحالي يكشف عن طبيعة نشأتي».

- كما ترون، سرعان ما سأدرب أحد قرودي على تلك العملية المعقدة،

عملية نقل مخي الرائع إلى جسم مناسب، جسم وسيم. وعندئذ لن يخمن أحد أنني لست مثل أي رجل عادي آخر في برسوم.

ابتسم جون كارتر بقتامة على كلمات بيو موجل.

وقال: «أنت إذَنْ أحد الرجال الآليين الذين صنعهم راس ثافاس؟».

* * *

الفصل (6)

بيو موجل

أجاب بيو موجل ببطء: «نعم، أنا رجل آلي مصنوع. ومخي هو أعظم إنجاز بين جميع إبداعات عقل السيد المخترع».

- بقيت لسنوات تلميذًا مُخلصًا لراس ثافاس في مختبراته في موربوس. تعلمت كل ما يمكن أن يعلمني إياه من أسرارِ صُنع الأنسجة الحية. وغادرت موربوس عندما تعلمت منه كل ما أعتقد أنه ضروري لمتابعة خططي. هربت مع مائة رجل آلي؛ حيث طرنا على ظهور طيور المالاجور[381]، طيور النقل، فوق المستنقعات التونولية[382] العظمى.

«أحضرت معي كل الأدوات المعقدة التي استطعت سرقتها من مختبراته. أما البقية، فقد صنعتها هنا في هذه المدينة القديمة المهجورة حيث هبطنا أخيراً».

كان جون كارتر يتفحص بيو موجل باهتمام.

واصل بيو موجل: «لقد تعبت من كوني عبدًا. أردت أن أحكُم. ونجحت بفضل إيسوس[383]؛ ويومًا ما سأحكم كل برسوم!».

لمعت أعين بيو موجل.

- لم يمضِ وقت طويل قبل أن يتجمع الرجال الحُمر في مدينتنا: مجرمون هاربون ومنفيون. وبما أن وجوههم لن تؤدي بهم إلا إلى القبض عليهم وإعدامهم في مدن متحضرة أخرى في برسوم، فقد أقنعتهم بنقل أمخاخهم إلى رؤوس القرود البيض الغبية التي اجتاحت هذه المدينة.

«ووعدتهم باستعادة أمخاخهم لاحقًا إلى رؤوس رجال حُمر آخرين، شريطة أن يساعدوني في فتوحاتي».

(381) مالاجور: طائر كبير الحجم على المريخ، يعتقد السكان أنه انقرض منذ زمن طويل - https://barsoom.fandom.com/wiki/Malagor - المترجمة

(382) نسبة إلى تونول؛ وهي مملكة مريخية نائية محاطة بالمستنقعات - https://barsoom.fandom.com/wiki/Toonol - المترجمة

(383) إيسوس: امرأة عجوز من المريخيين ذوي البشرة السوداء، زعمت أنها إلهة الحياة الأبدية، لكن حقيقتها تكشفت - http://barsoom.wikia.com/wiki/Issus - المترجمة

تذكّر كارتر القرود التي التفت الضمادات حول رؤوسها في المختبر المجاور، والرجال الحُمر الذين قُطِعت أجزاء من جماجمهم في غرفة الجرذان. بدأ كارتر يفهم قليلاً، ثم تذكّر جووج.

سأل جون كارتر: «ولكن، ماذا عن العملاق؟ من أين جاء؟».

ظل بيو موجل صامتًا لدقيقة، ثم تحدث.

«لقد قمت بصنع جووج، قطعة قطعة، خلال عدة سنوات، من عظام وأنسجة وأجهزة ألف رجل أحمر وقرد أبيض، جاءوا لي طواعية أو تمكنت من أسْرِهم».

«حتى مخه عبارة عن توليف من أمخاخ عشرة آلاف رجل أحمر وقرد أبيض. وقمت بضخ مصل في عروق جووج؛ مصل يجعل جميع الأنسجة تتولى إصلاح نفسها».

«وعملاقي غير قابل للتدمير عمليًّا. لا يمكن أن توقفه رصاصة أو مدفع!».

ابتسم بيو موجل وتحسس ذقنه الخالي من الشعر.

وقال: «فكّر في مدى قوة جنودي القردة، وكل منهم مسلح بقوة القرد الهائلة. يمكنهم، بأذرعهم الأربع، حمل ضِعف عدد الأسلحة التي يحملها الرجال العاديون؛ وتعمل داخل جماجمهم أمخاخ البشر الماكرة».

«يمكنني، مع جووج وجيشي من القردة البيضاء، أن أتقدم وأصبح سيد برسوم كلها»، توقف بيو موجل للحظات ثم أضاف: «شريطة أن أحصل على المزيد من الحديد لصنع مزيد من الأسلحة أكثر مما لديَّ بالفعل».

نهض بيو موجل الآن من عرشه في حماسة كبيرة.

قال: «فضلت أن أغزو سلميًّا، عن طريق الحصول أولاً على صناعة الحديد في هيليوم مقابل عودة ديجاه ثوريس آمنة. لكن الجيداك وجون كارتر يجبرانني على بدائل أخرى. بيد أننى سأعطيكما فرصة أخرى للتسوية سلميًّا».

تحركت يد بيو موجل نحو الذراع اليمنى لعرشه، وسحب رافعة مشابهة؛ فظهرت امرأة جميلة.

كانت ديجاه ثوريس!

شحب جون كارتر عندما رأى أميرته مقيدة بالسلاسل إلى عمود آخر أمامه. انطلق لتحريرها.

كان يمكن لعضلاته المنتمية إلى كوكب الأرض أن تغطي المسافة بسهولة في قفزة واحدة؛ لكن حاجزًا أعاقه في منتصف الطريق. شاهدت ديجاه ثوريس وتارس تاركاس رجل كوكب الأرض يسقط من الهواء كما لو أنه اصطدم بكل قوته بحاجز غير مرئي. تكوم على الأرض في شبه ذهول.

صرخت ديجاه ثوريس، وتوتر تارس تاركاس في قيده. نهض رجل كوكب الأرض ببطء، ووقف على قدميه وهو يهز جسمه كحيوان مهيب. لمس بسيفه الحاجز الذي يقف بينه وبين العرش.

ضحك بيو موجل بقسوة.

قال: «أنت محاصر، يا جون كارتر. الحاجز الزجاجي الخفي الذي اصطدمت به هو اختراع آخر من اختراعات راس ثافاس العظيم التي حصلت عليها. إنه منيع».

«من هناك، يمكنك مشاهدة تعذيب أميرتك، إلا إذا رأت من المناسب أن توقع على رسالة إلى والدها تطلب فيها تسليمي هيليوم».

نظر رجل كوكب الأرض إلى أميرته، التي لا تبعد عنه بأكثر من عشر أقدام. رفعت ديجاه ثوريس رأسها عاليًا بفخر، بما يمثل إجابة وافية على مطلب بيو موجل بأن تخون شعبها.

شاهد بيو موجل ذلك، وأصدر بغضب أمرًا للقرد. نهض الوحش الأبيض ومشى متمهلاً نحو ديجاه ثوريس. أمسك شعرها بمخلب واحد، ودفع رأسها إلى الخلف بقوة حتى تمكن من رؤية وجهها. لم يكن وجهه المبتسم البشع يبعد بأكثر من بوصتين عن وجهها.

هسهس بيو موجل: «اطلبي استسلام هيليوم، وسوف تحصلين على حريتكِ!».

ردت: «أبدًا!».

أصدر بيو موجل أمرًا آخر إلى القرد.

ثبّت المخلوق شفاهه الكبيرة المُتدلية على شفاه الأميرة. ترنحت ديجاه ثوريس، بينما اندفع تارس تاركاس دون جدوى في سلاسله الفولاذية. أُغمي على الفتاة.

اندفع ثانية رجل كوكب الأرض عبثًا نحو الحاجز الذي لا يتمكن من رؤيته.

صاح بيو موجل: «أحمق. لقد أعطيتك فرصتك للاحتفاظ بأميرتك عن طريق تسليمي صناعة الحديد في هيليوم. لكنك، أنت والجيداك، تصورتما أن بإمكانكما هزيمتي واستعادة ديجاه ثوريس دون دفع الثمن الذي طلبته لعودتها سالمة. ولهذا الخطأ سوف تموتون جميعًا».

مد بيو موجل يده مرة أخرى إلى لوحة الآلات بجانب عرشه. بدأ في إدارة عدة أقراص، وسمع كارتر ضوضاء غريبة، تتزايد باطراد.

استدار رجل كوكب الأرض فجأة، وركض نحو الباب الذي دخل منه.

ولكن، أُغلِق حاجز آخر أمام كارتر قبل أن يقطع خمس عشرة قدمًا. كان الهرب من خلال الباب مستَحيلاً.

توجد نافذة في الجدار على يمينه. قفز ليصل إليها، لكنه اصطدم بحاجز زجاجي آخر.

وهناك نافذة أخرى على الجانب الأيسر من الغرفة. كاد أن يصل إليها تقريبًا، عندما قابله جدار آخر من الزجاج غير المرئي.

أصبح واعيًا تمامًا على الفور بمأزقه. الجدران تتحرك نحوه. ويدرك الآن أن الحواجز الزجاجية تخرج من شقوق مخبأة بذكاء في الجدران المتجاورة.

بيد أن الحاجزين الجانبيين مثبتان على مكابس أفقية في السقف. وهذه المكابس تتحرك معًا، وبالتالي تُقرب الجدران الزجاجية من بعضها، ما يؤدي في النهاية إلى سحق رجل كوكب الأرض بينهما.

يوجد في إصبع جون كارتر خاتمًا مرصعًا بالجواهر، في وسطه قطعة كبيرة من الماس. الماس يمكنه قطع الزجاج!

هنا نوع جديد من الزجاج، لكن الاحتمالات تطرح أنه ليس بمثل صرامة الماس في إصبع كارتر!

كوّر رجل كوكب الأرض قبضته وضغط بخاتمه الألماسي على الحاجز أمامه، وسرعان ما صنع خدشًا دائريًّا كبيراً في سطح الزجاج.

ثم صدم بكل قوة جسده منطقة الزجاج المحاطة بالخدش.

حطم الاصطدام هذا الجزء بدقة، ووجد رجل كوكب الأرض نفسه وجهًا لوجه أمام بيو موجل.

استعادت ديجاه ثوريس وعيها، وعلى وجهها الجميل تعبير محدد مقصود. استقرت ابتسامة قاتمة على شفتي تارس تاركاس عندما رأى أن الحواجز غير المرئية لم تعد عائقًا أمام صديقه.

انكمش بيو موجل على عرشه، ولهث بصوت متصدع.

«اقبض عليه، يا جور، اقبض عليه!». تجمدت حبات صغيرة من العرق على جبينه.

أطلق جور، القرد الأبيض، قبضته من ديجاه ثوريس، واستدار؛ فرأى رجل كوكب الأرض يتقدم نحوهما. زمجر بشراسة، كاشفًا عن أنياب مدببة وقوية. جثم منخفضًا، بحيث تدعم قبضاته الأربع الضخمة وزنه على الأرض. لمعت أعينه الدموية الصغيرة ببصيص من الكراهية؛ ذلك أن جور يكره جميع الرجال ما عدا بيو موجل.

* * *

الفصل (7)

الرعب الطائر

عندما جثم القرد الأبيض الكبير جور - المُجهز بمخ بشري - لمواجهة جون كارتر، كان واثقًا تمامًا من التغلب على خصمه البشري الضعيف.

ولزيادة تأكده، سحب جور النصل الكبير إلى جانبه وهرع بجنون نحو خصمه، ليطعنه ويقطعه بشراسة.

اضطر كارتر، نظرًا لزخم هجوم الوحش، إلى التراجع للوراء بضع خطوات متفاديًا الضربات الجبارة.

على أن رجل كوكب الأرض وجد فرصته. فقد تلطخ سيفه بالدماء في سرعة وثقة. حدث تطور مفاجئ، طار سيف جور عبر الغرفة.

غير أن رد فعل جور كان بسرعة البرق. أمسك بيديه الأربع الضخمة سيف رجل كوكب الأرض.

انتزع النصل بعنف من قبضة كارتر، ورفعه فوق رأسه، ثم كسر الفولاذ الصلب إلى نصفين كما لو كان قطعة من الخشب.

اقترب الآن، وهو يطلق هديرًا منخفضًا، من كارتر. جثم كارتر.

ثم قفز الرجل فجأة فوق رأس القرد. لكن الوحش مد يده المشعرة ثانية، وبسرعة خارقة أمسك بكاحل رجل كوكب الأرض.

أمسك جور بجون كارتر بيديه الأربع، وأخذ يقربه من فكه، الذي سال لعابه، ومن أنيابه اللامعة.

بيد أن رجل كوكب الأرض تمكن من تحرير ذراعه بقوة حركة عضلاته، ووجه ضربة هائلة إلى وجه جور بالكامل.

تراجع القرد وأسقط جون كارتر، واتجه مترنحًا نحو نافذة ضخمة على الجدار الأيمن لعرش بيو موجل.

كان القرد يتداعى مترنحًا. وجد رجل كوكب الأرض فرصته؛ فقفز ثانية في الهواء، لكنه طار هذه المرة لمسافة قدم نحو القرد.

في لحظة ملامسة صدر القرد، مدّ كارتر ساقيه بعنف. وهكذا، عندما ضربت قدماه جور، أضافت هذه القوة إلى زخم اندفاع جسده.

جأر جور صارخًا، واندفع خلال النافذة. لم تتوقف صرخاته إلا عند سقوطه، وهو يشعر بالغثيان، مصطدمًا بقوة على أرض الساحه في أسفل.

شاهدت ديجاه ثوريس وتارس تاركاس، المقيدين بالسلاسل إلى الأعمدة، هذه المعركة القصيرة، وكانا مفتونين بأداء رجل كوكب الأرض الواثق والسريع.

شعر بيو موجل بالخوف عندما لم يستسلم كارتر على الفور لهجوم جور. وبدأ مرتعشًا يحرك الأقراص والمفاتيح، ثم تحدث بسرعة في الميكروفون الصغير بجانبه.

وقف رجل كوكب الأرض الآن على قدميه، وتقدم ببطء نحو بيو موجل. لم يرَ الظل الأسود الذي حجب النافذة وراءه.

لم يستدر رجل كوكب الأرض إلا عندما صرخت ديجاه ثوريس لتحذيره.

لكنه استدار بعد فوات الأوان!

التفت يد عملاقة، لثلاث أقدام كاملة، حول جسده. رفعه العملاق من على الأرض وانطلق مسرعًا من خلال النافذة.

تناهت إلى أذنيَ كارتر صرخة يائسة من أميرته، تختلط بضحكة قاسية جوفاء من بيو موجل.

لم يكن كارتر بحاجة إلى تأكيد إضافي من عينيه ليعرف أنه كان محتجزاً في قبضة عملاق آلي من صنع بيو موجل. كانت أنفاس جووج الكريهة على وجهه دليلاً كافيًا.

كان جووج يمسك بكارتر وقربه لمسافة عدة أقدام من وجهه، حيث

تقلصت ملامحه في ما يشبه ابتسامة، كشفت عن صفين كبيرين من الأسنان المتصدعة المصفرة في حجم الصخور الحادة.

انطلقت أصوات قرقرة غليظة من حنجرة جووج وهو يحمل رجل الأرض أمام وجهه.

«أنا جووج. أنا جووج»، نجح الوحش أخيراً، «يمكنني أن أقتل! يمكنني أن أقتل!».

ثم هز ضحيته إلى أن اهتزت أسنان الرجل.

وفجأة هدأ العملاق، وأخذ يستمع. وهنا أصبح كارتر على بينة من الكلمات المكتومة القادمة، على ما يبدو، من أذن جووج.

أدرك جون كارتر أن الأوامر كانت تأتي من بيو موجل، عن طريق موجة قصيرة إلى جهاز استقبال متصل بإحدى أُذُنيَ جووج.

«إلى الحلبة»، كرر الصوت، «قيده فوق الحفرة!».

الحفرة – ما هذا الشكل الجديد للتعذيب الشيطاني؟ حاول كارتر تخفيف الضغط الفظيع الذي يسحقه.

لكنَّ ذراعيه كانتا مثبتتين على جانبيه بقبضة العملاق. كل ما يمكنه أن يفعله هو أن يتنفس بمشقة، ويأمل أن تصل بهما بسرعة خطوات جووج الكبيرة إلى الوجهة المحددة، أيًّا ما كانت.

إن سرعة العملاق الهائلة، التي تتخطى الصروح القديمة العالية أو الساحات الكبيرة الواسعة في خطوات فردية قوية، سرعان ما أوصلتهما إلى مدرج كبير مزدحم عند مشارف المدينة.

يبدو أن المُدرج كان مُصممًا في حفرة طبيعية. فقد تراصت صفوف فوق صفوف من الطبقات الدائرية المنحوتة داخل الجدار الداخلي للحفرة، بما يشكل سلسلة من المستويات جلس عليها آلاف من القردة البيضاء.

يوجد في وسط الحلبة حفرة دائرية يبلغ طولها حوالي خمسين قدمًا. ضمت الحفرة ما يبدو أنه ماء، يبعد مستواه بحوالي خمس عشرة قدمًا من أعلى الحفرة.

تدلت ثلاثة أقفاص ذات قضبان حديدية فوق وسط الحفرة، بواسطة ثلاثة حبال ثقيلة؛ وكل حبل منها مربوط بالجزء العلوي من كل قفص، ويتدفق عبر بكرة في السقالات المبنية علويًّا ووصولاً إلى حافة الحفرة حيث تم تثبيتها.

تسلق جووج حافة المدرج جزئيًّا ووضع كارتر على حافة الحُفرة. أمسك به هناك خمسة قرود كبيرة، بينما قام قرد آخر بخفض أحد الأقفاص إلى مستوى الأرض.

أمسك بعد ذلك بعمود ينتهي بكُلّاب، ثم هز القفص على الحافة. فتح باب القفص بمفتاح كبير.

كان حارس المفتاح قردًا قصيراً ضخمًا، برقبة ثور وعينين متقاربتين للغاية.

توجه هذا الوحش الآن إلى كارتر. وعلى الرغم من أن خمسة قرود أخرى كانت تحتجز الأسير، فقد أمسك القرد بكارتر من شعره بقسوة وألقاه في القفص، وهو يركله بشراسة في الوقت نفسه.

أغلق باب القفص على الفور، ثم أوصده بقفل. سحبوا الآن قفص كارتر فوق الحفرة، مع تثبيت الحبل في عمود حديدي عند الحافة.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يعود جووج ومعه ديجاه ثوريس وتارس تاركاس، وقد أُزيلت السلاسل التي تقيدهما.

وضعوهما في القفصين الآخرين، المعلقين فوق الحفرة، بجوار جون كارتر.

صاحت ديجاه ثوريس عندما رأت كارتر في القفص المجاور: «أووه، جون كارتر، يا قائدي! شكرًا لإيسوس أنك لا تزال في قيد الحياة!»، كانت الأميرة الصغيرة تبكي في هدوء.

مد جون كارتر يده خلال القضبان وأمسك بيدها. حاول أن يتحدث

إليها بكلمات تطمئنها، لكنه كان يعرف -كما يعرف تارس تاركاس الذي جلس قاتمًا في القفص الآخر بجانبه - أن بيو موجل قد أمر بقتلهم؛ لكن كارتر لم يكن متأكدًا بأي طريقة سيموتون.

قال تارس تاركاس بهدوء: «هل تلاحظ، يا جون كارتر، أن كل تلك الآلاف من القردة المتجمعين هنا في الساحة لا يولون أي اهتمام بنا؟».

أجاب رجل كوكب الأرض: «نعم، لاحظت ذلك. ينظرون جميعًا إلى السماء، نحو المدينة».

همست ديجاه ثوريس: «انظروا. إنه نفس الشيء الذي ركب عليه القرد عندما أسرني في غابة هيليوم، بعد إطلاق النار على الثوات الذي كان معنا!».

ظهر في السماء - قادمًا من اتجاه المدينة - طائر هائل منفرد، يركب فوق ظهره رجل واحد.

حدّقت عينا رجل الأرض الحادة للحظة: «إنه طائر المالاجور، ويركب بيو موجل على ظهره».

حلّق الطائر وراكبه فوق المكان مباشرة.

قال بيو موجل آمرًا: «افتحوا البوابة الشرقية»، وكان صوته يرن عبر مكبر للصوت في مكان ما في الحلبة.

فُتحت البوابات، وبدأت تتدفق إلى الحلبة موجات متتالية من طيو المالاجور، تماثل تمَامًا الطائر الذي يركبه بيو موجل.

مع خروج المالاجور، كانت صفوف من القردة تنتظر عند المدخل لتمتطي ظهور الطيور. وبعد ركوبهم فوقها، ارتفعت الطيور في الهواء، عن طريق أوامر بالتخاطر، للانضمام إلى تشكيل يتزايد باستمرار يدور عاليًا.

لا بد أن عملية امتطاء الطيور استغرقت ما يقرب من ساعتين، فقد كانت أعداد قرود وطيور بيو موجل كبيرة جدًّا. لاحظ كارتر وجود بندقية مربوطة على ظهر كل قرد، كما كان كل طائر يحمل تشكيلة مختلفة من المعدات العسكرية؛ بما يتضمن إمدادات الذخيرة، ومدفعًا صغيراً، علاوة على مدفع رشاش لدى كل فصيل طائر.

وأخيراً أصبح كل شيء جاهزاً، وهبط بيو موجل فوق أقفاص أسراه الثلاثة.

صاح: «ترون الآن جيش بيو موجل الجبار، الذي سيغزو به هيليوم ثم برسوم كلها». بدا الرجل شديد الثقة، فقد جلس مستقيمًا بجسده الملتوي المشوه فوق ريش ركوبته.

قال: قبل أن تمضغكم الزواحف الموجودة في الماء أسفلكم، لديكم بضع لحظات للتفكير في المصير الذي ينتظر هيليوم في غضون الساعات الثماني والأربعين المقبلة. كان من الأفضل أن أغزو هيليوم بسلام، لكنكم تدخلتم، ولذلك ستموتون ببطء وفظاعة».

التفت بيو موجل إلى القرد الوحيد الذي تُرِك في الحلبة، حارس مفتاح الأقفاص.

«افتح بوابة الفيضان!»، كان هذا هو الأمر الوحيد الذي أصدره قبل أن ينهض لقيادة قواته في اتجاه الشمال.

ركب جووج، العملاق الآلي، مرافقًا الجيش الغريب الطائر في حبال ترفعه ويحملها مائة مالاجور. انطلقت ضحكة جوفاء قاسية كالرعد من حنجرة العملاق وهو يبتعد محمولاً في السماء.

الفصل (8)

حفرة الزواحف

ما إن اختفى آخر طائر في جيش بيو موجل الهائل عن الأنظار، وراء حافة الحفرة، حتى التفت جون كارتر إلى تارس تاركاس في القفص المُعلق بجانبه. تحدث معه بصوت خفيض حتى لا تسمعه ديجاه ثوريس.

قال: «ستجعل هذه المخلوقات من هيليوم عدوًّا هائلاً. سوف يتعرض أسطول كانتوس كان الجوي الرائع والمشاة إلى ضغط شديد في مواجهة تلك الآلاف من القردة المجهزة بعقول بشرية وتسليح حديث، وتمتطي طيورًا جارحة سريعة!».

قال تارس تاركاس بأسى: «إن كانتوس كان وأسطوله الجوي ليسوا حتى في هيليوم لحماية المدينة. فقد سمعت بيو موجل يتفاخر بأنه بعث رسالة كاذبة إلى كانتوس كان، من المفترض أنها منك، يحثه فيها على إرسال أسطول هيليوم كله، فضلاً عن جميع سفن فريق البحث، إلى المستنقعات التونولية العظمى لمساعدتك».

قال كارتر لاهثًا: «المستنقعات التونولية! إنها على بعد ألف ميل من هيليوم، في الاتجاه الآخر».

أطلقت ديجاه ثوريس صرخة صغيرة، لفتت انتباه الرجلين إلى مصيرهم المباشر.

سحب القرد بجانب الحفرة رافعة معدنية طويلة. صدرت بقبقة من الفقاعات مع انطلاق الهواء من الماء في الحفرة أسفل الأسرى الثلاثة، وفي الوقت نفسه بدأت المياه ترتفع ببطء.

قام الحارس الآن بفك حبل كل قفص، وخفضه بحيث أصبحت قمم الأقفاص تحت سطح الأرض داخل الحفرة؛ ثم أعاد ربط الحبال ووقف لبعض الوقت عند الحافة، ينظر إلى أسفل، نحو الأسرى الذين لا حول لهم ولا قوة.

قال ساخرًا: «الماء يرتفع ببطء، وهكذا لديَّ وقت الآن لأنام قليلاً».

من الغريب سماع كلمات تصدر من فم الوحش. كانت بالكاد واضحة؛ فعلى الرغم من أن المخ البشري في جمجمة القرد هو من يوجه الكلمات، فإن عضلات الحنجرة في حلق المخلوق لم تكن عادة مُجهزة لمهمة الكلام البشري المتخصصة.

رقد الحارس على الحافة، ومدد جسمه الضخم الممتلئ.

وتمتم بسرور: «صرخات موتكم ستوقظني، عندما يبدأ الماء في تطويق أقدامكم وتبدأ الزواحف في خدشكم بمخالبها من خلال قضبان أقفاصكم»؛ ثم انقلب القرد وبدأ في الشخير.

وعندئذ رأى الأسرى الثلاثة الأعين المائلة الشريرة، وصفوف الأسنان الوامضة، لعشرات الوجوه البشعة الزاحفة التي تحدق بهم بجشع من المياه المتصاعدة أدناهم.

قال تارس تاركاس: «يا للبراعة»، دون أن يُظهر وجهه الجامد أي دليل على الخوف أكثر من وجه رجل الأرض، «وعندما تغمرنا المياه جزئيًّا، ستصل الزواحف إلينا بمخالبها وتبدأ في تمزيقنا إلى أشلاء - وإذا بقيت فينا أي حياة، فإن ارتفاع المياه سيغرقها عندما يغمر في النهاية قمم أقفاصنا».

قالت ديجاه ثوريس لاهثة: «يا للفظاعة!».

كانت عينا جون كارتر مثبتتين على حافة الحفرة. لم يكن بإمكانه أن يرى من قفصه سوى أحد قدمي الحارس، الذي رقد نائمًا عند حافة الحفرة.

طلب كارتر من الآخرين أن يصمتا، وبدأ يتأرجح بجسده ذهابًا وإيابًا وهو يمسك قضبان القفص. إذا أمكنه فحسب أرجحة القفص...!

ارتفع الماء إلى حوالي عشر أقدام تحت أقفاصهم.

بدا الوقت أبديًّا قبل أن يتمكن من تحريك القفص الثقيل قليلاً. تسع أقدام إلى سطح الماء، ثم تلك الأعين البشعة المحدقة وتلك الأسنان البراقة!

زاد تأرجح القفص قليلاً الآن، في تناسب مع إيقاع جسم رجل الأرض المتمايل باستمرار.

ثماني أقدام، سبع أقدام، ست أقدام ويقترب الماء. هناك حوالي عشرة زواحف في الماء تحت الأسرى - عشرة أزواج من الأعين الضيقة الشريرة تحدق بثبات نحو الفريسة.

أخذ القفص يتأرجح بسرعة أكبر.

خمس أقدام، أربع أقدام، وتارس تاركاس وديجاه ثوريس يمكنهما الشعور بتنفس الزواحف الساخن!

ثلاث أقدام، قدمان! فقط قدمان أخريان قبل أن يقطع القفص المتأرجح باطراد الماء ويُبطئ ثم يتوقف تمامًا.

لكن السجن الحديدي، المتأرجح مثل البندول، يمكن أن يصل إلى الحافة في أرجحته التالية؛ ولذا عندما تحرك القفص هذه المرة نحو الحافة التي يرقد عندها الحارس النائم، كان جون كارتر يعرف ضرورة أن يتصرف بسرعة.

عندما ارتطمت قضبان القفص بجدار الحفرة الأسمنتي، مدّ جون كارتر ذراعيه بسرعة ثعبان مذهل.

أغلق أصابعه في قبضة فولاذية حول كاحل الحارس النائم.

رنت صرخة تثقب الأذن عبر الحلبة، ترددت بشكل مفزع في الحفرة المجوفة؛ إذ شعر القرد بأنه يستيقظ فجأةً من سباته.

عاد القفص متأرجحًا إلى الجانب الآخر. أمسك كارتر القرد الصارخ بيده الأخرى خلال القضبان، والقفص يتأرجح فوق الماء. كان على الزواحف أن تخفض رؤوسها، بينما القفص يتحرك فوقها عن قرب مع ارتفاع الماء.

«عمل جيد، يا جون كارتر»، جاءت كلمات تارس تاركاس المتوترة وهو يمد يده ويمسك القرد بأيديه الأربع الجبارة. وفي الوقت نفسه، تناثر الماء عند توقف قفص كارتر فجأة؛ فقد اصطدم بسطح الماء.

- أمسكه، يا تارس تاركاس، بينما أسحب المفتاح من رقبة الوغد. ها هو، لقد حصلت عليه!

كانت المياه تتدفق فوق قيعان الأقفاص. مد أحد الزواحف ذراعه الشبيهة بالقرن إلى قفص ديجاه ثوريس، في محاول للإمساك بجسدها بمخالبه الحادة ذات الكُلّاب.

قذف تارس تاركاس جسد القرد بكل قوة عضلاته العملاقة نحو الزواحف مباشرة، بجانب قفص الفتاة.

صاحت ديجاه ثوريس: «بسرعة، جون كارتر، أنقذ نفسك بينما يتقاتلون على جسد القرد».

ردد تارس تاركاس: «نعم، افتح قفصك واخرج بينما لا يزال هناك وقت».

رفعت نصف ابتسامة زاوية فم كارتر وهو يتأرجح لفتح باب سجنه، ثم قفز إلى أعلى قفص ديجاه ثوريس.

قال رجل كوكب الأرض: «سوف أبقى وأموت معكما، ولن أهجركما الآن».

سرعان ما تمكن كارتر من فتح باب سجن الأميرة. لكنه ما إن وصل إلى أسفل لرفع الفتاة، حتى اندفعت الزواحف إلى القفص مع الأميرة.

في ثانية سريعة، كان كارتر داخل قفص الفتاة. كانت رُكبتاه تغوصان بالفعل في المياه، وهو يلقي بنفسه على ظهر المخلوق الزاحف. تثبتت ذراع فولاذية بإحكام حول رقبة المخلوق. واندفعت الرأس إلى الخلف في الوقت المناسب، حيث كان الفكان الضخمان ينغلقان على بعد شبر واحد فقط من جسد الفتاة.

أمرها جون كارتر: «تسلقي، ديجاه ثوريس، إلى أعلى القفص!». أطاعته الفتاة، فقام كارتر بسحب المخلوق الزاحف، العاجز والمتخبط، نحو باب القفص، حيث بدأت وحوش لزجة أخرى تدخل. استخدم كارتر الوحش كدرع أمامه، وشق طريقه إلى الباب.

تمكن خلال لحظة من تحرير قبضته، وصعد فوق القفص مع الفتاة.

كما نجح بعد لحظة أخرى في فتح باب قفص تارس تاركاس. وبعد أن تأرجح الرجل الأخضر بجانبهم دون وقوع حادث، تسلق الثلاثة الحبال إلى السقالات أعلاه، ثم نزلوا إلى الأرض بجانب الحفرة.

«شكرًا إيسوس»، تنفست الفتاة وهم يجلسون لاستعادة أنفاسهم. اتكأت برأسها الجميل على كتف كارتر، الذي داعب شعرها الأسود الجميل مطمئِنًا.

وقف الآن رجل كوكب الأرض. أشار له تارس تاركاس من مكان عبر الحلبة.

«لقد تركوا هناك، في الداخل، بعض طيور المالاجور»؛ ناداه تارس تاركاس من مدخل الكهف داخل الحفرة التي خرجت منها ركوبة بيو موجل.

هتف كارتر: «جيد! قد توجد فرصة للوصول إلى هيليوم ومساعدتها».

تمكنوا خلال لحظات من الإمساك بطائرين، وارتفعوا فوق مدينة كورفاس القديمة.

رصدا طائراتهما على مشارف المدينة، حيث تركاهما في الليلة التي خُدِعا فيها ليقبض عليهما بيو موجل.

وإنما، لخيبة أملهم، وجدوا لوحات التحكم مُدمَّرة على نحو يتعذر إصلاحه، ولذلك اضطروا لمواصلة رحلتهم على ظهور الملاجور.

على أن طيور المالاجور أثبتت أنها سريعة. وبحلول ظهر اليوم التالي، وصل الثلاثي إلى مدينة ثارك، التي يسكنها مائة ألف محارب أخضر، وحاكمهم هو تارس تاركاس.

وبعد أن تجمع المحاربون في ساحة السوق، أوضح تارس تاركاس وجون كارتر الخطر الذي يواجه هيليوم، وطلبا منهم الدعم والانضمام لمساعدة حلفائهم.

هتف المحاربون الأقوياء بالموافقة في صوت واحد. وبزغ فجر اليوم التالي على قافلة طويلة من الجنود فوق حيوانات الثوات، يتدفقون من بوابات المدينة نحو هيليوم.

كما تم إرسال رسول على مالاجور إلى مستنقعات تونول، في محاولة لتحديد موقع كانتوس كان، وحثه على العودة إلى هيليوم بأسطوله للمساعدة في الدفاع عنها.

تخلى تارس تاركاس عن طائر المالاجور الذي يركبه كي يستخدمه هذا الرسول، في مقابل أن يركب هو فوق ظهر ثوات على رأس محاربيه. وأعلاه مباشرة، ركب جون كارتر وديجاه ثوريس المالاجور الآخر.

* * *

الفصل (9)

الهجوم على هيليوم

كان جون كارتر وديجاه ثوريس يسبقان المحاربين المتقدمين، بغية الاستطلاع من فوق ظهر المالاجور؛ وكانا أول مَن شاهد مدينة هيليوم المحاصرة.

سطع ضوء القمر. نظرت الأميرة نحو هيليوم عبر الوادي الفسيح، وأطلقت صرخة صغيرة تنم عن خيبة الأمل. فقد كانت قوات بيو موجل تحاصر مدينة جَدها وتحيطها بالكامل.

قالت باكية: «مدينتي المسكينة!»؛ يمكن بسهولة، في ضوء القمر الساطع أدناه، تمييز الفجوة الهائلة في أسوار تلك المدينة الجميلة، فضلاً عن العديد من مبانيها المسحوقة والمحطمة.

أمر جون كارتر المالاجور تخاطريًّا بالهبوط فوق قمة عالية في الجبال المطلة على وادي هيليوم.

قال كارتر: «أنصتي». كان مدفع بيو موجل الخفيف والأسلحة الصغيرة تبدأ في فتح النار ثانية مع حلول ضوء القمر. «إنهم يستعدون لهجوم جوي».

وفجأةً ارتفع خلف سفحي جبلين يقعان بين الوادي والقمم الشاهقة، جيش بيو ماجل الهائل الطائر.

صاحت ديجاه ثوريس: «إنهم يقتربون من جميع الجوانب».

كانت المخلوقات المُجنحة الهائلة، وراكبوها من القردة الضخمة، تنقض بلا هوادة على المدينة. ارتفع عدد قليل فقط من طائرات هيليوم لخوض المعركة.

قال رجل كوكب الأرض: «لا بد أن كانتوس كان اصطحب معه كل أسطول هيليوم تقريبًا. يدهشني أن هيليوم صمدت أمام الهجوم كل هذه المدة».

أجابت الأميرة: «لا بد أنك تعرف شعبي الآن، يا جون كارتر».

قال كارتر: «إن نيران المشاة والنيران المضادة للطائرات المتحصنة فى هيليوم تبلي بلاء حسنًا. انظري إلى تلك الطيور، إنها تهبط على الأرض».

أجابت الفتاة: «لا يمكنهم الصمود لفترة أطول؛ فتلك القرود تلقي القنابل على المدينة مباشرة، وهي تنقض موجة تلو الأخرى - أوه، جون كارتر، ماذا يمكننا أن نفعل؟».

اختفت ابتسامة جون كارتر القتالية القديمة، التي عادة ما تظهر في أوقات الخطر، وأفسحت الطريق لتعبير صارم وخطير.

شاهد كارتر أسفله أقدم وأقوى مدينة على المريخ تغزوها قوات بيو موجل. وإذا تسلح الرجال الآليون بموارد هيليوم الهائلة، بإمكانهم التقدم وقهر جميع الأمم المتحضرة على المريخ.

خمسون ألف سنة من علوم المريخ وثقافته سيدمرها رجل مهووس بالسلطة، هو نفسه مُنتَج اصطناعي لرجل متحضر!

كررت الفتاة سؤالها: «ألا يوجد شيء يمكننا القيام به لوقفه يا جون كارتر؟».

أجابها بحزن: «أخشى أننا لا نملك سوى القليل جدًّا، يا أميرتي. كل ما يمكننا هو توجيه محاربي تارس تاركاس الخُضر إلى نقطة متميزة استعدادًا للهجوم المضاد، والثقة في مصير رسولنا وأنه سيصل إلى كانتوس كان في وقت مناسب كي يعود لمساعدتنا».

- دون دعم من السفن الفضائية، لا يمكن لمحاربينا الخضر، وهم مقاتلون أبطال، أن يفعلوا الكثير في مواجهة تفوق أعداد جيش بيو موجل في الهواء.

عاد جون كارتر وديجاه ثوريس إلى تارس تاركاس، وأبلغاه ما شاهداه.

وافق رجل ثارك العظيم على أن محاربيه لن يستفيدوا كثيراً من هجوم مباشر ضد قوات بيو موجل الجوية. وتقرر أن تتمركز نصف قواته في موقع واحد، وتحاول التقدم نحو المدينة عند الفجر.

أما النصف المتبقي من المحاربين، فينتشرون في الجبال في مجموعات أصغر ويشتبكون مع العدو في حرب عصابات.

ويأملون بهذا إحباط الخطط لتدمير هيليوم، إلى أن يعود كانتوس كان مع أسطوله من السفن القتالية الجوية السريعة.

قال تارس تاركاس: «إن أسطول هيليوم، الذي يضم مجموعة مُجهزة من الطائرات القتالية، سيكون خصمًا قويًّا لكتيبة طيور بيو موجل».

أضاف جون كارتر: «شريطة أن يصل أسطول كانتوس كان إلى هيليوم قبل أن يحصن بيو موجل نفسه في المدينة، ويضع فيها مدافعه المضادة للطائرات».

طوال تلك الليلة في الجبال، وتحت غطاء شبه الظلام، أعاد جون كارتر وتارس تاركاس تنظيم قواتهم وإعادة تمركزهم. وبحلول الفجر، كان كل شيء جاهزًا.

سيقود جون كارتر وتارس تاركاس النصف المتقدم من محاربي ثارك في اندفاع شرس نحو بوابات هيليوم، وسيظل النصف الآخر في الخلف لتغطي بنادقهم بعيدة المدى هجوم رفاقهم.

على أن ديجاه ثوريس أصرت، ضد إرادة رجل كوكب الأرض، أن تركب إلى جواره على المالاجور عند توجهه إلى المدينة.

بدأ ضوء النهار يزداد إشراقًا.

أصدر جون كارتر أمره: «استعدوا للهجوم». وكرر تارس تاركاس الأمر إلى قادة وحداته.

«استعدوا للهجوم! استعدوا للهجوم!»، ترددت العبارة عبر كتائب المقاتلين الخُضر الرائعين، ذوي الأربع أذرع، الذين يمتطون حيوانات الثوات الضخمة المضطربة ذات الثمانية أرجل.

مرت الدقائق خلال تحرك صفوف القوات. سحب المقاتلون سيوفهم الفولاذية من غمدها. وكانت المطارق، فوق المسدسات القصيرة التي تطلق أشعة قاتلة، تصلصل وهي تحتك بالسرج.

نظر جون كارتر إلى الفتاة الجالسة بشكل مستقيم وثابت خلفه.

وقال: «أنتِ شجاعة جدًّا يا أميرتي».

أجابت: «من السهل أن أكون شجاعة وأنا بالقرب من أعظم محارب على المريخ».

«هجوم!»، أصدر جون كارتر أمرًا مقتضبًا مفاجئًا.

اندفع الحشد الوحشي الثاركي أسفل الجبل وعبر السهل نحو هيليوم. وكان تارس تاركاس في المقدمة، يرفع سيفه عاليًا.

وأعلاهم، على أجنحة سريعة، ينطلق المالاجور حاملاً جون كارتر وأميرة هيليوم.

«جون كارتر، شكرًا لإيسوس!»، صاحت ديجاه ثوريس بارتياح، وهي تشير إلى الجبل البعيد الذي يبدو في الأفق.

هتف جون كارتر: «لقد عاد أسطول هيليوم. وصل رسولنا إلى كانتوس كان في الوقت المناسب!». كان أسطول هيليوم الجبار يبحر فوق الجبال، وتحلق راياته عاليًا.

سادت لحظة صمت في مواقع مدافع العدو الحصينة. فقد شاهدوا الثاركيين المهاجمين وأسطول هيليوم في وقت واحد.

ارتفعت صيحة انتصار كبيرة بين صفوف المحاربين المهاجمين عند رؤية أسطول هيليوم يندفع لمساعداتهم.

صاحت ديجاه ثوريس لكارتر: «استمع، إنها أجراس هيليوم تدق أغنية النصر!». ثم بدا كما لو أن جميع بنادق بيو موجل انفجرت دفعة واحدة، كما ارتفعت من وراء التلال الحامية جحافل طيور المالاجور المُجنَّحة،

وفوق ظهورهم القرود البيض ذات الأمخاخ البشرية.

انقضت على حشود الثاركيين موجات متتالية من أسراب طيور بيو موجل. كانت الطيور تنقض بأسلوب خاطف على المحاربين الخُضر متجنبة سيوفهم. وبعد أن ينسحب كل طائر من غوصه، يقوم القرد الجالس فوقه بإفراغ بندقية الذرية القاتلة في كتلة المحاربين أسفله.

كانت مذبحة رهيبة. ولم يكن إلا بعد أن قاد تارس تاركاس وجون كارتر محاربيهم إلى الصفوف الأولى لحصون القرود، أن وجد الثاركيون خصمًا يمكنهم قتاله بفعالية.

وهنا قاتل جنود ثارك الخضر، ذوي الأذرع الأربع، قتالاً مجيدًا ضد القردة البيضاء الضخمة التي تضمها جحافل بيو موجل.

بيد أن أسراب الموت الرهيبة لم تتوقف، ولو لثانية واحدة، عن هجماتها من أعلى. كانت مثل آلاف الدبابير الغاضبة؛ تحلق، وتقتل، ثم تصعد ثانية، تقتل دائمًا.

سيطر جون كارتر ببراعة على طائر المالاجور المذعور، بينما يصدر الأوامر ويوجه الهجوم من موقعه المتميز فوق مركز المعركة مباشرة.

تولت أميرة هيليوم، بشجاعة وكفاءة، حماية زعيمها من هجمات جانبية وخلفية لا حصر لها من الجو. تحول أنبوب مسدسها الراديوم إلى اللون الأحمر من سخونته، مع

استمرار إطلاقها النار، وتمكنت من قتل العديد من الطيور الصارخة المهاجِمة وأسقطتها إلى المعمعة أدناه.

وفجأة ارتفعت مرة أخرى صيحات فظة من جحافل بيو موجل على الأرض وفي الجو.

صاحت الفتاة: «ما هذا يا قائدي؟ لماذا يطلق العدو صيحة الانتصار؟».

نظر جون كارتر نحو السفن التي كانت تتقدم فوق الجبال، على بعد نصف ميل فقط، وسرت البرودة في دمه.

«العملاق - جووج العملاق!».

ظهر المخلوق من خلف قمة تل منخفض، والسفن تقترب من فوقه. أمسك العملاق جذع شجرة ضخمة في يده الجبارة.

كان بإمكان جون كارتر، حتى من موقعه، تمييز رأس رجل يجلس داخل هودج حديدي مُحاطًا بالدروع ومثبتًا في أعلى خوذة جووج.

انطلق فجأةً من شفاه العملاق هدير مدوٍّ صاخب، يتردد صداه في الجبال وعبر السهل.

ثم تسلق بسرعة إلى أعلى تلة صغيرة. وقبل أن يتمكن رجال هيليوم المندهشين من الانحراف بطائرتهم السريعة، بدأ العملاق يضرب بقوة مُستخدِمًا جذع الشجرة الضخم.

أرجحت عضلات عملاق بيو موجل الاصطناعية الهائلة ذلك السلاح الضخم وضربت به بالكامل الطائرة المتقدمة.

واجهت السفينة المتقدمة، طليعة عشرين سفينة وفخر أسطول هيليوم الجوي، الضربة وجهًا لوجه، متحطمة ومتبعثرة عند جانب الجبل، حاملة طاقمها إلى موت سريع ساحق!

* * *

الفصل (10)

ألفا مظلة

نجت سفينة كانتوس كان القيادية بأعجوبة من الإبادة في ضربة العملاق الأولى. فقد ابتعدت ضربة المخلوق عن سفينة القيادة ببضعة أقدام فقط.

شاهد جون كارتر وديجاه ثوريس، من موقعهما على المالاجور، العديد من السفن تعود في اتجاه الجبال؛ غير أن سفنًا أخرى لم يحالفها الحظ.

ونظرًا لاندفاع الهواء العاصف، الناتج عن ضربة العملاق الهائلة، تمايلت السفينة وخرجت بجنون عن نطاق السيطرة.

تأرجح جذع الشجرة الضخم مرارًا وتكرارًا في الجو، حيث أخذ العملاق يوجه ضربة تلو الأخرى للسفن العاجزة.

هتف جون كارتر فوق هدير المعركة: «كانتوس كان يُعيد تشكيل أسطوله»، بينما استؤنف القتال على الأرض ثانية بحماس متزايد.

صاحت الأميرة: «السفن تعود مرة أخرى، متجهة نحو هذا المخلوق الفظيع!».

أجاب رجل كوكب الأرض: «إنهم ينتشرون في الجو، ويحاول كانتوس كان تطويق العملاق!».

- ولكن لماذا؟

- انظر، إنهم يعطونه بعض قوى بيو موجل السحرية الخاصة!

كان أسطول طائرات هيليوم الهائل يندفع من جميع الجوانب. وأسرعت طائرات أخرى من أعلى. وعندما اقتربا من نطاق هدفهم الضخم، أطلق المدفعيون وابلاً متواصلاً من الرصاص والأشعة نحو جسم العملاق.

تنهدت ديجاه ثوريس في ارتياح.

وقالت: «لن يستطيع أن يصمد طويلاً!».

بيد أن جون كارتر هز رأسه بأسف، حيث بدأ العملاق في إسقاط الطائرات بغضب متجدد.

- أخشى أنه ما من جدوى. ليست الرصاصات فقط، وإنما أيضًا بنادق الأشعة ليس لها أي تأثير على المخلوق. فقد تشبع جسده بمصل اكتشفه راس ثافاس، وتنتشر هذه المادة في جميع خلايا الأنسجة وتجعلها تنمو فورًا بسرعة لا تُصدَق لتحل محل جميع اللحم الجريح أو المُدمَّر.

سألته ديجاه ثوريس مرتعبة: «تقصد أن هذا الوحش الفظيع لا يمكن تدميره أبدًا؟».

أجاب رجل كوكب الأرض: «من المحتمل أن يعيش وينمو إلى الأبد، ما لم نقم بشيء جذري لتدميره».

اشتعلت فجأة نيران الإصرار في أعين الرجل الأرضي الرمادية الفولاذية.

- قد توجد طريقة لإيقافه، يا أميرتي، وإنقاذ شعبنا...

تشكلت خطة غريبة وجريئة في ذهن جون كارتر. فقد اعتاد أن يتصرف بسرعة بناء على دافع مفاجئ. أمر المالاجور الآن بالهبوط بالقرب من رأس تارس تاركاس.

كان الرجل الأخضر يقاتل بشراسة فوق ثواته العظيم، على الرغم من معرفته أنها معركة ميؤوس منها.

صاح كارتر موجهًا حديثه إلى صديقه القديم: «عُد برجالك مرة أخرى إلى الجبال، واختبئوا هناك وأعيدوا التنظيم - وانتظر عودتي!».

وجدت النصف ساعة التالية جون كارتر والفتاة بجانب سفينة كانتوس كان القيادية. كان أسطول هيليوم العظيم قد تراجع مرة أخرى فوق الجبال، لتقييم خسائره وإعادة التشكيل استعدادًا لهجوم جديد.

من المؤكد أن ربان كل سفينة قد أدرك عدم جدوى خوض معركة أخرى ضد هذا المخلوق الذي لا يُقهَر. ومع ذلك، كانوا جميعًا على استعداد للقتال حتى النهاية من أجل أُمتهم وأميرتهم، التي أُنقِذت مؤخرًا.

صعد رجل كوكب الأرض والفتاة إلى سفينة القيادة، ثم حرروا الملاجور العظيم الذي خدمهم بإخلاص. رحب كانتوس كان بفرح بالأميرة وهو يحني ركبته، ثم رحب بصديقه القديم.

قال كانتوس بإخلاص: «إنه لمن دواعي سروري معرفة أنكما آمنان، وهي سعادة تفوق حتى الحزن الكبير لرؤية مدينتنا هيليوم تقع في أيدي العدو».

أجاب رجل الأرض: «نحن لم نخسر بعد، يا كانتوس كان. لديَّ خطة قد تنقذنا – سأحتاج إلى عشر من أكبر طائراتكم، التي لا تسع سوى حد أدنى من الطاقم».

أجاب كانتوس كان: «سوف آمرهم بكسر التشكيل والتجمع فورًا بجوار سفينة القيادة»، واستدار لإرسال الأمر.

«انتظر دقيقة»، أضاف كارتر، «أريد أن تكون كل طائرة مجهزة بمائتي مظلة!».

«مئتا مظلة؟»، ردد كانتوس كان، «حالاً، يا سيدي!». تدافعت، على الفور تقريبًا، عشر طائرات كبيرة. كانت سفنًا خالية من القوات، توجهت في تشكيل من طابور واحد إلى جوار سفينة القيادة. ضمت كل منها طاقمًا من عشرة رجال ومائتي مظلة، بحيث وصل مجمل عدد المظلات إلى ألفي مظلة!

وقبل أن يستقل سفينة قيادة هذا التشكيل، تحدث جون كارتر إلى كانتوس كان.

قال له: «حافظ على أسطولك سليمًا حتى أعود. عليك أن تبقى بالقرب من هيليوم، وتحمي المدينة بأفضل ما يمكنك. وسأعود بحلول الفجر».

أجاب كانتوس كان متذمرًا: «لكن هذا الوحش! يجب أن نفعل شيئًا لإنقاذ هيليوم».

كان المخلوق الهائل، الذي يبلغ طوله مائة وثلاثين قدمًا، يرتدي سترة فضفاضة ذات قياس غير مناسب، ويقذف الصخور والقنابل على هيليوم. كانت أعماله تنفيذًا لإملاءات، تأتيه خلال موجة قصيرة، من بيو موجل، الذي جلس في هودج مدرع فوق رأس العملاق.

وضع جون كارتر يده على كتف كانتوس كان.

وقال لتحذيره: «لا تضيعوا المزيد من السفن والرجال دون جدوى في محاربة المخلوق. ثق بي، يا صديقي. افعل ما أقوله – على الأقل حتى الفجر!».

وضع جون كارتر يد ديجاه ثوريس في يده وقبّلها.

همست، والدموع تملأ عينيها: «وداعًا، يا زعيمي».

قال لها: «ستكونين هنا أكثر أمانًا مع كانتوس كان يا ديجاه ثوريس. وداعًا يا أميرتي». ثم قفز بخفة فوق الدرابزين إلى سطح سفينة القوات المجاورة. آلمه أن يترك ديجاه ثوريس، لكنه يعرف أنها في أيد أمينة.

وبعد عشر دقائق، شاهدت ديجاه ثوريس وكانتوس كان الطائرات العشر السريعة تختفي في الضباب البعيد.

وبعد ذهاب جون كارتر، أطلق كانتوس الأعلام التي تحمل ألوان ديجاه ثوريس الشخصية بجانب علم الأُمة؛ حتى تعرف هيليوم كلها أن أميرتهم قد عُثِر عليها آمنة، ويتشجع الناس بوجودها بالقريب منهم.

اتبع كانتوس كان وتارس تاركاس أوامر رجل الأرض في غيابه، وامتنعا عن إلقاء قواتهما في معركة ميؤوس منها. ونتيجة لذلك، اقترب مقاتلو بيو موجل أكثر فأكثر من هيليوم؛ بينما كان بيو موجل نفسه يتولى إعداد جووج لقيادة الهجوم النهائي على المدينة الحصينة.

وبعد مرور 24 ساعة بالضبط، عادت سفن جون كارتر العشر.

عندما اقترب رجل كوكب الأرض من هيليوم، فهم الوضع في لمحة. كان يخشى أن يكون الأوان قد فات؛ إذ استغرقت مهمته السرية وقتًا ثمينا أكثر مما كان يتوقع.

لكنه تنهد الآن بارتياح. لا يزال هناك وقت لتنفيذ خطته الجريئة، الخطة التي يتوقف عليها مصير أُمة.

* * *

الفصل (11)

خطة جريئة

توجه جون كارتر إلى سفينة القيادة وحلّق بجانبها، خشية اعتراض بيو موجل، بطريقة أو بأخرى، أي إشارة للموجات القصيرة المُرسلة إلى كانتوس كان.

واصطفت خلف قائدها سفن القوات التي رافقته في مهمته السرية.

انتظر قادة السفن أوامر هذا الرجل الرائع القادم من كوكب آخر. لقد شاهدوا جون كارتر، في الساعات الأربع والعشرين الماضية، وهو ينجز مهمة لا يحلم حتى أي مريخي بمحاولة إنجازها.

سوف تحدد الساعات الأربع القادمة نجاح أو فشل خطة رائعة، كان رجل كوكب الأرض نفسه يبتسم نصف ابتسامة عند تأملها.

حتى صديقه القديم، كانتوس كان، هز رأسه بحزن عندما شرح جون كارتر نواياه بعد دخوله مقصورة سفينة القيادة ببضع دقائق.

قال: «أخشى أنها بلا جدوى يا جون كارتر. على الرغم من أن خطتك مُصممة ببراعة، فلن تفيد في مواجهة هذا الوحش الرهيب».

«مصير هيليوم بائس. وعلى الرغم من أننا سنقاتل جميعًا حتى آخر رجل لإنقاذها، فما من فائدة».

نظر كانتوس كان خلال حديثه إلى هيليوم، التي تقع على مسافة بعيدة أدناه. يمكن رؤية جووج العملاق عند السهل، يلقي الصخور الكبيرة على المدينة.

لم يفهم كارتر لماذا لم يصدر بيو موجل أمره إلى العملاق كي يدخل المدينة نفسها حتى الآن، إلا إذا كان بيو موجل يستمتع بالفعل عند مشاهدة الأثر المُدمِّر للصخور وهي تصطدم بمباني هيليوم.

في واقع الأمر، وبغض النظر عن مظهر جووج المخيف، فقد كان يخدم غرض سيده على أفضل وجه؛ إذ كان يُحدِث حاليًا ضررًا أكبر مما يمكنه تحقيقه ربما داخل المدينة نفسها.

على أنها كانت مجرد مسألة وقت قبل أن يأمر بيو موجل بهجوم عام على المدينة.

ثم تندفع قواته المُحاصِرة إلى المدينة، وتتسلق الجدران وتسحق البوابات. وتنقض القرود من أعلى لدعمهم على ظهور طيورهم السريعة، جالبين الموت والدمار من الجو.

وأخيراً سيأتي جووج، مضيفًا الضربة النهائية لفوز بيو موجل.

أما المذبحة الرهيبة التي سوف تقع بعد ذلك على شعبه، فقد جعلت كانتوس كان يرتجف.

قال كارتر: «ليس لدينا وقت لنضيعه، يا كانتوس كان. يجب أن تؤكد لي أنكم ستنفذون أوامري حرفيًّا».

نظر كانتوس كان إلى رجل كوكب الأرض لبعض الوقت قبل أن يتحدث.

قال: «لديك كلمتي يا جون كارتر. على الرغم من أنني أعرف أن ذلك يعني موتك؛ فلا يوجد رجل، ولا حتى أنت، يمكنه أن يحقق ما تخطط للقيام به».

صاح رجل كوكب الأرض: «جيد! سوف أغادر على الفور. وعندما ترى العملاق يرفع ذراعه ويخفضها ثلاث مرات، ستكون هذه إشارتك لتنفيذ أوامري!».

وقبل أن يغادر جون كارتر سفينة القيادة، طرق على باب مقصورة ديجاه ثوريس.

«تفضل»، سمع ردها من الداخل. فتح الباب، ورأى ديجاه ثوريس جالسة على طاولة. كانت قد نقرت بإصبعها الشاشة الزجاجية الني تعرفت من خلالها على وجهة نظر كانتوس كان. نهضت الفتاة والدموع

تملأ عينيها.

ناشدته قائلة: «لا تتركني ثانية يا جون كارتر. أخبرني كانتوس كان الآن عن خطتك المتهورة - لا يمكن أن تنجح، سوف تضحي بنفسك فقط دون جدوى. ابق معي يا زعيمي، ونموت معًا!».

دخل جون كارتر الغرفة وسار إلى أميرته واحتضنها بين ذراعيه - ربما للمرة الأخيرة. وضعت رأسها على صدره العريض وبكت بوداعة. أبقاها قريبة للحظة وجيزة قبل أن يتحدث.

قال: «لقد وجدت على المريخ شعبًا حرًّا وطيبًا، تعلمت الاعتزاز بحضارته. وأميرته هي المرأة التي أحبها».

«والآن تتعرض هي وشعبها إلى خطر جسيم. وإذا كانت توجد فرصة ولو ضئيلة لأنقذكِ أنتِ وهيليوم من الكارثة الرهيبة التي تهدد المريخ كله، يجب أن أتحرك».

اعتدلت ديجاه ثوريس قليلاً على إثر كلماته، وابتسمت بشجاعة وهي تنظر إليه.

همست: «أنا آسفة، يا زعيمي. لدقيقة، أنساني حبي لك أنني أنتمي أيضًا إلى شعبي. وإذا كانت هناك أي فرصة لإنقاذهم، سأكون أنانية بفظاعة أن أمنعك. لذا اذهب الآن، وتذكر أنك إذا مت فإن قلب ديجاه ثوريس سيموت معك!».

وبعد لحظة كان جون كارتر يجلس أمام لوحات التحكم في أسرع طائرة لرجل واحد في بحرية هيليوم بأكملها.

فتح صمام السرعة لمحرك الراديوم الهادئ. شعر بالطائرة تهتز قليلاً للحظة وهي تكتسب السرعة. رفع رجل كوكب الأرض مقدمة سفينته إلى أعلى، وارتفع بعيدًا فوق ساحة المعركة.

انحنى بالسفينة ثم انخفض. أطلقت الرياح صوت صفير خارق، حيث أدى تزايد زخم السفينة إلى تزايد سرعتها، مثل المذنب، إلى الأسفل - مباشرة نحو العملاق!

* * *

الفصل (12)
مصير أُمة

لم يرَ بيو موجل ولا العملاق جووج بعد تلك الطائرة المنفردة وهي تغوص نحوهم من أعلى. كان بيو موجل يجلس داخل هودج مدّرع فوق خوذة جووج الهائلة، ويصدر أوامر الهجوم لقواته عن طريق موجة قصيرة.

يوجد شريط من الزجاج، يبلغ عرضه حوالي ثلاث أقدام، يحيط بالهودج تمامًا ويتيح لبيو موجل مشاهدة كاملة لقواته المقاتلة أدناه - مشاهدة لا يحدها أي شيء.

ربما لو نظر بيو موجل من الكوة الزجاجية الدائرية في قبة ملجئه الفولاذي، لرأى طائرة رجل كوكب الأرض الصغيرة السريعة تندفع نحوه من أعلى.

كان جون كارتر يراهن بحياته وحياة المرأة التي يحبها وبقاء هيليوم، على أمل ألا ينظر بيو موجل إلى أعلى.

قاد طائرته الصغيرة بسرعة مذهلة، مباشرة نحو تلك الفتحة الدائرية على قمة ملجأ بيو موجل.

يقف جووج الآن، وأكتافه تنحني إلى الأمام. أمره بيو موجل بأن ينتظر في هدوء، بينما يستكمل إرسال أوامر اللحظة الأخيرة إلى قواته.

كان العملاق في السهل، بين الجبال والمدينة. ولم يسحب كارتر صمام السرعة لخفض طائرته إلا عندما أصبح على بعد 500 قدم فوق النافذة المستديرة الصغيرة.

لقد وصل إلى ارتفاع هائل لتجنب اكتشافه من جانب بيو موجل. وكانت سرعته لنفس الغرض.

والآن، إذا كان له أن يظل في قيد الحياة، عليه إبطاء سرعة طائرته المندفعة. يجب أن يحدث الاصطدام بالسرعة الصحيحة تمامًا.

فإذا حدث الاصطدام بسرعة كبيرة، لن ينجح إلا في قتل نفسه، دون أي ضمان أن يموت معه بيو موجل.

ومن ناحية أخرى، إذا أصبحت سرعة سفينته بطيئة للغاية، فلن تحطم أبدًا الزجاج القوي الذي يغطي الفتحة، وتخترقه. وفي هذه الحالة، سوف ترتد طائرته المُعطَّلة دون إلحاق أي ضرر بالهودج، وتحمل كارتر إلى موته في ساحة المعركة أدناه.

أصبح على بُعد مائة قدم فوق النافذة!

أغلق المحرك، وألقى نظرة سريعة على عدّاد السرعة - لا تزال السرعة كبيرة للاصطدام!

طارت يداه إلى لوحة المعدات، وسحب ثلاثة روافع. انطلقت ثلاث مظلات صغيرة خلف الطائرة، وأدت إلى تباطؤ سرعتها.

اصطدمت مقدمة السفينة بالنافذة الصغيرة!

سُحِق الفولاذ وتشقق الخشب مع انهيار مقدمة السفينة؛ ثم تحطم الزجاج الذي انتهى إلى جلجلة مرتعشة ثقيلة، والطائرة تخترق النافذة وتستقر جزئيًّا على أرضية مقصورة بيو موجل.

كان ذيل الطائرة يبرز من قمة الهودج، بينما كان بابها داخل المقصورة.

قفز جون كارتر من سفينته، وسيفه يلمع في يده.

لا يزال بيو موجل يدور بجنون في كرسيه الدوار من تأثير الاصطدام الهائل. أما سماعات أذنه وميكروفونه، الذي يوجّه به أعمال جووج وتشكيلات قواته، فقد سقطت من رأسه إلى الأرض عند قدميه.

توقف أخيراً دورانه الأحمق، وظل بيو موجل جالسًا، يحدق غير مُصدِّق في رجل كوكب الأرض.

تورمت عيناه الصغيرتان الخالية من الجفون، وفتح فمه الملتوي عدة

مرات ليتحدث. والآن تتحرك أصابعه الملتوية في تشنج.

«امتشق سيفك، يا بيو موجل!»، قال رجل كوكب الأرض بصوت منخفض، وبالكاد ما تمكن بيو موجل من سماع الكلمات.

لم يقم الرجل الآلي بأي تحرك ليطيع كارتر.

ثم قال أخيراً بصوت أجش: « أنت ميت!». كأن الرجل يحاول إقناع نفسه بأن ما يراه أمامه ممتشقًا سيفه ليس سوى هلوسة سيئة. استمر بيو موجل، بصعوبة شديدة في الواقع، مُحدِّقًا إلى حد أن عينه اليسرى اتخذت نفس الشكل الذي شهده كارتر من قبل في كورفاس عندما كان المخلوق منفعلاً.

فقد خرجت من محجرها وتدلت على خده.

- بسرعة، يا بيو موجل، امتشق سلاحك – ليس لديَّ وقت لأضيعه!

شعر كارتر بتزايد توتر العملاق تحته، حيث يُحرك قدميه الهائلتين بقلق. يبدو أنه لم يَشُكَّ بعد في تغيير سيده في الهودج المرتبط بخوذته؛ إلا أنه قفز بشكل ملحوظ عندما اخترقت طائرة كارتر ملجأ سيده.

انحنى كارتر والتقط الميكروفون من على الأرض.

وصاح في الميكروفون: «ارفع ذراعك».

حدثت وقفة؛ ثم رفع العملاق ذراعه اليمنى عاليًا فوق رأسه.

أمره كارتر ثانية: «اخفض ذراعك». العملاق أطاع.

كرر كارتر الأمر نفسه مرتين، وأطاعه العملاق في المرتين. ابتسم رجل كوكب الأرض. وعرف أن كانتوس كان رأى الإشارة وسيتبع الأوامر التي أعطاه إياها في وقت سابق.

مد بيو موجل يده الآن إلى جانبه، وأمسك ببندقية الراديوم.

صدرت ومضة تغشي البصر عندما سحب الزناد؛ ثم طارت البندقية بأعجوبة من يده.

فقد قفز كارتر إلى أحد الجوانب، وصدم بسيفه سلاح بيو موجل وأسقطه من قبضته.

اضطر الرجل الآن إلى سحب سيفه.

وجد جون كارتر نفسه، على رأس العملاق، يقاتل بشراسة ضد رجل المريخ الآلي، في أغرب مأزق مر به طوال حياته المليئة بالمغامرات.

لم يكن بيو موجل مبارزًا سيئًا. كان هجومه الأول غاضبًا للغاية، في واقع الأمر، بحيث ضغط بشدة على رجل كوكب الأرض ودفعه إلى الدوران في أنحاء الغرفة تفاديًا لسيل سريع من الضربات التي استهدفت عشوائيًّا كل شبر من جسده، من رأسه إلى أخمص قدميه.

كان إحساسًا مروعًا؛ أن يقاتل رجلاً تتدلى إحدى عينه على جانب وجهه. نسي بيو موجل ما حدث لعينه؛ فالرجل الآلي يستطيع أن يرى جيدًا، وعلى قدم المساواة، بأي من العينين.

دفع بيو موجل الآن برجل كوكب الأرض إلى النافذة. ونظر خلالها لمجرد لحظة.

صدر من شفتيه تعبير ينم عن المفاجأة.

* * *

الفصل (13)
الذعر

تابعت عينا جون كارتر عينَي بيو موجل. وما رآه جعله يبتسم، وجدد أمله.

صاح: «انظر، بيو موجل. جيشك الطائر يتفكك!».

كانت الآلاف من طيور المالاجور، التي تناثرت في السماء براكبيها، تنعق بصوت أجشّ وهي تتشتت في جميع الاتجاهات. وعجز القرود فوق ظهورها عن السيطرة على خوفها المسعور. أخذت الطيور تقذف راكبيها بالجملة، حيث رفرفت أجنحتها الكبيرة بجنون للهرب من ذلك الذي ظهر فجأة في السماء بينهم.

اتضح على الفور سبب طيرانهم المذعور.

امتلأ الجو بالمظلات، ويتدلى من كل مظلة جرذ مريخي بثلاث أرجل - العدو التاريخي لكل طائر مريخي!

شاهد كارتر، خلال اللمحة السريعة التي ألقاها، تلك المخلوقات تسقط من سفينة القوات التي كان قد حمّلها بهم خلال غيابه الساعات الأربع والعشرين الماضية.

كانت أوامره تُتبع تمامًا.

سرعان ما تهبط الجرذان بين قوات بيو موجل التي تحاصر المدينة.

عاد الآن انتباه جون كارتر إلى الخطر المباشر الذي يواجهه.

تمايل بيو موجل بشراسة نحو رجل كوكب الأرض. شق السيف كتفه، وتدفقت الدماء أسفل ذراعه البرونزي.

سرق كارتر نظرة أخرى إلى أسفل. ستحتاج تلك الجرذان إلى دعم عندما تهبط في الخنادق.

جيد! يركض محاربو تارس تاركاس الخُضر ثانية للخروج من التلال، دون أي عائق الآن من نيران العدو القاتلة من أعلى.

صحيح أن الجرذان عندما تهبط سوف تهاجم أي شيء في طريقها، لكنَّ محاربي الثارك الخُضر يركبون على أسطول من حيوانات الثوات، والقردة لا تمتطي أي شيء. فلا أي مالاجور سيبقى عندما يرى أكثر خصم يكرهه.

تراجع بيو موجل ثانية الآن بالقرب من النافذة. شاهد كارتر بطرف عينه أسطول كانتوس كان الجوي يطير متجهًا نحو جحافل قرود بيو موجل في أسفل.

مد بيو موجل فجأةً يده الحرة إلى أسفل.

أمسكت أصابعه بالميكروفون الذي أسقطه كارتر عندما هاجمه بيو موجل في البداية.

رفع المخلوق الميكروفون إلى شفتيه، وتحدث قبل أن يتمكن رجل الأرض من منعه.

صاح: «جووج! اقتل! قتل! اقتل!».

وفي الثانية التالية، أطاح سيف جون كارتر برأس بيو موجل عن كتفيه.

انحنى رجل كوكب الأرض ليمسك بالميكروفون بعد أن سقط من يد المخلوق؛ لكنه واجه جسم بيو موجل مقطوع الرأس، مندفعًا بتهور في الغرفة ولا يزال يحمل أسلحته اللامعة.

تدحرجت رأس بيو موجل على الأرض، صارخًا بوحشية، وجووج يتحرك إلى الأمام لطاعة آخر أمر أصدره سيده: القتل!

اهتزت رأس جووج ذهابًا وإيابًا مع كل خطوة هائلة يتخذها. وكان جون كارتر يندفع بقوة داخل المقصورة الضيقة مع كل خطوة.

تخبط جسم بيو موجل، مقطوع الرأس، على الأرض وهو يضرب بجنون بالسيف الذي يمسكه في يده.

صرخ رأس بيو موجل، قافزاً في جميع أنحاء المكان: «لا يمكنك قتلي. لا يمكنك قتلي. أنا رجل آلي من صُنع راس ثافاس. أنا لا أموت أبدًا. أنا لا أموت أبدًا!».

انفتح باب المدخل الضيق للهودج، عندما اصطدمت بترباسه بعض الأجسام الطائرة.

سار جسم بيو موجل ببلاهة من خلال الفتحة، وسقط مندفعًا إلى الأرض البعيدة.

رأت رأس بيو موجل المشهد وصرخت في فزع؛ ثم نجح كارتر في الإمساك بالرأس من الأذن وإلقائها خلف الجسم.

كان يسمع الرأس تصرخ طوال طريقها إلى أسفل؛ ثم توقفت صرخاتها فجأة.

يقاتل جووج بضراوة الآن بالسلاح الذي اقتلعه للتو.

جأر قائلًا: «أنا أقتل! أنا أقتل!»، وهو يضرب بهراوته الضخمة طائرات هيليوم خلال تحليقها فوق الخنادق.

على الرغم من اهتزاز الهودج بعنف، تشبث كارتر بالنافذة. كان يرى الجرذان تهبط بالعشرات، وتندفع بشراسة نحو القردة في الخنادق.

كان محاربو تارس تاركاس الخُضر هناك الآن أيضًا؛ يقاتلون بشكل مجيد بجانب قائدهم العظيم ذي الأربع أذرع.

بيد أن هراوة جووج الضخمة كانت تجز مائة مقاتل في كل مرة يضرب بها بالقرب من الأرض.

يجب إيقاف جووج بطريقة ما!

حاول جون كارتر الوصول للميكروفون الذي كان ينزلق في أنحاء الأرضية. لم يتمكن أول مرة، لكن أصابعه نجحت في الإمساك به في المرة الثانية.

صاح كارتر في الميكروفون: «جووج، توقف! توقف!». أوقف المخلوق الضخم، لاهثًا وهادرًا، مذبحته الشرسة. وقف منحنيًا، والكراهية الصارخة الحاقدة تموت ببطء في عينيه، بينما يستمر عنف المعركة عند قدميه.

تفرقت القرود تمامًا الآن. خرجت من الخنادق راكضة نحو الجبال، تلاحقها الجرذان الشريرة الشرسة، فضلًا عن محاربي تارس تاركاس الخُضر.

رأى كارتر سفينة كانتوس كان القيادية تحوم بالقرب من رأس جووج.

وخشية أن يوجه جووج إلى السفينة بحمولتها الثمينة ضربة غاضبة، أشار رجل كوكب الأرض إلى السفينة كي تبقى على ارتفاع كبير.

ثم تردد أمره مرة أخرى في الميكروفون.

- جووج، عليك أن تستلقي. عليك أن تستلقي!

استقر جووج على الأرض، مثل وحش جارح مُتعَب، وسط جثث مَن قتلهم.

قفز جون كارتر من الهودج إلى الأرض. كان لا يزال قابضًا على الميكروفون، الذي تم ضبطه على موجة قصيرة في جهاز وُضِع في أذن جووج.

صاح كارتر مرة أخرى: «جووج! اذهب إلى كورفاس. اذهب إلى كورفاس».

حملق الوحش في رجل كوكب الأرض، على مسافة تقل عن عشر أقدام من وجهه، وزمجر.

* * *

الفصل (14)

نهاية المغامرة

كرر رجل كوكب الأرض الأمر ثانية لجووج العملاق. تلاشت الزمجرة الآن من شفتَي الوحش، وخرج من صدره صوت لا يختلف عن التنهيدة وهو ينهض على قدميه مرةً أخرى.

استدار جووج ببطء، ومشى متثاقلاً عبر السهل في اتجاه كورفاس.

لم يكن قبل مرور عشر دقائق، بعد أن اندفع جنود هيليوم من مدينتهم وأحاطوا برجل كوكب الأرض وأميرتهم، أن رأى جون كارتر، وهو يحتضن ديجاه ثوريس بقوة بين ذراعيه، رأس جووج تختفي فوق الجبال على بُعد.

«لماذا تركته يذهب، يا جون كارتر؟»، سأل تارس تاركاس، وهو يمسح الدم من نصله على جلد حيوانه الثوات الذي يتصبب عرقًا.

كرر كانتوس كان: «نعم، لماذا، وكان في قبضتك؟».

استدار جون كارتر وألقى نظرة على ساحة المعركة.

أجاب جون كارتر: «إن كل الموت والدمار الذى حدث هنا اليوم لم يكن بسبب جووج، وإنما بسبب بيو موجل. جووج ليس مؤذيًا الآن، بعد أن مات سيده الشرير. لماذا نضيف موته إلى كل الآخرين، حتى لو كان بإمكاننا قتله - وهو ما أشك فيه؟».

ظل كانتوس كان يراقب الجرذان تختفي في الجبال البعيدة، سعيًا وراء القرود الضخمة الخرقاء.

وأخيراً قال بتعبير غريب على وجهه: «أخبرني يا جون كارتر، كيف تمكنت من الإمساك بتلك الفئران الشريرة، وتحميلها في سفن القوات، بل وربطها بأحزمة المظلات؟».

ابتسم جون كارتر، وقال: «كانت مسألة بسيطة حقًّا. لقد لاحظت في كورفاس، عندما كنت سجينًا في مدينتهم تحت الأرض، أنه لا توجد سوى وسيلة واحدة لدخول

الكهف الذي تعيش فيه الجرذان - نفق واحد يمتد لمسافة قبل أن يتفرع، على الرغم من وجود فتحات في السقف أعلاه؛ لكنها بعيدة المنال.

«لقد قُدّت رجالي إلى ذلك النفق، وأشعلنا حريقًا بدخان هائل من الحطام الموجود على الأرض أعلاه. حمل تيار الهواء الطبيعي الدخان إلى داخل الكهف.

«امتلأ المكان بالدخان لدرجة أن عشرات الجرذان فقدت الوعي بسبب نقص الأكسجين، فقد حالت النيران دون خروجها في النفق - وسيلتها الوحيدة للهرب. دخلنا بسهولة بعد ذلك، وسحبنا عدد الجرذان الذي نحتاجه وقمنا بتحميلها في سفن قواتنا».

صاح كانتوس كان: «ولكن، المظلات! كيف تمكنت من ربطها بظهورهم، أو منعهم من تمزيقها عندما استعادت تلك المخلوقات وعيها في النهاية؟».

أجاب رجل كوكب الأرض: «لم يستعيدوا وعيهم حتى اللحظة الأخيرة. أبقينا المقصورة الداخلية لكل سفينة من سفن القوات مليئة بما يكفي من الدخان لإبقاء الفئران فاقدة للوعي طوال الطريق إلى هيليوم. وبالتالي كان لدينا متسع من الوقت لنُعلِّق المظلات على ظهورهم. ولم تخرج الجرذان إلى الجو إلا بعد أن دفعها رجالي خارج السفن».

أومأ جون كارتر نحو المخلوقات التي أخذت تختفي في الجبال. وقال: «كانوا ممتلئين حيوية ويقاتلون بجنون عند وصولهم إلى الأرض، كما رأيت»، ثم أضاف: «لقد خرجوا ببساطة من أحزمة مظلاتهم عندما هبطوا، وقفزوا وراء أي شخص يرونه».

وختم كلامه قائلاً: «أما بالنسبة للمالاجور، فهي طيور – والطيور، سواء على كوكب الأرض أو المريخ، لا تحب الثعابين أو الجرذان. كنت أعرف أن هؤلاء الملاجور سوف يفضلون المناطق المحيطة الأخرى عندما يرون ويشمون رائحة أعدائهم الطبيعيين في الهواء من حولهم!».

نظرت ديجاه ثوريس إلى زعيمها، وابتسمت.

تساءلت قائلة: «هل كان يوجد مثل هذا الرجل من قبل؟ هل كل رجال كوكب الأرض مثلك؟».

احتفلت هيليوم كلها في تلك الليلة بانتصارها. اكتظت شوارع المدينة بالناس يضحكون. اختلط محاربو ثارك الخُضر الأقوياء بمحاربي جيش هيليوم المقاتل في أخوة مشتركة.

ونظّم القصر الملكي وليمة كبيرة تكريمًا لخدمات جون كارتر لهيليوم.

أما تاردوس مورس العجوز، الجَد، فقد كان منفعلاً ومتأثرًا لإنقاذ مدينته من أيدي عدوها، فضلاً عن عودة حفيدته سالمة، لدرجة أنه ظل للحظات غير قادر على التحدث، عندما نهض أمام مائدة الطعام لتقديم شكر المملكة إلى رجل كوكب الأرض.

وعندما تحدث أخيراً، صاغ كلماته ببساطة كحاكم عظيم مهيب. لمس قلب رجل كوكب الأرض بعمق ذلك الامتنان الشديد من هؤلاء الناس.

في وقت لاحق من تلك الليلة، وقف جون كارتر وديجاه ثوريس وحدهما على شرفة تطل على الحدائق الملكية.

حلّق قمرا المريخ بمهابة عبر السماء، ما أدى إلى سقوط ظلال الجبال البعيدة بجمال خلاب دائم التغيُّر فوق السهل والغابة.

واندمجت حتى ظلال الشخصين على الشرفة الملكية رويدًا، فأصبحا شخصًا واحدًا.

* * *

الرواية الثانية

رجال الهياكل العظمية في كوكب المُشترى

مقدمة

نادرًا ما أقرأ مقدمة أي كتاب، لا سيما أنني لا أحب المقدمات. مع ذلك، يبدو أنني نادرًا ما أكتب قصة دون فرض مقدمة طويلة يعاني منها قرائي. وأقوم أيضًا، في بعض الأحيان، بإدخال الطقس والمشاهد الطبيعية في أعمالي الكلاسيكية الخالدة؛ وهما مثالان آخران من الابتزاز الأدبي الذي أشجبه بوجه خاص في كتابات الآخرين. على أن هناك شيئًا يمكن قوله كتبرير جزئي للكتابة عن أحوال الطقس والمشاهد الطبيعية التي تسهم كثيرًا، بالإضافة إلى استخدم النعت، في تخفيف أعباء المؤلفين، وزيادة عدد كلمات مؤلفاتهم.

بيد أنه لا يوجد عذر يُذكر بالنسبة للمقدمات؛ ولن يوجد أي عُذر إذا كانت هذه القصة قصتي. لكنها ليست قصتي؛ إنها قصة جون كارتر، وأنا مجرد ناقل لها.

احترسوا! يمسك جون كارتر بسيفه في يده.

إدجار رايس بوروز

الفصل (1)

الخيانة

أنا لست عالماً. أنا مقاتل. السيف هو سلاحي المحبوب، ولم أرَ خلال حياتي الطويلة أي سبب لتغيير نظرياتي عن استخدامه الصحيح في العديد من المشاكل التي واجهتها. وهذا لا ينطبق على العلماء؛ فهم يتخلون باستمرار عن نظرية لصالح نظرية أخرى. قانون الجاذبية يدور حول النظرية الوحيدة التي صمدت طوال حياتي - وإذا بدأ كوكب الأرض فجأةً في الدوران بسرعة أكبر بسبع عشرة مرة من سرعة دورانه الآن، فسوف يخذلنا حتى قانون الجاذبية، وسنبحر جميعًا في الفضاء.

نظريات تجيء ونظريات تذهب – أعني النظريات العلمية. أتذكر نظرية سابقة عن أن الزمن والمكان يتحركان إلى الأمام باستمرار في خط مستقيم. وكانت هناك أيضًا نظرية مفادها أن الزمان والمكان غير موجودين – بل كل شيء يوجد في عين عقلك. ثم جاءت نظرية تطرح أن الزمان والمكان ينحنيان على أنفسهما. وقد يقدم لنا بعض العلماء غدًا كميات هائلة من الأوراق ومئات الأقدام المربعة من السبورات المغطاة بالمعادلات، والصيغ، والعلامات، والرموز، والرسوم البيانية، لإثبات أن الزمان والمكان ينحنيان متباعدين عن بعضهما. بعد ذلك، سوف يتهاوى الكون النظري حولنا، ويصبح علينا أن نبدأ مجددًا من الصفر.

ومثلي مثل العديد من المقاتلين، أميل إلى سرعة تصديق الأشياء التي تخرج عن نطاق مهنتي؛ أو اعتدت ذلك على الأقل. اعتدت أن أصدق كل ما يقوله العلماء. فقد اقتنعت، منذ فترة طويلة، برأي فلاماريون[384] أن المريخ صالح للسكنى ومأهول. ثم أقنعتني مدرسة من العلماء، أحدث وأكثر شهرة، أنه غير مأهول ولا صالح للسكنى. كنت مضطرًا إلى تصديقهم، دون أن أفقد الأمل، إلى أن جئت إلى المريخ لأعيش. وهم لا يزالون يصرون على أن المريخ غير صالح للسكنى أو مأهول، لكنني أعيش هنا. تبدو الحقيقة والنظرية متعارضتين. ومما لا شك فيه أن العلماء يبدون على صواب من الناحية النظرية. ومما لا جدال فيه، بالقدر نفسه، أنني على حق في الواقع.

وفي المغامرة التي على وشك أن أرويها، سوف يبدو الواقع والنظرية متعارضين ثانية. أكره أن أفعل هذا بأصدقائي العلماء الذين تطول معاناتهم. لكنهم إذا استشاروني

---

(384) نيقولاس كميل فلاماريون :(1842-1925) Nicolas Camille Flammarion مؤلف وكاتب وعالم فلك فرنسي – المترجمة.

أولاً فقط، بدلاً من طرح فروض نظرية جامدة لا تتفق والحماس الشعبي، فسوف يوفرون على أنفسهم الكثير من الإحراج.

* * *

كنت أجلس مع ديجاه ثوريس، أميرتي التي لا تُضاهى، على مقعد منحوت في إحدى حدائق قصرنا في هيليوم الصغرى عندما اقترب ضابط يرتدي جلود ضباط تاردوس مورس، جيداك هيليوم، وحيّانا.

قال: «مِن تاردوس مورس إلى جون كارتر، كاور! يطلب الجيداك حضورك على الفور في قاعة الجيداك في القصر الإمبراطوري في هيليوم الكبرى».

أجبته: «سأذهب حالاً».

سألني الضابط: «هل لي أن أطير بك يا سيدي؟ لقد أتيت في طائرة ذات مقعدين».

أجبته: «شكرًا. سأنضم إليك في الحظيرة بعد لحظات». حيّانا الضابط ثم انصرف.

سألتني ديجاه ثوريس: «مَن هذا الضابط؟ لا أذكر أنني رأيته من قبل».

- ربما كان أحد الضباط الجدد من زور، الذي كلفه تاردوس مورس بالعمل في حرس الجيداك. كانت لفتة منه ليؤكد لزور أن لديه ثقة

قصوى في ولاء تلك المدينة، وكوسيلة لعلاج الجروح القديمة.

تقع مدينة زور على بُعد حوالي ثلاثمائة وثمانين ميلاً جنوب شرق هيليوم، وهي واحدة من أحدث فتوحات هيليوم بعد أن أصابنا منها قدرًا كبيراً من المتاعب في الماضي بسبب الأفعال الخائنة بتحريض من أحد فروع عائلتها الملكية بقيادة الأمير مولتيس بار. منذ حوالي خمس سنوات، قبل وقوع الأحداث التي على وشك أن أرويها، اختفى مولتيس بار هذا؛ ومنذ ذلك الحين، لم تسبب لنا مدينة زور أي مشكلة. لا أحد يعرف ماذا آل إليه حال الرجل؛ وكان من المفترض أنه إما قام بالرحلة الأخيرة الطويلة عبر نهر

إيس[385] إلى بحر كوراس المفقود[386] في وادي دور[387]، وإما قبض عليه حشد من الرجال الخُضر المتوحشين وقتلوه. لم يهتم أحد بالأمر - ما حدث أنه لم يعُد أبدًا إلى زور، حيث كان مكروهًا تمامًا لغطرسته وقسوته.

قالت ديجاه ثوريس: «آمل ألا يُبقيك جدي المبجل طويلاً. لدينا بعض الضيوف على العشاء الليلة، وأتمنى ألا تتأخر».

قلتُ: «عدد قليل من الضيوف؟ كم؟ مئتان أو ثلاثمائة؟».

قالت ضاحكة: «لا تكن سخيفًا، عدد قليل فقط بالفعل».

قلتُ لها مؤكِدًا، وأنا أُقبِّلها: «ألف شخص يا عزيزتي، إذا كان هذا يرضيكِ. والآن، وداعًا! سأعود بلا شك في غضون ساعة»، كان ذلك قبل عام!

صعدتُ المنحدر المُفضي إلى الحظيرة على سطح القصر. ولسبب ما لا أعرفه، شعرت بتهديد وشيك؛ لكني عزوته إلى أن جلستي الحميمة مع أميرتي قد قُوطعت بسرعة.

إن الهواء الرقيق في كوكب المريخ الآخذ في الاحتضار يجعل الانتقال من النهار إلى الليل مفاجئًا بشكل مذهل بالنسبة إلى رجل قادم من كوكب الأرض. يرجع قِصر فترة الشفق إلى الانكسار الضئيل لأشعة الشمس. عندما تركت ديجاه ثوريس، كانت الشمس لا تزال مشرقة، على الرغم من انخفاضها. وكانت الحديقة في الظل، لكن ضوء النهار لا يزال موجودًا. عندما انتقلت من قمة المنحدر إلى ذلك الجزء من سطح القصر الذي يضم حظيرة الطائرات الخاصة للأسرة، حجب الشفق الخافت رؤيتي جزئيًّا. سرعان ما سيصبح المكان مظلمًا. تعجبت، لماذا لم يقم حارس الحظيرة بإضاءة الأنوار.

في اللحظة التي أدركت فيها وجود شيء ما خاطئ، أحاطت بي مجموعة من الرجال وتغلبوا عليَّ قبل أن أتمكن من سحب سيفي والدفاع عن نفسي. حذرني صوت طالبًا مني الصمت. كان صوت الرجل الذي استدعاني إلى هذا الفخ. وعندما تحدث

---

(385) نهر إيس: النهر الوحيد المتبقي على المريخ، و لعصور طويلة ظلت الأعراق المريخية الخضراء والحمراء تتخذ طواعية رحلة الحج إلى نهر إيس عند بلوغ سن ألف عام، حيث يعتقدون أنهم سيجدون عنده الحياة الأخرى - http://barsoom.wikia.com/wiki/River_Iss - المترجمة.

(386) كوراس: هو بحر مريخي مفقود. وكان يملأ المنطقة التي تُسمى وادي دور، في الأيام التي كانت فيها المياه وفيرة - https://barsoom.fandom.com/wiki/Korus - المترجمة.

(387) وادي دور: يقع عند نهاية نهر إيس المحيط ببحر كوراس المفقود - https://barsoom.fandom.com/wiki/Valley_Dor - المترجمة.

الآخرون، كان بلغة لم أسمعها من قبل. لغة رتيبة، كئيبة، جوفاء، وبلا تعبير، كأنها صادرة عن قبر.

ألقوا بي على الرصيف ووجهي إلى أسفل، وقيدوا معصميَّ وراء ظهري.

ثم قيدوا قدميَّ بخشونة. تمكنت الآن، وللمرة الأولى، أن أرى الخاطفين جيدًا. أصابني الفزع، ولم أستطع تصديق عينيَّ؛ فهذه المخلوقات ليست رجالًا، بل هياكل عظمية بشرية! أطلّت محاجر الأعين السوداء من الجماجم المبتسمة. أمسكت أصابع الهيكل العظمي بذراعي. بدا لي أنني أستطيع رؤية كل عظمة في كل جسم. ومع ذلك، كانت تلك الأشياء حية! كانت تتحرك، وتتحدث. جرّوني نحو طائرة

غريبة لم ألحظها من قبل. كانت تقع في ظلال الحظيرة؛ طائرة طويلة، نحيلة، شريرة. بدت كقذيفة ضخمة، ذات مقدمة مستديرة وذيل مستدق.

رأيت، في أول لمحة سريعة للطائرة، زعانف أمامية أسفل خط الوسط، وجنيحًا طوليًّا طويلاً (أو هكذا تصورته) يمتد لما يقرب من طول السفينة، ومصعدًا ودفة بتصميم غريب كجزء من تركيبة مجموعة الذيل. لم أرَ أي مراوح. لم يكن لديَّ متسع من الوقت لفحص الطائرة الغريبة بدقة؛ إذ سحبوني بسرعة خلال مدخل في جانبها المعدني. كانت مظلمة جدًّا من الداخل. لم أستطع رؤية أي شيء سوى الضوء الخافت لنهاية اليوم، الذي أراه من خلال فتحات طويلة وضيقة في جانب السفينة.

تبعني الرجل الذي خانني إلى السفينة مع الخاطفين. كان الباب مقفولاً ومُحكم الإغلاق؛ ثم ارتفعت السفينة بصمت في الليل. لم يظهر فيها أي ضوء، سواء في داخلها أو خارجها. ومع ذلك، كنت على يقين أن إحدى سفن الدورية التابعة لنا يجب أن تراها؛ وإن لم يكن هناك أكثر من ذلك، سيتمكن شعبي من تكوين فكرة عن اختفائي؛ وقبل الفجر، سوف تجوب ألف سفينة من بحرية هيليوم سطح برسوم وأجوائه العلوية بحثًا عني، ولا يمكن لأي سفينة بمثل حجم هذه السفينة أن تجد مكان اختباء لتهرب من أسطول هيليوم.

ما إن أصبحنا فوق المدينة التي كنت أرى أضواءها أسفلنا، حتى انطلقت الطائرة بسرعة مروعة. لا شيء على برسوم كان يمكنه اللحاق بها. تحركت بسرعة مذهلة وبصمت تام. كانت أنوار المقصورة مضاءة. جردوني من أسلحتي وأزالوا قيود يدي. نظرت بنفور، وبرعب، إلى المخلوقات العشرين أو الثلاثين الذين أحاطوا بي.

رأيت الآن أنهم ليسوا هياكل عظمية، على الرغم من أنهم يشبهون إلى حد كبير العظام العارية لرجال قتلى. كان جلدهم، الذي يشبه الجلود الرقيقة المخصصة للكتابة، مشدودًا بإحكام على البنية العظمية للجمجمة. ويبدو عدم وجود غضاريف أو دهون تحتها. واتضح أن ما تصورت أنه محاجر جوفاء للأعين، هو مجموعة عميقة من الأعين بُنية اللون دون وجود أي بياض. واندمج جلد الوجه مع ما كان يجب أن يكون اللثة في جذور الأسنان، التي كانت مكشوفة بالكامل في الفكين، تمامًا مثل أسنان جمجمة. ولم تكن الأنف سوى ثقب مفتوح في وسط الوجه. ولا توجد آذان خارجية، وإنما مجرد فتحتان. كما لا يوجد أي شعر على أي من الأجزاء المكشوفة من أجسادهم، ولا على رؤوسهم. كانت تلك المخلوقات أكثر بشاعة حتى من عِرق الكلدينيين البشع الذين يسكنون في منطقة بانتوم؛ أولئك الرجال العنكبوت المروعين الذين نصبوا شباكهم وأوقعوا تارا الهيليومية خلال تلك المغامرة التي قادتها إلى بلد لاعبي الشطرنج في المريخ[388] ؛ كانت أجسادهم جميلة، على الأقل، على الرغم من أنها لم تكن أجسادهم.

تتناسق أجسام الخاطفين تمامًا مع رؤوسهم - جلدهم الشبيه بجلود الكتابة يغطي عظام أطرافهم بإحكام، بحيث يصعب أن يقتنع المرء أنها ليست عظامًا حقيقية مكشوفة. والجلد مشدود بإحكام على جذوعهم، بحيث يبرز كل ضلع وكل فقرة في ارتياح عادي ومثير للاشمئزاز. وعندما وقفوا أمام ضوء ساطع مباشرة، رأيت أعضاءهم الداخلية.

لا يرتدون إلَّا شريطًا ضيقًا من القماش يغطي عوراتهم. أما عتادهم، فيشبه تمامًا ذلك الذي نرتديه نحن البرسوميين، وهو ليس غير عادي على الإطلاق؛ لأنه مُصمَّم لخدمة نفس الغرض: دعم السيف والخنجر والحقيبة.

أدرت وجهي مشمئزًا ونظرت إلى أسفل، إلى سطح القمر المغمور للمريخ الحبيب. ولكن أين نحن! كان كلوروس[389] ، القمر الأبعد، قريبًا من الكوة! لمحت سطحه خلال طيراننا السريع. قطعنا 14 ألف وخمسمائة ميل في أكثر من دقيقة بقليل! هذا مذهل.

جاء الرجل الأحمر، الذي تولى تنظيم أسري، وجلس بجانبي. كان وجهه الوسيم حزينًا. قال: «أنا آسف يا جون كارتر. ربما، إذا سمحت لي بالتوضيح، سوف تفهم على الأقل لماذا فعلت ذلك. لا أتوقع أن تسامحني أبدًا».

---

(388) يشير هنا إلى قصة «شطرنج المريخ»، وهي القصة الخامسة في سلسلة المريخ – المترجمة.

(389) كلوروس: أبعد قمري المريخ عن الكوكب الأم، ومعروف لدى سكان كوكب الأرض باسم القمر ديموس - http://barsoom.wikia.com/wiki/Cluros - المترجمة.

سألته: «إلى أين تأخذني هذه السفينة؟».

أجاب: «إلى ساسوم».

ساسوم! هذا هو الاسم المريخي لكوكب المشترى، الذي يبعد بمسافة 342 مليون ميل عن القصر، حيث تنتظرني ديجاه ثوريس!

* * *

الفصل (2)

يودان

جلست لبعض الوقت في صمت، أحدق في فراغ الفضاء الأسود بلون الحبر، كخلفية جهنمية تتألق عليها النجوم والكواكب بإشراق شديد وثابت دون أن تتلألأ. كنت أرى، من الكوة أو الميمنة، من أعلى، ومن أسفل، السماء تحدق نحوي بأعين لا تومض - الملايين من الأعين البيضاء الحارة النافذة. أنهكت العديد من الأسئلة ذهني. هل اختاروني خصيصًا للإمساك بي؟ إذا كان الأمر كذلك، لماذا؟ كيف تمكنت هذه السفينة الكبيرة من دخول هيليوم، والاستقرار على منصة الهبوط فوق سطح قصري في وضح النهار؟ مَن هذا الرجل الحزين الذي اعتذر، وقادني إلى مثل هذا الفخ؟ لا يمكن أن يوجد لديه أي شيء ضدي شخصيًّا، فلم يسبق أن رأيته يدخل حديقتي.

وقد كان هو مَن كسر الصمت، كما لو أنه قرأ أفكاري. قال: «أنت تتساءل عن سبب وجودك هنا، يا جون كارتر. إذا كنت صبورًا، سوف أخبرك. اسمح لي بداية أن أقدم نفسي. أنا يو دان، بادوار[390] سابق في حرس زوو تيث، جيداك زور، الذي قُتل في المعركة عندما أطاحت هيليوم بحُكمه المستبد وضمت المدينة.

«كنت متعاطفًا مع هيليوم تمامًا، ورأيت مستقبلاً رائعًا وسعيدًا لمدينتي الحبيبة عندما تصبح جزءًا من إمبراطورية هيليوم العظيمة. وقد قاتلت ضد هيليوم لأن واجبي تحت القسم أن أدافع عن الجد[391] الذي أكرهه - وحش الاستبداد والقسوة – لكنني، عندما انتهت الحرب، أقسمت بكل سرور بالولاء لتاردوس مورس، جيداك هيليوم.

«لقد تربيت في قصر الجِد بأقصى حميمية مع أفراد العائلة المالكة. كنت أعرفهم جميعًا جيدًا، لا سيما الأمير مولتيس بار، الذي كان سيصل إلى العرش في مسار الأحداث الطبيعي. كان من نوع والده، زو تيث - متغطرس، قاس، مستبد بطبيعته. وبعد سقوط زور، سعى إلى إثارة الشقاق وتحريض الشعب على الثورة. وعندما فشل، اختفى. كان ذلك قبل حوالي خمس سنوات.

«أعرف فردًا آخر في العائلة المالكة معرفة جيدة؛ وهي امرأة اسمها فاجا، وكانت على عكس زو تيث ومولتيس بار – تمامًا مثلما النهار على عكس الليل. وهي ابنة عم

(390) بادوار: رتبة مريخية تُعادل رتبة مُلازم - http://barsoom.wikia.com/wiki/Padwar - المترجمة.

(391) جِد: الجِد هو لقب قائد مدينة أو جماعة - http://barsoom.wikia.com/wiki/Jed - المترجمة.

مولتيس بار. لقد أحببتها، وأحبتني. كان سنتزوج. لكن فاجا اختفت في ظروف غامضة، بعد حوالي عامين من اختفاء مولتيس بار».

لم أفهم لماذا يخبرني بهذا كله. فأنا بالتأكيد لست مهتمًّا بعلاقاته العاطفية. لم أكن مهتمًّا به هو نفسه، وكنت أقل اهتمامًا بمولتيس بار، لكنني استمعت.

تابع قائلاً: «بحثت عنها. وقدم لي حاكم زور كل مساعدة ممكنة في حدود سلطته، ولكن دون جدوى. وفي إحدى الليالي، كنت بمفردي في مسكني عندما دخل مولتيس بار. لم يضيع أي وقت، ودخل في الموضوع مباشرة. قال: «أعتقد أنك تتساءل عما حدث لفاجا».

«عرفت حينذاك أن له دورًا فعالاً في اختطافها؛ وخشيت الأسوأ، لأنني أعرف نوع هذا الرجل. سحبت سيفي وسألته: «أين هي؟ أخبرني، إذا كنت ترغب في العيش».

«ضحك عليَّ وقال: «لا تكن أحمقَ. إذا قتلتني لن تراها ثانية. ولن تعرف حتى أين هي. عليك أن تعمل معي، وعندئذ يمكنك أن تستعيدها. وإنما عليك أن تعمل بسرعة، فقد بدأت أقع في حبها. هذا غريب»، ثم أضاف وهو يتذكر: «كان بإمكاني أن أعيش لسنوات في نفس القصر معها دون أن أرى سحرها، العقلي والبدني – لا سيما البدني»«.

سألته: «أين هي؟ وإذا كنت قد آذيتها، أيها الوحش ...».

«قال: «لا تشتمني، يا يو دان. إذا ضايقتني كثيرًا، قد احتفظ بها لنفسي وأجد شخصًا آخر غيرك ليساعدني في تنفيذ الخطة التي جئت لأشرحها لك. اعتقدتُ أنك ستكون أكثر عقلانية. لقد كنت رجلاً عاقلاً جدًّا؛ لكن الحب يلعب، بطبيعة الحال، حيلاً غريبة في ذهن الرجل. أنا بدأت أعرف ذلك في حالتي الخاصة». أطلق ضحكة صغيرة كريهة، ثم تابع قائلاً: «ولكن، لا تقلق. فهي آمنة تمامًا – حتى الآن. أما إلى أي مدى سيستمر أمانها، فهذا يتوقف عليك كليًّا»«.

سألته: «أين هي؟».

أجاب: «حيث لا يمكنك الوصول إليها دون مساعدتي».

قلت: «سأجدها إذا كانت في أي مكان على برسوم كلها».

أجاب: «لكنها ليست في برسوم، إنها في ساسوم».

قلت له: «أنت تكذب، يا مولتيس بار».

هز كتفيه بلا مبالاة، ثم قال: «ربما تصدقها هي»، وسلمني رسالة كانت بالفعل من فاجا. أتذكر رسالتها كلمة بكلمة:»

«يبدو لك شيئًا لا يُصدّق أنني سجينة في ساسوم. لقد وعد مولتيس بار أن يأتيني بك إلى هنا إذا قمت بما تسميه خدمة صغيرة له. أنا لا أعرف ما الذي سيطلبه منك. وإنما، ما لم يكن من الممكن القيام به بشرف، لا تفعل ذلك. أنا في أمان وسالمة».

سألته: «ماذا تريدني أن أفعل؟».

«لن أحاول اقتباس كلماته بالضبط؛ لكن هذا ما قاله لي، في الواقع: يرجع سبب اختفاء مالتيس بار من زور إلى القبض عليه من جانب رجال من ساسوم. فقد كانوا يأتون لفترة إلى هذا الكوكب للاستطلاع، وفي ذهنهم غزو برسوم في النهاية».

«سألته عن السبب، وأوضح أنهم ببساطة عِرقًا مُحبًّا للحرب. كانت كل أفكارهم تدور عن الحرب، وامتد ذلك لعصور إلى أن أَصبحت الروح الحربية قوية بمثل قوة الرغبة في الحفاظ على الذات. لقد غزوا جميع الشعوب الأخرى على ساسوم، ويسعون إلى غزو عالَم جديد».

«وقد قبضوا عليه ليعرفوا منه ما يمكنهم من التسليح والفعالية العسكرية لمختلف دول برسوم، وقرروا أنه بما أن هيليوم هي الأقوى، فهي التي سيهبطون عليها. ويتصورون أنهم بمجرد التغلب على هيليوم، سوف يسهل التغلب على باقي برسوم».

سألته: «وأين موقعي في مخططهم هذا؟».

أجاب يو دان: «سوف أصل في حديثي إلى ذلك. إن المورجور شعب دقيق وكفء. فهم لا يهملون أي تفاصيل صغيرة قد تؤثر على نجاح الحملة أو فشلها. ولديهم بالفعل خرائط ممتازة لبرسوم، وبيانات كثيرة عن أساطيل الأمم الرئيسة وتسليحها. وهم يرغبون الآن في التحقق من هذه البيانات والحصول على معلومات كاملة عن تقنيات هيليوم الحربية، ويتوقعون معرفة ذلك منك. وسوف يتمكنون من ذلك».

ابتسمت قائلاً: «ليس بمقدورهم ولا بمقدورك تقييم شرف وولاء شخص هيليومي تقديرًا كبيرًا».

ظهرت ابتسامة حزينة على شفتيه. وقال: «أعرف كيف تشعر. فقد شعرت بنفس الطريقة – حتى أسروا فاجا وأصبحت حياتها ثمن رضوخي. ولم أوافق على المساعدة

في هذا الفخ للقبض عليك إلا لإنقاذها. المورجور بارعون في علم النفس الفردي والجماعي، وكذلك في فن الحرب».

سألته بإيماءة إلى تلك المخلوقات البغيضة: «وهل هذه الأشياء هي المورجور؟». أومأ يو دان. قلت: «أستطيع أن أُقدر الموقف الذي وُضِعت فيه، لكن المورجور ليس لديهم أيَّ شيء ضدي».

قال يو دان: «انتظر».

سألته: «ماذا تعني؟».

- انتظر فقط. سوف يجدون طريقة. إنهم شياطين. كان يستحيل أن يقنعني أحد، قبل أن يأتي لي مولتيس بار باقتراحه، أنني سوف أُجبر على خيانة رجل أكن له الإعجاب - أنا وجميع الرجال المحترمين - مثلك يا جون كارتر. ربما أكون قد أخطأت، لكني ضعفت واستسلمت عندما علمت أن فاجا سوف تتعرض للتعذيب والتشويه بعد أن اغتصبها مولتيس بار، وحتى عندئذ لم يسمح لها بالموت وإنما أبقاها للتعذيب في المستقبل. لا أتوقع منك أن تسامحني، وإنما آمل أن تتفهم موقفي.

قلت: «أنا أتفهم موقفك. وربما فعلت نفس الشيء، في ظل ظروف مماثلة». رأيت كيف ضميره يعذبه بشكل رهيب. ورأيت أنه رجل شريف في الأساس. يمكنني أن أسامحه على ما فعله لمخلوق بريء يحبه، ولكن هل يتوقع مني أن أخون بلدي، أخون عالمي كله، لإنقاذ امرأة لم أرها من قبل. ومع ذلك، كنت منزعجًا. بصراحة، لم أكن أعرف ما يجب أن أفعل عندما أواجه القرار النهائي. قلت: «إذا وجدت نفسي في وضع مماثل لوضعك، فعلى الأقل سوف أُظهر لهم الامتثال بينما أعمل سرًّا على هزيمة أهدافهم».

قال: «وهذا ما فكرت فيه. إنها آخر قشة أتمسك بها احترامًا لنفسي. ربما أتمكن، قبل فوات الأوان، من إنقاذ فاجا وإنقاذك».

قلت: «ربما يمكننا أن نعمل معًا لتحقيق هذه الغاية وإنقاذ هيليوم. على الرغم من أنني لست قلقًا كثيراً بالفعل على هيليوم. فهي تستطيع الاعتناء بنفسها».

هز رأسه. قال: «ليس إن صح ولو جزء مما قاله مولتيس بار؛ أنهم سيأتون في الآلاف من هذه السفن، غير المرئية لسكان برسوم. ربما يتولى مليونان منهم غزو هيليوم واجتياح مدينتيها الرئيستين قبل أن يدرك ساكن واحد أن هناك عدوًّا يهدد أمنهم. وسوف يأتون بأسلحة فتاكة لا يعرف البرسوميون عنها شيئًا، وبالتالي لا يستطيعون محاربتها».

صحت: «سفن غير مرئية! لقد رأيت هذا بوضوح بعد أن قبضوا علي».

«نعم»، قال، «لم تكن غير مرئية في ذلك الوقت، لكنها أصبحت غير مرئية عندما خرجت في وضح النهار أسفل مقدمات سفن الدورية الخاصة بكم، وهبطت في أحد أبرز الأماكن في هيليوم الصغرى. لم تكن خفية عندما رأيتها لأول مرة؛ لأنها ألغت خفاءها، أو بالأحرى ألغى المورجور خفاءها حتى يتمكنوا من العثور عليها مرة أخرى، لأنها ستكون غير مرئية بالنسبة لهم كما هي بالنسبة لنا».

سألته: «هل تعرف كيف يتحولون إلى وضع الخفاء؟».

أجاب يو دان: «مولتيس بار شرح لي. سأحاول أن أشرح لك؛ لكني لست عالمًا، وإنما أعتقد أنني أتذكر بشكل صحيح تقريبًا ما أخبرني به. يبدو أنه توجد على بعض شواطئ المحيط في ساسوم رمال مغناطيسية دون مجهرية، تتكون من بلورات منشورية. وعندما يرغب المورجور في تحويل سفينة إلى وضع الخفاء، يقومون بمغنطة هيكلها؛ ومن فتحات صغيرة لا تُعد ولا تُحصى في الهيكل، يغطون الجزء الخارجي كله من السفينة بهذه البلورات المنشورية. يرشون تلك البلورات ببساطة، وهي تستقر على شكل سحابة فوق الهيكل، مما يتسبب في انحناء أشعة الضوء حول السفينة. وبمجرد إزالة مغنطة هيكل السفينة، تسقط هذه الجسيمات الصغيرة، الخفيفة كالهواء، أو تنفجر. وعلى الفور تصبح السفينة مرئية ثانية».

اقترب مورجور الآن وقاطع حديثنا. كان أسلوبه متغطرسًا ووقحًا. لم أستطع فهم كلماته؛ لأنه تحدث بلغته الجوفاء التي تبدو صادرة من قبر، وكنت قد لاحظتها من قبل.

أجاب يو دان بنفس اللغة، وإنما بنبرة أقل حيوية. ثم التفت نحوي.

قال بابتسامة ساخرة: «سيبدأ تعليمك على الفور».

سألته: «ماذا تعني؟».

أوضح قائلاً: «عليك أن تتعلم لغة المورجور خلال هذه الرحلة».

سألته: «وما طول هذه الرحلة؟ يتطلب الأمر حوالي ثلاثة أشهر لتعلُّم

أي لغة جيدًا بما يكفي لفهمها والتحدث بها على نحو مفهوم».

«سوف تستغرق الرحلة حوالي ثمانية عشر يومًا، حيث علينا الالتفاف في الطريق لحوالي مليون ميل لتجنب الكويكبات التي يصدف أن تقع مباشرة في طريقنا».

سألته: «وهل من المفترض أن أتعلم لغتهم في ثمانية عشر يومًا؟».

أجاب يو دان: «ليس من المفترض فقط، وإنما سوف تتعلمها خلال تلك المدة».

* * *

الفصل (3)

المورجور من ساسوم . . .

بدأ تعليمي. كان وحشيًّا بشكل لا يمكن تصوره، لكنه أكثر فعالية. تبدّل عليَّ المدربون، وبالكاد ما أعطوني وقتًا لتناول الطعام أو النوم. ساعدنا يو دان كمترجم فوري، وكان مفيدًا للغاية بالنسبة لي، كما أنني كنت سريعًا جدًّا في تعلُم لغات جديدة. كانت تتغلب عليَّ أحيانًا قلة النوم، بحيث يتأخر ذهني عن الاستيعاب، وتصبح ردودي بطيئة وغير دقيقة. وفي إحدى هذه المرات، قام المورجور الذي يعلمني بصفع وجهي. تحملت كل شيء آخر؛ لحرصي الشديد على تعلُّم لغتهم - فهي ضرورة حيوية إذا أردت التأقلم معهم وإحباط خطتهم الهائلة للغزو. بيد أنني لم أستطع تحمل تلك الصفعة؛ فوجهت للزميل ضربة واحدة قذفت به عبر المقصورة تمامًا، لكنني كسرت يدي تقريبًا عندما وجهتها ضد فكه العظمي غير المُبطن.

لم يقم، بل رقد حيث سقط. تقدم نحوي العديد من زملائه، يمتشقون سيوفهم. بدا الوضع سيئًا؛ لأنني أعزل. ارتعب يو دان. ولحسن حظي، جذبت الضجة الضابط قائد السفينة، وجاء في الوقت المناسب وأبعد رجاله، ثم طلب تفسيراً.

كنت قد أتقنت الآن كلمات كافية من لغتهم فأتمكن من فهم كل شيء تقريبًا يقولونه لي، وأن أعبر عن نفسى بشكل مفهوم لهم بطريقة معينة. أخبرت الزميل أنني كنت جائعًا ومحرومًا من النوم ولم أتذمر، ولكن لا يمكن لرجل أن يضربني دون أن يعاني من عواقب ذلك.

أجاب: «ولا يوجد مخلوق من رتبة أدنى يمكنه أن يضرب أحد المورجور دون أن يعاني من عواقب ذلك».

سألته: «وماذا ستفعل حيال ذلك؟».

أجاب: «لن أفعل أي شيء حيال ذلك. الأوامر التي تلقيتها تتطلب مني أن أحضرك حيًّا إلى يوروبوس[392] . وبعد أن أصل بك إلى هناك وأبلغ عن تصرفاتك، سوف يقع تحديد عقابك ضمن سلطة باندوليان التقديرية»؛ قال ذلك ثم ابتعد، لكنهم أحضروا إليَّ الطعام وسمحوا لي بالنوم. لم يضربني أي مورجور آخر طوال ما تبقى من الرحلة.

---

(392) يوروبوس: اسم كوكب المشتري بلغة سكانه – المترجمة.

سألت يو دان، خلال تناولي الطعام، عن يوروبوس. وأجاب: «إنه الاسم الذي يطلقونه على كوكب ساسوم».

- ومن هو باندوليان؟

- حسنًا، أعتقد يُطلَق عليه جيداك في برسوم. وأقول ذلك انطلاقًا من الإشارات العديدة التي سمعتهم يتفوهون بها حوله. على أي حال، يبدو أنه كائن مخيف إن لم يكن مُبجّلاً.

شعرت بالانتعاش بعد فترة نوم طويلة. أصبح كل ما تعلمته واضحًا مرة أخرى في ذهني، ولم يعُد الإرهاق يستنفده. ثم أخذ القائد على عاتقه اختباري شخصيًّا. وأنا على يقين أنه فعل ذلك لغرض وحيد، وهو أن يجد أي خطأ وربما يعاقبني. كان شريرًا ومتغطرسًا للغاية. طرح أبسط أسئلته في البداية بلغة ساخرة؛ وأخيرًا تركني، ومن الواضح أنه شعر بخيبة أمل. لم يعطوني المزيد من الدروس.

قال يو دان: «لقد قمت بعمل جيد. أتقنت لغتهم جيدًا على نحو يناسبهم، وذلك في فترة قصيرة جدًّا».

كان هذا هو اليوم الخامس عشر. تركوني وشأني خلال الأيام الثلاثة الأخيرة الباقية. يتسم السفر عبر الفضاء برتابة غبية. بالكاد ما نظرت خلال الكوات لعدة أيام. غير أن ذلك يرجع أساسًا إلى تكريس وقتي باستمرار للتعليم؛ أما الآن، مع عدم وجود أي شيء آخر أفعله، أخذت أتطلع من الكوات. قدّم مشهدًا رائعًا نفسه أمام عينَي المندهشة. يلوح أمامي كوكب المشتري، فائق الجمال، بكل ضخامته المهيبة. كانت خمسة من كواكبه مرئية بوضوح في السماء. بمقدوري حتى رؤية

الكوكب الصغير الأقرب إليه، والذي يبلغ قطره ثلاثين ميلاً فقط. ورأيت خلال اليومين التاليين، أو على الأقل اعتقدت أنني رأيت، جميع الأقمار الخمسة المتبقية. زاد حجم المشترى، وزادت مهابته. فقد كنا نقترب منه بسرعة كبيرة جدًّا، بلغت ثلاثة وعشرين ميلاً في الثانية؛ وإنما لا يزال أمامنا حوالي مليوني ميل.

بعد أن تحررت من رتابة دروس اللغة، استبد الفضول بذهني مرة أخرى. كيف يمكن أن توجد الحياة على كوكب زعمت إحدى مدارس الفكر العلمي أن درجة حرارة سطحه تبلغ 260 درجة تحت الصفر، بينما زعمت مدرسة أخرى بنفس القدر من التأكيد أنه لا يزال في حالة نصف انصهار وحار جدًّا بحيث تتصاعد الغازات كبخار ساخن إلى غلافه الجوي السميك والدافئ لتسقط كمطر مستمر؟ كيف توجد الحياة البشرية في جو

يتكون إلى حد كبير من الأمونيا وغازات الميثان؟ وماذا عن تأثير جاذبية الكوكب الهائلة؟ هل ستقدر ساقاي على دعم وزني؟ وإذا وقعتُ، هل سأتمكن من النهوض ثانية؟

وهناك سؤال آخر طرح نفسه على ذهني، سؤال يتعلق بقوة الدفع التي حملتنا عبر الفضاء بسرعات مذهلة لمدة سبعة عشر يومًا. سألت يو دان إذا كان يعرف.

إنهم يستخدمون الشعاع البرسومي الثامن - ما نعرفه باسم شعاع الدفع – بالإضافة إلى قوى الجاذبية شديدة التركيز من جميع الأجرام السماوية في نطاق جذبها الذي تمر به السفينة، فضلاً عن شعاع L المُركّز (الأشعة الكونية) الذي يجري جمعه من الفضاء وتفريغه بسرعات عالية من أنابيب الدفع في مؤخرة السفينة. يساعد الشعاع البارسومي الثامن على إكساب السفينة سرعتها الأولية عند مغادرة الكوكب، وكفرملة لسرعتها الهائلة عند اقترابها للهبوط على كوكب آخر. أما قوى الجاذبية، فهي تُستخدم لزيادة السرعة وتوجيه السفينة. ويكمن سر نجاح هذه السفن بين الكواكب في الأساليب البارعة التي تمكنوا من تطويرها لتركيز هذه القوى المختلفة وتوجيه طاقاتها الهائلة.

قلت: «شكرًا، يو دان. أعتقد أنني فهمت الفكرة العامة. ومن المؤكد أنها ستُفاجئ بعض أصدقائي العلماء على كوكب الأرض».

قادتني إشارتي العابرة إلى العلماء للتفكير في تراكم النظريات الهائل الذي كنت على وشك رؤيته مبعثرًا، عند هبوطي على المشترى، خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة. لا بد أن الكوكب صالح للسكن لعِرق مشابه تمامًا لعِرقنا. يوجد لدى هؤلاء الناس رئتان، وقلب، وكليتان، وكبد، وأعضاء داخلية أخرى مشابهة لأعضائنا. أعرف ذلك كحقيقة؛ فقد كنت أرى هذه الأعضاء الداخلية في كل مرة يقف فيها أحد المورجور بيني وبين ضوء ساطع. كان جلدهم، الذي يشبه جلود الكتابة، رقيقًا وشفافًا للغاية، ويمتد بإحكام على أجسامهم. أخطأ العلماء مرةً أخرى. شعرت بالأسى تجاههم؛ فقد أخطأوا لمرات عديدة، وكان عليهم الاعتذار بخنوع. هناك، على سبيل المثال، أولئك العلماء، الذين تشبثوا بالنظام البطلمي للكون[393] ؛ وأولئك الذين جادلوا، بعد أن اكتشف جاليليو أربعة من أقمار المشترى في عام 1610، بسخافة هذه الاكتشافات المزعومة، وكانت حجتهم أن لدينا سبع فتحات في الرأس - أذنان، وعينان، وفتحتا أنف، وفم – وبالتالي لا يمكن أن يوجد في السماء سوى سبعة كواكب. وبعد أن رفضوا مزاعم جاليليو السخيفة بهذه الطريقة العلمية، تسببوا في إلقائه في السجن.

---

(393) النظام البطلمي للكون، ويُسمى أيضًا مركزية الأرض، هو النظام الذي وضعه بطليموس (حوالي 100م – حوالي 170)، ويعتبر أن كوكب الأرض ثابت ويقع في مركز الكون – المترجمة.

بدأت السفينة في التباطؤ تدريجيًّا استعدادا للهبوط، عندما أصبحت على مسافة حوالي خمسمائة ألف ميل من المشتري. وبعد ثلاث أو أربع ساعات، دخلنا غلاف السحابة الكثيفة التي تحيط بالكوكب. والآن بالكاد ما تتحرك السفينة زاحفة، بسرعة لا تزيد على ستمائة ميل في الساعة.

كنت متشوقًا لرؤية سطح كوكب المشتري. ونفد صبري من الوقت الذي استغرقته السفينة لعبور الغلاف، حيث لم نستطع رؤية أي شيء على الإطلاق.

اخترقنا الغلاف أخيرًا، ويا له من مشهد انكشف أمام عينيَّ المندهشتين! يكمن عالَم عظيم في أسفل، يُنيره ضوء أحمر غريب يبدو منبعثًا من السطح الداخلي للسحابة التي تغلفه، ويلقي ببريق وردي فوق جبل، وتل، ووادٍ، وسهل، ومحيط. لم أستطع بأي حال في البداية معرفة ما يتسبب في هذه الإضاءة الشاملة؛ ولكنَّ عينيَّ انتقلتا حاليًا إلى بانوراما رائعة في أسفل، حيث رأيت على مسافة بركانًا هائلاً تتصاعد منه نيران عملاقة إلى ارتفاع يبلغ آلاف الأقدام. وقد علمت لاحقًا أن قُطر فوهة هذا العملاق يبلغ مائة ميل، كما تمتد على طول خط الاستواء في الكوكب سلسلة من تلك المشاعل العملاقة لنحو ثلاثين ألف ميل، بينما يتناثر البعض الآخر على سطح الكوكب بأكمله، بما يمنح الضوء والحرارة إلى عالَم كان سيبدو مظلمًا وباردًا من دونها.

ومع انخفاض السفينة، رأيت ما يبدو أنه المدن، وتقع جميعها على مسافة بعيدة من هذه الفوهات. رأيت في الجو العديد من السفن المماثلة لتلك التي جلبتني من المريخ. كان بعضها صغيرًا جدًّا، وكان البعض الآخر أكبر بكثير من تلك التي أصبحت مألوفة لي. اقتربت منا سفينتان صغيرتان، وأبطأنا إلى درجة التوقف تقريبًا. ومن الواضح أنهما من سفن الدورية. انطلقت بنادق نحونا من عدة كوات. كانت إحدى السفن تقع على مسافة قصيرة منا، وجاءت السفينة الأخرى بجوارنا. رفع قائدنا فتحة في السطح العلوي للسفينة، فوق غرفة التحكم، وأخرج رأسه. وانفتح باب في جانب سفينة الدورية، وظهر ضابط. تبادل الاثنان بضع كلمات؛ ثم قدم قائد سفينة الدورية التحية وأغلق الباب الذي خرج منه. تحركنا قُدُمًا. حدث ذلك كله على ارتفاع حوالي خمسة آلاف قدم.

نهبط الآن حلزونيًّا ببطء نحو مدينة كبيرة. علمت في ما بعد أنها تغطي مساحة تصل إلى حوالي أربعمائة ميل مربع. كانت مُسورة بالكامل، وأسوارها ومبانيها بلون واحد هو البني الداكن، وكذلك أرصفة الطرق. كانت مدينة كئيبة وبغيضة، وبُنيت بالكامل من الصخور البركانية. لم أرَ داخل حدودها أي علامة على حياة نباتية - لا رقعة من المرج، ولا شجيرة، ولا شجرة؛ لا يوجد لون لتخفيف رتابة البني الكئيب.

كانت المدينة مستطيلة تمامًا، يوجد محور طويل يمتد لحوالي خمسة وعشرين ميلاً، ويبلغ عرضه حوالي ستة عشر ميلاً. وكانت الطرق مستقيمة تمامًا وتبعد عن بعضها بمسافات متساوية، وتقطع المدينة إلى كتل مُربعة متطابقة لا تُعد ولا تحصى. وكانت جميع المباني على شكل مستطيلات مثالية، على الرغم من أنها لم تكن بنفس الحجم أو الارتفاع – وهو الشيء الوحيد الذي يكسر الرتابة المُحبِطة في هذه المدينة القاتمة.

حسنًا، لم تكن الاستثناء الوحيد: فهناك مساحات مفتوحة لا تضم أي بنايات - ربما ميادين أو ساحات للعروض. بيد أنني لم ألحظها إلا عندماهبطنا لمسافة كبيرة فوق المدينة؛ ذلك أنها كانت مرصوفة بنفس الصخور البنية الداكنة. كان مظهر المدينة كئيبًا، مثل مظهر مدينة سولت لايك[394] من الجو في يوم ملبد بالغيوم في شهر فبراير. كانت الراحة الوحيدة من هذا الشعور الدائم بالكآبة هو الضوء الوردي الذي ساد المشهد: انعكاس لهيب البراكين العظيمة من السطح الداخلي لغلاف السحابة؛ هذا، والنمو الوافر للخضرة الاستوائية وراء أسوار المدينة – نباتات غريبة لا تنمو على كوكب الأرض، ذات ألوان غريبة غير معروفة على كوكب الأرض.

رافقتنا سفينتا الدورية، وهبطنا الآن برفق في مساحة كبيرة مفتوحة بالقرب من وسط المدينة، واستقرت سفينتنا بالقرب من صف من حظائر الطائرات التي تضم العديد من السفن الفضائية المشابهة لسفينتنا.

أحاطنا على الفور فصيل من المحاربين؛ ولدهشتي الكبيرة، رأيت عددًا من البشر يشبهونني كثيراً من حيث المظهر، إلا أن بشرتهم كانت أرجوانية. كانوا غير مسلحين، وعارين تمامًا باستثناء قطعة قماش تضم شريطًا ضيقًا لتغطية عوراتهم، ولا يرتدون عتادًا مثل ذلك الذي يرتديه المورجور. بمجرد هبوطنا، سحبوا السفينة إلى الحظيرة. كانوا عبيدًا.

لم يتبادل المورجور العائدين وأولئك الذين خرجوا لمقابلة السفينة أي تحية. قدم الضابطان القائدان التحايا لبعضهما، وتبادلا بعض الكلمات العسكرية الروتينية. أعطى قائد سفينتنا اسمه، وكان هاجليون، ثم اسم سفينته، وذكر أنه عائد من المريخ - وأطلق عليه اسم جاروبوس. ثم كلّف عشرة من رجاله لمرافقته كحراس لنا، أنا ويو دان. أحاطوا بنا، ومشينا من موقع الهبوط في أعقاب هاجليون.

قادنا على طول شارع واسع مليء بالمشاة وحركة المرور. لا يوجد على أرصفة المشاة سوى المورجور؛ بينما يسير الأشخاص ذوي البشرة الأرجوانية في قنوات

(394) عاصمة ولاية يوتا الأمريكية، وأكبر مدنها سكانًا - المترجمة.

البالوعات. وهناك العديد من المورجور الذين يمتطون مخلوقات ضخمة ومثيرة للاشمئزاز، ولديها عدد لا نهائي من السيقان. ذكّروني بأم أربع وأربعين ضخمة؛ حيث ترتبط أجسامهم بشكل مماثل، ويبلغ طول كل مفصل حوالي ثماني عشرة بوصة. وكانت رؤوسهم سمكية وقبيحة للغاية، والفكان مُجهزان بالعديد من الأسنان الطويلة الحادة. ومثلها مثل جميع حيوانات المشتري البرية تقريبًا، كما عرفت لاحقًا، كانت ذات حوافر؛ ومن الواضح أن حوافرها أصبحت ضرورية نتيجة وجود مساحات كبيرة من الحمم البركانية المتصلبة على سطح الكوكب، وكذا أجزاء من صخور الحمم البركانية التي تتغلغل في التربة.

كانت بعض المخلوقات تتسم بطول كبير، بحيث يجلس على ظهورها عشرة أو اثنا عشر مورجور. ضم الشارع أيضًا وحوشًا أخرى مخصصة لحمل الأغراض. كانت أشكالها غريبة، غير معروفة في كوكب الأرض. لكني لن أضجرك بوصفها هنا.

تطير فوق الطريق طائرات صغيرة في الاتجاهين. وهكذا يستوعب الطريق العديد من الناس؛ أناس يتسمون بالغرابة والصرامة، ونادرًا ما يتكلمون، وبقدر ما رأيت لا يضحكون أبدًا. ربما قاموا - كما بدا عليهم بالفعل - من قبور حزينة ليهزوا عظامهم في حياة وهمية في مقبرة مدينة الموتى.

مشيت أنا ويو دان في قناة البالوعة، وبالقرب من كل منا حارس يسير على رصيف المشاة. لم نكن صالحين بما يكفي للسير حيث يسير المورجور! قادنا هاجليون إلى ساحة كبيرة محاطة بمبانٍ كبيرة الحجم، لكنها تفتقر إلى الجمال. كان القليل منها عبارة عن أبراج ترتفع متفاخرةً – بعضها قصير وبعض طويل، وكلها قبيحة. بدا أنها بُنيت بطريقة تجعلها قادرة على التحمل على مر العصور.

قادونا إلى أحد هذه المباني، يقف حارس واحد أمام مدخله. تحدث إليه هاجليون. استدعى الحارس ضابطًا من داخل المبنى، وبعدها دخلنا جميعًا. كتبوا أسماءنا وأوصاف كل منا في دفتر كبير. أعطوا هاجليون إيصالاً باستلامنا، وبعد ذلك غادر هو ومرافقنا الأصلي.

أصدر حارسنا الجديد تعليمات إلى العديد من المحاربين الذين كانوا في الغرفة؛ فأسرعوا بأخذنا أسفل دَرَج حلزوني إلى قبو معتم، حيث ألقوا بنا في زنزانة كئيبة. أغلق مرافقونا الباب علينا وغادروا.

* * *

الفصل (4)

... والسافاتور

على الرغم من أنني كنت أتساءل في كثير من الأحيان عن كوكب المشترى، فلم أكن آمل أبدًا أو أهتم بزيارته بسبب قسوة ظروف ذلك الكوكب العظيم، التي أكدها علماء كوكب الأرض. بيد أنني هنا الآن، والظروف تختلف تمامًا عما وصفه العلماء. مما لا شك فيه أن كتلة المشترى أكبر بكثير من كتلة كوكب الأرض أو المريخ، ومع ذلك شعرت بأن الجاذبية أقل بكثير مما كنت أشعر به على كوكب الأرض؛ بل أقل حتى مما شعرت به على المريخ. أدركت أن هذا يرجع إلى سرعة دوران الكوكب على محوره. قوة الطرد المركزي، التي تميل إلى إلقائي في الفضاء، تفوق بكثير تزايد قوة الجاذبية. لم يسبق لي أن شعرت بخِفة قدميَّ بهذه الطريقة. وكان يأسرني التفكير في الارتفاع والمسافات التي يمكنني قَفزها.

وفي حين كانت الزنزانة التي وجدت نفسى فيها كبيرة، فقد حالت دون إجراء أي تجارب للقفز. كانت غرفة كبيرة من صخور الحمم البركانية البنية الباردة. توجد إنارة هزيلة، صادرة عن عدد قليل من الأضواء البيضاء الموضوعة في تجاويف السقف. ويتساقط من وسط أحد الجدران مجرى مائي محدود في تجويف صغير على الأرضية، والفائض يحمله مجرى بالوعة خلال ثقب صغير في جدار الزنزانة النهائي. كما يوجد حصير عشبي على الأرضية، يُشكل الأثاث الوحيد لهذا السجن الكئيب.

تحدثت مع يو دان: «المورجور مضيفون جيدون. فقد أمدونا بالمياه للشرب والاستحمام. وقاموا بتركيب مرافق للصرف الصحي. كما منحونا مكانًا لكي نرقد أو نجلس. وزنزانتنا مضاءة، بقوة. نحن في أمان ضد هجمات أعدائنا. مع ذلك، وبقدر ما يتعلق الأمر بالمورجور، أنا ....».

قاطعني يو دان مُحذِّرًا: «ششششش! نحن لسنا وحدنا»، وأومأ برأسه نحو طرف الزنزانة البعيد. نظرتُ، ورأيت لأول مرة ما يبدو رجلاً ممدَّدًا على حصيرة.

وفي الوقت نفسه، نهض المخلوق وجاء نحونا. كان رجلاً بالفعل. قال: «لا داعيَ للخوف مني. قل ما يحلو لك عن المورجور. ربما لا يمكنك أن تتصور أيًّا من عبارات

الازدراء لوصفهم أكثر ضراوة من تلك التي دأبتُ أنا على استخدامها لفترة طويلة واعتبرتها غير كافية».

لم يكن مظهر الرجل الجسدي يختلف عن مظهري أو مظهر يو دان إلا في لون بشرته، التي كانت من الأزرق الفاتح. كان جسده شبه عارٍ وخالٍ تمامًا من الشعر، باستثناء شعر ثقيل على رأسه وفي حاجبيه ورموشه. وكان يتحدَّث بنفَس لغة المورجور. كنا نتحدث أنا ويو دان بلغة برسوم العامة، وأدهشني أن الرجل قادر على فهمنا. بقيت أنا ويو دان صامتين للحظات.

قال زميلنا في الزنزانة: «ربما لا تفهمان لغة يوروبوس – هه؟».

قلت: «نحن نفهمها، لكننا فوجئنا بأنك تفهم لغتنا».

ضحك الزميل قائلاً: «لا أفهمها. لكنك ذكرت المورجور، ولذلك عرفت أنكما تتحدثان عنهم. وعندما اكتشف رفيقك وجودي، حذرك أن تصمت. ولذا خمنت أنك كنت تقول شيئًا سلبيًّا عن آسرينا. قل لي، مَن أنتما؟ لستما من المورجور، ولا تشبهوننا نحن السافاتور».

قلت: «نحن من برسوم».

أوضح يو دان: «يُطلق عليه المورجور اسم جاروبوس». قال السافاتوري: «سمعت عنه. إنه عالم يقع أعلى الغيوم بكثير. سوف يغزوه المورجور. واعتقد أنهم أسروكما إما للحصول على معلومات وإما لاحتجازكما كرهائن».

قال يو دان: «للسببين كما أتصور. وأنت، لماذا سجنوك؟».

- اصطدمت بطريق الخطأ بمورجور كان يعبر شارعًا عند تقاطع طرق.

ضربني، فأسقطته أرضًا؛ ولذلك سوف أُقتَل في تمارين التخرج الخاصة بالصف التالي.

سألته: «ماذا تعني بذلك؟».

«يتألف تعليم شباب المورجور بالكامل تقريبًا من مواضيع وتمارين مرتبطة بفن الحرب. ولأنه نوع من الاستعراض، حيث يثير شهوة الدم لدى المشاركين والمتفرجين، تنتهي تمارين يوم التخرج بقتال شخصي. ومَنْ يَبْقَ في قيد الحياة من فصل التخرج، يُجندْ في فئة مُحارب - أعلى فئة بين المورجور. أما الفن والأدب والعلم، فينظر إليهم

المورجور بازدراء، إلا في ما يتصل بعلاقتهم بالحرب. ولم يبقَ الفن والأدب والعلم حيًّا في يوروبوس إلا من خلال جهودنا، نحن السافاتور؛ ما أدى، مع الأسف، إلى إهمالنا الإعداد والتدريب العسكري الهجومي. ولأننا شعب محب للسلام، فإننا نتسلح فقط من أجل الدفاع»، ابتسم بحزن وهز كتفيه قائلاً: «لكن الانتصار في الحروب لا يتحقق بأساليب دفاعية».

قال يو دان: «أخبرنا بالمزيد عن تمارين التخرج، فالفكرة مثيرة للاهتمام. مع مَن يتنافس الصف المتخرج؟».

أجاب السافاتوري: «مع المجرمين والعبيد. ومعظمهم رجال من عِرقي»، ثم أضاف: «على رغم من أنه يوجد أحيانًا بعض أسوأ أنواع المجرمين من المورجور، الذين يُحكم عليهم بالموت بهذه الطريقة. فمن المفترض أن أشد طرق الموت خزيًا لأي مورجور أن يموت وهو يقاتل أفرادًا من مرتبة أدنى، ليست من نفس نوعه».

صحتُ: «أفراد من مرتبة أدنى! هل يعتبرونكم المورجور من مرتبة أدنى؟».

- يعتبروننا أعلى بمجرد درجة من الوحوش الغبية، وإنما نتحمل مسؤولية أفعالنا؛ لأننا من المفترض نستطيع التفرقة بين الصواب والخطأ - والخطأ هو أي كلمة أو فعل أو تعبير للوجه ينتقد سلبًا أي شيء يخص المورجور، أو يمكن تحريفه إلى أفعال أو إيماءات هدامة.

سألته: «ولنفترض أنك نجوت في مسابقة التخرج، هل يطلقون سراحك؟».

أجاب: «من الناحية النظرية، نعم. ولكن في الممارسة، أبدًا».

سأله يو دان: «هل تعني أنهم لا يحترمون الشروط التي وضعوها؟».

ضحك السافاتوري قائلاً: «إنهم بلا شرف على الإطلاق. بيد أنني لا أعرف أنهم لن يطلقوا سراح شخص نجا من القتال؛ فبقدر ما أعرف، لم يَنْجُ أحد قبل. وللعلم، يفوق عدد أعضاء الصف عدد خصومهم، اثنان إلى واحد».

أعطاني هذا الكلام تقديرًا لشخصية المورجور أقل مما استنتجته بالفعل من ملاحظتي لهم. ليس من غير المألوف أن يتفوق شعب محب للحرب في الفروسية والشعور بالشرف؛ وإنما عندما تخضع جميع الخصائص الأخرى للوحشية، تضمر الغرائز الإنسانية الرفيعة وتختفي.

جلسنا صامتين لبعض الوقت. كسر السافاتوري الصمت قائلاً: «لا أعرف أسماءكم. اسمي زان دار».

أخبرته بأسمائنا، وبعدها جاء فصيل من المحاربين المورجور إلى زنزانتنا وأمرانا، أنا ويو دان، بمرافقتهم. قال زان دان: «وداعًا! من المحتمل ألا نلتقي مرة أخرى».

حذره أحد المحاربين: «اخرس، أيها الشيء!».

غمز لي زان دار وضحك. غضب المورجور، وقال هادرًا: «صمتًا، يا مخلوق!». تصورت للحظة أنه سيضرب زان دار بسيفه، لكن المسؤول عن الفصيل أمره بالخروج من الزنزانة. كان هذا الحادث مجرد دليل آخر على غطرسة المورجور الأنانية. على أنها ساعدتني على بلورة إعجاب بالسافاتوري، إعجابًا أخذ ينمو منذ أن تحدث إلينا.

قادونا، أنا ويو دار، عبر الساحة إلى مبنى كبير جدًّا، يخضع مدخله لحراسة مشددة. كانت رؤوس المحاربين البشعة المتجهمة والشبيهة بالجماجم، وأطرافهم وأجسادهم العظمية، جنبًا إلى جنب المدخل الكهفي

المظلم للمبنى، توحي بفانتازيا مروعة لمدخل الجحيم الذي يحرسه موتى متعفنون. لم تكن فكرة سارة.

احتجزونا هنا لبعض الوقت، حيث تناقش معنا بعض المحاربين على نحو يماثل مناقشة شخص لاثنين من قطط الشارع الضالة. قال أحدهم: «إنهم مثل السافاتور، ومع ذلك يختلفون عنهم».

وقال آخر: «إنهم بشعون للغاية».

- بشرة أحدهما أغمق من بشرة الآخر.

أدهشني الآن، للمرة الأولى، لون هؤلاء المورجور. كان ورديًّا أو بظل وردي، بدلاً من أن يكون بلون العاج. نظرت إلى يو دان، وجدتُ بشرته باللون الأحمر الداكن. ألقيت نظرة سريعة على ذراعي ويدي، كانوا أيضًا باللون الأحمر الداكن؛ وإنما لم يكن داكنًا مثل بشرة يو دان. تحيرت في البداية؛ ثم أدركت أن انعكاس وهج البراكين الأحمر من السطح الداخلي للغلاف السحابي قد حوّل بشرتنا إلى لون أحمر أغمق، وجعل بشرة المورجور الصفراء تبدو وردية. وعندما نظرت حولي، أدركت أن هذه المسحة الضاربة إلى الحُمرة ظهرت على كل شيء على مرمى البصر. ذكّرني ذلك ببيت شعري لأغنية شعبية سمعتها منذ فترة، في إحدى زياراتي لكوكب الأرض. أعتقد أنها تقول: «أنا أنظر

إلى العالم خلال نظارات وردية اللون، وأصبح كل شيء ورديًّا الآن». حسنًا، لم يكن كل شيء ورديًّا معي، مهما بدا هذا العالم ورديًّا.

جاء ضابط الآن إلى المدخل وأمر مُرافِقنا بإحضارنا. كان الجزء الداخلي من المبنى قبيحًا، مثله مثل شكله الخارجي. وعلى الرَغم من أن هذا المبنى كان القصر الرئيس لحاكم الموجور، كما علمت لاحقًا، فلم يشتمل على أي نوع من الزخرفة. لا توجد أي فنون تخفف من قسوة الممرات الكئيبة ذات اللون البني البركاني، والغرف المستطيلة الفارغة. ولا توجد ستائر تخفف الحواف الحادة للفتحات. ولا يوجد سجاد يخفي حتى ذلك الجزء من الأرضيات البنية العارية. وألقت الجدران الخالية من الصور بتجهمها علينا. نادرًا ما شهدت بيئة أكثر كآبة. حتى الحُفُر التي تقع أسفل المدن المهجورة في برسوم تضم غالبًا سقوفًا مقببة مثيرة للاهتمام، ومداخل مقوسة، وشوايات حديدية قديمة، تشهد على الحساسية الفنية لمُصمميها. أما المورجور، فكانوا مثل الموت، من دون أي فنون.

قادونا إلى غرفة كبيرة، حيث تجمع عدد من المورجور حول مكتب يجلس عليه مخلوق آخر. يبدو جميع المورجور متشابهين إلى حد كبير بالنسبة لي، على أن ملامح وجوههم وأجسامهم الفردية تختلف. ولذلك تعرفت على هاجليون من بين الذين يقفون حول المكتب. كان هاجليون هو قائد السفينة التي أحضرتني من المريخ.

أوقفونا، أنا ويو دان، على مسافة من المجموعة، ثم أحضروا اثنين آخرين من المريخيين الحُمر إلى الغرفة، رجلاً وفتاة. كانت الفتاة جميلة جدًّا.

صاح يو دان: «فاجا!»، لكنني لم أكن بحاجة إلى هذا الدليل لمعرفة مَن هي. وكنت على يقين من أن الرجل هو مولتيس بار، أمير زور. بدا عصبيًّا ومكتئبًا، وحتى مع ذلك ظهرت على ملامح وجهه بثبات غطرسته الطبيعية.

بعد صياح يو دان، همس أحد حراسنا: «صمتًا أيها الشيء!». اتسعت أعين فاجا غير مُصدقة عندما تعرفت على رفيقي، واتخذت خطوة متهورة نحوه، لكن محاربًا أمسك بذراعها ومنعها. مس ظل خافت لابتسامة خبيثة شفتي مولتيس بار الرفيعتين.

أصدر الرجل الجالس على المكتب أمرًا، وبعدها قادونا نحن الأربعة أمامه. لم يختلف مظهر الزميل عن المورجور. لم يكن يرتدي أي حلي، وعتاده وأسلحته عادية تمامًا، ومن الواضح أنها صالحة للاستخدام. وكانت عليها علامات هيروغليفية تختلف عن العلامات المماثلة على عتاد وأسلحة المورجور الآخرين، كما تختلف علامات كل

شخص من الآخرين عن الباقين. لم أكن أعرف بعد دلالة ذلك؛ لكنني علمت لاحقًا أن كل علامة هيروغليفية تشير إلى اسم ورتبة ولقب الشخص نفسه.

كانت الهيروغليفية على عتاد الرجل الجالس على المكتب تشير إلى أنه باندوليان، إمبراطور المورجور.

امتدت فوق المكتب أمام باندوليان خريطة كبيرة، تعرفت عليها فورًا، إنها خريطة برسوم. ومن الواضح أن الرجل وموظفيه كانوا يدرسونها. عندما وقفت مع يو دان وفاجا ومولتيس بار أمام المكتب، نظر باندوليان إلى أمير زور.

سأله: «مَن الذي يُطلق عليه اسم أمير الحرب في برسوم؟». أشار مولتيس بار نحوي، فأدار باندوليان أعينه الجوفاء في اتجاهي. بدا الأمر كما لو أن الموت ينظر نحوي ويختارني. قال: «فهمت أن اسمك جون كارتر». أومأت للتأكيد. واصل كلامه: «على الرغم من أنك تنتمي إلى مرتبة أدنى، لا بد أن لديك ذكاء من نوع ما. وأنا أوجه أوامري إلى هذا الذكاء. إنني أنوي غزو برسوم (سماها جاروبوس) وفتحها، وآمرك أن تمدني بكل المساعدة الممكنة من خلال تعريفي وطاقمي بالمعلومات العسكرية التي تمتلكها في ما يتعلق بقوى جاروبوس الرئيسة، وخاصة تلك المعروفة باسم إمبراطورية هيليوم. وفي مقابل هذا، سوف تنجو بحياتك».

نظرت إليه للحظة، ثم ضحكت في وجهه. كست مسحة احمرار خفيفة وجهه الشاحب، وقال هادرًا: «أتجرؤ أن تضحكَ في وجهي أيها الشيء!».

قلت: «هذا هو ردي على طلبك».

استشاط باندوليان غضبًا، وقال آمرًا: «خذوه ودمروه!».

قال مولتيس بار لتنبيهه: «انتظر، باندوليان العظيم! معرفته لا غنى عنها لك، ولديَّ خطة يمكنك من خلالها الاستفادة منه».

سأله باندوليان: «وما هي؟».

- لديه زوجة يحبها حب العبادة. يمكنك القبض عليها، وسيدفع أي ثمن لحمايتها من الأذى.

قلتُ لمولتيس بار: «ليس الثمن الذي طلبه المورجور؛ وإذا أحضروها إلى هنا، فسيكون ذلك بمثابة الختم على قرار موتك».

قاطعني باندوليان: «كفى. خذوهم جميعًا».

«هل أُدمر الشخص الذي يُسمى جون كارتر؟»، سأل الضابط، قائد الفصيل الذي جلبنا إلى القاعة العامة.

أجاب باندوليان: «ليس على الفور».

قال هاجليون: «لقد ضرب واحدًا من المورجور، أحد ضباطي».

فقال باندوليان: «سيموت لهذا السبب أيضًا».

قلت: «سأموت مرتين إذنْ».

قاطعني باندوليان: «خذوه بعيدًا!».

وخلال خروجنا، كانت فاجا ويو دان يحدقان بشوق في بعضهما.

* * *

الفصل (5)

سوف أخون

فوجئ زان دار، السافاتوري، بعودتنا إلى الزنزانة بعد وقت قصير. قال: «لم أكن أتوقع، في الواقع، رؤيتكما مرة أخرى. كيف حدث ذلك؟».

شرحت بإيجاز ما حدث في القاعة العامة، وأضفت: «أعادوني إلى الزنزانة لأنتظر الموت».

سأل: «وأنت، يو دان؟»

أجاب يو دان: «لا أعرف لماذا كلف باندوليان نفسه عناء استدعائي إلى هناك؛ فلم يكن لديه أي اهتمام بي».

- تأكدْ أنَّ لديه. ربما يحاول تحطيم معنوياتك بأن يسمح لك برؤية الفتاة التي تحبها، مُعتقدًا أنك سوف تؤثر على جون كارتر لتلبيه مطالبه. كما أن باندوليان ترك جون كارتر حيًّا؛ لأنه يأمل في كسر مقاومته في نهاية المطاف.

مر الوقت بتثاقل في تلك الزنزانة أسفل مدينة المورجور. وما من فارق لو كنا فوق سطح الأرض؛ إذ لا يوجد ليل على كوكب المشترى. هناك نهار دائم. تبعد الشمس بمسافة 483 مليون ميلٍ، ولا تلقي على الكوكب سوى ضوء قليل حتى لو تعرض لكامل ضوء النجم الذي يُعدٍّ مركز نظامنا الشمسي. لكن هذا الضوء القليل يحجبه غلاف السحابة الكثيفة التي تحيط بهذا العالم البعيد؛ وقدر الضوء القليل الذي يتسرب، تبطل تأثيره المشاعل البركانية العملاقة التي تغمر الكوكب كله بضوء النهار الدائم. وعلى الرغم من أن المشترى يدور على محوره في أقل من عشر ساعات، فإن نهاره ممتد إلى الأبد.

عرفنا، أنا ويو دان، الكثير من الظروف على هذا الكوكب من زان دار. أخبرنا عن البحار الدافئة الشاسعة التي شهدت توترات المد والجزر المستمرة الناجمة عن التغيُّر الدائم لمواضع الأقمار الأربعة الكبرى التي تدور حول كوكب المشترى في 42 ساعة، و85 ساعة، و172 ساعة، و400 ساعة على التوالي، خلال دوران الكوكب على محوره؛ ما يجعل دورته الكاملة تستغرق تسع ساعات و55 دقيقة. وأخبرنا عن قارات شاسعة وجزر

هائلة. ويمكنني أن أتخيل وجودها بالفعل؛ إذ يُشير تقدير تقريبي إلى أن مساحة الكوكب تتجاوز 23 مليار ميل مربع.

ونظرًا لأن محور كوكب المشتري يتعامد تقريبًا على مستوى حركته، حيث يبلغ ميله 30 فقط، لا يوجد تنوع كبير في الفصول؛ وبالتالي يسود مناخ متشابه في هذه المنطقة الهائلة، مناخ دافئ ورطب، تُنيره وتدفئه دائمًا البراكين التي لا تُعد ولا تُحصى التي تملأ سطح الكوكب. وهأنذا، المغُامر الذي استكشف عالَمين، محبوس هنا في زنزانة تحت الأرض على أكثر كوكب مدهش وبديع في نظامنا الشمسي بأكمله. يكاد أن يصيبني مس من الجنون.

أخبرنا زان دار أننا نوجد في أكبر قارة بالكوكب. وكانت موطن أجداد المورجور، الذين ظلوا لفترة طويلة يشنون الهجمات العسكرية لإخضاع باقي هذا العالَم. كان على رأس كل بلد من البلدان التي أخضعوها ما يمكن تسميته بالحاكم العام، وقدّم كل حاكم جزية إلى المورجور تتمثل في سلع مُصنّعة، ومواد غذائية، وعبيد. وهناك عدد قليل من المناطق الصغيرة، يعتبرها المورجور ذات قيمة ضئيلة، لا تزال تحتفظ بحريتها وحكوماتها. وقد جاء زان دار من إحدى هذه المناطق، وهي جزيرة نائية تسمى زانور.

وقال: «إنها أرض تتمتع بجبال هائلة، وغابات كثيفة ذات أشجار كبيرة الحجم والارتفاع. وبسبب جبالنا وغاباتنا، يمكننا الدفاع بسهولة ضد الغارات الجوية لأي عدو».

وقد وجدت صعوبة في تصديقه عندما أخبرني بمدى ارتفاع بعض القمم الشاهقة في زانور: يصل ارتفاع ملك جبال زانور المهيب إلى عشرين ميلاً فوق مستوى سطح البحر.

قال زان دار: «أرسل المورجور العديد من الحملات ضدنا. يأتون ويحصلون على موطئ قدم في أي وادٍ صغير. وهناك، تعلوهم وتحيط بهم الجبال الراسخة المألوفة لنا وغير المعروفة لهم؛ فيصبحون تحت رحمتنا، نتخلص منهم حرفيًّا واحدًا تلو الآخر إلى أن يتقلص عددهم بحيث لا يجرؤون على البقاء. لكنهم يقتلون الكثيرين منا أيضًا، ويأخذون بعضنا كسجناء. أخذوني سجينًا في إحدى غزواتهم. وأعتقد أن بإمكانهم التغلب علينا، إذا جاءوا ومعهم ما يكفي من السفن والرجال. لكن أرضنا لا تستحق هذا الجهد، وأعتقد أنهم يفضلون تركنا كما نحن لأننا نعطي مُجنديهم فرصة التدريب على حرب فعلية».

لا أعرف المدة التي مرت على حبسنا، عندما أحضر ضابط وفصيل من المحاربين مولتيس بار إلى زنزانتنا. لقد جاء لينصحني بالتعاون مع باندوليان.

قال: «إن غزو وإخضاع برسوم مسألة حتمية. ومن خلال مساعدة باندوليان، يمكنك تخفيف رعب الغزو على سكان برسوم. وبذلك سوف تخدم عالَمنا بشكل أفضل بكثير من رفضك بغباء وعناد الالتقاء مع باندوليان في منتصف الطريق».

قلت له: «أنت تهدر وقتك».

صاح: «لكن حياتنا تتوقف على ذلك. سيترتب على رفضك موتنا: أنا، وأنت، ويو دان، وفاجا. يكاد صبر باندوليان أن ينفد». نظر بتوسل إلى يو دان.

ولدهشتي الكبيرة قال يو دان: «لا يمكن أن نموت في سبيل قضية أفضل. يسعدني أن أموت تكفيراً عن الخطأ الذي ارتكبته في حق جون كارتر».

صاح مولتيس بار بغضب: «أنتما اثنان من الحمقى!».

قلت لتذكيره: «على الأقل لسنا خونة».

قال هادرًا: «سوف تموت يا جون كارتر. لكنك قبل أن تموت، سترى زوجتك في براثن باندوليان. لقد أرسل لإحضارها. والآن إذا غيرت رأيك، أرسل كلمة عن طريق أحد أولئك الذين يأتونكم بوجباتكم».

اندفعتُ إلى الأمام وأوقعت المخلوق أرضًا. كان يجب أن أقتله، حتى لا يجره المورجور إلى خارج الزنزانة.

أرسلوا إذنْ لإحضار ديجاه ثوريس - وأنا عاجز. سوف يتمكنون من إحضارها. كنت أعرف ماذا سيفعلون: سيؤكدون لها أن تعاونها هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُجنبني الموت الفوري. تساءلت ما إذا كانوا سيفوزون. هل سأضحي، في الاختبار الأخير، بأميرتي الحبيبة أو ببلدي بالتبني؟ بصراحة، لا أعرف؛ لكن سأتخذ من يو دان مثالاً لتوجيهي. لقد وضع الوطنية فوق الحب. هل سأفعل؟

مر الوقت متثاقلاً في هذه الزنزانة الكئيبة، التي تخلو من الزمن. وضع ثلاثتنا خططًا عقيمة، لا تُعد ولا تُحصى، للهرب. ابتكرنا بعض الألعاب للمساعدة على تخفيف رتابة وجودنا المُضجر. واستفدنا كثيراً، أنا ويو دان، من زان دار في معرفة هذا الكوكب العظيم. وعرف زان دار الكثير مما يكمن وراء غلاف السحب الأبدي الذي يخفي عن نظر سكان كوكب المشتري الشمس، والكواكب الأخرى، والنجوم، وحتى أقمار كوكبهم. كل ما كان يعرفه زان دار هو القليل الذي تمكن من استخلاصه من الملاحظات التي سقطت من المورجور عما شاهدوه من سفنهم العابرة بين الكواكب. كانت معرفتهم

بعلم الفلك أقل قليلاً من اهتمامهم، الذي كان منعدمًا عمليًّا، بالموضوع. كانت الحروب والغزوات وسفك الدماء تمثل اهتمامهم الوحيد في الحياة.

تحطمت أخيراً الرتابة القاتلة في حياتنا، بإحضار سجين جديد إلى الزنزانة معنا. وكان من المورجور! كان الوضع مُحرجًا. لو انعكس العدد - ثلاثة من المورجور وواحد منا - لما كان هناك أي شك في المعامَلة التي سيتلقاها هذا الشخص المنفرد. كان سيُنبَذ ويُستَغل، ومن المحتمل جدًّا أن تُساء معاملته. توقع المورجوري هذا المصير، وتوجه إلى ركن بعيد في الزنزانة وانتظر حدوث ما لديه من أسباب كي يتوقعه. تناقشنا همسًا – أنا، ويو دان، وزان دار – حول هذا الوضع. من المؤكد أنها

كانت فترة عصيبة بالنسبة لهذا المورجور. وفي النهاية قرر ثلاثتنا التعامل مع المخلوق ببساطة كزميل سجين، إلى أن يأتي وقت يصبح فيه سلوكه بمثابة مرشدنا النهائي. كان زان دار أول من حطّم الجليد. سأله بطريقة ودية عن سوء الحظ الذي تسبب في حبسه.

اقترب منا، ثم أجاب: «قتلت شخصًا لديه قريب يتمتع بنفوذ في قصر باندوليان. ولذلك سأموت، ربما في تدريبات تخرج الصف التالي. ومما لا شك فيه أننا سنموت جميعًا معًا»، توقف لبرهة ثم قال «ما لم نهرب».

قال زان دار: «سنموت إذنْ».

قال المورجوري: «ربما».

قال زان دار: « لا يهرب المرء من سجون المورجور».

أثارت اهتمامي كلمة «ربما». بدت لي مُحمّلة بتراجع عمدي. عقدت العزم على تشجيع هذا الهيكل العظمي المتحرك؛ فهو لن يضرنا، وقد يقودنا إلى الخير. أخبرته باسمي وأسماء رفاقي، ثم سألته عن اسمه.

أجاب: «اسمي فوريون. لكنني لست بحاجة إلى تقديم نفسي لك يا جون كارتر. فقد تقابلنا من قبل. ألم تتعرف عليَّ؟». كان عليَّ أن أعترف أنني لم أتعرف عليه. ضحك فوريون قائلاً: «لقد صفعت وجهك، فضربتني ضربة ألقت بي عبر السفينة. كانت ضربة قوية، وظنوا لفترة طويلة أنني ميت».

قلت: «أووه، أنت واحد ممن قاموا بتعليمي. قد يسعدك أن تعرف أنني سأموت بسبب تلك الضربة».

قال فوريون: «ربما لا». ها هي «ربما» مرة أخرى. ماذا يعني الزميل؟

ولدهشتنا الكبيرة، أثبت فوريون أنه ليس رفيقًا سيئًا على الإطلاق. كان يشعر بمرارة شديدة نحو باندوليان والسلطات القوية التي حكمت عليه بالإعدام، وألقت به في السجن. عرفت منه أن التبجيل والولاء الواضحين اللذين يمنحهما شعبه إلى باندوليان يمثلان كلية نوعًا من الانضباط التنظيمي. من قلبه كان فوريون يكره الرجل بوصفه وحشًا يمتلئ قسوة وطغيان. قال: «يرجع ولاؤنا الظاهر إلى الخوف، والتدريب لعدة أجيال».

وبعد أن أمضى معنا بعض الوقت، قال لي: «لقد تعاملتم معي، أنتم الثلاثة، بلطف شديد. كان يمكنكم أن تحولوا حياتي هنا إلى جحيم؛ ولم أكن لألومكم لأنكم حتمًا تكرهوننا نحن المورجور».

قلت: نحن جميعًا في قارب واحد. لن يفيدنا أن نتقاتل في ما بيننا. وإذا عملنا معًا، ربما...»؛ لقد استخدمت «ربما» التي يستخدمها.

أومأ فوريون برأسه وقال: «كنت أفكر في إمكانية أن نعمل معًا».

سألته: «تحقيقًا لأي هدف؟».

- الهروب.

- هل هذا ممكن؟

- ربما.

كان يو دان وزان دار يستمعان بلهفة. التفت فوريون إلى زان دار، ثم قال: «إذا استطعنا الهرب، فأنتم الثلاثة قد تجدون بلدًا يمكنكم التوجه إليها مع ضمان اللجوء، بينما لا يمكنني إلا أن أتوقع الموت في أي بلد على سطح يوروبوس. إذا كان بإمكانك أن تعدني بالسلامة في بلدك...»، توقف عن الكلام، من الواضح انتظارًا ارد فعل زان دار.

قال زان دار: «لا أستطيع أن أعدك إلا ببذل قصارى جهدي من أجلك. لكنني واثق من أنك إذا كنت وسيلة تحريري واستطعت العودة إلى زانور، فسوف يسمحون لك بالبقاء هناك في أمان».

توقف حديثنا بوصول فيلق من المحاربين. توجه الضابط القائد نحوي وأمرني بالخروج من الزنزانة. إذا فصلوني عن رفاقي، سوف يذوب أمام عيني حلمي بالهرب.

قادوني من المبنى وعبر الساحة إلى قصر باندوليان. وبعد بعض

التأخير، وجدت نفسي مرة أخرى في القاعة العامة. من خلف مكتبه، حدقت عينا الطاغية الجوفاء فيَّ من جمجمته المبتسمة. قال باندوليان: «أعطيك فرصتك الأخيرة»؛ ثم التفت إلى أحد ضباطه قائلاً: «أحضر الشخص الآخر». وبعد فترة انتظار قصيرة، انفتح باب على يميني، ودخل حارس من المحاربين ومعه «الشخص الآخر». إنها ديجاه ثوريس! أميرتي ديجاه ثوريس التي لا يضاهيها أحد!

يا لها من مخلوقة جميلة تعبر الأرض محاطة بـالمورجور البشعين. يا لكرامتها المهيبة، ويا للجسارة التي تميز مشيتها وملامحها! إن لمثلها يجب التضحية حتى بعالَم! أوقفوها على بُعد خطوتين مني. منحتني ابتسامتها شجاعة، وهمست: «كن شجاعًا! أعرف الآن سبب وجودي هنا. لا تضعف. الموت أفضل من العار».

سأل باندوليان: «ماذا قالت؟».

فكرت بسرعة. كنت أعرف أن فرصتي تكمن في أنهم جميعًا لا يفهمون لغة برسوم. ففي ظل غطرستهم الغبية، لن يتنازلوا لإتقان لغة أناس من مرتبة أدنى.

قلت: «إنها تناشدني أن أنقذها». رأيت ديجاه ثوريس تبتسم. من الواضح أنهم علموها لغة المورجور خلال الرحلة الطويلة من المريخ.

قال باندوليان: «من الحكمة أن تفعل ذلك، وإلا سأعطيها إلى مولتيس بار، وبعد ذلك تتعرض إلى التعذيب والتشويه عدة مرات قبل أن أسمح لها بالموت».

ارتجفت وأنا أتأمل مثل هذا المصير لأميرتي، وضعفت مرة أخرى في تلك اللحظة. سألته: «وإذا ساعدتك، هل ستعيدها سالمة إلى هيليوم؟».

أجاب باندوليان: «كلاكما سوف يعود؛ بعد أن أغزو جاروبوس».

همست ديجاه ثوريس: «لا! لا! أفضل الموت بدلاً من العودة إلى هيليوم مع خائن. لا يا جون كارتر، لا يمكن أبدًا أن تخون، حتى لإنقاذ حياتي».

- والتعذيب! والتشويه! سأخون ألف مرة لأنقذكِ من هذا المصير، ويمكنني أن أعدكِ بألا يُلحق بكِ أي خزي: لن أعود أبدًا إلى برسوم».

قالت: «لن يتمكنوا من تعذيبي أو تشويهي؛ إذ خبأت داخل عتادي نصلاً طويلاً ورفيعًا».

فهمت وشعرت بالارتياح. قلت: «حسنًا. إذا كان لنا أن نموت من أجل برسوم، فمثلنا مثل آلاف محاربيها الشجعان الذين ماتوا من أجلها في الماضي؛ لكننا لم نمُت بعد. تذكري ذلك يا أميرتي، ولا تستخدمي هذا النصل الطويل الرفيع على نفسكِ إلا عندما يموت الأمل تمامًا».

قالت: «ما دمت تعيش، سيعيش الأمل».

قال باندوليان: «هيا، هيا. لقد استمعت لفترة طويلة كافية لثرثرتك السخيفة. هل تقبل طلبي؟».

قلت: «أنا أفكر فيه؛ ولكني يجب أن أتحدث قليلاً مع زوجتي».

قاطعني المورجوري: «فلتكن كلمات قليلة».

التفتُّ إلى ديجاه ثوريس وسألتها: «أين يقع سجنكِ؟».

- في الطابق العلوي من برج يقع في الجزء الخلفي من هذا المبنى، عند الزاوية الأقرب للبركان الكبير. ومعي امرأة أخرى من برسوم، فتاة من زور اسمها فاجا.

نفد صبر باندوليان. ضرب مكتبه بقبضة يده في عصبية، والتوى فكّاه معًا بما يشبه الصنجات، وقال هادرًا: «هذا يكفي! ما هو قرارك؟».

أجبت: «تمثل هذه المسألة أهمية كبيرة بالنسبة لي، ولا أستطيع اتخاذ القرار في لحظة. اتركني أعود إلى زنزانتي لأفكر في الأمر وأناقشه مع يو دان؛ حيث يتعلق به أيضًا».

قال بادنوليان آمرًا: «أعيدوه إلى زنزانته». ثم التفت نحوي قائلاً: «سوف أمنحك الوقت، ولكن ليس كثيرًا. لقد نفد صبري».

* * *

الفصل (6)

الهروب

لم تكن لديَّ خطة. كنت عمليًّا بلا أمل، لكنني فزت على الأقل بمهلة قصيرة لديجاه ثوريس. ربما تعرض وسيلة للهرب نفسها. وبهذه الفكرة الضعيفة، غذيت بذرة الأمل التي تشبثت بها.

اندهش رفاقي في الزنزانة، مع شعورهم بالارتياح، عندما عُدتُ إليهم. أخبرتهم بإيجاز ما حدث في قاعة باندوليان العامة. أظهر يو دان حزنًا حقيقيًّا عندما علم بوقوع ديجاه ثوريس في براثن المورجور، ولعن نفسه على الجزء الذي شارك به وأدى إلى إحضارنا، أنا وهي، إلى وضع نواجه فيه الموت أو العار كبديلين.

قلت: «الندم العقيم لن يفيدنا. لن يخرجنا من هذه الزنزانة، ولن يخرج ديجاه ثوريس وفاجا من برج باندوليان. كفاك تفكيراً في ذلك، فلدينا أشياء أخرى لا بد من التفكير فيها». ثم التفتُ إلى فوريون قائلاً: «لقد تحدثت عن إمكانية الهرب. وضح لنا كيف».

لم يكن فوريون معتادًا أن يتحدث إليه بهذه الطريقة الحاسمة أحد ينتمي إلى مرتبة دنيا، كما يعتبرنا المورجور. لكنه ضحك، وأخذ الأمر ببساطة وحسن نية. لا يستطيع المورجور أن يبتسموا؛ إذ يحملون منذ الولادة إلى الموت تلك التكشيرة على رؤوسهم - جامدة، لا تتغير.

قال: «هناك فرصة واحدة. مجرد فرصة بالكاد، وكلمة 'ضئيلة' هو وصف متفائل لها. لكنها إذا فشلت، فلن نكون أسوأ حالاً مما نحن عليه الآن».

قلت: «أخبرنا ما هي».

أوضح قائلاً: «يمكنني فتح قفل باب زنزانتنا. وإذا كان الحظ حليفنا، يمكننا الهرب من هذا المبنى. أعرف طريقًا لا يُستخدم كثيراً، لأنني كنت لفترة طويلة أحد حراس السجن».

سأله يو دان: «وما فرصنا بمجرد أن نصل إلى شوارع المدينة؟ سيقبضون علينا فورًا، نحن الثلاثة على الأقل».

قال فوريون: «ليس بالضرورة. يوجد بالطرقات العديد من العبيد الذين يشبهون زان دار بالضبط. وبطبيعة الحال، سوف يجذب لون بشرتكم الانتباه يا رجال جاروبوس. لكنها فرصة يجب أن نغتنمها».

تساءل زان دار: «وبعد أن نصل إلى الشوارع؟ ماذا بعد ذلك؟».

- سوف أتظاهر بأنني المسؤول عنكم. سأعاملكم كعبيد، وهذا أمر معتاد، وبالتالي لن تثيروا أي تعليق ولن تجذبوا أي اهتمام لا مبرر له. لا بد أن أعاملكم بقسوة، لكنكم ستتفهمون. سأقودكم إلى ساحة تضم العديد من السفن الفضائية. وهناك سأخبر الحارس أن لديَّ أوامر بإحضاركم لتنظيف سفينة معينة. لا توجد في هذه الساحة سوى سفن الأغنياء والأقوياء، وأنا على دراية جيدة بسفينة معينة تخص شخصًا نادرًا ما يستخدمها. إذا نجحنا في الوصول إلى هذه السفينة والصعود إليها، لا شيء يمكن أن يمنعنا من الفرار. وفي غضون ساعة من الآن، سنكون في طريقنا إلى زانور – إذا سارت الأمور على ما يرام.

أضفت قائلاً: «إذا أمكننا أخذ فاجا وديجاه ثوريس معنا».

قال فوريون: «لقد نسيتهما. هل ستخاطر بحياتك من أجل امرأتين؟».

«بالتأكيد»، قال يو دان.

هز فوريون كتفيه، وقال: «أنتم مخلوقات غريبة».

- نحن المورجور لا نخاطر بإصبع صغير من أجل عشرة نساء. والسبب الوحيد الذي يجعلنا نتحملهن على الإطلاق هو أننا نحتاجهن لتزويدنا بالمحاربين. أما محاولة إنقاذ الفتاتين، فقد تنتهي بسهولة إلى كارثة بالنسبة لنا جميعًا.

وأضاف: «لكننا سنقوم بالمحاولة». سألتُ السافاتوري: «هل أنت معنا يا زان دار؟».

فقال: «حتى النهاية، مهما كان».

هز فوريون كتفيه مرة أخرى قائلاً، وإن كان بلا حماس: «كما تريدون». بدأ يعمل على فتح القفل، وبعد وقت قصير جدًّا تأرجح الباب مفتوحًا ووصلنا إلى الممر. أغلق فوريون الباب، وأعاد القفل إلى مكانه قائلاً: «هذا سوف يُغذي تكهناتهم».

قادنا على طول الممر في الاتجاه المعاكس الذي أحضرونا منه، والذي استخدمه كل مَن جاء إلى زنزانتنا منذ سجننا. وكلما ابتعدنا في الممر، يصبح مظلمًا ومتربًا. من الواضح أنه لا يُستخدَم كثيراً. يوجد باب في نهايته، سرعان ما تمكن فوريون من فتح قفله؛ وبعد لحظة وصلنا إلى زقاق ضيق.

كان هروبنا شديد البساطة حتى الآن، بحيث أدركت على الفور أننا سنواجه الأسوأ: فمثل هذا الحظ لا يمكن أن يستمر. حتى الزقاق الذي دخلناه كان مهجورًا: لم يرنا أحد نخرج من السجن. لكن الوضع اختلف تمامًا عندما وصلنا إلى نهاية الزقاق واستدرنا نحو شارع واسع، حيث يوجد العديد من الناس – المورجور على الأرصفة، والعبيد في قنوات البالوعات، ووحوش غريبة تحمل الركاب على الرصيف.

بدأ فوريون الآن في توبيخنا وتكبيلنا خلال سيرنا في المزراب وهو على الرصيف. قادنا إلى اتجاه بعيد عن الساحة المركزية، وأخيراً إلى طرق يقل تردد الناس عليها، ومع ذلك لا نزال نمر وحولنا الكثير من المورجور. قد يلاحظ أحدهم في أي لحظة لون بشرتي وبشرة يو دان غير المعتادة. نظرت إلى زان دار لأرى ما إذا كان الفرق بين لون بشرته وبشرتينا مذهلاً، وصُدمت. كانت بشرة زان دار زرقاء، وأصبحت الآن أرجوانية! استغرق الأمر مني لحظة لأدرِك أن هذا التغيير يرجع إلى أن الضوء الوردي لنيران البركان أدى إلى تحويل الأزرق الطبيعي لبشرة زان دار إلى اللون الأرجواني.

قطعنا مسافة صغيرة جدًّا في أمان، ثم نظر نحونا مورجوري بعين الريبة خلال مروره. تركنا نمر أمامه، ثم أسرع إلى فوريون وسأله: «مَن هذان الاثنان؟ إنهما ليسا من السافاتور».

قال فوريون: «كانا مريضين وتغير لونهما». وفوجئت بقدرته على التفكير بهذه السرعة.

سأله الرجل: «حسنًا، مَن أنت؟ وكيف تتولى مسؤولية عبيد وأنت غير مُسلح؟».

نظر فوريون إلى جانبيه وهو يُقلد مَن يُفاجَئ، قائلاً: «ماذا، لا بد أنني نسيت أسلحتي».

قال الرجل: «أعتقد أنك تكذب. تعالوا معي جميعكم».

بدت هنا نهاية آمالنا في الهرب. نظرتُ إلى أنحاء الشارع كافة. يبدو أنه شارع هادئ وسكني. لا يوجد أحد بالقرب منا. استقرت العديد من السفن الفضائية الصغيرة على الرصيف أمام المساكن البنية الكئيبة. هذا كل شيء، لا توجد أعين تتطلع إلينا. اقتربت

من الزميل الذي كان سلوكه المتهور يدل على أنه عقبة في طريق إنقاذ ديجاه ثوريس. ضربته مرة واحدة بكل قوتي؛ سقط كقطعة خشب.

صاح فوريون: «لقد قتلته. إنه أحد أكثر ضباط باندوليان ثقة. وإذا قبضوا علينا الآن، سنتعرض للتعذيب حتى الموت».

قلت: «لن يقبض علينا أحد. دعنا نأخذ إحدى هذه السفن التي تقف على الرصيف. لماذا نضيع الوقت ونخوض المخاطر للاستمرار في سيرنا أبعد من ذلك؟».

هز فوريون رأسه، ثم قال: «لن تفيدنا؛ فهي للاستخدام الداخلي فقط. تطير هذه السفن على ارتفاع منخفض، ولن تتخطى حتى سلسلة جبال صغيرة نسبيًّا. والأهم من ذلك، لا يمكن جعلها غير مرئية. يجب أن نذهب إلى الساحة كما خططنا».

قلتُ: «لتجنب مواجهة أخرى مثل تلك التي واجهناها الآن، من الأفضل أن نستخدم إحدى هذه السفن إلى المنطقة المجاورة للساحة على الأقل».

وقال زان دار: «لن يسوء الوضع إذا أضفنا سرقة إلى القتل».

وافق فوريون، وبعد لحظة كنا جميعًا نستقل سفينة صغيرة ونبحر عدة ياردات فوق الشارع. كنت مهتمًّا للغاية، ولاحظت بعناية كل ما فعله فوريون لبدء تشغيل المحرك والسيطرة على الطائرة. كان من الضروري أن أوجه إليه بضعة أسئلة لأتمكن من فهم جيد للتعامل مع السفينة الصغيرة، وكنت على دراية بطائرات عالَمين آخرين. ربما لن تُتاح لي فرصة تشغيل مثل هذه الطائرة، لكن معرفة كيفية تشغيلها لن يضر.

هبطنا بالطائرة على مسافة قصيرة من الساحة، وواصلنا طريقنا سيرًا على الأقدام. وكما توقع فوريون، أوقفنا أحد الحراس واستجوبه. بدا للحظة أن كل شيء معلق في الميزان. كان الحارس متشككًا، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى نفس أسباب تشكك الضابط الذي قتلته؛ التشكك في مهمة فوريون، وحقيقة كونه بلا سلاح. طلب منا الحارس أن ننتظر إلى أن يستدعي ضابطًا. قد تكون المسألة كارثية، فقد شعرت أن الأمر ربما يتطلب أن أقتل هذا الرجل أيضًا، لكنني لا أعرف كيف يمكنني القيام بذلك دون أن يلاحظني أحد؛ فهناك العديد من المورجور في الساحة، على الرغم من عدم وجودهم في محيطنا المباشر.

حل فوريون المأزق. صاح بنبرة ساخطة: «تعال! تعال! لا أستطيع الانتظار هنا طوال اليوم، بينما ترسل لاستدعاء ضابط. أنا في عجلة من أمري. دعني أوجه هؤلاء العبيد للبدء في العمل. وبمقدور الضابط أن يأتي إلى السفينة ويستجوبني، ويمكنه أن

يستجوبني هنا». وافق الحارس على ذلك؛ وبعد أن تأكد من اسم وموقع السفينة التي من المفترض أن ننظفها، سمح لنا بالتوجه إليها. تنفست الصعداء. وبعد أن تركناه، قال لنا فوريون إنه أعطاه اسم وموقع سفينة مختلفة عن تلك التي نخطط لسرقتها. لم يكن فوريون أحمقَ.

كانت السفينة التي اختارها فوريون نحيلة، ويبدو أنها صُمِّمت للسرعة. لم نضيع أي وقت وصعدنا إليها. ومرة أخرى شاهدت كل خطوة قام بها فوريون، وسألته عن كل شيء لم يكن واضحًا تمامًا بالنسبة لي. فعلى الرغم من أنني قضيت 18 يومًا على متن إحدى هذه السفن المورجورية، فلم أتعلم شيئًا عن لوحات التحكم فيها؛ فلم يُسمَح لي أبدًا بالدخول إلى غرفة التحكم أو طرح أسئلة.

قام فوريون بداية بمغنطة هيكل السفينة ورشه برمال الإخفاء الناعمة، ثم بدأ تشغيل المحرك وتوجيه مقدمة السفينة بلطف إلى أعلى. كنت قد شرحت له خطتي؛ وبمجرد أن ارتفع قليلاً، توجه إلى قصر باندوليان. ومن خلال عدسة صغيرة في قوس السفينة، انعكس المشهد الأمامي على لوحة زجاجية أرضية؛ تمامًا كما تنعكس صورة على عدسة الكاميرا. كان هناك العديد من هذه العدسات، ورأيت الآن خلال إحداها البرج المُربع في الجزء الخلفي من القصر - البرج الذي يحبسون فيه ديجاه ثوريس وفاجا.

قال فوريون: «عندما أصل بالسفينة إلى النافذة، عليك أن تعمل بسرعة؛ حيث سيكون الجزء الداخلي من السفينة مرئيًّا في اللحظة التي أفتح فيها الباب في هيكلها. وقد يلاحظها أحد في القصر أو على الأرض، وعندئذ ستحاصرنا على الفور سفن الحراسة والدوريات».

قلت: «سأعمل بسرعة».

يجب أن أعترف أنني كنت أكثر حماسًا من المعتاد عندما وصل فوريون بالطائرة بجوار نافذة البرج، ورأيناها مفتوحة على مصراعيها وبدون قضبان. وقف يو دان وزان دار لفتح الباب حتى أتمكن من القفز خلال النافذة، ثم إغلاقه مباشرة بعد أن أعود إلى متن الطائرة مع الفتاتين. لم أعد قادرًا على رؤية النافذة الآن، بعد أن استقر عندها جانب الطائرة العريض. لكنني، وبكلمة من فوريون ويو دان وزان دار، فتحت الباب. كانت النافذة المفتوحة أمامي، فقفزت من خلالها إلى داخل غرفة البرج.

لحسن حظي، ولحسن حظ لديجاه ثوريس وفاجا، كانت هي الغرفة الصحيحة. كانت الفتاتان هناك، وإنما ليسا بمفردهما. أمسك رجل بديجاه ثوريس بين ذراعيه،

وكانت شفتاه تبحثان عن شفتيها، وفاجا تضرب ظهره دون جدوى، وديجاه ثوريس تحاول إبعاد وجهه عن وجهها.

أمسكت الرجل من رقبته وألقيت به عبر الغرفة، ثم أشرت إلى النافذة والسفينة خلفها، وقلت للفتاتين أن يتوجها إليها بأسرع ما يمكن. لم تكن الفتاتان في حاجة إلى دعوة ثانية. وبينما كانتا تركضان عبر الغرفة نحو النافذة، نهض الرجل وواجهني. كان مولتيس بار! وما إن تعرّف عليَّ، حتى شحب وجهه وتحول إلى اللون الأبيض تقريبًا. ثم سحب سيفه، وبدأ يصيح في الوقت نفسه مناديًا على الحرس.

هاجمني عندما رأى أنني غير مسلح. لم أتمكن من الالتفاف والركض إلى النافذة؛ فلو فعلت ذلك، كان سيتمكن من طعني قبل أن أصل إلى النافذة بفترة طويلة. ولذا، قمت بأفضل شيء أمكنني؛ هاجمته مباشرة. من الواضح أن هذا التصرف الانتحاري أربكه، لأنه تراجع. اندفع نحوي عندما اقتربت منه، لكنني تفاديت الطعنة بساعدي. أمسكت الآن برأس سيفه، وبعد لحظة أغلقت أصابعي على حنجرته. ومثل الأحمق، أسقط سيفه ثم حاول أن يضعف بيديه الاثنين قبضة أصابعي. كان بإمكانه أن يخفف قبضته ويطعنني في القلب، وكان عليَّ أن أغتنم تلك الفرصة.

كان يمكن أن أقضي عليه في لحظة، لو لم ينفتح باب الغرفة، وتدخل دزينة من المحاربين المورجور. أصابني الذهول! بعد أن سار كل شيء بشكل جيد جدًّا، يحدث هذا! هل ستُحبَط كل خططنا؟ لا، ليس كلها.

صحت مخاطبًا يو دان: «أغلق الباب وأذهب! إنه أمر!».

تردد يو دان. وقفت ديجاه ثوريس إلى جانبه وهي تمد إحدى يديها نحوي، وتعبير لا يوصف عن الكرب على وجهها. تقدمت خطوة، كما لو أنها تريد أن تقفز من السفينة إلى الغرفة. سرعان ما وقف يو دان في طريقها، ثم بدأت السفينة تبتعد. انزلق بابها مغلقًا، ومرة أخرى أصبحت السفينة غير مرئية تمامًا.

حدث كل هذا في بضع ثوان، بينما كانت يداي لا تزالان تتشبثان بحلق مولتيس بار، الذي برز لسانه وأخذت عيناهً تجحظان كالزجاج. كاد أن يموت بعد لحظة، لكنْ محاربو المورجور هجموا عليَّ وسحبوني بعيدًا عن فريستي.

عاملني الآسرون بقسوة، وربما لأنني أفقدت ثلاثة منهم الوعي – ليس دون سبب - قبل أن يتغلبوا عليَّ. لو كان لديَّ سيف! ماذا كنت سأفعله معهم إذنْ! وعلى الرغم من أنني تعرضت للضرب والكدمات وهم يدفعونني أسفل البرج، كنت أبتسم؛ لأنني كنت

سعيدًا. لقد أنقذت ديجاه ثوريس من براثن رجال الهيكل العظمي، وهي الآن آمنة، مؤقتًا على الأقل. لديَّ إذنْ سبب وجيه للابتهاج.

أخذوني إلى زنزانة صغيرة غير مضاءة، أسفل البرج. وهناك قيدوني وربطوني بالسلاسل إلى الحائط. أغلقوا بابًا ثقيلاً بعد خروجهم، وسمعت صوت دوران مفتاح في قفل ضخم.

* * *

الفصل (7)

فولار

في الحبس الانفرادي، الذي لا يخففه حتى بصيص من الضوء، ينصب تفكير المرء كلية على ما يخفف حدة الملل المطلق؛ ذلك الملل الذي يؤدي أحيانًا بأصحاب الإرادة الواهنة والأعصاب الضعيفة إلى الجنون. بيد أن أفكاري كانت سارة. تصورت ديجاه ثوريس متجهة بأمان إلى بلد صديق في سفينة غير مرئية، في مأمن من القبض عليها، وشعرت أن ثلاثة ممن رافقوها سيكونون ودودين بالتأكيد، ومن المتوقع أن أحدهم، وهو يو دان، قد يضحي بحياته لحمايتها إن تطلب الأمر. أما فوريون، فلم أستطع حتى تخمين موقفه تجاهها.

لم يقلقني وضعي كثيراً. أعترف أنه بدا ميؤوسًا منه إلى حد ما؛ لكني مكثت في أماكن ضيقة من قبل، ونجحت في البقاء حيًّا والهرب. ما زلت أعيش، وما دامت الحياة تنبض في داخلي، لا أتخلى عن الأمل. أنا بطبيعتي متفائل، وأعتقد أن هذا يمنحني حالة ذهنية تقود في كثير من الأحيان إلى ما نسميه عادة فواصل الحياة.

من حسن الحظ أن حبسي لم يستمر طويلاً في تلك الزنزانة المظلمة. نمتُ مرة واحدة، لكني لا أعرف المدة التي نمتها. كنت جائعًا جدًّا عندما جاء فصيل من المحاربين ليأخذني، جائعًا وعطشانًا لأنهم لم يعطوني أي طعام أو ماء خلال فترة حبسي.

لم يأخذوني إلى باندوليان هذه المرة، وإنما إلى أحد ضباطه. كان هيكلاً عظميًّا ضخمًا، يفتح فكيه ويغلقهما باستمرار مع إصدار صوت نهش وطحن. كان المخلوق بمثابة موت متجسد. استنتجت من الطريقة التي استجوبني بها، أنه حتمًا المحقق السامي الأعلى. ألقى إليَّ في صمت نظرة من محجريه، اللذين يبدوان مجوفين، لمدة دقيقة كاملة قبل أن يتكلم. ثم جأر في وجهي.

صاح: «أيها الشيء، أنت تستحق الموت – الموت بعد التعذيب - حتى لأقل شيء قمت به».

قلت: «لا تصرخ في وجهي. أنا لست بأصم».

أثارت عبارتي غضبه، فضرب بيده على مكتبه وقال: «سيصعب وضعك بسبب هذه الوقاحة وعدم الاحترام».

قلت له: «لا يمكنني إظهار الاحترام وأنا لا أشعر بالاحترام. إنني لا أحترم إلا مَن يحترمونني. ولا يمكنني بالتأكيد أن أحترم كيسًا من العظام يتصرف بشكل شرير».

لا أعرف لماذا حاولت إثارة غضبه عمدًا. ربما هي مجرد نقطة ضعفي، أن أستمتع بمضايقة الأعداء الذين أعتقد أنهم حقراء. أعترف أنها عادة محفوفة بالخطر؛ وربما عادة غبية. لكنني وجدتها تربك العدو أحيانًا وتعطيني ميزة معينة. حققت في هذه الحالة نجاحًا جزئيًّا على الأقل، اشتد غضب المخلوق إلى حد أنه ظل لبعض الوقت عاجزًا عن الكلام؛ ثم قفز واقفًا وسحب سيفه.

كنت في وضع لا أُحسد عليه. أبعد ما يكون عن الحسد. كنت أعْزَلَ، وكان المخلوق الذي يواجهني في حالة غضب لا يمكن السيطرة عليها. بالإضافة إلى هذا كله، تضم الغرفة أربعة أو خمسة مورجور آخرين، يمسك اثنان منهم بذراعي، واحد على كل جانب. كنت عاجزًا كخروف في المسلخ. ولكن عندما وصل جلادي المُحتَمل إلى نهاية مكتبه ليقتلني بنصله، دخل مورجور آخر الغرفة.

أدرك الوافد الجديد الوضع في لمحة، وصاح: «توقف يا جورجوم!». تردد المخلوق الذي كان يتجه نحوي للحظة، ثم أنزل سيفه.

قال جورجوم بوقاحة: «هذا المخلوق يستحق الموت. لقد تحداني وأهانني – وأنا أحد ضباط باندوليان العظيم!».

قال الآخر: «يرجع الانتقام إلى باندوليان، ولديه خطط مختلفة لهذه الدودة الوقحة. ماذا أسفر عنه استجوابك؟».

قلت: «كان مشغولاً بالصراخ في وجهي، ولم يكن لديه وقت لاستجوابي».

قاطعني الوافد الجديد: «صمتًا، أيها المخلوق الأدنى». وقال لجورجوم: «يمكنني أن أفهم جيدًا أن صبرك قد نفد؛ لكن علينا احترام رغبات باندوليان العظيم. استمر في الاستجواب».

أعاد جورجوم سيفه إلى غمده، وجلس ثانية على مكتبه. سألني: «ما اسمك؟».

أجبت: «جون كارتر، أمير هيليوم». كان كاتب بجوار جورجوم يدون في دفتر كبير. أعتقد أنه كان يسجل السؤال والجواب، واستمر طوال المقابلة بأكملها.

سألني جورجوم: «كيف هربت أنت والمتآمرون الآخرون من الزنزانة التي كنتم محتجزين فيها؟».

أجبت: «من الباب».

- هذا مستحيل. كان الباب موصدًا بعد دخولكم الزنزانة، كما كان موصدًا عند اكتشاف غيابكم.

- إذا كنت تعرف الكثير، لماذا تكلف نفسك بعناء استجوابي؟

تدلى فكي جورجوم بشراسة وقال غاضبًا وهو ينظر نحو الضابط: «أترى يا هورور مدى وقاحة هذا المخلوق».

قال لي هورور: «أجب على سؤال النبيل جورجوم: كيف خرجتم من باب مغلق؟».

- لم يكن مغلقًا.

صرخ جورجوم: «كان مغلقًا».

هززت أكتافي وسألت: «وما الفائدة؟ إنها مضيعة للوقت أن أرد على أسئلة شخص يعرف عن الموضوع أكثر مني، رغم أنه لم يكن موجودًا».

قال هورور بنبرة أقل إزعاجًا: «أخبرني إذنْ، بكلماتك الخاصة، كيف هربت من الزنزانة».

- فتحنا القفل.

قال جورجوم: «هذا مستحيل».

قلت: «إذنْ نحن ما زلنا في الزنزانة. ربما من الأفضل أن تذهب وتلقي نظرة».

قاطعنا هورور: «لن نصل إلى أي شيء».

«على الإطلاق»، قلت موافقًا.

قال هورور: «سوف أستجوب السجين. نحن نُسلّم بأنكم هربتم من الزنزانة».

- هذا ذكاء منك.

تجاهل التعليق. «ولا أرى أن وسيلة هروبكم تمثل أهمية كبيرة. ما نريد معرفته حقًّا هو أين يوجد شركاؤك والسجينتان الآن. يقول مولتيس بار أنهم هربوا في سفينة - ربما إحدى سفننا التي سُرِقت من ساحة الطيران».

- لا أعرف مكانهم.

- هل تعرف إلى أين خططوا للذهاب؟

- لو كنت أعرف، لما أخبرتك.

- آمرك أن تجيبني، أو ستموت متألماً.

ضحكت على المخلوق. قلت: «أنت تنوي قتلي على أي حال؛ ولذا تهديدك لا يعني أي شيء».

كانت قدرة هورور على السيطرة على أعصابه أفضل بكثير من جورجوم، لكنني رأيته منزعجًا. قال: «يمكنك الحفاظ على حياتك إذا كنت أكثر تعاونًا. لا يطلب منك باندوليان العظيم سوى القليل. أخبرنا إلى أين ينوي شركاؤك الذهاب، وقدم لنا وعدًا بمساعدة باندوليان

العظيم في غزوه لهيليوم، وبذلك تنقذ حياتك».

قلت: «لا».

ألح هورور: «انتظر. لن يقف باندوليان عند هذا الحد، بل سيمضي أبعد من ذلك. بعد غزونا لهيليوم، سيسمح لك ولزوجتك بالعودة إلى ذلك البلد، ويعطيك منصبًا رفيعًا في الحكومة الجديدة التي ينوي تشكيلها هناك. وإذا رفضت، سيقتلك؛ ويطارد زوجتك، وأعدك أنه سيجدها. وعندئذ سيكون مصيرها أسوأ بلا حدود من الموت. من الأفضل أن تفكر في الأمر».

- لست بحاجة الى التفكير في مثل هذا العرض. ويمكنني أن أعطيك إجابة نهائية على العرضين - إجابتي النهائية ولا رجعة فيها هي لا، على الإطلاق!

لو كان لدى هورور شفة، لكان عضها بلا شك. أخذ يتطلع نحوي لدقيقة طويلة، ثم قال: «أحمق!». التفت بعد ذلك إلى جورجوم وقال له: «ضعه مع الذين تحتجزهم للفصل القادم»، ثم غادر الغرفة.

أخذوني إلى مبنى يقع على مسافة من ذلك الذي سُجنت فيه من قبل، وأدخلوني زنزانة كبيرة تضم حوالي عشرين سجينًا آخر، وجميعهم من السافاتور.

«ماذا لدينا هنا؟»، سأل أحد زملائي السجناء بعد أن غادر مرافقي وأغلق الباب. «لدينا رجل ببشرة حمراء! إنه ليس من السافاتور. ما أنت، أيها الزميل؟».

لم تعجبني نظراته ولا نبرة صوته، ولم أكن أسعى إلى المتاعب مع مَن أُسجَن معهم وربما كان مُقدَّرًا لي أن أموت معهم. ولذلك ابتعدت عنه وجلست على مقعد طويل في جزء آخر من الغرفة، التي كانت كبيرة جدًّا. لكن الأحمق تبعني، ووقف أمامي بطريقة عدوانية.

قال مُهدِّدًا: «لقد سألتك ما أنت. وعندما يوجه إليك فو لار سؤالًا، عليك أن تجيب عليه - وبسرعة. أنا الرجل الأول هنا». ثم نظر إلى الآخرين حوله وسأل: «هذا صحيح، أليس كذلك؟».

صدرت همهمات إيجابية متجهمة. عرفت على الفور أن هذا الزميل لا يحظى بشعبية. بدا رجلًا يتمتع ببنية عضلية قوية؛ ويشهد استقباله لي، كوافد جديد بينهم، على حقيقة أنه الفتوة. ومن الواضح أنه يثير رعب السجناء الآخرين.

قلت: «يبدو أنك تبحث عن المتاعب، يا لو فار. لكنني لست كذلك؛ لديَّ ما يكفيني منها».

صاح: «اسمي فو لار، يا زميل».

«وما الفارق؟ أنت كريه بأي اسم»، انتبه السجناء الآخرون على الفور، وابتسم بعضهم.

قال فو لار: «يبدو أنني يجب أن أضعك في مكانك»، ثم تقدم نحوي بغضب.

قلت: «لا أريد أي مشكلة معك. السجن سيئ بما يكفي، حتى دون التشاجر مع الزملاء السجناء».

قال فو لار: «من الواضح أنك جبان. لذا لن ألحق بك أي ضرر، إذا ركعت على ركبتيك وطلب عفوي».

ضحكت على كلامه، مما أغضبه؛ ومع ذلك تردد في مهاجمتي. أدركت حينها أنه متنمر نموذجي، ضعيف القلب. مع ذلك، ولحفظ ماء وجهه، ربما يهاجمني إذا لم يتمكن من خداعي. قال: «لا تغضبني. عندما أغضب، لا أسيطر على قوتي. قد أقتلك».

قلت: «أتساءل عما إذا كان هذا يغضبك»، وصفعته على خده بكفي مفتوحة. صفعته بشدة لدرجة أنه كاد أن يسقط. كان بإمكاني صفعه بقوة أكبر. أذهلته الصفعة أكثر من ألمه الجسدي. صعد الدم إلى وجهه الأزرق، فتحول إلى اللون الأرجواني. كان الجميع ينظرون نحوه. لقد بدأ شيء، وإذا كان له أن يشغل المنصب الذي منحه لنفسه بوصفه الرجل الأول، فعليه أن ينهيه. نهض السجناء الآخرون الآن وشكلوا نصف دائرة

حولنا. نظروا بالتناوب نحو فو لار ونحوي في ترقب حماسي.

كان على فو لار أن يفعل شيئًا حيال تلك الصفعة على وجهه؛ فهرع نحوي وضرب بشكل أخرق. أدركت خلال صدّي لضرباته أنه قوي جدًّا، لكنه يفتقر إلى العلم. كما كنت على يقين أنه يفتقر إلى الشجاعة. وعقدت العزم على تلقينه درسًا لن ينساه سريعًا. كان بإمكاني أن أوجه له ضربة، في الثواني الأولى من مواجهتنا، تفقده وعيه، لكنني فضلت اللعب معه.

تصديت لصفعة أخرى على الوجه. عاد ليوجه لي ضربة أقوى، فتجنبتها. ثم صفعته ثانية وإن كانت الصفعة أقسى قليلاً هذه المرة.

صاح أحد السجناء: «عمل جيد!».

صاح آخر: «استمر أيها الرجل الأحمر!».

وصاح ثالث: «اقتله!».

حاول فو لار الإمساك بي، لكنني أمسكت بأحد معصميه، ودفعت يده إلى الخلف، ثم انحنيت فوقه، وألقيت به على كتفي. سقط بقوة على الأرضية المصنوعة من الحمم البركانية، وظل مستلقيًا للحظات. وبينما كان يحاول الوقوف على قدميه، لففت ذراعي بقوة حول رأسه وألقيته على الأرض ثانية. لم ينهض هذه المرة؛ فرفعته وضربته على ذقنه. سقط مغشيًّا عليه. تركته وابتعدت، وجلست.

تجمع السجناء حولي. رأيت أنهم مسرورون بنتيجة المعركة. قال أحدهم: «لم يحدث هذا لفو لار منذ فترة طويلة».

- حدث له أخيراً بالتأكيد!

- على أي حال، من أنت؟

- اسمي جون كارتر. أنا من جاروبوس.

قال أحدهم: «لقد سمعت عنك. وأعتقد أننا جميعًا سمعنا عنك. المورجور غاضبون منك لأنك خدعتهم بسهولة. وأتصور أنهم أرسلوك إلى هنا لتموت معنا. اسمي هان دو»، ثم مد يده ليسلم عليَّ. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذه اللفتة الودية منذ مغادرة كوكب الأرض. المريخيون يضعون يدًا على كتفك. مددت يدي إلى يده.

قلت: «أنا سعيد بالتعرف عليك، هان دو. ربما أحتاج إلى صديق، إذا كان هناك الكثير هنا مثل فو لار».

قال هان دو: «لم يعد هناك مثله، لقد انتهى».

قلت: «لقد ألمحت إلى أن جميعكم محكوم عليهم بالموت. هل تعرف متى أو كيف؟».

- عندما يتخرج الصف القادم. سنكون في مواجهة ضعف عددنا من المورجور. وسيحدث هذا قريبًا.

* * *

الفصل (8)

في الحلبة

ظل فو لار فاقد الوعي لفترة طويلة. تصورت أنني قتلته. لكنه فتح عينيه في النهاية وأخذ ينظر حوله، ثم جلس، وتحسس رأسه، ودعك فكه. وعندما وجدتني عيناه، نظر إلى الأرض. وقف ببطء وألم على قدميه، وبدأ في التحرك نحو جانب الغرفة البعيد. وعلى الفور أحاط به أربعة أو خمسة من السجناء.

صفعه أحدهم ثم سأله: «مَن الرجل الأول الآن؟». ضربه اثنان آخران. أخذا يدفعانه ويكيلان له الضربات، فتوجهت إليهما ومشيت بينهما وأبعدتهما عنه.

قلت: «دعوه وشأنه. لقد نال ما يكفي من العقاب الآن. وعندما يتعافى، إذا كان أحدكما يرغب في مواجهته، سيكون ذلك على ما يرام. وإنما لا يمكنكم التجمع ضده».

استدار أكبرهم وواجهني، سألني: «ماذا قلت؟».

أجبته: «هذا»، وأسقطه أرضًا.

جلس ونظر نحوي قائلاً: «كنت أسأل فقط»، وابتسم ابتسامة هزيلة؛ ثم ضحك الجميع وانتهى التوتر. تعارفنا بعد ذلك وجلسنا معًا - الجميع، حتى فو لار. ووجدتهم جميعًا رجالاً محترمين. فالسجن الطويل ومعرفتهم أنهم يواجهون الموت قد أنهك أعصابهم؛ لكن ما أعقب ظهوري أدى إلى تصفية الأجواء، بمثل ما تفعل أي عاصفة كهربائية عنيفة. وبعدها، ضحكنا كثيراً وتحدثنا كثيراً.

سألت إن كان أحدهم ينتمي إلى نفس بلد زان دار؛ ولكن لم يأتِ أحدهم منهما. يعرف العديدون موقعها، ونقش أحدهم خريطة تقريبية لجزء من المشتري على جدار زنزانتنا حتى يوضح لي أين تقع زانور. وقال: «سوف يساعدك كثيراً أن تعرف مكانها».

أجبته: «لا يمكن للمرء أن يتوقع ما قد يحدث».

أخبروني بما يجدر توقعه في تدريبات التخرج، وفكرت كثيراً في الموضوع. لم يكن تفكيري يدور حول حضور حفل تخرج للمورجور وألعب فيه طواعية دور الضحية.

سألتهم: «كم منكم خبير في المبارزة؟».

ادَّعى نصفهم تقريبًا أنهم خبراء، لكن التباهي بالبراعة هو أحد عيوب المقاتلين. ليس بين المقاتلين فقط، وإنما بين العديد من الرجال، يتفاخر عادة من هم أقل براعة. تمنيت لو كانت لديَّ أي وسيلة لتحديد من منهم جيد حقًّا.

قلت: «لا يمكننا بالطبع الحصول على أي سيوف، ولكن إذا حصلنا على بعض العصي بطول السيف تقريبًا، سرعان ما يمكننا معرفة من هم أفضل المبارزين بيننا».

سأل أحدهم: «وما فائدة ذلك لنا؟».

قلت: «يمكننا أن ننافسهم، ونزيد من صعوبة المعركة عليهم؛ نجعلهم يدفعون ثمن تخرجهم».

قال هان دو: «العبد الذي يجلب لنا طعامنا ينتمي إلى بلدي. وهو زميل جيد، سوف أسأله عندما يأتي».

لم يقل فو لار أي شيء عن قدرته على المبارزة. ونظرًا لما أثبته من أنه متفاخر كبير، شعرت أنه ليس مبارزًا على الإطلاق. أحزنني ذلك؛ لأنه كان إلى حد بعيد الأقوى بين جميع السجناء السافاتوريين، كما كان طويل القامة أيضًا. يمكنه، بقليل من المهارة، أن يثبت أنه مبارز هائل. لم يتفاخر هان دو بأي شيء؛ لكنه قال إن الرجال في بلده يحبون المبارزات كثيرًا، لذا كنت أعتمد عليه.

وأخيرًا استطاع العبد، من بلد هان دو، تهريب قضيبين خشبيين، يقترب طول كل منهما من طول سيف طويل. ذهبت للعمل، للتأكد من كيفية تعامل زملائي السجناء كمبارزين. كان معظمهم يتمتع بقدرة جيدة، وكان عدد قليل منهم ممتازًا، وكان هان دو رائعًا. ولمفاجأة الجميع، كان فو لار رائعًا. كان تدريبه من أكثر التدريبات التي خضتها مشقة على الإطلاق قبل أن أتمكن من لمسه. واستغرقت مني الإطاحة بسلاحه ما يقرب من ساعة. لقد كان واحدًا من أعظم المبارزين الذين واجهتهم في حياتي.

ابتعد فو لار منذ شجارنا عندما استفزني. نادرًا ما كان يتحدث، وتصورت أنه قد يكون مكتئبًا ويخطط للانتقام. كان يجب أن أعرف موقفه؛ لأنني لا أريد المخاطرة بوجود فرصة للغدر أو حتى التعاون الفاتر.

أخذت فو لار جانبًا بعد مبارزتنا بالعصي الخشبية، وتحدثت معه صراحة. قلت: «خطتي تتطلب أكبر قدر ممكن من المبارزين الجيدين، وأنت واحد من أفضل الذين قابلتهم في حياتي. لكنك قد تعتقد أن لديك سببًا لتكرهني، وبالتالي لست على استعداد

لدعمي بالكامل. ولا يمكنني الاستعانة بأي رجل لا يتبعني ويطيعني حتى الموت. ماذا ترى؟».

قال: «سأتبع قيادتك. وها أنا أمد يدي – إذا كنت تقبل الصداقة».

- يسعدني ذلك.

قال ونحن نتصافح: «لو عرفت رجلاً مثلك قبل سنوات، لما أصبحت الأحمق الذي كنت عليه. يمكنك الاعتماد عليَّ إلى آخر قطرة في دمي. وقبل أن نموت، أنا وأنت، سنكون قد علمنا المورجور درسًا لن ينسوه أبدًا. هم يعتقدون أنهم مبارزون عظماء، لكنهم سوف يتشككون في ذلك بعد مشاهدتهم لمبارزتك. لا أستطيع الانتظار حتى ذلك الوقت».

أثارت كلمات فو لار إعجابي. شعرت أنه صادق، ولكن لم أستطع أن أبعد عن ذهني انطباعي الأول عنه بأنه جبان في داخله بكل معنى الكلمة. وإنما ربما، في مواجهة الموت، يقاتل كما تقاتل الفئران المحاصَرة. وإذا صح ذلك، ولم يفقد رأسه، فسوف يلحق الخراب بالمورجور.

تضم زنزانتنا عشرين شخصًا. لم يعد الوقت يمر متثاقلاً؛ بل أصبح يمر بسرعة في التدريب العملي بالقضيبين الخشبيين اللذين حصلنا عليهما. كنت ومعي هان دو وفو لار نعمل كمدربين، وقمنا بتعليم الآخرين الحيل التي نعرفها في فن المبارزة، إلى أن أصبحنا عشرين مبارزاً ممتازاً. وكان البعض أكثر من ممتاز.

ناقشنا عدة خطط عمل. كنا نعرف أنهم إذا طبقوا العادات المتعارف عليها، فسوف نواجه أربعين طالبًا من شباب المورجور الذين يسعون إلى الفوز والالتحاق بفئة المحاربين. قررنا أن نقاتل في أزواج، بحيث يضم كل زوج واحدًا من أفضل عشرة مبارزين لدينا وواحدًا من أقل عشرة مبارزين كفاءة؛ على أن هذا الاقتران بين الاثنين كان يلي هجمة أولية من جانب أول عشرة، مع زملائنا في الفريق خلفنا عن قرب. وبهذه الطريقة كنا نأمل في القضاء على العديد من المورجور في اللحظات القليلة الأولى من المواجهة، وبالتالي نحد بدرجة كبيرة من الاحتمالات ضدنا. ربما بالغنا نحن العشرة الأوائل في تقدير براعتنا؛ الزمن وحده هو مَن سيخبرنا.

ساد التوتر بين السجناء، وأعتقد أنه يرجع إلى عدم اليقين حول موعد استدعائنا لمواجهة تلك الصعاب غير المتكافئة. كان كل منا يعرف أن بعضنا سيموت. وإذا نجا أي منا، ليس لدينا سوى شائعة تبرر أملنا في إطلاق سراح الناجين؛ ولم يكن هناك مَن يثق

في المورجور. لم يجلب كل موطئ قدم في الممر سوى الصمت إلى الزنزانة، مع كل عين ثابتة على الباب.

أخيرًا، وبعد فترة طويلة، تخففنا من قلقنا: جاءت مجموعة كاملة من المحاربين لمرافقتنا إلى حلبة القتال. ألقيت نظرة سريعة إلى وجوه السجناء، وجدت الكثيرين يبتسمون، ويتنهدون في راحة. شعرت بتشجيع كبير.

قادونا إلى ملعب مستطيل يضم مستويات من المقاعد على كل جانب من جوانبه الأربعة. ازدحمت المدرجات. تحدق الآلاف من الأعين من محاجرها الجوفاء في الجماجم المتجهمة. يبدو كأنه كان يومًا ميدانيًّا في الجحيم. الصمت يرين. لا توجد فرق، ولا رايات مُحلِّقة، ولا أي لون. أعطونا السيوف وجمعونا في أحد طرفي الملعب. أَعطانا مسؤول التعليمات.

«عندما يصل الطلاب العسكريون إلى الملعب، عند طرفه البعيد، عليكم أن تتقدموا وتشتبكوا معهم»، هذا كل شيء.

سألته: «وما الموقف تجاه مَن ينجو منّا؟».

أجاب: «لن يبقى أحد منكم في قيد الحياة أيها المخلوق».

قلت بإصرار: «فهمنا أن الناجين سوف يحصلون على حريتهم».

كرر: «لن يبقى أحد منكم في قيد الحياة».

- هل ترغب في المراهنة بقدر صغير على ذلك؟

«يا لوقاحتك أيها المخلوق». بدأ الرجل يغضب.

سألته: «ولكن، لنفترض أن أحدنا تمكن من النجاة؟».

«في هذه الحالة، سينجو بحياته وسوف يُسمَح له بالاستمرار عبدًا. ولكن، لم يَنْجُ أحد من هذه التدريبات». ثم صاح: «الطلاب في الملعب! اذهبوا إلى موتكم، يا ديدان!».

قلت آمرًا: «إلى مواقعكم يا ديدان!». ضحك السجناء وهم يتخذون مواقعهم المتفق عليها: أول عشرة في خط المواجهة، ويقف كل منهم وخلفه شريكه. كنت بالقرب من منتصف الخط. وكان هان دو وفو لار عند الجناحين. سرنا إلى الأمام في خطوة

واحدة، كما تدربنا في زنزانتنا، ويردد الرجال في الصف الخلفي إيقاع الهتاف: «الموت للمورجور!». حافظنا على فواصل ومسافة أكبر قليلاً من طول امتداد الذراع الحامل للسيف والسيف نفسه.

بدا واضحًا أن المورجور لم يروا شيئًا من هذا القبيل في أي تدريب احتفالي سابق؛ لأنني كنت أسمع أصوات اندهاشهم الجوفاء تصدر من المدرجات؛ كما كان الطلاب الذين يتقدمون لملاقاتنا يبدون في حيرة. انتشروا في أزواج، على صف يمتد طول الطريق تقريبًا عبر الملعب، وفجأة اختل انتظام الصف. وعندما أصبحنا على بعد 25 قدمًا من هذا الصف، أعطيتُ الأمر: «هجوووم!».

ضربنا نحن العشرة مركز صفهم، دون أي احتمالات ضدنا: نشر المورجور صفهم بحيث أصبح رفيعًا للغاية. شاهدوا في تلك الثواني القليلة الأولى فنون المبارزة التي لم يرها أي مورجور من قبل. سقط عشرة من المورجور قتلى أو في حالة احتضار على أرض الملعب، حيث تحرك خمسة من أول عشرة منا نحو اليمين، يليهم شركاؤنا. وتحرك رجالنا العشرة المتبقون إلى اليسار.

ونظرًا لأننا لم نفقد أي رجل في الهجوم الأول، فقد أصبح كل عشرة الآن في مواجهة خمسة عشر من العدو. لم تكن الاحتمالات ضدنا بشدة. كما أن مهاجمة جناحينا لكل نصف من صف المورجور، كما نفعل الآن، أعطانا ميزة كبيرة؛ وكبدناهم خسائر فادحة قبل أن يتمكن المورجور في الأجنحة البعيدة من اتخاذ أي خطوة. وكانت النتيجة أننا نقاتل حاليًا على قدم المساواة تقريبًا، حيث بدأ شركاؤنا يقاتلون الآن.

قاتل المورجور بعزيمة متعصبة. لديهم العديد من المبارزين الرائعين، ولكن لم يكن أي منهم يماثل أيًّا من أول عشرة لدينا. لمحت فو لار عَرَضًا. كان رائعًا. أشك أن أي مبارز من أي من العوالم الثلاثة التي حاربت عليها كان يمكنه أن يلمس أي منا - أنا أو فو لار أو هان دو – برأس سيفه، كما كان لدينا سبعة آخرون بنفس المهارة تقريبًا.

وفي غضون خمس عشرة دقيقة من بداية الاشتباك، كان كل ما علينا هو القضاء على مَن بقي حيًّا من المورجور. لقد فقدنا عشرة رجال، بينما نجا المبارزون العشرة الأوائل. وعندما سقط آخر مورجور، كاد المرء أن يشعر بصمت الموت الذي خيّم على الجمهور.

تجمع التسعة حولي، وسأل فو لار: «ماذا الآن؟».

سألتهم: «هل منكم من يريد العودة إلى العبودية؟».

هتفت تسعة أصوات: «لا!».

قلت: «نحن أفضل عشرة سيوف على يوروبوس. يمكننا أن نشق طريقنا بالقتال للخروج من المدينة. أنتم تعرفون البلد المجاور، ما فرص تجنب القبض علينا؟».

قال هان دو: «هناك فرصة. توجد غابة قريبة وراء المدينة. وإذا نجحنا في الوصول إليها، قد لا يمكنهم العثور علينا أبدًا».

قلت: «جيد!»، وبدأتُ الهرولة نحو بوابة تقع عند إحدى نهايات الملعب، والتسعة في أعقابي.

وعند البوابة، حاول عدد قليل من الحراس الحمقى إيقافنا. تركناهم خلفنا، موتى. نسمع الآن صيحات غاضبة من الملعب الذي تركناه، وتوقعنا أنه سرعان ما يطاردنا المئات من المورجور.

سألتهم: «مَن يعرف الطريق إلى أقرب بوابة؟».

قال أحد رفاقي: «أنا أعرف. اتبعوني!»، وانطلق راكضًا.

تبعتنا صيحات مطاردينا الغاضبة خلال ركضنا عبر طرق المدينة الموحشة. لكننا سبقناهم بمسافة، ووصلنا أخيرًا إلى إحدى بوابات المدينة. واجهنا هنا أيضًا محاربين مسلحين، أجبرونا على خوض معركة قاسية. زاد ارتفاع صيحات المورجور الذين يطاردوننا. سرعان ما سنفقد كل ما فزنا به. يجب ألا يحدث هذا! ناديت فو لار وهان دو إلى جانبي، وأمرتُ السبعة الباقين أن يفسحوا الطريق؛ فالبوابة كانت ضيقة للسماح بمرور عشرة رجال بسيوفهم.

«سنمر هذه المرة!»، صحت على رفيقيَّ ونحن ندفع الحراس الذين ما زالوا أحياء. ومررنا عبر البوابة. لم تكن لديهم فرصة ضد أفضل ثلاثة مبارزين في ثلاثة عوالم.

يا لها من معجزة؛ فاز عشرة منا بالحرية دون الإصابة بأي شيء أكثر من بعض الخدوش السطحية التي تشير إلى خوضنا لمعركة. لكن عواء المورجور يقترب الآن في أعقابنا. إذا كان هناك أي شيء أكرهه في العوالم الثلاثة، فهو الهرب من عدو. وإنما من الغباء تمامًا أن أسمح لعدة مئات من المورجور الغاضبين باللحاق بي؛ لذا ركضت.

تخلَّى المورجور عن المطاردة قبل أن نصل إلى الغابة. من الواضح أن لديهم خططًا أخرى للقبض علينا. لم نتوقف إلا بعد أن توغلنا في الخُضرة الاستوائية للغابة الكبيرة؛ ثم توقفنا لمناقشة المستقبل وللراحة، وكنا بحاجة إلى الراحة.

تلك الغابة! أكاد أتردد في وصفها؛ فهي غريبة جدًّا، ولا تشبه أي شيء على كوكب الأرض. الغابة محرومة كليًّا تقريبًا من أشعة الشمس؛ وأوراق الشجر شاحبة شحوب الموت، تصطبغ بلون وردي أينما يتدفق الضوء المنعكس من البراكين النارية. لكن هذا كان، إلى حد بعيد، أقل جوانب غرابتها: ففروع الأشجار تتحرك مثل الكائنات الحية. كانت تتلوى وتلتف كالثعابين حول أشياء لا تُعد ولا تُحصى. بالكاد ما لاحظتهم، إلى أن توقفنا. تدلى أحدهم فجأة ولف نفسه حولي. حاولت مبتسمًا أن أتحرر منه. توقفت عن الابتسام: كنت عاجزًا كرضيع مُحاط بجسد فيل. بدأ الشيء برفعي من الأرض، وعندئذ فقط شاهد هان دو الوضع وقفز ممتشقًا سيفه. أمسك بإحدى ساقيَّ، وقفز في الوقت نفسه إلى أعلى وضرب الفرع بحافة سيفه الحادة، وقطع الفرع الذي التف حولي. سقطنا على الأرض معًا.

صحتُ: «ما هذا الشيطان؟ ما هو؟ ولماذا فعل ذلك؟».

أشار هان دو إلى أعلى. نظرت. رأيت فوقي، في نهاية ساق قوي، زهرًا ضخم- يا له من شيء فظيع! يوجد في وسطه فم كبير مُسلح بالعديد من الأسنان، وتوجد فوق الفم عينان تحدقان، بلا جفون.

قال هان دو: «لقد نسيت أنك لست من يوروبوس. ربما ليس لديك مثل هذه الأشجار في عالمك».

قلت مؤكِّدًا: «ليس لدينا مثلها بالتأكيد. ربما لدينا عدد قليل من

الأشجار التي تأكل الحشرات، مثل نبات خُناق الذباب، ولكن ليس لدينا نباتات تأكل البشر».

حذرني قائلاً: «يجب أن تحذر دائمًا وأنت في إحدى غاباتنا. هذه الأشجار هي حيوانات حية آكلة للحوم. ولديها جهاز عصبي ودماغ، وهناك اعتقاد عام بأن لديها لغة وتتحدث مع بعضها».

انطلقت صرخة بشعة من فوقنا. نظرت إلى أعلى متوقعًا رؤية وحش غريب، وحش فوقي من وحوش كوكب المشتري، لكنني لم أرَ سوى الفروع المتلوّية والأعين المحدقة لأزهار أشجار البشر الضخمة.

ضحك هان دو. وقال: «تنتمي أنظمتهم العصبية إلى رتبة متدنية، وفي المقابل تأتي ردود أفعالهم بطيئة وكسولة. استغرق الأمر كل هذا الوقت ليصل ألم قطع سيفي إلى دماغ الأزهار التي ينتمي إليها ذلك الفرع».

قلت مُعلِّقًا: «لا يأمن الإنسان على حياته للحظة واحدة في مثل هذه الغابة».

أكّد هان دو: «يجب على المرء توخي الحذر باستمرار. إذا اضطررت إلى النوم في الغابة، عليك أن تحيط نفسك ببناء لطخة من الدخان. الأزهار لا تحب الدخان، ولذا تنغلق وبالتالي لا يمكنها الرؤية لمهاجمتك. وإنما تأكد من عدم إفراطك في النوم داخل هذه اللطخة».

لقد تطورت الحياة النباتية على كوكب المشترى، وعمليًّا دون أشعة الشمس، على خطوط مختلفة تمامًا عن تلك الموجودة على كوكب الأرض. فجميع نباتات كوكب المشترى تقريبًا لديها بعض الصفات الحيوانية، وكلها تقريبًا من آكلات اللحوم؛ تلتهم النباتات الصغيرة الحشرات، وتعتمد النباتان الأكبر، بدورها، على حيوانات أكبر في معيشتها، بما يصل إلى آكلات البشر مثل تلك التي واجهتها، وتلك التي قال هان دو إنها أمسكت حتى بالحيوانات الضخمة الموجودة على هذا الكوكب الغريب، والتهمتها.

كلفنا شخصين بالحراسة، وقاما أيضًا بإبقاء اللطخات مشتعلة، ونام بقيتنا. كان بحوزة أحد الرجال جهاز كرونومتر[395]، واستخدمه لإبلاغ الحارسين متى يوقظ من يحل موعد نوبته. وبهذه الطريقة، تناوبنا جميعًا على المراقبة والنوم.

وعندما نام الجميع، زيد احتراق اللطخات واشتعالها، وقطع الرجال الأغصان من الأشجار الحية، ثم قسّموها إلى شرائح للشواء. كان مذاقها يشبه مذاق لحم العجل. تحدثنا عن خططنا للمستقبل، وقررنا أن ننقسم إلى فريقين يضم كل منهما فردين أو ثلاثة، ثم نفترق حتى يتسنى للبعض منا على الأقل أن يحظى بفرصة تجنب إعادة القبض عليه. قالوا إن المورجور سوف يطاردوننا لفترة طويلة. شعرت أن بقاءنا معًا قد يكون أكثر أمانًا؛ لأننا عشرة من المبارزين الأشداء؛ لكن البلدان التي ينتمي إليها رفاقي تتناثر على نطاق واسع، ويرغب كل شخص بطبيعة الحال أن يعود إلى وطنه إن أمكن، ولذا كان من الضروري أن ننفصل.

وقد تصادف أن بلد هان دو تقع في اتجاه زانور العام، ونفس الشيء بالنسبة لبلد فو لار. ولذا ودع ثلاثتنا الآخرين ثم غادرنا. لم أكن أدرك كيف يمكنني الوصول إلى زانور البعيدة في كوكب تبلغ مساحته 23 مليار ميل مربع. وشعر بذلك أيضًا هان دو. لكنني أكدت له أنني لن أتوقف أبدًا عن البحث عن زانور وزوجتي.

* * *

(395) كرونومتر: أو الميقات، وهو نوع من الساعات الدقيقة التي يستخدمها البحارون والطيارون – المترجمة.

الفصل (9)

إلى زانور!

لن أضجرك بسرد أحداث ذلك الجزء من رحلتي الذي أوصلني أخيراً إلى إحدى مدن بلد هان دو. حافظنا على أكبر قدر ممكن من التغطية؛ فقد كنا نعرف أن المورجور، في حالة استمرار بحثهم عنا، سوف يطيرون على ارتفاع منخفض في سفن غير مرئية. أتاحت لنا الغابات أفضل حماية من الاكتشاف، بيد أننا واجهنا سهولاً واسعة لنعبرها، وأنهارًا لنقطعها سباحة، وجبالاً لنتسلقها.

يصعب حساب الوقت في هذا العالم الخالي من الليل. وبدا لي أن رحلتنا استغرقت عدة أشهر. ظل فو لار معنا لفترة طويلة، لكنه تركنا أخيراً ليتخذ الاتجاه الذي يُفضي إلى بلده. شعرنا بالأسف لافتقاده، لأنه أصبح رفيقًا رائعًا؛ كما أننا سنفتقد سيفه أيضًا.

لم نقابل أي رجال، إلا أننا واجهنا العديد من الوحوش البرية - مخلوقات بشعة المظهر، ليس لها مثيل على كوكب الأرض، قوية ومفترسة. سرعان ما أدركت عدم كفاية سيوفنا كوسيلة وحيدة للدفاع. ولذا ابتكرنا الرماح من نبات يشبة البامبو يبدو من الخُضراوات تمامًا. كما علّمت هان دو وفو لار كيفية صُنع الأقواس والسهام واستخدامها. وقد وجدناها مفيدة جدًّا في صيد الحيوانات الصغيرة والطيور للغذاء. فقد كنا نقتات في الغابات على لحوم الشجرة البشرية.

وصلنا أخيراً، أنا وهان دو، إلى محيط. قال: «نحن في الوطن. تقع مدينتي بالقرب من البحر». لم أرَ أي مدينة.

هبطنا من تلال منخفضة، وأخذنا نسير على طول سهل ساحلي ضيق. كان هان دو يسير على مسافة عدة ياردات إلى يميني، عندما اصطدمت فجأة بشيء صلب- صلب كجدار من الطوب؛ وإنما لم يكن هناك شيء! أدى الاصطدام المفاجئ إلى تراجعي. مددت يدي، وشعرت بوجود ما يبدو جداراً صلبًا يسد طريقي، لكن ما أراه هو مساحة مستوية من الأرض الخالية. بيد أن الأرض لم تكن خالية تمامًا. فقد تناثرت عليها، هنا وهناك، نباتات غريبة: سيقان بسيطة بلا أوراق، يبلغ طولها قدمًا أو قدمين، وتحمل قمتها زهرًا غامضًا.

نظرت حولي ولم أجد هان دو. لقد اختفى! اختفى لتوه مثل فقاعة صابون مثقوبة. لا يوجد على طول الساحل أي مكان يمكن أن يخفيه، ولا يوجد شيء يختفي وراءه، ولا حفرة في الأرض ليسقط فيها. كنت حائرًا. حككت رأسي في حيرة، وبدأت أتحرك ثانية نحو الشاطئ، وتعثرت مرة أخرى في الجدار الذي لم يكون موجودًا.

وضعت يدي على الحائط الخفي واتبعته. انحنى بعيدًا عني، فتابعته خطوة بخطوة لأستكمل تحرياتي المُثيرة. وجدتني أعود بعد فترة من حيث بدأت. يبدو أنني واجهت برجًا غير مرئي من الهواء الصلب. تحركت في اتجاه جديد نحو الشاطئ، متجنبًا العقبة التي أعاقت طريقي. وبعد عشرات الخطوات واجهت جدارًا خفيًّا آخر؛ فاستسلمت – مؤقتًا على الأقل.

ناديت هان دو بصوت عال، وعلى الفور ظهر على مسافة قصيرة مني. سألته: «أي نوع من الألعاب هذه؟ لقد اصطدمت بجدار من الهواء الصلب، وعندما بحثت عنك لم أجدك في أي مكان، أنت اختفيت».

ضحك هان دو، وقال: «إنني أنسى دائمًا أنك غريب فى هذا العالم. لقد وصلنا إلى المدينة التي أعيش فيها، ودخلت منزلي لأُحيي عائلتي، ولهذا لم تتمكن من رؤيتي». وبينما كان يتحدث، ظهرت امرأة بجانبه وطفل صغير. يبدو أنهما تجسدا من الهواء الرقيق. هل جئت إلى أرض أرواح غير مُجسدة ولديها القدرة على التجسُّد؟ لا أستطيع تصديق ذلك، فلم يكن هناك أي شيء شبحي أو أثيري بشأن هان دو.

قال هان دو: «هذه أوو آلا، زوجتي. وهذا جون كارتر يا أوو آلا، إنه أمير هيليوم. ونحن ندين له بهروبي من المورجور».

مدت أوو آلا يدها لي. كانت يدًا قوية ودافئة من دم ولحم. قالت: «مرحبًا جون كارتر. اعتبر كل ما لدينا ملكك».

كانت لفتة طيبة من حسن الضيافة. لكني، عندما نظرت حولي، لم أر أي شيء. سألت: «أين المدينة؟».

ضحك كلاهما. قالت أوو آلا: «تعال معنا». قادت الطريق، على ما يبدو حول زاوية غير مرئية؛ وهناك، رأيت أمامي مدخلاً مفتوحًا في الهواء الرقيق؛ شاهدت خلاله الجزء الداخلي من غرفة. دعتني أوو آلا: «تعالَ»، وتبعتها إلى شقة دائرية واسعة، ثم تبعنا هان دو وأغلق الباب. كان سقف الشقة عبارة عن قبة ترتفع في الوسط إلى عشرين قدمًا؛ ومقسمة إلى أربع غرف عن طريق ستائر منزلقة، يمكن إغلاقها أو سحبها على الحائط.

سألت: «لماذا لم أتمكن من رؤية المنزل من الخارج؟».

أوضح هان دو: «إنه مُغطًّى من الخارج برمال الإخفاء التي نجدها بكميات كبيرة على طول الشاطئ. هذه هي حمايتنا الوحيدة ضد المورجور. كل منزل في المدينة محمي بهذه الطريقة، ما يزيد قليلاً عن خمسمائة منزل».

لقد دخلت إذنْ إلى مدينة تضم خمسمائة منزل، ولم أرَ سوى مساحة شاسعة من شاطئ مفتوح بجوار بحر لا يهدأ. سألت: «ولكن، أين الناس؟ هل هم أيضًا غير مرئيين؟».

أوضحت أوو آلا: «يبقى في المنزل كل مَن ليس في الخارج، لصيد الحيوانات أو السمك. نحن لا نغامر بالخروج إلا للضرورة، فربما يبحر المورجور في سفنهم الفضائية غير المرئية ويشاهدوننا، وبالتالي يكتشفون مدينتنا».

وقال هان دو: «وإذا ألقوا القبض على أي منا، عليه أن يهرب بعيدًا عن المدينة بأسرع ما يمكن؛ لأنه لو دخل منزلاً، سيعرف المورجور على الفور بوجود مدينة هنا. إنها التضحية التي يجب على كل منا أن يقدمها بشرف من أجل سلامة الجميع؛ لأنهم يقبضون في الأغلب دائمًا على كل مَن يركض ويأخذونه، ما لم يختر القتال والموت».

قلت لهان دو: «أخبرني، كيف وجدت منزلك وأنت غير قادر على رؤيته أو رؤية أي منزل آخر».

سألني: «هل لاحظت نباتات الأومبالا[396] التي تنمو في جميع أنحاء المدينة؟».

- لاحظت بعض النباتات، لكنني لم أرَ أي مدينة.

ضحك كلاهما مرة أخرى. قالت أوو آلا: «لقد اعتدنا على ذلك، بحيث لا يبدو غريبًا على الإطلاق بالنسبة لنا؛ لكنني أفهم تمامًا أنه قد يُعد مُربكًا للغاية لشخص غريب. كل نبات يحدد موقع منزل. وقد تعلّم كل منا، خلال خبرة طَويلة، الموقع الدقيق لكل منزل في المدينة في علاقته بكل منزل آخر».

بقيت حوالي خمسة أو ستة أيام، بزمن كوكب الأرض، في منزل هان دو وأوو آلا. التقيت بالعديد من أصدقائهم، وكان الجميع كريمًا ومتعاونًا معي بأقصى ما يمكنهم. زودوني بخرائط لمناطق كبيرة من الكوكب، وقيل لي إن أجزاء منها لا تزال غير مستكشَفة

(396) أومبالا: نبات ينمو على كوكب المشترى، يستخدمه السافاتور لتمييز منازلهم غير المرئية. يبلغ طول النبات من قدم إلى قدمين، وبلا أوراق، ولديه زهرة غريبة الشكل - https://barsoom.fandom.com/wiki/Umpalla - المترجمة.

حتى من جانب المورجور. أهم شيء في هذه الخرائط أن زانور ظهرت في إحداها، كما ظهر أيضًا محيط شاسع يقع بيني وبين البلد الذي أعتقد أنني سأجد فيه ديجاه ثوريس. لا يوجد لديَّ أو لدى أصدقائي الجدد تصور لكيفية عبور هذا المحيط، غير خطة مجنونة تصورتها لبناء قارب شراعي والثقة في نزواتي المجنونة في بحر غير معروف، وربما تحتشد فيه زواحف خطرة. لكن هذا ما قررته أخيرًا، حيث كان الأمل الوحيد الباقي للم شملي مع أميرتي.

توجد غابة على بُعد عدة أميال، على طول الساحل من المدينة، حيث آمل أن أجد الأشجار المناسبة لبناء قاربي. حاول أصدقائي قصارى جهدهم لإقناعي بعدم القيام بذلك؛ وعندما وجدوا أنني مصمم على تنفيذ خطتي، أقرضوني الأدوات. كما تتطوع عشرات منهم لمرافقتي إلى الغابة ومساعدتي في بناء القارب.

وأخيرًا أصبح كل شيء جاهزًا. خرجت من منزل هان دو، بصحبة مساعدي المتطوعين، لبدء المسيرة القصيرة إلى الغابة.

وما إن وصلنا إلى العراء حتى صاح أحد رفاقي: «المورجور»؛ وعندئذ تفرق السافاتور في جميع الاتجاهات بعيدًا عن مدينتهم.

صاح هان دو: «اركض، جون كارتر!»، لكنني لم أركض.

رأيت، على بعد أمتار قليلة، المدخل المفتوح في جانب سفينة غير مرئية. كما رأيت ستة أو سبعة مورجور يخرجون منه. اندفع اثنان نحوي، وتفرق الآخرون سعيًا لمطاردة السافاتور. وفي تلك اللحظة، ومضت خطة جديدة في ذهني. عادت الحياة إلى الأمل ثانية، بعد أن كان قد انقرض.

سحبت سيفي من غمده، وقفزت إلى الأمام لمواجهة أول مورجور؛ شاكرًا الرب أنهما اثنان فقط؛ لأن أي تأخير قد يدمر آمالي بسهولة. لم أتهاون في هجومي: كان قتالاً صارخًا ووحشيًّا؛ ولم يؤنبني ضميري وأنا أسحب سيفي من قلب المورغور الأول لأواجه الثاني.

أتعبني الزميل الثاني قليلاً، حيث توخى الحذر من مصير رفيقه؛ كما أنه تعرّف عليَّ الآن، مما جعله يُضاعف حذره. بدأ يصرخ مناديًا الآخرين، الذين كانوا يلاحقون السافاتور، ليعودوا لمساعدته. وكان هذا المخلوق الصارخ من جاروبوس هو مَن قاد المذبحة في تدريبات التخرج. رأيت من زاوية عيني اثنين منهم يأتون بعد أن سمعاه. يجب أن أسرع!

يقاتل الزميل الآن في وضع دفاعي بالكامل، بغية كسب الوقت حتى يصل الآخران وينضما إليه. لم أكن على استعداد للسماح بذلك؛ فضغطتُ عليه بقوة، كاشفًا نفسي في كثير من الأحيان - أي مبارز عظيم يمكنه قتلي بسهولة. وأخيراً أصبته بجرح هائل كاد يفصل رأسه عن جسده. وبعد مجرد لمحة سريعة ورائي لأرى مدى اقتراب الآخرين، قفزت نحو مدخل السفينة غير المرئية المفتوح، مع اقتراب أحد المورجور خلفي.

قفزت إلى متن السفينة، وسيفي لا يزال في يدي، وأغلقت الباب خلفي. استدرت بسرعة لمواجهة أي من زملائهم الذين تركوهم على متن السفينة لحراستها. بيد أن هؤلاء الحمقى لم يتركوا أحدًا. كانت السفينة كلها لي. وبينما أسرع إلى لوحات التحكم، سمعت المورجور يضربون على الباب، ويطالبونني غاضبين أن أفتحه. لا بد أنهم يتصورون أنني أحمق أيضًا.

ارتفعت السفينة في الهواء بعد لحظة، وبدأت واحدة من أغرب مغامرات حياتي؛ الإبحار في كوكب غير معروف، في سفينة غير مرئية. كان أمامي الكثير لأتعلمه عن الملاحة في كوكب المشترى. تعلمت من خلال مشاهدة فوريون كيفية بدء وإيقاف سفينة المورجور وتحريكها، وكيفية اكتساب أو فقدان الارتفاع، وكيفية تحويل السفينة إلى وضع الخفاء. لكن الأجهزة الموجودة أمامي على اللوح كانت كلها بلا معنى بالنسبة لي؛ فحروف هيروغليفية المورجور كانت غير مفهومة على الإطلاق. يجب أن أكتشف كل شيء بنفسي.

فتحت جميع نوافذ السفينة، وأصبح مجال الرؤية أمامي واضحًا. رأيت الشاطئ الذي تركته للتو، وعرفت اتجاه خط الساحل. كان هان دو قد شرح لي أن خط الساحل يتجه شمالاً وجنوبًا عند تلك النقطة. ويقع المحيط في الغرب منه. وجدت أداة قد تكون ببساطة بوصلة. وعندما غيرت مسار السفينة، رأيت أنها البوصلة. أصبحت الاتجاهات أكثر وضوحًا الآن، بما يمُكنُني من تحديد الطريق. استشرت خريطتي، واكتشفت أن زانور تقع تحديدًا في اتجاه جنوب شرق؛ فأدرت مقدمة سفينتي عبر تلك المساحة الشاسعة من المحيط.

لقد تحررت. هربت من المورجور سالماً. وديجاه ثوريس آمنة في زانور بين الأصدقاء. وما من شك أنني سألحق بها قريبًا. لقد شهدنا مغامرة مذهلة أخرى، وسرعان ما نجتمع ثانية. لم يكن لديَّ أدنى شك في قدرتي على الوصول إلى زانور. ربما لأنني أثق دائماً في نفسي، لدرجة أنني كثيراً ما أنجز ما يبدو مستحيلاً.

لا أعرف قدر الوقت الذي يستغرقه عبور ذلك المحيط الكئيب. لم أتمكن من قياس الوقت، مع دوران كوكب المشترى حول محوره بسرعة تقترب من ثلاثة أضعاف سرعة دوران كوكب الأرض حول محوره، مع غياب الشمس والقمر، وحتى النجوم.

لم أرَ أي سفينة فوق تلك المساحة الشاسعة من الماء، لكنني رأيت الحياة - الكثير منها. ورأيت عواصف رهيبة ضربت سفينتي وتقاذفتها كالريشة. لكن ذلك لم يكن شيئًا مقارنة بما رأيته تحتي، عندما ضربت العواصف في ذروة غضبها سطح المياه. أدركت حينها أن محاولتي لعبور ذلك المحيط الرهيب في الزورق الضعيف الذي خططت لبنائه، كانت فكرة انتحارية. رأيت موجات لا بد أن ارتفاعها وصل إلى 200 قدم من جوف الموجة إلى قمتها - موجات ألقت الوحوش الجبارة من الأعماق كما لو كانت أسماك صغيرة. لا يمكن أن تعيش أي سفينة في مثل هذه البحار. أدركت عندئذ لماذا لم أشهد أي سفن في هذا المحيط الجبار على كوكب المشتري.

وأخيراً رأيت أرضًا أمامي - وأي أرض! أخبرني زان دار عن جبال زانور الجبارة التي ترتفع رؤوس غاباتها لعشرين ميلاً فوق مستوى سطح البحر، وكانت هذه الجبال هي التي تقع أمامي. إذا كانت حساباتي دقيقة، فلا بد أن هذه هي زانور؛ وتؤكد هذه الجبال المذهلة أنني لم أخطئ.

عرفت من شرح زان دار أين يمكنني البحث عن أراضي قبيلته – وهي قبيلة جبلية وحشية من المقاتلين، وتقع في أرض من المروج والوديان فوق المنحدر الشرقي لأعلى جبل، وعلى ارتفاع يصل إلى حوالي عشرة أميال فقط، أو عند حوالي منتصف الطريق إلى القمة. هنا الهواء أرق قليلاً فقط مما كان عليه عند مستوى سطح البحر، حيث يحتفظ الغلاف السحابي بجو كوكب المشتري كما لو كان محبوسًا في حقيبة لا تسمح بهروب أي شيء منها، بينما يميل دوران الكوكب بسرعة إلى إبعاد الغلاف الجوي عن السطح.

كنت محظوظًا لوصولي إلى قرية زان دار دون صعوبة تُذكر. طرت فوق القرية غير مرئي على الإطلاق، وأخذت أهبط بطيئًا. أعرف أنهم بمجرد رؤية سفينة مورجور، سيختفون في الغابات المحيطة بالقرية، انتظارًا للانقضاض على أي مورجور قد يتسم بما يكفي من غباء لترك السفينة تُعدل هبوطها.

رأيت أناسًا في القرية، عندما انخفضت إلى مسافة خمسين قدمًا من الأرض. أوقفت السفينة وأبقيتها على هذا الارتفاع، ثم أزلت المغناطيسية عن هيكلها. أصبحت السفينة مرئية على الفور، فقفزت نحو الباب وفتحته حتى يروا أنني لست من المورجور. لوحت لهم، وصحت أنني صديق لزان دار، وطلبت الإذن بالهبوط.

وافقوا، وانخفضت بالسفينة ببطء نحو الأرض. انتهت الرحلة التي خضتها وحيدًا. لقد تغلبت على عقبات كانت تبدو مستحيلة، ووصلت إلى هدفي. وسرعان ما أضم ديجاه ثوريس، التي لا تُضاهى، بين ذراعيَّ مرة أخرى.

* * *

انتهت السلسلة بانتهاء الكتاب الحادي عشر:

جون كارتر من المريخ

آفاق للنشر والتوزيع

سلسلة المريخ (بروسوم)
جون كارتر

١٠_ أميرة المريخ

٢٠_ آلهة المريخ

٣٠_ أمير حرب المريخ

٤٠_ ثوفيا فتاة المريخ

٥٠_ شطرنج المريخ

٦٠_ العقل المدبر للمريخ

٧٠_ مقاتل المريخ

٨٠_ سيوف المريخ

٩٠_ رجال المريخ الآليون

١٠_ لانا من جاثول

١١_ جون كارتر من المريخ (٢قصص)

